الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٣٢هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد الأول

الفاتحة والبقرة

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضَّوْءُ المُنِيرُ

عَلَى

التَّفْسِيرِ

المُجَلَّدُ الأَوَّلُ

ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-٦-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ ـ فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي نزَّل الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا، ووفق عباده لفهم كتابه وتفسير آياته أحسن تفسيرًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فحريٌّ بنا أن ندرك أن القرآن كتاب كريم، غنيٌّ في دلائله ومعانيه، ثريٌّ في حقائقه ومبانيه، قويٌّ في أهدافه ومراميه، معجزٌ في نظمه وبيانه، متجددٌ في عطائه وهباته.

لقد تتابع عليه المفسرون من لدن الصحابة إلى يومنا هذا، فوجد كُلٌّ ضالته، لأنه معين لا ينضب ولو كثر عليه الشاربون، وكنوزه ثمينة مذخورة لا تنفد ولو تتابع عليها المغترفون، وظلاله ممتدة واسعة لا تزول، ولو توافد عليها المتفيئون، وخيراته متجددة متنوعة ولو تكاثر عليها المتزاحمون، وأنواره مشعة متلألئة لا تخبو ولو طال عليها الزمن وامتدت بها السنون.

إنه حبل الله الممدود، وعهده المعهود، وظله العميم، وصراطه المستقيم، وحجته الكبرى، هو الواضح سبيله، الراشد دليله، الذي من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنها زل وهوى. وهو حجة الله وعهده، ووعيده ووعده. بشير بالثواب، ونذير بالعقاب، وشفاء للصدور، وجلاء الأمور.

إن عطاء القرآن متجدد لا يبلى، وكنوزه وفوائده لا تفنى، وأنواره وضَّاءة لن تخبو، فقد قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد تصدى لتفسير القرآن العظيم أساطين الأمة، وتولى تيسير معضلاته سلاطين الأئمة من الصحابة والتابعين، وأئمة اللغة والنحويين، ثلة من الأولين وأمة من الآخرين، فغاصوا في بحار لججه، وخاضوا في أنهار ثبجه، فنظموا في سلك التقرير فرائده، وأبرزوا

في معرض التحرير فوائده، وألفوا كتبًا جليلة المقدار، وصنفوا زبرًا جميلة الآثار.

إن هذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوافر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، وقد اشتمل على بدائع الفوائد مع زوائد الفرائد وقواعد شوارد، من صحيح الرواية وصريح الدراية. وحوى علومًا جليلة في مهمات العقيدة، ومسائل محكمات في الفقه والسيرة، وفنونًا أثيرة في علاج أمراض القلوب وتهذيب الأخلاق، وفوائد كثيرة من الأحاديث النبوية الشريفة.

ولا غرو، فإن المصنف الجليل المعروف بابن قيم الجوزية هو الحبر الهمام، والعلامة الإمام شيخ الإسلام المقدام الذي حاز قصب السبق في جل علوم الشريعة والطريقة النبوية المرضية، فقد غاص في بحار العلوم، فاستخرج منها فوائد الدرر، وسبر محاسنها فجمع منها أحاسن الغرر. وجاء بحمد الله كتابه كنزًا مدفونًا من جواهر الفوائد، وبحرًا مشحونًا بنفائس الفرائد.

إن هذا الكتاب عظيم الشأن، ساطع البيان، مؤسس بحسن ترتيب، وجودة نظام، على أحسن جواهر القواعد، مرصع بأجمل فرائد الفوائد والعوائد، إنه بحر لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه.

وإذا كان ابن القيم هو صاحب هذه العلوم والفوائد والمباحث المنشئ لها، فإن الشيخ علي الصالحي رحمه الله هو صاحب الفضل في إبرازها وخروجها بهذه الصورة التامة البديعة، فقد مكث سنين طويلة يقرأ ويبحث ويفتش عن كل آية، ويختار ما يناسبها، ثم يصحح ما فيها من خطأ مطبعي، ويراجع المخطوطات والمطبوعات حتى يستقيم الكلام ويصلح المعنى، ولك أيها القارئ الكريم أن تتخيل حجم المعاناة وهو يرتب الآيات كل آية ثم يعقبها بالآية التي تليها، حتى ينتهي من جميع آيات السورة، فإذا انتهى من جمع تفسير سورة الفاتحة بدأ في جمع وترتيب تفسير سورة البقرة، ثم آل عمران، ثم النساء، وهكذا دواليك حتى أتى على نهاية سور المصحف الشريف. إن هذا العمل لا يقدر عليه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العالية

والمقاصد المنيفة والرغبات السامية، هكذا نحسبه والله حسيبه وهو يتولى الصالحين. وأرجو الله ﷻ وهو المان بفضله أن ينشر من فوائده وفرائده ما تقر به الأعين، وتلذ به الأنفس، وتسعد به الخواطر.

وها نحن مع علم من أعلام المسلمين العظماء، شيخ الإسلام الثاني: ابن قيم الجوزية رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، كان يستخلص من الآيات الحكم والعظات، والفوائد واللطائف، والعبر والدرر، والفرائد المهمات، فذخرت كتبه بأنواع العلوم والمعارف التي قد لا تحصل عليها عند غيره، وظلت هذه الكنوز جلّها أو أكثرها مستورة مدفونة ردحًا من الزمن، حتى أتى **فضيلة الشيخ الجليل أبو محمد علي الحمد المحمد الصالحي** رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته فاستخرج هذه الكنوز، وكشف عن دررها وفوائدها، ووفقه ربه فأتى لنا بهذا الكتاب المبارك «**الضوء المنير على التفسير**» الذي ظل خلال خمسة عشر عامًا يبحث وينقب، ويقف على كل آية، ويرتب وينظم، حتى خرج هذا الكتاب في ستة مجلدات كبار، وطبّع طبعة أولى في دار السلام بالرياض سنة ١٤١٥هـ، وعندما كنت أعمل في هذا الكتاب مدققًا ومصححًا وكان الشيخ علي رحمه الله آنذاك حيًّا معنا يتابع عمله بنفسه، ويباشر كل صغيرة وكبيرة، حتى إني كنت أذهب إليه في المستشفى وهو مريض ملازم للفراش، يتابع معي آخر ما عملت ولم يوقفه المرض عن المتابعة الدقيقة.

ومن نافلة القول: إن هذا الكتاب سبقه إلى النور كتابان: الأول: التفسير القيم، جمعه الشيخ/ محمد أويس الندوي في مجلد واحد، والثاني: بدائع التفسير، جمعه/ يسري السيد محمد في خمس مجلدات، ويمتاز الضوء المنير عنهما بسعته وشموله وكثرة مادته العلمية، واحتوائه على كثير من الآيات التي فاتت كلا من الندوي ويسري السيد، جزى الله الجميع خيراً على ما قدموه، خدمة لكتاب الله، وإثراء للمكتبة الإسلامية، وطلبة العلم، وعامة المسلمين.

إن هذا الكتاب عزيز عليَّ، وله في نفسي مسارب ومداخل، فقد عشت بين

صفحاته شهورًا عديدة قرابة السنة، عندما كنت أعمل في دار السلام، فأثَّر فيَّ تأثيرات عميقة، وعالج عندي إشكاليات كبيرة، وأزاح عني عللًا خطيرة، وأرسى في نفسي قواعد وأصولًا عظيمة، فأحببت ابن القيم حبًّا جميلًا، وعظمته تعظيمًا جليلًا، وهو بشر يخطئ ويصيب ولكن خطأه قليل، والله يغفر لي وله ولجميع موتى المسلمين.

وصدق ابن نباتة المصري، حيث قال رحمه الله:

وَإِذَا الحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ   جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ [(١)]

انتهيت من تحقيق هذا الكتاب في سنتين وشهرين تامَّين مع كثرة شواغلي ومعوقاتي وزحمة أوقاتي، فجاء بحمد الله في صورة أزهى وأجمل وأحسن مما كان عليه من قبل.

والحق أقول: أنا مدين للشيخ علي الصالحي رحمه الله بهذا الفضل بعد الله عز وجل، ومدين أيضًا لابنَي الشيخ علي رحمه الله: إبراهيم وسليمان اللذين أسندا إليَّ العمل في هذا الكتاب، فلا حرمهم الله الأجر والمثوبة جرَّاء ما قاما به. وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[(٢)].

وصدق الحُطيئة حين قال:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ   لَا يَذْهَبُ العُرفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ [(٣)]

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وقائله: أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، شاعر عصره، كان صاحب سر السلطان الناصر حسن، مات ٧٦٨هـ. ذكر البيت ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٧٠) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ١٤٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٨ رقم ٣٤٠٧) وأبو داود (رقم ٤٨١١) والترمذي (رقم ١٩٥٤) وأحمد (٢/ ٢٩٥) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢١٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٧٧٦ رقم ٤١٦).

(٣) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى الحُطيئة: جرول بن أوس العبسي شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجَّاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، ويقال: إنه هجا أمه وأباه، وهجا نفسه، وسجنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر. فاستعطف عمرَ بأبيات فأخرجه من السجن ونهاه عن هجاء الناس، مات سنة ٤٥هـ. ذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني في الزهرة (٢/ ٧٧٠) وهو في ديوان الحطيئة (ص ٢٨٣).

نعم، إن الحياة مع القرآن وتفسير آياته وتدبر معانيه نعمة جليلة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه. وإنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة، ولا بركة، ولا طهارة إلا بالرجوع إلى الله، بالرجوع إلى فهم كتابه وتدبر معانيه والوقوف على تفسيره والعيش بين أكنافه والتفيء تحت ظلاله، هروبًا من جحيم الماديات والعصريات الحديثة المهلكة.

إن هذا «الضوء» لو رآه مؤلفه الحافظ ابن القيم أو رآه جامعه الشيخ الفاضل علي الصالحي أو وقف عليه أي منصف لأقر أعينهم وشرح صدورهم وطابت أنفسهم، هكذا أظن، والله حسيبي، فأسأله سبحانه أن يتقبله منا بقبول حسن، وينفع به عباده وألا يحرمنا جميعًا الأجر الجميل والثواب الجزيل.

وما ينبغي لي أنْ أنسى الأخ أبا حذيفة: محمد سليمان محمد أمين مسؤول قسم النشر بدار القبس - حفظه الله ورعاه وأتمَّ عليه العافية والمعافاة - الذي لا يدِّخر وسعاً، ولا يألو جهداً في إخراج مطبوعاته في أعلى درجات الجودة، وغاية الإتقان، هكذا عهدناه، وما زال، فهذا كتاب «الضوء المنير على التفسير» في سبع مجلدات كبار، عكف عليه الرجل ليلاً ونهاراً، لكي يخرج في أحلى زينة وأجمل حلية، فيتابع كل شيء بنفسه، ولا يكل هذا الأمر لغيره ممن يعمل معه، أو يثق فيهم ممن لهم اليد الطولى في إتقان مثل هذه الأمور، ويحسن القيام بمثل هذه الأعمال فجزاه الله خير الجزاء.

كتبها

صبري بن سلامة شاهين آل حسين

بمدينة الرياض في ليلة الثالث من شهر ذي القعدة

سنة ١٤٣١هـ الموافق ١٠/ ١٠/ ٢٠١٠م

مقدمة الواقف

الحمد لله مسبغ النعم وواسع العطايا، أنعم علينا بنعم عظيمة، منها نعمة القرآن خاتم كتبه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد، مبلغ وحي ربه خير بلاغ، صاحب المقام المحمود والشفاعة العظمى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره.

أما بعد:

فلا يخفى أن شرف العلوم منوط بشرف المعلوم، ولهذا لما ارتبط علم التفسير بالقرآن الكريم علا شرفه، وبان فضله، وكان من خير ما تقضى فيه الأوقات، وتصرف فيه الأعمار. وقد قام علماء هذه الأمة بجهود محمودة في هذا المضمار، ففتح الله عليهم من العلوم في تفسير كتابه، فصنفوا في ذلك المصنفات البديعة بين مختصر ومطول، كما دونوا روائع الكلم في تفاسيرهم في ثنايا كتبهم. وكان من بينهم العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله وأجزل مثوبته، فقد عُرف عنه براعة عباراته ودقة ألفاظه، مع رقة قلبه ورجاحة عقله. وبالرغم من أنه لا يُعرف له تفسير مستقل، إلا أن كثرة مؤلفاته تضمنت نفائس في التفسير، ونوادر في التأويل، زانت المكتبة الإسلامية، وأغنت طلبة العلم بالعلوم النافعة الماتعة، من أجل هذا سمت همة الوالد الشيخ علي الحمد المحمد الصالحي -تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه الفردوس- لجمع تفسير لابن القيم رحمه الله من خلال مقاربة استيعاب كلامه المتفرق عن التفسير في كتبه، التي وقعت في يد الوالد، وقد بلغت ستة وعشرين كتاباً. وقد استغرق هذا الجمع سنين عدة. حرص فيها على تتبع إحالات

العلامة ابن القيم بين كتبه بخصوص التفسير. وقد أوضح الوالد منهجه في الجمع في مقدمته، وأنه اقتصر على كلام ابن القيم دون سواه، إلا فيما نقله عن غيره. كما أنه قد يختصر أو يوضح فيجعله بين قوسين حسب الحاجة. وامتاز جمعه بالإحالة إلى موضع النقل من مؤلفات ابن القيم.

وقد طبع هذا المصنف في ست مجلدات عام ١٤١٥هـ في مكتبة دار السلام بالرياض، ولاقى قبولاً ولله الحمد والمنة. وقد نفدت هذه الطبعة منذ حين، لذا رأينا الحاجة ماسة إلى إعادة طبعه وإخراجه بعد معالجة ما بلغنا من ملحوظات على الطبعة الأولى. فأوكلنا مهمة تحقيقه وتصحيحه إلى أخينا/ صبري بن سلامة شاهين آل حسين، الذي بذل في ذلك جهده، شكر الله له صنيعه، وجزاه خير الجزاء على ما قدم، وحرصنا نحن القائمين على وقف الوالد رحمه الله على أن يخرج الكتاب في حلة بديعة، وطبعة أنيقة، في أحلى صورة، وأبهى زينة، فاخترنا أجود أنواع الورق، والتجليد الفاخر، والإخراج الرائع، ليخرج في صورة تسر الناظرين، وأسندنا مهمة طباعته إلى دار القبس، التي تميزت بجودة العمل وإخراجه في حلة قشيبة مشرقة مبهجة، راجين بذلك أن يجعل الله هذا السفر من العلم النافع، الذي يعود بالخير العميم والجزاء المبارك على العلامة ابن القيم والوالد الحبيب، رحمهما الله رحمة واسعة، وجعل مآلهما الفردوس الأعلى من الجنة، في صحبة الحبيب محمد ﷺ، وكما نرجو الخير والجزاء الجميل لكل من ساهم في إخراج هذا العمل إلى النور، سواء المحقق والواقف على وقف الوالد والناشر وكل من أشار علينا بنصيحة وتوجيه، وأن يتقبله الله بقبول حسن.

جهد الوالد رحمه الله تعالى في عمله المبارك هذا:

إن الوالد كان شغوفًا بتراث ابن القيم لما له من حس مرهف وقلب ذكي وبراعة في تناول النصوص القرآنية وتأويلها وفق مراد الله ومراد رسوله ﷺ، فجاءت كتاباته ماتعة رائعة رائقة، تقر الأعين، وتشرح الصدور، وتشفي النفوس، وتعالج الخواطر والنزعات، التي تعتلج في حنايا النفس البشرية، فكان موفقا في عرضه للآيات وتأويله لها، وفق منهج أهل السنة والجماعة، مجانبا أهل الأهواء من المبتدعة والزائغين، ولما لم يكن لابن القيم تفسير يرجع إليه طلبة العلم والعلماء، ولعلها كانت أمنية له، ولم يتيسر له أن يصنف في التفسير، حيث قال رحمه الله في نهاية تفسير المعوذتين، الذي قصد تفسيرهما، حيث وضع عنوانا صريحا واضحا يوحي بذلك بقوله: تفسير المعوذتين فقال متمنيا: فهذا ما مَنَّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنَّة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين. أهـ.

من هنا رأى الوالد رحمه الله أن يحقق له هذه الأمنية الغالية، وهذا دأب العلماء العاملين الناصحين، فعمد إلى مصنفاته، فأبحر فيها عبر عقد ونصف من الزمن، حتى جاد بهذه التحفة القيمة، ومن هنا كان حرص الوالد رحمه الله على إرث ابن القيم العلمي، فظل سنين عدة يبحث وينقب ويطالع ويغوص في أعماق هذا البحر الزخار، وكابد الأيام والليالي والشهور والأعوام، يهضم هذا التراث وينتقي، ويتخير أطايب العبارات والفقرات، ويصل الليل بالنهار في مصاحبة ابن القيم، إلى أن اختلط بلحمه ودمه، وصار يتمثله في مدخله ومخرجه، وفي عطائه ومنعه، حتى كأنه هو، وهذا لعمر الحق مزية صحبة الصالحين ومرافقة أولياء الله المتقين.

إن جهود الوالد رحمه الله في عمله هذا يعد مفخرة لنا، نبديها من باب إبراز الفضائل

ونشرها لطلبة العلم قبل غيرهم، ليحتذوا حذوه، وينهجوا نهجه، عسى ربنا أن يجعل له في العالمين ذكرا حسنا، يكون سببا لدعوة صادقة خالصة تناله بركتها وأجرها، فهذا أملنا من تعداد مزاياه ونشر مناقبه وكشف محامده، آملين من كل من يقف على سيرة الوالد أن يخصه بدعوة لعلها ترفع شأنه عند ربه، ونحن ما ذكرنا ذلك إلا من باب البر الذي أمرنا به ربنا عز وجل في محكم التنزيل، وبه أيضا نستجلب رضا مولانا سبحانه وتعالى، لأنفسنا في دنيانا وآخرتنا، فما استجلب نعيم الدارين إلا بمثل البر، سائلين الله تعالى أن يجعل عملنا هذا في صحائف أعمالنا، وترتفع به منازلنا عند ربنا، إنه جواد كريم ودود رحيم.

ولكي ندرك حجم الجهد الذي بذله الوالد رحمه الله في جمع هذه المادة العلمية من كتب ابن قيم الجوزية رحمه الله، فنحيل القارئ الكريم إلى مقدمته لهذا الكتاب، حيث بين فيها مقدار ما لاقى من عنت ومشقة في سبيل إخراج هذا الكنز المدفون، فقد قال رحمه الله: فأنا أذكر لك حسب ما ظهر لي من قراءتي لكتب الشيخ رحمه الله أنه يحيل على الكتاب بعدة أسماء بما يقارب اسمه أو موطن كتابته نسياناً منه لما سماه به؛ لتزاحم الواردات عليه مما يحيط به هو وشيخه في عصرهما من خصومهما.

أما منهج المحقق حفظه الله: فقد تقيد بأسلوب المحققين وطريقة عملهم، من حيث تصحيح النص وإخراجه بصورة جيدة، معتمدا على خبرته العلمية والعملية، فحرص أشد الحرص على صحة المتن في المقام الأول، ثم زيَّن الكتاب بالحواشي، فقد قيل: لا يضيء الكتاب حتى يُظلم. أي بالحواشي، فجاءت هذه الحواشي لتضيف على الكتاب زينة وجمالا، يقف عليها كل منصف، فخرَّج الأحاديث، ونقل كلام أهل العلم على الحكم على الأحاديث، وعزا الأبيات الشعرية إلى قائليها، وذكر أماكن وجودها في مصادرها من كتب أهل اللغة وكتب الأدب، والكتب الشرعية، وقد

عزا كثيرا من النقولات إلى مصادرها من كتب أهل العلم، وقد رأينا أن الأولى حذف التعليقات التي كانت موجودة في الطبعة السابقة التي نقلها الوالد رحمه الله عن محققي كتب ابن القيم التي اعتمد عليها، لأنها ليست من صنيع الوالد رحمه الله، وأشير علينا بذلك فاستحسنا الفكرة، أما الحواشي التي ذيلت بـ(ج) فأبقيناها لأنها من صنيع الوالد رحمه الله، وقد تجد أيها القارئ الكريم أن الوالد رحمه الله قد يذكر في تفسير الآية الواحدة أكثر من نقل من أكثر من مصدر، حرصًا منه أن يؤدي أمانته في جمع المادة العلمية حول كل آية، وخاصة إذا كان فيها زيادة فائدة.

وصف هذه الطبعة:

تتميز هذه الطبعة عن سابقتها بمميزات عدة: أنها مخرجة الأحاديث ومصححة تصحيحات مدققة من قبل الأخ المحقق ومن باب الاطمئنان على سلامة الكتاب من الأخطاء، كلفنا مدققين لغويين آخرين لمراجعة الكتاب كاملًا، لكي نضمن دقة العمل وجودته، حرصاً منا على أن تكون هذه الطبعة أقرب إلى الصواب، حيث لا يخلو عمل بشر من أخطاء، وتم حذف العناوين المأخوذة من كتب ابن القيم لأن الوالد رحمه الله كان ينقل النص كما هو بعنوانه، حتى صار الكتاب لا يشبه كتب التفسير، فرأينا حذف هذه العناوين، لكي يأخذ الكتاب طابع كتب التفسير، فذكرنا قبل النص الآية أو الآيات التي سيشرع في تفسيرها والكلام حولها، وجعلناها من مصحف المدينة، لكي نتجنب أي خطأ يقع في كتابة الآيات، وبذلك زاد حجم الكتاب المحقق على الكتاب الأصلي بمجلد، حيث صار سبع مجلدات بدلا من ست في طبعته السابقة، هذا ونرجو الله تعالى أن يتقبل عملنا، ويجعله من العمل الصالح المبرور، الذي نأمل أجره وثوابه لنا ولوالدينا وإخواننا وذرياتنا، ولكل من يمت لنا بصلة قرابة أو مصاهرة، أو يكن لنا محبة ومودة، راجين ربنا - وهو المان بفضله- ألا يحرمنا

الأجر، وألا يقطع عنا ثوابه ما بقيت عين تطرف أو عرق ينبض أو لسان يذكر، وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد وآل بيته الأطهار، وأتباعه الأبرار، اللهم آمين.

إبراهيم بن علي حمد الصالحي
عنيزة - القصيم
١/ ١/ ١٤٣٥هـ

ترجمة فضيلة الشيخ
علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣-١٤١٥هـ

أولاً: نسبه ومولده ونشأته:

هو العالم الجليل والشيخ الفاضل النبيل، علي بن حمد بن محمد بن صالح بن عبد الله الصالحي، ولد هذا العالم في مدينة عنيزة سنة ١٣٣٣هـ، وكان الجد الثالث له قد نزح من خب البصر إلى عنيزة، ولا يزال فيها بنو عم لهم، ولهم أملاك فيها.

نشأ شيخنا رحمه الله نشأة صالحة حسنة، ورباه والده أحسن تربية، واعتنى به عناية فائقة، ولما بلغ سن التمييز أدخله والده كتاتيب بلده عنيزة، فتعلم فيها مبادئ القرآن والكتابة، ثم شغف بطلب العلم منذ صباه، فأدخله والده مدرسة القرزعي: لصاحبها صالح وعبد الرحمن العبد الله السالم القرزعي، فحفظ القرآن عن ظهر قلب، وتعلم مبادئ العلوم وقواعد الخط والحساب، فمهر فيهما، وشرع في طلب العلوم الشرعية بهمة عالية ونشاط ومثابرة، فحفظ كثيرًا من المتون في علوم الشريعة، ودرس أمهات الكتب وهو في سن مبكرة، وقد لازم شيخه فضيلة الشيخ: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ولما رأى الشيخ السعدي فيه المثابرة والملازمة أمره أن يجلس لتدريس صغار الطلاب في الأوقات التي لا يفوته فيها دروس شيخه، حتى استفاد منه عدد غير قليل، وسيأتي بيانهم إن شاء الله.

ولما فتحت المعاهد العلمية في الرياض، وصار من بعدها كلية الشريعة واللغة، لم ترض همته إلا الالتحاق بالمعهد العلمي بالرياض، ونال شهادته سنة ١٣٧٦هـ، ثم انتسب إلى كلية الشريعة فأكمل دراستها وحصل على الشهادة سنة ١٣٨٢هـ، ثم انتسب إلى المعهد العالي للقضاء، فتخرج منه، وكان لا يمل ولا يسأم من تكرير الدروس وحفظها وتفهمها.

وكان رحمه الله في كل ذلك مثال الجد والاجتهاد، والحيوية والنشاط، فدرس ودرَّس، وأجاد وأبدع وأفاد، وحسن مدخله ومخرجه، غفر الله له.

ثانيًا: شيوخه:

لازم الشيخ عليٌّ رحمه الله كثيرًا من العلماء، منهم الشيخ العلامة صالح بن عثمان القاضي، والشيخ عثمان بن صالح، والشيخ عبد الله بن محمد بن مانع قاضي عنيزة، والشيخ سليمان العمري، والشيخ عبد العزيز الخريدلي، وكان من أهم وأقرب شيوخه إليه والذين أثروا في حياته العلمية والعملية، هو فضيلة الشيخ العلامة السعدي، بل هو أكثر مشائخه نفعًا له وملازمة له. قرأ عام ١٣٦٢هـ على الشيخ محمد ابن عبد العزيز المانع في الحرم المكي، وكذا قرأ على الشيخ بهجة البيطار، ولما عاد إلى عنيزة لازم مشائخه مدة إقامته فيها، ولما رحل إلى الرياض لازم كلا من: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وفضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، وفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وممن أخذ عنهم ودرس عليهم فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحم الله الجميع.

ثالثًا: تلاميذه:

لما أتيحت الفرصة للشيخ أن يدرس لصغار طلبة العلم بتكليف من شيخه العلامة السعدي، قام الشيخ علي رحمه الله بذلك خير قيام، وكان عند حسن ظن شيخه به، فأحسن تدريس هؤلاء الطلاب، وأفادهم، وكانوا جمعًا غفيرًا، من أبرزهم وأشهرهم وأفضلهم ـ فيما نحسب والله حسيبهم ـ: فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله، والشيخ علي المحمد الزامل، وسليمان الأشقر الزامل، وعبد الله الصالح اليحيا، والشيخ حمد المحمد المرزوقي، والشيخ عبد العزيز العلي المساعد، والأستاذ عبد الرحمن اليوسف الشبل، والأستاذ عبد العزيز الإبراهيم الغرير، والشيخ محمد العثمان القاضي، والأستاذ محمد الحمد الونين، والأستاذ صالح الحمد الونين،

والأستاذ إبراهيم المحمد السبيل، والأستاذ عبد الله السليمان القاضي، والأستاذ عبد العزيز السليمان القاضي، وغيرهم كثير.

رابعًا: أعماله:

لقد كان رحمه الله له همة عالية ونشاط منقطع النظير في أمور الدنيا والدين، ومن ذلك:

١- إن أول مكتبة عامة في نجد هو الذي اهتم بتأسيسها، فإنه في عام ١٣٥٨هـ قام بتأسيس مكتبة جامع عنيزة، فقد كتب معروضًا لوزير المالية الشيخ عبد الله السليمان الحمدان، جمع فيه توقيع علماء عنيزة وأعيانها، وأيده من قاضيها الشيخ عبد الله المانع، ومن أميرها عبد الله الخالد السليم، وسافر به إلى الوزير في مكة، فأمر بنسخة من كل كتاب من مطبوعات الحكومة السعودية، كما أنه أمر أن يشتري من جميع الكتب الموجودة في سوق الكتب (باب السلام)، ثم طلب من الشيخ السعدي أن يكتب لأعيان بلده لبناء المكتبة، فكلهم استجابوا، وتم بناؤها، وقام الصالحي بجهود مضنية بجلب الكتب والأثاث لها، وأتى بالمخطوطات من مظانها في مناطق المملكة كلها، ومن جمعيات أخرى من فاعل خير، حتى اجتمع في هذه المكتبة ما يقارب أربعين ألف كتاب في شتى الفنون، من أصول الدين وفروعه والحديث والتفسير والمراجع اللغوية والتاريخ والسير والأدب ودواوين الشعر، حتى أخذت مصافها معادلة أكبر مكتبة في نجد بوقت التأسيس، وصارت هذه المكتبة فيما بعد مكان إلقاء دروس العلامة السعدي، ومحل البحث والاجتماع لطلابه.

٢- أنشأ الشيخ علي رحمه الله مؤسسة النور للطباعة والتجليد، والتي تعتبر من أقدم المطابع في المملكة، فقد كان لهذه المطبعة بعد فضل الله الأثر الكبير في إعادة طباعة أمهات الكتب، وطبع فيها كتبًا لا حصر لها في فنون عديدة من كتب الأصول والفروع والتواريخ، وغير ذلك من كتب العلم النافع.

٣- كان رحمه الله شجاعًا لا يهاب أحدًا في الله، وكانت تأخذه غيرة وحمية إذا تعدى أحد على منهج السلف، ونشر ما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، وكانت له مواقف بطولية رائعة فيما يعتقد أن في ذلك قمع فساد أو إحقاق حق، فلقد كان أحد العلماء المصريين الذين وفدوا إلى عنيزة للتدريس في معهدها يُدرِّس في أحد المساجد، فأيَّد في درسه بعض المسائل المخالفة لمذهب السلف، فشاع خبر هذا المدرس ودرسه الذي ألقاه، وانقسم أهل عنيزة قسمين بين معالج الأمر بجو هادئ، وبين منكر ومطالب إبعاد هذا المدرس، فكان الشيخ علي رحمه الله هو رئيس القسم الأخير، وعظَّم أمر المسألة، وما زال يتصل بالمسؤولين من العلماء والأمراء، حتى استبعد هذا المدرس، وأزيل خطره عن منهج السلف وعقيدة أهل السنة.

٤- وكان رحمه الله نصوحًا يحب الخير للجميع، ولا يأل جهدًا في إبداء النصح لولاة الأمور إذا علم أمرًا يوجب النصح، فلم يمنعه شيء في إيصال الخير إلى الولاة والعلماء، عملًا بقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة» ويرد على المبطلين، ويدحض حججهم، ويفنّد شبهاتهم، ويكشف عوارهم، نصرة للحق ودفاعاً عن الدين والعرض والوطن.

خامسًا: مؤلفاته ونشاطه العلمي:

لم يكن الشيخ علي رحمه الله تاجرًا فحسب، بل كان عالمًا فاضلاً، له منهج واضح في طباعة الكتب، فقد كان حريصًا على طباعة كتب السلف وكتب العقيدة الصحيحة، ولم يكن همه مثل هم كثير من الناشرين وأصحاب المطابع، يطبع كل ما هب ودب، طالما يدر عليه أموالاً طائلة، لم يكن الشيخ من هذا الصنف، بل كان رحمه الله من العلماء الحريصين على نشر العلم النافع، يظهر ذلك جليًا من خلال الكتب التي تولى نشرها وطباعتها، ومن خلال المقدمات التي كان يحرص عليها في بداية كل كتاب، فمن يقرأ هذه المقدمات يعلم يقينًا أن الشيخ كان داعية للعلم قبل أن يكون تاجرًا للكتب.

١- «**الضوء المنير على التفسير**» من أعظم ما خلفه من كتب في ستة أجزاء كبار، فقد قام الشيخ رحمه الله بجمع كلام العلامة السلفي ابن قيم الجوزية من خلال جميع مصنفاته المطبوعة والمخطوطة في تفسير آيات القرآن الكريم، ورتبها حسب ترتيب المصحف، واستمر عمله هذا قرابة خمسة عشر عامًا، حتى جمع هذا السفر الجليل، وطبع سنة ١٤١٤هـ ويطبع قريبًا بإذن الله بتحقيقي وتهذيبي.

٢- كتاب «**التنبيهات حول المقام ومنى واقتراحات**»، طبع هذا الكتاب سنة ١٣٩٤هـ وعرض هذا الكتاب على هيئة كبار العلماء بالمملكة لدراسته والنظر فيما تضمنه، وخلصت الهيئة إلى صحة ما في الكتاب، وأجازته الهيئة، وأثنت عليه خيرًا، وأعده الشيخ لطبعة ثانية سنة ١٤١٤هـ، ولكن حال مرض الشيخ وموته دون طباعته، ويطبع قريبًا طبعة جديدة بتحقيقي.

٣- كتاب «**العطار والقاسم في الميزان**»، دافع فيه الشيخ على الحق الذي دعا إليه الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار رحمه الله، وأبطل الباطل الذي نادى به المدعو عبد الرحمن القاسم الحاصل على ليسانس حقوق، الفارغ من العلم الشرعي، وليس لديه حجة دينية في دعواه، فلم يأل الشيخ جهدًا في الدفاع عن الحق، وإظهار المحق من المبطل، وقدم لهذا الكتاب فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، وطبع سنة ١٣٨٤هـ.

٤- كتاب «**دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين**»، طبع سنة ١٤١٣هـ وترجم إلى الإنجليزية.

٥- كتاب «**كشف الشبهات**» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، قام الشيخ علي رحمه الله بتفصيله وكتابة الترجمة والمقدمة والتعليق، طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ والطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ.

ومن الكتب التي طبعها الشيخ الصالحي في مطبعته:

١- كتاب البلبل في أصول الفقه، تأليف الإمام سليمان الطوفي الصرصري الحنبلي الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ.

٢- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، تأليف الأمير الصنعاني، طبعه الشيخ علي رحمه الله سنة ١٣٨٩هـ، وطبعه مرة ثانية سنة ١٣٩٦هـ.

٣- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، الجزء الثاني عشر، الكتاب الخاص بتراجم أصحاب الرسائل والأجوبة.

٤- «تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان»، تأليف فضيلة الشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن، قدم له الشيخ الصالحي مقدمة هامة، أشار فيها إلى أن هذا الكتاب سيكون في خمسة أجزاء متوسطة حسب تجزئة مؤلفه.

٥- كتاب التوحيد ومعه القول السديد للسعدي، وطبع أكثر من طبعة وقدم له الصالحي، ط١ سنة ١٣٨٢هـ، وط٢ سنة ١٣٨٤هـ، وط٣ سنة ١٣٩٠هـ.

٦- القول المحرر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأليف الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، قام بتصحيحه والإشراف على طبعه الشيخ الصالحي رحمه الله.

٧- الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب، تأليف الشيخ أحمد بن ناصر بن عثمان المعمري، طبعه الشيخ الصالحي في مطبعته.

٨- مبادئ الإسلام، تأليف الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، طبعه الشيخ الصالحي باللغة العربية والإنجليزية في كتاب واحد، وذلك سنة ١٣٨٩هـ طبعة رابعة.

٩- رسالة الإمام عبد العزيز الأول ابن الإمام محمد بن سعود رحمه الله، قدم لها الشيخ الصالحي بمقدمة هامة، وترجم له ترجمة مختصرة، طبعت سنة ١٣٨٢هـ.

١٠- رسالة الإمام عبد العزيز الثاني أو حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بقلم حفيده العلامة محمد بن عبد اللطيف، قدم لها الشيخ الصالحي بمقدمة هامة.

١١- **تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن**، تأليف إسماعيل بن إبراهيم الخطيب الحسني الأسعردي الأزهري، قدم له الشيخ الصالحي رحمه الله وطبعه في مطبعته.

١٢- **الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكتاب**، للشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرحمن الفريان، قدم لها الشيخ الصالحي رحم الله الجميع.

١٣- **الانتصار على من أزرى بالنبي والمهاجرين والأنصار**، للشيخ حمود التويجري، ذيلها الشيخ الصالحي بخاتمة ونداء.

١٤- **مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد**، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

١٥- **الدرة الثمينة في الفرائض**، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف سليمان ابن عبد الرحمن الحمدان رحمه الله، سنة ١٣٩٢هـ.

١٦- **الرد الجميل على أخطاء ابن عقيل**، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٢هـ.

١٧- **دليل الحجاج الكرام إلى بيت الله الحرام**، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن سليمان بن سحمان، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ.

١٨- **المنهج لمريد العمرة والحج**، تأليف الشيخ محمد الصالح العثيمين رحمه الله، الطبعة الثانية.

١٩- **واجب المسلمين**، تأليف الشيخ عبد الرحمن السعدي، قدم لها الشيخ الصالحي، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٠هـ.

٢٠- **الإرشاد في القطع بمقبول الآحاد**، تأليف الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٢١- **شفاء الصدور في الرد على الجواب المشكور**، أصدرته دار الإفتاء العامة.

٢٢- **أصول الأحكام**، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، الطبعة الثانية.

٢٣- أبو الحسن الأشعري، تأليف الشيخ حماد الأنصاري، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٢هـ.

٢٤- تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والحب والبغض والهجران، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى.

٢٥- إيضاح المحجة في الرد على صاحب طنجة، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٥هـ.

٢٦- زيارة القبور الشرعية والشركية، تأليف محيي الدين محمد البركوي رحمه الله.

٢٧- تسهيل الوصول إلى علم الأصول، وفق المنهج المقرر تدريسه في المعاهد العلمية ومعهد الجامعة الإسلامية، تأليف: عطية محمد سالم، وعبد المحسن العباد، وحمود بن عقلا، مراجعة الشيخ عبد الرزاق عفيفي.

٢٨- نصحية من سماحة مفتي البلاد السعودية محمد بن إبراهيم آل الشيخ بمناسبة صلاة الاستسقاء، يوم الاثنين الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٣٨٦هـ.

٢٩- أذكار الصباح والمساء، ويليها مختصر ثلاثة أصول، تأليف الشيخ عبد العزيز ابن محمد الشثري، الطبعة الثانية.

٣٠- الإحكام في أصول الأحكام، تأليف الإمام علي بن محمد الآمدي، قام بالتعليق عليه الشيخ عبد الرزاق، عفيفي، وقام بتصحيحه الشيخان: عبد الله ابن غديان وعلي الحمد الصالحي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ.

٣١- النظام الداخلي للمدرسة الابتدائية، سنة ١٣٨٤هـ.

٣٢- قوائم بأسماء الكتب والمطبوعات الممنوعة، قدم له مفتي البلاد السعودية سنة ١٣٨٦هـ.

٣٣- فوائد السواك ومنافعه، تأليف الشيخ أبي بكر الجراعي الحنبلي رحمه الله، سنة ١٣٨٦هـ.

٣٤- رسالة في دية النفس وغيرها، تأليف مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، سنة ١٣٧٤هـ.

٣٥- الدخان في نظر الإسلام، تأليف الشيخ صالح بن عبد العزيز بن إبراهيم آل منصور، الطبعة الأولىٰ.

٣٦- العجالة السنية علىٰ ألفية السيرة النبوية، تأليف عبد الرزاق المناوي، قام بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٣٧- في سبيل الحق، تأليف الشيخ عبد الرحمن الحماد العمر، سنة ١٣٨٣هـ.

٣٨- الإرشاد إلىٰ توحيد رب العباد، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حماد بن عمر، الطبعة الأولىٰ سنة ١٣٨٤هـ.

٣٩- الإرشاد إلىٰ طريق النجاة، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حماد آل عمر، الطبعة الأولىٰ سنة ١٣٨٦هـ.

٤٠- اللآلئ البهية في شرح لامية شيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف أحمد بن عبد الله المرداوي الحنبلي، قدم لها الشيخ الصالحي وذكر في مقدمته أنه طبعه علىٰ أصل خطي، واعتنىٰ بتصحيحه، طبع سنة ١٣٨٦هـ.

٤١- نقد الاشتراكية، صدرت من دار الإفتاء بالرياض، قام بالإشراف علىٰ طبعها وتصحيحها محمد السليمان البسام وعلي الحمد الصالحي، طبع في مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، سنة ١٣٨١هـ.

٤٢- كتاب الفتن والملاحم وهو النهاية من تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير، تصحيح وتعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري، قدم للطبعة الأولىٰ الشيخ علي الحمد الصالحي، وكذا للطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ وأعده الشيخ الصالحي لطبعة ثالثة، أضاف لها زيادات في المقدمة بخط يده، وهذا الكتاب طبع بالاشتراك بين مؤسسة النور ومكتبة الحرمين.

٤٣ رسالة الحسن بن أيوب، أخذها الشيخ علي من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن وافته المنية، وحالت دون طباعتها.

وقد قام الشيخ رحمه الله بطباعة بعض الكتب على نفقته الخاصة، منها:

- كتاب تنبيه الغافلين سنة ١٤١١هـ.
- وكتاب مجموع ابن رميح سنة ١٤١٤هـ.
- والربع الأول من تفسير القرآن الكريم باللغة الإنجليزية.
- وتفسير معاني القرآن كاملًا باللغة الإنجليزية.

سادسًا: صفاته وأخلاقه:

كان رحمه الله جم الخلق حسن الطباع، كريمًا يبذل المعروف ويدعو إليه، ويكف عن الشر ويحذر منه، ويحب إصلاح ذات البين، ويصل الرحم، ويكرم الضيف، ويعطف على الفقراء والمحاويج واليتامى، وكان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والشمائل الكريمة، مستقيمًا في دينه وخلقه، قويًّا صبورًا حازمًا نشيطًا، مع زهد وإقبال على الآخرة، ولا يخشى في الله لومة لائم، وكان تقيًّا محسنًا صدوقًا، وكان مربوعًا، أسمر اللون، متوسط الجسم والشعر، يجمع فضائل كثيرة وشمائل حسنة وصفات جليلة، نحسبه كذلك والله حسيبه.

سابعًا: مراسلاته لولاة الأمر:

دأب الشيخ رحمه الله على التواصل مع ولاة الأمر من الملوك والأمراء والعلماء، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة» ثلاثاً، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

من هنا كان الشيخ حريصًا على الكتابة لولاة الأمر، فقد كتب لكل من:

- جلالة المللك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.
- وجلالة الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله.
- وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله.
- وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز حفظه الله.

وكان له تواصل مع كل من العلماء يراسلهم ويراسلونه، منهم: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز وأصحاب الفضيلة الشيوخ: عبد الله بن حميد وعبد الرحمن الدوسري ومحمد بن عثيمين وبكر أبو زيد وسليمان الصنيع وعبد الله بن عبدان وأحمد عبد الغفور عطار وجودت سعيد وإسماعيل الأنصاري ومحمد نصيف رحمهم الله جميعًا.

نماذج من مراسلات الشيخ الصالحي رحمه الله:

* كتب لجلالة الملك خالد رحمه الله، فقال: صاحب الجلالة إن الحامل على هذا الكتاب النصيحة التي أوجبها الله لكم، والنصح أغلى ما يبذل ويوهب، لأننا نعتقد أن الله سبحانه قد وكل لكم رعاية خلقه رعاية عامة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله فيما يختص بكم، ورعاية خاصة وهو القيام على حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالعمل والاحترام، وبذلك يكتب الله لكم أجر المجاهدين في سبيله، وخاصة أمام هذه التيارات الجارفة والفتن المظلمة المغرية ودعاة السوء، التي أخبر عنها الصادق ﷺ، وحذر منها في أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

ثم طفق الشيخ يسرد على جلالة الملك بعض الملاحظات والسلبيات التي بدأت تنتشر، فقال لجلالته: والواجب يحتم علينا مصارحتكم فاعذرونا، لأننا ملزمون بذلك شرعًا وطبعًا لمحبتنا لكم وخوفنا عليكم وعلى المسلمين.

وختم هذا الخطاب بقوله رحمه الله: وختاماً أرجو الله أن يتولاكم بولايته، ويحميكم بحمايته، وينصركم بنصره، ويجعلكم عونًا لحزبه، وأن يعزكم بالإسلام، ويعز الإسلام بكم، وأن يجعلكم ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، هذا ما أردناه لكم، والخير أردناه، والله يتولى الصالحين.

* وكتب أيضًا لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله، فقال: إن مواقفكم المشرفة من نشر الإسلام والاهتمام به في الداخل والخارج ليدفعنا إلى الشكر لكم

والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحفظكم حصنًا للإسلام من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر، كما أن ذلك يدفعنا إلى مناصحتكم، لأن الله سبحانه قد أخذ علينا الميثاق بأن نبين الحق، ونناصح أئمة المسلمين وعامتهم.

يا إمام المسلمين بالرغم من أن حكومتكم والحمد لله هي الحكومة التي تطبق شريعة الله التي أهملها كثير من حكام المسلمين اليوم، فإن هناك بعض الملاحظات التي يجب أن نصارحكم فيها، وهي في صالحكم وصالح المسلمين.

ثم طفق الشيخ في عرض هذه الملاحظات وإبداء بعض المقترحات، ثم قال رحمه الله: هذه ملاحظات نعتبرها من أسس هذا الدين، ولا تبرأ ذمتنا حتى نطلعكم عليها: معذرة لنا يوم نقف بين يدي الله يوم القيامة، ورغبة منا في الإصلاح، وشفقة عليكم، لأننا على ثقة أنكم المسؤول الأول يوم القيامة بين يدي الله عز وجل عن هذه الأخطاء، لأن الله قد استرعاكم على هذه الأمة، وقد عرفناكم حفظكم الله بالاستقامة والصلاح، سائلين الله سبحانه أن يعينكم على تحمل هذه المسؤولية.

* وكتب للأمير سلمان حفظه الله، فقال: أرجو الله أن يحفظكم، ويحفظ بكم الإسلام وتعاليمه العظام، ثم إن الداعي لهذا ما رأيته من تكرار الإعلانات حول المساكن المؤجرة، ولعلمي أنكم أهل فطرة وحق أذكركم والذكرى تنفع المؤمنين، يا صاحب السمو إن هذه الشكاوى والمشورات التي تقدم لسموكم من المستأجرين فيها غش وغصب وظلم في الحقيقة: غش لكم بالذات وللدولة عامة.

أيها الأمير، إن الشرع الذي شرفكم الله بحمايته لا يظلم أحدًا، والخروج عنه هو الحيف والظلم.

ثم قال رحمه الله: فإن الحكم لله العلي الكبير، والرجوع عند التنازع إليه في كتابه وسنة رسوله، وهي محفوظة، قد شرفكم الله بحمايتها، ولازلتم والحمد لله تنعمون بوارف ظلها، فلا تغبنوا ذلك بوسوسة شياطين الإنس الذين هم يحسدونكم على نعمة الله عليكم.

أيها الأمير، إن كنت أطلت عليكم إشفاقًا ونصحًا، فالنصح أغلى ما يوهب، والواجب علينا وعليكم التقيد بما رسمه الله من الشرع، هذا ما نريده لكم والخير أردناه، والله يتولى الصالحين.

وكتب له سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله في ٢٣/ ١١/ ١٤٠٢هـ، فقال: فقد وصلني كتابكم الكريم بشأن وضع الأئمة في المسجد الحرام، وما ذكرتم فيه كان معلومًا، فأشكركم على غيرتكم الإسلامية، وما بذلتموه من النصح في هذا السبيل، زادكم الله صلاحاً وتوفيقًا.

وكتب له فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، فقال: وصلني كتابكم المكرم، وسرني لإفادته صحتكم واستقامة أحوالكم، تابع الله على الجميع وافر نعمه، وصرف عنا وعنكم أسباب سخطه ونقمه، سؤالكم عما تم حول بحثكم المحال لهيئة كبار العلماء، فقد جرى النظر فيه، وحصل الاتفاق فيه بالإجماع على جواز نقل المقام إلى موضع مسامت لمكانه من الناحية الشرقية ما لم ير ولي الأمر تأجيل ذلك لأمر مصلحي، إلى آخر خطابه رحمه الله تعالى.

وممن كتب له الأستاذ جودت سعيد الكاتب المعروف، فقال في رسالته المؤرخة في ٢٤/ ١/ ١٣٧٩هـ: وصلني كتابك فسرني سرورًا بالغًا، وشكر الله لك جميل ودادك، وحسن عتابك الأخوي، الله يعلم أني أشعر بالحاجة إلى قربك، وأن أكون عضدًا لك في جهادك الذي ملأ قلبي، وجرأتك في مواطن الحق، أكثر الله من أمثالك، وأعاننا على قضاء ما وجب.

وقال له في رسالة أخرى: فيا أيها الأخ الكريم ما أدري مقدار ما أجد من السعادة والسرور حين أفكر في شخصكم الكريم، أدام الله نشاطك وجهادك، إن أحوج ما تحتاج إليه الدعوة إلى الله في كل وقت الرجال المخلصون الذين امتلئوا حماسة وشجاعة، لا يخافون مما يخاف منه الناس، إن ما رأيته فيك من الشجاعة في الحق جعلني أنظر إليك: أن المسؤولية قد عظمت عليك لما

فضلك الله، ولما أسبغ عليك من نعمة الاعتزاز بالله، واليوم قد تضاعفت مسؤوليتك بعد أن فرغت من ا لدراسات المقيدة.

ثامنًا: مرضه ووفاته:

أصيب رحمه الله بتليف في الرئة، واشتد عليه المرض، وطال معه حتىٰ أنهكه، ووافاه الأجل وهو منهمك في مراجعة كتابه «الضوء المنير علىٰ التفسير» في الأجزاء الأخيرة منه، وفارق الدنيا في يوم الأربعاء الموافق ٢١ من شهر جمادىٰ الآخرة سنة ١٤١٥هـ بعد حياة حافلة بالجد والعمل الدؤوب، وله من العمر ثلاثة وثمانون عامًا، وصلِّي عليه في جامع عنيزة، ودفن في مقابر الشهوانية، وحزن عليه عارفو فضله.

خلف مكتبة نفيسة عامرة بأمهات الكتب والمراجع الهامة والنادرة، وفيها مخطوطات قيمة، وقد قام أبناؤه حفظهم الله بإهداء هذه المكتبة لدارة الملك عبد العزيز وجامعة القصيم لينتفع بها أكثر عدد ممكن من طلاب العلم.

كما خلّف أبناء نجباء بررة، ما يزالون إلىٰ الآن في سعي حثيث لإيصال الخير والنفع لأبيهم في قبره، ينشرون علمه ويحيون أعماله، هم في الحقيقة امتداد لأجوره، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)] وقال أيضًا ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علَّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه...»[(٢)]. هذا ما نحسبه فيهم والله حسيبهم.

وكان رحمه الله يقول: أنا لم أعرف اللعب واللهو في حياتي، ولا أضيع أوقاتي فيما لا يفيد، فإما في عمل الدنيا، وإما في عمل الآخرة.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٤٢)، وحسنه المنذري والألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٧٤).

وبالجملة ففقده خسارة فادحة لا تعوض، وثلمة لا تسد، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١] قال: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، وكذا قال مجاهد أيضًا: هو موت العلماء(١).

وصدق القائل:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متىٰ يمت عالم منها يموت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبىٰ عاد في أكنافها التلف(٢)

رحم الله الشيخ عليًّا رحمة واسعة، وجعل مستقره دار كرامته، وأسكنه فسيح جنته، ونفع الله بعلومه وجهوده، وأحيا أعماله إلىٰ يوم الدين، وجعل له لسان ذكر في العالمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام علىٰ المرسلين والحمد لله رب العالمين(٣).



---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

(٢) ذكر البيتين الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٧/ ٢٥٦) وعزاهما إلىٰ أحمد بن غزال، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

(٣) انظر في ترجمة الشيخ رحمه الله: علماء نجد خلال ثمانية قرون، للبسام (٥/ ١٨٠-١٨٤ رقم ٥٨٥)، وروضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، لمحمد بن عثمان القاضي (٣/ ٢٠٥-٢٠٧ رقم ٤٦٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لجامعه: علي بن حمد بن محمد الصالحي

الحمد لله حمداً كثيراً كما يحبه ويرضاه، على فضله وكرمه وجزيل عطاياه، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي اختاره واصطفاه، والذي أرسله بكتابه المبين رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه السائرين على هديه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد رأيت أن أذكر لك أخي سبب اعتناقي لهذا العمل وما لي فيه من الصنع؛ راجياً من الله أن ينفعني وإياك بما علمنا إنه جواد كريم.

ذلك بعد أن هداني الله لقراءة كتاب «مفتاح دار السعادة» لشمس الدين ابن القيم ـ رحمه الله ـ فراقني ما احتوى عليه من الفوائد المنوعة، وما أشبهه بجنة حَوَتْ جميع أنواع الفواكه والثمرات، ثم أعدت قراءته مرة ثانية فزادت رغبتي فيه، فرأيتني مشدوداً بالرغبة لقراءة بقية كتبه الموجودة، فكان ذلك والحمد لله.

ثم رأيت أن أكشف عن ناحية من هذا الكنز المدفون والفلك المشحون بأنواع العلوم والفنون، فأرشدني الله بهدايته إلى قسم التفسير، فسرت في جمعه وقت فراغي عدة سنين، حرصاً على الإفادة والاستفادة، ولم أتمكن من استيعاب ما طرقه الشيخ من فن التفسير، ولكني قاربت.

وقد صرفت النظر عن التكرار وعن مقارعة الشيخ للمبتدعة، إلا ما رأيت فيه كبير فائدة، كذلك صرفت النظر عن ترجمة الشيخ اختصاراً للوقت، حيث قد تناولتها الأقلام قديماً وحديثاً.

ثم اعلم أخي أنه بمراجعتي لكتب الشيخ ـ رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء ـ تبين لي أنه يحيل على مؤلفات لم تكن موجودة في محيطنا، وقد حاولت البحث عنها فلم أعثر على شيء منها سوى "كتاب السماع" وقد طبع والحمد لله.

وقد بحثت مع طائفة من علمائنا المعاصرين وعلى رأسهم شيخنا (عبد العزيز بن عبد الله بن باز) فاتفق رأيهم على أن هذه الكتب لو كانت موجودة لوصلت إلينا عيناً أو خبراً، ويقوي هذا أن فهارس مكتبات العالم وصلت إلينا ولم تذكر شيئاً عنها، ويقوي هذا أيضاً أنه في وقت متقدم وجدت طائفة تبحث عن مؤلفات الشيخ فتشتريها؛ وتحرقها؛ خشية انتشارها، في وقت كان الاعتماد على المخطوطات في تدوين العلوم.

ومهما يكن فأنا أذكر لك حسب ما ظهر لي من قراءتي لكتب الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه يحيل على الكتاب بعدة أسماء بما يقارب اسمه أو موطن كتابته نسياناً منه لما سماه به؛ لتزاحم الواردات عليه مما يحيط به هو وشيخه في عصرهما من خصومهما بدليل ما يلي:

ذكر في «مفتاح دار السعادة» في صحيفة ٤٧ من المطبوعة ما نصه: (وسميته «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي عند بيته) إلى آخر ما ذكره مما يشير إلى مضمون «مفتاح دار السعادة» ومما يشير أيضًا إلى «روضة المحبين» في سطور.

والشيخ رحمه الله أحال على أسماء كتب توحي بهذه الألفاظ؛ لأنه ألفه بمكة.

وتوضيحاً لما ذكرته فقد أحال في كتابه «بدائع الفوائد» ص ٦٢ ج٢ في بحثه على قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ثم قال: وقد بسطنا هذا في كتابنا «التحفة المكية» وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف.

وبالرجوع إلى كتاب المفتاح ص ١٠٢ و١٠٣ و١٠٤ ج١ نجد البحث موسعاً فيه الفائدة التامة حول هذه الآية وغيرها مما يدور حول مخاطبة الله لأهل الكتاب، ومن ذلك أحال في كتاب «بدائع الفوائد» أيضاً ص١١٩ ج١ بقوله: (وقد قررت هذا المعنى، وبينت شواهده من القرآن... وكونه على الصراط المستقيم الخ...) في كتاب «التحفة المكية» اهـ. وقد بحثه في المفتاح ص ٧٩ ج٢.

ومن ذلك أحال في البدائع أيضاً صحيفة ١٣٧ ج٤ في بحثه على الحكمة في خلق

الله آدم على كتابه «التحفة المكية»، وذكر أنه ذكر من الحكم قريباً من أربعين حكمة، وهي موجودة في أول المفتاح متوالية.

وبحثها أيضاً بإيجاز في «شفاء العليل» ص٢٤١ في الوجه السابع والعشرين، وأحال في البدائع ص٢١٥ ج٢ على «الفوائد المكية» وينطبق على ما في المفتاح ص ١٠٢ وص١٠٣ وص١٠٤ ج١ وهنا سماه «الفوائد المكية» وسبق قريباً أنه سماه «التحفة المكية» ومن ذلك أحال في كتابه «مدارج السالكين» ص٤٩٠ ج٣ ولفظه، وقد ذكرنا هذه المسألة في كتاب «مفتاح دار السعادة» وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً، تبطل قول من نفى التقبيح العقلي إلى آخر ما ذكر، وقد ذكر هذا في المفتاح ص ٦٢ ج٢ حتى ص ١١٠، وقبلها ذكر مقدمة مطولة، ثم ذكرها واحداً وستين وجهاً. قال في آخرها: فهذه مجامع طرق العالم إلى آخر كلامه.

ثم إننا نجده أحال في المدارج ص٢٣ ج١ ولفظه: (وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً في كتابنا المسمى «تحفة النازلين» وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك، وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب، وبينا بطلانه والبحث في مسألة التحسين والتقبيح التي مرّت بك قريباً).

وهناك إحالات كثيرة لم يتسن لي تطبيقها بوضوح، لكنها في رأيي ـ والحقيقة يعلمها الله ـ أنها ترجع إلى كتاب المفتاح، وهي إحالات باسم «الفتح المكي» و«التحفة المكية» و«تحفة النازلين» و«الأمالي المكية» و«الفوائد المكية».

وأيضاً فهناك إحالات باسم «الفتوحات القدسية» في مشاهد الخلق في مواقعة الذنب، وأخرى بنفس البحث باسم «سفر الهجرتين» يترجح عندي أنها تنطبق على «طريق الهجرتين» وعلى «مفتاح دار السعادة».

ومن ذلك أحال في «الجواب الكافي» رقم ٤٥ على كتاب «أيمان القرآن» عند قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

وأحال فيه أيضاً رقم ٢٧٣ ولفظه: وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب

«أقسام القرآن» علماً بأن هذا الكتاب يسمى «التبيان في أقسام القرآن» وهذا الكتاب لم يُبدأ بمقدمة، ولم يرتب على نسق سور القرآن، فلعله جزء من كتاب فهذه ثلاثة أسماء الظاهر أنها على مسمى واحد.

وأيضاً ذكر في كتاب المفتاح حكم داود وسليمان ـ عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ وذكر أنه رجح الحكم السليماني من وجوه في كتابه «الاجتهاد والتقليد» وبمراجعتي لـ «أعلام الموقعين» وجدت البحث في فصل مستقل طبقاً للعناصر التي ذكرها في المفتاح ص ٣٢٦ ج١ ثم إني رجعت إلى مقدمة الأعلام فلم أجد المؤلف سماه بأي اسم، فلا أدري كيف التوفيق؟ بينما ذكره في المفتاح وبين ما اشتهر بين الناس من تسميته بـ «أعلام الموقعين» وتمر على إحالات باسم «المعالم» يظهر لي أنها تنطبق على «أعلام الموقعين» من ذلك ما ذكره في «إغاثة اللهفان» ص٢٢ ج١ إحالة على كتاب «المعالم» وذلك في أسرار المثلين المائي والناري، والشيخ قد بحث المثلين وغيرهما من أمثال القرآن في «أعلام الموقعين» بتوسع، وبعضها في «اجتماع الجيوش الإسلامية».

ومن الغريب أن البعض نقل هذه الأمثال حرفيًا، وجعلها كتاباً مستقلاً، وتناقلها الناس ظنّاً منهم أنها تأليف مستقل، ونقل البعض أيضًا من «بدائع الفوائد» تفسير المعوذتين، وطبعت مستقلة.

ونقل البعض أيضًا من «إغاثة اللهفان» رسالة سماها: «الزيارة الشرعية والزيارة الشركية» وبما ذكرت كان لي شبه اقتناع أن الشيخ يحيل بما في ذاكرته أو قريباً منها دون الرجوع إلى ما كتبه، ويمكن أن يكون بعض هذه الكتب مأخوذة من كتبه التي لم تصل إلينا، أو أن أحداً تصرف في تسميتها غيره بعد وفاته أو قبلها، لأنه كان مسجوناً مع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية حتى توفي الشيخ رحمه الله.

وبما ذكرته ألقيت عصا الترحال، وأقمت للشيخ العذر لما عرفته من واقع حياته التي تغلي بالمشاكل مع خصومه وخصوم شيخه، أضف إلى ذلك ما هو مهتم به من

الكتابة، وإيجاد البحوث، ومقارعة الخصوم، دون مراجعة ما يكتبه أملاً أن يمدّ الله في عمره، ويراجع ما كتب، ويؤيد ذلك أن له تمنيات في كتابة بحوث لم يتمكن منها أو لم تصل إلينا، وله بحوث في «زاد المعاد» وإحالات على مواضع لم توجد، والظاهر أن هذا الكتاب من آخر ما كتب.

وأعتقد اعتقاداً قويّاً أن المشاكل ومقارعة الخصوم الحاقدين والحاسدين، حالت دون مراجعة ما كتب، وأنسته الأسماء المطابقة لواقع ما سماها به، زد على ذلك أنه سُجن تبعاً لشيخه ولا تخفى حالة السجين، وزد على ذلك أنه كان يكتب في السفر والحضر، وغير خافٍ ظروف الأسفار في وقته.

ففي هذه الأحوال يُعذر ويشكر على ما بذله من جهد في البحث والتأليف المثمر، فجزاه الله خير الجزاء، وضاعف له المثوبة والعطاء. والذي يهمني من هذا التقديم أن محبي ما أثر عن الشيخ يصرفون النظر عن المفقود، ويمعنون في الموجود، ويأخذ كل واحد منهم بنصيب، لأن كتابات الشيخ كنوز تنتظر من يكشف عنها. ففيها بحوث التوحيد والتفسير، والحديث، والفقه، وبحوث القواعد المنوعة، والطب والسلوك، وغير ذلك من الفنون.

فنرجو الله أن يهيء لها من شباب الإسلام من يعتني بها لتمام الانتفاع بها، إنه كريم جواد، ثم اعلم ـ أيها القارئ الكريم ـ أن ما جمعته ينقصه الربط في بعض المواضع، وذلك بسبب أني التزمت أن لا أدخل فيما جمعته غير كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ إلا ما نقله هو عن غيره وهو نادر جداً، وقد أبحت لنفسي الحذف والاختصار حسبما رأيته.

وقد تلجؤني الضرورة نادراً إلى إيضاح ضروري، أضعه بين قوسين، مثل إيضاح إشارة، أو ضمير يعودان إلى ما تقدم، ثم اعلم أن من سبقني[1] من جمع تفسير الشيخ لم

---

(١) يقصد الشيخ رحمه الله بمن سبقه صاحب «التفسير القيم»، وهو عبارة عن مجلد واحد، جمعه الشيخ محمد أويس الندوي، وراجعه وقام بتحقيقه الشيخ محمد حامد الفقي، وفي أثناء طباعة الضوء المنير
=

يفِ بالغرض، فحاولت رأب الصدع بجهدي ولا أدعي الإحاطة وقد تم بحمد الله ما قصدت.

ثم اعلم أيضاً أنه كان بودي أن أعود إلىٰ مراجعة كتب الشيخ، ولكن شمس الحياة قد شارفت علىٰ الغروب، راجياً من الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، مقرباً لرضوانه وإلىٰ جنات النعيم، ثم إني أرجو منك دعوة صالحة بظهر الغيب تعود عليك، كما أرجو منك الإشارة لما تراه من خلل.

كما أني أرجو منك أخي القارئ أن تنظر إليه بعين الرضا والتغاضي، لأن التسامح من شيم الكرام، وأعوذ بالله من شر كل حاسد أو مغالط أو غامط، وقد سميت هذا المجموع: «**الضوء المنير علىٰ التفسير**».

أخي القارئ ستجد أول البحث إن كان له سابق (...) وستجد في آخره (...) إن كان له بقية في الأصل الذي نقل منه، وستجد في الحاشية رقم الصحيفة، ورقم الجزء إن كان الكتاب ذا أجزاء.

وستجد بعض الإرشادات والإحالات علىٰ البحث، إن كان له بقية، لأنه ليس من هدفي نقل جميع ما كتبه الشيخ خشية التطويل وإملال القراء، والإحالة كفيلة برغبة القارئ.

وستجد بعض التعليقات، فإن كانت من الأصول المأخوذ عنها فسأبقيها علىٰ ما هي عليه[1]، وإن كان لي شيء منها ذكرت في آخره (ج) رمزاً لي، ولا يفوتني أن أذكر لك ـ أخي الكريم ـ أن الأرقام للصفحات والأجزاء تنطبق علىٰ الطبعات التي نقلتُ منها، وها أنا أذكر لك أسماء الطبعات وأسماء الكتب التي نقلتُ منها، وما نقلته من

= صدر كتاب بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية جمع وتحقيق: يسري السيد محمد وهو في خمس مجلدات ثم طبع طبعة جديدة في ثلاث مجلدات.

(١) لما أسند إليَّ الأخ الكريم سليمان ابن الشيخ علي الصالحي تحقيق هذا الكتاب رأيت أن أحذف هذه التعليقات والحواشي، وعرضت عليه الأمر فأبدىٰ موافقته مشكورًا، لأنها ليست من صنيعي ولا صنيع الشيخ علي رحمه الله، أما ما كان من صنع الشيخ فأبقيته كما هو مذيلًا بحرف (ج) رمزًا له رحمه الله.

غير ما ذكرته هنا أحيل عليه في موضعه.

	اسم الكتاب	عدد مجلداته	إيضاحات
١	إغاثة اللهفان	٢	دار المعرفة ـ بيروت
٢	أحكام أهل الذمة	٢	دار العلم للملايين
٣	أعلام الموقعين	٤	مطبعة السعادة
٤	التبيان في أقسام القرآن	١	طباعة دار الإفتاء
٥	الجواب الكافي	١	طبعه الشيخ عبد الظاهر أبو السمح
٦	جلاء الأفهام	١	دار الطباعة المحمدية
٧	تحفة المودود	١	المطبعة الهندية على نفقة علي بن ثاني
٨	حادي الأرواح	١	طُبع على نفقة الشيخ قاسم بن ثاني
٩	شفاء العليل	١	المطبعة الحسينية
١٠	الفوائد	١	طُبع على نفقة عمر بن عبد الجبار
١١	بدائع الفوائد	٢	المطبعة المنيرية
١٢	الفروسية	١	مطبعة الأنوار
١٣	زاد المعاد	٤	مطبعة السنة المحمدية
١٤	روضة المحبين	١	طُبع على نفقة الملك عبد العزيز
١٥	الروح	١	الطبعة الثالثة، مطبعة الإدارة
١٦	طريق الهجرتين	١	طُبع على نفقة محمد الصالح
١٧	كتاب الصلاة	١	الطبعة الخامسة لدار الإفتاء
١٨	المنار المنيف	١	تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة
١٩	مختصر الصواعق	١	طباعة دار الإفتاء
٢٠	مفتاح دار السعادة	١	دار الكتب العلمية
٢١	مدارج السالكين	١	مطبعة السنة المحمدية

	اسم الكتاب	عدد مجلداته	إيضاحات
٢٢	عدة الصابرين	١	المطبعة السلفية بمصر
٢٣	الطرق الـحُكمية	١	مطبعة السنة المحمدية
٢٤	اجتماع الجيوش الإسلامية	١	مطبعة الإمام
٢٥	تهذيب مختصر أبي داود	٨	مطبعة السنة المحمدية
٢٦	هداية الحيارىٰ	١	مؤسسة مكة للطباعة

وهناك كتب أخرىٰ ذكرها بعض المترجمين للشيخ ابن القيم:

منها كتاب «أخبار النساء» منسوباً إلىٰ الشيخ ابن القيم، فالله يكافئ من نسبه إليه، ولم يذكر أحد من المحققين أنه له.

ومنها: «أمثال القرآن»، وقد نوهنا عنه أنه منقول من أعلام الموقعين حرفيّاً.

ومنها: «إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان» ولم آخذ منه.

وذكر بعض المترجمين أن له كتباً أخرىٰ لم نعرف وجودها، وقد نوهنا عن رأينا عنها فيما سبق.

وختاماً نرجوا الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن لا يجعله وبالاً علينا، كما نرجوا الله أن يرد المسلمين إليه ردًّا جميلاً، وأن يهدي ولاتهم لتحكيم كتابه وسنة نبيه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلىٰ الله وسلَّم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وعلىٰ من سار علىٰ هديه إلىٰ يوم الدين.

الجامع

علي الحمد المحمد الصالحي

مقدمة
في آداب قراءة القرآن الكريم

فصل[١] في هديه ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به وتوابع ذلك. كان له ﷺ حزب يقرؤه ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلًا، لا هذًا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً وكان يقطع قراءته آية آية. وكان يمد عند حروف المد، فيمد الرحمن، ويمد الرحيم[٢]، وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، وربما كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم: من همزه، ونفخه، ونفثه**»[٣] وكان تعوذه قبل القراءة. وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وأمر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع[٤] وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه. وكان ﷺ يقرأ القرآن قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومتوضئاً ومحدثاً، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة. وكان ﷺ يتغنى به، ويرجِّع صوته به أحياناً، كما رجَّع يوم الفتح في قراءته ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾. وحكى عبدالله بن مغفل ترجيعه «آ آ آ» ثلاث مرات[٥]، ذكره البخاري.

---

(١) ٢٧٧ زاد المعاد ج١.

(٢) سئل أنس ﷺ: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم، أخرجه البخاري (رقم ٥٠٤٦).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٦٠ رقم ٨٥٨) وابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٣٦ رقم ٢٦٠١) وابن خزيمة (١/ ٢٣٨ رقم ٤٦٧) وأبو داود (رقم ٧٧٥) وابن ماجه (رقم ٨٠٧) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٤ رقم ٢١٧٩) والدارمي (رقم ١٢٣٩) وصححه الحاكم. وانظر: تحفة الأحوذي (٢/ ٤٣) وعون المعبود (٢/ ٣٣٨) وفيض القدير (٥/ ٩٩).

(٤) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**» قلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟! قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» أخرجه البخاري (رقم ٥٠٤٩) ومسلم (رقم ٨٠٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٩٩) وعمدة القاري (١٨/ ١٧٤) وتحفة الأحوذي (٨/ ٣٠١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٤٠) ومسلم (رقم ٧٩٤).

وإذا جمعت هذه الأحاديث إلىٰ قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم»[١] وقوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٢]، وقوله: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنىٰ بالقرآن»[٣]. علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختياراً لا اضطراراً، لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبدالله بن مغفل يحكيه ويفعله اختياراً، ليؤتسىٰ به، وهو يرىٰ هز الراحلة له، حتىٰ ينقطع صوته، ثم يقول: كان يرجع في قراءته. فنسب الترجيع إلىٰ فعله، ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمىٰ ترجيعاً. وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسىٰ الأشعري فلما أخبره بذلك قال: «لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً»[٤] أي حسنته وزينته بصوتي تزييناً، وروىٰ أبو داود في سننه عن عبدالجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبدالله ابن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتىٰ دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع[٥].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع الكرام البررة» (ص ١٤٤١) والحاكم (١/ ٧٦١ رقم ٢٠٩٨) وابن حبان (٣/ ٢٥رقم ٧٤٩) وابن خزيمة (٣/ ٢٦ رقم ١٥٥٦) وأبو داود (رقم ١٤٦٨) وابن ماجه (رقم ١٣٤٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٩) وشرح النووي (٦/ ٧٩) وعمدة القاري (٢٥/ ١٩٢) والديباج علىٰ مسلم (٢/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٢٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨-٦٩) وشرح النووي (٦/ ٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٤٤) ومسلم (رقم ٧٩٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٢) وعمدة القاري (٢٥/ ١٩٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٣٨٤ رقم ١٨٠٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ١٢ رقم ٤٤٨٤) (١٠/ ٢٣٠ رقم ٢٠٨٤٣) وفي الشعب (٢/ ٥٢٦ رقم ٢٦٠٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٩٣) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٢٤١) والنهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٢٦).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٧١) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٥٤ رقم ٢٢٥٧) (١٠/ ٢٣٠ رقم ٢٠٨٣٩) وفي الصغرىٰ (رقم ١٠٢٥) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٤٥٠ رقم ١٩٠٣) والطبراني في الكبير (٥/ ٣٤ رقم ٤٥١٤).

وكان ﷺ يقطع قراءته، ويقف عند كل آية، فيقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ويقف ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ويقف ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[(١)]، وذكر الزهري أن قراءة رسول الله ﷺ كانت آية آية. وهذا هو الأفضل، الوقوف على رؤوس الآيات، وإن تعلقت بما بعدها، وذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها، واتباع هدي النبي ﷺ وسنته أولى، وممن ذكر ذلك البيهقي في شعب الإيمان وغيره، فإنه يرجح الوقوف على رؤوس الآي وإن تعلقت بما بعدها[(٢)]. وكان ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها[(٣)]. وقام بآية يرددها حتى الصباح[(٤)].

وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة أو السرعة مع كثرة القراءة، أيهما أفضل؟ على قولين: فذهب ابن مسعود وابن عباس وغيرهما إلى أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها، واحتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القراءة فهمه وتدبره، والفقه فيه، والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه، كما قال بعض السلف: نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٠٠١) والترمذي (رقم ٢٩٢٧) والحاكم (٢/ ٢٥٢ رقم ٢٩٠٩، ٢٩١٠) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٤ رقم ٢٢١٢) وفي الشعب (٢/ ٤٣٥ رقم ٢٣١٩) والدارقطني (١/ ٣١٢ رقم ٣٧) وأحمد (٦/ ٣٠٢) والترمذي في الشمائل (رقم ٣١٧) وصححه الحاكم وقال الدارقطني: إسناده صحيح وكلهم ثقات، وانظر: عمدة القاري (٥/ ٢٨٧) وتحفة الأحوذي (٨/ ١٩٨) وعون المعبود (١١/ ٢٤) وفيض القدير (٥/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٢٠ رقم ٢٥٨٧) وانظر: فيض القدير (٥/ ٢٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٣٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٤٤) (٣/ ٢٣) وعمدة القاري (٧/ ١٦٤، ١٨٩) والتمهيد (٦/ ٢٢٠-٢٢٣) وتحفة الأحوذي (٢/ ٣١١) وشرح الزرقاني (١/ ٤٠١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٤٧، ٤٨) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤٧) وأحمد (٥/ ١٧٧) والبغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٤٨٧) والعراقي في أماليه (ص ١٢١) وقال: هذا حديث حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٣): رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات.

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (رقم ١١٦) من قول الفضيل رحمه الله، وجاء فيه:
=

ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب. وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم. قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره، هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر والمؤمن والمنافق، كما قال النبي ﷺ: **«ومثل المنافق الذي يقرأ: القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر»**(١) والناس في هذا أربع طبقات:

أهل القرآن والإيمان، وهم أفضل الناس.

والثانية: من عدم القرآن والإيمان.

الثالثة: من أوتي قرآناً، ولم يؤت إيماناً.

الرابعة: من أوتي إيماناً ولم يؤت قرآناً.

قالوا: فكما أن من أوتي إيماناً بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآناً بلا إيمان، فكذلك من أوتي تدبراً وفهماً في التلاوة أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر، قالوا: وهذا هدي النبي ﷺ، فإنه كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية حتى الصباح. وقال أصحاب الشافعي: كثرة القراءة أفضل. واحتجوا بحديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»**(٢)

قال: قيل: كيف العمل به؟ قال: أي ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٢٠) ومسلم (رقم ٧٩٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٣٧-٣٨) وتحفة الأحوذي (٨/ ١٣٤) وفيض القدير (٥/ ٥١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩١٠) وابن أبي شيبة (٦/ ١١٨ رقم ٢٩٩٣٣) والطبراني في الأوسط (١/ ١٠١-١٠٢ رقم ٣١٤) وفي الكبير (١٨/ ٧٦ رقم ١٤١) والبزار (٧/ ١٩٢ رقم ٢٧٦١) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٤١ رقم ١٩٨٣) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٢٣) وقال الترمذي: حسن صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٢٦٣).

[رواه الترمذي وصححه]. قالوا: ولأن عثمان بن عفان ﷺ قرأ القرآن في ركعة(١). وذكروا آثاراً عن كثير من السلف في كثرة القراءة(٢). والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدراً، وثواب كثرة القراءة أكثر عدداً. فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفسية جداً. والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة. وفي صحيح البخاري عن قتادة قال: سألت أنساً عن قراءة النبي ﷺ فقال: «كان يمد مداً»(٣). وقال شعبة: حدثنا أبو جمرة قال: قلت لابن عباس: إني رجل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين. فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل فإن كنت فاعلاً ولابد، فاقرأ قراءة تسمع أذنيك، ويعيها قلبك(٤). وقال إبراهيم: قرأ علقمة على ابن مسعود، وكان حسن الصوت فقال: رتل فداك أبي وأمي،

---

(١) ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/ ٤٨) وعزاه إلى أبي عبيدة، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٤٣ رقم ٨٥٩١) وانظر: مختصر كتاب الوتر للمقريزي (ص ٦٤).

(٢) ورد أن تميمًا الداري رحمه الله قرأ القرآن في ركعة، أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٢٥ رقم ٤٥٦٥) وفي الشعب (٢/ ٣٩٨ رقم ٢١٨٤) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢١٩) وسير أعلام النبلاء (٩/ ٧٧) وتاريخ مدينة دمشق (١١/ ٧٥).

وورد أن سعيد بن جبير قرأ القرآن في ركعة، أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٤٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤٨) وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٣٣٦) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢١٩) وصفة الصفوة (٣/ ٧٩).

وورد أيضًا أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان يقرأ القرآن في ركعة، أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤٨) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢١٩).

وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠١) أن مسعر بن كدام قال: رأيت أبا حنيفة قرأ القرآن في ركعة.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٤٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٩) وعمدة القاري (٢٠/ ٥٤).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٦ رقم ٣٨٦٧) (٣/ ١٣ رقم ٤٤٩١) وفي شعب الإيمان (٢/ ٣٩٢ رقم ٢١٥٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٨٩).

فإنه زين القرآن(١). وقال ابن مسعود: لا تهذوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة(٢). وقال عبدالله أيضاً: إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فاصغ لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه(٣)...

وكان رسول الله ﷺ يسر بالقراءة في صلاة الليل تارة، يجهر بها تارة(٤)، ويطيل القيام تارة، ويخففه تارة، ويوتر آخر الليل وهو الأكثر، وأوله تارة، وأوسطه تارة.

وأما التأمل في القرآن فهو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَـٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٥٤ رقم ٢٢٥٩) وفي الشعب (٢/ ٣٩٢ رقم ٢١٦٠) وسعيد بن منصور (١/ ٢٢٥ رقم ٥٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٥ رقم ٨٧٢٤) (٦/ ١٤٠ رقم ٣٠١٥٢) والطبراني في الكبير (٩/ ١٤٠ رقم ٨٦٩٥) والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٩) (٤/ ٢٣٦) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤١/ ١٧٢) وابن سعد في الطبقات (٦/ ٨٦)، وانظر: فتح الباري (٩/ ٩٠).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٣ رقم ٤٤٩٢) وفي الشعب (٢/ ٣٦٠ رقم ٢٠٤٢) والديلمي عن ابن عباس مرفوعًا في مسند الفردوس (٥/ ٣٦٠-٣٦١ رقم ٨٤٣٨) وقال السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٤): وأخرج الديلمي بسند واهٍ عن ابن عباس مرفوعًا، بينما ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن مسعود موقوفًا وعزاه إلى البغوي (٤/ ٤٣٥).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور (١/ ٢١١ رقم ٥٠) (٤/ ١٦٦٠ رقم ٨٤٨) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٥).

(٤) عن عبد الله بن أبي قيس قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن وتر رسول الله ﷺ فقلت: كيف كانت قراءته، أكان يسر بالقرآن أم يجهر؟ قالت: ربما كان يسر وربما جهر. أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد) (ص ٨٣).

تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً. فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر فيه على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتُتُلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

(١)وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه.



(١) ٢٢٣ الجواب الكافي.

فصل في هديه ﷺ في سجود القرآن[1]

كان ﷺ إذا مرّ بسجدة كبّر وسجد، وربما قال في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته»[2]، وربما قال: «اللهم احطط عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود»[3] ذكرهما أهل السنن.

ولم يذكر عنه أنه كان يكبر للرفع من هذا السجود، ولذلك لم يذكره الخرقي ومتقدمو الأصحاب، ولا نقل فيه عنه تشهد ولا سلام البتة، وأنكر أحمد والشافعي السلام فيه، فالمنصوص عن الشافعي أنه لا تشهد فيه ولا تسليم، وقال أحمد: أما التسليم فلا أدري ما هو[4]. وهذا هو الصواب الذي لا ينبغي غيره. وصح عنه أنه سجد في «الٓمٓ تَنْزِيلُ» وفي «صٓ» وفي «النَّجم» وفي ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ وفي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

---

(١) ٩٧ زاد المعاد ج١.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٤١٤) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٣٩ رقم ٢١١٤) والصغرىٰ (رقم ١١٢٩) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣٢٥ رقم ٣٥٩٤) والترمذي (رقم ٥٨٠، ٣٤٢٥) والدارقطني (١/ ٤٠٦ رقم ٢) وابن أبي شيبة (١/ ٣٨٠ رقم ٤٣٧٢) والطبراني في الأوسط (٤/ ٩ رقم ٣٤٧٦) وأحمد (٦/ ٣٠، ٣١٧) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤١ رقم ٧٩٩) وابن حبان (٦/ ٤٧٣ رقم ٢٧٦٨) وفي الموارد (رقم ٦٩١) وابن خزيمة (١/ ٢٨٢ رقم ٥٦٢) وابن ماجه (رقم ١٠٥٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣٢٠ رقم ٣٥٧٠) والترمذي (رقم ٥٧٩) وقال: هذا حديث حسن غريب. والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٩ رقم ١١٢٦٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٥٨) وقال المباركفوري رحمه الله: ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وأقره الذهبي، علىٰ تصحيحه، كذا في المرقاة.وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، رواته مكيون، لم يذكره واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصحيح ولم يخرجاه. وانظر، تحفة الأحوذي (٣/ ١٤٧-١٤٨).

(٤) انظر: التمهيد (١٩/ ١٣٤) والمغني (١/ ٣٦٠).

وذكر أبو داود عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة منها: ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان[(١)]. وأما حديث أبي الدرداء سجدت: مع رسول الله ﷺ إحدىٰ عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء «الأعراف» و«الرعد» و«النحل» و«بني إسرائيل» و«مريم» و«الحج» و«سجدة الفرقان» و«النمل» و«السجدة» و«صٓ» و«سجدة الحواميم»[(٢)] فقال أبو داود: رُوي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: إحدىٰ عشرة سجدة. وإسناده واهٍ[(٣)]. وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلىٰ المدينة[(٤)]. رواه أبو داود، فهو حديث ضعيف، في إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتج بحديثه، قال الإمام

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٥ رقم ٨١١) والبيهقي في الصغرىٰ (رقم ٨٩٤) وفي الكبرىٰ (٢/ ٣١٤ رقم ٣٥٢٥) وأبو داود (رقم ١٤٠١) وابن ماجه (رقم ١٠٥٧) والدارقطني (١/ ٤٠٨ رقم ٨) وانظر: عمدة القاري (٣/ ٩٦، ١٠٢)، وقال المباركفوري (٣/ ١٢٧): سكت عنه أبو داود والمنذري وقال الحافظ في التلخيص: حسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وابن القطان... ثم قال: والظاهر أن هذا الحديث حسن، وانظر: تلخيص الحبير (٢/ ٩ رقم ٤٨٨) وخلاصة البدر المنير (١/ ١٦٨ رقم ٥٦٧) ونصب الراية (٢/ ١٨٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٥٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣١٣ رقم ٣٥٢١) والترمذي (رقم ٥٦٨) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٣) وأحمد (٥/ ١٩٤) (٦/ ٤٤٢) وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٢٧) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٠١) وانظر: التمهيد (١٩/ ١٢٠) وتحفة الأحوذي (٣/ ١٢٧) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٧٤) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٥٦) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ٢١١) ونصب الراية (٢/ ١٨٢).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٠٣) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٨٠ رقم ٥٥٩) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣١٢ رقم ٣٥١٧) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٤ رقم ١١٩٢٤) قال ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٥٠٥): وهذا حديث منكر، وانظر: التمهيد (١٩/ ١٢٠) وقال ابن حجر في الفتح (٢/ ٥٥٥): فقد ضعفه أهل العلم بالحديث لضعف في بعض رواته واختلاف في إسناده، وانظر: شرح النووي (٥/ ٧٦-٧٧) وعمدة القاري (٧/ ١٠٥) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٠) وعون المعبود (٤/ ١٩٦) وفيض القدير (٤/ ٤٤٠) وتلخيص الحبير (٣/ ٨) وخلاصة البدر المنير (١/ ١٦٧) ونصب الراية (٢/ ١٨٢) ونيل الأوطار (٣/ ١١٧).

أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث، وقال يحيى بن معين: ضعيف، وقال النسائي: صدوق عنده مناكير، وقال أبو حاتم البستي: كان شيخاً صالحاً ممن كثُر وهمه[١]، وعلله ابن القطان بمطر الوراق. وقال: كان يشبه في سوء الحفظ محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعِيبَ على مسلم إخراج حديثه، انتهى كلامه.

ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه، لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، فغلط في هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة، ومن ضعّف جميع حديث سيء الحفظ. فالأولى: طريقة الحاكم وأمثاله، والثانية: طريقة أبي محمد بن حزم وأشكاله. وطريقة مسلم هي طريقة أئمة هذا الشأن، والله المستعان.

وقد صح عن أبي هريرة أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وفي ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وهو إنما أسلم بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بست سنين أو سبع. فلو تعارض الحديثان من كل وجه، وتقاوما في الصحة، لتعين تقديم حديث أبي هريرة، لأنه مثبت معه زيادة علم خفيت على ابن عباس، فكيف وحديث أبي هريرة في غاية الصحة، متفق على صحته، وحديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه؟ والله أعلم[٢].

[٣]المثال الثامن والستون: رد السنة الثابتة في إثبات سجدات المفصل، والسجدة الأخيرة من سورة الحج، كما روى أبو داود في السنن: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي: ثنا سعيد بن أبي مريم: أخبرنا نافع بن يزيد، عن الحارث بن سعيد العتقي، عن عبد الله بن منير، عن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن،

---

(١) انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٥٥-٤٥٦) والتحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٤٣٠) وذيل القول المسدد (ص ٦٩) وتهذيب التهذيب (٢/ ١٣٠ رقم ٢٥٤) وميزان الاعتدال (٢/ ١٧٤ رقم ١٦٣٤) والمجروحين (١/ ٢٢٤ رقم ٢٠٠) وحاشية ابن القيم (٤/ ١٩٦).
(٢) انظر: عون المعبود (٤/ ١٩٦-١٩٧).
(٣) ٣٨٧ أعلام جـ٢.

منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان» تابعه محمد بن إسماعيل السلمي عن سعيد بن أبي مريم، وقال ابن وهب: أنا ابن لهيعة، عن مشرح بن عاهان، عن عقبة ابن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلَتْ سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجد فيهما فلا يقرأهما**»[١] وحديث ابن لهيعة يحتج منه بما رواه عنه العبادلة: كعبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله بن يزيد المقري، قال أبو زرعة: ابن لهيعة كان ابن المبارك وابن وهب يتبعان أصوله، وقال عمرو بن علي: من كتب عنه قبل احتراق كتبه مثل ابن المبارك وابن المقري أصح ممن كتب عنه بعد احتراقها، وقال ابن وهب: كان ابن لهيعة صادقًا، وقد انتقى النسائي هذا الحديث من جملة حديثه، وأخرجه واعتمده، وقال: ما أخرجت من حديث ابن لهيعة قط إلا حديثًا واحدًا، أخبرناه هلال بن العلاء: ثنا معافى بن سليمان، عن موسى بن أعين، عن عمرو بن الحارث، عن ابن لهيعة، فذكره.

وقال ابن وهب: حدثني الصادق البار ـ والله ـ عبد الله بن لهيعة. وقال الإمام أحمد: من كان مثل ابن لهيعة بمصر في كثرة حديثه وضبطه وإتقانه؟! وقال ابن عيينة: كان عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع. وقال أبو داود: سمعت أحمد يقول: ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة. وقال أحمد بن صالح الحافظ: كان ابن لهيعة صحيح الكتاب طالبًا للعلم.

وقال ابن حبان: كان صالحاً، لكنه يدلس عن الضعفاء، ثم احترقت كتبه، وكان أصحابنا يقولون: سماع من سمع منه قبل احتراق كتبه مثل العبادلة: ابن وهب، وابن المبارك والمقري والقعنبي فسماعهم صحيح[٢]، وقد صح عن أبي هريرة؛ أنه سجد

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٣ رقم ٨٠٥) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ١٢٤ رقم ٤٣٣٥) قال ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ٢١٠): وفي إسناده ابن لهيعة قال الترمذي: ليس إسناده بقوي، وضعف سنده الصنعاني في سبل السلام (١/ ٢٠٨).

(٢) انظر: شرح علل الترمذي (ص ٤٢٥) وتهذيب الأسماء (١/ ٢٦٧ رقم ٣٢٨) وتاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ١٣٦-١٥٨ رقم ٣٤٧٤) وتهذيب الكمال (١٥/ ٤٨٧-٥٠٢ رقم ٣٥١٣).

مع النبي ﷺ في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾، وصح عنه ﷺ أنه سجد في «النجم» ذكره البخاري. فردت هذه السنن برأي فاسد، وحديث ضعيف:

أما الرأي فهو أن آخر الحج السجود فيها سجود الصلاة لاقترانه بالركوع، بخلاف الأولى؛ فإن السجود فيها مجرد عن ذكر الركوع، ولهذا لم يكن قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣] من مواضع السجدات بالاتفاق.

وأما الحديث الضعيف فما رواه أبو داود: ثنا محمد بن رافع: ثنا أزهر بن القاسم: ثنا أبو قدامة، عن مطر الوراق، عن عكرمة، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة». فأما الرأي فيدل على فساده وجوه: منها أنه مردود بالنص.

ومنها أن اقتران الركوع بالسجود في هذا الموضع، لا يخرجه عن كونه موضع سجدة، كما أن اقترانه بالعبادة التي هي أعم من الركوع لا يخرجه عن كونه سجدة، وقد صح سجوده ﷺ في النجم، وقد قرن السجود فيها بالعبادة، كما قرنه بالعبادة في سورة الحج، والركوع لم يزده إلا تأكيدًا.

ومنها أكثر السجدات المذكورة في القرآن متناولة لسجود الصلاة؛ فإن قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [الرعد: ٦٢]. يدخل فيه سجود المصلين قطعًا، وكيف لا وهو أجل السجود وأفرضه؟ وكيف لا يدخل هو في قوله: ﴿ فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ﴾ [النجم: ٦٢]. وفي قوله: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ﴾ [العلق: ١٩] وقد قال قبل: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾ [العلق: ٩، ١٠]. ثم قال: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ۝ ﴾ [العلق: ١٩] فأمره بأن يفعل هذا الذي نهاه عنه عدو الله، فإرادة سجود الصلاة بآية السجدة لا تمنع كونها سجدة، بل تؤكدها وتقويها.

يوضحه أن مواضع السجدات في القرآن نوعان: إخبار، وأمر.

فالإخبار خبر من الله تعالى عن سجود مخلوقاته له عمومًا أو خصوصًا، فسُنَّ

للتالي والسامع وجوبًا أو استحبابًا: أن يتشبه بهم عند تلاوة آية السجدة أو سماعها. وآيات الأوامر بطريق الأولى. وهذا لا فرق فيه بين أمر وأمر، فكيف يكون الأمر بقوله: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ [النجم: ٦٢] مقتضيًا للسجود دون الأمر بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ ﴾ [الحج: ٧٧] فالساجد إما متشبه بمن أخبر عنه، أو ممتثل لما أمر به، وعلى التقديرين يُسَنُّ له السجود في آخر الحج، كما يسن له السجود في أولها؛ فلما سوَّت السنة بينهما سوى القياس الصحيح والاعتبار الحق بينهما، وهذا السجود شرعه الله ورسوله عبودية عند تلاوة هذه الآيات واستماعها، وقربة إليه، وخضوعًا لعظمته، وتذللًا بين يديه، واقتران الركوع ببعض آياته مما يؤكد ذلك ويقويه، لا يضعفه ويوهيه، والله المستعان.

وأما قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣] فإنما لم يكن موضع سجدة؛ لأنه خبر خاص عن قول الملائكة لامرأة بعينها أن تديم العبادة لربها بالقنوت، وتصلي له بالركوع والسجود؛ فهو خبر عن قول الملائكة لها ذلك، وإعلام من الله تعالى لنا أن الملائكة قالت ذلك لمريم، فسياق ذلك غير سياق آيات السجدات.

وأما الحديث الضعيف فإنه من رواية أبي قدامة ـ واسمه الحارث بن عبيد ـ قال الإمام أحمد ﷺ: هو مضطرب الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الأزدي: ضعيف، وقال ابن حبان: لا يحتج به إذا انفرد. قلت: وقد أنكر عليه هذا الحديث وهو موضع الإنكار. فإن أبا هريرة ﷺ شهد سجوده ﷺ في المفصل في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ذكره مسلم في صحيحه، وسجد معه[1]، حتى لو صح خبر أبي قدامة هذا لوجب تقديم خبر أبي هريرة عليه؛ لأنه مثبت، فمعه زيادة علم، والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٧٨) وانظر: شرح النووي (٥/ ٧٦-٧٧) والتمهيد (١٩/ ١٢١-١٢٢).

المثال التاسع والستون: رد السنة الثابتة الصحيحة في سجود الشكر، كحديث عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ خرج نحو أحد فخرَّ ساجدًا فأطال السجود، ثم قال: «**إن جبريل أتاني وبشرني فقال: إن الله تعالىٰ يقول لك: من صلىٰ عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله تعالىٰ شاكرًا**»[(١)] وكحديث سعد بن أبي وقاص في سجوده ﷺ شاكرًا لربه، لما أعطاه ثلث أمته، ثم سجد ثانية فأعطاه الثلث الآخر، ثم سجد ثالثة فأعطاه الثلث الباقي[(٢)]، وكحديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ «كان إذا جاءه أمر يُسَرُّ به خر ساجداً شكراً لله تعالىٰ[(٣)]، وأتاه بشير يبشره بظفر جُنْدٍ لهم علىٰ عدوهم، فقام وخر ساجدًا»[(٤)].

وسجد كعب بن مالك لما بشر بتوبة الله عليه[(٥)]، وسجد أبو بكر حين جاءه قتل مسيلمة الكذاب[(٦)]، وسجد علي كرَّم الله وجهه حين وجد ذا الثُّدَية في الخوارج الذين قتلهم[(٧)]، ولا أعلم شيئًا يدفع هذه السنن والآثار مع صحتها وكثرتها غير رأي فاسد،

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٢٦ رقم ٩٢٦) وحسنه محققه، والحاكم (١/ ٧٣٥ رقم ٢٠١٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣٧١ رقم ٣٧٥٣) وعبد بن حميد في مسنده (رقم ١٥٧) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٨٧): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٧٩-١٧٠ رقم ٩٧٢) وضعفه المحقق وانظر: نيل الأوطار (٣/ ١٢٩).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٤١١ رقم ١٠٢٥) وقال: هذا حديث صحيح وإن لم يخرجاه، والبيهقي في الصغرىٰ (رقم ٩١٢) وفي الكبرىٰ ٢/ ٣٧٠ رقم ٣٧٤٩) وأبو داود (رقم ٢٧٧٤) وابن ماجه (رقم ١٣٩٤) والدارقطني (١/ ٤١٠ رقم ٢، ٣) (٤/ ١٤٧ رقم ١٧) والمحاملي في أماليه (رقم ٣٨٧) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٣٥).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٣٢٣ رقم ٧٧٨٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وشاهده علىٰ شرط الشيخين، وأحمد (٥/ ٤٥) وابن عدي في الكامل (٢/ ٤٣).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٨) ومسلم (رقم ٢٧٦٩).

(٦) انظر: الأم (١/ ٢٨٩) وعزاه ابن القيم في حاشيته علىٰ سنن أبي داود إلىٰ سعيد بن منصور في سننه.

(٧) انظر: عون المعبود (٧/ ٣٢٨) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٠٠) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٦٠) ونيل الأوطار (٣/ ١٢٩).

وهو: أن نعم الله ﷻ لا تزال واصلة إلى عبده، فلا معنى لتخصيص بعضها بالسجود، وهذا من أفسد رأي وأبطله؛ فإن النعم نوعان: مستمرة، ومتجددة، فالمستمرة شكرها بالعبادات والطاعات، والمتجددة شرع لها سجود الشكر؛ شكرًا لله عليها، وخضوعًا له، وذلًا في مقابلة فَرْحة النعم وانبساط النفس لها، وذلك من أكبر أدوائها؛ فإن الله سبحانه لا يحب الفَرِحين ولا الأشِرين؛ فكان دواء هذا الداء الخضوع والذل والانكسار لرب العالمين، وكان في سجود الشكر من تحصيل هذا المقصود ما ليس في غيره، ونظير هذا السجود عند الآيات التي يُخوف الله بها عباده كما في الحديث: «إذا رأيتم آية فاسجدوا»(١)، وقد فزع النبي ﷺ عند رؤية انكساف الشمس إلى الصلاة(٢)، وأمر بالفزع إلى ذكره، ومعلوم أن آياته تعالى لم تزل مشاهدة معلومة بالحس والعقل، ولكن تجددها يُحدث للنفس من الرهبة والفزع إلى الله ما لا تحدثه الآيات المستمرة، فتجدد هذه النعم في اقتضائها لسجود الشكر كتجدد تلك الآيات في اقتضائها للفزع إلى السجود والصلوات، ولهذا لما بلغ فقيه الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس موت ميمونة زوج النبي ﷺ خرَّ ساجدًا، فقيل له: أتسجد لذلك؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا» وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ من بين أظهرنا؟ فلو لم تأت النصوص بالسجود عند تجدد النعم لكان هو محض القياس، ومقتضى عبودية الرغبة، كما أن السجود عند الآيات مقتضى عبودية الرهبة، وقد أثنى الله سبحانه على الذين يسارعون في الخيرات ويدعونه رغباً ورهباً، ولهذا فرق الفقهاء بين صلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء بأن هذه الصلاة رهبة، وهذه صلاة رغبة، فصلوات الله وسلامه على من جاءت سنته وشريعته بأكمل ما جاءت به شرائع الرسل وسننهم وعلى آله.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١١٩٧) والترمذي (رقم ٣٨٩١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٠٦).

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١]فاتحة الكتاب: وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم، والخوف والحزن لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: «وما أدراك أنها رقية»[٢].

ومن ساعده التوفيق، وأُعِين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده للخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية، التي هي أصل سعادة الدارين، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى.

[٣]ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن، فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علمًا وشهودًا وحالاً ومعرفة ـ علم أن لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النَّصوح، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا

---

(١) ٣٧٣ زاد المعاد جـ ٣.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٣٦) ومسلم (رقم ٢٢٠١).
(٣) ١٧٩ مدارج جـ ١.

تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى، والثاني غيٌّ ينافي قصده وإرادته، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخرًا.

(1)والعبد إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أولاً: هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مُباحًا يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة. فإذا بان له أنه طاعة فلا يُقْدِمُ عليه حتى ينظر هل هو مُعان عليه أم لا؟ فإن لم يكن معانًا عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه. وإن كان مُعانًا عليه بقي نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه؛ فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئًا.

فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦].

فأسعد الخلق أهل العبادة، والاستعانة، والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ونصيبه من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ من معدوم أو ضعيف؛ فهذا مخذول مهينٌ محزون.

ومنهم من يكون نصيبه من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قويًا ونصيبه من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ضعيفًا أو مفقودًا؛ فهذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوأ عاقبة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جدًا، كحال كثير من العُبَّاد، والزهاد الذين قل علمهم بحقائق ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق.

(2)صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإن

---

(١) ١٦٠ أعلام جـ ٢.

(٢) ٢٧ إغاثة جـ ١.

العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: من معنى ألوهيته، والثاني: من معنى ربوبيته، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب: محبة، وإنابة، وإجلالاً، وإكراماً، وتعظيمًا، وذُلًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلاً، والرب هو الذي يُربي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه، فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه...

[(1)] ثم قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده، فإن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها.

والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالـمًا بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء، التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريدًا للهدى، محبًّا له، مؤثرًا له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى بها ثمود فاستحبوا العمى عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء، التي لا يضل من هداه بها، فذاك عدله فيهم، وهذا حكمته، فأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم، ومنعهم ما ليسوا له بأهل ولا يليق بهم...

والمقصود ذكر بعض ما يدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء

(١) ٥٣ شفاء العليل.

والقدر، وهي خلق الله تعالىٰ لأفعال المكلفين، ودخولها تحت قدرته ومشيئته، كما دخلت تحت علمه وكتابه.

قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم: أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصًا بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمىٰ اسمه.

فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك، فلا يخرج شيء منه عن علمه، ولا عن قدرته، ولا عن خلقه ومشيئته.

[1]والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره علىٰ غيره، فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله علىٰ العبد.

ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم، كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلىٰ معرفة الحق، الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلىٰ من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه، ثم إلىٰ من يقدره علىٰ فعله، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه علىٰ إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطر كل وقت إلىٰ هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلىٰ محاسبة نفسه عليه، وهل وقع علىٰ السداد؛ فيشكر الله عليه ويستديمه، أم خرج فيه عن الحق؛ فيتوب إلىٰ الله تعالىٰ منه، ويستغفره ويعزم علىٰ أن لا يعود.

---

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه، فإنه ابن وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال: هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته فيه إلى الهداية أظهر، ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطرارًا إليها.

وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهو: إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! وهل هذا إلا تحصيل الحاصل؟ أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى: ثبتنا على الهداية وأدمها لنا.

ومن أحاط علمًا بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة.

لاسيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها، فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه، بل لابد من عدم مانعه ومنافيه.

[1]للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه ـ سبحانه ـ على العبد، والقيام بها إخلاصًا وصدقًا، ونصحًا وإحساناً، ومتابعة وشهودًا لمنته عليه

---

(١) ١٨ فوائد.

وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحيي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه، ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلىٰ استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلىٰ أن يهديه الصراط المستقيم؛ الذي هدىٰ إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب. فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ [الفاتحة: ١-٤] يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالىٰ ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنىٰ؛ وهي اسم الله، والرب، والرحمن، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور علىٰ هذا.

وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته علىٰ عبادته.

وقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلىٰ سعادته إلا باستقامته علىٰ الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلىٰ الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلىٰ عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلىٰ الاستقامة علىٰ الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلىٰ أحد الطرفين انحراف إلىٰ الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلىٰ الطرف الآخر انحراف إلىٰ الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعمًا، وذلك من موجبات إلهيته، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون، فمن تحقق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة، الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان.

(١)ولما كان تمامُ النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين، وطريق الضآلين هم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء، وأفضله وأوجبه، وبالله التوفيق.

(٢)إذا عرفت هذه المقدمات: فالجمع الصحيح ـ الذي عليه أهل (الاستقامة) ـ هو جمع توحيد الربوبية، وجمع توحيد الإلهية، فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة ـ ظاهرًا وباطناً ـ غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته واقتضتها حكمته، فهذا جمع توحيد الربوبية.

---

(١) ١٧٥ إغاثة.

(٢) ٥١٠ مدارج جـ٣.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله، وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه، فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.

هذان الجمعان: هما حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى. ثم يشهد من قوله: ﴿ نَعْبُدُ ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهرًا وباطنًا، قصدًا وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً. ثم يشهد من قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ جميع أنواع الاستعانة والتوكل، والتفويض، فيشهد منه جمع الربوبية، ويشهد من: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ جمع الإلهية. ويشهد من: ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ عشر مراتب، إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالمًا بالحق مدركًا له.

الثانية: أن يقدره عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، أخص من الأولى. فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يُشهد المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه، فيكون مطالعًا له في سيره، ملتفتًا إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب،

الذين عدلوا عن اتباع الحق قصدًا وعنادًا، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً، ثم يشهد جمع ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم، فمن حصل له هذا الجمع فقد هدي إلى الصراط المستقيم، والله أعلم.

(1)إذا كان كل عمل فأصله المحبة والإرادة، والمقصود به التنعم بالمراد المحبوب، فكل حي إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته، فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد وكل حركة، كما أن العذاب والتألم هو المكروه المقصود أولاً بكل بغض وكل امتناع وكف، ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بمعنيين: بالدين الفاسد، والدنيا الفاجرة، طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده، ففاتهم النعيم من حيث طلبوه، وآثروه، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه.

وبيان ذلك: أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذوها دينًا: أو لا يتخذونها دينًا، والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق، وإما أن يكون دينًا باطلاً.

فنقول: النعيم التام: هو في الدين الحق علماً وعملاً، فأهله هم أصحاب النعيم الكامل. كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه في غير موضع، كقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ

(١) ١٧٦ إغاثة جـ ٢.

(١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ (١٤)﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] والقرآن مملوء من هذا.

فوعد أهل الهدىٰ والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة، ووعيد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الآخرة مما اتفقت عليه الرسل، من أولهم إلىٰ آخرهم، وتضمنته الكتب. ولكن نذكر ههنا نكتة نافعة.

وهي: أن الإنسان قد يسمع ويرىٰ ما يصيب كثيرًا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيرًا من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل.

وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين علىٰ المؤمنين، فإذا سمع في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك علىٰ أن حصوله في الدار الآخرة فقط، وقال: أما الدنيا فإنا نرىٰ الكفار والمنافقين يغلبون فيها، ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر، والقرآن لا يرد بخلاف الحس.

ويعتمد علىٰ هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوىٰ، فيرىٰ أن صاحب الباطل قد علا علىٰ صاحب الحق، فيقول: أنا علىٰ الحق، وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها للباطل.

فإذا ذُكِّر بما وعده الله تعالىٰ من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط، وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالىٰ هذا بأوليائه وأحبائه وأهل الحق؟

فإن كان ممن لا يعلل أفعال الله تعالىٰ بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وإن كان

ممن يعلل الأفعال، قال فعل بهم هذا ليعوضهم بالصبر عليه بثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات وأجوبة، بحسب حاصله وبضاعته، من المعرفة بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وحكمته، والجهل بذلك، فالقلوب تغلي بما فيها، كالقدر إذا استجمعت غلياناً...

[(١)]وقد جاء في السنة ما هو أخص من الحمد، وهو الثناء الذي هو تكرار المحامد، كما في قول النبي ﷺ لأهل قبا: «ما هذا الطهور الذي أثنىٰ الله عليكم به؟»[(٢)]، فإذا كان قد أثنىٰ عليهم والثناء حمد متكرر، فما يمنع حمده لمن شاء من عباده، ثم الصحيح في تسمية النبي ﷺ محمدًا أنه الذي يحمده الله وملائكته وعباده المؤمنون، وأما من قال: الذي يحمده أهل السماوات وأهل الأرض فلا ينافي حمد الله تعالىٰ، بل حمد أهل السماوات والأرض له بعد حمد الله له، فلما حمده الله حمده أهل السموات والأرض.

وبالجملة فإذا كان الحمد ثناء خاصًا علىٰ المحمود لم يمتنع أن يحمد الله من يشاء من خلقه كما يثني عليه، فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجردًا من حب وإرادة أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالىٰ باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد

---

(١) ٩٣ بدائع جـ ٢.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٢٥٨ رقم ٥٥٥) (١/ ٢٩٩ رقم ٦٧٢) وقال في الموضع الثاني: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٤٥ رقم ٨٣) والبيهقي في الصغرىٰ (رقم ٥٦) وفي الكبرىٰ (١/ ١٠٥ رقم ٥١٤) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٣١ رقم ٣٠٠٧) وفي الكبير (٨/ ١٢١ رقم ٧٥٥٥) (١١/ ٦٧ رقم ١١٠٦٥) ومسند الشاميين (١/ ٤١٥ رقم ٧٣٠) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢١٢): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن إلا أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد، ولما كان هذا المعنى مقارنًا للحمد لا تقوم حقيقته إلا به، فسره من فسره بالرضى والمحبة، وهو تفسير له بجزء مدلوله، بل هو رضاء ومحبة مقارنة للثناء؛ ولهذا السر ـ والله أعلم ـ جاء فعله على بناء الطبائع والغرائز، فقيل: حمد لتضمنه الحب الذي هو بالطبائع والسجايا أولى وأحق من فهم وحذر وسقم ونحوه بخلاف الإخبار المجرد عن ذلك وهو المدح؛ فإنه جاء على وزن فعل فقالوا: مدحه لتجرد معناه من معاني الغرائز والطبائع، فتأمل هذه النكتة البديعة وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله كيف تجده تحت هذه الألفاظ؟ ولذلك لا يقال: موضعها المدح لله، ولا ربنا لك الحمد، وسره ما ذكرت لك من الأخبار بمحاسن المحمود إخباراً مقترناً بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه، فإن قلت: فهذا ينقض قولكم: إنه لا يمتنع أن يحمد الله تعالى من شاء من خلقه؛ فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء، ولا يستحق التعظيم غيره، فكيف يعظم أحدًا من عباده؟ قلت: المحبة لا تنفك عن تعظيم وإجلال للمحبوب، ولكن يضاف إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذات، فمحبة العبد لربه تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبة الرسول تستلزم توقيره وتعزيره وإجلاله، وكذلك محبة الوالدين والعلماء وملوك العدل.

وأما محبة الرب عبده فإنها تستلزم إعزازه لعبده وإكرامه إياه والتنويه بذكره وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنى ثابت في محبته وحمده لعبده، سُمِّي تعظيمًا وإجلالاً أو لم يسم.

ألا ترى أن محبته سبحانه لرسله كيف اقتضت أن نوَّه بذكرهم في أهل السماء والأرض، ورفع ذكرهم على ذكر غيرهم، وغضب على من لم يحبهم ويوقرهم ويجلهم، وأحل به أنواع العقوبات في الدنيا والآخرة، وجعل كرامته في الدنيا والآخرة لمحبيهم وأنصارهم وأتباعهم؟

أولا ترىٰ كيف أمر عباده وأولياءه بالصلاة، التي هي تعظيم وثناء علىٰ خاتمهم وأفضلهم صلوات الله عليه وسلامه؟ أفليس هذا تعظيمًا لهم وإعزازًا وتكريمًا وإكرامًا؟ فإن قيل: فقد ظهر الفرق بين الحمد والمدح، واستبان صبح المعنىٰ، وأسفر وجهه، فما الفرق بينهما وبين الثناء والمجد؟

قيل: قد تعدينا طورنا فيما نحن بصدده، ولكن نذكر الفرق تكميلاً للفائدة، فنذكر تقسيمًا جامعاً لهذه المعاني الأربعة، أعني: الحمد، والمدح، والثناء، والمجد.

فنقول: الإخبار عن محاسن الغير له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به، واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر، واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم: إلىٰ الحمد، والمجد فإن المخبر به: إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور علىٰ معنىٰ الاتساع والكثرة، فمنه قولهم: (أمجد الدابة علفًا)[1] أي: أوسعها علفًا، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلىٰ الناس قال الشاعر:

أنت تكون ماجد نبيل ... إذا تهب شمأل بليل

ومنه قولهم في كل شجر نار: واستمجد المرخ[2] والعفار[3]. أي كثرت النار فيهما[4].

---

(١) هذا قول الأصمعي رحمه الله، انظر: لسان العرب (٣/ ٣٩٦).

(٢) المرخ: شجر سريع الوري أي الوقود.

(٣) والعفار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد.

(٤) انظر: القاموس المحيط (ص ٤٠٦) وغريب الحديث للخطابي (٢/ ١٤٧) ولسان العرب (٣/ ٥٤، ٣٩٦) (٤/ ٥٨٩) ومختار الصحاح (ص ٢٥٧) ومعجم البلدان (٤/ ١٣١) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٣).

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن؛ إما متكرر أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف، ورد الشيء بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم، فالمثني مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير؛ إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد، وإلا فهو المدح، فحصل هذه الأقسام وميزها.

ثم تأمل تنزيل قوله تعالى، فيما رواه عنه رسول الله ﷺ حين يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيقول الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: أثنى عليَّ عبدي. لأنه كرر حمده فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي[1] فإنه هو وصفه بالملك والعظمة والجلال.

فاحمد الله على ما ساقه إليك من هذه الأسرار والفوائد عفوًا، لم تسهر فيها عينك، ولم يسافر فيها فكرك عن وطنه، ولم تتجرد في تحصيلها عن مألوفاتك، بل هي عرائس معان، تجلى عليك وتزف إليك، فلك لذة التمتع بها، ومهرها على غيرك، لك غنمها، وعليه غرمها.

قاعدة شريفة عظيمة القدر[2]

حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنَّفسِ؛ بل وإلى الروح التي بين جنبيه.

اعلم أن كل حي سوى الله فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي من جنس النعيم، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب، فلابد من أمرين:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٩٥).

(٢) ٥٥ طريق الهجرتين.

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب، الذي ينتفع به، ويتلذذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع لحصول المكروه، والدافع له بعد وقوعه، فهاهنا أربعة أشياء: أمر محبوب مطلوب الوجود، والثاني: أمر مكروه مطلوب العدم، والثالث: الوسيلة إلىٰ حصول المحبوب. الرابع: الوسيلة إلىٰ دفع المكروه. فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حي سوىٰ الله، لا يقوم صلاحه إلا بها.

إذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد علىٰ حصول مطلوبه، فلا معبود سواه ولا معين علىٰ المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده، وهو المعين علىٰ دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنىٰ قول العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإن هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب علىٰ أكمل الوجوه.

والمستعان هو الذي يستعان به علىٰ حصول المطلوب ودفع المكروه، فالأول من مقتضىٰ ألوهيته، والثاني من مقتضىٰ ربوبيته، لأن الإله هو الذي يُؤله، فيُعبد محبةً وإنابةً وإجلالاً وإكرامًا، والرب هو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلىٰ جميع أحواله ومصالحه، التي بها كماله، ويهديه إلىٰ اجتناب المفاسد، التي بها فساده وهلاكه، وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها: قوله تعالىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ: ١٠].

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

السابع: قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ ﴾ [المزمل: ٨، ٩].

ومما يقرر هذا: أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به، ومحبتهم له، ومعرفتهم به، وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم إليه، بل أعظم في خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة، التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال، فمن أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئًا، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أفضل الحسنات[(١)]، وكان توحيد الإلهية الذي كلمته «لا إله إلا الله» رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به كل المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لابد منه، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه[(٢)].

(١) فعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! أوصني قال: «إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحها» قال: قلت: يا رسول الله أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات» أخرجه أحمد (٥/ ١٦٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨١): رواه أحمد ورجاله ثقات إلا شمر بن عطية حدَّث به عن أشياخه عن أبي ذر ولم يسم أحدًا منهم. وانظر: فيض القدير (١/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٢) فعن معاذ ﷺ قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: «يا معاذ هل تدري حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا» فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر =

وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه، وبه سروره ولذته ونعيمه، فهو أيضًا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذي يرضى به، ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة، بعد أن فقدها وأيس منها(١)، وهذا أعظم فرح يكون، وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له وإقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته والشوق إلى لقائه، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأحبه - وإن حصل له نوع من اللذة والمودة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده - ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي، الذي هو عذبٌ في مبدئه عذاب في نهايته، كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عِذابًا، فصارت في المشيب عَذابا

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوام السماوات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهًا حقًّا، إذ الإله الحق لا شريك له ولا سمِيَّ له، ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأليه الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

به الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا». أخرجه البخاري (رقم ٢٨٥٦) ومسلم (رقم ٣٠).

(١) عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت. فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٨) ومسلم (رقم ٢٧٤٤).

إذا عرف هذا: فاعلم أن حاجة العبد إلىٰ أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا: في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلىٰ روحه، والعين إلىٰ نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.

فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلىٰ نوع، ومن شخص إلىٰ شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولابد في وقت آخر.

وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤثر ذلك لما له في حكها من اللذة. وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله، هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة، لا تزيد لذته علىٰ لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين، ويؤثر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود: أن إله العبد الذي لابد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة، وأعظم من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] والله أعلم.

(١)أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها.

الثالث: أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها، تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

الرابع: أنها منعم عليها مرحومة، ومغضوب عليها، وضالة شقية، وهذا شأن المربوب المملوك لا شأن القديم غير المخلوق، ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة في هذه المطالب، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين، بالفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبياتها، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها، ولا يسد مسدها، ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها(٢).

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٣)اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن. فاشتملت على التعريفات بالمعبود ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن».

---

(١) ١٨١ كتاب الروح.

(٢) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب: «**أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟**» قال: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «**كيف تقرأ في الصلاة؟**» قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته**» أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤ رقم ١١١٤١).

(٣) ٧ مدارج السالكين جـ١.

وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مبني على الإلهية، و﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: كونه رب العالمين، فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن»، فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم «الرَّحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الخبء، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح، أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه[(١)]، وبهم اسْتُحق الثواب

(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين» أخرجه البخاري رقم (٧٤١٦) ومسلم (رقم ١٤٩٩).

والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته ـ وهي شكره وحبه وخشيته ـ فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل، ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرًا به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعلُ الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به راغباً فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام[١].

---

(١) تقدم هذا البحث نقلاً عن المفتاح ص (٢٦) بأوسع من هذا (ج).

وللهداية مرتبة أخرىٰ ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهداية يوم القيامة إلىٰ طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلىٰ صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ جنته ودار ثوابه.

وعلىٰ قدر ثبوت قدم العبد علىٰ هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قدمه علىٰ الصراط المنصوب علىٰ متن جهنم.

وعلىٰ قدر سيره علىٰ هذا الصراط؛ يكون سيره علىٰ ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعىٰ سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكدوس في النار[(١)].

فلينظر العبد سيره علىٰ ذلك الصراط من سيره علىٰ هذا، حَذْو القذة بالقذة، جزاءً وفاقًا[(٢)] ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره علىٰ هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا؟» وفيه: «ثم يؤتىٰ بالجسر، فيجعل بين ظهري جهنم» قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة، لها شوكة عقيفاء، تكون بنجد يقال لها: السعدان، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم، حتىٰ يمر آخرهم يسحب سحبًا» إلخ الحديث أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٩) ومسلم (رقم ١٨٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٥) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٧، ١٠٣) (٢/ ١٧٥، ٥٢٨) (٣/ ٤١٤، ٤٦١) والتخويف من النار (ص ١٣٢) وتحفة الأحوذي (٨/ ٢١٥) وفيض القدير (١/ ٣٦٦).

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم.

ولا تكون الطريق صراطًا حتىٰ تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلىٰ المقصود، والقرب وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفىٰ تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلىٰ المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلىٰ المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقًا.

والصراط تارة يضاف إلىٰ الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٥٢، ٥٣]. وتارة يضاف إلىٰ العباد، كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم، وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال، فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة، لأن العبد؛ إما أن يكون عالـمًا بالحق، أو جاهلاً به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفًا له، فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها البتة.

فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه، وهو الذي زكىٰ نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

والعالم به المتبع هواه: هو المغضوب عليه. والجاهل بالحق: هو الضال، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم

الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولىٰ بوصف الغضب وأحق به. ومن ههنا كان اليهود أحق بـه، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعـالىٰ في حقهـم: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال، ومن هنا وصفت النصارىٰ به في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧]. فالأولىٰ: في سياق الخطاب مع اليهود، والثانية: في سياقه مع النصارىٰ. وفي الترمذي وصحيح ابن حبان، من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارىٰ ضالون**»(١).

ففي ذكر المنعَم عليهم ـ وهم من عرف الحق واتبعه ـ والمغضوب عليهم ـ وهم من عرفه واتبع هواه ـ والضالين ـ وهم من جهله ـ: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة، لأن انقسام الناس إلىٰ ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة، وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه:

منها: أن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلىٰ نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقة

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٥٣، ٢٩٥٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٨ رقم ٢٣٦) والطيالسي (رقم ١٠٤٠) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح كما ذكر ذلك المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣١).

القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه، وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]. ومنه: قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]. وقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]. وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة؛ ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة: فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمه، وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟.

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر، والمؤمن والكافر. وأما الإحسان المطلق: فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة. وأما الغضب على أعدائه: فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أولياءه له: من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها؛ ما ليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: إن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه؛ ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس في حذفه.

فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه، كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أُكْرِم وخُلِعَ عليه وشُرِّفَ وأُعْطِيَ.

وتأمل سرًّا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدىٰ ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة، ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين، وذكر غضبه علىٰ المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين:

الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان.

والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلىٰ السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلالة، فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم، وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدىٰ والفلاح.

فالثاني كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]،

وقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. والأول كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القمر: ٤٧]، وقوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧].

وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] فهذا الهدىٰ والسعادة. ثم قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] فذكر الضلال والشقاء.

فالهدىٰ والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.

وذكر «الصراط المستقيم» مفردًا معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحد لفظ «الصراط» و«سبيله» وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «هذه سبل، على كل سبيل شيطان، يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١)، وهذا لأن الطريق الموصل إلىٰ الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق،

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٨ رقم ٣٢٤١) وصححه وابن حبان (١/ ١٨٠ رقم ٦، ٧) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٤١) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣٤٣ رقم ١١١٧٤) والدارمي (رقم ٢٠٢) وسعيد بن منصور في سننه (رقم ٩٣٥) وأحمد (١/ ٤٣٥) والبزار (٥/ ١١٣-١١٤ رقم ١٦٩٤) والمروزي في السنة (رقم ١١، ١٢).

ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١]. قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم. وهذا يحتمل أمرين:

أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي: صراط موصل إليّ.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه[1]، لا يعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن، وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية.

وقيل: «عليّ» فيه للوجوب، أي: عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه.

والقولان نظير القولين في آية النحل، وهي: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩]، والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله، ويوصل إليه، قال طُفيل الغنوي:

مَضَوا سَلفًا، قصد السبيل عليهم ... وصرفُ المنايا بالرجال تقلَّبُ[2]

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا، وقال الآخر:

فهن المنايا: أي واد سلكته ... عليها طريقي، أو عليَّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجر (ص ٩٠٢) والطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٧٩) وعمدة القاري (١٩/ ٦) والدر المنثور (٥/ ٧٩).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الطفيل الغنوي الشاعر الجاهلي الفحل، كان من الشجعان. وذكر البيت ابن منظور في لسان العرب وعزاه إلى طفيل الغنوي يرثي قومه (٩/ ١٥٩) وكذا ذكره أبو منصور الجواليقي في شرح أدب الكاتب (ص ٧٥).

«على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس: ٧٠]، وقال: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال لما أراد الوجوب: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٦]، وقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، ونظائر ذلك؟

قيل: في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرسوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٧٩]، والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضًا، وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق، وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته.

وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتي فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ١١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علوًّا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفلاً، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١] قول ثالث: وهو قول

الكسائي: إنه على التهديد والوعيد، نظير قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]، كما يقال: طريقك عليَّ، وممرك عليَّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز[١]، والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيبًا لإبليس الذي قال: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] فإنه لا سبيلَ لي إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله ﷻ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط عليَّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلى أهله. فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف؟

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝ ﴾ [الفجر: ١٤] فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً ودلالة، فتأمله. ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليَّ، لمن لا يسلكه، وليست سبيل المهدَّد مستقيمة، فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله، فلا يستقيم هذا القول البتة.

وأما من فسره بالوجوب، أي عليّ بيان استقامته والدلالة عليه، فالمعنى صحيح، لكن في كونه هو المراد بالآية نظر، لأنه حذف في غير موضع الدلالة، ولم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف، بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة، فإنه حذف مألوف معروف، حتى إنه لا يذكر البتة.

فإذا قلت: له درهم عليَّ، كان الحذف معروفًا مألوفًا، فلو أردت: عليَّ نقده، أو عليَّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت: لم يسغ، وهو نظير: عليَّ بيانه، المقدر في الآية،

(١) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٣٣).

مع أن الذي قال السلف أليق بالسياق، وأجلُّ المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ﷺ يقول: وهما نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝ ﴾ [الليل: ١٢، ١٣] قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ إلا معنى الوجوب. أي: علينا بيان الهدى من الضلال.

ومنهم من لم يذكر في سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوي، وذكر في «الحجر» الأقوال الثلاثة، وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث.

والصراط المستقيم: هو صراط الله، وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا. ويخبر سبحانه أنه على الصراط المستقيم، وهذا في موضعين من القرآن، في هود، والنحل. قال في هود: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]. وقال في النحل: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [النحل: ٧٦].

فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع، ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، فقوله صدق ورشد ونصح وهدى، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة.

هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره، ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية، ثم قال: وقال الكلبي: يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم، فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله، فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول، فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه، فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه، وعلى هذا يكون المثل مضروبًا لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لا يقدر على هدى ولا خير، ولإمام الأبرار، وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروبًا لمعبود الكفار ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان، فبعضهم ذكر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد من الآية.

قال: وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر، يرويه عطية، عن ابن عباس.

وقال عطاء: الأبكم أبي بن خلف. ومن يأمر بالعدل، حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله، ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله، وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود، فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع، وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل، وتكون الآية متناولة لذلك كله، ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا، وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم، فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام: ١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير، فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله البتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم، فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط

المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وفي أقواله[(١)].

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام: «**لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»[(٢)] ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يُتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك، فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدرًا، فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله، فطابق بين هذا المعنى وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦] أي هو ربي، فلا يُسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني، فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته، فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه، فهو المتصرف فيها، ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم عليَّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه، لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة. فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية، والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل، والله الموفق سبحانه[(٣)].

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد،

(١) لعله: من خرج عنه في أفعاله وفي أقواله (ج).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩، ٤٢٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩) والديباج على مسلم (٢/ ٣٨٠) وتحفة الأحوذي (٦/ ٤٣٦) (٩/ ٢٦٧) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٢٧).

(٣) سيأتي إن شاء الله البحث فيما ذكره في سورة هود والنحل والحجر اهـ (ج).

وعلىٰ الأنس بالرفيق، نبه الله سبحـانه علىٰ الرفيق في هـذه الطـريق، وأنـهم هم الـذين ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

فأضاف الصراط إلىٰ الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا.

كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين»(١).

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلىٰ الرفيق السابق، واحرص علىٰ اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم، فإنك متىٰ التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين، فليكونا منك علىٰ بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلىٰ الصلاة، لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقىٰ عليه كلامًا يؤذيه، فوقف ورد عليه، وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوىٰ منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلىٰ المسجد، حتىٰ فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوىٰ من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه، وربما فترت عزيمته، فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

---

(١) أخرجه البيهقي في كتاب الزهد الكبير عن الفضيل بن عياض (٢/ ١٣١ رقم ٢٤٠) بلفظ قريب.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «اللهم اهدني فيمن هديت»(١) أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيله أشرف المواهب: علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم، اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه، والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبد الله بن بُريدة، عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد» فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٢٥) والترمذي (رقم ٤٦٤) والنسائي (رقم ١٧٤٥) وابن ماجه (رقم ١١٧٨) وحسنه الترمذي.

إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطي»[١] قال الترمذي: حديث صحيح.

فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد». وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته». وفي رواية عنه: «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد»[٢]. وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده»[٣]. وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله».

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنَّان، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»، فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم»[٤] فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب، وهو الهداية ـ بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل، رواه البخاري

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٤ رقم ١٨٥٩) وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٤رقم ٨٩٢) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٧) والترمذي (رقم ٣٤٧٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧ رقم ٢٩٣٦٠) وأحمد (٥/ ٣٤٩، ٣٦٠) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٦٠٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ قبل حديث (رقم ٤٩٧٥)، وانظر: سلاح المؤمن في الدعاء (ص ٢٦٣) وفتح الباري (٨/ ٧٤٠) وعمدة القاري (٢٠/ ٩) وتحفة الأحوذي (٩/ ٣٤٢) وتغليق التعليق (٤/ ٣٨٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧ رقم ٢٩٣٦١) وابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة (١/ ٣١٤).

في صحيحه، من حديث ابن عباس: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»[1] فذكر التوسل إليه، بحمده والثناء عليه وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة.

فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة، وهذا الثاني أيضًا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه، وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٢٠) ومسلم (رقم ٧٦٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣٠) وعمدة القاري (٧/ ١٦٥) (٢٢/ ٢٨٧).

كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه.

ولهذا ذمَّ الله تعالىٰ آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر، وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون والجاهدون علوًّا كبيرًا.

فقال تعالىٰ حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجَّته لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]. فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر عليّ؟ لكن كان ـ مع شركه ـ أعرف بالله من الجهمية. وكذلك كفار قريش كانوا ـ مع شركهم ـ مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه علىٰ خلقه.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال علىٰ بطلان الإلهية بذلك، فإن قيل: فالله تعالىٰ لا يكلم عباده.

قيل: بلىٰ قد كلمهم، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسىٰ، ومنهم من كلمه الله علىٰ لسان رسوله الملكي، وهم الأنبياء.

وكلم الله سائر الناس علىٰ ألسنة رسله، فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه، وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم.

ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم؛ لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلىٰ عباده، فإذا انتفىٰ كلامه انتفت الرسالة.

وقال تعالى في سورة طه عن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨، ٨٩]، ورجع القول: هو التكلم والتكليم.

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

فجعل نفي صفة الكلام موجبًا لبطلان الإلهية، وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا، ولا ربًّا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا في الأولى، ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد.

ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدًا لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له، وإنما توحيده، إثبات صفة كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص، فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا، وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا، فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا يُنَفِّقونه به، وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه.

والناس أكثرهم مع ظاهر السِّكَّة، ليس لهم نقد النقاد ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت البتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له، فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه، لأن الموجود أكمل من المعدوم.

ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته. وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته. وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته. وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه. وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يُرى ولا يدرك، كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علمًا.

فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال، لأن العدم لا يرى، فليس في كون الشيء لا يرى كمال البتة، وإنما الكمال في كونه لا يُحاط به رؤية ولا إدراكًا، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له. وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده، فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات. وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام

والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم. واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها. قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٠].

ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن «القوي» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

وكذلك قوله: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠] فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًّا ولا عزيزًا. وكذلك قوله: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ١٤]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: **«إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط يرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[(١)] فأثبت المصدر الذي اشتقَّ منه اسمه «البصير». وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: **«الحمد لله الذي سمع سمعه الأصوات»**[(٢)] وفي الصحيح حديث الاستخارة **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»**[(٣)] فهو قادر بقدرة.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤، ٤٣١) وشرح النووي (٣/ ١٣) والديباج على مسلم (١/ ٢٢٥) وتحفة الأحوذي (٧/ ٢٢٦) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٨) وفيض القدير (٢/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (ص ١٤٠٨) والنسائي (رقم ٣٤٦٠) وابن ماجه (رقم ١٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٦٢).

وقال تعالى لموسى: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤] فهو متكلم بكلام. وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «**يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**»[١]. وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته انعقدت يمينه وكانت مكفرة، لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه. وأيضًا لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها. وأيضًا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان، وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به، فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة، وبُهتٌ بَيِّنٌ.

فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطي» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة، وقال ابن عباس ومجاهد: «عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان»[٢]. وروي عن ابن عباس: ﴿ يُلْحِدُونَ فِيٓ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٠) وانظر: عون المعبود (٣/ ٨٩) (١١/ ١٠١) وفيض القدير (٤/ ٤٨٤).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠).

أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: «يكذبون عليه»[1]، وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها، هذا حقيقة الإلحاد، ومن فعل ذلك فقد كذب على الله، ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها،وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم: «وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلاً، وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا» تعالى الله عما يقول الملحدون علوًّا كبيرًا.

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم.

فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. ويدل على الصفة الأخرى باللزوم، فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه. ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠).

من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها. وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر»، من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح، عن النبي ﷺ: «**وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء**»(١) بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكن المفوَّق أظهر من الفائق فيها،ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهرًا بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه، وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

إذا تقرر هذان الأصلان، فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧١٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٢٣) وشرح النووي (١٧/ ٣٦) والتمهيد (٢٤/ ٥١-٥٣) وعون المعبود (١٣/ ٢٦٧).

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: «الرحمن، والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهًا معبودًا، تأله الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات، كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله، وصفات الجلال والجمال، أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه، والرحيم: الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوب جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان، لمن ملئ بذلك، فبناء فَعْلان للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٥]، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء. وفي الصحيح، من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي**» وفي لفظ: «**فهو عنده على العرش**»[1].

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩]، ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر، والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة، ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي: «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع، ولها الفرق.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١٠٠) والديباج على مسلم (٦/ ٩٧) وتحفة الأحوذي (٩/ ٣٧٠) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٣١٨) وفيض القدير (٢/ ٢٥٩).

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. فالدين والشرع، والأمر والنهي ـ مظهره، وقيامه ـ من صفة الإلهية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار، من صفة الملك.

وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرىٰ.

وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه علىٰ عرشه برحمته بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] مطابق لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصىٰ شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين ما يدل علىٰ علوه علىٰ خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

فصل في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد علىٰ مضمونها ومقتضاها: ما يدل علىٰ أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في

ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧] فالغنى صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضًا، وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضًا، وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، واقتران العلم بالحلم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد علىٰ حلمك بعد علمك» واثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد علىٰ عفوك بعد قدرتك»(١) فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليمًا، ولا كل حليم عالم، فما قُرن شيء إلىٰ شيء أزين من حلم إلىٰ علم، ومن عفو إلىٰ قدرة، ومن ملك إلىٰ حمد، ومن عزة إلىٰ رحمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الشعراء: ٩].

ومن ههنا كان قول المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [المائدة: ١١٨]، أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة، وهي كمال القدرة، وعن حكمة، وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/ ٧) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٢٧ رقم ٣٦٤) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) وانظر: تفسير الصنعاني (٣/ ٣١٥) وتفسير السيوطي (٧/ ٢٧٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٧٢) (٣/ ٣١٧) (٤/ ٧٣) وعمدة القاري (١٢/ ٢٩١).

قادرًا حكيمًا عليمًا، بل لا يكون ذلك إلا عجزًا[1]] فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها.

فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت، فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، كان في هذا ـ من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ـ ما ينزه عنه منصب المسيح ﵇، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدًا، واتخذه إلهًا من دونه، فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل ﵇: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] ولم يقل: فإنك عزيز حكيم، لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[2]. وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كلَّ اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره، والله الموفق للصواب.

فصل في مراتب الهداية الخاصة والعامة، وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

(١) ما بين المربعين زدناه ليتصل الكلام، هذا كلام الطابع الأول (ج).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٧٧) ومسلم (رقم ١٧٩٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢١) (٧/ ٣٧٢-٣٧٣) (٨/ ٥٠٨) (١١/ ١٩٦) وشرح النووي (١٢/ ١٥٠) (١٦/ ١٥٢) وعمدة القاري (١٦/ ٦٠) (٢٣/ ١٩) وتحفة الأحوذي (٨/ ٤٠١).

فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية.

ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعًا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم، فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة، يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة، لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول، وفيه أعطي الألواح، وكان عن مواعدة من الله له، والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه، وناجاه، فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب، تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء، أو نجاء[1]، وقال له أبوه آدم في محاجته:

---

(١) ذكره الذهبي في السير عن الشعبي رحمه الله (٤/ ٣١٤) وابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٥٤) والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٦٤ رقم ١١٩٢) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٤٢) وابن الأثير في النهاية (٥/ ٢٥) وابن منظور في اللسان (١/ ٣٠) (١٥/ ٣٠٨).

«أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟»[(١)].

وكذلك يقول له أهل الموقف، إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه.

وكذلك في حديث الإسراء، في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية، قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله»[(٢)] ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى، ولا كان يسمى «كليم الرحمن».

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٥١]. ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١] فجعل الوحي في هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم، وجعله في آية النساء قسيمًا للتكليم، وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة[(٣)].

والوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله: وَحَى، وأوحى، قال رؤبة، (وحى لها القرار فاستقرت)[(٤)] وهو أقسام، كما سنذكره.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٠٩، ٧٥١٥) ومسلم (رقم ٢٦٥٢) وأبو داود (رقم ٤٧٠١) وابن ماجه (رقم ٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥١٧) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٨٢-٤٨٣) وعمدة القاري (٢٥/ ١٧٠-١٧٢).

(٣) سيأتي له بحث بأطول من هذا في سورة النساء إن شاء الله تعالى (ج).

(٤) انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٨٠-٣٨١) وعمدة القاري (١/ ١٤).

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري، فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه، فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلاً، يراه عيانًا ويخاطبه(١)، وقد يراه على صورته التي خلق عليها(٢)، وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه(٣)، أي يقلع، والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب ﷺ، كما قال النبي ﷺ: «إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب»(٤).

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلق وجودهم في هذه الأمة: بـ «إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدَّث ولا مُلْهَم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يومًا بارزًا للناس إذ آتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» ثم سأله عن الإسلام وعن الإحسان وعن الساعة وفي نهاية الحديث قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) ومسلم (رقم ٩).

(٢) فعن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قالت: ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسدَّ الأفق، أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣٥) ومسلم (رقم ١٧٧) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، قال: رأى جبريل في صورته، له ستمائة جناح، أخرجه مسلم (رقم ١٧٤).

(٣) فعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، ثم يفصم عني وقد وعيته، وأحيانًا ملك في مثل صورة الرجل فأعي ما يقول»، أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣٣)، وانظر: شرح النووي (١٥/ ٨٨).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٩٨) وانظر: قواعد التحديث (ص ١٧١) ومشارق الأنوار (ص ١٨٣).

لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول، فاستغنى به عما منه.

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، وإلا رده، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي»[(١)] فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسندًا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّه به يومًا من الدهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يومًا «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا، أُمْحُه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأً فمن عمر، والله ورسوله منه بريء»[(٢)] وقال في الكلالة: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان»[(٣)].

فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح، السماعي: مجاهر بالقِحَة والفرية، يقول: «حدثني قلبي عن ربي». فانظر إلى

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١/ ٢٢٢): وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي، وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، وقال رحمه الله في الفتح (١١/ ٣٤٥): وأما من بالغ منهم فقال: حدثني قلبي عن ربي، فإنه أشد خطأً، فإنه لا يأمن أن يكون قلبه إنما حدثه عن الشيطان.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠١٣٥) وصحح إسناده الحافظ ابن حجر رحمه الله في تلخيص الحبير (٤/ ١٩٥) وانظر: معتصر المختصر (٢/ ١٢) والإحكام للآمدي (٤/ ١٩٣-١٩٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٨٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٦١) وعون المعبود (٩/ ٣٧١).

ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين، وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئًا واحدًا.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. فذكر هذين النبيَّيْن الكريمين، وأثنىٰ عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال علي بن أبي طالب ـ وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟» ـ فقال: «لا، والذي فَلَق الحبة وبرأ النِّسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يُقْتَلَ مسلم بكافر»(١).

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أُدلي إليك»(٢) فالفهم نعمة من الله علىٰ عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتىٰ عُدَّ ألف بواحد، فانظر إلىٰ فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ وما خص ابن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤٧) ومسلم (رقم ١٣٧٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٦١)، وعمدة القاري (١٤/ ٣١، ٢٩٥) (٢٤/ ٦٦، ٧٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١١٥ رقم ٢٠١٣٤) (١٠/ ١٥٠ رقم ٢٠٣٢٤) والدارقطني (٤/ ٢٠٦ رقم ١٥، ١٦) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (رقم ١٣٢٥) وانظر: الاستذكار (٧/ ١٠٣) والحجة (٢/ ٥٧٠) وتاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ٧٠-٧١) والإحكام لابن حزم (٧/ ٤٤٢) وسبل السلام (٤/ ١١٩).

عباس من فهمه منها «أنها نَعْي الله سبحانه نبيه إلىٰ نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له علىٰ ذلك[1]، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًّا، وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتىٰ يصل إلىٰ مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلىٰ غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه، وأما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلىٰ غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام: وهو تبيين الحق وتميزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله علىٰ خلقه، التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدىٰ، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان. وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، فالأول: كفر عناد: والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم علىٰ ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٩٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٠).

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، فهذا هدى بعد البيان والدلالة، وهو شرط لا موجب، فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء، وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوَّه، وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل، وجُعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]. فالرسل تبين، والله هو الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البتة. قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧]. وقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦] فالبيان الأول شرط، وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣].

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ

ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب، وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ٢].

وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد: ١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم، فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه.

ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر، وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته. ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس:٧، ٨] وقال النبي ﷺ: «**قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**»[1]. وقد جعل صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدثين.

قال: وهو فوق مقام الفراسة، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، واستصعبت على صاحبها وقتًا، أو استعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٨٣) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٢٣ رقم ٢٣٥٥) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٨٠ رقم ١٩٨٥) وفي الكبير (١٨/ ١٧٤ رقم ٣٩٦) والبزار (٩/ ٥٣ رقم ٣٥٨٠) وانظر: الوابل الصيب (ص٢٣٣) وتحفة الأحوذي (٩/ ٣٢٠).

قلت: التحديث أخص من الإلهام، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه: «**إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر**» يعني من المحدثين، فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلىٰ غير الأنبياء. إما من المكلفين، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧]. وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ [المائدة: ١١١]. وإما من غير المكلفين، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨]، فهذا كله وحي إلهام.

وأما جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم، والنادر لا حكم له، وربما استعصت علىٰ صاحبها، واستصعبت عليه، فلم تطاوعه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور.

والتحقيق في هذا: أن كل واحد من «الفراسة» و«الإلهام» ينقسم إلىٰ عام وخاص، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر، وعام كل واحد قد يقع كثيرًا، وخاصه قد يقع نادرًا، ولكن الفرق الصحيح: أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل وأما الإلهام فموهبة مجردة، لا تنال بكسب البتة.

قال: وهو علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: نبأ يقع وحيًا قاطعاً مقرونًا بسماع، إذ مطلق النبأ الخبر الذي له شأن، فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم. ويريد بالوحي والإلهام: الإعلام الذي يقع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أما حصوله بواسطة سمع: فليس ذلك إلهامًا، بل هو من قبيل الخطاب، وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء، وهو الذي خُصَّ به موسىٰ، إذ كان المخاطب هو الحق ﷻ. وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع: فهو من أحد وجوه ثلاثة لا رابع لها.

أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابًا جزئيًّا، فإن هذا يقع لغير الأنبياء، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوىٰ تركت خطابه، فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي، وهو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه، وهو نادر بالنسبة إلىٰ عموم المؤمنين.

والثاني: خطاب يلقىٰ في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور: **«إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد»** ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] قيل: في تفسيرها: قووا قلوبهم، وبشروهم بالنصر.

وقيل: احضروا معهم القتال، والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم، ومن هذا الخطاب: واعظ الله ﷻ في قلوب عباده المؤمنين.

كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالىٰ ضرب مثلاً: صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو علىٰ رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتىٰ يكشف الستر، والداعي علىٰ رأس الصراط: كتاب الله، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن»**[1] فهذا الوعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة. وأما وقوعه بغير

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٥٩) وحسنه والحاكم (١/ ١٤٤ رقم ٢٤٥) وصححه وأحمد (٤/ ١٨٢) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٧٧ رقم ٢٠٢٤) وحسنه المنذري في الترغيب (٣/ ١٧١ رقم ٣٥٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٥ رقم ٧٢١٦) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٩) والمروزي في السنة (رقم ١٦).

واسطة، فمما لم يتبين بعد، والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل، والله أعلم.

النوع الثاني من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان، وقد يكون المخاطب جنيًّا مؤمنًا صالحاً، وقد يكون شيطانًا، وهذا أيضًا نوعان:

أحدهما: أن يخطابه خطاباً يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقي في قلبه عندما يلمُّ به، ومنه وعده وتمنيته حين يعدُ الإنسي ويمنيه،ويأمره وينهاه، كما قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وللقلب من هذا الخطاب نصيب، وللأذن أيضًا منه نصيب، والعصمة منتفية إلا عن الرسل ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني، أو ملكي؟ بأي برهان؟ أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه، ويلقي في السمع خطابه، فيقول المغرور المخدوع «قيل لي، وخوطبت» صدقت، لكن الشأن في القائل لك والمخاطِب، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ لغيلان بن سلمة ـ هو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه ـ: «إني لأظن الشيطان ـ فيما يسترق من السمع ـ سمع بموتك، فقذفه في نفسك»[(١)] فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟.

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة، وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٦٣ رقم ٤١٥٦) وفي موارد الظمآن (رقم ١٢٧٧) وعبد الرزاق (٧/ ٦٦ رقم ١٢٢١٦) وأبو يعلى (٩/ ٣٢٥ رقم ٥٤٣٧) وأحمد (٢/ ١٤) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٢٣٢ رقم ٣١٦٠)، قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٤/ ٢٣٤): والموقوف على عمر هو الذي حكم البخاري بصحته عن الزهري عن سالم عن أبيه، بخلاف أول القصة.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٨٩) ومسلم (رقم ٢٢٦٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٦٢-٣٧٤) وشرح النووي (١٥/ ٢٠-٢١) وعمدة القاري (٧/ ١٧٠) (٩/ ٢٠٢) (٢٤/ ١٣١-١٤١).

وقد قيل: في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة، ثم انتقل إلىٰ وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلىٰ أن توفي، صلوات الله وسلامه عليه، فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك، جزء من ستة وأربعين جزءًا، وهذا حسن، لولا ما جاء في الرواية الأخرىٰ الصحيحة: «إنها جزء من سبعين جزءًا»(١).

وقد قيل: في الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين، والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبي ﷺ، وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا. ونظير هذه الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم، وقد نص أحمد علىٰ هذا المعنىٰ.

وقال عبادة بن الصامت: «رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في المنام»(٢).

وقد قال النبي ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»، قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تُرىٰ له»(٣) وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٦٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٦٢) وشرح النووي (١٥/ ٢١) وعمدة القاري (٢٤/ ١٣١) والتمهيد (١/ ٢٨١-٢٨٢).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ (٨/ ٢٧٥ رقم ٣٣٧) والديلمي في الفردوس (٢/ ٢٧٢ رقم ٣٢٦٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٤): رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه. وانظر: فتح البخاري (١٢/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٩٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٧٥) وعمدة القاري (٢٤/ ١٣٤) والتمهيد (٥/ ٥٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٥١) وعون المعبود (١١/ ٣١٢) وفيض القدير (٣/ ٥٦٧) (٥/ ٢٩٣).

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «أرىٰ رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر، فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان»[(١)]. والرؤيا كالكشف، منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني.

وقال النبي ﷺ: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة، فيراه في المنام»[(٢)].

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة. ورؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل علىٰ ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا. وأما رؤيا غيرهم: فتعرض علىٰ الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متىٰ كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منهبة علىٰ اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا علىٰ ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة علىٰ الأمر والنهي، ولينم علىٰ طهارة كاملة مستقبل القبلة، يذكر الله حتىٰ تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب البتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرفة، وسكون الشياطين، وعكسه رؤيا العتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت ﷺ: «رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٥٨) ومسلم (رقم ١١٦٥) إلا أن عنده: «في السبع الأواخر» وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٠) وعمدة القاري (١١/ ١٣١) (٢٤/ ١٣٧) والتمهيد (٢١/ ٢١٥) (٢٢/ ٢٩٥) (٢٣/ ٣٨٢-٣٨٣) والمغني (٣/ ٦٠) وسبل السلام (٢/ ١٧٥) ونيل الأوطار (٤/ ٣٧١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٦٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٤٠٧) والتمهيد (١/ ٢٨٦-٢٨٧) وعون المعبود (١٣/ ٢٤٦).

المنام». وللرؤيا ملك مؤكل بها، يُريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك: «الرؤيا من الوحي وحي» وزَجَر عن تفسيرها بلا علم، وقال: «أتتلاعب بوحي الله».

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود، والله أعلم.

فصل في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان.

فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد. ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب. فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد.

وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد، وأوجبه عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا ومعرفة، وعملاً وحالاً، يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا.

وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم

والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم، وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح، والسعادة، وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء:

(١) عبودية الله لا غيره.

(٢) بأمره وشرعه.

(٣) لا بالهوى.

(٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم.

(٥) بالاستعانة على عبوديته به.

(٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر. ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد، وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه و﴿ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُستَشْفَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله[١] كلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًا، اختصها به، من معاني هذه السورة. وسنبين ـ إن شاء الله تعالى ـ تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان، فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

(١) كذا في الأصل، والظاهر أن الواو زائدة (ج).

فأما ما دلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من العرب، فلم يقروهم، ولم يضيفوهم، فلُدغ سيد الحي، فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رُقية، أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قلبة، فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك، فقال: **«ما يدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم»**(١) فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء. هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً.

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم، وهي ذوات الأنفس الخبيثة، التي تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سمية نارية، يحصل بها اللدغ، وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها، فإذا تكيفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية، تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه.

وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذي فيه أحدًا من بني جنسه، ويجد في نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه، حتى يفرغه في غيره، فيبرد عند ذلك أنينه، وتسكن نفسه، ويصيبه في ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع، فيسوء خلقه وتثقل نفسه حتى يقضي وطره، هذا في قوة الشهوة، وذاك في قوة الغضب.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٤٩) ومسلم (رقم ٢٢٠١) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٥٧) وشرح النووي (١٤/ ١٨٨) وعمدة القاري (١٢/ ٩٨-١٠٠) والتمهيد (٢١/ ١١٣) وتحفة الأحوذي (٦/ ١٩٠-١٩٣).

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس الغضبية[1]، فلولا هو لفسدت الأرض وخربت ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وأباح الله - بلطفه ورحمته - لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها.

والمقصود أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها ما يطمس البصر، ويسقط الحبل[2]. ومن هذا نظر العائن، فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده، وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس.

وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له، فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به، ومنكر هذا ليس معدودًا من بني آدم إلا بالصورة والشكل.

فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نماه وزاده، دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء.

فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده، وحفظ الشيء بمثله، فالصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقًا وأمرًا،

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٣/ ٦٠): وفي الحديث: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

(٢) فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «اقتلوا ذا الطفيتين، فإنه يلتمس البصر ويصيب الحبل» وأخرجه البخاري (رقم ٣٣٠٨) ومسلم (رقم ٢٢٣٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٨).

ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة، وقبول من الطبيعة المنفعلة، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير، لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن الله ﷻ.

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقي، وميز بين النافع منها وغيره، ورقى الداء بما يناسبه من الرقى، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع، وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله، والله أعلم.

وأما شهادة التجارب بذلك، فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كل زمان، وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبة، ولاسيما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط، جربت ذلك مراراً عديدة، وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربُهُ فأجدُ بِهِ من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوة الإيمان، وصحة اليقين، والله المستعان.

فصل في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علمًا وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى، وكل ذلك مسلَّم إلى

رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل أو حقيقة، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة، فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط الغضب والضلال، فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث:

طريق الرسول ﷺ وما جاء به.

وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده.

وطريق أهل الضلال: وهي طريق من أضله الله عنه.

ولهذا قال عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله ﷺ: «الصراط المستقيم: هو الإسلام»[١]. وقال عبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «هو القرآن»[٢]. وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبد الله: «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبد الله المزني: «طريق رسول الله ﷺ».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملاً وهومعرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره، فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له. فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل، وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٧٥) والحاكم (٢/ ٢٨٤ رقم ٣٠٢٤) (٢/ ٤٨٤ رقم ٣٦٦٨) وصححه في الموضعين والمروزي في السنة (رقم ٢٥) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٢٥ رقم ٦٣٢٧) (٤/ ١٢٨٧ رقم ٧٢٦٥) والحاكم (٢/ ٢٨٤ رقم ٣٠٢٣) والمروزي (رقم ٢٤).

(٣) تفصيل الرد على المبطلين، وهم أنواع كثيرة من ملاحدة وجبرية وجهمية وغيرهم تركناه اختصاراً ما عدا الرافضة، وهو موجود في الأصل من المدارج الجزء الأول لمن أراده (ج).

(١)فصل في بيان تضمنها للرد على الرافضة وذلك من قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخرها. ووجه تضمنه إبطال قولهم: إنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

«منعم عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه.

و«مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه.

و«ضالون» وهم الذين جهلوه فأخطؤوه.

فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له: كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم: هم أولى بهذه الصفة من الروافض، فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ ـ ورضي الله عنهم ـ جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما، فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام، وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى، فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم.

ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان، فإنه قطُّ ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام، وكم جَرُّوا على الإسلام وأهله من بليَّة!! وهل عاثت سيوف المشركين عُبَّاد الأصنام ـ من عسكر هولاكو وذويه من التتار ـ إلا من تحت رءوسهم؟ وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم، إلا بسببهم ومن جَرّائهم؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم في الدين معلومة، فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال، إن كنتم تعلمون.

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله: بأبي بكر وعمر، وأصحاب رسول

---

(١) ٧٢ مدارج جـ١.

الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وهو كما فسروه، فإنه صراطهم الذي كانوا عليه، وهو عين صراط نبيهم، وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال.

وقال أبو العالية ـ رفيع الرياحي ـ والحسن البصري، وهما من أجل التابعين: «الصراط المستقيم: رسول الله ﷺ وصاحباه»[(١)].

وقال أبو العالية أيضًا في قوله ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾: «هم آل رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر»، وهذا حق، فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة، ولا خلاف بينهم، وموالاة بعضهم بعضًا، وثناؤهم عليهما، ومحاربة من حاربا، ومسالمة من سالما: معلومة عند الأمة، خاصها وعامها.

وقال زيد بن أسلم: «الذين أنعم الله عليهم: هم رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر» ولا ريب أن المنعم عليهم: هم أتباعه، والمغضوب عليهم: هم الخارجون عن اتباعه، وأتبع الأمة له وأطوعهم: أصحابه وأهل بيته، و أتبع الصحابة له: السمع والبصر، أبو بكر وعمر، وأشد الأمة مخالفة له: هم الرافضة، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة، ولهذا يبغضون السنة وأهلها، ويعادونها ويعادون أهلها، فهم أعداء سنته ﷺ، وأهل بيته وأتباعه من بنيهم أكمل ميراثًا، بل هم ورثته حقًّا. فقد تبين أن الصراط المستقيم، طريق أصحابه وأتباعه، وطريق أهل الغضب والضلال: طريق الرافضة. وبهذه الطريق ـ بعينها ـ يرد على الخوارج، فإن معاداتهم الصحابة معروفة.

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٧٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٢١ رقم ٣٩٠٥) (٣/ ٩٩٧ رقم ٥٥٧٣) والمروزي في السنة (رقم ٢٧) والحاكم (٢/ ٢٨٤ رقم ٣٠٢٥) وصححه. وابن عدي في الكامل (٣/ ١٦٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٨/ ١٧٠). وانظر: الدر المنثور (١/ ٤٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٩).

كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى وهو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ونصفهما لعبده وهو: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابدًا له، ومن خضت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًّا خاضعًا[١].

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم، بل هو غاية مطلوبهم ـ ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم ـ: منكرين لكونه إلهاً، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم، فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ...﴾ إلى قوله: ﴿... سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و«الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦) وعمدة القاري (١/ ٢٨٥) وفيض القدير (١/ ٥٠) (٦/ ٧٣) ومختار الصحاح (ص ١٧٢).

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وهذان الأصلان ـ وهما التوكل، والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

والثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

والخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها. ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله». و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة. ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به. و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على

شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس، ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقِّهَا أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا، حتى يقضي العبد نحبه.

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ له، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ به، وما له مقدم على ما به. ولأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته، طاعاتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فبهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصْر فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا، وسيبويه نص على الأهم، ولم ينف

غيره. ولأنه يقبح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضًا أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّـٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]، و﴿ وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

ولا عبرة بجدل من قلَّ فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك، فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إِيَّاكَ» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي: إياك قصدت، وأحببت: من الدلالة على معنى: حقيقتك وذاتك قصدي، ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك، وإياك أعني، فيه معنى: نفسك وذاتك وحقيقتك أعني.

ومن ههنا قال من قال من النحاة: إن «إيَّا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل، ولم يردَّ عليه بردٌّ شاف.

ولولا أنَّا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح، ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت للملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف. إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعنيهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب

تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ، لِحِبِّه معاذ بن جبل ﷺ، فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دُبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)].

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته: كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولابد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٥٢٢) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والبيهقي في الصغرى (رقم ١٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٦) (٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) في الصغرى (رقم ١٣٠٣) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وعبد بن حميد (١/ ٧١ رقم ١٢٠) وصححه الحاكم، وقال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٢٣٥): قال النووي في الخلاصة: إسناده صحيح.

له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا، لا بخلاً. وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه. فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيره، وعلامة هذا حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا[(١)]

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليَّ؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم نجد من سؤاله بُدًّا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله وهو من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، ولد بالبصرة وعاش فقيرًا صابرًا مغمورًا لا يعرف، ثم ذاع صيته باختراعه علم العروض، له كتاب العين في اللغة ومات سنة ١٧٠هـ في البصرة.
ذكر البيت ابن عبد ربه في العقد الفريد (١/ ١٠٣) والثعالبي في المنتحل (ص ٢٧٢) وابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٦٧٤) وابن قتيبة في عيون الأخبار (١/ ٨٦).

أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧]. أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء **نوعان**:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره من إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكنَّ أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر، فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه، فهم موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض**

تكذيبه توحيده»[١].

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد: ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير لها، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مليٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكل، و من كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولابد. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٢٤) وابن المستفاض في القدر (رقم ٢٠٥) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥) وذكره الذهبي في السير (٥/ ٣٤٣) من قول ابن شهاب. وعزاه السيوطي في الدر (٢/ ٢٣) إلى ابن المنذر عن ابن عباس.

عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، أي كافيه. و«الحسب» الكافي، فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوىٰ كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوىٰ فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به علىٰ حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقضيت له، وأسعف بها، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك علىٰ محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا، فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه علىٰ طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال علىٰ صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققًا بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ. والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾. والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلىٰ أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، هم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم، بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً.

فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه.

فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم. وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجلـه. قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك:٢]، وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه»، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا: لم يقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة(١). وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]. وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه ـ أحوج ما هو إليه ـ هباء منثورًا. وفي الصحيح: من حديث عائشة عن النبي ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢). وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا، فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٨/ ٩٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٩٧) ومسلم (رقم ١٧١٨).

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة، فليس عمله موافقًا لشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرع الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله ﷻ، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف ـ من المتسببين إلى العلم والفقر والعبادة ـ عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل ريا وحميَّة وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة، فلا تقبل ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]. فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. ثم أهل مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد. قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثًا لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمزها»[1] أي أصعبها وأشقها، وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس. قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، وإطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها، ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها. وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء: قسمان، فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فرَّقهم وأذهب جمعيتهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية

---

(١) قال إبراهيم بن محمد الحسيني في البيان والتعريف (١/ ١٢١ رقم ٣١٠): أخرجه بمعناه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ولفظه: «إنما أجرك على قدر نصبك». وهو في نهاية ابن الأثير بهذا اللفظ منسوب إلى ابن عباس رضي الله عنهما عنه بلفظ: سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: أحمزها، وهو بالمهملة والزاي: أي: أقواها وأشدها. وأنكر إسناده أبو الحجاج المزي، وقال المزي: هو من غرائب الأحاديث، ولم يرد في شيء من الكتب الستة.

وذكره الهروي في المصنوع (ص ٣٣) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٧٥رقم ٤٥٩) وابن الأثير في النهاية (١/ ٤٤٠) وانظر: غريب الحديث لابن سلام (٤/ ٢٣٣) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٢٧٠) وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٢٤٢) ولسان العرب (٥/ ٣٣٩) ومختار الصحاح (ص ٦٥) وعمدة القاري (٥/ ١٦٩) (٢٢/ ٢٩٣) وعون المعبود (١٤/ ١١٦).

القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً   فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك،وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب، ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»[1]. رأوه أبو يعلى، واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفاع متعد إلى الغير وأين أحدهما من الآخر؟ قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمْر النعم»[2] وهذا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٦ رقم ٥٥٤١) وفي الكبير (١٠/ ٨٦ رقم ١٠٠٣٣) وأبو يعلى (٦/ ٦٥ رقم ٣٣١٥) (٦/ ١٠٦ رقم ٣٣٧٠) (٦/ ١٩٤ رقم ٣٤٧٨) والشاشي في مسنده (١/ ٤١٩ رقم ٤٣٥) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥٥ رقم ١٣٠٥، ١٣٠٦) قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٥/ ٧٠٠ رقم ٩٧٧): تفرد به يوسف وهو ضعيف جدًا. وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩١): رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك، وقال أيضًا: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمير وهو أبو هارون القرشي متروك.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢، ٣٠٠٩) ومسلم (رقم ٢٤٠٦) وانظر: شرح النووي (١٥/ ١٧٨) وعمدة القاري (١٤/ ٢١٣-٢١٤) والتمهيد (٢/ ٢١٨).

التفضيل إنما للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله ﷺ: «من دعا إلىٰ هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[١]. واحتجوا بقوله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون علىٰ معلمي الناس الخير»[٢]. وبقوله ﷺ: «إن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتىٰ الحيتان في البحر، والنملة في جحرها»[٣]. واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه[٤]. واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلىٰ الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ علىٰ أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس[٥]، ورأىٰ هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٢٧) (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦-٢٢٧) وعمدة القاري (٢٥/ ٥٣) والتمهيد (٢٤/ ٣٢٦) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٦٤) وتنوير الحوالك (١/ ١٧٠) وشرح الزرقاني (٢/ ٦٢) وعون المعبود (١٢/ ٢٣٦) وفيض القدير (٦/ ١٢٥-١٢٧).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٣/ ١١٦) وتمام في فوائده (٢/ ٩٨ رقم ١٢٤٣) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٤): رواه الطبراني في الكبير وفيه القاسم أبو عبد الرحمن وثقه البخاري وضعفه أحمد.

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٧٦) وابن ماجه (رقم ٢٣٩) والترمذي (رقم ٢٦٨٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٤ رقم ٧٩١٢) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٥٦ رقم ١٣٠): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ونقل النووي في رياض الصالحين (ص ٣١٤) تحسين الترمذي.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٣٧) (١١/ ٥٨٤) (١٢/ ٤١١) وشرح النووي (١/ ٩٠) (١١/ ٨٥).

(٥) فعن أنسٍ ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلىٰ بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٣) ومسلم (رقم ١٤٠١).

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آلى إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل، والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن[(١)].

الأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك[(٢)].

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك[(٣)].

---

(١) فعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة» أخرجه البخاري (رقم ٦١٤).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...» الحديث أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

(٣) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة، أخرجه أبو داود (رقم ٢٤٤٠) وابن ماجه (رقم ١٧٣٢)، والحاكم (١/ ٦٠٠ رقم ١٥٨٧) وصححه وابن خزيمة (٣/ ٢٩٢ رقم ٢١٠١).

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين[١].

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم[٢]، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه[٣]، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه[٤].

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء» أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٠ رقم ٣٢٤) وابن خزيمة (٤/ ٢٧٣ رقم ٢٨٦٥) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٨٤ رقم ٨١٧٥) والدارمي (رقم ١٧٧٣).

(٢) فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٥) ومسلم (رقم ١١٧١).

(٣) فعن البراء بن عازب ﷺ قال: «أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع. أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس...» الحديث أخرجه البخاري (رقم ١٢٣٩) ومسلم (رقم ٢٠٦٦).

(٤) فعن شيخ من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٠٧) وابن ماجه (رقم ٤٠٣٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٨٩ رقم ١٩٩٦٢) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٠٩-١١٠ رقم ٥٩٥٣) وابن الجعد في مسنده (رقم ٧٤٥) وأحمد (٢/ ٤٣) (٥/ ٣٦٥) والطيالسي (رقم ١٨٧٦) والبخاري في =

والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره.

فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد، رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم. وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث

= الأدب المفرد (رقم ٣٨٨) وهناد في الزهد (٢/ ٥٨٨ رقم ١٢٤٦) وابن أبي الدنيا في مداراة الناس (رقم ١) وحسن إسناد ابن ماجه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٥١٢).

انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أني توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل مُحقٍّ، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها(١)، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهًا له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان.

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

كما قالوا في الخلق: إنه لم يخلق ما خلقه لعلة، ولا لغاية هي المقصودة به، ولا

---

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي إنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة» أخرجه البخاري (رقم ٦١) ومسلم (رقم ٢٨١١).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٤٥-١٤٦): وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعًا، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها، حتى النوى في علف الدواب، والليف في الحبال، وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال، ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته.

لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها، ولا فيها قُوىٰ ولا طبائع، فليست النار سببًا للإحراق، ولا الماء سببًا للإرواء والتبريد، وإخراج النبات، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك، وحصول الإحراق والري ليس بهما، لكن بإجراء العادة الاقترانية علىٰ حصول هذا عند هذا، لا بسبب ولا بقوة قامت به. وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء، لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه، ولا المنهي عنه صفة اقتضت قبحه.

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة، وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمىٰ «مفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة»[1] وبينا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهاً وهو كتاب بديع في معناه، وذكرناه أيضًا في كتابنا المسمىٰ «سفر الهجرتين، وطريق السعادتين»[2].

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها، وليست الصلاة قرة أعينهم، وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم، ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد كلفوا بها، ولو سمىٰ مُدَّعٍ لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا، وقال: إني إنما أفعله بكلفة: لم يعده أحد محبًّا له. ولهذا أنكر هؤلاء ـ أو كثير منهم ـ محبة العبد لربه، وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به، لا أنه يحب ذاته، فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه.

وحقيقة العبودية هي كمال المحبة، فأنكروا حقيقة العبودية ولبُّها. وحقيقة الإلهية: كونه مألوهًا محبوبًا بغاية الحب المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال

---

(١) هكذا سماه المصنف رحمه الله هنا بهذا الاسم، بينما اسم الكتاب المطبوع المتداول: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة».

(٢) اسم الكتاب المطبوع المتداول بين الناس: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» هكذا نص علىٰ اسمه في مقدمة الكتاب.

والتعظيم، فأنكروا كونه محبوبًا، وذلك إنكار لإلهيته.

وشيخ هؤلاء: هو الجعد بن درهم الذي ضحَّىٰ به خالد بن عبد الله القسري في يوم أضحىٰ، وقال: «إنه زعم أن الله لم يكلم موسىٰ تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً»[(١)].

وإنما كان إنكاره، لكونه تعالىٰ محبوبًا محبًّا، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التي هي الخلة عند الجهمية، التي يشترك فيها جميع الخلائق، فكلهم أخلاء لله عندهم.

وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهًا في كتابنا «قرة عيون المحبين، وروضة قلوب العارفين»[(٢)] وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك البتة، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة، ولا لعينه إلا بالنور الباصر، ولا لأذنه إلا بالسمع، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم.

الصنف الثاني: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل، ولكن لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه، بل يرجع إلىٰ مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته. فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير. قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالىٰ عوضًا كقوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]. وقوله ﷺ ـ فيما يحكي عن ربه ﷻ ـ: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها»[(٣)]

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ٢٠٥ رقم ٢٠٦٧٦) وأبو بكر النجاد في الرد علىٰ من يقول القرآن مخلوق (رقم ٧٢) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٦٤ رقم ١٤٣) والذهبي في السير (٥/ ٤٣٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٧١) (١٣/ ٣٤٥) ولسان الميزان (٢/ ١٠٥ رقم ٤٢٧) وميزان الاعتدال (٢/ ١٢٥ رقم ١٤٨٤) وتهذيب الكمال (٨/ ١١٨) وتاريخ مدينة دمشق (٥٢/ ٢٥٥).

(٢) اسم الكتاب المطبوع المتداول بين الناس: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرًا وثوابًا، لأنه يثوب إلى العامل من عمل، أي يرجع إليه منه. قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثواباً معنى. قالوا: ويدل عليه الوزن، فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى. وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البتة، وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته، وكلاهما بالنسبة إليه سواء، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات، والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله: ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، حتى قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب.

وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، مقتضية لهما كاقتضاء سائر

الأسباب لمسبباتها. وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنه، وصدقته على عبده، أن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحبَّبها إليه، وزينها في قلبه، وكرَّه إليه أضدادها، ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نُصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه ـ أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها، فلذلك لو عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ[(١)].

ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: «**لن يدخل أحدًا منكم الجنة عمله**». وفي لفظ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**». وفي لفظ: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[(٢)].

وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]. ولا تنافي بينهما إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا، وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة[(٣)]. ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سماواته وأرضه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (رقم ٧٧) وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٥-٥٠٦ رقم ٧٢٧) وفي الموارد (رقم ١٨١٧) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٤ رقم ٢٠٦٦٣) والطبراني في الكبير (٥/ ١٦٠ رقم ٤٩٤٠) (١٠/ ٢٣٢ رقم ١٠٥٦٤) (١٨/ ٢٢٣ رقم ٥٥٦) وأحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٨-١٩٩)؛ رواه الطبراني بإسنادين ورجال هذه الطريق ثقات. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٩).

(٣) فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**» أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٩١) وابن ماجه (رقم ٩٢) والبيهقي في الكبرى =

في منته، وأن من تمام الفرح والسرور، والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة، وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقراراً بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها، فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٧].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصًا لأنه نظيره، فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه نفسه دونه. هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله ﷺ المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أمن»[(١)] ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، وكذلك السيد على عبده. فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم، بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم، وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. فهذه باء السببية، ردًّا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له، وإنما غايتها أن تكون أمارات. قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر، فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

=

(١٠/ ٢٠٣ رقم ٢٠٦٥٨) والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٥ رقم ٢٤٩٤) وفي الصغير (رقم ٦١٥، ٨٠٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٥): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الغروي وهو ثقة، وانظر: عون المعبود (١٢/ ٢٩٥) وفيض القدير (١/ ٤٢١) (٢/ ٥٢٠) (٤/ ٥٣٤).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ٣٠٧).

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك، وأدلة المعقول والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين، وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط، المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدراً، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعًا من الحق، وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعاً. وهدىٰ الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه: ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، و﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤].

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوىٰ النفوس السبعية والبهيمية، فلو عطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم، والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها إلىٰ مشابهة العقول المجردة، فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها، وهذا يقوله طائفتان.

إحداهما: من يقرب إلىٰ النبوات والشرائع من الفلاسفة، القائلين بقدم العالم، وعدم انشقاق الأفلاك، وعدم الفاعل المختار.

الطائفة الثانية: من تفلسفت من صوفية الإسلام، وتقرب إلىٰ الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها، ومفارقتها العالم الحسي، ونزول الواردات والمعارف عليها.

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنىٰ، فإذا حصل لها بقي مخيرًا في حفظه أو رده، أو الاشتغال بالوارد عنها. ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف، وعدم الإخلال بها، وهم صنفان أيضًا.

أحدهما: من يوجبونه حفظًا للقانون وضبطًا للنفوس.

والآخرون: الذين يوجبونه حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرج النفس ـ بمفارقتها له ـ إلى حالتها الأولى من البهيمة. فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك، وغاية معرفتهم بحِكَمِ العبادة وما شرعت لأجله، ولا تكاد تجد في كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة، على سبيل الجمع، أو على سبيل البدل.

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمة، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها. فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشبه الباطلة، والقواعد الفاسدة، ما عندهم وراء ذلك شيء، قد فرحوا بما عندهم من المحال، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم، لما ارتضوا بدونه، ولكن عقولهم قصرت عنه، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا في طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه، وهذه بلية الطوائف، والمعافى من عافاه الله.

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب ﷻ، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهًا، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود. فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟

وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلىٰ مالا يليق به، ويتعالىٰ عنه مَنْ خلق السماوات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً، ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سُدَىٰ مهملاً. قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم.

وقد صرح تعالىٰ بهذا في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال الله تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦] أي مهملاً.

قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنْهىٰ[1]، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب.

والصحيح: الأمران، فإن الثواب والعقاب مترتبان علىٰ الأمر والنهي، والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما. وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقال: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه فإذا كانت السماوات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف

(١) أخرجه الطبري من قول مجاهد في تفسيره (٢٩/ ٢٠١) وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٣) من قول مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وانظر: أحكام القرآن للشافعي (١/ ٣٦) (٢/ ١٢٣) وسنن البيهقي الكبرىٰ (١٠/ ١١٣).

يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته. فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها. فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله. ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما، فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله. ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله: فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه.

وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله.. فذلك المقدّم عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه، أو طاعته أو مرضاته، ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول. فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك. وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور، ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به، فهذا الذي يخاف عليه، وهو داخل تحت الوعيد، فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه، فهو من الظلمة المعتدين، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

وبنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع: فأصحاب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعادة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك[(١)].

فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وهذا يبين أن

(١) انظر: عمدة القاري (١/ ١٨٦) وفيض القدير (٦/ ٢٩١) ونيل الأوطار (١/ ١٦٢).

الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنبياء: ١٩] ههنا. ثم يبتدئ: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي إن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا. ثم استأنف جملة أخرىٰ فقال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيىٰ ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم.

فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلىٰ آخر السورة، وقال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٦]. وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ [ص: ١٧]. وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ [ص: ٤١]. وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص: ٤٥]. وقال عن سليمان: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]. وقال عن المسيح: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارىٰ، ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الكهف: ١] فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله. وقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩]، فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**(١).

وفي الحديث: **«أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»**(٢).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر»(٣).

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وجعل الأمن المطلق لهم فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل ـ وقد سأله عن الإحسان ـ: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٩٠) وعمدة القاري (١٦/ ٣٧) وفيض القدير (٣/ ١٢٩).

(٢) أخرج البيهقي في الكبرى الجزء الأول منه (٧/ ٢٨٣ رقم ١٤٤٢٨) وأخرجه كاملًا أبو يعلى في مسنده (٨/ ٣١٨ رقم ٤٩٢٠) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤١٥ رقم ١٩٥٤٣) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٧ رقم ٥٩٧٥) وحسن إسناد أبي يعلى الحافظ الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩) وحسن إسناده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٧ رقم ١٥). وانظر: فيض القدير (١/ ٥٥) (٢/ ٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٨) وانظر: عمدة القاري (١١/ ٢٤٢) (١٩/ ١٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٩، ١٠) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٧١، ٤٨٠) (١٣/ ٤٢٥) وشرح النووي (١/ ١٥٧) وعمدة القاري (١/ ١٢٩، ٢٨٣-٢٨٦) (١٩/ ١١٢).

فصل في لزوم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال أهل النار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧] واليقين هٰهنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون ﷺ ـ: أن النبي ﷺ قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»(١)، أي الموت وما فيه، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف. بل عليه في البرزخ عبودية أخرىٰ لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ. ويلتمسان منه الجواب(٢). وعليه عبودية أخرىٰ يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلىٰ السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقىٰ الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٤٣، ٧٠٠٣).

(٢) فعن البراء بن عازب ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلىٰ القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن علىٰ رؤوسنا الطير... وفيه: «...فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان يجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله...» الحديث أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٥٣) والنسائي (رقم ٢٠٥٠، ٢٠٥١) وأحمد (٣/ ٢٣٣) (٤/ ٢٨٧) والطيالسي (رقم ٧٥٣) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٥٥ رقم ٣٩٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩).

قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٥-١٩٧ رقم ٥٣٩٦): قال الحافظ: هذا الحديث حديث حسن رواته محتج بهم في الصحيح، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٤).

(٣) فعن أبي سعيد ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقىٰ كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا» أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٩) ومسلم (رقم ١٨٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥١) وعمدة القاري (١٩/ ٢٥٧) (٢٥/ ١٢٨).

فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ - بل على جميع الرسل - أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

فصل في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة، فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم. وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان: ١٧] فسماهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيدة بالإشارة. وأما المطلقة: فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله -. وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزخرف:٦٨]، وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليس: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، فقال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته، هم عبيد إلهيته. ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء. وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

إمَّا منكَّرًا، كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: سمَّاهم عباده إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلىٰ خاصة وعامة، لأن أصل معنىٰ اللفظة: الذل والخضوع، إنما يقال «طريق معبَّد» إذا كان مُذللاً بوطء الأقدام(١)، و«فلان عبَّده الحب» إذا ذلله، لكنْ أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختياراً، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظير انقسام العبودية إلىٰ خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلىٰ خاص وعام، و«السجود» كذلك. قال تعالىٰ في القنوت الخاص: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] وقال في حق مريم: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢] وهو كثير في القرآن. وقال في القنوت العام: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦] أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وقال: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم: ٥٨] وهو كثير في القرآن. وقال في السجود العام: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾ [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨] فخص بالسجود هنا كثيرًا من الناس، وعمَّهم بالسجود في سورة النحل: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل: ٤٩]، وهو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالىٰ.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦) وعمدة القاري (١/ ٢٨٥) وفيض القدير (١/ ٥٠) (٦/ ٧٣) ومختار الصحاح (ص ١٧٢).

فصل في مراتب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ علماً وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل، فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله، والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان، إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله. وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبه لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين، فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية. وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح[1].

---

(١) بقية البحث في الأصل بتفصيل في الجزء الأول من مدارج السالكين ص ١٠٩ لمن أراده (ج).

[1]قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فيها عشرون مسألة.

أحدها: ما فائدة البدل في الدعاء والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان، والبدل القصد به بيان الاسم الأول؟

الثانية: ما فائدة تعريف (الصراط المستقيم) باللام، وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها كما قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾؟ [الشورى: ٥٢].

الثالثة: ما معنى الصراط: ومن أي شيء اشتقاقه ولم جاء على وزن فعال، ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق، فقال: ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾؟ [الأحقاف: ٣٠].

الرابعة: ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بهذا اللفظ، ولم يذكرهم بخصوصهم، فيقول: صراط النبيين والصديقين، فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر؟

الخامسة: ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال: المنعم عليهم، وهو أخصر، كما قال: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وما الفرق؟

السادسة: لِـمَ فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم، فقال في أهل النعمة: الذين أنعمت، وفي أهل الغضب: المغضوب بحذف الفاعل؟

السابعة: لِـمَ قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فعدى الفعل بنفسه، ولم يعده بإلى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾؟ [الأنعام: ٨٧].

---

(١) ٩ بدائع الفوائد جـ ٢.

الثامنة: أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يقتضي أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين، وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر، فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟

التاسعة: أن يقال: لم وصفهم بلفظ (غير)؟ وهلا قال تعالى: لا المغضوب عليهم، كما قال: ولا الضالين؟ وهذا كما تقول مررت بزيد لا عمرو، وبالعاقل لا الأحمق.

العاشرة: كيف جرت (غير) صفة على الموصول، وهي لا تتعرف بالإضافة، وليس المحل محل عطف بيان، إذ بابه الإعلام، ولا محل لذلك إذ المقصود في باب البدل هو الثاني والأول توطئة، وفي باب الصفات المقصود الأول والثاني بيان، وهذا شأن هذا الموضع، فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم نوعي الغضب والضلال.

الحادية عشرة: إذا ثبت ذلك في البدل فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه، وما فائدة البدل هنا؟

الثانية عشرة: إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم، تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والنصارى بأنهم الضالون[1]، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص، وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه؟

الثالثة عشرة: لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين؟

الرابعة عشرة: لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل، ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال: المضلين بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل؟

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٥٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣١ رقم ٤١) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٨ رقم ٢٣٦) والطيالسي (رقم ١٠٤٠) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح، انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٠).

الخامسة عشرة: ما فائدة العطف بلا هنا، ولو قيل: المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز؟

السادسة عشرة: إذ قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي نحو ما قام زيد ولا عمرو، وكقوله تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة: ٩١] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٢]، وأما بدون الواو فبابها الإيجاب نحو: مررت بزيد لا عمرو فهذه ستة عشرة مسألة في ذلك.

السابعة عشرة: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق والإلهام؟

الثامنة عشرة: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرًا لازمًا، لا يقوم غيره مقامه ولابد منه، وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته، فما وجه السؤال لأمر حاصل، وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

التاسعة عشرة: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها، ولا يليق به ضمير الجمع، ولهذا يقول: رب اغفر لي وارحمني وتب عليَّ.

العشرون: ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولاً، ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر، فالجواب بعون الله وتعليمه، فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه، ولا قوة له إلا بإعانته.

أما المسألة الأولىٰ: وهي ما فائدة البدل من الدعاء، أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به، إذ الدعاء مخ العبادة، والمخ لا يكون إلا في عظم، والعظم لا يكون إلا في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجًا بالثناء، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبًا

بالخبر؛ تصريحًا من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلىٰ ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وحباهم بكرامته، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ والمخالفون للحق يزعمون أنهم علىٰ الصراط المستقيم أيضًا، والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه، فلذلك أبدل وبين لهم، ليمرن اللسان علىٰ ما اعتقده الجنان.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين:

إحداهما: فائدة الخبر، والفائدة الثانية، فائدة لازم الخبر، فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عنه بالاستقامة، وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته. وأما فائدة لازم الخبر فإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلىٰ ربه.

فهذه أربع فوائد، الدعاء بالهداية إليه، والخبر عنه بذلك، والإقرار والتصديق لشأنه، والتوسل إلىٰ المدعو إليه بهذا التصديق، وفيه فائدة خامسة، وهي أن الداعي إنما أمر بذلك لحاجته إليه، وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به، فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلده وقام بقلبه كان أشد طلبًا له وأعظم رغبة فيه وأحرص علىٰ دوام الطلب والسؤال له، فتأمل هذه النكت البديعة.

وأما المسالة الثانية: وهي تعريف الصراط باللام هنا، فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت علىٰ اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره.

ألا ترىٰ أن قولك: جالس فقيهًا أو عالمًا. ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم. ولا قولك: أكلت طيبًا، كقولك: الطيب، ألا ترىٰ إلىٰ قوله ﷺ: «**أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق**» ثم قال: «**ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق**»[1] فلم يدخل الألف

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤٢) ومسلم (رقم ٧٦٩) وانظر: شرح النووي (٦/ ٥٥) وعمدة القاري (٢٥/ ١٦٠).

واللام على الأسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب تعالىٰ ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلىٰ صراط ما، مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلىٰ الصراط المعين، الذي نصبه الله تعالىٰ لأهل نعمته، وجعله طريقًا إلىٰ رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني، وهو أنه طلب الهداية إلىٰ سر معهود(١)، قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لِـمَ جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فالجواب: عن هذه المواضع بجواب واحد، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالىٰ عن هدايته إلىٰ صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفًا لهم، فلم يجئ معرفًا بلام العهد المشيرة إلىٰ معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام مصروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين، أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتنكير هو الأصل، وهذا بخلاف قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدىٰ إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسؤول عن هدايته عالماً به دخلت اللام عليه، فقال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

---

(١) كذا في الأصل، ولعله «إلىٰ صراط معهود» وفي المخطوط «إلىٰ معهود» اهـ. (ج).

وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢]، نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح، ورأوا أن الرأي خلافه وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم، ولو قال في هذا الموطن: إلى الصراط المستقيم لجعل للكفر والضلال حظًّا من الاستقامة، إذ الألف واللام تنبئ أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرن به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه. وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن.

أما قوله: إن المراد بقوله: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢] في الحرب والمكيدة فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله. وأخبر النبي ﷺ، أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك.

بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي، أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور أي هداني دينًا قيمًا، أفتراه يمكنه ههنا أن يقول: إنه الحرب والمكيدة؟ فهذا جواب فاسد جدًّا. وتأمّل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين. **والثاني**: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر. **والثالث**: هدايته الصراط المستقيم. **والرابع**: إتمام نعمته عليه. **والخامس**: إعطاءه النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدىٰ والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدىٰ هو العلم ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر والقدرة التامة علىٰ تنفيذ دينه، بالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد قهر قلوب المخالفين بالحجة وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين، إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه علىٰ الدين كله كقوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1] في موضعين من سورة براءة وفي سورة الصف[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، فهذا الهدىٰ ثم قال: ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ ﴾ [الحديد: ٢٥] فهذا النصر، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر، وقال تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١-٤] فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان، وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدىٰ أن كلًّا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمىٰ تعالىٰ ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، فذكر الأصلين ما أنزله علىٰ رسوله يوم الفرقان، وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

---

(١) التوبة: ٣٣، والصف: ٩.

(٢) والثالث في سورة الفتح (ج).

[الأنبياء: ٤٨]، فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنى الآية. ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وأن ضياء منصوب على الحال، كما بينا فساده في (الأمالي المكية) فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين: الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة.

وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] بأنه لو عُرِّف لجعل للكفر والضلال حظًّا من الاستقامة. فما أدرى من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع رحمه الله تعالى؟ وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم، أفترى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨] يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة، وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد، وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة، هل يقال: إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة؟ بل يقال: تعريفه ينبئ أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة، فإن التعريف في قوة الحصر، فكأنه قيل الذي لا صراط مستقيم سواه، وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة، فتأمله هنا وفي نظائره.

وأما المسألة الثالثة: وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من صرطت الشيء أصرطه، إذا بلعته بلعًا سهلاً، فسمي الطريق صراطًا لأنه يسترط المارة فيه[1].

والصراط: ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقًا مستقيماً، سهلاً، مسلوكًا، واسعًا، موصلاً إلى المقصود، فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطًا، ولا الصعب المشق ولا المسدود غير الموصل. ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم

---

(١) انظر: لسان العرب (٧/ ٣١٣-٣١٤) ومختار الصحاح (ص ١٢٥).

تبين له ذلك، قال جرير:

أميـــر المـــؤمنين علـــى صـــراط إذا اعـــوج المـــوارد مـــستقيم[1]

وبنوا الصراط على زنة فِعَال، لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط. وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللِحاف والخِمار والرِّداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب، يأتي لثلاثة معان:

أحدها: المصدر كالقتال والضراب.

والثاني: المفعول نحو الكتاب، والبناء، والغراس.

والثالث: أنه يقصد به قصد الآلة التي يحصل بها الفعل، ويقع بها كالخمار والغِطاء والسِّداد لما يخمر به ويغطى ويسد به، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر والمغطى والمسدود، ومن هذا القسم الثالث: إله بمعنى مألوه.

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة، فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن، أنهم قالوا لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى، كالنبأ عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصدقًا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠] أي: إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله، وأنه ليس

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى جرير أشعر أهل عصره، عاش عمره كله يناضل شعراء زمانه ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان من أغزل الناس شعرًا، مات سنة ١١٠هـ. وذكر البيت ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٧٣) وابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١٠٨) وابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٥٩) (٧/ ٣١٣).

ببدع، كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق، مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم، أن يؤمن به ويصدقه، فذكر الطريق ههنا إذًا أولى، لأنه أدخل في باب الدعوة، والتنبيه على تعين اتباعه، والله أعلم. ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي، فوافق فيه الخاطرُ الخاطرَ.

وأما المسألة الرابعة: وهي إضافته إلى الموصول المبهم، دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين، ففيه ثلاث فوائد:

إحداها: إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا؛ فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط؛ فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٣]. وهذا الباب مطرد، فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص.

الفائدة الثانية: فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدي إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه، فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه.

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله، أن الأول: يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه، والثاني: يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

الفائدة الثالثة: أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم، فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسئول.

ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراه، وقرنه بأنفاسه، فإنه لم يدع شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه، ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة، وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها.

وأما المسئلة الخامسة: وهي أنه قال: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ولم يقل: المنعم عليهم، كما قال: المغضوب عليهم.

فجوابها وجواب **المسألة السادسة** واحد وفيه فوائد عديد:

أحدها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني على الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبنى الفعل معها للمفعول أدبًا في الخطاب، وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله، فمنه هذه الآية، فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول، فقال: ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، وقال في الإحسان: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾. ونظيره قول إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠] فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، فأضاف العيب إلى نفسه. وقال في الغلامين: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فحذف الفاعل وبناه للمفعول. وقال: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل، ومنه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخرها.

ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخرها ثم قال: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤]. وتأمل قوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠] كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع وقال في حق المؤمنين: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣].

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى، الذي هو أساس الشكر، وكان في قوله: ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧] من ذكره وإضافة النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصلين، وهما الشكر والذكر، والمذكوران في قوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته؛ فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد فيقال: أنعمت عليهم أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة.

وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه؛ ويرضى

عمن رضي عنه؛ فيغضب لغضبه، ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية.

واليهود قد غضب الله عليهم فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب، وقال: المغضوب عليهم لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام؛ فإنه لله وحده، فتأمل هذه النكتة البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم.

وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب، وإن كانتا بمعنى الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: الذين فعلوا. معناه: القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضروبون، ليس فيه ما في قولك: الذين ضَرَبُوا أو ضُرِبُوا... فتأمل ذلك، فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم؛ فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم.

وأما المسألة السابعة: وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف إلى.

فجوابها: أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة، وبحرف إلى تارة، وباللام تارة، والثلاثة في القرآن.

فمن المعدي بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

ومن المعدى بـإلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

ومن المعدي باللام قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًا عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدة تشير إلى

الفرق، وهي أن الفعل المعدىٰ بالحروف المتعددة لابد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد علىٰ معنىٰ الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو: رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنىٰ الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه، وقصدت له، وهديته إلىٰ كذا، وهديته لكذا.

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنىٰ الآخر. وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنىٰ مع الحرف ومعنىٰ مع غيره، فينظرون إلىٰ الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيشربون الفعل المتعدي به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالىٰ، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنىٰ الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٦] فإنهم يضمنون يشرب معنىٰ يروي، فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل علىٰ الفعلين: أحدهما بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها.

ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتىٰ روين، ثم ترفعن[1] وصعدن.

وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها، فإنه لا دلالة فيه علىٰ الري، وأن يقال: يروىٰ بها لأنه لا يدل علىٰ الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها دل علىٰ الشرب بصريحه، وعلىٰ الري بحرف الباء فتأمله.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ ﴾ [الحج: ٢٥] وفعل الإرادة لا

(١) ذكر شطر البيت أبو عمر ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٤٤١) ونسبه إلىٰ أبي ذؤيب الهذلي. وكذا ذكره ابن منظور في لسان العرب (١/ ٤٨٧) (٥/ ١٦٢) وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٢٠٧) وعمدة القاري (٢/ ٢٣٦) وغريب الحديث للحربي (٣/ ٩٧٠).

يتعدىٰ بالباء، ولكن ضمن معنىٰ: يهم فيه بكذا، وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلىٰ استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية، متىٰ عُدِّي بإلىٰ تضمن الإيصال إلىٰ الغاية المطلوبة فأتىٰ بحرف الغاية، ومتىٰ عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتىٰ باللام الدالة علىٰ الاختصاص والتعيين.

فإذا قلت: هديته لكذا فهم معنىٰ: ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا. وإذا تعدىٰ بنفسه تضمن المعنىٰ الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام.

فالقائل إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف، وأتىٰ به مجردًا معدىٰ بنفسه، ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عُدِّي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنىٰ الحرف، فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.

وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها، وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله علىٰ الكافر نعمة أم لا؟

فمن ناف محتج بهذه وبقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فخص هؤلاء بالإنعام فدل علىٰ أن غيرهم غير منعم عليه، وبقوله لعباده المؤمنين: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأي نعمة علىٰ من خُلِقَ للعذاب الأبدي؟

ومن مثبت محتج بقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله

لليهود: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢] وهذا خطاب لهم في حال كفرهم. وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ۝ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨١-٨٣] وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا.

واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم، إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم.

فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك، فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب، وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب.

(١) وأما قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]، فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم، ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة: بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن

(١) هذا يأتي في سورة البقرة مكرراً في موضعه (ج).

يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته.

وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم، والله أعلم.

وأما المسألة التاسعة: وهي أنه قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ ﴾ ولم يقل: لا المغضوب عليهم.

فيقال: لا ريب أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل.

وأما «غير» فهي تابع لما قبلها، وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف.

فنقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف، وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم؛ لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم، كما هو مقتضى العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل، لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم.

وأما الإتيان بلفظ «غير» فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين:

أحدهما: أنهم منعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم، فإنه يتضمن صفتين: صفة ثبوتية وهي كونهم منعمًا عليهم، وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب، وأنهم مغايرون لأهله، ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء، لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود.

وفيها فائدة أخرى، وهي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم، وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة «غير» في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة فتأمله.

وتأمل كيف قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ولم يقل: اليهود والنصارى مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال، الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال.

فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأما المسألة العاشرة: وهي جريان «غير» صفة على المعرفة وهي لا تتعرف بالإضافة، ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن «غير» هنا بدل لا صفة، وبدل النكرة من المعرفة جائز، وهذا فاسد من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن باب البدل المقصود فيه الثاني، والأول توطئة له ومهاد أمامه، وهو المقصود بالذكر، فقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧]، المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة، وذكر الناس قبلهم توطئة، وقولك: أعجبني زيد علمه، إنما وقع الإعجاب على علمه، وذكرت صاحبه توطئة لذكره، وكذا قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، المقصود إنما هو السؤال عن القتال في الشهر الحرام لا عن نفس الشهر، وهذا ظاهر جدًّا في بدل البعض وبدل الاشتمال، ويراعى في بدل الكل من الكل، ولهذا سمي بدلاً إيذانًا بأنه المقصود.

فقوله: ﴿ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] المقصود:

لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة، وذكر المبدل منه توطئة لها. وإذا عرف هذا؛ فالمقصود هنا ذكر المنعم عليهم وإضافة الصراط إليهم، ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبار بمغايرتهم للمغضوب عليهم، فجاء ذكر غير المغضوب مكملًا لهذا المعنىٰ ومتممًا ومحققًا؛ لأن أصحاب الصراط المسؤول هدايته هم أهل النعمة، فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق، وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له، وهذا واضح.

الوجه الثاني: أن البدل يجري مجرىٰ توكيد المبدل وتكريره وتثنيته، ولهذا كان في تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم، فهو الأول بعينه ذاتًا ووصفًا، وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول، ولا يكون مخلًّا بالكلام، ألا ترىٰ أنك لو قلت في غير القرآن: لله حج البيت علىٰ من استطاع إليه السبيل. لكان كاملاً مستقيمًا لا خلل فيه؟ ولو قلت في دعائك: ربِّ اهدني صراط من أنعمت عليه من عبادك. لكان مستقيمًا؟

وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصار علىٰ (غير) وما في حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلىٰ الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلىٰ غير المغضوب عليهم؛ بل أتىٰ بلفظ (غير) زيادة في وصفهم والثناء عليهم، فتأمله.

الوجه الثالث: أن (غير) لا يعقل ورودها بدلاً، وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً. وسر ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها، بل لا تكون إلا تابعة لغيرها، ولهذا قلما يقال: جاءني غير زيد، ومررت بغير عمرو، والبدل لابد أن يكون مستقلًّا بنفسه، كما تبين أنه المقصود.

ونكتة الفرق أنك في باب البدل قاصد إلىٰ الثاني متوجه إليه، قد جعلت الأول سلمًا

ومرقاةً إليه، فهو موضع قصدك ومحط إرادتك، وفي باب الصفة بخلاف ذلك، إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته، فاجعل هذه النكتة معياراً على باب البدل والوصف، ثم زن بها غير المغضوب عليهم، هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفاً.

الجواب الثاني: أن (غير) ههنا صح جريانه صفة على المعرفة؛ لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين، ففيه رائحة من النكرة بإبهامه؛ فإنه غير دال على معين فصلح وصفه بـ(غير) لقربه من النكرة، وهذا جواب صاحب الكشاف قال: (فإن قلت): كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلتُ: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه، فهو كقوله:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني ... فمضيتُ ثمتَ قلتُ لا يعنيني[1]

ومعنى قوله: لا توقيتَ فيه، أي: لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة، بل هو مطلق في الجنس، فجرى مجرى النكرة، واستشهاده بالبيت معناه: أن الفعل نكرة وهو يسبني، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة باللام؛ لكونه غير معين فهو في قوة النكرة، فجاز أن ينعت بالنكرة، وكأنه قال: على لئيم يسبني، وهذا استدلال ضعيف؛ فإن قوله: يسبني، حال منه لا وصف، والعامل فيه فعل المرور، والمعنى: أمرَّ على اللئيم سابًّا لي، أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزه ولا أحتفل بسبه.

الجواب الثالث: وهو الصحيح أن (غير) ههنا قد تعرفت بالإضافة؛ فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور، فلا يحصل بها تعيين، ولهذا تجري صفة على النكرة، فتقول: رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا، فتجري صفة

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى شمر الحنفي من شعراء بني حنيفة باليمامة، روى صاحب الأغاني أن شمرًا قتل المنذر بن ماء السماء غيلة سنة ٥٦٤م، وذكر البيت ابن منظور في لسان العرب (٨٢/١٢) (٢٩٧/١٥) والرازي في مختار الصحاح (ص ٣٧) وابن جرير الطبري في تفسيره (٤٢٠/١) والعيني في عمدة القاري (١٨٩/٩).

للنكرة مع إضافتها إلى المعرفة، ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين بذكر أحدهما، ثم تضيفها إلى الثاني، فيتعين بالإضافة ويزول الإبهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة، كما قال:

نحـــن بنـــو عمـــرو الهجـــان الأزهـــر النـــسب المعـــروف غيـــر المنكـــر[١]

أفلا تراه أجرى (غير المنكر) صفة على النسب، كما أجرى عليه (المعروف) أنهما صفتان معينتان، فلا إبهام في (غير) لأن مقابلها (المعروف) وهو معرفة، وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف، أعني تعين الجنس.

وهكذا قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، فإذا كان الأول معرفة كانت غير معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم فاكتسب منه التعريف.

وينبغي أن تتفطن هنا لنكتة لطيفة في (غير) تكشف لك حقيقة أمرها: فأين تكون معرفة وأين تكون نكرة؟ وهي أن غيرًا هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه، فهي واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه فإن (المعروف) هو تفسير (غير المنكر) والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم هذا حقيقة اللفظة.

فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة، وإن أضيفت، كما إذا قلت: رجل غيرك فعل كذا وكذا. وإذا كان متبوعها معرفة، لم تكن إلا معرفة كما إذا قيل: المحسن غير المسيء محبوب معظّم عند الناس، والبر غير الفاجر مهيب، والعادل غير الظالم مجاب الدعوة. فهذا لا تكون فيه غير إلا معرفة، ومن ادّعى فيها التنكير هنا غلط، وقال ما لا دليل عليه؛ إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله.

فإن قلت: عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر، وهي: أنها بمعنى مغاير اسم فاعل

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، ولم أقف على قائله، وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩٤) وفيه زيادة، بينما ذكر صدره الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤/ ٦٨١).

من غاير، كمثل بمعنى مماثل، وشبه بمعنى مشابه، وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة، وكذا ما ناب عنها.

قلت: اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة، إذا أضيف إلى معموله لأن الإضافة في تقدير الانفصال، نحو: هذا ضارب زيد غدًا، وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال: الإضافة في تقدير الانفصال، بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات، ألا ترى أن قولك: غيرك بمنزلة قولك: سواك، ولا فرق بينهما، والله أعلم.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

فالجواب: أن قولهم: الأول في البدل في نية الطرح. كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه، بل البدل نوعان:

نوع يكون الأول في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكل، وبدل الاشتمال، لأن المقصود هو الثاني لا الأول، وقد تقدم.

ونوع لا ينوي فيه طرح الأول، وهو بدل الكل من الكل، بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه، فإنه لما قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصًا بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله؟ فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾.

وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها، وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها، فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك

عنده توكيدًا وتقوية، فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة.

أفلا ترىٰ كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين، قدرًا زائدًا علىٰ وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة؟ فإن النفوس مجبولة علىٰ التأسي والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسىٰ به في سلوكها أنست واقتحمتها فتأمله.

وأما المسألة الثانية عشرة وهي: ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارىٰ مع تلازم وصفي الغضب والضلال؟

فالجواب: أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرىٰ، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفيها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليها، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارىٰ بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع.

أما اليهود فقال تعالىٰ في حقهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠] وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه، ومحاربته فاستحقوا بكفرهم غضبًا، وبالبغي والحرب والصد عنه غضبًا آخر. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] فالعذاب الأول بكفرهم، والعذاب الذي زادهم إياه بصدهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: إن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

والقول الثالث: إن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية: أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد؛ بل المراد غضب بعد غضب، بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسل الله، إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضبًا على حدته. وهذا كما في قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣، ٤]، أي كرة بعد كره لا مرتين فقط، وقصد التعدد في قوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] أظهر.

ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضباً، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبًا آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضبًا آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله، ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضبًا، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبًا، وصدهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضبًا، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بالغضب المضاعف المتكرر، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى. وقال تعالى في شأنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]. فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ، وهو أشد ما يكون من الغضب. وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠].

وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن

سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧].

فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ...﴾ [المائدة: ٧٢] إلى قوله: ﴿... وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً، ثم أضلوا كثيرًا وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ، حيث ضلوا في أمر المسيح، وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم، هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره، وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع، فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: قد ضلوا من قبلهم. والثاني: أنهم أضلوا أتباعهم. والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل، فهذه صفات لأسلافهم.. الذين نُهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح أن يكون وصفًا للموجودين في زمن النبي ﷺ، لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهي عنهم، فتأمله.

وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال؛ لفرط جهلهم بالحق، وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود.

ووجه تكرار هذا الضلال: أن الضال قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضالًّا فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده، ويعبد من لا ينبغي أن يعبده، وقد يصيب مقصودًا حقًّا، لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه. فالأول ضلال في الغاية، والثاني: ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة، فضلوا عن مقصودهم، حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قُتل وصلب وصفع، فهذا

ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به، وضلوا عن السبيل الموصلة إليه، فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه، ودعوا أتباعهم إلى ذلك، فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرًا، فكانوا أدخل في الضلال من اليهود، فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم؛ من السُّحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم.

ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة؛ من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء. ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق؛ فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها.

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به، وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضًا. وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه؛ أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبًا عليهم ضالين.

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفًا وبيانًا، وإرشاداً وإلهامًا وتوفيقًا وإعانة فيعلمه ويعرِّفه، ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من

عبادنا ففيه شبه من النصارىٰ[1]. وهذا كما قالوا؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويدعونهم إلىٰ كتاب ربهم وسنة نبيهم إلىٰ غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود: من الكبر واللي والكتمان والتحريف والتحيل علىٰ المحارم وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العبّاد فعبد الله بمقتضىٰ هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلىٰ نوع من الحلول أو الاتحاد، فشبهه بالنصارىٰ ظاهر، فعلىٰ المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد.

ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق، علم ضرورته وفاقته إلىٰ هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه؛ ولا أوجب منه عليه وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلىٰ الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين، إنه قريب مجيب.

وأما المسألة الثالثة عشرة: وهو تقديم المغضوب عليهم علىٰ الضالين فلوجوه عديدة:

أحدها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني: أنهم كانوا هم الذين يَلُون النبي ﷺ من أهل الكتابين، فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارىٰ كانت ديارهم نائية عنه؛ ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارىٰ، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور.

---

(١) هذا قول سفيان بن عيينة، انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥١) وفيض القدير (٥/ ٢٦١).

الثالث: أن اليهود أغلظ كفرًا من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة، فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم؛ فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند.

الرابع: وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعم عليهم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه، فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك: منعم عليه وضال.

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول، وفي الضآلين باسم الفاعل، فجوابهما ظاهر.

فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم.

وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلين مبنيًّا للمفعول؛ لما في رائحته من إقامة عذرهم، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم، بل فُعل فيهم. ولا حجة في هذا للقدرية، فإنا نقول: إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم، بل فيه رد على الجبرية الذين لا ينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة، فتضمنت الآية الرد عليهم كما تضمن قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] الرد على القدرية، ففي الآية إبطال قول الطائفتين، والشهادة لأهل الحق أنهم هم المصيبون، وهم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا، والقدرة لإضافة أفعال العباد إليهم عملًا وكسبًا، وهو متعلق الأمر والعمل، كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة.

فاقتضت الآية إثبات الشرع والقَدر والمعاد والنبوة، فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه، فالمنعم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا، وهدي أتباعهم إنما يكون على أيديهم، فاقتضت إثبات النبوة بأقرب طريق وأبينها وأدلها على عموم الحاجة وشدة الضرورة

إليها، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تُنال هذه الهداية إلا على أيدي الرسل، وأن هذه الهداية لها ثمرة، وهي النعمة التامة المطلقة في دار النعيم، ولخلافها ثمرة وهي الغضب المقتضي للشقاء الأبدي.

فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها، والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو أعلم.

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي ما فائدة زيادة (لا) بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد:

أحدها: أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه (غير)، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بلا مع الواو، فهو في قوة: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، أو: غير المغضوب عليهم وغير الضالين.

الفائدة الثانية: أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (لا) وقيل: غير المغضوب عليهم والضالين أوهم أن المراد ما غاير المجموع المركب من النوعين، لا ما غاير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ولا الضالين كان صريحًا في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء.

وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو، فإنما نفيت القيام عنهما ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده.

الفائدة الثالثة: رفع توهُّم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم، وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال، ودخل العطف بينهما كما دخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٣] إلى آخرها فإن هذه صفات المؤمنين، ومثل قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ١-٣] ونظائره.

فلما دخلت (لا) علم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (لا) أولى بهذا المعنى من (غير) لوجوه:

أحدها: أنها أقل حروفًا.

الثاني: التفادي من تكرار اللفظ.

الثالث: الثقل الحاصل بالنطق بـ (غير) مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة، ولا ريب أنه ثقيل على اللسان.

الرابع: أن (لا) إنما يُعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم، كما نفى عنهم الضلال، و(غير) ـ وإن أفهمت هذا ـ (فلا) أدخل في النفي منها. وقد عرف بهذا جواب المسألة السادسة عشرة: وهي أن (لا) إنما يُعطف بها في النفي.

وأما المسألة السابعة عشر: وهي: أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات؟ فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال. وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته؛ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره. وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها.

وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرِّجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه.

ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين، وهدىٰ النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلىٰ بيوتها، وهداها إلىٰ طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلىٰ بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلىٰ إثبات النبوة، بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة.

فإن لم يهمل هذه الحيوانات سُدًىٰ، ولم يتركها معطلة؛ بل هداها إلىٰ هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني، الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله علىٰ كثير من خلقه؛ مهملاً وسدىٰ معطلًا لا يهديه إلىٰ أقصىٰ كمالاته وأفضل غاياته؛ بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته إلىٰ ما يليق بجلاله؟ ولهذا أنكر ذلك علىٰ من زعمه، ونزَّه نفسه عنه وبيَّن أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالىٰ عنه، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل علىٰ أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل علىٰ إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨] بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلىٰ إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا

طائر يطير بجناحيه، بل جعلها أممًا وهداها إلىٰ غاياتها ومصالحها، كيف لا يهديكم إلىٰ كمالكم ومصالحكم؟! فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدىٰ التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا انتفىٰ الهدىٰ معها كقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، أي بينًا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل: ٣٩]. وفي قوله: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧]. وفي قوله النبي ﷺ: «من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له». وفي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] فنفىٰ عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلىٰ الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما. قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩] وقال أهل الجنة فيها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. إذا عُرف هذا فالهداية المسؤولة في قوله: ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟

قيل: هذه هي المسألة الثامنة عشرة، وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت

ودوام الهداية، ولقد أجاب وما أجاب، وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها. ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به، وأعظم من ذلك بحول الله: فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور، وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًا له فيؤثره، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازمًا عليه، ومريدًا لترك جميع ما نهى الله عنه عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتعبها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

أحدها: أمور هُدي إليها جملة، ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها، لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها.

فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه، ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها. وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب

عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلىٰ فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسؤول هو أصل الهداية علىٰ الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له، وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له علىٰ ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلىٰ سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملاً، والتثبيت عليها، والدوام إلىٰ الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلىٰ الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره، أصلًا وتفصيلاً وتثبيتًا، ومفتقرًا إلىٰ مزيد العلم بالهدىٰ علىٰ الدوام فليس له أنفع ولا هو إلىٰ شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه.

أما المسألة التاسعة عشرة: وهي الإتيان بالضمير في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ضمير جمع، فقد قال بعض الناس في جوابه: إن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلىٰ هداية خاصة به، فأتىٰ بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه. وعرضت هذا الجواب علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه؛ فاستضعفه جدًّا. وهو كما قال، فإن الإنسان اسم للجملة، لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه. والقائل إذا قال: اغفر لي وارحمني واجبرني وأصلحني واهدني، سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهره وباطنه، فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة.

فالصواب: أن يقال: هذا مطابق لقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلىٰ الرب تعالىٰ، وإقرار بالفاقة إلىٰ عبوديته واستعانته وهدايته، فأتىٰ به بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مُقرون لك بالعبودية.

وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك، وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك. ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك، استدعى مقته، فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية، ما لا يتضمنه لفظ الإفراد، فتأمله.

وإذا تأملت أدعية القرآن، رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]. ونحو دعاء آخر البقرة، وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن.

وأما المسألة العشرون وهي: ما هو الصراط المستقيم؟

فنذكر فيه قولاً وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته.

وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه؛ بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا.

وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله.

وهذا هو الهدىٰ ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنىٰ قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة.

ومعنىٰ قول من قال: متابعة رسول الله ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملاً، ومعنىٰ قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة علىٰ أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال كقول من قال: الصلوات الخمس. وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها.

فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع، لا تفسير مطابق له، بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم. والله أعلم.



سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾.

(1)تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدىٰ اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تثمر الهدىٰ، وكلما ازداد منها ازداد هدىٰ، وأعمال الفجور بالضد. وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر، فيجازي عليها بالهدىٰ والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء. وأيضًا فإنه البَرُّ، ويحب أهل البِرِّ، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله، فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور.

فمن الأصل الأول، قوله تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي من اتقىٰ مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم، أن الله ـ سبحانه ـ يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض، ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان، والجود والصدق، والإصلاح في الأرض، ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب أثاب ـ سبحانه ـ أهل البر، بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم علىٰ برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم، بأن حال بينهم وبين الاهتداء به.

***

(١) ١٢٨ فوائد.

﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

[١]وكما يقرن ـ سبحانه ـ بين الهدى والتقى والضلال والغي، فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء، فمن الأول قوله: ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، وقال: ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] وقال عن المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] وقال أهل الكهف: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠] وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

[١]والأمر الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدى به مجملاً، وقبل أوامره، وصدّق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى، إلى غير غاية. فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى[٢].

وكلما فوت حظًّا من التقوى، فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

(١) ١٣١ فوائد.

(٢) كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٩) (٤/ ١١٥، ٥١٩)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٤٢).

ﭐلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾ [يونس: ٩]، فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية. ونظير هذا قوله: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ﴾ [مريم: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر الفرقان بهذا وبهذا، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٣] في سورة لقمان، وسورة إبراهيم، وسبأ، والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية، أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية، أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة، ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه، كما قال: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: ١-٣]، وقال في الساعة: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥] وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر ـ سبحانه ـ في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣] فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك، قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه[1]، وآيات

---

(١) قال العيني رحمه الله في عمدة القاري (٢١/ ٨٠): وقال الطيبي: ورد الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، وانظر: فيض القدير (٤/ ٢٨٥) والفتح السماوي (٣/ ٩٨٢).

الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكوراً، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيماناً[1].

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

[2]ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طبع على قلوب الكافرين، وختم عليها، وأنه أصمّها عن الحق وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة: ٦، ٧] والوقف التام هنا. ثم قال: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]، كقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤]، ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]. وأخبر سبحانه أن على بعض القلوب أقفالاً، تمنعها من أن تنفتح لدخول الهدى إليها. وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤] فهذا الوقر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [غافر: ٣٧] قرأها الكوفيون

(١) الأصل الثاني يأتي على قوله: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦] إن شاء الله (ج).

(٢) ٨٢ شفاء العليل.

وصُدَّ بضم الصاد حملاً على زُيِّنَ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الصف: ٧] ومعلوم أنه لم ينفِ هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة، فإنه حجته على عباده.

والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه، وتجعله من متشابه القرآن، وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له كقول بعضهم: المراد من ذلك تسمية الله العبد مهتديًا وضالًّا، فجعلوا هداه وإضلالاً مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعًا أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه.

وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه البتة، وليس في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها: هداه بمعنى: سماه مهتديًا، وأضله: سماه ضالًّا. وهل يصح أن يقال: علمه إذا سماه عالـمًا، وفهمه: إذا سماه فهـمًا. وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمي من يشاء مهتديًا؟

وهل فَهِم أحد قط من قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]: لا تسميه مهتديًا، ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟ وهل فهم أحد من قول الداعي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، وقوله: اللهم اهدني من عندك ونحوه، اللهم سمني مهتديًا؟ وهذا من جناية القدرية على القرآن ومعناه، نظير جناية إخوانهم من الجهمية على نصوص الصفات وتحريفها عن مواضعها، وفتحوا للزنادقة والملاحدة جنايتهم على نصوص المعاد وتأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، وفتحوا للقرامطة والباطنية تأويل نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويل التحريف الذي سلكته هذه الطوائف أصل فساد الدنيا والدين وخراب العالم، وسنفرد إن شاء الله كتابًا نذكر فيه جناية المتأويين على الدنيا والدين، وأنت إذا

وازنت بين تأويلات القدرية والجهمية والرافضة، لم تجد بينها وبين تأويلات الملاحدة والزنادقة من القرامطة الباطنية وأمثالهم كبير فوق.

والتأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول والكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى؛ فتتضمن إبطال الحق وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى ما لا يليق به من التلبيس والإلغاز مع القول عليه بلا علم أنه أراد هذا المعنى.

(١)ومما ينبغي أن يُعلم: أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل، حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل، ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيّه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر وزادته عنده خيرًا، وكان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت[٢]، فالرب تعالى فعَّال لما يريد لا حجْر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدورًا للرب، ولا يدخل تحت فعله، إذ لو كان مقدورًا له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه، والجبرية

---

(١) ٩٠ شفاء العليل.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٦٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٠٧) وانظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص٧). وأخرجه الطبري أيضًا من قول ابن مسعود ﷺ، انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٦٨) والطبراني في الكبير عن ابن مسعود (٩/ ١٧١ رقم ٨٨٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا قلابة لم يدرك ابن مسعود. وأخرجه أبو طاهر السلفي في معجم السفر من قول شقيق بن سلمة رحمه الله (رقم ١٢٣٩).

حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرًا أو علم شيئًا فإنه لا يغيره بعد هذا، ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه، والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلا، وجميع خلقه تحت حجره شرعًا وقدرًا وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها.

والمقصود: أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له ولكن لما ألف العلة وساكنها ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية.

والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالا وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملاءمته لنفسه، فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به وآثر عليه الضلال مع تكرر تعريفه منفعة هذا وخيره ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه، باب الهدى بالكلية.

فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفقه وهداه، بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال وأنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به مكن أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلك عنه وفعل مقدوره، لكان هداه أقرب شيء إليه، ولكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

[(١)]فإن قيل: فإذا جوَّزتم أن يكون الطبع والختم والقفل، عقوبة وجزاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم.

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته. والقرآن من أوله إلى آخره، إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له؛ وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية.

فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة: ٦، ٧] ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردةً وخنازيرَ، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك[(٢)].

***

---

(١) ٩١ شفاء العليل.

(٢) بعد هذا ذكر فصلاً مطولاً مجموعًا فيه فائدة كبيرة جدًّا لمن أراده، وسنذكره مفرقًا في محله إن شاء الله (ج).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾.

[1]فأخبر ﷻ: أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله تعالى خادع من خدعه، وأنه يكفي المخدوع شر من خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال، والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع، وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة، فإنهم يقولون: طريق خيدع. إذا كان مخالفًا للقصد لا يشعر به، ولا يفطن له، ويقال للسراب: الخيدع[2]، لأنه يغر من يراه، وضب خدع، أي: مراوغ كما قالوا: أخدع من ضبّ[3]، ومنه: «**الحرب خدعة**»[4] وسوق خادعة، أي: متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخزانة مخدعًا.

فلما كان القائل: «آمنت» مظهرًا لهذه الكلمة، غير مريد حقيقتها المرعية المطلوبة شرعًا، بل مريد لحكمها وثمرتها فقط؛ مخادعًا كان المتكلم بلفظ «بعت» و«اشتريت» و«طلقت» و«نكحت» و«خالعت» و«آجرت» و«ساقيت» و«أوصيت» غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها، شرعًا، بل مريد لأمور أخرىٰ غير ما شرعت له، أو ضدِّ ما شرعت له؛ مخادعًا، ذاك مخادعٌ في أصل الإيمان، وهذا مخادع في أعماله وشرائعه. قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالىٰ وحدوده. كما أن الأول نفاق في أصل الدين.

---

(١) ٣٤٠ إغاثة جـ١.

(٢) انظر: لسان العرب (٨/ ٦٤) وتهذيب الأسماء (٣/ ٨٤) وعمدة القاري (١٤/ ٢٥٧).

(٣) انظر: لسان العرب (٨/ ٦٥) والقاموس المحيط (ص ٩١٩).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٣٠) ومسلم (رقم ١٧٣٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٥٨) وشرح النووي (٧/ ١٦٩) (١٢/ ٤٥) وعمدة القاري (١٣/ ٢٦٩) (١٤/ ٢٧٤-٢٧٦)، والديباج على مسلم (٣/ ١٦٨) (٤/ ٣٤٣) وتحفة الأحوذي (٥/ ٢٦١-٢٦٢).

يؤيد ذلك: ما رواه سعيد بن منصور، عن ابن عباس رضي الله عنهما «أنه جاءه رجل فقال: إن عمي طلّق امرأته ثلاثًا، أيحلها له رجل؟ فقال: «من يخادع الله يخدعه»[١].

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝﴾.

[٢]وأما المرض فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق محبًّا له، مؤثرًا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمّى الله سبحانه كلًّا منهما مرضًا، قال ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة الفساد، مرض فلان فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض تغيرت وفسدت، قالت ليلى الأخيلية:

إذا هبط الحَجَّاجُ أرضًا مريضة　　تتبع أقصى دائها فشفاها[٣]

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣٣٧ رقم ١٤٧٥٨) وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٢٦٦ رقم ١٠٧٧٩) وانظر: الدر المنثور (١/ ٦٨٠) والمحلى (١٠/ ١٨١) والمدونة الكبرى (٤/ ١٥٣) (٥/ ٤٢١) والكبائر (ص ١٣٩).

(٢) ٩٨ شفاء.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ليلى بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية، كانت شاعرة فصيحة ذكية، تلي طبقة الخنساء، وكان بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة، ماتت سنة ٨٠هـ. وذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٥٤٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٧٠/ ٦٤) وذكر قصة لقاء ليلى بالحجاج وشعرها في مديحه والثناء عليه، إلى أن قالت:

فما ولد الأبكار والعون مثله　　ببحر ولا أرض يجف ثراها

فقال الحجاج: قاتلها الله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها. انظر: المنتظم لابن الجوزي (٦/ ١٧٥).

وقال آخر:

ألم تــر أن الأرض أضــحت مريــضة   لفقـد الحسين والبــلاد اقشعرت[1]

والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة، ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة إذا هب هبوبها كما قال:

راحت لأربعـك الـرياح مـريضــة

أي لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، ومنه بدن مريض أي: ناقص القوة، وقلب مريض ناقص الدين[2]، ومرض في حاجتي إذا نقصت حركته.

وقال الأزهري، عن المنذري، عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها، قال: والمرض الظلمة[3]، وأنشد:

وليلــة مرضــت مــن كــل ناحيــة   فـما يـضيء لهـا شـمس ولا قمــر[4]

هذا أصله في اللغة، ثم الشك، والجهل، والحيرة، والضلال، وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها.

[5]**المرض نوعان:** مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن.

---

(١) ذكر هذا البيت الذهبي في السير (٣/ ٣١٩) والمزي في تهذيب الكمال (٦/ ٤٤٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٢٦٠) وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٩٤).

(٢) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٣٢) وعمدة القاري (٢/ ١٠٧).

(٣) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٣٢) والقاموس المحيط (ص ٨٤٣).

(٤) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى أبي حية النميري: الهيثم بن الربيع، شاعر مجيد فصيح راجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية توفي سنة ١٨٣هـ. وذكره ابن منظور في لسان العرب (٧/ ٢٣٢) من قول أبي حية، وفيه: نجم بدل شمس.

(٥) ١٣٤ زاد المعاد جـ٣.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن، قال تعالىٰ في مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١]. وقال تعالىٰ في حق من دُعي إلىٰ تحكيم القرآن والسنة فأبىٰ وأعرض: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨-٥٠] فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فهذا مرض شهوة الزنا. والله أعلم.

الوجه السابع والثمانون: أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته، وهما: مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله وقد ذكر الله تعالىٰ هذين المرضين في كتابه.

أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣]، فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أي: لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا، قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ولا تلينه وتكسره؛ فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر؛ من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في الأرض، وهذا مرض مركب من مرض الشبهة والشهوة؛ فإنه لابد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة، كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة الذي أفتوه بالغسل فمات: «**قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، إنما شفاء العي السؤال**»[1] فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به مرضًا، وشفاؤه سؤال العلماء، فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما، وإلا فالأمر أعظم، فإنَّ كثيرًا من الأمم يستغنون عن الأطباء ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب. وأما العلماء بالله

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٦، ٣٣٧) وابن ماجه (رقم ٥٧٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) والدارمي (رقم ٧٥٢) وعبد الرزاق (١/ ٢٢٣ رقم ٨٦٧) والطبراني في الكبير (١١/ ١٩٤ رقم ١١٤٧٢) وأبو يعلى (٤/ ٣٠٩ رقم ٢٤٢٠) وأحمد (١/ ٣٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩١ رقم ١١٦٣) والحاكم (١/ ٢٨٥ رقم ٦٣٠) وانظر: عون المعبود (١/ ٣٦٧-٣٦٨) ونيل الأوطار (١/ ٣٢٣) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٤٧ رقم ٢٠٠): وصححه ابن السكن.

وأمره، فهم حياة الوجود وروحه، ولا يُستغنى عنهم طرفة عين؛ فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس.

ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم، وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع، فبقيت على عماها وصممها وبكمها، قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمراد عمى القلب في الدنيا...

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

(١) وأما النفاق: فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئًا منه، وهو لا يشعر؛ فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرًا ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد، وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولًا للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلّى لعباده أمورهم؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

---

(١) ٣٤٧ مدارج جـ١.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًّا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه!! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه!! وكم من علم له قد طمسوه!! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه!! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها!! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]. اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأسًا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا، خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول

الضيف على أقوام لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا: ما لك عندنا من عبور ـ وإن كان لابد ـ فعلى سبيل الاجتياز. أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا ـ لما حلت بساحتهم ـ: ما لنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين، وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين، فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور وترك المحظور، فطريقة المتأخرين؛ أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين؛ أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع. لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيّزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩].

***

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠].

من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق. ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق، ففسادهم في الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢] المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارًا، فهمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣].

لكل منهم وجهان، وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاءً بأهلهما واستحقارًا، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين؛ فرحًا بما عندهم من العلم الذى لا ينفع الاستكثار منه أشرًا واستكبارًا، فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريح الوحى يستهزئون ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦].

***

﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾.

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفىء ذلك النور، وبقيت نارا تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ ﴾ [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر؛ فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى؛ فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ ﴾ [البقرة:١٨].

صاب عليهم صيِّب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح؛ فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وظِّفت عليهم في المساء والصباح؛ فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشَوا ثيابهم، وجدوا في الهرب، والطلب في آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان

بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين، فقيل: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيه، فقاموا عند ذلك حيارى في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع، ولا يهتدي ببصره البصير ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

لهم علامات يُعرفون بها، مبينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم ـ والله ـ الرياء، وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]. أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الفئتين[(١)]، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلًا ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب؟

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة» أخرجه مسلم (رقم ٣٧٨٤) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٢٨) وعمدة القاري (١٦/ ٦٩) وشرح السيوطي لسنن النسائي (٨/ ١٢٤).

فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين، فلا تحتاج بعده دليلًا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه[١]، فتراه عند الحق نائمًا. وفي الباطل على الأقدام، فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضًا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه، وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه، فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

[٢]وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكرًا وافياً اطلعت فيه من: أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر النقض والفرق

---

(١) المين: الكذب. انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٢٥).
(٢) ١٣٠ بدائع جـ ٤.

والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصَّره الله، وأنعم عليه بفهم كتابه. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض. فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات.

أحدها: تكذيبهم.

والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون.

والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

والرابع: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]. فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل؛ أن يكون الرجل مفسدًا ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله، وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه.

وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان: الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك؛ بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا.

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضًا، فإن المؤمنين قالوا لهم: ﴿ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾.

وتقرير المناظرة من الجانبين، أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم، ولاسيما إذا قامت أدلته وصحت شواهده، فأجابهم المنافقون بما مضمونه: إنا إنما يجب علينا موافقة العقلاء، وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار فلا يجب علينا موافقتهم. فرد الله تعالى عليهم وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع:

أحدها: تسفيههم.

الثاني: حصر السفه فيهم.

الثالث: نفي العلم عنهم.

الرابع: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان. وخامس أيضاً وهو: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه.

...[1]ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون؛ فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، كقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠].

(١) ١٥٠ أعلام جـ ١.

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً ناريًّا، ومثلاً مائيًّا، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة.

وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمنًا لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سمَّاه روحًا ونورًا، وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلىٰ حظِّهم من الوحي وأنهم بمنزلة من استوقد نارًا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقل: بنارهم؛ فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقىٰ عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلىٰ المثل المائي، فشبههم بأصحاب صيب ـ وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من السماء ـ فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم؛ اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوره جعل أصبعيه في أذنيه، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه.

وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرًا من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة، إذا سمعوا شيئاً من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة؛ ويقول مخنثهم: سدوا عنا هذا الباب، واقرأوا شيئًا غير هذا، وترىٰ قلوبهم مولية وهو يجمحون؛ لثقل معرفة الرب ﷻ وأسمائه وصفاته علىٰ عقولهم وقلوبهم.

وكذلك المشركون على اختلاف شركهم، إذا جُرِّد لهم التوحيد، وتُلِيَتْ عليهم النصوص المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم، وثقلت عليهم، ولو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا. ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا نصوص الثناء على الخلفاء الراشدين، وصحابة رسول الله ﷺ ثقل ذلك عليهم جدًّا، وأنكرته قلوبهم؛ وهذا كله شبه ظاهر، ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء؛ فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم.

[(١)]يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه، كما ذكرهما في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث.

فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى فلا تسمع قلوبهم شيئًا ولا تبصره ولا تعقل ما ينفعها.

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل. والقولان متلازمان، وقال في صفتهم: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأنهم قد رأوا في ضوء النهار وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا،

---

(١) ٢١ اجتماع الجيوش.

وقال ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فذهاب الله بذلك النور انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ولا من ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلاً، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلىٰ معدنه وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلىٰ أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة، تعرَّف بها إلىٰ أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بنارهم ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقىٰ عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: بنورهم، ولم يقل: بضوئهم مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم؛ لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته. وأيضا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضًا فإن الله تعالىٰ سمى كتابه، نورًا ورسوله نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝﴾ [البقرة: ١٦]، كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة، والرضىٰ بها، وبدل الهدىٰ في

مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها بدلاً عن النور الذي هو الهدى والنور، فبدلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ فوحَّده ثم قال: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَـٰتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فجمع سبل الباطل ووحَّد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]، فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا وقال: «**هذا سبيل الله**» ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله وقال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١) [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٠ رقم ٦) وفي الموارد (رقم ١٧٤١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣ رقم ١١١٧٤) والدارمي (رقم ٢٠٢) وسعيد بن منصور (٢/ ١١٢ رقم ٩٣٥) وأحمد =

وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام، ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤]. ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مطابقًا لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾، ويكون تخييبهم وإبطال ما راموه، هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلًا، بل هم صم بكم عمي.

وهذا التقدير ـ وإن كان حقًّا ـ ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد لغيره. ويأباه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا. ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وموقد نار الحرب لا نور له. ويأباه قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي: لا يرجعون إلى النور الذي فارقوه، وقال تعالى في حق الكفار: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فسلب العقل عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين؛ لأنهم آمنوا ثم كفروا، فلم يرجعوا إلى الإيمان.

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلًا آخر مائيًا، فقال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا لا يهتدي سبيلاً، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيب وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من علو إلى أسفل.

= (١/ ٤٣٥) والبزار (٥/ ١١٣-١١٤ رقم ١٦٩٤).

فشبه الهدىٰ الذي هدىٰ به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدىٰ بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وإن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلىٰ كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر علىٰ الإحساس بما في الصيب: من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك: من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلىٰ ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلىٰ ما وراءه من كل محبوب.

وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأىٰ ضعيف البصيرة ما في الجهاد: من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه، لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون. وكذلك من عزم علىٰ سفر الحج إلىٰ البيت الحرام، فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرىٰ ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة علىٰ النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام علىٰ الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألبّاء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهو الذي ينظر إلىٰ ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود.

وقال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شُبِّه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا

به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأقراع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق». والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا.

قال: والصحيح الذي عليه علماء أهل البيان لا يتخطونه، إن التمثيلين جميعًا من جهة التمثيلات المتركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه فيه وهذا القول الفصل والمذهب الجزل.

بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، لم تأخذ هذا بحجزة ذاك فشبهها بنظائرها كما جاء في القرآن؛ حيث شبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت، حتى عادت شيئًا واحدًا بأخرى مثلها.

كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة، وحمل ما سواها من الأحمال، ولا يشعر ذلك إلا بما يريد فيه من الكد والتعب.

وكقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]. المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء هذا النبات، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض وتصييرها شيئًا واحدًا فلا. وكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، فشبه حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

قال: فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة

الأمر وفظاعته، ولذلك أخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ.

قلت: قال شيخنا: الناس في الهدى الذي بعث الله تعالى به رسوله ﷺ أربعة أقسام، قد اشتملت عليهم هذه الآيات من أول السورة إلى ههنا:

القسم الأول: باطنًا وظاهرًا وهم نوعان:

أحدهما: أهل الفقه فيه والفهم والتعليم، وهم الأئمة الذين عقلوا عن الله تعالى كتابه وفهموا مراده، وبلغوه إلى الأمة، واستنبطوا أسراره وكنوزه، فهؤلاء مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فرعى الناس فيه ورعت أنعامهم، وأخذوا من ذلك الكلأ الغذاء والقوت والدواء وسائر ما يصلح لهم.

النوع الثاني: حفظوه وضبطوه وبلّغوا ألفاظه إلى الأمة، فحفظوا عليهم النصوص، وليسوا من أهل الاستنباط والنفقة في مراد الشارع، فهم أهل حفظ وضبط وأداء لما سمعوه، والأولون أهل فهم وفقه واستنباط وإثارة لدفائنه وكنوزه، وهذا النوع الثاني بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فوردوه وشربوا منه، وسقوا منه أنعامهم وزرعوا به[١].

القسم الثاني: من رده ظاهرًا وباطنًا وكفر به ولم يرفع به رأسًا، وهؤلاء أيضًا نوعان:

أحدهما: عرفه وتيقن صحته، وأنه حق، ولكن حمله الحسد والكبر وحب الرياسة والملك والتقدم بين قومه؛ على جحده ودفعه بعد البصيرة واليقين.

النوع الثاني: أتباع هؤلاء الذين يقولون: هؤلاء ساداتنا وكبراؤنا، وهم أعلم منا بما يقبلونه وما يردونه، ولنا أسوة بهم، ولا نرغب بأنفسنا عن أنفسهم، ولو كان حقًا

---

(١) فعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» أخرجه البخاري (رقم ٧٩) ومسلم (رقم ٢٢٨٢) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٤٦) وعمدة القاري (٢/ ٧٦) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٧٢٣).

لكانوا هم أهله وأولى بقبوله، وهؤلاء بمنزلة الدواب والأنعام، يساقون حيث يسوقهم راعيهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]. وقال تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]. وقال تعالى فيهم: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال فيهم: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ [ص: ٥٧-٦٠]، أي: سننتموه لنا وشرعتموه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص: ٦١]. فقولهم: لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار، أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع، وقالوا: بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان:

أحدهما: أنه ضمير الكفر والتكذيب ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا. وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين، والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به، والشرك بالله ﷻ، أي: بدأتم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ [صٓ: ٦٠] ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان، وهما حق. وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٦١] فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه.

ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سنَّ لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم، ضعفًا وهم الشياطين(١).

القسم الثالث: الذين قبلوا ما جاء به الرسول ﷺ، وآمنوا به ظاهرًا، وجحدوه وكفروا به باطنًا، وهم المنافقون الذين ضُرب لهم هذان المثلان بمستوقد النار وبالصيب، وهم أيضًا نوعان:

أحدهما: من أبصر ثم عمي، وعلم ثم جهل وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، فهؤلاء رؤوس أهل النفاق وساداتهم وأئمتهم، ومثلهم مثل من استوقد نارا ثم حصل بعدها على الظلمة.

والنوع الثاني: ضعفاء البصائر الذين أعشى بصائرهم ضوء البرق؛ فكاد أن يخطفها لضعفها وقوته، وأصم آذانهم صوت الرعد، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، ولا يقربون من سماع القرآن والإيمان بل يهربون منه، ويكون حالهم حال من يسمع الرعد الشديد، فمن شدة خوفه منه يجعل أصابعه في أذنه، وهذه حال كثير من خفافيش البصائر في كثير من نصوص الوحي، وإذا وردت عليه مخالفة لما تلقاه عن أسلافه وذوي مذهبه ومن يحسن به الظن، ورآها مخالفة لما عنده عنهم، هرب من النصوص وكره من يسمعه إياها، ولو أمكنه لسد أذنيه عند سماعها، ويقول: دعنا من هذه، ولو قدر لعاقب من يتلوها ويحفظها وينشرها ويعلمها، فإذا ظهر له منها ما يوافق ما عنده مشى فيها وانطلق، فإذا جاءت بخلاف ما عنده أظلمت عليه، فقام

(١) سيأتي هذا البحث في سورة صٓ إن شاء الله (ج).

حائرًا لا يدري أين يذهب، ثم يعزم له التقليد وحسن الظن برؤسائه وسادته على اتباع ما قالوه دونها، ويقول مسكين الحال: هم أخبر بها مني وأعرف.

فيا لله العجب! أوَ ليس أهلها والذابون عنها، والمنتصرون لها، والمعظمون لها، والمخالفون لأجلها آراء الرجال، المقدمون لها على ما خالفها، أعرف بها أيضًا منك وممن اتبعته، فلم كان من خالفها وعزلها عن اليقين، وزعم أن الهدى والعلم لا يستفاد منها، وأنها أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، ولا يجوز أن يحتج بها على مسألة واحدة من مسائل التوحيد والصفات، ويسميها الظواهر النقلية، ويسمي ما خالفها القواطع العقلية، فلما كان هؤلاء أحق بها وأهلها، وكان أنصارها والذابون عنها والحافظون لها، هم أعداؤها ومحاربوها؟

ولكن هذه سنة الله في أهل الباطل، أنهم يعادون الحق وأهله، وينسبونهم إلى معاداته ومحاربته، كالرافضة الذين عادوا أصحاب محمد ﷺ، بل وأهل بيته، ونسبوا أتباعه وأهل سنته إلى معاداته ومعاداة أهل بيته، وما كانوا أولياءه، إنْ أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

والمقصود: أن هؤلاء المنافقين قسمان:

أئمة وسادة يدعون إلى النار، وقد مردوا على النفاق.

وأتباع لهم بمنزلة الأنعام والبهائم، فأولئك زنادقة مستبصرون، وهؤلاء زنادقة مقلدون، فهؤلاء أصناف بني آدم في العلم والإيمان.

ولا يجاوز هذه الستة ـ اللهم ـ إلا من أظهر الكفر وأبطن الإيمان، كحال المستضعف بين الكفار الذي تبين له الإسلام، ولم يمكنه المهاجرة بخلاف قومه، ولم يزل هذا الضرب في الناس على عهد رسول الله ﷺ وبعده.

وهؤلاء عكس المنافقين من كل وجه. وعلى هذا فالناس: إما مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإما كافر ظاهرًا وباطنًا، أو مؤمن ظاهرًا كافر باطنًا، أو كافر ظاهرًا مؤمن باطنًا، والأقسام الأربعة قد اشتمل عليها الوجود، وقد بين القرآن أحكامها.

فالأقسام الثلاثة الأول ظاهرة، وقد اشتمل عليها أول سورة البقرة.

وأما القسم الرابع ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٥]، فهؤلاء كانوا يكتمون إيمانهم في قومهم، ولا يتمكنون من إظهاره، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه(١). ومن هؤلاء النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ فإنه كان ملك النصارى بالحبشة، وكان في الباطن مؤمنًا(٢).

وقد قيل: إنه وأمثاله الذين عناهم الله ﷻ بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤] فإن هؤلاء ليس المراد بهم المتمسك باليهودية والنصرانية بعد محمد ﷺ قطعًا، فإن هؤلاء قد شهد لهم بالكفر، وأوجب لهم النار، فلا يثنى عليهم بهذا الثناء، وليس المراد به من آمن من أهل الكتاب ودخل في جملة المؤمنين وباين قومه، فإن هؤلاء لا يطلق عليهم أنهم من أهل الكتاب إلا باعتبار ما كانوا عليه، وذلك الاعتبار قد زال بالإسلام، واستحدثوا اسم المسلمين والمؤمنين، وإنما يطلق الله سبحانه هذا الاسم على من هو باق على دين أهل الكتاب، هذا هو المعروف في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٥٧-٥٨) والدر المنثور (٧/ ٢٨٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٧٨، ١٩٤) وعمدة القاري (١٥/ ٢٩٠-٢٩١) (١٩/ ١٤٨) وفيض القدير (٢/ ٣١٥).

(٢) فعن جابر ﷺ قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» أخرجه البخاري (٣٨٧٧) ومسلم (رقم ٩٥٢)، وانظر فتح الباري (٣/ ١٨٦-١٨٩) وعمدة القاري (٨/ ٢١، ١١٩-١٢٢) وعون المعبود (٩/ ١٥-١٦) وتحفة الأحوذي (١/ ٢١) (٤/ ٨٧، ١٠٥، ١١٤) وشرح الزرقاني (٢/ ٨٠-٨٩).

تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٠]، ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]، ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ [البقرة: ٤٤] ونظائره.

ولهذا قال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، والحسن وقتادة: إن قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]: إنها نزلت في النجاشي، زاد الحسن وقتادة: وأصحابه[(١)]. وذكر ابن جرير في تفسيره من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن ابن المسيب، عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ، قال: «**اخرجوا فصلوا علىٰ أخيكم**» فصلىٰ بنا فكبر أربع تكبيرات، فقال: «**هذا النجاشي أصحمة**» فقال المنافقون: انظروا إلىٰ هذا يصلي علىٰ علج نصراني لم يره قط. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ... ﴾ الآية[(٢)].

والمقصود أن الأقسام الأربعة قد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه، وبين أحكامها في الدنيا وأحكامها في الآخرة، وقد تبين أن أحد الأقسام من آمن ظاهرًا وكفر باطنًا، وأنهم نوعان: رؤساؤهم وساداتهم، وأتباعهم ومقلدوهم.

وعلىٰ هذا فأصحاب المثل الأول الناري شر من أصحاب المثل الثاني المائي، كما يد السياق عليه، وقد يقال ـ وهو أولىٰ ـ: أن المثلين لسائر النوع، وإنهم قد جمعوا بين مقتضىٰ المثل الأول من الإنكار بعد الإقرار، والحصول في الظلمات بعد النور، وبين مقتضىٰ المثل الثاني من ضعف البصيرة في القرآن، وسد الآذان عند سماعه والإعراض عنه، فإن المنافقين فيهم هذا وهذا، وقد يكون الغالب علىٰ فريق منهم

---

(١) انظر: تفسير الصنعاني (١/ ١٤٤، ١٩٠) وتفسير الطبري (٤/ ٢١٨-٢٢٠) (٧/ ٥) والدر المنثور (٢/ ٤١٥) والتمهيد (٦/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢١٨) والطبراني في الأوسط (٥/ ٥١ رقم ٤٦٤٥) قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٩): روا الطبراني في الأوسط وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف. وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٢٦٥-٢٦٦): ولين ابن عدي: الهذلي تليينًا يسيرًا، ولم يضعفه.

المثل الأول، وعلى فريق منهم المثل الثاني.

وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة:

منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره، لا من قبل نفسه، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة، وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه، وتصديق جازم، كان ما معه من النور كالمستعار.

ومنها: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفئ كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

ومنها: أن الظلمة نوعان: ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور، وهي أشد الظلمتين، وأشقهما على من كانت حظه، فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

ومنها: أن في هذا المثل إيذانًا وتنبيهًا على حالهم في الآخرة، وأنهم يعطون نورًا ظاهرًا، كما كان نورهم في الدنيا ظاهرًا، ثم يطفأ ذلك النور أحوج ما يكونون إليه؛ إذ لم تكن له مادة باقية تحمله، ويبقون في الظلمة على الجسر لا يستطيعون العبور، فإنه لا يمكن أحد عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر، فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما كان إليه صاحبه، فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار، وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم، ومن ههنا يعلم السر في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: أذهب الله نورهم.

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر ابن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ وقد سئل عن الورود، فقال: «**نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس، قال: فتدعى الأمم بأوثانها، وما كانت تعبد: الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك، فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول:**

أنا ربكم، فيقولون: حتىٰ ننظر إليك، فيتجلىٰ لهم يضحك، قال: فينطلق بهم فيتبعونه، ويُعطىٰ كل إنسان منهم ـ منافق أو مؤمن ـ نورًا، ثم يتبعونه، وعلىٰ جسر جهنم كلاليب وحسك، تأخذ من شاء الله تعالىٰ، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون، فينجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتىٰ يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء»[1] وذكر باقي الحديث.

فتأمل قوله: «فينطلق فيتبعونه»، ويعطىٰ كل إنسان منهم نورًا المنافق والمؤمن. ثم تأمل قوله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وتأمل حالهم إذا طفئت أنوارهم فبقوا في الظلمة، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم ﷻ.

وتأمل قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع كل مشرك إلهه الذي كان يعبده»[2] والموحد حقيق بأن يتبع الإله الحق، الذي كل معبود سواه باطل.

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وذكر هذه الآية في حديث الشفاعة في هذا الموضع، وقوله في الحديث: «فيكشف عن ساقه»[3] وهذه الإضافة يتبين المراد بالساق المذكور في الآية.

وتأمل ذكر الانطلاق واتباعه سبحانه بعد هذا، وذلك يفتح لك بابا من أسرار التوحيد وفهم القرآن، ومعاملة الله ﷻ لأهل توحيده، الذين عبدوه وحده ولم يشركوا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩١).
(٢) أخرجه بلفظ قريب ضمن حديث طويل البخاري (رقم ٤٥٨١) ومسلم (رقم ١٨٣).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥١) وعمدة القاري (٢٥/ ١٢٨).

به شيئًا، هذه المعاملة التي عامل بمقابلتها أهل الشرك؛ حيث ذهبت كل أمة مع معبودها، فانطلق بها واتبعته إلى النار، وانطلق المعبود الحق واتبعه أولياؤه وعابدوه. فسبحان الله رب العالمين الذي قرّت عيون أهل التوحيد به في الدنيا والآخرة، وفارقوا الناس فيه أحوج ما كانوا إليهم.

ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة التي هي الضلال، والحيرة التي ضدها الهدى، والمثل الثاني متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن فلا هدى ولا أمن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ابن عباس وغيره من السلف: مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء، ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة خائفًا متحيرًا، كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان، أمِنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. قال مجاهد: إضاءة النار لهم إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة[1]. وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا، وفسرت بالبرزخ، وفسرت بيوم القيامة.

والصواب: أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم جزاءً وفاقًا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] فإن المعاد يعود على العبد فيه ما كان حاصلاً له في الدنيا، ولهذا يسمى يوم الجزاء: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٢]، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

ومن كان مستوحشًا مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار، فوحشته معه في البرزخ،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٤٣) وانظر: الدر المنثور (١/ ٨٢-٨٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٤).

ويوم المعاد أعظم وأشد، ومن قرّت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرّت عينه به يوم القيامة، وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه، فينعم به ظاهرًا وباطنًا، فيورثه من الفرح والسرور واللذة والبهجة وقرة العين، والنعيم وقوة القلب، واستبشاره وحياته وانشراحه، واغتباطه ما هو أفضل النعيم وأجله وأطيبه وألذه، وهل النعيم إلا طيب النفس، وفرح القلب وسروره وانشراحه واستبشاره؟!

هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذ عينه من سائر المشتهيات التي تشتهيها الأنفس وتلذها الأعين، ويكون تنوع تلك المشتهيات وكمالها وبلوغها، مرتبة الحسن والموافقة: بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه وبلوغه مرتبة الإحسان فيه، وبحسب تنوعه، فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار. وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها من هذه الدار.

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة، أثرًا وجزاءً ولذة وألماً يخصه، لا يشبه أثر الآخر وجزاءه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار. وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم، وأخذ منها بنصيب: كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته: كألم من ضرب بسهم واحد من مساخطه، وقد أشار النبي ﷺ إلى أن كمال ما يستمتع به من الطيبات في الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا، فرأى قنوا من حشف معلقًا في المسجد للصدقة فقال: «إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة»[1] فأخبر أن

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٧٢ رقم ٨٣١٠) وابن خزيمة (٤/ ١٠٩ رقم ٢٤٦٧) وأبو داود (رقم ١٦٠٨) وابن ماجه (رقم ١٨٢١) وأحمد (٦/ ٢٨) والروياني في مسنده (رقم ٥٩١) وانظر: عون المعبود (٤/ ٣٤٧).

جزاءه يكون من جنس عمله؛ فيجزى على تلك الصدقة بحشف من جنسها. وهذا الباب يفتح لك أبوابًا عظيمة من فهم المعاد وتفاوت الناس في أحواله، وما يجري فيه من الأمور.

فمنها: خفة حمل العبد على ظهره وثقله إذا قام من قبره؛ فإنه بحسب خفة وزره وثقله، إن خف خف وإن ثقل ثقل.

ومنها: استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه للحر والشمس، إن كان له من الأعمال الصالحة الخالصة والإيمان مما يظله في هذه الدار من حر الشرك والمعاصي والظلم، استظل هناك في ظل أعماله تحت عرش الرحمن، وإن كان ضاحيًا هنا للمعاصي والمخالفات والبدع والفجور ضحى هناك للحر الشديد.

ومنها: طول وقوفه في الموقف ومشقته عليه، وتهوينه عليه إن طال وقوفه في الصلاة ليلًا ونهارًا لله، وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته، خف عليه الوقوف في ذلك اليوم وسهل عليه، وإن آثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنعمة؛ طال عليه الوقوف هناك، واشتدت مشقته عليه.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٧]، فمن سبَّح الله ليلًا طويلًا، لم يكن ذلك اليوم ثقيلًا عليه، بل كان أخف شيء عليه.

ومنها: أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمل ثقل عمل الحق في هذه الدار، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتّباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل، كما قال الصّديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما: «واعلم أن لله حقًّا بالليل لا يقبله بالنهار، وله حق بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه إنما ثقلت موازين

من ثقلت موازينه باتباعهم الحق، وثقل ذلك عليهم، ولا يستضيء به غيره، ولا يمشي أحد إلا في نور نفسه، إن كان له نور مشى في نوره، وإن لم يكن له نور أصلًا لم ينفعه نور غيره»(١).

ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر، غير مستمر ولا متصل بباطنه، ولا له مادة من الإيمان أعطي في الآخرة نورًا ظاهرًا، لا مادة له ثم يطفأ عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها: أن مشيهم على الصراط في السرعة والبطء، بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا، فأسرعهم سيرًا هنا أسرعهم هناك، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك، وأشدهم ثباتًا على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك، ويكون تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه هاهنا، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومخردل أي مقطع بالكلاليب مكردس في النار، كما أثر فيهم تلك الكلاليب في الدنيا جزاءً وفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى ضرب لعباده المثلين: المائي والناري في سورة البقرة، وفي سورة الرعد، وفي سورة النور، لما تضمن المثلان من الحياة والإضاءة، فالمؤمن حي القلب مستنيره، والكافر والمنافق ميت القلب مظلمه. وقال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٣٤ رقم ٣٧٠٥٦) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٤١٤).

فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرًا حيًّا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك، مستنيرًا بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حر الكفر والشرك والضلال منغمسًا في الظلمات. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقد اختلفوا في مفسر الضمير من قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] فقيل: هو الإيمان لكونه أقرب المذكورين، وقيل: هو الكتاب فإنه النور الذي هدى به عباده.

قال شيخنا: والصواب أنه عائد على الروح المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فسمى وحيه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة، ومن عدمها فهو ميت لا حي، والحياة الأبدية السرمدية في دار النعيم هي ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذي أوحى إلى رسوله ﷺ، فمن لم يَحْيَ به في الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت ولا يحيى. وأعظم الناس حياة في الدور الثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الجزاء، أعظمهم نصيبًا من الحياة بهذه الروح.

وسماه روحًا في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]. وسماه نورًا لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها.

وكمال الروح بهاتين الصفتين: بالحياة والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة وإن كان العبد مشارًا إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله

تعالىٰ إلىٰ رسوله ﷺ وجعله نورًا يهدي به من يشاء من عباده وراء ذلك كله فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذي عليه سكة أهل المدينة النبوية الذي لا يقبل الله ﷻ ثمنًا لجنته سواه، من النقد الذي عليه سكة جنكسخان ونوابه من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة، وكل من اتخذ لنفسه سكة وضربًا ونقدًا يروّجه بين العالم.

فهذه الأثمان كلها زيوف، لا يقبل الله ﷻ في ثمن جنته شيئًا منها، بل ترد علىٰ عاملها أحوج ما يكون إليها، وتكون من الأعمال التي قدم الله تعالىٰ عليها فجعلها هباءً منثورًا.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١)فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان علىٰ جميع مطالب أصول الدين؛ من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدوث العالم، وإثبات نوعي توحيده تعالىٰ: توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له.

ثم قرر تعالىٰ بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ، أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه

(١) ١٣١ بدائع جـ ٤.

وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن المعاد والجنة والنار فثبت صحة ذلك ضرورة، فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدَّرها تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم. ثم قال: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمة وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًّا، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه، فعبادته له وشكره إياه واجب عليه، ولهذا قال: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ولم يقل إلهكم.

والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفِطَر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ﴾ فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده، وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]. فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود، وكيف يجعلون معه شريكًا في العبادة، وأنتم مقرّون بأنه لا شريك له في الخلق، وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم، وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبيه له فيها ولا في أفعاله، فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه، ويذكرونه فلا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى: اعبدوه لتتقوه بعبادته، وقيل: المعنى: خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه:

أحدها: أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني: أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الثالث: أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ من الأمر. ولمن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ تعليلًا للأمر بالعبادة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] فهذا تعليل لكَتْبِ الصيام، ولا يمتنع أن يكون تعليلًا للأمرين معًا، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢] فذكر تعالى دليلًا آخر متضمنًا للاستدلال بحكمته في مخلوقاته.

فالأول: متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء.

والثاني: متضمن للحكم المشهودة في خلقه، ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيرًا ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣] فذكر خلق السموات والأرض، ثم ذكر منافع المخلوقات وحكمها.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦٠-٦١] إلى آخر الآيات، على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم ما بحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه، ولعله أن يمر بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك.

ونظير ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وهذا كثير في القرآن لمن تأمله.

وذكر سبحانه في سورة البقرة قرار العالم، وهو الأرض وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن، والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها؛ فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا، وجعل سقفها بناءً محكمًا مستويًا، لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب، ثم قال: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة، وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وإن كل متكلم ومستدل ومحاجّ إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه فغايته؛ إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن.

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف يجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!

فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى النبوة، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ

عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] إن حصل لكم ريب في القرآن الكريم وصدق من جاء به، وقلتم إنه مفتعل، فأتوا بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، حتى إن الذين راموا معارضته، كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشم أحد مثل ريحه قط، وتحدَّى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحيى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقان بعذرة منتنة خبيثة، وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانًا وعظمة وجلالة؟

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد علي بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلًا، إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله: والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم، ويقول: «لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدًا» فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وإيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية وجوه متعددة هذا أحدها.

وثانيها: إقدامه ﷺ هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك،

مستند إلىٰ وحي من الله تعالىٰ، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلىٰ نفس ما تحدىٰ به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوىٰ البشر علىٰ الإتيان بمثله، الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه، وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمله.

فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتىٰ قصر بعضهم الإعجاز علىٰ صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها. بعضهم قصر الإعجاز علىٰ مجرد فصاحته وبلاغته. وبعضهم علىٰ مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام. وبعضهم علىٰ ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلىٰ غير ذلك من الأقوال القاصرة، التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله. فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة، فقد وجب علىٰ الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره.

(١)«التعبد» وهو فوق التتيم، فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوبُ رِقَّه، فلم يبق له شيء من نفسه البتة؛ بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة، وصفه الله بها في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، كقوله: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]. ومقام الدعوة، كقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩]. ومقام التحدي، كقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]، وبذلك استحق التقديم علىٰ الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة ـ بعد

---

(١) ٢٩ مدارج جـ٣.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ: «اذهبوا إلىٰ محمد، عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»(١).

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: فحصلت له تلك المرتبة: بتكميل عبوديته لله تعالىٰ، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب، تقول العرب: «طريق معبد» أي: قد ذللته الأقدام وسهلته.

(٢)وقد أخبر عن الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقينًا، فقال تعالىٰ: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] الآية.

فاشتملت الآيات علىٰ تقرير مهمات أصول الدين: من إثبات خالق العالم، وصفاته ووحدانيته، ورسالة رسوله والمعاد الأكبر.

***

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

(٣)قولهم: ﴿ هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة: فيه قولان: ففي تفسير السدي، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

(٢) ١٣٦ بدائع جـ ٤.

(٣) ١٢٢ حادي الأرواح.

وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قال مجاهد: ما أشبهه به! وقال ابن زيد: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابها يعرفونه. وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون والطعم(١).

واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا؛ ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

الحجة الثانية: ما حكاه ابن جرير عنهم، قال: ومن علة قائلي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله، كما حدثنا ابن بشار: حدثنا ابن مهدي: حدثنا سفيان: سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة، وذكر ثمر الجنة. وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى(٢).

الحجة الثالثة: قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾ وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾.

الحجة الرابعة: أن من المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها، ورجحت طائفة منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه.

قال ابن جرير: والذي يحقق صحة قول القائلين: إن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا أن الله جل ثناؤه قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة: ٢٥] يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧١) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤) وعمدة القاري (١٥/ ١٤٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧١).

بعض، فإذا كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها، الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه، فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل، هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها: هذا هو الذي رزقنا من قبل، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب، دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال. فقد تبين أن معنى الآية: كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول يخصون هذا العام بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصة ولابد بأنواع من التخصيصات:

أحدها: أن كثيرًا من ثمار الجنة، وهي التي لا نظير لها في الدنيا لا يقال فيها ذلك.

الثاني: أن كثيرًا من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد، كلما أكلوا ثمرة واحدة، قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائماً إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتنى بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب.

ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضًا، ليس أوله خيرًا من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها؛ من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله، هو خيار كله يشبه بعضه بعضًا، فهذا وجه

قولهم، ولا يلزم مخالفة ما نصه الله ﷻ، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه، والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه، والله أعلم.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قال الحسن: خيار كله لا رذل، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف تسترذلون بعضه، وأن ذلك ليس فيه رذل. وقال قتادة: خيار لا رذل فيه، فإن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها، وكذلك قال ابن جريج وجماعة[١]، وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق والتماثل، وقالت طائفة أخرى منهم ابن مسعود، وابن عباس، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: متشابهًا في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم[٢]. قال مجاهد: متشابهًا لونه، مختلفًا طعمه[٣]. وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال يحيى بن أبي كثير: عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة، فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها، فيقولون: هذا الذي جئتمونا به آنفًا، فيقول لهم الخدم: كلوا فإنَّ اللون واحد والطعم مختلف. فهو قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[٤].

وقالت طائفة، وناس: معنى الآية: أن يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب[٥]، قال ابن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا يعرفونه، وليس هو مثله في الطعم، واختار ابن جرير هذا القول، قال: ودليلنا على فساد قول من قال: إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل أي في الجنة، وتلك

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٣) والدر المنثور (١/ ٩٦).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٤) والدر المنثور (١/ ٩٦).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٣).
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٦٧ رقم ٢٦١) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤) وعمدة القاري (١٥/ ١٤٧).
(٥) انظر: تفسير الصنعاني (١/ ٤١) وتفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤) وعمدة القاري (١٥/ ١٤٧).

الدلالة على فساد ذلك القول هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾ أن الله ﷻ أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾[1].

قلت: هذا لا يدل على فساد قولهم لما تقدم.

[2]قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه، وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقدر ما بشرك به، وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره.

وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج جمع زوج، والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، هذا هو الأفصح، وهو لغة قريش، وبها نزل القرآن، كقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ومن العرب من يقول: زوجة، وهو نادر لا يكادون يقولونه! وأما المطهرة فإن جرت صفة على الواحد؛ فيجرى صفة على جمع التكسير؛ إجراء له مجرى جماعة كقوله تعالى: ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ [الصف: ١٢] ﴿قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨] ونظائره.

والمطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤).
(٢) ١٥٥ حادي الأرواح.

إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ(١). قال عبد الله بن المبارك: ثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي نظرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «**من الحيض والغائط والنخامة والبصاق**»(٢).

وقال عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنخمن(٣). وقال ابن عباس أيضًا: مطهرة من القذر والأذى(٤). وقال مجاهد: لا يبلن ولا يتغوطن ولا يمذين ولا يمنين ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخمن ولا يلدن(٥). وقال قتادة: مطهرة من الإثم والأذى، طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقذر ومأثم(٦). وقال عبد الرحمن بن زيد: المطهرة التي لا تحيض، وأزواج الدنيا لسن بمطهرات، ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام، قال: وكذلك خلقت حواء حتى عصت، فلما عصت، قال الله: «**إني خلقتك مطهرة، وسأدميك كما دميت هذه الشجرة**»(٧).

(٨)قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٥) وفيض القدير (١/ ٤٧١).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٩٧) إلى الحاكم وابن مردويه وصححه، وقال الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٣/ ٤٩٩): وإسناده لا بأس به.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٥) والدر المنثور (١/ ٩٧).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٥) وابن أبي حاتم (١/ ٦٧ رقم ٢٦٤) (٣/ ٩٨٤ رقم ٥٥٠٧) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٤).

(٥) أخرجه الصنعاني في تفسيره (١/ ٤١) والطبري في تفسيره (١/ ١٧٥-١٧٦).

(٦) أخرجه الصنعاني في تفسيره (١/ ٤١) والطبري في تفسيره (١/ ١٧٦) وانظر: الدر المنثور (١/ ٩٨).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٦) وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٤): وهذا غريب.

(٨) ٢٩١ حادي الأرواح.

ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣]، الآية. وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ...﴾ إلى قوله: ﴿... أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١ - ١١].

وفي المسند وغيره: أن النبي ﷺ قال: «**قد أنزلت عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**» ثم تلا: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر آيات[(١)].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلى قوله: ﴿... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤) وعبد بن حميد (رقم ١٥) والترمذي (رقم ٣١٧٣) والضياء في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) والحاكم (١/ ٧١٧ رقم ١٩٦١) (٢/ ٤٢٥ رقم ٣٤٧٩) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٥٠ رقم ١٤٣٩) صححه الحاكم في الموضعين بينما قال المزي في تهذيب الكمال (٣٢/ ٥٠٩): وقال النسائي: هذا حديث منكر، وكذا قال المناوي في الفتح السماوي (٢/ ٨٥٨ رقم ٧٣٧) والزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٤٠٩).

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿... وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠-١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وهذا في القرآن كثير، مداره علىٰ ثلاث قواعد: إيمان، وتقوىٰ، وعمل خالص لله علىٰ موافقة السنة.

فأهل هذه الأصول الثلاثة، هم أهل البشرىٰ دون من عداهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها.

وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلىٰ خلقه، وضدها يجتمع في الذين يراءون ويمنعون الماعون. وترجع إلىٰ خصلة واحدة، وهي موافقة الرب تبارك وتعالىٰ في محابه، ولا طريق إلىٰ ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهرًا وباطنًا برسول الله ﷺ.

وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل فهي بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق[١]، وبين هاتين الشعبتين سائر الشعب التي مرجعها تصديق الرسول في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا: كالإيمان بأسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، وآياته؛ من غير تحريف لها ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

***

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

(١) كما ثبت في الحديث الذي أخرجه البخاري (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥) وانظر: شرح النووي (٢/ ٥) وعمدة القاري (١/ ١٢٣-١٢٧) والديباج علىٰ مسلم (١/ ٥٢) وفيض القدير (٣/ ١٨٦).

[(١)]وهذا جواب اعتراض، اعترض به الكفار على القرآن، وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد ﷺ، كلام الله؛ لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة. فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه، وإبطال الباطل وإدحاضه؛ كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض. فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك، فأخبر تعالى عمَّا له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء. ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك.

فأخبر تعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]، فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى.

***

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

[(٢)]ولا ريب أن القلب إذا طُبع عليه أظلمت صورة العلم فيه، وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدي به المهتدون سببًا لضلال هذا، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ

(١) ١٣٦ بدائع ج٤.
(٢) ١٠٠ مفتاح جـ١.

يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

فأخبر تعالىٰ أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس، وهو هداه الذي هدىٰ به رسوله وعباده المؤمنين، ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدي به من اتبع رضوان الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. ولا شيء أعظم فسادًا لمحل العلم من صيرورته؛ بحث يضل بما يهتدي به، فنسبته إلىٰ الهدىٰ والعلم نسبة الفم الذي قد استحكمت فيه المرارة إلىٰ الماء العذب كما قيل:

ومــن يــك ذا فــم مــر مــريض ... يجــد مُــرًّا بــه المــاءَ الــزلالا[1]

[2]وأما الأصل[3] الثاني: وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب والضلال، فكثير أيضًا في القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ أبي الطيب المتنبي: أحمد بن الحسين الجعفي الكندي الشاعر الحكيم، أحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة الحكم البليغة والمعاني المبتكرة. قيل: إنه تنبأ وتبعه كثير من الناس، فسجنه أمير حمص حتىٰ تاب ورجع عن دعواه، مات مقتولًا سنة ٣٥٤هـ. وذكر البيت عبد القادر الجرجاني في أسرار البلاغة (ص ١٥٨) والثعالبي في يتيمة الدهر (١/ ٢٢٦).

(٢) ١٣٠ فوائد.

(٣) تقدم الأصل الأول في الصفحة رقم ١٤٣ (ج).

فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء: ٨٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فأخبر أنه عاقبهم علىٰ تخلفهم عن الإيمان، لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلىٰ ما فيه حياتهم، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة، الذي يكون سببًا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم. قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. فأخبر سبحانه أن كسبهم غطىٰ علىٰ قلوبهم، وحال بينها وبين الإيمان بآياته، فقالوا: أساطير الأولين.

وقال تعالىٰ في المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧] فجازاهم علىٰ نسيانهم له أن نسيهم، فلم يذكرهم بالهدىٰ والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم، فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما: الهدىٰ، ودين الحق، فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته، والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له. وقال تعالىٰ في حقهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٦، ١٧]. فجمع لهم بين اتباع الهوىٰ والضلال الذي هو ثمرته وموجبه، كما جمع للمهتدين بين التقوىٰ والهدىٰ.

***

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾.

[1]هذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله تعالى أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور: ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

الأول: كونهم كانوا أمواتا لا أرواح فيهم، بل نطفًا وعلقًا ومضغة، مواتًا لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول، ويكذب بالرابع؟ وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم أمواتًا ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله؟! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه؟. ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله على المعاد.

***

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذه كالمناظرة من الملائكة، والجواب عن سؤالهم، كأنهم قالوا: إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك،

(١) ١٣٧ بدائع جـ ٤.

وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك فأجابهم تعالىٰ عن هذا السؤال؛ بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحِكَمًا لا تعلمونها أنتم، وقد ذكرنا منها قريبًا من أربعين حكمة[(١)] في كتاب (التحفة المكية)، فاستخرج تعالىٰ من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين، وعمَّر بهم الجنة وميَّز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار، وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم تكن الملائكة تعلمه.

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له: تكريمًا له، وتعظيمًا له، وإظهارًا لفضله، وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء؛ فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم؛ لما أثنوا علىٰ أنفسهم وذموا الخليفة، كما فعل سبحانه ذلك بموسىٰ لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض؛ فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث[(٢)]، وهذه سنته تعالىٰ في خليقته وهو الحكيم العليم.

ومنها: جبره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام؛ لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة، فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية والذل،

(١) يظهر أنها هي الموجودة في أول (مفتاح دار السعادة) (ج).

(٢) فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسىٰ ليس بموسىٰ بني إسرائيل، وإنما هو موسىٰ آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «قام موسىٰ النبي خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحىٰ الله إليه: إن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به؟! فقيل له: احمل حوتًا في مكتل فإذا فقدته فهو ثم. فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون وحمل حوتًا في مكتل حتىٰ كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما فانسل الحوت من المكتل ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾» الحديث أخرجه البخاري (رقم ١٢٢) ومسلم (رقم ٢٣٨٠).

وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين: إنعام قبلها، وإنعام بعدها، ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء، وجعل العاقبة لهم، فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب، فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها: استخراجه تعالى ما كان كامنًا في نفس عدوه إبليس؛ من الكبر والمعصية، الذي ظهر عند أمره بالسجود، فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامنًا في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهرًا للخبث والكفر الذي كان كامنًا فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه، فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه، وكان خافيًا عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريمًا لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض، وجبرًا له وتأديبًا للملائكة وإظهارًا لما كان مستخفيًا في نفس إبليس، وكان ذلك سببًا لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حِكَمه تعالى في إسجادهم لآدم.

ثم إنه سبحانه لمَّا علّم آدم ما علّمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جوابًا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض؛ فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء؛ فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم.

(١) إنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٢] إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم، فأبى إبليس فلعنه، وأخرجه من السماء.

(١) ٥٢ مفتاح جـ١.

بيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليم الحكيم.

فظهر من هذا الخليفة: من خيار خلقه، ورسله وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصديقين، والعلماء، وطبقات أهل العلم والإيمان، من هو خير من الملائكة. وظهر من إبليس؛ من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله؛ ميَّزه عليهم بالعلم فعلّمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: ﴿ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

جاء في التفسير: أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقًا هو أكرم عليه منَّا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة، الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علَّمه لهذا الخليفة؛ أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه، فقالوا: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصَّه به من العلم، فقال: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ أقروا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه، قال لهم: ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علمًا بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض، فتعرَّف إليهم بصفة العلم، وعرَّفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفًا للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه، وهو علمه؛ فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف ﷺ لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدمه ومكّنه وسلم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته، أطلقه من الحبس، ومكّنه في الأرض؛ فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية، ولو كانت أجمل صورة.

[1]قول الملائكة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فقيل: المعنى: ونقدس أنفسنا لك فعدِّي باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب أن المعنى: نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، ومما أضاف إليك أهل الكفر بك، قال: وقال بعضهم: نعظّمك ونمجدك، قاله أبو صالح. وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك[2]. انتهى.

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك. واللام فيه على حدها في قوله: ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل: ٧٢] لأن المعنى تنزيه الله، لا تنزيه نفوسهم لأجله.

قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: نسبح بحمدك؛ فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء. قال ميمون بن مهران: سبحان الله كلمة يعظم بها الرب، ويحاشى بها من السوء. وقال ابن عباس: هي تنزيه لله من كل سوء، وأصل اللفظة من المباعدة من

---

(١) ١٧٨ شفاء.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢١١) والدر المنثور (١/ ١١٤).

قولهم: سَبَحْتُ في الأرض، إذا تباعدت فيها، ومنه ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] [يس: ٤٠] فمن أثنى على الله ونزّهه عن السوء، فقد سبّحه، ويقال: سبح الله وسبح له، وقدسه وقدس له.

[2]قوله: أي حكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر وإماتة الرسل؟ فكم لله في ذلك من حكمة تضيق بها الأوهام:

فمنها: أنه سبحانه لما جعله محكًّا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليه من عدوه؛ اقتضت حكمته إبقاءه؛ ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته؛ لفات ذلك الغرض. كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم، فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر؛ اقتضت امتحان أولاده من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

ومنها: أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق له طاعة وعبادة جزاه بها في الدنيا؛ بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر؛ فإنه سبحانه لا يظلم أحدًا حسنة عملها، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء، كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي ﷺ.

ومنها: أن إبقاءه لم يكن كرامة في حقه، فإنه لو مات كان خيرًا له وأخف لعذابه وأقل لشرِّه، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية، ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدح في حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأُبْقِيَ في الدنيا، وأُمْلِيَ له ليزداد هذا

---

(١) انظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٦٨٥) ولسان العرب (٢/ ٤٧١).

(٢) ٢٤٠ شفاء.

إثمًا على أثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشرِّ في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر.

ولما كان مادة كل شر فعنه ينشأ جوزي في النار مثل فعله، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ به فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلًا ظاهرًا وحكمة بالغة.

ومنها: أنه قال في مخاصمته لربه: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢] وعلم سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له، وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم، وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي لما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين وهم الذي يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فأما إماتة الأنبياء والمرسلين، فلم يكن ذلك لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته، ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم أتباعهم، وليحيا الرسل بعدهم يرى رسولًا بعد رسول، فأماتتهم أصلح لهم وللأمة. أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولاسيما وقد خيَّرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به. وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم، كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم، بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم في حكمة ومصلحة لهم وللأمم!!

هذا وهم بشر، ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضًا، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في

جعلهم خلائف، ولضاقت بهم الأرض، فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا، ولا هناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة.

الوجه السابع والعشرون: قوله: أي حكمة ومصلحة في إخراج آدم من الجنة إلىٰ دار الابتلاء والامتحان؟

فالجواب أن يقال: كم لله سبحانه في ذلك من حكمة! وكل فيه من نعمة ومصلحة، تعجز العقول عن معرفتها علىٰ التفصيل، ولو استفرغت قواها كلها في معرفة ذلك!

وإهباط آدم وإخراجه من الجنة، كان سبيل كماله ليعود إليها علىٰ أحسن أحواله، وهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته في الأرض، ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضًا، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم، وليست الجنة دار ابتلاء وتكليف، فأخرج الأبوين إلىٰ الدار التي خلقوا منها وفيها؛ ليتزودوا منها إلىٰ الدار التي خلقوا لها، فإذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها، عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها، ولو نشأوا في تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها، فأسكنهم دار الامتحان وعرَّضهم فيها لأمره ونهيه؛ لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته، وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك، لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان، ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة، والعبور علىٰ الصراط نوع آخر من النعيم لا يدرك قدره، وهو أكمل من نعيم من خلق في الجنة من الولدان والحور العين بما لا تشابه بينهما بوجه من الوجوه.

ومن الحكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلًا وأنبياء وشهداء، يحبهم ويحبونه، وينزل عليهم كتبه، ويعهد إليهم عهده، ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون محابه ومراضيه علىٰ شهواتهم وما يحبونه ويهوونه؛ فاقتضت حكمته أن أنزلهم إلىٰ دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم، ليكملوا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته، ويعبدونه بما تكرهه نفوسهم، وذلك محض العبودية، وإلا فمن لا يعبد الله إلا بما يحبه ويهواه، فهو في الحقيقة إنما يعبد نفسه، وهو سبحانه يحب من أوليائه أن

يوالوا فيه، ويعادوا فيه، ويبذلوا نفوسهم في مرضاته ومحابه، وهذا كله لا يحصل في دار النعيم المطلق.

ومن الحكمة في إخراجه من الجنة ما تقدم التنبيه عليه من اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها: كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث، ولابد من ظهور أثر هذه الأسماء ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمته أن إنزال الأبوين من الجنة؛ ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تربت الذرية في الجنة لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام.

وأيضًا فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تامًّا، فإن الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال، وهذا كله إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم، منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره: أن أعمال الرسل والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة. قالوا: لأن نعيم الجنة حظهم وتمتعهم، فأين يقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات وقراءة القرآن والجهاد في سبيل الله، وبذل النفوس في مرضاته وإيثاره على هواها وشهواتها؟ فالإيمان متعلق به سبحانه، وهو حقه عليهم، ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم، فهم إنما خلقوا للعبادة، والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضًا فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة، وأعلم بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه؛ لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قدَّر سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم، فمن أسبابه

النهي عن تلك الشجرة، وتخليته بينه وبين عدوه حتىٰ وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتىٰ وقع في المعصية، وكانت تلك الأسباب موصلة إلىٰ غايات محمودة مطلوبة، يترتب علىٰ خروجه من الجنة، ثم يترتب علىٰ خروجه أسباب أخر جُعلت غايات لحكم أخر، ومن تلك الغايات عوده إليها علىٰ أكمل الوجوه، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة، التي يحمده عليها أهل السماوات والأرض والدنيا والآخرة، فما قدّر أحكم الحاكمين ذلك باطلًا، ولا دبره عبثًا، ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضا فإنه سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي علىٰ الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه؛ بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب، ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائمًا وقاعدًا وعلىٰ جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء، ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة وغلبات الهوىٰ وتعاضد الطباع لأحكامها ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يُظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلونه، ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر، فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها، فلابد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به.

وأيضًا فإنه سبحانه لما خَلَق خَلْقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلًا، جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية، التي يأتون بها طوعًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا.

ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني، يخيره بين أن يكون عبدًا رسولًا أو ملكًا نبيًّا، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدًا رسولًا، وذكره سبحانه بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله: كمقام الدعوة والتحدي والإسراء وإنزال القرآن ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١] فأثنى عليه ونوَّه الله لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة: «**اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»(١).

فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها، كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة تنكيلًا لهم وإتمامًا لنعمته عليهم مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه يحب إجابة الدعوات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات، وتكفير السيئات، ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز، وإذلال من يستحق الذل، ونصر المظلوم، وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه، فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على الشيء

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

لابد منه، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة كما أن إيجاد لوازم العدل، من العدل، كما ستقف عليه في فصل إيلام الأطفال، إن شاء الله.

(١)ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه، وأخبر فيها: أن امتناع إبليس من السجود كان كبرًا منه وكفرًا ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنُّتاً، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه.

وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب علي ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة:

أحدها: أن دعواه كونه خيرًا من آدم دعوى كاذبة باطلة، واستدلاله عليها بكونه مخلوقًا من نار وآدم من طين استدلال باطل وليست النار خيرًا من الطين والتراب؛ بل التراب خير من النار، وأفضل عنصرًا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه: أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم والآت معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة، ولا عمَّا يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقًا، وقد يستغنى عنها الإنسان الأيام والشهور، فلا تدعوه إليها الضرورة، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان.

---

(١) ١٣٩ بدائع جـ٤.

الخامس: أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفًا، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته، ولم تُبق ولم نذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به فيكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل، فالتراب أكمل منها.

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب، وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونًا من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب، وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوى، فيميل معه كيفما مال، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره قهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب وقهر هواه وأسره ورجع إلى ربه، فاجتباه واصطفاه، فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضًا سريع الزوال، فزال وكان الثبات والرزانة أصليًّا له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره: آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع؛ فالشر كامن فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه، كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر.

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعًا أو موضعين، ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين:

تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان، وهم المقوون النازلون بالقواء وهي: الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله[1]، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصًا، وأخبر أنه بارك فيها عمومًا، فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت: ٩،١٠] فهذه بركة عامة. وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ [سبأ:١٨] وقوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلًا، بل المشهور أنها مُذهبة للبركة ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وُضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها.

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبّح له فيها بالغُدو والآصال عمومًا، وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا فيه وهدى للعالمين خصوصًا، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفضلًا على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يُودع في النار شيئًا منه، فأي روضة

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٣٦) ولسان العرب (١٥/ ٢١٠- ٢١١) ومختار الصحاح (ص ٢٣٣) وعمدة القاري (٦/ ٤٦٣).

وجدت في النار أو جنة، أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد، أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة؟!

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمة ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته، رأى صورة الطين ترابًا ممتزجًا بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركّب من أصلين الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة! فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل.

وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جدًّا، وإنما أشرنا إليها إشارة، ثم لو سلّم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرًا من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة، والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خُلُقًا وخَلْقًا.

وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور، وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب.

فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم؛ فعارض حكمه الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصًّا وعقلًا.

وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء، الذي ما رمي العبد بشر منه، ولأن يلقىٰ الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به، أسلم له من أن يلقي الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله تعالىٰ إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه؛ إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه، والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة، أقوىٰ من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم.

فالعالم يتدبر سر تكرير الله تعالىٰ لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس، وهو لا يشعر فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالىٰ ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله عن عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم علىٰ الله، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرّضه وذريته لأنواع المحن والبلاء، أعطاهم أفضل مما منعهم، وهو عهده الذي عهد إليه وإلىٰ بنيه، وأخبر أنه من تمسك به صار إلىٰ رضوانه ودار كرامته. قال تعالىٰ عقب إخراجه منها: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]. وفي الآية الأخرىٰ قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ

(١) ٣٢ مفتاح جـ١.

بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦]، فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهده إليهم، فقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [طه: ١٢٣] وهذه هي إن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان.

والمعنى: أي وقت وأي حين أتاكم مني هدى، وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية، وهي قوله: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣].

[(١)]ومتابعة هدي الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله.

وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر. ويتبعهما أمران آخران: وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال، فهنا أربعة أمور:

أحدها: تصديق الخبر.

الثاني: بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والإنس في معارضته.

الثالث: طاعة الأمر.

والرابع: مجاهدة النفس في دفع الشهوات، التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة، وهذان الأمران أعني: الشبهات والشهوات، أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن الأصلين الأولين وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر، أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده.

وذلك أن العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل، فالشبهة تؤثر فسادًا

---

(١) ٤٠ مفتاح جـ١.

في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها.

قال الله تعالى في حق نبيه، يذكر ما منَّ به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ١، ٢] فـ﴿ما ضل﴾ دليل على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحق المبين، ﴿وما غوى﴾ دليل على كمال رشده، وأنه أبر العالمين، فهو الكامل في علمه وفي عمله.

(١) وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٢٩]، وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١]. والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره، وقفوته، وقصصته. بمعنى: تبعت خلفه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١، ٢] أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها. ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا أي: يتبع، وسمي تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا، لا يخرجها جملة واحدة؛ بل يتبع بعضها بعضًا مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى.

وهذه التلاوة وسيلة وطريقة، والمقصود التلاوة الحقيقية، وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاءً بنهيه وائتمامًا به، حيث ما قادك انقدت

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ ١.

معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة[(١)]، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًّا.

***

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

[(٢)]قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ثم قال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ وكلا الخطابين لأبوي الثقلين، وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم، كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق للعقاب.

وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة؟ فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة، وحُكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى[(٣)].

---

(١) ويكفي في الثناء عليهم أنهم أهل الله وخاصته، وكما ورد من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» أخرجه الحاكم (١/ ٧٤٣ رقم ٢٠٤٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧ رقم ٨٠٣١) وابن ماجه (رقم ٢١٥) وأحمد (٣/ ١٢٧ ، ٢٤٢) والطيالسي (رقم ٢١٢٤) وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٣١ رقم ٢٢٠٩) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٩): هذا إسناد صحيح رجاله موثقون.

(٢) ٣٧ مفتاح جـ ١.

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة، لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة، والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الإنس، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢).

واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: هذه الآية، فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى، وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط، ولا خلاف أن مؤمنيهم لا يعاقبون.. لأنا نقول: لو لم تدل الآية إلا على أمر عدمي فقط لم يكن مدحًا لمؤمني الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي، وهو عدم الخوف والحزن، ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به: أن من اتبع هدى الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة؛ لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهدًا؛ من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء، ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم، ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخبارًا بقوله: أن[1] من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب، كان ذلك حاصلًا بقوله: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١]، بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلابد من دخوله الجنة.

(١) لعلها (إخباراً مقررًا له أن) . ج.

الثالث: قوله تعالىٰ في الحور العين: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤] فهذا يدل علىٰ أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور، فدل علىٰ أن مؤمنيهم يتأتىٰ منهم طمث الحور العين بعد الدخول، كما يتأتىٰ من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك[1].

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ [الجن: ١٤] فكما دخل كافرهم في الآية الثانية، وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولىٰ.

الخامس: قوله عن صالحيهم: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٤] والرشد هو الهدىٰ والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد؛ بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس: قوله تعالىٰ: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد: ٢١] ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله، فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥]. عم سبحانه بالدعوة، وخص بالهداية المفضية إليها، فمن هداه

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٥٠-١٦٣) والدر المنثور (٧/ ٧١١-٧١٢).

إليها، فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٢].

وهذا عام في الجن والإنس، فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله، فاقتضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله، كما لمحسن الإنس.

التاسع: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة:

أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة، ليدل على أنه مستحق بها، وهو قول: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته، فإذا كان دخول الجنة مرتبًا على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره، فمن أتى ذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ فدلَّ على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وأنه متناول للفريقين، ودلّت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى، فإن رحمته سبقت غضبه[١] والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار، وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرًا قط[٢]؛ بل ينشيء لها أقواما يسكنهم إياها من غير عمل عملوه[٣]. ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه[٤]، بخلاف أهل النار فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلًا.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي» أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٢) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٥) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل لم يعمل خيرًا قط: فإذا مات فحرقوه واذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فليه، ثم قال: لم فعلت؟ قال: من خشيتك، وأنت أعلم. فغفر له»، أخرجه البخاري (رقم ٧٥٠٦) ومسلم (رقم ٣٤٨١).

(٣) فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقًا فيكسنهم فضل الجنة» أخرجه البخاري (رقم ٧٣٨٤) ومسلم (رقم ٢٨٤٨).

(٤) فعن عثمان ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل قال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت، فهو الآن يسأل» أخرجه الضياء في المختارة (١/ ٥٢٢ رقم ٣٨٨) وأبو داود (رقم ٣٢٢١) والبيهقي في الكبرى (٤/٥٦ رقم ٦٨٥٦) وفي إثبات عذاب القبر (رقم ٤٠، ٢١٢) والحاكم (١/ ٥٢٦ رقم ١٣٧٢) وصححه.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنّى هذا؟! فيقال: باستغفار ولدك لك» أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٦٦٠) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢١٠ رقم ٥١٠٨) وأحمد (٢/ ٥٠٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٠): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم ابن بهدلة وقد وثق وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٩٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وصححه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٤٣).

وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله بما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة(١) يراهم أهل الجنة ولا يرونهم، كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

(٢) وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

وفي السنن: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة»(٣) وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها، والصلاة مجلبة للرزق حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدّة للقوى، شارحة للصدر مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية، إلا كان حظ المصلي منهما أقل، وعاقبته أسلم، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولاسيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٤٦).
(٢) ٣٦٢ زاد المعاد جـ٣.
(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٣١٩) وأحمد (٥/ ٣٨٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٥٤ رقم ٣١٨١) وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٧٢).

استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة.

وسر ذلك: أن الصلاة صلة بالله ﷻ، وعلى قدر صلة العبد بربه ﷻ، تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه ﷻ، والعافية والصحة والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه، ومسارعة إليه.

[(١)] وهو[(٢)] أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥].

[(٣)] ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[(٤)] والثريد ـ وإن كان مركبًا ـ فإنه مركب من خبز ولحم، فالخبز أفضل الأقوات، واللحم سيد الإدام، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية.

وتنازع الناس أيهما أفضل؟ والصواب: أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم، واللحم أجل وأفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وهو طعام أهل الجنة، وقد قال تعالى لمن طلب البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. وكثير من السلف على أن الفوم: الحنطة[(٥)]، وعلى هذا: فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة. اهـ.

***

(١) ٣١٧ مدارج جـ٢. وقد بحث الشيخ في زاد المعاد بحثًا واسعًا ذكر فوائده الدينية والدنيوية ص٣٦٧ جـ٣.

(٢) وهو. أي الصبر.

(٣) ٣٧٧ زاد المعاد جـ٣.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٧٠) ومسلم (رقم ٢٤٤٦) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٠٧-١٠٨) وشرح النووي (١٥/ ١٩٩).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١١) وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٢) وفتح الباري (٨/ ١٦٢) ولسان العرب (١٢/ ٤٦٠).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

[(١)]من تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم أنهم قيل لهم[(٢)]، وهم مع نبيهم، والوحي ينزل عليه من الله تعالىٰ: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [البقرة: ٥٨]. قال قتادة، وابن زيد، والسدي، وابن جرير وغيرهم: هي قرية بيت المقدس[(٣)] ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ أي هنيئًا واسعًا ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال السدي: هو باب من أبواب بيت المقدس[(٤)]، وكذلك قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال: والسجود بمعنىٰ الركوع، وأصل السجود: الانحناء لمن تعظمه، فكل منحن لشيء تعظيما له فهو ساجد، قاله ابن جرير وغيره[(٥)].

قلت: وعلىٰ هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام، أحدهما لصاحبه من السجود المحرم، وفيه نهي صريح عن النبي ﷺ[(٦)].

ثم قيل لهم: ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ أي: حط عنا خطايانا، هذا قول الحسن، وقتادة وعطاء[(٧)]. وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: «لا إله إلا الله»[(٨)] وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحطُّ بها الخطايا وهي كلمة التوحيد. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أمروا بالاستغفار».

---

(١) ٣٠٨ إغاثة جـ٢.
(٢) أي: اليهود.
(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٩٠).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٩٩) (٦/ ١٠).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٠٠).
(٦) انظر: فيض القدير (٥/ ٤٩٩).
(٧) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٠٠).
(٨) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٠٠) وأخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ١٥٦٢، ١٥٦٤).

وعلى القولين: فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم، فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أمروا به، فروى البخاري في صحيحه ومسلم أيضًا من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدًا، وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة»**[(١)]، فبدلوا القول والفعل معًا، فأنزل الله عليهم رجزًا من السماء.

قال أبو العالية: هو الغضب، وقال ابن زيد: هو الطاعون[(٢)]. وعلى هذا، فالطاعون بالرصدِ لمن بدَّل دين الله قولًا وعملًا.

***

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليه الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثُّوم والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء، فسألوه موسى عليه السلام. وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسى عليه السلام

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٠٣) ومسلم (رقم (٣٠١٥).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠٠-١٠١).

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ أي: مصرًا من الأمصار ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأنتان والأقذار، سقفهم الذي يظلهم من الشمس: الغمام، وطعامهم: السلوى، وشرابهم: المن. قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء، يقال له: المن، وطعامهم: طير، يقال له: السلوى، يأكلون الطير، ويشربون العسل، لم يكن لهم خبز ولا غيره(١). ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عينًا من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذموا على ذلك، فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغيَّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والبدعة بالسنة(٢)، وخدمة المخلوق بخدمة الخالق، والعيش النكد الفاني في هذه الدار بحظه من العيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى؟!

(٣)الصابئة: قد اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيرًا، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم، فقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم صنف من النصارى.

وقال في موضع: ينظر في أمرهم، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٣١٠).

(٢) بالنسخة المعتمدة: (والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار)، والصواب: ما أثبتناه؛ لأن الصحيح في اللغة هو دخول الباء على المتروك كما قال من قبل: الضلال بالهدى، والغي بالرشاد، والشرك بالتوحيد. والمفهوم: بل المراد، أنهم تركوا السنة، وخدمة الخالق، والعيش الطيب، كما تركوا الهدى، والرشاد، والتوحيد، فقد أنكر الله على قوم صنيعهم هذا، فقال سبحانه: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١].

(٣) ١٩٢ أحكام جـ١.

ولكنهم يخالفونهم في الفروع، فتؤخذ منهم الجزية؛ وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يقروا على دينهم ببذل الجزية[١].

واختلف أصحابه فقال أبو سعيد الأصطخري: ليسوا من النصارى، ولا يجوز إقرارهم على دينهم، قال: لأنهم يقولون: إن الفلك حي ناطق، وإن الكواكب السبعة آلهة، فهم في حكم عبدة الأوثان[٢]. واستفتى القاهر بالله العباسي الفقهاء فيهم، فأفتاه أبو سعيد أنهم لا يقرون، فأمر بقتلهم، فبذلوا مالًا عظيما فتركهم.

وأما أقوال السلف فيهم، فذكر سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: هم قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين[٣]. وفي تفسير شيبان، عن قتادة قال: الصابئة قوم يعبدون الملائكة[٤].

قال محمد بن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل، فقال بعضهم: يلزم كل من خرج من دين إلى دين غير دينه. وقالوا: الذي عنى الله بهذا الاسم قوم لا دين لهم، ثم ذكر عن عبد الرزاق، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: الصابئون قوم ليسوا يهود ولا نصارى ولا دين لهم[٥].

وحكي عن حجاج، عن مجاهد قال: الصابئون بين المجوس واليهود، لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم[٦]. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: الصابئون زعموا أنهم

(١) انظر: المغني (٧/ ١٠٠) (٩/ ٢٦٣).
(٢) انظر: المغني (٩/ ٢٦٤).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٢٥ رقم ١٠٢٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: الدر المنثور (١/ ١٨٣).
(٤) انظر: تفسير الصنعاني (٣/ ٣٩) وتفسير الطبري (١/ ٣١٩-٣٢٠) وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٥) وعمدة القاري (٤/ ٣٣١).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٩).
(٦) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٩).

ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارىٰ، قال: قد سمعنا ذلك.

وقال ابن وهب: قال ابن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم. وقال سعيد، عن قتادة: هم يعبدون الملائكة ويصلون إلىٰ القبلة ويقرؤون الزبور(١). وقال سفيان عن السدي: هم طائفة من أهل الكتاب.

وقال ابن جرير: الصابئ المستحدث سوىٰ دينه دينًا، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه؛ وكل خارج من دين كان عليه إلىٰ آخر غيره تسميه العرب صابئًا، يقال: منه: صبأ فلان يصبأ صبأ، ويقال: صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأ علينا فلان إذا طلع(٢).

قلت: الصابئة أمة كبيرة، فيهم السعيد والشقي، وهي إحدىٰ الأمم المنقسمة إلىٰ مؤمن وكافر، فإن الأمم قبل مبعث النبي ﷺ نوعان:

نوع كفار أشقياء كلهم، ليس فيهم سعيد، كعبدة الأوثان والمجوس.

ونوع منقسمون إلىٰ سعيد وشقي، وهم اليهود والنصارىٰ والصابئة.

وقد ذكر الله سبحانه النوعين في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢] وكذلك قال في المائدة. وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٩).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٨-٣١٠).

فلم يقل ها هنا: من آمن منهم[١] بالله واليوم الآخر، لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا، فذكر ست أمم: منهم اثنتان شقيتان، وأربع منهم منقسمة إلىٰ شقي وسعيد، وحيث وعد أهل الإيمان والعمل الصالح منهم بالأجر؛ ذكرهم أربع أمم ليس إلا. ففي آية الفصل بين الأمم أدخل معهم الأمتين، وفي آية الوعد بالجزاء لم يدخلهما معهم، فعلم أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، وهذه أمة قديمة قبل اليهود والنصارىٰ، وهم أنواع: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون. وكانت حران دار مملكة هؤلاء قبل المسيح، ولهم كتب وتآليف وعلوم.

وكان في بغداد منهم طائفة كبيرة: منهم إبراهيم بن هلال الصابئ صاحب «الرسائل»، وكان علىٰ دينهم، ويصوم رمضان مع المسلمين، وأكثرهم فلاسفة، ولهم مقالات مشهورة ذكرها أصحاب المقالات[٢].

وجملة أمرهم أنهم لا يكذبون الأنبياء ولا يوجبون اتباعهم. وعندهم أن من اتبعهم فهو سعيد ناج، وأن من أدرك بعقله ما دعوا إليه فوافقهم فيه وعمل بوصاياهم، فهو سعيد وإن لم يتقيد بهم.

فعندهم: دعوة الأنبياء حق، ولا تتعين طريقًا للنجاة، وهم يقرون أن للعالم صانعًا مدبرًا حكيمًا منزهًا عن مماثلة المصنوعات، ولكن كثيرًا منهم أو أكثرهم قالوا: نحن عاجزون عن الوصول إلىٰ جلاله بدون الوسائط، والواجب التقرب إليه بتوسط الروحانيين المقدسين المطهرين عن المواد الجسمانية، المبرئين عن القوىٰ الجسدية، المنزهين عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية، بل قد جبلوا علىٰ الطهارة، وفطروا علىٰ التقديس.

قالوا: وإنما أرشدنا إليهم معلمنا الأول «هرمس»، فنحن نتقرب إليهم وبهم، وهم

---

(١) ما ذكره الشيخ ابن القيم يلفت النظر؛ حيث لم يكن في الآيات الأولىٰ ذكر (منهم) فلا أدري كيف هذا؟ (ج).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٢٣) وأبجد العلوم (٣/ ٦٣).

آلهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشبهات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوة العصبية، حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات، فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبو في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم، وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا برياضتنا وفطام أنفسنا عن دنيات الشهوات: وذلك إنما يتم بالاستمداد من جهة الروحانيات، والاستمداد هو التضرع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والصيام عن المطعومات والمشروبات.

[(١)]وأما الصابئة فأهل حران وكثير من بلاد الروم، وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها، وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة، ودين الحنفاء لا يعرف فيهم البتة، وهذه الأديان الخمسة كلها للشيطان. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الأديان ستة: واحد للرحمن وخمسة للشيطان[(٢)]، وهذه الأديان الستة مذكورة في آية الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

فلما بعث الله رسوله ﷺ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعًا واختيارًا، ولم يكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه، امتثالًا لأمر ربه سبحانه، حيث يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين، نزلت هذه الآية في

---

(١) ١١ هداية.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٦) إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة.

رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك، حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام(١).

والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ، تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧]. ولما قدم المدينة صالح اليهود، وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم. وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والمقصود: أنه ﷺ لم يكره أحدًا على الدخول في دينه البتة وإنما دخل الناس في دينه اختيارًا وطوعًا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى، وأنه رسول الله حقًّا. فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية، أو أكثرهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه**

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٥٢ رقم ١٤٠) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٢٥) وأبو داود (رقم ٢٦٨٢) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٨٦ رقم ١٨٤١٩) وانظر: تفسير الطبري (٣/ ١٤-١٥) والدر المنثور (٢/ ٢٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٣١١-٣١٢).

شهادة: أن لا إله إلا الله» وذكر الحديث(١).

ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله بن سلام، مذكورون في كتب السير والمغازي...

(٢)أمر الله ﷻ بتلقي أوامره بالعزم والجد، فقال: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣] وقال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢]، أي: بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

***

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

(٣)من تلاعبه بهذه الأمة أيضًا ما قصه الله تعالى علينا من قصة أصحاب السبت، حتى مسخهم قِردةً لما تحيلوا على استحلال محارم الله تعالى.

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج الحرام، والدم الحرام. وذلك أعظم إثمًا من مجرد العمل يوم السبت. ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال، مسخهم الله تعالى قردةً، وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يومًا واحدًا، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت، وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه، فإنه يرسلها عليه بالقدر

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٥٨) ومسلم (رقم ١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٣، ٣٥٨) وعمدة القاري (٩/ ٩٣).

(٢) ٤٧٠ مدارج جـ١.

(٣) ٣١٧ إغاثة جـ٢.

تزدلف إليه بأيها يبدأ. فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكلية، ومن ههنا قيل: من طلبه كله فاته كله.

[(١)] قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، قال: رموا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء، فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها فأكلوها ـ والله ـ أَوْخَمَ أكلةٍ، أسرعت في الدنيا عقوبة وأسرعت عذابًا في الآخرة، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا أنه عجَّل لهؤلاء وأخَّر لهؤلاء[(٢)].

وقوله: «رموها في السبت» يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضًا ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت؛ إذ لو اجترءوا على ذلك لاستخرجوها.

قال شيخنا: وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى، وإنما فعلوا ذلك تأويلًا واحتيالًا، ظاهرهُ ظاهرُ الاتقاء، وحقيقته حقيقة الاعتداء، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله؛ بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته؛ مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة، جزاءً وفاقًا.

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة، لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرمًا كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة

---

(١) ١٧٤ أعلام جـ٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٠٠ رقم ٣٥٣٢٣) وانظر: تفسير الطبري (٩/ ٩٨-٩٩) والدر المنثور (٣/ ٥٩١).

المنافقين يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب؛ بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالمًا بتحريمه، فإنه يقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم وخشيته لله واستغفاره وتوبته يومًا ما واعترافه بأنه مذنب عاصٍ، وانكسار قلبه من ذل المعصية، وازدراؤه على نفسه، ورجاؤه لمغفرة ربه له، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين، وهذا كله إيمان يُفضي بصاحبه إلى خير، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله، ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل، فقال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**»[(١)]. وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها، نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن لله يومًا تكع فيه الرجال، وتنسف فيه الجبال، وتترادف فيه الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، ويصير الباطل فيه ظاهرًا، والسر علانية، والمستور مكشوفًا، والمجهول معروفًا، ويحصل ويبدو ما في الصدور، كما يبعثر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال. وتسود وجوه بما في

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٩٢) إلى ابن بطة، وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٠٨): وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح. وأعاد ابن كثير هذا الكلام في تفسيره (٢/ ٢٥٨) وزاد عليه: ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا، وحسنه المصنف ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (٩/ ٢٤٤).

قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال[(١)]، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

[(٢)]من تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا ما قصّه الله ﷻ في كتابه من قصة القتيل

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعني يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٩١) وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما (٥/ ٥٢٩ رقم ٨٩٨٦) واللالكائي بلفظ قريب عن ابن عباس (رقم ٧٤) والخطيب البغدادي في تاريخه (٧/ ٣٧٩ رقم ٣٩٠٨) وانظر: مفتاح الجنة للسيوطي (ص ٦٥).

(٢) ٣١٤ إغاثة جـ٢.

الـذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها، وفي هذه القصة أنواع من العبر.

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارًا وإنذارًا للضال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: اعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب[(١)]، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية: «لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»[(٢)].

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٣٠، ٤٧، ٨٨، ١٣٨) وعمدة القاري (١/ ٧٣، ٢١٦) وسبل السلام (٢/ ٨٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٣٨، ٣٤٨) وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٩).

بالإنكار، وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ [البقرة: ٦٧] قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦٧]، فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردّة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بيت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهلٌ ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾، وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال وليس الأمر كما قال عندنا؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلًا منهم وهفوة من هفواتهم[1].

***

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٥٤).

بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

[(1)]قال تعالىٰ في أصحاب الطريقين: ﴿ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].
ثم قال في أهل الطريق الثاني: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٧٨].

ثم قال في المصنفين الذين يصنفون ما لا يعلم أن الرسول قاله وجاء به؛ بل يعلم أن الرسول جاء بخلافه: الآية. ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩]، فهذه الطريق المذمومة التي سلكها علماء اليهود، وقد سلكها أشباههم من هذه الأمة تحقيقًا لقول الصادق المصدوق: «**لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**»[(2)]. وفي لفظ آخر: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»[(3)] وكثير من هؤلاء الأشباه يحرفون كلام الله ويكتمونه، لئلا يحتج به عليهم في خلاف أهوائهم.

فتارة يغل كتب الآثار التي فيها كلام رسول الله ﷺ وكلام أصحابه والتابعين وأئمة

(١) ٣٤٩ مختصر الصواعق جـ٢.
(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة (رقم ٤٦) والبخاري بلفظ قريب (رقم ٧٣١٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٠-٣٠١) وشرح النووي (١٦/ ٢١٩).
(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٦ رقم ٨٤٤٨) وصححه، وصححه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٥١) (٤/ ٤٩١) وانظر: فيض القدير (٥/ ٢٩٥) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٨).

السنة، ويمنع من إظهارها، وربما أعدمها، وربما عاقب من كتبها أو وجدها عنده كما شاهدناه منهم عيانًا. وكثير من هؤلاء يمنع من تبليغ الأحاديث النبوية وتفسير القرآن بالآثار والأخبار، حتىٰ إذا جاءت تفاسير الجهمية والمعتزلة ونحوهم بالغ في مدحها، وقال: إن التحقيق فيها.

وما لم يمكنهم منعه من الكتاب والسنة وكتمانه سطوا عليه بالتحريف، وتأولوه علىٰ غير تأويله، ثم يعتمدون علىٰ آثار موضوعة مكذوبة علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه موافقة لأهوائهم وبدعهم، فيقولون: هذا من عند الله، ويحتجون به ويضعون قواعد ابتدعوها وآراء اخترعوها ويسمونها: أصل الدين، وهي أضر شيء علىٰ الدين.

***

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ

وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة: ٨٠]. فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما؛ فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولًا على الله بلا علم فيكون كاذبًا، وإما أن يكون مستندًا إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتفٍ قطعًا، فتعين أن يكون خبرًا كاذبًا، قائله كاذب على الله تعالى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب؛ فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق: أن لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يجليه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضًا من الأسر، فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين، وأخذوا بالثالث؛ فقتل بعضهم بعضًا، وأخرجه من دياره، ثم فادوا أسراهم، لأن الله أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم، فلِمَ قتلتم بعضكم بعضًا، وأخرجتموهم من ديارهم، والله قد نهاكم عن ذلك؟ والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه، فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ

(١) ١٤٣ بدائع جـ ٤.

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]، فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك علىٰ ما ادعيت سوىٰ التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان القول موافقًا لما تهواه وتشتهيه: إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم، لا جواب له عليهما البتة؛ فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعًا للهوىٰ والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

***

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

(١) قد اختلف في معنىٰ قولهم: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾.

فقالت طائفة: المعنىٰ: قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك؟ وعلىٰ هذا فيكون غلف جمع غلاف.

والصحيح قول أكثر المفسرين: أن المعنىٰ: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول؛ وعلىٰ هذا فهو جمع أغلف كأحمر وحمر. وقال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف كما يقال: سيف أغلف، وقوس أغلف، ورجل أغلف غير مختون[٢]. قال ابن عباس

(١) ٩٣ شفاء.

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص٢٠٠).

وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول[١].

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ ﴾ [فصلت: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي ﴾ [الكهف: ١٠١] ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة؛ فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف أي: أوعية للعلم؟ والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافًا؛ أن يكون داخله العلم والحكمة، وهذا ظاهر جدًّا.

فإن قيل: فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه. وأما على القول الآخر فظاهر أي: ليست قلوبكم محلًّا للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته بل جعل قلوبهم داخلة في غلف، فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليه الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان، فأكذبهم الله، وقال: ﴿ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ [النساء: ١٥٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ [البقرة: ٨٨] فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله؛ إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان؛ فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة. والمعنى: لم نخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه؛ ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه؛ ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

***

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٢٤).

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

(١) هذه حجة أخرىٰ علىٰ اليهود في تكذيبهم بمحمد، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته، فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالًا، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقًّا كان استفتاحهم به باطلًا، فإن كان استفتاحهم به حقًّا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلًا فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة، ويمكن تقريرها علىٰ صور عديدة:

منها: أن يقال: قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به، فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

الثانية: أن يقال: كنتم تستفتحون به، وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استناداً إلىٰ ما عندكم من العلم بظهوره؛ فلما شاهدتموه وصار المعلوم معاينًا بالرؤية؛ فالتصديق به حينئذ يكون أولىٰ، فكفرتم به عند كمال المعرفة وآمنتم به حين كانت غيبًا لم تكمل، فآمنتم به علىٰ تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا؟!(٢)

التاسعة: أن يقال الاستفتاح به تصديق وإقرار بنبوته، وتكذيبه جحد وكفر بها، والإيمان والتصديق برسالة الرجل الواحد والتكذيب والجحد بها، مستلزم للكفر ولابد، فإنه يستلزم أحد الأمرين: إما التصديق بنبوة من ليس بنبي، وإما جحد نبوة من هو نبي، وأيهما كان فهو كفر، وقد أقررتم علىٰ أنفسكم بالكفر ولا بد، فلعنه الله علىٰ الكافرين.

العاشرة: تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف،

---

(١) ١٤٤ بدائع جـ٤.

(٢) اختصرنا كلام الشيخ من الثالثة إلىٰ الثامنة، وهو موجود بالأصل. (ج).

فيقال لهم: ألستم كنتم تستفتحون به؟ فيقولون: بلى، فيقال: أليس الاستفتاح به إيمان به؟ فلابد من الاعتراف بذلك. فيقال: أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبل وجوده موجبًا عليكم الإيمان به؟ فلابد من الاعتراف أو العناد الصريح، وليس لأعداء الله على هذه الوجوه اعتراض البتة، سوى أن قالوا: هذا كله حق، ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به، وهذا من أعظم البهت والعناد؛ فإن الصفات والعلامات التي فيه طابقت ما كانت عندهم مطابقة المعلوم لعلمه، فإنكار أن يكون هو إنما يكون جحدًا للحق وإنكارًا له باللسان والقلب يعرفه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ والمادة الحق يمكن إبرازها في الصورة المتعددة، وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان، والحمد لله المانِّ بالهدى على عباده المؤمنين.

وتأمل قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾ كيف تجد تحته برهانًا عظيمًا على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه، مع تباعد زمانها وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي، أو من أخذ عنه وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة، ولو كان ذلك؛ لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذًا، عن بشر أن يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره، فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود: أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معًا.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته، صدقًا لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه؛ إذا تجرد الإخبار، فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق، أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول، فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول فكيف إذا بشر به الأول؟ فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه؟ نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها، والله أعلم.

***

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن كفرهم شكًّا ولا اشتباهًا، ولكن بغيًا منهم، حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة: ١٠١] فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم؛ دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم، تقول إذا خاطبت من عصاك عمدًا: كأنك لم تعلم ما فعلت، أو كأنك لم تعلم بنهيي إياك، ومنه على أحد القولين قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٢، ٨٣].

قال السدي: يعني محمدًا ﷺ، واختاره الزجاج فقال: يعرفون أن أمر محمدٍ ﷺ حق، ثم ينكرون ذلك، وأول الآية يشهد لهذا القول(٢).

---

(١) ٩١ مفتاح جـ١.

(٢) انظر: لسان العرب (١٢/ ٥٨١).

[(١)] ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام، وقتلهم لهما، حتى سلط الله عليهم بختنصر، وسنجاريب وجنودهما، فنالوا منهم ما نالوه. ثم ما[(٢)] كان منهم في شأن المسيح ورميه وأمه بالعظائم، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم، فكفروا به بغيًا وعنادًا، وراموا قتله وصلبه، فصانه الله تعالى من ذلك، ورفعه إليه، وطهره منهم. فأوقعوا القتل والصَّلب على شبهه، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى ﷺ؛ فانتقم الله تعالى منهم، ودمّر عليهم أعظم تدمير، وألزمهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح؛ كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سفال ونقص إلى أن قطعهم الله تعالى في الأرض أممًا، ومزَّقهم كل ممزق، وسلبهم عزهم وملكهم، فلم يقم لهم بعد ذلك ملك إلى أن بعث الله تعالى محمدًا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فكفروا به وكذبوه، فأتمَّ عليهم غضبه، ودمَّرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلًّا وصغارًا لا يرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويطهر الأرض منهم، ومن عباد الصليب.

قال تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة: ٩٠]. فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني: بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

---

(١) ٣١٩ إغاثة جـ٢.

(٢) بالنسخة: (ثم كان منهم) بدون (ما) وقد أثبتناها لتمام المعنى.

وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

(١) قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١] هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود لما قال لهم: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾، فأجابوه بأن قالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾، ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين، دل عليهما قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إلى آخر الآية. قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق؛ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد، لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان؛ فلزمكم الإيمان بالحقين جميعًا أو الكفر الصراح.

وفي وقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ نكتة بديعة جدًّا، وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذًا لم يتبعوا الحق

(١) ١٤٨ بدائع جـ٤.

فيما أنزل عليهم، ولا فيما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني، وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه؛ الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني؛ وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض؛ لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يردُّ آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي؛ فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له؛ فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة، وإن كانت هذه عذرًا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها، وكما أنه لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم؛ فكذلك لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله. فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم، يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١].

ووجه النقض: أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل، وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم فلا آمنتم بما أنزل إليكم، ولا بما أنزل على محمد ﷺ؟ ثم كأنه توقع منهم الجواب: بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته ولم نكذب به، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم؛ بأن موسى قد جاءكم بالبينات وما لا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم، وأشركتم بالله وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه، فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

[البقرة: ٩٢]، فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤] كانوا يقولون: نحن أحباء الله، ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة، ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم: إن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، بالمطالبة وتقسيم الأمر: بين أن يكون لهم عند الله تعالى عهد عهده إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوه عليه بما لا يعلمون، ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد، فتعين الثاني وقد تقدم.

ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لاسيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به؛ بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه، فحيث لم يحب ذلك ولم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه.

ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردا عليهم قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨] يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه[١]. وههنا نكتة لطيفة جدًّا قل من ينتبه لها، نحن نقررها بسؤال وجواب.

فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهجران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب، من المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٦٥) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٥) وفيض القدير (٣/ ٢٧٦).

متعبداتهم ويسبون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه، ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها وعتوها على الله واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم. فالتأديب شيء، والتعذيب شيء، والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون.

وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ، وهي: أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرًا جزمًا أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله: من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين! فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضًا معجزة أخرى، وهي: أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم، فلم ترده قلوبهم، ولم تنطق به ألسنتهم تصديقًا لقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]. **قلت**: هذه الآية فيها للناس كلام معروف.

قالوا: إنها معجزة للنبي ﷺ، أعجز بها اليهود، ودعاهم إلى تمني الموت، وأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً، وهذا علم من أعلام نبوته، إذ لا يمكن الاطلاع على بواطنهم إلا بأخبار الغيب، ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنيه أبدًا.

وقالت طائفة: لما ادعت اليهود: أن لهم الدار الآخرة عند الله، خالصة من دون الناس، وأنهم أبناؤه وأحباؤه وأهل كرامته، كذبهم الله في دعواهم، وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت؛ لتصلوا إلى الجنة دار النعيم، فإن الحبيب يتمنى لقاء حبيبه. ثم أخبر سبحانه: أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة

بينهم وبين ما قالوه، فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥].

وقالت طائفة منهم ـ محمد بن إسحاق وغيره ـ: هذه من جنس آية المباهلة، وأنهم لما عاندوا، ودفعوا الهدى عيانًا، وكتموا الحق: دعاهم إلى أمر يحكم بينهم وبينه، وهو أن يدعو بالموت على الكاذب المفتري، و«التمني» سؤال ودعاء، فتمنوا الموت، وادعوا به على المبطل الكاذب المفتري.

وعلى هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم خاصة، كما قاله أصحاب القولين الأولين. بل معناه: ادعوا بالموت وتمنوه للمبطل، وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق، وأسلم من أن يعارضوا رسول الله بقولهم: فتمنوه أنتم أيضًا، إن كنتم محقين أنكم أهل الجنة، لتقدموا على ثواب الله وكرامته، كانوا أحرص شيء على معارضته، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

وأيضًا فإنا نشاهد كثيرًا منهم يتمنى الموت لضره وبلائه، وشدة حاله، ويدعو به، وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة، فإن هذا لا يكون أبدًا، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي ﷺ البتة؛ وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه، وكفرهم به حسدًا وبغيًا، فلا يتمنوه أبدًا، لعلمهم أنهم هم الكاذبون، وهذا القول هو الذي نختاره، والله أعلم بما أراد من كتابه.

[(١)]قال ابن سعد: وأخبرنا علي بن محمد، عن علي بن مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن سالم مولى عبد الله بن مطيع، عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس[(٢)]، فقال: «أخرجوا إليَّ أعلمكم»، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم، وأطعمهم من المن والسلوى،

---

(١) ٩٤ هداية.

(٢) ومنه حديث اليهودي الزاني: «فوضع مدراسها كفَّه على آية الرجم» المدراس: صاحب دراسة كتبهم. ومفعل ومفعال من أبنية المبالغة. وأما الحديث الآخر: «حتى أتى المدراس» فهو البيت الذي يدرسون فيه. ومفعال غريب في المكان. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ١١٣).

وظللهم من الغمام: «أتعلم أني رسول الله»؟ قال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة، ولكن حسدوك، قال: «فما يمنعك أنت»؟ قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك ويسلموا، فأسلم(١).

وقال أبو الشيخ الأصبهاني: حدثنا أبو يحيى الرازي: حدثنا سهل بن عثمان: حدثنا علي بن مسهر، عن داود، عن الشعبي قال: قال عمر بن الخطاب: كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة التوراة للقرآن وموافقة القرآن للتوراة، فقالوا: يا عمر ما أحد أحب إلينا منك لأنك تغشانا، قلت: إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضًا، فبينا أنا عندهم ذات يوم إذ مرَّ رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك، فقلت: أنشدكم الله وما أنزل عليكم من الكتاب أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيدهم: قد نشدكم الله فأخبروه، فقالوا: أنت سيدنا فأخبره، فقال: إنا نعلم أنه رسول الله، قلت: فإني أهلككم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله لِمَ لم تتبعوه؟! قالوا: إن لنا عدوًّا من الملائكه وسلمًا من الملائكة، عدونا جبريل وهو ملك الفظاظة والغلظة، وسلمنا ميكائيل وهو ملك الرأفة واللين. قلت: فإني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل، ولا لميكائيل أن يعادي سلم جبريل، ولا أن يسالم عدوه، ثم قمت فاستقبلني رسول الله ﷺ فقال: «ألا أقرئك آيات نزلت عليَّ قبل»؟ فتلا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] الآية. فقلت: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود، قال عمر: فلقد رأيتني أشد في دين الله من حجر(٢).

وذكر أبو نعيم من حديث عمرو بن عبسة قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية، وعرفت أنها على الباطل، يعبدون الحجارة وهي لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلًا من

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٦٤) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣/ ٤١٧-٤١٨) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٣٣) وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٤٩-٥٠ رقم ١٤٦٨) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٣٢).

أهل الكتاب، فسألته عن أفضل الدين؟ فقال: يخرج رجل من مكة ويرغب عن آلهة قومه، يأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي هم إلا مكة آتيها فأسأل: هل حدث فيها خبر؟ فيقولون: لا، فأنصرف إلى أهلي، وأعترض الركبان، فأسألهم، فيقولون: لا، فإني لقاعد إذ مر بي راكب، فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة، قلت: هل حَدَثَ حدثٌ فيها؟ قال: نعم رجل رغب عن آلهة قومه، ودعا إلى غيرها، قلت: صاحبي الذي أريد، فشددت راحلتي، وجئت فأسلمت(١).

***

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

(٢)إذا كان الحكم مستغربًا جدًّا مما لم تألفه النفوس، وإنما ألفت خلافه؛ فينبغي للمفتي أن يوطِّئ قبله ما يكون مؤذنًا به كالدليل عليه والمقدمة بين يديه، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة، وبلوغه السن الذي لا يولد فيه لمثله في العادة، فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير

---

(١) أخرجه الطبراني بلفظ قريب في مسند الشاميين (٢/ ٣٠-٣١ رقم ٨٦٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٦/ ٢٦٢) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٢١٧-٢١٨) وانظر: التمهيد (٤/ ٥٢).

(٢) ١٦٣أعلام: جـ٤.

أب، فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يُولد لهما عادة سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب.

وكذلك ذكر سبحانه قبل قصة المسيح، موافاة مريم رزقها في غير وقته وغير إبَّانه، هذا الذي شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان في غير إبَّانه.

وتأمل قصة نسخ القبلة لما كانت شديدة على النفوس جدًّا، كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات:

منها: ذكر النسخ.

ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر، الثاني كما كان صالحًا للأول.

ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله، كما اعترض من قبلهم على موسى، بل أمرهم بالتسليم والانقياد.

ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود، وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودون أن يردوهم كفارًا من بعد ما تبين لهم الحق.

ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره.

ومنها: إخباره سبحانه عن سعته، وأنه حيث ولى المصلِّي وجهه فثمّ وجهه تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين: الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية؛ بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

ومنها: أنه ﷻ حذر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحي إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

ومنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وسفَّه مَنْ يرغب عنها، وأمر باتباعها، فنوَّه بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه

من المقاصد الجليلة والمطالب السنية.

ثم ذكر فضل هذه الأمة، وأنهم الأمة الوَسَط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ، أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكتابهم كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك، فظهرت المناسبة شرعًا وقدرًا في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية، وظهرت حكمته الباهرة، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى.

والمقصود أن المفتي جدير أن يذكر بين يدي الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنس به، وتدل عليه، وتكون توطئة بين يديه، وبالله التوفيق.

(١)في سياق الآيات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم، ومعاداة الرب تعالى لمن أعزهم أو والاهم أو ولَّاهم أمور المسلمين. قال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم (٢)﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال تعالى لرسوله: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) ٢٣٨ أحكام جـ١.

(٢) يأتي البحث على هذه الآية، وما شاكلها عند البحث في الحسد والمنافسة والغبطة في سورة المطففين ـ إن شاء الله تعالى ـ ويأتي أيضًا في سورة الفلق. ج.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى مبشرًا لمن والاهم بالعذاب الأليم: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٧، ٥٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨٠، ٨١].

وقال تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾[التوبة: ٨-١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[التوبة: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[المجادلة: ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[المجادلة: ١٤، ١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿... قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة: ١-٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾[الممتحنة: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١١٩، ١٢٠].

وقد أخبر سبحانه عن أهل الكتاب، أنهم يعتقدون أنهم ليس عليهم إثم ولا خطيئة في خيانة المسلمين وأخذ أموالهم، فقال تعالىٰ: ﴿۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

والآيات في هذا كثيرة، وفي بعض هذا كفاية.

ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعًا من توليهم، وقد حكم تعالىٰ بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا.

ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارىٰ الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج وأعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان، لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال، وهذا الملك (الصالح) كان في دولته نصراني يسمىٰ محاضر الدولة أبا الفضائل بن دخان، ولم يكن في المباشرين أمكن منه، وكان المذكور قذاةً في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين، ومثالبه في الصحف مسطورة، ومخازيه مخلدة مذكورة، حتىٰ بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلىٰ دين النصرانية، وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين وأعمالهم وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها، وكان مجلسه معمورًا برسل

الفرنج والنصارى، وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات؛ وأكابر المسلمين محجوبون على الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام، فاجتمع به بعض أكابر الكتاب فلامه على ذلك، وحذره من سوء عاقبة صنعه، فلم يزده ذلك إلا تمردًا، فلم يمض على ذلك إلا يسير، حتى اجتمع في مجلس (الصالح) أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء، فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى، فبسط لسانه في ذلك، وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق، وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب ولا يدرونه على الحقيقة، لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدًا، والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وأول أمانتهم وعقد دينهم: بسم الأب والابن وروح القدس، إله واحد، فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء، وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا ... حدَ رب الورى تعالى ثلاثـة[1]

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارًا، وأخذ لنفسه اثنين، ولاسيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟

وانصرف القوم، واتفق أن كبت بالنصراني بطنته، وظهرت خيانته، فأريق دمه: وسُلِّط على وجوده عدمه، وفيه يقول عمارة اليمني:

قل لابن دخان إذا جئته ... ووجهه يندى من القَرقفِ
لم تكفك الدنيا ولو أنها ... أضعاف ما في سورة الزخرف
فاصفع قفا الذل ولو أنه ... بين قفا القسيس والأسقفِ
ملَّكك الدهر سُبال الورى ... فاحلق لحاهم آمنًا وانتفِ
خلالي لك الديوان من ناظر ... مستيقظ العزم ومن مشرفِ

(١) لم أقف على قائله.

فاكسب وحصل وادخر واكتنز ... واسرق وخُنْ وابطش ولا تضعف
وابك وقل ما صح لي درهم ... فرد، وصلِّب وابتهل واحلف
واغتنم الفرصة من قبل أن ... تقضي على الإنجيل والمصحف[(١)]

***

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

[(٢)]هذه دعوى كل واحدة من الطائفتين: أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانيًّا. فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه، مع أمن اللبس ووضوح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى، فقال: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل، فمن ادعى دعوى بلا

(١) هذه الأبيات من بحر السريع، وتنسب إلى عمارة بن علي بن زيدان الحكمي اليمني، مؤرخ ثقة وشاعر فقيه أديب، قدم إلى مصر إلى الفائز الفاطمي فأحسن إليه الفاطميون وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم ومدحهم حتى دالت دولتهم، وملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية فرثاهم عمارة واتفق مع سبعة من أعيان المصريين على الفتك بصلاح الدين، فعلم بهم فقبض عليهم وصلبهم بالقاهرة سنة ٥٦٩هـ.

(٢) ١٥٠ بدائع جـ٤.

دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقًا فيما ادعيت، ويحتج بهذه الآية من يقول بلزوم النافي الدليل، كما يلزم المثبت.

وحكوا في ذلك ثلاثة مذاهب، ثالثها يلزمه في الشرعيات دون العقليات، واستدلالهم بالآية لا يصح؛ لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد؛ بل ادعوا دعوى مضمونها: إثبات دخولهم هم الجنة وأن غيرهم لن يدخلها، فطولبوا بالدليل الدال على هذه الدعوة المركبة من النفي والإثبات، وصاحب هذه الدعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس، وإنما الخلاف في النفي المجرد.

ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] لكان أقرب مع كونه متضمنًا للنفي والإثبات، لكن الدعوى فيه إنما توجهت إلى النفي.

ومقصود الكلام: أنا لا نعذب بعد تلك الأيام، فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعذيب تلك الأيام؛ بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها، وذلك نفي محض، فلذلك قلنا: إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية.

وبعد فالتحقيق في مسألة النافي: هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان:

نوع: مستلزم لإثبات ضد المنفي، فهذا يلزم النافي فيه الدليل، كمن نفى الإباحة، فإنه يطالب بالدليل قطعًا؛ لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها ولابد من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم، ولابد له من دليل.

النوع الثاني: نفي لا يستلزم ثبوتًا: كنفي صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات، فالنافي إن نفى العلم به لم يلزمه دليل، وإن نفى المعلوم نفسه وادعى أنه منتف في نفس الأمر فلابد له من دليل.

(١)**المثال الخامس**: وجه الرب جلَّ جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة، فليس بمجاز بل على حقيقته، واختلف المعطلون: في جهة التجوز في هذا، فقالت طائفة:

---

(١) ١٧٤ مختصر الصواعق جـ٢.

لفظ الوجه زائد، والتقدير: ويبقى ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلى، ويريدون ربهم.

وقالت فرقة أخرى منهم: الوجه بمعنى الذات، وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه.

وقالت فرقة: ثوابه وجزاؤه، فجعله هؤلاء مخلوقًا منفصلاً، قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب، وهذه أقوال، نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها.

قال عثمان بن سعيد الدارمي، وقد حكى قول بشر المريسي، أنه قال في قول النبي ﷺ: «**إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه**»[1]: يحتمل أن يقبل الله عليه بنعمته وإحسانه وأفعاله، وما أوجب للمصلي من الثواب، فقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، أي ما توجه به إلى ربك من الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، أي: قبلة الله[2].

قال الدارمي: لما فرغ المريسي من إنكار اليدين ونفيهما عن الله، أقبل قبل وجه الله ذي الجلال والإكرام لينفيه عنه، كما نفى عنه اليدين، فلم يدع غاية في إنكار وجه الله ذي الجلال والإكرام والجحود به، حتى ادعى أن وجه الله الذي وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام مخلوق، لأنه ادعى أنه أعمال مخلوقة يتوجه بها إليه، وثواب وإنعام مخلوق يثيب به العامل، وزعم أنه قبلة الله، وقبلة الله لا شك مخلوقة، ثم ساق الكلام في الرد عليه[3].

والقول بأن: لفظ الوجه مجاز، باطل من وجوه:

أحدها: أن المجاز لا يمتنع نفيه، فعلى هذا لا يمتنع أن يقال: ليس لله وجه، ولا حقيقة

---

(١) أخرجه البزار (٧/ ٢٩٥ رقم ٢٨٨٩) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٨٩) وابن ماجه (رقم ١٠٢٣) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٨٠): رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي وقد أجمعوا على ضعفه، وانظر: عمدة القاري (٥/ ٣١١).

(٢) انظر: نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد (٢/ ٧٠٣-٧٠٥).

(٣) انظر: نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد (٢/ ٧٠٦).

لوجهه، وهذا تكذيب صريح لما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسول الله ﷺ.

الثاني: أنه خروج عن الأصل والظاهر بلا موجب.

الثالث: أن ذلك يستلزم كون حياته وسمعه وبصره وقدرته وكلامه وإرادته وسائر صفاته مجازًا لا حقيقة، كما تقدم تقريره.

الرابع: أن دعوى المعطل أن الوجه صلة، كذب على الله وعلى رسوله وعلى اللغة، فإن هذه الكلمة ليست مما عهد زيادتها.

الخامس: أنه لو ساغ ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله: أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التقدير أعوذ بالله، ويدعي معطل آخر الزيادة في سمعه وبصره وغير ذلك.

السادس: أن هذا يتضمن إلغاء وجهه الكريم لفظًا ومعنى، وأن لفظه زائد ومعناه منتف.

[1]إنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسِّرة للآية مشتقة منها، كقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه»[2]. وقوله: «فالله يُقبلُ عليه بوجهه ما لم يصرفْ وجهه عنه»[3]. وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قِبل وجهه»[4]. وقوله: «فإن الله بينه وبين القبلة»[5]. وقوله: «إن الله يأمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا

---

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٨٧ رقم ٩٤٣) وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٤٦ رقم ٨٨٠) وأبو داود (رقم ٤٨٠) وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٢٧٨ رقم ٩٩٣) وأحمد (٣/ ٢٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ١٢١) وابن شبة في أخبار المدينة (رقم ٤٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٦٩ رقم ٩٣٤٥) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٠٩-٢١٠ رقم ٧٩٣): رواه الطبراني في الكبير موقوفًا عن أبي قلابة عن ابن مسعود، ولم يسمع منه، وكذا قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٨١).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٠٨).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٥) ومسلم (رقم ٤٩٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٠٨) وعمدة القاري (٤/ ١٤٨-١٤٩).

تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»[(١)] رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «إن العبد إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يحدث حدث سوء»[(٢)]. وقال جابر ﷺ، عن النبي ﷺ: «إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه، فإذا التفت أعرض الله عنه، وقال: يا ابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه، فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه، فإذا التفت أعرض الله عنه»[(٣)]. وقال ابن عمر، عن النبي ﷺ: «إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه وجه الرحمن»[(٤)]. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له: ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت»[(٥)].

...[(٦)]بقي النظر في ترجيح أحد قولي الاجتهاد والتخيير في مسألة القبلة على الآخر، فمن نصر التخيير احتج بما في الترمذي وسنن ابن ماجه، عن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلَّى كل رجل

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٤٤ رقم ٤٨٣) (٢/ ٦٤ رقم ٩٣٠) والترمذي (رقم ٢٨٦٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٤٢٧) وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٠٧-٢٠٨ رقم ٧٨٥) رواه الترمذي وهذا لفظه، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي ببعضه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ١٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٢٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ١٤٢ رقم ٧٤٥٤) والبزار (٧/ ٢٩٥ رقم ٢٨٨٩).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٩٩ ولفظه: «إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه القبلة، فإن تجاهه الرحمن، ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٥٠٨) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٧٠) وانظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٢٥٨) وقال ابن أبي الدنيا: إسناده ضعيف جدًّا.

(٦) ٣٦٠ بدائع جـ٣.

على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فنزل ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[١] [البقرة: ١١٥] قال الترمذي: هذا حديث حسن، إلا إنه من حديث أشعث السمان، وفيه ضعف.

وروى الدارقطني، من حديث عطاء، عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منا على حدة، وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، فقال: «قد أجزأتكم صلاتكم»[٢]، قال الدارقطني: رواه محمد بن سالم، عن عطاء.

قال: ويروى أيضًا، عن محمد بن عبد الله العزرمي، عن عطاء، وكلاهما ضعيف، وقال العقيلي: لا يروى متن هذا الحديث من وجه يثبت[٣].

واحتجوا أيضًا بما تقدم حكايته أن الله لم يأمر بالاستقبال إلا من كان عالمًا به وقادرًا عليه، وأما العاجز الجاهل فساقط عنه فرض الاستقبال فلا يكلَّف به.

ومن نصر الاجتهاد احتج بأن الله تعالى أوجب على العبد أن يتقيه ما استطاع، وهذا مقتضى وجوب الاجتهاد عليه في تقوى ربه تعالى، والتقوى هي: فعل ما أمر وترك ما نهى.

قالوا: وأيضًا فإنه من المعلوم أنه إذا قام إلى الصلاة، لم يجز له أن يستقبل أي جهة شاء ابتداء؛ بل ينظر إلى مطالع الكواكب ومساقطها وسمت جهة القبلة، حتى إذا علم جهتها استقبلها وهذا نوع اجتهاد، وأدلة الجهة متفاوتة الخفاء والظهور، فيجب على

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٥، ٢٩٥٧) والطبري في تفسيره (١/ ٥٠٣-٥٠٤) وقال ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٢٩٧ رقم ٤٢٨): قال الترمذي: هذا حديث حسن ليس إسناده بذاك، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث السمان يُضعَّف في الحديث، وكذا قال ابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٣١٦).

(٢) أخرجه الدارقطني (١/ ٢٧١ رقم ٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ١٠ رقم ٢٠٦٧) وقال رحمه الله: تفرد به محمد بن سالم ومحمد بن عبيد الله العرزمي عن عطاء وهما ضعيفان. وانظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٢٩٩) والتحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٣١٧) والمغني (١/ ٢٦٧).

(٣) انظر: التحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٣١٦) والمغني (١/ ٢٦٨).

كل أحد فعل مقدوره من ذلك، فإن لم يصبها قطعًا أصابها ظنًا، وهو الذي يقدر عليه، فمتى ترك مقدوره لم يكن قد اتقى الله بحسب استطاعته.

وقولكم: إن الله إنما أوجب الاستقبال على القادر عليه العالم به.

قلنا: الله ﷻ أوجب على كل عبد ما تؤديه إليه استطاعته من طاعته، فإذا عجز عن هذا اليقين وأدلة الجهة سقط عنه؛ ولكن من أين يسقط عنه بذل وسعه ومقدوره اللائق به؟

***

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

[1]رد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد، ونزّه نفسه عنه، ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد:

أحدها: كون ما في السموات والأرض ملكًا له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه فلا يكون مخلوقًا له مملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره، فهذا من أبطل الباطل.

وأكد مضمون هذه الحجة بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] فهذا تقرير لعبوديتهم له، وأنهم مملوكون مربوبون، ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله تعالى من أعظم الإشراك به، فإن المشرك به جعل له شريكًا من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك، كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم: (**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك**)[2] فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكًا له عبدًا مخلوقًا.

---

(١) ١٥٢ بدائع جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٨٥) وانظر: شرح النووي (٨/ ٩٠).

والنصارىٰ جعلوا له شريكًا هو نظيره، وجزء من أجزائه. كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون؛ استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن الله تعالىٰ ما في السموات وما في الأرض؛ لزمه أن يقر له بالتوحيد ولابد.

ولهذا يحتج سبحانه علىٰ المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] سيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذا في موضعه.

الحجة الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، وهذه من أبلغ الحجج علىٰ استحالة نسبة الولد إليه؛ ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد؟!

ووجه تقرير هذه الحجة: أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما، وفطرهما وابتدعهما، فهو قادر علىٰ اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما البتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا؛ مع أنه تعالىٰ بديع العالم العلوي والسفلي، وفاطره ومخترعه وبارئه؟ فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب، حتىٰ يقولوا: إنه ولده، فإذا كان قد ابتدع العالم علويه وسفليه، فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي؟

فمن نسب الولد لله، فما عرف الرب تعالىٰ ولا آمن به ولا عبده. فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج علىٰ استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر، وهو أن يقال: إذا كان نسبة السموات

والأرض وما فيهما إليه، إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع؛ أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة؛ وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك.

وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول: النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٦٨] فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه، ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته، وكمال غناه وكمال قدرته، ولذلك كانت نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى.

كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى شتمني عبدي ابن آدم، وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته**»(١).

وقال عمر بن خطاب ﷺ في النصارى: «أذلوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله مسبةً ما سبَّه إياها أحد من البشر»(٢).

قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الكهف: ٤، ٥] الآية. وأخبر تعالى أن السموات كادت تنفطر من قولهم هذا، وتنشق الأرض منه، وتخر الجبال هدًّا، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتنقص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩٣).

(٢) لم أجده من قول عمر ﷺ، ولكن رواه الطبراني عن معاذ بلفظ قريب في مسند الشاميين (رقم ١٠٤١) وانظر: غريب الحديث للخطابي (٢/ ٣١١) وغريب الحديث للحربي (٣/ ١٠٧٤).

الحجة الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وتقرير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالىٰ كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: ﴿كُن﴾ فأي حاجة به إلىٰ ولد وهو لا يتكثر به من قلة ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلىٰ الولد من لا يخلق، ولا إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر علىٰ تكوين ما أراد.

وقد ذكر تعالىٰ حججًا أخرىٰ علىٰ استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في هذا الموضع: منها: كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء، واستحالة نسبة الصاحبة إليه، فقال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] الآية.

فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر؛ فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقًا بل جزءًا، وهذا ينافي كونه خالق كل شيء.

وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة؛ شر من النصارىٰ، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقًا لله، وقوله أخبث من قول النصارىٰ؛ لأن النصارىٰ أخرجوا عن عموم خلقه شخصًا واحدًا أو شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقًا لله، والنصارىٰ لم يصل كفرهم إلىٰ هذا الحد.

وأما منافاة عدم الصاحبة للولد فظاهر أيضًا؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين: فاعل، ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصًّا، فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد؛ ولذلك لما فهم عوام النصارىٰ أن الابن يستلزم الصاحبة؛ لم يستنكفوا من دعوىٰ كون مريم إلهة وأنها والدة الإله عيسى، فيقول عوامهم: يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب.

ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، أو إثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم، فخواص النصارىٰ في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم: ﴿ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

وأما منافاة عموم علمه تعالىٰ للولد فيحتاج إلىٰ فهم خاص. وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل شيء عليم، وهو تعالىٰ لا يعلم له ولدًا فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء علىٰ نفيه في نفسه، إذ لو كان لعلمه، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن.

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [يونس: ١٨] الآية. فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالىٰ بهم، المستلزم لنفي المعلوم ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك؛ لأنه تعالىٰ إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد. وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب فالرب تعالىٰ لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه، فهو يعلمه مستحيلًا لا يعلمه واقعًا؛ إذ لو علمه واقعًا لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال.

فهذه حجج الرب تبارك وتعالىٰ علىٰ بطلان ما نسبه إليه أعداؤه والمفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيرًا، ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضل سبيلًا.

فالحمد لله الذي أغنىٰ عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيانه عن

شقاشق المتكلمين[(١)]، وهذيانات المتهوكين[(٢)]، فلقد عظمت نعمة الله تعالىٰ علىٰ عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلىٰ غيره ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

***

﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

[(٣)]لا خلاف بين أهل اللغة أن الذرية يقال على الأولاد الصغار، وعلى الكبار أيضًا، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]، وقال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٢، ٣]. وهل تقال الذرية على الآباء؟ فيه قولان: أحدهما أنهم يسمون ذرية أيضًا.

واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]. وأنكر ذلك جماعة من أهل اللغة، وقالوا: لا يجوز هذا في اللغة، والذرية

---

(١) فعن عمر ﷺ قال: الشقاشق في الكلام من شقاشق الشيطان، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٠٠ رقم ٢٦٢٩٥) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ١٥٢) قال ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ٥٥٥): قال الأزهري: شبه الذي يتفيهق في كلامه، ولا يبالي ما قال من صدق أو كذب بالشيطان، وانظر: لسان العرب (١٠/ ١٨٥).

(٢) قال ابن الأثير رحمه الله في النهاية (٥/ ٢٨١): التهوك: كالتهور وهو الوقوع في الأمر بغير روية، المتهوك: الذي يقع في كل أمر، وقيل: هو التحير. وانظر: لسان العرب (١٠/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٣) ١٥٠ جلاء الأفهام.

كالنسل، والعقب لا يكون إلا للعمود الأسفل، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، فذكر جهات النسب الثلاث من فوق، ومن أسفل، ومن الأطراف. قالوا: وأما الآية التي استشهدتم بها فلا دليل لكم فيها، لأن الذرية فيها لم تضف إليهم بوجه ما، والإضافة تكون بأدنىٰ ملابسة واختصاص، وإذا كان الشاعر قد أضاف الكوكب في قوله:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحره ... سهيل أذاعت غزلها في القرائب[1]

فأضاف إليها الكوكب؛ لأنها كانت تغزل إذا لاح وظهر، والاسم قد يضاف بوجهين مختلفين إلىٰ شيئين، وجهة إضافته إلىٰ أحدهما غير جهة إضافته إلىٰ الآخر. قال أبو طالب في النبي ﷺ:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يُعْنىٰ بقول الأباطل[2]

فأضاف بنوته بجهة غير جهة إضافته إلىٰ أبيه عبد الله.

وهكذا لفظة رسول الله، فإن الله سبحانه يضيفه إليه تارة كقوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ [المائدة: ١٥]، وتارة إلىٰ المرسل إليهم كقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، فإضافته سبحانه إليه إضافة رسول إلىٰ مرسله، وإضافته إليهم إضافة رسول إلىٰ مرسل إليهم.

وكذا لفظ «كتابه» فإنه يضاف إليه تارة، فيقال كتاب الله، ويضاف إلىٰ العباد تارة فيقال: كتابنا القرآن، وكتابنا خير الكتب، وهذا كثير، فهكذا لفظ الذرية أضيف إليهم بجهة غير الجهة التي أضيف بها إلىٰ آبائهم.

---

(١) ذكره ابن منظور في اللسان (١/ ٦٣٩) ويريد أن المرأة الخرقاء لا تشتغل بالغزل في الصيف، بل تتمادىٰ علىٰ التسويف والتفريط حتىٰ إذا طلع سهيل، وذلك حين يقبل البرد ويأتي الشتاء، قامت هذه المرأة إلىٰ قرائبها ليعنها، وجعلت تفرق عليهن غزلها. فسُمِّي سهيلًا بكوكب الخرقاء لهذه المناسبة.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٦).

وقالت طائفة: بل المراد جنس بني آدم، ولم يقصد الإضافة إلىٰ الموجود في زمن النبي ﷺ، وإنما أريد ذرية الجنس. وقالت طائفة: بل المراد بالذرية نفسها، وهذا أبلغ في قدرته وتعديد نعمه عليهم، أن حمل ذريتهم في الفلك في أصلاب آبائهم، والمعنىٰ: أنا حملنا الذين هم ذرية هؤلاء وهم نطف في أصلاب الآباء، وقد أشبعنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب الروح والنفس. إذا ثبت هذا فالذرية: الأولاد، وأولادهم. وهل يدخل فيها أولاد البنات؟ فيه قولان للعلماء، هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: يدخلون، وهو مذهب الشافعي.

والثاني: لا يدخلون، وهو مذهب أبي حنيفة رحمهم الله تعالىٰ.

واحتج من قال بدخولهم: بأن المسلمين مجمعون علىٰ دخول أولاد فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، المطلوب لهم من الله الصلاة؛ لأن أحدًا من بناته لم يعقب غيرها، فمن انتسب إليه ﷺ من أولاد ابنته، فإنما هو من جهة فاطمة رضي الله عنها خاصة، ولهذا قال النبي ﷺ في الحسن ابن ابنته: «إن ابني هذا سيد»[1] فسماه ابنه. ولما أنزل الله سبحانه آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] الآية. دعا النبي ﷺ فاطمة رضي الله عنها، وحسنًا ﷺ وحسيناً ﷺ وخرج للمباهلة[2].

قالوا: وأيضًا فقد قال تعالىٰ في حق إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥] ومعلوم أن عيسىٰ لم ينتسب إلىٰ إبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

وأما من قال بعدم دخولهم: فحجته أن ولد البنات إنما ينتسبون إلىٰ آبائهم حقيقة، ولهذا إذا ولَّد الهذلي أو التيمي أو العدوي هاشميةً لم يكن ولدها هاشميًّا، فإن الولد في

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٠٤) وانظر: تفسير الصنعاني (١/ ١٢٢) وتفسير الطبري (٣/ ٢٩٨-٣٠١) والدر المنثور (٢/ ٢٣١-٢٣٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٧٢) وفتح الباري (٨/ ٩٤).

النسب يتبع أباه، وفي الحرية والرق أمه، وفي الدين خيرهما دينًا[1]؛ ولهذا قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد[2]

ولو وصى أو وقف على قبيلة لم يدخل فيها أولاد بناتها من غيرها.

قالوا: وأما دخول فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، فلشرف هذا الأصل العظيم والوالد الكريم، الذي لا يدانيه أحد من العالمين، سرى ونفذ إلى أولاد البنات لقوته وجلالته وعظم قدره، ونحن نرى من لا نسبة له إلى هذا الجناب العظيم من العظماء والملوك وغيرهم تسري حرمة إيلادهم وأبوتهم إلى أولاد بناتهم، فتلحظهم العيون بلحظ أبنائهم، ويكادون يضربون عن ذكر آبائهم صفحًا، فما الظن بهذا الإيلاد العظيم قدره الجليل خطره؟

قالوا: وأما تمسككم بدخول المسيح في ذرية إبراهيم فلا حجة لكم فيه، فإن المسيح لم يكن له أب، فنسبه من جهة الأب مستحيل، فقامت أمه مقام أبيه.

وهكذا كل من انقطع نسبه من جهة الأب: إما بلعان، أو غيره، قامت أمه في النسب مقام أبيه، ولهذا تكون في هذه الحال عصبته في أصح الأقوال، وهو إحدى الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله، وهو مقتضى النصوص، وقول ابن مسعود وغيره، والقياس يشهد له بالصحة، لأن النسب في الأصل للأب، فإذا انقطع من جهته عاد إلى الأم، فلو قدر عوده من جهة الأب رجع من الأم إليه، وهكذا.

كما اتفق الناس عليه في الولاء أنه لموالي الأب، فإن تعذر رجوعه إليهم صار لموالي الأم، فإن أمكن عوده إليهم رجع من موالي الأم إلى معدنه وقراره.

ومعلوم أن الولاء فرع على النسب يُحتذى فيه حذوه، فإذا كان عصبات الأم من

---

(١) انظر: عمدة القاري (٨/ ١٦٨) وفيض القدير (٤/ ١١١) والمغني (٩/ ٢٦، ٢٥١).

(٢) ذكره ابن عبد البر في الاستذكار (٥/ ٣٢٥) وابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٤٩) والعيني في عمدة القاري (١٦/ ١٥٦) والمناوي في فيض القدير (١/ ٨٨) وابن قدامة في المغني (٥/ ٣٥٩) (٦/ ١٦٥) وابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ٢٣٠) كلهم ذكروه بلفظ المصنف بينما ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٥٦) بلفظ: «الأجانب» بدل «الأباعد».

الولاء، عصبات لهذا المولى الذي انقطع تعصيبه من جهة موالي أبيه؛ فلأن تكون عصبات الأم من النسب، عصبات لهذا الولد الذي انقطع تعصيبه من جهة أبيه بطريق الأولى، وإلا فكيف يثبت هذا الحكم في الولاء، ولا يثبت في النسب الذي غايته أن يكون شبيهًا به ومفرعًا عليه، وهذا مما يدل على أن القياس الصحيح لا يفارق النص أصلًا، ويدلك على عمق علم الصحابة ﷺ، وبلوغهم في العلم إلى غاية يقصر عن نيلها السباق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[١].

[٢]وتأمل كيف جاء في القرآن: ﴿ وَبَـٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَـٰقَ ﴾ [الصافات: ١١٣] ولم يذكر إسماعيل، وجاء في التوراة ذكر البركة على إسماعيل ولم يذكر إسحاق، كما تقدم حكايته، وعن إسماعيل: «سمعتك هانا باركته» فجاء في التوراة ذكر البركة في إسماعيل إيذانًا بما حصل لبنيه من الخير والبركة، لاسيما خاتمة بركتهم وأعظمها وأجلها برسول الله ﷺ، فنبههم بذلك على ما يكون في بنيه من هذه البركة العظيمة الموافية على لسان المبارك ﷺ، وذكر لنا في القرآن بركته على إسحاق منبهًا لنا على ما حصل في أولاده من نبوة موسى وغيره، وما أوتوه من الكتاب والعلم مستدعيًا من عباده الإيمان بذلك والتصديق به، وأن لا يهملوا معرفة حقوق هذا البيت المبارك وأهل النبوة منهم، ولا يقول القائل: هؤلاء أنبياء بني إسرائيل لا تعلق لنا بهم؛ بل يجب علينا احترامهم وتوقيرهم والإيمان بهم ومحبتهم وموالاتهم والثناء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولما كانت هذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله سبحانه منه بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

(١) سيأتي ذكر خليل الله إبراهيم في سورة الصافات وذكر فضائله وأهل بيته بأوسع من هذا إن شاء الله فراجعه (ج).

(٢) ١٨١ جلاء الأفهام.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم، فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمدًا ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال النبي ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(١) وهذا من خواص هذا البيت.

ومنها: أنه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للعالمين كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته، الذي جعله قيامًا للناس وقبله لهم وحجًّا، فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده بأن يصلوا على أهل هذا البيت، كما صلى على أهل بيتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله، وهذه خاصية لهم.

ومنها: أنه أخرج منهم الأمتين المعظمتين التي لم تخرج من أهل بيت غيرهم. وهم: أمة موسى وأمة محمد. وأمة محمد ﷺ تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله(٢).

ومنها: أن الله سبحانه أبقى عليهم لسان صدق وثناء حسنًا في العالم، فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم والصلاة والسلام عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات].

ومنها: جعل أهل هذا البيت فرقانًا بين الناس، فالسعداء أتباعهم ومحبوهم ومن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣) وعمدة القاري (١٥/ ٢٤٠) (١٦/ ١٧٧).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩ رقم ١١٤٣١) والترمذي (رقم ٣٠٠١) والدارمي (رقم ٢٧٦٠) وابن ماجه (رقم ٤٢٨٨) والحاكم (٤/ ٩٤ رقم ٦٩٨٧) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٥/رقم ١٧٤٩٥) والطبراني في الأوسط (٢/ ١١١ رقم ١٤١٥) (٦/ ٢٧٥-٢٧٦ رقم ٦٤٠٢) وفي الكبير (١٩/ ٤١٩ رقم ١٠١٢) وابن المبارك في المسند (رقم ١٠٦) وأحمد (٣/ ٦١) وعبد بن حميد (رقم ٤٠٩) والحديث حسنه الترمذي وصحَّحه الحاكم وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٢٥) وهو حديث صحيح.

تولاهم. والأشقياء من أبغضهم وأعرض عنهم وعاداهم. فالجنة لهم ولأتباعهم. والنار لأعدائهم ومخالفيهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل ذكرهم مقرونًا بذكره، فيقال: إبراهيم خليل الله ورسوله ونبيه، ومحمد رسول الله وخليله ونبيه، وموسى كليم الله ورسوله. قال تعالىٰ لنبيه يذكره بنعمته عليه: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي[١] فيقال: «**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**» في كلمة الإسلام، وفي الأذان، وفي الخطب، وفي التشهدات، وغير ذلك.

ومنها: أنه سبحانه جعل خلاص خلقه من شقاء الدنيا والآخرة علىٰ أيدي أهل هذا البيت، فلهم علىٰ الناس من النعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها، ولهم المنن الجسام في رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة، والأيدي العظام عندهم التي يجازيهم الله ﷻ عليها.

ومنها: أن كل نفع وعمل صالح وطاعة لله تعالىٰ حصلت في العالم فلهم من الأجر مثل أجور عامليها، فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده.

ومنها: أن الله ﷻ سدَّ جميع الطرق بينه وبين العالمين، وأغلق دونهم الأبواب، فلم يفتح لأحد قط من طريقهم وبابهم.

وقال الجنيد رحمه الله: يقول الله ﷻ لرسوله: «**وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق أو استفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتىٰ يدخلوا خلفك**».

ومنها: أنه سبحانه خصهم من العلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين، فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله وثوابه وعقابه

---

(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول لك: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذكرت معي**» أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧٥ رقم ٣٣٨٢) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٧٢) وأبو يعلىٰ (٢/ ٥٢٢ رقم ١٣٨٠) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح ابن حبان في فتح الباري (٨/ ٧١٢).

وشرعه، ومواقع رضاه وغضبه وملائكته ومخلوقاته منهم، فسبحان من جمع لهم علم الأولين والآخرين.

ومنها: أنه سبحانه خصهم من توحيده ومحبته وقربه والاختصاص به بما لم يخص به أهل بيت سواهم.

ومنها: أنه سبحانه مكّن لهم في الأرض واستخلفهم فيها، وأطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه أيدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بما لم يؤيد غيرهم.

ومنها: أنه سبحانه محا بهم من آثار أهل الضلال والشرك ومن الآثار التي يبغضها ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.

ومنها: أنه سبحانه غرس لهم من المحبة والإجلال والتعظيم في قلوب العالمين، ما لم يغرسه لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببًا لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم، فإذا ذهبت آثارهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم، قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ [المائدة: ٩٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «**لو ترك الناس كلهم الحج لوقعت السماء على الأرض**»(١). وقال: «**لو ترك الناس كلهم الحج لما نظروا**»(٢).

وأخبر النبي ﷺ، أن في آخر الزمان يرفع الله بيته من الأرض، وكلامه من المصاحف، وصدور الرجال(٣)، فلا يبقى له في الأرض بيت يُحج، ولا كلام يُتلى،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٩).

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١/ ٣٨٣-٣٨٤ رقم ٨١١) وفيه: لو ترك الناس الحج عامًا واحدًا ما نوظروا، وذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٢٠٧) عن ابن عمر، وقال: غريب، بينما ذكر عن ابن عباس قوله: لو ترك الناس زيارة هذا البيت عامًا واحدًا ما مطروا.

(٣) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة (١/ ٣٤٣) عن عمرو بن العاص قال: إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة، وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٢٥).

فحينئذ يقرب خراب العالم.

وهكذا الناس اليوم إنما قيامهم بقيام آثار نبيهم وشرائعه بينهم، وقيام أمورهم زحصول مصالحهم واندفاع أنواع البلاء والشر عنهم؛ بحسب ظهورها بينهم وقيامها، وهلاكهم وعنتهم وحلول البلاء والشر بهم عند تعطلها والإعراض عنها والتحاكم إلى غيرها واتخاذ سواها.

ومن تأمل تسليط الله سبحانه على من سلطه على البلاد والعباد من الأعداء؛ علم أن ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيهم وسننه وشرائعه؛ فسلط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم، حتى إن البلاد التي لآثار النبي ﷺ، وسننه وشرائعه فيها ظهور، دفع عنها بحسب ظهور ذلك بينهم.

وهذه الخصائص وأضعاف أضعافها من آثار رحمة الله وبركاته على أهل هذا البيت، فلهذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نطلب له من الله تعالى أن يبارك عليه وعلى آله، كما بارك على هذا البيت المعظم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن بركات أهل هذا البيت أنه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدنيا والآخرة، ما لم يظهره على يدي أهل بيت غيرهم. ومن بركاتهم وخصائصهم أن الله سبحانه أعطاهم من خصائصهم، ما لم يعط غيرهم.

فمنهم: من اتخذه خليلًا، ومنهم الذبيح، ومنهم من كلمه تكليمًا، وقربه نجيًّا. ومنهم: من أتاه شطر الحسن وجعله من أكرم الناس عليه. ومنهم: من آتاه ملكًا لم يؤته أحدًا غيره، ومنهم من رفعه مكانًا عليًّا.

ولما ذكر ﷺ هذا البيت وذريته أخبر أن كلهم فضله على العالمين.

ومن خصائصهم وبركاتهم على أهل الأرض، أن الله سبحانه رفع العذاب العام عن أهل الأرض بهم وببعثتهم، وكانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنهم إذا كذبوا أنبياءهم ورسلهم أهلكهم بعذاب يعمهم، كما فعل بقوم نوح وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط؛ فلما أنزل الله التوراة والإنجيل والقرآن، رفع بها العذاب العام عن

أهل الأرض، وأمر بجهاد من كذبهم وخالفهم، فكان ذلك نصرة لهم بأيديهم، وشفاء لصدورهم، واتخاذ الشهداء منهم وإهلاك عدوهم بأيديهم لتحصيل محابه سبحانه على أيديهم.

وحق لأهل بيت هذا بعض فضائلهم وخصائصهم؛ أن لا تزال الألسن رطبة بالصلاة عليهم والسلام والثناء والتعظيم، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبتهم وإجلالهم، وأن يعرف المصلي عليهم أنه لو أنفق أنفاسه كلها في الصلاة عليهم ما وفّى القليل من حقهم، فجزاهم الله عن بريته أفضل الجزاء، وزادهم في الملأ الأعلى تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا، وصلى عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

***

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

[(١)]قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ فأجيبوا عن هذه الدعوة بقوله: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]. وهذا

---

(١) ١٥٥ بدائع جـ٤.

الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة:

أما المنع فما تضمنه حرف (بل) من الإضراب، أي: ليس الأمر كما قالوا: وأما المعارضة ففي قوله: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي: يتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا. وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب، مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية؛ لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد، فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي، لا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره؛ فيُعبد وحده، ويُحب وحده، ويُطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟ ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد، وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضًا لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هودًا أو نصارى.

فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فقال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١٤٠] الآية. وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا... ﴾ إلى قوله: ﴿... وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

فإن قالوا: فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم.

فأجيبوا عن هذا بقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ... ﴾ إلى قوله: ﴿... وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] فهذه للمؤمنين. ثم قال: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ

ٱهۡتَدَواْ﴾ [البقرة: ١٣٧] وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به، فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء، وإنما هم في شقاق وعداوة، فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يفرق بين أحد منهم، فيؤمن ببعضهم، ويكفر ببعضهم، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم، مشاق لمن هو على ملته.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] أي: الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل، وأنهم لم يكونوا يهودًا ولا نصارى، فالله تعالى يعلم ذلك فلو كانوا يهودًا أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم، هذا مع أن عندكم شهادة وبينة من الله تعالى بما كان عليه إبراهيم، وبأن هذا النبي على ملته، ولكنكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم؛ فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها، ولا أظلم ممن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله؛ إلا أنه كتمها من الله، فالمجرور متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول.

[(١)]قوله تعالى: ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ وليس له مثل والجواب من أوجه:

الأول: أن المراد به التبكيت والمعنى: حصلوا دينًا آخر مثله وهو لا يمكن.

الثاني: أن المثل صلة.

الثالث: أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فإن آمنوا بالتوراة من غر تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

الرابع: أن المراد: إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين، روى ابن جرير أن ابن عباس قال: قولوا فإن آمنوا بالذي آمنتم به[(٢)]، قال عبد الجبار: ولا يجوز ترك القراءة المتواترة.

---

(١) ٢٠٨ بدائع الفوائد.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٥٦٩) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٣١) والخطيب البغدادي في تاريخه (٧/ ٢٩١) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٣٩) وفتح الباري (١٣/ ٣٥٦).

(١) الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، وكمَّل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل الفطرة التي فطرهم عليها، ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم، وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله ﷻ لما عاهد إبراهيم ووعد أن يجعله للناس إمامًا، وعده أن يكون أبًا لشعوب كثيرة، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختتنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسمًا في أجسادهم، فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨] على الختان.

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعباد الصليب، فهم يطهرون أولادهم بزعمهم حين يصبغونهم في ماء المعمودية، ويقولون: الآن صار نصرانيًّا، فشرع الله سبحانه للحنفاء صبغة الحنيفية، وجعل ميسمها الختان، فقال: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (٢).

وقد جعل الله سبحانه السمات علامات لمن يضاف إليه المعلم بها، ولهذا الناس يسمون دوابهم ومواشيهم بأنواع السمات، حتى ما يكون مضاف منها إلى كل إنسان معروفًا بسمته، ثم قد تكون هذه السمة متوارثة في أمة بعد أمة.

فجعل الله سبحانه الختان علمًا لمن يضاف إليه وإلى دينه وملته، وينسب إليه بنسبة العبودية والحنيفية، حتى إذا جهلت حال إنسان في دينه عرف بسمة الختان ودينه، وكانت العرب تدعى بأمة الختان.

ولهذا في حديث هرقل: إني أجد ملك الختان قد ظهر، فقال له أصحابه: لا يهمنك هذا، فإنما تختتن اليهود فاقتلهم، فبينما هم على ذلك، وإذا برسول رسول الله ﷺ قد

(١) ١٠٩ تحفة المودود.

(٢) انظر: تفسير الصنعاني (١/ ٦٠) وتفسير الطبري (١/ ٥٦٥-٥٦٦) وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٢ رقم ١٠٦٢٣) (١٠/ ٣٤٥٤ رقم ١٩٤٢٩).

جاء بكتابه، فأمر به أن يكشف وينظر هل هو مختون؟ فوجد مختونًا، فلما أخبره أن العرب تختتن، قال هذا ملك هذه الأمة(١).

ولما كانت وقعة أجنادين بين المسلمين والروم جعل هشام بن العاص يقول: يا معشر المسلمين! إن هؤلاء القلف لا صبر لهم على السيف(٢)، فذكرهم بشعار عباد الصليب ودينهم، وجعله مما يوجب إقدام الحنفاء عليهم وتطهر الأرض منهم. والمقصود: أن صبغة الله هي الحنيفية التي صبغت القلوب بمعرفته ومحبته والإخلاص له وعبادته وحده لا شريك له.

وصبغة الأبدان بخصال الفطرة: من الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الآباط والمضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء، فظهرت فطرة الله على قلوب الحنفاء وأبدانهم.

قال محمد بن جرير في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ يعني بالصبغة: صبغة الإسلام، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالها جعلتهم في مبالهم، وتزعم أن ذلك مما يقدس بمنزلة الختان لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ، لما قال اليهود والنصارى: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ...﴾ إلى قوله: ﴿... صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾(٣) [البقرة: ١٣٥-١٣٨].

قال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهودًا، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله: الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٢) وعمدة القاري (١/ ٧٨، ٨٩) والتمهيد (٢١/ ٦٠).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٦٨ رقم ٥٠٥٢) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ١٩٣).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٧٠) وفيه: «بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام» بدل: «بمنزلة الختان لأهل الإسلام».
(٤) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٧٠).

وقال مجاهد: صبغة الله: فطرة الله، وقال غيره: دين الله[(١)].

هذا مع ما في الختان من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة، التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات، فالختان يعدلها. ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع.

ولهذا يذم الرجل ويشتم ويعير بأنه ابن القلفاء - إشارة إلىٰ غلمتها - وأي زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحد: من جلدة القلفة، وشعر العانة، وشعر الإبط، وشعر الشارب، وما طال من الظفر؛ فإن الشيطان يختبئ تحت ذلك كله ويألفه ويقطن فيه، حتىٰ إنه ينفخ في إحليل الأقلف وفرج القلفاء ما لا ينفخ في المختون، ويختبئ في شعر العانة وتحت الأظفار، فالغرلة أقبح في موضعها من الظفر الطويل، والشارب الطويل والعانة الفاحشة الطول، ولا يخفىٰ علىٰ ذي الحس السليم قبح الغرلة، وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين، ولهذا لما ابتلىٰ الله خليله إبراهيم بإزالة هذه الأمور فأتمهن جعله إمامًا للناس، هذا مع ما فيه من بهاء الوجه وضيائه، وفي تركه من الكسفة التي تُرىٰ عليه.

وإنما كانت هذه الخصال من الفطرة؛ لأن الفطرة، هي الحنيفية ملة إبراهيم، وهذه الخصال أمر بها إبراهيم، وهي من الكلمات التي ابتلاه ربه بهن، كما ذكر عبد الرزاق عن معمر، عن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: «ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، التي في الرأس: ١- قص الشارب. ٢- والمضمضة. ٣- والاستنشاق. ٤- والسواك. ٥- وفرق الرأس. وفي الجسد: ١- تقليم الأظفار. ٢- وحلق العانة. ٣- والختان. ٤- ونتف الإبط. ٥- وغسل أثر الغائط والبول بالماء»[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٧١) القاموس المحيط (ص ١٠١٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٩٣ رقم ٣٠٥٥) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ١٤٩ رقم ٦٦٨) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٦) وتفسير الصنعاني (١/ ٥٧) وتفسير الطبري (١/ ٥٢٤) والتمهيد (٢١/ ٦٧) وصححه الحاكم. وصححه أيضًا الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٣٣٧).

والفطرة فطرتان: فطرة تتعلق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه، وفطرة عملية، وهي هذه الخصال، فالأولى تزكي الروح وتطهر القلب، والثانية: تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها، وكان رأس فطرة البدن: الختان.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من الفطرة ـ أو الفطرة ـ ١- المضمضة، ٢- والاستنشاق، ٣- وقص الشارب، ٤- والسواك، ٥- وتقليم الأظفار، ٦- وغسل البراجم، ٧- ونتف الإبط، ٨- والاستحداد، ٩- والاختتان، ١٠- والانتقاص»، [نسخة: الانتضاح][1] وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة وأخذ الفضلات المستقذرة، التي يألفها الشيطان ويجاورها من بني آدم، وله بالغرلة اتصال واختصاص.

وقال غير واحد من السلف: من صلى وحج واختتن فهو حنيف، فالحج والختان: شعار الحنيفة، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال الراعي: يخاطب أبا بكر ﷺ:

أخليفة الرحمن إنَّا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عربًا نرى لله في أموالنا حق الزكاة مُنزّلًا تنزيلا[2]

***

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤) وأبو داود (رقم ٥٤) وابن ماجه (رقم ٢٩٤) والبيهقي في الكبرى (١/ ٥٣ رقم ٢٤٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٧٨ رقم ٢٠٤٨) وأبو يعلى (٣/ ١٩٧ رقم ١٦٢٧) والطيالسي (رقم ٦٤١) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٣ رقم ٢٧٦١) قال العيني في عمدة القاري (٢٢/ ٤٥): وقال البخاري: هذا حديث منقطع، لأن في سنده سلمة بن محمد بن عمار بن ياسر يروي عن جده، وهو لم ير جده عمارًا، ولا يعرف له سماع منه، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٣١) وشرح سنن النسائي للسيوطي (٨/ ١٢٧) وعون المعبود (١/ ٥٥).

(٢) هذان البيتان من بحر الكامل، وينسبان إلى الراعي النميري: عبيد بن حصين من فحول الشعراء المحدثين، وكان من جلة قومه، عاصر جريرًا والفرزدق، وكان يفضل الفرزدق فهجاه جرير هجاءً مرًّا. مات سنة ٩٠هـ وذكر البيتين ابن عبد البر في الاستذكار (٣/ ١٠٤).

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

(١)قوله تعالىٰ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] هذا سؤال من السفهاء أوردوه علىٰ المؤمنين. ومضمونه: أن القبلة الأولىٰ إن كانت حقًّا فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلًا فقد كنتم علىٰ باطل، ولفظ الآية وإن لم يدل علىٰ هذا، فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه. فأجاب الله تعالىٰ عنه بجواب شافٍ، بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه.

والسؤال من جهة الكفار أوردوه علىٰ صور متعددة ترجع إلىٰ شيء واحد فقالوا ما تقدم. وقالوا: لو كان نبيًّا ما ترك قبلة الأنبياء قبله. وقالوا: لو كان نبيًّا ما كان يفعل اليوم شيئًا وغدًا خلافه. قال المشركون: قد رجع إلىٰ قبلتكم، فيوشك أن يرجع إلىٰ دينكم. وقال أهل الكتاب: ولو كان نبيًّا ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام وعظمت المحنة علىٰ بعض الناس كما قال تعالىٰ. ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة؛ لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطّأه ومهّده وذلله بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئًا أتىٰ بمثله أو خير منه، وأنه قادر علىٰ ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول، وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنتًا، كما جرىٰ لموسىٰ مع قومه.

(١) ١٥٧ بدائع جـ٤.

ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته، وذكر بانيه وأثنى عليه، وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة.

وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت. ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين، وأضافه إليه بقوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت.

وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه، فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذُكِّروا بها؛ فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت، فلما برز مرسوم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيدًا عندهم؛ لأن رسول الله ﷺ، كان كثيرًا ما يقلب وجهه في السماء، ينتظر أن يحوله الله عن قبلة أهل الكتاب، فولَّاه الله القبلة التي يرضاها، وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة، وذكر الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس: فلا تعبؤوا بقولهم، فإنه قول سفيه.

ثم قال: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له وأنه رب ذلك، فأينما تعبَّد له عباده بأمره إلى أي جهة كانت، فهم مطيعون له. كما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

فلم يُصل مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى، فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة

بأمره ثم أمركم أن تصلوا إليها، فما صليتم إلا له أولًا وآخرًا وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر، لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانتقلتم من رضاه إلى رضاه.

ثم نبّه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانيًا، بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها أولًا لحكمة في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتبع الرسول ويدور معه حيثما دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت، وهو العالم بكل شيء؛ ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عيانًا مشاهدًا، فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المسلِّم للرسول المنقاد له، ممن يعبد الله تعالى على حرف، فينقلب على عقبة بأدنى شبهة، فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة، فلم يشرع ذلك سدىً ولا عبثًا.

ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبدهم، فكذلك جعلهم أمة وسطًا، فاختار القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم. ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم، فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة.

ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون: من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] وفيه قولان:

أحدهما: ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يجازيكم عليها، لأنها كانت بأمره ورضاه.

والثاني: ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها.

وأكثر السلف والخلف على القول الأول، وهو مستلزم للقول الآخر.

ثم ذكر منّته على رسوله واطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى، فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم، ولم يذكر للضمير

مفسرًا غير ما في السياق، وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته. ثم أخبر تعالىٰ عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ما تبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برأه من قبلتهم فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ثم ذكر اختلافهم في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع الطائفة الأخرىٰ، لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم، فأخبر تعالىٰ في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات، تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرىٰ، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل علىٰ صدق الرسول لما تبعوا قبلته: عنادًا وتقليدًا لآبائهم، وأنهم إن اشتركوا في خلاف القبلة الحق فهم مختلفون في باطلهم، فلا تتبع طائفة قبلة الأخرىٰ، فهم متفقون علىٰ خلاف الحق مختلفون في اختيار الباطل.

وفي هذه الآية أيضًا تثبيت للرسول ﷺ، والمؤمنين علىٰ لزوم قبلتهم، وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلىٰ قبلتنا فنتبعكم علىٰ دينكم، فإن هذا خداع ومكر منهم؛ فإنهم لو رأوا كل آية تدل علىٰ صدقك ما تبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضا بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلىٰ قبلتهم، وكذلك هم أيضًا مختلفون فيما بينهم، فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر، فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته، بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين، اختارها الله لكم ورضيها.

وأكد تعالىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥].

فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم، كما هم براء من قبلتك وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولىٰ بالبراءة من قبلتهم

التي أكرمكم الله تعالىٰ بالتحويل عنها.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]. ثم أخبر تعالىٰ عن اختصاص كل أمة بقبلتهم فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] وأصح القولين أن المعنىٰ هو متوجه إليها أي: موليها وجهه، فالضمير راجع إلىٰ كل.

وقيل: إلىٰ الله أي: الله موليها إياه وليس بشيء؛ لأن الله لم يولِّ القبلة الباطلة أبدًا، ولا أمر النصارىٰ باستقبال الشرق قط؛ بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم، وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] مشعر بصحة هذا القول أي: إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستقبوا أنتم الخيرات، وبادروا إلىٰ ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا، يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلىٰ موقف القيامة، كما تجتمعون من سائر الجهات إلىٰ جهة القبلة التي تؤمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلىٰ جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق. وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم. فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨].

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلىٰ الحق ما كان أدل علىٰ الله وأوصل إليه؛ لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلىٰ رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا، فلا يعبدون غيره، ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق

في الدنيا والآخرة.

فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورًا وذهابًا في الطرق الباطلة وعبادة غيره، وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

فتأمل هذا السر البديع في السورتين، وفي قوله: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨، الأنعام: ١٦٤] سر آخر أيضًا، وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، ويبين لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، فنفس الاختلاف دليل على يوم الفصل والبعث.

وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]. فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثة الأموات بعدما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبًا وإنه كان على باطل، وأن نسبته أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه؛ فيخزيه ذلك أعظم خزي.

فتأمل أسرار كلام الرب تعالى، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلًا، بل خلقه خلقًا صادرًا عن الحق، آيلًا إلى الحق، مشتملًا على الحق، فالحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية.

فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالىٰ وأمره عن كمال علمه وحكمة، وبكمال هاتين الصفتين؛ يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمه كله ومصلحة وحقًّا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦]. فأخبر أن مصدر التلقِّي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلًا وهدًىٰ وإرشادًا.

وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ قالـوا: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٣٠] وهذا راجع إلىٰ قوله وخلقه، وهو خلق الولد لها علىٰ الكبر. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات، فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد علىٰ الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه؛ رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالًّا علىٰ فاطره وبارئه وعلىٰ وحدانيته، وعلىٰ كمال صفاته وأسمائه، وعلىٰ صدق رسله، وعلىٰ أن لقاءه حق لا ريب فيه. وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلىٰ الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها علىٰ إثبات الصانع، وعلىٰ التوحيد والمعاد والنبوات.

فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلًا ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق. ومرة يخبرهم وينبههم علىٰ وجوه الاعتبار والاستدلال بها علىٰ صدق ما أخبرت به رسله، حتىٰ يبين لهم أن الرسل إنما جاؤوهم بما يشاهدون أدلة صدقة وبما لو تأملوه لرأوه مركوزا في فطرهم مستقرا في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه: من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله علىٰ من سبقت له منه سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها، فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد بطريق سهلة واضحة برهانية.

وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح: أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته.

فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته والشهادة بأنه: لا إله إلا هو، والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابت عنه سحائب غيّه وانكشف عن قلبه حجاب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٣-٥].

ثم تأمل وجه كونها آية وعلى ماذا جعلت آية؟ أعلى مطلوب واحد أم مطالب متعددة؟ وكذلك سائر ما في القرآن الكريم من هذا النمط كآخر آل عمران. وقوله في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥] إلى آخرها. وقوله في سورة النمل: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] إلى آخر الآيات، وأضعاف ذلك في القرآن. وكقوله في سورة الذاريات: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فهذا كله من الحق الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما، وهو حق مقارن

لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها، يقرؤه كل موفق: كاتب، وغير كاتب، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملإ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ(١)

وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم. فالتي تراد منهم: أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله ﷻ، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا؛ فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم. قال تعالى الله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

وأما الغاية المرادة بهم، فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥]. وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى عبد الغني النابلسي، شاعر وعالم بالأدب والدين. وهذه النسبة أظنها غير صحيحة، لأن عبد الغني مات سنة ١١٤٣هـ، أي بعد وفاة ابن القيم بثلاث مئة واثنتين وتسعين سنة. وعجز البيت الثاني مأخوذ من قول لبيد، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل...» البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) وانظر: فتح الباري (٧/١٥٣) (١١/٣٢٢) وشرح النووي (١٥/١٢).

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ [يونس: ٣، ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولًا وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق. وقد أنكر تعالىٰ علىٰ من زعم خلاف ذلك، فقال: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

(١)ولنرجع إلىٰ ما كنا بصدده من الكلام في ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة، ونصر الله لهم بالحجة عليهم.

وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي في الكلام علىٰ هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه: قال في قول النبي ﷺ، للبراء بن معرور: «قد كنت علىٰ قبلة لو صبرت عليها»(٢) يعني: لما صلىٰ إلىٰ الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها، ولم يأمره بالإعادة، لأنه كان متأولاً.

قلت: ونظير هذا أنه لم يأمر من أكل في نهار رمضان بالإعادة؛ لما ربط الخيطين في رجليه وأكل حتىٰ تبينا له، لأجل التأويل(٣).

---

(١) ١٦٧ بدائع جـ٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٧١-٤٧٣ رقم ٧٠١١) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٢٣ رقم ٤٢٩) والطبراني في الكبير (١٩/ ٨٧-٨٨ رقم ١٧٤) وأحمد (٣/ ٤٦١) والفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٣٥).

(٣) فعن سهل بن سعد ﷺ قال: أنزلت: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾ ولم ينزل: ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط =

ونظيره أنه لم يأمر أبا ذر بإعادة ما ترك من الصلاة مع الجنابة؛ إذ لم يعرف شرع التيمم للجنب، فقال: يا رسول الله إني تصيبني الجنابة فأمكث الشهر والشهرين لا أصلي. يعني في البادية ـ فقال: «أين أنت عن التيمم؟»[١].

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المستحاضة بالإعادة، وقد قالت: إني أستحاض حيضة شديدة، وقد منعتني الصوم والصلاة. فأمرها أن تجلس أيام الحيض، ثم تصلي، ولم يأمرها بإعادة ما تركت[٢].

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المسيء في صلاته[٣] بإعادة ما تقدم له من الصلوات التي لم تكن صحيحة، وإنما أمره بالإعادة في الوقت؛ لأنه لم يؤد فرض وقته مع بقائه بخلاف ما تقدم له.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المتمعك في التراب، كما تتمعك الدابة لأجل التيمم[٤]

=

الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار. أخرجه البخاري (١٩١٧) ومسلم (رقم ١٠٩١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٣٣-١٣٤) وشرح النووي (٧/ ٢٠٢).

(١) أخرجه بلفظ مختلف الحاكم (١/ ٢٨٤ رقم ٦٢٧) وابن حبان في صحيحه (٤/ ١٣٥ رقم ١٣١١) وأبو داود (رقم ٣٣٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٠ رقم ٩٩٠).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٢٧٩ رقم ٦١٥) والنسائي (رقم ١٦٩) وأبو داود (رقم ٢٨٧) وابن ماجه (رقم ٦٢٢) والترمذي (رقم ١٢٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٢٢ر قم ٨١١) وفي الكبير (٢٤/ ٢١٧ رقم ٥٥١) وأحمد (٦/ ٤٣٩) وانظر: التمهيد (١٦/ ٦٣) والمغني (١/ ١٩٦).

(٣) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى فسلم على النبي ﷺ فرد وقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» ثلاثًا... الحديث أخرجه البخاري (رقم ٧٥٧) ومسلم (رقم ٣٩٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٣٦، ٢٧٨) وشرح النووي (٤/ ١٠٦-١٠٧).

(٤) فعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: أجنبت وأنا في إبل فتمعكت كما تتمعك الدابة، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك كله، فقال: «كان يجزيك من ذلك التيمم» أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١/ ٢٣٨ رقم ٩١٤) والطيالسي (رقم ٦٣٨، ٦٤٠).

بالإعادة؛ مع أنه لم يصب فرض التيمم.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر معاوية بن الحكم السلمي بإعادة الصلاة، وقد تكلم فيها بكلام أجنبي ليس من مصلحتها[١].

ونظيره أيضًا أنه لم يضمن أسامة قتيله بعد إسلامه بقصاص ولا دية ولا كفارة[٢]، ولا تجد هذه النظائر مجموعة في موضع.

فالتأويل والاجتهاد في إصابة الحق، منع في هذه المواضع من الإعادة والتضمين.

وقاعدة هذا الباب أن الأحكام إنما تثبت في حق العبد بعد بلوغه هو وبلوغها إليه. فكما لا يترتب في حقه قبل بلوغه هو؛ فكذلك لا يترتب في حقه قبل بلوغها إليه. وهذا مجمع عليه في الحدود، أنها لا تقام إلا على من بلغهم تحريم أسبابها.

وما ذكرناه من النظائر يدل على ثبوت ذلك في العبادات والحدود.

ويدل عليه أيضًا في المعاملات قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض، ولم يأمرهم برد المقبوض؛ لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه.

بل أهل قبا صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها، ولم يعيدوا ما صلوا؛ بل استداروا في صلاتهم وأتموها[٣]؛ لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم.

---

(١) قال رسول الله ﷺ لمعاوية السلمي حينما تكلم في الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» أخرجه مسلم (رقم ٥٣٧).

(٢) فعن أسامة ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، فطعنته برمحي حتى قتله، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟!» قلت:؟ كان متعوذًا، فما زال يكررها، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٩) ومسلم (رقم ٩٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٥) وشرح النووي (٢/ ١٠٠) وعمدة القاري (١٧/ ٢٧٢).

(٣) فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى =

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء وهي لأصحاب أحمد، هذا أحدها وهو أصحها، وهو اختيار شيخنا ﷺ.

والثاني: أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتب في حق غيرهم ولزمهم كما لزم من بلغه، وهذا اختيار كثير من أصحاب الشافعي وغيرهم.

الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائي يعم ثبوته من بلغه وغيره، والخطاب الناسخ لا يترتب في حق المخاطب إلا بعد بلوغه. والفرق بين الخطابين: أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به بخلاف الخطاب الابتدائي، ذكره القاضي أبو يعلى في بعض كتبه، ونصوص القرآن والسنة تشهد للقول الأول، وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة، وإنما أشرنا إليها إشارة.

قال أبو القاسم: وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ، كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء: «لقد كنتَ على قبلة»(١).

وقال طائفة: ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهرًا أو ستة عشر شهرًا. فعلى هذا يكون في القبلة نسخان: نسخ سنة بسنة، ونسخ سنة بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة. فروي عنه من طرق صحاح؛ أن رسول الله ﷺ، كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس(٢).

الشام، فاستداروا إلى الكعبة. أخرجه البخاري (رقم ٤٠٣) ومسلم (رقم ٥٢٦) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٤٦) (٤/ ١٤٧).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦١) وابن حبان في الثقات (١/ ١٠٦-١٠٨) وفي صحيحه (١٥/ ٤٧١-٤٧٣ رقم ٧٠١١) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٢٣ رقم ٤٢٩) والفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٣٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥): رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وقال محققو المسند (٢٢/ ٩٥): حديث قوي وهذا إسناد حسن.

(٢) صححه الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (١/ ٩٦) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٤٠) وشرح الزرقاني (١/ ٥٦٠).

فلما كان ﷺ يتحرى القبلتين جميعًا، لم يُبِن توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، ولذلك ـ والله أعلم ـ قال الله تعالى الآية الناسخة: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها فاستقبل الكعبة؛ كنت مستدبرًا بيت المقدس أو لم تكن؛ لأنه كان بمكة يتحرى في استقباله بيت المقدس؛ أن تكون الكعبة بين يديه.

قال: وتدبر قوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال لأمته: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٥٠] ولم يقل: حيث ما خرجتم، وذلك لأنه ﷺ كان إمام المسلمين، فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم، وكان ذلك واجباً عليه، إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج، ولاسيما النساء ومن لا جماعة عليه.

قلت: ويظهر في هذا معنى آخر، وهو أن قوله: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ خطاب عام له ﷺ، ولأمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض.

وقوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٥٠] خطاب بصيغة الإفراد، والمراد هو والأمة كقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١]. ونظائره، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه.

وقوله: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية؛ بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان: من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك، فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة، وفي أي بقعة كانوا من الأرض، فهو مأمور هو والأمة باستقباله، فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها: في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا، وفي غايته إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك

عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد.

فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبو القاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم بما أراد من كلامه، وإنما هو كدّ أفهام أمثالنا من القاصرين(١). فقوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ [البقرة: ١٥٠] يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة. وكان أولى بهذا الخطاب؛ لأن مبدأ التوجه على يديه كان، وكان شديد الحرص على التحويل.

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة، وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها؛ بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقًا وغربًا ويمنًا وعراقًا، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ أي: من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ.

فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله أعلم.

---

(١) هذا هو شأن الكُمَّل من أهل الخير والفضل أمثال: ابن القيم رحمه الله حيث يتهم نفسه بالتقصير ويزدريها، ولا يرى لها شأنًا، حتى لا تطمع نفسه إلى الكبرياء والزهو، الذي ينشأ دائمًا بعد النجاح وتحقيق الأمنيات أو عمل الصالحات، وهذا هو دأب الصالحين المقربين أمثاله وأمثال شيخه ابن تيمية رحم الله الجميع حيث كان دائمًا يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدى وابن المكدى وهكذا كان أبي وجــدي

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا. وقال أيضًا من نظمه رحمه الله:

أنــا الفقير إلـى رب الـبريـات أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي والخير إن يأتنا مــن عنده يـأتي

إلى أن قال:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا كما الغنى أبدًا وصف لــه ذاتي

هذا هو حال شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذا حال تلميذه النجيب شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية رحم الله أئمة الهدى ودعاة الحق، وألحقنا بهم يا ربنا على خير، واحشرنا تحت لواء حبيبك محمد ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، اللهم آمين.

قال أبو القاسم: وكرر الباري تعالىٰ الأمر بالتوجه إلىٰ البيت الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس:

اليهود؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم.

وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل.

وكفار قريش قالوا: نَدِم محمد علىٰ فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلىٰ قِبلتنا. وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه، فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلىٰ ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل، وآثر عليها قبلة اليهود.

فقال الله له حين أمره بالصلاة إلىٰ الكعبة: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠] علىٰ الاستثناء المنقطع أي: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون. وقال: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٧] أي: من الذين شكوا وامتروا.

ومعنىٰ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾: أي: الذي أمرتك به من التوجه إلىٰ البيت الحرام، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك، فلا تمتر في ذلك، فقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وقال: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] أي: يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء.

ثم ساق من طريق أبي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ، قال: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عنبسة، عن يونس، عن ابن شهاب قال: كان سليمان بن عبد الملك لا يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه وهو ولي عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، فقال سليمان، وهو جالس فيه: والله إن في هذه القبلة التي صلىٰ إليها المسلمون والنصارىٰ لعجبًا ـ كذا رأيته. والصواب: اليهود ـ قال خالد بن يزيد: أما والله إني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ، وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السكينة كان علىٰ الصخرة، فلما

غضب الله ﷻ على بني إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم.

وروى أبو داود أيضًا: أن يهوديًا خاصم أبا العالية في القبلة، فقال أبو العالية: إن موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبة قبلته، وكانت الصخرة بين يديه، وقال اليهودي: بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ، فقال أبو العالية: فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة[1]. انتهى.

قلت: وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة، وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد.

أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدًا، وهم مقرون بذلك، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنهم، بأن المسيح فوَّض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام، وأن ما حللوه وحرموه فقد حلله هو وحرمه في السماء، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرع على لسان رسوله أبدًا، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك.

وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة، وإنما كانوا ينسبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رُفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام يعظمونه ويحجون إليه. ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله، وقلت: هو قبلة باطلة مبتدعة، فقال مشار إليه في دينهم: هذه هي القبلة الصحيحة. واليهود أخطؤوها، لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عينًا، ثم ذكر نصًا بزعمه من التوراة في استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعًا على التوراة، لأنها إنما أنزلت على بني إسرائيل، فهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٤-٣٥) وانظر: الاستذكار (١/ ٢٠) (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).

المخاطبون بها، وأنتم فرع عليهم فيها، وإنما تلقيتموها عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم، وأنا رأيتها وليس هذا فيها، فقال لي: صدقت، إنما هو في توراتنا خاصة.

قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبون بها، وهم الذين تلقوها عن الكليم، وهو متفرقون في أقطار الأرض، قد كتموا هذا النص وأزالوه، وبدلوا القبلة التي أمروا بها، وحفظتموها أنتم، وحفظتم النص بها، فلم يرجع إليّ الجواب.

قلت: وهذا كله مما يقوّي أن يكون الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[البقرة: ١٤٨] راجعًا إلىٰ كل أي هو موليها وجهه، ليس المراد أن الله موليه إياها لوجوه: هذا أحدها.

الثاني: أنه لم يتقدم لاسمه تعالىٰ ذكر يعود الضمير عليه في الآية، وإن كان مذكورًا فيما قبلها؛ ففي إعادة الضمير إليه تعالىٰ دون كل، رد الضمير إلىٰ غير من هو أولىٰ به، ومنعه من القريب منه اللاحق به.

الثالث: أنه لو عاد الضمير عليه تعالىٰ لقال: هو موليه إياها. هذا وجه الكلام كما قال تعالىٰ: ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾[النساء: ١١٥]. فوجه الكلام أن يقال: ولاه القبلة، لا يقال: ولىٰ القبلة إياه فتأمله.

وقول أبي القاسم: أنه تعالىٰ كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثًا ردًّا علىٰ الطوائف الثلاث؛ ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك. والذي يظهر فيه، أنه أمر به في كل سياق لمعنىً يقتضيه:

فذكره أول مرة؛ ابتداء للحكم ونسخًا للاستقبال الأول، فقال: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[البقرة: ١٤٤]. ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم؛ حيث يجدونه في كتبهم كذلك.

ثم أخبر عن عنادهم وكفرهم؛ وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، ولا هو أيضًا

بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذره من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء.

ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها وموليها وجهه، فاستقبوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكرارًا محضًا؛ بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولاً حيثما كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمله. والله أعلم.

وقوله: إن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، منقطع قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له، فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه؛ حيث ظنوا أن الحجة ههنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق. والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل كقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦].

وإذا كانت الحجة اسمًا لما يحتج به من حق أو باطل، صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٠] وهذا في غاية التحقيق. والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة، فلا تخشوهم واخشوني.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

وجه الاستدلال: أنه تعالى أخبر أن جعل هذه الأمة عدولاً خيارًا ليشهدوا على الناس: بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته، وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية وشهادتهم على أهل عصرهم ومن بعدهم أن رسول الله ﷺ، أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا، فهم حجة الله على من خالف رسول الله، وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه؛ بأن حجة الله بالرسل قامت عليه، ويشهد كل واحد بانفراده بما وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة، فلو كانت أحاديث رسول الله ﷺ لا تفيد؛ لم يشهد به الشاهد ولم تقم به الحجة على المشهود عليه(٢).

(٣)قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣] ووجه ا لاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم. وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة.

---

(١) ٣٩٧ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٧) وتحفة الأحوذي (٨/ ٢٣٨).

(٣) ١٣٢ أعلام جـ ٤.

والله تعالىٰ يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوَّه بهم ورفع ذكرهم وأثنىٰ عليهم؛ لأنه تعالىٰ لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم.

والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستندًا إلىٰ علمه به، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٢]. فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقًا من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يخبر به، فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم؛ فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوىٰ وتكون خطأ مخالفة لحكم الله ورسوله ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله إما: مع اشتهار فتوىٰ الأول، أو بدون اشتهارها، كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت علىٰ خلاف الحق.

بل انقسموا قسمين: قسمًا أفتىٰ بالباطل، وقسمًا سكت عن الحق، وهذا من المستحيل، فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلىٰ من بعدهم قطعًا، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه.

***

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

[1]كان ﷺ يصلي إلىٰ قبلة بيت المقدس، ويحب أن يصرف إلىٰ الكعبة. وقال لجبرائيل: «وددت أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود»، فقال: إنما أنا عبد، فادعُ ربَّك واسأله، فجعل يُقلب وجهه في السماء يرجو ذلك، حتىٰ أنزل الله عليه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ

(١) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢.

ٱلْحَرَامِ﴾[1] [البقرة: ١٤٤]. وذلك بعد ستة عشر شهرًا من مقدمه المدينة، قبل وقعة بدر بشهرين. قال محمد بن سعد: أنبأنا هاشم بن القاسم، قال: حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: ما خالف نبيٌّ نبيًّا قط في قبلة ولا في سنة، إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهرًا، ثم قرأ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[2] [الشورى: ١٣] الآية.

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم في تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

فأما المسلون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: آمنا به، كُلٌّ من عندنا ربنا. وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق.

وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيًّا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء.

وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه؟ إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق: فقد كان على باطل. وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكانت محنة من الله، امتحن بها عباده، ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه. ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيمًا وطَّأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ثم عقَّب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت مع رسول الله ﷺ، ولم يَنْقَدْ له.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٤٣) إلى أبي داود في الناسخ والمنسوخ، وانظر: تفسير الطبري (٢/ ٢) وأحكام القرآن للشافعي (١/ ٦٤) والفتح السماوي (١/ ١٩١).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٤٣).

ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارىٰ، وشهادة بعضهم علىٰ بعض بأنهم ليسوا علىٰ شيء، وحذَّر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم.

ثم ذكر كفرهم وشركهم به، وقولهم: إن له ولدًا، ﷻ عما يقولون.

ثم أخبر: أن له المشرق والمغرب، وأينما يُولي عباده وجوههم فثمَّ وجهه، وهو الواسع العليم، لعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه. ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ لن يرضوا عنه حتىٰ يتبع ملتهم، وأنه إن فعل ـ وقد أعاذه الله من ذلك ـ فما له من الله من ولي ولا نصير.

ثم ذكَّر أهل الكتاب بنعمته عليهم، وخوَّفهم من بأسه يوم القيامة.

ثم ذكر خليله إبراهيم باني بيته الحرام، وأثنىٰ عليه ومدحه، وأخبر أنه جعله للناس إمامًا يأتمُّ به أهل الأرض. ثم ذكر بيته الحرام، وبناء خليله له، وفي ضمن هذا: أنَّ باني البيت كما هو إمام للناس، فكذلك البيت الذي بناه: إمام لهم.

ثم أخبر: أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس. ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه، وإلىٰ إبراهيم،وإلىٰ سائر النبيين.

ثم ردَّ علىٰ من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هودًا أو نصارىٰ، وجعل هذا كله توطئةً ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ومع هذا كله: فقد كبر ذلك علىٰ الناس، إلا من هدىٰ الله منهم. وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة، بعد ثالثة، وأمر به رسوله ﷺ حيثما كان، ومن حيث خرج.

وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، هو الذي هداهم إلىٰ هذه القبلة،وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها. لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم، فاختار أفضل القبل الأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصَّهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل، وموقفهم

في القيامة خير المواقف، فهم على تل عالٍ، والناس تحتهم. فسبحان من يختص برحمته من يشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولكن الظالمون الباغون يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت، ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة، وكل من قدّم على أقوال الرسول سواها، فحجته من جنس حجج هؤلاء، وأخبر سبحانه: أنه فعل ذلك ليتمّ نعمته عليهم وليهديهم.

ثم ذكَّرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، ليُزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبته لهم. ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة، وأخبرهم أنه مع الصابرين.

***

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

(١) مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر، قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(٢).

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني.

وذكره يتضمن ذكر أسمائه، وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك

---

(١) ١٣٧ فوائد.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٦٣ رقم ٢٠٢٠) وفي الموارد (رقم ٢٣٤٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) وصححه الحاكم. وانظر: عون المعبود (٤/ ٢٦٩).

يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه. وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطناً، وهذان الأمران هما جماع الدين.

فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ وهي الحق الذي به خلقت السماوات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [ص: ٣٧]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

[1] ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق، لا ينفك منهما:

أحدهما: أمره ونهيه، الذي هو محض حقه عليه.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه، فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه، وأنه محتاج إلى عفو الله ومغرفته، فإن لم يتداركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله؛ كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة؛ بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، أكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم، فضلًا عن أن

(١) ١٥٥ عدة الصابرين.

يريدوا فعلها، فضلًا عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات؛ وإن زهد في الدنيا جميعها.

وقلّ أن ترى منهم من يحمّر وجهه، ويمعره لله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا ربِّ إن فيهم فلانًا الزاهد العابد قال: «به فابدأ، وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط»[1].

...[2]وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها[3]، فكذلك القلوب بور خراب، وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

به يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

---

(١) أخرجه الطبراني مرفوعًا في الأوسط (٧/ ٣٣٦ رقم ٧٦٦١) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٩٧ رقم ٧٥٩٥) وضعفه، بينما رواه من قول مالك بن دينار رحمه الله موقوفًا عليه في الشعب (٦/ ٩٧ رقم ٧٥٩٤) وقال فيه: هذا هو المحفوظ من قول مالك بن دينار، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٠): رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار عن عمار بن سيف، وكلاهما ضعيف، ووثق عمار بن سيف ابنُ المبارك وجماعة، ورضي أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

(٢) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

(٣) فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم: أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٦٢) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٧٠-٢٧١ رقم ٤١٧٠) وفي الصغير (رقم ٥٣٩) وفي الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٣) والبزار (٥/ ٣٦١-٣٦٢ رقم ١٩٩٢) وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتموها فاحفظوا واحمدوا الله على ذلك وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق(١).

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة؛ فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم. وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لهى عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧١) (١٠/ ١٤٦).

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

تفصيل ذلك: أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفيه قولان: أحدهما: في سرك وقلبك: والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك.

وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لهى عنه: فكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له: فكقوله: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء: فكقوله تعالى: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر؛ بل إذا تَمَّ الذكر: مَحَقَ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وختم به الحج في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وختم به الصلاة كقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣]. وختم به الجمعة كقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ١٠].

ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا؛ وإذا كان آخر كلام العبد؛ أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه: قرنه بالصلاة، كقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]. وقرنه بالصيام وبالحج

ومناسكه، بل هو روح الحج، ولُبُّه ومقصوده، كما قال النبي ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار؛ لإقامة ذكر الله»(١). وقرنه بالجهاد، وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: «إن عبدي - كل عبدي - الذي يذكرني، وهو ملاق قِرْنه»(٢).

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يستشهد به. وسمعته يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ كأنها ... أشطان بئر في لبانِ الأدهم(٣)

وقال الآخر:

ذكرتك والخَطِّيُّ يَخْطَر بيننا ... وقد نَهَلَتْ منا المثقَّفة السُّمْر(٤)

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ٢٧٩ رقم ٢٨٨٢) وأبو داود (رقم ١٨٨٨) والبيهقي في الشعب (٣/ ٤٦٧ رقم ٤٠٨١) وابن الجارود (رقم ٤٥٧) والدارمي (رقم ١٨٥٣) وإسحاق بن راهويه (رقم ٩٢٨) وأحمد (٦/ ٦٤) والترمذي (رقم ٩٠٢) وقال: وهذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٨٠) وابن الضحاك في الآحاد والمثاني (رقم ٢٦٨٩) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٤٩) وفيض القدير (٢/ ٣١٠) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٢٩).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى عنترة بن شداد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى، وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسًا، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة، وكان مغرمًا بابنة عمه عيلة، وشهد حرب داحس والغبراء، مات سنة ٢٢ قبل الهجرة. والبيت ذكره ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٦٠٧) (١٤/ ٢٥٨) باختلاف في أوله: يدعون عنتر والرماح كأنها.

(٤) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى أبي عطاء السندي: أفلح بن يسار، شاعر فحل قوي البديهة، كان عبدًا أسود من موالي بني أسد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وتشيع للأموية، مات سنة ١٨٠هـ والبيت ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣١٧).

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والرماحُ شواجر نحوي وبيضُ الهند تَقْطُر من دمي[(١)]

وهذا كثير في أشعارهم، وهو مما يدل على قوة المحبة، فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهم المرء غير نفسه ـ يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها، وهذا دليل على صدق المحبة والله أعلم.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

[(٢)]من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. منزلة «الصبر». قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا. وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان[(٣)]. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر[(٤)]. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا:

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقوله: ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، ولم أقف على قائله، بينما ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣١٧) منسوبًا إلى عنترة، وفيه اختلاف: والرماح نواهل مني، بدل: والرماح شواجر نحوي.

(٢) ١٥٢ مدارج جـ٢.

(٣) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (رقم ١٥٨) وذكره المنذري في ترغيبه (٤/ ١٤٠ رقم ٥١٤٧) وقال: رواه الطبراني في الكبير ورواته رواة الصحيح وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم. وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٤) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٤) فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أنس الإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (رقم ١٥٩).

الثاني: النهي عن ضده، كقولكه: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥]، فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: الآية. ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ...﴾ الآية. [آل عمران: ١٧]، وقوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم والإحاطة، كقوله: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»(١).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاؤها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله تعالى لموسى: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥]. وقوله في أهل سبأ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٩]. وقوله في سورة الشورى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

(١) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٣ رقم ١٣) والحاكم (٣/ ٦٢٤ رقم ٦٣٠٤) والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) وأحمد (١/ ٣٠٧) والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ٧٤٥) وعبد ابن حميد (رقم ٦٣٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٧-٢٨ رقم ١٠٧٤) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٣١٥) وهناد في الزهد (رقم ٥٣٦) وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٦٦).

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[(١)]. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر[(٢)] له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «خير عيش أدركناه بالصبر»[(٣)]. وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح أنه ضياء[(٤)] وقال: «من يتصبَّر يصبِّره الله»[(٥)]. وفي الحديث الصحيح: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر؛ فكان خيرًا له»[(٦)]. وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع. فسألته: أن يدعو لها: «إن شئتِ صبرتِ؛ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك»، فقالت: إني أتكشف فادع

---

(١) ذكر هذا القول ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٤) غير معزو لأحد، بقوله: قال بعض العلماء.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن علي ﷺ (٦/ ١٧٢ رقم ٣٠٤٣٩) وعبد الرزاق (١١/ ٤٦٩ رقم ٢١٠٣١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٥٦٩) والعدني في الإيمان (رقم ١٩) وانظر: فيض القدير (٤/ ٢٣٤).

(٣) انظر: فيض القدير (٤/ ٢٣٢).

(٤) فعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣) قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم (٣/ ١٠٠-١٠١): هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، قد اشتمل على مهمات من قواعد الإسلام... إلى أن قال رحمه الله: وأما قوله ﷺ: «والصبر ضياء» فمعناه: الصبر المحبوب في الشرع، وهو الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، والصبر أيضاً على النائبات وأنواع المكاره في الدنيا، والمراد أن الصبر محمود ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب.

(٥) أخرجه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (رقم ١٠٥٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٠٤).

(٦) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٠٩).

الله: أن لا أتكشف، فدعا لها[١]. وأمر الأنصار ﷺ بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض[٢]. وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر: أنه إنما يكون «**عند الصدمة الأولى**»[٣]. وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب، فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفر أجره، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر. وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال: «**وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا له وأوسع؛ من الصبر**»[٤].

و«**الصبر**» **في اللغة**: الحبس والكف، ومنه: قُتل فلان صبرًا، إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨] أي: احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش[٥].

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها؛ أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعهد فيها حيلة غير الصبر.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٥٢) ومسلم (رقم ٢٥٧٦) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ١٠٦-١٠٩).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٦٩) (١٣/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٣) ومسلم (رقم ٩٢٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٤٩-١٥٠) وشرح النووي (٦/ ٢٢٧) وعمدة القاري (٨/ ٦٧-٦٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤٦٩) ومسلم (رقم ١٠٥٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٠٤) وشرح النووي (٧/ ١٤٥).

(٥) انظر: الوابل الصيب (ص١١) وفتح الباري (١١/ ٣٠٣) وفيض القدير (٢/ ٣١٨) (٤/ ٢٩١).

وأما صبره عن المعصية؛ فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابًّا، وداعية الشباب إليها قوية، وعَزِبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة. وذات منصب، وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلىٰ نفسها، والحريصة علىٰ ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها؛ صبر اختيارًا، وإيثارًا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب علىٰ ما ليس من كسبه؟

وكان يقول[1]: الصبر علىٰ أداء الطاعات؛ أكمل من الصبر علىٰ اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة الطاعة؛ أحب إلىٰ الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة؛ أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية. وله ـ رحمه الله ـ في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهًا. ليس هذا موضع ذكرها. انتهىٰ.

***

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

(١) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ.

[(١)]في المسند وصحيح مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي: عن أم سلمة، عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلُف لي خيرًا منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها»[(٢)]. وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته. فإنها تتضمن أصلين عظيمين، وإذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله ﷻ حقيقة. وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير. وأيضًا فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له نعمة معارة في زمن يسير. وأيضًا: فإنه ليس هو الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي. وأيضاً: فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي لا تصرُّف الملَّاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق. ولابد أن يخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[(٣)]. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

(١) ٢٦٤ زاد المعاد جـ ٣.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩١٨).

(٣) دعا عبادة بن الصامت ﷺ ابنه الوليد في مرض الموت، فقال له: يا بني اتق الله واعلم أنك لن تتقي الله ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبه وكيف أؤمن بالقدر خيره وشره؟ فقال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، هذا القدر، فإن مت على غير هذا دخلت النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: أي رب وما أكتب؟ قال: القدر. فجرى القلم في تلك الساعة ما كان وما هو كائن إلى الأبد» أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٣٥١-٣٥٢ رقم ٤٢٩) والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٤٩-٢٥٠ رقم
=

مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

ومن علاجه: أن ينظر إلىٰ ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقىٰ عليه مثله أو أفضل منه، وادخر له ـ إن صبر ورضي ـ ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب(١).

(٢)وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي: صلواته تعالىٰ عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] وهذا مفهم لحصر الهدىٰ فيهم. وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه. وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل.

(٣)وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا عبد الله بن لهيعة، عن عطاء بن دينار: أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرىٰ منه إلا الصبر(٤).

=
٦٣١٨) وابن الجعد (رقم ٣٤٤٤) وأحمد (٥/ ٣١٧) والطبراني في مسند الشاميين (رقم ١٦٠٨) وحسنه محقق الأحاديث المختارة.

(١) كما فعلت الخنساء في رثاء أخيها صخر، حيث قالت:

ألا يـــا صـــخر لا أنـــساك حتـــىٰ ... أفـــارق مهجتـــي ويـــشق رمـــسي
يـــذكرني طلـــوع الـــشمس صـــخرًا ... وأبكيـــه لكـــل غـــروب شـــمسٍ
ولـــولا كثـــرة البـــاكين حـــولي ... علـــىٰ إخـــوانهم لقتلـــت نفـــسي

ذكر هذه الأبيات الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٦١٦).

(٢) ١١٨ عدة الصابرين.

(٣) ١٠١ عدة الصابرين.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٠٢ رقم ٤٨٥) (٢/ ٤٧٧ رقم٢٥٢٤) (٥/ ١٥٣٩ رقم ٨٨٢٨) وانظر: الدر المنثور (١/ ١٥٩) وتفسير ابن كثير (١/ ١٩٨).

فقوله: اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾، فيعترف أنه ملك لله، يتصرف فيه مالكه بما يريد.

وقوله: راجيًا به ما عند الله كأنه تفسير لقوله: ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي: نرد إليه، فيجزينا على صبرنا، ولا يضيع أجر المصيبة.

وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، أي: ليس الصبر بالتجلد، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه[١].

وقال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: ٥] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو[٢].

وكان شمر إذا عزى مصابًا قال: اصبر لما حكم ربُّك[٣].

وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط، وعليه إزار في موت واقد بن عبد الله بن عمر، لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قريش:

أما والذي لا خلد إلا لوجهه ... ومن ليس في العز المنيع له كفوا
لئن كان بدء الصبر مرًّا مذاقه ... لقد يجني من غبه الثمر الحلو[٤]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٦١-٢٦٢) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٩٦).
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٩/ ٣٧٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى الحكيم الترمذي (٨/ ٢٨٠).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٥٧ رقم ١٢٠٧٢).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (رقم ١٦٩).

قال: وأنشدني عمرو بن بكير:

صبرت فكان الصبر خير مغبة وهل جزع يجدي علي فأجزع

ملكت دموع العين حتى رددتها إلى ناظري فالعين في القلب تدمع[1]

[2]فائدة: قولهم: الصلاة من الله بمعنى الرحمة؛ باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

الثاني: أن سؤال الرحمة تشرع لكل مسلم، والصلاة تختص بالنبي ﷺ، وهي حق له ولآله، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معين غيره، ولم يمنع أحد من الترحم على معين.

الثالث: أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده.

وقولهم: إن الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل من وجوه:

أحدها: أن الدعاء يكون بالخير والشر، والصلاة لا تكون إلا في الخير.

الثاني: أن دعوت تعدى باللام، وصليت لا تعدى إلا بـ على، ودعاء المعدى بعلى ليس بمعنى صلى، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء.

الثالث: أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًّا ومدعوًّا له، تقول: دعوت الله لك بخير، وفعل الصلاة لا يقتضي ذلك، لا تقل: صليت الله عليك ولا لك؛ فدل على أنه ليس بمعناه، فأي تباين أظهر من هذا؟ ولكن التقليد يعمي عن إدراك الحقائق، فإياك والإخلاد إلى أرضه.

(١) هذا البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى إسحاق بن حسان الصفدي الخريمي وصفه أبو حاتم السجستاني بأشعر المولدين، أدركه الجاحظ وسمع منه، وعمي قبل وفاته وهو صاحب الرائية في وصف الفتنة بين الأمين والمأمون، أوردها الطبري في تاريخه، وهي من ١٣٥ بيتًا. وذكر البيتين ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٦/ ٣٣٧) (١٧/ ٤٣٨).

(٢) ٢٦ بدائع جـ١.

ورأيت لأبي القاسم السهيلي كلامًا حسنًا في اشتقاق الصلاة، وهذا لفظه قال: (معنى الصلاة) اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو والعطف، إلا أن الحنو والعطف يكون محسوسًا ومعقولاً، فيضاف إلى الله منه ما يليق بجلاله، ويُنفى عنه ما يتقدس عنه، كما أن العلو محسوس ومعقول. فالمحسوس منه صفات الأجسام. والمعقول منه صفة ذي الجلال والإكرام، وهذا المعنى كثير موجود في الصفات، والكثير يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات، وهو من أسماء الرب تعالى، وقد تقدس عن مشابهة الأجسام ومضاهاة الأنام، فالمضاف إليه من هذه المعاني معقولة غير محسوسة.

وإذا ثبت هذا فالصلاة كما تسمى عطفًا وحنوًا تقول: اللهم اعطف علينا، أي: ارحمنا. قال الشاعر:

وما زلت في ليني له وتعطفي ... عليه كما تحنو على الولد الأم[1]

ورحمة العباد رقة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه؛ انعطف على المرحوم وانثنى عليه.

ورحمة الله للعباد جود وفضل، فإذا صلى عليه فقد أفضل عليه وأنعم، وهذه الأفعال إذا كانت من الله أو من العبد؛ فهي متعدية بعلى مخصوصة بالخير لا تخرج عنه إلى غيره، فقد رجعت كلها إلى معنى واحد؛ إلا أنها في معنى الدعاء. والرحمة صلاة معقولة، أي انحناء معقول غير محسوس ثمرته من العبد الدعاء؛ لأنه لا يقدر على أكثر منه، وثمرته من الله الإحسان والإنعام، فلم تختلف الصلاة في معناها، إنما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها.

والصلاة التي هي الركوع والسجود انحناء محسوس، فلم يختلف المعنى فيها إلا من جهة المعقول والمحسوس، وليس ذلك باختلاف في الحقيقة، ولذلك تعدت

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الحلم (ص٤٣) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٥٩/ ٤٣٠-٤٣١).

كلها بـ (على) واتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة، ولم يجز صليتُ على العدو، أي: دعوت عليه، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة، وإن كان راجعًا إليه، إذ ليس كل راحم ينحني على المرحوم، ولا ينعطف عليه.

(١)الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها؛ ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد عن فعله، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة(٢)، وقد قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟ قيل: التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحبس النفس عن ذلك.

فإن كان المتولد متعلقًا بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان؛ ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

---

(١) ٧١ عدة الصابرين.

(٢) فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل» أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٥) ومسلم (رقم ١٦٧٧).

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم؛ إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفار والمشركين، وأن يخصلوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياءً وسمعة. فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان.

***

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

(١)أصح القولين أن المعنى: يحبونهم كما يحبون الله، وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب. ثم نفى ذلك عن المؤمنين، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾. فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوه لله.

والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة، وهي أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة؛ اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله، وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل؛ فهي قطب رحى السعادة، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام؛ ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد: فالكتاب هاد إليها ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره؛ ولأجلها خلقت الجنة والنار، فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم

(١) ٢٦٦ طريق الهجرتين.

لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوَّىٰ بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالىٰ عن أهلها أنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات؛ بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة: أن لا إله إلا الله.

فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها؛ أن يتيقظ لهذه المسألة علمًا وعملاً وحالاً، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها...

[(١)] فإذا عُرف ذلك، فالمحبة هي التي تحرك المحبَّ في طلب محبوبه، الذي يكمل بحصوله له، فتحرك محب الرحمن، ومحب القرآن، ومحب العلم والإيمان، ومحب المتاع والأثمان، ومحب الأوثان والصلبان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان. فتثير من كل قلب حركة إلىٰ محبوبه من هذه الأشياء، فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره، ولهذا تجدُ محب النسوان والصبيان، ومحب قرآن الشيطان بالأصوات والألحان، لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن، حتىٰ إذا ذكر له محبوبه اهتزَّ له وربا، وتحرك باطنه وظاهره شوقًا إليه وطربًا لذكره.

فكل هذه المحاب باطلة مضمحلة سوىٰ محبة الله وما والاها: من محبة رسوله، وكتابه، ودينه، وأوليائه، فهذه المحبة تدوم، وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلقت به، وفضلُها علىٰ سائر المحاب كفضل من تعلقت به علىٰ ما سواه، وإذا انقطعت علائق المحبين، وأسباب توادهم وتحابهم؛ لم تنقطع أسبابها، قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟

(١) ١٣٢ إغاثة جـ٢.

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. قال عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «المودة». وقال مجاهد: «تواصلهم في الدنيا» وقال الضحاك: «يعني تقطعت بهم الأرحام، وتفرقت بهم المنازل في النار»، وقال أبو صالح: «الأعمال»(١).

والكل حق، فإن الأسباب؛ هي الوُصَلُ التي كانت بينهم في الدنيا، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها. وأما أسباب الموحدين الملخصين لله؛ فاتصلت بهم ودام اتصالها بدوام معبودهم ومحبوبهم، فإن السبب تبعٌ لغايته في البقاء والانقطاع.

(٢)قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦] فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت؛ اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها، وتضمحل باضمحلالها. وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا: من اضمحلال السعي والعلم والكد والخدمة، التي يفعلها العبد: لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له؛ عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوى الحرمان؛ ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «**أليس عدلًا مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا**»(٣) فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم، فتتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٧٠-٧٢) وتفسير الثوري (١/ ٥٤) والدر المنثور (١/ ٤٠٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠٤) وفتح الباري (١١/ ٣٩٣) وعمدة القاري (٢٣/ ١١٠).
(٢) ١٢ طريق الهجرتين.
(٣) أخرجه بلفظ قريب الطبراني في الأوسط (١/ ٣٢ رقم ٨١) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٣): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه فرات بن السائب وهو ضعيف. وانظر: ذم التأويل لابن قدامة (ص٩).

الشمس والقمر والنجوم آلهتهم، فإذا كورت الشمس وانتثرت النجوم؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت، وصارت حسرة عليهم ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده؛ فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس، بل على عدم. والموحد حوالته على المليء الكريم، فيا بُعد ما بين الحوالتين.

(١)والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك به، التي هي أكمل أنواع المحبة، مع أكمل أنواع الخضوع والذل، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ الآية. [البقرة: ١٣٠] ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه؛ فيتخذ الأنداد من دونه، يحبهم كحب الله. وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لله، فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة؛ ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له؛ كانت أشد من محبة أولئك. والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة.

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له؛ أنكر على من اتخذ من دونه وليًّا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة، بالإنكار فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) ٢٥٤ الجواب الكافي.

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]. وقال في الإفراد: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]. وقال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده، واتخذه له وليًا من دون الله أن يتخذ أولئك الذين يسمون شفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين، فصاروا أولياءه في الله؛ بخلاف من اتخذ المخلوقين أولياء من دون الله، فهذا لون وذاك لون، والشفاعة الشركية الباطلة لون، والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود: أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة؛ بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها، فإن محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء؛ لا يتم الإيمان إلا بها؛ إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله. كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»**(١). وفي لفظ في الصحيحين: **«لا يجد عبد طعم الإيمان إلا من كان في قلبه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن**

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٦) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٢-٨٣) وشرح النووي (٢/ ١٣).

يقذف في النار»[(١)]. وفي الحديث الذي في السنن: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»[(٢)]. وفي حديث آخر: «ما تحابَّ رجلان في الله؛ إلا كان أفضلهما أشدَّهما حبًّا لصاحبه»[(٣)]. فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها؛ وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك.

وههنا أربعة أنواع من الحب، يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه. فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر. وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب الله، ولا يستقيم محبة ما يحب الله إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله وهي المحبة الشركية؛ وكل من أحب شيئًا مع الله: لا لله، ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه، وهي المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه: كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٤١) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٨١) وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٠ رقم ٣٤٧٣٠) والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤ رقم ٧٦١٣) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٣٩ رقم ١٢٦٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٩٢ رقم ٩٠٢١).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٥/ ١١٩-١٢٠ رقم ١٧٢٤) والحاكم (٤/ ١٨٩ رقم ٧٣٢٣) والطبراني في الأوسط (٣/ ١٩٢ رقم ٢٨٩٩) وأبو يعلى (٦/ ١٤٣ رقم ٣٤١٩) وابن الجعد (رقم ٣١٩٢) والطيالسي (رقم ٢٠٥٣) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٩٩ رقم ٩٠٤٩) وهناد في الزهد (رقم ٤٨٥) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٦) رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى والبزار بنحوه ورجال أبي يعلى والبزار رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة وقد وثقه غير واحد على ضعف فيه، وصححه الحاكم وحسنه محقق الأحاديث المختارة.

فتلك لا تُذم إلا إن ألهت عن ذكر الله، وشغلته عن محبته، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧].

ثم الخلة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها؛ بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه، وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[1]. وفي الصحيح عنه ﷺ: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»[2]. وفي حديث آخر: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته»[3].

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، فتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده؛ حصل المقصود فرفع الذبح وفدي بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا، بل لابد أن يبقي بعضه أو بدله، كما أبقى شريعة الفداء، وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة. وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال: «لا يبدل القول لدي خمس في الفعل وخمسون في الأجر»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٦ رقم ٨١٠٥) وفي فضائل الصحابة (رقم ٤) وابن ماجه (رقم ٩٣) وابن أبي شيبة (رقم ٣١٧٢٠) وابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٦ رقم ١٢٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٤٢) ومسلم (رقم ١٦٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٣) (١٣/ ٤٨٦) وعمدة القاري (٤/ ٤٥) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

(١)المحبة ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه. فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب، ومحبة ما يعين على حبه، ويوصل إلى رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأصل الشرك الذي لا يغفره الله؛ هو الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الربَّ سبحانه في خلق السماوات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالوا عليها وعادوا عليها وتألّهوها، وقالوا: هذه آلهة صغارٌ تقربنا إلى الإله الأعظم، ففرقٌ بين محبة الله أصلًا، والمحبة له تبعًا، والمحبة معه شركًا، وعليك بتحقيق هذا الموضع، فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

ويُحكى أن الفُضيل دخل على ابنته في مرضها، فقالت له: يا أبتِ هل تحبني؟ قال: نعم، قالت: لا إله إلا الله! والله ما كنتُ أظنُّ فيك هذا، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحدًا، ولكن أفرد الله بالمحبة، واجعل لي منك الرحمة، أي: يكون حبك لي حبَّ رحمةٍ، جعلها الله في قلب الوالد لولده، لا محبة مع الله، فلله حقٌّ من المحبة لا يشركه فيه غيره، وأظلم الظلم وضعُ تلك المحبة في غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب؛ فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

(٢)قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا، كما يحب الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ

(١) ٣١٤ روضة.

(٢) ٢٠ مدارج جـ ٣.

من دون الله أندادًا، فهذا ندٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله؛ ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي مُحضرة معهم في العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية؛ وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح

القولين. وقيل: الباء بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي. إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه، وإنما جاء هذا في فعل السؤال، نحو: سألت بكذا، أي: عنه. كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت، ونحو ذلك.

[(١)]إن محبة الله سبحانه والأُنس به، والشوق إلى لقائه، والرضى به وعنه؛ أصل الدين، وأصل أعماله وإرادته.

كما أن معرفته، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أجلُّ علوم الدين كلها، فمعرفته أجل المعارف. وإرادة وجهه أجل المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته، ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملَّة إبراهيم. وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملَّة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين**»[(٢)].

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وعليها قام دينُ الإسلام، الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، وليس لله دينٌ سواه، ولا يقبل من أحد ديناً غيره. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فمحبته تعالى، بل كونه أحب إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق، من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، ومن أحب معه مخلوقًا مثل ما يحبه فهو

---

(١) ١٩٥ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى(٦/ ٣ رقم ٩٨٢٩) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه، ولا يقبل معه عمل. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان؛ حتى يكون عبد الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبعٌ لمحبة الله، فما الظن بمحبته سبحانه؟ وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأسست الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلالٌ ومخافة.

فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، وهربت منه، والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه، والمخلوق يخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يخاف عدله وقسطه.

وكذلك المحبة، فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله؛ فهي عذاب للمحب ووبال عليه. وما يحصل له بها من التألم؛ أعظم مما يحصل له من اللذة. وكلما كانت أبعد عن الله؛ كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح،وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من

محبته والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك؛ فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك؛ أتمُّ من كل نعيم، واللذة التي تناله؛ أعلىٰ من كل لذة.

كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب»(١).

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتزُّ فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له».

وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها»(٢).

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»(٣).

ووجدان هذه الأمور وذوقها؛ هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتمّ، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوىٰ.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب وإليه أقرب؛ وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه.

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

(٤)هذه مناظرة حكاها الله بين المسلمين والكفار، فإن الكفار لجؤوا إلىٰ تقليد الآباء وظنوا أنه منجيهم، لإحسانهم ظنهم بهم فحكم الله بينهم بقوله: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ

(١) انظر: الوابل الصيب (ص ٧٠) وفيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٩).

(٣) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (رقم ٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦/ ٣٠٢-٣٠٣) وانظر: شرح حديث لبيك (ص ٦١) وفيض القدير (١/ ٤٤٣) وصفة الصفوة (٤/ ١٥٤).

(٤) ١٧٣ بدائع جـ٤.

ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وفي موضع آخر: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]. وفي موضع آخر: ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

فأخبر عن بطلان هذه المحبة، وأنها لا تنجي من عذاب الله؛ لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدىٰ من الله ضلالة وسفه.

والمعنى: ولو كان الشيطان يدعوهم إلىٰ عذاب السعير يقلدونهم، ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدىٰ يقلدونهم أيضًا، وهذا شأن من لا غرض له في الهدىٰ ولا في اتباع الحق، إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدىٰ مما وجدتم عليه آباءكم، فلو كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم علىٰ حق فقد جئتكم بأهدىٰ مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جُنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به.

***

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

[(١)] تضمن هذا المثل ناعقًا، أي: مُصَوِّتاً بالغنم وغيرها، ومنعوقًا به، وهو الدواب، فقيل: الناعق: العابد، وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعوُّ، وإن حال الكافر في دعائه، كحال من ينعق بما لا يسمعه، هذا قول طائفة منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره. واستشكل صاحبُ الكشاف وجماعة معه هذا القول، وقالوا: قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء. وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن ﴿إِلَّا﴾ زائدة، والمعنى: بما لا يسمع دُعاء ونداء؛ قالوا: وقد ذكر ذلك

(١) ١٨٢ أعلام جـ١.

الأصمعي في قول الشاعر:

حَـرَاجِـيجُ مَـا تَنْـفَـكُّ إِلَّا مُـنَاخَـةً[١]

أي ما تنفك مناخة، وهذا جواب فاسد، فإن «إلا» لا تزاد في الكلام.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أن المعنى أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تَفْقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء.

وقيل: المعنى ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت؛ فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المنعوق بها.

قال سيبويه: المعنى ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به[٢]؛ وعلى قوله فيكون المعنى: ومثلُ الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها.

ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من المركب كان تشبيها للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي ينعق بها الراعي، فلا تفقه من قوله شيئًا غير الصوت المجرد، الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرَّق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق، والله أعلم.

---

(١) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وينسب إلى ذي الرمة: غيلان بن نهيس العدوي، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. كان أكثر شعره تشبيبًا وبكاءَ أطلال. قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته: ما بال عينيك منها الماء ينسك. لكان أشعر الناس، عشق مية المنقرية واشتهر بها، توفي بأصبهان سنة ١١٧هـ، وعجز البيت: على الخسف أو نرمي بها بلدًا قفرًا، ذكره الفيروزابادي في القاموس (ص١٧٣٩) وابن منظور في اللسان (١٠/ ٤٧٧) وجاء فيه: «قلائص» بدلًا من «حراجيج». وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ١٩٩) (٩/ ٢٧٥).

(٢) انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٥٦).

(١)وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتاً مجردة، أو كان المعنى: ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها، فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء، فالقولان متلازمان، بل هما واحد، وإنما كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

***

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

(٢)قد جمع الله خصال البر في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ... ﴾ إلى قوله: ﴿... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمسة، التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين: حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح، والقلب، وأصول الإيمان الخمسة.

---

(١) ٧٩ مفتاح جـ١.

(٢) ٥ التبوكية.

ثم أخبر سبحانه عن هذه إنها هي خصال التقوى بعينها، فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

[1]قوله: «كيف تردعون عن سفك الدم بسفكه، وإن ذلك كإزالة النجاسة بالنجاسة» سؤال في غاية الوهن والفساد، وأول ما يقال لسائله: هل ترى ردع المفسدين والجناة عن فسادهم وجناياتهم وكف عدوانهم مستحسنًا في العقول موافقًا لمصالح العباد أو لا تراه كذلك؟

فإن قال: «لا أراه كذلك» كفانا مؤنة جوابه بإقراره على نفسه بمخالفة جميع طوائف بني آدم على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم وآرائهم، ولولا عقوبة الجناة والمفسدين لأهلك الناس بعضهم بعضًا، وفسد نظام العالم، وصارت حالُ الدوابِّ والأنعام والوحوش أحسن من حال بني آدم.

وإن قال: «بل لا تتم المصلحة إلا بذلك». قيل له: من المعلوم أن عقوبة الجناة والمفسدين لا تتم إلا بمؤلم يردعهم، ويجعل الجاني نكالاً وعظة لمن يريد أن يفعل مثل فعله، وعند هذا فلابد من إفساد شيء منه بحسب جريمته: في الكبر والصغر، والقلة والكثرة.

ومن المعلوم ببدائِهِ العقول: أن التسوية في العقوبات مع تفاوت الجرائم غير مستحسن؛ بل منافٍ للحكمة والمصلحة؛ فإنه إن ساوى بينهم في أدنى العقوبات لم

(١) ١٠٢ أعلام جـ ٢.

تحصل مصلحة الزجر. وإن ساوىٰ بينها في أعظمها كان خلاف الرحمة والحكمة؛ إذ لا يليق أن يقتل بالنظرة والقبلة ويقطع بسرقة الحبة والدينار.

وكذلك التفاوت بين العقوبات مع استواء الجرائم قبيح في الفطر والعقول، وكلاهما تأباه حكمة الرب تعالىٰ وعدله وإحسانه إلىٰ خلقه، فأوقع العقوبة تارة بإتلاف النفس إذا انتهت الجناية في عظمها إلىٰ غاية القبح: كالجناية علىٰ النفس أو الدين، أو الجناية التي ضررها عام؛ فالمفسدة التي في هذه العقوبة خاصة، والمصلحة الحاصلة بها أضعاف أضعاف تلك المفسدة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فلولا القصاص لفسد العالم، وأهلك الناس بعضهم بعضًا ابتداء واستيفاء، فكأن في القصاص دفعًا لمفسدة التجري علىٰ الدماء بالجناية وبالاستيفاء، وقد قالت العرب في جاهليتها. «القتل أنفىٰ للقتل»[1] «وبسفك الدماء تحقن الدماء».

فلم تغسل النجاسة بالنجاسة، بل الجناية نجاسة والقصاص طهرة، وإذا لم يكن بد من موت القاتل ومن استحق القتل، فموته بالسيف أنفع له في عاجلته وآجلته، والموت به أسرع الموتات وأوحاها وأقلها ألمًا، فموته به مصلحة له ولأولياء القتيل ولعموم الناس، وجرىٰ ذلك مجرىٰ إتلاف الحيوان بذبحه لمصلحة الآدمي، فإنه حسن، وإن كان في ذبحه إضرار بالحيوان؛ فالمصالح المرتبة علىٰ ذبحه أضعاف أضعاف مفسدة إتلافه.

ثم هذا السؤال الفاسد؛ يظهر فساده وبطلانه بالموت الذي حتمه الله علىٰ عباده، وساوىٰ فيه بين جميعهم، ولولاهُ لما هنأ العيش، ولا وسعتهم الأرزاق، ولضاقت عليهم المساكن والمدن والأسواق والطرقات، وفي مفارقة البغيض من اللذة والراحة ما في مواصلة الحبيب، والموت مخلص للحي، والموت مريح لكل منهما من صاحبه،

(١) انظر: الاعتقاد للبيهقي (ص ٢٦٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٢١٢).

ومخرج من دار الابتلاء والامتحان و بابٌ للدخول في دار الحيوان.

جـزى الله عنـا المـوت خيـرًا فإنـه أبـر بنـا مـن كـل بـر وأعطـف
يعجـل تخليـص النفـوس مـن الأذى ويـدني إلـى الـدار التـي هـي أشـرف[(١)]

فكم لله سبحانه على عباده الأحياء والأموات في الموت من نعمة لا تحصى، فكيف إذا كان فيه طهرة للمقتول، وحياة للنوع الإنسان، وتشفٍّ للمظلوم، وعدل بين القاتل والمقتول؛ فسبحان من تنزهت شريعته عن خلاف ما شرعها عليه من اقتراح العقول الفاسدة والآراء الضالة الجائرة.

وأما قوله: «لو كان ذلك مستحسنًا في العقول؛ لاستحسن في تحريق ثوبه، وتخريب داره، وذبح حيوانه، مقابلته بمثله».

فالجواب عن هذا: أن مفسدة تلك الجنايات تندفع بتغريمه نظير ما أتلفه عليه؛ فإن المثل يسد مسد المثل من كل وجه؛ فتصير المقابلة مفسدة محضة، كما ليس له أن يقتل ابنه أو غلامه مقابلة لقتله هو ابنه أو غلامه، فإن هذا شرع الظالمين المعتدين، الذي تنزه عنه شريعة أحكم الحاكمين. على أن للمقابلة في إتلاف المال بمثل فعله مساغًا في الاجتهاد.

وقد ذهب إليه بعض أهل العلم كما تقدم الإشارة إليه في عقوبة الكفار بإفساد أموالهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، أو كان يغيظهم، وهذا بخلاف قتل عبده إذا قتل عبده أو قتل فرسه أو عقر فرسه، فإن ذلك ظلم لغير مستحق.

ولكن السنة اقتضت التضمين بالمثل، لا إتلاف النظير، كما غرم النبي ﷺ إحدى زوجتيه التي كسرت إناء صاحبتها إناءً بدله، وقال: «إناء بإناء»[(٢)]، ولا ريب أن هذا

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى علي بن أبي طالب ﷺ. وذكرهما أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٥٤٥- ٥٤٦) وفي تحسين القبيح وتقبيح الحسن (ص ٥١) والجاحظ في المحاسن والأضداد (ص ٦٢٣- ٦٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٨١) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٣٦-٣٨) وتحفة الأحوذي (٤/ ٤٩٥).

أقل فسادًا، وأصلح للجهتين؛ لأن المتلف ماله إذا أخذ نظيره صار كمن لم يَفت عليه شيء، وانتفع بما أخذه عوض ماله، فإذا مكناه من إتلافه كان زيادة في إضاعة المال، وما يراد من التشفي وإذاقة الجاني ألم الإتلاف فحاصل بالغرم غالبًا، ولا التفات إلى الصور النادرة التي لا يتضرر الجاني فيها بالغرم، ولا شك أن هذا أليق بالعقل، وأبلغ في الصلاح، وأوفق للحكمة. وأيضًا فإنه لو شرع القصاص في الأموال ردعًا للجاني؛ لبقي جانب المجني عليه غير مراعى، بل يبقى متألمًا موتورًا غير مجبور، والشريعة إنما جاءت بجبر هذا وردع هذا.

فإن قيل: فخيروا المجني عليه بين أن يغرم الجاني أو يتلف عليه نظير ما أتلفه هو، كما خيرتموه في الجناية على طرفه، وخيرتم أولياء القتيل بين إتلاف الجاني النظير وبين أخذ الدية.

قيل: لا مصلحة في ذلك للجاني ولا للمجني عليه ولا لسائر الناس، وإنما هو زيادة فساد، لا مصلحة فيه بمجرد التشفي، ويكفي تغريمه وتعزيره في التشفي، والفرق بين الأموال والدماء في ذلك ظاهر.

فإن الجناية على النفوس والأعضاء؛ تُدخل من الغيظ والحنق والعداوة على المجني عليه وأوليائه ما لا تدخله جناية المال، ويدخل عليهم من الغضاضة والعار واحتمال الضيم والحمية والتحرق لأخذ الثأر؛ ما لا يجبره المال أبدًا.

حتى إن أولادهم وأعقابهم ليعيرون بذلك، ولأولياء القتيل من القصد في القصاص وإذاقة الجاني وأوليائه ما أذاقه للمجني عليه وأوليائه؛ ما ليس لمن حرق ثوبه أو عُقرت فرسه، والمجني عليه موتور هو وأولياؤه، فإن لم يوتر الجاني وأولياؤه ويجرعوا من الألم والغيظ ما تجرعه الأول لم يكن عدلاً.

وقد كانت العرب في جاهليتها؛ تعيب على من يأخذ الدية ويرضى بها من درك ثأره وشفاء غيظه، كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الإبل:

وإن الـــذي أصـــبحتم تحلبونـــه دمٌ غيـــر أن اللـــون لـــيس بأشـــقرا[١]

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلاً:

ألا أبلـــغ بنـــي حجـــر بـــن وهـــب بـــأن التمـــر حُلْـــوٌ في الـــشتاء[٢]

وقال آخر:

إذا صُـبَّ مـا في الوطـب فـاعلم بأنـه دم الشيخ فاشرب مـن دم الـشيخ أو دع[٣]

وقال آخر:

خلـــيلان مختلـــفٌ شـــكلنا أريـــد العـــلاء ويبغـــي الـــسمن

أريـــد دمـــاء بنـــي مالـــك ورأي المعلـــى بيـــاضُ اللـــبن[٤]

وهذا وإن كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بما هو خير منه وأصلح في المعاش والمعاد: من تخيير الأولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفي، وبين أخذ الدية؛ فإن القصد به أن العرب لم تكن تعير من أخذ بدل ماله، ولم تعده ضعفًا ولا عجزًا البتة، بخلاف من أخذ بدل دم وليه، فما سوَّى الله بين الأمرين في طبع ولا عقل ولا شرع، والإنسان

---

(١) ذكره الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء وابن قتيبة الدينوري في المعاني الكبير في أبيات المعاني والجاحظ في الحيوان.

(٢) ذكر البيت الأصفهاني في محاضرات الأدباء وابن قتيبة الدينوري في المعاني الكبير والأصفهاني في الأغاني.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى جرير وفيه (القعب) بدل (الوطب) وذكره أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في المحاضرات في الأدب واللغة.

(٤) هذان البيتان من بحر المتقارب وينسبان إلى الأفوه الأودي. صلاءة بن عمرو بن مالك شاعر يماني جاهلي، لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان، كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم وأحد الحكماء والشعراء في عصره، مات سنة ٥٤هـ قبل الهجرة. وينسبان أيضًا إلى الأسعر بن الحارث العفي، شاعر جاهلي قال هذا الشعر تعريضًا بإخوته لأبيه الذين لم يثأروا لمقتل أبيهم وقبلوا الدية وقاتليه وباعوا فرسه وأكلوا ثمنها. ولما شب وقوي ساعده ثأر لأبيه واستعاد خيله. وردت له قصيدة في كتب التراث، ووردت في الأصمعيات والوحشيات وحماسة البحتري. ولم يعلم سنة وفاته.

والبيتان ذكرهما ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد والزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار.

قد يخرق ثوبه عند الغيظ، ويذبح ماشيته، ويتلف ماله، فلا يلحقه في ذلك من المشقة والغيظ والازدراء به؛ ما يلحق من قتل نفسه أو جدع أنفه أو قلع عينه.

(١) إن قولكم إذا قتل إنسان إنسانًا عرض للعقل، هاهنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره.

فيقال: إن أردتم أن العقل يسوِّي بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني، فبهتٌ للعقل وكذب عليه؛ فإنه لا يستوي عند عاقل قط حسن الاقتصاص من الجاني بمثل ما فعل، وحسن تركه والإعراض عنه، ولا يعلم عقل صحيح يسوي بين الأمرين، وكيف يستوي أمران:

أحدهما: يستلزم فساد النوع وخراب العالم، وترك الانتصار للمظلوم، وتمكين الجناة من البغي والعدوان.

والثاني: يستلزم صلاح النوع وعمارة العالم، والانتصار للمظلوم، وردع الجناة والبغاة المعتدين.

فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن إعدام هذه البنية الشريفة وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول؛ تكثير لمفسدة القتل، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصًا بمن قتله؛ كف عن القتل وارتدع وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

(١) ٩٦ مفتاح جـ٢.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم، قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته. فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله؛ ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه، ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل؛ بل من حيث كونه قصاصاً يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غير، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى العظيم. فصدر الآية بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه. ثم عقبه بقوله: ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ﴾ إيذانًا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل.

والقصاص في اللغة: المماثلة، وحقيقته راجعة إلى الاتباع. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره. ومنه قوله: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: يقصان الأثر ويتبعانه[1]. ومنه قص الحديث واقتصاصه، لأنه يتبع بعضه بعضًا في الذكر، فسمي جزاء الجاني قصاصًا؛ لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق بمعنى القصاص.

وقد ذكرنا أدلة المسألة من الطرفين، وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن.

ونكّر سبحانه الحياة تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها، وليس المراد حياة ما؛ بل المعنى: أن في القصاص؛ حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل

---

(١) انظر: مشارق الأنوار (٢/ ١٨٨) ولسان العرب (٧/ ٧٣-٧٤).

عقل، والتنكير كثيرًا ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله: ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤].

ثم خص أولي الألباب وهم: أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته، إذ هم المنتفعون بالخطاب، ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم: «القتل أنفى للقتل» ليتبين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته.

والوجه الخامس والخمسون: قولكم: إن القصاص إتلاف بإزاء إتلاف، وعدوان في مقابلة عدوان، ولا يحيا الأول بقتل الثاني؛ ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين، وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم، وفي القصاص استهلاك محقق.

فيقال: هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلانًا؛ فإنه يتضمن التسوية بين القبيح والحسن، ونفي حسن القصاص الذي اتفقت العقول والديانات على حسنه وصلاح الوجود به، وهل يستوي في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلمًا وعدوانًا بغير حق، والقتل قصاصًا وجزاء بحق؟!

ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع؛ لاستوائهما في صورة العقد، ومعلوم أن استواء الفعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة، ومدعي ذلك في غاية المكابرة.

وهل يدل استواء السجود لله، والسجود للصنم في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض؛ على أنهما سواء في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه؟! ويكفي في فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغي وعدوان، وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع وزجر.

والفرق بين هذين؛ مثل الفرق بين الزنا والنكاح، بل أعظم وأظهر، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها، فما تعارض في عقل

صحيح قط هذان الأمران، حتى يتحير بينهما أيهما يؤثره ويختاره؟

وقولكم: إنه إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو، لكن إتلاف حسن هو مصلحة وحكمة وصلاح للعالم، في مقابلة إتلاف هو فساد وسفه وخراب للعالم، فأنَّى يستويان؟! أم كيف يعتدلان حتى يتحير العقل بين الإتلاف الحسن وتركه؟!

وقولكم: «لا يحيا الأول بقتل الثاني» قلنا: يحيا به عدد كثير من الناس؛ إذ لو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضًا، فإن لم يكن في قتل الثاني حياة للأول ففيه حياة العالم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]. لكن هذا المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولو الألباب.

فأين هذه الشريعة، وهذه الحكمة وهذه المصلحة؛ من هذا الهذيان الفاسد وأن يقال: قتل الجاني إتلاف بإزاء إتلاف، وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبيحًا، لولا الشرع؟! فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به.

وقولكم: فيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين. فيقال: لو أعطيتم رتب المصالح والمفاسد حقها؛ لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد، فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة، وعلى ذلك قام العالم، وما نحن فيه كذلك فإنه احتمال لمفسدة إتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة، فمن تحير عقله بين هذين المفسدتين فلفساد فيه.

والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل: كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه، كقطع العروق وبط الخراج ونحوه.

فلو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد، وقالوا: هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم، لفسد الجسد جملة، ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم في الفساد.

الوجه السادس والخمسون: قولكم: إن مصلحة الردع والزجر وإحياء النوع أمر

متوهم. كلام بيّن فساده؛ بل هو أمر متحقق وقوعه عادة، ويدل عليه ما نشاهده من الفساد العام عند ترك الجناة والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ على أيديهم، والمتوهم من زعم أن ذلك موهوم وهو بمثابة من دهمه العدو، فقال: لا نعرض أنفسنا لمشقة قتالهم: إنه مفسدة متحققة وأما استيلاؤهم على بلادنا وسبيهم ذرارينا وقتل مقاتلتنا فموهوم. فياليت شعري من الواهم المخطىء في وهمه؟!

ونظيره أيضًا: أن الرجل إذا تبيغ به الدم وتضرر إلى إخراجه، لا يتعرض لشق جلده وقطع عروقه؛ لأنه ألم محقق لا موهوم، ولو اطرد هذا القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع، والاعتماد في طلب مصالح الدارين ودفع مفاسدهما مبني على هذا الذي سميتموه أنتم موهوماً، فالعمال في الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذي اطردت به العادة، وإن لم يجزموا به فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها، فالتاجر يتحمل مشقة السفر في البر والبحر، بناء على أنه يسلم ويغنم، فلو اطرد هذا القياس الفاسد، وقال: السفر مشقة متحققة، والكسب أمر موهوم؛ لتعطلت أسفار الناس بالكلية.

وكذلك عمال الآخرة لو قالوا: تعب العمل ومشقته أمر متحقق، وحسن الخاتمة أمر موهوم؛ لعطلوا الأعمال جملة، وكذلك الأجراء والصُّنَّاع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية، لولا بناؤه عليالغالب وما جرت به العادة؛ لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر.

ومن هاهنا قيل: إن إنكار هذه المسألة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه متعددة.

الوجه السابع والخمسون: قولكم: ويعارضه معنى ثالث وراءهما، فيفكر العقل في أنواع وشروط أخرى وراء مجرد الإنسانية: من العقل والبلوغ، والعلم والجهل، والكمال والنقص، والقرابة والأجنبية. فيتحير العقل كل التحير، فلابد إذًا من شارع، يفصل هذه الخطة، ويعين قانونًا يطرد عليه أمر الأمة، ويستقيم عليه مصالحهم.

فيقال: لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه، فإذا جاءت به الشريعة اهتدىٰ العقل حينئذ إلىٰ وجه حسن مأموره وقبح منهيه؛ فسرته الشريعة علىٰ وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه، فهذا مما لا ينكر، وهذا الذي قلنا فيه: «إن الشرائع تأتي بمجارات العقول لا بمحالات العقول».

ونحن لم ندع ولا عاقل قط: أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة؛ بحيث لو ترك وحده لاهتدىٰ إلىٰ كل ما جاءت به.

إذا عرف هذا فغاية ما ذكرتم: أن الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب القصاص شروطًا لا يهتدي العقل إليها، وأي شيء يلزم من هذا، وماذا يقبح لكم ومنازعوكم يسلمونه لكم؟.

وقولكم: إن هذا معارض للوصف المقتضي لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم: إما غفلة عن الشروط المعارضة، وإما اصطلاح طارٍ سيم فيه ما لا يهتدي العقل إليه من شروط اقتضاء الوصف لموجبه معارضة.

فيا لله العجب! أي معارضة هاهنا إذا كان العقل والفطرة قد شهدا بحسن القتل قصاصًا، وانتظامه للعالم؟ وتوقفًا في اقتضاء هذا الوصف هل يضم إليه شرط آخر غيره، أم يكفي بمجرده؟ وفي تعيين تلك الشروط فأدرك العقل ما استقل بإدراكه، وتوقف عما لا يستقل بإدراكه حتىٰ اهتدىٰ إليه بنور الشريعة...

[1]وأما معاقبة السارق بقطع يده وترك معاقبة الزاني بقطع فرجه، ففي غاية الحكمة والمصلحة، وليس في حكمة الله ومصلحة خلقه وعنايته ورحمته بهم أن يتلف علىٰ كل جان كل عضو عصاه به، فيشرِّع: قلع عين من نظر إلىٰ المحرم، وقطع أذن من استمع إليه، ولسان من تكلم به، ويد من لطم غيره عدوانًا، ولا خفاء بما في هذا من الإسراف والتجاوز في العقوبة وقلب مراتبها.

وأسماء الرب الحسنىٰ وصفاته العليا وأفعاله الحميدة تأبىٰ ذلك. وليس مقصود

---

(١) ١٠٦ أعلام ج٢.

الشارع مجرد الأمن من المعاودة ليس إلا، ولو أريد هذا لكان قتل صاحب الجريمة فقط، وإنما المقصود الزجر والنكال والعقوبة على الجريمة، وأن يكون إلى كف عدوانه أقرب، وأن يعتبر به غيره، وأن يحدث له ما يذوقه من الألم توبة نصوحًا، وأن يذكره ذلك بعقوبة الآخرة، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح.

ثم إن في حد السرقة معنى آخر، وهو: أن السرقة إنما تقع من فاعلها سرًّا كما يقتضيه اسمها، ولهذا يقولون: «فلان ينظر إلى فلان مسارقة»[1] إذا كان ينظر إليه نظرًا خفيًّا لا يريد أن يفطن له، والعازم على السرقة مختفٍ كاتم خائف أن يُشْعَر بمكانه فيؤخذ به، ثم هو مستعد للهرب والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء، واليدان للإنسان كالجناحين للطائر في إعانته على الطيران، ولهذا يقال: «وصلت جناح فلان»، إذا رأيته يسير منفردًا فانضممت إليه لتصحبه، فعوقب السارق بقطع اليد، قصًّا لجناحه، وتسهيلًا لأخذه إن عاود السرقة، فإذا فُعِلَ به هذا في أول مرة، بقي مقصوص أحد الجناحين ضعيفًا في العدو، ثم يقطع في الثانية رجله، فيزداد ضعفًا في عدوه فلا يكاد يفوت الطالب، ثم تقطع يده الأخرى في الثالثة ورجله الأخرى في الرابعة، فيبقى لحما على وضمٍ؛ فيستريح ويريح.

وأما الزاني فإنه يزني بجميع بدنه، والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن، والغالب من فعله وقوعه برضا المزني بها، فهو غير خائف ما يخافه السارق من الطلب، فعوقب بما يعم بدنه: من الجلد مرة، والقتل بالحجارة مرة.

ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبار المعاصي؛ لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يبطل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاك الحرث والنسل، فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك؛ فزجر عنه بالقصاص ليرتدع عن مثل فعله من يهم به، فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة.

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ١٤٥) وتفسير ابن كثير (٤/ ١٢١).

ثم إن للزاني حالتين:

إحداهما: أن يكون محصنًا قد تزوَّج، فعلم ما يقع به من العفاف عن الفروج المحرمة، واستغنى به عنها، وأحرز نفسه عن التعرض لحد الزنا، فزال عذره من جميع الوجوه في تخطي ذلك إلى مواقعة الحرام.

الثانية: أن يكون بكرًا، لم يعلم ما علمه المحصن ولا عمل ما عمله؛ فحصل له من العذر بعض ما أوجب له التخفيف، فحقن دمه، وزجر بإيلام جميع بدنه بأعلى أنواع الجلد؛ ردعا على المعاودة للاستمتاع بالحرام، وبعثًا له على القنع بما رزقه الله من الحلال. وهذا في غاية الحكمة والمصلحة، جامع للتخفيف في موضعه والتغليظ في موضعه. وأين هذا من قطع لسان الشاتم والقاذف وما فيه من الإسراف والعدوان؟

ثم إن قطع فرج الزاني فيه من تعطيل النسل وقطعه؛ عكس مقصود الرب تعالى من تكثير الذرية وذريتهم فيما جعل لهم من أزواجهم، وفيه من المفاسد أضعاف ما يتوهم فيه من مصلحة الزجر، وفيه إخلاء جميع البدن من العقوبة، وقد حصلت جريمة الزنا بجميع أجزائه، فكان من العدل أن تعمه العقوبة، ثم إنه غير متصور في حق المرأة، وكلاهما زان؛ فلا بد أن يستويا في العقوبة، فكان شرع الله سبحانه أكمل من اقتراح المقترحين.

وتأمل كيف جاء إتلاف النفوس؛ في مقابلة أكبر الكبائر وأعظمها ضررًا وأشدها فسادًا للعالم، وهي: الكفر الأصلي والطارئ، والقتل، وزنى المحصن.

وإذا تأمل العاقل فساد الوجود رآه من هذه الجهات الثلاث، وهذه هي الثلاث التي أجاب عنها النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود بها، حيث قال له: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل الله ندًا وهو خلقك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»(١) فأنزل الله

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦).

ﷻ تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ الآية. [الفرقان: ٦٧].

ثم لما كان سرقة الأموال تلي ذلك في الضرر وهو دونه، جعل عقوبته قطع الطرف.

ثم لما كان القذف دون سرقة المال في المفسدة، جعل عقوبته دون ذلك وهو الجلد.

ثم لما كان شرب المسكر أقل مفسدة من ذلك، جعل حده دون حد هذه الجنايات كلها.

ثم لما كانت مفاسد الجرائم بعد متفاوتة غير منضبطة: في الشدة والضعف، والقلة والكثرة، وهي ما بين النظرة والخلوة والمعانقة؛ جعلت عقوبتها راجعة إلى اجتهاد الأئمة وولاة الأمور، بحسب المصلحة في كل زمان ومكان، وبحسب أرباب الجرائم في أنفسهم؛ فمن سوَّى بين الناس في ذلك وبين الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ لم يفقه حكمة الشرع، واختلفت عليه أقوال الصحابة وسيرة الخلفاء الراشدين وكثير من النصوص، ورأى عمر قد زاد في حد الخمر على أربعين، والنبي ﷺ إنما جلد أربعين[(١)]، وعزَّر بأمور لم يعزر بها النبي ﷺ، وأنفذ على الناس أشياء عفا عنها النبي ﷺ؛ فيظن ذلك تعارضًا وتناقضًا، وإنما أتى من قصور علمه وفهمه، وبالله التوفيق.

وأما قوله: «وجعل حد الرقيق على النصف من حد الحر[(٢)]، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا ريب أن الشارع فرق بين الحر والعبد في أحكام، وسوى بينهما في أحكام، فسوى بينهما في الإيمان والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة والصلاة والصوم لاستوائهما في سببها، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج والزكاة والتكفير بالمال؛ لافتراقهما في سببها، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبح من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله تعالى عليه بالحرية، وأن

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٣١٨ رقم ١٧٣٠٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٥٢) والطيالسي (رقم ١٧٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٦٩-٧٢) وشرح النووي (١١/ ٢١٥-٢١٧).

(٢) انظر: المحلى لابن حزم (١١/ ١٦١) وبداية المجتهد (٢/ ٣٣٢).

جعله مالكًا لا مملوكًا، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوَّض الله عنها من المباحات، فقابل النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية؛ فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه من هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة، فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم، كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالىٰ في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

وهذا علىٰ وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالمًا لم ينفعه الله بعلمه(١)، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته علىٰ الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء من عصاهم من خواصهم وحشمهم ومن هو قريب منهم، ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر جمعًا بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان علىٰ النصف منه في النكاح والطلاق والعدة، إظهارًا لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر، كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين، بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان حق لله، وحق لسيده، فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجرًا(٢)، فاتفقت حكمة الشرع والقدر

(١) يروىٰ عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه» أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٥٠٧) وانظر: فيض القدير (١/ ٥١٨).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدىٰ حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها، فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها =

والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

[١]ومن ذلك المماثلة في القصاص في الجنايات الثلاث: على النفوس والأموال والأعراض؛ فهذه ثلاث مسائل:

الأولى: هل يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه؟

فإن كان الفعل محرمًا لحق الله: كاللواط وتجريعه الخمر لم يفعل به كما فعل اتفاقًا. وإن كان غير ذلك: كتحريقه بالنار وإلقائه في الماء، ورضّ رأسه بالحجر، ومنعه من الطعام والشراب؛ حتى يموت، فمالك والشافعي وأحمد في إحدى الروايات عنه؛ يفعلون به كما فعل، ولا فرق بين الجرح المزهق وغيره.

وأبو حنيفة وأحمد في رواية عنه يقولان: لا يقتل إلا بالسيف في العنق خاصة.

وأحمد في رواية ثالثة يقول: إن كان الجرح مزهقًا فعل به كما فعل، وإلا قتل بالسيف. وفي رواية رابعة يقول: إن كان مُزهقًا أو موجبًا للقود بنفسه لو انفرد فعل به كما فعل، وإن كان غير ذلك قتل بالسيف[٢].

والكتاب والميزان مع القول الأول، وبه جاءت السنة، فإن النبي ﷺ، رضَّ رأس اليهودي بين حجرين كما فعل بالجارية[٣]، وليس هذا قتلاً لنقضه العهدَ، لأن ناقض العهد إنما يقتل بالسيف في العنق. وفي أثر مرفوع: «**من حرق حرقناه، ومن غرق غرقناه**»[٤].

=
فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران» أخرجه البخاري (رقم ٩٧) ومسلم (رقم ١٥٤).

(١) ٣٢٧ أعلام جـ١.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٣) وعمدة القاري (٢٤/ ٣٩).

(٣) فعن أنس ﷺ أن يهوديًا رضَّ رأس جارية بين حجرين، قيل: من فعل هذا بك؟ أفلان. أفلان؟ حتى سُمِّي اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي فاعترف، فأمر به النبي ﷺ فرضَ رأسه بين حجرين، أخرجه البخاري (رقم ٢٤١٣) ومسلم (رقم ١٦٧٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٩) وعمدة القاري (١٢/ ٢٥٢).

(٤) قال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٢٦٥ رقم ٢٢٢٢): رواه البيهقي من رواية عمران بن يزيد
=

وحديث: «**لا قود إلا بالسيف**»[١] قال الإمام أحمد: ليس إسناده بجيد[٢]، والثابت عن الصحابة أنه يفعل به كما فعل، فقد اتفق على ذلك: الكتاب والسنة والقياس وآثار الصحابة، واسمُ القصاص يقتضيه لأنه يستلزم المماثلة.

المسألة الثانية: إتلاف المال؛ فإن كان مما له حرمة كالحيوان والعبيد؛ فليس له أن يتلف ماله كما أتلف ماله، وإن لم تكن له حرمة كالثوب يشقه والإناء يكسره؛ فالمشهور أنه ليس له أن يتلف عليه نظير ما أتلفه، بل له القيمة أو المثل كما تقدم.

والقياس يتقضي أن له أن يفعل بنظير ما أتلفه عليه كما فعله الجاني به؛ فيشق ثوبه كما شق ثوبه، ويكسر عصاه كما كسر عصاه إذا كانا متساويين، وهذا من العدل، وليس مع من منعه نص قياس ولا إجماع! فإن هذا ليس بحرام لحق الله، وليست حرمة المال أعظم من حرمة النفس والأطراف، وإذا مكنه الشارع أن يتلف طرفه بطرفه فتمكينه من إتلاف ماله في مقابلة ماله؛ هو أولى وأحرى، وإن حكمة القصاص من التشفي ودرك الغيظ؛ لا تحصل إلا بذلك، ولأنه قد يكون له غرض في أذاه وإتلاف ثيابه ويعطيه قيمتها، ولا يشق ذلك عليه؛ لكثرة ماله فيشفي نفسه منه بذلك، ويبقى المجني عليه بغبنه وغيظه، فكيف يقع إعطاؤه القيمة من شفاء غيظه ودرك ثأره وبرد قلبه وإذاقة الجاني من الأذى ما ذاق هو؟ فحكمة هذه الشريعة الكاملة الباهرة وقياسها

بن البراء عن أبيه عن جده، وقال في المعرفة: في إسناده بعض من يجهل وقال ابن الجوزي: لا يثبت عن رسول الله ﷺ، إنما قاله زياد في خطبته، وانظر: تلخيص الحبير (٤/ ١٩) والمغني (٨/ ٢٤٠) وتحفة الأحوذي (٤/ ٥٤٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٦٦٧، ٢٦٦٨) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٦٣ رقم ١٥٨٧٠) والدارقطني (٣/ ٨٨ رقم ٢٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٨٤) والطبراني في الكبير (١٠/ ٨٩ رقم ١٠٠٤٤) والبزار (٩/ ١١٥ رقم ٣٦٦٣) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٩١): رواه الطبراني وفيه أبو معاذ سليمان بن أرقم وهو متروك، وقال أيضًا: رواه البزار وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف، وانظر: مصباح الزجاجة (٣/ ١٢٩) وضعفه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٢٠٠).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٣) والمغني (٨/ ٢٤٠).

معًا؛ يأبىٰ ذلك وقوله: ﴿ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورىٰ: ٤٠] وقوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل: ١٢٦] يقتضي جواز ذلك، وقد صرح الفقهاء بجواز إحراق زروع الكفار وقطع أشجارهم؛ يفعلون ذلك بنا، وهذا عين المسألة، وقد أقر الله سبحانه الصحابة علىٰ قطع نخل اليهود؛ لما فيه من خزيهم، وهذا يدل علىٰ أنه سبحانه يحب خزي الجاني الظالم ويشرعه.

وإذا جاز تحريق متاع الغالِّ لكونه تعدىٰ علىٰ المسلمين في خيانتهم في شيء من الغنيمة؛ فلأن يحرق ماله إذا حرق مال المسلم المعصوم؛ أولىٰ وأحرىٰ[1].

وإذا شرعت العقوبة المالية في حق الله الذي مسامحته به أكثر من استيفائه؛ فلأن تشرع في حق العبد الشحيح؛ أولىٰ وأحرىٰ.

ولأن الله سبحانه شرع القصاص؛ زجرًا للنفوس عن العدوان، وكان الممكن أن يوجب الدية استدراكًا لظلامة المجني عليه بالمال،ولكن ما شرعه أكمل وأصلح للعباد، وأشفىٰ لغيظ المجني عليه، وأحفظ للنفوس والأطراف، وإلا فمن كان في نفسه من الآخر من قتله أو قطع طرفه؛ قتله أو قطع طرفه وأعطىٰ ديته، والحكمة والرحمة والمصلحة تأبىٰ ذلك، وهذا بعينه موجود في العدوان علىٰ المال.

فإن قيل: فهذا ينجبر بأن يعطيه نظير ما أتلفه عليه.

قيل: إذا رضي المجني عليه بذلك فهو كما لو رضي بدية طرفه، فهذا هو محض القياس، وبه قال الأحمدان: أحمد بن حنبل، وأحمد ابن تيمية، قال في رواية موسىٰ بن سعيد: وصاحب الشيء يخير، إن شاء شق الثوب، وإن شاء أخذ مثله.

---

(١) فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر حرقوا متاع الغال وضربوه، أخرجه أبو داود (رقم ٢٧١٥) وابن الجارود (رقم ١٠٨٢) والحاكم (٢/ ١٤٢ رقم ٢٥٩١) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٠٢ رقم ١٧٩٩٠) قال البخاري: لا يصح. انظر: تلخيص الحبير (٤/ ٨١) وضعف الحافظ ابن حجر إسناد أبي داود في مقدمة فتح الباري (ص ٤٧).

المسألة الثالثة: الجناية على العرض، فإن كان حرامًا في نفسه كالكذب عليه وقذفه وسب والديه؛ فليس له أن يفعل به كما فعل به اتفاقًا.

وإن سبه في نفسه أو سخر به أو هزأ به أو بال عليه أو بصق عليه أو دعا عليه؛ فله أن يفعل به نظير ما فعل به متحريًا للعدل.

وكذلك إذا كسعه أو صفعه؛ فله أن يستوفي منه نظير ما فعل به سواء، وهذا أقرب إلى الكتاب والميزان وآثار الصحابة؛ من التعزير المخالف للجناية جنسًا ونوعًا وقدرًا وصفة، وقد دلت السنة الصحيحة الصريحة على ذلك، فلا عبرة بخلاف من خالفها.

ففي صحيح البخاري: أن نساء النبي ﷺ، أرسلن زينب بن جحش إلى رسول الله ﷺ تكلمه في شأن عائشة، فأتته فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تتكلم، فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: «**إنها بنت أبي بكر**»[(١)].

وفي الصحيحين هذه القصة قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ، زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ. فذكرت الحديث، وقالت: ثم وقعت فيَّ، فاستطالت عليَّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ. وأرقب طرفه: هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ، لا يكره أن أنتصر، فلما وقعت بها لم أنشبها حتى أثخنت عليها، قالت: فقال رسول الله ﷺ، وتبسم: «**إنها ابنة أبي بكر**»[(٢)]. وفي لفظ فيهما: «لم أنشبها أن أثخنتها غلبة».

وقد حكى الله سبحانه عن يوسف الصديق أنه قال لإخوته: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ لما قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨١) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ١٣٧-١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨١) ومسلم (رقم ٢٤٤٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٠٧) وشرح النووي (١٥/ ٢٠٧).

فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف:٧٧] ذلك للمصلحة التي اقتضت كتمان الحال.

ومن تأمل الأحاديث رأى ذلك فيها كثيرًا جدًّا، وبالله التوفيق.

***

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾.

[(١)]قد سمى الله سبحانه المال خيرًا في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وأخبر رسول الله ﷺ، أن الخير لا يأتي إلا بالخير كما تقدم، وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لا نفسه.

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قوامًا للأنفس وأمر بحفظها، ونهى أن يؤتى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبي ﷺ، بقوله: «**نعم المال الصالح مع المرء الصالح**»[(٢)].

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله؛ يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي حقه[(٣)].

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عونًا على الدين[(٤)].

---

(١) ٢٨٤ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ٦ رقم ٣٢١٠) وفي موارد الظمآن (رقم ١٠٨٩) والحاكم (٢/ ٣ رقم ٢١٣٠) وأحمد (٤/ ١٩٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ٩١ رقم ١٢٤٨) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٩٩) وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٤٣) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٥) وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٥٥).

(٤) أخرجه ابن الجعد (رقم ٣٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٤٠) وأحمد في كتاب العلل ومعرفة الرجال =

وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى[(١)].

وقال سفيان الثوري: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن.

وقال يوسف بن أسباط: ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا؛ أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن، وحفظه سبب لحفظ النفس، التي هي محل معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة، وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه، واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة؛ فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول، قال النبي ﷺ: «**تعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**»[(٢)] فذم عبدهما دونهما.

[(٣)]وقاعدة الشريعة التي لا يجوز هدمها: أن المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرفات والعبارات، كما هي معتبرة في التقربات والعبادات.

فالقصد والنية والاعتقاد؛ يجعل الشيء: حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا أو فاسدًا، وطاعة أو معصية.

كما أن القصد في العبادة؛ يجعلها: واجبة أو مستحبة أو محرمة، أو صحيحة أو فاسدة، ودلائل هذه القاعدة تفوت الحصر.

فمنها قوله تعالى في حق الأزواج إذا طلقوا أزواجهم طلاقًا رجعيًا: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ

=(١/ ٤٤٥ رقم ٩٩٩) (٣/ ٦٩ رقم ٤٢١٠) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٦/ ٢٢٢) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٣٩٦).

(١) أخرجه ابن الجعد (رقم ١٦٨٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٦٠ر قم ١٣١٧) والدارقطني في جزء أبي الطاهر (رقم ١٥٨) وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٥٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٩) وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٨٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٤) وعمدة القاري (١٤/ ١٧١).

(٣) ١٠٨ أعلام جـ٣.

بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وذلك نص في أن الرجعة؛ إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون قصد الضرار.

وقوله في الخلع: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فبين تعالى أن الخلع المأذون فيه والنكاح المأذون فيه، إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله. وقال تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ [النساء: ١٢] فإنما قدم الله الوصية على الميراث إذا لم يقصد بها الموصي الضرار؛ فإن قصده فللورثة إبطالها وعدم تنفيذها.

وكذلك قوله: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٨٢] فرفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته.

وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحًا، وما كان فيه جنف أو إثم، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا لشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام، بل قد قال إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: **«كل شرطٍ ليس في كتاب الله فهو باطلٌ وإن كان مائة شرطٍ، كتاب الله أحق، وشرط الله أوثق»**[1] فإنه ينفذ من شروط الواقفين ما كان لله طاعة، وللمكلف مصلحة.

وأما ما كان بضد ذلك فلا حرمة له: كشرط التعزب والترهب المضاد لشرع الله

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢١٦٨) ومسلم (رقم ١٥٠٤) وانظر: عمدة القاري (٤/ ٢٢٢) والتمهيد (٢٢/ ١٦١-١٦٣).

ودينه؛ فإنه تعالىٰ فتح للأمة باب النكاح بكل طريق، وسد عنهم باب السفاح بكل طريق، وهذا الشرط باطلٌ مضاد لذلك؛ فإنه يسد علىٰ من التزمه باب النكاح، ويفتح له باب الفجور، فإن لوازم البشرية تتقاضاها الطباع أتمَّ تقاضٍ، فإذا سد عنها مشروعها فتحت له ممنوعها ولابد.

والمقصود: أن الله تعالىٰ رفع الإثم عمن أبطل الوصية الجانفة الآثمة.

وكذلك هو مرفوع عمن أبطل شروط الواقفين التي هي كذلك، فإذا شرط الواقف القراءة علىٰ القبر، كانت القراءة في المسجد، أولىٰ وأحب إلىٰ الله ورسوله وأنفع للميت، فلا يجوز تعطيل الأحب إلىٰ الله الأنفع لعبده واعتبار ضده.

وقد رام بعضهم الانفصال عن هذا بأنه قد يكون قصد الواقف حصول الأجر له باستماعه للقرآن في قبره، وهذا غلط؛ فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته.

ومن ذلك اشتراطه أن يصلي الصلوات الخمس في المسجد الذي بناه علىٰ قبره، فإنه شرط باطل لا يجب بل لا يحل الوفاء به، وصلاته في المسجد الذي لم يوضع علىٰ قبره أحب إلىٰ الله ورسوله، فكيف يفتي أو يقضي بتعطيل الأحب إلىٰ الله والقيام بالأكره إليه؛ اتباعًا لشرط الواقف الجانف الآثم؟

ومن ذلك أن يشرط عليه إيقاد قنديل علىٰ قبره أو بناء مسجد عليه؛ فإنه لا يحل تنفيذ هذا الشرط ولا العمل به، فكيف ينفذ شرط لعن رسول الله ﷺ فاعله[1]؟

وبالجملة فشروط الواقفين أربعة أقسام:

شروط محرمة في الشرع.

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج، أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٠ رقم ١٣٨٤) وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٥٢ رقم ٣١٧٩) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٨٨) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٦٥٧ رقم ٢١٧٠) وأبو داود (رقم ٣٢٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٧٨ رقم ٦٩٩٨) والترمذي (رقم ٣٢٠) وحسنه.

شروط مكروهة لله تعالىٰ ورسوله ﷺ.

وشروط تتضمن ترك ما هو أحب إلىٰ الله ورسوله.

فالأقسام الثلاثة الأول لا حرمة لها ولا اعتبار، والقسم الرابع هو الشرط المتبع الواجب الاعتبار، وبالله التوفيق.

وقد أبطل النبي ﷺ هذه الشروط كلها بقوله: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)]، وما رده رسول الله ﷺ لم يجز لأحد اعتباره ولا الإلزام به وتنفيذه، ومن تفطن لتفاصيل هذه الجملة التي هي من لوازم الإيمان تخلص بها من آصار وأغلال في الدنيا، وإثم وعقوبة ونقص ثواب في الآخرة. وبالله التوفيق.

***

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ  ﴾.

[(٢)]... الضرار نوعان: جنف، وإثم، فإنه قد يقصد الضرار وهو الإثم، وقد يضار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصىٰ بزيادة علىٰ الثلث فهو مضار، قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية، وإن أوصىٰ بالثلث فما دون، ولم يعلم أنه قصد الضرار، وجب إمضاؤه.

فإن علم الموصىٰ له أن الموصي إنما أوصىٰ ضرارًا، لم يحل له الأخذ، ولو اعترف الموصىٰ أنه إنما أوصىٰ ضرارًا؛ لم تجز إعانته علىٰ إمضاء هذه الوصية. وقد جوّز ﷻ إبطال وصية الجنف والإثم، وأن يصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصىٰ له، فقال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[(٣)] [البقرة: ١٨٢].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع (ص ٤٠٣) ومسلم موصولًا (رقم ١٧١٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٢/ ١٦).

(٢) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢/ ١٢٦-١٢٨).

وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوصي الجنف أو الإثم في الوقف ومصرفه، أو بعض شروطه، فأبطل ذلك؛ كان مصلحًا، لا مفسدًا، وليس له أن يعين الواقف على إمضاء الجنف والإثم، ولا يصحح هذا الشرط، ولا يحكم به، فإن الشارع قد ردَّه، وأبطله، فليس له أن يصحح ما رده الشارع وحرمه، فإن ذلك مضادة له ومناقضة.

[(١)]والذي يقضي منه العجب؛ التحيل على مخالفة شرط الواقف وقصده، الذي يقطع بأنه قصده مع ظهور المفسدة، والوقوف مع ظاهر شرطه ولفظه المخالف لقصده والكتاب والسنة ومصلحة الموقوف عليه، بحيث يكون مرضاة الله ورسوله ومصلحة الواقف وزيادة أجره، ومصلحة الموقوف عليه وحصول الرفق به مع كون العمل أحب إلى الله ورسوله، لا يغير شرط الواقف، ويجري مع ظاهر لفظه، وإن ظهر قصده بخلافه، وهل هذا إلا من قلة الفقه؟ بل من عدمه، فإذا تحيلتم على إبطال مقصود الواقف؛ حيث يتضمن المفاسد العظيمة، فهلا تحيلتم على مقصوده ومقصود الشارع؛ حيث يتضمن المصالح الراجحة: بتخصيص لفظه، أو تقييده، أو تقديم شرط الله عليه؟ فإن شرط الله أحق وأوثق.

بل يقولون هاهنا: نصوص الواقف كنصوص الشارع.

وهذه جملة من أبطل الكلام، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبدًا؛ بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض والاختلاف، ويجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها، ولا حرمة لنا حينئذ البتة، ويجوز ـ بل يترجح ـ مخالفتها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه، ويجوز اعتبارها والعدول عنها مع تساوي الأمرين، ولا يتعين الوقوف معها، وسنذكر إن شاء الله فيما بعد، ونبين ما يحل الإفتاء به وما لا يحل من شروط الواقفين؛ إذ القصد بيان بطلان هذه الحيلة شرعًا وعرفًا ولغة.

---

(١) ٣٠٤ أعلام جـ ٣.

(١)والله تعالىٰ إنما أمر بالتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وهو ما شرعه علىٰ لسان رسول الله ﷺ، دون ما لم يشرعه، فكيف بما شرع خلافه، والوقف إنما يصح علىٰ القرب والطاعات، ولا فرق في ذلك بين مصرفه وجهته وشرطه؛ فإن الشرط صفة وحال في الجهة والمصرف، فإذا اشترط أن يكون المصرف قربة وطاعة فالشرط كذلك، ولا يقتضي الفقه إلا هذا، ولا يمكن أحدًا أن ينقل عن أئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسانُ صدقٍ ما يخالف ذلك البتة.

بل نشهد بالله والله أن الأئمة لا تخالف ما ذكرناه، وأن هذا نفس قولهم، وقد أعاذهم الله من غيره، وإنما يقع الغلط من كثير من المنتسبين إليهم في فهم أقوالهم.

كما وقع لبعض من نصب نفسه للفتوىٰ من أهل عصرنا: ما تقول السادة الفقهاء في رجل وقف وقفًا علىٰ أهل الذمة، هل يصح ويتقيد الاستحقاق بكونه منهم؟

فأجاب بصحة الوقف، وتقييد الاستحقاق بذلك الوصف، وقال: هكذا قال أصحابنا، ويصح الوقف علىٰ أهل الذمة.

فأنكر ذلك شيخنا عليه غاية الإنكار، وقال: مقصود الفقهاء بذلك: أن كونه من أهل الذمة ليس مانعًا من صحة الوقف عليه بالقرابة أو بالتعيين، وليس مقصودهم: أن الكفر بالله ورسوله أو عبادة الصليب وقولهم: إن المسيح ابن الله؛ شرط لاستحقاق الوقف، حتىٰ إن من آمن بالله ورسوله واتبع دين الإسلام لم يحل له أن يتناول بعد ذلك من الوقف، كون وصف الذمة مانعًا من صحة الوقف، وبين كونه مقتضيًا؛ فغلظ طبع هذا المفتي وكثف فهمه، وغلظ حجابه عن ذلك ولم يميز.

ونظير هذا أن يقف علىٰ الأغنياء، فهذا يصح إذا كان الموقوف عليه غنيًّا، أو ذا قرابة فلا يكون الغنىٰ مانعًا، ولا يصح أن يكون جهة الاستحقاق هو الغنىٰ فيستحق ما دام غنيًّا، فإذا افتقر واضطر إلىٰ ما يقيم أوده حرم عليه تناول الوقف، فهذا لا يقوله إلا

---
(١) ١٨٤ أعلام جـ٤.

من حرم التوفيق وصحبه الخذلان، ولو رأى رسول الله ﷺ، أحدًا من الأئمة يفعل ذلك؛ لاشتد إنكاره وغضبه عليه، ولما أقره البتة.

وكذلك لو رأى رجلًا من أمته قد وقف على من يكون من الرجال عَزِباً غير متأهل، فإذا تأهل حرم عليه تناول الوقف؛ لاشتد غضبه ونكيره عليه، بل دينه يخالف هذا، فإنه كان إذا جاءه مال أعطى العزب حظًا، وأعطى الآهل حظين، وأخبر أن ثلاثة حق على الله عونهم، فذكر منهم: «**الناكح يريد العفاف**»[1] وملتزم هذا الشرط حق عليه عدم إعانة الناكح.

ومن هذا أن يشترط أنه لا يستحق الوقف إلا من ترك الواجب عليه من طلب النصوص ومعرفتها، والتفقه في متونها، والتمسك بها، إلى الأخذ بقول فقيه معين يترك لقوله قول من سواه، بل يترك النصوص لقوله، فهذا شرط من أبطل الشروط.

وقد شرح أصحاب الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى، بأن الإمام إذا شرط على القاضي أن لا يقضي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط ولم يجز له التزامه.

وفي بطلان التولية قولان مبنيان على بطلان العقود بالشروط الفاسدة. وطرد هذا أن المفتي متى شرط عليه ألا يفتي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط. وطرده أيضًا أن الواقف متى شرط على الفقيه أن لا ينظر ولا يشتغل إلا بمذهب معين؛ لم يصح هذا الشرط قطعًا، ولا يجب التزامه، بل ولا يسوغ.

وعقد هذا الباب وضابطه، أن المقصود: إنما هو التعاون على البر والتقوى، وأن يطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، وأن يقدم من قدمه الله ورسوله، ويؤخر من أخره الله ورسوله، ويعتبر ما اعتبره الله ورسوله، ويلغى ما ألغاه الله ورسوله.

وشروط الواقفين لا تزيد على نذر الناذرين، فكما أنه لا يوفى من النذور إلا بما كان

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٢ رقم ٤٣٢٨) وفي الصغرى (رقم ٣١٢٠) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٢٥) والضياء في فضائل الأعمال (رقم ٤٨٣) وتمام في فوائده (رقم ٦٥٢) وحسنه الترمذي وانظر: فيض القدير (٣/ ٣١٧).

طاعة لله ورسوله، فلا يلزم من شروط الواقفين إلا ما كان طاعة لله ورسوله.

فإن قيل: الواقف إنما نقل ماله لمن قام بهذه الصفة، فهو الذي رضي بنقل ماله إليه، ولم يرض بنقله إلىٰ غيره، وإن كان أفضل منه، فالوقف يجري مجرىٰ الجعالة، فإذا بذلك الجاعل ماله لمن يعمل عملاً؛ لم يستحقه من عمل غيره، وإن كان بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

قيل: هذا منشأ الوهم والإيهام في هذه المسألة، وهو الذي قام بقلوب ضعفة المتفقهين، فالتزموا وألزموا من الشروط؛ بما غيره أحب إلىٰ الله وأرضىٰ له منه بإجماع الأمة بالضرورة المعلومة من الدين.

وجواب هذا الوهم: أن الجاعل يبذل ماله في غرضه الذي يريده، إما: محرمًا أو مكروهًا، أو مباحاً أو مستحبًّا أو واجبًا؛ لينال غرضه الذي بذل فيه ماله.

وأما الواقف فإنما يبذل ماله فيما يقربه إلىٰ الله وثوابه، فهو لما علم أنه لم يبق له تمكن من بذل ماله في أغراضه؛ أحب أن يبذله فيما يقربه إلىٰ الله، وما هو أنفع له في الدار الآخرة، ولا يشك عاقل أن هذا غرض الواقفين، بل ولا يشك واقف أن هذا غرضه.

والله ﷻ ملكه المال لينتفع به في حياته، وأذن له أن يحبسه لينتفع به بعد وفاته، فلم يملكه أن يفعل به بعد موته ما كان يفعل به في حياته.

بل حجر عليه فيه وملكه ثلثه يوصي به بما يجوز ويسوغ أن يوصي به، حتىٰ إن حاف أو جار أو أثم في وصيته؛ جاز، بل وجب علىٰ الوصي والورثة ردُّ ذلك الجور والحيف والإثم، ورفع سبحانه الإثم عمن يرد ذلك الحيف والإثم، من الورثة والأوصياء، فهو سبحانه لم يملكه أن يتصرف في تحبيس ماله بعده؛ إلا علىٰ وجه يقربه إليه ويدنيه من رضاه، لا علىٰ أي وجه أراد.

ولم يأذن الله ولا رسوله للمكلف أن يتصرف في تحبيس ماله بعده علىٰ أي وجه

أراده أبدًا، فأين في كلام الله رسوله أو أحد من الصحابة؛ ما يدل على أن لصاحب المال أن يقف ما أراد على من أراد، ويشرط ما أراد، ويجب على الحكام والمفتين أن ينفذوا وقفه ويلزموا بشروطه؟

وأما ما قد لهج به بعضهم من قوله: «شروط الواقف كنصوص الشارع» فهذا يراد به معنى صحيح ومعنى باطل، فإن أريد أنها كنصوص الشارع: في الفهم والدلالة، وتقييد مطلقها بمقيدها، وتقديم خاصِّها على عامها، والأخذ فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فهذا حق من حيث الجملة.

وإن أريد أنها كنصوص الشارع: في وجوب مراعاتها والتزامها وتنفيذها، فهذا من أبطل الباطل، بل يبطل منها ما لم يكن طاعة لله ورسوله، وما غيرهُ أحبُّ إلى الله وأرضى له ولرسوله منه، وينفذ منها ما كان قربة وطاعة كما تقدم.

ولما نذر أبو إسرائيل أن يصوم ويقوم في الشمس، ولا يجلس، ولا يتكلم؛ أمره النبي ﷺ، أن يجلس في الظل ويتكلم ويتم صومه[(١)]، فألزمه بالوفاء بالطاعة، ونهاه عن الوفاء بما ليس بطاعة.

وهكذا أخت عقبة بن عامر لما نذرت الحج ماشية مكشوفة الرأس؛ أمرها أن تختمر وتركب وتحج وتهدي بدنة.

فهكذا الواجب على أتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن يعمدوا في شروط الواقفين، وبالله التوفيق.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه» أخرجه البخاري (رقم ٦٧٠٤) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ٢١٢).

[(١)]لما كان المقصود من الصيام: حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضيق مجاري الشيطان من العبد؛ بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها مع حكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، وليسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه؛ فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من سائر الأعمال. فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها؛ إيثارًا لمحبة الله ومرضاته.

وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر. وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عظيم في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات. فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال النبي ﷺ: «الصوم جنة»[(٢)]، وأمر من اشتدت به شهوة النكاح ولا قدرة له

---

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٤) ومسلم (رقم ١١٥١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٤).

عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة[١].

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة؛ شرعه الله لعباده: رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وحمية لهم وجنة: وكان هدي رسول الله ﷺ، فيه أكمل الهدي، وأعظم تحصيلاً للمقصود، وأسهله على النفوس.

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها؛ تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة؛ لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ، وقد صام تسع رمضانات[٢].

وفرض أولاً على وجه التخيير: بينه وبين أن يطعم عن كل يوم مسكينًا، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحتيم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام، فإنهما يفطران، ويطعمان عن كل يوم مسكينًا، ورخص للمريض والمسافر؛ أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك. فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم؛ فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصحة؛ فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام[٣]!

وكان للصوم رتب ثلاث: إحداها: إيجابه بوصف التخيير.

والثانية: تحتيمه؛ لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم؛ حرم عليه الطعام

---

(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٥) ومسلم (رقم ١٤٠٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١٩) (٩/ ١١٠-١١٢) وشرح النووي (٩/ ١٧٢).

(٢) انظر: عمدة القاري (١٠/ ٢٥٤) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣٠١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما (٢/ ١٣٦) وانظر: الدر المنثور (١/ ٤٣٤) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣٣١) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٢٠).

والشراب إلى الليلة القابلة. فنسخ ذلك(١).

بالرتبة الثالثة: وهي التي استقر عليها(٢) الشرع إلى يوم القيامة.

وكان من هديه ﷺ، في شهر رمضان؛ الإكثار من أنواع العبادات. فكان جبريل عليه السلام يدارسه القرآن في رمضان. وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكان أجود الناس. وأجود ما يكون في رمضان(٣)؛ لما كثر فيه من الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف.

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانًا؛ ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل فيقول: «**لستُ كهيئتكم إني أبيت ـ وفي رواية: إني أظلُّ ـ عند ربي يطعمني ويسقيني**»(٤).

وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين:

---

(١) عن البراء ﷺ قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائمًا، فحضر الإفطار فقام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا،ولكن أنطلق فأطلب لك. وكان يومه يعمل فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٨٧]، ففرحوا بها فرحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [النساء: ١٨٧] أخرجه البخاري (رقم ١٩١٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٣١).

(٢) لقد منَّ الله عز وجل عليَّ وهو وحده صاحب المن والفضل، فقمت باستلال هدي النبي ﷺ في شهر رمضان من زاد المعاد وأخرجته محققًا وطبع ثلاث طبعات. الأولى في دار السلام ١٤١٥هـ والثانية والثالثة في دار المسلم ١٤١٦هـ وبعدها، والحمد لله الذي بنعمته الصالحات.

(٣) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القر آن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، أخرجه البخاري (رقم ٦) ومسلم (رقم ٢٣٠٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥-٤٦) وشرح النووي (١٥/ ٦٩).

(٤) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ١١٠٤) (٦٠) (ورقم ١١٠٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٣، ٢٠٨).

أحدهما: أنه طعام وشراب حسي للفم. قالوا: وهذه حقيقة اللفظ. ولا موجب للعدول عنها.

الثاني: أن المراد به: ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه، وتنعمه بحبه والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرة العين، وبهجة النفوس والروح والقلب؛ بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه.

الصوم جنة من أدواء الروح والقلب والبدن، منافعه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها؛ ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعًا، وحاجة البدن إليه طبعًا، ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء؛ ما يحفظ عليها قواها.

وفيه خاصية تقتضي إيثاره، وهي: تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً، وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة، وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم، وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها، وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه، ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه، وقيامه بمقصود الصوم، وسره وعلته الغائبة. فإن القصد منه أمر آخر، وراء ترك الطعام والشراب، وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه.

ولما كان وقاية وجنة بين العبد وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً؛ قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فأحد مقصودي الصيام؛ الجنة والوقاية، وهي حمية عظيمة النفع، والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته.

وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هديه ﷺ فيه.

[(١)]...قال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم، فإنه لا عدل له»[(٢)] ولما كان الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم، فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع؛ فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم، وسمى رمضان شهر الصبر.

وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر[(٣)]، وذلك أن الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها.

والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ، في الحديث الصحيح وهو قوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب، فإنْ أحدٌ سابّه أو شاتمه فليقل: إني صائم»[(٤)] فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة صومه وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[(٥)].

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١] فجعل فوزهم جزاء صبرهم.

---

(١) ١١٧-١١٨ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٨٢ رقم ١٥٣٣) وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢١٣ رقم ٣٤٢٦) وفي موارد الظمآن (رقم ٩٣٠) والنسائي في الكبرى (٢/ ٩٢ رقم ٢٥٣٢، ٢٥٣٣) وفي الصغرى (رقم ٢٢٢٣) وأحمد (٥/ ٢٤٩) وصححه الحاكم. وانظر: الترغيب والترهيب (٢/ ٥٢ رقم ١٤٦١).

(٣) أخرجه مرفوعًا إلى النبي ﷺ عن رجل من بني سليم، ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٠١ رقم ٤٧٥) (٥/ ١٥٣٩ رقم ٨٨٢٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٨٨) وجامع العلوم والحكم (١/ ٢١٩) وشرح الزرقاني (٢/ ٢٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٤) ومسلم (رقم ١١٥١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٣).

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. لا شيء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة، لأنهم نالوا معية الله.

وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] وهذا يتضمن الحراسة والكلائة والحفظ للصابر لحكمه.

(١)شهد في لسانهم لها معانٍ:

أحدها: الحضور، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]وفيه قولان: أحدهما: من شهد المصر في الشهر، والثاني: من شهد الشهر في المصر، وهما متلازمان.

والثاني: الخبر، ومنه: «شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح»(٢).

والثالث: الاطلاع على الشيء، ومنه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: ٩]، وإذا كان كل خبر شهادة؛ فليس مع من اشترط لفظ الشهادة فيها دليل: من كتاب ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس صحيح.

وعن أحمد فيها ثلاث روايات:

إحداهن: اشتراط لفظ الشهادة.

والثانية: الاكتفاء بمجرد الإخبار، اختارها شيخنا.

والثالثة: الفرق بين الشهادة على الأقوال وبين الشهادة على الأفعال، فالشهادة على الأقوال لا يشترك فيها لفظ الشهادة، وعلى الأفعال يشترط؛ لأنه إذا قال سمعته يقول؛ فهو بمنزلة الشاهد على رسول الله ﷺ، فيما يخبر عنه.

***

(١) ٨ بدائع جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٨١) ومسلم (رقم ٨٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٨).

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

[1] أما مرض الأبدان فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١، الفتح: ١٧] وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء؛ لسر بديع يبين لك عظمة القرآن، والاستغناء به ـ لمن فهمه وعقله ـ عن سواه.

وذلك: أن قواعد طِبِّ الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة، فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة، فقال في آية الصوم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه الصوم من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف. فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فأباح للمريض ومن به أذىً من رأسه من قمل أو حكَّة أو غيرهما؛ أن يحلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة، التي أوجبت له الأذىٰ في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه تفتحت المسامُّ، فخرجت تلك

---

(١) ١٣٥ زاد المعاد جـ٣.

الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا اجتمع، والبول، والغائط، والريح، والقيء، والعطاس، والنوم، والجوع، والعكش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه.

وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها ـ وهو البخار المحتقن في الرأس ـ على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن: التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحمية: فقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦]، فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب؛ حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده...[1].

[2]وأصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ المادة المضرة، وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في ثلاثة مواضع من كتابه، فحمى المريض من استعمال الماء؛ خشية من الضرر. فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]. فأباح التيمم للمريض حمية له، كما أباحه للعادم.

وقال في حفظ الصحة: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظًا لصحته؛ لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر، فيضعف القوة والصحة.

وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن

(١) بحث المؤلف هنا طب القلوب، وطب الأبدان بتوسع مفيد جدًا اهـ (ج).

(٢) ٨٥ زاد المعاد جـ١ .

رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه وهو محرم؛ أن يحلق رأسه، ويستفرغ الماد الفاسدة، والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل، كما حصل لكعب بن عُجرة، أو تولد عليه المرض.

وهذه الثلاثة هي قواعد الطب وأصوله، فذكر من كل جنس منها شيئًا وصورة؛ تنبيهًا بها على نعمته على عباده في أمثالها من حميتهم، وحفظ صحتهم، واستفراغ مواد أذاهم: رحمة لعباده، ولطفًا بهم، ورأفة بهم، وهو الرءوف الرحيم.

(١) وأما من أكل في صومه ناسيًا فمن قال: «عدم فطره ومضيه في صومه على خلاف القياس» ظن أنه من باب ترك المأمور ناسيًا، والقياس أنه يلزمه الإتيان بما تركه، كما لو أحدث ونسي حتى صلى. والذين قالوا: «بل هو على وفق القياس» حجتهم أقوى؛ لأن قاعدة الشريعة: أن من فعل محظورًا ناسيًا فلا إثم عليه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وثبت عن النبي ﷺ أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: قد فعلت(٢). وإذا ثبت أنه غير آثم فلم يفعل في صومه محرمًا فلم يبطل صومه، وهذا محض القياس؛ فإن العبادة إنما تبطل بفعل محظور أو ترك مأمور.

وطرد هذا القياس أن من تكلّم في صلاته ناسيًا، لم تبطل صلاته.

وطرده أيضًا أن من جامع في إحرامه أو صيامه ناسيًا؛ لم يبطل صيامه ولا إحرامه. وكذلك من تطيب أو لبس أو غطى رأسه أو حلق أو قلم ظفره ناسيًا فلا فِدية عليه، بخلاف قتل الصيد، فإنه من باب ضمان المتلفات فهو كدية القتيل. وأما اللباس والطيب فمن باب الترفه، وكذلك الحلق والتقليم ليس من باب الإتلاف؛ فإنه لا قيمة له في الشرع ولا في العرف.

وطرد هذا القياس أن من فعل المحلوف عليه ناسيًا لم يحنث، سواء حلف بالله أو

---

(١) ٣١ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢٦).

بالطلاق أو بالعتاق أو غير ذلك؛ لأن القاعدة أن من فعل المنهيَّ عنه ناسيًا، لم يعد عاصيًا، والحنث في الأيمان كالمعصية في الإيمان، فلا يعد حانثًا من فعل المحلوف عليه ناسيًا.

(١)وذكر أحمد أن شابًا سأله فقال: أقبِّل وأنا صائم؟ قال: «لا» وسأله شيخ: أقبل وأنا صائم؟ قال: «نعم» ثم قال: «إن الشيخ يملك نفسه»(٢).

وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أكلت وشربت ناسيًا وأنا صائم، فقال: «**أطعمك الله وسقاك**»(٣) ذكره أبو داود، وعند الدارقطني فيه بإسناد صحيح: «**أتم صومك، فإن الله أطعمك وسقاك، ولا قضاء عليك**»(٤) وكان أول يوم من رمضان.

وسألته ﷺ عن ذلك امرأة أكلت معه فأمسكت، فقال: «**ما لك؟**» فقالت: كنت صائمة فنسيت، فقال ذو اليدين: الآن بعد ما شبعت؟ فقال ﷺ: «**أتمي صومكِ، فإنما هو رزق ساقه الله إليك**»(٥) ذكره أحمد.

وسئل ﷺ عن الخيط الأبيض والخيط الأسود، فقال: «**هو بياض النهار وسواد الليل**»(٦) ذكره النسائي.

ونهاهم عن الوصال وواصل، فسألوه عن ذلك، فقال: «**إني لستُ كهيئتكم، إن**

---

(١) ٢٩٤ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٥، ٢٢٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٦٦): رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه كلام، وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٣٩٨) وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٨٨ رقم ٣٥٢٢) وانظر: عون المعبود (٧/ ٢٣).

(٤) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٧٩ رقم ٣٤) والبيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٢٢٩ رقم ٧٨٦٢) وانظر: الدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ٢٧٨ رقم ٣٦٧) ونصب الراية (٢/ ٤٤٥).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٧) قال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٤٤٦): قال في التنقيح: هذا حديث غريب غير مخرج في السنن وبعض رواته ليس بمشهور وبشار بن عبد الملك ضعيف وانظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٣٠٩).

(٦) أخرجه الطبراني في تفسيره (٢/ ١٧٢).

يطعمني ربي ويسقيني»[(١)] متفق عليه.

وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم» فقال: لستَ مثلنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»[(٢)] ذكره مسلم. وسئل ﷺ عن الصوم في السفر، فقال: «إن شئت صمت، وإن شئت أفطرت»[(٣)] وسأله ﷺ حمزة بن عمرو فقال: إني أجد فيَّ قوة على الصيام في السفر، فهل عليَّ جناح؟ فقال: «هي رخصة الله، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه»[(٤)] ذكرهما مسلم.

[(٥)]وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي، وكان فطره على رطبات؛ إن وجدها، فإن لم يجدها فعلى تمرات، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء[(٦)].

ويذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند فطره: «اللهم لك صمتُ، وعلى رزقك أفطرت، فتقبل منا، إنك أنت السميع العليم»[(٧)] ولا يثبت.

وروي عنه أيضًا أنه كان يقول: «اللهم لك صمتُ، وعلى رزقك أفطرت»[(٨)] ذكره

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٦٤) ومسلم (رقم ١١٠٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٣-٢٠٥).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١١٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٤٧).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١١٢١) (١٠٣).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١١٢١) (١٠٧).
(٥) ٣٣٣ زاد المعاد جـ١.
(٦) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٤١١-٤١٢ رقم ١٥٨٤، ١٥٨٥) والحاكم (١/ ٥٩٧ رقم ١٥٧٦) وأبو داود (رقم ٢٣٥٦) والترمذي (رقم ٦٩٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه الحاكم.
(٧) أخرجه الطبري في الدعاء (رقم ٩١٨) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٥٦): رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الملك بن هارون وهو ضعيف.
(٨) أخرجه أبو داود (رقم ٢٣٥٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٦ رقم ٣٩٠٢) وفي فضائل الأوقات (رقم ١٤٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٤١٠) وانظر: عون المعبود (٦/ ٣٤٦) وفيض القدير (٥/ ١٠٦-١٠٧).

أبو داود: عن معاذ بن زهرة، أنه بلغه: أن النبي ﷺ، كان يقول ذلك.

وروي عنه، أنه كان يقول إذا أفطر: «**ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى**»[(١)] ذكره أبو داود، من حديث الحسين بن واقد، عن مروان بن سالم المقنع، عن ابن عمر.

ويذكر عنه ﷺ: «**إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد**»[(٢)] رواه ابن ماجه.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من ههنا؛ فقد أفطر الصائم**»[(٣)] وفسر بأنه قد أفطر حكمًا وإن لم ينوه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسى.

ونهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب، وجواب الساب.

وأمره أن يقول لمن سآبه: «**إني صائم**»[(٤)] فقل: يقوله بلسانه. وهو أظهر. وقيل: بقلبه، تذكيرًا لنفسه بالصوم، وقيل: يقوله في الفرض بلسانه،وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام وأفطر، وخيَّر الصحابة بين الأمرين. وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقووا على قتاله.

فلو اتفق مثل هذا في الحضر، وكان في الفطر قوة لهم على لقاء عدوهم، فهل لهم الفطر؟ فيه قولان: أصحهما دليلاً: أن لهم ذلك. وهو اختيار ابن تيمية، وبه أفتى

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٨٤ رقم ١٥٣٦) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٥٥ رقم ٣٣٢٩) وأبو داود (رقم ٢٣٥٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٣٩ رقم ٧٩٢٢) وفي شعب الإيمان (٣/ ٤٠٦-٤٠٧ رقم ٣٩٠٢) وانظر: عون المعبود (٦/ ٣٤٥) وفيض القدير (٥/ ١٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٧٥٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٧ رقم ٣٩٠٤) وفي فضائل الأوقات (رقم ١٤٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٩٩) والطبراني في الدعاء (رقم ٩١٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٨١) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٨١): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وانظر: فيض القدير (٢/ ٥٠٠) (٤/ ٤٧١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٩٥٤) ومسلم (رقم ١١٠٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٩٦، ٢٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٤) ومسلم (رقم ١١٥١).

العساكر الإسلامية لما لقوا العدوَّ بظاهر دمشق.

ولا ريب أن الفطر لذلك أولى من الفطر لمجرد السفر، بل إباحة الفطر للمسافر تنبيه على إباحته في هذه الحالة، فإنها أحق بجوازه:

لأن القوة هناك تختص بالمسافر، والقوة هنا: له وللمسلمين.

ولأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر.

ولأن المصلحة الحاصلة بالفطر للمجاهد، أعظم من المصلحة بفطر المسافر.

ولأن الله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والفطر عند اللقاء من أعظم أسباب القوة، والنبي ﷺ قد فسر القوة بالرمي. وهو لا يتم ولا يحصل به مقصوده إلا بما يقوي ويعين عليه: من الفطر، والعذاء.

ولأن النبي ﷺ قال للصحابة لما دنوا من عدوهم: «**إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم**» وكانت رخصة. ثم نزلوا منزلاً آخر فقال: «**إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم فأفطروا**»[1] فكانت عزمة، فعلل بدنوهم من عدوهم، واحتياجهم إلى القوة التي يلقون بها العدو، وهذا سبب آخر غير السفر، والسفر مستقل بنفسه، ولم يذكره في تعليله، ولا أشار إليه، فالتعليل به اعتباراً لما ألغاه الشارع في هذا الفطر الخاص، وإلغاء وصف القوة التي يقاوم بها العدو، واعتبار السفر المجرد إلغاء لما اعتبره الشارع وعلل به.

وبالجملة: فتنبيه الشارع وحكمته؛ يقتضي أن الفطر لأجل الجهاد أولى منه لمجرد السفر، فكيف وقد أشار إلى العلة ونبه عليها، وصرح بحكمها، وعزم عليهم بأن يفطروا لأجلها؟

ويدل عليه؛ ما رواه عيسى بن يونس، عن شعبة، عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوم فتح مكة: «**إنه يوم قتال فأفطروا**»[2]

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٢٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٨٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٠٢ رقم ٩٦٨٨) وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٤٠-١٤١).

تابعه سعيد بن الربيع، عن شعبة، فعلل بالقتال، ورتب عليه الأمر بالفطر بحرف الفاء. وكل أحد يفهم من هذا اللفظ، أن الفطر لأجل القتال.

وأما إذا تجرد السفر عن الجهاد: فكان رسول الله ﷺ يقول في الفطر: «**هي رخصة من الله، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**»(١).

(٢)إذا رأى إنسانًا يغرق فلا يمكنه تخليصه إلا بأن يفطر هل يجوز له الفطر؟

أجاب أبو الخطاب: يجوز له الفطر إذا تيقن تخليصه من الغرق، ولم يمكنه الصوم من التخليص.

وأجاب ابن الزاغوني عنها: إذا كان يقدر على تخليصه وغلب على ظنه ذلك لزمه الإفطار وتخليصه. ولا فرق بين أن يفطر بدخول الماء في حلقه وقت السباحة، أو كان يجد من نفسه ضعفاً عن تخليصه لأجل الجوع حتى يأكل، لأنه يفطر للسفر المباح؛ فلأن يفطر للواجب أولى.

قلت: أسباب الفطر أربعة: السفر، والمرض، والحيض، والخوف على هلاك من يخشى عليه بصوم: كالمرضع والحامل إذا خافتا على ولديهما، ومثله مسألة الغريق.

وأجاز شيخنا ابن تيمية الفطر للتقوِّي على الجهاد وفعله، وأفتى به لما نازل العدد دمشق في رمضان، فأنكر عليه بعض المتفقهين وقال: ليس هذا سفر طويل، فقال الشيخ: هذا فطر للتقوي على جهاد العدو، وهو أولى من الفطر للسفر يومين: سفرًا مباحًا أو معصية، والمسلمون إذا قاتلوا عدوهم وهم صيام لم يمكنهم النكاية فيهم، وربما أضعفهم الصوم عن القتال؛ فاستباح العدو بيضة الإسلام، وهل يشك فقيه أن الفطر ههنا أولى من فطر المسافر؟ وقد أمرهم النبي ﷺ، في غزوة الفتح بالإفطار ليتقووا على عدوهم، فعلل ذلك للقوة على العدو لا للسفر والله أعلم.

قلت: إذا جاز فطر الحامل والمرضع لخوفهما على ولديهما، وفطر من يخلص

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٢١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٨٠) وشرح النووي (٧/ ٢٢٩).
(٢) ٤٥ بدائع جـ٤.

الغريق؟ ففطر المقاتلين أولىٰ بالجواز، ومن جعل هذا من المصالح المرسلة فقد غلط؛ بل هذا أمر من: باب قياس الأولىٰ، ومن باب دلالة النص وإيمائه.

(١)تنازع الناس في كثير من الأحكام، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون علىٰ إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، وهذا يدل علىٰ أنها أعظم النوعين بيانًا وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله ﷻ ورسوله بيانًا شافيًا.

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس.

وأما آيات الصفات؛ فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنىٰ لا فهم الكنه والكيفية، ولهذا أشكل علىٰ بعض الصحابة قوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ حتىٰ بين لهم بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] ولم يشكل عليه ولا علىٰ غيره قوله: الآية. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وغيرها من آيات الصفات.

وأيضًا فإن آيات الأحكام؛ مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالىٰ: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فهذا محيل في قدر الصيام والإطعام، فبينته بأنه: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، ونظائره كثيرة: كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج، وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجمل لا يحتاج إلىٰ بيان من خارج، بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل.

***

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ

(١) ٢١ مختصر الصواعق جـ١.

ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] فروىٰ شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، قال: هو الولد، وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك، وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد، عن أبيه حدثني عمي، عن أبيه: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: هو الولد.

وقال ابن زيد: هو الجماع، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم.

وعن ابن عباس رواية أخرىٰ، قال: ليلة القدر.

والتحقيق أن يقال: لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلىٰ طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة وقضاء الوطر حتىٰ لا يخطر بقلبه غير ذلك؛ أرشدهم سبحانه إلىٰ أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر. والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ويبتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه، «**فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتىٰ معصيته**»(٢).

ومما كتب لهم ليلة القدر فأمروا أن يبتغوها.

لكن يبقىٰ أن يقال: فما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم؟

فيقال: فيه إرشاد إلىٰ أن لا يشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة؛ عن طلب هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا

---

(١) ٥ تحفة المودود.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦/ ٤٥١ رقم ٢٧٤٢) وأحمد (٢/ ١٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٨٧ رقم ١٦٠٩): رواه أحمد بإسناد صحيح والبزار والطبراني في الأوسط بإسناد حسن وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وانظر: فيض القدير (٢/ ٢٩٧) وسبل السلام (٢/ ٣٨).

يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها. والله أعلم.

(١)لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى؛ متوقفًا على جمعيته على الله، ولَمِّ شعثِه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام؛ مما يزيده شعثًا، ويشتته في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، ويضعفه، أو يعوقه ويوقفه، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده؛ أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة عن سيره إلى الله تعالى.

وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف، الذي مقصوده وروحه عُكُوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم؛ شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان. ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطرًا قط، بل قالت عائشة: «لا اعتكاف إلا بصوم»(٢) ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا

---

(١) ٣٥٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٣١٧ رقم ٨٣٦٢) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٣٣ رقم ٩٦٢١) والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٢١١ رقم ٧٩٨١) وانظر: المحلى (٥/ ١٨٢) وعمدة القاري (١١/ ١٤٠) والتمهيد (١١/ ١٩٧).

فعله النبي ﷺ إلا مع الصوم، فالقول الراجح الدليل، الذي عليه جمهور السلف؛ أن الصوم شرط في الاعتكاف، وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه.

وأما الكلام: فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة.

وأما فضول المنام: فإنه شرع لهم من قيام الليل؛ ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبة، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد، ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك؛ على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها؛ من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين.

وقد ذكرنا هديه ﷺ في صيامه وقيامه وكلامه، فلنذكر هديه في اعتكافه.

كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ﷻ[١]، وتركه مرة فقضاه في شوال، واعتكف مرة في العشر الأول ثم الأوسط، ثم العشر الآخر؛ يلتمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير؛ فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه ﷻ[٢].

وكان يأمر بخباء فيضرب له في المسجد؛ يخلو فيه بربه ﷻ.

وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله، فأمر به مرة فضرب، فأمر أزواجه بأخبيتهن فضربت، فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فقوض[٣].

وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال.

وكان ﷺ يعتكف كل سنة عشر أيام، فلما كان في العام الذي قُبض فيه: اعتكف عشرين يومًا[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٦) ومسلم (رقم ١١٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٣٣) ومسلم (رقم ١١٧٣).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٤١) ومسلم (رقم ١١٧٣).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٤٤).

وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة[١]، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين.

وكان يعرض عليه القرآن أيضًا في كل سنة مرة، فعرض عليه تلك السنة مرتين[٢]، وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده.

وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان.

وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة، فترجله وتغلسه وهو في المسجد، وهي حائض[٣]. وكان بعض أزواجه يزوره وهو معتكف، فإذا قدمت تذهب: قام معها يقلبها وكان ذلك ليلًا[٤].

ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف، لا بقبلة ولا غيرها.

وكان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره في معتكفه.

وكان إذا خرج لحاجته مرَّ بالمريض وهو على طريقه، فلا يعرِّج عليه، ولا يسأل عنه.

واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سدتها حصيرًا.

كل هذا تحصيلًا لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال: من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم. فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون. والله أعلم.

***

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٢٠) ومسلم (رقم ٢٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٨٥، ٦٢٨٦) ومسلم (رقم ٢٤٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٤٦) ومسلم (رقم ٢٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٣٥) ومسلم (رقم ٢١٧٥).

(١)﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] أي: تضيفوا ذلك إلى الحكام، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها.

فإن قيل: لو أراد هذا المعنى لقيل: «وتدلوا بالحاكم إليها» وأما الإدلاء بها إلى الحكام فهو: التوصل بالبرطيل بها إليهم؛ فترشوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوته إلى الأكل بالباطل.

قيل: الآية تتناول النوعين: فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معًا.. ا. هـ.

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه:

أحدها قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

والثانية قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

والثالثة قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢] فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه؛ لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وإفطارهم بعد غروب الشمس.

فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم.

---

(١) ٨٨ أعلام جـ١.

مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

***

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين؛ والمجاهرة بالسب والعدوان على الإسلام غير منتهٍ، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حتمٌ، وهو ظالم فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال. وهذا بحمد الله في غاية الوضوح.

(٢)وقد فهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]. انغماس الرجل في العدو؛ حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو: ترك الجهاد والإقبال على الدنيا وعمارتها.

---

(١) ٨٢٩ أحكام أهل الذمة جـ ٢.

(٢) ٢٢٣ أعلام جـ ١.

وقال الصديق ﷺ: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده**» فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها؛ في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

(١)وذكر أحمد عنه: أن رجلاً قال له: أوصني فقال: «**أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكر لك في الأرض**»(٢).

وقال: «**ذروة سنام الإسلام: الجهاد**»(٣)، وقال: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**»(٤).

وقال «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من نفاق**»(٥).

وذكر أبو داود عنه: «**من لم يغز، أو يجهز غازياً، أو يخلف غازيًا في أهله بخير؛ أصابه**

---

(١) ١٦٠ زاد المعاد جـ٣، ط مؤسسة الرسالة، ط١٥، سنة ١٤٠٧هـ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٣٩٠-٣٩١) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٥): رواه أحمد وأبو يعلى... ورجال أحمد ثقات وفي إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٣ رقم ٧٨٨٥) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ١٥) وانظر: فيض القدير (٣/ ٥٦١).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٢ رقم ٤٣٢٨) وفي الصغرى (رقم ٣١٢٠) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٢٥) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٤٨٣) وتمام في فوائده (رقم ٦٥٢) وحسنه الترمذي.

وقال المنذري في الترغيب: (٢/ ١٨٨ رقم ٢٠٤٧): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٩١٠) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٥٦) والديباج على مسلم (٤/ ٥٠٣).

الله بقارعة قبل يوم القيامة»[١].

وقال: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»[٢].

وذكر ابن ماجه عنه: «من لقي الله ﷻ، وليس له أثر في سبيل الله، لقي الله وفيه ثلمة»[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] وفسر أبو أيوب الأنصاري «الإلقاء باليد إلى التهلكة: بترك الجهاد»[٤].

وصح عنه ﷺ «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»[٥].

وصح عنه ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[٦].

***

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٠٣) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٤٨ رقم ١٧٧٢١) والدارمي (رقم ٢٤١٨) والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٩ رقم ٧٧٤٧) وفي مسند الشاميين (رقم ٢٨٧) وعبد بن حميد (رقم ١٤٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٩٨) وضعفه العيني في عمدة القاري (١٤/ ١٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٢ رقم ١٣٥٨٣) وأحمد (٢/ ٢٨) والروياني في مسنده (٢/ ٤١٤ رقم ١٤٢٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٣٤ رقم ١٠٨٧١) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٩): صححه ابن القطان، وتعقبه فأعل إسناده، بينما قال الزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٦): وهذا حديث صحيح ورجاله ثقات، وانظر: نيل الأوطار (٥/ ٣١٨).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٨٩ رقم ٢٤٢٠) وابن ماجه (رقم ٢٧٦٣) والترمذي (رقم ١٦٦٦) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٤٢) وقال الترمذي: حديث غريب.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٩٨ رقم ١١٠٢٨) وأبو داود (رقم ٢٥١٢) والترمذي (رقم ٢٩٧٢) والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٦ رقم ٤٠٦٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٦٦) ومسلم (رقم ١٧٤٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠) (٦/ ٣٣، ٩٩) وشرح النووي (١٢/ ٤٥-٤٦).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ١٢٣) ومسلم (رقم ١٩٠٤) وانظر: فتح الباري (١/ ١١) وشرح النووي (١٣/ ١٢، ٤٩).

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦) ﴾.

(١) لما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ، إلى الحج من غير تأخير. فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] فإنها ـ وإن نزلت سنة ست، عام الحديبية ـ فليس فيها فرضية الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه، وإتمام العمرة، بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء.

فإن قيل: فمن أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟

قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة.

ويدل عليه: أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين، لما أنزل الله تعالى: [التوبة: ٢٨] فأعاضهم الله تعالى من ذلك الجزية، ونزول هذه الآيات والمناداة بها، إنما كان في سنة تسع، وبعث الصديق ﷺ بذلك في موسم الحج، وأردفه بعلي ﷺ، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. والله أعلم.

(٢) اعتمر ﷺ بعد الهجرة أربع عمر، كلهن في ذي القعدة:

الأولى: عمرة الحديبية، وهي أولاهن: سنة ست، فصدَّه المشركون عن البيت،

---

(١) ٣٦٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٣٥٧ زاد المعاد جـ١.

فنحر البدن حيث صُدَّ بالحديبية، وحلق هو وأصحابه رءوسهم، وحلوا من إحرامهم، ورجع من عامه إلىٰ المدينة.

الثانية: عمرة القضية في العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثًا، ثم خرج بعد إكمال عمرته. واختلف هل كانت قضاء للعمرة التي صُدَّ عنها في العام الماضي، أم عمرة مستأنفة؟ علىٰ قولين للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد:

إحداهما: أنها قضاء. وهو مذهب أبي حنيفة.

والثانية: ليست بقضاء، وهو قول مالك.

والذين قالوا: كانت قضاء احتجوا بأنها سميت عمرة القضاء، وهذا الاسم تابع للحكم. قال آخرون: القضاء عنها من المقاضاة، لأنه قاضىٰ أهل مكة عليها، لا أنه من قضىٰ يقضي قضاءً، قالوا: ولهذا سميت عمرة القضية، قالوا: والذين صُدوا عن البيت كانوا ألفًا وأربعمائة، وهؤلاء كلهم لم يكونوا معه في عمرة القضية، ولو كانت قضاء لم يتخلف منهم أحد، وهذا القول أصح؛ لأن رسول الله ﷺ لم يأمر من كان معه بالقضاء.

(1)واختلف في تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء: هل هو لكونها قضاء للعمرة التي صدوا عنها، أو من المقاضاة؟ علىٰ قولين تقدما.

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر قال: «لم تكن هذه العمرة قضاءً، ولكن كان شرطًا علىٰ المسلمين أن يعتمروا في الشهر الذي حاصرهم فيه المشركون»(2).

واختلف الفقهاء في ذلك علىٰ أربعة أقوال:

أحدها: أن من أحصر عن العمرة: يلزمه الهدي والقضاء، وهذا إحدىٰ الروايات عن أحمد، بل أشهرها عنه.

---

(١) ٣٧١ زاد المعاد جـ٢.

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١٢) وعمدة القاري (١٠/ ١١٢) ونيل الأوطار (٥/ ١٧٧).

والثاني: لا قضاء عليه، وعليه الهدي، وهو قول الشافعي، ومالك في ظاهر مذهبه، ورواية أبي طالب عن أحمد.

والثالث: يلزمه القضاء، ولا هدي عليه. وهو قول أبي حنيفة.

والرابع: لا قضاء عليه ولا هدي، وهو إحدىٰ الروايات عن أحمد.

فمن أوجب عليه القضاء والهدي؛ احتجَّ بأن النبي ﷺ، وأصحابه نحروا الهدي حين صدوا، ثم قضوا من قابل. قالوا: والعمرة تلزم بالشروع فيها، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها، ونحر الهدي لأجل التحلل قبل تمامها.

قالوا: وظاهر الآية يوجب الهدي، لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ومن لم يوجبهما؛ قالوا: لم يأمر النبي ﷺ، الذين أحصروا معه بالقضاء، ولا أحدًا منهم، ولا وقف الحل علىٰ نحرهم الهدي؛ بل أمرهم أن يحلقوا رءوسهم، وأمر من كان معه هدىٰ أو ينحر هديه.

ومن أوجب الهدي دون القضاء؛ احتج بقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ومن أوجب القضاء دون الهدي؛ احتج بأن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أحصر جاز له تأخيرها لعذر الإحصار، فإذا زال الحصر أتىٰ بها بالوجوب السابق، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئًا.

وظاهر القرآن يرد هذا القول، ويوجب الهدي دون القضاء؛ لأنه جعل الهدي هو جميع ما علىٰ المحصر، فدل علىٰ أنه يكتفي به منه. والله أعلم.

أحدهما: أن الأمر كذلك. وهو الصحيح؛ لأنه أحد النسكين، فجاز الحلُّ منه، ونحرُ هديه وقت حصره كالعمرة، لأن العمرة لا تفوت، وجميع الزمان وقتٌ لها، فإذا جاز الحل منها ونحر هديها من غير خشية فواتها، فالحج الذي يخشىٰ فواته أولىٰ،

وقد قال أحمد في رواية حنبل: إنه لا يحل ولا ينحر الهدي إلى يوم النحر.

ووجه هذا: أن للهدي محل زمان ومحل مكان، فإذا عجز عن محل المكان؛ لم يسقط عنه محل الزمان؛ لتمكنه من الإتيان بالواجب في محله الزماني.

وعلى هذا القول لا يجوز له التحلل قبل يوم النحر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾[البقرة: ١٩٦].

وفي نحره ﷺ وحله، دليل على أن المحصر بالعمرة يتحلل، وهذا قول الجمهور، وقد روي عن مالك: أن المعتمر لا يتحلل؛ لأنه لا يخاف الفوت، وهذا تبعد صحته عن مالك؛ لأن الآية إنما نزلت في الحديبية. وكان النبي ﷺ، وأصحابه كلهم محرمين بعمرة، وحلوا كلهم، وهذا مما لا يشك فيه أحد من أهل العلم(١).

وفي ذبحه ﷺ بالحديبية ـ وهي من الحل بالاتفاق ـ دليل على أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من حل أو حرم، وهذا قول الجمهور وأحمد.

(٢)**الثالثة:** عمرته التي قرنها مع حجته، فإنه كان قارنًا لبضعة عشرة دليلاً، سنذكرها عن قريب، إن شاء الله.

الرابعة: عمرته من الجعرانة، لما خرج إلى حنين، ثم رجع إلى مكة، فاعتمر من الجعرانة داخلاً إليها.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمرٍ، كلهن في ذي القعدة ـ إلا التي كانت مع حجته ـ: عمرة من الحديبية ـ أو زمن الحديبية ـ في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة؛ وعمرة من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته»(٣).

---

(١) انظر: المغني (٣/ ١٧٣).

(٢) ٣٨٥ زاد المعاد جـ١.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٧٨٠) ومسلم (رقم ١٢٥٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠١-٦٠٢) وشرح النووي (٨/ ٢٣٤-٢٣٥).

ولم يناقض هذا ما في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحج مرتين»[١]، لأنه أراد العمر المفردة المستقلة التي تمت. ولا ريب أنهما اثنتان، فإن عمرة القران لم تكن مستقلة، وعمرة الحديبية: صد عنها، وحيل بينه وبين إتمامها، ولذلك قال ابن عباس: «اعتمر النبي ﷺ، أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة: مع حجته»[٢] ذكره الإمام أحمد.

ولا تناقض بين حديث أنس: «أنهن في ذي القعدة، إلا التي مع حجته»[٣] وبين قول عائشة وابن عباس: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة»[٤]؛ لأن مبدأ عمرة القران كان في ذي القعدة، ونهايتها كانت في ذي الحجة، مع انقضاء الحج، فعائشة وابن عباس أخبرا عن ابتدائها، وأنس أخبر عن انقضائها.

وأما قول عبد الله بن عمر: «إن النبي ﷺ اعتمر أربعًا، إحداهن في رجب» فوهمٌ منه ﷺ، قالت عائشة ـ: لما بلغها ذلك عنه ـ «يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر رسول الله ﷺ عمرة قط إلا وهو شاهد. وما اعتمر في رجب قط»[٥].

وأما ما رواه الدارقطني، عن عائشة قالت: «خرجت مع رسول الله ﷺ في عمرة في رمضان، فأفطر وصمتُ، وقصر وأتممت، فقلت: بأبي وأمي، أفطرت وصمتُ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٨١) وانظر: عمدة القاري (١٠/ ١١١-١١٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٢٥٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠٢) وعمدة القاري (١٠/ ١١٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٩٩٦) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٠١): هذا إسناد فيه ابن أبي ليلى وهو ضعيف وله شاهد من حديث عائشة رواه الشيخان وغيرهما، ورواه البخاري وغيره من حديث ابن عمر وأبو داود من حديث أنس والترمذي من حديث البراء، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٦٠٠) وكذا صاحب عون المعبود (٥/ ٣٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ١٧٧٦) ومسلم (رقم ١٢٥٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠١) وعمدة القاري (١٠/ ١١٠-١١١) والتمهيد (٢٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

وقصرت وأتممت؟ فقال: أحسنت يا عائشة»[١] فهذا الحديث غلط؛ فإن رسول الله ﷺ، لم يعتمر في رمضان قط، وعمره مضبوطة العدد والزمان، ونحن نقول: يرحم الله أم المؤمنين، ما اعتمر رسول الله ﷺ في رمضان قط.

وقد روى أبو داود في سننه، عن عائشة «أن النبي ﷺ اعتمر في شوال»[٢] وهذا ـ إن كان محفوظًا ـ فلعله في عمرة الجعرانة، حيث خرج في شوال، ولكن إنما أحرم في ذي القعدة.

[٣]ولم يكن في عمره عمرة واحدة خارجًا من مكة، كما يفعل كثير من الناس اليوم، وإنما كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة.

وقد أقام بعد الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة، لم ينقل عنه: أنه اعتمر خارجًا من مكة في تلك المدة أصلاً.

فالعمرة التي فعلها رسول الله ﷺ وشرعها؛ عمرة الداخل إلى مكة، لا عمرة من كان بها فيخرج إلى الحل ليعتمر.

ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها، من بين سائر من كان معه؛

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٨٨ رقم ٣٩) والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٤٢ رقم ٥٢١٢) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٦٠٣): الحديث أخرجه الدارقطني من طريق العلاء بن زهير عن عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد عن أبيه عنها، وقال: إن إسناده حسن، وقال صاحب الهدي [يقصد ابن القيم]: إنه غلط، لأن النبي ﷺ لم يعتمر في رمضان، قلت: [أي الحافظ ابن حجر]: ويمكن حمله على أن قولها في رمضان متعلق بقولها: خرجت، ويكون المراد سفر فتح مكة، فإنه كان في رمضان، واعتمر النبي ﷺ في تلك السنة من الجعرانة، لكن في ذي القعدة، وانظر: عمدة القاري (١٠/ ١١٦) وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٣/ ٨٥): لا يصلح للاحتجاج وإن حسَّن الدارقطني إسناده. بينما قال ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٤٨): هذا حديث منكر، وقوله: في عمرة في رمضان باطل، فإن نبي الله لم يعتمر في رمضان قط. وانظر: نصب الراية (٢/ ١٩١) ونيل الأوطار (٣/ ٢٤٨).

(٢) قال بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٠/ ١١١): وفي سنن أبي داود بإسناد على شرط الشيخين من حديث عائشة أنه ﷺ اعتمر في شوال، أخرجه مالك في موطئه، وانظر: عون المعبود (٥/ ٣٢٦).

(٣) ٣٦٠ زاد المعاد جـ١.

لأنها كانت قد أهلت بالعمرة؛ فحاضت، فأمرها فأدخلت الحج على العمرة، وصارت قارنة، وأخبرها: أن «طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجتها وعمرتها» فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمرة مستقلين، فإنهن كن متمتعات، ولم يحضن ولم يقرن. وترجع هي بعمرة في ضمن حجتها، فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم، تطييبًا لقلبها(١).

ولم يعتمر هو من التنعيم في تلك الحجة، ولا أحد ممن كان معه وسيأتي مزيد تقرير لهذا وبسط عن قريب. إن شاء الله تعالى.

دخل رسول الله ﷺ مكة بعد الهجرة خمس مرات، سوى المرة الأولى؛ فإنه وصل إلى الحديبية وصد عن الدخول إليها، أحرم في أربع منهن من الميقات لا قبله، فأحرم عام الحديبية من ذي الحليفة.

ثم دخلها المرة الثانية، فقضى عمرته، وأقام بها ثلاثًا ثم خرج.

ثم دخلها في المرة الثالثة عام الفتح في رمضان بغير إحرام.

ثم خرج منها إلى حنين، ثم دخلها بعمرة من الجعرانة، ودخلها في هذه العمرة ليلاً، وخرج ليلاً، فلم يخرج من مكة إلى الجعرانة ليعتمر، كما يفعل أهل مكة اليوم؛ وإنما أحرم منها في حال دخوله إلى مكة، ولما قضى عمرته ليلاً رجع من فوره إلى الجعرانة، فبات بها، فلما أصبح وزالت الشمس خرج من بطن سرف، حتى جامع الطريق، ولهذا خفيت هذه العمرة على كثير من الناس.

والمقصود: أن عمره كلها كانت في أشهر الحج، مخالفة لهدي المشركين، فإنهم كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج، ويقولون: هي من أفجر الفجور، وهذا دليل على أن الاعتمار في أشهر الحج؛ أفضل منه في رجب بلا شك.

وأما المفاضلة بينه وبين الاعتمار في رمضان؛ فموضع نظر، فقد صح عنه؛ أنه أمر

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٨٤) ومسلم (رقم ١٢١١) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٢٣٩).

أم معقل ـ لما فاتها الحج معه ـ أن تعتمر في رمضان، وأخبرها: أن «عمرة في رمضان تعدل حجة»(١).

وأيضًا: فقد اجتمع في عمرة رمضان أفضل الزمان، وأفضل البقاع، ولكن لم يكن الله ليختار لنبيه ﷺ، في عمره إلا أولى الأوقات، وأحقها بها، فكانت العمرة في أشهر الحج نظير وقوع الحج في أشهره، وهذه الأشهر قد خصَّها الله تعالى بهذه العبادة وجعلها وقتًا لها، والعمرة حج أصغر، فأولى الأزمنة بها؛ أشهر الحج، وذو القعدة؛ أوسطها، وهذا مما نستخير الله فيه، فمن كان عنده فضل علم فليرشد إليه.

وقد يقال: إن رسول الله ﷺ، كان يشتغل في رمضان من العبادات؛ بما هو أهم من العمرة، ولم يكن يمكنه الجمع بين تلك العبادات وبين العمرة، فأخر العمرة إلى أشهر الحج،ووفر نفسه على تلك العبادات في رمضان، مع ما في ترك ذلك من الرحمة بأمته، والرأفة بهم، فإنه لو اعتمر في رمضان؛ لبادرت الأمة إلى ذلك، وكان يشق عليها الجمع بين العمرة والصوم،وربما لا تسمح أكثر النفوس بالفطر في هذه العبادة؛ حرصًا على تحصيل العمرة وصوم رمضان، فتحصل المشقة، فأخرها إلى أشهر الحج، وقد كان يترك كثيرًا من العمل ـ وهو يحب أن يعمله ـ خشية المشقة عليهم.

ولما دخل الكعبة خرج حزينًا، قالت له عائشة في ذلك، قال: «إني أخاف أن أكون قد شققت على أمتي»(٢)، وهمَّ أن ينزل يستقي مع سقاة زمزم للحجاج، فخاف أن يغلب أهلها على سقايتهم بعده(٣). والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٨٢، ١٨٦٣) ومسلم (رقم ١٢٥٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠٣-٦٠٤) وشرح النووي (٩/ ٢).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٠٢٩) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٠٥ رقم ٨٤٠٩) نقل الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٤٦٦) تصحيح الترمذي وابن خزيمة والحاكم لهذا الحديث. وانظر: شرح الزرقاني (٢/ ٤٧٢).

(٣) انظر: عون المعبود (٥/ ٣٢٩).

[(١)]... وحل الرأس ثلاثة أنواع:

أحدها: نسك وقربة.

والثاني: بدعة وشرك.

والثالث: حاجة وداوء.

فالأول: الحل في أحد النسكين: الحج، أو العمرة.

والثاني: حلق الرأس لغير الله سبحانه، كما يحلقها المريدون لشيوخهم الأحياء والموتى، فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدت لفلان، فإن حلق الرأس: خضوع، وعبودية، وذل؛ ولهذا كان من تمام الحج؛ حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه. لا يتم إلا به، فإنه وضع النواصي بين يدي ربها؛ خضوعًا لعظمته، وتذللاً لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية.

ولهذا كانت العرب إذا رأت إذلال الأسير منهم وعتقه: حلقوا رأسه، وأطلقوه. فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية، الذي أساس مشيختهم على الشرك والبدعة، فشرعوا لمريديهم أن يتعبدوا لهم، فزينوا لهم حلق رؤوسهم لهم، كما زينوا السجود لهم، وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ، ولعمر الله، إن السجود لله: هو وضع الرأس بين يديه سبحانه، وزينوا لهم أن ينذروا لهم، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وأشرف العبودية: عبودية الصلاة، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء

(١) ٢٤٢ زاد المعاد جـ٣.

والجبابرة. فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو السجود. وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضًا ركع له، كما يركع المصلي لربه سواء. وأخذ الجبابرة منها القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رءوسهم عبودية لهم؛ وهم جلوس.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله، وقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد**»[(١)]. وأنكر على معاذ بن جبل لما سجد له[(٢)] وقال: «مَهْ» وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة.

وتجويز من جوَّزه لغير الله مراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية. فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع للبشر: فقد جوز العبودية لغير الله، وقد صح أنه قيل: يا رسول الله ﷺ: الرجل يلقى أخاه، أينحني له؟ قال: «**لا**»، قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: «**لا**»، قيل: أيصافحه؟ قال: «**نعم**»[(٣)].

وأيضًا: فالانحناء عند التحية سجود. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ [البقرة: ٥٨]. أي: منحنين،وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه، وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس، كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا، حتى منع من ذلك في الصلاة وأمرهم «**إذا صلى جالسًا: أن يصلوا جلوسًا**»[(٤)] وهم أصحاء لا عذر لهم؛ لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله، فكيف إذا كان القيام: تعظيمًا، وعبودية لغيره سبحانه؟

والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة: أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق؛ فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيامها في

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال (٢/ ٧٢٧ رقم ٥٣٤) وقال محققه: في إسناده النضر بن إسماعيل البجلي وهو ليس بالقوي، وبقية رجاله رجال الصحيح، وله متابع جيد صححه ابن حبان من طريق أبي أسامة عن محمد بن عمرو به يرتقي به إلى درجة الحسن.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٧٩ رقم ٤١٧١) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٧٢٨) وأحمد (٣/ ١٩٨) وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٥) وتحفة الأحوذي (٧/ ٤٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٧٣٤) ومسلم (رقم ٤١٤) وانظر: عمدة القاري (٤/ ١٠٧) (٥/ ٢١٦-٢١٩).

الصلاة، وحلفت بغير الله، ونذرت لغيره، وحلقت لغيره، وذبحت لغيره، وطافت بغير بيته، وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة، كما يعظم الخالق؛ بل أشد، وسوَّت مَنْ تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون. وهم الذين يقولون، وهم في النار مع آلهتهم يختصمون: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨] وهم الذين قال فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا كله من الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به، فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس، ولعله أهم مما قصدنا الكلام فيه، والله أعلم.

(١) في هدى رسول الله ﷺ في حلق الرأس، وتركه، وكيفية جعل شعره:

لم يكن هديه ﷺ حلق رأسه في غير نسك؛ بل لم يحفظ عنه أنه حلق رأسه إلا في حج أو عمرة.

وحلق الرأس أربعة أقسام: شرعي، وشركي، وبدعي، ورخصة.

فالشرعي: الحلق في الحج والعمرة، والشركي حلق الرأس للشيوخ فإنهم يحلقون رءوس المريدين للشيخ، ويقولون: احلق رأسك للشيخ فلان، وهذا من جنس السجود له، فإن حلق الرأس عبودية مذلة.

وكثير منهم يعمل المشيخة الوثنية، فترى المريد عاكفًا على السجود له، ويسميه: وضع رأس، وأدبًا، وعلى التوبة له، والتوبة لا تنبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده، وعلى حلق الرأس له وحلق الرأس عبودية لا تصلح إلا لله وحده؛ وكانت العرب إذا منُّوا على الأسير؛ جزوا نواصيه وأطلقوه عبودية وإذلالاً له، ولهذا كان من تمام النسك؛ وضع النواصي لله عبودية وخصوصًا وذلًا، ويربونه على الحلف باسم الشيخ لإذلاله.

(١) ٧٥٠ أحكام جـ٢.

وقد صح عنه ﷺ، أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[١] فكيف من نذر لغير الله!

وأما الحلق البدعي فهو: كحلق كثير من المطوعة والفقراء، يجعلونه شرطًا في الفقر وزيًّا يتميزون به عن أهل الشعور من الجند والفقهاء والقضاة وغيرهم.

وقد صح عن النبي ﷺ في الخوارج أنه قال: «سيماهم التحليق»[٢].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ لصبيغ بن عسل وقد سأله عن مسائل فأمر بكشف رأسه وقال: «لو رأيتك محلوقًا لأخذت الذي فيه عيناك حتى أن تكون من الخوارج»[٣].

ومن حلق البدعة: الحلق عند المصائب بموت القريب ونحوه. فأما المرأة فيحرم عليها ذلك، وقد برئ رسول الله ﷺ من الحالقة والصالقة والشاقة[٤].

فالحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة، والصالقة التي ترفع صوتها بالويل والثبور ونحوه، والشاقة التي تشق ثيابها، وأما الرجل فحلقه لذلك بدعة قبيحة يكرهها الله ورسوله.

وأما حلق الحاجة والرخصة: فهو كالحلق، لوجع، أو قمل، أو أذى في رأسه: من بثور ونحوها، فهذا لا بأس به.

وأما حلق بعضه وترك بعضه فهو مراتب: أشدها أن يحلق وسطه ويترك جوانبه، كما تفعل شمامسة النصارى، ويليه أن يحلق جوانبه ويدع وسطه كما يفعل كثير من السفلة وأسقاط الناس، ويليه أن يحلق مقدم رأسه ويترك مؤخره.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٩٩-٢٠٠ رقم ٤٣٥٨) وفي الموارد (رقم ١١٧٧) وأبو داود (رقم ٣٢٥١) والترمذي (رقم ١٥٣٥) وحسنه والحاكم (١/ ٦٥ رقم ٤٥) وصححه. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٦) (١١/ ٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٦٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٧٤) (٨/ ٦٨) (١٢/ ٢٩٥).

(٣) انظر: المغني (١/ ٦٥) (٩/ ٨).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٢٣ رقم ٣١٥٢).

وهذه الصور الثلاثة داخلة في القزع الذي نهى عنه رسول الله ﷺ[(١)] وبعضها أقبح من بعض؛ فإن دعت الحاجة إلى ذلك لضرر برأسه أو لاستخراج ضفيرة تؤذي عينيه؛ جاز حلق بعضه.

هذا والأولى في هذه الحال: أن يقتصر على ما تدفع به الحاجة أو حلق جميعه، وهذا فيه نظر.

***

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

[(٢)]قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن، هذا من زينة القرآن الباطنة، المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة. ومنه قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩] فقابل بين الجوع والعري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذلة، والعري جوع الظاهر وذلة، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر، فقابل بينهما.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٢١) ومسلم (رقم ٢١٢٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٦٤-٣٦٥) وشرح النووي (١٤/ ١٠٠-١٠١).

(٢) ٢٥١ روضة المحبين.

[(١)]قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم علىٰ زاد سفر الآخرة، وهو التقوىٰ، فكما أنه لا يصل المسافر إلىٰ مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلىٰ الله تعالىٰ والدار الآخرة؛ لا يصل إلا بزاد من التقوىٰ، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوىٰ، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] فنفىٰ عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعم القلب والبدن بالهدىٰ والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف ﷺ؛ لما أرته النسوة اللائمات لها في حبه: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢] فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره...

[(٢)]وسألته ﷺ عائشة رضي الله عنها فقالت: نرىٰ الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ قال: «**لكن أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور**»[(٣)] ذكره البخاري، وزاد أحمد «**لكن هو جهاد**»[(٤)].

---

(١) ٥٨ إغاثة جـ١.
(٢) ٢٩٩ أعلام جـ٤.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٥٢٠، ١٨٦١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٨٢) وعمدة القاري (٩/ ١٣٤).
(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٧١).

وسألته ﷺ امرأة: ما يعدلُ حجةً معك، فقال: «**عمرة في رمضان**» ذكره أحمد[١]، وأصله في الصحيح.

وسألته ﷺ أم معقل فقالت: يا رسول الله إن عليَّ حجة وإن لأبي معقل بكرًا، فقال أبو معقل: صدقت، قد جعلته في سبيل الله، فقال: «**أعطها فلتحج عليه، فإنه في سبيل الله**» فأعطاها البكر فقالت: يا رسول الله إني امرأة قد كبرت سني وسقمت، فهل من عمل يجزئ عني من حجتي؟ فقال: «**عمرة في رمضان تجزئ عن حجة**»[٢] ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ رجل فقال: إني أكرئ في هذه الوجه، وكان الناس يقولون: ليس لك حج، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، فأرسل إليه رسول الله وقرأها عليه، وقال: «**لك حج**»[٣] ذكره أبو داود.

وسئل ﷺ: أي الحج أفضل؟ قال: «**العج والثج**» فقيل: ما الحاج؟ قال: «**الشعث التفل**» قال: ما السبيل؟ قال: «**الزاد والرحلة**»[٤] ذكره الشافعي.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٥١٣ -٥١٤ رقم ٤٩٨) والحاكم (١/ ٦٥٨ رقم ١٧٧٩) وابن خزيمة (٤/ ٣٦١ رقم ٣٠٧٧) وأبو داود (رقم ١٩٩٠) والبيهقي في (٦/ ١٦٤ رقم ١١٦٩٩) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٠٧ رقم ١٢٩١١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٨٨) وأحمد (٦/ ٣٧٥) وقال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٣٩٥) ورواه أحمد في مسنده ومن طريقه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط مسلم، وفيه نظر، فإن فيه رجلًا مجهولًا، وإبراهيم بن مهاجر متكلم فيه، وانظر: عون المعبود (٥/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٧٣٣) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٣ رقم ٨٤٤٠) (٦/ ١٢١ رقم ١١٤٤٠) والحاكم (١/ ٦١٨ رقم ١٦٤٧) وصححه. وانظر: عون المعبود (٥/ ١٠٨-١٠٩).

(٤) أخرجه الشافعي في مسنده (ص ١٠٩) وفي الأم (٢/ ١١٦)، وابن ماجه (رقم ٢٨٩٦) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٠ رقم ٨٤٢٠) (٥/ ٥٨ رقم ٨٨٩٢) والترمذي (رقم ٢٩٩٨) والدارقطني (٢/ ٢١٧ رقم ١٠) وحسن المنذري إسناد ابن ماجه في الترغيب (٢/ ١١٨ رقم ١٧٤١) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦-٣٨٧).

وسئل ﷺ عن العمرة، أواجبة هي؟ فقال: «لا، وأن تعمر فهو أفضل»[(١)] قال الترمذي: صحيح.

وعند أحمد: أن أعرابيًا قال: يا رسول الله أخبرني عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «لا، وأن تعتمروا خير لكم»[(٢)].

وسأله ﷺ رجل فقال: إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل، والحج مكتوب علينا، أفأحج عنه؟ قال: «أنت أكبر ولده؟» قال: نعم. قال: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه كان ذلك يجزئ عنه؟» قال: نعم، قال: «فحج عنه»[(٣)] ذكره أحمد.

[(٤)]وأما المفصل: فهو الذي نحن بصدده، فإنا التزمنا أن الفسخ على وفق القياس، فلابد من الوفاء بهذا الالتزام.

وعلى هذا: فالوجه الأول جوابه: بأن التمتع ـ وإن تخلله التحلل ـ فهو أفضل من الإفراد الذي لا حل فيه، لأمر النبي ﷺ، من لا هدي معه بالإحرام به، ولأمره أصحابه بفسخ الحج إليه، ولتمنيه أنه كان أحرم به، ولأنه النسك المنصوص عليه في كتاب الله، ولأن الأمة أجمعت على جوازه، بل على استحبابه، واختلفوا في غيره على قولين، فإن النبي ﷺ، غضب حين أمرهم بالفسخ إليه بعد الإحرام بالحج فتوقفوا، ولأنه من المحال قطعًا أن يكون حجة قط أفضل من حجة خير القرون، وأفضل العالمين مع

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٩٣١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٩٧) وعمدة القاري (١٠/ ١٠٨) وتحفة الأحوذي (٣/ ٥٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٦) والدارقطني (٢/ ٢٨٥ رقم ٢٢٣) وأبو يعلى (٣/ ٤٤٣ رقم ١٩٣٨). وانظر: التمهيد (٢٠/ ١٤) وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٥/ ١٧٤) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٦٢).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٣٥٢ رقم ٣١٩) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣٢٤ رقم ٣٦١٨) وفي الصغرى (رقم ٢٦٣٨) وأبو يعلى (١٢/ ١٨٥-١٨٦ رقم ٦٨١٢) وعبد بن حميد (١/ ٢١٣ رقم ٦٣٢) وانظر: التمهيد (٩/ ١٣٢).

(٤) ٤٥١ زاد المعاد جـ١.

نبيهم ﷺ، وقد أمرهم كلهم بأن يجعلوها متعة إلا من ساق الهدي، فمن المحال أن يكون غير هذا الحج أفضل منه إلا حج من قرن وساق الهدي، كما اختاره الله سبحانه لنبيه، فهذا هو الذي اختاره الله لنبيه، واختار لأصحابه التمتع، فأي حج أفضل من هذين؟

ولأنه من المحال: أن ينقلهم من النسك الفاضل إلى المفضول المرجوح.

ولوجوه أخر كثيرة، ليس هذا موضعها، فرجحان هذا النسك أفضل من البقاء على الإحرام الذي يفوته بالفسخ، وقد تبين بهذا بطلان الوجه الثاني.

وأما قولكم: إنه نسك مجبور بالهدي، فكلام باطل من وجوه.

أحدها: أن الهدي في التمتع عبادة مقصودة، وهو من تمام النسك، وهو دم شكران لا دم جبران، وهو بمنزلة الأضحية للمقيم، وهو من تمام عبادة هذا اليوم، فالنسك المشتمل على الدم بمنزلة العيد المشتمل على الأضحية، فإنه ما تقرب إلى الله في ذلك اليوم بمثل إراقة دم سائل.

وقد روى الترمذي وغيره من حديث أبي بكر الصديق «أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «العجُّ والثج»»[(١)] والعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة دم الهدي.

فإن قيل: يمكن المفرد أن يحصل هذه الفضيلة؟

قيل: مشروعيتها إنما جاءت في حق القارن والمتمتع، وعلى تقدير استحبابها في حقه: فأين ثوابها من ثواب هدي المتمتع والقارن؟

الوجه الثاني: أنه لو كان دم جبران لما جاز الأكل منه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أكل من هديه، فإنه «أمر من كل بدنه ببضعة، فجعلت في قدر، فأكل من لحمها،

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٢٠ رقم ١٦٥٥) وابن ماجه (رقم ٢٩٢٤) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٤٢ رقم ٨٧٩٨) والترمذي (رقم ٨٢٧) والدارمي (رقم ١٧٩٧) وأبو يعلى (١/ ١٠٨ رقم ١١٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٧٣ رقم ٧٣٢٠) وانظر: عمدة القاري (٩/ ١٧١).

وشرب من مرقها»[١] وإن كان الواجب عليه سُبع بدنة، فإنه أكل من كل بدنة من المائة، والواجب فيها مشاع لم يتعين بقسمة.

وأيضًا فإنه قد ثبت في الصحيحين: «أنه أطعم نساءه من الهدي الذي ذبحه عنهن، وكن متمتعات» احتج به الإمام أحمد، فثبت في الصحيحين عن عائشة «أنه أهدىٰ عن نسائه، ثم أرسل إليهن من الهدي الذي ذبحه عنهن»[٢].

وأيضًا، فإن الله ﷻ قال فيما يذبح بمنىٰ من الهدي ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [الحج: ٢٨] وهذا يتناول هدي التمتع والقران قطعًا، إن لم يخص به، فإن المشروع هناك ذبح هدي المتعة والقرآن، ومن هاهنا ـ والله أعلم ـ أمر النبي ﷺ، من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، امتثالاً لأمر ربه بالأكل، ليعم به جميع هديه.

الوجه الثالث: أن سبب الجبران محظور في الأصل؛ فلا يجوز الإقدام عليه إلا لعذر، فإنه إما ترك واجب، أو فعل محظور، والتمتع مأمور به: إما أمر إيجاب عند طائفة، كابن عباس وغيره، أو أمر استحباب عند الأكثرين، فلو كان دمه دم جبران: لم يجز الإقدام علىٰ سببه بغير عذر، فبطل قولهم: إنه دم جبران، وعلم أنه دم نسك، وهذا وسع الله به علىٰ عباده، وأباح لهم بسببه التحلل في أثناء الإحرام، لما في استمرار الإحرام عليهم من المشقة، فهو بمنزلة القصر والفطر في السفر، وبمنزلة المسح علىٰ الخفين، وكان من هدي النبي ﷺ وهدي أصحابه فعل هذا وهذا، والله تعالىٰ يجب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتىٰ معصيته، فمحبته لأخذ العبد بما يسره عليه وسهله له، مثل كراهته منه لارتكابه ما حرمه عليه، ومنعه منه، والهدي ـ وإن كان بدلاً عن ترفهه بسقوط أحد السفرين ـ فهو أفضل لمن قدم في أشهر الحج من أن يأتي بحج مفرد، ويعتمر عقيبه، والبدل قد يكون واجبًا، كالجمعة عند من جعلها بدلاً، وكالتيمم للعاجز عن استعمال الماء، فإنه واجب عليه وهو بدل، فإذا كان البدل قد يكون واجبًا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٥٥) وشرح النووي (٨/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٧٠٩) ومسلم (رقم ١٢١١).

فكونه مستحبًا أولى بالجواز، وتخلل التحلل لا يمنع أن يكون الجميع عبادة واحدة كطواف الإفاضة، فإنه ركن بالاتفاق، ولا يفعل إلا بعد التحلل الأول، وكذلك رمي الجمار أيام منى، وهو يفعل بعد الحل التام، وصوم رمضان يتخلله الفطر في لياليه، ولا يمنع ذلك أن يكون عبادة واحدة، ولهذا قال مالك وغيره: إنه يجزئ بنية واحدة للشهر كله، لأنه عبادة واحدة، والله أعلم.

(١)وأفتى ﷺ أصحابه بجواز فسخهم الحج إلى العمرة، ثم أفتاهم باستحبابه، ثم أفتاهم بفعله حتمًا، ولم ينسخه شيء بعده، وهو الذي ندينُ الله به أن القول بوجوبه أقوى وأصح من القول بالمنع منه.

وقد صح عنه صحة لا شك فيها أنه قال: «**من لم يكن أهدى فليهل بعمرة، ومن كان أهدى فليهل بحج مع عمرة**». وأما ما فعله هو فإنه صح عنه أنه قرن بين الحج والعمرة من بضعة وعشرين وجهًا، رواه عنه ستة عشر نفسًا من أصحابه، ففعل القران، وأمر بفعله من ساق الهدى، وأمر بفسخه إلى التمتع من لم يسق الهدي، وهذا من فعله وقوله كأنه رأي عين، وبالله التوفيق.

(٢)ويوضح ذلك إيضاحًا بينًا ما روى مسلم في صحيحه، من حديث الزهري، عن عروة، عنها، قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فحضت، فلم أزل حائضًا حتى كان يوم عرفة، ولم أهل إلا بعمرة، فأمرني رسول الله ﷺ: أن أنقض رأسي، وأمتشط وأهل بالحج، وأترك العمرة، قالت: ففعلت ذلك، حتى إذا قضيت حجي بعث معي رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر، وأمرني أن أعتمر من التنعيم، مكان عمرتي التي أدركني الحج ولم أحل منها»(٣).

(١) ٣٠٣ أعلام جـ ٤.
(٢) ٣٦٤ زاد المعاد جـ١.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩) ومسلم (رقم ١٢١١) وانظر: عمدة القاري (٣/ ٢٩٦) وعون المعبود (٥/ ٢٣٠).

فهذا حديث في غاية الصحة والصراحة: أنها لم تكن أحلت من عمرتها، وأنها بقيت محرمة بها؛ حتى أدخلت عليها الحج، فهذا خبرها عن نفسها، وذلك قول رسول الله ﷺ لها، كل منهما يوافق الآخر. وبالله التوفيق.

وفي قوله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[(١)] دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، وتنبيه على ذلك؛ إذ لو كانت العمرة كالحج لا تفعل في السنة إلا مرة؛ لسوى بينهما ولم يفرق.

وروى الشافعي: عن علي ﷺ أنه قال: «اعتمر في كل شهر مرة».

وروى وكيع: عن إسرائيل، عن سويد بن أبي ناجية، عن أبي جعفر، قال: قال لي علي: «اعتمر في الشهر ـ إن أطقت ـ مراراً»[(٢)] وذكر سعيد بن منصور: عن سفيان بن أبي حسين، عن بعض ولد أنس: «أن أنساً كان إذا كان بمكة فجمم رأسه: خرج إلى التنعيم فاعتمر»[(٣)].

[(٤)]وكان يدور بيني وبين المكيين كلام في الاعتمار من مكة في رمضان وغيره، فأقول لهم: كثرة الطواف أفضل منها، فيذكرون قوله ﷺ: «عمرة في رمضان تعدل حجة»، فقلت لهم في أثناء ذلك: محال أن يكون مراد صاحب الشرع: العمرة التي يخرج إليها من مكة إلى أدنى الحل، وأنها تعدل حجة، ثم لا يفعلها هو مدة مقامة بمكة أصلاً، لا قبل الفتح ولا بعده، ولا أحد من أصحابه، مع أنهم كانوا أحرص الأمة على الخير، وأعلمهم بمراد الرسول ﷺ، وأقدرهم على العمل به، ثم مع ذلك يرغبون عن هذا العمل اليسير والأجر العظيم؟ يقدر أن يحج أحدهم في رمضان ثلاثين حجة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٧٣) ومسلم (رقم ١٣٤٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٩٨) وشرح النووي (٩/ ١١٧) وعمدة القاري (١٠/ ١٠٨).

(٢) أخرجه محمد بن الحسن الشيباني في الحجة (٢/ ١٢٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ٣٤٤ رقم ٨٥١٢) والشافعي في مسنده (ص ١١٣) وفي الأم (٢/ ١٣٥) وابن أبي شيبة (٣/ ١٢٩ رقم ١٢٧٢٧).

(٤) ٢٨٨ تهذيب السنن جـ٢.

أو أكثر، ثم لا يأتي منها بحجة واحدة، وتختصون أنتم عنهم بهذا الفضل والثواب؛ حتى يحصل لأحدكم ستون حجة أو أكثر؟ هذا ما لا يظنه من له مسكة عقل، وإنما خرج كلام النبي ﷺ على العمرة المعتادة، التي فعلها هو وأصحابه، وهي التي أنشئوا السفر لها من أوطانهم، وبها أمر أم معقل، وقال لها: «**عمرة في رمضان تعدل حجة**» ولم يقل لأهل مكة: اخرجوا إلى أدنى الحل فأكثروا من الاعتمار، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة، ولا فهم هذا أحد منهم. وبالله التوفيق.

... [(١)]ثبت في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ قدم تلك الليلة ضعفة أهله، وكان ابن عباس فيمن قدم»[(٢)]، وثبت: «أنه قدم سودة»، وثبت: «أنه حبس نساءه عنده؛ حتى دفعن بدفعه» وحديث أم حبيبة انفرد به مسلم. فإن كان محفوظًا، فهي إذًا من الضعفة التي قدمها. فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ بعث به مع أهله إلى منى يوم النحر، فرموا الجمرة مع الفجر»[(٣)].

قيل: نقدم عليه حديثه الآخر الذي رواه أيضًا الإمام أحمد والترمذي وصححه: «أن النبي ﷺ قدم ضعفة أهله، وقال: «لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس» ولفظ أحمد فيه: قدمنا رسول الله ﷺ: «أغيلمة بني عبد المطلب، على حُمُراتٍ لنا مع جمع. فجعل يلطح أفخاذنا ويقول: «أي بني، لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[(٤)] لأنه أصح منه، وفيه: نهى النبي ﷺ عن رمي الجمرة قبل طلوع الشمس، وهو محفوظ بذكر

(١) ٤٧١ زاد المعا جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٦٧٨) ومسلم (رقم ١٢٩٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٢٧) وشرح النووي (٩/ ٤١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٠) والطبراني في الكبير (١١/ ٤٣٠ رقم ١٢٢٢٠).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٤٠) وابن ماجه (رقم ٣٠٢٥) والترمذي (رقم ٨٩٣) وأحمد (١/ ٢٣٤، ٣١١، ٣٤٣) والطيالسي (رقم ٢٧٦٧) وابن حبان في صحيحه (٩/ ١٨١ رقم ٣٨٦٩) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٣٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٣٩ رقم ١٢٦٩٩) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال ابن حجر في الفتح (٣/ ٥٢٨): وهو حديث حسن... ثم قال: وهذه الطرق يقوي بعضها بعضًا، ومن ثم صححه الترمذي وابن حبان.

القصة فيه، والحديث الآخر إنما فيه: أنهم رموها مع الفجر.

ثم تأملنا: فإذا أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث فإنه أمر الصبيان أن لا يرموا الجمرة حتىٰ تطلع الشمس، فإنه لا عذر لهم في تقديم الرمي، أما من قدمه من النساء فرمين قبل طلوع الشمس للعذر، والخوف عليهن من مزاحمة الناس وحطمهم، وهذا الذي دلت عليه السنة؛ جواز الرمي قبل طلوع الشمس، للعذر بمرض، أو كبر يشق معه مزاحمة الناس لأجله، وأما القادر الصحيح؛ فلا يجوز له ذلك.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب:

أحدها: الجواز بعد نصف الليل مطلقًا للقادر والعاجز. كقول الشافعي وأحمد.

الثاني: لا يجوز إلا بعد طلوع الفجر، كقول أبي حنيفة.

الثالث: لا يجوز لأهل القدرة إلا بعد طلوع الشمس، كقول جماعة من أهل العلم.

والذي دلت عليه السنة؛ إنما هو التعجيل بعد غيبوبة القمر، لا نصف الليل. وليس مع من حدَّه بالنصف دليل، والله أعلم.

[(١)]فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت ـ لا قبله قطعًا ـ بأذان وإقامة، يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك.

ثم ركب حتىٰ أتىٰ موقفه عند المشعر الحرام، فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل، والذكر حتىٰ أسفر جدًّا، وذلك قبل طلوع الشمس، وهنالك سأله عروة بن مضرس الطائي، فقال: يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيء، أكللتُ راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتىٰ ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً: تم حجه، وقضىٰ تفثه»[(٢)] قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

---

(١) ١٧٥ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٢/ ٤٣١ رقم ٤٠٤٥، ٤٠٤٦) وأبو داود (رقم ١٩٥٠) والترمذي (رقم ٨٩١) والحاكم (١/ ٦٣٤ رقم ١٧٠٠). وابن حبان في صحيحه (٩/ ١٦١ رقم ٣٨٥٠) وابن خزيمة =

وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها: ركن كعرفة، وهو مذهب اثنين من الصحابة: ابن عباس. وابن الزبير. وإليه ذهب إبراهيم النخعي، والشعبي وعلقمة والحسن البصري، وهو مذهب الأوزاعي، وحماد بن أبي سليمان، وداود بن علي الظاهري، وأبي عبيد القاسم بن سلام، واختاره المحمدان: ابن جرير، وابن خزيمة. وهو أحد الوجوه للشافعية. ولهم ثلاث حجج، هذه إحداها.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

والثالثة: فعل رسول الله ﷺ الذي خرج مخرج البيان لهذا الذكر المأمور به.

واحتج من لم يره ركنًا بأمرين:

أحدهما: أن النبي ﷺ مدَّ وقت الوقوف بعرفة إلى طلوع الفجر. وهذا يقتضي أن من وقف بعرفة قبل طلوع الفجر بأيسر زمان؛ صح حجه، ولو كان الوقوف بمزدلفة ركنًا؛ لم يصح حجه...

(١)أرباب العزائم والبصائر أشد ما يكون استغفارًا؛ عقيب الطاعات؛ لشهودهم: تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

(٤/ ٥٥ رقم ٢٨٢٠) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١١٦ رقم ٩٢٥١) والدارقطني (٢/ ٢٤٠ رقم ١٨) والطبراني في الكبير (١٧/ ١٤٩ رقم ٣٧٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٠/ ٦): رواه أصحاب السنن الأربعة وصححه ابن خزيمة وابن حبان.

(١) ١٧٥ مدارج جـ١.

قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله ﷻ(١).

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»(٢).

وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر].

(٣)ونحر رسول الله ﷺ بمنحره بمنى، وأعلمهم: أن منى كلها منحر(٤)، وأن فجاج مكة طريق ومنحر(٥)، وفي هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه، كما أنه لما وقف بعرفة قال: «**وقفت هاهنا، وعرفة كلها موقف**»(٦) ووقف بمزدلفة وقال: «**وقفت هاهنا، ومزدلفة كلها موقف**»(٧).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٢٩٩).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١، ٥٩٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣) وعمدة القاري (٦/ ١٣٩).
(٣) ٤٨١ زاد المعاد جـ١.
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٥٢) وشرح النووي (٨/ ١٩٥-١٩٦) وعمدة القاري (١٠/ ٤٨-٤٩).
(٥) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٣٧) وابن ماجه (رقم ٣٠٤٨) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٢٢ رقم ٩٢٨٦) والدارمي (رقم ١٨٧٩) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٠ رقم ٣١٨٣) وفي الصغير (رقم ٥٨٣) وأحمد (٣/ ٣٢٦) وعبد بن حميد (رقم ١٠٠٤) وانظر: التمهيد (٢٤/ ٤١٧-٤١٨) وشرح الزرقاني (٢/ ٤٥٦) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٢١٩) وعون المعبود (٥/ ٢٨٨) وفيض القدير (٤/ ٤٤١).
(٦) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٩٥).
(٧) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٠٧) وانظر: عن المعبود (٥/ ٢٧٠) وشرح الزرقاني (٢/ ٤٤٨) وفيض القدير (٤/ ٣١٤)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٤٣).

وسئل ﷺ أن يُبنى له بمنى بناء يظله من الحر؟ فقال: «لا، منى مناخ لمن سبق إليه»[(١)]، وفي هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها، وأن من سبق إلى مكان منها فهو أحق به، حتى يرتحل عنه، ولا يملكه بذلك.

***

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

[(٢)]قال سعيد: عن قتادة: «ذكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله ﷻ نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق»[(٣)].

وقال ابن عباس: «﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: كانوا على الإسلام كلهم»[(٤)].

وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أمة واحدة، كانوا كفارًا»[(٥)].

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٥٠) وأبو يعلى (٨/ ١٦ رقم ٤٥١٩) وأحمد (٦/ ١٨٧، ٢٠٦) والحاكم (١/ ٦٣٨ رقم ١٧١٤) وابن خزيمة (٤/ ٢٨٤ رقم ٢٨٩١) وابن ماجه (رقم ٣٠٠٦، ٣٠٠٧) والترمذي (رقم ٨٨١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: عمدة القاري (٩/ ٢٢٨) ونقل الشوكاني تحسين الترمذي له في نيل الأوطار (٨/ ١٧٢) وصححه الحاكم وابن خزيمة.

(٢) ٢٠٣ إغاثة جـ٢.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٨٣) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٠٩ رقم ١١٨٣٠) وأبو يعلى (٤/ ٤٧٣ رقم ٢٦٠٦) وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي يعلى والطبراني بسند صحيح: انظر: الدر المنثور (١/ ٥٨٢) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣١٨): ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥١) والدر المنثور (١/ ٥٨٣) وتحفة الأحوذي (٧/ ١٠٥).

وهذا قول الحسن وعطاء، قالا: «كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام أمةً واحدةً، على ملة واحدة، وهي الكفر، كانوا كفاراً كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحًا وإبراهيم والنبيين».

وهذا القول ضعيف جدًّا، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة: حدثنا شيبان بن فروخ: حدثنا همام: حدثنا قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو الصواب قطعًا، فإن قراءة أبي بن كعب: «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»(١).

ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩].

والمقصود: أن العدو كادهم وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين: كفارًا ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث...(٢).

***

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

... (٣)يجوز للمفتي أن يعدل عن جواب المستفتي عما سأله عنه إلى ما هو أنفع له منه، ولا سيما إذا تضمن ذلك بيان ما سأل عنه، وذلك من كمال علم المفتي وفقهه ونصحه، وقد قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٣٧٦ رقم ١٩٨٤) (٤/ ١٢٩٥ رقم ٧٣١٥) وانظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٢٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٥١).

(٢) اختصرنا قرابة كراسة حول بدء عبادة الأوثان: أسبابها وأماكنها، فمن أراده فليرجع إليه اهـ. ج.

(٣) ١٥٨ أعلام جـ٤.

[البقرة: ٢١٥]. فسألوه عن المنفق فأجابهم بذكر المصرف؛ إذ هو أهمّ مما سألوه عنه، ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر. وهو قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه.

وقد ظن بعضهم أن من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩] فسألوه عن سبب ظهور الهلال خفيًّا ثم لا يزال يتزايد فيه النور علىٰ التدريج حتىٰ يكمل، ثم يأخذ في النقصان، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس التي بها تمامُ مصالحهم في أحوالهم ومعاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج، وإن كانوا قد سألوا عن السبب فقد أجيبوا بما هو أنفع لهم مما سألوا عنه، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ما سألوا عنه، ولفظ سؤالهم محتمل؛ فإنهم قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يأخذ في الزيادة حتىٰ يتم ثم يأخذ في النقص؟

***

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

(١)قوله تعالىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقوله ﷻ: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩٠].

فالآية الأولىٰ في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية.

والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية.

---

(١) ٩٠ فوائد.

فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه.

فالإنسان كما وصفه به خالقه: ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له، فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به، فيها ضرب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب...

قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب. فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، أوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع.

وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، لأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل. فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها.

والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها.

فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق، لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر، تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره، هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه ـ وهو لا يعلم ـ فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات؛ التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى.

ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم، غير ملطوف به

فيه، لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتىٰ صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره. إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر؛ طريحًا كالميتة، فإن السبع لا يرضىٰ بأكل الجيف.

(١) *قاعدة: إذا ابتلىٰ الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن:*

فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلىٰ ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه؛ فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله، وهو رجوعه إلىٰ الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه علىٰ بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف علىٰ أبواب غيره متعرضًا، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلىٰ محبوبها سببًا ما مثله سبب، وقوله تعالىٰ في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١٦].

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه ورده إلىٰ الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته وإرادته الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلىٰ حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

---

(١) ١٦٣ طريق الهجرتين.

[(١)]المحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره ولابد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يحب لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنها تبع لمحبة الله سبحانه. وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه.

وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة والتي لا تنفع؛ بل قد تضر.

واعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها: فما كان أشد منافاة لمحابه، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها، فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته.

فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه؛ علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك.

وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه؛ علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا: أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء، قال تعالى:

---

(١) ٢٦١ الجواب الكافي.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم؛ لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحب الراحة والفراغ والرفاهية، وذلك شر لها؛ لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب.

فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه؛ فإن ذلك قد يكون شرًّا له، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة، فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه.

فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين:

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان. فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين وهو إلى هذا مرة. وإلى هذا مرة وهاهنا محل الابتلاء شرعًا وقدرًا.

***

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

(١) بعث عبد الله بن جحش الأسدي إلىٰ نخلة في رجب علىٰ رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة، في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان علىٰ بعير. فوصلوا إلىٰ بطن نخلة، يرصدون عيرًا لقريش، وفي هذه السرية سُمِّي عبد الله بن جحش أمير المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا،وأمره أن لا ينظر فيه حتىٰ يسير يومين، ثم ينظر فيه فلما فتح الكتاب وجد فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتىٰ تنزل بنخلة، بين مكة والطائف، فتربص بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم». فقال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فمضوا كلهم، فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما، كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه، وبعُد عبد الله بن جحش حتىٰ نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولىٰ بني المغيرة، فتشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا علىٰ ملاقاتهم، فرمىٰ أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خُمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه، واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام، واشتد ذلك علىٰ المسلمين، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(٢) [البقرة: ٢١٧].

(١) ٢١٣ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه البيهقي في ا لكبرىٰ (٩/ ٥٨ رقم ١٧٧٦٨) وانظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٤٧-٣٤٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٥٤-٢٥٥) وعمدة القاري (٢/ ٢٧).

يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم ـ وإن كان كبيرًا ـ فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله والصدِّ عن سبيله وعن بيته، وإخراج المسلمين ـ الذين هم أهله ـ منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به؛ أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

وأكثر السلف فسروا الفتنة هنا بالشرك، كقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٢٣] أي: لم يكن مآل شركهم وعاقبته، وآخر أمرهم؛ إلا أن تبرءوا منه وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤] قال ابن عباس: «تكذيبكم» وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها، ومر مصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، وكما فتنوا عباده على الشرك فتنوا على النار، وقيل لهم: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج: ١٠]، فسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين، وإحراقهم إياهم بالنار. واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتتنوهم عن دينهم. فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣] وقول موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله، لعباده: بالخير والشر، بالنعم والمصائب فهذه لون وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر.

والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام ـ كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا ـ لون

آخر، وهي الفتنة التي قال النبي ﷺ فيها: «**ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي**»(١).

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين: هي هذه الفتنة.

وقد تأتي الفتنة مرادًا بها المعصية، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩]، يقوله الجد بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لي في القعود، ولا تفتني بتعريضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن(٢)، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩] أي وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولاسيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصرين نوعَ تقصير، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله ﷺ وإيثار ما عند الله، فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ ... جاءتْ محاسنه بألف شفيع(٣)

فكيف يقاس بغيض عدوٍّ جاء بكل قبيح، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن؟

(٤)في حكمه ﷺ في أول غنيمة كانت في الإسلام وأول قتيل.

لما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش، ومعه سرية إلى نخلة ترصد عيرًا لقريش،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٠١) ومسلم (رقم ٢٨٨٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٤٨-١٤٩) والدر المنثور (٤/ ٢١٣-٢١٥) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٣).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى ابن نباتة المصري، شاعر عصره، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب، وكان صاحب سر السلطان الناصر حسن. توفي سنة ٧٦٨هـ رحمه الله. والبيت ذكره المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ١٤٢).

(٤) ٤٥٥ زاد المعاد جـ٣.

وأعطاه كتابًا مختومًا، وأمره: أن لا يقرأه إلا بعد يومين. فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وكان ذلك في الشهر الحرام، فعنفهم المشركون، ووقف رسول الله ﷺ الغنيمة والأسيرين، حتىٰ أنزل الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فأخذ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فدائهما، فقال: «**لا، حتىٰ يقدم صاحبانا** ـ يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ـ **فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**»، فلما قدما فأداهما رسول الله ﷺ بعثمان والحكم، وقسم الغنيمة(١).

وذكر ابن وهب: «أن النبي ﷺ رد الغنيمة وودىٰ القتيل» والمعروف في السير خلاف هذا...

(٢)في فقه هذه القصة ففيها: جواز القتال في الشهر الحرام؛ إن كان ذكر التاريخ فيها برجب محفوظًا، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه وهم غير محفوظ؛ إذ لم يحفظ عن النبي ﷺ، أنه غزا في الشهر الحرام، ولا أغار فيه، ولا بعث فيه سرية، وقد عير المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام، وأنزل الله في ذلك: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ الآية. [البقرة: ٢١٧] ولم يثبت نسخ هذا بنص يجب المصير إليه، ولا أجمعت الأمة علىٰ نسخه، وقد استدل علىٰ تحريم القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

ولا حجة في هذا، لأن الأشهر الحرم هاهنا هي أشهر التسيير التي سير الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها، وكان أولها: يوم الحج الأكبر، عاشر ذي الحجة،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٥) وأخبار المدينة (١/ ٢٥٩).

(٢) ٣٨١ زاد المعاد جـ٢.

وآخرها: عاشر ربيع الآخر، هذا هو الصحيح في الآية، لوجوه عديدة ليس هذا موضعها.

وفيها: جواز أكل ورق الشجر عند المخمصة، وكذلك عشب الأرض.

وفيها: جواز نهي الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نحر ظهورهم، وإن احتاجوا إليه، خشية أن يحتاجوا إلىٰ ظهرهم عند لقاء عدوهم، ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

[1]قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] من باب بدل الاشتمال... والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فلم قدم الشهر؟ وقد قلتم إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم وهم به أعنىٰ.

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم وانتهاك حرمته، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛ فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه مطابقًا لما ذكرنا من القاعدة.

فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر وهلا اكتفىٰ بضميره فقال: قل هو كبير؟ وأنت إذا قلت: سألته عن زيد: أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدار؟

قيل: في إعادته لفظ الظاهر نكتة بديعة، وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عمومًا، ولو أتىٰ بالمضمرة، وقال: هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه، وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام.

ونظير هذه الفائدة قوله ﷺ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر، فقال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[2] فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر علىٰ قوله: نعم توضأوا به لئلا يتوهم

---

(١) ٤٧ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٨٣) والترمذي (رقم ٦٩) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٧٥ رقم ٥٨) وابن ماجه (رقم ٣٨٦) وابن حبان في صحيحه (٤/ ٤٩ رقم ١٢٤٣) وفي موارد الظمآن (رقم ١١٩، ١٢٠) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ٣ رقم ١) والدارقطني (١/ ٣٤ رقم ٤) ومالك (١/ ٢٢ رقم ٤١) وأحمد =

اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص، فعدل عن قوله: نعم توضأوا إلىٰ جواب عام يقتضي تعلق الحكم والطهورية بنفس مائه من حيث هو؟ فأفاد استمرار الحكم علىٰ الدوام وتعلقه بعموم الآية، وبطل توهم قصره علىٰ السبب فتأمله فإنه بديع.

فكذلك في الآية لما قال: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ فجعل الخبر بكبير واقعًا علىٰ قتال فيه، فيطلق الحكم به علىٰ العموم، ولفظ المضمر لا يقتضي ذلك.

وقريب من هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠] ولم يقل: أجرهم تعليقًا لهذا الحكم بالوصف، وهو كونهم مصلحين وليس في الضمير ما يدل علىٰ الوصف المذكور.

وقريب منه، وهو ألطف معنىٰ، قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ولم يقل: فيه تعليقًا لحكم الاعتزال بنفس الحيض وأنه هو سبب الاعتزال. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ولم يقل: الحيض؛ لأن الآية جارية علىٰ الأصل ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمرًا ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضًا بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ فإنه إخبار بالواقع والمخاطبون يعلمون أنه جهة كونه أذىٰ هو نفس كونه حيضًا، بخلاف تعليق الحكم به، فإنه إنما يعلم بالشرع. فتأمله.

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

(٢/ ٣٦١) وحسنه الهيثمي في المجمع (١/ ٢١٥) وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (٩/ ٦١٩) وصححه النووي في شرحه لمسلم (١٣/ ٨٦).

(١)تأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات.

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه؛ أولئك يرجون رحمة الله.

وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصر ما يعرضها للحبوط ويبطل أثرها.

(٢)ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والراجون رحمة الله: هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت:

هجرة إلى الله ﷻ بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء، والمحبة والتوبة.

وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها: فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٣)

وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين، لا ينوب فيه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار والمنافقين: فقد يكتفي فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

(٤)والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة

---

(١) ٤٧ الجواب الكافي.

(٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١) ومسلم (رقم ١٩٠٧).

(٤) ٢٩٨ الروح.

في الإتيان بأسباب الظفر والفوز.

والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه، واتبعوا ما أسخطه، وتجنبوا ما يرضيه، أولئك يرجون رحمته.

وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته؛ فامتد القلب مائلاً إلى ذلك شوقًا إليه وحرصًا عليه، فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه. وعلامة الرجاء الصحيح: أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها...

[١]وقد تقدم أن الله سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا، وقد فسر النبي ﷺ الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة[٢].

وفسر الهجرة بأنها هجر ما نهى الله عنه، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله، فقال: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[٣]، و«المجاهد من جاهد، نفسه في ذات الله»[٤].

والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من

---

(١) ٣٠١ الروح.

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» أخرجه البخاري (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥) واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٥) وانظر: عمدة القاري (٩/ ١٥) (١٤/ ٨١) وتحفة الأحوذي (٨/ ١٣١).

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٣٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٦٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٩) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٩).

سواهم من هذه الأمم.

وأما الأماني فإنها رءوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس؛ فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة، وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمي ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل، فيستريح إليها، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته، ولم يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته؛ تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له، ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلاً من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرته نصرة نفسه وهواه، فلم يدع للرجاء موضعًا، فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان، وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر، ويتكل على الأماني التي يسميها رجاء. والله أعلم.

***

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ

أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

...[(١)]قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠] فيتفكرون في الآيات التي بينها لهم. فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه، ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها، وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكرٌ مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة؛ فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها.

[(٢)]ولما نزل التشديد في أكل مال اليتيم عزلوا طعامهم عن طعام الأيتام وشرابهم من شرابهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

...[(٣)]أحكام القرآن يرشد سبحانه فيها إلى مداركها وعللها، كقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فأمر سبحانه نبيه أن

---

(١) ٣٥٧ مدارج السالكين جـ٣.
(٢) ٤١٠ أعلام جـ٤.
(٣) ١٦٣ أعلام جـ٤.

يذكر لهم علة الحكم قبل الحكم.

وكذلك قوله: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

وكذلك قوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨]. وقال في جزاء الصيد: ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ [المائدة: ٩٥].

(١)قوله تعالىٰ: ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ففيه معنىٰ آخر سوىٰ ما ذكره، وهو أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لطهور الماء وطهور الماء لا ينفع بدونه؛ بل هو مكمل له معد مهيء بحصوله، فكان أولىٰ بالتقديم، لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك، ثم يتطهر بالماء من الحدث.

(٢)قال تعالىٰ: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالىٰ: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فقال: تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها، يعني في المحيض.

وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول في الفرج، ولا تعده إلىٰ غيره.

وقد دلت الآية علىٰ تحريم الوطء في دبرها من وجهين:

أحدهما: أنه أباح إتيانها في الحرث، وهو موضع الولد، لا في الحش الذي هو موضع الأذىٰ، وموضع الحرث: هو المراد من قوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية. قال: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وإتيانها في قبلها من دبرها: مستفاد من

(١) ٦٨ بدائع جـ١.
(٢) ٣١٥ زاد المعاد جـ٣.

الآية أيضًا، لأنه قال: ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ أي: من حيث شئتم: من أمامٍ، أو من خلف، قال ابن عباس: فائتوا حرثكم: يعني الفرج.

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذىٰ العارض، فما الظن بالحش الذي هو محل الأذىٰ اللازم، مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل، والذريعة القريبة جدًّا من أدبار النساء إلىٰ أدبار الصبيان؟

وأيضًا: فللمرأة حق علىٰ الزوج في الوطء، ووطؤها في دبرها يفوت حقها، ولا يقضي وطرها، ولا يحصل مقصودها.

وأيضًا: فإن ذلك مضر للرجل، ولهذا ينهىٰ عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم. لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن، وراحة الرجل منه، والوطء في الدبر لا يعين علىٰ اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كل المحتقن، لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضًا: يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلىٰ حركات متعبة جدًّا، لمخالفته الطبيعة.

وأيضًا: فإنه محل القذر والنجو، فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه.

وأيضًا: فإنه يضر بالمرأة جدًّا، لأنه وارد غريب، بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة.

وأيضًا: فإنه يحدث الهم والغم والنفرة من الفاعل والمفعول.

وأيضًا: فإنه يسود الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تكون عليه كالسيماء، يعرفها من له أدنىٰ فراسة...

... (1)كان أهل الكتاب إنما يأتون النساء علىٰ جنوبهن علىٰ حرف، ويقولون: هو أيسر للمرأة، وكانت قريش والأنصار تشرح النساء علىٰ أقفائهن، فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

(١) ٣١٢ زاد المعاد جـ ٣.

وفي الصحيحين: عن جابر قال: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها: كان الولد أحول. فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾»(١).

وفي لفظ مسلم: «إن شاء مجبية، وإن شاء غير مجبية، غير أن ذلك في صمام واحد»(٢)، «والمجبية» المنكبة على وجهها. و«الصمام الواحد» الفرج، وهو موضع الحرث والولد، وأما الدبر فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء.

ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها فقد غلط عليه.

وفي سنن أبي داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى المرأة في دبرها»(٣).

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»(٤).

وفي لفظ للترمذي وأحمد: «من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٢٨) ومسلم (رقم ١٤٣٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٩٠-١٩٢) وشرح النووي (١٠/ ٦) وعمدة القاري (١٨/ ١١٧-١١٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٤٣٥) وانظر: مشارق الأنوار (١/ ١٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٦٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٣ رقم ٩٠١٥) وأبو عوانة في مسنده (رقم ٤٢٩٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ٨٨ رقم ٤٧٥٤) وأبو يعلى (١١/ ٣٤٩ رقم ٦٤٦٢) وأحمد (٢/ ٤٤٤) وانظر: شرح النووي (١٠/ ٦) وحسنه الترمذي وصححه ابن حبان، وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٤) وابن ماجه (رقم ١٩٢٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٣٠ رقم ١٦٨١١) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١١٠): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٣ رقم ٩٠١٦) وابن ماجه (رقم ٦٣٩) والترمذي (رقم ١٣٥) والدارمي (رقم ١١٣٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٣٠ رقم ١٦٨٠٩) وأحمد (٢/ ٤٠٨، ٤٧٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٣) وتحفة الأحوذي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

وفي لفظ للبيهقي: «**من أتى شيئًا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر**»(١).

وفي مصنف وكيع: حدثني زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد قال: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أعجازهن**» وقال مرة: «**في أدبارهن**»(٢).

وفي الترمذي: عن طلق بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن، فإن الله لا يستحي من الحق**»(٣).

وفي الكامل لابن عدي من حديثه، عن المحاملي، عن سعيد بن يحيى الأموي قال: حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود يرفعه: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن**»(٤).

وروينا في حديث الحسن بن علي الجوهري، عن أبي ذر مرفوعًا: «**من أتى الرجال أو النساء في أدبارهن فقد كفر**»(٥).

***

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٦٥) وقال: والموقوف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة وتركه آخرون، وانظر: نيل الأوطار (٦/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٢) أخرجه ابن حبان (٩/ ٥١٤-٥١٥ رقم ٤٢٠٠) وفي موارد الظمآن (رقم ١٢٩٩) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٢ رقم ٩٠٠٩) وابن ماجه (رقم ١٩٢٤) والدارمي (رقم ٢٢١٣) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٣-٤٥) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٥ رقم ٩٧٧) وفي الكبير (٤/ ٨٤ رقم ٣٧١٦) وأحمد (٥/ ٢١٣-٢١٥) والبزار (١/ ٤٧٤ رقم ٣٣٩ وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٨ رقم ٣٦٦٣): رواه ابن ماجه واللفظ له والنسائي بأسانيد أحدها جيد.

(٣) أخرجه الدارمي (رقم ١١٤٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٥) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٢٩ رقم ١٦٨٠٢) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٩٩ رقم ١٦٧٩) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٤٣ رقم ٤٨٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٣/ ١١٠) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١١٨) ونقل الشوكاني تحسين الترمذي له في نيل الأوطار (٦/ ٣٥٢).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٠٥) في ترجمة زيد بن رفيع (رقم ٧٠٢) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٨١): وعن ابن مسعود عند ابن عدي بإسنادٍ واهٍ.

(٥) ذكره العقيلي في الضعفاء في ترجمة بكر بن خنيس (١/ ١٤٨ رقم ١٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

[(١)] **اللغو نوعان:**

أحدهما: أن يحلف على الشيء، يظنه كما حلف عليه، فيتبين بخلافه.

والثاني: أن يجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف: ـ كلا، والله! وبلى، والله! ـ في أثناء كلامه. وكلاهما رفع الله المؤاخذة به لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده: أن لا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقة وحكمًا.

وقد أفتى أصحاب النبي ﷺ بعدم وقوع طلاق المكره، وإقراره.

فصح عن عمر أنه قال: «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا أوجعته، أو ضربته، أو أوثقته»[(٢)].

وصح عنه: «أن رجلاً تدلى بحبل ليشتار عسلاً، فأتت امرأته، فقالت: لأقطعن الحبل، أو لتطلقني، فناشدها الله، فأبت، فطلقها، فأتى عمر، فذكر له ذلك، فقال له: ارجع إلى امرأتك، فإن ذلك ليس بطلاق»[(٣)].

وكان علي بن أبي طالب لا يجيز طلاق المكره.

وقال ثابت الأعرج: سألت ابن عمر وابن الزبير عن طلاق المكره؟ فقالا جميعًا: «ليس بشيء»[(٤)].

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الغار بن جبلة، عن صفوان بن عمرو الأصم عن

---

(١) ٧٥ زاد المعاد جـ ٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٨ رقم ١٤٨٨٤) وابن أبي شيبة (٥/ ٤٩٣ رقم ٢٨٣٠٣) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٠٢) والمغني (٩/ ٦٣) وصحح إسناد الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣١٤).

(٣) ذكره ابن حزم في المحلى (٨/ ٣٣١) (١٠/ ٢٠٢) وحكم الحافظ ابن حجر عليه بالانقطاع في تلخيص الحبير (٣/ ٢١٦) والزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٢٤).

(٤) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٢).

رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن رجلاً جلست امرأته على صدره، وجعلت السكين على حلقه، وقالت له: طلقني، أو لأذبحنك، فناشدها الله؛ فأبت، فطلقها ثلاثًا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «لا قيلولة في الطلاق»[(١)] رواه سعيد بن منصور في سننه.

وروى عطاء بن عجلان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**كل الطلاق جائز، إلا طلاق المعتوه، والمغلوب على عقله**»[(٢)].

وروى سعيد بن منصور: حدثنا فرج بن فضالة: حدثني عمرو بن شراحيل المعافري: «أن امرأة استلت سيفًا، فوضعته على بطن زوجها، وقالت: والله لأنفذنه، أو لتطلقني، فطلقها ثلاثًا، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمضى طلاقها»[(٣)].

وقال علي: «كل الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه»[(٤)].

قيل: أما خبر الغار بن جبلة: ففيه ثلاث علل:

إحداها: ضعف صفوان بن عمرو.

والثانية: لين الغار بن جبلة.

والثالثة: تدليس بقية بن الوليد الراوي عنه.

ومثل هذا لا يحتج به، قال أبو محمد بن حزم: وهذا خبر في غاية السقوط.

---

(١) قال ابن حزم في المحلى (١٠/ ٢٠٣): وهذا خبر في غاية السقوط، صفوان منكر الحديث وبقية ضعيف والغازي بن جبلة مغمور، وحكم عليه بالوضع في موضع آخر (١٠/ ٢١٠). وقال البخاري عن صفوان الأصم عن بعض الصحابة في طلاق المكره: حديثه منكر، لا يتابع عليه، انظر: لسان الميزان (٣/ ١٩١ رقم ٧٦٤) (٤/ ٤١٢ رقم ١٢٥٩) والإصابة (٣/ ٤٣٧) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٢١٦) والتحقيق في أحاديث االخلاف (٢/ ٢٩٤) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١١٩١) وضعفه، وقال ابن حزم في المحلى (٨/ ٣٣٣): وهذا قلة حياء منهم أن يحتجوا برواية عطاء بن عجلان وهو مذكور بالكذب، ثم هم يقولون: إن الصاحب إذا روى خبرًا وخالفه، فذلك دليل على سقوط ذلك الخبر، وانظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٥/ ٣٦٥) والتحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٢٩٤ رقم ١٧١٢).

(٣) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٣) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٥٠).

(٤) ذكره البخاري في صحيحه في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والمكره قبل حديث (رقم ٥٢٦٦).

وأما حديث ابن عباس: «كل الطلاق جائز» فهو من رواية عطاء بن عجلان، وضعفه مشهور، وقد رُمي بالكذب، قال أبو محمد بن حزم: وهذا الخبر شر من الأول[١].

وأما أثر عمر: فالصحيح عنه خلافه، كما تقدم، ولا يعلم معاصرة المعافري لعمر، وفرج بن فضالة فيه ضعف.

وأما أثر علي: فالذي رواه عنه الناس: أنه كان لا يجيز طلاق المكره.

وروى عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: أن علي بن أبي طالب كان لا يجيز طلاق المكره[٢]، فإن صح عنه ما ذكرتم: فهو عام مخصوص بهذا.

وأما طلاق السكران فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] فجعل سبحانه قول السكران غير معتبر؛ لأنه لا يعلم ما يقول.

وصح عنه ﷺ أنه «أمر بالمقر بالزنا أن يستنكه»[٣] ليعتبر قوله الذي أقر به أو يلغى.

وفي صحيح البخاري في قصة حمزة لما عقر بعيري علي: «فجاء النبي ﷺ، فوقف عليه يلومه، فصعَّد فيه النظر وصوَّبه، وهو سكران، ثم قال: هل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فنكص النبي ﷺ على عقبيه»[٤] وهذا القول لو قاله غير سكران لكان ردة وكفرًا، ولم يؤاخذ بذلك حمزة.

وصح عن عثمان بن عفان أنه قال: «ليس لمجنون ولا سكران طلاق»[٥]. رواه ابن

---

(١) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٣).
(٢) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٢).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٩٥).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧٥) ومسلم (رقم ١٩٧٩) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢١٨-٢١٩) وعون المعبود (٨/ ١٤٨) وفيض القدير (٣/ ٥٠٧).
(٥) قال ابن عبد الهادي الحنبلي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٥٢٠): إن الزهري روى عن أبان عن عثمان أنه رد طلاق السكران، ولا يعرف له مخالف من الصحابة، وهذا القول هو الصحيح.

أبي شيبة، عن وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبان بن عثمان، عن أبيه.

وقال عطاء: «طلاق السكران لا يجوز»[١]. وقال ابن طاوس: «طلاق السكران لا يجوز»[٢]. وقال القاسم بن محمد: «لا يجوز طلاقه»[٣].

وصح عن عمر بن عبد العزيز «أنه أتي بسكران طلق، فاستحلفه بالله الذي لا إله إلا هو، لقد طلقها وهو لا يعقل، فحلف، فرد إليه امرأته، وضربه الحد»[٤] وهو مذهب يحيى بن سعيد الأنصاري، وحميد بن عبد الرحمن، وربيعة الرأي، والليث بن سعد، وعبد الله بن الحسن، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والشافعي في أحد قوليه، واختاره المزني وغيره من الشافعية، ومذهب أحمد في إحدى الروايات عنه، وهي التي استقر عليها مذهبه، وصرح برجوعه إليها، فقال في رواية: الذي لا يأمر بالطلاق: إنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق: قد أتى خصلتين: حرمها عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا، وأنا أتقيهما جميعًا، وقال في رواية الميموني: وقد كنت أقول: إن طلاق السكران يجوز، حتى تبينته، فقلت: إنه لا يجوز طلاقه، لأنه لو أقر لم يلزمه،ولو باع لم يجز بيعه، قال: وألزمه الجناية، وما كان من غير ذلك فلا يلزمه، قال أبو بكر عبد العزيز: وبهذا أقول. وهذا مذهب أهل الظاهر كلهم، واختاره من الحنفية أبو جعفر الطحاوي وأبو الحسن الكرخي.

والذين أوقعوه لهم سبعة مآخذ:

أحدها: أنه مكلف، ولهذا يؤخذ بجناياته.

والثاني: أن إيقاع الطلاق عقوبة له.

---

(١) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

(٢) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

(٣) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

(٤) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

والثالث: أن ترتب الطلاق على التطليق من باب ربط الأحكام بأسبابها، فلا يؤثر فيه السكر.

والرابع: أن الصحابة أقاموه مقام الصاحي في كلامه، فإنهم قالوا: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وحد المفتري ثمانون»[(١)].

والخامس: حديث: «لا قيلولة في الطلاق» وقد تقدم.

والسادس: حديث: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه» وقد تقدم[(٢)]...

[(٣)]والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه.

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على: أن لا تبروا، وأن لا تتقوا، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفتم، وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة وأنها تقتضي تعذيبًا فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين.

والقول الأول أصح وهو قول جمهور أهل التفسير؛ فإنه قابل به لغو اليمين، وهو أن لا يقصد اليمين، فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو عقده وعزمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] فتعقيد الأيمان هو كسب القلب.

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] فالأول للتجار، والثاني للزراع.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ٧٥ رقم ١٧٩٥) من قول علي بن أبي طالب ﷺ، وانظر: سبل السلام (٣/ ١٨١).

(٢) تقدما قريبًا ص (٣٨٥) بأنهما لا يحتج بهما. ج.

(٣) ١٢٠ شفاء العليل.

الوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠]. فهذا كله للعمل.

واختلف الناس في الكسب والاكتساب: هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟ فقال طائفة: معناهما واحد، قال أبو الحسن علي بن أحمد: وهو الصحيح عند أهل اللغة، ولا فرق بينهما، قال ذو الرمة:

ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب[1]

وقال الآخرون: الاكتساب أخص من الكسب؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه لنفسه ولغيره ولا يقال: يكتسب، قال الحطيئة:

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة ... فاغفر هداك مليك الناس يا عمر[2]

قلت: والاكتساب افتعال، وهو يستدعي اهتمامًا وعملاً واجتهادًا، وأما الكسب فيصح نسبته بأدنى شيء ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى سعي، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام.

***

(١) هذا عجز بيت من بحر البسيط، وصدره: ومطعم الصيد هبَّال لبُغيته. وينسب لذي الرمة واسمه غيلان بن عقبة العدوي، ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ١٧٧) وابن منظور في لسان العرب (١١/ ٦٨٧).

(٢) هذا بيت من بحر البسيط، وينسب إلى جرول بن أوس بن مالك العبسي المعروف بالحُطيئة، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، مات سنة ٤٥هـ. وعن الأصمعي لما هجا الحطيئة الزبرقان استعدى عليه عمر، فدعا حسان بن ثابت، فقال: أتراه هجاه؟ قال: نعم وسلح عليه، فحبسه عمر، فقال وهو محبوس:

ما ذا تقول لأفراح بذي مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ثم ذكر البيت إلا أن فيه: فاغفر عليك سلام الله يا عمر، فبكى عمر فشفع فيه عمرو بن العاص فأطلقه وعاش الحطيئة إلى خلافة معاوية، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ١٧٧) وأخبار المدينة (٢/ ٣، ٤).

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

[(١)] حكم رسول الله ﷺ في الإيلاء: ثبت في صحيح البخاري: عن أنس قال: آلى رسول الله من نسائه. وكانت انفكت رجله، فأقام في مشربة له تسعاً وعشرين ليلة، ثم نزل. فقالوا: يا رسول الله، آليت شهرًا، فقال: «**الشهر تسعٌ وعشرون**»[(٢)]. وقد قال ﷻ: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

الإيلاء لغة: الامتناع باليمين، وخص في عرف الشرع بالامتناع باليمين من وطء الزوجة، ولهذا عدي فعله بأداة «من» تضمينًا له معنى: يمتنعون من نسائهم، وهو أحسن من إقامة «من» مقام «على».

وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء. فإذا مضت: فإما أن يفيء وإما أن يطلق.

وقد اشتهر عن علي وابن عباس: «أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضا»، كما وقع لرسول الله ﷺ مع نسائه.

وظاهر القرآن؛ مع الجمهور، وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل آخر، فاحتج الآخر على محمد يقول علي، فاحتج عليه محمد بالآية، فسكت.

وقد دلت الآية على أحكام، منها: هذا.

ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن مولياً.

وهذا قول الجمهور. وفيه قول شاذ: أنه مولٍ كانت مدة الامتناع أربعة أشهر؛ لم يثبت

---

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩١١) وانظر: عمدة القاري (١٠/ ٢٨٣) (١٣/ ٢١) (٢٠/ ٢٧٦) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣٠٢).

له حكم الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها: إما أن يطلقوا، وإما أن يفيئوا، وهذا قول الجمهور.

وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

فقال الشافعي: حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: «أدركت بضعة عشر رجلاً من الصحابة كلهم يوقف المولي، يعني بعد أربعة أشهر»(١).

وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: «سألت اثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن المولي؟ فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر»(٢) وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال ابن مسعود وزيد بن ثابت: «إذا مضت الأربعة الأشهر، ولم يفئ فيها؛ طلقت منه بمضيها» وهذا قول جماعة من التابعين، وقول أبي حنيفة وأصحابه، فعند هؤلاء، يستحق المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء، وإلا طلقت بمضيها. وعند الجمهور؛ لا يستحق المطالبة، حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحينئذ يقال: إما أن تفيء، وإما أن تطلق، وإن لم يفئ أخذ بإيقاع الطلاق: إما بالحاكم، وإما بحبسه حتى يطلق.

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبد الله بن مسعود قرأ: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ - فيهن - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) [البقرة: ٢٢٦]، فإضافة الفيئة إلى المدة تدل على استحقاق الفيئة فيها، وهذه القراءة: إما أن تجري مجرى خبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم توجب كونها من القرآن، وإما أن تكون قرآناً نسخ لفظه، وبقي حكمه، لا يجوز فيها غير هذا البتة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور معزوًا إلى الشافعي والبيهقي (١/ ٦٥١) وانظر: نيل الأوطار (٧/ ٧٤).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٧٧ رقم ١٤٩٨٦) وانظر: اختلاف العلماء لمحمد بن نصر المروزي (ص ١٨٣) وفتح الباري (٩/ ٤٢٩).

(٣) انظر: نيل الأوطار (٧/ ٤٩).

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفيئة بعدها لزادت على مدة النص، وذلك غير جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء لوقعت الفيئة موقعها، فدل على استحقاق الفيئة فيها.

قالوا: ولأن الله ﷻ جعل لهم تربص أربعة أشهر، ثم قال: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

وظاهر هذا: أن التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بديني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك، ولا يفهم من هذا إلا إن وفيتني في المدة، ولا يفهم منه: إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفيئة بأنها في المدة، وأقل مراتبها؛ أن تكون تفسيرًا...[١].

***

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٨﴾.

[٢]قد اختلف الفقهاء: هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك فإنه حق له، فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه، بمنزلة من استأجر دارًا إن شاء سكنها، وإن شاء تركها. وهذا من أضعف الأقوال، والقرآن والسنة والعرف والقياس يرده، أما القرآن فإن الله ﷻ قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها؛ فهو

(١) ذكر المؤلف بعد هذا أدلة الجمهور وأوصلها إلى عشرة اهـ. ج.

(٢) ٢٣ روضة المحبين.

حقٌّ لها على الزوج بنص القرآن. وأيضًا فإنه ﷻ أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف. ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابَّة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعافٍ مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطءِ مرةً واحدةً. ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردًّا عليه.

والله ﷻ إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه، لا على غيره، فقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقالت طائفة: يجب عليه وطؤها في العمر مرةً واحدةً ليستقر لها بذلك الصداق، وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجه آخر؛ فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف، والصداق دخل في العقد تعظيمًا لحرمته وفرقًا بينه وبين السفاح، فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة واحدة، واحتجوا على ذلك بأن الله ﷻ أباح للمولي تربص أربعة أشهر، وخير المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حقٌّ في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة.

وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله؛ فليس أيضًا بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها.

وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظرًا منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارضٍ من: سفر، أو تأديب، أو راحة نفس، أو اشتغال بمهم، فجعل الله ﷻ له أجلاً أربعة أشهر، ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء موقتًا في كل أربعة أشهر مرة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها المعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله ﷻ أن يعاشرها بالمعروف، فالوطء داخلٌ في هذه المعاشرة ولا بد.

قالوا: وعليه أن يشبعها وطئًا إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتًا، وكان شيخنا

رحمه الله تعالىٰ يرجح هذا القول ويختاره، وقد حضَّ النبي ﷺ علىٰ استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعلق عليه الأجر، وجعله صدقة لفاعله، فقال: «وفي بضع أحدكم صدقة»(١). ومن تراجم النسائي علىٰ هذا: الترغيب في المباضعة.

ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلىٰ الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الروح، وذهاب كثافتها وغلظها، وخفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلبُ الصحة، ودفع المواد الرديئة....

وقوله: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلىٰ رضا الزوجة، والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود علىٰ عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والإحسان جنس العمل، فكما رجع إلىٰ التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، فإن الطلاق لما كان لفظًا يسمع ومعنىٰ يقصد، عقبه باسم «السميع» للنطق به «العليم» بمضمونه.

وكقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فلما ذكر سبحانه التعريض بخطبة المرأة الدال علىٰ أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها، وأن ذلك يحمله علىٰ الكلام الذي يتوصل به إلىٰ نكاحها؛ رفع الجناح عن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٠٠٦) وانظر: فتح الباري (١/ ١٣٧) وشرح النووي (٧/ ٩٢) والديباج علىٰ صحيح مسلم (٣/ ٧٨).

التعريض وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة.

ونفي مواعدتهن سرًّا ـ فقيل: هو النكاح، والمعنى: لا تصرحوا لهن بالتزويج إلا أن تعرضوا تعريضًا وهو القول المعروف.

وقيل: هو أن يتزوجها في عدتها سرًّا فإذا انقضت العدة أظهر العقد ويدل على هذا قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ وهو: انقضاء العدة.

ومن رجح القول الأول قال: دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح، وتحريم التصريح بنهي المواعدة سرًّا، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة، فلو كان معنى مواعدة السر هو إسرار العقد كان تكرارًا.

ثم عقب ذلك قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أن تتعدوا ما حد لكم، فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون، ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥] لولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه سبحانه مطلع عليكم يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون. فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار، فإنه الغفور الحليم.

وهذه طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم، قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ وفي هذا معنى التعليل أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] فهذا جزاء لشكرهم، أي: إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره، والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

وأيضًا فإنه سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشريك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك كقول هارون لعبدة العجل: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠]. وقوله سبحانه في القصة: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ [طه: ٩٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣].

فسبح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبر هذا المعنى في القرآن هبط به على رياض من العلم حماها الله عن كل أفاك معرض عن كتاب الله واقتباس الهدى منه، لو لم يكن في كتابنا هذا إلا هذا الفصل وحده لكفى من له ذوق ومعرفة، والله الموفق للصواب.

وأيضًا فإن الله سبحانه يتعلق بأسماء المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلامًا محضة؛ لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥]. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٣]. ﴿ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١١٧]. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]. ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٣٩]. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥]. ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [هود: ١١١]. ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨]. ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧]. ونظائره كثيرة.

وأيضًا فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلاً على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وقد اختلف النظار في هذه الأسماء: هل هي متباينة نظرًا إلى تباين معانيها وأن كل اسم يدل على معنى غير ما يدل عليه الآخر، أم هي مترادفة لأنها تدل على ذات واحدة، فمدلولها لا تعدد فيه وهذا شأن المترادفات؟ والنزاع لفظي في ذلك.

والتحقيق أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلى الذات متباينة بالنظر إلى الصفات، وكل اسم منها يدل على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة وعلى أحدهما وحده بالتضمن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام.

...[(١)]تقسيم الألفاظ إلى: صريح، وكناية، وإن كان تقسيمًا صحيحًا في أصل الوضع؛ لكن يختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة، فليس حكمًا ثابتًا للفظ لذاته، فرب لفظ صريح عند قوم، كناية عند آخرين، أو صريح في زمان أو مكان، كناية في غير ذلك الزمان والمكان، والواقع شاهد بذلك. فهذا لفظ «السراح» لا يكاد أحد يستعمله في الطلاق، لا صريحًا ولا كناية، فلا يسوغ أن يقال: إن من تكلم به لزمه طلاق امرأته، نواه أو لم ينوه، ويدعي أنه ثبت له عرف الشرع والاستعمال، فإن هذه دعوى باطلة شرعًا واستعمالاً.

أما الاستعمال: فلا يكاد أحد يطلق به البتة.

وأما الشرع: فقد استعمله في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩] فهذا السراح غير الطلاق قطعًا.

وكذلك «الفراق» استعمله الشرع في غير الطلاق، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا

---

(١) ١٥٧ زاد المعاد جـ ٤.

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...﴾ إلى قوله: ﴿... فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ١-٢] فالإمساك هنا: الرجعة. والمفارقة: ترك الرجعة، لا إنشاء طلقة ثانية، هذا مما لا خلاف فيه البتة، فلا يجوز أن يقال: إن من تكلم به طلقت زوجته، فهم معناه أو لم يفهمه، وكلاهما في البطلان سواء، وبالله التوفيق.

... [(١)]وفي صحيح مسلم قول ابن عمر للمطلق ثلاثًا: «حرمت عليك حتى تنكح زوجًا غيرك، وعصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك»[(٢)] وهذا تفسير منه للطلاق المأمور به، وتفسير الصحابي حجة، وقال الحاكم: هو عندنا مرفوع[(٣)].

ومن تأمل القرآن حق التأمل تبين له ذلك. وعرف أن الطلاق المشروع بعد الدخول: هو الطلاق الذي تملك به الرجعة.

ولم يشرع الله سبحانه إيقاع الثلاث جملة واحدة البتة، قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ولا تعقل العرب في لغتها وقوع المرتين إلا متعاقبتين. كما قال النبي ﷺ: «من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمده ثلاثًا وثلاثين، وكبره أربعًا وثلاثين»[(٤)] ونظائره، فإنه لا يعقل من ذلك إلا تسبيح وتكبير وتحميد متوال، يتلو بعضه بعضًا، فلو قال: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر أربعًا وثلاثين ـ بهذا اللفظ ـ لكان ثلاث مرات فقط.

وأصرح من هذا؛ قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٦] فلو قال: أشهد بالله أربع شهادات إني لمن الصادقين؛ كانت مرة. وكذلك قوله: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ

(١) ١٠٢ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧١).

(٣) انظر: المنهل الروي لابن جماعة (ص ٤١) وتدريب الراوي للسيوطي (١/ ١٩٢).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٥٩٦) بلفظ: «معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن، دبر كل صلاة مكتوبة: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة».

أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النور: ٨] فلو قالت: أشهد بالله أربع شهادات إنه لمن الكاذبين، كانت واحدة.

وأصرح من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة: ١٠١] فهذا مرة بعد مرة، ولا ينتقض هذا بقوله تعالىٰ: ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣١]. وقوله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين**» فإن المرتين هنا: هما الضعفان، وهما المثلان، وهما مثلان في القدر، كقوله تعالىٰ: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقوله: ﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: ضعف ما يعذب به غيرها، وضعف ما كانت تؤتي.

ومن هذا قول أنس: «انشق القمر علىٰ عهد رسول الله ﷺ مرتين»(١) أي: شقتين وفرقتين، كما قال في اللفظ الآخر: «انشق القمر فلقتين»(٢) وهذا أمر معلوم قطعًا: أنه إنما انشق القمر مرة واحدة. والفرق معلوم بين ما يكون مرتين في الزمان، وبين ما يكون مثلين وجزءين ومرتين في المضاعفة، فالثاني: يتصور فيه اجتماع المرتين في آن واحد، والأول: لا يتصور فيه ذلك.

ومما يدل علىٰ أن الله لم يشرع الثلاث جملة: أنه قال: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ... ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿ ...وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فهذا يدل علىٰ أن كل طلاق بعد الدخول: فالمطلق أحق فيه بالرجعة، سوىٰ الثالثة المذكورة بعد هذا. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ١-٢] فهذا هو الطلاق المشروع.

وقد ذكر الله ﷻ أقسام الطلاق كلها في القرآن، وذكر أحكامها، فذكر طلاق الفداء ـ الذي هو الخلع ـ وسماه فدية، ولم يحسبه من الثلاث كما تقدم.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ٨٥) ومسلم (رم ٢٨٠٢) بلفظ: «فرقتين».

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٣ رقم ٣٧٥٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٨٥) وعمدة القاري (١٩/ ٢٠٧).

وذكر الطلاق الرجعي الذي المطلق أحق فيه بالرجعة، وهو ما عدا هذه الأقسام الثلاثة، وبهذا احتج أحمد والشافعي وغيرهما على أنه ليس في الشرع طلقة واحدة بعد الدخول بغير عوض بائنة، وأنه إذا قال لها: أنت طالق طلقة بائنة؛ كانت رجعية، ويلغو وصفها بالبينونة، وأنه لا يملك إبانتها إلا بعوض.

وأما أبو حنيفة فقال: تبين بذلك، لأن الرجعة حق له، وقد أسقطها.

والجمهور يقولون: وإن كانت الرجعة حقًّا له، لكن نفقة الرجعية وكسوتها حق عليه؛ فلا يملك إسقاطه إلا باختيارها، وبذلها العوض، وسؤالها أن تفتدي نفسها منه بغير عوض في أحد القولين، وهو جواز الخلع بغير عوض، وأما إسقاط حقها من الكسوة والنفقة بغير سؤالها، ولا بذلها العوض؛ فخلاف النص والقياس.

قالوا: وأيضًا فالله سبحانه شرع الطلاق على أكمل الوجوه وأنفعها للرجل والمرأة، فإنهم كانوا يطلقون في الجاهلية بغير عدد، فيطلق أحدهم المرأة كلما شاء ويرجعها، وهذا ـ وإن كان فيه رفق بالرجل ـ ففيه إضرار بالمرأة، فنسخ سبحانه ذلك بثلاث، وقصر الزوج عليها، وجعله أحق بالرجعة، ما لم تنقض عدتها، فإذا استوفى العدد الذي ملكه حرمت عليه، فكان في هذا رفق بالرجل، إذ لم تحرم عليه بأول طلقة، وبالمرأة، حيث لم يجعل إليه أكثر من ثلاث، فهذا شرعه وحكمته وحدوده التي حدها لعباده، فلو حرمت عليه بأول طلقة يطلقها؛ كان خلاف شرعه وحكمته، وهو لم يملك إيقاع الثلاث جملة، بل إنما ملك واحدة، فالزائد عليها غير مأذون له فيه.

قالوا: وهذا كما أنه لم يملك إبانتها بطلقة واحدة، إذ هو خلاف ما شرعه، لم يملك إبانتها بثلاث مجموعة؛ إذ هو خلاف ما شرعه.

ونكتة المسألة؛ أن الله لم يجعل للأمة طلاقًا بائنًا قط، إلا في موضعين:

أحدهما: طلاق غير المدخول بها.

والثاني: الطلقة الثالثة، وما عداه من الطلاق؛ فقد جعل للزوج فيه الرجعة، هذا مقتضى الكتاب، كما تقدم تقريره، وهذا قول الجمهور، منهم الإمام أحمد، والشافعي.

وأهل الظاهر قالوا: لا يملك إبانتها بدون الثلاث إلا في الخلع.

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال فيما إذ قال: أنت طالق طلقة لا رجعة فيها:

أحدها: أنها واحدة بائنة. كما قال، وهذا قول ابن القاسم. لأنه يملك إبانتها بطلقة بعوض، فملكها بدونه، والخلع عنده طلاق.

الثاني: أنها واحدة بائنة، كما قال، وهذا قول ابن القاسم، لأنه يملك إبانتها بطلقة بعوض؛ فملكها بدونه، والخلع عنده طلاق.

الثالث: أنها واحدة رجعية، وهذا قول ابن وهب، وهو الذي يقتضيه الكتاب والسنة والقياس، وعليه الأكثرون.

وأما المسألة الثانية، وهي وقوع الثلاث بكلمة واحدة، فاختلف الناس فيها على أربعة مذاهب:

أحدها: أنه يقع، وهذا قول الأئمة الأربعة، وجمهور التابعين، وكثير من الصحابة.

الثاني: أنها لا تقع، بل ترد، لأنها بدعة محرمة، والبدعة مردودة، لقوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١) وهذا المذهب حكاه أبو محمد بن حزم. وحكي للإمام أحمد فأنكره، وقال: هو قول الرافضة.

الثالث: أنه يقع به واحدة رجعية، وهذا ثابت عن ابن عباس، ذكره أبو داود عنه، قال الإمام أحمد: وهذا مذهب ابن إسحاق، يقول: خالف السنة. فيرد إلى السنة. انتهى.

وهو قول طاوس وعكرمة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

الرابع: أنه يفرق بين المدخول بها وغيرها، فتقع الثلاث بالمدخول بها، وتقع بغيرها واحدة، وهذا قول جماعة من أصحاب ابن عباس، وهو مذهب إسحاق بن راهويه، فيما حكاه عنه محمد بن نصر المروزي في كتاب اختلاف العلماء.

---

(١) أخرجه تعليقًا البخاري في كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع (ص ٤٠٣) قبل حديث (رقم ٢١٤٢) ومسلم (رقم ١٧١٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٠٢-٣٠٣) وشرح النووي (١٢/ ١٦).

فأما من لم يوقعها جملة؛ فاحتجوا بأنه طلاق بدعة محرم، والبدعة مردودة، وقد اعترف أبو محمد بن حزم بأنها لو كانت بدعة محرمة لوجب أن ترد وتبطل، ولكنه اختار مذهب الشافعي: أن جمع الثلاث جائز غير محرم. وستأتي حجة هذا القول.

فأما من جعلها واحدة، فاحتج بالنص والقياس.

فأما النص: فما رواه معمر وابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه «أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ قال: نعم»(١) رواه مسلم في صحيحه.

وفي لفظ: «ألم أتعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من خلافة عمر ترد إلى واحدة؟ قال: نعم»(٢).

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عبد الرزاق، أن ابن جريج قال: أخبرني بعض بني أبي رافع - مولى رسول الله ﷺ - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة وإخوته أم ركانة، ونكح امرأة من مُزينة، فجاءت النبي ﷺ، فقالت: ما يغني عني إلا كما تغني هذه الشعرة - لشعرة أخذتها من رأسها - ففرق بيني وبينه، فأخذت النبي ﷺ حمية؛ فدعا بركانة وإخوته؛ ثم قال لجلسائه: «ألا ترون أن فلانًا يشبه منه كذا وكذا - من عبد يزيد - وفلانًا يشبه كذا وكذا؟» قالوا: نعم. قال النبي ﷺ لعبد يزيد: «طلقها». ففعل. ثم قال: «راجع امرأتك أم ركانة وإخوته»، فقال: إني طلقتها ثلاثًا يا رسول الله، قال: «قد علمت، راجعها»، وتلا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾(٣) [الطلاق: ١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم قال: حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧٢).

(٢) أخرجه أبو عوانة في مسنده (٣/ ١٥٢ رقم ٤٥٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٩٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٣٩ رقم ١٤٧٦٣) والحاكم (٢/ ٥٣٢ رقم ٣٨١٧) وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٣٩٠ رقم ١١٣٣٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦٩).

قال: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد ـ أخو بني المطلب ـ امرأته ثلاثًا في مجلس واحد. فحزن عليها حزنًا شديدًا، قال: فسأله رسول الله ﷺ: «**كيف طلقتها؟**» فقال: طلقتها ثلاثًا، فقال: «**في مجلس واحد؟**» قال: نعم. قال: «**فإنما تلك واحدة، فأرجعها إن شئت**»، قال: فراجعتها، وكان ابن عباس يرى: إنما الطلاق عند كل طهر(١).

قالوا: وأما القياس؛ فقد تقدم أن جمع الثلاث محرم وبدعة، والبدعة مردودة، لأنها ليست على أمر رسول الله ﷺ.

قالوا: وسائر ما تقدم في بيان التحريم يدل على عدم وقوعها جملة.

قالوا: ولو لم يكن معنا إلا قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٦] وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ [النور: ٨]. لكفى.

قالوا: وكذلك كل ما يعتبر له التكرار: من حلف، أو إقرار، أو شهادة، وقد قال النبي ﷺ: «**تحلفون خمسين يمينًا وتستحقون دم صاحبكم**» فلو قالوا: نحلف بالله خمسين يمينًا أن فلانًا قتله(٢)، كانت يمينًا واحدة.

قالوا: وكذلك الإقرار بالزنا، كما في الحديث: إن بعض الصحابة قال لماعز: إن أقررت أربعًا رجمك رسول الله ﷺ فهذا لا يعقل أن يكون الأربع فيه مجموعة بفم واحد.

وأما الذين فرقوا بين المدخول بها وغيرها؛ فلهم حجتان:

إحداهما: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح: عن طاوس: أن رجلاً يقال له: أبو الصهباء كان كثير السؤال لابن عباس. قال له: «أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثًا قبل

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٣٩ رقم ١٤٧٦٤) وأحمد (١/ ٢٦٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٦٢) وعون المعبود (٦/ ١٩٩-٢٠٠) ونيل الأوطار (٧/ ١٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٦٦٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٣٤) وشرح النووي (١١/ ١٤٣-١٤٨).

أن يدخل بها؛ جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ فلما رأى عمر الناس قد تتابعوا فيها قال: أجيزهن عليهم»[١].

الحجة الثانية: أنها تبين بقوله: أنت طالق، فيصادفها ذكر الثلاث وهي بائن؛ فيلغوا، ورأى هؤلاء أن إلزام عمر بالثلاث هو في حق المدخول بها، وحديث أبي الصهباء في غير المدخول بها.

قالوا: ففي هذا التفريق موافقة المنقول من الجانبين، وموافقة القياس.

وقال بكل قول من هذه الأقوال جماعة من أهل الفتوى، كما حكاه أبو محمد ابن حزم وغيره، ولكن عدم الوقوع جملة؛ هو مذهب الإمامية. وحكوه عن جماعة من أهل البيت.

قال الموقعون للثلاث: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: تحريم جمع الثلاث.

والثاني: وقوعها جملة، لو كانت محرمة. ونحن نتكلم معكم في المقامين.

فأما الأول: فقد قال الشافعي، وأبو ثور، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايات عنه، وجماعة من أهل الظاهر: إن جمع الثلاث سنة.

واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ولم يفرق بين أن تكون الثلاث مجموعة أو مفرقة، ولا يجوز أن نفرق بين ما جمع الله بينه، كما لا يجمع بين ما فرق الله بينه. وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ولم يفرق.

وقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية. [البقرة: ٢٣٦] ولم يفرق. وقال: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٤١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٩٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٣٨ رقم ١٤٧٦٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٦٣) وسبل السلام (٣/ ١٧٥) ونيل الأوطار (٧/ ١٤-٢٠).

إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ولم يفرق.

قالوا: وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة: «أن عويمرًا العجلاني طلق امرأته ثلاثًا ـ بعد أن لاعنها ـ بحضرة رسول الله ﷺ، قبل أن يأمره بطلاقها»(١).

قالوا: فلو كان جمع الطلاق الثلاث معصية لما أقره عليه رسول الله ﷺ، ولا يخلو طلاقها أن يكون قد وقع وهي امرأته، أو حين حرمت عليه باللعان، فإن كان الأول؛ فالحجة عليه ظاهرة، وإن كان الثاني؛ فلا شك أنه طلقها وهو يظنها امرأته، فلو كان حرامًا لبين له رسول الله ﷺ وإن كانت قد حرمت عليه...

***

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾.

(٢)منع الخلع طائفة شاذة من الناس، خالفت النص والإجماع، وفي الآية دليل على جوازه مطلقًا بإذن السلطان وغيره.

ومنعه طائفة بدون إذنه. والأئمة الأربعة، والجمهور، على خلافه.

وفي الآية دليل على حصول البينونة به، لأنه سبحانه سماه «فدية» ولو كان رجعيًا ـ كما قال بعض الناس ـ لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٠٨) ومسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٣٤).
(٢) ٦٦ زاد المعاد جـ ٤.

ودل قوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ على جوازه بما قل وكثر، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها.

وقد ذكر عبد الرزاق: عن معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل؛ أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته: «أنها اختلعت من زوجها بكل شيء تملكه، فخوصم في ذلك إلى عثمان بن عفان فأجازه، وأمره أن يأخذ عقاص رأسها فما دونه»(١).

وذكر أيضًا: عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع؛ أن ابن عمر «جاءته مولاة لامرأته اختلعت من كل شيء لها، وكل ثوب لها، حتى نقبتها»(٢).

ورفعت إلى عمر بن الخطاب امرأة نشزت عن زوجها فقال: «اخلعها ولو من قرطها»(٣) ذكره حماد بن سلمة، عن أيوب، عن كثير بن أبي كثير، عنه.

وذكر عبد الرزاق: عن معمر، عن ليث، عن الحكم بن عتيبة، عن علي بن أبي طالب: «لا يأخذ منها فوق ما أعطاها»(٤).

وقال طاوس: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها»(٥).

وقال عطاء: «إن أخذ زيادة على صداقها فالزيادة مردودة إليها»(٦).

وقال الزهري: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها»(٧).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٥٠٤ رقم ١١٨٥٠) وانظر: المحلى (١١/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٥٠٥ رقم ١١٨٥٢، ١١٨٥٣) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٤١).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ٤٧٠) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣١٥ رقم ١٤٦٢٩) وابن أبي شيبة (٤/ ١٢٥ رقم ١٨٥٢٥) وعبد الرزاق (٦/ ٥٠٥ رقم ١١٨٥١).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٥٠٣ رقم ١١٨٤٤) قال ابن جزم في المحلى (١٠/ ٢٤٠): وهذا لا يصح عن علي، لأنه منقطع وفيه ليث، وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٢) ونيل الأوطار (٧/ ٤٠).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٧٠) وعبد الرزاق (٦/ ٤٩٦ رقم ١١٨١٧) وابن أبي شيبة (٤/ ١٢٤ رقم ١٨٥١٥) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٤٠).

(٦) انظر: المحلى (١٠/ ٢٤٠).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٧٠) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٤٠).

وقال ميمون بن مهران: «إن أخذ منها أكثر مما أعطاها لم يسرح بإحسان»[١].

وقال الأوزاعي: «كانت القضاة لا تجيز أن يأخذ منها شيئًا إلا ما ساق إليها»[٢].

والذين جوزوه؛ احتجوا بحديث أبي الزبير؛ أن ثابت بن قيس بن شماس لما أراد خلع امرأته، قال النبي ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت: نعم، وزيادة.

فقال النبي ﷺ: «أما الزيادة فلا»[٣] قال الدارقطني: سمعه أبو الزبير من غير واحد. وإسناده صحيح[٤].

قالوا: والآثار من الصحابة مختلفة، فمنهم من رُوي عنه تحريم الزيادة.

ومنهم من روي عنه إباحتها، ومنهم من روي عنه كراهتها.

كما روي عن وكيع، عن أبي حنيفة، عن عمار بن عمران الهمداني، عن أبيه، عن علي؛ «أنه كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها»[٥] والإمام أحمد أخذ بهذا القول، ونص على الكراهة، وأبو بكر من أصحابه حرم الزيادة. وقال: ترد عليها.

وقد ذكر عبد الرزاق: عن ابن جريج قال: قال لي عطاء: أتت امرأة رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أبغض زوجي، وأحب فراقه، قال: «فتردين عليه حديقته التي أصدقك؟» قالت: نعم، وزيادة من مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**أما الزيادة من مالك فلا، ولكن الحديقة**»، قالت: نعم. فقضى بذلك على الزوج[٦]. وهذا ـ وإن كان مرسلاً ـ فأحاديث أبي الزبير مقبولة، وقد رواه ابن جريج عنهما.

وفي تسمية الخلع فدية دليل على أن فيه معنى المعاوضة، ولهذا اعتبر فيه رضا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٢٤ رقم ١٨٥٢٢) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٦٢).

(٢) انظر: المحلى (١٠/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣١٤ رقم ١٤٦٢٦) والدارقطني (٣/ ٢٥٥ رقم ٣٩) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٤٠٢): ورجال إسناده ثقات.

(٤) انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٢٠٥) ونيل الأوطار (٧/ ٣٥).

(٥) انظر: المحلى (١٠/ ٢٤٠).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٥٠٢ رقم ١١٨٤٢) قال ابن حزم في المحلى (١٠/ ٢٤١): وهذا مرسل.

الزوجين، فإذا تقايلا الخلع، ورد عليها ما أخذ منها، وارتجعها في العدة: فهل لهما ذلك؟ منعه الأئمة الأربعة وغيرهم، وقالوا: قد بانت منه بنفس الخلع.

وذكر عبد الرزاق: عن معمر، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب؛ أنه قال في المختلعة: «إن شاء أن يراجعها فليرد عليها ما أخذ منها في العدة، وليشهد على رجعيتها»[1].

قال معمر: وكان الزهري يقول ذلك. قال قتادة: وكان الحسن يقول: لا يراجعها إلا بخطبة[2]. ولقول سعيد بن المسيب والزهري وجه دقيق من الفقه، لطيف المأخذ، تتلقاه قواعد الفقه وأصوله بالقبول، ولا نكارة فيه؛ غير أن العمل على خلافه؛ فإن المرأة ما دامت في العدة فهي في حبسه، ويلحقها صريح طلاقه المنجز عند طائفة من العلماء، فإذا تقايلا عقد الخلع، وتراجعا إلى ما كانا عليه بتراضيهما؛ لم تمنع قواعد الشرع ذلك. وهو بخلاف ما بعد العدة. فإنها قد صارت عنه أجنبية محضة، فهو خاطب من الخطاب ويدل على هذا؛ أن له أن يتزوجها في عدتها منه بخلاف غيره اهـ.

وقد ثبت بالنص والإجماع، أنه لا رجعة في الخلع، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة؛ أن العدة في حيضة واحدة، وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين، ووقوع ثالثة بعده، وهذا ظاهر جدًّا في كونه ليس بطلاق فإنه سبحانه قال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وهذا ـ وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين ـ فإنه يتناولها وغيرها. ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر، ويخلى منه المذكور، بل إما أن يختص بالسابق، أو يتناوله وغيره.

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٩٢ رقم ١١٧٩٧) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٩٢ رقم ١١٧٩٥) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٩).

ثم قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وهذا يتناول من طلقت بعد فدية وطلقتين قطعًا؛ لأنها هي المذكورة، فلابد من دخولها تحت اللفظ، فهذا فهم ترجمان القرآن الذي دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله تأويل القرآن، وهي دعوة مستجابة بلا شك.

وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق؛ دل على أنها من غير جنسه. فهذا مقتضى النص والقياس، وأقوال الصحابة.

ثم من نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها؛ يعد الخلع فسخًا، بأي لفظ كان، حتى بلفظ الطلاق، وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو اختيار شيخنا، قال: وهذا ظاهر كلام أحمد، وكلام ابن عباس وأصحابه.

قال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار؛ أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول: «ما أجازه المال فليس بطلاق»[(١)].

قال عبد الله بن أحمد: رأيت أبي كان يذهب إلى قول ابن عباس.

وقال عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: «الخلع تفريق وليس بطلاق»[(٢)].

وقال ابن جريج، عن ابن طاوس: «كان أبي لا يرى الفداء طلاقًا، ويجيزه»[(٣)].

ومن اعتبر الألفاظ، ووقف معها، واعتبرها في أحكام العقود؛ جعله بلفظ الطلاق طلاقًا، وقواعد الفقه وأصوله؛ تشهد أن المرعي في العقود حقائقها ومعانيها، لا صورها وألفاظها، وبالله التوفيق.

ومما يدل على هذا؛ أن النبي ﷺ «أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته في الخلع

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٨٦ رقم ١١٧٦٨).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٢٠٥): وإسناده صحيح. قال أحمد: ليس في الباب أصح منه. وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٨٦ رقم ١١٧٦٦) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٧).

تطليقة، ومع هذا؛ أمرها أن تعتد بحيضة»[١] وهذا صريح في أنه فسخ، ولو وقع بلفظ الطلاق.

وأيضًا: فإنه سبحانه علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ، ولم يعين الله سبحانه لها لفظاً معينًا، وطلاق الفداء طلاق مقيد، ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة، والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة، وبالله التوفيق.

...[٢]ومن ذلك لفظ الفدية، أدخل فيه طائفة خلع الحيلة على فعل المحلوف عليه مما هو ضد الفدية؛ إذ المراد بقاء النكاح بالخلاص من الحنث، وهي إنما شرعت لزوال النكاح عند الحاجة إلى زواله، وأخرجت منه طائفة ما فيه حقيقة الفدية ومعناها، واشترطت له لفظًا معينًا، وزعمت أنه لا يكون فدية وخلعًا إلا به، وأولئك تجاوزوا به، وهؤلاء قصروا به.

والصواب أن كل ما دخله المال فهو فدية بأي لفظ كان، والألفاظ لم ترد لذواتها ولا تعبدنا بها، وإنما هي وسائل إلى المعاني؛ فلا فرق قط بين أن تقول: «اخلعني بألف» أو: «فادني بألف» لا حقيقةً ولا شرعًا، ولا لغة ولا عرفًا؛ وكلام ابن عباس والإمام أحمد عام في ذلك، لم يقيده أحدهما بلفظ، ولا استثنى لفظًا دون لفظ، بل قال ابن عباس: عامة طلاق أهل اليمن الفداء.

وقال الإمام أحمد: الخلع فرقة، وليس بطلاق[٣]، وقال: الخلع ما كان من جهة

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١١٨٥) والدارقطني (٤/ ٤٦ رقم ١٣٥) وحسنه الترمذي وانظر: التمهيد (٢٣/ ٣٧٤) وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) ٢٢٣ أعلام جـ١.

(٣) ذكره محمد نصر المروزي في اختلاف العلماء (ص ١٥٩) عن أحمد وإسحاق، وكذا ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٣٧١) بينما أخرجه الدارقطني عن ابن عباس (٣/ ٣٢٠ رقم ٢٧٤) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٦١) وصححه عن ابن عباس الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٧٥).

النساء، وقال: ما أجازه المال فليس بطلاق[1]، وقال: إذا خالعها بعد تطليقتين فإن شاء راجعها فتكون معه على واحدة.

وقال في رواية أبي طالب: الخلع مثل حديث سهلة: إذا كرهت المرأة الرجل وقالت: لا أبر لك قسمًا، ولا أطيع لك أمراً، ولا أغتسل لك من جنابة، فقد حل له أن يأخذ منها ما أعطاها؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أتردين عليه حديقته؟**».

قلت: وقد قال في الحديث: «**اقبل الحديقة وطلقها تطليقةً**»[2] وجعل أحمدُ ذلك فداء.

وقال ابن هانئ: سئل أبو عبد الله عن الخلع: أفسخ أم طلاق هو أم تذهب إلى حديث ابن عباس، كان يقول فرقة وليس بطلاق؟ فقال أبو عبد الله: كان ابن عباس يتأول هذه الآية: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وكان ابن عباس يقول: هو فداء، قال ابن عباس: ذكر الله الطلاق في أول الآية، والفداء في وسطها، وذكر الطلاق بعد؛ فالفداء ليس هو بطلاق، وإنما هو فداء، فجعل ابن عباس وأحمد الفداء فداء لمعناه لا للفظه، وهذا هو الصواب؛ فإن الحقائق لا تتغير بتغيير الألفاظ، وهذا باب يطول تتبعه.

[3]ومن العجائب معارضة هذه الأحاديث والآثار بقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] والذي أنزلت عليه هذه الآية هو الذي لعن المحلل والمحلل له، وأصحابه أعلم الناس بكتاب الله تعالى، فلم يجعلوه

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٨٦ رقم ١١٧٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٧٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٠) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٦٢).

(٣) ٢٧٥ إغاثة جـ١.

زوجًا، وأبطلوا نكاحه، ولعنوه.

وأعجب من هذا قول بعضهم: نحن نحتجُّ بكونه سمَّاه «محللا» فلولا أنه أثبت الحلَّ لم يكن محللًا.

فيقال: هذه من العظائم، فإن هذا يتضمن أن رسول الله ﷺ لعن من فعل السنة التي جاء بها، وفعل ما هو جائز صحيح في شريعته؛ وإنما سمَّاه محللاً لأنه أحل ما حرم الله، فاستحق اللعنة. فإن الله سبحانه حرمها على المطلق، حتى تنكح زوجًا غيره، والنكاح اسم في كتاب الله وسنة رسوله للنكاح الذي يتعارفه الناس بينهم نكاحاً، وهو الذي شرع إعلانه، والضرب عليه بالدفوف، والوليمة فيه، وجعله للإيواء والسكن، وجعله الله مودة ورحمة، وجرت العادة فيه بضد ما جرت به في نكاح المحلل، فإن المحلل لم يدخل على نفقة، ولا كسوة، ولا سكنى، ولا إعطاء مهر، ولا يحصل به نسب ولا صهر، ولا قصد المقام مع الزوجة، وإنما دخل عارية، كالتيس المستعار للضراب[1]، ولهذا شبهه به النبي ﷺ، ثم لعنه، فعلم قطعًا لاشك فيه أنه ليس هو الزوج المذكور في القرآن، ولا نكاحه هو النكاح المذكور في القرآن.

وقد فطر الله سبحانه قلوب الناس على أن هذا ليس بنكاح، ولا المحلل بزوج، وأن هذا منكر قبيح، تعير به المرأة والزوج، والمحلل والولي، فكيف يدخل هذا في النكاح الذي شرعه الله ورسوله، وأحبه، وأخبر أنه سنته، ومن رغب عنه فليس منه؟.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، أي:

(١) فعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له» أخرجه الحاكم (٢/ ٢١٧ رقم ٢٨٠٤، ٢٨٠٥) وابن ماجه (رقم ١٩٣٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٠٨ رقم ١٣٩٦٥) والدارقطني (٣/ ٢٥١ رقم ٢٨) وقال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٢٣٦): وحديث عقبة بن عامر قال عبد الحق: إسناده حسن، ونقل هذا المباركفوري في تحفة الأحوذي (٤/ ٢٢١) وقال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٧٣) ورواته موثقون، وصححه الزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٣٩) بينما أنكر ابن الجوزي تصحيح هذا الحديث في العلل المتناهية (٢/ ٦٤٦-٦٤٧ رقم ١٠٧٢).

فإن طلقها هذا الثاني، فلا جناح عليها وعلى الأول أن يتراجعا، أي: ترجع إليه بعقد جديد، فأتى بحرف «إن» الدالة على أنه يمكنه أن يطلق وأن يقيم، والتحليل الذي يفعله هؤلاء لا يتمكن الزوج فيه من الأمرين، بل يشرطون عليه أنه متى وطئها فهي طالق، ثم لما علموا أنه قد لا يخبر بوطئها ولا يقبل قولها في وقوع الطلاق ، انتقلوا إلى أن جعلوا الشرط إخبار المرأة بأنه دخل بها، فبمجرد إخبارها بذلك تطلق عليه، والله سبحانه شرع النكاح للوصلة الدائمة وللاستمتاع، وهذا النكاح جعله أصحابه سببًا لانقطاعه، ولوقوع الطلاق فيه، فإنه متى وطئ، كان وطؤه سببًا لانقطاع النكاح وهذا ضد شرع الله.

***

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

...[1]لا ريب أن من تدبَّر القرآن والسنة، ومقاصد الشارع؛ جزم بتحريم الحيل وبطلانها، فإن القرآن دل على أن المقاصد والنيات معتبرة في التصرف والعادات، كما هي معتبرة في القربات والعبادات، فيجعل الفعل حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا أو فاسدًا، وصحيحًا من وجه، فاسدًا من وجه، كما أن القصد والنية في العبادات تجعلها كذلك.

وشواهد هذه القاعدة كثيرة جدًّا في الكتاب والسنة.

---

(١) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

وقد سمى الله سبحانه ابتداء النكاح للمطلق ثلاثًا بعد الزوج الثاني مراجعة؛ فقال: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ [البقرة: ٢٣٠] أي: إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الأول؛ أن يتراجعا نكاحًا مستأنفًا.

فمنها قوله تعالى في آية الرجعة: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ [البقرة: ٢٣١] وذلك نص في أن الرجعة إنما تثبت لمن قصد الصلاح، دون الضرار، فإذا قصد الضرار لم يملكه الله تعالى الرجعية.

...[1]اسم «المراجعة» في لسان الشارع؛ قد يكون مع زوال عقد النكاح بالكلية، فيكون ابتداء عقد، وقد يكون مع تشعثه، فيكون إمساكًا.

[2]قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [النساء: ١٩] فهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدي نفسها منه، وهو ظالم لها بذلك، لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه بذلك.

ومنها قوله تعالى في آية الخلع: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه؛ إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله، فإنه شرط في الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العود، ظن إقامة حدوده.

[3]وقد نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانها، فقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال، وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك؛ أوائل الحرام.

---

(١) ٥٤ زاد المعاد جـ٤.

(٢) ٣٧٨ إغاثة جـ١.

(٣) ٢٦ مدارج جـ٢.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

[(١)]وأما تفريقه في العدد بين الموت والطلاق وعدة الحرة وعدة الأمة وبين الاستبراء والعدة، مع أن المقصود العلم ببراءة الرحم في ذلك كله، فهذا إنما يتبين وجهه إذا عرفت الحكمة التي لأجلها شرعت العدة وعرف أجناس العدد وأنواعها.

فأما المقام الأول ففي شرع عِدَّةُ حِكَمٍ.

منها: العلم ببراءة الرحم، وأن لا يجتمع ماء الواطئين فأكثر في رحم واحد، فتختلط الأنساب وتفسد، وفي ذلك من الفساد ما تمنعه الشريعة والحكمة.

ومنها: تعظيم خطر هذا العقد، ورفع قدره، وإظهار شرفه.

ومنها: تطويل زمان الرجعة للمطلق؛ إذ لعله أن يندم ويفيء فيصادف زمنًا يتمكن فيه من الرجعة.

ومنها: قضاء حق الزوج، وإظهار تأثير فقده في المنع من التزين والتجمل، ولذلك شرع الإحداد عليه أكثر من الإحداد على الوالد والولد.

ومنها: الاحتياط لحق الزوج، ومصلحة الزوجة، وحق الولد، والقيام بحق الله الذي أوجبه؛ ففي العدة أربعة حقوق.

وقد أقام الشارع الموتَ مقام الدخول في استيفاء المعقود عليه؛ فإن النكاح مدته العمر، ولهذا أقيم مقام الدخول في تكميل الصداق، وفي تحريم الربيبة عند جماعة من الصحابة ومن بعدهم، كما هو مذهب زيد بن ثابت وأحمد في إحدى الروايتين عنه؛ فليس المقصود من العدة مجرد براءة الرحم، بل ذلك من بعض مقاصدها وحكمها.

المقام الثاني في أجناسها، وهي أربعة في كتاب الله، وخامس بسنة رسول الله ﷺ:

الجنس الأول: أم باب العدة ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤].

---

(١) ٦٥ أعلام جـ ٢.

الثـاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

الرابع: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ [الطلاق: ٤].

الخامس: قول النبي ﷺ: **«لا توطأ حاملٌ حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرئ بحيضة»**(١).

ومقدم هذه الأجناس كلها الحاكم عليها كلها وضعُ الحمل، فإذا وجد فالحكم له، ولا التفات إلى غيره، وقد كان بين السلف نزاع في المتوفى عنها أنها تتربص أبعد الأجلين، ثم حصل الاتفاق على انقائها بوضع الحمل.

وأما عدة الوفاة فتجب بالموت، سواء دخل بها أو لم يدخل، كما دل عليه عموم القرآن والسنة الصحيحة واتفاق الناس؛ فإن الموت لما كان انتهاء العقد وانقضاءه؛ استقرت به الأحكام: من التوارث، واستحقاق المهر.

وليس المقصود بالعدة هاهنا مجرد استبراء الرحم كما ظنه بعض الفقهاء؛ لوجوبها قبل الدخول، ولحصول الاستبراء بحيضة واحدة، ولاستواء الصغيرة والآيسة وذوات القروء في مدتها، فلما كان الأمر كذلك قالت طائفة: هي تعبدٌ محض لا يعقل معناه، وهذا باطل لوجوه:

منها: أنه ليس في الشريعة حكم واحد إلا وله معنى وحكمة، يعقله من عقله،

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٧) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٢٩ رقم ١٠٥٧٢) والحاكم (٢/ ٢١٢ رقم ٢٧٩٠) والدارمي (رقم ٢٢٩٥) والربيع في مسنده (رقم ٥٤٤) وأحمد (٣/ ٦٢) وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في تخليص الحبير (١/ ١٧١-١٧٢) وصححه الحاكم وأعله عبد الحق وابن القطان، انظر: خلاصة البدر المنير (١/ ٨٣ رقم ٢٥٧) ونصب الراية (٣/ ٢٣٣) (٤/ ٢٥٢) وصححه ابن قدامة في المغني (٧/ ١٠٣) وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٢٧٩): طريق صالح حسن يحتج بمثله.

ويخفى على من خفي عليه.

ومنها: أن العدد ليست من باب العبادات المحضة؛ فإنها تجب في حق الصغيرة والكبيرة والعاقلة والمجنونة والمسلمة والذمية، ولا تفتقر إلى نية.

ومنها: أن رعاية حق الزوجين والولد والزوج الثاني ظاهر فيها؛ فالصواب أن يقال: هي حريم لانقضاء النكاح لما كمل، ولهذا تجد فيها رعاية لحق الزوج وحرمة له. ألا ترى أن النبي ﷺ كان من احترامه ورعاية حقوقه تحريم نسائه بعده.

ولما كانت نساؤه في الدنيا هن نساؤه في الآخرة قطعًا، لم يحل لأحد أن يتزوج بهن بعده، بخلاف غيره؛ فإن هذا ليس معلومًا في حقه، فلو حرمت المرأة على غيره لتضررت ضرراً محققًا بغير نفع معلوم، ولكن لو تأَيَّمَتْ على أولادها كانت محمودة على ذلك.

وقد كانوا في الجاهلية يبالغون في احترام حق الزوج، وتعظيم حريم هذا العقد غاية المبالغة: من تربص سنة في شر ثيابها وحفش بيتها، فخفف الله عنهم ذلك بشريعته التي جعلها رحمة وحكمة ومصلحة ونعمة، بل هي من أجل نعمه عليهم على الإطلاق، فله الحمد كما هو أهله.

وكانت أربعة أشهر وعشرًا على وفق الحكمة والمصلحة؛ إذ لابد من مدة مضروبة لها، وأولى المدد بذلك المدة التي يعلم فيها بوجود الولد وعدمه؛ فإنه يكون أربعين يومًا نطفة، ثم أربعين علقة، ثم أربعين مضغة، فهذه أربعة أشهر، ثم ينفخ فيه الروح في الطور الرابع، فقدر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة إن كان ثم حمل.

وأما عدة الطلاق فلا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المسيس بالاتفاق، ولا ببراءة الرحم؛ لأنه يحصل بحيضة كالاستبراء، وإن كان براءة الرحم بعض مقاصدها، ولا يقال: «هي تعبد» لما تقدم، وإنما يتبين حكمها إذا عرف ما فيها من الحقوق؛ ففيها حق الله، وهو امتثال أمره وطلب مرضاته، وحق للزوج المطلق وهو اتساع زمن الرجعة له، وحق للزوجة، وهو استحقاقها للنفقة والسكنى ما دامت في

العدة، وحق للولد، وهو الاحتياط في ثبوت نسبه، وأن لا يختلط بغيره، وحق للزوج الثاني، وهو أن لا يسقي ماءه زرع غيره[1].

ورتب الشارع على كل واحد من هذه الحقوق ما يناسبه من الأحكام؛ فرتب على رعاية حقه: لزوم المنزل، وأنها لا تَخرج ولا تُخرج، هذا موجب القرآن ومنصوص إمام أهل الحديث وإمام أهل الرأي.

ورتب على حق المطلق تمكينه من الرجعة ما دامت في العدة، وعلى حقها استحقاق النفقة والسكنى، وعلى حق الولد ثبوت نسبه وإلحاقه بأبيه دون غيره، وعلى حق الزوج الثاني دخوله على بصيرة ورحم بريء غير مشغول بولد لغيره؛ فكان في جعلها ثلاثة قروء رعاية لهذه الحقوق، وتكميلاً لها، وقد دل على أن العدة حق للزوج عليها بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فهذه دليل على أن العدة للرجل على المرأة بعد المسيس، وقال تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَـٰحًا ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فجعل الزوج أحق بردها في العدة؛ فإذا كانت العدة ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر طالت مدة التربص، لينظر في أمرها يمسكها بمعروف أو يسرحها بإحسان.

كما جعل الله سبحانه للمولي تربص أربعة أشهر، لينظر في أمره هل يفيء أو يطلق.

وكما جعل مدة تسيير الكفار أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ويختاروا لأنفسهم.

فإن قيل: هذه العلة باطلة؛ فإن المختلعة والمفسوخ نكاحها بسبب من الأسباب، والمطلقة ثلاثًا، والموطوءة بشبهة، والمزنيّ بها تعتدُّ بثلاثة أقراء، ولا رجعة هناك، فقد

---

(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره» يعني: إتيان الحبالى. أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٩ رقم ١٥٣٦٦) وأحمد (٤/ ١٠٨) ونقل ابن الملقن تحسين الترمذي في خلاصة البدر المنير (٢/ ٢٣٩ رقم ٢١٢٧) ونقل الصنعاني تصحيح ابن حبان وتحسين البزار في سبل السلام (٣/ ٢٠٧).

وجد الحكم بدون علته، وهذا يبطل كونها علة.

قيل: شرطُ النقض أن يكون الحكم في صورة ثابتًا بنص أو إجماع، وأما كونه قولًا لبعض العلماء فلا يكفي في النقض به.

وقد اختلف الناس في عدة المختلعة؛ فذهب إسحاق وأحمد في أصح الروايتين عنه دليلاً: أنها تعتد بحيضة واحدة، وهو مذهب عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس، وقد حكي إجماع الصحابة ولا يعلم لهما مخالف، وقد دلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة دلالة صريحة، وعذر من خالفها أنها لم تبلغه، أو لم تصح عنده، أو ظن الإجماع على خلاف موجبها، وهذا القول هو الراجح في الأثر والنظر.

أما رجحانه أثرًا فإن النبي ﷺ لم يأمر المختلعة قط أن تعتد بثلاث حيض، بل قد رَوَىٰ أهل السنن عنه، من حديث الربيع بنت معوذ؛ أن ثابت بن قيس ضرب امرأته فكسر يدها، وهي جميلة بنت عبد الله بن أبيّ، فأتىٰ أخوها يشتكي إلى رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت، فقال: «خذ الذي لها عليك وخلِّ سبيلها» قال: نعم، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتربص حيضة واحدة وتلحق بأهلها(١).

وذكر أبو داود، والنسائي: من حديث ابن عباس؛ أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها، فأمرها النبي ﷺ أو أُمرت أن تعتد بحيضة، قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة(٢)، وهذه الأحاديث لها طرق يصدق بعضها بعضًا.

وأعل الحديث بعلتين: أحدهما: إرساله، والثانية: أن الصحيح فيه «أمرت» بحذف الفاعل، والعلتان غير مؤثرين؛ فإنه قد روي من وجوه متصلة، ولا تعارض بين أمرت وأمرها رسول الله ﷺ؛ إذ من المحال أن يكون الآمر لها بذلك غير رسول الله ﷺ في حياته، وإذا كان الحديث قد روي بلفظ محتمل ولفظ صريح يفصل المحتمل ويبينه،

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٨٣ رقم ٥٦٩١) وفي الصغرىٰ (رقم ٣٤٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١١٨٥) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٥٠ رقم ١٥٣٧٧) وابن الجارود في المنتقىٰ (رقم ٧٦٣) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٧) ونيل الأوطار (٧/ ٣٥). وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٠٥).

فكيف يجعل المحتمل معارضًا للمفسر بل مقدمًا عليه؟ ثم يكفي في ذلك فتاوى أصحاب رسول الله ﷺ.

قال أبو جعفر النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ: هو إجماع من الصحابة.

وأما اقتضاء النظر له فإن المختلعة لم تبق لزوجها عليها عدة، وقد ملكت نفسها وصارت أحق ببضعها، فلها أن تتزوج بعد براءة رحمها، فصارت العدة في حقها بمجرد براءة الرحم، وقد رأينا الشريعة جاءت في هذا النوع بحيضة واحدة، كما جاءت بذلك في المسبية والمملوكة بعقد معاوضة أو تبرع والمهاجرة من دار الحرب، ولا ريب أنها جاءت بثلاثة أقراء في الرجعية، والمختلعة فرعٌ متردد بين هذين الأصلين؛ فينبغي إلحاقها بأشبههما بها؛ فنظرنا فإذا هي بذوات الحيضة أشبه.

ومما يبين حكمة الشريعة في ذلك؛ أن الشارع قسم النساء إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: المفارقة قبل الدخول؛ فلا عدة عليها ولا رجعة لزوجها فيها.

الثاني: المفارقة بعد الدخول إذا كان لزوجها عليها رجعة، فجعل عدتها ثلاثة قروء، ولم يذكر سبحانه العدة بثلاثة قروء إلا في هذا القسم، كما هو مصرح به في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وكذا في سورة الطلاق لما ذكر الاعتداد بالأشهر الثلاثة في حق من إذا بلغت أجلها خير زوجها بين إمساك بمعروف أو مفارقتها بإحسان، وهي الرجعية قطعًا، فلم يذكر الأقراء أو بدلها في حق بائن البتة.

القسم الثالث: من بانت عن زوجها وانقطع حقه عنها بسبي أو هجرة أو خلع؛ فجعل عدتها حيضة للاستبراء، ولم يجعلها ثلاثًا؛ إذ لا رجعة للزوج، وهذا في غاية الظهور والمناسبة.

وأما الزانية والموطوءة بشبهة فموجب الدليل أنها تستبرأ بحيضة فقط، ونص عليه أحمد في الزانية، واختاره شيخنا في الموطوءة بشبهة، وهو الراجح، وقياسهما على

المطلقة الرجعية من أبعد القياس وأفسده.

فإن قيل: فهب أن هذا قد سلم لكم فيما ذكرتم من الصور، فإنه لا يسلم معكم في المطلقة ثلاثًا؛ فإن الإجماع منعقد على اعتدادها بثلاثة قروء مع انقطاع حق زوجها من الرجعة، والقصد مجرد استبراء رحمها.

قيل: نعم هذا سؤال وارد، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أنه قد اختلف في عدتها: هل هي بثلاثة قروء أو بقرء واحد؟ فالجمهور - بل الذي لا يعرف الناس سواه - أنها ثلاثة قروء.

وعلى هذا فيكون وجهه أن الطلقة الثالثة لما كانت من جنس الأوليين أعطيت حكمهما؛ ليكون باب الطلاق كله بابًا واحدًا، فلا يختلف حكمه؛ والشارع إذا علَّق الحكم بوصف لمصلحة عامة لم يكن تخلف تلك المصلحة والحكمة في بعض الصور مانعًا من ترتب الحكم، بل هذه قاعدة الشريعة وتصرفها في مصادرها ومواردها.

الوجه الثاني: أن الشارع حرمها عليه حتى تنكح زوجًا غيره، عقوبة له،ولعن المحلل والمحلل له؛ لمناقضتهما ما قصده الله سبحانه من عقوبته؛ وكان من تمام هذه العقوبة أن طول مدة تحريمها عليه؛ فكان ذلك أبلغ فيما قصده الشارع من العقوبة، فإنه إذا علم أنها لا تحل له حتى تعتد بثلاثة قروء، ثم يتزوجها آخر بنكاح رغبة مقصودٍ لا تحليلٍ مُوجبٍ للعنة، ويفارقها، وتعتد من فراقه ثلاثة قروء أخر، طال عليه الانتظار، وعيل صبره، فأمسك عن الطلاق الثلاث، وهذا واقع على وفق الحكمة والمصلحة والزجر؛ فكان التربص بثلاثة قروء في الرجعية نظرًا للزوج ومراعاة لمصلحته لما لم يوقع الثالثة المحرمة لها، وهاهنا كان ترابصًا عقوبة له وزجرًا لما أوقع الطلاق المحرم لما أحل الله له، وأكدت هذه العقوبة بتحريمها عليه إلا بعد زوج وإصابة وتربص ثان.

وقيل: بل عدتها حيضة واحدة، وهي اختيار أبي الحسين بن اللبان، فإن كان

مسبوقًا بالإجماع فالصواب اتباع الإجماع، وأن لا يلتفت إلىٰ قوله، وإن لم يكن في المسألة إجماع فقوله قوي ظاهر، والله أعلم.

فإن قيل: فقد جاءت السنة بأن المخيرة تعتد ثلاث حيض، كما رواه ابن ماجه من حديث عائشة قالت: أمرت بريرة أن تعتد ثلاث حيضٍ[1].

قيل: ما أصرحه من حديث لو ثبت! لكنه حديث منكر بإسناد مشهور، وكيف يكون عند أم المؤمنين هذا الحديث وهي تقول: الأقراء الأطهار؟ فإن صح الحديث وجب القول به، ولم تسع مخالفته، ويكون حكمه حكم المطلقة ثلاثًا في اعتدادها بثلاثة قروء، ولا رجعة لزوجها عليها؛ فإن الشارع يخصص بعض الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن ببعض الأحكام، وإن لم يظهر لنا موجب التخصيص، فكيف وهو ظاهر في مسألة المخيرة، فإنها لو جعلت عدتها حيضة واحدة لبادرت إلىٰ التزوج بعدها، وأيس منها زوجها؟ فإذا جعلت ثلاث حيضة واحدة لبادرت إلىٰ التزوج بعدها، وأيس منها زوجها؟ فإذا جعلت ثلاث حيض طال زمن انتظارها وحبسها عن الأزواج، ولعلها تتذكر زوجها فيها وترغب في رجعته، ويزول ما عندها من الوحشة، ولو قيل: إن اعتداد المختلعة بثلاث حيضٍ لهذا المعنىٰ بعينه؛ لكان حسنًا علىٰ وفق حكمة الشارع، ولكن هذا مفقود في المسبية والمهاجرة والزانية والموطوءة بشبهة.

فإن قيل: فهبْ أن هذا كله قد سلم لكم، فكيف يسلم لكم في الآيسة والصغيرة التي لا يوطأ مثلها؟

قيل: هذا إنما يرد علىٰ من جعل علة العدة مجرد براءة الرحم فقط، ولهذا أحابوا عن هذا السؤال بأن العدة هاهنا شرعت تعبدًا محضًا غير معقول المعنىٰ، وأما جعل هذا بعض مقاصد العدة وأن لها مقاصد أُخر من تكميل شأن هذا العقد واحترامه وإظهار

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٠٧٧) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٣٠): هذا إسناد صحيح رجاله موثقون، وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٥) وقال الصنعاني في سبل السلام (٣/ ١٩٨): رواه ابن ماجه ورواته ثقات لكنه معلول.

خطره وشرفه فجعل لهم حريم بعد انقطاعه بموت أو فرقة، فلا فرق في ذلك بين الآيسة وغيرها، ولا بين الصغيرة والكبيرة، مع أن المعنى الذي طولت له العدة في الحائض في الرجعية والمطلقة ثلاثًا؛ موجودٌ بعينه في حق الآيسة والصغيرة، وكان مقتضى الحكمة التي تضمنت النظر في مصلحة الزوج في الطلاق الرجعي، وعقوبته وزجره في الطلاق المحرم؛ التسوية بين النساء في ذلك، وهذا ظاهر جدًّا، وبالله التوفيق.

وأما تحريم المرأة على الزوج بعد الطلاق الثلاث، وإباحتها له بعد نكاحها للثاني؛ فلا يعرف حكمته إلا من له معرفة بأسرار الشريعة، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح الكلية فنقول وبالله التوفيق:

لما كان إباحة فرج المرأة للرجل بعد تحريمه عليه ومنعه منه؛ من أعظم نعم الله عليه، وإحسانه إليه؛ كان جديرًا بشكر هذه النعمة، ومراعاتها، والقيام بحقوقها، وعدم تعريضها للزوال، وتنوعت الشرائع في ذلك بحسب المصالح التي علمها الله في كل زمان ولكل أمة.

فجاءت شريعة التوراة بإباحتها له بعد الطلاق ما لم تتزوج، فإذا تزوجت حرمت عليه، ولم يبق له سبيل إليها؛ وفي ذلك من الحكمة والمصلحة ما لا يخفى؛ فإن الزوج إذا علم أنه إذا طلق المرأة وصار أمرُها بيدها، وأن لها أن تنكح غيره، وأنها إذا نكحت غيره حرمت عليه أبدًا، كان تمسكه بها أشدَّ، وحذره من مفارقتها أعظم، وشريعة التوراة جاءت بحسب الأمة الموسوية فيها من الشدة والإصرِ ما يناسب حالها.

ثم جاءت شريعة الإنجيل بالمنع من الطلاق بعد التزويج البتة، فإذا تزوج بامرأة فليس له أن يطلقها.

ثم جاءت الشريعة الكاملة الفاضلة المحمدية، التي هي أكمل شريعةٍ نزلت من السماء على الإطلاق، وأجلها وأعلاها وأقومها بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ بأحسن من ذلك كله وأكمله وأوفقه للعقل والمصلحة.

فإن الله سبحانه أكمل لهذه الأمة دينها، وأتم عليها نعمته، وأباح لها من الطيبات

ما لم يبحه لأمة غيرها.

فأباح للرجل أن ينكح من أطايب النساء أربعًا، وأن يتسرَّىٰ من الإماء بما شاء، وليس التسرىٰ في شريعة أخرىٰ غيرها.

ثم أكمل لعبده شرعه، وأتم عليه نعمته، بأن ملكه أن يفارق امرأته ويأخذ غيرها؛ إذ لعل الأولىٰ لا تصلح له ولا توافقه، فلم يجعلها غلًّا في عنقه، وقيدًا في رجله، وإصرًا علىٰ ظهره، وشرع له فراقها علىٰ أكمل الوجوه لها، وله بأن يفارقها واحدة ثم تتربص ثلاثة قروء، والغالب أنها في ثلاثة أشهر، فإن تاقت نفسه إليها، وكان له فيها رغبة، وصرَّف مقلب القلوب قلبه إلىٰ محبتها، وجد السبيل إلىٰ ردها ممكنًا، والباب مفتوحًا، فراجع حبيبته، واستقبل أمره، وعاد إلىٰ يده ما أخرجته يد الغضب ونزغات الشيطان منها.

ثم لا يؤمن غلبات الطباع ونزغات الشيطان من المعاودة، فمكن من ذلك أيضًا مرة ثانية، ولعلها أن تذوق من مرارة الطلاق وخراب البيت ما يمنعها من معاودة ما يغضبه، ويذوق هو من ألم فراقها ما يمنعه من التسرع إلىٰ الطلاق، فإذا جاءت الثالثة جاء ما لا مردَّ له من أمر الله، وقيل له: قد اندفعت حاجتك بالمرة الأولىٰ والثانية، ولم يبق لك عليها بعد الثالثة سبيل، فإذا علم أن الثالثة فراقُ بينه وبينها وأنها القاضية أمسك عن إيقاعها، فإنه إذا علم أنها بعد الثالثة لا تحل له إلا بعد تربص ثلاثة قروء وتزوج بزوج راغب في نكاحها وإمساكها، وأن الأول لا سبيل له إليها حتىٰ يدخل بها الثاني دخولاً كاملاً يذوق فيه كل واحد منهما عسيلة صاحبه؛ بحيث يمنعهما ذلك من تعجيل الفراق ثم يفارقها: بموت أو طلاق أو خلع ثم تعتد من ذلك عدة كاملة؛ تبين له حينئذ يأسه بهذا الطلاق الذي هو من أبغض الحلال إلىٰ الله[1]، وعلم كل واحد

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٧٨) وابن ماجه (رقم ٢٠١٨) والبيهقي في سننه الكبرىٰ (٧/ ٣٢٢ رقم ١٤٦٧١) وتمام في فوائده: (رقم ٢٦) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٦٣٨): هذا حديث لا يصح. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٥٦): أخرجه أبو داود وغيره وأعل بالإرسال. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٤٤).

منهما أنه لا سبيل له إلى العود بعد الثالثة، لا باختياره ولا باختيارها، وأكد هذا المقصود بأن لعن الزوج الثاني إذا لم ينكح نكاح رغبة يقصد فيه الإمساك، بل نكح نكاح تحليل، ولعن الزوج الأول إذا ردَّها بهذا النكاح، بل ينكحها الثاني كما نكحها الأول، ويطلقها كما طلقها الأول، وحينئذ فتباح للأول كما تباح لغيره من الأزواج.

وأنت إذا وازنت بين هذا وبين الشريعتين المنسوختين، ووازنت بينه وبين الشريعة المبدلة المبيحة ما لعن الله ورسوله فاعله، تبين لك عظمة هذه الشريعة، وجلالتها، وهيمنتها على سائر الشرائع، وأنها جاءت على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنفعها للخلق، وأن الشريعتين المنسوختين خير من الشريعة المبدلة، فإن الله سبحانه شرعهما في وقت، ولم يشرع المبدلة أصلاً.

وهذه الدقائق ونحوها مما يختص الله سبحانه بفهمه من يشاء؛ فمن وصل إليها فليحمد الله، ومن لم يصل إليها فليسلم لأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، وليعلم أن شريعته فوق عقول العقلاء وفوق فطر الألبَّاء:

وقل للعيون الرمد لا تتقدمي ... إلى الشمس، واستغشي ظلام اللياليا
وسامح، ولا تنكر عليها، وخلها ... وإن أنكرت حقًّا فقل خل ذا ليا[(١)]

وقال غيره:

عاب التفقه قوم لا عقول لهم ... وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرَّ شمس الضحى والشمس طالعة ... أن لا يرى ضوءَها مَنْ ليس ذا بصر[(٢)]

---

(١) لم أقف على قائلهما.

(٢) هذان البيتان من بحر البسيط، وينسبان إلى منصور بن إسماعيل الفقيه، شاعر وفقيه شافعي ضرير، كان شديد الهجاء، ونقل عنه كلام في الدين، وشهد عليه بذلك شاهد، فقال القاضي أبو عبيد: إن شهد عليه ثان ضربت عقنه، فاستولى عليه الخوف ومات. وكان ذلك في سنة ٣٠٦هـ. وذكر البيتين ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمته وصلاح الدين الصفدي في نكت الهميان واليافعي في مرآة الجنان وعبرة اليقظان.

ذكر حكمه ﷺ في العِدَدِ: هذا الباب قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان، وأوضحه وأجمعه؛ بحيث لا تشذ عنه معتدة، فذكر أربعة أنواع من العدد، وهي جملة أنواعها:

النوع الأول: عدة الحامل: بوضع الحمل مطلقًا؛ بائنة كانت أو رجعية، مفارقة في الحياة، أو متوفى عنها، فقال: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤] وهذا فيه عموم من ثلاث جهات:

أحدها: عموم المخبر عنه، وهو ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عموم الأجل، فإنه إضافة إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن. فلو كان لبعضهن أجل غيره لم يكن جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان، أما المبتدأ: فظاهر، وأما الخبر ـ وهو قوله تعالى: ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ـ ففي تأويل مصدر مضاف، أي أجلهن وضع حملهن، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين؛ اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول، كقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ١٥]، وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها: عدتها وضع حملها، ولو وضعته والزوج على المغتسل، كما أفتى به النبي ﷺ سبيعة الأسلمية(١). وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقًا من كتاب الله مطابقًا له.

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء، كما قال الله تعالى:

---

(١) إن سبيعة كانت تحت سعد بن خولة فتوفي في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها تجملت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك تجملت للخطاب ترجين النكاح، فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي، أخرجه البخاري (رقم ٣٩٩١) ومسلم (رقم ١٤٨٤).

﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها، وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة قد يئست من الحيض، فبين سبحانه عدة النوعين بقوله: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ ﴾ [الطلاق: ٤] أي: فعدتهن كذلك.

النوع الرابع: المتوفى عنها زوجها، فبين عدتها بقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة.

ولا يدخل فيه الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]، فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه، بخلاف قوله في المتوفى عنهن: ﴿ يَتَرَبَّصۡنَ ﴾ فإنه فعل مطلق لا عموم له. وأيضًا فإن قوله: ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ متأخر في النزول عن قوله: ﴿ يَتَرَبَّصۡنَ ﴾. وأيضًا فإن قوله: ﴿ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ في غير الحامل الاتفاق، فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته، فعمومها مخصوص اتفاقًا. وقوله: ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ غير مخصوص بالاتفاق، هذا لو لم تأت السنة الصحيحة بذلك، ووقعت الحوالة على القرآن، فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك مقررة له؟

فهذه أصول العدد في كتاب الله، مفصلة مبينة.

ولكن اختلف في فهم المراد من القرآن ودلالته في مواضع من ذلك.

وقد دلت السنة - بحمد الله - على مراد الله منها.

ونحن نذكرها، ونذكر أولى المعاني وأشبهها، ودلالة السنة عليها.

فمن ذلك: اختلاف السلف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً. فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة: «أبعد الأجلين: من وضع الحمل، أو أربعة أشهر وعشرًا» وهذا أحد القولين في مذهب مالك، اختاره سحنون.

قال أحمد في رواية أبي طالب عنه: إن علي بن أبي طالب وابن عباس يقولان في المعتدة الحامل: «أبعد الأجلين». وكان ابن مسعود يقول: «من شاء باهلته: إن سورة النساء القصرىٰ نزلت بعد»[(١)]. وحديث سبيعة يقضي بينهم: «إذا وضعت: فقد حلت». وابن مسعود يتأول القرآن: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ هي في المتوفىٰ عنها، والمطلقة مثلها، إذا وضعت: فقد حلت وانقضت عدتها.

ولا تنقضي عدة الحامل إذا أسقطت حتىٰ يتبين خلقه، فإذا بان له يد أو رجل عتقت به الأمة، وتنقضي به العدة، وإذا ولدت ولدًا وفي بطنها آخر: لم تنقض العدة حتىٰ تلد الآخر، ولا تغيب عن منزلها الذي أصيب فيه زوجها أربعة أشهر وعشرًا، إذا لم تكن حاملاً، والعدة من يوم يموت أو يطلق[(٢)]، هذا كلام أحمد.

وقد تناظر في هذه المسألة ابن عباس وأبو هريرة، فقال أبو هريرة: «عدتها وضع الحمل»[(٣)]. وقال ابن عباس: «عدتها أقصىٰ الأجلين»[(٤)] فحكّما أم سلمة، فحكمت لأبي هريرة، واحتجت بحديث سبيعة. وقد قيل: إن ابن عباس رجع.

وقال جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم، والأئمة الأربعة: إن عدتها وضع

---

(١) أخرجه بلفظ قريب ابن ماجه (رقم ٢٠٣٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٣٠ رقم ١٥٢٥١) وسعيد بن منصور في سننه (١/ ٣٩٦ رقم ١٥١٢-١٥١٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٥٤ رقم ١٧٠٩٩) وعبد الرزاق (٦/ ٤٧١ رقم ١١٧١٤) والطبراني في الكبير (٩/ ٣٢٩ رقم ٩٦٤١) وأصل الحديث في صحيح البخاري بلفظ مغاير فقال: «أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة؟ فنزلت سورة النساء القصرىٰ بعد الطولىٰ» صحيح البخاري (رقم ٤٥٣٢) وانظر: التمهيد (٢٠/ ٣٥) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٨٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٧٩): روي عن علي وابن مسعود وابن عباس أن ابتداء العدة في الطلاق عقيب الطلاق، وفي الوفاة عقيب الوفاة. أما حديث علي فأخرجه البيهقي بلفظ: العدة من يوم يموت أو يطلق، وأما ابن مسعود فأخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر ومن طريق ابن عمر نحوه، وأخرج عن جماعة من التابعين مثله بأسانيد جيدة.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (١/ ٢٩).

(٤) انظر: الفتح السماوي (٢/ ٨٩٢) وقواعد التحديث (ص ٨٨).

الحمل، ولو كان الزوج على مغتسله، فوضعت؛ حلت.

قال أصحاب الأجلين: هذه قد ناولها عمومان، وقد أمكن دخولها في كليهما، فلا تخرج من عدتها بيقين حتى يأتي عليها أقصى الأجلين.

قالوا: ولا يمكن تخصيص عموم إحداهما بخصوص الأخرى، لأن كل آية منهما عامة من وجه، خاصة من وجه.

قالوا: فإذا أمكن دخول بعض الصور في عموم الآيتين، يعني إعمالاً للعموم في مقتضاه، فإذا اعتدَّت أقصى الأجلين: دخل أدناهما في أقصاهما.

والجمهور أجابوا عن هذا بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط، كما في الصحيحين: أن سبيعة الأسلمية تُوفي عنها زوجها، وهي حبلى، فوضعت، فأرادت أن تنكح، فقال لها أبو السنابل: ما أنت بناكحة حتى تعتدي آخر الأجلين. فسألت النبي ﷺ؟ فقال: «كذب أبو السنابل، قد حللت، فانكحي من شئت»(١).

الثاني: أن قوله: ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤] نزلت بعد قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهذا جواب عبد الله بن مسعود، كما في صحيح البخاري عنه: «أيجعلون عليها التغليظ، ولا يجعلون لها الرخصة؟ أشهدُ لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى(٢): ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾».

وهذا الجواب يحتاج إلى تقرير، فإن ظاهره أن آية سورة الطلاق مقدمة على آية البقرة، لتأخرها عنها فكانت ناسخة لها، ولكن النسخ عند الصحابة والسلف: أعم منه عند المتأخرين، فإنهم يريدون به ثلاثة معان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩١) ومسلم (رقم ١٤٨٤) وانظر: فتح الباري (١/ ٢١٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٢).

أحدها: رفع الحكم الثابت بخطاب.

الثاني: رفع دلالة الظاهر: إما بتخصيص، وإما بتقييد وهو أعم مما قبله.

الثالث: بيان المراد باللفظ الذي بيانه من خارج، وهذا أعم من المعنيين الأولين، فابن مسعود أشار بتأخر نزول سورة الطلاق إلى أن آية الاعتداد بوضع الحمل ناسخة لآية البقرة، إن كان عمومها مرادًا، أو مخصصة لها إن لم يكن عمومها مرادًا، أو مبينة للمراد منها، أو مقيدة لإطلاقها، وعلى التقديرات الثلاث؛ فيتعين تقديمها على عموم تلك وإطلاقها، وهذا من كمال فقهه ورسوخه في العلم، ومما يبين أن أصول الفقه، التي هي أصول الفقه؛ سجية للقوم وطبيعة لهم، لا يتكلفونها، كما أن العربية والمعاني والبيان وتوابعها لهم كذلك، فمن بعدهم إنما يجهد نفسه ليتعلق بغبارهم، وأنَّى له؟

الثالث[1]: أنه لو لم تأت السنة الصريحة باعتبار الحمل، ولم تكن آية الطلاق متأخرة؛ لكان تقديمها هو الواجب، لما قررناه أولاً من جهات العموم الثلاثة فيها، وإطلاق قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ وقد كانت الحوالة على هذا الفهم ممكنة، ولكن لغموضه ودقته على كثير من الناس؛ أحيل في ذلك الحكم على بيان السنة، وبالله التوفيق.

ودل قوله سبحانه: ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ على أنها إذا كانت حاملاً بتوأمين؛ لم تنقض العدة حتى تضعهما جميعًا.

ودلت على أن من عليها الاستبراء، فعدتها؛ وضع الحمل أيضًا.

ودلت على أن العدة تنقضي بوضعه على أي صفة كان: حيًّا أو ميتًا، تام الخلقة أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ.

ودل قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] على الاكتفاء بذلك، وإن لم تحض، وهذا قول الجمهور، وقال مالك: إذا كانت عادتها أن تحيض

(١) المقصود به الجواب الثالث الذي أجاب به الجمهور عن رأي أصحاب الأجلين وقد سبق الجوابان الأول والثاني (ج).

في كل سنة مرة، فتوفي عنها زوجها؛ لم تنقض عدتها حتى تحيض حيضتها، فتبرأ من عدتها، فإن لم تحض انتظرت تمام تسعة أشهر من يوم وفاته، وعنه رواية ثانية كقول الجمهور: أنها تعتد أربعة أشهر وعشراً[١]، ولا تنتظر حيضها...[٢].

...[٣]**الدليل الثاني**: أن لفظ (القرء) لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض، ولم يجيء عنه في موضع واحد استعماله للطهر، فحمله في الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع أولى، بل متعين، فإنه ﷺ قال للمستحاضة: «**دعي الصلاة أيام أقرائك**»[٤] وهو ﷺ المعبر عن الله تعالى وبلغة قومه نزل القرآن، فإذا ورد المشترك في كلامه على أحد معنييه؛ وجب حمله في سائر كلامه عليه، إذ لم تثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه البتة، ويصير هذا المعنى؛ الحقيقية الشرعية في تخصيص المشترك بأحد معنييه، كما يخص المتواطئ بأحد أفراده، بل هذا أولى؛ لأن أغلب أسباب الاشتراك تسمية أحد القبيلتين الشيء باسم، وتسمية الأخرى بذلك الاسم مسمى آخر، ثم تتسع الاستعمالات، بل قال المبرد وغيره، لا يقع الاشتراك في اللغة إلا بهذا الوجه خاصة، والواضع لم يضع لفظًا مشتركًا البتة، فإذا ثبت استعمال الشارع لفظ «القرء» في الحيض؛ علم أن هذه لغته، فيتعين حمله عليها في كلامه.

يوضح ذلك: ما في سياق الآية من قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهذا هو الحيض، والحمل، عند عامة المفسرين، والمخلوق في الرحم؛ إنما هو الحيض الوجودي، ولهذا قال السلف والخلف: هو الحمل والحيض، وقال بعضهم: الحمل، وبعضهم: الحيض، ولم يقل أحد قط: إنه الطهر؛

---

(١) انظر: بداية المجتهد (٢/ ٧٢).

(٢) ذكر الشيخ ابن القيم هنا ما نصه باختصار: فصل: ومن ذلك اختلافهم في الأقراء: هل هي الحيض أو الأطهار؟ فقال أكابر الصحابة: إنها الحيض.. وقالت طائفة: الأقراء الأطهار... وذكر البحث في عدة صفحات لمن أراده اهـ. (ج).

(٣) ٣٦٥ زاد المعاد جـ٤.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥).

ولهذا لم ينقله من عني بجمع أقوال أهل التفسير، كابن الجوزي وغيره.

وأيضًا: فقد قال سبحانه: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ [الطلاق: ٤] فجعل كل شهر بإزاء حيضة، وعلق الحكم بعدم الحيض، لا بعدم الطهر من الحيض.

وأيضًا: فحديث عائشة، عن النبي ﷺ: «**طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان**»(١) رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي: وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر؛ لا يعرف له في العلم غير هذا الحديث.

وفي لفظ للدارقطني: «طلاق العبد ثنتان»، وروى ابن ماجه: من حديث عطية العوفي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان**».

وأيضًا قال ابن ماجه في سننه: حدثنا علي بن محمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قال: «أمرت بريرة أن تعتد بثلاث حيض»(٢).

وفي المسند: عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ خير بريرة، فاختارت، وأمرها أن تعتد عدة الحرة»(٣) وقد فسر «عدة الحرة» بثلاث حيض في حديث عائشة.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٨٩) والترمذي (رقم ١١٨٢) وابن ماجه (رقم ٢٠٨٠) والحاكم (٢/ ٢٢٣ رقم ٢٨٢٢) والدارقطني (٤/ ٣٩ رقم ١١٣) والحديث ضعفه أبو داود بقوله: وهو حديث مجهول، وضعفهن ابن عبد ا لبر في الإستذكار (٦/ ١٧٧) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٦ رقم ٦٧٤٩) ونقل العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٣٠٥) تضعيف ابن كثير له وأن الدارقطني صححه من قول القاسم بن محمد، وانظر: تلخيص الحبير (٣/ ٢١٣) ونصب الراية (٣/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٠٧٧) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٣٠ رقم ٧٣٧) هذا إسناد صحيح رجاله موثقون. وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٥) وعون المعبود (٦/ ٢٢٥) وقال الصنعاني في سبل السلام (٣/ ١٩٨): رواه ابن ماجه ورواته ثقات لكنه معلول.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٤٢): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٥، ٤٠٨) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٦٦-٢٦٧) وتنوير الحوالك (١/ ٢٤) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٣٤) ونيل الأوطار (٧/ ٩٠).

فإن قيل: فمذهب عائشة: أن الأقراء الأطهار؟

قيل: ليس هذا بأول حديث خالفه راويه، فأخذنا بروايته دون رأيه.

وأيضًا: ففي حديث الربيع بنت معوذ: «أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس بن شماس ـ لما اختلعت من زوجها ـ أن تتربص حيضة واحدة، وتلحق بأهلها»[(١)] رواه النسائي. وفي سنن أبي داود: عن ابن عباس: «أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها؛ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة»[(٢)].

وفي الترمذي: «أن الربيع بنت معوذ اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها رسول الله ـ أو أمرت ـ أن تعتد بحيضة» قال الترمذي: حديث الربيع الصحيح: «أنها أمرت أن تعتد بحيضة»[(٣)].

وأيضًا: فإن الاستبراء هو عدة الأمة، وقد ثبت عن أبي سعيد؛ أن النبي ﷺ، قال في سبايا أوطاس: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة»[(٤)] رواه أحمد وأبو داود.

فإن قيل: لا نسلم أن استبراء الأمة بالحيضة، وإنما هو بالطهر الذي هو قبل الحيضة، كذلك قال ابن عبد البر، وقال: قولهم: «إن استبراء الأمة حيضة بإجماع» ليس كما ظنوا، بل جائز لها عندنا؛ أن تنكح إذا دخلت في الحيضة، واستيقنت أن دمها

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ٣٨٣ رقم ٥٦٩١) وفي الصغرى (رقم ٣٤٩٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٢) ونيل الأوطار (٧/ ٣٤-٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٢٢٩) والدارقطني (٤/ ٤٦ رقم ١٣٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٢) والحاكم (٢/ ٢٢٤ رقم ٢٨٢٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٥٠ رقم ١٥٣٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ١١٨٥) وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٧) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٢٩ رقم ١٠٥٧٢) (٩/ ١٢٤ رقم ١٨٠٧٦) والدارمي (رقم ٢٢٩٥) والحاكم (٢/ ٢١٢ رقم ٢٧٩٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأحمد (٣/ ٦٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٢٤) وعمدة القاري (٣/ ٢٩٢).

دم حيض، كذلك قال إسماعيل بن إسحاق ليحيى بن أكثم حين أدخل عليه في مناظرته إياه[١]؟

قلنا: هذا يرده قوله ﷺ: «**لا تؤطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة**».

وأيضًا: فالمقصود الأصلي من العدة؛ إنما هو استبراء الرحم، وإن كان لها فوائد أخر، ولشرف الحرة المنكوحة وخطرها؛ جعل العلم الدال على براءة رحمها ثلاثة أقراء، فلو كان القرء هو الطهر؛ لم تحصل بالقرء الأول دلالة، فإنه لو جامعها في الطهر، ثم طلقها ثم حاضت؛ كان ذلك قرءًا محسوبًا من الأقراء عند من يقول: الأقراء الأطهار، ومعلوم أن هذا لم يدل على شيء؛ وإنما الذي يدل على البراءة الحيض الحاصل بعد الطلاق، لو طلقها في طهر لم يصبها فيها؛ فإنما يعلم هنا براءة الرحم بالحيض الموجود قبل الطلاق، والعدة لا تكون قبل الطلاق؛ لأنها حكمه. والحكم لا يسبق سببه فإذا كان الطهر الموجود بعد الطلاق لا دلالة له على البراءة أصلًا؛ لم يجز إدخاله في العدة الدالة على براءة الرحم، وكان مثله كمثل شاهد غير مقبول، ولا يجوز تعليق الحكم بشهادة شاهد لا شهادة له...

...[٢]**فإن قيل**: فإذا جعلنا الأقراء الأطهار استقبلت عدتها بعد الطلاق بلا فصل، ومن جعلها الحيض لم تستقبلها على قوله حتى ينقضي الطهر.

قيل: كلام الرب تبارك وتعالى لابد أن يحمل على فائدة مستقلة، وحمل الآية على معنى: فطلقوهن طلاقًا، تكون العدة بعده؛ لا فائدة فيه، وهذا بخلاف ما إذا كان المعنى: فطلقوهن طلاقًا، يستقبلن فيه العدة، لا يستقبلن فيه طهرًا لا تعتد به. فإنها إذا طلقت حائضًا استقبلت طهرًا لا تعتد به، فلم تطلق لاستقبال العدة. ويوضحه قراءة

---

(١) انظر: التمهيد (١٥/ ١٠٠) والمغني (٨/ ٨٢).

(٢) ٣٨٣ زاد المعاد جـ ٤.

من قرأ: [فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ] وقُبُل العدة هو الوقت الذي يكون بين يدي العدة تستقبل به، كقبل الحائض.

يوضحه: أنه لو أريد ما ذكروه لقيل: في أول عدتهن، فالفرق بَيِّنٌ بَيْنَ قُبُلِ الشيء وأوله.

وأما قولكم: لو كانت القروء هي الحيضة؛ لكان قد طلقها قبل العدة.

فنقول: أجل،وهذا هو الواجب عقلًا وشرعًا: فإن العدة لا تفارق الطلاق لا تسبقه.. بل يجب تأخرها عنه.

وقولكم: وكان ذلك تطويلاً عليها كما لو طلقها في الحيض.

قيل: هذا مبني على أن العلة في تحريم طلاق الحائض خشية التطويل عليها، وكثير من الفقهاء لا يرضون هذا التعليل، ويفسدونه بأنها لو رضيت بالطلاق فيه، واختارت التطويل؛ لم تُبَحْ له، ولو كان ذلك لأجل التطويل، لم تبح له برضاها، كما يباح إسقاط الرجعة الذي هو حق المطلق بتراضيهما بإسقاطها بالعوض اتفاقًا، وبدونه في أحد القولين، وهذا مذهب أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد ومالك، ويقولون: إنما حرم طلاقها في الحيض لأنه طلقها في وقت رغبته عنها، ولو سلمنا أن التحريم لأجل التطويل عليها فالتطويل المضر؛ أن يطلقها حائضًا، فتنتظر مضي الحيضة والطهر الذي يليها، ثم تأخذ في العدة، فلا تكون مستقبلة لعدتها بالطلاق. وأما إذا طلقت طاهرًا؛ فإنها تستقبل العدة عقب انقضاء الطهر. فلا يتحقق التطويل.

وقولكم: «إن القرء مشتق من الجمع؛ وإنما يجمع الحيض في زمن ا لطهر» عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن هذا ممنوع، والذي هو مشتق من الجمع؛ إنما هو من باب اليائي من المعتل، من قَرَىٰ يقري كقضىٰ يقضي، والقرء من المهموز من باب الهمز، من قرأ يقرأ كنحر ينحر، وهما أصلان مختلفان، فإنهم يقولون: قريت الماء في الحوض أقريه، أي: جمعته، ومنه سميت القرية، ومنه قرية النمل: للبيت الذي تجتمع فيه؛ لأنه يقريها

أي: يضمها ويجمعها.

وأما المهموز: فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد، ومنه قراءة القرآن، لأن قارئه يظهره ويخرجه مقدرًا محددًا، لا يزيد ولا ينقص.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٧].

ففرق سبحانه بين الجمع والقرآن، ولو كان واحدًا لكان تكريرًا محضًا، ولهذا قال ابن عباس: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة: ١٨] «فإذا بيناه» فجعل قرآنه، نفس إظهاره وبيانه، لا كما زعم أبو عبيدة: أن القرآن مشتق من الجمع.

ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلًى قط، وما قرأت جنينًا، هو من هذا الباب، أي: ما ولدته وأخرجته وأظهرته، ومنه فلان يقرئك ويقرأ عليك السلام، هو من الظهور والبيان، ومنه قولهم: قرأت المرأة حيضة أو حيضتين: أي حاضتهما؛ لأن الحيض ظهور ما كان كامنًا كظهور الجنين.

ومنه قَرْء الثريا وقَرْء الريح وهو الوقت الذي يظهر فيه المطر والريح، فإنهما يظهران في وقت مخصوص.

وقد ذكر هذا الاشتقاق المصنفون في كتب الاشتقاق، وذكره أبو عمرو وغيره ولا ريب أن هذا المعنى في الحيض أظهر منه في الطهر.

وقولكم: إن عائشة قالت: «القروء الأطهار» والنساء أعلم بهذا من الرجال.

فالجواب: أن يقال: جعل النساء أعلم بمراد الله من كتابه وأفهم لمعناه من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأكابر أصحاب النبي ﷺ؟ فنزول ذلك في شأنهن لا يدل على أنهن أعلم به من الرجال؛ وإلا كانت كل آية نزلت في النساء؛ تكون النساء أعلم بها من الرجال، ويجب على الرجال تقليدهن في معناها وحكمها، فيكن أعلم من الرجال بآية الرضاع، وآية الحيض، وتحريم وطء الحائض، وآية عدة المتوفى عنها، وآية الحمل والفصال، ومدتهما، وآية تحريم إبداء الزينة إلا لمن ذكر فيها، وغير ذلك من الآيات التي تتعلق

بهن، وفي شأنهن نزلت. ويجب على الرجال تقليدهن في حكم هذه الآيات ومعناها، وهذا لا سبيل إليه البتة.

وكيف؟ ومدار العلم بالوحي على الفهم والمعرفة ووفور العقل، والرجال أحق بهذا من النساء، وأوفر نصيبًا منهن، بل لا يكاد يختلف الرجال والنساء في مسألة إلا والصواب في جانب الرجال.

وكيف يقال: إذا اختلفت عائشة، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود في مسألة؛ أن الأخذ بقول عائشة أولى؟ وهل الأولى إلا قول فيه خليفتان راشدان، وإن كان الصديق معهما كما حكي عنه؟ فذلك القول مما لا يعدوه الصواب البتة، فإن النقل عن عمر وعلي ثابت، وأما عن الصديق؛ ففيه غرابة، ويكفينا قول جماعة من الصحابة، فيهم مثل عمر وعلي وابن مسعود وأبي الدرداء وأبي موسى، فكيف نقدم قول أم المؤمنين وفهمها على أمثال هؤلاء؟

ثم يقال: فهذه عائشة ترى رضاع الكبير ينشر الحرمة، ويثبت المحرمية[(١)]، ومعها جماعة من الصحابة، وقد خالفها غيرها من الصحابة، وهي روت فيه حديث التحريم به، فهلا قلتم،: النساء أعلم بهذا من الرجال، ورجحتم قولها على قول من خالفها؟ ونقول لأصحاب مالك: وهذه عائشة لا ترى التحريم إلا بخمس رضعات ومعها جماعة من الصحابة، وروت منه حديثين، فهلا قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، وقدمتم قولها على قول من خالفها؟

فإن قلتم: هذا حكم يتعدى إلى الرجال فيستوي النساء معهم فيه؟

قيل: ويتعدى حكم العدة مثله إلى الرجال، فيجب أن يستوي النساء معهم فيه وهذا لا خفاء به، ثم يرجح قول الرجال في هذه المسألة بأن رسول الله ﷺ شهد لواحد من

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٤) وفتح الباري (٩/ ١٤٨-١٤٩) والتمهيد (١/ ١٥٩) (٨/ ٢٦٣) وشرح الزرقاني (٣/ ٣١٦) وبداية المجتهد (٢/ ٢٧-٢٨) وسبل السلام (٣/ ٢١٤-٢١٧) ونيل الأوطار (٧/ ١٢٠-١٢٢).

هذا الحزب بأن الله ضرب الحق على لسانه وقلبه، وقد وافق ربه تبارك وتعالى في عدة مواضع، قال فيها قولًا فنزل القرآن بمثل ما قال: وأعطاه النبي ﷺ فضل إنائه في النوم وأوله بالعلم، وشهد له بأنه مُحَدَّث مُلْهَم فإذا لم يكن بد من التقليد؛ فتقليده أولى، وإن كانت الحجة هي التي تفصل بين المتنازعين فتحكيمها هو الواجب...

***

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾.

[1]ذكر حكمه ﷺ في النفقة على الزوجات وأنه لم يقدرها، ولا ورد عنه ما يدل على تقديرها، وإنما رد الأزواج فيها إلى العرف.

ثبت عنه في صحيح مسلم: أنه قال في خطبة حجة الوداع بمحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يومًا: «**واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[2].

وثبت عنه ﷺ في الصحيحين: أن هندًا امرأة أبي سفيان قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح، ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[3].

---

(١) ٢٨٢ زاد المعاد جـ ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٣) وعون المعبود (٥/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٦٤) ومسلم (رقم ١٧١٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٠٩-٥١٠) وعمدة القاري (١٢/ ١٦-١٧).

وفي سنن أبي داود: من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما تقول في نسائنا؟ قال: «**أطعموهن مما تأكلون، واكسوهنَّ مما تلبسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن**»(١) وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله تعالىٰ، حيث يقول تعالىٰ: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم وسوَّىٰ بينهما في عدم التقدير، وردهما إلىٰ المعروف، فقال: «**للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف**»(٢) فجعل نفقتهما بالمعروف، ولا ريب أن نفقة الخادم، غير مقدرة، ولم يقل أحد بتقديرها.

(٣)وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، قال: «علىٰ ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه، قلت له: أيحبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟ قال: أفيدعه يموت؟»(٤).

قال الحسن: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قال: «علىٰ الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتىٰ يستغني»، وبهذا فسر الآية جمهور السلف، منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم: سفيان الثوري، وعبد الرزاق، وأبو حنيفة، وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد وإسحاق وداود وأصحابهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٤٤) وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٧/ ١٣٠): الحديث أخرجه أيضًا النسائي وابن ماجه والحاكم وابن حبان وصححاه، وعلق البخاري طرفًا منه، وصححه الدارقطني في العلل.
(٢) أخرجه مسلم بدون قوله: «بالمعروف» (رقم ١٦٦٢) وأبو عوانة بلفظه (٤/ ٧٤ رقم ٦٠٧٤) والشافعي في مسنده (ص ٣٠٥) وفي الأم (٥/ ١٠١) ومالك بلاغًا (٢/ ٩٨٠ رقم ١٧٦٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٧٢ رقم ٨٥٦٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٧٤) وعمدة القاري (١٣/ ١٠٨).
(٣) ٣٢١ زاد المعاد جـ٤.
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٨٩) إلىٰ عبد بن حميد.

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يجبر أحد على نفقة أحد من أقاربه، وإنما ذلك بر وصلة، وهذا مذهب يعزى إلى الشعبي.

قال عبد بن حميد الكشي: حدثنا قبيصة، عن سفيان الثوري، عن أشعث، عن الشعبي قال: «ما رأيت أحدًا أجبر أحدًا على أحد، يعني: على نفقته»(١).

وفي إثبات هذا المذهب بهذا الكلام نظر، والشعبي أفقه من هذا، والظاهر أنه أراد: أن الناس كانوا أتقى لله من أن يحتاج الغنى أن يجبره الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج، فكان الناس يكتفون بإيجاب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

المذهب الثاني: أنه يجب عليه النفقة على أبيه الأدنى وأمه التي ولدته خاصة، فهذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا فقيرين، فأما نفقة الأولاد: فإن الرجل يجبر على نفقة ابنه الأدنى، حتى يبلغ فقط، وعلى نفقة بنته الدنيا حتى تزوج، ولا يجبر على نفقة ابن ابنه ولا بنت ابنه وإن سفلا...(٢).

(٣)**فإن قيل**: فما تقولون في وجوب الإنفاق على الأقارب مع اختلاف الدين؟ لقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، واختلاف الدين يمنع الميراث.

قيل: أما الأقارب مطلقًا فلا تجب نفقتهم مع اختلاف الدين.

وأما عمود النسب ففيهم روايتان: إحداهما: لا تجب نفقتهم لذلك.

والثانية: يجب، لتأكد قرابتهم بالعصبة، وحكى بعض الأصحاب في وجوب نفقة الأقارب مطلقًا ـ مع اختلاف الدين ـ أنه إن منع وجوب الإنفاق منع في سائر

---

(١) انظر: المحلى (١٠/ ١٠١).

(٢) يأتي في سورة النساء ـ إن شاء الله ـ بحث مفصل بأدلة واضحة حول هذا الموضوع اهـ. (ج).

(٣) ٤١٧ أحكام جـ٢.

الأقارب، وإن لم يكن مانعًا لم يمنع في حق قرابة الكلالة، كالرق والغنى، فأما أن يكون مانعًا في قرابة دون قرابة فلا وجه له؛ ولا يصح التعليل بتأكد: القرابة، لأن الأخ والأخت أقرب من أولاد البنات، والذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق وإن اختلف الدينان، لقوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة، وهو في غاية الغنى. وقد ذم الله تبارك وتعالىٰ قاطعي الرحم، وعظَّم قطيعتها، وأوجب حقها وإن كانت كافرة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥].

وفي الحديث: **«لا يدخل الجنة قاطع رحم»**[١]، و**«الرحم معلقة بساق العرش تقول: يا رب صل من وصلني، واقطع من قطعني»**[٢]، وليس من صلة الرحم ترك القرابة تهلك جوعًا وعطشًا وعرياً، وقريبه من أعظم الناس مالاً. وصلة الرحم واجبة وإن كان لكافر، فله دينه وللواصل دينه، وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد؛ فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة، فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة، وقد جعل الله للقرابة حقًّا ـ وإن كانت كافرة ـ فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا: قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٨٤) ومسلم (رقم ٢٥٥٦) واللفظ لمسلم وليس عند البخاري كلمة (رحم) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٥) وشرح النووي (١٦/ ١١٣).

(٢) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٥٥٥) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١١٢).

ﵟٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡﵞ [النساء: ٣٦].

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافرًا، فما بال ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه؛ ورأس الإحسان الذي لا يجوز إخراجه من الآية هو الإنفاق عليه عند ضرورته وحاجته، وإلا فكيف يوصي بالإحسان إليه في الحالة التي لا يحتاج إلى الإحسان، ولا يجب له الإحسان أحوج ما كان إليه؟ والله ﷻ حرم قطيعة الرحم وإن كانت كافرة. وتركُ رحمه يموت جوعًا وعطشًا وهو من أغنى الناس وأقدرهم على دفع ضرورته أعظم قطيعة.

...[1]ولو افتداه من الأسر كان له مطالبته بالفداء، وليس ذلك دينًا عليه، والقرآن يدل على هذا القـول، فإن الله تعالى قال: ﵟفَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّﵞ [الطلاق: ٦] فأمر بإيتاء الأجر بمجرد الإرضاع، ولم يشترط عقدًا ولا إذن الأب، وكذلك قوله: ﵟ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِﵞ [البقرة: ٢٣٣]، فأوجب ذلك عليه، ولم يشترط عقدًا ولا إذنًا، ونفقة الحيوان واجبة على مالكه، والمستأجر والمرتهن له فيه حق، فإذا أنفق عليه النفقة الواجبة على ربه كان أحق بالرجوع من الإنفاق على ولده، فإن قال الراهن: أنا لم آذن لك في النفقة، قال: هي واجبة عليك، وأنا أستحق أن أطالبك بها لحفظ المرهون والمستأجر، فإذا رضي المنفق بأن يعتاض بمنفعة الرهن وكان نظير النفقة؛ كان قد أحسن إلى صاحبه، وذلك خير محض، فلو لم يأتِ به النص لكان القياس يقتضيه.

وطرد هذا القياس أن المودع والشريك والوكيل إذا أنفق على الحيوان واعتاض عن النفقة بالركوب والحلب؛ جاز ذلك كالمرتهن.

---

(١) ٢٤ أعلام جـ٢.

[(١)]قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ ﴾ الآية. إلى قوله تعالى: ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فدلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولان، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه وأكد بكاملين؛ لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

وثانيها: أن الأبوين إذا أراد فطامه قبل ذلك، بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل؛ فلهما ذلك.

وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرىٰ غير أمه فله ذلك، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضارًّا بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر، وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلًا في الحر والبرد.

***

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾.

[(٢)]اختلف الناس في القيام والسجود: أيهما أفضل؟ فرجحت طائفة القيام لوجوه:

أحدها: أن ذكره أفضل الأذكار، فكان ركنه أفضل الأركان.

والثاني: قوله تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

الثالث: قوله ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**»[(٣)].

وقالت: طائفة: السجود أفضل.

واحتجت بقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(٤)]. وبحديث

---

(١) ١٣٩ تحفة المودود.

(٢) ١٢٢ زاد المعاد جـ١.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٥٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩) وشرح النووي (٤/ ٢٠٠) (٦/ ٣٥).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠٦) (٦/ ١٠٥).

معدان بن أبي طلحة قال: لقيت ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ، فقلت: حدثني بحديث عسىٰ الله أن ينفعني به، فقال: عليك بالسجود، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفع الله له بـها درجـة، وحط عنه بـها خطيئة»**(١)، قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته؟ فقال لي مثل ذلك. وقال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي ـ وقد سأله مرافقته في الجنة ـ: **«أعني علىٰ نفسك بكثرة السجود»**(٢).

وأول سورة أنـزلت علىٰ رسول الله ﷺ سورة «اقـرأ» علىٰ الأصح، وختمها بقولـه: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]. وبأن السجود لله يقع من المخلوقات كلها، علويها وسفليها.

وبأن الساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له، وذلك أشرف حالات العبد. فلهذا: كان أقرب ما يكون من ربه في هذه الحالة.

وبأن السجود هو سر العبودية، فإن العبودية هي الذل والخضوع، يقال: طريق معبد: أي ذللته الأقدام ووطأته: وأذل ما يكون العبد وأخضع: إذا كان ساجدًا.

وقالت طائفة: طول القيام بالليل أفضل، وكثرة الركوع والسجود بالنهار أفضل.

واحتجت هذه الطائفة بأن صلاة الليل قد خُصت باسم القيام لقوله تعالىٰ: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ [المزمل: ٢] وقوله ﷺ: **«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا»**(٣) ولهذا يقال: قيام الليل، ولا يقال: قيام النهار.

قـالوا: وهـذا كان هدي النبي ﷺ، فـإنه مـا زاد في الليل علىٰ إحـدىٰ عشرة

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٨/ ٣٢١ رقم ٣٨٧) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٢٧ رقم ١٧٣٥) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١٦٣ رقم ٣١٦) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٤٢ رقم ٧٢٥) وابن ماجه (رقم ١٤٢٣، ١٤٢٤) والترمذي (رقم ٣٨٨) وصححه، وكذا صححه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٥٢ رقم ٥٦٢) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٩) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٦) وفيض القدير (٤/ ٣٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٨) ومسلم (رقم ٧٥٩، ٧٦٠).

ركعـة[١]، أو ثلاث عشرة ركعة. وكان يصلي الركعة في بعض الليالي بالبقرة وآل عمران والنساء، وأما بالنهار فلم يحفظ عنه شيء من ذلك، بل كان يخفف السنن.

وقال شيخنا ﷺ: الصواب: أنهما سواء، والقيام أفضل بذكره وهو القراءة، والسجود أفضل بهيأته، فهيئة السجود أفضل من هيئة القيام، وذكر القيام أفضل من ذكر السجود.

وهكذا كان هدي رسول الله ﷺ، فإنه كان إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود، كما فعل في صلاة الكسوف وفي صلاة الليل، وكان إذا خفف القيام خفف الركوع والسجود، وكذلك كان يفعل في الفرض كما قاله البراء بن عازب: «كان قيامه وركوعه وسجوده واعتداله قريبًا من السواء»[٢] والله أعلم.

...[٣]عن أبي هريرة أنه قال: «والله لأنا أقربكم صلاةً برسول الله ﷺ» فكان أبو هريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار[٤]، ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ثم تركه، فأحب أبو هريرة أن يعلمهم أن مثل هذا القنوت سنة، وأن رسول الله ﷺ فعله.

وهذا رد على أهل الكوفة الذين يكرهون القنوت في الفجر مطلقًا، عند النوازل وغيرها، ويقولون: هو منسوخ، وفعله بدعة.

فأهل الحديث؛ متوسطون: بين هؤلاء، وبين من استحبه عند النوازل وغيرها، وهم أسعد بالحديث من الطائفتين، فإنهم يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ، ويتركونه حيث

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٧) ومسلم (رقم ٧٣٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٠١) ومسلم (رقم ٤٧١) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٦) (٢/ ٢٨٨-٢٨٩) وشرح النووي (٤/ ١٨٨).

(٣) ١٤٣ زاد المعاد جـ ١.

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢/ ١٩٨ رقم ٢٩١٠) وفي الصغرى (رقم ٤٥٤) والطبراني في مسند الشاميين مقتصرًا على قول أبي هريرة فقط (١/ ٨٧ رقم ١٢٢) وانظر: عون المعبود (٤/ ٢٢٣).

تركه، فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة وتركه سنة.

ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفًا للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن، وركن الاعتدال محل للدعاء والثناء، وقد جمعهما النبي ﷺ فيه، ودعاء القنوت ثناء ودعاء، فهو أولى بهذا المحل.

وإذا جهر به الإمام أحيانًا ليعلم المأمومين فلا بأس بذلك، فقد جهر عمر بالاستفتاح ليعلم المؤمنين، وجر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلمهم أنها سنة.

ومن هذا أيضًا جهر الإمام بالتأمين، وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه، وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه، وكالخلاف في أنواع التشهدات وأنواع الأذان والإقامة، وأنواع النسك: من الإفراد، والقران، والتمتع، وليس مقصدنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو: فإنه قبلة القصد، وإليه التوجه في هذا الكتاب، وعليه مدار التفتيش والطلب، وهذا شيء والجائز الذي لا ينكر فعله وتركه شيء.

فنحن لم نتعرض في هذا الكتاب لما يجوز ولما لا يجوز، وإنما مقصودنا فيه هدي النبي ﷺ، الذي كان يختاره لنفسه، فإنه أكمل الهدي وأفضله، فإذا قلنا: لم يكن من هديه المداومة على القنوت في الفجر، ولا الجهر بالبسملة، لم يدل ذلك على كراهية غيره، ولا أنه بدعة، ولكن هديه ﷺ أكمل الهدي وأفضله، والله المستعان.

...(١)العزة يراد بها ثلاثة معان: عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر، والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاث.

ويقال من الأول: عَزَّ يَعَزُّ ـ بفتح العين ـ في المستقبل.

ومن الثاني: عَزَّ يَعِزُّ ـ بكسرها.

---

(١) ٢٥٧ مدارج جـ٣.

ومن الثالث: عَزَّ يعُزُّ ـ بضمها ـ أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها.

وهذه «العزة» مستلزمة للوحدانية؛ إذ الشركة تنقص العزة، ومستلزمة لصفات الكمال؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة، ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها.

فالروح تعاين ـ بقوة معرفتها وإيمانها ـ بهاء العزة وجلالها وعظمتها، وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر، المتلقاة من مشكاة الوحي، فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين، وجدل المتكلمين، وخيالات المتصوفين.

***

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾.

(١) من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، منزلة «السكينة»، هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب.

وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ

---

(١) ٥٠٢ مدارج جـ٢.

إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦]. الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة.

وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها ـ من محاربة أرواح شيطانية، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة ـ قال: فلما اشتد عليَّ الأمر، قلت: لأقاربي ومن حولي: اقرءوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال، وجلست وما بي قلبة.

وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه، فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب، كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حُنين، حين ولوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد. وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس.

وحسبك بضعف عمر ﷺ عن حملها ـ وهو عمر ـ حتى ثبته الله بالصديق ﷺ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة[١].

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه، وهو يرتجز بكلمة عبد الله بن رواحة ﷺ:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا[٢]

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «إني باعث نبيًا أميًا، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا متزيِّن بالفحش، ولا قوَّال للخنا، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم. ثم أجعل السكينة لباسه، والبرَّ شِعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه»[٣].

قال صاحب المنازل: «السكينة اسم لثلاثة أشياء، أولها: سكينة بني إسرائيل التي أعطوها في التابوت، قال أهل التفسير: هي ريح هفافة،وذكروا صفتها».

قلت: اختلفوا: هل هي عين قائمة بنفسها، أو معنى؟ على قولين:

أحدهما: أنها عين، ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها: فروي عن علي بن أبي طالب ﷺ: «أنها ريح هفافة، لها رأسان ووجه: كوجه الإنسان»[٤].

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٩/ ١٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٣٧) ومسلم (رقم ١٨٠٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٠١، ٤٦٥) (١٠/ ٥٤١-٥٤٣) وشرح النووي (١٢/ ١٦٦).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٨٠) إلى ابن أبي حاتم وأبي نعيم في الدلائل عن وهب بن منبه ﷺ قال: أوحى الله تعالى إلى شعيب، وذكره مطولًا، وانظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٦) وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٠-٣٠١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٦١١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٨ رقم ٢٤٧٤) والحاكم =

ويروى عن مجاهد: إنها صورة هِرَّة لها جناحان، وعينان لهما شعاع، وجناحان من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء(١).

وعن وهب بن منبه: هي روح من روح الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون(٢).

والثاني: أنها معنى، ويكون معنى قوله: ﴿ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: ومجيئه إليكم: سكينة لكم وطمأنينة.

وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينة في نفس التابوت، ويؤيده عطف قوله: ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ ﴾ قال عطاء بن أبي رباح: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾: هي ما تعرفون من الآيات، فتسكنون إليها، وقال قتادة، والكلبي: هي من السكون، أي طمأنينة من ربكم، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا...(٣).

***

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾.

(٢/ ٤٩٩ رقم ٣٧١٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٨) وعمدة القاري (١٦/ ١٤٦) والتمهيد (١٠/ ٣٣).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٦١٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٩ رقم ٢٤٧٨). وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٨) وعمدة القاري (٢٠/ ٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٩ رقم ٢٤٧٩) والطبراني في تفسيره (٢/ ٦١٢).

(٣) استمر المؤلف في بحث السكينة لمن أراده، وخلاصته أن السكينة الثانية: للمحدثين، والثالثة: التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين.(ج).

[(١)]قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقول هود: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود:٨٨] ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينبغي أن يكون فعلًا للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعًا، به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد.

ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١]، ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾. والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه، إن شاء أعطاهموه، وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

وأيضًا: فإن كون الإنسان منصورًا على غيره: إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضًا فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه.

وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب

الرابع: قوله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي:

---

(١) ٦٣ شفاء.

بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة.

***

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

(١) في صحيح البخاري: عن أبي هريرة؛ أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة، وكان قد جعله النبي ﷺ عليها ليلة بعد ليلة، فلما كان في الليلة الثالثة قال: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ـ وكانوا أحرص شيء على الخير ـ فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ... ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختمها؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: **«صدقك وهو كذوب»**(٢).

وقد روى الإمام أحمد نحو هذه القصة في «مسنده»؛ أنها جرت لأبي الدرداء، ورواها الطبراني في معجمه أنها جرت لأبي بن كعب.

---

(١) ٢٠٦ الوابل الصيب.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣١١) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٨٩) (٩/ ٥٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٠٧).

[1]لما بعث الله رسول الله ﷺ؛ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعًا واختياراً، ولم يكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه؛ فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه؛ امتثالاً لأمر ربه سبحانه، حيث يقول: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين.

نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة؛ كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك؛ حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح: أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين؛ بل: إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية، كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ؛ تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه؛ فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال؛ قاتلهم: فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين؛ لم يبدأهم بقتال؛ حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه؛ لم يقاتلوهم.

---

(١) ١١ هداية.

والمقصود: أنه ﷺ لم يكره أحدًا على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعًا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته؛ لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقًا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله...**»[1]. وذكر الحديث، ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله بن سلام مذكورون في كتب السير والمغازي.

...[2]إن النور صفة كمال، وضده صفة نقص؛ ولهذا: سمى الله نفسه نورًا، وسمى كتابه نورًا، وجعل لأوليائه النور ولأعدائه الظلمة؛ فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويجيء الأنبياء يوم القيامة وأممهم؛ لكل نبي نوران، ولكل واحد من أتباعهم نور، وتجيء هذه الأمة؛ لكل منهم نوران، ولنبيهم ﷺ في كل شعرة نور.

ولما كانت مادة الملائكة التي خلقوا منها نورًا؛ كانوا بالمحل الذي أحلهم الله به، وكانوا خيرًا محضًا.

والنور ظاهر وباطن فمتى حل ظاهره بجسم كساه؛ من: الجمال والجلال، والمهابة والضياء، والحسن والبهجة والسناء، بحسب ما كُسِيَ من النور، وزالت عنه الوحشة والثقل وكان: مفرحًا لرائيه، سارًّا لناظريه، وإذا حل باطنه بالباطن؛ اكتسى من الخير والعلم، والرحمة والهداية، والعفو والجود، والصبر والحلم، والتواضع والنصيحة؛ بحسب ذلك النور، فالنور في الحقيقة هو كمال العبد في الظاهر والباطن.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٥٨) ومسلم (رقم ١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٣) وعمدة القاري (٩/ ٩٣).
(٢) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢.

ولما كان ليوسف الصديق من هذا النور النصيب الوافر؛ ظهر في جماله الظاهر والباطن؛ فكان على الصفة التي ذكرها الله في كتابه.

وكذلك رسول الله ﷺ لما كان نصيبه؛ من هذا النور أكمل نصيب؛ كان أجمل الخلق ظاهرًا وباطنًا؛ فكان وجهه يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر، وكان كلامه كله نورًا، وعمله نورًا، ومدخله ومخرجه نورًا؛ فإذا تكلَّم رؤي النور يخرج من بين ثناياه، فكان أكمل الخلق في نور الظاهر والباطن، وكان نوره من أكبر آيات نبوته.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه؛ فجئت حتى رأيته، فلما وقع بصري عليه؛ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[(١)]، فاستدل على نبوته: بنور وجهه، ونور كلامه؛ بنوره المرئي، ونوره المسموع، كما قال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكانت بداهته تأتيك بالخبر[(٢)]

أي: ما يبدهك من وجهه ومنظره ونوره وبهائه، وأخذه الصرصري فقال:

لو لم يقل إني رسول أما شاهده في وجهه ينطق[(٣)]

فإذا كان هذا نور عبده، فكيف بنوره سبحانه؟!

...[(٤)]وقد سمى الله ﷻ «العلم» الذي بعث به رسوله: نورًا، وهدى، وحياة،

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ١٧٦ رقم ٧٢٧٧) وابن ماجه (رقم ٣٢٥١) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٥٠٢ رقم ٤٤٢٢) والدارمي (رقم ١٤٦٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٧ رقم ٢٥٣٨٩) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤١٨ رقم ٧١٩) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٢٣٩ رقم ٩٠٧): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١١) وفيه: «بديهته» بدل «بداهته».

(٣) ذكر هذا البيت اليونيني: موسى بن محمد بن أبي الحسين أحمد اليونيني قطب الدين أبو الفتح في ذيل مرآة الزمان (١/ ٥٦٧).

(٤) ١٦٢ مدارج جـ٣.

وسمى ضده: ظلمة، وموتًا، وضلالاً، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

فجعله «روحًا» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، و«نورًا» لما يحصل به من الهدى والرشاد. ومثل هذا النور في قلب المؤمن: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥]. ومثل حال من فقد هذا النور؛ بمن هو في ظلمات ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

[(1)]لما أجاب إبراهيم ﷺ المحاج له في الله: بأن الذي يحيي ويميت هو الله؛ أخذ عدو الله في المغالطة والمعارضة؛ بأنه يحيي ويميت: بأنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس، من غير الجهة التي يأتي الله بها منها بزعمه، فإنه ادعى أنه يساوي الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقًا؛ فليتصرف في الشمس تصرفًا تصح به دعواه، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي في طرد حجته إن كانت صحيحة.

...[(2)]طلب إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ذلك من ربه، إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فطلب إبراهيم: أن يكون اليقين عيانًا، والمعلوم مشاهدًا، وهذا المعنى الذي عبَّر عنه

(١) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ٤٧١ مدارج جـ١.

النبي ﷺ بالشك في قـولـه: «نحن أحـق بالشك من إبراهيم»[١]، حيث قـال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي أي: لم يشك إبراهيم؛ حيث قال ما قال لم نشك نحن، وهذا القول صحيح أيضًا، أي: لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه، لكن لم يطلب ما طلب شكًا، وإنما طلب ما طلبه طمأنينة...

...[٢]إبراهيم ﷺ طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى؛ إلى رؤية تحقيقه عيانًا، فطلب ـ بعد حصول العلم الذهني ـ تحقيق الوجود الخارجي، فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب.

ولما كان بين «العلم» و«العيان» منزلة أخرى؛ قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وإبراهيم لم يشك ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يشك؛ ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني ـ قبل مشاهدة معلومه ـ ظنًا، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذا الظن علم جازم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] لكنْ بين الخبر والعيان فرق.

وفي المسند مرفوعًا: «ليس الخبر كالعيان»[٣] ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧٢) ومسلم (رقم ١٥١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١١-٤١٢) وشرح النووي (٢/ ١٨٣).

(٢) ٣٨٨ مدارج جـ٣.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٠٢ رقم ١٨٢٨) والحاكم (٢/ ٣٥١ رقم ٣٢٥٠) وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩٦ رقم ٦٢١٣) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٠٨٧) والطبراني في الأوسط (١/ ١٢ رقم =

فتن قومه، وأن السامري أضلهم؛ لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح، ما حصل له عند مشاهدة ذلك...

...[(١)]فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟...

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب: أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه: أن يريه إحياء الموتى عيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك: ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبًا شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**».

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم: عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيرًا من أوقاته أو أكثرها؛ لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك: تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لا يمسك الإيمان في القلب؛ إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا. وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب؛ يرجع إلى ضعف: البصيرة، والصبر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

=

٢٥) (٧/ ٩٠ رقم ٦٩٤٣) وأحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٠١ رقم ١١٨٢) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٣): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حبان.

(١) ٤٥ الجواب.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ
سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ
رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ
فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ
بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ
نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

(١)شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله؛ سواء كان المراد به: الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن بذر بذرًا فأنبتت كل حبةٍ منه سبع سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك؛ بحسب حال المنفق، وإيمانه، وإخلاصه، وإحسانه، ونفع نفقته، وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من: الإيمان، والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلبٍ ثابت قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غيرُ جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه، وبحسب

(١) ١٨٣ أعلام جـ١.

طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه؛ أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذرٌ ماله في أرضٍ زكية، فمغله بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدَّغَل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بربوةٍ، وهي المكان المرتفع، الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح، فتتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطرٌ عظيم القطر متتابع؛ فرواها ونماها؛ فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطلٌّ: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل وينمى عليه.

مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل؛ إشارة إلى نوعي الإنفاق: الكثير، والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً، ومنهم من يكون إنفاقه طَلًّا، والله لا يضيع مثقال ذرة.

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله ويبطل حسناته؛ كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار؛ فاحترقت.

فإذا كان استيفاء الأعمال وإحراز الأجور؛ وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبرُ والضعف؛ فهو أحوج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله فحاجته إلى نعمته حينئذٍ أشدّ ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجل الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يومًا

وقد وجده محترقًا كله كالصريم؟ فأي حسرةٍ أعظم من حسرته؟

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره[١].

قال مجاهد: هذا مثل المفرط في طاعة الله، حتىٰ يموت[٢].

وقال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها، أحوج ما يكون إليه.

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يومًا عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل، قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتىٰ أغرق أعماله كلها[٣].

قال الحسن: هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه؛ أفقر ما كان إلىٰ جنته، وإن أحدكم ـ والله ـ أفقر ما يكون إلىٰ عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

فإن عرض لهذه الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن والأذىٰ والرياء؛ فالرياء يمنع انعقادها سببًا للثواب، والمن والأذىٰ يبطل الثواب الذي كان سببًا له، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفون ـ وهو الحجر الأملس ـ عليه تراب فأصابه وابلٌ ـ وهو المطر الشديد ـ فتركه صلدًا لا شيء عليه.

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ، وانطباقًا علىٰ أجزاء الممثل به؛ تعرف عظمة القرآن وجلالته، فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمانِّ والمؤذي، فقلبه في قسوته عن

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٧٦) وتفسير السيوطي (٢/ ٤٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٦٧) وانظر: تفسير الطبري (٣/ ٧٥) وتفسير السيوطي (٢/ ٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٨) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٢٩).

الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر؛ فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل؛ فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر، فإذا نزل عليه وابلُ الوحي؛ انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه؛ فبرز ما تحته حجرًا صلدًا لا نبات فيه، وهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه؛ أحوج ما كان إليه، وبالله التوفيق.

...[1]قوله تعالى ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنِّ والأذى المبطل للصدقات: ﴿ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب ﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ أملس لا شيء عليه، وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه، فـ «الصفوان» وهو الحجر؛ كقلب المرائي والمان والمؤذي، و«التراب» الذي لصق به؛ ما تعلق به من أثر عمله وصدقته، و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض، فإذا صادفها لينة قابلة، نبت فيها الكلأ، وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئًا، فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقًا، فأزاله؛ فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر في العقول؛ فلذلك نبهها على شبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فإن كانت هذه الجنة، التي بموضع عال؛ حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد؛ فأخرجت ثمرتها

(١) ٢٤٠ مدارج جـ١.

ضعفي ما يخرج غيرها؛ إن كانت مستحسنة في العقل والحس، فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثباتٍ من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يرجف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين؛ كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل، ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف، فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته، وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه، أفلا تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة، التي تحبط ثواب الحسنات، وشبهها بحال شيخ كبير، له ذرية ضعفاء، بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته، فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات فأرجى وأفقر ما هو له وأسر ما كان به؛ إذ أصابه نار شديد فأحرقته.

فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال، وبهذا فسرها عمر وابن عباس ﷺ، لرجل غني عمل بطاعة الله زمانًا، فبعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله، ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبحها هذا المثل.

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

المقصود في الزكاة أمور عديدة:[1]

منها: سد خلة الفقير. ومنها: إقامة عبودية الله بفعل نفس ما أمر به. ومنها: شكر نعمته عليه من المال. ومنها: إحراز المال وحفظه بإخراج هذا المقدار منه. ومنها: المواساة بهذا المقدار؛ لما علم الله فيه من مصلحة رب المال ومصلحة الآخذ. ومنها: التعبد: بالوقوف عند حدود الله، وأن لا ينقص منها ولا يغير.

وهذه المقاصد إن لم تكن أعظم من مقصود إراقة الدم في الأضحية؛ فليست بدونه، فكيف يجوز إلغاؤها واعتبار مجرد إراقة الدم؟

ثم إن هذا الفرق ينعكس عليكم من وجه آخر، وهو أن مقصود الشارع من إراقة دم الهدي والأضحية؛ التقرب إلى الله سبحانه بأجل ما يقدر عليه من ذلك النوع، وأعلاه، وأغلاه ثمنًا، وأنفسه عند أهله، فإنه لن يناله سبحانه لحومها ولا دماؤها، وإنما يناله تقوى العبد منه، ومحبته له، وإيثاره بالتقرب إليه: بأحب شيء إلى العبد، وآثره عنده، وأنفسه لديه، كما يتقرب المحب إلى محبوبه: بأنفس ما يقدر عليه، وأفضله عنده.

ولهذا فطر الله العباد على أن من تقرب إلى محبوبه بأفضل هدية يقدر عليها وأجلها وأعلاها، كان أحظى لديه، وأحب إليه ممن تقرب إليه بألف واحدٍ رديء من ذلك النوع.

وقد نبه سبحانه على هذا بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]،

(١) ٣٠٠ أعلام جـ١.

وسئل النبي ﷺ عن أفضل الرقاب فقال: «**أغلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها**»[(١)].

ونذر عمر أن ينحر نجيبة فأعطى با نجيبتين، فسأل النبي ﷺ أن يأخذهما بها وينحرهما، فقال: «**لا، بل انحرها إياها**»[(٢)] فاعتبر في الأضحية عينَ المنذور دون ما يقوم مقامه، وإلا كان أكثر منه، فلأن يعتبر في الزكاة نفس الواجب، دون ما يقوم مقامه، ولو كان أكثر منه؛ أولى وأحرى...

[(٣)]وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمدًا؛ بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم.

ومن المتعين على من لم يباشر قلبه؛ حلاوة هذا الخطاب، وجلالته، ولطف موقعه، وجذبه للقلوب والأرواح، ومخالطته لها؛ أن يعالج قلبه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرض إلى الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة واللجأ إلى الله أن: يحيي قلبه، ويزكيه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة.

فالقلب الميت لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النعم؛ فليسم سرح الذكر في رياض القرآن. وليتأمل: ما عدد الله فيه من نعمه، وتعرف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره؛ حين خلق أهل النار وابتلاهم: بإبليس وحزبه،وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥١٨) ومسلم (رقم ٨٤) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٧٩-٨٠).

(٢) انظر: عون المعبود (٥/ ١٢٢).

(٣) ١٣٥ طريق الهجرتين.

والإرادات والهوىٰ؛ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته.

فلله علىٰ أوليائه وعباده؛ أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من: محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه، وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدره.

وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوىٰ العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة، و من استقرأ الأسماء الحسنىٰ؛ وجدها مدائح وثناء؛ تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء: لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكر.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي**»(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «**فيفتح عليَّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن**»(٢).

وكان يقول في سجوده: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»(٣) فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه البتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٠) وعمدة القاري (١٤/ ٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩) والتمهيد (٢٣/ ٣٤٨-٣٥٠).

مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر.

...[١]والفرق بين الخيل والإبل؛ أن الخيل تراد لغير ما تراد له الإبل...

وللشارع قصد أكيد في: اقتنائها، وحفظها، والقيام عليها، وترغيب النفوس في ذلك بكل طرق، ولذلك عفا عن أخذ الصدقة منها؛ ليكون ذلك أرغب للنفوس فيما يحبه الله ورسوله من اقتنائها، ورباطها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فرباط الخيل من جنس آلات السلاح والحرب، فلو كان عند الرجل منها ما عساه أن يكون ولم يكن للتجارة؛ لم يكن عليه فيه زكاة، بخلاف ما أعد للنفقة؛ فإن الرجل إذا ملك منه نصابًا ففيه الزكاة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بعينه في قوله: «**قد عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق، فهاتوا صدقة الرقة**»[٢]، أفلا تراه كيف فرق بين: ما أعد للإنفاق، وبين ما أعد: لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وجهاد أعدائه؟ فهو من جنس السيوف والرماح والسهام، وإسقاط الزكاة في هذا الجنس من محاسن الشريعة وكمالها.

وأما قوله: «أوجب في الذهب والفضة والتجارة ربع العشر، وفي الزروع والثمار نصف العشر أو العشر، وفي المعدن الخمس» فهذا أيضًا من كمال الشريعة ومراعاتها للمصالح؛ فإن الشارع أوجب الزكاة: مواساة للفقراء، وطهرةً للمال، وعبودية للرب، وتقربًا إليه؛ بإخراج محبوب العبد له، وإيثار مرضاته.

ثم فرضها على أكمل الوجوه، وأنفعها للمساكين، وأرفقها بأرباب الأموال، ولم يفرضها في كل مال، بل فرضها في الأموال التي تحتمل المواساة، ويكثر فيها الربح والدر والنسل، ولم يفرضها فيما يحتاج العبد إليه من ماله، ولا غِنى له عنه: كعبيده،

---

(١) ٨٩ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٦٢٠) والدارمي (رقم ١٦٢٩) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٩٤٣ رقم ١٣٣٢-١٣٣٥) وأبو يعلى (١/ ٤٢٣ رقم ٥٦١) وأحمد (١/ ١٢١) ونقل الترمذي تصحيح البخاري. ونقل العيني في عمدة القاري تصحيح ابن حزم (٨/ ٢٦٠).

وإمائه، ومركوبه، وداره، وثيابه، وسلاحه، بل فرضها في أربعة أجناس من المال: المواشي، والزروع والثمار، والذهب والفضة، وعروض التجارة؛ فإن هذه أكثر أموال الناس الدائرة بينهم، وعامة تصرفهم فيها، وهي التي تحتمل المواساة، دون ما أسقط الزكاة فيه، ثم قسم كل جنس من هذه الأجناس؛ بحسب حاله وإعداده للنماء: إلىٰ ما فيه الزكاة، وإلىٰ ما لا زكاة فيه.

فقسَّم المواشي إلىٰ قسمين:

سائمة ترعي بغير كلفة ولا مشقة ولا خسارة؛ فالنعمة فيها كاملة والمنة بها وافرة، والكلفة فيها يسيرة، والنماء فيها كثير؛ فخصَّ هذا النوع بالزكاة.

وإلىٰ معلوفة بالثمن أو عاملة في مصالح أربابها في دواليبهم وحروثهم وحمل أمتعتهم؛ فلم يجعل في ذلك زكاة؛ لكلفة المعلوفة وحاجة المالكين إلىٰ العوامل؛ فهي: كثيابهم، وعبيدهم، وإمائهم، وأمتعتهم.

ثم قسَّم الزروع والثمار إلىٰ قسمين:

قسمٌ يجري مجرىٰ السائمة من بهيمة الأنعام، في سقيه من ماء السماء، بغير كلفة، ولا مشقة؛ فأوجب فيه العشر.

وقسمٌ يُسْقَىٰ بكلفة ومشقة؛ ولكن كلفته دون كلفة المعلوفة بكثير؛ إذ تلك تحتاج إلىٰ العلف كل يوم؛ فكان مرتبة بين السائمة والمعلوفة، فلم يوجب فيه زكاة ما شرب بنفسه، ولم يسقط زكاته جملة واحدة، فأوجب فيه نصف العشر.

ثم قسَّم الذهب والفضة إلىٰ قسمين:

أحدهما: ما هو معد للثمنية والتجارة به، والتكسب؛ ففيه الزكاة كالنقدين والسبائك ونحوها.

وإلىٰ ما هو معد لانتفاع دون الربح والتجارة: كحلية المرأة، وآلات السلاح التي يجوز استعمال مثلها فلا زكاة فيه.

ثم قسَّم العروض إلى قسمين:

قسمٌ أعد للتجارة؛ ففيه الزكاة.

وقسمٌ أعد للقنية والاستعمال، فهو مصروف عن جهة النماء؛ فلا زكاة فيه.

ثم لما كان حصول النماء والربح بالتجارة؛ من أشق الأشياء وأكثرها معاناة وعملاً؛ خففها بأن جعل فيها ربع العشر، ولما كان الربح والنماء بالزروع والثمار التي تسقى بالكلفة؛ أقل كلفة والعمل أيسر ولا يكون في كل السنة؛ جعله ضعفه، وهو نصف العشر، ولما كان التعب والعمل فيما يشرب بنفسه؛ أقل والمؤنة أيسر؛ جعله ضعف ذلك وهو العشر، واكتفى فيه بزكاة عامة خاصة؛ فلو أقام عنده بعد ذلك عدة أحوال لغير التجارة؛ لم يكن فيه زكاة؛ لأنه قد انقطع نماؤه وزيادته، بخلاف الماشية، وبخلاف ما لو أعد للتجارة؛ فإنه عرضة للنماء.

ثم لما كان الركاز: مالاً مجموعًا محصلاً، وكلفة تحصيله أقل من غيره، ولم يحتج إلى أكثر من استخراجه؛ كان الواجب فيه ضعف ذلك وهو الخمس.

فانظر إلى تناسب هذه الشريعة الكاملة، التي بهر العقولَ حسنها وكمالها، وشهدت الفطر بحكمتها، وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل منها، ولو اجتمعت عقول العقلاء وفطر الألباء واقترحت شيئًا يكون أحسن مقترح؛ لم يصل اقتراحها إلى ما جاءت به.

ولما لم يكن كل مالٍ يحتمل المواساة قدَّر الشارع لما يحتمل المواساة نُصُبًا مقدرة، لا تجب الزكاة في أقل منها.

ثم لما كانت تلك النصب تنقسم: إلى ما لا يجحف المواساة ببعضه؛ أوجب الزكاة منها، وإلى ما يجحف المواساة ببعضه؛ فجعل الواجب من غيره، كما دون الخمس والعشرين من الإبل.

ثم لما كانت المواساة لا تحتمل كل يوم ولا كل شهر؛ إذ فيه إجحاف بأرباب الأموال؛ جعلها كل عام مرة، كما جعل الصيام كذلك.

ولما كانت الصلاة لا يشق فعلها كل يوم، وظَّفها كل يوم وليلة.

ولما كان الحج يشق تكرر وجوبه كل عام؛ جعله وظيفة العمر.

وإذا تأمل العاقل مقدار ما أوجبه الشارع في الزكاة؛ وجده: مما لا يضر المخرج فقده، وينفع الفقير أخذه، ورآه قد راعىٰ فيه حال صاحب المال وجانبه حق الرعاية، ونفع الآخذ به، وقصد إلىٰ كل جنس من أجناس الأموال؛ فأوجب الزكاة في أعلاه وأشرفه.

فأوجب زكاة العين في الذهب والورق؛ دون الحديد والرصاص والنحاس ونحوها. وأوجب زكاة السائمة في الإبل والبقر والغنم؛ دون الخيل والبغال والحمير، ودون ما يقل اقتناؤه، كالصيود علىٰ اختلاف أنواعها، ودون الطير كله. وأوجب زكاة الخارج من الأرض في أشرفه، وهو الحبوب والثمار؛ دون البقول والفواكه والمقائي والمباطخ والأنوار. وغير خافٍ تميز ما أوجب فيه الزكاة، عما لم يوجبها في: جنسه، ووصفه، ونفعه، وشدة الحاجة إليه، وكثرة وجوده، وأنه جارٍ مجرىٰ الأموال لما عداه من أجناس الأموال؛ بحيث لو فقد لأضرَّ فقده بالناس، وتعطل عليهم كثير من مصالحهم، بخلاف ما لم يوجب فيه الزكاة؛ فإنه جارٍ مجرىٰ الفضلات والتتمات التي لو فقدت لم يعظم الضرر بفقدها.

وكذلك راعىٰ في المستحقين لها أمرين مهمين: أحدهما: حاجة الآخذ.

والثاني: نفعه؛ فجعل المستحقين لها نوعين: نوعًا يأخذ لحاجته، ونوعًا يأخذ لنفعه، وحرمها علىٰ من عداهما.

***

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾﴾.

(١) قيل: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ يخوفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة، ويذكر عن مقاتل والكلبي:

(١) ١٠٧ إغاثة جـ ٢.

«كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع، فإنها البخل».

والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم: أي بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره: يأمرهم بالشر، ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان؛ فإنه إذا خوفه من فعل الخير؛ تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له؛ ارتكبها.

وسمى سبحانه تخويفه وعد الانتظار الذي خوفه إياه، كما ينتظر الموعود ما وعد به. ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة؛ وقاية الشر، والفضل؛ إعطاء الخير.

وفي الحديث المشهور: «**إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد**»، ثم قرأ: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ... ﴾ الآية[1].

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان.

***

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ ﴾.

[2]قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ

---

(١) أخرجه البزار (٥/ ٣٩٤ رقم (٢٠٢٧) وأحمد في الزهد (ص ١٥٧) والطبراني في الكبير (٩/ ١٠١ رقم ٨٥٣٢) والطبري في تفسيره (٣/ ٨٩) كلهم موقوفًا على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بألفاظ متقاربة.

(٢) ٤٨٧ مدارج جـ٢.

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[آل عمران: ٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله»[١].

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه.

وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه، وفي رواية أخرىٰ عنه: هي الإصابة في القول والفعل، وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله، كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة، كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وقيل: هي القضاء بالوحي، وتفسيرها بالسنة؛ أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا: بفهم القرآن، والفقه: في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية.

فالعلمية: الاطلاع علىٰ بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها: خلقًا، وأمرًا، قدرًا، وشرعًا.

والعملية: كما قال صاحب المنازل: «وهي وضع الشيء في موضعه»...

...[٢]والله تعالىٰ أورث الحكمة آدم وبنيه، فالرجل الكامل؛ من له إرث كامل من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٨٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٣١ رقم ٢٨٢٢) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٣).

(٢) ٤٧٩ مدارج جـ٢.

أبيه، ونصف الرجل ـ كالمرأة ـ له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى، وأكمل الخلق في هذا؛ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم؛ أولو العزم، وأكملهم؛ محمد ﷺ؛ ولهذا امتن الله ﷻ عليه، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة. كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فكل نظام الوجود؛ مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود، وفي العبد؛ فسببه؛ الإخلال بها، فأكمل الناس؛ أوفرهم منه نصيبًا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال؛ أقلهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم.

...[1]إنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيرًا كثيرًا، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة: إصابة الحق والعمل به، وهي: العلم النافع، والعمل الصالح.

إنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله، وجعل من أجلها: أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

إنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة، وأمرهم: بشكرها، وأن يذكروه على إسدائها إليهم، فقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا

(١) ٥١ مفتاح جـ١.

وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

***

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

...[(1)] أي: الصدقات لهؤلاء، كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة، هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله.

وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى؛ أحصروا عن الضرب في الأرض؛ لطلب المعاش؛ فلا يستطيعون ضربًا في الأرض.

والصحيح: أنهم ـ لفقرهم وعجزهم وضعفهم ـ لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم؛ يحسبهم من لم يعرف حالهم؛ أغنياء.

والموضع الثاني: قوله تعالى: الآية ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ...﴾ [التوبة: ٦٠].

والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

فالصنف الأول: خواص الفقراء.

والثاني: فقراء المسلمين: خاصهم، وعامهم.

والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

---

(١) ٤٣٨ مدارج جـ٢.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى؛ يقابلهم: أصحاب الجدة، ومن ليس محصرًا في سبيل الله، ومن لا يكتم فقره تعففًا، فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني، يقابلهم: الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث؛ لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه.

...[1]قال: الشرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح، وذلك لأن المسألة فيها ضرب من: الخصومة، والمنازعة والمحاربة، والرجوع عن مالك الضر والنفع؛ إلى من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا بربه، وفيها الغيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه، وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافًا، فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله، ولكن لا يلحفون، فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف، لا مطلق السؤال.

قال ابن عباس: إذا كان عنده غداء؛ لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء؛ لم يسأل غداء.

وقالت طائفة ـ منهم: الزجاج، والفراء وغيرهما ـ: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقًا؛ لأنهم وصفوا بالتعفف، والمعرفة بسيماهم، دون الإفصاح بالمسألة؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال؛ لم يحسبهم الجاهل أغنياء.

ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال؛ فيقع إلحاف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] أي: لا تكون شفاعة فتنفع، وكما في قوله

---

(١) ٢٣١ مدارج جـ٢.

تعالىٰ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي: لا يكون عدل فيقبل، ونظائره.

قال امرؤ القيس: علىٰ لاحبٍ لا يُهْتَدىٰ لمناره[(١)]

أي: ليس له منار يهتدىٰ به.

قال ابن الأنباري: وتأويل الآية: لا يسألون البتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلىٰ الإلحاف؛ فيجري هنا مجرىٰ قولك: فلان لا يرجىٰ خيره، أي: ليس له خير فيرجىٰ. وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم، لأن المعنىٰ: ليس منهم مسألة؛ فيكون منهم إلحاف، قال: ومثل ذلك قول الشاعر:

لا يُفزع الأرنب أهوالها ... ولا ترىٰ الضبَّ بها ينجحر[(٢)]

أي: ليس بها أرنب؛ فيفزغ لهولها، ولا ضب فينجحر.

وقال الفراء: نفي الإلحاف عنهم، وهو يريد نفي جميع السؤال.

...[(٣)]فإن قيل: فما قولكم في نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]؟

قلنا: هي متعلقة بمعنىٰ الإنقاذ والإخراج من الذنوب، فدخلت (من) لتؤذن بهذا

---

(١) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ امرئ القيس الكندي أشهر شعراء العرب علىٰ الإطلاق قال الشعر وهو غلام وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب. فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته فأبعده إلىٰ حضرموت موطن أبيه وعشيرته، فلما قُتِلَ أبوه قال وهو يشرب الخمر:

لا صحو اليوم ولا سكر غدًا ... اليوم خمر غدًا أمر

ونهض من غده فلم يزل حتىٰ ثأر لأبيه من قاتليه بني أسد. مات سنة ٨٠ قبل الهجرة. وعجز البيت: * إذا سافه العود النباطي جرجرا * ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ٤٨١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٧/ ٢٢٨) وابن منظور في لسان العرب (٩/ ١٦٥).

(٢) هذا البيت من بحر السريع، وينسب إلىٰ عمرو بن أحمد الباهلي شاعر جاهلي مخضرم، أسلم وشارك في الفتوحات، مدح الخلفاء الراشدين وبعض الخلفاء الأمويين وكان من المطالبين بدم عثمان، وقد هجا في شعره يزيد بن معاوية وظل متخفيًا عنه حتىٰ وفاته، ثم عاد وأصلح ما فسد بينه وبين بني أمية فمدح عبد الملك بن مروان، توفي سنة ٧٥هـ. وذكر البيت ابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة.

(٣) ٥٨ بدائع جـ٢.

المعنى، ولكن لا يكون ذلك في القرآن؛ إلا حيث يذكر الفاعل والمفعول، الذي هو الذنب نحو قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لأنه المنقذ المخرج من الذنوب بالإيمان، ولو قلت: يغفر من ذنوبكم، دون أن يذكر الاسم المجرور؛ لم يحسن إلا على معنى التبعيض؛ لأن الفعل الذي كان في ضمن الكلام وهو الإنقاذ؛ قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه.

فإن قلت: فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]. وفي سورة الصف: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] فما الحكمة في سقوطها هنا؟ وما الفرق؟

قلت: هذا إخبار عن المؤمنين، الذين قد سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر؛ بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محبطة كإحباط الكفر المهلك للكافر؛ فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ؛ إذ ليس ثم إحاطة من الذنب بالمذنب، وإنما يتضمن معنى: الإذهاب، والإبطال، للذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات بخلاف الآيتين المتقدمتين؛ فإنهما: خطاب للمشركين، وأمر لهم بما ينقذهم ويخلصهم، مما أحاط بهم من الذنوب، وهو الكفر، ففي ضمن ذلك الإعلام والإشارة: بأنهم واقعون في مهلكة قد أحاطت بهم، وأن لا ينقذهم منها إلا المغفرة المتضمنة للإنقاذ، الذي هو أخص من الإبطال والإذهاب، وأما المؤمنون؛ فقد أنقذوا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] فهي في موضع من التي لتبعيض؛ لأن الآية في سياق ثواب الصدقة فإنه قال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ والصدقة لا تذهب جميع الذنوب.

ومن هذا النحو قوله ﷺ: «فليكفر عن يمينه، وليأت الذي هو خير»[1] فأدخل

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٥١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٦١، ٦١٧) وشرح النووي (١١/ ١٠٨).

(عن) في الكلام، إيذانًا بمعنى الخروج عن اليمين.

لما ذكر الفاعل، وهو الخارج؛ فكأنه قال: فليخرج بالكفارة عن يمينه.

ولما لم يذكر الفاعل المكفر في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩] لم يذكر (من)، وأضاف الكفارة إلى الأيمان.

وذلك من إضافة المصدر إلى المفعول؛ وإن كانت الأيمان لا تكفر؛ وإنما يكفر الحنث والإثم، ولكن الكفارة حل لعقد اليمين، فمن هنالك؛ أضيفت إلى اليمين، كما يضاف الحل إلى العقد؛ إذ اليمين عقد، والكفارة حل له، والله أعلم.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾.

...[1]إن الله سبحانه قسم خلقه إلى غني وفقير، ولا تتم مصالحهم إلا بسد خلَّة الفقير، فأوجب سبحانه في فضول أموال الأغنياء ما يسد به خلة الفقراء، وحرم الربا الذي يضر بالمحتاج، فكان أمره بالصدقة ونهيه عن الربا أخوين شقيقين؛ ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

وذكر الله سبحانه أحكام الناس في الأموال في آخر سورة البقرة، وهي ثلاثة: عدل، وظلم، وفضل؛ فالعدل البيع، والظلم الربا، والفضل الصدقة؛ فمدح المتصدقين

(١) ١٨ أعلام جـ٢.

وذكر ثوابهم، وذم المرابين وذكر عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

(١)وأما الفرق الإسلامي: فهو الفرق بين: ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه، وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله، وهذا الفرق من لم يكن من أهله؛ لم يشم رائحة الإسلام البتة.

وقد حكى الله سبحانه عن أهل الفرق الطبيعي: أنهم أنكروا هذا الفرق، فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. لا فرق بينهما، وقالوا: الميتة مثل المذكاة، لا فرق بينهما، وقالوا: الحلال والحرام شيء واحد، فهذا جمعهم وذاك فرقهم، فهذا فرق يتعلق بالأعمال.

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

(٢)قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٧]، فأمر بترك ما بقي؛ دون رد ما قبض ولم يكن صحيحًا؛ بل كان عفوًا كما قال سبحانه: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فجعل له ما سلف من الربا وإن لم يكن مباحًا له؛ وكذلك سائر العقود له ما سلف منها، ويجب عليه ترك ما يحرمه الإسلام، وهذه الآية هي الأصل في هذا الباب جميعه، فإنه تعالى لم يبطل ما وقع في الجاهلية على خلاف شرعه، وأمر بالتزام شرعه من حين قام الشرع، ومن تأمل حكم رسول الله ﷺ في باب أنكحة الكفار إذا أسلموا عليها؛ وجده مشتقًا من القرآن مطابقًا له.

(٣)إن العقل تحت حجر الشرع: فيما يطلبه ويأمر به، وفيما يحكم به ويخبر عنه، فهو محجور عليه في الطلب والخبر، وكما أن من عارض أمر الرسل بعقله: لم يؤمن بهم،

(١) ٥٠٧ مدارج جـ٣.
(٢) ٣٥٤ أحكام جـ١.
(٣) ١٥١ مختصر الصواعق جـ١.

وبما جاءوا به؛ فكذلك من عارض خبرهم بعقله، ولا فرق بين الأمرين أصلًا.

يوضحه: أن الله سبحانه حكى عن الكفار معارضة أمره بعقولهم، كما حكى عنهم معارضة خبره بعقولهم.

أما الأول: ففي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فعارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا والبيع، فهذا معارضة النص بالرأي.

ونظير ذلك: ما عارضوا به تحريم الميتة من قياسها على المذكاة، وقالوا: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله، وفي ذلك أنزل الله: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعارضوا أمره بتحويل القبلة، وقالوا: إن كانت القبلة الأولى حقًّا؛ فقد تركت الحق، وإن كانت باطلاً؛ فقد كنت على باطل.

وإمام هؤلاء شيخ الطريقة إبليس عدو الله، فإنه أول من عارض أمر الله بعقله، وزعم أن العقل يقتضي خلافه.

وأما الثاني: وهو معارضة خبره بالعقل، فكما حكى الله سبحانه عن منكري المعاد: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس: ٧٨] وأخبر سبحانه أنهم عارضوا ما أخبر به من التوحيد بعقولهم.

وعارضوا إخباره عن النبوات بعقولهم، وعارضوا بعض الأمثال التي ضربها بعقولهم؛ وعارضوا أدلة نبوة رسوله ﷺ بعقولهم؛ فقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] وأنت إذا صغت هذه المعارضة صوغًا مزخرفًا، وجدتها من جنس معارضة المعقول للمنقول.

وكذلك قولهم: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان: ٧-٨] أي: لو كان رسولاً لخالق السماوات والأرض: لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في المعيشة، ولأغناه من أكل الطعام، ولأرسل معه ملكًا من الملائكة، أو ألقى إليه كنزًا يغنيه عن طلب الكسب.

وعارضوا شرعه ودينه الذي شرعه لهم على لسان رسوله، وتوحيده؛ بمعارضة عقلية، واستندوا فيها إلى القدر، فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

وحكى مثل هذه المعارضة في سورة النحل، وفي سورة الزخرف، وإذا تأملتها حق التأمل؛ رأيتها أقوى بكثير من معارضة آيات الصفات بعقولهم، فإن إخوانهم عارضوا بمشيئة الله للكائنات، والمشيئة ثابتة في نفس الأمر، والنفاة عارضوا بأصول فاسدة: هم وضعوها من تلقاء أنفسهم، أو تلقوها عن أعداء الرسل من الصابئة والمجوس والفلاسفة، وهي خيالات فاسدة.

وبالجملة فمعارضة أمر الرسول أو خبرهم بالمعقولات؛ إنما هي طريقة الكفار، فهم سلف الخلف بعدهم، فبئس السلف والخلف.

ومن تأمَّل معارضة المشركين للرسل بالعقول؛ وجدها أقوى من معارضة الجهمية والنفاة، لخبرهم عن الله وصفاته، وعلوه على خلقه، وتكليمه لملائكته ورسله؛ بعقولهم، فإن كانت تلك المعارضة باطلة؛ فهذه أبطل وأبطل، وإن صحت هذه المعارضة؛ فتلك أولى بالصحة منها، وهذا لا محيد لهم عنه.

...[1]الطبقة السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم، على

---

(١) ٣٦٢ طريق الهجرتين.

اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من: تفريج كرباتهم، ودفع ضروراتهم، وكفايتهم في مهماتهم، وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق»(١) يعني: أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحدًا على نعمة ويتمنى مثلها، إلا أحد هذين؛ وذلك لما فيهما من منافع: النفع العام، والإحسان المتعدي إلى الخلق، فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله.

والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه؛ أنفعهم لعياله.

ولا ريب أن هذين الصنفين، من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]. فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر.

والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافًا مضاعفة؟

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٦/ ٩٧).

وسمي ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا؛ حثًّا للنفوس وبعثًا لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابد؛ طوع له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض: مليٌّ، وفيٌّ، محسن؛ كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه.

فإن علم: أنه مع ذلك كله؛ يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم؛ فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من: البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان؛ وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة؛ برهانًا لصاحبها.

وهذه الأمور كلها؛ تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة؛ ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به.

ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم، وحيث جاء هذا القرض في القرآن؛ قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله؛ ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول يتعلق بالمال، **والثاني**، يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، **والثالث** بينه وبين الآخذ، وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٦١].

وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثل سبحانه بهذا المثل؛ إحضارًا لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض؛ فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة؛ الواحدة؛ فينضاف

الشاهد العياني إلىٰ الشاهد الإيماني القرآني؛ فيقوىٰ إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية علىٰ سنابل، وهي من جموع الكثرة؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها علىٰ سنبلات في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]، فجاء بها علىٰ جمع القلة، لأن السبعة قليلة ولا مقتضىٰ للتكثير، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

قيل: المعنىٰ: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، ولصفات المنفق وأحواله في: شدة الحاجة، وعظيم النفع، وحسن الموقع.

وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، فلا يقتصر به علىٰ السبعمائة؛ بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلىٰ أضعاف كثيرة.

واختلف في تفسير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة.

وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة، ليطابق الممثل للممثل به، فهنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر.

فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه، فذكر من شق الممثل المنفق؛ إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها، وذكر من شق الممثل به البذر؛ إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر؛ لأن القرض لا يتعلق بذكره.

فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان، وهذا كثير في أمثال القرآن؛ بل عامتها ترد علىٰ هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنىٰ مطابقين لسياقها، وهما: الواسع، العليم.

فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف واسع العطاء، واسع الغنىٰ، واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي

حصولها لكل منفق؛ فإنه عليم: بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها؛ ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالىٰ لا يناقض حكمته؛ بل يضع فضله مواضعه: لسعته، ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله: بحكمته، وعلمه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا بيان للقرض الحسن ما هو؟ وهو أن يكون في سبيله، أي: في مرضاته، والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها؛ سبيل الجهاد.

وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام، وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذىٰ، فالمن نوعان:

أحدهما: منٌّ بقلبه من غير أن يصرح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة؛ فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟

والنوع الثاني: أن يمن عليه بلسانه، فيعتدي علىٰ من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًّا وطوقه منة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده، قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت.

وقال عبد الرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلًا شيئًا، ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكف سلامك عنه، وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها، وفي ذلك قيل:

وإنْ امرؤٌ أهدىٰ إليَّ صنيعة ... وذكرنيها مرة لبخيل[1]

وقيل: صنوان: من منح سائله ومنَّ، ومن منع نائله وضن.

وحظر الله علىٰ عباده المن بالصنيعة اختص به صفة لنفسه؛ لأن منَّ العباد: تكدير،

---

(١) لم أقف علىٰ قائله.

وتعيير، ومن الله ﷻ: إفضال، وتذكير.

وأيضًا: فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم علىٰ عبده في الحقيقة، وأيضًا: فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضًا: فالمنة أن يشهد المعطي: أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله.

وأيضًا: فالمان بعطائه يشهد نفسه: مترفعًا علىٰ الآخذ، مستعليًا عليه، غنيًّا عنه، عزيزًا ويشهد ذل الآخذ، وحاجته إليه، وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا: فإن المعطي قد تولىٰ الله ثوابه، ورد عليه أضعاف ما أعطىٰ؛ فبقي عوض ما أعطي عند الله، فأي حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه؛ فقد ظلمه ظلمًا بينًا، وادَّعىٰ أن حقه في قلبه، ومن هنا ـ والله أعلم ـ بطلت صدقته بالمن؛ فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه؛ أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، ودلالته علىٰ ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره ولا رب سواه.

ونبه بقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٦٢] علىٰ أن المن والأذىٰ ـ ولو تراخىٰ عن الصدقة وطال زمنه ـ ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق: ولو أتىٰ بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذىٰ، لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذىٰ المتراخي: مبطلًا لأثر الإنفاق، مانعًا من الثواب؛ فالمقارن أولىٰ وأحرىٰ.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف؛ تفهم: معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره، جرد الخبر عن الفاء، فإن المعنى: إن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء؛ بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر؛ ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سرٍّ وعلانية، فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت؛ سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

ثم قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فأخبر أن القول المعروف ـ وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره ـ، والمغفرة ـ وهي العفو عمن أساء إليك ـ خيرٌ من الصدقة بالأذى.

فالقول المعروف: إحسان، وصدقة بالقول.

والمغفرة: إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان؛ والصدقة المقرونة بالأذى؛ حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين؛ خير من حسنة باطلة.

ويدخل في المغفرة؛ مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى له بسبب

رده، فيكون عفوه عنه، خيرًا من أن يتصدق عليه ويؤذيه، هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله، أي: مغفرة لكم من الله؛ بسبب القول المعروف، والرد الجميل؛ خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول؛ خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جدًّا؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له والتجاوز والعفو؛ خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه، ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة؛ فنفعها عائد عليكم لا إليه ﷺ، فكيف يمن بنفقته ويؤذي؛ مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حليمٌ؛ إذ لم يعاجل المان بالعقوبة، وفي ضمن هذا: الوعيد، والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه ﷺ مع غناه التام من كل وجه؛ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره؟!

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

تضمنت هذه الآية الإخبار: بأن المن والأذىٰ يحبط الصدقة، وهذا دليل علىٰ أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد تقدم الكلام علىٰ هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلىٰ إعادته.

وقد يقال: إن المن والأذىٰ المقارن للصدقة؛ هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل علىٰ هذا التقييد، والسياق يدل علىٰ إبطالها به مطلقًا.

وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ يدل علىٰ أن المن والأذىٰ المبطل؛ هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان، فإن الرياء لو تأخر عن العمل؛ لم يبطله، ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي، في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل، لأنه «فعال» من الرؤية التي صاحبها يعمل ليرىٰ الناس عمله فلا يكون متراخيًا، وهذا بخلاف المن والأذىٰ فإنه يكون مقارنًا ومتراخيًا، وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ﴾ إما أن يكون المعنىٰ: كإبطال الذي ينفق؛ فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال، أو المعنىٰ: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاء الناس؛ فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس، وفيه قولان:

أحدهما: أنه واحد.

والثاني: جمع صفوة ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾، وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾ وهو الأملس الذي لا شيء عليهم من نبات ولا غيره، وهذا من أبلغ الأمثال

وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر ـ بالحجر: لشدته، وصلابته، وعدم الانتفاع به.

وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار، الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر، فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته، وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلدًا، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه: لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر وهو: أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملًا يرتب عليه الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة، التي إذا بذرت في التراب الطيب؛ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه، كما أن تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه؛ فلا ينبت ولا يخرج شيئًا، ثم قال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل، فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منهما؛ كان مثله ما ذكره في هذه الآية:

إحداهما: طلبه بنفقته: محمدة، أو ثناء، أو غرضًا من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثر المنفقين.

والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها: هل يفعل، أم لا؟

فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت، فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل، وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك؛ كان مثله كجنة ـ وهي البستان الكثير الأشجار ـ

فهو مجتن بها، أي: مستتر ليس قاعًا فارغًا، والجنة بربوة ـ وهو المكان المرتفع ـ فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض؛ لأنه إذا ارتفعت كانت: بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها؛ فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره، فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاء بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال.

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع؛ لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب.

فقال تعالىٰ: ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد العظيم القدر؛ فأدت ثمرتها وأعطت بركتها؛ فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها، أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل، فهذا حال السابقين المقربين، ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ فهو دون الوابل، فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها؛ فتكتفي في إخراج بركتها بالطل، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة، وهم درجات عند الله، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية، ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم.

فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة علىٰ الربوة، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين؛ يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف؛ فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.

واختلف في الضعفين، فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائدًا عليه، وضعفه مثله.

وقيل: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفًا، زاد مثلاً.

والذي حمل هذا القائل علىٰ ذلك؛ فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية، فإنه رأىٰ ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلىٰ المثل؛ صار مثلين؛ وهما الضعف، فلو قيل: لها ضعفان؛ لم يكن فرق بين المفرد والمثنى، فالضعفان عنده مثلان مضافان إلىٰ

الأصل، ويلزم من هـذا أن يكـون ثلاثـة أضعافه؛ ثلاثـة أمثال مضافة إلى الأصل، وهكـذا أبدًا.

والصواب: أن الضعفين هما المثلان فقط: الأصل ومثله، وعليه يـدل قولـه تعالى: ﴿فَئَاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مثلثين، وقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] أي: مثلين.

ولهذا قال في الحسنات: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١].

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية؛ فوهم منشؤه؛ ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان. والله أعلم.

واختلف في رافع قوله: ﴿فَطَلٌّ﴾ فقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: وطله يكفيها، وقيل: خبر مبتدأه محذوف: فالذي يرويها ويصيبها طل.

والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما: أن يرجع إلى الجنة، أو إلى الربوة وهما متلازمان.

ثم قـال تعـالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن: هذا مثل قلَّ ـ والله ـ من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم ـ والله ـ أفقر ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

وفي صحيح البخاري: «عن عبيد بن عمير قال: سأل عمر يومًا أصحاب النبي ﷺ: فيم هم يرون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ﴾ الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي

منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله[1].

فقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعًا، كما ترى غيرك يفعل فعلًا قبيحًا فتقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة.

وقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول: أيودون.

وقوله: ﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغ في الإنكار من لو قيل: أيريد، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها؛ أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعًا، فإن منهما: القوت والغذاء، والدواء والشراب، والفاكهة، والحلو والحامض، ويؤكلان رطبًا ويابسًا، ومنافعهما كثيرة جدًا.

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما؛ فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججًا لقولها فذكرناها في غير هذا الموضع.

وفصل الخطاب: أن هذا يختلف باختلاف البلاد، فإن الله ﷻ أجرى العادة؛ بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر، فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل؛ لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيرًا، لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة، فينموا فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٠٢).

السبخة، وهي لا تناسب العنب، فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها. والله أعلم.

والمقصود أن هذين النوعين؛ هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها، فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها، ومع ذلك فلم تعدم شيئًا من أنواع الثمار المشتهاة؛ بل فيها من كل الثمرات، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب، فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعناب و﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤].

وقد قيل: إن الثمار هنا وفي آية البقرة (٢٦٦) المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها، لقوله هنا: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهَآ ﴾ أي: الجنة ﴿ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾، وفي الكهف: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الكهف: ٤٢] وما ذلك إلا ثمار الجنة. ثم قال تعالى: ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه:

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه.

الثالث: أن له ذرية؛ فهو حريص على بقاء جنته، لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء؛ فهم كَلٌّ عليه، لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه؛ لضعفهم وعجزهم، وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة: لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها.

فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة؛ فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار ـ وهي الريح التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود ـ، وفيه نار مرت بتلك الجنة؛ فأحرقتها وصيرتها رمادًا؟

فصدق ـ والله ـ الحسن: هذا مثلٌ قلَّ من يعقله من الناس.

ولهذا نبه ﷻ على عظم هذا المثل، وحدا القلوب إلى التفكر فيه؛ لشدة حاجتها إليه، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه؛ لكفاه وشفاه، فهكذا العبد إذا عمل بطاعة الله، ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله؛ كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة، التي غرسها بطاعته وعمله الصالح، ولولا أن هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده ـ من ذكر مجرد الطبقات ـ لم نذكرها، ولكنها من أهم المهم، والله المستعان الموفق لمرضاته.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي؛ لما سولت له نفسه ـ والله ـ إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية؛ ولهذا استحق اسم الجهل، فكل من عصى الله فهو جاهل.

فإن قيل: الواو في قوله تعالى: ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ ﴾ واو الحال، أم واو العطف؟ وإذا كانت للعطف، فعلام عطفت ما بعدها؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنها واو الحال، اختاره الزمخشري، والمعنى: أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا، في حال كبره وضعف ذريته.

والثاني: أن تكون للعطف على المعنى، فإن فعل التمني، وهو قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ لطلب الماضي كثيرًا، فكان المعنى: أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب، وأصابه الكبر؛ فجرى عليها ما ذكر.

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان ـ بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئًا أصلاً؛ بل ذهب بذره ضائعًا،

لعدم إيمانه وإخلاصه، ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصًا بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة، التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها، فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق، فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة.

ثم قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أضاف سبحانه الكسب إليهم وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه؛ لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية.

وخص سبحانه هذين النوعين ـ وهما: الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة ـ دون غيرهما من المواشي.

إما بحسب الواقع؛ فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك. فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر؛ لحاجتهم إلى: بيان حكمهما، وعموم وجودهما.

وإما لأنهما أصول الأموال، وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من: الملابس، والمطاعم، والرقيق، والحيوانات، والآلات، والأمتعة، وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول: حبها، وثمارها، وركازها، ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

ثم قال: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء كما هو عادة أكثر النفوس: تمسك الجيد لها، وتخرج الرديء للفقير.

ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه؛ فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك، لا عن قصد وتيمم، بل عن اتفاق، إذا كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث؛ بل تيمم إخراج بعض ما من الله عليه، وموقع قوله: ﴿ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال: ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: لو كنتم أنتم المستحقين له، وبذل لكم؛ لم تأخذوه في حقوقكم إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه، ويقال للبائع: أغمض ـ أي: لا تستقص ـ كأنك لا تبصر، وحقيقته من إغماض الجفن، فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينيه منه، بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضًا.

ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ ـم رجال يرضون بالإغماض[1]

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له، والله أحق من يخير له خيار الأشياء وأنفسها؟

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا؟ ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث: إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه، الشريف القدر، الكامل الأوصاف؛ فإنه لا يقبله.

(١) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى الطرماح بن حكيم من طيء، شاعر إسلامي فحل، واعتقد مذهب الأزارقة، وهم جماعة من الخوارج، وكان هجاءً، عاصر الكميت وصادقه ولم يكد يفارقه، قال عنه الجاحظ: كان قحطانيًا عصبيًا. مات سنة ١٢٥هـ. وذكر البيت الطبري في تفسيره (٣/ ٨٤).

ثم قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمن: الحض على الإنفاق، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت: على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين، فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح؛ هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي: بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل، فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا؛ دعتك الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك؛ حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه، فإذا صور له هذه الصورة؛ أمره بالفحشاء وهي البخل، الذي هو من أقبح الفواحش، وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل(١)، فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكذب في وعده، الغار الفاجر في أمره، فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد، كما قال:

دلاهم بغرور ثم أوردهم   إن الخبيث لمن والاه غرَّار(٢)

---

(١) تقدم ص (٤٥٤) نقلاً عن الإغاثة ص (١٠٧) جـ٢ ما يحسن الرجوع إليه من ذكره أن الصواب: أن الفحشاء على بابها في العموم... إلخ ما ذكره. (ج).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى حسان بن ثابت الصحابي الجليل ﷺ، شاعر النبي ﷺ وشاعر الإسلام، نافح عن النبي ﷺ ودافع عن عرضه. فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة فيقول: يا أبا هريرة، نشدتك بالله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا حسان أجب عن رسول الله اللهم أيده بروح القدس»؟ قال أبو هريرة: نعم.
أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٢) ومسلم (رقم ٢٤٨٥). وعن البراء ﷺ: أن النبي ﷺ قال لحسان: «اهجهم ـ أو قال: هاجهم - وجبريل معك». أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٣) ومسلم (رقم ٢٤٨٦).
مات ﷺ بالمدينة بعد أن عمي سنة ٥٤هـ.

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنيًّا، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل؛ ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه؛ فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه؛ فإنه يعد عبده: مغفرة منه لذنوبه، وفضلًا؛ بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه: إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة، فهذا وعد الله، وذاك وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق، أي الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء، عليم: بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

فتأمل هذه الآيات، ولا تستطل بسط الكلام فيها؛ فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وتأمل ختم هذه السورة؟ التي هي سنام القرآن: بأحكام الأموال، وأقسام الأغنياء وأحوالهم، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام؟

القسم الأول: محسن وهم: المتصدقون، فذكر جزاءهم ومضاعفته، وما لهم في قرض أموالهم للمليء الوفي، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكمالها من: المن، والأذى، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها؛ ابتداء من الرياء ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها، ولا يتيمموا أردأها وخبيثها.

ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش وأخبر أن استجابتهم لدعوته، وثقتهم بوعده؛ أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته، التي يؤتيها من يشاء من عباده،
وثقتهم بوعده؛ أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته، التي يؤتيها من يشاء من عباده،
وأن من أوتيها؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا: أوتي ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها؛ لأنه

سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته؛ خير من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد؛ بل لا يعقله إلا من له: لب، وعقل ذكي، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر؛ فإنه يعلمه، فلا يضيع لديه، بل يعلم ما كان لوجهه، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له، فإنه ظالم لنفسه وماله من نصير.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها: إن أبدوها، أو كتموها، بعد أن تكون خالصة لوجهه، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة: ٢٧١] أي: فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه؛ فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء؛ فتفوت، أو تعترضه الموانع، ويحال: بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية؛ خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها؛ فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه: كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك.

وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له؛ فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة؛ مع تضمنه: الإخلاص، وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها

للفقير خيرًا من إظهارها بين الناس.

ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه: أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ولهذا جعله سبحانه خيرًا للمنفق،وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر: أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم يعود عليهم؛ أحوج ما كانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟!

وأن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصًا؛ لأنها صادرة عن إيمانهم.

وأن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة، وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم؛ بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] فوصفهم بست صفات: إحداها: الفقر.

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب، والضرب في الأرض هو: السفر، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى، يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم، وعدم تعرضهم، وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسبان الجاهل؛ أنهم أغنياء؛ لأن الجاهل له ظاهر الأمرم، والعارف هو: المتوسم المتفرس، الذي يعرف الناس بسيماهم، فالمتوسمون خواص المؤمنين، كما قا تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم، والإلحاف هو: الإلحاح، والنفي متسلط عليهما معًا، أي: لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف، وهذا كقوله:

على لا حب لا يُهتَدَىٰ لمناره

أي: ليس فيه منار فيهتدى به.

وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال؛ هو سؤال الإلحاف، فأما السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف؛ فالأفضل تركه، ولا يحرم.

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقته، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز، والله يختص بتوفيقه من يشاء، فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم.

القسم الثاني: (الظالمون) وهم ضد هؤلاء، وهم الذين يذبحون المحتاج المضطر، فإذا دعته الحاجة إليهم؛ لم ينفسوا كربته إلا بزيادة على ما يبذلونه له، وهم أهل الربا، فذكرهم تعالى بعد هذا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فصدَّر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية. وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم،ولولا ذلك، لردوا ما قبضوه به قبل التحريم. وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه. ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشده؛ وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا، وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس: هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا: بحربه، وحرب رسوله.

ثم قال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. يعني: إن تركتم الربا وتبتم إلى الله منه وقد عاقدتم عليه؛ فإنما لكم رءوس أموالكم: لا تزدادون عليها؛ فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها؛ فيظلمكم من أخذها،فإن كان هذا القابض معسرًا فالواجب، إنظاره إلى ميسرة، وإن تصدقتم عليه وأبرأتموه؛ فهو أفضل لكم وخير لكم، فإن أبت نفوسكم، وشحت: بالعدل الواجب؛ أو الفضل المندوب؛ فذكروها يومًا ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم؛ فيوفيكم جزاء أعمالكم؛ أحوج ما أنتم إليه، فذكر سبحانه ا لمحسن وهو المتصدق، ثم عقبه بالظالم وهو المرابي...[(١)].

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا

(١) القسم الثالث يأتي آخر السورة. (ج).

تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

(١)الله سبحانه قد قال في آية المداينة [البقرة: ٢٨٢] التي أرشد بها عباده إلى حفظ حقوق بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود، أو النسيان، فأرشدهم إلى حفظها بالكتاب، وأكد ذلك بأن أمرهم بكتابة الدين، وأمر الكاتب أن يكتب.

ثم أكد ذلك بأن نهاه أن يأبى أن يكتب، ثم أعاد الأمر بأن يكتب مرة أخرى، وأمر من عليه الحق أن يملل، ويتقي ربه، فلا يبخس من الحق شيئًا، فإن تعذر إملاؤه: لسفهه، أو صغره، أو جنونه، أو عدم استطاعته؛ فوليه مأمور بالإملاء عنه.

وأرشدهم إلى حفظها باستشهاد شهيدين من الرجال، أو رجل وامرأتين، فأمرهم بالحفظ بالنصاب التام، الذي لا يحتاج صاحبُ الحق معه إلى يمينٍ، ونهى الشهود أن يأبوا إذا دُعوا إلى إقامة الشهادة. ثم أكَّد ذلك عليهم بنهيهم أن يمتنعوا من كتابة الحقير والجليل من الحقوق، سآمة ومللاً.

وأخبر أن ذلك: أعدل عنده، وأقوم للشهادة، فيتذكرها الشاهد إذا عاين خطَّه؛ فيقيمها، وفي ذلك تنبيهٌ على أن له أن يقيمها إذا رأى خطه وتيقنه، وإلا لم يكن بالتعليل بقوله: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ فائدة.

وأخبر أن ذلك: أقرب إلى اليقين، وعدم الريب، ثم رفع عنهم الجناح بترك الكتابة؛ إذا كان بيعًا حاضرًا فيه التقابض من الجانبين، يأمن به كل واحد من المتبايعين من: جحود الآخر، ونسيانه.

ثم أمرهم مع ذلك بالإشهاد إذا تبايعوا: خشية الجحود، وغدر كل واحدٍ منهما بصاحبه، فإذا أشهدا على التبايع أمنا ذلك.

(١) ٤٨ إغاثة جـ٢.

ثم نهى الكاتب والشهيد عن أن يضارًا: إما بأن يمتنعا من الكتابة والشهادة تحملاً وأداءً، أو أن يطلبا على ذلك جُعْلاً يضر بصاحب الحق، أو بأن يكتم الشاهد بعض الشهادة، أو يؤخر الكتابة والشهادة تأخيرًا يضرُّ بصاحب الحق، أو يمطلاه، ونحو ذلك، أو هو نهي لصاحب الحق أن يضار الكاتب والشهيد، بأن: يشغلهما عن ضرورتهما وحوائجهما، أو يكلفهما من ذلك ما يشق عليهما.

ثم أخبر أن ذلك فسوق بفاعله، فهذا كله عند القدرة على الكتاب والشهود.

ثم ذكر ما تحفظ به الحقوق؛ عند عدم القدرة على الكتاب والشهود، وهو السفر، في الغالب، فقال: ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. فدل ذلك دلالة بينة أن الرهان قائمة مقام الكتاب والشهود، شاهدة مخبرة بالحق، كما يخبر به الكتاب والشهود.

وهذا ـ والله أعلم ـ سر تقييد الرهن بالسفر؛ لأنه حال يتعذر فيها الكتاب الذي ينطق بالحق غالبًا، فقام الرهن مقامه، وناب منابه، وأكد ذلك بكونه مقبوضًا للمرتهن، حتى لا يتمكن الراهن من جحده.

فلا أحسن من هذه النصيحة، وهذا الإرشاد والتعليم، الذي لو أخذ به الناس لم يضع في الأكثر حق أحد، ولم يتمكن المبطل من الجحود والنسيان.

فهذا حكمه سبحانه المتضمن لمصالح العباد في معاشهم ومعادهم...

...[1]فبينة الحال ودلالته هنا تفيد من ظهور صدق المدعي؛ أضعاف ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد، فالشارع لا يهمل مثل هذه البينة والدلالة، ويضيع حقًّا يعلم كل أحدٍ ظهوره وحجته، بل لما ظنَّ هذا من ظنه؛ ضيعوا طريق الحكم، فضاع كثير من الحقوق؛ لتوقف ثبوتها عندهم على طريق معين، وصار الظالم الفاجر ممكنًا من ظلمه وفجوره، فيفعل ما يريد، ويقول: لا يقوم على ذلك شاهدان اثنان، فضاعت

(١) ٩٠ أعلام جـ١.

حقوق كثيرة لله ولعباده.

وحينئذ أخرج الله أمر الحكم العلمي عن أيديهم، وأدخل فيه من أمر الإمارة والسياسة ما يحفظ به الحق تارة ويضيع به أخرى، ويحصل به العدوان تارة والعدل أخرى، ولو عرف ما جاء به الرسول على وجهه؛ لكان فيه تمام المصلحة المغنية عن التفريط والعدوان.

وقد ذكر الله سبحانه نصاب الشهادة في القرآن في خمسة مواضع:

فذكر نصاب شهادة الزنا أربعة في سورة النساء، وسورة النور.

وأما في غير الزنا فذكر: شهادة الرجلين، والرجل والمرأتين، في الأموال؛ فقال في آية الدين: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهذا في التحمل والوثيقة، التي يحفظ بها صاحب المال حقه، لا في طريق الحكم، وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شيء وهذا شيء.

وأمر في الرجعة بشاهدين عدلين.

وأمر في الشهادة على الوصية في السفر باستشهاد: عدلين من المسلمين، أو آخرين من غيرهم، وغير المؤمنين هم الكفار، والآية صريحة في قبول شهادة الكافرين على الوصية في السفر؛ عند عدم الشاهدين المسلمين، وقد حكم به النبي ﷺ، والصحابة بعده ولم يجئ بعدها ما ينسخها، فإن المائدة من آخر القرآن نزولاً، وليس فيها منسوخ، وليس لهذه الآية معارض البتة.

ولا يصح أن يكون المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير قبيلتكم، فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] ولم يخاطب بذلك قبيلة معينة حتى يكون قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أيتها القبيلة، والنبي ﷺ لم يفهم هذا من الآية، بل إنما فهم ما هي صريحة فيه، وكذلك أصحابه من بعده، وهو

سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك[١].

[٢]وقد ذهب مالك إلى التوصل إلى الإقرار بما يراه الحاكم، وذلك يستند إلى قوله: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [يوسف: ٢٦] ومتى حكمنا بعقد الأزج وكثرة الخشب ومعاقد القمط في الجص وما يصلح للمرأة والرجل، يعني في الدعاوى، والدباغ والعطار إذا تخاصما في جلد، والقيافة والنظر في الخنثى، والنظر في إمارات القبلة، وهل اللوث في القسامة إلا نحو هذا. انتهى.

قلت: الحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الإمارات ودلائل الحال، كفقهه في كليات الأحكام؛ ضيع الحقوق.

فهاهنا فقهان لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في الوقائع وأحوال الناس، يميز به بين: الصادق والكاذب، والمحق والمبطل، ثم يطبق بين هذا وهذا، بين الواقع والواجب؛ فيعطي الواقع حكمه من الواجب.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وعدلها وسعتها ومصلحتها، وأن الخلق لا صلاح لهم بدونها البتة، علم أن السياسة العادلة: جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علمًا بمقاصدها ووضعها مواضعها؛ لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة، فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها.

وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، وهي من الشريعة، علمها من علمها، وخفيت على من خفيت عنه.

ولا تنس في هذا الموضع قول سليمان نبي الله للمرأتين، اللتين ادعتا الولد، فحكم به داود للكبرى، فقال سليمان: «**ائتوني بالسكين أشقه بينهما**»[٣] فقالت: الصغرى: لا

---

(١) بحث المؤلف في البينات قرابة كراسة، قرر فيها ثبوت الحق بأي بينة. (ج).

(٢) ١١٧ بدائع جـ٣.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٢٧) ومسلم (رقم ١٧٢٠) وانظر: عمدة القاري (١٦/ ١٦).

تفعل هو ابنها؛ فقضى به للصغرى؛ لما دل عليه امتناعها، من رحمة الأم، ودل رضى الكبرى بذلك على الاسترواح إلى التأسي بمساواتها في فقد الولد.

وكذلك قول الشاهد من أهل امرأة العزيز: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فذكر الله تعالى ذلك مقرراً له، غير منكر على قائله، بل رتب عليه العلم ببراءة يوسف، وكذب المرأة عليه.

وقد أمر النبي ﷺ الزبير أن يقرر ابني أبي الحقيق بالتعذيب على إخراج الكنز؛ فعذبهما حتى أقرا به.

ومن ذلك قول علي للظعينة التي حملت كتاب حاطب وأنكرته فقال لها: «لتخرجن الكتاب أو لنجردنك»[1].

وهل تقتضي محاسن الشريعة الكاملة إلا هذا؟!

وهل يشك أحد في أن كثيرًا من القرائن؛ تفيد علمًا أقوى من الظن المستفاد من الشاهدين؛ بمراتب عديدة؟!

فالعلم المستفاد من مشاهدة الرجل مكشوف الرأس، وآخر هارب قدامه، وبيده عمامة، وعلى رأسه عمامة، فالعلم بأن هذه عمامة المكشوف رأسه؛ كالضروري، فكيف تقدم عليه اليد التي إنما تفيد ظنًّا ما عند عدم المعارضة، وأما مع هذه المعارضة فلا تفيد شيئًا؛ سوى العلم بأنها يد عادية فلا يجوز الحكم بها البتة؟ ولم تأت الشريعة بالحكم لهذه اليد وأمثالها البتة.

وقد أمر النبي ﷺ الملتقط أن يدفع اللقطة إلى واصفها، وقد نص أحمد على اعتبار الوصف عند تنازع المالك والمستأجر في الدفين في الدار.

وهذه من محاسن مذهبه، ونص على البلد يفتح؛ فيوجد فيه أبواب مكتوب عليها

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٨٣) ومسلم (رقم ٢٤٩٤) واللفظ للبخاري، بينما لفظ مسلم: «لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب» وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٠٧-٣٠٨).

بالكتابة القديمة: أنها وقف، أنه يحكم بذلك لقوة هذه القرينة، وهل الحكم بالقافة إلا حكم بقرينة الشبه؟ وكذلك اللوث في القسامة؛ حتىٰ إن مالكًا وأحمد في إحدىٰ الروايتين؛ يقيدان بها؛ وهو الصواب الذي لا ريب فيه، وكذلك الحكم بالنكول إنما هو مستند إلىٰ قوة القرينة الدالة علىٰ أن الناكل غير محق.

وبالجملة فالبينة: اسم لكل ما يبين الحق، ومن خصها بالشاهدين؛ فلم يوف مسماها حقه.

ولم تأت البينة في القرآن قط مرادًا بها الشاهدان؛ وإنما أتت مرادًا بها: الحجة، والدليل، والبرهان: مفردة، ومجموعة.

وكذلك قول النبي ﷺ: «البينة علىٰ المدعي»[1] المراد به بيان ما يصحح دعواه.

والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة؛ قد تكون أقوىٰ منهما كدلالة الحال علىٰ صدق المدعي؛ فإنها أقوىٰ من دلالة إخبار الشاهد.

والبينة والحجة والدلالة، والبرهان والآية، والتبصرة؛ كالمترادفة، لتقارب معانيها.

والمقصود أن الشرع لم يلغ القرائن ولا دلالات الحال؛ بل من استقرأ مصادر الشرع وموارده؛ وجده: شاهدا لها بالاعتبار، مرتبًا عليها الأحكام.

وقول ابن عقيل: ليس هذا فراسة.

يقال: ولا ضير في تسميته فراسة؛ فإنها فراسة صادقة.

وقد مدح الله ﷻ الفراسة وأهلها، في مواضع من كتابه قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرسته، كأنك أخذت من السيما، وهي فعلاً

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٦/ ١٩٨ رقم ١١٨٩٢) والترمذي (رقم ١٣٤١، ١٣٤٢) والدارقطني (٤/ ١٥٧ رقم ٨) والشافعي في مسنده (ص ١٩١) وانظر: فتح الباري (٥/ ٧٩) وتحفة الأحوذي (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

من السمة، وهي العلامة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [محمد: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وفي الترمذي مرفوعًا: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1]، والله أعلم.

...[2]وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر هذين النوعين من البينات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فأمرهم سبحانه بحفظ حقوقهم بالكتاب، وأمر من عليه الحق أن يملي الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه، أملى عنه وليه.

ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه برجلين، فإن لم يجد، فرجل وامرأتان.

ثم نهى الشهداء المتحملين لشهادة عن التخلف عن إقامتها؛ إذا طُلِبُوا بذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٢٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٢ رقم ٣٢٥٤) وفي الكبير (٨/ ١٠٢ رقم ٧٤٩٧) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٢٠٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٨٧ رقم ٦٦٣) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨).

(٢) ٧١ الطرق الحكمية.

ثم رخص لهم في التجارة الحاضرة: أن لا يكتبوها.

ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع.

ثم أمرهم إذا كانوا على سفر ـ ولم يجدوا كاتبًا ـ أن يستوثقوا بالرُّهُن المقبوضة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم، وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم شيء، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين، فإن الحاكم يحكم بالنكول واليمين المردودة، ولا ذكر لهما في القرآن؛ فإن كان الحكم بالشاهد الواحد واليمين مخالفًا لكتاب الله؛ فالحكم بالنكول والرد أشد مخالفة...

(١)الطريق الثامن من طرق الحكم: الحكم بالرجل الواحد والمرأتين.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين؛ بدل عن الشاهدين؛ وأنه لا يقضي بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها؛ انتقلوا إلى ما دونها، فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين، لأن النساء؛ يتعذر غالبًا حضورهن مجالس الحكام، وحفظهن وضبطهن؛ دون حفظ الرجال وضبطهم، ولم يقل سبحانه: احكموا بشهادة رجلين، فإن لم يكونا رجلين؛ فرجل وامرأتان.

وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام:

أحدها: هذا، والثاني: في الميراث، والثالث: في الدية، والرابع: في العقيقة، والخامس: في العتق.

---

(١) ١٤٩ الطرق الحكمية.

كما في الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «من أعتق امرءًا مسلمًا أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار[١]، ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضوًا من النار»[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فيه دليل على أن الشاهد إذا نسي شهادته فذكره بها غيره؛ لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها؛ وليس له أن يقلد، فإنه سبحانه قال: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ولم يقل: فتخبرها، وفيها قراءتان: التثقيل والتخفيف، والصحيح: أنهما بمعنى واحد من «الذكر».

وأبعد من قال: فيجعلها ذكرًا؛ لفظًا ومعنى، فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر، فإذا ضلت أو نسيت؛ ذكرتها الأخرى فذكرت.

وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تقديره عند الكوفيين: لئلا تضل إحداهما، ويطردون ذلك في كل ما جاء من هذا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] ونحوه.

ويرد عليهم نصب قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ إذ يكون تقديره: لئلا تضل، ولئلا تذكر.

وقدره البصريون بمصدر محذوف، وهو: الإرادة والكراهة والحذر، ونحوها. فقالوا: يبين الله لكم أن تضلوا، أي: حذر أن تضلوا، وكراهة أن تضلوا ونحوه.

ويشكل عليهم هذا التقدير في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ فإنهم إن قدروه: كراهة أن تضل إحداهما؛ كان حكم المعطوف عليه ـ وهو: فتذكر ـ حكمه، فيكون مكروهًا،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥١٧) ومسلم (رقم ١٥٠٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٤٧) وعمدة القاري (١٣/ ٧٧-٧٨).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٣٣-١٣٤ رقم ٩٣٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٦٩-١٧٠ رقم ٤٨٨١، ٤٨٨٣)، وأبو داود (رقم ٣٩٦٧) وابن ماجه (رقم ٢٥٢٢) والترمذي (رقم ١٥٤٧) والطبراني في الكبير (١/ ١٣٣ رقم ٢٧٩) وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (٥/ ١٤٧) وشرح النووي (١٠/ ١٥١).

وإن قدروها: إرادة أن تضل إحداهما؛ كان الضلال مرادًا.

والجواب عن هذا: أنه كلام محمول على معناه، والتقدير: أن تذكر إحداهما الأخرى؛ إن ضلت، وهذا مراد قطعًا، والله أعلم.

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل؛ إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى؛ إذا ضلت، وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ حيث قال: «**أما نقصان عقلهن**: فشهادة امرأتين بشهادة رجل»(١) فبين أن شطر شهادتهن؛ إنما هو لضعف العقل، لا لضعف الدين، فعلم بذلك؛ أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال، وإنما عقلها ينقص عنه، فما كان من الشهادات لا يخاف فيه الضلال في العادة؛ لم تكن فيه على نصف رجل، وما يقبل فيه شهادتهن منفردات؛ إنما هو أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها من غير توقف على عقل: كالولادة والاستهلال، والارتضاع، والحيض، والعيوب تحت الثياب، فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا تحتاج معرفته إلى كمال عقل، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدين وغيره، فإن هذه معان معقولة، ويطول العهد بها في الجملة.

...(٢)والمنافع التي يجب بذلها نوعان:

ومنها: ما هو حق المال، كما ذكرنا في الخيل، والإبل، والحلي.

ومنها: ما يجب لحاجة الناس.

وأيضًا: فإن بذل منافع البدن تجب عند الحاجة: كتعليم العلم، وإفتاء الناس،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٩) وانظر: شرح النووي (٢/ ٦٦).

(٢) ٢٦١ الطرق الحكمية.

وأداء الشهادة، والحكم بينهم، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من منافع الأبدان.

وكذلك من أمكنه إنجاء إنسان من مهلكة؛ وجب عليه أن يخلصه، فإن ترك ذلك - مع قدرته عليه -؛ أثم، وضمنه.

فلا يمتنع وجوب بذل منافع الأموال للمحتاج، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ وقال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

وللفقهاء في أخذ الجعل على الشهادة أربعة أقوال، وهي أربعة أوجه في مذهب أحمد: أحدها: أنه لا يجوز مطلقًا، والثاني: أنه يجوز عند الحاجة، والثالث: أنه لا يجوز إلا أن يتعين عليه، والرابع: أنه يجوز، فإن أخذه عند التحمل؛ لم يأخذه عند الأداء.

***

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

...[1]الشهادة المتعينة حق على الشاهد، يجب عليه القيام به، ويأثم بتركه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهل المراد به: إذا ما دعوا للتحمل، أو للأداء؟ على قولين للسلف، وهما روايتان عن أحمد، والصحيح: أن الآية تعمهما، فهي حق عليه، يأثم بتركه ويتعرض للفسق والوعيد، ولكن ليست حقًّا تصح الدعوى به، والتحليف عليه؛ لأن ذلك يعود على مقصودها بالإبطال، فإنه مستلزم: لاتهامه، والقدح فيه بالكتمان.

---

(١) ١٤٨ الطرق الحكمية.

[(١)]وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، قال مجاهد: حكم، وقضى، وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها؛ فإن «الشهادة» تتضمن: كلام الشاهد، وخبره، وقوله، وتتضمن: إعلامه، وإخباره، وبيانه، فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يعلم به غيره؛ بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط؛ تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال النبي ﷺ: «**على مثلها فاشهد**»[(٢)] وأشار إلى الشمس.

---

(١) ٤٥٠ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٥٥ رقم ١٠٩٧٤) قال ابن الملقن: وهو غريب بهذا اللفظ، انظر: كشف الخفاء (٢/ ٩٣-٩٤) وضعف الحافظ ابن حجر إسناده في تلخيص الحبير (٤/ ١٩٨ رقم ٢١٠٧) فقال: وفي إسناده محمد بن سليمان بن مشمول وهو ضعيف، ونقل ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٤٣٩ رقم ٢٨٩٨) تصحيح الحاكم وتضعيف البيهقي، وقال الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٨٢): قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في مختصره فقال: بل هو حديث واه، فإن محمد بن سليمان بن مشمول ضعفه غير واحد، قلت [أي الزيلعي]: رواه كذلك ابن عدي في الكامل والعقيلي في كتابه وأعلّاه بمحمد بن سليمان بن مشمول، وأسند ابن عدي تضعيفه عن النسائي ووافقه، وقال: عامة ما يرويه لا يتابع عليه إسنادًا ولا متنًا، وقال الصنعاني في سبل السلام (٤/ ١٣٠) أخرجه ابن عدي بإسناد ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به؛ فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

قال النبي ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله»[(١)] وشهادة الزور هي قول الزور. كما قال تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠-٣١]. وعند نزول هذه الآية؛ قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء: ١٣٥]. فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه، وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ»[(٢)] وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا ـ وأضعافه ـ يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره؛ لا يشترط في قبول شهادته؛ أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة، وظاهر كلام

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٥٩٩) والترمذي (رقم ٢٢٩٩، ٢٣٠٠) وقال في الأول: وهذا حديث غريب وقال في الثاني: هذا عندي أصح، وابن ماجه (رقم ٢٣٧٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢١ رقم ٢٠١٧٠) وفي شعب الإيمان (٤/ ٢٢٣ رقم ٤٨٦١) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٩ رقم ٤١٦٢) وأحمد (٤/ ١٧٨)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٠١) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٧٠، ٥٢٧١) ومسلم (رقم ١٦٩١) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٢٢-١٢٥) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٥٢-٢٥٩).

أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح؛ حتى تطلع الشمس، وبعد العصر؛ حتى تغرب الشمس»(١).

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة؛ بل قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة**»(٢) الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة، وأنه قد دخل في قوله: «**حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله**»(٣)، وفي لفظ آخر: «**حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»(٤). فدل على أن مجرد قولهم: لا إله إلا الله شهادة منهم.

وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة؛ دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

...(٥)وقبول شهادة العبد: هو موجب الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وصريح القياس، وأصول الشرع، وليس مع من ردها: كتاب ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٨١)، ومسلم (رقم ٨٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٨) (٣/ ١٠٥) وعمدة القاري (٥/ ٧٦).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٠٢ رقم ٩٠٣) وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٦٣ رقم ٧٠٠٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٦ رقم ٨١٩٣) وأبو داود (رقم ٤٦٥٠) وابن ماجه (رقم ١٣٣) والترمذي (رقم ٣٧٤٧) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦٧ رقم ٨٦٩) وفي الصغير (رقم ٦٢) وأبو يعلى (٢/ ١٤٧ رقم ٨٣٥) وأحمد (١/ ١٨٧) والبزار (٣/ ٢٣١ رقم ١٠٢٠) وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ١٧١-١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٦١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٢) ومسلم (رقم ٢١) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٩٧) وشرح النووي (١٢/ ٥).

(٥) ١٦٦ الطرق الحكمية.

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط: العدل الخيار، ولا ريب في دخول العبد في هذا الخطاب، فهو عدل بنص القرآن، فدخل تحت قوله: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٣٥] وهو من الذين آمنوا قطعًا؛ فيكون من الشهداء لذلك.

وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولا ريب أن العبد من رجالنا.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ ﴾ [البينة: ٧] والعبد المؤمن الصالح من خير البرية؛ فكيف ترد شهادته؟ وقد عدله الله ورسوله، كما في الحديث المعروف المرفوع: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[1] والعبد يكون من حملة العلم، فهو عدل بنص الكتاب والسنة، وأجمع الناس على أنه مقبول الشهادة على رسول الله ﷺ، إذا روى عنه الحديث، فكيف تقبل شهادته على رسول الله ﷺ ولا تقبل شهادته على واحد من الناس؟

...[2]ثم ذكر العادل في آية التداين فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٩ رقم ٢٠٧٠٠) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤ رقم ٥٩٩) وتمام في فوائده (١/ ٣٥٠ رقم ٨٩٩) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ١١، ٢٨) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٩-١٠) (٤/ ٢٥٦ رقم ١٨٥٤) وصححه أحمد كما في تاريخ مدينة دمشق (٧/ ٣٩) (٥٩/ ١٠) وقال النووي رحمه الله في تهذيب الأسماء (١/ ٤٥): وهذا إخبار منه ﷺ بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفا من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف وما بعده فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد. وهذا من أعلام النبوة، ولا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئًا من العلم، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه، لا أن غيرهم لا يعرف شيئًا منه، والله أعلم.

(٢) ٣٧٨ طريق الهجرتين.

بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية، ولولا أن هذه الآية تستدعي سفرًا وحدها؛ لذكرت بعض تفسيرها، والغرض إنما هو التنبيه والإشارة.

وقد ذكر أيضًا العادل، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان.

ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة، التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان؛ ما يستدعي بيانه؛ كتابًا مفردًا.

والمقصود ذكر طبقات الخلائق في الدار الآخرة، ولنعد إلى المقصود: فإن هذا من سعي القلم، ولعله أهم مما نحن بصدده: فهذه الطبقات الأربع من طبقات الأمة هم؛ أهل الإحسان والنفع المتعدي وهم: العلماء، وأئمة العدل، وأهل الجهاد، وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله، فهؤلاء ملوك الآخرة، وصحائف حسناتهم متزايدة، تملي فيها الحسنات وهم في بطون الأرض، ما دامت آثارهم في الدنيا، فيا لها من نعمة ما أجلها! وكرامة ما أعظمها! يختص الله بها من يشاء من عباده.

***

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾.

(١)لما نزل قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أشكل ذلك على بعض الصحابة، وظنوا أن ذلك من تكليفهم بما لا يطيقونه، فأمرهم ﷺ، أن يقابلوا النص بالقبول، فبين الله سبحانه بعد ذلك: أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه لا يؤاخذهم بما نسوه أو أخطؤوا فيه، وأنه لا يحمل عليهم إصرًا كما حمله على الذين من قبلهم، وأنه لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، وأنهم إن قصروا في بعض ما أمروا به أو نهوا عنه ثم

(١) مختصر الصواعق جـ١.

استغفروا: عفا الله عنهم، وغفر لهم، ورحمهم، فانظر ماذا أعطاهم الله تعالى لما قابلوا خبره: بالرضا والتسليم، والقبول الانقياد، دون المعارضة والرد...

***

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

[(١)]قال سبحانه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني: من السيئات؛ لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة: الشهوة، والشيطان، والهوى، والحسنة تنال؛ بهبة الله من غير واسطة شهوة، ولا إغراء عدو، فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي.

وفيه فرق أحسن من هذا وهو: أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة؛ فلم يجعل على العبد؛ إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله، وأما الكسب، فيحصل بأدنى ملابسة؛ حتى بالهمِّ بالحسنة، ونحو ذلك.

فخص الشر بالاكتساب والخبر بأعم منه؛ ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «إذا هم عبدي بحسنةٍ فاكتبوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها»[(٢)].

وأما حديث الواسطة وعدمها؛ فضعيف؛ لأن الخير أيضًا بواسطة: الرسول، والملك، والإلهام، والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر، فالفرق ما ذكرناه، والله أعلم.

[(٣)]وفي الصحيحين: عن أبي مسعود الأنصاري، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ بهاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[(٤)].

---

(١) ٧٤ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢٨) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢١٢) وفيض القدير (٤/ ٤٧٤).

(٣) ٢٠٧ الوابل الصيب.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٠٨) ومسلم (رقم ٨٠٧، ٨٠٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٦) وشرح النووي (٦/ ٩١) (٩/ ٢٩) والديباج على مسلم (٢/ ٤٠٢) وفيض القدير (٦/ ١٩٦).

الصحيح: أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه، وقيل: كفتاه قيام الليل: وليس بشيء.
وقال علي بن أبي طالب: ما كنت أرى أحدًا يعقل، ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة(١).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البقرة
والحمد لله رب العالمين(٢)



---

(١) أخرجه الدارمي (رقم ٣٣٨٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٣٨) إلى الدارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس وابن مردويه عن علي. وعزاه أيضًا إلى مسدد عن عمر، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٢).

(٢) قال عبد الله وفقيره وابن عبده وابن أمته/ صبري بن سلامة بن شاهين آل حسين: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فلقد أتممت تحقيق هذا الجزء المبارك من هذا الكتاب الطيب في يوم عرفة سنة ١٤٢٩هـ بمدينة الرياض، فأسأله سبحانه أن يمن علي في هذا اليوم المبارك، فيتقبل مني عملي هذا ولا يحرمني الأجر، فإنه الكريم الجواد الكثير العطاء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كما أسأله ﷻ أن يتقبل من الحجاج حجهم ودعاءهم، وألا يحرمني أجر الحج فإنه سبحانه المان بفضله، وأسأله ﷻ أن يكتب لهذا الكتاب القبول والنفع والبركة لمؤلفه وجامعه ومحققه وناشره والناظر فيه المتعلم منه.

٩ ذي الحجة ١٤٢٩هـ، الموافق ٧/ ١٢/ ٢٠٠٩م

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة التحقيق.
١٠	مقدمة الواقف
١٦	ترجمة فضيلة الشيخ علي الصالحي رحمه الله.
٣١	مقدمة الجامع فضيلة الشيخ علي الصالحي رحمه الله.
٣١	ملاحظات حول إحالات ابن القيم.
٣٤	اعتذار عنه حول الإحالات.
٣٦	طريقة المؤلف في الإحالة على الكتب.
٣٩	مقدمة في آداب قراءة القرآن.
٤٤	فائدة التأمل في القرآن.
٤٦	هدي الرسول ﷺ في سجود القرآن.
٥٢	بحث في سجود الشكر.
٥٤	سورة الفاتحة
٥٤	فصل في التوبة وفيه بحوث
٦٠	فصل في جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الألوهية.
٦٢	فصل كل عمل أصله المحبة والإرادة الفرق بين الحمد والمدح.
٦٦	الفرق بين الثناء والمجد وتقسيم هذه المعاني الأربعة.
٦٧	قاعدة عظيمة القدر.
٧٢	الفاتحة اشتملت على أمهات المطالب وفيه بحوث قيمة.
٨٠	ذكر الصراط معرفًا بتعريفين.
٨٤	الصراط المستقيم هو صراط الله.

الصفحة الموضـــوع
٨٧ صراط الله قليل سالكوه.
٨٨ أجل المطالب سؤال الهداية من الله.
٩٠ الفاتحة مشتملة على أنواع التوحيد.
٩٣ دلالة الأسماء مبنية على أصلين.
٩٤ نفي معاني أسماء الله إلحاد، والإلحاد أنواع.
٩٧ اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى.
٩٩ ارتباط الخلق والأمر بالأسماء الثلاثة: الله، والرب، والرحمن.
١٠٠ فصل في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد.
١٠٢ فصل في مراتب الهداية الخاصة والعامة، وهي عشر مراتب.
١١٦ فصل في اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان.
١١٩ شهادة قواعد الطب.
١٢١ في الفاتحة الرد على جميع المبطلين.
١٢٣ الرد على الرافضة.
١٢٤ سر الخلق انتهى إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.
١٣١ قسم من له عبادة بلا استعانة.
١٣٣ انقسام الناس إلى أربعة أقسام.
١٤٢ منفعة العبادة ومقصودها.
١٤٩ العارفون بالله هم الطائفة الإبراهيمية.
١٤٩ سر العبودية بمعرفة صفات الرب.
١٥٢ قواعد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أربع.
١٥٣ جميع الرسل دعوا إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.
١٥٣ العبودية وصف أكمل خلق الله.

الصفحة الموضوع
١٥٦ لزوم العبادة إلىٰ الموت.
١٥٧ العبودية خاصة وعامة.
١٦٠ مراتب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا وعملاً.
١٦٠ العبودية تدور علىٰ خمس عشرة قاعدة.
١٦١ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فيها عشرون فائدة: اشتملت علىٰ علم عظيم.

سُورَةُ البَقَرَةِ

١٩٧ أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال.
٢٠٠ ذكر الله ـ سبحانه ـ أن الكافرين مصرون علىٰ الكفر فعاقبهم ... إلخ.
٢٠٥ ذكر المنافقين وصفاتهم.
٢٠٦ ذكر أمراض القلوب.
٢٠٩ الأمراض متولدة من الجهل، ودواؤها.
٢١٠ عود علىٰ صفات المنافقين.
٢١٦ بحث في أسرار المناظرات وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة.
٢٣٠ القسم الرابع: قوم يكتمون إيمانهم... إلخ.
٢٣٢ اشتمل المثالان علىٰ حكم عظيمة.
٢٣٧ ذهاب نور المنافقين يوم القيامة.
٢٣٧ فهم المعاد وما يجري فيه.
٢٣٨ سمىٰ الله كتابه: روحًا، في عدة مواضع.
٢٣٨ وسماه نورًا... إلخ.
٢٣٩ قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ الآيات، فيها إثبات الصانع وصفات كماله، وإثبات النبوة وغيرها.
٢٤٥ قوله تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآية. اشتملت علىٰ ما رزق الله أهل الجنة من النعيم.

الصفحة المــوضـــوع

٢٥٢ أهل هذه البشرىٰ: المؤمنون المتقون المخلصون.
٢٥٢ قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ ﴾ الآية. فيها رد اعتراض الكفار والحكمة في ضرب الأمثال.
٢٥٥ قوله تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ الآية. فيها تقرير الإيمان بالله فيما خلقه وقدره.
٢٥٦ قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ إلىٰ قولـــه: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فيها الجواب عن سؤالهم والحكمة في خلق آدم وذريته وفضله، وفضل العلم من وجوه.
٢٦١ الحكمة في إبقاء إبليس إلىٰ آخر الدهر.
٢٦٣ الحكمة في إخراج آدم من الجنة.
٢٦٧ ذكر مناظرة عدو الله في شأن آدم.
٢٧١ كل من عارض النصوص فهو من حلفائه.
٢٧٢ من اتبع هدىٰ الله لا خوف عليه.
٢٧٣ تلاوة القرآن تلاوة لفظه ومعناه.
٢٧٤ هل يدخل مسلمو الجن الجنة.
٢٧٩ أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة وفوائد الصلاة في حفظ القلب والبدن.
٢٨١ تلاعب الشيطان ببني إسرائيل.
٢٨٣ اختلاف الناس في الصابئة.
٢٨٥ تقسيم الأمم قبل مبعث النبي ﷺ.
٢٨٧ الأديان ستة واحد للرحمن وخمسة للشيطان.
٢٨٧ لما بعث ﷺ استجاب أكثر أهل الأديان.
٢٨٩ أمر الله بأخذ أوامره بالعزم والجد .

الصفحة الموضوع
٢٨٩ قصة أصحاب السبت.
٢٩٢ قصة القتيل الذي تدافعوا فيه.
٢٩٤ تقسيم قول الله: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ الآيات.
٢٩٦ تفسير قول الله: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ .
٢٩٧ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ الآية.
٢٩٨ تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ ﴾ الآية.
٢٩٨ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ الآية.
٣٠٠ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية
٣٠٢ تفسير قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ الآية.
٣٠٣ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ الآية.
٣٠٥ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الآية.
٣٠٦ تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً ﴾ الآية مناظرة ومعجزة.
٣١٠ التوطيئات لنسخ القبلة وسياق الآية الدالة على غش اليهود وخيانتهم وكذلك النصارى وبيان أن من تولى الكفار فهو منهم.
٣١٧ قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ الآية.
٣١٩ بحث يعود على قول الله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾.
٣٢٣ تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.
٣٢٨ البحث في الذرية وذكر الخلاف فيها.
٣٣٠ ذكر خصائص إبراهيم خليل الله الكريم وذريته.

الصفحة الموضوع
٣٣٧ تفسير قول الله: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ الآية وما بعدها.
٣٤٠ حكمة الختان وفوائده.
٣٤١ خصال الفطرة.
٣٤٤ ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآيات. ذكر في طيها استطرادًا مفيدًا.
٣٥٣ ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين ونصر الله لهم في أمر القبلة.
٣٥٤ ذكر نظائر في عدة مسائل قيمة جدًّا.
٣٥٩ ذكر أصناف المنكرين للقبلة.
٣٦٠ ذكر أن قبلة اليهود وأتباعهم لا أصل لها في الشرع.
٣٦٣ الحجة في كتاب الله نوعان، ثم عود على تفسير آيات ذكر القبلة.
٣٦٤ تأريخ تحويل القبلة وذكر إمامة إبراهيم وفي ضمنه أن البيت إمام.
٣٦٧ مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ الآية.
٣٦٨ ذكر واجب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣٦٩ الذكر عبودية القلب واللسان غير مؤقت وهو في القرآن على عشرة أوجه مفصلة.
٣٧١ بحث في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ .
٣٧٤ الصبر في القرآن نحو سبعين موضعًا وهو واجب بالإجماع.
٣٧٨ حد الصبر لغة وأنواعه الثلاثة.
٣٨٠ علاج المصيبة بالصبر وفوائد في الدين والدنيا.
٣٨٣ بحث في قول من قال: الصلاة من الله بمعنى الرحمة.
٣٨٥ بحث في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الآيات.
٣٨٦ بحث في قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ الآيات.
٣٩٣ أنواع المحبة وخاتمة البحث فيها.

الصفحة الموضوع

٣٩٧ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الآية. مناظرة بين الكفار والمسلمين.
٣٩٨ قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ الآية.
٤٠٠ قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ الآية.
٤٠١ الرد على المعترض على شرعية القصاص، بحث موسع.
٤١١ الرد على المعترض على شرعية حد السارق والزاني وتنصيف الحد على الرقيق.
٤١٦ البحث في الجنايات الثلاث على الأنفس والأموال والأعراض.
٤٢١ قاعدة الشريعة لا يجوز هدمها ودلائل هذه القاعدة.
٤٢٤ شروط الواقفين أربعة أقسام، الضرار نوعان.
٤٢٦ الإنكار على من أفتى بغير الشرع أو وصى خلا ف الشرع.
٤٣٠ بحث الصيام وتفسير الآيات الواردة فيه، والحكمة منه.
٤٣٢ هديه ﷺ الإكثار من العبادات في الصيام.
٤٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾.
٤٣٦ بحث عن مرض الأبدان والأشياء التي يؤذي انحباسها والحمية، وأصول الطب.
٤٣٩ الأشياء المفطرة وغير المفطرة.
٤٤١ وقت الإفطار والدعاء عنده.
٤٤٢ حكم الصيام في السفر وأسباب الفطر.
٤٤٤ تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في الصفات.
٤٤٥ بحث في قوله: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾.
٤٤٦ هديه ﷺ في الاعتكاف وأحكامه.
٤٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ .
٤٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾.

الصفحة المــوضـــوع
٤٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾.
٤٥٣ هديه ﷺ في حجه وعمره والاختلاف في عدد عمره ووقتها.
٤٦١ حكم حلق الرأس وأنواعه وما ابتدع فيه.
٤٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ .
٤٧١ حكم الحج والعمرة للنساء وحكم فسخ نية الحج إلى العمرة.
٤٧٢ بحث حول العمرة المكية وحكم رمي الجمرة الأولى ووقتها.
٤٧٥ هديه ﷺ في الوقوف عند المشعر الحرام والندب إلى كثرة ذكر الله.
٤٧٦ مواطن النحر وحكم البناء بمنى.
٤٧٧ بحث في قول الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ الآية.
٤٧٨ يجوز للمفتي أن يعدل عن الجواب إلى ما هو أنفع للمستفتي.
٤٧٩ بحث في قول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ الآية وفيها حكم وأسرار.
٤٨٣ المحبوب قسمان: محبوب لنفسه ومحبوب لغيره.
٤٨٥ ذكر قصة سرية عبد الله بن جحش وما نزل فيها من قرآن وإيضاح موارد الفتنة.
٤٩٠ بحث في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ الآية وحكم الجهاد والهجرة.
٤٩١ الفرق بين الرجاء والتمن
٤٩٤ بحث في قول الله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ وبحث خلطة اليتامى.
٤٩٤ بحث في أحكام الحيض في القرآن وأحكام الوطء.
٤٩٩ بحث في أحكام الأيمان وحكم طلاق المكره والسكران.
٥٠٥ بحث في أحكام الإيلاء ومدة التربص وحكم مجامعة الرجل لزوجته.

الصفحة الموضوع
٥٠٩ بحث أحكام الخطبة قبل انتهاء العدة وذكر ختم الآيات بأسماء الله وفائدتها.
٥١٢ تقسيم الألفاظ إلى صريح وكناية واختلافه باختلاف الأشخاص... إلخ.
٥١٣ حكم الطلاق ووقته وحكم الطلاق الثلاث مجموعة وذكر الخلاف فيها.
٥٢٠ ذكر حكم الفدية في الخلع برضاهما والخلاف إذا تم الخلع هل له رجعة برضاهما.
٥٢٦ حكم التحليل المحرم والجائز وحكم العضل من الزوج.
٥٣٠ حكم تفريق الشرع بين عدة الموت والطلاق وغيرهما، والجواب عنه بوضوح.
٥٣٨ الحكمة في منع نكاح المطلقة ثلاثًا حتى تنكح زوجًا غيره وذكر الفرق بين شريعة الإسلام والتوراة والإنجيل.
٥٤١ ذكر حكم الله في العدد بتفصيل.
٥٤٦ البحث في الأقراء هل هي الحيض أو الأطهار.
٥٥٣ حكم النفقات على الزوجات والأقارب.
٥٥٨ بحث أي القيام والسجود أفضل، بحث القنوت.
٥٦١ معاني العزة واستلزامها الوحدانية.
٥٦٢ بحث السكينة وأصلها وما هي؟
٥٦٦ بحث في الصبر والثناء على أهله.
٥٦٧ ما ورد في آية الكرسي وبحث في قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ وتقدم البحث.
٥٦٩ بحث في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.
٥٧٢ بحث في قول الله تعالى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ الآية.
٥٧٥ بحث في قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآية وما بعدها.
٥٧٧ بحث ما يعرض للأعمال الصالحة فيبطلها... إلخ.

الصفحة الموضوع
٥٧٨ بحث من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله ومضاعفته.
٥٨٠ المقصود في الزكاة أمور عديدة.
٥٨١ الحث على إخراج الطيب من الكسب ومما أخرج الله من الأرض.
٥٨١ بحث في مطالعة أصول النعم وما لله على أوليائه منها.
٥٨٣ بحث مقادير الزكاة على أكمل الوجوه وأنفعها وتناسبها.
٥٨٨ بحث يدور على فضل الحكمة وخيريتها والامتنان بها وأنواعها والخلاف فيها.
٥٩٠ بحث حول مستحقي الزكاة والوعد لمخرج الزكاة بالمغفرة وتكفير السيئات.
٥٩٤ ذكر الله أحكام الناس في الأموال ثلاثة: عدل وظلم وفضل.
٥٩٥ العقل تحت حجر الشرع فيما يأمر به وفيما يحكم به.
٥٩٦ بحث معارضي الشرع تبعًا لقائدهم إبليس لعنه الله.
٥٩٧ السابعة أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس.
٥٩٩ بحث حول طلب الله القرض من عباده لمصلحتهم في الربح عليه.
٦٠١ المن نوعان: من بالقلب ومن باللسان، والله حرم المن، واختص به نفسه... إلخ.
٦٠٢ المن معارضة من المان لمعطي الفضل في الحقيقة ومحبط للعمل.
٦٠٣ بحث في قول الله ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ والخلاف في ذلك.
٦٠٦ تمثيل المنفق في مرضاة الله بالجنة كثيرة الأشجار والثمار.
٦٠٧ الخلاف في الضعفين.
٩٠٨ بحث في قول الله ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ الآية. والخلاف في هل النخل أفضل أم العنب أفضل؟.
٦١٢ بحث في قول الله ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ الآية. والتحذير من طاعة الشيطان.
٦١٥ ذكر أقسام الأغنياء ومجمل البحوث في آيات الإنفاق استعراض مفيد.

الصفحة الموضوع

٦١٩ استعراض آيات النهي عن الربا والتحذير منه.
٦٢٠ بحث آية المداينة في إرشاد الله لعباده بطرق حفظ حقوقهم.
٦٢١ ذكر البينة ونصاب الشهادات.
٦٢٣ السياسة نوعان: عادلة وظالمة.
٦٢٤ البينة اسم لكل ما يبين الحق شهود وقرائن ومدح الفراسة.
٦٢٧ طرق الحكم والبحث حول قول الله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ الآية.
٦٢٩ المنافع التي يجب بذلها نوعان.
٦٣٠ الخلاف في أخذ الجعل على الشهادة.
٦٣٠ مدار لفظ شهد على الحكم والقضاء والإعلام والبيان... إلخ.
٦٣٣ قبول شهادة العبد وأدلة ذلك.
٦٣٥ ذكر فضل خاتمة سورة البقرة.
٦٣٨ الفهرس.

انتهى فهرس الجزء الأول



الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد الثاني

آل عمران والمائدة

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضوء المنير على التفسير

المجلد الثاني

ح) دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصالحي، علي الحمد
الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ
ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٧-٢-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)
١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان
ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ – فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ١-٣].

[١]قال: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

أفلا ترىٰ كيف اطرد في القرآن وصف الكتاب بأنه مصدق لما بين يديه. وقال وباتفاق الناس: إن المراد مصدق لما تقدمه من الكتب، وبهذه الطريق يكون مصدقًا للنبي ﷺ، ويكون أبلغ في الدليل علىٰ صدقه من أن يقال: هذا كتاب مصدق لك، فإنه إذا كانت الكتب المتقدمة تصدقها وتشهد بصحة ما فيها مما أنزله الله من غير مواطأة ولا اقتباس منها؛ دل علىٰ أن الذي جاء به رسول الله ﷺ صادق؛ كما أن الذي جاء بها كذلك، وأن مخرجهما من مشكاة واحدة.

ولهذا قال النجاشي حين قرئ عليه القرآن: إن هذا والذي جاء به موسىٰ يخرج من مشكاة واحدة[٢]، يعني: فإذا كان موسىٰ صادقًا وكتابه حق فهذا كذلك؛ إذ من المحال أن يخرج شيئان من مشكاة واحدة؛ ويكون أحدهما باطلًا محضًا والآخر حقًّا محضًا، فإن هذا لا يكون إلىٰ مع غاية التباين والتنافر.

فالقرآن صدق الكتب المتقدمة، وهي بشرت به وبمن جاء به؛ فقام الدليل علىٰ صدقه من الوجهين معًا: من جهة بشارة من تقدمه به، ومن جهة تصديقه ومطابقته له، فتأمله. ولهذا كثيرًا ما يتكرر هذا المعنىٰ في القرآن؛ إذ في ضمنه الاحتجاج علىٰ

---

(١) ١١٤ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢) (٥/ ٢٩١) والبيهقي في الشعب (١/ ٩٣-٩٤ رقم ٨٢) وفي الاعتقاد (ص ٤٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥- ١١٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع.

الكتابين بصحة نبوة محمد ﷺ بهذه الطريق، وهي حجة أيضًا على غيرهم بطريق اللزوم؛ لأنه إذا جاء بمثل ما جاءوا به من غير أن يتعلم منهم حرفًا واحدًا؛ دل على أنه من عند الله، وحتى لو أنكروا رسالة من تقدم؛ لكان في مجيئه بمثل ما جاءوا به؛ إثبات لرسالته ورسالة من تقدمه، ودليل على صحة الكتابين وصدق الرسولين؛ لأن الثاني قد جاء بأمر لا يمكن أن ينال بالتعليم أصلًا، ولا البعض منه، فجاء على يدي أميّ لا يقرأ كتابًا ولا خطه بيمينه ولا عاشر أحدًا من أهل الكتاب؛ بل نشأ بينكم وأنتم تشاهدون حاله حضرًا وسفرًا وظعنًا وإقامة، فهذا من أكبر الأدلة على أن ما جاء به ليس من عند البشر ولا في قدرتهم.

وهذا برهان بيِّن أبين من برهان الشمس، وقد تضمن ما جاء به تصديق من تقدمه، وتضمن ما تقدمه البشارة به، فتطابقت حجج الله وبيناته على صدق أنبيائه ورسله، وانقطعت المعذرة وثبتت الحجة، فلم يبق لكافر إلا العناد المحض أو الإعراض والصد.

(١)ومن تجريبات السالكين، التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن: «**يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت**» أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - شديد اللهج بها جدًّا. وقال لي يومًا: لهذين الاسمين وهما ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢] تأثير عظيم في حياة القلب. وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم. وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر: «**يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث**»(٢) حصلت له حياة القلب، ولم يمت قلبه.

---

(١) ٤٤٨ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ٨٨٠) عن جابر ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو واقف على القرن - يعني: قرن الثعالب - يوم النحر، وهو يقول: «**يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، فاكفني شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»، وانظر: كشف الخفاء (٢/ ٥٤-٥٥).

ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها، وسر ارتباطها بالخلق والأمر، وبمطالب العبد وحاجاته؛ عرف ذلك وتحققه. فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له، فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك.

...[(١)]والمقصود أن لاسم ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ تأثيرًا خاصًا في إجابة الدعوات، وكشف الكربات. وفي السنن وصحيح أبي حاتم بن حبان مرفوعًا: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[(٢)] [آل عمران:١-٢]» قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا، من حديث أنس: أن رجلًا دعا فقال: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنَّان. بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم» فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»[(٣)] ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: «يا حي يا قيوم»[(٤)]...

***

(١) ٢٧٦ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٩٦) والترمذي (رقم ٣٤٧٨) والدارمي (رقم ٣٣٨٩) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٥) والطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٤ رقم ٤٤٠، ٤٤١) وإسحاق بن راهويه (٥/ ١٨٣ رقم ٢٣١٠) وعبد بن حميد (رقم ١٥٧٨) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٥٤-٤٥٥ رقم ٢٣٨٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) (٤/ ٤٠٤ رقم ٧٧٠١) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٣٨) وفي الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وأحمد (٣/ ٢٤٥، ٢٦٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٧١) والضياء في المختارة (٥/ ٢٥٧ رقم ١٨٨٥) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٦) وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٥ رقم ٨٩٣) وفي الموارد (رقم ٢٣٨٢).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٣٦) والبيهقي في الاعتقاد (ص ٨٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وانظر: الوابل الصيب (ص ١٥٩).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ ﴾.

(١)سألته ﷺ عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧]. فقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم»(٢) متفق عليه.

(٣)والمتأولون أصنافٌ عديدة، بحسب الباعث لهم على التأويل، وبحسب قصور أفهامهم ووُفورها وأعظمهم توغُّلًا في التأويل الباطل مَنْ فسد قَصْدُه وفهمه، فكلما ساء قصده وقصر فهمه؛ كان تأويلُه أشدَّ انحرافًا.

فمنهم من يكون تأويل لنوع هَوىً من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق. ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أَخْفَتْ عليه الحق. ومنهم من يكون تأويله لنوع هدىً من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق. ومنهم من يجتمع له الأمران: الهوى في القصد، والشبهة في العلم.

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل(٤).

(١) ٤١٠ أعلام جـ٤.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٤٧) ومسلم (رقم ٢٦٦٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢١٠) (٩/ ١٠١) وشرح النووي (١٦/ ٢١٧).
(٣) ٢٥١ أعلام جـ٤.
(٤) حديث افتراق الأمة أخرجه أبو داود (رقم ٤٥٩٦) والترمذي (رقم ٢٦٤٠) وابن ماجه (رقم ٣٩٩١) والضياء في المختارة (٧/ ٩٠ رقم ٢٥٠٠) والحاكم (١/ ٤٧ رقم ١٠) وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٤٠ رقم ٦٢٤٧). وفي الموارد (رقم ١٨٣٤) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٨ رقم ٢٠٦٩٠) =

وإنما أريقت دماء المسلمين: يوم الجمل، وصفِّين، والحَرَّة، وفتنة ابن الزبير وهلم جرًّا بالتأويل. وإنما دخل أعداء الإسلام؛ من المتفلسفة، والقرامطة، والباطنية، والإسماعيلية، والنصيرية من باب التأويل. فما امتحن الإسلام بمحنة قَطُّ إلا وسببها التأويل؛ فإن محنته: إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليهم الكفار؛ بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا ظاهر التنزيل وتعلَّلوا بالأباطيل.

فما الذي أراق دماء بني جذيمة، وقد أسلموا، غير التأويل؛ حتى رفع رسول الله ﷺ يديه وتبرأ إلى الله من فعل المتأول بقتلهم وأخذ أموالهم(١)؟

وما الذي أوجب تأخر الصحابة ﷺ يوم الحديبية عن موافقة رسول الله ﷺ غير التأويل؛ حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل. وما الذي سَفَكَ دم أمير المؤمنين عثمان؛ ظلماً وعدواناً، وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟ وما الذي سفك دم علي ﷺ، وابنه الحسين وأهل بيته ﷺ غير التأويل؟ وما الذي أراقَ دم عَمَّار بن ياسر وأصحابه غير التأويل؟ وما الذي أراق دم ابن الزبير، وحجر بن عدي، وسعيد بن جُبَير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟ وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل؟ وما الذي جَرَّد الإمام أحمد بين العقابين وضرب السياط؛ حتى عَجَّت الخليقة إلى ربها تعالى غير

=

والطبراني في الصغير (رقم ٧٢٤) وفي الأوسط (٥/ ١٣٧ رقم ٤٨٨٦) وفي الكبير (٨/ ٢٧٣ رقم ٨٠٥١) وأبو يعلى (١٠/ ٣١٧ رقم ٥٩١٠) وأحمد (٢/ ٣٣٢) وابن أبي عاصم (١/ ٧ رقم ٢) والمروزي (رقم ٦١) وجوّد أسانيده الكتاني في نظم المتناثر (رقم ١٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ونقل المنذري تصحيح الترمذي وأقره، انظر: تحفة الأحوذي (٧/ ٣٣٣).

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه فرفع النبي ﷺ يديه فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين.

أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٧-٥٨) وعمدة القاري (١٥/ ٩٤).

التأويل؟ ما الذي قتل الإمام أحمد بن نصر الخزاعي، وخَلد خلقًا من العلماء في السجون؛ حتى ماتوا غير التأويل؟ وما الذي سَلَّط سيوف التتار على دار الإسلام؛ حتى ردوا أهلها غير التأويل؟

وهل دخلت طائفة الإلحاد: من أهل الحلول، والاتحاد؛ إلا من باب التأويل؟! وهل فتح باب التأويل إلا مضادة ومناقضة لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتنَّ الله في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؟! فالتأويل بالألغاز والأحاجي والأغلوطات أوْلى منه بالبيان والتبيين.

وهل فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله، وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له وبين رَدِّه وعدم قبوله؟! ولكن هذا رد جحود ومعاندة، وذاك رد خداعة ومصانعة.

قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بـ«الكشف عن مناهج الأدلة» وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة، إلى أن قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٧].

وهؤلاء أهل الجدل والكلام، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف: أنهم تأوَّلُوا كثيرًا مما ظنوه ليس على ظاهره، وقالوا: إن هذا التأويل هو المقصود به، وإنما أمر الله به في صورة المتشابه؛ ابتلاء لعباده واختبارًا لهم، ونعوذ بالله من سوء الظن بالله. بل نقول: إن كتاب الله العزيز إنما جاء مُعْجِزًا من جهة الوضوح والبيان، فما أبعد من مقصد الشارع مَنْ قال فيما ليس متشابه: إنه متشابه، ثم أول ذلك المتشابه بزعمه، وقال لجميع الناس: إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قالوه في آية الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا: إن ظاهره متشابه».

ثم قال: «وبالجملة فأكثر التأويلات التي زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تأملت وجَدْتَ ليس يقوم عليها برهان»[١].

---

(١) ما يأتي من النقل من مختصر الصواعق هو من كلام ابن رشد منصوصًا في أوله في مختصر الصواعق. (ج).

إلىٰ أن قال: «ومثالُ مَنْ أوَّل شيئًا من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذي قصده الشرع؛ مثالُ من أتىٰ إلىٰ دواء قد ركَّبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم، لرَدَاءة مزاج كان به ليس يعرض إلا للأقل من الناس، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيبُ الأول في ذلك الدواء العام المنفعة، لم يرد به ذلك الدواء العام، الذي جرت العادة في اللسان أن يُدَلَّ بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر ما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيبُ، وقال للناس: هذا هو الذي قصده الطبيب الأول، فاستعمل الناسُ ذلك الدواء المركب علىٰ الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجة كثير من الناس، فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب، فراموا إصلاحه بأن بَدَّلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول؛ فعرض من ذلك للناس نوعٌ من المرض غير النوع الأول، فجاء ثالث فتأول في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني؛ فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة؛ فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة؛ فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم، وسَلَّط الناسُ التأويلَ علىٰ أدويته، وغيروها وبَدَّلوها؛ عرض منه للناس أمراض شتىٰ، حتىٰ فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس، وهذه هي حالة الفِرَقِ الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرىٰ، وزعمت أنه هو الذي قصده صاحبُ الشرع حتىٰ تمزق الشرع كل مُمَزَّق، وبَعُدَ جدًّا عن موضوعه الأول، ولما علم صاحب الشرع، صلوات الله وسلمه عليه وعلىٰ آله، أن مثل هذا يعرض ولا بُدَّ في شريعته قال ﷺ: «**ستفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة**» يعني بالواحدة التي سلكت ظاهرَ الشرع ولم تُؤَوِّله.

وأنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشريعة في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل؛ تبينت أن هذا المثال صحيح.

وأولُ مَنْ غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج، ثم المعتزلة بعدهم، ثم الأشعرية، ثم الصوفية، ثم جاء أبو حامد فطَمَّ الوادي على القَرِيِّ» ذا كلامه بلفظه.

ولو ذهبنا نستوعب ما جَنَاه التأويل على الدنيا والدين، وما نال الأمم قديمًا وحديثًا بسببه من الفساد لاستدعى ذلك عِدَّة أسفار، والله المستعان.

***

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

(١)في الصحيحين عن النبي ﷺ: «**لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثانٍ لابتغى إليه ثالثًا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(٢). هذا وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها. وأعظم شيء عُصي الله به، وبه قطعت الأرحام، وأريقت الدماء، واستُحِلت المحارم، ومنعت الحقوق، وتظالم العباد وهو المرغب في الدنيا وعاجلها، والمزهِّد في الآخرة وما أعد الله لأوليائه فيها. فكم أميت به من حق، وأحيي به من باطل، ونصر به ظالم، وقهر به مظلوم. وما أحسن ما قال فيه أبو القاسم الحريري:

تَبًّا له من خادع مماذِقِ ... أصفر ذي وجهين، كالمنافق

يبدو بوصفين لعين الرامق ... زينة معشوق ولون عاشق

وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو إلى ارتكاب سخط الخالق

---

(١) ٣٤٨ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٣٦، ٦٤٣٧) ومسلم (رقم ١٠٤٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٦-٢٥٧) وشرح النووي (٧/ ١٣٩-١٤٠).

لـــولاه؛ لم تقطـــع يمـــين ســـارق ولا بَـــدَت مظلمـــة مـــن فاســـق
ولا اشـــمأز باخـــل مـــن طـــارق ولا شـــكا الممطـــول مَطْـــل العـــائق
ولا اســـتعيذ مـــن حـــسود راشـــق وشـــرُّ مـــا فيـــه مـــن الخلائـــق
أن لـــيس يغنـــي عنـــك في المـــضايق إلا إذا فَـــرَّ فـــرار الآبـــق(١)

(٢)وأما الاعتذار بالقدر: فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل لذنبه على الأقدار. وهذا فعل خصماء الله. كما قال بعض شيوخهم في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران:١٤] قال: أتدرون ما المراد بهذه الآية؟ قالوا: ما المراد بها؟ قال: إقامة أعذار الخليقة.

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه. وإنما المراد بها: التزهيد في هذا الفاني الذاهب، والترغيب في الباقي الدائم، والإزراء بمن آثر هذا المزيَّن واتبعه، بمنزلة الصبي الذي يزين له ما يلعب به. فيهش إليه ويتحرك له، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين، فلم يقل: «زَيَّنَّا للناس» والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٤٣]. وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٧].

وفي الحديث: **«بعثت هاديًا وداعيًا، وليس إليَّ من الهداية شيء، وبعث إبليس مُغْوِيًا ومزيِّنًا، وليس إليه من الضلالة شيء»**(٣). ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ

(١) مقامات الحريري (ص ٢٩-٣٠).
(٢) ١٨٣ مدارج جـ١.
(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٣٩ رقم ٥٩٧) في ترجمة خالد بن عبد الرحمن العبدي، وقال: وفي قلبي من هذا الحديث شيء، وأبو القاسم الجرجاني في تاريخ جرجان (رقم ٦٦٤) في ترجمة محمد بن عبد الرحمن ابن شمردل الهروي من طريق ابن عدي، والقزويني في الإرشاد (٣/ ٩٣٩ رقم ٢٤٠).

أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]. فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدرًا، وإلى الشيطان تسببًا،مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زَيَّنَه الشيطان لهم. فمن عقوبة السيئة؛ السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة؛ الحسنة بعدها[(١)].

[(٢)]والمقصود: أن الاحتجاج مناف للتوبة. وليس هو من الاعتذار في شيء. وفي بعض الآثار: «إن العبد إذا أذنب. فقال: يا رب، هذا قضاؤك. وأنت قدرت عليّ. وأنت حكمت عليّ. وأنت كتبت عليّ. يقول الله ﷻ: وأنت عملت، وأنت كسبت. وأنت أردت واجتهدت. وأنا أعاقبك عليه. وإذا قال: يا ربِّ أنا ظلمت، وأنا أخطأت. وأنا اعتديت.وأنا فعلت. يقول الله ﷻ: وأنا قدَّرت عليك وقضيت وكتبت، وأنا أغفر لك. وإذا عمل حسنة. فقال: يا رب أنا عملتها. وأنا تصدقت. وأنا صليت. وأنا أطعمت. يقول الله ﷻ: وأنا أعنتك. وأنا وفقتك. وإذا قال: يا رب أنت أعنتني ووفقتني. وأنت مَنَنْت عليّ. يقول الله: وأنت عملتها. وأنت أردتها. وأنت كسبتها».

فالاعتذار اعتذاران: اعتذار ينافي الاعتراف. فذلك مناف للتوبة. واعتذار يقرر الاعتراف. فذلك من تمام التوبة.

...[(٣)]وأما آية آل عمران فإنها لما كانت في سياق الإخبار بما زين للناس من الشهوات التي آثروها على ما عند الله واستغنوا بها؛ قدم ما تعلق الشهوة به أقوى والنفس إليه أشد سعرًا، وهو النساء التي فتنتهن أعظم فتن الدنيا، وهي القيود التي حالت بين العباد وبين سيرهم إلى الله، ثم ذكر البنين المتولدين منهن. فالإنسان يشتهي المرأة للذة والولد، وكلاهما مقصود له لذاته.

---

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٦ رقم ٧٢٢٢) عن أبي الحسن المزين قال: الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٢٦٥-٢٦٦) في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد المزين الصغير، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٩) (٢/ ٣٧٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٤٢).

(٢) ١٨٤ مدارج جـ١.

(٣) ٧٦ بدائع جـ١.

ثم ذكر شهوة الأموال؛ لأنها تقصد لغيرها، فشهوتها شهوة الوسائل، وقدم أشرف أنواعها وهو الذهب ثم الفضة بعده.

ثم ذكر الشهوة المتعلقة بالحيوان الذي لا يعاشر عشرة النساء والأولاد. فالشهوة المتعلقة به دون الشهوة المتعلقة بها، وقدم أشرف هذا النوع وهو الخيل، فإنها حصون القوم ومعاقلهم وعزهم وشرفهم؛ فقدمها على الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم.

ثم ذكر الأنعام وقدمها على الحرث؛ لأن الجمال بها والانتفاع بها أظهر وأكثر من الحرث، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل:٦]. والانتفاع بها أكثر من الحرث؛ فإنها ينتفع بها: ركوبًا وأكلًا وشربًا، ولباسًا وأمتعة وأسلحة، ودواء وقنية إلى غير ذلك من وجوه الانتفاع.

وأيضًا فصاحبها أعز من صاحب الحرث وأشرف وهذا هو الواقع؛ فإن صاحب الحرث لابد له من نوع مذلة، ولهذا قال بعض السلف وقد رأى سكة: ما دخل هذا دار قوم إلا دخلهم الذل[(١)]. فجعل الحرث في آخر المراتب وضعًا له في موضعه...[(٢)].

***

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾.

...[(٣)]المقصود: أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاءً وامتحانًا للشكر والصبر،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٢١) عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: ورأى سكة وشيئاً من آلة الحرث، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل» وانظر: فتح الباري (٥/ ٥).

(٢) هذا البحث قطعة من بحث سيأتي أوله وآخره في سورة التوبة فصلناه للحاجة إليه هنا فمن أراده فليرجع إلى الأصل (ج).

(٣) ١٧٨ عدة الصابرين.

والصدق والكذب، والإخلاص والشرك، قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَنكُمْ ﴾ [المائدة:٤٨]. وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:١-٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن:١٥]. فجعل الدنيا: عرضًا عاجلًا، ومتاع غرور، وجعل الآخرة: دار جزاء، وثواب. وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:١٤].

فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة وهو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة. والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه. والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها. والخيل المسومة التي هي عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم. والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم. والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوّق عباده إلى متاع الآخرة، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى، فقال: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ ﴾ [آل عمران:١٥]. ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع، ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ

وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦-١٧].

فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، هو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبر منه، وهو رضوانه عليهم.

***

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝﴾.

(١) استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾. وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه: تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»(٢).

---

(١) ٤٨ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٩ رقم ٢٠٧٠٠) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤ رقم ٥٩٩) وتمام في فوائده (١/ ٣٥٠ رقم ٨٩٩) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ١١، ٢٨) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٩٠١٠) (٤/ ٢٥٦ رقم ١٨٥٤) وصححه أحمد كما في تاريخ مدينة دمشق (٧/ ٣٩) (٥٩/ ١٠) وقال النووي رحمه الله في تهذيب الأسماء (١/ ٤٥): وهذا إخبار منه ﷺ بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في =

وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة: رأيت رجلًا قدم رجلًا على إسماعيل بن إسحاق القاضي، فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر، فقال للمدعي: ألك بينة؟ قال: نعم، فلان وفلان. قال: أما فلان فمن شهودي، وأما فلان فليس من شهودي. قال: فيعرفه القاضي؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بكتب الحديث. قال: فكيف تعرفه في كتبه الحديث؟ قال: ما علمت إلا خيرًا. قال: فإن النبي ﷺ قال: «يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله» فمن عدَّلَه رسول الله ﷺ أولى ممن عدلته أنت. فقال: قم فهاته. فقد قبلت شهادته[1]. وسيأتي ـ إن شاء الله ـ الكلام على هذا الحديث في موضعه.

الخامس: أنه وصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه، ليس بمستعار لهم.

السادس: أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه، وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلًا وشرفًا.

السابع: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره، وهو شهادة: أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

الثامن: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده.

التاسع: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم

كل عصر خلفا من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف وما بعده فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد. وهذا من أعلام النبوة، ولا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئًا من العلم، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه، لا أن غيرهم لا يعرف شيئًا منه، والله أعلم.

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٩).

بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه؛ إقامة وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

العاشر: أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة؛ فإذا أدوها؛ فقد أدوا الحق المشهود به، فثبت الحق المشهود به، فوجب على الخلق الإقرار به، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم؛ فلهم من الأجل مثل أجره.

وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا الله، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم؛ فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا. فهذه عشرة أوجه في هذه الآية.

الوجه الحادي عشر في تفضيل العلم وأهله: أنه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار. فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]. كما قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الحشر: ٢٠]. وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم.

الوجه الثاني عشر: أنه سبحانه جعل أهل الجهل؛ بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩]. فما ثم إلا عالم و أعمى، وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه.

الوجه الثالث عشر: أنه سبحانه أخبر عن أولي العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقًّا، وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادًا بهم. فقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦].

الوجه الرابع عشر: أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم: وجعل ذلك كالشهادة منهم، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ

إن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]. وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء...[١].

...[٢] قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران:١٨-١٩].

فتضمنت هذه الآية الكريمة؛ إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم. وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية؛ أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجلِّ شاهد، بأجلِّ مشهود به.

وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار. قال مجاهد: حَكَمَ، وقضى. وقال الزجاج: بَيَّنَ. وقالت طائفة: أعلم وأخبر.

وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن «الشهادة» تتضمن: كلام الشاهد، وخبره، وقوله. وتتضمن: إعلامه، وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره. بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط؛ تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك. وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم

(١) أوصل المؤلف هذه الوجوه إلى ثلاثة وخمسين بعد المئة، أي قرابة ربع هذا الكتاب ـ رحمة الله عليه ـ فمن أرادها فليرجع إليها. (ج).

(٢) ٤٥٠ مدارج جـ٣.

والزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال النبي ﷺ: «على مثلها فاشهد»[١] وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة الكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي ﷺ: «عَدَلَتْ شهادةُ الزور الإشراك بالله»[٢] وشهادة الزور هي قول الزور. كما قال تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠-٣١]. وعند نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة. قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء:١٣٥].

فشهادة المرء على نفسه؛ هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي: «فلما شهد على نفسه أربع مرات؛ رجمه رسول الله ﷺ»[٣].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا – وأضعافه - يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره؛ لا يشترط في قبول

(١) تقدم في المجلد الأول (ص ٦١٧).
(٢) تقدم في المجلد الأول (ص ٦١٨).
(٣) تقدم في المجلد الأول (ص ٦١٨).

شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة. كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة. وظاهر كلام أحمد. ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك.

وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح؛ حتى تطلع الشمس، وبعد العصر؛ حتى تغرب الشمس»(١).

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة. لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة. بل قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة»(٢) الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله. محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام. وشهد شهادة الحق. ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة، وأنه قد دخل في قوله: «حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله»(٣) وفي لفظ آخر: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله»(٤) فدل على أن مجرد قولهم: «لا إله إلا الله» شهادة منهم. وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة. فليس مع من اشترط لفظ الشهادة؛ دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

وأما مرتبة الإعلام والإخبار، فنوعان: إعلام بالقول. وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر: تارة يعلمه بقوله، وتارة بفعله.

ولهذا كان من جعل دارًا مسجدًا، وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها؛ مُعْلِمًا أنها وقف. وإن لم يتلفظ به.

وكذلك من وُجِد متقربًا إلى غيره بأنواع المسار؛ معلمًا له ولغيره أنه يحبه، وإن لم

(١) تقدم في المجلد الأول (ص ٦١٨).
(٢) تقدم في المجلد الأول (ص ٦١٩).
(٣) تقدم في المجلد الأول (ص ٦١٩).
(٤) تقدم في المجلد الأول (ص ٦١٩).

يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب ـ جل جلاله ـ وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرىٰ. فالقول: هو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه. ومما قد علم بالاضطرار؛ أن جميع الرسل أخبروا عن الله: أنه شد لنفسه «بأنه لا إله إلا هو»، وأخبر بذلك. وأمر عباده أن يشهدوا به. وشهادته سبحانه «أن لا إله إلا هو» معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله؛ فهو ما تضمنه خبره تعالىٰ عن الأدلة الدالة علىٰ وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة. وهذا أيضًا يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان. فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر. بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ. وقد يسمىٰ شاهد الحال نطقًا وقولًا وكلامًا؛ لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

وقالت له العينان: سمعًا وطاعة ... وحدَّرتا بالدر لما يثقب[1]

وقال الآخر:

شكا إليَّ جملي طول السُّرَىٰ ... صبرًا جميلي. فكلانا مبتلىٰ[2]

وقال الآخر:

امتلأ الحوض، وقال: قَطْني ... مثلًا رويدًا. قد ملأت بطني[3]

(١) ذكر صدر البيت فقط كل من العيني في عمدة القاري (٣/ ٢٠٥) (١٢/ ٢٢٩) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٤٤٩) والسيوطي في شرح سنن ابن ماجه (١/ ١٢٢، ٣٠٤) وابن الأثير في النهاية (٤/ ١٢٤) وابن منظور في لسان العرب (١١/ ٥٧٧)، بينما ذكر البيت كاملًا ابن منظور في اللسان (١١/ ٥٧٢) وفيه: «كالدر» بدلًا من «بالدر».

(٢) هذا البيت من بحر الرجز، وينسب إلىٰ حازم القرطاجني الأديب العالم، توفي سنة ٦٨٤هـ وذكر البيت أبو عمر في الاستذكار (١/ ١٠١) وفيه: صبرًا جميلًا، بينما ذكره ابن منظور في اللسان (١٤/ ٤٤٠) كما هو هنا: صبرًا جميلي.

(٣) ذكر البيت كل من الطبري في تفسيره (١/ ٥١٠) وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ١١٦) وابن فورك في مشكل الحديث وبيانه (ص ١٣٠) وابن منظور في لسان العرب (٧/ ٣٨٢) (١٣/ ٣٤٤).

ويسمى هذا شهادة أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله. فهي شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به.

والمقصود: أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله.

ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية. فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل. كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]. أي: أن القرآن حق.

فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية. وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية و التفسير.

قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

وأما المرتبة الرابعة ـ وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه ـ: فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به. كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل:٥١]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء:٣٩]. وقال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [القصص:٨٨]. والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك؛ أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبيَّن وعلم، وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله. وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها

أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلًا لذلك، ويدع من هو أهل له. فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب؛ المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضًا فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة؛ فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار: أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. فإذا شهد سبحانه أنه «لا إله إلا هو» تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضًا فلفظ «الحكم» و«القضاء» يستعمل في الجمل الخبرية. فيقال للجملة الخبرية «قضية» و«حكم» وقد حُكم فيها بكيت وكيت.

قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات:١٥١ ـ ١٥٤]. فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكمًا.

وقال في موضع آخر: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]. لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو؛ متضمن للإلزام. والله سبحانه أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ ﴾ القسط هو: العدل. فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده. وبالوحدانية في عدله. و«التوحيد» و«العدل» هما جماع صفات الكمال.

فإن «التوحيد» يتضمن: تفرده سبحانه بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم، الذي لا ينبغي لأحد سواه.

و«العدل» يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات الصفات، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر والحِكَم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره. لا توحيد

الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذي هو: إنكار الصفات، وحقائق الأسماء الحسنىٰ، وعدلهم، الذي هو: التكذيب بالقدر، أو نفي الحِكَم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الله لأجلها ويأمر.

وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق. فلا أعدل من التوحيد، ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا؛ حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عباده، وبين لهم تحقيقها وصحتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به، وجعل الثواب والعقاب عليها، وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها، فالدين كله من حقوقها، والثواب كله عليها، والعقاب كله على تركها.

وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالىٰ في هذه الشهادة. فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها. ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها. وثوابه كله عليها. وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها. وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها. وهي الحق الذي خلقت به. وضدها هو الباطل والعبث الذي نزه نفسه عنه. وأخبر أنه لم يخلق به السماوات والأرض. قال تعالىٰ ـ ردًّا على المشركين المنكرين لهـذه الشهادة ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص:٢٧]. وقـال تعالىٰ: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢-٣]. وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٥]. وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ

لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الروم:٨]. وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وهذا كثير في القرآن. والحق الذي خلقت به السمٰوات والأرض ولأجله: هو التوحيد. وحقوقه من الأمر والنهي، والثواب والعقاب. فالشرع والقدر، والخلق والأمر، والثواب والعقاب قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنهما. وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب ﷻ. قال تعالىٰ ـ حكاية عن نبيه هود ـ: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٦]. فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله. فهو يقول الحق. ويفعل العدل. ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام:١١٥]. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

فالصراط المستقيم ـ الذي عليه ربنا تبارك وتعالىٰ ـ: هو مقتضىٰ التوحيد والعدل. قال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل:٧٦].

فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم. فهو سبحانه الذي يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم. والصنم مثل العبد الذي هو كَلٌّ على مولاه. أينما يوجهه لا يأت بخير.

والمقصود: أن قوله تعالىٰ: ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ هو كقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]. وقوله: ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ نصب على الحال. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من الفاعل في «شهد الله» والعامل فيها الفعل. والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إله إلا هو.

والثاني: أنه حال من قوله: «هو» والعامل فيها معنى النفي. أي: لا إله إلا هو، حال كونه قائمًا بالقسط. وبين التقديرين فرق ظاهر.

فإن التقدير الأول: يتضمن أن المعنى: شهد الله ـ متكلمًا بالعدل، مخبرًا به، آمرًا به، فاعلًا له، مجازيًا به ـ أنه لا إله إلا هو. فإن العدل يكون في القول والفعل.

والمقسط هو العادل في قوله وفعله. فشهد الله قائمًا بالعدل ـ قولًا وفعلًا ـ أنه لا إله إلا هو. وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهي أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل شيء وأصحه وأحقه.

وذكر ابن السائب وغيره في سبب نزول الآية ما يشهد بذلك. وهو: «أن حَبرين من أحبار الشام قدما على النبي ﷺ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي ﷺ قالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم». وأحمد؟ قال: «نعم». قالا: نسألك عن شهادة. فإن أخبرتنا بها آمنَّا بك. قال: «سلاني» قالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1] الآية. [آل عمران: ١٨].

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به، لا بالظلم. فإن هذه الشهادة تضمنت قولًا وعملًا. فإنها تضمنت: أنه هو الذي يستحق العبادة وحده دون غيره، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء، وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائمًا بالعدل ـ المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار ـ؛ كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها. وكان قوله: ﴿ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ ﴾ تنبيهًا على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

وأما التقدير الثاني ـ وهو أن يكون قوله: ﴿ قَآئِمًا ﴾ حالاً مما بعد ﴿ إِلَّا ﴾ ـ فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائمًا بالعدل، فهو وحده المستحق الإلهية، مع كونه قائمًا بالقسط.

قال شيخنا: وهذا التقدير أرجح، فإنه يتضمن، أن الملائكة وأولي العلم يشهدون

---

(١) عمدة القاري (١/ ١٩١).

له: بأنه لا إله إلا الله هو، وأنه قائم بالقسط.

قلت: مراده أنه إذا كان قوله: ﴿ قَآبِمًا بِٱلْقِسْطِ ﴾ حالاً من المشهود به؛ فهو كالصفة له، فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها، فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها كان كلاهما مشهودًا به، فيكون: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ قد شهدوا بأنه قائم بالقسط، كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو، والتقدير الأول لا يتضمن ذلك، فإنه إذا كان التقدير: شهد الله ـ قائمًا بالقسط ـ أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو؛ كان القيام ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ حالاً من اسم ﴿ ٱللَّهُ ﴾ وحده.

وأيضًا فكونه قائمًا بالقسط فيما شهد به؛ أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة.

فإن قيل: فإذا كان حالاً من ﴿ هُوَ ﴾ فهلا اقترن به؟ ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسطًا بين صاحب الحال وبينها؟

قلت: فائدته ظاهرة، فإنه لو قال: «شهد الله أنه لا إله إلا هو قائمًا بالقسط والملائكة وأولو العلم» لأوهم عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله: ﴿ قَآبِمًا بِٱلْقِسْطِ ﴾ ولا يحسن العطف لأجل الفصل، وليس المعنى على ذلك قطعًا، وإنما المعنى على خلافه، وهو أن قيامه بالقسط مختص به، كما أنه مختص بالإلهية، فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة، وهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل.

قوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ذكر محمد بن جعفر أنه قال: الأولى وصف وتوحيد، والثانية: رسم وتعليم، أي قولوا: «لا إله إلا هو» ومعنى هذا: أن الأولى؛ تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها، والتالي للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه، فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالي، فيكون شاهدًا هو أيضًا.

وأيضًا فالأولى؛ خبر عن الشهادة بالتوحيد، والثانية، خبر عن نفس التوحيد، وختم

بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فتضمنت الآية: توحيده وعدله، وعزته وحكمته، فالتوحيد يتضمن: ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئًا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقًّا.

والعزة تتضمن: كمال قدرته وقوته وقهره.

والحكمة تتضمن: كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى، وخلق وقدر، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ يتضمن الملك، واسمه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يتضمن الحمد. وأول الآية يتضمن التوحيد، وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله(١).

و﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي إذا أمر بأمر كان حسنًا في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان قبيحًا في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقًا، وإذا فعل فعلاً كان صوابًا، وإذا أراد شيئًا كان أولى بالإرادة من غيره، وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك، وعدله

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٨٥) ومالك في الموطأ (١/ ٢١٤ رقم ٥٠٠) (١/ ٤٢٢ رقم ٩٤٥) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١١٧ رقم ٩٢٥٦) وقال: وقد روي عن مالك بإسناد آخر موصولًا، ووصله ضعيف. وعبد الرزاق (٤/ ٣٧٨ رقم ٨١٢٥) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٢٧١ رقم ٢٣٦٩): رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٣٣): قال القاري: ورواه الطبراني بلفظ: «أفضل ما قلت والنبيون قبلي عشية عرفة: لا إله إلا الله» الخ، وسنده حسن جيد كما قاله الأذرعي، انتهى، وأخرجه أيضًا أحمد بإسناد رجاله ثقات، لفظ: كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك ل، له الملك. إلخ.

المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب، ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدرة والعلم والحكمة؛ ولهذا كانت أعظم شهادة، ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة، وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

فالفلاسفة: أشد الناس إنكارًا وجحودًا لمضمونها، من أولها إلى آخرها. وطوائف الاتحادية: هم أبعد خلق الله عنها من كل وجه. وطائفة الجهمية: تنكر حقيقتها من وجوه:

منها: أن «الإله» هو الذي تألهه القلوب، محبة له، واشتياقًا إليه، وإنابة. وعندهم: أن الله لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ.

ومنها: أن «الشهادة» كلامه وخبره عما شهد به، وهو عندهم لا يقول ولا يتكلم، ولا يشهد ولا يخبر.

ومنها: أنها تتضمن مباينته لخلقه بذاته وصفاته، وعند فرعونيهم؛ أنه لا يباين الخلق ولا يحايثهم، وليس فوق العرش إله يعبد، ولا رب يصلى له ويسجد. وعند حلوليتهم؛ أنه حالٌّ في كل مكان بذاته، حتى في الأمكنة التي يستحيي من ذكرها، فهؤلاء مثبتة الجهمية، وأولئك نفاتهم.

ومنها: أن قيامه بالقسط في أفعاله وأقواله، وعندهم؛ أنه لم يقم ولا يقوم به فعل ولا قول البتة، وأن قوله مخلوق من بعض المخلوقات، وفعله هو المفعول المنفصل، وأما أن يكون له فعل يكون به فاعلًا حقيقة: فلا.

ومنها: أن القسط عندهم لا حقيقة له؛ بل كل ممكن فهو قسط، وليس في مقدوره ما يكون ظلمًا وقسطًا؛ بل الظلم عندهم هو المحال الممتنع لذاته. والقسط هو الممكن، فنزه الله سبحانه نفسه ـ على قولهم ـ عن المحال الممتنع لذاته الذي لا يدخل تحت القدرة.

ومنها: أن العزة هي القوة والقدرة. وعندهم لا يقوم به صفة، ولا له صفة وقدرة

تسمى قدرة وقوة.

ومنها: أن «الحكمة» هي الغاية التي يفعل لأجلها، وتكون هي المطلوبة بالفعل، ويكون وجودها أولى من عدمها، وهذا عندهم ممتنع في حقه سبحانه، فلا يفعل لحكمة ولا غاية، بل لا غاية لفعله ولا أمره، وما ثم إلا محض المشيئة المجردة عن الحكمة والتعليل.

ومنها: أن «الإله» هو الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وهو الذي يفعل بقدرته ومشيئته وحكمته، وهو الموصوف بالصفات والأفعال، المسمى بالأسماء التي قامت بها حقائقها ومعانيها، وهذا لا يثبته على الحقيقة إلا أتباع الرسل، وهم أهل العدل والتوحيد.

فالجهمية والمعتزلة؛ تزعم أن ذاته لا تحب، ووجهه لا يرى، ولا يلتذ بالنظر إليه، ولا تشتاق القلوب إليه، فهم في الحقيقة منكرون الإلهية.

والقدرية: تنكر دخول أفعال الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوان تحت قدرته ومشيئته وخلقه، فهم منكرون في الحقيقة لكمال عزته وملكه.

والجبرية: تنكر حكمته، وأن يكون له في أفعاله وأوامره غاية، يفعل ويأمر لأجلها، فهم منكرون في الحقيقة لحكمته وحمده.

وأتباع ابن سينا، والنصير الطوسي وفروخهما: ينكرون أن يكون ماهية غير الوجود المطلق، وأن يكون له وصف ثبوتي زائد على ماهية الوجود. فهم في الحقيقة منكرون لذاته وصفاته وأفعاله، لا يتحاشون من ذلك.

والاتحادية: أدهى وأمر؛ فإنهم رفعوا القواعد من الأصل، وقالوا: ما ثم وجود خالق ووجود مخلوق، بل الخلق المشبه هو عين الحق المنزه، كل ذلك من عين واحدة؛ بل هو العين الواحدة.

فهذه الشهادة العظيمة: كل هؤلاء هم بها غير قائمين، وهي متضمنة لإبطال ما هم عليه ورده، كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورده، وهي مبطلة لقول طائفتي

الشرك والتعطيل، ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات ويعبدونه وحده لا يشركون به شيئًا.

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد، ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به؛ وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها؛ لم ينتفعوا، ولم يقم عليهم بها الحجة، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها؛ لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة، وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها؛ فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع؛ فبسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سبع سماواته، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده تكلمًا وتكليمًا، حقيقة لا مجازًا.

وفي هذا إبطال لقول من قال: إنه لم يرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية: من إثبات معانيها، وحقائقها التي وضعت لها ألفاظها، فإن هذا ضد البيان والإعلام، ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان. وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله، وأخبر أنه من أظلم الظالمين.

فإذا كانت عند العبد شهادة من الله، تحقق ما جاء به رسوله من أعلام نبوته، وتوحيد الرسل، وأن إبراهيم وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم، وكتم هذه الشهادة؛ كان من أظلم الظالمين، كما فعله أعداء رسول الله ﷺ، من اليهود الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

فكيف يظن بالله سبحانه أنه كتم شهادة الحق التي يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة، ولا يشهد بها لنفسه، ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها، ولا يجامعها بوجه ما؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!

فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش، وبأنه القاهر فوق عباده، وبأن

ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر، وتنزل من عنده به، وأن العمل الصالح يصعد إليه، وأنه يأتي ويجيء، ويتكلم، ويرضىٰ ويغضب، ويحب ويكره، ويتأذىٰ، ويفرح ويضحك، وأنه يسمع ويبصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه، إلىٰ غير ذلك مما شهد به لنفسه، وشهد له به رسله. وشهدت له الجهمية بضد ذلك، وقالوا: شهادتنا أصح، وأعدل من شهادة النصوص؛ فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه.

فشهادة الرب تعالىٰ، تكذب هؤلاء أشد التكذيب، وتتضمن أن الذي شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره، حتىٰ جعله في أعلىٰ مراتب الظهور والبيان، وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية؛ لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه، فإن الحق في نفس الأمر ـ عندهم ـ لم يشهد به لنفسه، والذي شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه؛ فليس بحق، ولا يجوز أن يستفاد منه الحق واليقين.

وأما آياته العيانية الخلقية، والنظر فيها والاستدلال بها؛ فإنها تدل علىٰ ما تدل عليه آياته القولية السمعية، وآيات الرب، هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد، وبها يعرفون أسماءه وصفاته، وتوحيده، وأمره ونهيه. فالرسل تخبر عنه بكلامه الذي تكلم به، وهو آياته القولية، ويستدل علىٰ ذلك بمفعولاته التي تشهد علىٰ صحة ذلك، وهي آياته العيانية. والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

وهو سبحانه ـ لكمال عدله ورحمته، وإحسانه وحكمته، ومحبته للعذر، وإقامته للحجة ـ لم يبعث نبيًّا من الأنبياء إلا ومعه آية تدل علىٰ صدقه فيما أخبر به. قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٣، ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود ؛ حتى قال له قومه: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] ومع هذا فبينته من أظهر البينات، وقد أشار إليها بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع، ولا خوار؛ بل واثق مما قاله جازم به، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم، ومما هم عليه إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه: أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة: أنه بريء من دينهم وآلهتهم، التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه ـ وفي ضمن ذلك؛ أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك ـ وأنكم لو رمتموه؛ لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم، الذي نواصيهم بيده: هو وليه ووكيله، والقائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم: فلا يخذل من توكل

عليه وآمن به، ولا يشمت به أعداءه، ولا يكون معهم عليه، فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه ـ في قوله وفعله ـ يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم؛ أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه، فإن الصراط المستقيم؛ هو العدل الذي عليه الرب تعالىٰ، ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسله علىٰ أعدائهم، وأنه يذهب بهم، ويستخلف قومًا غيرهم، ولا يضره ذلك شيئًا، وأنه القائم سبحانه علىٰ كل شيء حفظًا ورعاية وتدبيرًا وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم، بيَّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[١].

...[٢]ومن أسمائه تعالىٰ: «المؤمن» وهو في أحد التفسير: المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فهو الذي صدَّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها علىٰ صدقهم قضاء وخلقًا.

فإنه سبحانه أخبر ـ وخبره الصدق، وقوله الحق ـ أنه لابد أن يرىٰ العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم؛ أن الوحي الذي بلغته رسله حق، فقال تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: القرآن، فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [فصلت: ٥٢] ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فشهد

(١) تقدم في المجلد الأول.
(٢) ٤٦٦ مدارج جـ٣. وسيأتي هذا البحث في سورة فصلت ـ إن شاء الله ـ (ج).

سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق، ووعده أن يُرِيَ العباد من آياته الفعلية الخلقية؛ ما يشهد بذلك أيضًا.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شيء.

فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا.

قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت، وشأنه أجل وأعلى، فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته، فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات.

وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل وبالجحود؛ أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء، والعزة والعظمة والكبرياء؛ كله من لوازم ذاته، يستحيل أن يكون على غير ذلك، فالحياة كلها له، والعلم كله له، والقدرة كلها له، والسمع والبصر والإرادة، والمشيئة والرحمة والغنى، والجود والإحسان والبر؛ كله خاص له قائم به، وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه؛ بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه؛ بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطنًا وظاهرًا، ومن هذا شأنه؛ كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهًا آخر؟ وكيف يليق

بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته،ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر؛ وهو ـ مع ذلك ـ كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد؟؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء، ومن ظنَّ ذلك به، وجوَّزه عليه؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة، وصفة المشيئة. والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهي طريق الخاصة؛ بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله.

وإذا تدبرت القرآن؛ رأيته ينادي على ذلك، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

أفلا تراه كيف يخبر سبحانه؛ أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل؟ بل لابد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤] هاهنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبرًا جازمًا غير معلق؛ أنه ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ [الشورى: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١] فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام؛ لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير جدًّا؛ يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله: على صدق رسله، وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك. كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعلى

بطلان الشرك. كما في قوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣] وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن. ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نُسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها. كقوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]. وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨].

فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو يكرهه، وكماله يأبى أن يجعله شرعًا له ودينًا، فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه؛ ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة؛ فلذلك كانت طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة، فأنها أوسع وأسهل تناولاً، والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض، ويرفع درجات من يشاء، وهو العليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره؛ فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوى والبينة، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧] أي: من ربه وهو القرآن.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١-٥٢] فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله على رسوله؛ يكفي عن كل آية؛ ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثم قال: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

فإذا كان الله سبحانه عالمًا بجميع الأشياء؛ كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها؛ فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به، فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم. وهو سبحانه يذكر: علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسمعه عند ذكر دعائهم، ومسألته وعزته وعلمه عند قضائه وقدره. فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣]، فاستشهد على رسالته بشهادة الله له، ولابد أن تعلم هذه الشهادة، وتقوم بها الحجة على المكذبين له.

وكذلك قوله: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩]. وكذلك قوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء: ١٦٦]. وكذلك قوله: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يس: ١-٣]. وقوله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢]. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ [المنافقون: ١]. وقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان؛ بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله؛

معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله؛ علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به، وفي كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين: ظهورًا بالحجة، والبيان، والدلالة، وظهورًا بالنصر، والظفر، والغلبة، والتأييد؛ حتى يظهره على مخالفيه، ويكون منصورًا.

وقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]. فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره؛ من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤] وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء، فإن كان شيء معلوم له من حق وباطل ـ وإنما المعنى: أنزله مشتملًا على عمله، فنزوله مشتملاً على علمه؛ هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق.

ونظير هذا قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤].

ومن شهادته أيضًا؛ ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم

الكذب، والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته؛ بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر ـ التي فطر عليها الحيوان ـ الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذي كالأبوال والأنتان.

فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره.

ولهذا ندب الله ﷻ عباده إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علمًا ضروريًّا ويقينًا جازمًا؛ أنه حق وصدق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله، وأبرهم، وأكملهم علمًا وعملاً، ومعرفة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فلو رفعت الأقفال عن القلوب؛ لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريًّا عندها كسائر الأمور الوجدانية: من الفرح، والألم، والحب، والخوف، أنه من عند الله: تكلم به حقًّا، وبلَّغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد.

فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان، حيث قال له: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: عمدة القاري (١/ ٧٧).

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٤]. وقوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩]. وقوله: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧].

يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية؛ بل هو الذي يهدي ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها، وهي؛ طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ٢٨]، أي: بكتابه وكلامه ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فطمأنينة القلوب الصحيحة، والفطر السليمة به، وسكونها إليه؛ من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

فإن قيل: فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة، فيقول: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل، وهم أعظم شهادة من أولي العلم؟

قيل: في ذلك عدة فوائد:

إحداها: أن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن في ذكر «أولي العلم» في هذه الشهادة، وتعليقها بهم؛ ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته، وأن من كان من أولي العلم؛ فإنه يشهد بهذه الشهادة، كما يقال: إذا طلع الهلال واتضح؛ فإن كل من كان من أهل النظر يراه، وإذا فاحت رائحة ظاهرة؛ فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة.

قال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٦] أي: كل من له رؤية يراها حينئذ عيانًا، ففي هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة؛ فهو من أعظم الجهال؛

وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره، فهو من أولي الجهل، لا من أولي العلم.

وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة ويؤديها على وجهها؛ إلا أتباع الرسل أهل الإثبات، فهم أولو العلم، وسائر من عداهم؛ أولو الجهل، وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال.

ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة أنهم: «أولو العلم»، فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهال، وأنهم حشوية، وأنهم مشبهة، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب، فكفاهم شهادة أصدق الصادقين لهم بأنهم من «أولي العلم» إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لفسه، من غير تحريف ولا تعطيل، وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها، وخصومهم نفوا عنه حقائقها، وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها.

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية؛ الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم؛ فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، واستشهد بهم - جل وعلا - على أجل مشهود به، وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة؛ كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق، فالحجة قامت بالرسل على الخلق، وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم في إقامة حجج الله على العباد.

وقد فسرت «شهادة أولي العلم» بالإقرار، وفسرت بالتبيين والإظهار، والصحيح؛ أنها تتضمن الأمرين: فشهادتهم إقرار، وإظهار، وإعلام، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

فأخبر: أنه جعلهم عدولاً خيارًا، ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم، لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء، يشهدون على الأمم يوم القيامة، فمن لم يقم بهذه الشهادة - علمًا وعملاً، ومعرفة وإقرارًا، ودعوة وتعليمًا، وإرشادًا - فليس من شهداء الله، والله المستعان.

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، اختلف المفسرون: هل هو كلام مستأنف، أو داخل في مضمون هذه الشهادة؟ فهو بعض المشهود به.

وهذا الاختلاف مبني علىٰ القراءتين في كسر «إن» وفتحها، فالأكثرون علىٰ كسرها علىٰ الاستئناف، وفتحها الكسائي وحده، والوجه؛ هو الكسر؛ لأن الكلام الذي قبله قد تم، فالجملة الثانية مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها، وهذا أبلغ في التقرير، وأذهب في المدح والثناء؛ ولهذا كان كسر ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٨]، أحسن من الفتح، وكان الكسر في قول الملبي: «لبيك، إن الحمد والنعمة لك» أحسن من الفتح. وقد ذكر في توجيه قراءة الكسائي ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون الشهادة واقعة علىٰ الجملتين، فهي واقعة علىٰ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهو المشهود به، ويكون فتح «أنه» من قوله: ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران: ١٨]، علىٰ إسقاط حرف الجر، أي: بأنه لا إله إلا هو ـ وهذا توجيه الفراء، وهو ضعيف جدًّا؛ فإن المعنىٰ علىٰ خلافه ـ وأن المشهود به هو نفس قوله: ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فالمشهود «أن» وما في حيزها، والعناية إلىٰ هذا صرفت، وبه حصلت، ولكن لهذا القول ـ مع ضعفه ـ وجه، وهو أن يكون المعنىٰ: شهد الله بتوحيده، أن الدين عند الله الإسلام. والإسلام: هو توحيده سبحانه، فتضمنت الشهادة: توحيده، وتحقيق دينه؛ أنه الإسلام لا غيره.

الوجه الثاني: أن تكون الشهادة واقعة علىٰ الجملتين معًا، كلاهما مشهود به علىٰ تقدير حذف الواو وإرادتها، والتقدير: وأن الدين عنده الإسلام؛ فتكون جملة استغنىٰ فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه، كما وقع الاستغناء عنها في قوله: ﴿ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾ [الكهف: ٢٢]، فيحسن ذكر الواو وحذفها، كما حذفت هنا، وذكرت في قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ ﴾ [الكهف: ٢٢].

الوجه الثالث: ـ وهو مذهب البصريين ـ: أن يجعل «أن» الثانية بدلاً من الأولى، والتقدير: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، وقوله: «أنه لا إله إلا هو» توطئة للثانية وتمهيد، ويكون هذا من البدل الذي الثاني فيه نفس الأول، فإن «الدين» الذي هو نفس «الإسلام عند الله» هو «شهادة أن لا إله إلا الله» والقيام بحقها، ولك أن تجعله على هذا الوجه من باب بدل الاشتمال؛ لأن الإسلام يشتمل على التوحيد.

فإن قيل: فكان ينبغي على هذه القراءة أن يقول: إن الدين عند الله الإسلام؛ لأن المعنى: شهد الله أن الدين عنده الإسلام، فلم عدل إلى لفظ الظاهر؟

قيل: هذا يرجح قراءة الجمهور، وأنها أفصح وأحسن؛ ولكن يجوز إقامة الظاهر مقام المضمر، وقد ورد في القرآن وكلام العرب كثيرًا، فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]، قال ابن عباس: افتخر المشركون بآبائهم؛ فقال كل فريق: لا دين إلا دين آبائنا، وما كانوا عليه؛ فأكذبهم الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] يعني: الذي جاء به محمد، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، ليس لله دين سواه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد دل قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه.

قال أول الرسل نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]. وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]. وقال

يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وقال موسى لقومه: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقالت ملكة سبأ: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن، هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصائبة، ودين المشركين.

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[(١)]صدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء لا غيره، فالأول: تفرده بالملك، والثاني: تفرده بالتصرف فيه، وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

فتناولت الآية: ملكه وحده، وتصرفه، وعموم قدرته. وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده، وأنها كلها خير، فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير، وإن كان

(١) ١٧٨ شفاء.

شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل، فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل والحكمة والمصلحة، لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به، كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر وأنه ليس إليه.

كما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ، كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «**لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت**»(١).

فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه؛ لم يكن شرًّا ـ كما سيأتي بيانه ـ.

وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله؛ ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه ـ كما تقدم ـ، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله؛ لم يكن شرًّا، فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك، فإن منها: القدوس، السلام، العزيز، الجبار، المتكبر.

فالقدوس: المنزه من كل شر ونقص وعيب، كما قال أهل التفسير: هو الطاهر من كل عيب، المنزه عما لا يليق به، وهذا قول أهل اللغة، وأصل الكلمة من الطهارة والنزاهة.

ومنه بيت المقدس لأنه مكان يتطهر فيه من الذنوب، ومن أمه لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه.

ومنه سميت الجنة: حظيرة القدس؛ لطهارتها من آفات الدنيا.

ومنه سمي جبريل: روح القدس؛ لأنه طاهر من كل عيب.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١).

(١)...وكذلك اسمه «السلام» فإنه الذي سلم من العيوب والنقائص، ووصفه بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم، ومن موجبات وصفه بذلك؛ سلامة خلقه من ظلمه لهم، فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر، ومن التسمية به ومن فعله ومن نسبته إليه، فهو السلام من صفات النقص وأفعال النقص، وأسماء النقص، المسلم لخلقه من الظلم؛ ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام، والجنة بأنها دار السلام، وتحية أهلها السلام، وأثنى على أوليائه بالقول السلام، كل ذلك السالم من العيوب.

وكذلك «الكبير» من أسمائه و«المتكبر»، قال قتادة وغيره: هو الذي تكبر عن السوء، وقال أيضًا: الذي تكبر عن السيئات. وقال مقاتل: المتعظم عن كل سوء. وقال أبو إسحاق: الذي يكبر عن ظلم عباده.

وكذلك اسمه «العزيز» له العزة التامة، ومن تمام عزته؛ براءته عن كل سوء وشر وعيب؛ فإن ذلك ينافي العزة التامة.

وكذلك اسمه «العلي» الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص، ومن كمال علوه؛ أن لا يكون فوقه شيء، بل يكون فوق كل شيء.

وكذلك اسمه « الحميد» وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده؛ يوجب أن لا ينسب إليه: شر ولا سوء ولا نقص لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته؛ فأسماؤه الحسنى؛ تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه؛ مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم.

والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه؛ كان قد فعل الشر والسوء.

والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلًا لذلك، وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب، فجعله فاعلاً خير، والمفعول شر قبيح، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة

---

(١) ١٧٩ شفاء.

ومصلحة؛ وإن كان وقوعه من العبد عيبًا ونقصًا وشرًّا، وهذا أمر معقول في الشاهد.

فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللبنة الناقصة؛ فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه؛ كان ذلك منه عدلاً وصوابًا يمدح به؛ وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يذم به المحل.

ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها؛ كان ذلك حكمة وعدلاً وصوابًا؛ وإنما السفه والظلم أن يضعها في غير موضعها، فمن وضع العمامة على الرأس، والنعل في الرجل، والكحل في العين، والزبالة في الكناسة؛ فقد وضع الشيء موضعه، ولم يظلم النعل والزبالة، إذ هذا محلهما.

ومن أسمائه سبحانه «العدل» و«الحكيم» الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه، وفي كل ما وضعه في محله وهيأه له، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا تعارض أمران؛ رجح أحسنهما وأصلحهما، وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه، ولا نهي عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده.

فإن قلت: فإذا كان وجوده خيرًا من عدمه فكيف لا يشاء وجوده، وإذا كان عدمه خيرًا من وجوده فكيف يشاء وجوده؟ فالمشيئة العامة تنقض عليك هذه القاعدة الكلية.

قلت: لا تنقضها؛ لأن وجوده ـ وإن كان خيرًا من عدمه ـ فقد يستلزم وجوده فوات محبوب له هو أحب إليه من وقوع هذا المأمور من هذا المعنى، وعدم المنهي ـ وإن كان خيرًا من وجوده ـ فقد يكون وجوده وسيلة وسببًا إلى ما هو أحب إليه من عدمه، وسيأتي تمام تقرير ذلك في اجتماع القدر والشرع وافتراقهما ـ إن شاء الله ـ.

والرب سبحانه إذا أمر بشيء؛ فقد أحبه ورضيه وأراده وبينه، وهو لا يحب شيئًا إلا

ووجوده خير من عدمه، وما نهى عنه؛ فقد أبغضه وكرهه، وهو لا يبغض شيئًا إلا وعدمه خير من وجوده، هذا بالنظر إلى ذات هذا وهذا، وأما باعتبار إفضائه إلى ما يحب ويكره فله حكم آخر.

ولهذا أمر سبحانه عباده أن يأخذوا بأحسن ما أنزل إليهم، فالأحسن هو المأمور به، وهو خير من المنهي عنه، وإذا كانت هذه سنته في أمره وشرعه؛ فهكذا سنته في خلقه وقضائه وقدره، فما أراد أن يخلقه أو يفعله كان أن يخلقه ويفعله خيرًا من أ ن لا يخلقه ولا يفعله، وبالعكس، وما كان عدمه خيرًا من وجوده فوجوده شر وهو لا يفعله، بل هو منزه عنه، والشر ليس إليه....

...[(١)]لا خلاف أن لفظ «اللهم» معناه: يا الله، ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني...

...[(٢)]وإذا علم هذا من شأن الميم؛ فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يسأل به الله سبحانه في كل حاجة وكل حال؛ إيذانًا بجميع أسمائه وصفاته.

فإذا قال السائل: «اللهم إني أسألك»، كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم؛ إيذانًا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها.

كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما أصاب عبدًا قط: هم، ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم: ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه،

---

(١) ٧٢ جلاء الأفهام.

(٢) ٧٨جلاء الأفهام.

وأبدله مكانه فرحًا» قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»(١).

فالداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما في الاسم الأعظم: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، الحنان المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم»(٢).

وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى كما ذكر في غير هذا الموضع.

والدعاء ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك، وذلك فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحدًا من الأمرين، فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث، فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة؛ كان أكمل، وهذه عامة أدعية النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣٧٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠ رقم ٢٩٣١٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٥٦ رقم ١٨٨٤) وابن حبان (٣/ ١٧٥ رقم ٨٩٣) وفي الموارد (رقم ٢٣٨٢) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٦) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٣٨) وفي الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وأحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥، ٢٦٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٦): رواه أحمد والطبراني في الصغير ورجال أحمد ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس وإن كان ثقة. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٤) وتحفة الأحوذي (٩/ ٣١٥).

وفي الدعاء الذي علمه صديق الأمة ذكر الأقسام الثلاثة؛ فإنه قال في أوله: «ظلمت نفسي كثيرًا»، وهذا حال السائل، ثم قال: «وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وهذا حال المسؤول ثم قال: «فاغفر لي»[١] فذكر حاجته وختم الدعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه.

وهذا القول الذي اخترنا؛ قد جاء عن غير واحد من السلف.

قال الحسن البصري: «اللهم مجمع الدعاء»[٢].

وقال أبو رجاء العطاردي: «إن الميم في قوله: اللهم فيها تسعة وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى».

وقال النضر بن شميل: «من قال: اللهم؛ فقد دعا الله بجميع أسمائه»[٣]...

***

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

...[٤]وقد جاء في الأثر: «إن المبتلى إذا دُعِيَ لهُ: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه»[٥]؟

وفي أثر آخر: «إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها، كما يحمي أحدكم مريضه»[٦]، فهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٤) ومسلم (رقم ٢٧٠٥) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٣١-١٣٢).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ١٥٥) وعون المعبود (٣/ ١٨٨).

(٣) انظر: فتح الباري (١١/ ١٥٥) وعون المعبود (٣/ ١٨٨).

(٤) ١٧٥ إغاثة جـ٢.

(٥) ورد عن سلام بن أبي مطيع أنه كان يقول: كيف أرحمه مما به أرحمه، ذكره الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٢/ ٣٢٢ رقم ٢٤٢٧).

(٦) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٤٤ رقم ٧٨٥٧) وأبو يعلى (١٢/ ٢٧٨ رقم ٦٨٦٥) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٢١ رقم ١٠٤٤٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٨٥): رواه أبو يعلى وإسناده حسن.

كيف؟ وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها؟

فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمةً وحميةً، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغنيُّ الحميد، ولا بُخْلًا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغَّض عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلىٰ ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه، لئلا يغتروا به، يعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد: حذرهم من نفسه، لئلا يغتروا به.

***

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

(١)إن الله ﷻ خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونصب للعباد علمًا لا كمال لهم إلا به، وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة علىٰ وفق مرضاته ومحبته؛ ولذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه، فكمال العبد الذي لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له؛ ولهذا جعل اتباع رسوله دليلاً علىٰ محبته.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) ١٥٩ مفتاح جـ١.

فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه؛ أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلاً مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته؛ تاب منه كما يتوب من الذنوب، ولا يزال هذا الأمر يقوي عنده؛ حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات، فيحتسب نومه وفطره وراحته، كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده، وهو دائمًا بين سراء يشكر الله عليها، وضراء يصبر عليها، فهو سائر إلى الله دائمًا في نومه ويقظته.

قال بعض العلماء: الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى، والحمقى عباداتهم عادات.

وقال بعض السلف: حبذا نوم الأكياس وفطرهم يغبنون به سهر الحمقى وصومهم[١]، فالمحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله فهو لله وبالله ومع الله.

ومعلوم أن صاحب هذا المقام أحوج خلق الله إلى العلم، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها، ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم، فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته، ولأنه في نفسه صفة كمال؛ بل حاجته إليه كحاجته إلى ما به قوام نفسه وذاته؛ ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه، وأنه من لم يطلب العلم لم يفلح، حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة.

وقال ذو النون وقد سئل من السفلة؟ فقال: من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه[٢]. وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى الرجل وقد أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به؛ حتى تنظروا كيف تجدونه: عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، ومعرفة الشريعة[٣].

---

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ٢١١) وتاريخ مدينة دمشق (٤٧/ ١٧٥) وصفة الصفوة (١/ ٦٢٩-٦٣٠) والفردوس بمأثور الخطاب (٥/ ٢٦٩ رقم ٨١٥١)، كلهم ذكروه عن أبي الدرداء ﷺ.

(٢) انظر: حلية الأولياء (٩/ ٣٧٢) وتاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٤٢٧).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٠١ رقم ١٨٦٠) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٠) وانظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٨) ولسان الميزان (٣/ ٢١٤) وميزان الاعتدال (٣/ ٤٧٤).

وقال أبو حمزة البزاز: من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله[١].

...[٢]فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته؛ الجامعة لكمال محبته؛ مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العباد: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله: فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه فمحبتنا من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها؛ فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة؛ ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها.

فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم؛ فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ٢٥٥) ومفتاح الجنة للسيوطي (ص ٧٢).
(٢) ٩٩ مدارج جـ١.

فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: ٢٤].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله؛ فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه؛ فهو كذب منه وإخبار بخلاف ما هو عليه(١).

(٢)في الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها، وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبه لا محالة؛ ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

---

(١) تكملة البحث تقدم في سورة الفاتحة ضمن قوله فصل: فاعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها ص ١٢٥ (ج).

(٢) ١٧ مدارج جـ٣.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: ـ وهو من أعجبها ـ إنكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب العشرة؛ وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق.

...[1]لما كثر المدعون للمحبة؛ طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يُعطى الناس بدعواهم لادعى الخَلِّيُّ حرقة الشَّجِيِّ؛ فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا بينة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم؛ فهلموا إلى بيعة ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) ٨ مدارج جـ٣.

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرىٰ علىٰ يديه عقد التبايع؛ عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك»[(١)].

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل له: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا؛ رددناها عليكم أوفر مـا كانت، وأضعافها معًا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] إذا غُرست شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب؛ أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها: أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهىٰ.

لا يزال سعي المحب صاعدًا إلىٰ حبيبه لا يحجبه دونه شيء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر: ١٠].

[(٢)]قال بعض السلف: ادعىٰ قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[(٣)] [آل عمران: ٣١].

وقال: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلىٰ دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها: فدليلها

---

(١) وردت هذه العبارة علىٰ لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قالها للصديق الأكبر ﷺ عندما أراد أن يستقيل من الإمارة.فعن أبي الجحاف قال: لما بويع أبو بكر فبايعه علي وأصحابه قام ثلاثًا يستقيل الناس، يقول: أيها الناس قد أقلتكم بيعتكم هل من كاره؟ قال فيقوم علي في أوائل الناس فيقول: والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبدًا، قدَّمك رسول الله ﷺ تصلي بالناس فمن ذا يؤخرك؟! أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ١٣١-١٣٢ رقم ١٠١، ١٠٢) (١/ ١٥١ رقم ١٣٣) وانظر: طبقات المحدثين بأصفهان (٣/ ٥٧٥) والرياض النضرة (٢/ ٢٢٩-٢٣٠) وتاريخ مدينة دمشق (٦٤/ ٣٤٥).

(٢) ٢٢ مدارج جـ٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٣٢-٢٣٣) والدر المنثور (٢/ ١٧٧-١٧٩) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٥٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ٧٥) وعمدة القاري (٢٢/ ١٩٦-١٩٧).

وعلامتها؛ اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها؛ محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة؛ فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

...[(١)]فالمحبون ثلاثة أقسام: منهم: من يريد من المحبوب. ومنهم من يريد المحبوب. ومنهم: من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين، وزهد هذا أعلى أنواع الزهد، فإنه قدر زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين والزهد في الدنيا، أعظم مما بين السماء والأرض.

فالزهد خمسة أقسام: زهدٌ في الدنيا. وزهد في النفس. وزهد في الجاه والرئاسة. وزهد فيما سوى المحبوب. وزهدٌ في كل إرادة تخالف مراد المحبوب، وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل سبحانه متابعة رسوله سببًا لمحبتهم له، وكون العبد محبوبًا لله أعلى من كونه محبًا لله، فليس الشأن أن تُحِبَّ الله؛ ولكن الشأن أن يُحِبَّكَ الله، فالطاعة للمحبوب عنوان محبته كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محالٌ في القياس بديعُ
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ[(٢)]

---

(١) ٢٨٤ روضة.

(٢) هذان البيتان من بحر الكامل، وينسبان إلى كل من النابغة الذبياني المتوفى سنة ١٨هـ قبل الهجرة. وينسبان أيضًا إلى ذي الرمة المتوفى سنة ١١٧هـ. وللشافعي أيضًا المتوفى سنة ٢٠٤هـ. ولأبي العتاهية المتوفى سنة ٢١١هـ. وذكر البيتين البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٨٦) من قول الحسن بن محمد ابن الحنفية إلا أن عجز البيت الأول عنده: عار عليك إذا فعلت شنيع، وذكرهما الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٩) وجاء فيه عجز البيت الأول: هذا لعمري في القياس شنيع. وذكرهما المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٨) وجاء عجز البيت الأول هكذا: هذا لعمري في القياس بديع، وانظر: تهذيب الكمال (٦/ ٣٢٠) وتاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٣٧٩) (٣٢/ ٤٦٩) (٦٩/ ١١٨).

[(١)]والفرق بين الحب في الله والحب مع الله، وهذا من أهم الفروق وكل أحد محتاج؛ بل مضطر إلىٰ الفرق بين هذا وهذا.

فالحب في الله هو من كمال الإيمان، والحب مع الله هو عين الشرك.

والفرق بينهما: أن المحب في الحب تابع لمحبة الله، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد؛ أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه؛ كان ذلك الحب له وفيه، كما يحب رسله وأنبياءه، وملائكته وأولياءه؛ لكونه تعالىٰ يحبهم، ويبغض من يبغضهم؛ لكونه تعالىٰ يبغضهم.

وعلامة هذا الحب والبغض في الله؛ أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حبًا؛ لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضًا إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ويؤلمه: إما خطأ وإما عمدًا، مطيعًا لله فيه، أو متأولاً، أو مجتهدًا، أو باغيًا نازعًا تائبًا.

والدين كله يدور علىٰ أربع قواعد: حب، وبغض، ويترتب عليهما: فعل، وترك، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله، فقد استكمل الإيمان؛ بحيث إذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا فعل فعل لله، وإذا ترك ترك لله، وما نقص من أصنافه هذه الأربعة، نقص من إيمانه ودينه بحسبه.

وهذا بخلاف الحب مع الله، فهو نوع يقدح في أصل التوحيد وهو شرك.

ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام.

فالأول: كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله، فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها: الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره

(١) ٣٠٩ الروح.

الله، ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم، وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته، فكل من عبد شيئًا من لدن عرشه إلى قرار أرضه؛ فقد اتخذ من دون الله إلهًا ووليًّا، وأشرك به كائنًا ذلك المعبود ما كان، ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه.

والنوع الثاني: محبة ما زينه الله للنفوس: من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث؛ فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء، فهذه المحبة ثلاثة أنواع:

فإن أحبها لله: توصلًا بها إليه، واستعانة على مرضاته وطاعته؛ أثيب عليها وكانت من قسم الحب لله توصلاً بها إليه ويلتذ بالتمتع بها، وهذا حال أكمل الخلق الذي حبب إليه من الدنيا: النساء والطيب، وكانت محبته لهما عونًا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره.

وإن أحبها: لموافقة طبعه، وهواه، وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه بل نالها بحكم الميل الطبيعي؛ كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك؛ ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه.

وإن كانت هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه؛ كان ظالمًا لنفسه متبعًا لهواه.

فالأولى: محبة السابقين، والثانية: محبة المقتصدين، والثالثة: محبة الظالمين.

فتأمل: هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة، والمهدي من هداه الله.

[(١)]إذا تبين هذا فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله تعالى بها وخلق خلقه لأجلها؛

(١) ١٣٣ إغاثة جـ٢.

هي محبته وحده لا شريك له، المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه. فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا لله ﷻ وحده.

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلبُ ما يذكر فيها في حق الله تعالىٰ ما يختص به ويليق به: كالعبادة والإنابة والإخباتِ؛ ولهذا لا يذكر فيها لفظ العشق والغرام، والصبابة، والشغف، والهوىٰ، وقد يذكر لها لفظ المحبة، كقوله: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ومدار كتب الله تعالىٰ المنزلة من أولها إلىٰ آخرها، علىٰ الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يضادها وملازمتها، وضرب الأمثال والمقاييس لأهل المحبتين، وذكر قصصهم ومآلهم، ومنازلهم، وثوابهم، وعقابهم.

ولا يجد حلاوة الإيمان، بل لا يذوق طعمه، إلا من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، كما في الصحيحين: من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ـ وفي لفظ: لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث ـ: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالىٰ منه، كما يكره أن يُلْقىٰ في النار**»(١)، وفي الصحيحين أيضًا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٢).

ولهذا اتفقت دعوة الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم؛ علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وأصل العبادة وتمامها وكمالها؛ هو المحبة، وإفراد الرب سبحانه بها فلا يشرك العبد به فيها غيره...

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٦) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٢-٨٣) وشرح النووي (٢/ ١٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤) ومسلم (رقم ٤٤، ٤٥) وانظر: شرح النووي (٢/ ١٦-١٩).

...[1]الفائدة السابعة إذا كان الحكم مستغربًا جدًّا مما لم تألَفْه النفوسُ وإنما ألفت خلافه؛ فينبغي للمفتي أن يوطئ قبله ما يكون مؤذنًا به كالدليل عليه والمقدمة بين يديه.

فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا، وإخراج الولد منه بعد انصرام عصْر الشبيبة وبلوغه السن الذي لا يولد فيه لمثله في العادة.

فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير أب؛ فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يُولد لهما عادة؛ سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب.

وكذلك ذكر سبحانه قبل قصة المسيح مُوافاة مريم رزقها في غير وقته وغير إبانه، وهذا الذي شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان في غير إبَّانه.

***

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[2]مما قدم بالفضل قوله: ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣] لأن السجود أفضل، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

فإن قيل: فالركوع قبله بالطبع والزمان والعادة؛ لأنه انتقال من علو إلى انخفاض، والعلو بالطبع قبل الانخفاض فهلا قدم الركوع.

الجواب: أن يقال: انتبه لمعنى الآية من قوله: ﴿ وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ولم يقل: اسجدي مع الساجدين، فإنما عبر بالسجود عن الصلاة وأراد صلاتها في بيتها؛ لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها مع قومها، ثم قال لها: اركعي مع الراكعين؛ أي: صلي مع المصلين في بيت المقدس، ولم يرد أيضًا الركوع وحده دون أجزاء

(١) ١٦٣ أعلام جـ ٤.

(٢) ٦٤ بدائع جـ ١.

الصلاة؛ ولكنه عبر بالركوع عن الصلاة كما تقول: ركعت ركعتين وأربع ركعات، تريد الصلاة لا الركوع بمجرده، فصارت الآية متضمنة لصلاتين: صلاتها وحدها عبر عنها بالسجود؛ لأن السجود أفضل حالات العبد وكذلك صلاة المرأة في بيتها أفضل لها، ثم صلاتها في المسجد عبر عنها بالركوع؛ لأنه في الفضل دون السجود، وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها وحدها في بيتها ومحرابها، وهذا نظم بديع وفقه دقيق.. وهذه نبذ تشير لك إلىٰ ما وراء أو تنبذك وأنت صحيح بالعراء[(١)].

[(٢)]... وأما قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] فقد أبعد النجعة فيما تسعفه من فائدة التقديم وأتىٰ بما ينبو اللفظ عنه.

وقال غيره: السجود كان في دينهم قبل الركوع. وهذا قائل ما لا علم له به. والذي يظهر في الآية ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ أنها اشتملت علىٰ مطلق العبادة وتفصيلها؛ فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة؛ فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة.

ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده: كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردًا فهو أخص مما قبله.

ففائدة الترتيب؛ النزول من الأعم إلىٰ الأخص، إلىٰ أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام: النزول من الأعم إلىٰ الأخص، وعكسها وهو الترقي من الأخص إلىٰ ما هو أعم منه إلىٰ ما هو أعم ونظيرها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [الحج: ٧٧].

فذكر أربعة أشياء: أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من

(١) في المطبوعة «أو سدل وأنت صحيح» وصححناه من المخطوطة. (ج).
(٢) ٨٠ بدائع جـ١.

السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

والذي يزيد هذا وضوحًا؛ الكلام على ما ذكره بعد هذه الآية من قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] فإنه ذكر أخص هذه الثلاثة: وهو الطواف الذي لا يشرع إلا بالبيت خاصة، ثم انتقل منه إلى الاعتكاف وهو القيام المذكور في الحج، وهو أعم من الطواف، لأنه يكون في كل مسجد ويختص بالمساجد لا يتعداها، ثم ذكر الصلاة التي تعم سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع أو استثنى شرعًا.

وإن شئت قلت: ذكر الطواف الذي هو أقرب العبادات بالبيت، ثم الاعتكاف الذي يكون في سائر المساجد، ثم الصلاة التي تكون في البلد كله بل في كل بقعة، فهذا تمام الكلام على ما ذكره من الأمثلة...

***

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(١)من طرق الأحكام؛ الحكم بالقرعة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] قال قتادة: «كانت مريم ابنه إمامهم وسيدهم فتشاح عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا عليها بسهامهم: أيهم يكفلها؟ فقرع زكريا، وكان زوج أختها، فضمها إليه».

وروي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس: «لما وضعت مريم في المسجد اقترع عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها» وهذا متفق عليه بين أهل التفسير.

---

(١) ٢٨٧ الطرق الحكمية.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤١] يقول تعالىٰ: فقارع، فكان من المغلوبين.

فهذان نبيان كريمان استعملا القرعة، وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»**(١).

وفي الصحيحين أيضًا عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه»(٢).

وفي صحيح مسلم: عن عمران بن حصين: «أن رجلًا أعتق ستة مملوكين له عند موته، لم يكن له مال غيرهم، فدعاهم رسول الله ﷺ، فجزأهم أثلاثًا، ثم أقرع بينهم، فأعتق اثنين، وأرقَّ أربعة، وقال له قولًا شديدًا»(٣).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ عرض على قوم اليمين، فسارعوا إليه، فأمر أن يسهم بينهم في اليمين: أيهم يحلف»(٤).

وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: **«إذا أكره اثنان على اليمين، أو استحباها، فليستهما عليها»**(٥). وفي رواية أحمد: **«إذا أكره اثنان على اليمين أو استحباها»**(٦). وفيه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٥) ومسلم (رقم ٤٣٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٩٥) وشرح النووي (٤/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٩٣) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٥٨) وعمدة القاري (١٣/ ٢٢٤-٢٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٦٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٥٩) وشرح النووي (١١/ ١٣٩-١٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٥) وعون المعبود (١٠/ ٣٣).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ٣٦١٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٥-٢٨٦) وعون المعبود (١٠/ ٣٣) وقال ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٥٣٩ رقم ٢٢٠٦): هذا الحديث رجاله رجال الصحيحين.

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٧).

أيضًا: أن رجلين اختصما في متاع إلى النبي ﷺ وليس لواحد منهما بينة، فقال: «استهما على اليمين ما كان، أحبا ذلك أو كرها»[(١)].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: أتى رسول الله ﷺ رجلان يختصمان في مواريث لهما، لم تكن لهما بينة إلا دعواهما، فقال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئًا، فإنما أقطع له قطعة من النار»[(٢)].

ورواه أبو داود في السنن، وفيه: فبكى الرجلان، وقال كل واحد منهما: حقي لك، فقال لهما النبي ﷺ: «أما إذا فعلتما ما فعلتما فاقتسما، وتوخيا الحق، ثم استهما، ثم تحالا»[(٣)].

فهذه السنة ـ كما ترى ـ قد جاءت بالقرعة، كما جاء بها الكتاب، وفعلها أصحاب رسول الله ﷺ، بعده.

قال البخاري في صحيحه: «ويذكر أن قومًا اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد»[(٤)].

وقد صنف أبو بكر الخلال مصنفًا في القرعة، وهو في جامعه، فذكر مقاصده.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٦١٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٥٥ رقم ٢١٠٠٤) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٦٧) ومسلم (رقم ١٧١٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٨-٢٨٩) وشرح النووي (١٢/ ٤-٥).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٣٥٨٤) وابن الجارود في المنتقى (رقم ١٠٠٠) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٦٠ رقم ٢١٠٣٣) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٤) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٢١ رقم ٣٦٤٨٩) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٤/ ٦١ رقم ١٨٢٣) وانظر: فتح الباري (١٣/ ١٧٤-١٧٦).

(٤) ذكره البخاري في كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان (ص ١٣٤). وانظر: السنن الكبرى للبيهقي (١/ ٤٢٨) وعمدة القاري (٥/ ١٢٤) وفيض القدير (٥/ ٣٣٧) والمغني (١٠/ ٢٩٩) ونيل الأوطار (٥/ ٣٧٨).

قال أحمد في رواية إسحاق بن إبراهيم وجعفر بن محمد: القرعة جائزة.

وقال يعقوب بن بُختان: سئل أبو عبد الله عن القرعة، ومن قال: إنها قمار.

قال: إن كان ممن سمع الحديث، فهذا كلام رجل له خبر، يزعم أن حكم رسول الله ﷺ قمار.

وقال المروذي: قلت لأبي عبد الله: إن ابن أكثم يقول: إن القرعة قمار، قال: هذا قول رديء خبيث، ثم قال: كيف؟ وقد يحكمون هم بالقرعة في وقت إذا قسمت الدار، ولم يرضوا، قالوا: يقرع بينهم، وهو يقول: لو أن رجلاً له أربع نسوة فطلق إحداهن، وتزوج الخامسة، ولم يدر أيتهن التي طلق؟ قال: يورثهن جميعًا، ويأمرهن أن يعتددن جميعًا، وقد ورّث من لا ميراث لها، وقد أمر أن تعتد من لا عدة عليها، والقرعة تصيب الحق، فعلها النبي ﷺ.

وقال أبو الحارث: كتبت إلىٰ أبي عبد الله أسأله، فقلت: إن بعض الناس ينكر القرعة، ويقول: هي قمار اليوم، ويقول: هي منسوخة؟ فقال أبو عبد الله: من ادعىٰ أنها منسوخة؛ فقد كذب وقال الزور، القرعة سنة رسول الله ﷺ[1]، أقرع في ثلاثة مواضع: أقرع بين الأعبد الستة، وأقرع بين نسائه لما أراد السفر، وأقرع بين رجلين تدارءا في دابة، وهي في القرآن في موضعين.

قلت: يريد أنه أقرع بنفسه في ثلاثة مواضع، وإلا فأحاديث القرعة أكثر وقد تقدم ذكرها.

قال: وهم يقولون إذا اقتسموا الدار والأرضين: أقرع بين القوم، فأيهم أصبته القرعة؛ كان له ما أصاب من ذلك، يجبر عليه.

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٣/ ٥٦).

وقال الأثرم: إن أبا عبد الله ذكر القرعة واحتج بها، وبينها، وقال: إن قومًا يقولون: القرعة قمار، ثم قال أبو عبد الله: هؤلاء قوم جهلوا، فيها عن النبي ﷺ خمس سنن[(١)].

قال الأثرم: وذكرت له أنا حديث الزبير في الكفن، فقال: حديث أبي الزناد؟ فقلت: نعم، قال أبو عبد الله: قال أبو الزناد: يتكلمون في القرعة، وقد ذكرها الله تعالىٰ في موضعين من كتابه.

وقال حنبل: سمعت أبا عبد الله قال في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[الصافات: ١٤١] أي: أقرع، فوقعت القرعة عليه، قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: القرعة حكم رسول الله ﷺ، وقضاؤه، فمن رد القرعة، فقد رد علىٰ رسول الله ﷺ قضاءه وفعله، ثم قال: سبحان الله لمن قد علم بقضاء النبي ﷺ، ويفتي بخلافه! قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾[النساء: ٥٩].

قال حنبل: وقال عبد الله بن الزبير الحميدي: من قال بغير القرعة، فقد خالف رسول الله ﷺ في سنته التي قضىٰ بها، وقضىٰ بها أصحابه بعده.

وقال في رواية الميموني: في القرعة خمس سنن: حديث أم سلمة: «**إن قومًا أتوا النبي ﷺ في مواريث وأشياء درست بينهم، فأقرع بينهم**»[(٢)]، وحديث أبي هريرة ـ حين تداريا في دابة ـ فأقرع بينهما، وحديث: الأعبد الستة، وحديث: أقرع بين نسائه، وحديث علي.

وقد ذكر أبو عبد الله من فعلها بعد النبي ﷺ فذكر ابن الزبير، وابن المسيب، ثم تعجب من أصحاب الرأي وما يردون من ذلك.

(١) انظر: المغني (١٠/ ٢٩٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٥١) وفتح الباري (١٣/ ١٧٣) وعمدة القاري (٢٤/ ٢٥٧) والمغني (٤/ ٣١٧) (٥/ ٣٨٥) ونيل الأوطار (٥/ ٣٧٦).

قال الميموني وقال لي أبو عبيد القاسم بن سلام ـ وذاكرني أمر القرعة ـ فقال: أرى أنها من أمر النبوة، وذكر قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ [الصافات: ١٤١].

...[(١)]وأما من نصر القول بالقرعة، فقالوا: إن الشارع جعل القرعة معينة في كل موضع تتساوى فيه الحقوق، ولا يمكن التعيين إلا بها؛ إذ لولاها لزم أحد باطلين:

إما الترجيح بمجرد الاختيار والشهوة وهو باطل في تصرفات الشارع.

وإما التعطيل ووقف الأعيان، وفي ذلك تعطيل الحقوق وتضرر المكلفين بما لا تأتي به الشريعة الكاملة؛ بل ولا السياسة العادلة، فإن الضرر الذي في تعطيل الحقوق؛ أعظم من الضرر المقدر في القرعة بكثير، ومحال أن تجيء الشريعة بالتزام أعظم الضررين لدفع أدناهما.

وإذا عرف هذا؛ فالحق إذا كان لواحد غير معين؛ فإن القرعة تعينه فيسعد الله بها من يشاء، ويكون تعيين القرعة له هو غاية ما يقدر عليه المكلف، فالتعيين بها تعيين لتعلق حكم الله لما عينته، فهي دليل من أدلة الشرع واجب العمل به؛ وإن كان في نفس الأمر بخلافه، كالبينة والإقرار والنكول، فإنها أدلة منصوبة من الشارع لفصل النزاع؛ وإن كانت غير مطابقة لمتعلقها في بعض الصور؛ فلهذا نصب الشارع القرعة معينة للمستحق قاطعة للنزاع؛ وإن تعلقت بغير صاحب الحق في نفس الأمر، فإن جماعة المستحقين إذا استووا في سبب الاستحقاق لم تكن القرعة ناقلة لحق أحدهم ولا مبطلة له،بل لما لم يمكن تعميمهم كلهم ولا حرمانهم كلهم، وليس أحدهم أولى بالتعيين من الآخرين؛ جعلت القرعة فاصلة بينهم معينة لأحدهم، فكأن المقرع يقول: اللهم قد ضاق الحق عن الجميع وهم عبيدك فخص بها من تشاء منهم به، ثم تلقى فيسعد الله بها من يشاء ويحكم بها على من يشاء، وهذا سر القرعة في الشرع.

---

(١) ٢٦٢ بدائع جـ٣.

وبهذا علم بطلان قول من شبهها بالقمار هو ظلم وجور، وكيف يلحق غاية الممكن من العدل والمصلحة بالظلم والجور، هذا من أفسد القياس وأظهره بطلانًا، وهو كقياس البيع على الربا، فإن الشريعة فرقت بين القرعة والقمار، كما فرقت بين الربا والبيع، فأحل الله البيع وحرم الربا، وأحل الشارع القرعة وحرم القمار، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] وقال تعالى إخبارًا عن ذي النون: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات: ١٤١].

وقد احتج الأئمة بشرع من قبلنا جاء ذلك منصوصًا عنهم في مواضع، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه...

***

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

[(١)] قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن أبي محمد، مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا، وقال النصارى: ما كان إلا نصرانيًا، فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

(١) ٨٠ زاد المعاد جـ ٣.

تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[(١)] [آل عمران: ٦٥-٦٨]، فقال رجل من الأحبار: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل من نصارى نجران: أوذلك تريد يا محمد؟ وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا أمرني» فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[(٢)] [آل عمران: ٧٩-٨٠].

ثم ذكر ما أخذ عليهم وعلى آبائهم من الميثاق بتصديقه وإقرارهم به على أنفسهم، فقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

وحدثني محمد بن سهل بن أبي أمامة قال: «لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، يسألونه عن عيسى ابن مريم، نزل فيهم فاتحة آل عمران إلى رأس الثمانين منها»[(٣)].

وروينا عن أبي عبد الله الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن سلمة بن عبد يُوشع، عن أبيه، عن جده ـ قال يونس: وكان نصرانيًّا فأسلم ـ؛ أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران: «باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد: فإن أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب، والسلام» فلما أتى الأسقف الكتاب،

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٣٠٥) وانظر: تفسير السيوطي (٢/ ٢٣٥) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٧٣) والتفح السماوي للمناوي (١/ ٣٦٩).
(٢) انظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (١/ ١٩١) والدر المنثور (٢/ ٢٣٥).
(٣) انظر: الدر المنثور (٢/ ١٤٢).

فقرأه، فظع به وذعر به ذعرًا شديدًا، فبعث إلىٰ رجل من أهل نجران، يقال له: شُرَحْبيل ابن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن أحد يدعي إذا نزلت معضلة قبله ـ لا الأيهم ولا السيد، ولا العاقب ـ فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إليه فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يؤمن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأي، وجهدت لك فيه فقال الأسقف: تنحَّ فاجلس، فتنحىٰ شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له: عبدالله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف: تنح فاجلس، فتنحىٰ ناحية فجلس، فبعث الأسقف إلىٰ رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض من بني الحارث بن كعب فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبدالله، فأمره الأسقف فتنحىٰ فجلس ناحية، فلما اجتمع الرأي منهم علىٰ تلك المقالة جميعا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به ورُفعت النيران والمسوح في الصوامع ـ وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار وإذا كان فزعهم بالليل ضرب الناقوس ورفعت النيران في الصوامع ـ فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي: أعلاه وأسفله ـ وطول الوادي: مسيرة يوم للراكب السريع ـ وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه؟ فاجتمع رأي أهل الراي منهم علىٰ أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي وجبار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ، فانطلق الوفد حتىٰ إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حللا لهم يجرونها من الحبرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتىٰ أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام وتصدوا لكلامه نهارًا طويلًا، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف ـ وكانا معرفة لهم كانا يخرجان

بالعير في الجاهلية إلى نجران فيشترى لهما من برها وثمرها وذرتها ـ فوجدوهما في ناس من الأنصار والمهاجرين في مجلس، فقالوا يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد علينا سلامنا وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فأعيانا أن يكلمنا فما الرأي منكما أترون أن نعود؟ فقالا لعلي بن أبي طالب ـ وهو في القوم ـ: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم، ثم يأتوا إليه ـ ففعل الوفد ذلك، فوضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله فسلموا عليه، فرد سلامهم، ثم قال: «والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى، وإن إبليس لمعهم» ثم سألهم وسألوه؟ فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له: ما تقول في عيسى؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، فيسرنا إن كنت نبيا أن نعلم ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله لي في عيسى» فأصبح الغد وقد أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران ٥٩-٦١] فأبوا أن يقروا لذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد بعدما أخبرهم الخبر؛ أقبل مشتملًا على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبد الله بن شرحبيل، ويا جبار بن فيض، قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمرًا مقبلًا، وأرى والله إن كان هذا الرجل ملكًا مبعوثًا، فكنا أول العرب طعن في عيبته ورد عليه أمره؛ لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جوارًا، ولئن كان هذا الرجل نبيًّا مرسلًا فلاعنَّاه؛ فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، فقال له صاحباه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقد

وضعتك الأمور علىٰ ذراع. فهات رأيك، فقال: إني أرىٰ أن أحكمه، فإني أرىٰ رجلًا لا يحكم شططًا أبدًا، فقالا له: أنت وذاك، فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال: إني قد رأيت خيرًا من ملاعنتك، فقال: «وما هو»؟ قال شرحبيل: أحكمك اليوم إلىٰ الليل وليلتك إلىٰ الصباح، فمهما حكمت فينا؛ فهو جائز؛ فقال رسول الله ﷺ: «لعل وراءك أحدًا يُثرِّب عليك» فقال له شرحبيل: سل صاحبَيَّ فسألهما؟ فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل، فقال رسول الله ﷺ: «كافر ـ أو قال: جاحد ـ موفق» فرجع رسول الله ﷺ، ولم يلاعنهم، حتىٰ إذا كان من الغد أتوه، فكتب لهم في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لنجران، إذ كان عليهم حكمه: في كل ثمرة، وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق، فأفضل عليهم، وترك ذلك كله علىٰ ألفي حلة، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، وكل حلة أوقية، ما زادت علىٰ الخراج أو نقصت علىٰ الأواقي فبحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب، وعلىٰ نجران مثواة رسلي ومتعتهم بها عشرين فدونه، ولا يحبس رسول فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، إذا كان كيد باليمن ومغدرة، وما هلك مما أعاروا رسولي: من دروع أو خيل أو ركاب؛ فهو ضمان علىٰ رسولي حتىٰ يؤديه إليهم، ولنجران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبي علىٰ أنفسهم وملتهم، وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وتبعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وَقِهٌ عن وقهيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ريبه ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقًا، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين. ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلىٰ ما في هذه الصحيفة جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، حتىٰ يأتي الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم، غير منقلبين بظلم، شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف،

والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة وكتب» حتى إذا قضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران، فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة، ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن عمه من النسب، يقال له بشر بن معاوية، وكنيته: أبو علقمة فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينا هو يقرؤه ـ وأبو علقمة معه وهما يسيران ـ إذ كبت ببشر ناقته، فتعس بشر ـ غير أنه لا يكني عن رسول الله ﷺ ـ فقال له الأسقف عند ذلك: قد تعست والله نبيًّا مرسلًا، فقال بشر: لا جرم والله، لا أحل عنها عقدًا حتى آتيه فضرب وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه، فقال له: افهم عني. إنما قلت هذا لتبلغ عني العرب، مخافة أن يقولوا: إنا أخذنا حمقة، أو نجعنا بهذا الرجل بما لم تنتجع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم دارًا. فقال له بشر: لا والله، لا أقيلك ما خرج من رأسك أبدًا، فضرب بشر ناقته وهو مول ظهره للأسقف، وهو يقول:

إليك تعدو قلقًا وضينها ... معترضًا في بطنها جنينها

مخالفًا دين النصارى دينها[1]

حتى أتى النبي ﷺ فأسلم. ولم يزل أبو علقمة مع النبي ﷺ حتى استشهد بعد ذلك، ودخل الوفد نجران: فأتى الراهب لتب بن أبي شمر الزبيدي، وهو في رأس صومعة له، فقال له: إن نبيًّا قد بعث بتهامة، وإنه كتب إلى الأسقف، فأجمع أهل الوادي أن يسيِّروا إليه: شرحبيل بن وداعة، وعبدالله بن شرحبيل، وجبار بن فيض، فيأتونهم بخبره، فساروا حتى أتوه، فدعاهم إلى المباهلة، فكرهوا ملاعنته، وحكمه شرحبيل، فحكم

(١) أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عمر يتمثل بهذا البيت. وذكرته (٥/ ٢٧٥ رقم ٢٦٠٤١) بينما أخرج الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٢ رقم ٩٢١) عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ أفاض من عرفات وهو يقول:

«إليك تعدو قلقًا وضينها ... مخالفًا دين النصارى دينها»

وأخرجه أيضًا في معجمه الكبير (١٢/ ٣٠٨ رقم ١٣٢٠١) وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٣١٥) (٥/ ٥٨٥).

عليهم حكمًا، وكتب لهم كتابًا. ثم أقبل الوفد بالكتاب حتى دفعوه إلى الأسقف، فبينا الأسقف يقرؤه وبشر أبو علقمة معه كبت ببشر ناقته فتعسه. فشهد الأسقف أنه نبي مرسل، فانصرف أبو علقمة نحوه يريد الإسلام. فقال الراهب: أنزلوني، وإلا رميت بنفسي من هذه الصومعة، فأنزلوه. فانطلق الراهب بهدية إلى رسول الله ﷺ، منها هذا البرد الذي يلبسه الخلفاء، والقعب والعصا، وأقام الراهب بعد ذلك يسمع كيف ينزل الوحي والسنن والفرائض والحدود، وأبى الله للراهب الإسلام فلم يسلم، واستأذن رسول الله ﷺ، في الرجعة إلى قومه، وقال: إن لي حاجة ومعادًا إن شاء الله تعالى. فرجع إلى قومه، فلم يعد حتى قبض رسول الله ﷺ. وإن الأسقف أبا الحارث أتى رسول الله ﷺ، ومعه السيد والعاقب ووجوه قومه، وأقاموا عنده يستمعون ما أنزل الله عليه، فكتب للأسقف هذا الكتاب وللأساقفة بنجران بعده: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي، إلى الأسقف أبي الحارث وأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وأهل بيعهم ورقيقهم وملتهم وسواقتهم، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير: جوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا سلطانهم، ولا مما كانوا عليه، على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا، ما نصحوا وأصلحوا عليهم، غير منقلبين بظالم ولا ظالمين، وكتب المغيرة بن شعبة**» فلما قبض الأسقف الكتاب استأذن في الانصراف إلى قومه ومن معه، فأذن لهم فانصرفوا(١).

وروى البيهقي بإسناد صحيح إلى ابن مسعود: «أن السيد والعاقب أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يلاعنهما، فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه، فوالله إن كان نبيًّا فلاعنته، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، ثم قالوا له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلًا أمينًا

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٧٠-٣٧١) والدر المنثور (٢/ ٢٢٩-٢٣٠) والطبقات الكبرى (١/ ٢٨٦-٢٨٨).

حق أمين، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال النبي ﷺ: «**لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين**» فاستشرف لها أصحابه، فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**» فلما قام قال: «**هذا أمين هذه الأمة**»[(١)]. ورواه البخاري في صحيحه من حديث حذيفة بنحوه.

وفي صحيح مسلم: من حديث المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ، إلى نجران، فقالوا فيما قالوا: أرأيت ما يقرؤون ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وقد كان بين عيسى وموسى ما قد علمتم؟ قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «**أفلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون ـ بأسماء أنبيائهم والصالحين الذين كانوا قبلهم**»[(٢)].

وروينا عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق قال: «وبعث رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم»[(٣)].

فصل في فقه هذه القصة:

ففيها: جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.

وفيها: تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضًا، إذا كان ذلك عارضًا، ولا يمكّنون من اعتياد ذلك.

وفيها: أن مجرد إقرار الكافر الكتابي لرسول الله ﷺ بأنه نبي لا يدخله في الإسلام، ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فإذا تمسك بدينه بعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه.

ونظير هذا؛ قول الحبرين له ـ وقد سألاه عن ثلاث مسائل ـ فلما أجابهما قالا: نشهد أنك نبي، قال «**فما يمنعكما من اتباعي؟**» قالا: نخاف أن تقتلنا اليهود[(٤)]، ولم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٨١) ومسلم (رقم ٢٤٢٠) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢١٣٥) وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٤٢-١٤٣ رقم ٦٢٥٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٨) وشرح النووي (١٤/ ١١٧).

(٣) أخرجه أبو عوانه في مسنده (٤/ ٢٦٤ رقم ٦٩٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٢٨ رقم ٣٦٥٤٣) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٤١٤ رقم ٢٤٦٥) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١٠-١١ رقم ٤٥٠) والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٣٢٨-٣٢٩) والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ٢٤٨).

يلزمها بذلك الإسلام.

ونظير ذلك شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق، وأن دينه من خير أديان البرية دينًا، ولم تدخله هذه الشهادة في الإسلام.

ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق، وأن هذه الشهادة لم تدخلهم في الإسلام، علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل هو: المعرفة والإقرار، والانقياد، والتزام طاعته واتباع شرائعه، ظاهرًا وباطنًا.

وقد اختلف أئمة الإسلام في الكافر إذا قال: «**أشهد أن محمدًا رسول الله**» ولم يزد: هل يحكم بإسلامه بذلك؟ على ثلاثة أقوال، وهي ثلاث روايات عن أحمد:

إحداها: يحكم بإسلامه بذلك.

والثانية: لا يحكم بإسلامه حتى يأتي بشهادة: أن لا إله إلا الله.

والثالثة: أنه إذا كان مقرًّا بالتوحيد حكم بإسلامه، وإن لم يكن مقرًّا لم يحكم بإسلامه، حتى يأتي به. وليس هذا موضع استيفاء هذه المسألة، وإنما أشرنا إليها إشارة، وأهل الكتابين مجمعون على أن نبيًّا يخرج في آخر الزمان، وهم ينتظرونه. ولا يشك علماؤهم أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وإنما يمنعهم من الدخول في الإسلام رئاستهم على قومهم، وخضوعهم لهم، وما ينالونه منهم من المال والجاه.

وفيها: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم - بل استحباب ذلك؛ بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته: من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم - ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليول ذلك أهله وليخل بين المطي وحاديها، والقوس وباريها، ولولا خشية الإطالة؛ لذكرنا من الحجج التي تلزم أهل الكتابين الإقرار بأنه رسول الله بما في كتبهم، وبما يعتقدونه مما لا يمكنهم دفعه؛ ما يزيد على مائة طريق، ونرجو من الله سبحانه أن يوفق لإفرادها بمصنف مستقل.

ودار بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: ولا يتم لكم القدح في نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن في الرب تبارك وتعالىٰ، والقدح فيه ونسبته إلىٰ أعظم الظلم والسفه والفساد، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقال: كيف يلزمنا ذلك؟ قلت: بل أبلغ من ذلك. لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالىٰ. وبيان ذلك أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبيٍ صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري علىٰ الله، ويتقول عليه ما لم يقله، ثم يتم الله له ذلك ويستمر حتىٰ يحلل ويحرم ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم وأولادهم ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك حتىٰ يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلىٰ أمر الله تعالىٰ له به، ومحبته له، والرب تعالىٰ يشاهده وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثًا وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويعلي أمره، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر. وأعجب من ذلك: أنه يجيب دعوته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه، وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه ﷺ، ومع ذلك: يقضي له كل حاجة سأله إياها، ويعده كل وعد جميل، ثم ينجز له وعده علىٰ أتم الوجوه وأهنئها وأكملها ـ هذا ـ وهو عندكم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممن كذب علىٰ الله واستمر علىٰ ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعىٰ في رفعها من الأرض وتبديلها بما يريد هو وقتل أولياء الله وحزبه وأتباع رسله، واستمرت نصرته عليهم دائمًا، والله تعالىٰ في ذلك كله يقره ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين. وهو يخبر عن ربه: أنه أوحىٰ إليه أنه لا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] فيلزمكم معاشر من كذبه أحدًا أمرين، لا بد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم لأخذ علىٰ يديه، ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالًا للظالمين؛ إذ لا يليق بالملوك غير

هذا. فكيف بملك السماوات والأرض وأحكم الحاكمين.

الثاني: نسبة الرب إلىٰ ما لا يليق به من الجور والسّفه والظلم، وإضلال الخلق دائمًا أبد الآباد، لا بل نصرة الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعوته، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائمًا، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة، قرنًا بعد قرن علىٰ رؤوس الأشهاد في كل مجمع ونادٍ، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين؟ فلقد قدحتم في رب العالمين أعظم قدح، وطعنتم فيه أشد طعن وأنكرتموه بالكلية. ونحن لا ننكر أن كثيرًا من الكذابين قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم له أمر، ولم تطل مدته، بل سلط عليه رسله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واستأصلوا شأفته، هذه سنته في عباده منذ قامت الدنيا وإلىٰ أن يرث الأرض ومن عليها. فلما سمع مني هذا الكلام قال: معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب، بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه، واقتفىٰ أثره؛ فهو من أهل النجاة والسعادة في الأخرىٰ.

قلت له: فكيف يكون سالك طريق الكذاب ومقتفي أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة، فلم يجد بدًّا من الاعتراف برسالته، ولكن لم يرسل إليهم.

قلت: فقد لزمك تصديقه، ولابد، وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلىٰ الناس أجمعين: كتابيِّهم وأميهم، ودعا أهل الكتاب إلىٰ دينه، وقاتل من لم يدخل في دينه منهم، حتىٰ أقروا بالصغار والجزية، فبُهت الكافر ونهض من فوره. والمقصود أن رسول الله ﷺ، لم يزل في جدال الكفار علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم إلىٰ أن توفي. وكذلك أصحابه من بعده. وقد أمره سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السورة المكية والمدينة. وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلىٰ المباهلة وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصرًا للحجة وأعدل السيوف: سيف ينصر حجج الله وبيناته. وهو سيف رسوله وأمته.

وفيها: أن من عظَّم مخلوقًا فوق منزلته التي يستحقها؛ بحيث أخرجه عن منزلة

العبودية المحضة؛ فقد أشرك بالله، وعبد مع الله غيره، وذلك مخالف لجميع دعوة الرسل.

وأما قوله: إنه ﷺ كتب إلىٰ نجران: «**باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب**» فلا أظن ذلك محفوظًا، وقد كتب إلىٰ هرقل: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» وهذه كانت سنته في كتبه إلىٰ الملوك، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ. وقد وقع في هذه الرواية هذا، وقال: إن ذلك قبل أن ينزل عليه: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١] وذلك غلط علىٰ غلط، فإن هذه السورة مكية باتفاق، وكتابه إلىٰ نجران بعد مرجعه من تبوك.

وفيها: جواز إهانة رسل الكفار، وترك كلامهم، إذا ظهر منهم التعاظم والتكبر؛ فإن رسول الله ﷺ، لم يكلم الرسل، ولم يرد السلام عليهم حتىٰ لبسوا ثياب سفرهم، وألقوا حللهم وحلاهم.

ومنها: أن السنة في مجادلة أهل الباطل ـ إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا؛ بل أصروا علىٰ العناد ـ أن يدعوهم إلىٰ المباهلة. وقد أمر الله سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك، ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة. ودعا إليه الأوزاعي وسفيان الثوري في مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك. وهذا من تمام الحجة.

وفيها: جواز صلح أهل الكتاب علىٰ ما يريد الإمام: من الأموال، ومن الثياب وغيرها، ويجري ذلك مجرىٰ ضرب الجزية عليهم، فلا يحتاج إلىٰ أن يفرد كل واحد منهم بجزية، بل يكون ذلك المال جزية عليهم، يقتسمونها كما أحبوا.

ولما بعث معاذًا إلىٰ اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم دينارًا، أو عدله معافريًّا[(١)].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٢/ ١١ رقم ٢٢٣٠) وفي الصغرىٰ (رقم ٢٤٥٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٨٧ رقم ١٨٤٢٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٨ رقم ٣٢٦٣٥) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٢٩ رقم ٢٦٢) وأحمد (٥/ ٢٣٣) والطيالسي (رقم ٥٦٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٦٠) والتمهيد (٢/ ١٢٩) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ١٢٢): وقال أبو داود: هو حديث منكر، وقال: وبلغني =

والفرق بين الموضعين: أن أهل نجران لم يكن فيهم مسلم. وكانوا أهل صلح، وأما اليمن فكانت دار إسلام، وكان فيهم يهود، فأمره أن يضرب الجزية على كل واحد منهم. والفقهاء يخصون الجزية بهذا القسم دون الأول، وكلاهما جزية؛ فإنه مال مأخوذ من الكفار على وجه الصَّغار في كل عام.

وفيها: جواز أخذ الحلل في الذمة، كما تؤخذ في الدية أيضًا. وعلى هذا: يجوز ثبوتها في الذمة بعقد السلم وبالضمان وبالتلف، كما تثبت فيها بعقد الصداق والخلع.

وفيها: أنه يجوز معاوضتهم على ما صالحوا عليه من المال بغيره من أموالهم بحسابه.

وفيها: اشتراط الإمام على الكفار: أن يؤووا رسله ويكرموهم، ويضيفوهم أيامًا معدودة.

وفيها: جواز اشتراطه عليهم عارية ما يحتاج المسلمون إليه: من سلاح أو متاع أو حيوان وأن تلك العارية مضمونة، لكن هل هي مضمونة بالشرط أو بالشرع؟ هذا محتمل، وهذا محتمل، وقد تقدم الكلام عليه في غزوة حنين، وقد صرح هاهنا بأنها مضمونة بالرد، ولم يتعرض لضمان التلف.

وفيها: أن الإمام لا يقر أهل الكتاب على المعاملات الربوية؛ لأنها حرام في دينهم وهذا كما لا يقرهم على السكر، ولا على اللواط والزنى، بل يحدهم على ذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أن يؤخذ رجل من الكفار بظلم آخر، كما لا يجوز ذلك في حق المسلمين، وكلاهما ظلم.

وفيها: أن عقد العهد والذمة مشروط بنصح أهل العهد والذمة وإصلاحهم، فإذا غشوا المسلمين وأفسدوا: في دينهم فلا عهد لهم، ولا ذمة. وبهذا أفتينا نحن وغيرنا

=

عن أحمد أنه كان ينكره وأعله ابن حزم بالانقطاع وأن مسروقًا لم يلق معاذًا، وفيه نظر، وقال الترمذي: حديث حسن، وذكر أن بعضهم رواه مرسلًا، وأنه أصح. وكذا ذكر ابن الملقن في خلاصة البدر ا لمنير (٢/ ٣٥٩) وزاد فيه: وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

في انتقاض عهدهم لما حرقوا الحريق العظيم في دمشق، حتى سرى إلى الجامع، وبانتقاض عهد من واطأهم وأعانهم بوجه ما؛ بل ومن علم ذلك ولم يرفعه إلى ولي الأمر، فإن هذا من أعظم الغش والضرر بالإسلام والمسلمين.

وفيها: بعث الإمام الرجل العالم إلى أهل الذمة في مصلحة الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون أمينًا، وهو الذي لا غرض له ولا هوى، وإنما مراده؛ مجرد مرضاة الله ورسوله، لا يشوبها بغيرها. فهذا هو الأمين حق الأمين، كحال أبي عبيدة بن الجراح.

وفيها: مناظرة أهل الكتاب وجوابهم عما سألوه عنه، فإن أشكل على المسؤول سأل أهل العلم.

وفيها: أن الكلام عند الإطلاق يحمل على ظاهرة، حتى يقوم دليل على خلافه، وإلا لم يشكل على المغيرة قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ [مريم: ٢٨] هذا؟ وليس في الآية ما يدل على أنه هارون بن عمران، حتى يلزم الإشكال، بل المورد ضم إلى هذا، أنه هارون بن عمران، ولم يكتف بذلك حتى ضم إليه؛ أنه أخو موسى بن عمران، ومعلوم؛ أنه لا يدل اللفظ على شيء من ذلك، فإيراده إيراد فاسد، وهو إما: من سوء الفهم، أو فساد القصد.

وأما قول ابن إسحاق: «إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب ﷺ إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم» فقد يظن أنه كلام متناقض، لأن الصدقة والجزية لا تجتمعان، وأشكل منه ما ذكره هو وغيره: «أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر ـ أو جمادى الأولى ـ سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، «**فإن استجابوا، فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم**» فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركاب يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله، فكتب إليه رسول الله ﷺ، أن يقبل،

ويُقبل إليه وفدهم»[١].

وقد تقدم «أنهم وفدوا على رسول الله فصالحهم على ألفي حلة، وكتب لهم كتاب أمن، وأن لا يغيروا عن دينهم ولا يحشروا ولا يعشروا».

وجواب هذا: أن أهل نجران كانوا صنفين: نصارى، وأميين، فصالح النصارى على ما تقدم، وأما الأميون منهم فبعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا، وقدم وفدهم على النبي ﷺ وهم الذين قال لهم رسول الله ﷺ: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية» قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحدًا بظلم، قال: «صدقتم» وأمّر عليهم قيس بن الحصين[٢]، وهؤلاء هم بنو الحارث بن كعب، فقوله: «بعث عليًّا إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم أو جزيتهم» أراد به الطائفتين من أهل نجران: صدقات من أسلم منهم، وجزية النصارى.

[٣]قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين؛ بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعًا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجودَ عيسى من غير أب من يقرُّ بوجود آدم من غير أب ولا أم؟ ووجود حوَّاء من غير أم؟ فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصحُّ تعليق الإيجاد والخلق به.

***

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

[٤]قد وبخهم الله سبحانه، وبكتهم على لسان رسوله بالتحريف والكتمان والإخفاء،

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٥/ ٢٩٧).
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٥/ ٢٩٨).
(٣) ١٣٤ أعلام جـ١.
(٤) ٤٩ هداية.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وأما التحريف، فقد أخبر سبحانه عنهم في مواضع متعددة، وكذلك ليّ اللسان بالكتاب، ليحسبه السامع منه وما هو منه، فهذه خمسة أمور:

أحدها: لبس الحق بالباطل، وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.

الثاني: كتمان الحق.

الثالث: إخفاؤه، وهو قريب من كتمانه.

الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.

الخامس: ليُّ اللسان به؛ ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره، وهذه الأمور إنما ارتكبوها لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك، فإذا عادوا الرسول وجحدوا نبوته وكذبوه وقاتلوه، فهم إلى أن يجحدوا نعته وصفته، ويكتموا ذلك ويزيلوه عن مواضعه ويتأوّلوه على غير تأويله، أقرب بكثير، وهكذا فعلوا ولكن لكثرة البشارات وتنوعها غلبوا عن كتمانها وإخفائها، فصاروا إلى تحريف التأويل وإزالة معناها عمن لا تصلح لغيره، وجعلها لمعدوم لم يخلقه الله ولا وجود له ألبتة.

[(١)]الثاني عشر: أنه من الممتنع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الإخبار بهذا الأمر العظيم، الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة؛ أمر أعظم منه ولا شأن أكبر منه، فإنه قلب العالم، وطبق مشارق الأرض ومغاربها، واستمر على العالم على تعاقب القرون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومثل هذا النبأ العظيم لابد أن تتطابق الرسل على الإخبار به.

وإذا كان الدجال رجل كاذب يخرج في آخر الزمان، وبقاؤه في الأرض أربعين يومًا؛ قد تطابقت الرسل على الإخبار به، وأنذر به كل نبي قومه من نوح إلى خاتم الرسل، فكيف تتطابق الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها على السكوت عن الإخبار بهذا الأمر العظيم، الذي لم يطرق العالم؛ أمر أعظم منه ولا يطرقه أبدًا. هذا ما لا يسوغه عقل عاقل، وتأباه حكمة أحكم الحاكمين، بل الأمر بضد ذلك.

وما بعث الله سبحانه نبيًّا، إلا أخذ عليه الميثاق بالإيمان بمحمد وتصديقه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١]. وقال ابن عباس: ما بعث الله من نبي إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وليتابعنه[(٢)].

[(٣)]إن هؤلاء المعارضين للكتاب والسنة بعقلياتهم التي هي في الحقيقة جهليات؛ إنما يبنون أمرهم في ذلك على أقوال مشتبهة مجملة تتحمل معاني متعددة، ويكون ما فيها: من

(١) ٥١ هداية.

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٣٤) وتحفة الأحوذي (٦/ ٤٣٣).

(٣) ١٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

الاشتباه في المعنى، والإجمالي في اللفظ؛ يوجب تأويلها بحق وباطل، فبما فيها من الحق يقبل من لم يحط بها علمًا بما فيها من الباطل؛ لأجل الالتباس والاشتباه، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء.

وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا، وهو منشأ البدع كلها.

فإن البدع لو كانت باطلاً محضًا لما قبلت، ولبادر كل أحد إلى ردها وإنكارها، ولو كانت حقًّا محضًا لم تكن بدعة وكانت موافقة للسنة، ولكنها تشتمل على الحق والباطل، ويلتبس فيها الحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، فنهى عن لبس الحق بالباطل، ولبسه به هو خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر.

ومنه التلبيس، وهو التدليس والغش الذي باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لبس بالباطل؛ يكون فاعله قد أظهر الباطل، في صورة الحق وتكلم بلفظ له معنيان: معنى صحيح، ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل، فهذا من الإجمال في اللفظ.

وأما الاشتباه في المعنى فيكون له وجهان: هو حق من إحداهما، وباطل من الآخر، فيوهم إرادة الوجه الصحيح، ويكون غرضه الباطل، بأصل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة؛ ولاسيما إذا صادفت أذهانًا سقيمة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب؟ فنسأل الله مثبت القلوب أن يثبت قلوبنا على دينه.

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَٰخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

(١) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الناس شركاء في ثلاث: الماء، والنار،**

(١) ٤٩٨ زاد المعاد جـ ٤.

والكلأ، وثمنه حرام»[١].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعة بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل**» ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[٢] الآية. [آل عمران: ٧٧].

وفي سنن أبي داود عن بهيسة الفزارية قالت: استأذن أبي النبي ﷺ، فدخل بينه وبين قميصه، فجعل يقبل ويلتزم، ثم قال يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: «**الماء**» قال: يا نبي الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: «**الملح**» قال: يا نبي الله ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: «**أن تفعل الخير خير لك**»[٣] الماء خلقه الله في الأصل مشتركًا بين العباد والبهائم وجعله سقيا لهم، فلا يكون أحد أخص به من أحد، ولو أقام عليه وبنى عليه، قال عمر بن الخطاب: «ابن السبيل أحق بالماء من الباني عليه»[٤] ذكره أبو عبيد عنه.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٢٤٦ رقم ٩٨٧): أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وابن عدي ورجاله ثقات، وانظر: تلخيص الحبير (٣/ ٦٥) ونصب الراية (٤/ ٢٩٤) وموضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٥٨) ومسلم (رقم ١٠٨) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ١٩٩) والتمهيد (١٣/ ١٢٨).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٦٦٩، ٣٤٧٦) والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٥٠ رقم ١١٦١٠) والدارمي (رقم ٢٦١٣) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣١٢ رقم ٧٨٩) و(٢٥/ ٢٠٦ رقم ٥٢٨) وأبو يعلى (١٣/ ١٢٦-١٢٧ رقم ٧١٧٧) وأحمد (٣/ ٤٨٠، ٤٨١) وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٣/ ٦٥): وأعله عبد الحق وابن القطان بأنها لا تعرف لكن ذكرها ابن حبان وغيره في الصحابة.

(٤) ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ٧٣٨) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٤١٢ رقم ١٣٢٧) وانظر: المحلى لابن حزم (٩/ ١٧٥) وفيض القدير (١/ ٨٨).

وقال أبو هريرة: «ابن السبيل أول شارب» فأما من حازه في إنائه أو في قربته فذاك غير المذكور في الحديث، وهو بمنزلة سائر المباحات إذا حازها إلى ملكه، ثم أراد بيعها كالحطب والكلأ والملح، وقد قال النبي ﷺ: «**يأخذ أحدكم حبلاً فيأخذ حزمة من حطب، فيبيع فيكف الله بها وجهه؛ خير له أن يسأل الناس، أعطي أو منع**»[1] رواه البخاري.

وفي الصحيحين عن علي قال: «أصبت شارفًا مع رسول الله ﷺ في مغنم يوم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفًا آخر، فأنختهما يومًا عند باب رجل من الأنصار، وأنا أريد أن أحمل عليهما إذخرا لأبيعه[2] ـ وذكر الحديث» فهذا في الكلأ والحطب المباح بعد أخذه وإحرازه، وكذلك السمك وسائر المباحات. وليس هذا محل النهي بالضرورة، ولا محل النهي أيضًا بيع مياه الأنهار الكبار المشتركة بين الناس، فإن هذه لا يمكن منعها والحجر عليها. وإنما محل النهي صور: أحدها: المياه المنتقعة من الأمطار إذا اجتمعت في أرض مباحة، فهي مشتركة بين الناس، وليس أحد أحق بها من أحد إلا بالتقديم لقرب أرضه، كما سيأتي إن شاء الله. فهذا النوع لا يحل بيعه ولا منعه، ومانعه عاصٍ مستوجب لوعيد الله ومنع فضله؛ إذ فضل ما لم تعمل يداه.

[3]قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران: ٧٧]. وقال في حق الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [البقرة: ١٧٤]، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلًا؛ إذ تكليمه لعباده عند الفرعونية والمعطلة مثل أن يقال: يؤاكلهم ويشاربهم ونحو ذلك، تعالى الله عما يقولون. وقد أخبر الله سبحانه أنه يسلم على أهل الجنة، وأن ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧١، ٢٠٧٤) ومسلم (رقم ١٠٤٢) وانظر: عمدة القاري (٩/ ٥١، ٦٤) (١٢/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧٥) ومسلم (رقم ١٩٧٩).

(٣) ٢٤٧ حادي الأرواح .

السلام حقيقة وهو قول من رب رحيم. وتقدم تفسير النبي ﷺ لهذه الآية، في حديث جابر في الرؤية، وأنه يشرف عليهم من فوقهم، ويقول: «سلام عليكم يا أهل الجنة» فيرونه عيانًا، وفي هذا إثبات الرؤية والتكليم والعلو، والمعطلة تنكر هذه الأمور الثلاثة، وتكفر القائل بها.

وتقدم حديث أبي هريرة في سوق الجنة وقول النبي ﷺ: «لا يبقى أحد في ذلك المجلس إلا حاضره الله محاضرة، فيقول: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا»(١) الحديث.

وتقدم حديث عدي بن حاتم: «ما منكم إلا من سيكلمه ربه يوم القيامة»(٢).

وحديث أبي هريرة في الرؤية وفيه: «يقول الرب تبارك وتعالى للعبد: ألم أكرمك وأسودك»(٣) الحديث.

وحديث بريدة: «ما منعكم من أحد إلا سيخلو به ربه، وليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب»(٤) الحديث.

وحديث أنس في يوم المزيد: ومخاطبته فيه لأهل الجنة مرارًا.

وبالجملة فتأمل أحاديث الرؤية تجد في أكثرها ذكر التكليم. قال البخاري في صحيحه: «باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة» وساق فيه عدة أحاديث. فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم؛ فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله، الذي ما طابت لأهله إلا به، والله المستعان.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٤٩) وضعفه، وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ٢٢١) ومشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤٣) ومسلم (رقم ١٠١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٤) (١٣/ ٤٣٠) وعمدة القاري (٢٥/ ١٣٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٦٨) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٩٩ رقم ٤٦٤٢).

(٤) أخرجه الدارقطني في رؤية الله (رقم ٢٠١) وانظر: مشكل الحديث وبيانه (ص٢٢٤).

(١) الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع(٢)، هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع، فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أو لا.

فالأول: العالم الرباني، والثاني إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال، ساعية في إدراكه أو لا. فالثاني هو المتعلم على سبيل النجاة، والثالث هو الهمج الرعاع، فالأول؛ هو الواصل، والثاني، هو الطالب، والثالث، هو المحروم.

والعالم الرباني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المعلم، أخذه من التربية أي: يربي الناس بالعلم ويربيهم به، كما يربي الطفل أبوه، وقال سعيد بن جبير: هو الفقيه العليم الحكيم.

قال سيبويه: زادوا ألفًا ونونًا في الرباني إذا أرادوا تخصيصًا بعلم الرب تبارك وتعالى، كما قالوا شعراني ولحياني(٣). ومعنى قول سيبويه رحمه الله: إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وتخصص به؛ نسب إليه دون سائر من علم علمًا.

قال الواحدي: فالرباني على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أي: يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى.

وقال المبرد: الرباني الذي يرب العلم ويرب الناس به، أي: يعلمهم ويصلحهم، وعلى قوله فالرباني: من رب يرب ربًا، أي: يربيه فهو منسوب إلى التربية يربي علمه، ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربي صاحب المال ماله، ويربي الناس به كما يربي الأطفال أولياؤهم(٤).

---

(١) ١٢٥ مفتاح جـ ١.

(٢) هذه وصية علي بن أبي طالب لكميل بن زياد أخرجها أبو نعيم في الحلية (١/ ٨٠) والخطيب في تاريخه (٦/ ٣٧٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ١٨) (٥٠/ ٢٥٢-٢٥٥) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٣٢٩) وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ١٠٨) وقد أخرجها في رسالة مستقلة أخونا وحبيبنا خالد أبو صالح حفظه الله، وهي من منشورات دار المعراج بالرياض.

(٣) انظر: لسان العرب (١/ ٤٠٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٢٧-٣٢٨) وعمدة القاري (٢/ ٤٣).

وليس هذا من قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فالربيون هنا الجماعات بإجماع المفسرين، قيل: إنه من الربة بكسر الراء وهي الجماعة.

قال الجوهري: الربي واحد والربيين هم الألوف من الناس، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ولا يوصف العالم بكونه ربانيًّا حتى يكون عاملًا بعلمه معلمًا له، فهذا قسم.

والقسم الثاني: متعلم على سبيل نجاة، أي قاصدًا بعلمه النجاة، وهو المخلص في تعلمه، المتعلم ما ينفعه، العامل بما علمه، فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة؛ إلا بهذه الأمور الثلاثة.

فإنه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه، لم يكن على سبيل نجاة، وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك، وإن تعلمه ولم يعمل به، لم يحصل له النجاة؛ ولهذا وصفه بكونه على السبيل، أي: على الطريق التي تنجيه، وليس حرف على وما عمل فيه متعلقًا بمتعلم إلا على وجه التضمين، أي مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا في الدرجة الثانية، وليس ممن تعلمه ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه، فإن هذا من أهل النار، كما جاء في الحديث، وثبته أبو نعيم أيضًا قوله ﷺ: «من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يجد رائحة الجنة»(١)، قال: وثبت أيضًا قوله ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ عالم لم ينفعه الله بعلمه»(٢) فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة؛ بل على سبيل الهلكة، نعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٦٠ رقم ٢٨٩) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٢ رقم ١٧٧٠) وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٧٩ رقم ٧٨) وفي موارد الظمآن (رقم ٨٩) وأبو داود (رقم ٣٦٦٤) وابن ماجه (رقم ٢٥٢) وأبو يعلى (١١/ ٢٦٠ رقم ٦٣٧٣) وأحمد (٢/ ٣٣٨). وانظر: العلل للدارقطني (١١/ ٩ رقم ٢٠٨٧) وعلل الحديث للرازي (٢/ ٤٣٨ رقم ٢٨١٩).

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١ رقم ١١٢٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٧٨) وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٦/ ٣٠٦-٣٠٧) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٣٩).

القسم الثالث: المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم، بل همج رعاع، والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم، وأصله من الهمج جمع همجة، وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها، فشبه همج الناس به، والهمج أيضًا مصدر[١] قال الراجز:

قـد هلكـت جارتنـا مـن الهمـج وإن تجـع تأكـل عتـودًا أو بـذج[٢]

والهمج هنا مصدر، ومعناه: سوء التدبير في أمر المعيشة، وقولهم: همج هامج مثل ليل لايل، والرعاع من الناس الحمقى الذين لا يعتد بهم[٣].

وقوله: اتباع كل ناعق، أي: من صاح بهم ودعاهم؛ تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال، فإنهم لا علم لهم بالذي يدعون إليه أحق هو أم باطل، فهم مستجيبون لدعوته، وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان، فإنهم الأكثرون عددًا الأقلون عند الله قدرًا، وهم حطب كل فتنة، بهم توقد ويشب ضرامها، فإنها يعتزلها أولو الدين، ويتولاها الهمج الرعاع، وسمي داعيهم ناعقًا تشبيهًا لهم بالأنعام التي ينعق بها الراعي، فتذهب معه أين ذهب.

***

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٣٩٢) ومختار الصحاح (ص ٢٩١).

(٢) ينسب هذا البيت لأبي محرز المحاربي، وذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٣٦٠) (٣/ ١٦٧) وابن سلام في غريب الحديث (١/ ١٦٥) وابن منظور في اللسان (٢/ ٢١١، ٣٩٣)، جاء في الأصل: ثلج بدل: بذج. بينما في كل المصادر السابقة: بذج. والبذج: الحمل، وقيل: وهو أضعف ما يكون من الحملان، والجمع بذجان. والبذج من أولاد الضأن بمنزلة العتود من أولاد المعز.

(٣) انظر: اللسان (٢/ ٣٩٣) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٧٢).

[(١)]قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به، وشهدوا له بالنبوة؛ وإنما كفروا بغيًا وحسدًا.

قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أنه لا جهة لهدايتهم؛ لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم، لأنهم كفروا بعد البينات، ومعنى: كيف يهديهم، أي: أنه لا يهديهم، لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدًا، فمن أين تأتيهم الهداية؟! فإن الذي ترتجى هدايته؛ من كان ضالًّا ولا يدري أنه ضال؛ بل يظن أنه على هدى فإذا عرف الهدى اهتدى، وأما من عرف الحق وتيقنه، وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه، فكيف يهدي الله مثل هذا؟!

[(٢)]وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتدَّ ولحق بالمشركين، ثم ندم فأرسل إلى قومه: سلُوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى النبي ﷺ فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩]، فأرسل إليه فأسلم، ذكره النسائي[(٣)].

[(٤)]وفي قصة الفتح من الفقه: جواز جوار المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي ﷺ، أمان أم هانئ لحمويها.

---

(١) ٩١ مفتاح جـ١.
(٢) ٣٩٨ أعلام جـ٣.
(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٣٤٠) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٧٠٠ رقم ٣٧٩٥) والحاكم (٢/ ١٥٤ رقم ٢٦٢٨) وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٣٢٩ رقم ٤٤٧٧) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٢٨) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣٠٣ رقم ٣٥٣١) (٦/ ٣١١ رقم ١١٠٦٥) وفي الصغرى (رقم ٤٠٦٨) وصححه الحاكم وانظر: عمدة القاري (٢٤/ ٧٧).
(٤) ٤٣٧ زاد المعاد جـ ٢.

وفيها من الفقه: جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة، فإن عبد الله ابن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتد ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح، أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ، ليبايعه، فأمسك عنه طويلاً، ثم بايعه، وقال: «**إنما أمسكت عنه؛ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه**» فقال له رجل: هلَّا أومأت إليَّ يا رسول الله؟ فقال: «**ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»(١)، فهذا كان قد تغلظ كفره بردته بعد إيمانه وهجرته وكتابته الوحي، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن على الإسلام ويعيبه، وكان رسول الله ﷺ يريد قتله، فلما جاء به عثمان بن عفان ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ لم يأمر النبي ﷺ بقتله حياءً من عثمان، ولم يبايعه ليقوم بعض أصحابه فيقتله، فهابوا رسول الله أن يقدموا على قتله بغير إذنه، واستحيا رسول الله من عثمان، وساعد القدر السابق لما يريد ا لله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح فبايعه، وكان ممن استثنى الله بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩].

وقوله ﷺ: «**ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**» أي: أن النبي ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه، ولا سره علانيته، وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يوم به، بل يصرح به ويعلنه ويظهره، والله أعلم.

***

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٦٨٣، ٤٣٥٩) والبزار (٣/ ٣٥٠، رقم ١١٥١) والحاكم (٣/ ٤٧ رقم ٤٣٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٣٠): إسناده صالح.. وقال في الفتح (١١/ ٩): وله طرق أخرى يشد بعضها بعضًا.

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

(1)من تلاعب الشيطان بهذه الأمة: أن ألقى إليهم: أن الرب تعالى محجور عليه في نسخ الشرائع، فحجروا عليه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترسًا لهم في جحْد نبوة رسول الله محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقرّروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء، وهو على الله تعالى محال.

وقد أكذبهم الله تعالى في نص التوراة، كما أكذبهم في القرآن، قال الله تعالى: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٥].

فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحًا في إبطال النسخ، فإنه ﷻ أخبر أن الطعام كله كان حلالًا لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة، سوى ما حرَّم إسرائيل على نفسه منه. ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالًا؛ إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ أي: كانت حلالًا لهم قبل نزول التوراة،

---

(١) ٣٢٠ إغاثة جـ ٢.

وهم يعلمون ذلك. ثم قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾. هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم علىٰ نفسه ما حرمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة، وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيرًا منه؛ ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر علىٰ الله تعالىٰ في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردوه. وهذا أولىٰ من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم: بأن التوراة حرمت أشياء كثيرةً من المناكح، والذبائح، والأفعال، والأقوال. وذلك نسخٌ لحكم البراءة الأصلية، فإن هذه المناظرة ضعيفة جدًّا، فإن القوم لم ينكروا رفع البراءة الأصلية، بالتحريم والإيجاب؛ إذ هذا شأن كلِّ الشرائع، وإنما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالىٰ؛ فيجعله حرامًا، أو تحليل ما كان حرمه؛ فيجعله مباحًا. وأما رفع البراءة والاستصحاب؛ فلم ينكره أحد من أهل الملل.

ثم يقال لهذه الأمة الغضبية: هل تُقرون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا؟ فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة.

فيقال لهم: فهل رفعت التوراة شيئًا من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟

فإن قالوا: لم تَرفَع شيئًا من أحكام تلك الشرائع، فقد جاهروا بالكذب والبهت، وإن قالوا: قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة؛ فقد أقروا بالنسخ قطعًا.

وأيضًا: فيقال للأمة الغضبية: هل أنتم اليوم علىٰ ما كان عليه موسىٰ عليه السلام؟

فإن قالوا: نعم، قلنا: أليس في التوراة أن من مسَّ عظم ميِّتٍ، أو وَطِئ قبرًا، أو حضر ميّتًا عند موته، فإنه يصير من النجاسة بحالٍ لا مخرج له منها إلا برمادِ البقرة التي كان الإمام الهارونيُّ يحرقها؟ فلا يمكنهم إنكار ذلك.

فيقال لهم: فهل أنتم اليوم علىٰ ذلك؟

فإن قالوا: لا نقدر عليه.

فيقال لهم: لِمَ جعلتم أن من مس العظم والقبر والميت طاهرًا يصلح للصلاة،

والذي في كتابكم خلافه؟

فإن قالوا: لأنا عدمنا أسباب الطهارة، وهي رماد البقرة، وعدمنا الإمام المطهِّر المستغفر، فيقال لهم: فهل أغناكم عدمه عن فعله، أو لم يغنكم؟

فإن قالوا: أغنانا عدمه عن فعله، قيل: قد تبدل الحكم الشرعي من الوجوب إلى إسقاطه لمصلحة التعذر.

فيقال: وكذلك يتبدل الحكم الشرعيُّ بنسخه لمصلحة النسخ، فإنكم إن بنيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام؛ فلا ريب أن الشيء يكون مصلحة في وقت دون وقت، وفي شريعة دون أخرى، كما كان تزويجُ الأخ بالأخت مصلحةً في شريعة آدم ﷺ، ثم صار مفسدةً في سائر الشرائع، وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحة في شريعة إبراهيم ﷺ ومن قبله وفي سائر الشرائع، ثم صار مفسدة في شريعة موسى ﷺ، وأمثال ذلك كثيرة.

وإن منعتم مراعاة المصالح في الأحكام، ومنعتم تعليلها بها، فالأمر حينئذ أظهرُ، فإنه سبحانه يحلل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، والتحليل والتحريم تبعٌ لمجرد مشيئته، لا يسأل عما يفعل.

وإن قلتم: لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطهور الذي كان عليه أسلافنا، فقد أقررتم بأنكم الأنجاسُ أبدًا، ولا سبيل لكم إلى حصول الطهارة.

[1]فيقال لهم: فكيف أقررتم لموسى بالنبوة، وقد جاء بتغيير بعض شرائع من تقدمه؛ فإن قدح ذلك في المسيح ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، قدح في موسى، فلا تقدحون في نبوتهما بقادح إلا ومثله في نبوة موسى سواء، كما أنكم لا تثبتون نبوة موسى ببرهان إلا وأضعافه شاهد على نبوة محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فمن أبين المحال أن يكون موسى رسولًا صادقًا ومحمدٌ ليس برسول، أو يكون المسيح رسولًا

(١) ٣٢٥ إغاثة جـ٢.

ومحمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ليس برسول.

ويقال للأمة الغضبية أيضًا: لا يخلو المحرم.

إما أن يكون تحريمه لعينه وذاته؛ بحيث تمنع إباحته في زمان من ا لأزمنة.

وإما أن يكون تحريمه لما تضمنه من المفسدة في زمان دون زمان، ومكان دون مكان، وحال دون حال.

فإن كان الأول، لزم أن يكون ما حرمته التوراة؛ محرمًا على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء، عليهم السلام.

وإن كان الثاني، ثبت أن التحريم والإباحة تابعان للمصالح، وإنما يختلفان باختلاف الزمان والمكان والحال، فيكون الشيء الواحد حرامًا في ملة دون ملة، وفي وقت دون وقت، وفي مكان دون مكان، وفي حال دون حال، وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع، ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غير ذلك.

ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه؛ لكان حرامًا على إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟ وكذلك ما حرمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها، لو كان حرامًا لعينه وذاته؛ لوجب تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة.

وإذا كان الرب تعالى لا حجر عليه، بل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويبتلي عباده بما يشاء، ويَحكُم ولا يُحكَم عليه، فما الذي يحيل عليه ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة، ثم ينهى أمة أخرى عنه، أو يحرم محرمًا على أمة ويبيحه لأمة أخرى؟

بل أي شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين، بحسب المصلحة؟ وقد بين ذلك ﷻ بقوله: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ١٠٦-١٠٧].

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه؛ لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء،

ويثبت، فهكذا أحكامه الدينية الأمرية، ينسخُ منها ما يشاء، وثبت منها ما يشاء.

فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم؛ أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدىٰ وتدفع نبوته، وتجحد رسالته بكونه أتىٰ بإباحة بعضِ ما كان محرمًا علىٰ من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحًا لهم، وبالله التوفيق، يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تحجر علىٰ الله تعالىٰ أن ينسخ ما يشاء من شرائعه، وقد تركوا شريعة موسىٰ ﷺ في أكثر ما هم عليه، وتمسّكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم.

فمن ذلك: أنهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته هكذا: «اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا واقبضنا جميعًا من أربعة أقطار الأرض إلىٰ قدسك، سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل».

ويقولون كل يوم ما ترجمته هكذا: أردد حكامنا كالأولين، ومسرَّاتنا كالابتلاء وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا، وأعزنا بابتنائها، سبحانك يا باني يورشليم».

فهذا قولهم في صلاتهم، مع علمهم بأن موسىٰ وهارون ـ عليهما السلام ـ لم يقولا شيئًا من ذلك؛ ولكنها فصولٌ لفَّقوها بعد زوال دولتهم.

وكذلك صيامهم: كصوم إحراق بيت المقدس، وصوم أحصا، وصوم كَدَلْيَا التي جعلوها فرضًا لم يصمها موسىٰ، ولا يوشع بن نون، وكذلك صومُ صلب هامان، ليس شيء من ذلك في التوراة وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم. هذا مع أن في التوراة ما ترجمته: «لا تزيدوا علىٰ الأمر الذي أنا موصيكم به شيئًا، ولا تنقصوا منه شيئًا».

وقد تضمنت التوراة أوامر كثيرة جدًّا، هم مجمعون علىٰ تعطيلها وإلغائها. فإما أن تكون منسوخة: بنصوص أخرىٰ من التوراة، أو بنقل صحيح عن موسىٰ ﷺ، أو باجتهاد علمائهم، وعلىٰ التقادير الثلاث: فقد بطلت شبهتهم في إنكار النسخ.

***

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

[(١)]قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] حج البيت مبتدأ، وخبره في أحد المجرورين قبله. والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لأنه وجوب والوجوب يقتضي «على». ويجوز أن يكون في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ لأنه يتضمن الوجوب، والاستحقاق. ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، وكان الأحق أن يكون ﴿ وَلِلَّهِ ﴾. ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله فتأمله. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان.

إحداهما: أنه اسم للموجب للحج فكان؛ أحق بالتقديم من ذكر الوجوب. فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع:

أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدئ بذكره.

والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس.

والثالث: النسبة والحق المتعلق به إيجابًا، وبهم وجوبًا وأداء وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الإسلام المجرور من حيث كان لله اسمًا سبحانه؛ وجب الاهتمام بتقديمه: تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفًا من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره.

وأما قوله: ﴿ مَنِ ﴾ فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول: بأنها فاعل المصدر كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلًا، وهذا القول يضعف من وجوه:

(١) ٤٢ بدائع جـ٢.

منها: أن الحج فرض عين ولو كان معنىٰ الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنىٰ يؤول إلىٰ: ولله علىٰ الناس أن يحج البيت مستطيعهم، فإذا أدىٰ المستطيعون الواجب؛ لم يبق واجبًا علىٰ غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك؛ بل الحج فرض عين علىٰ كل أحد حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج أسقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط للفرض عن العاجزين، وإن أردت زيادة إيضاح:

فإذا قلت: واجب علىٰ أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعة للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة؛ انقطع تعلق الوجوب عن غيرهم.

وإذا قلت: واجب علىٰ الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع؛ كان الوجوب متعلقًا بالجميع، وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية علىٰ هذا الوجه دون أن يقال: ولله حج البيت علىٰ المستطيعين؛ هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلىٰ الفاعل إذا وجد؛ أولىٰ من إضافته إلىٰ المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان ﴿ مَنِ ﴾ هو الفاعل؛ لأضيف المصدر إليه وكان يقال: ولله علىٰ الناس حج من استطاع، وحمله علىٰ باب: يعجبني ضرب زيدًا عمرو، مما يفصل به بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف؛ حمل علىٰ المذكور المرجوح، وهي قراءة ابن عامر: (قَتْلَ أَوْلَادَهُمْ ـ بفتح الدال ـ شُرَكَآؤُهُمْ) [الأنعام: ١٣٧] فلا يصار إليه.

وإذا ثبت أن (مَنْ) بدل بعض من كل؛ وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلىٰ الناس كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه ههنا أمور:

منها: أن ﴿ مَنْ ﴾ واقعة علىٰ من يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به.

ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم؛ لقبح

حذف الضمير العائد. ومثال ذلك إذا قلت: رأيت أخوتك من ذهب إلى السوق، تريد من ذهب منهم، لكان قبيحًا، لأن الذاهب إلى السوق أعم من الأخوة.

وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، تريد منها، ولم تذكر الضمير لكان أبعد في الجواز؛ لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب، وباب بدل البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول؛ ارتفع العموم وبقي الخصوص.

ومما حسن حذف الضمير في هذه الآية أيضًا مع ما تقدم؛ طول الكلام بالصلة والموصول، وأما المجرور من قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون في موضع حال من سبيل كأنه نعت نكرة قدم عليها؛ لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقًا بسبيل.

فإن قيل: كيف يتعلق به، وليس فيه معنى الفعل؟

قيل: السبيل كان ههنا عبارة عن الموصل إلى البيت: من قوت، وزاد، ونحوهما كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ؛ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير؛ لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعنى، هذا تعبير السهيلي وهو بعيد جدًّا. بل الصواب في متعلق الجار والمجرور؛ وجه آخر أحسن من هذين ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يجب على الناس الحج، فهو حق واجب، وأما تعليقه بالسبيل أو جعله حالاً منها؛ ففي غاية البعد فتأمله. ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما يقول: لله عليك الحج ولله عليك الصلاة والزكاة.

ومن فوائد الآية وأسرارها: أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه؛ يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر ، أو بلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]، ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ

رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه:

أحدها: أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص. ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على. ثم أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط؛ إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت: من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً. ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر، فقال: أي: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بعدم التزام هذا الواجب، وتركه. ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام: بمقته له، وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه؛ ما هو من أعظم التهديد وأبلغه. ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عمومًا، ولم يقل: فإن الله غني عنه؛ لأنه إذا كان غنيًّا عن العالمين كلهم؛ فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار. وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه. ثم أكد هذا المعنى بأداة ﴿إِنَّ﴾ الدالة على التوكيد. فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين: مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين. وهذا من فوائد البدل: تقوية المعنى، وتأكيده بتكرار الإسناد، ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته. ثم تأمل ما في الآية: من الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين؛ اعتناء به وتأكيدًا لشأنه. ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت، وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك منها فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، فوصفه بخمس صفات:

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض. الثاني: أنه مبارك. والبركة كثرة

الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيرًا، ولا أدوم، ولا أنفع للخلائق. **الثالث**: أنه هدىً، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة؛ حتىٰ كأنه هو نفس الهدىٰ. **الرابع**: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد علىٰ أربعين آية. **الخامس**: الأمن لداخله. وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده؛ ما يبعث النفوس علىٰ حجه، وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار.

ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدلك علىٰ: الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره. ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلىٰ نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] لكفىٰ بهذه الإضافة فضلاً وشرفًا، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبًّا له وشوقًا إلىٰ رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا أبدًا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبًّا وإليه اشتياقًا، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد الطواف تداني
وألثم منه الركن أطلب برد ما ... بقلبي من شوق ومن هيماني
فوالله ما أزداد إلا صبابة ... ولا القلب إلا كثرة الخفقان

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾.

[(1)]ثبت عنه ﷺ أنه علمهم خطبة الحاجة: **«الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا» ـ وفي لفظ: «وسيئات أعمالنا» ـ من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»**، ثم يقرأ الآيات الثلاث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

(١) ٩٠ زاد المعاد جـ٢.

مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا ﴾ [النساء: ١] الآية. ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، وقال شعبة: شعبة: قلت لأبي إسحاق: هذه في خطبة النكاح، أو في غيره؟ قال: في كل حاجة[١]، وقال: «إذا أفاد أحدكم امرأة، أو خادمًا، أو دابة، فليأخذ بناصيتها، وليدعُ الله بالبركة، ويسمي الله ﷻ، وليقل: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جبلت عليه»[٢]. وكان يقول للمتزوج: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»[٣]، وقال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدَّر بينكما ولد في ذلك؛ لم يضره شيطان أبدًا»[٤].

[٥]...قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١] ووجه الاستدلال بالآية؛ أنه تعالى أخبر عن المعتصمين به: بأنهم قد هدوا إلى الحق.

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (رقم ٣٣٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٦ رقم ١٣٦٠٤) وأبو داود (رقم ٢١١٨) والترمذي (رقم ١١٠٥) والنسائي (رقم ١٤٠٤) وابن ماجه (رقم ١٨٩٢) والدارمي (رقم ٢٢٠٢) وحسنه الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٧٤ رقم ١٠٠٩٣) وابن ماجه (رقم ١٩١٨) والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٥٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٨ رقم ١٣٦١٦) والطبراني في الدعاء (رقم ١٣٩٠).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٧٣ رقم ١٠٠٨٩) وأبو داود (رقم ٢١٣٠) وابن ماجه (رقم ١٩٠٥) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٨ رقم ١٣٦١٩) والدارمي (رقم ٢١٧٤) وأحمد (٢/ ٣٨١) وأبو يعلى في معجمه (رقم ٣٢٥) والحاكم (٢/ ١٩٩ رقم ٢٧٤٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٢٢) وعمدة القاري (٢٠/ ١٤٥) وتحفة الأحوذي (٤/ ١٨٠) وعون المعبود (٦/ ١١٧).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤١) ومسلم (رقم ١٤٣٤) وانظر: شرح النووي (١٠/ ٥) (١٣/ ١٨٥) وعمدة القاري (٢/ ٢٦٦).

(٥) ١٣٤ أعلام جـ٤.

فنقول: الصحابة رضوان الله عليهم معتصمون بالله؛ فهم مهتدون، فاتباعهم واجب، أما المقدمة الأولى فتقريرها من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨]، ومعلوم كما تولى الله تعالى لهم، ونصره إياهم أتم نصرة، وهذا يدل على أنهم اعتصموا به أتم اعتصام، فهم مهديون بشهادة الرب لهم بلاشك، واتباع المهديِّ واجبٌ شرعًا وعقلًا وفطرة.

***

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

[1]الاعتصام به نوعان: اعتصام توكل واستعانة وتفويض ولجإ وعياذ، وإسلام النفس إليه، والاستسلام له سبحانه. والثاني: اعتصام بوحيه، وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام، فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علمًا وعملًا، وإخلاصًا واستعانة، ومتابعة واستمرارًا على ذلك إلى يوم القيامة.

[2]الاعتصام نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾. وقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

والاعتصام: افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سميت القلاع: العواصم،

(١) ٣٢٣ مدارج جـ٣.

(٢) ٤٦٠ مدارج جـ١.

لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله؛ فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به؛ يعصم من الهلكة، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج: إلى هداية الطريق، والسلامة فيها: فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل؛ كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح؛ بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله؛ يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله؛ يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلئم بها في طريقه؛ ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: «تمسكوا بدين الله».

وقال ابن مسعود: هو الجماعة»[1]. وقال: «عليكم بالجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة»[2]. وقال مجاهد وعطاء: «بعهد الله» وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: «هو القرآن».

قال ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ: «إن هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسَّك به، ونجاة من تبعه»[3].

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (رقم ٥٢٠) والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٢ رقم ٩٠٣٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٩٨ رقم ٨٦٦٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٧٤ رقم ٣٧٣٣٧) والطبراني في الكبير (٩/ ١٩٨ رقم ٨٩٧١) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٢٢): رواه الطبراني في حديث طويل... وفيه ثابت بن قطبة ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وقال في موضع آخر (٧/ ٣٢٨): رواه الطبراني بأسانيد وفيه مجالد وقد وُثق وفيه خلاف وبقية رجال إحدى الطرق ثقات.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٧٥ رقم ٦٠١٧) موقوفًا على عبد الله بن مسعود ﷺ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٤): رواه الطبراني وفيه مسلم بن إبراهيم الهجري وهو متروك، بينما ذكره ابن كثير في تفسيره مرفوعًا إلى النبي ﷺ (١/ ٣٩٠).

وقال علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ في القرآن: «**حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء**»[(١)].

وقال مقاتل: «بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى».

وفي الموطأ من حديث مالك: عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا، يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»[(٢)] رواه مسلم في الصحيح.

قال صاحب المنازل: «الاعتصام بحبل الله، هو المحافظة على طاعته، مراقبًا لأمره». ويريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها؛ لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر، كما قال طلق بن حبيب في التقوى: «هي العمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وتترك معصية الله على نور من الله؛ تخاف عقاب الله».

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه في كلام النبي ﷺ كقوله: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له**»[(٣)] فالصيام والقيام؛

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٠٦) والدارمي (رقم ٣٣٣١) وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥ رقم ٣٠٠٠٧) والبزار (٣/ ٧١-٧٢ رقم ٨٣٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٢٥-٣٢٦ رقم ١٩٣٥) وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧١٥) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠ رقم ١٧٩٦) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٠) والتمهيد (٢١/ ٢٦٩-٢٧١) وتنوير الحوالك (١/ ٢٥٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٥٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٨، ١٩٠١) ومسلم (رقم ٧٦٠) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٢٦، ٢٣٤) (٢٢/ ١٣٠).

هو الطاعة، والإيمان، مراقبة الأمر، وإخلاص الباعث؛ هو أن يكون الإيمان الآمر، لا شيء سواه، والاحتساب؛ رجاء ثواب الله. فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل، والله أعلم.

وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه. فإن ثمرة الاعتصام به؛ هو الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب، ويحميه منه فيدفع عنه: الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشرِّ نفسه، ويدفع عنه؛ موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد في حقه أسباب العطب، فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

***

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

[(١)]...وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، والزبر: الكتب، أي: كل فرقة صنفوا كتبًا أخذوا بها، وعملوا بها، ودعوا إليها دون كتب الآخرين، كما هو الواقع سواء، وقال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف[(٢)].

---

(١) ٢٥٩ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٧٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٢٩ رقم ٣٩٥٠، ٣٩٥١) وانظر: الدر المنثور (٢/ ٢٩١) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٩١).

وقال النبي ﷺ: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»(١) وقال: «**اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا**»(٢) وكان التنازع والاختلاف أشد شيء على رسول الله ﷺ، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافًا يسيرًا في فهم النصوص؛ يظهر في وجهه حتى كأنما فقئ فيه حب الرمان، ويقول: «**أبهذا أمرتم؟**»(٣) ولم يكن أحد بعده أشد عليه الاختلاف من عمر ، وأما الصديق فصان الله خلافته عن الاختلاف المستقر في حكم واحد من أحكام الدين، وأما خلافة عمر فتنازع الصحابة تنازعًا يسيرًا في قليل من المسائل جدًّا، وأقر بعضهم بعضًا على اجتهاده من غير ذم ولا طعن، فلما كانت خلافة عثمان اختلفوا في مسائل يسيرة صحب الاختلاف فيها بعض الكلام واللوم، كما لام عليٌّ عثمان في أمر المتعة وغيرها، ولامه عمار بن ياسر وعائشة في بعض مسائل قسمة الأموال والولايات، فلما أفضت الخلافة إلى علي كرم الله وجهه في الجنة صار الاختلاف بالسيف. والمقصود: أن الاختلاف منافٍ لما بعث الله به رسوله؛ قال عمر : لا تختلفوا، فإنكم إن اختلفتم كان من بعدكم أشد اختلافًا...

***

(١) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (٢/ ٥٥ رقم ٩٦٤) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٥٣٤ رقم ٢١٦١) وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٢٦ رقم ١٥٥٦) والنسائي في الكبرى (١/ ٢٨٦ رقم ٨٨١) وأبو داود (رقم ٦٦٤) وابن ماجه (رقم ٩٧٦) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٩٧ رقم ٤٩٤٢) وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص ٢٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٠، ٥٠٦١) ومسلم (رقم ٢٦٦٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٠١) وشرح النووي (١٦/ ٢١٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ٨٥) والطبراني في الأوسط (١/ ١٦٥ رقم ٥١٥) وفي الكبير (٦/ ٣٧ رقم ٥٤٤٢) وأبو يعلى (٥/ ٤٢٩ رقم ٣١٢١) وأحمد (٢/ ١٩٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٦): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات أثبات، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

(١)هذا مثل ضربه الله تعالىٰ لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم: في المكاره والمفاخر، وكسب الثناء وحُسن الذكر لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقوه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله، بالزرع الذي زرعه صاحبه؛ يرجو نفعه وخيره فأصابته ريحٌ شديدة البرد جدًّا، يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته.

واختلف في الصر؛ فقيل: البرد الشديد، وقيل: النار، قاله ابن عباس. وقال ابن الأنباري: وإنما وصفت النار بأنها صرٌّ لتصريتها عند الالتهاب. وقيل: الصر: الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها. والأقوال الثلاثة متلازمة؛ فهو برد شديد محرق بيبسه للحرث كما تحرقه النار، وفيه صوت شديد.

وفي قوله: ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم؛ فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأيبسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها.

***

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

---

(١) ١٨٦ أعلام جـ١.

...[(١)]قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير؛ لم يكن له معول ـ بعد ذلك ـ غير الرضا بمواقع الأقدار، وما يجري به من ربه الاختيار.

... [(٢)]فنقول: الربا نوعان: جلي، وخفي. فالجلي حُرِّمَ؛ لما فيه من الضرر العظيم. والخفي حُرِّمَ لأنه ذريعة إلىٰ الجلي. فتحريم الأول قصدًا، وتحريم الثاني وسيلة، فأما الجلي؛ فربا النَّسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال، حتىٰ تصير المائة عنده آلافًا مؤلفة؛ وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا معدم محتاج؛ فإذا رأىٰ أن المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس، ويدافع من وقت إلىٰ وقت، فيشتد ضرره، وتعظم مصيبته، ويعلوه الدين حتىٰ يستغرق جميع موجوده، فيربو المال علىٰ المحتاج من غير نفع يحصل له، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه، فيأكل مال أخيه بالباطل، ويحصل أخوه علىٰ غاية الضرر، فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلىٰ خلقه؛ أن حرم الربا، ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله، ولم يجئ مثلُ هذا الوعيد في كبيرة غيره؛ ولهذا كان من أكبر الكبائر.

وسئل الإمام أحمد عن الربا الذي لا شك فيه؛ فقال: هو أن يكون له دين فيقول له: أتقضي أم تربي؟ فإن لم يقضه زاده في المال، وزاده هذا في الأجل.

وقد جعل الله سبحانه الربا ضد الصدقة، فالمرابي ضد المتصدق، قال الله تعالىٰ: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ

(١) ٢١٧ مدارج جـ٢.
(٢) ١٣٥ أعلام جـ ٢.

ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١]. ثم ذكر الجنة التي أعدت للمتقين الذين ينفقون في السَّراء والضَّرَّاء، وهؤلاء ضدُّ المرابين، فنهى سبحانه عن الربا الذي هو ظلم للناس، وأمر بالصدقة التي هي إحسان إليهم.

وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس: عن أسامة بن زيد، أن النبي ﷺ قال: «إنما الربا في النسيئة»[1]، ومثل هذا يراد به حصر الكمال وأن الربا الكامل إنما هو في النسيئة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وكقول ابن مسعود: «إنما العالم الذي يخشى الله».

***

﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾[آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

[2]ذكر أصناف أهل الجنة الذين ضمنت لهم دون غيرهم، فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين فذكر بذلهم للإحسان: في حالة العسر واليسر، والشدة والرخاء، فإن من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء، ولا يبذل

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٩٦) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢) (٤/ ٣٨١-٣٨٢) وشرح النووي (١١/ ٢٣-٢٤).
(٢) ٨٧ حادي الأرواح.

في حال العسر والشدة. ثم ذكر كف أذاهم عن الناس: بحبس الغيظ بالكظم، وحبس الانتقام بالعفو، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم، وأنها إذا صدرت منهم قابلوهم: بذكر الله، والتوبة، والاستغفار، وترك الإصرار، فهذا حالهم مع الله، وذاك حالهم مع خلقه.

[1]الإصرار: هو الاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة، وذلك ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب، أنه يوجب ذنبًا أكبر منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك. فالإصرار على المعصية؛ معصية أخرى، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها، وذلك علامة الهلاك.

وأشد من هذا كله؛ المجاهرة بالذنب، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة؛ فعظيم، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه؛ فكفر، وانسلاخ من الإسلام بالكلية، فهو دائر بني الأمرين: بين قلة الحياء، ومجاهرة نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين، فلذلك يشترط في صحة التوبة، تيقنه أن الله كان ناظرًا ـ ولا يزال ـ إليه مطلعًا عليه، يراه جهرة عند مواقعة الذنب؛ لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم، إلا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له؛ فتوبته دخوله في الإسلام، وإقراره بصفات الرب جل جلاله.

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار. فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة. فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له. فأما الندم: فإنه لا تتحقق

(١) ١٨١ مدارج جـ١.

التوبة إلا به؛ إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند «الندم توبة»[(١)].

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

***

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

[(٢)]أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة التكذيب، والحكم الهلاك.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ١٠٢ رقم ٢٠٨٨) والحاكم (٤/ ٢٧١ رقم ٧٦١٢، ٧٦١٣) وابن حبان (٢/ ٣٧٧ رقم ٦١٢) وابن ماجه (رقم ٤٢٥٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٤٦) والحميدي (١/ ٥٨ رقم ١٠٥) والطبراني في الأوسط (١/ ٣٨ رقم ١٠١) وفي الصغير (رقم ٨٠) وفي الكبير (٢٢/ ٤١ رقم ١٠١) وأبو يعلى (٨/ ٣٨٠-٣٨٢ رقم ٤٩٦٩) وأحمد (١/ ٣٧٦) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠٣) وحسنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٧١).

(٢) ١٣٤ أعلام جـ١.

[1] ولما قتل الله أشراف قريش ببدر، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم، وجاء ـ كم ذكرنا ـ إلى أطراف المدينة في «غزوة السويق» ولم ينل ما في نفسه؛ أخذ يؤَلِّبُ على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، فجمع قريبًا من ثلاثة آلاف من قريش وحلفائها والأحابيش، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا، ليحاموا عنهن، ثم أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريبًا من جبل أحد بمكان يقال له غينين، وذلك في شوال من السنة الثالثة.

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه: أيخرج إليهم، أم يمكث في المدينة؟ وكان رأيه: أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقَّة، والنساء من فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان هو الرأي، فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ـ ممن فاته الخروج يوم بدر ـ وأشاروا عليه بالخروج، وألحوا عليه في ذلك. وأشار عبد الله بن أبي بالمقام في المدينة، وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة، وتابعه عليه بعض الصحابة، فألَحَّ أولئك على رسول الله ﷺ فنهض ودخل بيته ولبس لأمته، وخرج عليهم، وقد انثنى عزم أولئك، وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ على الخروج، فقالوا: يا رسول الله إن أحببت أن تمكث في المدينة فافعل، فقال رسول الله ﷺ: **«ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»**[2] فخرج رسول الله ﷺ في ألف من الصحابة، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وكان رسول الله ﷺ رأى رؤيا وهو

---

(١) ٢٣١ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٧٠) وابن الجارود في المنتقى (رقم ١٠٦١) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٨، ٤٥) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٠ رقم ١٣٠٦٠) والدارمي (رقم ٢١٥٩) وأحمد ٣/ ٣٥١) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٠٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٣٣٢) وقال في تخليص الحبير (٣/ ١٣٠): فائدة: اللأمة: مهموزة ساكنة: الدرع، والجمع: لأم، كتمرة وتمر.

بالمدينة، رأى «أن في سيفه ثلمة، ورأى أن بقرًا تُذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة، فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الدرع بالمدينة»(١) فخرج يوم الجمعة، فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد؛ انعزل عبد الله ابن أبي بنحو ثلث العسكر، وقال: تخالفني وتسمع لغيري؟ فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ـ والد جابر بن عبد الله ـ يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: «تعالوا، قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع» فرجع عنهم وسبَّهم، وسأله قوم من الأنصار؛ أن يستعينوا بحلفائهم من يهود، فأبى وسلك حرة بني حارثة، وقال: «من رجلٌ يخرج بنا على القوم من كَثَب؟» فخرج به بعض الأنصار حتى سلك في حائط لبعض المنافقين، وكان أعمى، فقام يحثُو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحلُّ لك أن تدخل في حائطي إن كنت رسول الله، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال: «لا تقتلوه، فهذا أعمى القلب، أعمى البصر» ونفذ رسول الله ﷺ، حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، وجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم، فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال، وهو في سبعمائة، فيهم خمسون فارسًا، واستعمل على الرماة ـ وكانوا خمسين ـ عبد الله بن جبير، وأمره وأصحابه «أن يلزموا مركزهم وأن لا يفارقوه، ولو رأى الطير تتخطف العسكر» وكانوا خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنَّبل؛ لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يومئذ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو.

واستعرض الشبان يومئذ، فردَّ من استصغره عن القتال، وكان منهم: عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير بن رافع، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت،وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزام، وأجازه من رآه مطيقًا، وكان منهم

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٤١ رقم ٢٥٨٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤١ رقم ١٣٠٦١).

سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، ولهما خمس عشرة سنة.

فقيل: أجاز من أجاز لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة، ورد من رد لصغره عن سن البلوغ، وقالت طائفة: إنما أجاز لإطاقته، ورد من رد لعدم إطاقته، ولا تأثير للبلوغ وعدمه في ذلك.

قالوا: وفي بعض ألفاظ حديث ابن عمر: «فلما رآني مطيقًا أجازني» وتعبت قريش للقتال، وهم في ثلاثة آلاف، وفيهم مائتا فارس، فجعلوا على ميمنتهم خالد ابن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفع رسول الله ﷺ سيفه إلى أبي دُجانة سِمَاك بن خرشة، وكان شجاعًا بطلًا يختال عند الحرب، وكان أول من بدر من المشركين: أبو عامر الفاسق ـ واسمه: عبد عمرو بن صيفي ـ وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله ﷺ: «الفاسق» وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه، فكان أول من لقي المسلمين، فنادى قومه وتعرف إليهم، فقالوا له: «لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق» فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم قاتل المسلمين قتالًا شديدًا[١]. وكان شعار المسلمين يومئذ «أمت أمت» وأبلى يومئذ أبو دجانة الأنصاري، وطلحة بن عبيد الله، وأسد الله وأسد رسوله: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وأنس بن النضر، وسعد بن الربيع. وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار، فانهزم عدو الله، وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة هزيمتهم، تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ، بحفظه، وقالوا: «يا قوم الغنيمة، الغنيمة» فذكَّرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة، وأخلوا الثغر، وكر فرسان المشركين، فوجدو الثغر خاليا قد خلا من الرماة، فجازوا

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

منه وتمكنوا، حتىٰ أقبل آخرهم؛ فأحاطوا بالمسلمين. فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة، وهم سبعون[١]، وولَّىٰ الصحابة وخلص المشركون إلىٰ رسول الله ﷺ، فجرحوا وجهه، وكسروا رباعيته اليمنىٰ، وكانت السفلىٰ. وهشموا البيضة علىٰ رأسه، ورموه بالحجارة حتىٰ وقع لشقه، وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين، فأخذ عليٌّ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله، وكان الذي تولىٰ أذاه ﷺ عمرو بن قمئة، وعتبة بن أبي وقاص، وقيل: إن عبدالله بن شهاب الزهري عم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري هو الذي شجَّه، وقتل مصعب بن عمير بين يديه، فدفع اللواء إلىٰ علي بن أبي طالب، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح، وعض عليهما حتىٰ سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه، وامتص مالك بن سنان ـ والد أبي سعيد الخدري ـ الدم من وجنته، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه، فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة، حتىٰ قتلوا، ثم جالدهم طلحة حتىٰ أجهضهم عنه، وترس أبو دجانة بظهره عليه، والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك[٢].

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان؛ حتىٰ سقطت علىٰ وجنته فردها عليه رسول الله ﷺ بيده، وكانت بعد ذلك أصح عينيه وأحسنهما.

وصرخ الشيطان بأعلىٰ صوته: إن محمدًا قد قتل. ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وفرَّ أكثرهم وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

[٣]ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم، فقال: «ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، فقال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه. ثم استقبل الناس، ولقي سعد بن معاذ، فقال يا سعد، إني لأجد ريح الجنة

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٤٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٥٠) وعمدة القاري (١٧/ ١٤٢).
(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٦٦) وعمدة القاري (١٧/ ١٥٥).
(٣) سيأتي هذا وما بعده في (١٢٧) مكرر لكن فيه زيادة فائدة (ج).

من دون أحد، فقاتل حتى قتل، ووجد به سبعون ضربة»[١] وجرح يومئذ عبد الرحمن ابن عوف نحوًا من عشرين جراحة.

وأقبل رسول الله ﷺ، نحو المسلمين، وكان أول من عرفه تحت المغفر: كعب بن مالك، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه بيده: «**أن اسكت**» واجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه، وفيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصمة الأنصاري وغيرهم. فلما استندوا إلى الجبل أدرك رسول الله ﷺ، أبي بن خلف على جواد له، يقال له: العود، زعم عدو الله أنه يقتل عليه رسول الله ﷺ فلما اقترب منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فطعنه بها، فجاءت في ترقوته، فكرَّ عدو الله منهزمًا، فقال له المشركون: والله ما بك من بأس. فقال: والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، وكان يعلف فرسه بمكة، ويقول: أقتل عليه محمدًا ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**بل أنا أقتله إن شاء الله تعالى**» فلما طعنه تذكر عدو الله قوله: «**أنا أقتله**»[٢] فأيقن أنه مقتول من ذلك الجرح، فمات منه في طريقه بسرف مرجعه إلى مكة. وجاء علي إلى رسول الله ﷺ ليغسل الدم، فوجده أجنأ فرده. وأراد رسول الله ﷺ، أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به، فجلس طلحة تحته حتى صعدها، وحانت الصلاة فصلى بهم جالسًا، وصار رسول الله ﷺ في ذلك اليوم تحت لواء الأنصار. وشد حنظلة الغسيل ـ وهو حنظلة بن أبي عامر ـ على أبي سفيان، فلما تمكن منه حمل على حنظلة شداد بن الأسود، فقتله وكان جنبًا ـ فإنه سمع الصيحة وهو على امرأته، فقام من فوره إلى الجهاد ـ فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه، أن الملائكة تغسله، ثم قال: «**سلوا أهله ما شأنه؟**» فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ١١٢-١١٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٥٥-٣٥٦ رقم ٩٧٣١) والطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٥-٢٠٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٦) وعمدة القاري (١٧/ ١٦٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٥ رقم ٤٩١٧) وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٩٥ رقم ٧٠٢٥) والبيهقي في =

وجعل الفقهاء هذا حجة أن الشهيد إذا قتل جنبًا يغسل، اقتداء بالملائكة.

وقتل المسلمون حامل لواء المشركين، فرفعته لهم عمرة بنت علقمة الحارثية، حتى اجتمعوا إليه.

وقاتلت أم عمارة ـ وهي نُسَيبة بنت كعب المازنية ـ قتالًا شديدًا، وضربت عمرو ابن قمئة بالسيف ضربات، فوقته درعان كانتا عليه، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحًا شديدًا على عاتقها.

وكان عمرو بن ثابت بن وقش ـ المعروف بالأُصَيرم ـ من بني عبد الأشهل يأبى الإسلام، فلما كان يوم أحد قذف الله الإسلام في قلبه، للحسنى التي سبقت له منه، فأسلم وأخذ سيفه، ولحق بالنبي ﷺ، فقاتل: فأثبت بالجراح، ولم يعلم أحد بأمره، فلما انجلت الحرب طاف بنو عبد الأشهل في القتلى يلتمسون قتلاهم، فوجدوا الأصيرم وبه رمق يسير، فقالوا: والله، إن هذا الأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذي جاء بك؟ أحَدَبٌ على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «**هو من أهل الجنة**» قال أبو هريرة: «ولم يصل لله صلاة قط»[1].

فلما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة، لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم، فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: «يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوءك» فقال: قد كان في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني،

الكبرى (٤/ ١٥ رقم ٦٦٠٥، ٦٦٠٦) وانظر: عمدة القاري (٦/ ٢٢٧) (١٦/ ١٥٥) والإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ١٣٧) والاستيعاب (١/ ٣٨١) وصححه الحاكم.

(١) انظر: عمدة القاري (١٤/ ١٠٦) والاستيعاب (٣/ ١١٦٧).

ثم قال: أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟» فقالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله أعلىٰ وأجل»، ثم قال: لنا العزىٰ ولا عزىٰ لكم، قال: «ألا تجيبونه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولىٰ لكم»(١).

فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته وبشركه: تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن حزبه وجنده. ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل قد روي أنه نهاهم عن إجابته، وقال: «لا تجيبوه» لأن كلمهم لم يكن برد بعد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمي عمر بن الخطاب ﷺ واشتد غضبه، وقال: «كذبت يا عدو الله» فكان في هذا الإعلام من: الإذلال والشجاعة وعدم الجبن والتعرف إلىٰ العدو في تلك الحال، ما يؤذنهم بقوة القوم، وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه والمسلمون جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقىٰ الله لهم ما يسوؤهم منهم. وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة ـ بعد ظنه قومه أنهم قد أصيبوا ـ: من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه، والفت في عضده؛ ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحدًا واحدًا، فكان سؤاله عنهم، ونعيهم لقومه؛ آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي ﷺ حتىٰ استوفىٰ كيده، ثم انتدب له عمر، فردَّ سهام كيده عليه، وكان ترك الجواب أولىٰ وأحسن، وذكره ثانيًا أحسن وأحسن.

وأيضا فإن في ترك إجابته حين سأل عنهم: إهانة له، وتصغيرًا لشأنه، فلما منَّته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له من الكبر بذلك والأشر ما حصل؛ كان في جوابه: إهانة له، وتحقير، وإذلال. ولم يكن هذا مخالفًا لقول النبي ﷺ: «لا تجيبوه»، فإنه إنما نهىٰ عن إجابته لمَّا سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته لمَّا قال: أما هؤلاء فقد قتلوا. وبكل حال؛ فلا أحسن من ترك إجابته أولًا، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٣٩) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ١٤٢-١٤٣).

أحسن من إجابته ثانيًا.

ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، فأجابه عمر: «لا سواء. قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»(١).

وقال ابن عباس: ما نصر الله رسول الله ﷺ في موطن نصره يوم أحد، فأنكر ذلك عليه، فقال: بيني وبين من أنكر كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قال ابن عباس: والحس القتل(٢)، ولقد كان لرسول الله ﷺ ولأصحابه أول النهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة، أو تسعة ـ وذكر الحديث».

وأنزل الله عليهم النعاس أمنة منه في غزاة بدر، وأحد. والنعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن، وهو من الله، وفي الصلاة ومجالس الذكر والعلم؛ من الشيطان.

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين: عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد»(٣).

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا، وله الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه، فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، وهو رفيقي في الجنة؟**» فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أنصفنا أصحابنا**»(٤) وهذا يروى على وجهين: بسكون الفاء ونصب «**أصحابنا**» على المفعولية، وفتح الفاء، ورفع «**أصحابنا**» على الفاعلية.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٦-٧٨٧ رقم ٤٣٢٥) والحاكم (٢/ ٣٢٤ رقم ٣١٦٣) وصححه.
(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٢٤ رقم ٣١٦٣) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠١ رقم ١٠٧٣١).
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٥٤) ومسلم (رقم ٢٣٠٦) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ١٤٨) (٢٢/ ٧).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٦٠).

ووجه النصب: أن الأنصار لما خرجوا للقتال، واحدًا بعد واحد حتىٰ قتلوا ولم يخرج القرشيان، قال ذلك، أي: ما أنصفت قريش الأنصار، ووجه الرفع: أن يكون المراد بالأصحاب؛ الذين فروا عن رسول الله ﷺ، حتىٰ أفردوه في النفر القليل، الذين قتلوا واحدًا بعد واحد، فلم ينصفوا رسول الله ﷺ ولا من ثبت معه.

وفي صحيح ابن حبان: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد؛ انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ فكنت أول ما فاء إلىٰ النبي ﷺ، فرأيت بين يديه رجلًا يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فداك أبي وأمي، كن طلحة، فداك أبي وأمي، فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح وإذا هو يشتد كأنه طير، حتىٰ لحقني، فدفعنا إلىٰ النبي ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعًا فقال النبي ﷺ: «**دونكم أخاكم. فقد أوجب**» وقد رمي النبي ﷺ في وجنته حتىٰ غابت حلقة من حلق المغفر في وجنته، فذهبت لأنزعها عن النبي ﷺ، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني؟ قال: فأخذ، أبو عبيدة السهم بفيه فجعل ينضنضه كراهة أن يؤذي رسول الله ﷺ، ثم استله السهم بفيه، فندرت ثنية أبي عبيدة ، قال أبو بكر ﷺ: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني؟ قال: فأخذه، فجعل ينضنضه حتىٰ استلَّه، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرىٰ، ثم قال رسول الله ﷺ: «**دونكم أخاكم فقد أوجب**» قال: فأقبلنا علىٰ طلحة نعالجه، وقد أصابته بضعة عشر ضربة(١).

وفي مغازي الأموي: أن المشركين صعدوا علىٰ الجبل، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «**احتتهم**» : يقول: اردده ـ فقال: كيف أحتتهم وحدي؟ ـ قال ذلك ثلاثًا ـ فأخذ سعد سهمًا من كنانته، فرمىٰ به رجلًا فقتله، قال: ثم أخذت سهمي أعرفه، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذته أعرفه، فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٣٧-٤٣٨ رقم ٦٩٨٠) وفي الموارد (رقم ٢٢١٣) والضياء في المختارة (١/ ١٣٦-١٣٧ رقم ٤٩).

مبارك، فجعلته في كنانتي، فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه(١).

في الصحيحين: عن أبي حازم؛ أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووي، كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، فألصقتها، فاستمسك الدم(٢).

وفي الصحيح: أنه كسرت رباعيته، وشج رأسه، وجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعو إلى الله؟**» فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾(٣) [عمران: ١٢٨].

ولما انهزم الناس؛ لم ينهزم أنس بن النضر، وقال: اللهم اني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم، فلقية سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ قال أنس: واهًا لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه، وبه بضع وثمانون: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم(٤).

وانهزم المشركون أول النهار - كما تقدم - فصرخ فيهم إبليس: أي عباد الله، أخزاكم الله، فارجعوا من الهزيمة فاجتلدوا، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ١٨١) وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٣٧) (٢/ ١٣٥) وغريب الحديث لابن سلام (٣/ ٩٥) ولسان العرب (٢/ ٢٣) (١٤/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٧٥) ومسلم (رقم ١٧٩٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩١) والبخاري تعليقًا في كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ (ص ٧٧٢) قبل حديث (رقم ٤٠٩٦) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٤٨) ومسلم (رقم ١٩٠٣) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٠٢).

وأخراهم، ونظر حذيفة إلى أبيه والمسلمون يريدون قتله، وهم يظنونه من المشركين، فقال: أي عباد الله، أبي، أبي، فلم يفهموا قوله حتى قتلوه، فقال: يغفر الله لكم، فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَهُ فقال: قد تصدقت بديته على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيرًا عند النبي ﷺ[١].

وقال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «**إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟**» قال: فجعلت أطواف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: «**أخبرني كيف تجدك؟**» فقال: وعلى رسول الله الصلاة والسلام، قل له: يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ، وفيكم عين تَطْرِف، وفاضت نفسه من وقته[٢].

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال: يا فلان، أشعرت أن محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل؟ فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ...﴾ الآية[٣]. [آل عمران: ١٤٤].

وقال عبد الله بن عمرو بن حرام: رأيت في النوم قبل أحد مبشر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ فقال: بلى، ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**هذه الشهادة يا أبا جابر**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٦٥) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٦٣) وعمدة القاري (١٦/ ٢٨٣) (١٧/ ١٥١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢١ رقم ٤٩٠٦) وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣١٩).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ١١١، ١١٣) وابن أبي الدنيا في المحتضرين (رقم ٣٤٩).

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٥ رقم ٤٩١٥).

وقال خيثمة أبو سعد بن خيثمة ـ وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ـ: «لقد أخطاتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصًا، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، يقول: «الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا» وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلىٰ مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنِّي، ورق عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة؟ فدعا له رسول الله بذلك، فقتل بأحد شهيدًا.

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم: «اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غدًا فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي وأذني، ثم تسألني: فيم ذلك؟ فأقول: فيك»[١].

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شببة، يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا. فلما توجه إلىٰ أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**» وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه، لعل الله ﷻ أن يرزقه الشهادة**» فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدًا[٢].

وانتهى أنس بن النضر: إلىٰ عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل رسول الله

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٠ رقم ٤٩٠) وابن المبارك في الجهاد (رقم ٨٥) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٩) وعبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٢٦٢ رقم ٩٥٥٢) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٢٤ رقم ١٧٥٩٩) وابن المبارك (رقم ٧٨) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٦٥/ ١٤٤) وصفة الصفوة (١/ ٦٤٦).

ﷺ فقال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل(١).

وأقبل أبي بن خلف عدو الله وهو مقنع في الحديد، ويقول: لا نجوت إن نجا محمد ـ وكان حلف بمكة أن يقتل رسول الله ﷺ ـ فاستقبله مصعب بن عمير فقتل مصعبًا، وأبصر رسول الله ﷺ تُرقُوَةَ أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه بحربته، فوقع عن فرسه، فاحتمله أصحابه وهو يخور خوار الثور فقالوا: ما أجزعك إنما هو خدش. فذكر لهم قول النبي ﷺ: «**بل أنا اقتله إن شاء الله تعالى**»(٢) فمات برابغ. قال ابن عمر: «إني لأسير ببطن رابغ بعد هويٍّ من الليل إذا نارٌ تأجج لي، فيَمَّمْتُها. وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها، يصيح: العطش العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، هذا قتيل رسول الله ﷺ هذا أبي بن خلف»(٣).

وقال نافع بن جبير: سمعت رجلًا من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا، فنظرت إلى النبْل يأتي من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد ثم جاوزه فعاتبه في ذلك صفوان؛ فقال: والله ما رأيته أحلف بالله إنه منَّا ممنوع، فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك(٤).

ولما مص مالك بن سنان ـ والد أبي سعيد الخدري ـ جُرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه؛ قال له: «**مجه**» قال: والله لا أمجه أبدًا، ثم أدبر. فقال النبي ﷺ: «**من أراد أن ينظر**

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ١١٣) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٤) والثقات (١/ ٢٢٨) وصفة الصفوة الصفوة (١/ ٦٢٣).

(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٦٨-٦٩) وفي مصنفه (٥/ ٣٥٥-٣٥٦ رقم ٩٧٣١) والطبري (٩/ ٢٠٥-٢٠٦) والحاكم (٢/ ٣٥٧ رقم ٣٢٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٦) وعمدة القاري (١٧/ ١٦٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٧).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٧).

إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[١].

قال الزهري، وعاصم بن عمرو، ومحمد بن يحيى وغيرهم: كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص، اختبر الله ﷻ به المؤمنين، وأظهر به المنافقين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه، وهو مستخف بالكفر، فأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته، وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران، أولها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[٢] [آل عمران: ١٢١] إلى آخر القصة.

فصل فيما اشتملت عليه هذه الغزاة من الأحكام والفقه:

منها: أن الجهاد يلزم بالشروع فيه: حتى إن من لبس لَأمته، وشرع في أسبابه، وتأهَّب للخروج ليس له أن يرجع عن الخروج حتى يقاتل عدوه.

ومنها: أنه لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم ويقاتلوهم فيها، إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله ﷺ يوم أحد.

ومنها: جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيَّته، إذا صادف ذلك طريقه، وإن لم يرض المالك.

ومنها: أنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما ردَّ رسول الله ﷺ ابن عمر ومن معه.

ومنها: جواز الغزو بالنساء، والاستعانة بهن في الجهاد.

ومنها: جواز الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره.

ومنها: أن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدًا، وصلوا وراءه قعودًا، كما فعل

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٢/ ٢٦١ رقم ٢٥٧٣) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٣١): حديث مرسل، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٨).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠٢) إلى ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل.

رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته(١).

ومنها: جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله وتمنيه ذلك، وليس هذا من تمني الموت المنهي عنه، كما قال عبد الله بن جحش بن رباب: «اللهم لقني من المشركين رجلًا عظيمًا كفره، شديدًا حرده، فأقاتله فيقتلني فيك ويسلبني، ثم يجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك، فقلت: يا عبد الله بن جحش، فيم جدعت؟ قلت: فيك يا ربِّ(٢).

ومنها: أن المسلم إذا قتل نفسه فهو من أهل النار لقوله ﷺ في قزعان بن الحارث الذي أبلى يوم أحد بلاء شديدًا، فلما اشتدت به الجراح نحر نفسه فقال ﷺ: «هو من أهل النار»(٣).

ومنها: أن السنة في الشهيد: أن لا يغسل، ولا يصلى عليه، ولا يكفن في غير ثيابه، بل يدفن فيها بدمه وكلومه إلا أن يسلبها، فيكفن في غيرها.

ومنها: أنه إذا كان جنبًا؛ غسل كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر.

ومنها: أن السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم: ولا ينقلوا إلى مكان آخر. فإن قومًا من الصحابة نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فنادى منادي رسول الله ﷺ، بالأمر بردِّ القتلى إلى مضاجعهم. قال جابر: بينا أنا في النظارة؛ إذ جاءت عمتي بأبي وخالي، عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، وجاء رجل ينادي: ألا إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها؛ حيث قتلت، قال فرجعنا بهما فدفناهما حيث قتلا فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان، إذ جاءني

---

(١) وهي مسألة خلافية. ومنع القائلون بالنسخ: أن يكون الرسول ﷺ كان إمامًا في صلاته في مرض موته، بل كان الإمام أبا بكر ﷺ والرسول ﷺ يصلي بصلاته، هكذا وجد في الطبعة التي نقلنا منها، ولكن السنة الواردة من قوله ﷺ: «إذا صلى قاعدًا فصلوا قعودًا أجمعين» (ج).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٨٦ رقم ٢٤٠٩) والبيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٣٠٧ رقم ١٢٥٤٩) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٩) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٠١-٣٠٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٠٣) ومسلم (رقم ١١٢).

رجل، فقال: يا جابر والله لقد أثار أباك عمال معاوية فبدا، فخرج طائفة منه. قال: فأتيته فوجدته على النحو الذي تركته لم يتغير منه شيء. قال: فواريته فصارت سنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم»[(١)].

ومنها: جوزا دفن الرجلين أو الثلاثة في القبر الواحد، فإن رسول الله ﷺ كان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر، ويقول: «**أيهم أكثر أخذا للقرآن؟**» فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد[(٢)] ودفن عبدالله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، لما كان بينهما من المحبة، فقال: «**ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد**» ثم حفر عنهما بعد زمن طويل، ويد عبدالله بن عمرو بن حرام على جراحته، كما وضعها حين جرح، فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم، فرُدَّت إلى مكانها فسكن الدم. وقال جابر: «رأيت أبي في حفرته حين حُفر عليه كأنه نائم، وما تغير من حاله قليل ولا كثير. قيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: إنما دفن في نَمِرَةٍ خُمِّرَ وجهه، وعلى رجليه الحَرْمَل، فوجدنا النمرة كما هي، والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك ست وأربعون سنة»[(٣)].

وقد اختلف الفقهاء في أمر النبي ﷺ أن يدفن شهداء أحد في ثيابهم: هل هو على وجه الاستحباب والأَوْلَوِيَّة، أو على وجه الوجوب؟ على قولين: الثاني أظهرهما. وهو المعروف عن أبي حنيفة. والأول: هو المعروف عن أصحاب الشافعي وأحمد.

فإن قيل: فقد روى يعقوب بن شبة، وغيره بإسناد جيد: «أن صَفِيَّة أرسلت إلى النبي ﷺ ثوبين ليكفن فيهما حمزة، فكفنه في أحدهما، وكفن في الآخر رجلًا آخر»[(٤)]؟.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٥٧ رقم ٣١٨٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٧٤) وأحمد (٣/ ٣٩٧-٣٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٣٤٣) وانظر: عمدة القاري (٨/ ١٥٩-١٦٨).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٥٦٢-٥٦٣) وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٦).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٠٦ رقم ١٢١٥٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٢٠): رواه الطبراني ورجاله ثقات، وقال ابن قدامة في المغني (٢/ ٢٠٥): رواه يعقوب بن شيبة وقال: هو صالح الإسناد.

قيل: حمزة كان الكفار قد سلبوه ومثلوا به، وبقروا بطنه، واستخرجوا كبده، فلذلك كُفن في كفن آخر. وهذا القول في الضعف؛ نظير قول من قال: يغسل الشهيد. وسنة رسول الله ﷺ أولى بالاتباع.

ومنها: أن شهيد المعركة لا يصلى عليه؛ لأن رسول الله ﷺ لم يصل على شهداء أحد، ولم يُعْرَف عنه أنه صلى على أحد ممن استشهد معه في مغازيه. وكذلك خلفاؤه الراشدون ونوابهم من بعدهم.

فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين: من حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يومًا، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر»[١] وقال ابن عباس: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد»[٢].

قيل: أما صلاته عليهم؛ فكانت بعد ثمان سنين من قتلهم، قرب موته كالمودع لهم[٣].

ويشبه هذا؛ خروجه إلى البقيع قبل موته يستغفر لهم، كالمودع للأحياء والأموات. فهذه كانت توديعًا منه لهم، لا أنها سنة الصلاة على الميت. ولو كان ذلك كذلك لم يؤخرها ثمان سنين. لاسيما عند من يقول: لا يصلى على القبر أو يصلى عليه إلى شهر.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٤٤) ومسلم (رقم ٢٢٩٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ١٣ رقم ٦٥٩٨) وقال: والحسن بن عمارة ضعيف لا يحتج بروايته. وأخرجه أيضًا عبدالرزاق (٣/ ٤٦٩ رقم ٦٣٥٦) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٦٧ رقم ١٥٩٩) وفي الكبير (١١/ ١٧٤ رقم ١١٤٠٣) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٥): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٢١٠): وقال الشافعي في الأم: جاءت الأخبار كأنها عيان من وجوه متواترة أن النبي ﷺ لم يصل على قتلى أحد. وما روي أنه صلى عليهم وكبَّر على حمزة سبعين تكبيرة لا يصح، وقد كان ينبغي لمن عارض بذلك هذه الأحاديث الصحيحة أن يستحي على نفسه، قال: وأما حديث عقبة بن عامر فقد وقع في نفس الحديث أن ذلك كان بعد ثمان سنين. وانظر: شرح النووي (١٥/ ٥٩).

(٣) أخرجه البخاري من قول عقبة بن عامر ﷺ (رقم ٤٠٤٢) ومسلم (رقم ٢٢٩٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢١٠) (٧/ ٣٤٩) وشرح النووي (١٥/ ٥٩).

ومنها: أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج.

ومنها: أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد، يظنونه كافرًا، فعلى الإمام ديته من بيت المال؛ لأن رسول الله ﷺ، أراد أن يَدِي اليمان أبا حذيفة، فامتنع حذيفة من أخذ الدِّية، وتصدق بها على المسلمين.

فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد:

وقد أشار ﷻ إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران؛ حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرزًا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم؛ جرت بأن يدالوا مرَّة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا؛ دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره. ولو انتصر عليهم دائمًا، لم يحصل المقصود، من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله: أن جمع لهم بين الأمرين؛ ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به؛ ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال: ندال عليه المرة ويدال علينا

الأخرى. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة»[١].

ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب. فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمه الله ﷻ أن سبَّب لعباده محنةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقسامًا ظاهرًا وعرف المؤمنون؛ أن لهم عدوًّا في عقر دورهم. وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء فإنهم متميزون في علمه وغيبه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزًا مشهودًا، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة:

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ استدراكٌ لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتم به واتقيتم؛ كان لكم الأجر والكرامة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وفي حال ظفر أعدائهم بهم. فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧، ٢٨٠٤) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢١) وشرح النووي (١٢/ ١٠٦).

فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد: من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوِّهم في كل موطنٍ، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدًا؛ لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا: السراء والضراء، والشدة والرخاء، والقبض والبسط. فهو المدبر لأمر عباده، كما يليق بحكمته. إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة؛ ذلُّوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العزة والنصر، فإن خلعة النصر؛ إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥] فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره؛ كسره أولًا ويكون جبره له ونصره؛ على مقدار ذُلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازلَ في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيَّض لهم الأسباب التي توصلهم إليها: من ابتلائه وامتحانه، كما وفَّقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى؛ طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدِّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد ربها ومالكها وراحمها كرامته، قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه المقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقيَّة إلا الشهادة. وهو سبحانه يحب أن يتخذ من

عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم ومن أعظمها - بعد كفرهم - بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر ﷻ ذلك في قوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم، فقال: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولًا، بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة. فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة، بعد أن كانوا معلومين في غيبه. وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة.

وفي قوله ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] تنبيه لطيف الموقع جدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين، الذين انخذلوا عن نبيِّه يوم أحد، فلم يشهدوه. ولم يتخذ منهم شهداء؛ لأنه لم يحبهم. فأركسهم وردهم، ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم. فثَبَّط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم: من الذنوب، ومن آفات النفوس.

وأيضًا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين فتميزوا منهم، فحصل له تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محق الكافرين: بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم.

ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه، فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] أي: ولما يقع ذلك منكم فيعلمه فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم. فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه، دون أن يقع معلومه.

ثم وبَّخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنَّونه ويودون لقاءه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣] قال ابن عباس: «لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم فأراهم الله ذلك يوم أحد

وسبَّبه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا، إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(١).

ومنها: أن وقعة أحد؛ كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ فنبَّأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم أن مات رسول الله ﷺ أو قتل، بل الواجب له عليهم: أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا. فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمد، وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قتل؛ لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث الله محمدًا ﷺ ليخلد، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لابد منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي؛ ولهذا وبَّخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه، لما صرخ الشيطان بأن محمدًا قد قتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها، حتى ماتوا أو قتلوا. فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه: أنه جعل لكل نفس أجلًا لابد أن تستوفيه، ثم تلحق به فيرد الناس كلهم حوض المنايا موردًا واحدًا، وأن تنوعت أسبابه، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

ثم أخبر سبحانه: أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا، وقتل معهم أتباع لهم كثيرون، فما وهن من بقي منهم لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا ما استكانوا، وما وهنوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٧٦ رقم ٤٢٥٤) وانظر: الدر المنثور (٢/ ٣٣٣) وعمدة القاري (١٧/ ١٤٠).

عند القتل ولا ضعفوا ولا استكانوا؛ بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كرامًا مقبلين، غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

[(١)]إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانًا؛ فيه حكمة عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله ﷻ.

فمنها: استخراج عبوديتهم، وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائمًا منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائمًا مقهورين مغلوبين منصورًا عليهم عدوهم؛ لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة؛ فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرفهم بين غلبهم تارةً، وكونهم مغلوبين تارةً، فإذا غلبوا تضرعوا إلى ربهم، وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوَّه، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنهم لو كانوا دائمًا منصورين، غالبين، قاهرين؛ لدخل معهم من ليس قصده الدين، ومتابعة الرسول، فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائمًا؛ لم يدخل معهم أحدٌ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارةً، وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله، ومن ليس له مرادٌ إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عبادة تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلبُ بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب،

(١) ١٨٩ إغاثة جـ٢.

وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرطٌ في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنعٌ.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم، ويخلصهم، ويهذبهم، كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٤].

فذكر سبحانه أنوعًا من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار، بعد أن ثبَّتهم وقوَّاهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسَّهم القرح في طاعته وطاعة رسوله؛ فقد مس أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولًا بين الناس، فيصيب كُلًّا منهم نصيبه منها كالأرزاق والآجال.

ثم أخبرهم أنه فعل ذلك؛ ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين، فيعلم إيمانهم واقعًا.

ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه، وأنفعها للعبد.

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين، أي: تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن

يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم، وعدوانهم إذا انتصروا.

ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم: دخول الجنة: بغير جهاد، ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائمًا منصورين غالبين؛ لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم. فهذا بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم، وإدالته في بعض الأحيان.

***

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم. فقال: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحدٍّ، وأن النصر منوط بالطاعة قالوا: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم؛ لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا. فوفوا المقامين حقَّهما: مقام المقتضي ـ وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه ـ ومقام إزالة المانع من النصرة ـ وهو الذنوب والإسراف ـ ثم حذَّرهم سبحانه من طاعة عدوهم، وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة. وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أحد.

ثم أخبر سبحانه: أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليهم والإقدام على حربهم. وأنه يؤيد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله. وعلى قدر الشرك يكون الرعب. فالمشرك بالله أشد شيء خوفًا ورعبًا، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك لهم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء.

ثم أخبرهم: أنه صدقهم وعده في النصرة على عدوه، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزوم أمر الرسول؛ لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن

الطاعة وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء، وتعريفًا لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر: أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين.

قيل للحسن: «كيف يعفو عنهم، وقد سلط عليهم أعداءهم؛ حتى قتلوا منهم من قتلوا ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوا؟ فقال: لولا عفوه عنهم لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم، بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم».

ثم ذكَّرهم بحالهم وقت الفرار مصعدين - أي جادين في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل - لا يلوون على أحد من نبيهم ولا أصحابه. والرسول يدعوهم في أخراهم «**إليَّ عباد الله، أنا رسول الله**»[1] فأثابهم بهذا الهرب والفرار غمًّا بعد غم: غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخة الشيطان فيهم: بأن محمدًا قد قتل.

وقيل: جازاكم غمًّا بما غممتم رسوله بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوه. فالغم الذي حصل لكم؛ جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه. والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣] تنبيه على حكمة هذا الغم من بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب. وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حصل لهم غمُّ فوات الغنيمة ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التي أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم: أن رسول الله ﷺ قد قتل، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم: وليس المراد غمين اثنين خاصة، بل غمًّا متتابعًا، لتمام الابتلاء والامتحان.

---

(١) أخرجه الحاكم بلفظ قريب (٣/ ٥٠ رقم ٤٣٦٨) وصححه، وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ١٤٢-١٤٣ رقم ٨٦٣).

الثالث: أن قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾ من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب. والمعنى: أثابكم غمًّا متصلًا بغم، جزاءً على ما وقع من الهروب وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له، وهو يدعوهم ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يوجب غمًّا يخصه، فترادفت عليهم الغموم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمرا آخر.

ومن لطفه بهم ورأفته ورحمته؛ أن هذه الأمور التي صدرت منهم؛ كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس، التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيَّض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ: أن التوبة منها والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها؛ أمر متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشد حذرًا بعدها، ومعرفةً بالأبواب التي دخل عليهم منها:

وربما صحت الأجسام بالعلل[(١)]

ثم إنه سبحانه تداركهم برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم، وغيبه عنهم بالنعاس، الذي أنزله عليهم أمنا منه ورحمة. والنعاس في الحرب، علامة النصرة والأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر. وأخبر: أن من لم يصبه ذلك النعاس، فهو ممن أهمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

وقد فُسِّر هذا الظن الذي لا يليق بالله: بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل.

وقد فسر بظنهم: أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة وبإنكار القدر، وبإنكار أن يتم أمر رسوله، ويظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون بربهم ﷻ وعذبهم به، كما قال في سورة

---

(١) هذا عجز بيت من بحر البسيط، وصدره: لعل عتبك محمود عواقبه. ينسب إلى أبي الطيب المتنبي، والبيت ذكره ابن الجوزي في المدهش (ص ١٤٦).

الفتح: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وهو خلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وخلاف كلمته التي سبقت لرسله: أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده: بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن أنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا؛ فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته.

فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته، تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله.

وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته.

وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره: لحكمه بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة، هي أحب إليه من فوتها وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له. فما قدرها

سدىٰ، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلًا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته.

فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء.

ومن جوز عليه: أن يعذب أولياءه، مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أن يترك خلقه سدىٰ معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملًا كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن: أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته ويتبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن: أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه الكريم علىٰ امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه علىٰ فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها علىٰ أيديهم يضلون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتىٰ تعذيب من أفنىٰ عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلىٰ أعلىٰ عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه وتمثيل:

وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به، وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير مدلوله العربي، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل بل سلك بهم خلاف طريق الهدىٰ والبيان فقد ظن به ظن السوء.

فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه؛ فقد ظن بقدرة الله العجز. وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم - بل يوقع - في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد؛ فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء، وظن: أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدىٰ والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتهوِّكين الحيارىٰ؛ هو الهدىٰ والحق وهذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به: أن يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه كان معطَّلًا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرًا عليه، بعد أن لم يكن قادرًا؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلِّم أحدا من الخلق، ولا يتكلم أبدًا، ولا قال ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائنًا من خلقه، بل إن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأنه أسفل، كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربي الأسفل، كمن قال: سبحان ربي الأعلى؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به: أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المتقين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة، تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة: فمن ظن به سبحانه خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ووصفته به رسله فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن: أن له ولدًا أو شريكًا أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به: أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما ينال بطاعته والتقرب إليه؛ فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به: أنه إذا ترك لأجله شيئًا لم يعوضه خيرًا منه، أو من فعل لأجله شيئًا لم يعطه أفضل منه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه يغضب على عبده، ويعاقبه ويحرمه بغير جرمٍ ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحضِ الإرادة فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به: أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأله، واستعان به وتوكل عليه: أن يخيبه ولا يعطيه ما سأله فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به: أنه يثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه؛ فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله، وما لا يفعله.

ومن ظن به: أنه إذا عصاه وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليًا، ودعا من دونه ملكًا أو بشرًا، حيًّا أو ميتًا، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء، وذلك زيادة في بعده من الله وفي عذابه.

ومن ظن به: أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطًا مستقرًا دائمًا في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيته وظلموا أهل بيته، وسلبوهم حقهم وأذلوهم، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائمًا من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم وغصبهم إياهم حقهم، وتبديلهم دين نبيهم وهو يقدر على نصر أوليائه وحزبه وجنده ولا ينصرهم ولا يديلهم بل يديل أعداءهم عليهم أبدًا، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته، ثم جعل أعداءه الذين بدلوا دينه مضاجعيه في حفرته تسلِّم أمته عليه وعليهم كل وقت ـ كما تظنه الرافضة ـ؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه، سواء قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر، أو قالوا: إنه غير قادر على ذلك. فهم

إما: قادحون في قدرته، أو قادحون في حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به.

ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك، غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رفؤوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرمضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، ولا هي داخلة تحت قدرته، فظنوا بن ظن إخوانهم المجوس والثنوية بربهم.

وكل مبطل وكافر ومبتدع مقهور مستذل فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه، فأكثر الخلق - بل كلهم، إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وإن كان هو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌ ومستكثرٌ وفتش نفسك: هل أنت سالم في ذلك؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فـــإني لا إخــالك ناجـــيا[1]

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء ومنبع كل شر، والمركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل

---

(١) هذا بيت من بحر الطويل، ينسب إلى ذي الرمة: غيلان بن عقبة العدوي المضري، كان من فحول الطبقة الثانية في عصره، كان أكثر شعره في التشبيب وبكاء الأطلال، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة، مات بأصبهان سنة ١١٧ هـ.

وذكر البيت ابن منظور في لسان العرب (١٢/ ٤١٠) وابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ٢١٩).

العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه. وصفاته كذلك. وأفعاله كذلك؟ كلها حكمة ومصلحة. ورحمة وعدل. وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل[1]
ولا تظنن بنفسك قط خيرًا ... وكيف بظالم جان جهول؟
وقل: يا نفس مأوى كل سوء ... أيرجى الخير من ميت بخيل؟
وظن بنفسك السوأى تجدها ... كذاك. وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقًى فيها وخير ... فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها ولا منها ولكن ... من الرحمن فاشكر للدليل

والمقصود: ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية: إثبات القدر، ورد الأمر كله إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذُموا عليه، ولما حسن الرد عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر وظنهم: أن الأمر لو

(١) هذه الأبيات من بحر الوافر ذكر البيت الأول البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٧) ونسبه إلى جعفر بن محمد، وذكره أيضًا محمد بن علي الصوري في الفوائد المنتقاة (ص ٥٣) ونسبه إلى علي بن أبي طالب. وابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (ص ٣٤٠) ونسبه إلى جعفر والقزويني في أخبار قزوين (١/ ٤٨٧) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٩٦).

كان إليهم، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعًا لهم، ويسمعون منهم لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله ﷻ في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلىٰ أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر ـ الذي لم يكن بد من نفاذه ـ أنهم كانوا قادرين علىٰ دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرىٰ به علمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولابد؛ شاء الناس أم أبوا. وما لم يشأ لم يكن؛ شاءه الناس أم لم يشاءوا. وما جرىٰ عليكم من الهزيمة والقتل فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلىٰ دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن لكم، وأنكم لو كنتم في بيوتكم ـ وقد كتب القتل علىٰ بعضكم ـ لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلىٰ مضاجعهم ولابد، سواء كان لهم من الأمر شيء أو لم يكن. وهذا من أظهر الأشياء إبطالًا لقول القدرية النفاة الذين يجوِّزون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرىٰ في هذا التقدير: وهي ابتلاء ما في صدورهم، واختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، والمنافق ومن في قلبه مرض: لا بد أن يظهر ما في قلبه علىٰ جوارحه، ولسانه.

ثم ذكر حكمة أخرىٰ، وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يخالطها ـ بغلبة الطبائع وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ـ ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام، والبر والتقوىٰ، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة؛ لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه.

فاقتضت حكمة العزيز الرحيم، أن قيض لها من المحن والبلايا؛ ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء، إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم فله عليهم

النعمة التامة في هذا وهذا.

ثم أخبر ﷻ عن تولي من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم فاستزلهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا فكانت أعمالهم جندًا عليهم، ازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجند عليه، ولابد فللعبد كل وقت سرية من نفسه، تهزمه أو تنصره، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسرًا إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر، أو يشعر ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوه ـ وهو يطيقه ـ إنما هو بجند من عمله، بعثه له الشيطان واستزلّه به.

ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم؛ لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضًا عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها.

***

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

(١) إن كان عنده من يثق بعلمه ودينه فينبغي له أن يشاوره، ولا يستقل بالجواب، ذهابًا بنفسه وراتفاعًا بها؛ أن يستعين على الفتاوى بغيره من أهل العلم، وهذا من الجهل، فقد أثنى الله سبحانه على المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد كانت المسألة تنزل بعمر بن الخطاب ﷺ فيستشير لها من حضر من الصحابة، وربما جمعهم وشاورهم، حتى كان يشاور ابن عباس رضي الله عنهما وهو إذا ذاك أحدث القوم سنًّا، وكان يشاور عليًّا كرم الله وجهه، وعثمان وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم رضي الله عنهم

(١) ٢٥٦ أعلام جـ ٤.

أجمعين، ولاسيما إذا قصد بذلك: تمرين أصحابه وتعليمهم، وشحذ أذهانهم.

...[(١)] قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه؛ ليقتدي بهم السالك، يهتدي بهم الحيران، ويُشفىٰ بهم العليل، ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوىٰ، فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا، وينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا، فإن حركاتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله؛ وعلىٰ أمر الله جذبت قلوب الصادقين إليهم.

وهذا النور الذي أضاء علىٰ الناس منهم؛ هو نور العلم والمعرفة، والعلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره، واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء.

وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره. فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصرًا علىٰ نفسه، فبينه وبين الأول ما بينهما.

وعالم لم يستنر بنوره، ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبال عليه. وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم.

***

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

[(٢)] أما الخذلان فقال تعالىٰ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وأصل الخذلان الترك والتخلية، ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المرعىٰ وتركت صواحباتها: خذول.

---

(١) ٣٠٢ مدارج جـ٣.

(٢) ١٠٠ شفاء.

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس، ولن يضرك خذلان من خذلك، وإن يخذلك فلن ينصرك الناس، أي: لا تترك أمري للناس، وارفض الناس لأمري.

والخذلان: أن يخلي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها، والتوفيق ضده: أن لا يدعه ونفسه ولا يكله إليها؛ بل يصنع له ويلطف به ويعينه ويدفع عنه، ويكلؤه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خلى بينه وبين نفسه فقد هلك كل الهلاك؛ ولهذا كان من دعائه ﷺ: **«يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك»**[١].

فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس: فإن تولاه الله؛ لم يظفر به عدوه، وإن خذله وأعرض عنه؛ افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاة.

***

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

[٢]إذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية، التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يدرك الوصف حسنها، ولا تقترح عقول العقلاء ـ ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم ـ فوقها.

وحسب العقول الكاملة الفاضلة: أن أدركت حسنها، وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له،

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٣٠٠٦رقم ٣٢١٩) والحاكم مختصرًا (١/ ٦٨٩ رقم ١٨٧٥) (١/ ٧٣٠ رقم ٢٠٠٠) وصححه في الموضعين والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٧ رقم ١٠٤٠٥) وأبو داود بلفظ قريب (رقم ١٤٩٥) والطبراني في الأوسط (٤/ ٤٣ رقم ٣٥٦٥) وفي الصغير (رقم ٤٤٤) وأحمد (٣/ ١٥٨) وصحح إسناده المنذري في الترغيب (١/ ٢٦٠ رقم ٩٨٤).

(٢) ٣٠١ مفتاح جـ١.

والحجة والمحتج له، والدعوىٰ والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها؛ لكفىٰ بها برهانًا وآية وشاهدًا علىٰ أنها من عند الله، وكلها شاهدة له: بكمال العلم وكمال الحكمة، وسعة الرحمة والبر والإحسان، والإحاطة بالغيب والشهادة، والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها علىٰ عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من: أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها، وممن ارتضاهم لها؛ فلهذا امتن علىٰ عباده بأن هداهم لها. قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

***

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

[1]كرر عليهم سبحانه أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وذكر هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك في السور المكية، فقال: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] فالحسنة والسيئة هاهنا النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله مَنَّ بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك. فالأول فضله، والثاني عدله. والعبد يتقلب بين فضل ربه وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادل قادر. وفي ذلك إثبات القدر والسبب. فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم. وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه. فالأول، ينفي الجبر. والثاني ينفي القول بإبطال القدر. فهو مشاكل قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي: أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلوا على سواه، وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦] وهو الإذن الكوني القدري لا الشرعي الديني، كقوله في السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(١) ٢٦٠ زاد المعاد جـ٢.

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية، يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تميزًا ظاهرًا. وكان من حكمة هذا التقدير: تكلم المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون وسمعوا ردَّ الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة. فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة! ونعمة على المؤمنين سابغة! وكم فيها من تحذير وتخويف! وإرشاد وتنبيه! وتعريف بأسباب الخير والشر، ومآلهما وعاقبتهما!

ثم عزى نبيه وأولياءه عمن قُتل منهم في سبيله أحسن تعزية وألطفها، وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضا، بل هو كمال الرضا. واستبشارهم بإخوانهم، الذين باجتماعهم بهم؛ يتم سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته.

وذكرهم سبحانه ـ في أثناء هذه المحنة ـ بما هو من أعظم مننه ونعمه عليهم التي لو قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية؛ لتلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهي منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وينقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له؛ أمر يسير جدًّا في جنب هذا الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعملهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليوحدوا، ويتكلوا ولا

يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم، لئلا يتهموه في قضائه وقدره، وليتعرف إليهم بأنواع صفاته وأسمائه، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدرًا، وأعظم خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته؛ لينافسوهم فيه؛ ولا يحزنوا عليهم. فله الحمد كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

ولما انقضت الحرب انكفأ المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فشق ذلك عليهم. فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه **«اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها»** قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون؟ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة. ولما عزموا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر، فقال النبي ﷺ: **«قولوا: نعم، قد فعلنا»** قال أبو سفيان: فذلكم الموعد ثم، انصرف هو وأصحابه. فلما كان في بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لَمْ تصنعوا شيئًا أصبتم شوكتهم وحدَّهم ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: **«لا يخرج معنا إلا من شهد القتال»** فقال له عبدالله بن أبي: أركب معك؟ قال: **«لا»** فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف، وقالوا: سمعًا وطاعة. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله، إني أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فائذن لي أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد ـ على ثمانية أميال من المدينة ـ وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله،

فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه؛ فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرىٰ أن ترتحل حتىٰ يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا علىٰ أعقابهم إلىٰ مكة، ولقي أبو سفيان بعض المشركين ـ من عبد القيس ـ يريدون المدينة. فقال: هل لكم أن تبلغوا محمدًا رسالة، وأوقر لكم رواحلكم زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: أبلغوا محمدًا: أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه. فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه، فلما بلغهم قوله؛ قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤][(١)].

***

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

[(٢)]قوله: وأي حكمة في تسليط أعدائه علىٰ أوليائه يسومونهم سوء العذاب؟ فكم لله

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٧٩) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٣٠) والاستيعاب (٣/ ١٤٢٩).
(٢) ٢٦٦ شفاء.

في ذلك من حكم باهرة:

منها: حصول محبوبه من: عبودية الصبر، والجهاد، وتحمل الأذى فيه، والرضا عنه في السراء والضراء، والثبات على عبوديته وطاعته مع قوة المعارض وغلبته وشوكته، وتمحيص أوليائه من أحكام البشرية ودواعي الطباع ببذل نفوسهم له وأذى أعدائه لهم، وتمييز الصادق من الكاذب، ومن يريده ويعبده على جميع الحالات؛ ممن يعبده على حرف، وليحصل له مرتبة الشهادة التي هي من أعلى المراتب ولا شيء أبر عند الحبيب من بذل محبة نفسه في مرضاته ومجاهدة عدوه، فكم لله في هذا التسليط من نعمة ورحمة وحكمة! وإذا شئت أن تعلم ذلك؛ فتأمل الآيات من أواخر آل عمران من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] إلى قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فكان هذا التمييز من بعض حكم ذلك التسليط، ولولا ذلك التسليط؛ لم تظهر فضيلة الصبر والعفو والحلم وكظم الغيظ، ولا حلاوة النصر والظفر والقهر؛ فإن الأشياء يظهر حسنها بأضدادها، ولولا ذلك التسليط؛ لم تستوجب الأعداء المحق والإهانة والكبت، فاستخرج ذلك التسليط من القوة إلى الفعل؛ ما عند أوليائه؛ فاستحقوا كرامتهم عليه، وما عند أعدائه؛ فاستحقوا عقوبتهم عليه، فكان هذا التسليط مما أظهر حكمته وعزته ورحمته ونعمته في الفريقين وهو العزيز الحكيم.

...[1] والعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين مَنْ جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ

(١) ٨٦ فوائد.

أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فالمراتب ثلاثة: أخسها: أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها: أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها: أن تشكو خلقه إليه.

***

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

[1]في هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة، وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة؛ فليس العمل على الطلل، إنما الشأن في الساكن.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤]. وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم؛ فما الظن بحياة الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهم خيال ساري[2]

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة ـ التي هي يقظة من نوم الدنيا ـ أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم؛ يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها، والله المستعان.

---

(١) ٢٨٢ مدارج جـ ٣.

(٢) هذا بيت من بحر الكامل، وينسب إلى أبي الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي من كبار شعراء العرب، وصفه الذهبي بشاعر وقته، مات سنة ٤١٦هـ. والبيت ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٣/ ٢٢٣) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٣٢٤).

... [(١)] روي عن أبي هريرة: أن أرواح الأبرار في عليين، وأرواح الفجار في سجين، وعن عبد الله بن عمرو مثل ذلك.

قال أبو عمرو: هذا قول يعارضه من السنة ما لا مدفع في صحة نقله، وهو قوله: **«إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي: إن كان من أهل الجنة؛ فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»** [(٢)].

وقال أخرون: إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم؛ لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك.

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] الآية.

وأما الآثار: فذكر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ من طريق بقي بن مخلد مرفوعًا: **«الشهداء يغدون ويروحون، ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش، فيقول لهم الرب تبارك وتعالى: هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها؟ فيقولون: لا، غير أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا في أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل في سبيلك»** [(٣)] - رواه عن هناد، عن إسماعيل بن المختار، عن عطية، عنه، ثم ساق حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما أصيب إخوانكم - يعني يوم أحد - جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا في الجهاد؟**

(١) ١١٨ الروح.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٣٧٩) ومسلم (رقم ٢٨٦٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٦٦).
(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٣٦١ رقم ٣٦١١) وانظر: التمهيد (١١/ ٦١) والاستذكار (٣/ ٩١).

قال: فقال الله ﷻ: **أنا أبلغهم عنكم**، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]»(١) والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود.

ثم ذكر حديث الأعمش: عن عبد الله بن مرة، عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود ﷺ عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: **«أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليها ربك اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: وأي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا؛ حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»**(٢)، والحديث في صحيح مسلم.

قلت: وفي صحيح البخاري: عن أنس، أن أم الربيع بنت البراء - وهي أم حارثة بن سراقة - أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب - فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: **«يا أم حارثة إنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»**(٣) ثم ساق من طريق بقي بن مخلد: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، ثنا ابن عيينة، عن عبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر، تعلق في ثمر الجنة.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ١٧٠-١٧١) والضياء في المختارة (١٠/ ٣٤٨-٣٤٩ رقم ٣٧٦)، وأبو عوانة في مسنده (٤/ ٤٧٠ رقم ٧٣٧٠) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٤ رقم ١٩٣٣٢) والحميدي في مسنده (رقم ١٢٠) وأبو يعلى (٤/ ٢١٩ رقم ٢٣٣١) وأحمد (١/ ٢٦٥) وابن حميد (رقم ٦٧٩) وابن السري في الزهد (رقم ١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٨٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢) وشرح النووي (١٣/ ٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٠٩) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٠٦).

...[١]وقد أخبر النبي ﷺ بأن نسمة المؤمن وهي روحه، طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها[٢].

وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها[٣]، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة.

وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه حياة أرواحهم ورزقها دار؛ وإلا فالأبدان قد تمزقت، وقد فسر رسول الله ﷺ، هذه الحياة بأن: **«أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة؛ حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى»**.

وصح عنه ﷺ أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة (وتعلق بضم اللام أي تأكل العلقة).

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: **«لما أصيب إخوانكم بأحد؛ جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب،**

---

(١) ٤٧ الروح.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٥١٣ رقم ٤٦٥٧) وفي الموارد (رقم ٧٣٤) والنسائي في الكبرى (١/ ٦٦٥ رقم ٢٢٠٠) وابن ماجه (رقم ٤٢٧١) ومالك في الموطأ (١/ ٢٤٠ رقم ٥٦٨) والحميدي في المستند (رقم ٨٧٣) والطبراني في الكبير (١٩/ ٦٣ رقم ١١٩) وأحمد (٣/ ٤٥٥) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٣١-٣٢) وعمدة القاري (١٤/ ١١٢).

(٣) أخرجه الدارمي (رقم ٢٤١٠) والطيالسي (رقم ٢٩١)والديلمي في الفردوس (١/ ٢٣٨ رقم ٩١٤) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١١٢) والديباج على مسلم (٤/ ٤٨٤) وشرح الزرقاني (٢/ ١١٦).

فقال الله ﷻ أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآيات» رواه الإمام أحمد.

وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها، وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى.

وإذا كان هذا شأن الأرواح، فتميزها بعد المفارقة؛ يكون أظهر من تميز الأبدان، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيرًا، وأما الأرواح فقل ما تشتبه...

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة، وهم متميزون في علمنا أظهر تميز، وليس ذلك التميز راجعًا إلى مجرد أبدانهم، وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر؛ بل التميز الذي عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها، وتميز الروح عن الروح بصفاتها؛ أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيرًا، وبين روحيهما أعظم التباين والتميز، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين، فإذا تجردت هاتان الروحان؛ كان تميزهما في غاية الظهور...

... [1]قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضى عليه، فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل» فقال: **«إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»**[2] فهذا قال: **«حسبي الله ونعم الوكيل»** بعد عجزه عن الكيس

(١) ٣٥ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٦٠ رقم ١٠٤٦٢) وأبو داود (رقم ٣٦٢٧) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٨١ رقم ٢٠٥١٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٩٥ رقم ٧٤٧٥) (١٨/ ٧٥ رقم ١٣٩) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٣٧ رقم ٤٢٢) (٢/ ١٩٩ رقم ١١٨٢) وأحمد (٦/ ٢٤) وانظر: عون المعبود (١٠/ ٤٠) وفيض القدير (٢/ ٣١٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٤١).

الذي لو قام به لقضىٰ له علىٰ خصمه، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كيِّسًا، ثم غُلب، فقال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**» لكانت الكلمة قد وقعت موقعها.

كما أن إبراهيم الخليل لما فعل الأسباب المأمور بها، ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوه، وألقوه في النار، قال في تلك الحال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**»[1] فوقعت الكلمة موقعها، واستقرت في مظانها، فأثرت أثرها، وترتب عليها مقتضاها.

وكذلك رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أحد، لما قيل لهم بعد انصرافهم من أحد: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فتجهزوا، وخرجوا للقاء عدوهم، وأعطوهم الكيس من نفوسهم، ثم قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فأثرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فجعل التوكل بعد التقوىٰ، التي هي القيام بالأسباب المأمور بها، فحينئذ: إن توكل علىٰ الله، فهو حسبه.

وكما قال الله في موضع آخر: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فالتوكل والحسب بدون القيام بالأسباب المأمور بها؛ عجز محض، فإن كان مشوبًا بنوع من التوكل؛ فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا يجعل عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها، التي لا يتم المقصود إلا بها كلها، ومن ههنا غلط طائفتان من الناس:

إحداهما: زعمت أن التوكل وحده؛ سبب مستقل كافٍ في حصول المراد، فعطّلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله، الموصلة إلىٰ مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز، بحسب ما عطلوا من الأسباب، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب، فجمعوا الهمَّ كله، وصيروه همًّا واحدًا. وهذا ـ وإن كان فيه قوة من هذا الوجه ـ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٦٤).

ففيه ضعف من جهة أخرىٰ، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده؛ أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل فإن التوكل محله الأسباب، وكماله بالتوكل علىٰ الله فيها.

وهذا كتوكل الحرَّاث الذي شق الأرض، وألقىٰ فيها البذر، فتوكل علىٰ الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطىٰ التوكل حقه، ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بورًا، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة؛ مع جده في السير.

وتوكل الأكياس في النجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه؛ مع اجتهادهم في طاعته، فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حسب من قام به.

وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حسب صاحبه. فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه؛ إذا اتقاه، وتقواه، فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعًا وقدرًا، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة ـ وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته ـ فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم، وكفايته إياهم، ودفاعه عنهم؛ بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل.

فالقوة كل القوة في التوكل علىٰ الله، كما قال بعض السلف: «من سره أن يكون أقوىٰ الناس؛ فليتوكل علىٰ الله» فالقوة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوىٰ والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما؛ لابد أن يجعل الله له مخرجًا من كل ما ضاق علىٰ الناس، ويكون الله حسبه وكافيه.

والمقصود: أن النبي ﷺ أرشد العبد إلىٰ ما فيه غاية كماله، ونيل مطلوبه: أن يحرص علىٰ ما ينفعه، ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسب، وقول: «حسبي الله ونعم الوكيل» بخلاف من عجز وفرَّط، حتىٰ فاتته مصلحته، ثم قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال حسبه، فإنما هو حسب من اتقاه، وتوكل عليه.

[(١)]قاعدة: التوكل على الله نوعان: أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه: من الإيمان واليقين، والجهاد والدعوة إليه، وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله.

فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله؛ كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني؛ كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه.

فأعظم التوكل عليه: التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم.

والتوكل: تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وزرًا إلا التوكل؛ كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة.

وتارة يكون توكل اختيار؛ وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد: فإن كان السبب مأمورًا به؛ ذم على تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل؛ ذم على تركه أيضًا، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما، وإن كان السبب محرمًا؛ حرم عليه مباشرته، وتوحد السبب في حقه في التوكل، فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه؛ بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق.

وإن كان السبب مباحًا؛ نظرت: هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟

فإن أضعفه وفرق عليك قلبك وشتت همك؛ فتركه أولى، وإن لم يضعفه؛ فمباشرته أولى؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما

---

(١) ٨٥ فوائد.

أمكنك القيام بها؛ ولاسيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت: بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة.

والذي يحقق التوكل؛ القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًّا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا.

وسر التوكل وحقيقته؛ هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب؛ مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: «توكلت على الله» مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به.

فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء. كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد: «توكلت على الله» مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله «تبت إلى الله» وهو مصر على معصيته مرتكب لها.

***

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

(١)من كيد عدو الله تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا، فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين، فكلما قوي إيمان العبد؛ زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه، قوي خوفه منهم».

ومن مكايده أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء

---

(١) ١١٠ إغاثة جـ١.

الله، فيزين له الفعل الذي يضره؛ حتىٰ يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء. وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتىٰ يخيل له أنه يضره.

فلا إله إلا الله، كم فتن بهذا السحر من إنسان! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة! وكم بهرج من الزيوف علىٰ الناقدين! وكم روج من الزغل علىٰ العارفين! فهو الذي سحر العقول؛ حتىٰ ألقىٰ أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنات، مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالىٰ وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلىٰ الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس.

(١) وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فجعل الخوف منه شرطًا في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلًا في الصيغة علىٰ الإيمان؛ فهو المشروط في المعنىٰ، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء

(١) ٢٨٢ طريق الهجرتين.

للمعلول عند انتفاء علته، فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني، والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاء وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين: فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكل منهما مستلزم للآخر، لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما متفٍ عند انتفاء الآخر، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته؛ فلا يختلف عنه. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤] وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية...

***

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

(١) اعلم أن من أعظم حكمة الرب وكمال قدرته ومشيئته؛ خلق الضدين؛ إذ بذلك: تعرف ربوبيته وقدرته وملكه، كالليل والنهار، والحر والبرد، والعلو والسفل، والسماء والأرض، والطيب والخبيث، والداء والدواء، والألم واللذة، والحسن والقبح، فمن كمال قدرته وحكمته خلق جبريل وخلقك، فخلق أطيب الأرواح وأزكاها وأطهرها وأفضلها، وأجرى على يديه كل خير، وخلق أنجس الأرواح وأخبثها وأرداها وأجرى على يديه كل شر وكفر وفسوق ومعصية، وجعل الطيب

(١) ٣٣٩ مختصر الصواعق جـ١.

منحازًا إلى تلك الروح، والخبيث منحازًا إلى هذه الروح، فتلك مغناطيس كل طيب، وهذه مغناطيس كل خبيث، وأي حكمة أبلغ من هذا؟

يوضحه أن المادة الأرضية مشتملة على الطيب والخبيث، وقد اقتضت الحكمة أن خلق منها آدم وذريته؛ فلابد أن يأتي بنو آدم كذلك مشاكلتهم لمادتهم، والمادة النارية فيها الخير والشر؛ فلابد أن يأتي المخلوق منها كذلك، والله تعالى يريد تخليص الطيب من المادة الأرضية من الخبيث؛ ليجعل الطيب مجاورًا له في دار كرامته مختصًا برؤيته والقرب منه، ويجعل الخبيث في دار الخبث، حظه: البعد منه والهوان والطرد والإبعاد، إذ لا يليق بحمده وحكمته وكماله أن يكون مجاورًا له في داره مع الطيبين، فأخرج من المادة النارية من جعله: محركًا للنفوس، داعيًا لها إلى محل الخبث؛ لتنجذب إليه النفوس الخبيثة بالطبع وتميل إليه بالمناسبة؛ فتتحيز إلى ما يناسبها وما هو أولى بها؛ حكمة ومصلحة وعدلًا، لا يظلمها في ذلك بارئها وخالقها؛ بل أقام داعيًا يظهر بدعوته إياها واستجابتها له، ما كان معلومًا لبارئها وخالقها من أحوالها، وكان خفيًّا على العباد، فلما استجابت لأمره ولبت دعوته، وآثرت طاعته على طاعة ربها ووليها الحق الذي تتقلب في نعمه وإحسانه؛ ظهر لملائكته ورسله وأوليائه حكمته وعدله في تعذيب هذه النفوس، وطردها عنه،وإبعادها عن رحمته، وأقام للنفوس الطيبة داعيًا يدعوها إليه وإلى مرضاته وكرامته، فلبت دعوته واستجابت لأمره؛ فعلم عباده حكمته في تخصيصها بمثوبته وكرامته، فظهر لهم حمده التام وحكمته البالغة في الأمرين، وعلموا أن خلق عدو الله إبليس وجنوده وحزبه، وخلق وليه وعبده جبريل وجنوده وحزبه؛ هو عين الحكمة والمصلحة، وأن تعطيل ذلك منافٍ لمقتضى حكمته وحمده.

يوضحه: أن من لوازم ربوبيته تعالى وإلهيته؛ إخراج الخبأ في السماوات والأرض: من النبات والأقوات والحيوان والمعادن وغيرها. وخبأ السماوات ما أودعها من أمره الذي يخرجه كل وقت بفعله وأمره. وهذا من تدبيره لملائكته وتصرفه في العالم

العلوي والسفلى. فبإخراج هذا الخبأ؛ تظهر قدرته ومشيئته وعلمه وحكمته، وكذلك النفوس فيها خبأ كامن يعلمه سبحانه منها؛ فلابد أن يقيم أسبابًا يظهر بها خبأ النفوس الذي كان كامنًا فيها، فإذا صار ظاهرًا عيانًا؛ ترتب عليه أثره؛ إذ لم يكن يترتب على نفس العلم به، دون أن يكون معلومًا واقعًا في الوجود، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، فأخبر أنه خلق العالم العلوي والسفلي؛ ليبلو عباده؛ فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه، ممن يعصيه ويخالفه، وهذا الابتلاء والامتحان، يستلزم أسبابًا يحصل بها، فلابد من خلق أسبابه، ولهذا لما كان من أسبابه خلق الشهوات وما يدعو إليها وتزيينها؛ فعل ذلك. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] فهذه ثلاثة مواضع في القرآن تبين حكمته في خلق أسباب الابتلاء والاختبار.

فظهر أن من بعض الحكم في خلق عدو الله: إخراج خبأ النفوس الخبيثة، التي شرها وخبثها، كامن فيها فأخرج خبأها بزناد دعوته، كما يخرج خبأ النار بقدح الزناد، وكما يخرج خبأ الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يخرج خبأ الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يخرج خبأ القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليه، فكم له سبحانه من حكمة بالغة، وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس!

فإن من كمال الحكمة والقدرة؛ إظهار شرف الأشياء الفاضلة بأضدادها: فلولا الليل؛ لم يظهر فضل النهار ونوره وقدره، ولولا الألم لم يعرف فضل اللذة وشرفها وقدرها، ولولا المرض؛ لم يعرف فضل العافية، ولولا وجود قبح الصورة؛ لم يظهر فضل الحسن والجمال؛ ولهذا كان خلق النار وعذاب أهلها فيها؛ أعظم لنعيم أهل الجنة وأبلغ في معرفة قدرها وخطرها، فكان خلق هذا القبيح الشنيع المنظر والمخبر،

الذي صورته؛ أشنع من باطنه، وباطنه، أقبح من صورته؛ مكملًا لحسن تلك الروح الزكية الفاضلة التي كمل الله تعالىٰ بصورتها جمال الظاهر والباطن، فلو كان الخلق كلهم علىٰ حسن يوسف مثلًا فأي فضيلة وتمييز يكون له؟ ولو كانت الكواكب كلها شموسًا وأقمارًا، فأي مزية كانت تكون للنيرين؟

(١) وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء، وأطلعهم منها علىٰ ما لم يطلع عليه غيرهم. كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. وقال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

فهو سبحانه يصطفي من يطلعه من أنباء الغيب علىٰ ما لم يطلع عليه غيره. وكذلك سمى نبيًّا من الإنباء، وهو الإخبار، لأنه مخبر من جهة الله ومخبر عنه، فهو منبأ، ومنبئ، وليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم؛ بل ولا أكثره.

ولهذا كان أكمل الأمم علمًا أتباع الرسل؛ وإن كان غيرهم أحذق منهم في علم: النجوم والهندسة، وعلم الكم المتصل والمنفصل، وعلم النبض والقارورة، والأبوال ومعرفة قوامها، ونحوها من العلوم التي لما جاءتهم رسلهم بالبينات؛ فرحوا بما عندهم من العلم بها، وآثروها علىٰ علوم الرسل، وهي كما قال الواقف علىٰ نهاياتها: «ظنون كاذبة، وإن بعض الظن إثم» وهي علوم غير نافعة ـ فنعوذ بالله من علم لا ينفع ـ وإن نفعت؛ فنفعها بالنسبة إلىٰ علوم الأنبياء، كنفع العيش العاجل بالنسبة إلىٰ الآخرة ودوامها.

(١) ١٤٨ مختصر الصواعق جـ١.

فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله ﷻ طلبًا وخبرًا، فهو العلم: المزكي للنفوس، المكمل للفطر، المصحح للعقول الذي خصه الله باسم العلم، وسمى ما عارضه ظنًّا لا يغني من الحق شيئًا وخرصًا وكذبًا، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]. وشهد لأهله: أنهم أولو العلم، فقال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨]، والمراد بهم: أولو العلم بما أنزله على رسله، ليس المراد بهم أولي العلم بالمنطق والفلسفة وفروعهما. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] فالعلم الذي أمره باستزادته هو علم الوحي، لا علم الكلام والفلسفة.

(١)معرفة الله ـ سبحانه ـ نوعان:

معرفة إقرار: وهي التي اشترك فيها الناس: البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة توجب: الحياء منه والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته والإنابة إليه، والأنس به والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفة ما أخفاه عن سواهم، وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها.

وقد قال أعرف الخلق به: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

---

(١) ١٦٩ فوائد.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩) والتمهيد (٢٣/ ٣٤٨-٣٥١) والديباج على مسلم (٢/ ١٧٨).

وأخبر أنه ـ سبحانه ـ يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن ولهذا المعرفة بابان واسعان:

باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر؛ فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقدره، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي، والحكم الكوني القدري، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

...[(١)]فإن قيل: فقد ذكرتم الفكر ومنفعته، وعظم تأثيره في الخير والشرك فما متعلقه الذي ينبغي أن يوقع عليه ويجري فيه؟ فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذي يقع الفكر فيه، وإلا ففكر بغير متفكر فيه محال.

قيل: مجرى الفكر ومتعلقه أربعة أمور:

أحدها: غاية محبوبة مرادة الحصول.

الثاني: طريق موصلة إلى تلك الغاية.

الثالث: مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول.

الرابع: الطريق المفضي إليها الموقع عليها.

فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة، وأي فكر تخطاها؛ فهو من الأفكار الردية والخيالات والأماني الباطلة. كما يتخيل الفقير المعدم نفسه، من أغنى البشر، وهو يأخذ ويعطي وينعم ويحرم. وكما يتخيل العاجز نفسه، من أقوى الملوك، وهو يتصرف في البلاد والرعية. ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية، التي من جنس

(١) ١٨٣ مفتاح جـ١.

أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل، فالأفكار الردية هي قوت الأنفس الخسيسة، التي هي في غاية الدناءة، فإنها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال، ثم لا تزال هذه الأفكار تقوي بها وتتزايد؛ حتى توجب لها آثارًا ردية، ووساوس وأمراض بطيئة الزوال.

وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها؛ فله أيضًا محلان ومنزلان: أحدهما: هذه الدار، والآخر: دار القرار.

فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق؛ عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار، فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت؛ ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا، وقامت الآخرة؛ تبين الرابح من المغبون وخسر هنالك المبطلون. وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها؛ عمروا بيوت أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها.

ونحن نفصل ذلك بعون الله وفضله فنقول: كل طالب لشيء؛ فهو محب له، مؤثر لقربه، ساع في طريق تحصيله، متوصل إليه بجهده، وهذا يوجب له: تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التي يحب لأجلها، وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح والسرور، ففكره في حال محبوبه دائر بين الجمال والإجمال والحسن والإحسان، فكلما قويت محبته؛ ازداد هذا الفكر وقوي وتضاعف؛ حتى يستغرق أجزاء القلب، فلا يبقى فيه فضل لغيره؛ بل يصير بين الناس بقالبه، وقلبه كله في حضرة محبوبه.

فإن كان هذا المحبوب، هو المحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له، ولا يحب غيره إلا تبعًا لمحبته؛ فهو أسعد المحبين به، وقد وضع الحب موضعه، وتهيأت نفسه لكمالها الذي خلقت له، والذي لا كمال لها بدونه بوجه، وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية، التي تفنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها، فقد وضع المحبة في غير موضعها، وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه،

وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها.

وإذا عرف هذا؛ عرف أن تعلق المحبة بغير الإله الحق؛ هو عين شقاء العبد وخسرانه، فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة، وهي مضرة عليه في حياته وبعد موته. والمحب الذي قد ملك المبحوب أفكار قلبه؛ لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه، ثم فكره في محبوبه لا يخرج عن حالتين:

إحداهما: فكرته في جماله وأوصافه.

والثانية: فكرته في أفعاله وإحسانه وبره ولطفه، الدالة على كمال صفاته. وإن تعلق فكره بنفسه؛ لم يخرج أيضًا عن حالتين: إما أن يفكر في أوصافه المسخوطة، التي يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويسقطه من عينه، فهو دائمًا يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها.

والثانية: أن يفكر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقربه منه وتحببه إليه؛ حتى يتصف بها.

فالفكرتان الأوليان؛ توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الآخرتان؛ توجب محبة محبوبه له وإقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإيثاره على غيره، فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة.

فالفكرة الأولى والثانية؛ تتعلق بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود سبحانه وأفعاله. والثالثة والرابعة، تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتها وما يمنع من السير فيها إليه، فتفكره في صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له. وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور:

أحدها: أن هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا؟

الثاني: هل العبد متصف به أم لا؟

والثالث: إذا كان متصفًا به فما طريق دفعه والعافية منه؟

وإن لم يكن متصفًا به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه.

وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور:

أحدها: أن هذه الصفة هل هي محبوبة لله مرضية له أم لا؟

الثاني: هل العبد متصف بها أم لا؟

الثالث: أنه إذا كان متصفًا بها فما طريق حفظها ودوامها؟

وإن لم يكن متصفًا بها فما طريق اجتلائها والتخلق بها؟ ثم فكرته في الأفعال على هذين الوجهين أيضًا سواء.

ومجاري هذه الأفكار ومواقعها كثيرة جدًّا لا تكاد تنضبط.

وإنما يحصرها ستة أجناس: الطاعات الظاهرة والباطنة، والمعاصي الظاهرة والباطنة، والصفات والأخلاق الحميدة، والأخلاق والصفات الدميمة، فهذه مجاري الفكرة في صفات نفسه وأفعالها.

وأما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه، فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الرب عما لا يليق به، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

ومجاري هذه الفكرة: تدبر كلامه، وما تعرف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله: من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه، التي قصها على عباده وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعال لما يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن أفعاله كلها دائرة: بين الحكمة والرحمة، والعدل والمصلحة؛ لا يخرج شيء منها عن ذلك.

وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله. وإلى هذين الأصلين؛ ندب عباده في القرآن، فقال في الأصل الأول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد: ٢٤]. ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟

ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]. ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]. ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

***

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾.

قال في الأصل الثاني: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]. ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٥]. ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]. ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الروم: ٤٢]. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥].

ونوع سبحانه الآيات في هذه السور فجعل خلق السماوات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم؛ آيات للعالمين كلهم؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال، و إلقاء المودة والرحمة بينهم؛ آيات

لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم؛ أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة؛ فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك؛ دله فكره على أنه الإله الحق المبين، الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل والنهار؛ للتصرف في المعاش وابتغاء فضله؛ آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل: من حياة العباد بعد موتهم، وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم. فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل، وأصغى إليه، واستدل بهذه الآية عليه.

وجعل إراءتهم البرق، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به؛ آيات لقوم يعقلون، فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله؛ استدل بها: على وجود الرب تعالى، وقدرته وعلمه، ورحمته وحكمته، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل؛ فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية؛ فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر، والمدلول عليه المشهود بالعقل، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤] فتبارك الذي جعل كلامه: حياة للقلوب، وشفاء لما في الصدور.

وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث: المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله.

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، التي بها فساد القلب

وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها. فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه؛ كررها ـ ولو مائة مرة، ولو ليلة ـ فقراءة آية بتفكر وتفهم؛ خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى: حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف؛ يردد أحدهم الآية إلى الصباح. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. فقراءة القرآن بالتفكر؛ هي أصل صلاح القلب.

فقراءة القرآن بالتفكر؛ هي أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود: «لا تهذوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة»[١].

وروى أبو أيوب عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، قال: «لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة، فأتدبرها، وأرتلها؛ أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ»[٢]، والتفكر في القرآن نوعان: تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه. وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه.

فالأول: تفكر في الدليل القرآني، والثاني: تفكر في الدليل العياني.

الأول: تفكر في آياته المسموعة، والثاني: تفكر في آياته ا لمشهودة؛ ولهذا أنزل الله القرآن؛ ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه، قال الحسن البصري: «أنزل القرآن ليعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملًا».

...[٣]أثنى تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته؛ بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٥٦ رقم ٨٧٣٣) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦٠ رقم ٢٠٤١، ٢٠٤٢) وفي السنن الكبرى (٣/ ١٣ رقم ٤٤٩٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٥٤ رقم ٢٢٥٨) (٣/ ١٣ رقم ٤٤٩٠) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ١٩٤) وشرح الزرقاني (٢/ ١٣) وصفة الصفوة (١/ ٧٥٤).

(٣) ١٦٦ بدائع جـ٤.

شهادتهم: بأنه تعالىٰ لم يخلقها باطلاً، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به؛ علموا أن خلقها يستلزم: أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢].

فلما علموا أن خلق السماوات والأرض، يستلزم الثواب والعقاب؛ تعوذوا بالله من عقابه. ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السماوات والأرض، فقالوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فكانت ثمرة فكرهم في خلق السماوات والأرض: الإقرار به تعالىٰ، وبوحدانيته وبدينه، وبرسله، وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم؛ إلىٰ مغفرة ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم، وإدخالهم مع الأبرار إلىٰ جنته التي وعدهموها، وذلك تمام نعمته عليهم؛ فتوسلوا بإنعامه عليهم، أولًا إلىٰ إنعامه عليهم آخرًا، وتلك وسيلة بطاعته إلىٰ كرامته، وهو إحدىٰ الوسائل إليه، وهي الوسيلة التي أمرهم بها في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

وأخبر عن خاصة عباده أنهم يبتغون الوسيلة إليه؛ إذ يقول تعالىٰ: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء: ٥٧]. علىٰ أن في هاتين الآيتين أسرارًا بديعة، ذكرتها في كتاب (التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية) فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السماوات والأرض؛ أنها لم يخلقها باطلًا، وأثمر لهم: الإيمان بالله ورسوله، ودينه وشرعه، وثوابه وعقابه، والتوسل إليه بطاعته، والإيمان به، وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل؛ قطرة من بحر لا ساحل له فلا تستطله؛ فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كل نفس ولا يقبله كل محروم. والله يختص برحمته من يشاء.

***

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

[(١)]قال الله تعالىٰ؛ حكاية عن أولي الألباب من عباده قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]. والمعنىٰ: وآتنا ما وعدتنا علىٰ ألسنة رسلك من دخول الجنة.

وقالت طائفة: معناه: وآتنا ما وعدتنا علىٰ الإيمان برسلك، وليس بسهل حذف الاسم والحرف معًا؛ إلا أن يقدر علىٰ تصديق رسلك؛ وطاعة رسلك؛ وحينئذ فيتكافأ التقديران.

ويترجح الأول بأنه قد تقدم قولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وهذا صريح في الإيمان بالرسول والمرسل. ثم توسلوا إليه بإيمانهم أن يؤتيهم: ما وعدهم علىٰ ألسنة الرسل، فإنهم إنما سمعوا بوعدهم لهم بذلك من الرسل، وذلك أيضًا يتضمن التصديق بهم، وأنهم بلغوهم وعده فصدقوا به، وسألوه أن يؤتيهم إياه، وهذا هو الذي ذكره السلف والخلف في الآية.

وقيل: المعنىٰ: آتنا ما وعدتنا من النصر والظفر علىٰ ألسنة الرسل، والأول أعم وأكمل. وتأمل كيف تضمن إيمانهم به: الإيمان بأمره ونهيه، ورسله ووعده ووعيده، وأسمائه وصفاته، وأفعاله وصدق وعده، والخوف من وعيده، واستجابتهم لأمره، فبمجموع ذلك؛ صاروا مؤمنين بربهم، فبذلك صح لهم التوسل إلىٰ سؤال ما وعدهم به، والنجاة من عذابه.

(١) ٦٧ حادي الأرواح.

وقد أشكل على بعض الناس سؤالهم: أن ينجز لهم وعده مع أنه فاعل لذلك ولابد.

وأجاب بأن هذا تعبد محض كقوله: ﴿ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وقول الملائكة: ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾ [غافر: ٧].

وخفي على هؤلاء؛ أن الوعد معلق بشروط منها؛ الرغبة إليه ﷻ، وسؤاله أن ينجزه لهم، كما أنه معلق بالإيمان وموافاتهم به، وأن لا يلحقه ما يحبطه، فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم؛ تضمن ذلك: توفيقهم، وتثبيتهم، وإعانتهم على الأسباب التي ينجز لهم بها وعده؛ فكان هذا الدعاء من أهم الأدعية وأنفعها، وهم أحوج إليه من كثير من الأدعية.

وأما قوله: ﴿ رَبِّ ٱحْكُم ﴾ فهذا سؤال له ﷻ أن ينصرهم على أعدائهم، فيحكم لهم عليهم بالنصر والغلبة.

وكذا سؤال الملائكة ربهم أن يغفر للتائبين؛ هو من الأسباب التي يوجب بها لهم المغفرة، فهو سبحانه نصب الأسباب التي يفعل بها ما يريده بأوليائه وأعدائه، وجعلها أسبابًا لإرادته، كما جعلها أسبابًا لوقوع مراده، فمنه السبب والمسبب.

وإن أشكل عليك ذلك؛ فانظر إلى خلقه الأسباب التي توجب محبته وغضبه، يحب ويرضى ويغضب ويسخط عم الأسباب التي خلقها وشاءها، فالكل منه وبه مبتدأ من مشيئته وعائد إلى حكمته وحده، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد لا يلجه إلا العالمون بالله. ونظير هذه الآية في سؤاله ما وعد به؛ قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [الفرقان: ١٥، ١٦].

(١) والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود يطلب رفعه، والثاني: معدوم يطلب بقاؤه على العدم وأن لا يوجد. كما أن الخير المطلق نوعان:

---

(١) ٢٠٧ بدائع جـ٢.

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه. **والثاني**: معدوم فيطلب وجوده وحصوله. فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم، وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى؛ حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] فهذا الطلب لدفع الشر الموجود. فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه. ثم قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه. فهذان قسمان. ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه. ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة، ودوام الإسلام إلى الموت، ثم اتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما: أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة. فإذا عرف هذا فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**»[1] يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم؛ لكنه فيها بالقوة فيسأل دفعه، وأن لا يوجد. وأما قوله: «**من سيئات أعمالنا**» ففيه قولان:

أحدهما: أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة: من الشر المعدوم الذي لم يوجد، ومن الشر الموجود؛ فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١١٠٥) وحسنه. والنسائي في المجتبى (رقم ١٤٠٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٤ رقم ٨١٤٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٤ رقم ٢٥٨) وابن السري في الزهد (رقم ٤٩٢).

صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضًا؛ دفع المسبب، والأول دفع السبب، فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول؛ يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه؛ فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها، وعلى الثاني؛ يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه والمعلول إلى علته، كأنه قال من عقوبة عملي والقولان محتملان.

فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به؟ فإن مع كل واحد منهما نوعًا من الترجيح. فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشر النفس يولد الأعمال السيئة؛ فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر وأسباب كل ألم؛ فمتى عوفي منهما؛ عوفي من الشر بحذافيره، ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال؛ هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها؛ شر النفس؛ فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما؛ تستلزم الاستعاذة من الآخر.

ولما كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهى وكان السبب: إما من ذات العبد، وإما من خارج، ومورده ومنتهاه: إما نفسه، وإما غيره كان هنا أربعة أمور: شر مصدره من نفسه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى. وشر مصدره من غيره وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى.

جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله، إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: «**اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءًا، أو أجره إلى مسلم**»[1] فذكر

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٢٩) وحسنه. والضياء في المختارة (١/ ١١٤-١١٥ رقم ٣٢) والحاكم (١/ ٦٩٤ رقم ١٨٩٢) وصححه. والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٨ رقم ٧٧١٥) وأبو داود (رقم ٥٠٦٧) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٢ رقم ٢٦٥٢٣) وأبو يعلى (١/ ٧٨ رقم ٧٧) وأحمد (١/ ٩، ١٤)
=

مصدري الشر وهما: النفس والشيطان، وذكر مورديه ونهايتيه وهما: عوده على النفس، أو على أخيه المسلم؛ فجمع الحديث مصادر الشر وموارده، في أوجز لفظه وأخصره وأجمعه وأبينه.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا ـ فإن لم تفِ بطهرهم طهروا في نهر الجحيم يوم القيامة ـ: نهر التوبة النصوح. ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها. ونهر المصائب العظيمة المكفرة. فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة. فورد القيامة طيبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

(١) فصل في الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب. وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كلًّا منهما منفردًا عن الآخر. فالمقترنان كقوله تعالى؛ حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[آل عمران: ١٩٣]. والمنفرد كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢]. قوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥]. وكقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]. ونظائره فهاهنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات: الصغائر، وهي ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه، ولهذا جعل لها التكفير، ومنه أخذت الكفارة، ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل في الكبائر في أصح القولين. فلا تعمل في قتل العمد، ولا في اليمين الغموس في ظاهر مذهب أحمد وأبي حنيفة.

= والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢ رقم ٨٤٩) والطيالسي (رقم ٢٥٨٢) والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٩) والأدب المفرد (رقم ١٢٠٤).

(١) ٣١٠ مدارج جـ١.

والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها؛ قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن؛ إذا اجتنبت الكبائرُ**»[(١)].

ولفظ «المغفرة» أكمل من لفظ «التكفير»، ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر، فإن لفظ «المغفرة» يتضمن: الوقاية، والحفظ. ولفظ «التكفير» يتضمن: الستر، والإزالة. وعند الإفراد: يدخل كل منهما في الآخر، كما تقدم. فقوله تعالى: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [محمد: ٢]. يتناول صغائرها وكبائرها، ومحوها ووقاية شرها؛ بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال، كما قال تعالى: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ [الزمر: ٣٥].

وإذا فهم هذا؛ فهم السر في الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب؛ والوصب بالتكفير دون المغفرة، كقوله في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من همٍّ ولا غمٍّ ولا أذى ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفر الله بها من خطاياه**»[(٢)] فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب؛ فهي كالبحر لا يتغير بالجيف. وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

[(٣)]وقيل في قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى؛ فـ«الصبر» دون المصابرة، و«المصابرة» دون «المرابطة»

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣)وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٠٨) وشرح النووي (٣/ ١١٣).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤٢) ومسلم (رقم ٢٥٧٣) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٢٦).
(٣) ١٥٩ مدارج جـ ٢.

و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد، وسمي المرابط مرابطًا؛ لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط. ومنه قول النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»(١) وقال: «**رباط يوم في سبيل الله؛ خير من الدنيا وما فيها**»(٢).

(٣)وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر؛ فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطبارًا. وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر؛ فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ٢٠٠]. فأمرهم: بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه: أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح؛ موقوف عليها فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر؛ فهي لزوم ثغر القلب؛ لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥١) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٤١-١٤٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٩٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٨٥-٨٦).
(٣) ١٧ عدة الصابرين.

...[١]وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ولا يتم أمر الجهاد؛ إلا بهذه الأمور الأربعة. فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو وهو مقاومته ومنازلته.

فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهي المرابطة، وهي: لزوم ثغر القلب وحراسته؛ لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور يدخل منها العدو؛ فيجوس خلال الديار، ويفسد ما قدر عليه.

فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخلي مكانها، فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منها. فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم، وقد خلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد؛ فدخل منه العدو فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به؛ هو تقوى الله. فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر. فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين واصطدام العسكرين، وكيف تدال مرة ويدال عليك أخرى؟ أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالسًا على كرسي مملكته، أمره نافذ في أعوانه وجنده قد أحاطوا به، يقاتلون عنه، ويدافعون عن حوزته؛ فلم يمكنه من الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه؛ فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة فقيل له: هي النفس. فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها..

[٢]...وقال ابن عباس عنه ﷺ ليلة مبيته عنده، إنه: لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء، وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

(١) ١٣٠ الجواب الكافي.
(٢) ٣٨ زاد المعاد جـ٢.

وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠-٢٠٠].

ثم قال: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(١).



(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٢٠) ومسلم (رقم ٧٦٩) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٢٨٧).

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾.

(1)إن قيل: ما تقولون في قوله ﷻ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾. قال الشافعي: «أن لا تكثر عيالكم، فدل على أن قلة العيال أولى».

قيل: قد قال الشافعي رحمه الله ذلك، وخالفه جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقالوا: معنى الآية: ذلك أدنى أن لا تجوروا ولا تميلوا، فإنه يقال: عال الرجل يعول إذا مال وجار، ومنه عول الفرائض لأن سهامها زادت، ويقال: عال يعيل عيلة إذا احتاج، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ [التوبة: ٢٨] قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل(2)

أي: متى يحتاج ويفتقر، وأما كثرة العيال فليس من هذا ولا من هذا، ولكنه من: أفعل، يقال: أعال الرجل يعيل، إذا كثر عياله، مثل: ألبن وأتمر إذا صار ذا لبن وتمر، هذا قول أهل اللغة، قال الواحدي في بسيطه: ومعنى تعولوا: تميلوا وتجوروا، عند جميع أهل التفسير واللغة.

---

(١) ٨ تحفة المودود.

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى أحيحة بن الجلاح، شاعر جاهلي من دهاة العرب وشجعانهم، كان سيد يثرب مات سنة ١٢٩ قبل الهجرة، ذكر البيت الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣٩) (١٠/ ١٠٦) وابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٦/ ٣١٥) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٩٨) وابن منظور في اللسان (١١/ ٤٨٨).

وروي ذلك مرفوعًا. روت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ قال: «لا تجوروا»[(١)] وروي: «لا تميلوا» قال: وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة والربيع والسدي وابن مالك وعكرمة والفراء والزجاج وابن قتيبة وابن الأنباري[(٢)].

قلت: ويدل على تعين هذا المعنى من الآية، وإن كان ما ذكره الشافعي لغة حكاها الفراء عن الكسائي، أنه قال: «ومن الصحابة من يقول: عال يعول إذا كثر عياله، قال الكسائي: وهو لغة فصيحة سمعتها من العرب»[(٣)] لكن يتعين الأول لوجوه:

أحدها: أنه المعروف في اللغة الذي لا يكاد يعرف سواه، ولا يعرف عال يعول إذا كثر عياله؛ إلا في حكاية الكسائي، وسائر أهل اللغة على خلافه.

الثاني: أن هذا مروي عن النبي ﷺ ولو كان من الغرائب فإنه يصلح للترجيح.

الثالث: أنه مروي عن عائشة وابن عباس، ولم يعلم لهما مخالف من المفسرين. وقد قال الحاكم أبو عبد الله: تفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع.

الرابع: أن الأدلة التي ذكرناها على استحباب تزوج الولود، وإخبار النبي ﷺ أنه يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة، يرد هذا التفسير.

الخامس: أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون الظلم والجور فيه إلى غيره، فإنه قال في أولها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ، وأباح لهم منه، ثم دلهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٣٣٨ رقم ٤٠٢٩) وفي الموارد (رقم ١٧٣٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٣٩-٢٤٠) وتفسير السيوطي (٢/ ٤٣٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٥٢) وفتح الباري (٨/ ٢٤٦) وغريب الحديث لابن سلام (٤/ ٣٨٤) ومختار الصحاح (ص ١٩٤).

(٣) انظر: عمدة القاري (٦/ ٢٣٧) (١٣/ ١٠٦) وغريب الحديث للخطابي (٢/ ١٣٨) ولسان العرب (١١/ ٤٨٢).

أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣] ثم أخبر سبحانه أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور، وهذا صريح في المقصود.

السادس: أنه لا يلتئم قوله: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ في الأربع، فانكحوا واحدة أو تسروا ما شئتم بملك اليمين، فإن ذلك أقرب إلى أن تكثر عيالكم، بل هذا أجنبي من الأول! فتأمله.

السابع: أنه من الممتنع أن يقال لهم: إن خفتم أن لا تعدلوا بين الأربع، فلكم أن تتسروا بمائة سرية وأكثر، فإنه أدنى أن لا تكثر عيالكم.

الثامن: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ تعليل لكل واحد من الحكمين المتقدمين، وهما: نقلهم من نكاح اليتامى إلى نكاح النساء البوالغ، ومن نكاح الأربع إلى نكاح الواحدة أو ملك اليمين، ولا يليق تعليل ذلك بقلة العيال.

التاسع: أنه سبحانه قال: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [النساء: ٣] ولم يقل: وإن خفتم أن لا تفتقروا أو تحتاجوا، ولو كان المراد قلة العيال لكان الأنسب أن يقول ذلك.

العاشر: أنه تعالى إذا ذكر حكمًا منهيًا عنه وعلل النهي بعلة أو أباح شيئًا وعلل عدمه بعلة، فلابد أن تكون العلة مضادة لضد الحكم المعلل، وقد علل ﷻ إباحة نكاح غير اليتامى والاقتصار على الواحد أو ملك اليمين، بأنه أقرب إلى عدم الجور، ومعلوم أن كثرة العيال لا تضاد عدم الحكم المعلل، فلا يحسن التعليل به.

[(١)] قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]. وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر. وأعال يعيل إذا صار ذا عيال مثل لبن، وأثمر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة، وعال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ وقيل: المعنى: ألا تكثر عيالكم، والقول هو الأول لوجوه:

أحدها: أنه لا يعرف في اللغة: عال يعول إذا كثر عياله، وإنما المعروف في ذلك: أعال

---

(١) ١٦٤ عدة الصابرين.

يعيل، وأما عال يعول فهو بمعنى الجور، ليس إلا. هذا الذي ذكره أهل اللغة قاطبة.

الثاني: أنه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذي نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الواحدة والتسري بما شاءوا من ملك أيمانهم، ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال، يوضحه:

الوجه الثالث: أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط في نكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء، لئلا يقعوا في ظلم أزواجهم اليتامى، وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع، ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل في القسمة إلى الواحدة، أو النوع الذي لا قسمة عليهم في الاستمتاع بهن وهن الإماء.

فانتظمت الآية بيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف العول، فما لكثرة العيال مدخل هاهنا البتة. يوضحه:

الوجه الرابع: أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاءوا من كثرة الإماء بلا عدد، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ولا فرق، فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش. يوضحه:

الوجه الخامس: أن كثرة العيال ليس أمرًا محذورًا مكروهًا للرب تعالى، كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساءً، وقد قال النبي ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم**»[(١)]؟! فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنيًّا شاكرًا بعد أن كان فقيرًا صابرًا، فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضًا لحالها.

[(٢)]وأما قوله: «وقصر عدد المنكوحات على أربع، وأباح ملك اليمين بغير حصر» فهذا من تمام نعمته وكمال شريعته، وموافقتها للحكمة والرحمة والمصلحة، فإن النكاح

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٦١ رقم ١٨٨٩) والحاكم (٢/ ١٧٦ رقم ٢٦٨٥) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٣٣٨ رقم ٤٠٢٨) وفي الموارد (رقم ١٢٢٨) وأبو داود (رقم ٢٠٥٠) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٨١ رقم ١٣٢٥٤) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٠٧ رقم ٥٠٩٩) وأحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٨) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ١١١).

(٢) ٨٤ أعلام جـ٢.

يُراد للوطء وقضاء الوطر.

ثم من الناس من يغلب عليه سلطان هذه الشهوة فلا تندفع حاجته بواحدة، فأطلق له ثانية وثالثة ورابعة، وكان هذا العدد موافقًا لعدد طباعه وأركانه، وعدد فصول سنته، ولرجوعه إلى الواحدة بعد صبر ثلاث عنها، والثلاث أول مراتب الجمع.

وقد علق الشارع بها عدة أحكام، ورخَّص للمهاجر أن يقيم بعد قضاء نسكه بمكة ثلاثًا، وأباح للمسافر أن يمسح على خفيه ثلاثًا، وجعل حد الضيافة المستحبة أو الموجبة ثلاثًا، وأباح للمرأة أن تحدَّ على غير زوجها ثلاثًا، فرحم الضرة بأن جعل غاية انقطاع زوجها عنها ثلاثًا ثم يعود؛ فهذا محض الرحمة والحكمة والمصلحة، وأما الإماء فلما كنَّ بمنزلة سائر الأموال من الخيل والعبيد وغيرها لم يكن لقصر المالك على أربع منهن أو غيرها من العدد معنى؛ فكما ليس في حكمة الله ورحمته أن يقصر السيد على أربعة عبيد أو أربع دواب وثياب ونحوها، فليس في حكمته أن يقصره على أربع إماء.

وأيضًا فللزوجة حق على الزوج اقتضاه عقد النكاح يجب على الزوج القيام به، فإن شاركها غيرها وجب عليه العدل بينهما؛ فقصر الأزواج على عدد يكون العدل فيه أقر مما زاد عليه، ومع هذا فلا يستطيعون العدل ولو حرصوا عليه، ولا حق لإمائه عليه في ذلك، ولهذا لا يجب لهن قسم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ والله أعلم.

وأما قوله: «وأنه أباح للرجل أن يتزوج بأربع زوجات، ولم يبح للمرأة أن تتزوج بأكثر من زوج واحد» فذلك من كمال حكمة الرب تعالى وإحسانه ورحمته بخلقه ورعاية مصالحهم، ويتعالى سبحانه عن خلاف ذلك، وينزه شرعه أن يأتي بغير هذا، ولو أبيح للمرأة أن تكون عند زوجين فأكثر لفسد العالم، وضاعت الأنساب، وقتل الأزواج بعضهم بعضًا، وعظمت البلية، واشتدت الفتنة، وقامت سوق الحرب على ساق، وكيف يستقيم حال امرأة فيها شركاء متشاكسون؟ وكيف يستقيم حال الشركاء فيها؟ فمجيء الشريعة بما جاءت به من خلاف هذا من أعظم الأدلة على حكمة الشارع

ورحمته وعنايته بخلقه.

فإن قيل: فكيف روعي جانب الرجل، وأطلق له أن يسيم طرفه ويقضي وطره، وينتقل من واحدة إلى واحدة، بحسب شهوته وحاجته، وداعي المرأة داعيه، وشهوتها شهوته؟

قيل: لما كانت المرأة من عادتها أن تكون مخبأة من وراء الخدور، ومحجوبة في كنّ بيتها، وكان مزاجها أبرد من مزاج الرجل، وحركتها الظاهرة والباطنة أقل من حركته، وكان الرجل قد أعطي من القوة والحرارة التي هي سلطان الشهوة أكثر مما أعطيته المرأة، وبُلي بما لم تُبل به؛ أطلق له من عدد المنكوحات ما لم يطلق للمرأة.

وهذا مما خص الله به الرجال، وفضلهم به على النساء، كما فضلهم عليهن بالرسالة والنبوة والخلافة والملك والإمارة وولاية الحكم والجهاد وغير ذلك، وجعل الرجال قوامين على النساء ساعين في مصالحهن، يدأبون في أسباب معيشتهن، ويركبون الأخطار، ويجوبون القفار، ويعرضون أنفسهم لكل بلية ومحنة في مصالح الزوجات، والرب تعالى شكور حليم، فشكر لهم ذلك، وجبرهم بأن مكنهم مما لم يمكن منه الزوجات.

وأنت إذا قايست بين تعب الرجال وشقائهم وكدهم ونصبهم في مصالح النساء، وبين ما ابتلي به النساء من الغيرة، وجدت حظ الرجال من تحمل ذلك التعب والنصب والدأب أكثر من حظ النساء من تحمل الغيرة؛ فهذا من كمال عدل الله وحكمته ورحمته؛ فله الحمد كما هو أهله.

وأما قول القائل: «إن شهوة المرأة تزيد على شهوة الرجل».

فليس كما قال، والشهوة منبعها الحرارة، وأين حرارة الأنثى من حرارة الذكر؟ ولكن المرأة - لفراغها وبطالتها وعدم معاناتها لما يشغلها عن أمر شهوتها وقضاء وطرها - يغمرها سلطان الشهوة، ويستولي عليها، ولا يجد عندها ما يعارضه، بل يصادف قلبًا فارغًا ونفسًا خالية، فيتمكن منها كل التمكن؛ فيظن الظان أن شهوتها أضعاف شهوة الرجل، وليس كذلك.

ومما يدل على هذا أن الرجل إذا جامع امرأته أمكنه أن يجامع غيرها في الحال، وكان النبي ﷺ يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وطاف سليمان على تسعين امرأة في ليلة، ومعلوم أن له عند كل امرأة شهوة وحرارة باعثة على الوطء، والمرأة إذا قضى الرجل وطره فترتْ شهوتها، وانكسرت نفسها، ولم تطلب قضاءها من غيره في ذلك الحين، فتطابقت حكمة القدر والشرع والخلق والأمر، ولله الحمد.

(١)قال ابن عقيل: قولهم: إن الله جعل للمرأة شهوة تزيد على شهوة الرجل بسبعة أجزاء، قال: لو كان كذلك ما جعل الله للرجل أن يتزوج بأربع ويتسرى بما شاء من الإماء، وضيق على المرأة فلا تزيد على رجل، ولها من القسم الربع وحاشا حكمته أن تضيق على الأحوج، وتوسع على من دونه في الحرج.

أجابه حنبلي آخر فقال: إن ذلك إنما كان لعارض راجح وهو خوفه اشتباه الأنساب.

وأيضًا ففي التوسعة للرجل يكثر النسل الذي هو من أهم مقاصد النكاح، وأيضًا: فإن الرجل والمرأة لما اشتركا في التذاذ كل منهما بصاحبه وقضاء وطره منه، وخص الرجل بالنفقة والكسوة وكلفة المرأة؛ عوّض بأن أطلق له الاستمتاع بغيرها.

وأيضًا: فإن المرأة مقصورة في الخدر لا تدخل ولا تخرج إلا لحاجة، حتى إن صلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، لم يقع نظرها من الرجال على ما قع نظر الرجل عليه، فحاجته إلى أكثر من واحدة أشد من حاجتها.

وأيضًا: فإن طبيعة الذكر الحرارة، وطبيعة الأنثى البرودة، وصاحب الحرارة يحتاج من الجماع فوق ما يحتاج إليه صاحب البرودة.

وأيضاً: فإن الله فضل الذكر على الأنثى في الميراث والدية والشهادة والعقيقة وغير ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ

(١) ٤١ بدائع جـ٤.

مِمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٣٢]. فكان من تفضيله الذكر على الأنثى؛ أن خصَّ بجواز نكاح أكثر من واحدة، والله أعلم.

(١) وأما قوله: «أباح للرجل أن يستمتع من أمته بملك اليمين بالوطء وغيره، ولم يبح للمرأة أن تستمتع من عبدها لا بوطء ولا غيره» فهذا أيضًا من كمال هذه الشريعة وحكمتها، فإن السيد قاهر لمملوكه، حاكم عليه، مالك له، والزوج قاهر لزوجته حاكم عليها، وهي تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير؛ ولهذا منع العبد من نكاح سيدته للتنافي بين كونه مملوكها وبعلها، وبين كونها سيدته وموطوءته، وهذا أمر مشهور بالفطرة والعقول قبحه، وشريعة أحكم الحاكمين منزهة عن أن تأتي به.

***

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾.

(٢) ومنه: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤] هنيئًا في عاقبته، مريئًا في مذاقه، وقيل: معناه: أنه أسرع انحدارًا عن المريء لسهولته وخفته عليه، بخلاف الكثير، فإنه لا يسهل على المريء انحداره، ومن آفات الشرب نهلة واحدة: أنه يخاف منه الشرق، بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه، فيغص به، فإذا تنفس رويدًا رويدًا، ثم يشرب: أمن من ذلك.

ومن فوائده: أن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخاني الحار الذي كان على القلب والكبد، لورود الماء البارد عليه، فأخرجته الطبيعة عنها، فإذا شرب مرة واحدة؛ اتفق نزول الماء البارد وصعود البخار، فيتدافعان ويتعالجان، ومن ذلك يحدث الشرق والغصَّة، ولا يهنأ الشارب بالماء، ولا يمريه، ولا يتم ريُّه.

---

(١) ٨٤ أعلام جـ٢.
(٢) ٢٩٤ زاد المعاد جـ٣.

وقد روى عبد الله بن المبارك والبيهقي وغيرهما من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ: «**إذا شرب أحدكم فليمصّ الماء مصًّا، ولا يعب عبًّا، فإن الكباد من العبِّ**»[(١)]. و«الكُبَاد» بضم الكاف وتخفيف الباء: هو وجع الكبد، وقد علم بالتجربة، أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها، ويضعف حرارتها. وسبب ذلك؛ المضادة التي بين حرارتها وبين ما ورد عليها من كيفية البارد وكميته، ولو ورد بالتدريج شيئًا فشيئًا لم يضاد حرارتها ولم يضعفها، وهذا مثاله؛ صب الماء البارد على القدر، وهي تفور: لا يضرها صبه قليلًا قليلًا.

وقد روى الترمذي في جامعه عنه ﷺ: «**لا تشربوا نفسًا واحدًا، كشرب البعير، لكن اشربوا مثنى وثلاث، وسموا إذا أنتم شربتم، واحمدوا إذا أنتم فرغتم**»[(٢)].

وللتسمية في أول الطعام والشراب، وحمد الله في آخره: تأثيره عجيب في نفعه واستمرائه، ودفع مضرته، قال الإمام أحمد: إذا جمع الطعام أربعًا فقد كمل: إذا ذكر اسم الله في أوله، وحمد في آخره، وكثر عليه الأيدي، وكان من حل.

***

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾.

[(٣)]قال ابن عباس: «لا تعمد إلى مالك الذي خوَّلك الله وجعله لك معيشة، فتعطيه

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٨٤ رقم ١٤٤٣٦) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٢٨ رقم ١٩٥٩٤) وانظر: فيض القدير (١/ ٣٨٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ١١٦ رقم ٦٠١٥) والترمذي (رقم ١٨٨٥) والطبراني في الكبير (١١/ ١٦٦ رقم ١١٣٧٨) وتمام في فوائده (رقم ٣٤٩) وقال الترمذي: هذا حديث غريب، بينما نقل عنه النووي في رياض الصالحين تحسينه (ص ٢٠٣) وكذا فصل العيني في عمدة القاري (٢/ ٢٩٦).

(٣) ٥٩ إغاثة جـ٢.

امرأتك وبنيك، فيكونوا هم الذين يقومون عليك في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم»[١].

فالسفهاء هم النساء والصبيان، وقد جعل الله سبحانه الأزواج قوَّامين عليهم، كما جعل وليَّ الطفل قوامًا عليه، والقوَّام على غيره أمير عليه، ومَنْ قبل قول الزوجة أو الطفل بعد البلوغ في عدم إيصال النفقة إليهما؛ فقد جعلهما قوامين على الأزواج والأولياء، ولو لم يقبل قول الزوج لم يكن قوامًا على المرأة، فإن المرأة إذا كانت غريمًا مقبول القول دون الزوج كانت هي القوامة.

[٢]فائدة: عطية الأولاد المشروع أن يكون على قدر مواريثهم: لأن الله تعالى منع مما يؤدي إلى قطيعة الرحم، والتسوية بين الذكر والأنثى مخالفة لما وضعه الشرع من التفضيل، فيفضي ذلك إلى العداوة. ولأن الشرع أعلم بمصالحنا فلو لم يكن الأصلح التفضيل بين الذكر والأنثى لما شرعه. ولأن حاجة الذكر إلى المال أعظم من حاجة الأنثى. ولأن الله تعالى جعل الأنثى على النصف من الذكر في الشهادات والميراث والديات وفي العقيقة بالسنة. ولأن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء.

فإذا علم الذكر أن الأب زاد الأنثى على العطية التي أعطاها الله وسواها بمن فضله الله عليها؛ أفضى ذلك إلى العداوة والقطيعة، كما إذا فضل عليه من سوى الله بينه وبينه. فأي فرق بين أن يفضل من أمر الله بالتسوية بينه وبين أخيه، ويسوي بين من أمر الله بالتفضيل بينهما؟!

واعترض ابن عقيل على دليل التفضيل وقال: بناء العطية حال الحياة والصحة، والمال لا حق لأحد فيه، ولهذا لا يجوز له الهبات والعطايا للوارث، وما زاد على الثلث للأجانب عبرة بحال صحته وقطعًا له عن حال مرض الموت فضلًا عن الموت، وكذا تعطي الأخوات مع وجود الابن والأب، وإن لم يكن لهم حق في

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٤٩) وانظر: تفسير السيوطي (٢/ ٤٣٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٥٣) وفتح الباري (٨/ ٢٣٧) وعمدة القاري (١٢/ ٢٤٦).
(٢) ١٥١ بدائع جـ٣.

الإرث، وتلك عطية من الله على سبيل التحكم لا اختيار لأحد فيه، وهذه عطية من مكلف غير محجور عليه، فكانت على حسب اختياره: من تفضيل وتسوية، وهذا هو القول الصحيح عندي.

قلت: وهذه الحجة ضعيفة جدًّا فإنها باطلة بما سلمه من امتناع التفضيل بين الأولاد المتساويين في الذكورة والأنوثة، وكيف يصح له قوله: إنها عطية من مكلف غير محجور عليه، فجازت على حسب اختياره وأنت قد حجرت عليه في التفضيل بين المتساويين(١). اهـ.

...(٢)والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين. ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك. ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ، دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره.

وأخص من هذا وألطف، ضمه إلى نص آخر متعلق به؛ فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به.

وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تلد لستة أشهر. وكما فهم الصديق من آية الفرائض في أول السورة وآخرها: أن الكلالة من لا ولد له ولا والد، وأسقط الإخوة بالجد.

(٣)وقد أرشد النبي ﷺ عمر إلى هذا الفهم، حيث سأله عن الكلالة، وراجعه السؤال فيها مرارًا، فقال: «يكفيك آية الصيف»(٤) وإنما أشكل على عمر قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ

---

(١) ما ذكره ابن القيم في رده على ابن عقيل هو الصواب لما ذكره ابن القيم من الأدلة. (ج).

(٢) ٣٥٤ أعلام جـ١.

(٣) ٣٥٥ أعلام جـ١.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٦١٧) وانظر: شرح النووي (١١/ ٥٧).

يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ [النساء: ١٧٦] الآية. فدله النبي ﷺ على ما يبين له المراد منها، وهي الآية التي نزلت في الصيف، فإنه يورِّث فيها ولد الأم في الكلالة السدس، ولا ريب أن الكلالة فيها من لا ولد له ولا والد، وإن عَلا. ونحن نذكر عدة مسائل مما اختلف فيها السلف ومن بعدهم، وقد بينتها النصوص، ومسائل قد احتج فيها بالقياس وقد بيَّنها النص وأغنى فيها عن القياس:

المسألة الأولى: المشتركة في الفرائض، وقد دلَّ القرآن على اختصاص ولد الأم فيها بالثلث، بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ ﴾ [النساء: ١٢] وهؤلاء ولد الأم؛ فلو أدخلنا معهم ولد الأبوين لم يكونوا شركاء في الثلث؛ بل يزاحمهم فيه غيرهم.

فإن قيل: بل ولد الأبوين منهم؛ إلغاء لقرابة الأب.

قيل: هذا وهم؛ لأن الله سبحانه قال في أول الآية: ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾. ثم قال: ﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ ﴾. فذكر حكم واحدهم وجماعتهم حكمًا يختص به الجماعة منهم، كما يختص به واحدهم، وقال في ولد الأبوين: ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١٧٦]. فذكر حكم ولد الأب والأبوين واحدهم، وجماعتهم، وهو حكم يختص به جماعتهم كما يختص به واحدهم فلا يشاركهم فيه غيرهم، فكذا حكم ولد الأم، وهذا يدل على أن أحد الصنفين غير الآخر، فلا يشارك أحدُ الصنفين الآخر، وهذا الصنف الثاني هو ولد الأبوين أو الأب بالإجماع، والأول هو ولد الأم بالإجماع، كما فسرته قراءة بعض الصحابة «من أم»

وهي تفسير وزيادة إيضاح، وإلا فذلك معلوم من السياق؛ ولهذا ذكر سبحانه ولد الأم في آية الزوجين، وهم أصحاب فرض مقدر لا يخرجون عنه، ولا حظ لأحد منهم في التعصيب؛ ولم يذكر فيها أحدًا من العصبة، بخلاف ما ذكر في آية العمودين الآية التي قبلها؛ فإن لجنسهم حظًّا في التعصيب، ولهذا قال في آية الإخوة من الأم والزوجين: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢] ولم يقل ذلك في آية العمودين، فإن الإنسان كثيرًا ما يقصد ضرار الزوج وولد الأم؛ لأنهم ليسوا من عصبته؛ بخلاف أولاده وآبائه فإنه لا يضارهم في العادة، فإذا كان النص قد أعطى ولد الأم الثلث لم يجز تنقيصهم منه، وأما ولد الأبوين فهم جنس آخر وهم عصبته، وقد قال النبي ﷺ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجلٍ ذكرٍ**»[1]، وفي هذه المسألة لم تُبْق الفرائض شيئًا، فلا شيء للعصبة بالنص.

وأما قول القائس: «**هب أن أبانا كان حمارًا**» فقول باطل حسًّا وشرعًا، فإن الأب لو كان حمارًا لكانت الأم أتانًا.

وإذا قيل: يقدر وجوده كعدمه، قيل: هذا باطل، فإن الموجود لا يكون كالمعدوم، وأما بطلانه شرعًا فإن الله سبحانه حكم في ولد الأبوين بخلاف حكمه في ولد الأم، فإن قيل: الأب إن لم ينفعهم لم يضرهم.

قيل: بل قد يضرهم كما ينفعهم، فإن ولد الأم لو كان واحدًا وولد الأبوين مائة وفضل نصفُ سدس انفرد ولد الأم بالسدس، واشترك ولد الأبوين في نصف السدس، فهلا قبلتم قولهم ههنا: «هبْ أن أبانا كان حمارًا»! وهلا قدرتم الأب معدومًا فخرجتم عن القياس كما خرجتم عن النص! وإذا جاز أن ينقصهم الأب جاز أن يحرمهم.

وأيضًا فالقرابة المتصلة الملتئمة من الذكر والأنثى لا تفرق أحكامها، هذه قاعدة النسب في الفرائض وغيرها، فالأخ من الأبوين لا نجعله كأخ من أب وأخ من أم؛

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٧٣٢) ومسلم (رقم ١٦١٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١١-١٦) وشرح النووي (١١/ ٥٣).

فنعطيه السدس فرضًا بقرابة الأم والباقي تعصيبًا بقرابة الأب.

فإن قيل: فقد فرقتم بين القرابتين، فقلتم في ابني عم أحدهما أخ لأم: يعطى الأخ للأم بقرابة الأم السدس، ويقاسم ابن العم بقرابة العمومة.

قيل: نعم هذا قول الجمهور، وهو الصواب، وإن كان شريح ومن قال بقوله أعطى الجميع لابن العم الذي هو أخ لأم، كما لو كان ابن عم لأبوين، والفرق بينهما على قول الجمهور؛ أن كليهما في بنوة العم سواء، وأما الإخوة للأم فمستقلة ليست مقترنة بأبوة حتى يجعل كابن العم للأبوين، فههنا قرابة الأم منفردة عن قرابة العمومة، بخلاف قرابة الأم في مسألتنا فإنها متحدة بقرابة الأب.

ومما يبين أن عدم التشريك هو الصحيح أنه لو كان فيها أخوات لأب لفرض لهنَّ الثلثان وعالت الفريضة، فلو كان معهن أخوهن سقطن به، ويسمى الأخ المشئوم، فلما كنَّ بوجوده يصرن عصبة صار تارة ينفعهن وتارة يضرهن، ولم يجعل وجوده كعدمه في حال الضرار فكذلك قرابة الأب لما صار الإخوة بها عصبة صار ينفعهم تارة ويضرهم أخرى، وهذا شأن العصبة فإن العصبة تارة تحوزُ المال، وتارة تحوز أكثره، وتارة تحوز أقله وتارة تخيب؛ فمن أعطى العصبة مع استغراق الفروض المال خرج عن قياس الأصول وعن موجب النص.

فإن قيل: فهذا استحسان.

قيل: لكنه استحسان يخالف الكتاب والميزان، فإنه ظلم للإخوة من الأم؛ حيث يؤخذ حقهم ويعطاه غيرهم، وإن كانوا يعقلون عن الميت وينفقون عليه؛ لم يلزم من ذلك أن يشاركوا من لا يعقل ولا ينفق في ميراثه، فعاقلة المرأة ـ من أعمامها وبني عمها وإخوتها ـ يعقلون عنها، وميراثها لزوجها وولدها كما قضى بذلك رسول الله ﷺ، فلا يمتنع أن يعقل ولد الأبوين ويكون الميراث لولد الأم.

***

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾.

(١)ومنها: قوله تعالى في آية الفرائض: ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ [النساء: ١٢] فإنه ﷻ إنما قدم على الميراث وصية من لم يضارَّ الورثة، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حرامًا، وكان للورثة إبطالها، وحرم على الموصَى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة، وأكَّد ﷻ ذلك بقوله: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وتأمل كيف ذكر ﷻ الضرار في هذه الآية دون التي قبلها، لأن الأولى تضمنَّت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف: من الزوجين، والإخوة. والعادة أن الميت قد يضارُّ زوجته وإخوته، ولا يكاد يضارُّ والديه وولده.

(٢)**المسألة السادسة**: ميراث الجد مع الإخوة، والقرآن يدل لقول الصديق ومن معه من الصحابة: كأبي موسى وابن عباس وابن الزبير وأربعة عشر منهم ﷺ.

ووجه دلالة القرآن على هذا القول قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ [النساء: ١٧٦] إلى آخر الآية، فلم يجعل للإخوة ميراثًا إلا في الكلالة.

وقد اختلف الناس في الكلالة، والكتاب يدل على قول الصديق: أنها ما عدا الوالد

(١) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

(٢) اختصرنا المسألة الثانية وهي البحث في العمريتين، والثالثة: وهي ميراث الأخوات مع البنات. والرابعة: وهي ميرات البنات، والخامسة: ميراث بنت الابن السدس مع البنت لطول البحث فيها، فمن أرادها فليرجع إلى الأصل (ج).

والولد، فإنه سبحانه قال في ميراث ولد الأم: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ [النساء: ١٢] فسوَّىٰ بين ميراث الإخوة في الكلالة، وإن فرق بينهم في جهة الإرث ومقداره، فإذا كان وجود الجد مع الإخوة للأم لا يدخلهم في الكلالة، بل يمنعهم من صدق اسم الكلالة علىٰ الميت أو عليهم أو علىٰ القرابة، فكيف أدخل ولد الأب في الكلالة ولم يمنعهم وجوده صدق اسمها؟! وهل هذا إلا تفريق محض بين ما جمع الله بينه؟!

يوضحه الوجه الثاني: وهو أن ولد الولد يمنع الإخوة من الميراث، ويخرج المسألة عن كونها كلالة؛ لدخوله في قوله: ﴿ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾. ونسبة أب الأب إلىٰ الميت كنسبة ولد ولده إليه، فكما أن الولد وإن نزل يخرج المسألة عن الكلالة فكذلك أب الأب وإن علا، ولا فرق بينهما البتة.

يوضحه الوجه الثالث: وهو أن نسبة الإخوة إلىٰ الجد كنسبة الأعمام إلىٰ أبي الجد، فإن الأخ ابن الأب والعم ابن الجد، فإذا خلف عمه وأبا جده فهو كما لو خلف أخاه وجده سواء، وقد أجمع المسلمون علىٰ تقديم أب الجد علىٰ العم، فكذلك يجب تقديم الجد علىٰ الأخ؛ وهذا من أبين القياس، وإن لم يكن هذا قياسًا جليًّا فليس في الدنيا قياس جلي[1]...

***

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.

[2]قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النساء: ١٧] قال

(١) تابع المؤلف الأدلة حتىٰ أوصلها إلىٰ عشرين وجهًا اهـ. (ج).
(٢) ٤٧٠ مدارج جـ١.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عُصِيَ الله به فهو جهالة[(١)].

وقال غيره: أجمع الصحابة أن كل من عَصَي الله فهو جاهل. وقال الشاعر:

ألا لا يجهلـــــن أحـــــدٌ علينـــــا فنجهـــل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا[(٢)]

وسمي عدم مراعاة العلم جهلاً، إما لأنه لم ينتفع به، فنزل منزلة الجهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله.

[(٣)]ومن أحكامها: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يتعذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارق إذا أُتي على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قُطعت يده، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها، ففي هذا قولان للناس:

فقالت طائفة: لا تصح توبته؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك، فالتوبة من الممكن، لا من المستحيل، ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها، وتنشيف البحار، والطيران إلى السماء، ونحوه.

قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعي النفس، وإجابة داعي الحق. ولا داعي للنفس هذا، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأن هذا كالمكره على الترك، المحمول عليها قهرًا، ومثل هذا لا تصح توبته.

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥١) والطبري في تفسيره (٤/ ٢٩٨) وانظر: تفسير السيوطي (٢/ ٤٥٩) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٦٤) والتمهيد (١٥/ ١١-١٢).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى عمرو بن كلثوم التغلبي شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان من أعز الناس نفسًا، وهو من الفتاك والشجعان، قتل الملك عمرو بن هند في دار ملكه، ساد قومه وعمّر طويلًا مات سنة ٣٩ قبل الهجرة. ذكره ابن منظور في اللسان (٣/ ١٧٧) والخطابي في غريبه (٢/ ١٢٨) والعيني في عمدة القاري (١/ ٢٥٧) وابن عبد البر في الاستذكار (٣/ ٣٧٣). والمناوي في فيض القدير (١/ ٧٣، ٣٢٨) (٤/ ٣٥٤) (٥/ ١٢٣) وابن فورك في مشكل الحديث وبيانه (٣٢٧).

(٣) ٢٨٣ مدارج جـ١.

قالوا: ومن المستقر في فطر الناس وعقولهم: أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح: توبة غير معتبرة، ولا يحمدون عليها، بل يسمونها توبة إفلاس، وتوبة جائحة، قال الشاعر:

ورحــــت عــــن توبتـــه ســـائلًا وجـــــدتها توبـــــة إفـــــلاس[1]

قالوا: ويدل على هذا أيضًا أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧-١٨].

والجهالة ههنا جهالة العمل وإن كان عالمًا بالتحريم. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

وأما التوبة من قريب؛ فجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة، قال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت، وقال السدي والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته...

[2]وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ قال سفيان الثوري: كل من عمل ذنبًا من خلق الله فهو جاهل؛

---

(١) هذا البيت من بحر السريع، وينسب إلى بهاء الدين زهير بن محمد المهلبي العتكي، شاعر من الكتـاب، اتصل بالملك الصالح أيوب فقربه وجعله من خواصه، توفي سنة ٦٥٦هـ.

(٢) ٩٠ مفتاح جـ١.

كان جاهلًا أو عالمًا، إن كان عالمًا فمن أجهل منه؟ وإن كان لا يعلم فمثل ذلك.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ قال: قبل الموت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذنب المؤمن جهل منه، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شيء عصي الله فيه فهو جهالة، وقال السدي: كل من عصى الله فهو جاهل.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد، فإنه لو رأى صبيًّا يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته؟! فلابد من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه، فحينئذ يكون وقوعه في المعصية صادرًا عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم.

والذنب محفوف بجهلين: جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة، فما عصي الله إلا بالجهل، وما أطيع إلا بالعلم.

(١) ومن حكمته سبحانه ما منعهم من العلم: علم الساعة ومعرفة آجالهم، وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر، فلو عرف الإنسان مقدار عمره؛ فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش، وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت؟ فلولا طول الأمل لخربت الدنيا وإنما عمارتها بالآمال، وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك؛ فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة. وهذا مذهب لا يرتضيه الله ﷻ من عباده ولا يقبله منهم، ولا تصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه، فلو أن عبدًا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعوامًا، ثم يرضيك ساعة واحدة

---

(١) ٢٨٣ مفتاح جـ ١.

إذا تيقن أنه صائر إليك؛ لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك. وكذلك سنة الله ﷻ: أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا إقلاع، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة؛ فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه؛ لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرى كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النفس تارة وداعي الإيمان تارات، فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفًا ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذا ظفر بالذنب، فهذا الذي يخاف عيه أن يحال بينه وبين التوبة، ولا يوفق لها؛ فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلفًا وتعجيلًا، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل، وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبًا؛ لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك، شديد على النفس صعب عليها، أثقل من الجبال؛ ولاسيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان، فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدًا بنسيئة ولا عاجلاً بآجل، كما قال بعض هؤلاء وقد سئل: أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدًا؟ فقال: لا هذا ولا هذا، ولكن ربع درهم من أول أمس، فحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله.

فإذا بلغ العبد حد الكبر وضعفت بصيرته ووهت قواه، وقد أوجبت له تلك

الأعمال قوة في غيه وضعفًا في إيمانه، صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها، فإن كثرة المزاولات تعطي الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي، وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثرًا زائدًا على أثر ما قبله؛ فيقوى الأثران وهلم جرا، فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال؛ فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه لم يتطهر للقدوم على الله، فما ظنه بربه؟ ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان؛ لقبلت توبته ومحيت سيئاته، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، ولا شيء أشهى لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة، ولكن فرط في أداء الدين حتى نفد المال، ولو أداه وقت الإمكان لقبله ربه، وسيعلم المسرف والمفرط أي ديان أدان؟ وأي غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات؟ فإن فنيت فيحمل السيئات، فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم، فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه؛ فينكف عما يضره في معاده، ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم.

فإن قلت: فها هو مع كونه قد غيب عنه مقدار أجله، وهو يترقب الموت في كل ساعة ومع ذلك يقارف الفواحش وينتهك المحارم، فأي فائدة وحكمة حصلت بستر أجله عنه؟

قيل: لعمر الله إن الأمر كذلك وهو الموضع الذي حير الألباب والعقلاء، وافتراق الناس لأجله فرقًا شتى:

ففرقة أنكرت الحكمة وتعليل أفعال الرب جملة، وقالوا بالجبر المحض، وسدوا على أنفسهم الباب، وقالوا: لا تعلل أفعال الرب تعالى، ولا هي مقصود بها مصالح العباد، وإنما مصدرها محض المشيئة وصرف الإرادة، فأنكروا حكمة الله في أمره ونهيه.

وفرقة نفت لأجله القدر جملة، وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله حتى يطلب لها وجوه الحكمة، وإما هي خلقهم وإبداعهم، فهي واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم، فلا يقع على السداد والصواب إلا أقل القليل منها.

فهاتان الطائفتان متقابلتان أعظم تقابل.

فالأولى غلت في الجبر وإنكار الحكم المقصودة في أفعال الله.

والثانية: غلت في القدر وأخرجت كثيرًا من الحوادث؛ بل أكثرها عن ملك الرب وقدرته.

وهدى الله أهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فأثبتوا لله ﷻ عموم القدرة والمشيئة، وأنه تعالى أن يكون في ملكه ما لا يشاء، أو يشاء ما لا يكون، وأن أهل سماواته وأرضه أعجز وأضعف من أن يخلقوا ما لا يخلقه الله، أو يحدثوا ما لا يشاء، بل ما شاء الله كان ووجد وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم المشيئة له، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، ولا تتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه، ومع ذلك فله في كل ما خلق وقضى وقدره وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة، ما اقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم، فما خلق شيئًا ولا قضاه ولا شرعه إلا لحكمة بالغة؛ وإن تقاصرت عنها عقول البشر، فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته.

والطائفة الأولى جحدت الحكمة.

والثانية جحدت القدرة، والأمة الوسط أثبتت له كمال الحكمة وكمال القدرة.

فالفرقة الأولى تشهد في المعصية مجرد المشيئة والخلق العاري عن الحكمة، وربما شهدت الجبر وأن حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار ونحوها.

والفرقة الثانية تشهد في المعصية مجرد كونها فاعلة محدثة مختارة، هي التي شاءت ذلك بدون مشيئة الله.

والأمة الوسط تشهد عز الربوبية وقهر المشيئة ونفوذها في كل شيء، وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها واختيارها وإيثارها شهواتها على مرضات ربها.

فيوجب الشهود الأول لها: سؤال ربها والتذلل والتضرع له: أن يوفقها لطاعته ويحول بينها وبين معصيته، وأن يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته.

ويوجب الشهود الثاني لها: اعترافها بالذنب وإقرارها به على نفسها، وأنها هي

الظالمة المستحقة للعقوبة، وتنزيه ربها عن الظلم، وأن يعذبها بغير استحقاق منها أو يعذبها على ما لم تعمله فيجتمع لها من الشهودين: شهود التوحيد والشرع والعدل والحكمة، وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق في مواقعة الذنب، وأنها تنتهي إلى ثمانية مشاهد:

أحدها: المشهد الحيواني البهيمي الذي شهود صاحبه مقصور على شهوات لذته به فقط، وهو في هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات، وربما يزيد عليها في اللذة وكثرة التمتع.

والثاني: مشهد الجبر وأن الفاعل فيه سواه، والمحرك له غيره، ولا ذنب له هو، وهذا مشهد المشركين وأعداء الرسل.

الثالث: مشهد القدر وهو أنه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقه، وهذا مشهد القدرية المجوسية.

الرابع: مشهد أهل العلم والإيمان، وهو مشهد القدر والشرع، يشهد فعله وقضاء الله وقدره كما تقدم.

الخامس: مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف، وأنه إن لم يعنه الله ويثبته ويوفقه؛ فهو هالك، والفرق بين مشهد هذا ومشهد الجبرية ظاهر.

السادس: مشهد التوحيد وهو الذي يشهد فيه انفراد الله ﷻ بالخلق والإبداع ونفوذ المشيئة، وأن الخلق أعجز من أن يعصوه بغير مشيئته، والفرق بين هذا المشهد وبين المشهد الخامس؛ أن صاحبه شاهد لكمال فقره وضعفه وحاجته، وهذا شاهد لتفرد الله بالخلق والإبداع، وأنه لا حول ولا قوة إلا به.

السابع: مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله ﷻ في قضائه وتخليته بين العبد والذنب، ولله في ذلك حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها، وذكرنا منها في ذلك الكتاب قريبًا من أربعين حكمة، وقد تقدم في أول هذا الكتاب التنبيه على بعضها.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٩] فحرَّم ﷺ أن يأخذ منها شيئًا مما آتاها، إذا كان قد توسَّل إليه بالعضل.

(٢)*فصل فيما حكم الله سبحانه بتحريمه من النساء على لسان نبيه:*

حرم الأمهات وهن: كل من بينك وبين ولادة من جهة الأمومة أو الأبوة كأمهاته وأمهات آبائه، وأجداده من جهة الرجال والنساء وإن علون.

وحرم البنات وهن: كل من ينسب إليه بولادة، كبنات صلبه، وبنات بناته وأبنائهن،

---

(١) ٣٧٨ إغاثة جـ١.

(٢) ١٥ زاد المعاد جـ٤.

وإن سفلن، وحرم الأخوات من كل جهة.

وحرم العمات وهن: أخوات آبائه وإن علون من كل جهة.

وأما عمة العم: فإن كان العم لأب: فهي عمة أبيه، وإن كان لأم: فعمته أجنبية منه، فلا تدخل في العمات، وأما عمة الأم: فهي داخلة في عماته، كما دخلت عمة أبيه في عماته.

وحرم الخالات وهن: أخوات أمهاته وأمهات آبائه، وإن علون.

وأما خالة العمة: فإن كانت العمة لأب؛ فخالتها أجنبية، وإن كانت لأم؛ فخالتها حرام؛ لأنها خالة، وأما عمة الخالة: فإن كانت الخالة لأم؛ فعمتها أجنبية، وإن كانت لأب؛ فعمتها حرام؛ لأنها عمة الأم.

وحرم بنات الأخ وبنات الأخت، فيعم الأخ والأخت من كل جهة وبناتهما، وإن نزلت درجتهن.

وحرم الأم من الرضاعة، فيدخل فيه أمهاتها من قبل الآباء والأمهات، وإن علون، وإذا صارت المرضعة أمه صار صاحب اللبن ـ وهو الزوج أو السيد إن كانت جارية ـ أباه. وآباؤه أجداده، فنبه بالمرضعة صاحبة اللبن ـ التي هي مستودع فيها للأب ـ على كونه أبًا بطريق الأولى؛ لأن اللبن له، وبوطئه ثاب، ولهذا حكم رسول الله ﷺ بتحريم لبن الفحل، فثبت بالنص، وإيماؤه: انتشار حرمة الرضاع إلى أم المرتضع وأبيه من الرضاعة، وأنه قد صار ابنًا لهما، وصارا أبوين له، فلزم من ذلك؛ أن يكون إخوتهما وأخواتهما خالات له وعمات، وأبناؤهما وبناتهما إخوة له وأخوات.

فنبه بقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ على انتشار حرمة الرضاع إلى إخوتهما وأخواتهما، كما انتشرت منهما إلى أولادهما. فكما صاروا إخوة وأخوات للمرتضع، فأخوالهما وخالاتهما؛ أخوال وخالات له، وأعمام وعمات له. الأول: بطريق النص، والآخر: بتنبيهه، كما أن الانتشار إلى الأم بطريق النص، وإلى الأب بطريق تنبيهه، وهذه طريقة عجيبة مطردة في القرآن، لا يقع عليها إلا كل غائص على معانيه ووجوه دلالاته.

ومن هنا قضى رسول الله ﷺ أنه: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»(١) ولكن الدلالة دلالتان: خفية، وجلية، فجمعهما للأمة ليتم البيان، ويزول الالتباس، ويقع على الدلالة الجلية الظاهرة من قصر فهمه عن الخفية.

وحرم أمهات النساء، فدخل في ذلك أم المرأة، وإن علت من نسب أو رضاع، دخل بالمرأة أو لم يدخل بها، لصدق الاسم على هؤلاء كلهن.

وحرم الربائب اللاتي في حجور الأزواج. وهن بنات نسائهم المدخول بهن فتناول ذلك بناتهن، وبنات، بناتهن، وبنات أبنائهن. فإنهن داخلات في اسم «الربائب»، وقيد التحريم بمقيدين:

أحدهما: كونهن في حجور الأزواج.

والثاني: الدخول بأمهاتهن. فإذا لم يوجد الدخول لم يثبت التحريم، سواء حصلت الفرقة بموت أو طلاق هذا مقتضى النص.

وذهب زيد بن ثابت ومن وافقه، وأحمد في رواية عنه: إلى أن موت الأم في تحريم الربيبة كالدخول بها؛ لأنه يكمل الصداق، ويوجب العدة والتوارث؛ فصار كالدخول، والجمهور أبوا ذلك، وقالوا: الميتة غير مدخول بها؛ فلا تحرم ابنتها، والله تعالى قيد التحريم بالدخول، وصرح بنفيه عند عدم الدخول.

وأما كونها في حجر: فلما كان الغالب ذلك ذكره لا تقييدًا للتحريم به، بل هو بمنزلة قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾[الإسراء: ٣١].

ولما كان من شأن بنت المرأة أن تكون عند أمها، فهي في حجر الزوج وقوعًا وجوازاً، فكأنه قال: اللاتي من شأنهن أن يكنَّ في حجوركم.

ففي ذكر هذا فائدة شريفة، وهي جواز جعلها في حجره، وأنه لا يجب عليه إبعادها عنه، وتجنب مؤاكلتها، والسفر والخلوة بها، فأفاد هذا الوصف؛ عدم الامتناع من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٤٥) ومسلم (رقم ١٤٤٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٤١-١٤٢) وشرح النووي (١٠/ ١٨-١٩).

ولما خفي هذا على بعض أهل الظاهر شرط في تحريم الربيبة: أن تكون في حجر الزوج، وقيد تحريمها بالدخول بأمها، وأطلق تحريم أم المرأة، ولم يقيده بالدخول، فقال جمهور العلماء من الصحابة ومن بعدهم: إن الأم تحرم بمجرد العقد على البنت دخل بها أو لم يدخل، ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم، وقالوا: أبهموا ما أبهم الله.

وذهبت طائفة إلى أن قوله: ﴿ ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ وصف لنسائكم الأولى والثانية، وأنه لا تحرم الأم إلا بالدخول بالبنت.

وهذا يرده نظم الكلام، وحيلولة المعطوف بين الصفة والموصوف، وامتناع جعل الصفة للمضاف إليه، دون المضاف إلا عند البيان، فإذا قلت: مررت بغلام زيد العاقل: فهو صفة للغلام لا لزيد، إلا عند زوال اللبس، كقولك: مررت بغلام هند الكاتبة.

ويرده أيضًا: جعل صفة واحدة لموصوفين مختلفي الحكم والتعلق والعامل، وهذا لا يعرف في اللغة التي نزل بها القرآن.

وأيضًا: فإن الموصوف الذي يلي الصفة أولى بها لجواره، والجار أحق بصقبه، ما لم تدع ضرورة إلى نقلها عنه، أو تخطيها إياه إلى الأبعد.

فإن قيل: فمن أين أدخلتم ربيبته التي هي بنت جاريته التي دخل بها، وليست من نسائه؟

قلنا: السُّرِّية قد تدخل في جملة نسائه، كما دخلت في قوله: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. ودخلت في قوله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ودخلت في قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٢٢].

فإن قيل: فيلزمكم على هذا إدخالها في قوله: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ فتحرم عليه أم جاريته.

قلنا: نعم، وكذلك نقول: إذا وطئ أمته حرمت عليه أمها وابنتها.

فإن قيل: فأنتم قد قررتم أنه لا يشترط الدخول بالبنت في تحريم أمها، فكيف تشترطونه ههنا؟

قلنا: لتصير من نسائه، فإن الزوجة صارت من نسائه بمجرد العقد، وأما المملوكة: فلا تصير من نسائه حتى يطأها، فإذا وطئها صارت من نسائه، فحرمت عليه أمها وابنتها.

فإن قيل: فكيف أدخلتم السرية في نسائه في آية التحريم، ولم تدخلوها في نسائه في آية الظهار والإيلاء.

قيل: السياق والواقع يأبى ذلك، فإن الظهار كان عندهم طلاقًا، وإنما محله الأزواج لا الإماء، فنقله الله سبحانه من الطلاق إلى التحريم الذي تزيله الكفارة، فنقل حكمه وأبقى محله.

وأما الإيلاء: فصريح في أن محله الزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

وحرم سبحانه حلائل الأبناء، وهن موطوءات الأبناء بنكاح أو ملك يمين، فإنها حليلة بمعنى محللة، ويدخل في ذلك ابن صلبه، وابن ابنه، وابن ابنته، ويخرج من ذلك التبني وهذا التقييد قصد به إخراجه.

وأما حليلة ابنه من الرضاع: فإن الأئمة الأربعة ومن قال بقولهم يدخلونها في قوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ ولا يخرجونها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ويحتجون بقول النبي ﷺ: «**حرموا من الرضاع ما يحرم من النسب**»[1].

قالوا: وهذه الحليلة تحرم إذا كانت لابن النسب، فتحرم إذا كانت لابن الرضاع، قالوا: والتقييد لإخراج ابن التبني لا غير، وحرموا من الرضاع بالصهر نظير ما يحرم من النسب.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٩٦) ومسلم (رقم ١٤٤٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٥١).

ونازعهم في ذلك آخرون، فقالوا: لا تحرم حليلة ابنه من الرضاعة؛ لأنه ليس من صلبه. والتقييد كما يخرج حليلة ابن التبني يخرج حليلة ابن الرضاع سواء، ولا فرق بينهما.

قالوا: وأما قوله ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» فهو من أكبر أدلتنا وعمدتنا في المسألة. فإن تحريم حلائل الآباء والأبناء إنما هو بالصهر لا بالنسب، والنبي ﷺ قد قصر تحريم الرضاع على نظيره من النسب، لا على شقيقه من الصهر. فيجب الاقتصار بالتحريم على مورد النص.

قالوا: والتحريم بالرضاع فرع على تحريم النسب، لا على تحريم المصاهرة. فتحريم المصاهرة أصل قائم بذاته؛ والله سبحانه لم ينص في كتابه على تحريم الرضاع إلا من جهة النسب، ولم ينبه على التحريم به من جهة الصهر البتة، لا بنص ولا إيماء، ولا إشارة، والنبي ﷺ أمر أن يحرم به ما يحرم من النسب.

وفي ذلك إرشاد وإشارة إلى أنه لا يحرم به ما يحرم الصهر، ولولا أنه أراد الاقتصار على ذلك لقال: حرموا من الرضاع ما يحرم من النسب والصهر.

قالوا: وأيضًا فالرضاع مشبه بالنسب، ولهذا أخذ منه بعض أحكامه، وهو الحرمة والمحرمية فقط، دون التوارث والإنفاق وسائر أحكام النسب، فهو نسب ضعيف، فأخذ بحسب ضعفه بعض أحكام النسب، ولم يقو على سائر أحكام النسب؛ وهو ألصق به من المصاهرة، فكيف يقوى على أخذ أحكام المصاهرة، مع قصوره عن أحكام مشبهه وشقيقه؟ وأما المصاهرة والرضاع: فإنه لا نسب بينهما، ولا شبهة نسب، ولا بعضية، ولا اتصال.

قالوا: ولو كان تحريم الصهرية ثابتًا لبينه الله ورسوله بيانًا شافيًا، يقيم الحجة ويقطع العذر. فمن الله البيان، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم والانقياد.

فهذا منتهى النظر في هذه المسألة، فمن ظفر فيها بحجة فليرشد إليها، وليدل عليها؛ فإنا لها منقادون، وبها معتصمون، والله الموفق للصواب.

وحرم ﷺ نكاح من نكحهن الآباء، وهذا يتناول منكوحاتهم بملك اليمين، أو عقد نكاح، ويتناول آباء الآباء وآباء الأمهات وإن علون، واستثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. والاستثناء من مضمون جملة النهي، وهو التحريم المستلزم للتأثيم والعقوبة، فاستثنى منه ما سلف قبل إقامة الحجة والرسول والكتاب.

وحرم سبحانه الجمع بين الأختين، وهذا يتناول الجمع بينهما في عقد النكاح وملك اليمين، كسائر محرمات الآية، وهذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو الصواب.

وتوقفت طائفة في تحريمه بملك اليمين لمعارضة هذا العموم، بعموم قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] ولهذا قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: «أحلتهما آية، وحرمتهما آية».

وقال الإمام أحمد في رواية عنه: لا أقول هو حرام، ولكن ننهى عنه، فمن أصحابه من جعل القول بإباحته رواية عنه،والصحيح؛ أنه لم يبحه، ولكن تأدب مع ا لصحابة أن يطلق لفظ «الحرام» على أمر توقف فيه عثمان بن عفان، بل قال: ننهي عنه، والذين جزموا بتحريمه رجحوا آية التحريم من وجوه:

أحدها: أن سائر ما ذكر فيها من المحرمات عام في النكاح وملك اليمين، فما بال هذا وحده حتى يخرج منها؟ فإن كانت آية الإباحة مقتضية لحل الجمع بالملك، فلتكن مقتضية لحل أم موطوءته بالملك، ولموطوءة أبيه وابنه بالملك، إذ لا فرق بينهما البتة. ولا يعلم بهذا قائل.

الثاني: أن آية الإباحة بملك اليمين مخصوصة قطعًا بصور عديدة، لا يختلف فيها اثنان، كأمه وابنته، وأخته وعمته، وخالته من الرضاعة، بل كأخته وعمته وخالته من النسب، عند من لا يرى عتقهن بالملك، كمالك والشافعي، ولم يكن عموم قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣] معارضًا لعموم تحريمهن بالعقد والملك، فهذا حكم الأختين سواء.

الثالث: أن حل الملك ليس فيه أكثر من بيان جهة الحل وسببه، ولا تعرض فيه لشروط الحل، ولا لموانعه، وآية التحريم فيها بيان موانع الحل من النسب والرضاع والصهر وغيره، فلا تعارض بينهما البتة، وإلا كان كل موضع ذكر فيه شرط الحل وموانعه معارضًا لمقتضى الحل، وهذا باطل قطعًا، بل هو بيان لما سكت عنه دليل الحل من الشروط والموانع.

الرابع: أنه لو جاز الجمع بين الأختين المملوكتين في الوطء جاز الجمع بين الأم وابنتها المملوكتين، فإن نص التحريم شامل للصورتين شمولاً واحداً، وأن إباحة المملوكات إن عمت الأختين عمت الأم وابنتها.

الخامس: أن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمع ماءه في رحم أختين**»[1] ولا ريب أن جمع الماء كما يكون بعقد النكاح يكون بملك اليمين، و الإيمان يمنع منه.

وقضى رسول الله ﷺ بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، وهذا التحريم مأخوذ من تحريم الجمع بين الأختين، لكن بطريق خفي. وما حرمه رسول الله ﷺ مثل ما حرمه الله، ولكن هو مستنبط من دلالة الكتاب. وكان الصحابة أحرص شيء على استنباط أحاديث الرسول ﷺ من القرآن.

ومن ألزم نفسه ذلك، وقرع بابه، ووجه قلبه إليه، واعتنى به بفطرة سليمة، وقلب زكي؛ رأى السنة كلها تفصيلًا للقرآن، وتبيينًا لدلالته، وبيانًا لمراد الله منه، وهذا أعلى مراتب العلم، فمن ظفر به فليحمد الله، ومن فاته فلا يلومن إلا نفسه وهمته وعجزه.

---

(١) قال ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٥٥ رقم ٥٣٣): لم أجده. وقال في التلخيص الحبير (٣/ ١٦٦ رقم ١٥٢٤) بعد أن ذكر هذا الحديث: ويروى: «معلون من جمع ماءه في رحم أختين» لا أصل له باللفظين، وقد ذكر ابن الجوزي اللفظ الثاني ولم يعزه إلى كتاب من كتب الحديث، وقال ابن عبد الهادي، لم أجد له سندًا بعد أن فتشت عليه في كتب كثيرة، وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ١٩٣ رقم ١٩٦٤): غريب. وقال الزيلعي في نصب الراية (٣/ ١٦٨): حديث غريب.

واستفيد من تحريم الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها؛ أن كل امرأتين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكرًا حرم على الآخر، فإنه يحرم الجمع بينهما. ولا يستثنى من هذا صورة واحدة، فإن لم يكن بينهما قرابة لم يحرم الجمع بينهما، وهل يكره؟ على قولين، وهذا كالجمع بين امرأة رجل وابنته من غيرها.

واستفيد من عموم تحريمه سبحانه المحرمات المذكورة: أن كل امرأة حرم نكاحها حرم وطؤها بملك اليمين، إلا إماء أهل الكتاب، فإن نكاحهن حرام عند الأكثرين، ووطأهن بالملك جائز، وسوى أبو حنيفة بينهما: فأباح نكاحهن كما يباح وطؤهن بالملك.

والجمهور احتجوا عليه بأن الله ﷻ إنما أباح نكاح الإماء بوصف الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ [النساء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] خص ذلك بحرائر أهل الكتاب، بقي الإماء على قضية التحريم، وقد فهم ا بن عمر وغيره من الصحابة إدخال الكتابيات في هذه الآية، فقال: «لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول: إن المسيح إلٰهها».

وأيضًا: فالأصل في الأبضاع؛ الحرمة، وإنما أبيح نكاح الإماء المؤمنات، فمن عداهن؛ على أصل التحريم، وليس تحريمهن مستفادًا من المفهوم.

واستفيد من سياق الآية مدلولها؛ أن كل امرأة حرمت حرمت ابنتها إلا العمة والخالة، وحليلة الابن وحليلة الأب، وأم الزوجة، وأن كل الأقارب حرام إلا الأربع المذكورات في سورة الأحزاب، وهن: بنات الأعمام والعمات، وبنات الأخوال والخالات.

ومما حرمه النص: نكاح الزوجات المحصنات، واستثنى من ذلك ملك اليمين، فأشكل هذا الاستثناء على كثير من الناس، فإن الأمة المزوجة يحرم وطؤها على مالكها، فأين محل الاستثناء؟ فقالت طائفة: هو منقطع؛ أي لكن ما ملكت أيمانكم، وقد رد هذا لفظًا ومعنى.

أما اللفظ فإن الانقطاع إنما يقع حيث يقع التفريغ، وبابه غير الإيجاب: من النفي والنهي والاستفهام، فليس الموضع موضع الانقطاع.

وأما المعنى: فإن المنقطع لابد فيه من رابط بينه وبين المستثنى منه؛ بحيث يخرج ما توهم دخوله فيه بوجه ما، فإنك إذا قلت: ما بالدار من أحد؛ دل على انتفاء من بها بدوابهم وأمتعتهم، فإذا قلت:إلا حمارًا، أو إلا الأثافي ونحو ذلك، أزلت توهم دخول المستثنى في حكم المستثنى منه.

وأبين من هذا قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] فاستثناء السلام أزال توهم نفي السماع العام، فإن عدم سماع اللغو يجوز أن يكون لعدم سماع كلام ما، وأن يكون مع سماع غيره، وليس في تحريم نكاح الزوجة ما يوهم تحريم وطء الإماء بملك اليمين حتى يخرجه.

وقالت طائفة: بل الاستثناء على بابه، ومتى ملك الرجل الأمة المزوجة كان ملكه طلاقًا لها. وحل له وطؤها.

وهي مسألة بيع الأمة: هل يكون طلاقاً لها أم لا؟ فيه مذهبان للصحابة. فابن عباس يراه طلاقًا، ويحتج له بالآية. وغيره يأبى ذلك، ويقول: كما يجامع الملك السابق للنكاح اللاحق اتفاقًا ولا يتنافيان، كذلك الملك اللاحق لا ينافي النكاح السابق.

قالوا: وقد «خير رسول الله ﷺ بريرة لما بيعت» ولو انفسخ نكاحها لم يخيرها.

قالوا: وهذا حجة على ابن عباس فإنه هو راوي الحديث، والأخذ برواية الصحابي لا برأيه.

وقالت طائفة ثالثة: إن كان المشتري امرأة لم ينفسخ النكاح، لأنها لا تملك الاستمتاع ببضع الزوجة، وإن كان رجلًا انفسخ، لأنه يملك الاستمتاع به، وملك اليمين أقوى من ملك النكاح، وهذا الملك يبطل النكاح دون العكس، قالوا: وعلى هذا فلا إشكال في حديث بريرة.

***

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(١)قال الله تعالىٰ عقيب ذكره ما أحل لعباده من الزوجات والإماء وما حرم عليهم: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء: ٢٦، ٢٨] أي: لا يصبر عن النساء، كما ذكر الثوري: عن ابن طاوس، عن أبيه: قال: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ إذا نظر إلىٰ النساء لم يصبر، وكذلك قال غير واحد من السلف.

ولما كان الشهوة في هذا الباب غالبة لابد أن توجب ما يوجب التوبة؛ كرَّر سبحان وتعالىٰ ذكر التوبة مرتين، فأخبر أن متبعي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلًا عظيمًا.

وأخبر ﷻ أنه يريد التخفيف عنا لضعفنا، فأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعًا، وأن نتسرىٰ من الإماء بما شئنا، ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال: حالة جهل بما يحلُّ له ويحرم عليه، وحالة تقصير وتفريط، وحالة ضعف وقلة صبر، قابل سبحانه جهل عبده بالبيان والهدىٰ، وتقصيره وتفريطه بالتوبة، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف.

(٢)والمقصود: أن العشق لما كان مرضًا من الأمراض: كان قابلًا للعلاج. وله أنواع من العلاج، فإن كان مما للعاشق سبيل إلىٰ وصل محبوبه شرعًا وقدرًا: فهو علاجه، كما ثبت في الصحيحين: من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب!**

---

(١) ٢١٩ روضة.

(٢) ٣٢٢ زاد المعاد جـ٣.

من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[١].

فدل المحب على علاجين: أصلي، وبدلي، وأمره بالأصلي: وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء، فلا ينبغي العدول عنه إلىٰ غيره، ما وجد إليه سبيلاً.

وروىٰ ابن ماجه في سننه: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لم نر للمتحابين مثل النكاح**»[٢]. وهذا المعنىٰ الذي أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء: حرائرهن، وإمائهن، عند الحاجة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾. فذكر تخفيفه في هذا الموضع، وإخباره عن ضعف الإنسان؛ يدل علىٰ ضعفه عن احتمال هذه الشهوة، وأنه سبحانه خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء: مثنىٰ وثلاث ورباع، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلىٰ ذلك؛ علاجًا لهذه الشهوة، وتخيفًا عن هذا الخلق الضعيف، ورحمة به...

[٣]قال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ قال طاوس ومقاتل وغيرهما: لا يصبر عن النساء، وقال الحسن: هو خلقه من ماء مهين، وقال الزجاج: ضعف عزمه عن قهر الهوىٰ.

والصواب: أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر: فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلىٰ عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه. وخلقه علىٰ هذه الصفة؛ هو من الأمور التي يحمد عليها الرب سبحانه ويثنىٰ عليه بها، وهو موجب حكمته وعزته، فكل ما يحدث من هذه الخلقة ويلزم عنها فهو بالنسبة إلىٰ الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٥، ٥٠٦٦) ومسلم (رقم ١٤٠٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٥٠ رقم ١١٠٠٩) والبيهقي في السنن الصغرىٰ (رقم ٢٣٣٣).

(٣) ١٠٨ طريق الهجرتين.

صفات كماله: من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته.

وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى: خير وشر، وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه: طاعة ومعصية، وبرًّا وفجورًا، بل أخص من ذلك، مثل كونها صلاة وصيامًا وحجًّا وزنًا وسرقة وأكلًا وشربًا، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجب أمر الله له ونهيه.

ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة، والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاءه لخلقه، وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع في معصيته، وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنع وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى؛ فله في ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخلق الحكيم سبحانه؛ هو من الحكمة. ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة، وبين اسمه العزيز تارة كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦، والأنفال: ٧١]. ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٠، المائدة: ٣٨]. وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٨، ١٦٥، الفتح: ٧، ١٩]. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٢٦]، فإن العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا، يقال: عز يعَز ـ بفتح العين ـ إذا اشتد وقوي.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

[(١)] قال تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] فأباح التجارة

(١) ٣٤٩ أعلام جـ١.

التي تراضى بها المتبايعان؛ فإذا تراضيا على شرط لا يخالف حكم الله جاز لهما ذلك، ولا يجوز إلغاؤه وإلزامهما بما لم يلتزماه ولا ألزمهما الله ولا رسوله به، ولا يجوز إلزامهما بما لم يلزمهما الله ورسوله به، ولا هما التزماه، ولا إبطال ما شرطاه مما لم يحرم الله ورسوله عليهما شرطه، ومحرِّم الحلال كمحلِّل الحرام، فهؤلاء ألغوا من شروط المتعاقدين ما لم يلغه الله ورسوله، وقابلهم آخرون من القياسيين فاعتبروا من شروط الواقفين ما ألغاه الله ورسوله، وكلا القولين خطأ؛ بل الصواب إلغاء كل شرط خالف حكم الله، واعتبار كل شرط لم يحرمه الله ولم يمنع منه، وبالله التوفيق.

(١)وفي هذه الغزوة احتلم أمير الجيش عمرو بن العاص، وكانت ليلة باردة فخاف على نفسه من الماء، فيتمَّم وصلى بأصحابه الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب»(٢)؟ فأخبره بالذي منعه من الاغتسال، وقال: إني سمعت الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا.

وقد احتج بهذه القصة من قال: إن التيمم لا يرفع الحدث؛ لأن النبي ﷺ سمَّاه جنبًا بعد تيمُّمه، وأجاب من نازعهم في ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن الصحابة لما شكوه قالوا: صلى بنا الصبح وهو جنب، فسأله النبي ﷺ عن ذلك وقال: «صليت بأصحابك وأنت جنب؟» استفهامًا واستعلامًا، فلما أخبره بعذره، وأنه تميم للحاجة: أقره على ذلك.

---

(١) ٣٧٩ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٢٨٥ رقم ٦٢٩) وأبو داود (رقم ٣٣٤) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٥ رقم ١٠١١) والدارقطني (١/ ١٧٨ رقم ١٢) وأحمد (٤/ ٢٠٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٥٤) وشرح الزرقاني (١/ ١٦٣) وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (١/ ٦٨-٦٩ رقم ٢٠٦): رواه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين وذكره في صحيحه تعليقًا بلفظ: ويذكر أن عمرو بن العاص، فذكره.

الثاني: أن الرواية اختلفت عنه، فروي عنه فيها: «أنه غسل مغابنه، وتوضأ وضوءه للصلاة ثم صلى بهم» ولم يذكر التيمم، وكأن هذه الرواية أقوى من رواية التيمم، قال عبد الحق الإشبيلي في أحكامه: وقد ذكرها وذكر رواية التيمم قبلها، ثم قال: وهذا أوصل من الأول، لأنه عن عبد الرحمن بن جبير المصري، عن أبي القيس مولى عمرو، عن عمرو، والأولى ـ التي فيها التيمم ـ من رواية عبد الرحمن ابن جبير، عن عمرو بن العاص، لم يذكر بينهما أبا قيس.

الثالث: أن النبي ﷺ أراد أن يستعلم فقه عمرو في تركه الاغتسال فقال له: «صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فلما أخبره أنه تيمم للحاجة، علم فقهه فلم ينكر عليه، ويدل عليه أن ما فعله عمرو من التيمم ـ والله أعلم ـ كان خشية الهلاك بالبرد كما أخبر به، والصلاة بالتيمم في هذه الحال جائزة غير منكر على فاعلها، فعلم أنه أراد استعلام فقهه وعلمه ـ والله أعلم ـ.

***

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝﴾.

[١]طبقة أهل النجاة، وهي طبقة من يؤدي فرائض الله ويترك محارم الله، مقتصرًا على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه ولا يزيد على ما فرض عليه، هذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ، لمن أخبره بشرائع الإسلام فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال ﷺ: «أفلح إن صدق»[٢].

وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه.

---

(١) ٣٧٩ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦) ومسلم (رقم ١١) وانظر: فتح الباري (١/ ١٠٧-١٠٨).

قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١] وصح عنه ﷺ أنه قال: «**الصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة: مكفِّرات لما بينهن ما لم تُغش كبيرة**».

فإن غشي أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحًا؛ لم يخرجوا من طبقتهم فكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما الحسنات الماحية، والثاني: اجتناب الكبائر.

وقد نص عليها ﷻ في كتابه فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١].

الطبقة العاشرة: طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاء ناجون من عذاب الله: إما قطعًا عند قوم، وإما رجاء وظنًّا عند آخرين. وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

فإن قيل: فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها؟ فإن الله إذا كفر عنهم سيئاتهم، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح.

قيل: قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية[1] فعليك بمعاودته هناك.

وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغش كبيرة، ومن لم يدع كبيرة إلا ارتكبها، وفرط في أوامره، ثم تاب؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته، ويكون لا له ولا عليه، وأما أن يكون هو ومن قبله سواء أو أرجح منه فكلا.

---

(١) انظر ص ٢٣١ وما بعدها، ولاسيما ص٢٤٥-٢٥٠، من الأصل المنقول منه، أعانك الله ووفقك وهو بحث في التوبة موسع فراجعه إن شئت. (ج).

[(١)]تأمل قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ كيف تجد تحته بألطف دلالة وأدقها وأحسنها؛ أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره، وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر، فإذا وقعت الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر؛ فالكبائر تقع مكفرة باجتناب الشرك.

وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى، وهو قوله ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «**ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لقيتك بقرابها مغفرة**»[(٢)].

وقوله: «**إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»[(٣)]. بل محو التوحيد الذي هو توحيدٌ الكبائرَ، أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر.

***

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

[(٤)]وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة، على أن من الذنوب كبائر وصغائر، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان**

---

(١) ٢٢٦ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٦٩ رقم ٧٦٠٥) وصححه. والترمذي (رقم ٣٥٤٠) والدارمي (رقم ٢٧٨٨) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٣٦ رقم ٧٣٧٥) وفي الكبير (١٢/ ١٩ رقم ١٢٣٤٦) وأحمد (٥/ ١٤٨، ١٦٧، ١٧٢) وانظر: فيض القدير (٣/ ٣٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٠١).

(٤) ١٦٨ الجواب الكافي.

إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»[(١)].[(٢)]

[(٣)]وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة. وفي الصحيحين: من حديث الشعبي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[(٤)].

وفيهما: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ـ ثلاثاً ـ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ـ وجلس وكان متكئًا فقال ـ: ألا وقول الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وفي الصحيح: من حديث أبي وائل، عن عمرو بن شُرحبيل، عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٧٣، ٦٢٧٤) ومسلم (رقم ٨٧).
(٢) بقية الحديث في سورة الفرقان (ج).
(٣) ٣٢٠ مدارج جـ١.
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٧٥).

ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾[١] [الفرقان: ٦٨].

...[٢]وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات؛ في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها، فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم، ومنّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك؛ ما هو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك.

فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها، ليكسر بها نفسه، ويعرفه قدره، ويذله بها،ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه؛ فهي رحمة في حقه.

كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه، فهو رحمة في حقهم، وإلا فكلاهما على خطر.

...[٣]النظر الرابع[٤]: نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزيّن له فعلها، الحاضّ له عليها، وهو شيطانه الموكّل به. فيفيده النظر إليه، وملاحظته؛ اتخاذه عدوًّا، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة، والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٠١) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٩١) وشرح النووي (٢/ ٨٠).

(٢) ١٨٧ مدارج جـ١.

(٣) ٢٢٢ مدارج جـ١.

(٤) تقدم ذكر أن للعبد في الذنب نظرًا إلى أربعة أمور ذكرها مفصلة. نظر إلى الأمر والنهي، ونظر إلى الحكم والقضاء. ونظر إلى محل الجناية ومصدرها، وهو النفس الأمارة بالسوء، ويفيده نظره إليها أمورًا... الخ فمن أرادها فليرجع إليها، وهذا الرابع آخرها (ج).

العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة: إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعروس، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام. تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولَّد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبغوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث. فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زيَّنها له، وحسَّنها في عينه، وسوّف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: «لا يضر مع التوحيد ذنب[1]، كما لا ينفع مع الشرك حسنة»، والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه، لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها؛ بل يدعو الخلق إليها؛ ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره،

(١) هذا هو قول المرجئة، كما ذكر ذلك المناوي في فيض القدير (٤/ ٨٤).

وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق؛ بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين. فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أو ما علمت بأنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يهوِّن عليه أمرها حتى يُصرّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقد قال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب»(١)، ثم ضرب لذلك مثلًا: بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود، حتى جمعوا حطبًا كثيرًا، فأقدوا نارًا وأنضجوا خبزتهم، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٨٧ رقم ٢٠٥٥١) والطبراني في الأوسط، (٣/ ٧٤ رقم ٢٥٢٩) وفي الصغير (رقم ٩٠٤) وفي الكبير (٦/ ١٦٥ رقم ٥٨٧٢) وأحمد (١/ ٤٠٢) والطيالسي (رقم ٤٠٠) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢١٣ رقم ٣٧٣٠): رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٩): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق. وقال أيضًا في (١٠/ ١٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٢٩).

وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه، فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار. وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه؛ تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح؛ طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسّنها في عينه، وزيّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له. ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرءوسًا، وذورة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «سيد الاستغفار: **أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت**...»[1] الحديث. وفي الحديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام**

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٩٩-١٠١).

الأمر»[١]. وفي الأثر الآخر: «**إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن**»[٢].

ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه، وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به.

فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله. فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة. ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه:

أحدها: قولها: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠] سمي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٣ رقم ٧٨٨٥) وأحمد (٥/ ٢٣٥) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ١٥) وانظر: فيض القدير (٣/ ٤٥، ٥٦١) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٨١).
(٢) انظر: فيض القدير (٢/ ٣٦٣).

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وقال تعالىٰ في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاته تامةً كانتا ترغمان أنف الشيطان**»[(١)]، وفي رواية: «**ترغيمًا للشيطان**»[(٢)] وسماهما «**المرغمتين**»[(٣)].

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلىٰ قدر محبة العبد لربه وموالاته، ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله؛ لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله ﷻ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكىٰ علىٰ أيامه الأول. وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلىٰ الشيطان، ولا حظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرىٰ.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار «التوبة» لا تستهزئ بها، فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق.

***

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٨٧ رقم ٢٦٦٤) وفي الموارد (رقم ٥٣٧) وابن خزيمة (٢/ ١١٠ رقم ١٠٢٣) والدارقطني (١/ ٣٧١ رقم ١٩) وانظر: عون المعبود (٣/ ٢٣٢).

(٢) أخرجها مسلم (رقم ٥٧١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٩٤) وشرح النووي (٥/ ٥٨-٦٣).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٩٣ رقم ٩٦٢) (١/ ٤٧٠ رقم ١٢٠٩) وابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٨٠ رقم ٢٦٥٥) (٦/ ٤٠٧ رقم ٢٦٨٩) وفي الموارد (رقم ٥٣٨) وابن خزيمة (٢/ ١٣٤ رقم ١٠٦٣) وأبو داود (رقم ١٠٢٥) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد محتج بجميع رواته وأبو مجاهد عبدالله ابن كيسان من ثقات المراوزة يجمع حديثه ولم يخرجاه.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

[1]في المسند من حديث الأشعث بن قيس قال: تضيفت بعض أصحاب النبي ﷺ، فقام إلى امرأته فضربها قال: فحجزت بينهما فرجع إلى فراشه فقال: يا أشعث احفظ عني شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ: «**لا تسألنَّ رجلًا فيما يضرب امرأته**»[2]. وذكر حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلًا من وراء جدار، بينها وبينه قرابة لا يعلمها ابن عمر؛ فجمع لها جرائد ثم ضربها حتى أضبَّتْ حسيسًا.

وذكر الخرائطي: عن معاذ بن جبل ﷺ أنه كان يأكل تفاحة ومعه امرأته فدخل عليه غلام له فناولته تفاحة قد أكلت منها، فأوجعها معاذ ضربًا؛ ودخل يومًا على امرأته وهي تطلع في خباء أدم فضربها.

وذكر الثوري، عن أشعث، عن الحسن: أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبي ﷺ لطمها، فدعا الرجل ليأخذ حقها فأنزل الله ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤]، فقال رسول الله ﷺ: «**أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا**»[3].

---

(١) ٣٢١ روضة المحبين.

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١/ ١٨٨-١٨٩ رقم ٩٤، ٩٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٢ رقم ٩١٦٨) وأبو داود (رقم ٢١٤٧) والطيالسي (رقم ٤٧، ١٣٥) وعبد بن حميد (رقم ٣٧) وأحمد (١/ ٢٠) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٠٥ رقم ١٤٥٥٥).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ١٦٨) وتفسير مجاهد (١/ ١٥٥) وأحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٤٨).

[(١)]قال ابن حبيب في الواضحة: حكم النبي ﷺ بين علي بن أبي طالب وبين زوجته فاطمة حين اشتكيا إليه الخدمة، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت، وحكم على علي بالخدمة الظاهرة. ثم قال ابن حبيب: والخدمة الباطنة: العجين، والطبخ والفرش، وكنس البيت، واستقاء الماء، وعمل البيت كله.

وفي الصحيحين: أن فاطمة أتت النبي ﷺ، تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرحى، وتسأله خادمًا، فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته، قال علي: فجاءنا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «مكانكما»، فجاء فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على بطني فقال: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبِّحا الله ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبِّرا أربعًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»، قال علي: فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صفِّين؟ قال: ولا ليلة صفين[(٢)].

وصح عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكان له فرس، وكنت أسوسه، وكنت أحشُّ له، وأقوم عليه»[(٣)].

وصح عنها: «أنها كانت تعلف فرسه، وتسقي الماء وتخرز الدَّلو وتعجن، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ»[(٤)].

فاختلف الفقهاء في ذلك، فأوجب طائفة من السلف والخلف خدمتها له في مصالح البيت، وقال أبو ثور: عليها أن تخدم زوجها في كل شيء.

---

(١) ٦١ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١١٣، ٥٣٦٢) ومسلم (رقم ٢٧٢٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٢٢-١٢٣) وشرح النووي (١٧/ ٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢١٨٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٢٣).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢١٨٢) وابن حبان (١٠/ ٣٥٢ رقم ٤٥٠٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٢٤) والمحلى لابن حزم (١٠/ ٧٤).

ومنعت طائفة وجوب خدمته عليها في شيء، وممن ذهب إلى ذلك: مالك والشافعي وأبو حنيفة، وأهل الظاهر.

قالوا: لأن عقد النكاح إنما اقتضى الاستمتاع، لا الاستخدام، وبذل المنافع، قالوا: والأحاديث المذكورة إنما تدل على التطوع، ومكارم الأخلاق، فأين الوجوب منها؟ واحتج من أوجب الخدمة: بأن هذا هو المعروف عند من خاطبهم الله سبحانه بكلامه.

وأما ترفيه المرأة وخدمة الزوج لها، وكنسه وطحنه وعجنه، وغسله وفرشه وقيامه بخدمة البيت: فمن المنكر، والله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] فإذا لم تخدمه المرأة، بل يكون هو الخادم لها: فهي القوَّامة عليه.

وأيضًا: فإن المهر في مقابلة البضع، وكل من الزوجين يقضي وطره من صاحبه، فإنما أوجب الله سبحانه نفقتها وكسوتها ومسكنها في مقابلة استمتاعه بها، وخدمتها وما جرت به عادة الأزواج.

وأيضًا: فإن العقود المطلقة إنما تُنَزَّل على العرف، والعرف خدمة المرأة، وقيامها بمصالح البيت الداخلة.

وقولهم: إن خدمة فاطمة وأسماء كانت تبرعًا وإحسانًا، يرده أن فاطمة كانت تشتكي ما تلقى من الخدمة، فلم يقل لعلي: لا خدمة عليها وإنما هي عليك، وهو ﷺ لا يحابي في الحكم أحدًا، ولما رأى أسماء والعلف على رأسها والزبير معه، لم يقل له: لا خدمة عليها، وأن هذا ظلم لها، بل أقره على استخدامها وأقر سائر أصحابه على استخدام أزواجهم؛ مع علمه بأن منهن الكارهة والراضية، هذا أمر لا ريب فيه، ولا يصح التفريق بين شريفة ودنيئة، وفقيرة وغنية، فهذه أشرف نساء العالمين كانت تخدم زوجها، وجاءت أباها ﷺ تشكو إليه الخدمة، فلم يشكها قد سمى النبي ﷺ في

الحديث الصحيح: المرأة: عانية، فقال: «اتقوا الله في النساء، فإنهن عوان عندكم»[(١)] والعاني: الأسير، ومرتبة الأسير: خدمة من هو تحت يده.

ولا ريب أن النكاح نوع من الرق، كما قال بعض السلف: «النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يُرق كريمته»[(٢)] ولا يخفى على المنصف الراجح من المذهبين، والأقوى من الدليلين.

حكم رسول الله ﷺ بين الزوجين يقع الشقاق بينهما. روى أبو داود في سننه: من حديث عائشة: أن حبيبة بنت سهل: كانت عند ثابت بن قيس بن شمَّاس، فضربها، فكسر بعضها، فأتت النبي ﷺ بعد الصبح، فدعا النبي ﷺ ثابتًا، فقال: «خذ بعض مالها وفارقها» فقال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم»، قال: فإني أصدقتها حديقتين، وهما بيدها فقال النبي ﷺ: «خذهما وفارقها» ففعل[(٣)].

وقد حكم الله تعالى بين الزوجين يقع الشقاق بينهما بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٥]. وقد اختلف السلف والخلف في الحكمين: هل هما حاكمان، أو وكيلان؟ على قولين:

أحدهما: أنهما وكيلان. وهو قول أبي حنيفة والشافعي في قول، وأحمد في رواية.

والثاني: أنهما حاكمان، وهذا قول أهل المدينة ومالك، وأحمد في الرواية الأخرى،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بهذا اللفظ (٤/ ٣٢٢ رقم ٥٢٦٢) أما الفقرة الأولى منه فقد أخرجها مسلم في حديث جابر الطويل (رقم ١٢١٨) والفقرة الثانية أخرجها النسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٢ رقم ٩١٦٩) وابن ماجه (رقم ١٨٥١) والترمذي (رقم ١١٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما (٧/ ٨٢ رقم ١٣٢٥٩) وسعيد بن منصور في سننه عنها أيضًا (١/ ١٩١ رقم ٥٩١) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ١١٨) وقال البيهقي: وروي ذلك مرفوعًا والموقوف أصح.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٦٢) وأبو داود (رقم ٢٢٢٨) وانظر: تفسير السيوطي (١/ ٦٧٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٧٥) والمغني (٧/ ٢٤٩).

والشافعي في القول الآخر. وهذا هو الصحيح.

والعجب كل العجب ممن يقول: هما وكيلان، لا حاكمان، والله تعالىٰ قد نصبهما حكمين، وجعل نصبهما إلىٰ غير الزوجين، ولو كانا وكيلين لقال: فليبعث وكيلًا من أهله، ولتبعث وكيلًا من أهلها.

وأيضًا: فلو كانتا وكيلين لم يختصا بأن يكونا من الأهل، وأيضًا: فإنه جعل الحكم إليهما، فقال: ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾ والوكيلان لا إرادة لهما إنما يتصرفان بإرادة موكليهما.

***

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ ﴾.

(١) روىٰ النسائي من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ابدأ بنفسك، فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذوي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك فهكذا وهكذا»(٢) وهذا كله تفسير لقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقوله: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الروم: ٣٨]،

---

(١) ٣٢٠ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٩٧) بلفظ المصنف رحمه الله، والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ١٩٢ رقم ٥٠٠٧) وفي المجتبىٰ (رقم ٢٥٤٦) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٢٢) (٥/ ٧٢) وشرح النووي (٧/ ٨٣).

فجعل تعالىٰ حق ذي القربىٰ يلي حق الوالدين، كما جعله النبي ﷺ سواء بسواء. وأخبر سبحانه أن لذي القربىٰ حقًّا علىٰ قرابته، وأمر بإتيانه إياه، فإن لم يكن ذلك حق النفقة فلا ندري: أي حق هو؟

وأمر تعالىٰ بالإحسان إلىٰ ذي القربىٰ، ومن أعظم الإساءة؛ أن يراه يموت جوعًا وعريًا، وهو قادر علىٰ سد خلَّته، وستر عورته، ولا يطعمه لقمة، ولا يستر له عورة، إلا بأن يقرضه ذلك في ذمته، وهذا الحكم من النبي ﷺ مطابق لكتاب الله تعالىٰ حيث يقول: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فأوجب ﷻ علىٰ الوارث مثل ما أوجب علىٰ المولود له.

وبمثل هذا الحكم حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فروىٰ سفيان بن عيينة، عن ابن جريج، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: «**أن عمر حبس عصبة صبي علىٰ أن ينفقوا عليه، الرجال دون النساء**»(١).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جريج: أخبرني عمرو بن شعيب: أن ابن المسيب أخبره: «أن عمر بن الخطاب وقف بني عم منفوس - بني عم كلالة - بالنفقة عليه، مثل العاقلة، فقالوا: لا مال له، فقال: ولو، وقوفهم بالنفقة عليه كهيئة العقل»(٢) قال ابن المديني: قوله: «ولو»: أي ولو لم يكن له مال.

وذكر ابن أبي شيبة: عن أبي خالد الأحمر، عن حجاج، عن عمرو، عن سعيد بن المسيب قال: «جاء ولي يتيم إلىٰ عمر بن الخطاب فقال: أنفق عليه، ثم قال: لو لم أجد إلا

(١) انظر: المحلىٰ (٨/ ١٧١) (١٠/ ١٠٢) والمغني (٨/ ١٧٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧/ ٥٩ رقم ١٢١٨١) وفي تفسيره (١/ ٩٤-٩٥) وابن أبي شيبة مختصرًا (٤/ ١٨٤ رقم ١٩١٥٩) وانظر: المحلىٰ (١٠/ ١٠٢) والمغني (٨/ ١٧٣).

أقصى عشيرته لفرضت عليهم»[١]، وحكم بمثل ذلك أيضًا زيد بن ثابت[٢]...

...[٣]قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧]، فاختياله وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾[البقرة: ٣] وقوله: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النساء: ٣٨].

ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى...

***

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝﴾.

...[٤]أما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة؛ ولكن كان تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل.

وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته، وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٨٣ رقم ١٩١٥٥).
(٢) البحث مبسوط، فليرجع إليه من أراده اهـ (ج).
(٣) ٥٢ التبيان.
(٤) ٩٥ زاد المعاد جـ!

ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»[(١)].

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض.

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء، وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١][(٢)].

وبكى لما مات عثمان بن مظعون[(٣)]، وبكى لما كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخ ويقول: «ربِّ، ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم، وهم يستغفرون؟ ونحن نستغفرك»[(٤)]. وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحيانًا في صلاة الليل. والبكاء أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن. والفرق بينه وبين بكاء الخوف: أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه، أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك. والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن، أن دمعة السرور

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٠٣) ومسلم (رقم ٢٣١٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٥٠)ومسلم (رقم ٨٠٠).

(٣) انظر: الاستذكار (٣/ ١٢٠) والتمهيد (٢١/ ٢٢٤) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٨١).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٧٩ رقم ٢٨٣٨) وفي الموارد (رقم ٥٩٥) وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٣٢٢ رقم ١٣٩٢) وأبو داود رقم ١١٩٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٥٢ رقم ٣١٧٩) والترمذي في الشمائل (رقم ٣٢٥).

باردة، والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة والقلب حزين، ولهذا يقال لما يُفرح به: هو قرة عين، وأقر الله به عينه، ولما يُحزن: هو سخينة العين وأسخن الله عينه به.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين والقلب قاس، فيظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسىٰ الناس قلبًا.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب: «تبيع عبرتها، وتبكي شجو غيرها».

العاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرىٰ الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون فيبكي، وما كان من ذلك دمعًا بلا صوت فهو بُكىٰ مقصور، وما كان معه صوت فهو بكاء ممدود. علىٰ بناء الأصوات، وقال الشاعر:

بكــت عينــي، وحــقَّ لهــا بكاهــا ... ومــا يغنــي البكــاء ولا العويــل[1]

وما كان منه مستدعىً متكلفًا فهو التباكي، وهو نوعان: محمود، ومذموم.

فالمحمود: أن يستجلب لرقة القلب ولخشية الله، لا للرياء والسمعة.

والمذموم: أن يجتلب لأجل الخلق، وقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارىٰ بدر: «أخبرني: ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ كعب بن مالك الأنصاري السلمي، الصحابي الجليل من أكابر شعراء المدينة، وشاعر النبي ﷺ، وشهد أكثر الوقائع، عمي في آخر عمره وعاش سبعًا وسبعين سنة وتوفي سنة ٥٠هـ ﷺ، وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢/ ١٢٢) ونسبه لكعب بن مالك في رثاء حمزة عم النبي ﷺ وجاء بعده:

علىٰ أســد الإلــه غــداة قالوا ... أحمــزة ذاكــم الرجــل القتيل

بينما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٧٤) وقال: وأنشد أبو زيد عن عمر بن شبة لكعب بن مالك يرثي حمزة، وقال ابن إسحاق: هي لعبد الله بن رواحة، وانظر: لسان العرب (١٤/ ٨٢) والتدوين في أخبار قزوين (٢/ ٤٧٩).

بكاء بكيت، وإلا تباكيت»[١] ولم ينكر عليه ﷺ وقد قال بعض السلف: «ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا».

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

[٢]لفظ السكر و«المسكر» من الألفاظ المذمومة شرعًا وعقلًا، وعامة ما يستعمل في السكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣].

وعبر به سبحانه عن الهول الشديد الذي يحصل للناس عند قيام الساعة. فقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ [الحج: ٢] ويقال: فلان أسكره حب الدنيا.

وكذلك يستعمل في سكر الهوى المذموم، فأين أطلق الله سبحانه أو رسوله أو الصحابة أو أئمة الطريق المتقدمون على هذا المعنى الشريف، الذي هو من أشرف أحوال محبيه وعابديه اسم «السكر»، المستعمل في سكر الخمر، وسكر الفواحش؟ كما قال عن قوم لوط: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢] فوصف بالسكر أرباب الفواحش، وأرباب الشراب المسكر....

... فنقول ـ وبالله التوفيق ـ: السكر لذة ونشوة يغيب معها العقل الذي يحصل به

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٦٧ رقم ١٧٨١٨) (١٠/ ١٠٩ رقم ٢٠٠٩٠) ويعقوب بن شيبة السدوسي في مسند عمر بن الخطاب (ص ٥٨).

(٢) ٣٠٥ مدارج جـ٣.

التمييز، فلا يعلم صاحبه ما يقول: قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكر؛ أن يعلم ما يقول، فإذا علم ما يقول خرج عن حد السكر.

قال الإمام أحمد: السكران من لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره[(١)]، ويذكر عن الشافعي أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشى سره المكتوم[(٢)].

فالسكر يجمع معنيين: وجود لذة، وعدم تمييز، وقاصد السكر قد يقصدهما جميعًا، وقد يقصد أحدهما، فإن النفس لها هوىٰ وشهوات تلتذ بإدراكها، والعلم بما في تلك اللذات من المفاسد العاجلة والآجلة يمنعها من تناولها، والعقل يأمرها بأن لا تفعل، فإذا زال العلم الكاشف المميز، والعقل الآمر الناهي: انبسطت النفس في هواها، وصادفت مجالاً واسعًا.

وحرم الله سبحانه السكر لشيئين، ذكرهما في كتابه، وهما: إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وذلك يتضمن حصول المفسدة الناشئة من النفوس بواسطة زوال العقل، وانتفاء المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل، وإيقاع العداوة من الأول، والصد عن ذكر الله من الثاني...[(٣)].

[(٤)]وأما إن كان سبب الذهول المخرج عن الاستقامة، باستدعائه وتكلفه وإرادته: فهو عاص مفرط، مضيع لأمر الله، له حكم أمثاله من المفرطين.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: متىٰ كان السبب محظورًا، لم يكن السكران معذورًا[(٥)].

---

(١) ذكره الشيخ إبراهيم الضويان في منار السبيل (٢/ ٢١٠).
(٢) ذكره أبو حامد الغزالي في الوسيط (٥/ ٣٩١) وإبراهيم الضويان في منار السبيل (٢/ ٢١٠).
(٣) بقية البحث يأتي في أول سورة الحج ـ إن شاء الله ـ (ج).
(٤) ٣٧٥ مدارج جـ٢.
(٥) انظر: فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٣/ ١٠٦) وفيض القدير (٦/ ١٢٥).

...[(١)]وفي مسائل الميموني: سألت أبا عبد الله عن طلاق السكران فقال: أكثر ما عندي أنه لا يلزمه الطلاق، قلت: أليس كنت مرة تخاف أن يلزمه؟ قال: بلى، ولكن أكثر ما عندي أنه لا يلزمه الطلاق؛ لأن رأيته ممن لا يعقل، قلت: السكر شيء أدخله على نفسه فلذلك يلزمه، قال: قد يشرب رجل البنج أو الدواء فيذهب عقله! قلت: فبيعه وشراؤه وإقراره؟ قال: لا يجوز[(٢)]، وقال في رواية أبي الحارث: أرفع شيء فيه حديث الزهري: عن أبان بن عثمان، عن عثمان: «ليس لمجنون ولا سكران طلاق»[(٣)] وقال في رواية أبي طالب: والذي لا يأمر بالطلاق فإنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق قد أتى خصلتين: حرمها عليه وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا وأنا أتقي جميعها.

وممن ذهب إلى القول بعدم نفوذ طلاق السكران من الحنفية: أبو جعفر الطحاوي وأبو الحسن الكرخي، وحكاه صاحب النهاية عن أبي يوسف وزفر.

ومن الشافعية: المزني وابن سريج وجماعة ممن اتبعهما، وهو الذي اختاره الجويني في النهاية، والشافعي نص على وقوع طلاقه، ونص في أحد قوليه على أنه لا يصح ظهاره، فمن أتباعه من نقل عن الظهار قولًا إلى الطلاق، وجعل المسألة على قولين، ومنهم من قرر حكم النصين ولم يفرق بطائل.

والصحيح أنه لا عبرة بأقواله: من طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا هبة ولا وقف ولا إسلام ولا ردة ولا إقرار، لبضعة عشر دليلًا ليس هذا موضع ذكرها، ويكفي منها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾

---

(١) ٤٨ أعلام جـ٤.

(٢) انظر: الإنصاف للمرداوي (٨/ ٤٣٥) ومختصر الخرقي (ص ١٠٣) ومنار السبيل (٢/ ٢٠٩) وفتح الباري (٦/ ٢٠١) وروضة الطالبين (١٠/ ١٧١) والهداية شرح البداية (١/ ٢٣٠) (٤/ ١١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون (ص ١٠٤٣) قبل حديث (رقم ٥٢٦٩).

[النساء: ٤٣] وأمر النبي ﷺ، باستنكاه ماعز لما أقر بالزنا بين يديه[١]، وعدم أمر النبي ﷺ، حمزة بتجديد إسلامه لما قال في سكره: «أنتم عبيد لآبائي»[٢] وفتوى عثمان وابن عباس ولم يخالفهما أحد من الصحابة.

والقياس الصحيح المحض على زائل العقل بدواء أو بنج أو مسكر هو فيه معذور بمقتضى قواعد الشريعة؛ فإن السكران لا قصد له؛ فهو أولى بعدم المؤاخذة من اللاغي، ومن جرى اللفظ على لسان من غير قصد له.

وقد صرح أصحاب حنيفة بأنه لا يقع طلاق الموسوس، وقالوا: لا يقع طلاق المعتوه، وهو مَنْ كان قليل الفهم مختلط الكلام فاسد التدبير، إلا أنه لا يضرب ولا يشتم كما يفعل المجنون[٣].

***

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

[٤]وقعت مسألة وهي: أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك.

فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدخلني عليه، فهو المقصود، وهذه وسائل وشفعاء، فلم كان هذا القدر موجبًا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى، ومخلدًا في النار، وموجبًا سفك

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٩٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٢٣-١٢٧) وشرح النووي (١١/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون (ص ١٠٤٣) قبل حديث (رقم ٥٢٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٧٩).

(٣) يأتي في سورة يونس بحث موسع فيما فيه المؤاخذة وعدمها، كما بحثه في شفاء العليل ص١٣٨، ١٤٧، ١٤٨هـ. (ج).

(٤) ١٧٣ الجواب الكافي.

دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟

وترتب على هذا سؤال آخر، وهو أنه: هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح في الفطر والعقول، يمتنع أن تأتي به شريعة؛ بل جاءت بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح؟ وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه، ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق: بين المشركين والموحدين، والعالمين بالله والجاهلين، وأهل الجنة وأهل النار، فنقول وبالله التوفيق والتأييد، ومنه نستمد المعونة والتسديد، فإنه من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

الشرك شركان: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد؛ أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والشرك الأول نوعان: أحدهما شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣][(١)].

[(٢)]أما المسألة الأولى وهي: إيجاب الشارع ﷺ الغسل من المني دون البول، فهذا من أعظم محاسن الشريعة وما اشتملت عليه من الرحمة والحكمة والمصلحة؛ فإن المني يخرج من جميع البدن، ولهذا سماه الله ﷻ ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ [السجدة: ٨] لأنه يسيل من جميع البدن.

---

(١) هذا بحث مطول ينتهي بكراسة كبيرة. فمن أراده فليرجع إليه. اهـ (ج).

(٢) ٥٨ أعلام جـ٢.

وأما البول فإنما هو فضلة الطعام والشراب المستحيلة في المعدة والمثانة، فتأثر البدن بخروج المني؛ أعظم من تأثره بخروج البول، وأيضًا فإن الاغتسال من خروج المني؛ من أنفع شيء للبدن والقلب والروح، بل جميع الأرواح القائمة بالبدن فإنها تقوىٰ بالاغتسال، والغسل يخلف عليه ما تحلل منه بخروج المني، وهذا أمر يعرف بالحس.

وأيضًا فإن الجنابة توجب ثقلًا وكسلًا، والغسل يحدث له نشاطًا وخفة، ولهذا قال أبو ذر لما اغتسل من الجنابة: كأنما ألقيت عني حملًا.

وبالجملة: فهذا أمر يدركه كل ذي حس سليم وفطرة صحيحة، ويعلم أن الاغتسال من الجنابة يجري مجرىٰ المصالح التي تلحق بالضروريات للبدن والقلب، مع ما تحدثه الجنابة من بعد القلب والروح عن الأرواح الطيبة، فإذا اغتسل زال ذلك البعد، ولهذا قال غير واحد من الصحابة: إن العبد إذا نام عرجت روحه، فإن كان طاهرًا أذن لها بالسجود، وإن كان جنبًا لم يؤذن لها، ولهذا أمر النبي ﷺ الجنب إذا نام أن يتوضأ، وقد صرح أفاضل الأطباء بأن الاغتسال بعد الجماع يعيد إلىٰ البدن قوته، ويخلف عليه ما تحلل منه، وأنه من أنفع شيء للبدن والروح، وتركه مضر، ويكفي شهادة العقل والفطرة بحسنه، وبالله التوفيق.

***

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

...[1]ذكر أهل المغازي والتفسير ـ مثل محمد بن إسحاق ـ أن كعب بن الأشرف كان موادعًا للنبي ﷺ، في جملة من وادعه من يهود المدينة، وكان عربيًّا من بني طيء،

(١) ٨٤٥ أحكام جـ٢.

وكانت أمه من بني النضير.

قالوا: فلما قتل أهل بدر شق ذلك عليه، وذهب إلىٰ مكة ورثاهم لقريش، وفضَّل دين الجاهلية علىٰ دين الإسلام، حتىٰ أنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

ثم لما رجع إلىٰ المدينة، أخذ ينشد الأشعار، ويشبب بنساء المسلمين؛ حتىٰ آذاهم، حتىٰ قال النبي ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذىٰ الله ورسوله**»(١) وذكروا قصة قتله مبسوطة.

وقال الواقدي: حدثني عبد الحميد بن جعفر، عن يزيد بن رومان، ومعمر، عن الزهري، عن كعب بن مالك، وإبراهيم بن جعفر، عن أبيه، عن جابر، وذكر القصة، قال: ففزعت يهود ومن معها من المشركين، فجاءوا إلىٰ النبي ﷺ حين أصبحوا فقالوا: قد طُرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا، بلا جرم ولا حدث علمناه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لو قر كما قرَّ غيره ممن هو علىٰ رأيه ما اغتيل، ولكنه نال منا الأذىٰ وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف**»، ودعاهم رسول الله ﷺ إلىٰ أن يكتب بينهم كتابًا ينتهون إلىٰ ما فيه: فكتبوا بينه وبينهم كتابًا تحت العذق في دار رملة بنت الحارث(٢)؛ فحذرت يهود وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف.

(٣)وقال الواقدي: حدثني عبد الحميد بن جعفر، عن يزيد بن روماني ومعمر، عن الزهري، عن ابن كعب بن مالك، وإبراهيم بن جعفر، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فكل قد حدثني منه بطائفة، وكان الذي اجتمعوا لنا عليه قالوا: كان كعب بن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥١٠) ومسلم (رقم ١٨٠١).
(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٨٣ رقم ١٨٤٠٨) والطبراني في الكبير (١٩/ ٧٦-٧٧) رقم ١٥٤) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٢٥٢ رقم ٨٢١) وأبو داود (رقم ٣٠٠٠).
(٣) ٨٤٩ أحكام جـ٢.

الأشرف شاعرًا، وكان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره، وكان رسول الله ﷺ، قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام، فيهم أهل الحلقة والحصون، ومنهم حلفاء الحيين جميعًا. الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشركًا، فكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ، وأصحابه أذىٰ شديدًا، فأمر الله نبيه والمسلمين بالصبر علىٰ ذلك والعفو عنهم، وفيهم أنزل الله: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وفيهم أنزل الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾ [البقرة: ١٠٩](١).

فلما أبىٰ ابن الأشرف أن يمسك عن أذىٰ رسول الله ﷺ وأذىٰ المسلمين، وقد بلغ منهم، فلما قدم زيد بن حارثة بالبشارة من بدر بقتل المشركين، وأسر من أسر منهم فرأىٰ الأسارىٰ مقرنين كُبت وذل، ثم قال لقومه: ويلكم! لبطن الأرض خير لكم من ظهرها اليوم؛ هؤلاء سراةُ الناس قد قتلوا وأسروا، فما عندكم؟ قالوا: عداوته ما حيينا، فقال: وما أنتم وقد وطئ قومه وأصابهم؟ ولكني أخرج إلىٰ قريش فأحضها وأبكي قتلاها لعلهم ينتدبون فأخرج معهم؛ فخرج حتىٰ قدم مكة ووضع رحله عند أبي وداعة بن أبي صبرة السهمي، وتحته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، فجعل يرثىٰ قريشًا، وذكر ما رثاهم به من الشعر وما أجابه حسان، فأخبره بنزول كعب علىٰ من نزل، فقال حسان: فذكر شعرًا هجا به أهل البيت الذين نزل فيهم، قال: فلما بلغها شعره نبذت رحله وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي؟ ألا ترىٰ ما يصنع بنا حسان؟ فتحول، فكلما تحول عند قوم دعا رسول الله ﷺ حسانًا، فقال: «ابن الأشرف نزل علىٰ فلان» فلا يزال

---

(١) انظر: تفسير الصنعاني (١/ ١٤٢) وتفسير الطبري (٤/ ٢٠٠-٢٥١) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦-٤٣٧) وفتح الباري (٨/ ٢٣١) وعمدة القاري (١٨/ ١٥٤-١٥٥).

يهجوهم حتى ينبذوا رحله، فلما لم يجد مأوى قدم المدينة، فبلغ النبي ﷺ قدومه فقال: «**اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشرَّ وقوله الأشعار**»، وقال رسول الله ﷺ: «**من لي من ابن الأشرف فقد آذاني؟**» فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «**فافعل**»[(١)] وذكر الحديث.

فقد اجتمع لابن الأشرف ذنوب منها: أنه رثى قتلى قريش، وحضَّهم على محاربة النبي ﷺ، وواطأهم على ذلك، وأعانهم على محاربته بإخباره أن دينهم خير من دينه، وهجا النبي ﷺ والمسلمين.

قلنا: الجواب من وجوه:

أحدها: أن كعبًا كان له عهد من النبي ﷺ، ثم إن النبي ﷺ، جعله ناقضًا للعهد بهجائه وأذاه بلسانه.

الثاني: أنا قد قدمنا في حديث جابر: أن أول ما نقض به العهد قصيدته التي أنشأها يهجو بها رسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ لما هجاه بهذه القصيدة ندب إلى قتله.

الثالث: أن النبي ﷺ قال لليهود لما جاءوا إليه في شأن قتله: «**إنه نال منا الأذى، وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان للسيف**»، وهذا نص في أن من فعل هذا؛ فقد استحق السيف.

الرابع: أن النبي ﷺ لم يندب إلى قتله لكونه ذهب إلى مكة وفعل ما فعل هناك، وإنما ندب إلى قتله لما قدم وهجاه، كما جاء ذلك مفسرًا في حديث جابر المتقدم في قوله: «**ثم قدم المدينة معلنًا بعداوة النبي ﷺ**» ثم بين أن أول ما قطع به العهد تلك الأبيات التي قالها بعد الرجوع، وأن النبي ﷺ حينئذ ندب إلى قتله، وكذلك في حديث موسى بن عقبة: «**من لنا من ابن الأشرف، فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا**»[(٢)]؟

ويؤيد ذلك شيئان: أحدهما: أن سفيان بن عيينة، روى عن عمرو بن دينار، عن

---

(١) انظر: أخبار المدينة (١/ ٢٥١).

(٢) انظر: أخبار المدينة (١/ ٢٥٠-٢٥٢) وفتح الباري (٧/ ٣٣٧-٣٣٨).

عكرمة، قال: جاء حُيَيُّ بن أخطب وكعب بن الأشرف إلىٰ أهل مكة فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم؟ وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء علىٰ اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج: بنو غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: بل أنتم خير وأهدىٰ سبيلًا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢][١].

وكذلك قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب: رجلين من اليهود من بني النضير أتيا قريشًا في الموسم، فقال لهما المشركون: نحن أهدىٰ أم محمد وأصحابه، فإنَّا أهل السدانة والسقاية وأهل الحرم؟ فقالا: أنتم أهدىٰ من محمد وأصحابه، وهما يعلمان أنهما كاذبان، إنما حملهما علىٰ ذلك حسد محمد وأصحابه، فأنزل الله فيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ فلما رجعا إلىٰ قومهما قال لهما قومهما: إن محمدًا يزعم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا، قالا: صدق والله ما حملنا علىٰ ذلك إلا حسده وبغضه[٢].

***

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

[٣]قال سعيد بن جبير: سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٧٤-٩٧٦ رقم ٥٤٤١، ٥٤٥٧) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥١٤).

(٢) أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٢٥٠ رقم ٨١٦) وانظر: تفسير السيوطي (٢/ ٥٦٤).

(٣) ٣٤٢ مختصر الصواعق جـ٢.

ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] فوضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه، وقال: هكذا سمعت رسول الله ﷺ، يقرؤها ويضع إصبعه. رواه أبو داود وغيره[(١)].

[(٢)]والعظة هي الأمر والنهي، المعروف بالترغيب والترهيب.

والعظة نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود، فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد، والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحي إليهم، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

والعظة بالمشهود: الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، ومجاريه، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

[(٣)]الحاكم محتاج إلى ثلاثة أشياء لا يصح له الحكم إلا بها:

معرفة الأدلة، والأسباب، والبينات.

فالأدلة تعرفه الحكم الشرعي الكلي.

والأسباب تعرفه ثبوته في هذا المحل المعين أو انتفاءه عنه.

والبينات تعرفه طريق الحكم عند التنازع.

ومتى أخطأ في واحد من هذه الثلاثة، أخطأ في الحكم.

وجميع خطأ الحكام مداره على الخطأ فيها أو في بعضها.

مثال ذلك: إذا تنازع عنده اثنان في رد سلعة مشتراة بعيب فحكمه موقوف على:

العلم بالدليل الشرعي الذي يسلط على الرد أم ليس بعيب، وهذا لا يتوقف العلم به على الشرع، بل على الحس أو العادة والعرف أو الخبر ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٤٩٨ رقم ٢٦٥) وأبو داود (رقم ٤٧٢٨) والطبراني في الأوسط (٩/ ١٣٢-١٣٣ رقم ٩٣٣٤) وأبو عمر الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (رقم ٣٣) وانظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٢٤٨).

(٢) ٤٤٤ مدارج جـ١.

(٣) ١٢ بدائع جـ٤.

وعلى العلم بالسبب المثبت بحكم الشارع في هذا البيع المعين، وهو كون هذا الوصف عيبًا يسلط على الرد أم ليس بعيب، وهذا لا يتوقف العلم به على الشرع، بل على الحس أو العادة والعرف أو الخبر، ونحو ذلك.

وعلى البينة التي هي طريق الحكم بين المتنازعين، وهي كل ما تبين له صدق أحدهما يقينًا أو ظنًّا: من إقرار، أو شهادة أربعة عدول، أو ثلاثة في دعوى الإعسار بتلف ماله على أصح القولين، أو شاهدين أو رجل وامرأتين، أو شاهد ويمين أو شهادة رجل واحد، وهو الذي يسميه بعضهم الإخبار، ويفرق بينه وبين الشهادة مجرد اللفظ أو شهادة امرأة واحدة كالقابلة والمرضعة، أو شهادة النساء منفردات؛ حيث لا رجل معهن كالحمامات والأعراس على الصحيح، الذي لا يجوز القول بغيره، أو شهادة الصبيان على الجراح إذا لم يتفرقوا، أو شهادة الأربع من النسوة، أو المرأتين، أو القرائن الظاهرة عند الجمهور: كمالك، وأحمد، وأبي حنيفة. كتنازع الرجل وامرأته في ثيابهما وكتب العلم ونحو ذلك، وكتنازع النجار والخياط في القدوم والجلم والإبرة والذراع، وكتنازع الوراق والحداد في الدواة والمسطرة والقلم والمطرقة والكلبتين والسندان، ونحو ذلك مما يقضي فيه أكثر أهل العلم لكل واحد من المتنازعين بآلة صنعته بمجرد دعواه.

والشافعي يقسم الخف بني الرجل والمرأة، ويقسم الكتاب الذي يقرأ فيه بينهما، وكذلك طيلسانه وعمامته.

أو الشاهد واليمين، أو اليمين المردودة، أو النكول المجرد، أو القسامة، أو التعان الزوج ونكول الزوجة، أو شهادة أهل الذمة في الوصية في السفر، أو شهادة بعضهم على بعض أو الوصف للقطة، أو شهادة الدار، أو الحبل في ثبوت زنى التي لا زوج لها، أو رائحة المسكر أو قيئه، أو وجود المسروق عند من ادعى عليه سرقته على أصح القولين، أو وجود الآجر ومعاقد القمط وعقد الأزج عند من يقول بها، كلها داخلة في اسم البينة فإنها اسم لما يبين الحق ويوضحه.

وقد أرشد الله سبحانه إليها في كتابه؛ حيث حكى عن شاهد يوسف اعتباره قد القميص. وحكى عن يعقوب وبنيه أخذهم البضائع التي باعوا بها بمجرد وجودهم لها في رحالهم؛ اعتمادًا على القرائن الظاهرة بأنها وهبت لهم ممن ملك التصرف فيها، وهم لم يشاهدوا ذلك ولا علموا به، ولكن اكتفوا بمجرد القرينة الظاهرة، وكذلك سليمان بن داود عليهما السلام حكم للمرأة بالولد بقرينة رحمتها له لما قال: «**ائتوني بالسكين أشقه بينهما**» فقالت الصغرى: لا تفعل هو ابنها، فقضى به لها[1].

وهذا من أحسن القرائن وألطفها...

[2]ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم في الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر. فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك، لم يعدم أجرين أو أجرًا.

فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه، إلى معرفة حكم الله ورسوله. كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر، إلى معرفة براءته وصدقه. وكما توصل سليمان ﷺ بقوله: «**ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما**»، إلى معرفة عين الأم، وكما توصل أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله للمرأة التي حملت كتاب حاطب لما أنكرته: لتخرجنَّ الكتاب أو لنجردنك. إلى استخراج الكتاب منها. وكما توصل الزبير بن العوام بتعذيب أحد ابني أبي الحقيق بأمر رسول الله ﷺ حتى دلَّهم على كنز حيي، لما ظهر له كذبه في دعوى ذهابه بالإنفاق بقوله: المال كثير، والعهد أقرب من ذلك. وكما توصل النعمان بن بشير بضرب المتهمين بالسرقة، إلى ظهور المال المسروق عندهم، فإن ظهر

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٢٧) ومسلم (رقم ١٧٢٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٥٦).

(٢) ٨٧ أعلام جـ١.

وإلا ضرب من اتهمهم كما ضربهم، وأخبر أن هذا حكم رسول الله ﷺ.

ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة؛ وجدها طافحة بهذا، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم، ونسبه إلى الشريعة التي بعث الله بها رسوله.

البينة في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة: اسم لكل ما يبين الحق، فهي أعم من البينة في اصطلاح الفقهاء، حيث خصوها بالشاهدين أو الشاهد واليمين، ولا حجر في الاصطلاح ما لم يتضمن حمل كلام الله ورسوله عليه، فيقع بذلك الغلط في فهم النصوص، وحملها على غير مراد المتكلم منها. وقد حصل بذلك للمتأخرين أغلاط شديدة في فهم النصوص، ونذكر من ذلك مثالاً واحدًا، وهو ما نحن فيه (لفظ البينة) فإنها في كتاب الله اسم لكل ما يبين الحق، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، وقال: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه: ١٣٣]، وهذا كثير، لم يختص لفظ البينة بالشاهدين، بل ولا استعمل في الكتاب فيهما البتة.[1]

إذا عرف هذا فقول النبي ﷺ للمدعي: «ألك بينة»[2]؟ وقول عمر: «البينة على المدعي»[3] وإن كان هذا قد روي مرفوعًا المراد به: ألك ما يبين الحق من شهود أو

(١) ٩٠ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤١٦) ومسلم (رقم ١٣٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٠) وشرح النووي (١٥٩/٢).

(٣) أخرجه مرفوعًا البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ١٩٨ رقم ١١٨٩٢) والترمذي (رقم ١٣٤١، ١٣٤٢) والدارقطني (٤/ ١٥٧ رقم ٨) والشافعي في مسنده (ص ١٩١) وفي الأم (٣/ ٥٦) وانظر: الاستذكار =

دلالة؟ فإن الشارع في جميع المواضع يقصد ظهور الحق بما يمكن ظهوره به من البينات التي هي أدلة عليه وشواهد له، ولا يرد حقًّا قد ظهر بدليله أبدًا فيضيع حقوق الله وعباده ويعطلها، ولا يقف ظهور الحق على أمر معين لا فائدة في تخصيصه به مع مساواة غيره في ظهور الحق أو رجحانه عليه ترجيحًا لا يمكن جحده ودفعه، كترجيح شاهد الحال على مجرد اليد، في صورة من على رأسه عمامة وبيده عمامة وآخر خلفه مكشوف الرأس يعدو أثره، ولا عادة له بكشف رأسه، فبينة الحال ودلالته هنا تفيد من ظهور صدق المدعي أضعاف ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد؛ فالشارع لا يهمل مثل هذه البينة والدلالة، ويضيع حقًّا يعلم كل أحد ظهوره وحجته..

...[1] والمقصود: أن الحكم بين الناس في النوع الذي لا يتوقف على الدعوى، هو المعروف بولاية الحسبة، وقاعدته وأصله هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ووصف به هذه الأمة، وفضلها لأجله على سائر الأمم التي أخرجت للناس.

وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولاية والسلطان، فعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم، فإن مناط الوجوب؛ هو القدرة، فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز، قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] وقال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»[2].

وجميع الولايات الإسلامية؛ مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن

=

(٦/ ٤٨١) والمحلى (٨/ ٢٦٤) وحسنه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣١٠) وانظر: فتح الباري (٥/ ٧٩).

(١) ٢٥٦ الطرق الحكمية.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٨٨) ومسلم (رقم ١٣٣٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٨٨) (١٣/ ٢٦١-٢٦٢) وشرح النووي (٣/ ١٠٣) (٤/ ٦٠) (٩/ ١٠١-١٠٢).

من المتولين من يكون بمنزلة الشاهد المؤتمن، والمطلوب منه، الصدق، مثل صاحب الديوان، الذي وظيفته؛ أن يكتب المستخرج والمصروف.

والنقيب والعريف الذي وظيفته؛ إخبار ولي الأمر بالأحوال.

ومنهم من يكون بمنزلة الآمر المطاع، والمطلوب منه؛ العدل، مثل الأمير والحاكم، والمحتسب.

ومدار الولايات كلها: على الصدق في الأخبار، والعدل في الإنشاء، وهما قرينان في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام: ١١٥]. وقال النبي ﷺ لما ذكر الأمراء الظلمة: «من صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولست منه، ولا يرد على الحوض، ومن لم يصدقهم يكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه وسيرد على الحوض»[1].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] «فالأفاك»: الكاذب، و«الأثيم» الظالم الفاجر. وقال تعالى: ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: ١٥، ١٦]. وقال النبي ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»[2].

ولهذا يجب على كل ولي أمر؛ أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل، والأمثل فالأمثل، وإن كان فيه كذب وفجور، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، و بأقوام

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٥١ رقم ٢٦٢) وابن حبان (١/ ٥١٨-٥١٩ رقم ٢٨٤، ٢٨٥) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ١٥٧٤) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٣٤ رقم ٧٨٣٠) وفي المجتبى (رقم ٤٢٠٧) والطبراني في الكبير (٤/ ٥٩ رقم ٣٦٢٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٤٨): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الله بن خباب وهو ثقة، وصححه الحاكم.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٩٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٧) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ١٥٣) وشرح النووي (١٦/ ١٦٠).

لا خلاق لهم.

قال عمر ﷺ: «من قلد رجلًا على عصابة، وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين».

والغالب: أنه لا يوجد الكامل في ذلك، فيجب تحري خير الخيرين، ودفع شر الشرين، وقد كان الصحابة ﷺ يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس عبَّاد النار، لأن النصارى أقرب إليهم من أولئك.

وكان يوسف الصديق ﷺ نائبًا لفرعون مصر، وهو وقومه مشركون، وفعل من الخير والعدل ما قدر عليه، ودعا إلى الإيمان بحسب الإمكان.

إذا عرف هذا فعموم الولايات وخصوصها، ما يستفيده المتولي بالولاية، يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف، وليس لذلك حد في الشرع، فقد يدخل في ولاية القضاء ـ في بعض الأزمنة والأمكنة ـ ما يدخل في ولاية الحرب في زمان ومكان آخر، وبالعكس، وكذلك الحسبة، وولاية المال، وجميع هذه الولايات في الأصل ولايات دينية، ومناصب شرعية، فمن عدل في ولاية من هذه الولايات، وساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، فهو من الأبرار العادلين، ومن حكم فيها بجهل وظلم، فهو من الظالمين المعتدين، ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

فولاية الحرب في هذه الأزمنة، في البلاد الشامية والمصرية وما جاورها، تختص بإقامة الحدود: من القتل، والقطع، الجلد، ويدخل فيها الحكم في دعاوى التهم التي ليس فيها شهود ولا إقرار، كما تختص ولاية القضاء بما فيه كتاب وشهود وإقرار، من الدعاوى التي تتضمن إثبات الحقوق والحكم بإيصالها إلى أربابها، والنظر في الأبضاع والأموال التي ليس لها ولي معين، والنظر في حال نظار الوقوف، وأوصياء اليتامى، وغير ذلك.

وفي بلاد أخرى ـ كبلاد الغرب ـ ليس لوالي الحرب مع القاضي حكم في شيء،

إنما هو منفذ لما يأمر به متولي القضاء.

وأما ولاية الحسبة؛ فخاصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاة، وأهل الديوان ونحوهم، فعلى متولي الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها، ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس، وأما القتل، فإلى غيره، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين، فمن فرط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمة، وخرج عن المشروع؛ ألزمه به، واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والقاضي.

واعتاد ولاة الأمور بإلزام الرعية بإقامة اصلاة؛ أهم من كل شيء، فإنها عماد الدين، وأساسه وقاعدته، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يكتب إلى عماله: «إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها؛ حفظ دينه، ومن ضيعها؛ كان لما سواها أشد إضاعة».

ويأمر والي الحسبة بالجمعة والجماعة، وأداء الأمانة والصدق، والنصح في الأقوال والأعمال، وينهى عن الخيانة، وتطفيف المكيال والميزان، والغش في الصناعات والبياعات، ويتفقد أحوال المكاييل والموازين، وأحوال الصناع الذين يصنعون الأطعمة والملابس والآلات، فيمنعهم من صناعة المحرم على الإطلاق كآلات الملاهي، وثياب الحرير للرجال، ويمنع من اتخاذ أنواع المسكرات.

...[1] وأما تقديم السمع على البصر؛ فهو متقدم عليه؛ حيث وقع في القرآن مصدرًا أو فعلًا أو اسمًا.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

الثاني: كقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٢].

والثالث: كقوله تعالى: ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٦١] ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

(١) ٧٠ بدائع جـ١.

[الإسراء: ١] ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

فاحتج بهذا من يقول: إن السمع أشرف من البصر، وهذا قول الأكثرين، وهو الذي ذكره أصحاب الشافعي. وحكوا هم وغيرهم عن أصحاب أبي حنيفة أنهم قالوا: البصر أفضل، ونصبوا معهم الخلاف وذكروا الحجاج من الطرفين.

ولا أدري ما يترتب على هذه المسألة من الأحكام؛ حتى تذكر في كتب الفقه وكذلك القولان للمتكلمين والمفسرين.

وحكى أبو المعالي عن ابن قتيبة؛ تفضيل البصر، ورد عليه.

واحتج مفضلوا السمع؛ بأن الله تعالى يقدمه في القرآن حيث وقع.

وبأن بالسمع تنال سعادة الدنيا والآخرة، فإن السعادة بأجمعها في طاعة الرسل والإيمان بما جاءوا به، وهذا إنما يدرك بالسمع.

ولهذا في الحديث الذي رواه أحمد وغيره: من حديث الأسود بن سريع: «**ثلاثة كلهم يدلي على الله بحجته يوم القيامة، فذكر منهم رجلًا أصم يقول: يا رب لقد جاء الإسلام وأنا لا أسمع شيئًا**»(١).

واحتجوا بأن العلوم الحاصلة من السمع؛ أضعاف أضعاف العلوم الحاصلة من البصر، فإن البصر لا يدرك إلا بعض الموجودات المشاهدة بالبصر القريبة، والسمع يدرك: الموجودات والمعدومات، والحاضر والغائب، والقريب والبعيد، والواجب والممكن والممتنع، فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه.

واحتجوا بأن فقد السمع يوجب ثلم القلب واللسان؛ ولهذا كان الأطرش خلقة، لا ينطق في الغالب. وأما فقد البصر فربما كان معينًا على قوة إدراك البصيرة وشدة ذكائها، فإن نور البصر ينعكس إلى البصيرة باطنًا فيقوى إدراكها ويعظم؛ ولهذا تجد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤) وإسحاق بن راهويه في مسنده (رقم ٤١) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٧ رقم ٨٤١) وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٥٦ رقم ٧٣٥٧) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ١٨٢٧) والمقدسي في المختارة (٤/ ٢٥٦ رقم ١٤٥٦) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٦٩).

كثيرًا من العميان، أو أكثرهم عندهم من الذكاء الوقاد والفطنة وضياء الحس الباطن، ما لا تكاد تجده عند البصير.

ولا ريب أن سفر البصر في الجهات والأقطار ومباشرته للمبصرات على اختلافها؛ يوجب تفرق القلب وتشتيته، ولهذا كان الليل؛ أجمع للقلب، والخلوة؛ أعون على إصابة الفكرة.

قالوا: فليس نقص فاقد السمع كنقص فاقد البصر[١].

ولهذا كثير في العلماء والفضلاء وأئمة الإسلام من هو أعمى، ولم يعرف فيهم واحد أطرش؛ بل لا يعرف في الصحابة أطرش، فهذا ونحوه من احتجاجهم على تفضيل البصر.

قال منازعوهم: يفصل بيننا وبينكم أمران:

أحدهما: أن مدرك البصر النظر إلى وجه الله تعالى في الدار الآخرة، وهو أفضل نعيم أهل الجنة وأحبه إليهم، ولا شيء أكمل من المنظور إليه سبحانه، فلا حاسة في العبد أكمل من حاسة تراه بها.

الثاني: أن هذا النعيم وهذا العطاء؛ إنما نالوه بواسطة السمع، فكان السمع كالوسيلة لهذا المطلوب الأعظم، فتفضيله عليه كفضيلة الغايات على وسائلها.

وأما ما ذكرتم من سعة إدراكاته وعمومها؛ فيعارضه كثرة الخيانة فيها ووقوع الغلط، فإن الصواب فيما يدركه السمع بالإضافة إلى كثرة المسموعات قليل في كثير، ويقابل كثير مدركاته: صحة مدركات البصر، وعدم الخيانة، وأن ما يراه ويشاهده لا يعرض فيه من الكذب ما يعرض فيه فيما يسمعه، وإذا تقابلت المرتبتان بقي الترجيح بما ذكرناه.

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه: وفصل

(١) هكذا بالنسخة المعتمدة، ولعل الصواب: «السمع» لأن سياق الكلام السابق في حجج تفضيل السمع.

الخطاب؛ أن إدراك السمع، أعم وأشمل، وإدراك البصر أتم وأكمل، فهذا له التمام والكمال، وذاك له العموم والشمول، فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص به، تم كلامه.

وقد ورد في الحديث المشهور أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «هذان السمع والبصر»، وهذا يحتمل أربعة أوجه:

أحدهما: أن يكون المراد؛ أنهما مني بمنزلة السمع والبصر.

والثاني: أن يريد؛ أنهما من دين الإسلام بمنزلة السمع والبصر من الإنسان؛ فيكون الرسول ﷺ بمنزلة القلب والروح، وهما بمنزلة السمع والبصر من الدين، وعلى هذا فيحتمل وجهين:

أحدهما: التزويع فيكون أحدهما بمنزلة السمع، والآخر بمنزلة البصر.

والثاني: الشركة فيكون هذا التنزيل والتشبيه بالحاستين؛ ثابتًا لكل واحد منهما، فكل منهما بمنزلة السمع والبصر.

فعلى احتمال التوزيع والتقسيم تكلم الناس أيهما هو السمع؟ وأيهما هو البصر؟ وبنوا ذلك على أي الصفتين أفضل؛ فهي صفة الصديق، والتحقيق أن صفة البصر للصديق، وصفة السمع للفاروق.

ويظهر لك هذا من كون عمر مُحَدَّثًا كما قال النبي ﷺ: **«قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة أحد فعمر»**[1].

والتحديث المذكور هو: ما يلقى في القلب من الصواب والحق، وهذا طريقه السمع الباطن، وهو بمنزلة التحديث والإخبار في الأذن.

وأما الصديق؛ فهو الذي كمل مقام الصديقية؛ لكمال بصيرته حتى كأنه قد باشر بصره مما أخبر، كأنه ينظر إلى ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره، وهذا لكمال

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٩٨).

البصيرة، وهذا أفضل مواهب العبد وأعظم كراماته التي يكرم بها، وليس بعد درجة النبوة إلا هي؛ لهذا جعلها سبحانه بعدها فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، وهذا هو الذي سبق به الصديق لا بكثرة صوم ولا بكثرة صلاة، وصاحب هذا يمشي رويدًا ويجيء في الأول، ولقد تعناه من لم يكن سيره هذا الطريق وتشميره إلى هذا العلم، وقد سبق من شمر إليه؛ وإن كان يزحف زحفًا ويحبو حبوًا، ولا تستطل هذا الفصل؛ فإنه أهم مما قصد بالكلام فليعد إليه.

فقيل: تقديم السمع على البصر له سببان:

أحدهما: أن يكون السياق يقتضيه؛ بحيث يكون ذكرها بين الصفتين متضمنًا: للتهديد، والوعيد؛ كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته، التي تقتضي الحذر والاستقامة كقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، والقرآن مملوء من هذا، وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك: إني أسمع ما يردون به عليك، وما يقابلون به رسالاتي، وأبصر ما يفعلون.

ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان:

أحدهما: قابلوها بقولهم: صدقت، ثم عملوا بموجبها.

والثاني: قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها؛ فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر، فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر. وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٢].

فهو يسمع ما يجيبهم به ويرى ما يصنعه، وهذا لا يعم سائر المواضع؛ بل يختص منها بما هذا شأنه.

والسبب الثاني: أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين السامع والمسموع، أشد من إنكارها لرؤيته مع بعده.

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا. فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا[1]، ولم يقولوا: أترون الله يرانا؛ فكان تقديم السمع أهم، والحاجة إلى العلم به أمس.

وسبب ثالث: وهو أن حركة اللسان بالكلام؛ أعظم حركات الجوارح، وأشدها تأثيرًا في الخير والشر والصلاح والفساد؛ بل عامة ما يترتب في الوجود من الأفعال؛ إنما ينشأ بعد حركة اللسان، فكان تقديم الصفة المتعلقة به؛ أهم وأولى، وبهذا يعلم تقديمه على العليم حيث وقع.

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

[2]أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر؛ بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم علِّم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره.

ولهذا كثيرًا ما يقع به الخطاب في القرآن بالشرائع كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٧) ومسلم (رقم ٢٧٧٥) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ١٥٥).
(٢) ٢٩ الرسالة التبوكية.

﴿عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ [الجمعة: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ففي هذا إشارة إلى أنكم: إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه. ثم قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملًا واحدًا، وقد كان ربما يسبق إلى الوهم؛ أن الأمر يقتضي عكس هذا؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، ولكن الواقع هنا في الآية هو المناسب.

وتحته سر لطيف، وهو: دلالته على أن ما يأمر به رسوله تجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورًا به بعينه في القرآن؛ فتجب طاعة الرسول مفردة ومقرونة، فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه كما قال النبي ﷺ: «يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمري، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»(١). أما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم؛ إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى، فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة»(٢).

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ولم يقل: وإلى الرسول، فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول ﷺ، هو بعينه حكم الله، فإذا

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٣٧ رقم ١٠٦١) والمروزي في السنة (رقم ٢٤٤، ٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧١٤٤) ومسلم (رقم ١٨٣٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ١٢٣) وشرح النووي (١٢/ ٢٢٤).

رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني: إلى كتابه؛ فقد رددتموه إلى رسوله، وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله؛ فقد رددتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولي الأمر.

وعنه فيهم رحمه الله تعالى روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

الثانية: أنهم الأمراء.

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعًا؛ فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء ولاته: حفظًا وبيانًا، وبلاغًا وذبًّا عنه، وردًّا على من ألحد فيه وزاغ عنه.

وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩]. فيا لها من وكالة أوجبت: طاعتهم، والانتهاء إلى أمرهم، وكون الناس تبعًا لهم!

والأمراء ولاته: قيامًا ودعاية وجهادًا وإلزامًا للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه.

وهذان الصنفان؛ هم الناس، وسائر النوع الإنساني، تبع لهم ورعية. ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله؛ إلى الله ورسوله، لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما؛ فقد ضادَّ أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله؛ فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان؛ حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

ولهذا قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وهذا مما ذكرنا آنفًا؛ أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه.

فدل على أن من حكم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع؛ كان خارجًا من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر. وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة: بيانًا، وشفاءً؛ فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت به ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله؛ هو الرد إلى كتابه، والرد على الرسول؛ هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته.

ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩] أي: هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي؛ وأولياء الأمر، ورد ما تنازعتم فيه إليّ وإلى رسولي؛ خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خير لكم وأحسن عاقبة.

فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله؛ هو سبب السعادة عاجلًا، وآجلًا. ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه؛ علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته؛ وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول. وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها؛ إنا هو من موجبات مخالفة الرسل ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته؛ لم يكن في الأرض شر قط.

وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول؛ ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين. فعلم أن شرور الدنيا والآخرة، إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ، والخروج عنه، وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ: علمًا، والقيام به عملًا.

وكما هذه السعادة بأمرين آخرين: أحدهما: دعوة الخلق إليه، والثاني: صبره واجتهاده على تلك الدعوة. فانحصر الكمال الإنساني في هذه المراتب الأربعة:

إحداها: العلم بما جاء به الرسول ﷺ.

والثانية: العمل به.

والثالثة: نشره في الناس، ودعوتهم إليه.

والرابعة: صبره واجتهاده في أدائه وتنفيذه.

ومن طلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، وأراد اتباعهم، فهذه طريقهم حقًّا.

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضحت للسالكين عيانًا[1]

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝﴾ [سبأ: ٥٠] فهذا نص صريح في أن هدي الرسول ﷺ؛ إنما يحصل بالوحي.

فيا عجبًا كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟! ولكن ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلتان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبده، عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

[2]قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وفسر أولي الأمر بالعلماء، قال ابن عباس: هم الفقهاء والعلماء، أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم، أوجب الله تعالى طاعتهم. وهذا قول مجاهد، والحسن، والضحاك، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

---

(١) هذا البيت لم أقف على قائله.

(٢) ١٣٧ مفتاح جـ١.

وفسروا بالأمراء، وهو قول ابن زيد وإحدىٰ الروايتين عن ابن عباس وأحمد، والآية تتناولها جميعًا، فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله، وطاعة العلماء كذلك، فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الأرض من كل أحد، فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء، فالعالم بعد وفاته؛ ميت وهو حي بين الناس، والجاهل في حياته؛ حي وهو ميت بين الناس. كما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتىٰ النشور نشور[1]

وقال الآخر:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم في الناس أموات[2]

وقال آخر:

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيًا ... فذلك حي وهو في الترب هالك[3]

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه: كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم؟! وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع، وهذه هي الحياة حقًّا حتىٰ عد ذلك حياة ثانية. كما قال المتنبي:

ذكر الفتىٰ عيشه الثاني وحاجته ... ما فاته وفضول العيش أشغال[4]

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل وينسبان إلىٰ علي بن أبي طالب ﷺ، وذكر البيتين القرطبي في تفسيره (٧/ ٧٨) ولكن البيت الثاني عنده مختلف عما هو هنا:

وإن امرؤ لم يحي بالعلم ميت ... فليس له حتىٰ النشور نشور

(٢) هذا البيت من بحر البسيط.

(٣) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلىٰ أبي الطيب المتنبي والبيت ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ١٥٤) وأبو الحسن الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه (ص ٢٨٢).

(٤) لم أقف علىٰ قائله.

[(١)] والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء؛ فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول؛ فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس كلهم لهم تبعًا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما، كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل: من هم؟ قال: الملوك، والعلماء. كما قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تُميت القلوبَ وقد يورث الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسِكَ عِصيانُهَا
وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ وأحْبَارُ سوءٍ ورُهبَانُهَا [(٢)]

[(٣)] فصل في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص والرأي الذي لم تشهد له النصوص بالقبول. قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ

---

(١) ١٠ أعلام جـ١.

(٢) هذه الأبيات من بحر المتقارب، وتنسب إلى ابن المبارك الحافظ شيخ الإسلام المجاهد الزاهد الورع، أفنى عمره في الأسفار حاجًا ومجاهدًا وتاجرًا، جمع الحديث والفقه وله المسند وكتاب الزهد وكتاب الجهاد وهو أول من صنف فيه، مات سنة ١٨١هـ. وأخرج الأبيات البيهقي في شعب الإيمان عن ابن المبارك (٥/ ٤٦٤ رقم ٧٣٠٠) وأبو نعيم في حلية الأولياء عنه أيضًا (٨/ ٢٧٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦/ ٣٣٧) (٣٢/ ٤٦٧) مع اختلاف يسير.

(٣) ٤٧ أعلام جـ١.

ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦] فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلىٰ الحقِّ، وهو الوحي الذي أنزله الله علىٰ رسوله، وإلىٰ الهوىٰ وهو ما خالفه.

وقال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية: ٤٥] فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها وأوحىٰ إليه العمل بها وأمر الأمة بها وبين اتِّباع أهواء الذين لا يعلمون؛ فأمر بالأول، ونهىٰ عن الثاني.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣] فأمر باتباع المنزل منه خاصة: وأعلم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء.

قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] فأمر تعالىٰ بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل؛ إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالًا من غير عرض ما أمر به علىٰ الكتاب، بل إذ أمر وجبت طاعته مطلقًا، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالًا، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول؛ إيذانًا بأنهم إنما يطاعون تبعًا لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول، فلا سمع له ولا طاعة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»(١)، وقال: «إنما

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٤٥ رقم ٣٣٧١٧) وعبد الرزاق (٢/ ٣٨٣ رقم ٣٧٨٨) والطبراني في الأوسط (٤/ ١٨١-١٨٢ رقم ٣٩١٧) (٤/ ٣٢١ رقم ٤٣٢٢) وفي الكبير (١٨/ ١٦٥
=

الطاعة في المعروف»[١]، وقال في ولاة الأمور: «**من أمركم منهم بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة**»[٢]، وقد أخبر ﷺ عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها: «**إنهم لو دخلوا لما خرجوا منها**»[٣]، مع أنهم إنما كانوا يدخلونها؛ طاعة لأميرهم، وظنًّا أن ذلك واجب عليهم، ولكن لما قصَّروا في الاجتهاد وبادروا إلىٰ طاعة من أمر بمعصية الله، وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما يُرِدْه الآمر ﷺ، وما قد علم من دينه إرادةُ خلافه، فقصَّروا في الاجتهاد وأقدموا علىٰ تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبت وتبين: هل ذلك طاعة لله ورسوله أم لا؟ فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله؛ ثم أمر تعالىٰ برد ما تنازع فيه المؤمنون إلىٰ الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأخبرهم أن ذلك خير لهم في العاجل وأحسن تأويلًا في العاقبة. وقد تضمن هذا أمورًا:

منها: أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان، وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، توهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانًا.

ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم علىٰ إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة، من أولهم إلىٰ آخرهم، لم يسوموها تأويلًا، ولم يحرِّفوها عن مواضعها تبديلًا، ولم يبدوا لشيء منها

رقم ٣٦٧) وأحمد (١/ ١٣١) (٥/ ٦٦) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٢٦): رواه أحمد بألفاظ والطبراني باختصار... ورجال أحمد رجال الصحيح.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧١٤٥) ومسلم (رقم ١٨٤٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠، ٢٥٤) وشرح النووي (١٢/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه بلفظ: «**من أمركم منهم بمعصية الله فلا تطيعوه**» (رقم ٢٨٦٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٤٨ رقم ٣٦٦٣٢) وأبو يعلىٰ (٢/ ٥٠٢ رقم ١٣٤٩) وأحمد (٣/ ٦٧) وصححه الكناني في مصباح الزجاجة (٣/ ١٧٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧١٤٥) ومسلم (رقم ١٨٤٠).

إبطالًا، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقَّوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرًا واحدًا، وأجروها على سنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه.

والمقصود: أن أهل الإيمان لا يخرجهم تنازعهم في بعض مسائل الأحكام عن حقيقة الإيمان، إذا ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما شرطه الله عليهم بقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ولا ريب أن الحكم المعلق على شرط؛ ينتفي عند انتفائه.

ومنها: أن قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ نكرة في سياق الشرط؛ تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقِّه وجلِّه، جليه وخفيه، ولولم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيًا؛ لم يأمر بالرد إليه؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع، إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ومنها: أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ، هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

ومنها: أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد؛ انتفى الإيمان؛ ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولاسيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم، وأن عاقبته أحسن عاقبة. ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكَّم هذا الطاغوت وتحاكم إليه.

والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع، فطاغوت كل قوم مَنْ يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا

تأملتها وتأملت أحوال الناس معها؛ رأيت أكثرهم [عدلوا] عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة ـ وهم الصحابة ومن تبعهم ـ ولا قصدوا قَصْدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا.

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول؛ أعرضوا عن ذلك، ولم يستجيبوا للداعي، ورضوا بحكم غيره، ثم توعَّدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم؛ بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة: ٤٩]. اعتذروا بأنهم إما قصدوا الإحسان والتوفيق، أي: بفعل ما يرضي الفريقين ويوفق بينهما، كما يفعله من يروم التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه، ويزعم أنه بذلك محسن اقصد الإصلاح والتوفيق، والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه: من طريقة، وحقيقة، وعقيدة، وسياسة ورأي؛ فمحض الإيمان في هذا الحرب لا في التوفيق، وبالله التوفيق.

(١)**الوجه الحادي والأربعون**: قولكم: إن الله سبحانه أمر بطاعة أولي الأمر روايتان عن الإمام أحمد.

فجوابه: أن أولي الأمر قد قيل: هم الأمراء، وقيل: هم العلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

والتحقيق أن الآية تتناول الطائفتين، وطاعتهم من طاعة الرسول، لكن خَفِيَ على المقلدين أنهم يُطاعون في طاعة الله إذا أمروا بأمر الله ورسوله؛ فكان العلماء مبلِّغين لأمر الرسول، والأمراء منفِّذين له؛ فحينئذ تجب طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله،

---

(١) ٢٢٠ أعلام جـ٢.

فأين في الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله ﷺ وإيثار التقليد عليها؟

الوجه الثاني والأربعون: أن هذه الآية من أكبر الحجج عليهم، وأعظمها إبطالًا للتقليد، وذلك من وجوه:

أحدها: الأمر بطاعة الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه.

الثاني: طاعة رسوله، ولا يكون العبد مطيعًا لله ورسوله حتى يكون عالمًا بأمر الله ورسوله، ومن أقر على نفسه بأنه ليس من أهل العلم بأوامر الله ورسوله وإنما هو مقلد فيها لأهل العلم؛ لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله البتة.

الثالث: أن أولي الأمر قد نَهَوْا عن تقليدهم، كما صح ذلك عن: معاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وغيرهم من الصحابة، وذكرناه نصًّا عن الأئمة الأربعة وغيرهم، وحينئذ فطاعتهم في ذلك إن كانت واجبة؛ بطل التقليد، وإن لم تكن واجبة؛ بطل الاستدلال.

الرابع: أنه سبحانه قال في الآية نفسها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] وهذا صريح في إبطال التقليد، والمنع من ردِّ المتنازع فيه إلى: رأي، أو مذهب، أو تقليد.

فإن قيل: فما هي طاعتهم المختصة بهم؛ إذ لو كانوا إنما يُطاعون فيما يخبرون عن الله ورسوله، كانت الطاعة لله ورسوله لا لهم؟

قيل: وهذا هو الحق، وطاعتهم إنما هي تبع لا استقلال، ولهذا قرنها بطاعة الرسول ولم يعد العامل، وأفرد طاعة الرسول وأعاد العامل؛ لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعًا كما يطاع أولو الأمر تبعًا، وليس كذلك؛ بل طاعته واجبة استقلالًا سواء كان ما أمر به ونهى عنه في القرآن أو لم يكن.

[1]سئل ﷺ عن قتال الأمراء الظلمة، فقال: «**لا، ما أقاموا الصلاة**»، وقال: «**خيار أئمتكم: الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم:**

(١) ٣٩١ أعلام جـ٤.

الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم». قالوا: أفلا ننابذهم؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة». ثم قال ﷺ: «ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدًا من طاعته»(١) ذكره مسلم.

وقال: «يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع». قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلوا»(٢)، ذكره مسلم، وزاد أحمد: «ما صلوا الخمس»(٣).

وسأله ﷺ رجل فقال: أرأيت إن كانت علينا أمراء يمنعوننا حقنا ويسألوننا حقهم، قال: «اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم»(٤). ذكره الترمذي.

وقال: «إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها»، قالوا: فما تأمرنا من أدرك ذلك؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»(٥). متفق عليه.

وسأله ﷺ رجل فقال: دُلَّني على عمل يعدل الجهاد، قال: «لا أجده»، ثم قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» قال: ومن يستطيع ذلك؟ فقال: «مثل المجاهد في سبيل الله؛ كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام، ولا صلاة؛ حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»(٦) ذكره مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٥٥) وانظر: شرح النووي (١/ ١٨) (١٢/ ٢٤٤) وفيض القدير (٣/ ٤٦٣).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٥٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥٣).
(٣) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٢٣٤) من طريق الإمام أحمد.
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٨٤٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٦).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٧٠٥٢) ومسلم (رقم ١٨٤٣) واللفظ له. وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٢) (١٣/ ٦-٨) (١٣/ ٤٣٠) وشرح النووي (١٢/ ٢٣٢).
(٦) أخرجه البخاري مختصرًا (رقم ٢٧٨٥) ومسلم (رقم ١٨٧٨) واللفظ له، وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٦٠) (٦/ ٥) وشرح النووي (١٣/ ٢٤).

[(١)]**الطبقة الخامسة**: أئمة العدل وولاته، الذين تؤمن بهم السبل، ويستقيم بهم العالم، ويستنصر بهم الضعيف، ويذل بهم الظالم، ويأمن بهم الخائف، وتقام بهم الحدود، ويدفع بهم الفساد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقام بهم حكم الكتاب والسنة، وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن ﷻ يوم القيامة؛ فيكونون عليها؛ والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس وقد بلغ منهم العرق مبلغه، وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيل أحدهم: إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قال النبي ﷺ: «**المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في: حكمهم، وأهلهم، وما ولوا**»[(٢)].

وعنه ﷺ: «**إن أحب الخلق إلى الله وأقربهم منه منزلة يوم القيامة: إمام عادل، وإن أبغض الخلق إلى الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة: إمام جائر**»[(٣)]. أو كما قال.

وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله[(٤)]، وكما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا؛ كانوا في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ظلًّا بظل جزاء وفاقًا، ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم؛ إلا أن أهل السماوات والأرض، والطير في الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم. وولاة الظلم يلعنهم من بين السماوات والأرض حتى الدواب والطير، كما أن معلم الناس الخير؛ يصلي

(١) ٣٥٤ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٤٥) (١٣/ ٣٩٦) وشرح النووي (١٢/ ٢١١).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٨٨ رقم ١٩٩٥٦) والترمذي (رقم ١٣٢٩) وحسنه، وأخرجه الطبراني بلفظ قريب في المعجم الأوسط (١/ ١١٢ رقم ٣٤٨) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٦٧) وأحمد (٣/ ٢٢، ٥٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٠) ومسلم (رقم ١٠٣١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٩٣) وشرح النووي (٧/ ١٢٠).

عليه الله وملائكته، وكاتم العلم والهدىٰ الذي أنزله الله، وحامل أهله علىٰ كتمانه؛ يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون.

فيا لها من منقبة ومرتبة! ما أجلها وأشرفها! أن يكون الوالي والإمام علىٰ فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات في صحائفه؛ فهي متزايدة ما دام يعمل بعدله، ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره.

فأين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم، قد حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار.

ويكفي في فضله وشرفه؛ أنه يكف عن الله دعوة المظلوم كما في الآثار: «**أيها الملك المسلط المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها علىٰ بعض، ولكن بعثتك لتكف عني دعوة المظلوم، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها علىٰ بعض فإني لا أحجبها ولو كانت من كافر**»[1] فأين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له، وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه؟

[2]بيان حقيقة التأويل لغة واصطلاحًا: هو تفعيل، من آل يؤول إلىٰ كذا: إذا صار إليه، فالتأويل: التصيير، وأولته تأويلًا: إذا صيرته إليه.

ثم تسمىٰ العاقبة تأويلًا؛ لأن الأمر يصير إليها، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَـٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وتسمىٰ حقيقة الشيء المخبر به تأويلًا؛ لأن الأمر ينتهي إليه. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ هَلۡ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٦-٧٨ رقم ٣٦١) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٩٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦-١٦٧) وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨٧): وقد روىٰ هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتاب الأنواع والتقاسيم، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج ابن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات، وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٢/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) ١٠ مختصر الصواعق جـ١.

يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣] فمجيء تأويله؛ مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من: اليوم الآخر، والمعاد وتفاصيله، والجنة والنار.

ويسمى تعبير الرؤيا تأويلها بالاعتبارين؛ فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تؤول إليه. وقال يوسف لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: حقيقتها مصيرها إلى هاهنا. انتهى.

وتسمى العلة الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلًا؛ لأنها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من الفعل الذي لم يعرف الرائي له غرضه به، ومنه قول الخضر لموسى بعد أن ذكر له الحكمة المقصودة بما فعله من: تخريق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار بلا عوض: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨] فلما أخبره بالعلة الغائية التي انتهى إليها فعله قال: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

فالتأويل في كتاب الله تعالى المراد منه حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه؛ وهي الحقيقة الموجودة في الخارج.

فإن الكلام نوعان: خبر وطلب، فتأويل الخبر هو الحقيقة، وتأويل الوعد والوعيد؛ هو نفس الموعود والمتوعد به.

وتأويل ما أخبر الله به من صفاته العلى وأفعاله؛ نفس ما هو عليه سبحانه، وما هو موصوف به من الصفات العلى.

وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» يتأول القرآن[1]، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨١٧) ومسلم (رقم ٤٨٤)، وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٩٩) (٨/ ٧٣٤) وشرح النووي (٤/ ٢٠١).

التأويل هو فعل نفس المأمور به، فهذا هو التأويل في كلام الله ورسوله.

وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث، فمرادهم به؛ معنى التفسير والبيان، ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالىٰ كذا وكذا، ومنه قول الإمام أحمد في الرد علىٰ الجهمية: «فيما تأويله من القرآن علىٰ غير تأويله»[(١)] فأبطل تلك التأويلات التي ذكرها وهو تفسيرها المراد بها. وهو تأويلها عنده، فهذا التأويل يرجع إلىٰ فهم المؤمن ويحصل في الذهن، والأول يعود إلىٰ وقوع حقيقته في الخارج.

وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين، فمرادهم بالتأويل؛ صرف اللفظ عن ظاهره، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه؛ ولهذا يقولون: التأويل علىٰ خلاف الأصل، والتأويل يحتاج إلىٰ دليل، وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين، فممن صنف في إبطال التأويل علىٰ رأي المتكلمين: القاضي أبو يعلىٰ، والشيخ موفق الدين ابن قدامة. وقد حكىٰ غير واحد إجماع السلف علىٰ عدم القول به.

ومن التأويل الباطل؛ تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»[(٢)] فقالوا: نحن لم نقتله، إنما قتله من جاء به حتىٰ أوقعه بين رماحنا، وهذا التأويل مخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله لا من استنصر به؛ ولهذا رد عليهم من هو أولىٰ بالحق والحقيقة منهم، فقالوا: أفيكون رسول الله ﷺ، وأصحابه هم الذين قتلوا حمزة والشهداء معه؛ لأنهم أتوا بهم حتىٰ أوقعوهم تحت سيوف المشركين؟

---

(١) أحمد الله ﷻ الذي وفقني وأعانني علىٰ تحقيق هذا الكتاب المبارك لإمام أهل السنة الإمام أحمد رحمه الله، وقد طبع في دار الثبات للنشر في الرياض ونفد الكتاب وسوف يطبع بإذن الله طبعة مزيدة ومنقحة معتنىً بها علىٰ مخطوط عثرت عليه أخيرًا، فلله الحمد من قبل ومن بعد.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٩١٦) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٤٢) وشرح النووي (١٨/ ٤٠).

ومن هذا قول عروة بن الزبير؛ لما روى حديث عائشة: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر» فيل له: فما بال عائشة أتمت في السفر؟ قال: تأولت كما تأول عثمان[1]، وليس مراده أن عائشة وعثمان تأولا آية القصر على خلاف ظاهرها، وأنما مراده أنهما تأولا دليلًا قام عندهما اقتضى جواز الإتمام فعملا به، فكان عملهما به هو تأويله، فإن العمل بدليل الأمر؛ هو تأويله كما كان رسول الله ﷺ، يتأول قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: ٣] بامتثاله بقوله: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» فكأن عائشة وعثمان تأولا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء: ١٠٣] فإن إتمامها من إقامتها.

وقيل: تأولت عائشة أنها أم المؤمنين، وأنها أمهم حيث كانت، فكأنها مقيمة بينهم. وأن عثمان كان إمام المسلمين؛ فحيث كان فهو منزله.

أو أنه كان قد عزم على الاستيطان بمنى، أو أنه كان قد تأهل بها، ومن تأهل ببلد؛ لم يثبت له حكم المسافر.

أو أن الأعراب كانوا قد كثروا في ذلك الموسم؛ فأحب أن يعلمهم فرض الصلاة وأنها أربع.

أو غير ذلك من التأويلات التي ظناها أدلة مقيدة لمطلق القصر، أو مخصصة لعمومه، وإن كانت كلها ضعيفة.

والصواب: هدي رسول الله ﷺ، فإنه كان إمام المسلمين وعائشة أم المؤمنين في حياته ومماته وقد قصرت معه، ولم يكن عثمان ليقيم بمكة وقد بلغه أن رسول الله ﷺ، إنما رخص في الإقامة بها للمهاجرين بعد قضاء نسكهم ثلاثًا، والمسافر إذا تزوج في طريقه؛ لم يثبت له حكم الإقامة بمجرد التزوج ما لم يزمع الإقامة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠٩٠) ومسلم (رقم ٦٨٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٧٠) وشرح النووي (٥/ ١٩٤-١٩٥).

وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة؛ هو التأويل الصحيح، وغيره هو الفاسد. والتأويل الباطل أنواع[(١)].

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

[(٢)]ومن صفاتهم معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به، فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدىٰ في آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به، فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا مع ذلك معارضته، وزعموا أنه لا يستفاد منه هدىٰ.

ومن صفاتهم: كتمان الحق، والتلبيس علىٰ أهله، ورميهم له بأدوائهم: فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ودعوا إلىٰ الله ورسوله: بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض، وقد علم الله ورسوله والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعاهم ورثة الرسول إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة؛ رموهم: بالبدع، والضلال ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء: ٦١].

[(٣)]فكيف لهم بالفلاح والهدىٰ! بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنىٰ لهم

(١) سردها في المختصر، فمن أرادها فليرجع إليها. (ج).
(٢) ٤٠٧ طريق الهجرتين.
(٣)٣٥٣ مدارج جـ١.

التخلص من الضلال والردى! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقًا ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢]. نشب زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم، فلا يجدون له مسيغًا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النساء: ٦٣].

تبا لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان، فالقوم في شأن وأتباع الرسول في شأن، لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسمًا عظيمًا، يعرف مضمونه أولو البصائر، فقلوبهم منه على حذر؛ إجلالًا له وتعظيمًا، فقال تعالى تحذيرًا لأوليائه وتنبيهًا على حال هؤلاء وتفهيمًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

***

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

[(١)]ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] منزلة «التسليم»، وهي نوعان: تسليم لحكمه الديني الأمري، وتسليم لحكمه الكوني القدري.

فأما الأول: فهو تسليم المؤمنين العارفين، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

(١) ١٤٦ مدارج جـ٢.

وأما التسليم للحكم الكوني: فمزلة أقدام، ومضلَّة أفهام، حيَّر الأنام، وأوقع الخصام، وهي مسألة الرضا بالقضاء، وقد تقدم الكلام عليها بما فيه كفاية، وبينا أن التسليم للقضاء يحمد إذا لم يؤمر العبد بمنازعته ودفعه، ولم يقدر على ذلك، كالمصائب التي لا قدرة له على دفعها.

وأما الأحكام التي أمر بدفعها: فلا يجوز له التسليم إليها؛ بل العبودية: مدافعتها بأحكام أخر، أحب إلى الله منها.

...(١) ثم أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد؛ حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده؛ حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضًا بذلك؛ حتى يسلموا تسليمًا وينقادوا انقيادًا.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد ذلك فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا.

(٢) ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وفرض تحكيمه لم يسقط بموته؛ بل هو ثابت بعد موته كما كان ثابتًا في حياته، وليس تحكيمه مختصًّا بالعمليات دون العلميات كما يقوله أهل الزيغ والإلحاد.

وقد افتتح سبحانه هذا الخبر بالقسم المؤكد بالنفي قبله، وأقسم على انتفاء الإيمان منهم؛ حتى يحكموا رسوله ﷺ في جميع ما تنازعوا فيه: من دقيق الدين وجليله، وفروعه وأصوله.

---

(١) ٥١ أعلام جـ١.

(٢) ٣٥٢ مختصر الصواعق جـ٢.

ثم لم يكتف منهم بهذا التحكيم؛ حتىٰ ينتفي الحرج وهو الضيق؛ مما حكم به فتنشرح صدورهم لقبول حكمه انشراحًا لا يبقىٰ معه حرج، ثم يسلموا تسليمًا أي: ينقادوا انقيادًا لحكمه، والله يشهد ورسوله وملائكته والمؤمنون: أ ن من قال: أدلة القرآن والسنة لا تفيد اليقين، وأن أحاديث الأسماء والصفات أخبار آحاد لا تفيد العلم؛ بمعزل عن هذا التحكيم، وهو يشهد علىٰ نفسه بذلك.

وقد قال تعالىٰ قبل ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]، وأجمع المسلمون أن الرد إليه؛ هو الرجوع إليه في حياته، والرجوع إلىٰ سنته بعد مماته.

واتفقوا أن فرض هذا الرد؛ لم يسقط بموته، فإن كان متواتر أخباره وآحادها لا تفيد علمًا ولا يقينًا؛ لم يكن للرد إليه وجه.

ولما أصَّل أهل الزيغ والضلال هذا الأصل؛ ردوا ما تنازع فيه الناس من هذا الباب إلىٰ: منطق اليونان، وخيالات الأذهان، ووحي الشيطان، ورأي فلان وفلان، وهؤلاء يتناولهم قوله سبحانه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [النساء: ٦٠].

والطاغوت اسم لكل ما تعدىٰ حده وتجاوز طوره، ومعلوم أن هذا الذي يتحاكم إليه أهل الزيغ حده أن يكون محكومًا عليه لا حاكمًا، ثم أخبر تعالىٰ عن حال هؤلاء المتحاكمين إلىٰ غير ما جاء به رسوله ﷺ فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾ [النساء: ٦١]. فجعل الإعراض عما جاء به الرسول والالتفات إلىٰ غيره؛ هو حقيقة النفاق، كما أن حقيقة الإيمان، هو تحكيمه، وارتفاع الحرج عن الصدور بحكمه، والتسليم لما حكم به: رضاً، واختيارًا، ومحبة، فهذا حقيقة الإيمان، وذلك الإعراض حقيقة النفاق.

ثم أخبر سبحانه عن عقوبة المعرضين عن التحاكم إليه، الراضين بحكم الغير من

خلقه في قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢].

فأخبر أن هذا الإعراض عن التحاكم إليه؛ سبب لأن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]. وقال في المتولين عن حكمه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة: ٤٩].

قال أبو داود: حدثنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير؛ أنه حدث بحديث، فقال له رجل من أهل الكوفة: إن الله تعالى يقول في كتابه كذا وكذا، فغضب سعيد، وقال: لا أراك تعرض في حديث رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ، أعلم بكتاب الله منك.

فإذا كان هذا إنكارهم على من عارض سنة رسول الله ﷺ بالقرآن؛ فماذا تراهم قائلين لمن عارضها؛ بآراء المتكلمين ومنطق المتفلسفين، وأقيسه المتكلمين، وخيالات المتصوفين، وسياسات المعتدين؟

ولله بلال بن سعد؛ حيث قول: ثلاث لا يقبل معهن عمل: الشرك، والكفر، والرأي، قلت: يا أبا عمرو ما الرأي؟ قال: يترك سنة الله ورسوله، ويقول بالرأي[1].

وقال أبو العالية في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ [فصلت: ٣٠] قال: أخلصوا لله: الدين، والعمل، والدعوة؛ أن جردوا الدعوة إليه وإلى كتابه وسنة رسوله ﷺ، فقط لا إلى رأي فلان وقول فلان.

وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [النور: ٦٣] يطبع على قلوبهم[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٤/ ١٨٦).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٣٢) إلى عبد بن حميد عن سفيان رحمه الله.

وقال الإمام أحمد: إنما هي الكفر، ولقي عبد الله بن عمر جابر بن زيد في الطواف فقال له: يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة، فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك؛ هلكت وأهلكت(١).

وقال ابن خزيمة: قلت لأحمد بن نصر، وحدث بخبر عن رسول الله ﷺ، أما تأخذ به؟ فقال: أترىٰ علىٰ وسطي زنارًا، لا تقل لخبر النبي ﷺ: أتأخذ به، وقل: أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن رسول الله ﷺ قلت به؛ شئت أم أبيت(٢).

وقال أفلح مولىٰ أم سلمة: إنها كانت تحدث: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول علىٰ المنبر وهي تمتشط: «أيها الناس» فقالت لماشطتها: كفي رأسي، قالت: فديتك إنما يقول: «يا أيها الناس» ويحك! أولسنا من الناس؟ فكفت رأسها، وقامت في حجرتها، فسمعته يقول: «**يا أيها الناس بينا أنا علىٰ حوضي إذ مر بكم زمر، افترقت بكم الطرق فناديتكم: ألا هلم إلىٰ الطريق، فينادي منادٍ: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: ألا سحقًا سحقًا**»(٣).

وهذه الطرق التي تفرقت بهم؛ هي الطرق والمذاهب التي ذهبوا إليها، وأعرضوا عن طريقه ومذهبه ﷺ فلا يجوزون علىٰ الطريق التي هو عليها يوم القيامة، كما لم يسلكوا الطريق التي كان عليها هو وأصحابه.

وقال عكرمة: عن ابن عباس: إياكم والرأي؛ فإن الله رد علىٰ الملائكة الرأي. وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] ولم يقل: بما رأيت، وقال بعض

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٨٦) وذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة أبي الشعثاء (١/ ٧٢ رقم ٦٧) وانظر: قواعد التحديث (ص ٣٣٦) ومفتاح السنة (ص ٦٠).

(٢) ورد عن الشافعي قريبًا من ذلك، ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ٣٨٧) وأبو الشيخ في تاريخ أصبهان (١/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٩٥) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٥٨).

العلماء: ما أخرج آدم من الجنة، إلا بتقديم الرأي على النص، وما لعن إبليس وغضب عليه، إلا بتقديم الرأي على النص، ولا هلكت أمة من الأمم؛ إلا بتقديم آرائها على الوحي، ولا تفرقت الأمة فرقًا وكانوا شيعًا؛ إلا بتقديم آرائهم على النصوص.

وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا أيها الناس! اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول ﷺ برأي اجتهادًا، والله ما ألو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل والكتاب بين يدي رسول الله ﷺ، وبين أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: بل تكتب كما نكتب: باسمك اللهم، فرضي رسول الله ﷺ، وأبيت عليه؛ حتى قال رسول الله ﷺ: «تراني أرضى وتأبى»[(١)].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

[(٢)]قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسمًا مؤكدًا بالنفي قبله، على عدم إيمان الخلق؛ حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم: من الأصول والفروع، وأحكام الشرع وأحكام المعاد، وسائر الصفات وغيرها.

ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم؛ حتى ينتفي عنهم الجرح، وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح، وتنفسح له كل الانفساح، وتقبله كل القبول.

ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضًا؛ حتى ينضاف إليه: مقابلة حكمه بالرضا

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١/ ٣٢٥ رقم ٢١٩) والبزار (١/ ٢٥٣-٢٥٤ رقم ١٤٨) وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٣٧٣ رقم ٥٥٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٩): رواه أبو يعلى ورجاله موثقون. وقال في موضع آخر (٦/ ١٤٦) حديث عمر في الصحيح بغير هذا السياق رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤٦) وعمدة القاري (١٤/ ١٤).

(٢) ٢٧٤ التبيان.

والتسليم، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض، فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم والانقياد؛ إذ قد يحكمه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه، ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضا بحكمه، والتسليم أخص من انتفاء الحرج، فالحرج مانع، والتسليم أمر وجودي، ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه؛ إذ قد ينتفي الحرج، ويبقى القلب فارغًا: منه، ومن الرضا به والتسليم له، فتأمله.

وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالى؛ أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق: وعند الامتحان تعلم: هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدعي الإسلام أم لا؟

[1]الطبقة الرابعة: ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به: علمًا، وعملًا، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة، وهؤلاء: هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمته، فهم خلفاؤه، وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

***

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

---

(١) ٣٥١ طريق الهجرتين.

[1]قد اختلف في تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه، وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة، ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته،، فإن الحاكم في هذه المسألة هو العلم؛ فيه وإليه وعنده؛ يقع التحاكم والتخاصم، والمفضل منهما من حكم له بالفضل.

فإن قيل: فكيف يقبل حكمه لنفسه؟ قيل: وهذا أيضًا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه، فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه؛ لأجل مظنة التهمة والعلم لا تلحقه تهمة في حكمه لنفسه، فإنه إذا حكم؛ حكم بما تشهد العقول والفطر بصحته وتتلقاه بالقبول، ويستحيل حكمه لتهمة. فإنه إذا حكم بها: انعزل عن مرتبته، وانحط عن درجته؛ فهو الشاهد المزكي العدل، والحاكم الذي لا يجور ولا يعزل، فإن قيل: فماذا حكمه في هذه المسألة التي ذكرتموها؟.

قيل: هذه المسألة كثر فيها الجدال، واتسع المجال، وأدلى كل منهم بحجته واستعلى بمرتبته. والذي يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع: الكلام في أنواع مراتب الكمال، وذكر الأفضل منها، والنظر في أي هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه؟

فهذه الأصول الثلاثة؛ تبين الصواب، ويقع بها فصل الخطاب.

فأما مراتب الكمال فأربع: النبوة، والصديقية، والشهادة، والولاية.

وقد ذكرها الله سبحانه في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

وذكر تعالى هؤلاء الأربع في سورة الحديد: فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله، ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه.

ثم ذكر مراتب الخلائق: شقيهم، وسعيدهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ

(١) ٨٠ مفتاح جـ١.

وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٨، ١٩].

وذكر المنافقين قبل ذلك؛ فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد: شقيهم، وسعيدهم.

والمقصود أنه ذكر فيها المراتب الأربعة: الرسالة، والصديقية، والشهادة والولاية، فأعلا هذه المراتب: النبوة والرسالة، ويليها الصديقية، فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل، ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة، فإن جرىٰ قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها؛ كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصديقية، وإن سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها؛ كان أفضل من مداد العالم الذي قصر عنها، فأفضلهما؛ صديقهما فإن استويا في الصديقية؛ استويا في المرتبة، والله أعلم.

والصديقية هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول: علمًا، وتصديقًا؛ وقيامًا. فهي راجعة إلىٰ نفس العلم، فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول، وأكمل تصديقًا له؛ كان أتم صديقية، فالصديقية شجرة: أصولها؛ العلم، وفروعها، التصديق، وثمرتها، العمل. فهذه كلمات جامعة في مسألة العالم والشهيد، وأيهما أفضل؟

(١) وأما تقديم النبيين علىٰ الصديقين فلما ذكره(٢)، ولكون الصديق تابعًا للنبي، فإنما استحق اسم الصديق؛ بكمال تصديقه للنبي فهو تابع محض، وتأمل تقديم الصديقين علىٰ الشهداء، لفضل الصديقين عليهم، وتقديم الشهداء علىٰ الصالحين؛ لفضلهم عليهم. اهـ.

(٣) وفي الصحيحين: عن أنس بن مالك قال: مر بجنازة فأثني عليها خير، فقال نبي

---

(١) ٧٠ بدائع جـ١.

(٢) أي من الفضل والشرف، كما يقدم صفحة ٦٣ السطر الرابع من البدائع جـ١. اهـ (ج).

(٣) ٩٠ حادي الأرواح.

الله ﷺ: «وجبت وجبت وجبت»، ومر بجنازة فأثنى عليها شر فقال: «وجبت وجبت وجبت»، فقال عمر: فداك أبي وأمي، مر بجنازة فأثنى عليها خير فقلت: «وجبت وجبت وجبت»، ومر بجنازة فأثنى عليها شر فقلت: «وجبت وجبت وجبت» فقال رسول الله ﷺ: «من أثنيتم عليه خيرًا، وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًّا؛ وجبت له النار، وأنتم شهداء الله في الأرض»(١).

وفي الحديث الآخر: «يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «بالثناء الحسن، وبالثناء السيء»(٢).

وبالجملة: فأهل الجنة؛ أربعة أصناف ذكرهم الله ﷻ في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩] فنسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه.

(٣)**المسألة الثانية**: وهي أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا؟ فهي أيضًا مسألة شريفة كبيرة القدر.

وجوابها: أن الأرواح قسمان: أرواح معذبة؛ وأرواح منعمة.

فالمعذبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي.

والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة؛ تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا، وما يكون من أهل الدنيا؛ فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٧) ومسلم (رقم ٩٤٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٢٩) وشرح النووي (٧/ ١٨-١٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٩٢ رقم ٧٣٨٤) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٠٥٩) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٧٨ رقم ٣٨٢) والروياني في مسنده (٢/ ٥٠٦ رقم ١٥٤٠) والديلمي في الفردوس (٥/ ٥٢٤ رقم ٨٩٦٨) وابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ٢٨ رقم ٩٧٥) والفاكهي في أخبار مكة (٥/ ١٠٠ رقم ٢٩٠٨).

(٣) ١٩ الروح.

وروح نبينا محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، في الرفيق الأعلى قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ وهذه المعية ثابتة: في الدنيا، وفي دار البرزخ، وفي دار الجزاء، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة.

وروى جرير، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا، فإذا متَّ؛ رفعت فوقنا؛ فلم نرك فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[(١)].

وقال الشعبي: جاء رجل من الأنصار وهو يبكي إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: «ما يبكيك يا فلان؟» فقال: يا نبي الله والله الذي لا إله إلا هو؛ لأنت أحب إليَّ من أهلي ومالي، والله الذي لا إله إلا هو؛ لأنت أحب إليَّ من نفسي، وأنا أذكرك أنا وأهلي، فيأخذني كذا؛ حتى أراك فذكرت موتك وموتي فعرفت أني لن أجامعك إلا في الدنيا، وأنك ترفع في النبيين، وعرفت أني إن دخلت الجنة كنت في منزل أدنى من منزلك، فلم يرد النبي ﷺ شيئًا فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(٢)] إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

***

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ١٦٣) وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٩٧ رقم ٥٥٧٧).

(٢) أخرجه هناد بن السري في الزهد (١/ ١١٧-١١٨ رقم ١٤٨) والطبراني في الصغير (رقم ٥٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٣١ رقم ١٣٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٤٠) والضياء المقدسي في صفة الجنة (رقم ٢٠) بتحقيقي وهو من منشورات دار بلنسية بالرياض. وهو حديث حسن.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

(١)قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧]. جمعت بين: التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والحض علىٰ فعل الخير والزجر عن فعل الشر؛ إذ قوله: ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ يتضمن: حثهم علىٰ كسب الخير، وزجرهم عن كسب الشر.

(٢)قوله: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨]. فذم من لم يفقه كلامه، والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد علىٰ مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا؛ تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم.

وقد كان الصحابة يستدلون علىٰ إذن الرب تعالىٰ وإباحته بإقراره وعدم إنكاره عليهم في زمن الوحي، وهذا استدلال علىٰ المراد بغير لفظ، بل بما عرف من موجب أسمائه وصفاته، وأنه لا يقر علىٰ باطل حتىٰ يبينه.

وكذلك استدلال الصديقة الكبرىٰ أم المؤمنين خديجة، بما عرفته من: حكمة الرب تعالىٰ، وكمال أسمائه، وصفاته، ورحمته؛ أنه لا يُخزي محمدًا ﷺ، فإنه يصلُ الرحم، ويحمل الكلَّ، ويقري الضيف، ويعين علىٰ نوائب الحق، وأن من كان بهذه المثابة؛ فإن العزيز

(١) ٨ بدائع جـ٤.
(٢) ٢١٩ أعلام جـ١.

الرحيم الذي هو أحكم الحاكمين وإله العالمين؛ لا يُخزيه، ولا يسلط عليه الشيطان.

وهذا استدلال منها قبل ثبوت النبوة والرسالة، بل استدلال على صحتها وثبوتها في حق من هذا شأنه، فهذا معرفة منها بمراد الرب تعالى وما يفعله من أسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، وإحسانه، ومجازاته المحسن بإحسانه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين.

وقد كانت الصحابة؛ أفهم الأمة لمراد نبيها وأتبع له، وإنما كانوا يدندنون حول معرفة مراده ومقصوده، ولم يكن أحد منهم يظهر له مراد رسول الله ﷺ، ثم يعدلُ عنه إلى غيره البتة.

والعلم بمراد المتكلم؛ يعرف: تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته، والحوالة على الأول أوضح الأرباب الألفاظ، وعلى الثاني؛ أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر.

وقد يعرض لكل من الفريقين ما يخل بمعرفة مراد المتكلم، فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها، وهضمها تارة، وتحميلها فوق ما أريد بها تارة، ويعرض لأرباب المعاني فيها؛ نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ، فهذه أربع آفات هي منشأ غلط الفريقين.

[(١)]قال القدري: قال الله سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وعند الجبري أن الكل فعل الله، وليس من العبد شيء، قال الجبري: في الكلام استفهام مقدر تقديره أفمن نفسك؟ فهو إنكار لا إثبات.

وقرأها بعضهم فمن نفسك؟ بفتح الميم ورفع نفسك، أي: من أنت حتى تفعلها؟ قال: ولابد من تأويل الآية، وإلا ناقض قوله في الآية التي قبلها: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] فأخبر أن الحسنات والسيئات جميعًا من عنده لا من عند العبد.

---

(١) ١٥٩ شفاء العليل.

قال السني: أخطأتما جميعًا في فهم الآية أقبح الخطأ، ومنشأ غلطكما أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها: الطاعات، والمعاصي التي هي فعل العبد الاختياري، وهذا وهم محض في الآية؛ وإنما المراد بها النعم والمصائب.

ولفظ الحسنات والسيئات في كتاب الله يراد به هذا تارة وهذا تارة.

فقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠]، وقوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] المراد في هذا كله النعم والمصائب(١).

وأما قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] فالمراد في هذا كله؛ الأعمال المأمور بها والمنهي عنها، وهو سبحانه إنما قال: ما أصابك، ولم يقل: ما أصبت وما كسبت.

فما يفعله العبد يقال فيه: ما أصبت وكسبت وعملت كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وكقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: ١١٢] وقول المذنب التائب: يا رسول الله أصبت ذنبًا فأقم عليَّ كتاب الله، ولا يقال في هذا: أصابك ذنب وأصابتك سيئة.

---

(١) تقدم في آل عمران نقلاً عن زاد المعاد ص٢٦٦ جـ٢: فالحسنة والسيئة هنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله منَّ بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضل ربه وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه. ا.هـ (ج).

وما يفعل به بغير اختياره يقال فيه: أصابك كقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] وقوله: ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ [التوبة: ٥٠] وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] فجمع الله في الآية بين: ما أصابوا بفعلهم وكسبهم، وما أصابهم مما ليس فعلًا لهم، وقوله: ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٥٢] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] وقوله: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

فقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ﴾ [النساء: ٧٩] هو من هذا القسم الذي يصيب العبد لا باختياره، وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية.

قال أبو العالية: وإن تصبكم حسنة؛ هذا في السراء، وإن تصبهم سيئة؛ هذا في الضراء.

قال السدي: الحسنة: الخصب تنتج مواشيهم وأنعامهم ويحسن حالهم؛ فتلد نساؤهم الغلمان، قالوا: هذا من عند الله، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ قال: الضر في أموالهم تشاءموا بمحمد، وقالوا: هذه من عنده، قالوا: بتركنا ديننا واتباعنا محمدًا أصابنا ما أصابنا، فأنزل الله سبحانه ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾(1) [النساء: ٧٨]، الحسنة والسيئة(2).

***

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٨).

(٢) هذا بحث مطول، وهو مناظرة بين: سني، وقدري، وجبري في عدة صفحات لمن أراده، اهـ (ج).

[1]إن أسباب العذاب من النفس وغاياتها اتباع أهوائها، وأما أسباب الخير فمن ربها وفاطرها، وهو الغاية والمقصود بها فهي به وله، قال الله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، فالحسنات مصدرها من الله وغايتها منتهية إليه، والسيئات من النفس وهي غايتها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

فليس للحسنات سبب إلا مجرد فضل الله ومنته، والأعمال الصالحة وإن كانت أسباب النعم والخيرات، فمن وفقه لها وأعانه عليها وشاءها له سواه؟!

فالنعم وأسبابها من الله، وأما السيئات التي أسلفها العبد فمن نفسه، وسببها: جهله، وظلمه، فإذا ترتبت عليها سيئات الجزاء كان كالسبب والمسبب من نفسه، فليس للجزاء السيء في الدنيا والآخرة سبب؛ إلا ذنوب العبد التي من نفسه، فالشر كله من نفسه، والخير كله من ربه، فإن أكثره ليس للعبد فيه مدخل، فإن الله هو الذي أنعم عليه به.

ولهذا قال بعض السلف: «لا يرجونَّ عبد إلا ربه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه»[2]. ولهذا قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

فخص بالخطاب تنبيهًا على الأدنى، ولم يخرجه في صورة العموم، لئلا يتوهم متوهم أنه عام مخصوص، فكان ذكر الخاص؛ أبلغ في العموم وقصده من ذكر العام، فتأمله فإنه أسلوب عجيب في القرآن.

والمقصود أن سبب الحسنات كلها، هو الحي القيوم، الذي لم يزل ولا يزال، وهو الغاية المقصودة من فعلها فتدوم بدوام سببها، وأما السيئات فسببها وغايتها؛ منقطع

(١) ٣٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) أخرجه العدني في الإيمان (رقم ١٩) عن علي بن أبي طالب ﷺ، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٢/ ٥١٠) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٣٢٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ٢٣١).

هالك فلا يجب دوامها.

فتأمل هذا الوجه فإنه من ألطف الوجوه، فإن الأسباب تضمحل باضمحلال غاياتها وتبطل ببطلانها، ولهذا كان كل عمل باطلًا؛ إلا ما أريد به وجه الله، فإن جزاءه وثوابه يدوم بدوامه، وما لم يرد به وجهه وأريد به ما يضمحل ويفنى؛ فإنه يفنى بفنائه، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذه هي الأعمال التي كانت لغيره، فكما أن ما لا يكون به لا يكون؛ فما كان لغيره لا يدوم، ولهذا كان لبعض حكم الله تعالى في تخريب هذا العالم، أن يشهد من عبد شيئًا غيره أنه لا يصلح للعبادة والألوهية، ويشهد العابد حال معبوده.

والمقصود أن النعم؛ تدوم بدوام سببها وغايتها، وأن الشرور والآلام؛ تبطل وتضمحل باضمحلال سببها...

***

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

[1]قالوا: ولو كان القياس حجة؛ لما تعارضت الأقيسة، وناقض بعضها بعضًا، فترى كل واحد من المتنازعين من أرباب القياس؛ يزعم أن قوله هو القياس، فيبدي منازعه قياسًا آخر ويزعم أنه هو القياس، وحجج الله وبيناته لا تتعارض، ولا تتهافت.

قالوا: فلو جاز القول بالقياس في الدين؛ لأفضى إلى وقوع الاختلاف الذي حذَّر الله منه ورسوله، بل عامة الاختلاف بين الأمة إنما نشأ من جهة القياس، فإنه إذا ظهر لكل واحد من المجتهدين قياس مقتضاه نقيض حكم الآخر؛ اختلف ولابد وهذا يدل على أنه من عند غير الله، من ثلاثة أوجه:

أحدها: صريح قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) ٢٥٨ أعلام جـ١.

الثاني: أن الاختلاف سببه: اشتباه الحق، وخفاؤه، وهذا لعدم العلم الذي يميز بين الحق والباطل.

الثالث: أن الله سبحانه ذمَّ الاختلاف في كتابه، ونهى عن التفرق والتنازع، فقال: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] والزبر: الكتب، أي كل فرقة صنفوا كتبًا: أخذوا بها، وعملوا بها، ودعوا إليها؛ دون كتب الآخرين كما هو الواقع سواء. وقال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف[(١)].

وقال النبي ﷺ: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[(٢)] وقال: «**اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا**»[(٣)] وكان التنازع والاختلاف أشدَّ شيء على رسول الله ﷺ، وكان إذا رأى من الصحابة اختلافًا يسيرًا في فهم النصوص يظهر في وجهه؛

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٩١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه واللالكائي في السنة، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٥٣٤ رقم ٢١٦١) والحاكم (١/ ٧٦٦ رقم ٢١١٥) وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٢٦ رقم ١٥٥٦) والنسائي في الكبرى (١/ ٢٨٦ رقم ٨٨١) وأبو داود (رقم ٦٦٤) وابن ماجه (رقم ٩٧٦) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٢٤ رقم ٧٣٩) وفي الكبير (١٠/ ١٤٥ رقم ١٠٢٦١) وأحمد (٤/ ٢٨٥) وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص ٢٦٥) وانظر: فيض القدير (٢/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٠، ٥٠٦١) ومسلم (رقم ٢٦٦٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٠١) وشرح النووي (١٦/ ٢١٨).

حتى كأنما فقئ فيه حبُّ الرُّمَّان ويقول: «أبهذا أمرتم»[١]؟.

ولم يكن أحد بعده أشدَّ عليه الاختلاف من عمر ﷺ.

وأما الصديق، فصان الله خلافته عن الاختلاف المستقر في حكم واحد من أحكام الدين، وأما خلافة عمر؛ فتنازع الصحابة تنازعًا يسيرًا في قليل من المسائل جدًّا، وأقر بعضهم بعضًا على اجتهاده من غير ذم ولا طعن، فلما كانت خلافة عثمان؛ اختلفوا في مسائل يسيرة صَحِبَ الاختلاف فيها بعض الكلام واللوم، كما لام عليٌّ عثمان في أمر المتعة وغيرها، ولامه عمَّار بن ياسر وعائشة في بعض مسائل قسمة الأموال والولايات، فلما أفضت الخلافة إلى علي كرم الله وجهه في الجنة؛ صار الاختلاف بالسيف.

والمقصود: أن الاختلاف مناف لما بعث الله به رسوله، قال عمر ﷺ: لا تختلفوا، فإنكم إن اختلفتم؛ كان من بعدكم أشدَّ اختلافًا.

[٢]وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه وأخبر أنهم أهل العلم، ومعلوم أن الاستنباط؛ إنما هو استنباط المعاني والعلل ونسبة بعضها إلى بعض، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله ومشبهه ونظيره، ويلغى ما لا يصح، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط.

قال الجوهري: الاستنباط كالاستخراج، ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ، فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط، إذ موضوعات الألفاظ لا تُنال بالاستنباط، وإنما تنال به العلل والمعاني والأشباه والنظائر ومقاصد المتكلم؛ والله سبحانه ذم من سمع ظاهرًا مجردًا فأذاعه وأفشاه، وحمد من استنبط من أولي العلم حقيقته ومعناه، يوضحه أن الاستنباط؛ استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه،

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٨٥) والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ١٦٥ رقم ٥١٥) وفي الكبير (٦/ ٣٧ رقم ٥٤٤٢) وأبو يعلى (٥/ ٤٢٩ رقم ٣١٢١) وأحمد (٢/ ١٧٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٦): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات أثبات. وقال المناوي في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٢) ٢٢٥ أعلام جـ١.

ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين.

ومن هذا قول علي بن أبي طالب ﷺ وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه[(١)].

ومعلوم أن هذا الفهم؛ قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه؛ فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره، ومراد المتكلم بكلامه ومعرفة حدود كلامه؛ بحيث لا يدخل فيها غير المراد، ولا يخرج منها شيء من المراد.

***

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

[(٢)]قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] وكل من أعان غيره على أمر: بقوله أو فعله، فقد صار شفيعًا له، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلها، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة؛ فيصير له شفعًا في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية؛ كل متعاونين على خير أو شر، بقول أو عمل.

ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه كان إذا جاءه طالب حاجة يقول: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما أحب»[(٣)]...

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٠٤).
(٢) ٤٠٣ روضة.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤٣٢) ومسلم (رقم ٢٦٢٧).

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً ﴿٨٨﴾ ﴾.

(١)قال الفراء: أركسهم ردهم إلى الكفر، وقال أبو عبيدة: يقال ركست الشيء وأركسته لغتان: إذا رددته، والركس قلب الشيء على رأسه، أو رد أوله على آخره، والارتكاس الارتداد، قال أمية:

فأركسوا في حميم النار إنهم　　كانوا عصاة وقالوا الإفك والزورا(٢)

ومن هذا يقال للروث: الركس؛ لأنه رد إلى حال النجاسة، ولهذا المعنى سمي رجيعًا، والركس والنكس والمركوس والمنكوس بمعنى واحد.

قال الزجاج: أركسهم نكسهم وردهم، والمعنى: أنه ردهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار.

وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن إركاسه كان بسبب كسبهم وأعمالهم، كما قال: ﴿ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] فهذا توحيده وهذا عدله، لا ما تقوله القدرية المعطلة من أن التوحيد؛ إنكار الصفات، والعدل؛ التكذيب بالقدر.

...(٣)وأشار بالقلب المنكوس - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء: ٨٨] أي: نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقًّا ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

---

(١) ١٠١ شفاء.

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥/ ١٩٢) وعزاه إلى أمية بن أبي الصلت.

(٣) ١٣ إغاثة جـ١.

وأشار بالقلب الذي له مادتان، إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه؛ حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر؛ أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان؛ أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع.

***

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

[(١)]اختلف الناس: هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أم لا؟

فقال الجمهور: التوبة تأتي على كل ذنب. فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل. وإحدى الروايتين عن أحمد، وقد ناظر ابن عباس في ذلك أصحابه، فقالوا: أليس قد قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، فقال: كانت هذه الآية في الجاهلية. وذلك أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا. فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن؛ لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة فنـزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨].. فهذه في أولئك، وأما التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل؛ فجزاؤه جهنم.

وقال زيد بن ثابت: «لما نزلت التي في الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ عجبنا من لينها، فلبثنا سبعة أشهر. ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة»

---

(١) ٣٩٢ مدارج جـ١.

وأراد بالغليظة؛ هذه الآية التي في سورة النساء، وباللينة؛ آية الفرقان، قال ابن عباس: **«آية الفرقان مكية، وآية النساء مدنية، نزلت ولم ينسخها شيء»**.

قال هؤلاء: ولأن التوبة من قتل المؤمن عمدًا متعذرة؛ إذ لا سبيل إليها إلا باستحلال، أو إعادة نفسه ـ التي فوَّتها عليه ـ إلى جسده؛ إذ التوبة من حق الآدمي؛ لا تصح إلا بأحدهما. وكلاهما متعذر على القاتل، فكيف تصح توبته من حق آدمي لم يصل إليه، ولم يستحله منه؟ ولا يرد عليهم هذا في المال إذا مات ربه ولم يوفِّه إياه، لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة.

قالوا: ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل، وتصح التوبة منه؛ فإن ذلك محض حق الله؛ فالتوبة منه ممكنة. وأما حق الآدمي: فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله؛ وقد تعذر...

(1)واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسلَّم نفسه، فقتل قصاصًا، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟

فقالت طائفة: لا يبقى عليه شيء، لأن القصاص حده والحدود كفارة لأهلها، وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم، وهم قائمون مقامه في ذلك؛ فكأنه قد استوفاه بنفسه؛ إذ لا فرق بين: استيفاء الرجل حقه بنفسه، أو بنائبه، ووكيله.

يوضح هذا: أنه أحد الجنايتين، فإذا استوفيت منه؛ لم يبق عليه شيء، كما لو جنى على طرفه فاستقاد منه؛ فإنه لا يبقى له عليه شيء.

وقالت طائفة: المقتول قد ظلم، وفاتت عليه نفسه، ولم يستدرك ظلامته. والوارث إنما أدرك ثأر نفسه، وشفاء غيظه، وأي منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأي ظلامة استوفاها من القاتل؟

قالوا: فالحقوق في القتل ثلاثة: حق لله، وحق للمقتول، وحق للوارث، فحق الله؛ لا يزول إلا بالتوبة، وحق الوارث؛ قد استوفاه بالقتل، وهو مخير بين ثلاثة أشياء: بين

(١) ٣٩٨ مدارج جـ١.

القصاص، والعفو مجانًا، أو إلىٰ مال. فلو أحله، أو أخذ منه مالاً لم يسقط حق المقتول بذلك، فكذلك إذا اقتص منه؛ لأنه أحد الطرق الثلاثة في استيفاء حقه؛ فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين؟!

قالوا: ولو قال القتيل: لا تقتلوه؛ لأطالبه بحقي يوم القيامة، فقتلوه، أكان يسقط حقه أو لم يسقطه؟ فإن قلتم: يسقط؛ فباطل؛ لأنه لم يرض بإسقاطه، وإن قلتم: لا يسقط؛ فكيف تسقطونه إذا اقتص منه، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه؟ وهذه حجج كما ترىٰ في القوة، لا تندفع إلا بأقوىٰ منها أو بأمثالها.

فالصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال: إذا تاب القاتل من حق الله، وسلم نفسه طوعًا إلىٰ الوارث، ليستوفي منه حق موروثه؛ سقط عنه الحقان، وبقي حق الموروث لا يضيعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل؛ تعويض المقتول؛ لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله، والتوبة النصوح تهدم ما قبلها، فيعوض هذا عن مظلمته، ولا يعاقب هذا لكمال توبته، وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلمًا في الصف، ثم أسلم وحسن إسلامه، فإن الله سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول، ويغفر للكافر بإسلامه، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلمًا؛ فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله.

وعلىٰ هذا إذا سلم نفسه وانقاد، فعفا عنه الولي، وتاب القاتل توبة نصوحًا؛ فالله تعالىٰ يقبل توبته، ويعوض المقتول.

فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده، والحكم بعد ذلك لله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨].

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

(١) بعث سرية إلىٰ إضَم، وكان منهم: أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومُحَلِّم بن جثّامة ابن قيس؛ في نفر من المسلمين، فمرَّ بهم عامر بن الأضبط الأشجعي علىٰ قعود له، معه مُتيع له ووطْبٌ من لبن، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، وحمل عليه محلم ابن جثامة فقتله، لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتبعه، فلما قدموا علىٰ رسول الله ﷺ، أخبروه الخبر، فنزل فيهم القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤]، فلما قدموا أخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**أقتلته بعد ما قال: آمنت بالله؟**»(٢).

ولما كان عام خيبر جاء عيينة بن بدر يطلب بدم عامر الأضبط الأشجعي ـ وهو سيد قيس ـ وكان الأقرع بن حابس يرد عن محلِّم ـ وهو سيد خندف ـ فقال رسول الله ﷺ لقوم عامر: «**هل لكم أن تأخذوا الآن منا خمسين بعيرًا، وخمسين إذا رجعنا إلىٰ المدينة؟**». فقال عيينة بن بدر: والله لا أدعه حتىٰ أذيق نساءه من الحزن مثل ما أذاق نسائي، فقال رجل من بني ليث ـ يقا له: ابن مكيتل، وهو قصير من الرجال ـ فقال: يا رسول الله، ما أجد لهذا القتيل في غُرَّة الإسلام شبهًا إلا كغنم وردت، فشربت أولاها، فنفرت أخراها، أُسنن اليوم وغيّر غدًا. فقال رسول الله ﷺ: «**هل لكم أن تأخذوا خمسين بعيرًا الآن، وخمسين إذا رجعنا إلىٰ المدينة؟**» فلم يزل بهم حتىٰ رضوا بالدية، فقال قوم محلم بن جثامة: ائتوا به حتىٰ يستغفر له رسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل طِوال، ضربُ

(١) ٣٦٣ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٢٢) والضياء المقدسي في المختارة (٩/ ٢٤٧-٢٤٨ رقم ٢١٩، ٢٢٠) وأحمد (٦/ ١١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٨): رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. وله شاهد من حديث أسامة الذي قتل رجلًا بعد ما قال: لا إله إلا الله. أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٩) ومسلم (رقم ٩٦). وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٥) وشرح النووي (٢/ ١٠٠).

اللحم، في حُلَّة قد تهيأ للقتل، فلما قام بين يديه قال: «**اللهم لا تغفر لمحلم**»، قالها ثلاثًا، فقام، وإنه ليتلقَّى دموعه بطرف ثوبه. قال ابن إسحاق: وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك(١).

قال ابن إسحاق: وحدثني سالم بن النضر قال: لم يقبلوا الدية حتى قام الأقرع بن حابس، فخلا بهم، فقال: يا معشر قيس، سألكم رسول الله ﷺ قتيلًا تتركونه؛ ليصلح به بين الناس، فمنعتموه إياه، أفأمنتم أن يغضب عليكم رسول الله ﷺ فيغضب الله عليكم لغضبه، ويلعنكم رسول الله ﷺ فيلعنكم الله بلعنته؟ والله لتسلمنَّه إلى رسول الله ﷺ، أو لآتين بخمسين من بني تميم، كلهم يشهدون أن القتيل ما صلى قط، فلأبطلنَّ دمه، فلما قال ذلك أخذوا الدية.

***

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

(٢)نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩].

وقد يأتي بين الفاعلين نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

(١) أخرجه ابن أبي عاصم الشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٢٣-٢٢٤ رقم ٩٧٨) وفي الديات (ص ٥٧-٥٨) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٢٤٧ رقم ٨٠٦) وأبو داود (رقم ٤٥٠٣).

(٢) ٨ بدائع جـ٤.

وقد يأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

فالأعمى والبصير: الجاهل والعالم، والظلمات والنور: الكفر والإيمان، والظل والحرور: الجنة والنار، والأحياء والأموات: المؤمنون والكفار.

(١) ذكر ابن جرير، عن هشام بن حسان، عن جبلة بن عطية، عن ابن محيريز قال: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ قال: هي سبعون درجة، ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين عامًا.

وقال ابن المبارك: أنبأنا سلمة بن نبيط، عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤] قال: بعضهم أفضل من بعض، فيرى الذي قد فضل به فضله، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد من الناس.

وتأمل قوله كيف أوقع التفضيل أولًا بدرجة، ثم أوقعه ثانيًا بدرجات.

فقيل: الأول: بين القاعد المعذور والمجاهد، والثاني: بين القاعد بلا عذر والمجاهد. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

(١) ٥٩ حادي الأرواح.

يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝﴾ [الأنفال: ٢- ٤].

وفي الصحيحين: من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(١).

ولفظ البخاري: «**في الأفق**» وهو أبين، والغابر هو الذاهب الماضي الذي قد تدلى للغروب، وفي التمثيل به دون الكوكب المسامت للرأس وهو أعلى فائدتان:

إحداهما: بعده عن العيون. والثانية: أن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، وإن لم تسامت العليا السفلى كالبساتين الممتدة من رأس الجبل إلى ذيله، والله أعلم.

وفي الصحيحين أيضًا: من حديث سهل بن سعد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرفة في الجنة كما ترون الكوكب في أفق السماء**»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا فزارة: أخبرني فليح، عن هلال يعني ابن علي، عن عطاء، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون أو ترون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع في تفاضل الدرجات**»، قالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(٣)، ورجال هذا الإسناد احتج بهم البخاري في صحيحه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٦) ومسلم (رقم ٢٨٣١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٥٥) ومسلم (رقم ٢٨٣٠) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٢٨) (١٧/ ١٦٩).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٩) وابن منده في الإيمان (رقم ٢٠٦) والترمذي (رقم ٢٥٥٦) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨١ رقم ٥٦٤٤): رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي هذا الحديث «**الغارب**» وفي حديث أبي سعيد الخدري: «**الغابر**»، وقوله: «**الطالع**» صفة للكوكب، وصفه بكونه غاربًا وبكونه طالعًا، وقد صرح بهذا المعنى في الحديث الذي رواه ابن المبارك، عن فليح بن سلمان، عن هلال بن علي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون في الغرف كما يرى الكوكب الشرقي والكوكب الغربي في الأفق في تفاضل الدرجات**»، قالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(١)، وهذا على شرط البخاري أيضًا.

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المتحابين لترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي، فيقال: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله ﷻ**»(٢).

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة مائة درجة، ولو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن؛ وسعتهم**»(٣).

وفي المسند عنه أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة؛ حتى يقرأ آخر شيء معه**»(٤) وهذا صريح في أن درج الجنة تزيد على مائة درجة.

وأما حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه: عن النبي ﷺ، قال: «**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٥) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٢٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩) وأبو يعلى (٢/ ٥٣٠ رقم ١٣٩٨) والترمذي (رقم ٢٥٣٢) وقال: حديث غريب، وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٦٦) (٣/ ٣٦١).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٧٣٩ رقم ٢٠٣٠) وابن حبان (٣/ ٤٣ رقم ٧٦٦) والهيثمي في الموارد (١٧٩٠) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢ رقم ٨٠٥٦) وأبو داود (رقم ١٤٦٤) وابن ماجه (رقم ٣٧٨٠) والترمذي (رقم ٢٩١٤) وقال: حديث حسن صحيح.

والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[1] فإما أن تكون هذه المائة من جملة الدرج، وإما أن تكون نهايتها هذه المائة، وفي ضمن كل درجة درجة دونها.

ويدل على المعنى الأول؛ حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى هؤلاء الصلوات الخمس، وصام شهر رمضان، كان حقًّا على الله أن يغفر له هاجر أو قعد، حيث ولدته أمه»، قلت: يا رسول الله ألا أخرج فأوذن الناس؟ قال: «لا، ذر الناس يعملون، وإن في الجنة مائة درجة، بين كل درجتين منها مثل ما بين السماء والأرض، وأعلى درجة منها الفردوس، وعليها يكون العرش وهي أوسط شيء في الجنة، ومنها تفجر أنهار الجنة، وإذا سألتم الله فسلوه الفردوس»[2] رواه الترمذي هكذا بلفظه.

وروى أيضًا من حديث عطاء، عن عبادة بن الصامت؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة»[3] ثم ذكر نحو حديث معاذ.

وفيه أيضًا من حديث عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام»[4] قال: هذا حديث حسن غريب.

وفيه أيضًا من حديث أبي سعيد يرفعه: «إن في الجنة مائة درجة، لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن؛ لوسعتهم»[5].

ورواه أحمد بدون لفظة «في» كما تقدم، وقد رويت هذه الأحاديث بلفظة «في»

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٩٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٣٠) وله شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٣) وأحمد (٢/ ٣٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٣١).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٢٩).

(٥) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٣٢) وقال: هذا حديث غريب.

وبدونها، وإن كان المحفوظ ثبوتها، فهي من جملة درجها، وإن كان المحفوظ سقوطها؛ فهي الدرج الكبار المتضمنة للدرج الصغار، والله أعلم.

ولا تناقض بين تقدير ما بين الدرجتين بالمائة وتقديره بالخمسمائة، لاختلاف السير في السرعة والبطء، والنبي ﷺ ذكر هذا تقريبًا للأفهام، ويدل عليه حديث زيد ابن الحباب: حدثنا عبد الرحمن بن شريح: حدثني أبو هانئ التجيبي: سمعت أبا علي التجيبي: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مائة درجة في الجنة، ما بين الدرجتين ما بين السماء والأرض، أو بعد ما بين السماء والأرض»، قلت: يا رسول الله لمن؟ قال: «للمجاهدين في سبيل الله»(١).

(٢)فنفى ﷻ التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد، وبين المجاهدين، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات.

وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس، من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات، إن كانوا هم القاعدين الذين فضل عليهم أولو الضرر، فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقًا، وعلى هذا فما وجه استثناء أولي الضرر من القاعدين وهم لا يستوون والمجاهدون أصلًا؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدًا، فهذا وجه الإشكال.

ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله، فاختلف القراء في إعراب ﴿غَيْرُ﴾ فقرئ رفعاً ونصبًا وهما في السبعة، وقرئ بالجر في غير السبعة، وهي قراءة أبي حيوة، فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء؛ لأن غيرًا يعرب في الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد إلا وهو النصب، هذا هو الصحيح.

(١) أخرجه عبد بن حميد (١/ ٢٨٨ رقم ٩٢٢).

(٢) ٣٥٦ طريق الهجرتين.

وقالت طائفة: إعرابها نصب على الحال، أي لا يستوي القاعدون غير مضرورين، أي: لا يستوون في حال صحتهم هم والمجاهدون، والاستثناء أصح، فإن «غير» لا تكاد تقع حالاً في كلامهم إلا مضافة إلى نكرة، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ﴾(١). وقوله ﷻ في أول المائدة: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ [المائدة: ١].

وقوله ﷺ: «مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى»(٢)، فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها، كقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧] ولو قلت: مرحبًا بالوفد غير الخزايا ولا الندامى، لجررت غير، هذا هو المعروف من كلامهم، والكلام في عدم تعرف غير بالإضافة وحسن وقوعها إذ ذاك حالاً؛ له مقام آخر.

وأما الرفع فعلى النعت للقاعدين، هذا هو الصحيح.

وقال أبو إسحاق وغيره: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره الذين هم غير أولي الضرر، والذي حمله على هذا ظنه أن غيرًا لا تقبل التعريف بالإضافة فلا تجري صفة للمعرفة، وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها؛ سوى أن غيرًا توغلت في الإبهام؛ فلا تتعرف بما يضاف إليه.

وجواب هذا: أنها إذا دخلت بين متقابلين؛ لم يكن فيها إبهام؛ لتعيينها ما تضاف إليه، وأما قراءة الجر ففيها وجهان أيضًا: أحدهما: ـ وهو الصحيح ـ أنه نعت للمؤمنين.

والثاني: ـ وهو قول المبرد ـ أنه بدل منه، بناء على أنه نكرة فلا تنعت به المعرفة، وعلى الأقوال كلها فهو مفهوم معنى الاستثناء، وإن نفي التسوية غير مسلط على ما

(١) البقرة: ١٧٣، الأنعام: ١٤٥، النحل: ١١٥.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٣) ومسلم (رقم ١٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٣١).

أضيف إليه غيره.

وقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥]، هو مبين لمعنى نفي المساواة، قالوا: والمعنى: فضل الله المجاهد على القاعد من أولي الضرر درجة واحدة؛ لامتيازه عنه بالجهاد بنفسه وماله.

ثم أخبر ﷻ أن الفريقين كليهما؛ موعود بالحسنى فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المجاهد، والقاعد المضرور؛ لاشتراكهما في الإيمان.

قالوا: وفي هذا دليل على تفضيل الغني المنفق على الفقير؛ لأن الله أخبر أن المجاهد بماله ونفسه؛ أفضل من القاعد، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس.

وأما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢] فأين مقام من حكم له بالتفضيل إلى مقام من نفى عنه الحرج.

قالوا: فهذا حكم القاعد من أولي الضرر والمجاهد، وأما القاعد من غير أولي الضرر فقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وقوله: ﴿دَرَجَٰت﴾ قيل: هو نصب على البدل من قولهن: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقيل: تأكيد له وإن كان بغير لفظه؛ لأنه هو في المعنى.

قال قتادة: كان يقال: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة.

وقال ابن زيد: الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع، وهي التي ذكرها الله تعالى في براءة؛ إذ يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهذه خمس، ثم قال: ﴿وَلَا

﴿يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [براءة: ١٢٠، ١٢١] فهاتان اثنتان. وقيل: الدرجات سبعون درجة، ما بين الدرجتين حُضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة.

والصحيح أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة، الذي رواه البخاري في صحيحه: عن النبي ﷺ أنه قال: **«من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقًا على الله أن يدخله الجنة؛ هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها»**، قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس بذلك؟ قال: **«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»**[١].

قالوا: وجعل ﷻ التفضيل الأول بدرجة فقط، وجعله ههنا بدرجات ومغفرة ورحمة، وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولي الضرر، فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه.

ولكن بقي أن يقال: إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقًا؛ لزم أن لا يستوي مجاهد وقاعد مطلقًا، فلا يبقى في تقييد القاعدين بكونهم من غير أولي الضرر فائدة، فإنه لا يستوي المجاهدون والقاعدون من أولي الضرر أيضًا.

وأيضًا فإن القاعدين المذكورين في الآية الذين وقع التفضيل عليهم؛ هم غير أولي الضرر، لا القاعدون الذين هم أولو الضرر، فإنهم لم يذكر حكمهم في الآية؛ بل استثناهم وبين أن التفضيل على غيرهم، فاللام في «القاعدين» للعهد؛ والمعهود هم غير أولي الضرر لا المضرورون.

وأيضًا فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد؛ له مثل أجر المجاهد، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل**

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٩٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٣).

صحيحًا مقيمًا»[١]. وقال ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا وهم معكم»، قالوا: هم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[٢].

وعلى هذا فالصواب أن يقال: الآية دلت على أن القاعدين عن الجهاد من غير أولي الضرر؛ لا يستوون هم والمجاهدون، وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين، بل هذا النوع منقسم إلى:

معذور من أهل الجهاد، غلبه عذره وأقعده عنه، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها، وإنما أقعده العجز، فهذا الذي تقتضيه أدلة الشرع؛ أن له مثل أجر المجاهد، وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية.

وهذا لأن [قاعدة الشريعة]: أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل؛ نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام.

كما دل عليه قوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[٣].

وفي الترمذي ومسند الإمام أحمد: من حديث أبي كبشة الأنماري، عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقي في ماله ربه ويصل به رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأحسن المنازل، وعبد رزضه الله علمًا ولم يرزقه مالاً، فهو يقول: لو أن لي مالاً؛ لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، وهما في الأجر سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا، فهو لا يتقي في ماله ربه، ولا يصل به رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأسوأ المنال عند الله، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٣٦) (٢/ ٥٨٥) (٦/ ١٣٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٢٣) ومسلم (رقم ١٩١١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٧) (٨/ ٢٦٢).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣١) ومسلم (رقم ٢٨٨٨) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٢٧-٣٢٨) وشرح النووي (١١/ ١٧٤) (١٨/ ١١).

أن لي مالاً؛ لعملت بعمل فلان فهو بنيته، وهما في الوزر سواء»[١].

فأخبر ﷺ أن وزر الفاعل والناوي الذي ليس مقدوره إلا بقوله دون فعله سوءا؛ لأنه أتى بالنية ومقدوره التام، وكذلك أجر الفاعل والناوي الذي اقترن قوله بنيته، وكذلك المقتول الذي اقترن قوله بنيته، وكذلك المقتول الذي سل السيف وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل، نزل منزل القاتل لنيته التامة التي اقترن بها مقدورها من السعي والحركة.

ومثل هذا قوله ﷺ: **«من دل على خير؛ فله مثل أجر فاعله»**[٢] فإنه بدلالته ونيته؛ نزل منزلة الفاعل.

ومثله: **«من دعا إلى هدى؛ فله مثل أجور من اتبعه، ومن دعا إلى ضلالة؛ كان عليه من الوزر مثل آثام من اتبعه»**[٣] لأجل نيته واقتران مقدورها بها من الدعوة.

ومثله: إذا جاء المصلي إلى المسجد ليصلي جماعة فأدركهم وقد صلوا فصلى وحده؛ كتب له مثل أجر صلاة الجماعة بنيته وسعيه، كما قد جاء مصرحًا به في حديث مروي، ومثل هذا: من كان له ورد يصليه من الليل فنام، ومن نيته أن يقوم إليه فغلب عينه نوم، كتب له أجر ورده، وكان نومه عليه صدقة.

ومثله المريض والمسافر إذا كان له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر؛ كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم.

ومثله: **«من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله ﷻ منازل الشهداء ولو مات على فراشه»**[٤]، ونظائر ذلك كثيرة.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) والترمذي (رقم ٢٣٢٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٥٠٧) وفيض القدير (٣/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٩٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٢٧) وشرح النووي (١١/ ١٦٦) (١٣/ ٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٦) وشرح النووي (١٣/ ٥٥).

والقسم الثاني: معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزمًا تامًّا، فهذا لا يستوي هو والمجاهد في سبيل الله، بل قد فضل الله المجاهدين عليه، وإن كان معذورًا؛ لأنه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول.

وقد قال النبي ﷺ في حديث عثمان بن مظعون: «**إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته**»[1] فلما كان القسم المعذور فيه هذا التفصيل؛ لم يجز أن يساوي بالمجاهد مطلقًا، ولا ينفَى عنه المساواة مطلقًا.

دلالة المفهوم لا عموم لها، فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة وعوارض الألفاظ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم؛ لا يدل على أن له عمومًا يجب اعتباره فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين: أحدهما: التخصيص، والآخر: التعليل.

فأما التخصيص: فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور؛ يقتضي نفي الحكم عما عداه وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا لا يقتضي العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم، لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى ما يسلب الحكم عن بعضها، ويثبت لبعضها ثبوت تفصيل فيه، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه: إما بشرط لا تجب مراعاته في المنطوق، وإما في وقت دون وقت، بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبدًا، ونحو ذلك من فوائد التخصيص، وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام؛ فدعوى لزوم العموم من التخصيص؛ دعوى باطلة فإثباته مجرد التحكم.

وأما التعليل فإنهم قالوا: ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له؛ يقتضي نفي

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ٤٦١ رقم ٣١٨٩) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ١٦١٦) والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٦٠٦ رقم ١٩٧٣) وأبو داود (رقم ٣١١١) ومالك (١/ ٢٣٣ رقم ٥٥٤) والطبراني في الكبير (٢/ ١٩١ رقم ١٧٧٩) وأحمد (٥/ ٤٤٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ١٦٩-١٧٠ رقم ٩٨٨٠) وابن المبارك في الجهاد (رقم ٦٨) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ١٨٨) وفي صحيح الجامع (رقم ١٧٩١).

الحكم عما عداه، وإلا لم يكن الوصف المذكور علة، وهذا أيضًا لا يستلزم عموم النفي عن كل ما عداه، وإنما غايته اقتضاؤه نفي الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفي عنها الوصف، وأما نفي الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر.

وعلة أخرى فإن الحكم الواحد بالنوع؛ يجوز تعليله بعلل مختلفة، وفي الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه، ومثال هذا ما نحن فيه، لأن قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ ﴾ [النساء: ٩٥] لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقًا من حيث الضرورة؛ بل إن ثبتت المساواة فإنها معللة بوصف آخر وهي النية الجازمة والعزم التام، والضرر المانع من الجهاد في ذلك الحال لا يكون مانعًا من المساواة في الأجر، والله أعلم.

***

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) ﴾.

(١) الكلام في الحيل، وانقسامها إلى أحكامها الخمسة:

فنقول: ليس كل ما يسمى حيلة حرامًا، قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٨].

أراد بالحيلة: التحيل على التخلص من بين الكفار، وهذه حيلة محمودة يُثاب عليها، وكذلك الحيلة على هزيمة الكفار، كما فعل نعيم بن مسعود يوم الخندق، أو على تخليص ماله منهم، كما فعل الحجَّاج بن علاط بامرأته.

وكذلك الحيلة على قتل رأس من رءوس أعداء الله، كما فعل الذين قتلوا ابن أبي الحقيق اليهودي، وكعب بن الأشرف، وأبا رافع وغيرهم؛ فكل هذه حيل محمودة محبوبة لله ومرضية له.

---

(١) ٢٥٢ أعلام جـ٣.

والحيلة: مشتقة من التحول، وهو النوع والحالة كالجلسة والقعدة والركبة فإنها بالكسرة للحالة، وبالفتح للمرة، كما قيل: الفَعلة للمرة، والفِعلة للحالة، والمَفعل للموضع، والمِفعل للآلة، وهي من ذوات الواو، فإنها من التحول من حال يحول، وإنما انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وهو قلب مقيس مطرد في كلامهم، نحو ميزان وميقات وميعاد؛ فإنها مِفعال من الوَزن والوَقت والوَعد.

فالحيلة هي نوع مخصوص من التصرف والعمل الذي يتحول به فاعله من حال إلى حال، ثم غلب عليها بالعرف استعمالها في سلوك الطرق الخفية التي يتوصل بها الرجل إلى حصول غرضه؛ بحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء والفطنة؛ فهذا أخص من موضوعها في أصل اللغة، وسواء كان المقصود أمرًا جائزًا أو محرمًا.

وأخص من هذا استعمالها في التوصل إلى الغرض الممنوع منه شرعًا أو عقلًا أو عادة، فهذا هو الغالب عليها في عرف الناس؛ فإنهم يقولون: فلان من أرباب الحيل، ولا تعاملوه فإنه متحيل، وفلان يعلم الناس الحيل، وهذا من استعمال المطلق في بعض أنواعه كالدابة والحيوان وغيرهما.

وإذا قسمت باعتبارها لغة؛ انقسمت إلى الأحكام الخمسة.

فإن مباشرة الأسباب الواجبة حيلة على حصول مسبباتها؛ فالأكل والشرب واللبس والسفر الواجب حيلة على المقصود منه، والعقود الشرعية واجبها ومستحبها ومباحها كلها حيلة على حصول المعقود عليه، والأسباب المحرمة كلها حيلة على حصول مقاصدها منها، وليس كلامنا في الحيلة بهذا الاعتبار العام الذي هو مورد التقسيم إلى مباح ومحظور؛ فالحيلة جنس تحته التوصل إلى فعل الواجب، وترك المحرم، وتخليص الحق، ونصر المظلوم، وقهر الظالم، وعقوبة المعتدي، وتحته التوصل إلى استحلال المحرم، وإبطال الحقوق، وإسقاط الواجبات، ولما قال النبي ﷺ: «لا

ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[(١)] غلب استعمال الحيل في عرف الفقهاء على النوع المذموم، وكما يذم الناس أرباب الحيل؛ فهم يذمون أيضًا العاجز، الذي لا حيلة عنده لعجزه وجهله بطرق تحصيل مصالحه، فالأول ماكر مخادع، والثاني عاجز مفرط، والممدوح غيرهما، وهو من له خبرة بطرق الخير والشر خفيِّها وظاهرها؛ فيحسن التوصل إلى مقاصده المحمودة التي يحبها الله ورسوله بأنواع الحيل، ويعرف طرق الشر الظاهرة والخفية التي يتوصل بها إلى خداعه والمكر به؛ فيحترز منها ولا يفعلها ولا يدل عليها، وهذه كانت حال سادات الصحابة ﷺ، فإنهم كانوا أبر الناس قلوبًا، وأعلم الخلق بطرق الشر ووجوه الخداع، وأتقى لله من أن يرتكبوا منها شيئًا أو يدخلوه في الدين، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: لست بخب ولا يخدعني الخب[(٢)].

وكان حذيفة أعلم الناس بالشر والفتن، وكان الناس يسألون رسول الله ﷺ، عن الخير، وكان هو يسأله عن الشر، والقلب السليم ليس هو الجاهل بالشر الذي لا يعرفه؛ بل الذي يعرفه ولا يريده؛ بل يريد الخير والبر...[(٣)].

***

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٠٨): وهذا إسناد جيد وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو كبر الخطيب، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح.

(٢) وردت هذه المقولة عن إياس بن معاوية، ذكرها الحافظ المزي في تهذيب الكمال (٣/ ٤١٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ١٩)، بينما ذكرها ابن منظور في لسان العرب عن ابن سيرين.

(٣) بحث المؤلف قبل هذا وبعده بحثًا مطولًا لمن أراده. (ج).

...[(١)]الثامن: فرحه بغلبة عدوه وقهره له، ورده خاسئًا بغيظه وغمّه وهمّه؛ حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالىٰ يحب من عبده أن يراغم عدوه، ويغيظه، كما قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقال: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠]، أي: مكاناً يرغم فيه أعداء الله.

وعلامة المحبة الصادقة، مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التاسع: التفكر في أنه لم يخلق للهوىٰ؛ وإنما هيء لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوىٰ كما قيل:

قــد هيؤوك لأمر لـو فطنت لــه فاربأ بنفسك أن ترعىٰ مع الهمل[(٢)]

العاشر: أن لا يختار لنفسه؛ أن يكون الحيوان البهيم،؛ أحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع علىٰ الضار، والإنسان أعطي العقل لهذا المعنىٰ، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه، أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم؛ أحسن منه، ويدل علىٰ ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح، ما لا يناله الإنسان مع عيشٍ هنيء خال عن الفكر والهم؛ ولهذا تُساق إلىٰ منحرها وهي منهمكة علىٰ شهواتها لفقدان العلم بالعواقب...

[(٣)]وكان من هديه ﷺ في صلاة الخوف: أن أباح الله ﷻ قصر أركان الصلاة وعددها؛ إذا اجتمع الخوف والسفر.

---

(١) ٥٠٣ روضة.

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلىٰ الحسين بن علي بن محمد الطغرائي الأصبهاني، من الشعراء الكتاب الوزراء، نعت بالأستاذ، اتصل بالسلطان السلجوقي فولاه وزارته، أشهر شعره لامية العجم، له ديوان شعر، توفي سنة ٥١٣هـ.

(٣) ٣٠٥ زاد المعاد جـ١.

وقصر العدد وحده: إذا كان سفر لا خوف معه.

وقصر الأركان وحدها: إذا كان خوف لا سفر معه، وهذا كان هديه ﷺ وبه تعلم الحكمة في تقييد القصر في الآية بالضرب في الأرض والخوف.

وكان من هديه ﷺ في صلاة الخوف إذا كان العدو بينه وبين القبلة: أن يصف المسلمين كلهم خلفه، ويكبر ويكبرون جميعًا، ثم يركع ويركعون جميعًا، ثم يرفع ويرفعون جميعًا معه، ثم ينحدر بالسجود والصف الذي يليه خاصة، ويقوم الصف المؤخر في مواجهة العدو، فإذا فرغ من الركعة الأولى، ونهض إلى الثانية؛ سجد الصف المؤخر بعد قيامه سجدتين، ثم قاموا فتقدموا إلى مكان الصف الأول وتأخر الصف الأول مكانهم؛ لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين، وليدرك الصف الثاني مع النبي ﷺ السجدتين في الركعة الثانية، كما أدرك الأول معه السجدتين في الأولى، فيستوي الطائفتان فيما أدركوا معه، وفيما قضوا لأنفسهم، وذلك غاية العدل، فإذا ركع صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة. فإذا جلس في التشهد سجد الصف المؤخر سجدتين، ولحقوه في التشهد، فسلم بهم جميعًا.

وإن كان العدو في غير جهة القبلة: فإنه كان تارة يجعلهم فرقتين: فرقة بإزاء العدو، وفرقة تصلي معه؛ فتصلي معه إحدى الفرقتين ركعة، ثم تنصرف في صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى، وتجيء الأخرى إلى مكان هذه؛ فتصلي معه الركعة الثانية، ثم تسلم، وتقضي كل طائفة ركعة ركعة بعد سلام الإمام.

وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم يقوم إلى الثانية، وتقضي هي ركعة وهو واقف، وتسلم قبل ركوعه، وتأتي الطائفة الأخرى، فتصلي معه الركعة الثانية، فإذا جلس في التشهد؛ قامت فقضت ركعة، وهو ينتظرها في التشهد، فإذا تشهدت يسلم بهم، وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعتين فتسلم قبله، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم الركعتين الأخيرتين ويسلم بهم؛ فيكون له أربعًا، ولهم ركعتين ركعتين.

[(١)]وكان ﷺ يقصر الرباعية، فيصليها ركعتين من حين يخرج مسافرًا إلى أن يرجع إلى المدينة، ولم يثبت عنه ﷺ أنه أتم الرباعية في سفره البتة.

وأما حديث عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يقصر في السفر ويتم، ويفطر ويصوم»[(٢)] فلا يصح، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو كذب على رسول الله ﷺ[(٣)] انتهى.

وقد روي: «كان يقصر وتتم» الأول بالياء آخر الحرف، والثاني بالتاء المثناة من فوق، وكذلك «يفطر وتصوم» أي: تأخذ هي بالعزيمة في الموضعين.

قال شيخنا ابن تيمية: وهذا باطل، ما كانت أم المؤمنين لتخالف رسول الله ﷺ، وجميع أصحابه، فتصلي خلاف صلاتهم، كيف؟ والصحيح عنها أنها قالت: «إن الله فرض الصلاة ركعتين ركعتين، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيد في صلاة الحضر، وأقرَّت صلاة السفر»[(٤)] فكيف يظن بها مع ذلك أن تصلي بخلاف صلاة النبي ﷺ والمسلمين معه؟

---

(١) ٢٦٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه البيهقي في الصغرى (رقم ٥٩٦) وفي الكبرى (٣/ ١٤١ رقم ٥٢٠٨) والدارقطني (٢/ ١٨٩ رقم ٤٤) وقال: هذا إسناد صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ٢١٤): ورواته ثقات وأخرجه البيهقي موقوفًا عليها بإسناد صحيح.

(٣) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٣/ ٨٥): وأما حديث عائشة أن النبي ﷺ كان يقصر في السفر ويتم، ويفطر ويصوم. رواه الدارقطني، فهو حديث فيه كلام لا يصلح للاحتجاج، وإن صحح الدارقطني إسناده.

وقال المناوي في فيض القدير (٥/ ٢٣٧): كان يقصر في السفر ويتم ويفطر ويصوم، أي يأخذ بالرخصة والعزيمة في الموضعين اقط. هق) عن عائشة رمز لحسنه، قال الدارقطني: إسناده صحيح. وأقره ابن الجوزي وارتضاه الذهبي، وقال البيهقي في السنن: له شواهد، ثم عد جملة، وقال ابن حجر: رجاله ثقات، انتهى، فقول ابن تيمية: هو كذب على رسول الله مجازفة.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٠) ومسلم (رقم ٦٨٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٦٤) وشرح النووي (٥/ ١٩٥).

قلت: وقد أتمت عائشة بعد موت النبي ﷺ قال ابن عباس وغيره: «إنها تأولت، كما تأول عثمان»[(١)] و«أن النبي ﷺ كان يقصر دائمًا» فركب بعض الرواة من الحديثين حديثًا وقال: «فكان رسول الله ﷺ يقصر وتتم هي» فغلط بعض الرواة، فقال: «كان يقصر ويتم» أي: هو.

والتأويل الذي تأولته قد اختلف فيه، فقيل: ظنت أن القصر مشروط بالخوف في السفر، فإذا زال الخوف؛ زال سبب القصر، وهذا التأويل غير صحيح، فإن النبي ﷺ سافر آمنًا، وكان يقصر الصلاة[(٢)]، والآية قد أشكلت على عمر ﷺ وعلى غيره، فسأل عنها رسول الله ﷺ فأجابه بالشفاء، وأن هذا صدقة من الله[(٣)]، وشرع شرعه للأمة وكان هذا بيان: أن حكم المفهوم غير مراد، وأن الجناح مرتفع في قصر الصلاة عن الآمن والخائف، وغايته: أنه نوع تخصيص للمفهوم، أو رفع له.

وقد يقال: إن الآية اقتضت قصرًا يتناول: قصر الأركان بالتخفيف، وقصر العدد بنقصان ركعتين، وقيد ذلك بأمرين: الضرب في الأرض، والخوف، فإذا وجد الأمران؛ أبيح القصران، فيصلون صلاة الخوف مقصورة عددها وأركانها، وإن انتفى الأمران، فكانوا آمنين مقيمين؛ انتفى القصران، فيصلون صلاة تامة كاملة، وإن وجد أحد السببين؛ ترتب عليه قصره وحده، فإذا وجد الخوف والإقامة؛ قصرت الأركان واستوفى العدد، وهذا نوع قصر، وليس بالقصر المطلق في الآية. فإن وجد السفر والأمن؛ قصر العدد واستوفى الأركان، وسميت صلاة أمن، وهذا نوع قصر، وليس بالقصر المطلق.

وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة، باعتبار نقصان العدد.

---

(١) أخرجه مسلم من قول عروة (رقم ٦٨٥)والدارمي (رقم ١٥٠٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٧٠) وشرح النووي (٥/ ١٩٥) والديباج على مسلم (٢/ ٣٢٣) وشرح الزرقاني (١/ ٤٢١).

(٢) انظر: سبل السلام (٢/ ٣٨) ونيل الأوطار (٣/ ٢٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٦) وانظر: تفسير الطبري (٢/ ١٥١).

وقد تسمىٰ تامة، باعتبار إتمام أركانها، وأنها لم تدخل في قصر الآية، والأول؛ اصطلاح كثير من الفقهاء المتأخرين، والثاني؛ يدل عليه كلام الصحابة، كعائشة وابن عباس وغيرهما، قالت عائشة رضي الله عنها: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فلما هاجر رسول الله ﷺ، إلىٰ المدينة زيد في صلاة الحضر، وأُقِرَّت صلاة السفر»[(١)].

فهذا يدل علىٰ أن صلاة السفر عندها غير مقصورة من أربع، وإنما هي مفروضة كذلك، وأن فرض المسافر ركعتان، وقال ابن عباس: «فرض الله الصلاة علىٰ لسان نبيكم في الحضر أربعًا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة»[(٢)] متفق علىٰ حديث عائشة.

وانفرد مسلم بحديث ابن عباس، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «صلاة السفر ركعتان، والجمعة ركعتان، والعيد ركعتان، تمام غير قصر، علىٰ لسان محمد ﷺ، وقد خاب من افترىٰ»[(٣)] وهذا ثابت عن عمر.

[(٤)]استدل علىٰ وجوب الجماعة: بأن الجمع بين الصلاتين شرع في المطر لأجل تحصيل الجماعة؛ مع أن إحدىٰ الصلاتين قد وقعت خارج الوقت، والوقت واجب فلو لم تكن الجماعة واجبة؛ لما ترك لها الوقت الواجب.

اعترض علىٰ ذلك: بأن الواجب قد يسقط لغير الواجب بل لغير المستحب، فإن شطر الصلاة يسقط لسفر الفرجة والتجارة، ويسقط غسل الرجلين لأجل لبس الخف، وغايته أن يكون مباحاً.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٠) ومسلم (رقم ٦٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٧).

(٣) أخرجه ابن حبان (٧/ ٢٢ رقم ٢٧٨٣) والنسائي (رقم ١٤٢٠) وابن ماجه (رقم ١٠٦٣) والضياء المقدسي في المختارة (١/ ٣٤٧ رقم ٢٣٩) وابن خزيمة (٢/ ٣٤٠ رقم ١٤٢٥) وأبو يعلىٰ (١/ ٢٠٧ رقم ٢٤١) وأحمد (١/ ٣٧) قال بدر الدين العيني في عمدة القاري (٧/ ١٣٣): رواه النسائي بسند صحيح. وانظر: التمهيد (١٦/ ٢٩٦).

(٤) ١٥٩ بدائع جـ٣.

وهذا الاعتراض فاسد، فإن فرض المسافر ركعتان، فلم يسقط الواجب لغير الواجب، وأيضًا فإنه لا محذور في سقوط الواجب لأجل المباح، وليس الكلام في ذلك، وإنما المستحيل، أن يراعي في العبادة أمر مستحب يتضمن فوات الواجب، فهذا هو الذي لا عهد لنا في الشريعة بمثله البتة، وبذلك خرج الجواب عن سقوط غسل الرجلين؛ لأجل الخف.

واستدل على وجوبها: بأن الله تعالى أمر بها في صلاة الخوف، التي هي محل التخفيف وسقوط ما لا يسقط في غيرها، واحتمال ما لا يحتمل في غيرها، فما الظن بصلاة الآمن المقيم؟!

فاعترض على ذلك: بأن المقصود الاجتماع في صلاة الخوف، فقصد اجتماع المسلمين وإظهار طاعتهم وتعظيم شعار دينهم، ولاسيما حيث كانوا مع النبي ﷺ فكان المقصود أن يظهر للعدو طاعة المسلمين له وتعظيمهم لشأنه، حتى إنهم في حال الخوف الذي لا يبقى أحد مع أحد يتبعونه ولا يتفرقون عنه ولا يفارقونه بحال، وهذا كما جرى لهم في عمرة القضاء معه؛ حتى قال عروة بن مسعود: لقد وفدت على الملوك: كسرى، وقيصر؛ فلم أر ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم محمدًا أصحابه.

والذي يدل على هذا: أنا رأينا الجماعة تسقط عند المطر الذي يبل النعال، فكان منادي رسول الله ﷺ ينادي: ألا صلوا في رحالكم، والجمعة تسقط؛ بخشية فوات الخبز الذي في التنور مع كون الجماعة شرطًا فيها، وتسقط؛ خشية مصادفة غريم يؤذيه، ومعلوم أن عذر الحرب وموافقة الكفار؛ أعظم من هذا كله، ومع هذا فأقيم شعارها في تلك الحال، فدل على أن المقصود ما ذكرنا.

قلت: ونحن لا ننكر أن هذا مقصود أيضًا مضموم إلى مقصود الجماعة، فلا منافاة بينه وبين وجوب الجماعة؛ بل إذا كان هذا أمرًا مطلوبًا، فهو من أدل الدلائل على وجوب الجماعة في تلك الحال، ومع أن هذا مقصود أيضًا في اجتماع المسلمين في الصلاة وراء إمامهم.

وأسباب العبادات التي شرعت لأجلها؛ لا يشترط دوامها في ثبوت تلك العبادات، بل تلك العبادات تستقر وتدوم وإن زالت أسباب مشروعيتها، وهذا كالرمل في الطواف والسعي بين الصفا والمروة.

ونظير هذا: اعتراضهم على أحاديث الأمر بفسخ الحج إلى العمرة؛ بأن المقصود بها: الإعلام بجواز العمرة في أشهر الحج مخالفة للكفار.

فقيل لهم: وهذا من أدل الدلائل على استحبابه ودوام مشروعيته؛ فإن ما شرع من المناسك قصدًا لمخالفة الكفار؛ فإنه دائم المشروعية إلى يوم القيامة. كالوقوف بعرفة، فإن النبي ﷺ، خالفهم ووقف بها، وكانوا يقفون بمزدلفة، فقال: خالف هدينا هدي المشركين، وكالدفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس، فإنهم كانوا لا يدفعون بها منها حتى تشرق الشمس؛ فقصد مخالفتهم وصارت سنة إلى يوم القيامة، وهذه قاعدة من قواعد الشرع: أن ا لأحكام المشروعة لهذه الأسباب في الأصل؛ لا يشترط في ثبوتها قيام تلك الأسباب، فلو كان ما ذكرتم من الأسباب في كون الجماعة مأمورًا بها في صلاة الخوف هو الواقع؛ لم يلزم منه سقوط الأمر بها عند زوال تلك الأسباب، وفتح هذا الباب يفضي إلى إسقاط كثير من السنن، وذلك باطل.

***

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

[1]هل تصح صلاة من صلى وحده وهو يقدر على الصلاة جماعة أم لا؟ فهذه

(١) ٦٠ كتاب الصلاة.

المسألة مبنية على أصلين:

أحدهما: أن صلاة الجماعة فرض أم سنة؟ وإذا قلنا: هي فرض، فهل هي شرط لصحة الصلاة أم تصح بدونها مع عصيان تاركها؛ فهاتان مسألتان:

أما المسألة الأولى: فاختلف الفقهاء فيها، فقال بوجوبها: عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وأبو عمرو الأوزاعي، وأبو ثور، والإمام أحمد في ظاهر مذهبه، ونص عليه الشافعي في مختصر المزني فقال: وأما الجماعة فلا أرخص في تركها إلا من عذر.

وقال ابن المنذر في كتاب الأوسط: ذكر حضور الجماعة على العميان وإن بعدت منازلهم عن المسجد، ويدل على ذلك أن شهود الجماعة فرض لا ندب، ثم ذكر حديث ابن أم مكتوم أنه قال: يا رسول الله إن بيني والمسجد نخلًا وشجرًا، فهل يسعني أن أصلي في بيتي؟ قال: «تسمع الإقامة؟» قال: نعم، قال: «فأتها»[1].

قال ابن المنذر: ذكر تخويف النفاق على تارك شهود العشاء والصبح في جماعة.

ثم ذكر في أثناء الباب: «فدلت الأخبار التي ذكرت على وجوب فرض الجماعة على من لا عذر له، فمما دل عليه؛ قوله لابن أم مكتوم وهو ضرير: «لا أجد لك رخصة»[2] فإذا كان الأعمى لا رخصة له؛ فالبصير أولى أن لا تكون له رخصة.

قال: وفي اهتمامه ﷺ بأن يحرق على قوم تخلفوا عن الصلاة بيوتهم؛ أبين البيان على وجوب فرض الجماعة؛ إذ غير جائز أن يتهدد رسول الله ﷺ، من تخلف عن ندب وعما ليس بفرض.

قال: ويؤيده حديث أبي هريرة: أن رجلًا خرج من المسجد بعدما أذن المؤذن

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٤ رقم ٩٠٢) وابن خزيمة (٢/ ٣٦٨ رقم ١٤٧٩) والدارقطني (١/ ٣٨١ رقم ١) وأحمد (٣/ ٤٢٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٢٨) وقال المنذري في الترغيب (١/ ١٦٨ رقم ٦٢٤): وإسناد هذه جيد. وهذا الحديث أصله في صحيح مسلم (رقم ٦٥٣).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٥ رقم ٩٠٣) وأبو داود (رقم ٥٥٢) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٥٨ رقم ٤٧٢٩) وانظر: عون المعبود (٢/ ١٨١) والكبائر (ص ٢٩) وتحفة المحتاج (١/ ٤٣٢).

فقال: أما هذا فقد عصى أبا القاسم[١]. ولو كان المرء مخيرًا في ترك الجماعة وإتيانها لم يجز أن يعَصَّى من تخلف عما لا يجب عليه أن يحضره؛ وإنما لما أمر الله جل ذكره بالجماعة في حال الخوف؛ دل على أن ذلك في حال الأمن؛ أوجب.

والأخبار المذكورة في أبواب الرخصة في التخلف عن الجماعة لأصحاب الأعذار؛ تدل على فرض الجماعة على من لا عذر له، ولو كان حال العذر وغير حال العذر سواء؛ لم يكن للترخيص في التخلف عنها في أبواب العذر معنى.

ودل على تأكيد فرض الجماعة؛ قوله ﷺ: «**من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له**»[٢]، ثم ساق الحديث في ذلك ثم قال: وقال الشافعي: ذكر الله الأذان بالصلاة فقال: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٩]. وسن رسول الله ﷺ، الأذان للصلوات المكتوبات، فأشبه ما وصفت أن لا يحل أن تصلي كل مكتوبة إلا في جماعة؛ حتى لا يخلو جماعة مقيمون أو مسافرون من أن يصلي بهم صلاة جماعة، فلا أرخص لمن قدر على صلاة الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر، وإن تخلف أحد فصلاها منفردًا لم تكن عليه إعادتها، صلاها قبل الإمام أو بعده، إلا صلاة الجمعة فإن من صلاها ظهرًا قبل صلاة الإمام كان عليه إعادتها لأن إتيانها فرض»، هذا كله لفظ ابن المنذر، وقالت الحنفية والمالكية: هي سنة مؤكدة، ولكنهم يؤثمون تارك السنن المؤكدة، ويصححون الصلاة بدونها، والخلاف بينهم وبين من قال: إنها واجبة؛ لفظي؛ وكذلك صرح بعضهم بالوجوب.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٥٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٢١) (٩/ ٢٤٤) وشرح النووي (٥/ ١٥٧).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ١٤١ رقم ١٤٢) (١٠/ ٢٣٩ رقم ٢٥١) والحاكم (١/ ٣٧٢ رقم ٨٩٣) وابن حبان (٥/ ٤١٥ رقم ٢٠٦٤) وابن ماجه (رقم ٧٩٣) والترمذي (رقم ٢١٧) والطبراني في الأوسط (٤/ ٣١٤ رقم ٤٣٠٣) وفي الكبير (١١/ ٤٤٦ رقم ١٢٢٦٦) والبزار (٨/ ١٤١ رقم ٣١٥٧) وتمام في فوائده (٢/ ١١٤ رقم ١٢٩١).

قال الموجبون: قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]. ووجه الاستدلال بالآية من وجوه:

أحدها: أمره سبحانه لهم بالصلاة في الجماعة، ثم أعاد الأمر سبحانه مرة ثانية في حق الطائفة الثانية بقوله: ﴿ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، وفي هذا دليل على أن الجماعة فرض على الأعيان؛ إذ لم يسقطها سبحانه عن الطائفة الثانية بفعل الأولى، ولو كانت الجماعة سنة لكان أولى الأعذار بسقوطها عذر الخوف، ولو كانت فرض كفاية لسقطت بفعل الطائفة الأولى.

ففي الآية دليل على وجوبها على الأعيان، فهذه على ثلاثة أوجه: أمره بها أولًا، ثم أمره بها ثانيًا، وأنه لم يرخص لهم في تركها حال الخوف.

الدليل الثاني: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

ووجه الاستدلال بها: أنه سبحانه عاقبهم يوم القيامة: بأن حال بينهم وبين السجود، لما دعاهم إلى السجود في الدنيا فأبوا أن يجيبوا الداعي.

إذا ثبت هذا فإجابة الداعي هي: إتيان المسجد بحضور الجماعة لا فعلها في بيته وحده، فكهذا فسر النبي ﷺ الإجابة، فروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال: يا رسول الله، ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له، فرخص له، فلما ولى دعاه فقال: «هل تسمع النداء»؟. قال: نعم. قال: «فأجب»[1] فلم يُجْعل مجيبًا له بصلاته في بيته إذا سمع النداء، فدل على أن الإجابة المأمور بها؛ هي إتيان المسجد للجماعة، ويدل عليه حديث ابن أم

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٥٣).

مكتوم، قال: يا رسول الله، إن المدينة كثيرة الهوام والسباع، فقال رسول الله ﷺ: «تسمع حي الصلاة، حي علىٰ الفلاح؟» قال: نعم. قال: «**فحيهلا**»[(١)]، رواه أبو داود والإمام أحمد. وحيهلا: اسم فعل أمر معناه أقبل وأجب، وهو صريح في أن إجابة هذا الأمر بحضور الجماعة، وأن المتخلف عنها لم يجبه.

وقد قال غير واحد من السلف في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]، قال: هو قول المؤذن: «**حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح**» فهذا الدليل مبني علىٰ مقدمتين: إحداهما: أن هذه الإجابة واجبة، والثانية: لا تحصل إلا بحضور الصلاة في الجماعة، وهذا هو الذي فهمه أعلم الأمة وأفقههم من الإجابة، وهم الصحابة ﷺ.

فقال ابن المنذر في كتاب الأوسط: روينا عن ابن مسعود وأبي موسىٰ أنهما قالا: من سمع النداء ثم لم يجب؛ فإنه لا تجاوز صلاته رأسه، إلا من عذر.

قال: وروي عن عائشة أنها قالت: من سمع النداء فلم يجب؛ لم يرد خيرًا، ولم يرد به[(٢)]، وعن أبي هريرة أنه قال: لأن تمتلئ أذنا ابن آدم رصاصًا مذابًا، خير له من أن يسمع المنادي، ثم لا يجيبه[(٣)].

فهذا وغيره يدل علىٰ أن الإجابة عند الصحابة؛ هي حضور الجماعة، وأن المتخلف عنها غير مجيب فيكون عاصيًا.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ٣٦٧ رقم ١٤٧٨) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٩٨ رقم ٩٢٤) وفي الصغرىٰ (رقم ٨٥١) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٥٨ رقم ٤٧٢٩) وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص ٢٦١) ونقل بدر الدين العيني في عمدة القاري (٥/ ١٦٢) تصحيح الحاكم له. وكذا صنع ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٠٣ رقم ٣٤٦٦) وعبد الرزاق (١/ ٤٩٨ رقم ١٩١٧) وانظر المحلىٰ (٤/ ١٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٠٣ رقم ٣٤٦٥) وانظر: المحلىٰ (٤/ ١٩٥) والكبائر (ص ٣٠، ٢٣٣).

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣]. ووجه الاستدلال بالآية: أنه سبحانه أمرهم بالركوع وهو الصلاة، وعبر عنها بالركوع؛ لأنه من أركانها، والصلاة يعبر عنها بأركانها وواجباتها، كما سماها الله سجودًا وقرآنًا وتسبيحًا، فلابد لقوله: ﴿ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ من فائدة أخرىٰ؛ وليست إلا فعلها مع جماعة المصلين، والمعية تفيد ذلك، إذا ثبت هذا الأمر المقيد بصفة أو حال، لا يكون المأمور ممتثلًا، إلا بالإتيان به علىٰ تلك الصفة والحال.

فإن قيل: فهذا ينتقض بقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٣]، والمرأة لا يجب عليها حضور الجماعة.

قيل: الآية لم تدل علىٰ تناول الأمر بذلك لكل امرأة، بل مريم بخصوصها أمرت بذلك، بخلاف قوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ومريم كانت لها خاصة لم تكن لغيرها من النساء، فإن أمها نذرتها أن تكون محررة لله ولعبادته ولزوم المسجد، وكانت لا تفارقه فأمرت أن تركع مع أهله. ولما اصطفاها الله وطهرها علىٰ نساء العالمين؛ أمرها من طاعته بأمر اختصها به علىٰ سائر النساء، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

فإن قيل: كونهم مأمورين أن يركعوا مع الراكعين؛ لا يدل علىٰ وجوب الركوع معهم حال ركوعهم؛ بل يدل علىٰ الإتيان بمثل ما فعلوا، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩] فالمعية تقتضي المشاركة في الفعل، ولا تستلزم المقارنة فيه.

قيل: حقيقة المعية؛ مصاحبة ما بعدها لما قبلها، وهذه المصاحبة تفيد قدرًا زائدًا علىٰ المشاركة ولاسيما في الصلاة، فإنه إذا قيل: صلِّ مع الجماعة، أو صليت مع

الجماعة؛ لا يفهم منه إلا اجتماعهم على الصلاة..

[(١)]إجماع الصحابة ﷺ، ونحن نذكر نصوصهم.

قد تقدم قول ابن مسعود: ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن أبي موسى الهلالي، عن ابن مسعود قال: من سمع المنادي فلم يجب من غير عذر؛ فلا صلاة له[(٣)].

وقال أحمد: حدثنا وكيع: حدثنا مسعر، عن أبي الحصين، عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري قال: من سمع المنادي فلم يجب بغير عذر؛ فلا صلاة له[(٤)].

وقال أحمد: حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي حيان التيمي، عن أبيه، عن علي ﷺ قال: لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد. قيل: ومن جار المسجد؟ قال: من سمع المنادي[(٥)].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم: أخبرنا منصور، عن الحسن بن علي قال: من سمع النداء فلم يأته؛ لم تجاوز صلاته رأسه، إلا من عذر[(٦)].

وقال عبد الرزاق: عن أنس، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: من سمع النداء من جيران المسجد وهو صحيح من غير عذر؛ فلا صلاة له[(٧)].

---

(١) ٧٠ كتاب الصلاة.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٦٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٠٣ رقم ٣٤٦٧) وانظر: المحلى (٤/ ١٩٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٠٣ رقم ٣٤٦٣ والبزار (٨/ ١٤٢ رقم ٣١٥٨) وانظر: المحلى (٤/ ١٩٥).

(٥) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٣ رقم ٨٩٨) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٥٧ رقم ٤٧٢٢) وابن أبي شيبة (١/ ٣٠٣ رقم ٣٤٦٩) وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٤٩٧ رقم ١٩١٥) وانظر: المحلى (٤/ ١٩٥) وفتح الباري (١/ ٤٣٩) وعمدة القاري (٦/ ١١) والتمهيد (٤/ ٢٣٨) والأم (٧/ ١٦٥) وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ١٣٨): لا يثبت مرفوعًا ولو صح كان معناه الكمال، كما قال: **«لا إيمان لمن لا أمانة له»** و**«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٠٣ رقم ٣٤٧٠).

(٧) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٥٧ رقم ٤٧٢٣) وعبد الرزاق (١/ ٤٩٨ رقم ١٩١٦).

قال وكيع: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر؛ فلا صلاة له[(١)].

وقال عبد الرزاق: عن ليث، عن مجاهد قال: سأل رجل ابن عباس فقال: رجل يصوم النهار، ويقوم الليل، لا يشهد جمعة ولا جماعة؟ فقال ابن عباس: هو في النار، ثم جاء الغد فسأله عن ذلك فقال: هو في النار. قال: واختلف إليه قريبًا من شهر يسأله عن ذلك، ويقول ابن عباس: هو في النار[(٢)].

فهذه نصوص الصحابة كما تراها صحة وشهرة وانتشاراً، ولم يجئ عن صحابي واحد خلاف ذلك، وكل من هذه الآثار؛ دليل مستقل في المسألة لو كان وحده، فكيف إذا تعاضدت وتضافرت؟ وبالله التوفيق.

ومن تأمل السنة حق التأمل؛ تبين له أن فعلها في المساجد فرض على الأعيان؛ إلا لعارض يجوز معه ترك الجمعة والجماعة، فترك حضور المسجد لغير عذر كترك أصل الجماعة لغير عذر، وبهذا تتفق جميع الأحاديث والآثار، ولما مات رسول الله ﷺ وبلغ أهل مكة موته خطبهم سهيل بن عمرو ـ وكان عتاب بن أسيد عامله على مكة قد توارى خوفًا من أهل مكة، فأخرجه سهيل ـ وثبت أهل مكة على الإسلام، فخطبهم بعد ذلك عتاب وقال: يا أهل مكة والله لا يبلغني أن أحدًا منكم تخلف عن الصلاة في المسجد في الجماعة، إلا ضربت عنقه، وشكر له أصحاب رسول الله ﷺ، هذا الصنيع، وزاده رفعة في أعينهم، فالذي ندين لله به أنه لا يجوز لأحد التخلف عن الجماعة في المسجد، إلا من عذر، والله أعلم بالصواب.

***

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٢٤٠ رقم ٢٥٣) وعبد الرزاق (١/ ٤٩٧ رقم ١٩٤١) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٨ رقم ١٣٣٤٤) وابن الجعد (رقم ٤٨٢). وانظر: المحلى (٤/ ١٩٦).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢١٨) وعبد الرزاق (١/ ٥١٩ رقم ١٩٩٠).

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

(١)قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتونه من القول، المتضمن البهت، ورمي البريء، وشهادة الزور، وبراءة الجاني، فإن الآية نزلت في قصة هذا شأنها، مع أن ذلك كله بمشيئته، إذ أجمع المسلمون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولم يخالف في ذلك إلا القدرية المجوسية، الذين يقولون: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه دينًا، مع محبته لوقوعه؛ مما ينبغي أن يصان كلام الله عنه؛ إذ المعنى عندهم: أنه محبوب له، ولكن لا يُثاب فاعله عليه، فهو محبوب بالمشيئة، غير مثاب عليه شرعًا.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه مسخوط للرب، مكروه له قدرًا وشرعًا، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه، فإنه يخلق ما يحب وما يكره، وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه، وفيها ما يبغضه ويكرهه: كإبليس وجنوده، وسائر الأعيان الخبيثة، وفيها ما يحبه ويرضاه: كأنبيائه ورسله، وملائكته وأوليائه، وهكذا الأفعال كلها خلقه.

(١) ٢٥٣ مدارج جـ١.

ومنها ما هو محبوب له، وما هو مكروه له، خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره.

وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]، فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره؛ وأحدهما محبوب له مرضي، والآخر مبغوض له مسخوط.

وكذلك قوله ـ عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر ـ ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨]، فهو مكروه له مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره.

(١)الأصل الخامس: أنه سبحانه حكيم، لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل.

بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة؛ لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع، لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها، فنذكر بعض أنواعها:

النوع الأول: التصريح بلفظ الحكمة وما تصرف منه كقوله: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ [القمر: ٥]، وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣]. وقوله: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والحكمة هي: العلم النافع والعمل الصالح، وسمي حكمة؛ لأن العلم والعمل قد تعلقا بمتعلقهما وأوصلا إلى غايتهما، وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلًا إلى الغايات المحمودة والمطالب النافعة؛ فيكون مرشدًا إلى العلم النافع والعمل الصالح فتحصل الغاية المطلوبة، فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة

---

(١) ١٩٠ شفاء.

المخاطبين، ولا هداهم ولا إيصالهم إلى سعادتهم ودلالتهم على أسبابها وموانعها، ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة، ولا تكلم لأجلها ولا أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجلها، ولا نصب الثواب والعقاب لأجلها، لم يكن حكيمًا ولا كلامه حكمة فضلًا عن أن تكون بالغة.

النوع الثاني: إخباره أنه فعل كذا لكذا، وأنه أمر بكذا لكذا كقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٧، ٢٨] أي: ليتمكنوا بهذا الحفظ والرصد من تبليغ رسالاته، فيعلم الله ذلك واقعًا.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وقوله: ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ ﴾ [الأنفال: ٨]، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١].

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقوله: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨] وهذا في القرآن.

فإن قيل: اللام في هذا كله لام العاقبة كقوله: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨].

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣].

وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٣].

فإن ما بعد اللام في هذا ليس هو الغاية المطلوبة، ولكن لما كان الفعل منتهيًا إليه وكان عاقبة الفعل؛ دخلت عليه لام التعليل، وهي في الحقيقة لام العاقبة. فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن لام العاقبة إنما تكون في حق من هو جاهل أو هو عاجز عن دفعها، فالأول كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] والثاني: كقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب[1]

وأما من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير؛ فيستحيل في حقه دخول هذه اللام، وإنما اللام الواردة في أفعاله وأحكامه؛ لام الحكمة والغاية المطلوبة.

الجواب الثاني: إفراد كل موضع من تلك المواضع بالجواب:

أما قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له؛ فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدَّر ذلك وقضى به؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وذكر فعلهم دون قضائه؛ لأنه أبلغ في

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى أبي العتاهية: إسماعيل بن القاسم العنزي، شاعر مكثر سريع الخاطر في شعره إبداع، يجيد القول في الزهد والمديح توفي سنة ٢١١هـ. وينسب أيضًا إلى محمود بن حسن الوراق الشاعر العباسي، كان أكثر شعره في المواعظ والحكم توفي سنة ٢٢٠هـ. وذكر صدر البيت ابن كثير في تفسيره (٣/ ٩٨) بينما ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٨٣ رقم ٢٠٤١) وقال: رواه البيهقي في الشعب عن أبي هريرة والبزار مرفوعًا بلفظ «إن ملكًا بباب من أبواب السماء» فذكر حديث، وفيه: «وإن ملكًا بباب آخر يقول: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وإن ملكًا بباب آخر ينادي: يابن آدم لدوا للموت وابنوا للخراب» وذكر أيضًا أنه من قول عيسى عليه السلام.

كونه حزنًا لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به؛ كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون له فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه: كمال قدرته، وعلمه، وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعونُ الأبناء في طلبه؛ هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا؛ أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر، وقد أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره[1].

***

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾.

[2]قال الضحاك: «مفروضًا أي: معلومًا» وقال الزجاج: «أي: نصيبًا افترضته على نفسي».

قال الفراء: «يعني: ما جُعل له عليه السبيل من الناس، فهو كالمفروض».

قلت: حقيقة الفرض هو التقدير، والمعنى: أن من اتَّبع الشيطان وأطاعه، فهو من نصيبه المفروض وحظِّه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ يعني: عن الحق ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ قال ابن عباس: «يريد:

---

(١) يأتي الجواب عن بقية الآيات في مواضعها من السور ـ إن شاء الله ـ (ج).
(٢) ١٠٥ إغاثة جـ١.

تعويق التوبة وتأخيرها».

وقال الكلبي: «أمنيهم: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث».

وقال الزجاج: «أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم: أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة».

وقيل: لأمنينهم: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث».

وقيل: أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا، فأطيل لهم الأمل ليؤثروها على الآخرة.

قوله: ﴿ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ «البتك» القطع، وهو في هذا الموضع: قطع آذان البحيرة، عن جميع المفسرين.

ومن ههنا؛ كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق، ورخَّص بعضهم في ذلك الأنثى، دون الذكر؛ لحاجتها إلى الحلية، واحتجوا بحديث أم زرعٍ، وفيه: «أناس من حلي أذني»، وقال النبي ﷺ: «كنت لك كأبي زرعٍ لأم زرع»[1]، ونص أحمد رحمه الله على جواز ذلك في حق البنت، وكراهته في حق الصبي.

وقوله: ﴿ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن: «يريد: دين الله» وهو قول: إبراهيم، ومجاهد، والحسن، والضحاك،وقتادة، والسُّدي، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير.

ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة، وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الروم: ٣٠-٣١]، ولهذا قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل تُحسُّون فيها من

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١٨٩) ومسلم (رقم ٢٤٤٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٥٦) وشرح النووي (١٥/ ٢٢١).

جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها»؟ ثم قرأ أبو هريرة: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[(١)] الآية. متفق عليه.

فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما، فغير فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغيَّر الصورة بالجدع والبتك، فغيَّر الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ فوعده: ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دُول ستكون لك كما كانت لغيرك، ويطول أمله، ويعدُهُ بالحسنى على شركه ومعاصيه، ويمنيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها، والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل، ويمني المحال، والنفس المهينة التي لا قدر لها تغتذي بوعده وتمنيته، كما قال القائل:

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أحسن المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا[(٢)]

فالنفس المبطلة الخسيسة: تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته؛ فإن الشيطان يمني أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مبطل فله نصيب من قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١٢٠].

[(٣)]وفي الصحيحين: لما حرض النبي ﷺ النساء على الصدقة، جعلت المرأة تلقي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٥٨) ومسلم (رقم ٢٦٥٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٩-٢٥٠) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٧-٢٠٩).

(٢) ١٢٦ تحفة المودود.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ابن ميادة: الرماح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني، وميادة أمه وبنسبته إليها اشتهر، شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، قيل عنه: إنه أشعر غطفان في الجاهلية الإسلام، مات سنة ١٤٩هـ.

خرصها...[١] الحديث. والخرص: هو الحلقة الموضوعة في الأذن، ويكفي في جوازه؛ علم الله ورسوله بفعل الناس له، وإقرارهم علىٰ ذلك، فلو كان مما ينهىٰ عنه؛ لنهىٰ القرآن أو السنة.

فإن قيل: فقد أخبر الله سبحانه عن عدوه إبليس، أنه قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩] أي: يقطعونها، وهذا يدل علىٰ أن قطع الأذن وشقها وثقبها؛ من أمر الشيطان، فإن البتك: هو القطع، وثقب الأذن: قطع لها، فهذا ملحق بقطع آذان الأنعام.

قيل: هذا من أفسد القياس، فإن الذي أمرهم الشيطان به: أنهم كانوا إذا ولدت لهم الناقة خمسة أبطن، فكان البطن السادس؛ ذكرًا؛ شقوا أذن الناقة، وحرموا ركوبها والانتفاع بها، ولم تطرد عن ماء ولا عن مرعىٰ، وقالوا: هذه بحيرة، فشرع لهم الشيطان في ذلك شريعة من عنده، فأين هذا من بخش [نسخة: نخس] أذن الصبية ليوضع فيها الحلية التي أباح الله لها أن تتحلىٰ بها؟! وأما ثقب الصبي فلا مصلحة له فيه، وهو قطع عضو من أعضائه، لا لمصلحة دينية ولا دنيوية، فلا يجوز.

ومن أعجب ما في هذا الباب ما قال الخطيب في تاريخه: أنا الحسن بن علي الجوهري: ثنا محمد بن العباس الخزاز: حدثنا أبو عمر عثمان بن جعفر المعروف بابن الكبار: ثنا أبو الحسن علي بن إسحاق بن راهويه قال: ولد أبي من بطن أمه مثقوب الأذنين، قال: فمضىٰ جدي راهويه إلىٰ الفضل بن موسىٰ السيناني فسأل عن ذلك، وقال: ولد لي ولد خرج من بطن أمه مثقوب الأذنين، فقال: يكون ابنك رأسًا: إما في الخير، وإما في الشر، فكأن الفضل بن موسىٰ ـ والله أعلم ـ تفرس فيه، أنه لما تفرد عن المولودين كلهم بهذه الخاصة؛ أن ينفرد عنهم بالرياسة في الدين أو الدنيا[٢].

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٤٩) ومسلم (رقم ٨٨٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣١٣).
(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٦/ ٣٤٧) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٨/ ١٢٦) وسير أعلام النبلاء (١١/ ٣٨٠).

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾.

(١)ولما نزل قوله تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله، جاءت قاصمة الظهر، فأينا لم يعمل سوءًا؟ فقال: «**يا أبا بكر، ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك الأذىٰ؟**» قال: بلىٰ، قال: «**فذاك مما تجزون به**»(٢) فأشكل علىٰ ا لصديق أمر النجاة مع هذه الآية، وظن أن الجزاء في الآخرة ولابد، فأخبره النبي ﷺ: أن جزاءه وجزاء المؤمنين بما يعملونه من السوء في الدنيا؛ ما يصيبهم من: النصب، والحزن، والمشقة؛ فيكون ذلك كفارة لسيئاتهم فلا يعاقبون عليها في الآخرة، وهذا مثل قوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

(٣)ومن مراسيل يحيىٰ بن كثير قال: فقد رسول الله ﷺ سلمان، فسأل عنه، فأخبر أنه عليل فأتاه يعوده فقال: «**شفىٰ الله سقمك، وعظم أجرك، وغفر ذنبك، ورزقك العافية في دينك وجسمك إلىٰ منتهىٰ أجلك، إن لك من وجعك خلالًا ثلاثًا: أما واحدة فتذكرة من ربك يذكرك بها، وأما الثانية: فتمحيص لما سلف من ذنوبك، وأما الثالثة: فادع بما شئت فإن المبتلىٰ مجاب الدعوة**»(٤).

---

(١) ٢٢٠ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١/ ١٥٩-١٦٠ رقم ٦٩) والحاكم (٣/ ٧٨ رقم ٤٤٥٠) وابن حبان (٧/ ١٨٩ رقم ٢٩٢٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٣٧٣ رقم ٦٣٢٨) وأبو يعلىٰ في مسنده (١/ ٩٧ رقم ٩٨) وأحمد (١/ ١١) وهناد بن السري في الزهد (١/ ٢٤٨ رقم ٤٢٩) وابن أبي الدنيا في الهم والحزن (رقم ٨٦) وانظر: التمهيد (٤/ ٢٢٠) (١٣/ ١٢٠) وتحفة الأحوذي (٨/ ٣١٩) والحديث صححه الحاكم.

(٣) ٩٧ عدة الصابرين.

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٧٣٤ رقم ٢٠١٤) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ٣١، ٩١) =

وقال زياد بن الربيع: قلت لأبي بن كعب: آية من كتاب الله قد أحزنتني. قال: ما هي؟ قلت: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم ولا اختلاج عرق؛ إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر[(١)].

وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**يا عائشة هذه معاقبة الله تعالى لعبده؛ بما يصيبه من: الحمى: والبلية،والشوكة، وانقطاع شسعه، حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع لها فيجدها في اضبنه؛ حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير**»[(٢)] ضبن الإنسان ما ت تحت يده يقال: اضطبن كذا إذا حمله تحت يده.

وقال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه؛ حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء[(٣)].

وفي بعض كتب الله سبحانه: إن الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه وإنه ليحبه؛ لينظر كيف تضرعه إليه[(٤)]؟

والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٣٢٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢١/ ٤١٧-٤١٨).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ١٠٠، ٢٢٨) والطبراني في تفسيره (٥/ ٢٩٢) وانظر: الدر المنثور (٢/ ٦٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٤٩) (٥/ ٢٩٥) والترمذي (رقم ٢٩٩١) وأحمد (٦/ ٢١٨) والطيالسي (رقم ١٥٨٤) والبيهقي في الشعب (٧/ ١٥٢ رقم ٩٨٠٩) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارت (رقم ١٠١) وحسنه الترمذي. و كذا حسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٨٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ٩٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٣/ ٣٩٢).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢١٠ رقم ١٠٠٣١) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ٩٤) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨٠) وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٦٣٩).

وقال كعب: أجد في التوراة: لولا أن يحزن عبدي المؤمن؛ لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبدًا[١].

وقال معروف الكرخي: إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع، فيشكو إلى أصحابه؛ فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب فلا تشكني[٢]...

***

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾.

[٣]وأما الخلة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحد حبه لمحبوبه، وهي رتبة لا تقبل المشاركة؛ ولهذا اختص بها في العالم الخليلان: إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وصح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»[٤].

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**لو كنتُ متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الرحمن**»[٥] وفي الصحيح أيضًا: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خلته**»[٦].

---

(١) أخرجه هناد بن السري في الزهد (١/ ٢٤٧ رقم ٤٢٨) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ١٠٣) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٠٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ١٧٧).
(٣) ٥٤ روضة.
(٤) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣) وعمدة القاري (١٦/ ١٧٧).
(٥) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٨٣).
(٦) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٥٣٢، ٢٣٨٣) وانظر: شرح النووي (٥/ ١٣).

ولما كانت الخلة مرتبة لا تقبل المشاركة؛ امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولدنه لما أخذ شعبة من قلبه، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه، لا ذبحه بالمدية، فلما أسلما لأمر الله وقدم محبة الله تعالىٰ علىٰ محبة الولد؛ خلص مقام الخلة وفدي الولد بالذبح.

وقيل: إنما سميت خلة؛ لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح، قال:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا(١)

والخلة الخليل يستوي فيه المذكر والمؤنث؛ لأنه في الأصل مصدر قولك: خليل بيِّن الخلة والخلولة قال:

ألا أبلغا خلتي جابرًا بأن خليلك لم يقتل(٢)

ويجمع علىٰ خلال مثل قلة وقلال، والخل الود والصديق، والخلال أيضًا مصدر بمعنىٰ المخالة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال امرؤ القيس:

ولست بمقْليِّ الخِلال ولا قالي(٣)

---

(١) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلىٰ بشار بن برد، يعد من أشعر المولدين علىٰ الإطلاق، كان ضريراً، أدرك الدولتين الأموية والعباسية، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة سنة ١٦٧هـ.

(٢) هذا البيت من بحر المتقارب ذكره ابن منظور في لسان العرب (١/ ٦٦) (١١/ ٢١٧) ونسبه إلىٰ أوفى بن مطر المازني.

(٣) هذا عجز بيت من بحر الطويل وينسب إلىٰ امرئ القيس، وصدره: صرفت الهوىٰ عنهن من خشية الردىٰ. ذكره الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٢٤) وابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٠) وابن منظور في لسان العرب (١١/ ٢١٧)، وذكر عجز البيت فقط ابن سلام في غريب الحديث (٢/ ٢٤٨).

والخليل الصديق والأنثى خليلة، والخِلالة والخَلالة والخُلالة بكسر الخاء وفتحها وضمها: الصداقة والمودة، قال:

وكيف تواصلُ من أصبحت خلالتُه كأبي مرحبِ(١)

وقد ظن بعض من لا علم عنده؛ أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وهذا باطل من وجوه كثيرة:

منها: أن الخلة خاصة والمحبة عامة، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وقال في عباده المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومنها: أن النبي ﷺ، نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحب النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها.

ومنها: أنه قال: «إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا».

ومنها: أنه قال: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوةُ الإسلام ومودته»(٢).

***

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا

(١) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب إلى النابغة الجعدي: قيس بن عبد الله، شاعر قال الشعر في الجاهلية وكان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل الإسلام، وفد على النبي ﷺ فأسلم وأدرك صفين فشهدها مع علي ﷺ جاوز المائة رضي الله عنه. مات سنة ٥٠هـ. وذكره الطبري في تفسيره (١/ ١٤٠) وعزاه إلى نابغة بني جعدة، وابن منظور في لسان العرب (١/ ٤١٦، ٤٩٢) (٤/ ٥٢) (١١/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦) وانظر: عمدة القاري (٤/ ٢٤٣-٢٤٦).

بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾.

[1]قضى رسول الله ﷺ، أن اليتيمة تستأمر في نفسها «ولا يتم بعد احتلام»[2] فدل ذلك على جواز نكاح اليتيمة قبل البلوغ، وهذا مذهب عائشة، وعليه يدل القرآن والسنة، وبه قال أحمد وأبو حنيفة وغيرهما، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] قالت عائشة: «**هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في نكاحها،ولا يقسط لها سنة صداقها، فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن سنة صداقهن**»[3].

وفي السنن الأربعة عنه ﷺ: «**اليتيمة تستأمر في نفسها، فإن صمتت فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها**»[4].

وفي الصحيحين: عن عائشة في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ١٢٨] «**نزلت في المرأة تكون عند الرجل،**

(١) ٣٦ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٨٧٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٥٧ رقم ١١٠٩١) والطبراني في الكبير (٤/ ١٤ رقم ٣٥٠٢) وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص ٤٠٧) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٦٣٤) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٠١ رقم ١٣٨٨) قد أعله العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم وحسنه النووي متمسكًا بسكوت أبي داود عليه. ورواه الطبراني في الصغير بسند آخر عن علي، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وفي الباب حديث حنظلة بن حنيفة عن جده وإسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٩٤، ٤٥٧٤) ومسلم (رقم ٣٠١٨) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٥٧-٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١١٠٩) وابن حبان في صحيحه (٩/ ٣٩٢ رقم ٤٠٧٩) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ١٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٨٢ رقم ٥٣٨١) وفي المجتبى (رقم ٣٢٧٠) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٢٠ رقم ١٣٤٦٨) والدارقطني (٣/ ٢٤٢ رقم ٧٧).

فتطول صحبتها، فيريد طلاقها، فتقول: لا تطلقني وأمسكني، وأنت في حل من النفقة عليَّ والقسم لي، فذلك قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾» وقضى خليفته الراشد وابن عمه، علي بن أبي طالب: «أنه إذا تزوج الحرة على الأمة: قسم للأمة ليلة، وللحرة ليلتين»[1].

وقضاء خلفائه ـ وإن لم يكن مساويًا لقضائه ـ فهو كقضائه في وجوبه على الأمة.

وقد احتج الإمام أحمد بهذا القضاء على علي، وضعفه أبو محمد بن حزم بالمنهال بن عمرو، وبابن أبي ليلى، ولم يصنع شيئًا فإنهما ثقتان حافظان جليلان، ولم يزل الناس يحتجون بابن أبي ليلى على شيء في حفظه، يتقى منه: ما خالف فيه الأثبات، وما تفرد به عن الناس، وإلا فهو غير مدفوع عن الأمانة والصدق[2]...

***

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

[3]أمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية، وهذا أمر بالقيام به في حق كل أحد: عدوًّا كان، أو وليًّا.

وأحق ما قام به العبد بالقسط: الأقوال، والآراء، والمذاهب؛ إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره، فالقيام فيها بالهوى والعصبية: مضاد لأمر الله، مناف لما بعث به رسوله، والقيام فيها بالقسط؛ وظيفة خلفاء الرسول في أمته وأمنائه بين أتباعه، ولا يستحق اسم الإيمان إلا من قام فيها بالعدل المحض: نصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله،

---

(١) أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٨٥ رقم ١٤٨) وسعيد بن منصور (١/ ٢٢٦ رقم ٧٢٥) وانظر: المحلى (١٠/ ٦٦).

(٢) للبحث صلة فمن أراده فليرجع إليه اهـ (ج).

(٣) ٢٣ الرسالة التبوكية.

ولعباده، وأولئك هم الوارثون حقًّا، لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه؛ معيارًا على الحق، وميزانًا له، يعادي من خالفه، ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد، وهو في هذا الباب؛ أعظم فرضًا وأكبر وجوبًا.

ثم قال: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ الشاهد هو المخبر، فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور.

وأمر تعالى أن يكون شهيدًا له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمن: أن تكون الشهادة بالقسط، وأن تكون لله لا لغيره.

وقال في الآية الأخرى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

فتضمنت الآيتان أمورًا أربعة: أحدها: القيام بالقسط. الثاني: أن يكون لله. الثالث: الشهادة بالقسط. الرابع: أن تكون لله.

واختصت آية النساء: بالقيام بالقسط، والشهادة لله، وآية المائدة: بالقيام لله، والشهادة بالقسط؛ لسر عجيب من أسرار القرآن ليس هذا موضع ذكره.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد بالقسط على كل أحد؛ ولو كان أحب الناس إلى العبد، فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله، وأقاربه الذين هم أخص به وألصق من سائر الناس.

فإن كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولاسيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم؛ فإنه لا يقوم به في هذه الحال؛ إلا من كان الله ورسوله أحبَّ إليه من كل ما سواهما.

وهذا يمتحن به العبد إيمانه؛ فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله منه.

وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك

القيام عليهم بالقسط؛ فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصر به هذا الحب عن الحق، كما قال بعض السلف: العادل هو الذي إذا غضب؛ لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي؛ لم يخرجه رضاه عن الحق(١).

فاشتملت الآيتان على هذين الحكمين: وهما القيام بالقسط، والشهادة به على الأولياء والأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء: ١٣٥] أي: إن يكن المشهود عليه غنيًّا ترجونه وتأملون عود منفعة غناه عليكم؛ فلا تقومون عليه، أو فقيرًا؛ فلا ترجونه ولا تخافونه؛ فالله أولى بهما منكم هو ربهما ومولاهما وهما عبيده؛ كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنيًّا لغناه، ولا فقيرًا لفقره؛ فإن الله أولى بهما منكم، وقد يقال: فيه معنى آخر أحسن من هذا، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغني والفقير، أما الغني فخوفًا على ماله، وأما الفقير فلإعدامه، وإنه لا شيء له، فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق، فقيل لهم: الله أولى بالغني والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غني ولا فقير.

ثم قال: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ﴾ [النساء: ١٣٥] نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل.

وقوله: ﴿ أَن تَعْدِلُوا ﴾ منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله، وتقديره عند البصريين: كراهية أن تعدلوا، أو حذر أن تعدلوا، فيكون اتباعكم للهوى؛ كراهية العدل، أو فرارًا منه.

وعلى قول الكوفيين التقدير: أن لا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر

---

(١) يروى مرفوعًا عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من أخلاق الإيمان: من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له» أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ١٦٤) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٨٧ رقم ٢٤٦٦) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٩) فيه بشر بن الحسين وهو كذاب. وقال في موضع آخر (٤/ ٢٠٦): متروك كذاب.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥] ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق؛ محذرًا منهما ومتوعدًا عليهما: أحدهما: اللي، والآخر: الإعراض، فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقًا إلى دفعها؛ أعرض عنها وأمسك عن ذكرها؛ فكان شيطانًا أخرس. وتارة يلويها ويحرفها، اللي مثال الفتل وهو التحريف، وهو نوعان:

لي في اللفظ، ولي في المعنى، فاللي في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق: إما بزيادة لفظة، أو نقصانها، أو أبدالها بغيرها، ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظًا وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ، وغيره، فهذا أحد نوعي اللي.

والنوع الثاني منه: لي المعنى، وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم، وتجهاله ما لم يرده، أو يسقط منه البعض المراد به، ونحو هذا من لي المعاني، فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥] ولما كان الشاهد مطالبًا بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها؛ كان الإعراض نظير الكتمان، واللي نظير تغييرها وتبديلها، فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود: أن الواجب الذي لا يتم الإيمان ـ بل لا يحصل مسمى الإيمان ـ إلا به: مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾.

...(١)قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] ومن أعظم السبيل: تسليط الكافر على انتزاع أملاك المسلمين منهم، وإخراجهم منها قهرًا، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وهذا يقتضي مطلق المساواة بين المسلم والكافر، لا نفي المساواة المطلقة، فإنها منتفية عن كل شيئين وإن تماثلا.

وبهذه الآية؛ احتج من نفى القصاص بينهم وبين المسلمين.

وأيضًا فالذمي تبع لنا في الدار، وليس بأصل من أهل الدار، ولهذا عند الشافعي يؤدي الجزية أجرة لمكان السكنى والتبسط في دار الإسلام، ولهذا متى نقض العهد ألحق بمأمنه، وأخرج من دارنا وأحلق بداره، فهو في دار الإسلام أجري مجرى الساكن المنتفع، لا مجرى الساكن الحقيقي؛ وحق السكنى لا يقوى على انتزاع الشقص من يد مالكه.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال النبي ﷺ لليهود: «اعلموا أن الأرض لله ورسوله»(٢)، فعباده الصالحون هم وارثوها، وهم الملاك لها على الحقيقة، والكفار فيها تبع ينتفعون بها؛ لضرورة إبقائهم بالجزية، فلا يساوون المالكين حقيقة، ولهذا منعهم كثير من الأئمة من شراء الأرض العشرية؛ لما في ذلك من إسقاط حق المسلم من العشر الذي يجب، فكيف يسلطون على انتزاع نفس أرض المسلم وعقاره منه قهرًا.

وأيضًا فلو كانوا مالكين حقيقة لما أوصى النبي ﷺ، بإخراجهم من جزيرة العرب،

---

(١) ٢٩٤ أحكام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٧) ومسلم (رقم ١٧٦٥) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٩٠).

وقال: «لئن عشت لأخرجن اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب»[١] هذا مع بقائهم علىٰ عهدهم، وعدم نقضهم له؛ فلو كانوا مالكين لدورهم حقيقة لما أخرجهم منها ولم ينقضوا عهدًا.

ولهذا احتج الإمام أحمد بذلك علىٰ أنه: لا شفعة لهم علىٰ مسلم، وهذا من ألطف ما يكون من الفهم، وأدق ما يكون من الفقه.

وأيضًا فالشفعة تقف علىٰ ملك ومالك، فإذا اختصت الشفعة بملك دون مالك، وهو العقار دون غيره، فأولىٰ أن تختص بمالك دون مالك، وهو المسلم دون غيره، وهذا ـ علىٰ أصل من يقول: الشفعة تثبت علىٰ خلاف القياس ـ ظاهر جدًّا، فإنها تسليط علىٰ انتزاع ملك الغير منه قهرًا، لمصلحة الشفيع؛ فيجب أن يقتصر بها علىٰ ما: قام عليه الدليل، وثبت به الإجماع دون غيره: وأما نحن فليست الشفعة عندنا علىٰ خلاف القياس، ولكن حكمة الشارع وقياس أصوله أوجبتها؛ دفعًا لضرر الشركة بحسب الإمكان؛ وإذا كان البائع قد رغب عن الشقص ورضي بالثمن؛ فرغبته عنه لشريكه ليدفع عنه ضرر الشريك الدخيل أولىٰ، وهو يأخذ منه الثمن الذي يأخذه من الشريك، ولا يفوت عليه شيء.

فهذا محض قياس الأصول، ولكن هذا حق للمسلم علىٰ المسلم، فلا حق للذمي فيه كسائر الحقوق التي لأهل الإسلام بعضهم علىٰ بعض، وإذا كان كثير من الفقهاء يمنعون الذمي من التمليك بالإحياء: كعبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد في رواية، وكثير من المالكية مع أن الإحياء لا يتضمن انتزاع ملك مسلم منه؛ فلأن يمنع من انتزاع أرض المسلم وعقاره منه قهرًا؛ أولىٰ وأحرىٰ.

[٢]قوله[٣] سبحانه: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٤١]

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٧) وانظر: التمهيد (١/ ١٦٩-١٧٠) وتحفة الأحوذي (٥/ ١٩٢).

(٢) ١٠١ إغاثة جـ١.

(٣) ما قبله يأتي في سورة النحل، ويأتي بكامله في سورة نوح إن شاء الله، وأيضاً فسيأتي هذا البحث في سورة =

فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان؛ ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسبَّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته.

والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا، حتى جعل له العبد سبيلًا إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطًا وقهرًا، فمن وجد خيرًا؛ فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يلومن إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء من أزمَّة الأمور بيده، ومردها إليه، وله الحجة البالغة؛ فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

***

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾.

(١) من فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان؛ فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها:

فمنها: الأجر العظيم ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [الحج: ٣٨].

= سبأ، نقلاً عن الجواب الكافي ص ٢٢. (ج).

(١) ٩٤ الجواب الكافي.

ومنها: استغفار حملة العرش لهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم «ولا يذل من والاه الله»، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم، والمغفرة، والرزق الكريم.

ومنها: العزة ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: أنه أعطاهم كفلين من رحمته، وأعطاهم نورًا يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الود الذي يجعله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلىٰ ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين.

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنهم المنعم عليهم، الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلىٰ صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدىٰ لهم وشفاء ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

والمقصود: أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئًا يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه

وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين، فإن استمر على الذنوب وأصر عليها؛ خيف عليه أن يرين على قلبه فيخرجه عن الإسلام بالكلية.

ومن هنا اشتد خوف السلف كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر.

***

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

(١)تأمل ما تحت هذا الخطاب من العدل واللطف والرحمة، وأنه سبحانه ليس له غرض في تعذيبكم، ولا يعذبكم تشفيًا ولا لحاجة به إلى ذلك، ولا هو ممن يعذب سدى وباطلًا بلا موجب ولا سبب؛ ولكن لما تركتم الشكر والإيمان، واستبدلتم بهما: الكفر، والشرك، وجحود حقه عليكم، وإنكار كماله وأبدلتم نعمته كفرًا؛ أحللتم بأنفسكم جزاء ذلك وعقوبته، وسعيتم بجهدكم إلى دار العقوبة ساعين في أسبابها، بل دعاته ورسله تمسك بأيديكم وحجزكم عن الطريق الموصلة إلى محل عذابه؛ وأنتم تجاذبونهم أشد المجاذبة، وتتهافتون فيها، ولم يكفكم ذلك حتى بغيتم طريق رضاه ورحمته عوجًا، وصددتم عنها ونفرتم عباده عنها بجهدكم، وآثرتم موالاة عدوه على موالاته وطاعته، فتحيزتم إلى أعدائه؛ متظاهرين عليه ساعين في إبطال دعوته الحق، فما يفعل سبحانه بعذابكم لولا أنكم أوقعتم أنفسكم فيه بما ارتكبتم، وهذا المسلك ظاهر المصلحة والحكمة والعدل في حقهم،وإن كانوا هم الذين فوتوا على أنفسهم المصلحة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨]، وهذا الأمر لابد أن يشهدوه؛ إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، ويقروا به ولا يبقى عندهم ريب ولا شك.

---

(١) ٣٤٥ مختصر الصواعق جـ١.

[(١)]وأما تسميته سبحانه بالشكور؛ فهو في حديث أبي هريرة.

وفي القرآن تسميته: شاكرًا، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧]. وتسميته أيضًا شكور قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٢].

فجمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم، وأثابهم عليه، والله تعالىٰ يشكر عبده؛ إذا أحسن طاعته ويغفر له؛ إذا تاب إليه؛ فيجمع للعبد: بين شكره لإحسانه، ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور.

وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه.

وأما شكر الرب تعالىٰ؛ فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولىٰ بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور علىٰ الحقيقة؛ فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله، بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلىٰ، ويلقي له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل، وشكره علىٰ هذا وهذا.

ولما عقر نبيه سليمان الخيل؛ غضبًا له، إذ شغلته عن ذكره فأراد ألا تشغله مرة أخرىٰ؛ أعاضه عنها متن الريح.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته؛ أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن له؛ شكر له ذلك بأن مكَّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولما بذل الشهداء أبدانهم له؛ حتىٰ مزقتها أعداؤه، شكر لهم ذلك بأن أعاضهم

(١) ٣٠٨ عدة الصابرين.

منها طيرًا خضرًا أقرّ أرواحهم فيها، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلىٰ يوم البعث؛ فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه.

ولما رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم؛ أعاضهم من ذلك بأن: صلىٰ عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه؛ فأخلصهم بخالصة ذكرىٰ الدار.

ومن شكره سبحانه: أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة؛ فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه.

ومن شكره: أنه غفر للمرأة البغي؛ بسقيها كلبًا كان قد جهده العطش؛ حتىٰ أكل الثرىٰ، وغفر لآخر؛ بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين، فهو سبحانه يشكر العبد علىٰ إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه.

وأبلغ من ذلك: أنه سبحانه هو الذي أعطىٰ العبد ما يحسن به إلىٰ نفسه، وشكره؛ بل شكره علىٰ قليله بالأضعاف المضاعفة، التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان، وإعطاء الشكر؛ فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟ وتأمل قوله سبحانه: ﴿ مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧] كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالىٰ؛ يأبىٰ تعذيب عباده سدىٰ بغير جرم، كما يأبىٰ إضاعة سعيهم باطلًا، فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه علىٰ ما لا يدخل تحت قدرته، تعالىٰ الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوًّا كبيرًا، فشكره سبحانه؛ اقتضىٰ أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة؛ فهو منزه عن خلاف ذلك، كما تنزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه: أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر، ومن شكره سبحانه: أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين ا لناس؛ فيشكره له، وينوه بذكره، ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين.

كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونوَّه بذكره بين عباده.

وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور؛ يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة؛ كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى: أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض: الكفور والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل والجبان، والمهين، واللئيم.

وهو سبحانه: جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين. محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين. جواد يحب أهل الجود، ستِّيرٌ يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضيف. عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه؛ من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه؛ فهو مما يضادها وينافيها(١).

(٢)قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: ١٥٥] أي: ما لعناهم إلا بنقضهم ميثاقهم. ونحو ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: ما لنت لهم إلا برحمة من الله، ولا تسمع قول من يقول من النحاة: أن ما زائدة في هذه المواضع؛ فإنه صادر عن عدم تأمل.

---

(١) سيأتي إن شاء الله تعالى عن عدة الصابرين زيادة بحث على قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] (ج).

(٢) ١٥٠ بدائع جـ٢.

فإن قيل: فمن أين لكم إفادة (ما) هذه للمعنيين المذكورين من النفي والإيجاب، وهي لو كانت على حقيقتها من النفي الصريح لم تفد إلا معنى واحدًا وهو النفي، فإذا لم يكن النفي صريحًا فيها كيف تفيد معنيين؟!

قيل: نحن لم ندع أنها أفادت النفي والإيجاب بمجردها؛ ولكن حصل ذلك منها، ومن القرائن المحتفة بها في الكلام...

***

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

...[(١)]المسلمون يؤمنون بالمسيح الصادق الذي جاء من عند الله بالهدى ودين الحق، الذي هو عبد ا لله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما تؤمن بمسيح دعا إلى عبادة نفسه وأمه وأنه ثالث ثلاثة، وأنه الله وابن الله، وهذا هو أخو المسيح الكذاب لو كان له وجود، فإن المسيح الكذاب يزعم أنه الله، والنصارى في الحقيقة اتباع هذا المسيح، كما أن اليهود إنما ينتظرون خروجه، وهم يزعمون أنهم ينتظرون النبي الذي بشروا به، فعوضهم الشيطان بعد مجيئه من الإيمان به انتظارًا للمسيح الدجال.

وهكذا كل من أعرض عن الحق؛ يعوض عنه بالباطل.

وأصل هذا: أن إبليس لما أعرض عن السجود لآدم كبرًا أن يخضع له؛ تعوض بذلك ذل القيادة لكل فاسق ومجرم من بنيه، فلا بتلك النخوة ولا بهذه الحرفة.

والنصارى لما أنفوا أن يكون المسيح عبدًا لله؛ تعوضوا من هذه الأنفة بأن رضوا

---

(١) ٦٥ هداية.

بجعله مصفعة اليهود ومصلوبهم الذي يسخرون منه ويهزءون به، ثم عقدوا له تاجًا من الشوك بدل تاج الملك، وساقوه في حبل إلىٰ خشبة الصلب يصفقون حوله ويرقصون، فلا بتلك الأنفة له من عبودية الله، ولا بهذه النسبة له إلىٰ أعظم الذل والضيق والقهر...

(1)ونحن نذكر الآن الأمر كيف ابتدأ وتوسط، وانتهىٰ، حتىٰ كأنك تراه عيانًا كان الله سبحانه قد بشر بالمسيح علىٰ ألسنة أنبيائه، من لدن موسىٰ إلىٰ زمن داود ومن بعده من الأنبياء، وأكثر الأنبياء تبشيرًا به داود، وكانت اليهود تنتظره وتصدق به قبل مبعثه، فلما بعث كفروا به؛ بغيًا وحسدًا، وشردوه في البلاد وطردوه وحبسوه، وهموا بقتله مرارًا إلىٰ أن أجمعوا علىٰ القبض عليه وعلىٰ قتله، فصانه الله وأنقذه من أيديهم، ولم يهنه بأيديهم، وشبه لهم بأنهم صلبوه ولم يصلبوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦-١٥٨].

وقد اختلف في معنىٰ قوله: ﴿وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

فقيل: المعنىٰ: ولكن شبه للذين صلبوه بأن ألقىٰ شبهه علىٰ غيره فصلبوا الشبه.

وقيل: المعنىٰ: ولكن شبه النصارىٰ أي: حصلت لهم الشبهة في أمره وليس لهم علم بأنه ما قتل وما صلب؛ ولكن لما قال أعداؤه: إنهم قتلوه وصلبوه، واتفق رفعه من الأرض؛ وقعت الشبهة في أمره، وصدقهم النصارىٰ في صلبه لتتم الشناعة عليهم، وكيف ما كان فالمسيح صلوات الله وسلامه عليه؛ لم يقتل ولم يصلب يقينًا لا شك فيه.

ثم تفرق الحواريون في البلاد بعد رفعه، علىٰ دينه ومنهاجه يدعون الأمم إلىٰ: توحيد الله، ودينه، والإيمان بعبده ورسوله ومسيحه، فدخل كثير من الناس في دينه ما

(١) ٦٧ هداية.

بين ظاهر مشهور ومختف مستور، وأعداء الله اليهود في غاية الشدة والأذى لأصحابه وأتباعه، ولقي تلاميذ المسيح وأتباعه من اليهود ومن الروم شدة شديدة من قتل وعذاب وتشريد وحبس وغير ذلك.

وكان اليهود في زمن المسيح في ذمة الروم وكانوا ملوكًا عليهم، وكتب نائب الملك ببيت المقدس إلى الملك، يعلمه بأمر المسيح وتلاميذه وما يفعل من العجائب الكثيرة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فهم أن يؤمن به ويتبع دينه فلم يتابعه أصحابه.

ثم هلك وولي بعده ملك آخر؛ فكان شديدًا على تلامذة المسيح...

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾.

...[1] قوله: وأما قول الله ﷻ: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فليس هو من باب المجاز؛ بل هو حقيقة.

فيقال له: ما أسرع ما هدمت جميع ما بنيته ونقضت كل ما أصلته، فإنك قدمت في أول الباب أن الفعل يقتضي جميع أفراد المصدر، وهذا محال، فالأفعال عامتها مجاز. وقدمت أن خلق الله السموات والأرض مجاز، وعلم الله مجاز، فما بال ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ وحده حقيقة من بين سائر الأفعال.

ومن العجب أن يكون خلق الله السموات والأرض وعلم الله عندك مجازًا، وهو أظهر للأمم من كل ظاهر ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، حقيقة وفيه من أظهر الخلاف والخفاء ما لا يخفى.

ونحن لا نشك أن الجميع حقيقة، ومن قال: إن ذلك أو بعضه مجاز فهو ضال، ولكن القائلون بأن ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ ﴾ مجاز يقولون إن خلق الله وعلم الله حقيقة،

---

(١) ١٠٥ مختصر الصواعق جـ٢.

وهم الجهمية والكلابية.

وأما القائلون بخلق القرآن فلهم قولان: أكثرهم يقول: إنه مجاز، وبعضهم يقول: إنه حقيقة، وكلم الله ويكلم حقيقة في خلق حروف وأصوات يكون متكلمًا مكلمًا؛ والمتكلم عندهم حقيقة من فعل الكلام، وحقيقة الكلام عندهم هي الحروف والأصوات، وأصابوا في ذلك لكن أخطؤوا في اعتقادهم أن المتكلم من فعل الكلام في غيره، ولم يقم به فالكلام عندهم مخلوق، والرب لم يقم به عندهم كلام، ولا أمر ولا نهي.

وهؤلاء الذين اتفق السلف وأئمة الإسلام على تكفيرهم.

....[1]في الحديث الصحيح الذي بلغناه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وسائر الأمة تلقته بالقبول، وتقييده بالصوت إيضاحًا وتأكيدًا كما قيد التكليم بالمصدر في قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ قال البخاري في صحيحه: حدثنا عمر بن حفص بن غياث: حدثنا أبي: حدثنا الأعمش: حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**»[2].

...[3]وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن الله سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهي صفة ذات وفعل قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

فإذا تخلص الفعل للاستقبال و﴿ أن ﴾ كذلك و﴿ نَّقُول ﴾ فعل دال على الحال

(١) ٣٧٨ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤١) ومسلم (رقم ٢٢٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٦٠).

(٣) ٢٩٦ مختصر الصواعق جـ٢.

والاستقبال و﴿ كُن﴾ حرفان يسبق أحدهما الآخر، فالذي اقتضته هذه الآية؛ هو الذي في صريح العقول والفطر.

وكذلك قوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ [الإسراء: ١٦] سواء كان الأمر هاهنا: أمر تكوين، أو أمر تشريع؛ فهو موجود بعد أن لم يكن.

وكذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ١١] وإنما قال لهم: اسجدوا بعد خلق آدم وتصويره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، الآيات كلها، فكم من برهان يدل على أن التكلم هو الخطاب وقع في ذلك الوقت.

وكذلك قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ [القصص: ٣٠].

والذي ناداه هو الذي قال له: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه: ١٤].

وكذلك قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ ﴾ [القصص: ٦٥]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠]، وقوله: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ [ق: ٣٠]. ومحال أن يقول سبحانه لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ قبل خلقها ووجودها.

وتأمل نصوص القرآن من أوله إلى آخره، ونصوص السنة ولاسيما أحاديث الشفاعة وحديث المعراج وغيرها.

...[1] بل إذا تأمل من بصَّره الله تعالى طريقة القرآن والسنة؛ وجدها متضمنة لدفع ما يوهمه الكلام من خلاف ظاهره، وهذا موضع لطيف جدًّا في فهم القرآن، نشير إلى بعضه.

---

(١) ٦٩ مختصر الصواعق جـ١.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان، أن المراد به: إثبات تلك الحقيقة، كما تقول العرب: مات موتًا، ونزل نزولًا، ونظائره، ونظيره التأكيد بالنفس والعين وكل وأجمع، والتأكيد بقوله حقًّا ونظائره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب: أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه، في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة، وأنه بنفسه يسمع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢]، فرفع توهم السامع أن المكلف به عمل جميع الصالحات المقدورة المعجوز عنها، كما يجوزه أصحاب تكليف ما لا يطاق، رفع هذا التوهم بجملة اعترض بها بين المبتدأ وخبره تزيل الإشكال، ونظيره ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النساء: ٨٤]، فلما أمره بالقتال وأخبره أنه لا يكلف بغيره، بل إنما يكلف بنفسه أتبعه بقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لئلا يتوهم سامع أنه وإن لم يكلف بهم فإنه يهملهم ويتركهم.

(١)احتج بعض أهل السنة على القائلين من المعتزلة: بأن تكليم الله لموسى مجاز بقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ فأكد الفعل بالمصدر، ولا يصح المجاز مع التوكيد.

قال السهيلي: فذاكرت بها شيخنا أبا الحسن فقال: هذا حسن لولا أن سيبويه أجاز في مثل هذا؛ أن يكون مفعولًا مطلقًا وإن لم يكن منعوتًا في اللفظ، فيحتمل على هذا أن

(١) ٧٨ بدائع جـ٢.

يريد: تكليماً ما، فلا يكون في الآية حجة قاطعة،والحجاج[1] عليهم كثيرة.

قلت: وهذا ليس بشيء، والآية صريحة في أن المراد بها تكليم أخص من الإيحاء؛ فإنه ذكر أنه أوحى إلى نوح والنبيين من بعده، وهذا الوحي هو التكليم العام المشترك، ثم خص موسى باسم خاص وفعل خاص وهو كلم تكليمًا، رفع توهم إرادة التكليم العام عن الفعل بتأكيده بالمصدر، وهذا يدل على اختصاص موسى بهذا التكليم، ولو كان المراد تكليمًا ما لكان مساويًا لما تقدم من الوحي أو دونه وهو باطل.

وأيضًا فإن التأكيد في مثل هذا السياق: صريح في التعظيم، وتثبيت حقيقة الكلام والتكليم فعلًا ومصدرًا، ووصفه بما يشعر بالتقليل مضاد للسياق فتأمله.

وأيضًا فإن الله سبحانه قال لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] فلو كان التكليم الذي حصل له تكليمًا ما كان مشاركًا لسائر الأنبياء فيه فلم يكن لتخصيصه بالكلام معنى.

وأيضًا فإن وصف المصدر ههنا مؤذن بقلته، وأن نوعًا من أنواع التكليم حصل له، وهذا محال ههنا؛ فإن الإلهام تكليم ما؛ ولهذا سماه الله تعالى وحيًا والوحي تكليم ما فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ [المائدة: ١١١] ونظائره.

وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في منامه[2]، فكل هذه الأنواع تسمى تكليمًا ما.

وقد خص الله سبحانه موسى واصطفاه على البشر بكلامه له.

---

(١) كذا أيضًا في المخطوطة، ولعله الحجج عليهم كثيرة (ج).

قلت: الحجج والحجاج بمعنى: وجمع الحجة حجج وحجاج، انظر: لسان العرب (٢/ ٢٢٨).

(٢) يروى مرفوعًا عن عبادة عن رسول الله ﷺ، أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٢٧٥ رقم ٣٣٧) والديلمي في الفردوس (٢/ ٢٧٢ رقم ٣٢٦٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٩٠) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٤): رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه. وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٥٤).

وأيضًا فإن الله سبحانه حيث ذكر موسىٰ؛ ذكر تكليمه له باسم التكليم الخاص دون الاسم العام كقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بل ذكر تكليمه له بأخص من ذلك، وهو تكليم خاص كقوله: ﴿ وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم: ٥٢] فناداه وناجاه، والنداء والنجاء أخص من التكليم؛ لأنه تكليم خاص: فالنداء تكليم من البعد يسمعه المنادي، والنجاء تكليم من القرب.

وأيضًا فإنه اجتمع في هذه الآية ما يمتنع معه حملها علىٰ ما ذكره، وهو أنه ذكر الوحي المشترك، ثم ذكر عموم الأنبياء بعد محمد ونوح، ثم ذكر موسىٰ بعينه بعد ذكر النبيين عمومًا، ثم ذكر خصوص تكليمه، ثم أكده بالمصدر، وكل من له أدنىٰ ذوق في الألفاظ ودلالتها علىٰ معانيها؛ يجزم بأن هذا السياق يقتضي تخصيص موسىٰ بتكليم لم يحصل لغيره، وأنه ليس تكليمًا ما. فما ذكره أبو الحسن غير حسن، بل باطل قطعًا.

(1) **المثال العاشر**: رد الجهمية النصوص المحكمة الصريحة التي تفوت العد علىٰ أن الله سبحانه: تكلم ويتكلم، وكلم ويكلم، وقال ويقول، وأخبر ويخبر، ونبأ [وينبئ] وأمر ويأمر، ونهىٰ وينهىٰ، ورضي ويرضىٰ، ويعطي ويبشر وينذر ويحذر، ويوصل لعباده القول ويبين لهم ما يتقون، ونادىٰ وينادي، وناجىٰ ويناجي، ووعد وأوعد، ويسأل عباده يوم القيامة ويخاطبهم، ويكلم كلًّا منهم ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب، ويراجعه عبده مراجعة، وهذه كلها أنواع للكلام والتكليم، وثبوتها بدون ثبوت صفة التكلم له ممتنع، فردها الجهمية مع إحكامها وصراحتها وتعيينها للمراد منها؛ بحيث لا تحتمل غيره بالمتشابه من قوله: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾ [الشورىٰ: ١١].

المثال الحادي عشر: ردوا محكم قوله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿ وَلَـٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾

---

(١) ٢٨٠ أعلام جـ٢.

[النحل: ١٠٢] وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] وقوله: ﴿ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وغيرها من النصوص المحكمة بالمتشابه من قوله: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر: ٦٢].

قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ [الحاقة: ٤٠] والآيتان حجة عليهم.

فإن صفات الله جل جلاله؛ داخلة في مسمى اسمه؛ فليس «الله» اسمًا لذات: لا سم لها، ولا بصر لها، ولا حياة لها، ولا كلام لها، ولا علم، وليس هذا رب العالمين، وكلامه تعالى وعلمه وحياته وقدرته ومشيئته ورحمته؛ داخلة في مسمى اسمه؛ فهو سبحانه بصفاته وكلامه الخالق، وكل ما سواه مخلوق.

وأما إضافة القرآن إلى الرسول فإضافة تبليغ محض، لا إنشاء، والرسالة تستلزم تبليغ كلام المرسل، ولو لم يكن للمرسل كلام يبلغه الرسول لم يكن رسولًا، ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة رسله، فإن حقيقة رسالتهم تبليغ كلام من أرسلهم؛ فالجهمية وإخوانهم ردُّوا تلك النصوص المحكمة بالمتشابه، ثم صيروا الكل متشابهًا، ثم ردوا الجميع، فلم يثبتوا لله فعلًا يقوم به يكون به فاعلًا، كما لم يثبتوا له كلامًا يقوم به يكون به متكلمًا؛ فلا كلام له عندهم ولا أفعال، بل كلامه وفعله عندهم مخلوق منفصل عنه، وذلك لا يكون صفة له؛ لأنه سبحانه إنما يوصف بما قام به لا بما لم يقم به.

***

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾.

...[1] وقوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ ﴾ [النساء: ١٦٦]، فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره؛ من أعظم الشهادة بأنه

(١) ٤٧٠ مدارج جـ٣.

هو الذي أنزله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣، ١٤] وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء، فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل ـ وإنما المعنى: أنزله مشتملًا على علمه، فنزوله مشتملًا على علمه؛ هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق، ونظير هذا قوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦]، ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ .

(١) قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]، أي: أنزله، وفيه علمه الذي لا يعلمه البشر؛ فالباء للمصاحبة مثل قوله: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ١٤] أي: أنزل وفيه علم الله، وذلك من أعظم البراهين على صدق نبوة من جاء به.

ولم يصنع شيئًا من قال: إن المعنى أنزله وهو يعلمه، وهذا وإن كان حقًّا فإن الله يعلم كل شيء، فليس في ذلك دليل وبرهان على صحة الدعوى، فإن الله يعلم الحق والباطل بخلاف ما إذا كان المعنى: أنزله متضمنًا لعلمه الذي لا يعلمه غيره، إلا من أطلعه الله وأعلمه به، فإن هذا من أعظم أعلام النبوة والرسالة.

وقال فيما عارضه من الشبه الفاسدة التي يسميها أربابها قواطع عقلية: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال لمن أنكر المعاد بعقله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا

(١) ١٤٩ مختصر الصواعق جـ ١.

يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

والظن الذي أثبته سبحانه للمعارضين نصوص الوحي بعقولهم؛ ليس هو الاعتقاد الراجح؛ بل هو أكذب الحديث، وقال: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١].

وأنت إذا تأملت ما عند هؤلاء المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم؛ رأيت كله خرصًا، وعلمت أنهم هم الخراصون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته وهدى به أنبياءه ورسله وأتباعهم، وأثنى عليهم فقال: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فهذه النعمة والتزكية؛ إنما هي لمن عرف أن ما جاء به الرسول وأخبر به ﷻ عن صفاته وأفعاله، هو الحق كما أخبر به، لا كمن زعم أن ذلك مخالف لصريح العقل، وأن العقول مقدمة عليه، والله المستعان.

...[1]ثم إن الجهمي ادعى أمرًا فقال: أنا أجد آية في كتاب الله ما يدل على أن القرآن مخلوق: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١] وعيسى مخلوق.

قلنا له: إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن، إن عيسى تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن؛ لأنا نسميه مولودًا وطفلاً وصبيًّا وغلامًا يأكل ويشرب، وهو مخاطب

---

(١) ١٧٩ الروح.

بالأمر والنهي، يجري عليه الخطاب والوعد والوعيد.

ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم، فلا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى، فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى؟ ولكن المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن، فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو كن، ولكن كان بكن، فكن من الله قول، وليس كن مخلوقًا.

وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى؛ وذلك أن الجهمية قالوا: روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله وكلمته من ذاته؛ كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب.

قلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة، وإنما الكلمة قول الله تعالى كن، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] يقول من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها: بكلمة الله خلقها، كما يقال: عبد الله وسماء الله وأرض الله[(١)]. فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح.

وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله، ولم يدل ذلك؛ على أنه قديم غير مخلوق، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ مريم: ١٧-١٩] فهذا الروح؛ هو روح الله وهو عبده ورسوله.

---

(١) من قوله: ثم إن الجهمي ادعى أمرًا فقال: أنا أجد آية في كتاب الله. إلى هنا، هو من كلام الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة» (ص ١٢٥- ١٢٦) بتحقيقي، وهو من منشورات دار الثبات بالرياض، وانظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٤/ ١٠-١١) والإبانة لابن بطة (٢/ ١٩٠-١٩١).

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾.

(1) الله تعالى جعل العبودية؛ وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ههنا. ثم يبتدئ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: إن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا. ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم، فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة.

وقال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الإنسان: ٦].

وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ [ص: ١٧].

---

(١) ١٠٢ مدارج جـ١.

وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١].

وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [ص: ٤٥].

وقال عن سلميان: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى.

ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله. وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

وفي الحديث: «**أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»(٢).

وفي صحيح البخاري: عن عبد الله بن عمرو قال: قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: «محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥) ومسلم (رقم ١٦٩١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٩٠، ٥٢٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٤١٥ رقم ١٩٥٤٣) وأبو يعلى (٨/ ٣١٨ رقم ٤٩٢٠) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٧ رقم ٥٩٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩): رواه أبو يعلى وإسناده حسن.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢١٢٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٨٦).

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به، فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل ـ وقد سأله عن الإحسان ـ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النساء

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩).

سُورَةُ المَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) الله ﷻ يقول في كتابه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد: في معاشهم، ومعادهم، فيما بينهم بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم؛ فإن كل عبد لا ينفك من هاتين الحالتين، وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق.

فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها؛ أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم؛ تعاونًا على مرضاة الله، وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله، وإذا أفرد كل واحدٍ من الاسمين دخل في مسمى الآخر: إما تضمنًا وإما لزومًا، ودخوله فيه تضمنًا أظهر؛ لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى فإنها جزء مسمى البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران؛ لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند الانفراد.

ونظير هذا لفظ: الإيمان والإسلام، والإيمان والعمل الصالح، والفقير والمسكين، والفسوق والعصيان، والمنكر والفاحشة، ونظائره كثيرة.

وهذا قاعدة جليلة من أحاط بها؛ زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على طوائف كثيرة من الناس.

ولنذكر من هذا مثالاً واحدًا يستدل به على غيره، وهو البر والتقوى.

فإن حقيقة البر هو: الكمال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير، كما

---

(١) ٣ الرسالة التبوكية.

يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام.

ومنه البر بالضم؛ لمنافعه وخيره بالإضافة إلىٰ سائر الحبوب، ومنه رجل بار وبر، وكرام بررة، والأبرار.

فالبر كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلته الإثم. وفي حديث النواس بن سمعان، أن النبي ﷺ قال له: **«جئت تسأل عن البر والإثم»**.

فالإثم كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يذم العبد عليها، فيدخل في مسمىٰ البر: الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة.

ولا ريب أن التقوىٰ جزء هذا المعنىٰ، وأكثر ما يعبر بالبر عن بر القلب، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته،وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته وانشراحه وقوته وفرحه بالإيمان، فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب، فمن لم يجدها، فهو فاقد الإيمان أو ناقصه، وهو من القسم الذي قال الله ﷻ فيهم: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. فهؤلاء علىٰ أصح القولين مسلمون غير منافقين، وليسوا بمؤمنين؛ إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقة.

وقد جمع الله خصال البر في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ـ إلىٰ قوله ـ: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه أن البر هو: الإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمسة التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر، والوفاء بالعهد.

فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين: حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمسة.

ثم أخبر سبحانه عن هذه: أنها هي خصال التقوىٰ بعينها فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأما التقوىٰ فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا أو نهيًا، فيفعل ما أمر الله به: إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهىٰ الله عنه: إيمانًا بالنهي، وخوفًا من وعيده.

كما قال طلق بن حبيب: «إذا وقعت الفتنة أطفؤوها بالتقوىٰ» قالوا: وما التقوىٰ؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله؛ تخاف عقاب الله»[١].

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوىٰ، فإن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة؛ حتىٰ يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض: لا العادة ولا الهوىٰ، ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالىٰ، وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب.

ولهذا كثيرًا ما يقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا»** و**«من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا»**[٢] ونظائره.

فقوله: علىٰ نور من الله؛ إشارة إلىٰ الأصل الأول، وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل، والسبب الباعث عليه.

وقوله: ترجو ثواب الله؛ إشارة إلىٰ الأصل الثاني، وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل ولها يقصد به، ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البر داخل في هذا المسمىٰ. وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالىٰ:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٤٦ رقم ٢٣٦٤) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٨٥) (٣/ ٤٦٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠١) ومسلم (رقم ٧٥٩، ٧٦٠).

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فالفرق بينهما: فرق بين السبب المقصود لغيره، والغاية المقصودة لنفسها.

فإن البر مطلوب لذاته؛ إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم.

وأما التقوىٰ فهي الطريق الموصل إلىٰ البر والوسيلة إليه، ولفظها يدل علىٰ هذا: فإنها فعلىٰ من وقىٰ يقي، وكان أصلها: وقوىٰ فقلبوا الواو تاء كما قالوا: تراث من الوراثة، وتجاه من الوجه، وتخمة من الوخمة، ونظائرها.

فلفظها دال علىٰ أنها من الوقاية، فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضر، فالتقوىٰ والبر كالعافية والصحة.

وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعًا عظيمًا في فهم ألفاظ القرآن ودلالته، ومعرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، فإنه هو العلم النافع.

وقد ذم الله تعالىٰ في كتابه؛ من ليس له علم بحدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين:

إحداهما: أن يدخل في مسمىٰ اللفظ؛ ما ليس منه فيحكم له بحكم المراد من اللفظ؛ فيساوىٰ بين ما فرق الله بينهما.

والثانية: أن يخرج من مسمىٰ بعض أفراده الداخلة تحته فيسلب عنه حكمه، فيفرق بين ما جمع الله بينهما، والذكي الفطن يتفطن لأفراد هذه القاعدة وأمثالها، فيرىٰ أن كثيرًا من الاختلاف أو أكثره؛ إنما ينشأ من هذا الموضع، وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم.

ومن هذا لفظ الخمر؛ فإنه اسم شامل لكل مسكر؛ فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفي عنها حكمه، وكذلك لفظ الميسر، وإخراج بعض أنواع القمار منه، وكذلك لفظ النكاح وإدخال ما ليس بنكاح في مسماه، وكذلك لفظ الربا، وبإخراج بعض أنواعه منه، وإدخال ما ليس بربا فيه، وكذلك لفظ: الظلم والعدل، والمعروف والمنكر، ونظائره أكثر من أن تُحصىٰ.

والمقصود: أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم؛ التعاون على البر والتقوىٰ، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علمًا وعملًا، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه؛ فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني: قائمًا بعضه ببعضه، معينًا بعضه لبعض.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

والإثم والعدوان في جانب النهي؛ نظير البر والتقوىٰ في جانب الأمر.

والفرق ما بين الإثم والعدوان؛ فرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر، فالإثم ما كان حرامًا لجنسه، والعدوان ما حرم لزيادة في قدره، وتعدي ما أباح الله منه.

فالزنىٰ وشرب الخمر والسرقة ونحوها؛ إثم، ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه؛ عدوان.

فالعدوان هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال في موضع آخر: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، فنهىٰ عن تعديها في آية، وعن قربانها في آية.

وهذا لأن حدود سبحانه؛ هي النهاية الفاصلة بين الحلال والحرام.

ونهاية الشيء: تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه فيكون لها حكم مقابله، فبالاعتبار الأول؛ نهىٰ عن تعديها، وبالاعتبار الثاني؛ نهىٰ عن قربانها.

(١)وأما الإثم والعدوان فهما قرينان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وكل منهما إذا أفرد؛ تضمن الآخر.

فكل إثم عدوان إذ هو: فعل ما نهىٰ الله عنه، أو ترك ما أمر الله به؛ فهو عدوان علىٰ أمره ونهيه، وكل عدوان إثم؛ فإنه يأثم به صاحبه، ولكن عند اقترانهما؛ فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

---

(١) ٣٦٨ مدارج جـ١.

فالإثم: ما كان محرم الجنس: كالكذب، والزنى، وشرب الخمر، ونحو ذلك.

والعدوان: ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه: إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه، أو عرضه، فإذا غصبه خشبة؛ لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئًا؛ أتلف عيه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة، قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوان وتعدٍّ للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان في حق الله وعدوان في حق العبد.

فالعدوان في حق الله: كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات؛ إلى ما حرم عليه من سواهما، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ [المعارج: ٢٩-٣١].

وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته؛ إلى ما حرم عليه منها؛ كوطئها في حيضها أو نفاسها، أو في غير موضع الحرث، أو في إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب، ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين، فتعداه إلى أكثر منه؛ فهو من العدوان، كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر؛ فتناول الكأس كلها، أو أبيح له نظرة الخطبة، والسوم، والشهادة، والمعاملة، والمداواة؛ فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور،وأسام طرف ناظره في تلك الرياض والزهور؛ فتعدى المباح إلى القدر المحظور، وحام حول الحمى المحوط المحجور؛ فصار ذا بصر حائر، وقلب عن مكانه طائر، أرسل طرفه رائدًا يأتيه بالخبر فخامر عليه، وأقام في تلك الخيام؛ فبعث القلب في آثاره، فلم يشعر؛ إلا وهو أسير يحجل في قيوده بين تلك الخيام، فما أقلعت لحظات ناظره؛ حتى تشحَّط بينهن قتيلًا، وما برحت تنوشه سيوف تلك الجفون؛

حتى جندلته تجديلًا، هذا خطر العدوان، وما أمامه أعظم وأخطر، وهذا فوت الحرمان، وما حرمه من فوات ثواب من غضّ طرفه لله ﷻ؛ أجل وأكبر.

سافر الطرف في مفاوز محاسن المنظور إليه؛ فلم يربح إلا أذى السفر، وغرر بنفسه في ركوب تلك البيداء، وما عرف أن راكبها على أعظم الخطر.

يا لها من سفرة لم يبلغ المسافر منها ما نواه! ولم يضع فيها عن عاتقه عصاه، حتى قطع عليه فيها الطريق، وقعد له فيها الرصد على كل نقب ومضيق، لا يستطيع الرجوع إلى وطنه والإياب، ولا له سبيل إلى المرور والذهاب، يرى هجير الهاجرة من بعيد، فيظنه برد الشراب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] وتيقن أنه كان مغرورًا بلامع السراب.

تالله ما استوت هذه الذلة وتلك اللذة في القيمة؛ فيشتريها بها العارف الخبير، ولا تقاربا في المنفعة؛ فيتحير بينهما البصير، ولكن على العيون غشاوة؛ فلا تفرق بين مواطن السلامة، ومواضع العثور، والقلوب تحت أغطية الغفلات، راقدة فوق فرش الغرور ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن أمثلة العدوان: تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة؛ إلى ما لم يبح منها، إما بأن يشبع؛ وإنما أبيح له سد الرمق ـ على أحد القولين في مذهب أحمد، والشافعي، وأبي حنيفة ـ.

وأباح مالك له الشبع والتزود؛ إذا احتاج إليه، فإذا استغنى عنها وأكلها واقيًا لماله، وبخلًا عن شراء المذكى ونحوه؛ كان تناولها عدوانًا قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

قال قتادة والحسن: لا يأكلها من غير اضطرار، ولا يعدو شبعه، وقيل: «غير باغ» غير طالبها، وهو يجد غيرها «ولا عاد» أي: لا يتعدى ما حد له منها. فيأكل حتى يشبع، ولكن سدّ الرمق. وقال مقاتل: غير مستحل لها، ولا متزود منها.

وقيل: لا يبغي بتجاوز الحد الذي حد له منها، ولا يتعدىٰ بتقصيره عن تناوله؛ حتىٰ يهلك، فيكون قد تعدىٰ حد الله بمجاوزته أو التقصير عنه؛ فهذا آثم، وهذا آثم.

وقال مسروق: من اضطر: إلىٰ الميتة، والدم، ولحم الخنزير، فلم يأكل ولم يشرب حتىٰ مات؛ دخل النار، وهذا أصح القولين في الآية.

وقال ابن عباس وأصحابه والشافعي: «غير باغ» علىٰ السلطان «ولا عاد» في سفره، فلا يكون سفر معصية، وبنوا علىٰ ذلك أن العاصي بسفره لا يترخص.

والقول الأول؛ أصح لعشرة أوجه، ليس هذا موضع ذكرها؛ إذ الآية لا تعرض فيها للسفر بنفي ولا إثبات، ولا للخروج علىٰ الإمام، ولا هي مختصة بذلك ولا سيقت له، وهي عامة في حق المقيم والمسافر، والبغي والعدوان فيها؛ يرجعان إلىٰ الأكل المقصود بالنهي، لا إلىٰ أمر خارج عنه لا تعلق له بالأكل، ولأن نظير هذا قوله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ [المائدة: ٣]، فهذا هو الباغي العادي، والمتجانف للإثم، المائل إلىٰ القدر الحرام من أكلها، وهذا هو الشرط الذي لا يباح له بدونه، ولأنها إنما أبيحت للضرورة، فتقدرت الإباحة بقدرها، وأعلمهم أن الزيادة عليها بغي وعدوان وإثم؛ فلا تكون الإباحة للضرورة سببًا لحله، والله أعلم.

والإثم والعدوان؛ هما الإثم والبغي المذكوران في سورة الأعراف، مع أن البغي غالب استعماله: في حقوق العباد، والاستطالة عليهم، وعلىٰ هذا فإذا قرن البغي بالعدوان؛ كان البغي ظلمهم بمحرم الجنس: كالسرقة، والكذب، والبهت، والابتداء بالأذىٰ، والعدوان؛ تعدي الحق في استيفائه إلىٰ أكبر منه؛ فيكون البغي والعدوان في حقهم، كالإثم والعدوان في حدود الله.

فهما أربعة أمور: حق لله وله حد، وحق لعباده وله حد، فالبغي والعدوان والظلم؛ تجاوز الحدين إلىٰ ما وراءهما، أو التقصير عنهما، فلا يصل إليهما. اهـ.

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس، وهو أن تكون مخالطته لهم؛ تعاونًا علىٰ البر والتقوىٰ؛ علمًا وعملًا.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالىٰ؛ فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، فأرشدت الآية إلىٰ ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الحق، ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا: بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك؛ لمحض النصيحة، والإحسان، ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا: بعزل الخلق من البين، والقيام به لله تعالىٰ: إخلاصًا، ومحبة، وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كل خلل يدخل علىٰ العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين؛ إنما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملًا.

وهذا معنىٰ قول الشيخ عبد القادر قدس الله روحه: «كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك: لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فرطًا»..

[(١)]والمقصود بهذا: أن من أعظم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ؛ التعاون علىٰ سفر الهجرة إلىٰ الله والرسول: باليد واللسان، والقلب والمساعدة، والنصيحة تعليمًا، وإرشادًا، ومودة، ومن كان هكذا مع عباد الله؛ فكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح علىٰ قلبه أبواب العلم، ويسره لليسرىٰ، ومن كان بالضد؛ فبالضد.

فإن قلت: قد أشرت إلىٰ سفر عظيم وأمر جسيم، فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه؟

قلت: زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ، ولا زاد له سواه.

فمن لم يحصل هذا الزاد؛ فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الخالفين، فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا، فله أسوة بهم، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

---

(١) ٤٧ الرسالة التبوكية.

فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب، فإن مصائب الدنيا إذا عمت؛ صارت مسلاة، وتأسي بعض المصابين ببعض، كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي(١)

فهذا الروح الحاصل من التأسي؛ معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة.

وأما طريقه فهو: بذل الجهد، واستفراغ الوسع؛ فلا ينال بالمنى ولن يدرك بالهوينا، وإنما هو كما قيل:

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا ... لكي تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير في نفس تخاف من الردى ... ولا همة تصبو إلى لوم لائم(٢)

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: أن لا يصبو في الحق إلى لوم لائم، فإن اللوم يصيب الفارس؛ فيصرعه عن فرسه ويجعله صريعًا في الأرض.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافت النفس: تأخرت، وأحجمت، وأخلدت إلى الأرض.

ولا يتم هذان الأمران إلا بالصبر، فمن صبر قليلًا؛ صارت تلك الأهوال ريحًا رخاء، في حقه، تحمله بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخاف منها: إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه.

---

(١) هذان البيتان من بحر الوافر، وينسبان إلى الخنساء: تماضر بنت عمرو السلمية، أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطلاق، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية، وكانا قد قتلا في الجاهلية. ووفدت على الرسول ﷺ وأسلمت، وكان رسول الله ﷺ يعجبه شعرها، وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية فجعلت تحرضهم على القتال حتى استشهدوا فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم. وذكر البيت الأول الحافظ ابن حجر في الإصابة (٧/ ٦١٦). وذكر البيتين أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (٢/ ٥٤٨).

(٢) لم أقف على قائلهما.

وأما مركبه فصدق اللجأ إلىٰ الله والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به، والانطراح بين يديه انطراح المسلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده، فهو يتطلع إلىٰ قيِّمِهِ ووليه: أن يجبره، ويلم شعثه، ويمده من فضله، ويستره فهذا الذي يرجىٰ له: أن يتولىٰ الله هدايته، وأن يكشف له ما خفي علىٰ غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها.

ورأس الأمر وعموده في ذلك: إنما هو دوام التفكر، وتدبر آيات الله؛ حيث تستولي علىٰ الفكر، وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن؛ مكان الخواطر من قلبه وجلس علىٰ كرسيه وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره؛ فحينئذ: يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكتًا وهو يباري الريح ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

(١) الله سبحانه المسئول المرجو الإجابة أن يمتعكم بالإسلام والسنة والعافية، فإن سعادة الدنيا والآخرة ونعيمهما وفوزهما؛ مبني علىٰ هذه الأركان الثلاثة.

وما اجتمعن في عبد بوصف الكمال؛ إلا وقد كملت نعمة الله عليه، وإلا فنصيبه من نعمة الله؛ بحسب نصيبه منها.

والنعمة نعمتان: نعمة مطلقة، ونعمة مقيدة.

فالنعمة المطلقة: هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي الإسلام والسنة.

وهي التي أمرنا الله ﷻ أن نسأله في صلواتنا؛ أن يهدينا صراط أهلها، ومن خصهم بها، وجعلهم أهل الرفيق الأعلىٰ، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فهؤلاء الأصناف الأربعة؛ هم أهل هذه النعمة المطلقة، وأصحابها أيضًا هم المعنيون بقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

(١) ٢ اجتماع الجيوش.

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] فأضاف الدين إليهم؛ إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم، والدين: تارة يضاف إلى العبد وتارة يضاف إلى الرب، فيقال: الإسلام دين الله الذي لا يقبل من أحد دينًا سواه؛ ولهذا يقال في الدعاء: اللهم انصر دينك الذي أنزلت من السماء.

ونسب الكمال إلى الدين، والتمام إلى النعمة مع إضافتها إليه؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم، وهم محل محض النعمة قابلين لها.

ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين: واجعلهم مثنين بها عليك، قابليها، وأتممها عليهم.

وأما الدين فلما كانوا هم القائمين بـه الفاعلين لـه بتوفيق ربهم؛ نسبه إليهم فقال: ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وكان الإكمال في جانب الدين، والتمام في جانب النعمة.

واللفظتان وإن تقاربتا وتواخيتا؛ فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل، فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني، ويطلق على الأعيان والذوات، ولكن باعتبار صفاتها وخواصها.

كما قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد»[(١)].

وقال عمر بن عبد العزيز: «إن للإيمان حدودًا وفرائض، وسننًا وشرائع، فمن استكملها؛ فقد استكمل الإيمان»[(٢)].

وأما التمام فيكون في الأعيان والمعاني، ونعمة الله: أعيان، وأوصاف، ومعان، وأما دينه، فهو شرعه المتضمن: لأمره، ونهيه، ومحابه؛ فكانت نسبة الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة، أحسن، كما كانت إضافة الدين إليهم، والنعمة إليه؛ أحسن.

والمقصود: أن هذه النعمة هي النعمة المطلقة، وهي التي اختصت بالمؤمنين،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤١١) ومسلم (رقم ٢٤٣١) دون ذكر خديجة رضي الله عنها.
(٢) ذكره البخاري في أول كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس» (ص٢٥).

وإذا قيل: ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار؛ فهو صحيح.

والنعمة الثانية: النعمة المقيدة: كنعمة الصحة والغنى، وعافية الجسد، وتبسط الجاه، وكثرة الولد، والزوجة الحسنة، وأمثال هذه.

فهذه النعمة مشتركة بين: البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

وإذا قيل: لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو حق، فلا يصح إطلاق السلب والإيجاب؛ إلا على وجه واحد وهو أن النعمة المقيدة لما كانت استدراجًا للكافر، ومآلها إلى العذاب والشقاء؛ فكأنها لم تكن نعمة، وإنما كانت بلية كما سماها الله تعالى في كتابه كذلك، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي: ليس كل من أكرمته في الدنيا ونعمته فيها؛ فقد أنعمت عليه؛ وإنما كان ذلك ابتلاء مني له واختبارًا، ولا كل من قدرت عليه رزقه فجعلته بقدر حاجته من غير فضلة؛ أكون قد أهنته؛ بل ابتلي عبدي بالنعم كما أبتليه بالمصائب.

فإن قيل: كيف يلتئم هذا المعنى ويتفق مع قوله: ﴿ فَأَكْرَمَهُۥ ﴾ فأثبت له الإكرام، ثم أنكر عليه قوله: ﴿ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ وقال: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: ليس ذلك إكرامًا مني؛ وإنما هو ابتلاء، فكأنه أثبت له الإكرام ونفاه.

قيل: الإكرام المثبت غير الإكرام المنفي، وهما من جنس النعمة المطلقة والمقيدة، فليس هذا الإكرام المقيد؛ بموجب لصاحبه أن يكون من أهل الإكرام المطلق.

وكذلك أيضًا إذا قيل: إن الله أنعم على الكافر نعمة مطلقة؛ ولكنه رد نعمة الله وبدلها؛ فهو بمنزلة من أعطي مالًا يعيش به فرماه في البحر، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ [إبراهيم: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] فهدايته إياهم؛ نعمة منه عليهم، فبدلوا نعمة الله وآثروا عليها الضلال، فهذا فصل النزاع في مسألة «هل لله على الكافر نعمة أم

لا؟» وأكثر اختلاف الناس من جهتين:

إحداهما: اشتراك الألفاظ وإجمالها. **والثانية**: من جهة الإطلاق والتفصيل.

وهذه النعمة المطلقة؛ هي التي يُفرح بها في الحقيقة، والفرح بها، مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يحب الفرحين، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله رحمته: الإسلام والسنة، وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما، وكلما كان أرسخ فيهما كان قلبه أشد فرحاً حتى إن القلب إذا باشر روح السنة؛ ليرقص فرحًا أحزنَ ما يكون الناس، فإن السنة حصن الله الحصين، الذي من دخله، كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله؛ كان إليه من الواصلين، تقوم بأهلها؛ وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعى نورها بين أيديهم؛ إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم.

وأهل السنة هم المبيضة وجوههم؛ إذا اسودت وجوه أهل البدعة.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والتفرق، وهي الحياة والنور اللذان بهما: سعادة العبد، وهداه، وفوزه، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فصاحب السنة حي القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه.

وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان، فإن القلب الحي المستنير؛ هو الذي: عقل عن الله، وفهم عنه، وأذعن، وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ، والقلب الميت المظلم الذي: لم يعقل عن الله، ولا انقاد لما بعث به رسوله ﷺ.

***

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

[(١)] إن الله تعالىٰ قد تمم الدين بنبيه ﷺ، وكمله به، ولم يحوجه هو ولا أمته بعده: إلىٰ عقل، ولا نقل سواه، ولا رأي، ولا منام، ولا كشف، قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وأنكر علىٰ من لم يكتف بالوحي فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١] ذكر هذا؛ جوابًا لطلبهم آية تدل علىٰ صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار: عنه وعن صفاته، وأفعاله، واليوم الآخر؛ يناقض العقل؛ لم يكن دليلاً علىٰ صدقه فضلًا عن أن يكون كافيًا.

وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا؛ بيان أن تقديم العقل علىٰ النقل؛ يبطل كون القرآن آية وبرهانًا علىٰ صحة النبوة[(٢)].

والمقصود: أن الله سبحانه تمم الدين وأكمله بنبيه ﷺ وما بعثه به؛ فلم يحوج أمته إلىٰ سواه، فلو عارضه العقل وكان أولىٰ بالتقديم منه؛ لم يكن: كافيًا للأمة، ولا تامًّا في نفسه.

وفي مراسيل أبي داود: أن رسول الله ﷺ رأىٰ بيد عمر ورقة فيها شيء من التوراة، فقال: «كفىٰ بقوم ضلالة أن تبعوا كتابًا غير كتابهم، أنزل علىٰ نبي غير نبيهم» فأنزل

(١) ١٤٠ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) لم ننقله اختصارًا فمن أراده فليرجع إليه وما بعده. (ج).

الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم سبحانه أنا لا نؤمن؛ حتى نحكم رسوله في جميع ما شجر بيننا، وتتسع صدورنا لحكمه، فلا يبقى فيها حرج، ونسلم لحكمه.

(١)وقال معرفًا لعباده، ومذكرًا لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعياً منهم شكره على أن جعلهم من أهلها: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية [المائدة: ٣].

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم؛ بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم؛ بالتمام، إيذانًا في الدين بأنه: لا نقص فيه، ولا عيب، ولا خلل، ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته.

ووصف النعمة بالتمام؛ إيذانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة؛ وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه؛ إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقًّا، وهم قابلوها، وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خصوا به دون الأمم، وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء أتممت في مقابلة: أكملت، وعليكم في مقابلة: لكم، ونعمتي في مقابلة: دينكم، وأكد ذلك وزاده تقريرًا وكمالًا وإتمامًا للنعمة بقوله: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وكان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً.

---

(١) ٣٠١ مفتاح جـ١.

...[(١)] بين الله سبحانه على لسان رسوله بكلامه وكلام رسوله؛ جميع ما أمره به، وجميع ما نهى عنه، وجميع ما أحله، وجميع ما حرمه، وجميع ما عفا عنه، وبهذا يكون دينه كاملًا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

ولكن قد يقصر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص، وعن وجه الدلالة وموقعها، وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله؛ لا يحصيه إلا الله.

ولو كانت الأفهام متساوية؛ لتساوت أقدام العلماء في العلم، ولما خصَّ سبحانه سليمان بفهم الحكومة في الحرث، وقد أثنى عليه وعلى داود بالعلم والحكم.

وقد قال عمر لأبي موسى في كتابه إليه «الفهم الفهم فيما أدلي إليك»[(٢)] وقال علي: «إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه»[(٣)]، وقال أبو سعيد: كان أبو بكر أعلمنا برسول الله ﷺ[(٤)]، ودعا النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: أن يفقهه في الدين، ويعلمه التأويل.

والفرق بين الفقه والتأويل: أن الفقه هو: فهم المعنى المراد، والتأويل: إدراك الحقيقة التي يؤول إليها المعنى التي هي أخيته وأصله، وليس كل من فقه في الدين عرف التأويل، فمعرفة التأويل؛ يختص به الراسخون في العلم، وليس المراد به: تأويل التحريف، وتبديل المعنى؛ فإن الراسخون في العلم يعلمون بطلانه، والله يعلم بطلانه.

...[(٥)] وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟

(١) ٣٣٢ أعلام جـ١.
(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٠ رقم ٢٠٣٢٤) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ٧١).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٠٣) ومسلم (رقم ١٣٧٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٤٦).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦) ومسلم (رقم ٢٣٨٢) وانظر: فتح الباري (١/ ١٦٥).
(٥) ١٣٥ طريق الهجرتين.

مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦، ٢٨].

ويتنصل سبحانه إلى عباده، من مواضع الظنة والتهمة، التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه، ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم، كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٧] ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤].

ولما أمرهم بالوضوء، وبالغسل من الجنابة، الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال عقيب أمرهم بالصدقة، ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة، ولا يوجب له حمدًا؛ بل هو: الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته...

***

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾.

[1] الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المعلم، وهذا أيضًا من شرف العلم، أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم، وأما الكلب الجاهل؛ فلا يحل أكل صيده، فدل على شرف العلم وفضله، قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤] ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما؛ كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء.

***

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

[2] يجوز نكاح الكتابية بنص القرآن قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥]. والمحصنات هنا هنَّ العفايف، وأما المحصنات المحرمات في سورة «النساء» فهن المزوجات.

وقيل: المحصنات اللاتي أبحن هن الحرائر، ولهذا لم تحل إماء أهل الكتاب، والصحيح الأول لوجوه:

---

(١) ٥٥ مفتاح جـ١.
(٢) ٤١٩ أحكام جـ٢.

أحدها: أن الحرية ليست شرطًا في نكاح المسلمة.

الثاني: أنه ذكر الإحصان في جانب الرجل، كما ذكره في جانب المرأة فقال: ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥] وهذا إحصان عفة بلا شك، فكذلك الإحصان المذكور في جانب المرأة.

الثالث: أنه سبحانه ذكر الطيبات من المطاعم، والطيبات من المناكح، فقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥].

والزانية خبيثة بنص القرآن، والله ﷻ حرَّم على عباده الخبائث من المطاعم والمشارب والمناكح، ولم يُبح لهم إلا الطيبات؛ وبهذا يتبين بطلان قول من أباح تزوج الزواني.

وقد بينا بطلان هذا القول من أكثر من عشرين وجهًا في غير هذا الكتاب[١].

والمقصود: أن الله سبحانه أباح لنا المحصنات من أهل الكتاب، وفعله أصحاب نبينا ﷺ، فتزوج عثمان نصرانية، وتزوج طلحة بن عبيد الله نصرانية، وتزوج حذيفة يهودية[٢].

قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن المسلم يتزوج النصرانية أو اليهودية؟ فقال: ما أحب أن يفعل ذلك، فإن فعل فقد فعل ذلك بعض أصحاب النبي ﷺ.

وقال صالح بن أحمد: حدثني أبي: حدثنا محمد بن جعفر: حدثنا سعيد، عن قتادة: أن حذيفة بن اليمان، وطلحة بن عبيد الله، والجارود بن المعلى ـ وذكر آخر ـ تزوجوا

---

(١) لعلها في إغاثة اللهفان كما ذكره المعلق على أحكام أهل الذمة. (ج).

(٢) خبز تزوج عثمان بنت الفرافصة الكلبية النصرانية أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ١١٠ رقم ١٦٩٦) وصحح ابن الملقن في خلاصة البدر المنير أثر تزوج عثمان وطلحة وحذيفة الكتابيات (٢/١٩٧ رقم ١٩٧٦) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٧٠/١٣٨) والثقات لابن حبان (٢/٢٤٨) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٧٠) والاستذكار (٥/ ٤٩٦).

نساء من أهل الكتاب، فقال لهم عمر: طلقوهن، فطلقوا إلا حذيفة، فقال عمر: طلقها، فقال: تشهد أنها حرام؟ قال: هي جمرة، طلقها، فقال: تشهد أنها حرام؟ فقال: هي جمرة! قال حذيفة: قد علمت أنها جمرة، ولكنها لي حلال، فأبى أن يطلقها، فلما كان بعد طلقها، فقيل له: ألا طلقتها حين أمرك عمر؟ فقال: كرهت أن يظن الناس أني ركبت أمرًا لا ينبغي(١).

(٢)وسئل ﷺ عن الوضوء، فقال: **«أسبغ الوضوء، وخلِّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق، إلا أن تكون صائمًا»**(٣) ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ عمرو بن عبسة فقال: كيف الوضوء؟ قال: **«أما الوضوء فإنك إذا توضأت فغسلت كفيك فأنقيتهما؛ خرجت خطاياك من بين أظفارك وأناملك، فإذا تمضمضت واستنشقت، وغسلت وجهك ويديك إلى المرفقين، ومسحت رأسك، وغلست رجليك، اغتسلت من عامة خطاياك كيوم ولدتك أمك»**(٤) ذكره النسائي.

وسأله ﷺ أعرابي عن الوضوء، فأراه ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال: **«هكذا الوضوء؛ من زاد على هذا؛ فقد أساء وتعدَّى وظلم»**(٥) ذكره أحمد.

---

(١) انظر: المغني (٧/ ١٠٠).

(٢) ٢٨٠ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٢) والحاكم (١/ ٢٤٨ رقم ٥٢٥) (٤/ ١٢٣ رقم ٧٠٩٤) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٨٠) وابن حبان (٣/ ٣٣٢-٣٣٣ رقم ١٠٥٤) (١٠/ ٣٦٧ رقم ٤٥١٠) وابن خزيمة (١/ ٧٨ رقم ١٥٠) والنسائي في الكبرى (١/ ٨٤ رقم ٩٨) والبيهقي في الكبرى (١/ ٧٦ رقم ٣٦٤) والترمذي (رقم ٧٨٨) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم وصححه النووي في شرح النووي (٣/ ١٠٥) وانظر: خلاصة البدر المنير (١/ ٣٣).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ١٠٣ رقم ١٧٧) وفي الصغرى (رقم ١٤٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٧) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٤٨-١٤٩ رقم ١٩٩٦).

(٥) أخرجه ابن الجارود في المنتقى (رقم ٧٥) وابن خزيمة (١/ ٨٩ رقم ١٧٤) والنسائي في الكبرى (١/ ٨٢ رقم ٨٩، ٩٠) (١/ ١٠٢ رقم ١٧٣) وأبو داود (رقم ١٣٥) وابن ماجه (رقم ٤٢٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٧٩ رقم ٣٧٨، ٣٧٩) والطبراني في الأوسط (١/ ٣٦١ رقم ٣٢٩) وفي الكبير (١١/ ٧٥ =

...[1]وأما تقديم غسل الوجه، ثم اليد، ثم مسح الرأس، ثم الرجلين في الوضوء؛ فمن يقول: إن هذا الترتيب واجب، وهو: الشافعي، وأحمد، ومن وافقهما، فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوبًا لقرائن عديدة.

أحدها: أنه أدخل ممسوحًا بين مغسولين، وقطع النظير عن نظيره، ولو أريد الجمع المطلق؛ لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم، والممسوح بعدها؛ فلما عدل إلى ذلك؛ دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله.

الثاني: أن هذه الأفعال؛ هي أجزاء فعل واحد مأمور به وهو الوضوء، فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض، والفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط؛ فأفادت الترتيب؛ إذ هو الربط المذكور في الآية، ولا يلزمه من كونها لا تفيد الترتيب بين أفعال لا ارتباط بينهما نحو: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة؛ أن لا تفيده بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض.

فتأمل هذا الموضع ولطفه، وهذا أحد الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب.

وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه، وهو قول ابن أبي موسى من أصحاب أحمد، ولعله أرجح الأقوال.

الثالث: أن لبداءة الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة؛ فيجب مراعاتها، وأن لا تلغى وتهدر؛ فيهدر ما اعتبره الله ويؤخر ما قدمه الله، وقد أشار النبي ﷺ إلى أن ما قدمه الله؛ فإنه ينبغي تقديمه، ولا يؤخر بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخره الله، فلما طاف بين الصفا والمروة بدأ بالصفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»[2].

= رقم ١١٠٩١) وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/ ٢٣٣): إسناده جيد. وقال النووي في شرح صحيح مسلم (٣/ ١٢٩): هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود وغيره بأسانيدهم الصحيحة.

(١) ٦٩ بدائع جـ١.

(٢) أخرجه ابن الجارود (رقم ٤٦٥) وابن حبان (٩/ ٢٥٠ -٢٥١ رقم ٣٩٤٣) وأبو داود (رقم ١٩٠٥) وابن ماجه (رقم ٣٠٧٤) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٠٩ رقم ٣٩٥٥) والبيهقي في الكبرى (١/ ٨٥ =

وفي رواية للنسائي: «ابدءوا بما بدأ الله به»(١) على الأمر.

فتأمل بداءته بالصفا؛ معللًا ذلك بكون الله بدأ به، فلا ينبغي تأخيره، وهكذا يقول المرتبون للوضوء سواء، نحن نبدأ بما بدأ الله به، ولا يجوز تأخير ما قدمه الله، ويتعين البداءة بما بدأ الله به.

وهذا هو الصواب لمواظبة المبين عن الله مراده ﷺ على الوضوء المرتب. فاتفق جميع من نقل عنه وضوءه كلهم على إيقاعه مرتبًا، ولم ينقل عنه أحد قط أنه أخل بالترتيب مرة واحدة، فلو كان الوضوء ا لمنكوس مشروعًا لفعله ولو في عمره مرة واحدة؛ لتبين جوازه لأمته، وهذا بحمد الله أوضح. أ. هـ.

(٢)وأما إيجابه لغسل المواضع التي لم تخرج منها الريح، وإسقاطه غسل الموضع الذي خرجت منه، فما أوفقه للحكمة! وما أشده مطابقة للفطرة!

فإن حاصل السؤال: لم كان الوضوء فيه هذه الأعضاء الظاهرة دون باطن المقعدة، مع أن باطن المقعدة أولى بالوضوء من الوجه واليدين والرجلين؟

وهذا سؤال معكوس، من قلب منكوس؛ فإن من محاسن الشريعة أن كان الوضوء في الأعضاء الظاهرة المكشوفة، وكان أحقها به؛ إمامها ومقدمها في الذكر والفعل، وهو الوجه الذي نظافته ووضاءته عنوان على نظافة القلب، وبعده اليدان، وهما آلة البطش والتناول والأخذ، فهما أحق الأعضاء بالنظافة والنزاهة بعد الوجه.

ولما كان الرأس؛ مجمع الحواس، وأعلى البدن، وأشرفه؛ كان أحق بالنظافة،

=

رقم ٤٠٣) والترمذي (رقم ٨٦٢) ومالك في الموطأ (١/ ٣٧٢ رقم ٨٢٩) والطبراني في الصغير (رقم ١٨٧) وأبو يعلى (٤/ ٢٣-٢٥ رقم ٢٠٢٧) وأحمد (٣/ ٣٢٠).

(١) أخرجه ابن الجارود (رقم ٤٦٩) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤١٣ رقم ٣٩٦٨) وفي الصغرى (رقم ٢٩٦٢) والدارقطني (٢/ ٢٥٤ رقم ٨١، ٨٢) وصححه ابن حزم في المحلى (٢/ ٤٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٠٣) (٦/ ٣٠٦) وصححه النووي في شرحه لمسلم (٨/ ١٧٧). وأصل الحديث عند مسلم (رقم ١٢١٨) بلفظ: «ابدأ بما بدأ الله به».

(٢) ٧٥ أعلام جـ٢.

لكن لو شرع غسله في الوضوء؛ لعظمت المشقة، واشتدت البلية، فشرع مسح جميعه، وأقامه مقام غسله تخفيفًا ورحمة، كما أقام المسح على الخفين مقام غسل الرجلين.

ولعل قائلًا يقول: وما يجزئ مسح الرأس والرجلين من الغسل والنظافة؟ ولم يعلم هذا القائل: أن إمساس العضو بالماء: امتثالاً لأمر الله، وطاعة له، وتعبدًا؛ يؤثر في نظافته وطهارته ما لا يؤثر غسله بالماء والسِّدْر بدون هذه النية، والتحاكم في هذا إلى الذوق السليم، والطبع المستقيم، كما أن معك الوجه بالتراب؛ امتثالاً للآمر، وطاعة، وعبودية؛ تكسبه: وضاءة، ونظافة، وبهجة؛ تبدو على صفحاته للناظرين؛ ولما كانت الرجلان تمس الأرض غالبًا، وتباشر من الأدناس ما لا تباشره بقية الأعضاء؛ كانت أحق بالغسل، ولم يوفق للفهم عن الله ورسوله من اجتزأ بمسحهما من غير حائل.

فهذا وجه اختصاص هذه الأعضاء بالوضوء، من بين سائرها من حيث المحسوس، وأما من حيث المعنى، فهذه الأعضاء هي آلات الأفعال التي يباشر بها العبد ما يريد فعله، وبها يعصى الله سبحانه ويطاع؛ فاليد تبطش، والرجل تمشي، والعين تنظر، والأذن تسمع، واللسان يتكلم؛ فكان في غسل هذه الأعضاء؛ امتثالًا لأمر الله، وإقامة لعبوديته؛ ما يقتضي إزالة ما لحقها من درن المعصية ووسخها.

وقد أشار صاحب الشرع ﷺ إلى هذا المعنى بعينه؛ حيث قال في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه: عن عمرو بن عبسة قال: قلت يا رسول الله حدثني عن الوضوء، قال: **«ما منكم من رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينثر؛ إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين، إلا خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح برأسه، إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين؛ إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجّده بالذي هو أهله ـ أو هو له أهل**

ـ وفرغ قلبه لله؛ إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»(١).

وفي صحيح مسلم أيضًا: عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه؛ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل يديه، خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل رجليه؛ خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ حتى يخرج نقيًّا من الذنوب»(٢).

وفي مسند الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل يعالج نفسه إلى الطهور، وعليه عقد، فيتوضأ، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة، فيقول الرب ﷻ للذي وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه، ما سألني عبدي هذا فهو له»(٣).

وفيه أيضًا: عن أبي أمامة يرفعه: «أيما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ثم غسل كفيه؛ نزلت خطيئته من كفيه مع أول قطرة، فإذا تمضمض واستنشق واستنثر؛ نزلت خطيئته من لسانه وشفتيه مع أول قطرة، فإذا غسل وجهه؛ نزلت خطيئته من سمعه وبصره مع أول قطرة، فإذا غسل يديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سلم من كل ذنب هو له، ومن كل خطيئة كهيئته يوم ولدته أمه، فإذا قام إلى الصلاة؛ رفع الله بها درجته، وإن قعد قعد سالمًا»(٤).

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨٣٢) وانظر: شرح النووي (٦/ ١١٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٤).

(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ٣٢٩-٣٣٠ رقم ١٠٥٢) (٦/ ٢٩٥ رقم ٢٥٥٥) والهيثمي في الموارد (رقم ١٦٨) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٥ رقم ٨٤٣) وأحمد (٤/ ١٥٩، ٢٠١) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٢٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير وله سندان عندهما رجال أحدهما ثقات.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٦) (٥/ ٢٦٣) وعبد بن حميد (١/ ١٢٥ رقم ٣٠٤) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٢٢): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط وفي إسناد أحمد عبد الحميد بن بهرام عن شهر، =

وفيه: أن مقصود المضمضة كمقصود غسل الوجه واليدين سواء، وأن حاجة اللسان والشفتين إلىٰ الغسل كحاجة بقية الأعضاء؛ فمن انكس قلبًا وأفسد فطرة وأبطل قياسًا ممن يقول: إن غسل باطن المقعدة أولىٰ من غسل هذه الأعضاء، وإن الشارع فرق بين المتماثلين؟! هذا إلىٰ ما في غسل هذه الأعضاء المقارن لنية التعبد لله: من انشراح القلب وقوته، واتساع الصدر، وفرح النفس، ونشاط الأعضاء؛ فتميزت عن سائر الأعضاء، بما أوجب غسلها دون غيرها، وبالله التوفيق.

(١)فأوامر الرب تعالىٰ: رحمة وإحسان، وشفاء ودواء وغذاء للقلوب، وزينة للظاهر والباطن، وحياة للقلب والبدن.

وكم في ضمنه: من مسرة وفرحة، ولذة وبهجة، ونعيم وقرة عين.

فما يسميه هؤلاء تكاليف؛ إنما هو: قرة العيون وبهجة النفوس، وحياة القلوب، ونور العقول، وتكميل للفطر، وإحسان تام إلىٰ النوع الإنساني أعظم من إحسانه إليه: بالصحة والعافية، والطعام والشراب واللباس.

فنعمته علىٰ عباده: بإرسال الرسل إليهم، وإنزال كتبه عليهم، وتعريفهم أمره ونهيه، وما يحبه وما يبغضه؛ أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها؛ بل لا نسبة لرحمتهم: بالشمس والقمر، والغيث والنبات، إلىٰ رحمته: بالعلم والإيمان، والشرائع والحلال والحرام.

فكيف يقال: أي حكمة في ذلك، وإنما هو مجرد مشقة ونصب بغير فائدة؟ فوالله إن من زعم ذلك وظنه في أحكم الحاكمين؛ لأضل من الأنعام، وأسوأ حالاً من الحمير، ونعوذ بالله من: الخذلان، والجهل بالرحمن وأسمائه وصفاته.

وهل قامت مصالح الوجود: إلا بالأمر والنهي، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب،

=

واختلف في الاحتجاج بهما، والصحيح أنهما ثقتان، ولا يقدح الكلام فيهما. وحسنه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٢-٣٣).

(١) ٢٢٦ شفاء العليل.

ولولا ذلك، لكان الناس بمنزلة البهائم: يتهارجون في الطرقات، ويتسافدون تسافد الحيوانات، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلىٰ صواب.

وأنت ترىٰ الأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النبوة، كيف حال أهلها؟ وما دخل عليهم من: الجهل والظلم، والكفر بالخالق، والشرك بالمخلوق، واستحسان القبائح، وفساد العقائد والأعمال.

فإن الشرائع بتنزيل الحكيم العليم أنزلها وشرعها الذي يعلم ما في ضمنها من: مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأسباب سعادتهم الدنيوية والأخروية، فجعلها: غذاء ودواء وشفاء، وعصمة وحصنًا وملجأ، وجنة ووقاية.

وكانت بالقياس إلىٰ مصالح الأبدان، بمنزلة حكيم عالم ركب للناس أمرًا؛ يصلح لكل مرض، ولكل ألم، وجعله مع ذلك غذاء للأصحاء، فمن يغذىٰ به من الأصحاء؛ غذاه، ومن يداوي به من المرض؛ شفاه.

وشرائع الرب تعالىٰ؛ فوق ذلك وأجل منه وإنما هو تمثيل وتقريب، فلا أحسن من أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، أمره قوت وغذاء وشفاء، ونهيه حمية وصيانة، فلم يأمر عباده بما أمرهم به؛ حاجة منه إليهم ولا عبثًا، بل رحمة وإحسانًا ومصلحة، ولا نهاهم عما نهاهم عنه؛ بخلًا منه عليهم؛ بل حماية وصيانة عما يؤذيهم ويعود عليهم بالضرر؛ إن تناولوه، فكيف يتوهم من له مسكة من عقل خلوها من الحكم والغايات المحمودة المطلوبة لأجلها؟

ولهذا استدل كثير من العقلاء علىٰ النبوة بنفس الشريعة، واستغنوا بها عن طلب المعجزة، وهذا من أحسن الاستدلال، فإن دعوة الرسل من أكبر شواهد صدقهم، وكل من له خبرة بنوع من أنواع العلوم إذا رأىٰ حاذقًا قد صنف فيه كتابًا جليلًا، عرف أنه من أهل ذلك العلم بنظره في كتابه.

وهكذا كل من له: عقل وفطرة سليمة، وخبرة بأقوال الرسل ودعوتهم؛ إذا نظر في

هذه الشريعة؛ قطع قطعًا نظير القطع بالمحسوسات: أن الذي جاء بهذه الشريعة؛ رسول صادق، وأن الذي شرعها؛ أحكم الحاكمين.

ولقد شهد لها عقلاء الفلاسفة: بالكمال والتمام، وأنه لم يطرق العالم ناموس؛ أكمل ولا أحكم، هذه شهادة الأعداء.

وشهد لها من زعم أنه من الأولياء: بأنها لم تشرع لحكمة ولا لمصلحة، وقالوا: أي حكمة في الإلزام بهذه التكاليف الشاقة المتعبة؟ وأي مصلحة للمكلف في ذلك؟ وأي غرض للمكلف؟ وما هي إلا محض المشيئة المجردة من قصد غاية أو حكمة، ولو استحيى هؤلاء من العقلاء؛ لمنعهم الحياء؛ من تسويد القلوب والأوراق بمثل ذلك.

وهل تركت الشريعة خيرًا ومصلحة؛ إلا جاءت به وأمرت به وندبت إليه؟

وهل تركت شرًّا ومفسدة إلا نهت عنه؟ وهل تركت لمفرح أفراحًا أو لمتعنت تعنتًا أو لسائل مطلبًا؟ فمن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

وعند نفاة الحكم: أنه يجوز عليه ضد ذلك الحكم من كل وجه، وأنه لا فرق بينه وبين ضده في نفس الأمر؛ إلا لمجرد التحكم والمشيئة.

فلو اجتمعت حكمة جميع الحكماء من أول الدهر إلى آخره، ثم قيست إلى حكمة هذه الشريعة الكاملة الحكيمة الفاضلة؛ لكانت كقطرة من بحر.

وإنما نعني بذلك الشريعة التي أنزلها الله على رسوله، وشرعها للأمة، ودعاهم إليها؛ لا الشريعة المبدلة، ولا المؤولة، ولا ما غلط فيه الغالطون، وتأوله المتأولون، فإن هذين النوعين قد يشتملان على فساد وشر؛ بل الشر والفساد الواقع بين الأمة من هاتين الشريعتين، اللتين نسبتا إلى الشريعة المنزلة من عند الله: عمدًا، أو خطأ، وإلا فالشريعة على وجهها: خير محض، ومصلحة من كل وجه، ورحمة، وحكمة ولطف بالمكلفين، وقيام مصالحهم بها فوق قيام مصالح أبدانهم بالطعام والشراب، فهي مكملة للفطر والعقول، مرشدة إلى ما يحبه الله ويرضاه، ناهية عما يبغضه ويسخطه، مستعملة لكل قوة وعضو حركة في كماله، الذي لا كمال له سواه، آمرة بمكارم

الأخلاق ومعاليها، ناهية عن دنيئها وسفسافها.

واختصار ذلك: أنه شرع استعمال كل قوة وكل عضو وكل حركة في كمالها، ولا سبيل إلىٰ معرفة كمالها علىٰ الحقيقة إلا بالوحي، فكانت الشرائع ضرورية في مصالح الخلق، وضرورتها له فوق كل ضرورة تقدر، فهي أسباب موصلة إلىٰ سعادة الدارين، ورأس الأسباب الموصلة إلىٰ حفظ صحة البدن وقوته واستفراغ أخلاطه، ومن لم يتصور الشريعة علىٰ هذه الصورة؛ فهو من أبعد الناس عنها.

وقد جعل الحكيم العليم لكل قوة من القوىٰ ولكل حاسة من الحواس، ولكل عضو من الأعضاء: كمالا حسيا وكمالا معنوياً، وفقد كماله المعنوي شر من فقد كماله الحسي، فكماله المعنوي بمنزلة الروح، والحسي بمنزلة الجسم، فأعطاه كماله الحسي خلقًا وقدرًا، وأعطاه كماله المعنوي شرعًا وأمرًا، فبلغ بذلك غاية السعادة والانتفاع بنفسه، فلم يدع للإحسان إليه والاعتناء بمصالحه وإرشاده إليها وإعانته علىٰ تحصيلها إفراحا يفرحه ولا شفاء يطلبه، بل أعطاه من ذلك ما لم يصل إليه إفراحه ولا تدرك معرفته.

ويكفي العاقل البصير الحي القلب فكرة في فرع واحد من فروع الأمر والنهي وهو الصلاة. وما اشتملت عليه من الحكم الباهرة والمصالح الباطنة والظاهرة والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن والقوىٰ، التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبة، واستفرغوا قواهم وأذهانهم لما أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها وغاياتها المحمودة.

بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة، وما فيها من المعارف الإلهية والحكم الربانية، والعلوم النافعة والتوحيد التام، والثناء علىٰ الله بأصول أسمائه وصفاته، وذكر أقسام الخليقة باعتبار غاياتهم ووسائلهم.

وما في مقدماتها وشروطها من الحكم العجيبة من: تطهير الأعضاء والثياب والمكان وأخذ الزينة، واستقبال بيته الذي جعله إمامًا للناس، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية، وافتتاحها بكلمة جامعة لمعاني العبودية، دالة علىٰ أصول الثناء

وفروعه مخرجة من القلب الالتفات إلىٰ ما سواه والإقبال علىٰ غيره.

فيقدم بقلبه الوقوف بين يدي عظيم جليل، أكبر من كل شيء، وأجل من كل شيء، وأعظم من كل شيء بلا سبب في كبريائه، السماوات وما أظلت، والأرض وما أقلت، والعوالم كلها، عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، قاهر فوق عباده، ناظر إليهم، عالم بما تكن صدورهم، يسمع كلامهم، ويرىٰ مكانهم، لا يخفىٰ عليه خافية من أمرهم.

ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره تبارك اسمه، وتعالىٰ جده، وتفرده بالإلهية، ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يثنىٰ عليه به من حمده وذكر ربوبيته للعالم، وإحسانه إليهم، ورحمته بهم، وتمجيده بالملك الأعظم في اليوم الذي لا يكون فيه ملك سواه حتىٰ يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويدينهم بأعمالهم، ثم إفراده بنوعي التوحيد: توحيد ربوبيته استعانة به، وتوحيد إلهيته عبودية له.

ثم سؤاله أفضل مسئول وأجل مطلوب علىٰ الإطلاق، وهو هداية الصراط المستقيم، الذي نصبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطا موصلا لمن سلكه إليه وإلىٰ جنته، وأنه صراط من اختصهم بنعمته، بأن عرفهم الحق، وجعلهم متبعين له، دون صراط أمة الغضب الذي عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهل الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتّباعه.

فتضمنت تعريف الرب والطريق الموصل إليه، والغاية بعد الوصول، وتضمنت الثناء والدعاء وأشرف الغايات، وهي العبودية وأقرب الوسائل إليها وهي الاستعانة، مقدما فيها علىٰ الوسيلة، والمعبود المستعان علىٰ الفعل، إيذانا لاختصاصه وإن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه.

وتضمنت ذكر الإلهية والربوبية والرحمة، فيثنىٰ عليه ويعبد بإلهيته، ويخلق ويرزق ويميت ويحيىٰ ويدبر الملك، ويضل من يستحق الإضلال، ويغضب علىٰ من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته، وينعم ويرحم ويجود ويعفو ويغفر ويهدي ويتوب برحمته.

فلله كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد وحقائق الإيمان!!.

ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلوب وشفاء الصدور ونور البصائر، وحياة الأرواح، وهو كلام رب العالمين، فيحل به في ما شاء من روضات مونقات وحدائق معجبات، زاهية أزهارها، مونقة ثمارها، قد ذللت قطوفها تذليلًا، وسهلت لمتناولها تسهيلا، فهو يجتني من تلك الثمار خيرًا يؤمر به، وشرًّا ينهى عنه، وحكمة وموعظة، وتبصرة وتذكرة، وعبرة وتقريرًا لحق، ودحضًا لباطل، وإزالة لشبهة، وجوابًا عن مسألة، وإيضاحًا لمشكل، وترغيبًا في أسباب فلاح وسعادة، وتحذيرًا من أسباب خسران وشقاوة، ودعوة إلى هدى ورداً عن ردى فتنزل على القلوب نزول الغيث على الأرض التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها، فأي نعيم وقرة عين ولذة قلب وابتهاج وسرور لا يحصل له في هذه المناجاة.

والرب تعالى يسمع لكلامه جاريا على لسان عبده، ويقول حمدني عبدي، أثنى عليّ عبدي، مجدني عبدي.

ثم يعود إلى تكبير ربه ﷻ فيجدد ربه عهد التذكرة كونه أكبر من كل شيء بحق عبوديته، وما ينبغي أن يعامل به، ثم يرجع حانيًا له ظهره خضوعا لعظمته وتذللا لعزته واستكانة لجبروته، مسبحا له بذكر اسمه العظيم، فنزه عظمته عن حال العبد وذله وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه وطوى ظهره، وربه فوقه يرى خضوعه وذله، ويسمع كلامه، فهو ركن تعظيم وإجلال، كما قال ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»(١).

ثم عاد إلى حاله من القيام، حامدا لربه مثنيا عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمها، مثنيا عليه بأنه أهل الثناء والمجد، ومعترفا بعبوديته شاهدا بتوحيده، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحاب الجدود والأموال والحظوظ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٧٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨١) وشرح النووي (٤/ ١٩٧).

جدودهم عنه ولو عظمت.

ثم يعود إلىٰ تكبيره ويخر له ساجداً علىٰ أشرف ما فيه وهو الوجه، فيعفره في التراب ذلا بين يديه ومسكنه وانكساراً، وقد أخذ كل عضو من البدن حظه من هذا الخضوع، حتىٰ أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع، وندب له أن يسجد معه ثيابه وشعره، فلا يكفه وأن لا يكون بعضه محمولا علىٰ بعض وأن يتأسر التراب بجبهته، وينال قبل وجهة المصلىٰ، ويكون رأسه أسفل ما فيه تكميلا للخضوع والتذليل لمن له العز كله والعظمة كلها، وهذا أيسر اليسير من حقه، علىٰ عبده فلو دام كذلك من حين خلق إلىٰ أن يموت لما أدىٰ حق ربه عليه.

ثم أمر أن يسبح ربه الأعلىٰ فيذكر علوه سبحانه في حال سفوله وهو، وينزهه عن مثل هذه الحال، وأن من هو فوق كل شيء وعال علىٰ كل شيء ينزه عن السفول بكل معنىٰ، بل هو الأعلىٰ بكل معنىٰ من معاني العلو.

ولما كان هذا غاية ذل العبد وخضوعه وانكساره كان أقرب ما يكون الرب منه في هذه الحال فأمر أن يجتهد في الدعاء لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

وكان الركوع كالمقدمة بين يدي السجود والتوطئة له، فينتقل من خضوع إلىٰ خضوع أكمل وأتم منه وأرفع شأناً، وفصل بينهما بركن مقصود في نفسه، يجتهد فيه بالحمد والثناء والتمجيد، وجعل بين خضوعه خضوع قبله وخضوع بعده، وجعل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد، كما جعل خضوع الركوع بعد ذلك، فتأمل هذا الترتيب العجيب، وهذا التنقل في مراتب العبودية كيف ينتقل من مقام الثناء علىٰ الرب بأحسن أوصافه وأسمائه وأكمل محامده إلىٰ من له خضوعه وتذلله أن له هذا الثناء، ويستصحب في مقامه خضوعه بما يناسب ذلك المقام ويليق به، فتذكر عظمة الرب في حال خضوعه وعلوه في حال سفوله.

ولما كان أشرف أذكار الصلاة القرآن شرع في أشرف أحوال الإنسان وهي هيئة

القيام، التي قد انتصب فيها قائما على أحسن هيئة.

ولما كان أفضل أركانها الفعلية السجود شرع فيها بوصف التكرار، وجعل خاتمة الركعة وغايتها التي انتهت إليها، فطابق افتتاح الركعة بالقرآن واختتامها بالسجود، أول سورة افتتح بها الوحي، فإنها بدئت بالقراءة وختمت بالسجود، وشرع له بين هذين الخضوعين أن يجلس جلسة العبيد، ويسأل ربه أن يغفر له ويرحمه ويرزقه ويهديه ويعافيه، وهذه الدعوات تجمع له خير دنياه وآخرته.

ثم شرع له تكرار هذه الركعة مرة بعد مرة، كما شرع تكرار الأذكار والدعوات مرة بعد مرة، ليستعد بالأول لتكميل ما بعده، ويجبر بما بعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ رواه ونصيبه وافرا من الدواء ليقاومه، فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من اللقمة أو اللقمتين كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيرًا جدًّا.

وكذلك المرض الذي يحتاج إلى قدر يغني من الدواء إذا أخذ منه المريض قيراطا من ذلك لم يزل مرضه بالكلية وأزال بحسبه، فما حصل الغذاء أو الشفاء للقلب بمثل الصلاة، وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

ثم لما أكمل صلاته شرع له أن يقعد قعدة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات ويسلم على من جاء بهذا الحظ الجزيل، ومن نالته الأمة على يديه، ثم يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي على من علم الأمة هذا الخير ودلهم عليه.

ثم شرع له أن يسأل حوائجه ويدعو بما أحب ما دام بين يدي ربه مقبلا عليه، فإذا قضى ذلك أذن له في الخروج منها بالتسليم على المشاركين له في الصلاة.

هذا إلى ما تضمنته الأحوال والمعارف من أول المقامات إلى آخرها، فلا تجد منزلة من منازل السير إلى الله ولا مقامًا من مقامات العارفين، إلا وهو في ضمن الصلاة، وهذا الذي ذكرناه من شأنها كقطرة من بحر.

فكيف يقال: إنها تكليف محض لم يشرع لحكمة ولا لغاية قصدها الشارع، بل هي محض وكلفة ومشقة مستندة إلى محض المشيئة لا لغرض ولا لفائدة البتة، بل مجرد قهر وتكليف، وليست سببًا لشيء من مصالح الدنيا والآخرة.

ثم تأمل أبواب الشريعة ووسائلها وغاياتها، كيف تجدها مشحونة بالحكم المقصودة والغايات الحميدة التي شرعت لأجلها التي لولاها لكان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا.

فكم في الطهارة من حكمة ومنفعة للقلب والبدن وتفريح للقلب وتنشيط للجوارح وتخفيف من أحمال ما أوجبته الطبيعة وألقاه عز النفس من درن المخالفات، فهي منظفة للقلب والروح والبدن، وفي غسل الجنابة من زيادة النعومة والإخلاف على البدن، نظير ما تحلل منه بالجنابة ما هو من أنفع الأمور.

وتأمل كون الوضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل، فجعل في الوجه الذي فيه السمع والبصر والكلام والشم والذوق، وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي والذنوب كلها، منها يدخل إليها، ثم جعل في اليدين، وهما طرفاه وجناحاه، اللذان بهما يبطش ويأخذ ويعطي، ثم في الرجلين اللتين بهما يمشي ويسعى، ولما كان غسل الرأس مما فيه أعظم حرج ومشقة جعل مكانه المسح، وجعل ذلك مخرجا للخطايا من هذه المواضع، حتى يخرج مع قطر الماء من شعره وبشره.

كما ثبت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة قال: «**إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان يبطشها يداه مع الماء أو مع آخر قطر، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيا من الذنوب**»[1] رواه مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٤) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٣٣).

وفي صحيح مسلم أيضاً عن عثمان بن عفان قال قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه، حتى يخرج من تحت أظفاره»[(١)]. فهذا من أجل حكم الوضوء وفوائده، وقال نفاة الحكمة: إنه تكليف ومشقة وعناء محض لا مصلحة فيه ولا حكمة شرع لأجلها.

ولو لم يكن في مصلحته وحكمته إلا أنه سيماء هذه الأمة وعلامتهم في وجوههم وأطرافهم يوم القيامة بين الأمم ليست لأحد غيرهم.

ولو لم يكن فيه من المصلحة والحكمة إلا أن المتوضئ يطهر يديه بالماء وقلبه بالتوبة، ليستعد للدخول على ربه ومناجاته والوقوف بين يديه طاهر البدن والثوب والقلب، فأي حكمة ورحمة ومصلحة فوق هذا؟!

ولما كانت الشهوة تجري في جميع البدن حتى إن تحت كل شعرة شهوة سرى غسل الجنابة إلى حيث سرت الشهوة، كما قال النبي ﷺ: «إن تحت كل شعرة جنابة»[(٢)]، فأمر أن يوصل الماء إلى أصل كل شعرة، فيبرد حرارة الشهوة، فتسكن النفس، وتطمئن إلى ذكر الله وتلاوة كلامه والوقوف بين يديه، فوالله لو أن أبقراط ودونه أوصوا بمثل هذا لخضع أتباعهم لهم فيه، وعظموهم عليه غاية التعظيم، وأبدوا له من الحكم والفوائد ما قدروا عليه.

ثم لما كان العبد خارج الصلاة مهملاً جوارحه، قد أسامها في مراتع الشهوات والحظوظ أمر بالعبودية بجميع جوارحه كلها؛ ليقبل على ربه وتأخذ جوارحه بحظها من عبوديته، فيسلم قلبه وبدنه وجوارحه وحواسه وقواه لربه ﷻ، واقفًا بين يديه مقبلًا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٥) وانظر: عمدة القاري (٣/ ٧).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٤٨) وابن ماجه (رقم ٥٩٧) والترمذي (رقم ١٠٦) والبيهقي في سننه الكبرى (١/ ١٧٥ رقم ٧٩٧) والطبراني في الكبير (٤/ ١٥٥ رقم ٣٩٨٩) وفي مسند الشاميين (١/ ٤١٦ رقم ٧٣٢) وضعفه أبو داود والترمذي والألباني في ضعيف أبي داود (١/ ٦٥ رقم ٢٤٨) وفي ضعيف الجامع (رقم ١٨٤٧).

بكله عليه، معرضًا عمن سواه، متنصلًا من إعراضه عنه وجنايته على حقه، ولما كان هذا طبعه وذاته أمر أن يجدد هذا الركوع إليه والإقبال عليه وقتًا بعد وقت، لئلا يطول عليه الأمد فينسى ربه وينقطع عنه بالكلية. وكانت الصلاة من أعظم نعم الله عليه، وأفضل هداياه التي ساقها إليه، فأبى نفاة الحكمة إلا جعلها كلفة وعناء وتعبًا، لا لحكمة ولا لمصلحة البتة، إلا مجرد القهر والمشيئة.

وقد فتح ذلك الباب، فَسَاقَ الشريعة كلها من أولها إلى آخرها هذا المساق، واستدل بما ظهر لك على ما خفي عنك، ولعل الحكمة فيما لم تعلمه أعظم منها فيما علمته، فإن الذي علمته على قدر عقلك وفهمك، وما خفي عنك فهو فوق عقلك وفهمك، ولو تتبعنا تفصيل ذلك لجاء عدة أسفار، فيكتفي منه بأدنى بينة، والله المستعان.

(١)الدواء كله شيئان: حمية، وحفظ صحة. فإذا وقع التخليط احتيج إلى الاستفراغ الموافق، وكذلك مدار الطب كله على هذه القواعد الثلاثة.

والحمية حميتان: حمية عما يجلب المرض، وحمية عما يزيده، فيقف على حاله.

فالأولى: حمية الأصحاء، والثانية: حمية المرضى، فإن المريض إذا احتمى وقف مرضه عن التزايد، وأخذت القوى في دفعه، والأصل في الحمية قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦] فحمى المريض من استعمال الماء لأنه يضره.

(٢)ومما يظن أنه على خلاف القياس باب التيمم.

قالوا: إنه على خلاف القياس من وجهين:

أحدهما: أن التراب ملوث لا يزيل درنًا ولا وسخًا، ولا يطهر البدن كما لا يطهر الثوب.

---

(١) ٢٠٣ زاد المعاد جـ ٣.

(٢) ٣٩٧ أعلام جـ١.

والثاني: أنه شرع في عضوين من أعضاء الوضوء دون بقيتها، وهذا خروج عن القياس الصحيح.

ولعمر الله إنه خروج عن القياس الباطل المضاد للدين، وهو على وفق القياس الصحيح. فإن الله سبحانه جعل من الماء كل شيء حي، وخلقنا من التراب.

فلنا مادتان الماء والتراب، فجعل منهما نشأتنا وأقواتنا، وبهما تطهرنا وتعبدنا.

فالتراب أصل ما خلق منه الناس، والماء حياة كل شيء، وهما الأصل في الطبائع التي ركب الله عليهما هذا العالم، وجعل قوامه بهما، وكان أصل ما يقع به تطهير الأشياء من الأدناس والأقذار هو الماء في الأمر المعتاد، فلم يجز العدول عنه إلا في حال العدم والعذر بمرض أو نحوه، وكان النقل عنه إلى شقيقه وأخيه التراب أولى من غيره، وإن لوث ظاهرًا فإنه يطهر باطنًا، ثم يقوي طهارة الباطن فيزيل دنس الظاهر أو يخففه، وهذا أمر يشهده من له بصر نافذ بحقائق الأعمال وارتباط الظاهر بالباطن، وتأثر كل منهما بالآخر وانفعاله عنه.

وأما كونه في عضوين ففي غاية الموافقة للقياس والحكمة، فإن وضع التراب على الرءوس مكروه في العادات، وإنما يفعل عند المصائب والنوائب. والرجلان محل ملابسة التراب في أغلب الأحوال، وفي تتريب الوجه من الخضوع والتعظيم لله والذل له والانكسار لله ما هو أحب العبادات إليه وأنفعها للعبد.

ولذلك يستحب للساجد أن يترب وجهه لله، وأن لا يقصد وقاية وجهه من التراب، كما قال بعض الصحابة لمن رآه قد سجد وجعل بينه وبين التراب وقاية، فقال: «ترِّب وجهك»[1]، وهذا المعنى لا يوجد في تتريب الرجلين.

---

(١) يروى مرفوعًا عن أم سلمة أن غلامًا من ذي قرابتها قام يصلي فلما ذهب ليسجد نفخ، فقالت: لا تفعل، فإن رسول الله ﷺ كان يقول لغلام لنا أسود: «يا رباح ترب وجهك» أخرجه ابن حبان (٥/ ٢٤١ رقم ١٩١٣) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٤٨٣) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٥٢ رقم ٣١٨٠) والترمذي (رقم ٣٨١) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٢٤ رقم ٧٤٢) وأبو يعلى (١٢/ ٣٨٥ رقم ٦٩٥٤) وأحمد (٦/ ٣٠١) وقال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٨٥) رواه الترمذي وقال: ضعيف الإسناد.

وأيضاً فموافقة ذلك للقياس من وجه آخر، وهو أن التيمم جعل في العضوين المغسولين، وسقط عن العضوين الممسوحين، فإن الرجلين تمسحان في الخف، والرأس في العمامة، فلما خفف عن المغسولين بالمسح خفف عن الممسوحين بالعفو، إذ لو مسحا بالتراب لم يكن فيه تخفيف عنهما، بل كان فيه انتقال من مسحهما بالماء إلى مسحهما بالتراب، فظهر أن الذي جاءت به الشريعة هو أعدل الأمور وأكملها، وهو الميزان الصحيح.

أما كون تيمم الجنب كتيمم المحدث فلما سقط مسح الرأس والرجلين بالتراب عن المحدث سقط مسح البدن كله بالتراب عنه بطريق الأولى، إذ في ذلك من المشقة والحرج والعسر ما يناقض رخصة التيمم، ويدخل أكرم المخلوقات على الله في شبه البهائم إذا تمرغ في التراب، فالذي جاءت به الشريعة لا مزيد في الحسن والحكمة والعدل عليه، ولله الحمد.

(١)وأما جمعها بين الماء والتراب في التطهير فلله ما أحسنه من جمع!! وألطفه وألصقه بالعقول السليمة والفطر المستقيمة! وقد عقد الله سبحانه الإخاء بين الماء والتراب قدرا وشرعًا فجمعهما الله ﷻ وخلق منهما آدم وذريته، فكانا أبوين اثنين لأبوينا وأولادهما، وجعل منهما حياة كل حيوان، وأخرج منهما أقوات الدواب والناس والأنعام، وكانا أعم الأشياء وجودا وأسهلها تناولاً، وكان تعفير الوجه في التراب لله من أحب الأشياء إليه، ولما كان عقد هذه الأخوة بينهما قدرا أحكم عقد وأقواه كان عقد الأخوة بينهما شرعا أحسن عقد وأصحه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

(١) ١٥٥ أعلام جـ٢.

[(١)]والفرق بين الاحتياط والوسوسة: أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة في اتباع السنة، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفريط، فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسوله.

وأما الوسوسة فهي ابتداع ما لم تأت به السنة ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة، زاعماً أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه، كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه في الوضوء فوق الثلاثة، فيسرف في صب الماء في وضوئه وغسله ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مرارا أو مرة واحدة، ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطاً، ويرغب عن الصلاة في نعله احتياطا إلى أضعاف أضعاف هذا، مما اتخذه الموسوسون دينا، وزعموا أنه احتياط.

وقد كان الاحتياط باتباع هدي رسول الله ﷺ، وما كان عليه أولى بهم، فإنه الاحتياط الذي من خرج عنه فقد فارق الاحتياط، وعدل عن سواء الصراط.

والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة، ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

[(٢)]فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحلمه بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى؟!

---

(١) ٣١٢ الروح.
(٢) ١٦٥ بدائع جـ٢.

ولعله لا يدري أنهم أولىٰ بالله ورسوله وما جاء به منه علماً وعملاً، ودعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة، وصبرًا من قومهم علىٰ الأذىٰ في الله، وإقامة لحجة الله، ومعذرة لمن خالفهم بالجهل، لا كمن نصب معالمه صادرة عن آراء الرجال، فدعا إليها، وعاقب عليها، وعادىٰ من خالفها بالعصبية وحمية الجاهلية، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ [المائدة: ١١].

(١)أخبر سبحانه بفعلهم، وهو الهم، وبفعله وهو كفهم عما هموا به، ولا يصح أن يقال: إنه سبحانه أشل أيديهم، وأماتهم، وأنزل عليهم عذابًا حال بينهم وبين ما هموا به؛ بل كفَّ قدرهم وإرادتهم، مع سلامة حواسهم وبنيتهم، وصحة آلات الفعل منهم.

وعند القدرية هذا محال؛ بل هم الذي يكفون أنفسهم، والقرآن صريح في إبطال قولهم. ومثله قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفتح: ٢٤] فهذا كف أيدي الفريقين؛ مع سلامتهما وصحتهما، وهو: بأن حال بينهم وبين الفعل؛ فكف بعضهم عن بعض.

***

﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١٤ ﴾.

---

(١) ٥٧ شفاء.

(١)أما جعله القلب قاسيا فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] والقسوة: الشدة والصلابة في كل شيء، يقال: حجر قاس وأرض قاسية: لا تنبت شيئًا. قال ابن عباس: «قاسية عن الإيمان» وقال الحسن: «طبع عليها».

والقلوب ثلاثة: قلب قاس وهو اليابس الصلب، الذي لا يقبل صورة الحق ولا تنطبع فيه، وضده القلب اللين المتماسك، وهو السليم من المرض، الذي يقبل صورة الحق بلينه، ويحفظه بتماسكه، بخلاف المريض الذي لا يحفظ ما ينطبع فيه لميعانه ورخاوته، كالمائع الذي إذا طبعت فيه الشيء قبل صورته بما فيه من اللين، ولكن رخاوته تمنعه من حفظها، فخير القلوب القلب الصلب الصافي اللين، فهو يرى الحق بصفائه ويقبله بلينه.

(٢)وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤] وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وهذا الإغراء والإلقاء محض فعله سبحانه، والتعادي والتباغض أثره، وهو محض فعلهم، وأصل ضلال القدرية والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعل العبد.

فالجبرية جعلوا التعادي والتباغض فعل الرب دون المتعاديين والمتباغضين.

والقدرية جعلوا ذلك محض فعلهم الذي لا صنع لله فيه ولا قدرة ولا مشيئة.

وأهل الصراط السوي جعلوا ذلك فعلهم، وهو أثر فعل الله وقدرته ومشيئته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] فالتسيير فعله، والسير فعل العباد، وهو أثر التسيير، وكذلك الهدى والإضلال فعله، والاهتداء والضلال أثر فعله،

---

(١) ١٠٥ شفاء.

(٢) ٥٨ شفاء.

وهما أفعالنا القائمة بنا، فهو الهادي والعبد المهتدي، وهو الذي يضل من يشاء والعبد الضال، وهذا حقيقة وهذا حقيقة، والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان.

***

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

...[1]والأمر الثاني[2]: أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدىٰ به مجملا وقبل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرىٰ تحصل له علىٰ التفصيل. فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرىٰ، وفوق تلك الهداية هداية أخرىٰ إلىٰ غير غاية. فكلما اتقىٰ العبد ربه ارتقىٰ إلىٰ هداية أخرىٰ، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوىٰ. وكلما فوّت حظا من التقوىٰ فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقىٰ زاد هداه، وكلما اهتدىٰ زادت تقواه. قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ: ١٣] وقال تعالىٰ: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٠]، وقال: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩] فهداهم أولًا للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية.

---

(١) ١٢٩ فوائد.

(٢) تقدم الأول في أول سورة البقرة (ج).

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر القرآن بهذا وبهذا. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]. فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر الشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ومن كان قصده اتّباع رضوانه.

وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه ١-٣]، وقال في الساعة: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥] وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية. ولهذا لما ذكر الله سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة. وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة. وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات، ينبني على الصبر والشكر، فنصفه صبر ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه.

وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى. فإذا كان مشركا متبعا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيماناً.

***

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

(١)لو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي محبَّه من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبدًا؟ وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ الآية. [المائدة: ١٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن ﷺ أن النبي ﷺ قال: «والله لا يعذب الله حبيبه، ولكن قد يبتليه في الدنيا»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى ابن مريم ﷺ: يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم. قالوا: يا نبي الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم في دنياكم علمه(٣).

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثوابًا عاجلًا أن الله ﷻ يقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة: قال ذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله ﷻ بقلوب المؤمنين إليه حتى

---

(١) ٤٤٣ روضة.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٥٤) وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤١١ رقم ١٠٩٦): قال القاري نقلًا عن السخاوي: ما علمته في المرفوع.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٥٧ رقم ٩٤٤٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٥٥) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٧/ ٤٥٢).

يرزقه مودتهم ورحمتهم[(١)].

وقد روي هذا مرفوعاً ولفظه: «**وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله ﷻ عليه بقلوب، عباده وجعل قلوبهم تفد إليه بالود والرحمة، وكان الله بكل خير إليه، أسرع**»[(٢)]...

[(٣)]قوله في سورة المائدة ردًّا عليهم قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨] يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه.

وههنا نكتة لطيفة جدًّا، قل من ينتبه لها ونحن نقررها بسؤال وجواب.

فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾؛ لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهجران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا؛ لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب من المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم؛ يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم ويسبون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه.

ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها وعتوها على الله، واستكبارها عن طاعته، وعبادته وذلك ينافي كونهم أحبابه، فلو أحبوه لما ارتكبوا من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٣٣) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٢٩٩-٣٠٠ رقم ٧٩٩) وانظر: التمهيد (٢١/ ٢٤٠) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٨٦ رقم ٥٠٢٥) والديلمي في الفردوس (٢/ ٥٣ رقم ٢٣٠٠) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٨٢) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٠٥ رقم ٨١٣) وانظر: فيض القدير (٣/ ٢٨٠-٢٨١).

(٣) ١٥٠ بدائع جـ٤.

غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم، فالتأديب شيء، والتعذيب شيء، والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون.

***

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(١)قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢] قال: أراد الطول والقوة والعظم، ذهب في هذا إلى الجبار من النخل، وهو الطويل الذي فات الأيدي، ويقال: رجل جبار، إذا كان طويلًا عظيمًا قويًّا، تشبيهاً بالجبار من النخل، قال قتادة: «كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم».

وقيل: الجبار ههنا من جبره على الأمر إذا أكرهه عليه.

قال الأزهري: «وهي لغة معروفة وكثير من الحجازيين يقولونها» وكان الشافعي رحمه الله يقول: «جبره السلطان».

ويجوز أن يكون الجبار من أجبره على الأمر: إذا أكرهه، قال الفراء: «لم أسمع فعالا من أفعل إلا في حرفين، وهما جبار من أجبر، ودراك من أدرك»، وهذا اختيار الزجاج، قال: الجبار من الناس: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد.

---

(١) ١٢١ شفاء.

وأما الجبار من أسماء الرب تعالىٰ فقد فسره بأنه الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، والرب سبحانه كذلك، ولكن ليس هذا معنىٰ اسمه الجبار، ولهذا قرنه باسمه المتكبر، وإنما هو الجبروت، وكان النبي ﷺ يقول: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»(١) فالجبار اسم من أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار(٢)...

(٣)ومن تلاعبه بهم أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب، ونصرهم وآواهم وأعزهم، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين. ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم، وفي ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم. وأن تلك القرية لهم. فأبوا طاعته وامتثال أمره، وقابلوا هذا الأمر والبشارة، بقولهم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

وتأمل: تلطف نبي الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعد الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم علىٰ أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره، ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين.

فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة. فقابلوه أقبح المقابلة. فعارضوا أمر الله تعالىٰ بقولهم: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢]. فلم يوقروا رسول الله وكليمه، حتىٰ نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله. وقالوا: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ ونسوا قدرة جبار السماوات

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٤٠ رقم ٧١٨) وأبو داود (رقم ٨٧٣) والترمذي في الشمائل (رقم ٣١٤) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣١٠ رقم ٣٥٠٤) والطبراني في الكبير (١٨/ ٦١ رقم ١١٣) وأحمد (٦/ ٢٤) والبزار (٧/ ١٨٣ رقم ٢٧٥٠).

(٢) بقية البحث سيأتي ـ إن شاء الله ـ في آخر سورة الحشر. (ج).

(٣) ٣١٢ إغاثة جـ٢.

والأرض، الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته. وكان خوفهم من أولئك الجبارين - الذين نواصيهم بيد الله - أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة. فقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٢٢]. فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد.

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢].

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدروا الجملة بحرف تأكيد، وهو «إن»، ثم حققوا النفي بأداة «لن» الدالة على نفي المستقبل: أي لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل.

ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها، فقال لهم: ﴿ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ [المائدة: ٢٣]. بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون الله. هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

وقيل: من الذين يخافونهم من الجبارين، أسلما واتبعا موسى ﷺ: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ [المائدة: ٢٣]. أي باب القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد ملئوا منكم رعبًا: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٢٣]. ثم أرشدهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل.

فكان جواب القوم أن ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

فسبحان من عظم حلمه، حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب، وهو يحلم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه، وكان أقصى ما عاقبهم به: أن ردهم في برية التيه أربعين عامًا، يظلل عليهم الغمام من الحر، وينزل عليهم المن والسلوى.

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك ومن خلفك. فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه لذلك وسر به»[1]. فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة. ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦].

[2]وأما «اليهود» فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم وغباوتهم وضلالهم ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل التي بعضها فوق بعض.

ويكفي في ذلك: عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب، ومن غباوتهم أن جعلوه على صورة أبلد الحيوان وأقله فطانة، الذي يضرب المثل به في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباوة المتجاوزة للحد، كيف عبدوا مع الله إلهاً آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله مالم يشاهده سواهم؟!!. وإذ قد عزموا على اتخاذ إله دون الله فاتخذوه ونبيهم حي بين أظهرهم، لم ينتظروا موته. وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الملائكة المقربين ولا من الأحياء الناطقين، بل اتخذوه من الجمادات!.

وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر العلوية كالشمس والقمر والنجوم، بل من الجواهر الأرضية.

وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من الجواهر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٥٢).
(٢) ١٨٩ هداية.

كالجبال ونحوها، بل من جواهر لا تكون إلا تحت الأرض والصخور والأحجار عالية عليها.

وإذ قد فعلوا فلم يتخذوه من جوهر يستغني عن الصنعة وإدخال النار وتقليبه وجوهاً مختلفة، وضربه بالحديد وسبكه، بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضروب مختلفة، وإدخاله النار وإحراقه، واستخراج خبثه.

وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال ملك كريم، ولا نبي مرسل، ولا على تمثال جوهر علوي لا تناله الأيدي، بل على تمثال حيوان أرضي.

وإذ قد فعلوا فلم يصوغوه على تمثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشدها امتناعاً من الضيم كالأسد والفيل ونحوهما، بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوان وأقبله للضيم والذل، بحيث يحرث عليه الأرض ويسقى عليه بالسواقي والدواليب، ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير. فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم وحقائق الموجودات؟.

وحقيق بمن سأل نبيه أن يجعل له إلهاً، فيعبد إلهاً مجعولاً بعد ماشاهد تلك الآيات الباهرات؛ أن لا يعرف حقيقة الإله، ولا أسماءه وصفاته ونعوته ودينه، ولا يعرف حقيقة المخلوق وحاجته وفقره.

ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، ولا قالوا له: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولا قتلوا نفساً، وطرحوا المقتول على أبواب البرآء من قتله، ونبيهم حي بين أظهرهم، وخبر السماء والوحي يأتيه صباحاً ومساء، فكأنهم جوزوا أن يخفى هذا على الله كما يخفى على الناس؟!

ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطباتهم له: «يا أبانا، انتبه من رقدتك، كم تنام».

ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أنبيائه وقتلهم وحبسهم ونفيهم، ولما تحيلوا

على تحليل محارمه وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل. ولقد شهدت التوراة بعدم فطانتهم، وأنهم من الأغبياء.

ولو عرفوه لما حجروا عليه بعقولهم الفاسدة أن يأمر بالشيء في وقت لمصلحة، ثم يزيل الأمر به في وقت آخر لحصول المصلحة، وتبدله بما هو خير منه، وينهى عنه ثم يبيحه في وقت آخر لاختلاف الأوقات والأحوال في المصالح والمفاسد، كما هو مشاهد في أحكامه القدرية الكونية، التي لا يتم نظام العالم ولا مصلحته إلا بتبديلها واختلافها بحسب الأحوال والأوقات والأماكن، فلو اعتمد طبيب أن لا يغير الأدوية والأغذية بحسب اختلاف الزمان والأماكن والأحوال لأهلك الحرث والنسل، وعُدَّ من الجهال، فكيف يحجر على طبيب القلوب والأديان أن تتبدل أحكامه بحسب اختلاف المصالح، وهل ذلك إلا قدح في حكمته ورحمته وقدرته وملكه التام وتدبيره لخلقه؟!!

ومن جهلهم بمعبودهم ورسوله وأمره أنهم أمروا أن يدخلوا باب المدينة التي فتحها الله عليهم سجداً، ويقولوا: «حطة»، فيدخلوا متواضعين لله سائلين منه أن يحط عنهم خطاياهم، فدخلوا يزحفون على أستاههم بدل السجود لله، ويقولون: «هنطا سقمانا» أي: حنطة سمراء، فذلك سجودهم وخشوعهم، وهذا استغفارهم واستقالتهم من ذنوبهم.

ومن جهلهم وغباوتهم أن الله سبحانه أراهم من آيات قدرته وعظيم سلطانه وصدق رسوله ما لا مزيد عليه، ثم أنزل عليهم بعد ذلك كتابه، وعهد إليهم فيه عهده، وأمرهم أن يأخذوه بقوة فيعبدوه بما فيه، كما خلصهم من عبودية فرعون والقبط، فأبوا أن يقبلوا ذلك وامتنعوا منه، فنتق الجبل العظيم فوق رؤوسهم على قدرهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوا أطبقته عليكم، فقبلوه من تحت الجبل.

قال ابن عباس: «رفع الله الجبل فوق رؤوسهم، وبعث ناراً من قبل وجوههم، وأتاهم البحر من تحتهم، ونودوا: إن لم تقبلوا أرضختكم بهذا، وأحرقتكم بهذا، وأغرقتكم بهذا، فقبلوه، وقالوا: سمعنا وأطعنا، ولولا الجبل ما أطعنا. ولما أمنوا بعد

ذلك قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

ومن جهلهم: أنهم شاهدوا الآيات، ورأوا العجائب التي يؤمن على بعضها البشر، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وكان الله سبحانه قد أمر موسى أن يختار من خيارهم سبعين رجلاً لميقاته، فاختارهم موسى وذهب بهم إلى الجبل، فلما دنى موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل، وقال للقوم: ادنوا. ودنى القوم حتى إذا دخلوا في الحجاب وقعوا سجداً، فسمعوا الرب تعالى وهو يكلم موسى ويأمره وينهاه ويعهد إليه، فلما انكشف الغمام، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ .

ومن جهلهم: أن هارون لما مات ودفنه موسى قالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، حسدته على خلقه ولينه ومحبة بني إسرائيل له، قال: فاختاروا سبعين رجلاً، فوقفوا على قبر هارون، فقال موسى: يا هارون، أقُتِلت أم مت؟ قال: بل مت، وما قتلني أحد. فحسبك من جهالة أمة وجفائهم أنهم اتهموا نبيهم ونسبوه إلى قتل أخيه، فقال موسى: ما قتلته، فلم يصدقوه حتى أسمعهم كلامه وبراءة أخيه مما رموه به.

ومن جهلهم: أن الله سبحانه شبّههم في حملهم التوراة وعدم الفقه فيها والعمل بها بالحمار يحمل أسفاراً، وفي هذا التشبيه من النداء على جهالتهم وجوه متعددة:

منها: أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة.

ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علف أوماء لكان له به شعور بخلاف الأسفار.

ومنها: أنهم حُمِّلُوها، لا أنهم حَمَلُوها طوعاً واختيارًا، بل كانوا كالمكلفين لما حملوه، لم يرفعوا به رأساً.

ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفاً وقهراً لم يرضوا بها ولم يحملوها رضاً واختياراً، وقد علموا أنهم لا بد لهم منها، وأنهم إن حملوها اختياراً كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها: أنها مشتملة على صالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده من غاية الجهل والغباوة وعدم الفطانة.

ومن جهلهم وقِلَّةِ معرفتهم: أنهم طلبوا عوض المن والسلوى اللذين هما أطيب الأطعمة وأنفعها وأوفقها للغذاء الصالح؛ البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل، ومن رضي باستبدال هذه الأغذية عوضاً عن المن والسلوى لم يكثر عليه أن يستبدل الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، والغضب بالرضى، والعقوبة بالرحمة، وهذه حال من لم يعرف ربه ولا كتابه ولا رسوله ولا نفسه.

وأما نقضهم ميثاقهم، وتبديلهم أحكام التوراة، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم الرشا، واعتداؤهم في السبت حتى مسخوا قردة، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتكذيبهم عيسى ابن مريم رسول الله، ورميهم له ولأمه بالعظائم، وحرصهم على قتله، وتفردهم دون الأمم بالخبث والبهت، وشدة تكالبهم على الدنيا وحرصهم عليها، وقسوة قلوبهم، وحسدهم، وكثرة سخرهم؛ فإليه النهاية، وهذا وأضعافه من الجهل وفساد العقل قليل على من كذب رسل الله، وجاهر بمعاداته ومعاداة ملائكته وأنبيائه وأهل ولايته، فأي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله؟، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة؟، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله، العمل بمرضاته، ومعرفة الطريق الموصلة إليه، ومآله بعد الوصول إليه؟!.

***

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[(١)]ثم كاد أحد ولدي آدم، ولم يزل يتلاعب به، حتى قتل أخاه، وأسخط أباه،

---

(١) ٢٠٣ إغاثة جـ٢.

وعصى مولاه، فسن للذرية قتل النفس، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأوَّل كفلٌ من دمها؛ لأنه أول من سنَّ القتل**»[1].

فكاد العدو هذا القاتل بقطيعة رحمه، وعقوق والديه، وإسخاط ربه، ونقص عدده، وظلم نفسه، وعرَّضه لأعظم العقاب، وحرمه حظَّه من جزيل الثواب.

...[2]قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في هذا العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه؛ علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم.

***

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

[3]قد ظنت طائفة أن قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ تعليل لقوله ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] أي: من أجل قتله لأخيه وهذا ليس بشيء؛ لأنه يشوش صحة النظم وتقل الفائدة بذكره، ويذهب شأن التعليل بذلك للكتابة المذكورة، وتعظيم شأن القتل حين جعل علة لهذه الكتابة فتأمله.

فإن قلت: كيف يكون قتل أحد بني آدم للآخر علة لحكمه على أمة أخرى بذلك

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٥) ومسلم (رقم ١٦٧٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٩).
(٢) ٨٢ مفتاح جـ١.
(٣) ١٩٥ شفاء.

الحكم؟ وإذا كان علة فكيف كان قاتل نفس واحدة بمنزلة قاتل الناس كلهم.

قلت: الرب سبحانه يجعل أقضيته وأقداره عللًا وأسباباً لشرعه وأمره، فجعل حكمه الكوني القدري علة لحكمه الديني الأمري، وذلك أن القتل عنده لما كان من أعلى أنواع الظلم والفساد فخَّم أمره، وعظَّم شأنه، وجعل إثمه أعظم من إثم غيره، ونزَّل قاتل النفس الواحدة منزلة قاتل الأنفس كلها، ولا يلزم من التشبيه أن يكون المشبه بمنزلة المشبه به من كل الوجوه، فإذا كان قاتل الأنفس كلها يصلى النار وقاتل النفس الواحدة يصلاها صح تشبيهه به، كما يأثم من شرب قطرة واحدة من الخمر ومن شرب عدة قناطير وإن اختلف مقدار الإثم.

وكذلك من زنى مرة واحدة وآخر زنى مرارا كثيرة كلاهما آثم، وإن اختلف قدر الإثم، وهذا معنى قول مجاهد: من قتل نفسًا واحدةً يصلى النار بقتلها كما يصلاها من قتل الناس جميعاً. وعلى هذا فالتشبيه في أصل العذاب لا في وصفه.

وإن شئت قلت: التشبيه في أصل العقوبة الدنيوية وقدرها، فإنه لا يختلف بقلة القتل وكثرته، كما لو شرب قطرة فإن حده حد من شرب راوية، ومن زنى بامرأة واحدة حده حد من زنى بألف، وهذا تأويل الحسن وابن زيد، قالا: «يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي يجب عليه لو قتل الناس جميعاً».

ولك أن تجعل التشبيه في الأذى والغم الواصل إلى المؤمنين بقتل الواحد منهم، فقد جعلهم كلهم خصماءه، وأوصل إليهم من الأذى والغم ما يشبه القتل، وهذا تأويل ابن الأنباري وفي الآية تأويلات أخر.

(1)ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة، قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. وقد أشكل فهم هذا

(١) ١٩٨ الجواب الكافي.

على كثير من الناس، وقالوا: معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، والقول لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه أحكامه، وقد قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار. وقد قال: النبي ﷺ: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**»[1] أي: مع العشاء كما جاء في لفظ آخر. وأصرح من هذا قوله: «**من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال فكأنما صام الدهر**»[2]. وقوله ﷺ: «**من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن**»[3]. ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به، فيكون قدرها سواء، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب، وما أوتي أحد بعد الإيمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وبين قاتل الناس جميعا؟

قيل: في وجوه متعددة:

أحدها: أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره، متعرض لعقوبته وكل منهما قد باء بغضب من الله ولعنته، واستحقاق الخلود في نار جهنم، وأعد لهم عذابًا عظيمًا، وإن تفاوتت درجات العذاب، فليس إثم من قتل نبيًا أو إمامًا عادلًا أو عالمًا يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٥٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤، ١٩٧) وشرح النووي (٦/ ٦٦) (٧/ ١٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٤) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٢٣) وشرح النووي (٨/ ٥٦).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٥٠١٣، ٥٠٥١) ومسلم (رقم ٨١١، ٨١٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٦٠٤) (٩/ ٦٠-٦١) وشرح النووي (٦/ ٩٤-٩٥).

الثاني: أنهما سواء في استحقاق إزهاق النفس.

الثالث: أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام، فإن من قتل نفسًا بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الأرض أو لأخذ ماله، فإنه يجترئ على من قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله، فهو معاد للنوع الإنساني.

ومنها: أنه يسمى قاتلاً أو فاسقًا أو ظالمًا أو عاصيًا بقتله واحدًا، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً.

ومنها: أن الله سبحانه جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر(١). فإذا أتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكأنما أتلف سائر الجسد، وآلم جميع أعضائه، فمن آذي مؤمنًا واحدًا فقد آذى جميع المؤمنين، وفي أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس كلهم، فإن الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم، فإيذاء الخفير إيذاء المخفر.

وقد قال: النبي ﷺ: «**لا تقتل النفس ظلماً بغير حق إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنه أول من سن القتل**». ولم يجئ هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر. وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل، لأنه أول من سن الشرك، ولهذا رأي النبي ﷺ عمرو بن لحي الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار، لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام(٢).

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١] أي فيقتدى بكم من بعدكم، فيكون إثم كفره عليكم. وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٣٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٨٦، ٨٧، ٨٨) وعبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (١١/ ١٩٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٧ رقم ٣٥٧٤٠) والطبراني في الأوسط (١/ ٧٢ رقم ٢٠١) وفي الكبير (١٠/ ٣٢٨ رقم ١٠٨٠٨) وابن أبي عاصم في الأوائل (رقم ٨٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٤٩).

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دما، يقول: يا رب، سل هذا: فيمَ قتلني**»؟ فذكروا لابن عباس التوبة، فتلا هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٣]، ثم قال: «ما نسخت هذه الآية ولا بدلت، وأنَّى له التوبة»[١]؟ قال: الترمذي هذا حديث حسن.

وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال: «أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلاّ طيبا فليفعل، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملأ كف من دم أهرقه فليفعل»[٢].

وفي جامع الترمذي عن نافع قال: نظر عبد الله بن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن عند الله؛ أعظم حرمة منك»[٣] قال الترمذي: هذا حديث حسن...

[٤] وأما قوله: «أوجب الحد في القطرة الواحدة من الخمر دون الأرطال الكثيرة من البول» فهذا أيضاً من كمال الشريعة ومطابقتها للعقول والفطر وقيامها بالمصالح.

فإن ما جعل الله سبحانه في طباع الخلق النفرة عنه ومجانبته اكتفى بذلك عن الوازع عنه بالحد، لأن الوازع الطبيعي كاف في المنع منه.

وأما ما يشتد تقاضي الطباع له فإنه غلَّظ العقوبة عليه بحسب شدة تقاضي الطبع له، وسد الذريعة إليه من قرب وبعد، وجعل ما حوله حِمًى، ومنع من قربانه، ولهذا

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٢٩) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٨٨ رقم ٣٤٦٨) في الصغرى (رقم ٤٠٠٥) وسعيد بن منصور (رقم ٦٦٦) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٣٤ رقم ٧٦٦) في الكبير (١٠/ ١٨٧ رقم ١٠٤٠٧) وانظر: نيل الأوطار (٧/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧١٥٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ١٣٠).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٣٢) وابن ماجه (رقم ٣٩٣٢) وابن حبان (١٣/ ٧٥ رقم ٥٧٦٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٤٤ رقم ٤٠١٤) وحسنه الترمذي، وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ١٥٣).

(٤) ٨٣ أعلام جـ٢.

عاقب في الزنا بأشنع القتلات، وفي السرقة بإبانة اليد، وفي الخمر بتوسيع الجلد ضربا بالسوط، ومنع قليل الخمر وإن كان لا يسكر، إذ قليله داع إلىٰ كثيرة.

ولهذا كان من أباح من نبيذ التمر المسكر القدر الذي لا يسكر خارجًا عن محض القياس والحكمة وموجب النصوص.

وأيضاً فالمفسدة التي في شرب الخمر والضرر المختص والمتعدىٰ؛ أضعاف الضرر والمفسدة التي في شرب البول وأكل القاذورات فإن ضررها مختص بمتناولها.

(١) وأما اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه دون غيره فيقال: أين في نصوص الشارع هذا التفريق، بل نصه علىٰ اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه: إما من باب التنبيه علىٰ اعتبار توبة غيره بطريق الأولىٰ فإنه إذا دفعت توبته عنه حد حرابه مع شدة ضررها وتعديه، فلأن تدفع التوبة ما دون حد إحراب بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال النبي ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٢).

والله تعالىٰ جعل الحدود عقوبة لأرباب الجرائم، ورفع العقوبة عن التائب شرعًا وقدرًا، فليس في شرع الله ولا قدره عقوبة تائب البتة.

وفي الصحيحين من حديث أنس قال: «كنت مع النبي ﷺ فجاء رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ قال: ولم يسأله عنه، فحضرت الصلاة فصلىٰ مع

---

(١) ٧٨ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٠٣ رقم ٢١٢٣) وابن ماجه (رقم ٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٤٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٠ رقم ١٠٢٨١) والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ١٠٨) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٨ رقم ٤٧٥٨): رواه ابن ماجه والطبراني كلاهما من رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ولم يسمع منه، ورواة الطبراني رواة الصحيح، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٠) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٤٧١).

النبي ﷺ فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام إليه الرجل فأعاد قوله: قال: «**أليس قد صليت معنا؟**» قال: نعم قال: «**فإن الله ﷻ قد غفر لك ذنبك**»(١). فهذا لما جاء تائبًا بنفسه من غير أن يطلب غفر الله له، ولم يقم عليه الحد الذي اعترف به، وهو أحد القولين في المسألة، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وهو الصواب.

***

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

(٢)ذكر الحكم الكوني والشرعي عقيب الوصف المناسب له، وتارة يذكر بأن، وتارة يقرن بالفاء، وتارة يذكر مجردًا.

فالأول كقوله: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦]، وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والثاني كقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٤].

والثالث كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات: ١٥]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٢٣) ومسلم (رقم ٢٧٦٤) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٣٤).

(٢) ١٩٦ شفاء.

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وهذا في التنزيل يزيد على عدة آلاف موضع، بل القرآن مملوء منه.

فإن قيل: هذا إنما يفيد كون تلك الأفعال أسباباً لما رتب عليها لا يقتضي إثبات التعليل في فعل الرب وأمره، فأين هذا من هذا؟.

قيل: لما جعل الرب سبحانه هذه الأوصاف عللا لهذه الأحكام وأسبابا لها؛ دل ذلك على أنه حكم بها شرعًا وقدرًا؛ لأجل تلك الأوصاف، وأنه لم يحكم بها لغير علة ولا حكمة؛ ولهذا كان كل من نفى التعليل والحكم؛ نفى الأسباب، ولم يجعل لحكم الرب الكوني والديني سببًا ولا حكمة هي العلة الغائية، وهؤلاء ينفون الأسباب والحكم، ومن تأمل شرع الرب وقدره وجزاءه جزم جزما ضروريا ببطلان قول النفاة.

والله سبحانه قد رتب الأحكام على أسبابها وعللها، وبيَّن ذلك خبراً وحسًّا وفطرةً وعقلًا، ولو ذكرنا ذلك على التفصيل لقام منه عدة أسفار.

...[1] وأما قوله: من حكم على الناس بخلاف ما ظهر عليهم لم يسلم من خلاف التنزيل والسنة، فإنه يشير بذلك إلى قبول توبة الزنديق، وحقن دمه بإسلامه، وقبول توبة المرتد وإن ولد على الإسلام. وهاتان مسألتان فيهما نزاع بين الأمة مشهور، وقد ذكر الشافعي الحجة على قبول توبتهما.

ومن لم يقبل توبتهما يقول إنه لا سبيل إلى العلم بها، فإن الزنديق قد علم أنه لم يزل مظهراً للإسلام، فلم يتجدد له بإسلامه الثاني حال مخالفة لما كان عليه بخلاف الكافر الأصلي، فإنه إذا أسلم تجدد له بالإسلام حال لم يكن عليها، والزنديق إنما رجع إلى إظهار الإسلام.

وأيضاً فالكافر كان معلنا لكفره غير مستتر به ولا مخف له، فإذا أسلم تيقنا أنه أتى بالإسلام رغبة فيه لا خوفا من القتل، والزنديق بالعكس فإنه كان مخفيا لكفره مستتراً

(١) ١٤١ أعلام جـ٣.

به، فلم نؤاخذه بما في قلبه إذا لم يظهر عليه، فإذا ظهر على لسانه وآخذناه به فإذا رجع عنه لم يرجع عن أمر كان مظهراً له غير خائف من إظهاره، وإنما رجع خوفا من القتل.

وأيضاً: فإن الله تعالى سن في عباده أنهم إذا رأوا بأسه لم ينفعهم الإسلام، وهذا إنما أسلم عند معاينة البأس، ولهذا لو جاء من تلقاء نفسه وأقر بأنه قال: كذا وكذا وهو تائب منه قبلنا توبته ولم نقتله.

وأيضاً: فإن الله تعالى سن في المحاربين أنهم إن تابوا من قبل القدرة عليهم قبلت توبتهم، ولا تنفعهم التوبة بعد القدرة عليهم ومحاربة الزنديق للإسلام بلسانه أعظم من محاربة قاطع الطريق بيده وسنانه، فإن فتنة هذا في الأموال والأبدان، وفتنة الزنديق في القلوب والإيمان، فهو أولى ألا تقبل توبته بعد القدرة عليه، وهذا بخلاف الكافر الأصلي، فإن أمره كان معلومًا، وكان مظهراً لكفره غير كاتم له، والمسلمون قد أخذوا حذرهم منه، وجاهروه بالعداوة والمحاربة.

وأيضاً فإن الزنديق هذا دأبه دائمًا، فلو قبلت توبته لكان تسليطاً له على بقاء نفسه بالزندقة والإلحاد، وكلما قُدِرَ عليه أظهر الإسلام وعاد إلى ما كان عليه، ولاسيما وقد علم أنه أمن بإظهار الإسلام من القتل، فلا يُزعه خوفه من المجاهرة بالزندقة والطعن في الدين ومسبة الله ورسوله، فلا ينكف عدوانه عن الإسلام إلا بقتله.

وأيضًا: فإن من سب الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فسادًا، فجزاؤه القتل حدًّا، والحدود لا تسقط بالتوبة بعد القدرة اتفاقًا.

ولا ريب أن محاربة هذا الزنديق لله ورسوله وإفساده في الأرض؛ أعظم محاربة وإفسادًا، فكيف تأتي الشريعة بقتل من صال عل عشرة دراهم لذمي أو على بدنه ولا تقبل توبته ولا تأتي بقتل من دأبه الصول على كتاب الله وسنة رسوله والطعن في دينه، وتقبل توبته بعد القدرة عليه؟!

وأيضا فالحدود بحسب الجرائم والمفاسد، وجريمة هذا أغلظ الجرائم، ومفسدة بقائه بين أظهر المسلمين من أعظم المفاسد.

وههنا قاعدة يجب التنبيه عليها لعموم الحاجة إليها، وهي أن الشارع إنما قبل توبة الكافر الأصلي من كفره بالإسلام، لأنه ظاهر لم يعارضه ما هو أقوىٰ منه، فيجب العمل به، لأنه مقتض لحقن الدم والمعارض منتف، فأما الزنديق فإنه قد أظهر ما يبيح دمه، فإظهاره بعد القدرة عليه للتوبة والإسلام لا يدل علىٰ زوال ذلك الكفر المبيح لدمه دلالة قطعية ولا ظنية، أما انتفاء القطع فظاهر، وأما انتفاء الظن فلأن الظاهر إنما يكون دليلا صحيحًا إذا لم يثبت أن الباطن بخلافه، فإذا قام دليل علىٰ الباطن لم يلتفت إلىٰ ظاهر قد علم أن الباطن بخلافه.

ولهذا اتفق الناس علىٰ أنه لا يجوز للحاكم أن يحكم بخلاف علمه، وإن شهد عنده بذلك العدول، وإنما يحكم بشهادتهم إذا لم يعلم خلافها.

وكذلك لو أقر إقراراً علم أنه كاذب فيه مثل أن يقول لمن هو أسن منه: هذا ابني. لم يثبت نسبه ولا ميراثه اتفاقًا.

وكذلك الأدلة الشرعية مثل خبر الواحد العدل، والأمر والنهي، والعموم والقياس، إنما يجب اتباعها إذا لم يقم دليل أقوىٰ منها يخالف ظاهرها.

وإذا عرف هذا؛ فهذا الزنديق قد قام الدليل علىٰ فساد عقيدته وتكذيبه واستهانته بالدين وقدحه فيه فإظهاره الإقرار والتوبة بعد القدرة عليه، ليس فيه أكثر مما كان يظهره قبل هذا، وهذا القدر قد بطلت دلالته بما أظهره من الزندقة، فلا يجوز الاعتماد عليه لتضمنه إلغاء الدليل القوي، وإعمال الدليل الضعيف، الذي قد أظهر بطلان دلالته.

ولا يخفىٰ علىٰ المنصف قوة هذا النظر وصحة هذا المأخذ، وهذا مذهب أهل المدينة ومالك وأصحابه والليث بن سعد، وهو المنصور من الروايتين عن أبي حنيفة، وهو إحدىٰ الروايات عن أحمد، نصرها كثير من أصحابه، بل هي أنص الروايات عنه وعن أبي حنيفة وأحمد: أنه يستتاب، وهو قول الشافعي، وعن أبي يوسف روايتان: إحداهما أنه يستتاب، وهي الرواية الأولىٰ عنه، ثم قال آخرًا: أقتله من غير استتابه، لكن

إن تاب قبل أن يقدر عليه قبلت توبته، وهذا هو الرواية الثالثة عن أحمد.

ويالله العجب كيف يقاوم دليل إظهاره للإسلام بلسانه بعد القدرة عليه أدلة زندقته وتكررها منه مرة بعد مرة، وإظهاره كل وقت للاستهانة بالإسلام والقدح في الدين والطعن فيه في كل مجمع، مع استهانته بحرمات الله، واستخفافه بالفرائض، وغير ذلك من الأدلة.

ولا ينبغي لعالم قط أن يتوقف في قتل مثل هذا، ولا تترك الأدلة القطعية لظاهر قد تبين عدم دلالته وبطلانها، ولا تسقط الحدود عن أرباب الجرائم بغير موجب، نعم لو أنه قبل رفعه إلى السلطان ظهر منه من الأقوال والأعمال ما يدل على حسن الإسلام وعلى التوبة النصوحة، وتكرر ذلك منه لم يقتل كما قاله أبو يوسف وأحمد في إحدى الروايات، وهذا التفصيل أحسن الأقوال في المسألة.

ومما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾[التوبة: ٥٢] قال السلف في هذه الآية: ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم، وهو كما قالوا: لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين لا يكون إلا بالقتل، فلو قبلت توبتهم بعد ما ظهرت زندقتهم لم يمكن المؤمنين أن يتربصوا بالزنادقة أن يصيبهم الله بأيديهم، لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك أظهروا الإسلام فلم يصابوا بأيديهم قط، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا، وعند هذا فأصحاب هذا القول يقولون: نحن أسعد بالتنزيل والسنة من مخالفينا في هذه المسألة، المشنعين علينا بخلافها، وبالله التوفيق.

[1]واختلف في توبة السارق إذا قطعت يده، هل من شرطها: ضمان العين المسروقة لربها؟

---

(١) ٣٦٥ مدارج جـ١.

وأجمعوا على أن من شرط صحة توبته: أداؤها إليه إذا كانت موجودة بعينها، وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة، فقال الشافعي وأحمد: من تمام توبته ضمانها لمالكها، ويلزمه ذلك موسرا كان أو معسرًا، وقال أبو حنيفة: إذا قطعت يده وقد استهلكت العين لم يلزمه ضمانها، ولا تتوقف صحة توبته على الضمان؛ لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء، والتضمين عقوبة زائدة عليه لا تشرع.

قال: وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة، فإن صاحبها قد وجد عين ماله فلم يكن أخذها عقوبة ثانية، بخلاف التضمين فإنه غرامة، وقد قطع طرفه، فلا نجمع عليه غرامة الطرف وغرامة المال.

قالوا: ولهذا لم يذكر الله في عقوبة السارق والمحارب؛ غير إقامة الحد عليهما، ولو كان الضمان لما أتلفوه واجبًا لذكره مع الحد، ولما جعل مجموع جزاء المحاربين ما ذكره من العقوبة بأداة «إنما»، التي هي عندكم للحصر، فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الآية [المائدة: ٣٣] ومدلول هذا الكلام عند من يجعل أداة «إنما» للحصر: أنه لا جزاء لهم غير ذلك.

(١)وأما قوله: «وقطع يد السارق التي باشر بها الجناية، ولم يقطع فرج الزاني وقد باشر به الجناية، ولا لسان القاذف وقد باشر به القذف».

فجوابه: إن هذا من أدل الدلائل على أن هذه الشريعة منزلة من عند أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

ونحن نذكر فصلًا نافعا في الحدود ومقاديرها، وكمال ترتبها على أسبابها، واقتضاء كل جناية لما رتب عليها دون غيرها، وأنه ليس وراء ذلك للعقول اقتراح، ونورد

---

(١) ٩٣ أعلام جـ٢.

أسئلة لم يوردها هذا السائل، وننفصل عنها بحول الله وقوته أحسن انفصال، والله المستعان وعليه التكلان.

إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه لما خلق العباد وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها ليبلو عباده ويختبرهم أيهم أحسن عملًا، لم يكن في حكمته بد من تهيئة أسباب الابتلاء في أنفسهم وخارجا عنها، فجعل في أنفسهم العقول الصحيحة والأسماع والأبصار والإرادات والشهوات والقوى والطبائع والحب والبغض والميل والنفور والأخلاق المتضادة المقتضية لآثارها اقتضاء السبب لمسببه والتي في الخارج الأسباب التي تطلب النفوس حصولها، فتنافس فيه، وتكره حصوله فتدفعه عنها.

ثم أكد أسباب هذا الابتلاء بأن وكَّل بها قرناء من الأرواح الشريرة الظالمة الخبيثة، وقرناء من الأرواح الخيرة العادلة الطيبة، وجعل دواعي القلب وميوله مترددة بينهما، فهو إلى داعي الخير مرة وإلى داعي الشر مرة، ليتم الابتلاء في دار الامتحان، وتظهر حكمة الثواب والعقاب في دار الجزاء، وكلاهما من الحق الذي خلق الله السماوات والأرض به ومن أجله، وهما مقتضى ملك الرب وحمده، فلا بد أن يظهر ملكه وحمده فيهما، كما ظهر في خلق السموات والأرض وما بينهما.

وأوجب ذلك في حكمته ورحمته وعدله بحكم إيجابه على نفسه: أن أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ليتم ما اقتضته حكمته في خلقه وأمره.

وأقام سوق الجهاد لما حصل من المعاداة والمنافرة بين هذه الأخلاق والأعمال والإرادات، كما حصل بين من قامت به، فلم يكن بد من حصول مقتضى الطباع البشرية، وما قارنها من الأسباب من: التنافس والتحاسد، والانقياد لدواعي الشهوة والغضب، وتعدي ما حد له، والتقصير عن كثير مما تعبد به، وسهل ذلك عليها اغترارها بموارد المعصية مع الإعراض من مصادرها وإيثارها ما تتعجله من يسير اللذة في دنياها على ما تتأجله من عظيم اللذة في أخراها، ونزولها على الحاضر

المشاهد، وتجافيها عن الغائب الموعود، وذلك موجب ما جبلت عليه من جهلها وظلمها.

فاقتضت أسماء الرب الحسنى، وصفاته العليا، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة، ورحمته الشاملة، وجوده الواسع: أن لا يضرب عن عباده الذكر صفحًا، وأن لا يتركهم سدى، ولا يخليهم ودواعي أنفسهم وطبائعهم، بل ركب في فطرهم وعقولهم معرفة الخير والشر، والنافع والضار، والألم واللذة، ومعرفة أسبابها، ولم يكتف بمجرد ذلك حتى عرفهم به مفصلًا على ألسنة رسله، وقطع معاذيرهم، بأن أقام على صدقهم من الأدلة والبراهين ما لا يبقي معه لهم عليه حجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وأن الله لسميع عليم.

وصرف لهم طرق الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وضرب لهم الأمثال، وأزال عنهم كل إشكال، ومكَّنهم من القيام بما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه غاية التمكين، وأعانهم عليه بكل سبب، وسلَّطهم على قهر طباعهم بما يجرهم إلى إيثار العواقب على المبادئ، ورفض اليسير الفاني من اللذة إلى العظيم الباقي منها.

وأرشدهم إلى التفكر والتدبر وإيثار ما تقضي به عقولهم وأخلاقهم من هذين الأمرين، وأكمل لهم دينهم، وأتم عليهم نعمته بما أوصله إليهم على ألسنة رسله من أسباب العقوبة والمثوبة، والبشارة والنذارة، والرغبة والرهبة، وتحقيق ذلك بالتعجيل لبعضه في دار المحنة، ليكون علما وأمارة، لتحقيق ما أخره عنهم في دار الجزاء والمثوبة، ويكون العاجل مذكراً بالآجل، والقليل المنقطع بالكثير المتصل، والحاضر الفائت مؤذنا بالغائب الدائم.

فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وسبحانه وتعالى عما يظنه به من لم يقدره حق قدره، ممن أنكر أسماءه وصفاته، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وظن به ظن السوء، فأرداه ظنه فأصبح من الخاسرين.

فكان من بعض حكمته سبحانه ورحمته أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين

الناس بعضهم على بعض، في النفوس والأبدان الأعراض والأموال: كالقتل والجراح والقذف والسرقة، فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام، وشرعها على أكمل الوجوه، المتضمنة لمصلحة الردع والزجر مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع، فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل، ولا في الزنا الخصاء، ولا في السرقة إعدام النفس، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته من حكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وعدله، لتزول النوائب، وتنقطع الأطماع عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما آتاه مالكه وخالقه، فلا يطمع في استلاب غير حقه.

ومعلوم أن لهذه الجنايات الأربع مراتب متباينة في القلة والكثرة ودرجات متفاوتة في شدة الضرر وخفته: كتفاوت سائر المعاصي في الكبر والصغر وما بين ذلك.

ومن المعلوم أن النظرة المحرمة لا يصلح إلحاقها في العقوبة بعقوبة مرتكب الفاحشة لا الخدشة بالعود بالضربة بالسيف، ولا الشتم الخفيف بالقذف بالزنا والقدح في الأنساب، ولا سرقة اللقمة والفلس بسرقة المال الخطير العظيم، فلما تفاوتت مراتب الجنايات لم يكن بد من تفاوت مراتب العقوبات.

وكان من المعلوم أن الناس لو وكلوا إلى عقولهم في معرفة ذلك وترتيب كل عقوبة على ما يناسبها من الجناية جنسا ووصفا وقدرًا، لذهبت بهم الآراء كل مذهب، وتشعبت بهم الطرق كل مشعب، ولعظم الاختلاف، واشتد الخطب، فكفاهم أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين مؤنة ذلك، وأزال عنهم كلفته، وتولى بحكمته وعلمه ورحمته تقديره نوعاً وقدرًا، ورتب على كل جناية ما يناسبها من العقوبة، ويليق بها من النكال.

ثم بلغ من سعة رحمته وجوده: أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها، وطهرة تزيل عنهم المؤاخذة بالجنايات إذا قدموا عليه، ولاسيما إذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والإنابة، فرحمهم بهذه العقوبات أنواعا من الرحمة في الدنيا والآخرة، وجعل هذه

العقوبات دائرة على ستة أصول: قتل وقطع وجلد ونفي وتغريم مال وتعزير. فأما القتل فجعله عقوبة أعظم الجنايات:

كالجناية على الأنفس، فكانت عقوبته من جنسه.

وكالجناية على الدين بالطعن فيه والارتداد عنه، وهذه الجناية أولى بالقتل، وكف عدوان الجاني عليه من كل عقوبة، إذ بقاؤه بين أظهر عباده مفسدة لهم، ولا خير يرجى في بقائه ولا مصلحة، فإذا حبس شره، وأمسك لسانه، وكف أذاه، والتزم الذل والصغار وجريان أحكام الله ورسوله عليه، وأداء الجزية لم يكن في بقائه بين أظهر المسلمين ضرر عليهم، والدنيا بلاغ ومتاع إلى حين.

وجعله أيضا عقوبة الجناية على الفروج المحرمة، لما فيها من المفاسد العظيمة واختلاط الأنساب والفساد العام.

وأما القطع فجعله عقوبة مثله عدلًا، وعقوبة السارق فكانت عقوبته به أبلغ وأردع من عقوبته بالجلد، ولم تبلغ جنايته حد العقوبة بالقتل، فكان أليق العقوبات به إبانة العضو الذي جعله وسيلة إلى أذى الناس وأخذ أموالهم، ولما كان ضرر المحارب أشد من ضرر السارق، وعدوانه أعظم ضم إلى قطع يده قطع رجله، ليكف عدوانه، وشر يده التي بطش بها، ورجله التي سعى بها، وشرع أن يكون ذلك من خلاف، لئلا يفوت عليه منفعة الشق بكماله، فكف ضرره وعدوانه، ورحمه بأن أبقى له يدا من شق ورجلا من شق.

وأما الجلد فجعله عقوبة الجناية على الأعراض وعلى العقول وعلى الأبضاع، ولم تبلغ هذه الجنايات مبلغا يوجب القتل، ولا إبانة الطرف إلا الجناية على الأبضاع، فإن مفسدتها قد انتهضت سببا لأشنع القتلات، ولكن عارضها في البكر شدة الداعي وعدم المعوض، فانتهض ذلك المعارض سببا لإسقاط القتل، ولم يكن الجلد وحده كافيا في الزجر، فغلظ بالنفي والتغريب، ليذوق من ألم الغربة ومفارقة الوطن ومجانبة الأهل والخلطاء ما يزجره عن المعاودة.

وأما الجناية على العقول بالسكر فكانت مفسدتها لا تتعدى السكران غالبًا ولهذا لم يحرم السكر في أول الإسلام، كما حرمت الفواحش والظلم والعدوان في كل ملة وعلى لسان كل نبي، وكانت عقوبة هذه الجناية غير مقدرة من الشارع، بل ضرب فيها بالأيدي والنعال وأطراف الثياب والجريد وضرب فيها أربعين فلما استخف الناس بأمرها وتتابعوا في ارتكابها غلظها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، الذي أمرنا باتباع سنته وسنته من سنة رسول الله ﷺ، فجعلها ثمانين بالسوط، ونفى فيها، وحلق الرأس، وهذا كله من فقه السنة، فإن النبي ﷺ أمر بقتل الشارب في المرة الرابعة[1]، ولم ينسخ ذلك، ولم يجعله حدًّا لابد منه، فهو عقوبة ترجع إلى اجتهاد الإمام في المصلحة، فزيادة أربعين والنفي والحلق أسهل من القتل.

وأما تغريم المال، وهو العقوبة المالية فشرعها في مواضع:

منها: تحريق متاع الغال من الغنيمة، ومنها: حرمان سهمه.

ومنها: إضعاف الغرم على سارق الثمار المعلقة.

ومنها: إضعافه على كاتم الضالة الملتقطة.

ومنها: أخذ شطر مال مانع الزكاة.

ومنها: عزمه ﷺ على تحريق دور من لا يصلي في الجماعة، لولا ما منعه من إنفاذه ما عزم عليه من كون الذرية والنساء فيها، فتتعدى العقوبة إلى غير الجاني، وذلك لا يجوز كما لا يجوز عقوبة الحامل.

ومنها: عقوبة من أساء على الأمير في الغزو بحرمان سلب القتيل لمن قتله، حيث شفع فيه هذا المسيء وأمر الأمير بإعطائه، فحرم المشفوع له عقوبة للشافع الآمر.

وهذا الجنس من العقوبات نوعان: نوع مضبوط ونوع غير مضبوط.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤١٢ رقم ٨١١٢) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٨١٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٢٧ رقم ٥١٧٢) وابن ماجه (رقم ٢٥٧٢) والترمذي (رقم ١٤٤٤) والدارمي (رقم ٢١٠٥) وصححه الحاكم. وانظر: المحلى (١١/ ٣٦٧) وفتح الباري (١٢/ ٧٣-٧٩).

فالمضبوط: ما قابل المتلف: إما لحق الله سبحانه كإتلاف الصيد في الإحرام، أو لحق الآدمي كإتلاف ماله. وقد نبه الله سبحانه على أن تضمين الصيد متضمن للعقوبة بقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: ٩٥].

ومنه: مقابلة الجاني بنقيض قصده من الحرمان: كعقوبة القاتل لمورثه بحرمان ميراثه، وعقوبة المدبر إذا قتل سيده ببطلان تدبيره، وعقوبة الموصى له ببطلان وصيته، ومن هذا الباب عقوبة الزوجة الناشزة بسقوط نفقتها وكسوتها.

وأما النوع الثاني غير المقدر، فهذا الذي يدخله اجتهاد الأئمة بحسب المصالح، ولذلك لم تأت فيه الشريعة بأمر عام، وقدر لا يزاد فيه ولا ينقص: كالحدود، ولهذا اختلف الفقهاء فيه هل حكمه منسوخ أو ثابت، والصواب أنه يختلف باختلاف المصالح، ويرجع فيه إلى اجتهاد الأئمة في كل زمان ومكان بحسب المصلحة، إذ لا دليل على النسخ، وقد فعله الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من الأئمة.

وأما التعزير ففي كل معصية لا حد فيها ولا كفارة، فإن المعاصي ثلاثة أنواع:

نوع فيه الحدود لا كفارة فيه، ونوع فيه الكفارة ولا حد فيه، ونوع لا حد فيه ولا كفارة.

فالأول: كالسرقة والشرب والزنا والقذف.

والثاني: كالوطء في نهار رمضان، والوطء في الإحرام.

والثالث: كوطء الأمة المشتركة بينه وبين غيره وقبلة الأجنبية والخلوة بها ودخول الحمام بغير مئزر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ونحو ذلك.

فأما النوع الأول فالحد فيه مغن عن التعزير.

وأما النوع الثاني فهل يجب مع الكفارة فيه تعزير أم لا؟ على قولين، وهما في مذهب أحمد.

وأما النوع الثالث ففيه التعزير قولًا واحدًا، لكن هل هو كالحد؛ فلا يجوز للإمام تركه، أو هو راجع إلى اجتهاد الإمام في إقامته وتركه، كما يرجع إلى اجتهاده في قدره؟

على قولين للعلماء، الثاني قول الشافعي، والأول قول الجمهور.

وما كان من المعاصي محرم الجنس كالظلم والفواحش فإن الشارع لم يشرع له كفارة، ولهذا لا كفارة في الزنا وشرب الخمر وقذف المحصنات والسرقة، وطرد هذا أنه لا كفارة في قتل العمد ولا في اليمين الغموس، كما يقوله أحمد وأبو حنيفة ومن وافقهما، وليس ذلك تخفيفا عن مرتكبهما بل لأن الكفارة لا تعمل في هذا الجنس من المعاصي، وإنما عملها فيما كان مباحًا في الأصل، وحُرِّم لعارض: كالوطء في الصيام والإحرام، وطرد هذا وهو الصحيح وجوب الكفارة في وطء الحائض، وهو موجب القياس لو لم تأت الشريعة به، فكيف وقد جاءت به مرفوعة وموقوفة.

وعكس هذا الوطء في الدبر ولا كفارة فيه، ولا يصح قياسه على الوطء في الحيض، لأن هذا الجنس لم يبح قط، ولا تعمل فيه الكفارة، ولو وجبت فيه الكفارة لوجبت في الزنا واللواط بطريق الأولى، فهذه قاعدة الشارع في الكفارات، وهي في غاية المطابقة للحكمة والمصلحة.

وكان من تمام حكمته ورحمته أنه لم يأخذ الجناة بغير حجة، كما لم يعذبهم في الآخرة إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وجعل الحجة التي يأخذهم بها:

إما منهم وهي الإقرار، أو ما يقوم مقامه من إقرار الحال، وهو أبلغ وأصدق من إقرار اللسان، فإن من قامت عليه شواهد الحال بالجناية كرائحة الخمر وقيئها، وحبل من لا زوج لها ولا سيد، ووجود المسروق في دار السارق وتحت ثيابه، أولى بالعقوبة ممن قامت عليه شهادة إخباره عن نفسه، التي تحتمل الصدق والكذب، وهذا متفق عليه بين الصحابة وإن نازع فيه بعض الفقهاء.

وإما أن تكون الحجة من خارج عنهم وهي البينة، واشترط فيها العدالة وعدم التهمة، فلا أحسن في العقول والفطر من ذلك، ولو طلب منها الاقتراح لم تقترح أحسن من ذلك، ولا أوفق منه للمصلحة.

فإن قيل: كيف تدعون أن هذه العقوبات لاصقة بالعقول وموافقة للمصالح، وأنتم

تعلمون أنه لا شيء بعد الكفر بالله أفظع ولا أقبح من سفك الدماء؟ فكيف تردعون عن سفك الدم بسفكه؟ وهل مثال ذلك إلا إزالة نجاسة بنجاسة؟ ثم لو كان ذلك مستحسنًا لكان أولى أن يحرق ثوب من حرق ثوب غيره، وأن يذبح حيوان من ذبح حيوان غيره، وأن تخرب دار من خرب دار غيره، وأن يجوز لمن شتم أن يشتم شاتمه، وما الفرق في صريح العقل بين هذا وبين قتل من قتل غيره، أو قطع من قطعه، وإذا كان إراقة الدم الأول مفسدة وقطع الطرف كذلك، فكيف زالت تلك المفسدة بإراقة الدم الثاني وقطع الطرف الثاني، وهل هذا إلا مضاعفة للمفسدة وتكثير لها؟ ولو كانت المفسدة الأولى تزول بهذه المفسدة الثانية لكان فيه ما فيه، إذ كيف تزال مفسدة بمفسدة نظيرها من كل وجه؟ فكيف والأولى لا سبيل إلى إزالتها؟ وتقرير ذلك بما ذكرناه من عدم إزالة مفسدة تحريق الثياب وذبح المواشي وخراب الدور وقطع الأشجار بمثلها، ثم كيف حسن أن يعاقب السارق بقطع يده التي اكتسب بها السرقة، ولم تحسن عقوبة الزاني بقطع فرجه، الذي اكتسب به الزنا ولا القاذف بقطع لسانه، الذي اكتسب به القذف، ولا المزور على الإمام والمسلمين بقطع أنامله التي اكتسب بها التزوير، ولا الناظر إلى ما لا يحل له بقلع عينه التي اكتسب بها الحرام، فعلم أن الأمر في هذه العقوبات جنسًا وقدرًا وسببًا ليس بقياس، إنما هو محض المشيئة، ولله التصرف في خلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

فالجواب وبالله التوفيق والتأييد من طريقين: مجمل ومفصل:

أما المجمل: فهو أن من شرع هذه العقوبات ورتبها على أسبابها جنسا وقدرًا، فهو عالم الغيب والشهادة وأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، ومن أحاط بكل شيء علمًا، وعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وأحاط علمه بوجوه المصالح دقيقها وجليلها وخفيها وظاهرها، ما يمكن اطلاع البشر عليه، وما لا يمكنهم، وليست هذه التخصيصات والتقديرات خارجة عن وجوه الحكم والغايات المحمودة.

كما أن التخصيصات والتقديرات الواقعة في خلقه كذلك، فهذا في خلقه وذاك في أمره، ومصدرهما جميعا عن كمال علمه وحكمته، ووضعه كل شئ في موضعه، الذي لا يليق به سواه، ولا يتقاضى إلا إياه، كما وضع قوة البصر والنور للباصر في العين، وقوة السمع في الأذن، وقوة الشم في الأنف، وقوة النطق في اللسان والشفتين، وقوة البطش في اليد، وقوة المشي في الرجل، وخص كل حيوان وغيره بما يليق به، ويحسن أن يعطاه من أعضائه وهيئاته وصفاته وقدره، فشمل إتقانه وإحكامه لكل ما شمله خلقه، كما قال تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]، وإذا كان سبحانه قد أتقن خلقه غاية الإتقان، وأحكمه غاية الإحكام، فلأن يكون أمره في غاية الإتقان والإحكام أولى وأحرى، ومن لم يعرف ذلك مفصلا لم يسعه أن ينكره مجملا، ولا يكون جهله بحكمة الله في خلقه وأمره وإتقانه كذلك وصدوره عن محض العلم والحكمة، مسوغا له إنكاره في نفس الأمر.

وسبحان الله ما أعظم ظلم الإنسان وجهله، فإنه لو اعترض على أي صاحب صناعة كانت، ممن تقصر عنها معرفته وإدراكه على ذلك، وسأله عما اختصت به صناعته من الأسباب والآلات والأفعال والمقادير، وكيف كان كل شيء من ذلك الوجه الذي هو عليه لا أكبر ولا أصغر ولا على شكل غير ذلك يسخر منه ويهزأ به وعجب من سخف عقله وقلة معرفته.

هذا ما تهيئه بمشاركته له في صناعته ووصوله فيها إلى ما وصل إليه والزيادة عليه والاستدراك عليه فيها.

هذا مع أن صاحب تلك الصناعة غير مدفوع عن العجز والقصور وعدم الإحاطة والجهل، بل ذلك عنده عتيد حاضر، ثم لا يسعه إلا التسليم له، والاعتراف بحكمته وإقراره بجهله وعجزه عما وصل إليه من ذلك، فهلا وسعه ذلك مع أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، ومن أتقن كل شيء فأحكمه وأوقعه على وفق الحكمة والمصلحة!

وقد كان هذا الوجه وحده كافيا في دفع كل شبهة وجواب كل سؤال، وهذا غير

الطريق التي سلكها نفاة الحكم والتعليل، ولكن مع هذا فنتصدى للجواب المفصل بحسب الاستعداد وما يناسب علومنا الناقصة وأفهامنا الجامدة وعقولنا الضعيفة وعباراتنا القاصرة...

...(١)أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح، فلو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها، لم تدل على المدح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلها، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال، ولهذا لما سمع بعض العرب قارئاً يقرأ: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غفور رحيم»، قال: ليس هذا كلام الله تعالى، فقال القارئ: أتكذب بكلام الله تعالى؟ فقال: لا، ولكن ليس هذا بكلام الله تعالى، فعاد إلى حفظه وقرأ: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، فقال الأعرابي: صدقت: عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب، أو بالعكس، ظهر تنافر الكلام وعدم انتظامه. وفي السنن من حديث أبي بن كعب حديث: قراءة القرآن على سبعة أحرف، ثم قال: «ليس منهن إلا شاف كاف، إن قلت: سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب»(٢).

ولو كانت هذه الأسماء أعلاماً محضة لا معنى لها، لم يكن فرق بين ختم الآية بهذا أو بهذا. وأيضاً فإنه سبحانه يعلل أحكامه وأفعاله بأسمائه، ولو لم يكن لها معنى؛ لما

(١) ٩٣ جلاء الأفهام.

(٢) أخرجه المقدسي في المختارة (٣/ ٣٧٨-٣٧٩ رقم ١١٧٣) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٨٤ رقم ٣٨٠٢) وفي الصغرى (رقم ١٠٥٢) وأبو داود (رقم ١٤٧٧) وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٨ رقم ٣٠١٢٢) وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢١٩-٢٢٠ رقم ٢٠٣٧١)، وأحمد (٥/ ٤١، ٥١، ١٢٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٤).

كان التعليل صحيحاً، كقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

[1]وأما قطع يد السارق في ثلاثة دراهم وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب، فمن تمام حكمة الشارع أيضا فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه، فإنه ينقب الدور ويهتك الحرز ويكسر القفل، ولا يمكن صاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك، فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضًا، وعظم الضرر، واشتدت المحنة بالسراق، بخلاف المنتهب والمختلس، فإن المنتهب هو الذي يأخذ المال جهرة بمرأى من الناس، فيمكنهم أن يأخذوا على يديه، ويخلصوا حق المظلوم، أو يشهدوا له عند الحاكم.

وأما المختلس فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره، فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه، وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس، فليس كالسارق بل هو بالخائن أشبه.

وأيضًا فالمختلس إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالبًا، فإنه الذي يغافلك ويختلس متاعك في حال تخليك عنه وغفلتك عن حفظه، وهذا يمكن الاحتراز منه غالبا فهو كالمنتهب.

وأما الغاصب فالأمر فيه ظاهر وهو أولى بعدم القطع من المنتهب، ولكن يسوغ كف عدوان هؤلاء بالضرب والنكال والسجن الطويل والعقوبة بأخذ المال كما سيأتي.

فإن قيل: فقد وردت السنة بقطع جاحد العارية، وغايته أنه خائن المعير سلطه على قبض ماله، والاحتراز منه ممكن بأن لا يدفع إليه المال، فبطل ما ذكرتم من الفرق.

قيل: لعمر الله لقد صح الحديث بأن امرأة كانت تستعير المتاع وتجحده، فأمر بها النبي ﷺ فقطعت يدها، فاختلف الفقهاء في سبب القطع: هل كان سرقتها وعرفها

---

(١) ٦١ أعلام جـ٢.

الراوي بصفتها، لأن المذكور سبب القطع، كما يقوله الشافعي وأبو حنيفة ومالك، أو كان السبب المذكور هو سبب القطع كما يقوله أحمد ومن وافقه، ونحن في هذا المقام لا ننتصر لمذهب معين البتة، فإن كان الصحيح قول الجمهور اندفع السؤال، وإن كان الصحيح هو القول الآخر فموافقته للقياس والحكمة والمصلحة ظاهرة جدًّا، فإن العارية من مصالح بني آدم التي لا بد لهم منها ولا غنى لهم عنها، وهي واجبة عند حاجة المستعير وضرورته إليها إما بأجرة أو مجانًا، ولا يمكن المعير كل وقت أن يشهد على العارية، ولا يمكن الاحتراز بمنع العارية شرعًا وعادةً وعرفًا، ولا فرق في المعنى بين من توصل إلى أخذ متاع غيره بالسرقة وبين من توصل إليه بالعارية وجحدها، وهذا بخلاف جاحد الوديعة، فإن صاحب المتاع فرط حيث ائتمنه.

وأما قطع اليد في ربع دينار وجعل ديتها خمسمائة دينار فمن أعظم المصالح والحكمة، فإنه احتاط في الموضعين للأموال والأطراف، فقطعها في ربع دينار حفظًا للأموال وجعل ديتها خمسمائة دينار حفظًا لها وصيانة، وقد أورد بعض الزنادقة هذا السؤال، وضمنه بيتين، فقال:

يد بخمس مئين عسجدٍ وُدِيَتْ ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا الا السكوت له ونستجير بمولانا من العار[1]

فأجابه بعض الفقهاء: بأنها كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت، وضمنه الناظم قوله:

يد بخمس مئين من عسجد وُدِيَتْ لكنها قطعت في ربع دينار

(١) هذان البيتان من بحر البسيط، وينسبان إلى أبي العلاء المعري: أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، شاعر وفيلسوف، عمي في الرابعة من عمره، كان يحرم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة وكان يلبس خشن الثياب، وأما شعره فهو ديوان حكمته، مات سنة ٤٤٩هـ. وذكر البيتين الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٧) وذكر البيت الأول الحافظ ابن حجر فتح الباري (١٢/ ٨٣) وانظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣١) ولسان الميزان (١/ ٢٠٥).

حمايــة الــدم أغلاهــا، وأرخــصها ... خيانــة الــمال فــانظر حكمــة البــاري[(١)]

.وروي أن الشافعي رحمه الله أجاب بقوله:

هنـــاك مظلومـــة غالـــت بقيمتهـــا ... وههنـا ظَلَمَتْ هانـت علـىٰ البـاري[(٢)]

وأجاب شمس الدين الكردي بقوله:

قـــل لمعـــري عـــار أيـــما عـــار ... جهـل الفتـىٰ وهـو عـن ثـوب التقـىٰ عـار

لا تقـــدحن زنـــاد الـــشعر عـــن حكـــم ... شـــعائر الـــشرع لم تقـــدح بأشـــعار

فقيمــة اليــد نــصف الألــف مــن ذهــب ... فــإن تعــدت فــلا تــسوىٰ بــدينار[(٣)]

وأما تخصيص القطع بهذا القدر، فلأنه لا بد من مقدار يجعل ضابطا لوجوب القطع، إذ لا يمكن أن يقال: يقطع بسرقة فلس أو حبة حنطة أو تمرة، ولا تأتي الشريعة بهذا، وتنزه حكمة الله ورحمته وإحسانه عن ذلك، فلابد من ضابط، وكانت الثلاثة دراهم أول مراتب الجمع، وهي مقدار ربع دينار.

وقال إبراهيم النخعي وغيره من التابعين: كانوا لا يقطعون في الشيء التافه، فإن عادة الناس التسامح في الشيء الحقير من أموالهم، إذ لا يلحقهم ضرر بفقده، وفي التقدير بثلاثة دراهم حكمة ظاهرة، فإنها كفاية المقتصد في يومه له ولمن يمونه غالباً، وقوت اليوم للرجل وأهله له خطر عند غالب الناس، وفي الأثر المعروف: «من أصبح آمنًا في سر به، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[(٤)].

---

(١) ذكر هذا الرد الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٩٨) ونسبه إلى القاضي عبد الوهاب المالكي والمناوي في فيض القدير (١/ ٢٣١) وانظر: التعريفات (ص ١٥٦-١٥٧).

وورد البيت في الفتح هكذا:

صيانة العضو أغلاها وأرخصها ... صيانة المال فافهم حكمة الباري

(٢) لم أجده.

(٣) لم أقف عليها.

(٤) أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٤٥-٤٤٦ رقم ٦٧١) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٥٠٣) وابن ماجه (رقم ٤١٤١) والترمذي (رقم ٢٣٤٦) وابن أبي عاصم في الآحاد المثاني (٤/ ١٤٦ رقم ٢١٢٦) =

وأما إيجاب حد الفرية على من قذف غيره بالزنا دون الكفر، ففي غاية المناسبة فإن القاذف غيره بالزنا لا سبيل للناس إلى العلم بكذبه، فجعل حد الفرية تكذيبًا له، وتبرئة لعرض المقذوف، وتعظيمًا لشأن هذه الفاحشة، التي يجلد من رمى بها مسلمًا.

وأما من رمى غيره بالكفر فإن شاهد حال المسلم واطلاع المسلمين عليها كاف في تكذيبه، ولا يلحقه من العار بكذبه عليه في ذلك ما يلحقه بكذبه عليه في الرمي بالفاحشة، ولاسيما إن كان المقذوف امرأة، فإن العار والمعرة التي تلحقها بقذفه بين أهلها، وتشعب ظنون الناس، وكونهم بين مصدق ومكذب، لا يلحق مثله بالرمي بالكفر.

وأما اكتفاؤه في القتل بشاهدين دون الزنا ففي غاية الحكمة والمصلحة، فإن الشارع احتاط للقصاص والدماء، واحتاط لحد الزنا، فلو لم يقبل في القتل إلا أربعة لضاعت الدماء وتواثب العادون وتجرءوا على القتل.

وأما الزنا فإنه بالغ في ستره كما قدر الله ستره، فاجتمع على ستره شرع الله وقدره، فلم يقبل فيه إلا أربعة يصفون الفعل وصف مشاهدة، ينتفي معها الاحتمال، وكذلك في الإقرار لم يكتف بأقل من بأربع مرات، حرصًا على ستر ما قدر الله ستره وكره إظهاره والتكلم به، وتوعد من يحب إشاعته في المؤمنين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وأما جلد قاذف الحر دون العبد فتفريق لشرعه بين ما فرق الله بينهما بقدره، فما جعل الله سبحانه العبد كالحر من كل وجه: لا قدرًا ولا شرعًا.

وقد ضرب الله سبحانه لعباده الأمثال التي أخبر فيها بالتفاوت بين الحر والعبد، وأنهم لا يرضون أن تساويهم عبيدهم في أرزاقهم، فالله ﷻ فضل بعض خلقه على بعض، وفضل الأحرار على العبيد في الملك وأسبابه والقدرة على التصرف، وجعل العبد مملوكاً والحر مالكاً، ولا يستوي المالك والمملوك، وأما التسوية بينهما في

= والحميدي في مسنده (١/ ٢٠٨ رقم ٤٣٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٣٠ رقم ١٨٢٨) وفي مسند الشاميين (١/ ٣٦ رقم ٢٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٢٠ رقم ٥٤٠) وحسنة الترمذي.

أحكام الثواب والعقاب فذلك موجب العدل والإحسان، فإنه يوم الجزاء لا يبقى هناك عبد وحر ولا مالك ولا مملوك.

(١)اعترض نفاة المعاني والحكم على مثبتيها في الشريعة، بأن قالوا: الشرع قد فرق بين المتماثلات:

فأوجب الحد بشرب الخمر، ولم يحد بشرب الدم والبول وأكل العذرة، وهي أخبث من الخمر. وأوجب قطع اليد في سرقة ربع دينار، ومنع قطعها في نهبة ألف دينار. وأوجب الحد في رمي الرجل بالفاحشة، ولم يوجبه في رميه بالكفر، وهو أعظم منه. ولم يرتب على الربا حدا مع كونه من الكبائر. ورتب الحد على شرب الخمر والزنا وهما من الكبائر.

فأجاب المثبتون بأن قالوا: هذا مما يدل على اعتبار المعاني الحكم، ونصب الشرع بحسب مصالح العباد؛ فإن الشارع ينظر إلى المحرم ومفسدته، ثم ينظر إلى وازعه وداعيه، فإذا عظمت مفسدته رتب عليها من العقوبة بحسب تلك المفسدة، ثم إن كان في الطباع التي ركبها الله تعالى في بني آدم وازعًا عنه اكتفى بذلك الوازع عن الحد، فلم يرتب على شرب البول والدم والقيء وأكل العذرة حدًّا لما في طباع الناس من الامتناع عن هذه الأشياء، فلا تكثر مواقعتها، بحيث يدعو إلى الزجر بالحد.

بخلاف شرب الخمر والزنا والسرقة، فإن الباعث عليها قوي فلولا ترتيب الحدود عليها لعمت مفاسدها وعظمت المصيبة بارتكابها.

وأما النهبة فلم يرتب عليها حدًّا: إما لأن بواعث الطباع لا تدعو إليها غالبًا، خوف الفضيحة والاشتهار وسرعة الأخذ، وإما لأن مفسدتها تندفع بإغاثة الناس، ومنعهم المنتهب وأخذهم على يده.

وأما الربا فلم يرتب عليها حدًّا، فقيل لأنه يقع في الأسواق وفي الملأ، فوكلت

(١) ١٤٠ بدائع جـ٣.

إزالته إلى إنكار الناس، بخلاف السرقة والفواحش وشرب الخمر، فإنها إنما تقع غالبا سرًّا، فلو وكلت إزالته إلى الناس لم تزل.

وأحسن من هذا أن يقال: لما كان المرابي إنما يقضى له برأس ماله فقط، فإن أخذ الزيادة قضى عليه بردها إلى غريمه، وإن لم يأخذها لم يقض له بها كانت مفسدة الربا منتفيه، بذلك فإن غريمه لو سأله لم يعطه إلا رأس ماله، فحيث رضي بإعطائه الزيادة فقد رضي باستهلاكها وبذلها مجانا والأخذ لها رضى بأكل النار.

وأجود من هذين أن يقال: ذنب الربا أكبر من أن يطهره الحد، فإن المرابي محارب لله ورسوله، آكل للجمر، والحد إنما شرع طهرة وكفارة، والمرابي لا يزول عنه إثم الربا بالحد، لأن حرمته أعظم من ذلك، فهو كحرمة مفطر رمضان عمدا من غير عذر، ومانع الزكاة بخلًا، وتارك صلاة العصر، وتارك الجمعة عمدًا، فإن الحدود كفارات وطهر، فلا تعمل إلا في ذنب يقبل التكفير والطهر.

ومن هذا عدم إيجاب الحد بأكل أموال اليتامى، لأن آكلها قد وجبت له النار، فلا يؤثر الحد في إسقاط ما وجب له من النار.

وكذلك ترك الصلاة هو أعظم من أن يرتب عليه حد.

ونظير هذا اليمين الغموس هي أعظم إثما من أن يكون فيها حد أو كفارة.

وإذا تأملت أسرار هذه الشريعة الكاملة وجدتها في غاية الحكمة ورعاية المصالح، لا تفرق بين متماثلين البتة، ولا تسوي بين مختلفين، ولا تحرم شيئا لمفسدة وتبيح ما مفسدته مساوية لما حرمته أو رجحته عليه، ولا تبيح شيئًا لمصلحة وتحرم ما مصلحته تساويه لما إباحته البتة، ولا يوجد فيما جاء به الرسول شيء من ذلك البتة، ولا يلزمه الأقوال المستندة إلى آراء الناس وظنونهم واجتهاداتهم، ففي تلك من التفريق بين المتماثلات والجمع بين المختلفات وإباحة الشيء وتحريم نظره، وأمثال ذلك ما فيها.

***

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

(١) قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١] عقيب قوله: ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: ٤١]. مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرفه، كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها، يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب بحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد، لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته. فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله.

كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوّضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني. قال عثمان بن عفان ﷺ: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله»(٢).

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم

(١) ٥٥ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٧٢) وأحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٩ رقم ٧٧٥).

يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة. فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصح أن تفسر الإرادة هاهنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرًا ومحبة، ولم يرده منهم كونا، فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم. وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر(١).

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه، فلابد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه. ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره. فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]. أي ادخلوها بسبب طيبكم. والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل: ٣٢].

فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث. فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهَذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة.

---

(١) هو كتاب «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» اعتنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣هـ. وهو كتاب جليل يحل إشكالات كثيرة فحريٌّ بكل مسلم أن يعلم ما فيه، ويقف على درره وفوائده.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر. وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر. فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب. ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: «أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ»[1]. فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء. فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

[2]وأما عدم مشيئته سبحانه وإرادته فكما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

وعدم مشيئته للشيء مستلزم لعدم وجوده، كما أن مشيئته تستلزم وجوده، فما شاء الله وجب وجوده، وما لم يشأ امتنع وجوده.

وقد أخبر سبحانه أن العباد لا يشاؤون إلا بعد مشيئته، ولا يفعلون شيئا إلا بعد مشيئته، فقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠] وقال: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [المدثر: ٥٦].

فإن قيل: فهل يكون الفعل مقدورًا للعبد في حال عدم مشيئة الله له أن يفعله؟ قيل: إن أريد بكونه مقدورًا سلامة آلة العبد، التي يتمكن بها من الفعل، وصحة أعضائه،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٥٥) والبيهقي في الكبرى (١/ ٧٨ رقم ٣٧٤، ٣٧٥) وفي الصغرى (رقم ١١٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٤٠ رقم ٤٨٩٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢١) والديباج على مسلم (٢/ ٢٣) وتحفة الأحوذي (١/ ١٤٩-١٥٠). والحديث أخرجه مسلم وليس فيه: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» (رقم ٢٣٤) وزاد فيه: «إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء».

(٢) ١٠٤ شفاء.

ووجوده قواه، وتمكينه من أسباب الفعل، وتهيئة طريق فعله، وفتح الطريق له. فنعم هو مقدور بهذا الاعتبار.

وإن أريد بكونه مقدورًا القدرة المقارنة للفعل، وهي الموجبة له، التي إذا وجدت لم يتخلف عنها الفعل. فليس بمقدور بهذا الاعتبار.

وتقرير ذلك أن القدرة نوعان:

قدرة مصححة، وهي قدرة الأسباب والشروط وسلامة الآلة، وهي مناط التكليف وهذه متقدمة على الفعل. غير موجبة له.

وقدرة مقارنة للفعل مستلزمة له، لا يتخلف الفعل عنها، وهذه ليست شرطا في التكليف، فلا يتوقف صحته وحسنه عليها، فإيمان من لم يشأ الله إيمانه، وطاعة من لم يشأ طاعته، مقدور بالاعتبار الأول، غير مقدور بالاعتبار الثاني.

وبهذا التحقيق تزول الشبهة في تكليف ما لا يطاق، كما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

فإذا قيل: هل خلق لمن علم أنه لا يؤمن قدرة على الإيمان أم لم يخلق له قدرة؟

قيل: خلق له قدرة مصححة متقدمة على الفعل، هي مناط الأمر والنهي، ولم يخلق له قدرة موجبة للفعل، مستلزمة له، لا يتخلف عنها، فهذه فضله يؤتيه من يشاء، وتلك عدله التي تقوم بها حجته على عبده.

فإن قيل: فهل يمكنه الفعل ولم يخلق له هذه القدرة؟

قيل: هذا هو السؤال السابق بعينه، وقد عرفت جوابه، وبالله التوفيق.

***

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

[(١)] ثبت في الصحيحين والمسانيد: أن اليهودَ جاؤوا إلىٰ رسولِ الله ﷺ، فذكروا له: أن رجلاً مِنهم وامرأةً زنيا، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِى التَّوْرَاةِ فِى شَأْنِ الرَّجْمِ»؟ قالوا: نفضحُهم ويُجْلَدُون، فقال عبدُ الله بن سلام: كذبتُم إن فيها الرَّجمَ، فأُمروا بالتوراة، فنشرُوها، فوضَعَ أحدُهم يدَه علىٰ آيةِ الرجم، فقرأ ما قبلَها وما بعدَها، فقال له عبدُ الله بنُ سلام: ارفَعْ يدَك، فرفع يدَه، فإذا فيها آيةُ الرجم، فقالوا: صَدَقَ يا محمد، إن فيها الرجم، فأَمَرَ بهما رسولُ الله ﷺ فَرُجِمَا[(٢)].

فتضمنت هذه الحكومةُ: أن الإسلام ليس بشرط في الإحصان، وأن الذِّمي يُحصِّن الذمية، وإلىٰ هذا ذهب أحمدُ والشافعيُّ.

ومن لم يَقُلْ بذلك اختلفوا في وجه هذا الحديث، فقال مالك في غير الموطأ: لم يكن اليهودُ بأهل ذمة. والذي في صحيح البخاري: «أنهم أهلُ ذمة»، ولا شكَّ أن هذا كان بعدَ العهد الذي وقع بين النبيِّ ﷺ وبينهم، ولم يكونوا إذ ذاك حرباً، كيف وقد تحاكمُوا إليه، ورضُوا بحكمه؟ وفي بعضِ طُرق الحديث: «أنهم قالوا: اذهبوا بنا إلىٰ هذا النبيِّ، فإنه بعث بالتخفيف»، وفي بعض طرقه: «أنهم دعوه إلىٰ بيت مِدْرَاسِهِم، فأتاهم وحكم بينهم»[(٣)]، فهم كانوا أهلَ عهد وصُلح بلا شك.

وقالت طائفة أخرىٰ: إنما رجمهم بحُكم التوراة. قالوا: وسياقُ القصة صريحٌ في ذلك، وهذا مما لا يُجدي عليهم شيئاً البتة، فإنه حكم بينهم بالحقِّ المحضِ، فيجبُ اتباعُه بكلِّ حال، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟.

وقالت طائفة: رجمهما سياسةً، وهذا مِن أقبح الأقوال، بل رجمهما بحُكم الله الذي لا حُكم سِواه.

(١) ٤٣٩ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٣٥) ومسلم (رقم ١٦٩٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٤٤٥٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٦٧) والتمهيد (١٤/ ٣٩٩) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٩) وشرح الزرقاني (٤/ ١٦٥).

وتضمنت هذه الحكومةُ أن أهل الذِّمة إذا تحاكَموا إلينا لا نحكُم بينهم إلا بحُكم الإسلام.

وتضمنت قبولَ شهادة أهلِ الذمة بعضهم على بعض لأن الزانيينِ لم يُقِرَّا، ولم يشهد عليهما المسلمون، فإنهم لم يحضُروا زِناهما، كيف وفي السنن في هذه القصة، فدعا رسولُ الله ﷺ بالشُّهودِ، فجاؤوا أربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مِثل المِيل في المُكحلة.

وفي بعض طرق هذا الحديث: «فجاء أربعةٌ منهم»، وفي بعضها: فقال لليهود: «ائْتُونِي بِأَرْبَعَةٍ مِنْكُم».

وتضمنت الاكتفاءَ بالرجم، وأن لا يجمع بينَه وبين الجلد، قال ابنُ عباس: «الرجمُ في كتاب الله لا يغوصُ عليه إلا غوَّاصٌ»، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [المائدة: ١٥] واستنبطه غيرهُ مِن قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال الزهري في حديثه: «فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾ [المائدة: ٤٤] كان النبيُّ ﷺ منهم».

...[(١)]قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاوس[(٢)]. وقال عطاء: «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق»[(٣)].

(١) ٣٣٦ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٢٥٦) والحاكم (٢/ ٣٤٢ رقم ٣٢١٩) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٠ رقم ١٥٦٣٢) وانظر: الاستذكار (٢/ ١٥٣) والتمهيد (٤/ ٢٣٧). (١٧/ ١٦).

(٣) أخرجه الصنعاني في تفسيره (١/ ١٩١) والطبري في تفسيره (٦/ ٢٥٦).

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدًا له، وهو قول عكرمة، وهو تأويل مرجوح، فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام، وهذا تأويل عبدالعزيز الكناني، وهو أيضًا بعيد، إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاه البغوي عن العلماء عمومًا.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب، وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما، وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ، فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفرا ينقل عن الملة[1].

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين: الأصغر والأكبر، بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصيانًا مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله تعالى، فهذا كفر أكبر وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطئ له حكم المخطئين.

والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر؛ فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة، فالسعي: إما شكر وإما كفر، وإما ثالث لا من هذا ولا من هذا، والله أعلم.

وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله

---

(١) يأتي في سورة الأحزاب - إن شاء الله - نقلًا عن الأعلام ص (٢٦١) جـ٢، ما له صلة بهذا. (ج).

تعالىٰ أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات علىٰ صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة، قال الله تعالىٰ عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال لرسوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضًا فصحيح، إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله، ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكباراً، وهو الغالب علىٰ كفر أعداء الرسل. كما حكىٰ الله تعالىٰ عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقول الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾﴾ [الشمس: ١١].

وهو كفر اليهود كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وهو كفر أبي طالب أيضًا، فإنه صدقه ولم يشك في صدقه، ولكن أخذته الحمية وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول: لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلىٰ ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ: «والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقًا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك».

وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، فلا يسمعها، ولا يلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها ونظره فيها: فإنه لا يبقىٰ معه شك،

لأنها مستلزمة للصدق، ولاسيما بمجموعها، فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به عمدًا، أو تقديماً لقول من خالفه عليه، لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلا أو تأويلا يعذر فيه صاحبه: فلا يكفر صاحبه به كحديث الذي جحد قدرة الله عليه، وأمر أهله أن يحرقوه، ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له ورحمه، لجهله إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عناداً أو تكذيبًا.

[(١)]في الحكم بين الفريقين وفصل الخطاب بين الطائفتين: معرفة الصواب في هذه المسألة مبني على معرفة حقيقة الإيمان والكفر، ثم يصح النفي والإثبات بعد ذلك. فالكفر والإيمان متقابلان إذا زال أحدهما خلفه الآخر.

ولما كان الإيمان أصلا له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيماناً، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة: كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه شعبة من شعب الإيمان.

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة.

---

(١) ٢٤ الصلاة.

ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذىٰ عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتا عظيمًا، منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذىٰ ويكون إليها أقرب.

وكذلك الكفر ذو أصل وشعب.

فكما أن شعب الإيمان إيمان، فشعب الكفر كفر.

والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر.

والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر.

والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر.

والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر.

والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية.

وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية.

ومن شعب الإيمان القولية شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان.

فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان.

وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية. فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارًا، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل.

وههنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل.

والقول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه. وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعركة بين المرجئة و أهل السنة.

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهومحبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرًّا وجهرًا، ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به. وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح.

ولاسيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، كما تقدم تقريره.

فإنه يلزمه من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق، كما تقدم بيانه، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد.

وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى، فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقًا فليس هو التصديق المستلزم للإيمان، فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته.

وها هنا أصل آخر، وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل وكفر جحود وعناد.

فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحودًا وعنادًا من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه.

وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده. فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة، فهو من الكفر العملي قطعًا، ولا يمكن أن ينفي عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر، بنص رسول الله ﷺ، ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد،

ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرًا، ويسمى رسول الله ﷺ تارك الصلاة كافرًا، ولا يطلق عليهما اسم الكفر.

وقد نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر وعمن لا يأمن جاره بوائقه.

وإذا نفي عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد، وكذلك قوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١). فهذا كفر عمل. وكذلك قوله: «**من أتى كاهنا فصدقه أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد**»(٢). وقوله: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما**»(٣).

قال سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس عن ابن عباس(٤) في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ليس هو بالكفر الذي يذهبون إليه.

وقال عبدالرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ قال: هو بهم كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته كتبه ورسله.

وقال في رواية أخرى عنه: كفر لا ينقل عن الملة. وقال طاوس: ليس بكفر ينقل عن الملة. وقال وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢١) ومسلم (رقم ٦٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٤).

(٢) أخرجه ابن الجارود في المنتقى (رقم ١٠٧) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٩٨ رقم ١٣٩٠٢) وإسحاق ابن راهويه (١/ ٤٢٣ رقم ٤٨٢) والطيالسي (رقم ٣٨٢) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٧ رقم ٤٦٠٩) رواه البزار بإسناد جيد قوي.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٤) ومسلم (رقم ٦٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٦) وشرح النووي (٢/ ٤٩).

(٤) هذا الموضوع مذكور في سورة البقرة لشدة صلته بقول الله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ الآية [البقرة: ٨٥] (ج).

ظلم، وفسق دون فسق.

وهذا الذي قاله عطاء بين في القرآن لمن فهمه. فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزله كافرًا، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافرًا. وليس الكافران على حد سواء.

وسمى الكافر ظالما كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وسمى متعدي حدوده في النكاح والطلاق، والرجعة والخلع ظالمًا، فقال: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]. وقال نبيه يونس: ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وقال صفيه آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقال كليمه موسى: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص: ١٦].

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم، ويسمى الكافر فاسقًا، كما في قوله: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البقرة: ٩٩] وهذا كثير في القرآن.

وسمى المؤمن فاسقًا كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]. نزلت في الحكم بن أبي العاص، وليس الفاسق كالفاسق. وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤]. وقال عن ابليس: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وليس الفسوق كالفسوق.

والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان:

جهل كفر، كما في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ

﴿...﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وجهل غير كفر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

كذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر.

وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر: وهو شرك العمل: كالرياء. وقال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وفي شرك الرياء: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»(١). رواه أبو داود وغيره، ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**»(٢).

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة وإلى ما لا ينقل عنها.

وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن، وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار، ونفاق العمل كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا**

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٢٥١) وابن حبان (١٠/ ١٩٩-٢٠٠ رقم ٤٣٥٨) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٩ رقم ١٩٦١٥) والترمذي (رقم ١٥٣٥) وحسنه، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣) وأبو يعلى (١/ ٦٠ رقم ٥٨) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧١٦) وهناد في الزهد (٢/ ٤٣٤ رقم ٨٤٩). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٣-٢٢٤): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان.

ائتمن خان»[1].

وفي الصحيح أيضًا: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان»[2].

فهذا نفاق عمل قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها، فهذا لا يكون إلا منافقًا خالصًا.

وكلام الإمام أحمد يدل على هذا، فإن إسماعيل بن سعيد الشالنجي، قال: سألت أحمد بن حنبل عن المصرّ على الكبائر يطلبها بجهده، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم، وهل يكون مصرًّا من كانت هذه حاله؟ قال: هو مصر، مثل قوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام، ونحو قوله: «لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»[3]. ونحو قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. قال إسماعيل: فقلت له: ما هذا الكفر؟ قال: كفر لا ينقل عن الملة مثل الإيمان بعضه دون بعض، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه.

وهاهنا أصل آخر، وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، هذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣) ومسلم (رقم ٥٩) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٩) وشرح النووي (٢/ ٤٦-٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤) ومسلم (رقم ٥٨) وانظر: فتح الباري (١/ ٩٠) وشرح ا لنووي (٢/ ٤٦-٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧٥) ومسلم (رقم ٥٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ١١١) (١٠/ ٣٤).

من أهل البدع: كالخوارج والمعتزلة والقدرية. ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦]. فأثبت لهم إيمانا به سبحانه مع الشرك.

وقال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤]. فأثبت لهم إسلاما وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم، وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ١٥]، وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوا مؤمنين وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار.

قال الإمام أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن - يريد: الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب - فهو مسلم، ولا أسمية مؤمنا، ومن أتى دون ذلك - يريد دون الكبائر - سميته مؤمنا ناقص الإيمان. فقد دل على هذا قوله ﷺ: «**فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق**». فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام. وكذلك الرياء شرك، فإذا راءى الرجل في شيء من عمله اجتمع فيه الشرك والإسلام.

وإذا حكم بغير ما أنزل الله أو فعل ما سماه رسول الله ﷺ كفرًا، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه، فقد قام به كفر وإسلام، وقد بينا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان، فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمنا وقد لا يسمى، كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافرًا، وقد لا يطلق عليه هذا الاسم، فهاهنا أمران: أمر اسمي لفظي، وأمر معنوي حكمي، فالمعنوي: هل هذه الخصلة كفر أم لا؟، واللفظي

هل يسمى من قامت به كافرا أم لا؟ فالأمر الأول شرعي محض، والثاني لغوي وشرعي.

وهاهنا أصل آخر، وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنًا، وإن كان ما قام به إيمانًا: ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافرًا، وإن كان ما قام به كفرًا، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهًا ولا طبيبًا، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيمانًا، وشعبة النفاق نفاقًا، وشعبة الكفر كفرًا. وقد يطلق عليه الفعل كقوله: «**فمن تركها فقد كفر**»(١). «**ومن حلف بغير الله فقد كفر**»(٢)، رواه الحاكم في صحيحه بهذا اللفظ.

فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرمًا: إنه فعل فسوقًا، وإنه فسق بذلك المحرم، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه. وهكذا الزاني والسارق والشارب والمنتهب لا يسمى مؤمنًا وإن كان معه إيمان، كما أنه لا يسمى كافرًا وإن كان ما أتى به من خصال الكفر وشعبه، إذ المعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان، والمقصود أن سلب الإيمان من تارك الصلاة أولى من سلبه عن مرتكب الكبائر.

***

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٨ رقم ١١) وابن حبان (٤/ ٣٠٥ رقم ١٤٥٤) والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٥ رقم ٣٢٩) وابن ماجه (رقم ١٠٧٩) والترمذي (رقم ٢٦٢١) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولا تُعرف له علة بوجه من الوجوه.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٦٥ رقم ٤٥) (١/ ١١٧ رقم ١٦٩) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٩ رقم ١٩٦١٤) والترمذي (رقم ١٥٣٥) وأبو عوانة (رقم ٥٩٦٧) وأحمد (٢/ ١٢٥) وزادوا ما عدا الحاكم: «كفر أو أشرك» وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين..، وليس له علة. وحسنه الترمذي. وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٣١).

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

...[(١)]قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم، فقال: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل، يكون أقربها إلى الحق، ما كان أدل على الله وأوصل إليه، لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلى رب واحد، وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا، فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه، إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة، فإذا كان أكثر الناس قد أبي ذلك إلا كفورا وذهابا في الطرق الباطلة وعبادة غيره، وإن دانوا غير دينه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنين للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

فتأمل هذا السر البديع في السورتين[(٢)]، وفي قوله: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨] سر آخر أيضا وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، ويبين لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، فنفس الاختلاف دليل على يوم الفصل والبعث.

---

(١) ١٦١ بدائع جـ٤.

(٢) يعني سورة البقرة وسورة المائدة. (ج).

وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ۝﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩] فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثة الأموات بعدما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبا وإن كان على باطل، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه، فيخزيه ذلك أعظم خزي.

[1]والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع، والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع أن الحكم المنزل هو الذي أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذي لا حكم له سواه.

وأما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها، فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله، بل قالوا اجتهدنا برأينا، فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة.

بل قال أبو حنيفة: هذا رأي فمن جاءني بخير منه قبلناه، ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه.

وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما في الموطأ فمنعه من ذلك، وقال قد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في البلاد، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين.

وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه.

---

(١) ٣٢٥ الروح.

وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها، ويقول: لا تقلدني ولا تقلد فلانا ولا فلانًا، وخذ من حيث أخذوا ولو علموا ﷺ أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتي بخلافه فيروي عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك، فالرأي والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه.

وأما الحكم المبدل وهو الحكم بغير ما أنزل الله فلا يحل تنفيذه ولا العمل به، ولا يسوغ اتباعه وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم.

***

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

(١)وجه الاستدلال: أن كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما أنزل الله، وهو ذكر من الله أنزله على رسوله، وقد تكفل سبحانه بحفظه، فلو جاز على حكمه: الكذب، والغلط، والسهو من الرواة، ولم يقم دليل على غلطه، وسهو ناقله؛ لسقط حكم ضمان الله وكفالته لحفظه، وهذا من أعظم الباطل...

***

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

(٢)قال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبي، ثنا وكيع: ثنا إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن عياض الأشعري، عن أبي موسى ﷺ قال: قلت لعمر ﷺ: إن لي كاتبًا نصرانيًّا قال: ما

---

(١) ٤٠٠ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) ٢١٠ أحكام جـ١.

لك؟ قاتلك الله! أما سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. ألا اتخذت حنيفًا، قال: قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه، قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله[١].

وكتب إليه بعض عماله يستشيره في استعمال الكفار، فقال: إن المال قد كثر وليس يحصيه إلا هم، فاكتب إلينا بما ترىٰ. فكتب إليه لا تدخلوهم في دينكم ولا تسلموهم ما منعهم الله منه ولا تأمنوهم علىٰ أموالكم وتعلموا الكتابة فإنما هي الرجال.

وكتب إلىٰ عماله: أما بعد فإنه من كان قبله كاتب من المشركين فلا يعاشره ولا يوازره ولا يجالسه ولا يعتضد برأيه. فإن رسول الله ﷺ لم يأمر باستعمالهم ولا خليفته من بعده.

وورد عليه كتاب معاوية بن أبي سفيان: أما بعد يا أمير المؤمنين فإن في عملي كاتبًا نصرانيًا لا يتم أمر الخراج إلا به، فكرهت أن أقلده دون أمرك. فكتب إليه: عافانا الله وإياك، قرأت كتابك في أمر النصراني، أما بعد فإن النصراني قد مات والسلام[٢].

وكان لعمر ﷺ عبد نصراني فقال له: أسلم حتىٰ نستعين بك علىٰ بعض أمور المسلمين، فإنه لا ينبغي لنا أن نستعين علىٰ أمرهم بمن ليس منهم، فأبىٰ فأعتقه وقال: اذهب حيث شئت[٣]!

وكتب إلىٰ أبي هريرة ﷺ: أما بعد: فإن للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك، أقم الحدود ولو ساعة من النهار، وإذا حضرك أمران: أحدهما لله،

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١٢٧ رقم ٢٠١٩٦) وفي الشعب (٧/ ٤٣ رقم ٩٣٨٤) وحسنه الحافظ ابن حجر كما نقل ذلك عنه المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه البيهقي بلفظ قريب في الكبرىٰ (١٠/ ١٢٧ رقم ٢٠١٩٦) وفي الشعب (٧/ ٤٣ رقم ٩٣٨٤) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٣) أخرجه أبو جعفر المصيصي (رقم ٣٧) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٤) وابن سعد في الطبقات (٦/ ١٥٨) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ٨٧).

والآخر للدنيا، فآثر نصيبك من الله، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى، عد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وافتح بابك وباشرهم، وأبعد أهل الشر، وأنكر أفعالهم، ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك، وساعد على مصالح المسلمين بنفسك، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله تعالى جعلك حاملا لأثقالهم.

ودرج على ذلك الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة: كعمر بن عبدالعزيز، والمنصور والرشيد والمهدي والمأمون والمتوكل والمقتدر، ونحن نذكر بعض ما جرى.

فأما عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى فإنه كتب إلى جميع عماله في الآفاق: أما بعد: فإن عمر بن عبدالعزيز يقرأ عليكم من كتاب الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] جعلهم الله «حزب الشيطان» وجعلهم ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، واعلموا أنه لم يهلك من هلك من قبلكم إلا بمنعه الحق، وبسطه يد الظلم، وقد بلغني عن قوم من المسلمين فيما مضى أنهم إذا قدموا بلدا أتاهم أهل الشرك فاستعانوا بهم في أعمالهم وكتابتهم لعلمهم بالكتابة والجباية والتدبير ولا خيرة ولا تدبير فيما يغضب الله ورسوله وقد كان لهم في ذلك مدة وقد قضاها الله تعالى فلا أعلمن أن أحدًا من العمال أبقى في عمله رجلا متصرفا على غير دين الإسلام إلا نكلت به فإن محو أعمالهم كمحو دينهم، وأنزلوهم منزلتهم التي خصهم الله بها من الذل والصغار وآمر بمنع اليهود والنصارى من الركوب على السروج إلا على الأكف، وليكتب كل منكم بما فعله من عمله[1].

وكتب إلى حيان عامله على مصر باعتماد ذلك، فكتب إليه: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنه إن دام هذا الأمر في مصر أسلمت الذمة وبطل ما يؤخذ منهم، فأرسل

(١) أخرجه مختصرًا القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٣٩).

إليه رسولا وقال: له اضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطًا أدبًا على قوله، وقل له: من دخل في دين الإسلام فضع عنه الجزية، فوددت لو أسلموا كلهم، فإن الله بعث محمدًا ﷺ داعيًا لا جابيًا(١).

وأمر أن تهدم بيع النصارى المستجدة فيقال: إنهم توصلوا إلى بعض ملوك الروم، وسألوه في مكاتبة عمر بن عبدالعزيز فكتب إليه: أما بعد يا عمر، فإن هؤلاء الشعب سألوا في مكاتبتك لتجري أمورهم على ما وجدتها عليه، وتبقي كنائسهم وتمكنهم من عمارة ما خرب منها، فإنهم زعموا أن من تقدمك فعل في أمر كنائسهم ما منعتهم منه، فإن كانوا مصيبين في اجتهادهم فاسلك سنتهم، وإن يكونوا مخالفين لها فافعل ما أردت. فكتب إليه عمر: أما بعد، فإن مثلي ومثل من تقدمني كما قال الله تعالى في قصة داود وسليمان: ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

وكتب إلى بعض عماله: أما بعد، فإنه بلغني أن في عملك كاتبا نصرانيا يتصرف في مصالح الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧]. فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان بن زيد، يعني ذلك الكاتب إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به، ولا تتخذ أحدا على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين، فأسلم حسان وحسن إسلامه.

وأما أبو جعفر المنصور فإنه لما حج اجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيب بن شيبة، وسألوه مخاطبة المنصور أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ويمنعهم من انتهاك حرماتهم وتحريهم لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية. قال شبيب: فطفت معه فشبك أصابعه على أصابعي، فقلت يا

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٤) وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٦-١٤٧).

أمير المؤمنين أتأذن لي أن أكلمك بما في نفسي فقال: أنت وذاك فقلت إن الله لما قسم أقسامه بين خلقه لم يرض لك إلا بأعلاها وأسناها ولم يجعل فوقك في الدنيا أحدًا فلا ترض لنفسك أن يكون فوقك في الآخرة أحد يا أمير المؤمنين اتق الله، فإنها وصية الله إليكم جاءت وعنكم قبلت، وإليكم تؤدىٰ، وما دعاني إلىٰ قولي إلا محض النصيحة لك والإشفاق عليك وعلىٰ نعم الله عندك، اخفض جناحك إذا علا كعبك، وابسط معروفك إذا أغنىٰ الله يديك يا أمير المؤمنين، إن دون أبوابك نيرانا تأجج من الظلم والجور، لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد ﷺ، يا أمير المؤمنين سلطت الذمة علىٰ المسلمين، ظلموهم وعسفوهم، وأخذوا ضياعهم، وغصبوهم أموالهم، وجاروا عليهم، واتخذوك سلما لشهواتهم، وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا يوم القيامة. فقال المنصور: خذ خاتمي فابعث به إلىٰ من تعرفه من المسلمين، وقال: يا ربيع اكتب إلىٰ الأعمال واصرف من بها من الذمة، ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه. فقال شبيب: يا أمير المؤمنين إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبوهم أغروك بهم، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة فكلما وليت رجلا عزلت آخر.

وأما المهدي فإن أهل الذمة في زمانه قويت شوكتهم، فاجتمع المسلمون إلىٰ بعض الصالحين، وسألوه أن يعرفه بذلك وينصحه، وكان له عادة في حضور مجلسه فاستدعي للحضور عند المهدي فامتنع، فجاء المهدي إلىٰ منزله، وسأله السبب في تأخره، فقص عليه القصة، وذكر اجتماع الناس إلىٰ بابه متظلمين من ظلم الذمة، ثم أنشده:

بأبي وأمي ضاعت الأحلام … أم ضاعت الأذهان والأفهام؟
من صد عن دين النبي محمد … أله بأمر المسلمين قيام؟
إلا تكن أسيافهم مشهورة … فينا فتلك سيوفهم أقلام[1]

---

(١) لم أقف عليها.

ثم قال: يا أمير المؤمنين إنك تحملت أمانة هذه الأمة، وقد عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ثم سلمت الأمانة التي خصك الله بها إلى أهل الذمة دون المسلمين، يا أمير المؤمنين أما سمعت تفسير جدك لقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩]. أن الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة؟ فما ظنك بأموال المسلمين وأماناتهم وأسرارهم، وقد نصحتك، وهذه النصيحة حجة عليَّ ما لم تصل إليك، فولى عمارة بن حمزة أعمال الأهواز وكور دجلة وكور فارس، وقلد حمادًا أعمال السواد، وأمره أن ينزل إلى الأنبار وإلى جميع الأعمال، ولا يترك أحدًا من الذمة يكتب لأحد من العمال، وإن علم أن أحدًا من المسلمين استكتب أحدًا من النصارى قطعت يده، فقطعت يد شاهونة وجماعة من الكتاب.

وكان للمهدي على بعض ضياعه كاتب نصراني بالبصرة، فظلم الناس في معاملته فتظلم المتظلمون إلى سوار بن عبد الله القاضي، فأحضر وكلاء النصراني واستدعي بالبينة، فشهدت على النصراني بظلم الناس وتعدي مناهج الحق، ومضى النصراني فأخذ كتاب المهدي إلى القاضي سوار بالتثبت في أمره، فجاء البصرة ومعه الكتاب وجماعة من حمقى النصارى، وجاؤوا إلى المسجد فوجدوا سوارًا جالسًا للحكم بين المسلمين، فدخل المسجد وتجاوز الموضع الذي كان يجب الوقوف عنده، فمنعه الخدم فلم يعبأ بهم وسبهم، ودنا حتى جلس عن يمين سوار، ودفع له الكتاب فوضعه بين يديه ولم يقرأه، وقال: ألست نصرانيًا، فقال: بلى، أصلح الله القاضي. فرفع رأسه وقال: جروا برجله، فسحب إلى باب المسجد، وأدبه تأدیباً بالغًا، وحلف ألا يبرح واقفًا إلى أن يوفي المسلمين حقوقهم، فقال له كاتبه: قد فعلت اليوم أمرًا يخاف أن يكون له عاقبة، فقال: أعز أمر الله يعزك الله.

وأما هارون الرشيد فإنه لما قلد الفضل بن يحيى أعمال خراسان، وجعفرا أخاه

ديوان الخراج، أمرهما بالنظر في مصالح المسلمين، فعمرت المساجد والجوامع والصهاريج والسقايات، وجعل في المكاتب مكاتب لليتامى، وصرف الذمة عن أعمالهم، واستعمل المسلمين عوضًا منهم، وغيَّر زيهم ولباسهم، وخرَّب الكنائس، وأفتاه بذلك علماء الإسلام.

وأما المأمون فقال عمرو بن عبد الله الشيباني: استحضرني المأمون في بعض لياليه ونحن بمصر، فقال لي: قد كثرت سعايات النصارى، وتظلم المسلمون منهم، وخانوا السلطان في ماله، ثم قال: يا عمرو تعرف من أين أصل هؤلاء القبط؟ فقلت: هم بقية الفراعنة، الذين كانوا بمصر، وقد نهى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عن استخدامهم، فقال: صف لي كيف كان تناسلهم في مصر. فقلت: يا أمير المؤمنين لما أخذت الفرس الملك من أيدي الفراعنة قتلوا القبط، فلم يبق منهم إلا من اصطنعته يد الهرب، واختفى «بأنصنا»[1]، وغيرها، فتعلموا طبًّا وكتابًا، فلما ملكت الروم ملك الفرس كانوا سببا في إخراج الفرس عن ملكهم، وأقاموا في مملكة الروم إلى أن ظهرت دعوة المسيح، وفيهم يقول خالد ابن صفوان من قصيدة له يمدح بها عمرو بن العاص ﷺ، ويحثه على قتلهم ويغريه بهم:

يا عمرو قد ملكت يمينك مصرنا ... وبسطت فيها العدل والإقساطا
فاقتل بسيفك من تعدى طوره ... واجعل فتوح سيوفك الأقباطا
فبهم أقيم الجور في جنباتها ... ورأى الأنام البغي والإفراطا
عبدوا الصليب وثلثوا معبودهم ... وتوازروا وتعدوا الأشراطا[2]

وبقي في نفس المأمون منهم، فلما عاد إلى بغداد اتفق لهم مجاهرة في بغداد بالبغي والفساد على معلمه علي بن حمزة الكسائي فلما قرأ عليه المأمون، ووصل إلى قوله

(١) أنصنا: مدينة على شرقي النيل من نواحي الصعيد، انظر: معجم البلدان (١/ ٣٥٣).
(٢) لم أقف عليها.

تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [المائدة: ٥١].

قال الكسائي: يا أمير المؤمنين أتقرأ كتاب الله ولا تعمل به؟! فأمر المأمون بإحضار الذمة، فكان عدة من صرف وسجن ألفين وثمان مئة، وبقي جماعة من اليهود منحازين إلىٰ حماية بعض جهاته، فخرج توقيعه بما نسخته «أخبث الأمم اليهود، وأخبث اليهود السامرة، أخبث السامرة بنو فلان، فليقطع ما بأسمائهم من ديوان الجيش والخراج ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ».

ودخل بعض الشعراء علىٰ المأمون، وفي مجلسه يهودي جالس، فأنشده:

يا ابن الذي طاعته في الورىٰ … وحكمه مفترض واجب
إن الذي عظمت من أجله … يزعم هذا أنه كاذب[(١)]

فقال له المأمون: أصحيح ما يقول؟ قال: نعم. فأمر بقتله.

وأما المتوكل فإنه صرف أهل الذمة من الأعمال، وغيَّر زيهم في مراكبهم وملابسهم، وذلك أن المباشرين منهم للأعمال كثروا في زمانه، وزادوا علىٰ الحد، وغلبوا علىٰ المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه، وذلك في سنة خمس وثلاثين ومئتين، فكانت الأعمال الكبار كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي، وكانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشري المسلمين شيئاً وأنهم بين مفرط وخائن، وعملوا عملا بأسماء المسلمين وأسماء بعض الذمة، لينفوا التهمة، وأوجب باسم كل واحد منهم مالًا كثيرًا، وعرض علىٰ المتوكل، فأغري بهم وظن ما أوجبوا من ذلك حقًّا، وأن المال في جهاتهم كما أوجبوه.

ودخل سلمة بن سعيد النصراني علىٰ المتوكل، وكان يأنس به ويحاضره، فقال: يا

---

(١) لم أقف عليهما.

أمير المؤمنين أنت في الصحاري والصيد، وخلفك معادن الذهب والفضة، ومن يشرب في آنية الذهب والفضة، ويملؤها ذهبًا عوضًا عن الفاكهة. فقال له المتوكل: عند من؟ فقال: عند الحسين بن مخلد، وأحمد بن إسرائيل، وموسى بن عبد الملك وميمون بن هارون ومحمد بن موسى (وكل واحد من هؤلاء اسمه ثابت في العمل المقدم ذكره المرفوع للمتوكل فقال: له المتوكل): ما تقول في عبيدالله بن يحيى؟ فسكت فقال: بحياتي عليك قل لي ما عندك؟ فقال: قد حلفتني بحياتك ولابد لي من صدقك على كل حال والله يا أمير المؤمنين لقد صاغ له صوالجة وأكرمن ثلاثين ألف دينار، فقلت له: أمير المؤمنين يضرب كرة من جلود بصولجان من خشب، وأنت تضرب كرة من فضة بصولجان من فضة؟! فالتفت المتوكل إلى الفتح بن خاقان وقال: ابعث فأحضر هؤلاء، وضيِّق عليهم. فحضرت جماعة الكتاب، وعلموا ما وقعوا فيه من الكافر، فاجتمعوا إلى عبيدالله بن يحيى فأنفذ معهم كاتبه إلى سلمة، وعاتبه فيما جرى منه. فحلف إنني لم أفعل ما فعلته إلا على سكر، ولم أقل ما قلته عن حقيقة، فأخذ خطه بذلك فدخل عبيدالله بن يحيى على المتوكل، وعرَّفه مأثمة أهل الذمة على المسلمين وغيرهم، وأوقفه على خط سلمة، وقال: هذا قصده أن يخلو أركان دولة أمير المؤمنين من الكتاب المسلمين، ويتمكن هو ورهطه منها. وكان المتوكل قد جعل في موكبه من يأخذ المتظلمين ويحضرهم بين يديه على خلوة، فأحضر بين يديه شيخ كبير، فذكر أنه من أهل دمشق، وأن سعيد بن عون النصراني غصبه داره، فلما وقف المتوكل على قصة الشيخ، اشتد غضبه إلى أن كادت تطير أزراره، وأمره أن يكتب إلى صالح عامله برد داره. قال الفتح بن خاقان: فقمت ناحية لأكتب له بما أمرني، فأتبعني رسولا يستحثني، فبادرت إليه، فلما وقف على الكتاب زاد فيه بخطة نفيت عن العباس لئن خالفت فيما أمرت به لأوجهن من يجيئني برأسك ووصل الشيخ بألف دينار، وبعث معه حاجبًا، وكثر تظلم الناس من كتاب أهل الذمة، وتتابعت الإغاثات، وحج المتوكل تلك السنة، فرئي رجل يطوف بالبيت

ويدعو على المتوكل، فأخذه الحرس، وجاؤوا به سريعًا، فأمر بمعاقبته، فقال له: والله يا أمير المؤمنين ما قلت ما قلته إلا وقد أيقنت بالقتل، فاسمع كلامي، ومر بقتلي. فقال: قل فقال: سأطلق لساني بما يرضي الله ورسوله، ويغضبك يا أمير المؤمنين، قد اكتنفت دولتك كتاب من الذمة، أحسنوا الاختيار لأنفسهم، وأساؤوا الاختيار للمسلمين، وابتاعوا دنياهم بآخرة أمير المؤمنين، خفتهم ولم تخف الله، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة من أصلح دنيا غيره بفساد آخرته، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة، وأول ليلة يخلو المرء في قبره بعمله. فبكى المتوكل إلى أن غشي عليه، وطلب الرجل فلم يوجد، فخرج أمره بلبس النصارى واليهود الثياب العسلية، وألا يمكنوا من لبس الثياب، لئلا يتشبهوا بالمسلمين، ولتكن ركبهم خشباً وأن تهدم بيعهم المستجدة، وأن تطبق عليهم الجزية، ولا يفسح لهم في دخول حمامات المسلمين، وأن يفرد لهم حمامات خدمها ذمة، ولا يستخدموا مسلما في حوائجهم لنفوسهم، وأفرد لهم من يحتسب عليهم، وكتب كتابًا نسخته: أما بعد، فإن الله اصطفى الإسلام دينا فشرفه وكرمه، وأناره ونصره، وأظهره وفضله وأكمله، فهو الدين [الذي] لا يقبل غيره، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]. بعث به صفيه وخيرته من خلقه محمدًا ﷺ فجعله خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد المرسلين ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٧٠]. وأنزل كتابًا عزيزًا ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]. أسعد به أمته وجعلهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وأهان الشرك وأهله، ووضعهم وصغرهم، وقمعهم

وخذلهم، وتبرأ منهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وقال: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] وطبع على قلوبهم وخبث سرائرهم وضمائرهم، فنهى عن ائتمانهم والثقة بهم لعداوتهم للمسلمين وغشهم وبغضائهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨]. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤] وقال: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناسًا لا رأي لهم ولا روية يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية فيعسفونهم، ويبسطون أيديهم إلى ظلمهم وغشمهم، والعدوان عليهم، فأعظم أمير المؤمنين ذلك وأنكره وأكبره، وتبرأ إلى الله منه، وأحب التقرب إلى الله تعالى بحسمه والنهي عنه....[1].

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

(١) استمر المؤلف رحمه الله في سياق أعمال الولاة حول هذا الموضوع. (ج).

(١)قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المائدة: ٥٤] فقد ذكر لهم أربع علامات:

إحداها: أنهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ قيل: معناه أرقاء رحماء مشفقين عليهم، عاطفين عليهم، فلما «ضمن» أذلة هذا المعنى عداه بأداة على قال عطاء للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة(٢): الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه اللوم(٣)

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧] فذكر المقامات الثلاثة: الحب، وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء والخوف، يدل: على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

(٤)قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) ٢٢ مدارج جـ٣.

(٢) لعله قصد من الأولى اثنتين لأنها: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

(٣) لم أجده.

(٤) ٣٢٧ مدارج جـ٢.

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة «على» تضمينًا لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد، الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول، كما في الحديث: «**المؤمن كالجمل الذلول، والمنافق والفاسق ذليل**»[1]، وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب والنمام والبخيل والجبار.

وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة، قال عطاء ﷺ: للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

[2]الطائفة الملامتية، الذين يظهرون ما لا يمدحون عليه، ويُسرون ما يحمدهم الله عليه؛ عكس المرائين المنافقين.

وهؤلاء طائفة معروفة، لهم طريقة معروفة، تسمى: «طريق أهل الملامة» وهم «الطائفة الملامتية»، يزعمون أنهم يحتملون ملام الناس لهم على ما يظهرونه من الأعمال، ليخلص لهم ما يبطنونه من الأحوال، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فهم عاملون على إسقاط جاههم ومنزلتهم في قلوب الناس لما رأوا المغترين ـ المغتر بهم ـ من المتنسبين إلى السلوك يعملون على

(١) يروى بلفظ: «**المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد**» أخرجه الحاكم (١/ ١٧٥ رقم ٣٣١) وأبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (١/ ٣٥-٣٦ رقم ٢) وابن ماجه رقم ٤٦٣) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٧ رقم ٦١٩) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٢ رقم ٢٠١٧) وقال أبو نعيم: وهذا حديث جيد من صحيح حديث الشاميين. وقال ابن رجب الجنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٩): وهذا في الظاهر إسناد جيد متصل ورواته ثقات مشهورون.

(٢) ١٧٧ مدارج جـ٣.

تزكية نفوسهم، وتوفير جاههم في قلوب الناس، فعاكسهم هؤلاء، وأظهروا بطالة، وأبطنوا أعمالًا، وكتموا أحوالهم جهدهم ينشدون في هذه الحال:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التراب تراب(١)

(٢)لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخليُّ حرقة الشجيِّ، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله، وأخلاقه فطولبوا بعدالة البينة. وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم جنة، وعقد التبايع؛ يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشترى وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد؛ عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس

(١) هذه الأبيات من بحر الطويل، وتنسب إلى الحلاج: الحسين بن منصور الفيلسوف المشهور كان يظهر مذهب الشيعة للملوك العباسيين ومذهب الصوفية للعامة، عرف بالزندقة والإلحاد، أمر المقتدر العباسي بالقبض عليه وسجنه وعذب وقطعت أطرافه ثم قتل وعلقت رأسه على جسر بغداد سنة ٣٠٩هـ. والبيتان الأولان ينسبان أيضًا إلى أبي فراس الحمداني الشاعر الأمير ابن عم سيف الدولة، له وقائع كثيرة، قاتل فيها بين يدي سيف الدولة، وكان يحبه ويجله ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه. مات سنة ٣٥٧هـ. وينسب البيت الأول إلى ابن نباته المصري: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي شاعر عصره، توفي سنة ٧٦٨هـ.
وذكر الأبيات الثلاثة أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر (١/ ١٢٥).

(٢) ١٥٣ زاد المعاد جـ٢.

لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين، والغبن الفاحش: أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها؛ فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فقعدوا مع المشتري بيعة الرضوان، رضاءً واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك»، فلما تم العقد، وسلموا المبيع قيل لهم: قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم؛ بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المبيع والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

(١)...إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب؛ أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعي المحب صاعدًا إلى حبيبه، لا يحجبه دونه شيء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

(٢)ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها، ولا تصلح إلاّ له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوهما، فإن العبادة لا تصلح إلاّ له وحده وكذا الإنابة.

وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦].

(١) ٩ مدارج جـ٣.
(٢) ٢٦٩ الجواب الكافي.

وأعظم أنواع المحبة المذمومة: المحبة مع الله التي سوىٰ فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذي اتخذه من دون الله.

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده.

[(1)] وهكذا المحبة وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها، فقال: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، و﴿ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصبابة والعشق والغرام ونحوها، فإن مسمىٰ المحبة أشرف وأكمل من هذه المسميات، فجاء في حقه إطلاقه دونها.

وهذه المسميات لا تنفك عن لوازم ومعان تنزه تعالىٰ عن الاتصاف بها.

وهكذا جميع ما أطلقه علىٰ نفسه من صفاته العلىٰ أكمل معنىٰ ولفظاً مما لم يطلقه.

فالعليم الخبير؛ أكمل من الفقيه والعارف، والكريم الجواد أكمل من السخي، والخالق الباريء المصور أكمل من الصانع الفاعل، ولهذا لم تجئ هذه في أسمائه الحسنىٰ، والرحيم والرؤوف أكمل من الشفيق.

فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه علىٰ نفسه من الأسماءِ والصفات والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه علىٰ نفسه ما لم يكن مطابقاً لمعنىٰ أسمائه وصفاته، وحينئذ فيطلق المعنىٰ لمطابقته له دون اللفظ ولاسيما إذا كان مجملاً أو منقسماً إلىٰ ما يمدح به، وغيره فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع،فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنىٰ إلا إطلاقاً مقيداً أطلقه علىٰ نفسه كقوله تعالىٰ: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]، فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنىٰ إلىٰ ما يمدح عليه ويذم.

ولهذا المعنىٰ - والله أعلم - لم يجئ في الأسماء الحسنىٰ (المريد)، كما جاءَ فيها

(١) ٣٢٩ طريق الهجرتين.

السميع البصير، ولا (المتكلم) ولا (الآمر الناهي) لانقسام مسمى هذه الأسماء بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً فأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتق له اسم (الماكر)، و(الخادع)، و(الفاتن)، و(المضل)، و(الكاتب)، ونحوها من قوله: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١]، وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنه سبحانه أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أن مسمى هذه الأسماءِ منقسم إلى ما يمدح عليه المسمى به، وإلى ما يذم، فيحسن في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى بها سبحانه، فلا يجوز أن يسمى بها فإن أسماء الرب سبحانه كلها حسنى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهي التي يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سُمي بهذه الأسماء، وقيل له: هذه مدحتك وثناءٌ عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها، لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة، ولله المثل الأعلى ﷻ عما يقول الجاهلون به علواً كبيراً.

السادس: أن هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه اللاعن والجائي والآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر وأضعاف

أضعاف ذلك، فيشتق له اسماً من كل فعل أخبر به عن نفسه، وإلا تناقض تناقضاً بيناً، ولا أحد من العقلاءِ طرد ذلك، فعلم بطلان قوله، والحمد لله رب العالمين.

***

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

(1) المحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة، نافعة أو ضارة من الوجد والذوق والحلاوة والشوق والأنس والاتصال بالمحبوب والقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكاء والحزن وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة؛ هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته وهذه المحبة هي عنوان السعادة وضدها هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته وهي عنوان الشقاوة.

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه.

فإن النفس قد تهوىٰ ما يضرها ولا ينفعها، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه. إما أن تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بأن تهوىٰ الشيء وتحبه. غير عالمة بما في محبته من المضرة وهذا حال من اتبع هواه بغير علم. وإما عالمة بما في محبته من الضرر لكن يؤثر هواها علىٰ علمه.

وقد تتركب محبتها من أمرين: من اعتقاد فاسد وهوىٰ مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوىٰ الأنفس، فلا تقع المحبة الفاسدة إلاّ من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أو ما تركب من ذلك، فأعان بعضه بعضا فتتفق شبهة يشتبه بها الحق بالباطل

(١) ٢٧٦ الجواب الكافي.

يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعو إلى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة علي جيش العقل والإيمان، والغلبة لأقواهما.

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه.

فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها. فإن بكي نفعه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انبسط نفعه، وإن انقبض نفعه، فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة.

والمحبة المضرة المذمومة وتوابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه، كيف ما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد. وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة أو معصية فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقربة، وكل ما تولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر الله سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها.

والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه، فكتب لهم به عمل صالح. والثاني: نفس أفعالهم فكتب لهم.

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل، ليعلم ما له وما عليه.

سيعلم يوم العرض أي بضاعة أضاع وعند الوزن ما كان حصلا[(١)]

[(٢)]شأن أعداء الله دائمًا، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها.

وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله.

وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم وتقديم من قدمه رسول الله ﷺ منهم وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه.

وكل هؤلاء لهم نصيب وفيهم شبه من أصحاب الأخدود وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد.

***

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ

(١) لم أجده.

(٢) ٥٨ التبيان.

﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

[(1)]قال تعالىٰ: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المائدة: ٨٠].

وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله فى صلواتنا: أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارىٰ ضالون**»[(2)].

فأول تلاعب الشيطان بهذه الأمة فى حياة نبيها، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوزوا البحر رأوا قوما يعكفون علىٰ أصنام لهم، فقالوا: ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فأىٰ جهل فوق هذا؟ والعهد قريب، وإهلاك المشركين أمامهم، بمرأىٰ من عيونهم. فطلبوا من موسىٰ عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا. فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا، وكيف يكون الإله مجعولا؟ فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه. والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن يكون إلهًا. وما أكثر الخلف لهؤلاء فى اتخاذ إله مجعول، فكل من اتخذ إلها غير الله فقد اتخذ إلهًا مجعولًا.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان فى بعض غزواته، فمروا بشجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم، يسمونها ذات أنواط. فقال بعضهم: يا رسول

---

(١) ٢٩٩ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٥٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٨ رقم ٢٣٦) والطيالسي (رقم ١٠٤٠) وحسن الحافظ ابن حجر كما نقل ذلك عنه المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣١) وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٤٧١).

الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾»، ثم قال: «لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»(١).

***

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

(٢)إن الله تعالى أنكر على اليهود نسبة يده إلى النقص والعيب، ولم ينكر عليهم إثبات اليد له تعالى، فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] فلعنهم على وصف يده بالعيب؛ دون إثبات يده، وقدر إثباتها له زيادة على ما قالوا بأنهما: يدان مبسوطتان وبهذا يعلم تلبيس الجهمية المعطلة على أشباه الأنعام؛ حيث قالوا: إن الله لعن اليهود على إثبات اليد له سبحانه، وأنهم مشبهة، وهم أئمة المشبهة، فتأمل هذا الكذب من هذا القائل، والتلبيس، وأن الآية صريحة بخلاف قوله.

إن يد القدرة لا يعرف في الاستعمال أن يقال فيها: يد فلان كذا، هكذا فضلًا أن يقال: فعل هذا بيمينه، فضلًا عن أن يقال: فعله بيديه، فضلًا عن أن يقال: فعله بيمينه؛

(١) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٩٤ رقم ٦٧٠٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٦ رقم ١١١٨٥) والترمذي (رقم ٢١٨٠) والحميدي (٢/ ٣٧٥ رقم ٨٤٨) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٣ رقم ٣٢٩٠) وأبو يعلى (٣/ ٣٠ رقم ١٤٤١) وأحمد (٥/ ٢١٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٧ رقم ٧٦) والمروزي في السنة (رقم ٣٧، ٣٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ١٥٨ مختصر الصواعق جـ٢.

وإنما المستعمل في يد القدرة والنعمة أن تكون مجردة عن الإضافة، وعن التثنية، وعن نسبة الفعل إليها، فيقال: لفلان عندي يد، ولو لا يد له عندي، ولا يكادون يقولون: يده أو يداه عندي، وله عندي يده ويداه يوضحه.

إن اليد حيث أريد بها النعمة أو القدرة؛ فلابد أن يقترن باللفظ ما يدل على ذلك ليحصل المراد، فأما أن تطلق ويراد بها ذلك؛ فهذا لا يجوز، كما إذا أطلق البحر والأسد، وادعى بذلك أنه أريد به: الرجل الجواد والشجاع، فهذا لا يجيزه عاقل، ولا يتكلم به، إلا من قصده التلبيس والتعمية، وحيث أراد تلك المعاني؛ فإنه يأتي من القرائن بما يدل على مراده، فأين معكم في قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: «يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى»[(١)]، وقوله: «فأقوم عن يمين ربي»[(٢)]، وقوله: «فيوقف بين يدي الرحمن»[(٣)] ما يدل على إرادة المجاز.

إن يد القدرة والنعمة، لا يعرف استعمالها البتة إلا في حق من له يد حقيقة، فهذه موارد استعمالها من أولها إلى آخرها؛ مطردة في ذلك فلا يعرف العربي خلاف ذلك...

...[(٤)]فإن قال القائل: فما أنكرتم أن تكون يده ووجهه جارحة؛ إذ كنتم لا تعقلون يدًا ووجهًا هما صفة غير الجارحة.

قلنا: لا يجب ذلك؛ كما لا يجب إذا لم نعقل حيًّا عالمًا قادرًا إلا جسمًا؛ أن نقضي

(١) أخرجه البخاري بلفظ قريب (رقم ٤٨١٢) ومسلم (رقم ٢٧٨٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٥١) (١٣/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه الحاكم بلفظ: «فأقوم عن يمين الله ﷻ» (٢/ ٣٩٦ رقم ٣٣٨٥) والدارمي (رقم ٢٨٠٠).

(٣) فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمة للخصومة يوم القيامة» أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٤٤).

(٤) ١٧١ مختصر الصواعق جـ٢.

نحن وأنتم ذلك على الله.

وكما لا يجب إذا كان قائمًا بذاته؛ أن يكون جوهرًا؛ لأنَّا وإيَّاكم لم نجد قائمًا بنفسه في شاهدنا إلا كذلك.

الجواب لهم إن قالوا: فيجب أن يكون علمه وكلامه وحياته وسائر صفات ذاته؛ أعراضًا وأجسامًا؛ أجناسًا أو حوادث، أو أغيارًا، له تعالى ومحتاجة إلى قلب، ولو تتبعنا النقول عن أهل السنة لزادت على المئين.

ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين؛ في أكثر من مائة موضع ورودًا متنوعًا، متصرفًا فيه، مقرونًا بما يدل على أنها يد حقيقة من: الإمساك، والطي، والقبض، البسط، والمصافحة، والحثيات، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما «وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده[(١)]، وتخمير طينة آدم بيده[(٢)]، ووقوف العبد بيه يديه، وكون المقسطين عن يمينه[(٣)]، وقيام رسول الله ﷺ، يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: اخترت يمين ربي[(٤)]، وأخذ الصدقة بيمينه؛ يربيها لصاحبها[(٥)]، وكتابته بيده على نفسه: أن رحمته تغلب غضبه[(٦)]، وأنه مسح ظهر آدم بيده[(٧)]، ثم قال له ويداه مفتوحتان: اختر، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يديه يمين

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٦٦-٦٧ رقم ١٤٥) والدارقطني في الصفات (رقم ٢٨) وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٥٥٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٤٥٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٢٢٥) وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٥٤٦) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٤) وابن المستفاض في القدر (رقم ١٠) وانظر: التمهيد (١٨/ ١٧٥) وفيض القدير (٢/ ٢٣٣) (٦/ ٤٤) ومشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ١٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٧) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٢١١) وعمدة القاري (٥/ ١٨٠).

(٤) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٤٠-٤١ رقم ٦١٦٧) والحاكم (١/ ١٣٢ رقم ٢١٣) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٤٧ رقم ٢٠٣٠٧) والترمذي (رقم ٣٣٦٨) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٠) ومسلم (رقم ١٠١٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤١٧).

(٦) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٨٧) وشرح النووي (١٧/ ٦٨).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١١١-١١٢).

مباركة[١]، وأن يمينه ملأىٰ لا يغيضها نفقة؛ سحَّاء الليل والنهار[٢]، وبيده الأخرىٰ القسط يرفع ويخفض[٣]، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض[٤]، وأنه يطوي السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي الأرض باليد الأخرىٰ[٥]، وأنه خط الألواح التي كتبها لموسىٰ بيده[٦].

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن الملائكة قالت: يا ربِّ قد أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها، ويشربون ويلبسون، فاجعل لنا الآخرة كما جعلت لهم الدنيا فقال: **«لا أفعل»** فأعادوا ذلك؛ فقال: **«لا أفعل»** فأعادوا ذلك عليه فقال: **«وعزتي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان»**[٧] ورواه عبد الله بن أحمد، في كتاب السنة عن النبي ﷺ مرسلًا.

وقوله: الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلىٰ، فهل يصح في عقل أو لغة أو عرف؛ أن يقال: قدرة الله أو نعمته العليا، ويد المعطي التي تليها؟ فهل يحتمل هذا التركيب غير يد الذات بوجه ما؟ وهل يصح أن يراد به

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٤-٣٩٦) وشرح النووي (١٢/ ٢١١-٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٨٤) ومسلم (رقم ٩٩٣) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٥٣) (١٣/ ٣٩٥، ٤٦٩) وشرح النووي (٧/ ٨٠) (١٦/ ١٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١٩) ومسلم (رقم ٩٩٣) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١١٣) والديباج على مسلم (٣/ ٧٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢١٤) وأبو داود (رقم ٤٦٩٣) والترمذي (رقم ٢٩٥٥) وابن ماجه (١٤/ ٢٩ رقم ٦١٦٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٣ رقم ١٧٤٨٦) وأحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠٦) والبزار (٨/ ٤٢-٤٣ رقم ٣٠٢٦) وعبد بن حميد (رقم ٥٤٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٣٦٤): وصححه ابن حبان.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٢، ٦٥١٩) ومسلم (رقم ٢٧٨٧).

(٦) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٢).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٨٢) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٣١٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٢).

غير ذلك؟ وكذلك قوله: «**اليد العليا خير من اليد السفلي**»(١) واليد العليا؛ هي المنفقة، واليد السفلىٰ؛ هي السائلة.

فضم هذا إلىٰ قوله: الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي؛ هي التي تليها، وإلىٰ قوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] تقطع بالضرورة أن المراد: يد الذات، لا يد القدرة والنعمة، فإن التركيب والقصد والسياق لا يحتمله البتة.

وتأمل قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] فلما كانوا يبايعون رسول الله ﷺ بأيديهم، ويضرب بيده علىٰ أيديهم، وكان رسول الله ﷺ، هو السفير بينه وبينهم، كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالىٰ، ولما كان سبحانه فوق سماواته علىٰ عرشه، وفوق الخلائق كلهم؛ كانت يده فوق أيديهم، كما أنه سبحانه فوقهم، فهل يصح هذا لمن ليس له يد حقيقة؟ فكيف يستقيم أن يكون المعنىٰ: قدرة الله ونعمته فوق قدرهم ونعمهم؟ أم تقتضي المقابلة أن يكون المعنىٰ؛ هو الذي يسبق إلىٰ الأفهام من هذا الكلام؟

وكذلك قوله: «**ما تصدق أحدٌ بصدقةٍ من طيبٍ ولا يقبل الله إلا الطيبَ إلا أخذها الرحمنُ بيمينه، وإن كانت تمرة؛ فتربو في كف الرحمن؛ حتىٰ تكون أعظم من الجبل**»(٢) فهل يحتمل هذا الكلام غير الحقيقة؟

وهب أن اليد تستعمل في النعمة، أفسمعتم أن اليمين والكف يستعملان في النعمة، في غير الوضع الجديد الذي اخترعتموه، وحملتم عليه كلام الله وكلام رسوله ﷺ؟ وكذلك وبيده الأخرىٰ القسط، هل يصح أن يكون المعنىٰ: وبقدرته الأخرىٰ؟.

وهل يصح في قوله: إن المقسطين عن يمين الرحمن أنه: عن قدرته في لغة من اللغات؟ وهل سمعتم باستعمال اليمين في النعمة، والكف في النعمة؟

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٢٧، ١٤٢٩) ومسلم (رقم ١٠٣٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٩٦-٢٩٧) وشرح النووي (٧/ ١٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٤) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٧١).

وكيف يحتم قوله: «إن الله أخذ ذرية آدم من ظهره، ثم أفاض بهم في كفه»[١] كف النعمة والقدرة؟ وهذا لم تعهدوا أنتم ولا أسلافكم به استعمالاً البتة؛ سوىٰ الوضع الجديد الذي اخترعتموه.

وكذلك قوله: «خمر الله طينة آدم ثم ضرب بيده فيها، فخرج كل طيب بيمينه، وكل خبيث بيده الأخرىٰ، ثم خلط بينهما»[٢] فهل يصح في هذا السياق غير الحقيقة؟ فضع لفظ النعمة والقدرة هاهنا، ثم انظر هل يستقيم ذلك؟

وهل يصح في قوله: «والخير كله في يديك»[٣] أن يكون: في نعمتك، أو في قدرتك؟ وقال عبد الله بن الحارث: عن النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده»[٤] أفيصح أن يخص الثلاث بقدرته، ولاسيما لفظ الحديث: «إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء»[٥] أفيصح أن توضع النعمة والقدرة موضع اليد هنا؟

***

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١١٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ٤٢٤ رقم ٥٩٩) وفي السنة (١/ ٧٣ رقم ١٦٨) والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٦٨ رقم ٤٣٤) وفي مسند الشاميين (٣/ ٩١ رقم ١٨٥٤) (٣/ ١٨٥ رقم ٢٠٤٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٢٢٥-٢٢٦) وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٥٤٦) وابن المستفاض في القدر (رقم ١٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: شرح النووي (٦/ ٥٩).

(٤) أخرجه الدارقطني في الصفات (رقم ٢٨) وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٥٥٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٠٧) إلى ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وأبي الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤٣) موقوفًا على كعب ﷺ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٠٧) إلى عبد بن حميد عن كعب.

[1]احتج البخاري في الصحيح في خلق أفعال العباد على ذلك؛ بنصوص التبليغ، كقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] وقوله: ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وهذا من رسوخه في العلم، فإن ذلك يتضمن أصلين ضلَّ فيهما أهل الزيغ.

أحدهما: أن الرسول ليس له من الكلام إلا مجرد تبليغه، فلو كان هو قد أنشأ ألفاظه، لم يكن مبلغًا؛ بل منشئًا مبتدئًا، ولا تعقل الأمم كلها من التبليغ سواء تأدية كلام الغير بألفاظه ومعانيه؛ ولهذا يضاف الكلام إلى المبلغ عنه لا إلى المبلغ.

وأيضًا فالتبليغ والبلاغ، هو الإيصال وهو معدى من: بلغ إذا وصل، والإيصال حقيقة أن يورد إلى الموصل إليه، ما حمله إياه غيره، فله مجرد إيصاله.

الأصل الثاني: أن التبليغ فعل المبلغ وهو مأمور به مقدور له، وتبليغه هو تلاوته بصوت نفسه، فلو كان الصوت والتلاوة وصوت المتكلم به أولى وتلاوته؛ لم يكن فعلًا مأمورًا به، مضافًا إلى المأمور وبالجملة، فالتبليغ هو صوت المبلغ القائم به.

قال البخاري: باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧] وقول النبي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[2]، و«**ليبلغ الشاهد الغائب**»[3]، و«**أن الوحي قد انقطع**»[4].

فتأمل مقصوده بقوله: «وأن الوحي قد انقطع» فلو كانت أصواتنا بالقرآن، هي نفس الصوت القديم الذي تكلم الله تعالى به؛ لم يكن الوحي قد انقطع؛ بل هو متصل

(١) ٣٠١ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٧) ومسلم (رقم ١٣٥٤، ١٦٧٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٧٥) (٤/ ٤٤) وشرح النووي (٨/ ١٧٢) (٩/ ١٢٨).

(٤) أخرجه البخاري موقوفًا على عمر رضي الله عنه (رقم ٢٦٤١) وأخرجه مسلم موقوفًا على أم أيمن (رقم ٢٤٥٤) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٥٢)..

ما دامت أصوات العباد مسموعة بالتلاوة، فالقائلون: إن هذا الصوت؛ هو نفس الصوت القديم ظهر عند تلاوة التالي، وهو الصوت الذي أوحىٰ الله به الوحي إلىٰ رسوله، وهو غير منقطع؛ لزمه لزومًا بينًا أن الوحي متصل غير منقطع.

(١) وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فنسألهم: هل بيَّن رسول الله ﷺ ما أنزل إليه من ربه أم لم يبين؟ وهل بلغ ما أنزل إليه أم لم يبلغ؟ فلابد من أحد أمرين: فمن قولهم: إنه بلغ ما أنزل إليه، وبينه للناس، وأقام الحجة علىٰ من بلغه، فنسألهم عن ذلك التبليغ وذلك البيان: أهما باقيان عندنا وإلىٰ يوم القيامة، أم هما غير باقيين؟

فإن قالوا: بل هما باقيان إلىٰ يوم القيامة؛ رجعوا إلىٰ قولنا، وأقروا أن الحق من كل ما أنزل الله في الدين مبين مما لم ينزله مبلغ إلينا وإلىٰ يوم القيامة، وهذا هو نص قولنا في أن خبر الواحد العدل عن مثله مسندًا إلىٰ رسول الله ﷺ حق مقطوع بغيبه، موجب للعلم والعمل.

وإن قالوا: بل هما غير باقيين؛ دخلوا في عظيمة، وقطعوا بأن كثيرًا من الدين قد بطل، وأن التبليغ قد سقط في كثير من الشرائع، وأن بيان رسول الله ﷺ لكثير من الدين قد ذهب ذهابًا لا يوجد معه أبدًا، وهذا قول الرافضة؛ بل شر منه؛ لأن الرافضة ادعت أن حقيقة الدين؛ موجودة عند إنسان مضمون كونه في العالم، وهؤلاء أبطلوه من جميع العالم، ونعوذ بالله من كلا القولين.

...(٢) واختلف فيما وقع للنبي ﷺ من هذا ونحوه فقيل: هو قبل نزول قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وقيل: العصمة الموعود بها عصمة النفس من القتل، لا عصمته من أذاهم بالكلية؛ بل أبقىٰ الله تعالىٰ لرسوله ثواب ذلك الأذىٰ، ولأمته حسن التأسي

---

(١) ٣٨٣ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) ٢١٢ بدائع الفوائد جـ٣.

به؛ إذا أوذي أحدهم؛ نظر إلىٰ ما جرىٰ عليه ﷺ فتأسىٰ وصبر، وللمؤذين الأشقياء الأخذة الرابية.

[(١)]فصل في حرسه ﷺ فمنهم: سعد بن معاذ؛ حرسه يوم بدر حين نام في العريش، ومحمد بن مسلمة؛ حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام، حرسه يوم الخندق، ومنهم عبَّاد بن بشر، وهو الذي كان علىٰ حرسه، وحرسه جماعة آخرون غير هؤلاء، فلما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] خرج علىٰ الناس فأخبرهم بها، وصرف الحرس[(٢)].

***

﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ ﴾.

[(٣)]قد تضمنت هذه الحجة؛ دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه:

أحدهما: حاجتهما إلىٰ الطعام والشراب، وضعف بنيتهما عن القيام بنفسها؛ بل هي محتاجة فيما يعينهما إلىٰ الغذاء والشراب، والمحتاج إلىٰ غيره لا يكون إلهًا؛ إذ من لوازم الإله أن يكون غنيًّا.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام؛ يكون منه ما يكون من الإنسان؛ من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه؛ بل يستحي من التصريح بذكرها.

---

(١) ٦٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٢ رقم ٣٢٢١) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٨ رقم ١٧٥٠٨) والترمذي (رقم ٣٠٤٦) وسعيد بن منصور (رقم ٧٦٨) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢١ رقم ٣٥١٠) وفي الكبير (١/ ٢٥٦ رقم ١١٦٦٣) وفي الصغير (رقم ٤١٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٤١٧) وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٨٢): وإسناده حسن واختلف في وصله وإرساله، وانظر: الفتح (١٣/ ٢١٩) وشرح النووي (١٥/ ١٨٣).

(٣) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

ولهذا ـ والله أعلم ـ عبر الله سبحانه عنها بلازمها؛ من أ كل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة، فيكف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك، أو يمكن؛ لكان الأولى به أن يكون من جنس: لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقذرة(١).

***

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

(٢)أما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧].

فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٧].

فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولًا، ثم أضلوا كثيرًا وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضلالًا آخر بتكذيبهم له، وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم.

هذا قول طائفة، منهم الزمخشري وغيره وهو ضعيف، فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع فوصفهم بثلاث صفات:

---

(١) سيأتي ـ إن شاء الله ـ في سورة الأنبياء تكرير لهذا الدليل وزيادة. ا.هـ.(ج).

(٢) ٣٠ بدائع جـ٢.

إحداها: أنهم قد ضلوا من قبلهم.

والثانية: أنهم أضلوا أتباعهم.

والثالثة: أنهم ضلوا عن سواء السبيل فهذه صفات لأسلافهم، الذين نهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح أن يكون وصفا للموجودين في زمن النبي ﷺ، لأنهم هم المنهيون أنفسهم، لا المنهي عنهم فتأمله.

وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارىٰ ضلالا بعد ضلال، لفرط جهلهم بالحق، وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصارىٰ أخص بالضلال من اليهود، ووجه تكرار هذا الضلال: أن الضال قد أخطأ نفس مقصوده، فيكون ضالًّا فيه، فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده، ويعبد من لا ينبغي أن يعبده وقد يصيب مقصودًا حقًّا، لكن يضل في طريق طلبه، والسبيل الموصلة، إليه فالأول ضلال في الغاية، والثاني ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلىٰ ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارىٰ اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة، فضلوا عن مقصودهم، حيث لم يصيبوه، وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قتل وصلب وصفع، فهذا ضلال في نفس المقصود، حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه، فلا اهتدوا إلىٰ المطلوب ولا إلىٰ الطريق الموصل إليه، ودعوا أتباعهم إلىٰ ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرًا، فكانوا أدخل في الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم علىٰ قومهم من السحت والرياسة، فخافوا أن يذهب بالإسلام، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ولهذا لم يوبخهم الله تعالىٰ ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء، ووبخ النصارىٰ بالضلال والجهل، الذي هو عدم العلم بالحق،

فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرىٰ يتركب منها.

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته، فلم يكن ضلالًا محضًا.

وكفر النصارىٰ نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه، أشبهوا الأمة الغضبية، وبقوا مغضوبا عليهم ضالين.

ثم لما كان الهدىٰ والفلاح والسعادة لا سبيل إلىٰ نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره علىٰ غيره وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلىٰ أن يسأل الله تعالىٰ كل وقت: أن يهديه الصراط المستقيم: تعريفًا وبيانًا وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا وإعانةً فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريدا له قاصدا لاتباعه فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه علىٰ عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارىٰ[1] وهذا كما قالوا. فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويدعونهم إلىٰ كتاب ربهم وسنة نبيهم إلىٰ غير ذلك من الأخلاق، التي ذم بها اليهود من الكفر واللّي، والكتمان والتحريف والتحيل علىٰ المحارم وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العباد فعبد الله بمقتضىٰ هواه لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلىٰ نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره من قول سفيان بن عيينة (٢/ ٣٥١) والمناوي في فيض القدير (٥/ ٢٦١).

بالنصارىٰ ظاهر.

فعلىٰ المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد، ومن تصور الشبهين والوصفين، وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلىٰ هذا الدعاء، الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلىٰ الحياة والنفس، لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين، إنه قريب مجيب.

(١)هه‍نا ثلاثة أشياء تنافي تعظيم الأمر والنهي:

أحدها: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط والثاني إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان:

إما: إلىٰ تفريط وإضاعة.

وإما: إلىٰ إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين. والهدىٰ بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر؛ مضيع له، فالغالي فيه، مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهىٰ الله عن الغلو بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]. والغلو نوعان:

نوع يخرجه عن كونه مطيعًا: كمن زاد في الصلاة ركعة أو صام الدهر مع أيام النهي أو رمي الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمىٰ بها في المنجنيق أو سعىٰ بين الصفا والمروة عشرا أو نحو ذلك عمدًا.

---

(١) ٤٩٦ مدارج جـ٢.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار: كقيام الليل كله وسرد صيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»(١) يعني: استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة، فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال ﷺ: «ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد»(٢) رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «هلك المتنطِّعون» ـ قالها ثلاثًا(٣) ـ «وهم المتعمقون المتشددون». وفي صحيح البخاري عنه ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»(٤). وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغضن إلى نفسك عبادة الله»(٥) أو كما قال.

***

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٣٥-٢٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١١٥٠) ومسلم (رقم ٧٨٤).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٦٧).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٣) ومسلم (رقم ٧٨٢) وانظر: فتح الباري (١/ ١٠٢) وشرح النووي (٦/ ٧١).
(٥) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٦/ ١٢٠ رقم ٢١١٥) والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٨ رقم ٤٥٢٠) وأحمد (٣/ ١٩٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٤ رقم ١١٤٧) والديلمي في الفردوس (١/ ٢٣٥ رقم ٩٠٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٧٨) والخطابي في العزلة (ص ٩٧) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٨٤ رقم ٢٣٣٩): واختلف في إرساله ووصله، ورجح البخاري في تاريخه إرساله، وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾
فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾
وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

...[1] كذلك من قدمنا ذكرهم من الأحبار والرهبان الذين عرفوه بنعته وصفته، كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ومعلوم أن هذه المعرفة إنما هي بالنعت والصفة المكتوبة عندهم، التي هي منطبقة عليه، كما قال بعض المؤمنين منهم: والله لأحدنا أعرف به من ابنه، إن أحدنا ليخرج من عند امرأته وما يدري ما يحدث بعده.

ولهذا أثنى الله سبحانه على من عرف الحق منهم ولم يستكبر عن اتباعه، فقال:
﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ
أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ
وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ
مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا
نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾
فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٢- ٨٨].

---

(١) ٤٣ هداية الحيارى.

قال ابن عباس: لما حضر أصحاب النبي ﷺ بين يدي النجاشي، وقرؤا القرآن، سمع ذلك القسيسون والرهبان، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[١] [المائدة: ٨٢].

وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي من خيار أصحابه ثلاثين رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن، فبكوا ورقوا، وقالوا: نعرفه والله، فأسلموا، وذهبوا إلى النجاشي، فأخبروه فأسلم[٢]، فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] الآيات.

وقال السدي: كانوا اثني عشر رجلاً، سبعة من القسيسين وخمسة من الرهبان، فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن بكوا وقالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٣] [المائدة: ٨٣].

قال ابن عباس: هم محمد وأمته، وهم القوم الصالحون، الذين طمعوا أن يدخلهم الله فيهم[٤].

والمقصود: أن هؤلاء الذين عرفوا أنه رسول الله بالنعت الذي عندهم، فلم يملكوا أعينهم من البكاء، وقلوبهم من المبادرة إلى الإيمان.

[٥]وقع في القرآن لفظ «المعرفة» ولفظ «العلم».

فلفظ «المعرفة» كقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وأما لفظ العلم فهو أوسع إطلاقًا. كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٨٤ رقم ٦٦٧٧).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١، ٤) وابن الجعد (رقم ٢١٨٨).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٨٤ رقم ٦٦٧٥).
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٧) عن عبد الرحمن بن زيد، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٨٦ رقم ٦٦٨٣) وانظر: الدر المنثور (٣/ ١٣٩).
(٥) ٣٣٤ مدارج جـ٣.

وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [آل عمران: ١٨]. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. وقوله: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩] وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [القصص: ٨٠]. وقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [النمل: ٤٠]. وقوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد: ١٧]. وقوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد: ٢٠]. وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وقوله: ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ١٤]. وهذا كثير.

واختار سبحانه لنفسه اسم العلم وما تصرف منه، فوصف نفسه بأنه عالم وعليم وعلام وعلم ويعلم، وأخبر أن له علما دون لفظ المعرفة في القرآن، ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه.

وإنما جاء لفظ المعرفة في القرآن في مؤمني أهل الكتاب خاصة. كقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]. وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

(١)ومما وقع فى هذه الغزوة(٢)، إباحةُ مُتعة النساء، ثم حرَّمها قبلَ خروجه مِن مكة،واخْتُلِفَ فى الوقت الذى حُرِّمت فيه المُتعة، على أربعة أقوال:

---

(١) ٤٣٣ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أي غزوة الفتح.

أحدها: أنه يوم خَيْبَر، وهذا قولُ طائفة من العلماء.منهم: الشافعي، وغيره.

والثاني: أنه عامَ فتح مكة، وهذا قولُ ابنِ عيينة، وطائفة.

والثالث: أنه عام حُنَيْن، وهذا في الحقيقة هو القولُ الثاني، لاتصال غزاة حُنَيْن بالفتح.

والرابع: أنه عامَ حَجَّةِ الوداع، وهو وهم من بعض الرواة، سافر فيه وهمُه من فتح مكة إلىٰ حَجَّةِ الوداع، كما سافر وهم معاوية من عُمْرةِ الجِعرانة إلىٰ حَجَّةِ الوداع، حيث قال: «قصرت عن رسول الله ﷺ بمشقص علىٰ المروة في حَجَّته»(١)، ـ وقد تقدَّم في الحَج ـ وسفرُ الوهم مِن زمان إلىٰ زمان، ومِن مكان إلىٰ مكان، ومِن واقعة إلىٰ واقعة، كثيراً ما يعرض للحُفَّاظ فمَن دونهم.

والصحيح: أنَّ المُتعة إنما حُرِّمت عام الفتح، لأنه قد ثبت في صحيح مسلم أنهم استمتعوا عامَ الفتح مع النبي ﷺ بإذنه(٢)، ولو كان التحريمُ زمنَ خَيْبَر، لزم النسخُ مرتين، وهذا لا عهد بمثله في الشريعة البتة، ولا يقعُ مثلُه فيها، وأيضاً: فإن خَيْبَر لم يكن فيها مسلمات، وإنما كُنَّ يهوديات، وإباحة نساء أهل الكتاب لم يكن ثبت بعد، إنما أُبِحْنَ بعد ذلك في سورة المائدة بقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥]، وهذا متصل بقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]، وبقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]، وهذا كان في آخِر الأمر بعد حجة الوداع، أو فيها، فلم تكن إباحةُ نساء أهل الكتاب ثابتة زمنَ خَيْبَر، ولا كان للمسلمين رغبةٌ في الاستمتاع بنساء عدوهم قبل الفتح، وبعد الفتح استُرِقَّ مَن استُرِقَّ منهن، وصِرْنَ إماءً للمسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٣٠) ومسلم (رقم ١٢٤٦) واللفظ لمسلم، وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٦٥-٥٦٦) وشرح النووي (٨/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٤٠٥، ١٤٠٦) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٦٩).

فإن قيل: فما تصنعون بما ثبت فى الصحيحين من حديث على بن أبى طالب: «أن رسولَ الله ﷺ نهى عن مُتعة النساء يوم خَيْبَر، وعن أكْلِ لُحُوم الحُمُر الإنسية»[١] وهذا صحيح صريح؟

قيل: هذا الحديثُ قد صحَّت روايتُه بلفظين: هذا أحدُهما. والثانى: الاقتصار على نهى النبي ﷺ عن نِكاح المُتعة، وعن لُحوم الحُمُر الأهلية يومَ خَيْبَر، هذه رواية ابن عُيينة عن الزهرى، قال قاسم بن أصبغ: قال سفيان بن عيينة: يعنى «أنه نهى عن لحوم الحُمُر الأهلية زمنَ خَيْبَر، لا عن نكاح المُتعة».

ذكره أبو عمر ابن عبد البر فى التمهيد: ثم قال: على هذا أكثرُ الناس[٢]. انتهى.

فتوهم بعضُ الرواة أن يومَ خَيْبَر ظرفٌ لتحريمهن، فرواه: «حرَّم رسول الله المُتعة زمن خَيْبَر، والحُمُرَ الأهلية»، واقتصر بعضهم على رواية بعض الحديث، فقال: حرَّم رسول الله ﷺ المُتعة زمَن خَيْبَر، فجاء بالغلط البيِّن.

فإن قيل: فأي فائدة في الجمع بين التحريمين، إذا لم يكونا قد وقعا فى وقت واحد، وأين المُتعةُ مِن تحريم الحُمُرِ؟

قيل: هذا الحديثُ رواه على بن أبى طالب ﷺ محتجاً به على ابن عمه عبد الله بن عباس فى المسألتين، فإنه كان يُبيح المُتعة ولحوم الحُمُر، فناظره على بن أبى طالب فى المسألتين، وروى له التحريمين، وقيَّد تحريمَ الحُمُر بزمن خَيْبَر، وأطلق تحريمَ المُتعة وقال: «إنك امرؤ تائه، إنَّ رسول الله ﷺ حرَّم المُتعة، وحرَّم لحوم الحُمُر الأهلية يومَ خَيْبَر»[٣]، كما قاله سفيانُ بنُ عُيينة، وعليه أكثرُ الناس، فروى الأمرين

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢١٦) ومسلم (رقم ١٤٠٧) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٨٢).

(٢) انظر: فتح الباري (٩/ ١٦٩) ونيل الأوطار (٦/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٢٠٢ رقم ١٣٩٢٥) وأبو عوانة (رقم ٧٦٤٨، ٧٦٤٩) وعبد الرزاق في مصنفه (٧/ ٥٠١ رقم ١٤٠٣٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٤٥ رقم ٥٥٠٤)، وانظر: فتح الباري (٩/ ١٦٨) والتمهيد (١٠/ ٩٤، ٩٨).

محتجاً عليه بهما، لا مقيِّداً لهما بيوم خَيْبَر.. والله الموفق.

ولكن ههنا نظر آخر، وهو أنه: هَلْ حرَّمها تحريمَ الفواحش التى لا تُباح بحال، أو حرَّمها عند الاستغناء عنها، وأباحها للمضطر؟ هذا هو الذى نظر فيه ابنُ عباس، وقال: أنا أبحتُها للمضطر كالميتة والدم. فلما توسَّعَ فيها مَنْ توسَّع، ولم يقف عند الضرورة، أمسك ابنُ عباس عن الإفتاء بحلِّها، ورجع عنه، وقد كان ابنُ مسعود يرى إباحتها ويقرأ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

ففي الصحيحين عنه قال: «كنَّا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا نِساء، فقلنا: ألا نختصِى؟ فنهانا، ثم رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوبِ إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1] [المائدة: ٨٧]» وقراءة عبد الله هذه الآية عقيب هذا الحديث يحتمل أمرين:

أحدهما: الردُّ على مَن يُحرِّمها، وأنها لو لم تكن مِن الطيبات لما أباحها رسولُ الله ﷺ.

والثانى: أن يكون أراد آخِرَ هذه الآية، وهو الرد على مَن أباحها مطلقاً، وأنه معتد، فإن رسولَ الله ﷺ، إنما رخَّص فيها للضرورة، وعند الحاجة فى الغزو، وعند عدم النساء، وشدة الحاجة إلى المرأة. فمَن رخَّص فيها فى الحَضَر مع كثرة النساء، وإمكان النكاح المعتاد، فقد اعتدى، والله لا يُحب المعتدين.

فإن قيل: فكيف تصنعون بما روى مسلم فى صحيحه من حديث جابر، وسلمة بن الأكوع، قالا: «خرج علينا منادى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أذِن لكم أن تستمتعوا، يعنى: مُتعة النساء»[2]؟

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٧١) ومسلم (رقم ١٤٠٤) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥١١٧) ومسلم (رقم ١٤٠٥) وانظر: شرح ا لنووي (٩/ ١٨٣).

قيل: هذا كان زمنَ الفتح قبل التحريم، ثم حرَّمها بعد ذلك بدليل ما رواه مسلم فى صحيحه، عن سلمة بن الأكوع قال: «رخَّص لنا رسولُ الله ﷺ عامَ أَوطاسٍ فى المُتعة ثلاثاً، ثم نهى عنها»[١]. وعام أوطاس: هو عام الفتح، لأن غزاة أوطاس متصلة بفتح مكة.

...[٢]الله سبحانه أنه شرع النكاح للوصلة الدائمة وللاستمتاع، وهذا النكاح جعله أصحابه سبباً لانقطاعه، ولوقوع الطلاق فيه، فإنه متى وطئ كان وطؤه سبباً لانقطاع النكاح، وهذا ضد شرع الله.

وأيضًا: فإن الله سبحانه جعل نكاح الثاني وطلاقه واسمه كنكاح الأول وطلاقه واسمه. فهذا زوج، وهذا زوج، وهذا نكاح، وهذا نكاح، وكذلك الطلاق، ومعلوم أن نكاح المحلل وطلاقه واسمه لا يشبه نكاح الأول ولا طلاقه، ولا اسمه كاسمه، ذاك زوج راغب، قاصد للنكاح. باذل للمهر، ملتزم للنفقة والسكنى والكسوة وغير ذلك من خصائص النكاح، والمحلل برئ من ذلك كله، غير ملتزم لشيء منه.

وإذا كان الله تعالى ورسوله قد حرّم نكاح المُتْعة مع أن قصد الزوج الاستمتاع بالمرأة، وأن يقيم معها زماناً، وهو ملتزم لحقوق النكاح، فالمحلل الذي ليس له غرض أن يقيم مع المرأة إلا قدر ما ينزُو عليها كالتيس المستعار لذلك ثم يفارقها أولى بالتحريم.

وسمعت شيخ الإسلام يقول: نكاح المتعة خير من نكاح التحليل من عشرة أوجه:

أحدها: أن نكاح المتعة كان مشروعاً في أول الإسلام، ونكاح التحليل لمُ يشرع فى زمن من الأزمان.

الثانى: أن الصحابة تمتعوا على عهد النبي ﷺ، ولم يكن في الصحابة محلل قط.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٠٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٧٠-١٧٢) وشرح النووي (٩/ ١٨٤).
(٢) ٢٧٧ إغاثة جـ١.

الثالث: أن نكاح المتعة مختلف فيه بين الصحابة، فأباحه ابن عباس، وإن قيل: إنه رجع عنه، وأباحه عبد الله بن مسعود. ففي الصحيحين عنه قال: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ لَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا: أَلا نَخْتَصِي؟ فَنَهانَا عَنْ ذلِكَ، ثُمَّ رَخَّصَ لَنَا أَنْ نَنْكِحَ المَرْأَةَ بِالثَّوْبِ إِلىٰ أَجَلٍ». ثم قرأ عبد الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]. وَفتوَىٰ ابن عباس بها مشهورة.

قال عُروة: «قام عبد الله بن الزبير بمكة فقال: إن ناساً أعمى الله قلوبهم، كما أعمى أبصارهم، يفتون بالمتعة يُعرِّض بعبد الله بن عباس، فناداه، فقال: إنك لجِلْفُ جافٍ، فلعمري لقد كانت المتعة تُفعل علىٰ عهد إمام المتقين، يريد رسول الله ﷺ، فقال له ابن الزبير: فجرّبْ نفسك، فوالله لئن فعلتها لأرجمنَّك بأحجارك»(١). فهذا قول ابن مسعود وابن عباس في المتعة، وذاك قولهما وروايتهما في نكاح التحليل.

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

(٢)من أعظم مكايده: ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام، التي هي من عمله، وقد أمر الله تعالىٰ باجتناب ذلك، وعلق الفلاح باجتنابه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٠٦) وانظر: شرح النووي (٩/ ١٨٨).
(٢) ٢٠٧ إغاثة جـ١.

فالأنصاب: كل ما نصب يعبد من دون الله: من حجر، أو شجر، أو وثن، أو قبر. وهي جمع، واحدها نصب، كطنب وأطناب.

قال مجاهد: وقتادة، وابن جريج: «كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويُشرِّحون اللحم عليها، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها، قالوا: وليست بأصنام، إنما الصنم ما يصور وينقش»(١).

وقال ابن عباس: «هي الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى».

وقال الزجاج: «حجارة كانت لهم يعبدونها، وهي الأوثان».

وقال الفراء: «هي الآلهة التي كانت تعبد، من أحجار وغيرها»(٢).

وأصل اللفظة: الشي المنصوب الذي يقصده من رآه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

قال ابن عباس: «إلى غاية، أو عَلَم يسرعون». وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن: «يعني إلى أنصابهم، أيهم يستلمها أوّلا»(٣).

قال الزجاج: وهذا على قراءة من قرأ «نُصُب» بضمتين، كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]. قال: ومعناه: أصنام لهم.

والمقصود: أن النصب كل شيء نصب من خشبة، أو حجر، أو علم. والإيفاض الإسراع.

وأما الأزلام. فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «هي قداح كانوا يستقسمون بها الأمور»(٤) أي: يطلبون بها علم ما قسم لهم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٢) وعمدة القاري (٢١/ ٩١، ١١٣) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٤١١).

(٢) انظر: عمدة القاري (٨/ ١٨٦).

(٣) انظر: عمدة القاري (٨/ ١٨٦).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٢، ٩٣) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٤١٢).

وقال سعيد بن جبير: «كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو، أو يجلس استقسم بها»[١].

وقال أيضاً: «هي القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم. أحدهما عليه مكتوب: أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي. فإذا أرادوا أمرا ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه أمرني فعلوا ما هموا به. وإن خرج الذي عليه نهاني تركوه»[٢].

وقال أبو عبيد: «الاستقسام: طلب القسمة».

وقال المبرد: «الاستقسام: أخذ كل واحد قسمه».

وقيل: الاستقسام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح، كقسم اليمين.

وقال الأزهري: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ [المائدة: ٣] «أي: تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين».

وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره: «الاستقسام بالأزلام حرام».

ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج من أجل طلوع نجم كذا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]. وذلك دخول في علم الله ﷻ الذي هو غيب عنا. فهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله تعالى.

والمقصود: أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام. فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهن، وطلب علم ما استأثر الله به. هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين الله ﷻ مضاد لهذا وهذا، والذي جاء به رسول الله ﷺ إبطالهما، وكسر الأنصاب والأزلام.

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين: من شجرة، أو عمود أو وثن، أو قبر أو خشبة، أو عين، ونحو ذلك. والواجب هدم ذلك كله، ومحو أثره كما أمر النبي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٩٨ رقم ٦٧٥٦) وانظر: الدر المنثور (٣/ ١٧١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٧٦) والدر المنثور (٣/ ١٤) وعمدة القاري (٢١/ ١٦٣) وفتح الباري (٨/ ٢٧٧).

ﷺ عليًّا ﷺ بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض. كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي. قال: قال لي علي ﷺ: «أَلاَ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أَنْ لا أَدَعَ تِمْثَالاً إِلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سَوَّيْتُهُ»[1].

وعمّى الصحابة بأمر عمر ﷺ قبر دانيال، وأخفوه عن الناس[2]. ولما بلغه أن الناس يتنابون الشجرة التى بايع تحتها رسول الله ﷺ أرسل فقطعها. رواه ابن وضَّاح فى كتابه فقال: سمعت عيسى بن يونس يقول: «أمر عمر بن الخطاب ﷺ بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ فقطعها، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة». قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: «أن الناس كانوا يأتون الشجرة، فقطعها عمر ﷺ»[3].

[4]قال الله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠] فلفظ الخمر عام في كل مسكر فإخراج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها تقصير به وهضم لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: «كل مسكر خمر».

وإخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمه لها تقصير أيضًا به، وهضم لمعناه، فما الذي جعل النرد الخالي عن العوض من الميسر، وأخرج الشطرنج عنه مع أنه من أظهر أنواع الميسر، كما قال غير واحد من السلف: إنه ميسر. وقال علي كرم الله وجهه: هو ميسر العجم.

وأما تحميل اللفظ فوق ما يحتمله، فكما حمل لفظ قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٩) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٢٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٧٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠ رقم ٧٥٤٥).

(٤) ٢٢٠ أعلام جـ١.

وقوله في آية البقرة: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. مسألة العينة التي هي ربا بحيلة وجعلها من التجارة، ولعمر الله إن الربا الصريح تجارة للمرابي وأي تجارة، وكما حمل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. على مسألة التحليل وجعل التيس المستعار الملعون على لسان رسول الله ﷺ داخلًا في اسم الزوج، وهذا في التجارة يقابل الأول في التقصير.

ولهذا كان معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل العلم وقاعدته وأخيته التي يرجع إليها، فلا يخرج شيئا من معاني ألفاظه عنها، ولا يدخل فيها ما ليس منها، بل يعطيها حقها، ويفهم المراد منها.

ومن هذا لفظ: الأيمان والحلف أخرجت طائفة منه الإيمان الالتزامية التي يلتزم صاحبها بها إيجاب شيء أو تحريمه، وأدخلت طائفة فيها التعليق المحض الذي لا يقتضي حضًّا ولا منعًا، والأول نقص من المعنى، والثاني تحميل له فوق معناه.

ومن ذلك لفظ: الربا أدخلت فيه طائفة ما لا دليل على تناول اسم الربا له كبيع الشيرج بالسمسم، والدبس بالعنب، والزيت بالزيتون، وكل ما استخرج من ربوي وعمل منه بأصله، وإن خرج عن اسمه ومقصوده وحقيقته، وهذا لا دليل عليه يوجب المصير إليه من كتاب ولا من سنة ولا إجماع ولا ميزان صحيح، وأدخلت فيه من مسائل مد عجوة ما هو أبعد شيء عن الربا، وأخرجت طائفة أخرى منه ما هو من الربا الصحيح حقيقة: قصدًا وشرعًا، كالحيل الربوية التي هي أعظم مفسدة من الربا الصريح، ومفسدة الربا البحت الذي لا يتوصل إليه بالسلاليم أقل بكثير، وأخرجت منه طائفة بيع الرطب بالتمر، وإن كان كونه من الربا أخفى من كون الحيل الربوية منه، فإن التماثل موجود فيه في الحال دون المآل، وحقيقة الربا في الحيل الربوية أكمل وأتم منها في العقد الربوي الذي لا حيلة فيه.

ومن ذلك لفظ البينة قصرت بها طائفة فأخرجت منه الشاهد واليمين وشهادة العبيد العدول الصادقين المقبولي القول على الله ورسوله، وشهادة النساء منفردات في

المواضع التي لا يحضرهن فيه الرجال كالأعراس والحمامات وشهادة الزوج في اللعان إذا نكلت المرأة وأيمان المدعين الدم إذا ظهر اللوث، ونحو ذلك ما يبين الحق أعظم من بيان الشاهدين، وشهادة القاذف، وشهادة الأعمى على ما يتيقنه، وشهادة أهل الذمة على الوصية في السفر إذا لم يكن هناك مسلم وشهادة الحال في تداعي الزوجين متاع البيت، وتداعي النجار والخياط آلتهما ونحو ذلك، وأدخلت فيه طائفة ما ليس منه كشهادة مجهول الحال الذي لا يعرف بعدالة ولا فسق، وشهادة وجوه الأجر ومعاقد القمط ونحو ذلك. والصواب: أن كل ما بين الحق فهو بينة، ولم يعطل الله ولا رسوله حقا بعدما تبين بطريق من الطرق أصلًا، بل حكم الله ورسوله الذي لا حكم له سواه: أنه متى ظهر الحق ووضح بأي طريق كان وجب تنفيذه ونصره، وحرم تعطيله وإبطاله. وهذا باب يطول استقصاؤه، ويكفي المستبصر التنبيه عليه، وإذا فهم هذا في جانب اللفظ فهم نظيره في جانب المعنى سواء[(١)].

...[(٢)]قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] فدخل في الخمر كل مسكر جامدًا كان أو مائعًا من العنب أومن غيره.

ودخل في الميسر: كل أكل مال بالباطل، وكل عمل محرم، يوقع في العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

ودخل في قوله: ﴿ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [التحريم: ٢] كل يمين منعقدة.

ودخل في قوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤] كل طيب من المطاعم والمشارب والملابس والفروج.

ودخل في قوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا

(١) ذكر المؤلف عدة أمثلة فمن أرادها فليرجع إليها (ج).
(٢) ٣٣٤ أعلام جـ١.

ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] ما لا تحصى أفراده من الجنايات وعقوباتها حتى اللطمة والضربة والكسعة، كما فهم الصحابة.

ودخل في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] تحريم كل فاحشة ظاهرة وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله وإن دق في قول أو عمل أو إرادة بأن يجعل لله عدلا بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط أو خبر عنه باسم أو صفة نفيا أو إثباتا أو خبرا عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه.

ودخل في قوله: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ وجوبه في كل جرح يمكن القصاص منه وليس هذا تخصيصًا، بل هو مفهوم من قوله: ﴿ قِصَاصٌ ﴾ وهو المماثلة. ودخل في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وجوب نفقة الطفل وكسوته ونفقة مرضعته على كل وارث قريب أو بعيد.

ودخل في قوله: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] جميع الحقوق التي للمرأة وعليها وإن مرد ذلك إلى ما يتعارفه الناس بينهم ويجعلونه معروفًا لا منكرًا، والقرآن والسنة كفيلان بهذا أتم كفالة.

(١)قرن الله سبحانه بين الخمر والأنصاب وهي الأصنام التي تعبد من دون الله، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

---

(١) ٧ شفاء.

ومعلوم أن شارب الخمر لا يدوم سكره، بل لابد أن يفيق، ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سكره. وأما سكرة العشق فقل أن يستفيق صاحبها إلا إذا جاءت الرسل تطلبه للقدوم على الله تعالى، ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتى فاجأهم عذاب الله وعقوبته، وهم في سكرتهم يعمهون، فكيف إذا خرج العشق إلى حد الجنون المطبق؟ كما أنشد محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب، قال: أنشد الصيدلاني:

قَالَتْ: جُنِنْتَ عَلَى رَأْسِي، فَقُلْتُ لَهَا ... العِشق أَعْظَمُ مِمَّا بِالمَجَانِينِ
الْعِشْقُ لَيَس يَفِيق الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَما يُصْرَعُ المَجْنُونُ فِي الْحِينِ (١)

فصاحبه أحق بأن يشبه بعابد الوثن، والعاكف على التماثيل، فإن عكوف قلب العاشق على صورة محبوبه وتمثاله يشبه عكوف عابد الصنم على صنمه.

وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع العدواة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والميسر، ويصدهم بذلك عن ذكر الله وعن الصلاة، فالعداوة والبغضاء والصد الذي يوقعه بالعشق أعظم بكثير.

...ورواه الإمام أحمد في مسنده أطول من هذا عن عبد الله بن فيروز الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط وهو محاضر فتى من قريش يزن بشرب الخمر فقلت: بلغني عنك حديث: «أن من شرب شربة خمر لم تقبل توبته أربعين صباحًا، وأن الشقي من شقي في بطن أمه، وأن من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه» فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق فقال عبد الله بن عمرو: إني لا أحل لأحد

---

(١) هذان البيتان ينسبان إلى مجنون ليلى: قيس بن الملوح شاعر الغزل المشهور لم يكن مجنونًا وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد التي نشأ معها إلى أن كبرت فحجبها أبوها فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش، وجد ميتًا بين الأحجار فنقل إلى أهله سنة ٦٨هـ ذكرها السراج القاري في مصارع العشاق (١/ ٢٣٣).

أن يقول عليَّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه» فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: «فإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أن الله ﷻ خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله» وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان بن داود سأل الله ﷻ ثلاثًا فأعطاه اثنتين، ونحن نرجوا أن تكون لنا الثالثة، سأل الله تعالى حكمًا يصادف حكمه فأعطاه الله إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فنحن نرجوا أن يكون الله تعالى ﷻ قد أعطانا إياه»[1] ورواه الحاكم في صحيحه وهو على شرط الشيخين ولا علة له.

...[2]المعالجة بالمحرَّمات قبيحةٌ عقلاً وشرعاً، أمَّا الشرعُ فما ذكرْنا من هذه الأحاديثِ وغيرها. وأمَّا العقلُ، فهو أنَّ اللهَ سبحانه إنما حرَّمه لخُبثه، فإنه لم يُحَرِّم على هذه الأمة طَيباً عقوبةً لها، كما حرَّمه على بني إسرائيلَ بقوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠]، وإنما حرَّم على هذه الأُمة ما حَرَّم لخبثه، وتحريمُه له حِمية لهم، وصيانة عن تناوله، فلا يُناسِبُ أن يُطلَبَ به الشِّفاءُ من الأسقام والعِلل، فإنه وإن أثَّر فى إزالتها، لكنه يُعقِبُ سَقَماً أعظمَ منه فى القلب بقوة الخُبث الذى فيه، فيكون المُدَاوَى به قد سعى فى إزالة سُقْم البدن بسُقْم القلب.

وأيضاً: فإنَّ تحريمه يقتضى تجنُّبه والبُعدَ عنه بكُلِّ طريق، وفى اتخاذه دواء حضٌ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) والحاكم (١/ ٨٤ رقم ٨٣) (٢/ ٤٧١ رقم ٣٦٢٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٣٠ رقم ٥١٨٠) وفي الصغرى (رقم ٥٦٧٠) وقال الحاكم في الموضع الأول: هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة وقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه ولا أعلم له علة.

(٢) ٢٤٠ زاد المعاد جـ٣.

على الترغيب فيه وملابسته، وهذا ضِدُّ مقصود الشارع.

وأيضاً: فإنه داء، كما نصَّ عليه صاحبُ الشريعة، فلا يجوز أن يُتخذ دواءً.

وأيضاً: فإنه يُكْسِبُ الطبيعة والروح صفةَ الخبث، لأن الطبيعة تنفعِلُ عن كيفية الدواء انفعالاً بَيِّناً، فإذا كانت كيفيتُه خبيثةً، اكتسبت الطبيعةُ منه خُبثاً، فكيف إذا كان خبيثاً في ذاته، ولهذا حرَّم الله سبحانه على عباده الأغذيةَ والأشربةَ والملابِسَ الخبيثة، لما تُكسب النفسَ من هيئة الخبث وصفته.

وأيضاً: فإنَّ في إباحة التداوي به، ولاسِيَّما إذا كانت النفوسُ تميل إليه ذريعةً إلى تناوله للشهوة واللَّذة، لاسِيَّما إذا عرفت النفوسُ أنه نافع لها مزيلٌ لأسقامِها جالبٌ لِشفائها، فهذا أحبُّ شيءٍ إليها، والشارعُ سدَّ الذريعة إلى تناوله بكُلِّ ممكن، ولا ريبَ أنَّ بينَ سدِّ الذريعة إلى تناوله، وفَتْحِ الذريعة إلى تناوله تناقضاً وتعارضاً.

وأيضاً: فإنَّ في هذا الدواء المحرَّم من الأدواء ما يزيدُ على ما يُظَن فيه من الشِّفاء، ولنفرضْ الكلام في أُمِّ الخبائث التي ما جعل الله لنا فيها شفاءً قَطُّ، فإنها شديدةُ المضرَّة بالدماغ الذي هو مركزُ العقل عند الأطباء، وكثير من الفقهاء والمتكلمين.

قال أبقراط ـ في أثناء كلامه في الأمراض الحادة ـ: ضرر الخمرة بالرأس شديد. لأنه يُسرع الارتفاع إليه. ويرتفع بارتفاعه الأخلاط التي تعلو في البدن، وهو كذلك يضر بالذهن.

وقال صاحب الكامل: إنَّ خاصية الشَّراب الإضرارُ بالدماغ والعَصَب. وأمَّا غيرُه من الأدوية المحرَّمة فنوعان:

أحدهما: تعافُه النفس ولا تنبعِثُ لمساعدته الطبيعةُ على دفع المرض به كالسموم، ولحوم الأفاعي وغيرها من المستقذرات، فيبقى كَلًّا على الطبيعة مثقلاً لها، فيصير حينئذ داءً لا دواء.

والثاني: ما لا تَعافُه النفس كالشراب الذي تستعمِلُه الحوامل مثلاً، فهذا ضررُه أكثرُ من نفعه، والعقلُ يقضي بتحريم ذلك، فالعقلُ والفِطرةُ مطابقٌ للشرع في ذلك.

وهاهنا سِرٌ لطيف في كون المحرَّمات لا يُستشفَى بها، فإنَّ شرطَ الشفاء بالدواء تلقِّيه بالقبول، واعتقادُ منفعته، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء، فإنَّ النافعَ هو المبارَك، وأنفعُ الأشياءِ أبركُها.

...[1]قالوا وأيضًا: فالله ﷻ حرم الميسر في كتابه كما حرم الخمر والميسر هو القمار وتحريمه إما أن يكون لنفس العمل أو لما فيه من أكل المال الباطل أو لمجموع الأمرين وليس هنا قسم رابع، وأيما ما كان فليس في هذا العقد المتنازع فيه واحد من الأمور الثلاثة؛ بل هو خال عنها.

فإن المغالبات في الشرع تنقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: ما فيه مفسدة راجحة على منفعته: كالنرد، والشطرنج. فهذا يحرمه الشارع لا يبيحه؛ إذ مفسدته راجحة على مصلحته، وهي من جنس مفسدة السكر؛ ولهذا: قرن الله ﷻ بين الخمر والقمار في الحكم وجعلهما قريني الأنصاب والأزلام، وأخبر أنها كلها رجس، وأنها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها، وعلق الفلاح باجتنابها، وأخبر أنها تصد عن ذكره وعن الصلاة، وتهدد من لم ينته عنها.

ومعلوم أن شارب الخمر إذا سكر كان ذلك مما يصده عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة والبغضاء بسببه.

وكذلك المغالبات التي تلهي بلا منفعة. كالنرد والشطرنج وأمثالهما، مما يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، لشدة التهاء النفس بها، واشتغال القلب فيها بالفكر.

ومن هذا الوجه فالشطرنج أشد شغلا للقلب، وصدًّا عن ذكر الله وعن الصلاة، ولهذا جعله بعض العلماء أشد تحريمًا من النرد، وجعل النص على أن اللاعب بالنرد عاص لله ورسوله، تنبيهًا بطريق الأولى على أن اللاعب بالشطرنج أشد معصية، إذ لا يحرم الله ورسوله فعلًا مشتملًا على مفسدة، ثم يبيح فعلا مشتملًا على مفسدة أكبر من

(١) ٢٢ الفروسية.

تلك، والحس والوجود شاهد بأن مفسدة الشطرنج وشغلها للقلب وصدها عن ذكر الله وعن الصلاة أعظم من مفسدة النرد، وهي توقع العداوة والبغضاء، لما فيها من قصد كل من المتلاعبين قهر الآخر وأكل ماله، وهذا من أعظم ما يوقع العداوة والبغضاء، فحرم الله سبحانه هذا النوع لاشتماله على ما يبغضه ومنعه مما يحبه.

القسم الثاني عكس هذا، وهو ما فيه مصلحة راجحة، وهو متضمن لما يحبه الله ورسوله، فهو متعين عليه ومفوض إليه، فهذا لا يحرم ولا يؤمر به: كالصراع، والعدو، والسباحة، وشيل الأثقال، ونحوها. فهذا القسم رخص فيه الشارع بلا عوض؛ إذ فيه مصلحة راجحة، وللنفس فيه استراحة وإجمام.

وقد يكون مع القصد الحسن عملًا صالحًا كسائر المباحات التي تصير بالنية طاعات، فاقتضت حكمة الشرع الترخيص فيه لما يحصل فيه من إجمام النفس وراحتها، واقتضت تحريم العوض فيه، إذ لو أباحته بعوض لاتخذته النفوس صناعة ومكسبًا، فالتهت به عن كثير من مصالح دينها ودنياها. فأما إذا كان لعبًا محضًا، ولا مكسب فيه؛ فإن النفس لا تؤثره على مصالح دنياها ودينها، ولا تؤثره عليها إلا النفوس التي خلقت للبطالة.

قالوا: وبهذا التقسيم تتبين حكمة الشرع في إدخاله السبق في الخف، والحافر، والنصل ومنعه فيما عداها وتبين به أن الدخيل لا مصلحة فيه للمتسابقين البتة.

قالوا: وأيضًا فالشرع مبناه على العدل، فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وقد حرم الله سبحانه الظلم على نفسه، وجعله محرمًا بين عباده، والعقود كلها مبناها على العدل بين المتعاقدين: عقود المعاوضات والمشاركات: جائزها ولازمها، وإذا كان مبنى العقد على العدل بين المتعاقدين وحده دون الآخر، وكلاهما في العمل والرغبة سواء، وكل منهما راغب في السبق والكسب، فما الذي جوز البذل لأحدهما دون الآخر.

[(١)]فصل في تحرير مذاهب أهل العلم فيما يجوز بذل السبق فيه من المغالبات وما لا يجوز، وعلى أي وجه يجوز؟ وقد تقدم أن المغالبات ثلاثة أقسام:

محبوب مرضي لله ورسوله، معين على تحصيل محابه: كالسباق بالخيل والإبل والرمي بالنشاب.

وقسم مبغوض مسخوط لله ورسوله، موصل إلى ما يكرهه الله ورسوله: كسائر المغالبات التي توقع العداوة والبغضاء، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة: كالنرد والشطرنج وما أشبههما.

وقسم ليس بمحبوب لله ولا مسخوط له، بل هو مباح لعدم المضرة الراجحة: كالسباق على الأقدام والسباحة وشيل الأحجار والصراع ونحو ذلك.

فالنوع الأول: يشرع مفردا عن الرهن ويشرع فيه كل ما كان أدعى إلى تحصيله، فيشرع فيه بذل الرهن من هذا وحده، ومنهما معًا، ومن الأجنبي، وأكل المال به، أكل بحق ليس أكلًا بباطل، وليس من القمار والميسر في شيء.

والنوع الثاني: محرم وحده ومع الرهان، وأكل المال به؛ ميسر وقمار كيف كان؛ سواء كان من أحدهما، أو من كليهما، أو من ثالث. وهذا باتفاق المسلمين.

فأما إن خلا عن الرهان؛ فهو أيضًا حرام عند الجمهور: نردًا كان أو شطرنجًا. هذا قول مالك وأصحابه وأبي حنيفة وأصحابه وأحمد وأصحابه وقول جمهور التابعين ولا يحفظ عن صحابي حله.

وقد نص الشافعي على تحريم النرد، وتوقف في تحريم الشطرنج، فلم يجزم بتحريمه وذكر أنه لم يتبين له تحريمه، ولهذا اختلف أصحابه في الشطرنج، فمنهم من حرمه، ومنهم من كرهه ولم يحرمه.

ومن حرمه وبالغ في تقرير تحريمه أبو عبد الله الحليمي.

---

(١) ٦٠ الفروسية.

والشافعي نص على تحريم النرد الخالي عن العوض، وتوقف في الشطرنج الخالي عن العوض فمن أصحابه من طرد توقفه في النرد أيضًا، وقال: إذا خلا عن العوض؛ لم يحرم كالشطرنج، وهذا محض القياس، لأن مفسدة الشطرنج أعظم من مفسدة النرد بكثير، فإذا لم تنهض مفسدة الشطرنج للتحريم فالنرد أولى.

ومنهم من طرد نصه في تحريم النرد، وعداه إلى الشطرنج، وهذا أصح تخريجًا ودليلًا؛ فإن مفسدة الشطرنج أعظم من مفسدة النرد، وكل ما يدل على تحريم النرد بغير عوض فدلالته على تحريم الشطرنج بطريق أولى.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»[١] وفي الموطأ والسنن من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله»[٢].

وتحرير المسألة وفقهها: أن الله سبحانه لما حرم الميسر:

هل هو لأجل ما فيه من المخاطرة المتضمنة لأكل المال بالباطل؟ فعلى هذا إذا خلا عن العوض؛ لم يكن حرامًا؛ فهذا طرد من طرد ذلك الأصل، وقال: إذا خلا النرد والشطرنج عن العوض لم يكونا حرامًا؛ لكن هذا القول خلاف النص والقياس، كما سنذكره.

أو حرمه لما يشتمل عليه في نفسه: من المفسدة وإن خلا عن العوض، فتحريمه من جنس تحريم الخمر، فإنه يوقع العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وأكل المال، وفيه عون وذريعة إلى الإقبال عليه واشتغال النفوس به؟ فإن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٦٠) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٣٦) وشرح النووي (١٥/ ١٥).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٣/ ١٨١ رقم ٥٨٧٢) وأبو داود (رقم ٤٩٣٨) وابن ماجه (رقم ٣٧٦٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢١٤ رقم ٢٠٧٣٩) ومالك (٢/ ٩٥٨ رقم ١٧١٨) وأبو يعلى (١٣/ ٢٧٤ رقم ٧٢٩٠) وأحمد (٤/ ٣٩٤) والطيالسي (رقم ٥١٠) وعبد بن حميد (رقم ٥٤٧) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ٢٠٨) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٥٥).

الداعي حينئذ يقوى من وجهين:

من جهة المغالبة، ومن جهة أكل المال، فيكون حرامًا من الوجهين.

وهذا المأخذ أصح نصًا وقياسًا، وأصول الشريعة وتصرفاتها؛ تشهد له بالاعتبار.

فإن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩٢].

فقرن الميسر بالأنصاب والأزلام والخمر، وأخبر أن الأربعة رجس، وأنها من عمل الشيطان، ثم أمر باجتنابها، وعلق الفلاح باجتنابها.

ثم نبه على وجوه المفسدة المقتضية للتحريم فيها، وهي ما يقوعه الشيطان بين أهلها من العداوة والبغضاء ومن الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

وكل أحد يعلم أن هذه المفاسد ناشئة من نفس العمل، لا من مجرد أكل المال به، فتعليل التحريم بأنه متضمن لأكل المال بالباطل تعليل بغير الوصف المذكور في النص وإلغاء للوصف الذي نبه النص عليه وأرشد إليه، وهذا فاسد من الوجهين:

يوضحه أن السلف الذين نزل القرآن بلغتهم سموا نفس الفعل ميسرًا، لا أكل المال به، فقال غير واحد من السلف: الشطرنج ميسر العجم.

وصنف أبو محمد بن قتيبة كتابًا في الميسر، وذكر فيه أنواعه وأصنافه وعدها.

ومعلوم أن أكل المال به يكون أكلًا له بالباطل؛ لأنه أكل بعمل محرم في نفسه: فالمال حرام، والعمل حرام؛ بخلاف أكله بالنوع الأول؛ فإنه أكل بحق فهو حلال والعمل طاعة.

وأما النوع الثالث وهو المباح: فإنه وإن حرم أكل المال به فليس لأن في العمل

مفسدة في نفسه وهو حرام؛ بل لأن تجويز أكل المال به ذريعة إلى اشتغال النفوس به واتخاذه مكسبًا، لاسيما وهو من اللهو واللعب الخفيف على النفوس، فتشتد رغبتها فيه من الوجهين. فأبيح في نفسه؛ لأنه إعانة وإجمام للنفس وراحة لها، وحرم أكل المال به؛ لئلا يتخذ عادة وصناعة ومتجرًا. فهذا من حكمة الشريعة، ونظرها في المصالح والمفاسد ومقاديرها.

يوضح هذا: أن الله سبحانه حرم الخمر: قليلها وكثيرها، ما أسكر منها وما لم يسكر، لأن قليلها يدعو إلى كثيرها، الذي يغير العقل، ويوقع في المفاسد، التي يريد الشيطان أن يوقع العباد فيها، ويمنع عن الإصلاح الذي يحبه الله ورسوله، فتحريم كثيرها من باب تحريم الأسباب الموقعة في الفساد، وتحريم قليلها من باب سد الذرائع.

وإذا تأملت أحوال هذه المغالبات رأيتها في ذلك كالخمر: قليلها يدعو إلى كثيرها، وكثيرها يصد عما يحبه الله ورسوله، ويوقع فيما يبغضه الله ورسوله، فلو لم يكن في تحريمها نص لكانت أصول الشريعة وقواعدها وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح وعدم الفرق بين المتماثلين توجب تحريم ذلك والنهي عنه.

فكيف والنصوص قد دلت على تحريمه، فقد اتفق على تحريم ذلك النص والقياس.

وقد سمى علي بن أبي طالب الشطرنج تماثيل فمر بقوم يلعبون بها، فقال: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟»[1] وقلب الرقعة عليهم، ولا يعلم أحد من الصحابة أحلها ولا لعب بها، وقد أعاذهم الله من ذلك.

وكل ما نسب إلى أحد منهم من أنه لعب بها كأبي هريرة، افتراء وبهت على

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٣٦١ رقم ٧٤٤) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢١٢ رقم ٢٠٧١٨) وفي شعب الإيمان (٥/ ٢٤١ رقم ٦٥١٨)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٧ رقم ٢٦١٥٨) وابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٢٤) وحسنه محقق الأحاديث المختارة، وانظر: المحلى (٩/ ٦١-٦٣).

الصحابة، ينكره: كل عالم بأحوال الصحابة وكل عارف بالآثار.

وكيف خير القرون، وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ يبيح اللعب بشيء، صدُّه عن ذكر الله وعن الصلاة؛ أعظم من صد الخمر إذا استغرق فيه لاعبه، والواقع شاهد بذلك؟

وكيف يحرم الشارع النرد ويبيح الشطرنج، وهو يزيد عليه مفسدة بأضعاف مضاعفة؟

وكيف يظن برسول الله ﷺ وأصحابه إباحة ميسر العجم، وهو أبغض إلىٰ الله ورسوله من ميسر العرب؛ بل الشطرنج سلطان أنواع الميسر.

وإذا كان اللاعب بالنرد كغامس يده في لحم خنزير ودمه، فكيف حال اللاعب بالشطرنج؟ وهل هذا إلا من باب التنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ؟

وإذا كان من لعب بالنرد عاصيًا لله ورسوله مع خفة مفسدة النرد، فكيف تسلب المعصية لله ورسوله عن صاحب الشطرنج مع: عظم مفسدتها، وصدها عما يحب الله ورسوله، وأخذها بفكر لاعبها، واشتغال قلبه وجوارحه وضياع عمره، ودعاء قليلها إلىٰ كثيرها مثل دعاء قليل الخمر إلىٰ كثيرها، ورغبة النفوس فيها بالعوض فوق رغبتها فيها بلا عوض؟ فلو لم يكن في اللعب فيها مفسدة أصلًا غير أنها ذريعة قريبة الإيصال إلىٰ أكل المال الحرام بالقمار؛ لكان تحريمها متعينًا في الشريعة كيف وفي المفاسد الناشئة من مجرد اللعب بها؛ ما يقتضي تحريمها؟

وكيف يظن بالشريعة أنها تبيح ما يلهي القلب ويشغله أعظم شغل عن مصالح دينه، ويورث العداوة والبغضاء بين أربابها، وقليلها يدعو إلىٰ كثيرها، ويفعل بالعقل والفكر كما يفعل المسكر وأعظم؟!

ولهذا يصير صاحبها عاكفًا عليها كعكوف شارب الخمر علىٰ خمره أو أشد؛ فإنه لا يستحيي ولا يخاف، كما يستحيي شارب الخمر، وكلاهما مشبه بالعاكف علىٰ الأصنام. أما صاحب الشطرنج فقد صح عن علي عليه السلام أنه شبهه بالعاكف علىٰ التماثيل.

وأما صاحب الخمر ففي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «**شارب الخمر كعابد وثن**»[١].

وقد صح النهي عنها عن: عبدالله بن عباس، وعن عبدالله بن عمر، ولا يعلم لهما في الصحابة مخالف في ذلك البته، واتفق على تحريمها الأئمة الثلاثة وأتباعهم.

والشافعي لم يجزم بإباحتها فلا يجوز أن يقال: مذهب الشافعي إباحتها، فإن هذا كذب عليه بل قال: وأما الشطرنج فلم يتبين لي تحريمها. فتوقف ﷺ في التحريم، ولم يفتِ بالإباحة، ثم اختلف المحرمون لها: هل هي أشد تحريمًا من النرد، أو النرد أشد تحريمًا منها.

فصح عن ابن عمر أنه قال: الشطرنج شر من النرد[٢]. ونص مالك على ذلك، وقال الإمام أحمد وأبو حنيفة: النرد أشد تحريمًا منها[٣].

قال شيخ الإسلام: وكلا القولين صحيح باعتبار، فإن الغالب على النرد اشتمالها على عوض بخلاف الشطرنج، فالنرد بعوض شر من الشطرنج الخالي عن العوض. وأما إذا اشتملا جميعا على العوض أو خلوا عنه فالشطرنج شر من النرد، فإنها تحتاج إلى فكر يلهي قلب صاحبها أكثر مما يحتاج إليه النرد، ولهذا يقال: إنها مبنية على مذهب القدر، والنرد مبنية على مذهب الجبر، فمضرتها بالعقل والدين أعظم من مضرة النرد، ولكن إذا خلوا عن العوض كان تحريمهما من جهة العمل، وإذا اشتملا على العوض صار تحريمهما من الوجهين: من جهة العمل، ومن جهل أكل المال

---

(١) أخرجه الضياء في ا لأحاديث المختارة (١٠/ ٣٣٠ رقم ٣٥٦) وابن حبان (١٢/ ١٦٧ رقم ٥٣٤٧) وابن ماجه (رقم ٣٣٧٥) وأحمد (١/ ٢٧٢) والبزار (٦/ ٣٦٧ رقم ٢٣٨٢) وعبد بن حميد (رقم ٧٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٧٧ رقم ٣٥٦٣): رواه أحمد هكذا ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٧٠) رواه البزار، وفيه فطر بن خليفة وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر.

(٢) انظر: الاستذكار (٨/ ٤٦٢) والتمهيد (١٣/ ١٧٩).

(٣) انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٤٨٤).

بالباطل، فتصير بمنزلة لحم الخنزير الميت.

قال أحمد: هو حرام من وجهين، فإن غصبه أو سرقه من نصراني صار حرامًا من ثلاثة أوجه، فالتحريم يقوى ويضعف بحسب قوة المفاسد وضعفها وبحسب تعدد أسبابه.

إذا عرف هذا فاتفق الناس على تحريم أكل العوض في هذا النوع، وعلى تحريم المغالبة فيه بالرهان، واتفقوا على جواز أكل المال بسباق الخيل والإبل والنصال من حيث الجملة، وإن اختلفوا في كيفية الجواز وتفصيله على ما سنذكره.

واختلفوا في مسائل: هل هي ملحقة بهذا أو هذا؟ ونحن نذكرها:

المسألة الأولى: اختلفوا في جواز المسابقة على البغال والحمير بعوض، فقال الإمام أحمد ومالك والشافعي في أحد قوليه، والزهري: لا يجوز ذلك.

وقال أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر: يجوز.

المسألة الثانية: اختلفوا في المسابقة على الحمام والفيل والبقر بعوض، فمنعه أحمد ومالك وأكثر الشافعية، وأجازه أصحاب أبي حنيفة وبعض الشافعية وبعض أصحاب أحمد في الحمام الناقلة للأخبار.

المسألة الثالثة: هل يجوز العوض في المسابقة على الأقدام؟ فمنعه مالك، وأحمد والشافعي في المنصوص عنه صريحًا، وأجازه الحنفية وبعض الشافعية، وهو مخالف لنص الإمام.

المسألة الرابعة: هل يجوز العوض في المسابقة بالسباحة؟ منعه الأكثرون، وجوزه بعض الشافعية والحنفية.

المسألة الخامسة: الصراع، منع أحمد ومالك وبعض أصحاب الشافعي العوض فيه، وهو مقتضى نص الشافعي في منعه العوض في المسابقة بالأقدام وجوزه بعض أصحابه وأصحاب أبي حنيفة.

المسألة السادسة: المشابكة بالأيدي لا تجوز بعوض عند الجمهور، وفيها وجه

للشافعية بالجواز، ومقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة جوازه، فإنهم يجوزوه في الصراع والمسابقة بالأقدام والمغالبة في مسائل العلم.

المسألة السابعة: المسابقة بالسيف والرمح والعمود، منعها بعوض مالك وأحمد، وجوزها أصحاب أبي حنيفة، وللشافعية فيها وجهان.

المسألة الثامنة: المسابقة بالمقاليع على العوض، منعها الجمهور، وللشافعية فيها وجه، ومقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة الجواز.

المسألة التاسعة: المغالبة بشيل الأثقال كالحجارة والعلاج، فالجمهور لا يجوزون العوض فيها، ومن جوزه على المشابكة والسباحة والصراع والأقدام فمقتضى قوله الجواز هنا، إذ لا فرق.

المسألة العاشرة: المثاقفة لا تجوز بعوض عند الجمهور، وأباحها بعض الشافعية، وهو مقتضى مذهب أصحاب أبي حنيفة.

المسألة الحادية عشرة: المسابقة على حفظ القرآن والحديث والفقه وغيره من العلوم النافعة والإصابة في المسائل: هل تجوز بعوض؟ منعه أصحاب مالك وأحمد والشافعي، وجوزه أصحاب أبي حنيفة وشيخنا، وحكاه ابن عبد البر عن الشافعي، وهو أولى من الشباك والصراع والسباحة، فمن جوز المسابقة عليها بعوض فالمسابقة على العلم أولى بالجواز، وهي صورة مراهنة الصديق لكفار قريش على صحة ما أخبرهم به وثبوته.

وقد تقدم أنه لم يقم دليل شرعي على نسخه، وأن الصديق أخذ رهنهم بعد تحريم القمار، وأن الدين قيامه بالحجة والجهاد، فإذا جازت المراهنة على آلات الجهاد، فهي في العلم أولى بالجواز، وهذا القول هو الراجح.

المسألة الثانية عشرة: المسابقة بالسهام على بعد الرمي لا على الإصابة، فأيهما كان أبعد مدى كان هو الغالب، منعها بالعوض أصحاب أحمد والشافعي، ويلزم من جوازها في المسابقة بالأقدام والسباحة والمصارعة جوازها هنا، بل هي أولى بالجواز،

فإن المقصود بالرمي أمران: البعد والإصابة. فالبعد أحد مقصوديه، والسبق به من جنس السبق بالخيل والإبل.

وبكل حال هو أولى من سائر الصور التي قاسوها على مورد النص بالجواز، وظاهر الحديث يقتضيه، فإنه أثبت السبق في النصل، كما أثبته في الخف والحافر، هذا يقتضي أن يكون السبق به كالسبق بهما، فإما أن يقال يقتضي الإصابة دون السبق في الغاية، فكلا. وهو في اقتضائهما معًا أظهر من الاقتصار على الإصابة فقط، والله أعلم.

فصل في مأخذ هذه الأقوال: وهي نوعان: لفظي ومعنوي. فاللفظي: الاقتصار على ما أثبته النص بعد النفي العام، وهي الثلاثة المذكورة في الحديث فقط، فلا يجوز في غيرها.

وهؤلاء جعلوا أكل المال بهذه الثلاثة مستثنى من جميع أنواع المغالبات، وقالوا: ليس غيرها في معناها حتى يلحق بها، فإن سائر هذه الأنواع المذكورة لا يتضمن ما تتضمنه هذه الثلاثة من: الفروسية وتعلم أسباب الجهاد واعتيادها وتمرين البدن عليها، فأين هذه من السباحة والمشابكة والسعي والصراع والعلاج واللعب بالحمام، فلا نص ولا قياس.

قالوا: ويوضح هذا أن الخيل والإبل هي التي عهدت المسابقة عليها بين الصحابه في عهد رسول الله ﷺ، ولم يسابق على بغل ولا حمار قط، لا هو ولا أحد من أصحابه مع وجود الحمير والبغال عندهم، والخيل هي التي تصلح للكر والفر ولقاء العدو وفتح البلاد.

وأما أصحاب الحمير فأهل الذلة والقلة، ولا منفعة بهم في الجهاد البتة. فقياسها على الخيل من أفسد القياس، وفهم حوافرها من حوافر الخيل من أبعد الفهم.

الخيل هي التي يسهم لها في الجهاد دون البغال والحمير.

وهي التي أخبر رسول الله ﷺ «**أن الخير معقود بنواصيها إلى يوم القيامة**»[1].

وهي التي ورد الحث عن النبي ﷺ على اقتنائها والقيام عليها.

وأخبر بأن أبوالها وأرواثها في ميزان صاحبها.

وهي التي جعل رسول الله ﷺ تأديبها وتعليمها وتمرينها على الكر والفر من الحق بخلاف غيرها من الحيوانات.

وهي التي أمر الله سبحانه المؤمنين برباطها إعدادًا لعدوه، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وهي التي ضمن العز لأربابها، والقهر لمن عاداهم، فظهورها: عز لهم وحصون ومعاقل.

وهي التي كانت أحب الدواب إلى رسول الله ﷺ، وهي أكرم الدواب وأشرفها نفوسًا، وأشبهها طبيعة بالنوع الإنساني.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

[2]أما رميه بيده الكريمة ﷺ، فقال ابن إسحاق في المغازي: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه يوم أحد، حتى اندقت سنها، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فحدثني عاصم بن عمر أن رسول الله ﷺ ردها بيده، فكانت أحسن عينيه، وأحَدَّهما[3].

وأما طعنه بالحربة، وهي رمح قصير، ففي مغازي موسى بن عقبة وابن إسحاق

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٧٢) وانظر: شرح النووي (١٣/ ١٦).

(٢) ١٦ الفروسية.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٩/ ٢٨٢).

والأموي وغيرها: أنه لما كان يوم أحد وأسند رسول الله ﷺ إلى الجبل أدركه أبي بن خلف، وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، قال ابن إسحاق: وكان أبي بن خلف كما حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد إن عندي العود ـ فرسًا له ـ أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة، أقتلك عليها فيقول: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**» قال موسى بن عقبة: قال سعيد بن المسيب: فلما أدرك أبي رسول الله ﷺ اعترض له رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا طريقه، واستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة في سابغة الدرع والبيضة، فطعنه بحربته، فوقع أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فكسر ضلعًا من أضلاعه، فلما رجع إلى قريش، وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد. قالوا له: ذهب والله فؤادك، إنه ما كان بك من بأس، قال: إنه كان قد قال لي بمكة: «**أنا أقتلك**» فوالله لو بصق عليَّ لقتلني. فمات عدو الله بسرف، وهم قافلون إلى مكة. قال ابن عقبة في هذا الحديث: «قال والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون»[(١)].

وقد ذكر الله ﷻ الرماح في كتابه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (٤/ ١١١-١١٢) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) وسعيد بن منصور (رقم ٢٣٧٠) وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢ رقم ١٩٤٠١) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ١٣٥ رقم ٢١٦) وعبد بن حميد (رقم ٨٤٨) وابن المبارك في الجهاد =

وفي سنن ابن ماجه عن علي بن أبي طالب قال: كانت بيد رسول الله ﷺ قوس عربية، فرأى رجلًا بيده قوس فارسية، فقال: «**ما هذه؟ ألقها، وعليك بهذه وأشباهها ورماح القناة؛ فإنهما يزيد الله بهما في الدين، ويمكن لكم في البلاد**»[1] والرماح للمقاتلة بمنزلة الصياصي للوحوش، تدفع بها من يقصدها وتحارب بها، وقد نص الإمام أحمد على أن العمل بالرمح أفضل من الصلاة النافلة في الأمكنة التي يحتاج فيها إلى الجهاد.

والفروسية تظهر في ثلاثة أشياء: ركوب الخيل والمسابقة عليها، ورمي النشاب، واللعب بالرمح. وهو بنود كثيرة، ومبناه: التبطيل، والنقل، والتسريح، والنشل والطعن والدخول والخروج، ومداره على أصلين: الطعن والتبطيل، فالشجاع الخبير الذي لا يطعن في موطن التبطيل، ولا يبطل في موضع الطعن، بل يعطي كل حال ما يليق به، ويعرف حكم ملازقة القرن، ومفارقته ومحاربته ومضايقته وهزله وجده وأخذه ورده وطلوعه ونزوله وكره وفره، ويعطي كل حال من هذه الأحوال كفوها، وما يليق بها ويكون عارفًا بالدخول والخروج، ومواضع الطعن والضرب والإقدام والإحجام، واستعمال الطعن الكاذب في موضعه، والصادق في موضعه والاستدارة عند المجاولة يمينًا وشمالًا، وإعمال الكف حال دخول القرن على قرنه في الخروج منه والدخول عليه، فلا يشغله أحدهما عن الآخر.

ولما كان الجلاد بالسيف والسنان، والجدال بالحجة ولبرهان: كالأخوين الشقيقين والقرينين المتصاحبين، كانت أحكام كل واحد منهما شبيهة بأحكام الآخر،

=

(رقم ١٠٥) وأخرج آخره أبو داود (رقم ٤٠٣١) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٧٥ رقم ٨٣٢٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٩٨) (١٠/ ٢٧١).

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٨١٠) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٤ رقم ١٩٥١٨) والطبراني في الكبير (١٧/ ١٤١ رقم ٣٥١) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٧٣) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٦٧): رواه الطبراني وفي إسناده مساتير لم يضعفوا ولم يثقوا، بينما ضعف إسناده في مصباح الزجاجة (٣/ ١٦٦ رقم ٥٩٩).

ومستفادة منه، فالإصابة في الرمي والنضال: كالإصابة في الحجة والمقال، والطعن والتبطيل نظير إقامة الحجة وإبطال حجة الخصم، والخروج نظير الإيراد، والاحتراز منه وجواب الخصم والقرن عند دخوله عليك: كجواب الخصم عما يورده عليك.

فالفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان.

ولما كان أصحاب النبي ﷺ أكمل الخلق في الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان، وما الناس إلا هؤلاء الفريقان، ومن عداهما فإن لم يكن ردءًا وعونًا لهما؛ فهو كَلٌّ على نوع الإنسان.

وقد أمر الله ﷻ رسوله: بجدال الكفار والمنافقين، وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين، فعلم الجدال والجلاد من أهم العلوم، وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء، والرفعة وعلو المنزلة في الدارين إنما هي لهاتين الطائفتين، وسائر الناس رعية لهما منقادون لرؤسائهما.

***

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧﴾.

[1]فيها جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]، وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٩٦]، وقد صح: عن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن عباس، وجماعة من الصحابة «أن صيد البحر: ما صيد منه، وطعامه: ما مات فيه»[2] وفي السنن: عن ابن عمر مرفوعًا

(١) ٣٨١ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٦٣، ٦٥، ٦٨) والبخاري تعليقًا عن عمر رضي الله عنه في كتاب الذبائح والصيد، باب قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ (ص ١٠٨٤) والبيهقي في الكبرى =

وموقوفًا: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد...»[١] الحديث.

[٢]وقال تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧] فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر: أن يذكر، وأن يشكر، يذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره، فذكره سبب لذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله، فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وإنابة، وللسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة.

[٣]إنه سبحانه أخبر أنه: خلق الخلق، ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد؛ ليعلم عباده أنه: بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١٢] فدل على أن: علم العباد بربهم وصفاته، وعبادته وحده؛ هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر.

[٤]ومنه قوله: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ

=

(٩/ ٢٥٣ رقم ١٨٧٤٩) والدارقطني (٤/ ٢٧٠ رقم ٢٠، ٢١) وسعيد بن منصور (رقم ٨٣٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦١٥) وشرح النووي (١٣/ ٨٦).

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١/ ٢٥٤ رقم ١١٢٨) (١٠/ ٧ رقم ١٩٤٨١) والشافعي في مسنده (ص ٣٤٠) وفي الأم (٢/ ٢٣٣) وأحمد (٢/ ٩٧) وعبد بن حميد (رقم ٨٢٠) وصححه البيهقي موقوفًا، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٦٢١): أخرجه أحمد والدارقطني مرفوعًا وقال: إن الموقوف أصح، ورجح البيهقي أيضًا الموقوف إلا أنه قال: إن له حكم الرفع، وانظر: تحفة الأحوذي (٥/ ٤٤٥).

(٢) ١٢٨ الفوائد.

(٣) ٥١ مفتاح جـ١.

(٤) ٢٠٣ شفاء.

وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧] فذكر صفة العلم التي اقتضت تخصيص هذا المكان، وهذا الزمان بأمر اختصا به دون سائر الأمكنة والأزمنة.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

...[(١)] قال أبو عمر: وروى جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل: عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة؛ حتى قبض ﷺ، كلهن في القرآن: يسألونك عن المحيض، يسألونك عن الشهر الحرام، يسألونك عن اليتامى. ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم[(٢)]. قال أبو عمر: ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث.

قلت: ومراد ابن عباس بقوله: «ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة» المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم، وإلا فالمسائل التي سألوه عنها وبين لهم أحكامه بالسنة لا تكاد تحصى، ولكن إنما كانوا يسألونه عما ينفعهم من الواقعات، ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات وعضل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها، بل كانت هممهم مقصورة على تنفيذ ما أمرهم به، فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه فأجابهم، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ

(١) ٧١ أعلام جـ١.
(٢) أخرجه الضياء في المختارة (١٠/ ٢٨٠ رقم ٢٩٣) والدارمي (رقم ١٢٥) والطبراني في الكبير (١١/ ٤٥٤ رقم ١٢٢٨٨).

لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

وقد اختلف في هذه الأشياء المسئول عنها: هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية؟ على قولين: فقيل: إنها أحكام شرعية عفا الله عنها، أي سكت عن تحريمها، فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها، ولو لم يسألوا لكانت عفوًا.

ومنه قوله ﷺ وقد سئل عن الحج: أفي كل عام؟ فقال: «**لو قلت نعم لوجبت، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**»(١). ويدل على هذا التأويل حديث أبي ثعلبة المذكور: «**إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرمًا**...»(٢) الحديث.

ومنه الحديث الآخر: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»(٣) وفسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية.

كقول عبد الله بن حذافة: «من أبي يا رسول الله؟»(٤). وقول آخر: «أين أبي يا رسول الله؟» قال: «**في النار**»(٥).

والتحقيق أن الآية تعم النهي عن النوعين.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٣٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٦٠-٢٦٩) وشرح النووي (٩/ ١٠٠-١٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٨٩) ومسلم (رقم ٢٣٥٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦٢) (١٣/ ٢٦٨) وشرح النووي (١٥/ ١١٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢ رقم ١٩٥٠٩) والدارقطني (٤/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٤٢) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٦٥-٢٦٦ رقم ٧٤٦١) وفي الصغير (رقم ١١١١) وفي الكبير (٢٢/ ٢٢١-٢٢٢ رقم ٥٨٩) وحسنه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٥) وحسنه أيضًا النووي في رياض الصالحين (ص ٤١٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٩٢، ٩٣) ومسلم (رقم ٢٣٥٩، ٢٣٦٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٤) وعمدة القاري (٢/ ١١٣-١١٤).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ٢٠٣) وانظر: شرح النووي (٣/ ٧٩).

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ أما في أحكام الخلق والقدر فإنه يسؤهم أن يبدو لهم ما يكرهونه مما سألوا عنه، وأما في أحكام التكليف فإنه يسؤهم أن يبدو لهم ما يشق عليهم تكليفه مما سألوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن القرآن إذا نزل بها ابتداء بغير سؤال فسألتم عن تفصيلها وعلمها أبدى لكم وبين لكم، والمراد بحين النزول زمنه المتصل به، لا الوقت المقارن للنزول، وكأن في هذا إذنا لهم في السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله، ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقًا.

والقول الثاني: إنه من باب التهديد والتحذير، أي ما سألتم عنها في وقت نزول الوحي، جاءكم بيان ما سألتم عنه بما يسؤكم، والمعنى: لا تتعرضوا للسؤال عما يسؤكم بيانه، وإن تعرضتم له في زمن الوحي أبدي لكم.

وقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي: عن بيانها خبرًا وأمرًا بل طوى بيانها عنكم رحمة ومغفرة وحلمًا، والله غفور حليم.

فعلى القول الأول عفا الله عن التكليف بها توسعة عليكم. وعلى القول الثاني عفا الله عن بيانها لئلا يسؤكم بيانها.

وقوله: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ أراد نوع تلك المسائل لا أعيانها، أي قد تعرض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل، فلما بينت لهم كفروا بها، فاحذروا مشابهتهم والتعرض لما تعرضوا له.

ولم ينقطع حكم هذه الآية، بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه، بل يستعفي ما أمكنه ويأخذ بعفو الله.

ومن ههنا قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا صاحب الميزاب لا تخبرنا[1]. لما سأله

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١/ ٢٥٠ رقم ١١١٤) والدارقطني (١/ ٣٢ رقم ١٨) وعبد الرزاق في =

رفيقه عن مائه: أطاهر أم لا؟

وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره، فلعله يسوءه إن أبدي له، فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله، فإنه سبحانه يكره إبداءها، ولذلك سكت عنها، والله أعلم.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

(١)سأله ﷺ، أبو ثعلبة عن قوله تعالىٰ: الآية. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] فقال: «**ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر؛ حتىٰ إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوىً متَّبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه: فعليك بنفسك، ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض علىٰ الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين يعملون مثل عملكم**»(٢) ذكره أبو داود.

...(٣)بعث الله رسله، وأنزل كتبه بالإنكار علىٰ الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها؛ فبهذا أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وانقسمت الدار إلىٰ دار سعادة للمنكرين ودار شقاوة للمنكر عليهم، فالطعن في ذلك طعن في الرسل والكتب، والتخلص من ذلك؛ انحلال من ربقة الدين.

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم: وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد

= المصنف (١/ ٧٦ رقم ٢٥٠) ومالك (١/ ٢٣ رقم ٤٣) كلهم بلفظ: يا صاحب الحوض وانظر: تحفة الأحوذي (١/ ١٧٤) وشرح الزرقاني (١/ ٨٣).

(١) ٤١١ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٣٤١) وابن ماجه (رقم ٤٠١٤) والحاكم (٤/٣٥٨ رقم ٧٩١٢) وابن حبان (٢/١٠٨-١٠٩ رقم ٣٨٥) والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ٩١ رقم ١٩٩٨٠) والترمذي (رقم ٣٠٥٨) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢٠ رقم ٥٨٧) وفي مسند الشاميين (١/ ٤٢٨ رقم ٧٥٣) وحسنه الترمذي.

(٣) ١٢٣ مدارج جـ٣.

القيام؛ حتى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم.

وأخبر النبي ﷺ «أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة؛ ليس معه من الإيمان حبة خردل» وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة، حتى قال: «إن الناس إذا تركوه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»(١).

وأخبر: أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار، ويوجب تسلط الأشرار.

وأخبر: أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه، ويحل لعنة الله، كما لعن الله بني إسرائيل على تركه. وهل الجهاد إلا أعلى أنواع الإنكار، وهو جهاد باليد، وجهاد أهل العلم إنكار باللسان...

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

...(٢)قبول شهادتهم على المسلمين في السفر ـ فقد دل عليها صريح القرآن، وعمل بها الصحابة، وذهب إليها فقهاء الحديث، قال صالح بن أحمد قال أبي: لا تجوز شهادة أهل الذمة إلا في السفر، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[المائدة: ١٠٦] فأجازها أبو موسى الأشعري(٣).

(١) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ١٤٦-١٤٧ رقم ٦٠) وابن ماجه (رقم ٤٠٠٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٩١ رقم ١٩٩٧٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (رقم ٦٤) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٣٢ رقم ٢٣٨٤) وأبو يعلى (١/ ١١٩ رقم ١٣١) وأحمد (١/ ٢).

(٢) ١٨٢ الطرق الحكمية.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٦٥ رقم ٢٠٤١٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٧١) وعمدة القاري (١٤/ ٧٤).

وقد روىٰ عن ابن عباس: «أو آخران من غيركم من أهل الكتاب» وهذا موضع ضرورة؛ لأنه في سفر ولا نجد من يشهد من المسلمين، وإنما جاءت في هذا المعنىٰ اهـ.

وقال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد ـ فذكر هذا المعنىٰ ـ قلت: فإن كان ذلك علىٰ وصية المسلمين هل تجوز شهادتهم؟ قال: نعم؛ إذا كان علىٰ الضرورة.

قلت: أليس يقال هذه الآية منسوخة؟ قال: من يقول؟ وأنكر ذلك، وقال: هل يقول ذلك إلا إبراهيم؟ وقال في رواية ابنه عبد الله وحنبل: تجوز شهادة النصراني واليهودي في الميراث، علىٰ ما أجاز أبو موسىٰ في السفر وأحلفه.

وقال في رواية أبي الحارث: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني في شيء؛ إلا في الوصية في السفر إذا لم يكن يوجد غيرهم. قال الله تعالىٰ: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فلا تجوز شهادتهم إلا في هذا الموضع، وهذا مذهب قاضي العلم والعدل شريح، وقول سعيد بن المسيب، وحكاه أحمد عن ابن عباس وأبي موسىٰ الأشعري.

قال المروذي: حدثنا ابن نمير قال: حدثني يعلىٰ بن الحارث، عن أبيه، عن غيلان بن جامع، عن إسماعيل بن خالد عن عامر قال: شهد رجلان من أهل دقوقا(١) علىٰ وصية مسلم. فاستحلفهما أبو موسىٰ بعد العصر: ما اشترينا به ثمنًا قليلًا، ولا كتمنا شهادة الله، إنا إذا لمن الآثمين. ثم قال: إن هذه القضية ما قضي فيها مذ مات رسول الله ﷺ إلىٰ اليوم»(٢).

وذكر محمد بن إسحاق عن أبي النضر عن باذان ـ مولىٰ أم هانئ ـ، عن ابن عباس عن تميم الداري في قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ الآية [المائدة: ١٠٦]. قال: «برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء ـ وكان نصرانيين يختلفان إلىٰ الشام ـ فأتيا الشام وقدم زيد بن أبي مريم ـ مولىٰ بني سهم ـ

---

(١) دقوقاء: بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرىٰ وألف ممدودة ومقصورة: مدينة بين إربل وبغداد معروفة، لها ذكر في الأخبار والفتوح، كان بها وقعة للخوارج، انظر: معجم البلدان (٢/ ٤٥٩).

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٦٦ رقم ٢٣).

ومعه جام من فضة هو أعظم تجارته فمرض، فأوصى إليهما، قال تميم: فلما مات أخذنا الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا دفعنا ماله إلى أهله، فسألوا عن الجام، فقلنا: ما دفع إلينا غير هذا، فلما أسلمت تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، وأديت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به إلى النبي ﷺ فسألهم البينة؟ فلم يجيبوا، فأحلفهم بما يعظم به على أهل دينهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ الآية فحلف عمرو بن العاص وأخو سهم، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء»[1].

***

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

[2]أما رد اليمين: فقال أبو عبيد: حدثونا عن مسلمة بن علقمة عن داود بن أبي هند عن الشعبي: «أن المقداد استسلف من عثمان سبعة آلاف درهم، فلما قضاها أتاه بأربعة آلاف، فقال عثمان: إنها سبعة. فقال المقداد: ما كانت إلا أربعة. فما زالا حتى ارتفعا إلى عمر، فقال المقداد: يا أمير المؤمنين ليحلف أنها كما يقول وليأخذها. فقال عمر: أنصفك. احلف أنها كما تقول وخذها»[3].

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٥٩) وابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ١١٥) وضعفه الترمذي، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٢١) والمحلى (٩/ ٤٠٦).

(٢) ٨٦ الطرق الحكمية.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٨٤ رقم ٢٠٥٢٩) وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ١٧٦-١٧٧) وكذا الزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٠٣) وانظر: المحلى (٩/ ٣٧٧) والمغني (٩/ ٣٨٨).

قال أبو عبيد: فهذا عمر قد حكم برد اليمين، ورأىٰ ذلك المقداد، ولم ينكره عثمان. فهؤلاء ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ عملوا برد اليمين.

حدثنا هشيم، عن حصين بن عبد الرحمن قال: كان شريح يقضي برد اليمين.

وحدثنا يزيد عن هشام عن ابن سيرين عن شريح: أنه كان إذا قضىٰ علىٰ رجل باليمين، فردها علىٰ الطالب فلم يحلف: لم يعطه شيئًا، ولم يستحلف الآخر(١).

وحدثنا عباد بن العوام عن الأشعث عن الحكم بن عتبة عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أن أباه كان إذا قضىٰ علىٰ رجل باليمين فردها علىٰ الذي يدَّعي، فأبىٰ أن يحلف، لم يجعل له شيئًا، وقال: لا أعطيك ما لا تحلف عليه(٢).

قال أبو عبيد: علىٰ أن رد اليمين له أصل في الكتاب والسنة.

فالذي في الكتاب قول الله تعالىٰ: ﴿ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٍ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٦]. ثم قال: ﴿ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٧، ١٠٨].

وأما السنة فحكم رسول الله ﷺ في القسامة بالأيمان علىٰ المدعين، فقال: «تستحقون دم صاحبكم بأن يقسم منكم خمسون: أن يهود قتلته». فقالوا: كيف نقسم علىٰ شيء لم نحضره؟ قال: «فيحلف لكم خمسون من يهود ما قتلوه»(٣) قال: فردها رسول الله ﷺ علىٰ الآخرين بعد أن حكم بها للأولين، فهذا هو الأصل في رد اليمين.

---

(١) انظر: المدونة (١٣/ ١٧٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٥٥٢ رقم ٢٣٠٦٤) وانظر: المحلىٰ (٩/ ٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣١٧٣) ومسلم (رقم ١٦٦٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٣٤-٢٣٧).

قلت: وهذا مذهب الشافعي ومالك، وصوبه الإمام أحمد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ورضي عنه: وليس المنقول عن الصحابة ﷺ في النكول ورد اليمين بمختلف، بل هذا له موضع، وهذا له موضع، فكل موضع أمكن المدعى معرفته والعلم به، فرد المدعى عليه اليمين؛ فإنه إن حلف استحق وإن لم يحلف لم يحكم له بنكول المدعى عليه، وهذا كحكومة عثمان والمقداد، فإن المقداد قال لعثمان: «احلف أن الذي دفعته إلي كان سبعة آلاف وخذها»، فإن المدعي هنا يمكنه معرفة ذلك والعلم به، كيف وقد ادعى به؟ فإذا لم يحلف لم يحكم له إلا ببينة أو إقرار.

وأما إذا كان المدعي لا يعلم ذلك، والمدعى عليه هو المنفرد بمعرفته، فإنه إذا نكل عن اليمين حكم عليه بالنكول، ولم ترد على المدعي كحكومة عبد الله بن عمر وغريمه في الغلام، فإن عثمان قضى عليه «أن يحلف أنه باع الغلام وما به داء يعلمه». وهذا يمكن أن يعلمه البائع، فإنه إنما استحلفه على نفي العلم أنه لا يعلم به داء، فلما امتنع من هذه اليمين قضى عليه بنكوله.

وعلى هذا: إذا وجد بخط أبيه في دفتره: أن له على فلان كذا وكذا، فادعى به عليه فنكل، وسأله إحلاف المدعي: أن أباه أعطاني هذا أو أقرضني إياه، لم ترد عليه اليمين، فإن حلف المدعى عليه وإلا قضى عليه بالنكول، لأن المدعى عليه يعلم ذلك، وكذلك لو ادعى عليه أن فلانا أحالني عليك بمائة، فأنكر المدعى عليه، ونكل عن اليمين، وقال للمدعي: أنا لا أعلم أن فلانا أحالك، ولكن احلف وخذ. فههنا إن لم يحلف لم يحكم له بنكول المدعى عليه.

وهذا الذي اختاره شيخنا رحمه الله، هو فصل النزاع في النكول ورد اليمين، وبالله التوفيق.

***

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا

وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

(١) جاء في دعاء المسيح: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [المائدة: ١١٤].

فذكر الأمرين ولم يجيء في القرآن سواه، ولا رأيت أحدًا تعرض لهذا ولا نبه عليه، وتحته سر عجيب دال على: كمال معرفة المسيح بربه، وتعظيمه له؛ فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [المائدة: ١١٢] فخوفهم بالله، وأعلمهم: أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه، وأن الإيمان يرده؛ فلما ألحوا في الطلب، وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يجابوا إلى ما سألوا؛ بدأ في السؤال باسم (اللهم) الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصوره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها، وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة؛ إنما هو: أن يثني على الرب بذلك، ويمجده به، ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته، ويكون برهانًا على صدق رسوله؛ فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء على الله؛ أمر يحسن معه الطلب، ويكون كالعذر فيه؛ فأتى بالاسمين: اسم الله الذي يثني عليه به، واسم الرب الذي يدعى ويسأل به؛ لما كان المقام مقام الأمرين.

فتأمل هذا السر العجيب، ولا ينب عنه فهمك؛ فإنه من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه، وله الحمد.

وأما السلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب، فقد ذكرنا سره في الوجه الذي قبل هذا، فالعهد به قريب.

***

(١) ١٩٤ بدائع جـ٢.

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

(١)تأمل أحوال الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، مع الله، وخطابهم، وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟

قال المسيح ﵇: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة: ١١٦]. ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ ثم برأ نفسه عن علمه: بغيب ربه، وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦] ثم نفى أن يكون قال لهم يغر ما أمره ربه به ـ وهو محض التوحيد ـ فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المبائدة: ١١٦]، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع لـه عليهم، وأن الله ﷻ وحده هـو المنفرد بعد ا لوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثم قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي: شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك، فإذا عذبتهم ـ مع كونهم عبيدك ـ

---

(١) ٣٧٨ مدارج جـ٢.

فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له؛ لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحسانًا عبيده؟ لولا فرط عتوّهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم؛ فإذا عذبتهم، عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية؛ وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل: «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم، فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه، الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين: لكمال القدرة، وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم؛ ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره: لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب[1].

***

(١) تقدم في سورة الفاتحة ص (٦٣) ما له صلة بهذا البحث يحسن الرجوع إليه. (ج).

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾.

(١)وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣٣] فالذي جاء بالصدق؛ هو من شأنه الصدق في: قوله، وعمله، وحاله، فالصدق، في هذه الثلاثة:

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان علىٰ الأقوال: كاستواء السنبلة علىٰ ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس علىٰ الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح علىٰ: الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به، تكون صديقيته.

ولذلك كان لأبي بكر الصديق ﷺ وأرضاه؛ ذروة سنام الصديقية، سمي «الصديق» علىٰ الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلىٰ مراتب الصدق؛ مرتبة الصديقية، وهي: كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل.

(٢)وقال تعالىٰ في آخر سورة المجادلة: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال في آخر سورة ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨].

---

(١) ٢٧٠ مدارج جـ٢.

(٢) ١٨٧ مدارج جـ٢.

فتضمنت هذه الآيات؛ جزاءهم على: صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة، ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم، بأن ﷻ فأرضاهم؛ فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هذا بعد: الرضا به ربًا، وبمحمد نبيًا، وبالإسلام دينًا(١).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المائدة
والحمد لله رب العالمين



(١) تم بحمد الله تعالى وتوفيقه الانتهاء من تحقيق الجزء الثاني من هذا الكتاب المبارك في ليلة الجمعة الموافق ٢٦ من شهر الله المحرم ١٤٣٠هـ و٢٣ من يناير ٢٠٠٩م سائلًا المولى عز وجل أن يتقبله مني بقبول حسن ويدخر له أجره وثوابه ليوم لقائه على خيروأن ينفع به مؤلفه الحافظ الجليل ابن قيم الجوزية رحمه الله، وينفع به جامعه الشيخ النبيل علي الحمد الصالحي رحمه الله، وجمعني بهم على خير تحت لواء سيد الشافعين محمد بن عبد الله رسول رب العالمين وخاتم النبيين وصحابته الطيبين وآل بيته الغر الميامين وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهــرس

الصفحة الموضــوع

سورة آل عمران

٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.
٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ والآثار في اسم الله الأعظم.
٨ المتأولون أصناف عديدة، وآثار التأويل السيئة.
١٢ قول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ الآية بتفصيل.
١٥ ذكر ما وعد الله من الخير لمن اتقاه، وذكر صفات المتقين.
١٧ ذكر شهادة الله لنفسه، وشهادة خير خلقه له بالألوهية، والعزة والحكمة.
٢٥ قوله تعالى: ﴿ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ ﴾.
٢٨ وأما التقدير الثاني إلخ.
٢٩ في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.
٣٢ الجهمية والمعتزلة تزعم أن ذاته لا تحب إلخ.
٣٣ شهادته سبحانه تتضمن البيان والدلالة إلخ.
٣٩ القرآن هو الدعوة والحجة والدليل والمدلول عليه والشاهد والمشهود له إلخ.
٤٠ ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ إلخ.
٤١ ومن شهادته ما أودعه في قلوب عباده إلخ.
٤٤ وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية الثناء على أهل العلم إلخ.
٤٤ وقد فسرت شهادة أولي العلم بالإقرار والتبيين والإظهار إلخ.
٤٧ قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية مفسرة بوضوح تام.
٥٢ الداعي مندوب لسؤال الله بأسمائه وصفاته إلخ.

الصفحة الموضـوع
٥٤ من رحمة الله لعباده أوامره ونواهيه وتحذيرهم نفسه إلخ.
٥٦ الله سبحانه خلق الخلق لعبادته الجالمعة لمحبته.
٥٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ الآية.
٥٦ اتباع الرسول شرط لمحبة الله إلخ.
٥٧ فصل الأسباب الجالبة للمحبة عشرة إلخ.
٥٨ مطالبة المدعون للمحبة بالبينة إلخ.
٦٠ المحبون ثلاثة أقسام. والزهد خمسة أقسام.
٦١ الفرق بين الحب في الله والحب مع الله وعلاقته.
٦١ الدين كله يدور علىٰ أربع قواعد إلخ.
٦٢ بحث أصل المبحة المحمودة، ووجود حلاوة الإيمان.
٦٤ إذا كان الحكم مستغربًا جدًّا فلابد له من مقدمات إلخ.
٦٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى ﴾ مناقشة لما قبله، إلخ.
٦٦ من طرق الأحكام: الحكم بالقرعة وأدلة ذلك.
٧٢ الرد علىٰ اليهود والنصارىٰ دعواهم في نبي الله إبراهيم عليه السلام إلخ.
٧٣ ذكر قصة وفد نجران والصلح معهم.
٧٩ فقه هذه القصة.
٨١ مناظرة ابن القيم مع بعض علماء أهل الكتاب وانهزامهم.
٨٦ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إلخ سياق الآيات في توبيخ أهل الكتاب بأعمالهم المنافية للأمانة العلمية.
٨٩ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وما قبله وما بعده والآثار المثبتة لكلام الله عباده ورؤيتهم له عيانًا.
٩٣ الناس ثلاثة: عالم رباني ومتعلم وهمج رعاع إلخ.

الصفحة الموضوع

٩٥ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ الآية.
٩٨ تلاعب الشيطان بأمة اليهود في قولهم إن الرب محجور عليه في نسخ الشرائع ومناظراتهم بوضوح.
١٠٣ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ الآية.
١٠٦ إذا ذكر الله ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي في الأكثر أو بلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم إلا في الحج فذكره بالتأكيد من عشرة أوجه.
١٠٧ ذكر محاسن البيت بما يدعو إلىٰ قصده وهي كثيرة.
١٠٨ خطبة الحاجة في كل حاجة.
١٠٨ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ الآية.
١٠٩ الاعتصام نوعان.
١١٢ وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه إلخ.
١١٢ النهي عن التفرق.
١١٣ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية.
١١٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾.
١١٥ بحث في الربا وهو نوعان: جلي وخفي.
١١٦ ذكر صفات من ضمنت له الجنة وذكر حكم الإصرار علىٰ المعصية.
١١٧ شروط التوبة وبحث في قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ الآية.
١٢٠ سياق وقائع غزوة أحد.
١٣٢ سياق ما اشتملت عليه غزوة أحد من الأحكام والفقه.
١٣٦ ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة في وقعة أحد.
١٦١ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية أحسن تعزية وألطفها.

الصفحة الموضوع
١٦٢ لما انتهت الحرب تواعد المسلمون مع أبي سفيان العام المقبل ببدر وانصرفوا.
١٦٣ محاولة المشركين العودة وخروج المسلمين لمقابلتهم إلخ.
١٦٣ الحكم التي تستنبط مما حصل للمسلمين في هذه الغزوة.
١٧٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ والتوكل وفعل الأسباب.
١٧٣ بحث يعود على قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ الآية.
١٧٥ من حكمة الله خلق الضدين.
١٧٧ من حكمة الله إخراج عدو الله إلخ.
١٧٩ معرفة الله نوعان وجماع ذلك: الفقه في أسماء الله وبحث حول مجرى الفكر إلخ.
١٨٠ تفضيل مجاري الفكر.
١٨٢ الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه ومجاري هذه الفكرة إلخ.
١٨٥ لا شيء أنفع للقلب من تدبر القرآن وهو أصل صلاح القلب.
١٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾ الآية.
١٩١ الشر له مصدر ومورد من النفس.
١٩٢ مطهرات الذنوب في الدنيا ثلاثة والرابع في الآخرة.
١٩٢ فصل في الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب.
١٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ﴾ والفرق بين هذه الثلاثة.

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾.
٢٠١ ما الحكمة في الإباحة للرجل أن يتزوج أربعًا ومنع المرأة من ذلك.
٢٠٤ ما الحكمة في الإباحة للرجل أن يستمتع بأمته بوطء وغيره ومنع المرأة من ذلك.
٢٠٤ معنى قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ الآية.
٢٠٥ معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع
٢٠٦ حكم عطية الأولاد في الصحة، وحكم عطية غيرهم.
٢٠٧ بحث تفاوت الناس في فهم النصوص.
٢٠٨ ذكر مسائل في الفرائض مختلف فيها إلخ.
٢١١ بحث في قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ الآية.
٢١١ ميراث الجد مع الإخوة والخلاف في الكلالة.
٢١٢ بحث التوبة وأحكامها.
٢١٥ في حكمة الله منع الناس من علم الساعة.
٢١٧ ما الفائدة والحكمة التي حصلت بستر علم الأجل؟ والاختلاف في ذلك.
٢٢٠ حكم العضل.
٢٢٠ ما حرم الله من النساء على لسان نبيه ﷺ.
٢٣٠ رحمة الله بعباده وتخفيفه عنهم والبحث في قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾.
٢٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ الآية وإلغاء كل ما خالف حكم الله.
٢٣٣ ذكر من أجنب والاغتسال يضره لبرد أو غيره.
٢٣٤ حكم من أدى الواجبات واجتنب المحرمات.
٢٣٥ الاختلاف في الكبائر بأقوال متقاربة، والخوف على من فيه إزراء على أهل المعاصي.
٢٣٨ الخوف من الوقوع في العقبات التي يجعلها الشيطان في طريق السالكين وهي سبع.
٢٤٢ آخر البحث في العقبة السابعة وآثار في معايظة عدو الله وجنوده.
٢٤٤ حكم تأديب الزوج لزوجته وحكم خدمتها له.
٢٤٧ حكم رسول الله ﷺ في الشقاق بين الزوجين.

الصفحة الموضوع

٢٤٩ ذكر حكم النفقات على الأقارب.
٢٥٠ ذكر حكم الاختيال والفخر والبخل والرياء.
٢٥١ حكم البكاء وفعله ﷺ.
٢٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ الآية.
٢٥٣ حد السكر وحكمة تحريمه وحكم تصرفات السكران والمعتوه والموسوس.
٢٥٦ هديه ﷺ في حفظ الصحة والحمية عما يضر البدن وحكم الغسل من الجنابة.
٢٥٨ قصة كعب بن الأشرف وما ورد في ذكره من كتاب الله تعالى.
٢٦٢ بحث قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ الآية.
٢٦٣ الحاكم يحتاج إلى ثلاثة أشياء إلخ. والتفصيل حول البينة.
٢٦٥ لا يمكن الحكم بالحق إلا بنوعي الفهم: فهم الواقع وفهم الواجب في الواقع.
٢٦٦ البينة في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة اسم لما يبين الحق إلخ.
٢٦٧ بحث في الحسبة ووجوبها على كل مسلم وجوبًا كفائيًّا وذكر أن جميع الولايات مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٢٦٨ واجب كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل: الأفضل فالأفضل.
٢٧٠ بحث اختصاص كل ولاية حسب العرف ولا حد لها في الشرع.
٢٧٠ الخلاف في السمع والبصر أيهما أفضل وفصل الخطاب.
٢٧٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ الآية.
٢٧٧ الخلاف في أولي الأمر: هل هم العلماء أم الأمراء؟
٢٧٨ شرور الدنيا والآخرة كلها سببها معصية الله ومعصية رسوله.
٢٨١ تحريم الإفتاء بما خالف النصوص.
٢٨٤ من حاكم أو تحاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ فقد تحاكم إلى الطاغوت، وصفاتهم في كتاب الله.

الصفحة الموضوع
٢٨٧ النهي عن الخروج على أمر ولاة الأمور ما أقاموا الصلاة.
٢٨٨ ذكر فضل ولاة العدل وما أعد الله لهم من النعيم.
٢٨٩ بيان حقيقة التأويل لغة واصطلاحًا.
٢٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ وذكر صفاتهم والحكم عليهم.
٣٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآية. وذكر ورثة الرسول ﷺ والخلاف في أفضلية مداد العلماء ودماء الشهداء.
٣٠٥ التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة جمعه قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.
٣٠٦ مناظرة بين قدري وجبري وسني حول قول الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.
٣١٠ بحث القياس على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. وعدم اعتباره لمضاربة الأقيسة.
٣١٢ مدح الله تعالى أهل الاستنباط بقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ وهو قدر زائد على فهم اللفظ.
٣١٣ كل من أعان غيره صار شفيعًا له في الحسنة والسيئة وكل منهما له جزاؤه عند الله.
٣١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية.
٣١٥ الخلاف في هل من الذنوب ما لا تقبل التوبة منه، وفيه بحوث.
٣١٩ نفي التساوي في كتاب الله تعالى يأتي في مواضع وأمثلة ذلك من القرآن.
٣٢٠ ذكر فضل المجاهدين وذكر درجاتهم وما أعد الله لهم في الجنة.
٣٢٨ قاعدة الشريعة أن العزم التام ينزل صاحبه منزلة الفاعل التام، وأمثلة ذلك.
٣٣١ الكلام في الحيل وانقسامها إلى الأحكام الخمسة.
٣٣٤ الله يحب من عبده أن يراغم عدوه ـ التفكر في أنه لم يخلق للهوى. إلخ.

الصفحة الموضـــوع

٣٣٤ هديه ﷺ في صلاة الخوف.
٣٣٦ هديه ﷺ في قصر الرباعية في أسفاره، ولم يثبت أنه أتمها البتة.
٣٣٧ بحث إتمام عائشة وعثمان وتأويل عملهما.
٣٣٨ من أدلة وجوب حضور الجماعة في المساجد.
٣٤٠ هل تصح صلاة المنفرد مع قدرته على الجماعة.
٣٤٢ من تأمل السنة حق التأمل تبين له أن فعل الصلاة في المساجد فرض عين إلا لعارض.
٣٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآية.
٣٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ فالحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح.
٣٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾.
٣٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾.
٣٥٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾.
٣٦٢ قضاء رسول الله ﷺ أن اليتيمة تستأمر ولا يُتْمَ بعد احتلام.
٣٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ الآية.
٣٦٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ الآية. ومن أعظم السبيل تسليط الكفار على انتزاع أملاك المسلمين.
٣٦٩ رتب الله على الإيمان نحو مائة خصلة الواحدة منها خير من الدنيا وما فيها.
٣٧١ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾ الآية. وفيه بحوث.
٣٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾.
٣٧٥ ذكر قصة عليه السلام والخلاف في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾.
٣٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾.

الصفحة الموضوع

٣٨٠ الرد على من قال: إن تكليم الله لموسى مجاز.
٣٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية.
٣٨٥ الرد على الجهمي دعواه: أن القرآن مخلوق.
٣٨٧ جعل الله العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه.

سُورَةُ المَائِدَةِ

٣٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾.
٣٩٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾.
٣٩٨ حال العبد فيما بينه وبين الله.
٣٩٩ وصف زاد الآخرة وطريقه ومركبه.
٤٠٠ رأس الأمر وعموده إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله.
٤٠٠ النعمة نعمتان: مطلقة ومقيدة.
٤٠٠ النعمة المطلقة هي التي يفرح بها في الحقيقة.
٤٠٥ قال بعض السلف: يا له من دين لو أن له رجالاً.
٤٠٦ قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.
٤٠٨ مما يدل على شرف العلم أن صيد الكلب المعلم حلال وصيد الكلب الجاهل حرام.
٤٠٨ يجوز نكاح الكتابية المحصنة بنص القرآن بخلاف غير المحصنة فهي خبيثة.
٤١١ الخلاف في ترتيب أعمال الوضوء.
٤١٣ حكمة اختصاص أعضاء الوضوء بالوضوء.
٤١٥ أوامر الرب تعالى: رحمة وإحسان وشفاء ودواء وغذاء للقلوب.
٤١٦ الاستدلال على النبوة بنفس الشريعة.
٤١٨ الصلاة وما اشتملت عليه من حكم عظيمة والمصالح القلبية والبدنية.

الصفحة المـــوضـــوع
٤٢١ أشرف أذكار الصلاة القرآن والرد على من قال: إنها تكليف محض.
٤٢٣ الطهارة فيها حكم ومنفعة للقلب والبدن.
٤٢٤ الوضوء سيماء الأمة يوم القيامة وتطهير للبدن والقلب بالتوبة.
٤٢٥ الرد على من يدعي أن التيمم خلاف القياس.
٤٢٨ الفرق بين الاحتياط والوسوسة.
٤٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ ﴾ وتقدم بحث في نظيرتها في سورة النساء.
٤٢٩ تذكير الله المؤمنين بنعمته عليهم بكف أيدي أعدائهم عنهم.
٤٣٠ فصل في تقسيم القلوب وفيه الرد على القدرية والجبرية.
٤٣١ بحث في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾.
٤٣٢ لا ينتفع بآيات الله إلا مؤمن صابر شاكر.
٤٣٣ فصل محبة الله تنجي من عذابه.
٤٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾.
٤٣٦ من تلاعب الشيطان باليهود بعد إنجائهم من فرعون، قولهم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾.
٤٣٨ ومن تلاعبه بهم اتخاذهم العجل معبودًا لهم وغير ذلك مما يدل على عنادهم وغبائهم.
٤٤٢ سياق قصة ابني آدم وبيان أن من قتل ظلمًا فهو ظالم للمجتمع كله.
٤٤٤ حل الإشكال الوارد في القتل.
٤٤٧ إيراد على الحد في الخمر دون الحد في البول وجوابه.
٤٤٨ بحث في اعتبار توبة المحارب قبل القدرة عليه دون غيره والجواب عن ذلك.
٤٤٩ بحث في ذكر الله الحكم الكوني والشرعي.

الصفحة الموضوع

٤٥٠ بحث في قبول توبة الزنديق والمرتد والكافر الأصلي بتفصيل.
٤٥٣ الخلاف في توبة السارق إذا قطعت يده: هل يضمن المسروق.
٤٥٤ اعتراض على قطع يد السارق دون قطع فرج الزاني وجوابه.
٤٥٦ بحث في الحكمة في عقوبات الجنايات على النفوس والأموال إلخ بتفصيل.
٤٥٩ العقوبات المالية شرعت في مواضع إلخ.
٤٦٠ التعزير في المعاصي التي لا حد فيها ولا كفارة ثلاثة أنواع.
٤٦١ من رحمة الله وحكمته ألا يؤخذ الجناة إلا بحجة.
٤٦٢ جواب المعترض على ما تقدم: مجمل ومفصل.
٤٦٤ أسماء الرب كلها مدح ولها معان كاملة وحسنى.
٤٦٥ الفرق بين قطع لاسارق في القليل وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب.
٤٦٨ الفرق بين حد القذف وحد من رمى غيره بالكفر.
٤٦٨ الفرق بين شهود القتل وشهود الزنا.
٤٦٨ الفرق بين حد الحرِّ وحد العبد في القذف.
٤٦٩ اعتراض نفاة المعاني والحكم بقولهم: إن الشرع فرق بين المتماثلات وجواب الاعتراض.
٤٧١ بحث في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ الآية.
٤٧٥ حكم رسول الله ﷺ على أهل الكتاب في الحدود بحكم الإسلام.
٤٧٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾.
٤٧٧ الكفر الأكبر خمسة أنواع.
٤٧٩ كفر الجحود نوعان.
٤٧٩ الحكم مبني على معرفة حقيقة الإيمان والكفر.
٤٨١ الكفر نوعان.

الصفحة الموضـوع
٤٨٥ يجتمع في الرجل كفر وإيمان وشرك وتوحيد وفجور وتقوى إلخ.
٤٨٧ لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنًا.
٤٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.
٤٨٩ الفرق بين الحكم المنزل والحكم المؤول والحكم المبدل.
٤٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآيات.
٤٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾.
٤٩٢ سيرة الخلفاء السابقين حول العمل بهذه الآية.
٥٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾.
٥٠٧ المحبة لها آثار وتوابع سواء كانت محمودة أو مذمومة.
٥٠٩ شأن أعداء الله دائمًا ينقمون على أوليائه.
٥١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآيات.
٥١١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟﴾ الآية.
٥١٣ لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين.
٥١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية.
٥١٩ فصل في حرصه ﷺ.
٥١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾.
٥٢٠ بحث في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.
٥٢٣ ثلاثة أشياء تنافي تعظيم الأمر والنهي إلخ.
٥٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ الآيات وفي ضمنه الثناء على من عرف الحق ولم يستكبر عن اتباعه.
٥٢٧ بحث تحريم نكاح المتعة بعد إباحته وحكم نكاح التحليل.
٥٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ الآية.

الصفحة الموضـــوع

٥٣٧ جميع المعاصي فيها العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

٥٤٠ المعالجة بالمحرمات قبيحة وشرعًا لخبثها.

٥٤٢ بحث في حكم الميسر وهو القمار والمغالبات.

٥٤٤ تحريم أهل العلم فيما يجوز السبق فيه وما لا يجوز.

٥٤٦ اتفقوا على جواز أكل المال في سباق الخيل والإبل والنصال.

٥٥٠ واختلفوا في مسائل هل هي ملحقة بما منع أو بالمباح.

٥٥٢ فصل في مأخذ هذه الأقوال.

٥٥٣ رميه ﷺ بيده الكريمة وطعنه بالحربة.

٥٥٤ ذكر الله الرماح في كتابه.

٥٥٥ الفروسية ثلاثة أشياء.

٥٥٦ الفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان وفروسية الرمي والطعان.

٥٥٦ جواز أكل ميتة البحر.

٥٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾.

٥٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ الآية.

٥٦١ بحث في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية.

٥٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ الآية.

٥٦٤ بحث في رد اليمين على المدعي والقسامة.

٥٦٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية.

٥٦٨ تأمل أحوال الرسل مع الله وخطابهم وسؤالهم وهي كلها مشحونة بالأدب.

٥٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ الآية.

انتهى الفرس الجزء الثاني



الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد الثالث

الأنعام - يونس

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضوء المنير على التفسير

المجلد الثالث

ح) دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٤-٣-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٣)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ - فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

سُورَةُ الأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١]. فعدل المشرك من: خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه.

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي: يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم، وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء، بمعنىٰ «عن» والمعنىٰ: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون: عن عبادته إلىٰ عبادة غيره، وهذا ليس بقوي، إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه. وإنما جاء هذا في فعل السؤال، نحو: سألت بكذا، أي: عنه؛ كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت، ونحو ذلك.

... (٣) قوله سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلًا وشبهًا، قال ابن عباس: «يريد: عدلوا به من خلقي الحجارة والأصنام، والأصنام، بعد أ ن أقروا بنعمتي وربوبيتي».

وقال الزجاج: «أعلم الله سبحانه أنه خالق ما ذكر في هذه الآية، وأن خالقها لا شيء مثله، وأعلم أن الكفار يجعلون له عديلًا» والعدل: التسوية، يقال: عدل الشيء بالشيء، إذا سواه به، ومعنىٰ يعدلون به: يشركون به غيره.

---

(١) ١٧٨ الجواب الكافي.

(٢) ٢١ مدارج جـ٣.

(٣) ٢٢٩ إغاثة جـ٢.

قال مجاهد: قال الأحمر: «عدل الكافر بربه عدلًا، وعدولاً؛ إذا سوىٰ به غيره فعبده»[(١)] وقال الكسائي: «عدلت الشيء بالشيء، أعدله عدولًا، إذا ساويته به»[(٢)].

ومثله قوله تعالىٰ عن هؤلاء المشبهين، إنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه؛ إذ جعلوا لله شبهًا وعدلًا من خلقه سوّوهم به في العبادة والتعظيم.

[(٣)]الرب تعالىٰ هو الخالق للنور والظلمة، كما استفتح سبحانه سورة الأنعام بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]. فاستفتح السورة بإبطال قول أهل الشرك أجمعين؛ من الثنوية المجوس القائلين: بأن للعالم نورين: نور، وظلمة، فأخبر أنه وحده رب النور والظلمة وخالقهما، كما أنه وحده خالق السماوات والأرض.

والله تعالىٰ جعل الموجودات: عاليًا، وسافلًا، ومتوسطاً بينهما. وجعل لسافلها الظلمة، وهي مسكن أهل الظلمات من خلقه، وجعل لعاليها النور، وهو مسكن أهل النور منهم، وجعل هذه الأرض وما فوقها إلىٰ العلو متوسطاً بينهما، فكلما كان أقرب إلىٰ العرش والكرسي؛ كان أعظم نوراً؛ ولهذا كان فضل نور العرش والكرسي؛علىٰ ما تحته؛ كفضل نور الشمس والقمر علىٰ أخفىٰ الكواكب، وكلما كان أقرب إلىٰ السفلي المطلق؛ كان أشد ظلمة؛ ولهذا لما كان محبس أهل الظلمات سجين؛ كانت سوداء مظلمة لا نور فيها بوجه، فكلما كان أقرب إلىٰ الرب تعالىٰ؛ كان أعظم نوراً ظاهراً وباطناً، وكلما بعد عنه؛ كان أشد ظلمة بحسب بعده عنه.

وذكر الإمام أحمد في كتاب: (الزهد): أن موسىٰ أقام أياماً لا يحدث بني إسرائيل إلا

(١) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٣٦).
(٢) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٣٣).
(٣) ٢٠٣ مختصر الصواعق جـ٢.

متبرقعاً؛ من النور الذي غشي وجهه حين كلمه ربه، فلم يكن أحد ينظر إليه[١].

فنسبة الأنوار كلها إلىٰ نور الرب، كنسبة: العلوم إلىٰ علمه، والقوىٰ إلىٰ قوته، والغنىٰ إلىٰ غناه، والعزة إلىٰ عزته، وكذلك باقي الصفات. والعبد إذا سما بصره صعوداً إلىٰ نور الشمس؛ غشي دون إدراكه، وتعذر عليه غاية التعذر، وأي نسبة لنور الشمس إلىٰ نور خالقها ومبدعها؟! وإذا كان نور البرق يكاد يلتمع البصر ويخطفه، ولا يقدر العبد علىٰ إدراكه فكيف بنور الحجاب؟! فكيف بما فوقه؟! والأمر أعظم من أن يصفه واصف أو يتصوره عاقل؛ فتبارك الله رب العالمين، الذي أشرقت الظلمات بنور وجهه، وعجزت الأفكار عن إدراك كنهه، ودلت الآيات وشهدت الفطر باستحالة شبهه. فلولا وصف نفسه لعبادة؛ لما أقدموا علىٰ وصفه. فهو كما وصف نفسه وأثنىٰ علىٰ نفسه. وفوق ما يصفه الواصفون.

[٢]ومما يدخل في هذا الباب: جمع الظلمات، وإفراد النور، وجمع سبل الباطل، وإفراد سبل الحق، وجمع الشمائل، وإفراد اليمين.

أما الأول فكقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الإنعام: ١].

وأما الثاني فكقوله: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأما الثالث فكقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

والجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة؛ وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أن طريق الحق واحد، وهو علىٰ الواحد الأحد، كما قال تعالىٰ: ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: «الحق طريقه علىٰ الله ويرجع إليه، كما يقال: طريقك عليَّ».

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ١٧٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٥٨ رقم ٨٩٣٠).

(٢) ١١٩ بدائع جـ١ .

ونظيره قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩]. في أصح القولين. أي: السبيل القصد، الذي يوصل إلى الله، وهي طريق عليه، قال الشاعر:

فهن المنايا أي واد سلكنه   عليها طريقي أو عليّ طريقها

وقد قررت هذا المعنى، وبينت شواهد من القرآن، وسر كون الصراط المستقيم على الله، وكونه تعالى على الصراط المستقيم، كما في قول هود: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] في كتاب (التحفة المكية)(١).

والمقصود: أن طريق الحق واحد؛ إذ مَرَدُّه إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة؛ فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها يوصل إليها؛ بل هي بمنزلة بنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود، فهي وإن تنوعت؛ فأصلها طريق واحد.

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق؛ بل هما هما؛ أفرد النور وجمعت الظلمات. وعلى هذا جاء قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فوحد: ولي الذين آمنوا؛ وهو الله الواحد الأحد، وجمع: الذين كفروا؛ لتعددهم وكثرتهم، وجمع الظلمات؛ وهي طرق الضلال والغي؛ لكثرتها واختلافها، ووحد(٢) النور؛ وهو دينه الحق وطريقه المستقيم، الذي لا طريق إليه سواه.

ولما كانت اليمين جهة الخير والفلاح وأهلها هم الناجون؛ أفردت، ولما كانت الشمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال؛ جمعت في قوله: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ [النحل: ٤٨].

فإن قيل: فهلا كذلك في قوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الواقعة: ٤١]

---

(١) المقصود به «مفتاح دار السعادة» كما أشرت في المقدمة (ج).

(٢) يأتي ص ١٤١ ما هو شبيه بهذا البحث على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] (ج).

وما بالها جاءت مفردة؟.

قيل: جاءت مفردة؛ لأن المراد أهل هذه الجهة، ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة، وهي جهة الشمال، مستقر أهل النار، والنار من جهة الشمال؛ فلا يحسن مجيئها مجموعة؛ لأن الطرق الباطلة وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم، وهي جهة الشمال. وكذلك مجيئها مفردة في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]. لما كان المراد: أن لكل عبد قعيدين: قعيداً عن يمينه، وقعيداً عن شماله؛ يحصيان عليه الخير والشر؛ فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفظة، فلا معنى للجمع ههنا.

وهذا بخلاف قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]. فإن الجمع هنا في مقابلة كثرة من يريد إغواءهم، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد واحد: من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله. ولا يحسن هنا: عن يمينهم، وعن شمالهم؛ بل الجمع ههنا من مقابلة الجملة بالجملة المقتضي توزيع الأفراد.

ونظيره: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

وقد قال بعض الناس: إن الشمائل إنما جمعت في الظلال، وأفرد اليمين؛ لأن الظل حين ينشأ أول النهار يكون في غاية الطول، يبدو كذلك ظلاً واحداً من جهة اليمين، ثم يأخذ في النقصان، وأما إذا أخذ في جهة الشمال؛ فإنه يتزايد شيئاً فشيئًا، والثاني منه غير الأول، فكلما زاد منه شيئاً فهو غير ما كان قبله؛ فصار كل جزء منه كأنه ظل؛ فحسن جمع الشمائل في مقالة تعدد الظلال. وهذا معنى حسن...

(١) وأما الجعل فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين:

أحدهما: الإيجاد والخلق. والثاني: التصيير.

فالأول: يتعدى إلى مفعول كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

(١) ١٣٣ شفاء العليل.

والثاني: أكثر ما يتعدى إلى مفعولين كقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣].

وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة كقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وغلب ما يستعمل؛ في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد؛ حيث لا يكون له صنع في المجعول كقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا ﴾ [يونس: ٥٩]. وهذا يتعدى إلى واحد، هو جعل اعتقاد وتسمية.

وأما الفعل والعمل فإطلاقه على العبد كثير ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٩]. ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢] ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]. وأطلقه على نفسه فعلاً واسماً:

فالأول: كقوله: ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. والثاني كقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]، وقوله: ﴿ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ في موضعين من كتابه:

أحدهما قوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. والثاني قوله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فتأمل قوله: ﴿ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ في هذين الموضعين المتضمنين للصنع العجيب الخارج عن العادة، كيف تجده: كالدليل على ما أخبر به؟! وأنه لا يستعصي على الفاعل حقيقة، أي: شأننا الفعل، كما لا يخفى الجهر والإسرار بالقول على من شأنه العلم والخبرة، ولا تصعب المغفرة على من شأنه أن يغفر الذنوب، ولا الرزق على من شأنه أن يرزق العباد. وقد وقع الزجاج على هذا المعنى بعينه، فقال: ﴿ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ قادرين على فعل ما نشاء.

***

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

(١)تأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣]. فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي: تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالىٰ من معنىٰ الإلهية.

فالمعنىٰ: وهو الإله، وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات، ففي كل واحدة من هذا الجنس؛ هو المألوه المعبود.

فذكر الجمع هنا؛ أبلغ وأحسن من الاقتصار علىٰ لفظ الجنس والواحد.

ولما عزب هذا المعنىٰ عن فهم بعض المتسننة؛ فسر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام علىٰ السموات، ثم يبتدئ بقوله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ ﴾ وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك، وهو قول محققي أهل التفسير.

***

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

(٢)ذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنىٰ القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب: العلة الجامعة، والحكم: الهلاك، فهذا محض قياس العلة.

***

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

(١) ١١٦ بدائع ج١.
(٢) ١٣٤ أعلام جـ١.

...[١]إن المشركين قالوا تعنتًا في كفرهم: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا ﴾ [الأنعام: ٨] يعنون: مَلَكا نُشاهده ونراه، يشهد له ويصدقه؛ وإلا فالملك كان ينزل عليه بالوحي من الله.

فأجاب الله تعالىٰ عن هذا، وبيَّن الحكمة في عدم إنزال الملك علىٰ الوجه الذي اقترحوه: بأنه لو أنزل ملكًا ـ كما اقترحوا ـ ولم يؤمنوا ويصدقوه؛ لعوجلوا بالعذاب. كما جرت واستمرت به سنته تعالىٰ مع الكافر في آيات الاقتراح، إذا جاءتهم ولم يؤمنوا بها. فقال: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨]. ثم بين سبحانه: أنه لو أنزل ملكًا ـ كما اقترحوا ـ لما حصل به مقصودهم؛ لأنه إن أنزله في صورته لم يقدروا علىٰ التلقي عنه؛ إذ البشر لا يقدرون علىٰ مخاطبة الملك ومباشرته، وقد كان النبي ﷺ ـ وهو أقوىٰ الخلق ـ، إذا نزل عليه الملك: كُرب لذلك، وأخذه البرحاء، وتحدر منه العرق في اليوم الشاتي[٢]، وإن جعله في صورة رجل: حصل لهم لبس: هل هو رجل، أم ملك؟ فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم ﴾ في هذه الحال ﴿ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩] علىٰ أنفسهم حينئذ. فإنهم يقولون ـ إذا رأوا الملك في صورة الإنسان ـ: هذا إنسان، وليس بملك. فهذا معنىٰ الآية...

...[٣]قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٨] أي: نعاينه ونراه، وإلا فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه، فهم اقترحوا نزول ملك يعاينونه. فأخبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها: لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة، ولا أنزل ملكًا يرونه؛ فقال: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨] أي: لوجب العذاب، وفرغ من الأمر، ثم لا يمهلون إن أقاموا علىٰ التكذيب.

---

(١) ٣٩٢ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٦١) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٧٦-٤٨٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: البرحاء بضم الموحدة وفتح الراء ثم مهملة ثم مد: هي شدة الحمىٰ. وقيل: شدة الكرب. وقيل: شدة الحر، ومنه برح بي الهم إذا بلغ مني غايته.

(٣) ٢٤٥ مدارج جـ١.

وهذا نظير قوله في سورة الحجر: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٦، ٧]. وقال الله ﷻ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨]. و«الحق» ههنا العذاب. ثم قال: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا ﴾ [الأنعام: ٩]. أي: لو أنزلنا عليهم ملكًا لجعلناه في صورة آدمي؛ إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها؛ وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم؛ لأنهم لا يدرون: أرجل هو، أم ملك؟ ولو جعلناه رجلًا لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره.

وقوله: ﴿ مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه جزاء لهم على لبسهم على ضعفائهم، والمعنى: أنهم شبهوا على ضعفائهم، ولبسوا عليهم الحق بالباطل، فشُبِّه عليهم، وتلبس عليهم الملك بالرجل.

والثاني: أنه لبس عليهم ما لبسوا على أنفسهم، وأنهم خلطوا على أنفسهم، ولم يؤمنوا بالرسول منهم، بعد معرفتهم صدقه، وطلبوا رسولًا ملكيًّا يعاينوه، وهذا تلبيس منهم على أنفسهم. فلو أجبناهم إلى ما اقترحوه؛ لم يؤمنوا عنده؛ وللبسنا عليهم لبسهم على أنفسهم.

***

﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٤ ﴾.

(١)الرضى بالله ربًّا: أن لا يتخذ ربًّا غير الله تعالى، يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيدًا وإلهًا. يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾

(١) ١٨١ مدارج جـ٢.

[الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلًا، مبينًا كافيًا شافيًا؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا؛ ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقًا منها فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغى ربًّا، سواه لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا؛ بل يوالي من دونه أولياء؛ ظنًّا منه: أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد؛ أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين: بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا: يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهًا ولا غيره حكمًا.

وتفسير **الرضى بالله ربًّا**: أن يسخط عبادة ما دونه. هذا هو الرضى بالله إلهًا. وهو من تمام الرضى بالله ربًّا. فمن أعطى الرضى به ربًّا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا، لأن الرضى بتجريد ربوبيته؛ يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية؛ يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

***

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

(١)المراد بالآية: شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته، فإن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: من يشهد لك على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات: شهادته له، وشهادة ملائكته وشهادة علماءِ أهل الكتاب به، فقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣]، أي ومن عنده علم الكتاب يشهد لي وشهادته مقبولة لأنها شهادة بعلم.

قال الله تعالى: ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩]، فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه، وكفى به شهيداً.

فإن قيل: وما شهادته لرسوله؟

قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه، بعد العلم بها ضرورة، فدلالتها على صدقه؛ أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق، فشهادته سبحانه لرسوله: أصدق شهادة، وأعظمها، وأدلها على ثبوت المشهود به، فهذا وجه. ووجه آخر: أنه صدقه بقوله، وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه، فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً؛ لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر، وصحت الشهادة له به قطعاً...

...ونظير هذا استشهادهم بقوله تعالى: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١] حتى رتب على ذلك بعضهم: أن الذكر بالاسم المفرد وهو

(١) ٣٣٨ طريق الهجرتين.

«الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وهذا فاسد مبني على فاسد. فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلًا، ولا مفيد شيئًا، ولا هو كلام أصلاً، ولا يدل على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلق به إيمان، ولا ثواب ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر: «الله، الله» من أول عمره إلى آخره؛ لم يصر بذلك مسلماً؛ فضلاً عن أن يكون من جملة الذكر، أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر؛ أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! يذكر بقوله: «هو، هو» أفضل من الذكر بقولهم: «الله، الله».

وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة، المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات، فهذا فساد هذا البناءِ الهائر.

وأما فساد المبني عليه؛ فإنهم ظنوا أن قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي قل هذا الاسم، فقل: الله الله، وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله، فإن اسم الله هنا جواب لقوله: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]، إلى أن قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾، أي: قل: الله أنزله. فإن السؤال معاد في الجواب فيتضمنه؛ فيحذف اختصاراً كما يقول: من خلق السموات والأرض؟ فيقال: الله. أي: الله خلقهما، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه، فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره(١).

(٢)إن الله سبحانه، إنما أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسله، فقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]. وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكل من بلغه هذا

(١) تطرق لهذه المسألة في آخر رسالته العبودية بما يزيدها وضوحًا (ج).
(٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

القرآن فقد أنذر به وقامت عليه حجة الله.

وقال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٨-١٠]. فلو كان كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين والعلم، والعقل معارض له؛ فأي حجة تكون قد قامت على المكلفين بالكتاب والرسل؟ وهل هذا القول إلا مناقض لإقامة حجة الله بكتابه من كل وجه؟!

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: ومن بلغه القرآن، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه؛ فهو منذر به. والأحاديث التي رويت في امتحان الأطفال والمعتوهين والهالك في الفترة؛ إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام، فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم: لم تبلغهم الدعوة، ولم يعقلوا الإسلام.

(١)ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم؛ لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة. وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ؛ لا يدل على عدم ترتبها عليهم في الآخرة، وهذا القول هو المحكي عن أبي حنيفة وأصحابه، وهو في غاية القوة.

***

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ ﴾.

(٢)قد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها

---

(١) ١٧٩ التحفة.

(٢) ١٩٨ عدة الصابرين.

لا تشفى عليلًا ولا تروى غليلا ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وطنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئمًا مع قوله: ﴿ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾؛ قدروا مضافًا محذوفًا، وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه، وهو: أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه، ويدعون إليه، ويحاربون عليه. ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير، ولم يصنع أرباب هذا القول شيئًا؛ فإن السياق والإضراب ببل، والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ لا يلتئم بهذا الذي ذكروه، فتأمله؟

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخافٍ.

وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن باديًا لهم، إذ خفيت عليهم مضرته.

ومعنى كلامه: أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيًّا عنهم؛ لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب؛ ظهرت لهم حقيقته وشره.

قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل: وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك. وقد كان ظاهرًا له قبل.

هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم، الذي كانوا ينادون به على رءوس الأشهاد، ويدعون اليه كل حاضر وباد؛ بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم، ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد: إنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها، وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون الى الدنيا، فيؤمنون بالله وآياته، ولا يكذبون رسله.

فأخبر سبحانه: أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان، بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا؛ لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم: أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها؛ تبين معنى الاضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم، والذي كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم: ﴿ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فالقوم كانوا يعلمون: أنهم كانوا فى الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه؛ ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم؛ بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم: أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق فعاينوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته، وهو يعلم أن حبه باطل، وأن الرشد فى عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر، ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب. فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة، وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد لعاد لما نهى عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا، لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به، لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلومًا، وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه، والله أعلم.

(١)قالوا: ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب، ووردوا القيامة، ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، فأي علم أبين من علم من ورد القيامة، ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم ورد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه. وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، فهل بعد نزول الملائكة عيانًا وتكليم الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى، ومع هذا فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحق، ولا يصدقون الرسول، ومن نظر في سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ، لا يشكون أنه صادق في قوله: إنه رسول الله؟ ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان.

قال المسور بن مخرمة ﵁ لأبي جهل ـ وكان خاله ـ: أي خال! هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته التي قالها؟ قال أبو جهل ـ لعنه الله تعالى ـ يا ابن أخي، والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى: الأمين. ما جربنا عليه كذبًا قط؛ فلما وخطه الشيب؛ لم يكن ليكذب على الله. قال: يا خال! فلم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن أخي تنازعنا نحن بنو هاشم الشرف فاطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا،

---

(١) ٩٣ مفتاح جـ١.

فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي. فمتى ندرك هذه[(١)]؟

وهذا أمية بن أبي الصلت كان ينتظره يومًا بيوم، وعلمه عنده قبل مبعثه. وقصته مع أبي سفيان لما سافرا معًا معروفة، وإخباره برسول الله ﷺ ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال: لا أومن بنبي من غير ثقيف أبدًا.

وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ولم يشك فيه؛ وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه.

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها؛ قبلوا يده وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكم أن تتبعوني؟» قالوا: إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخشى أن اتبعناك أن تقتلنا يهود[(٢)].

فهؤلاء قد تحققوا نبوته، وشهدوا له بها، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة.

فقيل: لا يصير الكافر مسلمًا بمجرد شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ حتى يشهد لله بالوحدانية. وقيل: يصير بذلك مسلمًا، وقيل: إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود؛ صار مسلمًا بذلك. وإن كان كفره بالشرك مع ذلك؛ لم يصر مسلمًا إلا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين، وهذه الأقوال الثلاثة في مذهب الإمام أحمد وغيره...

[(٣)]وأما الفتون فهو مصدر فتنه يفتنه فتونًا، قال الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. أي امتحناك واختبرناك. والفتنة يقال على ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٤٦-٣٤٧ رقم ٨٦٠) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧١): رواه الطبراني مرسلًا، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وحديثه حسن.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٧٢) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣٠٦ رقم ٣٥٤١) وفي الصغرى (رقم ٤٠٧٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٤١٤ رقم ٢٤٦٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٦٩ رقم ٧٣٩٦) وأحمد (٤/ ٢٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٩٨) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١١).

(٣) ٤٧ روضة.

أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتنة فلان أي افتتانه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]. يقال أصابته الفتنة، وفتنته الدنيا، وفتنته المرأة، وأفتنته، قال الأعشى:

لئن فتنتني هي بالأمس أفتـــنت سعيدا فأضحى قد قلى كل مسلم[١]

وأنكر الأصمعي: أفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه يسمى فتنةً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥]. وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]. أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه. وأما قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]. فقيل: المعنى يحرقون، ومنه: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، ودينار مفتون.

قال الخليل: والفتن الإحراق، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ وورقٌ فتينٌ أي: فضة محرقة[٢]، وافتتن الرجل وفتن إذا أصابته فتنة، فذهب ماله أو عقله. وفتنته المرأة إذا ولهته. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] أي: لا تفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم. فذلك الذي يفتن بفتنتكم إياه. وأما قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة.

وقيل: المفتون مصدر، كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب: أنَّ يبصر، مضمن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) ذكره أبو الحسن الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٦٣) والحربي في غريب الحديث (٣/ ٩٤٠)، وابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٣١٧، ٣١٨).

(٢) انظر: لسان العرب (١٣/ ٣١٧).

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، فعدىٰ فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان علىٰ الفتان»[١] يُروىٰ بفتح الفاء، وهو واحد، وبضمها وهو جمع فاتن، كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون، فما فتن من فتن إلا بالمحبة[٢].

[٣]وقال تعالىٰ لرسوله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] يعني: أنهم قد عرفوا صدقك، وأنك غير كاذب فيما تقول؛ ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والمفسرون. قال قتادة: يعلمون أنك رسول؛ ولكن يجحدون. قال تعالىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١] يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته، وبأنه الحق. فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وخفاء.

وقال تعالىٰ عن السحرة من اليهود: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علموا من أخذ السحر وقبله؛ لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة؛ فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٠٧٠) والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٦/ ١٥٠ رقم ١١٦١١) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣١٩) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ٧٣٠) وانظر: عون المعبود (٨/ ٢٢٥) ونيل الأوطار (٦/ ٥٩).

(٢) يأتي هذا النقل في تفسير سورة الأعراف، الآية ١٥٥ من قوله: وأما الفتون فهو مصدر... إلىٰ قوله: فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

(٣) ٩١ مفتاح جـ١.

ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب في القبلة، كما في سورة البقرة. وفي التوحيد، كقوله في الأنعام ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠]، وفي الكتاب أنه منزل من عند الله، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤][١].

***

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

...[٢]قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه نفسه عن هذا الحسبان؛ فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا؛ فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٧]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أممًا، وهداها إلى غاياتها ومصالحها؛ كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

(١) يأتي أصل هذا البحث في سورة طه بكامله إن شاء الله تعالى. (ج).
(٢) ٣٥ بدائع جـ٢.

(١) ومن ذلك قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا يعلمون حكمته تعالى، ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس على الأنبياء. وليس المراد: أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر؛ فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده سبحانه؛ ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

(٢) قوله سبحانه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨، ٣٩]، وقد قال النبي ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم؛ لأمرت بقتلها»(٣) وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون إخبارًا عن أمر غير ممكن فعله، وهو أن الكلاب أمة لا يمكن إفناؤها، لكثرتها في الأرض، فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرت بقتلها.

والثاني: أن يكون مثل قوله: «أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح»(٤)، فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة؛ فإعدامها وإفناؤها؛ يناقض ما خلقت لأجله، والله أعلم بما أراد رسوله.

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾: يريد يعرفونني ويوحدونني

---

(١) ١٩٧ شفاء.

(٢) ٧٧ شفاء.

(٣) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٤٧١-٥٧٢ رقم ٥٦٥٦) والنسائي في الكبرى (٣/١٤٨ رقم ٤٧٩١) وأبو داود (رقم ٢٨٤٥) وابن ماجه (رقم ٣٢٠٥) والترمذي (رقم ١٤٨٦، ١٤٨٩) والدارمي (رقم ٢٠٠٨) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٦٣ رقم ١٩٩٢٤) والطبراني في الأوسط (١/ ١٦٢ رقم ٥٠٨) (٣/ ١٣٦ رقم ٢٧١٩) وفي الكبير (١١/ ٣٤٩ رقم ١١٩٧٩) وأبو يعلى (٤/ ٢٣٠ رقم ٢٤٤٢) وابن الجعد (رقم ٣١٨١)، وأحمد (٤/ ٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٠١٩) ومسلم (رقم ٢٢٤١) وانظر: شرح النووي (١٤/ ٢٣٩).

ويسبحونني ويحمدونني، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

ويدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩]، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨]، وقول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة، تعرف بأسمائها[1].

وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك[2].

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي؛ إلا وفيه شبه من البهائم: فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب. ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب؛ عافته فإذا قام الرجل عن رجيعه؛ ولغت فيه. فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة؛ لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره وجب المصير إلىٰ باطنه.

وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٨٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٢).

(٢) انظر: تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٤).

من جهة: الخلقة، والصورة، وعدم من جهة: النطق، والمعرفة؛ فوجب أن يكون منصرفًا إلىٰ المماثلة في الطباع والأخلاق.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم علىٰ حسب ذلك(١). انتهىٰ كلامه.

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبًا محتالًا، وبعضها متوكلًا غير محتالٍ، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل علىٰ الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقًا مضمونًا وأمرًا مقطوعًا، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده البتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنىٰ عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

(٢)قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد اختلف في الكتاب ههنا: هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ علىٰ قولين:

فقالت طائفة: المراد به: القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص: أي ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلىٰ ذكره وبيانه، كقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]. ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه والمراد: أن كل شيء ذكر فيه مجملًا ومفصلًا، كما قال ابن مسعود: وقد لعن الواصلة والمستوصلة، ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه؟ فقالت امرأة: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(٣) [الحشر: ٧]،

---

(١) انظر: العزلة (ص ٥٥).

(٢) ٤٠ شفاء.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٨٦) (٥٩٣٩) ومسلم (رقم ٢١٢٥) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٧٣).

ولعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة[١]. وقال الشافعي: ما نزل بأحدٍ من المسلمين نازلة؛ إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها[٢].

وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية: اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدىٰ الروايتين عن ابن عباس، وكان هذا القول أظهر في الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ وهذا يتضمن: أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدىٰ، بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه.

ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] أي: كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي، وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

ولمن نصر القول الأول؛ أن يجيب عن هذا بأن في ذكر القرآن ههنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به، فلم نفرط فيه من شيء، بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن: إجمالًا وتفصيلًا.

ويرجحه أمر آخر، وهو أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

فنبههم علىٰ أعظم الآيات وأدلها علىٰ صدق رسول الله ﷺ، وهو الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء، ولم يفرط فيه من شيء.

ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السماوات والأرض، وهذا يتضمن؛

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٤٠) ومسلم (رقم ٤١٢٤) وانظر: الفتح (١٠/ ٣٧٦) وشرح النووي (١٤/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) انظر: قواعد التحديث (ص ٥٩).

التعريف: بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعة ملكه، وكثرة جنوده، والأمم التي يحصيها غيره، وهذا يتضمن: أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه رب العالمين. فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه، فهذا استدلال بأمره، وذاك بخلقه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؟!

وشهد لهذا أيضًا قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولمن نصر إن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ أن يقول: لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك، فإنه قادر على ذلك، وإنما لم ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا.

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة، التي لا يحصي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها، كيف يعجز عن إنزال آية؟!

ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه بأن هؤلاء الأمم قد: أحصاهم وكتبهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرط فيه من شيء، ثم يميتهم، ثم يحشرهم إليه ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ووحدانيته وصدق رسله.

ثم أخبر أن الآيات؛ لا تستقل بالهدى؛ ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر؛ بل الأمر كله له ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فهو أظهر القولين. والله أعلم.

...[١]قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم: من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم: من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاووس في ريشه، ومنهم: من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم: من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم: من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم: الحقود كالجمل، ومنهم: الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم: أشباه الذئاب، ومنهم: أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها[٢].

وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنًا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفيًّا، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كل أحد، ولا يزال يقوي حتى تعلو الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله ﷻ الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة، يمسخهم قردة وخنازير.

***

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

[٣]قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان: حدثنا رشدين بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب؛ فإنما هو استدراج**»، ثم تلا قوله تعالى:

---

(١) ١٦٠ الجواب الكافي.

(٢) انظر: فيض القدير (٤/ ١٢٨) وعون المعبود (١٠/ ١٩٧) وتحفة الأحوذي (٥/ ٤١١).

(٣) ٢١٧ عدة الصابرين.

الآية. ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[١] [الأنعام:م ٤٤].

[٢]قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وهذا من أعظم الغرة: أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور. وطبع النفس الأمارة الاغترار. فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدوثهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف، حتى هجم الأجل، فأخذوا على أسوأ أحوالهم.

وقال تعالى: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٥٠] أي: أنا أهله وجدير به، ومستحق له، ثم قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٦] فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره، فقال: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠] يعني: الجنة والكرامة. وهكذا تكون الغرة بالله. فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعد اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك؛ حتى يتردى في آبار الهلاك.

[٣]وقد أخبر تعالى أن تسليط الشيطان؛ إنما هو على الذين يتولونه، والذين هم به

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٤٥) وفي الزهد (رص ١٢) والطبراني في الأوسط (٩/ ١١٠ رقم ٩٢٧٢) وفي الكبير (٣٣٠٨٧ رقم ٩١٣) والروياني في مسنده (رقم ٢٦١) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٢٨ رقم ٤٥٤٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٢١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٢)وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٧١) وعمدة القاري (٢٣/ ٥٤) وفيض القدير (١/ ٣٥٥).

(٢) ٢٩٨ الروح.

(٣) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ١.

مشركون. فلما تولوه دون الله وأشركوه معه؛ عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الأولوية والإشراك؛ عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنابة العاصمة من ضدها. فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان؛ لأن فعل السيئات توجب العذاب. فإخلاص القلب لله؛ مانع له من فعل ما يضاده، وإلهامه البر والتقوى؛ ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور؛ عقوبة خلوه من الإخلاص. فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًّا عاد السؤال؛ عقوبة خلوه من الإخلاص. فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًّا عاد السؤال، وإن كان أمرًا عدميًّا فكيف يعاقب على العدم؟

قلت: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العموم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه؛ بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها. والعقوبة على الأمر العدمي؛ هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله سبحانه عقوبتان: إحداهما: جعله خاطئًا مذنبًا لا يحس بألمها ومضرتها؛ لموافقتها شهوته، وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات. والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان إحداهما على الأخرى، لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به. وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها، الذي لا يليق بها غيره، وهذا أمر لو لم تشهده القلوب وتعرفه؛ لما جاز أن ينسب إلى الله تعالى سواه ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالى

ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده؛ من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له؟ أم ذلك محض جعله في قلوبهم؟

قلت: لا، بل هو محض منته وفعله، وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم، ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم؛ عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلمًا، ولزمك القول: بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟

قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالمًا؛ وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ما ليس حقًّا له؛ بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالمًا بمنعه.

فإن قلت: فإذا كان العطاء والبذل والتوفيق؛ إحسانًا ورحمة وفضلًا؛ فهلا كانت الغلبة له، كما أن رحمته تغلب غضبه؟

قيل: المقصود من هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة؛ ليس بظلم. وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلا ساوى بين العباد في الفضل؟

وهذا السؤال حاصله: لم تفضل على هذا، ولم يتفضل على هذا؟

وقد تولى سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤]، وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: ٢٩] وليس في الحكمة اطلاع فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه.

بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد؛ حتى أبصر طرفًا يسيرًا من حكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وتأمل أحوال محال ذلك، واستدل بما علمه على ما لم يعلمه وتيقن أن مصدر ما علم وما لم يعلمه، لحكمة بالغة لا توزن بعقول المخلوقين؛ فقد

وفق للصواب.

ولما استشكل المشركون هذا التخصيص قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ فقال لهم الله مجيبًا لهم: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وهذا جواب شافٍ كافٍ، وفي ضمنه أنه سبحانه؛ أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر؛ من المحل الذي لا يصلح لغرسها؛ فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعًا لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

***

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾.

[(١)]قال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝﴾ [الأحزاب: ٢٩] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة. كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ: أنه كان يدعو: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك**

(١) ٢٣ مدارج جـ٣.

على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[1].

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه. وعند الجهمية لا وجه له سبحانه، ولا ينظر إليه، فضلًا أن يحصل به لذة. كما سمع بعضهم داعيًا يدعو بهذا الدعاء، فقال: ويحك! هبْ أن له وجهًا، أفتلتذ بالنظر إليه؟

***

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

[2]هم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله، فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه؛ من يليق به التقريب والهدى والإكرام؛ بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد، وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي الصغرى (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والبزار ((٤/ ٢٣٠ رقم ١٣٩٣) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٥ رقم ٤٢٤) والداقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧) وانظر: شرح حديث لبيك لابن رجب الحنبلي (ص ٨٢) وفيض القدير (٢/ ١٤٦).

(٢) ١٢٨ مدارج جـ١.

...[1]ولو علم في الكفار: خيرًا، وقبولًا لنعمة الإيمان، وشكرًا له عليها، ومحبة له، واعترافًا بها؛ لهداهم إلى الإيمان، ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾ أجابهم بقوله: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته ولا أضل إلا بحكمته، وإذا تأمل البصير أحوال العالم وما فيه من النقص، رآه عين الحكمة، وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا بحكمته.

وفي الحكمة ثلاثة أقوال للناس:

أحدها: أنها مطابقة علمه لمعلومه، وإرادته ومشيئته لمراده، هذا تفسير الجبرية، وهو في الحقيقة نفي حكمته، إذ مطابقة المعلوم والمراد، أعم من أن يكون «حكمة» أو خلافها، فإن السفيه من العباد، يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده، مع كونه سفيهًا.

الثاني ـ مذهب القدرية النفاة ـ: أنها مصالح العباد، ومنافعهم العائدة عليهم؛ وهو إنكار لوصفه تعالى بالحكمة، وردوها إلى مخلوق من مخلوقاته.

الثالث ـ قول أهل الإثبات والسنة ـ: إنها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره، التي أمر لأجلها، وقدَّر وخلق لأجلها؛ وهي صفته القائمة به كسائر صفاته: من سمعه وبصره، وقدرته وإرادته، وعلمه وحياته وكلامه.

وللرد على طائفتي الجبرية والقدرية موضع غير هذا، والله أعلم.

[2]قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ

(١) ٤٨١ مدارج جـ٢.
(٢) ١٩١ شفاء.

بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣] فلا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور. وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيرًا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه، فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به، وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره.

والعلل الغائية: تارة تطلب لنفسها، وتارة تطلب لغيرها؛ فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ما قالوه وما يترتب عليه هذا القول؛ موجب لآثار مطلوبة للفاعل من إظهار: عدله وحكمته، وعزه وقهره، وسلطانه، وعطائه من يستحق عطاءه، ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما من عليهم، من بين من لا يعرفها ولا يشكر ربه عليها، وكانت فتنة بعضهم ببعض؛ لحصول هذا التمييز الذي ترتب عليه: شكر هؤلاء، وكفر هؤلاء.

(١)أما استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم؛ قد أودع الله قلوبهم سرًّا من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل؛ فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم، فازدروهم واحتقروهم، وقالوا للرسل: «اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك»، وقالوا: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ فقال نوح ﷺ لقومه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [هود: ٣١] قال

(١) ١٧٠ مدارج جـ٣.

الزجاج: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره فليس عليَّ أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله؛ عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية أن الله يعلم ما في أنفسهم؛ إذ أهَّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله. والله ﷻ عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه: أهلهم للهدى والحق، وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم؛ كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

(١)وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما، ووسيلة إليهما، وعونا عليهما، قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧] أي: إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم بعد هذا.

وأخبر سبحانه: أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣] وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿ إِنَّا

(١) ١٢٢ عدة الصابرين.

هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣]. وقال نبيه سليمان ﷺ: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]. وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر، فهو ضده.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا على أعقابهم.

وعلق سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره، وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة، كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة: ٢٨]. وقوله في الإجابة: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: ٤١]. وقوله في الرزق: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. والتوبة: ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة: ١٥]. وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا؛ حيث ذكر كقوله: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧].

ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]. وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلًا

يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال: ما هـذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قـال: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، وقـال تعـالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت(١).

وقد أثنى الله ﷻ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته؛ إشارة إلى الاقتداء به؛ فإنه أبوهم الثاني؛ فان الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧٧]، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر، فـ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.

وقد أخبر سبحانه: إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعـد ما عقل عنه بالشكـر لـه وللوالدين، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٤]. وأخبر: أن رضاه في شكره، فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]. وأثنى سبحانه على خليلـه إبراهيم بشكر نعمـه، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٥ رقم ٢٩٥١٤) وابن فضيل الضبي في الدعاء (رقم ٤٨) وأحمد في الزهد (ص ١١٤).

ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة، أي: قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانتًا لله. والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله، المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه: أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره؛ بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه غاية الخلق وغاية الأمر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تعليلًا لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معًا وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره. والصبر إنما حمد لافضائه وايصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ، أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١].

وثبت في المسند والترمذي أن النبي قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٣٠) ومسلم (رقم ٢٨١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥) وشرح النووي (١٧/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرى ٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) وفي مسند =

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل: حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»(١).

قال: وحدثنا محمود بن غيلان: حدثنا المؤمل بن إسماعيل: حدثنا حماد بن سلمة: حدثنا حميد الطويل، عن طلق بن حبيب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**أربع من أعطيهن؛ فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا على البلاء صابرًا، وزوجة لا تبغيه خونًا في نفسها ولا في ماله**»(٢).

وذكر أيضًا من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله؛ إلا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب؛ إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه؛ حتى يغفر له**»(٣).

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكله**

الشاميين (٢/ ٤٣٦ رقم ١٦٥٠) والبزار (٧/ ١٠٤ رقم ٢٦٦١) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ١١٦، ٣٢٠) وتهذيب الأسماء (٢/ ٤٠٣).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٤) وابن أبي شيبة (٦/ ٥١ رقم ٢٩٤٠٠) (٦/ ١٠٤ رقم ٢٩٨٢٥) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله الأودي وهو ثقة.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٧٩ رقم ٧٢١٢) وفي الكبرى (١١/ ١٣٤ رقم ١١٢٧٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٤ رقم ٤٤٢٩) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٤) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٧٣): رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجال الأوسط رجال الصحيح، وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٢٥٦ رقم ٢٣٠١): رواه الطبراني بإسناد جيد. وقال أيضًا (٣/ ٢٨ رقم ٢٩٤٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناد أحدهما جيد.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٩٥ رقم ١٨٩٤) والبيهقي مختصرًا في الشعب (٤/ ٩٢ رقم ٤٣٨١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٤٧) وقال الحاكم: هذا حديث لا أعلم في إسناده أحدًا ذُكِرَ بجرح، ولم يخرجاه، ونقل المنذري في ترغيبه (٣/ ٦٨ رقم ٣١٠٨) كلام الحاكم بمعناه.

فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[١] فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] في مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يرزق الله عبدًا الشكر؛ فيحرمه الزيادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾»**[٢].

وقال الحسن البصري: إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها؛ قلبها عذابًا[٣]. ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ، فإنه الذي يحفظ النعم الموجودة؛ والجالب، لأنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال لرجل من همدان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد[٤].

وقال عمر بن عبد العزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله[٥]، وكان يقال: الشكر قيد النعم[٦]. وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر؛ أحب إليَّ من أن ابتلى فأصبر[٧].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٣٤) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٥١) وتحفة الأحوذي (٥/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٤ رقم ٤٥٢٦) وعبد الكريم القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٦٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٨) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٢٧ رقم ٤٥٣٢).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٠ رقم ٤٥٤٦) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٧١) وكشف الخفاء (٢/ ١٣٦ رقم ١٩٠٧).

(٦) انظر: فيض القدير (٢/ ١١٩).

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٦ رقم ٤٤٣٧) وهناد في الزهد (١/ ٢٥٤ رقم ٤٤٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٢٨) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٠، ٢١٢) (٧/ ٢٨٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٨/ ٣١٦، ٣١٧) وابن سعد في الطبقات (٧/ ١٤٤) وانظر: سير أعلام النبلاء =

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر[١] وقد أمر الله تعالىٰ نبيه أن يحدث بنعمة ربه، فقال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]. والله تعالىٰ يحب من عبده أن يرىٰ عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال علي بن الجعد: سمعت سفيان الثوري يقول: إن داود - عليه الصلاة والسلام - قال: الحمد لله حمدًا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله؛ فأوحىٰ الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة[٢].

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز، لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أنعم الله علىٰ عبد نعمة يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده**»[٣].

وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «**كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده**»[٤].

= (٤/ ١٩٥) وتأويل مختلف الحديث (ص ١٧٠).
وورد ذلك من قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٦/ ١٥٦) والعيني في عمدة القاري (١٤/ ٢٧٤).
وورد أيضًا من قول أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٤٠٨-٤٠٩) وانظر: فيض القدير (٦/ ٣٦١).

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٠٢ رقم ٤٤٢١) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٤٦).
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٣٩ رقم ٤٥٨٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٩٨-٩٩).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ٢٧١ رقم ٥٨٨٨) وفي الشعب (٥/ ١٦٣ رقم ٦٢٠٠) والطبراني في الكبير (١٨/ ١٣٥ رقم ٢٨١) وأحمد (٤/ ٤٣٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٢ رقم ١١٠٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥١) وفي العيال (٢/ ٥٥٠ رقم ٣٦٩) وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩١) (٧/ ١٠).
(٤) فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده**».
أخرجه الترمذي (رقم ٢٨١٩) والحاكم (٤/ ١٥٠ رقم ٧١٨٨) والطيالسي (رقم ٢٢٦١) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٣٦ رقم ٤٥٧١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥١) والعيال (٢/ ٥٥١ رقم ٣٧٠) =

وذكر شعبة: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وأنا قشف الهيئة، فقال: «هل لك من مال؟» قال: قلت: نعم، قال: «من أي المال»؟ قلت: من كل المال قد آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم، قال: «فإذا آتاك الله مالًا فليرىٰ عليك»(١). وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده في: مأكله ومشربه»(٢).

وروىٰ عبد الله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله رفعه: «من أعطي خيرًا فرؤىٰ عليه سمي: حبيب الله، محدثًا بنعمة الله. ومن أعطىٰ خيرًا ولم ير عليه سمي: بغيض الله، معاديًا لنعمة الله»(٣). وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه؛ لم يستتم ذلك؛ حتىٰ يرىٰ الزيادة، لقول الله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٤) [إبراهيم: ٧].

(٥)قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فأجابهم بأن حكمته وعلمه يأبىٰ أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهلها ولو كان الأمر راجعا إلىٰ محض المشيئة لم يكن في هذا جواب، بل كان الجواب: أن

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الترمذي. وكذا حسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٣٢).

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٦ رقم ٦٥) (٤/ ٢٠١ رقم ٧٣٦٤) وابن حبان (١٢/ ٢٣٤ رقم ٥٤١٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٤٦٢ رقم ١٢٦٣) وأحمد (٣/ ٤٧٣) والطيالسي (رقم ١٣٠٣) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٢) وفي العيال (٢/ ٥٤٤ رقم ٣٦٣) وابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٨) وابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ٤١-٤٢) وصححه العراقي في آماليه كما ذكر ذلك المناوي في فيض القدير (١/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٣) وفي العيال (٢/ ٥٤٩ رقم ٣٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٤) وفي العيال (٢/ ٥٤٥ رقم ٣٦٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٦) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٢٧ رقم ٤٥٣٣).

(٥) ٢٠٣ شفاء العليل.

أفعاله لا تعلل، وهو يرجح مثلا على مثل بغير مرجح، والأمر عائد إلى مجرد القدرة، كما يقوله المنكرون.

وكذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣] فلما سألوا عن التخصيص بمشيئة الله، وأنكروا ذلك. أجيبوا بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته، وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون عليها المنعم، فهؤلاء يصلحون بمشيئته، ولو كان الأمر عائدًا إلى محض المشيئة لم يحسن هذا الجواب.

ولهذا يذكر سبحانه صفة العلم؛ حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل مما يقتضي تخصيصه، وتفصيله، وهو الذي جعله أهلًا لذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١]. فذكر علمه عقيب ذكر تخصيصه سليمان بتسخير الريح، له وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة.

ومنه قوله: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧] فذكر صفة العلم التي اقتضت تخصيص هذا المكان وهذا الزمان بأمر اختصا به دون سائر الأمكنة والأزمنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦] فأخبر: أنه وضع هذه الكلمة عند أهلها ومن هم أحق بها، وأنه أعلم بمن يستحقها من غيرهم، فهل هذا وصف من يخص بمحض المشيئة لا بسبب وغاية؟

[١] وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمتهُ وحمدُه أقاماه في مقامه الذي

(١) ٣٣ زاد المعاد جـ٢.

لا يليقُ به سِوَاه، ولا يَحْسُنُ أن يتخطَّاه، واللَّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ مواقعَ عطائِهِ وفضله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فهو سبحانه أعلمُ بمواقع الفضل، ومحالِّ التخصيص، ومحالِّ الحِرمان، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حَرَم، فمن ردَّه المنعُ إلى الافتقار إليه والتذلُّلِ له، وتملُّقِهِ، انقلب المنعُ في حقه عطاء، ومَن شغله عطاؤهُ، وقطعه عنه؛ انقلب العطاءُ في حقِّه منعاً.

فكلُّ ما شغل العبدَ عن اللَّه، فهو مشؤوم عليه، وكلُّ ما ردَّه إليه؛ فهو رحمة به.

والربُّ تعالى يُريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعلُ؛ حتى يُريد سبحانَه مِن نفسه أن يُعينَه، فهو سُبحانه أراد منَّا الاستقامةَ دائماً، واتخاذَ السبيل إليه، وأخبرنا: أن هذا المرادَ لا يقع؛ حتى يُريد من نفسه: إعانَتنا عليها، ومشيئته لنا.

فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يُعينه، ولا سبيلَ له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملِك منها شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير: ٢٩]، فإن كان مع العبد روح أخرى، نِسبتُها إلى روحه، كنسبة روحِه إلى بدنه يستدعي بها إرادةَ اللهِ من نفسه أن يفعلَ به ما يكون به العبدُ فاعلاً، وإلا فمحلُّه غير قابلٍ للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاءُ، فمَن جاء بغير إناءٍ، رجع بالحِرمَانِ، ولا يلومنَّ إلا نفسه.

***

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

(١) قاعدة جليلة: قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ

---

(١) ١٠٧ فوائد.

غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥].

والله تعالىٰ قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة، وسبيل المجرمين مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء.

وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما، وبيّنهما غاية البيان، حتىٰ شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلىٰ مقصوده، والطريق الموصل إلىٰ الهلكة.

فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة علىٰ جميع من أتىٰ بعدهم إلىٰ يوم القيامة. فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلىٰ الهلاك وعرفوها مفصّلة، ثم جاءهم الرسول؛ فأخرجهم من تلك الظلمات إلىٰ: سبيل الهدىٰ، وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلىٰ النور التام، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغي إلىٰ الرشاد، ومن الظلم إلىٰ العدل، ومن الحيرة والعمىٰ إلىٰ الهدىٰ والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس للتوحيد والإيمان والإسلام وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل علىٰ التفصيل.

(١)المثال السابع: مما ادعىٰ المعطلة مجازه الفوقية، وقد ورد به القرآن: مطلقًا بدون حرف، ومقترنًا بحرف.

---

(١) ٢٠٥ مختصر الصواعق جـ٢.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٦-١٨] في موضعين.

والثاني: كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وفي حديث الأوعال لما ذكر: السموات السبع، وذكر البحر الذي فوقها، والعرش فوق ذلك كله، والله فوق ذلك؛ لا يخفى عليه أعمالكم[١].

وحقيقة الفوقية علو ذات الشيء على غيره، فادعى الجهمي: أنها مجاز في فوقية الرتبة والقهر، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والأمير فوق نائبه، وهذا وإن كان ثابتًا للرب تعالى؛ لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها على المجاز؛ باطل من وجوه عديدة:

أحدها: أن الأصل الحقيقة، والمجاز على خلاف الأصل.

الثاني: أن الظاهر خلاف ذلك.

الثالث: أن هذا الاستعمال المجازي لابد فيه من قرينة تخرجه عن حقيقته، فأين القرينة في فوقية الرب تعالى؟

الرابع: أن القائل إذا قال: الذهب فوق الفضة؛ قد أحال المخاطب على ما يفهم من هذا السياق، والعهد، فأمرين: عهد تساويهما في المكان، وتفاوتهما في المكانة؛ فانصرف الخطاب إلى ما يعرفه السامع ولا يلتبس عليه، فهل لأحد من أهل الإسلام وغيرهم عهد بمثل ذلك في فوقية الرب تعالى حتى ينصرف فهم السامع إليها؟!

الخامس: أن العهد والفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة؛ على خلاف ذلك، وأنه سبحانه فوق العالم بذاته، فالخطاب بفوقيته ينصرف إلى ما استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية...[٢].

***

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٢٣) والترمذي (رقم ٣٣٢٠) وأبو يعلى (١٢/ ٧٥-٧٦ رقم ٦٧١٣) وأحمد (١/ ٢٠٦) والبزار (٤/ ١٣٥ رقم ١٣١٩) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٧٦- ٧٧ رقم ١٨٢٧) والحاكم (٢/ ٤١٠ رقم ٣٤٢٨) وصححه. بينما حسنه الترمذي.

(٢) أوصلها المختصر إلى ١٧ وجهًا في عدة صحائف. (ج).

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

(١)قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «**أعوذ بوجهك**»(٢).

ولكن قد ثبت عنه أنه ﷺ لابد أن يقع في أمته خسف؛ ولكن لا يكون عامًّا وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضًا، وهذا عذاب من فوق. فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال فهو من القدرة على ما لا يريده.

وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل مالم يفعله، في غير موضع من كتابه.

كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس: ٩٩] وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾[السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله. وأن الصواب: التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا خطأ، والله أعلم.

***

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

(٣)قد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلًا مطابقًا لحاله؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ

(١) ٩٩ تبيان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٢) (١٣/ ٣٨٨).

(٣) ٨٥ مفتاح جـ١.

هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام: ٧١].

***

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

(1) المقصود: أن هؤلاء كفروا بالأصلين، اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء، من أولهم إلى آخرهم(2):

أحدهما: عبادة الله وحده لا شريك له، الكفر بما يُعبد من دونه من إله.

والثاني: الإيمان برسله، وما جاءوا به من عند الله، تصديقًا وإقراراً، وانقيادًا،

---

(١) ٢٥٣ إغاثة جـ٢.

(٢) تقدم أول البحث في سورة البقرة عند ذكر الله تعالى الصابئين (ج).

وامتثالًا. وليس هذا مختصًا بمشركي الصابئة، كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات، بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم. لكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في بطلان إلهيتها بما حكاه الله سبحانه في سورة الأنعام (٧٤ – ٨٣) أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته ودحضت حجتهم. فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب، والقمر، والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبًا قاهرًا، غير مغلوب ولا مقهور. نافعًا لعباده، يملك لعابده الضر والنفع، فيسمع كلامه، ويرى مكانه، ويهديه، ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه. وذلك ليس إلا لله وحده. فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء: أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربُّها. والمحتاج المخلوق المربوب المدبَّر لا يكون إلهًا. فحاجَّه قومه في الله، ومن حاجّ في عبادة الله فحجته داحضة. فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا من أحسن الكلام، أي: أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه؛ وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به؟ وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل،

تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يألهه مع الله أن يناله بسوء، فقال الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠].

فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يخاف ويرجى. فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئا نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئًا، وربي له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علمًا. فمن أولى بأن يخاف ويعبد: هو سبحانه، أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]. فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئًا ممن له المشيئة التامة، والعلم التام.

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا﴾ [الأنعام: ٨١].

وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه. فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطانا بعبادتها. وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى؟ فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟

فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل، الذي لا حكم أصح منه. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولما نزلت هذه الآية شقَّ أمرها على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله وأينًا لم يظلم نفسه؟ فقال: «إنما هو الشرك: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ﴾[(١)] [لقمان: ١٣]».

فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن، وللمشركين بضد ذلك، وهو الضلال والخوف، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال أبو محمد بن حَزْم: وكان الذي ينتحله الصابئون؛ أقدم الأديان على وجْه الدهر، والغالب على الدنيا، إلى أن أحدثوا الحوادث، وبدلوا شرائعه. فبعث الله إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام، الذي نحن عليه اليوم، وتصحيح ما أفسدوه، وبالحنيفية السمحة التي أتانا بها محمد رسول الله ﷺ من عند الله تعالى. وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء.

قلت: هم قسمان: صابئة مشركون، وصابئة حنفاء، وبينهم مناظرات. وقد حكى الشهرسْتانيُّ بعض مناظراتهم في كتابه.

[(٢)]إنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة، فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣] قال زيد بن أسلم ﷺ: نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة.

[(٣)]فإن قيل: فما الفرق بين الحجج البينات؟

قيل: الفرق بينهما: أن الحجج هي الأدلة العلمية، التي يعقلها القلب وتسمع بالأذن، قال تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه، وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمي:

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢، ٣٣٦٠) ومسلم (رقم ١٢٤) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٨) وشرح النووي (٢/ ١٤٣).
(٢) ٥١ مفتاح جـ١.
(٣) ١٤٤ مفتاح جـ١.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قال ابن زيد: بعلم الحجة. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

...[1] وأنكر على من فهم من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] أنه ظلم النفس بالمعاصي، وبين أنه الشرك وذكر قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك، فإن الله سبحانه لم يقل: ولم يظلموا أنفسهم، بل قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به، وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به، ويلبسه إلا الكفر. ومن هذا قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١] فإن الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبدًا، فإن إيمانه يمنعه من إحاطة الخطيئة به، ومع أن سياق قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] ثم حكم الله أعدل حكم وأصدقه: أن من آمن ولم يلبس إيمانه بظلم؛ فهو أحق بالأمن والهدى، فدل على أن الظلم الشرك.

وسأله عمر بن الخطاب عن الكلالة، وراجعه فيها مرارًا، فقال: «تكفيك آية الصيف»[2]، واعترف عمر بأنه خفي عليه فهمها، وفهمها الصديق.

وقد نهى النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، ففهم بعض الصحابة من نهيه: أنه لكونها لم تخمس، وفهم بعضهم: أن النهي لكونها كانت حمولة القوم وظهرهم، وفهم بعضهم: أنه لكونها كانت جوَّال القرية، وفهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة وكبار الصحابة: ما قصده رسول الله ﷺ بالنهي وصرح بعلته: من كونها رجسًا.

---

(١) ٣٥١ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٦٧، ١٦١٧) وانظر: شرح النووي (٥/ ٥٣) (١١/ ٥٧).

وفهمت المرأة من قوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ [النساء: ٢٠] جواز المغالاة في الصداق، فذكرته لعمر، فاعترف به.

وفهم ابن عباس من قوله تعالىٰ: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تلد لستة أشهر، ولم يفهمه عثمان، فهمَّ برجم امرأة ولدت لها؛ حتىٰ ذكره به ابن عباس، فأقر به[(١)].

ولم يفهم عمر من قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[(٢)] قتال مانعي الزكاة حتىٰ بين له الصديق، فأقر به.

وفهم قدامة بن مظعون من قوله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣] رفع الجناح عن الخمر؛ حتىٰ بين له عمر: أنه لا يتناول الخمر، ولو تأمل سياق الآية؛ لفهم المراد منها، فإنه إنما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متّقين له فيه، وذلك إنما يكون باجتناب ما حرّمه الله من المطاعم؛ فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما.

وقد فهم من قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] انغماس الرجل في العدو حتىٰ بين له أبو أيوب الأنصاري: أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلىٰ التهلكة بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضات الله وأن الإلقاء بيده إلىٰ التهلكة هو ترك الجهاد والإقبال علىٰ الدنيا وعمارتها[(٣)].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (رقم ٢٠٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ١٧٤) وشرح النووي (١٢/ ٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٢٠٤) والحاكم (٢/ ٩٤ رقم ٢٤٣٤) (٢/ ٣٠٢ رقم ٣٠٨٨) وابن حبان (١١/ ٩ رقم ٤٧١١) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٢٩٩ رقم ١١٠٢٩) وأبو داود (رقم ٢٥١٢) والترمذي (رقم ٢٩٧٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٩٩ رقم ١٧٩٧٤) قال الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال الصديق ﷺ: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده**»(١) فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

وأشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكتة التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عذبوا أو نجوا؟ حتى بين له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق، لأنه سبحانه قال عن الساكتين: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضًا فإن الله سبحانه إنما عذب الذين نسوا ما ذكروا به، وعتوا عما نهوا عنه، وهذا لا يتناول الساكتين قطعا، فلما بين عكرمة لابن عباس أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين، كساه بردة وفرح به(٢).

...(٣)ولما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١/ ١٤٤-١٤٥ رقم ٥٨) وأبو داود (رقم ٤٣٣٨) والترمذي (رقم ٢١٦٨، ٢٠٥٧) وابن ماجه (رقم ٤٠٠٥) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ٩٤ رقم ٦٤) وأبو يعلى (١/ ١١٩ رقم ١٣١) وأحمد (١/ ٢، ٧) وعبد بن حميد (رقم ١) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ٧٠) وكذا الترمذي.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٩٤، ٩٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٩٢ رقم ١٩٩٨٢) وانظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧١) وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٣٦) وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٦) وأحكام القرآن للشافعي (٢/ ١٧٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٨-٢٦٠).

(٣) ٢٢٠ مختصر الصواعق جـ١.

ﭐلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال الصحابة ﷺ: يا رسول الله وأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «ذاك الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾»؟ فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، وظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان لم يكن آمنًا ولا مهتديًا؛ أجابهم ﷺ: إن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك. وهذا والله هو الجواب، الذي يشفي العليل ويروي الغليل، فإن الظلم المطلق التام؛ هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها، والأمن والهدى المطلق؛ هو الأمن في الدنيا والآخرة والهدى إلى الصراط المستقيم.

...[1]ما حكاه سبحانه من محاجة إبراهيم ﷺ قومه بقوله: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢] فهذا الكلام لم يخرج في ظاهره مخرج كلام البشر، الذي يتكلفه أهل النظر والجدال والمقايسة والمعارضة؛ بل خرج في صورة كلام خبري، يشتمل على مبادئ الحِجاج، ويشير إلى مقدمات الدليل ونتائجه بأوضح عبارة وأفصحها، والغرض منه: أن إبراهيم قال لقومه متعجبًا مما دعوه إليه من الشرك: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ ﴾ وتطمعون أن تستزلوني عن توحيده بعد أن هداني، وتأكدت بصيرتي، واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها، وقد علمتم: أن من كانت هذه حاله في اعتقاده أمرًا من الأمور عن بصيرة، لا يعارضه فيها ريب؛ فلا سبيل إلى استزلاله عنها.

وأيضًا: فإن المحاجة بعد وضوح الشيء وظهوره؛ نوع من العبث بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس، وقد رآها من يحاجه بعينه، فكيف يؤثر حجاجكم له أنها لم تطلع،

---

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ١.

ثم قال: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ فكأنه صلوات الله وسلامه عليه، يذكر أنهم خوفوه آلهتهم: أن يناله منها معرة، كما قاله قوم هود: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤] فقال إبراهيم: إن أصابني مكروه فليس ذلك من قبل هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله، وهي أقل من ذلك؛ فإنها ليست ممن يرجى أو يخاف؛ بل يكون ذلك الذي أصابني من قبل الحي الفعال، الذي يفعل ما يشاء، بيده الضر والنفع، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ثم ذكر سعة علمه سبحانه في هذا المقام؛ منبهًا على موقع احتراز لطيف، وهو: أن لله تعالى علمًا فيَّ وفيكم وفي هذه الآلهة لا يصل إليه علمي، فإذا شاء أمرًا من الأمور؛ فهو أعلم بما يشاؤه؛ فإنه وسع كل شيء علمًا، فإن أراد أن يصيبني بمكروه لا علم لي: من أي جهة أتاني؟ فعلمه محيط بما لم أعلمه، وهذا غاية التفويض والتبرئ من الحول والقوة وأسباب النجاة، وأنها بيد الله لا بيدي.

وهكذا قول شعيب ﷺ لقومه: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩] فردت الرسل بما يفعله الله، وأنه إذا شاء شيئًا فهو أعلم بما يشاؤه، ولا علم لنا بامتناعه.

ثم رجع الخليل إليهم مقررًا للحجة، فقال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ يعني في إلهيته: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]. يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية، وهي ليست موضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في الإلهية أشياء لم ينزل بها حجة عليكم. والذي أشرك بخالقه وفاطره فاطر السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه؛ آلهة لا تخلق

شيئًا، وهي مخلوقة، ولا تملك لا نفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وجعلها ندًّا له ومثلًا في الإلهية؛ أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهًا آخر؛ بل وحَّده وأفرده: بالإلهية والربوبية، والقهر والسلطان، والحب والخوف والرجاء، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ فحكم الله تعالى بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه؛ بحيث لم يبق لطاعن مطعن ولا سؤال، ولما كانت بهذه المثابة؛ عظمها بإضافتها إلى نفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] وكفى بحجة يكون الله تعالى ملقيها لخليله؛ أن تكون: قاطعة لموارد العناد، وقامعة لأهل الشرك والإلحاد.

(١) المناظرة في العلم نوعان: أحدهما: للتمرين والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصر الحق وكبت الباطل.

والأول يشبه السباق والنضال، والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم، فعلم الحجة يرفع درجة صاحبه، فإن العلم بالحجج، والقوة على الجهاد مما رفع الله به درجات الأنبياء وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوى التي يقدرون بها على إظهار الحق وأمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار: البصائر في دينه، ولهذا يسمي الله سبحانه الحجة سلطانًا.

---

(١) ٢٧ فروسية.

قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن فهو الحجة، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الصافات : ١٥٦] وقال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم : ٢٣] وقال تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم : ٣٥]، وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه، فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه، وإن كان عاجزا عنه بيده.

وهذا هو أحد أقسام النصرة التي ينصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر : ٥١] فإذا كانت المسابقة شرعت؛ ليتعلم المؤمن القتال، ويتعوده ويتمرن عليه، فمن المعلوم: أن المجاهد قد يقصد دفع العدو إذا كان المجاهد مطلوبًا والعدو طالبًا وقد يقصد الظفر بالعدو ابتداء إذا كان طالبًا والعدو مطلوبًا، وقد يقصد كلا الأمرين.

والأقسام ثلاثة: يؤمر المؤمن فيها بالجهاد. وجهاد الدفع أصعب من جهاد الطلب، فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: **«من قتل دون ماله فهو شهيد»**[(١)]، و**«من قتل دون دمه فهو شهيد»**[(٢)].

لكن دفع الصائل على الدين جهاد وقربة، ودفع الصائل على المال والنفس مباح ورخصة، فإن قتل فيه فهو شهيد، فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبًا؛ ولهذا يتعين على كل أحد: يجاهد فيه العبد بإذن سيده وبدون إذنه، والولد بدون إذن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٨٠) ومسلم (رقم ١٤١) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٢٣) وشرح النووي (٢/ ١٦٣).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٢٩٢ رقم ١٠٩٢) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣١٠ رقم ٣٥٥٧) وأبو داود (رقم ٤٧٧٢) والترمذي (رقم ١٤٢١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٦٦ رقم ٥٨٥٨) وأحمد (١/ ١٩٠) وعبد بن حميد (رقم ١٠٦) وقال الترمذي: حسن صحيح.

أبويه، والغريم بغير إذن غريمه، وهذا كجهاد المسلمين يوم أحد والخندق.

ولا يشترط في هذا النوع من الجهاد أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون، فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين، فكان الجهاد واجبا عليهم، لأنه حينئذ جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار، ولهذا تباح فيه صلاة الخوف بحسب الحال في هذا النوع، وهل تباح في جهاد الطلب إذا خاف فوت العدو ولم يخف كرته؟ فيه قولان للعلماء هما روايتان عن الإمام أحمد.

ومعلوم: أن الجهاد الذي يكون فيه الإنسان طالبا مطلوبا أوجب من هذا الجهاد الذي هو فيه طالب لا مطلوب، والنفوس فيه أرغب من الوجهين. وأما جهاد الطلب الخالص فلا يرغب فيه إلا أحد رجلين: إما عظيم الإيمان يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، وإما راغب في المغنم والسبي.

فجهاد الدفع يقصده كل أحد، ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعًا وعقلًا. وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين. وأما الجهاد الذي يكون فيه طالبا مطلوبا، فهذا يقصده خيار الناس، لإعلاء كلمة الله ودينه، ويقصده أوساطهم للدفع ولمحبة الظفر.

[(1)]قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيهًا لا أسفه منه، ورشيدًا.

فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشيد: من تبرأ من الشرك قولًا وعملًا وحالًا، فكان قوله توحيدًا، وعمله توحيدًا. وحاله توحيدًا، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين ـ من أولهم إلى آخرهم ـ.

***

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٣.

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

...[(١)]الوكالة يراد بها أمران، أحدهما: التوكيل. وهو الاستنابة والتفويض. والثاني: التوكل، وهو التعرف بطريق النيابة عن الموكل، وهذا من الجانبين، فإن الله تبارك وتعالى يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وكَّله فيه، والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده، ففي قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] قال قتادة: وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر[(٢)] الذين ذكرناهم ـ يعني قبل هذه الآية ـ وقال أبو رجاء العطاردي: معناه إن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء، وهم الملائكة[(٣)]. وقال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار أهل المدينة.

والصواب: أن المراد من قام بها إيمانًا ودعوة وجهادًا ونصرة، فهولاء هم الذين وكلهم الله بها.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال: إن أحدًا وكيل الله؟

قلت: لا. فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة، والله ﷻ لا نائب له، ولا يخلفه أحد، بل هو الذي يخلف عبده، كما قال النبي ﷺ: **«اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»**[(٤)]. على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور

(١) ١٢٦ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢١٣) بلفظه وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٣٩ رقم ٧٥٧٦) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣١٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٤) وابن أبي حاتم في تفسير (٤/ ١٣٣٩ رقم ٧٥٧٧) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣١٢) والتاريخ الكبير (٨/ ٤١٣ رقم ٣٥٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٣٤٢).

بحفظ ما وكله فيه ورعايته والقيام به.

وأما توكيل العبد ربه: فهو تفويضه إليه وعزل نفسه عن التصرف وإثباته لأهله ووليه، ولهذا قيل في التوكل: إنه عزل النفس عن الربوبية وقيامها بالعبودية، وهذا معنى كون الرب وكيل عبده أي كافيه والقائم بأموره ومصالحه، لأنه نائبه في التصرف.

فوكالة الرب عبده أمر وتعبد، وإحسان له، وخلعة منه عليه، لا عن حاجة منه، وافتقار إليه كموالاته. وأما توكيل العبد ربه: فتسليم لربوبيته وقيام بعبوديته.

وقوله[1] وهو: «من أصعب منازل العامة عليهم»، لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم، ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصة، وهي التي تشهد التوكيل، فهم في رق الأسباب، فيصعب عليهم الخروج عنها، وخلو القلب منها، والاشتغال بملاحظة المسبب وحده.

وأما كونه «أوهى السبل عند الخاصة» فليس على إطلاقه بل هو من أجل السبل عندهم وأفضلها، وأعظمها قدرًا وقد تقدم في صدر الباب: أمر الله رسوله بذلك وحضه عليه هو والمؤمنين.

ومن أسمائه «المتوكل»، وتوكله أعظم توكل، وقد قال الله له: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلا على الله واثقا به، فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

نعم التوكل على الله في معلوم الرزق المضمون، والاشتغال به عن التوكل في نصرة

(١) أي صاحب المنازل. ذكرناه لما اشتمل عليه الجواب من فوائد. رحم الله الجميع. (ج).

الحق والدين: من أوهى منازل الخاصة. أما التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق، فهذا توكل الرسل والأنبياء عليهم السلام، فكيف يكون من أوهى منازل الخاصة؟

قوله: «لأن الحق قد وكل الأمور إلى نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها».

جوابه: أن الذي تولى ذلك أسند إلى عباده كسبًا وفعلًا، وإقدارًا واختيارًا، وأمرًا ونهيًا، استعبدهم به. وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه، وأمر بتوكلهم عليه، فيما أسنده إليهم وأمرهم به، وتعبدهم به وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين، وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين، وكما يحب التوابين.

(1) إن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه، وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه، وناهيك بها منزلة شريفة، ومنقبة عظيمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٨، ٨٩].

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ. وقيل: كل مؤمن، هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه، كقول من قال: هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أو قوم من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر، الذين سماهم في الآيات قبل هذه الآية، قال: وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما يليها بأن يكون خبرًا عنهم؛ أولى وأحق بأن يكون خبرًا عن غيرهم، فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا

(١) ١٦١ مفتاح جـ١.

حقيقتها، فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها، ويؤمنون بصحتها[(١)].

قلت: السورة مكية والإشارة بقوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلًا، ومن عداهم تبعًا، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة.

والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلًا، والمؤمنون بهم تبعًا، فيدخل كل من قام بحفظها والذنب عنها والدعوة إليها.

ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلًا وللمؤمنين بهم تبعًا، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته، فهم الموكلون بها: وهذا ينتظم الأقوال التي قيلت في الآية. وأما قول من قال: إنهم الملائكة، فضعيف جدًّا لا يدل عليه السياق، وتاباه لفظة ﴿قَوْمًا﴾؛ إذ الغالب في القرآن؛ بل المطرد تخصيص (القوم) ببني آدم دون الملائكة. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] فإنما قاله لما ظنهم من الإنس.

وأيضًا فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده، ولهذا لو أظهر ذلك وقيل: فإن يكفر بها كفار قومك، فقد وكلنا بها الملائكة، فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من: التسلية، وتحقير شأن الكفرة بها، وبيان عدم تأهلهم لها والأنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان، الذين سبقت لهم الحسنى عليهم، لكونهم أحق بها وأهلها، والله أعلم حيث يضع هداه، ويختص به من يشاء.

وأيضًا: فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها، وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها، فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها، ولا يذهبها، ولا يضرها شيئًا، فإن لها أهلًا ومستحقًّا سواهم. فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من احتقارهم

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٦٥).

وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم، وإنكم وان تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

وإذا كان للملك: عبيد قد عصوه وخالفوا أمره، ولم يلتفتوا إلى عهده. وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره، فنظر إليهم، وقال: إن يكفر هؤلاء بنعمي، ويعصوا أمري، ويضيعوا عهدي، فإن لي عبيدًا سواهم، وهم أنتم: تطيعون أمري، وتحفظون عهدي، وتؤدون حقي، فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة، ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان.

وأما توكيلهم بها، فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها ومراعاتها، والذب عنها، والنصيحة لها، كما يوكل الرجل غيره بالشيء، ليقوم به، ويتعهده ويحافظ عليه و﴿ بِهَا ﴾ الأولى متعلقة بـ﴿ وَكَّلْنَا ﴾، و﴿ بِهَا ﴾ الثانية متعلقة ﴿ بِكَـٰفِرِينَ ﴾، والباء في ﴿ بِكَـٰفِرِينَ ﴾، لتأكيد النفي.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين: إنه وكيل الله، بهذا المعنى، كما يقال: ولي الله؟

قلت: لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما إن يصاغ منه اسم فاعل مطلق، كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد إن قال: خليفة الله، لقوله: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]، فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم: إنه خليفة الله؛ لأنه استخلاف مقيد.

ولما قيل للصديق: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله،

وحسبي ذلك. ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾.

والمقصود: أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علمًا وعملًا، وجهادًا لأعدائها، وذبًّا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وأيضًا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة، كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه.

ولهذا قال بعض السلف: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ يقول: رزقناها قومًا، فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها: إنه وكيل لله، وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة، فإنها المحبة والقرب، فكما يقال عبد الله وحبيبه. يقال: وليه. والله تعالىٰ يوالي عبده إحسانًا إليه، وجبرًا له ورحمة، بخلاف المخلوق؛ فإنه يوالي المخلوق لتعززه به، وتكثره بموالاته، لذل العبد وحاجته. وأما العزيز الغني فلا يوالي أحدًا من ذل ولا حاجة، قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١١].

...[1]لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم: علمًا ومعرفةً وحالًا، تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فأكمل الناس توحيدًا الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدًا، وهم[2] نوح وإبراهيم وموسىٰ ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وأكملهم توحيدًا الخليلان محمد وإبراهيم ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما، علمًا ومعرفةً وحالًا ودعوةً للخلق وجهادًا.

(١) ٤٨٠ مدارج جـ٣.

(٢) في مخطوطتنا: وهم: محمد، نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، فإنهما... والمطبوعة أصح، إلا أنه سقط منها ذكر: (عيسىٰ). (ج).

فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه، كما قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠] فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم، ولما قاموا بحقيقته علمًا وعملًا ودعوةً وجهادًا، جعلهم الله أئمةً للخلائق، يهدون بأمره، ويدعون إليه، وجعل الخلائق تبعًا لهم، يأتمون بأمرهم، وينتهون إلىٰ ما وقفوا بهم عنده، وخص بالسعادة والفلاح والهدىٰ أتباعهم، وبالشقاء والضلال مخالفيهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال عهدي بالإمامة مشرك، ولهذا أوصىٰ نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم. وكان يعلم أصحابه، إذا أصبحوا: أن يقولوا: «**أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[1] فملة إبراهيم؛ التوحيد ودين محمد ما جاء به من عند الله: قولًا وعملًا واعتقادًا. وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام، هي ما فطر الله عليه عباده من: محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له: عبودية وذلًّا وانقيادًا، وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه؛ فهو من أسفه السفهاء.

***

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣ رقم ٩٨٢٩) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦) والبزار (٥/ ٢٩١ رقم ١٩١١) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣، ٢٩٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٦٧٤).

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

(١)إن دعوة محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاءوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق، وأنه كاذب مفتر على الله، وهذا في غاية الوضوح. وهذا بمنزلة شهود شهدوا بحق فصدقهم الخصم، وقال هؤلاء: كلهم شهود عدول صادقون، ثم شهد آخر على شهادتهم سواء، فقال الخصم: هذه الشهادة باطلة وكذب لا أصل لها، وذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعاً، ولا ينجيه من تكذيبهم اعترافه بصحة شهادتهم، وأنها شهادة حق مع قوله: إن الشاهد بها كاذب فيما شهد به. فكما أنه لو لم يظهر محمد ﷺ لبطلت نبوات الأنبياء قبله، فكذلك إن لم يصدق، لم يمكن تصديق نبي من الأنبياء قبله.

إن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به، ولمحمد ﷺ مثلها، أو ما هو في الدلالة مثلها، وإن لم يكن من جنسها، فآيات نبوته أعظم وأكبر وأبهر وأدل، والعلم بنقلها قطعي، لقرب العهد، وكثرة النقلة، واختلاف أمصارهم وأعصارهم، واستحالة تواطئهم على الكذب.

فالعلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده وظهوره وبلده، بحيث لا تمكن المكابرة في ذلك، والمكابر فيه في غاية الوقاحة والبهت، كالمكابرة في وجود ما يشاهده الناس

---

(١) ١٨٥ هداية.

ولم يشاهده هو من البلاد والأقاليم والجبال والأنهار، فإن جاز القدح في ذلك كله، فالقدح في وجود عيسىٰ وموسىٰ وآيات نبوتهما أجوز وأجوز، وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد.

ولذلك لما علم بعض علماء أهل الكتاب: أن الإيمان بموسىٰ لا يتم مع التكذيب بمحمد أبداً كفر بالجميع، وقال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال: له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**أنشدك بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين**»؟!، وكان حبرًا سمينًا، فغضب عدو الله، وقال: والله ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك، ولا موسىٰ؟ فقال: والله ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1] الآية، وهذا قول عكرمة.

قال محمد بن كعب: جاء ناس من اليهود إلىٰ النبي ﷺ وهو محتب، فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسىٰ، ألواحاً يحملها من عند الله ﷻ؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾[2] الآية [النساء: ١٥٣].

وجاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك، ولا علىٰ موسىٰ، ولا علىٰ عيسىٰ، ولا علىٰ أحد شيئاً، ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء، فحل رسول الله ﷺ حبوته، وجعل

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤٢ رقم ٧٥٩٧).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٧) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣١٤).

يقول: «ولا على أحد؟»[(١)].

وذهب جماعة، منهم؛ مجاهد: إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، وكذبوا بالرسل، وأما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى وعيسى، وهذا اختيار ابن جرير، قال: وهو أولى الأقاويل بالصواب، لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبراً عن اليهود، ولم يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلاً، مع ما في الخبر من أخبر الله عنه من هذه الآية من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود؛ بل المعروف من دين اليهود الإقرار: بصحف إبراهيم، وموسى، وزبور داود[(٢)]، والخبر من أول السورة إلى هذا الموضع خبر عن المشركين من عبدة الأوثان. وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ موصول به غير مفصول عنه.

قلت: ويقوي قوله: إن السورة مكية، فهي خبر عن زنادقة العرب، المنكرين لأصل النبوة، ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾؟! [الأنعام: ٩١]، ولاسيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب؟، وهل ذلك صالح لغير اليهود؟، فإنهم كانوا يخفون من الكتاب ما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه، فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم وبخهم بأنهم خانوا الله ورسوله فيه، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه. وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية، وذلك إخفاء لها وكتمان إلى جحد ما أقر به كتابهم بإخفائه وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر، إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند الله، كيف لا يجحد أصل النبوة؟.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٧) وانظر: تفسير السيوطي (٣/ ٣١٤-٣١٥) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٨٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٦٨).

ثم احتج عليهم بأنهم قد علموا بالوحي ما لم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم، ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله لم يصلوا إليه، ثم أمر رسوله أن يجيب عن هذا السؤال، وهو قوله: ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾؟ فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ : أي: الله الذي أنزله، أي: إن كفروا به وجحدوه، فصدق به أنت، وأقر به ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1] [الأنعام: ٩١].

جواب هذا السؤال: أن يقال: إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين، وهم أولوا العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي: إن جحدتم أصل النبوة وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فهذا كتاب موسى تقر به أهل الكتاب، وهم أعلم منكم فاسألوهم عنه. ونظائر هذا في القرآن كثيرة، يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد.

والمعنى: إنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فمن أنزل كتاب موسى؟، فإن لم تعلموا ذلك فاسألوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بلفظ التاء للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك، أي: تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك.

وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس، وأبدوا بعضه، وأخفوا كثيراً منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلا بوحي من الله، ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ ﴾ خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾، بل هذا استطراد من الشيء إلى نظيره وشبهه ولازمه. وله نظائر في القرآن كثيرة.

كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ

---

(١) تقدم في أول السورة الكلام على قوله: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ ما له علاقة بهذا فليرجع إليه (ج).

مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] إلى آخر الآيات، فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين، وهو آدم إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد.

ومثله قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠] إلى آخر الآيات.

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ٩-١٢] إلى آخر الآيات.

وعلى التقديرين فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي ﷺ ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتكذيب العام، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته ظهر تناقضهم وتفريقهم بين المتماثلين، وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي وجحد نبوة من نبوته أظهر وآياتها أكثر وأعظم ممن أقروا به. وأخبر سبحانه أن من جحد: أن يكون قد أرسل رسله وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به، بل يتعالى ويتنزه عنه.

***

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

...[١]دار بيني وبين بعض علمائهم مناظرةٌ في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: ولا يتم لكم القَدح في نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن في الربِّ تعالىٰ والقدح فيه، ونسبته إلىٰ أعظم الظلم والسفه والفساد، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقال: كيف يلزمُنا ذلك؟

قلت: بل أبلغ مِن ذلك: لا يَتمُّ لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالىٰ.

وبيانُ ذلك: أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبيٍّ صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتريَ علىٰ الله، ويتقوَّل عليه ما لم يقُلْه، ثم يتم له ذلك، ويستمر حتىٰ يُحلِّل، ويُحَرِّمَ، ويفرِضَ الفرائضَ، ويشرع الشرائع، وينسخَ المِلل، ويضربَ الرِّقاب، ويقتلَ أتباعَ الرُّسل، وهم أهلُ الحق، ويسبي نساءَهم وأولادَهم، ويَغْنَم أموالهم ودِيارَهم، ويَتِمَّ له ذلك حتىٰ يفتحَ الأرض، وينسب ذلك كله إلىٰ أمر الله تعالىٰ له به ومحبته له، والربُّ تعالىٰ يُشاهده، وما يفعل بأهل الحقِّ وأتباع الرُّسُل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كُلِّه يُؤيده وينصُره، ويُعلي أمره، ويُمكِّن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البَشَر.

وأعجَب من ذلك: أنه يُجيب دعوته، ويُهلِكُ أعداءَه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه، وتارة يستأصِلُهم سبحانه من غير دعاء منه ﷺ، ومع ذلك يقضي له كل حاجة سأله إياها، ويعده كل وعد جميل، ثم ينجز له وعده علىٰ أتمِّ الوجوه، وأهنئها، وأكملها، هذا وهو عندكم في غاية الكذِب والافتراءِ والظُّلم، فإنه لا أكذبَ ممن كذبَ علىٰ الله، واستمرَّ علىٰ ذلك، ولا أظلمَ ممن أبطل شرائعَ أنبيائه ورُسُله، وسعىٰ في رفعها من الأرض، وتبديلها بما يُريد هو، وقتل أولياء الله وحزبه وأتباع رُسُله، واستمرت نصرتُه عليهم دائماً، والله تعالىٰ في ذلك كُلِّهِ يقره، ولا يأخُذ منه باليمين، ولا يقطعُ منه الوتَين، وهو يُخبِرُ عن ربه أنه أُوحىٰ إليه أنه لا ﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

(١) ٨٩ زاد المعاد جـ٣.

[الأنعام: ٩٣]، فيلزمُكم معاشِرَ مَنْ كذَّبه أحدُ أمرين لابد لكم منهما:

إما أن تقُولوا: لا صانِع للعالَم، ولا مُدَبِّرَ، ولو كان للعالَم صانع مدبِّرٌ قديرٌ حكيم؛ لأخذ على يديه، ولقابله أعظمَ مقابلة، وجعله نكالًا للظالمينَ؛ إذ لا يليقُ بالملوك غيرُ هذا. فكيف بملك الأرض والسماواتِ، وأحكم الحاكمين؟

الثاني: نِسبةُ الربِّ إلى ما لا يليق به من الجور، والسفه، والظلم، وإضلال الخلق دائماً أبَد الآباد، لا بَلْ نصرة الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعواته، وقيام أمره مِن بعده، وإعلاء كلماته دائماً، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة قرناً بعد قرن على رؤوس الأشهاد في كل مجمع وناد، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، فلقد قدحتم في رب العالمين أعظمَ قدح، وطعنتم فيه أشَدَّ طعن، وأنكرتموه بالكلية.

ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذَّابين قام في الوجود، وظهرت له شَوْكة، ولكن لم يتم له أمرُه، ولم تطل مدته، بل سَلَّط الله عليه رُسُله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واستأصلوا شأفته. هذه سُنَّته في عباده منذ قامت الدنيا، وإلى أن يرث الأرض ومَن عليها.

فلما سمع مني هذا الكلام، قال: معاذَ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب، بل كُلُّ منصف من أهل الكتاب يُقِرُّ بأنَّ مَن سلك طريقه، واقتفى أثَره، فهو مِن أهل النجاة والسعادة في الأُخرى.

قلتُ له: فكيف يكون سالكُ طريق الكذَّاب، ومقتفي أثره بزعمكم مِن أهل النجاة والسعادة؟ فلم يجد بُداً من الاعتراف برسالته، ولكن لم يُرسَل إليهم.

قلت: فقد لزمك تصديقُه ولا بد، وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسولُ رب العالَمين إلى الناس أجمعينَ، كِتَابِيهم وأُمِّيهم، ودعا أهل الكتاب إلى دينه، وقاتل مَن لم يدخُلْ في دينه منهم حتى أقروا بالصغار والجزية، فَبُهِتَ الكافِرُ، ونهض مِن فوره[(١)].

(١) ساق الشيخ هذه المناظرة في التبيان من ١١٣/ ١١٤ قريبًا من هذا السياق، وفيه زيادة. (ج).

والمقصود: أنَّ رسولَ الله ﷺ، لم يزل في جِدالِ الكفار على اختلاف مِللهم ونِحَلِهم إلى أن تُوفي. وكذلك أصحابُه من بعده، وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السور المكية والمدنية. وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحُجَّةِ إلى المُباهلة. وبهذا قام الدينُ، وإنما جُعِلَ السيفُ ناصِراً للحُجَّة. وأعدلُ السيوفِ سيفٌ ينصُرُ حُجَجَ اللهِ وبيِّناتِه، وهو سيفُ رسوله وأُمته.

(١)قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ يعني الذي أنزله جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة، إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء؟ وهذا من فضل العلم وشرفه، وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة، والله الموفق للرشاد.

(٢)وقد احتج أبو عبد الله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال: حدثنا محمد ابن الحسين بن الحسن: حدثنا محمد بن زيد النيسابوري: حدثنا حماد بن قيراط: حدثنا محمد بن الفضل عن يزيد بن عبد الرحمن الصائغ البلخي، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس أنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعد؛ تلا هذه الآية: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآية. [الأنعام: ٩٣] قال: «والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار» ثم قال: «فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة، ينتظمان ما بين الخافقين، كأن وجوههم الشمس، فينظر إليهم، ما ترى غيرهم، وإن كنتم ترون أنهم ينظرون(٣) إليكم، مع كل منهم أكفان وحنوط، فإن كان

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.
(٢) ٦٠ الروح.
(٣) هكذا في المنقول عنه ـ والظاهر ـ أنه ينظر إليكم. (ج).

مؤمنًا بشروه بالجنة، وقالوا: أخرجي أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته، فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها، فلا يزالون يبشرونه ويحفون به فَلَهُم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها، ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل، ويموت الأول فالأول، ويهون عليه، وكنتم ترونه شديدًا حتى تبلغ ذقنه، قال: فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرها كل ملك منهم، أيهم يقبضها، فيتولى قبضها ملك الموت» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة: ١١] «فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه، فلهو أشد لزومًا لها من المرأة إذا ولدتها، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك، فيستنشقون ريحها، ويتباشرون بها، ويقولون مرحبا بالروح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحًا وعلى جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها ولله ﷻ خلق في الهواء، لا يعلم عدتهم إلا هو، فيفوح لهم منها ريح أطيب من المسك، فيصلون عليها ويتباشرون، ويفتح لهم أبواب السماء، فيصلي عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم، حتى ينتهي بها بين يدي الملك الجبار، فيقول الجبار جل جلاله: مرحبًا بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه. وإذا قال الرب ﷻ للشيء مرحبًا رحب له كل شيء، ويذهب عنه كل ضيق، ثم يقول لهذه النفس الطيبة: أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلى الأرض، فإني قضيت أنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فوالذي نفس محمد بيده لهى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد، وتقول: أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد، الذي كنت فيه؟ قال فيقولون: إنا مأمورون بهذا، فلابد لك منه. فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه»[١].

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٨-٣٢٠): وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس. وذكر الحديث بطوله.

فدل هذا الحديث على: أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان، وهذا عود غير التعلق الذي كان لها في الدنيا بالبدن، وهو نوع آخر، وغير تعلقها به حال النوم، وغير تعلقها به وهي في مقرها، بل هو عود خاص للمساءلة.

قال شيخ الإسلام: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس، وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون، فقالوا: السؤال للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترده، ولو كان ذلك على الروح فقط، لم يكن للقبر بالروح اختصاص.

وهذا يتضح بجواب المسألة، وهي قول السائل: هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس، وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا؟

وقد سئل **شيخ الإسلام** عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه، فقال: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة: تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين، كما تكون على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان: مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام.

وفي المسألة أقوال شاذة، ليست من أقوال أهل السنة والحديث: قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وان البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين. ويقوله كثير من أهل الكلام من: المعتزلة وغيرهم، الذين يقرون بمعاد الأبدان. لكن يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ، وإنما يكون عند القيام من القبور، لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط، ويقولون: إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ، فإذا

كان يوم القيامة؛ عذبت الروح والبدن معًا، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من: أهل الكلام والحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم وابن مرة.

فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة، بل هو مضاف إلىٰ قول من يقول بعذاب القبر، ويقر بالقيامة، ويثبت معاد الأبدان والأرواح.

ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه علىٰ الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلىٰ البدن بواسطتها.

الثالث: أنه علىٰ البدن فقط، وقد يضم إلىٰ ذلك القول الثاني، وهو قول من يثبت عذاب القبر، ويجعل الروح هي الحياة، ويجعل الشاذ: قول منكر عذاب الأبدان مطلقًا، وقول من ينكر عذاب الروح مطلقًا. فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة؛ فالقول الثاني الشاذ: قول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب؛ وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من: المعتزلة؛ والأشعرية: كالقاضي أبي بكر وغيره، وينكرون أن الروح تبقىٰ بعد فراق البدن، وهذا قول باطل، وقد خالف أصحابه أبو المعالي الجويني وغيره، بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة: أن الروح تبقىٰ بعد فراق البدن، وأنها منعمة أو معذبة.

والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك، لكن ينكرون معاد الأبدان، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان، لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان، وكلا القولين خطأ وضلال؛ لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام؛ بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام.

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب؛ بل لا يكون ذلك حتىٰ تقوم الساعة الكبرىٰ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم، ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه؛ بناء علىٰ: أن الروح لا تبقىٰ بعد فراق البدن،

وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ؛ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرىٰ.

فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة، فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقىٰ بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة. وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، ويحصل له معها النعيم أو العذاب. ثم إذا كان يوم القيامة الكبرىٰ، أعيدت الأرواح إلىٰ الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارىٰ.

(١) وأما المسألة الثامنة: وهي قول السائل: ما الحكمة في كون عذاب القبر؛ لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلىٰ معرفته والإيمان به ليحذر ويتقىٰ؟ فالجواب من وجهين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الله ﷻ أنزل علىٰ رسوله وحيين، وأوجب علىٰ عباده: الإيمان بهما، والعمل بما فيهما، وهما الكتاب والحكمة، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. والكتاب؛ هو القرآن؛ والحكمة؛ هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب تعالىٰ علىٰ لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي ـ صلىٰ الله عليه وآله وسلم ـ: «إني أوتيت الكتاب ومثله معه»(٢).

وأما الجواب المفصل؛ فهو: أن نعيم البرزخ وعذابه؛ مذكور في القرآن في غير

(١) ٩٢ الروح.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) والمروزي في السنة (رقم ٢٤٤، ٤٠٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤/ ٢٠٠ رقم ٤٦٠٤) وصحيح الجامع (رقم ٢٦٤٣).

موضع، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦] فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧].

وهذا يحتمل: أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال ـ وهو أظهر ـ: إن من مات منهم؛ عذب في البرزخ، ومن بقي منهم؛ عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم: في الدنيا، وفي البرزخ.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس على عذاب القبر، في الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى، وأكبر. فأخبر أنه يذيقهم بعض

الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمله.

وهذا نظير قول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها**»(١) ولم يقل: فيأتيه حرها وسمومها؛ فإن الذي وصل إليه بعض ذلك، وبقي له أكثره، والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا، بعض العذاب الأدنى، وبقي لهم ما هو أعظم منه...

(٢)وأما المسألة العشرون وهي: هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ فاختلف الناس في ذلك: فمن قائل: إن مسماهما واحد وهم الجمهور.

ومن قائل: إنهما متغايران.

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته، فنقول: النفس تطلق على أمور:

أحدها: الروح. قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، قال أبو خراش:

نجا سالم والنفس منه بشدقــه ... ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا(٣)

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٥٣) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٤-٤٩٧ رقم ٧٢٠) وأحمد (٤/ ٢٨٧) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٥٥-٣٥٧ رقم ٣٩٥) وابن منده في الإيمان (٢/ ٩٦٢-٩٦٤ رقم ١٠٦٤) وهناد في الزهد (١/ ٢٠٥-٢٠٧ رقم ٣٣٩) وقال البيهقي: هذا حديث صحيح الإسناد، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وحسنه المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٧).

(٢) ٢٦٤ الروح.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى حذيفة الهذلي وهو من الشعراء المخضرمين، أحد بني عمرو ابن الحارث. وذكر هذا البيت ابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤) ونسبه كما فعل ابن القيم إلى أبي خراش، بينما ذكره في موضع آخر من اللسان (١٣/ ٨٩) ونسبه إلى حذيفة بن أنس الهذلي، وذكره مرة ثالثة (١٥/ ٣٠٥) ونسبه إلى الهذلي وقال فيه: «نجا عامر» بدل «نجا سالم» أما ابن عساكر فذكره في تاريخ مدينة دمشق (٤٠/ ٤٥١) وقال: وقال الهذلي في مثل قول الأصمعي، وكذا فعل ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٦٢، ٥٥٤).

أي: بجفن سيف ومئزر:

والنفس: الدم. يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «ما لا نفس له سائلة؛ لا ينجس الماء إذا مات فيه»(١).

والنفس: الجسد. قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم أدخلوا   أبياتهم تامور نفس المنذر(٢)

والتامور: الدم.

والنفس: العين، يقال: أصابت فلاناً نفس، أي: عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع؛ لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها: كقوله تعالى: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١] وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

وتطلق على الروح وحدها: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. وأما

(١) انظر: الأم (١/ ٥) والاستذكار (١/ ٣١٩) والتمهيد (١/ ٣٣٨) (٣/ ١٦٢) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٧) والتحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٦١-٦٢) والمغني (١/ ٤١-٤٢).

(٢) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى أوس بن حجر التميمي عمَّر طويلًا ولم يدرك الإسلام، في شعره حكمة ورقة، وكان مغرمًا بالنساء، مات سنة ٢ قبل الهجرة، ذكر البيت ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ١٦٩) وفيه: «بني سليم» بدل «بني تميم» وجعله من قول أوس بن حجر. وابن منظور في اللسان (٤/ ٩٣) وفيه «بني سحيم»، وذكر في (٦/ ٢٣٦) أن أوس ذكر هذا يحرض عمرو بن هند على بني حنيفة، وهم قتلة أبيه المنذر ابن ماء السماء يوم عين أباغ، ويزعم أن عمرو بن شمر الحنفي قتله. وانظر: المغني (١/ ٤١).

الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس.

وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة؛ فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم؛ خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح؛ لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبَّت الأرواح من نحــــو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردا[1]

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها. وسميت نفسًا: إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن؛ سميت نفسًا.

ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًّا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح؛ فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا؛

---

(١) ورد هذا البيت بلفظ: إذا الريح من أرض الحبيب تنسمت: وجدت لرياها على كبدي بردا.
انظر: التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٢٠١) بينما ذكره الحموي في معجم البلدان (٢/ ١٣١) وعزاه إلى المهدي بن الملوح.

لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، ولأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس؛ فلهذا قال:

تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل[1]

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي: الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض: إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض: إذا اندفع قسرًا وقهرًا، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت تفيض هي.

***

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

[2]أمر سبحانه بالنظر إليه: وقت خروجه وإثماره، ووقت نضجه وإدراكه، يقال:

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى السموأل بن غريض الأزدي، شاعر جاهلي حكيم، مات سنة ٦٤ قبل الهجرة، أشهر شعره لاميته هذه، وهي من أجود الشعر. ومن علماء الأدب من ينسب هذه القصيدة إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، سجنه الرشيد العباسي وجهل مصيره، وضاع أكثر شعره، مات ١٩٠هـ. ذكره ابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤)، وجعله من قول السموأل، بينما ذكره النووي في تهذيب الأسماء ٠٣/ ٣٤٥) وفيه «حد السيوف» و«غير السيوف».

(٢) ٢٠٥ مفتاح جـ١.

أينعت الثمار إذا نضجت وطابت؛ لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع، والطعم الحلو اللذيذ الشهي، لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف: حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها، فينظروا إليها، ثم تلا: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾.

ولو أردنا أن نستوعب ما في آيات الله المشهودة من العجائب والدلالات الشاهدة لله: بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر، ولا ألطف؛ لعجزنا نحن والأولون والآخرون، عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك، وهذا حين الشروع في الفصول...[(١)].

***

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾.

[(٢)] قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] والاستدلال بهذا أعجب؛ فإنه من أدلة النفاة. وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله، إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها، فان الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به.

وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمرًا وجوديًّا: كتمدحه بنفي السنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي

(١) سرد المصنف فصولًا نافعة جدًّا، فمن أرادها فليرجع إليها. (ج).
(٢) ٢٠٧ حادي الأرواح.

اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرًا ثبوتيًّا، فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فلو كان المراد بقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال، لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار، والرب جل جلاله يتعالى إن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذا المعنى: أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به، كما كان المعنى في قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ [يونس: ٦١]. أنه يعلم كل شيء، وفي قوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] أنه كامل القدرة، وفي قوله: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] أنه كامل العدل. وفي قوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه كامل القيومية.

فقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢] فلم ينف عن موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ إنا لمرئيون، فإن موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نفى إدراكهم إياهم بقوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ وأخبر الله ﷻ أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه: ٧٧] فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر، وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم

ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية. قال بن عباس: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ لا تحيط به الأبصار[(١)]. قال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار[(٢)]. وقال عطية: ينظرون إلى الله، ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[(٣)] المؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عيانًا ولا تدركه أبصارهم بمعنى أنها لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف الله ﷻ بأن شيئًا يحيط به، وهو بكل شيء محيط.

وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه، ولا يحيطون بكلامه.

وهكذا يعلم الخلق ما علمهم، ولا يحيطون بعلمه.

ونظير هذا استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله، وإنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها، وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه.

مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثل، أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته فاق أمثاله، وبعد عن مشابهة أضرابه.

فقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من أدل شيء على أنه يُرى ولا يدرك.

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٩٩) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٩٩) (٢٩/ ١٢٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٢).

مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤] من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارج عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم وينفذهم بصره، ويحيط بهم علما وقدرة وإرادة وسمعا وبصرا، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا. وتأمل حسن هذه المقابلة لفظا ومعنى بين قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفي عليه فهو العظيم في لطفه اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

...[1]ومن ظن من القوم أن كشف العين ظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة، فقد غلط أقبح الغلط، وأحسن أحواله أن يكون صادقا ملبوسا عليه، فإن هذا لم يقع في الدنيا لبشر قط، وقد منع منه كليم الرحمن ﷺ.

وقد اختلف السلف والخلف: هل حصل هذا لسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه؟ فالأكثرون على أنه لم ير الله سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا من الصحابة، فمن ادعى كشف العيان البصري عن الحقيقة الإلهية فقد وهم وأخطأ، وإن قال: إنما هو كشف العيان القلبي بحيث يصير الرب سبحانه كأنه مرئي للعبد، كما قال النبي ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه**» فهذا حق. وهو قوة يقين، ومزيد علم فقط.

نعم قد يظهر له نور عظيم، فيتوهم أن ذلك نور الحقيقة الإلهية، وأنها قد تجلت له، وذلك غلط أيضا، فإن نور الرب تعالى لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء ساخ الجبل وتدكدك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال: «ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء»[2].

---

(١) ٢٢٩ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٦ رقم ٣٢٣٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، و انظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٣٦٣).

وهذا النور الذي يظهر للصادق هو نور الإيمان الذي أخبر الله عنه في قوله: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[النور: ٣٥].

قال أبي بن كعب: «مثل نوره في قلب المؤمن»(١). فهذا نور يضاف إلى الرب. ويقال: هو نور الله، كما أضافه الله سبحانه إلى نفسه. والمراد: نور الإيمان الذي جعله الله له خلقًا وتكوينًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] فهذا «النور» إذا تمكن من القلب، وأشرق فيه؛ فاض علىٰ الجوارح. فيرىٰ أثره في الوجه والعين. ويظهر في القول والعمل. وقد يقوىٰ حتىٰ يشاهده صاحبه عيانًا، وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه، وغيبة أحكام النفس.

والعين شديدة الارتباط بالقلب، تظهر ما فيه. فتقوىٰ مادة النور في القلب. ويغيب صاحبه بما في قلبه عن أحكام حسه؛ بل وعن أحكام العلم فينتقل من أحكام العلم إلى أحكام العيان...

***

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

(٢)الفعل أو القول المفضي إلى المفسدة قسمان:

أحدهما: أن يكون وضعه للإفضاء إليها: كشرب المسكر المفضي إلى مفسدة السكر، وكالقذف المفضي إلى مفسدة الفرية، والزنا المفضي إلى اختلاط المياه وفساد الفراش

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧).

(٢) ١٤٨ أعلام جـ٣.

ونحو ذلك، فهذه أفعال وأقوال وضعت مفضية لهذه المفاسد، وليس لها ظاهر غيرها.

والثاني: أن تكون موضوعة للإفضاء إلى أمر جائز أو مستحب فيتخذ وسيلة إلى المحرم: إما بقصده أو بغير قصد منه.

فالأول: كمن يعقد النكاح قاصدًا به التحليل، أو يعقد البيع قاصدًا به الربا، أو يخالع قاصدًا به الحنث، ونحو ذلك.

والثاني: كمن يصلي تطوعًا بغير سبب في أوقات النهي، أو يسب أرباب المشركين بين أظهرهم، أو يصلي بين يدى القبر لله، ونحو ذلك.

ثم هذا القسم من الذرائع نوعان:

أحدهما: أن تكون مصلحة الفعل أرجح من مفسدته.

والثاني: أن تكون مفسدته راجحة على مصلحته؛ فههنا أربعة أقسام:

الأول: وسيلة موضوعة للإفضاء إلى المفسدة.

الثاني: وسيلة موضوعة للمباح، قصد بها التوسل إلى المفسدة.

الثالث: وسيلة موضوعة للمبا، لم يقصد بها التوسل إلى المفسدة؛ لكنها مفضية إليها غالبًا، ومفسدتها أرجح من مصلحتها.

الرابع: وسيلة موضوعة للمباح، وقد تفضي إلى المفسدة، ومصلحتها أرجح من مفسدتها، فمثال القسم الأول والثاني قد تقدم.

ومثال الثالث: الصلاة في اوقات النهى، ومسبة آلهة المشركين بين ظهرانيهم، وتزين المتوفَّى عنها في زمن عدتها، وأمثال ذلك.

ومثال الرابع: النظر إلى المخطوبة والمستامة والمشهود عليها ومن يطؤها ويعاملها، وفعل ذوات الأسباب في أوقات النهي، وكلمة الحق عند ذي سلطان جائر ونحو ذلك؛ فالشريعة جاءت: بإباحة هذا القسم، أو استحبابه، أو إيجابه بحسب درجاته في المصلحة، وجاءت بالمنع من القسم الأول: كراهة، أو تحريمًا بحسب درجاته في المفسدة، بقى النظر في القسمين الوسط: هل هما مما جاءت الشريعة

بإباحتهما أو المنع منهما؟ فنقول: الدلالة على المنع من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فحرم الله تعالى سبَّ آلهة المشركين - مع كون السب غيظًا وحمية لله وإهانة لآلهتهم - لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] فمنعهن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزًا في نفسه؛ لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال، فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ الآية [النور: ٥٨] أمر تعالى مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم؛ أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ لئلا يكون دخولهم هجما بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم: عند القائلة، والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها، وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها، فجعلت كالمقدمة.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤] نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير، لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم، فإنهم كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ، ويقصدون بها السب، يقصدون فاعلًا من الرعونة، فنهي المسلمون عن قولها سدًّا لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي ﷺ تشبهًا بالمسلمين، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون(١).

---

(١) أوصلها المؤلف إلى تسعة وتسعين وجهًا، تضمنت علمًا جمًّا جزاه الله خيرًا (ج).

[(١)]أما التزيين فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨] وقال: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فأضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقًا ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلىٰ سببه ومن أجراه علىٰ يده تارة، وهذا التزيين من الله سبحانه حسن، إذ هو ابتلاء واختبار بعيد، ليتميز المطيع منهم من العاصي والمؤمن من الكافر، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، وهو من الشيطان قبيح.

وأيضًا فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ، عقوبة منه له علىٰ إعراضه عن توحيده وعبوديته وإيثار سيء العمل علىٰ حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيئ من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه زينه سبحانه له، وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحًا. وكل ظالم وفاجر وفاسق لابد أن يريه الله تعالىٰ ظلمه وفجوره وفسقه قبيحًا، فإذا تمادىٰ عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رآه حسنًا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، وهو حجة الله عليه، فإذا تمادىٰ في غيه وظلمه ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم، ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة وبالتعريف الأول.

فتزيين الرب تعالىٰ عدل وعقوبته حكمة ـ وتزيين الشيطان إغواء وظلم، وهو السبب الخارج عن العبد، والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه ـ والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدىٰ خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

---

(١) ١٠٣ شفاء.

[(١)]قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] وهذا عطف على ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقال كثير من المفسرين: المعنى: نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

قال ابن عباس: في رواية عطاء عنه ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي، قال: وهذا كقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون: المعنى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعا من التعليل كقوله: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢] والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه، وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا: أن يؤمنوا إذا جاءتهم، لأنهم رأوها عيانًا، وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان تقليبا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقد روى مسلم في صحيحه: من حديث عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها؛ بين إصبعين من أصابع الرحمن: كقلب واحد، يصرفه كيف يشاء**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على**

---

(١) ٩٩ شفاء.

طاعتك»[١].

وروى الترمذي من حديث أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء»[٢] قال: هذا حديث حسن.

وروى حماد، عن أيوب وهشام ويعلي بن زياد، عن الحسن قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «دعوة كان رسول الله ﷺ، يكثر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا رسول الله دعوة كثيرًا ما تدعو بها، قال: «إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه»[٣] وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال ابن عباس: أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون[٤].

...[٥]وأما العقوبة الأولى فلا يلزم أن تكون على ذنب؛ بل هي جارية مجرى تولد الآلام عما يأكله ويشربه ويتمتع به؛ فتولدت تلك الذنوب بعد البلوغ عن تلك الأسباب المتقدمة قبله، وهذا القول الوسط في العقوبة على العدم، وهو الذي دل عليه القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] فأخبر سبحانه عن عقوبتهم على عدم الإيمان بتقليب أفئدتهم وأبصارهم.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٣، ٣٩٨) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢١٤٠) والضياء المقدسي في المختارة (٦/ ٢١١ رقم ٢٢٢٢) وأبو يعلى (٦/ ٣٥٩ رقم ٣٦٨٧) وأحمد (٣/ ١١٢) والدارقطني في الصفات (رقم ٤٠).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤١٤ رقم ٧٧٣٧) وفي النعوت والأسماء والصفات (رقم ٥٧٩) وأبو يعلى (٨/ ١٢٨ رقم ٤٦٦٩) وأحمد (٦/ ٩١).

(٤) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١/ ١٣٦).

(٥) ٣٣٠ مختصر الصواعق جـ١.

فإن قلت: هذه عقوبة على أمر وجودي، وهو تركهم الإيمان بعد إرسال الرسول ودعائهم لهم.

قلت: الموجب لهذه العقوبة الخاصة؛ هو عدم الإيمان، ولكن إرسال الرسول وترك طاعته؛ شرط في وقوع العذاب، فالمقتضى قائم وهو عدم الإيمان؛ لكنه مشروط وقوعه بشرط وهو إرسال الرسول ففرق بين انتفاء الشيء لانتفاء موجبه ومقتضيه، وانتفائه لانتفاء شرطه بعد قيام المتقضى.

[(١)]حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأسًا، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك. قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، فعاقبهم على رد الحق أول مرة: بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره؛ عقوبة لك قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣] فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين، فليهنه السلامة.

***

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

[(٢)]إنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ

---

(١) ١٨٠ بدائع جـ٣.

(٢) ٥٣ مفتاح جـ١.

أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلًا منهم. وقال: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]. أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها: من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب، فالجهال شر منهم، وليس على دين الرسل أضر من الجهال؛ بل هم أعداؤهم على الحقيقة.

وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥]. وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] وقال لأول رسله نوح ﷺ: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

فهذه حال الجاهلين عنده، والأول حال أهل العلم عنده.

وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه: أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وأمر نبيه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأثنى على عباده المؤمنين بالإعراض عنهم ومتاركتهم، كما في قوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده، وبغضه للجهل وأهله، وهو كذلك عند الناس، فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه.

***

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

[(١)]قبول التأويل له أسباب:

منها: أن يأتي به صاحبه: مموهًا بزخرف من القول، مكسوًّا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة؛ فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء؛ بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، ويغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل وهو ما يغر السامع من زخرف القول، فلما أصغت إليه ورضيته؛ اقترفت ما تدعو إليه من الباطل: قولًا وعملًا.

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها.

وإذا تأملت مقالات أهل الباطل؛ رأيتهم قد كسوها من العبارات المستحسنة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، فيسمون أم الخبائث: أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة التي هي الحشيشة: لقيمة الذكر والفكر، التي تثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن...

[(٢)]أكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ، ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] فسماه زخرفًا وهو القول الباطل؛ لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به. والمقصود أن

(١) ٨٧ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ١٣٤ الجواب الكافي.

الشيطان قد لزم ثغر الأذن: أن يدخل فيها ما يضر العبد، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخله بغير اختياره أفسده عليه.

***

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

[1]أما اللام في قوله: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [الأنعام: ١١٣] فهي على بابها للتعليل؛ فإنها إن كانت تعليلًا لفعل العدو، وهو إيحاء بعضهم إلى بعض؛ فظاهر، وعلى هذا فيكون عطفًا على قوله: ﴿غُرُورًا﴾ فإنه مفعول لأجله: أي: ليغروهم بهذا الوحي، ولتصغى إليه أفئدة من يلقى إليه فيرضاه ويعمل بموجبه، فيكون سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور، وهو أربعة أمور: غرور من يوحون إليه، وإصغاء أفئدتهم إليهم، ومحبتهم لذلك، وانفعالهم عنده بالاقتراف.

وإن كان ذلك تعليلًا لجعله سبحانه لكل نبي عدوًّا، فيكون هذا الحكم من جملة الغايات، والحكم المطلوبة بهذا الجعل، وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها؛ لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة مطلوبة للرب سبحانه، وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها، وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة.

***

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

(١) ١٩٣ شفاء العليل.

(١)قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]. فهذا يبين أن الحكم بين الناس؛ هو الله وحده بما أنزل من الكتاب المفصل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] استفهام إنكار، يقول: كيف أبتغي حكمًا غير الله وقد أنزل كتابًا مفصلًا؟ فإن قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ جملة في موضع الحال.

وقوله ﴿ مُفَصَّلًا ﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل مبين؛ ضد ما يصفه به من يزعم: أن عقول الرجال تعارض بعض نصوصه، أو أن نصوصه خيلت أو أفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو أن لها معان لا تفهم ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة، خلاف ما دلت عليه ظواهرها، فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلًا، بل مجمل مؤول، ولا يعلم المراد منه، والمراد منه خلاف ظاهره أو إفهام خلاف الحق. ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيه؛ علم علمًا يقينيًا أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، لاسيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة من

(١) ٢١٧ مختصر الصواعق جـ١.

ذلك، ليس هو المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم؛ بل هو من الحق الذي شهد له القرآن وصدقه، ولهذا لم ينكر النبي ﷺ عليهم ما في التوراة من الصفات، ولا عابهم به، ولا جعله تشبيهًا وتجسيمًا أو تمثيلًا، كما فعل كثير من النفاة، وقال: اليهود أئمة التشبيه والتجسيم، ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم قرءوا ما في التوراة، فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل؛ لم يعبهم به المعطلة، بل شاركوهم فيه، والذي استشهد الله على نبوة رسوله ﷺ به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات؛ عابوهم به ونسبوهم إلى التشبيه والتجسيم، وهذا ضد ما عليه الرسول وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئًا من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيمًا وتشبيهًا؛ صدقهم عليه وأقرهم ولم ينكره، كما صدقهم في خبر الحبر الذي ثبت من حديث ابن مسعود وضحك تعجبًا وتصديقًا لـه، وفي غير ذلك، ثم قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١١٥] فما أخبر به فهو صدق، وما أمرم به فهو عدل، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به لا نعارضه ولا نعرض عنه. ومن عارضه بعقله؛ لم يصدق به، ولو صدقه تصديقًا مجملًا ولم يصدقه تصديقًا مفصلًا في أعيان ما أخبر به؛ لم يكن مؤمنًا، ولو أقر بلفظه مع جحد معناه، أو صرفه إلى معان أخر غير ما أريد به؛ لم يكن مصدقًا؛ بل هو إلى التكذيب أقرب.

(١)الرضا بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١١٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيدًا وإلهًا» يعني: فكيف أطلب ربًا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

(١) ١٨١ مدارج جـ٢.

مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلىٰ غير كتابه وقد أنزله مفصلًا مبينًا كافيًا شافيًا؟

(١)إنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم علىٰ صحة ما أنزل الله علىٰ رسوله، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

(٢)وقد ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤].

وقال بعض العارفين: انفرادك في طريق طلبك، دليل علىٰ صدق الطلب.

مت بداء الهوىٰ وإلا فخـاطر　　　واطرق الحي والعيون نواظـر
لا تخف وحشة الطريق إذا سر　　　ت وكن في خفارة الحق سائر

***

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

(٣)سألته ﷺ عائشة رضي الله عنها، فقالت: إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري أذكر

---

(١) ٥٠ مفتاح جـ١.
(٢) ١٤٧ مفتاح جـ١.
(٣) ٣٨٠ أعلام جـ٤.

اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سمُّوا أنتم وكلوا»[(١)] ذكره البخاري.

وسأله ﷺ رجل فقال: أنأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٢١] إلى آخر الآية، هكذا ذكره أبو داود، وأن الذي سأل هذا السؤال هم اليهود[(٢)]، والمشهور في هذه القصة أن المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال، وهو الصحيح، ويدل عليه كون السورة مكية، وكون اليهود يحرمون الميتة كما يحرمها المسلمون، فكيف يوردون هذا السؤال، وهم يوافقون على هذا الحكم؟

ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فهذا سؤال مجادل في ذلك، واليهود لم تكن تجادل في هذا، وقد رواه الترمذي بلفظ ظاهره؛ أن بعض المسلمين سأل هذا السؤال، ولفظه: أتى ناسٌ إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل مما نقتل ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[(٣)] [الأنعام: ١١٨-١٢١]. وهذا لا يناقض كون المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال؛ فسأل عنه المسلمون رسول الله ﷺ ولا أحسب قوله: «إن اليهود سألوا عن ذلك» إلا وهمًا من أحد الرواة، والله أعلم.

وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ﷺ إني إذا أصبت اللحم انتشرتُ للنساء، وأخذتني شهوتي، فحرمت عليَّ اللحم، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٠٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٨١٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٤٠ رقم ١٨٦٧٥) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٥٧ رقم ٢٧١) والطبراني في الكبير (١١/ ٤٥٧ رقم ١٢٢٩٥)، وانظر: عون المعبود (٨/ ١١).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٦٩) وقال: هذا حديث حسن غريب، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٣٥٣).

ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨] ذكره الترمذي[١].

وسأله ﷺ أبو ثعلبة الخُشني ﷺ، فقال: إن أرضنا أرض أهل كتاب، وإنهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، فكيف نصنع بآنيتهم وقدورهم؟ فقال ﷺ: «**إن لم تجدوا غيرها فارحضوها واطبخوا فيها واشربوا**» قال: قلت: يا رسول الله، ما يحل لنا وما يحرم علينا؟ قال: «**لا تأكلوا لحم الحمر الإنسية، ولا يحل كل ذي ناب من السباع**» ذكره أحمد[٢].

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة؛ أنه قال: «**أكل كل ذي ناب من السباع حرام**»[٣] وهذان اللفظان يبطلان قول من تأول نهيه عن أكل كل ذي ناب من السباع: بأنه نهي كراهةٍ؛ فإنه تأويل فاسد قطعًا، وبالله التوفيق.

وسئل ﷺ: أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللبة؟ فقال: «**لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك**»[٤] ذكره أبو داود، وقال: هذا ذكاة المتردي، وقال يزيد بن هارون: هذا للضرورة، وقيل: هو في غير المقدور عليه...

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٥٤) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٥٠ رقم ١١٩٨١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٨٦ رقم ٦٦٨٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٨٣٩) مختصرًا، ومن طريقه البيهقي في الكبرى (١/ ٣٣ رقم ١٣١) والترمذي (رقم ١٧٩٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٩ رقم ٥٨٤) وأحمد واللفظ له (٤/ ١٩٣) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٩٣٣) ولفظه: «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام» وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٥٤-٦٥٧).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٢٨٢٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ٦٣ رقم ٤٤٩٧) والترمذي (رقم ١٤٨١) وابن ماجه (رقم ٣١٨٤) وابن الجارود (رقم ٩٠١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٤٦ رقم ١٨٧١٠) والدارمي (رقم ١٩٧٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٠-١٣١ رقم ٤٨٦٧) وفي الكبير (٧/ ١٦٧ رقم ٦٧١٩، ٦٧٢٠) وأبو يعلى (٣/ ٧٢ رقم ١٥٠٣) وأحمد (٤/ ٣٣٤) والطيالسي (رقم ١٢١٦) وعبد بن حميد (رقم ٤٧٤) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٢): وهو حديث صحيح، ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٦٤١): لكن من قوّاه حمله على الوحش والمتوحش.

ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾.

[(١)] قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جدًّا، فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان؛ فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شرك له؛ إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات.

ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عدم ذلك بالموت، فقال: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل: ٨٠] وسمى وحيه روحًا، لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة.

وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) ﴾ [النحل: ٢]. وقال تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥] فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن؛ ولهذا من فقد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في

---

(١) ٢٥٨ مدارج جـ٣.

الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فحياته حياة البهائم وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته...

(١) الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧٠ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢].

وشبههم - في موت قلوبهم - بأهل القبور؛ فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبورًا لها. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء، وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له؛ كانت ميتة حقيقة، وليس هذا تشبيهًا لموتها بموت البدن؛ بل ذلك موت القلب والروح...

(٢) قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فأجابهم: بأن حكمته وعلمه يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهلها، ولو كان الأمر راجعا إلى محض المشيئة لم يكن في هذا جواب، بل كان الجواب أن أفعاله لا تعلل، وهو يرجح مثلا على مثل بغير مرجح، والأمر عائد إلى مجرد القدرة، كما يقوله المنكرون، وكذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ

(١) ٢٦٢ مدارج جـ٣.
(٢) ٢٠٣ شفاء العليل.

فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فلما سألوا عن التخصيص بمشيئة الله وأنكروا ذلك، أجيبوا: بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرون عليها المنعم، فهؤلاء يصلحون لمشيئته، ولو كان الأمر عائدًا إلى محض المشيئة؛ لم يحسن هذا الجواب؛ ولهذا يذكر سبحانه صفة العلم، حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل، مما يقتضي تخصيصه وتفصيله وهو الذي جعله أهلًا لذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، فذكر علمه عقيب تخصيصه سليمان بتسخير الريح له، وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة[1].

[2]إن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر وفتنة فيه.

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور، فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعفته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه، وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «هلك من لم يكن له قلب

(١) هذا النقل قد سبق ذكره عند تفسير الآية ٥٣ من سورة الأنعام.
(٢) ٢٠ إغاثة جـ١.

يعرف به المعروف، وينكر به المنكر»[(١)].

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه، انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حُسْن الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح.

وقد ذكر ﷺ هذين الأصلين في مواضع من كتابه. فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]. فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. أي: أو من كان كافرًا ميت القلب، مغموراً في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقًا مستنيراً بعد ظلمته؟ فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته: بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٢٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤ رقم ٣٧٥٨١) والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٧ رقم ٨٥٦٤) والبيهقي في الشعب (٦/ ٩٥ رقم ٧٥٨٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وانظر: التمهيد (٢٣/ ٢٨٣، ٣٣٦) والاستذكار (٥/ ١٧) والفتن لنعيم بن حماد المروزي (١/ ١٦١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٢١) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢).

وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سدف الظلام(١)، كما قيل:

لَيْلِي بِوَجْهِـــكَ مُشْرِقٌ وَظَلَامُهُ فِى النَّاسِ سَارِى
النَّاسُ فِى سُدُفِ الظَّـــلا مِ وَنَحْنُ فِى ضَوْءِ النَّهَارِ(٢)

ولهذا يضرب الله ﷻ المثلين المائى والنارى لوحيه ولعباده.

أما الأول، فكما قال فى سورة الرعد: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء، لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فواد كبير يسع ماء كثيراً، وواد صغير يسع ماء قليلًا. كذلك القلوب مشبهة بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمارته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات

(١) يأتي في سورة الأنفال بحث جيد حول هذه الآية إن شاء الله (ج).

(٢) هذان البيتان من بحر مجزوء الكامل وانتحلهما عمر الرافعي المولود سنة ١٢٩٩هـ كان قاضيًا وأديبًا في طرابلس الشام درس على يدي الشيخ محمد عبده في مصر وتولى الإفتاء في طرابلس سنة ١٩٤٨م. وجاءت أبياته هكذا:

ليلي بوجـــهك مشرق في كل معنى كالمـــنار
وبدون وجهـــك مظلم وظلامه في الناس ساري
فالناس في سدف الظـلا م لنور وجهـــك بافتقار
قـــد شاقهم بـدر التـــما م ونحن في ضوء النهار

ولم أقف على قائلها.

باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع. وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صفوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧-١٨]. فهذا المثل الناري، ثم قال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٩]. فهذا المثل المائي. وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره(١).

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩-٧٠]. فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فأخبر ﷺ أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم. فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢]. ولقد أحسن القائل:

---

(١) في كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية) كلام قيم عن هذين المثلين. قلت: وفي أعلام الموقعين ذكر هذا المثل وغيره من أمثال القرآن. وما ذكره من كتاب المعالم فلم نعثر عليه. (ج).

وَفِي الجهلِ قَبْلَ الموْتِ مَوْتٌ لأَهْلِه وَأَجْسَامُهُمْ، قَبْلَ القُبُورِ، قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِـم وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ(١)

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحا، كما قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]. في موضعين من كتابه، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم ﷻ بالحياة الطيبة في الدارين. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣]. ومثله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠]. ومثله قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠].

فبين سبحانه أنه يسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى، وقد جمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل وينسبان إلى علي بن أبي طالب ﷺ، وعنده صدر البيت الثاني هكذا: وإن امرؤ لم يُحي بالعلم ميت. وذكر البيتين القرطبي في تفسيره (٧/ ٧٨) ونسبهما لبعض شعراء البصرة، ولكن البيت الثاني عنده هكذا:

وإن امرؤ لم يحي بالعلم ميت ❁ فليس لـه حتى في النشور نشور

واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

***

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

(١)أما تضييق الصدر وجعله حرجا لا يقبل الإيمان، فقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] والحرج هو الشديد الضيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حَرَجٌ وحَرِجٌ أي: ضيق الصدر، قال الشاعر:

لا حــــرج الصــــدر ولا عنـــيف(٢)

وقال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ قال رجل: نعم، قال: ما الحرجة فيكم؟ قالوا: الوادي الكثير الشجر، الذي لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر(٣).

وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ايتوني رجلًا من كنانة واجعلوه راعيًا، فأتوه به،

(١) ١٠٦ شفاء.

(٢) ذكره ابن منظور في اللسان (٢/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٠٦) وانظر: الدر المنثور (٦/ ٧٩).

فقال عمر: يا فتى ما الحرجة فيكم؟ فقال: الشجرة تحدق بها الأشجار الكثيرة، فلا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير[(١)].

قال ابن عباس: يجعل صدره ضيقًا حرجًا: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، وإن ذكر شيء من عبادة الأصنام، ارتاح إلى ذلك.

ولما كان القلب محلا للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية عبد وسع صدره وشرحه، فدخلت فيه وسكنته، وإذا أراد ضلاله ضيق صدره وأحرجه، فلم يجد محلا يدخل فيه، فيعدل عنه ولا يساكنه.

وكل إناء فارغ إذا دخل فيه الشيء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق، إلا القلب اللين، فكلما أفرغ فيه الإيمان والعلم اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة الرب تعالى.

في الترمذي وغيره: عن النبي ﷺ: «**إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح**» قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[(٢)].

فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال.

كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن منشرح الصدر منفسحه في هذه الدار على ما ناله من مكروهها، وإذا قوي الإيمان وخالطت بشاشته القلوب كان على مكارهها أشرح صدرا منه على شهواتها ومحابها، فإذا فارقها كان

---

(١) ذكره المزي في تهذيب الكمال (١٥/ ٣٢٥) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٦-٢٧) وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٤ رقم ٧٨٧٣) والحاكم (٤/ ٣٤٦ رقم ٧٨٦٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٧ رقم ٣٤٣١٥) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٥٢ رقم ١٠٥٥٢) وفي الزهد الكبير (٢/ ٣٥٦ رقم ٩٧٤).

انفساح روحه والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير: كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأى من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية، فهو أصل كل نعمة، وأساس كل خير.

وقد سأل كليم الرحمن موسى بن عمران ربه: أن يشرح له صدره، لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره، وقد عدد سبحانه من نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه أنه شرح صدورهم للإسلام.

فإن قلت: فما الأسباب التي تشرح الصدور، والتي تضيقه؟

قلت: السبب الذي يشرح الصدر النور الذي يقذفه الله فيه. فإذا دخله ذلك النور اتسع بحسب قوة النور وضعفه وإذا فقد ذلك النور أظلم وتضايق.

فإن قلت: فهل يمكن اكتساب هذا النور أم هو وهبي؟

قلت: هو وهبي وكسبي، واكتسابه أيضا مجرد موهبة من الله تعالى، فالأمر كله لله، والحمد كله له، والخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه شيء البتة، بل الله واهب الأسباب ومسبباتها، وجاعلها أسبابًا، ومانحها من يشاء، ومانعها من يشاء، إذا أراد بعبده خيرا وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق، فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق.

فإن قلت: فالرغبة والرهبة بيده لا بيد العبد.

قلت: نعم والله، وهما مجرد فضله ومنته، وإنما يجعلهما في المحل الذي يليق بهما، ويحبسهما عمن لا يصلح لهما.

فإن قلت: فما ذنب من لا يصلح؟.

قلت: أكثر ذنوبه أنه لا يصلح لأن صلاحيته بما اختاره لنفسه وآثره وأحبه من الضلال والغي على بصيرة من أمره، فآثر هواه على حق ربه ومرضاته، واستحب

العمى على الهدى، وكان كفر المنعم عليه بصنوف النعم وجحد إلهيته، والشرك به، والسعي في مساخطه، أحب إليه من شكره وتوحيده والسعي في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه.

وأي ذنب فوق هذا، فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عمن هذا شأنه كان قد عدل فيه، وانسدت عليه أبواب الهداية وطرق الرشاد، فأظلم قلبه، فضاق عن دخول الإسلام والإيمان فيه، فلو جاءته كل آية لم تزده إلا ضلالًا وكفرًا.

وإذا تأمل من شرح الله صدره للإسلام والإيمان هذه الآية، وما تضمنته من أسرار التوحيد والقدر والعدل وعظمة شأن الربوبية، صار لقلبه عبودية أخرى ومعرفة خاصة، وعلم أنه عبد من كل وجه وبكل اعتبار، وأن الرب تعالى رب كل شيء ومليكه من الأعيان والصفات والأفعال، والأمر كله بيده، والحمد كله له، وأزمة الأمور بيده، ومرجعها كلها إليه.

ولهذه الآية شأن فوق عقولنا، وأجل من أفهامنا، وأعظم مما قال فيها المتكلمون، الذين ظلموها معناها، وأنفسهم كانوا يظلمون.

(١)فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيدُ وعلى حسب كماله، وقوته، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهُدى والتوحيدُ؛ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر.

والشِّركُ والضَّلال؛ مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه.

ومنها: النورُ الذي يقذِفُه الله في قلب العبد، وهو نورُ الإيمان، فإنه يشرَحُ الصدر ويُوسِّعه، ويُفرِحُ القلبَ. فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصار في

---

(١) ٣١٦ زاد المعاد جـ١.

أضيق سجنٍ وأصعبه.

وقد روى الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا دَخَلَ النور القلبَ، انْفَسَحَ وانشرحَ». قالوا: وما عَلامَةُ ذَلِكَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قال: «الإِنَابَةُ إلى دارِ الخُلُودِ، والتَجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعْدادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزوله». فنصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور.

وكذلك النورُ الحِسّي، والظلمةُ الحِسِّية، هذه تشرحُ الصدر، وهذه تُضيِّقه.

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسِّعه حتى يكون أوسعَ من الدنيا، والجهلُ يورثه الضِّيق والحَصْر والحبس، فكلما اتَّسع علمُ العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل عِلم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلمُ النافع، فأهلُه أشرحُ الناس صدراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسُنهم أخلاقاً، وأطيبُهم عيشاً.

ومنها: الإنابة إلى الله ﷻ، ومحبتُه بكلِّ القلب، والإقبالُ عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقولُ أحياناً: إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذاً في عيش طيب.

وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، وطيبِ النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا مَن له حِس به، وكلَّما كانت المحبَّة أقوى وأشدَّ، كان الصدرُ أفسحَ وأشرحَ، ولا يَضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارِغين من هذا الشأن، فرؤيتُهم قَذَى عينه، ومخالطتهم حُمَّى روحه.

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالى، وتعلُّقُ القلب بغيره، والغفلةُ عن ذِكره، ومحبةُ سواه، فإن مَن أحبَّ شيئاً غيرَ اللَّه عُذِّبَ به، وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشاً، ولا أتعب قلباً، فهما محبتان:

محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذةُ القلب، ونعيم الروح، وغِذاؤها، ودواؤُها، بل حياتُها وقُرَّةُ عينها، وهي محبةُ الله وحدَه بكُلِّ القلب، وانجذابُ قوى

الميل، والإرادة، والمحبة كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذاب الروح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيقُ الصدر، وهي سببُ الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر دوامُ ذِكره علىٰ كُلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذِكْر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب في ضِيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلىٰ الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المال، والجاهِ، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدراً، وأطيبُهم نفساً، وأنعمُهم قلباً، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ صدراً، وأنكدُهم عيشاً، وأعظمُهم همّاً وغمّاً.

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدِّق: «كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، حَتَّىٰ يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ، وكُلَّمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ، لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ»[1]. فهذا مَثَلُ انشِراحِ صدر المؤمن المتصدِّق، وانفساح قلبه، ومثلُ ضِيقِ صدر البخيل وانحصارِ قلبه.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، وواسع البطان، متَّسِعُ القلب. والجبانُ: أضيق الناس صدراً، وأحصرُهم قلباً، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذَّة له، ولا نعيم، إلا منْ جنس ما للحيوان البهيم.

وأما سرور الروح، ولذَّتُها، ونعيمُها، وابتهاجُها، فمحرَّمٌ علىٰ كل جبان، كما هو محرَّم علىٰ كل بخيلٍ، وعلىٰ كُلِّ مُعرِض عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكره، جاهلٍ به وبأسمائه تعالىٰ وصفاته، ودِينه، متعلق القلبِ بغيره.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٠٢١) وانظر: شرح النووي (٧/ ١٠٨).

وإن هذا النعيم والسرور، ليصير في القبر رياضاً وجنة، وذلك الضيقُ والحصر، ينقلبُ في القبر عذاباً وسجناً. فحال العبد في القبر. كحال القلب في الصدر، نعيماً وعذاباً وسجناً وانطلاقاً، ولا عبرةَ بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدرِ هذا لعارض، فإن العوارِضَ تزولُ بزوال أسبابها، وإنما المعوَّلُ على الصِّفة التي قامت بالقلب تُوجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان. والله المستعان.

ومنها: بل من أعظمها: إخراجُ دَغَلِ القَلْبِ من الصفات المذمومة التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحولُ بينه وبين حصول البُرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرحُ صدره، ولم يُخرِجْ تلك الأوصافَ المذمومة من قلبه، لم يحظَ مِن انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتورَانِ على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطةِ، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضولَ تستحيلُ آلاماً وغموماً، وهموماً في القلب، تحصُرُه، وتحبِسه، وتضيِّقهُ، ويتعذَّبُ بها، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها.

فلا إله إلا اللهُ، ما أضيقُ صدَر مَن ضرب في كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم، وما أنكَدَ عيشَه، وما أسوأ حاله! وما أشدَّ حصرَ قلبه!

ولا إله إلا الله، ما أنعمَ عيشَ مَنْ ضرب في كل خَصلةٍ من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همتُّه دائرةً عليها، حائمةً حولها، فلهذا نصيب وافر مِنْ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار: ١٣] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار: ١٤] وبينهما مراتبُ متفاوتة لا يُحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

والمقصود: أن رسولَ الله ﷺ كان أكملَ الخلق في كلِّ صفة يحصُل بها انشراحُ الصدر، واتِّساعُ القلب، وقُرَّةُ العين، وحياةُ الروح، فهو أكملُ الخلق في هذا الشرح والحياة، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسِّيِّ، وأكملُ الخلق متابعة له، أكملُهم انشراحاً ولذَّة وقُرَّة عين، وعلى حسب متابعته ينالُ العبد من انشراح صدره

وقُرَّة عينه، ولذَّة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذُروة الكمال مِن شرح الصدر، ورفع الذِكْر، ووضع الوِزْر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه.. والله المستعانُ. وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمتِه إياهم، ودفاعِه عنهم، وإعزازه لهم، ونصرِه لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقِلٌّ ومستكثِر، فمَن وجد خيراً، فليحمد الله. ومَن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

(١)ولما كان «السلام» اسمًا من أسماء الرب تبارك وتعالى، وهو اسم مصدر في الأصل ـ كالكلام والعطاء ـ بمعنى السلامة، كان الرب تعالى أحق به من كل ما سواه، لأنه السالم من كل آفة وعيب ونقص وذم، فإن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته، فلايكون إلا كذلك.

والسلام يتضمن سلامة أفعاله من العبث، والظلم وخلاف الحكمة وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين، وسلامة ذاته من كل نقص وعيب، وسلامة أسمائه من كل ذم، فاسم «السلام» يتضمن إثبات جميع الكمالات له، وسلب جميع النقائص عنه. وهذا معنى «سبحان الله والحمد لله».

ويتضمن إفراده بالألوهية وإفراده بالتعظيم. وهذا معنى «لا إله إلا الله والله أكبر».

فانتظم اسم «السلام» الباقيات الصالحات التي يثنى بها على الرب جل جلاله.

ومن بعض تفاصيل ذلك أنه الحي الذي سلمت حياته من الموت والسنة والنوم والتغير. القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب والتعب والإعياء والعجز عما يريد. العليم الذي سلم علمه أن يعزب عنه مثقال: ذرة أو يغيب عنه معلوم من المعلومات، وكذلك سائر صفاته على هذا.

فرضاه سبحانه سلام أن ينازعه الغضب. وحلمه سلام أن ينازعه الانتقام. وإرادته سلام أن ينازعها الإكراه. وقدرته سلام أن ينازعها العجز. ومشيئته سلام أن ينازعها خلاف مقتضاها. وكلامه سلام أن يعرض له كذب أو ظلم بل تمت كلماته صدقا

(١) ١٩٣ أحكام جـ١.

وعدلا. ووعده سلام أن يلحقه خلف.

وهو سلام أن يكون قبله شيء، أو بعده شيء، أو فوقه شيء، أو دونه شيء، بل هو العالي على كل شيء، وفوق كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، والمحيط بكل شيء.

وعطاؤه ومنعه سلام أن يقع في غير موقعه، ومغفرته سلام أن يبالي بها أو يضيق بها، أو يضيق بذنوب عباده، أو تصدر عن عجز عن أخذ حقه، كما تكون مغفرة الناس. ورحمته وإحسانه، ورأفته وبره وجوده وموالاته لأوليائه، وتحببه إليهم وحنانه عليهم، وذكره لهم وصلاته عليهم؛ سلام أن يكون لحاجة منه إليهم أو تعزز بهم أو تكثر بهم.

وبالجملة فهو السلام من كل ما ينافي كلامه المقدس بوجه من الوجوه.

وأخطأ كل الخطأ من زعم أنه من أسماء السلوب، فإن السلب المحض لا يتضمن كمالًا، بل اسم «السلام» متضمن للكمال السالم من كل ما يضاده، وإذا لم تظلم هذا الاسم ووفيته معناه، وجدته مستلزما لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وثبوت المعاد، وحدوث العالم، وثبوت القضاء والقدر، وعلو الرب تعالى على خلقه، ورؤيته لأفعالهم، وسمعه لأصواتهم، واطلاعه على سرائرهم وعلانياتهم، وتفرده بتدبيرهم، وتوحده في كماله المقدس عن شريك بوجه من الوجوه، فهو السلام الحق من كل وجه. كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كل وجه.

ولما كان سبحانه موصوفًا بأن له يدين لم يكن فيهما شمال، بل كلتا يديه يمين مباركة، كذلك أسماؤه كلها حسنى، وأفعاله كلها خير، وصفاته كلها كمال.

وقد جعل سبحانه السلام تحية أوليائه في الدنيا وتحيتهم يوم لقائه. ولما خلق آدم وكمل خلقه فاستوى، قال الله له: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك[١].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٢٧) ومسلم (رقم ٢٨٤١) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٢٢٩).

وقال: تعالى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥]. وقد اختلف في تسمية الجنة بدار السلام.

فقيل: السلام هو الله، والجنة داره. وقيل: السلام هو السلامة، والجنة دار السلامة من كل آفة وعيب ونقص. وقيل: سميت «دار السلام» لأن تحيتهم فيها سلام، ولا تنافي بين هذه المعاني كلها.

وأما قول المسلم: «السلام عليكم» فهو إخبار للمسلم عليه بسلامته من: غيلة المسلم وغشه ومكره ومكروه يناله منه، فيرد الراد عليه مثل ذلك، أي: فعل الله ذلك بك، وأحله عليك. والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول أنه: في الأول خبر، وفي الثاني طلب.

ووجه ثالث: وهو أن يكون المعنى: اذكر الله الذي عافاك من المكروه، وأمَّنك من المحذور، وسلَّمك مما تخاف، وعاملنا من السلامة والأمان بمثل ما عاملك به. فيرد الراد عليه مثل ذلك، ويستحب له أن يزيده، كما أن من أهدى لك هدية يستحب لك أن تكافئه بزيادة عليها، ومن دعا لك ينبغي أن تدعو له بأكثر من ذلك.

ووجه رابع: وهو أن يكون معنى سلام المسلِّم ورد الراد بشارة من الله سبحانه، جعلها على ألسنة المسلمين لبعضهم بعضًا بالسلامة من الشر وحصول الرحمة والبركة، وهي دوام ذلك وثباته، وهذه البشارة أعطوها لدخولهم في دين الإسلام، فأعظمهم أجرا أحسنهم تحية وأسبقهم في هذه البشارة، كما في الحديث: **«وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام»**[1].

واشتق الله سبحانه لأوليائه للتحية بينهم اسمًا من أسمائه واسم دينه الإسلام الذي هو دين أنبيائه ورسله وملائكته. قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٧٧)ومسلم (رقم ٢٥٦٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٨٣، ٤٩٥) وشرح النووي (١٦/ ١١٧).

ﭐلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[آل عمران: ٨٣].

ووجه خامس: وهو أن كل أمة من الأمم لهم تحية بينهم من أقوال وأعمال: كالسجود وتقبيل الأيدي، وضرب الجوك، وقول بعضهم: أنعم صباحًا، وقول بعضهم: عش ألف عام، ونحو ذلك. فشرع الله تبارك وتعالى لأهل الإسلام ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وكانت أحسن من جميع تحيات الأمم بينها؛ لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدم على كل شيء. وانتفاع العبد بحياته إنما يحصل بشيئين بسلامته من الشر وحصول الخير والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير، وهي الأصل، فإن الإنسان بل وكل حيوان إنما يهتم بسلامته أولًا وغنيمته ثانيًا.

على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير، فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة نجاة العبد من الشر، وفوزه بالخير مع اشتقاقها من اسم الله.

والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له، كما في السنن أن رجلًا سلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى تيمم ورد عليه، وقال: «**إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهارة**»[(١)].

فحقيق بتحية هذا شأنها أن تصان عن بذلها لغير أهل الإسلام وألا يُحيَّى بها أعداء القدوس السلام. ولهذا كانت كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار: «**سلام على من اتبع**

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٦٩) ولفظه عنده: أن أبا الجهم بن الحارث من الصِّمَّة الأنصاري قال: أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل، فلقيه رجل فسلَّم عليه، فلم يرد رسول الله ﷺ عليه، حتى أقبل على الجدار فمسح وجهه ويديه، ثم رد عليه السلام.
أما اللفظ المذكور فقد أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٨٢ رقم ٨٠٣) والحاكم (١/ ٢٧٢ رقم ٥٩٢) وابن خزيمة (١/ ١٠٣ رقم ٢٠٦) والبيهقي في الكبرى (١/ ٩٠ رقم ٤٣٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٣).

الهدى»[(١)] ولم يكتب لكافر: «سلام عليكم» أصلًا، فلهذا قال في أهل الكتاب: «ولا تبدأوهم بالسلام»[(٢)].

***

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

[(٣)]ومن تلاعبه[(٤)]: تلاعبه بعباد الحيوانات. فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الجن، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) بلفظ: «من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: ومسلم (رقم ١٧٧٣).
وكتب أيضًا: «من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:» أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٤ رقم ١٣٠٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٦١-١٦٢ رقم ١٤٤٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠) وشرح النووي (١٢/ ١٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٥٢٠٥) والطبراني في الأوسط (١/ ٢١٧ رقم ٧٠٥) والطيالسي (رقم ٢٤٢٤) وأحمد (٢/ ٣٤٦، ٤٥٩) وانظر: عون المعبود (١٤/ ٧٥) والتمهيد (١٧/ ٩٢-٩٣) وفيض القدير (٦/ ٣٨٩).

(٣) ٢٣٥ إغاثة جـ٢.

(٤) أي الشيطان.

مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠- ٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. يعني: قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: «أضللتم منهم كثيرًا»، فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر. فاستمتاع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به: من الكفر، والفسوق، والعصيان. فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس. فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مُنَاهُم. واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين، والتزيين، والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم، وغيرها. فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم: من الشرك، والفواحش، والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم: من التأثيرات، والإخبار ببعض المغيبات. فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني. فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان. أطاعوه في الإشراك، ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله، وأنزل به كتبه. فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله، وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول، وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء

المتحيرين وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

والبصير الذي نور الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الحلق، وكان ناقدا، لا يروج عليه الزغل، تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهي منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشيطان، بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في قبوله منه وطاعته له فيسره ذلك، ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به، وعبادته له. ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه، وإعانته له.

ومن لم يحط علما بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسر امتحان الرب سبحانه كلا من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهو يتناول أجل الموت، وأجل البعث. فكلاهما أجل أجَّله الله تعالى لعباده، وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٢].

وكأن هذا - والله أعلم - إشارة منهم إلى نوع استعطاف وتوبة. فكأنهم يقولون: هذا أمر قد كان إلى وقت، وانقطع بانقطاع أجله. فلم يستمر ولم يدم، فبلغ الأمر الذي كان أجله وانتهى إلى غايته. ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله، فقد بقي زمن العقوبة، فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك، وتمتع بعضكم ببعض أن مفسدته زالت بزواله، وانتهت بانتهائه(١). والمقصود: أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبدوه، واتخذوه وذريته أولياء من دون الله.

(٢)وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ

(١) يأتي في سورة هود بحث على هذه الآية - إن شاء الله تعالى - في آخر البحث في أبدية النار. (ج).
(٢) ٤٢٠ طريق الهجرتين.

أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم، فإنهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياءِ الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة - وقد جمع العابدين والمعبودين -: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠ -٤١].

فهؤلاء عباد الجن وأولياءُ الشياطين. وأكثرهم يعلم ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر.

وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن، فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهي ربنا ورجائيا(١)

ولهذا يقولون في القيامة: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن.

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، اعتزل الأوثان وعبادة الأصنام، وقرأ كتب الأديان، ابن عم خديجة، قال لرسول الله ﷺ في حديث بدء الوحي: يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، مات سنة ١١ قبل الهجرة. وذكر البيت إسماعيل التيمي الأصبهاني في دلائل النبوة (ص٨١) ونسبه إلى ورقة بن نوفل يخاطب به ضمن قصيدة عمرو بن زيد بن نفيل، وكذا فعل ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٥١٥) (٦٣/ ٢٧).

ومما يدل على تكليفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِي ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم.

...[١]وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون: قبحها[٢] ثابت بالعقل، والعقاب متوقف على ورود الشرع، وهو الذي ذكره سعد بن علي الزنجاني من الشافعية، وأبو الخطاب من الحنابلة. وذكره الحنفية وحكوه عن أبي حنيفة نصًّا. لكن المعتزلة منهم يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل.

وقد دلَّ القرآن: أنه لا تلازم بين الأمرين، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل، وأن الفعل نفسه حسن وقبيح، ونحن نبين دلالته على الأمرين.

أما الأول: ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥]. وفي قوله: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وفي قوله: ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ ﴾ [الملك: ٨، ٩] فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل بل للنذر، وبذلك دخلوا النار.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَـٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وفي الزمر: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَـٰذَا ﴾ [الزمر: ٧١]، ثم قال في الأنعام بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

---

(١) ٢٣٢ مدارج جـ١.

(٢) يأتي إن شاء الله في سورة الأعراف بحث على قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ ﴾ الآية (ج).

وعلى أحد القولين وهو أن يكون المعنى: لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل، فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال، وتكون هذه الآية في دلالتها على الأمرين، نظير الآية التي في القصص: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧] فهذا يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم، ولولا قبحه لم يكن سببا لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم، فمذ جاء الرسول انعقد السبب ووجد الشرط، فأصابهم سيئات ما عملوا، وعوقبوا بالأول والآخر.

***

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

(١) قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣] فهذا قياس جليٌّ، يقول سبحانه: إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم، كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم فذكر أركان القياس الأربعة: علة الحكم: وهي عموم مشيئته وكمالها، والحكم: وهو إذهابه بهم وإتيانه بغيرهم، والأصل: وهو من كان من قبل، والفرع: وهم المخاطبون.

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.

[(١)]وقدم عليه ﷺ في شهر شعبان سنة عشر وفدُ خَوْلان، وهم عشرة، فقالوا: يارسول الله؛ نحن على مَن وَرَاءَنَا مِن قومنا، ونحن مؤمنون بالله ﷻ، ومصدِّقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباطَ الإبل، وركبنا حُزُونَ الأرض وسهولَها، والمنة لله ولِرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ مَسِيرِكُم إليَّ، فَإِنَّ لَكُم بِكُلِّ خَطْوَة خَطاهَا بَعِيرُ أَحَدِكُم حَسَنَة، وأما قولُكم: زائِرِينَ لك، فإنه مَنْ زَارَنِي بِالمَدِينَةِ، كَانَ فِي جِوارِي يَوْمَ القِيَامَةِ**».

قالوا: يَا رسول الله؛ هذا السفرُ الذي لا تَوَىٰ عَلَيْهِ. ثم قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا فَعَلَ عَم أَنَسٍ**»؟ ـ وهو صنم خَوْلان الذي كانوا يعبدونه ـ قالوا: بشر، أبدلنا اللهُ به ما جئتَ به، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسِّكون به، ولو قدمنا عليه، لهدمناه إن شاء الله، فلقد كنا منه في غُرور وفِتنة. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ومَا أَعْظَمَ مَا رَأَيْتُم مِنْ فِتْنَتِه**»؟ قالوا: لقد رأيتنا أَسْنَتْنَا حَتَّى أكلنا الرِّمة، فجمعنا ما قَدَرْنا عليه، وابتعنا به مِائة ثور، ونحرناها لعم أنس قُرباناً في غَداةٍ واحدةٍ، وتركناها تَرِدُها السباع، ونحن أحوَجُ إليها من السباع، فجاءنا الغيثُ مِن ساعتنا، ولقد رأينا العُشْبَ يُواري الرجالَ، ويقول قائِلُنا: أنعم علينا عم أنس، وذكروا لرسول الله ﷺ ما كانوا يَقسِمُون لصنمهم هذا من أنعامهم وحُروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له، وجزءاً لله بزعمهم، قالوا: كنا نزرعُ الزرعَ، فنجعلُ له وسطَه، فنسميه له، ونسمي زرعاً آخر حجرة لله، فإذا مالت الريحُ، فالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح، فالذي جعلناه لعم أنس، لم نجعله لله، فذكر لهم رسولُ الله ﷺ أنَّ الله أنزل عليه في ذلك: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، قالوا: وكنا نتحاكم إليه فيتكلم، فقال رسولُ الله ﷺ: «**تِلْكَ الشَّيَاطِينُ تُكَلِّمُكُم**»، وسألوه عن فرائض الدين، فأخبرهم، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداءِ الأمانةِ، وحُسنِ الجوار لمن

(١) ١٠٦ زاد المعاد جـ٣.

جاوزُوا، وأن لا يظلِمُوا أحداً. قال: «فإن الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١]، ثم ودَّعوه بعد أيام، وأجازهم، فرجعُوا إلى قومهم، فلم يَحُلُّوا عقدة حتى هدموا عم أنس[٢].

***

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

[٣]أما تحريم بيع الخنزير: فيتناول جملته وجميع أجزائه الظاهرة والباطنة، وتأمل كيف ذكر لحمه عند تحريم الأكل، إشارة إلى تحريم أكله، ومعظمه اللحم؟ فذكر اللحم تنبيهًا على تحريم أكله دون ما قبله، بخلاف الصيد، فإنه لم يقل فيه: وحرم عليكم لحم الصيد، بل حرم نفس الصيد؛ ليتناول ذلك أكله وقتله، وههنا لما حرم البيع ذكر جملته، ولم يخص التحريم بلحمه؛ ليتناول بيعه: حيًّا، وميتًا.

وأما تحريم بيع الأصنام؛ فيستفاد منه تحريم بيع كل آلة متخذة للشرك: على أي وجه كانت، ومن أي نوع كانت، صنمًا أو وثنًا أو صليبًا، وكذلك الكتب المشتملة على الشرك وعبادة غير الله، فهذه كلها؛ يجب إزالتها وإعدامها، وبيعها، ذريعة إلى اقتنائها واتخاذها، فهي أولى بتحريم البيع من كل ما عداها. فإن مفسدة بيعها بحسب مفسدتها في نفسها، والنبي ﷺ لم يؤخر ذكرها لخفة أمرها، ولكنه تدرج من الأسهل إلى ما هو أغلظ منه، فإن الخمر أخف حالاً من الميتة؛ فإنها قد تصير مالاً محترمًا، إذا قلبها الله سبحانه ابتداء خلًّا، أو الآدمي بصنعته عند طائفة من العلماء، وتضمن إذا أتلفت على الذمي عند طائفة بخلاف الميتة. وإنما لم يجعل الله في أكل الميتة حدًّا، اكتفاء بالزاجر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٧) ومسلم (رقم ٢٥٧٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٠٠) وشرح النووي (١٦/ ١٣٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢/ ١٩١) (٥/ ٩٣) والطبقات الكبرى (١/ ٣٢٤).

(٣) ٣٧٢ زاد المعاد جـ٤.

الذي جعله الله في الطباع من: كراهتها، والتنزه عنها، وإبعادها عنها بخلاف الخمر.

والخنزير أشد تحريمًا من الميتة؛ ولهذا أفرده الله تعالىٰ بالحكم عليه أنه رجس في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فالضمير في قوله: «فإنه» وإن كان عوده إلىٰ الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم: فإنه يترجح اختصاص الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه، والثاني: تذكيره، دون قوله: «فإنها رجس» والثالث: أنه أتىٰ بالفاء و«إن» تنبيهًا علىٰ علة التحريم؛ لتنزجر النفوس عنه. ويقابل هذه العلة، ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفىٰ عنه ذلك. وأخبر أنه «رجس»، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجسًا؛ أمر مستقر معلوم عندهم. ولهذا في القرآن نظائر، فتأملها.

ثم ذكر بعد ذلك؛ تحريم بيع الأصنام، وهو أعظم تحريمًا وإثمًا، وأشد منافاة للإسلام من بيع الخمر والميتة والخنزير.

(١)وسألته ﷺ ميمونة عن شاة ماتت فألقوا إهابها، فقال: **«هلا أخذتم مَسْكَها»** فقالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها ﷺ: **«إنما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه تنتفعوا به»**، فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قِربة تخرقت عندها(٢)، ذكره أحمد.

وسئل عن جلود الميتة، فقال: **«ذكاتها دباغها»**(٣) ذكره النسائي.

---

(١) ٢٨٠ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧) وابن حبان (٤/ ٩٨ رقم ١٢٨١) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ١٨ رقم ٥٧) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٨ رقم ١١٧٦٥) وأبو يعلىٰ (٤/ ٢٢٢ رقم ٢٣٣٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٦٠) وعمدة القاري (٩/ ٨٨) والحديث صححه الشوكاني في نيل الأوطار (١/ ٧٧).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٣/ ٨٤ رقم ٤٥٧١، ٤٥٧٢) وفي الصغرىٰ (رقم ٤٢٤٣، ٤٢٤٥) والحاكم (٤/ ١٥٧ رقم ٧٢١٨) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ٢١ رقم ٧٠) والدارقطني (١/ ٤٢ رقم ٤)
=

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

(١)كثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه. ونسوا: أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق...

(٢)وأما القدرية الإبليسية والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو لله ورسله، ولا يقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال الله فيهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧]، فهذه أربعة مواضع في القرآن بين سبحانه

والطبراني في الكبير (٧/ ٤٧ رقم ٦٣٤٢) وأحمد (٥/ ٦، ٧) وصححه ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٤٩) وانظر: نيل الأوطار (١/ ٧٧).

(١) ٢٨ أعلام جـ٤.

(٢) ٨٧ طريق الهجرتين.

فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل.

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق:

الفرقة الأولى: جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأن للمحتج بها الحجة على الله. ثم افترق هؤلاء فرقتين:

فرقة كذبت بالأمر والوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهي والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلماً، والله لا يظلم من خلقه أحداً.

وفرقة صدقت بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرف في ملكه كيف يشاءُ، ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده، إذ العبد لا فعل له، والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فإن هؤلاء الكفار إنما قالوا هذه المقالة التي حكاها الله عنهم استهزاءً منهم، ولو قالوها اعتقاداً للقضاء والقدر وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته لم ينكر عليهم، ومضمون قول هذه الفرقة أن هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد، لا على جهة الاستهزاء، فيكون للمشركين على الله الحجة، وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً(١).

...(٢)وأيضًا فإن الله سبحانه نوَّع الأدلة الدالة عليه، والتي تعرّف عباده به غاية التنوع، وصرف الآيات وضرب الأمثال: ليقيم عليهم حجته البالغة، ويتم عليهم بذلك نعمته السابغة، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه؛ بل الحجة كلها له، والقدرة كلها له، فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوَّى بينهم في الهداية، كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فأخبر أن له الحجة البالغة، وهي التي بلغت إلى صميم القلب، وخالطت العقل، واتحدت به، فلا يمكن العقل دفعها ولا جحدها، ثم أخبر أنه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم، ولو شاء ذلك لفعله، لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، ولكن حكمته تأبى ذلك...

(١) استمر المؤلف في ذكر الفرق وتفرقها، وأطال في الموضوع ببيان شافٍ لمن أراده (ج).
(٢) ١٢٢ طريق الهجرتين.

[(١)]وقد أنكر الله ﷻ على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمين لمحبته ورضاه، فكيف بمن جعل ذلك شيئًا واحدًا؟!

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه[(٢)].

...[(٣)]وقد أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئته في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة الأنعام، والنحل، والزخرف، فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكذلك حكى عنهم في النحل، ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال في الزخرف: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠].

فاحتجوا على محبته لشركهم ورضاه به بكونه أقرهم عليه، وأنه لولا محبته له

---

(١) ١٩١ مدارج جـ٢.

(٢) هنا فصل المؤلف بين المشيئة والمحبة تفصيلًا واضحًا يحسن الرجوع إليه. (ج).

(٣) ١٢٦ شفاء العليل.

ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذلك أمره ونهيه ودعوة الرسل، قالوا: كيف يأمر بالشيء قد شاء منا خلافه؟! وكيف يكره منا شيئًا قد شاء وقوعه ولو كرهه لم يمكنا منه ولحال بيننا وبينه؟! فكذبهم سبحانه في ذلك وأخبر: أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويبغضه ويمقته وأنه لولا بغضه وكراهته لما أذاق المشركين بالله عذابه، فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه، ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم: بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويرضى به، ومجرد إقراره لهم قدرا لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي محبوبا له مرضيا، ثم أخبر سبحانه أن مستندهم في ذلك إنما هو الظن، وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب، ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين:

إحداهما: ما ركّبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح والباطل، والأسماع والأبصار التي هي آلة إدراك الحق، والتي يفرق بها بينه وبين الباطل.

والثانية: إرسال رسله، وإنزال كتبه، وتمكينهم من الإيمان والإسلام، ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين، بل بمجموعها لكمال عدله، وقطعا لعذرهم من جميع الوجوه، ولذلك سمى حجته عليهم بالغة، أي قد بلغت غاية البيان وأقصاه، بحيث لم يبق معها مقال لقائل ولا عذر لمعتذر، ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله، ثم ختم الآية بقوله: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حجته البالغة، فإنه إذا امتنع الشيء لعدم مشيئته لزم وجوده عند مشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، كان هذا من أعظم أدلة التوحيد، ومن أبين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك واتخاذ الأنداد من دونه، فما احتججتم به من المشيئة على ما أنتم عليه من الشرك هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده...

...(١) وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على

(١) ١٧ شفاء العليل.

إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه، وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول، فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه.

ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فإن هذا يتضمن: أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهًا غيره، فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل(١). فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله هي البالغة، وحجتهم هي الداحضة. وبالله التوفيق.

***

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

(٢)قاعدة شريفة: الناس قسمان: علية وسفلة. فالعلية من عرف الطريق إلى ربه وسلكها قاصداً الوصول إليه، وهذا هو الكريم على ربه. والسفلة من لم يعرف الطريق إلى ربه ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله فيه: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨].

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٢٢) وشرح النووي (١٥/ ١٢-١٣).

(٢) ١٧٧ طريق الهجرتين.

موصلاً لمن سلكه، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فوحد سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة، لأنها كثيرة متعددة، كما ثبت أن النبي ﷺ خط خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل الله**». ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، ثم قال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[1] [الأنعام:١٥٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فوحد النور الذي هو سبيله، وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان.

ومن فهم هذا فهم السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]. مع أن فيه سراً أَلطف من هذا، يعرفه من يعرف منبع النور، ومن أَين فاض، وعما ذا حصل؟ وأن أَصله كله واحد، وأَما الظلمات فهي متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها، وهي كثيرة جدًّا، لكل حجاب ظلمة خاصة، ولا ترجع الظلمات إلى النور الهادي جل جلاله أصلاً لا وصفاً ولا ذاتاً ولا اسماً ولا فعلاً، وإنما ترجع إلى مفعولاته سبحانه، فهو جاعل الظلمات، ومفعولاتها متعددة متكثرة، بخلاف النور، فإنه يرجع إلى اسمه وصفته جل جلاله، تعالى أن يكون كمثله شيء، وهو نور السموات والأرض. قال ابن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأَرض من نور وجهه[2] ذكره

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦١ رقم (٢٩٣٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣ رقم ١١١٧٥) وأحمد (١/ ٤٦٥) والشاشي في مسنده (٢/ ٤٨ رقم ٥٣٥) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٦) والمروزي في السنة (رقم ١٣) وحسنه الألباني في ظلال الجنة (رقم ١٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٧٩ رقم ٨٨٨٦) وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٤٠٥-٤٠٦ رقم ١١١)
=

الدارمي عنه. وفي صحيح مسلم: عن أبي ذر: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور، أَنَّى أَراه»(١).

والمقصود: أن الطريق إلى الله تعالى واحد، فإنه الحق المبين، والحق واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل، فالباطل متعدد، وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أَن الطريق إلى الله متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمة منه وفضلاً، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.وكشف ذلك وإيضاحه: أن الطريق وهي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله، وما يرضيه متعدد متنوع، فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأَزمان والأَماكن والأَشخاص والأَحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله سبحانه لرحمته، وحكمته كثيرة متنوعة جداً لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأَذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرئٍ إلى ربه طريقاً يقتضيها استعداده وقوته وقبوله.

ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد، بل تنوع الشريعة الواحدة مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: «الأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلات دينهم واحد»(٢)، فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأُمهات متعددة، فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنها وإن تعددت فمرجعها كلها إلى أب واحد.

(٢/ ٤٧٧ رقم ٣١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٧) وانظر: تفسر ابن كثير (٣/ ٢٥٤) والدر المنثور (٧/ ٣٣٩).

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (رقم ٢٣٦٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩).

وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله، طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم، حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت في طريق طلبه، فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته. قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد حكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن: أنه رؤي بعد موته، وأخبر أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلم في البرزخ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس: من يكون سيد عمله الذكر، وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس: من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس: من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي، كقضاءِ الحاجات وتفريج الكربات وإِغاثة اللهفات وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقاً إلى ربه. ومن الناس من يكون طريقه الصوم، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءَت حاله. ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده.

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه، ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم: من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم: جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد، الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث

سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأَين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أَهله، أَو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أَو صلاة وجدته في القانتين، أَو ذكر وجدته في الذاكرين، أَو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أَو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أَنّى استقلت ركائبها،ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقباً له فيها، عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلمت إليه المبيع، منتظراً منه تسليم الثمن: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١]، فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة، ومعنى النفوذ إليه أن يتصل به قلبه، ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه، فيسلو به عن جميع المطالب سواه.

(١) توحد طريق الجنة، وأنه ليس لها إلا طريق واحد.

هذا مما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى، ولهذا يوحد سبحانه سبيله، ويجمع سبل النار، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ [النحل: ٩] أي ومن السبيل جائر عن القصد، وهي سبيل الغي.

وقال: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١] وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا وقال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، ثم قال: «هذه سبل، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ الآية.

(١) ٥٧ حادي الأرواح.

فإن قيل: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قيل: هي سبل تجتمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي شعب الإيمان يجمعها الإيمان، وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا.

وروى البخاري في صحيحه عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلًا فاضربوا له مثلا، فقالوا: مثله مثل رجل بنى دارًا، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. الدار الجنة والداعي محمد، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس»[(١)].

ورواه الترمذي عنه، ولفظه: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: **«إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلًا، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا، ثم بنى فيها بيتًا، ثم جعل مائدة، ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»**[(٢)].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٨١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٦) وعمدة القاري (٢٥/ ٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٦٠) والحاكم (٢/ ٣٦٩ رقم ٣٢٩٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٥) وعمدة القاري (٢٥/ ٢٨).

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾.

(١) لما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد: إتيان بعض آياته، أزال هذا الوهم ورفعه بقوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصًّا صريحًا في معناه لا يحتمل غيره.

وإذا تأملت أحاديث الصفات، رأيت هذا لائحًا على صفحاتها باديًا على ألفاظها: كقوله ﷺ: **«إنكم ترون ربكم عيانًا، كما نرى الشمس في الظهيرة صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»**(٢).

وقوله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، ولا حاجب يحجبه»**(٣). فلما كان كلام الملوك قد يقع بواسطة الترجمان، ومن وراء الحجاب؛ أزال هذا الوهم من الأفهام.

وكذلك لما قرأ ﷺ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] وضع إبهامه على أذنه وعينه(٤) رفعًا لتوهم متوهم أن السمع والبصر غير العينين المعلومتين، وأمثال ذلك كثير في الكتاب والسنة، كما في الحديث الصحيح أنه قال: **«يقبض الله سمواته بيده،**

---

(١) ٧٢ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٨١٦) ومسلم (رقم ١٨٢) (٢٩٦٨) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦١) وأبو داود (رقم ٤٧٣٠) وابن ماجه (رقم ١٧٩) والحميدي (٢/ ٤٩٦ رقم ١١٧٨) وأبو يعلى (٢/ ٢٨٦ رقم ١٠٠٦) والدارقطني في رؤية الله (رقم ٨، ١٧، ٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤٣) ومسلم (رقم ١٠١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٤) (١٣/ ٤٣٠) وشرح النووي (٧/ ١٠١).

(٤) أخرجه ابن حبان (١/ ٤٩٨ رقم ٢٦٥) وأبو داود (رقم ٤٧٢٨) والطبراني في الأوسط (٩/ ١٣٣ رقم ٩٣٣٤) وأبو عمر الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (رقم ٣٣) وانظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٢٤٨).

والأرض بيده الأخرى»[1]. ثم جعل رسول الله ﷺ يقبض يده ويبسطها[2]، تحقيقًا لإثبات اليد، وإثبات صفة القبض.

ومن هذا إشارته إلى السماء حين استشهد ربه تبارك وتعالى على الصحابة أنه بلغهم، تحقيقًا لإثبات صفة العلو، وأن الرب الذي استشهده فوق العالم، مستوٍ على عرشه.

وهذه أمثلة يسيرة ليعرف الفهم المنصف القاصد للهدى والنجاة منها: ما يقبل التأويل، وما لا يقبله. والله المستعان.

فصل في بيان أنه لا يأتي المعطل للتوحيد العلمي الخبري بتأويل؛ إلا أمكن المشرك المعطل للتوحيد العملي أن يأتي بتأويل من جنسه.

وقد اعترف حذاق الفلاسفة وفضلاؤهم؛ فقال أبو الوليد بن رشد في (كتاب الكشف عن مناهج الأدلة): القول في الجهة.

وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها لله ﷻ؛ حتى نفتها المعتزلة، ثم اتبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية: كأبي المعالي، ومن اقتدى بقوله.

وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة: مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ومثل قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ومثل قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ومثل قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، ومثل قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، ومثل قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها؛ عاد الشرع كله متأولًا.

وإن قيل فيها: إنها من المتشابهات؛ عاد الشرع كله متشابهًا؛ لأن الشرائع كلها مبنية

(١) أخرجه بنحوه أبو داود (رقم ٤٧٣٢) وأبو يعلى (٩/ ٤١٠ رقم ٥٥٥٨).
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٢ رقم ٧٦٩٦) وفي النعوت والأسماء والصفات (رقم ١٣٨).

أن الله في السماء، ومنه تنزل الملائكة إلى النبيين بالوحي، وأن من السماء نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك.

(١)إن أعلم الخلق بالله وأنصحهم للأمة وأقدرهم على العبارة التي لا توقع لبسًا؛ قد صرح بالنزول مضافًا إلى الرب في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضع واحد ما ينفي الحقيقة؛ بل يؤكدها، فلو كانت إرادة الحقيقة باطلة منتفية؛ لزم القدح في علمه أو نصحه أو بيانه كما تقدم تقريره.

إنه لم يقتصر على لفظ النزول العاري عن قرينة المجاز المذكور معه ما يؤكد إرادة الحقيقة؛ حتى نوع هذا المعنى، وعبر عنه بعبارات متنوعة: كالهبوط، والدنو، والمجيء، والإتيان، والطواف في الأرض قبل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان أمره وإتيان نفسه. وقال محمد بن جرير الطبري في تفسير قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]: وقد ورد في هذا حديث عن النبي ﷺ وهو المرجع والمعتمد عليه في ذلك، ثم ساق الحديث ولفظه: «إذا كان يوم القيامة تقفون موقفًا واحدًا مقدار سبعين عامًا، لا ينظر إليكم ولا يقضي بينكم، فتبكون؛ حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دمًا، وتعرقون حتى يبلغ منكم العرق الأذقان، ويلجمكم، فتضجون وتقولون: من يشفع لنا عند ربنا فيقضي بيننا؟ فتقولون: من أحق بهذا من أبيكم آدم؟! جبل الله تربته، وخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه الله قبلًا؛ فيؤتي آدم فيطلب ذلك إليه فيأبى، ثم يستقرئون الأنبياء كلما جاءوا نبيًا، يأبى حتى يأتوني فيسألوني فآتي الفحص قدام العرش؛ فأخر

(١) ٢٢٤ مختصر الصواعق جـ٢.

ساجدًا فلا أزال ساجدًا»[١].

[٢]وقال رزين بن معاوية صاحب (تجريد الصحاح)، وهو من أعلم أهل زمانه بالسنن والآثار، وهو من المالكية اختصر تفسير ابن جرير الطبري. وعلى كتابه التجريد اعتمد صاحب كتاب (جامع الأصول) وهذبه، قال في قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. قال مجاهد: ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ عند الموت حين توفاهم ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ﴾ طلوع الشمس من مغربها، أو ما شاء الله، وعن قتادة مثله[٣]، وقال محمد بن جرير الطبري: حيث ذكر في القرآن إتيان الملائكة؛ فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح، ويحتمل أن يكون نزولهم بعذاب الكفار وإهلاكهم.

وأما إتيان الرب ﷻ؛ فهو يوم القيامة لفصل القضاء لقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ ﴾ [الفجر: ٢٢].

قال رزين: قال بعض المتبعين لأهوائهم، المقدمين بين يدي كتاب الله لأرائهم من المعتزلة والجهمية، ومن نحا نحوهم من أشياعهم؛ فيمتنعون من وصف الله تعالى بما وصف به نفسه من قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦] وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] إلى أن قال: وأهل العلم بالكتاب والآثار من السلف والخلف؛ يثبتون جميع ذلك ويؤمنون به بلا كيف ولا توهم، ويمرون الأحاديث الصحيحة كما جاءت عن رسول الله ﷺ، انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٣٠) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٣١-٢٩٣٢ رقم ١٦٦٢٩) والطبراني في الأحاديث الطوال (رقم ٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١٤٨/٢).

(٢) ٢٢٥ مختصر الصواعق جـ٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٩٦).

والإتيان والمجيء من الله تعالى نوعان:

مطلق ومقيد. فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه؛ كان مقيدًا كما في الحديث: «حتى جاء الله بالرحمة والخير». ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢] وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وفي الأثر: «لا يأتي بالحسنات إلا الله»[1].

النوع الثاني: المجيء والإتيان المطلق كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه، هذا إذا كان مطلقًا فكيف إذا قيد بما يجعله صريحًا في مجيئه نفسه، كقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه، والمقيد قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]. فلما قيده بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد، دل ذلك على مجيء ما بينه؛ إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه؛ لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢].

فهذا مجيء مقيد لقوم مخصوصين قد أوقع بهم بأسه، وعلم السامعون أن جنوده من الملائكة والمسلمين أتوهم؛ فكان في هذا السياق ما يدل على المراد، على أنه لا

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (رقم ٥٣٩) وقد ورد مرفوعًا بلفظ أن الطيرة ذكرت عند النبي ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت» الخ الحديث أخرجه أبو داود (رقم ٣٩١٩) والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩ رقم ١٦٢٩٨) وفي الشعب (٢/ ٦٢ رقم ١١٦٧) وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٠ رقم ٢٦٣٩٢) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٠٦ رقم ١٩٥١٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٤).

يمتنع في الآيتين أن يكون الإتيان على حقيقته؛ ويكون ذلك دنوًا ممن يريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه، كما يدنو عشية عرفة من الحجاج برحمته ومغفرته، ولا يلزم من هذا الدنو والإتيان الملاصقة والمخالطة؛ بل يأتي هؤلاء برحمته وفضله، وهؤلاء بانتقامه وعقوبته، وهو فوق عرشه إذ لا يكون الرب إلا فوق كل شيء. ففوقيته وعلوه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودنوه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعلوه؛ لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السماوات والأرض في قبضته، وأنه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيء؛ فهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فظهوره بالمعنى الذي فسره به أعلم الخلق؛ لا يناقض بطونه بالمعنى الذي فسره به أيضًا؛ فهو سبحانه يدنو ويقرب ممن يريد الدنو والقرب منه؛ مع كونه فوق عرشه.

وقد قال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[(١)] فهذا قرب الساجد من ربه، وهو فوق عرشه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[(٢)]. فهذا قربه من داعيه؛ والأول قربه من عابديه، ولم يناقض ذلك كونه فوق سماواته على عرشه.

وإن عسر على فهمك اجتماع الأمرين فإنه يوضحه لك: معرفة إحاطة الرب وسعته، وأنه أكبر من كل شيء، وأن ا لسماوات السبع والأرضين في يده كخردلة في كف العبد، وأنه يقبض سماواته السبع بيده والأرضين باليد الأخرى، ثم يهزهن، فمن هذا شأنه كيف يعسر عليه الدنو ممن يريد الدنو منه وهو على عرشه، وهو يوجب لك فهم اسمه الظاهر والباطن، وتعلم أن التفسير الذي فسر رسول الله ﷺ به هذين

---

(١) أخرج مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) (١١/ ١٣٢) وشرح النووي (٤/ ٢٠٦) (٦/ ١٠٥).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٨ رقم ٧٦٨٠) وفي النعوت والأسماء والصفات (رقم ٢٢) وأحمد (٤/ ٤٠٢) والبزار (٨/ ٢٢ رقم ٢٩٩٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٨٤) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧).

الاسمين؛ هو تفسير الحق المطابق: لكونه بكل شيء محيط، وكونه فوق كل شيء، ومما يوضح لك ذلك: أن النزول والمجيء والإتيان والاستواء والصعود والارتفاع؛ كلها أنواع أفعاله، وهو الفعال لما يريد، وأفعاله كصفاته قائمة به، ولولا ذلك؛ لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات كماله، فنزوله ومجيئه واستواؤه وارتفاعه وصعوده ونحو ذلك؛ كلها أفعال من أفعاله التي إن كانت مجازًا، فأفعاله كلها مجاز، ولا فعل له في الحقيقة؛ بل هو بمنزلة الجمادات، وهذا حقيقة من عطل أفعاله.

وإن كان فاعلًا حقيقة فأفعاله نوعان: لازمة، ومتعدية، كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين.

وبإثبات أفعاله وقيامها به؛ تزول عنك جميع الإشكالات، وتصدق النصوص بعضها بعضًا، وتعلم مطابقتها للعقل الصريح.

وإن أنكرت حقيقة الأفعال وقيامها به سبحانه؛ اضطرب عليك هذا الباب أعظم اضطراب، وبقيت حائرًا في التوفيق بين النصوص وبين أصول النفاة؛ وهيهات لك بالتوفيق بين النقيضين والجمع بين الضدين.

يوضحه: أن الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة؛ لما فهمت من نزول الرب ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودنوه؛ ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودنوه، وهو أن يفرغ مكانًا ويشغل مكانًا، نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين: محذور التشبيه، ومحذور التعطيل.

ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه ومجيئه وإتيانه لا يشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه، كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك؛ بل يده الكريمة ووجهه الكريم كذلك، وإذا كان نزولًا ليس كمثله نزول فكيف تنفي حقيقته؟! فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية؛ وإلا تناقضوا، فإنهم أي معنى أثبتوه؛ لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ما أثبت لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلًا.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

(١) فائدة قوله تعالى: ﴿ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] أنث عدد الأمثال لتأويلها بحسنات، ومثله قراءة أبي العالية: (لا تنفع نفسًا إيمانها) بالتاء، والفعل مسند إلى الإيمان؛ لكنه طاعة وإنابة في المعنى.

(٢) الرضا بالله ربًّا: أن لا يتخذ ربًّا غير الله تعالى، يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سيدًا وإلهًا، يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره وهو رب كل شيء، وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة، التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلًا، مبينًا كافيًا شافيًا!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولًا ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرًا بل

(١) ٢٠٩ البدائع جـ٤.
(٢) ١٨١ مدارج جـ٢.

يوالي من دونه أولياء، ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلها، ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه، هذا هو الرضا بالله إلها، وهو من تمام الرضا بالله ربا، فمن أعطى الرضا به ربًّا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا، لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

بهذا تم ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنعام

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[(١)]قال تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ١-٣]، فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره، فما هو إلا: اتباع المنزل، أو اتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم يتبع الوحي؛ فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به.

...[(٢)]وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه: تارة يكون حرجًا من إنزاله، وكونه حقًّا من عند الله. وتارة يكون من جهة التكلم به، أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد؛ بل هم محتاجون معه إلى: المعقولات، والأقيسة، أو الآراء، أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة. فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدونه في صدورهم. ولا تجد مبتدعًا في دينه قط، إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته. كما أنك لا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.

***

(١) ٣٥ الرسالة التبوكية.

(٢) ٨١ فوائد.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾.

(١) أما الفاء فهي موضوعة للتعقيب، وقد تكون للتسبيب والترتيب، وهما راجعان إلى معنى التعقيب؛ لأن الثاني بعدهما أبدًا إنما يجيء في عقب الأول، فالسبب نحو ضربته فبكى، والترتيب: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] دخلت الفاء لترتيب اللفظ، لأن الهلاك يجب تقديمه في الذكر، لأن الاهتمام به أولى وإن كان مجيء البأس قبله في الوجود، ومن هذا أن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد بعد ذلك جده دخلت ثم لترتيب الكلام لا لترتيب المعنى في الوجود، وهذا معنى قول بعض النحاة: أنها تأتي للترتيب في الخبر لا في المخبر.

وعندي في الآية تقديران آخران أحسن من هذا:

أحدهما: أن يكون المراد بالإهلاك إرادة الهلاك، وعبر بالفعل عن الإرادة وهو كثير، فترتب مجيء البأس على الإرادة ترتب المراد على الإرادة.

والثاني: وهو ألطف أن يكون الترتيب ترتيب تفصيل على جملة، فذكر الإهلاك ثم فصّله بنوعين:

أحدهما: مجيء البأس بياتا أي ليلا. والثاني مجيئه وقت القائلة، وخص هذين الوقتين لأنهما وقت راحتهم وطمأنينتهم، فجاءهم بأس الله أسكن ما كانوا وأروحه في وقت طمأنينتهم وسكونهم، على عادته سبحانه في أخذ الظالم في وقت بلوغ آماله وكرمه وفرحه وركونه إلى ما هو فيه. وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

والمقصود: أن الترتيب هنا ترتيب التفصيل على الجمل، وهو ترتيب علمي لا خارجي، فإن الذهن يشعر بالشيء جملة أولا، ثم بطلب تفصيله بعد ذلك، وأما في الخارج فلم يقع إلا مفصلًا.

---

(١) ١٩٥ بدائع جـ٢.

فتأمل هذا الموضع الذي خفي على كثير من الناس، حتى ظن أن الترتيب في الآية كترتيب الإخبار، أي إنا أخبرناكم بهذا قبل هذا.

***

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

[1]الطبقة الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا. فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرِّين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم، فإذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاء أيضًا ناجون فائزون، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، قال حذيفة، وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف[2]، وهذه الموازنة تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته، فإذا بقي شيء منها وزن تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسنات. فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته...

[3]والقرآن والسنة، قد دلَّا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات، فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض، ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ـ فعل أهل الهوى والتعصب ـ بل نقبل الحق ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله.

---

(١) ٣٨٠ طريق الهجرتين.

(٢) يروى مرفوعًا، أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٣١٣) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٤١٩، ٤٦٣) وفتح الباري (١٣/ ٥٣٩).

(٣) ٢٧٨ مدارج جـ١.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة الأعراف: (٨-٩)، والأنبياء (٤٧)، والمؤمنين (١٠١-١١١)، والقارعة، والحاقة (١٩-٣٧).

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣]، وتفسير الإبطال هاهنا بالردة، لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فأبطلاها، شبه سبحانه بطلانها بالمن والأذىٰ بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها لأم ولد زيد بن أرقم وقد باع بيع العينة: «أخبري زيدًا: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب»(٢).

وقد نص أحمد علىٰ هذا في رواية، فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف علىٰ نفسه، فيستدين ويتزوج لا يقع في محظور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع، ومنها ما يحبطها بالنص، جاز أن يحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة، فتصير التوبة كأنها لم تكن، فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما، فيكون التأثير لهما جميعًا.

قالوا: وقد دل القرآن والسنة وإجماع السلف علىٰ الموازنة وفائدتها: اعتبار الراجح،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٢، ٦٦) وشرح النووي (٥/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٣٣٠ رقم ١٠٥٨٠) والدارقطني (٣/ ٥٢ رقم ٢١١) وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ١٨٤-١٨٥ رقم ١٤٨١٢) وانظر: الأم (٣/ ٣٨) والاستذكار (٦/ ٢٧١) والمحلىٰ (٧/ ٢٩) والمدونة الكبرىٰ (٩/ ١١٨) وشرح الزرقاني (٣/ ٣٢٦) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٥٥٨).

فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح.

قال ابن مسعود: «يحاسب الناس يوم القيامة: فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة، دخل النار ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨، ٩] ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح»، قال: «ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف»[١].

وعلى هذا: فهل يحبط الراجحُ المرجوحَ حتى يجعله كأن لم يكن، أو يحبط ما قابله بالموازنة، ويبقى التأثير للقدر الزائد؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة. ينبني عليهما: أنه إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلا، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة؟ فيثاب على الحسنات كلها أو يسقط من الحسنات ما قابل السيئات، فلا يثاب عليه ولا يعاقب على تلك السيئات، فيبقى القدر الزائد لا مقابل له فيثاب عليه وحده؟ وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة. وكذلك إذا رجحت السيئات بواحدة، هل يدخل النار بتلك الواحدة التي سلمت عن مقابل أو بكل السيئات التي رجحت؟ على القولين، هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحكم.

***

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝﴾.

[٢]هذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية[٣]، وعلى كل تقدير فلا تدل على

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٩٠-١٩١) وابن المبارك في الزهد (٣٦٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٨) والدر المنثور (٣/ ٤٦١).

(٢) ٢١١ الروح.

(٣) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ الآية. [الأعراف: ١٧٢]. (ج).

خلق الأرواح قبل الأجساد خلقًا مستقرًّا، وإنما غايتها أن تدل على إخراج صورهم وأمثالهم في صور الذر واستنطاقهم، ثم ردهم إلى أصلهم؛ إن صح الخبر بذلك.

والذي صح إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى: شقي، وسعيد.

وأما استدلال أبي محمد بن حزم بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ١١] فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته، لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا، والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح، وذلك متأخِّر عن خلق آدم، ولهذا قال ابن عباس: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعني آدم ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ لذريته، ومثال هذا ما قاله مجاهد: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعني آدم و﴿ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ في ظهر آدم، وإنما قال: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ بلفظ الجمع، وهو يريد آدم، كما تقول: ضربناكم، وإنما ضربت سيدهم.

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد، لقوله تعالى بعد: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴾ وكان قوله تعالى للملائكة: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ ﴾ قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم في الأرحام، (وثم) توجب التراخي والترتيب، فمن جعل الخلق والتصوير في هذه الآية لأولاد آدم في الأرحام، يكون قد راعى حكم (ثم) في الترتيب، إلا أن يأخذ بقول الأخفش، فإنه يقول (ثم) هاهنا في معنى (الواو) قال الزجاج: وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه، قال أبو عبيد: وقد بينه مجاهد حين قال: إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم في ظهره، ثم أمر بعد ذلك بالسجود، قال: وهذا بين في الحديث، وهو أنه أخرجهم من ظهره في صور الذر.

قلت: والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الحج: ٥]، فأوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم؛ إذ هو أصلهم، والله سبحانه يخاطب الموجودين،

والمراد آباؤهم كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥][(١)].

***

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

[(٢)]قال الله تعالى إخبارًا عن عدوه إبليس، لمَّا سأله عن امتناعه عن السجود لآدم، واحتجاجه بأنه خيرٌ منه، وإخراجه من الجنة: أنه سأله أن ينظره، فأنظره، ثم قال عدو الله: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

قال جمهور المفسرين والنحاة: حذف «على» فانتصب بالفعل. والتقدير: لأقعدن لهم على صراطك. والظاهر: أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنه، ولأرصدنه، ولأعوجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: «دينك الواضح». وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله». وقال جابر: «هو الإسلام». وقال مجاهد: «هو الحق».

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وقد تقدم حديث سبرة بن الفاكه: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ كُلِّهَا...»[(٣)] الحديث. فما

(١) وهذا طرف من البحث على المسألة الثامنة عشرة، وفيها مناقشات طويلة، مفادها: هل الروح مخلوقة قبل الأبدان أم بعدها؟ وهي أكثر من كراسة تبدأ من ص (١٩٢) وتنتهي ص (٢١٦) لمن أرادها. (ج).

(٢) ١٢١ إغاثة جـ١، نسخة دار الكتاب العربي، بتحقيق خالد السبع.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٥ رقم ٤٣٤٢) وفي المجتبى (رقم ٣١٣٤) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٨٤ رقم ١٠٤٣) وفي الجهاد (رقم ١٣) والطبراني في الكبير (٧/ ١١٧ رقم ٦٥٥٨) وأحمد (٣/ ٤٨٣) وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٣٠٣).

من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧] قال ابن عباس: في رواية عطية عنه: «مِن قِبَل الدنيا»، وفي رواية عليٍّ عنه: «أشككهم في آخرتهم»(١).

وكذلك قال الحسن: «من قبل الآخرة، تكذيبًا بالبعث والجنة والنار»(٢). وقال مجاهد: «﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ من حيث يبصرون». ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾: قال ابن عباس: «أرغبهم في دنياهم»(٣). وقال الحسن: «من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم».

وعن ابن عباس رواية أخرى: «من قبل الآخرة». وقال أبو صالح: «أشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم». وقال مجاهد أيضاً: «من حيث لا يبصرون». ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ قال ابن عباس: «أشبه عليهم أمر دينهم»(٤). وقال أبو صالح: «الحق أشككهم فيه». وعن ابن عباس أيضاً: «من قبل حسناتهم». قال الحسن: «من قبل الحسنات أثبطهم عنها». وقال أبو صالح أيضاً: «﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾: أُنفِّقُه عليهم وأُرَغِّبُهم فيه». وقال الحسن: ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ السيئات يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويرغبهم فيها، ويزينها في أعينهم».

وصح عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «ولم يقل من فوقهم؛ لأنه علم أن الله من فوقهم»(٥). قال الشعبي: «فالله ﷻ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم». وقال قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»(٦).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥) والدر المنثور (٣/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤ رقم ٨٢٤٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥) والدر المنثور (٣/ ٤٢٧).

(٥) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٦١).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٣٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

قال الواحدي: وقول من قال: «الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات، حسن؛ لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المقدمين عندك، ولا تجعلني، من المؤخرين، وأنشد لابن الدُّمَيْنَة:

أَلُبْنَى، أَفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي فَأَفْرَحُ، أَمْ صَيَّرْتِنِي فِي شِمَالِكِ؟(١)

وروى أبو عبيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين: أي بمنزلة حسنة، وبضد ذلك هو عندنا بالشمال، وأنشد:

رَأَيْتُ بَنِي الْعَلاتِ لَمَّا تَضَافَرُوا يَحُوزُونَ سَهْمِي بَيْنَهُمْ فِي الشَّمَائِلِ(٢)

أي يتزلوني بالمنزلة السيئة. وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية «لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بأمر البعث ﴿وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: لأضلنهم فيما يعملون؛ لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئًا؛ لأنهما الأصل في التصرف، فجعلتا مثلًا لجميع ما يعمل بغيرهما»(٣).

وقال آخرون ـ منهم أبو إسحاق، والزمخشري ـ واللفظ لأبي إسحاق: «ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي: لآتينهم من جميع الجهات، والحقيقة ـ والله أعلم ـ

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وابن الدمينة هو: عبد الله بن عبيد الله من بني عامر بن تيم الله، أبو السري، والدمينة أمه، من أرق الناس شعرًا، أكثر شعره في الغزل والنسيب والفخر، كان العباس بن الأحنف يحتفل بشعره، وهو من شعراء العصر الأموي، اغتيل سنة ١٣٠هـ. والبيت ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٦٩) وفيه «أبيني» بدل «ألبنى» وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ٢١٩) ولم ينسبه إلى أحد. والمناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٦) بلفظ مختلف:

ألم أك في يمنى يديك جعلتني فــلا تجعلني بعدها في شمالكا

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى أبي خراش الهذلي خويلد بن مرة شاعر مخضرم وفارس مغوار مشهور، كان يسبق الخيل وأدرك الإسلام وهو شيخ كبير فأسلم وعاش إلى زمن عمر بن الخطاب ﷺ، مات سنة ١٥هـ. والبيت ذكره ابن منظور في اللسان (١١/ ٣٦٥).

(٣) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٦٢) (١٥/ ٤٢٥).

أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم».

وقال الزمخشري: «ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: «أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك»[(١)].

وهذا القول أعم فائدة، ولا يناقض ما قاله السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين. قال شقيق: «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه، فأقرأ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء، فأقرأ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

قلت: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصدًا له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يُثبِّطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملا له وخادما ومعينا وممنيا، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

[(٢)]قال تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] فردَّ أمر الله بقدره واحتج على ربه بالقدر وانقسم أتباعه أربع فرق، كما رأيت: فإبليس وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالًا كونيًا، فالقدر دينهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٣٦) والدر المنثور (٣/ ٤٢٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

(٢) ٧٣ روضة المحبين.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] فدينهم القدر، ومصيرهم سقر. فبعث الله الرسل بالأمر، وأمرهم أن يحاربوا به أهل القدر، وشرع لهم من أمره سفنا، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعهم في بحر القدر، وخص بالنجاة من ركبها كما خص بالنجاة أصحاب السفينة، وجعل ذلك آية للعالمين، فأصحاب الأمر حرب لأصحاب القدر حتىٰ يردوهم إلىٰ الأمر وأصحاب القدر يحاربون أصحاب الأمر، حتىٰ يخرجوهم منه، فالرسل دينهم الأمر مع إيمانهم بالقدر وتحكيم الأمر عليه. وإبليس وأتباعه دينهم القدر ودفع الأمر به.

فتأمل هذه المسألة في القدر والأمر، وانقسام العالم فيها إلىٰ هذه الأقسام الخمسة، وبالله التوفيق.

(١)فصل في بيان كيد الشيطان لنفسه، قبل كيده للأبوين. ثم لم يقتصر علىٰ ذلك، حتىٰ كاد ذرية نفسه، وذرية آدم. فكان مشئوما علىٰ نفسه وعلىٰ ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والإنس.

أما كيده لنفسه: فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم ﷺ، كان في امتثال أمره وطاعته. سعادته وفلاحه، وعزه ونجاته.فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة: أن في سجوده لآدم ﷺ غضاضة عليه، وهضما لنفسه، إذ يخضع ويقع ساجدا لمن خلق من طين، وهو مخلوق من نار. والنار ـ بزعمه ـ أشرف من الطين. فالمخلوق منها خير من المخلوق منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه، وهضم لمنزلته. فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم، لما رأىٰ ربه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة. فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وميزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جنته، فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ.

---

(١) ٢٠٠ إغاثة جـ٢.

وكان عدو الله يطيف به وهو صلصال كالفخار، فيتعجب منه، ويقول: لأمر عظيم قد خلق هذا، ولئن سلط عليَّ لأعصينه، ولئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما تم خلق آدم ﷺ في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها، وكملت محاسنه الباطنة، بالعلم والحلم والوقار، وتولىٰ ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعا، قد ألبس رداء الجمال والحسن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظرا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجودا له، بأمر ربهم تبارك وتعالىٰ، فشق الحسود قميصه من دبر، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين. وقال: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]. فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض علىٰ العليم الحكيم، الذي لا تجد العقول إلىٰ الاعتراض علىٰ حكمته سبيلا. فقال: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنىٰ: أخبرني، لِمَ كرمته عليَّ؟ وغور هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضول يخضع للفاضل، فلِمَ خالفت الحكمة؟ ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢]. ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله علىٰ مادة آدم ﷺ وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل

ويقبل ويواليه؟ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

***

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[1]أول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي، وبه سمي صوت الحلي وسواسًا، ورجل موسوس بكسر الواو، ولا يفتح فإنه لحن، وإنما قيل له: موسوس؛ لأن نفسه توسوس إليه، قال تعالى: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انهتك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم، وهكذا إذا رؤي الرجل أو

(١) ١١١ إغاثة جـ١.

المرأة في منامه مكشوف السوأة يدل على فساد في دينه، قال الشاعر:

إِنِّي كَأَنِّي أَرَىٰ مَـنْ لا حَـيَاءَ لَـهُ ... وَلا أَمَانَةَ وَسْطَ النَّاسِ عُـرْيَـانَا[1]

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباسا ظاهرًا يواري العورة ويسترها، ولباسا باطنا من التقوى، يُجَمِّل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

ثم قال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف: ٢٠]. أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشام عدو الله الأبوين، فأحسَّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام، ويقول: «لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك[2]»، ويدل على هذه

(١) ذكره ابن منظور في اللسان (٧/ ٤٢٧) ونسبه إلى سوار بن المضرب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٧٩).

القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب؟ وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه؟

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرَّهما، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقيمة الراحة، وسموا الربا بالمعاملة، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر، وهو جحد صفات الرب، تنزيها، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة. فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا، فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه، أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر، فأخذتهما سنة الغَفْلة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

وَاسْتَيْقَظُوا وَأَرَادَ اللهُ غَفْلَتَهُمْ ... لِيَنْفُذَ الْقَدَرُ الْمَحْتُومُ في الأَزَلِ[1]

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾.

فيقال: الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى ابن الدهان: عبد الله بن أسعد الحمصي، كان فقيهًا فاضلًا وأديبًا شاعرًا، لطيف الشعر مليح السبك حسن المقاصد، سجل شعره الحروب الصليبية وانتصار صلاح الدين الأيوبي عليهم أعظم تسجيل، مات سنة ٥٨١هـ والبيت ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٧/ ٨٢) ونسبه إلى ابن الدهان ضمن قصيدة يمدح فيها الملك العادل نور الدين.

يدل على مكره وكيده، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله، والاعتذار عنه، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين، وإنما ردد الأمر بين أمرين: أحدهما ممتنع، والآخر: ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر، ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يردده. فقال: ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]. فلم يدخل أداة الشك هاهنا كما أدخلها في قوله: ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ فتأمله.

ثم قال: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]. فتضمن هذا الخبر أنواعا من التأكيد: **أحدها**: تأكيده بالقسم. **الثاني**: تأكيده بإنّ. **الثالث**: تقديم المعمول على العامل، إيذانا بالاختصاص. أي نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها إليكما لا إليّ. **الرابع**: إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد: أي النصح صفتي وسجيتي، ليس أمرًا عارضًا لي. **الخامس**: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم. **السادس**: أنه صوَّر نفسه لهما ناصحًا من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم، كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به.

سَعَىٰ نَحْوَهَا حَتَّىٰ تجَاوَزَ حَـدَّهُ   وَكَثَّرَ فَارْتَابَتْ، وَلَـوْ شَاءَ قَلَّلا[1]

وورّث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا جاءوه: ﴿ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١]. فأكدوا خبرهم بالشهادة وبإنَّ، وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَيَحۡلِفُونَ

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى مهيار بن مرزويه الديلمي، الشاعر الكبير في أسلوبه قوة وفي معانيه ابتكار، شاعر زمانه، فارسي الأصل كان مجوسيًّا فأسلم على يد الشريف الرضي، ولكنه تشيع وغلا في تشيعه حتى سب بعض الصحابة في شعره، حتى قال له أبو القاسم بن برهان: يا مهيار انتقلت من زاوية في النار إلى أخرى فيها. مات سنة ٤٢٨هـ. وذكر البيت بهاء الدين الإربلي في التذكرة الفخرية (ص ٣٢٧).

بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٦]. ثم قال تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٢]. قال أبو عبيدة: خذلهما وخلاهما، من تدلية الدلو، وهو إرسالها في البئر. وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين:

أحدهما قال: أصله الرجل العطشان يتدلى في البئر ليروى من الماء، فلا يجد فيها ماء، فيكون قد تدلى فيها بالغرور. فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعا، فيقال: دلاه، إذا أطمعه، ومنه قول أبي جندب الهذلي:

أُحُصُّ، فَلاَ أُجِيرُ وَمَنْ أُجِرْهُ ... فَلَيْسَ كَمَنْ تَدَلَّى بِالْغُرُورِ(١)

أحص: أي أقطع. الثاني: فدلاهما بغرور، أي جرأهما على أكل الشجرة، وأصله: دللهما من الدلال والدالة وهي الجراءة، قال شَمَّر: يقال: ما دَلَّلَكَ عليَّ أي ما جرأك عليَّ، وأنشد لقيس بن زهير:

أظُنُّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي ... وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ(٢)

قلت: أصل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق. يقال: دلى الشيء في مِهْواةٍ، إذا أرسله بتعليق. وتدلى الشيء بنفسه. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ [يوسف: ١٩]. قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر. ودلاها بالتخفيف إذا نزعها من البئر، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوا، إذا نزعها وأخرجها.

ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الدلالة، وهي: التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه.

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى أبي جندب الهذلي المشهور بـ المشؤوم، له شعر في ديوان الهذليين. ذكره ابن منظور في اللسان (١٤/ ٢٦٦).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى قيس بن زهير العبسي، كان فارسًا شاعرًا داهية يضرب به المثل، فيقال: أدهى من قيس. وهو أمير عبس، كان يلقب بقيس الرأي لجودة رأيه، وله شعر جيد، زهد في أواخر عمره، مات سنة ١٠هـ. والبيت ذكره ابن منظور في اللسان (١١/ ٢٤٧) والحموي في معجم البلدان (٥/ ٣٨٩).

ومنه الدل وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبد الله بن مسعود يتشبه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدل ما يدل من ظاهره على باطنه، والسمت هيأته ووقاره ورزانته.

والمقصود: ذكر كيد عدو الله ومكره بالأبوين. قال مطرف بن عبد الله: قال لهما إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما، وحلف لهما، وإنما يخدع المؤمن بالله. قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول من خادعنا بالله خدعنا»[(١)]، فالمؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم[(٢)]، وفي الصحيح: أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى رجلًا يسرق، فقال: «سرقت»؟ فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو، فقال المسيح: «آمنت بالله، وكذبت بصري»[(٣)].

وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوز أن يكون قد أخذ من ماله، فظنه المسيح سرقة، وهذا تكلف، وإنما كان الله جل جلاله في قلب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فرد التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين بالله، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل، وقال: ما ظننت أحدًا يحلف بالله تعالى كاذبًا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٥١ رقم ٨٢٩٦) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٤٣١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

(٢) يروى مرفوعًا من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال، وذكره، أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٩٠) والترمذي (رقم ١٩٦٤) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥ رقم ٢٠٥٩٨) والحاكم (١/ ١٠٣ رقم ١٢٨، ١٢٩) والطبراني في الكبير (١٩/ ٨٢ رقم ١٦٦) وأبو يعلى (١٠/ ٤٠١ رقم ٦٠٠٧) وأحمد (٢/ ٣٩٤) والقضاعي في الشهاب (رقم ١٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٤١٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٧٩) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢٥٩): لم يضعفه أبو داود ورواتهما ثقات سوى بشر بن رافع وقد وثقه، وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٨٧ رقم ٢٦٨٢) قال الصغاني: موضوع، واعترض بأن إسناده جيد، كما قال المناوي.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٤) ومسلم (رقم ٢٣٦٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٥/ ١٢١).

[(١)]وأما كيده للأبوين فقد قَصَّ الله سبحانه علينا قِصته معهما: [الأعراف: ٢٠-٢٢] وأنه لم يزل يخدعهما، ويعدهما، ويمنيهما الخلود في الجنة، حتى حلف لهما بالله جهد يمينه: إنه ناصح لهما، حتى اطمأنا إلى قوله وأجاباه إلى ما طلب منهما، فجرى عليهما من المحنة والخروج من الجنة ونزع لباسهما عنهما ما جرى، وكان ذلك بكيده ومكره الذي جرى به القلم، وسبق به القدر، ورد الله سبحانه كيده عليه، وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته، فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجملها، وعاد عاقبة مكره عليه. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وظن عدو الله بجهله أن الغلبة والظفر له فى هذه الحـرب، ولم يعلم بكمين جيش: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. ولا بإقبال دولة ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفيه وحبيبه الذي خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، من أجل أكلة أكلها. وما علم أن الطبيب قد علم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحس بالمرض بادر إلى استعمال الدواء، لما رماه العدو وبسهم وقع في غير مقتل، فبادر إلى مداواة الجرح، فقام كأن لم يكن به قَلَبَةٌ.

***

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[(٢)]عن أبي الأحوص الجشمي قال: رآني النبي ﷺ، وعليَّ أطمار فقال: «هل لك من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أي المال؟» قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاه، قال:

(١) ٢٠٢ إغاثة جـ٢.
(٢) ١٨٣ فوائد، وفيها: أي في السنن.

«فلتر نعمته وكرامته عليك»(١). فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن، فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة، والجمال الباطن بالشكر عليها.

ولمحبته سبحانه للجمال؛ أنزل على عباده لباسًا وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم. فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]. وقال في أهل الجنة: ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾ [الإنسان: ١١، ١٢] فجمل وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسرور، وأبدانهم بالحرير.

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله.

(٢)وقد جمع سبحانه بين الجمالين، أعني: جمال الظاهر وجمال الباطن؛ في غير موضع من كتابه:

منها: قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ومنها: قوله تعالى في نساء الجنة: ﴿ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴾ [الرحمن: ٧٠]، فهن حسان الوجوه، خيرات الأخلاق.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة جمال الوجوه،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٢٣٤ رقم ٥٤١٦) وفي الموارد (رقم ١٤٣٤) والحاكم (٤/ ٢٠١ رقم ٧٣٦٤) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٥٩ رقم ٩٥٥٩) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٠ رقم ١٩٤٩٤) والترمذي (رقم ٢٠٠٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٤٦٢ رقم ١٢٦٢، ١٢٦٣) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٩٧ رقم ١٧٠٢) وفي الكبير (٨/ ٢٦ رقم ٧٢٨٢) وأحمد (٣/ ٤٧٣) والطيالسي (رقم ١٣٠٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ٣٠٠ مدارج جـ٣.

والسرور جمال القلوب.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. فالنضرة تزين ظواهرهم، والنظر يجمل بواطنهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١] فالأساور جملت ظواهرهم، والشراب الطهور طهر بواطنهم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فجمل ظاهرها بالكواكب، وباطنها بالحراسة من الشياطين.

(١) ومما يبيِّن أنَّ هذه الفواحش أصلها المحبة لغير الله تعالى، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة، أو غير ذلك: أنها في المشركين أكثر منها في المخلصين، ويوجدُ فيهم منها ما لا يوجد مثله في المخلصين.

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦-٣٣].

(١) ١٥٥ إغاثة جـ٢.

فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وهو قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال تعالىٰ في الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]. وأخبر عنه أنه أقسم بعزة ربه أنه يغوي عباده أجمعين، واستثنىٰ أهل الإخلاص منهم، وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان: أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتبعوا الظن الكاذب والهوىٰ الباطل.

قال شيخنا: وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلىٰ القبلة، من الصوفية والعُبّاد، والأمراء، والأجناد، والمتفلسفة، والمتكلمين، والعامة وغيرهم، يستحلون من الفواحش ما حرمه الله ورسوله، ظانين أن الله أباحه، أو تقليدا لأسلافهم وأصله العشق الذي يبغضه الله، فكثير منهم يجعله ديناً، ويرىٰ أنه يتقرب به إلىٰ الله:

إما لزعمه أنه يزكي النفس ويهذبها.

وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه علىٰ آدمي، ثم ينقله إلىٰ عبادة الله وحده.

وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده، ويسميها «مظاهر الجمال الأحديّ».

وإما لاعتقاده حلول الرب فيها، واتحاده بها؛ ولهذا تجد بين نساك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم توافقا وتآلفًا علىٰ اتخاذ أنداد من دون الله، يحبونهم كحب الله: إما تَدَيُّناً، وإما شهوة، وإما جمعاً بين الأمرين. ولهذا يتآلفون ويجتمعون علىٰ السماع الشيطاني، الذي يهيج الحب المشترك، فُيَهيِّج من كل قلب ما فيه من الحب.

وسبب ذلك: خلو القلب مما خلق له، من عبادة الله تعالىٰ التي تجمع محبته وتعظيمه، والخضوع والذل له، والوقوف مع أمره، ونهيه ومحابّه ومساخطه. فإذا كان في القلب وجدان حلاوة الإيمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها.

وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه، ويتخذه إلهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[الروم: ٣٠]. أي نفس خلق الله لا تبديل له، فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة، كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشق والقطع. ولا تبديل لنفس هذا الخلق.

ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه، كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيمَجِّسَانِهِ، كَمَا تَنْتَجُ الْبهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تَحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**»(١).

فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه. فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة.

ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها.

***

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(٢)أما الأصل الثاني(٣)؛ وهو: دلالته على أن الفعل في نفسه حسن وقبيح؛ فكثير جدًّا. كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٨٥) ومسلم (رقم ٢٦٥٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٩-٢٥٠) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٧-٢٠٩).
(٢) ٢٣٣ مدارج جـ١.
(٣) تقدم الأصل الأول في سورة الأنعام على قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾[الأنعام: ١٣٠] (ج).

وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٣].

فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه، وأمر باجتنابه بأخذ الزينة. و(الفاحشة) ههنا هي طوافهم بالبيت عراة ـ الرجال والنساء ـ غير قريش.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، ولو كان إنما علم كونه فاحشة بالنهي، وإنه لا معنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به، لصار معنى الكلام: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء، فضلا عن كلام العزيز الحكيم.

وأي فائدة في قوله: «إن الله لا يأمر بما ينهى عنه»؟ فإنه ليس لمعنى كونه (فاحشة) عندهم إلا أنه منهي عنه، لا أن العقول تستفحشه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ والقسط عندهم: هو المأمور به لا أنه قسط في نفسه، فحقيقة الكلام: قل أمر ربي بما أمر به. ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ دل على أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة. ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها، وليست فواحش قبل ذلك، لكان حاصل الكلام: قل إنما حرم ربي ما حرم، وكذلك تحريم الإثم والبغي، فكون

ذلك فاحشة وإثما وبغيا بمنزلة كون الشرك شركًا، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده.

من قال: إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهي، فهو بمنزلة من يقول: الشرك إنما صار شركا بعد النهي وليس شركا قبل ذلك.

ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة، فالظلم ظلم في نفسه قبل النهي وبعده، والقبيح قبيح في نفسه قبل النهي وبعده، والفاحشة كذلك، وكذلك الشرك، لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك.

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحا إلى قبحها، فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحا عند العقل بنهي الرب تعالى عنها، وذمه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها، كما أن العدل والصدق والتوحيد ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر حسن في نفسه، وازداد حسنا إلى حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله. بل من أعلام نبوة محمد ﷺ: أنه يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

فلو كان كونه معروفًا ومنكرًا وخبيثًا وطيبًا إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم، به لكأن بمنزلة أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم، وأي فائدة في هذا؟ وأي علم يبقى فيه لنبوته؟ وكلام الله يصان عن ذلك، وأن يظن به ذلك، وإنما المدح والثناء والعلم الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفا، وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا، وما يحله تشهد كونه طيبًا وما يحرمه تشهد كونه خبيثًا.

وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم، لما عرف دعوته ﷺ: عن أي شيء

أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحل شيئًا، فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه».

فانظر إلى هذا الأعرابي وصحة عقله وفطرته وقوة إيمانه واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث مجرد تعلق الأمر والنهي والإباحة والتحريم به؛ لم يحسن منه هذا الجواب، ولكان بمنزلة أن يقول: وجدته يأمر وينهى ويبيح ويحرم وأي دليل في هذا؟

كذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وهؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه لا أن هناك في نفس الأمر ظلما نهى عنه، وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه، هو الممتنع المستحيل، لا أن هناك أمرا ممكنًا مقدورًا لو فعله لكان ظلمًا، فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه، إنما هو المحرم في حقه والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضًا، قال الله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٧-٢٩] أي: لا أؤاخذ عبدا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله: ﴿ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴾ المتضمن لإقامة الحجة وبلوغ الأمر والنهي وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي

تنزه الله ﷻ عنه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] يعني لا يحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

(١) ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]. فقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه. وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء، فكيف بكلام رب العالمين؟!

ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول، مقبولة في الفطر، فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء، أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده، وأنه لا يليق به تعالى. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

(١) ٩ مفتاح جـ٢.

فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام، وأنه لا شيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله، وهو إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه، والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن، لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله، بل هو مخلص لربه محسن في عبادته بما يحبه ويرضاه، وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده، وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته، وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول، وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد، بل هو دليل على أن ما كان كذلك، فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه.

***

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾.

[(1)] الأدب هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا، ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة، فقال تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلَّق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة، إيذانا بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة، ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

---

(١) ٣٤٨ مدارج جـ٢.

ومعلوم: أن الله ﷻ يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده، لاسيما إذا وقف بين يديه، فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته، التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا. ومن الأدب: نهىٰ النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصره إلىٰ السماء.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا خافضًا طرفه إلىٰ الأرض، ولا يرفع بصره إلىٰ فوق.

قال: والجهمية ـ لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه ـ ظنوا أن هذا دليل علىٰ أن الله ليس فوق سمواته علىٰ عرشه، كما أخبر به عن نفسه، واتفقت عليه رسله، وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم، بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ علىٰ نقيض قولهم؛ إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلىٰ الأرض، ولا يرفع بصره إليهم، فما الظن بملك الملوك سبحانه.

وسمعته يقول في نهيه عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إن القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين، ويكون حال القيام والانتصاب أولىٰ به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة، كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ﷺ. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان، كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد: «أنه من السنة»، و«كان الناس يؤمرون به»، ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة، وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ أهم الذين يصلون دائما؟ قال: لا، ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران الدوام عليها والمداومة عليها، فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه وما يحب وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق: علمًا وعملًا وحالًا، والله المستعان.

(١)قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] جمعت أصول أحكام الشريعة كلها؛ فجمعت: الأمر، والنهي، والإباحة، والخبر.

(٢)هديه ﷺ في حفظ الصحة: لما كان اعتدالُ البدن وصحته وبقاؤه إنما هو بواسطة

---

(١) ٧ بدائع جـ٤.
(٢) ٢٨٢ زاد المعاد جـ٣.

الرطوبة المقاوِمةِ للحرارة، فالرطوبة مادته، والحرارةُ تُنضِجُهَا، وتدفع فضلاتِها، وتُصلحها، وتلطفها، وإلا أفسدتْ البدن ولم يمكن قيامُه.

وكذلك الرطوبةُ هي غِذاءُ الحرارة، فلولا الرطُوبة، لأحرقتْ البدن وأيبَسَتْه وأفسدته، فقِوامُ كُلٍّ واحدة منهما بصاحبتها، وقِوام البدنِ بهما جميعاً، وكُلٌّ منهما مادة للأُخرىٰ، فالحرارة مادة للرطوبة تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة، والرطوبة مادة للحرارة تغذُوها وتحمِلُها، ومتىٰ مالتْ إحداهما إلىٰ الزيادة علىٰ الأُخرىٰ، حصل لمزاج البدن الانحرافُ بحسب ذلك، فالحرارةُ دائماً تُحَلِّلُ الرطوبة، فيحتاجُ البدن إلىٰ ما به يُخلَف عليه ما حلَّلتْه الحرارة لضرورة بقائِهِ وهو الطعامُ والشرابُ.

ومتىٰ زاد علىٰ مقدار التحلل، ضعُفتِ الحرارةُ عن تحليل فضلاته، فاستحالتْ موادَّ رديئة، فعاثتْ في البدن، وأَفسدتْ، فحصلت الأمراضُ المتنوعة بحسب تنوُّع موادِّها، وقبولِ الأعضاء واستعدادِها، وهذا كُلُّه مستفَادٌ من قوله تعالىٰ: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾، فأرشدَ عِباده إلىٰ إدخالِ ما يُقِيمُ البدنَ من الطعام والشراب عِوَضَ ما تحلَّل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفعُ به البدنُ في الكمِّية والكيفية، فمتىٰ جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانعٌ من الصحة جالبٌ للمرض، أعنى عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه. فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين، ولا ريب أنَّ البدن دائماً فى التحلل والاستخلاف، وكُلَّما كثر التحلُّل ضعفت الحرارة لفناء مادتها، فإنَّ كثرةَ التحلل تُفنى الرطوبة، وهى مادة الحرارة، وإذا ضعفت الحرارة، ضعفَ الهضم، ولا يزال كذلك حتىٰ تَفنىٰ الرطوبةُ، وتنطفئ الحرارة جملةً، فيستكملُ العبدُ الأجلَ الذي كتب اللهُ له أن يَصِلَ إليه.فغايةُ علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسةُ البدن إلىٰ أن يصل إلىٰ هذه الحالة، لا أنه يستلزمُ بقاءَ الحرارة والرطوبة اللَّتين بقاءُ الشباب والصحة والقوَّة بهما، فإنَّ هذا مما لم يحصُلْ لبَشَر في هذه الدار، وإنما غايةُ الطبيب أن يحميَ الرطوبةَ عن مفسداتها من العفونة وغيرها، ويحميَ الحرارة عن مُضعِفاتها، ويعدل بينهما بالعدل في التدبير، الذي به قام بدنُ الإنسان، كما أنَّ به قامت

السمواتُ والأرضُ وسائرُ المخلوقات، إنما قوامُها بالعدل.

ومَن تأمَّل هَدْيَ النبيِّ ﷺ وجده أفضلَ هَدْيٍ يُمكن حِفظُ الصِّحة به، فإنَّ حفظها موقوفٌ على حُسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والهواء والنوم، واليقظة والحركة، والسكون والمَنكَح، والاستفراغ والاحتباس.

فإذا حصَلتْ هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسِّنِّ والعادة، كان أقربَ إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولمَّا كانت الصحةُ والعافيةُ من أجَلِّ نِعَم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر مِنحه، بل العافيةُ المطلقة أجَلُّ النِّعَمِ على الإطلاق، فحقيق لمن رُزق حظاً مِن التوفيق مراعاتها وحِفظها وحمايتُها عمَّا يُضادها.

وقد روى البخاريُّ في صحيحه من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ الناس: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ»[1].

وفي الترمذي وغيره من حديث عُبَيْد الله بن مِحصَن الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أصْبَحَ مُعَافىً في جَسَدِهِ، آمناً في سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فكأنما حِيزَتْ لَهُ الدُّنيا»[2].

وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أوَّلُ ما يُسْأَلُ عنه العَبْدُ يومَ القيامَةِ مِنَ النَّعِيم، أن يُقال له: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، ونُرَوِّكَ مِنَ الماءِ البارد؟»[3]. ومن هاهنا؛ قال مَن قال مِن السَّلَف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤١٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٤٥-٤٤٦ رقم ٦٧١) والترمذي (رقم ٢٣٤٦) وابن ماجه (رقم ٤١٤١) والطبري في تهذيب الآثار (٣/ ٨٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (رقم ٢١٢٦) والحميدي (رقم ٤٣٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٣٠ رقم ١٨٢٨) وفي مسند الشاميين (١/ ٣٦ رقم ٢٢) والقضاعي في الشهاب (رقم ٥٣٩) وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٨) والديلمي في الفردوس (١/ ١٨ رقم ١٩) والحاكم (٤/ ١٥٣ رقم ٧٢٠٣) وابن حبان (١٦/ ٣٦٤ رقم ٧٣٦٤) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦ رقم ٦٢) وفي مسند =

ﭽﭑﭼ [التكاثر: ٨] قال: عن الصحة.

وفي مسند الإمام أحمد: أنَّ النبيَّ ﷺ قال للعباس: «يا عباس، يا عَمَّ رسول الله؛ سَلِ اللهَ العافِيةَ في الدُّنْيَا والآخِرَة»(١).

وفيه عن أبي بكر الصِّدِّيق، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سَلُوا اللهَ اليَقِينَ والمُعافاةَ، فما أُوتِيَ أحدٌ بَعْدَ ـ اليقينِ ـ خَيراً من العافية»(٢).

فجمع بين عافيتي الدِّينِ والدنيا، ولا يَتِمُّ صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه. وفي سنن النسائي من حديث أبي هريرة يرفعه: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ والعافيةَ والمُعافاة، فما أُوتِيَ أحدٌ بَعْدَ يقينٍ خيراً من مُعافاةٍ»(٣).

وهذه الثلاثة تتضمَّن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، وَالمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومةَ والاستمرارَ على العافية. وفي الترمذي مرفوعاً: «ما سُئِلَ اللهُ شيئاً أحبَّ إلَيْهِ من العافيةِ»(٤). وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: عن أبي الدرداء، قلت: يا رسول الله؛ لأن أُعافَى فأشكُر أحبُّ إليَّ من أن أُبتَلى فأصبر،

الشاميين (١/ ٤٤٢ رقم ٧٧٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٤٧ رقم ٤٦٠٧) وابن أبي عاصم في الأوائل (رقم ١٥٥) وأحمد في الزهد (ص ٣١) وتمام في فوائده (رقم ٢١٨) وصححه الحاكم. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٧٨) وعمدة القاري (٢١/ ١٩٠).

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٣٧٨ رقم ٤٦٥، ٤٦٦) والترمذي (رقم ٣٥١٤) وأحمد (١/ ٢٠٩) والبزار (٤/ ١٣٩ رقم ١٣١٤) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٢٦) وصححه الترمذي، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٥): رواه كله الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح غير يزيد ابن أبي زياد وهو حسن الحديث.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٠ رقم ١٠٧١٧) والترمذي (رقم ٣٥٥٨) والحميدي (رقم ٢) وأبو يعلى (١/ ٩٦ رقم ٩٧) وأحمد (١/ ٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٣٧ رقم ٥١٣٤): وأحد أسانيده صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ٣).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٠ رقم ١٠٧١٧).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٤٨).

فقال رسول الله ﷺ: «ورسولُ الله يُحِبُّ مَعَكَ العافِيَةَ»(١).

ويُذكر عن ابن عباس أنَّ أعرابيًّا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: ما أسألُ الله بعد الصلواتِ الخمس؟ فقال: «سَلِ اللهَ العافيةَ»، فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: «سَلِ اللهَ العَافِيةَ في الدُّنيا والآخرَة».

***

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(٢)أكمل الناس لذة؛ من جمع بين: لذة القلب والروح ولذة البدن. فهو يتناول لذاته المباحة علىٰ وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه. فهذا ممن قال تعالىٰ فيه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسهم حظًّا من اللذة من تناولها علىٰ وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة، فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع، فأولئك تمتعوا بها علىٰ الوجه الذي أذن لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها علىٰ الوجه الذي دعاهم إليه الهوىٰ والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم. فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيّب فليجعل لذة الدنيا موصلا له إلىٰ لذة الآخرة، بأن يستعين بها علىٰ فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة علىٰ طلبه، لا

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٣٠٤).
(٢) ١٤٩ فوائد.

بحكم مجرد الشهوة والهوىٰ.

وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة، ويجم نفسه هاهنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك.

فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله و الدار الآخرة، وكانت همه لما هناك، وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته، وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة. فمن أخذ منافع الدنيا علىٰ وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعا، وإلا خسرهما جميعًا.

***

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[1]قد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات؛ بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها؛ وهو الفواحش، ثم ثنىٰ بما هو أشد تحريمًا منه؛ وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما؛ وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله؛ وهو القول عليه بلا علم. وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في: أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه، وشرعه.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ

(١) ٣٨ أعلام جـ١.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧]. فتقدَّم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقوله لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه؛ أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام؛ إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه.

(١)قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها، فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له.

وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها، فدل على أنه حرمها لكونها فواحش، وحرم الخبيث لكونه خبيثًا، وأمر بالمعروف لكونه معروفًا، والعلة يجب أن تغاير المعلول، فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيًّا عنه، وكونه خبيثًا هو معنى كونه محرما، كانت العلة عين المعلول، وهذا محال، فتأمله.

وكذا تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فعلل النهي في الموضعين بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: لا تقربوا الزنا، فإنه يقول لكم لا تقربوه، أو فإنه منهي عنه، وهذا محال من وجهين:

أحدهما: أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة. **والثاني**: أنه تعليل للنهي بالنهي.

(٢)وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا وأعظمها إثمًا،

---

(١) ٧ مفتاح جـ٢.

(٢) ٣٧٢ مدارج جـ١.

ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال. فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت، قال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما، فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه، وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثما وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد.

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦] الآية. فكيف بمن نسب إلى أوصافه ﷻ ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه؟

قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم الله كذا. فيقول

الله: كذبت، لم أحل هذا، ولم أحرم هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله يقر به إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك، فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله، فهو أعم من الشرك والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبًا لدخول النار.

...[1]الفائدة الحادية عشرة: إذا نزلت بالحاكم أو المفتي النازلة...

فإما أن يكون عالمًا بالحق فيها، أو غالبًا على ظنه، بحيث قد استفرغ وسعه في طلبه ومعرفته، أو لا، فإن لم يكن عالمًا بالحق فيها ولا غلب على ظنه لم يحل له أن يفتي، ولا يقضي بما لا يعلم، ومتى أقدم على ذلك فقد تعرض لعقوبة الله.

ودخل تحت قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربع التي لا تباح بحال، ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر، ودخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

ودخل في قول النبي ﷺ: «من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه».[2] وكان أحد

(١) ١٧٣ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه بسنده الحافظ المزي في تهذيب الكمال (٢٢/ ٢٧١) والحاكم (١/ ٢١٥ رقم ٤٣٦) وأبو داود =

القضاة الثلاثة الذين ثلثاهم في النار.

وإن كان قد عرف الحق في المسألة علما أو ظنًّا غالبًا لم يحل له أن يفتى ولا يقضى بغيره بالإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وهو أحد القضاة الثلاثة والمفتين الثلاثة والشهود الثلاثة، وإذا كان من أفتى أو حكم أو شهد بغير علم مرتكبا لأعظم الكبائر، فكيف من أفتى أو حكم أو شهد بما يعلم خلافه، فالحاكم والمفتي والشاهد كل منهم مخبر عن حكم الله.

فالحاكم مخبر منفذ، والمفتي مخبر غير منفذ، والشاهد مخبر عن الحكم الكوني القدري المطابق للحكم الديني الأمري، فمن أخبر منهم عما يعلم خلافه فهو كاذب على الله عمدًا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

ولا أظلم ممن كذب على الله وعلى دينه، وإن أخبروا بما لم يعلموا فقد كذبوا على الله جهلا، وإن أصابوا في الباطن، وأخبروا بما لم يأذن الله لهم في الإخبار به، وهم أسوأ حالا من القاذف إذا رأى الفاحشة وحده، فأخبر بها، فإنه كاذب عند الله، وإن أخبر بالواقع فإن الله لم يأذن له في الإخبار بها، إلا إذا كان رابع أربعة، فإن كان كاذبا عند الله في خبر مطابق لمخبره، حيث لم يأذن له في الإخبار به فكيف بمن أخبر عن حكمه بما لم يعلم أن الله حكم به، ولم يأذن له في الإخبار به.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، والكذب على الله يستلزم التكذيب بالحق

(رقم ٣٦٥٧) وابن ماجه (رقم ٥٣) والدارمي (رقم ١٥٩) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠١٤٠) وأحمد (٢/ ٣٢١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٥٩) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود وفي صحيح الجامع (رقم ٦٠٦٨)، بينما صحح الحديث في صحيح الأدب المفرد.

والصدق، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

وهؤلاء الآيات وإن كانت في حق المشركين والكفار فإنها متناولة لمن كذب علىٰ الله في توحيده ودينه وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا تتناول المخطئ المأجور إذا بذل جهده واستفرغ وسعه في إصابة حكم الله وشرعه، فإن هذا هو الذي فرضه الله عليه، فلا يتناول المطيع لله إن أخطأ، وبالله التوفيق.

الفائدة الثانية عشرة: حكم الله ورسوله يظهر علىٰ أربعة ألسنة: لسان الراوي ولسان المفتي ولسان الحاكم ولسان الشاهد.

فالراوي يظهر علىٰ لسانه لفظ حكم الله ورسوله والمفتي يظهر علىٰ لسانه معناه وما استنبطه من لفظه، والحاكم يظهر علىٰ لسانه الإخبار بحكم الله وتنفيذه. والشاهد يظهر علىٰ لسانه الإخبار بالسبب الذي يثبت حكم الشارع.

والواجب علىٰ هؤلاء الأربعة أن يخبروا بالصدق المستند إلىٰ العلم، فيكونوا عالمين بما يخبرون به صادقين في الإخبار به. وآفة أحدهم الكذب والكتمان، فمتىٰ كتم الحق أو كذب فيه فقد حاد الله في شرعه ودينه، وقد أجرىٰ الله سنته أن يمحق عليه بركة علمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك.

كما أجرىٰ عادته سبحانه في المتبايعين إذا كتما وكذبا أن يمحق بركة بيعهما، ومن التزم الصدق والبيان منهم في مرتبته بورك له في علمه ووقته ودينه ودنياه، وكان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ذلك الفضل من الله، وكفىٰ بالله عليمًا. فبالكتمان يعزل الحق عن سلطانه، وبالكذب يقلبه عن وجهه، والجزاء من جنس العمل، فجزاء أحدهم أن يعزله الله عن سلطان المهابة والكرامة والمحبة والتعظيم، الذي يلبسه أهل الصدق والبيان، ويلبسه ثوب الهوان والمقت والخزي بين عباده، فإذا كان يوم القيامة جازىٰ الله سبحانه من يشاء من الكاذبين

الكاتمين بطمس الوجوه وردها على أدبارها، كما طمسوا وجه الحق وقلبوه عن وجهه جزاء وفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

***

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

[(١)]قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية: أي ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة، ثم قرأ عطية: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[(٢)] [الأعراف: ٣٠].

والمعنى: أن هؤلاء أدركهم ما كتب لهم من الشقاوة، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء قال: يريد ما سبق عليهم في علمي في اللوح المحفوظ، فالكتاب على هذا القول الكتاب الأول، ونصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها.

وقال ابن زيد، والقرطبي والربيع بن أنس: ينالهم ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال، فإذا فني نصيبهم واستكملوه جاءتهم رسلنا يتوفونهم، ورجح بعضهم هذا القول لمكان «حتى» التي هي للغاية، يعني أنهم يستوفون أرزاقهم وأعمارهم إلى الموت.

ولمن نصر القول الأول أن يقول حتى في هذا الموضع، هي التي تدخل على

---

(١) ٤٢ شفاء.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٧٠، ١٧١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٨٠، ٩٨١).

الجمل، وينصرف الكلام فيها إلى الابتداء، كما في قوله:

فيا عجبا حتى كُلَيبٌ تسبُّني [(١)]

والصحيح: أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين:فهو نصيبهم من الشقاوة، ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك، فعمت الآية هذا النصيب كله، وذكر هؤلاء بعضه. وهؤلاء بعضه هذا على القول الصحيح، وأن المراد ما سبق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب القرآن. قال الزجاج: معنى نصيبهم من الكتاب ما أخبر الله من جزائهم نحو قوله: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤] وقوله: ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧].

قال أرباب هذا القول: وهذا هو الظاهر، لأنه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع، ثم أخبر أنه ينالهم نصيبهم منه.

والصحيح القول الأول، وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا، ولهذا القول وجه حسن، وهو أن نصيب المؤمنين منه الرحمة والسعادة، ونصيب هؤلاء منه العذاب والشقاء، فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي تجعلونه حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به...

---

(١) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وينسب للفرزدق: همام بن غالب التميمي الدارمي، من نبلاء الشعراء، من الطبقة الأولى، وكان شريفًا في قومه، عزيز الجانب، قارب المائة ومات سنة ١١٠هـ. ذكره القرطبي في تفسيره (٣/ ٣٥)، بينما ذكر البيت كاملًا الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٣٥٣) وعجزه: **كأن أباها نهشلٌ أو مجاشع**. وانظر: التمثيل والمحاضرة (ص٩٩)، وطبقات فحول الشعراء (ص١٨).

قال الحسن: تجعلون حظّكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به.

[(١)]فليتدبر العاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر، وقوله: ﴿ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها، وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق. فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل. والثاني: كفره بجحود الحق. وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل. فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطلة وصد الناس عن الحق، استحق تضعيف العذاب لتضاعف كفره وشره. ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨] فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين: عذابًا بكفرهم وعذابًا بصدهم عن سبيله، وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يعني ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أين ما كنتم توالون فيه وتعادون فيه، وترجونه وتخافونه من دون الله ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ زالوا وفارقوا، وبطلت تلك الدعوة ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ۝٣٧ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ادخلوا في جملة هذه الأمم ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك، ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلالة وكفره، ﴿ وَلَـٰكِن لَّا

(١) ٣٦ الرسالة التبوكية.

تَعۡلَمُونَ ﴾ لا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف ﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ ﴾، فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق، وحذروكم من ضلالنا، ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا وترك الحق الذي أتتكم به الرسل. فأي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين. فأي فضل كان لكم علينا ﴿ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ فلله ما أشفاها من موعظة! وما أبلغها من نصيحة! لو صادفت من القلوب حياة، فإن هذه الآية وأمثالها مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر.

(١)الطبقة السابعة عشر: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم، يقولون: إنا وجدنا آباءَنا على أُمة، ولنا أُسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساءِ المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أُولئك أنفسهم من السعي في إطفاءِ نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأُمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع: أنه لم يحكم لهؤلاءِ بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين: لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربي والمنشأ على ما عليه الأبوان.

---

(١) ٤١١ طريق الهجرتين.

وصح عنه أنه قال ﷺ: «**إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة**»(١)، وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر. وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين. وقد تقدم الكلام عليهم.

والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاءَ به، فما لم يأْت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله: إما عناداً وإما جهلاً وتقليداً لأهل العناد. فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد.

وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعيهم، وأنهم يتحاجون في النار، وأن الأتباع يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٢٨) ومسلم (رقم ٢٢١) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٠٧).

فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئاً. وأصرح من هذا قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، لا ينقص من أوزارهم شيئاً**»(١)، وهذا يدل علىٰ أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضاً:

أحدهما: مريد للهدىٰ مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا علىٰ طلبه، لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه.

فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك ديناً خيراً مما أنا عليه لدنت به، وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوىٰ ما أنا عليه ولا أقدر علىٰ غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راضٍ بما هو عليه، لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق.

فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في

---

(١) سبق تخريجه.

طلبه عجزاً وجهلاً.

والثاني: كمن لم يطلبه، بل مات على شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض.

فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو بعينه قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه، هذا فى أحكام الثواب والعقاب.

وأما في أحكام الدنيا فهي جارية مع ظاهر الأمر، فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبنى على أربعة أُصول:

أحدها: أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه. وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

[الزخرف: ٧٦]، والظالم من عرف ما جاءَ به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان، دون زمان وفي بقعة وناحية دون أُخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله ﷻ تابعة لحكمته التي لا يخل بها ، وأنها مقصودة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياءَ مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن

يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور، ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠] وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء، وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت، كما تقدم في الأحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن، حتى يُنتهى، بها إلى بين يدي الرب تعالى، وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولا تفتح لجسده أبواب الجنة.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

(٢) روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وأن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا**» وذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] (٣).

قال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن آدم: حدثنا حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن الأغر، عن أبي هريرة وأبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال: «**نودوا أن صحوا فلا تسقموا أبدًا واخلدوا فلا**

(١) ٢٣٥ الروح.
(٢) ١٦٥ الروح.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٧).

تموتوا أبدًا، وأنعموا فلا تبأسوا أبدًا»[١].

...[٢]وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدا أو تنبيها أو احترازا كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسا منها، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] فاعترض بقوله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بين الجعلين، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام، ومن قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد وتعظيم المقسم به والمخبر به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك، فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر:

لـــو أن البــاخلين وأنـــت مـــنهم رأوك تعلمـــوا منـــك المطـــالا[٣]

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٨٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٨٠ رقم ٨٤٧٧).

(٢) ١٣٨ تبيان.

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي الشهير بكثير عزة، شاعر متيم مشهور من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، اشتهر بحبه لعزة فعرف بها وعرفت به. توفي في الحجاز هو وعكرمة مولى ابن عباس في نفس اليوم فقيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس.
ذكر البيت ابن المعتز في البديع (ص ٩١) وأسامه بن منقذ في البديع في نقد الشعر (ص ٢٢٠) وأبو =

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فلا هجره يبدو -وفي اليأس راحة- ولا وصله يصفو لنا فنكارمه[(١)]

فقوله: وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل: وما يغني عنك هجره؟ فقال وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح أو وصال صاف. ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمت بنو جعد بأني وقد كذبوا كبير السن فاني[(٢)]

ومنه قول نصيب:

فكدت ولم أخلق من الطير إن بدا سنا بارق نحو الحجاز أطير[(٣)]

فقوله: ولما أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار، لو قال: فكدت أطير. فيقال له: وهل خلقت من الطير؟ فاحترز بهذا الاعتراض، وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد

=

هلال العسكري في الصناعتين (ص ٩٦).

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب ابن ميادة: الرماح بن أبرد الذبياني الغطفاني وميادة أمه نسب إليها واشتهر بها، شاعر رقيق هجّاء من مخضرمي الدولة الأموية والعباسية، وكان خيرًا لقومه من النابغة، مات ١٤٩هـ. والبيت ذكره أبو هلال العسكري في الصناعتين (ص ٧٧١).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى النابغة الجعدي: قيس بن عبد الله العامري، كان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، وفد على النبي ﷺ وأسلم وشهد صفين مع علي ﷺ، كف بصره وتجاوز المائة، مات سنة ٥٠هـ.

ذكر البيت ابن حجر في الإصابة (٦/ ٣٩٢) في ترجمة النابغة الجعدي، ولكن جاء فيها:

ألا زعمت بنو أسد بأني أبو ولد كبير السن فاني

وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٥١٧) وفيه:

ألا زعمت بنو سعد بأني وما كذبوا كبير السن فاني

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل مقدم في النسيب والمدائح، سئل عنه جرير فقال: أشعر أهل جلدته. وتنسك في أواخر عمره، مات سنة ١٠٨هـ. والبيت ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٦٤) وأبو الفرج الأصبهاني في الأغاني (١/ ٣٧٥) والسراج القاري في مصارع العشاق (١/ ٥٨٨).

يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، ولا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه، فتأمله. ومن مواقع الاعتراض: الاعتراض بالدعاء، كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية حذار هذا الصدود والغضب
إن تم ذا الهجر يا ظلوم - ولا تم - فما لي في العيش من أرب[1]

[2]المرتبة الرابعة الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار. قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل: أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم، ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة؛ كان أحسن وأبلغ.

...[3]الصنف الثاني: القدرية النفاة، الذي يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل، ولكن لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه، بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته. فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا

(١) هذان البيتان من بحر المنسرح، وينسبان إلى العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي، شاعر غزل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس، خالف الشعراء في طرقهم فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيبًا، مات سنة ١٩٢هـ. ذكر البيتين ابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٨٠٨) وثعلب في مجالسه (ص ٦٣٦) وعبد الرحيم العباسي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ٦٦٣).

(٢) ٨٥ مفتاح جـ١.

(٣) ٩٢ مدارج جـ١.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٢٣] وقوله: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠] وقوله فيما يحكي عن ربه ﷻ: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها»[(١)]. وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاءً وأجرًا وثوابًا، لأنه يثوب إلىٰ العامل من عمله، أي يرجع إليه منه. قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنىٰ.

قالوا: ويدل عليه الوزن، فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها وكونها كالأثمان لها لم يكن للوزن معنىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء البتة، وجوزت أن يعذب الله من أفنىٰ عمره في طاعته، وينعم من أفنىٰ عمره في معصيته، وكلاهما بالنسبة إليه سواء، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل علىٰ من هو أعظم منه عملًا وأكثر وأفضل درجات، والكل عندهم راجع إلىٰ محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب ولا حكمة، تقتضي تخصيص هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت علىٰ الله سبحانه رعاية الأصلح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنا لها، وأن وصول الثواب إلىٰ العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله ما أجهلهم بالله وأغرهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلىٰ عبده بمنزلة صدقة العبد علىٰ العبد، حتىٰ قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة علىٰ عمله أحب إلىٰ العبد

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧). وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٢ - ١٣٣).

وأطيب له من أن يعطيه فضلا منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرا في الجزاء البتة.

والطائفتان جائرتان منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها.

وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنه، وصدقته على عبده، إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببها إليه، وزينها في قلبه، وكره إليه أضدادها، ومع هذا فليست ثمنا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه ـ أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها؛ فلذلك لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

ولهذا نفى النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: **«لن يدخل أحدًا منكم الجنة عمله»**. وفي لفظ: **«لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»**. وفي لفظ: **«لن ينجي أحدًا منكم عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**[(١)].

وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] ولا تنافي بينها؟ إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله وأغلظهم عنه حجابا، وحُقَّ لهم أن يكونوا

---

(١) تقدم تخريجه.

مجوس هذه الأمة، ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في منته، وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصا لأنه نظيره، فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه نفسه دونه هذا مع أنه ليس في كل مخلوق فلرسول الله ﷺ المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أمنّ»، ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، وكذلك السيد على عبده.

فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم بلا عوض منهم البتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب، وهداهم لها وأعانهم عليها، وكملها لهم وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذه باء السببية ردا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له، وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر، فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفطرة أيضا تبطل قول الفريقين، وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط، المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا،

وترتيبها عليها عاجلا وآجلًا. وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعا من الحق وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل بل أنواعًا، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

***

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

[(1)] الطبقة الثانية عشرة: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثراهما فتقاوما، فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة. فهؤلاء هم أهل الأعراف، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب.

وقد وصف الله ﷻ أهل هذه الطبقة في سورة الأعراف - بعد أن ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها، ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار - فقال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦ - ٤٧]، فقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين أهل الجنة والنار حجاب.

قيل: هو السور الذي يضرب بينهم، له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله

---

(١) ٣٨١ طريق الهجرتين.

العذاب: باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهته العذاب، والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار، عليه أهل الأعراف.

قال حذيفة وعبد الله بن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاءُ، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته[١].

قال عبد الله بن المبارك: أخبرنا أبو بكر الهذلي قال: كان سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾[٢] [الأعراف: ٨-٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح. قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف. فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾، وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٧]، فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم: ٨].

وأما أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من أيديهم، فيقول الله: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٦]، فكان الطمع للنور الذي في أيديهم، ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً. يريد آخر أهل الجنة دخولاً ممن لم يدخل النار. وقيل: هم قوم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم فقتلوا، فأُعتقوا من النار لقتلهم في سبيل الله، وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم. وهذا من جنس القول الأول، وقيل: هم قوم رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة، وهي من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما. وقيل: هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين.

وقيل: هم أُولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف، فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعاً.

وقيل: هم الملائكة لا من بني آدم. والثابت عن الصحابة هو القول الأول، وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها. وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة.

وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع، أو الموقوف؟ على قولين: الأول اختيار أبي عبد الله الحاكم، والثاني هو الصواب، ولا نقول على رسول الله ﷺ ما لم نعلم أنه قاله.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ صريح في أنهم من بني آدم، ليسوا من الملائكة. وقوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾، يعني يعرفون الفريقين بسيماهم، ﴿ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾، أي نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام. قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم.

وقال الحسن: الذي جمع الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون، وفي هذا رد على وقول من قال: إنهم أفاضل المؤمنين، علوا على الأعراف، يطالعون أحوال الفريقين، فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة، وهم أعلم الأُمة بكتاب الله، ومراده منه.

ثم قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم، ثم قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ يعني من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٨] يعني ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم، وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم. ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم في الدنيا، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضله، كما لم يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة، فها هم في الجنة يتمتعون ويتنعمون، وفي رياضها يحبرون، ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم واستكبارهم، عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة، وأقسموا أن الله لا ينالهم برحمة، لما رأوا من تخلفهم عن الجنة، وأنهم يصيرون إلى النار، فتقول لهم الملائكة حينئذ: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٩]، والقولان قويان محتملان، والله أعلم.

***

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١)فإن قلت: فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبًا وبعضها متنقلًا.

قيل: إنها لو كانت كلها راتبة؛ لبطلت الدلالة والحكم الذي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها، ولو كانت كلها متنقلة؛ لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها؛ لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب، كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختل نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها: ولتشبث المعطل بذلك، وقال: لو كان فاعلها ومبدعها مختاراً؛ لم تكن على وجه واحدٍ وأمر واحد وقدر واحد. فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته.

(٢)قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] في سبع آيات من القرآن حقيقة عند جميع فرق الأمة، إلا الجهمية ومن وافقهم، فإنهم قالوا: هو مجاز، ثم اختلفوا في مجازه، والمشهور عنهم ما حكاه الأشعري عنهم، وبدَّعهم وضلَّلهم فيه: بمعنى استولى أي: ملك، وقهر.

وقالت فرقة منهم: بل معنى قصد وأقبل على خلق العرش.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجمل في مجازاته، يحتمل خمسة عشر وجهًا، كلها لا يعلم أيها المراد، إلا أنا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل.

هذا الذي قالوه باطل من اثنين وأربعين وجهًا.

أحدها: أن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم، وأنزل بها كلامه نوعان: مطلق، ومقيد.

فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾

---

(١) ٢١١ مفتاح جـ١.

(٢) ١٢٦ مختصر الصواعق جـ٢.

[القصص: ١٤] وهذا معناه: كمل وتم، يقال: استوىٰ النبات، واستوىٰ الطعام.

وأما المقيد فثلاثة أضراب:

أحدها: مقيد بـ «إلىٰ» كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ٢٩] واستوىٰ فلان إلىٰ السطح وإلىٰ الغرفة، وقد ذكر سبحانه هذا المعدىٰ بإلىٰ في موضعين من كتابه: في البقرة في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ٢٩]. والثاني: في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا بمعنىٰ العلو والارتفاع بإجماع السلف كما سنذكره، ونذكر ألفاظهم بعد إن شاء الله.

والثاني: مقيد بـ«علىٰ» كقوله تعالىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الحجرات: ٢٦]، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو (مع) التي تعدي الفعل إلىٰ المفعول معه نحو: استوىٰ الماء والخشبة بمعنىٰ: ساواها، وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنىٰ استولىٰ البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية يوضحه.

الوجه الثاني أن الذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلاً، فإنه مجاهرة بالكذب؛ وإنما قالوه استنباطًا وحملًا منهم للفظة استوىٰ، علىٰ استولىٰ، واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق ... من غير سيف أو دم مهراق[(١)]

وهذا البيت ليس من شعر العرب كما سيأتي بيانه.

(١) ذكره ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٥) والعيني في عمدة القاري (٢٥/ ١١١) وابن منظور في اللسان (١٤/ ٤١٤) والرازي في مختار الصحاح (ص ١٣٦). وذكره أيضًا المرزوقي في الأزمنة والأمكنة (١/ ٥٤) واليافعي في مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١/ ٣٠٠).

الوجه الثالث: أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار، ولم يجعلوه من لغة العرب، قال ابن الأعرابي، وقد سئل: هل يصح أن يكون استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك، وهذا هو من أكابر أئمة اللغة.

الوجه الرابع: ما قاله الخطابي في كتابه: شعار الدين. قال: القول في أن الله مستو علىٰ عرشه، ثم ذكر الأدلة في القرآن، ثم قال: فدل ما تلوته من هذه الآي: أن الله تعالىٰ في السماء مستو علىٰ العرش. وقد جرت عادة المسلمين خاصهم وعامهم بأن يدعوا ربهم عند الابتهال والرغبة إليه، ويرفعوا أيديهم إلىٰ السماء؛ وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن المدعو في السماء سبحانه[1].

...[2]الوجه الخامس والعشرون: أنه لو كان الاستواء بمعنىٰ الملك والقهر؛ لجاز أن يقال: استوىٰ علىٰ ابن آدم، وعلىٰ الجبل، وعلىٰ الشمس والقمر، وعلىٰ البحر والشجر والدواب، وهذا لا يطلقه مسلم.

فإن قيل: هذا جائز وإنما خصص العرش بالذكر؛ لأنه أجل المخلوقات وأرفعها وأوسعها، فتخصيصه بالذكر تنبيه علىٰ ما دونه.

قيل: لو كان هذا صحيحًا لم يكن ذكر الخاص منافيًا لذكر العام، ألا ترىٰ أن ربوبيته لما كانت عامة للأشياء لم يكن تخصيص العرش بذكره منها، كقوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] مانعًا من تعميم إضافتها كقوله: ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فلو كان الاستواء بمعنىٰ الملك والقهر؛ لكان لم يمنع إضافته إلىٰ العرش إضافته إلىٰ كل ما سواه، وهذا في غاية الظهور.

الوجه السادس والعشرون: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر؛ عاد معنىٰ هذه الآيات كلها إلىٰ أن الله تعالىٰ أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض، ثم غلب

---

(١) استمر المؤلف في سردها في المختصر لمن أرادها، وسنذكر منها ما سيمر بك قريبًا، هدىٰ الله الجميع إلىٰ الصراط المستقيم. (ج).

(٢) ١٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه، أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراده بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي: اعلموا يا عبادي أني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت عرشي وقهرته واستوليت عليه.

الوجه السابع والعشرون: أن أعلم الخلق به قد أطلق عليه أنه فوق عرشه، كما في حديث ابن عباس ﷺ: «الله فوق العرش»[١] وفي حديث عبد الله بن رواحة ﷺ، الذي صححه ابن عبد البر وغيره.

وأن العـــرش فـــوق المـــاء طـــاف ... وفـــوق العـــرش رب العالمينـــا[٢]

وهذه الفوقية هي تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة.

والجهمية يجعلون كونه فوق العرش بمعنى أنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، والمعنى عندهم: أنه أعلم الأمة بأن الله خير وأفضل من العرش.

فيا للعقول أين في لغة العرب حقيقة أو مجازًا أو كناية واستعارة بعيدة أن يقال: استوى على كذا إذا كان أعظم منه قدرًا وأفضل، هذا من لغة الطماطم، لا من لغة القوم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، وكتاب الله لا يحتمل هذا التأويل الباطل الذي تنفر عنه العقول...

---

(١) لم أجده من قول ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن ذكره ابن عبد البر في الاستذكار من قول عبد الله بن مسعود ﷺ (٢/ ٥٢٩) وفي التمهيد (٧/ ١٣٩).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية، استخلفه النبي ﷺ على المدينة في إحدى غزواته، وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة واستشهد بها ﷺ سنة ٨هـ. ذكر البيت ابن قدامة المقدسي في إثبات صفة العلو (ص ٩٩) وأشار إلى تصحيح ابن عبد البر. وفي المغني (٩/ ٣١٤) وابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (رقم ٢٣٩) وفي كتاب العيال (رقم ٥٧٢) والذهبي في السير (١/ ٢٣٨) وابن عساكر في تاريخه (٢٨/ ١١٢) وابن منظور في اللسان (٧/ ١٨٣).

...[١]الوجه الثلاثون: أن الاستيلاء الذي فسروا به الاستواء:

إما أن يراد به الخلق أو القهر أو الغلبة أو الملك أو القدرة عليه، ولا يصح أن يكون شيء منها مرادًا.

أما الخلق فلأنه يتضمن أن يكون خلقه بعد خلق السموات والأرض، وهذا بخلاف إجماع الأمة، وخلاف ما دلَّ عليه القرآن والسنة، وإن ادَّعىٰ بعض الجهمية المتأخرين: أنه خلق بعد خلق السماوات والأرض، وادَّعىٰ الإجماع علىٰ ذلك.

وليس العجب من جهله؛ بل من إقدامه علىٰ حكاية الإجماع علىٰ ما لم يقله مسلم، ولا يصح أن يراد به بقية المعاني للوجوه التي ذكرناها وغيرها، فلا يجوز تفسير الآية به، ولهذا لم يقله عالم من علماء السلف؛ بل صرَّحوا بخلافه، كما قال أبو العالية: علا وارتفع، وقال مجاهد: استقر، وقال مالك: الاستواء معلوم. وقال يزيد بن هارون: من زعم أن الرحمن فوق العرش استوىٰ، علىٰ خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي، وقد تقدم حكاية قول من قال: استوىٰ بذاته، واستوىٰ حقيقة، فأوجدونا عمن يقتدىٰ بقوله في تفسير، أو عن رجل واحد من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو عن إمام له في الأمة لسان صدق أنه فسر اللفظ باستولىٰ، ولن تجدوا إلىٰ ذلك سبيلًا...

...[٢]وقد صرَّح أئمة العربية: بأن الشيء إنما يجوز حذفه؛ إذا كان الموضع الذي ادعىٰ فيه حذفه قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، فلابد أن يكون موضع ادَّعاه الحذف قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، حتىٰ إذا جاء ذلك محذوفًا في موضع علم بكثرة ذكره في نظائره أنه قد أزيل في هذا الموضع فحمل عليه، فهذا شأن من يقصد البيان، وأما من يقصد التلبيس والتعمية فله شأن آخر.

مثال ذلك قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يونس: ٣]، في جميع موارده من أولها إلىٰ آخرها علىٰ هذا اللفظ، فتأويله باستولىٰ باطل،

(١) ١٤٣ الصواعق جـ٢.

(٢) مختصر الصواعق جـ١.

وإنما يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ: استولى. ثم يخرج موضع عن نظائره ويرد بلفظ استوى، فهذا كان يصح تأويله باستولى، فتفطن لهذا الموضع، واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم، ويجوز تأويله.

ونظير هذا اطِّراد النصوص بالنظر إلى الله تعالى هكذا: «ترون ربكم»، «تنظرون إلى ربكم»، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣] ولم يجئ في موضع واحد: ترون ثواب ربكم، فيحمل عليه ما خرج عن نظائره.

ونظير ذلك اطِّراد قوله: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿ يُنَادِيهِمْ ﴾ [القصص: ٦٢، ٦٥]، ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ [النازعات: ١٦] ونظائرها، ولم يجئ في موضع واحد: أمرنا من يناديهم، ولا: ناداه ملك، فتأويله بذلك عين المحال.

ونظير ذلك قوله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول»(١) في نحو ثلاثين حديثًا. كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب تعالى. ولم يجئ موضع واحد بقوله: ينزل ملك ربنا، حتى يحمل ما خرج عن نظائره عليه.

وإذا تأملت نصوص الصفات التي لا تسمح الجهمية بتسميتها نصوصًا، وإذا احترموها قالوا: ظواهر سمعية، وقد عارضها القواطع العقلية، وجدتها كلها من هذا الباب. و مما يقضي منه العجب أن كلام شيوخهم وتصنيفهم عندهم نص في مرادهم، لا يحتمل التأويل، وكلام الموافقين عندهم نص لا يجوز تأويله، حتى إذا جاءوا إلى كلام الله ورسوله وقفوه على التأويل...

***

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٥) ومسلم (رقم ٧٥٨) وانظر: شرح النووي (٦/ ٣٦).

(١)هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويرادبه مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا، والمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضرر.

ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٦٩، ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي، فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا في القرآن كثير، بيد أن المعبود لابد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل

(١) ٢ بدائع جـ٣.

دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني. والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعا، فتأمله، فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له.

وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدا هي من هذا القبيل، ومثال ذلك قوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] فسر الدلوك بالزوال وفسر بالغروب، وحكيا قولين في كتب التفسير وليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معا، فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس ميلها، ولهذا الميل مبدأ ومنتهى، فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا بتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه.

ومثاله أيضا ما تقدم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وأن ذلك ليس باختلاف، بل يتناولهما لتلازمهما، فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]. قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل دعاؤه إياكم إلى عبادته، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول، وعلى الأول مضافا إلى الفاعل، وهو الأرجح من القولين، وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر، أي ما يعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه، وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠] فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا.

وقد روى سفيان عن منصور عن ذر[(١)] عن يسيع الكندي عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**إن الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[(٢)] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وأما قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ [النساء: ١١٧] وقوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ [فصلت: ٤٨] وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في مواضع أخرى بأنه العبادة كقوله: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]، وقوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[الأنبياء: ٩٨]، وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون: ١، ٢] وهو كثير في القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

الثالث: أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة، وقوله تعالى:

---

(١) هكذا بالنسخة، وفي تفسير البغوي، عن أبي ذر. (ج).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٤٧، ٣٣٧٢) والطبراني في الدعاء (١/ ٢٢ رقم١).

﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر: ١٤] هو دعاء العبادة، والمعنى: اعبدوه وحده، وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره. وأما قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وأجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا.

وأما قول زكريا: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤] فقد قيل: إنه دعاء المسألة؛ والمعنى إنك عودتني أجابتك وإسعافك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكى أن رجلًا سأل رجلًا وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا وكذا، فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا. وقضى حاجته، وهذا ظاهر ههنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوّده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله.

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فهذا الدعاء المشهور، وأنه دعاء المسألة، وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعوا ربه، فيقول مرة: «يا الله» ومرة: «يا رحمن» فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعوا إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده: «يا رحمن، يا رحيم»، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ ﴾. وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وادعه بعبد الله ونحوه. والمعنى: سموا الله أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري، والذي حمله على هذا قوله: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فإن المراد بتعدده معني أي وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى: إما الله إما الرحمن، فله الأسماء الحسنى، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في (له) يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد بل المراد، بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في ﴿ تَدْعُواْ ﴾ معنى تسموا فتأمله.

والمعنى أيًّا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٨] فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ﴾ [الكهف: ١٤] أي لن نعبد غيره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤] فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله ﷻ ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد: اعبدوهم. وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [الكهف: ٥٢] وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة، وأنها هل نقلت عن

مسماها في اللغة، فصارت حقيقة شرعية منقولة، أو استعملت في هذه العبادة مجازًا، للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي، أو هي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط؟ وعلى ما قررناه ولا حاجة إلى شيء من ذلك. فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك من دعاء: إما دعاء عبادة وثناء أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله. إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] فإنه يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾، وأن الله تعالى ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله، فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا(١).

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع وصوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

---

(١) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٢] الآية. أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٧)، ومسلم (رقم ٢٧٧٥).

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوله بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله تعالى في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو ﷻ.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًّا: أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾، فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك، أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه، فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر، فقال: «**اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصما ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[1] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٢) ومسلم (رقم ٢٧٠٤) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٢).

أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[١]، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربا عاما من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[٢]. وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد.

كما قال النبي ﷺ راويًا عن ربه تبارك وتعالى: «**من تقرَّب مني شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقربت منه باعًا**»[٣] رواه البخاري ومسلم، فهذا قربه من عابده.

وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، وقوله: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربة تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر، وشأن آخر كما قد ذكرناه في كتاب (التحفة المكية)[٤] على أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدًا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب.

وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣١٤ رقم ١٦٦٧) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٥ رقم ٢٢).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**» أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠٠- ٢٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٨٤) والديباج على مسلم (٦/ ٤٤).

(٤) المؤلف يطلق التحفة المكية على مفتاح دار السعادة وعلى روضة المحبين انظر ص ٤٧ من المفتاح. (ج).

فتزل قدم بعد ثبوتها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح.

وقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا، وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب التحفة أكثر من مائة طريق(١). والمقصود ههنا الكلام على هذه الآية.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يكل لسانه، وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والأنس، فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته، فيضعف أثر الدعاء لكفى، ومن له تجربة يعرف، هذا فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعها: إن أعظم النعم: الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له. وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله،

(١) هذه الإحالة تنطبق على روضة المحبين (ج).

وأن لا يطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدي السر مجتهدا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا[(١)]

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه، ولاسيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشي عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليُقتدىٰ به ويؤتم به لم يبال، وهذا باب عظيم النفع، وإنما يعرفه أهله. وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله، فهو من أعظم الكنوز، التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: «**أفضل الدعاء: الحمد لله**»[(٢)]. فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء. والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب

---

(١) هذه الأبيات من بحر البسيط، وذكر الأبيات الثلاثة ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٣٢٤) مع اختلاف يسير ففيه: من شاوروه، وباعدوه فلم يسعد بقربهم: وأبدلوه من الإيناس إيحاشًا. لا يصطفون مذيعًا. بينما جاء عن الحلاج الحسين بن منصور الصوفي المشهور المقتول سنة ٣٠٩هـ بسبب زندقته وإلحاده، أنه قال شعرًا قريبًا من هذا:

من سارروه فأبدى كل ما سروا ... ولم يـراعِ اتصالًا كان غشاشا
وعاقبوه على ما كان من زللٍ ... وأبدلوه مكان الإنس إيحاشا
لا يصطفون متذيعًا في مجالسهم ... حاشا جلالهم من ذلكم حاشا

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٨٣) والحاكم (١/ ٦٧٦ رقم ١٨٣٤) وابن حبان (٣/ ١٢٦ رقم ٨٤٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٨ رقم ١٠٦٦٧) وابن ماجه (رقم ٣٨٠٠) وصححه الحاكم وحسنه الترمذي. وانظر: تحفة الأحوذي (٩/ ٢٢٩) وفيض القدير (٢/ ٣٤).

لمحبوبه، فهو أحق أن يسمىٰ داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما. فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلىٰ ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال، وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك إن شيمتك الحباء

إذا أثنىٰ عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء[(١)]

وعلىٰ هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، وهو طلب المحب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمىٰ دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر؛ يتضمن الآخر ويدخل فيه. وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمر تعالىٰ نبيه أن يذكره في نفسه، قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح. وقد تقدم حديث أبي موسىٰ: كنا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: «**يا أيها الناس، أربعوا علىٰ أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته**»[(٢)] رواه البخاري ومسلم.

---

(١) هذان البيتان من بحر الوافر، وينسبان إلىٰ أمية بن أبي الصلت الثقفي، الشاعر الجاهلي، كان يلبس المسوح تعبدًا، وحرّم علىٰ نفسه الخمر ونبذ عبادة الأوثان، سمع من النبي ﷺ آيات من القرآن، وسألته قريش عن رأيه، فقال: أشهد أنه علىٰ الحق. فقالوا: هل تتبعه؟ فقال: حتىٰ أنظر في أمره. ولما علم بمقتل بعض أقاربه في وقعة بدر منعه من دخول الإسلام، مات سنة٥هـ. وقال عنه رسول الله ﷺ: «**وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٥٣). ذكرهما البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤١٤ رقم ٥٧٥) والمناوي في فيض القدير (٥/ ١٢٠). وابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٤٣٣) (٢/ ٨١٩). وجاء البيت الأول: حياؤك ... الحياء. بالياء آخر الحروف.

(٢) تقدم قريبًا.

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد، فمن أكثر من ذكر الله تعالى أثمر له ذلك محبته.

والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضره، لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل.

ولقد حدثني رجل: أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له، ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى، فقال له: فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال، وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه، فقال له: هذا غرور، بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله، وحفظ قلبه مع الله. فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر، ويراعى حفظ قلبه، أو كما قال.

فتأمل هذا الغرور العظيم، كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام: كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة، وسبب هذا اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته.

ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن[١].

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص ١٧).

وقد جمع الله تعالىٰ هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلىٰ التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلىٰ استحلال المحرمات، ويقول: المحب لا يضره ذنب.

وصنف بعضهم في ذلك مصنفًا، وذكر فيه أثرا مكذوبًا: إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب. وهذا كذب قطعا مناف للإسلام، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن.

ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ؛ وأما عن رسول الله ﷺ، فمعاذ الله من ذلك، فله محمل، وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلىٰ أن يصر علىٰ ذنب، لأن الإصرار علىٰ الذنب مناف لكونه محبا لله، وإذا لم يصر علىٰ الذنب بل بادر إلىٰ التوبة النصوح منه، فإنه يمحو أثره، ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب إلىٰ الله زال عنه أثر الذنب وضرره، فهذا المعنىٰ صحيح.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه علىٰ الطريق، ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته، لئلا تخرج عن الدرب، والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف، خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتىٰ خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادًا لا يرجىٰ صلاحه أبدًا، ومتىٰ ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن الكريم وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء، ومع دلالته علىٰ اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا، فإنه قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي

نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول: (خفية) وقال في الدعاء: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] فلم يحتج أن يقول في الأول: ادعوا ربكم تضرعا وخيفة، فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة. وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء، لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبة، إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع. وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، كما تقدم، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها، والأولى بها من الخوف والطمع.

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدىً ورحمةً للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء: كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك.

وقد روى أبو داود في سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني سل الله الجنة، وتعوّذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء**»[1]. وعلى هذا فالاعتداءفي الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولدا من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء.

فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٩٦) وابن حبان (١٥/ ١٦٦ رقم ٦٧٦٣) والحاكم (١/ ٧٢٤ رقم ١٩٧٩) وابن ماجه (رقم ٣٨٦٤) وأحمد (٤/ ٨٧) (٥/ ٥٥) والروياني (٢/ ٩٨ رقم ٨٩٧) والطبراني في الدعاء (رقم ٥٩) وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٧) وصححه الحاكم، وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٨).

أخبر به، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله. وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضًا في الدعاء، قال ابن جريح: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء والنداء في الدعاء والصياح.

وبعد فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادا بها، فهو من جملة المراد، والله لا يحب المعتدين في كل شيء: دعاء كان أو غيره، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم الذين يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا، فإن أعظم العدوان الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع؛ بل دعاء مدل: كالمستغني بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف؛ فهو معتد.

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب، وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى مرض له، وهو الدعاء تضرعا وخفية.

الثاني: مكروه له مبغوض مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذر مما يبغضه، وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله، ومن لم يحبه الله فأي خير يناله.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفيةً فهو من المعتدين، الذين لا يحبهم. فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعاً وخفية، ومعتد بترك ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] قال أكثر

المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم، وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر، فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم(١) فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض: برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبَّر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصًا، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) أخرجه الصنعاني في تفسيره عن مجاهد (١/ ٥٧) والطبري في تفسيره (٢/ ٥٤- ٥٥) وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٦٣٨ رقم ٢٣٦) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ١٨٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠١).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع، فأمر أولًا بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضًا خوفًا وطمعًا، وفصل بين الجملتين إحداهما خبرية ومتضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾، والثانية طلبية وهي قوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾، والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها. ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفًا وطمعًا.

ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية، وهي ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فتعلق هذه الجملة بقوله: وادعواه خوفا وطمعا، كتعلق قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ بقوله: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾.

ولما كان قوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ مشتملًا على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء عقبها بقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي إنما ينال من دعاه خوفا وطمعا، فهو المحسن والرحمة قريب منه، لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

وانتصاب قوله: ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ و﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قيل: هو على الحال، أي ادعوه متضرعين مخفين، خائفين طامعين. وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره.

وقيل: هو نصب على المفعول له، وهذا قول كثير من النحاة.

وقيل: هو نصب على المصدر، وفيه على هذا تقديران:

أحدهما: أنه منصوب بفعل مقدر من لفظ المصدر، والمعنى: تضرعوا إليه تضرعا، واخفوا خفية.

الثاني: أنه منصوب بالفعل المذكور نفسه، لأنه في معنى المصدر، فإن الداعي

متضرع طامع في حصول مطلوبه، خائف من فواته، فكأنه قال تضرعوا تضرعًا.

والصحيح في هذا أنه: منصوب على الحال، والمعنى عليه، فإن المعنى: ادعوا ربكم متضرعين إليه خائفين طامعين، ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقولهم: رجل عدل ورجل صوم قال الشاعر: فإنما هي إقبال وإدبار[(١)].

وهو أحسن من أن يقال: ادعوه متضرعين خائفين وأبلغ.

والذي حسنه أن المأمور به هنا شيئان: الدعاء الموصوف المقيد بصفة معينة، وهي صفة التضرع والخوف والطمع، فالمقصود تقييد المأمور به بتلك الصفة، وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها، فأتى بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته، لأن يكون صفة للفاعل وصفة للفعل المأمور به.

فتأمل هذه النكتة فإنك إذا قلت: اذكر ربك تضرعا. فإنك تريد اذكره متضرعا إليه، واذكره ذكر تضرع، فأنت مريد للأمرين معا، ولذلك إذا قلت: ادعه طمعا أي ادعه دعاء طمع، وادعه طامعا في فضله.

وكذلك إذا قلت: ادعه رغبة ورهبة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] كان المراد: ادعه راغبًا وراهبًا، وادعه دعاء رغبة ورهبة.

فتأمل هذا الباب تجده كذلك، فأتى فيه بالمصدر الدال على وصف المأمور به

---

(١) هذا عجز بيت من بحر البسيط، وصدره: ترتع ما رتعت حتى إذا ادَّكرت. وينسب إلى الخنساء: تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية، أشهر شواعر العرب، بل أشعرهن على الإطلاق، وفدت على رسول الله ﷺ وأسلمت، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها: صخر ومعاوية، وكانا قد قتلا في الجاهلية، وشهد لها أربعة بنين حرب القادسية وكانت تحرضهم على الشهادة والقتال حتى قتلوا شهداء جميعًا فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم. وذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة (١/ ٢٥) وفي الأمالي (ص٢٦٦) والجاحظ في البرصان والعرجان (ص١٤٥) والمبرد في التعازي والمراثي (ص١٣٢) وابن قتيبة الدينوري في الشعر والشعراء (١/ ٣٧١).

بتلك الصفة، وعلى تقييد الفاعل بها تقييد صاحب الحال بالحال.

ومما يدل على هذا أنك تجد مثل هذا صالحًا وقوعه جوابًا لكيف، فإذا قيل: كيف أدعوه؟ قيل: تضرعًا وخفيةً. وتجد اقتضاء كيف لهذا أشد من اقتضاء (لم). ولو كان مفعولا له لكان جوابا لـ (لم) ولا يحسن هنا: ألا ترى أن المعنى ليس عليه، فإنه لا يصح أن يقال: لم أدعوه؟ فيقول: تضرعًا وخفيةً. وهذا واضح، ولا هو انتصاب على المصدر المبين للنوع الذي لا يتقيد به الفاعل، لما ذكرناه من صلاحيته جوابًا لكيف.

وبالجملة فالمصدرية في هذا الباب لا تنافي الحال، بل الإتيان بالحال ههنا بلفظ المصدر يفيد ما يفيده المصدر مع زيادة فائدة الحال، فهو أتم معنى ولا تنافي بينهما، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر، على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ومطلوبكم أنتم من الله: هو رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفا وطمعا، فقرب مطلوبكم منكم، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم، فإن الله تعالى هو الغني الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه. فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان. ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب في قرب الرحمة منهم. ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة. وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم، لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل[1]، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧، ٤٦١) (٤/ ٢٨٤، ٣٢٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦) وفتح الباري (١٠/ ١٧٧).

يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدا ببعد وقربا بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابة وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان، فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»(١).

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ ثم قال: «**هل تدرون ما قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة**»(٢).

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) وشرح النووي (١/ ١٥٧).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ٣٣٧ رقم ٦٩٧٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٧١٤) وعزاه إلى الحكيم الترمذي والبغوي في تفسيره والديلمي وابن النجار في تاريخه. وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٩).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝ ﴾.

(١)أخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأن أحدهما معتبر بالآخر مقيس عليه، ثم ذكر قياسا آخر: أن من الأرض ما يكون أرضا طيبة، فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت نباتها بإذن ربها، ومنها ما تكون أرضا خبيثة، لا تخرج نباتها إلا نكدا، أي قليلا غير منتفع به، فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ما أخرجت الأرض الطيبة، فشبه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض بحصول الحياة بهذا وهذا، وشبه القلوب بالأرض إذ هي محل الأعمال، كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي ولا يزكو عليه ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر، ولا تخرج نباتها به إلا قليلًا لا ينفع، وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه وعمل بما فيه: كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله وتدبَّره بان أثره عليه، فشُبِّه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب، ويحسن أثر المطر عليه، فينبت من كل زوج كريم. والمعرض عن الوحي عكسه، والله الموفق.

(٢)ويكفي اللبيب موعظةً واستبصارًا ما قصه الله ﷻ عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم؛ تحذيرًا واعتبارًا، فبدأ ﷻ بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله ﷻ في أمره بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس وإعجابه بها على أن عصى أمره وتكبر على طاعته، فكان من أمره ما كان، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة، وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التي نهي عنها، وكان

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.
(٢) ٢٠٥ روضة المحبين.

الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبة ذلك الهوى والشهوة إخراجه منها إلى دار التعب والنصب.

وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحواء، فحمله حبه لها أن أطاعها ودخل في هواها، وإنما توصل إليه عدوه من طريقها، ودخل عليه من بابها، فأول فتنة كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفار الذين أشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وابتدعوا في دينه ما لم يشرعه، وحرموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبدوا له بالفواحش، وزعموا أنه أمرهم بها، واتخذوا الشياطين أولياء من دونه، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحب الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذبوا كتبه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم دونه، حتى خسروا الدنيا والآخرة، ثم ذكر ﷻ قصة قوم نوح، وما أصارهم إليه الهوى من الغرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة، ثم ذكر قصة عاد وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة، ثم قصة قوم صالح كذلك، ثم قصة العشاق أئمة الفساق وناكحي الذكران وتاركي النسوان، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون، وقطع دابرهم وهم في سكر عشقهم يعمهون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين، وجعلهم سلفا لإخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين، ولما تجرأوا على هذه المعصية ومردوا، ونهجوا لإخوانهم طريقا وقاموا بأمرها وقعدوا ضجت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجا، وعجت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجا، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهم إلى الله جميع المخلوقات، وهو ﷻ قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم، يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذن رسول الله ﷺ بالدعوة على رؤوس الملإ منهم والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضر وباد وقال فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا

سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، ثم أعاد لهم القول نصحًا وتحذيرًا وهم في سكرة عشقهم لا يعقلون: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، فأجاب العشاق جواب من أركس في هواه وغيه، فقلبه بعشقه مفتون، و﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فلما أن حان الوقت المعلوم، وجاء ميقات نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرحمن تبارك وتعالىٰ لتمام الإنعام والامتحان إلىٰ بيت لوط ملائكة في صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصور، وجاءوه في صورة الأضياف النزول بذي الصدر الرحيب، فـ: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وجاء الصريخ إلىٰ اللوطية: أن لوطًا قد نزل به شباب لم ينظر إلىٰ مثل حسنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأىٰ مثلهم الراؤون، فنادىٰ اللوطية بعضهم بعضًا: أن هلموا إلىٰ منزل لوط، ففيه قضاء الشهوات، ونيل أكبر اللذات: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨]، فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهم والغم، وقلبه بالحزن عميد: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، فلما سمع اللوطية مقاله أجابوه جواب الفاجر المجاهر العنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، فقال لهم لوط مقالة المضطهد الوحيد: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، فلما رأت رسل الله ما يقاسي نبيه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال، وقالوا: هوِّن عليك، ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، فسُرَّ نبي الله سرور المحب، ووافاه الفرج بغتة علىٰ يد الحبيب، وقيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، ولما أبوا إلا مراودته عن أضيافه، ولم يرعوا حق الجار، ضرب جبريل بجناحه علىٰ وجوههم، فطمس منهم الأعين،

وأعمى الأبصار، فخرجوا من عنده عميانا يتحسسون، ويقولون: «ستعلم غدا ما يحل بك أيها المجنون»، فلما انشق عمود الصبح جاء النداء من عند رب الأرباب: أن اخسف بالأمة اللوطية، وأذقهم أليم العذاب. فاقتلع القوي الأمين جبريل مدائنهم على ريشة من جناحه، ورفعها في الجو حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها، فجعل عاليها سافلها، وأتبعوا الحجارة من سجيل، وهو الطين المستحجر الشديد، وخوّف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، فهذه عاقبة اللوطية عشاق الصور وهم السلف، وإخوانهم بعدهم على الأثر...

...وكذلك قوم شعيب إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرط محبتهم للمال، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذاب.

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة على تكذيب موسى، حتى آل بهم الأمر إلى ما آل.

وكذلك أهل السبت الذين مسخوا قردة إنما أتوا من جهة محبة الحيتان وشهوة أكلها والحرص عليها.

وكذلك الذي آتاه الرب تبارك وتعالى آياته: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له لا بتحصيله هو، ثم قال ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾، ولم يقل: فسلخناه بل أضاف الانسلاخ إليه، وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخليه عنها بالكلية، وهذا شأن الكافر، وأما المؤمن ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لا ينسلخ من الإيمان

بالكلية، ثم قال ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ولم يقل: فتبعه، فإن في أتبعه إعلاما بأنه أدركه ولحقه، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي لحقوهم ووصلوا إليهم، ثم قال ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ ففي ذلك دليل على أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة بالعلم قدر زائد على مجرد تعلمه، ثم أخبر الله ﷻ عن السبب الذي منعه أن يرفع بها، فقال: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، وقوله: ﴿ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سكن إليها، ونزل بطبعه إليها فكانت نفسه أرضية سفلية لا سماوية علوية، وبحسب ما يخلد العبد إلى الأرض يهبط من السماء.

قال سهل: قسم الله الأعضاء من الهوى، لكل عضو منه حظًا، فإذا مال عضو منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب، وللنفس سبع حجب سماوية وسبع حجب أرضية، فكلما دفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماء سماء، فإذا دفن النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش.

ثم ذكر سبحانه مثل المتبع لهواه كمثل الكلب الذي لا يفارقه اللهث في حالتي تركه والحمل عليه، فهكذا هذا لا يفارقه اللهث على الدنيا راغبًا وراهبًا.

والمقصود أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات، وما آل إليه أمرهم، فالعشق والهوى أصل كل بلية...

***

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

...[1]قوله تعالى إخبارًا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ

(١) ٦٤ شفاء العليل.

عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهذا يبطل تأويل القدرية: المشيئة في مثل ذلك بمعنى: الأمر. فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به؛ ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء، ويهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف: ٨٩] فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له ـ سبحانه ـ في خلقه علم محيط، ومشيئته نافذة، وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر، ومشيئة أخرى، وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه.

ومثله قول إبراهيم: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠] فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلى مشيئة الرب وعلمه؛ ولهذا أمر الله رسوله أن لا يقول لشيء إنه فاعله حتى يستثني بمشيئة الله، فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله، وقد تقدَّم تقرير هذا المعنى.

وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد، فهو دليل على القدر، وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد. قال ابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد(١)؛ فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

(٢)قال نبي الله شعيب ﷺ: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: نحن لا نعود في ملتكم، ولا نختار ذلك، إلا أن يشاء الله ربنا شيئًا

(١) أخرجه مرفوعًا الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٥-٤٦ رقم ٣٥٧٣) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٧): رواه الطبراني في الأوسط وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف. وأخرجه موقوفًا اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٢٤) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥ رقم ١٧١١) وابن المستفاض في القدر (رقم ٢٠٥). وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٩/ ٤٠٨ رقم ٧٤٧). وأورد له العقيلي حديثًا رفعه لابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فقال العقيلي: والصواب موقوف. وقال الذهبي: هذا لا يقتضي ضعفه.

(٢) ٧٦ أعلام جـ٤.

فينفذ ما شاءه.

وكذلك قال إبراهيم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] أي لا يقع بي مخوف من جهة آلهتكم أبدًا، إلا أن يشاء ربي شيئًا فينفذ ما شاءه، فرد الأنبياء ما أخبروا ألا يكون إلى مشيئة الرب تعالى، وإلى علمه استدراكًا واستثناء، أي لا يكون ذلك أبدًا، ولكن إن شاءه الله تعالى كان، فإنه تعالى عالم بما لا نعلمه نحن من الأمور التي تقتضيها حكمته وحده.

***

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

[(١)]ومن عقوباتها[(٢)] أنها تمحق: بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة. وبالجملة أنها تمحق: بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦]. وأن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[(٣)]، وفي الحديث: «**أن روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته، وأن الله جعل الروح.**

---

(١) ١١١ الجواب الكافي.

(٢) أي المعاصي والذنوب.

(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٥٣ رقم ٨٧٢) وابن ماجه (رقم ٤٠٢٢) وأحمد (٥/ ٢٧٧) والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٠ رقم ١٤٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١١٥ رقم ١٠٠١) والحاكم (١/ ٦٧٠ رقم ١٨١٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه المنذري في ترغيبه (٣/ ٢١٣ رقم ٣٧٣٣)، وحسنه الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ١٨٧ رقم ١٤٢٤).

والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[١] وقد تقدَّم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد: «أنا الله إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى. وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد»[٢].

***

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

[٣]الجهال بالله وبأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يُبَغِّضون الله إلىٰ خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذىٰ عليها. فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانها وبالغ العبد وأتىٰ بها بظاهره وباطنه. وأن العبد ليس علىٰ ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلىٰ الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلىٰ الشرك والمزمار. ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلىٰ الكفر. ويروون في ذلك آثارًا صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] وقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ويقيمون إبليس حجة لهم علىٰ هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة، وأنه لم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٧٩ رقم ٣٤٣٣٢) وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٢٥ رقم ٢٠١٠٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥ رقم ١١٥١) والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٩٩ رقم ١٠٣٧٦) وابن السري في الزهد (١/ ٢٨١ رقم ٤٩٤) وصححه الحاكم وانظر: فتح الباري (١/ ٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٥٢) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٤١- ٤٢). بينما جاء عند ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٦٤ رقم ٨٩٦٥): الولد الرابع بدل: السابع. وكذلك عند ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٤ رقم ٣٥١٧١).

(٣) ١٥٨ فوائد.

يترك في السماء رقعة، ولا في الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جنى عليه جاني القدر، وسطا عليه الحكم، فقلب عينه الطيبة، وجعلها أخبث شيء، حتى قال بعض عارفيهم: أنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته إليه. ويحتجون بقول النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»(١).

...(٢)وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا. وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررا من الصديق الجاهل.

وكتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك، ولاسيما القرآن، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس لصلح العالم صلاحًا لا فساد معه، فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي أنه إنما يعمل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسن لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة، ولا يظلمها، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه. وأنه يجزي بالسيئة مثلها، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشرة أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.وهو الذي أصلح الفاسدين، وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلَّم الجاهلين، وبصّر المتحيرين، وذكَّر الغافلين، وآوى

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٢) ومسلم (رقم ٢٦٤٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٧-٤٩١) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).
(٢) ١٦٠ فوائد.

الشاردين. وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته، والإقرار بربوبيته ووحدانيته، أخذه ببعض كفره وعتوّه وتمرّده، بحيث يعذر العبد من نفسه، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] وقال عمن أهلكهم في الدنيا أنهم لما رأوا آياته، وأحسوا بعذابه قالوا: ﴿ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥]، وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها، قالوا: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [القلم: ٢٩].

وقال الحسن: لقد دخلوا النار وإنّ حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلا. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥]، فهذه الجملة في موضع الحال، أي قطع دابرهم كونه سبحانه محمودا على ذلك، فقطع دابرهم قطعا مصاحبا لحمده، فهو قطع وإهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله، ووضعه العقوبة في موضعها الذي لا يليق به غيرها. فوضعها في الموضع الذي يقول من علم الحال: لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولا يليق به إلا العقوبة. ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده، ومصير أهل السعادة إلى الجنة، وأهل الشقاء إلى النار: ﴿ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] فحذف فاعل القول إشعارا بالعموم وأن الكون كله قال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله. ولهذا قال في حق أهل النار: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر: ٧٢] كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم، وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه أنجى أولياءه، ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل إني أغرقه

بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب. وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به، ودفعه وردّه، فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته.وقد أزاح سبحانه العلل، وأقام الحجج، ومكّن من أسباب الهداية، وأنه لا يضل إلا الفاسقين الظالمين، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال عن أعدائه اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغي على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه. وأما المكر الذي وصف به نفسه، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء، لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون «**الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**»، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه ولم يبطله عليه.

وقوله: «**لم يبق بينه وبينها إلا ذراع**» يشكل على هذا التأويل، فيقال: لما كان العمل

بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة، ونكتة خذل بها في آخر عمره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه[1]، لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس: فإن الله سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أمروا بالسجود، ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد، فأبى واستكبر، وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره فحق، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم، فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩] إنما هو في حق الفجار والكفار. ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره إلا القوم الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرّة وفترة.

وأمر آخر وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره، فيتخلى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخليه عنهم.وأمر آخر أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون؛ وأمر آخر أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه فيفتنون به، وذلك مكر. اهـ.

***

(١) كذا في الأصل ولعل في العبارة تحريفًا أو نقصًا (ج).

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

...[(1)] قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ [يونس: ١٣] الآية. وفي موضع آخر: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال أحدها: قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن قوم لا يؤمنون، كما قال عن نوح: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]، واحتج على هذا بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم.

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذَّبوا يوم أخذ ميثاقهم، حين أخرجهم من ظهر آدم، فآمنوا كرهًا وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب. وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم. قلت: وهو نظير قوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال آخرون: لما جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها؛ بما كذبوا به من قبل رؤيتها ومعاينتها فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبة من رد الحق أو أعرض عنه فلم يقبله، فإنه يصرف عنه ويحال بينه وبينه، ويقلب قلبه عنه، فهذا إضلال العقوبة، وهو من عدل الرب في عبده.

وأما الإضلال السابق الذي ضلَّ به عن قبوله أولًا والاهتداء به، فهو إضلال ناشئ عن علم الله السابق في عبده، أنه لا يصلح للهدى، ولا يليق به، وأن محله غير قابل له.

(١) ٣١ شفاء العليل.

فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلًا وميراثًا، وكما أنه ليس كل محل أهلًا لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلىٰ الخلق، فليس كل محل أهلًا لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]. أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلي الرؤساء والسادة بالاتباعن والموالي والضعفاء؛ فإذا نظر الرئيس والمطاع إلىٰ المولىٰ والضعيف إنفة، أنف أن يسلم، وقال: هذا يمن الله عليه بالهدىٰ والسعادة دوني، قال الله تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم، تعرفون قدر نعمتي، وتشكروني عليها، وتذكروني بها، وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبوني كحبهم لمننت عليكم كما مننت عليهم، ولكن لِمِنَنِي ونعمي محال لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها، ولهذا يقرن كثيرًا بين التخصيص والعلم، كقوله ههنا: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

***

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

...[(١)]المقصود: الفرق بين الحجج والبينات، فنقول: الحجج: الأدلة العلمية، والبينات: جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة، وحجة بينة.

والبينة اسم لكل ما بين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي.

---

(١) ١٤٦ مفتاح جـ١.

قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥]. فالبينات: الآيات التي أقامها الله دلالة علىٰ صدقهم من المعجزات؛ والكتاب هو الدعوة. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

ومقام إبراهيم: آية جزئية، مرئية بالأبصار، وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسىٰ لفرعون وقومه: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٧]. وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة، وقال هود: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ يريدون آية الاقتراح، وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم، فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح؛ لا يكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه.

وهذه هي الآيات التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩] فعدم إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفار رحمة منه، وإحسان؛ فإنه جرت سنته التي لا تبديل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال.

فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية لم يجبهم إلىٰ ما طلبوا، فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بنيهم وأصلابهم من عباده المؤمنين، وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقترحوها، فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه، بخلاف الحجج، فإنها لم تزل متتابعة، يتلو بعضها بعضًا، وهي كل يوم في مزيد، وتوفي رسول الله ﷺ وهي أكثر ما كانت، وهي باقية إلىٰ يوم القيامة.

***

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب. وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به، ودفعه وردّه، فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته.وقد أزاح سبحانه العلل، وأقام الحجج، ومكّن من أسباب الهداية، وأنه لا يضل إلا الفاسقين الظالمين، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال عن أعدائه اليهود: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغي على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه. وأما المكر الذي وصف به نفسه، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء، لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون «**الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**»، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه ولم يبطله عليه.

وقوله: «**لم يبق بينه وبينها إلا ذراع**» يشكل على هذا التأويل، فيقال: لما كان العمل

مظعون[١] أي أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم.

وفي حديث رويفع بن ثابت: حتى إن أحدنا ليطير له النصل والريش والآخر القدح[٢] أي يحصل له بالشركة في الغنيمة.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ أن الطائر ههنا هو العمل. قاله الفراء، وهو يتضمن الرد على نفاة القدر، وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن، لأنها محل الطوق الذي يطوقه الإنسان في عنقه، فلا يستطيع فكاكه، ومن هذا يقال: إثم هذا في عنقك. وافعل كذا وإثمه في عنقي. والعرب تقول: طوقها طوق الحمامة وهذا ربقة في رقبته.

وعن الحسن: ابن آدم لتنظر لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك، فخصوا العنق بذلك، لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير.

كما خصت الأيدي بالذكر في نحو ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠] ونحوه. وقيل: المعنى: أن الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار، وهو الذي أصابهم في الدنيا. وقيل: المعنى: أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده، الذي يجري عليه ما يسوؤهم ويعاقبون عليهم بعد موتهم بما وعدهم الله، ولا طائر أشأم من هذا. وقيل: حظهم ونصيبهم وهذا لا يناقض قول الرسل: طائركم معكم، أي حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعدوانكم، فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨] ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٤٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٤١١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٦) والبيهقي في الكبرى (١/ ١١٠ رقم ٥٣٣) والطبراني في الكبير (٥/ ٢٨ رقم ٤٤٩١) وأحمد (٤/ ١٠٨) وانظر: عون المعبود (١/ ٣٨) ونيل الأوطار (٥/ ٣٩٣).

الرسول ﷺ ما يقتضي الطيرة، فإنه كله خير محض لا شر فيه، وصلاح لا فساد فيه، وحكمة لا عبث فيها، ورحمة لا جور فيها.

فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا، فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة، وليس فيما أتيتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم، بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم، وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم، ويحتمل أن يكون المعنى طائركم معكم، أي راجع عليكم، فالطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص في الكلام، مثل قوله في الحديث: «**أخذنا فالك من فيك**»[(١)].

ونظيره قول النبي ﷺ: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**»[(٢)]، فعلى هذا معنى طائركم معكم، أي تصيبكم طيرتكم التي تطيرتم بها، لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها، ولا شؤم فيها البتة، فقيل لهم: الشؤم منكم، وهو نازل بكم، فتأمله.

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦] قيل: جزاء مكرهم عنده فمكر بهم كما مكروا برسله، ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم، وكيدهم عاد عليهم، فهكذا طيرتهم عادت عليهم، وحلت بهم وسمى جزاء المكر مكرًا، وجزاء الكيد كيدًا، تنبيها على أن الجزاء من جنس العمل.

ولما ذكر سبحانه أن ما أصابهم من حسنة وسيئة أي نعمة ومحنة، فالكل منه تعالى بقضائه وقدره، فكأنهم قالوا: فما بالك أنت تصيبك الحسنات والسيئات كما تصيبنا؟ فذكر سبحانه أن ما أصابه من حسنة فمن الله منّ بها عليه، وأنعم بها عليه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، أي بسبب من قبله، أي لا لنقص ما جاء به، ولا لشر فيه، ولا

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٦٢ رقم ١١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٥٨) ومسلم (رقم ٢١٦٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣-٤٤).

لشؤم يقتضي أن تصيبه السيئة، بل بسبب من نفسه ومن قبله.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل: ٤٧] أن طائرهم ههنا هو السبب الذي يجيء فيه خيرهم وشرهم، فهو عند الله وحده، وهو قدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم، وإن شاء حرمكم وابتلاكم.

ومن هذا قالوا: طائر الله لا طائر كلبي، قدر الله الغالب الذي يأتي بالحسنات ويصرف السيئات. ومنه: «**اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك**»[1] وعلى هذا فالمعنى: بطائركم نصيبكم وحظكم، الذي يطيركم، ومن فسره بالعمل فالمعنى طائركم الذي طار عنكم من أعمالكم.

وبهذين القولين فسر معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣] وأنه ما طار عنه من عمله أو صار لازما له، مما قضى الله عليه وقدر عليه، وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة.

***

﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

[2]فأول تلاعب الشيطان بهذه الأمة[3] في حياة نبيها، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوزوا البحر رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ﴿ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾. فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ

(١) ورد هذا اللفظ مرفوعًا وموقوفًا، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٦٥ رقم ١١٨٠) وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٢٣٠-١٢٣١) والطبراني في الدعاء (رقم ١٢٧٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٩٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٣) والتمهيد (٢٤/ ٢٠١).

(٢) ٢٩٩ إغاثة جـ٢.

(٣) أي: الأمة المغضوب عليهم وهم اليهود.

تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

فأي جهل فوق هذا؟ والعهد قريب، وإهلاك المشركين أمامهم، بمرأىٰ من عيونهم. فطلبوا من موسىٰ عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا. فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا، وكيف يكون الإله مجعولا؟ فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه. والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن يكون إلهًا.

وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إله مجعول، فكل من اتخذ إلها غير الله فقد اتخذ إلها مجعولًا.

وقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه كان في بعض غزواته، فمروا بشجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم، يسمونها ذات أنواط. فقال بعضهم: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «**الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»، ثم قال: «**لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»[1].

[2]في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالىٰ بأبصارهم جهرة كما يرىٰ القمر ليلة البدر، وتجليه لهم ضاحكًا إليهم. هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرها عيون أهل السنة والجماعة، وأشدها علىٰ أهل البدعة والضلالة، وهي: الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم.

اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام علىٰ تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ٢٠٢ حادي الأرواح.

متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون. وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول وحزبه.

وقد أخبر الله ﷻ عن أعلم الخلق به في زمانه وهو كليمه ونجيه وصفيه من أهل الأرض أنه سأل ربه تعالى النظر إليه، فقال له ربه تبارك وتعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل ما هو من أبطل الباطل وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه؛ فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين: عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، واشد تنزيها له منه.

الوجه الثاني: إن الله ﷻ لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكره عليه، ولهذا لما سال إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه، ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر عليه سؤاله. ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ولم يقل: لا تراني، ولا إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه ﷻ يرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟!

الوجه الخامس: إن الله ﷻ قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته ولو كانت الرؤيا محالًا لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل واشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب عليه، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامتهم ويريهم نفسه، فأعلم ﷻ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ﷻ قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يكلم أحدًا أو يراه أحد ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعه كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه، وأما قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي، ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت، قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

(١) الدليل الثاني قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله

---

(١) ٢٠٤ حادي الأرواح.

تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية.

ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ [التوبة: ٧٧] فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة، بل والكفار أيضا كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة.

وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة: أحدها: أن لا يراه إلا المؤمنون. والثاني يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار، فلا يرونه بعد ذلك. والثالث يراه المنافقون دون الكفار. والأقوال الثلاثة في مذهب أحمد، وهي لأصحابه، وكذلك الأقوال الثلاثة بعينها لهم في تكليمه لهم ولشيخنا في ذلك مصنف مفرد، وحكى فيه الأقوال الثلاثة وحجج أصحابها.

وكذا قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦] إن عاد الضمير على العمل فهو رؤيته في الكتاب مسطورا مثبتًا، وإن عاد على الرب ﷻ فهو لقاؤه الذي وعد به.

[(١)]وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. قال: أمنعهم التفكر فيها.

وقال بعض العارفين: لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش، ولم تقر لهم فيها عين.

وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة[(٢)].

---

(١) ١٨٠ مفتاح جـ١.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٩) ونسبه إلى لقمان الحكيم.

وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة[٢].

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه، وقد رآه مفكرًا: أين بلغت؟ قال: الصراط.

وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة بلا قلب[٣].

وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة: تورث الحكمة، وتجلي القلوب[٤].

وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به.

وقال الحسن: إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة[٥]. وهذا لأن الفكرة: عمل القلب، والعبادة: عمل الجوارح. والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح.

***

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١/ ٣١٣ رقم ٥٦) وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣١٤) وذكره ابن كثير في التفسير (١/ ٤٣٩).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٠١-٣٠٢ رقم ٤٤) وابن المبارك في الزهد (رقم ٢٨٨، ١١٤٧) وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٧٨) وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣١٤).

(٥) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٢٥٣) والمناوي في فيض القدير (٢/ ٣١٤).

[(١)]من تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا: ما قصه الله تعالىٰ في كتابه حيث يقول: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]. أي عيانًا. قال ابن جرير: ذكرهم الله سبحانه بذلك اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله ما يثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله تعالىٰ لديهم. وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: لا نصدقك حتىٰ نرىٰ الله جهرة. وأخرىٰ يقولون له إذا دعوا إلىٰ القتال: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ومرة يقال لهم: ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٨]. فيقولون: «حبة في شعيرة». ويدخلون من قِبَل أستاههم. ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة، فيمتنعون من ذلك، حتىٰ نتق الله تعالىٰ عليهم الجبل كأنه ظلة.

إلىٰ غير ذلك من أفعالهم، التي آذوا بها نبيهم، التي يكثر إحصاؤها. فأعلم ربنا تبارك وتعالىٰ الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل، الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمداً صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره كأسلافهم، وآبائهم الذين قص الله علينا قصصهم.

وقال محمد بن إسحاق: لما رجع موسىٰ إلىٰ قومه، فرأىٰ ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرق العجل وذراه في اليم، اختار موسىٰ منهم سبعين رجلا، الخيِّر فالخير، وقال: انطلقوا إلىٰ الله ﷻ، فتوبوا إلىٰ الله مما صنعتم، واسألوه التوبة علىٰ من تركتم وراءكم من قومكم، فصوموا وتطهروا، وطهروا نيَّاتكم. فخرج بهم إلىٰ طور سيناء لميقاتٍ وقَّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه، فقال له السبعون - فيما ذكر

(١) إغاثة جـ٢. ٣٠٥

لي - حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله: يا موسى اطلب لنا إلى ربك أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام، حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فأدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوه تعالى وهو يكلم نبيه موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلما فرغ الله من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾. فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعًا. وقام موسى عليه السلام يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه، ويقول: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾[1] [الأعراف: ١٥٥].

فإن قيل: فما مقصود موسى بقوله: ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾. فقد ذكر فيه وجوه:

فقال السدي: لما ماتوا قام موسى يبكي، ويقول: يا رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلكت خيارهم؟.

وقال محمد بن إسحاق: اخترت منهم سبعين رجلا، الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يصدقوني به، أو يأمنوني عليه بعد هذا؟.

وعلى هذا، فالمعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا. فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك، ولا يتهمونني. وقال الزجاج: المعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة.

قلت: وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود. والذي يظهر - والله أعلم بمراده ومراد نبيه ـ: أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل، حين عبد قومهم العجل، ولم ينكروا عليهم. يقول موسى: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم. ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك، ولم تهلكهم، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق (١/ ٢٩١).

وهذا كما يقول من واخذه سيده بجرم: لو شئت واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعنى عفوك أولًا، فليسعنى اليوم.

ثم قال نبي الله: ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾. فقال ابن الأنباري وغيره: هذا استفهام على معنى الجحد، أي: لست تفعل ذلك. والسفهاء هنا: عبدة العجل.

قال الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل، فقال: ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾. وإنما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣].

ثم قال: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وهذا من تمام الاستعطاف، أي ما هي إلا ابتلاؤك واختبارك لعبادك. فأنت ابتليتهم وامتحنتهم، فالأمر كله لك وبيدك، لا يكشفه إلا أنت، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت. فنحن عائذون بك منك. ولاجئون منك إليك(١).

(٢)وأما الفتون فهو مصدر فتنه يفتنه فتونا، قال الله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠] أي امتحناك واختبرناك، والفتنة يقال على ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال هذه فتنة فلان، أي افتتانه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] يقال: أصابته الفتنة، وفتنته الدنيا، وفتنته المرأة وأفتنته قال الأعشى:

لئـن فتنتني لهي بالأمس أفتنت ... سعيدًا فأضحى قد قلى كل مسلم(٣)

---

(١) ناقش ابن القيم صاحب المنازل هنا مناقشة هامة لمن أرادها (ج).

(٢) ٤٧ روضة المحبين.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى أعشى همدان: عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني، شاعر اليمانيين بالكوفة وفارسهم في عصره، يعد من شعراء الدولة الأموية، وكان أحد الفقهاء القراء، وكان من الغزاة أيام الحجاج فغزا الديلم، ولما خرج عبد الرحمن بن الأشعث انحاز الأعشى إليه، =

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه، يسمى فتنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه، وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤] فقيل: المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار، لتنظر ما جودته. ودينار مفتون.

قال الخليل: والفتن الإحراق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وورق فتين أي فضة محرقة، وافتتن الرجل، وفتن إذا أصابته فتنة، فذهب ماله أو عقله، وفتنته المرأة إذا ولهته، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] أي: لا تفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم، فذلك الذي يفتن بفتنتكم إياه.

وأما قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦] فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أن يبصر مُضمَّن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «**المؤمن أخو المؤمن يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان**»[1] يروى بفتح الفاء وهو واحد وبضمها وهو جمع فاتن كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون، فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

***

= واستولى على سجستان معه وقاتل رجال الحجاج، ثم أسر بعد مقتل الأشعث فضرب الحجاج عنقه، ومات سنة ٨٣هـ. ذكر البيت الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٦٣) والحربي في غريب الحديث (٣/ ٩٤٠).

(١) تقدم تخريجه في أول هذا المجلد. في تفسير سورة الأنعام، الآية ٢٣.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

...[1]قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فوجود الرسول في التوراة والإنجيل ووجود القرآن فيه واحد، فمن جعل وجود كلام الله في المصحف كذلك، فهو أضل من حمار أهله. وقد علم بذلك أنه لا يحتاج إلىٰ حذلقة متحذلق يقول: إنه لابد من حذف وإضمار، وتقديره عبارة كلام الله في المصحف أو حكايته؛ فإنك إذا قلت في هذا الكتاب: كلام رسول الله ﷺ أو كلام الشافعي وأحمد، فإن كل أحد يفهم المراد بذلك، ولا يتوقف فهمه علىٰ حذف وإضمار، كما لا يذهب وهمه إلىٰ أن صفة المتكلم، والقول القائم به، والصوت واللفظ المسموع منه: فارق ذاته، وانفصل من محله، وانتقل إلىٰ محل آخر؛ هذا كله أمر محسوس مشهود، لا ينازع فيه من فهمه إلا عنادًا؛ لكن قد يفهمه بعض الناس: لفرط بلادة، وعمىٰ قلب، أو غلبة هوىٰ. ومما يوضح هذا أن الله ـ سبحانه ـ كتب مقادير الخلائق عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض، كتابًا: مفصلًا، محيطًا بالكائنات، وأخبرنا بذلك في كتابه. فالخبر عنها مكتوب في المصاحف في قوله: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] والإمام هو: الكتاب، ومعلوم قطعًا: إن كتابتها في الكتاب السابق ليس هو مثل كتابتها في القرآن؛ فإن ذلك كتابة مفصلة، وهذا إخبار عنها، فكتابة اسم القرآن في رقٍّ أو غيره؛ ليس هو مثل كتابة معانيه، وإذا كتب كلام المتكلم في كتاب لم تكن الحروف المكتوبة من جنس الحروف الملفوظة، لا من حيث المادة، ولا من حيث الصورة، حتىٰ يقال:

(١) ٣٢٠ مختصر الصواعق جـ٢.

انتقلت تلك الحروف بمادتها وصورتها، وحلت في الكتاب، ولا يتوهم هذا سليم العقل والحواس.

وكلام الرب تعالىٰ بل كلام كل متكلم تُدرك حروفه وكلماته: بالسمع تارة، والبصر تارة، فالسمع نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ما كان بغير واسطة، كما سمع موسىٰ بن عمران: كلام الرب تعالىٰ من غير واسطة، بل كلمه تكليمًا منه إليه، وكما يسمع جبرائيل وغيره من الملائكة: كلامه وتكليمه سبحانه، وأما المقيد: فالسمع بواسطة المبلغ: كسماع الصحابة، وسماعنا لكلام الله حقيقة بواسطة المبلغ عنه، كما يسمع كلام رسول الله ﷺ بل وكلام غيره: كمالك، والشافعي، وسيبويه، والخليل بواسطة المبلغ، فقوله تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] من النوع الثاني، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله في الحديث: «**كأنَّ الناس لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه يوم القيامة من الرحمن**»[(١)]. من النوع الأول، ومنه قوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»[(٢)].

وأما النظر فعلىٰ نوعين أيضًا، فإن المكتوب قد يكتبه غير من يتكلم به، فيكون الناظر إليه ناظرًا إلىٰ الحروف والكلمات بواسطة ذلك الكتاب، وقد يكون المتكلم نفسه كتب كلامه؛ فينظر الناظر إلىٰ حروفه وكلماته التي كتبها بيده، كما سمع منه كلماته التي تكلم بها، وهذا كما كتب لموسىٰ التوراة بيده بغير واسطة، كما في الحديث الصحيح في قصة احتجاج آدم وموسىٰ، وفي حديث الشفاعة وغير ذلك. فجمع لموسىٰ بين الأمرين أسمعه كلامه بغير واسطة، وأراه إياه بكتابته ا.هـ.

[(٣)]إن الأعيان توصف بكونها: طيبة، وخبيثة، ونافعة، وضارة، فكذلك توصف

---

(١) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٤٠٢-٤٠٣) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٥٧) إلىٰ أبي الشيخ.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٣٩) ومسلم (رقم ١٠١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٤) (١٣/ ٤٣٠).

(٣) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ٢.

بكونها: حلالاً، وحرامًا. إذ الحل والحرمة تبع طيبها وخبثها وكونها: ضارة، ونافعة. كما قال تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ولابد أن يكون الحلال طيبًا في نفسه، والحرام خبيثًا في نفسه، فوصفه بكونه حلالاً أو حرامًا جار مجرى وصفه بكونه طيبًا أو خبيثًا، ودلالة تحريم العين وتحليلها على الفعل المتعلق بها من باب دلالة الالتزام، وقد علمت أن ما يدل بالالتزام لا يقال فيه: إنه محذوف مقدر.

[(١)]وإذا كان لا معنى عندهم للمعروف إلا ما أمر به فصار معروفًا بالأمر، ولا للمنكر إلا ما نهى عنه، فصار منكرًا بنهيه، فأي معنى لقوله: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء، فضلًا عن كلام رب العالمين، وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم، ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار، كما أن ما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: بم عرفت أنه رسول الله ﷺ فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال ليته أمر به. فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء، وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه، حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته.

ولو كان جهة كونه معروفًا ومنكرًا هو الأمر المجرد، لم يكن فيه دليل، بل كان يطلب له الدليل من غيره، ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه.

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته، ومن لم يثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له،

---

(١) ٦ مفتاح جـ٢.

ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقل عنه، فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلًا عليه فقط.

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ فهذا صريح في أن الحلال كان طيبًا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه. ولم يستفد: طيب هذا، وخبث هذا؛ من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين.

أحدهما: أن هـذا علم من أعلام نبوتـه، التي احتج الله بها على أهل الكتاب. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم، وهذا أيضًا باطل، فإنه لا فائدة فيه، وهو الوجه الثاني.

فثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل، فكساه بإحلاله طيبًا آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معا، فتأمل هذا الموضع حق التأمل، يطلعك على أسرار الشريعة، ويشرفك على: محاسنها، وكمالها، وبهجتها، وجلالها، وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به، وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك؛ كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به.

...[1] موسى عليه السلام كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، أُمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم: الشحوم، وذوات الظفر، وغيرها من الطيبات، وحرِّمت عليهم: الغنائم، وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم. وكان موسى ﷺ من أعظم خلق الله هيبة ووقارًا، وأشدهم بأسًا وغضبًا لله وبطشًا بأعداء الله، وكان لا يستطاع النظر إليه.

---

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

وعيسى ﷺ: كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل ولا يحارب، وليس في شريعته قتال البتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال وهم به عصاة لشرعه، فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن: «من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك[1] ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين»[2] ونحو هذا، وليس في شريعتهم مشقة ولا آصار ولا أغلال، وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ: فكان في مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله، وهذا اللين والرأفة والرحمة، وشريعته أكمل الشرائع، فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابا له وفرضا، وبالفضل ندبا إليه واستحبابا، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويوجبه، والفضل ويندب إليه في بعض آيات: كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾، فهذا عدل: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، فهذا فضل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل، وقوله: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ عدل: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل، وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة،

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٢٥).
(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ١٩٦).

وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم، كما كمل نبيهم ﷺ من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته، فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار، كما قال تعالى لهم: ﴿ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وجعلهم شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم، وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سفرا بل أسفارا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

...[1]أشكل على ابن عباس: أمرُ الفرقة الساكتة، التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عذبوا أو نجوا؟ حتى بين له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق؛ لأنه سبحانه قال عن الساكتين: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي، فقد واجههم به من أدّى الواجب عنهم؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضًا فإن الله سبحانه إنما عذَّب الذين نسوا ما ذكروا به، وعتوا عما نهوا عنه، وهذا لا يتناول الساكتين قطعًا، فلما بيَّن عكرمة لابن عباس: أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين؛ كساه بردة وفرح به.

(١) ٣٥٣ أعلام جـ١.

...[1] ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها. فعلى العالم من عبوديته: نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره.

وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به، والصبر على ذلك، والجهاد عليه ما ليس على المفتي.

وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير. وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما.

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوما في: الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأة: هذا واجب قد وضع عنا، فقال: هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان، فلم يوضع عنكن سلاح القلب. فقالت: صدقت جزاك الله خيرًا.

وقد غر إبليس أكثر الخلق بأن حسن لهم القيام بنوع من: الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس دينا، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالًا عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجها، ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه.

ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين، هم أقل الناس دينا، والله المستعان.

وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان؟ شيطان أخرس! كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ

---

(١) ١٥٧ أعلام جـ٢.

ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم، قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو: موت القلوب. فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل. وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرًا أن الله سبحانه أوحى إلى ملك من الملائكة. أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال يا رب كيف وفيهم فلان العابد فقال: به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه فيَّ يومًا قط[(١)].

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد: أن الله سبحانه أوحى إلى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا رب وأي شيء لك عليَّ؟! قال: هل واليت فيَّ وليا أو عاديت فيَّ عدوا؟[(٢)].

***

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

[(٣)]كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه، وحكمه في خبره، وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس.

---

(١) أخرجه مرفوعًا الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٣٦ رقم ٧٦٦١) والبيهقي في الشعب (٦/ ٩٧ رقم ٧٥٩٥) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٠): رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار عن عمار بن سيف، وكلاهما ضعيف، ووثق عمار بن سيف ابن المبارك وجماعة ورضي أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

(٢) التمهيد (١٧/ ٤٣٢، ٤٣٤) والاستذكار (٨/ ٤٤٦) وأخرج أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣١٦-٣١٧) والخطيب البغدادي في تاريخه (٣/ ٢٠٢) والديلمي في الفردوس (١/ ١٣٥ رقم ٥١٨).

(٣) ٩٨ فوائد.

ولاسيما أهل الرئاسة. والذين يتبعون الشهوات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرئاسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق. وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [مريم: ٥٩]. وقال تعالى فيهم أيضًا: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟ فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون، فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرئاسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة. وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها. وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الأمران، فإن اتّباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة، والسنة بدعة. فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا، واتبعوا الرئاسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ

ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

(وتأمّل) ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء، لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه، بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولم يقل تبعه، فإن معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى.

ورابعها: أنه غوي بعد الرشد. والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد. فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه، لأنه لم يرفع به، فصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالما لكان خيرًا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليّته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا[1]

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى مالك بن نويرة بن جمرة اليربوعي التميمي، يقال له: فارس ذي الخمار، وذو الخمار فرسه، أدرك الإسلام وأسلم وولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه: بني يربوع، مات سنة ١٢هـ. ذكرالبيت الطبري في تفسيره (٩/ ١٢٨)، والأصمعي في الأصمعيات (٦١).

وعبّر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إماما له، يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسا، وأبخلها وأشدها كَلَبًا، ولهذا سمي كَلْبًا.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها، بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا. هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك. فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال: كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث. وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه. فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة.

وأما العابد الجاهل فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه. ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره: احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون[1]، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيّه يدعو إلى الفجور. وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

(١) أحمد في العلل ومعرفة الرجال (١/ ١١٨رقم ٤٤٥٠١) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٠٨ رقم ١٨٩٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ٧٥) والآجري في مسألة الطائفين (رقم ٤) وانظر: الجرح والتعديل (١/ ٩٢) وتهذيب الكمال (١١/ ١٦٨).

رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧]، وقصته معروفة، فإنه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الشيطان بجهله، وكفّره بجهله. فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري، وذاك إمام كل عالم فاجر، يختار الدنيا على الآخرة.

وقد جعل سبحانه رضا العبد بالدنيا، وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته، وتدبرها والعمل بها، سبب شقائه وهلاكه، ولا يجتمع هذان، أعني الرضا بالدنيا والغفلة عن آيات الرب إلا في قلب من لا يؤمن بالمعاد، ولا يرجو لقاء رب العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد، لما رضي الدنيا، ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله. وأنت إذا تأملت أحوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس وهم عمّار الدنيا. وأقل الناس عددًا من هو على خلاف ذلك، وهو من أشدَّ الناس غربة بينهم، لهم شأن وله شأن، علمه غير علومهم، وإرادته غير إرادتهم، وطريقه غير طريقهم، فهو في وادٍ وهم في وادٍ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧، ٨]. ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]. فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة إليها، ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الإيمان بالمعاد، وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه.

***

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

[(١)]في صحيح الحاكم وغيره من حديث أبي جعفر الرازي، ثنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيِّ بن كعب في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال جمعهم له يومئذ جمعًا ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فجعلهم أزواجًا، ثم صورهم، واستنطقهم، فتكلَّموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم علىٰ أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. قال: «فإني أشهد عليكم: السموات السبع، والأرضين السبع؛ وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم، أو تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين. فلا تشركوا بي شيئًا؛ فإني أرسل إليكم رسلي: يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. فقالوا: نشهد أنك: ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ورُفع لهم أبوهم آدم، فرأىٰ فيهم: الغني والفقير، وحسن الصورة وغير ذلك، فقال: رب! لو سويت بين عبادك: فقال: إني أحب أن أشكر. ورأىٰ فيهم الأنبياء، مثل السرج[(٢)]، وذكر تمام الحديث.

وفي صحيحه وجامع الترمذي من حديث هشام بن يزيد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم، مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة؛ هو خالقها إلىٰ يوم القيامة: أمثال الذر، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم علىٰ آدم، فقال: من هؤلاء يا رب، فقال: هؤلاء ذريتك. فرأىٰ فيهم رجلًا، أعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود، يكون في آخر الأمم، قال: كم جعلت له من العمر؟ قال: ستين سنة. قال: يا رب زده من عمري أربعين سنة، قال الله: إذًا يكتب ويختم، فلا يبدل. فلما**

---

(١) ٩ شفاء.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٣ رقم ٣٢٥٥) والضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٣٦٣-٣٦٥ رقم ١١٥٨، ١١٥٩) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٩١) وانظر: التمهيد (١٨/ ٩٢) وصححه الحاكم. وحسنه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (رقم ١٢٢).

انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة، قال له: أو لم تجعلها لابنك داود؟ قال: فجحد، فجحدت ذريته، ونسي، فنسيت ذريته، وخطئ، فخطئت ذريته»[1] قال: هذا على شرط مسلم.

***

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

[2]وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. قالوا: فهل بعد هذه الآية بيان، فإن هذا آتاه الله آياته، فانسلخ منها، وآثر الضلال والغي، وقصته معروفة، حتى قيل: إنه كان أوتي الاسم الأعظم. ومع هذا فلم ينفعه علمه، وكان من الغاوين؛ فلو استلزم العلم والمعرفة: الهداية لاستلزمه في حق هذا.

[3]فشبه سبحانه من أتاه كتابه وعلَّمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق: بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرها وحرصًا ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض، يتشمم

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٥ رقم ٣٢٥٧) والترمذي (رقم ٣٠٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم، وأبو يعلى (١١/ ٢٦٣ رقم ٦٣٧٧) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٣٦٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٢٠٨).

(٢) ٩٢ مفتاح جـ١.

(٣) ١٦٥ أعلام جـ١.

ويستروح حرصًا وشرها، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا والجيف القذرة المروحة، أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوىٰ، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبا واحدًا يتناول منها شيئا، إلا هر عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأىٰ ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه: كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأىٰ ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها علىٰ الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه، سر بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه علىٰ الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنىٰ. قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدىٰ، فلا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله علىٰ الصبر وترك اللهث وهكذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله علىٰ الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها، فهذا يلهف علىٰ الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرىٰ من العطش، وإن كان فيه صبر علىٰ الجوع، وعلىٰ كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثا، يلهث قائما وقاعدا وماشيا وواقفا، وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير: كالكلب إن كان رابضا لهث، وإن طرد لهث[١].

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دُعِيَ أو لم يدع، وُعِظَ أو لم يوعظ: كالكلب يلهث، طرد أو ترك.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة[٢]: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلًا لمن كذب بآياته.

وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال: كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، ونظيره قوله سبحانه: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى، فمنها قوله: ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا ﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها، لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ أي لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محميَّ الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٩/ ١٢٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٠ رقم ٨٥٦٩) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٦٠٨).

(٢) تقدم قريبًا كلام ابن قتيبة مع اختلاف يسير في (ص ٢٧٥).

يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء، ومنها أنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا ﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو: موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها. وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿ لَرَفَعْنَـٰهُ ﴾: عائد على الكفر، والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما ينبهون على لازم معنى الآية فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها. وقوله: ﴿ وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض. وقال مجاهد: سكن. وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ. والمخلد من الرجال: هو الذي يبطيء مشيته. ومن الدواب: التي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته. وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود، وهو الدوام والبقاء. ويقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك … وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا[1]

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧] أي قد خلقوا للبقاء، لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم على سن واحد أبدًا، وقيل: هم المقرطون في آذانهم، والمسورون في أيديهم، وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها، وذلك أمارة التخليد على ذلك السن، فلا تنافي بين القولين وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ قال

(١) تقدم قريبًا (٢٧٤).

الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها. وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه. وقال ابن دريد: كان هواه مع القوم، يعني: الذين حاربوا موسى وقومه، وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل.

فإن قيل: الاستدراك بلكن يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها أو ينفي ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته لكني لم أعطه، ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته. فالاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنا لم نشأ أو لم نرفع، فكيف استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾؟

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من إيثار الله ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

***

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٧٩)﴾.

[(١)] لما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق والبكم، بل هذه له أصلًا، وللعين والأذن واللسان تبعًا فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين، أصم ولا آفة بإذنه، أبكم وإن كان فصيح اللسان، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل

(١) ١٠١ مفتاح جـ١.

على قلوب من لا يعمل بموجب الحجة وينقاد لها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦] فأخبر سبحانه أنه منعهم فقه كلامه، وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك، الذي تقوم به الحجة عليهم، فإنهم لو لم يفهموه جملة ما ولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله، فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب، وأن الذي غشي قلوبهم كالذي غشي آذانهم، ومعلوم أنهم لم يعدموا لا سمع جملة ويصيروا كالأصم[(١)].

***

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

[(٢)]قاعدة جليلة: ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى قاعدة نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود، وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه، لا على معنى مفرد نحو المجيد، العظيم، الصمد. فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على

---

(١) استمر البحث وتطرق في آخره لتقسيم خطاب الله لأهل الكتاب. (ج).

(٢) ١٥٩ بدائع جـ١.

هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه استمجد المرخ والغفار[١] وأمجد الناقة علفا، ومنه ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾[البروج: ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ كما علمناه؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**ألظوا بـ ياذا الجلال والإكرام**»[٢] ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام**»[٣] فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعا عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

ولنرجع إلى المقصود، وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم: من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد. قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد. وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد..

---

(١) انظر: لسان العرب (٣/ ٣٩٦) ومختار الصحاح (ص ٢٥٧).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٨٠-٨١ رقم ٢٠٦٥) والترمذي (رقم ٣٥٢٤، ٣٥٢٥) وأبو يعلى (٦/ ٤٤٥ رقم ٣٨٣٣) وأحمد (٤/ ١٧٧) وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث الآثار (٣/ ٣٩٦): رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه... وقال ابن طاهر: إسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٣٥١ رقم ١٥١٤) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٦) وابن حبان (٣/ ١٧٥ رقم ٨٩٣) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٣٨) وفي الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وأحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٧١) وصححه ا لحاكم.

فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد، الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد[1]

والعرب تسمي أشرافها: بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن.

فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك. واجتماع الغنى مع الحمد: كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض: فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب، هو لتضمنها ثبوتًا، كقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه وكذلك

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى هند بنت معبد، شاعرة جاهلية. ذكره الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٧) وفيه: بعمرو بن مسعود. وكذا ذكره الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٥٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٠٩) (٩/ ٢٨٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٤٠) ولسان العرب (٣/ ٢٥٨) (٤/ ٢٦٧) وذكر الطبراني والهيثمي أن هذا البيت من قول الأسدية، بينما ذكر عبد الله البكري الأندلسي في معجم ما استعجم (٣/ ٩٩٦) أنه من قول هند بنت معبد بن نضلة ترثي عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة.

قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله، وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن تعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضل، الفاتن، الماكر. تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، والله أعلم.

الرابع: أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد، فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة، فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع؟

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلًا ومصدرًا، نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٣] هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازما لم يخبر عنه به نحو الحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال حيي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالىٰ صادرة عن أسمائه وصفاته. وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالىٰ فعاله عن كماله والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملًا، فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنىٰ والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم. فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالىٰ أو أمرًا. إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنىٰ، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضىٰ بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنىٰ، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه. فأمره كله: مصلحة، وحكمة، ولطف، وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنىٰ. وفعله كله لا يخرج عن: العدل، والحكمة، والمصلحة، والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنىٰ، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلا ولا سدىً ولا عبثًا.

وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده فوجود من سواه تابع لوجوده، تبع المفعول

المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه.

فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم، لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها. وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللا ولا تفاوتا لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله: إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته، وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلًا.

وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها، لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته، ولا يلحق ذاته، لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلا ولا وصفا، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله.

فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه، التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح. المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها. المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها. المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف: ١٨٠] وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثانية: دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني،

بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل ولاسيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا.

وهذه العبارة أولى من عبارة من قال يتخلق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة.

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان: وهي التعبد.

وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن: وهي الدعاء، المتضمن للتعبد والسؤال.

فمراتبها أربعة أشدها إنكارا عبارة الفلاسفة، وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال التخلق، وأحسن منها عبارة من قال التعبد، وأحسن من الجميع الدعاء، وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد: كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها.

فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال، وأشدها فسادًا.

الثاني: مقابله وهو أنها: حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشئ.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما.

وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به، وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال، وإبطال باطلها، وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد. الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى

الرب مختصًا به. الثالث: اعتباره مضافا إلىٰ العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالىٰ لا محذور فيه بوجه، بل ثبتت له علىٰ وجه لا يماثله فيه خلقه ولا يشابههم.

فمن نفاه عنه لإطلاقه علىٰ المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله. ومن أثبته له علىٰ وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه ومن شبه الله بخلقه فقد كفر. ومن أثبته له علىٰ وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برئ من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلىٰ العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلىٰ الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلىٰ ما هو عال عليه، وكونه محمولًا به مفتقرًا إليه، محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالىٰ.

وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالىٰ بها، فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ حقيقة، فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله أخيَّتك[1] التي ترجع

(١) في المطبوعة «جُنَّتك» ولعل الصواب ما أثبتناه لدلالة الكلام بعدها (ج).

إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس العشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان، وأمران معنويان. فاللفظيان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها اسم. أن يمتنع الاشتقاق لغيره، والمعنويان ثبوتي وسلبي. فالثبوتي أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبي أن لا يعود حكمها إلى غيره، ولا يكون خبرا عنه، وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات.

فلنذكر من ذلك مثالا واحدا، وهو صفة الكلام فإنها إذا قامت بمحل كانت هو التكلم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وبسلبها عن غيره على عدم قيامها به وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[(١)].

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمَّى به نفسه، فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه، فتعرف به إلى عباده، وقسم استأثر به في علم

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦) رواه أحمد أبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة وقد وثقه ابن حبان، ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٢٠) تصحيح ابن حبان.

غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه. ولهذا قال: «استأثرت به» أي انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به، لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل الله بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»(١) وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٢) وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»(٣) فالكلام جملة واحدة. وقوله: «ومن أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقل.

والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة.

وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول لفلان مائة مملوك وقد أعدهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

السابع عشر: أن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء: كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردا ومقترنا بغيره، فتقول: يا عزيز يا حليم يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقرونا بمقابله: كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم: عطاء ومنعًا، ونفعًا وضرًّا، وعفوًا وانتقامًا. وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣٦) ومسلم (رقم ٢٦٧٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٠-٢٢٧) وشرح النووي (١٧/ ٥).

والإضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد، الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه، فلو قلت: يا مذل، يا ضار، يا مانع. وأخبرت بذلك لم تكن مثنيا عليه، ولا حامدا له، حتى تذكر مقابلها.

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالا ولا نقصا، وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا: وهو ما يكون كمالا ونقصا باعتبارين.

والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله؟

وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.

وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص، فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما.

وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم دون السخي، والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه فتأمل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالا على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها كما تقدم بيانه كاسمه العظيم والمجيد والصمد.

كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف: الذي قد كمل في شرفه، والعظيم: الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفوا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار[1]. هذا لفظه، وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علما بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه، فتدبره.

العشرون: وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه، وهي معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادته (ل ح د) فمنه اللحد، وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين: المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه.

ومنه الملتحد، وهو مفتعل من ذلك، وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧] أي من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجئ إليه، وتبتهل، فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٧٤ رقم ١٩٥٣٥) وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٨٣-٣٨٤ رقم ٩٦) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٦٨٢) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٧١).

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلها، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله: كتسمية النصارى له أبا، وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه. وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا. فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا

معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خليا من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدمًا.

وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾، فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره، ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب.

فهذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلبا عاقلا ولسانا قائلا ومحلا قابلا، وإلا فالسكوت أولى بك، فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال أو يعبر عنه المقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علمًا.

وعسى الله أن يعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنى مراعيًا فيه أحكام هذه القواعد، بريئًا من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته، فهو المانّ بفضله، والله ذو الفضل العظيم.

...(١)قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى؛ حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله تعالى فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجئ قط تابعًا لغيره بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع

---

(١) ٢٤ بدائع جـ١.

والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.

فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة، لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها.

[1]إنه ليس في القرآن صفة إلا وقد دلَّ العقل الصريح على إثباتها لله تعالى، فقد تواطأ عليها دليل العقل والسمع، فلا يمكن أن يعارض ثبوتها دليل صحيح البتة، لا عقلي ولا سمعي؛ بل إن كان المعارض سمعيًّا؛ كان كاذبًا مفترىً أو مما أخطأ المعارض به في فهمه. وإن كان عقليًّا؛ فهي شبهة خيالية.

واعلم أن هذه دعوى عظيمة ينكرها كل جهمي ونافٍ وفيلسوف، ويعرفها من نوّر الله قلبه بالإيمان، وباشر قلبه معرفة الذي دعت إليه الرسل، وأقرت به الفطر، وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمة لا المنكوسة المركوسة.

وقد نبَّه سبحانه في كتابه على ذلك في غير موضع، وبين أن ما وصف به نفسه هو الكمال الذي لا يستحقه سواه، فجاحده جاحد لكمال الرب تعالى. فإنه تمدح بكل صفة وصف بها نفسه، وأثنى بها على نفسه، ومجد بها نفسه، وحمد بها نفسه، فذكرها سبحانه على وجه المدحة له والتعظيم والتمجيد، وتعرف بها إلى عباده؛ ليعرفوا كماله ومجده وعظمته وجماله. وكثيرًا ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه،

(١) ١٥٦ مختصر الصواعق جـ١.

فذكر سبحانه من صفات كماله وعلوه على عرشه وتكلمه وتكليمه وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته؛ ما هو منتف عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدل دليل على بطلان إلهيتها وفساد عبادتها.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله، ما يحدو قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته والمسارعة إلى طاعته.

ويذكر صفاته لهم عند ترغيبهم وترهيبهم؛ لتعرف القلوب من تخافه وترجوه. ويذكر صفاته أيضًا عند أحكامه وأوامره ونواهيه. فقلَّ أن تجد آية حكم من أحكام المكلفين؛ إلا وهي مختتمة بصفة من صفاته أو صفتين.

وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. ويذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله ﷺ عنه.

ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لا تنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته، فذكر أسمائه وصفاته؛ روحها وسرها، يصحبها من أولها إلى آخرها. وإنما أمر بإقامتها ليذكر بأسمائه وصفاته. وأمر عباده أن يسألوه بأسمائه وصفاته؛ ففتح لهم باب الدعاء: رغبًا، ورهبًا، ليذكره الداعي بأسمائه وصفاته فيتوسل إليه بها؛ ولهذا كان أفضل الدعاء ما توسَّل فيه الداعي إليه بأسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكان اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: آية الكرسي، وفاتحة آل عمران، لاشتمالهما على صفة الحياة المتضمنة لجميع الصفات، وصفة القيومية المتضمنة لجميع الأفعال؛ ولهذا كانت سيدة آي القرآن وأفضلها.

ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت الإخبار عن الرب تعالى وصفاته، دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه.

وسمع النبي ﷺ رجلًا يدعو: «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت،**

المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»[(١)]. وسمع آخر يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[(٢)]. فقال لأحدهما: «لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»، وقال للآخر: «سل تعطه»، وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي؛ إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحًا». قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»[(٣)].

وقد نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. فتأمَّل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٧٥ رقم ٢٠٥٨) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) والترمذي (رقم ٣٥٤٤) والطبراني في الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وفي الدعاء (رقم ١١٦، ١١٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٧١).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٨) وابن حبان (٣/ ١٧٣ رقم ٨٩١) وأبو داود (رقم ١٤٩٣) والترمذي (رقم ٣٤٧٥) وأحمد (٣٤٩، ٣٥٠) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥٢٥ رقم ٢٦٠٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٧٥٨) ونقل المنذري تصحيح الحاكم. وقال: قال المملي قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي: وإسناده لا مطعن فيه،ولم يرد في هذا الباب حديث أجود إسنادًا منه.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) وابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وفي الدعاء (رقم ١٠٣٥) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٤٥٢) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٦- ١٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

واختصاره. وقال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وما أوجزه. وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي؛ لا يصلح أن يكون إلهًا. وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩]، فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع؛ دليلًا على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لابد أن يكلم ويتكلم، ويملك لعباده الضر والنفع؛ وإلا لم يكن إلهًا، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠]. نبه بهذا الدليل العقلي القاطع: أن الذي جعلك تتصرف وتتكلَّم وتعلم؛ أولى أن يكون بصيرًا متكلمًا عالمًا. وأي دليل عقلي قطعي أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى العقول؟! قال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٩٥]. فجعل سبحانه عدم البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلًا على عدم إلهية من عدمت منه هذه الصفات.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية. فوصف نفسه: بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان، وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلًا على عدم إلهيتها. فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتوعها؛ تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل.

وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره، وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟

ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب

والرضا والفرح والرحمة كمال؛ فهو ممن سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل. بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال؛ فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعل باختياره ما شاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث يشاء، ويجيء إلى حيث شاء غير كمال؛ فهو جاهل بالكمال؛ والجماد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

***

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

(١) من حكمته سبحانه ما منعهم من العلم علم الساعة ومعرفة آجالهم.

وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلى نظر، فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا، وأنما عمارتها بالآمال وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء، فلا يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة. وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعالى ﷻ من عباده، ولا يقبله منهم، ولا تصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا على هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه، فلو أن عبدًا من عبيدك عمل على أن يسخطك أعوامًا ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك، لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك، وكذا سنة الله ﷻ أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا

(١) ٢٨٣ مفتاح جـ١.

إقلاع. قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

والله تعالىٰ إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه علىٰ وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجىٰ له مغفرة الله وصفحه وعفوه، لعلمه تعالىٰ بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرىٰ كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النفس تارة، وداعي الإيمان تارات.

فأما من بنىٰ أمره علىٰ أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفًا، ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذ ظفر بالذنب، فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة، ولا يوفق لها، فإنه من معاصيه وقبائحه علىٰ نقد عاجل يتقاضاه سلفا وتعجيلا، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلىٰ الله علىٰ دين مؤجل إلىٰ انقضاء الأجل.

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا، لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلىٰ مخالفة الطبع والنفس والاستمرار علىٰ ذلك شديد علىٰ النفس صعب عليها، أثقل من الجبال، ولاسيما إذا انضاف إلىٰ ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان، فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدا بنسيئة، ولا عاجلا بآجل. كما قال بعض هؤلاء وقد سئل: أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا؟ فقال: لا هذا ولا هذا، ولكن ربع درهم من أول أمس، فحرام علىٰ هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله.

...[١] ومنها مخالفة الحديث صريحَ القرآن: كحديث مقدار الدنيا: «وأنها سبعة آلاف سنة، ونحن في الألف السابعة»[٢].

(١) ٨٠ المنار المنيف.
(٢) لم أجده.

وهذا من أبين الكذب؛ لأنه لو كان صحيحًا لكان كلُّ أحد عالمًا أنه قد بقي للقيامة من وقتنا هذا مئتان وأحد وخمسون سنة، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال النبي ﷺ: «**لا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله**»(١).

وقد جاهر بالكذب بعض من يدَّعي في زماننا العلم ـ وهو يتشبع بما لم يعط ـ أن رسول الله ﷺ كان يعلم متىٰ تقوم الساعة، قيل له: فقد قال في حديث جبريل: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(٢)، فحرفه عن موضعه، وقال: معناه: أنا وأنت نعلمها. وهذا من أعظم الجهل وأقبح التحريف. والنبي ﷺ أعلم بالله من أن يقول لمن كان يظنه أعرابيًّا: أنا وأنت نعلم الساعة، إلا أن يقول هذا الجاهل: إنه كان يعرف أنه جبريل ورسول الله ﷺ هو الصادق في قوله: «**والذي نفسي بيده ما جاءني في صورة إلا عرفته، غير هذه الصورة**»(٣). وفي اللفظ الآخر: «**ما شبه عليَّ غير هذه المرة**»(٤). وفي اللفظ الآخر: «**ردوا عليَّ الأعرابي، فذهبوا فالتمسوا، فلم يجدوا شيئًا**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٩٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦٥) وعمدة القاري (١٨/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٩، ١٠) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢١) وشرح النووي (١/ ١٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٥٢-٥٣) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٣٦٨) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٤١): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٤) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٩٧ -٣٩٨ رقم ١٧٣) والدارقطني (٢/ ٢٨٢ رقم ٢٠٧) وابن منده في الإيمان (١/ ١٤٦ -١٤٧ رقم ١٣) والبيهقي في الاعتقاد (ص ٢٠٦-٢٠٧) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٤): قال ابن حبان: تفرد سليمان التيمي بقوله: خذوا عنه. قلت: وهو من الثقات الأثبات.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) بلفظ قريب: «ردوا عليَّ» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئًا. فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» وعند مسلم (رقم ٩) بلفظ: «ردوا عليَّ الرجلَ».

وإنما علم النبي ﷺ أنه جبريل بعد مدة، كما قال عمر: فلبثت مليًّا، ثم قال النبي ﷺ: «يا عمر أتدري من السائل؟»[(١)] والمحرِّف يقول: علم وقت السؤال أنه جبريل، ولم يخبر الصحابة بذلك إلا بعد مدة. ثم قوله في الحديث: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» يعم كل سائل ومسئول، فكل سائل ومسئول عن هذه الساعة شأنهما كذلك.

ولكن هؤلاء الغلاة عندهم أن علم رسول الله ﷺ منطبق على علم الله، سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسول الله ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]. وهذا في «براءة» وهو في أواخر «براءة»، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، هذا والمنافقون جيرانه في المدينة. ومن هذا حديث: «عقد عائشة رضي الله عنها لما أرسل في طلبه فأثاروا الجمل فوجدوه»[(٢)]. ومن هذا حديث تلقيح النخل، وقال: «ما أرى لو تركتموه يضره شيء» فتركوه فجاء شيصًا، فقال: «أنتم أعلم بدنياكم»[(٣)]. وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ولما جرى لأم المؤمنين عائشة ما جرى، ورماها أهل الإفك بما رموها به، لم يكن ﷺ يعلم حقيقة الأمر، حتى جاءه الوحي من الله ببراءتها.

وعند هؤلاء الغلاة أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم الحال على حقيقته بلا ريبة، واستشار الناس في فراقها، ودعا الجارية فسألها وهو يعلم الحال، وقال لها: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله»[(٤)] وهو يعلم علمًا يقينًا أنها لم تلم بذنب. ولا ريب أن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦١) ومسلم (رقم ٢٧٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦٣) وانظر: شرح النووي (١٥/ ١١٦-١١٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤١٤١) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٧٥) وشرح النووي (١٧/ ١١١).

الحامل لهؤلاء على هذا اللغو إنما هو اعتقادهم أنه يكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة، وكلما غلوا وزادوا غلوا فيه كانوا أقرب إليه وأخص به، فهم أعصى الناس لأمره، وأشدهم مخالفة لسنته، وهؤلاء فيهم شبه ظاهر من النصارى الذين غلوا في المسيح أعظم الغلو وخالفوا شرعه ودينه أعظم المخالفة.

والمقصود أن هؤلاء يصدقون بالأحاديث المكذوبة الصريحة، ويحرفون الأحاديث الصحيحة عن مواضعها لترويج معتقداتهم.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

(١)قد استقرت حكمة الله ﷻ في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذابِ الشيء إلى مُوافقه ومجانسه بالطبع، وهُروبه من مخالفه، ونُفرته عنه بالطبع، فسِرُّ التمازج والاتصال في العالم العُلوي والسُّفلي، إنما هو التناسبُ والتشاكلُ، والتوافقُ، وسِرُّ التباين والانفصال، إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمِثْلُ إلى مثلِه مائلٌ، وإليه صائرٌ، والضِّدُّ عن ضده هارب، وعنه نافرٌ، وقد قال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فجعل سُبحانه عِلَّةَ سكون الرَّجل إلى امرأته كونَها مِن جنسه وجوهره، فعِلَّةُ السكون المذكور وهو الحب كونُها منه، فدل على أن العِلَّة ليست بحُسن الصورة، ولا الموافقة في القصد والإرادة، ولا في الخلق والهَدْي، وإن كانت هذه أيضاً من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعارَفَ منها

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

ائْتلَف، وما تَناكَرَ منها اخْتَلَفَ»[١]. وفي مسند الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة في سبب هذا الحديث: أنَّ امرأة بمكةَ كانت تُضحِكُ الناسَ، فجاءت إلى المدينة، فنزلتْ على امرأة تُضحِكُ الناسَ، فقال النبيُّ ﷺ: «الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ...»... الحديثَ.

وقد استقرتْ شريعتُه سُبحانه أنَّ حُكم الشيء حُكْمُ مثله، فلا تُفَرِّقُ شريعته بين متماثلين أبداً، ولا تجمعُ بين مضادَّين، ومَن ظنَّ خِلاف ذلك، فإمَّا لِقلَّة علمه بالشريعة، وإما لِتقصيره في معرفة التماثُل والاختلاف، وإمَّا لنسبته إلى الشريعة ما لم يُنزلْ به سلطاناً، بل يكونُ من آراء الرجال، فبحكمتِه وعدلِه ظهر خَلقُه وشرعُه، وبالعدل والميزان قام الخلقُ والشرع، وهو التسويةُ بين المتماثلَيْن، والتفريق بين المختلفَيْن. هذا كما أنه ثابت في الدنيا، فهو كذلك يومَ القيامة. قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

قال عمر بن الخطاب ﷺ وبعدَه الإمامُ أحمد رحمه الله: أزواجهم أشباهُهم ونُظراؤهم. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧] أي: قُرِن كلُّ صاحب عملٍ بشكله ونظيره، فقُرِن بين المتحابّين في الله في الجَنَّة، وقُرِن بين المتحابِّين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرءُ مع مَن أَحَبَّ شاء أم أبى...

[٢]والله تعالى يقول: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فجعل علة السكون أنها منه، لو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية؛ لوجب أن لا يُستحسنَ الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيرًا ممن يؤثر الأدنى، ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيدًا لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٦) ومسلم (رقم ٢٦٣٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٩-٣٧٠) وشرح النووي (١٦/ ١٨٥).

(٢) ٨٦ روضة.

يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها.

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

فالنفس الواحدة وزوجها: آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما. ولا يلتفت إلىٰ غير ذلك مما قيل: إن آدم وحوّاء كانا لا يعيش لهما ولدٌ؛ فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعش لكما ولدٌ فسمياه عبد الحارث ففعلا؛ فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك.

ونظير هذا الاستطراد قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثم قال: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩] فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهلة استطرد منه إلىٰ ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثير جدًّا.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

(٢) بين سبحانه أن هذه الأصنام أشباح وصور خالية عن صفات الإلهية، وأن المعنىٰ المعتبر معدومٌ فيها، وأنها لو دعيت لم تجب، فهي صور خالية عن أوصاف

---

(١) ٣٠٨ روضة.

(٢) ١٤٩ أعلام جـ١.

ومعان تقتضي عبادتها، وزاد هذا تقريرًا بقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾.

أي إن جميع ما لهذه الأصنام من الأعضاء التي نحتتها أيديكم إنما هي صور عاطلة عن حقائقها وصفاتها، لأن المعنى المراد المختص بالرِّجْل هو مشيها، وهو معدوم في هذه الرِّجْل، والمعنى المختص باليد هو بطشها، وهو معدوم في هذه اليد، والمراد بالعين إبصارها، وهو معدوم في هذه العين، ومن الأذن سمعها وهو معدوم فيها، والصور في ذلك كله ثابتة موجودة، وكلها فارغة خالية عن الأوصاف والمعاني، فاستوى وجودها وعدمها، وهذا كله مدحض لقياس الشبه الخالي عن العلة المؤثرة والوصف المقتضي للحكم، والله أعلم.

(1)فقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤]، ولهذا نفى الله عن الكفار: السمع والبصر والعقول، إما لعدم انتفاعهم بها، فنزلت منزلة المعدوم، وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها، وإدراكها؛ ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور، كقول أصحاب السعير: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]، ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب.

والقول الثاني: إن الضمير عائد على الأصنام. ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه على التشبيه، أي كأنهم ينظرون إليك، ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني: المراد به المقابلة تقول العرب: داري تنظر دارك، أي تقابلها.

وكذلك السمع ثابت لهم، وبه قامت الحجة عليهم. ومنتف عنهم وهو سمع

(١) ٤١٠ مدارج السالكين جـ٢.

القلب، فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك: كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء، ولم يسمعوه بالروح الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع التي هي حظ القلب، فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب، ولزال عنهم الصمم والبكم، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من عدم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث، وإذا فسد غذاؤه وخبث: نقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه كالبدن إذا فسد غذاؤه ونقص.

***

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

[(١)] ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه، فلا يقابله ولا يعاتبه. قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم: صن فنسك عن مقابلتهم على سفههم، وهذا كثير في كلامهم.

[(٢)] وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية[(٣)]. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا»؟ قال: لا أدري حتى أسأل. فسأل ثم رجع إليه فقال: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن

(١) ١٠٠ مفتاح جـ١.
(٢) ٣٠٥ مدارج جـ٢.
(٣) ذكر هذا القول الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٣٠٦) وبدر الدين العيني في عمدة القاري (١٨/ ٢٤٣).

ظلمك»[١] ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال:

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعاد له معارض، وعليه في كل واحد من هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطوعت له به أنفسهم سماحة واختيارا، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. قال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس[٢]. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسيس[٣]. مثل قبول الأعذار والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم[٤]. وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ثم قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ وهو كل معروف،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبريي في تفسيره (٩/ ١٥٥) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٢٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٦) (١٣/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٤٣، ٤٦٤٤) والطبري في تفسيره (٩/ ١٥٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٥) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٨) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٢) وعون المعبود (١٣/ ١٠٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٥).

وأعرفه: التوحيد، ثم حقوق العبودية، وحقوق العبيد، ثم قال تعالىٰ ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل، فلا تقابله بالسفه، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] وعلىٰ هذا فليست بمنسوخة، بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه ﷺ قال أنس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا»(١)، وقال: «ما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ»(٢)، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته؟ لم فعلته ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا»(٣) متفق عليهما.

(٤)وقال تعالىٰ: ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ عام مطلق، وقوله: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ خاص بأهل اليقين، ونظير ذلك قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] ونظيره في الخصوص قوله تعالىٰ: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٠٣) ومسلم (رقم ٦٥٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٨٣) وشرح النووي (١٤/ ١٢٨) (١٥/ ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٧٣) (٣٥٦١) ومسلم (رقم ٢٣٣٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٧٦) وعمدة القاري (١١/ ٨٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٠٩).

(٤) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]، ونظيره أيضًا قوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقد أخبر أنه هدىً عام لجميع المكلفين. فقال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعلة، أي مبصرة لمن تبصر. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩]. أي مبينة موجبة للتبصير.

وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديا. يقال: أبصرته، بمعنى أريته، وأبصرته، بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها. فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيُعدَّى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بصرته به. وبصر هو به.

فهاهنا بصيرة، وتبصرة، ومبصرة. فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسُمِّي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه.

فالقرآن بصيرة وتبصرة، وهدى وشفاء، ورحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاص. ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين، وموعظة للمتقين، وهدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، فهو في نفسه هدى ورحمة، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتعظ واشتفى؛ كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدى. فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يُهتدى به ويُرحم، ويتعظ المتقون الموقنون. والهدى في الأصل: مصدر هدى يهدي هدًى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما في الأثر: «من ازداد علما ولم يزدد هدى لم

يزدد من الله تعالىٰ إلا بعدًا»، ولكن يسمىٰ هدًىٰ، لأن من شأنه أن يهديَ.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هدًىٰ، بمعنىٰ هاد، فهو مصدر بمعنىٰ الفاعل، كعدل بمعنىٰ العادل، وزَوْر بمعنىٰ: الزائر، ورجل صَوْم أي بمعنىٰ صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يهدي به. فالله الهادي، وكتابه الهدىٰ الذي يهدي به علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم.

فهاهنا ثلاثة أشياء: فاعلٌ وقابلٌ وآلةٌ. فالفاعل: هو الله تعالىٰ، والقابل: قلب العبد، والآلة: هو الذي يحصل به الهدىٰ، وهو الكتاب المنزل، والله سبحانه يهدي خلقه هدىٰ، كما يقال: دلهم دلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبين لهم بيانًا.

والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي، المنيب إلىٰ ربه، الخائف منه، الذىٰ يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلىٰ محل قابل، فيتأثر به، فصار هُدًىٰ له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلًا وصل إليه الهدىٰ فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلىٰ محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلىٰ فساده، كما قال تعالىٰ في السورة التي نزلها: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]، وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدىٰ تارة، ولعدم فعل الفاعل، وهو الهادي تارة، ولا يحصل الهدىٰ علىٰ الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

***

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

قال[(١)]: «والذكر: هو التلخص من الغفلة والنسيان والفرق بين الغفلة والنسيان: أن

---

(١) ٤٣٤ مدارج جـ٢.

«الغفلة» ترك باختيار الغافل، و«النسيان» ترك بغير اختياره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ولم يقل: ولا تكن من الناسين، فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف، فلا ينهى عنه.

قال: «وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: الذكر الظاهر ثناءً أو دعاءً أو رعايةً». يريد بالظاهر: الجاري على اللسان المطابق للقلب، لا مجرد الذكر اللساني، فإن القوم لا يعتدون به.

فأما ذكر الثناء: فنحو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» وأما ذكر الدعاء فنحو: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] و«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[1] ونحو ذلك. وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي، والله ناظر إلي، الله شاهدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس. والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة، فإنها متضمنة للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال والتصريح به، كما في الحديث: «أفضل الدعاء الحمد لله»[2] قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاءً؟ قال: أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان يرجو نائله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناء[3]

فهذا مخلوق واكتفى من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله فكيف برب العالمين

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٠٠ رقم ٢٣١٩، ٢٣٢٠) والحاكم (١/ ٦٨٩ رقم ١٨٧٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٧ رقم ١٠٤٠٥) والترمذي (رقم ٣٥٢٤). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٧٧٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم ذكرهما في (ص ٢٢٦).

والأذكار النبوية متضمنة أيضا لكمال الرعاية ومصلحة القلب والتحرز من الغفلات والاعتصام من الوساوس والشيطان، والله أعلم.

(١)أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها؛ هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء، وهما من عدم العلم. أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له، وقد ذم سبحانه أهلها، ونهى عن السكون منهم وطاعتهم والقبول منهم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال النبي ﷺ في وصيته لنساء المؤمنين: «**لا تغفلن فتنسين الرحمة**»(٢).

وسئل بعض العلماء عن عشق الصور، فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله؛ فابتلاها الله بعبودية غيره، فالقلب الغافل مأوى الشيطان...

(٣)والمقصود: أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة، والكمال كله إلى العلم والعزيمة، والناس في هذا على أربعة أضرب:

الضرب الأول: من رزق علمًا وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل، وهذا

---

(١) ١١٢ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٨٣) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/ ٧٣ رقم ٣٢٨٥) وأحمد (٦/ ٣٧٠) وعبد بن حميد (رقم ١٥٧٠) وابن أبي شيبة (٢/ ١٦٠ رقم ٧٦٥٦) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٨٢-١٨٣ رقم ٥٠١٦) وفي الدعاء (رقم ١٧٧١) وإسحاق بن راهويه (٥/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٢٣٢٧).

(٣) ١١٤ مفتاح جـ١.

الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]. وبقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فبالحياة تنال العزيمة، وبالنور ينال العلم، وأئمة هذا الضرب؛ هم أولو العزم من الرسل.

الضرب الثاني: من حرم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وبقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] وبقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وهذا الصنف شر البرية، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، وينطقون ولكن عن الهوىٰ ينطقون. ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون. ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت. ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم. ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق. ويتفكرون ويبيتون ولكن ما لا يرضىٰ من القول يبيتون. ويدعون ولكن مع الله إلهًا آخر يدعون. ويذكرون ولكن إذا ذكروا لا يذكرون. ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون. ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون. ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يسكبون، ويقولون: إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة، وجلهم إذا فكرت فهم حمير أو كلاب أو ذئاب.

وصدق البحتري في قوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ... ينالها الوهم إلا هذه الصور[(١)]

وقال الآخر:

لا تخدعنك اللحى والصور ... تسعة أعشار من ترى بقر

في شجر السرو منهم مثل ... لها رواء وما لها ثمر[(٢)]

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] عالمهم كما قيل فيه:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما في الغرائر[(٣)]

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي الشهير بالبحتري الشاعر الكبير، كان يقال لشعره: سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي وأبو تمام والبحتري. قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري، مات سنة ٢٨٤هـ.

(٢) هذان البيتان من بحر المنسرح، وينسب إلى ابن لكنك البصري، وصفه الثعالبي بفرد البصرة وصدر أدبائها، وقال: أكثر شعره ملح وطرف، جلها في شكوى الزمان وأهله، وهجاء شعراء عصره. ولم يسلم من هجائه المتنبي. وهو صاحب هذا البيت:

نعيب زماننا والعيب فينا ... ولو نطق الزمان إذًا هجانا

مات سنة ٣٦٠هـ.

(٣) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى مروان بن سلمان بن يحيى بن أبي حفصة، شاعر عالي الطبقة، أدرك العصرين الأموي والعباسي، مدح المهدي والهادي وهارون الرشيدن يمتاز شعره بالعراقة والجودة ومتانة الألفاظ وسداد الرأي، تعصب للعباسيين فاغتاله بعض المتطرفين من الشيعة العلويين ببغداد سنة ١٨٢هـ وذكرهما الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ٨٩) وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ١٠). والجرجاني في أسرار البلاغة (ص ١٥٦).

لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

الضرب الثالث: من فتح له باب العلم، وأغلق عنه باب العزم والعمل، فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه، وفي الحديث المرفوع: «**أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»(١) ثبته أبو نعيم وغيره، فهذا جهله كان خيرًا له واخف لعذابه من علمه فما زاده العلم إلا وبالًا وعذابًا، وهذا لا مطمع في صلاحه، فإن التائه عن الطريق يرجى له العود إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا فمتى ترجى هدايته، قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضرب الرابع: من رزق حظًّا من العزيمة والإرادة، ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] رزقنا الله من فضله، ولا حرمنا بسوء أعمالنا، إنه غفور رحيم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعراف

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١ رقم ١١٢٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٧٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٦/ ٣٠٧) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٣٩) وقواعد التحديث (ص ٣٩٦).

سُورَةُ الأَنفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

[1]لما كان في رمضان من هذه السنة؛ بلغ رسول الله ﷺ خبر العير المقبلة من الشام لقريش، صُحبةَ أبي سفيان، وهي العِير التي خرجوا في طلبها لما خرجت مِن مكة، وكانوا نحو أربعين رجلاً، وفيها أموالٌ عظيمة لِقريش، فندب رسولُ الله ﷺ الناسَ للخروج إليها، وأمر مَن كان ظهرُه حاضراً بالنهوض، ولم يحْتَفِلْ لها احتفالاً بليغاً، لأنه خرج مُسْرِعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسانِ: فرس للزبير بن العوام، وفرسٌ للمِقداد بن الأسود الكِندي، وكان معهم سبعون بعيراً، يَعْتَقِبُ الرجلان والثلاثةُ على البعير الواحد، وكان رسولُ الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، ومَرْثَدُ بنُ أبي مَرْثَدٍ الغَنوي، يعتقِبُون بعيراً، وزيدُ بن حارثة، وابنُه، وكبشةُ موالي رسول الله ﷺ، يعتَقِبُونَ بعيراً، وأبو بكر، وعمر، وعبدُ الرحمن بن عوف، يعتقِبُونَ بعيراً، واستخلف على المدينةِ وعلى الصلاة ابنَ أمِّ مكتوم، فلما كان بالرَّوحاءِ رد أبا لُبابة بنَ عبد المنذر، واستعمله على المدينة، ودفع اللِّواء إلى مُصعبِ بنِ عُمَير، والراية الواحدة، إلى عليّ بن أبي طالب، والأخرى التي للأنصار إلى سعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيسَ بنَ أبي صَعْصَعَةَ، وسار، فلما قَرُبَ مِن الصَّفْرَاء، بعث بَسْبَسَ بنَ عمرو الجهني، وعدي ابن أبي الزّغْباء الجهني، إلى بَدْر يتجسَّسان أخبارَ العِير.

وأما أبو سفيان، فإنه بلغه مخرجَ رسول الله ﷺ وقصده إياه، فاستأجر ضَمْضَمَ بنَ عَمْرو الغِفاري إلى مكة، مُستصْرخاً لقريش بالنَّفير إلى عِيرهم، ليمنعوه من محمد وأصحابه، وبلغ الصريخُ أهلَ مكة، فنهضوا مُسرِعين، وأوعبوا في الخروج، فلم

(١) زاد المعاد جـ٢.

يتخلَّفْ من أشرافهم أحدٌ سوىٰ أبي لهب، فإنَّه عوَّض عنه رجلاً كان له عليه دَيْن، وحشدُوا مَنْ حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدى، فلم يخرُجْ معهم منهم أحد، وخرجوا مِن ديارهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «بِحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِم، تُحَادُّ الله وَتُحَادُّ رَسُولَه»، وجاؤوا علىٰ حَرْدٍ قادرين، وعلىٰ حميَّةٍ، وغضبٍ، وحَنَقٍ علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابِه، لما يُريدون مِن أخذ عيرهم، وقتل مَن فيها، وقد أصابُوا بالأمسِ عَمْرو بن الحضرمي، والعِير التي كانت معه، فجمعهم الله علىٰ غير ميعاد، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولما بلغَ رسولَ الله ﷺ خروجُ قريش، استشار أصحابه، فتكلَّم المهاجِرون فأحسَنُوا، ثم استشارهم ثانياً، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثاً، ففهمت الأنصارُ أنه يَعنيهم، فبادر سعدُ بنُ معاذ، فقال: «يا رسول الله، كَأَنَّكَ تُعَرِّضُ بنا؟» وكان إنما يَعنيهم، لأنهم بايعوه علىٰ أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فلما عزم علىٰ الخُروج، استشارهم لِيعلم ما عندهم، فقال له سعد: «لَعَلَّكَ تَخْشَىٰ أَنْ تَكُون الأَنصارُ تَرَىٰ حقًّا عليها أن لا ينصروكَ إلا في ديارها، وإني أقول عن الأنصار، وأُجِيب عنهم: فاظْعَنْ حَيْثُ شِئْت، وَصِلْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، واقْطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، وخُذْ مِنْ أمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، وَأَعطِنَا مَا شِئْتَ، وَمَا أَخَذْتَ مِنَّا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ، ومَا أَمَرْتَ فِيهِ مِنْ أَمْرٍ فَأَمْرُنَا تَبَعٌ لأَمْرِكَ، فَوالله لَئِن سِرْتَ حَتَّىٰ تَبْلُغ البَرْكَ مِنْ غمدَان، لَنَسِيرَنَّ مَعَكَ، وَوَالله لَئِنِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هذَا البَحْرَ خُضْنَاهُ مَعَكَ»، وقَالَ لَهُ المِقْدَادُ: «لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ لِمُوسَىٰ: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ». فأشرق وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ، وسُرَّ بِمَا سَمِعَ مِنْ أصحابِه، وقالَ: «سِيرُوا

وأَبْشروا، فإنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَني إحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ، وإنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَصارعَ القَوْمِ».

فسار رسولُ الله ﷺ إلىٰ بدر، وخَفَضَ أبو سفيان فَلَحِقَ بساحل البحر، ولما رأىٰ أنه قد نجا، وأحرز العير، كتب إلىٰ قريش: أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتُم لِتُحْرِزُوا عيركم. فأتاهم الخبرُ، وهم بالجُحْفَةِ، فهمُّوا بالرجوع، فقال أبو جهل: واللهِ لا نرجع حتىٰ نَقْدمَ بدراً، فنقيمَ بها، ونُطعِمَ مَنْ حَضَرَنَا مِن العرب، وتخافُنَا العربُ بعد ذلك، فأشار الأخنس بن شُريق عليهم بالرجوع، فَعَصَوْه، فرجع هو وبنو زُهرة، فلم يشهد بدراً زُهري، فاغتبطت بنو زُهرة بعدُ برأي الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً، وأرادَتْ بنو هاشم الرجوع، فاشتدَّ عليهم أبو جهل، وقال: لا تُفَارِقُنَا هذه العِصابة حتىٰ نَرْجِعَ فساروا.

وسارَ رسولُ الله ﷺ حتىٰ نزل عشاءَ أدنىٰ ماء مِن مياه بدر، فقال: «أَشيرُوا عَلَيَّ في المَنْزِل». فقال الحُبَابُ بنُ المنذر: يا رسول الله؛ أنا عالم بها وبِقُلُبِهَا، إن رأيتَ أن نسيرَ إلىٰ قُلُبٍ قد عرفناها، فهي كثيرة الماء، عذبة، فننزِلَ عليها، ونَسبِقَ القوم إليها، ونُغوِّر ما سواها مِن المياه. وسار المشركون سِراعاً يريدون الماء.

وبعث عليًّا وسعداً والزبير إلىٰ بدر يلتمِسُون الخبر، فَقَدِمُوا بعبدين لقريش، ورسولُ الله ﷺ قائم يُصلِّي، فسألهما أصحابُه: مَنْ أنتما؟ قالا: نحن سُقاةٌ لِقريش، فكره ذلك أصحابه، وودُّوا لو كانا لِعير أبي سفيان، فلما سلَّم رسولُ الله ﷺ قال لهما: «أخبِرَانِي أَيْنَ قُرَيْشٌ»؟ قالا: وراء هذا الكثيب. فقال: «كم القومُ»؟ فقالا: لا عِلم لنا، فقال: «كم ينحرونَ كُلَّ يوم»؟ فقالا: يوماً عشراً، ويوماً تسعاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «القومُ ما بينَ تسعمائة إلىٰ الألف»، فأنزل الله ﷻ في تلك الليلة مطراً واحداً، فكان علىٰ المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم، وكان علىٰ المسلمين طَلاً طهَّرهم به، وأذهب عنهم رجْسَ الشيطان، ووطَّأ به الأرضَ، وصلَّب به الرملَ، وثبَّتَ الأقدام، ومهَّدَ به المنزل، وربطَ به علىٰ قلوبهم، فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلىٰ الماء، فنزلوا عليه شطرَ الليل، وصنعوا الحياض، ثم غوَّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله

ﷺ وأصحابه على الحياض. وبُنِيَ لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تلٍّ مشرف على المعركة، ومشي في موضع المعركة، وجعل يُشير بيده: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله»، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته[(١)].

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعانِ، قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ هذه قُرَيْشٌ جَاءَتْ بِخيلائِها وفَخرِهَا، جَاءَتْ تُحادُّك، وَتكَذِّبُ رَسُولَكَ». وقام، ورفع يديه، واستنصر ربَّه وقال: «اللَّهُمَّ أنجِزْ لي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ»، فالتزمه الصِّدِّيق من ورائه، وقال: «يا رسول الله؛ أبشر، فوالذي نفسي بيده، لَيُنجِزَنَّ الله لكَ ما وَعَدَكَ»[(٢)]. واستنصر المسلمون الله، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرَّعُوا إليه، فَأَوْحَى الله إلى مَلائِكَتِهِ: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢] وأَوْحَى الله إلى رسوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] قرئ بكسر الدال وفتحها فقيل: المعنى: إنهم رِدْفٌ لكم. وقيل: يُرْدِفُ بعضُهم بعضًا أرسالاً لم يأتوا دَفعةً واحدة.

فإن قيل: ههنا ذكر أنه أمدَّهم بألفٍ، وفي سورة آل عمران قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]، فكيف الجمع بينهما؟

قيل: قد اختُلِفَ في هذا الإمداد الذي هو بثلاثة آلاف، والذي بالخمسة على قولين:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٨٥-١٨٦) وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٣-١٤) قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٢-١٣): قلت: هذا كله في سيرة ابن هشام في غزوة بدر الكبرى من قول ابن إسحاق، وأخرج الطبري بعضه عن ابن عباس، وبعضه عن عروة بن الزبير، وبعضه عن السدي بتقديم وتأخير وزيادة ونقص، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٠) وعون المعبود (٧/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه الطبري بنحوه في تفسيره (٩/ ٢٠٤) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣١٦) وفتح الباري (٧/ ٢٨٩) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٨-١٩).

أحدهما: أنه كان يومَ أُحُد، وكان إمداداً معلَّقاً على شرط، فلما فات شرطُه، فات الإمدادُ، وهذا قولُ الضحاك ومقاتِل، وإحدىٰ الروايتين عن عِكرمة.

والثاني: أنه كان يومَ بدر، وهذا قولُ ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والرواية الأخرىٰ عن عِكرمة، اختاره جماعة من المفسِّرين.

حجة هؤلاء أن السياق يدل علىٰ ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: هذا الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

قال هؤلاء: فلما استغاثوا، أمدَّهم بتمام ثلاثةِ آلاف، ثم أمدَّهم بتمامِ خمسة آلافٍ لما صبرُوا واتقوا، فكان هذا التدريجُ، ومتابعة الإمداد، أحسن موقعاً، وأقوىٰ لِنفوسهم، وأسرَّ لها من أن يأتي به مرةً واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقةُ الأولىٰ: القصة في سياق أُحُد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٢]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فذكَّرهم نعمتَه عليهم لمَّا نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلىٰ قصةِ أُحُد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ثم وعدهم أنهم إن صبرُوا واتَّقُوا، أمدَّهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسولِهِ، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالىٰ، وهذا بخمسة آلاف، وإمدَادُ بدر بألف، وهذا معلَّق علىٰ شرط، وذلك مطلق، والقصة في سورة آل عمران هي قصة أُحُد مستوفاة مطوَّلة، وبدر ذُكرت فيها اعتراضاً،

والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطوَّلة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، قد قال مجاهد: إنه يومُ أُحد، وهذا يستلزِمُ أن يكون الإمدادُ المذكور فيه، فلا يَصِحُّ قولُه: إن الإمداد بهذا العدد كان يومَ بدر، وإتيانُهم من فورهم هذا يومَ أُحُد.. والله أعلم.

وباتَ رسولُ الله ﷺ يصلي إلى جِذْع شجرة هُناك، وكانت ليلةَ الجمعة السابع عشرَ من رمضان في السنة الثانية، فلما أصبحوا، أقبلتْ قريشٌ في كتائبها، واصطَف الفريقانِ، فمشى حكيمُ بنُ حِزام، وعُتبةُ بن ربيعة في قريش، أن يرْجِعُوا ولا يقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل، وجرى بينه وبين عتبة كلامٌ أَحْفَظَهُ، وأمر أبو جهل أخا عَمْرو بن الحضرمي أن يطلب دَمَ أخيه عَمْرو، فكشف عن اسْتِهِ، وصرخ: واعَمْراهُ، فحمي القومُ، ونشَبتِ الحربُ، وعَدَّلَ رسولُ الله ﷺ الصفوفَ، ثم رجع إلى العَريشِ هو وأبو بكر خاصة، وقام سعدُ بن معاذ في قوم من الأنصار على باب العريشِ، يحمون رسولَ الله ﷺ.

وخرج عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بن عُتبة، يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار: عبدُ الله بن رواحة، وعوفٌ، ومُعَوِّذٌ ابنا عفراء، فقالوا لهم: مَن أنتم ؟ فقالوا: من الأنصار. قالوا: أكفَاءٌ كِرام، وإنما نُريد بني عمنا، فبرز إليهم عليٌّ وعُبيدة بن الحارث وحمزةُ، فقتل عليٌّ قِرْنَه الوليد، وقتل حمزة قِرنه عُتبة واختلف عُبيدة وقِرنُه الوليد[1] ضربتين، فكَّر عليٌّ وحمزةُ على قِرن عُبيدة، فقتلاه واحتملا عُبيدة ـ وقد قُطِعت

(١) المشهور كما في كتب السيرة أن قرن عبيدة بن الحارث هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وليس الوليد كما ذكر العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ فالوليد كان قرن عليِّ بن أبي طالب وقتله عليّ وقتل حمزة شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، وقال ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٥٢: قال ابن إسحاق: وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب. قال ابن هشام: اشترك فيه هو وحمزة وعلي.
قال ابن إسحاق: وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله حمزة بن عبد المطلب، والوليد بن عتبة بن ربيعة قتله علي بن أبي طالب. وذكره أيضًا المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٢١٦/ ٢١٧.

رجله ـ، فلم يزل صمتًا، حتى مات بالصَّفْراءِ. وكان عليٌّ يُقسِمُ بالله: لنزلت هذه الآيةُ فيهم: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ الآية[1] [الحج: ١٩].

ثم حمي الوطيسُ، واستدارت رَحى الحربِ، واشتدَّ القِتال، وأخذ رسولُ الله ﷺ في الدعاء والابتهالِ، ومناشدة ربِّه ﷻ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردَّه عليه الصِّدِّيق ﷺ، وقال: «بعضَ مُناشَدَتِكَ ربَّكَ، فإنَّهُ منجزٌ لَكَ ما وَعَدَكَ»[2]. فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، وأخذ القومَ النعاسُ في حال الحربِ، ثم رفعَ رسولُ الله ﷺ رأسَه فقال: «أَبْشِرْ يا أَبَا بَكْر، هذا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَايَاه النَّقْع[3]». وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيَّد رسوله والمؤمنين، ومنحهم أكتافَ المُشركِينَ أسراً وقتلاً، فقتلوا منهم سبعين، وأسرُوا سبعينَ.

***

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

[4]قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال: ١٢] في تفسيرها: قوُّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم، والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٦٥) ومسلم (رقم ١٧٥٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٩٧) (٨/ ٤٤٤). وشرح النووي (١٨/ ١٦٦) وعمدة القاري (١٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٨٩) وشرح النووي (١٢/ ٨٥).

(٣) هذا اللفظ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٤) وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢) والرياض النضرة (٢/ ٣٥).

(٤) ٤٦ مدارج جـ١.

[(١)] إن الختم علىٰ القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم علىٰ قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم علىٰ القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط علىٰ القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١] ومعنىٰ الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر علىٰ أمر: ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب، ومنه يقال: هو رابط الجأش. وقد ظن الواحدي أن «علىٰ» زائدة، والمعنىٰ: يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال: ربط الفرس والدابة، ولا يقال: ربط عليها، فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه كأنه أحاط عليه بالربط، فلهذا قيل: ربط علىٰ قلبه وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه، والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

***

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

[(٢)] لما عزموا علىٰ الخروج، ذكروا ما بينهم وبينَ بني كنانة مِن الحرب، فتبدَّىٰ لهم إبليسُ في صورة سُراقة بن مالك المُدْلجي، وكان مِن أشراف كنانة، فقال لهم: لا غَالِبَ لكم اليومَ من الناس، وإني جارٌ لكم من أن تأتيكم كِنانة بشيءٍ تكرهُونه، فخرجوا والشيطانُ جارٌ لهم لا يُفارقهم، فلما انبعثوا للقتال، ورأىٰ عدوُّ الله جندَ الله قد نزلت مِن السماء، فرَّ، ونكَصَ علىٰ عقبيه، فقالوا: إلىٰ أين يا سُراقة ؟ ألم تكن قُلْتَ: إنك جار لنا لا تُفَارِقُنَا؟ فقال: إني أرىٰ ما لا ترون، إني أخاف اللهَ، واللهُ شديدُ العِقَاب[(٣)]، وصدق في قوله: إني أرىٰ ما لا ترون، وكذب في قوله: إني أخاف اللهَ.

(١) ١١٨ التبيان.

(٢) ٢٢٣ زاد المعاد جـ٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٨-٣١٩).

وقيل: كان خوفه على نفسه أن يَهْلِكَ معهم، وهذا أظهر.

ولما رأى المنافقون ومَن في قلبه مرض قِلَّة حزبِ الله وكثرةَ أعدائه، ظنُّوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، وقالوا: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فأخبر الله سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدد، والله عزيز لا يُغلَب، حكيم ينصر مَن يستحق النصر، وإن كان ضعيفاً، فعزتُه وحكمتُه أوجبت نصرَ الفئةِ المتوكِّلَةِ عليه.

ولما دنا العدو وتواجه القومُ، قام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم، وذكَّرهم بما لهم في الصبر والثباتِ مِن النصرِ، والظفرِ العاجِلِ، وثوابِ اللهِ الآجل، وأخبرهم «أن الله قد أوجبَ الجنة لمن استشهد في سبيلِهِ»، فقام عُمَيْرُ بنُ الحُمَام، فَقَالَ: يا رسولَ اللهِ؛ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّماواتُ والأَرْضُ؟ قال: «نَعَمْ». قال: بَخٍ بَخٍ يَا رَسولَ اللهِ. قالَ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ»؟ قال: لا واللهِ يا رَسُولَ اللهِ إلاَّ رَجَاءَ أنْ أكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» قال: فأَخرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يأكُلُ مِنْهُنَّ، ثم قال: لَئِنْ حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِن التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ[(١)]. فكان أول قتيل. وأخذ رسول الله ﷺ مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الحصباءِ، فَرَمَى بِهَا وجوهَ العَدُوِّ، فلم تترك رَجُلاً مِنهم إلاَّ ملأَتْ عينيه، وشُغِلُوا بالتراب في أعينهم، وشُغِلَ المسلمُونَ بقتلهم[(٢)]، فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. وقد ظن طائفة أن الآية دلَّت على نفي الفعل عن العبد، وإثباتِهِ لله، وأنه هو الفاعلُ حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة في غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لِرسوله ابتداءَ الرَّمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرميُ يُرادُ به: الحذفُ والإيصال، فأثبت

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠١) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٤٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٨، ١٠٠، ١٠٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٧٣ رقم ٨٩٠٧، ٨٩٠٨) والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٤ رقم ٤٠٥٦) وأبو يعلى (١٢/ ٦٦-٦٧ رقم ٦٧٠٨) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٤، ٨٤): رواه الطبراني وإسناده حسن، وانظر: فتح الباري (٧/ ١٦٩).

لنبيه الحذفَ، ونفى عنه الإيصال. وكانت الملائكة يومئذ تُبادِرُ المسلمين إلى قتل أعدائهم.

...[(١)] وأما قوله: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. فغاب عنهم فقه الآية وفهمها، والآية من أكبر معجزات النبي ﷺ، والخطاب بها خاص لأهل بدر. وكذلك القبضة التي رمى بها النبي ﷺ فأوصلها الله سبحانه إلى جميع وجوه المشركين، وذلك خارج عن قدرته ﷺ، وهو الرمي الذي نفاه عنه، وأثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته وهو الحذف، وكذلك القتل الذي نفاه عنهم هو قتل لم تباشره أيديهم، وإنما باشرته أيدي الملائكة فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس وإذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة الملك، ولو كان المراد ما فهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم في فهم النصوص لم يكن فرق بين ذلك وبين كل قتل وكل فعل...

[(٢)] فهذه الآية نزلت في شأن رميه ﷺ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء. فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ. فكان منه ﷺ مبدأ الرمي. وهو الحذف. ومن الله ﷻ: نهايته، وهو الإيصال. فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته.

ونظير هذا: قوله في الآية نفسها: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾. ثم قال: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] فأخبره: أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم. ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم. ولم يكن ذلك من رسوله. ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسبابًا ظاهرة، كدفع المشركين، وتولى دفعهم، وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافًا إليه وبه. وهو خير الناصرين.

---

(١) ٢٧٨ أعلام جـ٢.

(٢) ٤٢٦ مدارج جـ٣.

[1]وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال: ١٧] فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر علىٰ الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاء حسنًا إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله ولا ابتلاك، فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره غالبًا، كما في الحديث «إني مبتليك ومبتل بك»[2].

***

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

[3]قال ابن عباس: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَه، وَصَوْتُ الفَارِسِ فَوْقَهُ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُوم، إذْ نَظَرَ إِلَىٰ المُشْرِكِ أَمَامَهُ مُسْتَلْقِياً، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذلِكَ أجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّماءِ الثالثة»[4].

وقال أبو داود الأنصاري المَازِني: «إنِّي لأَتْبَعُ رَجُلاً مِن المُشْرِكِينَ لأَضْرِبَه، إذْ وَقَع رَأْسُه قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي»[5]. وجاء رجلٌ مِن الأنصار بالعبَّاسِ بنِ عبد المطلب أسيرًا، فقال العباسُ: إنَّ هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح، مِن أحسن النَّاسِ وجهًا، علىٰ فرسٍ أبْلَق، ما أراه في القومِ، فقال

(١) ٣٤٢ طرق الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) بلفظ: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك» وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤، ٤١٨).

(٣) ٢٢٤ زاد المعاد جـ٢.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٨٥).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٧٧) وأحمد (٥/ ٤٥٠) وقال الهيثمي (٦/ ٨٣): رواه أحمد وفيه رجل لم يسم.

الأنصاري: أنا أسرتُه يا رسول اللهِ، قال: «اسْكُتْ، فَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ»[(١)].

وأُسِر من بني عبد المطلب ثلاثة: العباسُ، وعقيلٌ، ونوفل بن الحارث.

وذكر الطبراني في معجمه الكبير عن رِفاعة بن رافع، قال: «لما رأى إبليسُ ما تفعَلُ الملائكةُ بالمشرِكِينَ يومَ بدر، أشفق أن يَخْلُصَ القتلَ إليه، فتشبَّثَ بِهِ الحارث بن هشام، وهو يظنُّه سُراقَةَ بنَ مالك، فوكز في صَدْرِ الحارث فألقاه، ثم خَرَجَ هارباً حتى ألقى نفسَه في البحر، ورفع يديه وقال: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ نَظرَتَكَ إيَّاي، وخاف أن يخلُصَ إليه القتل، فأقبل أبو جهل بن هشام، فقال: يا معشر النَّاسِ؛ لا يَهْزِمَنَّكُم خِذْلانُ سُرَاقَةَ إيَّاكُم، فإنَّهُ كَانَ عَلَى مِيعاد مِنْ مُحَمَّدٍ، ولا يَهولَنَّكُم قَتْلُ عُتْبَةَ وشَيْبَةَ والوَلِيدِ، فإنَّهُم قد عجلوا، فواللاَّتِ والعُزَّى، لا نرجِعُ حتى نَقْرِنَهُم بالحِبال، ولا أُلفِيَنَّ رَجُلاً مِنْكُم قَتَلَ رجلاً مِنهم، ولكن خُذوهم أخذاً حتى نُعرِّفَهم سوء صنيعهم»[(٢)]. واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم، فقال: اللَّهُمَّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه فأَحِنْهُ الغداة، اللَّهُمَ أَيُّنَا كان أحبَّ إليكَ، وأرضى عِنْدَكَ، فانصره اليومَ، فأنزل اللهُ ﷻ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)] [الأنفال: ١٩].

ولما وضع المسلمون أيدَيهم في العدو يقتلون ويأسِرون، وسعدُ بن معاذ واقفٌ على باب الخيمة التي فيها رسولُ اللهِ ﷺ وهي العَرِيشُ متوشّحاً بالسيف في ناسٍ مِن الأنصار، رأى رسولُ اللهِ ﷺ في وجهِ سعدِ بنِ معاذ الكراهية لما يصنَعُ الناسُ، فقالَ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٦-٣٥٧ رقم ٣٦٦٧٩) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٣٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٨/ ٢٤٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ٤٧ رقم ٤٥٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٧) ورواه الطبراني وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٥/ ٢٠٨-٢٠٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٥ رقم ٣٦٦٧٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ١٨٠-١٨١) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٧).

رسولُ اللهِ ﷺ: «**كأَنَّكَ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ**»؟ قال: أجَلْ واللهِ، كانت أولَ وقعةٍ أوقعها الله بالمشركين، وكان الإثخانُ في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال[(١)].

ولما بردت الحربُ، وولَّى القومُ منهزمينَ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَنْظُرُ لَنَا مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ**»؟ فانطلق ابنُ مسعودٍ، فوجَدَهُ قد ضَرَبَهُ ابنا عَفْراء حتَّى بَرَدَ، وأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ فقال: أَنْتَ أَبُو جَهْلٍ؟ فَقَالَ: لِمَن الدَّائِرةُ اليوم؟ فقال: للهِ وَلِرَسوله، وهَلْ أَخْزَاكَ اللهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ؟ فقال: وهل فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُهُ؟ فَقَتَلَهُ عبدُ اللهِ[(٢)]، ثم أتى النبي ﷺ، فقال: قتلتُه، فقال: «**آللهُ الَّذِي لا إله إلاَّ هُو**» فردَّدَهَا ثلاثاً، ثم قال: «**اللهُ أكبر، الحمد للهِ الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه**» فانطلقنا فأريته إياه، فقال: «**هذا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الأُمَّةِ**»[(٣)].

وأسر عبدُ الرحمن بنُ عوف أُمَيَّةَ بن خلف، وابنَه علياً، فأبصره بلالٌ، وكان أُمَيَّةُ يُعذِّبُه بمكة، فقال: رأسُ الكفر أُمية بن خلف؟ لا نَجَوْتُ إن نَجَا، ثم اسْتَصرخ جماعةً مِنَ الأَنْصَارِ، واشتد عبد الرحمن بهما يُحرِزهما مِنهم، فأدركُوهم، فشغَلَهم عَنْ أُمَيَّة بابنه، ففَرَغُوا مِنْه، ثم لَحِقُوهما، فقالَ لَهُ عَبْدُ الرحمن: ابرُك، فَبَرَكَ فأَلْقَى نَفْسَه عَلَيْهِ، فَضَربُوهُ بالسُّيُوفِ مِنْ تَحتِه حَتَّى قَتَلُوهُ، وأصابَ بعضُ السيوف رِجْلَ عبد الرحمن بن عوف[(٤)]، وقد كان قال له أُمية قبل ذلك: مَن الرَّجُلُ المُعَلَّمُ في صَدْرِهِ بِرِيشَةِ نَعَامَةٍ؟ فَقَالَ: ذَلِكَ حمزةُ بنُ عبد المطلب. فقال: ذَاكَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا الأفاعِيلَ[(٥)]، وَكانَ مع

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٨) وانظر: الثقات (١/ ١٦٩) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٣٨-٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٦٢، ٣٩٦٣) ومسلم (رقم ١٨٠٠) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٦٣، ١٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٠١) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ١٢٨).

(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٨ رقم ٢٥٤٨) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٧٦ رقم ٥٩٠٩) والطبراني في الكبير (٣/ ١٥٠ رقم ٢٩٥٧) والبزار (٣/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨١): رواه الطبراني وإسناده منقطع. وقال أيضًا رواه البزار من طريقين في إحداهما شيخه علي بن الفضل الكرابيسي ولم أعرفه وبقية رجالها رجال الصحيح والأخرى ضعيفة. وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٢٨٧).

عبدالرحمن أدراعٌ قد استلبها، فلما رآه أُمَيَّةُ قال له: أنا خَيْرٌ لَكَ مِنْ هذه الأدراع، فألقَاهَا وأخذه، فَلَمَّا قتله الأنْصَارُ، كَانَ يَقُولُ: «يَرْحَمُ اللهُ بِلالاً، فَجَعَنِي، بأدْرَاعِي وبِأَسِيري»(١).

وانقطع يومئذ سيفُ عُكَّاشَةَ بنِ مِحْصَنٍ، فأعطاهُ النبيُّ ﷺ جِذْلاً مِنْ حَطَبٍ، فَقَالَ: 'دُونَكَ هذَا'، فلما أخذه عُكَّاشَةُ وهزَّه، عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيض، فلم يزل عنده يُقاتِلُ به حتى قُتِلَ في الرِّدة أيامَ أبي بكر.

ولقي الزبيرُ عُبيدةَ بن سعيد بنِ العاص، وهو مُدَجَّجٌ في السلاح لا يُرَىٰ مِنه إلا الحَدَقُ، فحمل عليه الزبيرُ بحربته، فطعنه في عَينه، فمات، فوضع رجله على الحربة، ثم تمطَّى، فكان الجَهْدُ أن نزعها، وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إياها رسولُ الله ﷺ، فأعطاه إياها، فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، أخذَها، ثم طَلَبها أبو بكر، فأعطَاه إياها، فلما قُبِض أبو بكر، سأله إيَّاها عمر، فأعطاه إياها، فلما قُبِض عُمرُ، أخذها، ثم طلبها عثمان، فأعطاه إياها، فلما قُبِضَ عثمانُ، وقعت عِند آلِ علي، فطلبها عبدُ الله بن الزبير، وكانت عنده حتى قُتِلَ(٢).

وقال رِفاعةُ بنُ رافع: «رُمِيتُ بسهمٍ يومَ بدر، فَفُقِئَتْ عيني، فَبَصَقَ فيها رَسولُ الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء بعد»(٣).

ولما انقضتِ الحربُ، أقبلَ رسولُ الله ﷺ حَتَّى وقَفَ عَلَى القَتْلَى فقال: «بِئْسَ عَشيرةُ النبي كُنْتُم لِنَبِيِّكُم، كَذَّبْتُمُوني وصَدَّقَني النَّاسُ، وخَذَلْتَموني ونَصَرَني النَّاسُ، وأَخْرَجْتمُوني وآواني النَّاسُ». ثم أمر بهم، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ مِن قُلُب بدر، فطُرِحُوا

(١) انظر: الثقات (١/ ١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٩٨) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ١٠٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩/ ٥٩ رقم ٩١٢٤) وفي الكبير (٥/ ٤٢ رقم ٤٥٣٥) والبزار(٩/ ١٨١-١٨٢ رقم ٣٧٢٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٨٢): رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

فيه، ثم وقف عليهم، فقال: «يا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، ويا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، ويا فلانُ، ويا فُلانُ، هَل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ ربُّكم حَقّاً، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً»، فقال عُمَرُ بنُ الخطاب: يا رَسُولَ اللهِ؛ ما تُخَاطِبُ مِنْ أقوام قَدْ جَيَّفُوا؟ فقالَ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُم، وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الجَوَابَ». ثم أقامَ رسولُ اللهِ ﷺ بعرصتهم ثَلاثاً، و«كان إذا ظَهَرَ عَلَىٰ قَوْمٍ أَقَامَ بِعَرْصَتِهِم ثلاثاً»[1].

ثم ارتحل مؤيَّداً منصوراً، قريرَ العينِ بنصر الله له، ومعه الأسارىٰ والمغانمُ، فلما كان بالصَّفراء، قسمَ الغنائم، وضرب عُنُقَ النَّضْرِ بن الحارث بن كلدة[2]، ثُمَّ لما نَزَلَ بِعِرْقِ الظَّبْيَةِ، ضرب عُنُقَ عُقبةَ بن أبىٰ مُعَيْطٍ[3]. ودخل رسول الله ﷺ المدينةَ مؤيَّداً مظفَّراً منصوراً، قد خافه كُلُّ عدوٍ له بالمدينة وحولَها، فأسلم بَشَر كثير مِن أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أُبَيٍّ المنافقُ وأصحابُه في الإسلام ظاهراً.

وجملة مَن حضر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعةَ عشر رجلاً، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس أحدٌ وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون، وإنما قَلّ عَدَد الأوسِ عن الخزرج ـ وإن كانوا أشدَّ منهم، وأقوىٰ شوكَةً، وأصبرَ عند اللِّقاء ـ لأن منازِلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفيرُ بغتةً، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «لا يَتْبَعُنَا إلاَّ مَنْ كان ظَهْرُهُ حَاضِراً»، فاستأذنه رِجالٌ ظُهورُهم في عُلو المدينة: أن يستأنيَ بهم حتىٰ يذهبُوا إلىٰ ظهورهم، فأبىٰ[4] ولم يَكُن عَزْمُهُم عَلَىٰ اللِّقَاءِ، ولا أعدُّوا لهُ عدته، ولا تأهبوا له أهبتَه، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم علىٰ غير ميعاد. واستشهد من المسلمين يومئذ أربعةَ عشرَ رجلاً: ستةٌ من المهاجرينَ، وستة من الخزرج، واثنانِ من

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٣٩٧٦) ومسلم (رقم ٢٨٧٣، ٢٨٧٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٢-٣٠٤) وعمدة القاري (٨/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) انظر: تحفة الطالب لابن كثير (ص ٤٦٥-٤٦٦).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٦٤ رقم ١٧٨٠٥) وانظر: تلخيص الحبير (٤/ ١٠٨) ونيل الأوطار (٨/ ١٤).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠١) وانظر: شرح النووي (٣/ ٤٥).

الأوس، وفرغ رسولُ الله ﷺ من شأن بدر والأسارىٰ في شوَّال.

(١)وذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلىٰ جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس علىٰ التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه علىٰ تلك الحال، فلما رأىٰ ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم أنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان وفلان، وقتل فلان وفلان: التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك، كأني أنظر إليه كنت أرعىٰ به لسيدي رجل من بني ضمرة، فقال له جعفر: ما بالك جالسًا علىٰ التراب، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق، قال: إنا نجد فيما أنزل الله علىٰ عيسىٰ ﷺ: أن حقًّا علىٰ عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا، عندما أحدث الله لهم من نعمة. فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع(٢).

***

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣)إخباره سبحانه عن تركه بعض مقدوره لما يستلزمه من المفسدة، وأن المصلحة في تركه ولوكان الأمر راجعًا إلىٰ محض المشيئة لم يكن ذلك علة للحكم كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣] فعلل سبحانه عدم إسماعهم السماع الذي ينتفعون به وهو سماع الفهم. بأنهم لا خير فيهم يحسن معه أن يسمعهم، وبأن فيهم مانعًا آخر يمنع من الانتفاع بالمسموع لو سمعوه وهو الكبر والإعراض، فالأول: من باب تعليل عدم الحكم بعدم ما يقتضيه. والثاني:

(١) ١٤١ عدة الصابرين.
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٩٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٣٠).
(٣) ٢٠٣ شفاء.

من باب تعليله بوجود مانعه...

[(١)] وأما سماع الإجابة: ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: مستجيبون لهم. وفي قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي: مستجيبون له. وهو المراد، وهذا المراد بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده»[(٢)]، أي أجاب الله حَمْدَ من حمده، وهو السمع الذي نفاه الله ﷻ عمن لم يرد به خيرًا، في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا: يكون المعنى لأسمع قلوبهم. فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيرًا لأفهمهم، ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه[(٣)]. والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذنان.

[(٤)] ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم، ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويثبته أخرى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول بإسماعهم إياه، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه، والمعنى: ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم سمعا ينتفعون به، وهو فقهه المعنى وعقله، وإلا فقد سمعوه سمعًا تقوم به عليهم الحجة، ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه.

والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به، فينزل منزلة من لم يسمعه، قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] نفى

---

(١) ١٩٨ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٩) ومسلم (رقم ٣٩١).

(٣) يأتي إن شاء الله في سورة يونس الكلام على هذه الآية رقم ٣١، فلعله فيه زيادة فائدة (ج).

(٤) ١٠١ مفتاح جـ١.

عنه استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه، وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة، يقولون لا أطيق انظر إلى فلان، ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرته عنه.

وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم ولا دلالة فيها، إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذي تقوم به الحجة قطعا، وإنما المراد سلب السمع الذي يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق، ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ووضع الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان، ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك، لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه، فلا يكون ذلك عذرًا له.

ومن هذا قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] يعنون أنهم في ترك القبول منه ومحبة الاستماع لما جاء به وإيثار الإعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به، فهذا هو الذي يقولون لا خلود في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ولهذا جعل ذلك مقدورًا لهم وذنبًا اكتسبوه، فقال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

والله تعالى ينفي تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر، فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله. وتارة ينفي عنهم السمع والعقل. وتارة ينفي عنهم السمع والبصر. وتارة ينفي عنهم العقل والبصر.

وتارة ينفي عنهم السمع وحده، فنفي الثلاثة نفي لمدارك العلم بطريق المطابقة، ونفي بعضها نفي له بالمطابقة والآخر باللزوم، فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر، بل أصل فسادهما من فساده، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب، فإذا

أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدىٰ إلىٰ القلب ففسد، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر، فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده، فلهذا يجيء في القرآن نفي ذلك صريحا ولزوما، وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين....

...[1]إن الإنسان إنما يميز علىٰ غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلًا منه، وأقوىٰ بطشًا، وأكثر جماعًا وأولادًا، وأطول أعمارًا، وإنما ميز علىٰ الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب، وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقىٰ فيه فضل عليهم، بل قد يبقىٰ شرًّا منهم، كما قال تعالىٰ في هذا الصنف من الناس: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] فهؤلاء هم الجهال ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلًا للخير (لأسمعهم)، أي: لأفهمهم، والسمع ههنا سمع فهم، وإلا فسمع الصوت حاصل لهم، وبه قامت حجة الله عليهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، وسواء كان المعنىٰ ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتًا مجردة أو كان المعنىٰ: ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها، فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء، فالقولان متلازمان بل هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلىٰ اللفظ وأبلغ في المعنىٰ، فعلىٰ التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

والسمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن.

فمن **الأول** قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل: سمع ويسمع وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات[١]. لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[٢].

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان: إحداهما: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي قابلون مستجيبون، ومنه قوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: قابلون له مستجيبون لأهله، ومنه قول المصلي: «**سمع الله لمن حمده**» أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء. من دعاه وقول النبي ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم**»[٣] أي يجيبكم.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (ص ١٤٠٨) طبعة بيت الأفكار الدولية.

(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص٨٥) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٦-٥٣٧ر قم ٢٣) والطبري في تفسيره (٢٨/ ٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٢ رقم ١٨٨٣٩) وابن ماجه (رقم ١٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٠٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨٣-٢٨٤) وشرح النووي (٤/ ١٢١).

والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيرًا منه، لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل. اهـ.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٢٤) ﴾.

(١) أخبر ﷻ أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم، فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم. فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢] ولقد أحسن القائل:

وفي الجهل، قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم، قبل القبور، قبورُ
وأرواحهم في وحْشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ(٢)

(٣) قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[الأنفال: ٢٤].

فتضمنت هذه الآية أمورًا، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا. فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل

---

(١) ٢٢ إغاثة جـ١.

(٢) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى علي بن أبي طالب ﷺ، بينما ذكرهما القرطبي في تفسيره، وعزاهما لبعض شعراء البصرة (٧/ ٧٨) وفي صدر البيت الثاني: وإن امرءًا لم يحي بالعلم ميت.

(٣) ٨٧ فوائد.

الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول. قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة[(١)]. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر. وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير: واللفظ له: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقوّاكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم[(٢)].

هذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرًا وباطنًا. قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد. وهو قول ابن إسحاق، واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم يريد أن أمرهم إنما يقوي بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم، واجترأ عليهم عدوهم. قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة.

أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد.

وأما في البرزخ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الشهادة.

وقال بعض المفسرين: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الجنة. فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢١٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٨٠ رقم ٨٩٥٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٨) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٧).

والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة. وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة. والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة:

حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضرّه. ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك. ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك.

وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل، والغي والرشاد، والهوى والضلال، فيختار الحق على ضده. فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال. وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل. فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم. فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب. فإذا بطلت حياته بطل تمييزه. وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك، الذي هو رسول الله من روحه، فيصير حيا بذلك النفخ. وكان قبل ذلك من جملة الأموات. وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقي إليه، قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان. ومن

حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجمع له بين النور والحياة، كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافرًا ضالا فهديناه[١]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشي في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره، فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين. وفي الآية قول آخر: أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتادة، وكان هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه.

وعلى القول الأول، فوجه المناسبة: أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن يحول الله بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٥١-٣٥٢) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وأخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٦٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ٣٨١ رقم ٧٨٥١) دون ذكر: فهديناه.

علىٰ تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

(١)وقال تعالىٰ: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. أي: إن تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا تقدرون علىٰ الاستجابة بعد ذلك.

(٢)قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ووجه الاستدلال أن هذا أمر لكل مؤمن بلغته دعوة الرسول ﷺ إلىٰ يوم القيامة، ودعوته نوعان: مواجهة ونوع بواسطة المبلغ وهو مأمور بإجابة الدعوتين في الحالتين، وقد علم أن حياته في تلك الدعوة والاستجابة لها، ومن الممتنع أن يأمره الله تعالىٰ بالإجابة لمالا يفيد علماً أو يحييه بما لا يفيد علمًا أو يتوعده علىٰ ترك الاستجابة لما لا يفيد علمًا بأنه إن لم يفعل عاقبه وحال بينه، وبين قلبه.

(٣)ومنها: أن الرجل إذا أتيحت له فرصة القربة والطاعة، فالحزم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجز: في تأخيرها، والتسويف بها، ولاسيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض، قلَّما تثبت. والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته، عقوبة له، فمن لم يستجب لله ولرسوله ـ إذا دعاه ـ حال بينه وبين قلبه وإرادته، ولا يمكنه الاستجابة بعد ذلك، قال الله تعالىٰ:

---

(١) ٣١ شفاء.

(٢) مختصر الصواعق جـ٢.

(٣) ٣٧ زاد المعاد جـ٣.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] وهو كثير في القرآن.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(١)هذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠] والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.

(٢)وقال مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية(٣). وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق.

(٤)ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعزّ، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر الفرقان بهذا وبهذا...

***

(١) ٣٧ التبيان.

(٢) ٢٥٨ أعلام جـ٤.

(٣) ذكر هذا القول النووي في تهذيب الأسماء (١/ ٦٩، ٧٨).

(٤) ١٢٩ الفوائد.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

(١) وتأمل قوله تعالى لنبيه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] كيف يفهم منه أنه إذا كان وجودُ بدنه وذاته فيهم دفع عنهم العذاب وهم أعداؤه، فكيف وجود سره والإيمان به ومحبته ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص؟ أفليس دفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحرى؟

(٢) وأما «الاستغفار» فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠، ١١] وكقول صالح لقومه: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦] وكقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

والمقرون كقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣]، وقول هود لقومه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح لقومه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره.

لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له

(١) ٢٢٦ أعلام جـ١.

(٢) ٣٠٧ مدارج جـ١.

ولكن الستر لازم مسماها، أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى، وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرًا ولا القبع ونحوه مع ستره، فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإن الله لا يعذب مستغفرًا.

وأما من أصر على الذنب وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه فالتوبة: العزم على أن لا يفعله.

والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى.

ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء والرجوع إلى غيره فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين ولهذا جاء والله أعلم الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ [هود: ٣]، فإنه الرجوع إلى طريق الحق: بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن

يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده، والله أعلم.

***

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[1]قال تعالى عن الكفار: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥] قال ابن عباس، وابن عمر. وعطية، ومجاهد، والضحَّاك، والحسن، وقتادة «المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق»[2]. وكذلك قال أهل اللغة: المكاء: الصفير، يقال: مكا، يمكو، مكاء، إذا جمع يديه ثم صفر فيهما، ومنه: مكت است الدابة، إذا خرجت منها الريح بصوت[3]. ولهذا جاء على بناء الأصوات، كالرغاء، والعواء، والثغاء. قال ابن السكيت: الأصوات كلها مضمومة، إلا حرفين: النداء، والغناء[4].

وأما التصدية: فهي في اللغة: التصفيق، يقال: صدى يصدي تصدية، إذا صفق بيديه. قال حسان بن ثابت، يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم:

إِذَا قَامَ المَلَائِكَةُ انْبَعَثْتُمْ صَلَاتُكُمُ التَّصَدِّى وَالمُكَاءُ[5]

وهكذا الأشباه يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع، وهم في الصفير والتصفيق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، ويصفرون ويصفقون». وقال مجاهد: «كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويصفرون

(١) ٢٤٤ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٤١-٢٤٢) والمقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ١١٧ رقم ١١٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٦) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٤٠) وغريب الحديث للحربي (٢/ ٤٩١).

(٤) ذكره عنه ابن منظور في اللسان (١٥/ ٢٨٩).

(٥) هذا البيت من بحر الوافر. وذكر عجز البيت ابن منظور في اللسان (١٥/ ٢٨٩).

ويصفقون، يخلطون عليه صلاته وطوافه»[١]، ونحو ذلك عن مقاتل. ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا.

فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول، وإخوانهم المخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثاني. قال ابن عرفة، وابن الأنباري: المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها: المكاء والتصدية، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار، وهذا كقولك: زرته، فجعل جفائي صلتي، أي أقام الجفاء مقام الصلة.

والمقصود: أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم، بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم.

والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح، لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً؟

***

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

[٢]الفتنة بعشق الصورة تنافي أن يكون دين العبد كله لله، بل ينقص من كون دينه لله بحسب ما له من فتنة العشق، وربما أخرجت صاحبه من أن يبقى معه شيء من الدين لله. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله، فكل منهما يناقض الآخر.

---

(١) أخرجه الطبري في تفيسره (٩/ ٢٤١) من قول سعيد بن جبير رحمه الله وانظر: النهاية (٣/ ٣٨)، واللسان (١٠/ ٢٠١). .

(٢) ١٥٨ إغاثة جـ٢.

والفتنة قد فسرت بالشرك، فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك، وإما من أسباب الشرك. وهي جنس تحته أنواع من الشبهات، والشهوات، وفتنة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن، ومنه فتنة أصحاب العِجْل، كما قال تعالى لموسى: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾ [طه: ٨٥].

***

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[1] اللام في قوله: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢] فلام التعليل على بابها، فإنها مذكورة في بيان حكمته؛ في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد، ونصرة أوليائه مع قلتهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم، على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد، الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم، فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه؛ ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة؛ فلا يكون له على الله حجة ويحيى من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة، فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم.

ونظير هذا قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

---

(١) ١٩٣ شفاء.

[(١)] بين رعاية الحقوق مع الضر، ورعايتها مع العافية؛ بون بعيد. «**إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه**»[(٢)] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف في الخدمة، غير متخلف بما يقدر عليه.

[(٣)] قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦] فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء؛ ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت وإن قلت وكثر عددها: أحدها: الثبات. الثاني: كثرة ذكره ﷻ. الثالث: طاعته وطاعة رسوله. الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم: كالحزمة من السهام، لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها. الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر.

فهذه خمسة أشياء تبتنى عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضًا، وصار لها أثر عظيم في النصر، ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم، وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد والبلاد، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المستعان وعليه التكلان.

***

---

(١) ١٦٩ فوائد.

(٢) أخرجه مرفوعًا من قول الله ﷻ الترمذي (رقم ٣٥٨٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ١٥١ رقم ٢٦٨٩).

(٣) ١٢٩ الفروسية.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

[1]من كيده[2] للإنسان: أنه يورده الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرهُ المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]. فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم، وأسلمهم، كما قال حسان:

دَلاهُمُ بِغُرُورٍ، ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ ... إِنَّ الخبِيثَ لمنْ وَالاهُ غَرَّارُ[3]

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دل أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فر عنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦]. وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته، فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿ إِنِّي

(١) ١٠٨ إغاثة جـ١.

(٢) أي الشيطان الرجيم، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه.

(٣) هذا البيت من بحر البسيط وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٩٥) والشنقيطي في أضواء البيان (١٠٣/٢).

كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فأوردهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس، في قول عدو الله: ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ فقال قتادة وابن إسحاق: «صدق عدو الله في قوله: ﴿ إِنِّيَ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ وكذب في قوله: ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، فأوردهم وأسلمهم. وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه»(١).

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالىٰ به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة». وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانًا ولا نجاة.

قال الكلبي: «خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه».

وهذا فاسد، فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فر ونكص علىٰ عقبيه، إلا أن يريد أنه إذا عرف المشركون أن الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك، وقد أبعد النجعة إن أراد ذلك، وتكلف غير المراد.

وقال عطاء: «إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك»، وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه. وقال الزجاج وابن الأنباري: «ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر ـ زاد ابن الأنباري ـ قال: أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر فيقع بى العذاب، فإنه لما عاين الملائكة خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضىٰ، فقال ما قال إشفاقًا علىٰ نفسه».

***

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة في تفسيره (٥/ ١٧١٦ رقم ٩١٦٤) وانظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٩) وتفسير السيوطي (٤/ ٧٩).

(١)من الآفات الخفية العامة: أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله ـ أنه خير له منها، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعًا بتلك النعمة وسخطها وتبرّم بها واستحكم ملله لها سلبه الله إياها، فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه. وصار إليه، اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان فيه.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا ورشدًا أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته، عاجز عنها مفوض إلى الله، طالب منه حسن اختياره له. وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله، فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدّها مصيبة، هذا وهي من أعظم نعم الله عليه، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلًا وظلمًا.

فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساع في ردها بجهده، وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فليس للنعم أعدى من نفس العبد، فهو مع عدوه ظهير على نفسه، فعدوه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها، فهو الذي مكّنه من طرح النار، ثم أعانه بالنفخ، فإذا اشتدّ ضرامها استغاث من الحريق، وكان غايته معاتبة الأقدار:

وَعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْياعٌ لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ القَدَرَا(٢) اهـ.

---

(١) ١٨٠ فوائد.

(٢) هذا البيت من بحر البسيط وينسب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله. من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، عاش فقيرًا صابرًا مغمورًا في الناس من مؤلفاته كتاب العين مات رحمه الله سنة ١٧٠هـ وذكر البيت الجاحظ في الأمل والمأمول (ص٢٢) وابن عبد ربه في العقد الفريد (١/ ١٠٣)، والراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (١/ ٣١).

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(١)قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال تعالىٰ في حق المؤمنين: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال فيهم: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [النساء: ١٠٤]، أي: لا تضعفوا. وقال: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن**»(٢)، وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من الجبن، والجبن خلق مذموم عند جميع الخلق، وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله. وأهل الشجاعة والجود هو أهل حسن الظن بالله، كما قال بعض الحكماء في وصيته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهل حسن الظن بالله. والشجاعة جنة للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه علىٰ نفسه، فهو جند وسلاح يعطيه عدوه ليحاربه به.

وقد قالت العرب: الشجاعة وقاية والجبن مقتلة.

وقد أكذب الله سبحانه أطماع الجبناء في ظنهم أن جبنهم ينجيهم من القتل والموت، فقال الله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ [الأحزاب: ١٦]. ولقد أحسن القائل:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لن تراعي

---

(١) ١٢٥ الفروسية.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٢٧) وشرح النووي (٦/ ٢١٥).

فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعي
وما ثوب الحياة بثوب عز ... فيطوي عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي ... وداعيه لأهل الأرض داعي[1]

واعتبر ذلك في معارك الحروب بأن من يقتل مدبرا أكثر ممن يقتل مقبلًا. وفي وصية أبي بكر الصديق[2] لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة، وقال خالد بن الوليد: حضرت كذا وكذا زحفًا في الجاهلية والإسلام وما في جسدي موضع إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف، وها أنا ذا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء[3]. ولا ريب عند كل عاقل أن استقبال الموت إذا جاءك خير من استدباره، قال حسان:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[4]

[5]فإذا قلت: علمت فمطلوبها ثلاثة معان: محل وصفة وإضافة الصفة إلى المحل،

(١) ذكر هذه الأبيات الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥١-١٥٢) ونسبها إلى قطري بن الفجاءة التميمي المازني البطل المشهور رأس الخوارج، خرج زمن ابن الزبير وهزم الجيوش واستفحل بلاؤه، جهّز إليه الحجاج جيشًا بعد جيش فيكسرهم وغلب على بلاد فارس، وله وقائع مشهودة وشجاعة لم يسمع بمثلها وشعر فصيح سائر، وفي السير بيت ثالث سقط من هنا:

فصبرًا في مجال الموت صبرًا ... فما نيل الخلود بمستطاع

(٢) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٢٥٦).

(٣) ذكره المزي في تهذيبه (٨/ ١٨٩)، والذهبي في سيره (١/ ٣٨٢)، وابن عساكر في تاريخه (١٦/ ٢٧٣) وابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٤٣٠)، والنووي في تهذيب الأسماء (١/ ١٧٥).

(٤) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الحصين بن حمام الفزاري، شاعر فارسي جاهلي سيد بني سهم بن مرة، لقب (مانع الضيم) في شعره حكمة نبذ عبادة الأوثان، مات سنة ١٠هـ قبل الهجرة. ورد أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قاله لما أصابته آجرة من جنود الحجاج بن يوسف ـ في مفرقه حتى فلقت رأسه، فوقف قائمًا وهو يقول: وذكر البيت، انظر: حلية الأولياء (١/ ٣٣٢، ٣٣٣) وتاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٢٣، ٢٢٤) والاستيعاب (٣/ ٩٠٨) وصفة الصفوة (١/ ٧٧٠) وتاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٣/ ٢٩) وأخبار مكة للفاكهي (٢/ ٣٥٩).

(٥) ٦٢ بدائع.

وهن ثلاث معلومات إذا عرف هذا فقال بعض المتكلمين: لا يضاف إلى الله سبحانه إلا العلم لا المعرفة، لأن علمه متعلق بالأشياء كلها مركبها ومفردها تعلقًا واحدًا بخلاف علم المحدثين، فإن معرفتهم بالشيء المفرد، وعلمهم به غير علمهم ومعرفتهم لشيء آخر، وهذا بناء منه على أن الله تعالى يعلم المعلومات كلها بعلم واحد وأن علمه بصدق رسول الله ﷺ هو عين علمه بكذب مسيلمة. والذي عليه محققو النظار خلاف هذا القول، وأن العلوم متكثرة متغايرة بتكثر المعلومات وتغايرها، فلكل معلوم علم يخصه، ولإبطال قول أولئك وذكر الأدلة الراجحة على صحة قول هؤلاء مكان هو أليق به، وعلى هذا فالفرق بين إضافة العلم إليه تعالى وعدم إضافة المعرفة لا ترجع إلى الإفراد والتركيب في متعلق العلم، وإنما ترجع إلى نفس المعرفة ومعناها، فإنها في مجاري استعمالها إنما تستعمل فيما سبق تصوره من نسيان أو ذهول أو عزوف عن القلب، فإذا تصور وحصل في الذهن قيل: عرفه أو وصف له صفته ولم يره، فإذا رآه بتلك الصفة وتعينت فيه. قيل: عرفه، ألا ترى أنك إذا غاب عنك وجه الرجل ثم رأيته بعد زمان فتبينت أنه هو، قلت: عرفته وكذلك عرفت اللفظة، وعرفت الديار، وعرفت المنزل، وعرفت الطريق.

وسر المسألة أن المعرفة لتمييز ما اختلط فيه المعروف بغيره فاشتبه، فالمعرفة تمييز له وتعيين، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] فإنهم كان عندهم من صفته قبل أن يروه ما طابق شخصه عند رؤيته، وجاء كما يعرفون أبناءهم من باب ازدواج الكلام وتشبيه أحد اليقينين بالآخر فتأمله، وقد بسطنا هذا في كتاب التحفة المكية، وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف، وأما ما زعموا من قولهم: إن علمت قد يكون بمعنى عرفت، واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] وبقوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد، وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر

علىٰ أنه قد قال بعض الناس: إن تعدي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلىٰ مفعول واحد لا يخرجها عن كونها علمًا علىٰ الحقيقة، فإنها لا تتعدىٰ إلىٰ مفعول واحد علىٰ نحو تعدىٰ عرفت، ولكن علىٰ جهة الحذف والاختصار، فقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم، وما تقدم من الكلام يدلك علىٰ ذلك، وكذلك قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾، فربما كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلىٰ الموصوف لا بعينه وذاته، قال هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنىٰ عرفت من أجل أنها متعدية إلىٰ مفعول واحد في اللفظ، كمثل من يقول: إن سألت يتعدىٰ إلىٰ غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار، ويحتج بقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف، وكذلك ما تقدم، وليس ما قاله هؤلاء بقوي، فإن الله سبحانه نفىٰ عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين، هذا صريح اللفظ، وإنما جاء نفي معرفة نفاقهم من جهة اللزوم، فهو ﷺ كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين، وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده، وقد انطووا علىٰ النفاق، وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل علىٰ ذلك بوجه، والظاهر بل المتعين أنه ﷺ لو عرف أشخاصهم لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول، ولم يكن يخفىٰ عليه نفاق من يظهر له الإسلام، ويبطن عداوته وعداوة الله ﷻ.

والذي يزيد هذا وضوحًا الآية الأخرىٰ، فإن قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ فيهم قولان:

أحدهما: إنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس علىٰ محاربة الله ورسوله، وعلىٰ هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنىٰ المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم، كما أمكن مثله في الإنس.

والقول الثاني: إنهم المنافقون وعلى هذا فقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم لا على معرفة نفاقهم، لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين، يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب، فيكون كقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فتأمله.. ويزيده وضوحًا أن هذه الأفعال لا يجوز فيها الاقتصار على أحد المفعولين، بخلاف باب أعطى وكسا للعلة المذكورة هناك، وهي تعلق هذه الأفعال بالنسبة، فلابد من ذكر المنتسبين بخلاف باب أعطى، فإنه لم يتعلق بنسبة، فيصح الاقتصار فيه على أحد مفعولين، وهذا واضح كما تراه، والله تعالى أعلم.وأما تنظيرهم ل سألت الحائط والدار فيا بعد ما بينهما، فإن هذا سؤال بلسان الحال وهو كثير في كلامهم جدًّا، على أنه لا يمتنع أن يكون سؤالا بلسان المقال صريحا كما يقول الرجل للدار الخربة: ليت شعري ما فعل أهلك؟! وليت شعري ما صيرك إلى هذه الحال؟! وليس هذا سؤال استعلام بل سؤال تعجب وتفجع وتحزن وأما قوله: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ فالقرية إن كانت هنا اسما للسكان كما هو المراد بها في أكثر القرآن الكريم والكلام، فلا مجاز ولا حذف، وإن كان المراد بها المسكن فعلى حذف المضاف، فأين التسوية والتنظير؟

قولهم: علمت وظننت يتعدى إلى مفعولين، ليس هنا مفعولان في الحقيقة، وإنما هو المبتدأ والخبر، وهو حديث إما معلوم وإما مظنون، فكان حق الاسم الأول أن يرتفع بالابتداء، والثاني بالخبر ويلغى الفعل؛ لأنه لا تأثير له في الاسم، إنما التأثير لعرفت الواقعة على الاسم المفرد تعيينًا وتمييزًا، ولكن أرادوا تشبث علمت بالجملة التي هي الحديث، كيلا يتوهم الانقطاع بين المبتدأ وبين ما قبله.

***

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

(١)تأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضًا، ويميل إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره.

(٢)قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: اللَّهُ وحده كافيك، وكافي أتباعِك، فلا تحتاجون معه إلىٰ أحد. وهنا تقديران:

أحدُهما: أن تكون الواو عاطفة لـ«مَنْ» علىٰ الكاف المجرورة، ويجوز العطف علىٰ الضمير المجرور بدون إعادة الجار علىٰ المذهب المختار، وشواهدُه كثيرة، وَشُبَهُ المنع منه واهِية.

والثاني: أن تكون الواو وَاوَ «مع» وتكون «مَن» في محل نصب عطفاً علىٰ الموضع، فإن «حسبك» في معنىٰ «كافيك»، أي: اللَّهُ يكفيك ويكفي مَنِ اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم، قال الشَّاعر:

إِذَا كَانَـتِ الهَيْجَـاءُ وَانْـشَقَّتِ العَـصَا   فَحَـسْبُكَ وَالـضحَّاكَ سَـيْفٌ مُهَنَّـد(٣)

وهذا أصحُّ التقديرين. وفيها تقدير ثالث: أن تكون «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء، أي: ومن اتبعك من المؤمنين، فحسبُهُم اللهُ. وفيها تقدير رابع، وهو خطأ من جهة المعنىٰ، وهو أن تكون «مَنْ» في موضع رفع عطفاً علىٰ اسم الله، ويكون المعنىٰ:

---

(١) ٥٧ شفاء.

(٢) ٣ زاد المعاد جـ١.

(٣) ذكر البيت ابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ١٦١) وابن منظور في لسان العرب (٢/ ٣٩٥) (١٥/ ٦٦) والقرطبي في التفسير (١/ ٤١٩) (٨/ ٤٢) والشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٣١٥).

حسبُك اللّه وأتباعُك، وهذا ـ وإن قاله بعضُ الناس ـ فهو خطأ محض، لا يجوز حملُ الآية عليه، فإن الحسب و الكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوىٰ والعبادة.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢]. ففرَّق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسبَ له وحدَه، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنىٰ اللّه سبحانه علىٰ أهل التوحيد والتوكل مِن عباده، حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولَهم، ومدح الرب تعالىٰ لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعُك حسبُك، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالىٰ بالحسب، ولم يُشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يُشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟! هذا مِن أمحل المحال وأبطل الباطل.

ونظيرُ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسبَ له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسولُه، بل جعله خالصَ حقِّه، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩]. ولم يقل: وإلىٰ رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحدَه، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨]، فالرغبةُ، والتوكل، والإنابةُ، والحسبُ للهِ وحده، كما أن العبادةَ والتقوىٰ، والسجود لله وحدَه، والنذر والحلف لا يكون إلا لله ﷻ.

ونظيرُ هذا قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]. فالحسبُ: هو الكافي، فأخبر ﷻ أنّه وحده كافٍ عبدَه، فكيف يجعل أتباعه مع اللّه في هذه الكفاية؟!

والأدلة الدَّالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر هاهنا.

والمقصودُ: أنه بحسب متابعة الرسول تكونُ العزَّة والكفاية والنُّصرة، كما أن بحسب متابعته تكونُ الهدايةُ والفلاح والنجاة، فاللّه سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شَقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدىٰ والأمن، والفلاحُ والعزَّة، والكفاية والنصرة، والوِلاية والتأييد، وطيبُ العيش في الدنيا والآخرة.

ولمخالفيه الذِّلةُ والصَّغار، والخوفُ والضلال، والخِذلان والشقاءُ في الدنيا والآخرة.

[1]تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف، ثم التيسير في آخره بعد توطين النفس على العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه وتوطين نفسه على الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه.

فمن ذلك أمر الله تعالىٰ رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء، ثم خففها وتصدق بجعلها خمسًا. ومن ذلك انه أمر أولا بصبر الواحد إلى العشرة ثم خفف عنهم ذلك إلى الاثنين. ومن ذلك أنه حرم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر. ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله ﷺ، فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك خففه عنهم. ومن ذلك تخفيف الاعتداد بالحول بأربعة أشهر وعشرًا.

وهذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر فقد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر، يشدد على العبد أولًا ثم يخفف عنه وحكمته تسهيل الثاني بالأول، وتلقي الثاني بالرضىٰ وشهود المنة والرحمة. وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبًا من هذا، فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جدًّا، الذي ربما عجزوا عنه، ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذلة ويسهل عليهم.

(١) ١٨٣ بدائع جـ٣.

وقد يفعل بعض الحمالين قريبًا من هذا، فيزيدون على الحمل شيئا لا يحتاجون إليها، ثم يحط تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم.

والمقصود أن هذا باب من الحكمة خلقًا وأمرا، ويقع في الأمر والقضاء والقدر أيضا ضد هذا، فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه، لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تحمله ولا تنقاد له.

وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة. وكذلك المحرمات، ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولا ركعتين ركعتين، فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر. ومن هذا أنهم أمروا أولا بالصيام، وخيروا فيه بين الصوم عينا وبين التخيير بينه وبين الفدية، فلما ألفوه أمروا بالصوم عينًا. ومن هذا أنهم أذن لهم بالجهاد أولًا من غير أن يوجبه عليهم، فلما توطنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أمروا به فرضًا.

وحكمة هذا التدريج التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئا فشيئا، وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره المقدر على عبده، بل لا بد منه اقتضاء حمده وحكمته، فيبتليه بالأخف أولًا ثم يرقيه إلى ما هو فوقه، حتى يستكمل ما كتب عليه منه. ولهذا قد يسعى العبد في أول البلاء في دفعه وزواله ولا يزداد إلا شدة، لأنه كالمرض في أوله وتزايده، فالعاقل يستكين له أولا وينكسر ويذل لربه، ويمد عنقه خاضعا ذليلا لعزته، حتى إذا مر به معظمه وغمرته، وأذن ليله بالصباح فإذا سعى في زواله ساعدته الأسباب، ومن تأمل هذا في الخلق انتفع به انتفاعًا عظيمًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

(١) في هديه ﷺ في الأسارىٰ كان يَمُنُّ علىٰ بعضهم، ويقتُلُ بعضَهُم، ويُفادِي بعضَهم بالمال، وبعضَهم بأسرىٰ المسلمينَ، وقد فعل ذلك كلَّه بِحَسَبِ المصلحة، ففادَىٰ أسارىٰ بدرٍ بمالٍ، وقَالَ: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي في هؤلاءِ النَّتْنَىٰ، لَترَكْتُهُم له»[٢].

وهبطَ عليه في صُلحِ الحديبية ثمانون متسلِّحُونَ يُرِيدون غِرَّته، فأسرهم ثمَّ مَنَّ عليهم[٣]. وأسرَ ثُمامةَ بن أثال سيِّدَ بني حَنيفَةَ، فرَبَطَه بِسَارِيَةِ المَسْجِدِ، ثم أطلقه فأسلم[٤].

واستشار الصحابة في أسارىٰ بدر، فأشار عليه الصِّدِّيقُ أن يأخُذَ منهم فِديةً، تكونُ لهم قوةً علىٰ عَدوِّهم، ويُطلِقَهم لعلَّ اللهَ أن يَهدِيهم إلىٰ الإسلام. وقال عمر: لا واللهِ، ما أرىٰ الَّذِي رأىٰ أبُو بكر، ولكن أَرىٰ أن تُمَكِّنَنَا فَنضرِبَ أعناقَهم، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكفرِ وصناديدُها، فَهَوِيَ رسولُ اللهِ ﷺ ما قال أبُو بكر، ولم يَهْوَ ما قال عُمَرُ، فلما كان مِن الغد، أقبلَ عُمَرُ، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ يَبكىٰ هو وأبُو بكر، فقال: يا رَسُولَ اللهِ ؛ مِن أيِّ شيءٍ تبكىٰ أنتَ وصاحِبُكَ، فإن وجدتُ بُكاءً بَكَيْتُ، وإن لم أَجِدْ بكاءً تباكَيْتُ لبكائكما؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَليَّ أَصْحَابُك مِنْ أَخْذِهم الفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهم أدْنَىٰ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرة، وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٥] [الأنفال: ٦٧]».

وقد تكلَّمَ النَّاسُ، في أيِّ الرأيينِ كان أصوَبَ؟ فرجَّحتْ طائفةٌ، قولَ عُمَرَ لهذا الحديث، ورجَّحت طَائِفةٌ قولَ أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقتِهِ الكِتابَ الذي

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ٢.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٣٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٤٣).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٨٠٨) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٦).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٩) ومسلم (رقم ١٧٦٤) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٨٧).
(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣).

سَبَقَ مِن اللهِ بإحلالِ ذلك لهم، ولِموافقته الرحمة التي غلبتِ الغضب[١]، ولتشبيه النبيِّ ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى[٢] ولِحصول الخيرِ العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئكَ الأسرى، ولخروجِ مَن خرج مِن أصلابهم مِن المسلمين، ولِحصولِ القوة التي حصلت لِلمسلمين بالِفداء، ولموافقةِ رَسولِ اللهِ ﷺ لأبي بكر أوّلاً، ولِموافقةِ اللهِ له آخرًا، حيثُ استقر الأمرُ على رأيه، ولِكمال نظر الصِّدِّيق، فإنه رأى ما يستقِرُّ عليه حُكْمُ اللهِ آخِراً، وغلَّب جانبَ الرحمةِ على جانبِ العُقُوبة.

قالوا: وأما بكاءُ النبيِّ ﷺ، فإنَّمَا كان رحمةً لِنزول العذابِ لمن أراد بذلك عرضَ الدنيا، ولم يُرِدْ ذَلِكَ رسولُ اللهِ ﷺ، ولا أبو بكر، وإن أرادَه بعضُ الصحابة، فالفتنةُ كانت تَعُمُّ ولا تُصيبُ مَن أرادَ ذلك خاصةً، كما هُزِمَ العسكرُ يومَ حُنَين بقول أحدهم: «لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ مِن قِلَّةٍ»[٣] وبإعجاب كثرتهم لِمن أعجبته منهم، فهزم الجَيْشُ بذلك فِتنة ومحنة، ثم استقر الأمرُ على النصر والظفر.. واللهُ أعلم.

واستأذنه الأنصارُ أن يترُكُوا لِلعباس عَمِّهِ فِدَاءَه، فَقَالَ: «لا تَدَعُوا مِنْهُ دِرْهَمَاً»[٤].

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجه البخاري (رقم ٣١٩٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤١٢).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «وإن مثلك يا أبابكر كمثل إبراهيم ﷺ، قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]» أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣) والطبري في تفسيره (١٠/ ٤٣) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٢١ رقم ١٢٦٢٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٩ رقم ٣٦٦٩٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٠١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٧) وتحفة الأحوذي (٥/ ١٣٩) وعون المعبود (٧/ ١٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٢٩٥).

واستوهب مِن سلمة بنِ الأكوع جارية نَفَلَه إيَّاها أبو بكر في بعض مغازيه، فوهبها له، فبعثَ بها إلىٰ مكَّة، ففدىٰ بها ناساً مِن المسلمين(١)، وفدىٰ رجلين من المسلمين برجل من عقيل، ورد سبي هوازن عليهم بعد القِسْمَةِ.

قال تعالىٰ: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٨] وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق، فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد الحجة لعاقبكم. وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم. وقال آخرون ـ وهو الصواب ـ: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنفال

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٥٥).

سُورَةُ التَّوْبَة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ .

[١] قال ابن إسحاق: ثم أقام رسولُ الله ﷺ منصرَفه مِن تَبُوك بقيةَ رمضانَ وشوَّالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنةَ تسع، لِيقيم للمسلمين حَجَّهم، والناس من أهل الشِّرك على منازلهم من حَجِّهم، فخرج أبو بكر والمؤمنون.

قال ابن سعد: فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة، قلَّدها وأشعرها بيده، عليها ناجية بن جُندب الأسلمي، وساق أبو بكر خمس بدنات[٢].

قال ابن إسحاق: فنزلت براءة في نقضِ ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين مِن العهد الذي كانوا عليه، فخرج عليٌّ بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ العضباء.

قال ابن سعد: فلما كان بالعَرْج وابن عائذ يقول: بضَجَنان لحقه عليٌّ بن أبي طالب على العضباء، فلما رآه أبو بكر، قال: أميرٌ أو مأمورٌ؟ قال: لا بل مأمور، ثم مضيا.

وقال ابن سعد: فقال له أبو بكر: أستعملك رسولُ الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس، وأنبذ إلى كل ذي عَهدٍ عهده[٣]، فأقام أبو بكر للناس حَجَّهم، حتى إذا كان يومُ النحر، قام عليٌّ بن أبي طالب، فأذَّن في الناس عند

---

(١) ٥٢ زاد المعاد جـ٣.
(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨).

الجمرة بالذي أمره رسول الله، ونبذ إلىٰ كل ذي عهد عهده، وقال: «يأيها الناس؛ لا يدخُلُ الجنَّة كافر، ولا يحجُّ بعد العام مشرك، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ومَن كان له عهد عِند رسول الله ﷺ، فهو إلىٰ مُدَّته»[(١)].

وقال الحميدي: حدَّثنا سفيان، قال: حدَّثني أبو إسحاق الهَمْدَاني،عن زيد بن يثيع، قال: سألنا علياً، بأي شيء بُعِثْتَ في الحَجَّة؟ قال: «بُعِثتُ بأربع: لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا نفسٌ مُؤمِنة، ولا يَطُوفُ بالبيت عُريان، ولا يجتمِعُ مُسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامِه هذا، ومَنْ كان بينَه وبَيْن النبيِّ ﷺ عهد، فعهده إلىٰ مُدَّته، ومَن لم يكن له عهد، فأجلُه إلىٰ أربعةِ أشهرٍ»[(٢)].

وفي الصحيحين: عن أبي هُريرة، قال: «بعثني أبو بكر في تلك الحَجَّة في مُؤذِّنينَ بعثهم يومَ النحر يؤذِّنون بمِنَىٰ: ألاَّ يَحُجَّ بعدَ هذا العامِ مُشرِك، ولا يَطُوفَ بالبيت عُريان، ثم أردف النبيُّ ﷺ أبا بَكر بعلي بنِ أبي طالب، فأمره أن يُؤذِّن ببراءة، قال: فأذَّن معنا عليٌّ في أهل مِنَىٰ يَوْمَ النحرِ ببراءة، وألاَّ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، ولا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيان»[(٣)].

وفي هذه القصة دليل علىٰ أن يومَ الحج الأكبر هو يومُ النحر.

واختُلِف في حَجَّة الصِّدِّيق هذه، هل هي التي أسقطت الفرضَ، أو المسقطة هي حَجَّة الوداع مع النبي ﷺ؟ علىٰ قولين. أصحهما الثاني، والقولان مبنيان علىٰ أصلين:

أحدُهما: هل كان الحَجُّ فُرِضَ قَبْلَ عام حَجَّة الوداع أو لا؟

والثاني: هل كانت حَجَّةُ الصِّدِّيق ﷺ في ذي الحجة، أم وقعت في ذي القَعدَة من أجل النسيء الذي كان الجاهليةُ يؤخِّرون له الأشهر ويُقدِّمونها؟ علىٰ قولين. والثاني:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه الحميدي (١/ ٢٦ رقم ٤٨) والضياء في المختارة (٢/ ٨٤ رقم ٤٦١) والحاكم (٣/ ٥٤ رقم ٤٣٧٦) والترمذي (رقم ٣٠٩٢) والدارمي (رقم ١٩١٩) وأبو يعلىٰ (١/ ٣٥١ رقم ٤٥٢) وأحمد (١/ ٧٩) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٢١ رقم ٦٦٩، ٦٧٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٩) ومسلم (رقم ١٣٤٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣١٨-٣٢٢).

قولُ مجاهد وغيره.

وعلى هذا، فلم يُؤخِّر النبي ﷺ الحَجَّ بعد فرضه عاماً واحداً، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فُرِض فيه، وهذا هو اللائق بهَدْيه وحاله ﷺ، وليسَ بِيدِ مَن ادَّعى تقدُّم فرض الحَجّ سنةَ ست أو سبعٍ أو ثمانٍ أو تسع دليل واحد.

وغايةُ ما احتج به مَن قال: فُرِضَ سنة ست قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وهي قد نزلت بالحُديبية سنة ست، وهذا ليس فيه ابتداءُ فرض الحَجّ، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شُرِعَ فيه، فأين هذا مِن وجوب ابتدائه، وآيةُ فرض الحَجّ، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]، نزلت عامَ الوفود أواخرَ سنة تسع. أ. هـ.

[(١)]وسأله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: عن يوم الحج الأكبر، فقال: «يوم النحر»[(٢)] ذكره الترمذي. وعند أبي داود بإسناد صحيح: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال: «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم النحر، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[(٣)].

وقد قال تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ٣] وإنما أُذِّن المؤذن بهذه البراءة يوم النحر. وثبت في الصحيح: عن أبي هريرة أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. ا.هـ[(٤)].

[(٥)]ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم

---

(١) ٣٠٣ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٩٥٧، ٩٥٨).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٤٥) وأصل الحديث عند البخاري (رقم ١٧٤٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٧٧) (٨/ ٣٢١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣١٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٢١).

(٥) ١٦ زاد المعاد جـ١.

النحر، وهو يوم الحج الأكبر، كما في السنن عنه ﷺ أنه قال: «**أفضل الأيام عند الله: يوم النحر، ثم يوم القر**»(١).

وقيل: يومُ عرفة أفضلُ منه، وهذا هو المعروف عند أصحاب الشافعي، قالوا: لأنه يومُ الحج الأكبر، وصيامُه يكفر سنتين، ومَا مِنْ يَوْمٍ يَعْتِقُ اللهُ فِيهِ الرِّقابَ أَكْثَرَ مِنهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، ولأنه ﷻ يَدْنُو فِيهِ مِنْ عِبَادِهِ، ثُمَّ يُبَاهِي مَلَائِكَتَه بِأَهْلِ الموقف. والصواب القول الأول، لأن الحديثَ الدالَّ علىٰ ذلك لا يُعارضه شيء يُقاومه، والصوابُ: أن يومَ الحج الأكبر هو يومُ النَّحر، لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] وثبت في الصحيحين: أن أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، أَذَّنَا بِذَلِكَ يَوْمَ النَّحْرِ، لاَ يَومَ عَرَفَةَ.

وفي سنن أبي داود بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال: «**يوم الْحَجِّ الأَكْبَرِ يَوْمُ النَّحْرِ**»(٢)، وكذلك قال أبو هريرة، وجماعةٌ من الصحابة.

ويومُ عرفة مقدِّمة ليوم النَّحر بين يديه، فإن فيه يكونُ الوقوفُ، والتضرعُ، والتوبةُ، والابتهالُ، والاستقالةُ، ثم يومَ النَّحر تكون الوفادةُ والزيارة، ولهذا سمي طوافُه طوافَ الزيارة، لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم ربُّهم يوم النَّحر في زيارته، والدخولِ عليه إلىٰ بيته، ولهذا كان فيه ذبحُ القرابين، وحلقُ الرؤوس، ورميُ الجمار، ومعظمُ أفعال الحج.

وعملُ يوم عرفة كالطهور والاغتسال بين يدي هذا اليوم.

وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة علىٰ غيره من الأيام، فإنَّ أيامه أفضلُ الأيامِ عند الله، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ٥١ رقم ٢٨١١) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٣٧ رقم ٩٩٩٤) والطبراني في الأوسط (٣/ ٤٤ رقم ٢٤٢١) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٧٢ رقم ٤٧٥) والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٢٠٤-٢٠٥ رقم ٢٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٤٦).

ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامِ العَمَلُ الصَّالِح فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هذه الأَيَّامِ العَشْرِ» قَالُوا: وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلاَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ ومَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»(١).

وهي الأيامُ العشر التي أقسم الله بها في كتابه بقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢] ولهذا يُستحب فيها الإكثارُ من التكْبير والتهليل والتحميدِ، كما قال النبي ﷺ: «فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التكْبِيرِ وَالتَّهْلِيل وَالتَحْمِيدِ»(٢)، ونسبتُهَا إلى الأيام كنسبة مواضع المناسك في سائر البقاع.

وَمِنْ ذَلك تفضيلُ شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيلُ عشرِهِ الأخير على سائر الليالي، وتفضيلُ ليلة القدر على ألف شهر.

فإن قلت: أيُّ العَشرين أفضلُ؟ عَشرُ ذي الحِجَّة، أو العشرُ الأخير من رمضان؟ وأيُّ الليلتين أفضلُ؟ ليلةُ القدرِ، أو ليلة الإسراء؟

قلت: أمّا السؤالُ الأول، فالصوابُ فيه أن يقالُ: ليالي العشر الأخير من رمضان، أفضلُ من ليالي عشر ذي الحجة، وأيَّام عشر ذي الحِجَّة أفضلُ من أيام عشر رمضان، وبهذا التفصيلِ يزولُ الاشتباه.

ويدل عليه أن لياليَ العشر من رمضان إنما فُضِّلَتْ باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشرُ ذيَ الحِجَّة إنما فُضِّلَ باعتبار أيامه، إذ فيه يومُ النحر، ويومُ عرفة، ويوم التروية.

وأما السؤال الثاني، فقد سُئِلَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: ليلةُ الإسراء أفضلُ مِن ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلةُ القدر أفضلُ، فَأَيُّهُما المصيبُ؟

فأجاب: الحمدُ لله، أما القائلُ بأن ليلة الإسراء أفضلُ مِن ليلة القدر، فإن أراد به:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٦٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٣١) وعبد بن حميد (رقم ٨٠٧) والطبراني في الكبير (١١/ ٨٢ رقم ١١١١٦) وفي الدعاء (رقم ٨٧١) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٥٣ رقم ٣٧٤٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٦١).

أن تكونَ الليلةُ التي أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائِرُها مِن كل عام أفضلَ لأمَّة محمد ﷺ مِن ليلة القدر، بحيث يكونُ قيامُها والدعاءُ فيها أفضلَ منه في ليلةِ القدر، فهذا باطل، لم يقله أحدٌ من المسلمين، وهو معلومُ الفساد بالاطِّراد من دين الإسلام. هذا إذا كانت ليلةُ الإسراء تُعرف عينُها، فكيف ولم يقمْ دليلٌ معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينِها، بل النقولُ في ذلك منقطعةٌ مختلفة، ليس فيها ما يُقطع به، ولا شُرِعَ للمسلمين تخصيصُ الليلة التي يُظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر، فإنه قد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**»(١). وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَاناً واحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢).

وقد أخبر ﷻ: أنها خيرٌ مِن ألف شهر، وأنَّه أنزل فيها القرآن.

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ، وحصل له فيها ما لم يحصلْ له في غيرها مِن غير أن يُشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح، وليس إذا أعطى اللهُ نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكانُ أفضلَ مِن جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعامَ اللّه تعالى على نبيه ليلَة الإسراءِ كان أعظمَ من إنعامه عليه بإنزال القرآنِ ليلةَ القدر، وغيرِ ذلك من النعم التي أنعم عليه بها. والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأُمور، ومقادير النعم التي لا تُعرف إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم، ولا يُعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراءِ فضيلةَ على غيرها، لاسيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان يقصدُون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمورِ، ولا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٠) ومسلم (رقم ١١٦٩) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٦١) وشرح النووي (٨/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠١) ومسلم (رقم ٧٦٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٧) وشرح النووي (٦/ ٤٠).

يذكرونها، ولهذا لا يُعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراءُ مِن أعظم فضائله ﷺ، ومع هذا فلم يُشرع تخصيصُ ذلك الزمانِ، ولا ذلك المكانِ بعبادة شرعية، بل غارُ حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، وكان يتحراه قبلَ النبوة، لم يقصِدْهُ هو ولا أحدٌ مِن أصحابه بعد النبوة مدةَ مُقامه بمكة، ولا خصَّ اليومَ الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرِها، ولا خصَّ المكانَ الذي ابتدئ فيه بالوحي ولا الزمانَ بشيء.

ومن خص الأمكنَة والأزمنَة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان مِن جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمانَ أحوال المسيح مواسمَ وعبادات، كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحوال. وقد رأى عمرُ بن الخطاب ﷺ جماعة يتبادرون مكاناً يُصلون فيه، فقال: «ما هذا؟ قالوا: مكانٌ صلى فيه رسولُ الله ﷺ، فقال: أتُريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟! إنما هلكَ مَنْ كان قبلكم بهذا، فمن أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمضِ»[1].

وقد قال بعضُ الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل مِن ليلة القدر، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمّة أفضلُ من ليلة الإسراء، فهذه الليلة في حق الأمّة أفضلُ لهم، وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ، أفضلُ له.

فإن قيل: فأيهما أفضلُ: يوم الجمعة، أو يوم عرفة؟ فقد روى ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلاَ تَغْرُبُ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ»**[2] وفيه أيضاً حديث أوس بن أوس **«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس يَوْمُ الجُمْعَةِ»**.

قيل: قد ذهب بعضُ العلماء إلى تفضيل يوم الجمعة على يوم عرفة، محتجاً بهذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١١٨ رقم ٢٧٣٤) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٦٩) وعمدة القاري (٤/ ٢٦٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٥ رقم ٢٧٧٠) وعبد الرزاق (٣/ ٢٥٧ رقم ٥٥٦٣) والطبراني في الأوسط (١٨/٢ رقم ١٠٨٧) وأبو يعلى (١١/ ٣٥٥ رقم ٦٤٦٨) وأحمد (٢/ ٢٧٢) وعبد بن حميد (رقم ١٤٤٣) وتمام في فوائده (١/ ٢٥ رقم ٣٥) وانظر: عمدة القاري (٦/ ٢٩٢) والتمهيد (٢٢/ ٢٧).

الحديث، وحكى القاضي أبو يعلى رواية عن أحمد أن ليلة الجمعة أفضلُ من ليلة القدر.

والصوابُ: أن يوم الجمعة أفضلُ أيام الأسبوع، ويومَ عرفة ويوم النَّحر أفضلُ أيام العام، وكذلك ليلةُ القدر، وليلة الجمعة، ولهذا كان لوقفة الجمعة يومَ عرفة مزية على سائر الأيام من وجوه متعدّدة.

أحدها: اجتماعُ اليومين اللذين هما أفضلُ الأيام.

الثاني: أنه اليومُ الذي فيه ساعة محققة الإجابة، وأكثر الأقوال أنها آخر ساعة بعد العصر وأهل الموقف كلُّهم إذ ذاك واقفون للدعاء والتضرع.

الثالث: موافقتُه ليوم وقفة رسول الله ﷺ.

الرَّابع: أن فيه اجتماعَ الخلائق مِن أقطار الأرض للخطبة وصلاة الجمعة، ويُوافق ذلك اجتماعَ أهل عرفة يومَ عرفة بعرفة، فيحصُل مِن اجتماع المسلمين في مساجدهم وموقفهم من الدعاء والتضرع ما لا يحصُل في يوم سواه.

الخامس: أن يوم الجمعة يومُ عيد، ويومَ عرفة يومُ عيد لأهل عرفة، ولذلك كره لمن بعرفة صومه، وفي النسائي عن أبي هريرة قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ بِعَرَفَةَ»[١]، وفي إسناده نظر، فإن مهدي بن حرب العبدي ليس بمعروف، ومداره عليه، ولكن ثبت في الصحيح من حديث أم الفضل: «أن ناساً تمارَوْا عِنْدَهَا يَوْمَ عَرفَةَ في صِيَام رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال بعضُهم: هُوَ صَائِمٌ، وَقَالَ بعْضُهُمْ: لَيْسَ بِصَائِمٍ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بقَدَحِ لَبنٍ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَعِيرِهِ بِعَرَفَةَ، فَشَرِبَهُ»[٢].

وقد اختلف في حكمة استحباب فطر يوم عرفة بعرفة.

فقالت طائفة: لِيتقوى على الدعاء، وهذا هو قولُ الخِرقي وغيره.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ١٥٥ رقم ٢٨٣٠) وأبو داود (رقم ٢٤٤٠) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٨٤ رقم ٨١٧٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ٨١ رقم ٢٥٥٦) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٣٨) وعون المعبود (٧/ ٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٨٨) ومسلم (رقم ١١٢٣) وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٠٨).

وقال غيرهم - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: الحِكمة فيه أنه عيد لأهل عرفة، فلا يُستحب صومُه لهم، قال: والدليلُ عليه الحديث الذي في السنن عنه ﷺ أنه قال: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ مِنَى عِيدُنَا أهلَ الإسلامِ»[(١)].

قال شيخنا: وإنما يكون يومُ عرفة عيداً في حق أهلِ عرفة، لاجتماعهم فيه، بخلاف أهل الأمصار، فإنهم إنما يجتمعون يوم النَحر، فكان هو العيدَ في حقهم، والمقصود: أنه إذا اتفق يومُ عرفة، ويومُ جمعة، فقد اتفق عيدانِ معًا.

السادس: أنه موافق ليوم إكمال الله تعالىٰ دينَه لعباده المؤمنين، وإتمامِ نعمته عليهم، كما ثبت في صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال: «جاء يهوديٌّ إلىٰ عمرَ بنِ الخطاب، فقال: يَا أَمِيرَ المُؤمِنِين آيَةٌ تَقْرَؤونَهَا في كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ وَنَعْلَمُ ذَلِكَ اليَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، لاتَّخَذْنَاهُ عِيداً، قَالَ: أيُ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: إِنِّي لأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، نَزَلَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، وَنَحْنُ وَاقِفُونَ مَعَهُ بِعَرَفَةَ»[(٢)].

السابع: أنه موافق ليوم الجمع الأكبر، والموقفِ الأعظم يومِ القيامة، فإن القيامة تقومُ يومَ الجمعة، كما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْراً إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»[(٣)]. ولهذا شرع اللهُ ﷻ لِعباده يوماً يجتمعون

(١) أخرجه ابن حبان (٨/ ٣٦٨ رقم ٣٦٠٣) وابن خزيمة (٣/ ٢٩٢ رقم ٢١٠٠) والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ٤٢٠ رقم ٣٩٩٥) وأبو داود (رقم ٢٤١٩) والترمذي (رقم ٧٧٣) والدارمي (رقم ١٧٦٤) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٢٩٨ رقم ٨٢٤٥) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩١ رقم ٣١٨٥) وفي الكبير (١٧/ ٢٩١ رقم ٨٠٣) وأحمد (٤/ ١٥٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٧٥) (٤/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٥) ومسلم (رقم ٣٠١٧) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٨٥٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٢٢).

فيه، فيذكرون المبدأ والمعاد، والجنَّة والنَّار، وادَّخر اللهُ تعالىٰ لهذه الأُمَّة يومَ الجمعة، إذ فيه كان المبدأُ، وفيه المعادُ، ولهذا كان النبيُّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقرأ في فجره سورتي «السجدة» و«هل أتىٰ علىٰ الإنسان» لاشتمالهما علىٰ ما كان وما يكونُ في هذا اليوم، مِن خلق آدم، وذكر المبدأ والمعاد، ودخولِ الجنَّة والنَّار، فكان تذكير الأمَّة في هذا اليوم بما كان فيه وما يكون، فهكذا يتذكَّر الإنسانُ بأعظم مواقف الدنيا - وهو يومُ عرفة - الموقفَ الأعظم بين يدي الرب سبحانه في هذا اليوم بعينه، ولا يتنصف حتىٰ يستقرَّ أهل الجنة في منازلهم، وأهل النَّار في منازلهم.

الثامن: أن الطاعةَ الواقِعَة مِن المسلمين يومَ الجُمعة، وليلةَ الجمعة، أكثر منها في سائر الأيام، حتىٰ إن أكثرَ أهل الفجور يَحترِمون يوم الجمعة وليلته، ويرون أن من تَجَرَّأ فيه علىٰ معاصي اللهِ ﷿، عجَّل اللهُ عقوبته ولم يُمهله، وهذا أمر قد استقرَّ عندهم وعلموه بالتجارِب، وذلك لِعظم اليومِ وشرفِهِ عند الله، واختيارِ الله سبحانه له من بين سائر الأيام، ولا ريب أن للوقفة فيه مزيةً علىٰ غيره.

التاسع: أنه موافق ليوم المزيد في الجنة، وهو اليومُ الذي يُجمَعُ فيه أهلُ الجنة في وادٍ أَفْيحَ، ويُنْصَبُ لهم مَنَابِرُ مِن لؤلؤ، ومنابِرُ من ذهب، ومنابرُ من زَبَرْجَدٍ وياقوت علىٰ كُثبَانِ المِسك، فينظرون إلىٰ ربِّهم تبارك وتعالىٰ، ويتجلىٰ لهم، فيرونه عِياناً ويكون أسرعُهم موافاة أعجلَهم رواحاً إلىٰ المسجد، وأقربُهم منه أقربَهم من الإمام، فأهلُ الجنة مشتاقون إلىٰ يوم المزيد فيها، لما ينالون فيه من الكرامة، وهو يوم جمعة، فإذا وافق يوم عرفة، كان له زيادةُ مزية واختصاص وفضل ليس لغيره.

العاشر: أنه يدنو الرَّبُّ تبارك وتعالىٰ عشيةَ يوم عرفة مِن أهل الموقف، ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: «مَا أَرَادَ هؤُلاءِ؟ أُشْهِدُكُم أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُم»(١) وتحصلُ مع

(١) أخرجه مسلم بنحوه (رقم ١٣٤٨) وأبو يعلىٰ (٧/ ١٤٠ رقم ٤١٠٦) والبيهقي في الشعب (٣/ ٤٦٠ رقم ٤٠٦٨) وفي فضائل الأوقات (رقم ١٨١) وانظر: التمهيد (١/ ١٢٠).

دنوه منهم تبارك وتعالىٰ ساعةُ الإجابة، التي لاَ يَرُدُّ فيها سائل يسأل خيراً، فيقربُون منه بدعائه والتضرع إليه في تلك الساعة، ويقرُب منهم تعالىٰ نوعين من القُرب:

أحدهما: قربُ الإجابة المحققة في تلك الساعة.

والثاني: قربه الخاص من أهل عرفة، ومباهاتُه بهم ملائكته، فتستشعِرُ قلوبُ أهل الإيمان هذه الأمور، فتزداد قوة إلىٰ قوتها، وفرحاً وسروراً وابتهاجاً ورجاء لفضل ربها وكرمه، فبهذه الوجوه وغيرها فُضِّلَتْ وقفةُ يومِ الجمعة علىٰ غيرها. وأمّا ما استفاض علىٰ ألسنة العوام بأنها تعدل ثنتين وسبعين حجة، فباطل لا أصل له عن رسول ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين والله أعلم.

والمقصود: أن الله ﷻ اختار مِن كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبَه، واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره، فإنه تعالىٰ طيبٌ لا يحبُّ إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيبَ، فالطيب مِن كل شيء هو مختارُه تعالىٰ. وأما خلقُه تعالىٰ، فعام للنوعين.

وبهذا يُعلم عنوانُ سعادة العبد وشقاوته، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب، ولا يرضىٰ إلا به، ولا يسكُن إلا إليه، ولا يطمئن قلبُه إلا به، فله من الكلام الكَلِمُ الطيب الذي لا يصعد إلىٰ الله تعالىٰ إلا هو، وهو أشدُّ شيء نُفرة عن الفحش في المقال، والتفحُّش في اللسان والبذَاء، والكذب والغيبة، والنميمة والبُهت،وقول الزور، وكل كلام خبيث.

وكذلك لا يألف من الأعمال إلا أطيبها، وهي الأعمال التي اجتمعت علىٰ حسنها الفِطَرُ السليمةُ مع الشرائع النبوية، وزكتها العقولُ الصحيحة، فاتفق علىٰ حسنها الشرعُ والعقلُ والفِطرةُ، مثل أن يَعْبُدَ الله وحده لا يُشرِكُ به شيئاً.

***

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟

سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ۝ ﴾.

[1]ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهلُ صُلح وهُدنة، وأهلُ حرب، وأهلُ ذِّمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يُوفىٰ لهم به ما استقامُوا علىٰ العهد، فإن خاف منهم خِيانة، نبذَ إليهم عهدهم، ولم يُقاتِلْهم حتىٰ يُعْلِمَهم بِنَقْضِ العهد، وأُمِرَ أن يقاتل مَن نقض عهده.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يُقاتِلَ عدوَّه مِن أهل الكتاب حتىٰ يُعطوا الجزيَةَ، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجِهَادِ الكُفَّارِ والمنافقين والغِلْظة عليهم. فجاهد الكفار بالسيفِ والسنانِ، والمنافقين بالحُجَّةِ واللِّسان. وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عُهودهم إليهم.

وجعلَ أهلَ العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

قسماً أمره بقتالهم، وهُم الذين نقضُوا عهده، ولم يستقِيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

وقسماً لهم عهد مُؤقَّت لم ينقضُوه، ولم يُظاهِروا عليه، فأمره أن يُتِمَّ لهم عهدَهم إلىٰ مدتهم.

وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يُحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يُؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم، وهىٰ الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ ﴾ [التوبة: ٢] وهىٰ الحُرُمُ المذكورة في قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]. فالحُرُم ههنا: هي أشهر التسيير، أولها يومُ الأذان وهو اليومُ العاشر من ذي الحِجة، وهو يومُ الحجِّ الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخِرُها العاشر من ربيع الآخر.

---

(١) ٢٠٨ زاد المعاد جـ٢.

وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحِد فرد، وثلاثة سرد: رجبٌ، وذُو القَعدة، وذو الحِجة، والمحَرَّمُ، ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يُمكن، لأنها غيرُ متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يُقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجَّل مَنْ لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتمَّ للموفي بعهده عهدَه إلىٰ مدته، فأسلم هؤلاء كُلُّهم، ولم يُقيموا علىٰ كفرهم إلىٰ مدتهم، وضَرَبَ علىٰ أهل الذِّمة الجِزية.

فاستقر أمرُ الكفار معه بعد نزول «براءة» علىٰ ثلاثة أقسام: محاربينَ له، وأهلِ عهد، وأهلِ ذِمة، ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلىٰ الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذِمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهلُ الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمِن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أُمِرَ أن يَقبل مِنهم علانيتَهم، ويَكِلَ سرائِرَهم إلىٰ الله، وأن يُجاهِدَهم بالعِلم والحُجَّة، وأمره أن يُعرِضَ عنهم، ويُغلِظَ عليهم، وأن يَبْلُغَ بالقولِ البليغ إلىٰ نفوسهم، ونهاه أن يُصلِّي عليهم، وأن يقومَ علىٰ قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم سبعين مرة، فلن يغفر الله لهم.

فهذه سيرتُه في أعدائه مِن الكفار والمنافقين. اهـ.

[(١)]في خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح من أنواع العلم: فمنها قولُه: «**إنَّ مَكَّة حَرَّمَها اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ**»[(٢)]، فهذا تحريمٌ شرعي قَدَري سبق به قدرُه يومَ خلق هذا العالَم، ثم ظهر به علىٰ لسان خليله إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

---

(١) ٤٢٠ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠٤) ومسلم (رقم ١٣٥٤) وانظر: عمدة القاري (٢/ ١٣٩، ١٤٥) وشرح النووي (٩/ ١٢٧).

كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ إنَّ إبْرَاهيمَ خَليلَكَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وإنِّي أُحرِّمُ المدِينَة»[١] فهذا إخبارٌ عن ظهور التحريم السابق يومَ خلق السمواتِ والأرضَ على لسان إبراهيم، ولهذا لم يُنازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها، وإن تنازعُوا في تحريم المدينة، والصوابُ المقطوعُ به تحريمُها، إذ قد صحَّ فيه بضعةٌ وعِشرونَ حديثاً عن رسولِ الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه.

ومنها: قوله: «فلا يَحلُّ لأحَدٍ أنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمَاً»[٢]، هذا التحريمُ لسفك الدم المختصّ بها، وهو الذي يُباح في غيرها، ويُحرم فيها لكونها حرماً، كما أن تحريم عَضْدِ الشجر بها، واختلاء خلاها، والتقاط لُقطتها، هو أمر مختصٌ بها، وهو مباحٌ في غيرها، إذ الجميعُ في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا أنواعٌ:

أحدها: وهو الذي ساقه أبو شريح العدوى لأجله: أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تُقاتَل، لاسيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهلُ مكة مِن مبايعة يزيد، وبايعُوا ابنَ الزبير، فلم يكن قِتالهُم، ونصبُ المنجنيق عليهم، وإحلالُ حَرَمِ الله جائزاً بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعتُه، وعارض نصَّ رسول الله ﷺ برأيه وهواه، فقال: إنَّ الحَرَمَ لا يُعِيذُ عَاصِيًا[٣]، فيقال له: هو لا يُعيذ عاصياً مِن عذاب الله، ولو لم يُعِذْه من سفك دمه، لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم، وهو لم يزل يُعيذُ العصاةَ مِن عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامُه، وقام الإسلام على ذلك...

[٤]وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٩٣، ٣٣٦٧) ومسلم (رقم ١٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٨٣٢) ومسلم (رقم ١٣٥٤) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٣) وشرح النووي (٩/ ١٢٤-١٢٧).

(٣) انظر: المراجع السابقة.

(٤) ١١١ التبيان.

الكلام في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت: كذا وكذا. وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ [المائدة: ١١٧] والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ونظائره، فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول ـ أي قاله مبلغًا ـ وهذا قوله مبلغًا عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق ـ وقد تلىٰ آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله(١).

(٢)قال الله تعالىٰ: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] فأمر بقتلهم حتىٰ يتوبوا من شركهم، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة.

ومن قال: لا يقتل تارك الصلاة يقول متىٰ تاب من شركه سقط عنه القتل، وإن لم يقم الصلاة ولا آتىٰ الزكاة. وهذا خلاف ظاهر القرآن.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب ﷺ وهو باليمن إلىٰ النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين أربعة، فقال رجل: يا رسول الله اتق الله فقال: «**ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**» ثم ولىٰ الرجل، فقال خالد ابن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**» فقال خالد:

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٨-١٨٩ رقم ١٦٨) وفي الاعتقاد (ص ١٠٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٥٤).
(٢) ٥ كتاب الصلاة.

فكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم»(١). فجعل النبي ﷺ المانع من قتله كونه يصلي، فدل على أن من لم يصل يقتل، ولهذا قال في الحديث الآخر: «نهيت عن قتل المصلين»(٢). وهو يدل على أن غير المصلين لم ينهه الله عن قتلهم.

وروى الإمام أحمد والشافعي في مسنديهما: من حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلًا من الأنصار حدثه أنه أتى النبي ﷺ وهو في مجلس فساره يستأذنه في قتل رجل من المنافقين فجهر رسول الله ﷺ فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله» فقال الأنصاري: بلى يا رسول الله ولا شهادة له، قال: «أليس يشهد أن محمدًا رسول الله» قال: بلى ولا شهادة له، قال: «أليس يصلي الصلاة» قال: بلى ولا صلاة له، قال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»(٣). فدل على أنه لم ينهه عن قتل من لم يصل.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد بريء، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» فقالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ فقال: «لا، ما صلوا»(٤).

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٥١) ومسلم (رقم ١٠٦٤) وانظر: شرح النووي (٧/ ١٦١-١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٢٨) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٢٤ر قم ١٦٧٦٤) والدارقطني (٢/ ٥٤ رقم ٩) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٩٤ر قم ٥٠٥٨) وفي الكبير (١٨/ ٢٦ رقم ٤٤) وأبو يعلى (١/ ٩٠ رقم ٩٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٣٥) والتمهيد (٤/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (ص ٣٢٠) وفي الأم (٦/ ١٥٧) (٧/ ٢٩٥) وأحمد (٥/ ٤٣٢) ومالك (١/ ١٧١ رقم ٤١٣) وابن حبان (١٣/ ٣٠٩ رقم ٥٩٧١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٧ رقم ٦٢٩٤) وعبد الرزاق (١٠/ ١٦٣ رقم ١٨٦٨٨) وعبد بن حميد (رقم ٤٩٠) وانظر: جامع العلوم و الحكم (١/ ٨٧) والتمهيد (٤/ ٢٣٥) (١٠/ ١٤٩-١٥٣) وشرح الزرقاني (١/ ٤٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٨٥٤، ١٨٥٥).

فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»(١).

فوجه الاستدلال به من وجهين: أحدهما: أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة، الثاني قوله: «**إلا بحقها**» والصلاة من أعظم حقها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ثم قد حرمت عليَّ دماؤهم وأموالهم وحسابهم على الله**»(٢). رواه الإمام أحمد وابن خزيمة في صحيحه، فأخبر ﷺ أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة، وأن دماءهم وأموالهم إنما تحرم بعد الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فدماؤهم وأموالهم قبل ذلك غير محرمة بل هي مباحة.

وعن أنس بن مالك قال: لما توفي رسول الله ﷺ ارتد العرب فقال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل العرب؟ فقال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**»(٣). رواه النسائي وهو حديث صحيح.

وتقييد هذه الأحاديث يبين مقتضى الحديث المطلق الذي احتجوا به على ترك القتل مع أنه حجة عليهم، فإنه لم يثبت العصمة للدم والمال إلا بحق الإسلام، والصلاة آكد حقوقه على الإطلاق.

وأما حديث ابن مسعود وهو: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث**»(٤) فهو حجة لنا في المسألة، فإنه جعل منهم التارك لدينه، والصلاة ركن الدين الأعظم،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢) وانظر: فتح الباري (١/ ٧٦) وشرح النووي (١/ ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٦) ومسلم (رقم ٢٠، ٢١).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٢٨٠ رقم ٣٤٣١) وفي الصغرى (رقم ٣٠٩٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤ رقم ١٢٨٩٧) والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٤٧٢-٤٧٣ رقم ٤٧٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٨٩-٩٠ رقم ٥) وانظر: نيل الأوطار (١/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧٨) ومسلم (رقم ١٦٧٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٧٣) وشرح النووي (١١/ ٢١٧).

ولاسيما إن قلنا بأنه كافر فقد ترك الدين بالكلية، وإن لم يكفر فقد ترك عمود الدين. قال الإمام أحمد(١) وقد جاء في الحديث: «**لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**»(٢).

وقد كان عمر بن الخطاب يكتب إلى الآفاق: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع(٣)، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة. قال فكل مستخف بالصلاة مستهين بها فهو مستخف بالإسلام مستهين به، وإنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبدالله، واحذر أن تلقي الله ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك.

وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصلاة عمود الدين**»(٤)، ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط، ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد. وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام.

وجاء في الحديث: إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن

---

(١) انظر: رسالة الصلاة للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (ص ٣٥) بتحقيقي وهي من منشورات دار القاسم بالرياض.

(٢) أخرجه من قول عمر بن الخطاب ﷺ كل من البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦ رقم ٦٢٩١) والدارقطني (٢/ ٥٢ رقم ١) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٩ رقم ٣٧٠٧٤) وعبد الرزاق (٣/ ١٢٥ رقم ٥٠١٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٩٢ رقم ٩٢٣) (٢/ ٨٩٣ رقم ٩٢٤، ٩٢٥) (٢/ ٨٩٤ رقم ٩٢٦) وانظر: الاستذكار (١/ ٢٣٥) (٢/ ١٤٩) وعون المعبود (١٢/ ٢٨٤). وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٥٣٦ رقم ٢٠٣٨) وانظر: المدونة الكبرى (١/ ٥٦) والدر المنثور (١/ ٧١٣).

(٤) ويروى أيضًا بلفظ: «الصلاة عماد الدين» أخرجه الديلمي في الفردوس (٢/ ٤٠٤ رقم ٣٧٩٥) والحكيم الترمذي (٣/ ١٣٦) وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩ رقم ١٦٢١) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٧٣): فقال النووي في التنقيح: هو منكر باطل. قلت: وليس كذلك، بل رواه أبو نعيم شيخ البخاري في كتاب الصلاة عن حبيب بن سليم عن بلال بن يحيى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله، فقال: «الصلاة عمود الدين» وهو مرسل رجاله ثقات.

تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله، وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله[١]، فصلاتنا آخر ديننا، وهي أول ما نسأل عنه غدًا من أعمالنا يوم القيامة، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام. هذا كله كلام أحمد[٢].

والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدين، فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه، وكل شيء ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه. قال الإمام أحمد: كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه[٣].

والمقصود: أن حديث عبدالله بن مسعود: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه»[٤]. من أقوى الحجج في قتل تارك الصلاة.

واختلف القائلون بقتله في مسائل إحداها: أنه هل يستتاب أم لا؟ فالمشهور أنه يستتاب، فإن تاب ترك وإلا قتل، هذا قول الشافعي وأحمد، وأحد القولين في مذهب مالك. وقال أبو بكر الطرطوشي في تعليقه: مذهب مالك، أنه يقال له: صل. ما دام الوقت باقيًا، فإن فعل ترك، وإن امتنع حتى خرج الوقت قتل، وهل يستتاب أم لا؟ قال بعض أصحابنا: يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. وقال بعضهم: لا يستتاب، لأن هذا حد من الحدود يقام عليه فلا تسقطه التوبة: كالزاني والسارق، وهذا القول يلزم من قال يقتل حدا، فإنه إذا كان حده على ترك الصلاة القتل كان كمن حده القتل على الزنا والمحاربة والحدود تجب، ولا تسقطها التوبة بعد الرفع إلى الإمام. وأما من قال:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٢ رقم ٣٥٩٠٦) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٧).
(٢) انظر: رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ٣٦-٣٨).
(٣) انظر: رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ٤٤).
(٤) تقدم تخريجه.

يقتل لكفره فلا يلزمه هذا، لأنه جعله كالمرتد، وإذا أسلم سقط عنه القتل. قال الطرطوشي: وهكذا حكم الطهارة والغسل من الجنابة والصيام عندنا، فإذا قال: لا أتوضأ ولا أغتسل من الجنابة ولا أصوم قتل ولم يستتب.

(١)أورد شيخنا الهراسي سؤالًا على القول بكفر تارك الصلاة، وزعم أنه لا جواب عنه، فقال: إذا أراد هذا الرجل معاودة الإسلام فبماذا يسلم، فإنه لم يترك كلمة الإسلام؟ فأجابه ابن عقيل بأن قال: إنما كان كفره بترك الصلاة لا بترك الكلمة، فهو إذا عاود فعل الصلاة صارت معاودته للصلاة إسلامًا، فإن الدال على إسلام الكافر الكلمة أو الصلاة. قلت: وهذا الذي ذكره شيخنا يرد عليه في كل من كفر بشيء من الأشياء مع إتيانه بالشهادتين، وتلك صور عديدة.

(٢)ويقال: له: الصلاة رياضة النفس والبدن جميعًا؛ إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة، من الانتصاب والركوع والسجود والتورك والانتقالات وغيرها من الأوضاع، التي يتحرَّك معها أكثرُ المفاصل، وينغمِزُ معها أكثرُ الأعضاء الباطنة، كالمَعِدَة، والأمعاء، وسائر آلات النَّفَس، والغذاء، فما يُنكر أن يكونَ في هذه الحركات تقويةٌ وتحليلٌ للمواد، ولاسِيَّما بواسطة قوةِ النفس وانشراحِها في الصلاة، فتقوى الطبيعة، فيندفع الألم، ولكن داء الزندقةِ والإعراض عما جاءت به الرُّسُل، والتَّعوُّضِ عنه بالإلحاد داءٌ ليس له دواء، إلا نارٌ تَلَظَّى لاَ يَصْلاَهَا إلاَّ الأشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى.

وأمَّا تأثيرُ الجهادِ في دفع الهم والغم، فأمرٌ معلوم بالوجدان، فإنَّ النفس متى تركتْ صائِلَ الباطل وصَوْلته واستيلاءَه، اشتد همُّها وغمُّها، وكربُها وخوفها، فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهمَّ والحُزْنَ فرحاً ونشاطاً وقوةً، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ

(١) ١٧٦ بدائع جـ٣.

(٢) ٢٧٩ زاد المعاد جـ٣.

قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]، فلا شيءَ أذهبُ لجوَىٰ القلب وغَمِّه وهَمِّه وحُزنه من الجهاد.. والله المستعان.

وأمَّا تأثيرُ «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»[1] في دفع هذا الداءِ، فلِما فيها من كمالِ التفويضِ، والتبرِّي من الحَوْل والقُوَّة إلا به، وتسليمِ الأمر كله له، وعدمِ منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكلِّ تحوُّلٍ من حَال إلىٰ حال في العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ، والقوةِ علىٰ ذلك التحول، وأنَّ ذلك كُلَّه بالله وحدَه، فلا يقوم لهذه الكلمة شيء. وفي بعض الآثار: «إنه ما ينزِلُ مَلَكٌ من السماء، ولا يَصعَدُ إليها إلا بلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله»، ولها تأثيرٌ عجيب في طرد الشيطان.. والله المستعان.

***

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

(١) فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، كان دواء من تسعة وتسعين داءً أيسرها الهم» أخرجه الحاكم (١/ ٧٢٧ رقم ١٩٩٠) وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، والطبراني في الأوسط (٥/ ١٨٧ رقم ٥٠٢٨) وفي الدعاء (رقم ١٦٧٤) وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٤٦٤ رقم ٥٤١) والديلمي في الفردوس (٥/ ٩ رقم ٧٢٨٤) وانظر: فيض القدير (٦/ ٤٢٥).

﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

(١)أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالىٰ قالوا: لا ينتقض العهد إلا بأن يكون لهم منعة، فيمتنعون من الإمام، ويمنعون الجزية، ولا يمكنه إجراء الأحكام عليهم. فأما إذا امتنع الواحد منهم عن أداء الجزية، أو فعل شيئًا من هذه الأشياء، التي فيها ضرر علىٰ المسلمين أو غضاضة علىٰ الإسلام لم يصر ناقضًا للعهد.

لكن من أصولهم أن ما لا قتل فيه عندهم مثل القتل بالمثقل والتلوط وسب الذمي لله ورسوله وكتابه ونحو ذلك، إذا تكرر فعلىٰ الإمام أن يقتل فاعله تعزيرًا، وله أن يزيد علىٰ الحد المقدر فيه إذا رأىٰ المصلحة في ذلك ويحملون ما جاء عن النبي ﷺ من القتل في مثل هذه الجرائم علىٰ أنه رأىٰ [المصلحة] في ذلك، ويسمونه القتل سياسةً. وكان حاصله أن للإمام أن يعزر بالقتل في الجرائم التي تغلَّظت بالتكرار، وشرع القتل في جنسها، ولهذا أفتىٰ أكثر أصحابهم بقتل من أكثر من سب النبي ﷺ من أهل الذمة وإن أسلم بعد أخذه. وقالوا: يقتل سياسة، وهذا متوجه علىٰ أصولهم.

قال القاضي في «التعليق»: والدلالة علىٰ أن نقض العهد يحصل بهذه الأشياء ـ وإن لم يشترطه في عقد الذمة ـ أن الإمام يقتضي الكف عن الإضرار، وفي هذه الأشياء إضرار فيجب أن ينتقض العهد بفعلها. كما لو شرط ذلك في عقد الأمان. قال: ولأن عقد الذمة عقد أمان فانتقض بالمخالفة من غير شرط كالهدنة.

الدليل الثاني: قلت: واحتج غيره من الأصحاب بوجوه أخر سوىٰ ما ذكره، منها قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فلا يجوز الإمساك عن قتالهم إلا إذا كانوا

---

(١) ٨٠٩ أحكام جـ٢.

صاغرين حال إعطاء الجزية. والمراد بإعطاء الجزية من حين بذلها أو التزامها إلى حين تسليمها وإقباضها فإنهم إذا بذلوا الجزية شرعوا في الإعطاء ووجب الكف عنهم إلى أن نقبضها منهم، فمتى لم يلتزموها أو التزموها وامتنعوا من تسليمها لم يكونوا معطين لها، فليس المراد أن يكونوا صاغرين حال تناول الجزية منهم فقط، ويفارقهم الصغار فيما عدا هذا الوقت، هذا باطل قطعا. وإذا علم هذا فمن جاهرنا بسب الله ورسوله وإكراه حريمنا على الزنا وتحريق جوامعنا ودورنا ورفع الصليب فوق رؤوسنا فليس معه من الصغار شيء، فيجب قتاله بنص الآية حتى يصير صاغرًا.

فإن قيل: فالمأمور به القتال إلى هذه الغاية، فمن أين لكم القتل المقدور عليه؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن كل من أمرنا بقتاله من الكفار فإنه يقتل إذا قدرنا عليه.

الثاني: أنا إذا كنا مأمورين أن نقاتلهم إلى هذه الغاية لم يجز أن نعقد لهم عهد الذمة بدونها، ولو عقد لهم كان عقدًا فاسدًا.

الثالث: أن الأصل إباحة دمائهم يمسك عصمتها الحبلان: حبل من الله بالأمر بالكف عنهم. وحبل من الناس بالعهد والعقد، ولم يوجد واحد من الحبلين. أما حبل الله سبحانه فإنه إنما اقتضى الأمر بالكف عنهم إذا كانوا صاغرين، فمتى لم يوجد وصف الصغار المقتضي للكف منهم وعنهم، فالقتل المقدور عليه منهم والقتال للطائفة الممتنعة واجب. وأما حبل الناس فلم يعاهدهم الإمام والمسلمون إلا على الكف عما فيه إدخال ضرر على المسلمين وغضاضة في الإسلام، فإذا لم يوجد فلا عهد لهم من الإمام ولا من الله، وهذا ظاهر لا خفاء به.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ٧، ١٢] فنفى الله أن يكون لمشرك عهد ممن كان النبي ﷺ عاهدهم إلا قومًا ذكرهم، فجعل لهم عهدًا ما داموا

مستقيمين لنا. فعلم أن العهد لا يبقى للمشرك إلا ما دام مستقيمًا، ومعلوم أن مجاهرتنا بتلك الأمور تقدح في الاستقامة، كما تقدح مجاهرتنا بالاستقامة فيها. بل مجاهرتنا بسب ربنا ونبينا وكتابنا وإحراق مساجدنا ودورنا أشد علينا من مجاهرتنا بالمحاربة إن كنا مؤمنين. فإنه يجب علينا أن نبذل دماءنا وأموالنا حتى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يجهر بين أظهرنا بشيء من أذى الله ورسوله. فإذا لم يكونوا مستقيمين لنا مع القدح في أهون الأمرين، فكيف يستقيمون لنا مع القدح في أعظمهما؟

يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨] أي: كيف يكون لهم عهد ولو ظهروا عليكم لم يرقبوا الرحم التي بينكم وبينهم ولا العهد. فعلم أن من كانت حالته أنه إذا ظهر لم يرقب ما بيننا وبينه من العهد لم يكن له عهد. ومن جاهرنا بالطعن في ديننا وسب ربنا ونبينا كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه لو ظهر علينا لم يرقب العهد الذي بيننا وبينه، فإنه إذا كان هذا فعله مع وجود العهد والذلة، فكيف يكون مع القدرة والدولة؟ وهذا بخلاف من لم يظهر لنا شيئا من ذلك، فإنه يجوز أن يفي لنا بالعهد ولو ظهر.

فإن قيل: فالآية إنما هي في أهل الهدنة المقيمين في دارهم.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن لفظها أعم. **والثاني**: أنها إذا كان معناها في أهل الذمة المقيمين بدارهم، فثبوته في أهل الذمة المقيمين بدارنا أولى وأحرى.

الدليل الرابع: قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢] فأمر سبحانه بقتال من نكث يمينه أي عهده الذي عاهدنا عليه من الكف عن أذانا والطعن في ديننا، وجعل علة قتاله ذلك. وعطف الطعن في الدين على نكث بالعهد. وخصه بالذكر بيانًا أنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال، ولهذا تغلظ على صاحبه العقوبة. وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ، فإنه كان يهدر دماء من آذى الله ورسوله، وطعن في الدين، ويمسك عن غيره.

فإن قيل: فالآية تدل على أن من نقض عهده، وطعن في الدين فإنه يقاتل، فمن أين لكم أن من طعن في الدين، ولم ينقض العهد لم يقاتل؟ ومعلوم أن الحكم المعلق بوصفين لا يثبت إلا بوجود أحدهما.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا من باب تعليق الحكم بالوصفين المتلازمين الذين لا ينفك أحدهما عن الآخر، فمتى تحقق أحدهما تحقق الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ [النساء: ١١٥] وكقوله: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢]، وكقوله: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾ [النساء: ١٤]. ونظائره كثيرة جدًّا، فلا يتصور بقاؤه على العهد مع الطعن في ديننا، بل إمكان بقائه على العهد دينا أقرب من بقائه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين، بل إن أمكن بقاؤه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين وسبه الله ورسوله أمكن بقاؤه عليه مع المحاربة باليد ومنع إعطاء الجزية، وهذا واضح لا خفاء به.

الجواب الثاني: أنه لابد أن يكون لكل صفة من هاتين الصفتين ما يبين في الحكم وإلا فالوصف العديم التأثير لا يتعلق به الحكم، فلا يصح أن يقال: من أكل وزنى حد، ثم قد تكون كل صفة مستقلة بالتأثير لو انفردت، كما يقال: يقتل هذا لأنه زانٍ مرتد. وقد يكون مجموع الجزاء مرتبًا على المجموع، ولكل وصف تأثير في البعض، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الفرقان: ٦٨]. وقد تكون تلك الصفات متلازمة، كل منها لو فرض تجرده لكان مؤثرًا على سبيل الاستقلال، فيذكر إيضاحًا وبيانًا للموجب.

وقد يكون بعضها مستلزما للبعض من غير عكس، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ ﴾ [آل عمران: ٢١]. وهذه الآية ـ من

أي الأقسام فرضت ـ كانت دليلًا، لأن أقصى ما يقال: أن نقض العهد هو المبيح للقتال والطعن في الدين مؤكد له موجب له.

فنقول: إذا كان الطعن يغلظ قتال من ليس بيننا وبينه عهد ويوجبه، فلأن يوجب قتل من بيننا وبينه ذمة ـ وهو ملتزم للصغار ـ أولى، فإن المعاهد له أن يظهر في داره ما شاء من أمر دينه، والذمي ليس له أن يظهر في دار الإسلام شيئًا من دينه الباطل.

الجواب الثالث: أن مجرد نكث الأيمان مقتض للمقاتلة ولو تجرد عن الطعن في الدين، وضرره أشد من ضرر الطعن في الدين علينا، فإذا كان أيسر الأمرين مقتضيًا للمقاتلة فكيف بأشدهما؟

الجواب الرابع: أن الذمي إذا سب الله والرسول، أو عاب الإسلام علانية فقد نكث يمينه وطعن في ديننا، ولا خلاف بين المسلمين أنه يعاقب على ذلك بما يردعه وينكل به، فعلم أنه لم يعاهدنا عليه إذ لو كان معاهدًا عليه لم تجز عقوبته عليه، كما لا يعاقب على شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك، وإذا كنا عاهدناه على ألا يطعن في ديننا ثم طعن، فقد نكث يمينه من بعد عهده، فيجب قتله بنص الآية.

قال شيخنا: «وهذه دلالة ظاهر جدًّا؛ لأن المنازع سلم لنا أنه ممنوع من ذلك بالعهد الذي بيننا وبينه. لكنه يقول: «ليس كل ما منع منه ينقض عهده كإظهار الخمر والخنزير». ولكن الفرق بين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما لا يضر بنا ضررًا بيِّنًا كترك الغيار مثلا وشرب الخمر وإظهار الخنزير ـ وبين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما فيه غاية الضرر بالمسلمين وبالدين، فإلحاق أحدهما بالآخر باطل.

يوضح ذلك **الجواب الخامس**: أن النكث هو مخالفة العهد، فمتى خالفوا شيئًا مما صولحوا عليه فهو نكث، مأخوذ من نكث الحبل، وهو نقض قواه، ونكث الحبل يحصل بنقض قوة واحدة، كما يحصل بنقض جميع القوى، لكن قد يبقى من قولهما ما يتمسك به الحبل، وقد يهن بالكلية. وهذه المخالفة من المعاهد قد تبطل العهد بالكلية حتى تجعله حربيًّا، وقد تشعث العهد حتى تبيح عقوبتهم، كما أن فقد بعض

الشروط في البيع والنكاح وغيرهما قد يبطله بالكلية، وقد يبيح الفسخ والإمساك.

وأما من قال: «ينتقض العهد بجميع المخالفات» فظاهر على قول قاله القاضي في «التعليق». واحتج القاضي بأنهم «لو أظهروا منكرًا في دار الإسلام مثل إحداث البيع والكنائس في دار الإسلام، ورفع الأصوات بكتبهم، والضرب بالنواقيس، وإطالة البناء على أبنية المسلمين، وإظهار الخمر والخنزير.

وكذلك ما أخذ عليهم تركه من التشبه بالمسلمين في ملبوسهم ومركوبهم وشعورهم وكناهم. قال: والجواب أن من أصحابنا من جعله ناقضا للعهد بهذه الأشياء ـ وهو ظاهر كلام الخرقي، فإنه قال: «ومن نقض العهد بمخالفة شيء مما صولحوا عليه عاد حربيًّا» ـ فعلى هذا لا نسلم. وإن سلمناه فلما تبين فيها أنه لا ضرر على المسلمين فيها، وإنما نهوا عن فعلها لما في إظهارها من المنكر، وليس كذلك في ملتنا، لأن في فعلها ضررًا بالمسلمين، فبان الفرق»، انتهى كلامه. قال شيخنا: فعلى التقديرين فقد اقتضى العقد ألا يظهروا شيئًا من عيب ديننا، وأنهم متى أظهروه فقد نكثوا وطعنوا في الدين، فيدخلون في عموم الآية لفظًا ومعنى، ومثل هذا العموم يبلغ درجة النص(١).

وفي الآية دليل من وجه آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ١٢] وهم الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في ديننا، ولكن أقام الظاهر مقام المضمر بينهما على الوصف الذي استحقوا به المقاتلة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. ونظائره، فدل على أن من نكث يمينه، وطعن في ديننا، فهو من أئمة الكفر، وإمام الكفر هو الداعي إليه المتبع فيه. وإنما صار إمامًا في الكفر لأجل الطعن، وإلا فإن مجرد النكث لا يوجب ذلك. وهذا ظاهر: فإن الطاعن في الدين يعيبه ويذمه ويدعو إلى خلافه، وهذا شأن الإمام. فإذا طعن الذمي في الدين كان إمامًا في الكفر فيجب قتاله. وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ

(١) الصارم المسلول لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٦).

أَيْمَـٰنَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢] علة أخرىٰ لقتاله. فأما علىٰ قراءة الكسر فتكون الآية قد تضمنت ذكر المقتضي للقتال وهو نكث العهد والطعن في الدين وبيان عدم المانع من القتال، وهو الإيمان العاصم. وأما علىٰ قراءة فتح الألف فالأيمان جمع يمين وهي أحسن القراءتين، لأنه قد تقدم في أول الآية قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]. فأخبر سبحانه عن سبب القتال وهو نكث الأيمان والطعن في الدين، ثم أخبر أنه لا أيمان لهم تعصمهم من القتل، لأنهم قـد نكثوها.

والمراد بالأيمان هنا العهود لا القسم بالله، فإن النبي ﷺ لم يقاسمهم بالله عام الحديبية، وإنما عاهدهم ونسخة الكتاب محفوظة ليس فيها قسم. وهذا لأن كلا من المتعاهدين يمد يمينه إلىٰ الآخر، ثم صار مجرد الكلام بالعهد يسمىٰ يمينا، وإن لم يحصل فيه مد اليمين.

وقد قيل: سمي العهد يمينًا [لأن اليمين] هي القوة والشدة، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الحاقة: ٤٥].

ولما كان الحلف معقودًا مشدودًا سمي يمينًا، فاسم اليمين جامع للعهد الذي بين العبد وبين ربه وإن كان نذرا، ومنه قول النبي ﷺ: «النذر حلفة»[(١)] وللعهد الذي بين المخلوقين. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١]. فالنهي عن نقض العهود وإن لم يكن فيها قسم، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] وإن لم يكن هناك قسم. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ

(١) لم أجده بهذا اللفظ، والوارد بلفظ: «النذر يمين وكفارته كفارة يمين» أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣١٣ رقم ٨٦٦) وأبو يعلىٰ (٣/ ٢٨٣ رقم ١٧٤٤) قال المناوي في فيض القدير (٦/ ٢٩٨) رمز المصنف لصحته... أن الحافظ العراقي قال: إن الحديث حسن لا صحيح.

أما لفظ المصنف: «النذر حلفة» فقد ذكره رحمه الله في حاشيته علىٰ أبي داود (٩/ ٨٥) وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول ﷺ (ص ١٧) وفي مجموع الفتاوىٰ (٢٥/ ٢٧٧) وكذا ذكره ابن قدامة في المغني (١٠/ ٦٩).

ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١]. معناه: تتعاهدون وتتعاقدون به، والمقصود: أن كل من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهدًا يقتضي ألا يفعل ذلك، فهو إمام في الكفر لا يمين له، فيجب قتله بنص الآية، وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الناكث الذي ليس بإمام في الكفر، وهو من خالف بفعل شيء مما صولح عليه[(١)].

الدليل الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [التوبة: ١٣] فجعل همَّهم بإخراج الرسول موجبًا لقتالهم؛ لما فيه من الأذىٰ له. ومعلوم قطعًا أن سبه أعظم أذىً له من مجرد إخراجه من بلده ولهذا عفا ﷺ عام الفتح عن الذين هموا بإخراجه، ولم يعف عمن سبَّه: فالذمي إذا أظهر سبه ﷺ فقد نكث عهده، وفعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول، وبدأ بالأذىٰ فيجب قتاله.

الدليل السادس: قوله تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] فأمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين، ورتب علىٰ ذلك ستة أشياء: تعذيبهم بأيدي المؤمنين، وخزيهم، والنصرة عليهم، وشفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، وتوبته، علىٰ غيرهم. والتقدير: إن تقاتلوهم يحصل هذا. وإذا كانت هذه الأمور مرتبة علىٰ قتال الناكث والطاعن في الدين ـ وهي أمور مطلوبة ـ كان سببها المقتضي لها مطلوبًا للشارع ـ وهو القتال ـ. وإذا كانت هذه الأمور مطلوبة حاصلة بالقتال، لم يجز تعطيل القتال الذي هو سببها مع قيام المقتضي له من جهة من يقاتله وهو النكث والطعن في الدين.

فشفاء الصدور الحاصل من ألم النكث والطعن، وذهاب الغيظ الحاصل في صدور المؤمنين من ذلك مقصود للشارع مطلوب الحصول.

ولا ريب أن من أظهر سب رسول الله ﷺ من أهل الذمة فإنه يغيظ المؤمنين

---

(١) انظر: الصارم المسلول (ص ١٧-١٨).

ويؤلمهم أكثر من سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم، فإن هذا يثير الغضب لله والحمية له ولرسوله، وهذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظ أكثر منه. بل المؤمن المسدّد لا يغضب هذا الغضب إلا لله ورسوله؛ والله سبحانه يحب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم. وهذا إنما يحصل بقتل السبَّاب لأوجه:

أحدها: أن تعزيره وتأديبه يذهب غيظ قلوبهم إذا شتم واحدًا من المسلمين، فلو أذهب التعزير والتأديب غيظ قلوبهم إذا شتم الرسول؛ لكان غيظهم من سب نبيهم مثل غيظهم من سب واحد منهم، وهذا باطل قطعًا.

الثاني: أن شتمه أعظم عندهم من أن يسفك دماء بعضهم بعضًا. ثم لو قتل واحد منهم لم يشف صدورهم إلا قتله، فأَنْ لا تُشْفَى صدورهم إلا بقتل الساب أولى وأحرى.

الثالث: أن الله جعل قتالهم هو السبب في حصول الشفاء، والأصل عدم سبب آخر يحصله، فيجب أن يكون القتل هو الشافي لصدور المؤمنين من مثل هذا.

الرابع: أن النبي ﷺ لما فتحت مكة وأراد أن يشفي صدور خزاعة ـ وهم القوم المؤمنون ـ من بني بكر الذين قاتلوهم، مكّنهم منهم نصف النهار أو أكثر مع أمانه لسائر الناس. فلو كان شفاء صدورهم وذهاب غيظ قلوبهم يحصل بدون القتل للذين نكثوا أو طعنوا لما فعل ذلك مع أمانه الناس.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣] ذكر سبحانه هذه الآية عقيب قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]. فجعلهم مؤذين له بقولهم: «هو أذن»، ثم قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فجعلهم بهذا محادين. ومعلوم قطعا أن من أظهر مسبة الله ورسوله والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله؛ وإذا ثبت أنه محاد، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى

ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠] والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله، لأن من كان دمه وماله معصوما لا يستباح فليس بأذلّ.

يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]. فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد. فعلم أن من له عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلة عليه وإن كانت عليه المسكنة، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل سبحانه الحادين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد، إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه الآية، وهذا ظاهر فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممَّن أراده بسوء، فإذا كان [له] من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل، فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه(١).

(٢)قولهم: «ولا نرغب في ديننا ولا ندعو إليه أحدًا»: هذا من أولى الأشياء أن ينتقض العهد به: فإنه حراب الله ورسوله باللسان، وقد يكون أعظم من الحراب باليد، كما أن الدعوة إلى الله ورسوله جهاد بالقلب وباللسان، وقد يكون أفضل من الجهاد باليد.

ولما كانت الدعوة إلى الباطل مستلزمة ـ ولابد ـ للطعن في الحق كان دعاؤهم إلى دينهم وترغيبهم فيه طعنًا في دين الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ١٢].

ولا ريب أن الطعن في الدين أعظم من الطعن بالرمح والسيف، فأولى ما انتقض به العهد الطعن في الدين، ولو لم يكن مشروطًا عليهم، فالشرط ما زاده إلا تأكيدًا وقوة.

(٣)مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال، وهو النوع المتقدم، كمرض

---

(١) انظر: الصارم المسلول (١٩-٢٢).

(٢) ٧٢٩ أحكام جـ٢.

(٣) ١٨ إغاثة جـ١.

الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات. وهذا النوع هو أعظم النوعين ألما، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوار عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما. وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهم والغم والحزن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب، ويدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب، ويشقيه ما يشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت. وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم، إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء، ولهذا يقال: «شفى غيظه» فإذا استولى عليه عَدُوُّه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]. فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضًا أُخر أصعب من مرض العشق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر، ولم يزل، وأعقب أمراضا هي أصعب وأخطر.

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضا إلى مرضه، لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبرئه، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم «**قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال**»(١)، فجعل الجهل مرضا وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره، وحصل له برد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده، وينشرح بالهدى والعلم، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه، إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية. ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن.

***

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٦، ٣٣٧) وابن ماجه (رقم ٥٧٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) والدارمي (رقم ٧٥٢) وعبد الرزاق (١/ ٢٢٣ رقم ٨٦٧) وأبو يعلى (٤/ ٣٠٩ رقم ٢٤٢٠) وأحمد (١/ ٣٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩١ رقم ١١٦٣) والحاكم (١/ ٢٨٥ رقم ٦٣٠) والطبراني في الكبير (١١/ ١٩٤ رقم ١١٤٧٢) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح ابن السكن في تلخيص الحبير (١/ ١٤٧) وقال الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٨٧): قال البيهقي في المعرفة: هذا الحديث أصح ما روي في هذا الباب مع اختلاف في إسناده.

وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

(1) أخبر ﷻ أنه لا يستوي عنده عمار المسجد الحرام، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن، وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله؛ وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون. وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨] فهؤلاء هما عمار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم.

(2) واختلف نفر من الصحابة في أفضل الأعمال؛ فقال بعضهم: سقاية الحاج، وقال بعضهم: عمارة المسجد الحرام، وقال بعضهم: الحج، وقال بعضهم: الجهاد في سبيل الله، فاستفتى عمرُ في ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ

(١) ٣٥٦ طريق الهجرتين.

(٢) ٣١١ أعلام جـ٤.

ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

(١) نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين كقوله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. وقد تأتي بين الفاعلين نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]. وقد تأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٢] فالأعمى والبصير: الجاهل والعالم. والظلمات والنور: الكفر والإيمان. والظل والحرور: الجنة والنار. والأحياء والأموات: المؤمنون والكفار.

(٢) وأما تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن، بل قد جاء مقدمًا كذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾ [سبأ: ٣٧] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

وجاء ذكر البنين مقدما كما في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة، فلأنها ينتظمها معنى واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها، حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة،

(١) ٨ بدائع جـ٤.
(٢) ٧٤ بدائع جـ١.

فهي في موضع عن الإلتهاء بها، وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه.

ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم، وهذا هو الواقع، حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

وأما تقديمهم على الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله.

ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال. وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته.

فبدأ أولا بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون: طبعا وشرفا ورتبة. وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم؛ ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم.

ثم ذكر الفروع وهم الأبناء، لأنهم يتلونهم في الرتبة، وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة.

ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب.

فذكر الأصول أولًا، ثم الفروع ثانيًا، ثم النظراء ثالثاً. ثم الأزواج رابعًا، لأن

الزوجة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامسًا، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالبا، وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير.

ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادسًا، ووصفها بكونها مقترفة أي مكتسبة، لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل، وله أحب، وبقدره أعرف، لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفوا بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثاني، والحس شاهد بهذا وحسبك به.

ثم ذكر التجارة سابعاً، لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلى أنها مخوفة الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامنًا آخر المراتب، لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه، ويكون خيرا منه فمنها عوض. وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منهما بغيرها، فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبة الوطن آخر المراتب، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب، فذلك جزئي لا كلي، فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع.

[1]غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس وهما موضعان بينَ مكة والطائف، فسُمِّيت

(١) ٤٣٨ زاد المعاد جـ٢.

الغزوةُ باسم مكانها، وتُسمىٰ غزوةَ هَوازن، لأنهم الذين أَتَوْا لِقتال رسول اللهِ ﷺ.

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هَوازِنُ برسول الله ﷺ، وما فتح اللهُ عليه مِن مكة، جمعها مالكُ بنُ عوف النَّصْري، واجتمع إليه مع هَوازِن ثقيفٌ كُلُّها، واجتمعت إليه مُضَرُ وجُشَمُ كُلُّها، وسعدُ بن بكر، وناسٌ من بني هلال، وهم قليل، ولم يشهدها من قَيْس عَيلان إلا هؤلاء، ولم يحضُرْهَا مِن هَوازِن: كعبٌ، ولا كِلاب، وفي جشم: دريدُ بنُ الصِّمة، شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيُهُ ومعرفتُه بالحرب، وكان شجاعاً مجرَّباً، وفي ثقيف سيِّدَانِ لهم، وفي الأحلاف: قاربُ بن الأسود، وفي بنى مالك: سُبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث، وجِماعُ أمر الناس إلىٰ مالك بن عوف النَّصْري.

فلما أجمع السيرَ إلىٰ رسول الله ﷺ، ساق مع الناس أموالَهم ونساءَهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه الناسُ وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمة، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعْمَ مَجَالُ الخيل، لا حَزْنٌ ضِرْس، ولا سَهْلٌ دَهْسٌ، مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصبي، ويُعار الشاء؟ قالوا: ساق مالِكُ بن عوفٍ مع الناسِ نِساءَهُم وأموالَهم وأبناءهم. قال: أَيْنَ مالك؟ قيل: هذا مالك، ودُعي له. قال: يا مالك ؛ إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإن هذا يومٌ كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصغير، وثغاء الشاء؟، قال: سقتُ مع الناس أبناءهم، ونساءَهم، وأموالَهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردتُ أن أجعل خلفَ كُلِّ رجل أهلَه وماله ليقاتل عنهم. فقال راعىٰ ضأنٍ: واللهِ، وهل يردُّ المنهزمَ شيء، إنها إن كانت لك لم ينفعْك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليكَ، فُضِحْتَ في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعبٌ وكِلاب؟ قالوا: لم يشهدْها أحدٌ منهم. قال: غاب الحدُّ والجِدُّ، لو كان يوم علاءٍ ورِفعة، لم تَغِبْ عنه كعبٌ ولا كِلاب، ولوَدِدْت أنكم فعلتم ما فعلت كعبٌ وكلاب، فمَن شهدها منكم؟ قالوا: عَمْرو بن عامر، وعَوْف بن عامر، قال: ذَانِكَ الجَذَعَانِ من عامر، لا ينفعان ولا يضران. يا مالك ؛ إنك لم تصنع بتقديم البَيْضةِ بَيْضةِ هَوازِن إلىٰ نحورِ الخيل شيئاً، ارفعهم إلىٰ مُتمنَّع بلادهم

وعُليا قومهم، ثم الق الصُّباة على متون الخيل، فإن كانت لك، لحقَ بك مَنْ وراءَك، وإن كانت عليك، ألْفاك ذلك، وقد أحرزتَ أهلك ومالك. قال: واللهِ لا أفعلُ، إنك قد كَبِرْتَ وَكَبِرَ عَقلُكَ، واللهِ لتُطِيعُنَّني يا معشَرَ هَوازِن، أو لأتَّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرُجَ مِن ظهري، وكره أن يكون لِدُريد فيها ذِكر ورأي، فقالوا: أطعناك، فقال دُريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني.

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ ... أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

أَقُودُ وَطْفَاءَ الزَّمَعْ ... كَأَنَّهَا شَاةٌ صَدَعْ[1]

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتمُوهم فاكسروا جُفون سيوفكم، ثم شُدُّوا شدةَ رجل واحد.. وبعث عيوناً مِن رجاله، فأتَوْه وقد تفرَّقت أوصالُهم، قال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رِجالاً بيضاً على خيل بُلقٍ، واللهِ ما تماسكنا أن أصابَنَا ما ترى، فواللهِ ما ردَّه ذلك عن وجهه أن مَضَى على ما يُريدُ. ولما سمع بهم نبيُّ الله ﷺ، بعث إليهم عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ الأسلمي، وأمره أن يدخُل في الناس، فيُقيم فيهم حتى يعلَم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم حتى سمِعَ وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسَمِعَ مِن مالك وأمر هوازن ما هُم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره الخبر فلما أجمع رسولُ الله ﷺ السير إلى هَوازِن، ذُكِرَ له أن عند صفوان بنِ أُمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال: «يا أبا أُمية؛ أعِرْنا سِلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً»، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ»[2]، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة دِرع بما

---

(١) هذان البيتان من بحر مجزوء الرجز، وينسب إلى دريد بن الصمة، من الشعراء الأبطال المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم أدرك الإسلام ولم يسلم، وقتل على دين الجاهلية يوم حنين سنة ٨هـ. ذكر الطبري في تفسيره البيت الأول فقط (١٠/ ١٤٤) والسيوطي في الديباج على مسلم (١/ ١٨٨) وذكر البيتين ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٢٣٩) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٥٣) وابن منظور في اللسان (٨/ ٣٩٨).

(٢) أخرجه بلفظ قريب الضياء في المختارة (٨/ ٢٣ رقم ١٣) والحاكم (٢/ ٥٤ رقم ٢٣٠٠) والنسائي في

يكفيها مِن السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيَهم حملها، ففعل.

ثم خرج رسولُ الله ﷺ معه ألفانِ مِن أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة، وكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل عتَّابَ بن أسيد على مكة أميراً، ثم مضى يُريد لقاء هوازن[1].

قال ابن إسحاق: فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: لما استقبلنا وادي حُنَيْن، انحدرنا في وادٍ من أودية تِهامة أجوفَ حَطُوط، إنما ننحدر فيه انحداراً. قال: وفي عَماية الصبح، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكَمَنُوا لنا في شِعابه وأجنابه ومضايقه، قد أجمعوا، وتهيؤوا، وأعدوا فوالله ما راعنا ـ ونحن منحطُّون ـ إلا الكتائبُ، قد شدُّوا علينا شَدَّةَ رجل واحد، وانشمر الناسُ راجعين لا يَلْوِىٰ أحدٌ منهم على أحد، وانحاز رسولُ الله ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: «إلى أيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمَّ إليَّ، أنا رَسُولُ الله، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله»، وبقي مع رسول الله ﷺ نَفَرٌ من المهاجرين والأنصارِ وأهلِ بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين: أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته: علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه، والفَضل بن العباس، وربيعةُ بن الحارث، وأُسامةُ بن زيد، وأيمن ابن أُم أيمن، وقُتِلَ يومئذ. قال: ورجل من هَوازِن عليٌّ جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رُمح طويل أمامَ هَوازِن، وهَوازِنُ خلفه، إذا أدرك، طعن برمحه، وإذا فاته الناسُ، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فبينا هو كذلك إذ أهوى عليه علي بن أبي طالب، ورجل من الأنصار يُريدانه، قال: فأتى علي منْ خَلْفِهِ، فضرب عرقوبي الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاريُّ على الرجل، فضربه ضربةً أطن قدَمه بنصف ساقه، فانجعفَ عن رحله، قال: فاجتلد الناسُ، قال: فوالله ما رجعت راجعةُ

=

الكبرى (٣/ ٤٠٩ رقم ٥٧٧٦، ٥٧٧٧) وأبو داود (رقم ٣٥٦٢، ٣٥٦٣) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٨٩ رقم ١١٢٥٧، ١١٢٥٨) والدارقطني (٣/ ٣٩ رقم ١٦١) وأحمد (٣/ ٤٠٠) (٦/ ٤٦٥).

(١) انظر: الثقات لابن حبان (٢/ ٦٤) وتاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٢٣٨-٢٤٠).

الناس مِن هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ[(١)].

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون، ورأى مَن كان مَع رسول الله ﷺ مِن جُفاة أهل مكة الهزيمة، تكلَّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضِّغنِ، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهُم دونَ البحر، وإن الأزلامَ لمعه في كِنانته، وصرخ جَبَلَة بن الجنيد، وقال ابن هشام: صوابه كَلَدَة: ألا بطل السِّحْرُ اليوم، فقال له صفوانُ أخوه لأُمه وكان بعدُ مشركاً: اسكت فضَّ اللهُ فاك، فوالله لأن يَرُبَّني رَجُلٌ مِن قريش، أحبُّ إليَّ من أن يربَّني رجلٌ مِن هَوازِن[(٢)].

وذكر ابنُ سعد عن شيبة بن عُثمان الحَجَبي، قال: لما كان عامُ الفتح، دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة، قلت: أسيرُ مع قريش إلى هَوازِن بحُنَيْن، فعسى إن اختلطوا أن أُصيب مِن محمد غِرَّة، فأثأرَ منه، فأكون أنا الذي قمتُ بثأر قريش كُلِّها، وأقولُ: لو لم يبقَ مِن العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً، ما تبعتُه أبداً، وكنت مُرْصداً لما خرجتُ له لا يزدادُ الأمر في نفسي إلا قوةً، فلما اختلط الناسُ، اقتحم رسولُ الله ﷺ عن بغلته، فأصلتَ السيف، فدنوتُ أريدُ ما أريدُ منه، ورفعتُ سيفي حتى كِدتُ أشعره إياه، فرُفِعَ لي شُواظٌ مِن نار كالبرق كاد يمحشُني، فوضعتُ يدي على بصري خوفاً عليه، فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ، فناداني: «يَا شَيْبُ؛ ادْنُ مِنِّي» فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَمَسَحَ صَدْرِي، ثم قال: «اللَّهُمَّ أَعِذْهُ مِنَ الشَّيْطَانَ» قال: فوالله لهو كان ساعتَئِذٍ أحبَّ إليَّ مِنْ سمعي، وبصري، ونفسي، وأذهبَ اللهُ ما كان في نفسي، ثم قال: «ادْنُ فقاتِلِ الكفار»، فتقدمتُ أمامَه أضربُ بسيفي، الله يعلمُ أني أحب أن أقيَه بنفسي كُلَّ شيء، ولو لقيتُ تلك

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٠): رواه أحمد وأبو يعلى.... ورواه البزار باختصار وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان (١١/ ٩٥-٩٦ رقم ٤٧٧٤) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٧٠ رقم ١٢٨٧٩) وأبو يعلى (٣/ ٣٨٨-٣٨٩ رقم ١٨٦٣) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٠): ورواه البزار وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وانظر: تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٠٦-٢٠٧) والاستيعاب (٣/ ١٣٣٢-١٣٣٣).

الساعة أبي ـ لو كان حيًّا ـ لأوقعتُ به السيف، فجعلتُ ألزمُه فيمن لزمه حتىٰ تراجعَ المسلمون، فكرُّوا كَرَّةَ رجل واحد، وقُرِّبَتْ بغلةُ رسولِ اللهِ ﷺ، فاستوىٰ عليها، وخرج في أثرهم حتىٰ تفرَّقوا في كُلِّ وجه، ورجع إلىٰ معسكره، فدخل خِباءه، فدخلتُ عليه، ـ ما دخل عليه أحدٌ غيري ـ حباً لرؤية وجهه، وسروراً به، فقال: «يا شَيْبُ؛ الذي أرادَ اللهُ بكَ خَيْرٌ ممَّا أَرَدْتَ لِنَفْسِك»، ثم حدَّثني بكلِّ ما أضمرتُ في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط، قال: فقلتُ: فإني أشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ، وأنكَ رسولُ اللهِ، ثم قلت: استغفر لي. فقال: «غَفَرَ اللهُ لَكَ»(١).

وقال ابن إسحاق: وحدَّثني الزُّهْري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس ابن عبد المطلب، قال: إني لمعَ رسولِ اللهِ ﷺ آخذٌ بِحَكَمَةِ بغلته البيضاء، قد شَجَرْتُها بها، وكنت امرءاً جسيماً شديدَ الصوت، قال رسُولُ اللهِ ﷺ يقول حين رأىٰ ما رأىٰ من الناس: «إلىٰ أيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ». قال: فلم أر الناس يَلْوُون علىٰ شيء، فقال: «يا عَبَّاسُ اصْرَخْ: يا مَعْشَر الأنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ أَصْحَاب السَّمُرَةِ»، فأجابوا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ. قال: فيذهبُ الرجلُ ليثنىٰ بعيرَه، فلا يقدِرُ علىٰ ذلك، فيأخذ دِرعه فيقذفها فى عُنُقه، ويأخذ سيفَه وقوسه وتُرسَه، ويقتحِمُ عن بعيره، ويُخلىٰ سبيلَه، ويؤم الصوت حتىٰ ينتهيَ إلىٰ رسول اللهِ ﷺ، حتىٰ إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلُوا النَّاس، فاقتتلُوا فكانت الدعوة أوَّلَ ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت آخراً: يا للخزرج، وكانوا صُبُراً عند الحرب، فأشرف رسولُ اللهِ ﷺ في ركائبه، فنظر إلىٰ مُجْتَلَدِ القوم، وهم يَجْتَلِدُونَ، فقال: «الآنَ حَمِيَ الوَطيسُ» وزَاد غيره:

أَنَــــا النَّبِـــــيُّ لاَ كَــــــذِبْ   أنـــا ابْـــنُ عَبْــــدِ المُطَّلِـــبْ(٢)

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٢٥٥-٢٥٦) وبنحوه أخرجه إسماعيل التيمي الأصبهاني في دلائل النبوة (رقم ٢٣٦) والفاكهي في أخبار مكة (٥/ ٩٢ رقم ٢٨٩٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٦) وصفة الصفوة (١/ ٧٢٨-٧٢٩).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (رقم ١٧٧٥) وابن حبان (١٥/ ٥٢٣ -٥٢٤ رقم ٧٠٤٩) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ١٩٤ رقم ٨٦٤٧).

وفي صحيح مسلم: ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حَصيَاتٍ، فرمىٰ بها في وجوه الكُفَّارِ، ثم قال: «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ»، فما هو إلا أن رماهم، فما زِلْتُ أرىٰ حَدَّهُم كليلاً، وأمرَهم مُدْبِراً[(١)]. وفي لفظ له: إنه نزل عن البغلة، ثم قبَضَ قبضة مِن تُراب الأرض، ثم استقبل بها وجوهَهم، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولَّوا مدبرين[(٢)].

وذكر ابن إسحاق عن جُبير بن مطعم، قال: «لقد رأيت قبل هزيمةِ القوم ـ والناس يقتتلون يومَ حُنَيْنٍ ـ مثلَ البَجادِ[(٣)] الأسود، أقبل مِن السماء حتىٰ سقط بيننا وبينَ القوم، فنظرتُ فإذا نمل أسودُ مبثوث قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فلم أشك أنها الملائكة»[(٤)].

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالكُ بن عَوْف، وعسكر بعضُهم بأوطاس، وتوجَّه بعضُهم نحو نخلةَ، وبعثَ رسولُ الله ﷺ في آثار مَن توجَّه قِبل أوطاس أبا عامر الأشعري، فأدرك مِن الناس بعضَ مَن انهزم، فناوشُوه القِتَال، فرُمِيَ بسهم فقُتِل، فأخذ الراية أبو موسىٰ الأشعري ـ وهو ابن عمه ـ فقاتلهم، ففتح الله عليه، فهزمهم الله، وقتل قاتل أبي عامر، فقال رسولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعُبَيْدٍ أبِىٰ عَامِرٍ وَأَهْلِهِ، واجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ»[(٥)] واستغفر لأبى موسىٰ.

ومضىٰ مالكُ بن عوف حتىٰ تحصَّن بحصن ثقيف، وأمر رسولُ الله ﷺ بالسَّبْي والغنائمِ أن تُجْمَعَ فَجُمِعَ ذلكَ كُلُّهُ، ووجَّهوه إلىٰ الجِعْرَانَةِ، وكان السَّبيُّ ستةَ آلاف

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧٥) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١١٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٢) وشرح النووي (١٢/ ١١٦).

(٣) البجاد: الكساء، وجمعه بُجُد، أراد الملائكة الذين أيدهم الله بهم. قاله ابن الأثير في النهاية (١/ ٩٦) وانظر: لسان العرب (٣/ ٧٨) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٦).

(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٣١٢) وعمدة القاري (١٧/ ٢٩٤).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٢٣) ومسلم (رقم ٢٤٩٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٣) والطبقات الكبرىٰ (٢/ ١٥١-١٥٢) (٤/ ٣٥٧) وتاريخ مدينة دمشق (٣٨/ ٢٢٣).

رأس، والإبلُ أربعةً وعشرين ألفاً، والغنم أكثرَ من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أُوقية فضة، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدَموا عليه مسلمين بِضْعَ عشرة ليلة ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلَّفةَ قلوبُهم أوَّلَ الناسِ، فأعطى أبا سفيان بنَ حرب أربعين أُوقية، ومائةً من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فقال: «**أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً وَمِائَةً مِنَ الإبل**»، فقال: ابني معاوية؟ قال: «**أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَمِائَةً من الإبل**»، وأعطى حكيم بن حِزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أُخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين، وأعطى العباسَ بن مرداس أربعين، فقال في ذلك شعراً، فكمَّل له المائة. ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاءِ الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامُهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعينَ شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة[1].

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسولُ الله ﷺ ما أعطى مِن تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كَثُرت فيهم القالةُ، حتى قال قائلُهم: لقي واللهِ رسولُ الله ﷺ قومَه، فدخل عليه سعدُ بنُ عبادة، فقال: يا رسول الله؛ إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدوا عليك في أنفسهم لِما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عِظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِ من الأنصار منها شيء، قال: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ**»؟ قال: يا رسولَ الله؛ ما أنا إلا مِن قومِي. قال: «**فاجْمَعْ لي قَومَكَ في هذِهِ الحَظِيرَةِ**» قال: فجاء رجالٌ من المهاجرينَ، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا، أتى سعدٌ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٢).

رسولُ الله ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؛ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُم، وجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهداكُم اللهُ بي، وعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بي، وأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبكُم»؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ وأفضلُ، ثم قال: «أَلاَ تُجِيبُونِي يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ»؟ قالوا: بماذَا نجيبُك يا رسولَ الله، للهِ ولِرسُولِه المنُّ والفَضْلُ، قال: «أَمَا واللهِ لَوْ شِئْتُم، لَقُلْتُم، فَلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، ومَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فآوَيْنَاكَ، وعائِلاً فآسيناكَ، أَوجَدْتم عليَّ يَا مَعْشَرَ الأنصارِ في أَنْفُسِكُم في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قوماً لِيُسْلِمُوا، وَوكَلْتُكُم إلىٰ إسْلامِكُم، ألا تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاء والبَعير، وتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ إلىٰ رحالِكم، فوالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُون بِهِ خيرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، وَلَوْلا الهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرُءاً مِن الأنْصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَوَادياً، وسَلَكَت الأنصار شِعْباً وَوَادياً لَسَلكْتُ شِعْبَ الأنْصارِ وواديها، الأنصارُ شِعَارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأنْصار، وأبناءَ أبناءِ الأنْصار». قال: فبكىٰ القومُ حتَّىٰ أخضلُوا لِحاهم، وقالوا: رَضينَا برسُولِ اللهِ ﷺ قَسْماً وحظاً، ثم انصرف رسولُ اللهِ ﷺ وتفرَّقوا[1].

وقدمت الشَّيماءُ بنت الحارث بن عبد العُزَّىٰ أُختُ رسول الله ﷺ من الرّضاعة، فقالت: يا رسول الله؛ إني أختُك مِن الرضاعة، قال: «وما علامَة ذلك»؟ قالت: عضَّةٌ عَضَضتنيها في ظهري، وأنا متورِّكَتُكَ. قال: فعرف رسولُ ﷺ العلامة. فبسط لها رداءه، وأجلسها عليه وخيَّرها، فقال: «إنْ أَحْبَبْتِ الإقامَةَ فَعِنْدِي مُحَبَّبَةً مُكَرَّمَةً، وإنْ أَحْبَبْتِ أنْ أُمَتِّعَكِ فَتَرْجِعِين إلىٰ قَوْمِكِ»؟ قالت: بل تُمَتِّعني وتردُّني إلىٰ قومي، ففعل، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غُلامًا ـ يقال له: مكحول ـ وجارية، فزوجت إحداهما من الآخر، فلم

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٦) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠) رواه أحمد كلها وأبو يعلى، ورجال الرواية الأولى لأحمد رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع وأصل الحديث عند مسلم (رقم ١٠٦١، ٢٥٠٦)، وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٢). وصححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص ٣٩٦-٣٩٧).

يزل فيهم من نسلهما بقية[١]. وقال أبو عمر: فأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية، ونعمًا، وشاءً، وسماها حذافة. وقال: والشيماء لقب[٢].

وقدم وفد هَوازِنَ على رسول الله ﷺ، وهم أربعةَ عشر رجلاً، ورأسُهم زُهَيرُ بن صُرَد، وفيهم أبو بُرقان عمُّ رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يَمُن عليهم بالسَّبْي والأموال، فقال: «إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وإِنَّ أَحَبَّ الحَدِيث إِليَّ أَصْدَقُهُ، فَأَبْنَاؤُكُم ونِسَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُم أَمْ أَمْوَالُكُمْ»؟ قالوا: ما كنا نعدِلُ بالأحساب شيئاً فقال: إذا صَلَّيْتُ الغَدَاةَ فَقُومُوا فقولوا: إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ الله ﷺ إلى المُؤمِنينَ، ونَسْتَشْفِعُ بِالمُؤمنين إلى رَسُولِ الله ﷺ أنْ يَرُدُّوا عَلَيْنَا سَبْيَنَا، فلما صلَّى الغداة، قاموا فقالُوا ذلِكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أَمَّا مَا كَانَ لي ولبني عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَهُوَ لَكُمْ، وَسَأَسْأَلُ لَكُمُ النَّاسَ»، فقال المهاجِرُونَ والأنصار: ما كان لنا فهو لِرسول الله ﷺ، فقال الأقرعُ بنُ حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عُيينة بن حِصن: أما أنا وبنو فَزارة فلا، وقال العباسُ بنُ مرداس: أما أنا وبنُو سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباسُ بنُ مرداس: وهَّنتموني، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ هؤلاء القَوْمَ قَدْ جَاؤوا مُسْلِمِينَ، وقَدْ كُنْتُ اسْتَأنَيْتُ سَبْيَهُم، وقَد خَيَّرْتُهم، فَلَمْ يَعْدِلُوا بالأبناء والنِّساء شَيئاً، فمنْ كانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شيء، فَطَابَتْ نَفْسَهُ بأن يَرُدَّه، فسبيلُ ذلك، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِحَقِّهِ، فليردَّ عليهِمْ، ولَهُ بِكُلِّ فَرِيضَةٍ ستُّ فرائضَ منْ أوَّلِ ما يفيءُ اللهُ علينا»، فقال الناسُ: قد طيبنا لرسول الله ﷺ. فقال: «إنَّا لا نعرِفُ مَنْ رَضِي مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَرْضَ، فارْجِعُوا حَتَّى يَرفَعَ إلينَا عرفاؤُكم أَمْرَكُم»، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم. ولم يتخلف منهم أحد غير عُيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يديه، ثم ردَّها بعد ذلك، وكسا رسولُ الله ﷺ السَّبي قُبطية قُبطية[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٤٠٦).

(٢) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٨٧٠-١٨٧١).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٢-١٥٤) وأحمد (٢/ ٢١٨) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٣٨٣) والطبراني في الكبير (٥/ ٢٧٠-٢٧١ رقم ٥٣٠٤) وانظر: تعليق التعليق (٣/ ٤٧٤).

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنُّكت الحكمية كان الله ﷻ قد وعد رسولَه، وهو صادقُ الوعد، أنه إذا فتح مكَّة، دخل النَّاسُ في دينه أفواجاً، ودانت له العربُ بأسرها، فلما تمَّ له الفتحُ المبين، اقتضت حِكمتُه تعالى أن أمسك قلوبَ هَوازِنَ ومَن تَبِعَهَا عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألَّبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، لِيظهر أمرُ الله، وتمامُ إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولِتكون غنائمُهم شكراناً لأهل الفتح، وليُظهرَ اللهُ سبحانه رسولَه وعِبادَه، وقهرَه لهذه الشَّوْكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يُقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب، ولغير ذلك مِن الحكم الباهرة التي تلوحُ للمتأملين، وتبدو للمتوسمين[(١)].

[(٢)]حدثنا وكيع، عن عبيد الله بن أبي زياد، عن ابن أبي نجيح، عن عبد الله بن عمرو قال: من أكل أجور بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نار جهنم[(٣)].

حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله بن مسلم بن هُرمُز عن عطاء أنه كره الكراء بمكة[(٤)].

حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ابن جريج قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى الناس: ينهي عن كراء بيوت مكة[(٥)].

حدثنا إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن أبي سليمان قال: كتب عمر بن عبد العزيز

---

(١) ساقها المؤلف قرابة نصف كراسة لمن أرادها (ج).

(٢) ١٢٨ أحكام جـ١.

(٣) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٦ رقم ٢٠٥١، ٢٠٥٢) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٣) والدارقطني (٣/ ٥٧ رقم ٢٢٥، ٢٢٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٤) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٥ رقم ١٠٩٦٧) والأزرقي في أخبار مكة (١/ ١٦٣).

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٤٩) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨١) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٤) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٩ رقم ٢٠٦١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٣) وابن سعد في الطبقات (٥/ ٣٦٤) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٥).

إلى أمير مكة: ألا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجرًا، فإنه لا يحل لهم[1].

حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن عمر عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر؛ أنه نهى أن تغلق دور مكة دون الحاج، وأنهم يضطربون فيما وجدوا منها فارغًا[2].

حدثنا أبو إسماعيل [يعني المؤدب] عن عبد الله بن مسلم بن هرمز، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الحرم كله مسجد[3].

حدثنا إسماعيل بن حفص، عن إسرائيل، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر: الحرم كله مسجد[4].

قلت: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وهذا لمكة كلها، قال أبو عبيد: فإذا كانت مكة هذه سننها أنها مناخ من سبق إليها، وأنها لا تباع رباعها، ولا يطيب كراء بيوتها، وأنها مسجد لجماعة المسلمين؛ فكيف تكون هذه غنيمة فتقسم بين قوم يجوزونها دون الناس، أو تكون فيئًا فتصير أرض خراج، وهي أرض من أرض العرب الأميين الذين كان الحكم عليهم: الإسلام أو القتل، فإذا أسلموا كانت أرضهم العشر، ولا تكون خراجًا أبدًا؟ ثم جاء الخبر عن النبي ﷺ مفسرًا حين قال: «**لا تحل غنائمها**»[5][6]. قال: «ليس تشبه مكة شيئًا من البلاد لما خُصت به، فلا حجة لمن زعم أن الحكم على غيرها كالحكم عليها؛ وليست تخلو بلاد العنوة ـ سوى مكة ـ من أن تكون غنيمة،

---

(١) أخرجه القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٦).

(٢) أخرجه القاسم بن سلام (رقم ١٦٧) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٧ رقم ٢٠٥٦).

(٣) أخرجه القاسم بن سلام (رقم ١٦٨) وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٧٦ رقم ١٠٠١٦).

(٤) أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد (٤/ ٣٤٥ رقم ٨٠٠٥) (٤/ ٣٦٨ رقم ٨٠٩٥) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٥٢ رقم ٢٠٧٢) بينما قال بدر الدين العيني في عمدة القاري (٩/ ٢٢٥): وكذا روي عن ابن عمر. وذكره.

(٥) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٧١).

(٦) انظر: الأموال (ص ٨٥-٨٦).

كما فعل رسول الله ﷺ: بخيبر أو تكون فيئًا، كما فعل عمر ﷺ بأرض السواد وغيره من أرض الشام ومصر»[١]. انتهى.

فغلط في مكة طائفتان: طائفة ألحقت غيرها بها فجوزت ألا تقسم ولا يضرب عليها خراج، ولا تكون فيئًا؛ وطائفة شبهت مكة بغيرها فجوزت قسمتها، وضرب الخراج عليها؛ وهي أقبح الطائفتين وأسوأهم مقالة؛ وبالله التوفيق.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢]قد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه، دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤] وقالت اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦] فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له. وقال تعالى في حق الزنا: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به. والمخففة: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به وخوفه

(١) انظر: الأموال (ص ٨٦).

(٢) ٥٩ إغاثة جـ١.

ورجائه. ونجاسة الشرك عينية. ولهذا جعل سبحانه الشرك نجسا، بفتح الجيم، ولم يقل: إنما المشركون نجس، بالكسر، فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس، بالكسر، هو المتنجس. فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجِس. والبول والخمر نجَس. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم. فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقذر، الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرىٰ، فضلًا أن يخالط ويلابس لقذارته، ونفرة الطباع السليمة عنه. وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوىٰ.

فالأعيان النجسة إما أن تؤذىٰ البدن أو القلب، أو تؤذيهما معا. والنجَس قد يؤذىٰ برائحته، وقد يؤذىٰ بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود: أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب علىٰ الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتىٰ إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذىٰ بها، كما يتأذىٰ من يشم رائحة النَّتْن، ويظهر ذلك كثيرًا في عرقه، حتىٰ ليوجد لرائحة عرقه نتنا. فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره. والعرق يفيض من الباطن.

ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق. وكان رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم أطيب الناس عرقًا. قالت أم سليم، وقد سألها رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه، وهي تلتقطه: «هو من أطيب الطيب»[(١)].

فالنفس النجسة الخبيثة يقوىٰ خبثها ونجاستها حتىٰ يبدو علىٰ الجسد. والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نفحة مسك وُجدت علىٰ وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٧٣) (١١/ ٧٢) وشرح النووي (١٥/ ٨٦-٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٤-٤٩٦ رقم ٧٢٠) وابن حبان (٧/ ٢٨٤ رقم ٣٠١٤) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٦٠٣ رقم ١٩٥٩) وفي الصغرىٰ (رقم ١٨٣٣) وابن أبي شيبة =

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له، وأشدها مقتا لديه. ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا، وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين...

[(١)]الأمكنة التي يمنع أهل الذمة من دخولها والإقامة بها. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا النبي ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي ﷺ فناداهم فقال: «يا معشر اليهود، أسلموا تسلموا»، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: «ذلك أريد»، فقال: «أسلموا تسلموا»، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك أريد» ثم قالها الثالثة فقال: «اعملوا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله»[(٢)] متفق عليه، ولفظه للبخاري؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس! قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «ائتوني

=

(٣/ ٥٤-٥٥ رقم ١٢٠٥٩) والطيالسي (رقم ٧٥٣) قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٨ رقم ٥٣٩٧): رواه ابن حبان في صحيحه وهو عند ابن ماجه بنحوه بإسناد صحيح.

(١) ١٧٥ أحكام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٤٤) ومسلم (رقم ١٧٦٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٠٣) وشرح النووي (١٢/ ٩٠).

بكتف أكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده أبدًا»؛ فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبي تنازع ـ فقالوا: ما له؟ أهجر؟ استفْهِموه، فقال: «ذروني، الذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه». فأمرهم بثلاث فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم»، والثالثة إما سكت عنها، وإما قالها فنسيتها. متفق عليه ولفظه للبخاري(١)...

***

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

(٢)أما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فعنده: لهم دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها، ولكن لا يستوطنون به، وأما الحجاز فلهم الدخول إليه والتصرف فيه والإقامة بقدر قضاء حوائجهم، وكأن أبا حنيفة رحمه الله تعالى قاس دخولهم مكة على دخولهم مسجد رسول الله ﷺ ولا يصح هذا القياس، فإن لحرم مكة أحكامًا يخالف بها المدينة، على أنها ليست عنده حَرمًا.

فإن قيل: الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام، ولم يمنع أهل الكتاب منه: ولهذا أذن مؤذن النبي ﷺ يوم الحج الأكبر: «أنه لا يحج بعد العام

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٨) ومسلم (رقم ١٦٣٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٣٢) وشرح النووي (١١/ ٨٩).

(٢) ١٨٨ أحكام جـ١.

مشرك»(١) والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب، فلم يتناولهم المنع.

قيل: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين، فابن عمر وغيره كانوا يقولون: هم من المشركين، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لا أعلم شركًا أعظم من أن يقول: المسيح ابن الله وعُزَير ابن الله(٢)! وقد قال تعالىٰ فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخلون في لفظ المشركين لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ [الحج: ١٧]. قال شيخنا: «والتحقيق أن أصل دينهم دين التوحيد، فليسوا من المشركين في الأصل، والشرك طارئ عليهم، فهم منهم باعتبار ما عرض لهم لا باعتبار أصل الدين، فلو قدر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنوي، وهو كونهم نجسًا، والحكم يعم بعموم علته».

فإن قيل: فالآية نبهت علىٰ دخولهم الحرم عوضًا عن دخول عباد الأوثان، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨]. فإنها لما نزلت انقطع عنهم ما كان المشركون يجلبون إليهم من الميرة، فأعاضهم الله بالجزية.

قيل: ليس في هذا ما يدل علىٰ دخول أهل الجزية المسجد الحرام بوجه ما، بل تؤخذ منهم الجزية وتحمل إلىٰ من بالمسجد الحرام وغيره علىٰ أن الإغناء من فضل الله وقع بالفتوح والفيء والتجارات التي حملها المسلمون إلىٰ مكة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٩) ومسلم (رقم ١٣٤٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣١٩-٣٢٠) وشرح النووي (٩/ ١١٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٨٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤١٧).

فإن قيل: فالآية إنما منعت قربانهم المسجد الحرام خاصة فمن أين لكم تعميم الحكم للحرم كله؟

قيل: المسجد الحرام يراد به في كتاب الله تعالىٰ ثلاثة أشياء: نفس البيت، والمسجد الذي حوله، والحرم كله؟

فالأول كقوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

والثاني: كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]. علىٰ أنه قد قيل: إن المراد به هاهنا الحرم كله، والناس سواء فيه.

والثالث: كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]. وإنما أسرىٰ به من داره من بيت أم هانئ.

وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. أن المراد مكة كلها والحرم، ولم يخص ذلك أحد منهم بنفس المسجد الذي يطاف فيه.

ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخيبر وما حولها ولم يكونوا يمنعون من المدينة، كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي علىٰ طعام أخذه لأهله(١) فلم يجلهم رسول الله ﷺ عند نزولها من الحجاز وأمر مؤذنه أن يؤذن بأن «**لا يحج بعد العام مشرك**».

فإن قيل: فما تقولون في دخولهم مساجد الحل؟

قيل: إن دخلوها بغير إذن منعوا من ذلك ولم يمكنوا منه، لأنهم نجس والجنب والحائض أحسن حالا منهم، وقد منعا من دخول المساجد، وإن دخلوها بإذن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩١٦) ومسلم (رقم ١٦٠٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٤٢-١٤٤) وشرح النووي (١٢/ ٧٠) (١٣/ ٢١١).

مسلم، ففيه قولان للفقهاء، هما روايتان عن أحمد.

ووجه الجواز أن رسول الله ﷺ أنزل الوفود من الكفار في مسجده، فأنزل فيه وفد نجران ووفد ثقيف وغيرهم.

وقال سعيد بن المسيب: كان أبو سفيان يدخل مسجد المدينة وهو على شركه، وقدم عمير بن وهب ـ وهو مشرك ـ فدخل المسجد، والنبي ﷺ فيه ليفتك به، فرزقه الله تعالى الإسلام(١).

ووجه المنع أنهم أسوأ حالاً من الحائض والجنب، فإنهم نجس بنص القرآن. والحائض والجنب ليسا بنجس بنص السنة.

ولما دخل أبو موسى على عمر بن الخطاب وهو في المسجد أعطاه كتابا فيه حساب عمله، فقال له عمر: ادع الذي كتبه ليقرأه، فقال: إنه لا يدخل المسجد قال: ولم؟ قال: إنه نصراني(٢). وهذا يدل على شهرة ذلك بين الصحابة، ولأنه قد انضم إلى حدث جنابته حدث شركه فتغلظ المنع.

وأما دخول الكفار مسجد النبي ﷺ فكان ذلك لما كان بالمسلمين حاجة إلى ذلك، ولأنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ في عهودهم، ويؤدون إليه الرسائل، ويحملون منه الأجوبة، ويسمعون منه الدعوة، ولم يكن النبي ﷺ ليخرج من المسجد لكل من قصده من الكفار، فكانت المصلحة في دخولهم إذ ذاك.المسجد لكل من قصده من الكفار فكانت المصلحة في دخولهم إذ ذاك أعظم من المفسدة التي فيه، بخلاف الجنب والحائض، فإنه كان يمكنهما التطهر والدخول إلى المسجد، وأما الآن فلا مصلحة للمسلمين في دخولهم مساجدهم والجلوس فيها، فإن دعت إلى ذلك مصلحة راجحة جاز دخولها بلا إذن. والله أعلم.

---

(١) انظر: المغني (٩/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢٧ رقم ٢٠١٩٦) وفي شعب الإيمان (٧/ ٤٣ رقم ٩٣٨٤) وانظر: المغني (٩/ ٢٨٧) (١٠/ ١١٤).

[(١)]وأجاب: أما سبب وضع الجزية فهو قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فأجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس، وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد توقف في أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.[(٢)] ذكره البخاري.

وذكر الشافعي أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس، فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنّوا بهم سنة أهل الكتاب»[(٣)]. وهذا صريح في أنهم ليسوا من أهل الكتاب...

[(٤)]والمقصود ذكر بعض الحكمة في إبقاء أهل الكتاب بالجزية، وهذه الحكمة منتفية في حق غيرهم، فيجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

والمسألة مبنية على حرف: وهو أن الجزية هل وضعت عاصمة للدم، أو مظهرًا لصغار الكفر وإذلال أهله؛ فهي عقوبة؟ فمن راعى فيها المعنى الأول قال: لا يلزم من عصمها لدم من خف كفره بالنسبة إلى غيره ـ وهم أهل الكتاب ـ أن تكون عاصمة لدم من يغلظ كفره.

ومن راعى فيها المعنى الثاني قال: المقصود إظهار صَغار الكفر وأهله وقهرهم؛

---

(١) ١ أحكام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٥٦، ٣١٥٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٦١).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ١٨٩ رقم ١٨٤٣٤) والشافعي في مسنده (ص ٢٠٩) وفي الأم (٤/ ١٧٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٥ رقم ١٠٧٦٥) وعبد الرزاق (٦/ ٦٨-٦٩ رقم ١٠٠٢٥) ومالك (١/ ٢٧٨ رقم ٦١٦) والبزار (٣/ ٢٦٤-٢٦٥ رقم ١٠٥٦) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٢٦١): وهذا منقطع مع ثقة رجاله، وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٧): هذا منقطع الإسناد. وضعفه الزيلعي في نصب الراية (٣/ ١٧٠) (٤/ ١٨١).

(٤) ١٥ أحكام جـ١.

وهذا أمر لا يختص أهل الكتاب بل يعم كل كافر.

قالوا: وقد أشار النص إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾[التوبة: ٢٩] فالجزية صغار وإذلال. ولهذا كانت بمنزلة ضرب الرق.

قالوا: وإذا جاز إقرارهم بالرق على كفرهم جاز إقرارهم عليه بالجزية بالأولى، لأن عقوبة الجزية أعظم من عقوبة الرق؛ ولهذا يسترق من لا تجب عليه الجزية من النساء والصبيان وغيرهم...

(١)**فإن قيل:** فالنبي ﷺ لم يأخذها من أحد من عبَّاد الأوثان مع كثرة قتاله لهم.

قيل: أجل، وذلك لأن آية الجزية إنما نزلت عام «تبوك» في السنة التاسعة من الهجرة بعد أ ن أسلمت جزيرة العرب، ولم يبق بها أحد من عباد الأوثان، فلما نزلت آية الجزية أخذها النبي ﷺ ممن بقي على كفره من النصارى والمجوس. ولهذا لم يأخذها من يهود المدينة حين قدم المدينة، ولا من يهود خيبر؛ لأنه صالحهم قبل نزول آية الجزية، وهذه الشبهة هي التي أوقعت عند اليهود أن أهل خيبر لا جزية عليهم، وأنهم مخصوصون بذلك من جملة اليهود، ثم أكدوا أمرها بأن زوروا كتابًا فيه أن رسول الله ﷺ أسقط عنهم الكلف والسُّخر والجزية، ووضعوا فيه شهادة سعد بن معاذ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما، وهذا الكتاب كذب مختلق بإجماع أهل العلم من عشرة أوجه...

(٢)**أحدها:** أنَّ فيه «شهادة سعد بن معاذ». وسعد قد توفي قبلَ ذلك في غزوة الخندق.

ثانيها: أن فيه «وكتب معاوية بن أبي سفيان». هكذا، ومعاوية إنما أسلم زمن الفتح، وكان من الطلقاء.

ثالثها: أن الجزية لم تكن نزلت حينئذ، ولا يعرفها الصحابة ولا العرب، وإنما

---

(١) ٦ أحكام جـ١.

(٢) ١٠٢ المنار.

أنزلت بعد عام تبوك، وحينئذ وضعها النبي ﷺ على نصارى نجران ويهود اليمن، ولم تؤخذ من يهود المدينة، لأنهم وادعوه قبل نزولها، ثم قتل من قتل منهم، وأجلى بقيتهم إلى خيبر وإلى الشام، وصالحه أهل خيبر قبل فرض الجزية، فلما نزلت آية الجزية استقرَّ الأمر على ما كان عليه، وابتدأ ضربها على من لم يتقدم له معه صلح، فمن هاهنا وقعت الشبهة في أهل خيبر.

رابعها: أن فيه «وضع عنهم الكلف والسخر» ولم يكن في زمانه كلف ولا سخر ولا مكوس.

خامسها: أنه لم يجعل لهم عهدًا لازمًا، بل قال: «**نقركم ما شئنا**»[1]. فكيف يضع عنهم الجزية التي يصير لأهل الذمة بها عهدٌ لازمٌ مؤبَّد، ثم لا يثبت لهم أمانًا لازمًا مؤبدًا؟

سادسها: أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، فكيف يكون قد وقع، ولا يكون علمه عند حملة السنة: من الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، وينفرد بعلمه ونقله اليهود؟

سابعها: أن أهل خيبر لم يتقدم لهم من الإحسان ما يوجب وضع الجزية عنهم، فإنهم حاربوا الله ورسوله، وقاتلوه وقاتلوا أصحابه، وسلُّوا السيوف في وجوههم، وسموا النبي ﷺ وآووا أعداءه المحاربين له المحرضين على قتاله. فمن أين يقع هذا الاعتناءُ بهم؟ وإسقاط هذا الفرض الذي جعله الله عقوبة لمن لم يدن منهم بدين الإسلام؟

ثامنها: أن النبي ﷺ لم يسقطها عن الأبعدين، مع عدم معاداتهم له كأهل اليمن، وأهل نجران، فكيف يضعها عن جيرانه الأدنين، مع شدة معاداتهم له، وكفرهم وعنادهم؟ ومن المعلوم: أنه كلما اشتد كفر الطائفة وتغلظت عداوتهم، كانوا أحق بالعقوبة لا بإسقاط الجزية.

(١) انظر: فتح الباري (٥/ ١٤) وعمدة القاري (١٢/ ١٦٨) وعون المعبود (٨/ ١٧١).

تاسعها: أن النبي ﷺ لو أسقط عنهم الجزية ـ كما ذكروا ـ لكانوا من أحسن الكفار حالًا، ولم يحسن بعد ذلك أن يشترط لهم إخراجهم من أرضهم وبلادهم متى شاء، فإن أهل الذمة الذين يقرون بالجزية لا يجوز إخراجهم من أرضهم وديارهم، ما داموا ملتزمين لأحكام الذمة، فكيف إذا روعي جانبهم بإسقاط الجزية، وأعفوا من الصغار الذي يلحقهم بأدائها؟ فأيُّ صغارٍ بعد ذلك أعظم من نفيهم من بلادهم، وتشتيتهم في أرض الغربة؟ فكيف يجتمع هذا وهذا؟

عاشرها: أن هذا لو كان حقًّا لما اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون والفقهاء كلهم على خلافه، وليس في الصحابة رجل واحد قال: لا تجب الجزية على الخيبرية، لا في التابعين، ولا في الفقهاء؛ بل قالوا: أهل خيبر وغيرهم في الجزية سواءٌ، وعرضوا بهذا الكتاب المكذوب، وقد صرحوا بأنه كذب، كما ذكر ذلك الشيخ أبو حامد، والقاضي أبو الطيب، والقاضي أبو يعلى وغيرهم.

وذكر الخطيب البغدادي هذا الكتاب، وبين أنه كذبٌ من عدة وجوه[(١)]، وأحضر هذا الكتاب بين يدي شيخ الإسلام، وحوله اليهود يزفونه ويجلونه، وقد غشي بالحرير والديباج فلما فتحه وتأمله بزق عليه، وقال: هذا كذب من عدة أوجه، وذكرها، فقاموا من عنده بالذل والصغار.

[(٢)]ومن تلاعب الشيطان بهم أيضًا أنهم لما حُرِّمت عليهم الشحوم أذابوها، ثم باعوها، وأكلوا ثمنها، وهذا من عدم فقههم وفهمهم عن الله تعالى دينه. فإن ثمنها بدلٌ منها فتحريمها تحريمٌ لبدلها والمعاوضة عنها، كما أن تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير يتناول تحريم أعيانها وأبدالها.

ومن تلاعبه بهم أيضًا، اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد لعنهم رسول الله ﷺ على ذلك، ولعنته تتناولُ فعلهم.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٠١-١٠٢).

(٢) ٣١٨ إغاثة جـ٢.

ومن تلاعبه بهم أيضًا: أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين لا تنال الهداية إلا على أيديهم، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله تعالى، يحرمون عليهم ويحلون لهم، فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم. ولا يلتفتون: هل ذلك التحريم، والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟

قال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسألته عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. فقلت: يا رسول الله، ما عبدوهم. فقال: «**حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم. فكانت تلك عبادتهم إيَّاهم**» رواه الترمذي وغيره[١].

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان؛ أن يقتل أو يقاتل من هداه على يديه، ويتخذ من لم تضمن له عصمته ندًّا لله يحرم عليه، ويحلل له.

ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام، وقتلهم لهما حتى سلط الله عليهم بختنصر وسنجاريب وجنودهما. فنالوا منهم ما نالوه.

[٢]قال أبو عمر في الجامع: باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بينه وبين الاتباع، قال أبو عمر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ روي عن حذيفة وغيره وقال: لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم[٣]. وقال عدي ابن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب فقال: «**يا عدي ألق هذا الوثن من عنقك**»

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٩٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠١٣٧) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢ رقم ٢١٨) والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦ رقم ٤٧١) والمزي في تهذيب الكمال (٢٣/ ١١٨-١١٩) والجرجاني في تاريخ جرجان (رقم ١١٦٢) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفي غاية المرام (رقم ٦).

(٢) ١٧١ أعلام جـ٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٥).

وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: فقلت: يا رسول الله إنا لم نتخذهم أربابا قال: «**بلى أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحل لكم فتحرمونه**» فقلت بلى: قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

قلت: الحديث في المسند والترمذي مطولًا. وقال أبو البختري في قوله ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: «**أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية**»(٢).

وقال وكيع: ثنا سفيان والأعمش جميعا عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي ثابت عن أبي البختري قال: قيل لحذيفة في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أكانوا يعبدونهم فقال: «**لا ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه**».

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٤] وفي هؤلاء ومثلهم قال الله ﷻ: ﴿ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]. وقال تعالى معاتبًا لأهل الكفر وذامًّا لهم: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢ رقم ٢١٨).
(٢) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧-٣١٨).

ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣]. وقال: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلًا فكفر، وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها. كان كل واحد ملومًا على التقليد بغير حجة لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضًا، وإن اختلفت الآثام فيه، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

[١]ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقه[٢] بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين: ظهورًا بالحجة، والبيان، والدلالة وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه ويكون منصورًا.

***

(١) ٤٧٠ مدارج جـ٣.

(٢) الإشارة إلى ما ذكره من الأدلة على صدق الرسول ﷺ عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها ا.هـ (ج).

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ ﴾.

(١)معنى النسيء تأخير رجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله مأخوذ من نسأت الشيء إذا أخرته، ومنه النسيئة في البيع، وكان من جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم هذه الأشهر الحرم، فكانوا يتحرجون فيها: عن القتال وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضًا، إلى أن تنصرم هذه الأشهر، ويخرجوا إلى أشهر الحلِّ، فكان أكثرهم يتمسكون بذلك، ولا يستحلون القتال فيها، وكان قبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام حرَّموا مكانه شهرًا آخر من أشهر الحل، ويقولون: نسأنا الشهر، واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون من قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة اليوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضع الله...

(٢)وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]، وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها، يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

---

(١) ٤٠٧ تهذيب السنن جـ٢.

(٢) ٩٥ فوائد.

[(١)] لما بايع الرسول ﷺ أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه، فأعملت آراءها في استخراج الحيل، فمنهم من رأى الحبس، ومنهم من رأى النفي. ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء البريد بالخبر من السماء، وأمره أن يفارق المضجع، فبات عليٌّ مكانه ونهض الصديق لرفقة السفر. فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصدّيق، فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه، وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، إلى أن انتهيا إلى الغار، فبدأ الصدّيق بدخوله ليكون وقاية له إن كان ثم مؤذ. وأنبت الله شجرة لم تكن قبل، فأظلّت المطلوب وأضلّت الطالب، وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار، فحاكت ثوب نسجها على منوال الستر[(٢)]، فأحكمت الشقة حتى عمي على القائف المطلب، وأرسل الله حمامتين فاتخذتا هناك عشًا جعل على أبصار الطالبين غشاوة، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود. فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم بسمع الرسول ﷺ والصدّيق، قال الصدّيق وقد اشتد به القلق: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[(٣)]؟

لما رأى رسول الله ﷺ حزنه قد اشتد، لكن لا على نفسه، قوي قلبه ببشارة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[(٤)] [التوبة: ٤٠]. فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظًا، كما ظهر حكمًا ومعنى، إذ يقال: رسول الله وصاحب رسول الله، فلما مات ﷺ قيل: خليفة رسول الله، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل: أمير المؤمنين. فأقاما في الغار

---

(١) ٧٠ فوائد.

(٢) يأتي في سورة يس إن شاء الله بسط هذا (ج).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٥٣) ومسلم (رقم ٢٣٨١) وانظر: فتح الباري (٧/ ١١) وشرح النووي (١٥/ ١٤٩-١٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٥٢) ومسلم (رقم ٢٠٠٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ١١).

ثلاثًا ثم خرجا منه، ولسان القدر يقول: لتدخلنها دخولًا لم يدخله أحد قبلك، ولا ينبغي لأحد من بعدك». فلما استقلا على البيداء، لحقهما سراقة بن مالك، فلما شارف الظفر أرسل عليه الرسول ﷺ سهما من سهام الدعاء، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها[١]، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز، ويقدم الزاد إلى شبعان: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»[٢]. كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصديق، دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن الرسول ﷺ مات عن أثر السم، وأبو بكر سم فمات، أسلم على يديه من العشرة: عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم، فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا جلبت نفقته عليه: «**ما نفعني مال، ما نفعني مال أبي بكر**»[٣]. فهو خير من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتم إيمانه، والصدّيق أعلن به، وخير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين.

عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار، ويصيح: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فألقى له حب المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة ثم علا على أفنان شجرة الصدق، يغرد بفنون المدح، ثم قام في محاريب الإسلام يتلو: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢) وابن سعد في الطبقات (١/ ١٨٨، ٢٣٢) وانظر: صفة الصفوة (١/ ١٣٦) وسبل السلام (١/ ٨٣).

(٢) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ١٩٦٣) ومسلم (رقم ١١٠٣) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٢٧٣ رقم ٦٨٥٨) وفي الموارد (رقم ٢١٦٦) والترمذي (رقم ٣٦٦١) وأحمد (٢/ ٢٥٣، ٣٦٦) وابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٧ رقم ١٢٢٩) وابن ماجه (رقم ٩٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الكناني في مصباح الزجاجة (١/ ١٦ رقم ٣٧): وهذا إسناد رجاله ثقات.

يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

نطقت بفضله الآيات والأخبار؛ واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار. فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار. أترى لم يسمع الروافض الكفّار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

دعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجّة فما زال ولا كبا، وصبر في مدته من مدى العدى على وقوع الشبا، وأكثر في الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا. تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

من كان قرين النبي في شبابه؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الذي أفتى بحضرته سريعًا في جوابه؟ من أوّل من صلّى معه؟ ومن آخر من صلّى به؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه، فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الإلحاظ، فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ.

حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره، ولكن أين الفرار.

كم وقى الرسول بالمال والنفس، وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس. فضائله جلية وهي خليّة عن اللبس. يا عجبًا! من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار.

لقد دخلا غارا لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول ﷺ: «ما ظنّك باثنين والله الثالث».

فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث. فزال القلق وطاب عيش الماكث. فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

حبه والله رأس الحنيفية، وبغضه يدل على خبث الطوية. فهو خير الصحابة والقرابة، والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قال ابن الحنفية: مهلًا مهلاً!! فإن دم الروافض قد فار، والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا، ولكن أخذنا

بقول عليٍّ وكفانا: رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر. تالله لقد وجب حق الصدّيق علينا، فنحن نقضي بمدائحه، ونقر بما نقر به من السني عينًا، فمن كان رافضيا فلا يعد إلينا، وليقل: لي أعذار.

(١)إن من عرف الله أحبه ولابد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبدًا، ولهذا قال حكاية عن نبيه ﷺ إنه قال لصاحبه أبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فدل أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن! وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟

***

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤٧ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ۝٤٨ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٤٩﴾.

(٢)فقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾[التوبة: ٤٦].

والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله، قال ابن عباس: يريد خذلهم وكسلهم

(١) ٢٨٠ طريق الهجرتين.
(٢) ١٠١ شفاء العليل.

عن الخروج، وقال في رواية أخرى: حبسهم، قال مقاتل، وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين. وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٥، ٤٦].

فلما تركوا الإيمان به وبلقائه، وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله، ولم يستعدوا له، ولا أخذوا أهبة ذلك، كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه. فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأسًا، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفرًا، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه؛ فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه، وأوحى إلى قلبه قدرًا وكونًا أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧].

والخبال الفساد والاضطراب فلو خرجوا مع المؤمنين؛ لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف، قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالًا عجزًا وجبنًا يعني يجبنوهم عن لقاء العدو: بتهويل أمرهم وتعظيمهم في صدورهم، ثم قال: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد.

قال ابن عباس: يريد ضعفوا شجاعتكم، يعني بالتفريق بينهم لتفرق الكلمة فيجبنوا عن العدو، وقال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين، وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب، قال لبيد:

أرانا موضعين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب[1]

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى امرئ القيس أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يروى أنه حامل لواء الشعر في جهنم يوم القيامة والعياذ بالله، مات سنة ٨٠ قبل الهجرة. وذكر البيت ابن منظور في =

أي: مسرعين، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تبـا لهـن بالعرفـان لـما عرفنني   وقلن امـرؤ بـاغ أكـل وأوضـعا(١)

أي: أسرع حتى كلت مطيته: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم.

وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، ومعناه على هذا القول... وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم(٢)، قلت: فتضمن سماعين معنى مستجيبين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي. المعنى وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم يسمعون منكم أي: جواسيس.

والقول هو الأول كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي قابلون له، ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين ينزلون معهم، ويرحلون ويصلون معهم، ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم، قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم؛ فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها، وأرصد بينهم عيونًا له، فالقول قول قتادة وابن إسحاق والله أعلم.

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته له فكيف يكرهها، وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب

=

لسان العرب (٤/ ٣٤٩) ونسبه إلى امرئ القيس. وكذا فعل الحموي في معجم البلدان (٤/ ٤٧٣) ونسبه أيضًا إلى امرئ القيس، وفيهما «لأمر غيب».

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق، ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب فسمي باسمه، ولما علم عمر بن عبد العزيز أنه يتعرض للنساء ويشبب بهن نفاه إلى دهلك، ثم غزا البحر فغرق سنة ٩٣هـ. ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١١/ ٢٦٤) ونسبه إلى عمر بن أبي ربيعة وفيه: «لما نكرنني» بدل: «لما عرفنني».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٢).

ضدها لا محالة؟ إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر، فيكون قعودهم محبوبًا له، فكيف يعاقبهم عليه.

قيل: هذا سؤال له شأن وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، وأجوبة الطوائف على حسب أصولهم.

فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلل بالحكم والمصالح، وكل ممكن فهو جائز عليه، ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه، وترك ما يبغضه ويسخطه، والجميع بالنسبة إليه سواء، وهذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة والتعليل.

والقدرية تجيب عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبطهم حقيقة ولم يمنعهم؛ بل هم منعوا أنفسهم وثبطوها عن الخروج، وفعلوا ما لا يريد، ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله.

قالوا: وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة مشيئة من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم، فإنه أمرهم به. قالوا: وكيف يأمرهم بما يكرهه؟ ولا يخفى على من نوَّر الله بصيرته فساد هذين الجوابين وبعدهما من دلالة القرآن.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتّباعًا لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم ورضيه لهم دينا، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين، فكان خروجا يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروهًا له من هذا الوجه، ومحبوبًا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه، وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم، وهذا الخروج المكروه له ضدان:

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب، وهذا الضد هو الذي يحبه.

والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه، وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضًا، وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، ولكن ههنا أمران مكروهان له سبحانه، وأحدهما أكره له من الآخر، لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى، فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين، فتأمل هذا الموضع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون.

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مرارا، وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك، ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته.

فإن قلت: وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة.

قلت: يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوبا له، فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم وإظهار قدر أوليائه وشرفهم، وتخصيصهم بفضله، وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته، وشدة أخذه، وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ولو تناهوا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر.

(١) فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة الركب، وهـذا الوفد هم الذين ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦] فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلىٰ جنته، وأمر قلوبهم أمرًا كونيًّا قدريًّا أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلىٰ محابه، فلو عاينت قلوبهم حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهموم، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها المسرات، ونابت عنها الأحزان ـ لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم، وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان، فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به علىٰ لسان الرسول، فلا يعقله ظن، ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية ـ كما تقدم ـ فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وأمثال هذه الآيات.

(٢) فإن قلت: كيف يرضي لعبده شيئًا ولا يعينه عليه!

قلت: لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة؛ بحيث يكون وقوعها منه مستلزمًا لمفسدة راجحة ومفوتًا لمصلحة راجحة، وقد أشار تعالىٰ إلىٰ ذلك في قوله: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧].

---

(١) ١٦٢ مدارج جـ٣.

(٢) ٢٠١ مدارج جـ٢.

فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم مع رسوله ﷺ للعزو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه. ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت سترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾ أي: فسادًا وشرًّا ﴿وَلأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ﴾ أي: سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر، ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقتضت الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج، وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلًا لهذا الباب. وقس عليه...

[(١)]قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩] نزلت في الجد بن قيس لما غزا رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، تبوك قال له: «**هل لك يا جد في جلاد بني الأصغر، تتخذ منهم السراري والوصفاء**» فقال جَدٌّ: ائذنْ لي في القعود عنك، فقد عرف قومي أني مغرم بالنساء، وأني أخشىٰ إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأنزل الله تعالىٰ، هذه الآية[(٢)]، قال ابن زيد: يريد لا تفتني بصباحة وجوههن، وقال أبو العالية: لا تعرِّضني للفتنة. وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ﴾ قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، والرغبة بنفسه عنه أعظم».

فالفتنة التي فر منها ـ بزعمه ـ هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالىٰ يراد بها الامتحان الذي لم يفتتن صاحبه، بل خلص

---

(١) ١٥٨ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٨-١٤٩) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢١٣) إلىٰ ابن أبي حاتم وابن مردويه، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٣) وعمدة القاري (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٨).

من الافتتان، ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان.

فمن الأول: قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾.

ويطلق على ما يتناول الأمرين، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك وابتلاؤك، تضل بها من وقع فيها، وتهدي من نجا منها(١).

***

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝﴾.

(٢)إن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعته، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب، فلابد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته ويعذب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ

(١) تكملة البحث في الصافات والتغابن، وتقدم في سورة البقرة كما سيأتي في سياق غزوة تبوك آخر السورة إن شاء الله تعالى (ج).

(٢) ٣٥ إغاثة جـ١.

هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[التوبة: ٥٥].

ولم يصب من قال: إن الآية علىٰ التقديم والتأخير، كالجرجاني، حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه، علىٰ تأويل «فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الآخرة»[(١)].

وهذا القول يروىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فروا إلىٰ التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية علىٰ وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب.

فقال الحسن البصرىٰ: يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد، واختاره ابن جرير[(٢)]، وأوضحه. فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك، وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمدا ولا شكرا، بل علىٰ صغار منه وكره.

وهذا أيضًا عدول عن المراد بتعذيبهم فى الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسبىٰ أولادهم فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضًا من جنس ما قبله فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر وتولىٰ سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم وسبىٰ أولادهم، فإن الإرادة هاهنا كونية بمعنىٰ المشيئة،

(١)انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٥٣)وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٤).
(٢)أخرجه عنه كما في تفسيره (١٠/ ١٥٣).

وما شاء الله كان ولا بد، وما لم يشأ لم يكن.

الصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها.

العذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»(١). وقوله: «إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»(٢). أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم.

وهكذا من كانت الدنيا كل همه أو أكبر همه، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس ﷺ: «مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ»(٣).

ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفرق القلوب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو أو يصرخ منه.

وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٠٤) ومسلم (رقم ١٩٢٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٢٢-٦٢٤) وشرح النووي (١٣/ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٦) ومسلم (رقم ٩٢٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥٤، ١٦٠) وشرح النووي (٦/ ٢٢٨-٢٣١).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٦٥) وابن ماجه (رقم ٤١٠٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٨٨ رقم ١٠٣٣٨) وهناد في الزهد (٢/ ٣٥٥ رقم ٦٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٧-٣٠٨) وبنحوه أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٥٥ رقم ٦٨٠) والدارمي (رقم ٢٢٩) والطبراني في الكبير (٥/ ٤٣ رقم ٤٨٩١) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٥٦ رقم ٤٧٨٨): رواه ابن ماجه ورواته ثقات، وقال في موضع آخر (٤/ ٢١٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

«يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ابْنَ آدَم، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لا تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»(١).

وهذا أيضًا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم.

كما قال بعض السلف: من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب. ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: همّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي(٢). وذلك أن محبها لا ينال منها شيئا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه.

كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى لهما ثَالِثًا»(٣). وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا(٤)...

***

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

(٥)أما الرغبة في الله إرادةُ وجهه، والشوق إلى لقائه فهي رأس مال العبد وملاك أمره

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٦٦) وابن ماجه (رقم ٤١٠٧) وابن حبان (٢/ ١١٩ رقم ٣٩٣) وأحمد (٢/ ٣٥٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٢٦ رقم ٣٤٦٩٩) وعبد الرزاق (١١/ ١٩٥ رقم ٢٠٣٠٥) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢١٦ رقم ٥٠٠) والحاكم (٤/ ٣٦٢ رقم ٧٩٢٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وحسنه الترمذي.

(٢) انظر: فيض القدير (٢/ ٣٦٩) وعزاه المناوي إلى الحسن البصري.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٣٦) ومسلم (رقم ١٠٤٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٤-٢٥٥) وشرح النووي (٧/ ١٣٩).

(٤) أخرج الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٤٩٣-٤٩٤ رقم ٤٨٤) بسنده أن عيسى عليه السلام قال: مثل طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا، وذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٧/ ٤٣١) وزاد فيه: حتى يقتله.

(٥) ٤٣٢ روضة المحبين.

وقوامُ حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرَّة عينه، ولذلك خلق، وبه أمر، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب.

ولا صلاح للقلب ولا نعيمَ إلا بأن تكونَ رغبته إلى الله ﷻ وحده، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغب في الله، وراغب فيما عند الله، وراغبٌ عن الله، فالمحب راغبٌ فيه، والعاملُ راغبٌ فيما عنده، والراضي بالدنيا من الآخرة راغبٌ عنه، ومن كانت رغبته في الله كفاه الله كل مهم، وتولَّاه في جميع أموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقاية الوليد، وصانه من جميع الآفات، ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره، ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله لم يكن شيء أحب إليه منه، ولم تبق له رغبة فيما سواه، إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه.

ومن علامات المعرفة الهيبة فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته، إياه كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨] أي العلماء به...

[(١)]كان رهط من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة، يقال له: مخشي بن حمير قال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله، لكأنَّا بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة وأنا ننقلب قبل أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول

(١) ٩ زاد المعاد جـ٣.

الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار. فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عفا عنه في هذه الآية، وتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر اهـ[1].

***

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

[2]تأمل قول الحق: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣١) وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب ابن مالك، وقال أيضًا: وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وذكره وذكرها أيضًا ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٨). والقصة أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٣١ رقم ١٠٤٠٢) وانظر: الاستيعاب (٣/ ١٣٨١).

(٢) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ١.

نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذاتها وفرحها، عقوبة لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم، المتحبب إليهم بآلائه، فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره، فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم...

(1) قال تعالى: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩] فذكر تعالى الأصلين: وهما داء الأولين والآخرين:

أحدهما: الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به، متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر، بخلاف المؤمن فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها فإنه لا يستمتع بنصيبه كله ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا، بل ينال منها ما ينال منها، ليتقوى به على التزود لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة، وهو قوله: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة، لا تزال ساعية في نيل شهواتها، فإذا نالتها فإنما هي في خوض بالباطل، الذي لا يجدي عليها إلا الضرر العاجل والأجل. ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والنصب في تحصيل مراداتها وشهواتها فلا تتفرغ للخوض بالباطل إلا قليلًا، ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعو إلى النار، وهذا حال من تفرغ منها، كما هو مشاهد بالعيان، وسواء كان المعنى وخضتم كالحزب الذي خاضوا أو كالفريق الذي خاضوا، فإن الذي يكون للواحد والجمع.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) ٤٠ مفتاح جـ١.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤] لكن لا يجرى على جمع تصحيح فلا يجيء المسلمون الذي جاؤوا، وإنما يجيء غالبًا في اسم الجمع كالحزب والفريق، أو حيث لا يذكر الموصوف، وإن كان جمعًا كقول الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج[(١)] دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد[(٢)]

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

ونظيره الآية التي نحن منها وهي قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾.

أو كان المعنى على القول الآخر وخضتم خوضًا كالخوض الذي خاضوا، فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك: اضرب كالذي ضرب وأحسن كالذي أحسن ونظائره.

وعلى هذا فيكون العائد منصوبًا محذوفًا، وحذفه في مثل ذلك قياس مطرد على القولين، فقد ذمه سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات، وأخبر أن من كانت هذه حالته فقد حبط عمله في الدنيا والآخرة، وهو من الخاسرين.

ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة، وقد سألوهم: كيف دخلوها؟ ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٦] فذكروا الأصلين: الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات، فهذان الأصلان هماما هما، والله ولي التوفيق.

---

(١) في المطبوعة «جاءت تقبح» والصواب ما أثبتناه (ج).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الأشهب ابن رميلة الدارمي التميمي، ولد في الجاهلية وأسلم ولكنه لم يجتمع بالنبي ﷺ، عاش إلى العصر الأموي، وفد على الوليد بن عبد الملك، نسب إلى أمه رميلة، وأبوه ثور بن أبي حارثة النهشلي، مات سنة ٨٦هـ. وذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ١٤١) وابن كثير في تفسيره (١/ ٥٤) وابن منظور في لسان العرب (٢/ ٣٤٩) (١٥/ ٢٤٦) ونسبه إلى الأشهب بن رميلة وكذا فعل الحموي في معجم البلدان (٤/ ٢٧٢) وأبو عبيد البكري الأندلسي في معجم ما استعجم (٣/ ١٠٢٨).

[(١)]وقد أكَّده سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن مَنْ قبلنا كانوا أقوى منا؛ فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حلَّ بهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به، فقيل هو رفع خبر مبتدأ محذوف أي أنتم كالذين من قبلكم.

وقيل: نصب بفعل محذوف تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم، والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل.

وقيل: إن التشبيه في العذاب، ثم قيل: العامل محذوف، أي لعنهم وعذبهم، كما لعن الذين من قبل.

وقيل: بل العامل ما تقدم، أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولعنهم كلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد، وسوَّى بينهم فيه، كما تساووا في الأعمال، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا فَرْقٌ غير مؤثر، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وألغى الوصف الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء، فقال: ﴿ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾، فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع.

وقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ هو الحكم، والذين من قبل هم الأصل، والمخاطبون الفرع.

---

(١) ١٣٤ أعلام جـ١.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر عن الحسن في قوله: ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ قال: بدينهم[١] ويروىٰ عن أبي هريرة.

وقال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا، وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا.

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ، كأنه الذي خلق للإنسان وقدر له، كما يقال: قسمه الذي قسم له ونصيبه الذي نصب له أي أثبت وقطه الذي قُطَّ له أي قطع.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقول النبي ﷺ: «إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة»[٢]. والآية تتناول ما ذكره السلف كله، فإنه سبحانه قال: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ فبتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة، وكذلك الأموال والأولاد، وتلك القوة والأموال والأولاد هي الخلاق، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة، فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة، وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه، سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها، ثم ذكر سبحانه حال الفروع، فقال: ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ فدل هذا علىٰ أن حكمهم حكمهم، وأنه ينالهم ما نالهم، لأن حكم النظير حكم نظيره. ثم قال: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ فقيل: الذي صفة لمصدر محذوف أي كالخوض الذي خاضوا.

وقيل: لموصوف محذوف أي كخوض القوم الذي خاضوا وهو فاعل الخوض.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٨٣) والطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٣٤ رقم ١٠٥٠٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٣٥) ومسلم (رقم ٢٠٦٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٩٨-٢٩٩) وشرح النووي (١٤/ ٤٣).

وقيل: الذي مصدرية، كما أي كخوضهم، وقيل: هي موضع الذين.

والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق، والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل، وعصي الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون(١). فهذا يشبه المغضوب عليهم، الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه. وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها(٢). وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، قال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣] وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥].

---

(١) أخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٣/ ١١٨ رقم ٤٥٠١) عن سفيان الثوري، وكذا فعل الآجري في مسألة الطائفين (رقم ٤) والبيهقي في ا لمدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٥٤٤) والمزي في تهذيب الكمال (١١/ ١٦٨).

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٢٩١) (٥١/ ٢١٩) والمغني (١/ ١٩) والتقييد لمحمد بن عبدالغني البغدادي (ص ١٦٤).

وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»(١).

فقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ إشارة إلىٰ اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ إشارة إلىٰ الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرًا ما يجتمعان، فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه، كما استمتع الذين من قبله بخلاقهم، ويخوض كخوضهم، وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم.

ثم حضهم علىٰ القياس والاعتبار بمن قبلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن علق عليه من الحكم، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنىٰ، الذي علق به العقاب، وأكده، كما تقدم بضرب من الأولىٰ وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذر علىٰ الله عقاب الأقوىٰ منهم بذنبه، فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه؟

***

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

(٢)قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو أن الدنيا من أولها إلىٰ آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت؛ لكان بمنزلة من رأىٰ في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير مرفوعًا (رقم ٩٥٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٥٢ رقم ١٠٨٠).
(٢) ٩٣ مدارج جـ٣.

شيء». وقال مطرف بن عبد الله ـ أو غيره: «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة، أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حدق عين بصيرته في الدنيا والآخرة، علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة، أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟ فضلًا عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] فيسير من رضوانه ـ ولا يقال له يسير ـ أكبر من الجنات وما فيها.

(١) إن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

(٢) وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرًا مخبرًا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به، فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته؛ ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن، ويمنيهم أي شيء يريدون، فيقولون: ربنا وأي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك: أحل عليكم

---

(١) ٢١٧ مدارج جـ٢.

(٢) ١٦٦ بدائع جـ٢.

رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا[(١)].

[(٢)]إن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات، لم يتخير عليه المسائل، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك، وجعل ذكره في محل سؤاله، بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه، فهذا يُعطى أفضل ما يعطاه سائل، كما جاء في الحديث: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[(٣)] فإن السائلين سألوه، فأعطاهم الفضل الذي سألوه، والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا، بل أصحابه ملحون في سؤاله ذلك.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٣) ﴾.

[(٤)]لما كان الجِهَاد ذِروةَ سَنَام الإسلام وقُبَّتَه، ومنازِلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرِّفعةُ في الدنيا، فهم الأَعْلَوْنَ في الدُّنيَا والآخِرةِ، كان رسول الله ﷺ في الذِّروةِ العُليا منه، واستولى على أنواعه كُلِّها فجاهد في اللهِ حقَّ جهاده بالقلب، والجَنانِ، والدَّعوة، والبيان، والسيفِ، والسِّنَانِ، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده. ولهذا كان أرفعَ العَالَمِينَ ذِكراً، وأعظمَهم عند الله قدراً. وأمره الله تعالى بالجِهاد مِن حينَ بعثه، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢]، فهذه سورة مكية، أمر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٤٩) ومسلم (رقم ٢٨٢٩) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٢٠).
(٢) ٢١٧ مدارج جـ٢.
(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٤٠ رقم ٥٨٤) والبيهقي في الشعب (١/ ٤١٣ رقم ٥٧٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٦٤) والبخاري في خلق أفعال العباد (رقم ٥٤٤) وفي التاريخ الكبير (٢/ ١١٥ رقم ١٨٧٩) قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٣٤): أخرجه الطبراني بسند لين، وحديث أبي سعيد بلفظ: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي» الحديث أخرجه الترمذي وحسنه.
(٤) ١٠٢ زاد المعاد جـ٢.

فيها بجهاد الكفار، بالحُجة، والبيان، وتبليغِ القرآن، وكذلكَ جهادُ المنافِقين، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فهم تحت قهر أهلِ الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهادُ المنافقين أصعبُ مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالَم، والمشارِكُون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هُم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً.

ولما كان مِن أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شدة المُعارِضِ ـ مثلَ أن تتكلم به عند مَن تُخاف سَطوتهُ وأذاه ـ كان لِلرسلِ صلواتُ الله عليهم وسلامُهُ مِن ذلك الحظُّ الأوفَرُ، وكان لنبينا صلواتُ الله وسلامُه عليه من ذلك أكملُ الجهاد وأتمُّه.

ولما كان جهاد أعداءِ الله في الخارج فرعاً علىٰ جهادِ العبد نفسه في ذاتِ الله، كما قال النبيُّ ﷺ: «المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في ذات الله»[(١)]، «والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَىٰ الله عنه»[(٢)]. كان جهادُ النفس مُقَدَّماً علىٰ جِهَادِ العدوِّ في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلاً لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا في الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه في الخارج، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلىٰ عدوِّه، حتىٰ يُجاهِدَ نفسَه علىٰ الخروج. فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما في جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذاتِ، والمشتهيات.

***

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٠٠ رقم ٦٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٩) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٣٤) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٣٠-١٣١).

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

(1)قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥] فهذا نذر مؤكد بيمين وإن لم يقل فيه فعلي، إذ ليس ذلك من شرط النذر، بل إذا قال: إن سلمني الله تصدقت، أو لأتصدقن، فهو وعد وعده الله، فعليه أن يفي به وإلا دخل في قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧].

فوعد العبد ربه نذر يجب عليه أن يفي له به، فإنه جعله جزاء وشكرًا له علىٰ نعمته عليه، فجرىٰ مجرىٰ عقود المعاوضات لا عقود التبرعات، وهو أولىٰ باللزوم من أن يقول ابتداء: «لله عليَّ كذا» فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط، وقد وجد، فيجب فعل المشروط عنده لالتزامه له بوعده.

فإن الالتزام تارة يكون بصريح الإيجاب، وتارة يكون بالوعد، وتارة يكون بالشروع كشروعه في الجهاد والحج والعمرة والالتزام بالوعد آكد من الالتزام بالشروع، وآكد من الالتزام بصريح الإيجاب.

فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومدح من وفىٰ بما نذره له، وأمر بإتمام ما شرع فيه له من الحج والعمرة، فجاء الالتزام بالوعد آكد الأقسام الثلاثة، وإخلافه يعقب النفاق في القلب.

وأما إذا حلف يمينًا مجردة: ليفعلن كذا، فهذا حض منه لنفسه، وحث علىٰ فعله باليمين، وليس إيجابًا عليها، فإن اليمين لا توجب شيئا ولا تحرمه، ولكن الحالف عقد اليمين بالله ليفعلنه، فأباح الله سبحانه له حل ما عقده بالكفارة، ولهذا سماها الله

(١) ١١٢ أعلام جـ٢.

تحلة، فإنها تحل عقد اليمين.

وليست رافعة لإثم الحنث، كما يتوهمه بعض الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجبا، وقد يكون مستحبا، فيؤمر به أمر إيجاب أو استحباب، وإن كان مباحا. فالشارع لم يبح سبب الإثم، وإنما شرعها الله حلا لعقد اليمين، كما شرع الله الاستثناء مانعا من عقدها.

فظهر الفرق بين ما التزم لله وبين ما التزم بالله، فالأول ليس فيه إلا الوفاء. والثاني يخير فيه بين الوفاء وبين الكفارة، حيث يسوغ ذلك.

وسر هذا أن ما التزم له آكد مما التزم به، فإن الأول متعلق بإلهيته، والثاني بربوبيته، فالأول من أحكام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، والثاني من أحكام ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الله من هاتين الكلمتين ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد،كما في الحديث الصحيح الإلهي: «هذه بيني وبين عبدي نصفين»[(١)].

***

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

[(٢)]أما ما احتجوا به من قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٩٢]، والذي دعاهم إلى ذلك، أن جواب إذا هو قوله تعالى: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ [التوبة: ٩٢]، والمعنى: إذا أتوك ولم يكن عندك ما تحملهم عليه تولوا يبكون، فيكون الواو في ﴿ قُلْتَ ﴾ مقدرة، لأنها معطوفة على فعل الشرط وهو ﴿ أَتَوْكَ ﴾ هذا تقرير احتجاجهم، ولا حجة فيه، لأنه جواب إذا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٩٥) ولفظه: «قسَّمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل». وفي رواية: «قسَّمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين: فنصفها لي ونصفها لعبدي» وانظر: شرح النووي (٤/ ١٠١-١٠٣) والتمهيد (٢/ ٢٣٠).

(٢) ٢١ بدائع جـ١.

في قوله ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ ﴾ والمعنى: إذا أتوك لتحملهم لم يكن عندك ما تحملهم عليه، فعبر عن هذا بقوله: ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ لنكتة بديعة، وهي الإشارة إلى تصديقهم له، وأنهم اكتفوا من علمهم بعدم الإمكان بمجرد إخباره لهم بقوله: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ بخلاف ما لو قيل: لم يجدوا عندك ما تحملهم عليه، فإنه يكون تبيين حزنهم خارجًا عن إخباره، وكذلك لو قيل: لم تجد ما تحملهم عليه لم يؤد هذا المعنى، فتأمله فإنه بديع.

فإن قيل: فبأي شيء يرتبط قوله: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾، وهذا عطف على ما قبله، فإنه ليس بمستأنف.

فالجواب: أن ترك العطف هنا من بديع الكلام لشدة ارتباطه بما قبله ووقوعه منه موقع التفسير، حتى كأنه هو وتأمل مثل هذا في قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢] كيف لم يعطف فعل القول بأداة عطف، لأنه كالتفسير، لتعجبهم، والبدل من قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ فجرى مجرى قوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩] فلما كان مضاعفة العذاب بدلًا وتفسيرًا لـ﴿ أَثَامًا ﴾ لم يحسن عطفه عليه، وزعم بعض الناس أن من هذا الباب قول عمر ﷺ في الحديث الصحيح: لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ لها[1]. فقال: المعنى: أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ، وليس الأمر كذلك، ولكن قوله: حب رسول الله ﷺ بدل من قوله هذه، وهو من بدل الاشتمال، والمعنى: لا يغرنك حب رسول الله ﷺ، لهذه التي قد أعجبها حسنها، ولا عطف هناك ولا حذف، وهذا واضح بحمد الله.

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٣) ومسلم (رقم ١٤٧٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٥٨).

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

(١)من أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولاسيما حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها، قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]. فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلًا، وبالله التوفيق.

(٢)قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فأخبر تعالى أنه أعدها للمهاجرين والأنصار وأتباعهم بإحسان، فلا مطمع لمن خرج عن طريقتهم فيها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤] فوصفهم بإقامة حقه باطنًا وظاهرًا وبأداء حق عباده.

---

(١) ١٤٠ فوائد.

(٢) ٨٨ حادي الأرواح.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم حنين أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، وفلان شهيد. حتى مروا على رجل، فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: «**كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**» قال: فخرجت فناديت: أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون[١]، وللبخاري معناه. وفي الصحيحين: من حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أمر بلالًا ينادي في الناس: «**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة**»[٢] وفي بعض طرقه «**مؤمنة**»[٣] وفي الحديث قصة.

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني من يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»[٤] الحديث...

[٥]﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة: ١٠٠]، فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضي الله عنهم ورضوا عنه، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة، ولا

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٩٠).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٦٢) ومسلم (رقم ١١١) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٧٤).
(٣) أخرجه ابن حبان (١١/ ١٨٥ رقم ٤٨٤٩) وابن خزيمة (٤/ ٣١٣ رقم ٢٩٦٠) والضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٨٥ رقم ٤٦٢) والحاكم (٣/ ٥٤ رقم ٤٣٧٦) والنسائي في الكبرى (٢/ ١٧٠ رقم ٢٨٩٥) والترمذي (رقم ٣٠٩٢) وحسنه. وصححه الحاكم.
(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٩٧).
(٥) ٤٢ التبوكية.

يختص ذلك القرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعون بمن رأوا الصحابة تخصيصا عرفيًّا، ليتميزوا به عمن بعدهم. فقيل: التابعون مطلقًا لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه ورضي عن الله.

وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان، ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة للإحسان. فإن الباء ههنا للمصاحبة. والإحسان في المتابعة شرط في حصول رضي الله عنهم وجناته.

(١)فنقول: الكلام في مقامين: أحدهما: في الأدلة الدالة على وجوب اتباع الصحابة، الثاني: في الجواب عن شبه النفاة.

فأما الأول فمن وجوه: أحدها ما احتج به مالك، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فوجه الدلالة إن الله تعالى أثنى على من اتبعهم، فإذا قالوا قولًا فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم، فيجب أن يكون محمودا على ذلك، وأن يستحق الرضوان، ولو كان اتباعهم تقليدًا محضًا كتقليد بعض المفتين لم يستحق من اتبعهم الرضوان، إلا أن يكون عاميا فأما العلماء المجتهدون فلا يجوز لهم اتباعهم حينئذ.

فإن قيل: اتباعهم هو أن يقول ما قالوا بالدليل، وهو سلوك سبيل الاجتهاد، لأنهم إنما قالوا بالاجتهاد والدليل عليه قوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾، ومن قلدهم لم يتبعهم بإحسان، لأنه لو كان مطلق الاتباع محمودًا لم يفرق بين الاتباع بإحسان أو بغير إحسان.

وأيضًا فيجوز أن يراد به اتباعه في أصول الدين وقوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي بالتزام الفرائض واجتناب المحارم، ويكون المقصود: أن السابقين قد وجب لهم الرضوان

---

(١) ١٢٣ أعلام جـ٤.

وإن أساءوا، لقوله ﷺ: «وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

وأيضًا فالثناء على من اتبعهم كلهم وذلك اتباعهم فيما أجمعوا عليه وأيضًا فالثناء على من اتبعهم لا يقتضي وجوبه، وإنما يدل على جواز تقليدهم، وذلك دليل على جواز تقليد العالم، كما هو مذهب طائفة من العلماء أو تقليد الأعلم كقول طائفة أخرى، أما الدليل على وجوب اتباعهم فليس في الآية ما يقتضيه، فالجواب من وجوه:
أحدها: أن الاتباع لا يستلزم الاجتهاد لوجوده:

أحدها: أن الاتباع المأمور به في القرآن كقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] ونحوه لا يتوقف على الاستدلال على صحة القول مع الاستغناء عن القائل.

الثاني: أنه لو كان المراد اتباعهم في الاستدلال والجهاد لم يكن فرق بين السابقين وبين جميع الخلائق، لأن اتباع موجب الدليل يجب أن يتبع فيه كل أحد، فمن قال قولا بدليل صحيح وجب موافقته فيه.

الثالث: أنه إما أن تجوز مخالفتهم في قولهم بعد الاستدلال أو لَا تجوز، فإن لم تجز فهو المطلوب، وإن جازت مخالفتهم فقد خولفوا في خصوص الحكم، واتبعوا في أحسن الاستدلال، فليس جعل من فعل ذلك متبعًا لموافقتهم في الاستدلال بأولى من جعله مخالفًا لمخالفته في عين الحكم.

الرابع: أن من خالفهم في الحكم الذي أفتوا به لا يكون متبعًا لهم أصلًا، بدليل أن من خالف مجتهدًا من المجتهدين في مسألة بعد اجتهاد لا يصح أن يقال اتبعه، وإن أطلق ذلك فلابد من تقييده بأن يقال: «اتبعه» في الاستدلال أو الاجتهاد.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٨١) ومسلم (رقم ٢٤٩٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٥) وشرح النووي (١٦/ ٥٦).

الخامس: أن الاتباع افتعال من اتبع، وكون الإنسان تابعا لغيره نوع افتقار إليه ومشي خلفه، وكل واحد من المجتهدين المستدلين ليس تبعًا للآخر ولا مفتقرًا إليه بمجرد ذلك، حتى يستشعر موافقته والانقياد له، ولهذا لا يصح أن يقال لمن وافق رجلًا في اجتهاده أو فتواه اتفاقا: إنه متبع له.

السادس: أن الآية قصد بها مدح السابقين، والثناء عليهم، وبيان استحقاقهم: أن يكونوا أئمة متبوعين، وبتقدير ألا يكون قولهم موجبًا للموافقة، ولا مانعًا من المخالفة، بل إنما يتبع القياس مثلا، لا يكون لهم هذا المنصب، ولا يستحقون هذا المدح والثناء.

السابع: أن من خالفهم في خصوص الحكم فلم يتبعهم في ذلك الحكم، ولا فيما استدلوا به على ذلك الحكم، فلا يكون متبعا لهم بمجرد مشاركتهم في صفة عامة، وهي مطلق الاستدلال والاجتهاد، ولاسيما وتلك الصفة العامة لا اختصاص لها به، لأن ما ينفي الاتباع أخص مما يثبته، وإذا وجد الفارق الأخص والجامع الأعم، وكلاهما مؤثر، كان التفريق رعاية للفارق أولى من الجمع رعاية للجامع.

وأما قوله ﴿بِإِحْسَـٰنٍ﴾ فليس المراد به أن يجتهد، وافق أو خالف، لأنه إذا خالف لم يتبعهم، فضلا عن أن يكون بإحسان، ولأن مطلق الاجتهاد ليس فيه اتباع لهم، لكن الاتباع لهم اسم يدخل فيه كل من وافقهم في الاعتقاد والقول، فلابد مع ذلك أن يكون المتبع محسنا بأداء الفرائض واجتناب المحارم، لئلا يقع الاغترار بمجرد الموافقة قولًا.

وأيضًا فلابد أن يحسن المتبع لهم القول فيهم، ولا يقدح فيهم اشتراط الله ذلك لعلمه: بأن سيكون أقوام ينالون منهم، وهذا مثل قوله تعالى بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]...

***

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

(١) أما ما زعموا من قولهم: إن علمت قد يكون بمعنى عرفت، واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] وبقوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد، وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر. على أنه قد قال بعض الناس: إن تعدي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد لا يخرجها عن كونها علمًا على الحقيقة، فإنها لا تتعدى إلى مفعول واحد، على نحو تعدي عرفت، ولكن على جهة الحذف والاختصار، فقوله: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم، وما تقدم من الكلام يدلك على ذلك.

وكذلك قوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾، فربما كانوا يعرفونهم، ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلى الموصوف لا بعينه وذاته.

قال: هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنى عرفت من أجل أنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ، كمثل من يقول: إن سألت يتعدى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار، ويحتج بقوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢].

قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف، وكذلك ما تقدم.

---

(١) ٦٢ بدائع جـ٢.

وليس ما قاله هؤلاء بقوي؛ فإن الله سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين، هذا صريح اللفظ، وإنما جاء نفي معرفة نفاقهم من جهة اللزوم، فهو ﷺ كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين، وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده، وقد انطووا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل على ذلك بوجه.

والظاهر بل المتعين أنه ﷺ لو عرف أشخاصهم، لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول، ولم يكن يخفى عليه نفاق من يظهر له الإسلام ويبطن عداوته وعداوة الله ﷻ، والذي يزيد هذا وضوحًا الآية الأخرى، فإن قوله: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فيهم قولان.

أحدهما: أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله. وعلى هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنى المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم، كما أمكن مثله في الإنس.

القول الثاني: إنهم المنافقون، وعلى هذا فقوله: ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم، لا على معرفة نفاقهم، لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين، يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب، فيكون كقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ فتأمله ...

[(١)] في حديث أبي لبابة لما بلغ النبي ﷺ ارتباطه قال: «**لو أتاني لاستغفرت له، وإذ فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله**»[(٢)]. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢] فأطلقه النبي ﷺ حينئذ. وفي هذا ما

---

(١) ٢١٢ بدائع جـ٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٥٢) والتمهيد (٢٠/ ٨٤) والاستيعاب (٤/ ١٧٤١) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٣/ ٩٠).

يدل على صحة قول المفسرين: أن عسى من الله واجب[(١)].

وفيه: أن فاطمة جاءت تحله، فقال: لا إلا رسول الله ﷺ، فقال: «فاطمة بضعة مني»[(٢)] فإن قيل: فهل يبر الحالف بمثل هذا لو اتفق اليوم.

قيل: لا إما لأنه مختص بالنبي ﷺ وإما لأن فاطمة بضعة منه قطعًا، والله أعلم.

[(٣)]الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما، قال الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة، لتلازمهما. فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدغل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من ا لذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

[(٤)]غزوة تبوك كانت في شهر رجَب سنةَ تسع، قال ابن إسحاق: وكانت في زمن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٦٠) وابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٥ رقم ٥٠٤٤) وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٣) عن الشافعي رحمه الله، وانظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٠١) والدر المنثور (١/ ٥٨٧) وصحيح ابن حبان (٨/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٧١٤) ومسلم (رقم ٢٤٤٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٧٩) (٩/ ٣٢٩) وشرح النووي (١٦/ ٢).

(٣) ٤٦ إغاثة جـ١.

(٤) ٣ زاد المعاد جـ٣.

عُسْرَةٍ مِنَ الظهر والزاد والماء، وجَدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمارُ، والناس يُحبون المُقام في ثمارهم وظِلالهم، ويكرهون شُخوصهم على تلك الحال.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلا كنَّى عنها، وورَّى بغيرها، إلا ما كان مِن غزوة تَبُوك، لبُعْد الشُّقة، وشِدة الزمان. فقال رسول الله ﷺ ـ ذاتَ يوم، وهو في جَهَازه ـ للجَدِّ بنِ قيس أحد بني سلمة: «يا جَدُّ؛ هَلْ لَكَ العَامَ في جِلاَدِ بَني الأَصْفَرِ»؟ فقال: يا رسول الله؛ أَوَ تأذنُ لي ولا تَفْتِنِّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما مِن رَجُلٍ بأشدَّ عجباً بالنساء مني، وإنِّي أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفر أن لا أصبِرَ، فأعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ وقال: «قَدْ أَذِنْتُ لَكَ»، ففيه نزلت الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾[1] [التوبة: ٤٩] وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفِرُوا في الحَرِّ، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ الآية [التوبة: ٨١] ثُم إنَّ رسول الله ﷺ جدَّ في سفره، وأمر الناسَ بالجَهَاز، وحضَّ أهلَ الغِنَى على النفقة والحُملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغِنَى واحتسبُوا، وأنفق عثمانُ بن عفانُ في ذلك نفقةً عظيمة لم يُنفِقْ أحدٌ مِثلها.

قلت: كانت ثلاثمائة بعير بأحْلاسها وأقتابِها وعُدَّتها، وألفَ دينار عَيْناً[2].

وذكر ابنُ سعد قال: بلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ الرومَ قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هِرَقْل قد رَزَق أصحابَه لسنة، وأجلبت معه لَخْمٌ، وجُذام، وعَامِلَة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء. وجاء البكَّاؤون وهم سبعة يستحمِلُون رسولَ الله ﷺ، فقال: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]، وهم سالمُ بن عُمير، وعُلْبَةُ بنُ زيد، وأبو ليلى المازني، وعمرو بن عَنَمَة،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٠٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٠٢ رقم ١٤١٩) وفي الجهاد (١/ ٢٦٧ رقم ٧٧) وفي السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٨٠) والطبراني في الأوسط (٦/ ٩٨ رقم ٥٩١٥) وأحمد (٤/ ٧٥) والطيالسي (رقم ١١٨٩) وعبد بن حميد (رقم ٣١١) وابن سعد في الطبقات (٧/ ٧٨) وقال النووي في تهذيب الأسماء (١/ ٢٩٩): رواه الترمذي بإسناد جيد.

وسلمة بن صخر، والعِرباض بن سارية. وفي بعض الروايات: وعبد الله بن مُغَفَّل، ومعقِلُ بن يسار. وبعضهم يقول: البكَّاؤون بنو مُقَرِّن السبعة، وهم من مُزينة[١]. وابن إسحاق: يعدُّ فيهم عَمْرو بن الحُمام بن الجَموح. وأرسل أبا موسىٰ أصحابُه إلىٰ رسولِ الله ﷺ لِيحمِلهم، فوافاه غضبان، فقال: «**لا والله لا أحملكم، ولا أَجدُ ما أحملُكم عليه**»، ثم أتاه إبل، فأرسل إليهم، ثم قال: «**مَا أَنَا حَمَلْتُكُم، ولَكِنَّ الله حَمَلَكُم، وإِنِّي وَالله لاَ أَحْلِفُ عَلَىٰ يَمِينٍ، فَأَرَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذي هُوَ خَيْرٌ**»[٢].

وقام عُلبة بن زيد فصلَّىٰ من الليل وبكىٰ، وقال: اللَّهُمَّ إنَّك قد أمرتَ بالجهاد، ورغَّبتَ فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوَّىٰ به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحمِلُني عليه، وإني أتصدَّق علىٰ كل مسلم بكل مَظْلِمَةٍ أصابني فيها مِن مال، أو جسد، أو عِرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي ﷺ: «**أَيْنَ الْمُتَصَدِّقُ هذِهِ اللَّيْلَة**»؟ فلم يقم إليه أحد، ثم قال: «**أَيْنَ الْمُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ**»، فَقَام إليه، فأخبرَه، فقال النبي ﷺ: «**أَبْشِرْ فَوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كُتِبَتْ في الزَّكَاةِ المتَقَبَّلَة**»[٣]. وجاءَ المعذِّرُونَ من الأعرابِ ليؤذن لهم، فلم يَعْذِرْهم. قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلاً، وكان عبدُ الله بنُ أُبَيّ ابن سَلول قد عسكر علىٰ ثنية الوَداع في حُلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقلّ العسكرين، واستخلف رسولُ الله ﷺ علىٰ المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وقال ابن هشام: سباع بن عُرْفُطَةَ، والأول أثبت - فلما سار رسولُ الله ﷺ، تخلَّف عبدُ الله بن أُبَيّ ومَنْ كان معه، وتخلَّف نَفَر مِن المسلمين

---

(١) انظر: الطبقات الكبرىٰ (٢/ ١٦٥) وتاريخ مدينة دمشق (٢/ ٣٤) وعمدة القاري (١٨/ ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٣٣) ومسلم (رقم ١٦٤٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٦٥، ٦١٣-٦١٤) وشرح النووي (١١/ ١١٠).

(٣) أخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٦/ ٢٦٢ رقم ٨٠٨٤) وابن أبي الدنيا في مداراة الناس (رقم ٩، ١٠) وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة علبة (٤/ ٤٥٦ -٤٥٧ رقم ٥٦٦١).

مِن غير شك ولا ارتياب، منهم: كعبُ بن مالك، وهِلالُ ابن أُمية، ومُرَارَةُ بنُ الربيع وأبو خَيثمة السالمي، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خيثمة، وأبو ذر، وشهدها رسولُ اللهِ ﷺ في ثلاثين ألفاً مِن الناس، والخيلُ عشرة آلاف فرس، وأقام بها عشرين ليلة يقصُر الصَّلاة، وهِرَقْلُ يومئذٍ بحمص(١).

قال ابن إسحاق: ولما أراد رسولُ اللهِ ﷺ الخروجَ، خلَّف عليَّ بنَ أبي طالب على أهله، فأرْجَفَ به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً وتخففاً منه، فأخذ عليٌّ رضي الله عنه سِلاحه، ثم خرج حتى أتى رسولَ اللهِ ﷺ وهو نازل بالجُرْفِ، فقال: يا نبيَّ اللهِ؛ زعم المنافقون أَنك إنما خلَّفتني لأنك استثقلتني وتخففتَ مني، فقال: «**كَذَبُوا، ولكِنِّي خَلَّفْتُكَ لما تركْتُ وَرَائِي، فارْجعْ فَاخْلُفْني في أهْلِي وَأَهْلِكَ، أَفَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِنْ مُوسى؟ إلا أَنَّهُ لا نَبِي بَعْدِي**»(٢) فرجع عليٌّ إلى المدينة. ثُمَّ إنَّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ اللهِ ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشينِ لهما في حائطه، قد رشَّت كُلُّ واحدة منهما عريشَها، وبرَّدَتْ له ماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسولُ اللهِ ﷺ في الضِّحِّ، والرِّيح، والحر، وأبو خيثمة في ظِلٍّ بارد، وطعام مُهَيأ، وامرأة حسناء، ما هذا بالنَّصَفِ، ثم قال: واللهِ لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحقَ برسولِ اللهِ، فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدَّم ناضِحه، فارتحله، ثم خرج في طلب رسول اللهِ ﷺ حتى أدركه حين نزل تَبُوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجمحي في الطريق يطلُب رسولَ اللهِ ﷺ، فترافقا حتى إذا دنيا من تَبُوك، قال أبو خيثمة لِعُمير بن وهب: إنَّ لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلَّف عني حتى آتي رسولَ اللهِ ﷺ، ففعل حتى إذا دنا مِن رسولِ اللهِ وهو نازل بتبُوك، قال الناس: هذا راكبٌ على الطريق مُقبل، فقال

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٦).

(٢) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٤٤١٦) ومسلم (رقم ٢٤٠٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ١١٢) وشرح النووي (١٥/ ١٧٤).

رسول الله ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ» قالوا: يا رسول الله؛ هو والله أبو خيثمة، فلما أناخَ أقبل، فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أَوْلَى لَكَ يَا أَبَا خَيْثَمَةَ»، فأخبرَ رسولَ الله ﷺ خبرَه، فقال له رسول الله ﷺ خَيْرًا ودعا له بخير. وقد كان رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحِجْر بديار ثمود، قال: «لا تَشْرَبُوا مِنَ مَائِهَا شَيْئًا، وَلا تَتَوَضَّؤوا مِنْهُ لِلصَّلاةِ، وما كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوه فَاعْلِفُوهُ الإِبِلَ، ولا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا، ولا يَخْرُجَنَّ أَحَدٌ منكم إلا ومعه صَاحِبٌ له»، ففعل النَّاسُ، إلا أنَّ رجلين من بني ساعدة خرج أحدُهما لحاجته، وخرج الآخرُ في طلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته، فإنه خُنِق على مذهبه، وأما الذي خرج في طلب بعيره، فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبلي طيء، فأُخبرَ بذلك رسولُ الله ﷺ، فقال: «أَلَمْ أَنْهَكُم أَنْ لا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْكُم إلاَّ وَمَعَهُ صَاحِبُه»، ثم دعا للذي خُنِقَ على مذهبه فشُفي، وأما الآخر فأهدته طيء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة[1].

قلت: والذي في «صحيح مسلم»، من حديث أبي حُمَيد: انطلقنا حتى قَدِمْنَا تَبُوكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «سَتَهُبُّ عَلَيْكُم اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَلا يَقُمْ مِنْكُم أَحَدٌ، فَمنْ كانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ» فهبَّت رِيحٌ شَدِيدَة، فقام رجل فحملته الريحُ حتى ألقته بِجَبَلَي طَيء[2].

قال ابن هشام: بلغني عن الزُّهْري أنه قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر، سجَّى ثوبه على وجهه، واستحثَّ راحلته، ثم قال: «لا تَدْخُلُوا بُيوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم، إلاَّ وَأَنْتُم بَاكُونَ، خَوْفًا أَنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُمْ»[3].

قلت: في الصحيحين من حديث ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تَدْخُلوا عَلى

(١) أخرجه الدورقي في مسند سعد (رقم ٨٠) وانظر: الاستيعاب (٤/ ١٦٤٢) أما لفظ: «كن أبا خيثمة» أخرجه مسلم (رقم ٢٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ١١٨-١١٩) وشرح النووي (١٧/ ٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٣٩٢) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٤٢).

(٣) قال ابن عبد البر في التمهيد (١٣/ ١٤٥): هذا حديث يرويه ابن شهاب مرسلًا. ورواه مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ من حديث القعنبي، وروي من غير هذا الوجه أيضًا أنه لما أتى ذلك الوادي أمر الناس فأسرعوا، وقال: إن هذا واد ملعون. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٧).

هؤلاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فإنْ لم تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلا تَدْخُلوا عَلَيْهِم لا يُصِيبُكم مِثْلُ مَا أَصَابَهُم»[١]. وفي صحيح البخاري أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه[٢]. وفي صحيح مسلم: «أنه أمرهم أن يَعْلِفوا الإبلَ العَجِين، وأن يُهرِيقُوا الماءَ، ويستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها الناقة»[٣]. وقد رواه البخاري أيضاً، وقد حفظ راويه ما لم يحفظه مَنْ روى الطرح.

وذكر البيهقي أنه نادى فيهم: «الصلاةَ جامعة»، فلما اجتمعوا، قال: «علامَ تدخُلون على قوم غَضِبَ اللهُ عليهم»، فناداه رجل فقال: نَعْجَبُ مِنْهُم يَا رَسول الله، فقال: «ألاَ أُنبِئُكُم بِما هُوَ أعْجَبُ مِنْ ذلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أنْفُسِكُم يُنبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُم وَمَا هُو كَائِنٌ بَعْدَكُم، اسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا، فإنَّ الله ﷻ لاَ يَعْبأُ بِعَذابِكُم شَيْئاً، وَسَيأتِي اللهُ بِقَوْمٍ لا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِم شيئاً»[٤].

قال ابن إسحاق: وأصبح الناسُ ولا ماء معهم، فَشَكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ، فأرسلَ الله سُبحانه سحابةً، فأمطرت حتى ارتوى الناسُ، واحتملُوا حاجَتهم من الماء. ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعضِ الطريق، ضلَّت ناقتُه، فقال زيد بن أبي الصلت وكان منافقاً: أليس يزعُمُ أنه نبي، ويُخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقتُه؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ رَجُلاً يَقُولُ - وذَكَرَ مَقَالَتَهُ - وإنِّي واللهِ لا أعْلَمُ إلاَّ ما عَلَّمني اللهُ، وقَدْ دَلَّني اللهُ عَلَيْهَا، وهي في الوَادي في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣) ومسلم (رقم ٢٩٨٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٣٠) (٦/ ٣٨٠) وشرح النووي (١٨/ ١١١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨١) وانظر: شرح النووي (١٨/ ١١١-١١٢).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٤٠ رقم ٨٥١) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٢٥ رقم ٣٧٠١٢). وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٤): رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن عبد ا لله المسعودي وقد اختلط. وقال أيضًا (١٠/ ٢٣٤-٢٣٥): رواه الطبراني من طريق المسعودي وقد اختلط وبقية رجاله وثقوا. وقال في موضع ثالث (١٠/ ٢٩١): رواه الطبراني وأحمد بأسانيد وأحدها حسن.

شِعْبِ كَذا وكَذَا، وقَدْ حَبَسَتْها شَجَرَةٌ بِزِمَامِها، فانْطَلِقُوا حَتَّىٰ تَأْتوني بها فذهبوا فأَتَوْهُ بها»[١]. وفي طريقه تلك خَرَصَ حديقة المرأة بعشرة أوسق.

ثم مضىٰ رسولُ اللهِ ﷺ، فجعل يتخلَّف عنه الرجلُ فيقولون: تخلَّف فلان، فيقول: «دَعُوه، فإنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ، فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُم، وإنْ يَكُ غَيْرَ ذلِكَ، فَقَد أَرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ». وتلوَّم علىٰ أبي ذَرٍ بعيرُه، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه علىٰ ظهره، ثم خرج يتبعُ أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسولُ الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر مِن المسلمين فقال: يا رسولَ الله؛ إنَّ هذا الرجل يمشي علىٰ الطريق وحدَه، فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبَا ذَرٍ»، فلما تأمله القومُ، قالوا: يا رسول الله؛ واللهِ هو أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أبا ذَرٍ؛ يَمْشِي وَحْدَهُ، ويَمُوتُ وَحْدَهُ، ويُبْعَثُ وحْدَهُ»[٢]...[٣].

[٤]ذكر أبو الأسود في مغازيه عن عُرْوَة قال: ورجع رسولُ اللهِ ﷺ قافلاً مِن تَبُوك إلىٰ المدينة، حتىٰ إذا كان ببعض الطريق، مكر برسولِ الله ﷺ ناسٌ من المنافقين، فتآمرُوا أن يطرحُوه من رأسِ عَقَبَةٍ في الطريق، فلما بلغوا العقبة، أرادوا أن يسلكُوها معه، فلما غشيَهم رسولُ الله ﷺ، أُخبر خبرهم، فقال: «مَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَأْخُذَ بِبَطْنِ الوَادِي، فإنَّه أَوْسَعُ لَكُمْ» وأَخذ رسولُ الله ﷺ العَقَبة، وأخذ الناسُ ببطن الوادي إلا النَّفَرَ الذين هَمُّوا بالمكر برسول الله ﷺ، لما سمعوا بذلك، استعدُّوا وتلثَّموا، وقد همُّوا بأمر عظيم، وأمر رسُولُ الله ﷺ حُذيفةَ بنَ اليمان، وعمَّارَ بن ياسر، فمشيا معه، وأمر عمَّاراً أن يأخذ بزِمام الناقة، وأمر حُذيفة أن يسوقها، فبينا هُم يسيرون، إذ سمعوا وكزة القومِ مِن ورائهم قد

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦٤) والمحلىٰ (١١/ ٢٢٢) والإصابة (٢/ ٦١٩) وأخبار المدينة (١/ ٢٠٥-٢٠٦) ودلائل النبوة، لإسماعيل التيمي الأصبهاني (رقم ١٤٨) والثقات (٢/ ٩٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٢ رقم ٤٣٧٣) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٦) والإصابة (٧/ ١٢٩) وتاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ١٨٦) والثقات (٢/ ٩٤) وفيض القدير (٤/ ٣٦٨) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٠٦-١٠٧) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) تركنا بقية سياق الغزوة اختصارًا قرابة نصف كراسة (ج).

(٤) ١٦ زاد المعاد جـ٣.

غَشَوْه، فَغَضِبَ رسولُ الله ﷺ، وأمر حُذيفة أن يردهم، وأبصرَ حذيفة غضبَ رسول الله ﷺ، فرجع ومعه مِحجن، واستقبل وجوهَ رواحلهم، فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصرَ القومَ، وهم متلثِّمون، ولا يشعرُ إلا أن ذلك فعل المسافر، فأرعبهم اللهُ سبحانه حين أبصروا حُذيفة، وظنوا أنَّ مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعُوا حتى خالَطُوا الناسَ، وأقبل حُذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه، قال: «اضْرِب الرَّاحِلَة يا حُذَيْفَة، وامْشِ أنْتَ يا عَمَّارُ»، فأسرعوا حتى استووا بِأَعْلاها، فخرجوا من العَقَبَةِ ينتظرون الناسَ، فقال النبي ﷺ لحذيفَة: «هَلْ عَرَفْتَ مِنْ هؤُلاءِ الرَّهْطِ أو الرَّكْبِ أحَداً»؟ قال حُذيفة: عرفتُ راحِلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتُهم، وهم متلثِّمون، فقال رسول الله ﷺ: «هل عَلِمْتُم ما كانَ شأن الرَّكْبِ وما أرادوا»؟ قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: «فإنهم مَكَرُوا لِيَسِيرُوا مَعِي، حَتَّى إذا اطَّلعتُ في العَقَبَةِ طَرحُوني منها» قالوا: أَوَ لا تأمُرُ بهم يا رسول الله إذاً، فنضرِبَ أعناقهم، قال: «أكره أن يتحدَّث الناسُ ويقولوا: إنَّ محمداً قد وضع يده في أصحابه»، فسماهم لهما، وقال: «اكتماهم»(١).

وقال ابن إسحاق في هذه القصة: «إنَّ الله قد أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وسأُخبِرُك بهم إن شاء الله غداً عند وجه الصبح، فانطلِقْ حتى إذا أصبَحْت، فاجمعهم»، فلما أصبح قال: «ادع عبد الله بن أُبَي، وسعد بن أبي سرح، وأبا خاطر الأعرابي، وعامراً ـ أو أبا عامر ـ، والحلاس بن سويد بن الصامت ـ، وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي محمداً مِن العَقَبَةِ الليلة، وإن كان محمد وأصحابُه خيراً منا، إنا إذاً لغنم وهو الراعي، ولا عقل لنا وهو العاقِل، وأمره أن يدعُوَ مجمع بن حارثة، ومليحاً التيمي، وهو الذي سرق طِيبَ الكعبة، وارتدَّ عن الإسلام، وانطلق هارِباً في الأرض، فلا يُدْرى أين ذهب(٢)، وأمره أن يدعوَ حِصن بن نمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه، وقال له رسول الله ﷺ: «وَيْحَكَ، ما حَمَلَكَ عَلَى هذَا»؟ فقال: حملني عليه أني

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٣) وعزاه إلى البيهقي في الدلائل.
(٢) انظر: الدر المنثور (٤/ ٢٤٣-٢٤٤).

ظننتُ أنَّ الله لا يُطلعك عليه، فأما إذا أطلعك الله عليه، وعلمتَه، فأنا أشهد اليوم أنك رسُولُ الله، وإني لم أُؤمن بك قطُّ قبل هذه الساعة، فأقال رسولُ الله ﷺ عثرَته، وعفا عنه[(١)]، وأمره أن يدعو طُعيمة بن أبيرق، وعبدَ الله ابن عُيينة، وهو الذي قال لأصحابه: اسهرُوا هذه الليلة تسلمُوا الدهرَ كُلَّه، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلُوا هذا الرجل، فدعاه فقال: «وَيْحَكَ، مَا كَانَ يَنْفَعُكَ مِنْ قَتْلِي لَوْ أَنِّي قُتِلْتُ»؟ فقال عبد الله: فوالله يا رسولَ الله لا نزالُ بخير ما أعطاك الله النصرَ على عدوِّك، إنما نحن بالله وبِكَ، فتركه رسولُ الله ﷺ، وقال: «ادعُ مُرَّة بن الربيع»، وهو الذى قال: نقتل الواحد الفرد، فيكون الناسُ عامةً بقتله مطمئنين، فدعاه رسولُ الله ﷺ فقال: «وَيْحَكَ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُولَ الَّذِي قُلْتَ»؟ فقال: يا رسولَ الله؛ إن كنتُ قلتُ شيئاً من ذلك إنك لعالِم بِهِ، وما قلتُ شيئاً من ذلك، فجمعهم رسولُ الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربُوا الله ورسولَه وأرادوا قتله، فأخبرهم رسولُ الله ﷺ بقولهم، ومنطقهم، وسرهم، وعلانيتهم، وأطلعَ اللهُ سبحانه نبيه على ذلك بعلمه، ومات الاثنا عشر منافقين محاربين لله ولرسوله، وذلك قوله ﷻ: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة: ٧٤] وكان أبو عامر رأسهم، وله بنوا مسجد الضِّرار، وهو الذي كان يُقال له: الراهب، فسمَّاه رسول الله ﷺ: الفاسق، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، فأرسلوا إليه، فقدم عليهم، فلما قدِم عليهم، أخزاه الله وإيَّاهم، فانهارت تلك البقعة في نار جهنم.

قلت: وفي سياق ما ذكره ابن إسحاق وَهْمٌ من وجوه:

أحدُها: أنَّ النبيَّ ﷺ أسرَّ إلى حُذيفة أسماء أُولئك المنافقين، ولم يُطلع عليهم أحداً غيره، وبذلك كان يُقال لحذيفة: إنه صاحِبُ السِّرِّ الذي لا يعلمهُ غيرُه[(٢)]، ولم يكن

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ١٩٨ رقم ١٦٦١٦) وانظر: الإصابة (٢/ ٩٠).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٦٢٧٨) وفيه: ذهب علقمة إلى الشام، فأتى المسجد فصلى ركعتين، فقال: اللهم ارزقني جليسًا، فقعد إلى أبي الدرداء، فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أليس فيكم صاحب السر الذي كان لا يعلمه غيره. يعني حذيفة. وانظر: الفتح (١٣/ ٣٧).

عمر، ولا غيرُه يعلمُ أسماءهم، وكان إذا مات الرجل وشكُّوا فيه، يقول عمر: «انظروا، فإن صلَّى عليه حذيفة، وإلا فهو منافق منهم»[١].

الثاني: ما ذكرناه من قوله: فيهم عبد الله بن أُبَيّ، وهو وَهْمٌ ظاهر، وقد ذكر ابن إسحاق نفسه، أنَّ عبد الله بن أُبَيٍّ تخلَّف في غزوة تبوك.

الثالث: أن قوله: «وسعد بن أبي سرح» وَهْمٌ أيضاً، وخطأ ظاهرٌ، فإن سعد بن أبي سرح لم يُعرف له إسلام البتة، وإنما ابنُه عبد الله كان قد أسلم وهاجر، ثم ارتدَّ ولَحِقَ بمكة، حتى استأمن له عثمانُ النبيَّ ﷺ عام الفتح، فأمَّنه وأسلم، فَحَسُنَ إسلامُه ـ ولم يظهر منه بعد ذلك شيء يُنكر عليه، ولم يكن مع هؤلاء الاثني عشر ألبتة، فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش؟

الرابع: قوله: «وكان أبو عامر رأسَهم»، وهذا وَهْمٌ ظاهر لا يخفى على مَنْ دونَ ابن إسحاق، بل هو نفسُه قد ذكر قِصة أبي عامر هذا في قصة الهجرة، عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن أبا عامر لما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، خرجَ إلى مكة ببضعَة عشرَ رجلاً، فلما افتتح رسولُ الله ﷺ مكة، خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهلُ الطائف، خرج إلى الشام، فمات بها طريداً وحيداً غريباً»، فأين كان الفاسقُ وغزوة تَبُوك ذهاباً وإياباً؟

[٢]فلما دنا رسولُ الله ﷺ من المدينة، خرج الناس لتلقيه، وخرج النساءُ والصبيان والولائد يقلن:

طَلَـــعَ البَــــدْرُ عَلَيْنَــــا مِــــنْ ثَنِــــيَّاتِ الــــوَدَاعْ
وَجَــــبَ الــــشُّكْرُ عَــــلَيْنَا مَــــا دَعَــــا للهِ دَاعْ[٣]

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٦).

(٢) ٢٠ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه أحمد بن عبد الله الطبري في الرياض النضرة (١/ ٤٨٠ رقم ٣٩٣) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٢٦١): من طريق عبيد الله بن عائشة منقطعًا، وانظر: عمدة القاري (١٧/ ٦٠) والتمهيد (١٤/ ٨٢) ولسان العرب (٨/ ٣٨٧).

وبعضُ الرواة يَهِمُ في هذا، ويقولُ: إنما كان ذلك عند مقدَمِه إلىٰ المدينة من مكةَ، وهو وَهْمٌ ظاهر، لأن ثنياتِ الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادِمُ من مكة إلىٰ المدينة، ولا يمرُّ بها إلا إذا توجَّه إلىٰ الشام[(١)].

فلما أشرف علىٰ المدينة، قال: «هذِهِ طَابَةٌ، وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»[(٢)].

[(٣)]ولما دخل رسول الله ﷺ المدينَة، بدأ بالمسجد فصلَّىٰ فيه ركعتين، ثم جلس للنَّاس، فجاءه المخلَّفون، فطفِقُوا يعتذِرون إليه، ويحلِفُون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، وَوَكَل سَرائِرَهم إلىٰ الله، وجاءه كعبُ بنُ مالك، فلما سلَّم عليه، تبسم تبسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال له: «تعال». قال: فجئتُ أمشي حتىٰ جلستُ بين يديه، فقال لي: «ماخَلَّفَكَ، ألم تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهرَك»؟ فقلتُ: بَلَىٰ والله، إني لو جلستُ عندَ غيرِك من أهل الدنيا، لرأيتُ أن أخرُجَ مِن سخطه بعُذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جدلاً، ولكني والله لقد عَلِمْتُ لإن حدثتُك اليومَ حديثَ كذب تَرضىٰ به عليَّ، ليوشِكَنَّ اللهُ أَن يُسْخِطَك عَلَيَّ، ولئن حدَّثْتُكَ حَديثَ صِدقٍ، تَجِدُ عليَّ فيه، إنِّي لأرجُو فيه عفوَ الله، والله ما كان لي مِن عذر، والله ما كنتُ قَطُّ أقوىٰ ولا أيسرَ مِني حين تخلَّفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذَا فَقَدْ صَدَقَ، فقُم حتىٰ يقضِيَ اللهُ فيك». فقمتُ، وثار رِجالٌ من بني سلمة، فاتبعوني يُؤنِّبوني، فقالوا لي: والله ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، ولقد عَجَزْتَ ألا تكونَ اعتذرتَ إلىٰ رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون، فقد كان كافيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يُؤنبوني حتىٰ أردتُ أن أرجع، فأكذِبَ نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم رَجُلانِ قالا مِثْلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثلَ الذي قيل لك، فقلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارة بنُ الربيع العامري، وهِلالُ بنُ أُمية

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤٨١، ٤٤٢٢) ومسلم (رقم ١٣٩٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٧٨).

(٣) ٢١ زاد المعاد. جـ٣.

الواقفي، فذكروا لي رجلين صالِحين شهدا بدراً فيهما أُسوةٌ، فمضيتُ حين ذكروهما لي. ونهى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن كلامِنا أيُّها الثَّلاثَةُ مِن بين مَنْ تخلَّفَ عنه، فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتغيَّروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرِفُ، فلبثنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأما صاحباي، فاستكانا وقعدا في بيوتِهما يَبكيانِ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنتُ أخرج، وأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواق، ولا يُكلِّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأُسَلِّمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أُصَلِّي قريباً منه، فأسارِقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي، أقبل إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه، أعرضَ عني، حتى إذا طالَ عليَّ ذلك مِن جفوة المسلمين، مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابنُ عمي، وأحبُّ الناسِ إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلت: يا أبا قتادة؛ أنشدُك باللهِ، هل تعلَمُني أُحِبُّ الله ورسولَه ﷺ؟ فسكت، فعُدت له، فنشدتُه، فسكت، فعُدت له فنشدتُه، فقال: اللهُ ورَسُولُه أعلمُ، ففاضت عيناي، وتولّيتُ حتَّى تسورتُ الجِدَار. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِي من أنباطِ الشام ممن قَدِمَ بالطعام يَبيعه بالمدينة يقولُ: مَنْ يدُلُّ على كعبِ بْنِ مالك، فطفِقَ الناسُ يُشِيرونَ لهُ حتَّى إذا جاءني، دفع إليَّ كتاباً من ملك غَسَّان، فإذا فيه: أما بعدُ.. فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نُواسِك. فَقُلْتُ: لما قرأتها: وهذا أيضاً مِن البلاء، فتيممتُ بها التنور، فسجرتُها حتى إذا مضت أربعون ليلةً مِن الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمُرُك أن تعتزِلَ امرأتَك، فقلتُ: أُطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا ولكن اعتزلها ولا تقربْها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يَقْضِيَ اللهُ في هذا الأمر، فجاءت امرأةُ هلال بن أُمية، فقالت: يا رسول الله؛ إنَّ هلالَ بنَ أُمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدُمه قال: «**لا ولكن لا يقرَبْك**»، قالت: إنه واللهِ ما بِه حركة إلى شيء، واللهِ ما زال يبكي منذ كان مِن أمره ما

كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هِلال بن أُمية أن تخدُمه، فقلت: والله لا أستأذِنُ فيها رسولَ الله، وما يُدريني ما يقولُ رسول الله إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجل شاب، ولبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كَمُلَت لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صَلَّيتُ صلاةَ الفجر صُبْحَ خمسين ليلةً على سطح بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت عليَّ الأرضُ بما رحُبت، سمعتُ صوتَ صارخ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوتِه: يا كعبَ بنَ مالك؛ أبشر، فخررتُ ساجداً، فعرفتُ أن قد جاء فرجٌ مِن الله، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صَلَّى الفجر، فذهب الناسُ يُبشرونَنا، وذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون، وركضَ إليَّ رجل فرساً، وسعى ساع مِن أسلمَ، فأوفى على ذِرْوة الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ مِن الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتُه إياهما ببُشراه، والله ما أملك غيرهما، واستعرتُ ثوبين، فلبستُهما، فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً يُهنئونني بالتوبة وهم يقولون: لِيهْنِكَ توبةُ الله عليك، قال كعب: حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ جالس حولَه الناس، فقام إليَّ طلحةُ بنُ عُبيد الله يُهروِلُ حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولستُ أنساها لِطلحة، فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ، قال وهو يَبْرُقُ وجهُه من السرور: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

قال: قلتُ: أمِن عندك يا رسولَ الله، أم مِن عند الله؟ قال: «لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ»، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه، حتى كأنه قِطعةُ قمر، وكنا نعرفُ ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه، قلت: يا رسول الله؛ إنَّ مِن توبتي أن أنخلِع مِن مالي صَدَقة إلى الله، وإلى رسوله، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قلت: فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخَيْبرَ. فقلتُ: يا رسول الله؛ إنَّ الله إنما نجاني بالصدق، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحَدِّثُ إلا صدقاً ما بقيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق

الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ما أبلاني، والله ما تعمدتُ بعد ذلك إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيتُ، فأنزلَ الله تعالى على رسوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قَطُّ بعد أن هداني للإسلام، أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإن الله قال للذين كذَبُوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد قال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:٩٥] إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦]. قال كعب: وكان تخلُّفنا أيُّها الثَّلاثَةُ عن أمر أُولئك الذين قبل منهم رسولُ الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ أمرَنا حتى قضى اللهُ فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤُه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه[(١)].

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة: ١٠٢] قال: كانوا عشرةَ رهط تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوك، فلما حضر رسولُ الله ﷺ أوثقَ سبعةٌ منهم أنفسَهم بسواري المسجد، وكان يَمُرُّ النبي ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم، فلما رآهم قال: «مَنْ هؤلاء المُوثِقُون أنْفُسَهُم بالسوارِي»؟ قالوا: هذا أبو لُبابة وأصحابٌ له تخلَّفوا عنك يا رسولَ الله أوثقُوا أنفسَهم حتى يُطلِقَهُم النبي ﷺ ويعذرهم. قال: «وأَنَا أُقْسِمُ بِالله لا أُطْلِقُهُم وَلاَ أَعْذِرُهم، حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ، رَغِبُوا عَنِّي، وتَخَلَّفُوا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٨) ومسلم (رقم ٢٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ١١٨-١٢٠) وشرح النووي (١٧/ ٨٧-٩٣).

عَن الغَزْو مَعَ المُسْلِمِينَ»، فلما بلغهم ذلك، قالوا: ونحن لا نُطْلِقُ أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطلقنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وعسى من الله واجب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. فلما نزلت، أرسل إليهم النبي ﷺ، فأطلقهم، وعذرهم، فجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله؛ هذه أموالنا، فتصدَّق بها عنا، واستغفر لنا، قال: «ما أُمِرْتُ أنْ آخُذَ أمْوَالَكُم» فأنزل الله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول: استغفر لهم ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فأخذ مِنهم الصدقة، واستغفر لهم، وكان ثلاثة نَفَر لم يُوثقوا أنفسهم بالسواري، فأُرجِئوا لا يَدرونَ أَيُعذَّبون أم يُتاب عليهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾. إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تابعَه عطية بن سعد[(١)].

[(٢)]في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد.

فمنها: جوازُ القتال في الشهر الحرام ـ إن كان خروجُه في رجب محفوظاً ـ على ما قاله ابن إسحاق، ولكن ههنا أمر آخر، وهو أن أهلَ الكتاب لم يكونوا يُحرِّمون الشهرَ الحرام، بخلاف العرب، فإنها كانت تُحرِّمه، وقد تقدَّم أنَّ في نسخ تحريمِ القتال فيه قولين، وذكرنا حُجَج الفريقين.

ومنها: تصريحُ الإمام للرعية، وإعلامُهم بالأمر الذي يضرُّهم سترُه وإخفاؤُه، ليتأهبوا له، ويُعِدُّوا له عُدته، وجوازُ ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

ومنها: أنَّ الإمام إذا استنفر الجيش، لزمهم النفيرُ، ولم يجز لأحد التخلفُ إلا بإذنه،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٢-١٣) وانظر: تفسير السيوطي (٤/ ٢٧٥) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٩٨).
(٢) ٢٦ زاد المعاد جـ٣.

ولا يُشترطُ في وجوب النفير تعيينُ كلِّ واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كُلَّ واحد منهم الخروجُ معه، وهذا أحدُ المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عَيْن. والثاني: إذا حضر العدوُّ البلد. والثالث: إذا حضر بين الصفين.

ومنها: وجوبُ الجهاد بالمال، كما يجبُ بالنفس، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصوابُ الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيقُ الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقرينُه، بل جاء مقدَّماً على الجهاد بالنفس في كُلِّ موضع، إلا موضعاً واحداً، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكدُ من الجهاد بالنفس، ولا ريبَ أنه أحدُ الجهادين، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فَقَدْ غزَا»[1]، فيجب على القادر عليه، كما يجب على القادر بالبدن، ولا يَتِمُّ الجهاد بالبدن إلا ببذله، ولا ينتصر إلا بالعدد والعُدد، فإن لم يقدر أن يكثر العَدد، وجب عليه أن يمد بالمال والعُدة، وإذا وجب الحجُّ بالمال على العاجز بالبدن، فوجوبُ الجهاد بالمال أَوْلىٰ وأَحرىٰ.

ومنها: ما برَّز به عُثمانُ بن عفان من النفقةِ العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي ﷺ: «غَفَرَ اللهُ لَكَ يا عُثْمَانُ ما أَسْرَرْتَ، ومَا أَعْلَنْتَ، ومَا أَخْفَيْتَ، وما أَبْدَيْتَ»[2]. ثم قال: «ما ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ اليَوْمِ»[3]، وكان قد أنفق ألفَ دينار، وثلاثمائة بعير بعُدتها وأحلاسها وأقتابِها.

ومنها: أن العاجزَ بماله لا يُعذرُ حتى يَبْذُلَ جهده، ويتحقَّقَ عجزُهُ، فإن الله سبحانه إنما نفى الحَرَجَ عن هؤلاء العاجزين بعد أن أَتَوْا رسولَ الله ﷺ ليحملهم، فقال: ﴿لَآ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٤٣) ومسلم (رقم ١٨٩٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٠) (١١/ ٧٨) وشرح النووي (١٣/ ٤٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٦٤ رقم ٣٢٠٥٩) والديلمي في الفردوس (٣/ ٩٩ رقم ٤٢٧٥) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٤٩) وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٥٦ رقم ٧٣٦) (١/ ٥١٨ رقم ٨٥٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١١٠ رقم ٤٥٥٣) والترمذي (رقم ٣٧٠١) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٧٩) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٤٥ رقم ١٢٧٤) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفي تحقيق مشكاة المصابيح (رقم ٦٠٦٤).

أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حَرَج عليه.

ومنها: استخلافُ الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء، والمعذورين، والنساء، والذُرِّية، ويكون نائبه مِن المجاهدين، لأنه من أكبر العون لهم. وكان رسولُ الله ﷺ يستخلِف ابنَ أُمِّ مكتوم، فاستخلفه بضعَ عشرة مرة، وأما في غزوة تَبُوك. فالمعروفُ عند أهل الأثر أنه استخلف علي بن أبي طالب، كما في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص، قال: خلَّف رسولُ الله ﷺ علياً في غزوة تَبُوك، فقال: يا رسول الله؛ تُخَلِّفُني مَعَ النساءِ والصبيان، فقال: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ نَبِي بَعْدِي»[(١)]. ولكن هذه كانت خلافةً خاصة علىٰ أهله، وأما الاستخلافُ العام، فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري، ويدل علىٰ هذا أن المنافقين لما أرجفُوا به، وقالوا: خلَّفه استثقالاً، أخذ سلاحه ثم لحق بالنبي ﷺ، فأخبره، فقال: «كَذَبُوا، ولكِنْ خَلَّفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرائي، فارْجعْ فاخْلُفْني في أَهْلي وَأَهْلِكَ»[(٢)]...

[(٣)]ومنها: انعقادُ اليمين في حال الغضب إذا لم يَخْرُج بصاحبه إلىٰ حد لا يعلم معه ما يقول، وكذلك ينفُذ حكمه، وتَصِحُّ عقُودُه، فلو بلغ به الغضبُ إلىٰ حد الإغلاق، لم تنعقِدْ يمينه ولا طلاقه. قال أحمد في رواية حنبل في حديث عائشة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا طَلاَقَ وَلا عَتَاقَ في إغْلاَقٍ»[(٤)]، يريد الغضبَ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٠٦) ومسلم (رقم ٢٤٠٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٧٤) وشرح النووي (١٥/ ١٧٤).

(٢) أخرجه البزار (٤/ ٣٢-٣٣ رقم ١١٩٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦٠٠ رقم ١٣٣٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢/ ٣٠-٣١) وانظر: الرياض النضرة (٢/ ١٩١).

(٣) ٣٢ زاد المعاد جـ٣.

(٤) أخرجه أبو داود ر(رقم ٢١٩٣) وابن ماجه (رقم ٢٠٤٦) والبيهقي (٧/ ٣٥٧ رقم ١٤٨٧٥) والدارقطني (٤/ ٣٦ رقم ٩٩) والحاكم (٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠٢) وأبو يعلىٰ (٧/ ٤٢١ رقم ٤٤٤٤) وأحمد (٦/ ٢٧٦) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٨٧ رقم ٥٠٠) وصححه الحاكم. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٢٥٨) وفي إرواء الغليل (٧/ ١١٣).

ومنها: قولُه ﷺ: «ما أنا حملتُكم، ولكن الله حملَكم»(١)، قد يتعلق به الجبري، ولا متعلق له به، وإنما هذا مثل قوله: «والله لا أُعْطي أحَداً شَيْئاً، ولا أَمْنَعُ، وإنَّما أَنَا قَاسِمٌ، أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ»(٢)، فإنه عبد الله ورسوله، إنما يتصرف بالأمر، فإذا أُمِرَه ربه بشيء، نفذه، فالله هو المعطي، والمانع، والحامل، والرسول منفذ لما أمر به. وأما قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، فالمرادُ به القبضةُ من الحصباء التي رمىٰ بها وجوهَ المشركين، فوصلَت إلىٰ عُيون جميعهم، فأثبتَ اللهُ سبحانه له الرمي باعتبار النبذِ والإلقاء، فإنه فعله، ونفاه عنه باعتبار الإيصال إلىٰ جميع المشركين، وهذا فعلُ الرب تعالىٰ لا تَصِلُ إليه قُدْرَةُ العبد، والرميُ يُطلق علىٰ الخَذف وهو مبدؤه، وعلىٰ الإيصال، وهو نهايتُه.

ومنها: تركُه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفرُ الصريحُ، فاحتج به مَن قال: لا يُقْتَلُ الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكاراً، فهو توبة وإقلاع، وقد قال أصحابُنا وغيرهم:ومَن شُهِدَ عليه بالرِّدَّةِ، فشهد أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، لم يكشف عن شيء منه بعد، وقال بعض الفقهاء: إذا جحد الرِّدَّة، كفاه جحدها. ومَن لم يقبل توبة الزنديق، قال: هؤلاء لم تَقُمْ عليهم بيِّنة، ورسول الله ﷺ لا يحكمُ عليهم بعلمه، والذىٰ بلَّغ رسول الله عنهم قولَهم لم يبلِّغه إياه نصابُ البيِّنة، بل شهد به عليهم واحد فقط، كما شهد زيدُ بن أرقم وحدَه علىٰ عبد الله ابن أُبَيّ، وكذلك غيرُه أيضاً، إنما شهد عليه واحد.

وفى هذا الجواب نظر، فإن نفاق عبد الله بن أُبَيّ، وأقوالَه في النفاق كانت كثيرةً جداً، كالمتواترة عند النبي ﷺ وأصحابه، وبعضهم أقرَّ بلسانه، وقال: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقد واجهه بعضُ الخوارج في وجهه بقوله: إنَّك لم

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١١٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢١٨).

تَعْدِلْ[(١)]. والنبي ﷺ لما قيل له: ألا تقتلهم؟ لم يقل ما قامت عليهم بيِّنةٌ، بل قال: «لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَه»[(٢)].

فالجوابُ الصحيح إذن: أنه كان في ترك قتلهم في حياة النبي ﷺ مصلحة تتضمن تأليفَ القلوب على رسول الله ﷺ، وجمع كلمة الناس عليه، وكان في قتلهم تنفيرٌ، والإسلام بعدُ في غُربة، ورسولُ الله ﷺ أحرصُ شيءٍ على تأليف الناسِ، وأتركُ شيء لما يُنَفِّرُهم عن الدخول في طاعته، وهذا أمر كان يختصُّ بحال حياته ﷺ، وكذلك تركُ قتل مَن طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزُّبير وخصمه: «أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ». وفي قسمه بقوله: «إِنَّ هذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ»[(٣)]. وقول الآخر له: «إنك لم تعدِل»، فإنَّ هذا محضُ حقه، له أن يستوفِيَه، وله أن يترُكَه، وليس للأُمة بعده تركُ استيفاء حقِّه، بل يتعينُ عليهم استيفاؤه، ولا بُدَّ، ولتقرير هذه المسائل موضع آخر، والغرضُ التنبيه والإشارة.

ومنها: أن أهلَ العهد والذِّمَّة إذا أحدث أحد منهم حَدَثاً فيه ضرر على الإسلام، انتقضَ عهدُه في ماله ونفسه، وأنه إذا لم يقدر عليه الإمام، فدمُه وماله هدر، وهو لمن أخذه، كما قال في صلح أهل أيلة: فمَن أحدث منهم حَدَثاً، فإنه لا يحول مالُه دون نفسه، وهو لمن أخذه من الناس[(٤)]، وهذا لأنه بالإحداث صار محارباً، حكمه حكم أهل الحرب[(٥)].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦١٠) ومسلم (رقم ١٠٦٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٤) (١٢/ ٢٩٣) وشرح النووي (٧/ ١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٠٥) ومسلم (رقم ٢٥٨٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٢٧) (٥/ ٤٠) وشرح النووي (٧/ ١٥٨-١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٦١، ٢٣٦٢) ومسلم (رقم ٢٣٥٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٦) (٨/ ٢٥٤) وشرح النووي (١٢/ ١٥، ١٠٧).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢/ ٤١) وانظر: عون المعبود (٨/ ٢٣٠).

(٥) ساق المؤلف رحمه الله ما تضمنته هذه الغزوة في قرابة كراستين، وهي فوائد عظيمة منوعة نقلنا بعضها في هذه السورة وتركنا الباقي اختصارًا (ج).

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

(١) تحريقُ أمكنة المعصية التي يُعصىٰ اللهُ ورسولُه فيها وهدمُها، كما حرقَ رسول الله ﷺ مسجد الضِّرار، وأمر بهدمه، وهو مسجدٌ يُصلَّىٰ فيه، ويُذكر اسمُ الله فيه، لما كان بناؤه ضِراراً وتفريقاً بين المؤمنينَ، وإرصادًا ومأوىٰ للمنافقين المحاربين لله ورسوله.

وكُلُّ مكان هذا شأنه، فواجب علىٰ الإمام تعطيلُه: إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وُضِعَ له. وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرارِ، فمشاهِدُ الشِّرْكِ التي تدعو سدنتُها إلىٰ اتخاذ مَنْ فيها أنداداً من دون الله أحقُّ بالهدمِ وأوجب، وكذلك محالُّ المعاصي والفسوق، كالحانات، وبُيوت الخمَّارين، وأرباب المنكرات، وقد حرق عمرُ بن الخطاب قريةً بكمالها يُباع فيها الخمر، وحرق حانوت رُويشد الثقفي وسماه فويسقاً، وحرق قصرَ سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية، وهمَّ رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تَاركي حضور الجماعة والجُمُعة، وإنما منعه مَن فيها من النساء والذُّرِّية الذين لا تجبُ عليهم كما أخبر هو عن ذلك.

ومنها: أن الوقف لا يصح علىٰ غير برٍّ ولا قُربة، كما لم يصحَّ وقفُ هذا المسجد، وعلىٰ هذا: فيُهدم المسجد إذا بُني علىٰ قبر، كما يُنبش الميتُ إذا دُفِنَ في المسجد، نص

(١) ٣٥ زاد المعاد جـ٣.

علىٰ ذلك الإمام أحمد وغيرُه، فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجدٌ وقبر، بل أيُّهما طرأ علىٰ الآخر. منع منه، وكان الحكم لِلسابق، فلو وُضِعا معاً، لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تَصِحُّ الصلاة فى هذا المسجد لنهي رسولِ الله ﷺ عن ذلك، ولعنه مَن اتخذ القبر مسجداً أو أوقد عليه سراجاً، فهذا دينُ الإسلام الذىٰ بعث الله به رسوله ونبيه، وغربتُه بينَ الناس كما ترىٰ.

[1]أقبل رسول الله ﷺ مِنْ تَبُوك، حتىٰ نزل بذي أَوَان، وبينها وبين المدينة ساعة، وكان أصحابُ مسجد الضِّرار أتَوْه وهو يتجهَّز إلىٰ تَبُوك، فقالوا: يا رسولَ الله ؛ إنَّا قد بنينا مسجداً لِذي العِلَّة والحاجة، واللَّيلة المطيرة الشاتية، وإنَّا نُحِبُّ أن تأتِيَنا فتُصَلِّيَ لنا فيه، فقال: «إنِّي عَلىٰ جَناح سَفَر، وحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنا إنْ شَاءَ اللهُ لأَتَيْنَاكُم فَصَلَّيْنَا لَكُم فيه»، فلما نزل بذي أوانَ جاءه خبرُ المسجد من السماء، فدَعا مالك بن الدُّخْشم أخا بني سلمة بن عوف، ومَعن بن عدي العجلاني، فقال: «انطلقا إلىٰ هذا المسجدِ الظالِمِ أهلُه، فاهدِماه، وحرِّقاه»، فخرجا مُسرعَين، حتىٰ أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهطُ مالك بن الدُّخشم، فقال مالك لمعن: أنْظِرْني حتىٰ أخرُج إليك بنارٍ مِن أهلي، ودخل إلىٰ أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدَّان حتىٰ دخلاه وفيه أهلُه، فحرقاه وهدماه، فتفرَّقوا عنه، فأنزل الله فيه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠]. إلىٰ آخر القصة[2]. وذكر ابن إسحاق الذين بنوه، وهم اثنا عشر رجلاً، منهم: ثعلبةُ بن حاطب.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾: «هم أُناس من الأنصار ابتَنوْا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنُوا

(١) ١٩ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ٢٣) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٨٦) وتفسير ابن كثير(٢/ ٣٨٩) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٠٠-١٠١).

مسجدكم، واستمِدُّوا ما استطعتم مِن قوة ومِن سلاح، فإني ذاهبٌ إلىٰ قَيْصرَ ملكِ الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخْرِجُ محمداً وأصحابه، فلما فرغوا مِن مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنَّا قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنُحب أن تُصَلِّي فيه، وتدعو بالبركة، فأنزلَ الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يعني مسجد قباء ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يعنىٰ قواعده، ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يعنى: الشك ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعنىٰ بالموت[1].

[2]ومنها: جواز إنشادِ الشِّعر للقادم فرحاً وسروراً به ما لم يكن معه مُحرَّم من لهو، كمزمار، وشبابة، وعود، ولم يكن غناءً يتضمن رُقية الفواحش، وما حرَّم الله، فهذا لا يُحَرِّمُه أحد، وتَعَلُّقُ أربابِ السماع الفِسقي به كتعلق مَن يستحِلُّ شُربَ الخمر المسكر قياساً علىٰ أكل العنب، وشرب العصير الذي لا يُسْكِر، ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ومنها: استماعُ النبي ﷺ مدحَ المادحين له، وتركُ الإنكار عليهم، ولا يَصِحُّ قياسُ غيره عليه فى هذا، لما بين المادحين والممدوحين من الفروق، وقد قال: «احْثُوا في وُجُوه المَدَّاحِينَ التُّرابَ»[3].

ومنها: ما اشتملت عليه قصةُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا مِن الحِكَم والفوائد الجمَّة، فنشيرُ إلىٰ بعضِها:

فمنها: جوازُ إخبار الرجل عن تفريطه وتقصِيرِه في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمرُه، وفى ذلك مِن التحذير والنصيحة، وبيانِ طُرُقِ الخير والشر، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأُمور. ومنها: جوازُ مدح الإنسان نفسه بما فيه من

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٧٨ رقم ١٠٠٦٠) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٨٤) وتخريج الأحاديث (٢/ ١٠٢).
(٢) ٣٦ زاد المعاد جـ٣.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٠٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٧٧) (١٣/ ٤٠٠) وشرح النووي (١٨/ ١٢٨).

الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع. ومنها: تسلية الإنسان نفسَه عما لم يُقدَّر له من الخير بما قُدِّر له مِن نظيره أو خير منه. ومنها: أن بَيْعةَ العَقَبَةِ كانت مِن أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعباً كان لا يراها دونَ مشهد بدر. ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة في أن يستر عن رعيته بعضَ ما يهم به ويقصِدُه من العدو، ويُورِّي به عنه، استُحِبَّ له ذلك، أو يتعين بحسب المصلحة. ومنها أن السِّترَ والكِتمان إذا تضمن مفسدة، لم يجز. ومنها: أن الجيشَ في حياة النبي ﷺ لم يكن لهم دِيوان، وأول مَن دوَّن الدِّيوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]، وهذا مِن سُنَّته التي أمر النبي ﷺ باتباعها، وظهرت مصلحتُها، وحاجةُ المسلمين إليها.

[2]من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقا حمل البنيان واعتلى عليه. وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد. فالعارف همّته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث بنيانه أن يسقط. قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: ١٠٩] فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن، ودفعت عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء، فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ١١٨) وعمدة القاري (٢٤/ ٦٤) والطبقات الكبرى (٣/ ٢٨٢) وتهذيب الأسماء (٢/ ٣٣١).

(٢) ١٥٤ فوائد.

خراب الأساس. وهذا الأساس أمران: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء. فأحكم الأساس، واحفظ القوة، ودم على الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدوما:

فاقر السلام على الحياة فإنها قد آذنتك بسرعة التوديع(١)

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حطه بسور من الحذر، لا يقتحمه عدو، ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحا من ذكر الله، به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصنًا، تحصنت فيه من أعدائك، إذا طاف به العدو لم يجد منه مدخلا، فييأس منك. ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت، فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نقّب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب، فإن أهملت أمره وصل إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال: إما أن يغلبك على الحصن، ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك، وتعود إلى سد النقب ولم شعث الحصن.

***

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾.

---

(١) لم أجده.

[1]جعل سبحانه ها هنا الجنة ثمنا لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكده بأنواع من التأكيد.

أحدها: إخبارهم ﷺ بصيغة الخبر المؤكد بأداة إن.

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة على التي للوجوب، إعلاما لعباده بأن ذلك حق عليه، أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه ﷺ أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضا بشارة من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار، ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخبارا مؤكدا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن، وهو الجنة، وقوله: ﴿ بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ أي عاوضتم و ثامنتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم، وهم: التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون، وفسرت السياحة بالصيام، وفسرت بالسفر في طلب العلم، وفسرت بالجهاد، وفسرت بدوام الطاعة.

(١) ٦٤ حادي الأرواح.

والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن سائحات وليست سياحتهن جهادا ولا سفرا في طلب علم ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى، وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتين هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله.

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج، فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب.

وجعل الإسلام والإيمان قرينين، فهذا علانية، وهذا في القلب، كما في المسند عنه ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»[1].

وجعل القنوت والتوبة قرينين: هذا فعل ما يحب، وهذا ترك ما يكره، وجعل الثيوبة والبكارة قرينتين، فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبها، وهذه روضة أنف لم يرتع فيها بعد.

وجعل الركوع والسجود قرينين، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينين وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم، إعلاما بأن أحدهما لا يكفي حتى يكون مع الآخر، وجعل ذلك قرينا لحفظ حدوده، فهذا حفظها في نفس الإنسان، وذلك أمر غيره بحفظها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤) وأبو يعلى (٥/ ٣٠١-٣٠٢ رقم ٢٩٢٣) وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٩ رقم ٣٠٣١٩) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢): رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه والبزار باختصار ورجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان، وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم، وابن معين، وضعّفه آخرون.

وأفهمت الآية خطر النفس الإنسانية وشرفها وعظم مقدارها، فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلى المشتري لها من هو وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى ما جرى على يده عقد التبايع، فالسلعة النفس، والله سبحانه المشتري لها، والثمن جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه:

قد هيؤك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(١)

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(٢) قال: هذا حديث حسن غريب.

(٣)وأما قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ فكان تقديم الأنفس هو الأولى؛ لأنها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد، وهي السلعة التي استامها ربها، وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته، فكانت هي المقصود بعقد الشراء، والأموال تبع لها؛ فإذا ملكها مشتريها ملك مالها، فإن العبد وما يملكه لسيده، ليس له فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها؛ فحسن تقديم النفس على المال في هذه الآية حسنًا لا مزيد عليه.

(٤)ويتعلق بهذا نوع آخر من التقديم لم يذكره، وهو تقديم الأموال على الأنفس في

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى الحسين بن علي الطغرائي مؤيد الدين الأصبهاني، كان وزيرًا للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل. توفي سنة ٥١٣ هـ. وانتحل البيت أحمد نسيم ابن عثمان بك المتوفى بالقاهرة سنة ١٣٥٦هـ والبيت عندهما: قد رشحوك لأمر إن فطنت له.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٠) والحاكم (٤/ ٣٤٣ رقم ٧٨٥١) وعبد بن حميد (رقم ١٤٦٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٢ رقم ٨٨١) (٧/ ٣٥٨ رقم ١٠٥٧٦) والرامهرمزي في أمثال الحديث (رقم ٨٣) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم.

(٣) ٧٨ بدائع الفوائد جـ١.

(٤) ٧٧ بدائع الفوائد جـ١.

الجهاد، حيث ما وقع في القرآن الكريم إلا في موضع واحد، وهو قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

وأما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف: ١١] وقوله: ﴿ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: ٢٠].

وهو كثير، فما الحكمة في تقديم المال على النفس؟ وما الحكمة في تأخيره في هذا الموضع وحده؟ وهذا لم يتعرض له السهيلي رحمه الله.

فيقال: أولًا: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، فإذا دهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزًا وجب عليه أن يكتري بماله - وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، والأدلة عليها أكثر من أن تذكر هنا، ومن تأمل أحوال النبي ﷺ وسيرته في أصحابه وأمرهم بإخراج أموالهم في الجهاد قطع بصحة هذا القول.

والمقصود تقديم المال في الذكر، وأن ذلك مشعر بإنكار وهم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادرا على أن يغزو بماله لا يجب عليه شيء، فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال، فكيف يقال لا يجب به!

ولو قيل: إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس، لكان هذا القول أصح من قول من قال: لا يجب بالمال، وهذا بين.

وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر.

وفائدة ثانية على تقدير عدم الوجوب، وهي أن المال محبوب النفس ومعشوقها، التي تبذل ذاتها في تحصيله وترتكب الأخطار، وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها، فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته، فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم، ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه، نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي بذل نفوسهم له، فهذا غاية الحب، فإن الإنسان لا شيء

أحب إليه من نفسه، فإذا أحب شيئا بذل له محبوبه من نفسه وماله، فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه وآثرها على محبوبه، هذا هو الغالب، وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية، ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فر وتركهم، فلم يرض الله من محبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها.

وأيضًا فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولا يقي به نفسه، فإذا لم يبق له ماله بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقا للواقع.

***

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

[1] الكلام على واو الثمانية، قولهم: إن الواو تأتي للثمانية، ليس عليه دليل مستقيم، وقد ذكروا ذلك في مواضع، فلنتكلم عليها واحدًا واحدًا.

الموضع الأول قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[التوبة: ١١٢]. فقيل: ﴿ وَٱلنَّاهُونَ ﴾ الواو واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، وذكروا في الآية وجوهًا أخرى:

منها: أن هذا التفنن في الكلام أن يعطف بعضه ويترك عطف بعضه.

ومنها: أن الصفات التي قبل هاتين الصفتين صفات لازمة متعلقة بالعامل، وهاتان الصفتان متعديتان متعلقتان بالغير، فقطعتا عما قبلهما بالعطف.

ومنها: أن المراد التنبيه على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم الآمرون

(١) ٥١ بدائع جـ٣.

بالمعروف والناهون عن المنكر، وكل هذه الأجوبة غير سديدة، وأحسن ما يقال فيها: إن الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد:

فتارة: يتوسط بينها حرف العطف، لتغايرها في نفسها، وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها.

وتارة: لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها وتلازمها في نفسها، وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة.

وتارة: يتوسط العاطف بين بعضها، ويحذف مع بعض، بحسب هذين المقامين.

فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد؛ حسن إسقاط حرف العطف.

وإن أريد الجمع بين الصفات أو التنبيه على تغايرها حسن إدخال حرف العطف.

فمثال الأول: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ وقوله: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥].

ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

وتأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ١-٣] فأتي بالواو في الوصفين الأولين، وحذفها في الوصفين الآخرين، لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد، لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان، لكل منهما حكمه:

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله تعالى والرجوع إليه، وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة، وتغفر تلك السيئة، وحسن العطف ههنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان

التغاير أبين كان العطف أحسن، ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾، وترك في قوله: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾، وقوله: ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤] وأما: ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾، فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له بخلاف الأول والآخر، فإن الأولية لا تجامع الآخرية، ولهذا فسرها النبي ﷺ بقوله: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» فأوليته أزليته، وآخريته أبديته.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ فإن ظهوره تعالى ثابت مع بطونه، فيجتمع في حقه الظهور والبطون. والنبي ﷺ فسَّر الظاهر بأنه الذي ليس فوقه شيء، والباطن بأنه الذي ليس دونه شيء، وهذا العلو والفوقية مجامع لهذا القرب والدنو والإحاطة؟

قلت: هذا سؤال حسن، والذي حسن دخوله الواو ههنا: أن هذه الصفات متقابلة متضادة، وقد عطف الثاني منها على الأول للمقابلة التي بينهما، والصفتان الآخريان كالأوليين في المقابلة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأوليين حسن بين الآخرين.

فإذا عرف هذا فالآية التي نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف وتركه فيها، لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها فيها كان فيه تنبيه على أنها في اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد، فلم يحتج إلى عطف، فلما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما متلازمان مستمدان من مادة واحدة حسن العطف، ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته مطلوب تعيينه، لا يكتفي فيه بحصول الوصف الآخر، بل لابد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحه ونهيه عن المنكر بصريحه.

وأيضًا فحسن العطف ههنا ما تقدم من التضاد، فلما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضدين: أحدهما طلب الإيجاد، والآخر طلب الإعدام، كانا كالنوعين المتغايرين المتضادين، فحسن لذلك العطف.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ٥] فقيل هذه واو الثمانية[1] لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين، لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا يمكن اجتماعهما، فتعين العطف، لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢].

قيل: المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية، وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا.

والثاني: أن يكون دخول الواو ههنا إيذانًا بتمام كلامهم عند قولهم ﴿ سَبْعَةٌ ﴾، ثم ابتدأ قوله ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، وذلك يتضمن تقرير قولهم ﴿ سَبْعَةٌ ﴾، كما إذا قال لك: زيد فقيه، فقلت: ونحوي. وهذا اختيار السهيلي، وقد تقدم الكلام عليه، وأن هذا إنما يتم إذا كان قوله ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ليس داخلا في المحكي بالقول، والظاهر خلافه، والله أعلم.

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية وقال في النار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ لما كانت سبعة، وهذا في غاية البعد، ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من باب حذف الجواب

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧) والاستذكار (٥/ ١٤٩) والتمهيد (٧/ ١٨٧-١٨٨) والقاموس المحيط (ص ١٧٦٤).

لنكتة بديعة، وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت في وجوههم، لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه وأما الجنة فلما كانت دار الكرامة وهي مأدبة الله وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة ههنا الدالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تفخيما لشأنه، وتعظيما لقدره، كعادتهم في حذف الأجوبة، وقد أشبعنا الكلام على هذا فيما تقدم، والله أعلم.

***

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

(١) توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانيًا، قبولًا وإثابة. قال الله ﷻ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[التوبة: ١١٧، ١١٨].

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم،

---

(١) ٣١٢ مدارج جـ١.

والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا، هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى، يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى، الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة، الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيًا.

وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول، والآخر»، فهو المعدُّ، وهو الممدّ، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «وأعوذ بك منك» والعبد تواب. والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

(١)فاعلم الآن: أن التوبة نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية، والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النهاية في محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله ﷺ في آخر حياته أشد ما كان استغفارًا وأكثره، قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي غزاها ﷺ بنفسه، فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكرانًا لما تقدم من تلك الأعمال. وذلك الجهاد.

وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ

(١) ٤٣٥ مدارج جـ٣.

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر]، وفي الصحيح أنه ﷺ ما صلى صلاة - بعد ما نزلت عليه هذه السورة - إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»(١) وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا فهم منها علماء الصحابة - كعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، ﷺ -: أنه أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه. فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر أمره، على ما كان عليه ﷺ مقامًا وحالًا، وآخر ما سمع من كلامه عند قدومه على ربه: «**اللهم اغفر لي، وألحقني بالرفيق الأعلى**»(٢).

وكان ﷺ يختم كل عمل صالح بالاستغفار، كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد، فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال: «**آيبون، تائبون، لربنا حامدون**»(٣).

وشرع أن يختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة: شرع أن يختم العبد عمل يومه بالاستغفار، فيقول عند النوم: «**أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه**»(٤) وأن ينام على سيد الاستغفار(٥) ...

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٤) ومسلم (رقم ٤٨٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٨) (٨/ ٢٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٤٠) ومسلم (رقم ٢٤٤٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٠-١٣١) وشرح ا لنووي (١٥/ ٢٠٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٧٩٧) ومسلم (رقم ١٣٤٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٩٣) (١١/ ١٨٩).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٩٧) ولفظه: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، ثلاث مرات، غفر الله ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد ورق الشجر، وإن كانت عدد رمل عالج، وإن كانت عدد أيام الدنيا» وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه أيضًا أحمد (٣/ ١٠) بينما ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٧٢٨) وضعيف سنن الترمذي.

(٥) حديث سيد الاستغفار أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٦) ولفظه: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

[1]منها: عِظَم مقدارِ الصِّدق، وتعليقُ سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة مِن شرهما به، فما أنجى اللهُ مَن أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك مَن أهلَكه إلا بالكذب، وقد أمر اللهُ سبحانه عِباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء، فجعل السعداء هم أهلَ الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهلَ الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصِر مطَّرد منعكِس. فالسعادةُ دائرة مع الصدق والتصديقِ، والشقاوةُ دائرة مع الكذب والتكذيب. وأخبر ﷻ: أنه لا ينفعُ العبادَ يومَ القيامة إلا صدقهم.

وجعل عَلَم المنَافقين الذي تميزوا به هو الكذبَ في أقوالهم وأفعالهم، فجميعُ ما نعاه عليهم أصلُه الكذبُ في القول والفعل.

فالصدق بريدُ الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحِليته، ولباسُه، بل هو لبُّه وروحه.

والكذب: بريدُ الكفر والنفاق، ودليلهُ، ومركبه، وسائقه، وقائدُه، وحليته، ولباسه، ولبُّه، فمضادة الكذبِ للإيمان كمضادة الشِّرك للتوحيد، فلا يجتمعُ الكذب والإيمان إلا ويطرُد أحدهما صاحبه، ويستقِرُّ موضعه.

والله سبحانه أنجى الثلاثَةَ بصدقهم، وأهلكَ غيرَهم من المخلَّفين بكذبهم، فما أنعم اللهُ على عبدٍ بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غِذاء الإسلام وحياتُه، ولا ابتلاه ببلية أعظمَ من الكذب الذي هو مرضُ الإسلام وفساده. والله المستعان.

= أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال: «ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة». وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٩-١٠١).

(١) ٥٠ زاد المعاد جـ٣.

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]، هذا من أعظَم ما يُعَرِّفُ العبد قدرَ التوبة وفضلَها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنَّه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزواتِ بعد أن قَضَوْا نحبَهم، وبذلوا نفوسهم، وأموالهم، وديارهم لله، وكان غايةَ أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ يومَ توبةِ كعب خيرَ يوم مَرَّ عليه منذ ولدته أُمه، إلى ذلك اليوم، ولا يعرِفُ هذا حق معرفته إلا مَن عرف الله، وعرف حقوقَه عليه، وعرف ما ينبغي له من عُبوديته، وعرف نفسَه وصفاتِها وأفعالها، وأن الذي قام به مِن العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه، كقَطْرة في بحرٍ، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة.

فسُبحان مَن لا يسعُ عبادَه غيرُ عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذَّب أهلَ سماواته وأرضه عذَّبهم، وهو غيرُ ظالم لهم، وإن رحمهم، فرحمتُه خير لهم من أعمالهم، ولا يُنجي أحداً منهم عملُه.

وتأمل تكريرَه سبحانه توبتَه عليهم مرتين في أول الآية وآخِرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا، تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لِفعلها، وتفضَّل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه، وله وفي يديه، يعطيه مَن يشاءُ إحساناً وفضلاً، ويحرمه مَن يشاء حكمةً وعدلاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة: ١١٨]، قد فسَّرها كعبٌ بالصواب، وهو أنهم خُلِّفُوا من بين مَن حلفَ لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلَّف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلُّفهم عن الغزو، لأنه لو أراد ذلك، لقال: تخلَّفوا، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وذلك لأنهم تخلَّفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عَن أمر المتخلِّفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلَّفهم عنهم،

ولم يتخلَّفوا عنه بأنفسهم.. والله أعلم.

[(١)] قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ، ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتمُّ في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء - وإن وافقهم في غيره - لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط.

وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب؛ بحيث لا يستحق اسم المؤمن وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم، ففرق بين المعية المطلقة ومطلق المعية، ومعلوم أن المأمور به الأول لا الثاني.

فإن الله تعالى لم يرد منا أن نكون معهم في شيء من الأشياء وأن نحصل من المعية ما يطلق عليه الاسم، وهذا غلط عظيم في فهم مراد الرب تعالى من أوامره؛ فإذا أمرنا بالتقوى والبر والصدق والعفة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحو ذلك، لم يرد منا أن نأتي من ذلك بأقل ما يطلق عليه الاسم، وهو مطلق الماهية المأمور بها، بحيث نكون ممتثلين لأمره إذا أتينا بذلك، وتمام تقرير هذا الوجه بما تقدم في تقرير الأمر بمتابعتهم سواء.

[(٢)] ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الصدق».

وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل

(١) ١٣٢ أعلام جـ٤.

(٢) ٢٦٨ مدارج جـ٢.

الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين.

في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصادقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ فهم الرفيق الأعلى ﴿ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا، ولهم مرتبة المعية مع الله، فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه، إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له. فقال: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١].

وأخبر تعالى عن أهل البر، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر، بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

***

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

(١) أخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره، لأنهم ليسوا أهلا له، فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة.

وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣] فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم، يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض، فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة وقصود ردية، وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء، كما أن نسخة الهدىٰ وعلم السعادة: فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبرًا أو إعادة عقوبة لانصرافهم، فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم، ولأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان، فانصرفت قلوبهم بما فيها من

---

(١) ٩٧ شفاء.

الجهل والظلم عن القرآن فجازاهم على ذلك صرفا آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك، عاقبه بأن جعله داعيا إلى كل معصية، فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعيا إلى كل معصية وفروعها صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق، فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها(١).

فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض عنه، وقد قال تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩] و﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر: ٤٩]، فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين، فكيف ينفي ذلك عليهم؟

قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم، فمكنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الردي وأسباب الفلاح، وجعل لهم أسماعا وأبصارا، فآثروا الهوى على التقوى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته، فهذا عدله فيهم، وتلك حجته

---

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٦ رقم ٧٢٢٢) من قول أبي الحسين المزين، وذكره الحافظ ابن كثير عن بعض السلف في تفسيره (١/ ٤١٩) (٢/ ٣٧٩). وانظر: صفة الصفوة (٢/ ٢٦٦).

عليهم، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختيارا، فسده عليهم اضطرارا، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله، ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، ولأنشأهم على غير هذه النشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل والنور والظلمة والنافع والضار والطيب والخبيث والملائكة والشياطين والشاء والذياب، ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها، ومستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها، وبعضها بإرادتها ومشيئتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده، ومقتضى كماله المقدس، وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التوبة

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

(١) أي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ، بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم؟! وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥].

(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ

(١) ٢٧١ التبيان.

(٢) ٢٣٨ طريق الهجرتين.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣-٥] وقوله: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١-٣]، فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق، والأول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضًا، فبالحق كان الخلق والأمر، وعنه صدر الخلق والأمر...

(١)ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة؟ لإقامة دولة السنة، وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون، والإجازات والمعاملات والعدد، وغير ذلك فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك. وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

(٢)وإذا فكرت في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعها لبطل أمر هذا العالم، فكم في طلوعها من الحكم والمصالح، وكيف يكون حال الحيوان لو أمسكت عنه، وجعل الليل عليه سرمدًا والدنيا مظلمة عليه؟ فبأي نور كانوا يتصرفون؟ وكيف كانت تنضج ثمارهم، وتكمل أقواتهم، وتعتد صورهم وأبدانهم؟ فالحكم في طلوعها أعظم من أن تخفى أو تُحصى، ولكن تأمل الحكمة في

---

(١) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ١.

(٢) ٣٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

غروبها، فلولا غروبها لم يكن للحيوان هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء والراحة، وأيضًا لو دامت على الأرض لاشتد حرها بدوام طلوعها عليها، فاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فاقتضت حكمة الخلاق العليم والعزيز الحكيم أن جعلها تطلع عليهم في وقت دون وقت، بمنزلة سراج يرفع لأهل الدار مليًّا، ليقضوا مأربهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدءوا، وصار ضياء النهار وحرارته وظلام الليل وبرده على تضادهما وما فيهما، متظاهرين متعاونين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثم اقتضت حكمته أن جعل للشمس ارتفاعًا وانحطاطًا، لإقامة هذه الفصول الأربعة من السنة، وما فيها من قيام الحيوان والنبات، ففي زمن الشتاء تفور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيها مواد النار، ويغلظ الهواء بسبب البرد، فيصير مادة للسحاب، فيرسل العزيز الحكيم الريح المثيرة فتنشره قزعًا، ثم يرسل عليه المؤلفة فتؤلف بينه حتى يصير طبقًا واحدًا، ثم يرسل عليه الريح اللاقحة التي فيها مادة الماء فتلقحه، كما يلقح الذكر الأنثى، فيحمل الماء من وقته، فإذا كان بروز الحمل وانفصاله أرسل عليه الريح الذارية فتذروه وتفرقه في الهواء؛ لئلا يقع صبة واحدة فيهلك ما على الأرض وما أصابه ويقل الانتفاع به، فإذا أسقي ما أمر بسقيه وفرغت حاجتهم منه أرسل عليه الرياح السائقة، فتسوقه وتزجيه إلى قوم آخرين وأرض أخرى محتاجة إليه. فإذا جاء الربيع تحركت الطبائع، وظهرت المواد الكامنة في الشتاء، فخرج النبات، وأخذت الأرض زخرفها وازينت وأنبتت من كل زوج كريم، فإذا جاء الصيف سخن الهواء وتحللت فضلات الأبدان، فإذا جاء الخريف كسر ذلك السموم والحرور، وبرد الهواء واعتدل وأخذت الأرض والشجر في الراحة والجموم والاستعداد للحمل الآخر.

واقتضت حكمته سبحانه أن أنزل الشمس والقمر في البروج، وقدر لها المنازل؛ ليعلم العباد عدد السنين والحساب من الشهور والأعوام، فتتم بذلك مصالحهم، وتعلم بذلك آجال معاملاتهم، ومواقيت حجهم وعباداتهم ومدد أعمارهم، وغير

ذلك من مصالح حسابهم، فالزم مقدار الحركة، ألا ترىٰ أن السنة الشمسية مسير الشمس من الحمل إلىٰ الحمل؟ واليوم مقدار مسيرها من المشرق إلىٰ المغرب وتحركه الشمس والقمر لكمال الزمان من يوم خلقا إلىٰ أن يجمع الله بينهما، ويعزلهما عن سلطانهما، ويرىٰ عابديهما أنهم عبدوا الباطل من دونه. قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢].

واقتضت حكمته سبحانه في تدبيره أن فاوت بين مقادير الليل والنهار، ولم يجعلهما دائمًا علىٰ حد سواء، ولا أطول مما هما عليه وأقصر؛ بل جاء استواؤهما وأخذ أحدهما من الآخر علىٰ وفق الحكمة، حتىٰ إن المكان الذي يقصر أحدهما فيه جدًّا، لا يتكون فيه حيوان ونبات كالمكان الذي لا تطلع عليه شمس أو لا تغرب عنه، فلو كان النهار مقدار مائة ساعة أو أكثر أو كان الليل كذلك لتعطلت المصالح التي نظمها الله بهذا المقدار في الليل والنهار.

ثم تأمل الحكمة في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل، فإنه مع الحاجة إلىٰ الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء، لم تقتض المصلحة أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيها شيء من العمل، وربما احتاج الناس إلىٰ العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في النهار، ولإفراط الحر فيه فاحتاجوا إلىٰ العمل في الليل في نور القمر من حرث الأرض وقطع الزرع وغير ذلك، فجعل ضوء القمر في الليل معونة للناس علىٰ هذه الأعمال، وجعل في الكواكب جزءًا يسيرًا من النور ليسد مسد القمر إذا لم يكن، وجعلت زينة للسماء ومعالم يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ودلالات واضحات علىٰ الخلاق العليم، وغير ذلك من الحكم التي بها انتظام هذا العالم،

وجعلت الشمس على حالة واحدة لا تقبل الزيادة والنقصان، لئلا تتعطل الحكم المقصودة منها، وجعل القمر يقبل الزيادة والنقصان؛ لئلا تتعطل الحكم المقصودة من جعله كذلك، وإن كان في نوره من التبريد والتصلب ما يقابل ما في ضوء الشمس من التسخين والتحليل، فتنضم المصلحة وتتم الحكمة من هذا في هذا التسخين والتبريد.

ثم تأمل اللطف والحكمة الإلهية في جعل الكواكب السيارات ومنازلها تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها؛ لأنها لو ظهرت دائمًا أو اختفت دائمًا لفاتت الحكمة المطلوبة منها، كما اقتضت الحكمة أن يظهر بعضها، ويحتجب بعضها، فلا تظهر كلها دفعة واحدة، ولا تحتجب دفعة واحدة، بل ينوب ظاهرها عن خفيها في الدلالة، وجعل بعضها ظاهرًا لا يحتجب أصلًا بمنزلة الأعلام المنصوبة التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر، فهم ينظرون إليها متى أرادوا، ويهتدون بها حيث شاءوا.

ثم تأمل حال النجوم واختلاف مسيرها: ففرقة منها لا تريم مراكزها من الفلك، ولا تسير إلا مجتمعة كالجيش الواحد، وفرقة منها مطلقة تنتقل في البروج وتتفرق في مسيرها، وكل واحد منها يسير سيرين مختلفين: أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق، وذلك من أعظم الدلالات على الفاعل المختار العليم الحكيم على كمال علمه وحكمته.

وتأمل كيف صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه، يدور على هذا العالم هذا الدوران العظيم السريع المستمر بتقدير محكم، لا يزيد ولا ينقص ولا يختل نظامه، بل هو تقدير العزيز العليم، كما أشار تعالى إلى أن ذلك التقدير صادر عن كمال عزته وعلمه، قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

[(١)]ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمدًا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى الغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيختلف عندهم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم.

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وان مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة، واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر، يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [فاطر: ١٣] وفيه قولان: أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: إنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر، لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد

(١) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ١.

على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين.

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك، فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات، فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار، ولم يجعله ظلمة داجية حندسا، لا ضوء فيه أصلا، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا لأعمال، ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لايتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان، جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه إعمال كثيرة: كالسفر والحرث وغير ذلك من اعمال اهل الحروث والزروع، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس، لئلا يستوى الليل والنهار، فتفوت حكمة الاختلاف بينهما، والتفاوت الذي قدره العزيز العليم، فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور، يستعين به على هذه الدولة المظلمة، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا، بل ظلمة مشوبة بنور، رحمة منه وإحسانا، فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه!.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

(1) توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧، ٩]. وعيَّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨] وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]. وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]. وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦]. قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]. وقوله: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]. وقوله: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ

---

(١) ٩٥ فوائد.

زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤] والله المستعان وعليه التكلان.

(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

قال حجاج عن ابن جريج أخبرت أن قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قال إذا مر بهم الطير ليشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم، فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال سعيد: عن قتادة قوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ يقول: ذلك دعاؤهم فيها، وتحيتهم فيها سلام(٢).

وقال الأشجعي: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا أرادوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم، فيأتيهم ما دعوا به(٣).

ومعنى هذه الكلمة: تنزيه الرب تعالى وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به.

وذكر سفيان عن عبد الله بن موهب: سمعت موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله ﷺ عن «**سبحان الله**»: فقال: «**تنزيه الله عن السوء**»(٤).

وسأل ابن الكواء عليًّا عنها، فقال: كلمة رضيها الله تعالى لنفسه(٥).

---

(١) ٢٩٨ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٤٦).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) وقال الدارقطني في العلل (٤/ ٢٠٨): رواه الثوري عن عثمان ابن موهب عن موسى بن طلحة مرسلًا.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) والطبراني في الدعاء (رقم ١٧٦١) والبرقي في جزء الحميري =

وقال حفص بن سليمان ثنا طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه عن طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير «**سبحان الله**» فقال: «**هو تنزيه الله عن كل سوء**»[(١)]. فأخبر الله تعالى عن أول دعواهم إذا استدعوا شيئًا، قالوا: سبحان الله، وعن آخر دعواهم عند ما يحصل لهم هو قولهم: الحمد لله رب العالمين، ومعنى الآية أعم من هذا والدعوى مثل الدعاء، والدعاء يراد به الثناء، ويراد به المسألة.

وفي الحديث: «**أفضل الدعاء: الحمد لله رب العالمين**»[(٢)] فهذا دعاء ثناء وذكر، يلهمه الله أهل الجنة، فأخبر سبحانه عن أوله وآخره، فأوله تسبيح، وآخره حمد، يلهمونهما كما يلهمون النفس، وفي هذا إشارة إلى أن التكاليف في الجنة يسقط عنهم، ولا تبقى عبادتهم إلا هذه الدعوى، التي يلهمونها.

وفي لفظ: اللهم إشارة إلى صريح الدعاء، فإنها متضمنة لمعنى يا الله، فهي متضمنة للسؤال والثناء، وهذا هو الذي فهمه من قال: إذا أرادوا شيئًا قالوا: سبحانك اللهم، فذكروا بعض المعنى، ولم يستوفوه مع أنهم قصروا به، فإنهم أوهموا أنهم إنما يقولون ذلك عندما يريدون الشيء، وليس في الآية ما يدل على ذلك، بل يدل على أن أول دعائهم التسبيح وآخره الحمد، وقد دل الحديث الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كما يلهمون النفس، فلا تختص الدعوى المذكورة بوقت إرادة الشيء، وهذا كما أنه لا يليق بمعنى الآية، فهو لا يليق بحالهم، والله تعالى أعلم بالصواب.

***

= (رقم ٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦٩) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر. وانظر: لسان العرب (٢/ ٤٧١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) والحاكم (١/ ٦٨٠ رقم ١٨٤٨) والشاشي في مسنده (١/ ٧١ رقم ١٠) والطبراني في الدعاء (رقم ١٧٥١) وانظر: الكفاية في علم الرواية للخطيب (ص ٢٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٩٠ رقم ٤٣٧١) ولفظه: «**أفضل الدعاء لا إله إلا الله، وأفضل الذكر الحمد لله**»، وفي رواية: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**» وأخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ١٤٨٣) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٠٣).

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

...[1]نقول: إن الله تعالى وضع الألفاظ بين عباده تعريفًا ودلالة على ما في نفوسهم، فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئًا عرفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ، ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول ولا على مجرد ألفاظ مع العلم بأن المتكلم بها لم يرد معانيها ولم يحط بها علمًا.

بل تجاوز للأمة عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به وتجاوز لها عما تكلمت به مخطئة أو ناسية أو مكرهة أو غير عالمة به إذا لم تكن مريدة لمعنى ما تكلمت به أو قاصدة إليه.

فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم، هذه قاعدة الشريعة، وهي من مقتضيات عدل الله وحكمته ورحمته.

فإن خواطر القلوب وإرادة النفوس لا تدخل تحت الاختيار فلو ترتبت عليها الأحكام لكان في ذلك أعظم حرج ومشقة على الأمة، ورحمة الله تعالى وحكمته تأبى ذلك.

والغلط والنسيان والسهو وسبق اللسان بما لا يريده العبد بل يريد خلافه والتكلم به مكرها وغير عارف لمقتضاه من لوازم البشرية، لا يكاد ينفك الإنسان من شيء منه، فلو رتب عليه الحكم لحرجت الأمة وأصابها غاية التعب والمشقة، فرفع عنها المؤاخذة بذلك كله حتى الخطأ في اللفظ من شدة الفرح والغضب والسكر، كما تقدمت شواهده، وكذلك الخطأ والنسيان والإكراه والجهل بالمعنى وسبق اللسان بما لم يرده والتكلم في الإغلاق ولغو اليمين، فهذه عشرة أشياء لا يؤاخذ الله بها عبده

(١) ١١٧ إعلام جـ٣.

بالتكلم في حال منها لعدم قصده وعقد قلبه الذي يؤاخذه به.

أما الخطأ من شدة الفرح فكما في الحديث الصحيح: حديث فرح الرب بتوبة عبده، وقول الرجل: «أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»(١).

وأما الخطأ من شدة الغضب، فكما في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ ﴾ [يونس: ١١] قال السلف: هو دعاء الإنسان علىٰ نفسه وولده وأهله حال الغضب، لو أجابه الله تعالىٰ لأهلك الداعي ومن دعىٰ عليه فقضىٰ إليهم أجلهم(٢).

وقد قال جماعة من الأئمة: الإغلاق الذي منع النبي ﷺ من وقوع الطلاق والعتاق فيه هو الغضب وهذا كما قالوه فإن للغضب سكرًا كسكر الخمر أو أشد.

وأما السكران فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] فلم يرتب علىٰ كلام السكران حكمًا حتىٰ يكون عالما بما يقول ولذلك أمر النبي ﷺ رجلًا يشكك المقر بالزنا ليعلم هل هو عالم بما يقول أو غير عالم بما يقول ولم يؤاخذ حمزة بقوله في حال السكر: «هل أنتم إلا عبيد لأبي»(٣) ولم يكفر من قرأ في حال سكره في الصلاة: «أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون»(٤).

---

(١) أخرجه بلفظه مسلم (رقم ٢٧٤٧) وأصل الحديث عند البخاري (رقم ٦٣٠٨، ٦٣٠٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٣) (١١/ ٣١٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧٥) ومسلم (رقم ١٩٧٩) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢١٨-٢١٩).

(٤) أخرجه الطبري بسنده عن عبد الله بن حبيب أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعامًا وشرابًا، فدعا نفرًا من أصحاب النبي فأكلوا وشربوا حتىٰ ثملوا، فقدموا عليًّا يصلي بهم المغرب، فقرأ: (قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، وأنا عابد ما عبدتم، لكم دينكم ولي دين) تفسير الطبري (٥/ ٩٥) وأخرجه الترمذي (رقم ٣٠٢٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضًا تمام في فوائده (٢/ ٢٢٨ رقم ١٥٩٢) وعبد بن حميد (رقم ٨٢) والبزار (٢/ ٢١١ رقم ٥٩٨) =

وأما الخطأ والنسيان فقد قال تعالىٰ حكاية عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقال الله تعالىٰ: «**قد فعلت**»[١] وقال النبي ﷺ: «**إن الله قد تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢].

وأما المكره فقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] والإكراه داخل في حكم الإغلاق.

وأما اللغو فقد رفع الله تعالىٰ المؤاخذة به حتىٰ يحصل عقد القلب.

وأما سبق اللسان بما لم يرده المتكلم، فهو دائر بين الخطأ في اللفظ والخطأ في القصد، فهو أولىٰ أن لا يؤاخذ به من لغو اليمين، وقد نص الأئمة علىٰ مسائل من ذلك تقدم ذكر بعضها.

وأما الإغلاق فقد نص عليه صاحب الشرع، والواجب حمل كلامه فيه علىٰ عمومه اللفظي والمعنوي، فكل من أغلق عليه باب قصده وعلمه كالمجنون والسكران والمكره والغضبان فقد تكلم في الإغلاق، ومن فسره بالجنون أو بالسكر أو بالغصب أو بالإكراه فإنما قصد التمثيل لا التخصيص، ولو قدر أن اللفظ يختص بنوع من هذه الأنواع لوجب تعميم الحكم بعموم العلة، فإن الحكم إذا ثبت لعلة تعدىٰ بتعديها وانتفىٰ بانتفائها...

والحاكم (٤/ ١٥٩ رقم ٧٢٢٢) وقال: هذه الأسانيد كلها صحيحة. والضياء المقدسي في المختارة (٢/ ١٨٧ رقم ٥٦٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٠١).

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٦/ ٢٠٢ رقم ٧٢١٩) وابن ماجه (رقم ٢٠٤٣) والحاكم (٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠١) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٣٥٦ رقم ١٤٨٧١) والدارقطني (٤/ ١٧٠ رقم ٣٣) والطبراني في الصغير (رقم ٧٦٥) وفي الكبير (٢/ ٩٧ رقم ١٤٣٠) (١١/ ١٣٣ رقم ١١٢٧٤) وفي مسند الشاميين (٢/ ١٥٢ رقم ١٠٩٠) وحسنه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧١) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥/ ١٦١): ورجاله ثقات، إلا أنه أعل بعلة غير قادحة. ونقل تصحيح ابن حبان في الفتح (٩/ ٣٩٠).

[١]والله ﷻ رفع المؤاخذة عن المتكلم بكلمة الكفر مكرها، لما لم يقصد معناها ولا نواها. فكذلك المتكلم بالطلاق والعتاق والوقف واليمين والنذر مكرها، لا يلزمه شيء من ذلك، لعدم نيته وقصده، وقد أتى باللفظ الصريح، فعلم أن اللفظ إنما يوجب معناه لقصد المتكلم به.

والله تعالىٰ رفع المؤاخذة عمن حدث نفسه بأمر بغير تلفظ أو عمل، كما رفعها عمن تلفظ باللفظ من غير قصد لمعناه ولا إرادة، ولهذا لا يكفر من جرىٰ علىٰ لسانه لفظ الكفر سبقا من غير قصد لفرح أو دهش وغير ذلك، كما في حديث الفرح الإلهي بتوبة العبد، وضرب مثل ذلك بمن فقد راحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، فأيس منها ثم وجدها، فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**»[٢]. ولم يؤاخذ بذلك، وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ بذلك، ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾.

قال السلف هو دعاء الإنسان علىٰ نفسه وولده وأهله في حال الغضب ولو استجابه الله تعالىٰ لأهلكه وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيبه، لعلمه بأن الداعي لم يقصده[٣].

ومن هذا رفعه صلىٰ الله عليه وآله وسلم حكم الطلاق عمن طلق في إغلاق. وقال الإمام أحمد في رواية حنبل: هو الغضب، وكذلك فسره أبو داود، وهو قول القاضي إسماعيل بن إسحاق أحد أئمة المالكية ومقدم فقهاء أهل العراق منهم، وهي عنده من لغو اليمين أيضًا، فأدخل يمين الغضبان في لغو اليمين وفي يمين الإغلاق، وحكاه شارح أحكام عبد الحق عنه، وهو ابن بزيزة الأندلسي قال: وهذا قول علي وابن عباس وغيرهما من الصحابة: إن الأيمان المنعقدة كلها في حال الغضب لا تلزم.

وفي سنن الدارقطني بإسناد فيه لين من حديث ابن عباس يرفعه: «**لا يمين في**

(١) ٦٣ أعلام جـ٣.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧).

غضب»[(١)]، «**ولا عتاق فيما لا يملك**»[(٢)] وهو وإن لم يثبت رفعه فهو قول ابن عباس.

وقد فسر الشافعي: «**لا طلاق في إغلاق**»[(٣)] بالغضب، وفسره به مسروق، فهذا مسروق والشافعي وأحمد وأبو داود والقاضي إسماعيل كلهم فسروا الإغلاق بالغضب، وهو من أحسن التفسير، لأن الغضبان غلق عليه باب القصد بشدة غضبه، وهو كالمكره، بل الغضبان أولى بالإغلاق من المكره.

[(٤)]ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١].

فقال السلف في تفسيرها: هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكر الغضب لا يجيب دعاءه[(٥)].

ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**». قال رسول الله ﷺ: «**أخطأ من شدة الفرح**» ولم يكن بذلك كافرًا لعدم قصده، وذكر النبي ﷺ، ذلك تحقيقًا لشدة الفرح الذي أفضى به إلى ذلك. وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قويًا والعقل ضعيفًا حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة، وتارة من قوة

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٤٠٩) مرفوعًا، وضعف سنده الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٥٦٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٢ رقم ٢٨٢٠) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٧ رقم ١٠٩٣٣) وأحمد (٢/ ١٨٩) بينما أخرج الحديث كاملًا الدارقطني كما أشار المصنف رحمه الله (٣/ ١٥٩ رقم ٣) وقال ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٥٠٨): هذا الحديث لا يصح، وقال الزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٧٨): وذكره عبد الحق في أحكامه من جهة الدارقطني، وقال: إسناده ضعيف. وقال ابن القطان: وعلته سليمان بن أبي سليمان، فإنه شيخ ضعيف الحديث.

(٣) سبق تخريجه بلفظ: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق».

(٤) ١٦٦ روضة المحبين.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧).

السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه.

***

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

(١)تأمل هاتين الحجتين القاطعتين بهذا اللفظ الوجيز: إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي، ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم، فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه. الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفوني وتصحبوني حضرًا وسفرًا، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أحفظ كتابًا ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صاحبتم أنتم في أسفاركم من تتعلمون منه، وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها، ما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له؟..

...(٢)إنه سبحانه أخبر: أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦] وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا

(١) ٩٩ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١١٧ التبيان.

من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدورا لي لكان مقدورا لمن هو من أهل العلم والكتابة، ومخالطة الناس والتعلم منهم. ولكن الله بعثني به ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إليَّ وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذبا وافتراء كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم، وتدرون به من جهته، لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا، ولم تسمعوه إلا مني، ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر، وهو: أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه، فقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه البتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه، ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم ولا معاناة للأسباب، التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه.

وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين: أنه من عند الله، أوحاه إليَّ وأنزله عليَّ، ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته، ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إليَّ تاليا له ولا لبعضه. فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته.

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) ﴾ .

[(١)] من آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يدرك بحس اللمس عند هبوبه، يدرك جسمه ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء

(١) ٢٠٠ مفتاح دار السعادة جـ١.

والأرض، والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه، كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء ﷻ حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل.

وتسمى رياح الرحمة: المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح. ورياح العذاب العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر، وهما في البر. وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيمًا، وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهابها، فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف: فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تشده وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه. ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها: فريح تثير السحاب، وريح تلقحه، وريح تحمله على متونها، وريح تغذى النبات، ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحًا مقابلتها، تكسر سورتها وحدتها، ويبقى لينها ورحمتها، فرياح الرحمة متعددة، وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك، ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها، بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء، يدمر كل ما أتى عليه.

وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر. وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢] فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة، التي تأتي من وجه واحد، فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها، فالمقصود منها في

البحر خلاف المقصود منها في البر، إذ المقصود في البحر إن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء، فأفردت هنا وجمعت في البر.

ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يفلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلا وامتلأ به، ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره، وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه، فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له، ولم يمتنع منه القوي الشديد، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء، فإنه لا يرسب فيه، لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة.

فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوى في قليب، فيتعلق بذيل رجل قوي شديد، يمتنع عن السقوط في القليب، فينجو بتعلقه به، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة، ولا عقدة تشاهد...

(١) ومن هذا الباب ذكر الرياح في القرآن جمعًا ومفردة، فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة، وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة.

وسر ذلك: أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها وما يكسر سورتها ويصدم حدتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكل ريح منها في مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها، فكانت في الرحمة ريحًا، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء، ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي إلى حيث أمرت، لا يرد سورتها ولا يكسر شرتها،

---

(١) ١١٨ بدائع جـ١.

فتمتثل ما أمرت به، وتصيب ما أرسلت إليه، ولهذا وصف سبحانه الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم، فقال: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات: ٤١]. وهي التي لا تلقح ولا خير فيها، والتي تعقم ما مرَّت عليه.

ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا في قوله في سورة يونس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ [يونس: ٢٢] فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة، سيرها من وجه واحد[1]، فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب، دفعًا لتوهم أن تكون ريحًا عاصفة، بل هي مما يفرح بها لطيبها.

فلينزه الفطن بصيرته في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحًا، ويتغذى بها عن الطعام والشراب، والحمد لله الفتاح العليم، فمثل هذا الفصل يعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، والله الموفق للصواب.

***

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[2]شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزيَّن في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه،

(١) في الأصل: إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها، ولعل الصواب ما أثبتناه. (ج).
(٢) ١٥٣ إعلام جـ١.

فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها، سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها؛ فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] فسماها هنا: دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعمَّ بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله وهذا فضله.

وقال خالقها سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥] فأخبر عن خسة الدنيا وزهَّد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها. وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ

وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦][(١)].

***

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[(٢)] قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] وهذا حث على إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة، فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل.

ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدا، فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢] وأتى به منكرا في سياق الإثبات أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليـــل منـــك يقنعنـــي ولكـــن   قليلـــك لا يقـــال لـــه قليـــل[(٣)]

---

(١) تقدم آخر البحث في أول هذه السورة على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ﴾ [يونس: ٧] الآية (ج).

(٢) ٨٠ مدارج جـ٢.

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦هـ، وكان أميرًا من الكتاب الشعراء، من أهل خراسان. وذكر البيت عبد الرحيم العباسي أبو الفتح المتوفى سنة =

وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه**»(١).

وفي حديث آخر: أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأوا وجهه عيانا: نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ولم يلتفوا إليه.

ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة، فإن المرء مع من أحب(٢). ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأي نعيم وأي لذة وأي قرة عين وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها؟ وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب، الذي لا شيء أجل منه ولا أكمل ولا أجمل قرة عين البتة.

وهذا ـ والله ـ هو العلم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمه العارفون، وهو روح مسمى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة وعليه قامت.

فكيف يقال: لا يعبد الله طلبًا لجنته ولا خوفًا من ناره؟

وكذلك النار ـ أعاذنا الله منها ـ فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته وغضبه وسخطه والبعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم، بل التهاب هذه النار في قلوبهم: هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم، ومنها سرت إليها، فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين: هو الجنة ومهربهم من النار، والله

٩٦٣هـ في كتابه معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص ونسبه إلى أبي نصر أحمد الميكالي. وذكره أيضًا العظيم آبادي في عون المعبود (٢/ ١٣) وفيه: «يكفيني» بدل «يقنعني» وينسب هذا البيت إلى جعفر بن حمد بن محمد الحلي، شاعر عراقي من أهل الحلة، ولد بها سنة ١٢٧٧هـ وتوفي سنة ١٣١٥هـ له الجعفريات في رثاء أهل البيت وسحر بابل وسجع البلابل وهي نسبة غير صحيحة.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦١٦٨، ٦١٦٩) ومسلم (رقم ٢٦٤٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٥- ٥٥٩)، وشرح النووي (١٦/ ١٨٦).

المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا أيوب بن أبي شبيب الصنعاني قال: كان فيما عرضنا على رباح بن زيد حدثني عبد الله بن نمير: سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تنسوا العظيمتين**» قلنا: وما العظيمتان يا رسول الله؟ قال: «**الجنة والنار**»(٢).

وذكر أبو بكر الشافعي من حديث كليب بن حزن قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اطلبوا الجنة جهدكم، واهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات، فلا تلهينكم عن الآخرة**»(٣).

أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقها ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه، وهكذا أسماء الرب ﷻ، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار.

الاسم الأول: الجنة وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين.

وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية، ومنه الجنين لاستتاره في البطن، والجان لاستتاره عن العيون، والمجن لستره ووقايته الوجه، والمجنون لاستتار عقله

---

(١) ٧٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٦٦) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤١٧) والدولابي في الكنى (٢/ ١٦٤).وانظر: التخويف من النار (ص٣٢-٣٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٠) رقم ٤٤٩) وعنه أبو نعيم في صفة الجنة مختصرًا (رقم ٣٠) وكذا أخرجه الطبراني مختصرًا في الأوسط (٤/ ٧٣ رقم ٣٦٤٣) وقال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص ١٢) ويروى هذا الحديث أيضًا عن يعلى بن الأشدق عن عبد الله بن جراد عن النبي ﷺ، وأحاديث يعلى بن الأشدق باطلة منكرة. وذكره المنذري في الترغيب (٤/ ٢٤٥-٢٤٦ رقم ٥٥٣١) وسكت عنه.

وتواريه عنه، والجان وهي الحية الصغيرة الرقيقة، ومنه قول الشاعر:

فدقَّت وجلَّت واسبكرَّت وأُكملت ... فلو جُنَّ إنسان من الحسن جُنَّتِ[(١)]

أي: لو غطى وستر عن العيون لفعل بها ذلك.

ومنه سمى البستان جنة، لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه، فلا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع.

والجنة بالضم ما يستجن به من ترس أو غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾[(٢)] أي يستترون بها من إنكار المؤمنين عليهم.

[(٣)]الاسم الثاني: دار السلام، وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، وهي أحق بهذا الاسم، فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه، وهي دار الله واسمه ﷻ السلام الذي سلمها وسلم أهلها ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨]، وسيأتي حديث جابر في سلام الرب تبارك وتعالى عليهم في الجنة وكلامهم كلهم فيها سلام، أي لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ [مريم: ٦٢].

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٦١٣) ونسبه إلى الشنفرى، وذكر عجزه ابن الأثير في النهاية (١/ ٣٠٩) ونسبه أيضًا إلى الشنفرى، وهو عمرو بن مالك الأزدي شاعر جاهلي من فحول الطبقة الثانية، وهو صاحب لامية العرب، شرحها الزمخشري، وفي الأمثال: «أعدى من الشنفرى)، لأنه من فتاك العرب وعدّائيهم، مات سنة ٧٠ قبل الهجرة، وانظر: أخبار النساء لابن الجوزي (ص ٢٧٤) والإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي (ص ١٥٠) والبديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ (ص ٢٦٥).

(٢) المجادلة: ١٦، والمنافقون: ٢.

(٣) ٧٢ حادي الأرواح.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] فأكثر المفسرين حاموا حول المعنى وما وردوه، وقالوا أقوالًا لا يخفى بعدها عن المقصود، وإنما معنى الآية والله أعلم: فسلام لك أيها الراحل عن الدنيا حال كونك من أصحاب اليمين، أي: فسلامه لك كائنًا من أصحاب اليمين الذين سلموا من الدنيا وأنكادها ومن النار وعذابها، فبشر بالسلامة عند ارتحاله من الدنيا وقدومه على الله، كما يبشر الملك روحه عند أخذها بقوله: أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. وهذا أول البشرى التي للمؤمن في الآخرة.

الاسم الثالث: دار الخلد، وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدًا، كما قال تعالى: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]، وقال: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، وسيأتي إبطال قول من قال من الجهمية والمعتزلة بفنائها أو فناء حركات أهلها إن شاء الله تعالى.

الاسم الرابع: دار المقامة، قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] قال مقاتل: أنزلنا دار الخلود، أقاموا فيها أبدا، لا يموتون ولا يتحولون منها أبدًا، قال الفراء والزجاج: المقامة مثل الإقامة، يقال: أقمت بالمكان إقامة ومقامة ومقامًا.

الاسم الخامس: جنة المأوى، قال تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٥]. والمأوى: مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به. وقال عطاء عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة. وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء. وقال كعب: جنة المأوى جنة فيها طير خضر،

ترتع فيها أرواح الشهداء[١]. وقالت عائشة رضي الله عنها، وزر بن حبيش: هي جنة من الجنان. والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وقال في النار: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٩] وقال: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الجاثية: ٣٤].

الاسم السادس: جنات عدن، فقيل: هو اسم لجنة من الجنان.

والصحيح: أنه من لجملة الجنان، وكلها جنات عدن، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١].

وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

والاشتقاق يدل على أن جميعها جنات عدن، فإنه من الإقامة والدوام، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به، وعدنت البلد توطنته، وعدنت الإبل مكان كذا لزمته، فلم تبرح منه.

قال الجوهري: ومنه جنات عدن، أي إقامة. ومنه سمي المعدن بكسر الدال، لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء، ومركزه كل شيء معدنه، والعادن الناقة المقيمة في المرعى.

[٢]قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦].

فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم كذلك فسرها رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢١٥ رقم ١٩٤٢٥) وابن المبارك في الجهاد (رقم ٦١) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣٨١).

(٢) ٢٠٥ حادي الأرواح.

كما روى مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعدًا ويريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار فيكشف الحجاب فينظرون الله، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»(١).

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا سلم بن سالم البلخي، عن نوح بن أبي مريم عن ثابت عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة، والزيادة وهي النظر إلى وجه الله»(٢).

وقال محمد بن جرير: حدثنا ابن حميد: حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجزة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «الزيادة النظر إلى وجه الرحمن جل جلاله»(٣) قلت: عطاء هذا هو الخراساني، وليس عطاء بن أبي رباح.

قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيرًا وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا صفوان بن صالح: حدثنا الوليد بن مسلم: حدثنا زهير بن محمد قال: حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبي بن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

(٢) أخرجه الدارقطني في رؤية الله (رقم ٦٧) والخطيب البغدادي في تاريخه (٩/ ١٤٠) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٢٦) والذهبي في السير بسنده (٢٢/ ١١٣) وقال: نوح تالف وسلم ضعّفوه، وقال ابن عدي: وهذان الحديثان لعل البلاء فيهما من نوح بن أبي مريم وهو أبو عصمة المروزي قاضيها، فإنه من سلم بن سالم، ولسلم بن سالم أحاديث إفرادات وغرائب، وأنكر ما رأيت له ما ذكرته من هذه الأحاديث، وبعضها لعل البلاء فيه من غيره، وأرجو أن يحتمل حديثه.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٧) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٢٤).

كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن الزيادة في كتاب الله ﷻ، قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله ﷻ»(١).

وقال أسد السنة: حدثنا قيس بن الربيع، عن أبان، عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يبعث الله ﷻ يوم القيامة مناديًا ينادي: يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم، إن الله وعدكم الحسنى، والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله ﷻ**»(٢).

(٣)فتأمل قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ [الملك: ١٦، ١٧] كيف أفردت هنا لما كان المراد الوصف الشامل والفوق المطلق، ولم يرد سماء معينة مخصوصة.

ولما لم تفهم الجهمية هذا المعنى أخذوا في تحريف الآية عن مواضعها، وكذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] بخلاف قوله في سبأ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] فإن قبلها ذكر سبحانه سعة ملكه ومحله، وهو السماوات كلها والأرض.

ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردها إرادة للجنس.

وتأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية، فالمعنى وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة من السماوات، ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٧٨٠) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٧٨) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٠٥) واللالكائي (رقم ٧٨٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٢٥).

(٣) ١١٥ بدائع جـ١.

الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد.

ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة فسر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام على ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ ﴾، وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك به، وهو قول محققي أهل التفسير.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] إرادة لهذين الجنسين، أي رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير، وإن تبدلت عين السماء والأرض.

فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١] في جميع الصور لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم، لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ ﴾ [الإسراء: ٤٤] مجموعة إخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد، ولم يقتصر على السماوات فقط، بل قال: ﴿ ٱلسَّبْعُ ﴾.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] فالرزق المطر وما وعدنا به الجنة، وكلاهما في هذه الجهة لا أنهما في كل واحدة واحدة من السماوات، فكان لفظ الإفراد أليق بها.

ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السماوات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة، حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها، بل المراد الوصف، وهذا باب قد فتح الله لي ولك فلجه، وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه: جمعًا وإفرادا، وتقديما وتأخيرًا، إلى غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالى: في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [يونس: ٣١] وبين قوله في سورة سبأ: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [سبأ: ٢٤].

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقا، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت، والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء، لا يملكون شيئا من هذا، ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أي لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء، التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا، فأفردت لفظ السماء هنا، فإنه لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لاسيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر، فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمى سماء لعلوه.

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم: ٤٨].

والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس، فلا يلتفت إلى غيره. فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم، بحيث لا يمكنهم إنكاره.

وأما الآية التي في سورة سبأ، فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: سيقولون الله. فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده، الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر.

(١)وأما تقديم السماء على الأرض، ففيه معنى آخر غير ما ذكره وهو أن السموات والأرض تذكر غالبا في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض، لسعتها وعظمها وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر فيها البصر كرة، بعد كرة ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية، سبحانه وبحمده.

---

(١) ٧٤ بدائع جـ١.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] وتأخيرها عنها في سبأ فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار: ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣] كيف قدم السموات هنا، لأن الساعة إنما تأتي من قبلها، وهي غيب فيها ومن جهتها تبتدئ وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨] وأما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس، فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء، اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء، فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله تعالى، وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدًا.

***

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[(١)] من ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله ﷺ وصحة ما جاء به من الكتاب، وأنه من عنده، وكلامه الذي تكلم به، وأنه ليس من صنع البشر بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ إلخ فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده، وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ

(١) ٩٧ مختصر الصواعق جـ١.

ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ثم سجل عليهم تسجيلًا عامًّا في كل مكان وزمان بعجزهم، ولو تظاهر عليه الثقلان، فقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلىٰ أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح، الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا. وقال في إثبات نبوة رسوله باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨-٧٠].

فدعاء سبحانه إلىٰ تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبًا وزورًا يعرف من نفس القول تارة، وتارة من تناقضه واضطرابه، وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل ما يتأتي من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضًا، فدعاهم سبحانه إلىٰ تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ يتحقق لهم ويتبين حقيقة الأمر، وأن ما جاء به أعلىٰ مراتب الصدق.

[1]قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.

ﵟٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ [يونس: ٣٩] فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنىٰ ساووهم في العاقبة.

***

ﵟوَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣ﵞ.

(١)اختلف ابن قتيبة وابن الأنباري في السمع والبصر، أيهما أفضل، ففضل ابن قتيبة السمع ووافقه طائفة، واحتج بقوله تعالىٰ: ﵟوَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَﵞ [يونس: ٤٢، ٤٣]، قال: فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، كان دليلًا علىٰ أن السمع أفضل، قال ابن الأنباري: هذا غلط وكيف يكون السمع أفضل، وبالبصر يكون الإقبال والإدبار، والقرب إلىٰ النجاة، والبعد من الهلاك، وبه جمال الوجه وبذهابه شينه، وفي الحديث: «من ذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابًا دون الجنة»(٢).

وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذي نفاه الله تعالىٰ مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر، إذ كأنه أراد إبصار القلوب، ولم يرد إبصار العيون، والذي يبصره القلب هو الذي يعقله؛ لأنها نزلت في قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبي ﷺ فيقفون علىٰ صحته ثم يكذبونه، فأنزل الله فيهم: ﵟأَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّﵞ أي: المعرضين ﵟوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَﵞ، ﵟوَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَﵞ، بعين نقص ﵟأَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَﵞ أي:

(١) ١٦٤ بدائع جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري لفظ قريب (رقم ٥٦٥٣) عن أنس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر، عوَّضته منهما الجنة» يريد: عينيه. واللفظ المذكور هنا أخرجه الضياء والمقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٨٣ رقم ٧٧) وابن حبان (٧/ ١٩٣ رقم ٢٩٣٠) وفي الموارد (رقم ٧٠٥) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٤٤٥ رقم ١١٤٤٦) والترمذي (رقم ٢٤٠١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (١٠/ ١١٦).

المعرضين ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

قال: ولا حجة في تقديم السمع على البصر هنا، فقد أخبر في قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ [هود: ٢٤].

قلت: واحتج مفضلو السمع بأن به ينال غاية السعادة من سمع كلام الله وسماع كلام رسوله، قالوا: وبه حصلت العلوم النافعة، وبه يدرك الحاضر والغائب والمحسوس والمعقول، فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع.

قالوا: ولهذا يكون فاقده أقل علمًا من فاقد البصر؛ بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار بخلاف فاقد صفة السمع، فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم البتة.

قال مفضلو البصر: أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى، وهو يكون بالبصر، والذي يراه البصر لا يقبل الغلط بخلاف ما يسمع، فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم، فمدرك البصر أتم وأكمل، قالوا: وأيضًا فمحله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وذلك لشرفه وفضله.

قال شيخنا: والتحقيق أن السمع له مزية، والبصر له مزية، فمزية السمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه، فالسمع أعم وأشمل، والبصر أتم وأكمل، فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه.

***

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

(١) حلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع: فقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣].

(١) ٨٤ زاد المعاد جـ١.

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر محمد بن داود الظاهري، ولا يسميه بالفقيه، فتحاكم إليه يومًا وهو خصم له، فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود فتهيأ للحلف، فقال له القاضي إسماعيل: أو تحلف؟ ومثلك يحلف يا أبا بكر؟ فقال: وما يمنعني من الحلف، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه، قال: أين ذلك؟ فسردها له أبو بكر، فاستحسن ذلك منه جدًّا، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم.

وكان ﷺ يستثني في يمينه تارة، ويكفرها تارة، ويمضي فيها تارة، والاستثناء يمنع عقد اليمين، والكفارة تحلها بعد عقدها، ولهذا سمَّاها الله ﴿تَحِلَّةَ﴾ [التحريم: ٢].

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾.

[(١)] قد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات. والقرآن شفاء للنوعين. ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين و الآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانا. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك.

ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد؛ وبين ظنون كاذبة لا

(١) ٤٤ إغاثة جـ١.

تغني من الحق شيئًا. وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها؛ وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها. فهي: «لَحْمُ جَمَلٍ غَثّ عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سَمِينٌ فَينتقلُ»(١).

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرا وأحسن تفسيرا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

لَـوْلا التَّنَـافُسُ فِي الـدُّنْيَا لَـما وُضِـعَتْ كُتْـبُ التَّنَـاظُرِ، لا المُغْنـي وَلا الْعُمَـدُ
يُحَلِّلُـــونَ بِـــزَعْمٍ مِـــنْهُمُ عُقَـــدًا وَبِالَّـــذِي وَضَـــعُوهُ زَادَتِ العُقَـــدُ(٢)

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك. ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدىٰ، والعلم واليقين من كتاب الله تعالىٰ وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف علىٰ نهايات إقدامهم بما انتهىٰ إليه من مرامهم، حيث يقول:

نِهَايَـــةُ إِقْـــدَامِ الْعُقُـــولِ عِقَـــالُ وَأَكْثَـــرُ سَـــعْيِ الْعَـــالَمِينَ ضَـــلَالُ
وَأَرْوَاحُنَـا فِـي وَحْـشَةٍ مِـنْ جُـسُومِنَا وَحَاصِـــلُ دُنْيَانَـــا أَذًىٰ وَوَبَـــالُ
وَلَمْ نَـسْتَفِدْ مِـنْ بَحْثِنَـا طُـولَ عُمرِنَـا سِـوىٰ أَنْ جَمَعْنَـا فِيـه قِيـلَ وَقَـالُوا(٣)

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١٨٩) ومسلم (رقم ٢٤٤٨) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) هذان البيتان من بحر البسيط والبيت الأول منهما ينسب إلى أبي العلاء المعري أحمد بن عبد الله التنوخي، شاعر وفيلسوف، عمي في السنة الرابعة من عمره، كان يحرم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة. ولد ومات في معرة النعمان ٣٦٣-٤٤٩هـ والبيت الثاني لم أقف على قائله. وهو في ديوانه، وفيه: «كتب القناطر» وذكر البيت ياقوت الحموي في معجم الأدباء (١/ ٦٤١).

(٣) هذه الأبيات الثلاثة لفخر الدين الرازي صاحب تفسير مفاتيح الغيب وذكر الأبيات الشنقيطي في أضواء البيان (٧/ ٢٩٦) والسبكي في طبقات الشافعية (٨/ ٩٦).

أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، [فاطر: ١٠].

واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[١].

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة، وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدًّا، قد ذكرناه في كتاب الصواعق وغيره. وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء «آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح»[٢]. والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبا للرشد، مبغضًا للغي. فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية.

[٣]وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ عام مطلق، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ خاص بأهل اليقين.

ونظير ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠١) وأضواء البيان (٧/ ٢٩٦).
(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/ ٣٠٨).
(٣) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ونظيره في الخصوص قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المائدة: ١٦].

ونظيره أيضًا قوله: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقد أخبر أنه هدىٰ عام لجميع المكلفين، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنىٰ مفعلة، أي مبصرة لمن تبصَّر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] أي مبيِّنة موجبة للتبصير.

وفعل الإبصار يستعمل لازما ومتعديا. يقال: أبصرته، بمعنىٰ أريته، وأبصرته، بمعنىٰ رأيته، فمبصرة فىٰ الآية: بمعنىٰ مرئية، لا بمعنىٰ رائية، والذين ظنوها بمعنىٰ رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها.

فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيعدىٰ بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بصرته به. وبصر هو به.

فهاهنا بصيرة، وتبصرة، ومبصرة. فالبصيرة: المبينة التىٰ تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسُمِّي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه.

فالقرآن بصيرة وتبصرة، وهدىٰ وشفاء، ورحمة، بمعنىٰ عام، وبمعنىٰ خاص. ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدىٰ للعالمين، وموعظة للمتقين، وهدىٰ للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين، فهو فىٰ نفسه هدىٰ ورحمة، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدىٰ به واتعظ واستشفىٰ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذىٰ يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدىٰ.

فالقرآن هدىٰ بالفعل لمن اهتدىٰ به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يهتدي به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون. والهدىٰ في الأصل: مصدر هَدَىٰ يهدي هُدىً.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما في الأثر: «من ازداد علما ولم يزدد هدىٰ لم يزدد من الله تعالىٰ إلا بعدًا»[(١)] ولكن يسمىٰ هدىٰ، لأن من شأنه أن يهدىٰ.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هدىٰ، بمعنىٰ هاد، فهو مصدر بمعنىٰ الفاعل، كعدل بمعنىٰ العادل، وزور بمعنىٰ الزائر، ورجل صوم أىٰ بمعنىٰ صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يهدىٰ به. فالله الهادي، وكتابه الهدىٰ الذي يهدىٰ به علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم.

فهاهنا ثلاثة أشياء: فاعل وقابل وآلة. فالفاعل: هو الله تعالىٰ، والقابل: قلب العبد، والآلة: هو الذي يحصل به الهدىٰ، وهو الكتاب المنزل، والله سبحانه يهدىٰ خلقه هدىٰ، كما يقال: دلهم دلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبين لهم بيانًا. والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي، المنيب إلىٰ ربه، الخائف منه، الذي يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلىٰ محل قابل، فيتأثر به، فصار هدىٰ له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلًا وصل إليه الهدىٰ فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلىٰ محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلىٰ فساده، كما قال تعالىٰ في السورة التي نزلها: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]، وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدىٰ تارة، ولعدم فعل

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٦٠٢ رقم ٥٨٨٧) وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٠٤ رقم ٢٤٠٢) وقال: رواه الديلمي عن علي رفعه، وسنده ضعيف كما قال العراقي. وانظر: فيض القدير (٦/ ٥٢).

الفاعل، وهو الهادي تارة، ولا يحصل الهدىٰ على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدىٰ إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية، التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنىٰ في حقهم بقوله: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرىٰ، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق. ولم يعملوا به، فالهدىٰ في حق هؤلاء هدىٰ بيان وإقامة حجة، لا هدىٰ توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدىٰ في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون: فاتصل الهدىٰ في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدىٰ ورحمة ولأولئك هدىٰ بلا رحمة. والرحمة المقارنة للهدىٰ في حق المؤمنين عاجلة وآجلة.

فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالىٰ في الدنيا من محبة الخير والبر، وذوق طعم الإيمان، ووجدان حلاوته، والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالىٰ لما أضل عنه غيرهم، ولما اختلف فيه من الحق بإذنه، فهم يتقلبون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم متحيرًا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحًا بما آتاهم ربهم من الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، واتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإن الأمن والعافية والسرور، ولذة القلب ونعيمه وبهجته، وطمأنينته: مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف، والهم، والغم، والبلاء، والألم، والقلق: مع الضلال والحيرة.

ومثل هذا بمسافرين: أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده، فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه؟ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٧١].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى، هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر.

وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

(١) ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨] فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به: من حبيب أو حياة، أو مال، أو نعمة، أو ملك، يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ونضرتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة، حيث لقَّاهم الله نضرة وسرورًا ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١] ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

---

(١) ٢٨١ طريق الهجرتين.

[(١)] إن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وفسر فضل الله بالإيمان، ورحمته بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع، والعمل الصالح، والهدىٰ ودين الحق، وهما أفضل علم وأفضل عمل.

[(٢)] قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن[(٣)]. فجعلوا «رحمته» أخص من «فضله»، فإن فضله الخاص عام علىٰ أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض، فجعلهم مسلمين بفضله، وأنزل إليهم كتابه برحمته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وقال أبو سعيد الخدري ﷺ: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلنا من أهله[(٤)].

قلت: يريد بذلك أن ههنا أمرين.

أحدهما: الفضل في نفسه. والثاني: استعداد المحل لقبوله: كالغيث يقع علىٰ الأرض القابلة للنبات، فيتم المقصود بالفضل وقبول المحل له، والله أعلم.

والفرح: لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهىٰ، فيتولد من إدراكه حالة تسمىٰ الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده تولد من فقده: حالة تسمىٰ الحزن والغم.

وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١.

(٢) ١٥٦ مدارج جـ٣.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٢٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٢٤ رقم ٢٥٩٧)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٥٢٤ رقم ٢٥٩٨).

مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة، فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظة التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه، وهو أشد ألما لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا، فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به، والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح، لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال، زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام، وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق ومقيد.

فالمطلق جاء في الذم كقوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠].

والمقيد نوعان: أيضًا مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته، فهو مذموم كقوله: [الأنعام: ٤٤]. والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضًا: فضل ورحمة بالسبب، وفضل بالمسبب.

فالأول كقوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

والثاني كقوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله، وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم، وبالقرآن: من أعلىٰ مقامات العارفين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل علىٰ تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له وإيثاره له علىٰ غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له علىٰ قدر محبته له ورغبته فيه فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته.

فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله.

والاستبشار يكون به قبل حصوله، إذا كان علىٰ ثقة من حصوله، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالىٰ بأعلىٰ أنواعه وأكملها: كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود أن الفرح أعلىٰ أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور، فكل فَرِحٍ راض، وليس كل راض فَرِحًا، ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضا ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام، والله أعلم(١).

(١) سيأتي قريبًا مزيد بحث للبشرىٰ والفرح والسرور علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ (ج).

(١)وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغيِّ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدىٰ، والغي مرض شفاؤه الرشد.

وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين.

فقال: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١، ٢].

ووصف رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم خلفاءه بضدهما، فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»(٢).

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدىٰ ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تامًّا لما في الصدور، فمن استشفىٰ به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إذا بلَّ من داء به ظن أنه ... نجا وبه الداء الذي هو قاتله(٣)

(٤)وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمنًا وتبعًا في بعضها، لأسباب اقتضته لابد منها، هي من لوازم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه علىٰ عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها شفاؤها وسعادتها وفلاحها،

---

(١) ١٥ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٤ رقم ٣٢٩) وابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩ رقم ٥) وفي الموارد (رقم ١٠٢) وأبو داود (رقم ٤٦٠٧) وابن ماجه (رقم ٤٢) والترمذي (رقم ٢٦٧٦) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٨ رقم ٦٦) وفي الكبير (١٨/ ٢٤٥ رقم ٦١٧) وأحمد (٤/ ١٢٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ليس له علة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦-٣٧) وشرح النووي (١١/ ٢١٧).

(٣) ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٦/ ١٢٧) والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٦٤ رقم ١١٥٦) وابن منظور في لسان العرب (١١/ ٦٥).

(٤) ٣١ إغاثة جـ١.

وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧- ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: بالإسلام الذي هداكم إليه. وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون: من الذهب والفضة(١).

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن. وقالت طائفة من السلف: «فضله: القرآن، ورحمته: الإسلام».

والتحقيق: أن كلا منهما فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢].

والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان. ووضع من وضع بعدمهما. فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفا في القرآن كقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط، بل سماها روحًا ونورًا، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهدًا، ووصية، ونحو ذلك.

(٢)قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ثم أعاد سبحانه ذكرهما، فقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١١/ ١٢٤-١٢٥).
(٢) ١٣٢ فوائد.

وقد تنوعت عبارات السلف في تفسير الفضل والرحمة، والصحيح: أنهما الهدى والنعمة، ففضله: هداه، ورحمته: نعمته، ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة، كقوله في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن ذلك قوله لنبيه يذكره بنعمه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه بإيوائه وإغنائه.

ومن ذلك قول نوح: ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨].

وقول شعيب: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].

وقال عن الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال لرسوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣]. وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ففضله: هدايته، ورحمته إنعامه وإحسانه إليهم وبره بهم، وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

والهدى: منعه من الضلال، والرحمة: منعه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة، في قوله: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢]، فجمع بين إنزال القرآن عليه ونفي الشقاء عنه، كما قال في آخرها في حق أتباعه: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

فالهدىٰ والفضل، والنعمة والرحمة، متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض.

كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٤٧] والسعر: جمع سعير، وهو: العذاب الذي هو غاية الشقاء.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال تعالىٰ عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدىٰ وانشراح الصدر والحياة الطيبة، وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة الضنك، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢].

والهدىٰ والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام، وحمد تام، فلا إله إلا الله.

***

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

[(١)]قسم الحكم إلىٰ قسمين: قسم أذن فيه وهو الحق، وقسم افتري عليه وهو ما لم يأذن فيه، فأين أذن لنا أن نقيس البلوط علىٰ التمر في جريان الربا فيه؟ وأن نقيس

(١) ٢٤٤ أعلام جـ١.

القزدير على الذهب والفضة، والخردل على البر؟ فإن كان الله ورسوله وصَّانا بهذا فسمعًا وطاعة لله ورسوله، وإلا فإنا قائلون لمنازعينا: أم كنتم شهداء إذ وصَّاكم الله بهذا؟ فما لم تأتنا به وصية من عند الله على لسان رسوله ﷺ فهو عين الباطل.

وقد أمرنا الله بردِّ ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله ﷺ فلم يُبح لنا قط أن نردَّ ذلك إلى: رأي ولا قياس ولا تقليد إمام، ولا منام ولا كشوف ولا إلهام، ولا حديث قلب ولا استحسان ولا معقول ولا شريعة الديوان ولا سياسة الملوك، ولا عوائد الناس التي ليس على شرائع المسلمين أضر منها: فكل هذه طواغيت من تحاكم إليها أو دعا منازعه إلى التحاكم إليها فقد حاكم إلى الطاغوت.

[(١)]وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال، وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنًا؛ فينبغي هذا، ولا نرى هذا، ورواه عنه عتيق بن يعقوب، وزاد: ولا يقولون حلال ولا حرام، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩] الحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله[(٢)].

***

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

[(٣)]في سنن أبي داود: من حديث أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل

(١) ٣٩ أعلام جـ١.
(٢) انظر: أضواء البيان (٧/ ٣٤٩-٣٥٠).
(٣) ٤٤١ روضة.

الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله»[١].

وفيه أيضًا: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام، بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢] [يونس: ٦٢].

وفي لفظ لغيره: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله صفهم لنا، جلِّهم لنا، لعلنا نحبهم. قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال تباذلوها، ولا أرحام تواصلوها، هم نور، ووجهوهم نور، وعلى كراسي من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٣].

[٤]والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٥٩٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٤ رقم ٤٥٩٣): رواه أبو داود وهو عند أحمد أطول منه، وقال فيه: «إن أحب الأعمال إلى الله ﷻ الحب في الله والبغض في الله». وفي إسنادهما راوٍ لم يسم. وانظر: فتح الباري (١/ ٤٧) وعمدة القاري (١/ ١١٣) وعون المعبود (١٢/ ٢٢٨) وفيض القدير (٢/ ٢٦، ٢٨) والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (رقم ١٧٨٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٣٢) وأبو داود (رقم ٣٥٢٧) وأحمد (٥/ ٣٤٢) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٨٦ رقم ٨٩٩٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٢ رقم ٤٧٥) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٩١ رقم ٣٤٣٥) وابن قدامة في المتحابين في الله (رقم ٤٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥) والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وفي صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٣٠٢٦).

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ١٨٨ رقم ٧٣١٨) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٨٦ رقم ٩٠٠١) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٩٠ رقم ٣٤٣٣).

(٤) ٣٢٣ الروح.

أن أولياء الرحمن ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾، وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وفي وسطها في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي أول الأنفال إلى قوله: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١-٤]، وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-١١]، وفي آخر سورة الفرقان [الفرقان: ٦٣-٧٧] وفي قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية. وفي قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وفي قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] وفي قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٢، ٣٥] وفي قوله: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر الآية.

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوا ولعبًا، ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن، ولا المعازف والمثاني على السبع المثاني.

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان، وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدي ورسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه، وقد ضربوا لمخالفته جاشًا، وعدلوا عن هدي نبيه وطريقته ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه، وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولًا وعملًا، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطاني ومؤذن الشيطان، وإخوان الشياطين ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور علمت أنه من أوليائه فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن في صلاته ومحبته للسنة وأهلها، ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة فزنه بذلك لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق، ولو مشى على الماء وطار في الهواء.

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني، فإن الحال الإيماني ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص في العمل وتجريد التوحيد ونتيجته منفعة المسلمين في دينهم ودنياهم، وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهي.

والحال الشيطاني نسبته إما شرك أو فجور، وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان، فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالًا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان، ولا إله إلا الله كم هلك بهؤلاء من الخلق ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائنًا ما كان، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهرًا وهو بريء منه في الباطن، له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن.

وقد يكون الرجل صادقًا، ولكن يكون ملبوسا عليه بجهله، فيكون حاله شيطانيا مع زهد وعبادة وإخلاص، لكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان.

وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم، بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق.

ووقع الناس في البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء، فحسبوا كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة.

والفرقان أعز ما في هذا العالم، وهو نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، ويزن به حقائق الأمور: خيرها وشرها، وصالحها وفاسدها، فمن عدم الفرقان وقع ولابد في أشراك الشيطان، فالله المستعان وعليه التكلان.

(١)البشرى: يراد بها أمران: أحدهما: بشارة المخبِر. والثاني: سرور المخبَر.

قال الله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] فسرت البشرى بهذا وهذا، ففي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له»(٢).

وقال ابن عباس: بشرى الحياة الدنيا، هي عند الموت: تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله. وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، إذا خرجت يعرجون بها إلى الله، تزف كما تزف العروس، تبشر برضوان الله(٣).

وقال الحسن: هي الجنة، واختاره الزجاج والفراء.

وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجري له على ألسنة الناس، وكل ذلك صحيح فالثناء من البشرى، والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من

---

(١) ١٥٩ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس (رقم ٤٧٩)، أما حديث عبادة بن الصامت أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٢٥٩-٢٦٠ رقم ٣١٥) والدارمي (رقم ٢١٣٦) وأحمد (٥/ ٣١٥) أما حديث أبي الدرداء فأخرجه الحاكم (٤/ ٤٣٣ رقم ٨١٨٠) والترمذي (رقم ٢٢٧٣) (ورقم ٣١٠٦) وسعيد بن منصور (رقم ١٠٦٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٧٥) والتمهيد (٥/ ٥٦-٥٨).

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤١٥-٤١٦).

البشرى، والجنة من أعظم البشرى، قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه، ولذلك كانت نوعين: بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة، وبشرى محزنة تؤثر فيه بسورًا وعبوسًا، ولكن إذا أطلقت كانت للسرور، وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

(١)قوله: «هو أصفى من الفرح»، واحتج على ذلك بأن «الأفراح ربما شابها أحزان»، أي: ربما مازجها ضدها بخلاف السرور.

فيقال: والمسرات ربما شابها أنكاد وأحزان، فلا فرق.

قوله: «ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع».

يريد: أن الله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠] فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها البتة، بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة أو مقارنة أو لاحقة، ولا تتجرد الفرحة بل لا بد من ترحة تقارنها، ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن، فينغمر حكمه وألمه مع وجودها وبالعكس.

فيقال: ولقد نزل القرآن أيضًا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠] وقوله تعالى: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨] فلا فرق بينهما من هذا الوجه، الذي ذكره.

قوله: وورد اسم السرور في القرآن في موضعين في حال الآخرة.

---

(١) يعني: صاحب المنازل الإمام الهروي رحمه الله تعالى، صاحب المتن الذي شرحه المصنف ابن قيم الجوزية رحمه الله وسماه: مدارج السالكين.

يريد بهما قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩] والموضع الثاني: قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] فيقال: وورد السرور في أحوال الدنيا في موضع علىٰ وجه الذم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٣] فقد رأيت ورود كل واحد من الفرح والسرور في القرآن بالنسبة إلىٰ أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، فلا يظهر ما ذكره من الترجيح.

بل قد يقال: الترجيح للفرح، لأن الرب تبارك وتعالىٰ يوصف به، ويطلق عليه اسمه دون السرور، فدل علىٰ أن معناه أكمل من معنىٰ السرور، وأمر الله به في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ وأثنىٰ علىٰ السعداء به في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧١].

***

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

(١)التوكل مركب السائر الذي لا يتأتىٰ له السير إلا به، ومتىٰ نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فجعل التوكل شرطاً فى الإيمان، فدل علىٰ انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكل، وفى الآية الأُخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. فجعل دليل صحة الإسلام التوكل. وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل علىٰ استدعاءِ الإيمان للتوكل،

---
(١) ٢٥٥ طريق الهجرتين.
(٢) آل عمران: ١٢٢، ١٦٠. والمائدة: ١١. والتوبة: ٥١. وإبراهيم: ١١. والمجادلة: ١٠. والتغابن: ١٣.

وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه.

وكلما قوىٰ إيمان العبد كان توكله أقوىٰ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً، فهو دليل علىٰ ضعف الإيمان ولا بد.

والله تعالىٰ يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوىٰ، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة، فقد جمع سبحانه بينهما في سبعة مواضع من كتابه:

أحدها: في سورة أُم القرآن، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

والثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الرابع: قوله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٨-٩].

الخامس: قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

السادس: قوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

السابع: قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه السبعة مواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية، فإن العبد لا بد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلىٰ تلك الغاية، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها عبادة ربه، والإنابة إليه.

وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له

إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، ونظيره قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام، ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١ - ٣]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل، مصحح له، مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواءَ إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً.

وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصادف الحق - لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله لا يجد بداً من توكله.

فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أَمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جُماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزءٌ من ماهيته[1].

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟

وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه، فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك.

فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله.

فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر، لو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٨٢) وعمدة القاري (١٤/ ١٧١) وتحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٦).

الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

[(1)]قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ

---

(١) ١٠ بدائع جـ٤.

بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧] هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولًا إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما، سواء وإذا تبوَّءا البيوت لقومهما، فهم تبع لهما.

ثم جمع الضمير فقال: وأقيموا الصلاة، لأن إقامتها فرض على الجميع.

ثم وحده في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن موسى هو الأصل في الرسالة، وأخوه رِدأً ووزيرًا، فكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة.

وأيضًا فإن موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولًا واحدًا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] فهذا الرسول هو الذي قيل له: وبشر المؤمنين اهـ.

(١) وأما الشد على القلب ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع.

ولهذا قال ابن عباس: يريدا منعها، والمعنى: قسِّها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، وهذا مطابق لما في التوراة: أن الله سبحانه قال لموسى: اذهب إلى فرعون، فإني سأقسي قلبه فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر (٢).

وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه، جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم، كعقوبته لهم بالمصائب، ولهذا كان محمودًا عليه فهو حسن منه، وأقبح شيء منهم فإنه عدل منه وحكمة، وهو ظلم منهم وسفه، فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم، يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما، والمقضي المقدر يكون ظلمًا وجورًا وسفهًا وهو فعل جاهل ظالم سفيه.

---

(١) ٩٦ شفاء العليل.

(٢) انظر: البداية والنهاية (١/ ٢٥٣).

[(1)]الأصل في الدماء حقنها وفي الأبضاع والذبائح تحريمها.

فأبقوا كل شيء على أصله: وهذا غاية الفقه، وأسد ما يكون من النظر.

قالوا: ولله تعالى حِكَم في إبقاء أهل الكتابين بين أظهرنا، فإنهم مع كفرهم شاهدون بأصل النبوات والتوحيد واليوم الآخر والجنة والنار؛ وفي كتبهم من البشارات بالنبي ﷺ وذكر نعوته وصفاته وصفات أمته ما هو من آيات نبوته وبراهين رسالته، وما يشهد بصدق الأول والآخر.

وهذه الحكمة تختص بأهل الكتاب دون عبدة الأوثان، فبقاؤهم من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد.

وقد قال تعالى لمنكري ذلك: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ذكر هذا عقب قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يعني: سلوا أهل الكتاب: هل أرسلنا قبل محمد رجالًا يُوحى إليهم أم كان محمد بدعًا من الرسل، لم يتقدمه رسول حتى يكون إرساله أمرًا منكرًا لم يطرق العالم رسول قبله؟ وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمراد بسؤالهم سؤال أممهم عما جاؤوهم به، هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إله غيره؟

قال: الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم.

وقال: ابن قتيبة: التقدير واسأل من أرسلنا إليهم رسلًا من قبلك، وهم أهل الكتاب. وقال: ابن الأنباري: التقدير وسل من أرسلنا من قبلك.

وعلى كل تقدير فالمراد التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات

(١) ١١ أحكام جـ١.

والتوحيد، وأن الله أرسل رسولًا، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ، إذ كان قد جاء على ما جاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله سبحانه، ولم يكن بدعًا من الرسل ولا جاء بضد ما جاؤوا به، بل أخبر بمثل ما أخبروا به من غير شاهد ولا اقتران في الزمان، وهذه من أعظم آيات صدقة.

وقال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادًا، وقال: وكان في شك فأمر أن يسألنا، وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم، وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ.

وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلًا، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه.

كما قال: تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] ونظائره. فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل.

وفي تفسير سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»(١). وقد ذكر ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم. وهذا اختيار ابن جرير، قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٩٨) وفي المصنف (٦/ ١٢٥ رقم ١٠٢١١) والطبري في تفسيره (١١/ ١٦٨) وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٤٠ رقم ٦٠٦): هو معضل. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٨، ٤٣٣) وعون المعبود (١٤/ ١١).

يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولا إلى خلقي، لأنهم يجدونك مكتوبا عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك: كعبد الله بن سلام ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك، وكذلك قال: ابن زيد قال: هو عبد الله بن سلام، وقال: الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب[1].

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها وأين كان عبد الله بن سلام وقت نزول هذه الآية؟ فإن السورة مكية وابن سلام إذ ذاك على دين قومه، وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه؟

وقال كثير من المفسرين: هذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره، لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة[2]، وكقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١] والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق: إن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ والخطاب شامل للخلق، والمعنى: وإن كنتم في شك، والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقال ابن قتيبة: كان الناس في عصر النبي ﷺ أصنافًا، منهم كافر به مكذب، وآخر مؤمن به مصدق، وآخر شاك في الأمر، لا يدري كيف هو، فهو مقدم رجلًا ويؤخر

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١١/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٤) والمزي في تهذيب الكمال (٣/ ٣٧٤) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٩/ ٣٧٣) وابن قدامة في المغني (٧/ ٣٥٣)، والميداني في مجمع الأمثال (١/ ١٢٩) وأبو العلاء المعري في رسالة الغفران (ص ٤١٣) وأبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال (١/ ٤١).

رجلًا، فخاطب الله تعالىٰ هذا الصنف من الناس، وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدىٰ علىٰ لسان محمد فسل. قال: ووحد وهو يريد الجمع، كما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦] و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ﴾ [الزمر: ٨].

وهذا - وإن كان له وجه - فسياق الكلام يأباه فتأمله وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦]، وقوله: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وهذا كله خطاب واحد متصل بعضه ببعض. ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا علىٰ النبي ﷺ قالوا: الخطاب له، والمراد به هذا الصنف الشاك، وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم، وهو وقوع الشك منه والسؤال؛ وقد بينا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلا عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعًا ولا ممكنًا، فما مقصود الخطاب والمراد به؟

قيل: المقصود به إقامة الحجة علىٰ منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلىٰ أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنىٰ في أوجز عبارة وأدلها علىٰ المقصود، بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك. وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك علىٰ صفحاته: من شك فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل.

***

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

[(١)] إذنه هاهنا قضاؤه وقدره، لا مجرد أمره شرعه، كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية، قال ابن المبارك عن الثوري: بقضاء الله[(٢)].

وقال محمد بن جرير: يقول جل ذكره لنبيه: وما لنفس خلقها من سبيل إلى أن تصدقك، إلا أن يأذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله ثم خلها، فإن هداها بيد خالقها[(٣)]، وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠] أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن. ثم قال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير: يقول تعالى: يا محمد قل لهؤلاء السائلينك الآيات على صحة ما تدعو إليه: من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم ماذا في السماوات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله: من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها؟! فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبرًا ودلالة، على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له

---

(١) ٦٠ شفاء العليل.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٧٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٧٤).

في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير، يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك، ولا يصدقون به ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم(١).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يونس

والحمد لله رب العالمين(٢)



(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٧٥) (٢٢/ ١٥٠).

(٢) اللهم لك الحمد على إتمام تحقيق الجزء الثالث من هذا الكتاب المبارك (الضوء المنير) فأسألك اللهم أن تجعل عملي هذا خالصًا ابتغاء مرضاتك ونيل رضاك، وأن تثقل به ميزاني وتبيض به وجهي، وتدخلني في عبادك الصالحين، وتحشرني مع أوليائك وأحبائك، وأن لا تحرم مؤلفه وجامعه الأجر الجميل والذكر الحسن، وأن ينتفع به القاصي والداني ويكتب له القبول بين العباد، فقد انتهيت من تحقيق هذا المجلد في ليلة الجمعة المباركة الثامن من شهر ربيع الأول لعام ١٤٣٠هـ الموافق الخامس من شهر مارس ٢٠٠٩م بمدينة الرياض.

الفهرس

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ الأَنْعَامِ

٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآية.

٥ بحث في قوله: ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

٦ بحث حول قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾.

٧ بحث حول جمع الظلمات وإفراد النور.

٩ بحث حول قوله الله: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾.

٩ معاني إطلاق الجعل على الله وعلى خلقه.

١١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية.

١٢ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾.

١٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾.

١٥ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ الآية.

١٥ تفنيد آراء من يرى الذي بسم الله مفردًا أو مضمرًا.

١٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ﴾ الآية

١٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ الآيات.

١٧ استدراك على بعض آراء المفسرين.

٢٠ سياق اعترافات اليهود ومشركي العرب وهرقل الروم بصدق الرسول ﷺ.

٢١ معاني إطلاق الفتنة وأقسامها.

٢٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ الآية.

٢٨ الخلاف في ما المراد بقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾.

الصفحة الموضوع

٣٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ ﴾ الآية.
٣٢ عقوبة ترك لما ذكر الله في كتابه حسية ومعنوية.
٣٥ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ الآية.
٣٦ بحث حول معاني الحكمة وأقوال الناس فيها.
٣٨ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.
٣٩ علق ﷻ المزيد بالشكر ووصف الشاكرين بأنهم قليل.
٤١ ذكر أن الشكر هو الغاية من خلق الله وأمره.
٤٧ ذكر أن كل ما شغل العبد عن الله فهو شؤم، وكل ما رده إليه فهو رحمة.
٤٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.
٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ونقض المعطلة لقولهم إنه مجاز.
٥١ بحث حول مشركي الصابئة ومشركي سائر الأمم، إلخ.
٥٢ محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه، وحكم الله بين الفريقين.
٥٤ الفرق بين الحجج والبينات.
٥٥ تفاوت الناس في أفهامهم من القرآن وبيان ذلك.
٥٨ ذكر أن المحاجة فيما ظهر نوع من العبث وأدب الأنبياء مع الله في تعليق تصرفاتهم على مشيئة الله.
٦٠ المناظرة في العلم نوعان: أحدهما للتمرن على إقامة الحجج ودفع الباطل إلخ.
٦١ أقسام الجهاد: الجهاد الواجب والمباح.
٦٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾.
٦٦ الإشارة والبشارة أنه لا ضيعة لمن قام بالشريعة والعكس بالعكس.
٧٠ دعوة محمد هي دعوة جميع المرسلين قبله والأدلة على صدق نبوته.
٧١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ وتهور اليهود في ذلك.
٧٥ ذكر مناظرة بين الشيخ ابن القيم أحد علماء أهل الكتاب وانهزامه.

الصفحة الموضوع
٧٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ وإعادة الروح إلى البدن.
٧٩ جواب شيخ الإسلام ابن تيمية بتفصيل حول إعادة الروح للبدن وذكر مذاهب الناس.
٨١ الجواب عن كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن إجمالًا أو تفصيلًا.
٨٣ بحث عن النفس والروح هل هما شيء واحد أم متغايران؟ والتفصيل في ذلك.
٨٦ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾.
٨٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ والرد على المعارضين.
٩١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ مفصلًا.
٩٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾.
٩٥ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ الآية بتفصيل.
٩٧ ذم الله أهل الجهل في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ الآية.
٩٩ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾.
١٠١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ الآية.
١٠٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.
١٠٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الآية.
١٠٦ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ الآية.
١٠٨ حياة القلب مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه بتفصيل.
١١٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾ الآية بتفصيل.
١١٤ الأسباب التي تشرع الصدر والتي تضيقه.

الصفحة المـــوضـــوع
١١٦ أعظم أسباب شرح الصدر التوحيد والنور الذي يقذفه الله في قلب العبد.
١٢٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الآية.
١٢٤ تلاعب الشيطان بعباد الحيوانات وبحث قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ الآية.
١٣٠ ذكر قدوم وفد خولان.
١٣١ ذكر تحريم بيع الخنزيل وتحريم بيع الأصنام بتفصيل.
١٣٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ الآية بتفصيل.
١٣٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ الآية بتفصيل.
١٤٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ الآية بتفصيل.
١٤٤ لا يأتي المعطل للتوحيد بتأويل إلا أمكن رده بتفصيل.
١٤٦ بحث في إتيان الرب ﷻ يوم القيامة بتفصيل.
١٥٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾.

سُورَةُ الأَعْرَافِ

١٥٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ الآيات.
١٥٤ بحث حول الأقوام الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.
١٥٤ بحث حول إحباط الحسنات بالسيئات.
١٥٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾.
١٥٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ...﴾ الآيات بتفصيل.
١٦٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ الآيات.

الصفحة الموضوع

١٦٥ هل طمع آدم وحواء أن يكونا ملكين أو من الخالدين؟.
١٦٨ معنى التدلية وكيف دلاهما الشيطان بغرور؟.
١٦٩ فصل في أن الشيطان كاد نفسه وذريته قبل أن يكيد الأبوين وذريتهما.
١٧٠ كيف كاد الشيطان آدم وحواء.
١٧٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا ﴾ الآية.
١٧٢ فصل في أن أصل الفواحش المحبة لغير الله تعالى.
١٧٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾.
١٧٤ القلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه.
١٧٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا ﴾.
١٧٥ بحث في أن القبائح والفواحش هي قبائح وفواحش قبل النهي عنها وبعد النهي عنها.
١٧٧ الرد على من يزعم غير ذلك وبيان أن القرآن صريح في إبطال هذا المذهب.
١٧٨ بيان أن أوامر الرب كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر.
١٧٩ فصل في معنى الأدب وبيان أنه هو الدين كله، ومعنى أخذ الزينة عند كل مسجد.
١٨٠ صور من الأدب مع الله ﷻ.
١٨١ فصل في هديه ﷺ في حفظ الصحة وقوله: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾.
١٨٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الآية.
١٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ الآية.
١٨٦ رتب الله المحرمات أربع مراتب، مع بيان أنواعها.
١٨٨ القول على الله بلا علم أشد المحرمات وأعظمها إثمًا.
١٨٩ ماذا يفعل الحاكم والمفتي إذا نزلت به نازلة؟.
١٩١ فائدة في أن حكم الله ورسوله يظهر على أربعة ألسنة.

الصفحة الموضوع
١٩٢ بحث حول سبق الكتاب بالشقاوة والسعادة.
١٩٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ ...﴾ الآيات.
١٩٥ بحث حول طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم.
١٩٦ تعريف جامع مانع لمعنى الإسلام.
١٩٦ بحث حول عذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار وقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾.
١٩٧ بحث حول المقلد المعرض عن الحق والمقلد الذي لم يتمكن من الوصول للحق.
١٩٨ أحكام الدنيا تجري على ظاهر الأمر والأصول الأربعة التي يزول بها الإشكال.
٢٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية.
٢٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ الآية.
٢٠١ أحسن صور الاعتراض الذي يكون تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا، مع إيراد بعض صوره.
٢٠٣ الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة وقول أهلها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ الآية.
٢٠٧ بحث حول أهل الأعراف، ومن هم؟ وما هو مصيرهم؟ بتفصيل.
٢١٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.
٢١١ بحث حول العرش واستواء الرب ﷻ عليه والرد على النفاة بتفصيل.
٢١٤ إثبات الفوقية للرب سبحانه والرد على الجهمية.
٢١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٢١٧ نفي سبحانه عن المعبودين من دونه والنفع والضر القاصر والمعتدي.
٢١٨ بحث حولي نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة بتفصيل.
٢٢٢ بحث في بيان الفوائد من إخفاء الدعاء.
٢٢٧ بحث في أن كل من الدعاء والذكر يتضمن الآخر.
٢٢٩ بحث في أن المحبة إذا لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها.
٢٣٣ بحث حول أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء.
٢٣٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ وبيان أن الاعتداء في الدعاء وغيره.
٢٣٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ وبيان أن الفساد فيها بالمعاصي.
٢٣٥ اشتمال قوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ على جميع مقامات الإيمان والإحسان.
٢٣٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ الآيات.
٢٣٧ بحث حول تحذير الله ﷻ من الهوى المذموم وبيان شأن أصحابه تفصيلًا.
٢٤١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾.
٢٤٣ بحث في أن المعاصي سبب لمحق بركات الدنيا والآخرة.
٢٤٤ بحث في أن الجهال بالله وبأسمائه وصفاته يُبغِّضون الله إلى خلقه ويقطعون الطريق الموصل إليه.
٢٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ الآية.
٢٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ الآية ومعنى الطبع على قلوب الكافرين.
٢٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ ﴾.

الصفحة المــــوضـــــوع
٢٥٥ بحث حول تلاعب الشيطان باليهود في عبادتهم وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهًا.
٢٥٦ بحث في رؤية الرب تبارك وتعالى يوم القيامة بالأبصار كما يُرى القمر ليلة البدر.
٢٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ ﴾ وبيان إمكانية رؤية الرب تعالى يوم القيامة وعدمها في الدنيا.
٢٥٩ أقوال أهل السنة فيمن يرون الله تبارك وتعالى يوم القيامة.
٢٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.
٢٦١ ومن تلاعب الشيطان أيضًا بهم قولهم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.
٢٦٢ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ الآية.
٢٦٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ ﴾ ومعنى الافتتان.
٢٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ... ﴾.
٢٦٦ بحث حول كلام الله تعالى وكيفية إدراكه.
٢٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾.
٢٦٨ بحث حول مقام موسى في مظهر الجلال وعيسى في مظهر الجمال ومحمد في مظهر الكمال.
٢٧٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ ﴾.
٢٧١ العبودية الواجبة على كل أحد حسب مرتبته والكلام حولها.
٢٧٢ كل من آثر الدنيا وهو من أهل العلم لابد أن يقول على الله غير الحق.
٢٧٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ الآية.
٢٧٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾.
٢٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع

٢٨٣ بحث في ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام وبيانها.
٢٨٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾.
٢٩٤ بحث في معنى الإلحاد.
٢٩٦ بحث في أن أسماء الرب: أسماء ونعوت.
٢٩٧ بحث فيأن ما وُصِفَ به الرب سبحانه في القرآن إلا ودل عليه العقل الصريح.
٢٩٨ بحث في أن اسم الله الأعظم في آية الكرسي وفاتحة آل عمران.
٣٠١ الحكمة من منع الرب عن الناس علم الساعة ومعرفة آجالهم.
٣٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ الآية.
٣٠٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾.
٣٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾.
٣٠٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.
٣١١ بحث في أن القرآن بصائر لجميع الناس.
٣١٣ بحث في الذكر وحول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.
٣١٥ بحث في أن الغفلة والكسل هما أصل الحرمان.
٣١٥ أقسام الناس وحظوظهم من العلم والعزيمة.

سُورَةُ الأَنْفَالِ

٣١٩ بحث في غزوة بدر الكبرى والدروس المستفادة منها.
٣٢٢ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.
٣٢٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.
٣٢٦ تمثل الشيطان في صورة سراقة بن مالك ونكوصه على عقبيه.
٣٢٧ ليس النصر بكثرة العدد بل بالتوكل على الله.

الصفحة الموضوع
٣٢٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾.
٣٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾.
٣٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ الآية.
٣٣٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.
٣٣٥ الفرق بين السماع الذي يقوم به الحجة والسماع الذي ينتفع به وهو فقه المعنى وعقله.
٣٣٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية.
٣٣٩ بحث عن معنى الحياة الحقيقية الطيبة التي تحصل للمؤمنين بسبب طاعتهم لله ورسوله.
٣٤٢ بحث عن معنى أن الله يحول بين المرء وقلبه.
٣٤٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الآية.
٣٤٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ الآية.
٣٤٥ بحث حول مفهوم الاستغفار وعلاقته بالتوبة.
٣٤٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ الآية.
٣٤٨ بحث حول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾.
٣٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾.
٣٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾.
٣٥١ كيد الشيطان للإنسان وقول الله عنه: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ الآية.
٣٥٣ بحث في الآفات الخفية العامة: كون الإنسان في نعمة فيملها ويتطلع بجهله إلى غيرها.

الصفحة الموضوع

٣٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.
٣٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾.
٣٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾.
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.
٣٦٠ الفرق بين الحسب والتأييد.
٣٦١ الحكم في التشديد في أول التكليف ثم التيسير في آخره.
٣٦٣ فصل في هديه ﷺ في الأسارى.
٣٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ...﴾.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٣٦٦ بحث في نزول سورة براءة في نقض ما بين رسول الله وبين المشركين العهد الذي كانوا عليه.
٣٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.
٣٦٨ بحث في خير الأيام وتفضيل بعض الأيام والليالي على بعض وكذلك الأمكنة بتفصيل.
٣٧٦ فصل في أن الله طيب لا يقبل إلا الطيب من الأقوال والأفعال.
٣٧٧ حال الكفار مع النبي ﷺ بعد الأمر بالجهاد على ثلاثة أقسام.
٣٧٨ فصل في اشتمال خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح على أنواع من العلم.
٣٨٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع
٣٨١ بحث في فضل الصلاة ومنزلتها من الدين وقتل تاركها وأقوال أهل العلم في ذلك.
٣٨٦ بحث في دفع الهم والغم بالجهاد وبلا حول ولا قوة إلا بالله.
٣٨٧ فصل في نقض أهل الذمة عهدهم، وبأي شيء ينقض؟ وقول أهل العلم في ذلك.
٣٨٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ ﴾.
٣٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.
٣٩١ نكث الأيمان بعد العهد والطعن في الدين يستلزمان مقاتلة أئمة الكفر وأقوال أهل العلم في ذلك.
٣٩٢ الدلالة على أن من نكث الأيمان بعد العهد والطعن في الدين أنه من أئمة الكفر.
٣٩٤ دليل آخر على قتال من نكث الأيمان في قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ ﴾.
٣٩٤ دليل آخر في قوله: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ الآية.
٣٩٤ كيفية شفاء الصدور من الألم الحاصل من نكث العهد والطعن.
٣٩٥ دليل آخر في قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾.
٣٩٦ قولهم: ولا نرغب في ديننا ولا ندعو إليه أحدًا، من الأشياء التي ينتقض بها العهد.
٣٩٦ بحث في أمراض القلوب وبيان أنه نوعان.
٣٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾.
٣٩٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآيات.
٣٩٩ اختلاف نفر من الصحابة في أفضل الأعمال.
٤٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع

٤٠٢ فصل في غزوة حنين وتسمى أيضًا غزوة أوطاس بتفصيل.
٤١١ فصل في قدوم وفد هوازن على رسول الله ﷺ.
٤١٢ فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من مسائل فقهية ونكت حكمية.
٤١٤ فصل في أن الشرك والزنا واللواط من أخبث الأفعال وأشنع الخصال.
٤١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية.
٤١٧ بحث في دخول المشركين الحرم وأقوال أهل العلم.
٤١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية.
٤١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الآية.
٤٢١ الحكمة في إبقاء أهل الكتاب الجزية.
٤٢٤ بيان كذب الكتاب المنسوب إلى رسول الله ﷺ لليهود بأنه أسقط عنهم الجزية.
٤٢٤ فصل في تلاعب الشيطان باليهود لما حرم عليهم الشحوم أذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها.
٤٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية وذم التقليد.
٤٢٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.
٤٢٩ بحث في هجرة رسول الله ﷺ.
٤٣٠ بحث في فضائل ومناقب الصديق الأكبر ﷺ والرد على من الروافض.
٤٣٢ بحث في نفي الحزن عن من أحب الله وكان الله معه.
٤٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية.

الصفحة الموضـــوع

٤٣٣ الحكمة في عدم خروج المنافقين مع المؤمنين للقتال.
٤٣٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ الآية.
٤٣٤ بحث حول قول من قال: انبعاثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرهها سبحانه منهم والرد على ذلك بتفصيل.
٤٣٧ بحث عن أهل الانقطاع وأنهم هم المتخلفون وهم الذين كره الله انبعاثهم فثبطهم.
٤٣٧ الرد على من قال: كيف يرضى لعبده شيئًا ولا يعينه عليه؟.
٤٣٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾.
٤٣٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.
٤٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية.
٤٤٢ بحث في معنى الرغبة في الله وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه.
٤٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.
٤٤٤ بحث في استهزاء المنافقين بالمؤمنين ونزول قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية.
٤٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾.
٤٤٦ بحث في معنى الخوض والاستمتاع بالخلاق بتفصيل.
٤٥٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾.
٤٥٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

الصفحة الموضوع

٤٥١ بحث في رضوان الله ﷻ على المؤمنين.
٤٥٢ فصل في هديه ﷺ في الجهاد والغزوات.
٤٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية.
٤٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾.
٤٥٥ ذم الله سبحانه من خالف ما التزمه له بالوعد وعاقبه بالنفاق في قلبه.
٤٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ الآية.
٤٥٦ بحث في قوله: ﴿ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا ﴾.
٤٥٧ بحث في بيان أن أنفع العلوم: علم الحدود وخاصة حدود المشروع المأمور والمنهي.
٤٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ الآية.
٤٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ الآية.
٤٥٩ بحث في تبعية الصحابة والأدلة على وجوب اتباعهم والرد على شبه النفاة بتفصيل.
٤٦٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾.
٤٦٤ بحث في الزكاة وقول الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ... ﴾ الآية.
٤٦٤ فصل في غزوة تبوك والدروس المستفادة منها بتفصيل.
٤٧٠ فصل في رجوع النبي ﷺ من تبوك وكيد المنافقين به وعصمة الله له بتفصيل.
٤٧٤ دخول الرسول المدينة بعد قدومه من تبوك وما كان من شأن المخلفين واعتذارهم وما كان من قصة كعب بن مالك.
٤٧٨ فصل فيما تضمنته غزوة تبوك من الفقه والفوائد بشيء من التفصيل.
٤٨٣ فصل في أمر مسجد الضرار وما كان من شأن رسول الله ﷺ معه.

الصفحة الموضوع

٤٨٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾.

٤٨٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

٤٩٠ الحكمة من تقديم الأنفس على الأموال في هذه السورة وتقديم الأموال على الأنفس في غير هذا الموضع.

٤٩٢ بحث في الكلام على [واو] الثمانية وقوله تعالى: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ﴾.

٤٩٤ بحث في دخول واو العطف بين الصفات المتقابلة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾.

٤٩٦ بحث في التوبة وأنها محفوفة بتوبة من الله قبلها وتوبة منه بعدها.

٤٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾.

٤٩٩ بحث في عظمة الصدق وأن السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة متعلقة به.

٥٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

٥٠١ فصل في منزلة الصدق وأنها منزلة القوم الأعظم والطريق الأقوم.

٥٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ... ﴾.

سُورَةُ يُونُسَ

٥٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ الآية.

٥٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الآيات.

٥٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٥٠٩ بحث في الحكمة من إنارة القمر والكواكب في الليل.
٥١١ بحث في الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه.
٥١٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾.
٥١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾.
٥١٦ بحث في أن الله وضع الألفاظ بين عباده تعريفًا ودلالة على ما في نفوسهم.
٥١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.
٥١٩ بحث في رفع الله المؤاخذة عن المتكلم بكلمة الكفر مكرها.
٥٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ الآية.
٥٢٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الآية.
٥٢٣ بحث في رياح الرحمة ورياح العذاب.
٥٢٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ ...﴾ الآية.
٥٢٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.
٥٢٩ بحث في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقاتها وصفاتها.
٢٣٢ بحث قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.
٥٣٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.
٥٣٧ بحث في الحكمة في تقديم السماء على الأرض في سورة يونس.
٥٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ الآية.
٥٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ الآية.
٥٤٠ بحث حول السمع والبصر وأيهما أفضل وحجة كل فريق.

الصفحة الموضـوع
٥٤١ بحث في أن الله أمر نبيه ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع في القرآن.
٥٤٢ بحث في أن القرآن متضمن أدوية القلب وعلاجه من جميع الأمراض.
٥٤٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.
٥٤٥ بحث في الاهتداء وقبول له وعدم قبوله.
٥٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ الآية.
٥٥١ بحث في الفرق بين الفرح وبين الاستبشار.
٥٥٢ بحث في أنه ليس المقصود من العبادات والأوامر المشقة وإن حصلت بالتبع والتضمن.
٥٥٤ بحث في الفضل والرحمة والهدى وتوابع ذلك.
٥٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا﴾.
٥٥٧ بحث في الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
٥٦٠ بحث في البشرى وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ الآية.
٥٦٢ بحث في التوكل وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾.
٥٦٣ بحث في اقتران التوكل بالإيمان والإسلام والتقوى والهداية وبيان أن التوكل أصل لجميع مقامات الدين.
٥٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾.
٥٦٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾.

الصفحة الموضوع

٥٦٨ بحث في أن الأصل في الدماء حقنها وفي الأبضاع والذبائح تحريمها.
٥٦٩ بحث في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.
٥٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

بهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد الثالث

ويليه إن شاء الله الجزء الرابع



الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد الرابع

هود - المؤمنون

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضوء المنير
على
التفسير

المجلد الرابع

ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٤-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ ـ فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[(١)] قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف[(٢)]. وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب[(٣)]. وقال الآخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[(٤)].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»** قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: **«حلق الذكر»**[(٥)].

---

(١) ١٦٣ الجواب الكافي.

(٢) الأثر أخرجه البيهقي من قول إبراهيم بن آدم في الزهد الكبير (رقم ٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٠-٣٧١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦/ ٣٠٣، ٣٦٦) وانظر: الوابل الصيب (ص ٧٠) وشرح حديث لبيك (ص ٦١) وصفة الصفوة (٤/ ١٥٤) وفيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٣) انظر: فيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٤) نسب المصنف رحمه الله هذا الكلام إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: وذكره. انظر: الوابل الصيب (ص٦٩) بينما ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٤٤٣) ونسبه إلى بعض العارفين.

(٥) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥١٠) وأبو يعلى (٦/ ١٥٥ رقم ٣٤٣٢) وأحمد (٣/ ١٥٠) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٩٨ رقم ٥٢٩) والطبراني في الدعاء (رقم ١٨٩٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن =

وقال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»(١).

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] يختص بيوم المعاد فقط؛ بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله ﷺ بسلامة القلب فقال: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤] وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

***

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

...(٢)قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموت والحياة وتزيين الأرض بما عليها؛ أنه

غريب. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢١٠).

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٥، ١١٩٦) ومسلم (رقم ١٣٩٠، ١٣٩١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠) وشرح النووي (٩/ ١٦١).

(٢) ٧٠ روضة المحبين.

للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملًا، فيكون عمله موافقًا لمحابِّ الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خُلِق هو لها وخُلِق لأجلها العالم، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العمل الأحسنُ وهو مواقع محبته ورضاه، وقدَّر سبحانه مقادير تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقدره، ليبلوهم أيهم أحسن عملًا.

[1]قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]. وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي، وقدَّر أجل الخلق، وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة وتأتي الأسباب، أعظم الابتلائين والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة ﷺ: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر[2]. والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين. وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب تعالى يبتلي بنعمه، وينعم بابتلائه، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره، لا يستغنى عنهما طرفة عين، والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل،

---

(١) ١٦٠ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٤٥٧ رقم ٢٠٩٩٧) ونسبه إلى عبد الرحمن بن عوف ﷺ. وهناد في الزهد (٢/ ٣٩٧-٣٩٨ رقم ٧٧٣) وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٨٢) ولسان العرب (٤/ ٤٨٣).

فالمأمور لا يؤدى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر، وأما المقدور الذي يقدر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره، كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه، وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به، ويصبر عن الهوى المنهي عن طاعته فلا ينفك العبد عنهما: غنيا كان أو فقيرا، معافى أو مبتلى، وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، أيهما أفضل؟ وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهي التي حكاها أبو الفرج ابن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر، أيهما أفضل؟ وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها، والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فُرِضَ استواؤهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضل بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد قال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا فضل لعجمي على عربي، إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب**»(١) والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لابد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

(٢)وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٧]. فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض، ليبتلي عباده بأمره

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وابن المبارك (رقم ٢٣٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥١٣٧) وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (رقم ٢٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٦): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٧) ونيل الأوطار (٥/ ١٦٤). وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ٢٩٦٣).

(٢) ٣٥ شفاء العليل.

ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر في الآية التي قبلها: أنه خلق الموت والحياة، ليبتليهم أيضًا، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالوا به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وأخبر في الآية الأولى أنه زين لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده، وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم، موجودًا عيانًا بعد أن كان غيبا في علمه، فابتلى أبوي الإنس والجن كل منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه، وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه، فلهذا قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، واستمر هذا الابتلاء في الذرية إلى يوم القيامة، فابتلى الأنبياء بأممهم، وابتلى أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله: إني مبتليك ومبتل بك[١].

وقال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي الحديث الصحيح: أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم: أبرص وأقرع وأعمى[٢]. فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه، وأنه كان أعمى فقيرًا، فأعطاه الله البصر والغنى، وبذل للسائل ما طلبه: شكرًا لله. وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كان عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر، وقال الغنى: إنما أوتيته كابرًا عن كابر.

وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولا من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه، وأنعم بذلك عليه، ولهذا

---

(١) أخرج مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم...» وفيه: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك...» أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٤) ومسلم (رقم ٢٩٦٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٠٢) وشرح النووي (١٨/ ٩٩).

ينبه سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلى حال، حتى جعله بشرا سويا، يسمع ويبصر، ويقول وينطق، ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾[المعارج: ٣٨-٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزا عظيما من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدًى، لا يرسل إليهم رسولا، ولا ينزل عليهم كتابا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقا جديدًا، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يَكْذِبون ويُكَذِّبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم.

ويشبه هذا قوله: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله، فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بالمعاد.

***

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

[(١)] سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه. كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ

(١) ٢٠٥ الفوائد.

أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. أي على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك، وأستوجبه، وأستأهله: قال الفراء أي على فضل عندي، إني كنت أهله ومستحقًا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول: على خير علمه الله عندي. وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود، فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل: هذا من كرامتي، ثم ذكر قارون وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني أن سليمان رأى ما أوتيته من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره. وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكًا لربه وفضلًا منه، منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلًا ومستحقًا، فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه، إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنِّه، لما ذم على ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها، ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر. فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير

قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر، يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض، هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده، وهو الحكيم العليم.

***

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

[(١)]الصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضًا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل وهذا صبر عن الإرادة والفعل، فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي ﷺ في حق ابنته «مرها فلتصبر ولتحتسب»[(٢)] وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١] وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٢٠] فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى وعلى حسب

(١) ٥٥ التبيان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٤) ومسلم (رقم ٩٢٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥٧).

اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

(١) ليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ـ وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء، فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل ـ وإنما المعنى: أنزله مشتملًا على علمه، فنزوله مشتملًا على علمه: هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق، ونظير هذا قوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦]. ذكر ذلك سبحانه تكذيبًا وردًّا على من قال: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤].

***

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

(٢) قد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كان له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد. ثم اختلفوا في معناها فقالت طائفة منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب.

قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا

---

(١) ٤٧١ مدارج جـ٣.

(٢) ١٧٣ عدة الصابرين.

بحسناته ويثاب عليها في الآخرة[١].

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قالوا: والمؤمن يريد الدنيا والآخرة. فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.

قال مجاهد: هم أهل الرياء وقال الضحاك: من عمل صالحا من أهل الإيمان من غير تقوى عجّل له ثواب عمله في الدنيا. واختار الفراء هذا القول، وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجّل له ثوابه ولم يبخس. وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمنًا البتة، فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجه الله، وإن عملا بمعصيته. فأما من لم يرد بعمله وجه الله، وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان.

وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن، ليقال: فلان قارئ. والمتصدق الذي أنفق أمواله، ليقال: فلان جواد. والغازي الذي قتل في الجهاد، ليقال: هو جريء[٢]. وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء: كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن إدريس قال أخبرني عبد الحميد بن صالح حدثنا قطن بن الحباب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٢) (١٥/ ٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠٥).

ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله ﷻ للدنيا، وفرقة يعبدون رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئًا اذهبوا بهم إلى النار. ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك رياء وسمعة. فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئًا، اذهبوا بهم إلى النار، ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك وجهك ودارك. فيقول: صدقتم، اذهبوا بهم إلى الجنة»(١)

هذا حديث غني عن الإسناد، والقرآن والسنة شاهدان بصدقه.

ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [هود: ١٥] وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا، ولها عملوا، فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة، إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعًا عارضًا، يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام، يعملون العمل الحسن، لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة، وما ينقلبون إليه، فهؤلاء يجعل لهم جزاء حسناتهم في الدنيا، فإذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٢٦ - ٣٢٧رقم ٦٨٠٨) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٠٩ رقم ٥١٠٥) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣٧ رقم ٥٧): رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار وبقية رواته ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٠): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبيد بن إسحاق العطار، وقد ضعفه الجمهور، ورضيه أبو حاتم الرازي، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٥١٥٦) وضعيف الترغيب (رقم ٢٥).

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالًا، قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار. وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا، فان الله يبطل إيمانه عند الموافاة، فلا يوافي ربه بالإيمان.

قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٦] وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه، وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد، فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري وغيره، والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها، بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة. والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله، يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار، وإن كان مع المرائي شيء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد، والله الموفق.

وذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ومنه قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن، يشبه بعضها بعضًا، ويصدق بعضها بعضًا، وتجتمع

على معنى واحد: وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه، لم يكن له في الآخرة نصيب. ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه؛ فهي له. بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة؟ فإنه داخل تحت حكم الإرادتين، فبأيهما يلحق.

قيل: من ها هنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين: أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طردا ولا عكسا، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية والإيمان والشرك في العبد وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما شعرت أن أحدًا من أصحاب رسول الله يريد الدنيا، حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية»[1]. والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وهاهنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبدًا، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبدًا، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة: كفرعون وثمود، واليهود

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٣٠) وانظر: الدر المنثور (٢/ ٣٤٨).

الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم، وهم من أكفر الخلق بإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال، قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك، لابد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة، والله المستعان.

...[(١)]قالوا: وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدًا للدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

وثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه، فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

وثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة، فانتكس قلبه، وانعكس سيره إلى وراء.

فهاهنا أمران: أحدهما: جعل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القُذة بالقذة قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[هود: ١٥، ١٦]. وقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾[الإسراء: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[الشورى: ٢٠].

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضًا، وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب

(١) ٢٤٠ عدة الصابرين.

غيره، والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له، كحديث أبي هريرة ﷺ في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقارئ، الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو في صحيح مسلم(١).

وفي سنن النسائي: عن أبي أمامة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصًا، وابتغي به وجهه»(٢)، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر، لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس، فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

***

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(٣)إنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، وما كانوا يبصرون. ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم، من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصمَّ عن سماعه؛ فشبه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء وسمعه أصمُّ عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه، كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٨ رقم ٤٣٤٨) وفي الصغرى (رقم ٣١٤٠) وأبو داود (رقم ٢٥٣٥) وجوّد إسناده كل من الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٤) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٧٢) وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ١٦) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٥/ ٢٣١).

(٣) ١٥٤ الأعلام جـ١.

التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾.

***

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

(1)قال الزجاج: المعنى إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس عليَّ أن أطلع على ما في أنفسهم، فإذا رأيت من يوحد الله عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله... وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية: أن الله يعلم ما في أنفسهم، إذ أهَّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله، والله ﷻ عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه، وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه أهَّلهم للهدى والحق، وحرمه رؤساء الكفار، وأهل العزة والثروة منهم، كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة، فأخبر الله سبحانه: أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم ومحبته وشكره عليها، وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

***

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

---

(١) ١٧٠ المدارج جـ٣.

...(١)قال نبي الله هود صلى الله على نبينا وعليه وسلم، وقد خوفه قومه بآلهتهم وأوليائهم: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

أي مع كونه سبحانه آخذًا بنواصي خلقه، يُصرفهم كما يشاء، فهو على صراط مستقيم، لا يتصرف فيهم إلا بالعدل والحكمة، والإحسان والرحمة، فقوله: «ماضٍ فيَّ حكمك» مطابق لقول هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ثم توسل إلى ربه بأسمائه التي سمَّى بها نفسه: ما علم العباد منها وما لم يعلموا، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلا يطلع عليه ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلًا للمطلوب، ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان. وكذلك القرآن ربيع القلوب، وأن يجعله شفاء همه وغمه، فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبع والأصدئة، وغيرها، فأحْر بهذا العلاج ـ إذا صدق العليل في استعماله ـ أن يزيل عنه داءه، ويعقبه شفاء تامًّا، وصحة وعافية، والله الموفق.

(٢)قال هود لقومه: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقوله: «ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك»(٣).

---

(١) ٢٧٧ زاد المعاد جـ٣.

(٢) ٢٣ الفوائد.

(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي الموارد (رقم ٢٣٧٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٣٩) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وفي الدعاء (رقم ١٠٣٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان، وصححه الألباني في =

تضمن هذا الكلام أمرين: أحدهما: مضاء حكمه في عبده، والثاني يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنىٰ قول نبيه هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾، ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: مع كونه مالكًا قاهرًا متصرفًا في عباده نواصيهم بيده، فهو علىٰ صراط مستقيم،وهو العدل الذي يتصرف به فيهم، فهو علىٰ صراط مستقيم، في قوله وفعله، وقضائه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهىٰ عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وجعل المضاء للحكم، والعدل للقضاء، فإن حكمه ـ سبحانه ـ يتناول حكمه الديني الشرعي، وحكمه الكوني والقدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين، قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبىٰ، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه...

...[(١)]من أخفىٰ آيات الرسل آيات هود ﷺ حتىٰ قال له قومه: ﴿ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود: ٥٣] ومع هذا فبينته من أظهر البينات، وقد أشار إليها بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

فهذا من أعظم الآيات: أن رجلًا واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع ولا خوار، بل واثق مما قاله، جازم به، قد أشهد الله أولا علىٰ براءته من دينهم ومما هم عليه، إشهاد واثق به، معتمد عليه، معلم لقومه أنه وليه وناصره، وأنه غير مسلطهم عليه.

= السلسلة الصحيحة (رقم ١٩٩).

(١) ٤٦٤ مدارج جـ٣.

ثم أشهدهم ـ إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة ـ: أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، وفي ضمن ذلك أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك، وأنكم لو رمتموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذل من توكل عليه وآمن به، ولا يشمت به أعداءه، ولا يكون معهم، عليه فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب: أن من صراطه المستقيم: أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه، وينزل به بأسه، فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذي عليه الرب تعالى، ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم، وأنه يذهب بهم ويستخلف قوما غيرهم، ولا يضره ذلك شيئًا، وأنه القائم سبحانه على كل شيء: حفظًا ورعاية وتدبيرًا وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم، وهي شهادة من الله سبحانه لهم، بيّنها لعباده غاية البيان، وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»**[1] [2].

---

(١) هذا البحث من تفسير الشيخ لقول الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران: ١٨] وقد تقدم هناك بكامله (ج).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٨١) ومسلم (رقم ١٥٢) وانظر: فتح الباري (٩/٦) وشرح النووي
=

[(١)]إخباره سبحانه أنه على صراط مستقيم في موضعين من كتابه:

أحدهما: قوله حاكيًا عن نبيه هود: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

والثاني: قوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] قال أبو إسحاق: أخبر أنه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فهو لا يشاء إلا العدل.

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ كان في معنى: لا تخرج عن قبضته، قاهر بعظيم سلطانه كل دابة، فأتبع ذلك قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي أنه على الحق، قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا رجلًا حسن السيرة والعدل والإنصاف، قالوا: فلان طريقه حسنة، وليس ثم طريق.

وذكر في معنى الآية أقوال أخر هي من لوازم هذا المعنى وآثاره، كقول بعضهم: إن ربي يدل على صراط مستقيم، فدلالته على الصراط من موجبات كونه في نفسه على صراط مستقيم، فإن تلك الدلالة والتعريف من تمام رحمته وإحسانه وعدله وحكمته.

وقال بعضهم: معناه لا يخفى عليه شيء، ولا يعدل عنه هارب.

وقال بعضهم: المعنى لا مسلك لأحد ولا طريق له إلا عليه، كقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا المعنى حق، ولكن كونه هو المراد بالآية ليس بالبين، فإن الناس كلهم لا يسلكون الصراط المستقيم، حتى يقال: إنهم يصلون سلوكه إليه، ولما أراد سبحانه هذا المعنى قال: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [لقمان: ٢٣]، ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]

=

(١٨٦/٢).

(١) ٢٠٢ شفاء العليل.

وأما وصفه سبحانه بأنه على صراط مستقيم، فهو كونه يقول الحق: ويفعل الصواب، فكلماته صدق وعدل، كله صواب وخير، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، فلا يقول إلا ما يحمد عليه، لكونه حقًا وعدلًا وصدقًا وحكمة في نفسه، وهذا معروف في كلام العرب قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أميـــر المـــؤمنين علـــى صـــراط إذا اعـــوج المـــوارد مـــستقيم[(١)]

وإذا عرف هذا فمن ضرورة كونه على صراط مستقيم أنه لا يفعل شيئًا إلا بحكمة يحمد عليها، وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها، فلا تخرج أفعاله عن الحكمة و المصلحة والإحسان والرحمة و العدل والصواب، كما لا تخرج أقواله عن العدل والصدق.

[(٢)]قال هود عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء.

ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم وقال أبو إسحاق: أي هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء، فإنه لا يشاء إلا العدل.

وقال ابن الأنباري: لما قال: ﴿ هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ كان في معنى لا يخرج من قبضته، وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فأتبع قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف، قالوا: فلان على طريقة حسنة، وليس ثم طريق.

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى جرير أشعر أهل عصره، عاش عمره يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفًا ومن أغزل الناس شعرًا، مات سنة١١٠هـ. وذكر البيت كل من ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٧٣) وابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١٠٨) وابن منظور في اللسان (٣/ ٤٥٩) (٧/ ٣١٣).

(٢) ٨٧ شفاء العليل.

ثم ذكر وجها آخر فقال: لما ذكر أن سلطانه قد قهر كل دابة أتبع هذا قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي لا تخفى عليه مشيئته، ولا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم، وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤].

قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحدًا بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحدًا بجريرة أحد، ولا يكلف نفسًا ما لا تطيقه، فيكون من باب: (له الملك وله الحمد) ومن باب: (ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك) ومن باب: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف، وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المراد به التهديد والوعيد، وأن مصير العباد إليه وطريقهم عليه لا يفوته منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١] قال الفراء: يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم كقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] قال: وهذا كما تقول في الكلام طريقك عليَّ، وأنا على طريقك، لمن أوعدته، وكذلك قال الكلبي والكسائي، ومثل قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩] على إحد القولين في الآية.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه[(١)]. ﴿ وَمِنْهَا ﴾ أي: ومن السبيل ما هو ﴿ جَآئِرٌ ﴾ عن الحق ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، فأخبر عن عموم مشيئته، وأن طريق الحق عليه موصلة إليه، فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في

(١) ذكره البخاري في تفسير سورة الحجر (ص ٩٠٢) قبل حديث (رقم ٤٧٠١) معلقًا، بينما وصله الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣)، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٧٩) وفتح الباري (٨/ ٣٧٩) وعمدة القاري (١٩/ ٦).

خلقه بمكله وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤].

(١) ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ فأخبر عن عموم قدرته تعالى، وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته، وأنه آخذ بنواصيهم، فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم، ثم عقب ذلك بالأخبار عن تصرفه فيهم، وأنه بالعدل لا بالظلم، وبالإحسان لا بالإساءة، وبالصلاح لا بالفساد، فهو يأمرهم وينهاهم إحسانًا إليهم وحماية وصيانة لهم، ولا حاجة إليهم، ولا بخلا عليهم، بل جودًا وكرمًا ولطفًا وبرًّا، ويثيبهم إحسانًا وتفضلا ورحمة، لا لمعاوضة واستحقاق منهم، ودين واجب لهم، يستحقونه عليه، ويعاقبهم عدلًا وحكمة، لا تشفيًا ولا مخافة ولا ظلمًا، كما يعاقب الملوك وغيرهم، بل هو على الصراط المستقيم، وهو صراط العدل والإحسان في أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعته من عموم القدرة وكمال الملك، ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان، وما تضمنته من الرد على الطائفتين، فإنها من كنوز القرآن، ولقد كفت وشفت لمن فتح عليه بفهمها، فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظلمه للعباد، وتكليفه إياهم ما لا يطيقون، وينفي العيب من أفعاله وشرعه، ويثبت لها غاية الحكمة والسداد، ردا على منكري ذلك.

وكون كل دابة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها، ينبغي أن لا يقع في ملكه من أحد المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته، وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته، لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه، ولا يفعل إلا بأقداره، ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى، ردًّا على منكري ذلك من القدرية. فالطائفتان ما وفوا الآية معناها، ولا قدروها حق

---

(١) ٧٩ المفتاح جـ٢.

قدرها، فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه وهدايته وإضلاله، وفي نفعه وضره، وعافيته وبلائه وإغنائه وإفقاره، وإعزازه وإذلاله، وإنعامه وانتقامه، وثوابه وعقابه، وإحيائه وإماتته، وأمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، وفي كل ما يخلق، وكل ما يأمر به، وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم؟

...[1]والدين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي. وكلاهما لله وحده، فالدين كله أمرًا أو جزاءً لله، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه، لمنافاته لما يحبه ويرضاه، فهو يحب ضده، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه، ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضي، كما قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»[2]. وهذا الدين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس، وكذلك دينه الجزائي، فإنه يتضمن مجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه، ويحب من يحبها، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم، الذي هو عليه، فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالى: إخبارًا عن نبيه هود ﵇ إذ قال لقومه: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]. ولما علم نبي الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب في مواضعه، والعقوبة في موضعها اللائق

---

(١) ٢٨٠ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٠٩) والديباج على مسلم (١/ ٥١، ٥٩).

بها، ووضع التوفيق والخذلان، والعطاء والمنع، والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء، أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادئ على رؤوس الملإ من قومه بجنان ثابت، وقلب غير خائف، بل متجرد لله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الآية.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ما سواه وذل كل شيء لعظمته، فقال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا الأمر إلاّ من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟ ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، فكل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه، فلا أخاف ما دونه، فإن ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه، فإنه علي صراط مستقيم، وهو سبحانه ماض في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه، له الملك وله الحمد، لا يخرج في تصرفه في عباده عن العدل والفضل، إن أعطي وأكرم وهدي ووفق فبفضله ورحمته، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح: «**ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء همي وحزني، وذهاب همي وغمي، إلاّ أذهب الله همه وغمه، وأبدله فرحًا مكانه**»[1] وهذا يتناول حكم الرب الكوني، والأمر والقضاء الذي يكون باختيار العبد وبغير اختياره، وكلا الحكمين ماضٍ في عبده، وكلا القضائين عدل فيه. فهذا الحديث مشتق من هذه الآية، بينهما أقرب نسب. وبالله التوفيق.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

***

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

[1](فإن قلت): فإذا استوى ذكر التاء وتركها في الفعل المتقدم ـ وفاعله مؤنث غير حقيقي ـ فما الحكمة في اختصاصها في قصة شعيب بالفعل، وحذفها في قصة صالح ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧] قلت: الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخزي، إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [هود: ٦٦] فصارت الصيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية، فقوى التذكير.

بخلاف قصة شعيب، فإنه لم يذكر فيها ذلك. هذا جواب السهيلي. وعندي فيه جواب أحسن من هذا إن شاء الله، وهو أن الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح، فيحسن فيها التذكير، ويراد بها الواحدة من المصدر، فيكون التأنيث أحسن، وقد أخبر تعالى عن العذاب الذي أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور كلها مؤنثة اللفظ.

أحدها: الرجفة في قوله في الأعراف: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١].

الثاني: الظلة بقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

الثالث: الصحية: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٩٤]. وجمع لهم بين الثلاثة؛ فإن الرجفة بدأت بهم، فأصحروا إلى الفضاء خوفًا من سقوط الأبنية عليهم، فصهرتهم الشمس بحرها، ورفعت لهم الظلة فأهرعوا إليها، يستظلون بها من الشمس، فنزل عليهم منها العذاب، وفيه الصيحة، فكان ذكر الصيحة مع الرجفة

---

(١) ١٢٦ بدائع جـ١.

والظلة أحسن من ذكر الصياح، وكان ذكر التاء، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

[(١)]وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١]، وقال في الذاريات: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: ٢٨].

وقال في سورة الحجر: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥١-٥٦] وقال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٧]. قال: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، ولما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه، استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه.

ولما ولد النبي ﷺ بشرت به ثويبة أبا لهب وكان مولاها، وقالت: قد ولد الليلة لعبد الله ابن، فأعتقها أبو لهب سرورًا به، فلم يضيع الله ذلك له، وسقاه بعد موته في

(١) ١٤ تحفة المودود.

النقرة، التي في أصل إبهامه(١)، فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته، و الفرق بينهما أن البشارة إعلام له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به.

ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه(٢) ذهب إليه البشير، فبشره، فلما دخل المسجد جاء الناس فهنئوه، وكانت الجاهلية يقولون في تهنئتهم بالنكاح: بالرفاء والبنين(٣)، والرفاء الالتحام والاتفاق، أي تزوجت زواجًا يحصل به الاتفاق والالتحام بينكما والبنون، فيهنئون سلفًا وتعجيلًا، ولا ينبغي للرجل أن يهنئ بالابن ولا يهنئ بالبنت، بل يهنئ بهما أو يترك التهنئة بهما ليتخلص من سيئة الجاهلية؛ فإن كثيرًا منهم كانوا يهنئون بالابن وبوفاة البنت دون ولادتها، وقال أبو بكر بن المنذر في الأوسط: روينا عن الحسن البصري: أن رجلًا جاء إليه، وعنده رجل قد ولد له غلام، فقال له: يهنئك الفارس، فقال له الحسن: ما يدريك فارس هو أم حمار، قال: فكيف نقول؟ قال: قل بورك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ أشده ورزقت بره(٤)، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١٠١) وفيه: قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب؛ كان أبو لهب أعقتها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله بشرحيبة، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة، وعند البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ١٦٢ رقم ١٣٧٠١): «لم ألق بعدكم رخاء غير أني سقيت في هذه مني بعتاقتي ثويبة، وأشار إلىٰ النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع، وانظر: فتح الباري (٩/ ١٤٥-١٤٦) وعمدة القاري (٢٠/ ٩٣-٩٤).

(٢) حديث توبة كعب وصاحبيه تقدم تخريجه.

(٣) فعن الحسن أن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه تزوج امرأة من بني جشم، فدخل عليه القوم، فقالوا: بالرفاء والبنين، فقال: لا تفعلوا ذلك. قالوا: فما نقول يا أبا يزيد؟ قال: قولوا: بارك الله لكم وبارك عليكم. إنا كذلك كنا نؤمر. أخرجه أحمد (١/ ٢٠١) (٣/ ٤٥١) والبزار (٦/ ١١٩ رقم ٢١٧٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٠٢، ٦٦٢) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٣١ رقم ٥٥٦١) وفي الصغرىٰ (رقم ٣٣٧١) والدارمي (رقم ٢١٧٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ١٤٨ رقم ١٣٦٢٠) وابن ماجه (رقم ١٩٠٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ٢٧٩ رقم ٣٦٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٢١-٢٢٢) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه وفي صحيح سنن النسائي (رقم ٣٣٧١) وانظر: أيضًا آداب الزفاف للألباني (ص ١٠٣).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٩/ ٢٧٥-٢٧٦) وابن الجعد في مسنده (رقم ٣٣٩٨) =

(١)﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ و«الحنيذ» المشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة، وفي الترمذي عن أم سلمة «أنها قربت إلى رسول الله ﷺ جنبًا مشويًا، فأكل منه، ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ»(٢) قال الترمذي: حديث صحيح، وفيه أيضًا عن عبد الله بن الحارث قال: «أكلنا مع رسول الله ﷺ شواء في المسجد»(٣).

وفيه أيضًا: عن المغيرة بن شعبة قال: «ضِفْتُ مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فأمر بجنب فشُوِي، ثم أخذ الشَّفرة فجعل يجزُّ لي بها منه، قال: فجاء بلال يؤذن للصلاة، فألقى الشَّفرة، فقال: «ما له؟ تَرِبت يداه»(٤).

أنفع الشواء: شواء الضأن الحَوْلي، ثم العجل اللطيف السمين، وهو حار رطب إلى اليبوسة، كثير التوليد للسوداء، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء، والمرناضين، والمطبوخ أنفع، وأخف على المعدة، وأرطب منه، ومن المطَجَّن، وأردؤه: المشوي في الشمس، والمشوي على الجمر: خير من المشوي باللهب، وهو الحنيذ.

(٥)وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأمّا القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى

= وانظر: المغني (٩/ ٣٦٦) وميزان الاعتدال في نقد الرجال (٧/ ١٠٥).

(١) ٣٦١ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٨٢٩) والنسائي في الكبرى (١/ ١٠٦ رقم ١٨٩) وفي الصغرى (رقم ١٨٣) والبيهقي في الكبرى (١/ ١٥٤ رقم ٦٩٥) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٦٥) وعبد الرزاق (١/ ١٦٤ رقم ٦٣٨) وأحمد (٦/ ٣٠٧) وأبو يعلى (١٢/ ٤١٨ رقم ٦٩٨٥) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٨٦ رقم ٩٢٢) وصححه الترمذي وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٠، ١٩١) والترمذي في الشمائل المحمدية (رقم ١٦٦) وابن ماجه (رقم ٣٣١١) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٦٦) وأبو يعلى (٣/ ١١٠ رقم ١٥٤١) وفي المفاريد (رقم ٥٣) وضعفه في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩) وصححه الألباني في مختصر الشمائل (رقم ١٣٩).

(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل (رقم ١٦٧) وصححه الألباني في مختصر الشمائل (رقم ١٤٠).

(٥) ٢٨ زاد المعاد جـ١.

عن أهل الكِتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: «إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنَه بكره» وفي لفظ: «وحيده»، ولا يشكُّ أهلُ الكِتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده[١].

والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل علىٰ هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختاروه لأنفسهم دون العرب، ويأبىٰ الله إلا أن يجعل فضله لأهله[٢].

وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالىٰ قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالىٰ عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرىٰ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧٠-٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه.

ولا ريبَ أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فَتَنَاوُل البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهِر الكلام وسياقُه.

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان يعقوب مجروراً عطفاً علىٰ إسحاق، بل كانت القراءة ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق.

قيل: لا يمنع الرفعُ أن يكون يعقوبُ مبشراً به، لأن البشارةَ قول مخصوص، وهي أولُ خبر سارٍّ صادق. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية.

ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً علىٰ الحكاية بالقول، كأن المعنىٰ: وقلنا لها: من وراء إِسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرتُ فلاناً بِقُدوم أخيه

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٥٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢/ ١٤٩).

وَثَقَلِهِ في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا ممّا لا يستريبُ ذو فهم فيه البتة.

ثم يُضعف الجرَّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد وَمِنْ بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرِّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور.

ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٣-١١١].

ثم قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢]. فهذه بشارة من اللّه تعالى له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه.

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لما صبر الأب على ما أُمر به، وأَسلم الولد لأمر اللّه، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النُّبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدَّر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراجُ البِشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفَضْلَةِ، هذا مُحال من الكلام، بل إذا وقعت البِشارةُ على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكّة، ولذلك جُعلت القرابينُ يومَ النَّحر بها، كما جُعِل السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمِّه، وإقامةً لذكر اللّه، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللّذان كانا بمكّة دون إسحاق وأمه، ولهذا

اتصل مكانُ الذبح وزمانُه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحرُ بمكّة مِن تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكِتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام، لا بمكّة.

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه.

ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٩] وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته، وهي المبشَّرة به، وأمّا إسماعيل، فمن السُّرِّيَّةِ. وأيضاً فإنهما بُشِّرا به على الكِبرَ واليَأْسِ من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبلَ ذلك.

وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنَّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شُعْبَةٌ من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخُلة مَنْصِبٌ يقتضي توحيدَ المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد، جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَل المقصودُ، فَنُسِخَ الأمر، وَفُدي الذبيح، وَصدَّق الخليلُ الرؤيا، وحصل مراد الرب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت

جارية، فلما ولدت إسماعيل وأَحبَّه أبوه، اشتدت غيرة سارة، فأمر اللّه سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها، ويسكنها في أرض مكّة لتبرد عن سارة حرارةُ الغيرة، وهذا من رحمته تعالىٰ ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمتُه البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السُّرِّيَّةِ، فحينئذٍ يرق قلبُ السيدة عليها وعلىٰ ولدها، وتتبدل قسوةُ الغيرة رحمة، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُريَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها ـ علىٰ البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلىٰ ذبح الولد ـ آلت إلىٰ ما آلت إليه، من جَعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسكَ لعباده المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلىٰ يوم القيامة، وهذه سنته تعالىٰ فِيمَن يُريد رفعه مِن خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضعافه وذله وانكساره. قال تعالىٰ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص: ٥] وذلك فضل اللّه يُؤْتيه من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم.

(١) وهو ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة.

فجوابه: أن السلام إما مصدر محض، فهو شيء واحد فلا معنىٰ لجمعه، وإما اسم من أسماء الله، فيستحيل أيضًا جمعه، فعلىٰ التقديرين لا سبيل إلىٰ جمعه.

وأما الرحمة فمصدر أيضًا بمعنىٰ العطف والحنان، فلا تجمع أيضًا، والتاء فيها بمنزلتها في الخلة والمحبة والرقة ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرة، فكما لا يقال رقات ولا خلات ولا رأفات، لا يقال رحمات، وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد، وإفراده يشعر بالمسمىٰ مطلقًا من غير تحديد، فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنىٰ من الجمع، وهذا بديع جدًّا أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول

(١) ١٨٢ البدائع جـ٢.

الجمع، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أعم وأتم معنى من أن يقال: فلله الحجج البوالغ، وكان قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أتم معنى من أن يقال: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها، وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أتم معنى من أن يقال حسنات، وكذا قوله: ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١] ونظائره كثيرة جدًّا، وسنذكر سر هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما البركة فإنها لما كان مسماها كثرة الخير واستمراره شيئًا بعد شيء، كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر، فهو خير مستمر يتعاقب الأفراد على الدوام شيئًا بعد شيء، كان لفظ الجمع أولى بها، لدلالته على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] فأفرد الرحمة وجمع البركة، وكذلك في السلام في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

(١)واعلم أن الرحمة والبركة المضافتين إلى الله تعالى نوعان:

أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله.

والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: «**احتجت الجنة والنار**»، فذكر الحديث، وفيه: «**فقال للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء**»(٢). فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة، لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء. ومنه قوله ﷺ: «**خلق**

(١) ١٨٣ البدائع جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٠) ومسلم (رقم ٢٨٤٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣٦-٤٣٧).

الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض»[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩].

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديمًا وحديثًا، وهو قول الداعي: «اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك».

وذكره البخاري في كتاب الأدب المفرد له عن بعض السلف[2]، وحكى فيه الكراهة، قال: إن مستقر رحمته ذاته، وهذا بناء على أن الرحمة صفة، وليس مراد الداعي ذلك، بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة.

ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جدًّا، وهو أنه إذا كان المراد بالرحمة الجنة نفسها لم يحسن إضافة المستقر إليها، ولهذا لا يحسن أن يقال اجمعنا في مستقر جنتك، فإن الجنة نفسها هي دار القرار، وهي المستقر نفسه، كما قال: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦] فكيف يضاف المستقر إليها، والمستقر هو المكان الذي يستقر فيه الشيء، ولا يصح أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقر فيه الجنة، فتأمله، ولهذا قال: مستقر رحمته ذاته.

والصواب: أن هذا لا يمتنع، حتى ولو قال صريحًا: اجمعنا في مستقر جنتك لم يمتنع، وذلك أن المستقر أعم من أن يكون رحمة أو عذابا فإذا أضيف إلى أحد أنواعه أضيف إلى ما يبينه ويميزه من غيره، كأنه قيل: في المستقر الذي هو رحمتك، لا في المستقر الآخر.

ونظير هذا أن يقول: اجلس في مستقر المسجد أي: المستقر الذي هو المسجد، والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعة ولا مستكرهة.

وأيضًا فإن الجنة وإن سميت رحمة، لم يمتنع أن يسمى ما فيها من أنواع النعيم رحمة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٧٢) وعزاه إلى ابن أبي شيبة عن سلمان موقوفًا، وإلى ابن مردويه عن سلمان مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٦٨) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

ولا ريب أن مستقر ذلك النعيم هو الجنة، فالداعي يطلب أن يجمعه الله ومن يحب في المكان الذي تستقر فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة، وهذا ظاهر جدًّا، فلا يمتنع الدعاء بوجه، والله أعلم.

وهذا بخلاف قول الداعي: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)[(١)]؛ فإن الرحمة هنا صفته تبارك وتعالى، وهي متعلق الاستغاثة، فإنه لا يستغاث بمخلوق، ولهذا كان هذا الدعاء من أدعية الكرب، لما تضمنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين، متوسلا إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما مرجع معانيها جميعها، وهو اسم (الحي القيوم)، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلمو أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة، فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى وبكل صفة من صفاته فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإنالة الطلبات.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٠٠ رقم ٢٣١٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٧ رقم ١٠٤٠٥) والترمذي (رقم ٣٥٢٤) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٤٩ رقم ٢٩٢٥) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧٦ رقم ٧٦٠) والطبراني في الصغير (رقم ٤٤٤) وفي الدعاء (رقم ٨٨٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٨، ٣٣٧، ٥٧٠) والحاكم (١/ ٦٨٩ رقم ١٨٧٥) وصححه. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٧٧٧) وصححه في السلسلة الصحيحة (رقم ٢٢٧).

والمقصود أن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالىٰ لا شيء من مخلوقاته.

كما أن المستعيذ بعزته في قوله (أعوذ بعزتك) مستعيذ بعزته التي هي صفته، لا بعزته التي خلقها يعز بها عباده المؤمنين. وهذا كله يقرر قول أهل السنة إن قول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات»[1] يدل علىٰ أن كلماته تبارك وتعالىٰ غير مخلوقة، فإنه لا يستعاذ بمخلوق.

وأما قوله تعالىٰ حكاية عن ملائكته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وسعتها عموم تعلقها بكل شيء، كما أن سعة علمه تعالىٰ عموم تعلقه بكل معلوم.

(وأما البركة): فكذلك نوعان أيضًا:

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالىٰ، والفعل منها بارك، ويتعدىٰ بنفسه تارة وبأداة علىٰ تارة، وبأداة في تارة والمفعول منها: مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركا بجعله تعالىٰ.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالىٰ، كما أطلقها علىٰ نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨، ٢٧٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦) (١٢/ ٣٧١) وشرح النووي (١٧/ ٣١).

وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦٠] أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة: كتعالىٰ وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالىٰ، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك تعاظم[1].

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه.

وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلىٰ خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالىٰ عنه في صفاته وأفعاله. ومن هنا قيل: معناه تعالىٰ وتعاظم.

وقيل: تبارك تقدس، والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي.

وقيل: تبارك أي البركة، تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه تبارك وتعالىٰ.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١).

معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليا ولا قدوسا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه، فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى: ألقى البركة، وبارك في غيره، لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا، فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي، لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه، وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب (الفتح المكي)، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة، وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[1]. فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا، فيهبه حمدًا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له،

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١، ٥٩٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣).

وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا، وكذلك البركة، فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه، فيصير بذلك مباركًا: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله، وأقربهم إلى الله، وأعظمهم عنده جاهًا: «لا أحصي ثناء عليك: أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)]. وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخر ساجدًا لربي، فيفتح عليَّ من محامده بها لا أحسنه الآن»[(٢)] وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[(٣)]. فدل على أن لله ﷻ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق.

***

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (٤/ ٢٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦).
(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي الموارد (رقم ٢٣٧٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ١٩٩).

يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾.

(١) ذكر ابن أبي الدنيا بإسناد عن كعب قال: كان إبراهيم يشرف على سدوم فيقول: ويل لك سدوم يوما مالك فجاءت إبراهيم الرسل وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط، قالوا: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: ٧٦] قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧] فذهب بهم إلى منزله، فذهبت امرأته، فجاءه قومه يهرعون إليه، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أزوجكم بهن ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] وجعل لوط الأضياف في بيته، وقعد على باب البيت، وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] قال: أي: عشيرة تمنعني. قال: ولم يبعث نبي بعد لوط إلا في عز من قومه، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوط في سببهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا

(١) ٣٩٢ روضة المحبين.

يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] فخرج [عليهم] جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربة، طمست أعينهم، قال: والطمس أن تذهب حتى تستوي، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهل سماء الدنيا نبيح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل، قال على أهل بواديهم وعلى رعاتهم وعلى مسافريهم، فلم ينفلت منهم إنسان(١).

وقال مجاهد: نزل جبرل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فرفعها، حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب وأصوت الدجاج والديكة، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا بالحجارة(٢).

وفي تفسير أبي صالح: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أغلق لوط على ضيفه الباب، فخلعوا الباب ودخلوا، فطمس جبريل أعينهم فذهبت أبصارهم، فقالوا: يا لوط جئتنا بالسحرة؟ وتوعدوه، فأوجس في نفسه خيفة، قال: يذهب هؤلاء ونؤذى. فقالوا: لا تخف إنا رسل ربك، إن موعدهم الصبح، قال لوط: الساعة، قال جبريل: أليس الصبح بقريب؟ قال: فرفعت المدينة حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب، ثم أُقْلِبَتْ ورموا بالحجارة(٣).

وقال حذيفة بن اليمان: لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط لتهلكهم، قيل لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات وطريقهم على إبراهيم، قال فأتوا إبراهيم فبشروه بما بشروه ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٩٧) وتفسير السيوطي (٤/ ٤٤٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٥-٤٥٦).
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٠/ ٣٢٥).
(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي الدنيا في العقوبات. انظر: الدر المنثور (٤/ ٤٦١).

أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة، فأتوا لوطًا وهو في أرض يعمل فيها، فحسبهم ضيفًا، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله، فأتوا معه فالتفت إليهم، فقال: أما ترون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحد شر منهم قال: فانتهى بهم إلى أهله، فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه، فقالت: لقد تضيف لوطًا الليلة قومٌ ما رأيت قط أحسن وجوهًا، ولا أطيب ريحًا منهم، فأقبلوا يهرعون إليه حتى دفعوا الباب، ثم كادوا أن يقلبوه عليهم، فقام ملك بجناحه فصفقه دونهم، ثم أغلق الباب، ثم علوا الأجاجير، فجعل يخاطبهم، فقال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾، حتى بلغ ﴿ أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٧٨-٨١] فطمس جبريل أعينهم، فما بقي أحد منهم تلك الليلة حتى عمي، قال: فباتوا بشر ليلة عميا، ينتظرون العذاب، قال وسار بأهله، واستأذن جبريل عليه السلام في هلاكهم، فأذن له فارتفع بالأرض التي كانوا عليها، فألوى بها حتى سمع أهل السماء الدنيا ضغاء كلابهم، وأوقد تحتها نارًا، ثم قلبها بهم، قال: فسمعت امرأته الوجبة وهي معه فالتفتت، فأصابها العذاب(١).

(٢)قول لوط لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] يجمع أنواعًا من الاستعطاف:

أحدها: خطابهم بخطاب الناصح المشفق بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾، ولم يقل: يا هؤلاء.

الثاني: عرضه بناته عليهم بقوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾.

الثالث: تنجيز ذلك بالإشارة بلفظ الحضور.

الرابع: ترغيبه فيهن لطهارتهن وطيبهن.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٣١-٣٣٢ رقم ٣١٨٣٥) والطبري في تفسيره (١٢/ ٨١).

(٢) ٢٢٢ البدائع جـ٣.

الخامس: تذكيرهم بالله بقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

السادس: المطالبة بحفظ الذمام وترك الأذى بقوله: ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾.

السابع: التوبيخ الشديد بقوله: ﴿ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾.

[١] وأما الود فهو خالص الحب وألطفه وأرقه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهري: وَدِدت الرجل أوده وُدًّا: إذا أحببته، والوِدُّ والوُدُّ والوَدُّ: المودة، تقول: بودي أن يكون كذا[٢]، وأما قول الشاعر:

أيها العائد المسائل عنا ... وبوديك أن ترى أكفاني[٣]

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء، والودُّ الوديد بمعنى المودود، والجمع أودٌّ مثل قدحٍ وأقدح، وذئبٍ وأذؤب، وهما يتوادَّان وهم أوداء، والودود المحب، ورجالٌ ودداء، يستوي فيه المذكر والمؤنث، لكونه وصفًا داخلًا على وصف للمبالغة.

قلت: الودود من صفات الله ﷻ أصله من المودة.

واختلف فيه على قولين: فقيل: هو ودودٌ بمعنى وادٍّ: كضروبٍ بمعنى ضارب، وقتول بمعنى قاتلٍ، ونؤومٍ بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولًا في صفات الله ﷻ فاعل: كغفورٍ بمعنى غافر، وشكورٍ بمعنى شاكر، وصبورٍ بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الودود الحبيب[٤]، والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴾ [البروج: ١٤] وبالرحيم في قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ [هود: ٩٠]، وفيه سرٌّ لطيف، وهو أنه [يحب التوابين، وأنه] يحب عبده بعد المغفرة، فيغفر له ويحبه، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ

---

(١) ٥٢ روضة المحبين.

(٢) انظر: لسان العرب (٣/ ٤٥٤) والنهاية في غريب الحديث (٥/ ١٦٤) ومشارق الأنوار (٢/ ٢٨٢).

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٥٤).

(٤) ذكره البخاري في كتاب التفسير، باب سورة البروج (ص ٩٧٨) بعد حديث (رقم ٤٩٤٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٩) (١٣/ ٤٠٨) وعمدة القاري (١٩/ ٢٨٦-٢٨٧).

ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفُه.

...[1] قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨] وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه، وقد قيل:

يـا أيُّهـا الرجـلُ المعلـمُ غيـرَه ... هَـلَّا لنفسِكَ كـان ذا التعليـمُ؟

تـصفُ الـدواءَ لـذي السِّقام مـن الـضنىٰ ... ومـن الـضنىٰ تُمسِي وأَنـت سـقيمُ

لا تَنْـهَ عـن خُلُـق وتَـأتي مثلَـه ... عـارٌ عليـك إذا فعلـتَ ذمـيمُ[2]

ابـدأْ بنفسك فانْهَهَـا عـن غَيِّهَـا ... فـإذا انتهـتْ عنـه فأنـت حكـيمُ

فهنـاك يُقبَـلُ مـا تقـولُ ويُقْتَـدَىٰ ... بـالقول منـك وينفـعُ التعلـيمُ[3]

فالعمىٰ عن عيب الواعظ: من شروط تمام الانتفاع بموعظته.

وأما تذكر الوعد والوعيد: فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه. ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، وأصرح من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥] فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر. يستحيل حصوله بدونه.

---

(١) ٤٤٧ مدارج جـ١.

(٢) هذه الأبيات من بحر الكامل، وقد ذكر الأبيات الثلاثة الأولىٰ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٤/ ١٥٩) بينما ذكر البيتين الأوليين البيهقي في الشعب (٢/ ٣١٦ رقم ١٩٢٧).

(٣) الأبيات الثلاثة الأخيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (١/ ٣٦٧)، ونسبها إلىٰ أبي الأسود الدؤلي رحمه الله، وفيه: «عار عليك إذا فعلت عظيم» و«فهناك يقبل إن وعظت ويقتدىٰ» وتنسب هذه الأبيات إلىٰ المتوكل الليثي المتوفىٰ سنة ٨٥هـ وهو من شعراء الحماسة، وله مساجلات مع الأخطل، شهد معاوية وابنه يزيد ومدحه.

***

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

(١)من كملت عظمة الحق تعالىٰ في قلبه عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من دونه، ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلىٰ مولاها الحق في كل لحظة وَنَفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس.

وأيضًا فإذا عرف حقارتها ـ مع عظم قدر من خالفه ـ عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية، التي تلحق به.

ومدار السعادة وقطب رحاها: علىٰ التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابًا لا يرجىٰ معه فلاح البتة. والله تعالىٰ أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد، وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات، دون من عداهم، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، وأخبر تعالىٰ أن أهل النجاة في الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤].

(٢)لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود:

---

(١) ١٤٥ مدارج جـ١.
(٢) ١٣٠ فوائد.

١٠٣]، فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية، وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات[(١)]. ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر. فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكورًا، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيمانًا.

[(٢)]وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين.

«قلت»: ههنا أقوال سبعة:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبدًا؛ بل كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة، ثم تنقلب عليهم، وتبقى طبيعة نارية لهم، يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي. قال في فصوصه: الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات، فيثنى عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد، بل بالتجاوز ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٧] لم يقل: وعيده؛ بل قال: ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [الأحقاف: ١٦] مع أنه توعد على ذلك، وأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق

(١) هكذا الأصل ولعل في الكلام سقطًا تقديره «لأن الإيمان» إلخ وبه ينتظم الكلام.
(٢) ٢٥٤ حادي الأرواح.

الوعد، وقد زال الإمكان في حق الحق، لما فيه من طلب المرجح[(١)]:

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده ... وما لوعيد الحق عين تعاين
وأن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد والأمر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صاين[(٢)]

وهذا في طرف، والمعتزلة الذين يقولون: لا يجوز على الله أن يخلف وعيده، بل يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب في طرف. فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلًا، وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلًا، والفريقان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به، وأخبر به عن الله ﷻ.

الثالث: قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي، فأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤].

فهذا القول إنما هو قول أعداء الله اليهود، فهم شيوخ أربابه والقائلين به، وقد دل القران والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده.

قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا

---

(١) ذكر المناوي في فيض القدير (١/ ٣٩) كلام ابن عربي.
(٢) ذكر الأبيات الأربعة المناوي في فيض القدير (١/ ٣٩).

بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة.

الرابع: قول من يقول يخرجون منها وتبقى نارًا على حالها، ليس فيها أحد يعذب، حكاه شيخ الإسلام والقرآن والسنة أيضًا يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها؛ لأنها حادثة بعد أن لم تكن، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم، ويصيرون جمادًا لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة، طردًا لامتناع حوادث لا نهاية لها، والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

السابع: قول من يقول: بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه، ثم تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد وهو من أجل أئمة الحديث في تفسيره المشهور: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن قال: قال عمر: «**لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه**».

وقال: حدثنا حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن: أن عمر ابن الخطاب قال: «لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون

فيه»[١]. ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]، فقد رواه عبد وهو من الأئمة الحفاظ وعلماء السنة عن هذين الجليلين سليمان بن حرب وحجاج بن منهال، وكلاهما عن حماد بن سلمة وحسبك به وحماد يرويه عن ثابت وحميد، وكلاهما يرويه عن الحسن، وحسبك بهذا الإسناد جلالة، والحسن وإن لم يسمع من عمر، فإنما رواه عن بعض التابعين، ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به، وقال عمر بن الخطاب: ولو قدر أنه لم يحفظ عن عمر فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين له بالإنكار، والرد مع أنهم ينكرون على من خالف السنة بدون هذا، فلو كان هذا القول عند هؤلاء الأئمة من البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأئمة لكانوا أول منكر له.

قال: ولا ريب أن من قال هذا القول عن عمر ونقله عنه، إنما أراد بذلك جنس أهل النار، الذين هم أهلها، فأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علم هؤلاء وغيرهم: أنهم يخرجون منها، وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريبًا منه، ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين، بل يختص بمن عداهم، كما قال النبي ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون»**[٢].

ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٧] وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق، الذي لا يقع خلافه، لكن إذا انقضى أجلها وفنيت تفنى الدنيا لم تبق نارًا، ولم يبق فيها عذاب.

قال أرباب هذا القول: وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٧٨) وعزاه إلى ابن المنذر. وقال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٢٢): وهو منقطع، بينما قال المناوي في فيض القدير (١/ ٤٠): رجاله ثقات.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ٣٧).

١٦٨] قال: لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارًا[1].

قالوا: وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصا بأهل القبلة، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٨، ١٢٩] وأولياء الجن من الإنس يدخل فيه الكفار قطعا فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ [النساء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

***

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

[2]الطبقة التاسعة: طبقة أهل النجاة، وهي طبقة من يؤدي فرائض الله، ويترك محارم الله، مقتصراً على ذلك، لا يزيد عليه ولا ينقص منه. فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه، ولا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٣٤) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٥٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٧٧).
(٢) ٣٨٠ طريق الهجرتين.

يزيد على ما فرض عليه. هذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ لمن أخبره بشرائع الإسلام، فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ؛ فقال ﷺ: «أفلح إن صدق»[١]، وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه. قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة، مكفرات لما بينهن ما لم تغش كبيرة»[٢]، فإن غشي أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحاً لم يخرجوا من طبقتهم، وكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما: الحسنات الماحية. والثاني: اجتناب الكبائر. وقد نص عليها ﷻ في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١].

(الطبقة العاشرة): طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاءِ ناجون من عذاب الله: إما قطعًا عند قوم، وإما ظنًّا ورجاء عند آخرين، وهم موكولون إلى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد.

فإن قيل: فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها؟ فإن الله إذا كفر عنهم سيئاتهم، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح؟

قيل: قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية، فعليك بمعاودته هناك.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦) ومسلم (رقم ١١) وانظر: الفتح (١/ ١٠٧-١٠٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣) وانظر: الفتح (٤/ ١١١) وشرح النووي (٣/ ١١٣، ١١٨).

وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغش كبيرة، ومن لم يدع كبيرة إلا ارتكبها، وفرط في أوامره، ثم تاب؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته ويكون لا له ولا عليه. وأما أن يكون هو ومن قبله سواءً أو أرجح منه فكلا.

...[1] وجاءته ﷺ الغامدية، فقالت: إني قد زينت فطَهِّرني، وإنه ردها، فقالت: تردني كما ردَدت ماعزًا، فوالله إني لحبلى، فقال: «اذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، فقالت: هذا قد ولدته، فقال: «اذْهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتته به، وفي يده كسرة من خبز؛ فقالت: هذا قد فطمته وأكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فنضح الدم على وجهه، فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال: «مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابَهَا صاحب مكس لغفر له» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[2]، ذكره مسلم.

وجاءه ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقمه عليّ، ولم يسأله عنه، وحضرت الصلاة، فصلى مع النبي ﷺ، فقام إليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدًّا فأقم فيَّ كتاب الله، قال: «أليس قد صليت معنا»؟ قال: نعم، قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك ـ أو قال حَدَّك ـ»[3] متفق عليه.

وقد اختلف في وجه هذا الحديث؛ فقال طائفة: أقر بحد لم يسمه فلم يجب على الإمام استفساره، ولو سماه لحده كما حد ماعزًا، وقالت طائفة: بل غفر الله له بتوبته، «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[4]، وعلى هذا فمن تاب من الذنب قبل القدرة

(١) ٣٧٠ الأعلام جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٦٩٥) وانظر: شرح النووي (١١/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٢٣) ومسلم (رقم ٢٧٦٤) وانظر: الفتح (١٢/ ١٣٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٤٨) وفي الشعب (٥/ ٤٣٦ رقم ٧١٧٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٠ رقم ١٠٢٨١) وفي الدعاء (رقم ١٨٠٧) والقضاعي في =

عليه سقطت عنه حقوق الله تعالى، كما تسقط عن المحارب، وهذا هو الصواب.

وسأله ﷺ رجل فقال: أصبت من امرأته قبلة، فنزلت ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: «بل لمن عمل بها من أمتي»(١) متفق عليه.

وقد استدل به من يرى أن التعزير ليس بواجب، وأن للإمام إسقاطه، ولا دليل فيه، فتأمله.

(٢)وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها، فليس يأتي الرجل من امرأته شيء إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤] فقال له النبي ﷺ: «توضأ ثم صلِّ» فقال معاذ: فقلت يا رسول الله أله خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة»(٣).

***

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

= مسند الشهاب (١/ ٩٧ رقم ١٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٤٨ رقم ٤٧٥٨): ورواه الطبراني رواة الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٧١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٨٧) ومسلم (رقم ٢٧٦٨) وانظر: الفتح (٨/ ٣٥٧).

(٢) ٢٧٨ الأعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣١١٣) والحاكم (١/ ٢٢٩ رقم ٤٧١) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٦ رقم ٢٧٧) وأحمد (٥/ ٢٤٤) وعبد بن حميد (رقم ١١٠) وانظر: عمدة القاري (٥/ ١١).

[(١)]استشهاده بهذه الآية في هذا الباب: يدل على رسوخه في العلم والمعرفة، وفهم القرآن؛ فإن الغرباء في العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا. وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن زهير، عن عمرو بن أبي عمرو ـ مولى المطلب بن حَنْطَب ـ عن المطلب بن حنطب، عن النبي ﷺ: «**طوبى للغرباء**»، قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟: قال: «**الذين يزيدون إذا نقص الناس**»[(٣)].

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظًا ـ لم ينقلب على الراوي لفظه، وهو: «**الذين ينقصون إذا زاد الناس**»[(٤)] ـ فمعناه: الذين يزيدون خيرًا وإيمانًا وتُقىً إذا نقص الناس من ذلك، والله أعلم.

وفي حديث الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**النزاع من القبائل**»[(٥)] وفي حديث عبدالله بن

---

(١) ١٩٤ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم مختصرًا على شطره الأول (رقم ١٤٥). وأخرجه أحمد بلفظ المصنف (٤/ ٧٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٣٩ رقم ١٠٥٥) والديلمي في الفردوس (٢/ ٢٩-٣٠ رقم ٢١٨٥) وتمام في فوائده (٢/ ١٤-١٥ رقم ١٠٠٠) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٠٥٦) وفي الصغير (رقم ٢٩٠) وفي الكبير (٨/ ١٥٢ رقم ٧٦٥٩) وهناد في الزهد (٢/ ٥٨٦-٥٨٧ رقم ١٢٤٥) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٤ رقم ١٩٩) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٨): رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة وانظر: فتح الباري (٧/ ٧).

(٣) لم أجد هذا اللفظ.

(٤) لم أجد هذا اللفظ.

(٥) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٩٨٨) وأحمد (١/ ٣٩٨) والبزار (٥/ ٤٣٣ رقم ٢٠٦٩) وأبو يعلى (٨/ ٣٨٨ رقم ٤٩٧٥) والدارمي (رقم ٢٧٥٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٣ رقم ٣٤٣٦٦) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٧ رقم ٢٠٦) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٣) وانظر: شرح النووي =

عمرو قال: قال النبي ﷺ ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[1].

وقال أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عثمان بن عبد الله عن سليمان بن هرمز، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**إن أحب شيء إلى الله الغرباء**» قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرارون بدينهم، يجتمعون إلى عيسى ابن مريم** عليه السلام **يوم القيامة**»[2].

وفي حديث آخر: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**» قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذي يحيون سنتي، ويعلمونها الناس**»[3].

وقال نافع عن مالك: «دخل عمر بن الخطاب المسجد، فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكي، فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكن حديثًا حدثنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد. فقال: ما هو؟ قال: «**إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل**

(٢/ ١٧٧) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٧) وفيض القدير (٢/ ٣٢٢).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧، ٢٢٢) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٣) وفي الزهد (رقم ٧٧٥) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٦ رقم ٢٠٣) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٠٠) والطبراني في الأوسط (٩/ ١٤ رقم ٨٩٨٦) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٦٤ رقم ٤٨١٨): وأحد إسنادي الطبراني رواته رواة الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٩): وله في الكبير أسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٤٩) والآجري في الغرباء (رقم ٣٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٦ رقم ٢٠٤) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ١٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥) وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٢/ ٤٣٠ رقم ١٦٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٩).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٣٨ رقم ١٠٥٢) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٧ رقم ٢٠٥) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٣) وانظر: مفتاح الجنة للسيوطي (ص ٦٧).

فتنة عمياء مظلمة»[(١)].

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون ولقلتهم في الناس جدًّا سموا «غرباء»، فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة ـ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا، فلا غربة عليهم، وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم، كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت دياره ... ولكن من تنأين عنه غريب[(٢)]

ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: «يا رب وحيد مريض غريب، فقيل له: يا موسى، الوحيد من ليس له مثلي أنيس، والمريض من ليس له مثلي طبيب، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة».

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق، وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه بدأ غريبًا، وأنه

---

(١) أخرجه الآجري في الغرباء (رقم ٣٨) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٣ رقم ٣٢١) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣١) وتأويل مختلف الحديث (ص ٢٩٨) وحلية الأولياء (٣/ ٢٤٨) وتاريخ مدينة دمشق (٢٢/ ٤٤).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى مجنون ليلى المتوفى ٦٨هـ وإلى الأحوص الأنصاري: عبد الله ابن محمد بن عبد الله، الشاعر الإسلامي الأموي من طبقة جميل عبد الله بن عبيد الله بن أحمد من أرق الناس شعرًا مات سنة ١٣٠هـ. وذكر البيت ابن الجوزي في المنتظم (٦/ ١٢٩) ونسبه إلى (مجنون ليلى) قيس بن الملوح، وفيه صدر البيت: فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى.

سيعود غريبًا كما بدأ، وأن أهله يصيرون غرباء.

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا، فإنهم لم يأووا إلىٰ غير الله، ولم ينتسبوا إلىٰ غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلىٰ غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم، فيقال لهم: **«ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده»**[١].

فهذه «الغربة» لا وحشة علىٰ صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال عن الله تعالىٰ: «**إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاته، أحسن عبادة ربه، وكان رزقه كفافًا، وكان مع ذلك غامضًا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وصبر علىٰ ذلك حتىٰ لقي الله، ثم حلت منيته، وقل تراثه، وقلت بواكيه**»[٢] ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم علىٰ الله لأبره**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٨١) ومسلم (رقم ١٨٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥٠) وشرح النووي (٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٤٧) والحميدي في مسنده (٢/ ٤٠٤ رقم ٩٠٩) وأحمد (٥/ ٢٥٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٣ رقم ١٠٣٥٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٩٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٣ رقم ٧٨٦٠) والديلمي في الفردوس (٣/ ١٧٠ رقم ٤٤٥٣) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ١٣) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥).

(٣) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٦٢٢) والضياء في المختارة (٥/ ٢٥٤ رقم ١٨٨٢) والحاكم =

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**كل ضعيف أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم علىٰ الله لأبره**»[١] وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال، وله حال، الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب[٢].

ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلىٰ أحد غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلىٰ الله بالعبودية له وحده، وإلىٰ رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون علىٰ الجمر حقًّا، وأكثر الناس ـ بل كلهم ـ لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنىٰ قول النبي ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**»[٣] أن الله سبحانه بعث رسوله وأهل

(٤/ ٣٦٤ رقم ٧٩٣٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٣١ رقم ١٠٤٨٢) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦٤ رقم ٨٦١) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٧٣ رقم ٤٨٥٠): رواه الطبراني في الأوسط ورواته رواة الصحيح، وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٧٤).

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٣٣٣ رقم ١٠٤٨٨) والآجري في الغرباء (رقم ٢٩) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٤ رقم ١٥٩) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٠٥ رقم ١١٩٢) وانظر: فيض القدير (٣/ ١٠٠).

(٢) أخرجه أحمد مختصرًا في الزهد (ص ٢٦٢) والآجري في الغرباء (رقم ٧) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ١٧٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٩٨٨) والدارمي (رقم ٢٧٥٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٣ رقم ٣٤٣٦٦) وأحمد (١/ ٣٩٨) وأبو يعلىٰ (٨/ ٣٨٨ رقم ٤٩٧٥) والبزار (٥/ ٤٣٣ رقم ٢٠٦٩) والآجري في الغرباء (رقم ٢) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٧ رقم ٢٠٦) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٢٣) وانظر: شرح النووي (٢/ ١٧٧).

الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا، وكان من أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريبا في حيه وقبيلته وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم، تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم ودخلوا في الإسلام فكانوا هم الغرباء حقا، حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجا، فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريبا كما بدأ، بل الإسلام الحق ـ الذي كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه ـ هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًّا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول، فإن نفس ما جاء به: يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع، التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبا بين هؤلاء، الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: «**مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم: شحًّا مطاعًا، وهوىً متبعًا ودنيًا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرًا لا يَدَ لك به، فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامهم، فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر**»[١].

ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت إذا تمسك بدينه أجر خمسين من الصحابة.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ١٠٨-١٠٩ رقم ٣٨٥) وفي الموارد (رقم ١٨٥٠) وأبو داود (رقم ٤٣٤١) وابن ماجه (رقم ٤٠١٤) والترمذي (رقم ٣٠٥٨) وحسنه.

ففي سنن أبي داود والترمذي ـ من حديث أبي ثعلبة الخشني ـ قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:ك ١٠٥] فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت: شحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيًا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإن من وراءكم أيام الصبر فيهن مثل قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا، يعملون مثل عمله» قلت: يا رسول الله ﷺ أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم»[(١)]. وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم، فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقها في سنة رسوله، وفهما في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ.

فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعدا ولا معينا، فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء

---

(١) انظر ما قبله.

والبدع، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.

النوع الثاني من الغربة: غربة مذمومة: وهي غربة أهل الباطل، وأهل الفجور بين أهل الحق. فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها، فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهل وحشة على كثرة مؤنسهم، يُعرفون في أهل الأرض، ويخفون على أهل السماء.

النوع الثالث: غربة مشتركة لا تحمد ولا تذم، وهي الغربة عن الوطن، فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء، فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها: وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1]. وهكذا هو نفس الأمر؛ لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه، ويعرفه حق المعرفة. ولي من أبيات في هذا المعنى:

وحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه ليس ينعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة ... من العمر إلا بعد ما يتألم[2]

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبا وهو على جناح سفر، لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور، فهو مسافر في صورة قاعد، وقد قيل:

وما هذه الأيام إلا مراحل ... يحث بها داع إلى الموت قاصد

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٣- ٢٣٤).

(٢) ذكر الأبيات الأربعة الأولى ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٩-٣٨١) مع اختلاف يسير ـ ونسبها لبعض شيوخه ـ وهذه الأبيات للمصنف ابن قيم الجوزية رحمه الله كما نص عليها هنا، وانظر: القصيدة كلها في كتاب حادي الأرواح (ص ٣٢) وذكر البيتين الأولين في إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (ص ٩٢).

وأعجب شيء لو تأملت أنها منازل تطوى والمسافر قاعد[(١)]

[(٢)]وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] وفي الآية قولان: أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم، وهم مصلحون الآن، أي إنهم بعد أن أصلحوا، وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالمًا لهم في إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون! وإنما أهلكهم وهم ظالمون، فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم، والقولان في آية الأنعام أيضًا ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

قيل: لم يكن مهلكهم بظلمهم وشركهم وهم غافلون، لم ينذروا ولم يأتهم رسول.

وقيل: لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول، فيكون قد ظلمهم؛ فإنه سبحانه لا يأخذ أحدًا ولا يعاقبه إلا بذنبه، وإنما يكون مذنبًا إذا خالف أمره ونهيه. وذلك إنما يعلم بالرسل.

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب، علم أن الله سبحانه قدره سببًا مقتضيًا لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة سببًا مقتضيًا للثواب. وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر، كجعل السم سببًا للموت، والنار سببًا للإحراق، والماء سببًا للإغراق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين



(١) ذكر البيتين ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٣).

(٢) ٢١٧ مدارج جـ١.

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

(1) أصل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق، ويقال: دلَّى الشيء في مهواة؛ إذا أرسله بتعليق، وتدلى الشيء بنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ [يوسف: ١٩] قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها في البئر، ودلاها بالتخفيف، إذ نزعها من البئر، فأدلى دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوًا، إذا نزعها وأخرجها، ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الدلالة، وهي التوصل إلى الشيء، بإبانته وكشفه، ومنه الدل، وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبدالله بن مسعود يُشَبَّه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته(2)، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدل ما يدل من ظاهره على باطنه، والسمت هيأته ووقاره ورزانته.

***

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(3) عشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه،

---

(١) ١١٥ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦١ رقم ٥٣٩٦) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٥ رقم ٣٢٢٤٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ١٨٨ رقم ٢٤١) وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٨٥) (١٣/ ٢١٦) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٩٢) وتاريخ بغداد (٩/ ٥٨) وتاريخ مدينة دمشق (٢٢/ ١٩٨-١٩٩) والطبقات الكبرى (٣/ ١٥٤) (٦/ ٨٦) وصفة الصفوة (١/ ٣٩٥) (٣/ ٢٧).

(٣) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله، والشوق إلى لقائه،: دفع ذلك عنه مرض عشق الصور، ولهذا قال تعالى في حق يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء، التي هي ثمرته ونتيجته فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ، يعني فارغًا مما سوى معشوقه، قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ [القصص: ١٠] أي فارغًا من كل شيء، إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

والعشق مركب من أمرين: استحسان المعشوق، والطمع في الوصول إليه، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء.

وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب.

فنقول: قد استقرت حكمة الله ﷻ في خلقه وأمره على وقوع التناسب، والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع، فسر التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي: إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسر التباين والانفصال إنما هو لعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر(١).

(٢)قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء، فانصرف عنه السوء والفحشاء.

وهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص؛ استثناهم من شرطته التي

---

(١) تقدم في آخر الأعراف بقية لهذا البحث (ج).

(٢) ٧٢ مفتاح جـ١.

اشترطها للغواية والإهلاك، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان.

(١) ودواء هذا الداء القتَّال؛ أن يعرف: أن ما ابتلي به من الداء المضاد للتوحيد أولًا. ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلىٰ الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما تمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوىٰ   فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا(٢)

وليعلم العاقل أن العقل والشرع؛ قد يوجبان: تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرىٰ فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية

(١) ٢٨٧ الجواب الكافي.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ مجنون ليلىٰ: قيس بن الملوح العامري لقب بالمجنون لهيامه في حب ليلىٰ بنت سعد توفي سنة ٦٨هـ وينسب أيضًا إلىٰ يزيد بن الطثرية شاعر أموي كان له شرف وقدر وكان له شعر حسن، مات سنة ١٢٦هـ. وينسب أيضًا إلىٰ ديك الجن الحمصي من شعراء العصر العباسي، كان فيه مجون توفي سنة ٢٣٥هـ. وينسب أيضًا إلىٰ داود بن عيسىٰ الأيوبي المتوفىٰ سنة ٦٥٦هـ.وقد ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٠٩).

والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه: أحدها: الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا؛ إلا ويقهر أحدهما صاحبه، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به ولابد، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيًا في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاق(١)

والعشق وإن استلذ به صاحبه، فهو من أعظم عذاب القلب.

والثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه...

***

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

---

(١) هذه الأبيات من بحر الوافر، وتنسب إلى نصيب بن رباح شاعر فحل، مقدم في النسب والمدائح، تنسك في أواخر عمره، مات ١٠٨هـ. وتنسب أيضًا إلى ابن دريد الأزدي محمد بن الحسن بن دريد من أئمة اللغة والأدب، كان يقال عنه: أشعر العلماء وأعلم الشعراء. من تصانيفه: الاشتقاق والمقصور والممدود والجمهرة وأدب الكاتب توفي سنة ٣٢١هـ. وذكر البيتين الأخيرين ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ٦٩) ونسبهما إلى الشبلي. وذكر الأبيات الأربعة الزجاجي في الأمالي (ص ٥١).

[1]سئل أبو الوفاء بن عقيل عن هذه المسألة[2]؟ فقال: ليس ذلك حكمًا بالفراسة، بل هو حكم بالأمارات، وإذا تأملتم الشرع وجدتموه يجوِّز التعويل على ذلك. ومال أصحاب مالك رحمه الله إلى التوصل بالإقرار بما يراه الحاكم؛ وذلك مستند إلى قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]، ولذا حكمنا بعقد الأزج، وكثرة الخشب في الحائط، ومعاقد القمط الخص، وما يخص المرأة والرجل في الدعاوى، وفي مسألة العطار والدباغ إذا اختصما في الجلد، والنجار والخياط إذا تنازعا في المنشار والقدوم، والطباخ والخباز إذا تنازعا في القدر، ونحو ذلك، فهل ذلك إلا اعتماد على الأمارات؟

وكذلك الحكم في التأمل والنظر في أمر الخنثى، والأمارات على أحد حاليه، والنظر في أمارات جهة القبلة، واللوث في القسامة. انتهى.

والحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال، ومعرفة شواهده، وفي القرائن الحالية والمقالية، كفقهه في جزئيات وكليات الأحكام: أضاع حقوقًا كثيرة على أصحابها، وحكم بما يعلم الناس بطلانه، ولا يشكون فيه، اعتمادًا منه على نوع ظاهر، لم يلتفت إلى باطنه وقرائن أحواله.

فههنا نوعان من الفقه، لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز به بين الصادق والكاذب، والمحق والمبطل، ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفًا للواقع.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالاتها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل، الذي يفصل بين الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح: تبين له أن السياسة العادلة جزء من

---

(١) ٤ الطرق الحكمية.

(٢) أي الحكم بالفراسة والقرائن التي يظهر فيها الحق (ج).

أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها وحسن فهمه فيها: لم يحتج معها إلىٰ سياسة غيرها البتة.

فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

ولا تنس في هذا الموضوع قول نبي الله سليمان ﷺ للمرأتين اللتين ادعتا الولد،ن فحكم به داود ﷺ للكبر ىٰ، فقال سليمان: «ائتوني بالسكين أشقه بينكما» فسمحت الكبرىٰ بذلك، وقالت الصغرىٰ: «لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها» فقضىٰ به للصغرىٰ[1]، فأي شيء أحسن من اعتبار هذه القرينة الظاهرة؟

فاستدل برضا الكبرىٰ بذلك، وأنها قصدت الاسترواح إلىٰ التأسي بمساواة الصغرىٰ في فقد ولدها وشفقة الصغرىٰ عليه، وامتناعها من الرضا بذلك: دل علىٰ أنها أمه، وأن الحامل لها علىٰ الامتناع من الدعوىٰ: ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله في قلب الأم، فاتضحت وقويت هذه القرينة عنده، حتىٰ قدمها علىٰ إقرارها، فإنه حكم به لها مع قولها: «هو ابنها» وهذا هو الحق.

فإن الإقرار إذا كان لعلة اطلع عليها الحاكم لم يلتفت إليه أبدًا، ولذلك ألغينا إقرار المريض مرض الموت بمال لوارثه، لانعقاد سبب التهمة، واعتمادًا علىٰ قرينة الحال في قصده تخصيصه.

ومن تراجم قضاة السنة والحديث علىٰ هذا الحديث: ترجمة أبي عبد الرحمن النسائي في سننه قال: «التوسعة للحاكم في أن يقول للشيء الذي لا يفعله أفعل كذا ليستبين به الحق»[2].

ثم ترجم عليه ترجمة أخرىٰ أحسن من هذه فقال: «الحكم بخلاف ما يعترف به

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٢٧) ومسلم (رقم ١٧٢٠) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٨-١٩).
(٢) السنن الكبرىٰ للنسائي (٣/ ٤٧٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٥٦).

المحكوم عليه إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به»[١]. فهكذا يكون الفهم عن الله ورسوله.

ثم ترجم عليه ترجمة أخرىٰ، فقال: «نقض الحاكم ما حكم به غيره، ممن هو مثله، أو أجل منه»[٢] فهذه ثلاث قواعد.

ورابعة: وهي ما نحن فيه، وهي الحكم بالقرائن وشواهد الحال.

وخامسة: وهي أنه لم يجعل الولد لهما، كما يقوله أبو حنيفة.

فهذه خمس سنن في هذا الحديث.

ومن ذلك: قول الشاهد الذي ذكر الله شهادته ولم ينكر عليه ولم يعبه، بل حكاها مقررًا لها، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥، ٢٨] فتوصل بقدِّ القميص إلىٰ معرفة الصادق منهما من الكاذب، وهذا لوث في أحد المتنازعين، يبين به أولاهما بالحق.

وقد ذكر الله سبحانه اللوث في دعوىٰ المال في قصة شهادة أهل الذمة علىٰ المسلمين في الوصية في السفر، وأمر بالحكم بموجبه، وحكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة، وجوَّز للمدعين أن يحلفوا خمسين يمينا ويستحقون دم القتيل، فهذا لوث في الدماء، والذي في سورة المائدة لوث في الأموال، والذي في سورة يوسف لوث في الدعوىٰ في العرض، ونحوه.

---

(١) السنن الكبرىٰ للنسائي (٣/ ٤٧٣).

(٢) السنن الكبرىٰ (٣/ ٤٧٣) وفي السنن الصغرىٰ (المجتبىٰ) (٨/ ٢٣٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٥٦).

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والصحابة معه ﷺ برجم المرأة التي ظهر بها الحبل ولا زوج لها ولا سيد، وذهب إليه مالك وأحمد ـ في أصح روايتيه ـ اعتمادًا على القرينة الظاهرة[1].

وحكم عمر وابن مسعود رضي الله عنهما ـ ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة ـ بوجوب الحد برائحة الخمر من فيِّ الرجل أو قيئه خمرًا، اعتمادًا على القرينة الظاهرة.

ولم تزل الأئمة والخلفاء يحكمون بالقطع إذا وجد المال المسروق مع المتهم وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار، فإنهما خبران يتطرق إليهما الصدق والكذب ووجود المال معه نص صريح لا يتطرق إليه شبهة، وهل يشك أحد رأى قتيلا يتشحط في دمه، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله، ولاسيما إذا عرف بعداوته، ولهذا جوز جمهور العلماء لولي القتيل أن يحلف خمسين يمينًا: أن ذلك الرجل قتله. ثم قال مالك وأحمد: يقتل به، وقال الشافعي: يقضى عليه بديته[2].

وكذلك إذا رأينا رجلًا مكشوف الرأس ـ وليس ذلك عادته ـ وآخر هاربًا قدامه بيده عمامة وعلى رأسه عمامة، حكمنا له بالعمامة التي بيد الهارب قطعًا.

ولا نحكم بها لصاحب اليد التي قد قطعنا وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة بالقرينة الظاهرة، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف.

وهل القضاء بالنكول إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة التي علمنا بها ظاهرًا قرينة ظاهرة، دالة على صدق المدعي، فقدمت على أصل براءة الذمة.

وكثير من القرائن والأمارات أقوى من النكول، والحس شاهد بذلك، فكيف يسوغ تعطيل شهادتها؟

ومن ذلك أن النبي ﷺ أمر الزبير أن يقرر عم حيي بن أخطب بالعذاب على إخراج

(١) انظر: فتح الباري (١٢/ ١٥٤).
(٢) انظر: المغني (٨/ ٣٧٨-٣٨٨) وشرح الزرقاني (٤/ ٢٦٧) والمدونة الكبرى (١٦/ ٤١٦).

المال الذي غيبه وادعى نفاده، فقال له: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك»[(١)]. فهاتان قرينتان في غاية القوة: كثرة المال، وقصر المدة التي ينفق كله فيها.

وشرح ذلك أنه ﷺ لما أجلى يهود بني النضير من المدينة، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم غير الحلقة والسلاح. وكان لابن أبي الحقيق مال عظيم يبلغ مسك ثور من ذهب وحلي، فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر ـ وكان بعضها عنوة وبعضها صلحًا ـ ففتح أحد جانبيها صلحًا، وتحصن أهل الجانب الآخر[(٢)]...

***

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾.

[(٣)]«الشغف» يقال: شغف بكذا، فهو مشغوف به، وقد شغفه المحبوب.. أي وصل حبه إلى شغاف قلبه، كما قال النسوة عن امرأة العزيز ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠]، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحب المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره.

قال الكلبي: حجبَ حُبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب، قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها، أي داخله.

الثالث: أنه الحب الواصل إلى غشاء القلب، و«الشغاف» غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب، قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول: دخله

---

(١) أخرجه ابن حبان (١١/ ٦٠٧-٦٠٨ رقم ٥١٩٩) وفي الموارد (رقم ١٦٩٧) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٣٧ رقم ١٨١٦٨) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٧٩): إسناد رجاله ثقات. وانظر: نيل الأوطار (٨/ ٢٠٧).

(٢) ذكر المؤلف في بدائع الفوائد بحثًا حول ما تقدم هنا جـ٣ ص ١١٨ يحسن الرجوع إليه (ج).

(٣) ٢٨ مدارج جـ٣.

الحب حتى أصاب القلب(١).

وقرأ بعض السلف «شَعَفَهَا» بالعين المهملة، ومعناه: ذهب الحب بها كل مذهب، وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شعف الجبال، لرءوسها.

(٢)وأما الشغف فمن أسمائها أيضًا: قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قال الجوهري وغيره: والشغاف غلاف القلب، وهو جلدة دونه كالحجاب، يقال: شغفه الحب أي بلغ شغافه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ثم قال: دخل حبه تحت الشغاف(٣).

وأما الشعف بالعين المهملة ففي الصحاح: شَعَفه الحب أي: أحرق قلبه، وقال أبو زيد: أمرضه، وقد شُعِف بكذا فهو مشعوفٌ، وقرأ الحسن: «قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا» قال: بطنها [حُبًّا](٤).

(٥)قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهنَّ إياه ليعذرنها في محبته: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]. أي: هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]. أي: فمع هذا الجمال، فباطنه أحسنُ من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن عيب محبوبه فلا يجري على لسانه إلا محاسنه ومدحه.

ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، فجمل ظواهرهم بالنضرة وبواطنهم بالسرور، ومثله قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢١٣١ رقم ١١٥٢٦) والحربي في غريب الحديث (٢/ ٦٤٨) وانظر: لسان العرب (٩/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) ٢٨ روضة المحبين.

(٣) لسان العرب (٩/ ١٧٩) ومختار الصحاح (ص ١٤٣) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٥٢٩).

(٤) انظر: عمدة القاري (١٨/ ٣٠١-٣٠٣) ولسان العرب (٩/ ١٧٨) ومختار الصحاح (ص ١٤٣).

(٥) ٢٤٩ روضة.

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فإنه لا شيء أشهى إليهم وأقر لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه، فنضر وجوههم بالحسن، ونعم قلوبهم بالنظر إليه، وقريب منه قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ٢١] فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان ٢١] أي مطهرًا لبواطنهم من كل أذىً، فهذا زينة الباطن، ويشبهه قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾، فهذا زينة الظاهر، ثم قال: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا زينة الباطن، وينظر إليه من طرف خفي، قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فزين ظاهرها بالمصابيح، وباطنها بحفظها من الشياطين.

(١) من آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام: هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان:

أحدهما: من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب لمن أطاعه، والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفوتين، واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجلٌ غلب عقله على هواه، فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى.

وقد جمع الله ﷻ ليوسف الصديق، صلوات الله وسلامه عليه، بين الأمرين، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢، ٣٣] فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه، فقال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلَّت

---

(١) ٤٩٠ روضة.

عنه عصمةُ الله، وأحاط به الخذلان.

وقد قال الله تعالىٰ لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، ولهذا كان من دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك»(١). وكانت أكثر يمينه: «لا ومقلب القلوب»(٢) كيف وهو الذي أنزل عليه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد جرت سنة الله تعالىٰ في خلقه؛ أن من آثر الألم العاجلَ علىٰ الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالىٰ لا يضيع ما تحمل عبده لأجله.

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله ﷻ: «بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي»(٣).

وكل من خرج عن شيء عنه حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجل منه.

ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوَّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له؛ أبدان طير خضرٍ جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلىٰ قناديل معلقةٍ بالعرش، ولما تركوا مساكنهم له عوَّضهم مساكن طيبةً في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم.

***

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢٢-٢٢٣ رقم ٩٤٣) وفي الموارد ٠رقم ٢٤١٩) والضياء في المختارة (٦/ ٢١١ رقم ٢٢٢٢) والحاكم (١/ ٧٠٦ رقم ١٩٢٦) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤١٤ رقم ٧٧٣٧) والترمذي (رقم ٢١٤٠) و(رقم ٣٥٢٢) وحسنه في الموضعين وصححه الحاكم، وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٦١٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥١٦، ٥٢٦-٥٢٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا (رقم ٩٠) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٦٠) (٩/ ٢٥٥) (١٠/ ٨٠، ٩٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٥/ ١٧٤) وانظر: صفة الصفوة (٤/ ٣٦٦).

نَفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

[1]ذكر الله ﷻ عن يوسف الصديق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شابًا والشباب مركب الشهوة، وكان عزبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمالٍ، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلمَ عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب، لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعف لله ولم يطعها، وقدَّم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله، فإن قيل: فقد همَّ بها قيل: عنه جوابان:

أحدهما: أنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني: وهو الصواب: أن همه كان همَّ خطرات، فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرار، بذلت معه جهدها، فلم تصل إليه، فلم يستو الهمان.

---

(١) ٣٤١ روضة.

قال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار، فهم الخطرات لا يؤاخذ به.

فإن قيل: فكيف قال وقت ظهور براءته: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾[يوسف: ٥٣]. قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخرون أجلُّ منهم. وقالوا: إن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف ﷺ. الصواب معهم لوجوه:

أحدها: أنه متصل بكلام المرأة، وهو قولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ [يوسف: ٥١-٥٣] ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قولٍ لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقولُ في مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع في اللبس، فإن غايته أن يحتمل الأمرين، فالكلام الأول أولى به قطعًا.

الثاني: أن يوسف ﷺ لم يكن حاضرًا وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، والسياق صريحٌ في ذلك، فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق، فقال النسوة: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝﴾ الأحسن أن يكون من كلام يوسف ﷺ، أي: إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه ﷺ قال: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه، فإنه لما أظهر

براءته ونزاهته مما قُذف به، أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها، فإنها أمَّارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفةٌ، فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلها في نسقٍ واحدٍ يدل عليه وهو قول النسوة: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستتر، ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ فهذا هو المذكور أولًا بعينه فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قولٌ لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها: ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته، ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر.

فوازنْ بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظًا ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرون بالرب تبارك وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غيره، ولا تنسَ قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

[(١)] وأما النفس الأمارة فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله

(١) ٢٧٥ الروح.

له، كما قال تعالىٰ حاكيا عن امرأة العزيز.

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٣] وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة: «**الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له**»[1]. فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلىٰ الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين: الأمارة واللوامة، كما أكرمه بالمطمئنة، فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة مطمئنة، وهي غاية كمالها وصلاحها. وأيد المطمئنة بجنود عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها ويسددها، ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته. وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها وتصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله ازداد مددها فتقوىٰ علىٰ محاربة الإمارة[2]...

***

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١٩٩ رقم ٢٧٤٤) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٥٢٩ رقم ١٧٠٩) وأبو داود (رقم ٢١١٨) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٢١٤ رقم ٥٥٩٣) والدارمي (رقم ٢٢٠٢) وأبو يعلىٰ (٩/ ١٦٨ رقم ٥٢٥٧) وأحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣) وانظر: شرح النووي (٦/ ١٦٠).

(٢) سيأتي بحث الأنفس قريبًا في سورة الرعد إن شاء الله تعالىٰ (ج).

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

(١)من ترك محبوبه حرامًا فبذل له حلالاً أو أعاضه الله خيرًا منه: عنوان هذا الباب وقاعدته: أن من ترك لله شيئًا عوَّضه الله خيرًا منه(٢)، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة؛ فعوضه الله أن مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرةً سائلةً راغبةً في الوصل الحلال فتزوجها، فلما دخل بها قال: هذا خيرٌ مما كنت تريدين(٣).

فتأمل كيف جزاه الله ﷻ على ضيق السجن أن مكنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز وامرأته، وأقرَّت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى في عباده قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس؛ سخر الله له الريح يسير على متنها حيث أراد(٤).

ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم؛ أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها، ولو اتقى الله السارق وترك سرقة المال المعصوم لأتاه الله مثله حلالًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

(٥)﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] فالافتخار على

---

(١) ٤٧٥ روضة.

(٢) أخرج الديلمي عن ابن عمر: «ما ترك عبد شيئًا لله، لا يتركه إلا له، عوّضه الله منه ما هو خير له في دينه ودنياه» الفردوس بمأثور الخطاب (٤/ ٦٦ رقم ٦٢٠٦) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٩٦) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٣٧٤)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٣٩ رقم ٢١٩٩) وذكر له شواهد، ثم قال: ورجاله رجال الصحيح. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧١) (٤/ ٣٥) وفتح الباري (٣/ ١٧١) (٩/ ٢٣٥) وفيض القدير (١/ ٥٣٠) (٥/ ٤٣٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٦).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥، ٣٩).

(٥) ٨٦ مدارج جـ٣.

ظاهره، والافتقار والانكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر...

وتأمل قول النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[(١)] فكيف أخبر بفضل الله ومنته عليه، وأخبر أن ذلك لم يصدر منه افتخارًا به على من دونه، ولكن إظهارًا لنعمة الله عليه، وإعلامًا للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه، لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم.

ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزيز: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فإخباره عن نفسه بذلك، لما كان متضمنًا لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه: كان حسنًا، إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسِّنها ويهجِّنها، وصورته واحدة.

[(٢)]ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم، وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم، والأول يكبره في قلوبهم وعيونهم، وإنما الأعمال بالنيات.

وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفي بذلك حقًّا له يحتاج فيه إلى التعريف لحاله، أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله.

والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله؛ فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير، وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعاظم.

***

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٧٨) وأخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) بلفظ: «أنا سيد الناس يوم القيامة» وفي لفظ آخر (رقم ٣٣٤٠): «أنا سيد القوم يوم القيامة» وانظر: شرح النووي (١٥/ ٣٧).

(٢) ١٣٩ مفتاح جـ١.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

[1]قال شيخنا ﷺ: ومما قد يظن أنه من جنس الحيل التي بينا تحريمها، وليس من

---

(١) ٢٢٤ أعلام جـ٣.

جنسها قِصَّة يوسف حين كاد الله له في أخذ أخيه كما قَصَّ ذلك تعالىٰ في كتابه، فإن فيه ضروبًا من الحيل الحسنة:

أحدها: قوله لفتيانه: ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف: ٦٢] فإنه تسبب بذلك إلىٰ رجوعهم وقد ذكروا في ذلك معاني: منها: أنه تخوف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها. ومنها: أنه خشي أن يضر أخذ الثمن بهم، ومنها أنه رأىٰ لوما أخذ الثمن منهم. ومنها: أنه أراهم كرمه في رد البضاعة ليكون أدعىٰ لهم إلىٰ العود. ومنها: أنه علم أن أمانتهم تحوجهم إلىٰ العود ليردوها إليه، فهذا المحتال به عمل صالح.

والمقصود رجوعهم ومجيء أخيه، وذلك أمر فيه منفعة لهم ولأبيهم وله، وهو مقصود صالح، وإنما لم يعرفهم نفسه لأسباب أخر فيها أيضًا منفعة لهم وله ولأبيهم وتمام لما أراده الله بهم من الخير في البلاء.

الضرب الثاني: إنه في المرة الثانية لما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وهذا القدر تضمن إيهام أن أخاه سارق، وقد ذكروا إن هذا كان بمواطأة من أخيه ورضا منه بذلك، والحق له في ذلك، وقد دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٩] وفيه قولان.

أحدهما: أنه عرفه أنه يوسف ووطنه علىٰ عدم الابتئاس بالحيلة التي فعلها في أخذه منهم.

والثاني: أنه لم يصرح له بأنه يوسف، وإنما أراد إني مكان أخيك المفقود، فلا تبتئس بما يعاملك به إخوتك من الجفاء.

ومن قال هذا، قال: إنه وضع السقاية في رحل أخيه والأخ لا يشعر، ولكن هذا خلاف المفهوم من القرآن، وخلاف ما عليه الأكثرون، وفيه ترويع لمن لم يستوجب الترويع.

وأما على القول الأول فقد قال كعب وغيره: لما قال له: إني أنا أخوك، قال: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: فقد علمت اغتمام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع، وأنسبك إلى ما لا يحتمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك، قال: فإني أدس صواعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليك بالسرقة ليتهيأ لي ردك، قال: فافعل، وعلى هذا فهذا التصرف إنما كان بإذن الأخ ورضاه.

ومثل هذا النوع ما ذكر أهل السير عن عدي بن حاتم: أنه لما هم قومه بالردة بعد رسول الله ﷺ كفَّهم عن ذلك، وأمرهم بالتربص، وكان يأمر ابنه إذا رعى إبل الصدقة أن يبعد، فإذا جاء خاصمه بين يدي قومه وهم بضربه، فيقومون فيشفعون إليه فيه، ويأمره كل ليلة أن يزداد بعدًا، فلما كان ذات ليلة أمره أن يبعد بها جدًّا، وجعل ينتظره بعد ما دخل الليل وهو يلوم قومه على شفاعتهم ومنعهم إياه من ضربه، وهم يعتذرون عن ابنه، ولا ينكرون إبطاءه، حتى إذا انهار الليل ركب في طلبه فلحقه، واستاق الإبل حتى قدم بها على أبي بكر رضي الله عنهما، فكانت صدقات طيء مما استعان بها أبو بكر في قتال أهل الردة.

وكذلك في الحديث الصحيح أن عديًّا قال: لعمر رضي الله عنه أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى أعرفك، أسلمت إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، وعرفت إذ أنكروا[١].

ومثل هذا ما أذن فيه النبي ﷺ للوفد الذين أرادوا قتل كعب بن الأشرف أن يقولوا[٢]. وأذن للحجاج بن علاط عام خيبر أن يقول.

وهذا كله من الاحتيال المباح لكون صاحب الحق قد أذن فيه ورضي به، والأمر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٣٧) ومسلم (رقم ١٨٠١) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢-٣٣٧) وشرح النووي (١٢/ ١٦٠).

المحتال عليه طاعة لله وأمر مباح.

الضرب الثالث: أنه أذَّن مؤذن: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ۝ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ۝ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف: ٧٠-٧٦] وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه، حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوا عليه، وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقًا، وهو من الكلام المرموز، ولهذا يسمى خونة الدواوين لصوصًا.

والثاني: أن المنادى هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف، قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسف بعض أصحابه أن يجعل الصواع في رحل أخيه، ثم قال: بعض الموكلين، وقد فقدوه ولم يدر من أخذه: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ على ظن منهم أنهم كذلك من غير أمر يوسف لهم بذلك، أو لعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء سرقوا. وعنى أنهم سرقوه من أبيه، والمنادى فهم سرقة الصواع، فصدق يوسف في قوله، وصدق المنادي، وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ ليصح أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقًا، وذكر المفعول في قوله: ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهو صادق في ذلك فصدق في الجملتين معا تعريضًا وتصريحًا.

وتأمل قول يوسف: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل: إلا من سرق، وهو أخصر لفظًا تحريًا للصدق؛ فإن الأخ لم يكن سارقًا بوجه، وكان المتاع عنده حقًا؛ فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

ومثل هذا قول الملكين لداود ﷺ: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٢، ٢٣] أي غلبني في الخطاب، ولكن تخريج هذا الكلام علىٰ المعاريض لا يكاد يتأتىٰ، وإنما وجهه أنه كلام خرج علىٰ ضرب المثال، أي إذا كان كذلك فكيف الحكم بيننا.

ونظير هذا قول الملك للثلاثة الذين أراد الله أن يبتليهم: «**مسكين وغريب وعابر سبيل، وقد تقطعت بي الحبال، ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، فأسألك بالذي أعطاك هذا المال بعيرًا أتبلغ به في سفري هذا**»[١]. وهذا ليس بتعريض، وإنما هو تصريح علىٰ وجه ضرب المثال وإيهام أني أنا صاحب هذه القضية، كما أوهم الملكان داود أنهما صاحبا القصة، ليتم الامتحان.

ولهذا قال نصر بن حاجب: سئل ابن عيينة عن الرجل يعتذر إلىٰ أخيه من الشيء الذي قد فعله، ويحرف القول فيه ليرضيه لم يأثم في ذلك؟ فقال: ألم تسمع قوله: «**ليس بكاذب من أصلح بين الناس، يكذب فيه**»[٢] فإذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم خير من أن يصلح بين الناس بعضهم من بعض، وذلك إذا أراد به مرضاة الله، وكره أذىٰ المؤمن، ويندم علىٰ ما كان منه، ويدفع شره عن نفسه، ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم، ولا طمعًا في شيء يصيب منهم، فإنه لم يرخص في ذلك، ورخص له إذا كره موجدتهم وخاف عدواتهم.

قال حذيفة: إني أشتري ديني بعضه ببعض، مخافة أن أقدم علىٰ ما هو أعظم منه. قال سفيان: وقال الملكان: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢] أرادا معنىٰ شيء، ولم يكونا خصمين، فلم يصيرا بذلك كاذبين.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٤) ومسلم (رقم ٢٩٦٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٠١-٥٠٢) وعمدة القاري (١٦/ ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٩٢) ومسلم (رقم ٢٦٠٥) بلفظ: «**ليس الكذَّاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا أو يقول خيرًا**». وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٥٧) أما لفظ المصنف لم أقف عليه.

وقال إبراهيم: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٩] وقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال يوسف: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [يوسف: ٧٠] فبين سفيان أن هذا من المعاريض المباحة.

وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه جائز للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق.

قال شيخنا ﷺ: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال: إنه قد اقتص منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم، والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى في الميثاق بقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦] وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته، فإنه كان أكرم من هذا وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه أعظم مما فيه من إيذاء إخوته وإنما هو أمر أمره الله به ليبلغ الكتاب أجله، ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

ولو كان يوسف قصد القصاص منهم بذلك، فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء فإن الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به وإنما موضع الخلاف: هل يجوز له أن يسرق أو يخون من سرقه أو خانه، مثل ما سرق منه أو خانه إياه؟ وقصة يوسف لم تكن من هذا الضرب.

نعم لو كان يوسف أخذ أخاه بغير أمره لكان لهذا المحتج شبهة مع أنه لا دلالة في ذلك على هذا التقدير أيضًا، فإن مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق، وهو أن يحبس رجل برئ ويعتقل للانتقام من غيره من غير أن يكون له جرم.

ولو قدر أن ذلك وقع من يوسف فلابد أن يكون بوحي من الله ابتلاء منه لذلك المعتقل، كما ابتلى إبراهيم بذبح ابنه، فيكون المبيح له على هذا التقدير وحيًا خاصًا كالوحي الذي جاء إبراهيم بذبح ابنه، وتكون حكمته في حق المبتلى امتحانه وابتلاؤه،

لينال درجة الصبر على حكم الله والرضا بقضائه، وتكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب في احتباس يوسف عنه، وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ومن حال يوسف، ولهذا قال: تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه، كما نسبه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] وفي قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء وخداعا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ونحو قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقيل: وهو أصوب: بل تسميته ذلك حقيقة على بابه.

فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة.

ولكنه نوعان: قبيح، وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول مذموم، والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلا منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب، لا كما يفعل الظلمة بعباده، وأما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها، فهي سيئة له حسنة من الحكم العدل.

وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة.

أولها أن إخوته كادوا به كيدًا، حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه.

ثم إن امرأة العزيز كادته بما أظهرت أنه راودها عن نفسها، ثم أودع السجن.

ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ بالله من كيدهن فصرفه عنه.

وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]

وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴾ [يوسف: ٢٨] وقال تعالىٰ في حق النسوة: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣٤] وقال للرسول: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٠] فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد المرأة، بأن أخرجه من ضيق السجن إلىٰ فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه، حتىٰ شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته، وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر علىٰ كيد الكائد له بغيا وعدوانًا.

وكيد الله تعالىٰ لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: وهو الأغلب: أن يفعل تعالىٰ فعلًا خارجًا عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدرًا زائدًا محضًا، ليس هو من باب لا يسوغ، كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات.

وكذلك كانت قصة يوسف فإن أكثر ما أمكنه أن يفعل أن ألقىٰ الصواع في رحل أخيه، وأن أذَّن مؤذن بسرقتهم، فلما أنكروا قال: ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ [يوسف: ٧٤] أي جزاء السارق أو جزاء السرق ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ [يوسف: ٧٥] أي جزاؤه نفس السارق يستعبده المسروق منه إما مطلقًا وإما إلىٰ مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

ثم في إعراب هذا الكلام وجهان؛ أحدهما: أن قوله: ﴿ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ ﴾ جملة مستقلة قائمة من مبتدأ وخبر، وقوله: ﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ جملة ثانية كذلك مؤكدة للأولىٰ مقررة لها، والفرق بين الجملتين: أن الأولىٰ إخبار عن استحقاق المسروق

لرقبة السارق، والثانية إخبار أن هذا جزاؤه في شرعنا وحكمنا فالأولى إخبار عن المحكوم عليه، والثانية إخبار عن الحكم، وإن كانا متلازمين، وإن أفادت الثانية معنى الحصر فإنه لا جزاء له غيره.

والقول الثاني: إن ﴿ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ الأول مبتدأ وخبره الجملة الشرطية والمعنى جزاء السارق أن من وجد المسروق في رحله كان هو الجزاء، كما تقول: جزاء السرقة من سرق قطعت يده، وجزاء الأعمال من عمل حسنة فبعشر أو سيئة فبواحدة، ونظائره.

قال شيخنا ﷺ: وإنما احتمل الوجهين، لأن الجزاء قد يراد به نفس الحكم باستحقاق العقوبة، وقد يراد به نفس فعل العقوبة، وقد يراد به نفس الألم الواصل إلى المعاقب، والمقصود: أن إلهام الله لهم هذا الكلام كيد كاده ليوسف خارج عن قدرته، إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب ثبوت السرقة، وقد كان يوسف عادلًا لا يأخذهم بغير حجة.

وقد كان يمكنهم أن يقولوا: يفعل به ما يفعل بالسراق في دينكم، وقد كان في دين ملك مصر ـ كما قاله أهل التفسير ـ: أن يضرب السارق، ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف: ٧٦] أي ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر، إذ لم يكن في دينه طريق له إلى أخذه.

وعلى هذا فقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء منقطع، أي لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلا على بابه، أي إلا أن يشاء الله ذلك، فيهيء له سببًا يؤخذ به في دين الملك من الأسباب، التي كان الرجل يعتقل بها ما يؤخذ من قصة يوسف، فإذا كان المراد من الكيد فعلا من الله ـ بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أمورًا يحصل بها مقصوده من الانتقام من الظالم ـ كان هذا خارجًا عن الحيل الفقهية؛

فإن كلامنا في الحيل التي يفعلها العبد، لا فيما يفعله الله تعالىٰ.

بل في قصة يوسف تنبيه علىٰ بطلان الحيل وأن من كاد كيدًا محرمًا، فإن الله يكيده ويعامله بنقيض قصده وبمثل عمله، وهذه سنة الله في أرباب الحيل المحرمة: أنه لا يبارك لهم فيما نالوه بهذه الحيل، ويهيء لهم كيدًا علىٰ يد من يشاء من خلقه، يجزون به من جنس كيدهم وحيلهم.

وفيها تنبيه علىٰ أن المؤمن المتوكل علىٰ الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة.

وفيها دليل علىٰ أن وجود المسروق بيد السارق كاف في إقامة الحد عليه، بل هو بمنزلة إقراره، وهو أقوىٰ من البينة، وغاية البينة أن يستفاد منها ظن، وأما وجود المسروق بيد السارق، فيستفاد منه اليقين، وبهذا جاءت السنة في وجوب الحد بالحبل، والرائحة في الخمر، كما اتفق عليه الصحابة.

والاحتجاج بقصة يوسف علىٰ هذا أحسن وأوضح من الاحتجاج بها علىٰ الحيل.

وفيها تنبيه علىٰ أن العلم الخفي الذي يتوصل به إلىٰ المقاصد الحسنة مما يرفع الله به درجات العبد، لقوله بعد ذلك: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾.

قال: زيد بن أسلم وغيره: بالعلم.

وقد أخبر تعالىٰ عن رفعه درجات أهل العلم في ثلاثة مواضع من كتابه:

أحدها: قوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بعلم الحجة.

وقال في قصة يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [يوسف: ٧٦] فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بالعلم الخفي، الذي يتوصل به صاحبه إلىٰ المقاصد المحمودة.

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ

لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١] فأخبر أنه يرفع درجات أهل العلم والإيمان.

النوع الثاني من كيده لعبده المؤمن: هو أن يلهمه تعالىٰ أمرًا مباحًا أو مستحبًا أو واجبًا، يوصله به إلىٰ المقصود الحسن، فيكون علىٰ هذا إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل هو من كيده تعالىٰ أيضًا، وقد دل علىٰ ذلك قوله: نرفع درجات من نشاء، فإن فيها تنبيها علىٰ أن العلم الدقيق الموصل إلىٰ المقصود الشرعي صفة مدح، كما أن العلم الذي يخصم به المبطل صفة مدح وعلىٰ هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع، لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تستحل به المحرمات أو تسقط به الواجبات، فإن هذا كيد الله، والله هو الذي يكيد الكائد، ومحال أن يشرع الله تعالىٰ أن يكاد دينه.

وأيضًا فإن هذا الكيد لا يتم إلا بفعل يقصد به غير مقصوده الشرعي، ومحال أن يشرع الله لعبده أن يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له.

فهذا هو الجواب عن احتجاج المتحيلين بقصة يوسف عليه الصلاة والسلام، وقد تبين أنها من أعظم الحجج عليهم، وبالله التوفيق.

***

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾.

(١)وأما قياس الشبه(٢) فلم يحكه الله سبحانه إلا عن المبطلين؛ فمنه قوله تعالىٰ إخبارًا عن إخوة يوسف أنهم قالوا لما وجدوا الصواع في رحل أخيهم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧] فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوىٰ مجرد الشبه الجامع بينه وبين

(١) ١٤٨ أعلام جـ١.

(٢) انظر: أضواء البيان (٤/ ١٧٩، ١٨٩) وفتح الباري (٩/ ٤٤٤) وروضة الطالبين (١١/ ١٤٩).

يوسف، فقالوا: هذا مقيس على أخيه، بينهما شبه من وجوه عديدة، وذاك قد سرق فكذلك هذا، وهذا هو الجمع بالشبه الفارغ، والقياس بالصورة المجردة عن العلة المقتضية للتساوي، وهو قياس فاسد، والتساوي في قرابة الأخوة ليس بعلة للتساوي في السرقة لو كانت حقًا، ولا دليل على التساوي فيها؛ فيكون الجمع لنوع شبه خال عن العلة ودليلها.

(١)الصبر كما تقدم نوعان: اختياري، واضطراري.

والاختياري أكمل من الاضطراري؛ فإن الاضطراري يشترك فيه الناس، ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته، لما ألقوه في الجب، وفرقوا بينه وبين أبيه، وباعوه بيع العبد.

ومن الصبر الثاني: إنشاء الله سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض، وكذلك صبر الخليل ﷺ والكليم وصبر نوح وصبر المسيح وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عليهم الصلاة والسلام كان صبرًا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله، ولهذا سماهم الله أولي العزم، وأمر رسوله أن يصبر صبرهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

***

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

---

(١) ٣١ عدة الصابرين.

[(١)]في كتاب الأدب للبخاري: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: «**الصبر والسماحة**»[(٢)]. ذكره عن موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه، عن جده ـ فذكره، وهذا من أجمع الكلام. وأعظمه برهانًا، وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلىٰ آخرها. فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به، وإعطاؤه، فالحامل عليه: السماحة. وترك ما نهيت عنه، والبعد منه، فالحامل عليه: الصبر.

وقد أمر الله ﷻ في كتابه بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: «**الصبر الجميل**» هو الذي لا شكوىٰ فيه ولا معه[(٣)]. و«**الصفح الجميل**» هو الذي لا عتاب معه، و«**الهجر الجميل**» هو الذي لا أذىٰ معه[(٤)].

وفي أثر إسرائيلي: «أوحىٰ الله إلىٰ نبي من أنبيائه: أنزلت بعبدي بلائي، فدعاني، فماطلته بالإجابة، فشكاني، فقلت: عبدي، كيف أرحمك من شيء به أرحمك؟» وقال ابن عيينة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤] قال: أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء[(٥)].

والشكوىٰ إلىٰ الله ﷻ لا تنافي الصبر، فإن يعقوب ﷺ وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابرًا مع قوله: ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

---

(١) ١٦٠ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٥) وأبو يعلىٰ (٣/ ٣٨٠ رقم ١٨٥٤) وعبد بن حميد (رقم ٣٠٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٤٢ رقم ٨٠١٤) وفي الزهد الكبير (٢/ ٢٧٤ رقم ٧٠٦) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٥٩، ٦٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٦٥) وتفسير القرطبي (٩/ ١٥٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٣٣).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٤).

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلًا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك[(١)]؟ ثم أنشد.

وإذا عَرَتْك بلية فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم[(٢)]

وقال حبان بن أبي جبلة: من بث فلم يصبر[(٣)]، ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعًا إلى النبي ﷺ وإن صح فمعناه إلى المخلوق لا من بث إلى الله.

[(٤)]وقال حبان بن أبي جبلة أيضًا في قوله تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣]. قال: لا شكوى فيه ورفعه[(٥)] ابن أبي الدنيا أيضًا، وقال مجاهد: فصبر جميل في غير جزع[(٦)]، وقال عمرو بن قيس: فصبر جميل قال: الرضا بالمصيبة والتسليم.

وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه.

وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤]، قال كظم على حزن، فلم يقل إلا خيرًا[(٧)].

وقال يحيى بن المختار عن الحسن: الكظيم الصبور، وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: كميد أي كمد الحزن.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٢١٩ رقم ١٠٠٧٥) عن الفضيل بن عياض رحمه الله، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ٤٠١) وانظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٩) وفيض القدير (٤/ ٤٩٤).

(٢) ذكر البيتين بهاء الدين العاملي في الكشكول (١/ ١٥٤-١٥٥) ونسبهما إلى زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما وفيهما اختلاف.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٦) (١٣/ ٤٨) والبيهقي في الشعب (٧/ ٢١٤ رقم ١٠٠٤٧).

(٤) ١٠١ عدة الصابرين.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢١١٢ رقم ١١٣٩٧).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ١٦٦) وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣١٨).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن (رقم ٨٩) والطبري في تفسيره (١٣/ ٤٠).

وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله، من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم(١).

***

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ﴾.

(٢)أخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩]. فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقًا ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه محنًا ومصائب وباطنها نعمًا وفتحًا جعلها الله سببًا لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات، هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

وقد قال ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٨٨ رقم ٣٤٤٠٩) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥٦ رقم ١٣٠٨)والديلمي في الفردوس عن علي (٤/ ٩١ رقم ٦٢٨٣) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣١٤ رقم ٨٣٠٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٧٢).
(٢) ٣٤ شفاء.

للمؤمن»[١] فالقضاء كله خير لمن أعطي الشكر والصبر جالبًا ما جلب.

[٢]وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: «أخرجني من الجب» حفظًا للأدب مع إخوته، وتفتيا عليه: أن لا يخجلهم بما جرىٰ في الجب، وقال: ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ ولم يقل: «رفع عنكم جهد الجوع والحاجة» أدبًا معهم، وأضاف ما جرىٰ إلىٰ السبب، ولم يضفه إلىٰ المباشر الذي هو أقرب إليه منه، فقال: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ﴾ فأعطىٰ الفتوة والكرم والأدب حقه، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم.

[٣]قوله تعالىٰ: عن يوسف نبيه، أنه قال: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره ـ سبحانه ـ وكون الوفاة علىٰ الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

***

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

...[٤]قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٩٩٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٠٩).
(٢) ٣٨٠ مدارج جـ٢.
(٣) ٢٠١ فوائد.
(٤) ٣٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

فأثبت لهم إيمانًا مع الشرك، وهذا الإيمان وإن لم يؤثر في إخراجهم من النار كما أثر إيمان أهل التوحيد، بل كانوا معه خالدين فيه بشركهم وكفرهم، فإن النار إنما سعرها عليهم الشرك والظلم، فلا يمتنع في الرحمة والحكمة والعدل أن يطفئها ويذهبها بعد أخذ الحق منهم، فيجتمع ضعف أسباب تسعيرها وقوة أسباب زوالها، فهذا غير ممتنع في الحكمة الإلهية، ولم يخبر به الرسول بامتناعه وأنه لا يكون في موضع واحد، ولا دل على ذلك نقل ولا عقل، بل الذي دل عليه النقل والإجماع أنهم خالدون فيها أبدًا، وأنهم ليسوا بخارجين منها، ولا يموتون فيها؛ ولا يحيون، وهذا متفق عليه بين المسلمين، وإنما الشأن في أمر آخر...

[(1)]وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر. فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي، فالخفي قد يغفر، وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦][(2)].

---

(١) ٢٨٢ مدارج جـ١.

(٢) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية (ص ٨٩) في قوله: «فصل: هاهنا أصل آخر...» (ج).

(١)ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المفلحين، وأتباعه من العالمين، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به،وتبليغ معانيه كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين: أحدهما: حفاظ الحديث، وجهابذته، والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام، الذي حفظوا على الأئمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس لم تشبها الآراء تغييرًا، ووردوا فيها عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا.

(٢)ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق؛ فيكون عالمًا بما يبلغ، صادقًا فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضيَّ السيرة، عدلًا في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله. وإذا كانت منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسماوات؟...

(٣)فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يعد له عدته، وأن يتأهب له أهبته، وأن يعلم قدر المقام الذي أقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به؛ فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب، فقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء: ١٢٧] وكفى بما تولاه الله تعالى بنفسه شرفًا وجلالة؛ إذ يقول في كتابه: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ

(١) ٨ أعلام جـ١.
(٢) ١٠ أعلام جـ١.
(٣) ١١ أعلام جـ١.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء: ١٧٦] وليعلم المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقن أنه مسؤول غدًا وموقوف بين يدي الله.

وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، عبد الله ورسوله، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده؛ فكان يفتي عن الله بوحيه المبين، وكان كما قال له أحكم الحاكمين: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام، ومشتملة على فصل الخطاب، وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب، وليس لأحدٍ من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلًا، وقد أمر الله عباده بالرد إليها حيث يقول: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

[(١)]قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾.

قال الفراء وجماعة: ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو يعني: ومن اتبعني يدعو إلى أمته كما أدعو، وهذا قول الكلبي قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة، ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة[(٢)].

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه وأتباعه على بصيرة، والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه، وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها؛ فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد

(١) ١٥٤ مفتاح جـ١.
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٨٠).

يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء.

(١) فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملًا وهداية وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر ﷺ.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩] فذكر مراتب السعداء وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثم الذين يلونهم إلىٰ آخر المراتب، وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(٢) وقد أخبر الله تعالىٰ عن رسوله ﷺ أنه قال: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ وأخبر تعالىٰ عنه أنه سراج منير، وأنه هادٍ إلىٰ صراط مستقيم، وبأن من اتبع النور الذي أنزل معه هو المفلح لا غيره، وأن من لم يحكمه في كل ما تنازع فيه المتنازعون وينقاد لحكمه، ولا يكون عنده حرج منه فليس بمؤمن، فكيف يجوز علىٰ من أخبر الله تعالىٰ عنه بما ذكر أن يكون قد أخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله بما الهدىٰ في خلاف ظاهره، والحق في إخراجه عن حقائقه، وحمله علىٰ وحشي اللغات ومستكرهات التأويلات...

***

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

(٢) ٦ مختصر الصواعق جـ١.

[(١)]الدعاء إلى أحكام الله دعاء إلى الله؛ لأنه دعاء إلى طاعته فيما أمر ونهى، وإذًا فالصحابة رضوان الله عليهم قد اتبعوا الرسول ﷺ فيجب اتباعهم إذا دعوا إلى الله.

[(٢)]قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠] فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك، إنما يأتيهم من عند الله كما قال في قصة نوح: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦] وقال الله تعالى في قصة إخوة يوسف: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠] فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين.

وقد حدثنا ابن أبي أويس: حدثنا مالك، عن هشام بن عروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم: «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه»[(٣)] فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع، وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعرًا لرجل من القدماء ويصف ناقة:

صفراء من تِلْدِ بني العباس ... ضُرتها كالظبي في ا لنكاس
تَدرُّ أم تسمع باليأس ... فالنفس بين طمع وياس[(٤)]

فجعل الطمع بإزاء اليأس.

حدثنا سليمان بن حرب: حدثنا جرير بن حازم عن الأعمش، عن سلام، عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي ﷺ فقالا: علمنا

---

(١) ١٣١ أعلام جـ٤.

(٢) ٤٠٢ زاد المعاد جـ٤.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١١٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٣١، ٩٩٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٤/ ٣٥٧) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٤٠٧ رقم ١٣٠٣).

(٤) لم أعثر عليهما.

شيئًا، ثم قال: «لا تيأسا من الخير ما تهزهزت رءوسكما، فإن كان عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه»(١).

وحدثنا علي بن عبد ا لله: حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس»(٢) قال: وهكذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يوسف

والحمد لله رب العالمين



---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ٣٣) وابن حبان كما في الموارد (رقم ١٠٨٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٣٨ رقم ١٤٦٦) والطبراني في الكبير (٤/ ٧ رقم ٣٤٧٩، ٣٤٨٠) (٧/ ١٣٧ رقم ٦٦١٠) والبيهقي في الشعب (٢/ ١١٩ رقم ١٣٤٩) وصححه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦ر قم ١٣٠٠) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٨١).

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

[1]تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه ونجومه وبروجه، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام، وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات؟ وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم؟ ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به فقالت لهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه، وقلبه وعقله وفطرته، وكلها تكذبه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ

---

(١) ٢١٢ مفتاح جـ١.

ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ [الرعد: ٢-٤] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٦]. وقال تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] ثم إنه سبحانه يصرف ما أخرجه من هذا الماء، ويقلبه ويحيل بعضه إلىٰ بعض، وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته إلىٰ طبيعة أخرىٰ، وهذا كما خلق كل دآبة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها، وأمشىٰ بعضًا عن بطنه، وبعضًا علىٰ رجلين، وبعضًا علىٰ أربع، حكمة بالغة وقدرة باهرة، وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار، ويقلب ما يوجد فيهما، ويقلب أحوال العالم كما يشاء، ويسلك بذلك مسلك الحكمة البالغة التي بها يتم مراده ويظهر ملكه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(٢) إن هذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوىٰ والأغذية والنباتات التي هي كذلك، فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثرت الأمم في وصفه وتجربته علىٰ مر الدهور، ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلىٰ أيسر شيء وأقله، بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علمًا بجميع ما أودع واحدًا من ذلك النوع من الحكم والمصالح، هذا إلىٰ ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة علىٰ وجود الخالق ومشيئته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته، فإن المادة الواحدة لا

---

(١) ١٤٤ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٣١ شفاء.

تحتمل بنفسها هذه الصورة الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات، ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الأنواع والصور بنفس التركيب أيضًا، ولا هو مقتض له، فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه، وأنه فعال لما يريد اختيارًا ومشيئة، فتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئًا بعد شيء من أظهر الدلالات، وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

(١)ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة، فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت، وهذه تربة تلاصقها رمال، وهذه صلبة ويلاصقها ويليها رخوة، وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء، وهذه حصى كلها ويجاورها أرض لا يوجد

---

(١) ١٨٦ التبيان.

فيها حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره، وهذه سبخة مالحة، وهذه بضدها، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم، وهذه مسجرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلا على المطر، وهذه لا ينفعها المطر بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوعها هذه التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها وفتح فيها السبل وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكنًا ومستقرًا للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده إليها ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولًا غير مستصعبة ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها وفرشها ومهدها وذللها وطحاها ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات، بل أنشأ منها آدم ونوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ﷺ وعليهم أجمعين، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة - كما نشاهده في الصيف - فاحترقت أبدان الحيوان والنبات، وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتًا للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد

موتها، فينزل عليها الماء من السماء، ثم يرسل عليها الريح، ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب والأرض كالأم والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق، ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة، لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم.

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور، فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة، وتجاورها وامتزاجها وحاجة بعضها إلى بعض، وانفصال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه، وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة حادثة بعد عدمها فقيرة إلى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها، حصل بها

الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته، فحرارة الربيع للإخراج، وحرارة الصيف للإنضاج، هذا وإن الأم واحدة والأب واحد واللقاح واحد، والأولاد في غاية التباين والتنوع، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [الرعد: ٥] وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فعجب قولهم: كيف ينكرون هذا؟ وقد خُلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئًا.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فإنكارهم للبعث، وقولهم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

***

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

(١) التعجب كما يدل على محبة الله للفعل نحو: «عجب ربك من شاب ليست له

(١) ٨ بدائع جـ٤.

صبوة»[١] و«يعجب ربك من رجل ثار من فراشه ووطائه إلى الصلاة»[٢] ونحو ذلك، فقد يدل على بعض الفعل نحو قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥]، ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١] وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه نحو: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: ٧] وقد يدل على حسن المنع منه، وأنه لا يليق به فعله نحو: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦].

***

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)﴾

[٣]قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] فأخبر تعالى أن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهرًا، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم على أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر إلا أن يكون سقطًا، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة ﷺ.

فذكر البيهقي وغيره عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي: أن عمر أتي بامرأة قد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١) وأبو يعلى (٣/ ٢٨٨ رقم ١٧٤٩) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٩ رقم ٨٥٣) والقضاعي في الشهاب (١/ ٣٣٦ رقم ٥٧٦) والديلمي في الفردوس (٣/ ٣٧ رقم ٤٠٨٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٤٩) وتمام في فوائده (٢/ ١١٦ رقم ١٣٠٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٠): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن. وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٦) وانظر: فيض القدير (٢/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤١٦) وابن حبان (٦/ ٢٩٧ رقم ٢٥٥٧) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ١٢٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٥٥): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير وإسناده حسن.

(٣) ١٥٨ تحفة المودود.

ولدت لستة أشهر، فهم عمر برجمها، فبلغ ذلك عليًّا ﷺ فقال: ليس عليها رجم فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه فسأله، فقال: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ فستة أشهر حمله وحولان تمام الرضاعة، لا حد عليهما. فخلى عنها[(١)].

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان ﷺ أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر فأمر بها أن ترجم، فقال عليٌّ: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقال: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤] فأمر بها عثمان أن ترد فوجدت قد رجمت[(٢)].

وذكر داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة وعشرون شهرًا، كما قال تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[(٣)] انتهى كلامه.

وقال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرعد: ٨] قال ابن عباس: ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها[(٤)]. ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضًا: إذا حاضت المرأة على ولدها كان ذلك نقصانًا من الولد ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال: إذا زادت على تسعة

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٦) وسعيد بن منصور (رقم ٢٠٧٤) وعبد الرزاق (٧/ ٣٤٩ رقم ١٣٤٤٣) وانظر: شرح الزرقاني على موطأ مالك (٤/ ١٧٩).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٢٥ رقم ١٥٠٧) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٨) وانظر: الاستذكار (٧/ ٤٩١) وشرح الزرقاني (٤/ ١٧٩).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٥) (٧/ ٤٦٢ رقم ١٥٤٤٨) وانظر: الدر المنثور (٧/ ٤٤٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٢٢٦ رقم ١٢١٦٢).

أشهر كان ذلك تمامًا لما نقص من ولدها[(١)]. وقال أيضًا: الغيض ما رأت الحامل من الدم في حملها، وهو نقصان من الولد، والزيادة ما زاد على التسعة أشهر، وهو تمام النقصان[(٢)].

وقال الحسن: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ ما كان من سقط وما تزداد المرأة تلد لعشرة أشهر وقال عكرمة تغيض الأرحام الحيض بعد الحمل فكل يوم رأت فيه الدم حاملا ازداد به في الأيام طاهرًا. فما حاضت يوما إلا ازدادت في الحمل يومًا[(٣)].

وقال قتادة: الغيض السقط، وما تزداد فوق التسعة أشهر، وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم على الحمل فهو الغيض للولد، فهو نقصان في غذاء الولد، وزيادة في الحمل[(٤)]. تغيض وتزداد فعلان متعديان، مفعولهما محذوف، وهو العائد على ما الموصولة، والغيض النقصان، ومنه: وَغِيضَ الْمَاءُ، وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى: هل هو ذكر أو أنثى؟ وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه ﷺ: **«مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله»**[(٥)].

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط والتام ورؤية الدم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١٠) والدارمي (رقم ٩٢٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٧٥).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٠٩-١١٠).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١١).
(٤) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٢/ ٣٣٢) والطبري في تفسيره (١٣/ ١١٢).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ١٠٣٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦٥).

وانقطاعه، والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن، وما يتصل بها من زيادة ونقصان[١]. ا. هـ.

***

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾.

[٢](قاعدة): الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة.

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءَتها، وأن الله إنما حرَّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب.

السبب الثاني: الحياءُ من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنه بمرأىً منه ومسمع ـ وكان حيياً ـ استحى من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولابد، فما أذنب عبد ذنباً إلا زالت عنه نعمة من الله، بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد: ١١]، وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها.

وقال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة[٣]. وقال آخر: أذنبت ذنباً

---

(١) سيأتي في سورة الأحقاف زيادة بحث حول هذا إن شاء الله (ج).

(٢) ٢٧٠ طريق الهجرتين.

(٣) أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ١٧) عن سفيان الثوري أنه قال: حرمت قيام الليل بذنب أحدثته خمسة أشهر.

فحرمت فهم القرآن. وفي مثل هذا قيل:

إذا كنـــت في نعمـــة فارعهـــا فـــإن المعاصـــي تزيـــل الـــنعم[(١)]

بالجملة فإن المعاصي نار النعم تأكلها، كما تأكل النار الحطب، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته.

[(٢)]﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضًا، كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر، يثبتونه ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله، ويصبرونه ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه.

[(٣)]ومن عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة[(٤)]، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد. فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية

(١) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ وذكره البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٢ رقم ٤٥٥٩) ونسبه إلى أبي الحسن الكندي القاضي، وكذا المناوي في فيض القدير (٢/ ١١٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ١٠٣) (٥٤/ ٧٠) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٠) (٢/ ٢٧٩، ٣٩١).

(٢) ١٢٩ الجواب الكافي.

(٣) ٩٧ الجواب الكافي.

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٤٩٧) من قول العباس عم النبي ﷺ وانظر: عمدة القاري (٧/ ٣٢) وتاريخ مدينة دمشق (٢٦/ ٣٥٨) والاستيعاب (٢/ ٨١٤).

والذل بالعز، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

(١) ومن عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة؛ فتزيل الحاصل وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببًا وآفة، سببًا يجلبه وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسماعًا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم على معصية الله، كأنه مستثنى من هذه الجملة، أو مخصوص من هذا العموم، وكأن هذا أمر جارٍ على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه، فأي جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

(٢) والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي، لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذ لأكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد حتى لو لم يخبر الشارع بذلك، لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده، وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه، حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله تعالى في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد

---

(١) ١٤٣ الجواب الكافي.

(٢) ٢٠٥ بدائع جـ٢.

سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له، والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولابد، وأما كون مسبباتها شرورا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة، ليقضي الله أمرا كان مفعولًا فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] و﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقد فسَّر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق. ومرادهم: هذا المعنى. فقال علي ﷺ: دعوة الحق: التوحيد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله، ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

***

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ

ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

(١)احتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر.

(٢)وقد ذكر الله المثلين المائي والناري في سورة الرعد، ولكن في حق المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧] شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية. فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كواد كبير يسع ماء كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه، فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب الله الحق والباطل، ثم ذكر المثل الناري، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾،

---

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١٥٢ أعلام جـ١.

وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس، ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القبل وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه، وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما و يعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق.

(١)شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا كواد عظيم يسع ماء كثيرًا، وقلب صغيرًا إنما يسع علمًا قليلًا كواد صغير إنما يسع ماء قليلًا فقال: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ هذا مثل ضربة الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة، فيطفو على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادي زبدًا يعلو فوق الماء.

وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت، فلا تستقر فيه، بل تجفى وترمى، فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي، ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون، ثم ضرب سبحانه لذلك مثلًا آخر، فقال: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ يعني: أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه، وهو الزبد الذي تلقيه النار، وتخرجه من ذلك

(١) ٦١ مفتاح جـ١.

الجوهر بسبب مخالطتها، فإنه يقذف ويلقى به، ويستقر الجوهر الخالص وحده.

وضرب سبحانه مثلًا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلًا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء، وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها، وتميز جيدها من زبدها، كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه، فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم، قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(١) فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يجعل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبير يسع ماءً كثيرًا، ووادٍ صغير يسع ماء قليلًا، كذلك القلوب مشبهة بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بقدره، وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمازته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع، وكذلك في المثل الذي بعده، يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صفوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فهذا المثل الناري، ثم قال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٩] فهذا المثل المائي. وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره.

---

(١) ٢٢ إغاثة جـ١.

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]، فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧].

***

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[(١)]إنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩] فما ثم إلا عالم أو أعمى، وقد وصف أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه.

[(٢)]قسم الناس قسمين: أحدهما: العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق. والثاني: العمي، فدل على أنه لا واسطة بينهما.

[(٣)]الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها. وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها. وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في (فتوح الغيب): «لابد

(١) ٤٩ مفتاح جـ١.
(٢) ٨٨ مفتاح جـ١.
(٣) ٢٥ عدة الصابرين.

للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه»[(١)].

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالىٰ، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب فهو أن الله تعالىٰ له علىٰ عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري، فالشرعي متعلق بأمره، والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وحكمه الديني الطلبي نوعان: بحسب المطلوب، فإن المطلوب إن كان محبوبا له فالمطلوب فعله: إما واجبا وإما مستحبا، ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه: إما تحريما وإما كراهة، وذلك أيضًا موقوف علىٰ الصبر، فهذا حكمه الديني الشرعي. وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره علىٰ العبد من المصائب، التي لا صنع له فيها، ففرضه الصبر عليها، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان في مذهب أحمد، أصحهما أنه مستحب، فمرجع الدين كله إلىٰ هذه القواعد الثلاث وفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور.

وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفًا، ولا تسقط عنه هذه الثلاث، حتىٰ يسقط عنه التكليف، فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر علىٰ ساق الصبر لا تستوي إلا عليه، كما لا تستوي السنبلة إلا علىٰ ساقها.

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائمًا يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور، واجتنب المحظور، واصبر علىٰ المقدور. وهذه الثلاثة هي التي أوصىٰ بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه فيه وغيره، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتىٰ يكون أول مأمور ومنهي، وذكر سبحانه هذه الأصول

(١) ذكر هذا القول المناوي في فيض القدير (٤/ ٢٣٤).

الثلاثة في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [١٩-٢٢].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه، الذي عهده إليهم بينهم وبينه وبينهم وبين خلقه، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والإنابة إليه والتوكل عليه وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه والاستكانة له والخضوع والذلة له والاعتراف له بنعمته وشكره عليها والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل.

وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه، والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين صلوات الله وسلامه عليه فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، وذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف.

وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل، ونكسوهم مما نكتسي، ولا نكلفهم فوق طاقتهم. وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا. وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر.

وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا.

وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم، كما يستحي الرجل من جليسه، ومن هو معه ممن يجله ويكرمه. فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته ومتى ترحلت الخشية، من القلب انقطعت هذه الوصل.

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه، وهو الصبر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه.

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر، وهي الصلاة، فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة، وهما الصبر والصلاة، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرا وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم، ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله، بل يدرأون بالحسنة السيئة، فيحسنون إلى من يسيء إليهم، فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال النبي ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»[1]. والتحقيق أن الآية تعم النوعين. والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها، اشتملت على فعل المأمور وترك

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ٢٣٦) والبزار (٩/ ٤١٦ رقم ٤٠٢٢) والترمذي (رقم ١٩٨٧) والحاكم (١/ ١٢١ رقم ١٧٨) والدارمي (رقم ٢٧٩١) والطبراني في الصغير (رقم ٥٣٠) وفي الكبير (٢٠/ ١٤٤ رقم ٢٩٦) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٤٤ رقم ٨٠٢٣) وفي الزهد الكبير (٢/ ٣٢٦ رقم ٨٧٤) والحديث صححه الحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح، وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٣١).

المحظور والصبر على المقدور، وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة: فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.

[(١)]ويذكر عن علي ﷺ أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله؛ كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفًا من الله ورجاء ما عنده؛ كتب الله له تسعمائة درجة»[(٢)] وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية»[(٣)].

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ١٣] ثم قال: «صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهو عنه»، وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلًا في قسم المأمور به، والله أعلم.

[(٤)]وروى شعبة بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء»**[(٥)] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل عن إبراهيم

---

(١) ٧٤ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٤١٦ رقم ٣٨٤٦).

(٣) ذكره عن ميمون ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ١٩٤) بينما أخرجه عن عمر بن الخطاب ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٠٢ رقم ٤٨٤)، وذكره عن عمر أيضًا ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٨).

(٤) ٨٤ حادي الأرواح.

(٥) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨١ رقم ١٨٥١) وابن المبارك في الزهد (رقم ٢٠٦) والطبراني في الصغير (رقم ٢٨٨) وفي الأوسط (٣/ ٢٤٠ رقم ٣٠٣٣) وفي الكبير (١٢/ ١٩ رقم ١٢٣٤٥) وفي الدعاء (رقم =

حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرض عليَّ أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله، وفقير فخور**»(١).

وروى الإمام أحمد في مسنده والطبراني في معجمه، واللفظ له من حديث أبي عشانة المعافري أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «**هل تدرون أول من يدخل الجنة**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا، فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئًا، تتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره لم يستطع لها قضاء، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**»(٢).

***

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ

= ١٧٦٨) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٢٨٤ رقم ٢٤١٨): رواه ابن أبي الدنيا والبزار والطبراني في الثلاثة بأسانيد أحدها حسن. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٥): ورواه البزار بنحوه وإسناده حسن.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٥) والطيالسي (رقم ٢٥٦٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٨ رقم ٣٥٩٦٩) والترمذي (رقم ١٦٤٢) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٨٢ رقم ٧٠١٩) وابن حبان (١٠/ ١٥١ رقم ٤٣١٢) (١٦/ ٢٣٣ رقم ٧٢٤٨) والحاكم (١/ ٥٤٤ رقم ١٤٢٩) وحسنه الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٨) والبزار (٦/ ٤٢٦-٤٢٧ رقم ٢٤٥٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٤٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٦٢): رواه أحمد والبزار ورواتهما ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٩): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات.

ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

(١)من شهادته أيضًا: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته، بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك، وتدفعه الفطر والعقول السليمة، كما تدفع الفطر التي فطر عليها الحيوان الأغذية الخبيثة الضارة، التي لا تغذي كالأبوال والأنتان، فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له والطمأنينة به والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه والريبة به وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه ولا اطمأنت إلا به ولا أحبت غيره، ولهذا ندب الله ﷻ عباده إلى تدبر القرآن فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علما ضروريا ويقينا جازما أنه حق وصدق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله وأبرهم

(١) ٤٧١ مدارج جـ٣.

وأكملهم علما وعملا ومعرفة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علمًا ضروريا يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية من الفرح والألم والحب والخوف أنه من عند الله تكلم به حقًّا وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد، فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، وبه احتج هرقل على أبي سفيان، حيث قال له: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا، فقال له وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد»(١).

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقوله: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] يعني: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية، بل الله هو الذي يهدي ويضل، ثم نبههم على أعظم آية وأجلها وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فطمأنينة القلوب الصحيحة والفطر السليمة به وسكونها إليه من أعظم الآيات، إذ يستحيل في العادة، أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧، ٥١) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٦-٣٧) وشرح النووي (١٢/ ١٠٦).

[(١)] ومتى انفتح هذا الباب للعبد؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم ومجريات الخلق، بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فكل ما تراه في الوجود ـ من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك ـ فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥].

[(٢)] هل النفس واحدة أم ثلاث: فقد وقع في كلام كثير من الناس: أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، وبقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١، ٢]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]، والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم.

فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها: بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه وبذكره عن ذكر ما سواه وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه.

فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به، ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش

(١) ٤٢٥ مدارج جـ١.
(٢) ٢٦٧ الروح.

به، فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذي أنزله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز.

قضى الله ﷻ قضاء لا مرد له: أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سبله وزاله. وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع، وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به، فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزل القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به، ويلين له قلبه ومفاصله، حتى كأنه شاهد الأمر، كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه، فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم. وقال إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده، وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينة شيئًا، فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات

ربه، وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلىٰ خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتىٰ كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا، وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به ﷻ أهل الإيمان، حيث قال: ﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤].

فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتىٰ يطمئن القلب إلىٰ ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلىٰ الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقًّا باليوم الآخر، كما في حديث حارثة: أصبحت مؤمنًا حقًّا. فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «**إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، وإلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وأهل النار يعذبون فيها، فقال: «**عبد نوَّر الله قلبه**»(١).

والطمأنينة إلىٰ أسماء الرب تعالىٰ وصفاته نوعان: طمأنينة إلىٰ الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلىٰ ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية. مثاله الطمأنينة إلىٰ القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلىٰ مواضع الأقدار، التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له علىٰ دفعها، فيسلم لها ويرضىٰ بها، ولا يسخط ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسىٰ علىٰ ما فاته، ولا يفرح بما أتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم، فهذه

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (رقم ٩٧٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦ رقم ٣٣٦٧) وعبد بن حميد (رقم ٤٤٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٠ رقم ٣٠٤٢٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧) وجاء اسم الصحابي في هذه المصادر: حارث بن مالك الأنصاري.

طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والرضا والغضب والمحبة، فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس، التي لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ «**صريح الإيمان**»[(١)]. وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر، وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن يواريها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

وهاهنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له، والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده، وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثالا كمال العين بالأبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق، فإذا عدمت هذه الأعضاء

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٧٣-٢٧٤).

القوىٰ التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور والباصر ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلىٰ الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه علىٰ تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينه له بدون التحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلىٰ ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة: المصدقة. وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلىٰ ما وعد الله. وقال الحسن: المصدقة بما قال الله تعالىٰ. وقال مجاهد: هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها، المسلمة لأمر فيما هو فاعل بها. وروىٰ منصور عنه قال: النفس التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جاشًا لأمره وطاعته، وقال ابن أبي نجيح عنه: النفس المطمئنة المخبتة إلىٰ الله. وقال أيضًا: هي التي أيقنت بلقاء الله، فكلام السلف في المطمئنة يدور علىٰ هذين الأصلين: طمأنينة العلم والإيمان، وطمأنينة الإرادة والعمل.

فإذا اطمأنت من الشك إلىٰ اليقين ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغفلة إلىٰ الذكر، ومن الخيانة إلىٰ التوبة، ومن الرثاء إلىٰ الإخلاص، ومن الكذب إلىٰ الصدق، ومن العجز إلىٰ الكيس، ومن صولة العجب إلىٰ ذلة الإخبات، ومن التيه إلىٰ التواضع، ومن الفتور إلىٰ العمل، فقد باشرت روح الطمأنينة، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة، فهي أول مفاتيح الخير، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالًا منه.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

(١)الفرح بالعلم والإيمان والسنة؛ دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له؛ على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله، إذا كان على ثقة من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود أن «الفرح» أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته. والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح، والفرح لذة وبهجة وسرور، فكل فرح راضٍ، وليس كل راضٍ فرحًا، ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضا ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام. والله أعلم.

(٢)والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٦] فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

---

(١) ١٥٨ بدائع جـ٣.

(٢) ٣٠٢ الروح.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] قال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته: الإسلام الذي هداكم إليه: والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله: الإسلام ورحمته: القرآن، فهذا فرح القلب، وهو من الإيمان، ويثاب عليه العبد، فإن فرحه به يدل على رضاه به، بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك على قدر محبته، فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب، وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له، فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة وأثر القلب لا يعبر عنه، فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه، بل هو جل عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأن فرح القلب.

وله فرح آخر، وهو فرحه بما منَّ الله به عليه علمه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به، وكلما تمكن في ذلك قوي فرحه وابتهاجه.

وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر، ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلًا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرح رجل قد خرج براحته التي عليها طعامه وشرابه في سفر، ففقدها في أرض دوية مهلكة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منها فجلس ينتظر الموت،

حتى إذا طلع البدر، رأى في ضوئه راحلته، وقد تعلق زمامها بشجرة، فقال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته[(١)].

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن، لا تثبت لها الجبال، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء، وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذي وفوت المحبوب، فالحكم لله العلي الكبير.

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله، وهي فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه، وقال له ملك الموت: اخرجي أيتها الروح الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ابشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، اخرجي راضية مرضيًّا عنك: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فلو لم يكن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بآيثارها، فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح! منها صلاة الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه، ومنها فتح أبوب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها، وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية، فتفتح ويصلي عليها أهلها ويشيعها مقربوها، هكذا إلى السماء السابعة، فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها، فوقفت بين يديه وأذن لها بالسجود، فسجدت، ثم سمعته سبحانه يقول: اكتبوا كتابه في عليين، ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها، وما أعد الله له، ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به، ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله، فيجدهم على أحسن حال،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٤) وشرح النووي (٣/ ٤٠) (١٧/ ٧١).

ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر، هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه في ظل العرش، وشربه من الحوض، وأخذه كتابه بيمينه، وثقل ميزانه، وبياض وجهه، وإعطائه النور التام والناس في الظلمة، وقطعه جسر جهنم بلا تعويق، وانتهائه إلى باب الجنة وقد أزلفت له في الموقف، وتلقي خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة، وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه.

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه، تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده، وإنما يكون هذا لأهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم، وسلامه عليهم وتكليمه إياهم ومحاضرته لهم.

***

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾.

[(١)]استدل على تفضيل النكاح على التخلي لنوافل العبادة بأن الله تعالى ﷻ اختار النكاح لأنبيائه ورسله، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]. وقال في حق آدم: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] واقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات، واختار لنبيه محمد ﷺ أفضل الأشياء، فلم يحب له ترك النكاح، بل زوجه بتسع فما فوقهن، ولا هدي فوق هديه.

ولو لم يكن فيه إلا سرور النبي ﷺ يوم المباهاة بأمته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه بصدد أنه لا ينقطع عمله بموته.

ولو لم يكن فيه إلا أنه يخرج من صلبه من يشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة.

ولو لم يكن فيه إلا غض بصره وإحصان فرجه عن التفاته إلى ما حرم الله تعالى.

---

(١) ١٥٨ بدائع جـ٣.

ولو لم يكن فيه إلا تحصين امرأة يعفها الله به، ويثيبه على قضاء وطره ووطرها، فهو في لذاته وصحائف حسناته تتزايد.

ولو لم يكن فيه إلا ما يثاب عليه من نفقته على امرأته وكسوتها ومسكنها ورفع اللقمة إلى فيها.

ولو لم يكن فيه إلا تكثير الإسلام وأهله وغيظ أعداء الإسلام.

ولو لم يكن فيه إلا ما يترتب عليه من العبادات، التي لا تحصل للمتخلي للنوافل.

ولو لم يكن فيه إلا تعديل قوته الشهوانية الصارفة له عن تعلق قلبه بما هو أنفع له في دينه ودنياه، فإن تعلق القلب بالشهوة أو مجاهدته عليها تصده عن تعلقه بما هو أنفع له، فإن الهمة متى انصرفت إلى شيء انصرفت عن غيره.

ولو لم يكن فيه إلا تعرضه لبنات إذا صبر عليهن وأحسن إليهن كن له سترًا من النار.

ولو لم يكن فيه إلا أنه إذا قدم له فرطين لم يبلغا الحنث أدخله الله بهما الجنة.

ولو لم يكن فيه إلا استجلابه عون الله له، فإن في الحديث المرفوع: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والمجاهد»(١).

***

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

(٢)استشهد على رسالته بشهادة الله له، ولابد أن تعلم هذه الشهادة. وتقوم بها الحجة على المكذبين له، وكذلك قوله: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (٩/ ٣٣٩ رقم ٤٠٣٠) وفي الموارد (رقم ١٦٥٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٩٤ رقم ٥٠١٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٨٣) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وحسنه. والحاكم (٢/ ١٧٤ رقم ٢٦٧٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) ٤٦٩ مدارج جـ٣.

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكذلك قوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦]، وكذلك قوله: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ١-٣] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ [المنافقون: ١] وقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله وتنزيهه عن القبائح وعما لا يليق به، وفي كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين ظهورًا بالحجة والبيان والدلالة وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة والتأييد حتى يظهره على مخالفيه ويكون منصورًا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرعد

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

[1]وقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فكل ما بينه رسول الله ﷺ فعن ربه سبحانه، بينه بأمره وإذنه، وقد علمنا يقينًا وقوع كل اسم في اللغة على مسماه فيها، وأن اسم البر لا يتناول الخردل، واسم التمر لا يتناول البلوط، واسم الذهب والفضة لا يتناول القزدير، وأن تقدير نصاب السرقة لا يدخل فيه تقدير المهر، وأن تحريم أكل الميتة لا يدل على أن المؤمن الطيب عند الله حيًّا وميتًا إذا مات صار نجسًا خبيثًا، وأن هذا من البيان الذي ولَّاه الله رسوله وبعثه به أبعد شيء وأشده منافاة له، فليس هو مما بعث به الرسول قطعًا، فليس إذًا من الدين.

وقد قال النبي ﷺ: **«ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يَدُل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»**[2]. ولو كان الرأي والقياس خيرًا لهم لدلهم عليه، وأرشدهم إليه، ولقال لهم: إذا أوجَبت عليكم شيئًا أو حرمته فقيسوا عليه ما كان بينه وبينه وصفٌ جامع أو ما أشبهه، أو قال ما يدل على ذلك أو يستلزمه، ولما حذرهم من ذلك أشد الحذر، كما ستقف عليه إن شاء الله. وقد أحكم اللسانُ كل اسم على مسماه لا على غيره.

وإنما بعث الله سبحانه محمدًا ﷺ، بالعربية التي يفهمها العربُ من لسانها، فإذا نص سبحانه في كتابه أو نص رسوله على اسم من الأسماء، وعلق عليه حكمًا من

---

(١) ٢٤٥ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٤٤) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥١٨) والمحلى (٤/ ١٩٩) والتمهيد (٢٣/ ٢٨٠).

الأحكام، وجب ألا يوقع ذلك الحكم إلا على ما اقتضاه ذلك الاسم، ولا يتعدى به الوضع الذي وضعه الله ورسوله فيه، ولا يخرج عن ذلك الحكم شيء مما يقتضيه الاسم؛ فالزيادة على ذلك زيادة في الدين، والنقص منه نقص في الدين؛ فالأول القياس، والثاني: التخصيص الباطل، وكلاهما ليس من الدين، ومن لم يقفْ مع النصوص فإنه تارة يزيد في النص ما ليس منه، ويقول: هذا قياس، ومرة ينقص منه بعض ما يقتضيه ويخرجه عن حكمه، ويقول: هذا تخصيص، ومرة يترك النص جملة، ويقول: ليس العمل عليه، أو يقول: هذا خلاف القياس أو خلاف الأصول.

[(١)]وأما معرفة الأيام: فيحتمل أن يريد به أيامه، التي تخصه وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان، ويعلم قصرها، وأنها أنفاس معدودة منصرمة، كل نفس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء. فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء والعبد منساق زمنه. وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم. وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع، فما أولاه أن لا يصرف منها نفسا إلا في أحب الأمور إلى الله، فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطًا، فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه، فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه، فالله المستعان ولا قوة إلا به. ويحتمل أن يريد بالأيام: أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقد فسرت أيام الله بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي.

فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد، والثاني: تفسير مقاتل.

والصواب: أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها «أيامًا»، لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس أي بالوقائع التي كانت في تلك

(١) ٤٤٨ مدارج جـ١.

الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته، قال الله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض، وهي متابعة الهوىٰ والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنىٰ له الانتفاع بالتذكر والتفكر أو بالعظة؟.

[(١)]ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الشكر».

وهي من أعلىٰ المنازل، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان كما تقدم، والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر، وقد أمر الله به ونهىٰ عن ضده، وأثنىٰ علىٰ أهله ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببا للمزيد من فضله، وحارسا وحافظا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسما من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلىٰ مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[النحل: ١١٤] وقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[النحل: ١٢٠-١٢١] وقال عن نوح ﷺ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ

(١) ٢٤٢ مدارج جـ٢.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالىٰ: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورىٰ: ٣٣].

وسمىٰ نفسه شاكرًا وشكورًا، وسمىٰ الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه، وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلًا.

وإعادته للشاكر مشكورًا كقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٢] ورضا الرب عن عبده به كقوله: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧] وقلة أهله في العالمين تدل علىٰ أنهم هم خواصه كقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه قام حتىٰ تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

وقال لمعاذ: «**والله يا معاذ إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(٢).

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهم أعنِّي ولا تعن عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر بي، واهدني ويسر الهدىٰ لي، وانصرني علىٰ من بغىٰ عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكَّارًا لك، ذكَّارًا لك، رهَّابًا لك، مطاوعًا لك، مخبتًا إليك، أوَّاهًا منيبًا، رب تقبل**

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٦، ٤٨٣٧) ومسلم (رقم ٢٨١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥) وشرح النووي (١٧/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وصححه. وكذا صححه النووي في رياض الصالحين (ص ٣٢٠).

توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري»[١].

***

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ ﴾.

...[٢]إنه قد يترتب على خلق من يكفر به ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك.

فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت آية الطوفان، وبقيت يتحدث بها الناس على ممر الزمان.

ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم، التي دمرت ما مرت عليه.

ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة.

ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب، يتحدث بها الأمم أمة بعد أمة، واهتدى من شاء الله، فهلك بها من هلك عن بينة، وحي بها من حي عن بينة، وظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وآيات رسله وصدقهم، فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها والجواب عنها وإهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه، ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعدد والشوكة يوم بدر لما حصلت تلك

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢٧ رقم ٩٤٧) وفي الموارد (رقم ٢٤١٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٥ رقم ١٠٤٤٣) وأبو داود (رقم ١٥١٠) والترمذي (رقم ٣٥٥١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم (١/ ٧٠١ رقم ١٩١٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢٠٦).

(٢) ٢٢٣ شفاء.

الآية العظيمة، التي يترتب عليها من الإيمان والهدىٰ والخير ما لم يكن حاصلا مع عدمها، وقد بينا أن الموقوف علىٰ الشيء لا يوجد بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، فلله كم عمرت قصة بدر من ربع أصبح آهلا بالإيمان، وقد فتحت لأولي النهىٰ من باب وصلوا منه إلىٰ الهدىٰ والإيقان!!

وكم حصل بها من محبوب للرحمن وغيظ للشيطان، وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدًّا بالنسبة إلىٰ مصالحها وحكمها، وهي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر وبل الثياب وخرب بعض البيوت بالنسبة إلىٰ مصلحة العامة، وتأمل ما حصل بالطوفان وغرق آل فرعون للأمم من الهدىٰ والإيمان، الذي غمر مفسدة من هلك به حتىٰ تلاشت في جنب مصلحته وحكمته.

فكم لله من حكمة في آياته التي ابتلىٰ بها أعداءه، وأكرم فيها أولياءه، وكم له فيها من آية وحجة وتبصرة وتذكرة.

ولهذا أمر سبحانه رسوله أن يذكر بها أمته، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [إبراهيم: ٥، ٦] فذكرهم بأيامه وإنعامه ونجاتهم من عدوهم وإهلاكهم وهم ينظرون، فحصل بذلك من ذكره وشكره ومحبته وتعظيمه وإجلاله ما تلاشت فيه مفسدة إهلاك الأبناء وذبحهم واضمحلت، فإنهم صاروا إلىٰ النعيم، وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون إذا كبروا وسومه لهم سوء العذاب، وكان الألم الذي ذاقه الأبوان عند الذبح أيسر من الآلام التي كانوا تجرعوها باستعباد فرعون وقومه لهم بكثير، فحظي بذلك الآباء والأبناء.

وأراد سبحانه أن يُري عباده ما هو من أعظم آياته، وهو أن يربي هذا المولود الذي

ذبح فرعون ما شاء الله من الأولاد في طلبه في حجر فرعون وفي بيته وعلى فراشه.

فكم في ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية وتبصرة، وهي موقوفة على لوازمها وأسبابها، ولم تكن لتوجد بدونها، فإنه ممتنع، فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلتها كأن لم تكن.

وكذلك الآيات التي أظهرها سبحانه على يد الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم والعجائب والحكم والمصالح والفوائد التي في تلك القصة التي تزيد على الألف، لم تكن لتحصل بدون ذلك السبب، الذي كان فيه مفسدة حزونة يعقوب ويوسف، ثم انقلبت تلك المفسدة مصالح، اضمحلت في جنبها تلك المفسدة بالكلية، وصارت سببًا لأعظم المصالح في حقه، وحق يوسف، وحق الإخوة، وحق امرأة العزيز، وحق أهل مصر، وحق المؤمنين إلى يوم القيامة، فكم جنى أهل المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة، وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة.

وكذلك المفسدة التي حصلت لأيوب من مس الشيطان له بنصب وعذاب اضمحلت وتلاشت في جنب المصلحة والمنفعة التي حصلت له ولغيره، عند مفارقة البلاء وتبدله بالنعماء، بل كان ذلك السبب المكروه هو الطريق الموصل إليها، والشجرة التي جنيت ثمار تلك النعم منها.

وكذلك الأسباب التي أوصلت خليل الرحمن إلى أن صارت النار عليه بردًا وسلامًا: من كفر قومه وشركهم وتكسيره أصنامهم وغضبهم لها، وإيقاد النيران العظيمة له، وإلقائه فيها بالمنجنيق، حتى وقع في روضة خضراء في وسط النار، وصارت آية وحجة وعبرة ودلالة للأمم قرنا بعد قرن، فكم لله سبحانه في ضمن هذه الآية من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، ورحمة وحجة وبينة، لو تعطلت تلك الأسباب لتعطلت هذه الحكم والمصالح والآيات، وحكمته وكماله المقدس يأبى ذلك، وحصول الشيء بدون لازمه ممتنع، وكم بين ما وقع من المفاسد الجزئية في هذه القصة وبين جعل صاحبها إماما للحنفاء إلى يوم القيامة!!

وهل تلك المفاسد الجزئية إلا دون مفسدة الحر والبرد والمطر والثلج بالنسبة إلى مصالحها بكثير، ولكن الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] ظلوم لنفسه، جهول بربه وعظمته وجلاله وحكمته وإتقان صنعه.

وكم بين إخراج رسول الله ﷺ من مكة على تلك الحال ودخوله إليها ذلك الدخول الذي لم يفرح به بشر حبورًا لله، وقد اكتنفه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، والمهاجرون والأنصار قد أحدقوا به والملائكة من فوقهم والوحي من الله ينزل عليه، وقد أدخله حرمه ذلك الدخول، فأين مفسدة ذلك الإخراج الذي كان كأن لم يكن؟!

ولولا معارضة السحرة لموسى بإلقاء العصي والحبال حتى أخذوا أعين الناس واسترهبوهم، لما ظهرت آية عصا موسى، حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم، ولهذا أمرهم موسى أن يلقوا أولًا ثم يلقي هو بعدهم.

ومن تمام ظهور آيات الرب تعالى وكمال اقتداره وحكمته: أن يخلق مثل جبريل صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها، وهو السفير في كل خير وهدى وإيمان وصلاح.

ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس، الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها، وهو الداعي إلى كل شر وأصله ومادته، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام والأرض والسماء والجنة والنار[1].

***

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝﴾.

[2]الشكر معه المزيد أبدًا، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر.

---

(١) بقية البحث نقل منه قسم تقدم في سورة المائدة جـ٢ ص ٣٤٨ (ج).

(٢) ٢٤٦ مدارج جـ٢.

وفي أثر إلهي: يقول الله ﷻ: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب»(١).

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده»(٢). وفي هذا قيل:

ومن الرزية أن شكري صامت ... عما فعلت وأن برك ناطق
أأرى الصنيعة منك ثم أُسِرُّها ... إني إذًا ليد الكريم لسارق(٣)

وتكلم الناس في الفرق بين «الحمد» و«الشكر» أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره»(٤).

والفرق بينهما: أن «الشكر» أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، و«الحمد» أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون: بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافًا، وبالجوارح طاعة وانقيادًا. ومتعلقه: النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة في تحقيق الشكر (ص ١١٦) ضمن مجموعة ابن تيمية في التزكية والسلوك.

(٢) تقدم تخريجه في أول هذا الجزء.

(٣) هذان البيتان من بحر الكامل، وينسبان إلى أبي تمام الطائي حبيب بن أوس أحد أمراء البيان، في شعره قوة وجزالة، مات سنة ٢٣١هـ. وذكر البيتين أبو منصور الثعالبي في المنتحل (ص ١٦٠).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩٦- ٩٧ رقم ٤٣٩٥) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٢٤ رقم ١٩٥٧٤) والديلمي في الفردوس (٢/ ١٥٥ رقم ٢٧٨٤) وقال المناوي في الفتح السماوي (١/ ٩٩-١٠٠): رجاله ثقات، لكنه منقطع بين قتادة وابن عمرو. وكذا قال السيوطي في تدريب الراوي (١/ ٥٧).

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس، فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان.

(١) النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به، حتى لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد، فقال: «أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيه بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها، لتشكرها» فأعجبه ذلك منه، وقال: «ما أحسن تقسيمه».

(٢) قوله تعالى إخبارًا عن الكفار أنهم قا لوا: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧]، فاعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر، فكما لا نكون نحن رُسُلًا فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا، وهذا من أبطل القياس، فإن الواقع من التخصيص والتفضيل وجعل بعضٍ هذا النوع شريفًا وبعضه دنيًّا، وبعضه مرءوسًا وبعضه رئيسًا، وبعضه مِلكًا وبعضه سُوقة، يبطل هذا القياس، كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

---

(١) ١٧١ فوائد.
(٢) ١٤٩ أعلام جـ١.

وأجابت الرسل عن هذا السؤال بقولهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١] وأجاب الله سبحانه عنه بقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤] فاعتبروا المساواة في البشرية وما هو من خصائصها من الأكل والشرب، وهذا مجرد قياس شبه وجمع صوري، ونظير هذا قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦].

ومن هذا قياسُ المشركين الربا على البيع بمجرد الشبه الصوري، ومنه قياسهم الميتة على الذكيِّ في إباحة الأكل بمجرد ا لشبه...

***

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

(١) قالت الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً. وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصادف الحق - لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًّا من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جُماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل

---

(١) ٢٥٧ طريق الهجرتين.

القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب[1]، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزءٌ من ماهيته.

والمقصود: أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟ وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه، فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك، فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر، لو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان. فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم.

***

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[إبراهيم: ١٨].

[2]شبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٨٢) وتحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٦).
(٢) ١٧٠ أعلام جـ١.

المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله ﷻ وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثرًا من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه موافقًا لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبول، وثلاثة مردودة، فالمقبول: الخالص الصواب. فالخالص أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله، والثلاثة مردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار.

(1) وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاث أحوال:

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين؛ فيرد جيش الهوى مغلوبًا. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم الذين قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]، وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وخصهم بهدايته دون من عداهم.

(١) ٢٠ عدة الصابرين.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاءوا، وله معهم حالتان: إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع، كما قال القائل:

وكنت امرءًا من جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس من جندي[(١)]

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء[(٢)]. وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: **«العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»**[(٣)]. وأصحاب هذه الحال أنواع شتى: فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول يصد عن سبيل الله،

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى الخبز أرزي، وهو نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري أبو القاسم، شاعر غزلي كان أميًّا ويخبز خبز الأرز بمربد البصرة في دكان وينشد أشعاره في الغزل والناس يزدحمون عليه ويتعجبون منه، مات سنة ٣١٧ هـ. ذكر البيت الزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (١/ ٣٦٦) وذكره أيضًا ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٦٣) والمناوي في فيض القدير (٥/ ٣٠٢) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٢٠٧) ونسبه إلى الخوارزمي. ولعله تصحيف، وأضاف إليه بيتًا آخر فقال:

فلو مات قبلي كنت أحسن بعده ... طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

(٢) فعن أبي هريرة ؓ كان رسول الله ﷺ يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. أخرجه البخاري (رقم ٦٣٤٧) ومسلم (رقم ٢٧٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والبزار (٨/ ٤١٧ رقم ٣٤٨٩) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٥٠ رقم ١٠٥٤٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٧١) والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) والطبراني في الكبير (٧/ ٢٨١ رقم ٧١٤١) والطيالسي (رقم ١١٢٢).

ويبغيها جهده عوجًا وتحريفًا، ليصد الناس عنها، ومنهم المعرض عما جاء به الرسول المقبل على دنياه وشهواتها فقط.

ومنهم: المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام.

ومنهم: الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب، ومنهم من إذا وعظ قال: واشواقاه إلى التوبة، ولكنها قد تعذرت عليَّ، فلا مطمع لي فيها.

ومنهم: من يقول ليس الله محتاجا إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي، والله غفور رحيم.

ومنهم: من يقول ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته.

فكثـر مـا اسـتطعت مـن الخطايـا إذا كـان القـدوم علـى كـريم(١)

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما عملت، وما قد ينفع الغريق خلاص أصبعه وباقي بدنه غريق، ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت، وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين، الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل، التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر، يستعمله في رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلما وباعه للكفار وسلمه إليهم، وجعله أسيرا عندهم.

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهو أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيرا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء، ويسخر منه ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط

---

(١) ذكر هذا البيت ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمة أبي نواس، حيث قال فيه: وما أحسنه، ظنه بربه عز وجل، حيث يقول: وذكر البيت. بينما ذكر عجز البيت ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ٤٦).

عليه عدوه، الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له، سلط عليه عقوبة له.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم، كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده، وحزبه فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه، فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

***

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[(1)]قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة: سمعت ابن أبي الدنيا يقول: أن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى، يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره، لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد الطائي: ثنا عبدالله بن بكر السهمي عن أبيه: أن قوما كانوا في سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر، فيقول: أتدرون ما يقول هذا؟ فيقولون: لا. فيقول: يقول كذا وكذا. فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق فيه هو أم كاذب، إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها، فجعلت تحنو عنقها إليها وتثغو، فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاة؟ قلنا: لا، قال: تقول للسخلة: الحقيني لا يأكلك الذئب، كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان. قال: فانتهينا إلى الراعي، فقلنا له: ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟ قال: نعم، ولدت سخلة عام أول، فأكلها الذئب بهذا المكان.

ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها، وهو يرغو ويحنو عنقه إليها، فقال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا قال فإنه يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه، قال: فانتهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط، وأنه في سنامه، قال: فأناخوا البعير وحطوا عنه، فإذا هو كما قال[(2)].

فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت، وقد حذر الله سبحانه ابن آدم من ذئبه مرة بعد مرة، وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه ويبيت معه ويصبح:

---

(١) ١٠١ شفاء.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٩/ ٢٧٢-٢٧٣) وابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (رقم ٣٩٧).

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

[1] ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس. وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، والله أعلم.

***

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

[2] شبه ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين، الذين يقولون: «الكلمة الطيبة هي شهادة، أن لا إله إلا الله»، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قال: «كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا

(١) ٩ بدائع جـ٤.
(٢) ١٧١ أعلام جـ١.

الله كشجرة طيبة، وهو المؤمن، أصلها ثابت قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء»[(١)].

وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة هذا مثل الإيمان؛ فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعه في السماء خشية الله»[(٢)] والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن؛ فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله، التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكةً سبل ربها ذللًا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلِمًا كثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]، فأخبر

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٣) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢٠) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٣١).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤).

سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، متصفًا بموجبها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت. ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعيد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾، يعني بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء يكون المؤمن يعمل في الأرض، ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض[(١)].

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلامٌ طيب وعمل صالح يصعد إلى الله[(٢)].

وقال الربيع بن أنس: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض وفرعها في السماء. قال: ذكره في السماء[(٣)]. ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة. وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢٠).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢١).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٠٤) وانظر: تفسير السيوطي (٥/ ٢١).

والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته.

فمن ذلك أن الشجرة لابد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام، ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدى والدل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر والتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الإيمان يخلق في القلب، كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم»**[(١)].

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٥ رقم ٥) والديلمي في الفردوس (١/ ١١٤ رقم ٣٨٧) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، وقال الحاكم: هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع، واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له أو يضعف الأصل، ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به، فإنه يفوته ربح كثير وهو لا يشعر فالمؤمن دائما سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله، لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته.

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جني، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق، ولا أعلاها مونق، ولا جني لها، ولا تعلو بل تعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك، فالخسران كل الخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من

قرار. يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيراً ولا يقوله، ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ومثل كلمة خبيثة ـ وهي الشرك ـ كشجرة خبيثة يعني الكافر، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملًا[(١)]. فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض. ولا فرع في السماء؛ يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء[(٢)].

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلًا لقي رجلًا من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيامة[(٣)].

وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه، وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٣) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٢٠).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٣).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٢٦).

لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالىٰ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال تعالىٰ لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «وهو يسألهم ويثبتهم»[(١)].

وقال تعالىٰ لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت. ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولًا.

والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة ولهذا ترىٰ الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفىٰ ذلك إلا علىٰ ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: والله ما فهمت منه شيئا إلا أني رأيت لكلامه صولة، ليست بصولة مبطل، فما منح العبد أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أن هذه الآية

(١) لم أجده بهذه اللفظ في الصحيحين كما أشار المصنف رحمه الله، ولكن وجدته عند الترمذي (رقم ٢٥٥٧) بلفظ: «حتى نرىٰ ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم».

نزلت في عذاب القبر[١].

وقد جاء هذا مبينًا في أحاديث صحاح؛ فمنها ما في المسند من حديث داود ابن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: **«يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعده، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول له: صدقت فيفتح له باب إلى النار، فيقال له: هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فإن الله أبدلك به هذا. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض له، فيقال له: اسكن. ثم يفسح له في قبره، وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري فيقال له: لا دريت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين»** قال بعض أصحابه: يا رسول الله ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[٢]. وفي المسند نحوه من حديث البراء بن عازب.

وروى المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ وذكر قبض روح المؤمن، فقال: **«يأتيه آتٍ، يعني في قبره فيقول: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، قال: فينتهره فيقول: ما ربك؟ وما دينك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حيث يقول الله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ**

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٧١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٤-٢٣٩) وشرح النووي (١٧/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه البيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٣٢) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤١٧ رقم ٨٦٥) والطبري في تفسيره (١٣م٢١٤) والطبراني في الأوسط (٩/ ٣٨ رقم ٩٠٧٦) وصححه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٧-٤٨): رواة أحمد والبزار.... ورجاله رجال الصحيح.

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فيقال له: صدقت»(١) وهذا حديث صحيح.

وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال: «إذا قيل له في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث»(٢) وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو وعن زاذان عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ وذكر قبض روح المؤمن قال: «فترجع روحه في جسده، ويبعث إليه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه وينتهرانه، ويقولان: من ربك؟ فيقول الله وما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول محمد رسول الله، فيقولان له: وما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾»(٣) رواه ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد.

وفي صحيحه أيضًا: من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، وكان الصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٥) وأبو داود (رقم ٤٧٥٣) والطيالسي (رقم ٧٥٣) قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٦): رواه أبو داود ورواه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح أطول من هذا.

(٢) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٥٠٤-٥٠٥ رقم ٧٢٦) وعبد الرزاق (٣/ ٥٨٠-٥٨١ رقم ٦٧٣٧) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢١٧) وفي تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٤ رقم ٤٩٥-٧٢٠) والروياني في مسنده (رقم ٣٩٢) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧).

يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك عنه فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقال إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعم تسألوني؟ فيقال له: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد ﷺ؟ فيقال: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاء بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، وينور له فيه، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورًا، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب، وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾»[1].

[2]هي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار، أو يختص بالمسلم والمنافق؟ فقال أبو عمر بن عبد البر في (كتاب التمهيد): والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق [ممن] كان منسوبًا إلى أهل القبلة ودين الإسلام [ممن حقن دمه] بظاهر الشهادة، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام[3] فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر والمسلم، قال الله

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٥٠٦ رقم ٧٢٨) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٦ رقم ١٢٠٦٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٠٦).

(٢) ١٠٣ الروح.

(٣) التمهيد (٢٢/ ٢٥٢) وانظر: فيض القدير (٣/ ٢٧٠) وما بين المعكوفين من التمهيد.

تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وقد ثبت في الصحيح؛ أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وفي الصحيحين: عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم**»(١) وذكر الحديث.

(٢)قال هناد بن السري في كتاب الزهد: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن شقيق [عن مسروق] عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها، فدخل النبي ﷺ عليّ فذكرت ذلك له، فقال: «**والذي نفسي بيده إنهم ليعذبون في قبورهم، حتى تسمع البهائم أصواتهم**»(٣).

قلت: وأحاديث المسألة في القبر كثيرة، كما في الصحيحين، والسنن: عن البراء بن عازب، أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم إذا سئل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾**»، وفي لفظ: «**نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: الله ربي، ومحمد نبي، فذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾**»(٤).

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولًا كما تقدم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٣٨) ومسلم (رقم ٢٨٧٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٧).

(٢) ٦٦ الروح.

(٣) أخرجه هناد بن السري في الزهد (١/ ٢١٢ رقم ٣٤٧) ومن طريقه أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٦٦٢ رقم ٢١٩٣) وفي الصغرى (المجتبى) (رقم ٢٠٦٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٥ رقم ١٢٠٢٥) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧٨٦ رقم ١٤١٥) وأحمد (٦/ ٢٠٥) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٩٥). وما بين المعكوفين استدركته من الزهد لهناد، وقد أشار محققه الدكتور عبد الرحمن الفريوائي حفظه الله في تحقيقه للزهد بأن قوله: [عن مسروق] سقط من تذكرة القرطبي رحمه الله.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٩٩) ومسلم (رقم ٢٨٧١) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٦).

وقد صرح في هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه، وهذا بين في أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

وقد روى مثل حديث البراء قبض الروح والمسألة والنعيم والعذاب أبو هريرة، وحديثه في المسند وصحيح أبي حاتم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنًا، كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان: ما قبلي مدخل فيقال له: اجلس فيجلس، قد مثلت له الشمس، وقد أخذت الغروب، فيقال له: هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي. فيقولون: إنك ستصلي أخبرنا عما نسألك عنه أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه: وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله. فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدئ منه، وتجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير معلق في شجر الجنة، قال فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾. وذكر في الكافر ضد ذلك، إلى أن قال: ثم يضيق عليه في قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾**»[1] [طه: ١٢٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ٣٨٠-٣٨٢ رقم ٣١١٣) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٨٠) وأحمد (٣/ ١٢٦) والترمذي (رقم ١٠٧١) وحسنه.

وفي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله قال: فيقول: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة» قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيراهما جميعًا» قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا يملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون، ثم رجع إلى حديث أنس قال: «فأما الكافر والمنافق فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين»(١)...

(٢)ومن ذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فهاهنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابها، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها، ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

ونظير ذلك قول يوسف الصديق: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤] وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله والانصراف أثر فعله، وهو فعل النسوة.

***

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ٥٩ شفاء.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾.

[(1)]من ذلك قوله تعالىٰ حكاية عن خليله إبراهيم إنه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ [الحديد: ٢٧] وقوله حكاية عن زكريا أنه قال عن ولده: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، وقال في الطرف الآخر: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] وهذه الأكنة والوقر هي شدة البغض والنفرة والإعراض، التي لا يستطيعون معها سمعًا ولا عقلًا.

والتحقيق أن هذا ناشئ عن الأكنة والوقر، فهو موجب ذلك ومقتضاه.

فمن فسر الأكنة والوقر به فقد فسرهما بموجبهما ومقتضاهما وبكل حال، فتلك النفرة والإعراض والبغض من أفعالهم، وهي مجعولة لله سبحانه، كما أن الرأفة والرحمة وميل الأفئدة إلىٰ بيته هو من أفعالهم، والله جاعله فهو الجاعل للذوات وصفاتها وأفعالها وإراداتها واعتقاداتها، فذلك كله مجعول مخلوق له، وإن كان العبد فاعلًا له باختياره وإرادته.

فإن قيل: هذا كله معارض بقوله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] والبحيرة والسائبة إنما صارت كذلك بجعل العباد لها، فأخبر سبحانه أن ذلك لم يكن بجعله.

قيل: لا تعارض بحمد الله بين نصوص الكتاب بوجه ما، والجعل ههنا جعل شرعي أمري، لا كوني قدري، فإن الجعل في كتاب الله ينقسم إلىٰ هذه النوعين كما ينقسم إليهما الأمر والإذن والقضاء والكتابة والتحريم، كما سيأتي بيانه إن شاء الله،

(١) ٥٦ شفاء.

فنفى سبحانه عن البحيرة والسائبة جعله الديني الشرعي، أي لم يشرع ذلك ولا أمر به، ولكن الذين كفروا افتروا عليه الكذب، وجعلوا ذلك دينا له بلا علم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣] فأخبر سبحانه أن هذه الفتنة الحاصلة بما ألقى الشيطان هي بجعله سبحانه، وهذا جعل كوني قدري.

ومن هذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «**اللهم اجعلني لك شكّارًا لك، ذكّارًا لك، رهّابًا لك، مطواعًا لك، مخبتًا لك، أوّاهًا منيبًا**»(١) فسأل ربه أن يجعله كذلك وهذه كلها أفعال اختيارية واقعة بإرادة العبد واختياره. وفي هذا الحديث: «**وسدد لساني**» وتسديد اللسان جعله ناطقًا بالسداد من القول ومثله قوله في الحديث الآخر: «**اللهم اجعلني لك مخلصًا**»(٢) ومثله قوله: «**اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك**»(٣).

ومثله قول المؤمنين: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، فالصبر وثبات الأقدام فعلان اختياريان، ولكن التصبير والتثبيت فعل الرب تعالى، وهو المسؤول، والصبر والثبات فعلهم القائم بهم حقيقة.

ومثله قوله: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢٩ رقم ٩٤٨) وفي الموارد (رقم ٢٤١٤) وأحمد (١/ ٢٢٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٥ رقم ١٠٤٤٣) والترمذي (رقم ٣٥٥١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢٠٦).

(٢) لم أجد هذه اللفظة.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١١، ٤٧٧) والطبراني في الدعاء (رقم ١٤٠٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ٢٦٦) وانظر: فيض القدير (٢/ ١٣٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٢): رواه أحمد من طريق أبي يزيد المدني وفي رواية عن أبي سعيد الحمصي ولم أعرفها وبقية رجالهما ثقات.

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ [النمل: ١٩] وقال ابن عباس والمفسرون بعده: ألهمني. قال أبو إسحاق: وتأويله في اللغة: كفني عن الأشياء إلا نفس شكر نعمتك، ولهذا يقال في تفسير الموزع: المولع، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ موزعًا بالسواك أي مولعًا به، كأنه كف ومنع إلا منه(١).

وقال في الصحاح: وزعته أزعه وزعًا: كففته فاتزع عنه، أي كف، وأوزعته بالشيء: أغريته به فأوزع به، فهو موزع به، واستوزعت الله شكره فأوزعني، أي: استلهمته فألهمني، فقد دار معنى اللفظة على معنى ألهمني ذلك، واجعلني مغرًى به واكفني عما سواه(٢).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة إبراهيم

والحمد لله رب العالمين



(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٨٠) وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٤٦٦) ولسان العرب (٨/ ٣٩١).

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٣٦٤) والقاموس المحيط (ص ٩٩٥) والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥/ ١٧٩ - ١٨٠) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٨٩) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥٦١).

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

...[١]قوله في سورة الحجر: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٦، ٧] قال الله ﷻ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨]، و«الحق» ههنا العذاب.

[٢]قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [الحجر: ١١-١٣] وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما، والثاني في سورة الشعراء في قوله: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨-٢٠١].

قال ابن عباس: سلك الشرك في قلوب المكذبين، كما سلك الخرزة في الخيط، وقال أبو إسحاق: أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل، كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين.

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله: ﴿ نَسْلُكُهُۥ ﴾ فقال ابن عباس: سلكنا الشرك

(١) ٢٤٥ مدارج جـ١.

(٢) ٦١ شفاء.

وهو قول الحسن.

وقال الزجاج وغيره: هو الضلال، وقال الربيع: يعني الاستهزاء، وقال الفراء: التكذيب، وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والتكذيب والاستهزاء والشرك كل ذلك فعلهم حقيقة، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم.

وعندي في هذه الأقوال شيء، فإن الظاهر أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿سَلَكْنَه﴾، فلا يصح أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء، فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين والظاهر اتحاده، فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم وهو القرآن.

فإن قيل: فما معنى سلكه في قلوبهم وهم ينكرونه؟

قيل: سلكه في قلوبهم بهذه الحال، أي سلكناه غير مؤمنين به، فدخل في قلوبهم مكذبًا به، كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقًا به، وهذا مراد من قال: إن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال، ولكن فسر الآية بالمعنى فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم.

فإن قيل: فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لا يؤمنون به.

قيل: لتقوم عليهم بذلك حجة الله، فدخل في قلوبهم، وعلموا أنه حق وكذبوا به؛ فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به مؤمن به مرضي به، وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفرًا من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم، فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه، فتأمله فإنه من فقه التفسير، والله الموفق للصواب.

***

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

(1)قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]؛ متضمن لكنز

---

(١) ٢٠١ فوائد.

من الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده، خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهىٰ، وليس المنتهىٰ إلا إلىٰ الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلىٰ خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل.

وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢١] واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهىٰ.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد، إليه المنتهىٰ، ويستحيل أن يكون المنتهىٰ إلىٰ اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلىٰ غيره بطل عليه ذلك وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

العبد دائمًا متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلىٰ العون عند الأوامر وإلىٰ اللطف عند النوازل، وعلىٰ قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا ناله اللطف ظاهرًا وباطنًا، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف في الظاهر، وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو[١] ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذئ بين يدي سيّده ذليلا له مستكينا، ناظرا إليه بقلبه، ساكنًا إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيّبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجري عليه سيّده أحكامه: رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضوان، وإن سخط فحظه السخط، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها.

[٢]ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه، فتتغذئ به ظاهرًا وباطنًا، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد: كالبريد والرسول، الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها، ينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات.

وهو أيضًا الحامل للحر والبرد، اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات.

وتأمل منفعة الريح، وما يجري له في البر والبحر، وما هيئت له من الرحمة والعذاب. وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المثيرة أولًا فتثيره بين السماء والأرض، ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض، فيصير طبقًا واحدًا، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى، فتلقحه بالماء، ولولاها لكان جهامًا لا ماء فيه، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر، فيفرغ ماءه هنالك. ثم سخرت له بعد أعصاره المفرقة، التي تبثه وتفرقه في الجو، فلا ينزل مجتمعًا؛ ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرقه فتجعله قطرًا.

---

(١) كذا بالأصل: ولعل الصواب: قيل فهو.... (ج).
(٢) ٢١٦ مفتاح جـ١.

وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيماً.

وكذلك الرياح التي تسير السفن، ولولاها لوقفت علىٰ ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلىٰ جفافها.

وبالجملة فحياة ما علىٰ الأرض من نبات وحيوان بالرياح، فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوي النبات ومات الحيوان، وفسدت المطاعم، وأنتن العالم وفسد ألا ترىٰ إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم، الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان، وأمرض الأصحاء، وأنهك المرضىٰ، وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو. فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته، كما قال النبي ﷺ في الرياح: إنها من روح الله تأتي بالرحمة[١].

وتنبه للطيفة في هذا الهواء، وهي أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام، وليس نفس الاصطكاك، كما قال ذلك من قاله، ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعة عنه، فسببه قرع أو قلع، فيحدث الصوت، فيحمله الهواء ويؤديه إلىٰ ما مع الناس، فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم، فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقىٰ في الهواء كما يبقىٰ الكتاب في القرطاس، لامتلأ العالم منه، ولعظم الضرر به، واشتدت مؤنته، واحتاج الناس إلىٰ محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلىٰ استبدال الكتاب المملوء كتابة، فإن ما يلقىٰ من الكلام في الهواء أضعاف ما يوضع في القرطاس، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاسا خفيا،

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا من شرها» أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٨٧ رقم ١٠٠٧) وأبو داود (رقم ٥٠٩٧) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٢٣١ رقم ١٠٧٦٧) وابن ماجه (رقم ٣٧٢٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦١ رقم ٦٢٥٦) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم ٧٢٠) وفي صحيح الجامع (رقم ٣٥٦٤).

يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة، ثم يمحى بإذن ربه، فيعود جديدًا نقيًا لا شيء فيه، فيحمل ما حمل كل وقت. اهـ.

(١) ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١]. فإن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد، فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد.

***

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(٢) قال عن عدوه إبليس: إنه قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

والغاوي ضدُّ الراشد، والعشق المحرم من أعظم الغيِّ.

لهذا كان أتباع الشعراء وأهل السماع الشعري غاوين. كما سماهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. فالغاوون يتبعون الشعراء، وأصحاب السماع الشعري الشيطاني، وهؤلاء لا ينفكون عن طلب وصال، أو سؤال نوال. كما قال أبو تمام لرجل: أما تعرفني؟ فقال: ومن أعرف بك مني؟

أَنْتَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ تَبْرُزُ لِلنَّا ... سِ وَكِلْتَاهُمَا بِوَجْهٍ مُذَالِ
لَسْتَ تَنْفَكُّ طَالِباً لوصال ... مِنْ حَبِيبٍ أَوْ رَاجِياً لِنَوَالِ
أي مَاءٍ يَبْقَى لِوَجْهِكَ هَذَا ... بَيْنَ ذُلِّ الْهَوَى، وَذُلِّ السُّؤَالِ؟(٣)

---

(١) ٥٧ بدائع جـ٣.

(٢) ١٥٠ إغاثة جـ٢.

(٣) هذه الأبيات الثلاثة من بحر الخفيف، وقد ذكرها الصولي في أخبار أبي تمام (ص ١٨٢) ونسبهم إلى عبدالصمد بن المعذل، وذكرها أيضًا أبو منصور الثعالبي في نثر النظم وحل العقد (ص ٤) وابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وآدابه (ص ٢٠٨).وذكر البيتين الأول والثالث ابن =

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

[(١)]أخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: «**أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعًا في السماء**»[(٢)] والرواية «على خَلْق» بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعًا للخلق بالضم، فهي جمع للخلق بالفتح، والمراد تساويهم في الطول والعرض والسن، وإن تفاوتوا في الحسن والجمال، ولهذا فسره بقوله على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعا في السماء.

وأما أخلاقهم وقلوبهم؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**أول زمرة تلج الجنة**» الحديث. وقد تقدم، وفيه: «**لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشية**»[(٣)].

وكذلك وصف الله تعالى نساءهم بأنهن أتراب، أي في سن واحد، ليس فيهن العجائز والشواب. وفي هذا الطول والعرض والسن من الحكمة ما لا يخفى، فإنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات، لأنه أكمل سن القوة عظم آلات اللذة، وباجتماع الأمرين يكون كمال اللذة وقوتها، بحيث يصل في اليوم الواحد إلى مئة عذراء، كما سيأتي أن شاء الله تعالى.

ولا يخفى التناسب الذي بين هذا الطول والعرض، فإنه لو زاد أحدهما على الآخر فات الاعتدال، وتناسب الخلقة يصير طولا مع دقة أو غلظا مع قصر، وكلاهما غير مناسب، والله أعلم.

***

العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٢/ ٧٣) وقائل هذا الشعر هو عبدالصمد بن المعذل العبدي القيسي من شعراء الدولة العباسية، وكان هجَّاء شديد العارضة. مات سنة ٢٤٠هـ.

(١) ١١٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٢٧)، ومسلم (رقم ٢٨٣٤)، وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٥)، ومسلم (رقم ٢٨٣٤) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٥٤).

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

(١)هذا مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه، وأعيا العليل داؤه، وإنما حكاه الله سبحانه في كتابه عن طائفتين من الناس من النساء، وعشاق الصبيان المردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط، فقال تعالى إخبارًا عنهم لما جاءت الملائكة لوطًا: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٦٧-٧٢].

(٢)والله سبحانه إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاه عن امرأة العزيز، وكانت مشركة على دين زوجها، وكانوا مشركين، وحكاه عن اللوطية، وكانوا مشركين، فقال تعالى في قصتهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢] وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

***

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

(٣)من الآيات: التي فيها وقائعه سبحانه التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم،

---

(١) ٣١٧ زاد المعاد جـ٣.

(٢) ١٥٠ إغاثة جـ٢.

(٣) ١٨٨ التبيان.

المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٦]، أي بطريق ثابت لا يزول عن حاله، وقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩] أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون، وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال عن قوم عاد: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لا عدة له ولا عدد ولا مال، فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم أو أكثرهم على تكذيبه ومعاداته، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه، والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عددا وقوة ومنعة وأموالًا:

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا[1]

فهلا امتنعوا إن كانوا على الحق، وهم أكثرهم عددا، وأقوى شوكة بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل؟.

(١) لم أجد البيتين فيما لدي من مصادر.

ومن منازل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الفراسة»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين وقال قتادة: للمعتبرين[(٢)]. وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]. فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط بل أخبر به خبرا مؤكدا بالقسم فقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه.

و«اللحن» ضربان: صواب وخطأ، فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»[(٣)].

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية. ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه وهو مما ... يشتهي السامعون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيانا ... وخير الحديث ما كان لحنا[(٤)]

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٢.

(٢) أقوال مجاهد وابن عباس وقتادة أخرجها الطبري في تفسيره (١٤/ ٤٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٦٧)، ومسلم (رقم ١٧١٣) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٤).

(٤) هذان البيتان من بحر الخفيف، وهما من قول مالك بن أسماء الفزاري أبي الحسن، شاعر غزل ظريف من الولاة، تقلد خوارزم وأصبهان للحجاج، مات سنة ١٠٠ هـ وذكر البيتين أبو علي القالي في الأمالي =

والثالث: فساد المنطق في الإعراب. وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطأ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية، والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله**»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(١) [الحجر: ٧٥].

(٢)البصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال مجاهد: للمتفرسين(٣).

= الأمالي (١/ ١١-١٢) والجاحظ في البيان والتبيين (١/ ٢٠٨) ونشوان الحميري في الحور العين (ص ٢١٩) وياقوت الحموي في معجم الأدباء (١/ ١٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٥/ ٤٣٩) وابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٣٨٠) والقرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٥٣) وشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاويه (٢٧/ ٢٠٣).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٢٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٩-١٦٠ رقم ٣٥٨) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٨٦) (٤/ ٣٥) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٣ رقم ٧٨٤٣) وفي الكبير (٨/ ١٠٢ رقم ٧٤٩٧) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٢٠٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٨٧ رقم ٦٦٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٨) وتحفة الأحوذي (٨/ ٤٤١).

(٢) ١٢٩ مدارج جـ١.

(٣) أخرجه الثوري في تفسيره (ص١٦٠-١٦١) وذكره بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٥/ ٢٧١) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٤٤١).

و«التوسُّم» تفعل من السيما، وهي العلامة، فسُمِّي المتفرس متوسما لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب، فيستدل بالعيان على الإيمان، ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء، لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل من الأمر والنهي والثواب والعقاب، وقد ألهم الله ذلك لآدم وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء وبنوه هم نسخته وخلفاؤه، فكل قلب فهو قابل لذلك وهو فيه بالقوة وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة.

وبعث الله رسله مذكرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد بنور الوحي والإيمان فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد، فيصير نورا على نور، فتقوى البصيرة، ويعظم النور ويدوم بزيادة مادته ودوامها، ولا يزال في تزايد حتى يُرَى على الوجه والجوارح والكلام والأعمال، ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه في الغلاف والأكنة، فأظلم وعمي عن البصيرة، فحجبت عنه حقائق الإيمان، فيرى الحق باطلا والباطل حقا، والرشد غيا والغي رشدًا، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] و«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة، وهي نوعان: فراسة علوية شريفة مختصة بأهل الإيمان وفراسة سفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر، وهي فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل، فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور والإخبار ببعض المغيبات السفلية، التي لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالا للنفس ولا زكاة ولا إيمانًا ولا معرفة، وهؤلاء لا تتعدى فراستهم هذه السفليات، لأنهم محجوبون عن الحق تعالى، فلا تصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه، وطريق هؤلاء وهؤلاء.

وأما فراسة الصادقين العارفين بالله وأمره، فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته ودعوة الخلق إليه على بصيرة كانت فراستهم متصلة بالله متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان، فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال، وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب، وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله، فحملت كل إنسان على قدر استعداده: علمًا وإرادة وعملًا.

ففراسة هؤلاء دائما حائمة حول كشف طرق الرسول وتعرفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين، فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده.

(1)الفرق بين الفراسة والظن: أن الظن يخطئ ويصيب، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته، ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعضه إثم. وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أي للمتفرسين.

وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]. فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله، فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه.

وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله».

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله؛ فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من

(١) ٢٩٠ الروح.

الله بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه، فرأىٰ في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربه ﷻ أنه قال: «**ما تقرب إليَّ عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي**»[١].

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله، فسمع به، وأبصر به، وبطش به، ومشىٰ به، فصار قلبه كالمرآة الصافية، تبدو فيها صور الحقائق علىٰ ما هي عليه، فلا تكاد تخطىء له فراسة، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر علىٰ ما هو عليه، فإذا سمع بالله سمعه علىٰ ما هو عليه[٢].

***

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

[٣]قال غير واحد من السلف: هو عن قول: «لا إله إلا الله»، وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فالسؤال عمّاذا كانوا يعبدون، هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عمَّاذا أجابوا المرسلين: سؤال عن الوسيلة، والطريق المؤدية إليها: هل سلكوها؟ وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها، فعاد الأمر كله إليها. وأمر هذا شأنه حقيق بأن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٤٣-٣٤٤) وشرح النووي (١٥/ ١٥١).
(٢) استمر المؤلف في البحث واستشهد علىٰ ما ذكره بآثار وحكايات يرجع إليها لمن أراد (ج)
(٣) ٢٩٧ طريق الهجرتين.

تنعقد[1] عليه الخناصر، ويعض عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يطلب على فضله، بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يطلب على الفضلة. والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه.

***

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

[2]لما نزل عليه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فصدع بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغيرَ والكبيرَ، والحرَّ والعبدَ، والذكَر والأُنثى، والأحمَرَ والأسودَ، والجِنَّ والإنسَ.

ولما صَدَعَ بأمرِ الله، وصرَّحَ لقومه بالدَّعوة، وناداهم بسبِّ آلهتهم، وعَيبِ دينهم، اشتد أذاهم له، ولمن استجاب له مِن أصحابه، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى، وهذهِ سُنَّة الله ﷻ في خلقه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]. ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]. فَعزَّى سبحانه نبيّه بذلك، وأن له أُسوةً بمن تقدَّمه من المرسلين، وعزَّى أتباعه بقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ

(١) كذا بالأصل ولعلها تعقد (ج).
(٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ٢.

مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-١٠].

***

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝ ﴾.

(١) في لزوم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بكل عبد إلى الموت قال الله تعالى لرسوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال أهل النار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧]. واليقين هنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير، وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون ـ أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**»(٢)، أي الموت وما فيه، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف.

بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ؟ ويلتمسان منه الجواب.

---

(١) ١٠٣ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٨٧) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٢٦٤).

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه.

ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

(١)﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هنا الموت باتفاق أهل الإسلام، فجاءه ﷺ إذ جاءه وإرادته وقصده ونيته في الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها.

(٢)فإن الله ﷻ أمره وأمر سائر رسله بعبادته إلى حين انقضاء آجالهم. فقال: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وهو الموت بالإجماع، كما قال في الآية الآخرى عن الكفار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧] وقال ﷺ: «أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه» قاله لما مات عثمان، وقال المسيح: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠-٣١] فهذه وصية الله

---

(١) ٢٢٤ طريق الهجرتين.

(٢) ١٦٦ مدارج السالكين جـ١.

للمسيح، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم، قال الحسن: لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلًا دون الموت[(١)].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجر

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٨) وأحمد بن حنبل في الزهد (ص ٢٧٢).

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

[1]تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته، وأنه خلق غير ذي قوائم؛ لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء، ولم يخلق له رئة؛ لأن منفعة الرئة التنفس، والسمك لم يحتج إليه، لأنه ينغمس في الماء، وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد، يقذف بها من جانبيه، كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة، وكسى جلده قشورًا متداخلة كتداخل الجوشن؛ ليقيه من الآفات، وأعين بقوة الشم، لأن بصره ضعيف والماء يحجبه، فصار يشم الطعام من بعد فيقصده.

وقد ذكر في بعض كتب الحيوان: أن من فيه إلى صماخه منافذ، فهو يصب الماء فيها بفيه، ويرسله من صماخيه، فيتروح بذلك، كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه، ثم يرسله ليتروح به، فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري، فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر: بحر هواء يسبح فيه حيوان البر، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر، فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات، فكما يختنق الحيوان البري في الماء، يختنق الحيوان البحري في الهواء.

فسبحان من لا يحصي العادون آياته، ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد، بل إن علموا فيها وجهًا جهلوا منها أوجهًا.

فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلًا، ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة.

---

(١) ٢٥١ مفتاح جـ١.

وحكمة ذلك أن يتسع لما يتغذىٰ به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك حتىٰ السباع، لأنها في حافات مطموسة جاثمة، تعكف علىٰ الماء الصافي؛ فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك، والطير تأكله، والناس تأكله، والسمك الكبار تأكله، ودواب البر تأكله، وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف؛ اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة، ولو رأىٰ العبد ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف، التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل، الذي لا نسبة له أصلًا إلىٰ ما غاب عنهم؛ لرأىٰ العجب، ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده، التي لا يعلمها إلا هو.

(١) وتطلق الروح علىٰ القرآن الذي أوحاه الله تعالىٰ إلىٰ رسوله، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. وعلىٰ الوحي الذي يوحيه إلىٰ أنبيائه ورسله، قال تعالىٰ: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل: ٢].

وسمىٰ ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة؛ بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع علىٰ أرواح قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم … وجدت لمسرها علىٰ كبدي بردا[٢]

---

(١) ٢٦٤ الروح.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وعجز البيت ذكره عامر بن الحارث النميري المتوفي سنة ٦٨هـ والمشهور بـ جران العود. وصدر بيته: **إذا الريح من أرض الحجاز تنسَّمت**

وعجز البيت ذكره أيضًا بديع الزمان الهمذاني: أحمد بن الحسين بن يحيىٰ أبو الفضل المتوفى سنة ٥٩٨هـ وصدر بيته: طربت وهاجتني شمالٌ بَليلةٌ

=

ومنها الروح والريحان والاستراحة، فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها، وسميت نفسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًّا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وإن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل[1]

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة، وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته وفاض إذا اندفع قسرا وقهرا، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

***

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝

=

وعجز البيت ذكره أيضًا القاضي الفاضل: عبدالرحيم بن علي بن محمد بن الحسن اللخمي المتوفى ٥٩٦هـ وصدر بيته: ولا ناسمتني من نواحيه نفحة

وانظر: التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٢٠١) والزهرة لأبي بكر الأصبهاني (١/ ٣٠٥).

(١) هذا البيت من بحر الطويل وذكره ابن منظور في اللسان ونسبه إلى السموأل (٦/ ٢٣٤) بينما ذكره النووي في تهذيب الأسماء (٣/ ٣٤٥) وفيه: «السيوف» بدل «الظبات» والسموأل هو ابن غريض بن عادياء الأزدي شاعر جاهلي حكيم توفي سنة ٦٤ قبل الهجرة ومن أشهر شعره لاميته، وهي من أجود الشعر.
وينسب البيت أيضًا إلى عبد الملك بن عبدالرحيم الحارثي المتوفى سنة ١٩٠هـ وهو شاعر مجود.
ومن العلماء من ينسب لامية السموأل إليه.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ
﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ
ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ
لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ
وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

(1) تأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ إلىٰ آخرها [النحل: ١٠] وختمها بأصحاب الفكرة، فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد، وهو الماء الذي أنزله من السماء، فأخرج به كل ما ذكره من الأرض، وهو علىٰ اختلاف أنواعه: لقاحه واحد، وأمه واحدة، فهذا نوع واحد من آياته. وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر، فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر، وهو نظر القلب وتأمله، لا موضع نظر مجرد بالعين، فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين، حتىٰ ينتقل منه إلىٰ نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه، والاستدلال به علىٰ خالقه وبارئه، وذلك هو الفكر بعينه.

وأما قوله تعالىٰ في الآية التي بعدها: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢] فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وهي

(١) ٢١٢ مفتاح جـ١.

آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفياتها، فإن إظلام الجو لغروب الشمس، ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب، ويسكنون تحته آية باهرة، ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح، فينهزم عسكر الظلام، وينتشر الحيوان، وينكشط ذلك اللباس بجملته آية أخرىٰ، ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرىٰ، وفي القمر الذي هو آية الليل آية أخرىٰ، وفي النجوم آيات أُخر، كما قدمناه. هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أُخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل؛ لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر، والأولىٰ كالباب لهذه، فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة، استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل، ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر، فلما دلهم بالآية الأولىٰ علىٰ الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلىٰ العقل الذي هو فوق الفكر فتأمله، فأما قوله في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣] فوحد الآية وخصها بأهل التذكر. فأما توحيدها فكتوحيد الأولىٰ سواء، فإن ما ذرأ في الأرض علىٰ اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان، كله في محل واحد، فهو نوع من أنواع آياته، وإن تعددت أصنافه وأنواعه.

وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر، فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر، كما قال تعالىٰ في سورة ق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝﴾ [ق: ٧، ٨]، فالتبصرة: التعقل، والتذكرة: التذكر، والفكر: باب ذلك ومدخله، فإذا فكر تبصر، وإذا تبصر تذكر، فجاء التذكير في الآية لترتيبه علىٰ العقل المرتب علىٰ الفكر، فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته، وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل، فتأمل ذلك حق التأمل. فإن قلت: فما الفرق بين التذكر والتفكر؟ فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة. قلت: التفكر والتذكر أصل الهدىٰ والفلاح، وهما قطبا السعادة، ولهذا وسعنا الكلام في التفكر في هذا الوجه، لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه.

قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر. ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار. فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصلٍ من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون موردًا للفكر استحال الفكر لأن الفكر، بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده لم يتفكر فيها.

فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره، فاستخرج منه ما لم يكن حاصلًا عنده، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره ما دام عاقلًا، لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد؛ بل هو دائمًا سائر بين العلم والإرادة.

وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى، يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر، وإما غفلته وزواله بالتذكر.

والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله.

ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس: التفكر في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته؛ فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين، إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار.

***

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[(١)] هذا يدل علىٰ أن من دعا الأمة إلىٰ غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه، حقًّا لأنه قطع وصول أجر من اهتدىٰ بسنته إليه، وهذا من أعظم معاداته، نعوذ بالله من الخذلان.

[(٢)] فإن الله سبحانه يعاقب علىٰ الأسباب المحرمة وعلىٰ ما تولد منها، كما يثيب علىٰ الأسباب المأمور بها وعلىٰ ما تولد منها.

ولذا كان من دعا إلىٰ بدعة وضلالة؛ فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد من فعله[(٣)]؛ ولذلك كان علىٰ ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلىٰ يوم القيامة[(٤)].

وقد قال تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥] وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]. فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟

قيل: التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك، فإن كان المتولد متعلقًا بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلىٰ البدعة: أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدىٰ في ضده، كما شرط تعالىٰ في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل

---

(١) ٦٢ مفتاح جـ١.

(٢) ٧١ عدة الصابرين.

(٣) عن جرير بن عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «...ومن سن في الإسلام سنةً سيئة فعُمِلَ بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء» أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦).

(٤) عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل» أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٥) ومسلم (رقم ١٦٧٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٢-١٩٣) وشرح النووي (١١/ ١٦٦).

الله من البينات والهدى، ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم: إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفر والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياء وسمعة فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان.

***

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

(١) ههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن الجنة إنما تدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلًا بدخولها وإن كان سببًا؛ ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال بقوله: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»(٢) ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، و اقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

والثاني: إن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة، التي يكون فيها أحد

---

(١) ٦٧ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (رقم ٢٨١٦) وأحمد (٢/ ٢٥٦) وانظر: فتح الباري (١/ ٧٨) (١١/ ٢٩٦) وشرح النووي (١٧/ ١٥٩).

العوضين مقابلًا للآخرة، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية، التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلًّا بحصوله.

وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله: «**سدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أن أحدًا منكم لن ينجو بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[(١)]. ومن عرف الله تعالى وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه؛ عرف ذلك وجزم به، والله ﷻ المستعان.

[(٢)]حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين، ولهذا يقال لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة، دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهَذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧) وعمدة القاري (١/ ٢٣٧) (٢١/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) ٥٦ إغاثة جـ١.

(٣) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٢١-٢٢٢) والطبراني في تفسيره (٢٦/ ٤٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٦).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين =

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر. وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر. فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب. ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: «أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إِلا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»(١). فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء. فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته.

وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالماءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ»(٢). كيف يطهر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟ وقوله في لفظ آخر «والماء البارد»(٣) والحار أبلغ في الإنقاء؟.

فقال: الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفا، فيرتخي القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفئ النار، فإن كان باردا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته، فكان أذهب لأثر الخطايا. هذا معنى كلامه، وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح.

= الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا» أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٠) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٨٥).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٥٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٣ رقم ٢٠) وعبدالرزاق (١/ ١٨٦ رقم ٧٣١) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٤٠ رقم ٤٨٩٥) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٢) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤) ومسلم (رقم ٥٩٨) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٧٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٣٢) وتحفة الأحوذي (٢/ ٢٨٧).

فاعلم أن هاهنا أربعة أمور: أمران حسيان، وأمران معنويان. فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسيان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا. فذكر النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم من كل شطر قسمًا، نبَّه به علىٰ القسم الآخر. فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان. كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «اللّٰهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة. ومن كمال بيانه صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به تمثيله الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس. وهذا كثير في كلامه، كقوله في حديث علي بن أبي طالب: «سَلِ اللهَ الْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ، وَاذْكُرْ[1] بِالْهُدَىٰ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَبِالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»[2]. إذ هذا من أبلغ التعليم والنصح، حيث أمره أن يذكر إذا سأل الله الهدىٰ إلىٰ طريق رضاه وجنته: كونه مسافرًا، وقد ضل عن الطريق، ولا يدرىٰ أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدله علىٰ الطريق، فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلا لها بالطريق المحسوس للمسافر. وحاجة المسافر إلىٰ الله سبحانه: إلىٰ أن يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلىٰ بلد إلىٰ من يدله علىٰ الطريق الموصل إليها. وكذلك السداد، وهو إصابة القصد قولا وعملا، فمثله مثل رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه، فقد سدد سهمه وأصاب ولم يقع باطلا، فهكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه. وكثيرا ما يقرن في القرآن هذا وهذا. فمنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم علىٰ زاد سفر الآخرة، وهو التقوىٰ. فكما أنه لا يصل المسافر إلىٰ مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلىٰ الله تعالىٰ والدار الآخرة، لا يصل إلا بزاد من

---

(١) في المطبوعة «وافكر»، والصواب ما ذكرناه، كما هو في صحيح مسلم رقم (٢٧٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤٣).

التقوى، فجمع بين الزادين، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]. فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منَّعم القلب والبدن بالهدى والفلاح، ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها في حبه: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ ﴾ [يوسف: ٣٢] فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾ [يوسف: ٣٢]. فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره.

فنبه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله: «اللهُمَّ طَهِّرْني مِنْ خطَايَايَ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ». على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يطهرهما ويبردهما ويقويهما، وتضمن دعاؤه سؤال هذا وهذا، والله تعالى أعلم.

وقريب من هذا: أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: كان إِذَا خَرَجَ مِنَ الخلاءِ قَالَ: «غُفْرَانَكَ»[1]. وفي هذا من السر والله أعلم، أن النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذي لبدنه، وخفة البدن وراحته، وسأل أن يخلصه من المؤذي الآخر ويريح قلبه منه ويخففه. وأسرار كلماته وأدعيته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فوق ما يخطر بالبال. اهـ.

***

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٢٦١ رقم ٥٦٣) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٤٢) وابن حبان (٤/ ٢٩١ رقم ١٤٤٤) وابن خزيمة (١/ ٤٨ رقم ٩٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤ رقم ٩٩٠٧) وأبو داود (رقم ٣٠) وابن ماجه (رقم ٣٠٠) والبيهقي في الكبرى (١/ ٩٧ رقم ٤٦٦) وفي الصغرى (رقم ٧٤) والترمذي (رقم ٧) وحسنه وصححه الحاكم وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٣٤).

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[(١)] فذكر حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعد ما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبًا، وأنه كان على باطل، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه، فيخزيه ذلك أعظم خزي[(٢)].

***

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

[(٣)] قال أبو محمد بن حزم: ومما يبين أن أخبار رسول الله ﷺ تفيد العلم أن الله تعالى قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] فصح أنه ﷺ مأمور ببيان القرآن للناس، وفي القرآن مجمل كثير: كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك مما لا يعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكن بتبيان رسول الله ﷺ فإذا كان بيانه لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه؛ فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، وبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإن لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها مما أخطأ فيه المخطئ أو تعمد فيه الكذب الكاذب ـ ومعاذ الله من هذا ـ قال: وأيضًا فنقول لمن قال: إن خبر الواحد العدل عن مثله مبلغًا إلى النبي ﷺ لا

---

(١) ١٦١ بدائع جـ٤.

(٢) أصل البحث موصول في سورة البقرة رقم الآية: ٤٠، وكذلك في المائدة على قول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

(٣) ٣٨٠ مختصر الصواعق جـ٢.

يوجب العلم، وأنه يجوز فيه تعمد الكذب والوهم، وأنه غير مضمون الحفظ: أخبرونا هل يمكن أن يكون عندكم شريعة فرض أو تحريم أتى بها رسول الله ﷺ ومات وهي باقية لازمة للمسلمين غير منسوخة فجهلت؛ حتى لا يعلمها على اليقين أحد من أهل الإسلام في العالم أبدًا.

وهل يمكن عندكم أن يكون حكم موضوع بالكذب أو بخطأ بالوهم؛ قد جاز ومضى واختلط بأحكام الشريعة اختلاطًا لا يجوز أن يميزه أحد من أهل الإسلام في العالم أبدًا أم لا يمكن عندكم شيء من هذين الوجهين؟ فإن قالوا: لا يمكنان أبدًا بل قد أمنا ذلك؛ صاروا إلى قولنا وقطعوا أن كل خبر رواه الثقة عن الثقة مسندًا إلى رسول الله ﷺ في الديانة فإنه حق قد قاله رسول الله ﷺ كما هو وأنه يوجب العلم ويقطع بصحته.

ولا يجوز أن يختلط به خبر موضوع أو موهوم فيه لم يقله قط رسول الله ﷺ اختلاطًا، لا يتميز بالباطل فيه من الحق أبدًا.

وإن قالوا: بل كل ذلك ممكن كانوا قد حكموا بأن دين الإسلام قد فسد وبطل أكثره، واختلط ما أمر الله تعالى به مع ما لم يأمر به اختلاطًا لا يميزه أحد أبدًا، وأنهم لا يدرون أبدًا ما أمرهم الله به مما لم يأمرهم به، ولا ما وضع الكاذبون والمستخفون بما جاء به رسول الله ﷺ إلا بالظن الذي هو أكذب الحديث، والذي لا يغني من الحق شيئًا، وهذا انسلاخ من الإسلام وهدم للدين وتشكيك في الشرائع(١).

...(٢)فإن قيل: فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه أقرب الخلق إلى الله؛ قيل: عن هذا أربعة أجوبة:

الجواب الأول: إن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده. وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره، ويجب

(١) انظر: الإحكام لابن حزم الظاهري رحمه الله (١/ ١١٥-١١٦).

(٢) ٢٨٥ طريق الهجرتين.

عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره.

ونظير هذا في المشاهد أن الماثل بين يدي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفًا منه من البعيد عنه، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنه يطالب من حقوق الخدمة وأدائها بما لا يطالب به غيره فهو أحق بالخوف من البعيد. ومن تصور هذا حق تصوره فهم قوله ﷺ: «إني أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية»[(١)]...

***

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

...[(٢)]أما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] هو حجة عليه كما تقدم ولا يصح تفسير الخوف هنا بالهيبة، لوجهين: أحدهما: أنه خروج عن حقيقة اللفظ ووضعه الأصلي بلا موجب، الثاني: أن هذا وصف للملائكة، وقد وصفهم سبحانه بخوفه وخشيته، فالخوف في هذه الآية والخشية في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فوصفهم بالخشية والإشفاق، ووصفهم بخوف العذاب في قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهم خواص خلقه، فإياك ورعونات النفس وحماقاتها وجهالاتها، ولا تكن ممن لا يقدر الله حق قدره، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[(٣)] فإذا علم المقرب العارف أن الله لو عذبه لم يظلمه، فمن أحق بالخوف منه؟ قوله: وقال في حق العوام: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] هذا من

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٢٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٣).

(٢) ٣٤٤ طريق الهجرتين.

(٣) أخرجه ابن حبان (٢/ ٥٠٥-٥٠٦ رقم ٧٢٧) وفي الموارد (رقم ١٨١٧) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٤ رقم ٢٠٦٦٣) وعبد بن حميد (رقم ٢٤٧) وأبو داود (رقم ٤٦٩٩) وابن ماجه (رقم ٧٧) الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٤٤ رقم ١٩٦٢) وانظر: فيض القدير (٥/ ٣١٨).

الشطحات القبيحة الباطلة، فإن هذا صفة خواص عباده وعارفيهم، وهم الذين قال فيهم: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٧-٣٨] فهؤلاء خواص الخلق، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، أفلا يستحي من جعل هذا الوصف للعوام؟ ولا ريب أن هذا مصدره: إما جهل مفرط، وإما تقليد لقائل لا يدري لازم قوله، هذا إن أحسن الظن بقائله، وإن كان مصدره غير ذلك فأدهى وأمر، ولولا أن هذه الكلمات ونحوها مهاو ومعاطب في الطريق لكان الإعراض عنها إلى ما هو أهم منها أولى. والله المستعان.

(١)وقد تقدم ذكره مجملًا فنذكره ههنا مفصلًا: رد الجهمية النصوص المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، من ثمانية عشر نوعًا:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونة بأداة (مِنْ) المعينة لفوقية الذات نحو: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨].

الثالث: التصريح بالعروج إليه نحو: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]. وقول النبي ﷺ: «فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم»(٢).

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو: ذاتا وقدرا وشرفا

---

(١) ٢٨١ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٥، ٣٢٢٣) ومسلم (رقم ٦٣٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٤) وشرح النووي (٢/ ٨) (٥/ ١٢، ١٣٣) (٦/ ١٧٤).

كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهو ﴿ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وهذا يدل على شيئين: على أن القرآن ظهر منه لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره. الثاني: على علوه على خلقه، وأن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده من أعلى مكان إلى رسوله.

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩] ففرق بين من له عموما ومن عنده من مماليكه وعبيده خصوصًا، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه: «**إنه عنده على العرش**»[(١)].

التاسع: التصريح بأنه سبحانه في السماء، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون في بمعنى على، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز حمل النص على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة على مختصًّا بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات مصاحباً في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة، وهو بهذا السياق صريح في معناه، الذي لا يفهم المخاطبون غيره من العلو والارتفاع، ولا يحتمل غيره البتة.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، وهو يكتب على نفسه، وهو وَضْعٌ عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١٠٠).

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلىٰ الله سبحانه، كقوله ﷺ: «**إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً**»(١).

الثاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلىٰ أسفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حسًّا إلىٰ العلو، كما أشار إليه مَنْ هو أعلم به، وما يجب له، ويمتنع عليه من أفراخ الجهمية والمعتزلة والفلاسفة في أعظم مجمع علىٰ وجه الأرض، يرفع أصبعه إلىٰ السماء، ويقول: اللهم اشهد. ليشهد الجميع أن الرب الذي أرسله ودعا إليه واستشهده هو الذي فوق سماواته علىٰ عرشه.

الرابع عشر: التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متىٰ في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل: «أين الله» و«متىٰ كان الله» عندهم سواء كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بيانا عن المعنىٰ الصحيح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه «أين الله» في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين، لمن قال: «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جهم بالكفر.

وصرَّح الشافعي بأن هذا الذي وصفته من أن ربها في السماء إيمان. فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة، وذكر حديث الأمة السوداء التي سودت وجوه الجهمية وبيضت وجوه المحمدية، فلما وصفت الإيمان قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(٢). وهي إنما وصفت كون ربها في السماء، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقرنت بينهما في الذكر،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٦٠ رقم ٨٧٦) وأبو داود (رقم ١٤٨٨) والترمذي (رقم ٣٥٥٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٢١١ رقم ٢٩٦٥) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦ رقم ٦١٤٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٥ رقم ١١١١) وحسنه الترمذي، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٤٣): وسنده جيدٌ.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٨٤).

فجعل الصادق المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

السادس عشر: إخباره سبحانه عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء، ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السموات، فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء، وعند الجهمية لا فرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب، وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به، وكذب موسى في إخباره بذلك، إذ من قال عندهم: إن ربه فوق السموات. فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون، مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة «فرعونية».

قالوا: وهم شر من الجهمية، فإن الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيرًا من قولهم.

السابع عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى وبين الله، ويقول له موسى: «ارجع إلى ربك فسله التخفيف»[1]. فيرجع إليه ثم ينزل إلى موسى فيأمره بالرجوع إليه سبحانه، فيصعد إليه سبحانه ثم ينزل من عنده إلى موسى عدة مرات.

الثامن عشر: إخباره تعالى عن نفسه وإخبار رسوله عنه أن المؤمنين يرونه عيانا جهرة كرؤية الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدر.

والذي تفهمه الأمم على اختلاف لغاتها وأوهامها من هذه الرؤية رؤية المقابلة والمواجهة، التي تكون بين الرائي والمرئي، فيها مسافة محدودة غير مفرطة في البعد، فتمتنع الرؤية، ولا في القرب فلا تمكن الرؤية، لا تعقل الأمم غير هذا، فإما أن يروه سبحانه من تحتهم تعالى الله، أو من خلفهم، أو من أمامهم، أو عن أيمانهم، أو عن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٩) ومسلم (رقم ١٦٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٦٢) وشرح النووي (٢/ ٢٢٢).

شمائلهم، أو من فوقهم، ولابد من قسم من هذه الأقسام: إن كانت الرؤية حقًّا. وكلها باطل سوىٰ رؤيتهم له من فوقهم، كما في حديث جابر الذي في المسند وغيره: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم» ثم قرأ قوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[1] [يس: ٥٨] ثم يتوارىٰ عنهم، وتبقىٰ رحمته وبركته عليهم في ديارهم، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، ولهذا طرد الجهمية أصلهم، وصرحوا بذلك، وركبوا النفيين معًا، وصدَّق أهل السنة بالأمرين معًا، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفىٰ علو الرب علىٰ خلقه واستواءه علىٰ عرشه: مذبذبًا بين ذلك، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء.

فهذه أنواع من الأدلة السمعية المحكمة إذا بسطت أفرادها كانت ألف دليل علىٰ علو الرب علىٰ خلقه، واستوائه علىٰ عرشه. فترك الجهمية ذلك كله، وردوه بالمتشابه من قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

ورده زعيمهم المتأخر بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] وبقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

ثم ردوا تلك الأنواع كلها متشابهة، فسلطوا المتشابه علىٰ المحكم وردوه به، ثم ردوا المحكم متشابها، فتارة يحتجون به علىٰ الباطل، وتارة يدفعون به الحق.

ومن له أدنىٰ بصيرة يعلم أنه لا شيء في النصوص أظهر ولا أبين دلالة من مضمون هذه النصوص، فإذا كانت متشابهة فالشريعة كلها متشابهة، وليس فيها شيء محكم البتة، ولازم هذا القول لزومًا لا محيد عنه: أن ترك الناس بدونها خير لهم من إنزالها إليهم، فإنها أوهمتهم وأفهمتهم غير المراد، وأوقعتهم في اعتقاد الباطل، ولم يتبين لهم ما هو الحق في نفسه، بل أحيلوا فيه علىٰ ما يستخرجونه بعقولهم وأفكارهم ومقاييسهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) والدارقطني في رؤية الله (ص ٧٢) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٨) وقال في مصباح الزجاجة (١/ ٢٦)ك هذا إسنادٌ ضعيفٌ لضعف الفضل بن عيسىٰ بن إبان الرقاشي، وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

فنسأل الله مثبت القلوب تبارك وتعالى أن يثبت قلوبنا على دينه، وما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، إنه قريب مجيب.

***

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ (٥٣) ﴾.

[(1)] الإيمان والطاعة من أجل النعم، بل هما أجل النعم على الإطلاق، فهما منه سبحانه تعليمًا وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا ومشيئة وخلقًا.

ولا يصح أن يقال: إنها أمرًا وبيانًا فقط، فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم، إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة وهذا قول القدرية، وقد صرح به كثير منهم ولم يجعلوا لله على العبد نعمة في مشيئته وخلقه فعله وتوفيقه إياه حين فعله، وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب، وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منة في إعطائه الجزاء، بل قالوا: ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه.

واحتجوا بقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت: ٨] قالوا: أي غير ممنون به عليهم، إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها. قالوا: والمنة تكدر النعمة والعطية، ولم يدع هؤلاء للجهل بالله موضعًا، وقاسوا منته على منة المخلوق، فإنهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات. وليست المنة في الحقيقة إلا لله، فهو المان بفضله، وأهل سمواته وأهل أرضه في محض منته عليهم، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى لكليمه موسى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾ [طه: ٣٧] وقال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الصافات: ١١٤] وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]، ولما قال النبي ﷺ للأنصار:

(١) ٥٧ شفاء العليل.

«ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي»[(١)] قالوا: الله ورسوله أمن.

وقال الرسل لقومهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]، فمنه ﷻ محض إحسانه وفضله ورحمته، وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنته عليهم، ولهذا قال أهلها ـ وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧] فأجزوا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم: أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منته عليهم.

وقد قال أعلم الخلق بالله وأحبهم إليه وأقربهم منه وأطوعهم له: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(٢)]. وقال: «إن الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم، لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم»[(٣)].

والأول في الصحيح والثاني في المسند والسنن وصححه الحاكم وغيره، فأخبر سيد العالمين والعاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله.

وقالت القدرية: إنهم يدخلونها بأعمالهم، لئلا يتكدر نعيمهم عليهم بمشيئة الله بل يكون ذلك النعيم عوضًا.

وما رمى السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوس واحدة إلا لعظم بدعهم ومنافاتها، لما بعث الله به أنبياءه ورسله، فلو أتى العباد بكل طاعة، وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله لكانوا في محض منته وفضله، وكانت له المنة عليهم، وكلما عظمت طاعة العبد كانت منة الله عليه أعظم، فهو المان بفضله، فمن أنكر منته فقد أنكر إحسانه. وأما قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت: ٨] فلم

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ٣٠٧).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

يختلف أهل العلم بالله ورسوله وكتابه أن معناه: غير مقطوع، ومنه (ريب المنون) وهو الموت، لأنه يقطع العمر.

[(١)]قاعدة جليلة: قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها، ويوزعك شكرها. قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه. والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده، وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه.

وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد، بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فإن وفق عبده أقبل بقلبه إليه، وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله له تركه ونفسه، ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن.

ثم فكرت، هل للتوفيق والخذلان سبب أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟ فإذا سببهما أهلية المحل وعدمها، فهو سبحانه خالق المحال متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت، فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان، وكذلك النوعان: كل منهما متفاوت في القبول، فالحيوان الناطق يقبل ما لا يقبله البهيم، وهو متفاوت في

---

(١) ٢٠٣ فوائد.

القبول أعظم تفاوت. وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني.

فإذا كان المحل[1] قابلًا للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها، ويشكر المنعم بها، ويثني عليه بها، ويعظمه عليها، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة، من غير أن يكون هو مستحقا لها، ولا هي له ولا به، وإنما هي لله وحده وبه وحده، فوحده بنعمته إخلاصا، وصرفها في محبته شكرا، وشهدها من محض جوده منة، وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجزًا وضعفًا وتفريطًا، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه، وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له.وكلما زاده من نعمه ازداد ذلًّا له وانكسارا وخضوعا بين يديه وقياما بشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها لعدم توفيته شكرها، كما سلب نعمته عمن لم يعرفها، ولم يرعها حق رعايتها، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن يقابل به سلبه إياها ولابد، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها، وأثنوا على المنعم بها، وأحبوه وقاموا بشكره، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام ١٢٤].

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. أي على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي: على فضل عندي: إني كنت أهله ومستحقًّا له إذ أعطيته.

---

(١) المحل القابل للنعمة هو الموفق (ج).

وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل: سليمان بن داود فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل هذا من كرامتي[1].

ثم ذكر قارون وقوله: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلى به شكره. وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ [فصلت: ٥٠]، أي أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكا لربه، وفضلا منه منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأي فيه أهلا ومستحقًا، فأعجبته نفسه، وطغت بالنعمة، وعلت بها، واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء ـ قوله: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ـ ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنه. لما ذُمّ على ذلك، بل كان محمودا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها، ونسب الذهاب إليها، وفرح وافتخر. فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ٩٦) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٣٤-٣٥).

وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته ومع عدم القبول، ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته[(١)] وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده وهو الحكيم العليم.

***

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

[(٢)]إنه سبحانه وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل: ٦٠] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن

(١) كذا بالأصل، ولعلها: محبته (ج).

(٢) ٢١٣ مختصر الصواعق جـ١.

لإثبات الكمالات كلها له وحده، وبهذا كان المثل الأعلى، وهو أفعل تفضيل، أي أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا؟ تعالى الله عن قول المعطلين علوًّا كبيرًا.

فمثل السوء العادم صفات الكمال، ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته، لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملًا، وهي: الإيمان والعلم والمعرفة، واليقين والإخلاص والعبادة لله، والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر والرضا والشكر، وغير ذلك من الصفات التي من اتصف بها كان ممن آمن بالآخرة، فلما سلبت تلك الصفات عنهم، وهي صفات كمال صار لهم مثل السوء.

فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته وسائر ما وصف به نفسه؛ فقد جعل لله تعالى مثل السوء، ونزهه عن المثل الأعلى، وأن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل؛ كان أعلى من غيره.

ولما كان الرب سبحانه هو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى، وسائر صفاته عليا، كان له المثل الأعلى، وهو أحق به من كل ما سواه.

بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلا من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده؛ فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة.

ونظير هذا القهر المطلق مع الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحدًا، إذ لو كان معه كفؤ له، فإن لم يقهره لم يكن قهارًا على الإطلاق، وإن قهره لم يكن له كفؤًا وكان القهار واحدًا، فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله:

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله ﷻ.

فإن قلت: فما حقيقة المثل الأعلى؟ قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين، واستشكلوا أقوال السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: مثل السوء العذاب والنار، ولله المثل الأعلى: شهادة (أن لا إله إلا الله) قال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لِمَ قيل: العذاب مثل السوء. والإخلاص المثل الأعلى؟

قال: وقال قوم: المثل السوء الصفة السوء من احتياجهم للولد وكراهتهم للإناث خوف العيلة والعار، ولله المثل الأعلى الصفة العليا وتنزهه وبراءته من الولد.

قال: وهذا قول صحيح، والمثل كثيرًا يرد بمعنى الصفة، وقاله جماعة من المتقدمين، وقال ابن كيسان: مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وقال ابن جرير: وله المثل الأعلى، هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله إلا هو.

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم، كما اختص به في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يحبونه ويعظمونه، وأهل الأرض يجلونه ويعظمونه، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من

عصاه، وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته.

قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦] فلست تجد أحدًا من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره وأعظم من كل ما سواه.

الثالث: ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها عن النقائص والعيوب والمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه.

وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل؛ كان هذا الحب والإخلاص أقوى.

فعبارة السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها، وقد ضرب الله مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئًا وهي مخلوقة، ولا تملك لنفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦].

فهذان مثلان ضربهما الله لنفسه وللأصنام، للأصنام مثل السوء، وله المثل الأعلى وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فهذا المثل الأعلى الذي له سبحانه، والأول مثل السوء للصنم وعابديه.

وقد ضرب الله سبحانه للمعارضين بين الوحي وعقولهم مثل السوء؛ بالكلب تارة، وبالحمر تارة، وبالأنعام تارة، وبأهل القبور تارة، وبالعمى الصم، وغير ذلك من

أمثال السوء، التي ضربها لهم ولأوثانهم. وأخبر عن مثله الأعلى بما ذكره من أسمائه وصفاته وأفعاله، وضرب لأوليائه وعابديه أحسن الأمثال، ومن تدبر القرآن فهم المراد بالمثل الأعلى ومثل السوء. اهـ.

[(1)]وقد أخبرنا سبحانه عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كنهه، فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهارًا من خمر وأنهارًا من عسل وأنهارًا من لبن، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته، إذ كانوا لا يعرفون في الدنيا الخمر إلا ما اعتصر من الأعناب، والعسل إلا ما قذفت به النحل في بيوتها، واللبن إلا ما خرج من الضروع، والحرير إلا ما خرج من دود القز، وقد فهموا معاني ذلك في الجنة من غير أن يكون مماثلًا لما في الدنيا.

كما قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء والصفات»[(2)]. ولم يمنعهم عدم النظير في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك.

فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها، وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبته الله تعالى لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن:

أحدها: قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ[(3)] وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

الثالث: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنفى

---

(١) ٨٤ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٢، ١٧٤) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٤) (٤/ ٢٧٨).

(٣) في المطبوعة: زيادة «في السماوات والأرض» وهي زيادة غير موجودة في آية النحل، ولعله حدث خلط بالآية (٢٧) من سورة الروم.

ﷻ المثل عن هذا المثل الأعلى، وهو ما في قلوب أهل سماواته وأرضه من معرفته والإقرار بربوبيته وأسمائه وصفاته وذاته، فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون وقامت شواهده في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المملكة بالكتب الإلهية المضبوطة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بثبوته العقل والسمع والفطرة، فإذا قال المثبت: يا الله، قام بقلبه رب قيوم قائم بنفسه، مستو على عرشه، مكلم، متكلم، سامع، قدير، مريد، فعال لما يريد، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حاجات السائلين، ويفرج عن المكروبين، ترضيه الطاعات، وتغضبه المعاصي، تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده.

وإذا شئت زيادة تعريف بهذا المثل الأعلى فعد؛ قوى جميع المخلوقات اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإذا نسبت قوتهم إلى قوة الرب تعالى لم تجد نسبة إليها البتة، كما لا تجد نسبة بين قوة البعوضة وقوة الأسد، وإذا قدرت علوم الخلائق اجتمعت لواحد، ثم قدرت جميعهم بهذه المثابة كانت علومهم بالنسبة إلى علمه تعالى كنقرة عصفور في بحر، وكذا في حكمته وكماله.

وقد نبهنا ﷻ على هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]. فقدر البحر المحيط بالعالم مدادًا ووراءه سبعة أبحر تحيط به، كلها مدادًا يكتب به كلمات الله، نفدت البحار ونفدت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حين خلقت إلى آخر الدنيا، ولم تنفد كلمات الله.

وقد أخبر النبي ﷺ: «أن السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والعرش لا يقدر قدره إلا الله»(١)

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦-٧٧ رقم ٣٦١) وفي موارد الظمآن (رقم ٩٤) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٩-٥٧٠ رقم ١٧) وابن أبي شيبة في العرش (رقم ٥٨، ٥٩) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦-١٦٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٢٧٤) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح ابن حبان =

وهو سبحانه فوق عرشه يعلم ويرىٰ ما عباده عليه، فهذا هو الذي قام بقلوب المؤمنين المصدقين العارفين به سبحانه المثل الأعلىٰ، فعرفوه به وعبدوه به وسألوه به، فأحبوه وخافوه ورجوه، وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واطمأنوا بذكره وأنسوا بحبه بواسطة هذا التعريف، فلم يصعب عليهم بعد ذلك معنىٰ استوائه علىٰ عرشه وسائر ما وصف به نفسه من صفات كماله، إذ قد أحاط علمهم بأنه لا نظير لذلك ولا مثل له، ولم يخطر بقلوبهم مماثلة شيء من المخلوقين، وقد أعلمهم الله سبحانه علىٰ لسان رسوله: **«أنه يقبض سماواته بيده والأرض باليد الأخرىٰ، ثم يهزهن»** **«وأن أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفه: كخردلة في كف أحدكم»** **«وأنه يضع السماوات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والجبال علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، وسائر المخلوقات علىٰ إصبع»**[1] فأي يد للخلق وأي أصبع تشبه هذه اليد وهذه الإصبع، حتىٰ يكون إثباتها تشبيهًا وتمثيلًا؟

فقاتل الله أصحاب التحريف والتبديل، ماذا حرموه من الحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية، وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار؟

وما أشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوىٰ بلا تعب فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل، وقد جرت عادة الله سبحانه أن يذل من آثر الأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ، ويجعله عبرةً للعقلاء.

فأول هذا الصنف إبليس لعنه الله، ترك السجود لآدم كبرًا، فابتلاه الله تعالىٰ بالقيادة لفساق ذريته،ن وعباد الأصنام لم يقروا بنبي من البشر ورضوا بآلهة من الحجر، والجهمية نزهوا الله عن عرشه لئلا يحويه مكان، ثم قالوا: هو في الآبار والأنجاس

=

للحديث في فتح الباري (١٣/ ٤١١) ثم قال: وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١٤) ومسلم (رقم ٢٧٨٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٥١) وشرح النووي (١٧/ ١٣٣).

وفي كل مكان، وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي، فابتلوا بزبالة أذهان المتحيرين، وورثة الصابئين وأفراخ الفلاسفة الملحدين.

***

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

[1]قال في الجنة: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ [محمد: ١٥]. وفي السنن مرفوعًا: «**من أطعمه الله طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه. وَمَن سقاه اللهُ لبناً، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لنا فيه، وزِدْنا منه، فإني لا أعلم ما يُجْزِئ من الطعام والشرابِ إلا اللَّبَن**»[2].

اللَّبن ـ وإن كان بسيطاً في الحس ـ إلا أنه مُركَّب في أصل الخِلقة تركيباً طبيعياً من جواهرَ ثلاثةٍ: الجُبْنِيةِ والسَّمنيةِ والمائيَّةِ. فالجُبْنِيةُ: باردة رطبة، مُغذِّية للبدن. والسَّمنيةُ: معتدلة الحرارة والرطوبة، ملائمة للبدن الإنساني الصحيح، كثيرةُ المنافع. والمائيةُ: حارة رطبة، مُطْلِقة للطبيعة، مُرطِّبة للبدن. واللَّبنُ على الإطلاق أبردُ وأرطبُ مِنَ المعتدل، وقيل: قوَّتُه عند حلبه الحرارةُ والرطوبةُ، وقيل: معتدل في الحرارة والبرودة. وأجودُ ما يكون اللَّبن حين يُحلب، ثم لا يزال تنقصُ جُودتُه على ممر الساعات، فيكونُ حين يُحلب أقلَّ برودةً، وأكثرَ رطوبةً، والحامِض بالعكس، ويُختار اللَّبن بعد الولادة بأربعين يوماً، وأجودُه ما اشتد بياضُه، وطاب ريحُه، ولذَّ طعمُه، وكان فيه حلاوةٌ يسيرة، ودُسومةٌ معتدِلة، واعتدل قِوَامه في الرِّقة والغِلَظِ، وحُلِبَ من حيوان فتيٍ صحيح، معتدِلِ اللَّحم، محمودِ المرعَى والمَشربَ. وهو محمودٌ يُوَلِّد

---

(١) ٤٠٠ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٧٩ رقم ١٠١١٨) وأبو داود (رقم ٣٧٣٠) والترمذي (رقم ٣٤٥٥) وأحمد (١/ ٢٢٥) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٠٤ رقم ٥٩٥٧) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٧٤) وحسنه الترمذي.

دماً جيداً، ويُرَطِّب البدنَ اليابس، ويغذو غِذَاءً حسناً، وينفع مِن الوَسواس والغم والأمراض السوداويَّة.

[(١)] ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله ﷻ في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم.

فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة، فينقلب بعضه دما بإذن الله، وما يسرى في عروقها، وأعضائها وشحومها ولحومها، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له، إذ به قوام الحيوان، ثم ينصب ثفله إلى الكرش، فيصير زبلًا، ثم ينقلب باقيه لبنًا صافياً أبيض سائغا للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم، حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج اللبن مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول، فانفصل إلى الكبد وصار دما، وكان مخلوطا بالأخلاط الأربعة، فأذهب الله عز و جل كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له: من المرارة والطحال والكلية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد، فينصب من تلك العروق إلى الضرع، فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم، فسل المعطل الجاحد: من الذي دبَّر هذا التدبير، وقدَّر هذا التقدير، وأتقن هذا الصنع، ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير؟!

***

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

---

(١) ٢٥١ مفتاح جـ١.

(١)تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها والى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة، التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعا، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل، كل هذا بغير مقياس ولا آله ولا بيكار، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ إلى قوله: ﴿ لَأَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها.

اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال والشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس، حيث يعرشون، أي يبنون العروش، وهي البيوت، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة.

وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان، وهو البيت المقدم في الآية، ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها، ومما يعرش الناس، وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون. وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولًا، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها، لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة، لا يستوعر عليها شيء ترعى ثم تعود.

ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب، لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمره لأمره، سامعة له مطيعه، وله عليها تكليف وأمر ونهي، وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه، يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت، فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم

---

(١) ٢٤٨ مفتاح جـ١.

عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها - يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله، وأعجزه عن القيام بمصلحته، فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة.

ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد، ولا يتأمران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه، واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم، ولا أذى من بعضهم لبعض، بل يصيرون يدًا واحدة وجندًا واحدًا.

ومن أعجب ما لا يهتدي له أكثر الناس ولا يعرفونه، وهو النتاج الذي يكون لها. هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة، فقل من يعرف ذلك أو يفطن له، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين.

وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجب، فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره، وهي الطل فتمصها، وذلك مادة العسل، ثم أنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل، ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئا منه، فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتا بيتا، وينفخ فيها كلها، فتدب فيها الحياة بإذن الله ﷻ، فتتحرك وتخرج طيورا بإذن الله، وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن لها، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي. أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش و البناء والنتاج.

فسل المعطل الضال: من الذي أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل في طباعها؟

ومن الذي سهل لها سبله ذللا منقادة، لا تستعصي عليها ولا تستوعرها، ولا تضل عنها على بعدها؟ ومن الذي هداها لشأنها؟ ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردته عسلا صافيا مختلفا ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة، وسمه لي من جاء به، وقال هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه، فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى، ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها؟!

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية، حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر، ولا هو مذكور في كتبهم أصلا، وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل، وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر الله إنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط، وأقمع لها، وأذهب لضررها، وأقوى للمعدة، وأشد تفريحا للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذا للدواء، وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن، ولهذا لم يجئ في شيء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلا، ولو عدم من العالم لما احتاج إليه. ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل، واستطابوه عليه، ورأوه أقل حدة وحرارة منه، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها، فيصير أنفع له من السكر. وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع، وبراهين كثيرة لا تدفع، ومتى رأيت السكر يجلو بلغما ويذيب خلطا أو يشفي من داء، وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته، وأما الشفاء الحاصل من العسل، فقد حرمه الله كثيرا من الناس، حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته.

ولا ريب أن كونه شفاء، وكون القرآن شفاء، والصلاة شفاء، وذكر الله والإقبال

عليه شفاء، أمر لا يعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع، وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به، بل لا يزيد الطبائع الرديئة رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا، وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة: كم قد شفي به من عليل، وكم قد عوفي به من مريض، وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريبا من مبلغه في الشفاء!

وأنت ترى كثيرا من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلًا.

ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة، ذكرها في باب الصاد، وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة، ومن منافعها في الروح والقلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية رحمه الله يقول، وقد عرض له بعض الألم، فقال له الطبيب: أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر. فقال: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها. فإذا قويت عليه قهرته. فقال له الطبيب: بلى. فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت، فأوجب ذلك دفع العارض هذا. أو نحوه من الكلام.

والمقصود: أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها، وهو شفاء لما في الصدور، وإن لم يستشف به أكثر المرضى، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

فعم بالموعظة والشفاء، وخص بالهدى والمعرفة، فهو نفسه شفاء استشفِيَ به أو لم يستشف به.

ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل، فهما الشفاءان هذا شفاء

القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

ولقد أصابني أيام مقامي بمكة إسقام مختلفة، ولا طبيب هناك ولا أدوية، كما في غيرها من المدن، فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم، ورأيت فيهما من الشفاء أمرًا عجيبًا.

وتأمل إخباره ﷻ عن القرآن بأنه نفسه شفاء، وقال عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، وما كان نفسه شفاء، ابلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه.

(١)قد اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] هل الضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى الشراب أو راجع إلى القرآن؛ على قولين، والصحيح: رجوعه إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأكثرين، فإنه هو المذكور، والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح، وهو قوله: «صدق الله» كالصريح فيه، والله تعالى أعلم.

(٢)وقوله تعالى: ﴿كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ٦٩] ولم يقل: من الثمرات، وفيها الحكمة في الآية قبلها ومزيد فائدة، وهو أنه تقدمها في النظم قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ [النحل: ٦٧] فلو قال بعدها: كلي من الثمرات كلها لذهب الوهم إلى أنه يريد الثمرات المذكورة قبل هذا، أعني ثمرات النخيل والأعناب، لأن اللام إنما تنصرف إلى المعهود، فكان الابتداء بكل أحصى للمعنى، وأجمع للجنس، وأرفع للبس، وأبدع في النظم، فتأمله.

***

---

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ٣.

(٢) ٢١٣ بدائع جـ١.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

[(١)] نهاهم أن يضربوا له مثلًا من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلًا لخلقه، فإن هذا لم يقله أحدٌ، ولم يكونوا يفعلونه، فإن الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم، ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه، فيشبهونهم بالخالق، والله تعالى أجلُّ في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلًا، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكن في هذا تعيظم، لأنه مثَّل أعظم العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا.

وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

ومن هنا يُعلَمُ أن إثبات صفاتِ الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأنَّ نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين. فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلًا، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كل وجه.

***

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

(١) ٢٣٠ إغاثة جـ٢.

[(١)]هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفي الحكم لنفي علته وموجبه، فإن القياس نوعان:

قياس طرد يقتضي إثبات الحكم في الفرع، لثبوت علة الأصل فيه.

وقياس عكس يقتضي نفي الحكم عن الفرع، لنفي علة الحكم فيه، فالمثل الأول ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده: سرًّا وجهرًا، ليلًا ونهارًا، يمينه ملأى، لا تغضيها نفقة، سحَّاء الليل والنهار[(٢)]. والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف تجعلونها شركاء لي، وتعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؟ هذا قول مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس: وهو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقاً حسنًا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا وجهرًا. والكفار بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء، لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء» والقول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]، ثم قال: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٧٥]، ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقا حسنا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبها على إرادته، لأن الآية اختصت به فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك معنى الآية التي لا معنى

(١) ١٦٠ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١١) ومسلم (رقم٩٩٣) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٦) وشرح النووي (٧/ ٨٠).

لها غيره فيحكيه قوله.

وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبد من دونه أيضًا، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له، راض به، آمر لعباده به، محب لأهله، لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده، الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله، وأهل العدل هم أولياؤه وهم المجاورون عن يمينه على منابر من نور.

وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني، وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما، كما في الحديث الصحيح: «**اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك**»[1] فقضاؤه هو أمره الكوني، فإنما أمره إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، فلا يأمر إلا بحق وعدل، وقضاؤه القائم به حق وعدل، وإن كان في المقضي المقدر ما هو جور وظلم، فالقضاء غير المقضي والقدر غير المقدر.

ثم أخبر سبحانه أنه على صرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وهذا نظير قول رسوله شعيب: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣٧٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠ رقم ٢٩٣١٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩/ ١٠٣٥٢) وأبو يعلى (٩/ ١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٣٩١) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار... والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

فقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هو: ٥٦] نظير قوله: «ناصيتي بيدك»، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ نظير قوله «عدل فيَّ قضاؤك»، فالأول ملكه، والثاني حمده، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق، ولا يأمر إلا بالعدل، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل، فهو على حق في أقواله وأفعاله، فلا يقضي على العبد ما يكون ظالما له به، ولا يأخذه بغير ذنبه، ولا ينقصه من حسناته شيئا، ولا يحمل عليه من سيئات غير، التي لم يعملها، ولم يتسبب إليها شيئا، ولا يؤاخذ أحدا بذنب غيره، ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه، ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يقول: إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، و المسيء بإساءته، لا يظلم أحدا منهم شيئًا، ولا يقبل منهم إلا الإسلام له والإيمان به، ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل عن ابن أبي نجيح عنه ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ قال: الحق، وكذلك رواه ابن جريج عنه.

وقالت فرقة: هي مثل قوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا اختلاف عبارة فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم، ويحضكم عليه، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها، فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر، وقد فرق سبحانه بين كونه آمرا بالعدل، وبين كونه على صراط مستقيم، وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا.

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم: أن مردَّ العباد والأمور كلها إلى الله، لا يفوته شيء منها، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك، وإن

أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه و موجبه فهو حق.

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقهره، وفي ملكه وقبضته، وهذا وإن كان حقًّا فليس هو معنى الآية، وقد فرق بين قوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وبين قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فهما معنيان مستقلان.

فالقول قول مجاهد، وهو قول أئمة التفسير، ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه، قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم(١)

وقد قال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩] وإذا كان الله تعالى هو الذي جعل رسله عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق أن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره، فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق.

وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء، أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وقد تقدم ما في معنى هذا القول(٢)، والله الموفق.

***

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

---

(١) البيت من بحر الوافر، وقائله جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي الكلبي أشعر أهل عصره، وكان عفيفًا، وهو من أغزل الناس شعرًا، توفي سنة ١١٠هـ. ذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ٧٣) وابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١٠٨) وابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٥٩) (٧/ ٣١٣)

(٢) طرق المؤلف هذا البحث على هذه الآية وعلى آية هود ووسع الكلام في ذلك في تفسير سورة الفاتحة وسورة هود (ج).

(١)إن الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم: أن أعطاهم آلات العلم، فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار، ومرة يذكر اللسان الذي يترجم به عن القلب، فقال تعالى في سورة النعم، وهي سورة النحل التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها، فعدد نعمه فيها على عباده، وتعرف بها إليهم، واقتضاهم شكرها، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم، ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة، التي نالوا بها من العلم ما نالوه، وإنه فعل بهم ذلك ليشكروه.

(٢)ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره، فإنه لا يعرف موضع قدمه، ولا يبصر ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه، ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله.

هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره، فلا يشعر بحفرة يهوى فيها، ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له، ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله، ولا يتمكن من هرب إن طلب، بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى، ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته، فإنه بمنزلة لحم على وضم، ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة.

ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته، فهو أقوى الناس بصيرة وحدسا، وجمع عليه همه، فقلبه مجموع عليه غير مشتت، ليهنأ له العيش، وتتم مصلحته، ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف، هذا حكم من ولد أعمى.

(١) ١٠٦ مفتاح جـ١.
(٢) ٢٦٥ مفتاح جـ١.

فأما من أصيب بعينيه بعد البصر، فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية، فالمحنة عليه شديدة، لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره، فهذا له حكم آخر.

وكذلك من عدم السمع، فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابه، ويتبرمون به، ولا يسمع شيئًا من أخبار الناس وأحاديثهم، فهو بينهم شاهد كغائب، وحي كميت، وقريب كبعيد، وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالًا لأموره الضرير أم الأطرش؟

وذكروا في ذلك وجوها، وهذا مبني على أصل آخر، وهو أي الصفتين أكمل: صفة السمع أو صفة البصر؟ وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب، وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم، والتحقيق في ذلك، فأي الصفتين كانت أكمل، فالضرر بعدمها أقوى.

والذي يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضررًا وأسلمهما دينا وأحمدهما عاقبة، وعادم السمع أقلهما ضررًا في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة، فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح، وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر، ولا يناله من العلم ما يكفه عنها، فضرره في دينه أكثر، وضرر الأعمى في دنياه أكثر، ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش، وكان فيهم جماعة أضراء، وقل أن يبتلي الله أولياءه بالطرش، ويبتلى كثيرًا منهم بالعمى، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، فمضرة الطرش في الدين، ومضرة العمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما، ومتعه بسمعه وبصره، وجعلهما الوارثين منه.

[1]اعلم أن الله ﷻ جعل للقلوب نوعين من الغذاء: نوعًا من الطعام والشراب

(١) ٤٠٨ مدارج جـ٢.

الحسي، وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكل عضو منه بحسب استعداده وقبوله.

والثاني: غذاء روحاني معنوي، خارج عن الطعام والشراب: من السرور والفرح، والابتهاج واللذة، والعلوم والمعارف، وبهذا الغذاء كان سماويًّا علويًّا، وبالغذاء المشترك كان أرضيًّا سفليًّا، وقوامه بهذين الغذاءين، وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس، وغذاء يصل إليه منها.

فله ارتباط بحاسة اللمس، ويصل إليه منها غذاء، وكذلك حاسة الشم، وكذلك حاسة الذوق، وكذلك ارتباطه بحاستي السمع والبصر: أشد من ارتباطه بغيرهما ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوىٰ من سائر الحواس، وانفعاله عنهما أشد من انفعاله عن غيرهما، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يقرن إلا بهما أو بأحدهما.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالىٰ في صفة الكفار: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] وهذا كثير جدًّا في القرآن.

لأن تأثره بما يراه ويسمعه: أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه، ولأن هذه

الثلاثة: هي طرق العلم، وهي: السمع والبصر والعقل.

وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به: أشد من تعلقه بالبصر وارتباطه به، ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملذوذات أعظم مما يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعا ورؤية، ولهذا كان الصحيح من القولين: أن حاسة السمع أفضل من حاسة البصر، لشدة تعلقها بالقلب وعظم حاجته إليها، وتوقف كماله عليها، ووصول العلوم إليه بها، وتوقف الهدىٰ علىٰ سلامتها.

ورجحت طائفة حاسة البصر لكمال مدركها وامتناع الكذب فيه. وزوال الريب والشك به ولأنه عين اليقين، وغاية مدرك حاسة «السمع» علم اليقين، وعين اليقين أفضل وأكمل من علم اليقين ولأن متعلقها رؤية وجه الرب ﷻ في دار النعيم، ولا شيء أعلىٰ وأجل من هذا التعلق.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بين الطائفتين حكمًا حسنًا، فقال: المدرك بحاسة السمع أعم وأشمل، والمدرك بحاسة البصر أتم وأكمل، فللسمع العموم والشمول والإحاطة بالموجود والمعدوم والحاضر والغائب والحسي والمعنوي، وللبصر: التمام والكمال...

***

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٨٠ ﴾.

[(1)]تستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ورفع الجناح والإذن والعفو، وإن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل.

ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال نحو: ﴿ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا ﴾ [النحل: ٨٠] ونحو: ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦]

---

(١) ٦ بدائع جـ٤.

ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي، وهو نوعان: إقرار الرب تبارك وتعالى وإقرار رسوله إذا علم الفعل.

فمن إقرار الرب تعالى قول جابر: «كنا نعزل والقرآن ينزل»(١).

ومن إقرار رسوله قول حسان لعمر: كنت أنشد، وفيه من هو خير منك(٢).

(٣)إخباره عن الحكم والغايات التي جعلها في خلقه وأمره، كقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝﴾ [النبأ: ٦-١٦]. وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨٠، ٨١]. وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ

(١) أخرجه الباري (رقم ٥٢٠٧-٥٢٠٩) ومسلم (رقم ١٤٤٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢١٢) ومسلم (رقم ٢٤٨٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٤٨).
(٣) ١٩٧ شفاء العليل.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]. وقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢] إلى أضعاف أضعاف ذلك في القرآن، مما يفيد من له أدنى تأمل القطع بأنه سبحانه فعل ذلك للحكم والمصالح التي ذكرها وغيرها مما لم يذكره. وقوله: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩] وقوله: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥-٦] فهل يستقيم ذلك ويصح فيمن لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لغاية هي مقصودة بالفعل، ومعلوم بالضرورة أن هذا الإثبات وهذا النفي متقابلان أعظم التقابل.

***

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

(١) إخباره بإنعامه على خلقه وإحسانه إليهم، وأنه خلق لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة، ليتم نعمته عليهم، ومعلوم أن المنعم المحسن لا يكون كذلك، ولا يستحق هذا الاسم حتى يقصد الإنعام على غيره والإحسان إليه، فلو لم يفعل سبحانه لغرض الإنعام والإحسان لم يكن منعما في

---

(١) ٢٠٢ شفاء العليل.

الحقيقة ولا محسنا، إذ يستحيل أن يكون كذلك من لم يقصد الإنعام والإحسان، وهذا غني عن التقرير.

يوضحه أنه سبحانه حيث ذكر إنعامه وإحسانه فإنما يذكره مقرونا بالحكم والمصالح والمنافع، التي خلق الخلق وشرع الشرائع لأجلها، كقوله في آخر سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١] فهذا في الخلق.

وقال في الشرع في أمره باستقبال الكعبة: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وقال في أمره بالوضوء والتيمم: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]، فجعل تمام نعمته في أن خلق ما خلق للإحسان وأمر بما أمر لذلك.

(١)وهو سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى معرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه، كما تضمنته سورة النعم، وهي سورة النحل، من قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٤-٨١].

فذكرهم بأصول النعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك

(١) ٣٦ شفاء العليل.

عليهم، ليسلموا له، فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم، ثم أخبر عمن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد: «المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم»[1].

وقال عون بن عبد الله: «يقولون لولا فلان لكان كذا وكذا».

وقال الفراء وابن قتيبة: «يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون هذه بشفاعة آلهتنا».

وقالت طائفة: «النعمة ههنا محمد ﷺ، وإنكارها جحدهم نبوته»، وهذا يروىٰ عن مجاهد والسدّي، وهذا أقرب إلىٰ حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة. وأما علىٰ القول الأول والثاني والثالث فإنهم لما أضافوا النعمة إلىٰ غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلىٰ غيره...

[2]رؤساء الكفر وأئمته ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النحل: ٨٨]، فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله.

وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل علىٰ الداعي إلىٰ الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له.

ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدىٰ في السعداءِ، فأُولئك يتضاعف ثوابهم، وتعلو درجاتهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٨) وانظر: الدر المنثور (٥/ ١٥٥).

(٢) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال تعالى في حقهم: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر: ٤٦].

وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة إمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله. فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم.

ولهذا كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل: «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»(١). والصحيح في اللفظ: أنهم الأتباع، ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً، وهو أول من يكسى حلة من النار، لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عصى الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته.

ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر، كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد، بل النار دركات، كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحداً. وهو الغني الحميد.

وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية، وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٩) وشرح النووي (١٢/ ١٠٧-١٠٩).

ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماءِ، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم اتفاقاً لتغلظ كفرهم.

وهؤلاءِ هم المعطلة والدهرية وكثير من الفلاسفة وأهل الوحدة القائلين بأنه لا وجود للرب ﷻ غير وجود هذا العالم.

الجهة الثانية: تغلظه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة، ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عناداً وبغياً، كقوم ثمود، وقوم فرعون واليهود الذين عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءَهم، وكفر أبي جهل وأُمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء.

الجهة الثالثة: السعي في إطفاءِ نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاءِ أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم.

ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث.

ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة، فليس عذاب هؤلاءِ كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاءِ، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعاً من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف وأضرابهم؟

والمقصود أن هذه الطبقة وهي طبقة الرؤساءِ الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب»[1]، ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٦١، ٦٥٦٢) ومسلم (رقم ٢١٣) واللفظ له. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٤، ٤٣٠) وشرح النووي (٣/ ٨٦).

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

[1]هؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه، لا أن هناك في نفس الأمر ظلما نهى عنه، وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل، لا أن هناك أمرا ممكنا مقدورا لو فعله لكان ظلما، فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه، إنما هو المحرم في حقه، والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضا، قال الله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٧- ٢٩] أي لا أؤاخذ عبدا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله ﷻ عنه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] يعني لا يحمل عليه من سيئات ما لم يعمله ولا ينقص من حسنات ما عمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

---

(١) ٢٣٦ مدارج جـ١.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]، فدل علىٰ أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالما، وعندهم يجوز ذلك، وليس بظلم لو فعل، ويؤولون الآية علىٰ أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم، وعلم أنه لا يفعل ذلك وخلاف خبره ومعلومه مستحيل، وذلك حقيقة الظلم، ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعا، ولا أريد بها، ولا تحتمله بوجه، إذ يؤول معناها إلىٰ أنه ما كان ليهلك القرىٰ بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون، وكلامه تعالىٰ يتنزه عن هذا ويتعالىٰ عنه.

وكذلك عند هؤلاء أيضًا: العبث والسدىٰ والباطل، كلها هي المستحيلات الممتنعة، التي لا تدخل تحت المقدور، والله سبحانه قد نزه نفسه عنها، إذ نسبه إليها أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده، المنكرون لأمره ونهيه، فأخبر أن ذلك يستلزم كون الخلق عبثا وباطلا، وحكمته وعزته تأبىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي: لغير شيء لا تؤمرون ولا تنهون، ولا تثابون ولا تعاقبون، والعبث قبيح، فدل علىٰ أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول، ولذلك أنكره عليهم إنكار منبه لهم علىٰ الرجوع إلىٰ عقولهم وفطرهم، وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثا، لا لأمر ولا لنهي، ولا لثواب ولا لعقاب، وهذا يدل علىٰ أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر، وأن من جوز علىٰ الله الإخلال به، فقد نسبه إلىٰ ما لا يليق به وإلىٰ ما تأباه أسماؤه الحسنىٰ وصفاته العليا.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، قال الشافعي: مهملا لا يؤمر ولا ينهىٰ[1]. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب، وهما متلازمان، فأنكر

(١) انظر: أحكام القرآن للشافعي (١/ ٣٦) (٢/ ١٢٣) وسنن البيهقي الكبرىٰ (١٠/ ١١٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٣).

على من يحسب ذلك، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به، ولهذا استدل على أنه لا يترك سدى، لقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ إلى آخر السورة [القيامة: ٣٧-٤٠].

[(١)] وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريدًا لقصد الصفة. وهي الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء. وهي ما ظهر قبحها لكل أحد، واستفحشه كل ذي عقل سليم، ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله «فاحشة» لتناهي قبحهما، وكذلك القبيح من القول يسمى فحشًا، وهو ما ظهر قبحه جدا من السب القبيح والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضا، أي الفعل المنكر، وهو الذي تستنكره العقول والفطر، ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم المستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة. كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه، والقبيح المستكره لها: الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة، ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف في شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حسنه ولم يؤلف، وبين ما استقر قبحه في الفطر والعقول...

***

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾.

(١) ٣٧١ مدارج جـ١.

(١)طيب الحياة جنة الدنيا، قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أشد من ضيق الصدر؟ وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا، وأنعمهم بالا، وأشرحهم صدرا، وأسرهم قلبا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة. قال النبي ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ وقال: «**حلق الذكر**»(٢). ومن هذا قوله ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»(٣). ومن هذا قوله ﷺ وقد سألوه عن وصاله في الصوم وقال: «**إني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**»(٤).

فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به، لا يشركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغني عنه...

(٥)وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد.

---

(١) ٢٦٧ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥١٠) وأحمد (٣/ ١٥٠) وأبو يعلى (٦/ ١٥٥ رقم ٣٤٣٢) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٩٨ رقم ٥٢٩) والطبراني في الكبير (١١/ ٩٥ رقم ١١١٥٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وانظر: كشف الخفاء (١/ ١٠٦ رقم ٢٧٨) وفتح الباري (١١/ ٢١٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٦) ومسلم (رقم ١٣٩١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠) وشرح النووي (٩/ ١٦١).

(٤) أخرجه البخاري بألفاظ متقاربة (١٩٦١-١٩٦٧) ومسلم (رقم ١١٠٣، ١١٠٤) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٥) ٢٦٨ الجواب الكافي.

وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلاّ بذلك، فعدمه آلم شيء له، وأشد عذابًا عليه.

وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره، الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صح وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر، فهو أعلم بحاله حينئذ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه، ولا بدل منه، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعًا؟ فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرًا به، وإن الموت ليعد أكبر أمنيته وأكبر حسراته، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات، كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية ما لا يقدره قدره؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فأعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلاّ معه، فأصبحت وقد أخذ منك، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه، كما قيل:

مـن كـل شـيء إذا ضـيعته عـوض ... ومـا مـن الله إن ضيعتـه عـوض[1]

(١) لم أجده.

وفي الأثر الإلهي: «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء»(١).

(٢)وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضى والرزق الحسن وغير ذلك.

والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة.

كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب(٣).

وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا(٤).

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح، فإنه ملكها، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث: أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

---

(١) ذكر هذا الأثر ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٣٩).

(٢) ٢٥٩ مدارج جـ٣.

(٣) انظر: الوابل الصيب (ص ٧٠) وفيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٤) انظر: الوابل الصيب (ص ٧٠).

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فذكر الله ﷻ ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة. اهـ.

[١]وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة اجتمعت همومه كلها، وصارت همًا واحدة في مرضات الله؟ ولم يتشعب قلبه بل أقبل على الله؟! واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله. فصار ذكره محبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل خطرات قلبه فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيى، وبه يموت، وبه يبعث، كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وبي يسمع، وبي يبصر وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه**»[٢]. فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه، والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه

---

(١) ٢٤٨ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر: فتح الباري (١٦/ ٣٤٣-٣٤٦).

والتقرب إليه بالنوافل. وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب مما يتقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله، فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة، فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى، مالكا لزمام قلبه، مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه، الصادق في محبته، التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له.

[1]ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحًا، كما قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]. في موضعين من كتابه[2]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قبل وحيه، وعمل به، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم ﷻ بالحياة الطيبة في الدارين، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣]. ومثله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠]، ومثله قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠]. فبين سبحانه أنه يسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى

(١) ٢٣ إغاثة جـ١.

(٢) والموضع الثاني في سورة النحل: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢] (ج).

فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى، وقد جمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال: تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

***

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

(١)معنى «استعذ بالله» امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ، والعياذ، والمعاذ؛ وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لَقَدْ عُذْتِ بِمُعَاذٍ»(٢). وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أطيب اللحم عوذه»، أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها «عوذ» كحمر. ومنه في حديث الحديبية: «مَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ»(٣). والمطافيل: جمع مطفل، وهي الناقة التي معها فصيلها.

---

(١) ٩١ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٥٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٥٧-٣٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٨).

قالت طائفة ـ منهم صاحب جامع الأصول ـ: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم، ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته. أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور مذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أَمَرَّه[1] فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب، ليصادف الدواء محلاً خاليا، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أَتَـانِي هَوَاهَـا قَبْـلَ أَنْ أَعْـرِفَ الْهَـوىٰ فَـصَادَفَ قَلْبـاً خَـالِياً فَتَمَكّنَـا[2]

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولا فأولا، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله ﷻ منه، لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله، أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر الله ملحظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصل للأمرين.

---

(١) كذا بالأصل ولعله: أقره. (ج).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى مجنون ليلى: قيس بن الملوح بن مزاحم العامري شاعر الغزل المشهور، مات ٦٨هـ، وينسب أيضًا إلى يزيد بن الطثرية الشاعر الأموي، وكان حسن الشعر صاحب غزل مات ١٢٦هـ، وينسب أيضًا إلى ديك الجن الحمصي: عبدالسلام بن رغبان الكلبي الشاعر العباسي، مات ٢٣٥هـ، و ذكر البيت المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٠٩).

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته. كما في حديث أُسيد ابنُ حضَير لما كان يقرأ، ورأىٰ مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «تِلْكَ المَلائِكَةُ»(١). والشيطان ضد الملك وعدوه. فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالىٰ مباعدة عدوه عنه حتىٰ يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب علىٰ القارئ بخيله ورجله، حتىٰ يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده علىٰ أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالىٰ بكلامه، والله تعالىٰ أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلىٰ قينته. والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء. فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته تعالىٰ، واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنىٰ ألقىٰ الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم علىٰ أن المعنىٰ: إذا تلا ألقىٰ الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان:

تَمنَّىٰ كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لاقَىٰ حِمَامَ المَقَادِرِ(٢)

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠١٨) ومسلم (رقم ٧٩٦) وانظر: شرح النووي (٦/ ٨٢).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل ؤينسب إلىٰ كعب بن مالك الأنصاري، قاله في رثاء الخليفة الراشد عثمان بن عفان لما قتل ﷺ، وقائله هذا صحابي جليل من أكابر الشعراء وكان من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر الوقائع، عمي في آخر حياته، وعاش سبعًا وسبعين سنة، ومات سنة ٥٠هـ رضي الله عنه وأرضاه. والبيت ذكره ابن منظور في لسان العرب (١٥/ ٢٩٥) والزمخشري في الفائق (٣/ ٣٩٢) والقرطبي في تفسيره (٢/ ٦) وابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣١) والشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٢٨٤).

ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالىٰ منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون علىٰ الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ شَيْطَاناً تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاتِي...»[(١)] الحديث.

وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلىٰ الله تعالىٰ كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلام، فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وآبَاءِ آبَائِكَ؟ فعصاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ المهَاجِرِ كالفَرَسِ في الطول فَعَصَاهُ وَهاجَر، ثُمَّ قعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَال فقال: تقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ»[(٢)].

فالشيطان بالرصد للإنسان علىٰ طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد رحمه الله: «ما من رفقة تخرج إلىٰ مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم»[(٣)] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد، ولاسيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه، الذي يقطع عليه الطريق، ويستعيذ بالله تعالىٰ منه أولا، ثم يأخذ في السير، كما أن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٠٨) ومسلم (رقم ٥٤١) وانظر: عمدة القاري (٤/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٣) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ١٥ رقم ٤٣٤٢) وفي المجتبىٰ (رقم ٣١٣٤) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٨٤ رقم ١٠٤٣) وفي الجهاد (رقم ١٣) وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٣٠٣) والطبراني في الكبير (٧/ ١١٧ رقم ٦٥٥٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ١١٨٦ رقم ٢٩٧٩) وفي صحيح سنن النسائي وفي صحيح الجامع (رقم ١٦٥٢).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٢٦) وعزاه إلىٰ ابن المنذر.

المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: «لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة، إلا استعاذ؛ لقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقال في رواية ابن مشيش: «كلما قرأ يستعيذ».

وقال عبد الله بن أحمد: «سمعت أبي كان إذا قرأ استعاذ، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم».

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال: كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا قامَ إِلَى الصَّلاةِ اسْتَفْتَحَ ثُمَّ يَقُولُ: «أَعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ العليم مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[1].

وقال ابن المنذر: جَاءَ عَن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[2]. واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وهو رواية عن أحمد، لظاهر الآية، وحديث ابن

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠) (٤/ ٨٥) وابن حبان (٥/ ٧٨-٧٩ رقم ١٧٧٩) وابن خزيمة (١/ ٢٣٨ رقم ٤٦٧) وأبو داود (رقم ٧٧٥) وابن ماجه (رقم ٨٠٧) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٥ رقم ٢١٨٥) وفي الصغرى (رقم ٢٧٨) وابن أبي شيبة (١/ ٢١٥ رقم ٢٤٦٠) والطبراني في الكبير (٢/ ١٣٤ رقم ١٥٦٩) وأبو يعلى (٨/ ٤١١ رقم ٤٩٩٤) وتمام في فوائده (رقم ١١٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وفي مشكاة المصابيح (رقم ١٢١٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٨٠ رقم ١٧٨٠) وفي الموارد (رقم ٤٤٣) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٥ رقم ٢١٨٣).

المنذر. وعن أحمد من رواية عبد الله: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أنّ النبيَّ ﷺ جَلَسَ وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العليم مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[(١)].

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»[(٢)]. وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن قوله: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]. ظاهره أنه يستعيذ بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وقوله في الآية الأخرى: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]. يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف «إن»، لأنه سبحانه هكذا ذكره. وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذكر عن النبي ﷺ: «اللّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: «وهمزه: المُؤتة، ونفخه: الكبر، ونفثه: الشعر»[(٣)].

[(٤)]وأما قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ فعلى ما

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٢٣٨ رقم ٤٦٧) وأبو داود (رقم ٧٧٥) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٤ رقم ٢١٧٩) والدارقطني (١/ ٢٩٨ رقم ٤) والدارمي (رقم ١٢٣٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٩٧) وعبدالرزاق (٢/ ٧٥ رقم ٢٥٥٤) وأحمد (٣/ ٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٦٥): رواه أحمد ورجاله ثقات. وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٥١ رقم ٢٤٥٨) وعبد الرزاق (٢/ ٨٠-٨١ رقم ٢٥٦٨) وانظر: المغني (١/ ٢٨٣).

(٣) انظر: صحيح ابن حبان (٦/ ٣٣٦) وصحيح ابن خزيمة (١/ ٢٤٠) وسنن أبي داود (١/ ٢٠٣) وسنن البيهقي في الكبرى (٢/ ٣٥) وتهذيب الآثار (٢/ ٦٤٦) والوابل الصيب (ص ١٤٣) ونيل الأوطار (٢/ ٢١٤) ولسان العرب (٣/ ٦٤).

(٤) ١٩٦ بدائع جـ١.

ذكرنا من التعبير عن إرادة الفعل بالفعل هذا هو المشهور.

وفيه وجه ألطف من هذا، وهو أن العرب تعبر بالفعل عن ابتداء الشروع فيه تارة، وتعبر عن انتهائه تارة، فيقولون: فعلت عند الشروع، وفعلت عند الفراغ، وهذا استعمال حقيقي.

وعلى هذا فيكون معنى ﴿ قَرَأْتَ ﴾ في الآية ابتداء الفعل، أي: إذا شرعت وأخذت في القراءة فاستعذ. فالاستعاذة مرتبة على الشروع الذي هو مبادئ الفعل ومقدمته وطليعته.

[1]فالقرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لَقَّاه ذلك، فإنه ينال بذلك كف شر عدوه وانقلابه صديقا، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغل والحقد وطمأنينة الناس- حتى عدوه - إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه، وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا ينال إلا بالصبر، قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ [فصلت: ٣٥] فإن النَّزِق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان - أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتُمِدّ الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان فـ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل: ٩٩]. قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة.

والصواب: أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطانا؛ لأن

(١) ٩٨ إغاثة جـ١.

صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٢].

وقال في سورة النحل: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩- ١٠٠]. فتضمن ذلك أمرين: أحدهما نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه.

ولـما علم عـدو الله أن الله تعـالى لا يسلطـه على أهـل التوحيد والإخـلاص قـال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله، ﷻ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته وهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع. فكيف ينفيه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]. قيل: إن كان الضمير في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ [سبأ: ٢١]. عائدًا على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعًا: أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخـرة ممن هو منها في شك. وإن كان عـائدًا على ما عـاد عليه في قولـه: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠]. وهو الظاهر، ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي ويكون المعنى: وما سلطناه عليهم إلا لنعلم مـن يؤمن بالآخرة. قـال

ابن قُتيبة: «إن إبليس لما سأل الله تعالىٰ النظرة فأنظره[1] قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: ٨٢]. ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ ... ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بكذا [النساء: ١١٩]، ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨] وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقنًا أن ما قدره فيه يتم، وإنما قال ظانًّا، فلما اتَّبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالىٰ: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين، يعني نعلمهم موجودين ظاهرين، فيحق القول ويقع الجزاء».

وعلىٰ هذا فيكون السلطان هاهنا علىٰ من لم يؤمن بالآخرة وشك فيها، وهم الذين تولوه وأشركوا به، فيكون السلطان ثابتًا لا منفيًا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم. حيث يقول لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وهذا وإن كان قوله فالله سبحانه أخبر به عنه مقرراً له، لا منكرا، فدل علىٰ أنه كذلك.

قيل: هذا سؤال جيد. وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: «ما كان لي من حجة أحتج بها عليكم» أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠]. فهو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يؤزُّهم إلىٰ الكفر والشرك ويزعجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. قال ابن عباس: «تغريهم إغراء»[2] وفي

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عن أبي قلابة (٤/ ٣٠١) وابن أبي شيبة (٧/ ٦٢ رقم ٣٤٢١٧) وعبدالرزاق (١١/ ٢٧٥ رقم ٢٠٥٣٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٠٤٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) وورد هذا من قول سفيان الثوري، ذكره عنه كل من ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٧) وابن حجر في الفتح (٨/ ٤٢٧). وذكره العيني في عمدة القاري من قول سعيد بن جبير (١٩/ ٥٠) وذكره الحربي من قول الضحاك في غريب الحديث (٣/ ٩٨٤).

رواية: «تشليهم إشلاء»(١) وفي لفظ: «تحرضهم تحريضًا» وفي آخر: «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا»(٢) وفي آخر: «توقدهم»(٣) أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم»(٤).

وحقيقة ذلك: أن «الأزّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان. ومنه الحديث: «لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(٥). قال أبو عبيدة «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إزَّ قِدْرَك، أي ألْهِب تحتها بالنار(٦)، وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأزّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) عن ابن زيد. وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٧) من قول مجاهد. وكذا فعل ابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا من قول سفيان بن عيينة (ص ٩١٤) قبل حديث (رقم ٤٧٣٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٧) وعمدة القاري (١٩/ ٥٠) وأخرجه من قول قتادة كل من عبدالرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ١٢-١٣) والطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥). وذكره ابن كثير من قول ابن عباس في تفسيره (٢/ ٢٨٠) ومن قول قتادة في تفسيره أيضًا (٣/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره من قول ابن عباس (٥/ ٥٣٨).

(٤) ذكره عنه بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٩/ ٥٠).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٦) والضياء المقدسي في المختارة (٩/ ٤٦٢ رقم ٤٣٦) والحاكم (١/ ٣٩٦ رقم ٩٧١) وابن حبان (٢/ ٤٣٩ رقم ٦٦٥) وابن خزيمة (٢/ ٥٣ رقم ٩٠٠) والنسائي في الكبرى (١/ ١٩٥ رقم ٥٤٥). وفي المجتبى (رقم ١٢١٤) وأحمد (٤/ ٢٥، ٢٦) وأبو يعلى (٣/ ١٧٤ رقم ١٥٩٩) وعبد بن حميد (رقم ٥١٤) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ١٣٤) وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٠٦): وإسناده قوي وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

(٦) ذكره عنه كل من الحربي في غريب الحديث (٣/ ٩٨١) وابن سلام في غريب الحديث (١/ ٢٢١-٢٢٢) وابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠٧).

وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم، بموافقته ومتابعته فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم؛ عقوبة لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١][(١)].

[(٢)]وقد أخبر تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه، والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوه معه عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الأولية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنابة العاصمة من ضدها، فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان لأن فعل السيئات التي توجب العذاب، فإخلاص القلب لله مانع له من فعل ما يضاده، وإلهامه البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور عقوبة خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًا عاد السؤال، وإن كان أمرًا عدميًا فكيف يعاقب على العدم؟

وقلت: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العدم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه، بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل، فلله سبحانه عقوبتان.

إحداهما: جعله خاطئًا مذنبًا لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟

(١) بقية البحث على هذه الآية في سورة النساء، ويأتي في سبأ نقلها عن الجواب الكافي (ج).
(٢) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ١.

بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان: إحداهما على الأخرى، لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به.

وتأمل عدل الرب تعالى في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها، الذي لا يليق بها غيره، وهذا أمر لو لم تشهده القلوب وتعرفه لما جاز أن ينسب إلى الله تعالى سواه، ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالى ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده، من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم، ويجعلهم مخلصين له، أم ذلك محض جعله في قلوبهم؟.

قلت: لا، بل هو محض منته وفعله، وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم، ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلمًا، ولزمك القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟

قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالمًا، وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرَّمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ما ليس حقًّا له، بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالمًا بمنعه.

***

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝﴾.

[(١)] تأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ [النحل: ١٠١].

فقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا:

منها: الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟

ومنها: أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

ومنها: أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلًّا منهما منزل؛ فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

***

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

[(٢)] المخرج الثالث: أن يكون مكرهًا على الطلاق أو الحلف به عند جمهور الأمة: من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو قول أحمد ومالك والشافعي وجميع أصحابهم، على اختلاف بينهم في حقيقة الإكراه وشروطه[(٣)].

قال الإمام أحمد في رواية أبي طالب يمين المستكره إذا ضرب. ابن عمر وابن الزبير لم يرياه شيئًا. وقال في رواية أبي الحارث: إذا طلق المكره لم يلزمه الطلاق، فإذا فعل به كما فعل بثابت بن الأحنف فهو مكره، لأن ثابتا عصروا رجله حتى طلق، فأتى ابن عمر وابن الزبير فلم يريا ذلك شيئًا[(٤)]، وكذا قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ

(١) ١٤٠ التبيان.

(٢) ٥١ أعلام جـ٤.

(٣) انظر: الأم (٧/ ٧٧) وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ١١) والكافي في فقه ابن حنبل (٤/ ٣٧٣) وإعانة الطالبين (٤/ ٣١٠) وشرح فتح القدير (٥/ ٦٥).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٢٠) وانظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٨٠) والاستذكار (٦/ ٢٠١).

مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال الشافعي ﷺ قال ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـٰنِ﴾ وللكفر أحكام، فلما وضعها الله تعالى عنه سقطت أحكام الإكراه عن القول كله، لأن الأعظم إذا سقط عن الناس سقط ما هو أصغر منه[(١)].

وفي سنن ابن ماجه وسنن البيهقي: من حديث بشر بن بكر عن الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي»[(٢)] وقال البيهقي: «تجاوز لي عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[(٣)].

***

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

[(٤)] قوله: وكذلك أيضًا حذف المضاف مجاز، وقد كثر حتى إن في القرآن الذي هو أفصح الكلام منه أكثر من ثلاثمائة موضع، جوابه من وجهين:

أحدهما: أن أكثر المواضع التي ادعى فيها ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ [الأعراف: ٤] ﴿

---

(١) انظر: الأم للشافعي (٣/ ٢٣٦) وأحكام القرآن له أيضًا (١/ ٢٢٤) والسنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٠٤٥) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٨٤ رقم ١١٢٣٦) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٦١ رقم ٨٢٧٣) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٢) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٥٠): رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٢/ ١٢٦): هذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع. وقال ابن كثير في تحفة الطالب (رقم ١٥٨): إسناده جيد. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٨٣٦) وفي صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٦ رقم ١٤٨٧١) وقال: جوّد إسناده بشر بن بكر، وهو من الثقات. وحسنه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧١).

(٤) مختصر الصواعق جـ٢.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ [الطلاق: ٨] إلى الحذف في القرآن لا يلزم فيها الحذف، ولا دليل على صحة دعواه، كقوله إلى أمثال ذلك، فادعى أهل المجاز أن ذلك كله من مجاز الحذف، وأن التقدير في ذلك كله أهل القرية، وهذا غير لازم؛ فإن القرية اسم للقوم المجتمعين في مكان واحد، فإذا نسب إلى القرية فعل أو حكم عليها بحكم أو أخبر عنها بخبر، كان في الكلام ما يدل على إرادة المتكلم من نسبة ذلك إلى الساكن أو المسكن، أو هو حقيقة في هذا وهذا، وليس ذلك من باب الاشتراك اللفظي، بل القرية موضوعة للجماعة الساكنين بمكان واحد، فإذا أطلقت تناولت الساكن والمسكن، وإذا قيدت بتركيب خاص واستعمال خاص كانت حقيقة فيما قيدت به، فقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢] حقيقة في الساكن وكذلك لفظة القرية في عامة القرآن؛ إنما يراد بها الساكن فتأمله، وقد يراد بها المسكن خاصة، فيكون في السياق ما يعينه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي: ساقطة على سقوفها، وهذا التركيب يعطي المراد، فدعوى أن هذا حقيقة القرية، وأن قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ [الطلاق: ٨] ونحوه تحكم بارد لا معنى له، وهو بالضد أولى، إذ قد اطرد استعمال القرية إلى الساكن، وحقيقة الأمر أن اللفظة موضوعة للساكن باعتبار المسكن، ثم قد يقصد هذا دون هذا، وقدي يرادان معًا فلا مجاز ههنا ولا حذف، وتخلصت بهذا من ادعاء الحذف فيما شاء الله من المواضيع، التي زعم أنها تزيد على ثلاثمائة.

الوجه الثاني: أن هذا الحذف الذي يزعمه هؤلاء ليس بحذف في الحقيقة؛ فإن قوة الكلام تعطيه، ولو صرح المتكلم بذكره كان عيًّا وتطويلًا مخلًّا بالفصاحة كقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الحشر: ٧] قالوا: هذا مجاز تقديرهما: أفاء الله من أموال أهل القرى، وهذا غلط وليس بمجاز، ولا يحتاج إلى هذا التقدير،

والمعنى مفهوم بدون هذا التقدير، فالقائل،: اتصل إليَّ من فلان ألف يصح كلامه لفظًا ومعنى بدون تقدير، فإن من للابتداء في الغاية، فابتداء الحصول من المجرور بمن، وكذلك في الآية اهـ.

(١)وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريما منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريما من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام. ولما لم يحله: هذا حلال. وهذا بيان منه سبحانه: أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال، وهذا حرام، إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه.

***

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.

(٢)هذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة، هو القدوة الذي يؤتم به.

---

(١) ٣٨ أعلام جـ١.

(٢) ١٧٤ مفتاح جـ١.

قال ابن مسعود: والأمة المعلم للخير[١]. وهي فعلة من الائتمام: كقدوة وهو الذي يقتدي به. والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إمامًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] أي: بطريق واضح، لا يخفى على السالك، ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العمل والعلم؛ بحيث بقي فيها فردًا وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه، وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة، ومنه الحديث: «إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٢] فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة. ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ قال ابن مسعود: القانت المطيع[٣]، والقنوت يفسر بأشياء

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٢) والحاكم (٢/ ٣٩٠ رقم ٢٣٦٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ٥٩ رقم ٩٩٤٣) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٩) رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه الضياء (٣/ ٣٠٧-٣٠٨ رقم ١١١٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٧٧ رقم ٧٧٤) والطبراني في الكبير (١/ ١٥١ رقم ٣٥٠) (٥/ ٨٦ رقم ٤٦٦٣) وأبو يعلى (٤/ ٤١ رقم ٢٠٤٧) وأحمد (١/ ١٨٩) والشاشي في مسنده (١/ ٢٥٧ رقم ٢٢٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٦٠ رقم٩٩٤٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٨/ ٤٢٠) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٤٩) وانظر: تغليق التعليق (٤/ ٢٣٦) ومقدمة فتح الباري (ص ١٧٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٨).

كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله ﴿ حَنِيفًا ﴾ والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لا أنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكرًا إلا بهذه الأشياء الثلاثة.

والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات، كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه.

(١)وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه قانتًا لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه.

ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] فهذه غاية الخلق وغاية الأمر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ويجوز أن يكون قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تعليلا لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معا وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر.

وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

---

(١) ١٢٤ عدة الصابرين.

وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١] قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[(١)]. وثبت في المسند والترمذي: أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «والله إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[(٢)].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(٣)].

***

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٦) ومسلم (رقم ٢٨١٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٠٥) وشرح النووي (١٧/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٦) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٣) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) والبزار (٧/ ١٠٤ رقم ٢٦٦١) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص١١٥-١١٦) (ص٣٢٠) وتهذيب الأسماء (٢/ ٤٠٣) وقال في الخلاصة: إسناده صحيح، انظر: نصب الراية (٢/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٤) وابن أبي شيبة (٦/ ١٠٤ رقم ٢٩٨٢٥) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبدالله الأودي وهو ثقة.

[(١)]العظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفس الرغبة والرهبة، فالمنيب المتذكر: شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر: شديد الحاجة إلى المجادلة.

فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] أطلق الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

وكذلك الجدال قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به، من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب، والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين.

[(٢)]الله سبحانه يجزي العبد على ما عمل من خير في الدنيا ولابد، ثم في الآخرة يوفيه أجره، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فما يحصل في الدنيا من الجزاء على الأعمال الصالحة ليس جزاء توفية، وإن كان نوعًا آخر كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٢] فأخبر سبحانه أنه أتى خليله أجره في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك

---

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

(٢) ١٦٤ أعلام جـ٢.

أجر توفية، وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيرًا أجر [ين][(١)] عمله في الدنيا ويكمل له أجره في الآخرة، كقوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠] وفي الآية الأخرى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١] وقال في هذه السورة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] وقال فيها عن خليله ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٢]، فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم، التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعما أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية، وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هو: ٣].

***

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

[(٢)]قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧] وقول شعيب: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود: ٨]. ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينبغي أن يكون فعلًا للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعًا به، وإنما هو بالخالق لكل شيء، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصحة حذف ما بين المعكوفين (ج).

(٢) ٦٣ شفاء العليل.

فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد؛ ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره، فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]. ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾ والصبر فعلهم الاختياري، فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه: إن شاء أعطاهموه، وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله، والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قوله: ﴿ وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم، ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

وأيضًا فإن كون الإنسان منصورًا على غيره؛ إما أن يكون بأفعال الجوارح، وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضًا بفعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده، وأثنى على من طلبه منه. وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب.

والرابع: قوله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي: بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النحل

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾.

[(١)]كانت كرامة رسول الله ﷺ بالإسراء مفاجأة من غير ميعاد، ليحمل عنه ألم الانتظار، ويفاجأ بالكرامة بغتة، وكرامة موسى بعد انتظار أربعين ليلة...

وتسخير البراق لحمل رسول الله ﷺ في ليلة واحدة مسيرة شهرين ذهابًا وإياباً أعظم من تسخير الريح لسليمان مسيرة شهرين في يوم واحد ذهابًا وإيابًا؛ فإن الريح سريعة الحركة، طبعها الإسراع بما تحمله، وأما البراق فالآية فيه أعظم...

وشق صدر النبي ﷺ والاعتناء بتطهير قلبه وحشوه إيمانًا وحكمة دليل على أن محل العقل القلب، وهو متصل بالدماغ، واستدل بعض الفقهاء بغسل قلبه ﷺ في الطست من الذهب على جواز تحلية المصاحف بالذهب والمساجد، وهو في غاية البعد، فإن ذلك كان قبل النبوة،ولم يكن ذلك من ذهب الدنيا، وكان كرامة أكرم بها ﷺ، وكان من فعل الملائكة بأمر الله، وهم ليسوا داخلين تحت تكاليف البشر، وأبعد منه احتجاج من احتج به على جواز انتفاع الرجل بالحرير تبعًا لامرأته: كالفراش واللحاف والمخدة، قال: لأن الملك لا حرج عليه والنبي ﷺ انتفع بذلك تبعًا، وقد أبعد هذا القائل النجعة وأتى بغير دليل...

وقول الملائكة للنبي ﷺ ليلة الإسراء: (مرحبًا به) أصل في استعمال هذه الألفاظ وما ناسبها عند اللقاء نحو: أهلًا وسهلًا، ومرحبًا، وكرامة، وخير مقدم، وأيمن مورد، ونحوها. ووقع الاقتصار منها على لفظ مرحبًا وحدها لاقتضاء الحال لها، فإن الترحيب هو السعة، وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن، ولم يطلق فيها سهلًا، لأن

(١) ٢٠٣ – ٢٠٥ البدائع جـ٣.

معناه وطئت مكانًا سهلًا، والنبي ﷺ كان محمولًا.

...[(١)]ثم أسري بروحه وجسده إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم عرج به إلىٰ فوق السموات بجسده وروحه إلىٰ الله ﷻ، فخاطبه وفرض عليه الصلوات، وكان ذلك مرة واحدة، هذا أصح الأقوال.

وقيل: بل يقال: أسري به، ولا يقال: يقظة ولا منامًا، وقيل: كان الإسراء إلىٰ بيت المقدس يقظة، وإلىٰ السماء منامًا.

وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة منامًا.

وقيل: بل أسري به ثلاث مرات، وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق.

[(٢)]قوله تعالىٰ: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ دون بعث بعبده، وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، كهي في قوله هاجر بأهله، وسافر بغلامه، وليست للتعدية؛ فإن أسرىٰ يتعدىٰ بنفسه، يقال: سري به وأسراه، وهذا لأن ذلك السرىٰ كان أعظم أسفاره ﷺ، والسفر يعتمد الصاحب؛ ولهذا كان ﷺ إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر»[(٣)].

فإن قيل: فهذا المعنىٰ يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل: سرىٰ بعبده، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء؟ ففيه أجوبة:

(أحدها) أنهما بمعنىٰ، وإن أسرىٰ لازم كسرىٰ تقول: سرىٰ زيد وأسرىٰ، بمعنىٰ واحد، هذا قول جماعة.

والثاني: إن أسرىٰ متعد ومفعوله محذوف، أي: أسرىٰ بعبده البراق، هذا قول السهيلي وغيره. ويشهد للقول الأول قول الصديق: أسرينا ليلتنا كلها، ومن الغد حتىٰ قام قائم الظهيرة.

---

(١) ٤٧ الزاد جـ١.

(٢) ٢٠٢ البدائع جـ٣.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٣٤٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٨٩).

والجواب الصحيح: أن الثلاثي المتعدي بالباء يفهم منه شيئان:

أحدهما: صدور الفعل من فاعله.

(الثاني) مصاحبته لما دخلت عليه الباء.

فإذا قلت سريت بزيد وسافرت به. كنت قد وجد منك السري والسفر مصاحبًا لزيد فيه، كما قال: ولقد سريت على الظلام بمعشر، ومنه الحديث: «أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها»(١) وأما المتعدي بالهمزة فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] ونظائره، فإذا قرن هذا المتعدي بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة في الباء، ولو أتى بالثاني فهم منه معنى المشاركة في مصدره، وهو ممتنع فتأمله. أهـ.

...(٢)قال القاضي: نص أحمد على أن الإسراء كان يقظة، وحكى له أن موسى بن عقبة قال: أحاديث الإسراء منام، فقال: هذا كلام الجهمية، ونقل حنبل أن الرؤية منام، ونقل الأشرم وغيره أنه رآه، ولا يطلق سوى ذلك، وقال أبو بكر النجار: رآه إحدى عشرة مرة، بالسنة تسع مرات ليلة المعراج حين كان يتردد بين موسى وبين ربه ﷻ، ومرتين بالكتاب.

***

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

(٣)قال ابن المبارك عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] قال: لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٩٣) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٠٣) وعمدة القاري (٣/ ٢١٥).

(٢) ٣٩ البدائع جـ٤.

(٣) ١٥٤ عدة الصابرين.

قط إلا حمد الله عليه، ولم يمش مشيًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه، فأثنى الله عليه: إنه كان عبدًا شكورًا[(١)].

وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله. فسماه الله عبدًا شكورًا[(٢)].

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته[(٣)].

***

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾.

[(٤)]قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضى له أنه عامله، وما هو صائر إليه، من شقاء أو سعادة بعمله، في عنقه لا يفارقه[(٥)]، وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة، وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائره عمله، وما قدر عليه، فهو ملازمه أينما كان، وزائل معه أينما زال[(٦)].

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عمله، زاد مجاهد: وما كتب له، وقال قتادة أيضًا: سعادته وشقاوته بعمله.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: (فكيف قال: ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت ولم يقل [ألزمناه] في يديه أو رجليه، أو غير ذلك من أعضاء الجسد).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٩٤١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٢/ ٢٧٤) وأخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٠).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦٢/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٢٠٨) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٣٠ رقم ٤٥٤٨).

(٤) ٦١ شفاء.

(٥) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٥١) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٢).

قيل: لأن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرىٰ كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة [بني آدم وغيرهم من ذلك إلىٰ أعناقهم وكذا استعمالهم ذلك، حتىٰ أضافوا الأشياء اللازمة] سائر الأبدان إلىٰ الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلىٰ اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[1] وقال الفراء: الطائر معناه عندهم العمل[2].

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي، فكتب ما علمه منهم أجمعين، وقضىٰ بسعادة من علمه مطيعًا، وشقاوة من علمه عاصيًا، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه[3].

وأما قوله: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم هذا في عنق فلان، أي لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق.

قال أبو علي: مثل هذا قولهم طوقتك كذا، وقلدتك كذا، أي صرفته نحوك وألزمتك إياه، ومنه: قلده السلطان كذا، أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق.

وقيل: إنما خص العنق لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيرا أو شرا، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلىٰ الأعناق.

قالت القدرية: إلزامه ذلك وسمه به، وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي، والخبر عنه، لا أنه ألزمه العمل، فجعله لازمًا له.

قال أهل السنة: هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتموها في الجسم والطبع والعقل، وهذا لا يعرفه أهل اللغة، وهو خلاف حقيقة اللفظ، وما فسره به

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥١) وما بين المعكوفين استدركته من تفسير الطبري لإتمام المعنىٰ.
(٢) انظر: لسان العرب (٤/ ٥١١).
(٣) انظر: لسان العرب (٤/ ٥١٢).

أعلم الأمة بالقرآن، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة، ولا فسر الآية غيركم به، ولا يصح حمل الآية عليه، فإن الخبر عنه بذلك والعلامة أعلم بها إنما حصل بعد طائره اللازم له من عمله، فلما لزمه ذلك الطائر ولم ينفك عنه أخبر عنه بذلك، وصارت عليه علامة وسمة، ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر، فأرونا قولكم عن واحد منهم. قاله قبلكم، وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها، وتفسره بمذاهبها وآرائها، والقرآن بريء من ذلك، وبالله التوفيق.

***

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

...[1] الناس في هذا المقام أربعة أقسام: أحدهم من لا يريد ربه، ولا يريد ثوابه، فهؤلاء أعداؤه حقًّا، وهم أهل العذاب الدائم، وعدم إرادتهم لثوابه: إما لعدم تصديقهم به، وإما لإيثار العاجل عليه، ولو كان فيه سخطه.

والقسم الثاني: من يريده ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص خلقه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

فهذا خطابه لخير نساء العالمين، أزواج نبيه ﷺ، وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] فأخبر أن السعي المشكور: سعي من أراد الآخرة.

وأصرح منها قوله لخواص أوليائه ـ وهم أصحاب نبيه ﷺ ورضي عنهم في يوم أحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فقسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما.

***

(١) ٨١ المدارج جـ٢.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

...[1]أعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء: ٢٢] مذموما لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا: كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودا منصورا: كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

***

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

[2]ذكر توحيده، وذكر المناهي التي نهاهم عنها، والأوامر التي أمرهم بها، ثم ختم الآيات بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، أي: أنه سيء في نفس الأمر عند الله، حتى لو لم يرد به تكليف لكان سيئه في نفسه عند الله مكروهًا له، وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أن كرهه، ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروهًا لله؛ إذ لا معنى للكراهة عندهم إلا كونه منهيًا عنه فيعود قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إلى معنى كل ذلك نهي عنه، عند ربك، ومعلوم أن هذا غير مراد من الآية.

---

(١) ٤٥٨ مدارج جـ١.
(٢) ٩ مفتاح جـ٢١.

وأيضًا فإذا وقع ذلك منهم فهو عند النفاة للحسن والقبح محبوب لله مرضي له، لأنه إنما وقع بإرادته، والإرادة عندهم هي المحبة لا فرق بينهما، والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله، مكروه مبغوض له، وقع أو لم يقع، وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سببا للنهي عنه، ولهذا جعله علة وحكمة للأمر، فتأمله، والعلة غير المعلول.

(١)قال تعالى عقيب ذكر ما حرمه من المحرمات من عند قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٢٣-٣٨] إلى آخر الآيات، ثم قال: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾، وفي الصحيح: «إن الله ﷻ كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٢).

فالسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها، الذي استعملت فيه في كلام الله ورسوله، أما المتأخرون فقد اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحرم، وتركه أرجح من فعله، ثم حمل من حمل منهم كلام الأئمة على الاصطلاح الحادث، فغلط في ذلك، وأقبح غلطا منه من حمل لفظ الكراهة أو لفظ: «لا ينبغي» في كلام الله ورسوله على المعنى الاصطلاحي الحادث.

وقد اطَّرد في كلام الله ورسوله استعمال «لا ينبغي» في المحظور شرعًا أو قدرًا، وفي المستحيل الممتنع كقول الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢] وقوله: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩] وقوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ

---

(١) ٤٣ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٧) ومسلم (رقم ٥٩٣) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٢).

ﷺ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمۡ ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١] وقوله على لسان نبيه: «**كذبني ابن آدم، وما ينبغي له، وشتمني ابن آدم، وما ينبغي له**»[١]، وقوله ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**»[٢]، وقوله ﷺ في لباس الحرير: «**لا ينبغي هذا للمتقين**»[٣] وأمثال ذلك.

والمقصود: أن الله سبحانه حرَّم القول عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، والمفتي يخبر عن الله ﷻ وعن دينه، فإن لم يكن خبره مطابقا لما شرعه كان قائلا عليه بلا علم، ولكن إذا اجتهد واستفرغ وسعه في معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد، وعفي له عمَّا أخطأ به، وأثيب على اجتهاده، ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده، ولم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله: إن الله حرم كذا، وأوجب كذا، وأباح كذا، وإن هذا هو حكم الله...

[٤]فهمت الأمة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ﴾ [النساء: ١٠] جميع وجوه الانتفاع من اللبس والركوب والمسكن وغيرها. وفهمت من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ ﴾ إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل، وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى، فلو بصق رجل في وجه والديه وضربهما بالنعل، وقال: إني لم أقل لهما أف. لعده الناس في غاية السخافة والحماقة والجهل من مجرد تفريقه بين التأفيف المنهي عنه وبين هذا الفعل قبل أن يبلغه نهي غيره، ومنع هذا مكابرة للعقل والفهم والفطرة، فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده، والألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده، ووضح بأي طريق كان عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة أو كتابة أو بإيماءة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة له مطردة، لا يُخِلُّ بها،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: الديباج على مسلم (١/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٥) ومسلم (رقم ٢٠٧٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٨٥).

(٤) ٢١٨ الإعلام جـ١.

أو من مقتضى كماله وكمال أسمائه وصفاته، وأنه يمتنع منه إرادة ما هو معلوم الفساد وترك إرادة ما هو متيقن مصلحته، وأنه يستدل على إرادته للنظير بإرادة نظيره ومثله وشبهه، وعلى كراهة الشيء بكراهة مثله ونظيره ومشبهه، فيقطع العارف به وبحكمته وأوصافه على أنه يريد هذا، ويكره هذا، ويحب هذا، ويبغض هذا، وأنت تجد من له اعتناء شديد بمذهب رجل وأقواله، كيف يفهم مراده من تصرفه ومذاهبه، ويخبر عنه بأنه يفتي بكذا ويقوله، وأنه لا يقول بكذا، ولا يذهب إليه لما لا يوجد في كلامه صريحا، وجميع أتباع الأئمة مع أئمتهم بهذه المثابة.

وهذا أمر يعم أهل الحق والباطل لا يمكن دفعه، فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة، فإذا دعي إلى غداء فقال: والله لا أتغدى أو قيل له: «نم» فقال: والله لا أنام أو اشرب هذا الماء. فقال: والله لا أشرب. فهذه كلها ألفاظ عامة نقلت إلى معنى الخصوص بإرادة المتكلم، التي يقطع السامع عند سماعها، بأنه لم يرد النفي العام إلى آخر العمر، والألفاظ ليست تعبدية.

***

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

...[1]دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وقد قال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: خير الناس النمط الأول الذين يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي. ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي. وقال ابن عائشة: ما أمر الله عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو وإما إلى تقصير[2]. وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه[3].

---

(١) ١١٠ الصلاة.

(٢) أخرجه الخطابي في العزلة (ص ٩٧) وانظر: كشف الخفاء (٢/ ٢٨٤).

(٣) انظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض (١/ ٢٠٦).

وقد مدح تعالى أهل التوسط بين الطرفين المنحرفين في غير موضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فمنع ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقهم انحراف في جانب الإمساك، والتبذير انحراف في جانب البذل، ورضاء الله فيما بينهما، ولهذا كانت هذه الأمة أوسط الأمم، وقبلتها أوسط القبل بين القبلتين المنحرفتين، والوسط دائما محمي الأطراف، أما الأطراف فالخلل إليها أسرع، كما قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا[1]

فقد اتفق شرع الرب تعالى وقدره على أن خيار الأمور أوساطها.

[2]والفرق بين الجود والسرف: أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه، والمسرف مبذر، وقد يصادف عطاؤه موضعه، وكثيرًا لا يصادفه، وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقا، وهي نوعان: حقوق موظفة، وحقوق ثانية. فالحقوق الموظفة كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته.

والثانية: كحق الضيف، ومكافأة المهدي، وما وقى به عرضه ونحو ذلك، فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال: طيبة بذلك نفسه، راضية مؤملة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب، وسخاوة نفس، وانشراح صدر، بخلاف المبذر، فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته، جزافا لا

---

(١) البيت من بحر الوسيط وقائله أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي أحد أمراء البيان، وفي شعره قوة وجزالة، توفي سنة ٢٣١هـ. وذكر البيت كما هو هنا المناوي في فيض القدير (٢/ ١٨٨) بينما ذُكر البيت في ديوان أبي تمام هكذا:

كانت هي الوسط الممنوع فاستلبت ما حولها الخيلُ حتى أصبحت طرفا

(٢) ٢٨٦ الروح.

على تقدير ولا مراعاة مصلحة، وإن اتفقت له فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض تنبت، وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات، فهذا لا يعد مبذرًا ولا سفيها. والثاني بمنزلة من بذر حبة في سباخ وعزاز من الأرض. وإن اتفق بذره في محل النبات بذر بذرا متراكما بعضه على بعض. فلذلك المكان البذر فيه ضائع معطل، وهذا المكان بذر بذرا متراكما بعضه على بعض، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه، ليصلح الباقي، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته.

والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا، وهي من جوده، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء، وجوده لا يناقض حكمته، ويضع عطاءه مواضعه، وإن خفي على أكثر الناس: أن تلك مواضعه، فالله يعلم حيث يضع فضله، وأي المحال أولى به(١).

...(٢) وسأله ﷺ رجل فقال: إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق؟ وكيف أمنع؟ فقال: «**تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل بها رحمك وأقاربك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين**» فقال: يا رسول الله أقلل في، قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٩] فقال: حسبي، وقال: يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها**»(٣).

(١) ذكر ابن القيم في آخر كتاب الروح فروقًا كثيرة عن علم وتحقيق يحسن الرجوع إليها (ج).

(٢) ٢٩٠ الإعلام جـ٤.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦) والحاكم (٢/ ٣٩٢ رقم ٣٣٧٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وذكره المنذري في الترغيب مختصرًا (١/ ٢٩٩ رقم ١١٠٤) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٣): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

وسئل ﷺ عن الصدقة على أبي رافع مولاه فقال: «**إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم من أنفسهم**»(١).

وسأله ﷺ عمر عن أرضه بخيبر، واستفتاه ما يصنع فيها، وقد أراد أن يتقرب بها إلى الله فقال: «**إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها**» ففعل(٢) وتصدق عبد الله بن زيد بحائط له فأتاه أبواه، فقالا: يا رسول الله إنها كانت قيم وجوهنا، ولم يكن لنا مال غيره، فدعا عبد الله فقال: «**إن الله قد قبل منك صدقتك، وردها على أبويك**» فتوارثاها بعد ذلك(٣).

وسئل ﷺ أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**المنيحة: أن يمنح أحدكم الدرهم، أو ظهر الدابة، أو لبن الشاة، أو لبن البقرة**»(٤).

وسئل ﷺ مرة عن هذه المسألة فقال: «**جهد المقل، وابدأ بمن تعول**»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٠) وابن حبان (٨/ ٨٨ رقم ٣٢٩٣) وابن خزيمة (٤/ ٥٧ رقم ٢٣٤٤) وأبو داود (رقم ١٦٥٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٢٤ رقم ٣٦٥٢٥) والطبراني في الكبير (١/ ٣١٦ رقم ٩٣٢) والروياني (١/ ٤٧٤ رقم ٧١٩) والحاكم (١/ ٤٠٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. ونقل ابن حجر في الفتح (٣/ ٣٥٦) تصحيح الترمذي وابن حبان، وانظر: شرح النووي (٧/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٧٢) ومسلم (رقم ١٦٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٤٠٠-٤٠١) وشرح النووي (١١/ ٨٦).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٣٨٠-٣٨١ رقم ٣٤٩) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٤٧٧ رقم ١٩٤٠) والدار القطني (٤/ ٢٠٠رقم ١٤) والحاكم (٤/ ٣٨٧ رقم ٨٠٢١) وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٣٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٣) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٣٣): رواه أحمد وأبو يعلى وزاد: «الدينار أو البقرة» والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح. وانظر: شرح النووي (٧/ ٧١-٧٢) وعمدة القاري (١٣/ ١٢٧) (١٣/ ١٨٤-١٨٥).

(٥) أخرجه ابن حبان (٨/ ١٣٤ رقم ٣٣٤٦) وابن خزيمة (٤/ ٩٩ رقم ٢٤٤٤) وأبو داود (رقم ١٦٧٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٨٠ رقم ٧٥٦١) وفي شعب الإيمان (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٤٥٤) وأحمد (٢/ ٣٥٨). وابن أبي الدنيا في العيال (١/ ١٣٦ رقم ٤) وابن عساكر في تاريخه (٨/ ١١١) والحاكم =

[(١)] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه، حتى استقر فحشه في العقول، حتى عند كثير من الحيوانات، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا[(٢)]، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلًا، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه منه فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧]. وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين وأنه من الملومين ومن العادين ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

***

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝﴾.

[(٣)] حقيق بكل عاقل أن لا يسلك سبيلًا حتى يعلم سلامتها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامة أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل الله ﷻ سبيل الزنى شر سبيل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا

(١/ ٥٧٤ رقم ١٥٠٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١) ٢٠٢ الجواب.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٤٩، ١٦٠) وفيض القدير (٣/ ١٣٠) وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٩-١٦٠).

(٣) ٣٧٧ الروضة.

ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

فإذا كانت هذه سبيل الزنا فكيف بسبيل اللواط، التي تعدل الفعلة منه في الإثم والعقوبة أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنا؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالىٰ.

فأما سبيل الزنا فأسوأ سبيل، ومقيل أهلها في الجحيم شر مقيل، ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنور من نار يأتيهم لهبها من تحتهم، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا، ثم يعودون إلىٰ موضعهم، فهم هكذا إلىٰ يوم القيامة، كما رآهم النبي ﷺ في منامه(١) ورؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها...

...(٢)وقال أبو نعيم الفضل بن دُكين: حدثنا عبد السلام بن شداد، عن غزوان بن جرير، عن أبيه: أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالب ﷺ الفواحش، فقال لهم: هل تدرون أي الزنا أعظم؟ قالوا: يا أمير المؤمنين كله عظيم. قال: ولكن سأخبركم بأعظم الزنا عند الله: هو أن يزني الرجل بزوجة الرجل المسلم فيصير زانيا، وقد أفسد علىٰ الرجل زوجته. ثم قال عند ذلك: إن الناس يرسل عليهم يوم القيامة ريح منتنة، حتىٰ يتأذىٰ منها كل بر وفاجر، حتىٰ إذا بلغت منهم كل مبلغ، وألمَّت أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم، ناداهم مناد يسمعهم الصوت، ويقول لهم: هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون: لا ندري والله، إلا أنها قد بلغت منا كل مبلغ. فيقال: ألا إنها ريح فروج الزناة، الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه، ثم يصرف بهم. فلم يذكر عند الصرف بهم جنة ولا نارًا.

وقال الخرائطي حدثنا علي بن داود القنطري حدثنا سعيد بن عفير حدثني مسلم بن علي الخشني عن أبي عبدالرحمن عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر المسلمين إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة: فأما اللواتي في الدنيا: فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر.

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٨٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٤٤٢).
(٢) ٣٨٢ الروضة.

وأما اللواتي في الآخرة: فسخط الله، وسوء الحساب، ودخول النار»[(١)].

ويذكر عن أنس بن مالك ﷺ قال: المقيم على الزنا كعابد وثن[(٢)]. ورفعه بعضهم، وهذا أولى أن يشبه بعابد الوثن من مدمن الخمر، وفي المسند وغيره مرفوعا: مدمن الخمر كعابد وثن[(٣)]. فإن الزنا أعظم من شرب الخمر.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ليس بعد قتل النفس أعظم من الزنا[(٤)].

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم منك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾[(٥)] [الفرقان: ٦٨].

وقال قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن ابن أنعم عن رجل عن عبدالله بن عمرو

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٧٩ رقم ٥٤٧٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٢٨) إلى ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق وابن مردويه والبيهقي في الشعب وضعفه، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨٥-٨٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٠٧ رقم ٤٨١٠) وذكره المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٠ رقم ٣٦٢٧) وعزاه إلى الخرائطي وغيره، وقال: وقد صح أن مدمن الخمر إذا مات لقي الله كعابد وثن، ولاشك أن الزنا أشد وأعظم عند الله من شرب الخمر، والله أعلم.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢ والضياء في المختارة (١٠/ ٣٣٠ رقم ٣٥٦) وابن حبان (١٢/ ١٦٧ رقم ٥٣٤٧) وفي الموارد (رقم ١٣٩٧) وابن ماجه (رقم ٣٣٧٥) والطبراني (١٢/ ٤٥ رقم ١٢٤٢٨) وعبد بن حميد (رقم ٧٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٧٧ رقم ٣٥٦٣): رواه أحمد هكذا ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٧٤): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) ذكر هذا القول إبراهيم الضويان في منار السبيل (٢/ ٣٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر فتح الباري (١٣/ ٤٩١) وشرح النووي (٢/ ٨٠).

ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الزاني بحليلة جاره لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه، ويقول له: ادخل النار مع الداخلين**»(١).

وذكر سفيان بن عيينة عن جامع بن شداد عن أبي وائل عن عبدالله قال: إذا بخس المكيال حبس القطر، وإذا ظهر الزنا وقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج(٢)، وفي الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي حازم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(٣). وذكر سفيان الثوري عن منصور عن ربعي بن حراش عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ الزاني، والمقل المختال، والبخيل المنان**»(٤). وذكر الأعمش عن خيثمة عن أبي عبدالرحمن عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**مثل الذي يجلس على فراش المغيبة مثل الذي ينهشه الأساود يوم القيامة**»(٥) المغيبة هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍّ أو غيرهما.

وفي النسائي وغيره من حديث بريدة عن النبي ﷺ قال: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كأمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله إلا نصب له يوم القيامة، فيقال: يا فلان هذا فلان، فخذ من حسناته ما شئت**» ثم

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٢/ ٣٠١ رقم ٣٣٧١) وانظر: فيض القدير (٤/ ٧٠) والترغيب والترهيب (٣/ ١٩٢ رقم ٣٦٣٤).

(٢) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣/ ٦٨٩ رقم ٣٢٥).

(٣) لم أجده عند البخاري، والحديث أخرجه مسلم (رقم ١٠٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٠٢) وشرح النووي (٢/ ١١٥).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٥٧٧ رقم ١٥٢٠) وابن حبان (٨/ ١٣٦-١٣٧ رقم ٣٣٤٩) وابن خزيمة (٤/ ١٠٤ رقم ٢٤٥٦) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٤ رقم ٢٣٥١) والترمذي (رقم ٢٥٦٨) وأحمد (٥/ ١٥٣).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٧/ ١٣٩ رقم ١٢٥٤٧) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٢ رقم ٣٦٣٦): رواه الطبراني ورواته ثقات. وانظر: المطالب العالية (٩/ ١٠١).

التفت النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال له: «ما ترون يدع له من حسناته شيئًا»(١) وفي لفظ: «وإذا خلفه في أهله فخانه، قيل له يوم القيامة: هذا خانك في أهلك، فخذ من حسناته ما شئت، فما ظنكم؟»(٢).

ويكفي في قبح الزنى أن الله ﷻ مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردا زنى بقردة، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما، حتى ماتا، وكنت فيمن رجمهما(٣).

والزنى يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، فالغدر والكذب، والخيانة وقلة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته. ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة.

ومنها: سواد الوجه وظلمته، وما يعلوه من الكآبة والمقت، الذي يبدو عليه للناظرين.

ومنها: ظلمة القلب وطمس نوره، وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٩٧) وابن حبان (١٠/ ٤٩١ رقم ٤٦٣٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٣-٣٤ رقم ٤٤٠٠) وفي المجتبى (رقم ٣١٩١) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٤١).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ٣٤ رقم ٤٣٩٩) وفي المجتبى (رقم ٣١٩٠) وأبو عوانة في مسنده (٤/ ٤٨٣ رقم ٧٤٢٠).

(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

ومنها: الفقر اللازم، وفي أثر يقول الله تعالى: «أنا الله مهلك الطغاة، ومفقر الزناة»[(١)].

ومنها: أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده.

ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها: أنه يسلبه اسم المؤمن، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(٢)]. فسلبه اسم الإيمان المطلق، وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان. وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث، فخطَّ دائرة في الأرض، وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى خارجة عنها، وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه، ولم يخرج من هذه ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمنا، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه، ولا يسمى به عالمًا فقيها، ومعه جزء من الشجاعة والجود، ولا يسمى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيء من التقوى ولا يسمى متقيا، ونظائره، فالصواب إجراء الحديث على ظاهره، ولا يتأول بما يخالف ظاهره، والله أعلم.

ومنها: أن يعرض نفسه لسكنى التنور، الذي رأى النبي ﷺ فيه الزناة والزواني.

ومنها: أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرم الله الجنة على كل خبيث بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ

---

(١) فعن شعيب عن أبيه عن جده قال: أوحى الله إلى موسى: «أنا قاتل القتالين ومفقر الزناة» أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦١/ ١٥٢)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٣٨) وقال المناوي في فيض القدير (٤/ ٧٢): قال المنذري: فيه الماضي بن محمد، وقال في الميزان: حديث منكر، وإسناده فيه ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧٥) ومسلم (رقم ٥٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ١١١).

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم، والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض، ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النار طيب ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله ﷻ في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة، وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به. والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش منه[١]....

***

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

...[٢]إن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى مهملا، بل جعلهم موردا للتكليف، ومحلا للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملا ومفصلا، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلًا، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح، نعمة منه وتفضلًا.

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولًا، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلًا.

ومن استعمله في إرادته وشهوته ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزنًا طويلًا. فإنه لابد من الحساب على حق هذه الأعضاء، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

(١) استطرد المؤلف ـ رحمه الله ـ في ذكر مضار الزنا، وعرج على مفاسد اللواط في عدة صحائف (ج).
(٢) ٥ الإغاثة جـ١.

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**»(١). فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما كان يأتيها من هديه، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته. وهو المسؤول عنها كلها، لأن كل راع مسؤول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعريض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان، ليحصل له الدخول في ضمان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها يسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣].

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢) ومسلم (رقم ١٥٩٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٦٨) وشرح النووي (١١/ ٢٨-٢٩).

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

(١) قيل: المعنى: لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال شيخنا ﷺ: والصحيح أن المعنى لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيدا له، قال: ويدل على هذا وجوه: منها: قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟ الثاني: أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا. بل قال: ﴿ لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلي كقوله: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٣٤].

الثالث: أنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه، وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ [الإسراء: ٤٢] وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه، وتقربهم زلفى إليه، قال تعالى: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟

(٢) وكذلك قوله سبحانه مقررًا برهان التوحيد أحسن التقرير وأبلغه وأوجزه ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه، فلو كانوا

---

(١) ٢٧٥ الجواب الكافي.

(٢) ٩٥ الصواعق جـ١.

آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم دونه؟ وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبيدي كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟

***

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

(١) إنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم، ولا نشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة، وإذا كان الله ﷻ قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين.

---

(١) ٨٨ الروح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٠] والدلالة لا تختص معيته وحده، وكذب على الله من قال التأويب رجع الصدى، فإن هذا يكون لكل مصوت.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس. وقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١] فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله، وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته.

وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أي يستعمان كلامه، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه، وأحسنا جوابه فقال لهما: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل[(١)]. وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد[(٢)]. فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح، فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له. كـ﴿ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وكقتيل بني إسرائيل، أو كالذين قال

(١) لقد صح عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. أخرجه البخاري (رقم ٣٥٧٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٨٣، ٣٥٨٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٧٣-٤٧٩) وشرح النووي (١٣/ ٢١٥) و(١٥/ ١٢٧) (١٧/ ١٣٣).

لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف، وقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت، فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة، يقضي بها ما أمره فيها، ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها، وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود، وبالله التوفيق.

***

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

[1]على أصح القولين: والمعنى جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجابًا يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به، ويبينه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

فأخبر سبحانه أن ذلك جعله، فالحجاب يمنع رؤية الحق، والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه.

وقال الكلبي: الحجاب ههنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب ونحوه، مما يصدهم عن الإقدام عليه، ووصفه بكونه مستورا، فقيل بمعنى ساتر، وقيل على النسب أي ذو ستر.

والصحيح أنه على بابه أي مستورا عن الأبصار فلا يرى، ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت، والنسب في مفعول لم يشتق من فعله: كمكان مهول أي ذي هول،

(١) ٩٤ شفاء.

ورجل مرطوب أي ذي رطوبة، فأما مفعول فهو جار على فعله، فهو الذي وقع عليه الفعل: كمضروب ومجروح ومستور.

(١)قال تعالى، حاكيًا عن اليهود: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ [البقرة: ٨٨] وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كقُلف وأقلف، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكنة على القلوب ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]. فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة، ولّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

وأشار بالقلب المنكوس- وهو المكبوب- إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء: ٨٨]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقا ويوالي أصحابه، والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض، الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع.

....(٢)الصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشاف وغيره: إن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما

(١) ١٣ الإغاثة جـ١.
(٢) ٢٢٥ البدائع جـ٢.

يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩] مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقا يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلا، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه، حتى ضربوا له أمثالا برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله تعالى لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم، ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره ولا رب سواه(١).

***

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى

(١) هذا نهاية بحث مطول في تفسير المعوذتين حول السحر، وفي وصف السحر الذي حصل للنبي ﷺ وغيره. (ج).

فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

(١)تأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل، فإنهم قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقًا لا يصيبه التعب كالحجارة والحديد؟! وما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة، وأنشأنا هذه النشأة، التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا، فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا.

وللحجة تقرير آخر، وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما لكان قادرًا على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال. ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة، ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال؟ فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها، ولم يجدوا عنها معدلا، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به، كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك، وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥١، ٥٢].

(٢)قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

---

(١) ١٠٢ الصواعق جـ١.

(٢) ١٤٣ الإعلام جـ١.

[الإسراء: ٤٩] فرد عليهم سبحانه ردا يتضمن الدليل القاطع على قدرته على إعادتهم خلقا جديدا، فقال: ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١] فلما استبعدوا أن يعيدهم الله خلقا جديدا بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا قيل لهم: كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدوركم، سواء كان الموت أو السماء أو الأرض أو أي خلق استعظمتموه وكبر في صدوركم، ومضمون الدليل: أنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم، وأنتم لا تقدرون على تغيير أحوالكم من خلقة، إلى خلقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة، لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي، ولم تسبقوني ولم تفوتوني، كما يقول القائل لمن هو في قبضته: اصعد إلى السماء، فإني لاحقك، أي لو صعدت إلى السماء لحقتك، وعلى هذا فمعنى الآية: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو أعظم خلقًا من ذلك لما أعجزتموني ولما فتموني.

وقيل: المعنى كونوا حجارة أو حديدًا عند أنفسكم، أي صوروا أنفسكم وقدروها خلقًا لا يضمحل ولا ينحل، فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقًا جديدًا.

وبين المعنيين فرق لطيف، فإن المعنى الأول يقتضي أنكم لو قدرتم على نقل خلقتكم من حالة إلى حالة، هي أشد منها وأقوى، لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم، ولم تعجزونا، فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك؟

والمعنى الثاني يقتضي أنكم صوروا أنفسكم وأنزلوها هذه المنزلة، ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا أم قدرتنا ومشيئتنا محيطة بكم، ولو كنتم كذلك؟

وهذا من أبلغ البراهين القاطعة التي لا تعرض فيها شبهة البتة، بل لا تجد العقول السليمة عن الإذعان والانقياد لها بدا، فلما علم القوم صحة هذا البرهان، وأنه ضروري انتقلوا إلى المطالبة بمن يعيدهم، فقالوا من يعيدنا؟ وهذا سواء كان سؤالا منهم عن تعيين المعيد أو إنكارا منهم له، فهو من أقبح التعنت وأبينه، ولهذا كان

جوابه ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولما علم القوم أن هذا جواب قاطع انتقلوا إلى باب آخر من التعنت، وهو السؤال عن وقت هذه الإعادة، فأنغضوا إليه رءوسهم وقالوا: متى هو؟ فقال تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل، واستلزامه لمدلوله استلزامًا لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصحه وأوضحه، فلله ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار.

[(١)]أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى: إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربًا متصرفًا فيكم ومالكا لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقا جديدا بعدما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك نافذ المشيئة فيكم والقدرة فيكم، فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك، فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ويحيا أن يحييكم بعد ما أماتكم، فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لا يموت، والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت، وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

***

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) ١٥٠ التبيان.

[(١)]قوله[(٢)]: «الرجاء» أضعف منازل المريدين.

فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله، وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»[(٣)]. وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليّ شبرًا اقتربت إليه ذراعاه وإن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًاه وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً»[(٤)].

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ

---

(١) ٤١ المدارج جـ٢.

(٢) أي الإمام الهروي رحمه الله صاحب متن منازل السائرين الذي شرحه ابن القيم في مدارج السالكين.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٣٩٩ رقم ١٥٧١) والترمذي (رقم ٣٥٤٠) والدارمي (رقم ٢٧٨٨) وأحمد (٥/ ١٦٧، ١٧٢) والطبراني في الصغير (رقم ٨٢٠) وفي الأوسط (٥/ ٣٣٧-٣٣٨ رقم ٥٤٨٣) وفي الكبير (١٢/ ١٩ رقم ١٢٣٤٦) ونقل المنذري في ترغيبه (٢/ ٣٠٨، ٣١٣) تحسين الترمذي، وفي ٤٠/ ١٣٤)، وكذا فعل ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٠) والنووي في رياض الصالحين (ص ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٣) وشرح النووي (١٧/ ٢-٣).

رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧].

يقول تعالىٰ: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني، فأثنىٰ عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب والخوف والرجاء.

(١) والكلام علىٰ ما ذكره من وجوه:

(أحدها) أن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة، التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها، وهي: الخوف، والرجاءُ، والمحبة وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧].

فجمع بين المقامات الثلاثة، فإن ابتغاءَ الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه. ثم يقول: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾، فذكر الحب والخوف والرجاءَ.

والمعنىٰ: أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلىٰ ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟ وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة علىٰ الإيمان، فهو المشروط في المعنىٰ، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه.

فانتفاءُ الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاءٌ للمشروط عند انتفاءِ شرطه.

(١) ٢٨٢ الهجرتين.

وانتفاءُ الخوف عند انتفاءِ الإيمان انتفاءٌ للمعلول عند انتفاءِ علته. فتدبره.

والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني. والجزاءُ محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه، أو هو المتقدم نفسه، وهو جزاءٌ وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين. وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكل منهما مستلزم للآخر، لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتف عند انتفاءِ الآخر، لكن جهة الانتفاءِ مختلفة كما تقدم.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالرغب: الرجاءُ والرغبة، والرهب: الخوف والخشية.

(١) روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي»**(٢).

وقال أحمد أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: **«قال إذا صليتم فسلوا الله لي الوسيلة»**. قيل: يا رسول الله ﷺ، وما الوسيلة؟ قال: **«أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»**(٣) هكذا الرواية: **«أن أكون أنا هو»** ووجهها أن تكون الجملة خبرًا عن اسم كان

---

(١) ٦٢ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٨٤) وانظر: شرح النووي (٤/ ٨٥-٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٥) وهناد في الزهد (١/ ١١٧ رقم ١٤٧) والترمذي (رقم ٣٦١٢) وانظر: شرح النووي (٤/ ٨٥) وعمدة القاري (٥/ ١٢٢) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٥٨-٥٩).

المستتر فيها، ولا يكون «أنا» فصلًا ولا توكيدًا، بل مبتدأ.

وفي الصحيحين من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة»(١).

هكذا لفظ الحديث «مقاما» بالتنكير، ليوافق لفظ الآية، ولأنه لما تعين وانحصر نوعه في شخصه جرى مجرى المعرفة، فوصف بما توصف به المعارف، وهذا ألطف من جعل الذي وعدته بدلا فتأمله.

وفي المسند من حديث عمارة بن غزية عن موسى بن وردان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الوسيلة درجة عند الله ﷻ ليس فوقها درجة، فسلوا الله لي الوسيلة»(٢). وذكره ابن أبي الدنيا، وقال فيه: «درجة في الجنة، ليس في الجنة درجة أعلى منها، فسلوا الله أن يؤتينيها على رؤوس الخلائق»(٣).

وقال أبو نعيم: أنبأنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال حدثنا عبد الله بن عمران العابدي حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٤) وانظر: الفتح (٢/ ٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٢٦ رقم ١٤٦٦) والديلمي في الفردوس (٤/ ٤٣٣ رقم ٧٢٥٨) وإسماعيل الجهضمي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (رقم ٤٩)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٣٢): رواه أحمد والطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف. وانظر: فيض القدير (٦/ ٣٧٤-٣٧٥). والحديث صححه الألباني في تحقيقه لفضل الصلاة على النبي وفي السلسلة الصحيحة رقم (٣٥٧١) وحسنه في صحيح الجامع (رقم ١٩٨٨).

(٣) لم أجده.

النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذا الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(١) [النساء: ٦٩].

قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا(٢).

وسميت درجة النبي ﷺ الوسيلة؛ لأنها أقرب الدرجات إلى عرش الرحمن، وهي أقرب الدرجات إلى الله، وأصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب، وهي فعيلة من وسل إليه إذا تقرب إليه. قال لبيد:

بلى كل ذي رأي إلى الله واسل(٣)

ومعنى الوسيلة من الوصلة، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها، وأعظمها نورًا.

وقال صالح بن عبد الكريم: قال لنا فضيل بن عياض: أتدرون لم حسنت الجنة؟ لأن عرش رب العالمين سقفها(٤).

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «نور سقف مساكنهم نور عرشه».

وقال بكر: عن أشعث عن الحسن: «إنما سميت عدن، لأن فوقها العرش، ومنه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٤٠) والطبراني في الصغير (رقم ٥٢) وفي الأوسط (١/ ١٥٢-١٥٣ رقم ٤٧٧) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠): رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران وهو ثقة. والحديث ذكره الضياء المقدسي في صفة الجنة بتحقيقي (رقم ٢٠).

(٢) انظر: صفة الجنة، للمقدسي (ص ٦٢) بتحقيقي، وهو من منشورات دار بلنسية بالرياض.

(٣) هذا عجز بيت، وصدره: أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم.

ذكره ابن منظور في لسان العرب (١١/ ٧٢٤) والمناوي في فيض القدير (٤/ ١٠٩) والشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ١٦٣). والبيت من بحر الطويل وقائله: لبيد بن ربيعة العامري أبو عقيل أحد الشعراء الفرسان الأشراف، أدرك الإسلام ويعد من الصحابة من المؤلفة قلوبهم، ويقال: إنه ترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحدًا. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦)، مات لبيد ﷺ سنة ٤١).

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٣١٢).

تفجر أنهار الجنة، وللحور العدنية الفضل على سائر الحور، والقربى والزلفى واحد، وإن كان في الوسيلة معنى التقرب إليه بأنواع الوسائل».

وقال الكلبي: «اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة». وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فقوله: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ هو تفسير للوسيلة التي يبتغيها هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله، فيتنافسون في القرب منه.

ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به، وأشدهم له خشية، وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله، وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوها له، لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان.

وأيضًا فإن الله سبحانه قدرها له بأسباب (منها) دعاء أمته له بها بما نالوه على يده من الإيمان والهدى صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: «**حلت عليه**» يروى «**عليه**» و«**له**»، فمن رواه باللام فمعناه حصلت له، ومن رواه بعلى فمعناه وقعت عليه شفاعتي، والله أعلم.

***

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾.

(١) فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وفي صحيح مسلم عن جابر ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ـ قبل موته

(١) ٣٥ المدارج جـ٢.

بثلاث ـ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»(١). وفي الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»(٢).

«الرجاء» حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله، والدار الآخرة. ويطيب لها السير. وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لا يصح إلا مع العمل...

***

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

(٣)أخبر سبحانه: أن القرآن بصائر لجميع الناس. والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعلة، أي مبصرة لمن تبصر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]. أي مبينة موجبة للتبصر. وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديًا. يقال: أبصرته، بمعنى أريته، وأبصرته، بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها.

فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيعدى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٧٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٦١، ٣٨٥).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٠١ رقم ٦٣٣) وفي الموارد (رقم ٢٤٦٨) والدارمي (رقم ٢٧٣١) وأحمد (٣/ ٤٩١) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣١٨): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد ثقات.

(٣) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بصرته به. وبصر هو به.

فهاهنا بصيرة، وتبصرة، ومبصرة. فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسُمِّي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه.

فالقرآن بصيرة وتبصرة، وهدىً وشفاء، ورحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاص. ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدىً للعالمين، وموعظة للمتقين، وهدىً للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين، فهو في نفسه هدىً ورحمة، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدىٰ به واتعظ واشتفىٰ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدىٰ.

فالقرآن هدىً بالفعل لمن اهتدىٰ به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يهتدي به ويرحم، ويتعظ المتقون الموقنون. والهدىٰ في الأصل: مصدر هَدَىٰ يَهدي هُدىً.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما في الأثر «من ازداد علمًا ولم يزدد هدًى لم يزدد من الله تعالىٰ إلا بعدًا»[1] ولكن يسمَّىٰ هدىً، لأن من شأنه أن يهدىٰ.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هُدًى، بمعنى هادٍ، فهو مصدرٌ بمعنى الفاعل، كعدل بمعنى العادل، وزور بمعنى الزائر، ورجل صوم أي بمعنى صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يَهْدىٰ به. فالله الهادي، وكتابه الهدىٰ الذي يهدىٰ به على لسان رسوله ﷺ.

***

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن علي ﷺ مرفوعًا، وفيه: «ولم يزدد في الدنيا زهدًا» وذكر باقي الحديث (٣/ ٦٠٢ رقم ٥٨٨٧) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٠٤ رقم ٢٤٠٢): رواه الديلمي عن علي رفعه وسنده ضعيف، كما قال العراقي. وانظر: فيض القدير (٦/ ٥٢).

[١]وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته. وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠]، ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، هو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته، فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته وليس شيء في قبضة، نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسُّنَّة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فهذا قربه من داعيه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيذانًا بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[٢]، و«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»[٣]، فهذا قرب خاص غير قرب

(١) ٢٢ الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٨٣، ٣٠٠، ٤٩١) (١١/ ١٣٢) وشرح النووي (٤/ ٢٠٠، ٢٠٦).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ١٨٢ رقم ١١٤٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٨٢ رقم ١٥٤٤) والبيهقي في =

الإحاطة وقرب البطون. وفى الصحيح من حديث أبى موسى أنهم كانوا مع النبى ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فإنكم لا تَدْعُونَ أَصمَّ وَلا غَائِباً، إنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[1]، فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعنى فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر...

***

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

...[2]لما تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم، وأكمل صورة وأجملها، وكملت محاسنه الباطنة، بالعلم[3] والحلم والوقار، وتولى ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعًا، قد ألبس رداء الجمال والحسن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظرًا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجودًا له، بأمر ربهم تبارك وتعالى، فشق الحسود قميصه من دُبُرٍ، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين. وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذي لا تجد

الكبرى (٣/ ٤ رقم ٤٤٣٩) والترمذي (رقم ٣٥٧٩) وقال: حسن صحيح، وكذا صححه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٣ رقم ١١٦٢) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (رقم ٥٧٢) وفي مشكاة المصابيح (رقم ١٢٢٩).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٢) ومسلم (رقم ٢٧٠٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

(٢) ٢٠١ الإغاثة جـ٢.

(٣) تقدم أول البحث في سورة الأعراف. (ج).

العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلًا. فقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم كرمته عليَّ؟ وغور هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضول يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة؟ ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢].

ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويقبل ويواليه؟. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية. [الكهف: ٥٠].

***

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

[(١)] أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان (من تبعك) يقتضي الغيبة، لأنه اجتمع مخاطب وغائب، فغلب المخاطب، وجعل الغائب تبعا له، كما كان تبعا له في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعا له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به، وانتصب (جزاءً موفورًا) عند ابن مالك على المصدر، وعامله عنده المصدر الأول، قال: والمصدر يعمل في المصدر، تقول: عجبت من قيامك

---

(١) ١٨٥ البدائع جـ٤.

قياما، ويعمل فيه الفعل نحو قام قياما واسم الفاعل كقوله:

فأصـــبحت لا أقـــرب الغانيـــا ت مزدجـرا عـن هواهـــا ازدجـارًا[(١)]

واسم المفعول هو مطلوب طلبًا وبعد، ففي نصب جزاء قولان آخران:

أحدهما: أنه منصوب بما في معنى: فإن جهنم جزاؤكم من الفعل، فإنه متضمن لتجازون، وهو الناصب جزاء.

الثاني: أنه حال وساغ وقوع المصدر حالًا ههنا، لأنه موصوف. ذكر الزمخشري هذين القولين، وهذا كما تقول: خذ عطاءك عطاءً موفورًا.

والذي يظهر في الآية أن جزاء ليس بمصدر، وإنما هو اسم للحظ والنصيب، فليس مصدر جزيته جزاء، بل هو كالعطاء والنصيب؛ ولهذا وصفه بأنه موفور أي تام لا نقص فيه، وعلى هذا فنصبه على الاختصاص، وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة، وهذا كما قال الزمخشري وغيره في قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ إلى قوله: ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧]، قال: نصبه على الاختصاص، أي أعني نصيبًا مفروضًا، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله تعالى: ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١].

***

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

...[(٢)]أما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلًا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله

---

(١) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب للأعشى (ميمون بن قيس الوائلي) مـن شـعراء الطبقـة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، أدرك الإسلام ولم يسلم، مات سنة ٧هـ.

(٢) ١٢١ المدارج جـ١.

ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلىٰ صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلىٰ مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلىٰ الحج إذا قربت المسافة، ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلىٰ معصية الله، وهو من رَجِلِ الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب.

ومستحبه في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين. وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل أم علىٰ الأرض؟ والتحقيق أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك واقتداء به، وكان أعون علىٰ الدعاء، ولم يك فيه ضرر علىٰ الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة علىٰ عشرة أشياء: القلب واللسان والسمع والبصر والأنف والفم واليد والرجل والفرج والاستواء علىٰ ظهر الدابة[(١)].

***

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

...[(٢)] الله سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لأجلهم، كما قال تعالىٰ:

---

(١) تقدم أصل هذا البحث في آخر تفسير الفاتحة (ج).

(٢) ٢٤٠ طريق الهجرتين.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]. وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق، فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

[وقال] لصالحيهم وصفوتهم: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وقال لموسى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٤١]. واتخذ منهم الخليلين، والخلة أعلى درجات المحبة.

وقد جاء في بعض الآثار: يقول تعالى: «**ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له**».

وفي أثر آخر يقول تعالى: «**ابن آدم، خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**»(١).

فالله سبحانه خلق عباده له، ولهذا اشترى منهم أنفسهم، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم، فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ، ليسلموا إليه النفوس التي خلقها له.

وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له مصطفاة عنده، مرضية لديه. وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها، هذا إذا جهل قدرها في نفسها، فإذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها، وعرف الثمن المبذول فيها علم شأنها ومرتبتها في الوجود.

فالسلعة أنت، والله المشتري، والثمن جنته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه في دار الأمن والسلام. والله لا يصطفى لنفسه إلا أعز الأشياء وأَشْرَفَهَا وأعظمها قيمة. وإذا كان قد اختار العبد لنفسه، وارتضاه لمعرفته ومحبته، وبنى له داراً في جواره وقربه،

(١) ذكر الأثرين المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٥) بينما ذكر ابن كثير الأثر الثاني في تفسيره (٤/ ٢٣٩).

وجعل ملائكته خدَمه يسعون في مصالحه في يقظته ومنامه وحياته وموته.

ثم إنَّ العبد أبق عن سيده ومالكه، معرضاً عن رضاه، ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه، وصالح عدوه، ووالاه من دونه، وصار من جنده، مؤثراً لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه، فقد باع نفسه - التي اشتراها منه إلهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر إلى وجهه - من عدوه، وأبغض خلقه إليه، واستبدل غضبه برضاه، ولعنته برحمته ومحبته. فأي مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه؟

...[1]قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد.

فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هنا وبين حاله، والملك يدخل عليه في جنات عدن ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساع في مصالحه، والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه.

فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله، يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه، ويعملون فيه.

والأفلاك مسخرة منقادة دائرة بما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته، وإصلاح رواتب أقواته.

والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره، وما أودع فيه.

والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه: أرضه وجباله وبحاره وأنهاره،

---

(١) ٢٦٣ المفتاح جـ١.

وأشجاره وثماره، ونباته وحيوانه، وكل ما فيه، كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلى قوله: ﴿ كَفَّارٌ ﴾.

فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعًا وأملأ صواعًا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضيًا بعيش بني جنسه، لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم، يقول: لي أسوة بهم، وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر، وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب، وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالإياب، فاستلان ما استوعره البطالون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون.

***

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

[(١)] التثبيت فعله، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعبده الثابت.

ومثله قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله، فإنه يفعل ما يشاء.

وأما الثبات والضلال فمحض أفعالهم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣].

فأخبر أنه هو الذي قسّى قلوبهم حتى صارت قاسية، فالقساوة وصفها وفعلها، وهي أثر فعله، وهو جعلها قاسية، وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم، وتركهم بعض ما ذكروا به، فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية.

---

(١) ٥٩ شفاء.

...[(١)]فأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلىٰ ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، ولا إلىٰ أحد من خلقك»[(٢)]، وكان يدعو: «يا مقلِّب القُلُوبِ ثَبِّتْ قلبِي عَلَىٰ دينك»[(٣)]. يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن ﷻ، لا يملك منه شيئاً، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاءُ، كيف وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فضرورته ﷺ إلىٰ ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاءِ، ولهذا كان أقربَ الخلق إلىٰ الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلىٰ ربه.

وكان يقول لهم: «أَيهَا النَّاسُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِى فَوْقَ مَنْزِلَتِى إِنَّمَا أنا عَبْدٌ»[(٤)]،

---

(١) ١٠ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٠٠ رقم ٢٣١٩) وابن حبان (٣/ ٢٥٠ رقم ٩٧٠) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣٧٠) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ١٤٧ رقم ١٠٤٠٥) وأبو داود (رقم ٥٠٩٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٤٩ رقم ٢٩٢٥) والطبراني في الصغير (رقم ٤٤٤٩) وفي الأوسط (٤/ ٤٣ رقم ٣٥٦٥) وأحمد (٥/ ٤٢) وصححه إسناده المنذري في الترغيب (١/ ٢٦٠ رقم ٩٨٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٧) رواه الطبراني وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (١١/ ١٤٨).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٢١١ رقم ٢٢٢٢) وابن حبان (٣/ ٢٢٢-٢٢٣ رقم ٩٤٣) وفي الموارد (رقم ٢٤١٩) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤١٤ رقم ٧٧٣٧) والترمذي (رقم ٢١٤٠) و(رقم ٣٥٢٢) وأحمد (٣/ ١١٢) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧٥ رقم ٧٥٧) وابن أبي عاصم في السنن (١/ ١٠١ رقم ٢٢٥) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٨٣) والحديث حسنه الترمذي.

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٦ رقم ١٦٢٩) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٧٠ رقم ١٠٠٧٧) وأحمد (٣/ ١٥٣، ٢٤٩) وعبد بن حميد (رقم ١٣٣٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٨٨ رقم ١٠٩٧) (٤/ ١٠١ رقم ١٥٧٢).

وكان يقول: «لا تُطْروني كَمَا أَطْرَتِ النصارىٰ المسيح ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراءِ، ومقام الدعوة، ومقام التحدىٰ، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي حديث الشفاعة: «إِنَّ الْمَسِيحَ يَقُولُ لَهُمْ: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ: عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»(٢)، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له.

(٣)فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. ويعفىٰ للولي عما لا يعفىٰ لسواه، وكذلك العالم أيضًا، يغفر له ما لا يغفر للجاهل. كما روىٰ الطبراني بإسناد جيد مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ: «إن الله سبحانه إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد، قال للعلماء: إني كنت أعبد بفتواكم، وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم»(٤) هذا معنىٰ الحديث، وقد روي مسندًا ومرسلًا.

فهذا الذي ذكرتم صحيح، وهو مقتضىٰ الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره، كقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٧-٥١٠) وشرح النووي (٣/ ٥٥-٥٨).

(٣) ٣٣٣ المدارج جـ١.

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٥٩١) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٥٦٧) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٣) وابن عدي في الكامل (٤/ ١١١) وقال: وهذا الحديث بهذا الحديث بهذا الإسناد باطل. وقد ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٦٤).

[الأحزاب: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥] أي لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة...

***

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

...قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] فليست اللام بمعنى «في» قطعًا بل قيل: إنها لام التعليل، أي لأجل دلوك الشمس.

وقيل: إنها بمعنى «بعد»، فإنه ليس المراد إقامتها وقت الدلوك. سواء فسر بالزوال أو الغروب، وإنما يؤمر بالصلاة بعد الدلوك.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] قيل: يشهده الله ﷻ وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك، فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل، فيشهده ملائكة الليل والنهار.

واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَضْلُ صَلاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً**»، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، لقول أبي هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾(٢).

قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا، وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة

---

(١) ٢١٢ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٧) ومسلم (رقم ٦٤٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٣١-١٣٥) وشرح النووي (٥/ ١٥١).

الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة، فإن الله على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة، وهي شهادة حضور ودنوّ متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماءِ الدنيا في الشطر الأخير من الليل.

وقد روى الليث بن سعد: حدثني زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد الأنصاري عن أَبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَنْزِلُ في ثَلاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَفْتَحُ الذِّكْرَ في السَّاعَةِ الأُولَى الَّذِي لَم يَرَهُ غَيْرُهُ فَيَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، ثُمَّ يَنْزِلُ في السَّاعَةِ الثانية إِلَى جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِي دَارُهُ الَّتِي لَمْ تَرَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَهِي مَسْكَنُهُ لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث، وهم النبيون والصديقون والشهداءُ، ثم يقول: طوبى لمن دخلك، ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماءِ الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول: قومي بعزتي، ثم يطلع إلى عباده فيقول: هل من مستغفر فأَغفر له؟ أَلا من سائل يسأَلني فأعطيه؟ ألا داع يدعوني فأُجيبه؟ حتى تكون صلاة الفجر**»[(١)].

ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾، يشهده الله ﷻ وملائكته ملائكة الليل والنهار[(٢)].

ففي هذا الحديث أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر. وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له.

وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر، ولاسيما وهو معلق في بعضها على انفجار الصبح، وهو اتساع ضوئه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ١٣٥) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٩٣ رقم ٥٥٢) في ترجمة زيادة بن محمد الأنصاري، وقال: والحديث في نزول الله عزوجل إلى السماء الدنيا ثابت فيه أحاديث صحاح إلا أن زيادة هذا جاء في حديثه بألفاظ لم يأت بها الناس، ولا يتابعه عليها منهم أحد. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٤٥): فهذه ألفاظ منكرة لم يأت بها غير زيادة.

(٢) يأتي قريبًا بحث مكمل لهذا. (ج).

وفي لفظ: «حَتَّىٰ يَضِيءَ الْفَجْرُ»[١]، وفي لفظ: «حَتَّىٰ يَسْطَعَ الْفَجْر»[٢]، وذلك هو وقت قراءَة الفجر، وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي ﷺ يقرأُ فيها بالستين إلى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساءُ لا يعرفن من الغلس، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص.

مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحاً به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح، رواه الدارقطني في «كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماءِ الدنيا» من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله ﷻ إلى سماءِ الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح**»[٣] رواه عن محمد جماعة: منهم سليمان بن بلال وإسماعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل كلهم قال: «**أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر**»، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد.

وإن لم تكن محفوظة وكانت من شك الراوي هل قال هذا أو هذا، فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر، وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود، كما رواه يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال: شهدت على النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْل هَبَط إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٥٨) ولفظه: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك: أنا الملك. من ذا الذي يدعوني فأستجيب له. من ذا الذي يسألني فأعطيه. من ذا الذي يستغفرني فأغفر له. فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر». وانظر: شرح النووي (٦/ ٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٣، ٤٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٤) والدارمي (رقم ١٤٧٨) والمقدسي في الترغيب في الدعاء (رقم ٣١).

السَّمَاءِ فَفُتِحَتْ ثُمَّ قَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبُهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغِيثٍ أَغِيثُهُ؟ هَلْ مِن مُضْطَرٍ أَكْشِفُ عَنْهُ؟ فَلا يَزَالُ ذَلِكَ مَكَانَهُ حَتَّىٰ يَطْلَعَ الْفَجْرُ فِي كُلِّ لَيْلَة مِنَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَىٰ السَّمَاءِ؟»(١). قال الدارقطني: فزاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة. والمقصود ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها. والله أعلم.

(٢)وكان ﷺ لا يعين سورة في الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها إلا في الجمعة والعيدين، وأمّا في سائر الصلوات، فقد ذكر أبو داود من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه أنه قال: «مَا منَ المفصَّل سورةٌ صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلا وقد سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَؤمُّ الناسَ بها في اَلصَّلاةِ المَكْتُوبةِ»(٣).

وكان من هديه قراءةَ السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين، وربما قرأ أول السورة. وأما قراءة أواخر السور وأوساطِها، فلم يُحفظ عنه. وأما قراءةُ السورتين في ركعة: فكان يفعله في النافلة، وأما في الفرض، فلم يُحفظ عنه.

وأما حديثُ ابن مسعود ﷺ: «إني لأعرف النظائِرَ التي كان رسولُ الله ﷺ يقرُن بينهن السورتين في الركعة (الرحمن) و(النجم) في ركعة و(اقتربت) و(الحاقة) في ركعة و(الطور) و(الذاريات) في ركعة و(إذا وقعت) و(ن) في ركعة»(٤) الحديث. فهذا حكاية فعل لم يُعين محلَّه، هل كان في الفرض أو في النفل؟ وهو محتمِل.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤، ٤٣).

(٢) ١١١ الزاد جـ١.

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٨١٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٨٨ رقم ٣٨١٩) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود وفي مشكاة المصابيح (رقم ٨٦٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٨٢٢) وأحمد (١/ ٤٢٧، ٤٥٥) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٩ رقم ٤٤٦٥) وأبو عوانة في مسنده (١/ ٤٨٣ رقم ١٧٩٥) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٥ رقم ٩٨٦٤) والبزار (٥/ ١٢٨ رقم ١٧١٥) وانظر: شرح النووي (٦/ ١٠٥) والمغني (١/ ٤٤٢). والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (رقم ١٣٩٦).

وأما قراءةُ سورة واحدة في ركعتين معاً، فقلما كان يفعله. وقد ذكر أبو داود عن رجل من جُهينة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ في الصبح (إذا زلزلت) في الركعتين كلتيهما، قال: فلا أدري أنسيَ رسولُ الله ﷺ، أم قرأ ذلك عمداً[١].

وكان ﷺ يُطيلُ الركعة الأولىٰ علىٰ الثانية مِن صلاة الصُّبح ومِن كل صلاة، وربما كان يُطيلها حتىٰ لا يسمَعَ وقْعَ قدمٍ، وكان يُطيل صلاة الصبح أكثرَ مِن سائر الصلوات، وهذا لأن قرآن الفجر مشهود، يشهده اللهُ تعالىٰ وملائكتُه.

وقيل: يشهدُه ملائكةُ الليلِ والنهارِ، والقولان مبنيان علىٰ أن النزولَ الإلهي هل يدومُ إلىٰ انقضاء صلاة الصبح، أو إلىٰ طلوع الفجر؟ وقد ورد فيه هذا وهذا.

وأيضاً فإنها لما نقص عددُ ركعاتها، جُعِلَ تطويلُها عوضاً عما نقصته من العدد. وأيضاً فإنها تكون عقيبَ النوم، والناس مستريحون.

وأيضاً فإنهم لم يأخذوا بَعْدُ في استقبال المعاش، وأسباب الدنيا.

وأيضاً فإنها تكون في وقت تواطأ فيه السمعُ واللِّسان والقلبُ لفراغه وعدمِ تمكن الاشتغال فيه، فَيفهمُ القُرآنَ ويتدبره.

وأيضاً فإنها أساس العمل وأولُه، فأُعطيت فضلاً من الاهتمام بها وتطويلها، وهذه أسرار إنما يعرفها من له التفات إلىٰ أسرار الشريعة ومقاصدها وَحِكَمِهَا، واللّه المستعان.

***

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾.

[٢]قد اختلف السلفُ والخلف في أنه: هل كان فرضاً عليه أم لا؟[٣] والطائفتان احتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩] قالوا: فهذا

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٨١٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣٩٠ رقم ٣٨٢٩) وصححه بدر الدين العيني في عمدة القاري (٦/ ٣٢) وانظر: عون المعبود (٣/ ٢٣) ونيل الأوطار (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) ١٧٢ الزاد جـ١.

(٣) أي قيام الليل: هل كان فرضًا علىٰ رسول الله ﷺ أم كان نافلة؟

صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد، في هذه السورة، كما أمره في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١] ولم يجىء ما ينسخُه عنه.

وأما قولُه تعالى: ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فلو كان المرادُ به التطوعَ، لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة: الزيادة، ومطلقُ الزيادة لا يدل على التطوع، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي: زيادة على الولد.

وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ: زيادة في درجاته، وفي أجره، ولهذا خصه بها، فإن قيامَ الليل في حق غيره مباحٌ، ومكفِّر للسيئات، وأما النبي ﷺ، فقد غَفَرَ اللهُ له ما تقدم مِن ذنبه وما تأخر، فهو يعمل في زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير.

قال مجاهد بن جبر: إنما كان نافلةً للنبي ﷺ، لأنه قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: وزيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه[(١)].

قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج بن محمد المصيصي، عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير، عن، مجاهد قال: ما سوى المكتوبة، فهو نافلة مِن أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها[(٢)].

حدثنا محمد، حدثنا نصر، حدثنا عبد الله، حدثنا عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي عثمان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾، قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ.

وذُكر عن الضحاك، قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.

***

---

(١) أخرجه الطبري عنه في تفسيره (١٥/ ١٤٣).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٤٣) وانظر: التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا (ص ٩٣) والدر المنثور (٥/ ٣٢٣-٣٢٤).

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾.

...[(١)] قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ، بمكة، فأمر بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[(٢)] [الإسراء: ٨٠].

قال قتادة: أخرجه الله من مكة إلى المدينة مخرج صدق، ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سلطانًا نصيرًا[(٣)]، وأراه ﷺ دار الهجرة، وهو بمكة، فقال: «أرأيت دار هجرتكم: بسبخة ذات نخل بين لابتين»[(٤)].

وذكره الحاكم في صحيحه عن علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ قال لجبرائيل: «من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصديق»[(٥)]...

...[(٦)] وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾.

وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه سأله أنه يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ

---

(١) ١٤٤ الزاد جـ٢.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٥٣٥ رقم ٥٢٢) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٩ رقم ١٧٥١٤) والحاكم (٣/ ٤ رقم ٤٢٥٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٤ رقم ٤٢٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٩٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٤٧) (٧/ ٢٢٨).

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ٦ رقم ٤٢٦٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه.

(٦) ٢٧٠ الزاد جـ٢.

ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

حقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله وفي مرضاته، بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله، الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة.

بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله وصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجا لا أكون فيه ضامنًا عليك.

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق، ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق،

ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله وبالله وبأمره ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلًا آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

...[1] والعلم «اللدني» ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله، وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة موسى قال الله تعالى: ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

وفرق بين الرحمة والعلم وجعلهما «من عنده» و«من لدنه»، إذ لم ينلهما على يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده»، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ فـ«السلطان النصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ وهو الذي أيده به، والذي من عنده: نصره بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢].

«والعلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدًا في كتابه»[2] فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان فهو لدني، لكن لدن منْ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيًا رحمانيًا:

---

(١) ٤٧٥ المدارج جـ٢.

(٢) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٣٠٤٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٦١).

بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه ﷻ فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني ولدني شيطاني بطناوي، والمحك: هو الوحي، ولا وحي بعد رسول الله ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر، مخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبعوثًا إلى الخضر ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته، ولو كان مأمورًا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه. ولهذا قال له: «أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم» ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسالته عامة للجن والإنس، في كل زمان. ولو كان موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ فإنما يحكم بشريعة محمد ﷺ.

فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه وليتشهد شهادة الحق؛ فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلًا عن أن يكون من خاصة أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه، وهذا الموضع مقطع ومفرق بين زنادقة القوم، وبين أهل الاستقامة منهم فحرِّك تَرَهْ.

***

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

...[1]الباطل ضد الحق، يراد به المعدوم الذي لا وجود له، والموجود الذي مضرة وجوده أكثر من منفعته.

فمن الأول: قول الموحد: كل إله سوى الله باطل، ومن الثاني قوله: السحر باطل، والكفر باطل، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

(١) ٢٤٣ الإغاثة جـ١.

فالباطل إما معدوم لا وجود له، وإما موجود لا نفع فيه، فالكفر والفسوق والعصيان والسحر، والغناء، واستماع الملاهي: كله من النوع الثاني.

قال ابن وهب: أخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد: أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد: «كيف ترىٰ في الغناء، قال: فقال له القاسم: هو باطل، فقال: قد عرفت أنه باطل، فكيف ترىٰ فيه؟ فقال له القاسم: أرأيت الباطل، أين هو ؟ قال: في النار، قال: فهو ذاك»[١].

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: «ما تقول في الغناء، أحلال هو أم حرام؟ فقال: لا أقول حراماً إلا ما في كتاب الله. فقال: أفحلال هو؟ فقال: ولا أقول ذلك، ثم قال له: أرأيت الحق والباطل، إذا جاءا يوم القيامة، فأين يكون الغناء؟ فقال الرجل: يكون مع الباطل، فقال له ابن عباس: اذهب فقد أفتيت نفسك»[٢].

فهذا جواب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن غناء الأعراب، الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط، والتشبيب بالأجنبيات، وأصوات المعازف، والآلات المطربات، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا أعظم قول. فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير، وأعظم من فتنته.

فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعة بإباحته، فمن قاس هذا علىٰ غناء القوم فقياسه من جنس قياس الربا علىٰ البيع، والميتة علىٰ المذكاة، والتحليل الملعون فاعله علىٰ النكاح الذي هو سنة رسول الله ﷺ. وهو أفضل من التخلي لنوافل العبادة، فلو كان نكاح التحليل جائزاً في الشرع لكان أفضل من قيام الليل، وصيام التطوع، فضلاً أن يلعن فاعلُه.

***

(١) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٢٢/ ١٩٩).

(٢) ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٠).

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

(١)الصحيح: أن «من» ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآنُ هو الشِّفاء التام مِن جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواءِ الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤهَّل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداويَ به، ووضعَه علىٰ دائه بصدقٍ وإيمان، وقبولٍ تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاءٍ لشروطه، لم يُقاوِمْهُ الداءُ أبداً.

وكيف تُقاوِمُ الأدواءُ كلامَ ربِّ الأرض والسماءِ الذي لو نزل علىٰ الجبال، لصَدَعَهَا، أو علىٰ الأرض، لقطعها.

فما مِن مرضٍ من أمراض القُلُوبِ والأبدان إلا وفي القُرآن سبيلُ الدلالة علىٰ دوائه وسببه، والحِمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه.

وقد تقدَّم في أول الكلام علىٰ الطب بيانُ إرشاد القرآن العظيم إلىٰ أُصوله ومجامعه التي هي: حفظُ الصحة والحِميةُ، واستفراغُ المؤذي، والاستدلالُ بذلك علىٰ سائر أفراد هذه الأنواع. وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مُفصَّلةً، ويذكر أسبابَ أدوائها وعلاجها. قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فمَن لم يَشْفِه القرآنُ، فلا شفاه الله، ومَن لم يَكفِه، فلا كفاه الله.

...(٢)ولا ينكر عدمُ انتفاع كثير من المرضىٰ بطبِّ النبوة، فإنه إنما ينتفعُ به مَن تلقَّاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآنُ الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يُتلقَّ هذا التلقي لم يحصل به شفاءُ الصُّدور مِن أدوائها، بل لا يزيدُ المنافقين إلا رجساً إلىٰ رجسهم، ومرضاً إلىٰ مرضهم، وأين يقعُ طبُّ الأبدان منه.

فطِب النبوةِ لا يُناسب إلا الأبدانَ الطيبة، كما أنَّ شِفاء القرآن لا يُناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية، فإعراضُ الناس عن طِبِّ النبوة كإعراضهم عن

---

(١) ٣٧٧ الزاد جـ١.

(٢) ١٥٧ الزاد جـ٣.

الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخُبثِ الطبيعة، وفساد المحل، وعدمِ قبوله.. والله الموفق[(١)].

...[(٢)]في مسند الإمام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[(٣)] وفي لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء، إلا داء واحدًا**» قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**الهرم**»[(٤)] قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها.

وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

فروىٰ أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلًا منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر علىٰ الماء. فاغتسل فمات فلما قدمنا علىٰ النبي ﷺ أُخبر بذلك، فقال: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب علىٰ جرحه بخرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده**»[(٥)] فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاءه السؤال.

---

(١) تقدم في سورة يونس ما له علاقة بهذا البحث. (ج).

(٢) ٣ الجواب.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨) والبيهقي في سننه الكبرىٰ (٩/ ٣٤٣ رقم ١٩٣٤٤) والحميدي في مسنده (١/ ٥٠ رقم ٩٠) والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٧٥ رقم ٢٥٣٤) وأبو يعلىٰ (٩/ ١١٣ رقم ٥١٨٣) قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٨٤): رواه أحمد والطبراني ورجال الطبراني ثقات. وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٥).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ١٦٩ رقم ١٣٨٤) وأبو داود (رقم ٣٨٥٥) وابن ماجه (رقم ٣٤٣٦) والترمذي (رقم ٢٠٣٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٤٠ رقم ١٤٦٧) والطبراني في الكبير (١/ ١٧٩ رقم ٤٦٤) وأحمد (٤/ ٢٧٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ٤٩): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٥).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) قال ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٤٧): وصححه ابن السكن، وقال ابن أبي داود: تفرد به
=

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢] ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرىٰ، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

***

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

...[(١)]قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي علىٰ ما يشاكله ويناسبه ويليق به، كما يقول الناس:

كل إناء بالذي فيه ينضح[(٢)]

فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلىٰ فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين.

ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم، الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدح

= الزبير بن خريق، وكذا قال الدارقطني قال: وليس بالقوي. وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٩٣): حسن دون قوله: إنما كان يكفيه.

(١) ١٠٣ طريق الهجرتين.

(٢) ذكره الجبرتي في عجائب الآثار (١/ ١٩) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٤٩، ٢٤٣) غير منسوب إلىٰ أحد. بينما هو عجز بيت لكثير من الشعراء فابن بناتة المصري المتوفىٰ سنة ٧٦٨ هـ قال:

يشف علىٰ مكتوبه طيب ما حوىٰ ... كل إناء بالذي فيه ينضح

وقال صفي الدين الحلي المتوفىٰ سنة ٧٥٠هـ:

إذا ما فعلت الخير ضوعف شرهم ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

وغيرهما كثير.

الناس في ملكه، وقالوا: لا يصلح للملك.

فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلىٰ الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم، أفيليق بذلك الرفيق الأعلىٰ والمحل الأسنىٰ والدرجات العلىٰ روح سفلية أرضية، قد أخلدت إلىٰ الأرض، وعكفت علىٰ ما تقتضيه طبائعها، مما [تشاركها] فيه، بل قد تزيد علىٰ الحيوان البهيم وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكليتها عليه، لا ترىٰ نعيماً ولا لذة ولا سروراً إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح، من أين كان وكيف اتفق، فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلب والطبع علىٰ شاكلة قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير. ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب، فقال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢- ٢٣]، فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكىٰ الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة، يكونون فيها علىٰ حال واحدة من النعيم أو العذاب؟ قال الله تعالىٰ: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦].

...[(١)] قال شفيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلىٰ الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

[قلت] وأصل ذلك: عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف

(١) ١٧٦ الفوائد.

البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون.

فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته، وشرف النفس ونبلها وكبرها.

وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]؛ أي: أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش، ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها.

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم.

والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته، والثناء عليه والتودد إليه، والحياء منه والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله.

***

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾.

...[1] إن قيل: فما تقولون في قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] فأضاف النفخ إلى نفسه، وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى، كما في قوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥]، ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله: «فيأتون

(١) ١٩١ الروح.

آدم، فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»(١)، فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده، فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] فهو الذي سواه بيده، وهو الذي نفخ فيه من روحه؟

قيل: هذا الموضع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون، ولم يفهموا مراد القرآن، فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة، أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف، كما بينا. وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك، فنفخ في فرجها، وكان النفخ مضافًا إلى الله أمرًا وإذنًا وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ها هنا أمران: (أحدهما): أن يقال: فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك، وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر، فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح، فما خاصية المسيح؟

الثاني: أن يقال: فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح، هو الذي نفخها فيه بإذن الله، كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه، كما خلقه بيده. قيل: لعمر الله أنهما سؤالان مهمان:

فأما الأول: فالجواب عنه: أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار، فإن الله سبحانه وكل بالرحم

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٦) ومسلم (رقم ١٩٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٧-٥١٠) وشرح النووي (٣/ ٥٥).

ملكًا ينفخ الروح في الجنين، فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع، فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره، وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخ فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخا ونفخا ومنفوخا منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح، هذا هو الذي دل عليه النص، وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه، كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم ـ عليها السلام ـ فهذا يحتاج إلى دليل، والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه: أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه، وهذا مما لا يحتاج إلى دليل، وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم، فإنه مفعول من مفعولاته، وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره، فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول؟ وعلى كل تقدير: فالروح الذي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة، وهو المراد.

(المسألة الثامنة عشرة: وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها). فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان، حكاهما شيخ الإسلام وغيره، وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم، وحكاه ابن حزم إجماعًا، ونحن نذكر حجج الفريقين، وما هو الأولى منها بالصواب[1].

(١) ذكر المؤلف البحث من كل جوانبه فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

[(١)]وأما ما احتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمة، فهذا شأن كل ضال ومبتدع، فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها. وأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] فمعلوم قطعًا أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر هاهنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١] أي مأموره الذي قدره وقضاه، وقال له: كن فيكون، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١٠١] أي مأموره الذي أمر به من إهلاكهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق، كقوله تعالى للجنة: «أنت رحمتي»[(٢)] فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما.

وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر. وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف. وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: بينا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ، في حرة المدينة وهو متكئ على عسيب، فمررنا على نفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه

---

(١) ١٨٥ الروح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٠) ومسلم (رقم ٢٨٤٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣٦- ٤٣٧).

عسى أن يخبر فيه بشيء تكرهونه، وقال بعضهم: نسأله فقام رجل، فقال يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت، فلما تجلى عنه قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١) [الإسراء: ٨٥].

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب.

وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة.

فإن قيل: فقد قال أبو الشيخ حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم أنبأنا إبراهيم ابن الحكم عن أبيه عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: بعثت قريش عقبة ابن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي ﷺ فقالوا لهم: إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي، وليس على ديننا ولا على دينكم. قالوا: فمن تبعه؟ قالوا: سفلتنا، والضعفاء، والعبيد، ومن لا خير فيه. وأما أشراف قومه فلم يتبعوه. فقالوا: إنه قد أظل زمان نبي يخرج، وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل، فائتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب، سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم فإن قال لكم: هي من الله، فقولوا: كيف يعذب الله في النار شيئًا هو منه، فسأل جبريل عنها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ يقول: هو خلق من خلق الله ليس هو من الله(٢) ـ ثم ذكر باقي الحديث.

قيل: مثل هذا الإسناد لا يحتج به، فإنه من تفسير السدى عن أبي مالك، وفيه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٥) ومسلم (رقم ٢٧٩٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٠١) وشرح النووي (١٧/ ١٣٦).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٦٥) والطبري في تفسيره (١٥/ ١٩١-١٩٢).

أشياء منكرة، وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدي.

وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله، قال: مر النبي ﷺ على ملأ من اليهود وأنا أمشي معه، فسألوه عن الروح. قال: فسكت فظننت أنه يوحى إليه، فنزلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ يعني اليهود، ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتُوا[1] مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكذلك هي في قراءة عبد الله، فقالوا: كذلك نجد مثله في التوراة: أن الروح من أمر الله عز وجل؟ رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة[2].

وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتت اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي ﷺ بشيء، فأنزل الله عز و جل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3] فهذا يدل على ضعف حديث السدي، وأن السؤال كان بمكة، فإن هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود، ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي ﷺ، ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه.

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب، فإما أن تكون من قبل الرواة، أو تكون أقواله قد اضطربت فيها، ونحن نذكر ذلك فقد ذكرنا رواية السدى عن أبي مالك عنه، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب، فقال مسروق بن المرزبان

---

(١) هذه قراءة عبد الله بن مسعود، بينما القراءة المعتمدة في المصحف العثماني ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم ﴾.

(٢) انظر: عمدة القاري (٢/ ١٩٩) وشرح النووي (١٧/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٤٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٠١).

وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه: أن اليهود أتت النبي ﷺ ـ الحديث.

وقال محمد بن نصر المروزي: حدثنا إسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية[1]. هذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود.

وعن ابن عباس: رواية ثالثة، قال هشيم: حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس: قل الروح أمر من أمر الله عز و جل، وخلق من خلق الله، وصور مثل صور بني آدم، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح[2]. وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم.

وعنه رواية رابعة قال ابن منده: روى عبد السلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ قد نزل من القرآن بمنزلة كن، نقول كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء: الرقيم والغسلين والروح، وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[3] [الجاثية: ١٣].

وعنه رواية خامسة رواها جويبر عن الضحاك عنه: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فقال: قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يعني خلقًا من خلقي ﴿ وَمَآ

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٠١ رقم ٩٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٢ رقم ١١٣١٤) والطبراني في الأوسط (٨/ ٧٣ رقم ٨٠٠٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٥/ ١٢٥) وقال: قال قتيبة بن سعيد: كتب عني هذا الحديث أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابنا أبي شيبة وأبو خيثمة وقالوا: هو غريب.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٦٥ رقم ٤٠٤) وقال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٤٠٢): وقد روى ابن إسحاق في تفسيره بإسناد صحيح عن ابن عباس. وذكره.

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٤٠٢).

أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعني لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتم ذلك حق صفته، وما اهتديتم لصفتها.

وعنه رواية سادسة روى عبد الغني بن سعيد حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ وذلك أن قريشًا اجتمعت فقال بعضهم لبعض: والله ما كان محمد يكذب، ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة، فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه، وكانوا مستبشرين به، ويكثرون ذكره، ويدعون نبوته، ويرجون نصرته، موقنين بأنه سيهاجر إليهم، ويكونون له أنصارًا، فسألوهم عنه، فقالت لهم اليهود: سلوه عن ثلاث: سلوه عن الروح، وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ يريد من خلق ربي ﷻ.

والروح في القرآن على عدة أوجه:

(أحدها) الوحي كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥] وسمي الوحي روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(الثالث) جبريل كقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧]، وهو روح القدس. قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ [النحل: ١٠٢].

(الرابع) الروح التي سأل عنها اليهود، فأجيبوا بأنها من أمر الله.

وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا

يَتَكَلَّمُونَ ﴾ [النبأ: ٣٨]، وأنها الروح المذكور في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القدر: ٤].

(الخامس) المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح، والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة.

وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها: كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه: كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره: كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكا له، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته، حيث تقتضي خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس.

***

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

...[1]احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به من الكتاب، وأنه من عنده وكلامه الذي تكلم به، وأنه ليس من صنع البشر بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]، فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده، وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين. وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ [هود: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، ثم سجل عليهم تسجيلًا عامًا في كل مكان وزمان بعجزهم ولو تظاهر عليه الثقلان فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلى أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح، الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بياناً.

---

(١) ٩٧ الصواعق جـ١.

...[1]يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم، حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصمها وبكمها، قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمراد عمى القلب في الدنيا. وقال تعالى: ﴿ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾، لأنهم هكذا كانوا في الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه، واختلف في هذا العمى في الآخرة.

فقيل: هو عمى البصيرة؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار.

وقيل: هو عمى البصر، ورجح هذا بأن الإطلاق ينصرف إليه، وبقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴾ [طه: ١٢٥]، وهذا عمى العين، فإن الكافر لم يكن بصيرًا بحجته.

وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بصراء، ويحشرون من الموقف إلى النار عميًا، قاله الفراء وغيره.

***

﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴾.

[2]قد قيل في هذه الآية أيضًا إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿ وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون، ومن نصر أنه العمى والبكم والصم المضاد للبصر والسمع والنطق قال

(١) ١١١ المفتاح جـ١.
(٢) ٤٥ المفتاح جـ١.

بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لا يرون شيئًا يسرهم[١]، وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن، وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا صمًّا، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق، وهذا منقول عن مقاتل، والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها، بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر، فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى من الحق يومئذ ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠] إن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا»[٢] وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥]. وكقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧]، ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار[٣].

***

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٦٨) وأضواء البيان (٤/ ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٩) ومسلم (رقم ٢٨٦٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٩- ٣٨٧) وشرح النووي (١٧/ ١٩٣).

(٣) يأتي بقية البحث في سورة طه إن شاء الله. (ج).

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾.

...[1]قوله سبحانه ردًّا على الذين قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٩٨، ٩٩]، أي مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية، وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع، ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبَّط عليه أمر المعاد، وبقي منه في أمر مريج.

والمقصود أنه دلَّهم سبحانه بخلق السماوات والأرض على الإعادة والبعث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم، وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله ورسله، وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور، والقدح في حكمته.

ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه كافر بربه، جاحد له، لم يقر برب العالمين فاطر السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ [الرعد: ٥]، وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف: ٣٦]. فمنكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مقر به.

***

(١) ١٤٧ الإعلام جـ١.

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

...[1] وقال تعالى حاكيًا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكًا، على قراءة من فتح التاء، وهي قراءة الجمهور، وضمها الكسائي وحده، وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعناده.

ويشهد لها قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

***

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

...[2] إنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به، وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا، فقال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٨].

وهذا شرف عظيم لأهل العلم، وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا، فسواء آمن به غيرهم أو لا.

---

(١) ٩٠ مفتاح جـ١.

(٢) ٥٠ المفتاح جـ١.

[(١)]قال إمام التفسير مجاهد: هم قوم من أهل الكتاب لما سمعوا القرآن خروا سجدًا، وقالوا: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ كان الله ﷻ وعد على ألسنة أنبيائه ورسله أن يبعث في آخر الزمان نبيًا عظيم الشأن، يظهر دينه على الدين كله، وتنتشر دعوته في أقطار الأرض، وعلى رأس أمته تقوم الساعة، وأهل الكتابين مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي، فالسعداء منهم عرفوا الحق فآمنوا به واتبعوه، والأشقياء قالوا: نحن ننتظره ولم يبعث بعد رسولًا، فالسعداء لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوا أنه النبي الموعود به، فخروا سجدًا لله إيمانًا به وبرسوله، وتصديقًا بوعده الذي أنجزه، فرأوه عيانًا، فقالوا: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾.

[(٢)]الله سبحانه قَدَّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه؛ فإن العرب تقول: جاء فلان على قدر. إذا جاءت وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر   كما أتى ربه موسى على قدر[(٣)]

وقال مجاهد: على موعد[(٤)]. وهذا فيه نظر؛ لأنه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسى موعد للمجيء، حتى يقال: إنه أتى على ذلك الموعد.

ولكن وجه هذا: أن المعنى «جئت على الموعد الذي وعدنا: أن ننجزه، والقدر الذي قدرنا: أن يكون في وقته» وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً

(١) ٤٤ هداية الحيارى.

(٢) ١٢٧ مدارج جـ٣.

(٣) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب لجرير بن عطية بن حذيفة الخطفي، أشعر أهل عصره، عاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفًا وهو من أغزل الناس شعرًا، مات سنة ١١٠هـ، وفي ديوانه: إذ كانت له قدرًا. وذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ٣٦٣) (١٦/ ١٦٨) وابن كثير في تفسيره (١/ ١١٥) والخطابي في غريب الحديث (٢/ ٢١٠).

(٤) انظر: تفسير السيوطي (٥/ ٥٧٩) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٥٤) وعمدة القاري (١٥/ ٢٨٩) وتعليق التغليق ٠٤/ ٢٣-٢٤).

﴿...﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] لأن الله ﷻ وعد بإرسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نورًا وهدًى، فلما سمعوا القرآن: علموا أن الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به. واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم؛ لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه، وكما إذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى وجريانها في الخلق علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها. فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك، وبعث محمد ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له أحوج ما كان إلى عمارته.

***

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.

[1]أي اسم دعوتموه به فإنما دعوتم المسمى بذلك الاسم، فأخبر سبحانه أنه إله واحد، وإن تعددت أسماؤه الحسنى المشتقة من صفاته، ولهذا كانت حسنى، وإلا فلو كانت كما يقول الجاحدون لكماله أسماء محضة فارغة من المعاني، ليس لها حقائق لم تكن حسنى، ولكانت أسماء الموصوفين بالصفات والأفعال أحسن منها: فدلت الآية على توحيد الذات وكثرة النعوت والصفات.

...[2]فهذا الدعاء المشهور، وأنه دعاء المسألة، وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه، فيقول مرة: يا الله، ومرة: يا رحمن، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ

---

(١) ١٧٤ الصواعق جـ١.
(٢) ٥ البدائع جـ٢.

يدعو في سجوده يا رحمن يا رحيم، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾[(١)].

وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية، كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وأدعه بعبد الله ونحوه، والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري، والذي حمله على هذا قوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، فإن المراد بتعدده معنى أي، وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى: إما الله وإما الرحمن، فله الأسماء الحسنى، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في له يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في ﴿تَدۡعُواْ﴾ معنى تسموا فتأمله، والمعنى: أيًّا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم.

...[(٢)]والمثال الثاني مما ادعوا أنه مجاز اسمه سبحانه الرحمن، وقالوا: وصفه بالرحمة مجاز، قالوا: لأن الرأفة والرحمة هي رقة تعتري القلب، وهي من الكيفيات النفسية، والله منزه عنها، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنهم جحدوا حقيقة الرحمة فقالوا إن نسبتها إلى الله تعالى محال، وأنه ليس برحيم بعباده على الحقيقة، وقد سبقهم إلى هذا النفي مشركو العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] فأنكروا حقيقة

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٨٢) وتفسير السيوطي (٥/ ٣٤٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٦٩).
(٢) ١٠٩ الصواعق جـ٢.

اسمه الرحمن وأن يسمى بذلك، ولم يكونوا ينكرون ذاته وربوبيته، ولا ما يجعله المعطلة معنى اسم الرحمن، من الإحسان؛ فإن أحدًا لم ينكر إحسان الله إلى خلقه، فإن قيل: فلو كان هذا كما ذكرتم لأنكروا اسم الرحيم، لأن المعنى واحد. (قيل): إنما لم ينكروا الرحيم لأن ورود الرحمن في أسمائه أكثر من ورود الرحيم، ولهذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [النبأ: ٣٧] ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، وإنما جاء الرحيم مقيدًا كقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٧]. ومقرونًا باسم الرحمن، كما في الفاتحة أو باسم آخر نحو ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: مراراً]، وأيضًا فالرحمن جاء على بناء فعلان الدال على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة، كما يشعر به هذا البناء نحو: غضبان وندمان وحيران، فالرحمن من صفته الرحمة، والرحيم من يرحم بالفعل، وأيضًا فلا يخلو إنكارهم لهذا الاسم إما أن تكون دلالته على حقيقة الرحمة أولا، فإن كان الأول فمن أنكر أن يكون حقيقة فقد وافقهم، وإن لم يكن كذلك، فمن المعلوم أن موضوع الاسم وحقيقته صفة الرحمن القائمة بموصوفها، فلو كانت حقيقة الاسم منتفية في نفس الأمر لكان طعنهم أقوى، وكان ذلك بمنزلة وصفه بالأكل والشرب والنوم والجور ونحوها مما لا يليق به، وبالجملة فالذي أنكر أن يكون الله رحمانًا على الحقيقة هو (جهم بن صفوان) وشيعته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومن أعظم الإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنها مجازات، (وهو) أنواع، هذا أحدها.

الثاني: جحدها وإنكارها بالكلية.

الثالث: تشبيهه فيها بصفات المخلوقين ومعاني أسمائه، وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه، وهذا يذكره المتكلمون في كتبهم، ويجعلونها مقالة لبعض الناس،

وهذه كتب المقالات بين أظهرنا لا نعلم ذلك مقالة لطائفة من بعض الطوائف البتة، وإنما المعطلة الجهمية يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله تعالى مشبهًا وممثلًا، ويجعلون التشبيه لازم قولهم،ويجعلون لازم المذهب مذهبًا، ويسرعون في الرد عليهم وتكفيرهم...

***

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١١].

[1]لم ينف الولي نفيًا عامًّا مطلقًا، بل نفى أن يكون له ولي من الذلِّ، وأثبت في موضع آخر أن له أولياء بقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس: ٦٢] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل.

...[2]وموالاته لأوليائه سلامٌ من أن تكون عن ذل، كما يوالي المخلوقُ المخلوقَ، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾، فلم ينف أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفى أن يكون له وليٌّ من الذل.

هذا ما تيسر الله جمعه من تفسير سورة الإسراء

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٦٢ المفتاح جـ١.

(٢) ١٣٦ بدائع جـ٢.

سُورَةُ الكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ ﴾ [الكهف: ٧].

(١) أخبر أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضًا(٢). فهذه ثلاثة مواضع في القرآن يخبر فيها ـ سبحانه ـ أنه خلق العالم العلوي والسفلي وما بينهما، وأجل العالم وأجل أهله، وأسباب معائشهم التي جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى؛ فهو الأحسن عملًا.

وهذا هو الحق الذي خلق به وله السموات والأرض وما بينهما، وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذي نزه نفسه عنه، وأخبر أنه يتعالىٰ عنه، وأن ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء ينفي هذا الظن بالباطل والحسبان الكاذب، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه سبحانه نفسه عن ذلك، كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة، وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم، واللغوب والحاجة، واكترائه بحفظ السموات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه، كما يظنه أعداؤه المشركون، يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئًا منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبىٰ ذلك ويمنع منه، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثًا، وتركهم

(١) ١٧٠ عدة الصابرين.

(٢) يعني آية سورة هود وآية سورة الملك (ج).

سدىً لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يردهم إليه، فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنه كانوا كاذبين، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم، فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق، وذلك عين الجحود والكفر به ـ سبحانه ـ كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧] فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه.

...[1] الفتوة: هذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة. فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضًا به، أو متعلق بغيره و«الفتوة» إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق، فهي ثلاثة منازل: منزلة التخلق وحسن الخلق. ومنزلة الفتوة. ومنزلة المروءة. وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم «الفتوة»، بل عبرت عنها باسم «مكارم الأخلاق»، كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال»[2].

وأصل «الفتوة» من «الفتى» وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]، وقال عن قوم إبراهيم أنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقال تعالى

---

(١) ٣٤٠ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٣١ رقم ٧٩٧٩) والطبراني في الأوسط (٧/ ٧٤ رقم ٦٨٩٥) والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ٢٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ١٥٧٩).

عن يوسف: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦]، وقال لفتيانه: ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف: ٦٢].

فاسم «الفتى» لا يشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدث، ولذلك لم يجيء اسم الفتوة في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق، وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره.

***

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤].

(١) هذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد، فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشر قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش، وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب عكس الخذلان، فالخذلان حلُّه من رباط التوفيق؛ فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه، ويصير أمره فرطًا، والربط على القلب شده برباط التوفيق، فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله.

***

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) ٦٧ مدارج جـ٣.

...[١]استنبط أبو القاسم السهيلي: أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالىٰ حكىٰ قول من قال: ثلاثة، وخمسة، ولم يذكر الواو في قوله: ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ ﴿سَادِسُهُمْ﴾، وحكىٰ قول من قال: إنهم سبعة، ثم قال: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] قال: لأن الواو عاطفة علىٰ كلام مضمر، تقديره: نعم، ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وذلك أن قائلًا لو قال: إن زيدًا شاعر. فقلت له: وفقيه. كنت قد صدقته، كأنك قلت: نعم هو كذلك وفقيه أيضًا[٢].

***

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

[٣]المخرج الرابع: أن يستثنى في يمينه أو طلاقه، وهذا موضع اختلف فيه الفقهاء، فقال الشافعي وأبو حنيفة: يصح الاستثناء في الإيقاع والحلف، فإذا قال: «أنتِ طالق إن شاء الله» أو «أنت حرة إن شاء الله» أو «إن كلمت فلانًا فأنت طالق إن شاء الله» أو «الطلاق يلزمني لأفعلن كذا إن شاء الله» أو «أنت عليَّ حرام، أو الحرام يلزمني إن شاء الله» نفعه الاستثناء، ولم يقع به طلاق في ذلك كله.

ثم اختلفا في الموضع [الذي] يعتبر فيه الاستثناء، فاشترط أصحاب أبي حنيفة اتصاله بالكلام فقط، سواء نواه من أوله أو قبل الفراغ من كلامه أو بعده.

وقال أصحاب الشافعي: إن عقد اليمين ثم عَنَّ له الاستثناء لم يصح. وإن عنَّ له الاستثناء في أثناء اليمين فوجهان؛ أحدهما: يصح، والثاني: لا يصح. وإن نوىٰ

---

(١) ٥٤ أعلام جـ٤.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٧٩).
(٣) ٥٤ أعلام جـ٤.

الاستثناء مع عقد اليمين صح وجهًا واحدًا[1].

وقد ثبت بالسنة الصحيحة أن سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ قال: «**لأطوفن الليلة على كذا وكذا امرأة، تحمل كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك الموكل به: قل إن شاء الله. فلم يقل**»، فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو قالها لقاتلوا في سبيل الله أجمعون**»[2]، وهذا صريح في نفع الاستثناء والمقصود بعد عقد اليمين.

وثبت في السنن عنه ﷺ أنه قال: «**والله لأغزون قريشًا، والله لأغزون قريشًا، والله لأغزون قريشًا**»، ثم سكت قليلًا. ثم قال: «**إن شاء الله. ثم لم يغزهم**»[3] رواه أبو داود. وفي جامع الترمذي من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين، فقال: إن شاء الله. فلا حنث عليه**»[4]، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

فهذه النصوص الصحيحة لم يشترط في شيء منها البتة في صحة الاستثناء ونفعه أن ينويه مع الشروع في اليمين ولا قبلها، بل حديث سليمان صريح في خلافه، وكذلك حديث: «**لأغزون قريشًا**»، وحديث ابن عمر متناول لكل من قال: إن شاء الله بعد

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ٢٨٣-٢٨٦) والأم (٥/ ١٨٧) (٧/ ١٦٢) وشرح النووي (١١/ ١١٩) وبدائع الصنائع (٣/ ٢٧-٢٩) والمدونة الكبرى (٤/ ١٩٦، ٢٠٥) (٥/ ١٦-١٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨١٩) ومسلم (رقم ١٦٥٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٦٠) (٩/ ٣٣٩).

(٣) أخرجه أبوداود (رقم ٣٢٨٥، ٣٢٨٦) وابن حبان (١٠/ ١٨٥ رقم ٤٣٤٣) وفي موارد الظمآن (رقم ١١٨٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٤٧ رقم ١٩٧١٢) والطبراني في الأوسط (١/ ٣٠٠ رقم ١٠٠٤) وفي الكبير (١١/ ٢٨٢ رقم ١١٧٤٢) وأبو يعلى (٥/ ٧٨ رقم ٢٦٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٨٢): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (١١/ ٦٠٣) وقد صحح الألباني الموقوف، وضعف المرفوع في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٥٣١) وحسنه، وانظر: فتح الباري (١١/ ٦٠٣-٦٠٥).

يمينه، سواء نوى الاستثناء قبل الفراغ أولم ينوه، والآية دالة على نفع الاستثناء مع النسيان أظهر دلالة، ومن شرط النية قبل الفراغ لم يكن لذكر الاستثناء بعد النسيان عنده تأثير.

أيضًا فالكلام بآخره، وهو كلام واحد متصل بعضه ببعض، ولا معنى لاشتراط النية في أجزائه وأبعاضه. وأيضًا فإن الرجل قد يستحضر بعد فراغه من الجملة ما يرفع بعضها، ولا يذكر ذلك في حال تكلمه بها، فيقول: لزيد عندي ألف درهم، ثم في الحال يذكر أنه قضاه منها مائة، فيقول: إلا مائة، فلو اشتراط نيه الاستثناء قبل الفراغ لتعذَّر عليه استدراك ذلك، وألجئ إلى الإقرار بما لا يلزمه والكذب فيه، وإذا كان هذا في الإخبار فمثله في الإنشاء سواء؛ فإن الحالف قد يبدو له فيعلق اليمين بمشيئة الله، وقد يذهل في أول كلامه عن قصد الاستثناء، أو يشغله شاغل عن نيته فلو لم ينفعه الاستثناء حتى يكون ناويا له في أول يمينه لفات مقصود الاستثناء، وحصل الحرج الذي رفعه الله تعالى عن الأمة به، ولما قال لرسوله إذا نسيه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، وهذا متناول لذكره إذا نسي الاستثناء قطعًا، فإنه سبب النزول، ولا يجوز إخراجه وتخصيصه، لأنه مراد قطعًا، وأيضًا فإن صاحب هذا القول إن طرده لزمه ألا يصح مخصص من صفة أو بدل أو غاية أو استثناء بإلا ونحوها حتى ينويه المتكلم من أول كلامه...

...[1]فالتحقيق في المسألة أن المستثنِي إما أن يقصد بقوله: «إن شاء الله» التحقيق أو التعليق، فإن قصد به التحقيق والتأكيد وقع الطلاق، وإن قصد به التعليق وعدم الوقوع في الحال لم تطلق؛ هذا هو الصواب في المسالة، وهو اختيار شيخنا وغيره من الأصحاب.

وقال أبو عبد الله بن حمدان في رعايته: قلت: إن قصد التأكيد والتبرك وقع، وإن

---

(١) ٧٧ أعلام جـ٤.

قصد التعليق وجهل استحالة العلم بالمشيئة فلا. وهذا قول آخر غير الأقوال الأربعة المحكية في المسألة، وهو أنه إنما ينفعه الاستثناء إذا قصد التعليق وكان جاهلًا باستحالة العلم بمشيئة الله تعالىٰ، فلو علم استحالة العلم بمشيئته تعالىٰ لم ينعقد الاستثناء، والفرق بين علمه بالاستحالة وجهلة بها أنه إذا جهل استحالة العلم بالمشيئة، فقد علَّق الطلاق بما هو ممكن في ظنه فيصح تعليقه، وإذا لم يجهل استحالة العلم بالمشيئة فقد علقه علىٰ محال يعلم استحالته فلا يصح التعليق، وهذا أحد الأقوال في تعليقه بالمحال.

قلت: وقولهم: «إن العلم بمشيئة الرب محال» خطأ محض، فإن مشيئة الرب تعلم بوقوع الأسباب التي تقتضي مسبباتها؛ فإن مشيئة المسبب مشيئة لحكمه، فإذا أوقع عليها بعد ذلك طلاقًا علمنا أن الله قد شاء طلاقها، فهذا تقرير الاحتجاج من الجانبين، ولا يخفىٰ ما تضمنه من رجحان أحد القولين، والله أعلم.

وقد قدمنا اختلاف الفقهاء في اشتراط نية الاستثناء وزمنها، وأن أضيق الأقوال قول من يشترط النية من أول الكلام، وأوسع منه قول من يشترطها قبل فراغه، وأوسع منه قول من يجوز إنشاءها بعد الفراغ من الكلام، كما يقوله أصحاب أحمد وغيرهم، وأوسع منه قول من يجوزه بالقرب، ولا يشترط اتصاله بالكلام، كما نص عليه أحمد في رواية المروزي، فقال: حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**إن شاء الله**»، إذ هو استثناء بالقرب، ولم يخلط كلامه بغيره، وقال إسماعيل بن سعيد الشالنجي: سألت أحمد بن حنبل عن الاستثناء في اليمين، فقال: من استثنىٰ بعد اليمين فهو جائز، علىٰ مثل فعل النبي ﷺ، إذ قال: «**والله لأغزون قريشًا**» ثم سكت ثم قال: «**إن شاء الله**» ولم يبطل ذلك، قال: ولا أقول فيه بقول هؤلاء، يعني من لم ير ذلك إلا متصلًا، هذا لفظ الشالنجي في مسائله.

وأوسع من ذلك قول من قال: ينفعه الاستثناء، ويصح ما دام في المجلس، نص عليه الإمام أحمد في إحدىٰ الروايات عنه، وهو قول الأوزاعي كما سنذكره. وأوسع

منه من وجه قول من لا يشترط النية بحال، كما صرح به أصحاب أبي حنيفة، وقال صاحب الذخيرة في كتاب «الطلاق» في الفصل السادس عشر منه: ولو قال لها: «أنت طالق إن شاء الله»، ولا يدري أي شيء شاء الله لا يقع الطلاق؛ لأن الطلاق مع الاستثناء ليس بإيقاع، فعلمه وجهله يكون سواء، ولو قال لها: «أنت طالق» فجرى على لسانه من غير قصد «إن شاء الله»، وكان قصده إيقاع الطلاق لا يقع الطلاق، لأن الاستثناء قد وجد حقيقة، والكلام مع الاستثناء لا يكون إيقاعًا.

...[1]وتفسير الآية، عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: أفعل كذا وكذا، حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها، فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

...والذي أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: «أخبركم غدًا» ولم يقل: «إن شاء الله» فتلبَّث الوحي أيامًا، ثم نزلت هذه الآية[2]، تقال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن[3]، قال: ابن عباس رضي الله عنهما: ويجوز الاستثناء إلى سنة[4]. وقال: عكرمة رحمه الله: واذكر ربك إذا غضبت[5]، وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أي إذا نسيت الصلاة فصلِّها متى ذكرتها.

---

(١) ٤٣١ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٩٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٥٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٧٣). وتفسير القرطبي (٢٠/ ٩٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٨٧٦) وفي الأوسط (٧/ ٦٨ رقم ٦٨٧٢) وفي الكبير (١١/ ٩٠ رقم ١١١٤٣) قال الهيثمي في المجمع: (٧/ ٥٣): رواه الطبراني في الثلاثة وفيه عبد العزيز بن حصين وهو ضعيف.

(٤) تقدم قريبًا توجيه كلام ابن عباس - رضي الله عنهما - (ج).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٣١٢ رقم ٨٢٩٦) والخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٨٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٣٧٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٨٠).

(١) وأما قولكم: «إن الاستثناء بابه الأيمان» إن أردتم به اختصاص الأيمان به فلم تذكروا على ذلك دليلًا، وقوله ﷺ: «من حلف فقال: إن شاء الله فقد استثنى»(٢)، وفي لفظ آخر: «من حلف فقال: إن شاء الله فهو بالخيار؛ فإن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل»(٣) فحديث حسن، ولكن لا يوجب اختصاص الاستثناء بالمشيئة باليمين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهذا ليس بيمين، ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله: غدًا أفعل إن شاء الله، وقد عتب الله على رسوله ﷺ حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: «غدًا أخبركم» ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهرًا، ثم نزل عليه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء المتراخي، ولم يقل ابن عباس قط ولا من هو دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته: «أنت طالق» أو لعبده: «أنت حر» ثم قال بعد سنة «إن شاء الله» إنها لا تطلق ولا يعتق العبد، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس، أو عن أحد من أهل العلم البتة، ولم يفهموا مُراد ابن عباس، والمقصود أن الاستثناء لا يختص باليمين لا شرعًا ولا عرفًا ولا لغة، وإن أردتم بكون بابه الأيمان كثرته فيها؛ فهذا لا ينفي دخوله في غيرها.

(٤) وإن قال بلسانه: «لا أوري ولا أكني» والتورية والكناية في قلبه، كما لو قال: «لا

---

(١) ٧٥ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٠/ ١٨٢ رقم ٤٣٣٩) وفي موارد الظمآن (رقم ١١٨٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٤١ رقم ٤٧٧٠) وفي الصغرى (رقم ٣٨٢٨، ٣٨٢٩) وأبو داود (رقم ٣٢٦١) والترمذي (رقم ١٥٣١) وحسنه.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٤١ رقم ٤٧٧١) وفي الصغرى (رقم ٣٨٣٠) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٦١ رقم ١٤٨٩٦) والدارمي (رقم ٢٣٤٣) وأبو عوانة (٤/ ٥٠ رقم ٥٩٩٠) وأحمد (٢/ ٦٨، ١٢٦) والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٢١٠) وفي صحيح سنن النسائي.

(٤) ٣٥٦ أعلام جـ٣.

أستثني» بلسانه، وفي نيته الاستثناء ثم استثنى، فإنه ينفعه، حتى لو لم ينو الاستثناء ثم عزم عليه واستثنى، نفعه ذلك بالسنة الصحيحة الصريحة، التي لا معارض لها بوجه في غير حديث، كقول الملك لسليمان: قل إن شاء الله، وقول النبي ﷺ: «إلا الإذخر»[1] بعد أن ذكَّره به العباس، وقوله: «إن شاء الله» بعد أن قال: «لأغزون قريشًا» ثلاث مرات، ثم قال بعد الثالثة وسكوته: «إن شاء الله»، والقرآن صريح في نفع الاستثناء إذا نسيه ولم ينوه في أول كلامه ولا أثناءه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، وهذا إما أن يختصَّ بالاستثناء إذا نسيه كما فسره به جمهور المفسرين، أو يعمه ويعم غيره وهو الصواب.

فأما أن يخرج منه الاستثناء الذي سيق الكلام لأجله ويرد إلى غيره فلا يجوز، ولأن الكلام الواحد لا يعتبر في صحته نية كل جملة من جمله وبعض من أبعاضه، فالنص والقياس يقتضي نفع الاستثناء، وإن خطر له بعد انقضاء الكلام، وهذا هو الصواب المقطوع به.

[2]والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادته (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين: المائل عن الحق إلى الباطل، قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه، ومنه الملتحد، وهو مفتعل من ذلك، وقولهن تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] أي من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجئ إليه، وتبتهل إليه، فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه[3].

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٤٩) ومسلم (رقم ١٣٥٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٠٨).
(٢) ١٦٩ بدائع جـ١.
(٣) انظر: مشارق الأنوار (١/ ٣٥٥) ومختار الصحاح (ص ٢٤٧) ولسان العرب (٣/ ٣٨٨-٣٨٩).

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

[1]قوله: «الصبر حبس النفس على مكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، ومكابدة الغصص في تحمله، وانتظار الفرج عند عاقبته» فيقال: هذا أحد أقسام الصبر، وهو الصبر على البلاء، وأما الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، بل يتحلى بها ويأتي بها محبة ورضى، ومع هذا فالصبر واقع عليها، فإنه حبس النفس على مداومتها والقيام بها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾[الكهف: ٢٨].

وأما الصبر عن المعصية فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه، وقد لا يعرض فيه، لتمكن الصابر من قهر داعيها وغلبته، وإذا كان ما ذكر من الأمور الأربعة إنما يعرض في الصبر على البلية فقوله: «إنه في طريق الخاصة تجلد ومناوأة وجرأة ومنازعة»، ليس كذلك، وإنما فيه التجلد، فأين المناوأة والجرأة والمنازعة؟ وأما لوازم الطبيعة من وجود ألم البلوى فلا تنقلب ولا تعدم فلا يصح أن يقال: إن وجود التألم والتجلد عليه، وحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى، جرأة ومنازعة، بل هو محض العبودية والاستكانة وامتثال الأمر، وهو من عبودية الله المفروضة، على عبده في البلاء، فالقيام بها عين كمال العبد، ولوازم الطبيعة لابد منها[2].

ومن رام أن لا يجد البرد والحر والجوع والعطش والألم عند تمام أسبابها وعللها فقد رام الممتنع، وهل يكون الأجر إلا على وجود تلك الآلام والمشاق والصبر

(١) ٢٦٦ طريق الهجرتين.
(٢) انظر: عمدة القاري (٢٥/ ٨٥)وفيض القدير (٢/ ٤٨٨) (٣/ ٢٨٢) وشرح الزرقاني (٢/ ٢٦٨) ولسان العرب (٤/ ٤٣٨) ومختار الصحاح (ص ١٤٩).

عليها؟ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**»(١) وقيل له في مرضه: إنك لتوعك وعكًا شديدًا، قال: «**أجل إن لي أجر رجلين منكم**»(٢)، يعني في وعكه، ولا ريب أن ذلك الوعك مؤلم له ﷺ، وأيضًا في مرض موته قال: «**وا رأساه**»(٣) وهذا إنما هو من وجود ألم الصداع، وكان يقول في غمرات الموت: «**اللهم أعني على سكرات الموت**»(٤) وهذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته ﷺ، وهل كان ذلك إلا محض العبودية وعين الكمال؟ وهل الجرأة والمناوأة والمنازعة إلا في ترك الصبر، وفي التسخط والشكوى؟

(٥)قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. وفي الآية رد ظاهر على الطائفتين وإبطال لقولهما، فإنه سبحانه أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو، فالإغفال فعل الله، والغفلة فعل العبد.

ثم أخبر عن اتباعه هواه، وذلك فعل العبد حقيقة، والقدرية تحرف هذا النص وأمثاله بالتسمية والعلم، فيقولون: معنى أغفلنا قلبه سميناه غافلًا، أو وجدناه غافلًا، أي علمناه كذلك، وهذا من تحريفهم، بل أغفلته مثل أقمته وأقعدته وأغنيته وأفقرته، أي جعلته كذلك، وأما أفعلته أو أوجدته كذلك كأحمدته وأجبنته وأبخلته وأعجزته

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٢٤٦ رقم ١٠٥٣) وابن حبان (٧/ ١٦٠ رقم ٢٩٠٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢ رقم ٧٤٨٢) والدارمي (رقم ٢٧٨٣) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٤٥ رقم ٦٢٩) والبزار (٣/ ٣٤٩ رقم ١١٥٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١١١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤٨) ومسلم (رقم ٢٥٧١) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٢٧-١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٢١٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٢٣-١٣٤) وشرح النووي (١١/ ٩٠-٩١).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٥ رقم ٣٧٣١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٥٩ رقم ٧١٠١) والترمذي (رقم ٩٧٨) وابن ماجه (رقم ١٦٢٣) وأبو يعلى (٨/ ٩ رقم ٤٥١٠) وأحمد (٦/ ٦٤) وابن أبي الدنيا في المحتضرين (رقم ٣٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٤٠) وقال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) ٦٤ شفاء.

فلا يقع في أفعال الله البتة، إنما يقع في أفعال العاجز أن يجعل جبانًا وبخيلًا وعاجزًا فيكون معناه صادفته كذلك، وهل يخطر بقلب الداعي: اللهم أقدرني أو أوزعني وألهمني أي: سمني واعلمني كذلك؟ وهل هذا إلا كذب عليه وعلى المدعو سبحانه، والعقلاء يعلمون علمًا ضروريًا أن الداعي إنما سأل الله أن يخلق له ذلك، ويشاءه له، ويقدره عليه، حتى القدري إذا غابت عنه بدعته وما تقلده عن أشياخه وأسلافه وبقي وفطرته لم يخطر بقلبه سوى ذلك، وأيضًا فلا يمكن أن يكون العبد هو المغفِّل لنفسه عن الشيء، فإن إغفاله لنفسه عنه مشروط بشعوره به، وذلك مضاد لغفلته عنه، بخلاف إغفال الرب تعالى له فإنه لا يضاد علمه بما يغفل عنه العبد، وبخلاف غفلة العبد فإنها لا تكون إلا مع عدم شعوره بالمغفول عنه، وهذا ظاهر جدًّا. فثبت أن الإغفال فعل الله بعبده، والغفلة فعل العبد.

[1]وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أضاع نفسه وغبن مع ذلك، تراه حافظًا لماله مضيعًا لدينه، وقال الحسن: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته»[2].

[3]قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] وينبغي أن يعلم أن الهوى وحده لا يستقل بفساد السيئات إلا مع الجهل وإلا فصاحب الهوى لو جزم بأن ارتكاب هواه يضره ولابد ضررًا راجحًا لانصرفت نفسه عن طاعته له بالطبع، فإن الله سبحانه جعل في النفس حبًّا لما ينفعها وبغضًا لما يضرها، فلا تفعل مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحًا ولهذا يوصف تارك ذلك بالعقل والحجى واللب. فالبلاء مركب من تزيين الشيطان وجهل النفس،

---

(١) ٧٨ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٥-١٤٦).

(٣) ١٧١ شفاء.

فإنه يزين لها السيئات، ويريها أنها في صور المنافع واللذات والطيبات، ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والإنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدها بأنواع التزيين، فلا يزال يقوىٰ حتىٰ يصير عزمًا جازمًا يقترن به الفعل، كما زين للأبوين الأكل من الشجرة وأغفلهما عن مطالعة مضرة المعصية.

فالتزيين هو سبب إيثار الخير والشر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨] وقال في تزيين الخير: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ٧] وقال في تزيين النوعين: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وتزيين الخير والهدىٰ بواسطة الملائكة والمؤمنين وتزيين الشر والضلال بواسطة الشياطين من الجن والإنس، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل؛ لأنه يلبس له الباطل والضار المؤذي صورة الحق والنافع الملائم. فأصل البلاء كله من الجهل وعدم العلم، ولهذا قال الصحابة: كل من عصىٰ الله فهو جاهل[(١)]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

[(٢)] وإما الإغفال، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عن مجاهد (٤/ ٢٩٩) وانظر: فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧/ ٩١) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٣٦، ٤٩٠).

(٢) ٩٨ شفاء.

وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ سئل أبو العباس ثعلب عن قوله: ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ فقال: جعلناه غافلًا[1]، قال: ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلًا ووجدته غافلًا. قلت: الغفل: الشيء الفارغ والأرض الغفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلًا عن الذكر فارغًا منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي، لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلًا، فالغفلة وصفه والإغفال فعل الله فيه بمشيئته وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر.

فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلىٰ عدم مشيئة الرب أضدادها، أم إلىٰ مشيئته لوقوعها؟

قيل: القرآن قد نطق بهذا وبهذا، قال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة: ٤١]: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجبًا للأثر؟

قيل: الأثر إن كان وجوديًّا فلابد له من مؤثر وجودي، وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه، فيبقىٰ علىٰ العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلىٰ دليله، فعدم السبب دليل علىٰ عدم المسبب، وإذا سمي موجبًا ومقتضيًا بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك، وأما أن يكون العدم أثرًا ومؤثرًا فلا. وهذا الإغفال ترتب عليه اتّباع هواه وتفريطه في أمره.

قال مجاهد: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أي ضياعًا. وقال قتادة: أضاع أكبر الضيعة. وقال السدي: هلاكًا. وقال أبو الهيثم: أمر فرط أي متهاون به مضيع، والتفريط تقديم العجز. قال أبو إسحاق: من قدم العجز في أمر أضاعه وأهلكه. قال الليث: الفرط:

---

(١) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٩٨).

الأمر الذي يفرط فيه يقول كل أمر فلان فرط. قال الفراء: فرطًا متروكًا يفرط فيما لا ينبغي التفريط فيه، واتبع ما لا ينبغي اتّباعه، وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

[1]قال جماعة من المفسرين: السندس ما رقَّ من الديباج. والإستبرق ما غلظ منه[2]. وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ، ولكن المراد به الصفيق. وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان والأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين بـه وبين نعومته والتذاذ الجسم به، وقال تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣]، وهاهنا مسألة، وهذا موضع ذكرها، وهي أن الله ﷻ أخبر أن لباس أهل الجنة حرير. وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[3] متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك.

وقد اختلف في المراد بهذا الحديث. فقالت طائفة من السلف والخلف: إنه لا يلبس الحرير في الجنة، ويلبس غيره من الملابس، قالوا: وأما قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣]، فمن العام المخصوص.

وقال الجمهور: وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، التي تدل

(١) ١٤١ حادي الأرواح.
(٢) انظر: عمدة القاري (٨/ ٧) (١٣/ ١٧٠).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٣٣) ومسلم (رقم ٢٠٧٣) واظر: فتح الباري (١٠/ ٣٢).

على أن الفعل مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف عنه لمانع، وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضًا الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه، فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»[١] وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

***

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

[٢]هدي النبي ﷺ فيما يقول من رأى ما يعجبه من أهله وماله، يذكر عن أنس عنه أنه قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[٣] [الكهف: ٣٩].

***

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

[٤]يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت آباكم ورفعت قدره وفضلته على غيره، فأمرت

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٧٥) ومسلم (رقم ٢٠٠٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٢).

(٢) ٩١ زاد المعاد جـ٢.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٨٩-٩٠ رقم ٤٣٦٩) (٤/ ١٢٤ رقم ٤٥٢٥) والطبراني في الصغير (رقم ٥٨٨) وفي الأوسط (٦/ ١٢٦ رقم ٥٩٩٥) والضياء المقدسي في الترغيب في الدعاء (رقم ٧٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٥٧) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٤٠): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف.

(٤) ١٠٩ الجواب الكافي.

ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريمًا وتشريفًا فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذونه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعدا عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال. هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي مولى له سواه؟ ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، كما نبه على قبحها بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1] فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلًا. ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة.

[2]فتحت هذا الخطاب إني عاديت إبليس، وطردته من سمائي، وباعدته من قربي إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم.

فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح. وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة، وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل

(١) يأتي تقسيم الفسق في سورة الحجرات، كما يأتي إن شاء الله في تفسير هذه الآية ما يحسن الإحالة عليه في تفسيره للمعوذتين (ج).
(٢) ١٣٤ طريق الهجرتين.

وأجل العلوم والمعارف، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

(١)فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوءِ هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزي والهوان ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلىٰ العود إلىٰ وليه ومولاه الحق الذي هو أولىٰ به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاءَ إلىٰ محبه اختياراً وطوعاً حتىٰ توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه به؟ ولله المثل الأعلىٰ. ويكفىٰ في هذا المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر ما في طيه وما في ضمنه، وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل، بل كلام معصوم في منطقه وعلمه وقصده وعمله، كل كلمة منه في موضعها ومنزلتها ومقرها، لا يتعدىٰ بها عنه ولا يقصر بها. والذي يزيد هذا المعنىٰ تقريراً أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له سبحانه، فإنه لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه، فإنه ألهمه حبه وآثره به، فلما أحبه العبد جازاه علىٰ تلك المحبة محبة أعظم منها، فإنه من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً، ومن أتاه مشياً أتاه هرولة.

وهذا دليل علىٰ أن محبة الله لعبده الذي يحبه فوق محبة العبد له. وإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فر من محبه وآثر غيره عليه، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلىٰ عن غيره، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله، والشاهد أقوىٰ شاهد تؤيده الفطرة والعقل، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به، فإذا انضافت الشرعة

---

(١) ٢٤٢ طريق الهجرتين.

المنزلة إلى العقل المنور، فذلك الذي لا غاية له بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

[(1)]ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تُقدِّم يداه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧]، فإذا طالع جنايته شمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم، وطلب التمحيص وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية كتمحيص الذهب والفضة، وهو تخليصهما من خبثهما، ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص، فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب، ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النحل: ٣٢] فليس في الجنة ذرة خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة والاستغفار وعمل الحسنات الماحية والمصائب المكفرة، فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ عند الموت ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

(١) ١٤١ مدارج جـ١.

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه فلم تكن التوبة نصوحا وهي العامة الشاملة الصادقة ولم يكن الاستغفار كاملا تاما، وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه، وهذا هو الاستغفار النافع لا استغفار من في يده قدح السكر، وهو يقول: أستغفر الله. ثم يرفعه إلى فيه، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير ولا المصائب، وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف الممحص، وإما لهما، محص في البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه واستغفارهم له وشفاعتهم فيه.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر وروعة الفتان والعصرة والانتهار وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال من الصدقة عنه والحج والصيام عنه وقراءة القرآن عنه والصلاة، وجعل ثواب ذلك له.

وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء، قال الإمام أحمد: لا يختلفون في ذلك، وما عداهما فيه اختلاف، والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق. وأحمد ومن وافقه: مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب، يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب بدنيها وماليها والجامع للأمرين، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لمن سأله: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: «نعم»[1] فذكر الحديث. وقد قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١٤٢) والبيهقي في الشعب (٦/ ١٩٩ رقم ٧٨٩٦) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٦/ ١١٥٢ رقم ٢١٧٠) والحاكم (٤/ ١٧١ رقم ٧٢٦٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. بينما ضعف الحديث الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ٦٢ رقم ٥٩٧) وضعيف الترغيب (رقم ١٤٨٢) وفي مشكاة المصابيح (رقم ٤٩٣٦) وضعيف سنن أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٥٢) ومسلم (رقم ١١٤٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٩٣-١٩٤) وشرح النووي (٨/ ٢٣-٢٤).

فإن لم تف هذه بالتمحيص مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة، وشدة الموقف، وشفاعة الشفعاء، وعفو الله ﷻ.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلابد له من دخول الكير رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار، فتكون النار طهرة له وتمحيصًا لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته وشدته وضعفه وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصُفِّي ذهبه، وصار خالصًا طيبًا أخرج من النار وأدخل الجنة.

(١)[روى] ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها، قال: يا رب أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى. قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى. قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس ما يحكم لنفسه. قال: أي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر عفا. قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما أوتي. قال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب منقوص»(٢) فأخبر في هذا الحديث أن أعلم عباده الذي لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهمته في العلم وحرصه عليه.

ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله، وهذا هو الذي حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله، هذا وهو كليم الرحمن، وأكرم الخلق على الله في زمانه وأعلم الخلق، فحمله حرصه ونهمته في العلم على الرحلة إلى العالم الذي وصف له، فلولا إن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج، وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة، وعن

---

(١) ١٥٩ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤/ ١٠٠-١٠١ رقم ٦٢١٧) وفي الموارد (رقم ٨٦) وابن عساكر في تاريخه (٦١/ ١٣٥-١٣٦).

مقاساة النصب والتعب في رحلته وتلطفه للخضر في قوله: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]، فلم ير اتباعه حتى استاذنه في ذلك، وأخبره أنه جاء متعلما مستفيدًا، فهذا النبي الكريم كان عالما بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

[(١)] إن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوارة بيده وكلمه منه إليه: أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علمًا إلى علمه، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠] حرصًا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه، وقال له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فلم يجئ ممتحنًا ولا متعنتًا، وإنما جاء متعلمًا مستزيدًا علمًا إلى علمه. وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم، فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه، وطلب منه متابعته وتعليمه، وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها.

***

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

[(٢)] لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف: ٦٢]؛ فإنه سفر إلى مخلوق.

---

(١) ٥٥ مفتاح جـ١.

(٢) ٢٠٣ بدائع جـ٣.

ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلىٰ ربه تعالىٰ، وهكذا سفر القلب وسيره إلىٰ ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلىٰ بعض المخلوقين.

***

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

(1)إن [الله] سبحانه ذكر فضله ومنته علىٰ أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم، فذكر نعمته علىٰ خاتم أنبيائه ورسله بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]، وقد تقدمت هذه الآية. وقال في يوسف: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقال في كليمه موسىٰ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤]. ولما كان الذي آتاه موسىٰ من ذلك أمرًا عظيمًا خصه به علىٰ غيره، ولا يثبت له إلا الأقوياء: أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوىٰ، يعني تم وكملت قوته، وقال في حق المسيح: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ١١٠]. وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به، وقال في حق داود: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠]، وقال في حق الخضر صاحب موسىٰ وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.

[(١)] قال الله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وفرق بين الرحمة والعلم، وجعلهما «من عنده» و«من لدنه»، إذ لم ينلهما على يد بشر، وكان «من لدنه» أخص وأقرب من «عنده»، ولهذا قال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠]. فـ«السلطان النصير» الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾، وهو الذي أيده به. والذي من عنده: نصره بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢]. و«العلم اللدني» ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه[(٢)]: فهذا هو العلم اللدني.

[(٣)] قال تعالى عن موسى وفتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] فجمع له بين الرحمة والعلم، وذلك نظير قول أصحاب الكهف: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠] فإن الرشد هو العلم بما ينفع، والعمل به، والرشد والهدى إذا أفرد كلٌّ منهما تضمن الآخر، وإذا قُرن أحدهما بالآخر، فالهدى هو العلم بالحق، والرشد هو العمل به، وضدهما الغيُّ واتباع الهوى.

وقد يقابل الرشد بالضر والشر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾

---

(١) ٤٧٥ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٣) ١٦٨ إغاثة جـ٢.

[الجن: ٢١] وقال مؤمنو الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

فالرشد يقابل الغيَّ، كما في قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ويقابل الضرَّ والشر، كما تقدم، وذلك لأن الغي سبب لحصول الشر والضر ووقوعهما بصاحبه.

فالضرر والشر غاية الغي وثمرته، كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدىٰ وثمرته.

فلهذا يُقابل كل منهما بنقيضه وسبب نقيضه، فيقابل الهدىٰ بالضلال، كقوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [النحل: ٩٣] وقوله: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] وهو كثير.

ويقابل بالضلال والعذاب، كقوله: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] فقابل الهدىٰ بالضلال والشقاء.

وجمع سبحانه بين الهدىٰ والفلاح، والهدىٰ والرحمة، كما يجمع بين الضلال والشقاء، والضلال والعذاب، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٤٧] فالضلال ضدُّ الهدىٰ، والسعر العذاب، وهو ضدُّ الرحمة.

[(١)] وأما قوله عن الغلام أنه طبع يوم طبع كافرًا[(٢)]، فالمراد به أنه كتب كذلك وقدر وختم، فهو من طبع الكتاب. ولفظ الطبع لما صار يستعمله كثير من الناس في الطبيعة التي هي بمعنىٰ الخلقة والجبلة ظن الظان أن هذا مراد الحديث، وهذا الغلام الذي قتله الخضر ليس في القرآن ما يبين أنه كان غير بالغ ولا مكلف، بل قراءة ابن عباس

---

(١) ٢٩٥ شفاء.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤/ ١٠٨ رقم ٦٢٢١) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٧-٤٢٩ رقم ٥٨٤٤) وأبو داود (رقم ٤٧٠٦) والترمذي (رقم ٣١٥٠) وأحمد (٥/ ١١٨، ١٢١) وعبد بن حميد (رقم ١٦٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

تدل على أنه كان كافرًا في الحال، وتسميته غلامًا لا يمنع أن يكون مكلفًا قريب العهد بالصغر. ويدل عليه أن موسى لم ينكر قتله لصغره بل لكونه زاكيًا ولم يقتل نفسًا. لكن يقال في الحديث الصحيح ما يدل على أنه كان غير بالغ من وجهين: أحدهما: أنه قال: فمر بصبي يلعب مع الصبيان. الثاني: أنه قال: ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا. وهذا دليل على كونه لم يدرك بعد، فيقال: الكلام على الآية على التقديرين، فإن كان بالغًا وقد كفر فقد قتل على كفره الواقع بعد البلوغ ولا إشكال، وإن كان غير بالغ فلعل تلك الشريعة كان فيها التكليف قبل الاحتلام عند قوة عقل الصبي وكمال تمييزه، وإن لم يكن التكليف قبل البلوغ بالشرائع واقعًا فلا يمتنع وقوعه بالتوحيد ومعرفة الله، كما قاله طوائف من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبي حنيفة وأحمد وغيرهم، وعلى هذا فيمكن أن يكون مكلّفًا بالإيمان قبل البلوغ، وإن لم يكن مكلفًا بشرائعه. وكفر الصبي المميز عند أكثر العلماء مؤاخذ به، فإذا ارتد صار مرتدًا لكن لا يقتل حتى يبلغ. فالغلام الذي قتله الخضر إما أن يكون كافرًا بعد البلوغ فلا إشكال، وإما أن يكون غير بالغ وهو مكلف في تلك الشريعة فلا أشكال أيضًا، وإما أن يكون مكلفًا بالتوحيد والمعرفة غير مكلف بالشرائع، فيجوز قتله في تلك الشريعة.

وإما أن لا يكون مكلفًا فقتل لئلا يفتن أبويه عن دينهما، كما يقتل الصبي الكافر في ديننا إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلا بالقتل.

وأما قتل صبي لم يكفر بعد بين أبوين مؤمنين للعلم بأنه إذا بلغ كفر وفتن أبويه، فقد يقال: ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل عليه. وأيضًا فإن الله لم يأمر أن يعاقب أحد بما يعلم أنه يكون منه قبل أن يكون منه، ولا هو سبحانه يعاقب العباد على ما يعلم أنهم سيفعلونه حتى يفعلونه.

وقائل هذا القول يقول: إنه ليس في قصة الخضر شيء من الاطّلاع على الغيب الذي لا يعلمه عموم الناس، وإنما فيها علمه بأسباب لم يكن علم بها موسى، مثل علمه بأن السفينة لمساكين يعملون ورائهم ملك ظالم، وهذا أمر يعلمه غيره، وكذلك

كون الجدار كان لغلامين يتيمين، وأن أباهما كان رجلًا صالحًا، وأن تحته كنزًا لهما، مما يمكن أن يعلمه كثير من الناس، وكذلك كفر الصبي مما يمكن أنه كان يعلمه كثير من الناس حتى أبواه، لكن لحبهما له لا ينكران عليه أو لا يقبل منهما، فإن كان الأمر على ذلك فليس في الآية حجة على قولهم أصلًا، وأن ذلك الغلام لم يكفر بعد، ولكن سبق في العلم أنه إذا بلغ كفر، فمن يقول هذا يقول: إن قتله دفعًا لشره، كما قال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وعلى هذا فلم يكن قبل قيام الكفر به كافرًا وقراءة ابن عباس، وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين، ظاهرة أنه كان حينئذ كافرًا.

فإن قيل: فهذا الغلام كان أبواه مؤمنين، فلو كان مولودًا على فطرة الإسلام وهو بين أبوين مسلمين لكان مسلمًا تبعًا لهما وبحكم الفطرة، فكيف يقتل والحالة هذه.

قيل: إن كان بالغًا فلا إشكال، وإن كان مميزًا وقد كفر فيصح كفره وردته عند كثير من العلماء، وأن لا يقتل حتى يبلغ عندهم فلعل في تلك الشريعة يجوز قتل المميز الكافر. وإن كان صغيرًا غير مميز فيكون قتله خاصًا به، لأن الله أطلع الخضر على أنه لو بلغ لاختار غير دين الأبوين. وعلى هذا يدل قول ابن عباس لنجدة، وقد سأله عن قتل صبيان الكفار، فقال: لئن علمت فيهم ما علمه الخضر من الغلام فأقتلهم.

فإن قيل: إذا كان مولودًا على الفطرة وأبواه مؤمنين فمن أين جاء الكفر؟

قيل: إنما قال النبي ﷺ ذلك في الغالب، وإلا فالكفر قد يأتيه من قبل غير أبويه، فهذا الغلام إن كان كافرًا في الحال فقد جاء الكفر من غير جهة أبويه. وإن كان المراد أنه إذا بلغ سيكفر باختياره فلا إشكال...

***

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾.

[(١)]قال تعالىٰ عن ذي القرنين: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]. قال علي ابن أبي طلحة عن عباس: علمًا، قال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك: علمًا تسبب به إلىٰ ما يريد، وكذلك قال إسحاق: علمًا يوصله إلىٰ حيث يريد، وقال المبرد: وكل ما وصل شيء بشيء فهو سبب. وقال كثير من المفسرين: آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علمًا ومعونة له. وقد سمىٰ الله سبحانه الطريق سببًا في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٥] قال مجاهد: طريقًا. وقيل: السبب الثاني هو الأول، أي اتبع سببًا من تلك الأسباب التي أوتيها مما يوصله إلىٰ مقصوده. وسمَّىٰ سبحانه أبواب السماء أسبابًا، إذ منها يدخل إلىٰ السماء، قال تعالىٰ عن فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، أي أبوابها التي أدخل منها إليها، وقال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم[(٢)]

وسمىٰ الحبل سببًا لإيصاله إلىٰ المقصود، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] قال بعض أهل اللغة: السبب من الحبال: القوي الطويل، قال: ولا يدعىٰ الحبل سببًا حتىٰ يصعد به وينزل[(٣)]، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلىٰ موضع أو حاجة تريدها: سبب، يقال: ما بيني وبين فلان سبب أي آصرة رحم، أو عاطفة مودة.

وقد سمَّىٰ تعالىٰ وصل الناس بينهم أسبابًا، وهي التي يتسببون بها إلىٰ قضاء حوائجهم بعضهم من بعض، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا، وقال

---

(١) ١٨٩ شفاء.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ زهير بن أبي سلمىٰ، حكيم الشعراء في الجاهلية وقد فُضِّل علىٰ شعراء العرب كافة، كان أبوه وخاله وأخته سلمىٰ وابناه: كعب وبجير شعراء، مات سنة ١٣ قبل الهجرة، وذكر هذا البيت ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٢٧) وابن عساكر في تاريخه (٤٥/ ٣٨٠) والقرطبي في تفسيره (٢/ ٢٠٦).

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (١/ ٤٥٩) ونسبه إلىٰ خالد بن جنبة رحمه الله.

ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا، وقال ابن يزيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلىٰ ثواب الله، وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها، وبالجملة فسمى الله سبحانه ذلك كله أسبابًا، لأنها كانت يتوصل بها إلىٰ مسبباتها، وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ ﴾.

[(1)]قال تعالىٰ: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١]. وهذا يتضمن معنيين: أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته، والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولًا ثم يسري منه إلىٰ العين.

[(2)]قال تعالىٰ في وصف المغترين: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا علىٰ شيء ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وفي أثر معروف: إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم عل معصيته فاحذره، فإنما هو استدراج يستدرجك به[(3)].

---

(١) ٩٣ شفاء.

(٢) ٢٩٨ الروح.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) والطبري في تفسيره (٧/ ١٩٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٩٠ رقم ٧٢٨٨) والطبراني في الأوسط (٩/ ١١٠ رقم ٩٢٧٢) وفي الكبير (١٧/ ٣٣٠ رقم ٩١٣) والروياني في =

وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه، وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج، والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف. فالشياطين غروا المغترين بالله، وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل، فأُخذوا على أسوأ أحوالهم، وقال تعالى: ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر: ٥].

وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسّه الله برحمة منه وفضل قال: ﴿ هَٰذَا لِى ﴾ أي: أنا أهله وجدير به ومستحق له، ثم قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره فقال: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠] يعني الجنة والكرامة، وهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعد اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

(١)وسئل ﷺ عن الأخسرين أعمالًا يوم القيامة، فقال: **«هم الأكثرون أموالًا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليل ما هم»**(٢).

مسنده ١/ ١٩٥ رقم ٢٦٠) والديلمي في الفردوس (١/ ٢٧٦ رقم ١٠٧٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٨ رقم ٤٥٤٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٢١) كلهم رووه مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

(١) ٣٩٩ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٩٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٢٤) وشرح النووي (٧/ ٧٣-٧٤).

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

(١)وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى هذا: أنه لو فُرض البحرُ مدادًا، وبعده سبعة أبحر تمده كلُّها مدادًا، وجميع أشجار الأرض أقلامًا، وهو ما قام منها على ساقٍ من النبات، والأشجار المثمرة وغير المثمرة، وتستمد بذلك المداد، لَفنيت البحار والأقلام، وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته(٢).

فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلًا؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد، لا ينقضي ولا يتجزَّأ،ولا له بعضٌ ولا كلٌّ، ولا هو سور وآيات ولا حروف وكلمات.

***

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

(٣)قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيد بالسنة، وكان من دعاء

(١) ٣٧ المنار المنيف.

(٢) عن جويرية رضي الله عنها: أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم. قال النبي ﷺ: «لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده: عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٦).

(٣) ١٧٦ الجواب الكافي.

عمر بن الخطاب ﷺ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»(١).

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥] فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء**»(٢).

وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر، ومغفور وغير مغفور، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع.

وقال ﷺ: «اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل» فقيل له: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ فقال: «**قولوا: اللهم إن نعوذ بك أن نشرك بك**

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١١٨) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ٢٦١ رقم ٦٥٣) في ترجمة الفضل بن أحمد الوراق.

(٢) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٩٨٥) وابن خزيمة (٢/ ٦٧ رقم ٩٣٨) وابن ماجه (رقم ٤٢٠٢) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٧٩٠ رقم ١١١٢) والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٢٤ رقم ٦٥٢٩) وأبو يعلى (١١/ ٤٣٠ رقم ٦٥٥٢) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٦) وشرح النووي (١٨/ ١١٥-١١٦).

شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»[1] ذكره أحمد.

وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟»[2] ذكره أحمد.

[3]إن العلم إمام العمل، وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به، فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه، كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[4]، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. هذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ مرادًا به وجه الله. ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣) والطبراني في الأوسط (٤/ ١٠ رقم ٣٤٧٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٧٠ رقم ٢٩٥٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٣-٢٢٤): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي يعلى ووثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣٤): رواه أحمد بإسناد جيد.

(٣) ٨٢ مفتاح جـ١.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٣).

هذين الوصفين إلا بالعلم؛ فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] وأحسن ما قيل في تفسير الآية أنه: إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه عُلِمَ أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم.

(١) والأعمال أربعة: واحد مقبول، وثلاثة مردودة؛ فالمقبول ما كان لله خالصًا وللسنة موافقًا، والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما، وذلك أن العمل المقبول هو ما أحبه الله ورضيه، وهو سبحانه إنما يحب ما أمر به وما عمل لوجهه، وما عدا ذلك من الأعمال فإنه لا يحبها، بل يمقتها ويمقت أهلها، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو اخلص العمل وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

فإن قيل: فقد بان بهذا أن العمل لغير الله مردود غير مقبول، والعمل لله وحده مقبول؛ فبقي قسم آخر وهو أن يعمل العمل لله ولغيره، فلا يكون لله محضًا ولا للناس محضًا، فما حكم هذا القسم؟ هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان لله؟ قيل: هذا القسم تحته أنواع ثلاثة:

أحدها: أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في إثنائه، فهذا المعول فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة

---

(١) ١٨١ أعلام جـ٢. ط دار الجيل، قدم له وعلقه عليه: طه عبد الرؤوف سعد.

لغير الله، فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أعني قطع ترك استصحاب حكمها.

الثاني: عكس هذا، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قلب نيته؛ ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة، كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف.

الثالث: أن يبتدئها مريدًا بها الله والناس، فيريد أداء فرضه والجزاء والشكور من الناس، وهذا كمن يصلي بالأجرة فهو لو لم يأخذ الأجرة صلى، ولكنه يصلي لله وللأجرة، وكمن يحج ليسقط الفرض عنه ويقال فلان حج، أو يعطي الزكاة كذلك، فهذا لا يقبل منه العمل. وإن كانت النية شرطًا في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادة، فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه، فإن الإخلاص هو تجريد القصد طاعةً للمعبود، ولم يؤمر إلا بهذا. وإذا كان هذا هو المأمور به فلم يأت به بقي في عهدة الأمر؛ وقد دلت السنة الصريحة على ذلك، كما في قوله ﷺ: «**يقول الله ﷻ يوم القيامه: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فهو كله للذي أشرك به**» وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[1].

هذا ما يسر جمعه من تفسير سورة الكهف

والحمد لله رب العالمين



---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾.

(١)قول زكريا ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤]، فقد قيل: إنه دعاء المسألة، والمعنى إنك عودتني إجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه.

كما حكى أن رجلاً سأل رجلًا وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا وكذا. فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا، وقضى حاجته، وهذا ظاهر ههنا.

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله.

(٢)قول زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٥، ٦]، فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله، فيسأل الله العظيم ولدًا يمنعهم ميراثه، ويكون أحق به منهم. وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعدًا لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه، ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه، والحمد لله على توفيقه وهدايته.

---

(١) ٤ البدائع جـ٢.

(٢) ٦٧ المفتاح جـ١.

ويذكر عن أبي هريرة ﷺ أنه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبيوعاتهم، فقال: أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله ﷺ يقسم في مسجده؟ فقاموا سراعًا إلى المسجد لم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم، فقالوا: أين ما قلت: يا أبا هريرة؟ فقال: هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته، وليس بمواريثكم ودنياكم، أو كما قال.

***

﴿ وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

[1]أما الحنين فقال في الصحاح: الحنين الشوق وتوقان النفس، تقول منه: حنَّ إليه يحن حنينًا فهو حان، والحنان الرحمة، تقول منه: حن عليه يحن حنانًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا ﴾ [مريم: ١٣]. وتحنن عليه ترحم، والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانيك بمعنى واحدٍ أي رحمتك[2]، قال امرء القيس:

ويمنحُها بنو شمجى بن جَرْمٍ معيزم حنانَك ذا الحنان[3]

[4]وهو ما السر في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة، وشرع لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة؟ وكذلك تسليمهم على نفوسهم وعلى عباده الصالحين، فقد تقدم بيان الحكمة في كون السلام ابتداء بلفظ النكرة.

ونزيد هنا فائدة أخرى، وهي أنه قد تقدم أن في دخول اللام في السلام أربع فوائد،

---

(١) ٤٥ الروضة.

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص ٦٧).

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي الشاعر الجاهلي أشهر شعراء العرب على الإطلاق، قال الشعر وهو غلام وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فبلغ ذلك أباه، فنهاه وأبعده إلى حضر موت موطن أبيه وعشيرته، ثم جعل يشرب ويطرب ويلهو وقد قُتِل أبوه فبلغه ذلك وهو يشرب، فقال: رحم الله أبي ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا.

لا صحو اليوم ولا سكر غدًا اليوم خمر وغدًا أمر

وثأر لأبيه. ذكر البيت الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٦-٥٧) وابن سلام في غريب الحديث (٤/ ٤٠١) وانظر: أخبار أبي القاسم الزجاجي (ص ٢٩٣).

(٤) ١٦٦ البدائع جـ٢.

وهذا المقام مستغن عنها؛ لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى فلم يقصد تبركًا بذكر الاسم كما يقصده العبد، فإن التبرك استدعاء البركة، واستجلابها، والعبد هو الذي يقصد ذلك، ولا قصد أيضًا تعرضًا وطلبًا على ما يقصده العبد، ولا قصد العموم، وهو أيضًا غير لائق هنا؛ لأن سلامًا منه سبحانه كافٍ من كل سلام، ومغن عن كل تحيةٍ، ومقرب من كل أمنية، فأدنى سلام منه ـ ولا أدنى ـ هناك يستغرق الوصف، ويتم النعمة ويدفع البؤس، ويطيب الحياة، ويقطع مواد العطب والهلاك، فلم يكن لذكر الألف واللام هناك معنى.

[1]وقد بان بهذا الفرق بين سلام الله على رسله وعباده وبين سلام العباد عليهم، فإن سلام العباد لما كان متضمنًا لفوائد الألف واللام التي تقدمت من قصد التبرك باسمه السلام، والإشارة إلى طلب السلام له وسؤالها من الله باسم السلام، وقصد عموم السلام كان الأحسن في حق المسلم على الرسول أن يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وإن كان قد ورد سلام عليك فالمعرفة أكثر وأصح وأتم معنى، فلا ينبغي العدول عنه ويشح في هذا المقام بالألف واللام والله أعلم.

وقد عرفت بهذا جواب السؤال الرابع عشر وهو: ما الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة، وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة؟

لا ما يقوله من لا تحصيل له: إن سلام يحيى جرى مجرى ابتداء السلام في الرسالة والمكاتبة فنكر، وسلام المسيح جرى مجرى السلام في آخر المكاتبة فعرف، فإن السورة كالقصة الواحدة، ولا يخفى فساد هذا الفرق، فإنهما سلامان متغايران من مسلِّمين: أحدهما: سلام الله تعالى على عباده. والثاني: سلام العبد على نفسه، فكيف يُبنى أحدهما على الآخر.

وكذلك قول من قال: إن الثاني عُرِّف لتقدم ذكره في اللفظ، فكانت الألف واللام

(١) ١٦٧ البدائع جـ٢.

فيه للعهد، وهذا أقرب من الأول، لإمكان أن يكون المسيح أشار إلى السلام الذي سلمه الله على يحيى، فأراد أن لي من السلام في مثل هذه المواطن الثلاثة مثل ما حصل له، والله أعلم.

وأما السؤال الخامس عشر: وهو ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟ فسره ـ والله أعلم ـ أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة، لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص، لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرا فيها موطن النفس على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء، فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها، كما أفصح الشاعر بهذا المعنى، حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه ... إلى هذه الدنيا إذا هو يولد

تجد تحته سرا عجيبا كأنه ... بكل الذي يلقاه منه مهدد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد[1]

ولهذا من حين خرج ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك، ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول، وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون. وأما ما أخبر به الرسول ﷺ فليس في صناعتهم ما يدل عليه كما ليس فيها ما ينفيه، فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور.

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريبا وتمثيلا، وإلا فالأمر أعظم من ذلك

---

(١) هذه الأبيات من بحر الطويل، وتنسب لابن الرومي: علي بن العباس بن جريج من طبقة بشار والمتنبي، مات مسمومًا سنة ٢٨٣هـ. البيت الثالث فقط ذكره كل من القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ١١٦) والمناوي في فيض القدير (١/ ٥٠١) (٥/ ١٦).

وأكبر، وطلب السلامة أيضا عند انتقاله إلىٰ تلك الدار من أهم الأمور.

الموطن الثالث: موطن يوم القيامة يوم يبعث الله تعالىٰ الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدور إليه، وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله، فإن عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوىٰ، وفقره لا يسد. فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلىٰ السلامة فيها، واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها.

وتأمل ما في السلام مع الزيادة علىٰ السلامة من الأنس وذهاب الوحشة، ثم نزل ذلك علىٰ الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلىٰ عالم الابتلاء، وعند معاينته هول المطلع إذا قدم علىٰ الله وحيدًا مجردًا عن كل مؤنس، إلا ما قدمه من صالح عمل، وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلىٰ إحدىٰ الدارين، التي خلق لها، واستعمل بعمل أهلها، فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن؟ فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه.

***

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾.

[(١)] في الصحيحين عن عبد الله بن جعفر، قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يأكُلُ القِثَّاءَ بالرُّطَبِ»[(٢)]. وفي سنن أبي داود، عن أنس قال: «كان رسولُ الله ﷺ يُفْطِرُ علىٰ رُطَباتٍ قَبْلَ أن يُصَلِّيَ، فإنْ لم تكُنْ رُطباتٍ فتمراتٍ، فإن لم تكن تَمَراتٍ، حَسَا حسْوَاتٍ من ماءٍ»[(٣)].

(١) ٣٤٩ الزاد جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٤٠) ومسلم (رقم ٢٠٤٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٦٤) وشرح النووي (١٣/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٣٥٦) والترمذي (رقم ٦٩٦) وأحمد (٣/ ١٦٤) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٤/ ٤١١-٤١٢ رقم ١٥٨٥) والحاكم (١/ ٥٩٧ رقم ١٥٧٦) والدارقطني (٢/ ١٨٥ رقم ٢٤) وحسنه الترمذي وانظر: عمدة القاري (١١/ ٦٦) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣١١) وعون المعبود (٦/ ٣٤٥).

طبْعُ الرُّطَبِ: طبعُ المياه: حار رَطب، يُقوِّي المعدة الباردة ويُوافقها، ويزيد في الباه، ويُخصِبُ البدنَ، ويوافق أصحابَ الأمزجة الباردة، ويَغذُو غِذاءً كثيراً. وهو مِن أعظم الفاكهة موافقةً لأهلِ المدينة وغيرِها من البلاد، التي هو فاكهتُهم فيها، وأنفعها للبدن، وإن كان مَن لم يَعْتَدْهُ يُسرعُ التعفُّن في جسده، ويَتولَّدُ عنه دم ليس بمحمود، ويحدث في إكثاره منه صُدَاعٌ وسوداءٌ، ويُؤذي أسنانه، وإصلاحُه بالسَّكَنْجَبِين ونحوه.

وفي فِطر النبي ﷺ من الصوم عليه، أو على التمر، أو الماء تدبيرٌ لطيفٌ جداً، فإن الصوم يُخلي المعدة من الغذاء، فلا تَجِدُ الكبدُ فيها ما تَجذِبُه وتُرسله إلى القُوَىٰ والأعضاء، والحلوُ أسرع شيء وصولاً إلى الكبد، وأحبُّه إليها، ولاسِيَّما إن كان رطباً، فيشتدُّ قبولها له، فتنتفع به هي والقُوَىٰ، فإن لم يكن فالتمرُ، لحلاوته وتغذيته، فإن لم يكن فحسواتُ الماء تُطفِئ لهيبَ المعدة، وحرارة الصوم، فتنتبهُ بعده للطعام، وتأخذه بشهوة.

(١)فائدة عزيزة الوجود: احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] ونحو ذلك من الآيات. فأجاب الأكثرون بأنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه. قال ابن عقيل في الإرشاد: ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله.

قال: لأن به حصل عقد الإعلام بكونه خالقًا لكل شيء، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلا تحت الخبر. قال: ولو أن شخصًا قال: لا أتكلم اليوم كلامًا إلا كان كذبًا لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به.

قلت: ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورا في قوله تعالى: في قصة مريم ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦]، وإنما

---

(١) ٢١٨ البدائع جـ٤.

أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها فقولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس، ولم يكن ما أخبرت به داخلًا تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفًا لنذرها.

***

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

[(١)]سئل ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وبين عيسىٰ وموسىٰ عليهما السلام ما بينهما، فقال: «**كانوا يسمون بأنبيائهم، وبالصالحين قبلهم**»[(٢)].

[(٣)]قوله سبحانه عن المسيح أنه قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]. قال سفيان بن عيينة: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال: معلمًا للخير.

وهذا يدل علىٰ أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه؛ فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه، ولهذا سمىٰ سبحانه كتابه مباركًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه مبارك، كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدىٰ والدعوة إلىٰ الله.

[(٤)]وقال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال غير واحد من السلف:

---

(١) ٢٧١ الإعلام جـ٤.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢١٣٥) وانظر: شرح النووي (١٤/ ١١٧).
(٣) ١٧٤ المفتاح جـ١.
(٤) ٩٠ جلاء الأفهام.

معلمًا للخير أينما كنت. وهذا جزء المعنى؛ فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليمًا وإقدارًا ونصحًا وإرادة واجتهادًا، ولهذا يكون العبد مباركًا، لأن الله بارك فيه وجعله كذلك. والله تعالى مبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك هو المتبارك ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [الملك: ١]. وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى.

***

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾.

...[(١)]أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا؛ ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل. وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر، وقال: ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾، ولم يقل: إلى أن أزكيك. فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء، ثم قال: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أكون كالدليل بين يديك، الذي يسير أمامك، وقال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا، وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]

(١) ١٣٢ البدائع جـ٣.

فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال، فقال: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾، ولم يقل لا تعبد. ثم قال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣] فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى، فقال: ﴿ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ٤٣]. وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ثم قال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٥] فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وقال: ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يقل الجبار ولا القهار. فأي خطاب ألطف وألين من هذا.

ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه، حيث قال: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٠-٢٢] ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٢-٤].

وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأممهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وألطفه، بل خطاب الله لعباده وألطف خطاب وألينه، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١] الآيات. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر: ٥]. وتأمل ما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠].

من اللطف الذي سلب العقول. وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ ﴾ [الزخرف: ٥]. على أحد التأويلين أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم. وتأمل لطف خطاب نُذر الجن لقومهم، وقولهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ [الأحقاف: ٣١].

***

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝ ﴾.

...[١]أما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه[٢] من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناء بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠] والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وفاقًا، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا. واللغة كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]. وقوله: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ. وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه. وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويُقْدِمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

---

(١) ٢٧٢ المدارج جـ٢.

(٢) الضمير يرجع إلى إبراهيم ﷺ بدعوته في سورة الشعراء (ج).

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ: فلأنهم قدموها. وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[(١)].

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته؛ فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار. وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي مرفوعًا من حديث الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»[(٢)].

[(٣)]قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه حدثنا عبد الصمد قال: سمعت وهب بن منبه قال: لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريبًا.. فذكر الحديث إلى أن قال: فنودي من الشجرة فقيل له: يا موسى، فأجاب سريعًا ولا يدري من دعاه، وما كان سرعة جوابه إلا استئناسًا بالأنس، فقال: لبيك مرارًا، إني أسمع صوتك وأحس وجْسَك ولا أرى مكانك. فأين أنت؟ قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك، فلما سمع موسى هذا علم أنه لا ينبغي ذلك إلا لربه تبارك وتعالى فأيقن به، فقال: كذلك أنت إلهي أسمع أم كلام رسولك؟ فقال: بل

(١) تقدم في سورة الإسراء بحث موسع حول هذا على قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠] الآية (ج).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٨) وأحمد (١/ ٢٠٠) والبزار (٤/ ١٧٥ رقم ١٣٣٦) وأبو يعلى (١٢/ ١٣٢ رقم ٦٧٦٢) والبيهقي في الشعب (٥/ ٥٢ رقم ٥٧٤٧) وفي السنن الكبرى (٥/ ٣٣٥ رقم ١٠٦٠١) والحاكم (٤/ ١١٠ رقم ٧٠٤٦) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) ٢٨٤ الصواعق جـ٢.

أنا الذي أكلمك فادن مني[١]، الحديث قد رواه عبد بن حميد في تفسيره ويعقوب بن سفيان الفسوي.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبدًا نادىٰ جبرائيل: أن الله قد أحب فلاناً فأحبه»[٢] الحديث والذي تعقله الأمم من النداء إنما هو الصوت المسموع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝﴾ [ق: ٤١][٣].

[٤]مما يظن أنه مجاز وليس بمجاز لفظ النداء الإلهي: وقد تكرر في الكتاب والسنة تكرارًا مطردًا في محاله متنوعًا تنوعًا يمنع حمله علىٰ المجاز. فأخبر تعالىٰ أنه نادىٰ الأبوين في الجنة، ونادىٰ كليمه، وأنه ينادي عباده يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه النداء في تسعة مواضع في القرآن أخبر فيها عن ندائه بنفسه. ولا حاجة إلىٰ أن يقيد النداء بالصوت، فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة، فإذا انتفىٰ الصوت انتفىٰ النداء قطعًا، ولهذا جاء إيضاحه في الحديث الصحيح[٥].

***

﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝﴾.

[٦]وذكر جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: كنا جلوسًا إلىٰ كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في أناس، فجاء ابن عباس فقال:

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص٦١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٨٤٣ رقم ١٦١٢٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٠٩) ومسلم (رقم ٢٦٣٧) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ١٢١) وشرح النووي (١٦/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) تكملة البحث في سورة (ق) حول هذه الآية وغيرها (ج).

(٤) ٢٧٧ الصواعق جـ٢.

(٥) بحث المؤلف فيما يلي بحثًا واسعًا في الموضوع ممتعًا لطالب الحق. فراجعه. (ج).

(٦) الروح ١٣٠.

هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس، فقال: يا كعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرني عنهن: ما سجين؟ وما عليون؟ وما سدرة المنتهي؟ وما قول الله لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٧].

قال: أما «عليون» فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. وأما «سجين» فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس. وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝﴾ فأوحى الله إليه أني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملًا، فحمله بين جناحيه، فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة، لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته، فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي. قال: فالعجب أني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة. فقبض روحه. وأما «سدرة المنتهى» فإنها سدرة على رؤوس حملة العرش، ينتهي إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، فلذلك سميت سدرة المنتهى[(١)].

***

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝﴾.

[(٢)]قد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها.

والتحقيق: أن إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها، وترك واجباتها وأركانها.

وأيضًا إن مؤخرها عن وقتها عمدًا متعد لحدود الله كمقدمها عن وقتها، فما بالها

(١) خبر إدريس عليه السلام أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٩٦) وقال ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٧٥): وكون إدريس رفع وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة قوية، ثم ذكر هذا الأثر، ثم قال: وهذا من الإسرائيليات، والله أعلم بصحة ذلك. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٢٧): وقد روى ابن جرير هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا. وذكره، ثم قال: وهذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نكارة.

(٢) ٣٨ الصلاة.

تقبل مع تعدي هذا الحد، ولا تقبل مع تعدي الحد الآخر؟.

قالوا: وأيضًا فنقول لمن قال: إنه يستدركها بالقضاء: أخبرنا عن هذه الصلاة التي تأمر بفعلها، هي التي أمر الله بها، أم هي غيرها؟

فإن قال: هي بعينها، قيل له: فالعامد بتركها حينئذ ليس عاصيًا، لأنه قد فعل ما أمر الله به بعينه، فلا يلحقه الإثم والملامة، وهذا باطل قطعًا.

وإن قال: ليست هي التي أمر الله بها.

قيل له: فهذا من أعظم حججنا عليك إذا سلمت أن هذه غير مأمور بها.

ثم نقول أيضًا: ما تقولون فيمن تعمد تفويتها حتى خرج وقتها ثم صلاها، أطاعة صلاته تلك أم معصية؟

فإن قالوا: صلاته طاعة وهو مطيع بها، خالفوا الإجماع والقرآن والسنن الثابتة.

وإن قالوا: هي معصية، قيل: فكيف يتقرب إلى الله بالمعصية، وكيف تنوب المعصية عن الطاعة؟

فإن قلتم: هو مطيع بفعلها عاصٍ بتأخيرها، وهو أنه إذا تقرب بالفعل الذي هو طاعة لا بالتفويت الذي هو معصية.

قيل لكم: الطاعة هي موافقة الأمر وامتثاله على الوجه الذي أمر به، فأين أمر الله ورسوله ممن تعمد تفويت الصلاة بفعلها بعد خروج وقتها حتى يكون مطيعًا له بذلك؟ فلو ثبت ذلك لكان فاصلًا للنزاع في المسألة.

قالوا: وأيضًا فغير أوقات العبادة لا تقبل تلك العبادة بوجه، كما أن الليل لا يقبل الصيام، وغير أشهر الحج لا يقبل الحج، وغير وقت الجمعة لا تقبل الجمعة، فأي فرق بين من قال: أنا أفطر النهار وأصوم الليل، أو قال: أنا أفطر رمضان في هذا الحر الشديد وأصوم مكانه شهرًا في الربيع؟ أو قال: أنا أؤخر الحج من شهره إلى المحرم، أو قال: أنا أصلي الجمعة بعد العشاء الآخرة، أو أصلي العيدين في وسط الشهر، وبين من قال: أنا أؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل إلى النهار، فهل يمكن أحدًا قط

أن يفرق بين ذلك؟

قالوا: وقد جعل الله سبحانه للعبادات أمكنه وأزمنة وصفات، فلا ينوب مكان عن المكان الذي جعله الله مكانًا ميقاتًا لها، كعرفة، ومزدلفة، ومنى، ومواضع الجمار، والمبيت، والصفا والمروة، ولا تنوب صفة من صفاتها التي أوجبها الله عليها عن صفة، فكيف ينوب زمان عن زمانها الذي أوجبها الله فيه عنه.

قالوا: وقد دل النص والإجماع على أن من أخر الصلاة عن وقتها عمدًا أنها قد فاتته، كما قال النبي ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله». وما فات فلا سبيل إلى إدراكه البتة. ولو أمكن أن يدرك لما سمي فائتًا، وهذا مما لا شك فيه لغة وعرفًا، وكذلك هو في الشرع.

[(١)]قوله: هل تحبط الأعمال بترك الصلاة أم لا؟ فقد عرف جوابها مما تقدم، وإنا نفرد هذه المسألة بالكلام عليها بخصوصيتها، فنقول:

أما تركها بالكلية فإنه لا يقبل معه عمل، كما لا يقبل مع الشرك عمل؛ فإن الصلاة عمود الإسلام ـ كما صح عن النبي ﷺ ـ وسائر الشرائع كالأطناب والأوتاد ونحوها، وإذا لم يكن للفسطاط عمود لم ينتفع بشيء من أجزائه، فقبول سائر الأعمال موقوف على قبول الصلاة، فإذا ردت عليه سائر الأعمال. وقد تقدم الدليل على ذلك.

[(٢)]وأما تركها أحيانًا فقد روى البخاري في صحيحه من حديث بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «بكروا بصلاة العصر، فإن من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[(٣)].

وقد تكلم قوم في معنى هذا الحديث، فأتوا بما لا حاصل له.

قال المهلب معناه: من تركها مضيعًا لها، متهاونًا بفضل وقتها مع قدرته على

---

(١) ٣١ كتاب الصلاة.

(٢) ٣٢ كتاب الصلاة.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وقول: بكروا بصلاة العصر، ليس من قول رسول الله ﷺ، بل هو مدرج من قول بريدة بن الحصيب ﷺ.

أدائها، حبط عمله في الصلاة خاصة، أي لا يحصل له أجر المصلي في وقتها، ولا يكون له عمل ترفعه الملائكة. وحاصل هذا القول: إن من تركها فاته أجرها.

ولفظ الحديث ومعناه يأبى ذلك، ولا يفيد حبوط عمل قد ثبت وفعل، وهذا حقيقة الحبوط في اللغة والشرع، ولا يقال لمن فاته ثواب عمل من الأعمال أنه قد حبط عمله، وإنما يقال فاته أجر ذلك العمل. وقالت طائفة: يحبط عمل ذلك اليوم لا جميع عمله، فكأنهم استصعبوا حبوط الأعمال الماضية كلها بترك صلاة واحدة، وتركها عنده ليس بردة تحبط الأعمال، فهذا الذي استشكله هؤلاء هو وارد عليهم بعينه في حبوط عمل ذلك اليوم.

والذي يظهر في الحديث ـ والله أعلم بمراد رسوله ـ أن الترك نوعان:

ترك كلي لا يصليها أبدًا فهذا يحبط العمل جميعه.

وترك معين في يوم معين فهذا يحبط عمل ذلك اليوم، فالحبوط العام في مقابلة الترك العام، والحبوط المعين في مقابلة الترك المعين.

فإن قيل: كيف تحبط الأعمال بغير الردة؟

قيل: نعم، قد دل القرآن والسنة والمنقول عن الصحابة أن السيئات تحبط الحسنات، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقالت عائشة لأم زيد بن أرقم: أخبري زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب ـ لما باع بالعينة ـ[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٥/ ٣٣٠ رقم ١٠٥٨٠) والدارقطني (٣/ ٥٢ رقم ٢١١) وعبدالرزاق (٨/ ١٨٥ رقم ١٤٨١٣) وانظر: الأم (٣/ ٣٨، ٧٨) والاستذكار (٦/ ٢٧١-٢٧٢) والمحلى (٩/ ٤٧-٤٩) والمدونة الكبرى (٩/ ١١٨-١١٩) وشرح الزرقاني (٣/ ٣٢٦).

وقد نص الإمام أحمد على هذا فقال: ينبغي للعبد في هذا الزمان أن يستدين ويتزوج لئلا ينظر [إلى] ما لا يحل فيحبط عمله. وآيات الموازنة في القرآن تدل على هذا، فكما أن السيئة تذهب بالحسنة أكبر منها، فالحسنة يحبط أجرها بسيئة أكبر منها.

فإن قيل: فأي فائدة في تخصيص صلاة العصر بكونها محبطة دون غيرها من الصلوات؟

قيل: الحديث لم ينف الحبوط بغير العصر إلا بمفهوم لقب، وهو مفهوم ضعيف جدًّا. وتخصيص العصر بالذكر لشرفها من بين الصلوات، ولهذا كانت هي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح، ولهذا خصها بالذكر في الحديث الآخر، وهو قوله: «**الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**». أي فكأنما سلب أهله وماله فأصبح بلا أهل ولا مال، وهذا تمثيل لحبوط عمله بتركها، كأنه شبه أعماله الصالحة ـ بانتفاعه وتمتعه بها ـ بمنزلة أهله وماله، فإذا ترك صلاة العصر فهو كمن له أهل ومال فخرج من بيته لحاجة وفيه أهله وماله فرجع وقد اجتيح الأهل والمال، فبقي وترًا دونهم، وموتورًا بفقدهم، فلو بقيت عليه أعماله الصالحة لم يكن التمثيل مطابقًا. والحبوط نوعان: عام وخاص.

فالعام: حبوط الحسنات كلها بالردة، والسيئات كلها بالتوبة.

والخاص: حبوط السيئات والحسنات بضعها ببعض، وهذا حبوط مقيد جزئي، وقد تقدم دلالة القرآن والسنة والآثار وأقوال الأئمة عليه.

ولما كان الكفر والإيمان كل منهما يبطل الآخر ويذهبه كانت شعبة كل واحد منهما لها تأثير في إذهاب بعض شعب الآخر، فإن عظمت الشعبة ذهب في مقابلتها شعب كثيرة. وتأمل قول أم المؤمنين في مستحل العينة: إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، كيف قويت هذه الشعبة التي آذن الله فاعلها بحربه وحرب رسوله على إبطال محاربة الكفار، فأبطل الحراب المكروه الحراب المحبوب، كما تبطل محاربة أعدائه التي يحبها، محاربته التي يبغضها. والله المستعان.

(١)قوله سبحانه: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٥٩].

قال شعبة بن الحجاج: حدثنا أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ في هذه الآية قال: هو نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر(٢).

قال محمد بن نصر: حدثنا عبدالله بن سعد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن زياد بن زبار، حدثني شرقي بن القطامي قال: حدثني لقمان بن عامر الخزاعي. قال: جئت أبا أمامه الباهلي. فقلت: حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن صخرة قذف بها من شفير جهنم ما بلغت سبعين خريفًا ثم تنتهي إلى غي وأثام**» قلت: وما غي وأثام؟ قال: «**بئران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل جهنم**»(٣) فهذا الذي ذكره الله في كتابه: ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ و﴿ أَثَامًا ﴾

قال محمد بن نصر، حدثنا الحسن بن عيسى، حدثنا عبدالله بن المبارك، أخبرنا هشيم ابن بشير قال: أخبرني زكريا بن أبي مريم الخزاعي، قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة خمسين خريفًا من حجر يهوى ـ أو قال صخرة تهوى ـ عظمها كعشرة عشراوات عظام سمان. فقال مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد: هل تحت ذلك من شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم، غي وأثام(٤).

---

(١) ١٧ الصلاة.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٩٩ رقم ٣٥) وانظر: التخويف من النار (ص ٨٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١١٩-١٢٠ رقم ٣٦) والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٥ رقم ٧٧٣١) وفي مسند الشاميين (٢/ ٤٠٥ رقم ١٥٨٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٥٥ رقم ٥٥٦٩): رواه الطبراني والبيهقي مرفوعًا، ورواه غيرهما موقوفًا على أبي أمامة وهو أصح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٩)ك رواه الطبراني وفيه ضعفاء قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون.

(٤) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢١ رقم ٣٧) وانظر: لسان الميزان (٢/ ٤٨٢) وميزان =

وقال أيوب بن بشير عن شفي بن ماتع قال: إن في جهنم واديًا يسمى غيًّا، يسيل دمًا وقيحًا فهو لمن خلق له، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1]. فوجه الدلالة من الآية أن الله سبحانه جعل هذا المكان من النار لمن أضاع الصلاة واتبع الشهوات، ولو كان مع عصاة المسلمين لكانوا في الطبقة العليا من طبقات النار، ولم يكونوا في هذا المكان الذي هو أسفلها؛ فإن هذا ليس من أمكنة أهل الإسلام بل من أمكنه الكفار. ومن الآية دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠] فلو كان مضيع الصلاة مؤمنًا لم يشترط في توبته الإيمان وأنه يكون تحصيلًا للحاصل.

***

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

[2]هذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ولا يتنزلون إلا بأمره، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، وهو الذي كملت قدرته وسلطانه وملكه، وكمل علمه. فلا ينسى شيئًا أبدًا، وهو القائم بتدبير السماوات والأرض وما بينهما كما هو الخالق لذلك كله؛ وهو ربه ومليكه، فهذا الرب هو الذي لا سمي له لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال، فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه، إن هي إلا ألفاظ فارغة من المعاني فالعدم سمي له...

= الاعتدال في نقد الرجال (٣/ ١١٠) وقال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص ٥٤) بعد أن ذكره: وقد روي هذا بإسناد فيه ضعف... والموقوف أصح.

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٢ رقم ٣٨) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٥٢٨).

(٢) ٢١٢ الصواعق جـ١.

(١) وقال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥] قال ابن عباس: «شبهًا ومثلًا، وهو من يساميه»(٢).

وذلك نفى عن المخلوق أن يكون مشابهًا للخالق، ومماثلًا له، بحيث يستحق العبادة والتعظيم، ولم يقل سبحانه: هل تعلمه سميًا، أو مشبهًا لغيره، فإن هذا لم يقله أحد. بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابهًا له، مساميًا، وندًّا وعدلا، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل.

وكذلك قوله: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [النحل: ٧٣ - ٧٤].

فنهاهم أن يضربوا له مثلًا من خلقه، ولم ينههم أن يضربوه هو مثلًا لخلقه، فإنّ هذا لم يقله أحد، ولم يكونوا يفعلونه؛ فإن الله سبحانه أجلُّ وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم. ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه، فيشبهونهم بالخالق، والله تعالى أجل في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلًا، ثم يشبهونه سبحانه بغيره.

فالذي يشبهه بغيره، إن قصد تعظيمه، لم يكن في هذا تعظيم، لأنه مثَّل أعظم العظماء بما هو دونه، بل بما ليس بينه وبينه نسبة وشبه في العظمة والجلالة، وعاقل لا يفعل هذا. وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين، لا بالكاملين الممدوحين.

ومن هنا يعلم أن إثبات صفات الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل، لا بالكاملين ولا بالناقصين، وأن نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين.

فانظر إلى الجهمية وأتباعهم، جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا،،

---

(١) ٢٣٠ الإغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٦) والبيهقي في الشعب (١/ ١٤٣ رقم ١٢٢) وفي الاعتقاد (ص ٤٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٦٨) (١٣/ ٣٥٦).

وجاءوا إلىٰ الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلًا، عكس ما يثبته القرآن، وجاء به من كل وجه.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]، هو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه، ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يحتاج إلىٰ نفيه.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شيء من صفاته وخصائصه. وأما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو ندٌّ له ولا كفو، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مدح بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يعد هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للملك ندًّا ولا كفوًا، ولا شبيهًا من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يساميه. ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

***

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٩].

(١)الشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضًا أي تابعه، ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع، والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضًا، وغالب ما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك، كهذه الآية وكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤]. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع، ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا علىٰ فرق

(١) ١٥٥ البدائع جـ١.

الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنى لننزعن من كل فرقة أشدهم عتوا على الله وأعظمهم فسادًا، فنلقيهم في النار.

وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولا، ثم تكون الأتباع تبعا لهم فيه، كما كانوا تبعا لهم في الدنيا.

***

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

[١]قال أبو هريرة وقد عاد مريضًا، فقال له: إن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله ﷻ يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكون حظه من النار في الآخرة»[٢].

وقال مجاهد: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[٣] [مريم: ٧١]، وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن، فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعًا، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده كلهم بورود النار، فالحمى للمؤمن تكفر خطاياه، فيسهل عليه الورود يوم القيامة،

---

(١) ٩٢ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١١١) والترمذي (رقم ٢٠٨٨) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٨١ رقم ٦٣٨٣) وابن ماجه (رقم ٣٤٧٠) والحاكم (١/ ٤٩٦ رقم ١٢٧٧) وهناد في الزهد (١/ ٢٣٣ رقم ٣٩١) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٤١) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ١٩) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الكتاني في مصباح الزجاجة (٤/ ٦١): هذا إسناد صحيح رجاله موثقون.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١١١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٦١ رقم ٩٨٤٥) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ٢٠) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٤).
ويروى مرفوعًا عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ دون ذكر الآية، أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٧١ رقم ٦٢)، وذكره المنذري في الترغيب مرفوعاً عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ (٤/ ١٥٤ رقم ٥٢٢٧) وقال: رواه البزار بإسناد حسن، وحسَّن إسناده أيضاً الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٦).

فينجو منها سريعًا، والله أعلم.

ويدل عليه حديث أبي ريحانة عن النبي ﷺ: «**الحمى كير من كير جهنم، وهي نصيب المؤمن من النار**»[(١)].

***

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

[(٢)]لما قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**» قالت له حفصة: أليس الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾؟ قال: «**أو لم تسمعي قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾**[(٣)] [مريم: ٧٢]»؟ فأشكل عليها الجمع بين النصين، وظنت الورود هو دخولها، كما يقال: ورد المدينة إذا دخلها. فأجابها النبي ﷺ بأن ورود المتقين غير ورود الظالمين، فإن المتقين يردونها ورودًا ينجون به من عذابها، والظالمين يردونها ورودًا يصيرون جثيًّا فيها به.

وقال له عمر: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «**هل قلت إنك تدخله العام؟**» قال: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**»[(٤)] فأشكل على عمر رجوعهم عام الحديبية ولم يدخلوا المسجد الحرام ولا طافوا بالبيت، فبين لهم أن اللفظ مطلق لا دليل فيه على ذلك العام بعينه، فتنزيله على ذلك العام غلط، فرجع عمر وعلم أنه قد غلط في فهمه.

[(٥)]وذكر عنه أيضًا: «**حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها، ويصام**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (رقم ٢١) وابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٣٦٠) وابن عساكر في تاريخه (٢٣/ ١٩٨).

(٢) ٢١٩ الصواعق جـ١.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٩٦) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٥٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٥).

(٥) ١٥٩ الزاد جـ٢.

نهارها»[١]. وقال: «حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله»[٢]، وذكر أحمد عنه: «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا بأجرة سلطان: لم ير النار بعينيه، إلا تحلة القسم، فإن الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٣]، وقال لرجل حرس المسلمين ليلة في سفرهم من أولها إلى الصباح على ظهر فرسه، لم ينزل إلا لصلاة أو قضاء حاجة: «قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»[٤]. وقال: «من بلغ بسهم في سبيل الله فله درجة في الجنة»[٥].

***

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦١) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٦ رقم ٤٢٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (٢/ ٤٢٤ رقم ١٥٠) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢١٥) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٢٥٥) والضياء في المختارة (١/ ٤٨٧-٤٨٨ رقم ٣٦١) والحاكم (٢/ ٩١ رقم ٢٤٢٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (٢/ ٤١٣ رقم ١٤٤) وفي الآحاد والمثاني (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٣٢٦) والحاكم (٢/ ٩٢ رقم ٢٤٣٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٣ رقم ٨٨٦٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٤٩ رقم ١٨٢٢٦) والدارمي (رقم ٢٤٠٠) وصححه الحاكم وقال المنذري في الترغيب (٢/ ١٦٠): رواه أحمد واللفظ له ورواته ثقات.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٧) وأبو يعلى في المفاريد (رقم ٨) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨٥ رقم ٤٠٢) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ١٥٨-١٥٩ رقم ١٩١٩): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ولا بأس بإسناده في المتابعات. وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وفي أحد إسنادي أحمد ابن لهيعة وهو أحسن حالًا من رشدين.

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٠١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٤٩ رقم ١٨٢٢٤) وأبو عوانة (٤/ ٥٠٠-٥٠١ رقم ٧٤٨١) والحاكم (٢/ ٩٣ رقم ٢٤٣٣) والطبراني في الأوسط (١/ ١٢٩-١٣٠ رقم ٤٠٧) وصححه العراقي في أماليه (ص ١٠١).

(٥) أخرجه ابن حبان (١٠/ ٤٧٥-٤٧٦ رقم ٤٦١٥) وفي موارد الظمآن (رقم ١٦٤٥) وأبو داود (رقم ٢٩٦٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٧٢ رقم ٢١١٠٠) والنسائي (رقم ٣١٤٣) وأحمد (٤/ ١١٣) والحاكم (٢/ ١٣٢ رقم ٢٥٦٠) والطيالسي (رقم ١١٥٤) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ١٩٢ رقم ١٩٦٠) وصححه الحاكم.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾.

(١)أعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله: كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت.

وبالجملة فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢]. ﴿ مَذْمُومًا ﴾ لا حامد لك، ﴿ مَّخْذُولاً ﴾ لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور.

(٢)إن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمَّله منه، فلابد أن يخذل من الجهة التي قدَّر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. أي يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا

(١) ٤٥٧ المدارج جـ١.
(٢) ٤٠ الإغاثة جـ١.

زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١] أي غير تخسير، وقال تعالى. ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢]. فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق سبحانه، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

[(١)] يزيد ذلك إيضاحًا أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهذا أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء بغيره إلا خذل، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

***

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٣، ٨٤].

[(٢)] قال ابن عباس «تُغريهم إغراء»[(٣)] وفي رواية: «تُشليهم إشلاء»[(٤)]، وفي لفظ:

---

(١) ٦١ طريق الهجرتين.

(٢) ١٠٠ الإغاثة.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٧) بلفظ: تغويهم إغواء، بالواو بدل الراء. وورد عن سفيان الثوري كما في الفتح (٨/ ٤٢٧) وعن سعيد بن جبير كما في عمدة القاري (١٩/ ٥٠) وعن الضحاك كما في غريب الحديث للحربي (٣/ ٩٨٤).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) عن ابن زيد. وذكره ابن كثير (٣/ ١٣٧) عن مجاهد، وكذا ابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠٨).

«تحرضهم تحريضًا»، وفي آخر: «تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا»[١]، وفي آخر: «توقدهم»[٢] أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته، قال الأخفش: «توهجهم»[٣].

وحقيقة ذلك: أن «الأَزَّ» هو التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان. ومنه الحديث: «لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[٤]. قال أبو عبيدة: «الأزيز» الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: إِزَّ قِدْرَك، أي أَلْهِب تحتها بالنار[٥]؛ وأيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأَزِّ معنيان: أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة مريم (ص ٩١٤) والطبري في تفسيره (١٦/ ١٢٥) عن قتادة والصنعاني في تفسيره (٣/ ١٢) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٥-٦ رقم ٢٥٦٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٧).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) إلى ابن الأنباري في الوقف عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله: ﴿تؤزهم أزًّا﴾ قال: توقدهم وقودًا.

(٣) ذكره بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٩/ ٥٠).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٤٦٢ رقم ٤٣٦) وابن حبان (٣/ ٣٠ رقم ٧٥٣) وأحمد (٤/ ٢٥) والحاكم (١/ ٣٩٦ رقم ٩٧١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٨١ رقم ٧٧٤) والترمذي في الشمائل المحمدية (رقم ٣٢٣) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ١٣٤) وقال ابن حجر في الفتح (٢/ ٢٠٦): وإسناده قوي وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

(٥) لسان العرب (٥/ ٣٠٧) وغريب الحديث للحربي (٣/ ٩٨١) وانظر: غريب الحديث لابن سلام (١/ ٢٢٢).

بموافقته ومتابعته فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلِّط عليهم؛ عقوبة لهم. وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٤١]. فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تَسَبّبوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسبّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا، حتى جعل له العبد سبيلًا إليه بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلّطا وقَهْرًا، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أزِمَّة الأمور بيده، ومَرَدُّها إليه، وله الحجة البالغة، فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، لكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك. ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

[(١)]ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. فالإرسال ههنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح، وليس بإرسال ديني شرعي، فهو إرسال تسليط. بخلاف قوله في المؤمنين: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]. فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين.

قال أبو إسحاق: ومعنى الإرسال ههنا التسليط[(٢)]. تقول قد أرسلت فلانا على فلان إذا سلطته عليه، كما قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

---

(١) ٦٢ شفاء.

(٢) لسان العرب (١١/ ٢٨٥).

﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. فاعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه.

قلت: ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]. وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ فالأز في اللغة التحريك والتهييج، ومنه يقال لغليان القدر الأزيز لتحرك الماء عند الغليان، وفي الحديث: «كان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء».

وعبارات السلف تدور علىٰ هذا المعنىٰ، قال ابن عباس: تغريهم إغراء.

وفي رواية أخرىٰ عنه: تسلهم سلًّا، وفي رواية أخرىٰ: تحرضهم تحريضًا.

في أخرىٰ: تزعجهم للمعاصي إزعاجًا. وفي أخرىٰ: توقدهم إيقادًا، أي: كما يتحرك الماء بالوقد تحته. قال أبو عبيدة: الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقال: إز قدرك أي ألهب تحتها النار. وائتزت القدر إذا اشتد غليانها، وهذا اختيار الأخفش. والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعًا.

قالت القدرية: معنىٰ ﴿أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط.

قال أبو علي: الإرسال يستعمل بمعنىٰ التخلية بين المرسل وما يريد، فمعنىٰ الآية: خلينا بين الشياطين وبين الكافرين ولم يمنعهم منهم ولم يعذهم، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ قال الواحدي: وإلىٰ هذا الوجه يذهب القدرية في معنىٰ الآية. قال: وليس المعنىٰ علىٰ ما ذهبوا إليه.

وقال أبو إسحاق: والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقال: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٥] وإنما معنىٰ الإرسال التسليط.

قلت: وهذا هو المفهوم من معنىٰ الإرسال، كما في الحديث: «إذا أرسلت كلبك

المعلم»[(١)] أي سلطته، ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده، وكذلك قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات: ٤١] أي سلطناها وسخرناها عليهم، وكذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل: ٣]. وكذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [القمر: ٣١]. والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى، ولا يتم التسليط إلا به، فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلا ولم تمنعه من فعله، فهذا هو التسليط، ثم إن القدرية تناقضوا في هذا القول فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم فقد نقضوا أصلهم. فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة النية وصحة بنيته تدل على أن فعله وتركه مقدور للرب، وهذا عين قول أهل السنة، وإن قالوا: لا يقدر على منعهم وعصمهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه، وهذا أبطل الباطل.

ثم قالت القدرية: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تأمرهم بالمعاصي أمرًا، وحكوا ذلك عن الضحاك، وهذا لا يلتفت إليه؛ إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء قد أزه، ولا تساعد اللغة على ذلك. ولو كان ذلك صحيحًا لكان يؤز المؤمنين أيضًا فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين، فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان، فلا يحتاج من أمره ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين، بل يأمر الكافر مرة ويأمر المؤمن مرات، فلو كان الأز الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين.

[(٢)]وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٥) ومسلم (رقم ١٩٢٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦١٠) وشرح النووي (١٣/ ٧٣-٧٤).

(٢) ٢٥٧ المدارج جـ٢.

لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ [الناس: ٤]، يعم كل شره ووصفه بأعم صفاته وأشدها شرًّا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه، ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل، ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرىٰ إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسىٰ ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبىٰ أن يسجد لأبيهم فلا بتلك النخوة والكبر ولا يرضاه أن يصيروا قوادًا لكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه   وقبح ما أظهر من نخوته
تاهٍ علىٰ آدم في سجدة   وصار قوادًا لذريته[1]

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا. فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ

(١) هذان البيتان من بحر السريع وينسبان لأبي نوّاس الحسن بن هاني بن عبد الأول شاعر العراق في عصره، مات ١٩٨هـ، وجاء عجز البيت الأول في ديوانه: وخبث ما أظهر من نيته.
انظر: أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي (ص ٩١) والبيان والتبيين للجاحظ (١/ ٤٤) والتمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي (ص ٤٣٧).

بالسرقة والخطف.

وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومنامًا أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

(1)العبودية نوعان: عامة، وخاصة، فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برِّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم. وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان: ١٧]. فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة.

وأما المطلقة: فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر:م ٤٦]. وقال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾

(١) ١٠٥ المدارج جـ١.

[غافر: ٣١]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨].

فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقال تعالى عن إبليس: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فقال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته[١].

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

[٢]قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط؟ فقال أبو حازم: لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[٣] [مريم: ٩٦].

[٤]وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إنَّ الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في

(١) تقدم البحث كاملًا في سورة الفاتحة (ج).
(٢) ١٣٨ عدة الصابرين.
(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٣٣) وابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ٦٢) وعند أبي نعيم: لا تظن أن ذلك من عملك.
(٤) ٤٣٨ الروضة.

الأرض»[١]، وفي لفظ لمسلم: «إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه. ثم يوضع له البغضاء في الأرض»[٢]. وفي لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: كنا بعرفة فمر عمر بن عبدالعزيز وهو على الموسم، فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي: يا أبتِ إني أرى الله يحب عمر بن عبدالعزيز قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس. فقال: إني سمعت أبا هريرة ﷺ يحدث عن رسول الله ﷺ[٣] ثم ذكر الحديث. وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره: فذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾[٤] انتهى، وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبهم ويحببهم إلى عباده[٥].

[٦]وجميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان، وهما العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فإن التحاب والتآلف إنما هو بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي يلقي بينهم المحبة، فيحب بعضهم بعضًا، فيتراحمون، ويتعاطفون بما جعل الله

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٠٩) ومسلم (رقم ٢٦٣٧) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٨٣-١٨٤).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٣٧) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٣٢) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٤٥).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٣٧) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٠٠ رقم ٨٠١) وانظر: شرح الزرقاني (٤/ ٤٤٥) وسير أعلام النبلاء (٥/ ١١٩، ١٤٦) وتاريخ دمشق (٤٥/ ١٤٥).
(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٦١).
(٥) أخرجه الطبري عن ابن عباس (١٦/ ١٣٣) وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٧ رقم ٣٤٧٨٧) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٣ رقم ٤٧٨) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٠٤ رقم ٨١١) وابن أبي الدنيا في الأولياء (رقم ٣٢) وانظر: التمهيد (٢١/ ٢٣٩) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٤٥).
(٦) ١٥٤ الإغاثة جـ٢.

لبعضهم في قلوب بعض من المحبة.

وقال ابن عباس: «يحبهم ويحببهم إلى عباده».

قال هرم بن حيَّان: «ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله ﷻ إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»(١).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة مريم

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٣٣) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٢٩٩-٣٠٠ رقم ٧٩٩) وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩) والتمهيد (٢١/ ٢٤٠) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٤١).

سُورَةُ طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾.

[1]قالوا: والأوقات ثلاثة أنواع:

وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور، فهي خمسة:

ووقت للذاكر المستيقظ المعذور، وهي ثلاثة. فإن في حقه: وقت الظهر والعصر واحد. ووقت المغرب والعشاء واحد.

ووقت الفجر واحد. فالأوقات في حق هذا ثلاثة. وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها في وقت العصر فإنما صلاها في وقتها.

ووقت في حق غير المكلف بنوم أو نسيان. فهو غير محدود البتة، بل الوقت في حقه عند يقظته وذكره. لا وقت له إلا ذلك.

هذا الذي دلت عليه نصوص الشرع وقواعده، وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام. وهو قسم رابع فبأيها تلحقونه؟

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر، من حيض أو سفر أو مرض، ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمدًا من غير عذر، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه، ولا تقتضيه قواعده. وإنما غاية ما معكم: قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما، بل قد أخبر الشارع: أن صيام الدهر لا يقضيه عن يوم يفطره بلا عذر، فضلًا عن يوم مثله.

قالوا: وأما قولكم: «إنه كان يجب عليه أمران: العبادة، وإيقاعها في وقتها، فإذا ترك أحدهما بقي عليه الآخر» فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطًا بالآخر

---

(١) ٣٨٠ مدارج جـ١.

ارتباط الشرطية، كمن أمر بالحج والزكاة، فترك أحدهما: لم يسقط عنه الآخر. أما إذا كان أحدهما شرطًا في الآخر، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذي لم يؤمر بالمشروط إلا به، فكيف يقال: إنه يؤمر بالآخر بدونه، ويصح منه بدون وصفه وشرطه؟ فأين أمر الله بذلك؟ وهل الكلام إلا فيه؟

قالوا: وإن قلنا: إنما يجب القضاء بأمر جديد فلا أمر معكم بالقضاء في محل النزاع وقياسه على مواقع الإجماع: ممتنع كما بيناه.

وإن قلنا: يجب بالأمر الأول، فهذا فيما إذا كان القضاء نافعًا، ومصلحته كمصلحة الأداء، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسي. أما إذا كان القضاء غير مبرئ للذمة، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته، فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمر ثان. وإنما هو القياس الذي علم افتراق الأصل والفرع فيه في وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق...

...[١]هل تقبل صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل أم لا؟

فهذه المسألة لها صورتان: إحداهما يقبل فيها بالنص والإجماع، وهي ما إذا فاتته صلاة النهار بنوم أو نسيان، فصلاها بالليل وعكسه. كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها»[٢] واللفظ لمسلم.

وروى مسلم عنه أيضا: قال رسول الله ﷺ: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة

(١) ٣٣ كتاب الصلاة.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٧) ومسلم (رقم ٦٨٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٧١) وشرح النووي (٥/ ١١١، ١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٧٢) وعمدة القاري (٥/ ٩٣-٩٤).

حتىٰ إذا أدركه الكرىٰ عرَّس، وقال لبلال: «اكلأ لنا الليل» فصلىٰ بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه فلما تقارب الفجر استند بلال إلىٰ راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالًا عيناه وهو مستند إلىٰ راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتىٰ ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظًا[1]. الحديث[2].

[3]قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ: «من ترك صلاة العصر حبط عمله»[4]. وقال: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»[5]. فلو كان يمكنه استدراكها بالليل لم يحبط عمله، ولم يكن موتورًا من أعماله بمنزلة الموتور من أهله وماله.

وقالوا: وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر»[6]. فكذا من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح. ولو كان فعلها بعد المغرب وطلوع الشمس صحيحًا مطلقًا لكان مدركًا سواء أدرك ركعة أو أقل من ركعة أو لم يدرك منها شيئًا؛ فإنه ﷺ لم يرد: إن أدرك ركعة صحت صلاته بلا إثم، إذ لا خلاف بين الأمة أنه لا يحل له تأخيرها إلىٰ أن يضيق وقتها عن كمال فعلها، وإنما أراد بالإدراك الصحة والإجزاء، وعندكم تصح وتجزئ ولو أدرك منها قدر تكبيرة أو لم يدرك منها شيئًا، فلا معنىٰ للحديث عندكم البتة.

قالوا: والله سبحانه قد جعل لكل صلاة وقتًا محدود الأول والآخر، ولم يأذن في فعلها قبل دخول وقتها ولا بعد خروج وقتها، والمفعول قبل الوقت وبعده أمر غير المشروع، فلو كان الوقت ليس شرطًا في صحتها لكان لا فرق في الصحة بين فعلها

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٠) وانظر: شرح النووي (٥/ ١٨١).

(٢) ساق المؤلف تكملة البحث ثم ذكر الصورة الثانية فيمن ترك الصلاة عمدًا فمن أراده فليراجعه (ج).

(٣) ٣٧ كتاب الصلاة.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٢، ٦٦) وشرح النووي (٥/ ١٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٢) ومسلم (رقم ٦٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠-٣١) وشرح النووي (٥/ ١٢٥-١٢٦).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٩) ومسلم (رقم ٦٠٨) وانظر: شرح النووي (٥/ ١٠٥-١١٠).

قبل الوقت وبعده؛ لأن كلا الصلاتين صلاها في غير وقتها، فكيف قبلت من هذا المفرط بالتفويت ولم تقبل من المفرط بالتعجيل؟

قالوا: والصلاة في الوقت واجبة على كل حال. حتى أنه يترك جميع الواجبات والشروط لأجل الوقت. فإذا عجز عن الوضوء أو الاستقبال، أو طهارة الثوب والبدن وستر العورة، أو قراءة الفاتحة، أو القيام، في الوقت وأمكنه أن يصلي بعد الوقت بهذه الأمور فصلاته في الوقت بدونها هي التي شرعها الله وأوجبها، ولم يكن له أن يصلي بعد الوقت مع كمال هذه الشروط والواجبات.

فعلم أن الوقت مقدم عند الله ورسوله على جميع الواجبات، فإذا لم يكن إلا أحد الأمرين وجب أن يصلي في الوقت بدون هذه الشروط والواجبات، ولو كان له سبيل إلى استدراك الصلاة بعد خروج وقتها لكان صلاته بعد الوقت مع كمال الشروط والواجبات خيرًا من صلاته في الوقت بدونها وأحب إلى الله، وهذا باطل بالنص والإجماع.

وقالوا أيضًا: فقد توعد الله سبحانه من فوت الصلاة عن وقتها بوعيد التارك لها. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، وقد فسر أصحاب رسول الله ﷺ السهو عنها بأنه تأخيرها عن وقتها كما ثبت ذلك عن سعد بن أبي وقاص. وفيه حديث مرفوع.

***

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝﴾.

[1]أما الفتون فهو مصدر فتنه يفتنه فتونًا، قال الله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠]. أي امتحناك واختبرناك. والفتنة يقال على ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتنة فلان أي افتتانه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]. يقال أصابته الفتنة، وفتنته الدنيا، وفتنته المرأة، وأفتنته، قال الأعشى:

لـئن فتنتنـي ولَهِـيَ بـالأمس أفتنـت ... سعيدا فأضحى قد قلـى كـل مـسلم[2]

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه يسمى فتنةً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]. أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه.

وأما قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]. فقيل: المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، ودينار مفتون.

قال الخليل: والفتن الإحراق، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) ٤٧ روضة المحبين.

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب لأعشى همدان: عبدالرحمن بن عبدالله بن الحارث الهمداني من شعراء الدولة الأموية، كان أحد الفقهاء القراء، انحاز إلى عبدالرحمن بن الأشعث ضد الحجاج، فلما أسر وجيء به إلى الحجاج فضربت عنقه سنة ٨٣هـ وفي ديوانه: فأمسى بدل فأضحى وذكر البيت أبو الحسن الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٦٣) وابن منظور في اللسان (١٣/ ٣١٧-٣١٨).

وورقٌ فتينٌ أي: فضة محرقة، وافتتن الرجل وفتن إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله وفتنته المرأة إذا ولهته[(١)]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] [أي لا تفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم] فذلك الذي يفتن بفتنتكم إياه.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر، كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب: أن يبصر مضمن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان»[(٢)] يُروى بفتح الفاء، وهو واحد، وبضمها وهو جمع فاتن، كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

...[(٣)]ومن فوائد هذه المسألة أن نسأل: كيف وردت الآية الأولى ب على والآية الثانية بالباء؟ الجواب: لابد أن نسأل عن المعنى الذي لأجله قال تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩] بحرف على، وقال تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] بالباء و﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود: ٣٧] وما الفرق؟

فالفرق أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيًا، وإبداء ما كان مكتومًا، فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنعون سرًّا، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمن وظهور لا تحت خوف واستسرار، دخلت على في اللفظ تنبيهًا على

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٣١٧، ٣٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٠٧٠) والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٥٠ رقم ١١٦١١) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣١٩) وأبو عبيد في الأموال (رقم ٧٣٠) وقوّى سنده الشوكاني في نيل الأوطار (٦/ ٥٩) بينما ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود وفي ضعيف الجامع (رقم ٥٩٣٢).

(٣) ٥ بدائع جـ٢.

المعنى؛ لأنها تعطي الاستعلاء، والاستعلاء، ظهور وإبداء، فكأنه يقول ﷺ: ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة.

وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هو: ٣٧]. فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى على بخلاف ما تقدم هذا كلامه. ولم يتعرض ـ رحمه الله تعالى ـ لوجه الإفراد هناك والجمع هنا، وهو من ألطف معاني الآية.

والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١]. فاقتضى هذا الاختصاص الاختصاص الآخر في قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩] فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص.

وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسى على عينه ﷺ واصطناعه إياه لنفسه. وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به ملائكته كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨]، وقوله: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ [الكهف: ١٣] ونظائره فتأمله.

(١) والاصطناع بمعنى الاصطفاء. قال تعالى لموسى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١] والاصطناع في الأصل: اتخاذ الصنيعة. وهي الخير تسديه إلى غيرك. قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها ... وجه الذي يولي الصنائع أو دع(٢)

قال ابن عباس: اصطنعتك لوحيي ورسالتي(٣).

(١) ٢٩٦ مدارج جـ٣.
(٢) لم أجده.
(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١١/ ١٩٨) بلفظ: اصطفيتك لوحيي ورسالتي.

وقال الكلبي: اخترتك بالرسالة لنفسي، لكي تحبني وتقوم بأمري.

وقيل: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، فتكلم عبادي عني.

قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي، حتىٰ صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم(١).

وقيل: مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك ـ لجوامع خصال فيه وخصائص ـ أهلًا لكرامته وتقريبه، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه، ولا ألطف محلًّا فيصطنعه بالكرامة والأثرة، ويستخلصه لنفسه، بحيث يسمع به، ويبصر به، ويطلع علىٰ سره.

***

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

...(٢)قوله تعالىٰ لكليمه موسىٰ وأخيه هارون ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]. فأمر تعالىٰ أن يلينا القولَ لأعظم أعدائه وأشدهم كفرًا وأعتاهم عليه؛ لئلا يكون إغلاظُ القول له ـ مع أنه حقيق به ـ ذريعةً إلىٰ تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة، فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالىٰ.

***

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٩/ ٥٩-٦٠) وتفسير الطبري (١٦/ ١٤٧) وشعب الإيمان (١/ ١٨٧).

(٢) ١٥٠ أعلام جـ٣.

[(1)]ما الحكمة في تسليم النبي ﷺ على من اتبع الهدى في كتابه إلى هرقل بلفظ النكرة، وتسليم موسى عليهم بلفظ المعرفة؟

فالجواب عنه: أن تسليم النبي ﷺ تسليم ابتدائي، ولهذا صدر به الكتاب حيث قال: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، ففي تنكيره ما في تنكير سلام من الحكمة وقد تقدم بيانها.

وأما قول موسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] فليس بسلام تحية فإنه لم يبتدئ به فرعون بل هو خبر محض؛ فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨] أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطًا بين الكلامين إخبارًا محضًا عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام. والله تعالى أعلم. وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك وأستاذك، وإن كان أستاذهما معًا، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له.

ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم،

---

(١) ١٦٩ بدائع جـ٢.

ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططًا ولم يرهقه من أمره عسرًا، بل طلب منه غاية النصف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات:

أحدها: قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلىٰ التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة فقد قامت الحجة.

ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان:

إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدىٰ، والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ.

وإما أن يكذب ويتولىٰ، فالعذاب علىٰ من كذب وتولىٰ.

فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحق السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب.

***

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

...الاستطراد أسلوب لطيف جدًّا في القرآن، وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلىٰ لازمه، مثل هذا، ومثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ثم استطرد من جوابهم إلىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ

ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ٩-١٣]. وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٤٩-٥٢] فهذا جواب موسى.

ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٣-٥٥] ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخره فالأول آدم، والثاني بنوه، ومثله قوله: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر المشركين من أولادهما، والله أعلم.

[(١)]فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيئته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم

(١) ٣٥ بدائع جـ٣.

هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرجلين للمشي واليدين للبطش والعمل واللسان للكلام والأذن للاستماع والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه مراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين.

وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإنه لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة، بل هداها إلى هذه الهداية، التي تعجز عقول العقلاء عنها: كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني ـ الذي هو خلاصة الوجود، الذي كرَّمه وفضَّله على كثير من خلقه ـ مهملًا وسدى معطلًا، لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته، بل يتركه معطلا لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه، وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله، ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزَّه نفسه عنه، وبيَّن أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزَّه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة

والعقول المستقيمة.

هذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، وكما هو أصح الطريقين في ذلك. ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه، بل جعلها أمما وهداها إلى غاياتها ومصالحها وكيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم، فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وفي قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وفي قول النبي ﷺ: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»[1]، وفي قوله تعالى:

(١) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (٢/ ٤٥٥ رقم ١٩٥٣) وابن خزيمة (٣/ ١٤٣ رقم ١٧٨٥) والنسائي في الكبرى (١/ ٥٢٩ رقم ١٧٠٩) وأبو داود (رقم ٢١١٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٦ رقم ١٣٠٦٨) وصححه النووي في شرح صحيح مسلم (٦/ ١٦٠).

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]. وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

إذا عرف هذا فالهداية المسئولة في قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان، وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق.

قيل: هذه هي المسألة الثامنة عشرة.

وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، ولقد أجاب وما أجاب، وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها، ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور، وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها.

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًّا له فيؤثره، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازمًا عليه ومريدًا لترك جميع ما نهى الله عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلًا، وعازمًا على تركه من

حيث الجملة مجملًا، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدىٰ التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلًا وتركًا، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه، فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها.

أحدها: أمور هُدِيَ إليها جملة، ولم يهتد إلىٰ تفاصيلها، فهو محتاج إلىٰ هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هُدِيَ إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلىٰ تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلًا من جميع وجوهها، فهو محتاج إلىٰ الاستمرار إلىٰ الهداية والدوام عليها، فهذه أصول تتعلق بما يعزم علىٰ فعله وتركه.

ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه علىٰ غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلىٰ تداركها بالتوبة منها، وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده ولا سبيل له إلىٰ فعله إلا بأن يخلق الله فاعليه فيه فالمسئول هو أصل الهداية علىٰ الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له وخلقا للفاعلية وتثبيتًا له علىٰ ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلىٰ سؤال الهداية: أصلها وتفصيلها علمًا وعملًا، والتثبيت عليها، والدوام إلىٰ الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلىٰ الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره: أصلًا وتفصيلًا وتثبيتًا ومفتقر إلىٰ مزيد العلم بالهدىٰ علىٰ الدوام، فليس له أنفع ولا هو إلىٰ شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه.

...[(١)] فلنرجع إلى ما ساقنا إلى هذا الموضع وهو الكلام على الهداية العامة، التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده.

قال تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] قال مجاهد: أعطى كل شيء خلقه لم يعط الإنسان خلق البهائم ولا البهائم خلق الإنسان[(٢)]، وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى، قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته[(٣)].

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه[(٤)]، والمعنى أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته، ومطعمه ومشربه، ومنكحه وتقلبه وتصرفه، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه[(٥)].

ولفظ السدي: أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه، ثم هدى إلى الجماع[(٦)]. وهذا القول اختيار ابن قتيبة والفراء.

قال الفراء: أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة، والثور بقرة، ثم ألهم الذكر كيف يأتيها. قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز، لأنا نرى الذكر من الحيوان

---

(١) ٧٨ شفاء.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٧٢) (٢١/ ٩٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢) وتفسير السيوطي (٥/ ٥٨٢) وتفسير ابن كثير (٣/ ١٥٦).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٧٢) وتفسير السيوطي (٥/ ٥٨١).
(٥) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ١٧).
(٦) يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٨١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

يأتي الأنثى، ولم ير ذكرا قد أتى أنثى، قبله فألهمه الله ذلك وهداه إليه.

قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى، لأنه إذا هداه لمصلحته، فهذا داخل في المصلحة.

قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها، فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه.

وقوله: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يأبى هذا التفسير، فإن حمل كل شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن، ومن لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يسافد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقا له، وأين نظير هذا في القرآن، وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها فقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥] فحمل قوله: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ على هذا المعنى غير صحيح فتأمله.

وفي الآية قول آخر قاله الضحاك، قال: أعطى كل شيء خلقه: أعطى اليد البطش، والرجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع.

ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء.

وهذا المعنى وإن كان صحيحا في نفسه لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته.

فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون، ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد، فقال: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[طه: ٥١] أي فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده، بل عبدت الأوثان.

والمعنى: لو كان ما تقوله حقًّا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل. ولهذا صار هذا ميزانًا في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم.

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب، فقال: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [طه: ٥٢] أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب، فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب ها هنا كتاب الأعمال، وقال الكلبي: يعني به اللوح المحفوظ. وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق.

والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها فيكون هذا من تمام قوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ فتأمله.

وهو سبحانه في القرآن كثيرًا ما يجمع بين الخلق والهداية، كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥]، وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ [البلد: ٨-١١]، وقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وقوله: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل: ٦٠] الآيات ثم قال: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [النمل: ٦٣] فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني، فهذا خلقه، وهذا هداه وتعليمه.

المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية الإرشاد والبيان للمكلفين، وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتّباع الحق وإن كانت شرطاً فيه أو جزء سبب، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضى: إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع، ولهذا قال تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهداهم هدي البيان والدلالة فلم يهتدوا، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولا بعد أن عرفوا الهدى، فأعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه.

وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها، وقال: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله، حيث قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ونفى عنه ملك الهداية الموجبة وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

ولهذا قال ﷺ: «بعثت داعيًا ومبلغًا، وليس إليّ من الهداية شيء، وبعث إبليس

مزينًا ومغويًا، وليس إليه من الضلالة شيء»(١).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥] فجمع سبحانه بين الهدايتين العامة والخاصة، فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلًا، وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلًا.

وهذه المرتبة أخص من التي قبلها فإنها هداية تخص المكلفين، وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا إلا بعد إقامتها عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٦، ٥٧].

وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩].

فإن قيل: كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه.

قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانا وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرا وباطنا، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله، فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى، ولم يحل بينهم وبينه.

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٨٢) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ١١-١٢ رقم ٢٠٩٤) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٩) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٨) وأبو الشيخ في تاريخ أصبهان (٤/ ٢٩٣) قال الذهبي في المغني في الضعفاء (١/ ٢٠٤): قال الدارقطني: لا أعلم روى غير هذا الحديث الباطل، يعني وذكر الحديث، وانظر: ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٢/ ٤١٦).

نعم قطع عنهم توفيقه، ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه، فهذا غير مقدور لهم، وهو الذي منعوه، وحيل بينهم وبينه.

فتأمل هذا الموضع واعرف قدره والله المستعان.

المرتبة الثالثة من مراتب الهداية: هداية التوفيق والإلهام، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل. وهذه المرتبة أخص من التي قبلها، وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها، وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا، ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم، كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى، وإنكار فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة، فلم يهتدوا لقول هؤلاء، بل زادهم ضلالا على ضلالهم وتمسكا بما هم عليه، وهذا شأن المبطل إذا دعا مبطلًا آخر إلى ترك مذهبه، لقوله ومذهبه الباطل: كالنصراني إذا دعا اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب وأن المسيح إله تام غير مخلوق إلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه، وهذه المرتبة تستلزم أمرين: أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى.

والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه، فهو الهادي والعبد المهتدي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ ولو حرص عليه، ولا إلى أحد غير الله، وأن الله سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى

مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١].

وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] ولم يريدوا أن بعض الهدىٰ منه وبعضه منهم، بل الهدىٰ كله منه، ولولا هدايته لهم لما اهتدوا.

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه.

كما أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه، وضلال فيه، فالأول: ضلال عن معرفته. والثاني: ضلال عن تفاصيله أو بعضها.

قال شيخنا: ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو محتاج إلى التوبة منها.

وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى.

وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي. وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية.

وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها على وجه الهداية إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فرض الله عليه أن يسأله، هذه الهداية في أفضل أحواله وهي الصلاة مرات متعددة في اليوم والليلة. انتهى كلامه.

(١)المرتبة الرابعة من مراتب الهداية: الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

---

(١) ٨٤ شفاء.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٤، ٥]، فهذه هداية بعد قتلهم فقيل: المعنى سيهديهم إلىٰ طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلىٰ أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا.

واستشكل هذا القول، لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم[1] سيهديهم. واختاره الزجاج، وقال: يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا، قال: وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة. وعلىٰ هذا القول فلابد من حمل قوله: ﴿ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ علىٰ معنىً يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال.

***

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝ ﴾.

[2]ظاهر الآية: أن الحامل لموسىٰ علىٰ العجلة هو طلب رضا ربه، وأن رضاه في المبادرة إلىٰ أوامره، والعجلة إليها، ولهذا احتج السلف بهذه الآية علىٰ أن الصلاة في أول الوقت أفضل. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك، قال: إن رضا الرب في العجلة إلىٰ أوامره.

***

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ۝ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ۝ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن

(١) كذا بالأصل ولعله: بأنه (ج).

(٢) ٥٩ مدارج جـ٣.

تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

[(١)]من تلاعبه[(٢)] بهم: عبادتهم العجل من دون الله تعالىٰ، وقد شاهدوا ما حلَّ بالمشركين من العقوبة والأخذة الرابية، ونبيهم حيٌّ لم يمت.

هذا، وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه، ويصليه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهرًا لبطن.

ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتىٰ جعلوه إله موسىٰ. فنسبوا موسىٰ عليه السلام إلىٰ الشرك وعبادة غير الله تعالىٰ، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعا علىٰ نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل. فجعلوه إله كليم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتىٰ جعلوا موسىٰ عليه السلام ضالًا مخطئًا، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. قال ابن عباس: «أي ضل وأخطأ الطريق».

وفي رواية عنه: «أي إن موسىٰ ذهب يطلب ربه فضلَّ، ولم يعلم مكانه»[(٣)].

وعنه أيضًا: «نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم».

وقال السدي: «أي ترك موسىٰ إلهه هاهنا، وذهب يطلبه»[(٤)].

وقال قتادة: «أي إن موسىٰ إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر».

هذا هو القول المشهور: أن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامري وعُبَّاد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرىٰ «أن هذا من إخبار الله تعالىٰ عن السامري: أنه نسي، أي ترك ما كان عليه من الإيمان».

والصحيح: القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره،

---

(١) ٣٠٠ إغاثة جـ٢.

(٢) أي الشيطان. أعاذنا الله وإياكم منه.

(٣) انظر: الدر المنثور (٣/ ٥٣٥) (٥/ ٥٨٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢٠١).

فقال: [فنسي موساهم[1]] يقولونه: «أخطأ الرب»[2].

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالًا من بني إسرائيل يوردونه عليه، فيقولون له: إذا كان هذا إله موسى، فلأي شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿ فَنَسِيَ ﴾.

وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم.

فانظر إلى هؤلاء، كيف اتخذوا إلهًا مصنوعًا من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب، محتاجًا إلى سبك بالنار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقًا بمطارق الحديد، مقلبًا في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم. وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إلها غيره.

قال محمد بن جرير: وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم [ذنوب] فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى [وَدِيق] فلما رآها الحصان تقحَّم خلفها، قال: وعرف السامري جبريل [لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته في غارٍ وأطبقت عليه، وكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبنًا، وفي الأخرى عسلًا، وفي الأخرى سمنًا، فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما عاينه في البحر عرفه] فقبض قبضة من أثر فرسه. قال: أخذ قبضة من تحت الحافر.

قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها: «فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول».

---

(١) زيادة من صحيح البخاري.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا (ص٩١٦) من كتاب التفسير، باب سورة طه، وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٢٧) (٨/ ٤٣٣).

قال أبو سعيد: قال عكرمة عن ابن عباس: «وأُلقي في روع السامري: إنك لا تلقيها على شيء، فتقول: كن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده، حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، وأغرق الله آل فرعون. قال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح، ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حلي من حلي آل فرعون قد استعاروه، فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله. فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا. فقذفها فيه [وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا]، وقال: كن عجلًا جسدًا له خوارٌ، فصار عجلًا جسدًا له خوار، فكان يدخل الريح في دبره ويخرج من فيه، يسمع له صوت. ﴿فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فعكفوا على العجل يعبدونه. فقال هارون: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٩ - ٩٠].

وقال السدي: «لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط. فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري، فأنكره. ويقال: إنه فرس الحياة. فقال حين رآه: إن لهذا لشأنًا، فأخذ من تربة حافر الفرس. فانطلق موسى عليه السلام، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله تعالى بعشر. فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلي القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعًا واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها [وإلا كان شيئًا لم تأكلوه] فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلًا جسدًا له خوار [وعدت بنو إسرائيل موعد موسى فعدوا الليلة يومًا واليوم يومًا. فلما كان تمام العشرين أخرج لهم

العجل] فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ [طه: ٨٨] يقول: ترك موسى إلهه هاهنا، وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٠]، يقول: إنما ابتليتم بالعجل: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [طه: ٩٠]، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل، لا يقاتلونهم. وانطلق موسى إلى الله يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ [وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ]﴾ [طه: ٨٣-٨٥]. فأخبره خبرهم. قال موسى: يا رب هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل. فالروح من نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا، قال: يا رب أنت إذاً أضللتهم».

وقال ابن إسحاق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان السامري [من أهل باجِرْما] من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل. فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزارًا من زينة القوم آل فرعون وأمتعةً وحليًّا فتطهروا منها، فإنها نجس، وأوقد لهم نارًا. فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحلي فيها، ورأى السامري أثر فرس جبريل، فأخذ ترابا من أثر فرس جبريل، فأخذ ترابا من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبي الله، أُلقي ما في يدي؟ ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة. فقذفه فيها، فقال: كن عجلًا جسدًا له خوار، فكان البلاء والفتنة. فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه، وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا مثله قط. يقول الله ﷻ: فنسي أي ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامري. ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩].

وكان اسم السامري موسى بن ظفر وقع في أرض مصر فدخل في بني إسرائيل.

فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:٩٠-٩١].

فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ [طه: ٩٤]. وكان له هائبًا مطيعًا[١].

فقال تعالى مذكرًا لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [البقرة: ٥١]. يعني من بعد ذهابه إلى ربه، وليس المراد من بعد موته. ﴿ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١]. أي بعبادة غير الله تعالى، لأن الشرك أظلم الظلم، لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.

فلما قدم موسى عليه السلام ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلام الله الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يعتبِ الله عليه في ذلك، لأنه حمله عليه الغضب لله. وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحال مشاهدةً حدث له غضبٌ آخر، فإنه ليس الخبر كالمعاينة.

***

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾.

...[٢]الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ [طه: ١٠٨] أي

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٨١-٢٨٣).
(٢) ١٢٥ التبيان.

يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه، قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها، وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له) قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى عن، أي لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج، وفي القولين تكلف ظاهر، ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظمًا للمعنيين ودالًا عليهما، والمعنى لا عوج لدعائه لا في أسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

[(١)]قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت[(٢)].

...[(٣)]كانت أم الدرداء ﷺ إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟! فيقال: ما أسمعها فتقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾[(٤)] [طه: ٥-٧] فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله، فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله ﷻ ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم ينب إليه، ولم يذبه بحبه والبكاء من

---

(١) ٥٢٠ مدارج جـ١.
(٢) يأتي إن شاء الله البحث عن الخشوع في سورة الحديد والمؤمنون (ج).
(٣) ٢٢٠ مفتاح جـ١.
(٤) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٢٢/ ٣٤٢).

خشيتهن فليتمتع قليلًا فإن أمامه الملين الأعظم: وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

***

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

(١) يعني لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده: لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

...(٢) تأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] والنسيان، سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر، كما فسر بهما هاهنا، فهو أمر عدمي.

ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فإنه إذا اعترف بنقصه، خص نفسه - بما حصل لها من عدم العلم والصبر - وبالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة، ثم قال: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولابد، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١.

(٢) ١٠٧ طريق الهجرتين.

ونحوه وإلا ضره ولابد، وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به وإلا خسر، والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير.

والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك ولابد، إذ كان ظالمًا لنفسه ظلومًا بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر فضرت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسًا؛ لأن ما ليس حساسًا متحركًا بالإرادة فليس نفسًا.

ففي الصحيح عن النبي ﷺ «أصدق الأسماء حارث وهمام»(١) فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها فلأجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه.

...(٢)﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] قال المفسرون من السلف والخلف قاطبة: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات ما عمل.

وعند الجبرية أن هذا لو وقع لم يكن ظلمًا، ومن المعلوم أن الآية لم ترفع عنه خوف المحال لذاته، وأنه لا يخاف الجمع بين النقيضين، فإنه لا يخاف ذلك، ولو أتى بكل كفر وإساءة، فلا يجوز تحريف كلام الله بحمله على هذا، فإن الخوف من الشيء

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٥٠) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٠٦ رقم ١٩٠٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٨١٤) وأحمد (٤/ ٣٤٥) وأبو يعلى (١٣/ ١١١-١١٣ رقم ٧١٦٩) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٠ رقم ٩٤٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٨) وعون المعبود (١٣/ ٢٠٠).

(٢) ٣١٥ مختصر الصواعق جـ١.

يستلزم تصور وجوده وإمكانه، وما لا يمكن وجوده يستحيل خوفه.

وأيضًا فإنه لا يحسن أن ينفي الجمع بين الضدين في السياق الذي نفى الله فيه الظلم كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] فلا يحسن بوجه أن يقال عقيب هذه الجملة: وما ربك بجامع للعبيد بين الوجود والعدم في آن واحد، وإنما الظلم المنفي هو خلاف ما اقتضاه قوله: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ وكذلك قوله: ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧] ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٠] أي لا يترك من أعمالهم ما هو بقدر الفتيل والنقير، فيكون ظلمًا.

وعند الجبرية يجوز أن يترك ثواب جميع أعمالهم من أولها إلى آخرها بغير سبب يقتضي تركها إلا مجرد المشيئة والقدرة، ولا يكون ذلك ظلمًا وكذلك قوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦] ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١] بين أنه لم يعاقبهم بغير جرم فيكون ظالمًا لهم، بل عاقبهم بظلمهم أنفسهم.

...[1]وقال أهل السنة والحديث ومن وافقهم: الظلم وضع الشيء في غير موضعه[2].

وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه، ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين، ولا يساوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب أهل البر والتقوى، وهذا قول أهل اللغة قاطبة.

وتفسير الظلم بذينيك التفسيرين اصطلاح حادث ووضع جديد.

---

(١) ٣١٢ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٠٧) وفتح الباري (١٢/ ٢٦٥) وشرح النووي (٢/ ١٤٣) وعمدة القاري (١٢/ ١١٠) والتمهيد (٢٠/ ١٥٧) وتهذيب الأسماء (٣/ ٨) والتعريفات (ص ١٨٦) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٤٨٤) ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣) ومختار الصحاح (ص ١٧٠).

قال ابن الأنباري: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظلم الرجل سقاءه إذا سقى منه قبل أن يخرج منه زبده. وقال الشاعر:

وصاحب صدق لم تنلني شكاية ظلمت وفي ظلمي له عامدًا أجر[١]

أراد بالصاحب وطب اللبن، وظلمه إياه إن يستقيه قبل أن يخرج زبده.

قال والعرب تقول: هو أظلم من حية، لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه[٢].

ويقال: قد ظلم الماء الوادي، إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى.

وقال الحسن بن مسعود الفراء: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه[٣].

قال: ومنه قولهم: من أشبه أباه فما ظلم[٤]، وقوله: من استرعى الذئب فقد ظلم[٥]، يعنون من أشبه أباه فما وضع الشبه في غير موضعه، وهذا القول هو الصواب المعروف في لغة العرب والقرآن والسنة...

***

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾.

---

(١) ذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٢/ ٣٧٥) ونسبه إلى ثعلب. وذكره أيضًا الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٢٦٧) وانظر: مجالس ثعلب (ص ١٢٢).

(٢) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٣٧٥) (١٤/ ٢٢٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٣٤، ٢٨٤) وتفسير القرطبي (١/ ٣٠٩، ٤٠١) وفتح الباري (٥/ ٩٥) والديباج على مسلم (١/ ١٤١) وتحفة الأحوذي (٦/ ١٥٠) وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٨٤) والقاموس (ص ١٤٦٤) واللسان (١٢/ ٣٧٣).

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٢٨٥) والمزي في تهذيب الكمال (٢٤/ ٣٨٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ٤٤٦) وابن حجر في الإصابة (٦/ ٤٦٤) وابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ٤٨٤) وابن منظور في اللسان (١٢/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه هبة الله الطبري اللالكائي في كرامات الأولياء (رقم ٦٧) عن عمر بن الخطاب ﷺ، وابن عساكر في تاريخه (٢٠/ ٢٥) وذكره ابن حجر في الإصابة (٣/ ٦) وحسنه ونقل تحسينه العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٥١٥) وانظر: لسان العرب (١٢/ ٣٧٣).

...[1]سأل سائل فقال: إذا كانت الجنة لا موت فيها، فكيف يأكلون فيها لحم الطير، وهو حيوان قد فارقته الروح؟! فأجيب بأنه يجوز أن لا يكون ميتًا. وهذا جواب في غاية الغثاثة.

قال ابن عقيل: وما الذي أحوجه إلى هذا والجنة دار لا يخلق فيها أذى ولانصب لا مطلقًا، بل لا يدخل الداخل إليها ذلك على طريق الإكرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝﴾ [طه: ١١٨-١١٩] وذلك مشروط بالطاعة، فإذا جاز ذلك في حق آدم علم أنه ليس بواجب في حق الطير، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يكون هذا الطائر مشويًا لا عن روح خرجت منه أو عن روح خرجت خارج الجنة وولج الجنة وهو لحم مشوي. (قلت): وما الذي أوجب هذا التكلف كله، فالجنة دار الخلود لأهلها وسكانها، وأما الطير فهو نوع من أنواع الأطعمة التي يحدثها الله لهم شيئًا بعد شيء، فهو دائم النوع وإن كان آحاده متصرمة، كالفاكهة وغيرها، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن المؤمنين ينحر لهم يوم القيامة ثور الجنة، الذي كان يأكل منها فيكون نزلهم[2]، فهذا حيوان قد كان يأكل من الجنة فينحر نزلًا لأهلها، والله أعلم.

[3]الله سبحانه مهد الأرض لآدم وذريته قبل خلقه، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقضى أن يعرفه قدر المخالفة، وأقام عذره بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] وتداركه برحمة بقوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢] يا آدم لا تجزع من كأس خطأ كان سبب كيسك، فقد استخرج منك داء العجب، وألبسك رداء العبودية لو لم تذنبوا، لا تحزن بقولي لك: اهبطوا منها فلك خلقتها، ولكن اخرج إلى

(١) ١٧٦ بدائع جـ٣.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣١٥) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٥) وعمدة القاري (٢٣/ ١٠٣).
(٣) ٢٢٣ بدائع جـ٣.

مزرعة المجاهدة، واجتهد في البذر، واسق شجرة الندم بساقية الدمع، فإذا عاد العود أخضر فعد لما كان...

...[(١)]تأمل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] كيف شرك بينهما في الخروج، وخص الذكر بالشقاء، لاشتغاله بالكسب والمعاش، والمرأة في خدرها.

...[(٢)]قوله تعالىٰ لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعُري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحىٰ دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عُرىٰ الباطن وذله، والعُرىٰ جوع الظاهر وذُلُّه، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حرُّ الباطن، والضحىٰ حرُّ الظاهر، فقابل بينهما...

...[(٣)]من له غرض في دقائق المعاني يتجاوز نظره قالب اللفظ إلىٰ لب المعنىٰ، والواقف مع الألفاظ مقصور النظر علىٰ الزينة اللفظية.

فتأمل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] كيف قابل الجوع بالعرىٰ والظمأ بالضحىٰ، والواقف مع القالب ربما يخيل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ،والعرىٰ بالضحىٰ. والداخل إلىٰ بلد المعنىٰ يرىٰ هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم الباطن، والعرىٰ ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنىٰ، وكذلك الظمأ مع الضحىٰ؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحىٰ موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهرًا وباطنًا، وفي هذا الباب حكاية مشهورة وهي أن ابن حمدان قال يومًا للمتنبي: قد انتقد عليك قولك:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردىٰ وهو نائم

---

(١) ٢٢٩ بدائع جـ٣.

(٢) ٢٥١ روضة المحبين.

(٣) ٢٤٠ بدائع جـ٣.

تمـر بـك الأبطـال كلمـى هزيمـة ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم

قالوا: ركبت صدر كل بيت على عجز الآخر وكان الأولى أن يقول:

وقفت وما في الموت شك لواقـف ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم
تمـر بـك الأبطـال كلمـى هزيمـة كأنك في جفن الـردى وهـو نـائم[(١)]

فليتم المعنى حينئذ؛ لأن انبساط الوجه ووضوحه مع الوقوف في موقف الموت أشبه بأوصاف الكماة، والسلامة من الردى مع مرور الأبطال كلمى هزيمة أعجب في حصول النجاة، وهذا كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كـأني لم أركـب جـوادًا للـذة ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخـال[(٢)(٣)]

***

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا
وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

[(٤)]خلق بدن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء، وقرن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي. وإذا أشبعه ونعّمه ونومه واشتغل بخدمته

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان للمتنبي أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي أبي الطيب الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربي، لـه الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة مات سنة ٣٥٤هـ ذكرهما أسامة بن منقذ في البديع في نقد الشعر (ص ٢٥٧) وانظر: يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر لأبي منصور الثعالبي (١/ ٢٨).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى امرئ القيس، وذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٣/ ٥٧)، وأسامة بن منقذ في البديع (ص ٢٥٦) وأبو هلال العسكري في الصناعتين (١/ ٢٧٩).

(٣) تتمة البحث فيه الجواب لمن أراده (ج).

(٤) ١٦٧ فوائد.

وراحته أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه، فانجذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن، لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه، كما يستغيث المعذّب.

وبالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي. وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفليّة فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك فيكون نائما على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش. وآخر واقف في الخدمة ببدنه وروحه في السفل تجول حول السفليات، فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرّة عين، وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة. وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

فذكره كلامه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه ترك تدبره والعمل به والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء في التفسير أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس. وفيه حديث مرفوع[1].

وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: «منزل ضنك وعيش ضنك»[2]، فهذه المعيشة الضنك، في مقابلة التوسيع على النفس والبدن

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢٢٧) عن أبي سعيد الخدري وأخرجه أيضًا (١٦/ ٢٢٨) عن أبي هريرة. وذكره السيوطي عن ابن مسعود في الدر المنثور (٥/ ٦٠٩) وعزاه إلى هناد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني والبيهقي. وأخرجه الحاكم عن أبي هريرة (١/ ٥٣٧ رقم ١٤٠٥) وأخرجه أيضًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ (٢/ ٤١٣ رقم ٣٤٣٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري وكذا أخرجه مرفوعًا ابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٨٩ رقم ٣١١٩) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٥١) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٥٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٣٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٢٢٥) وعمدة القاري (١٩/ ٥٩).

بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيّقت على القلب حتى تعيش معيشة ضنكا، وكلما ضيّقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما.فأشق البدن بنعيم الروح، ولا تشق الروح بنعيم البدن، فإن نعيم الروح وشقاءها أدوم وأعظم، ونعيم البدن وشقاءه أقصر وأهون، والله المستعان.

...[1]ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه، فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: عن الذكر الذي أنزلته، فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل: كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعول، وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكرني، بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره.

وأحسن من هذا الوجه أن يقال: الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها، والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكرًا.

قال تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ ﴾ [يس: ١١].

وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله.

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

ونظيره في إضافة اسم الفاعل ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [غافر: ٣] فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم، وكذلك جرت أوصافًا على أعرف المعارف، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٢، ٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر، ولهذا قال: ﴿ وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] أي تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار.

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، فهذا في البرزخ ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في القيامة الكبرى.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] فقول الملائكة: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾ المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠] فهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة، فإنه معطوف على قوله: ﴿ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره، وكلاهما واقع وقت الوفاة.

وفي الصحيح عن البراء بن عازب ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: نزلت في عذاب القبر[(١)] والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر.

والمقصود: أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره، وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى، فإن له معيشة ضنكا، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة، ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علمًا وعملًا في العاجلة بالحياة الطيبة وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة.

[(٢)] وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٥] اختلف فيه: هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر، والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]. وقوله: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢]. وقوله: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٢٢]. وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥] وقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٩) ومسلم (رقم ٢٨٧١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٤-٢٣٩) (١٣/ ٤٢٨) وشرح النووي (١٧/ ٢٠١-٢٠٤).

(٢) ٤٤ مفتاح جـ١.

تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٣-١٥] وقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجحوا انه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه، لقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه: ١٢٦] وهو لم يكن بصيرًا في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: وقد كنت بصيرًا. وكيف يجاب بقول: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٦].

بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد قيل في هـذه الآية أيضًا أنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قولـه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون.

ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يرون شيئًا يسرهم.

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

[المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا صمًا، لا يبصرون، ولا يسمعون، ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق، وهذا منقول عن مقاتل.

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمي عنها، بل هم عمي عن الهدى كما كانوا في الدنيا؛ فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ، وفصل الخطاب: أن الحشر هو الضم والجمع.

ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا**» وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وكقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار، لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١] ثم قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ وهذا الحشر الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من

الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون. وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢].

...[١]إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[طه: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[الأحقاف: ٢٠] وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[٢] وسيأتي الحديث.

إنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٥] وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله تعالى: ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء: ١٣].

إنه سبحانه ذم محب المال، فقال: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[الفجر: ١٩، ٢٠] فذمهم بحب المال وعيَّرهم به.

...[٣]العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا، فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة، فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن

(١) ١٩٥ عدة الصابرين.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٣) وانظر: فتح الباري ٠٩/ ٢٨٨-٢٨٩).
(٣) ١٦٨ الفوائد.

تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه، وصفات كماله ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته؛ فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والإصرار عليها.

وقد قال يحيى بن معاذ: «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة؛ فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد، ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن، فإن للبن تأثيرًا في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة: فإن قويت على مرارة الفطام، وإلا فارتضع بقدر؛ فإن من البشمِ ما يقتل[(١)].

***

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

...[(٢)]قال حنبل: قلت لأبي عبد الله: ما أحب إليك ما يتقرب به العبد من العمل إلى الله؟ قال: كثرة الصلاة والسجود، وأقرب ما يكون العبد من الله إذا عفر وجهه له ساجدًا.

يعني بهذا إذا سجد لله على التراب، في هذا بيان أن الصلاة أفضل أعمال الخير.

وروى عنه المروزي أنه قال: كل تسبيح في القرآن صلاة[(٣)] إلا موضع واحد.

قال: ﴿ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩] ركعتين قبل الفجر، ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٤٠]

---

(١) البشم معناها: التخمة. يقال: الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٢٢٦) والنهاية في غريب الحديث (١/ ١٣١) والقاموس المحيط (ص ١٣٩٦).

(٢) ١١٣ بدائع جـ٤.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١٤٦) عن ابن عباس، والضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٣١٤ رقم ٣٣٥).

ركعتين بعد المغرب(١).

قال أبو حفص: والحجة في تفضيل الصلاة على سائر أعمال القرب قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وكان حذيفة إذا أحزنه أمر صلَّى، وقال: «أعني على نفسك بكثرة السجود»(٢) وقال: «أفضل الأعمال الصلاة لأول وقتها»(٣) وقال: «جعلت قرة عيني في الصلاة»(٤)، ولأنها تختص بجمع الهمة،وحضور القلب، والانقطاع عن كل شيء سواها، بخلاف غيرها من الطاعات، ولهذا كانت ثقيلة على النفس.

نقل عنه محمد بن الحكم في الرجل يفوته ورده من الليل، لا يقرأ به في ركعتي الفجر، كان النبي ﷺ يخففهما، لكن يقرأ إذا أصبح، أرجو أن يحسب له بقيام الليل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة طه

والحمد لله رب العالمين



---

(١) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٤٩) والطبري في تفسيره (٢٦/ ١٨١) (٢٧/ ٣٩-٤٠) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٦٤-٢٦٥ رقم ٧٤٥٨) وانظر: عمدة القاري (٧/ ٢١٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٩) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٦).

(٣) أخرجه ابن حبان (٤/ ٣٣٩ رقم ١٤٧٥) وابن خزيمة (١/ ١٦٩ رقم ٣٢٧) وأبو داود (رقم ٤٢٦) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٣٢ رقم ١٠٣٥) والدارقطني (١/ ٢٤٦ رقم ٥) وابن أبي شيبة (١/ ٢٨٠ رقم ٣٢١٩) وعبدالرزاق (١/ ٥٨٢ رقم ٢٢١٧) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٥٤ رقم ٨٥٥٧) وفي الكبير (٢٥/ ٨١ رقم ٢٠٧) وعبد بن حميد (رقم ١٥٦٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٠، ٤١).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٣٦٧ رقم ١٥٣٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٠ رقم ٨٨٨٨) وفي الصغرى (رقم ٣٩٣٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٢) والحاكم (٢/ ١٧٤ رقم ٢٦٧٦) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٤١ رقم ٥٢٠٣) وفي الصغير (رقم ٧٤١) وفي الكبير (٢٠/ ٤٢٠ رقم ١٠١٢) وأبو يعلى (٦/ ١٩٩ رقم ٣٤٨٢) وأحمد (٣/ ١٢٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٥) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٢/ ٣٨٢).

سُورَةُ الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

...[1]ما احتج به سبحانه على النصارى مبطلًا لدعوى إلهية المسيح كقوله: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٧] فأخبر تعالى أن هذا الذي أضافه من نسب الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل، ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه، ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر المجبول على الثبات والبقاء، لا من جواهر هذا العالم الفاني الكثير الأدناس والأوساخ والأقذار.

ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤].

وقال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥] وقد تضمنت هذه الحجة دليلين يبطلان إلهية المسيح وأمه.

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسها، بل هي محتاجة فيما يعينهما إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهًا إذ من

---

(١) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

لوازم الإله أن يكون غنيًّا.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها . ولهذا ـ والله أعلم ـ عبر الله سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة اهـ.

***

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[1] الله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنبياء: ١٩] هاهنا، ثم يبتدئ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي: أن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا، ثم استأنف جملة أخرى، فقال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني: لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون ـ

(١) ١٠٢ مدارج جـ١.

يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم، فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

***

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(١)إن قوام السماوات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهًا حقًّا، إذا الإله الحق لا شريك له، ولا سميَّ له، ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلىٰ الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلىٰ ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلىٰ إلهين متساويين.

إذا عرف هذا، فاعلم أن حاجة العبد إلىٰ أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلىٰ روحه، والعين إلىٰ نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها.

(٢)إذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة. ولا صلاح للموجودات إلاّ بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلاّ بإبداعه وحده.

---

(١) ٥٧ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٧٤ الجواب الكافي.

ولهذا قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولم يقل سبحانه: لما وجدتا، ولكانتا معدومتين ولا قال: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن تكون على وجه الصلاح والاستقامة إلاّ بان يكون الله وحده وهو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه وتفرده دونه بالإلهية، إذ الشرك نقص في كمال الإلهية، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهًا ناقصًا، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده، والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه، ولم يكن تام الإلهية، فيجب إن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيها ملكان متكافئان، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان، والشول إذا كان فيه فحلان. وأصل فساد العالم إنما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيهم في زمن من الأزمنة إلاّ في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم، وانفراد كل واحد منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو على بعض، فصلاح السموات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الأدلة على أنه لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلّا وجهه الأعلى.

قال الله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٣].

***

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

(١) أما هديه في الشراب فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة: فإنه كان يشرب العسلَ الممزوجَ بالماء البارد، وفي هذا مِن حفظ الصحة ما لا يَهتدي إلى معرفته إلا أفاضلُ الأطباء، فإنَّ شُربه ولعقَه على الرِّيق يُذيب البلغم، ويغسِلُ خَمْل المَعِدَة، ويجلُو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويُسخنها باعتدال، ويفتحُ سددها، ويفعل مثل ذلك بالكَبِد والكُلَى والمثَانة، وهو أنفع للمَعِدَة من كل حلو دخلها، وإنما يضر بالعَرَض لصاحب الصَّفراء لحدَّتِه وحِدَّة الصفراء، فربما هيَّجها، ودفعُ مضرَّته لهم بالخلِّ، فيعودُ حينئذ لهم نافعاً جداً، وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرِها، ولاسِيَّما لمن لم يعتد هذه الأشربة، ولا أَلِفَها طبعُه، فإنه إذا شربها لا تلائمه ملاءمةَ العسل، ولا قريباً منه.

والمحكَّمُ في ذلك: العادة، فإنها تهدم أُصولاً، وتبني أُصولاً.

وأما الشراب إذا جَمَعَ وصْفَيِ الحلاوة والبرودة: فمن أنفع شيء للبدن، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة، وللأرواح والقُوى، والكبد والقلب، عشقٌ شديدٌ له، واستمدادٌ منه، وإذا كان فيه الوصفانِ، حصَلتْ به التغذيةُ، وتنفيذُ الطعام إلى الأعضاء، وإيصاله إليها أتمَّ تنفيذ.

والماء البارد رطب يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية، ويرد عليه

---

(١) ٢٨٩ زاد المعاد جـ٣.

بدل ما تحلَّل منها، ويُرقِّقُ الغِذاء ويُنفِذه في العروق. واختلف الأطباء: هل يُغذِّي البدن ؟ على قولين: فأثبتت طائفةٌ التغذية به بناءً على ما يشاهدونه من النمو والزيادة والقوة في البدن به، ولا سِيَّما عند شدة الحاجة إليه.

قالوا: وبينَ الحيوانِ والنبات قدرٌ مشترك مِن وجوه عديدة.

منها: النموُّ والاغتذاءُ والاعتدال، وفي النبات: قوةُ حِسٍّ وحركة تُناسبه، ولهذا كان غِذاءُ النبات بالماء، فما يُنكر أن يكون للحيوان به نوعُ غذاء، وأن يكون جزءاً من غذائه التام.

قالوا: ونحن لا ننكر أنَّ قوة الغذاء ومعظمه في الطعام، وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغذية ألبتة. قالوا: وأيضاً الطعام إنما يُغذِّي بما فيه من المائية، ولولاها ما حصلت به التغذيةُ.قالوا: ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات، ولا ريب أنَّ ما كان أقربَ إلى مادة الشيء، حصلت به التغذية، فكيف إذا كانت مادته الأصلية، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فكيف ننكِرُ حصولَ التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق؟

قالوا: وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد، تراجعت إليه قواه ونشاطُه وحركته، وصبرَ عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه، ورأينا العطشانَ لا ينتفِعُ بالقدرِ الكثير مِن الطعام، ولا يحدث له به القوة والاغتذاءَ، ونحن لا ننكِرُ أنَّ الماءَ يُنفِذُ الغذاء إلى أجزاء البدن، وإلى جميع الأعضاء، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به، وإنما ننكر على مَن سلب قوةَ التغذية عنه البتة، ويكاد قولُه عندنا يدخُل في إنكار الأُمور الوجدانية.

وأنكرت طائفةٌ أُخرى حصولَ التغذية به، واحتجَّت بأُمور يرجعُ حاصِلُها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لا يقومُ مقام الطعام، وأنه لا يزيد في نموِّ الأعضاء، ولا يخلف عليها بدل ما حلَّلته الحرارةُ، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية، فإنهم يَجعلون تغذيته بحسب جوهره، ولطافته ورقته، وتغذيةُ كل شيء بحسبه، وقد شُوهد الهواءُ الرَّطب البارد اللَّين اللَّذيذ يُغذِّي بحسبه، والرائحة الطيبة تُغذِّي نوعاً من الغذاء،

فتغذية الماء أظهر وأظهر.

والمقصودُ: أنه إذا كان بارداً، وخالطه ما يُحليه ـ كالعسل، أو الزبيب. أو التمر أو السكر ـ كان من أنفع ما يدخل البدن، وحفِظَ عليه صحته، فلهذا كان أحبُّ الشرابِ إلى رسولِ الله ﷺ البارِدَ الحلوَ. والماءُ الفاترُ ينفخ، ويفعل ضدَّ هذه الأشياء.

ولما كان الماء البائت أنفعَ من الذي يُشرب وقتَ استقائه، قال النبيُّ ﷺ وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التيهان: «هَلْ من ماءٍ بات في شَنَّة»؟ فأتاه به، فشرب منه، رواه البخاري ولفظُه: «إنْ كان عِنْدَكَ ماءٌ باتَ في شَنَّة وإلاَّ كَرَعْنَا»[1] والماء البائت: بمنزلة العجين الخمير، والذي شُرِب لوقته بمنزلة الفطير[2].

وأيضاً: فإنَّ الأجزاء الترابية والأرضية تُفارقه إذا بات، وقد ذُكِر أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُسْتَعْذَبُ له الماء[3]، «ويَختار البائت منه»[4]. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يُستقى له الماء العذب مِن بئر السقيا[5].

***

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

[6]أثنى سبحانه في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦١٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٧٧).

(٢) انظر: فيض القدير (٥/ ٢١٨).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٢/ ١٤٩ رقم ٥٣٣٢) وفي موارد الظمآن (رقم ١٣٦٥) وأبو داود (رقم ٣٧٣٥) وأبو يعلى (٨/ ٨٢ رقم ٤٦١٣) وإسحاق بن راهويه (٢/ ٣١٧ رقم ٨٤١) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٢١ رقم ٦٠٣٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٧٤).

(٤) انظر: فتح الباري (١٠/ ٧٧) وعون المعبود (١٠/ ١٣٧).

(٥) أخرجه أبو يعلى (٨/ ٨٢ رقم ٤٦١٣) والخطيب في تاريخه (٣/ ١٣٠) وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٢٤٧) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ١٠١ رقم ٤٦٢).

(٦) ١٩٧ مفتاح جـ١.

[الأنبياء: ٣٢] وتأمل كيف خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع، الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة، وأودعه العجائب والآيات، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد(١)

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات، ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم الآيات البينات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وأن الله لسميع عليم، فارجع البصر إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها، ولا تغير في سيرها، بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر، لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها.

***

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝﴾.

(٢)سئل البخاري عن الخضر وإلياس، هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا؟ وقد

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وقائله أمية بن أبي الصلت، وهو شاعر جاهلي من أهل الطائف، اطلع على الكتب القديمة التوراة والإنجيل والزبور، حرّم على نفسه الخمر ونبذ عبادة الأوثان، وأدرك النبي ﷺ، وشهد أنه على الحق، ولكنه لم يدخل في دين الله ﷻ وقال فيه رسول الله ﷺ: «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) والبيت ذكره أبو عمر ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٥٢٨) والتمهيد (٧/ ١٣٣) وابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (١٣/ ٢١).

(٢) ٦٨ المنار المنيف.

قال النبي ﷺ: «لا يبقىٰ علىٰ رأس مئة سنة ممن هو اليوم علىٰ ظهر الأرض أحد»[١].

وسئل عن ذلك كثير غيرهما من الأئمة فقالوا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: لو كان الخضر حيًا لوجب عليه أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه، ويتعلم منه، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»[٢]. وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلًا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذ؟

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والدليل علىٰ أن الخضر ليس بباقٍ في الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء، والمعقول. أما القرآن فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فلو دام الخضر كان خالدًا.

***

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣]الله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقرهم، فخلق الغنىٰ والفقر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملًا، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية، والثواب والعقاب، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنىٰ والفقر، والحلال والحرام، وكلها بلاء[٤] وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون، لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون. وقال الكلبي: بالشر بالفقر والبلاء. والخير

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٦) ومسلم (رقم ٢٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٩٧-٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٣٤).

(٣) ١٦٩ عدة الصابرين.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٠٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٩).

بالمال والولد، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان.

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] فأخبر سبحانه أنه يبتلي عبده بإكرامه له وبتنعيمه له، وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان.

ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده، وأن تضييقه عليه إهانة منه له، فقال ﴿ كَلَّا ﴾ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد أبتلي بنعمتي وأنعم ببلائي، وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهرا للمتأمل. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]...

***

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[١]تنقسم[٢] بذلك إلى قسمين: أحدهما محبة تنشأ من: الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم؛ فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحساناً من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله. ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده. ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة، فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنى نعمة

(١) ٣١٥ طريق الهجرتين.
(٢) أي المحبة.

عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(١).

هذا إلى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة، والعبد لا شعور به بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ [الأنبياء:٤٢]، وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءاً، ويكون يكلؤكم مضمناً معنى يجيركم وينجيكم من بأسه، أو كانت «من» البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن، أي هو الذي يكلؤكم وحده، لا كالئ لكم غيره.

ونظير «من» هذه قوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٠]، على أحد القولين، أي عوضكم وبدلكم، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

جارية لم تأكل المرقَّقا ولم تذق من البقول الفستقا(٢)

أي لم تأكل الفستق بدل البقول، وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءَتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم، وفقرهم التام إليه من كل وجه.

وفي بعض الآثار يقول تعالى: «أنا الجواد، ومن أعظم مني جوداً وكرماً؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم»(٣).

***

(١) إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

(٢) هذا البيت من بحر الرجز وقائله أبو نخيلة بن حزن بن زائدة الحماني التميمي شاعر راجز، مات سنة ١٤٥هـ. ذكر البيت ابن منظور في لسان العرب (١٠/ ٣٠٨) (١١/ ٦١) وابن كثير في تفسيره (٣/ ١٨٠) والشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ١٥٤) وجاء فيهما: جارية لم تلبس المرققا.

(٣) أخرجه بنحوه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٤٧ رقم ٨٠٩٢) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٢-٩٣) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٨) وشرح حديث لبيك (ص ١٣٨).

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

...[1]قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] يجوز أن تكون اللام لام التعليل: أي: لأجل يوم القيامة. وقد قيل: إن «القسط» منصوب على أنه مفعول له، أي نضعها لأجل القسط، وقد استوفى شروط نصبه.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

[2]«الإشفاق» رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنه ألطف الرحمة وأرقها، ولهذا قال صاحب المنازل: «الإشفاق: دوام الحذر، مقرونًا بالترحم، وهو على ثلاث درجات. الأولى: إشفاق على النفس أن تجمع إلى العناد»، أي تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان، ومعاندة العبودية.

و«إشفاق على العمل: أن يصير إلى الضياع». أي يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهي الأعمال التي كانت لغير الله،وعلى غير أمره وسنة رسوله ﷺ، ويخاف أيضًا أن يضيع عمله في المستقبل، إما بتركه، وإما بمعاصي تفرقه وتحبطه، فيذهب ضائعًا، ويكون حال صاحبه كالحال التي قال الله تعالى عن أصحابها: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] قال عمر بن الخطاب ﷺ للصحابة ﷺ: «فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم. فقال

---

(١) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٤.

(٢) ٥١٧ مدارج جـ١.

ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: يا ابن أخي قل. ولا تحقرنَّ نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، فبعث الله إليه الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله»[1] اهـ.

...[2]واقتران التوراة بالقرآن في غير موضع من الكتاب: كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩].

وقوله في الأنعام ردًّا على من قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤، ١٥٥].

وقال في سورة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١-٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٨) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٢٩).
(٢) ١١١ جلاء الأفهام.

ولهذا يذكر ﷺ قصة موسى ويعيدها ويبديها، ويسلي رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله ﷺ عندما يناله من أذى الناس: «لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر»[(١)] ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعله»[(٢)]. فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين؛ أعني الشريعة الصحيحة التي لم تبدل، والأمتين واللغتين.

[(٣)]ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر: تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر: ذكر مطلق. وفي موضع آخر: ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر. وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كون ذكرًا عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم.

ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه.

ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم.

ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه، لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها.

ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه، ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٠) ومسلم (رقم ١٠٦٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٢).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٤١) وحسنه، والحاكم (١/ ٢١٨ رقم ٤٤٤) والديلمي في الفردوس (٣/ ٤٣٩ رقم ٥٣٤٧).
(٣) ٨٠ التبيان.

وإذا كان كذلك فأحق وأولىٰ وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين، وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل علىٰ الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدىٰ وفيه الهدىٰ، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

***

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

(١) وأصح الأقوال في الآية أن المعنىٰ من قبل نزول التوراة فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] وقال: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ثم قال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ذلك، ولهذا قطعت (قبل) عن الإضافة، وبنيت لأن المضاف منوىٰ معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ.

وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة، وهم أئمة الرسل، وأكرم الخلق عليه: محمد وإبراهيم وموسىٰ، وقد قيل: من قبل أي: في حال صغره، قبل البلوغ، وليس في اللفظ ما يدل علىٰ هذا، والسياق إنما يقتضىٰ من قبل ما ذكر.

وقيل: المعنىٰ بقوله: من قبل، أي: في سابق علمنا، وليس في الآية أيضًا ما يدل علىٰ ذلك، ولا هو أمر مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه، والمقصود قوله: ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ قال البغوي: إنه أهل للهداية والنبوة، وقال أبو الفرج، أي: عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد.

وقال صاحب الكشاف: المعنىٰ علمه به أنه علم منه أحوالًا بديعة وأسرارًا عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها، حتىٰ أهله لمخالته ومخالصته، وهذا كقولك في حر من

(١) ٣٢ شفاء العليل.

الناس: أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف، وهذا كقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الدخان: ٣٢].

ونظيره قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وقريب منه قوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١] حيث وضعنا هذا التخصيص في ا لمحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي.

***

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

[(١)] الإنابة هي: عكوف القلب على الله ﷻ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته، وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده، عكف على التماثيل المتنوعة؛ كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل: جمع تمثال، وهي: الصورة الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه؛ عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عبادة الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه

---

(١) ١٩٥ فوائد.

بالتعس والنكس، فقال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»**[(١)].

...[(٢)]أخبر الله سبحانه عن كليمه موسى عليه السلام: أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله، ونسفه في اليم، وكان من ذهب وفضة، وذلك محق له بالكلية.

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨] وهو الفتات وذلك نص في الاستئصال.

وروى الإمام أحمد في مسنده والطبراني في المعجم من حديث الفرج بن فضالة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله بعثني رحمة للعالمين، وهدى للعالمين، وأمرني ربي بمحقِ المعازف والمزامير والأوثان، والصليب، وأمر الجاهلية»**[(٣)] لفظ الطبراني. والفرج: حمصي. قال أحمد في رواية: هو ثقة وقال يحيى: ليس به بأس، وتكلم فيه آخرون. وعلي بن يزيد: دمشقي ضعفه غير واحد، وقال أبو مسهر - وهو بلديُّه -: لا أعلم به إلا خيرًا، وهو أعرف به. «والمحق» نهاية الإتلاف.

وأيضًا: فالقياس يقتضي ذلك، لأن محل الضمان: هو ما قَبِل المعاوضة، وما نحن فيه لا يقبلها البتة، فلا يكون مضمونًا،وإنما قلنا: لا يقبل المعاوضة، لأن النبي ﷺ قال: **«إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»**[(٤)] وهذا نص. وقال: **«إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه»**[(٥)] والملاهي محرمات بالنص، فحرم بيعها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٨٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٤).

(٢) ٢٧٢ الطرق الحكمية.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨) والطبراني في الكبير (٨/ ١٩٦ رقم ٧٨٠٣) والطيالسي (رقم ١١٣٤) وأبو علي الأشيب في جزئه (رقم ١٢) وانظر: المفتي (١٠/ ١٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٣٦) ومسلم (رقم ١٥٨١) وانظر: شرح النووي (١١/ ٦).

(٥) أخرجه ابن حبان (١١/ ٣١٢ رقم ٤٩٣٨) والدارقطني (٣/ ٧ رقم ٢٠) وابن المنذر في الأوسط (٢/ ٢٩١ رقم ٨٨٥) وابن الجعد (رقم ٣٣١٩) وانظر: التمهيد (١٧/ ٤٠٣) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤١٤-٤١٥).

وأما قبول ما فوق الحد المبطل للصورة لجعله آنية: فلا يثبت به وجوب الضمان، لسقوط حرمته، حيث صار جزء المحرم، أو ظرفًا له، كما أمر به النبي ﷺ في كسر دِنان الخمر، وشق ظروفها، فلا ريب أن للمجاورة تأثيرًا في الامتهان والإكرام.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، وسئل النبي ﷺ عن القوم: يكونون بين المشركين، يؤاكلونهم ويشاربونهم؟ فقال: «هم منهم» هذا لفظه أو معناه.

فإذا كان هذا في المجاورة المنفصلة فكيف بالمجاورة التي صارت جزءًا من أجزاء المحرم، أو لصيقة به؟ وتأثير الجوار ثابت عقلًا وشرعًا وعرفًا.

والمقصود أن إتلاف المال ـ على وجه التعزير والعقوبة ـ ليس بمنسوخ...

***

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

(١) ذكر النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالحكم والعلم، وخصّ بفهم القضية أحدهما، وقد ذكرت الحكمين الداوودي والسليماني ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا، ومن صار إلى هذا، وترجيح الحكم السليماني من عدة وجوه، وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد.

(٢) وعلى هذا الأصل تبتنى الحكومة المذكورة في كتاب الله ﷻ، التي حكم فيها النبيان الكريمان: داود وسليمان صلى الله عليهما وسلم؛ إذ حكما في الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، والحرث: هو البستان.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.
(٢) ٣٢٦ أعلام جـ١.

وقد روى أنه كان بستان عنب، وهو المسمى بالكرم، والنفش: رَعْيُ الغنم ليلًا، فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها ورضي أولئك بأخذها بدلًا عن القيمة، وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان، ولم يضيع عليهم مُغَلَّه من الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء، وهذا هو العلم الذي خصَّه الله به، وأثنى عليه بإدراكه. وقد تنازع علماء المسلمين في مثل هذه القضية على أربعة أقوال:

أحدها: موافقة الحكم السليماني في ضمان النفس وفي المثل، وهو الحق، وهو أحد القولين في مذهب أحمد، ووجه للشافعية والمالكية، والمشهور عندهم خلافه.

والقول الثاني: موافقته في ضمان النفش دون التضمين بالمثل، وهذا هو المشهور من مذهب مالك والشافعي وأحمد.

والثالث: موافقته في التضمين بالمثل دون النفش، كما إذا رَعَاها صاحبها باختياره دون ما إذا تفلتت ولم يشعر بها، وهو قول داود ومن وافقه.

والقوال الرابع: أن النفش لا يوجب الضمان بحال، وما وجب من ضمان الراعي بغير النفش، فإنه يضمن بالقيمة لا بالمثل، وهذا مذهب أبي حنيفة.

وما حكم به نبي الله سليمان هو الأقرب إلى العدل والقياس، وقد حكم رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمان على أهلها، فصح بحكمه ضمان النفش، وصح بالنصوص السابقة والقياس الصحيح وجوب الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء على سليمان بتفهيم هذا الحكم، فصح أنه الصواب، وبالله التوفيق.

***

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

[(١)]جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلىٰ ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته ـ سبحانه ـ وشدة حاجته هو وفقره، ومتىٰ وجد المبتلىٰ هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات، ولاسيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره.

***

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[(٢)]كيف ينهي عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به، وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وعلىٰ يعقوب بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] وعلىٰ موسىٰ بقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي»[(٣)] الحديث، فالشكوىٰ إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجميل، بل إعراض عبده عن الشكوىٰ إلىٰ غيره جملة، وجعل الشكوىٰ إليه وحده هو الصبر، والله تعالىٰ يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه.

وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ

(١) ٢٠٠ فوائد.

(٢) ٣٣ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) وابن عدي في الكامل (٦/ ١١١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ١٥٢) والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (رقم ١٨٣٩).

أَخَذۡنَـٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه، فقلت: ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء، حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم، وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(١)وأما دعوة ذي النون: فإن فيها من كمال التوحيد، والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه لنفسه وذنبه: ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم: يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره وبرجوعه إلى الله واستقالته عثرته والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه.

فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها، التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف، اهـ.

***

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

(١) ٢٧٧ زاد المعاد جـ٣.

(١) قال الله ﷻ: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] والفرق بين «الرغبة» و«الرجاء» أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه. والمقصود أن الراجي طالب، والخائف هارب.

(٢) ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ إلى أن قال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩،٩٠] أي: رغبًا فيما عندنا ورهبًا من عذابنا والضمير في قوله: ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين.

و«الرغب والرهب» رجاء الرحمة، والخوف من النار عندهم أجمعين. وذكر ـ سبحانه ـ عباده، الذين هم خواص خلقه، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، وجعل منها: استعاذتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر عنهم: أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان، وأن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب: أنهم كانوا يسألونه جنته ويتعوذون به من ناره، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الآيات إلى آخرها [آل عمران: ١٩٠-١٩٨] ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التي سألوها.

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

---

(١) ٥٥ مدارج جـ٢.

(٢) ٧٦ مدارج جـ٢.

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٢-٨٩] فسأل الله الجنة واستعاذ به من النار، وهو الخزي يوم البعث. وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعدًا عليه مسئولًا أي يسأله إياها عباده وأولياؤه.

(١) وقد أثنى الله على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: فالرغب الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»(٢) وفي لفظ آخر: «إني أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى»(٣) وكان ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء...

(٤) ذكر الحكم الكوني والشرعي عقيب الوصف المناسب له، وتارة يذكر بأن، وتارة يقرن بالفاء، وتارة يذكر مجردًا.

فالأول كقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) ٢٨٢ طريق الهجرتين.
(٢) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٢٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٧٠، ١٤٠) والتمهيد (٥/ ١٢٠).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١١١٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٤٧) (١٠/ ٥١٤).
(٤) ١٩٦ شفاء العليل.

ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والثاني كقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

والثالث كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٧] وهذا في التنزيل يزيد على عدة آلاف موضع، بل القرآن مملوء منه.

فإن قيل: هذا إنما يفيد كون تلك الأفعال أسبابًا لما رتب عليها لا يقتضي إثبات التعليل في فعل الرب وأمره، فأين هذا من هذا؟!

قيل: لما جعل الرب سبحانه هذه الأوصاف عللًا لهذه الأحكام وأسبابًا لها دل ذلك على أنه حكم بها شرعًا وقدرًا، لأجل تلك الأوصاف، وأنه لم يحكم بها لغير علة ولا حكمة، ولهذا كان كل من نفى التعليل والحكم نفى الأسباب، ولم يجعل لحكم الرب الكوني والديني سببًا ولا حكمة هي العلة الغائية، وهؤلاء ينفون الأسباب والحكم، ومن تأمل شرع الرب وقدره وجزاءه جزم جزمًا ضروريًّا ببطلان قول النفاة، والله سبحانه قد رتب الأحكام على أسبابها وعللها، وبيَّن ذلك خبرًا وحسًّا وفطرة وعقلًا، ولو ذكرنا ذلك على التفصيل لقام منه عدة أسفار.

[(١)]والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتهما: أن الإخبار بالحال يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه، أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه، فيكون ناصحًا بإخباره له، أو حمله على الصبر بالتأسي به، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى، فقال: يا ابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به

(١) ٣١٥ الروح.

أحدًا. ففي ضمن هذا الأخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى، ولكن القصد ميز بينهما، ولعل من هذا قول النبي ﷺ لما قالت عائشة: وارأساه! فقال: «بل أنا وارأساه!»(١) أي الوجع القوي بي أنا دونك، فتأسي بي فلا تشتكي.

ويلوح لي فيه معنى آخر، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق، فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذي بها، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه يتألم بتألمه، ويسر بسروره، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة، فالمعنى الأول يفهم أنك لا تشتكي واصبري، فبي من الوجع مثل ما بك، فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوى.

والمعنى الثاني: يفهم إعلامها بصدق محبته لها، أي انظري قوة محبتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك، فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع، بل يؤلمني ما يؤلمك، كما يسرني ما يسرك، كما قيل:

وإن أولى البرايا أن تواسيه ... عند السرور الذي واساك في الحزن(٢)

وأما الشكوى فالأخبار العاري عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلي إلى غيره، فإن شكا إليه ﷺ لم يكن ذلك شكوى، بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وقول موسى: اللهم لك

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٦٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٢٥).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وقائله دعبل الخزاعي، كان في شعره جودة، وصادق البحتري، وله كتاب في طبقات الشعراء، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وتوفي سنة ٢٤٦هـ في قرية الطيب بين واسط وخورستان، ذكر البيت أبو منصور الثعالبي في الإعجاز والإيجاز (ص ٢١٣) وفي خاص الخاص (ص ٢٥٣) وياقوت الحموي في معجم الأدباء (١/ ١٢٧).

الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك. وقول سيد ولد آدم: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني! إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك، أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[1] فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافي الصبر بوجه، فإن الله تعالى قال عن أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤] مع إخباره عنه بالشكوى إليه في قوله: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل والنبي إذا قال وفَّى مع قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره. ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم، كما قال بعضهم لما قال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤] ولم يقل صبورًا، حيث قال: ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ وقال: بعضهم: لم يقل ارحمني، وإنما قال: أنت أرحم الراحمين، فلم يزد على الأخبار بحاله ووصف ربه. وقال بعضهم: إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر، فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم. وقال بعضهم: استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافي الصبر.

وغلط أقبح الغلط فالمنافي للصبر شكواه لا الشكوى إليه، فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من

(١) تقدم تخريجه قبل صفحات عند تفسير الآيتين (٨٧، ٨٨) من هذه السورة.

إظهار التجلد عليه، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم. اهـ.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قد تقدمت الأحاديث بوقوع أهل السعادة في إحدى القبضتين، وكتابتهم بأسمائهم وأسماء آبائهم في ديوان السعداء قبل خلقهم.

وفي صحيح الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله، قال: فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ وهذا إسناد صحيح(٢).

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم ثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم قال أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها أو جهلوها فلا يسألون عنها، فقيل له: وما هي؟ فقال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ شق ذلك على قريش أو على أهل مكة، وقالوا: يشتم آلهتنا فجاء ابن الزبعري فقال: مالكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا، قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ قال: ادعوه لي. فلما دعي النبي ﷺ قال:

---

(١) ٢٦ شفاء العليل.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٦ رقم ٣٤٤٩).

يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله فقال: لا بل لكل من عبد من دون الله. قال: فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية، يعني: الكعبة. ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيرًا عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا، قال: فضج أهل مكة، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[1] [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢] قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قال: هو الضجيج. وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبعري لا يرد على الآية، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولم يقل ومن تعبدون [وما] لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل.

وأيضًا فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام، فإنه قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ فلفظة [إنكم] ولفظة [ما] تبطل سؤاله، وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك، ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي، الذي يعم الحكم فيه بعموم علته، أي إن كان كونه معبودًا يوجب أن يكون حصب جهنم، فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح، فأجيب بالفارق وذلك من وجوه:

أحدها: أن الملائكة والمسيح وعزيرًا، ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار، فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بعضهم ومعاداتهم لهم، فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا والميتة والذكي، وهذا شأن أهل الباطل، وإنما يسوون بين ما فرق الشرع والعقل والفطرة بينه، ويفرقون بين ما سوى الله ورسوله بينه.

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٠/ ٣٢٩) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٣٧٠) وتحفة الطالب لابن كثير (ص ٣٣٥).

الفرق الثاني: أن الأوثان حجارة غير مكلفة ولا ناطقة، فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون، فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلامًا وتعذيبًا لهم.

الثالث: أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة، فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم، وإنما عبد المشركون الشياطين، وتوهموا أن العبادة لهؤلاء، فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله وأنه معه إله.

وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيرًا من ذلك، وإنما ادعى ذلك الشياطين، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] فما عبد غير الله إلا الشيطان، وهذه الأجوبة منتزعة من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها وبالله التوفيق.

والمقصود ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد ثنا أبو عامر العقدي ثنا عروة بن ثابت الأنصاري ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: 'أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضًا شديدًا أغمي عليه، فأفاق فقال: أغمي عليّ؟ قالوا: نعم.

قال: إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي، فقالا: انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين. فانطلقا بي، فتلقاهما رجل وقال: أين تريدان به؟ قالا: نحاكمه إلى العزيز الأمين. فقال: دعاه، فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه[١].

وقال عبد الله بن محمد البغوي ثنا داود بن رشيد ثنا ابن علية حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد قال: أقبل سعد من أرض له فإذا الناس عكوف على رجل فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعليًا فنهاه، فكأنما زاده إغراء، فقال: ويلك تريد أن تسب أقوامًا هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك، فقال: كأنما يخوفني نبي من الأنبياء، فانطلق فدخل دارًا فتوضأ ودخل المسجد، ثم قال: اللهم إن كان هذا قد سب أقوامًا قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية. وقال: تخرج بختية من دار بني فلان لا يردها شيء حتى تنتهي إليه، ويتفرق الناس، وتجعله بين قوائمها، وتطأه حتى طفى قال: فأنا رأيت سعدا يتبعه الناس يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق استجاب الله لك يا أبا إسحاق[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا ﴾ [الحج: ٨٧] أي: الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن، فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١١٥ رقم ٩٦٨٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٢٠) وابن المستفاض في القدر (رقم ٤٣٥) وابن أبي الدنيا في المحتضرين (رقم ٣٥٢) والحاكم (٢/ ٢٩٦ رقم ٣٠٦٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٣٦١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٤٨) والطبراني في الكبير (١/ ١٤٠ رقم ٣٠٧) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وقال ابن عباس في رواية الوالبي عنه في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول[١]. وهذا لا يخالف قول من قال: إنه الأعمال الصالحة التي قدموها، ولا قول من قال: إنه محمد ﷺ فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد ﷺ، فهو خير تقدم لهم من الله، ثم قدمه لهم على يد رسوله، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه.

***

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

[٢]ثبت في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم»[٣].

[٤]لما وعد الله سبحانه وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة، كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأه عليها من تمام أعضائه وكمالها، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وأيضًا فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، فليس

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٨٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٤٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٧).

(٢) ١٥٦ جلاء الأفهام.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٩) ومسلم (رقم ٢٨٦٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٨٩-٣٩٠) (١١/ ٣٨٤).

(٤) ١٢٤ تحفة المودود.

هناك نجاسة تصيب الغرلة فيحتاج إلى التحرز منها، والقلفة لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه، هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإلا فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها، فإنهم يبعثون حفاةً عراةً بهمًا، ثم يكسون ويمد خلقهم ويزاد فيه بعد ذلك، يزاد في خلق أهل الجنة والنار، وإلا فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا وعلى صفاتهم وهيئاتهم وأحوالهم، فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كما يشاء، وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول، يمكن هذا وهذا، ولا يعلم إلا بخبر يجب المصير إليه، والله ﷻ أعلم.

(١)وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾والسجل: الورق المكتوب فيه، والكتاب: نفس المكتوب، واللام بمنزلة على: أي نطوي السماء كطي الدرج على ما فيه من السطور المكتوبة، ثم استدل على النظير بالنظير فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

***

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾.

(٢)الزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود.

والذكر: أم الكتاب الذي عند الله، والأرض: الدنيا، وعباده الصالحون: أمة محمد ﷺ هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه

(١) ١٤٨ إعلام الموقعين جـ١.
(٢) ٣٩ شفاء العليل.

كتب في الذكر الأول: إنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»[1]. فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ.

والكتب المنزلة قد أطلق عليه الزبر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤] أي أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور. والذكر ههنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ، وهما التوراة والإنجيل. والذكر في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ هو القرآن، ففي هذه الآية علمه بما كان قبل كونه وكتابته له بعد علمه، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة[2]، وهذا قول أكثر المفسرين، وعن ابن عباس قول آخر: إنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد ﷺ[3]. وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩١) ومسلم (رقم ٢٦٥٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٠٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٣) وتفسير السيوطي (٥/ ٦٨٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٠٥).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٨٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٣).

وقالت طائفة من المفسرين: المراد بذلك أرض بيت المقدس، وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين، وليست الآية مختصة بها.

***

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾.

...[1] وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وآخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض، ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن

---

(١) ٩٨ جلاء الأفهام.

من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثًا، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفوًا ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، كما روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعينًا عميا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، حتى يقولوا: لا إله إلا الله»(١). وأرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنبياء

والحمد لله رب العالمين



---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢١٢٥) وانظر: عمدة القاري (١١/ ٢٤٢).

سُورَةُ الحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾.

(١)المرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدى للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج: ٢]. أبلغ من مرضع في هذا المقام.

فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه، إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

وتأمل رحمك الله تعالى السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله ذات حمل، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل، وعلى من هي في أول حملها وباديه، فإذا قيل: ذات حمل لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملًا أو سقطًا، كما يقال: ذات ولد، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع. والله ﷻ أعلم.

(٢)وقد يكون سبب السكر غير تناول المسكر: إما ألم شديد يغيب به العقل حتى يكون كالسكران، وقد يكون سببه مخوف عظيم، هجم عليه وهلة واحدة، حتى يغيب عقل من هجم عليه، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢].

فهم سكارى من الدهش والخوف، وليسوا بسكارى من الشراب، فسكرهم سكر

(١) ٢١ بدائع جـ٤.
(٢) ٣٠٧ مدارج جـ٣.

خوف ودهش، لا سكر لذة وطرب.

وقد يكون سببه قوة الفرح بإدراك المحبوب بحيث يختلط كلامه، وتتغير أفعاله بحيث يزول عقله، ويعربد أعظم من عربدة شارب الخمر وربما قتله سكر هذا الفرح لسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وهلة واحدة انبساطًا غير معتاد - والدم حامل الحار الغريزي - فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه، فيحدث الموت.

ومن هذا قول سكران الفرح بوجد راحلته في المفازة بعد أن استشعر الموت: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة فرحه[(١)].

وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب. فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمنًا مطمئنًا، كيف تكون سكرته أو من غاب عنه غلامه بمال له عظيم مدة سنين حتى أضرَّ به العدم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه؟

وقد يوجبه غضب شديد، يحول بين الغضبان وبين تمييزه. بل قد يكون سكر الغضب أقوى من سكر الطرب. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان»[(٢)].

ولا يستريب من شم رائحة الفقه: أن الغضب إذا وصل بصاحبه إلى هذه الحال فطلق لم يقع طلاقه، وقد نص الإمام أحمد على أن الإغلاق الذي قال فيه النبي ﷺ: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»[(٣)]: أنه الغضب. وقال أبو داود: أظنه الغضب. والشافعي

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٤٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٣) (١١/ ٣١٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (١١/ ٤٤٩ رقم ٥٠٦٣) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٧٤ رقم ٥٩٦٢) وابن ماجه (رقم ٢٣١٦) وابن الجارود (رقم ٩٩٧) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٠٥ رقم ٢٠٠٦٤) والدارقطني (٤/ ٢٠٦ رقم ١٤) وأبو عوانة (٤/ ١٦٩ رقم ٦٤٠٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ١٣٧) والحديث عند البخاري بلفظ: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» (رقم ٧١٥٨) ومسلم بلفظ: «لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان» (رقم ١٧١٧).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٩٣) وابن ماجه (رقم ٢٠٤٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٧ رقم ١٤٨٧٤) =

سمى نذر اللَّجاج والغضب نذر الغلق، وذلك لأن الغضبان قد انغلق عليه باب القصد والتمييز بشدة غضبه وإذا كان الإكراه غلقا فالغضب الشديد أولى أن يكون غلقًا وكذلك السكر غلق والجنون غلق فالغلق والإغلاق أيضًا كلمة جامعة لمن انغلق عليه باب القصد والتمييز بسبب من الأسباب وقد أشبعنا الكلام في هذا في كتابنا المسمى إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان[1].

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾.

[2]يقول سبحانه: إن كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال حين الموت. والبعثُ الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقًا جديدًا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها؟

=

والدارقطني (٤/ ٣٦ رقم ٩٩) وأبو يعلى (٧/ ٤٢١ رقم ٤٤٤٤) وأحمد (٦/ ٢٧٦) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٨٧ رقم ٥٠٠) والحاكم (٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(١) الموجود رسالة صغيرة فهل هنا غيرها. (ج).

(٢) ١٤٠ أعلام جـ١.

وقد أعاد سبحانه هذا المعنى وأبداه في كتابه بأوجز العبارات، وأدلها، وأفصحها، وأقطعها للعذر، وألزمها للحجة، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦٢] فدلهم بالنشأة الأولى على الثانية، وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهما في تعلق القدرة بكل واحدة منهما.

...[(١)]قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودلَّ بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب.

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته، وإرادته وحياته، وعلمه وحكمته، ورحمته، وأفعاله. **الثاني**: أنه يحيي الموتى. **الثالث**: عموم قدرته على كل شيء. **الرابع**: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها. **الخامس**: أنه يخرج الموتى من القبور، كما أخرج النبات من الأرض.

وقد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل في كتابه مرارًا؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبُعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرةً وذكرى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧، ٨] فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصر به، فالتذكر

(١) ١٤٤ أعلام جـ١.

قبل التبصر، وإن قدم عليه في اللفظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتذكر: تَفَعُّلٌ من الذكر، وهو حضور صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فأبصر ما جعل دليلًا عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر والتبصر.

(١)والمجوس تُعظم الأنوار، والنيران، والماء، والأرض، ويقرون بنبوة زرادشت ولهم شرائع يصيرون إليها، وهم فرق شتى.

منهم: المزدكية، أصحاب مزدك الموبذ. والموبذ عندهم: العالم القدوة. وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء والمكاسب كما يشترك في الهواء، والطرق، وغيرها.

ومنهم الخرمية: أصحاب بابك الخرمي. وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع، ولا معاد، ولا نبوة، ولا حلال، ولا حرام، وعلى مذهبهم: طوائف القرامطة، والإسماعيلية، والنصيرية، والبشكية، والدرزية، والحاكمية، وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار.

فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل.

فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم، وأئمتهم، وقدوتهم، وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم، ولا بشريعة من الشرائع.

***

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

(١) ٢٤٧ إغاثة جـ٢.

[1]قال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحج: ١٥] قال بعض أهل اللغة: السبب من الحبال القوي الطويل.

قال: ولا يدعى الحبل سببًا حتىٰ يصعد به وينزل، ثم قيل لكل شيء وصلت به إلىٰ موضع أو حاجة تريدها: سبب، يقال: ما بيني وبين فلان سبب، أي آصرة رحم أو عاطفة مودة.

وقد سمى تعالىٰ وصل الناس بينهم أسبابًا، وهي التي يتسببون بها إلىٰ قضاء حوائجهم بعضهم من بعض، قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦] يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا. وقال ابن عباس وأصحابه: يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقال ابن زيد: هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلىٰ ثواب الله، وقيل: هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها.

وبالجملة فسمى الله سبحانه ذلك كله أسبابًا لأنها كانت يتوصل بها إلىٰ مسبباتها، وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له، وبالله التوفيق.

***

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[2]«الذوق» مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر، ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن بل ولا في لغة العرب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢] وقال: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: ٥٧]. وقال: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) ١٩٠ شفاء العليل.

(٢) ٨٧ مدارج جـ٣.

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق وإحاطته وشموله، فأفاد الإخبار عن إذاقته: أنه واقع مباشر غير منتظر؛ فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لباسه: أنه محيط شامل كاللباس للبدن.

وفي الصحيح عنه ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا»**(١).

فأخبر: أن للإيمان طعمًا، وأن القلب يذوقه، كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال: **«ذاق طعم الإيمان»**، وقال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»**(٢).

***

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾.

(٣)اختلفوا في جر لؤلؤ ونصبه. فمن نصبه ففيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على موضع قوله: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾.

والثاني: أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول أي ويحلون لؤلؤًا.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر عمدة القاري (١/ ١٠٩) والديباج على مسلم (١/ ٥١) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣١٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٦) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٢-٨٣) وشرح النووي (٢/ ١٣).

(٣) ١٤٣ حادي الأرواح.

ومن جره فهو عطف على الذهب، ثم يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون لهم أساور من ذهب، وأساور من لؤلؤ.

ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معًا: الذهب المرصع باللؤلو. والله أعلم بما أراد.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن رزق حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني عنبسة بن سعيد قاضي الري عن جعفر بن أبي المغيرة عن شِمْر بن عطية عن كعب قال: «إن لله عَجَّلَ ملكًا منذ يوم خلق يصوغ حلي أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة، لو أن حليًا من حلي أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاء الشمس، فلا تسألوا بعد هذا عن حلي أهل الجنة»[1].

حدثنا الحسن بن يحيى بن كثير العنبري: حدثنا أبي عن أشعث عن الحسن قال: «الحلي في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء»[2].

حدثنا أحمد بن منيع حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ، قال: **«لو أن رجلًا من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوؤه ضوء الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم»**[3].

وقال ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة قال: إن أبا أمامة حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم، وذكر حلي أهل الجنة، فقال: **«مسورون بالذهب والفضة مكللون بالدر، عليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة،**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٦ رقم ٣٤٠٠٩) وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/ ٧٥١ رقم ٣٥٥).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٦٩) والبزار (٣/ ٣١٥ رقم ١١٠٩) والطبراني في الأوسط (٨/ ٣٦٣ رقم ٨٨٨٠) وذكره المنذري في الترغيب (٤/ ٣١٤ رقم ٥٧٥٣) وقال: رواه ابن أبي الدنيا والترمذي وقال: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ٣٧٦٥).

وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب مرد مكحلون»[١].

وقد أخرجا في الصحيحين والسياق لمسلم عن أبي حازم قال: «كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حتى يبلغ إبطه، فقلت: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم ههنا؟: لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢].

وقد احتج بهذا من يرى استحباب غسل العضد وإطالته.

والصحيح: أنه لا يستحب، وهو قول أهل المدينة، وعن أحمد روايتان.

والحديث لا يدل على الإطالة، فإن الحيلة إنما تكون زينة في الساعد والمعصم لا في العضد والكتف، وأما قوله: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»[٣] فهذه الزيادة مدرجة في الحديث من كلام أبي هريرة لا من كلام النبي ﷺ.

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

[٤]أما مكة: فإن فيها شيئاً آخر يمنع مِن قسمتها، ولو وجبت قسمةُ ما عداها مِن القُرى، وهى أنها لا تُملك، فإنها دارُ النُّسُك، ومتعبَّدُ الخلق، وحرَمُ الربِّ تعالى الذي جعله للناس سواءً العاكِفُ فيه والباد، فهي وقف من الله على العالمين، وهم فيها سواء، ومِنَى مُنَاخُ مَنْ سَبَقَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى ابن أبي حاتم (٧/ ٢٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٨٦) وشرح النووي (٣/ ١٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦) ومسلم (رقم ٢٤٦) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٣٦).
(٤) ٤١٣ زاد المعاد جـ٣.

[الحج: ٢٥]، والمسجد الحرام هنا، المراد به الحرم كُلُّهُ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨]. فهذا المرادُ به الحرم كُلُّه، وقولُه سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١]، وفي الصحيح: أنه أُسْرِيَ به مِّنَ بيت أُم هانىء[١].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] وليس المراد به: حضورَ نفس موضع الصلاة اتفاقاً، وإنما هو حضورُ الحرم والقُرب منه، وسياقُ آية الحج تدُلُّ على ذلك، فإنه قال: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، وهذا لا يختصُّ بمقام الصلاةِ قطعاً، بل المراد به الحَرَمُ كُلُّه، فالذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والباد، هو الذي توعَّد مَنْ صَدَّ عنه، ومَن أراد الإلحادَ بالظلم فيه، فالحرمُ ومشاعرُه كالصَّفا والمروة، والمسعى ومِنَى، وعَرَفَة، ومُزْدَلِفَة، لا يختصُّ بها أحدٌ دونَ أحد، بل هي مشتركة بين الناس، إذ هي مَحلُّ نُسُكهم ومتعبدِهم، فهي مسجد من الله، وقفه ووضعه لخلقه، ولهذا امتنع النبيُّ ﷺ أن يُبنى له بيت بمِنَى يُظِلُّه من الحر، وقال: «مِنَى مُناخُ مَن سَبَقَ»[٢].

ولهذا ذهب جمهورُ الأئمةِ مِن السَّلَف والخَلَف، إلى أنه لا يجوزُ بيعُ أراضي مكة، ولا إجارةُ بيوتها، هذا مذهبُ مجاهد وعطاء في أهل مكة، ومالك في أهل المدينة، وأبي حنيفة في أهل العراق، وسفيان الثوري، والإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه. وروى الإمام أحمد رحمه الله، عن علقمة بن نضلة، قال: «كانت رِباعُ مكة

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ٢٨٤ رقم ٢٨٩١) وأبو داود (رقم ٢٠١٩) والترمذي (رقم ٨٨١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم (١/ ٦٣٨ رقم ١٧١٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وانظر: تحفة الأحوذي (٣/ ٥٣٩).

تُدعى السَّوائب على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر، مَن احتاج سكن، ومَن استغنى أسكن»[١].

وروى أيضاً عن عبد الله بن عمرو: «مَن أكل أُجورَ بيوتِ مكة، فإنما يأكُلُ في بطنه نار جهنم» رواه الدارقطني مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وفيه: «إنَّ الله حَرَّمَ مَكَّة، فَحَرامٌ بَيْعَ رِبَاعِهَا وأَكْلُ ثَمَنِهَا»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معمر، عن لَيْثٍ، عن عطاء، وطاوس، ومجاهد، أنهم قالوا: يُكره أن تُباع رِباعُ مكَّة أو تُكرى بيوتها[٣].

وذكر الإمام أحمد، عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: «مَن أكل من كِراء بيوتِ مكة، فإنما يأكُلُ في بطنه ناراً»[٤].

وقال أحمد: حدَّثنا هُشيم، حدَّثنا حجَّاج، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر، قال: «نَهَى عَنْ إجارَةِ بُيوتِ مَكَّة، وعَنْ بَيْعِ رَباعِهَا»[٥].

وذكر عن عطاء، قال: «نهى عن إجارة بيوتِ مكة»[٦] وقال أحمد: حدَّثنا إسحاق بن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣١٠٧) والدارقطني (٣/ ٥٨ رقم ٢٢٨) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣١ رقم ١٤٦٩٣) والطبراني في الكبير (١٨/ ٨ رقم ٧) قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٥٠): وفي إسناده انقطاع وإرسال.

(٢) أخرجه الدارقطني (٣/ ٥٧ رقم ٢٢٤) وقال: رواه أبو حنيفة مرفوعًا... والصحيح أنه موقوف. وأخرج الجزء الأول من الحديث البيهقي في سننه الكبرى موقوفًا (٦/ ٣٥ رقم ١٠٩٦٧) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٤) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٣) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٦ رقم ٢٠٥١).

(٣) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة عن مجاهد (٣/ ٢٥٠ رقم ٢٠٦٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور عن عطاء، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد (٦/ ٢٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٢).

(٥) أخرجه عبدالرزاق عن مجاهد (٥/ ١٤٧ رقم ٩٢١١).

(٦) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٩ رقم ٢٠٦١) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨١) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٤٩).

يوسف قال: حدَّثنا عبد الملك، قال: «كتب عُمَرُ بنُ عبد العزيز إلىٰ أمير أهل مكة ينهاهم عن إجارة بيوتِ مكة، وقال: إنه حرام»[1].

وحكىٰ أحمد عن عمر «أنه نهىٰ أن يتَّخِذَ أهلُ مكَّة للدورِ أبواباً، لِينزِلَ البادي حيث شاء»[2]، وحكىٰ عن عبد الله بن عمر، عن أبيه «أنه نهىٰ أن تُغْلَقَ أبوابُ دورِ مكة[3]، فنهىٰ مَن لا باب لداره أن يتَّخِذَ لها باباً، ومَن لداره باب أن يُغلِقَه، وهذا في أيام المَوْسِم».

قال المجوِّزون للبيع والإجارة: الدليلُ علىٰ جواز ذلك، كتابُ الله وسُنَّةُ رسولِه، وعملُ أصحابه وخُلفائه الراشدين. قال الله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] فأضاف الدورَ إليهم، وهذه إضافة تمليك، وقال النبي ﷺ وقد قيل له: أين تنزِلُ غداً بدارك بمكة؟ فقال: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِباعٍ»، ولم يقل: إنه لا دار لي، بل أقرَّهم علىٰ الإضافة، وأخبر: أن عقيلاً استولىٰ عليها ولم ينزِعْهَا مِن يده، وإضافةُ دورهم إليهم في الأحاديث أكثرُ من أن تُذكر، كدار أُم هانىء، ودار خديجة، ودار أبي أحمد بن جحش وغيرها، وكانوا يتوارثُونها كما يتوارثون المنقولَ، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ»[4]، وكان عقيل هو ورث دورَ أبىٰ طالب، فإنه كان

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٣) وعبدالرزاق (٥/ ١٤٧ رقم ٩٢١٢) وابن سعد في الطبقات (٥/ ٣٦٤) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ١٤٧ رقم ٩٢١١) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٥ رقم ٢٠٤٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤٥١) وعمدة القاري (٩/ ٢٢٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٢١٥).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور، وعزاه إلىٰ عبد بن حميد (٦/ ٢٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٥٨٨) ومسلم (رقم ١٣٥١) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٥) وشرح النووي (٩/ ١٢٠).

كافراً، ولم يرثه علي ﷺ، لاختلاف الدينِ بينهما، فاستولى عَقِيلٌ على الدور، ولم يزالوا قبل الهجرة وبعدها، بل قبل المبعث وبعده، مَن مات، ورِثَ ورثتُه داره إلى الآن.

***

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[(١)]أما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة، وهي أن الله شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتمامًا بهذا المعنى وتأكيدًا.

ومن الناس من يقول: قدمهم جبرًا لهم، لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبرًا لهم ورحمة اهـ.

***

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ﴾.

[(٢)]قرن الله سبحانه في كتابه بين الإشراك وقول الزور، وقال تعالى: ﴿ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وفي الصحيحين أيضًا عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، ثم عقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس، ثم قال: «ألا وقول

---

(١) ٦٩ بدائع جـ١.
(٢) ١١٩ أعلام جـ١.

الزور، ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(١)].

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور»[(٢)].

ولا خلاف بين المسلمين أن شهادة الزور من الكبائر.

واختلف الفقهاء في الكذب في غير الشهادة: هل هو من الصغائر أو من الكبائر؟ على قولين هما روايتان عن الإمام أحمد، حكاهما أبو الحسين في تمامه.

واحتج من جعله من الكبائر بأن الله سبحانه جعله في كتابه من صفات شر البرية، وهم الكفار والمنافقون، فلم يصف به إلا كافرًا أو منافقًا، وجعله علم أهل النار وشعارهم، وجعل الصدق علم أهل الجنة وشعارهم.

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[(٣)].

وفي الصحيحين مرفوعًا: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[(٤)].

وقال معمر عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة فما

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥٤) ومسلم (رقم ٨٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١١) وشرح النووي (٢/ ٨١-٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧١) ومسلم (رقم ٨٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٦٣) (١٠/ ٤١٢) وشرح النووي (٢/ ٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٠٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٠٨) وشرح النووي (١٦/ ١٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٣) ومسلم (رقم ٥٩) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٩) وشرح النووي (٢/ ٤٦-٤٨).

تزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة»[١].

وقال مروان الطاطري: ثنا محمد بن مسلم ثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: «ما كان شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، وما جرب على أحد كذبًا فرجع إليه ما كان حتى يعرف منه توبة»[٢] حديث حسن رواه الحاكم في المستدرك من طريق ابن وهب عن محمد بن مسلم عن أيوب عن ابن سيرين عن عائشة رضي الله عنها.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن موسى بن أبي شيبة أن النبي ﷺ: **«أبطل شهادة رجل في كذبة كذبها»**[٣] وهو مرسل، وقد احتج به أحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقال قيس بن أبي حازم: سمعت أبا بكر الصديق ﷺ يقول: **«إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب الإيمان»**[٤] يروى موقوفًا ومرفوعًا. وروى شعبة عن سلمة بن كهيل عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: **«المسلم يُطْبَع على كل طبيعة غير الخيانة والكذب»**[٥] ويروى مرفوعًا أيضًا.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٣/ ٤٤ رقم ٥٧٣٦) وفي موارد الظمآن (رقم ١٠٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١٠) والترمذي (رقم ١٩٧٣) وحسنه.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١١) والحاكم (٤/ ١١٠ رقم ٧٠٤٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١٢) وانظر: الاستذكار (٨/ ٥٧٦) والتمهيد (١/ ٦٨) (١٦/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ١٤٤-١٤٦ رقم ٥٨) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٦ رقم ٢٠٦١٥) وأحمد (١/ ٥) وهناد في الزهد (٢/ ٦٣٢ رقم ١٣٦٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٧٣٦)، قال الحافظ العراقي: إسناده حسن. وقال الدراقطني في العلل: الأصح وقفه، ورواه ابن عدي من عدة طرق ثم عول على وقفه، انظر: البيان والتعريف (١/ ٣١٧ رقم ٨٥٢) وقال البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠٦ رقم ٤٨٠٥): هذا إسناد ضعيف، والصحيح أنه موقوف.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٣٢٣ رقم ٥٢٦٧) وفي السنن الكبرى (١٠/ ١٩٧ رقم ٢٠٦١٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ٨٢٨) وابن عدي في الكامل (١/ ٢٤٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٦ رقم ٢٥٦٠٤) والبزار (٣/ ٣٤٠-٣٤١ رقم ١١٣٩) وقال البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٧): هذا موقوف وهو الصحيح، وقد روي مرفوعًا. وقال في الشعب (٤/ ٢٠٧ رقم ٤٨٠٨): وروي مرفوعًا ورفعه ضعيف.

وفي المسند والترمذي من حديث خريم بن فاتك الأسدي أن رسول الله ﷺ: «صلىٰ صلاة الصبح فلما انصرف قام قائمًا قال: **«عدلت شهادة الزور الشرك بالله»** ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾[1].

وفي المسند من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«بين الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتىٰ تعين المرأة زوجها علىٰ التجارة وقطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق»**[2].

وقال الحسن بن زياد اللؤلؤي: ثنا أبو حنيف قال: كنا عند محارب بن دثار، فتقدم إليه رجلان، فادعىٰ أحدهما علىٰ الآخر مالًا، فجحده المدعَىٰ عليه، فسأله البينة فجاء رجل فشهد عليه، فقال المشهود عليه: لا والله الذي لا إله إلا هو ما شهد عليَّ بحق، وما علمته إلا رجلًا صالحًا، غير هذه الزلة، فإنه فعل هذا لحقد كان في قلبه عليَّ، وكان محارب متكئًا فاستوىٰ جالسًا، ثم قال: يا ذا الرجل سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ليأتين علىٰ الناس يوم تشيب فيه الولدان، وتضع الحوامل ما في بطونها، وتضرب الطير بأذنابها، وتضع ما في بطونها من شدة ذلك اليوم ولا ذنب عليها، وإن شاهد الزور لا تقار قدماه علىٰ الأرض حتىٰ يقذف به في النار»**[3]. فإن كنت شهدت بحق فاتق الله وأقم علىٰ شهادتك، وإن كنت شهدت بباطل فاتق الله

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٥٩٩) والترمذي (رقم ٢٢٩٩، ٢٣٠٠) وابن ماجه (رقم ٢٣٧٢) والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١٢١ رقم ٢٠١٧٠) وابن أبي شيبة (٤/ ٥٤٠ رقم ٢٣٠٣٨) وعبدالرزاق (٨/ ٣٢٧ رقم ١٥٣٩٥) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٩ رقم ٤١٦٢) وأحمد (٤/ ١٧٨) وقال الترمذي: هذا عندي أصح، وخريم بن فاتك له صحبة، وقد روىٰ عن النبي ﷺ أحاديث وهو مشهور.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٠٤٩) وأحمد (١/ ٤٠٧، ٤١٩) والشاسي في مسنده (٢/ ١٩٢ قم ٧٦٥) والحاكم (٤/ ١١٠ رقم ٧٠٤٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٢٤٦ رقم ٦٤٧) وفي صحيح الأدب المفرد.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٧/ ٦٤).

وغط رأسك واخرج من ذلك الباب.

(١)قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] فتأمل هذا المثل ومطابقته لحالِ من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهًا مركبًا، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبَّب إلى هلاك نفسه هلاكًا لا يُرجى معه نجاة، فصوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفته الطير في الهوى، فتمزَّق مِزَقًا في حواصلها، أو عصفَت به الريح حتى هوتْ به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبَّه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالمثل به، وعلى هذا فيكون قد شبَّه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله ﷻ عليه وتوزه أزًّا، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعةً من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوى به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكانٍ وأبعده من السماء.

(٢)قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] قال جماعة من المفسرين ﴿حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ هاهنا مغاضبه، وما نهى عنه، و«تعظيمها» ترك ملابستها.

---

(١) ١٨٠ أعلام جـ١.

(٢) ٧٤ مدارج جـ٢.

قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها، وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه. وقال قوم: الحرمات هاهنا المناسك، ومشاعر الحج زمانًا ومكانًا.

والصواب: أن «الحرمات» تعم هذا كله، وهي جمع «حرمة»، وهي ما يجب احترامه، وحفظه: من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن، فتعظيمها: توفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة.

***

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[(1)]قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ ثم كشف عن معناهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود: ٢٣].

و«الخبت» في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ «المخبتين»، وقالا: هم المتواضعون.

وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله ﷻ، وقال: والخبت: المكان المطمئن من الأرض.

وقال الأخفش: الخاشعون، وقال إبراهيم النخعي: المصلون المخلصون.

وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون، وإذا

---

(١) ٣ مدارج جـ٢.

ظُلموا لم ينتصروا[١].

وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله ﷻ، ولذلك عُدِّي بإلى، تضمينًا لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

***

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[٢]الذبيحة تجري مجرى العبادة، ولهذا يقرن الله سبحانه بينهما كقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه يناله التقوى ـ وهو التقرب إليه بها، وذكر اسمه عليها ـ فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعًا من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها ـ حيث لم يذكر عليها اسمه أو ذكر عليها اسم غيره ـ وصف الخبث فكانت بمنزلة الميتة.

وإذا كان هذا في متروك التسمية وما ذكر عليه اسم غير الله فما ذبحه عدوُّه المشرك به الذي هو من أخبث البرية أولى بالتحريم؛ فإن فِعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح.

كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة، وهذه أمور إنما يصدق بها من أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها، وباشر قلبه بشاشة حكمها وما اشتملت

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٢٧-٢٨) والنهاية في غريب الحديث (٢/ ٤) وفتح الباري (٨/ ٤٣٨) وعون المعبود (٤/ ٢٦٣).

(٢) ١٥٥ أعلام جـ١.

عليه من المصالح في القلوب والأبدان، وتلقَّاها صافيةً من مِشكاة النبوة، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف.

[(١)] قال أبو الدرداء ﷺ: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون به قيام الحمقىٰ وصومهم، والذرة من صاحب تقوىٰ أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين[(٢)]، وهذا من جواهر الكلام وأدله علىٰ كمال فقه الصحابة، وتقدمهم علىٰ من بعدهم في كل خير ﷺ.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلىٰ الله بقلبه وهمته، لا ببدنه، والتقوىٰ في الحقيقة تقوىٰ القلوب، لا تقوىٰ الجوارح، قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوىٰ هاهنا**»[(٣)]، وأشار إلىٰ صدره، فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة، وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق؛ فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير.

والتقدم والسبق إلىٰ الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحبُ الهمةِ مع سكونه صاحبَ العملِ الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله، وهذا موضع يحتاج إلىٰ تفصيل يوافق فيه الإسلام الإحسان.

فأكمل الهدي: هدي رسول الله ﷺ، وكان موفيًا كل واحد منهما حقه، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله، يقوم حتىٰ ترم قدماه...

***

---

(١) ١٤٠ فوائد.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٢٦٩ رقم ٨١٥١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ١٧٥) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٦٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤).

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

(١)لما استقرَّ رسولُ الله ﷺ بالمدينة، وأيَّده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألَّف بين قلوبهم، بعد العداوة والإحَنِ التي كانت بينهم، فمنعته أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلُوا نفوسهم دونه، وقدَّموا محبتَه على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم مِن أنفسهم، رمتهُمُ العربُ واليهودُ عن قوس واحدة، وشمَّروا لهم عن سَاقِ العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم مِن كُلِّ جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبرِ والعفو والصفح حتى قويت الشوكةُ، واشتد الجناحُ، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرِضه عليهم، فقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩]. وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسُّورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شَوْكة يتمكنُّون بها من القتال بمكة.

الثاني: أن سِياقَ الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] وَهؤُلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩] نَزَلَتْ في الَّذِينَ تَبَارَزُوا يومَ بدر من الفريقين.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، والخطابُ

(١) ١٥٠ زاد المعاد جـ٢.

بذلك كله مدني، فأما الخطاب: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يَعُمُّ الجهادَ باليد وغيره، ولا ريبَ أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأمَّا جهادُ الحُجَّة، فأمر به في مكة بقوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ أي: بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغُ، وجهادُ الحُجَّة، وأما الجهادُ المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهادُ بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في مستدركه من حديث الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جُبير، عن ابنِ عباس قال: «لما خَرَجَ رسول الله ﷺ مِنْ مكَّة قال أبو بكر: أخرجُوا نبيَّهم؟ إنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُونَ لَيهْلِكُنَّ، فأنزل الله ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج: ٣٩] وهي أول آية نزلت في القتال»[١]. وإسناده على شرط الصحيحين، وسياق السورة يدل على أن فيها المكيَّ والمدنيَّ، فإن قصة إلقاء الشيطان في أُمنية الرسول مكية، والله أعلم.

ثم فرضَ عليهم القِتَالَ بعدَ ذلك لمن قاتلهم دون مَن لم يُقاتِلْهم، فقال: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتالَ المشركِينَ كافَّة، وكان محرَّماً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين: إما فرضَ عَيْنٍ على أحد القولين، أو فرضَ كِفاية على المشهور.

والتحقيق: أن جنسَ الجهادِ فرضُ عَيْن: إما بالقلب، وإما باللِّسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كُلِّ مسلم أن يُجاهد بنوعٍ مِن هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس، ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال، ففي وجوبهِ قولانِ،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٩ رقم ٢٩٦٨) والضياء في المختارة (١٠/ ٣٥٩ رقم ٣٨٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣ رقم ٤٢٩٢) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٠ رقم ١٧٥١٨) والترمذي (رقم ٣١٧١) وحسنه وصححه الحاكم، وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٨٠).

والصحيح وجوبه لأن الأمرَ بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وعلَّق النجاةَ من العذاب الأليم، ومغفرةَ الذنب، ودخولَ الجنة به، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم ما يُحبون مِن النصر والفتحِ القريب، فقال: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ [الصف: ١٣] ـ أي: ولكم خصلة أخرى تُحِبُّونها في الجهَادِ، وهي ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف: ١٣].

وأخبر سبحانه أنه: ﴿ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنةَ، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضلَ كتبه المنزَّلة مِن السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحدَ أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمَرَهُم بأن يستبشِروا ببيعهم الذي عاقدهم عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوزُ العظيمُ.

فليتأملِ العاقِد مع ربه عقد هذا التبايعِ ما أعظمَ خطَرَه وأجلَّه، فإن الله ﷻ هو المشتري، والثمن جنَّاتُ النعيم، والفوزُ برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقدُ أشرفُ رسله وأكرمُهم عليه مِن الملائكة والبَشر، وإن سِلْعَةً هذا شأنُها لقد هُيِّئَتْ لأمرٍ عَظِيمٍ وخَطْبٍ جَسِيمٍ:

قَدْ هَيَّؤوكَ لأمرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَـهُ   فَارْبأ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرعَى مَعَ الهَمَلِ (١)

(١) هذا البيت من بحر البسيط وينسب للشاعر الطغرائي: الحسين بن علي الأصبهاني، كان من الوزراء =

مَهْرُ المحبةِ والجَنَّةِ بذلُ النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المُعرِضِ المُفْلِس وسَوْمِ هذه السلعة، باللَّهِ ما هَزُلَتْ فيستامها المفلسون، ولا كَسَدَت، فيبيعَهَا بالنسيئة المُعْسِرُونَ، لقد أقيمت للعرض في سوق مَن يُرِيد، فلم يرضَ رَبُّهَا لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطَّالون، وقام المحبُّونَ ينتظرون أَيُّهُم يصلُح أن يكون نفسُه الثمن، فدارت السِّلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

[١]قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

قال الزجاج: «تأويل هذا: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في كل شريعة نبي ـ المكان الذي يصلي فيه، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد المساجد».

وقال الأزهري: «أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعه بعض الناس عن الفساد ببعضهم لهدمت متعبدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان، فبدأ بذكر الصوامع والبيع، لأن صلوات من تقدم من أنبياء بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن. وأخرت المساجد لأنها حدثت بعدهم».

وقال ابن زيد: «الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو»[٢].

قال الأخفش: «وعلى هذا القول الصلوات لا تهدم، ولكن تحل محل فعل آخر، كأنه قال: تركت صلوات».

وقال أبو عبيدة: «إنما يعني مواضع الصلوات».

الكتاب، نعت بالأستاذ اتصل بالسلطان مسعود السلجوقي صاحب الموصل فولاه وزارته، توفي ٥١٣هـ.

(١) ٦٦٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٧٧).

وقال الحسن: «يدفع عن مصليات أهل الذمة بالمؤمنين». وعلى هذا القول لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه، فإن الآية دلت على الواقع لم تدل على كون هذه الأمكنة - غير المساجد - محبوبةً مرضيةً له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة، التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقر منها ما أقر بعده وإن كانت مسخوطة له، كما أقر أهل الذمة وإن كان يبغضهم ويمقتهم ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم. وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعا وقدرا، فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم.

وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية. قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبيد الله هو ابن موسى عن إسرائيل عن السدي عمن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴾. قال: الصوامع التي يكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، والصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين(١).

قال ابن أبي حاتم: وأخبرنا الأشج ثنا حفص بن غياث عن داود عن أبي العالية قال: ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾ قال: صوامع وإن كان يشرك به، وفي لفظ: إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر! وفي تفسير شيبان عن قتادة: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين(٢).

***

(١) أخرجه الطبري في تفسيره مختصرًا (١٧/ ١٧٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٩) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٩).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

(١) ههنا عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان، وهي: الختم والطبع والأكنة والغطاء والغلاف والحجاب والوقر والغشاوة والران والغل والسد والقفل والصمم والبكم والعمى والصد والصرف والشد على القلب والضلال والإغفال والمرض وتقليب الأفئدة والحول بين المرء وقلبه وإزاغة القلوب والخذلان والإركاس والتثبيط والتزيين وعدم إرادة هداهم وتطهيرهم وإماتة قلوبهم بعد خلق الحياة فيها، فتبقى على الموت الأصلي، وإمساك النور عنها فتبقى في الظلمة الأصلية، وجعل القلب قاسيًا لا ينطبع فيه مثال الهدى وصورته، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا لا يقبل الإيمان.

وهذه الأمور منها ما يرجع إلى القلب: كالختم والطبع والقفل والأكنة والإغفال والمرض ونحوها.

ومنها ما يرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى: كالصمم والوقر.

ومنها ما يرجع إلى طليعته ورائده: كالعمى والغشاء.

ومنها ما يرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلغ عنه: كالبكم النطقي، وهو نتيجة البكم القلبي، فإذا بكم القلب بكم اللسان.

ولا تصغ إلى قول من يقول: إن هذه مجازات واستعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم والفهم عن الله ورسوله، وكان هذا القائل حقيقة الفعل عنده أن يكون من حديد، والختم أن يكون بشمع أو طين، والمرض أن يكون حمى بنافض أو قولنج أو غيرهما من أمراض البدن، والموت هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، والعمى ذهاب ضوء العين الذي تبصر به.

وهذه الفرقة من أغلظ الناس حجابا، فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محلها كانت

---

(١) ٩٢ شفاء العليل.

بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، وكذلك الختم والطابع الذي عليه هو بالنسبة إليه كالختم والطابع الذي على الباب والصندوق ونحوهما، وكذلك نسبة الصمم والعمى إلى الأذن والعين، وكذلك موته وحياته نظير موت البدن وحياته، بل هذه الأمور ألزم للقلب منها للبدن، فلو قيل: إنها حقيقة في ذلك مجاز في الأجسام المحسوسة لكان مثل قول هؤلاء وأقوى منه، وكلاهما باطل، فالعمى في الحقيقة والبكم والموت والقفل للقلب. ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

والمعنى أنه معظم العمى وأصله، وهذا كقوله ﷺ: «إنما الربا في النسيئة»[١]. وقوله: «إنما الماء من الماء»[٢]. وقوله: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[٣]. وقوله: «ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»[٤]. وقوله: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٥].

ولم يرد نفي الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أولى بهذه الأسماء وأحق ممن يسمونه بها، فهكذا قوله: ﴿ لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾، وقريب من هذا قوله: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وعلى التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقة، وهكذا جميع ما نسب إليه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٩٦) وانظر: فتح الباري (٤/ ٣٨١-٣٨٢) وشرح النووي (١١/ ٢٣-٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم٣٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ١٣) (١/ ٣٩٧-٣٩٩) وشرح النووي (٤/ ٣٦-٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٤٦) ومسلم (رقم ١٠٥١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٤) (١١/ ٢٦٢) وشرح النووي (٧/ ١٤٠-١٤١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٩) ومسلم (رقم ١٠٣٩) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٨٥) وشرح النووي (٧/ ١٢٩).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٤، ٩١٥).

ولما كان القلب ملك الأعضاء وهي جنوده، وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوىٰ والحركة الاختيارية تنبعث كانت هذه الأمثال أصلًا وللأعضاء تبعًا.

فلنذكر هذه الأمور مفصلة ومواقعها في القرآن، فقد تقدم الختم، قال الأزهري: وأصله التغطية وختم البذر في الأرض إذ غطاه.

قال أبو إسحاق: معنىٰ ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية علىٰ الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك قوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنىٰ آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق[(١)].

[(٢)]وأما معاينة القلب: فهي انكشاف صورة المعلوم له، بحيث تكون نسبته إلىٰ القلب كنسبة المرئي إلىٰ العين، وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمىٰ، كما تبصر العين وكما تعمىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فالقلب يرىٰ ويسمع ويعمىٰ ويصم، وعماه وصممه أبلغ من عمىٰ البصر وصممه.

وأما ما يثبته متأخرو القوم من هذا القسم الثالث، وهو رؤية الروح وسمعها وإرادتها وأحكامها التي هي أخص من أحكام القلب، فهؤلاء اعتقادهم أن الروح غير النفس والقلب.

ولا ريب أن ههنا أمورًا معلومة وهي: البدن وروحه القائم به، والقلب المشاهد فيه وفي سائر الحيوان، والغريزة وهي القوة العاقلة التي محلها القلب. ونسبتها إلىٰ

---

(١) بقية البحث ذكر عقوبة الله لمن صد عن سبيله، وذكرها الشيخ مجموعة هنا، وقد حاولنا توزيعها في محالها من القرآن حسب الاجتهاد إلا أن الباحث لا يستغني عن مراجعتها في الأصل (ج).

(٢) ٢٤٦ مدارج جـ٣.

القلب كنسبة القوة الباصرة إلى العين والقوة السامعة إلى الأذن، ولهذا تسمى تلك القوة قلبا، كما تسمى القوة الباصرة بصرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، ولم يرد شكل القلب فإنه لكل أحد، وإنما أراد القوة والغريزة المودعة فيه.

والروح: هي الحاملة للبدن، ولهذه القوى كلها، فلا قوام للبدن ولا لقواه إلا بها - ولها باعتبار إضافتها إلى كل محل - حكم واسم يخصها هناك. فإذا أضيفت إلى محل البصر سميت بصرًا، وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل السمع سميت سمعًا وكان لها حكم يخصها هناك. وإذا أضيفت إلى محل العقل - وهو القلب - سميت قلبًا. ولها حكم يخصها هناك، هي في ذلك كله روح.

فالقوة الباصرة والعاقلة والسامعة والناطقة: روح باصرة وسامعة وعاقلة وناطقة. فهي في الحقيقة هذا العاقل، الفاهم المدرك، المحب العارف، المحرك للبدن، الذي هو محل الخطاب والأمر والنهي - هو شيء واحد له صفات متعددة بحسب متعلقاته، فإنه يسمى نفسًا مطمئنة، ونفسًا لوَّامة، ونفسًا أمارة. وليس هو ثلاثة أنفس بالذات والحقيقة، ولكن هو نفس واحدة لها صفات متعددة.

(١)والله ﷻ يغار على قلب عبده أن يكون معطَّلًا من حبه وخوفه ورجائه، وأن يكون فيه غيره، فالله ﷻ خلقه لنفسه، واختاره من بين خلقه، كما في الأثر الإلهي: «ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عمَّا خلقتك له»(٢). وفي أثر آخر: «خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت لك برزقك فلا تتعب(٣)، يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل

---

(١) ٣٢٦ روضة المحبين.
(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٥).
(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٥).

شيء، وأنا خير لك من كل شيء»[١].

ويغار على لسانه أن يتعطل من ذكره، ويشتغل بذكر غيره. ويغار على جوارحه أن تتعطل من طاعته، وتشتغل بمعصيته، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحق على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها.

وإذا أراد الله بعبده خيرًا سلط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه. وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء، وهذا من غيرته ﷻ على عبده.

وكما أنه ﷻ يغار على عبده المؤمن فهو يغار له ولحرمته، فلا يُمَكّن المفسد أن يتوصل إلى حرمته غيرةً منه لعبده، فإنه ﷻ يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن قلوبهم وجوارحهم وأهلهم وحريمهم وأموالهم، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كله غيرةً منه لهم، كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم، والله تعالى يغار على إمائه وعبيده من المفسدين شرعًا وقدرًا. ومن أجل ذلك حرم الفواحش وشرع عليها أعظم العقوبات وأشنع القتلات لشدة غيرته على إمائه وعبيده، فإن عطلت هذه العقوبات شرعًا أجراها سبحانه قدرًا.

[٢]فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله ﷻ على الذنوب، وجوز وصولها إليك، واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والأقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والإبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء العبد نفسه وترك

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٠٢) (٤/ ٢٣٩) وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٢).
(٢) ١٥٨الجواب الكافي.

إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضا على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة.

كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما»(١).

ومنها: التثبط عن الطاعة، والإقعاد عنها.

ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧]. وقال: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس: ١، ٢]. وإنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»**. وقوله ﷺ: **«ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه»** ونظائره كثيرة.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٨ رقم ٣٠٤٠٤) وأحمد (٣/ ١٧) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٧٥)، والديلمي في الفردوس (٣/ ٢٣٥ رقم ٤٦٩٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٤٣٩) وأبو نعيم (١/ ٢٧٦) وجوّد إسناده السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢١٥) وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧): وهذا إسناد جيد حسن، وقال في (٣/ ٢٩٣): إسناده جيد.

والمقصود: أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم.

ومنها: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه: فيخسف به إلى أسفل سافلين، وصاحبه لا يشعر.

وعلامة الخسف به: أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوّالا حول البر والخير.

***

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

[(١)]أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول محنة واختبارًا لعباده فافتتن به فريقان، وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وعلم المؤمنين أن القرآن والرسول حق، وأن إلقاء الشيطان باطل فآمنوا بذلك، وأخبتت له قلوبهم، فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر.

والله سبحانه جعل القلوب على ثلاثة أقسام: مريضة وقاسية ومخبتة، وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافًا وإذعانًا، أو لا تكون كذلك.

فالأول حال القلوب القاسية الحجرية، التي لا تقبل ما يبث فيها، ولا ينطبع فيها الحق، ولا ترتسم فيها العلوم النافعة، ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة.

وأما النوع الثاني فلا يخلوا إما أن يكون الحق ثابتا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه، أو يكون ثابتا مع ضعف وانحلال. والثاني هو القلب المريض، والأول هو الصحيح المخبت، وهو الذي جمع الصلابة والصفاء واللين، فيبصر الحق بصفائه، ويشتد فيه بصلابته، ويرحم الخلق بلينه. كما في أثر مروي: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها

---

(١) ١٩٢ شفاء العليل.

إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها»(١). كما قال تعالى في أصحاب هذه القلوب: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء قلوبهم، واشتدوا على الكفار بصلابتها، وتراحموا فيما بينهم بلينها.

وذلك أن القلب عضو من أعضاء البدن وهو أشرف أعضائه وملكها المطاع، وكل عضو، كاليد مثلًا ـ إما أن تكون جامدة ويابسة لا تلتوي ولا تبطش أو تبطش بضعف، فذلك مثل القلب القاسي.

أو تكون مريضة ضعيفة عاجزة ولضعفها ومرضها، فذلك مثل الذي فيه مرض، أو تكون باطشة بقوة ولين، فذلك مثل القلب العليم الرحيم.

فبالعلم خرج عن المرض الذي ينشأ من الشهوة والشبهة؛ وبالرحمة خرج عن القسوة، ولهذا وصف سبحانه من عدا أصحاب القلوب المريضة والقاسية بالعلم والإيمان والإخبات.

فتأمل ظهور حكمته سبحانه في أصحاب هذه القلوب، وهم كل الأمة.

فأخبر أن الذين أوتوا العلم علموا أنه الحق من ربهم، كما أخبر أنهم في المتشابه يقولون: «آمنا به كل من عند ربنا»، وكلا الوصفين موضع شبهة، فكان حظهم منه الإيمان وحظ أرباب القلوب المنحرفة عن الصحة الافتتان.

ولهذا جعل سبحانه إحكام آياته في مقابلة ما يلقي الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات، فالإحكام ههنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك، ونسخ ما يلقي الشيطان ههنا في مقابلة رد المتشابه إلى المحكم هناك.

والنسخ ههنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الرب سبحانه.

---

(١) أخرجه بلفظ قريب الديلمي في الفردوس عن أبي الدرداء (٣/ ٢٠٧ رقم ٤٥٨٤) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٧) مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ وقال: غريب من حديث ثور.

وللنسخ معنى آخر هو النسخ من أفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يرده ولا دل اللفظ عليه، وإن أوهمه كما أطلق الصحابة النسخ على قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قالوا: نسختها قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية فهذا نسخ من الفهم لا نسخ للحكم الثابت، فإن المحاسبة لا تستلزم العقاب في الآخرة ولا في الدنيا أيضًا، ولهذا عمهم بالمحاسبة.

ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ففهم المؤاخذة التي هي المعاقبة من الآية، تحميل لها فوق وسعها، فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى آخرها، فهذا رفع لفهم غير المراد من إلقاء الملك، وذاك رفع لما ألقاه غير الملك في أسماعهم أو في التمني.

وللنسخ معنى ثالث عند الصحابة والتابعين، وهو ترك الظاهر: إما بتخصيص عام، أو بتقييد مطلق، وهذا كثير في كلامهم جدًّا.

وله معنى رابع، وهو الذي يعرفه المتأخرون، وعليه اصطلحوا، وهو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافع له، فهذه أربعة معان للنسخ. والإحكام له ثلاثة معان:

أحدها: الإحكام الذي في مقابلة المتشابه كقوله: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧].

والثاني: الإحكام في مقابلة نسخ ما يلقي الشيطان كقوله: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢] وهذا الإحكام يعم جميع آياته، وهو إثباتها وتقريرها وبيانها، ومنه قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: ١].

الثالث: إحكام في مقابلة الآيات المنسوخة، كما يقول السلف كثيرًا: هذه الآية محكمة غير منسوخة.

وذلك لأن الإحكام تارة يكون في التنزيل، فيكون في مقابلة ما يلقيه الشيطان في

أمنيته ما يلقيه المبلغ أو في سمع المبلغ، فالحكم هنا هو المنزل من عند الله، أحكمه الله أي فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ما ليس منه بإبطاله.

وتارة يكون في إبقاء المنزل واستمراره فلا ينسخ بعد ثبوته.

وتارة يكون في معنى المنزل وتأويله وهو تمييز المعنى المقصود من غيره حتى لا يشتبه به.

والمقصود أن قوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣] هي لام التعليل على بابها، وهذا الاختبار والامتحان مظهر لمختلف القلوب الثلاثة، فالقاسية والمريضة ظهر خبؤها من الشك والكفر. والمخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدى وزيادة محبته وزيادة بغض الكفر والشرك والنفرة عنه، وهذا من أعظم حكمة هذا الإلقاء.

[(١)]وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أصلبها وأرقها وأصفاها»[(٢)]، وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤] فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل، الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان.

ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به.

قال الكلبي: ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ فترق للقرآن قلوبهم.

وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝

(١) ١٠٦ شفاء العليل.
(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

ﭐلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.

قال ابن عباس: ﴿ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾ المتواضعين. وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله. وقال الأخفش: الخاشعين. وقال ابن جرير: الخاضعين. قال الزجاج: اشتقاقه من الخبت وهو المنخفض من الأرض، وكل مخبت متواضع فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

فإن قيل: كان معناه التواضع والخشوع فكيف عدي بإلى في قوله: ﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ [هود: ٢٣].

قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع.

والمقصود: أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتًا إليه وبعضها قاسيا وجعل للقسوة آثارًا وللإخبات آثارًا.

فمن آثار القسوة: تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد، وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب. ومنها نسيان ما ذكر به، وهو ترك ما أمر به علمًا وعملًا.

ومن آثار الإخبات وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه.

[(١)]والفرق بين الصبر والقسوة: أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى،

---

(١) ٢٩٣ الروح.

والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية.

وأما القسوة فيبس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله.

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة (قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة، (وقلب مائع) رقيق جدًّا، فالأول لا ينفعل بمنزلة الحجر، والثاني بمنزلة الماء، وكلاهما ناقص.

وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافي الصلب، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه، ويقبله ويؤثره برقته، ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته.

وفي أثر: «القلوب آنية الله في أرضه بأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

وهذا القلب الزجاجي؛ فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة.

وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣].

فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال، هذا بمرضه، وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين، ورحمة لأصحاب القلب الثالث، وهو القلب الصافي الذي ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقبل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته.

فقال تعالى عقب ذلك: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ

وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

(١) الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه:

منها: أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان.

ومنها: أن ما أثمر إقبالًا على الله وإنابة إليه وذكرًا له وهمة صاعدة إليه، فهو من إلقاء الملك، وما أثمر ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر فهو من الملك، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان.

ومنها: أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك، وما أورث قلقًا وانزعاجًا واضطرابًا فهو من الشيطان.

فالإلهام الملكي: يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله، فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلبًا يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان، وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك.

(٢) فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يسمعه فقد عصى أمره، كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأوضح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وعاون بعضهم بعضًا بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين عجزهم وضعفهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأي شيء أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وحده؟ فهل قدر القوي العزيز حق

---

(١) ٣١٣ الروح.

(٢) ٩٧ مختصر الصواعق جـ١.

قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها، فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين ذلك بأعذب ألفاظ وأحسنها، لم يكتنفها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم يزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهمه متوهم، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشأن البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ اهـ.

[(١)]فضرب لهم سبحانه مثلًا من عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره، وأن هذا أمر مستقر قبحه وهجنته في كل عقل وإن لم يرد به الشرع، وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذبابًا واحدًا، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لم يقدروا على الانتصار منه واستنقاذ ما سلبهم إياه، وتركِ عبادة الخلاق العليم القادر على كل شيء، الذي ليس كمثله شيء، أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركبه في العقول من حسن عبادته وحده وقبح عبادة غيره.

[(٢)]حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح

---

(١) ٨ مفتاح جـ٢.

(٢) ١٨١ أعلام جـ١.

عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات، والغني عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات، فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه.

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه، ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز.

وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب الإله الباطل، والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه.

وقيل: الطالب الذباب والمطلوب الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستَلَب والمستَلِب، فمن جعل هذا إلهًا مع القوي العزيز فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه.

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧)﴾.

[1]الذي يظهر في الآية والله أعلم بمراده من كلامه. أنها اشتملت على مطلق العبادة،

(١) ٨٠ البدائع جـ١.

وتفصيلها فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولا وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة.

ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود، الذي يشرع وحده كسجود الشكر والتلاوة ويشرع في الصلاة، فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردا، فهو أخص مما قبله، ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام. النزول من الأعم إلى الأخص، وعكسها وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم ونظيرها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧] فذكر أربعة أشياء: أخصها الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله.

والذي يزيد هذا وضوحًا الكلام على ما ذكره بعد هذه الآية من قوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦] فإنه ذكر أخص هذه الثلاثة، وهو الطواف الذي لا يشرع إلا بالبيت خاصة، ثم انتقل منه إلى الاعتكاف - وهو القيام المذكور في الحج - وهو أعم من الطواف، لأنه يكون في كل مسجد، ويختص بالمساجد لا يتعداها، ثم ذكر الصلاة التي تعم سائر بقاع الأرض سوى ما منع منه مانع أو استثني شرعًا.

وإن شئت قلت: ذكر الطواف الذي هو أقرب العبادات بالبيت.

ثم الاعتكاف الذي يكون في سائر المساجد.

ثم الصلاة التي تكون في البلد كله بل في كل بقعة، فهذا تمام الكلام على ما ذكره من الأمثلة، وله رحمه الله مزيد السبق وفضل التقدم.

(١) إن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة، فالله يصطفى من

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

الملائكة رسلًا ومن الناس. وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، ومراضيه ومساخطه، وثوابه وعقابه، وخصهم بوحيه، واختصهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى العالمين نفوسا، وأشرفهم أخلاقًا، وأكملهم علوما وأعمالا، وأحسنهم خلقة، وأعظمهم محبة وقبولا في قلوب الناس، وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنيء، وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم، فإنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة، وإرشادهم الضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرهم المظلوم، وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين، فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني على بصيرة، وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة. والقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقًّا إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل، فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملًا وهداية وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر ﷺ قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] فذكر مراتب السعداء وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب، وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

***

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

[1]أخبر تعالى أنه اجتباهم، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من اجتبى الشيء يجتبيه: إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين.

ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فيبذلوا له أنفسهم، ويفردوه بالمحبة والعبودية، ويختاروه وحده إلها محبوبا على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه، وآثرهم بذلك على من سواهم.

ثم أخبرهم تعالى أنه يسر عليهم دينه غاية التيسير، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة، لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم.

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتفويض والاستسلام، فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره.

ثم أخبر تعالى أنه نوَّه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم، وسماهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم.

ثم نوَّه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم اعتناء بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم، ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله، ويشهدوا هم على الناس، فيكونون مشهودا لهم بشهادة الرسول، شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم، فكان

(١) ١٣٣ أعلام جـ٤.

هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين.

والمقصود: أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالىٰ، فمن المحال أن يحرمهم كلهم الصواب في مسألة فيفتي فيها بعضهم بالخطأ، ولا يفتي فيها غيره بالصواب، ويظفر فيها بالهدىٰ من بعدهم، والله المستعان.

(١) إن إبراهيم بالسريانية معناه أب رحيم، والله ﷻ جعل إبراهيم الأب الثالث للعالم، فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح، وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧]، وبهذا يتبين كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا ولده، ولا ينسبون إليه، وينسبون ملوكهم من آدم إليهم، ولا يذكرون نوحاً في آبائهم، وقد أكذبهم الله ﷻ في ذلك.

فالأب الثالث أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن، وشيخ الأنبياء كما سماه النبي ﷺ بذلك، فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه، وهما يستقسمان بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام. ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره، فقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، وأمر أمته بذلك فقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾ [الحج: ٧٨]، «وملة» منصوب علىٰ إضمار فعل، أي: اتبعوا وألزموا ملة إبراهيم، ودل علىٰ المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا هو الذي يقال له الإغراء. وقيل: منصوب انتصاب المصادر، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله، وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا علىٰ فطرة

---

(١) ١٥٤ جلاء الأفهام.

الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[(١)][(٢)].

[(٣)]وقد اختلفت عبارات السلف في «حق الجهاد».

فقال ابن عباس: «هو استفراغُ الطاقة فيه[(٤)]، وألا يَخافَ في الله لومةَ لائم».

وقال مقاتل: «اعملوا لله حقَّ عمله، واعبدُوه حقَّ عِبادته». وقال عبد الله بنُ المبارك: «هو مجاهدةُ النفس والهوى». ولم يُصِبْ مَن قال: إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يُطاق.

وحقّ تُقاته وحقّ جهاده: هو ما يُطيقه كلُّ عبد في نفسه، وذلك يختِلف باختلافِ أحوال المكلَّفين في القُدرةِ، والعجزِ، والعلمِ، والجهلِ. فحقُّ التقوى، وحقُّ الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالِم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء.

وتأمل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ [الحج: ٧٨] والحَرَج: الضِّيقُ، بل جعله واسعاً يسَعُ كُلّ أحد، كما جعل رِزقه يسع كُلّ حي، وكلَّف العبدَ بما يسعه العبدُ، ورزق العَبدَ ما يسعُ العبد، فهو يسعه تكليفَه، ويسعه رزقُهُ، وما جعل على عبده في الدين من حَرَج بوجه ما، قال النبيُّ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»[(٥)] أي: بالمِلَّة، فهي حنيفيَّة في التوحيد، سمحَةٌ في العمل...

(١) يأتي البحث إن شاء الله كاملًا في سورة الصافات (ج).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤ رقم ٩٨٣١) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧) والبزار (٥/ ٢٩١ رقم ١٩١١) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣) وابن السني (رقم ٣٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

(٣) ١٠٥ زاد المعاد جـ٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٢٠٥).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢١٦ رقم ٧٨٦٨) والروياني (٢/ ٣١٧ رقم ١٢٧٩) وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٢): رواه أحمد في مسنده بسند حسن. وانظر: فيض القدير (٣/ ٢٠٣).

(١) قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] أي: متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدوّ أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحج

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٨٠ مدارج السالكين جـ١.

سُورَةُ المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾.

(١)لما أُنزلت هذه الآيات على النبي ﷺ قال: «قد أنزلت عليَّ عشر آياتٍ من أقامهن دخل الجنة»(٢) ثم قرأ هذه الآيات.

(٣)قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] قال ابن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»(٤) وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن»(٥) وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

---

(١) ٣٣٩ روضة المحبين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٧٣) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٥٠ رقم ١٤٣٩) والحاكم (٢/ ٤٢٥ رقم ٣٤٧٩) والضياء في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) وعبدالرزاق (٣/ ٣٨٣ رقم ٦٠٣٨) والضياء في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) وعبدالرزاق (٣/ ٣٨٣ رقم ٦٠٣٨) وأحمد (١/ ٣٤) وعبد بن حميد (رقم ١٥) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٦٠) والحديث ضعفه النسائي وقال عنه منكر. بينما صححه الحاكم وقال الترمذي: هذا أصح من الحديث ا لأول.

(٣) ٥٢٠ مدارج جـ١.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٢٧).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٧-٥٨) وقال في الموضع الأول: وأخرج ابن مردويه عن أنس لا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وقال في الموضع الثاني: وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣١١).

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون، قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨]، أي: سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩] و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه، وقيل: «الخشوع» الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد، وقيل: «الخشوع» خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب، وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره، و«رأى النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[(١)] وقال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا» ـ وأشار إلى صدره ـ ثلاث مرات، وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن[(٢)].

ورأى بعضهم رجلًا خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا. وأشار إلى صدره لا هاهنا، وأشار إلى منكبيه،وكان بعض الصحابة ﷺ وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[(٣)].

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) وضعفه المناوي في الفتح السماوي (٢/ ٨٥٤ رقم ٧٣٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٠) من قول أبي حفص الحداد رحمه الله. وانظر: صفة الصفوة (٤/ ١٢٠) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٧٠، ٢٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٣ رقم ٣٥٧١١) والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٦٤ رقم ٦٩٦٦) وأحمد في الزهد (ص ١٤٢) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٦٣٦) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٣٣).

ورأى عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»[١]. ورأت عائشة - رضي الله عنها - شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: «كان عمر بن الخطاب: إذا مشي أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا»[٢]، وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يري الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه، وقال حذيفة ﷺ: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة»[٣]، «ورب مصل لا خير فيه»[٤]، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا[٥]، وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان».

...[٦]وكذلك إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه، لا عن يمينه ولا عن يساره، ويدعوه من العلو لا من السفل، وقد ثبت في الصحيحين عن

---

(١) انظر: الكبائر (ص ١٤٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات بلفظ قريب عن الشفاء بنت عبد الله (٣/ ٢٩٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٤/ ٢٨٨)، بينما ذكره عن عائشة ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٦ رقم ٨٤٤٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠ رقم ٣٤٨٠٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٨١).

(٤) يروى مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يرفع عن الناس الأمانة، وآخر ما يبقى الصلاة، ورب مصلٍّ لا خير فيه» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٤) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٢٥ رقم ٥٢٧٤) والطبراني في الصغير (رقم ٣٨٧) والديلمي في الفردوس (١/ ١٥ رقم ١٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢١) رواه الطبراني في الصغير، وفيه حكيم بن نافع وثقه ابن معين وضعفه أبو زرعة وبقية رجاله ثقات.

(٥) أخرجه الحاكم من قول عبادة بن الصامت ﷺ (١/ ١٧٩ رقم ٣٣٨) والترمذي (رقم ٢٦٥٣) والدارمي (رقم ٢٨٨) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٧٦ رقم ٢٠٢٢) وقال الحاكم: هذا إسناد صحيح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٦) ٢٧٥ مختصر الصواعق جـ٢.

النبي ﷺ أنه قال: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم أبصارهم»(١). واتفق العلماء على أن رفع البصر إلى السماء للمصلي منهي عنه.

وروى أحمد عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾(٢) فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده، فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلًا للفطرة، لأن الداعي السائل الذي أمر بالخشوع وهو الذل والسكون لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله، بل يناسبه الإطراق وخفض بصره أمامه، فليس في هذا النهي ما ينفي كونه فوق سماواته على عرشه، كما زعم بعض جهال الجهمية، فإنه لا فرق عندهم بين تحت التحت والعرش بالنسبة إليه، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع بصره إلى جهة، ويؤمر برده إلى غيرها، لأن الجهتين عند الجهمية سواء بالنسبة إليه، وأيضًا فلو كان الأمر كذلك لكان النهي ثابتًا في الصلاة وغيرها.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فليس العبد منهيًا عن رفع بصره إلى السماء مطلقًا، وإنما نهى عنه في الوقت الذي أمر فيه بالخشوع، لأن خفض البصر من تمام الخشوع، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ [القمر: ٧] وأيضًا فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء لكون الرب ليس في السماء لكان لا فرق بين رفعه إلى ورده إلى جميع الجهات، ولو كان مقصوده أن ينهي الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو لبين لهم ذلك بيانًا شافيًا ولم يحملهم فيه على أدب من آداب المصلي، وهو إطراقه بين يدي ربه وخشوعه، ورمي بصره إلى الأرض، كما يفعل بين يدي الملوك، فهذا إنما يدل على نقيض قولهم...

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٠) ومسلم (رقم ٤٢٨) واللفظ له، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٩٦) وشرح النووي (٤/ ١٥٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٥٤ رقم ٣٢٦٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٨٣) وعزاه إلى سعيد ابن منصور وابن جرير والبيهقي عن محمد بن سيرين رحمه الله ـ وانظر: فيض القدير (٥/ ١٩٩، ٣٩٨).

[(١)]إنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسرة للآية مشتقة منها، كقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه»[(٢)]، وقوله: «فالله يقبل عليه بوجهه، ما لم يصرف وجهه عنه»[(٣)] وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قبل وجهه»[(٤)]، وقوله: «فإن الله بينه وبين القبلة»[(٥)]، وقوله: «إن الله يأمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»[(٦)] رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «إن العبد إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، أقبل الله عليه بوجهه فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يحدث حدث سوء»[(٧)] وقال: جابر ﷺ عن النبي ﷺ: «إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه فإذا التفت أعرض الله عنه، وقال: يا ابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه، فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه، فإذا التفت أعرض الله عنه»[(٨)]، وقال ابن عمر عن النبي ﷺ: «إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه وجه

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (رقم ٢/ ٤٦ رقم ٨٨٠) وأبو داود (رقم ٤٨٠) وأحمد (٣/ ٢٤) وأبو يعلى (٢/ ٢٧٨ رقم ٩٩٣) والحاكم (١/ ٣٨٧ رقم ٩٤٣) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٧٥ رقم ١٢١) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ١٦ رقم ٤٤) والحديث صححه الحاكم، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (رقم ٤٨٠): حسن صحيح. وحسنه في صحيح الجامع (رقم ٢٦٦١).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٢/ ٢٨٢ رقم ٣٣٤٨) والعراقي في آماليه (رقم ٩٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٠٨) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٠٨) وشرح النووي (٥/ ٣٨).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٠٨).

(٦) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٦٣) وابن خزيمة (١/ ٢٤٤ رقم ٤٨٣) والحاكم (١/ ٣٦٢ رقم ٨٦٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٤٢٧) وأحمد (٤/ ١٣٠) والعراقي في آماليه (رقم ٩٠) وقال: هذا حديث صحيح. وكذا صححه الترمذي والحاكم.

(٧) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٢٣) وابن أبي شيبة (٢/ ١٤٢ رقم ٧٤٥٤) والبزار (٧/ ٢٩٥ رقم ٢٨٨٩).

(٨) ذكره المنذري في الترغيب (١/ ٢٠٩ رقم ٧٨٩) وعزاه إلى البزار. وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٨٠): رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي وقد أجمعوا على ضعفه. وانظر: عمدة القاري (٥/ ٣١١).

الرحمن»[١] وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له: ابن آدم! إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت»[٢].

[٣]فإذا قيل: ما تقولون في صلاة من عدم الخشوع: هل يعتد بها أم لا؟

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد له فيها، إلا بما عقل فيه منها، وخشع فيه لربه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها». وفي المسند مرفوعًا: «إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها»[٤].

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم، فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعتد له بها ثوابًا لكان من المفلحين.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا وسقوط القضاء: فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعًا، وكانت السنن والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها. وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها. فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد وأبو حامد الغزالي في إحيائه، لا في وسيطه و بسيطه.

واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها، ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولبها، فكيف يعتد بصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٣) ومسلم (رقم ٥٤٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٥٠٨) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٧٠) وانظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٢٥٨-٢٥٩).

(٣) ٢٥٢ مدارج جـ١.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٣/ ١٩٧ رقم ١٦٢٨) والنسائي في الكبرى (١/ ٢١٢ رقم ٦١٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٨١ رقم ٣٣٤٢) وانظر: عون المعبود (٣/ ٣).

فقدت روحها ولبها، وبقيت صورتها وظاهرها؟.

قالوا: ولو ترك العبد واجبا من واجباتها عمدًا لأبطلها تركه. وغايته أن يكون بعضا من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة، فكيف إذا عدمت روحها ولبها ومقصودها؟ وصارت بمنزلة العبد الميت إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد، يعتقه تقربا إلى الله تعالى في كفارة واجبة، فكيف يعتد بالعبد الميت. وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدى إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة أو دميمة أو قبيحة، حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة، فكيف بالصلاة التي يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟ والله طيب لا يقبل إلا طيبا، وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها، وقد عزل ملكها وتعطل؟.

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائما بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس، فأنى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه، وعن أمره يصدرون وبه يأتمرون؟

قالوا: وفي الترمذي وغيره، مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «**إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل**»[1] وهذا إما خاص بدعاء العبادة، وإما عام له ولدعاء المسألة، وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو أبعد. فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاص حقه من قلب غافل.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٧٩) والحاكم (١/ ٦٧٠ رقم ١٨١٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢١١ رقم ٥١٠٩) وفي الدعاء (رقم ٦٢) قال الحاكم: هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد أهل البصرة ولم يخرجاه، وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٢) وعمدة القاري (٢٢/ ٢٩٨).

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص. فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد. والغافل لا قصد له، فلا عبودية له.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع. والصواب: أنه يعم النوعين فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه:

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر وينتقل إلى بدله والإخلاص والحضور لا يسقط بحال ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور: كالمسافر والمريض وذي الشغل الذي يحتاج معه إلى الجمع، كما نص عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور وجمعية القلب على الله في الصلاة: أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها، فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة أو اعتدال في ركن أو ترك حرف أو شدة من القرآن أو ترك تسبيحة أو قول: «سمع الله لمن حمده» أو قول: «ربنا ولك الحمد» أو ذكر رسول الله ﷺ بالصلاة عليه ثم يصححها مع فوات لبها ومقصودها الأعظم وروحها وسرها. فهذا ما احتجت به هذه الطائفة وهي حجج - كما تراها - قوة وظهورًا. قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال: «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان، وله ضراط حتى

لا يسمع التأذين، فإذا قُضيَ التأذين أقبل، فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، فإذا قُضيَ التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه، فيذكره ما لم يكن يذكر، يقول: اذكر كذا. اذكر كذا. لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس»(١).

قالوا: فأمره النبي ﷺ في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها، حتى لم يدر كم صلى: بأن يسجد سجدتي السهو، ولم يأمره بإعادتها، ولو كانت باطلة كما زعمتم لأمره بإعادتها.

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو ترغيمًا للشيطان في وسوسته للعبد، وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة، ولهذا سماها النبي ﷺ المرغمتين(٢). وأمر من سها بهما ولم يفصِّل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير، والغالب والمغلوب، وقال: «لكل سهو سجدتان»(٣). ولم يستثن من ذلك السهو الغالب مع أنه الغالب.

قالوا: ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة، وأما حقائق الإيمان الباطنة: فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب، فلله تعالى حكمان: حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحكم في الآخرة على الظواهر والبواطن، ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين، ويكل أسرارهم إلى الله تعالى، فيناكحون ويرثون ويورثون، ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا، فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة، إذ قد أتوا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٨) ومسلم (رقم ٣٨٩) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٨٩) وشرح النووي (٤/ ٩١-٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٠٢٥) وابن حبان (٦/ ٣٨٠ رقم ٢٦٥٥) وابن خزيمة (٢/ ١٣٤ رقم ١٠٦٣) وانظر: عون المعبود (٣/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٠٣٨) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٣٧ رقم ٣٦٣٨) وأحمد (٥/ ٢٨٠) وابن أبي شيبة (١/ ٣٩٠ رقم ٤٤٨٣) وعبدالرزاق (٢/ ٣٢٢ رقم ٣٥٣٣) والطبراني في الكبير (٢/ ٩٢ رقم ١٤١٢) وانظر: شرح النووي (٥/ ٥٧) وعمدة القاري (٤/ ١٤٠) وعون المعبود (٣/ ٢٥٠-٢٥١).

بصورتها الظاهرة، وأحكام الثواب والعقاب ليست إلى البشر، بل إلى الله، والله يتولاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائي مع أنه لا يسقط عنه العقاب، ولا يحصل له الثواب في الآخرة، فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولى بالصحة.

نعم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلًا ولا آجلًا، فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه واستنارته وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة والفرح والسرور واللذة، التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله، وحضر قلبه بين يديه، كما يحصل لمن قربه السلطان منه، وخصه بمناجاته والإقبال عليه، والله أعلى وأجل.

وكذلك ما يحصل هذا من الدرجات العلى في الآخرة ومرافقة المقربين.

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كلامنا في هذا كله.

فإن أردتم وجوب الإعادة: لتحصل هذه الثمرات والفوائد: فذاك إليه إن شاء أن يحصلها، وإن شاء أن يفوتها على نفسه، وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه على تركها، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين، والله أعلم.

***

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(١) الفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس البستان، والفراديس: البساتين، قال

---

(١) ٧٥ حادي الأرواح.

كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب، وقال الليث: الفردوس: جنة ذات كروم، يقال: كرم مفردس أي معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد، وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس، قال: ولهذا سمى باب الفراديس بالشام[(١)] وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا ما بعد يبرين من باب الفراديس[(٢)]

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين قال حسان:

وإن ثواب الله كل موحد جنان من الفردوس فيها يخلد[(٣)]

***

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ

---

(١) انظر: القاموس المحيط (ص ١٣٨٨) ولسان العرب (٦/ ١٦٣-١٦٤) ومختار الصحاح (ص ٢٠٨).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، قائله: جرير بن عطية الخطفي اليربوعي التميمي أشعر أهل عصره ولد ومات في اليمامة، وعاش عمره يناضل شعراء زمنه، ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفًا من أغزل الناس شعرًا، مات سنة ١١٠هـ.
ذكر البيت ابن الجوزي في المنتظم (٧/ ١٤٧) والحموي في معجم البلدان (٢/ ٥٢٥) (٥/ ٤٢٧) وعبدالله البكري الأندلسي في معجم ما استعجم (٢/ ٥٧٢).

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وقائله حسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وأحد المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام، قال المبرد في الكامل: أعرق قوم في الشعراء آل حسان، فإنهم يعدون ستة في نسق، كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، توفي بالمدينة سنة ٥٤هـ ﷺ.

إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

(١) استوعب سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل ترابًا وماء إلىٰ حين بعثه يوم القيامة، فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يومًا، ثم يقلب الله سبحانه تلك ا لنطفة علقة: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يومًا أخرىٰ، ثم يصيرها سبحانه مضغة: وهي قطعة لحم أربعين يومًا، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيأته(٢).

(٣) هذا كثير في القرآن يدعو العبد إلىٰ النظر والتفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل علىٰ خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلىٰ الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة علىٰ عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف علىٰ بعضه، وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالىٰ: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فلم يكرر سبحانه علىٰ أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب، وإليه جرىٰ ذلك الحديث.

فانظر الآن إلىٰ النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم

---

(١) ١٤٥ تحفة المودود.

(٢) هنا بحث المؤلف بحثًا مطولًا حول تخليق الجنين وأطواره، فمن أراده فليرجع إليه (ج).

(٣) ١٨٨ مفتاح جـ١.

القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة الانقياد على ضيق طرقها، واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع، الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارًا مكينا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء، تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعله عظاما مجردة، لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها، وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك.

ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال.

وكيف كساها لحما ركبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به، وكيف صورها، فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه.

ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له، وكيف قدرها ربه وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحني والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها.

(١) ومن حجب الملك في الصدر، وأجلسه هناك على كرسي المملكة، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له، فهي مؤتمرة إذا أمرها، منتهية إذا نهاها، سامعة له مطيعة، تكدح وتسعى في مرضاته، فلا تستطيع منه خلاصًا ولا خروجا عن أمره.

فمنها رسوله، ومنها بريده، ومنها ترجمانه، ومنها أعوانه، وكل منها على عمل لا يتعداه، ولا يتصرف في غير عمله، حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون، ليأخذ الملك راحته، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها، وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر، فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة، والعساكر في خدمته، والبُرُدُ تتردد بينه وبين جنده ورعيته، لرأيت له شأنًا عجيبًا، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر، التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار.

قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] فدعا عباده إلى التفكر في أنفسهم، والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب، ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانًا، فكم دون القلب من حرس، وكم له من خادم، وكم له من عبيد ولا يشعر به، ولله ما خلق له وهيأ له وأريد منه، وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب، فإما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظر إلى وجه ربه، ويسمع خطابه. وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم.

فلو عقل هذا السلطان ما هيأ له لضن بملكه، ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد، ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

***

(١) ٢٧٠ مفتاح جـ١.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

(١)هذا أيضًا على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء، قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب، فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

(٢)وأما الإنشاء فإنما وقع إطلاقه عليه سبحانه فعلًا كقوله: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢] وقوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ [المؤمنون: ١٩] وقوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ [الواقعة: ٦١] وهو كثير ولم يرد لفظ المنشئ.

وأما العبد فيطلق عليه الإنشاء باعتبار آخر وهو شروعه في الفعل وابتداؤه له، يقول: أنشأ يحدثنا، وأنشأ السير، فهو منشئ لذلك، وهذا إنشاء مقيد وإنشاء الرب إنشاء مطلق، وهذه اللفظة تدور على معنى الابتداء، أنشأه الله أي ابتدأ خلقه، وأنشأ يفعل كذا ابتدأ، وفلان ينشئ الأحاديث، أي يبتدئ وضعها، والناشئ أول ما ينشأ من السحاب.

***

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

(٣)أخبر عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسلهم، وأنه عمهم بالإهلاك، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

---

(١) ٩٩ التبيان.

(٢) ١٣٣ شفاء.

(٣) هداية الحيارى.

ومعلوم قطعًا أن الله تعالىٰ لم يهلك هذه الأمم الكثيرة إلا بعد ما تبين لهم الهدىٰ فاختاروا عليه الكفر، ولو لم يتبين لهم الهدىٰ لم يهلكهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] أي فلم يكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس...

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

(١) الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون، والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله به رسوله(٢)، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣].

فأمر تعالىٰ الرسل بما أمر به أممهم: أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحًا، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين؛ فمضت الرسل وأتباعهم علىٰ ذلك، ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته، حتىٰ نشأت خلوفٌ قطعوا

---

(١) ٢١٠ أعلام جـ٢.

(٢) تقدم في سورة النساء بحث في هذا الموضوع يحسن الرجوع إليه (ج).

أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هذه الآيات، ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان.

***

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(١)كل لذة أعقبت ألمًا أو منعت لذة أكمل منها فليست بلذة في الحقيقة، وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، (فأي لذة) لآكل طعامٍ شهي مسمومٍ يُقطِّع أمعاءه عن قريب؟ وهذه هي لذات الكفار والفساق بعلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم، وذلك مثل لذة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، فنالوا بهم مودة بينهم في الحياة الدنيا، ثم استحالت تلك اللذة أعظم ألم وأمره، ومن ذلك لذة العقائد الفاسدة والفرح بها، ولذة غلبة أهل الجور والظلم والعدوان والزنا والسرقة وشرب المسكرات، وقد أخبر الله ﷻ أنه لم يمكنهم من ذلك لخير يريده بهم، إنما هو استدراجٌ منه لينيلهم به أعظم الألم، قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

(١) ١٧٥ روضة المحبين.

من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[١] منزلة «الخوف» وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب. وهي فرض على كل أحد. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومدح أهله في كتابه وأثنى عليهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله قول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق قال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه**»[٢].

قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا[٣]. و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس. وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف. وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه. وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ:

---

(١) ٥١١ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٧٥) وأحمد (٦/ ٢٠٥) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٩٨٥) والطبراني في الأوسط (١/ ١٨٣ رقم ٥٧٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٦): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (٧/ ٦٦) وتفسير الطبري (١٨/ ٣٢) وتفسير السيوطي (٦/ ١٠٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٩).

«إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»[١].

فالخوف حركة، والخشية انجماع، وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان. إحداهما: حركة للهرب منه وهي حالة الخوف. والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية، ومنه: انخشى الشيء. والمضاعف والمعتل أخوان: كتقضى البازي وتقضض.

وأما «الرهبة» فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

[٢]ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: أحدها: محبة ما يرجوه. الثاني: خوفه من فواته. الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر. فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات. وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[٣] وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٢٠) ومسلم (رقم ٢٣٠٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٣) وشرح النووي (٧/ ٢١٩).

(٢) ٤٧ الجواب الكافي.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٠) والحاكم (٤/ ٣٤٣ رقم ٧٨٥١) وعبد بن حميد (رقم ١٤٦٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٢ رقم ٨٨١) والرامهرمزي في أمثال الحديث (رقم ٨٣) والحديث حسنه الترمذي وصححه الحاكم.

رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرفون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**» وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا. والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

ومن تأمل أحوال الصحابة ﷺ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصديق يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن»[(١)] ذكره أحمد عنه.

***

﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

[(٢)]دعا سبحانه إلى تدبر القول وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبًا وزورًا يعرف من نفس القول تارة. وتارة من تناقضه واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضًا، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ يتحقق لهم، ويتبين حقيقة الأمر، وأن ما جاء به أعلى مراتب الصدق.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٠٨) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٢٥١) والرياض النضرة (٢/ ١٣٧).
(٢) ٩٨ مختصر الصواعق جـ١.

[(١)] وأما الأدب مع الرسول ﷺ: فالقرآن مملوء به.

فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل، يسميه معقولًا، أو يحمله شبهة أو شكًّا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل ﷻ بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلىٰ غيره، ولا يرضىٰ بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره، وتصديق خبره علىٰ عرضه علىٰ قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمَّىٰ تحريفه تأويلًا، وحملًا، فقال: نؤوله ونحمله.

فلأن يلقىٰ العبدُ ربه بكل ذنب علىٰ الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال، ولقد خاطبت يومًا بعض أكابر هؤلاء، فقلت له: سألتك بالله، لو قُدر أن الرسول ﷺ حي بين أظهرنا، وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضًا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه علىٰ رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتىٰ نعرض ما سمعناه منه علىٰ آراء الناس وعقولهم؟ فقال: بل كان الفرض المبادرة إلىٰ الامتثال من غير التفات إلىٰ سواه، فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيء نسخ؟ فوضع إصبعه علىٰ فيه، وبقي باهتًا متحيرًا، وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه، لا مخالفة أمره والشرك به، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة الله،

---

(١) ٣٨٧ مدارج جـ٢.

أو يتلقى منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة، وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها، والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركًا، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه، و من طلب ذلك ورامه عاديناه، وسعينا في قطع دابره، واستئصال شأفته ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٣-٧٤].

والناصح لنفسه، العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها، ويتأملها حق تأملها، وينزلها على الواقع: فيرى العجب، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا: «فالحديث لك، واسمعي يا جارة»[1] والله المستعان.

***

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

(١) ذكره الذهبي في السير (٣/ ٤٠٤) ولفظه عنده: «إياك أعني واسمعي يا جارة». وكذا ذكره المزي في تهذيب الكمال (٣/ ٣٧٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٣٧٣) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٤١ رقم ٣٦٥) وابن قدامة في المغني (٧/ ٣٥٣).

[(١)]أخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، ومعلوم أن عند النفاة يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد، وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر، وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبدًا ودينًا، وهذه مخالفة صريحة للقرآن، وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم، وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك.

ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه، ومن يقول: الجميع في نفس الأمر سواء، يجوز ورود التعبد بكل شيء سواء كان من مقتضى أهوائهم أو خلافها، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة تعبد غير الله لفسدتا وبطلتا، ولم يقل: أرباب، بل قال: آلهة، والإله هو المعبود المألوه، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلًا أن يشرع الله عبادة غيره أبدًا، وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض، فقبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول، وإن لم يرد بالنهي عنه شرع، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود، وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه، بل هو المنزه عن ذلك.

***

(١) ١١ مفتاح جـ٢.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ
قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ
وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

...(1)وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا وحالًا، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع والعطاء والمنع والهدى والضلال والسعادة والشقاء: كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه، وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها وأشدها وألينها: من اتخذه وحده إلها ومعبودا، فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعًا لها، كما ينساق الجيش تبعا للسلطان، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعا لخوفه، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعًا لرجائه. فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية. فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ويقررهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

---

(١) ٤١١ مدارج جـ١.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله وعن عبادته وحده، وهم يشهدون: أنه لا رب غيره ولا خالق سواه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم فهو وحده إلههم ومعبودهم، فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

(١) وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض، بمماليكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم، ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون.

---

(١) ٩٥ مختصر الصواعق جـ١.

[1]وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣] وهو كثير في القرآن، وبه تتم الحجة كما تبين. والمقصود: أن العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلها منه، ومصادرها إليه، وأزمة التوفيق جميعها بيديه، فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متكل إلا عليه، كما قال شعيب خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

***

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

[2]الهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة، وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد عن الكسائي: همزته، ولمزته، ولهزته، ونهزته ـ إذا دفعته. والتحقيق: أنه دفع بنخز، وغمز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب، قال ابن عباس والحسن: «همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم»[3] وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد.

وفسرت بخنقهم، وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال ـ وهو الأظهر ـ إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ

---

(١) ٤١٢ مدارج جـ١.

(٢) ٩٥ إغاثة جـ١.

(٣) انظر: فيض القدير (١/ ٢٨٨).

والنفث كانت نوعًا خاصًا، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ قال ابن زيد: في أموري، وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن، وقال عكرمة: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه.

فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه، وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم. ونظير هذا قوله في سورة الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم، ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

***

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

[(١)] ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه، وأنه روضة أو حفرة نار، باعتبار غالب الخلق، فالمصلوب والحريق والغريق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار

(١) ٩٠ الروح.

رمادًا، وذرى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح: أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: قم، فإذا هو قائم بين يدي الله، فسأله: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب، وأنت أعلم، فما تلافاه أن رحمه(١). فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء، التي صارت في هذه الحال حتى لو علق الميت على رءوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصحاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصى عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين.

إن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ﷻ جعل لابن آدم معادين وبعثين، يجزى فيهما الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى. فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول، والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار، وهو الحشر الثاني: ولهذا في الحديث الصحيح: «وتؤمن بالبعث الآخر»(٢). فإن البعث الأول لا ينكره أحد، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

وقد ذكر الله ﷻ هاتين القيامتين، وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين، وسورة الواقعة، وسورة القيامة، وسورة المطففين، وسورة الفجر، وغيرها من السور، وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٥٦) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٧١).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) ومسلم (رقم ٩) وانظر: شرح النووي (١/ ١٦٢).

ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله، وأوجبت سماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم، فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس، ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء لم يظهر فيها ذلك.

وأما البرزخ فأول دار الجزاء، فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما.

فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتق منه، وواصل إلى أهل البرزخ هناك، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع دلالة صريحة كقوله ﷺ: «**فيفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها**» وفي الفاجر: «**فيفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها**»[(١)].

ومعلوم قطعًا أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب، كما تأخذ الروح حظها، فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذي هو داخله.

وهذان البابان يصل منهما إلى العبد في هذه الدار أثر خفي محجوب بالشواغل والغوشي الحسية والعوارض، ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه، ولا يحسن التعبير عنه، فوجود الشيء غير الإحساس به والتعبير عنه، فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل، فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر إليه، فحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام في الدور الثلاث. اهـ.

***

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣، ٨١) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ١٠٥-١٠٧ رقم ٢٦٣٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٥٢): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

[(1)]نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وتأمل ما في هذين الاسمين، وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان الذي ظنه أعداؤه، إذ هو مناف لكمال ملكه ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرف في خلقه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملك والمالك، إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثا لم يأمرهم ولم ينههم فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة فقد طعن في ملك الله، ولم يقدره حق قدره، وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها.

فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق.

فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار فكونه حقًّا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه.

فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثا، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾

---

(١) ١٦٤ البدائع جـ٤.

[القيامة: ٣٦] قال الشافعي رحمه الله: مهملًا لا يؤمر ولا ينهى[١]. وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب. والقولان متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي، وهي العلقة ثم قلب العلقة، حتى صارت أكمل مما هي حتى خلقها، فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا، فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له. فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثا ويتركها سدى بعد كمال خلقها.

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب، كيف كان هذا الزعم منهم قولا بأن خلق السموات والأرض باطل، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولًا، ولم يجعل لهم أجلًا للقائه، كان ذلك ظنًّا منهم أنه خلق خلقه باطلًا.

[٢]قوله: وأي حكمة في تكليف الثقلين وتعريضهم بذلك للعقوبة وأنواع المشاق،

(١) ذكره عنه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٣).
(٢) ٢٦٦ شفاء العليل.

فاعلم أنه لولا التكليف لكان خلق الإنسان عبثًا وسدى، والله يتعالىٰ عن ذلك، وقد نزه نفسه عنه، كما نزه نفسه عن العيوب والنقائص.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى، ومعلوم أن ترك الإنسان كالبهائم مهملًا معطلًا مضاد للحكمة، فإنه خلق لغاية كماله، وكماله أن يكون عارفًا بربه محبًّا له قائمًا بعبوديته.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

فهذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر، وهما أعظم كمال الإنسان، والله تعالىٰ من عنايته به ورحمته له عرضه لهذا الكمال، وهيأ له أسبابه الظاهرة والباطنة ومكنه منها، ومدار التكليف علىٰ الإسلام والإيمان والإحسان، وهي ترجع إلىٰ شكر المنعم كلها دقيقها وجليلها منه وتعظيمه وإجلاله ومعاملته بما يليق أن يعامل به، فتذكر آلاؤه، وتشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، هذا مع تضمن التكليف لاتصاف العبد بكل خلق جميل، وإتيانه بكل فعل جميل وقول سديد، واجتنابه لكل خلق سيء، وترك كل فعل قبيح وقول زور.

فتكليفه متضمن لمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وصدق القول والإحسان إلىٰ الخليقة وتكميل نفسه بأنواع الكمالات وهجر أضداد ذلك، والتنزه عنها مع تعريضه بذلك التكليف للثواب الجزيل الدائم، ومجاورة ربه في دار البقاء، فأي الأمرين أليق بالحكمة هذا أو إرساله هملًا، كالخيل والبغال والحمير، يأكل ويشرب وينكح: كالبهائم أيقتضي كماله المقدس ذلك، فتعالىٰ الله الملك الحق لا إله إلا هو رب

العرش الكريم، وكيف يليق بذلك الكمال طي بساط الأمر والنهي والثواب والعقاب وترك إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع وتقرير الأحكام، وهل عرف الله من جوز عليه خلاف ذلك، وهل ذلك إلا من سوء الظن به، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فحسن التكليف في العقول كحسن الإحسان والإنعام والتفضل والطول، بل هو من أبلغ أنواع الإحسان والإنعام، ولهذا سمى سبحانه ذلك نعمة ومنة وفضلًا ورحمة، وأخبر أن الفرح بـه خير من الفرح بالنعم المشتركة بين الأبرار والفجار، قـال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ [إبراهيم: ٢٨] فنعمة الله هاهنا نعمته بمحمد ﷺ، وما بعثه به من الهدى ودين الحق، وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٢-٤]، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، وقال لرسوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

وهل النعمة والفضل في الحقيقة إلا ذلك وتوابعه وثمرته في القلوب والأبدان في الدنيا الآخرة، وهل في العقول السليمة والفطر المستقيمة أحسن من ذلك وأليق بكمال الرب وأسمائه وصفاته.

هذا ما يسَّر الله جمعه من تفسير سورة المؤمنون

والحمد لله رب العالمين(١)



(١) تـم بحمـد الله وتوفيقـه تحقيـق هـذا الجـزء الرابـع في يـوم الجمعـة الموافـق ٢٧/ ٥/ ١٤٣٠هــ و٢٢/ ٥/ ٢٠٠٩م بمدينة الرياض سائلًا المولى عز وجل أن يتقبل عملي هذا بقبـول حسن، وأن ينفـع به عباده، ويجعله من العلم النافع والعمل الصالح، وألا يحرم مؤلفه وجامعه ومحققه وناشره وقارئـه الأجر والمثوبة والفلاح والنجاح في الدارين إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمـد لله رب العالمين.

الفهــرس

الصفحة المــــوضـــــوع

سُورَةُ هُودٍ

٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.
٦ بحث في تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.
٧ بحث في ابتلاء الله سبحانه لعباده.
١٠ بحث في أن سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وعدم قبوله للنعم.
١٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.
١٢ بحث في الصبر وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.
١٣ بحث في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ الآية.
١٣ بحث في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ الآية.
١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الآية.
١٦ بحث فيمن يريد الآخرة.
١٨ بحث في أن حب الدنيا هو رأس الخطايا ومفسد للدين.
١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ...﴾ الآية.
٢٠ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾.
٢٠ بحث في قول نبي الله هود: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.
٢١ بحث في قول نبي الله هود: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ الآية.

الصفحة الموضوع
٢٢ بحث في أن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام مع أنها من أعظم الآيات.
٢٥ بحث في قول هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.
٢٦ بحث في عدل الله وتوحيده وأنه على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه.
٢٨ بحث في أن الدين دينان: شرعي أمري، وحسابي جزائي.
٣١ قصة إبراهيم عليه السلام وبشرى الملائكة له بغلام.
٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ الآية.
٣٣ بحث في أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.
٣٧ الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة.
٣٨ فصل في أن الرحمة والبركة المضافتين إلى الله تعالى نوعان.
٤١ فصل في أن البركة كذلك نوعان.
٤٢ تفسير السلف لمعنى تبارك الله.
٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ﴾ وما حدث من قوم لوط وعقوبة الله لهم.
٤٧ فصل في أن الود هو خالص الحب وألطفه وأرقه.
٤٨ بحث في قول شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.
٤٩ بحث في أن من كملت عظمة الحق في قلبه عظمت عنده مخالفته.
٥٠ بحث في ذكر الله سبحانه لعقوبات الأمم المكذبين للرسل.
٥١ فصل في أبدية النار ودوامها وعرض أقوال المذاهب في ذلك.
٥٥ الطبقة التاسعة طبقة أهل النجاة وهم من يؤدون الفرائض ويتركون المحرمات.
٥٦ الطبقة العاشرة وهم قوم أسرفوا على أنفسهم بارتكاب ما نهى الله عنه.
٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع
٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ ﴾.
٥٩ بحث في الغربة وأنواعها وصفات الغرباء.
٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ الآية.

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ الآية.
٦٨ فصل في عشق الصور وأنه لا تبتلى به إلا القلوب الفارغة.
٦٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾.
٧٠ بحث في أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وإعدام المفاسد.
٧١ بحث حول الآيات ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾.
٧٢ بحث في أنه يجب على الحاكم أن يكون فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال والمقال.
٧٦ بحث في معنى الشغف وقوله تعالى: ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ الآية.
٧٧ بحث في قول امرأة العزيز: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾.
٧٨ من آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام.
٨٠ فصل في أن الله ذكر عن نبيه يوسف عليه السلام من العفاف أعظم ما يكون.
٨١ بحث في قول امرأة العزيز: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾. الآية.
٨٢ فصل في النفس الأمارة بالسوء وقولها: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾.
٨٤ بحث في أن من ترك محبوبه حرامًا فبذل الله له حلالًا خيرًا منه.
٨٥ بحث في قول نبي الله يوسف: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

الصفحة الموضوع
٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ الآية.
٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ...﴾ الآية.
٨٩ بحث في الآيات: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾.
٩١ فصل في احتجاج بعض الفقهاء بقصة يوسف بأنه يجوز للإنسان أن يأخذ حقه ممن عليه بغير رضاه ورد شيخ الإسلام على ذلك.
٩٣ فصل في أن كيد الله تعالى لا يخرج عن نوعين.
٩٤ الكلام على قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.
٩٧ بحث في الصبر وبيان أنه نوعان: اختياري واضطراري.
٩٨ بحث في أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر وقول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.
١٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى ...﴾ الآية.
١٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.
١٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ الآية.
١٠٣ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾
١٠٥ بحث في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ ...﴾.

سُورَةُ الرَّعْدِ

١٠٨ بحث في الآيات: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.
١٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ﴾.

الصفحة الموضوع
١٠٩ بحث في الحكم والفوائد والمنافع من هذه الجمادات والحيوانات والنباتات المختلفة.
١١٠ بحث في الحكمة في اختلاف وتغاير صفات الأرض وأشكالها وأنواعها.
١١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.
١١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ... ﴾ الآية.
١١٧ بحث في قوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية.
١١٨ فصل في عقوبات المعاصي وأنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة.
١١٨ بحث في قوله: ﴿ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الآية.
١٢٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ الآية.
١٢١ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾.
١٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ الآية.
١٢٤ بحث في الصبر باعتبار متعلقه وأنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام.
١٢٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾.
١٢٦ بحث في الأمر بالصلة ما بيننا وبين رسوله وبيننا وبين الوالدين والأقربين والجار والأرقاء وعموم الناس والصبر والإنفاق.
١٢٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

الصفحة الموضوع
١٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾.
١٣٢ بحث هل النفس الإنسانية واحدة أم ثلاثة؟
١٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية.
١٣٤ الطمأنينة إلى صفات الرب نوعان.
١٣٥ فصل في أن التوفيق بيده ﷻ.
١٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية.
١٣٧ الفرق بين فرح القلب وفرح النفس.
١٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾.
١٤١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا ﴾.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

١٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ الآية.
١٤٤ بحث في ما المقصود بأيام الله.
١٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.
١٤٥ بحث في الشكر وبيان أنه منزلة من أعلى المنازل.
١٤٧ بحث في الحكمة من خلق من يكفر بالرحمن ويشرك به والآيات المترتبة على ذلك.
١٥١ بحث في الفرق بين الحمد والشكر.

الصفحة الموضوع
١٥٢ فصل في بيان أقسام النعم.
١٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.
١٥٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.
١٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ...﴾.
١٥٥ بحث في أن باعث الدين الإضافة إلى باعث الهوى له ثلاث أحوال.
١٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.
١٦٠ الحكم والفوائد من ضرب الأمثال.
١٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾.
١٦٢ الحكمة من تشبيه المؤمن بالشجرة والعلاقة التي تجمع بينهما.
١٦٤ فصل في أن الكلمة الخبيثة مثل الشجرة الخبيثة.
١٦٥ بحث في تثبيت الله للذين آمنوا.
١٦٩ فصل في هل السؤال في القبر عام يخص الناس جميعًا أم أنه يخص المسلمين والمنافقيه فقط.
١٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.
١٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾.

سُورَةُ الحِجْرِ

١٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.
١٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

الصفحة الموضـوع

١٧٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُه ﴾.
١٧٨ بحث حول سر من أسرار التوحيد.
١٧٩ الحكمة من خلق الهواء والرياح والفوائد العظيمة من وجودها.
١٨١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.
١٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾.
١٨٣ بحث في عشق الصور وحول قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.
١٨٤ الآيات التي أوقعها الله سبحانه بالأمم المكذبين.
١٨٥ فصل في منزلة الفراسة.
١٨٦ بحث في البصيرة وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾.
١٨٨ بحث في الفرق بين الفراسة والظن.
١٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.
١٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ والحث على الصبر على الأذى.
١٩١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ولزوم ذلك حتى الموت.

سُورَةُ النَّحْلِ

١٩٤ فصل في الحكمة من خلق السمك.
١٩٥ بحث في إطلاق الروح على القرآن.
١٩٦ الفرق بين النفس والروح.
١٩٧ بحث قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾.
١٩٧ بحث قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.
١٩٨ بحث في التفكر والتذكر وفضلهما ومنزلتهما.

الصفحة الموضوع
١٩٩ بحث قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.
٢٠١ بحث في أن دخول الجنة ليس متوقفًا على الأعمال وإن كانت الأعمال سببًا في الدخول.
٢٠١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾.
٢٠٣ بحث في أن الخطايا والذنوب توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا.
٢٠٤ بحث في بيان الدلالة من كلام النبي ﷺ بالمحسوس على المعنوي.
٢٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.
٢٠٧ ما وجه خوف الملائكة وهم معصومون وكذلك خوف النبي ﷺ وقد غفر له؟
٢٠٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾.
٢٠٩ بحث في فوقية الرب تعالى من ثمانية عشر وجهًا.
٢١٤ بحث حول تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.
٢١٦ قاعدة جليلة في أن النعم كلها من الله وحده.
٢١٦ بحث جيد في: هل للتوفيق والخذلان سبب، أم هما بمجرد مشيئة الرب تعالى؟
٢١٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.
٢٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾.
٢٢٧ فصل في بيان العبرة التي ذكرها الله ﷻ في الأنعام وما سقانا من بطونها.
٢٢٨ فصل في أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات.
٢٢٩ فصل في أعجب ما يكون من نتاج النحل وكيف يتكون؟!
٢٣٢ أنواع العسل ومنافعه.
٢٣٢ فصل في اختلاف الناس في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾.

الصفحة الموضـــوع
٢٣٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا ﴾.
٢٣٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.
٢٣٥ المراد من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.
٢٣٨ بحث فيمن فقد نعمة البصر وبيان حاله.
٢٣٩ غذاء القلب نوعان: حسي مادي وروحاني معنوي.
٢٤١ تعلق القلب بالسمع أشد من تعلقه بالصبر.
٢٤١ الإباحة تستفاد من لفظ الإحلال ورفع الجناح والإذن والعفو.
٢٤٢ فصل في الحكم والغايات التي جعلها الله في خلقه وأمره.
٢٤٣ فصل في إنعام الله على خلقه وإحسانه إليهم.
٢٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾.
٢٤٥ رؤساء الكفر وأئمته ومضاعفة العذاب لهم.
٢٤٦ فصل في غلظ الكفر المؤجب لغلظ العذاب كيف يكون؟
٢٤٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ الآية.
٢٥٠ فصل في الفحشاء والمنكر.
٢٥١ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية.
٢٥١ بحث في الحياة الطيبة وكيف تكون.
٢٥٥ بحث في أن الوحي الذي يلقيه الله إلى أنبيائه روحًا.
٢٥٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.
٢٥٦ بحث في فوائد الاستعاذة من الشيطان.

الصفحة الموضوع
٢٦٢ فصل في كيفية دفع الأعداء.
٢٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.
٢٦٤ بحث في سلطان الشيطان على الذين يتولونه.
٢٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾.
٢٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.
٢٧١ تحريم القول على الله بغير علم.
٢٧١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾.
٢٧١ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾.
٢٧٣ بحث في الثناء على إبراهيم عليه السلام.
٢٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾.
٢٧٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.
٢٧٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾.
٢٧٦ بحث في الصبر وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

٢٧٨ بحث في أن كرامة رسول الله ﷺ كانت في الإسراء.
٢٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾.
٢٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.
٢٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾.
٢٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾.

الصفحة الموضـــوع
٢٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾.
٢٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.
٢٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾.
٢٨٧ بحث في أن دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.
٢٨٨ فصل في الفرق بين الجود والسرف.
٢٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾.
٢٩١ بحث في أن الزنا واللواط سبيلان هلاك الأولين والآخرين.
٢٩٢ بحث في بيان أعظم الزنا عند الله.
٢٩٥ فصل في أن الزنا يجمع خلال الشر كلها.
٢٩٧ بحث في أن الله لم يخلق الخلق سدًى ولا هملًا.
٢٩٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.
٢٩٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾.
٢٩٩ بحث في أن الله سبحانه قرر برهان التوحيد أحسن تقرير وأبغله وأوجزه.
٣٠٠ بحث في تسبيح الكائنات لله ﷻ.
٣٠٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾.
٣٠٣ بحث حول القلوب الغلف.
٣٠٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾.
٣٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾.

الصفحة الموضوع
٣٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾.
٣٠٨ بحث في الرجاء أنه حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب.
٣٠٩ بحث في أن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة.
٣١٠ بحث في أن الخوف من لوازم الإيمان وينتفي الإيمان بانتفائه.
٣١٢ بحث في أعلى درجات الجنة ولمن تكون.
٣١٣ بحث في معنى الوسيلة.
٣١٤ بحث في أن القرآن بصائر لجميع الناس.
٣١٦ بحث في إحاطة الرب بالعلم وهو باب معرفة الله وعبادته.
٣١٦ بحث في قرب الرب من عابديه وسائليه.
٣١٧ بحث في خلق آدم عليه السلام وعدم سجود إبليس له.
٣١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ... ﴾.
٣١٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾.
٣٢٠ بحث في تكريم الله لبني آدم وتفضيلهم على كثير ممن خلق.
٣٢٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.
٣٢٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾.
٣٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾.
٣٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾.
٣٢٩ فصل في أنه ﷺ لم يعين في الصلاة سورة بعينها إلا في الجمعة والعيدين.
٣٣٠ فصل في أنه ﷺ كان يطيل الركعة الأولى على الثانية.

الصفحة الموضوع
٣٣٠ فصل في هديه ﷺ في قيام الليل.
٣٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾.
٣٣٤ حقيقة العلم اللدني.
٣٣٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾.
٣٣٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.
٣٣٧ بحث في طب النبوة.
٣٣٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾.
٣٤١ بحث في نفخ الروح.
٣٤٣ فصل في هل الروح متقدمة على الجسد أم متأخرة عنه؟
٣٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾.
٣٤٨ بحث في أن الروح وردت في القرآن على عدة أوجه.
٣٥٠ بحث في إضافة الالروح إلى الله ﷻ.
٣٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾.
٣٥١ بحث في وصف أهل الجهل.
٣٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾.
٣٥٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾.
٣٥٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾.
٣٥٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ الآية.
٣٥٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ الآية.
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الكَهْفِ

٣٦٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ الآية.
٣٦١ بحث في الفتوة والفرق بينها وبين المروءة.
٣٦٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية.
٣٦٣ بحث في عدد أصحاب الكهف.
٣٦٣ بحث في الاستثناء بتفصيل.
٣٦٩ بحث في الإلحاد في أسماء الله الحسنى.
٣٧٠ بحث في الصبر على البلاء.
٣٧١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.
٣٧٣ بحث في تزيين الخير والشر.
٣٧٣ بحث في الإغفال.
٣٧٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.
٣٧٦ بحث في هديه ﷺ فيما يقول من رأى ما يعجبه من أهله وماله.
٣٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ الآية.
٣٧٩ بحث في ذم الله لمن نسي ما قدمت يداه.
٣٧٩ بحث في التمحيص يكون في الدور الثلاثة: الدنيا والبرزخ والآخرة.
٣٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.
٣٨٣ بحث في فضل الله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم.
٣٨٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

الصفحة الموضوع
٣٨٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾.
٣٨٥ القول على الغلام: إنه طبع يوم طبع كافرًا، فما المراد بذلك؟
٣٨٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾.
٣٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾.
٣٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾.
٣٩١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾.
٣٩١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾.
٣٩٢ بحث في أن الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل.
٣٩٣ بحث في أن العلم هو إمام العمل وقائد له.
٣٩٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾.

سُورَةُ مَرْيَمَ

٣٩٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.
٣٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾.
٣٩٧ بحث في الحنين وقوله تعالى: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾.
٣٩٧ الحكمة في كونه سلام عليهم بلفلظ النكرة وشرع سبحانه لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة.
٣٩٨ الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة.
٣٩٩ الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح بيوم الميلاد ويوم الممات ويوم البعث

الصفحة الموضوع
٤٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾. الآية.
٤٠١ بحث في احتجاج المعتزلة على خلق القرآن والرد على ذلك.
٤٠٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾.
٤٠٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾.
٤٠٣ بحث حول مخاطبة الرؤساء والكبراء وكيف تكون؟
٤٠٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾.
٤٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.
٤٠٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.
٤١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾.
٤١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴾.
٤١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ الآية.
٤١٨ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾.
٤٢٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴾.
٤٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾.
٤٢٢ سلطان الشيطان على أوليائه وأهل الشرك.
٤٢٥ الحكمة من الاستعاذة من الشيطان.
٤٢٦ أصل المعاصي والبلاء هو من وسوسة الشيطان.
٤٢٧ بحث في العبودية وأنها نوعان.
٤٢٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴾.

الصفحة الموضـوع

٤٢٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾.

سُورَةُ طه

٤٣١ بحث في أوقات الصلوات بالنسبة للمكلفين وغيرهم.
٤٣٢ هل تقبل صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل؟
٤٣٤ توعد الله من فوت الصلاة عن وقتها بوعيد التارك لها.
٤٣٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا ﴾.
٤٣٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾.
٤٣٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾.
٤٣٩ الحكمة في تسليم النبي ﷺ في كتابه لهرقل بلفظ النكرة وتسليم موسى عليه السلام بلفظ المعرفة.
٤٤١ أنواع الهداية وبحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.
٤٤٤ بحث في أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بستة أمور.
٤٤٦ بحث حول الهداية العامة التي هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب سبحانه.
٤٤٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ الآية.
٤٤٨ فصل في أنه سبحانه كثيرًا ما يجمع بين الخلق والهداية.
٤٤٩ فصل في المرتبة الثانية من مراتب الهداية: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين.
٤٥١ المرتبة الثالثة هداية التوفيق والإلهام.
٤٥٣ المرتبة الرابعة: ﴿الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة﴾.
٤٥٥ من تلاعب الشيطان ببني إسرائيل عبادتهم العجل.
٤٥٥ اتهام بني إسرائيل نبيهم موسى عليه السلام بالخطأ والضلال وقولهم: ﴿ فَنَسِيَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٤٥٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾.
٤٥٨ بحث عن السامري.
٤٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾.
٤٥٩ بحث في قيام الناس يوم القيامة مهطعين إلى الداعي.
٤٦٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ ﴾.
٤٦٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾.
٤٦١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾.
٤٦١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾.
٤٦٣ بحث عن الظلم.
٤٦٤ بحث حوله قوله تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾.
٤٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾.
٤٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ ﴾.
٤٦٧ فصل في أن خلق بدن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء
٤٦٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾.
٤٦٨ بحث في المعيشة الضنك.
٤٧١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾.
٤٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.
٤٧٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾.

الصفحة الموضـوع

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

٤٧٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ...﴾.
٤٧٨ بحث في أن الله سبحانه جعل العبودية وصف أكمل خلقه ﷺ.
٤٧٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾.
٤٨٠ عود على بحث قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾.
٤٨١ فصل في هديه ﷺ في الشرب وأنه أكمل هدي يحفظ به الصحة.
٤٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾.
٤٨٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾.
٤٨٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾.
٤٨٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.
٤٨٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾.
٤٨٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.
٤٨٨ بحث عن الإشفاق.
٤٨٩ بحث عن اقتران التراة بالقرآن.
٤٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.
٤٩١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾.
٤٩٢ بحث عن الإنابة وبيان أنها عكوف القلب على الله ﷻ.
٤٩٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾.
٤٩٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾.

الصفحة الموضوع

٤٩٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾.
٤٩٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.
٤٩٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾.
٤٩٧ اشتمال دعوة ذي النون على كمال التوحيد والتنزيه لله رب العالمين.
٤٩٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾.
٤٩٨ بحث عن الرغب والرهب.
٤٩٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾.
٤٩٩ بحث عن الحكم الكوني والشرعي.
٥٠٠ فصل في الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى.
٥٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾.
٥٠٧ الحكم التي من أجلها يعاد بنو آدم غرلًا.
٥٠٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾.
٥١٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

سُورَةُ الْحَجِّ

٥١٢ بحث قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾.
٥١٤ بحث قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾.

الصفحة الموضوع
٥١٥ بحث قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.
٥١٦ فصل في أن المجوس تعظم الأنوار والنيران والماء والأرض.
٥١٧ بحث قوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾.
٥١٧ بحث عن الذوق.
٥١٨ بحث قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾.
٥٢٠ بحث قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.
٥٢١ عدم جواز بيع أراضي مكة وعدم إجازة بيوتها، ومن قال بالجواز.
٥٢٤ تقديم الرجال على الركبان في الحج فيه فوائد جليلة.
٥٢٤ بحث في اقتران الإشراك وقول الزور.
٥٢٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.
٥٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾.
٥٣٠ بحث في أن الذبيحة تجري مجرى العبادة.
٥٣٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.
٥٣٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ الآية.
٥٣٣ بحث في جنس الجهاد وبيان أنه فرض عين.
٥٣٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ﴾.
٥٣٧ بحث في عقوبات الله للكافرين.

الصفحة الموضوع
٥٣٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.
٥٤٠ بحث في أن الله عز وجل يغار على قلب عبده أن يكون معطلًا من حبه وخوفه ورجائه.
٥٤١ بحث في استحضار بعض العقوبات وتخيل العاقل أنها قد تصيبه.
٥٤٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.
٥٤٦ بحث حول الإخبات وقوله تعالى: ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾.
٥٤٧ فصل في الفرق بين الصبر والقسوة.
٥٤٩ بحث في الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه.
٥٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾.
٥٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾.
٥٥٢ أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوية.
٥٥٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾.
٥٥٥ فصل في ذكر إبراهيم الخليل ﷺ.
٥٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.
٥٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

٥٥٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ۝ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ الآيات.

٥٥٩ بحث في الخشوع وعلاماته وثمراته.

٥٦٣ بحث في صلاة من عدم الخشوع هل يعتد بها أم لا؟

٥٦٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾.

٥٦٩ بحث في مراحل خلق الإنسان والحكمة في ذلك.

٥٧٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

٥٧٢ بحث حول قوله: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾.

٥٧٢ بحث حول قوله: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾.

٥٧٣ بحث حول قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾.

٥٧٤ بحث في أن كل لذة أعقبت ألمًا أو منعت لذة أكمل منها فهي ليست لذة في الحقيقة.

٥٧٥ من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة الخوف.

٥٧٥ الخشية أخص من الخوف.

٥٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ الآيات.

٥٧٧ بحث حول قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

٥٧٨ فصل في الأدب مع الرسول ﷺ وأن القرآن مملوء به.

٥٧٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ الآيات.

٥٨١ بحث في أن العبد يتحقق له مقام إياك نعبد وإياك نستعين عندما يرتقي من مشهد توحيد الربوبية إلى توحيد الإلهية.

الصفحة الموضوع

٥٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾.

٥٨٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾.

٥٨٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

٥٨٥ بحث في أن الموت معاد وبعث، أول المعادين والبعثين.

٥٨٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾.

٥٨٨ الحكمة في تكليف الثقلين وتعريضهم للعقوبة والمشاق.

بهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد الرابع

ويليه إن شاء الله المجلد الخامس



الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد الخامس

النور - الزمر

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضوء المنير
على
التفسير

المجلد الخامس

ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٧-٢-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طَبْعَة جَدِيدَة مُصَحَّحَة وَمُحَقَّقَة

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ‎+٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨‎ ، ‎+٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤‎ ؛ فاكس: ‎+٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤‎

جوال: ‎+٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣‎

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ ـ فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

سُورَةُ النُّورِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

...[1]في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ، يقول: **«من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»**[2].

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله ﷻ، ويشتد غضبه، فلابد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: **«ما ظهر الربا والزنا في قرية إلاّ أذن الله بإهلاكها»**[3].

ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنًا له يغامز امرأة فقال: مهلًا يا بني، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته، وقيل له: «هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خير أبدًا»[4].

وخص سبحانه حد الزنا من بين سائر الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن

---

(١) ٢٢٠ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨١) ومسلم (رقم ٢٦٧١) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٣٠) وشرح النووي (١٦/ ٢٢١).

(٣) ذكره الذهبي في الكبائر (ص ٦٣) وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٤٢٠) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ١١١ رقم ٢٩٣).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد في الزهد (ص ١٠٣) وفي الورع (ص ١١٥) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٢) وانظر: صفة الصفوة (٣/ ٢٧٥).

بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم بكم منكم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا وإن كان عامًّا في سائر الحدود، ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم من أرباب الجرائم والوقائع، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة، وتحملهم على تعطيل حد الله ﷻ.

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر: فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول كالخدام والنساء.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين، فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفيها شهوة غالبة له، فتصور ذلك لنفسها، فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضعف الإيمان.

وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقا لربه سبحانه في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة حيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر.

وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالىٰ لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره.

فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتي، فإنه يفسد فسادا لا يرجىٰ له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

(١) فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب، لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثًا ازداد من الله بعدًا.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: «لا يكون البطالون من الحكماء، ولا يلج الزناة ملكوت السماء»(٢).

ولما كانت هذا حال الزنا كان قريبًا للشرك في كتاب الله تعالىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة علىٰ خبر وتحريم، ولم يأت من ادعىٰ نسخها بحجة البتة.

والذي أشكل منها علىٰ كثير من الناس واضح بحمد الله تعالىٰ، فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ هل هو خبر أو نهي، أو إباحة؟

---

(١) ٦٥ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في كتاب العلم (رقم ١٢٧) من قول وهب رحمه الله، وكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٣/ ٣٩١).

فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة.

وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهًا يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة. وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي عناق البَغِي وصاحبها فإنه أسلم، واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها فنزلت هذه الآية[1].

وهذا أيضاً فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢].

وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا تناقض إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرم نكاح الزانية، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟.

فإن قيل: فما وجه الآية؟.

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٣٩٨ رقم ٢١٠٠) والحاكم (٢/ ١٨٠ رقم ٢٧٠١) والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٦٩ رقم ٥٣٣٨) وأبو داود (رقم ٢٠٥١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٥٣ رقم ١٣٦٣٩) والترمذي (رقم ٣١٧٧) وحسنه.

والحكم المعلق على الشرط ينتفى عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذى شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانيا، فظهر معنى قوله: ﴿ لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ [النور: ٣]. وتبين غاية البيان وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة. ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانًا[1] دَيُّوثا زوج بغى، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا زوج قحبة، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق.

ومما يوضح التحريم، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب، الذي جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم، وعده من جملة نعمه عليهم، فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه، واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة: تحريم نكاح الزانية، حتى تتوب وتستبرأ.

وأيضاً فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه، والله سبحانه جعل النكاح سببا للمودة والرحمة. والمودة خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب، زوجا له، والزوج سمى زوجا من الازدواج وهو الاشتباه، فالزوجان الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقَدَرًا، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل

---

(١) القَرْنَان: نعت سوء في الرجل الذي لا غيرة له، الديوث المشارك في قرينته لزوجته، انظر: اللسان (١٣/ ٣٣٨)، والمغني (٩/ ٨١).

أن يكون زوج قحبة.

فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة، وقال: ماء الزاني لا حرمة له، فهب أن الأمر كذلك، فماء الزوج له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟

والمقصود: أن الله سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالًا، وسمى فاعله جنبًا، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء. فكذلك إذا كان حراما يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهرًا كاملًا بالتوبة، وطهرًا لبدنه بالماء. وقول اللوطية: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩].

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك.

وهكذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذَا لَمْ يَكُنْ بُد مِنَ الصَّبْرِ فَاصْطَبِرْ عَلَى الحقِّ ذَاكَ الصَّبْرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ[1]

[2]أما نكاح الزانية فقد صرح الله ﷻ بتحريمه في سورة النور، وأخبر أن من نكحها

(١) لم أقف عليه.
(٢) ١٣ زاد المعاد جـ٤.

فهو إما زانٍ أو مشرك، فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه، ويعتقد وجوبه عليه أو لا، فإن لم يلتزمه ولم يعتقده فهو مشرك، وإن التزمه واعتقد وجوبه وخالفه فهو زانٍ، ثم صرح بتحريمه فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

ولا يخفى أن دعوى النسخ للآية بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ من أضعف ما يقال، وأضعف منه: حمل النكاح على الزنا، إذ يصير معنى الآية: الزاني لا يزني إلى بزانية أو مشركة، والزانية لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك، وكلام الله ينبغي أن يصان عن مثل هذا.

وكذلك حمل الآية على امرأة بغي مشركة: في غاية البعد عن لفظها وسياقها، كيف وهو سبحانه إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان، وهو العفة، فقال: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

فإنما أباح نكاحها في هذه الحالة دون غيرها، وليس هذا من باب دلالة المفهوم؛ فإن الأبضاع في الأصل على التحريم، فيقتصر في إباحتها على ما ورد به الشرع. وما عداه فعلى أصل التحريم.

وأيضًا: فإنه سبحانه قال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] والخبيثات: الزواني، وبهذا يقتضي أن من تزوج بهن فهو خبيث مثلهن.

وأيضًا: فمن أقبح القبائح: أن يكون الرجل زوج بغي، وقبح هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة.

وأيضًا: فإن البغي لا يؤمن أن تفسد على الرجل فراشه، وتعلق عليه أولادًا من غيره، والتحريم يثبت بدون هذا.

وأيضًا: فإن النبي ﷺ فرق بين الرجل وبين المرأة التي وجدها حبلى من الزنا.

وأيضًا: فإن مَرْثَد بن أبي مرثد الغنوي استأذن النبي ﷺ أن يتزوج عناق ـ وكانت

بغيًّا ـ فقرأ عليه رسول الله ﷺ آية النور، وقال: «**لا تنكحها**»[(١)].

وسأله ﷺ رجل آخر عن نكاح امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح، فقرأ عليه رسول الله ﷺ الآية، ذكره أحمد[(٢)].

...[(٣)]وأفتى ﷺ بأن الزاني المجلود لا ينكح إلا مثله، فأخذ بهذه الفتاوى التي لا معارض لها الإمام أحمد ومَنْ وافقه، وهي من محاسن مذهبه رحمة الله عليه؛ فإنه لم يجوز أن يكون الرجل زوج قحبة، ويعضد مذهبه بضعة وعشرون دليلًا قد ذكرناها في موضع آخر.

[(٤)]الصحيح من القولين: إن توبة القاذف إكذابه نفسه؛ لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه، وهتك به عرض المسلم المحصن، فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه؛ لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف، وهو مقصود التوبة.

وأما من قال: إن توبته أن يقول: «أستغفر الله» من القذف، ويعترف بتحريمه، فقول ضعيف؛ لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف، ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به، فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب، فإن فيه حقين:

حقًّا لله، وهو تحريم القذف، فتوبته منه: باستغفاره، واعترافه بتحريم القذف، وندمه عليه، وعزمه على أن لا يعود. وحقًّا للعبد، وهو إلحاق العار به، فتوبته منه: بتكذيبه نفسه، فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين.

فإن قيل: إذا كان صادقًا قد عاين الزنا، فأخبر به، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥ رقم ١١٣٥٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٥٣ رقم ١٣٦٣٧) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٢١ رقم ١٧٩٨) وأحمد (٢/ ١٥٨، ٢٢٥) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٧٣): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط بنحوه ورجال أحمد ثقات. وانظر: فتح الباري (٩/ ١٨٥).

(٣) ٣٤٣ أعلام جـ٤.

(٤) ٣٦٣ مدارج جـ١.

وقذفها بالكذب، ويكون ذلك من تمام توبته؟

قيل: هذا هو الإشكال الذي قال صاحب هذا القول لأجله ما قال: إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه، وهو موضع يحتاج فيه إلى بيان الكذب الذي حكم الله به على القاذف، وأخبر أنه كاذب عنده، ولو كان خبره مطابقًا للواقع، فنقول: الكذب يراد به أمران، أحدهما: الخبر غير المطابق لمخبره، وهو نوعان: كذب عمد، وكذب خطأ، فكذب العمد معروف، وكذب الخطأ ككذب أبي السنابل بن بعكك في فتواه للمتوفى عنها إذا وضعت حملها: «أنها لا تحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرًا» فقال النبي ﷺ: «كذب أبو السنابل»(١) ومنه قوله : «كذب من قالها» لمن قال: «حبط عمل عامر، حيث قتل نفسه خطأ»(٢) ومنه قول عبادة بن الصامت «كذب أبو محمد» حيث قال: «الوتر واجب»(٣)، فهذا كله من كذب الخطأ، ومعناه «أخطأ» قائل ذلك.

والثاني من أقسام الكذب: الخبر الذي لا يجوز الإخبار به، وإن كان خبره مطابقًا لمخبره، كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا، والإخبار به؛ فإنه كاذب في حكم الله، وإن كان خبره مطابقًا لمخبره، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣] فحكم الله في مثل هذا: أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقًا، وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله،

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤٢٩ رقم ١٥٢٤٧) وسعيد بن منصور في سننه (رقم ١٥٠٦) والشافعي في مسنده (ص ٢٤٤) وفي الأم (٥/ ٢٢٤) وأحمد (١/ ٤٤٧) وعبدالرزاق (٦/ ٤٧٤ رقم ١١٧٢٣) قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وأصل الحديث عند البخاري (رقم ٥٣١٨) ومسلم (رقم ١٤٨٤، ١٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٩١) ومسلم (رقم ١٨٠٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٧).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٣٢٠ رقم ٣٨٥) وابن حبان (٥/ ٢٣ رقم ١٧٣٢) (٦/ ١٧٤ رقم ٢٤١٧) والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٢ رقم ٣٢٢) وأبو داود (رقم ٤٢٥، ١٤٢٠) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٨ رقم ٢٠٥٨) والدارمي (رقم ١٥٧٧) ومالك في الموطأ (١/ ١٢٣ رقم ٢٦٨) والحميدي في المسند (١/ ١٩١ رقم ٣٨٨) وأحمد (٥/ ٣١٥).

كما أخبر الله تعالىٰ به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبًا، فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه؟

***

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

[1]ثبت في الصحيحين: من حديث سهل بن سعد «أن عُوَيْمِراً العجْلاني قال لِعَاصم بن عديٰ: أَرأَيتَ لو أنَّ رجلاً وَجَدَ مَعَ امرأتِهِ رجلاً أَيقتُلُه فتقتُلُونه، أم كيف يفعلُ؟ فسل لي رَسولَ اللهِ ﷺ، فسأَلَ رسولَ الله ﷺ، فكره رسولُ اللهِ ﷺ المَسَائِلَ وعَابَها، حتىٰ كَبُرَ علىٰ عاصمٍ مَا سَمِعَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ، ثم إن عويمراً سأل رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلك؟ فقال: قَدْ نَزَلَ فيكَ وفي صاحِبَتِكَ، فاذْهَبْ، فَأْتِ بِهَا، فَتَلاَعَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَا قال: كذبتُ عَلَيْهَا يا رسولَ اللهِ إن أمسكتُها، فطلَّقها ثلاثاً قَبْلَ أَن يأمُرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ». قال الزهريُّ: «فكانت تِلْكَ سنةَ بالمتلاعِنينِ»[2].

قال سهل: «وكانت حَامِلاً، وكان ابنُهَا يُنْسَبُ إلىٰ أمه، ثم جرت السُّنةُ أَن يَرِثَها وتَرِثَ مِنْهُ ما فَرَضَ اللهُ لها»[3]. وفي لفظ: فتلاعنا في المسجد، ففارقها عندَ النبيِّ ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ذاكُم التَّفْرِيقُ بَيْنَ كُلِّ مُتَلاعِنَيْن»[4].

وقولُ سهل: وكانت حاملاً إلىٰ آخره، هو عند البخاري مِن قول الزهري،

(١) ١٨٠ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٠٨) ومسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٢) وشرح النووي (١٠/ ١٢١-١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٦) ومسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٧٤-٧٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: شرح النووي (١٠/ ١٢٤-١٢٧).

وللبخاري: ثم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «انْظُرُوا فَإِنْ جَاءتْ بِهِ أَسْحَمَ أَدْعَجَ العَيْنَيْنِ عَظِيمَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجِ السَّاقَيْنِ فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِراً إلاَّ قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وإِنْ جَاءتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وحْرَةٌ فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِراً إلاَّ قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا»، فجاءت به على النَّعْتِ الذي نعتَ به رسولُ اللهِ ﷺ من تصديق عويمر[(١)].

وفي لفظ: «وكانت حَامِلاً، فأنكر حملَها»[(٢)].

وفي صحيح مسلم: من حديث ابن عمر «أن فلانَ بنَ فلان، قال: يا رسولَ اللَّهِ، أرأيتَ لو وجد أحدُنا امرأتَه على فاحِشةٍ، كيف يصنعُ؟ إن تكلم، تكلَّم بأمر عظيم، وإن سكت، سَكَتَ على مِثْل ذلِكَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ، فلم يُجِبْهُ، فلما كان بعدَ ذلك، أتاه فقال: إنَّ الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ قَدِ ابتُلِيتُ بِهِ، فأنزلَ اللهُ ﷻ هؤلاءِ الآيات في سُورَةِ النُّورِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، فتلاهن عليه ووعظَه، وذكَّره وأخبره أن عذابَ الدنيا أهونُ مِن عذابِ الآخرة، قال: لا والَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ ما كذبتُ عليها، ثم دعاها فوعظَهَا، وذكرها، وأخبرها أن عذابَ الدنيا أهونُ مِن عذابِ الآخرة، قالَت: لا والَّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ إنه لكاذِبٌ، فبدأ بالرَّجُلِ فَشَهدَ أربعَ شهادَاتٍ باللهِ إنه لمن الصادقين، والخامسة أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إن كان مِن الكَاذِبِينَ، ثم ثنَّى بالمرأةِ، فشَهِدَتْ أربعَ شهادَاتٍ باللهِ إنَّه لمن الكاذبينَ، والخامسة أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كان من الصَّادِقِينَ، ثم فرَّق بينهُمَا»[(٣)].

وفي الصحيحين عنه، قال رسولُ اللهِ ﷺ للمتُلاعنين: «حِسَابُكُما عَلى اللهِ أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ، لا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا»، قال: يا رسولَ اللهِ، مالي؟ قال: «لاَ مَالَ لَكَ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا، فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِن فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا، فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٥) ومسلم (رقم١٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٦) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٢) ومسلم (رقم ١٤٩٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٢-٤٥٨) وشرح النووي (١٠/ ١٢٦).

وفي لفظ لهما: فرَّق رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ المُتَلاعِنَيْنِ، وقال: «واللهِ إن أَحَدَكُما كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تائِبٌ؟»[(١)]. وفيهما عنه: «أن رجلاً لاعَنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ففرَّق رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وألحق الولد بأمِّه»[(٢)].

وفي صحيح مسلم: من حديث ابن مسعود ﷺ في قِصةِ المتلاعنين: «فشهد الرجلُ أربعَ شهادات باللهِ: إنَّهُ لَمِنَ الصادقين، ثم لعن الخامسةَ: أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إن كانَ مِنَ الكَاذِبِينَ، فذهبتْ لتلعنَ، فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «مَهْ» فَأَبَتْ، فَلَعَنَتْ، فلما أدبرت، قال: «لَعَلَّهَا أَنْ تَجِيءَ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا»، فجاءتْ بِهِ أَسْوَدَ جَعْداً[(٣)].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك، أن هِلالَ بن أمية قذف امرأته بِشَرِيك ابْنِ سَحْمَاء، وكان أخا البرَاءِ بنِ مالك لأمِّه، وكان أوَّلَ رجلٍ لاعن في الإسلام، فقال النبيُّ ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فإنْ جَاءتْ بِهِ أَبْيَضَ سَبطاً قضيءَ العَيْنَيْنِ، فَهُوَ لهلال بْنِ أُمَيَّة، وَإِنْ جَاءتْ بِهِ أَكْحَلَ جَعْداً حَمْشَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بن سَحْماء، قال: فأُنبئتُ أَنها جاءت به أكحلَ جعداً حَمْش السَّاقين»[(٤)].

وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس نحوُ هذه القصة، «فقال له، رجل: أهي المرأةُ التي قال رسولُ الله ﷺ: «لَوْ رَجَمْتُ أَحَداً بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ هذِهِ»، فقال ابنُ عباس: لا، تِلْكَ امرأَة كانت تُظْهِرُ في الإسْلامِ السُّوءَ[(٥)]. ولأبي داود في هذا الحديث عن ابن عباس: «ففرَّق رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُما وقضى أن لا يُدعى ولدُها لأب، ولا تُرمى، ولا يُرمى ولدُها ومَنْ رماها، أو رمى ولدها، فعليه الحدُّ، وقضَى ألاَّ بَيْتَ لها عليه، ولا قوت من أجل أنهما يتفرَّقان مِن غير طلاق، ولا متوفى عنها». وفي القصة:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٢) ومسلم (رقم ١٤٩٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٧-٤٥٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٥) ومسلم (رقم ١٤٩٤).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦٣).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٦) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٠) وشرح النووي (١٠/ ١٢٨-١٢٩).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٠) ومسلم (رقم ١٤٩٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦١).

قال عكرمة: «فكان بعد ذلك أميراً على مصر وما يُدعى لأب»[١].

وذكر البخاري: أن هلالَ بن أمية قذف امرأتهُ عند رسولِ الله ﷺ بشريكِ بن سَحْمَاء، فقال النبي ﷺ: «البَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: يا رسولَ الله: إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجلاً ينطلِقُ يلتمِسُ البينة؟ فجعل رسولُ الله ﷺ يقول: «البَيِّنَةُ وإلاَّ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: والذي بعثك بالحق إني لصَادِق، وليُنْزِلَنَّ اللهُ ما يُبرِّئُ ظَهْرِي مِن الحَدِّ، فنزلَ جبريلُ ﷺ، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية، فانصرفَ النبي ﷺ إليها، فجاء هِلال، فشهِدَ والنبيُّ ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ»؟ فَشَهِدَت، فلما كانت عند الخامِسة وقَّفُوهَا، وقالوا: إنها مُوجِبَة، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: فتلكَّأَت ونَكَصَتْ حتَّى ظَنَنَّا أنها تَرْجعُ، ثم قالت: لا أَفْضحُ قَوْمِي سَائِرَ اليوم، فَمَضَتْ، فقال النبيُّ ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءتْ بِهِ أَكْحَلَ العَيْنَيْنِ، سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّج السَّاقَيْن، فَهُوَ لِشَرِيكِ بن سَحْمَاء»، فجاءت به كذلكَ، فقال النبي ﷺ: «لَوْلاَ مَا مَضَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ كَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»[٢].

وفي الصحيحين: أن سعدَ بنَ عُبادة، قال: يا رسولَ الله، أرأيتَ الرَّجُلَ يَجِدُ مع امرأتِهِ رجلاً أيقتلُه؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «لا»، فقال سَعْدٌ: بلَى والَّذِي بعثك بالحقِّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «اسْمَعُوا إِلَىٰ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُم»[٣].

وفي لفظٍ آخَرَ: «يا رسولَ الله، إن وجدتُ مع امرأتي رجلاً أُمْهِلُه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال: «نعم»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٢٥٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٠٩ رقم ١٥١٣٢) وأبو يعلى (٥/ ١٢٤-١٢٦ رقم ٢٧٤٠) وأحمد (١/ ٢٣٨) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٢٥٠-٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٤٥-٤٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٥٠) (٩/ ٤٥٤) وشرح النووي (١٠/ ١٢١-١٣١).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٨) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٧٤).

وفي لفظ آخر: «لو وجَدْتُ مع أَهْلِي رجلاً لم أهجْهُ حتَّى آتِيَ بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «نعم». قال: كلاً والَّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ نَبِيًّا إنْ كُنْتُ لأُعاجِلُهُ بالسَّيْفِ قَبْلَ ذلِكَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: «اسْمَعوا إلى ما يقُولُ سَيِّدُكُم، إِنَّه لَغَيُورٌ، وأَنَا أغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»(١).

وفي لَفْظٍ: «لو رأيتُ مَعَ امرأتي رجلاً لضربتُه بالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فقال النبي ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، ومِنْ أَجْلِ ذلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ، ولا شَخْصَ أَغيَرُ مِنَ الله، ولا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ بَعَثَ اللهُ المُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذَرِينَ، ولا شخص أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ الله، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ وَعَدَ اللهُ الجَنَّةَ»(٢).

استُفيدَ من هذا الحكم النبويِّ عدَةُ أحكام: الحكم الأول: أن اللعانَ يَصِحُّ من كل زوجين، سواءً كانا مسلمين أو كافريْنِ، عدلين فاسقَيْنِ، محدودين في قذف، أو غير محدودين، أو أحدهما كذلك.

قال الإمام أحمد في رواية إسحاق بن منصور: جميعُ الأزواج يلتعِنُونَ، الحُر من الحرة والأمة إذا كانت زوجة، والعبد من الحرة والأمة إذا كانت زوجة، والمسلم من اليهودية والنصرانية، وهذا قول مالك وإسحاق وقولُ سعيد بن المسيب، والحسن، وربيعة، وسليمان بن يسار.

وذهب أهلُ الرأي، والأوزاعي، والثوري، وجماعة إلى أن اللِّعان لا يكون إلا بينَ زوجينِ مسلمين عدلين حرين غير محدودين في قذف، وهو روايةٌ عن أحمد.

ومأخذ القولين: أن اللعان يجمع وصفين، اليمينَ والشهادةَ، وقد سماه الله سبحانه شهادةً، وسماه رسولُ الله ﷺ يمينًا، حيث يقول: «لَوْلاَ الأيمَانُ، لَكَانَ لي وَلَهَا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٨) وانظر: التمهيد (٢١/ ٢٥٤-٢٥٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (رقم ١٤٩٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٢١).

شَأْنٌ»[(١)]، فمن غلَّب عليه حُكم الأيمان قال: يَصِحُّ مِن كل من يصح يمينه.

قالوا: ولعموم قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ قالوا: وقد سمَّاه رسول الله ﷺ يميناً.

قالوا: ولأنه مفتقِر إلىٰ اسم الله، وإلىٰ ذكر القسم المؤكد وجوابه. قالوا: ولأنه يستوىٰ فيه الذكرُ والأنثىٰ، بخلاف الشهادة.

قالوا: ولو كان شهادة، لما تكرَّر لفظُه، بخلاف اليمين، فإنه قد يشرع فيها التكرار، كأيمان القسامة.

قالوا: ولأن حاجة الزوج التي لا تَصِحُّ منه الشهادة إلىٰ اللعان ونفي الولد، كحاجة من تصِحُّ شهادته سواء، والأمر الذي نزل به مما يدعو إلىٰ اللعان، كالذي ينزلُ بالعدل الحر، والشريعة لا ترفع ضررَ أحدِ النوعين، وتجعلُ له فرجاً ومخرجاً مما نزل به، وتدعُ النوع الآخر في الآصار والأغلال، لا فرج له مما نزل به، ولا مخرج، بل يستغيثُ فلا يُغاث، ويستجيرُ فلا يُجار، إن تكلَّمَ تكلَّم بأمر عظيم، وإن سكت سكت علىٰ مثله، قد ضاقت عنه الرحمةُ التي وسعت من تَصِحُّ شهادته، وهذا تأباه الشريعةُ الواسعة الحنيفية السمحةُ.

قال الآخرون: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ [النور: ٦]، وفي الآية دليل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه سبحانه استثنىٰ أنفسَهم مِن الشهادة، وهذا استثناءُ متَّصِلٌ قطعاً، ولهذا جاء مرفوعاً.

والثاني: أنه صرح بأن التعانَهم شهادة، ثم زاد سبحانه هذا بياناً، فقال: ﴿ وَيَدْرَؤُا

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٠٨ رقم ١٥١٢٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦١-٤٦٣) وشرح النووي (١٢/ ٥).

عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [النور: ٨].

والثالث: أنه جعله بدلاً من الشهود، وقائماً مقامَهم عند عدمهم.

قالوا: وقد روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «لاَ لِعَانَ بَيْنَ مَمْلُوكَيْنِ وَلاَ كَافِرَيْنِ»، ذكره أبو عمر بن عبد البر في التمهيد[1].

وذكر الدارقطني من حديثه أيضاً، عن أبيه، عن جده مرفوعاً: «أَرْبَعَةٌ لَيْسَ بَيْنَهُمْ لِعَانٌ: لَيْسَ بَيْنَ الحُرِّ والأمةِ لِعَانٌ، وَلَيْسَ بَيْنَ الحُرَّةِ والعَبْدِ لِعَانٌ، ولَيْسَ بَيْنَ المُسْلِمِ وَاليَهُودِيَّةِ لِعَانٌ، وَلَيْسَ بَيْنَ المُسْلِمِ والنَّصْرَانِيَّةِ لِعَانٌ»[2].

وذكر عبد الرزاق في مصنفه، عن ابن شهاب، قال: من وصية النبي ﷺ لِعتَّاب بن أَسِيد: أن لا لِعان بين أربع، فذكر معناه[3].

قالوا: ولأن اللِّعانَ جُعِلَ بدلَ الشهادة، وقائماً مقامَها عند عدمها، فَلا يَصِحُّ إلا ممن تصح منه، ولهذا تُحدُّ المرأة بِلعان الزَّوج، ونُكولها تنزيلاً للِعانه منزلةَ أربعةِ شهود.

قالُوا: وأما الحديثُ: «لولا مَا مَضَى مِنَ الأيمَانِ، لَكَانَ لي وَلَهَا شَأْنٌ»، فالمحفوظ فيه: «لولا ما مضى من كتاب الله»[4]، هذا لفظ البخاري في صحيحه. وأما قوله: «لَوْلاَ مَا مَضَى مِنَ الأَيمَانِ»، فمن رواية عباد بن منصور، وقد تكلم فيه غير واحد. قال يحيى ابن معين: ليس بشيء. وقال علي بن الحسين بن الجنيد الرازي: متروك قدري. وقال النسائي: ضعيف.

وقد استقرت قاعدة الشريعة أن البينةَ على المدَّعي، واليمينَ على المدَّعَى عليه،

(١) التمهيد (٦/ ١٩٢).

(٢) أخرجه الدارقطني (٣/ ١٦٢ رقم ٢٣٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٩٦ رقم ١٥٠٧٦) قال الدارقطني: عثمان بن عبد الرحمن هو الوقاصي متروك الحديث. وانظر: نصب الراية (٣/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه عبدالرزاق (٧/ ١٢٧ رقم ١٢٤٩٨) وانظر: نصب الراية (٣/ ٢٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٧): وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦١-٤٦٣) وشرح النووي (١٢/ ٥).

والزوج ها هنا مُدَّعٍ، فلِعانُه شهادة، ولو كان يميناً لم تُشرع في جانبه.قال الأولون: أما تسميتُه شهادةً، فلِقول الملتعِنِ في يمينه: أشهد باللَّه، فسمى بذلك شهادة، وإن كان يميناً اعتباراً بلفظها. قالوا: وكيف وهو مصرَّح فيه بالقسم وجوابه، وكذلك لو قال: أشهد بالله، انعقدت يمينُه فبذلك، سواء نوى اليمينَ أو أطلق، والعربُ تَعُدُّ ذلك يميناً في لغتها واستعمالها. قال قيس:

فَأَشْهَدُ عِنْدَ اللهِ أَنِّي أُحِبُّهَا   فَهذَا لَهَا عِنْدِي فَمَا عِنْدَهَا لِيَا[1]

وفي هذا حجة لمن قال: إن قوله: «أشهد» تنعقِد به اليمين، ولو لم يقُلْ: «بالله»، كما هو إحدى الروايتين عن أحمد.

والثانية، لا يكون يميناً إلا بالنيةِ، وهو قولُ الأكثرين. كما أن قوله: أشهد بالله يمين عند الأكثرين بمطلقه.

قالوا: وأما استثناؤُه سبحانه «أنفسَهم» مِن الشهداء، فيقال أولاً: «إلا» هاهنا: صفة بمعنى (غير)، والمعنى: ولم يكن لهم شهداء غيرُ أنفسهم، فإن «غير»، و«وإلاَّ» يتعاوضان الوصفية والاستثناء، فيُستثنى بغير حملاً على إلاَّ، ويُوصف بإلاَّ حملاً على «غير».

ويقال ثانياً: إن «أنفسهم» مستثنى من الشهداء، ولكن يجوز أن يكون منقطعاً على لغة بني تميم، فإنهم يُبدلون في الانقطاع، كما يُبْدِل أهلُ الحجاز وهم في الاتصال.

ويقال ثالثاً: إنما استثنى «أنفسهم» من الشهداء، لأنه نزَّلهم منزلتهم في قبول قولهم، وهذا قوي جداً على قول من يرجم المرأة بالتعان الزوج إذا نكلت، وهو الصحيح، كما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وقائله مجنون ليلى: قيس بن الملوح العامري، شاعر الغزل المشهور لم يكن مجنونًا، ولكنه لقب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد التي نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها، مات سنة ٦٨.
ذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ٤١٩) والمرزوقي في آماليه (ص ٣٥٢) والزرقاني في شرحه على موطأ مالك (٣/ ٢٤٧).

والصحيح: أن لعانهم يجمع الوصفين، اليمين والشهادة، فهو شهادة مؤكَّدة بالقسم والتكرار، ويمين مغلَّظة بلفظ الشهادة والتكرار، لاقتضاء الحال تأكيد الأمر. ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع.

أحدها: ذكر لفظ الشهادة.

الثاني: ذكر القسم بأحد أسماءِ الربّ سبحانه، وأجمعها لمعاني أسمائه الحسنى، وهو اسم الله جَلَّ ذِكرُه.

الثالث: تأكيدُ الجواب بِما يُؤكِّد به المقسم عليه، من «إن، واللام»، وإتيانه باسم الفاعل الذي هو صادق وكاذب دون الفعل الذي هو صدق وكذب.

الرابع: تكرارُ ذلك أربع مرات.

الخامس: دعاؤه على نفسه في الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين.

السادس: إخبارُه عند الخامسة أنها الموجِبةُ لعذاب الله، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

السابع: جعل لعانه مقتض لحصول العذاب عليها، وهو إما الحدُّ أو الحبسُ، وجعل لعانها دارئاً للعذاب عنها.

الثامن: أن هذا اللعان يُوجب العذاب على أحدهما: إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

التاسع: التفريقُ بين المتلاعنين، وخرابُ بيتها، وكسرها بالفراق.

العاشرُ: تأبيد تلك الفرقة ودوام التحريم بينهما.

فلما كان شأنُ هذا اللعانِ هذا الشأن، جُعِلَ يميناً مقروناً بالشهادة، وشهادة مقرونة باليمين، وجعل الملتعن لقبول قوله كالشاهد، فإن نكلت المرأةُ، مضت شهادته وحُدِّتْ، وأفادت شهادتُه ويمينهُ شيئين: سقوط الحد عنه، ووجوبه عليها. وإن التعنت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها، أفاد لعانُه سقوطَ الحد عنه دون وجوبه عليها، فكان شهادة ويميناً بالنسبة إليه دونها، لأنه إن كان يميناً محضة فهي لا تحدُّ بمجرد حلفه، وإن كان شهادة فلا تحدُّ بمجرد شهادته عليها وحده. فإذا انضم

إلىٰ ذلك نكولُها، قويَ جانبُ الشهادة واليمين في حقِّه بتأكُّدِهِ ونكولها، فكان دليلاً ظاهراً علىٰ صدقه، فأسقط الحد عنه، وأوجبه عليها، وهذا أحسنُ ما يكون من الحكم، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنىٰ الشهادة، وشهادةٌ فيها معنىٰ اليمين...

(١)وأما قوله «جعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية، وكلاهما قد ألحق بهما العار» فهذا من أعظم محاسن الشريعة؛ فإن قاذف الأجنبية مستغنٍ عن قذفها، لا حاجة له إليه البتة، فإن زناها لا يضره شيئًا، ولا يفسد عليه فراشه، ولا يعلق عليه أولادًا من غيره، وقذفها عدوان محض، وأذىٰ لمحصنة غافلة مؤمنة، فترتب عليه الحد زجرًا له وعقوبة، وأما الزوجة فإنه يلحقه بزناها من العار والمسبة وإفساد الفراش وإلحاق ولد غيره به، وانصراف قلبها عنه إلىٰ غيره؛ فهو محتاج إلىٰ قذفها،ونفي النسب الفاسد عنه، وتخلصه من المسبة والعار؛ لكونه زوج بغي فاجرة، ولا يمكن إقامة البينة علىٰ زناها في الغالب،وهي لا تقر به، وقول الزوج عليها غير مقبول، فلم يبق سوىٰ تحالفهما بأغلظ الأيمان، وتأكيدها بدعائه علىٰ نفسه باللعنة، ودعائها علىٰ نفسها بالغضب إن كانا كاذبين، ثم يفسخ النكاح بينهما؛ إذ لا يمكن أحدهما أن يصفو للآخر أبدًا، فهذا أحسن حكم يفصل به بينهما في الدنيا، وليس بعده أعدل منه، ولا أحكم، ولا أصلح، ولو جمعت عقول العالمين لم يهتدوا إليه، فتبارك من أبان ربوبيته ووحدانيته وحكمته وعلمه في شرعه وخلقه.

(٢)وقد جعل الله سبحانه أيمان اللعان من جانب الزوج أولًا، فإذا نكلت المرأة عن معارضة أيمانه بأيمانها وجب عليها العذاب بالحد، وهو العذاب المذكور في قوله: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢] فإن المدعي لما ترجح

---

(١) ١١٠ أعلام جـ٢.
(٢) ١٠١ أعلام جـ١.

جانبه بالشاهد الواحد شرعت اليمين من جهته، وكذلك أولياء الدم ترجح جانبهم باللوث فشُرعت اليمين من جهتهم، وأكدت بالعدد تعظيمًا لخطر النفس. وكذلك الزوج في اللعان جانبه أرجح من جانب المرأة قطعًا، فإن إقدامه علىٰ إتلاف فراشه، ورميها بالفاحشة علىٰ رؤوس الأشهاد، وتعريض نفسه لعقوبة الدنيا والآخرة، وفضيحة أهله ونفسه علىٰ رؤوس الأشهاد، مما يأباه طباع العقلاء، وتنفر عنه نفوسهم، لولا أن الزوجة اضطرته بما رآه وتيقنه منها إلىٰ ذلك، فجانبه أقوىٰ من جانب المرأة قطعًا فشرعت اليمين من جانبه...

[1]قالوا: ولهذا لم يحكم علىٰ المرأة في اللعان بمجرد نكولها دون يمين الزوج، فإذا حلف الزوج، ونكلت عن اليمين، حكم عليها.

إما بالحبس حتىٰ تقر أو تلاعن، كما يقول أحمد وأبو حنيفة.

وإما بالحد، كما يقول الشافعي ومالك، وهو الراجح؛ لأن الله ﷻ إنما درأ عنها العذاب بشهادتها أربع شهادات، والعذاب المدروء عنها بالتعانها هو العذاب المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. وهو عذاب الحدود، ولهذا ذكره معرفًا بلام العهد، فعلم أن العذاب هو العذاب المعهود ذكره أولًا، ولهذا بدأ أولًا بأيمان الزوج لقوة جانبه، ومُكنت المرأة من أن تعارض أيمانه بأيمانها،فإذا نكلت لم يكن لأيمانه ما يعارضها، فعملت عملها، وقواها نكول المرأة، فحكم عليها بأيمانه ونكولها.

فإن قيل: فكان من الممكن أن يبدأ بأيمانها، فإن نكلت حلف الزوج حُدَّت، كما إذا ادعىٰ عليه حقًّا فنكل عن اليمين فإنها ترد علىٰ المدعي، ويقضي له، فهلا شرع اللعان كذلك والمرأة هي المدعىٰ عليها؟ بل شرع اليمين في جانب المدعي أولًا، وهذا لا نظير له في الدعاوىٰ.

---

(١) ١١٧ الطرق الحكمية.

قيل: لما كان الزوج قاذفًا لها كان موجب قذفه أن يحد لها، فمكن أن يدفع الحد عن نفسه بالتعانه، ثم طولبت هي بعد ذلك بأن تقر أو تلاعن، فإن أقرت حدت، وإن أنكرت والتعنت درأت عنها الحد بلعانها، كما له أن يدرأ الحد عن نفسه بلعانه، وكانت البداءة به أولى لأنه مدع، وأيمانه قائمة مقام البينة، ولكن لما كانت دون الشهود الأربع في القوة مكنت المرأة من دفعها بأيمانها، فإذا أبت أن تدفعها ترجح جانبه، فوجب عليها الحد، فلم تحد بمجرد التعانه، ولا بمجرد نكولها، بل بمجموع الأمرين، وأكدت الأيمان بكونها أربعًا، كما أكدت أيمان المدعين في القسامة بكونها خمسين، ولتقوم الأيمان مقام الشهود...

[1]قال ابن سعد: وفي هذه الغزوة[2] سقط عِقد لعائشة رضي الله عنها، فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آية التيمم[3].

وذكر الطبراني في معجمه من حديث محمد بن إسحاق: عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: «لما كان من أمر عقدي ما كان، قال أهل الإفك ما قالوا: فخرجت مع النبي ﷺ في غزوة أخرى، فسقط أيضًا عقدي، حتى حبس التماسه الناس، ولقيت من أبي بكر ما شاء الله، وقال لي: يا بُنيَّة، في كل سفر تكونين عناء وبلاء، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرخصة في التيمم»[4].

وهذا يدل على أن قصة العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة، وهو الظاهر، ولكن فيها: كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد والتماسه، فالتبس على

---

(١) ٢٨٠ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أي غزوة المريسيع. وهي غزوة بني المصطلق.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٦٥) وابن ماجه (رقم ٥٦٥) وعبدالرزاق (١/ ٢٢٧ رقم ٨٧٩) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٩ رقم ١٣٠) والشاشي (٢/ ٤٣٣ رقم ١٠٤١) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٣٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٢١ رقم ١٥٩) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٢٠٣ رقم ٧٠٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٣٥).

بعضهم إحدىٰ القصتين بالأخرىٰ، ونحن نشير إلىٰ قصة الإفك.

وذلك: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها ـ وكانت تلك عادته مع نسائه ـ فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها من جذع ظفار، كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه، فالتمسته حتىٰ وجدته، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها، فظنوها فيه، فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفَّته، لأنها رضي الله عنها كانت فتيَّة السن، لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها.

وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا علىٰ حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذي حمله واحد، أو اثنان، لم يخف عليهما الحال.

فرجعت عائشة إلىٰ منازلهم وقد أصابت العقد، فإذا ليس بها داع ولا مجيب، فاضطجعت في المنزل متلففة بجلبابها، وظنت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها ـ والله غالب علىٰ أمره، يدبر الأمر من فوق عرشه كما يشاء ـ فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] زوج رسول الله ﷺ؟ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش؛ لأنه كان كثير النوم ـ كما جاء عنه في صحيح أبي حاتم بن حبان، وفي السنن ـ فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، وأناخ راحلته، فقربها إليها فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتىٰ قدم بها ـ وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة ـ فلما رأىٰ ذلك الناس تكلم كل منهم علىٰ شاكلته وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفسًا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه، ويشيعه ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، ثم استشار أصحابه في فراقها، فأشار عليه عليّ: أن يفارقها ويأخذ غيرها ـ تلويحًا لا تصريحًا ـ وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وأن

لا يلتفت إلى كلام الأعداء[١].

فعلي لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه: أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين؛ ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء.

وأسامة: لما علم حبَّ رسول الله ﷺ لها ولأبيها وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربه، ومنزلته عنده، ودفاعه عنه: أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء، وبنت صديقه بالمنزلة التي أنزلها بها أرباب الإفك، وأن رسول الله ﷺ أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيًّا، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ أرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة، وهي تحت رسوله...[٢]

[٣]ومن خصائصها أن الله سبحانه برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحيًا يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر سبحانه أن ما قيل فيها من الإفك كان خيرًا لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شرًّا لها ولا خافضًا من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها، وصار لها ذكرًا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها.

وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها حيث قالت: «ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم فيَّ بوحي يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ، رؤيًا يبرئني الله بها»[٤] فهذه صديقة الأمة وأم المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ وهي تعلم أنها بريئة منه مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٦١) ومسلم (رقم ٢٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٦١-٤٦٢) وشرح النووي (١٧/ ١٠٥).

(٢) ذكر ابن القيم بقية القصة في عدة صحائف.

(٣) ١٣٤ جلاء الأفهام.

(٤) انظر: المراجع السابقة.

عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن صام يومًا أو يومين أو شهرًا أو شهرين، وقام ليلة أو ليتين، وظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات والمكاشفات، والمخاطبات والمنازلات، وإجابة الدعوات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يحب على الناس احترامهم، وتعظيمهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم؛ فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي ينتقم لهم لأجلها ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وأن الإساءة عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم، ولو كان هذا من وراء كفاية لهان،ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتائج الجهل الصميم والعقل الغير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه غافل عن جرمه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والإزراء على من لعله عند الله خير منه، نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا وهو عند ا لله حقيرًا...

***

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

[1]قد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين، والكلمات الطيبات للطيبين.

وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين، وهي تعم ذلك وغيره؛ فالكلمات والأعمال والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين.

والله ﷻ جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار. فجعل الدور ثلاثة: دارًا أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل

(١) ٢٤ زاد المعاد جـ١.

طيب، وهي الجنة، ودارًا امتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما، وهي هذه الدار.

ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية، فإذا كان يوم معاد الخليقة ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة وهي دار الطيبين، والنار وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام، حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليرى عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه، وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون، قال الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

...(١) سئل عن الاستئناس في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ [النور: ٢٧] قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح ويؤذن أهل البيت» ذكره ابن ماجة(٢).

***

(١) ٤١٤ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٧٠٧).

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

(1) جعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى، فإن من ترك شيئا لله عوضه الله ﷻ خيرا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقا إليه، وكثيرا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده، كما قيل:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقلبكَ يَوْماً أَتْعبَتْكَ المناظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ(2)

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة،

---

(1) ٤٧ إغاثة جـ١.

(2) البيتان من بحر الطويل، ولم أقف على قائلهما، وذكرهما المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٤٧) والشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٥١٠)، وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ٤٥).

فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه. ثم تقوىٰ فتصير صبابة. ينصب إليه القلب بكليته. ثم تقوىٰ فتصير غراما يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوىٰ فيصير عشقًا. وهو الحب المفرط. ثم يقوىٰ فيصير شغفا. وهو الحب الذي قد وصل إلىٰ شَغاف القلب وداخله. ثم يقوىٰ فيصير تتيمًا. والتتيم التعبد ومنه تيمه الحب إذا عَبَّده. وتيم الله عبد الله. فيصير القلب عبدا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدا له. وهذا كله جناية النظر فحينئذ يقع القلب في الأسر. فيصير أسيرًا بعد أن كان ملكا، ومسجونًا بعد أن كان مطلقا. يتظلم من الطرْف ويشكوه. والطرْف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني. وهذا إنما تبتلىٰ به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب. فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره. قال تعالىٰ عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصًا لله تعالىٰ نجا من ذلك مع كونه شابًّا عزَبًا غريبًا مملوكًا.

الفائدة الثانية في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

قال شاه بن شجاع الكرماني: «من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة»(١).

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥]. وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم

---

(١) ذكر هذا القول ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢١/ ٢٥٧) وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٦٧) والسيوطي في مفتاح الجنة (ص ٧٢) والقاسمي في قواعد التحديث (ص ١٦٦).

والفاحشة، وقال تعالىٰ عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غض بصره عما حرم الله ﷻ عليه عوَّضه الله تعالىٰ من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأىٰ به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالىٰ، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه. فإن القلب كالمرآة، والهوىٰ كالصدأ فيها. فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صورة الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع فيها صورة المعلومات. فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالىٰ بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: «إِنَّ الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ»[١].

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه. قال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠].

أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح. وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله».

---

(١) أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٣٣) عن عمرو بن مالك قال: قرأت في التوراة: إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفزع الشيطان من ظله، وانظر: فيض القدير (٥/ ٤٦٤) وأخرج أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٦٥) عن مالك بن دينار أنه قال: من غلب شهوة الحياة الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله، وأخرجه أيضًا (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه أنه قال: من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظله، وانظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢١/ ٢٥٨).

وقال الحسن: «وإن هَمْلَجَتْ بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال: إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله ﷻ إلا أن يُذِلَّ من عصاه[١]، وذلك أن من أطاع الله تعالىٰ فقد والاه، ولا يذل من والاه الله، كما في دعاء القنوت: «إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ»[٢][٣].

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة علىٰ طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة علىٰ استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١]. وذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل علىٰ أن التزكي هو باجتناب ذلك. وكذلك قوله تعالىٰ في الاستئذان علىٰ أهل البيوت: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨]. فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلا يطلعوا علىٰ عورة لم يحب صاحب المنزل أن يطَّلع عليها كان ذلك أزكىٰ لهم، كما أن رد البصر وغضه أزكىٰ لصاحبه، وقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٤- ١٥]. وقال تعالىٰ عن موسىٰ ﵇ في خطابه لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨] وقال تعالىٰ: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦- ٧]. قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله[٤]، والإيمان

---

(١) انظر: فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢١/ ٢٥٨) والبداية والنهاية (٩/ ٢٧٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ١٥١ رقم ١٠٩٥) وابن حبان (٣/ ٢٢٥ رقم ٩٤٥) وأبو داود (رقم ١٤٢٥) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٤٥١ رقم ١٤٤٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٢٠٩ رقم ٢٩٥٧) والترمذي (رقم ٤٦٤) وحسنه. وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (١/ ١٢٨ رقم ٤٢١): رواه الأربعة بإسناد علىٰ شرط الصحيح.

(٣) ذكر ابن القيم في الجواب الكافي ما هو بمعنىٰ ما تقدم. (ج).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٩٣) وفتح الباري (٨/ ٣١٦) وعمدة القاري (١٨/ ٢٥٩).

الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه؛ وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة – فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح. هو التوحيد: والتزكية جعل الشيء زكيًّا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدَّلته وفسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النجم: ٣٢] هو على غير معنى ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩]. أن لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]. وكان اسم «زينب» «برة» فقال: «تُزَكِّي نَفْسهَا؟» فسماها رسول الله ﷺ «زينب» وقال: «اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ»[1].

[2]أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه. قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

فلما كان غض البصر أصلًا لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة لم يأمر سبحانه بغضه مطلقا بل أمر بالغض منه.

وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رديف رسول الله ﷺ يوم

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٩٢) ومسلم (رقم ٢١٤١، ٢١٤٢) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٢٠٩).
(٢) ١٠١ روضة.

النحر من مزدلفة إلى منى، فمرت ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن، فحول رسول الله ﷺ رأسه إلى الشق الآخر[1] وهذا منع وإنكار بالفعل، فلو كان النظر جائزًا لأقره عليه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ﷻ كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه النطق، والرجل تزني وزناها الخطى، واليد تزني وزناها البطش، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[2] فبدأ بزنا العين لأنه أصل زنا اليد والرجل والقلب والفرج. ونبه بزنا اللسان بالكلام على زنا الفم بالقبل، وجعل الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبًا له إن لم يحققه.

وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه رد على من أباح النظر مطلقًا، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الثانية**»[3].

ووقعت مسألة: ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة [نظرة] فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر. فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة، فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها، فهل يجوز له تعمد النظر ثانيًا لهذا المعنى؟

فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أوجه: أحدها: أن الله سبحانه أمر بغض البصر، ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٢٨) ومسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: فتح الباري (٤/ ٦٨) وشرح النووي (٨/ ١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٤).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ١٠٨ رقم ٤٨٢) وابن حبان (١٢/ ٣٨١ رقم ٥٥٧٠) وأبو داود (رقم ٢١٤٩) والترمذي (رقم ٢٧٧٧) والدارمي (رقم ٢٧٠٩) وأحمد (١/ ١٥٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٦٤ رقم ٥٤٢١) وحسنه الترمذي وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٧٧): رواه البزار والطبراني في الأوسط وزاد: وليست لك الآخرة. ورجال الطبراني ثقات.

الثاني: أن النبي ﷺ سئل عن نظر الفجأة، وقد علم أنه يؤثر في القلب، فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه صرح بأن الأولىٰ له وليست له الثانية، ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقصه، والتجربة شاهدة به، والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة، فلا تحسن المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأىٰ ما هو فوق الذي في نفسه، فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه، فيزين له ما ليس بحسن لتتم البلية.

السابع: أنه لا يعان علىٰ بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع، وتداوىٰ بما حرمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولىٰ سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سمًّا، فكيف يتداوىٰ من السم بالسم؟

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق ﷻ في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًّا تركه، فإذا يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالىٰ، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله.

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال، وهو أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلىٰ درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصح بها وردها إلىٰ وراء عاجلا، قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلىٰ ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتىٰ ولجت وسقتها داخلا، ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها. فهل يقول عاقل: إن طريق تخليصها سوقها إلىٰ داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب عن محاسن

الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال [شجرة الحب] تنمى حتى يفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج صاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات [والفتن]، ويلقي القلب في التلف، والسبب في هذا أن الناظر التذت عينه بأول نظرة، فطلبت المعاودة كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غض أولا لاستراح قلبه وسلم، وتأمل قول النبي ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»[1]. فإن السهم شأنه أن يسري في القلب، فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر استفرغه وإلا قتله ولابد.

قال المروذي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل.

وقال ابن عباس الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره وقلبه وذكره. وهو من المرأة في ثلاثة في بصرها وقلبها وعَجُزِها[2].

ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضع الحاجة، وهذا شأن كل ما حرم تحريم الوسائل، فإنه يباح للمصلحة الراجحة كما حرمت الصلاة في أوقات النهي، لئلا تكون وسيلة إلى التشبه بالكفار في سجودهم للشمس، أبيحت للمصلحة الراجحة: كقضاء الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب على الصحيح.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي ﷺ أنه قال: **«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة يجدها إلى يوم**

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٩٦ رقم ٢٩٣) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٦٣) رواه الطبراني وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف.

(٢) أخرجه هناد في الزهد (٢/ ٦٥١ رقم ١٤٢٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٧٧) إلى ابن المنذر.

يلقاه»(١) أو كما قال.

وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري(٢). ونظرة الفجأة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصد من الناظر، فما لم يتعمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمدا أثم، فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر، فإن استدامته كتكريره، وأرشد من ابتلي بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: «**إن معها مثل الذي معها**»(٣). فإن في ذلك التسلي عن المطلوب بجنسه، والثاني: أن النظر يثير قوة الشهوة، فأمره بتنقيصها بإتيان أهله، ففتنة النظر أصل كل فتنة.

كما ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء**»(٤).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ: «**اتقوا الدنيا، واتقوا النساء**»(٥).

وفي مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي

---

(١) أخرجه بلفظ قريب الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٩٨) والواسطي في تاريخ واسط (ص ١٢٩) وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٣٧ رقم ٢٨٦٤) وقال: رواه الحاكم وصححه وأقره العراقي وضعفه المنذري.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢١٥٩) وانظر: شرح النووي (١٤/ ١٣٩).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٣٨٤ رقم ٥٥٧٢) والترمذي (رقم (١١٥٨) والدرامي (رقم ٢٢١٥) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٦٧-٣٦٨ رقم ٥٤٣٦) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وأصل الحديث في صحيح مسلم (رقم ١٤٠٣) بلفظ: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه» وانظر: فتح الباري (٩/ ١٠٩) وشرح النووي (٩/ ١٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٩٦) ومسلم (رقم ٢٧٤٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٣٨) (١١/ ٢٥٨).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٤٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٣٨) وشرح النووي (١٧/ ٥٥).

ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي النساء والخمر»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكفر من بقي من قبل النساء(٢).

وفي غض البصر عدة فوائد: أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه...

(٣)وقد روى هشام بن الغاز عن محكول وسليمان بن موسى: أن عمر كتب إلى أهل الشام: امنعوا نساءهم أن يدخلن مع نسائكم الحمامات(٤).

وقال أحمد بن حنبل: أكره أن تطلع أهل الذمة على عورات المسلمين.

قال أبو القاسم: وهذا صحيح، إن نساء أهل الذمة لسن بثقات على شيء من أمور المسلمين فلا يؤمن الفساد، وقد نهى رسول الله ﷺ أن تباشر المرأة قشعتها لزوجها حتى كأنه ينظر إليها، يعني: فيفضي ذلك إلى وصف الذمية المسلمة لزوجها الذمي حتى كأنه يشاهدها، فكره أحمد لهذا المعنى، قال: وقد رويت كراهته عن عبد الله بن بشر، وهو من أعلى التابعين من أهل الشام، ثم ساق من طريق عيسى بن يونس عن أبي إسحاق عن هشام بن الغاز أن عبد الله بن بشر كره أن تقبل النصرانية وأن ترى عورتها، قلت: أحمد احتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] إلى أن قال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ فخص نساء المسلمات بجواز إبداء الزينة لهن دون الكوافر...

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ٩٤ رقم ٦٢٩٣) والمحاملي في آماليه (رقم ١٤٨)، والخطيب في تاريخه (١٤/ ٧٩) وقال أبو زرعة: هذا حديث منكر. انظر: علل الحديث (١/ ٤٣٦ رقم ١٣١١).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٣٦).

(٣) ٧٦٥ أحكام أهل الذمة جـ٢.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٩٥ رقم ١٣٣٢٠) والطبري في تفسيره (١٨/ ١٢١) وعبد الرزاق (١/ ٢٩٥ رقم ١١٣٤).

(١)وأما تحريم النظر إلى العجوز الحرة الشوهاء القبيحة وإباحته إلى الأمة البارعة الجمال فكذب على الشارع، فأين حرم الله هذا وأباح هذا؟

والله سبحانه إنما قال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]. ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال، وإذا خشي الفتنة بالنظر إلى الأمة حرم عليه بلا ريب.

وإنما نشأت الشبهة أن الشارع شرع للحرائر أن يسترن وجوههن عن الأجانب.

وأما الإماء فلم يوجب عليهن ذلك، لكن هذا في إماء الاستخدام والابتذال، وأما إماء التسري اللاتي جرت العادة بصونهن وحجبهن فأين أباح الله ورسوله لهن أن يكشفن وجوههن في الأسواق والطرقات ومجامع الناس، وأذن للرجال في التمتع بالنظر إليهن؟ فهذا غلط محض على الشريعة، وأكد هذا الغلط أن بعض الفقهاء سمع قولهم: إن الحرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها، وعورة الأمة ما لا يظهر غالبًا كالبطن والظهر والساق؛ فظن أن ما يظهر غالبًا حكمه حكم وجه الرجل، وهذا إنما هو في الصلاة لا في النظر، فإن العورة عورتان: عورة في النظر، وعورة في الصلاة؛ فالحرة له أن تصلي مكشوفة الوجه والكفين، وليس لها أن تخرج في الأسواق ومجامع الناس كذلك، والله أعلم.

(٢)وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] فمنعهن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزًا في نفسه، لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال، فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

(٣)ومنزل «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به،

---

(١) ٧٦٥ أحكام أهل الذمة جـ٢.
(٢) ١٤٩ أعلام جـ٣.
(٣) ١٧٨ مدارج جـ١.

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور: ٣١] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

(١)وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع: وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله ـ كما تتضمن ذلك ـ تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة «التقوى» التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ

(١) ٣٠٥ مدارج جـ١.

يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائبًا: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذا «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة»، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذا «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته كما تقدم وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالا، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

***

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ

مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ ﴾.

(١) إن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٢].

وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣] أمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محمل كل من الآيتين؟

فالجواب: أن قوله: ﴿ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ في حق الأحرار أمرهم الله تعالى أن يستعفوا حتى يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقا لم يقدروا عليها، وليس لهم من يقوم بها عنهم.

وأما قوله: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ ﴾ فإنه سبحانه أمرهم فيها [أن ينكحوا] الأيامى وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن، هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل في حق المرأة.

ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولى في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم.

وقوله في هذا القسم: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ ﴾ يعم الأنواع الثلاثة التي ذكرت فيه فإن الأيم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة، وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقًا، فلا يمكن أن يجعل لنكاحه غاية، وهي غناه ما دام عبدًا،

---

(١) ٣٤٠ روضة.

بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه، وأخبر أنه يغنيه من فضله: إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه، وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذي ينتظر بنكاح الحر، والله أعلم.

وفي المسند وغيره مرفوعًا: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء**»[1] وذكر الثالث.

***

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾.

[2]قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] ومن أسمائه النور.

وقال المعطلة: ذلك مجاز، معناه منور السموات والأرض بالنور المخلوق.

قالوا: ويتعين المجاز؛ لأن كل عاقل يعلم بالضرورة أن الله تعالى ليس هو هذا النور المنبسط على الجدران، ولا هو النور الفائض من جرم الشمس والقمر والنار، فإما أن يكون مجازه منور السموات، أو هادي أهلها، وبطلان هذا يتبين بوجوه:

الأول: أن النور جاء في أسمائه تعالى، وهذا الاسم مما تلقته الأمة بالقبول، وأثبتوه في أسمائه الحسنى، وهو في حديث أبي هريرة الذي رواه الوليد بن مسلم ومن طريقه رواه الترمذي والناس، ولم ينكره أحد من السلف، ولا أحد من أئمة أهل السنة، ومحال أن يسمي نفسه نورًا وليس له نور ولا صفة النور ثابتة له، كما أن من

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٩٤ رقم ٥٠١٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٤) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وقال: حديث حسن. وانظر: تحفة الأحوذي (٥/ ٢٤٢).

(٢) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

المستحيل أن يكون عليمًا قديرًا سميعًا بصيرًا ولا علم له ولا قدرة، بل صحة هذه الأسماء عليه مستلزمة لثبوت معانيها له، وانتفاء حقائقها عنه مستلزم لنفيها عنه. والثاني: باطل قطعًا فتعين الأول.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لما سأله أبو ذر: هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنى أراه**»[(١)] رواه مسلم في صحيحه.

وفي الحديث قولان: (أحدهما): أن معناه ثم نور، أي فهناك نور منعني رؤيته.

ويدل على هذا المعنى شيئان: (أحدهما): قوله في اللفظ الآخر في الحديث «رأيت نورًا»[(٢)]. فهذا النور الذي رآه هو الذي حال بينه وبين رؤية الذات. (الثاني) قوله في حديث أبي موسى: «**إن الله لا ينام و لا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[(٣)] رواه مسلم في صحيحه...

[(٤)]والله ﷻ سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله ﷺ نورًا ودينه نورًا. واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ. قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥] وقد فسر قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بكونه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ١٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٦) وشرح النووي (٣/ ١٣).

(٤) ٩ اجتماع الجيوش.

أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله، فالأول كقوله ﷻ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩] فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء. ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «**أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت**»(١). وفي الأثر الآخر: «**أعوذ بوجهك أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»(٢). فأخبر أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله؛ كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له وكتاب عثمان الدارمي وغيرها عن ابن مسعود ﷺ قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه(٣).

وهذا الذي قاله ابن مسعود ﷺ أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض.

وأما من فسرها بأنه منور السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام فينا رسول

---

(١) أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**» (رقم ٢٧١٧).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٦٦-٦٧ رقم ٢٩٥٢١) (٦/ ٦٩ رقم ٢٩٥٣٩) وعبد الرزاق (٥/ ١٥٦ رقم ٩٢٣٤) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥): رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. بينما ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٢٩٣٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٧٩ رقم ٨٨٨٦) وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٤٠٥-٤٠٦ رقم ١١١) (٢/ ٤٧٧ رقم ٣١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٧) وانظر: الدر المنثور (٧/ ٣٣٩) وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٤، ٢٩١) والوابل الصيب (ص ٧٣).

الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنّى أراه**»، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه كان ثَم نور، وحال دون رؤيته نور فأنّى أراه. قال: ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة: هل رأيت ربك؟ فقال: «**رأيت نورًا**» وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم، فقال (نوراني أراه) على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظا ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه وكان قوله: «**أنّى أراه**» كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث؛ ورده بعضهم باضطراب لفظه، وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه ﷺ رآه ﷻ ولم يقل بعيني رأسه. ولفظ أحمد لفظ ابن عباس ﷺ، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر ﷺ قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**حجابه النور**»، فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر ﷺ: «**رأيت نورًا**».

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن، كما قال أبي بن كعب وغيره، وقد اختلف في مفسر الضمير في ﴿نُورِهِۦ﴾ فقيل: هو النبي ﷺ أي مثل نور محمد ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

وقيل: مفسره المؤمن أي مثل نور المؤمن، والصحيح أنه يعود على الله ﷻ، والمعنى مثل نور الله ﷻ في قلب عبده، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ، فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور، وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة، وهو أتم لفظًا ومعنى.

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى، إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل.

فالفاعل هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء.

والقابل العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحامل همته وعزيمته وإرادته، والمادة قوله وعمله، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم. وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذًا، وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن، فتأمل صفة المشكاة، وهي كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها المصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودًا، من زيت شجرة في وسط القراح لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن والزجاجة

قلبه، شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن ويتحنن، ويشفق على الخلق برقته.

وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء.

وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى.

وقد جعل الله تعالى، القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها»[1].

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي، المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها.

والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فيضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان.

فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات، التي يسميها أهلها القواطع العقليات، فهي في صدره ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٠٠) عن سهل بن سعد ﷺ مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ ولفظه: «إن لله تعالى في الأرض أواني، ألا وهي القلوب: فأحبها إلى الله أرقها وأصفاها وأصليها. أرقها للإخوان، وأصفاها من الذنوب، وأصلبها في ذات الله».

لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فانظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام، واشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن الناس قسمان:

أهل الهدىٰ والبصائر الذين عرفوا أن الحق، فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله ﷻ، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه علىٰ من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها، فيظنها شيئا له حاصل ينتفع به، وهي: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠] وهؤلاء هم أهل الهدىٰ ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل الصالح، الذين صدقوا الرسول ﷺ في أخباره، ولم يعارضوها بالشبهات، وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات، فلا هم في عملهم من أهل الخوض الخراصين، الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم، الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون. أضاء لهم نور الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتهوكون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالىٰ به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب، إن عندهم إلا نخالة الأفكار وزبالة الأذهان، التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها، وقدموها علىٰ السنة والقرآن ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] أوجبه لهم اتباع الهوىٰ ونخوة الشيطان، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

القسم الأول: أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم بإتباع أهوائهم، الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ

جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان: أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركب، الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، وهم يحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون، فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه.

ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان كما هو حال من أم السراب فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ﷻ، فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفاه إياه بمثاقيل الذر، وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباء منثورا، إذ لم يكن خالصا لوجهه ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوما نافعة كذلك هباء منثور، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

والسراب ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض، كأنه ماء يجري، والقيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد، فشبه علوم من لم يأخذ علومه وأعماله من الوحي بسراب يراه المسافر في شدة الحر، فيؤمه فيخيب ظنه ويجده نارًا تلظى، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب، فعتلوهم إلى نار الجحيم، فسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم، وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى، صيَّرها الله تعالى حميمًا سقاهم إياه، كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة، التي كانت في الدنيا كذلك لا يسمن ولا يغني من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] وهم الذين عنى بقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وهم الذين عنى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

والقسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات، وهم المنغمسون في الجهل، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلًا؛ فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى كظلمات جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم، واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمدًا ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم؛ وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمدًا ﷺ من النور جد في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى، كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه   ووافقها قطــع من الليل مظلم(١)

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان، جال ومال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع،

---

(١) هذا بيت من بحر الطويل، قائله ابن الرومي: علي بن العباس بن جريج شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي، ولد ونشأ ومات ببغداد، سنة ٢٨٣، وانتحل البيت أحمد بن علي بن مشرف الوهيبي التميمي، من أهل الإحساء، وتولى قضاءها مدة. وله ديوان ابن مشرف والبيت عندهما فيه: غيهب بدل مظلم. وذكر البيت الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٥٠٣) والمنتحل (ص ٢٧٠) والشنقيطي في أضواء البيان (١/ ١٦) (٧/ ٢٦٣).

فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات.

وقوله: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ اللجي العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه، وقوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه، فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ راجع إلى البحر، والضمير الثاني في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ عائد إلى الموج، ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب فهنا ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من هذا البحر يده لم يكد يراها.

...[1]قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] وفي الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»[2].

وللبيهقي وابن ماجه أيضًا عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ائتدموا بالزيت، وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»[3].

الزيت: حار رطب في الأولى، وغلط من قال: يابس، والزيت بحسب زيتونه، فالعنصر من النضيج: أعدله وأجوده، ومن الفجّ: فيه برودة ويبوسة، ومن الزيتون الأحمر: متوسط بين الزيتين، ومن ا لأسود: يسخن ويرطب باعتدال. وينفع من

---

(١) ٣٥٢ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٨٥١) وابن ماجه (رقم ٣٣٢٠) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٦٣ رقم ٦٧٠٢) والحاكم (٢/ ٤٣٢ رقم ٣٥٠٤) والدارمي (رقم ٢٠٢٥) والطبراني في الأوسط (٩/ ٨٤ رقم ٩١٩٦) وفي الكبير (١٩/ ٣٦٩ رقم ٥٩٦) وأحمد (٣/ ٤٩٧).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١/ ١٧٤-١٧٥ رقم ٨٢) والحاكم (٤/ ١٣٥ رقم ٧١٤٢) وابن ماجه (رقم ٣٣١٩) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٢٢ رقم ١٩٥٦٨) والبزار (١/ ٣٩٧ رقم ٢٧٥) وعبد بن حميد (رقم ١٣) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٠ رقم ٥٩٣٩) وصححه الحاكم.

السموم، ويطلق البطن، ويخرج الدود، والعتيق منه أشد تسخينًا وتحليلًا، وما استخرج منه بالماء فهو أقل حرارة، وألطف وأبلغ في النفع، وجميع أصنافه ملينة للبشرة، وتبطئ الشيب، وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار، ويشد اللثة، وورقه ينفع من الحمرة والنملة، والقروح الوسخة، والشرى ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا.

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وقال تعالىٰ في وصف المغترين: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا علىٰ شيء ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] وفي أثر معروف: إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم علىٰ معصيته فاحذره، فإنما هو استدراج يستدرجك به، وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وهذا من أعظم الغرة تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم علىٰ ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحاج والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله، و أطمعوهم مع إقامتهم علىٰ ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف حتىٰ هجم الأجل، فأخذوا علىٰ أسوأ أحوالهم، وقال تعالىٰ: ﴿ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

(١) ٢٩٧ الروح.

[فاطر: ٥] وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل، قال: ﴿ هَٰذَا لِى ﴾ أي أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٦] فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره، فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠] يعني الجنة والكرامة فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز. (والتمني) حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه...[١]

***

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾.

[٢]ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلًا بالسراب، ومثلًا بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المعرضين على الهدى والحق نوعان:

أحدهما: من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء، الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي

(١) بقية البحث تقدم في سورة البقرة (ج).
(٢) ١٥٥ أعلام جـ١.

ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرىٰ في عين الناظر ماء ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلىٰ غير أمره، يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله ﷻ فيها ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم ـ فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدىٰ.

وتأمل ما تحت قوله: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ والظمآن الذي قد اشتد عطشه، فرأىٰ السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم علىٰ غير طاعة الرسول ولغير الله جعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا، وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئا، ووجدوا الله سبحانه، ثم فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم.

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث التجلي يوم القيامة: «ثم يؤتىٰ بجهنم تعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارىٰ: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال لهم: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا. فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون»[1] وذكر الحديث، وهذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلًا.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٩) ومسلم (رقم ١٨٣).

وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته، وتضرر عامله ببطلانه، وبحصول ضد ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه، بل صار معذبا بفوات نفعه، وبحصول ضد النفع، فلهذا قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى.

النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة، وهم الذين عرفوا الحق والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين وظلمة، أتباع الغي والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان.

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء، والظلمات المضادة للنور نظير المثلين الذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين، وهو المثل المائي والمثل الناري، وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة.

فكذلك الكفار في هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له، وحظهم الظلمات المتراكمة، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد.

ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار، وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة، بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى، وآثروا الباطل على

الحق، وعموا عنه بعد أن أبصروه، وجحدوه بعد أن عرفوه، فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضالين، وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٥- ٣٨] فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة: المنعم عليهم وهم أهل النور، والضالين هم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدىٰ ودين الحق. ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة، التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوىٰ والباطل، فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا، بل تركهم علىٰ الظلمة التي خلقوا، فيها فلم يخرجهم منها إلىٰ النور، فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور.

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: **«إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم علىٰ علم الله»**(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) وابن حبان (١٤/ ٤٣ رقم ٦١٦٩) وفي الموارد (رقم ١٨١٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٤ رقم ١٧٤٨٨) وابن أبي عاصم (١/ ١٠٧-١٠٨ رقم ٢٤٣) والهروي في الأربعين في =

فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة، فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا، يحيى به قلبه وروحه، كما يحيى بدنه بالروح التي ينفخها فيه، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحا، لتوقف الحياة الحقيقية عليه.

كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] وقال ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فجعل وحيه روحا ونورا، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ما له من نور.

***

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

[1]إنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق، ونحن لا نشعر بها، لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء، وأرواحهم معهم، ولا تشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء، على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

وإذا كان الله ﷻ قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط

=

دلائل التوحيد (ص ٨٩) والترمذي (رقم ٢٦٤٢) وحسنه. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٣-١٩٤): رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

(١) ٨٨ الروح.

الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] والدلالة لا تختص معيته وحده، وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى، فإن هذا يكون لكل مصوت، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله، وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له، وقولهما ذلك أي يستعمان كلامه، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه، فقال لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح، فتكلم ومشى، وأكل وشرب، وتزوج وولد له: كالذين ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ

يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وكقتيل بني إسرائيل أو كالذين قالوا لموسىٰ: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف وقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلىٰ هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت، فكيف يمتنع علىٰ قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة، يقضي بها ما أمره فيها، ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها؟ وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[(١)] تأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكهما في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، فنبه على الاشتراك والاختلاف، فيشير إلىٰ يسير منه، فالطير كلها تشترك في الريش والجناح، وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت.

واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل، وتفاوتها فيما وراء ذلك.

واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف، وتفاوتها في غير ذلك.

واشتراك ذوات القرون فيها، وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال.

واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها، وتفاوتها أعظم تفاوت، عجز الشر إلىٰ الآن عن حصره.

واشتراك الوحوش في البعد عن الناس، والتفاوت عنهم وعن مساكنهم، وتفاوتها

---

(١) ٢٣١ شفاء.

في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت، يعجز البشر عن حصره.

واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك، وتفاوت نوعه.

واشتراك الماشي على رجلين في ذلك، وتفاوت نوعه أعظم تفاوت، وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره، يعجز كثير منها نوع الإنسان.

فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله، بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل.

***

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

(١)التحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات الذين لا غاية لهم وراءها وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم

(١) ٥٢ مدارج جـ١.

مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدا أعطوه السكة والخطبة. وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا إذا حق الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة، وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه....[(١)].

***

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝﴾.

[(٢)]أخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتقائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة، بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو

---

(١) تقدم كامل البحث في تفسير سورة الفاتحة (ج).

(٢) ٢٨ الرسالة التبوكية.

عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطًا له.

إذا ثبت هذا فالآية نص علىٰ انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفي إعادة الفعل في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول سر لطيف وفائدة جليلة. سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ [النور: ٥٤] الفعل للمخاطبين، وأصله: فإن تتلوا، فحذفت إحدىٰ التائين تخفيفًا، والمعنىٰ: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم، كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: «من الله البيان، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» فإن تركتم أنتم ما حملتوه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه، فإنه لم يحمل إيمانكم، وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤] ليس لعيه هداهم وتوفيقهم.

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وهذا يتضمن بلاغ المعنىٰ، وأنه في أعلىٰ درجات البيان، فمن قال إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغًا مبينًا، بل بلغهم ألفاظه وأحالهم في فهم معانيه علىٰ ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ.

وهذا هو حقيقة قولهم، حتىٰ إن منهم من يصرح به، ويقول: إن المصلحة كانت: في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة.

إما لمصلحة الجمهور لكونهم لا يفهمون المعاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثال. وإما لينال الكادحون ثواب كدحهم في استنباط معانيها واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة علىٰ صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به، وشهدت به ملائكته، وخيار

(١) ٣٣٨ مختصر الصواعق جـ٢.

القرون، أنه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظًا ومعنى.

والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة: كالجزم بتبليغه الألفاظ، بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة.

ولما كان بالجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم في المكان الأعظم، قال لهم: «**أنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلًا: «**اللهم اشهد**»[1] فكأنا شهدنا تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم، وهو يقول: «**اللهم اشهد**» ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدى، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلى تنطع المتنطعين، فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝ ﴾.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٢-١٨٤).

[(١)]أمر تعالىٰ مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة، لئلا يكون دخولهم هجمًا بغير استئذان فيها ذريعة إلىٰ اطلاعهم علىٰ عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها، وإن أمكن في تركه هذه الفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها، فجعلت كالمقدمة.

[(٢)]ثم بعد العشر إلىٰ سن البلوغ يسمىٰ مراهقًا ومناهزًا للاحتلام. فإذا بلغ خمس عشرة سنة عرض له حال آخر، يحصل معها الاحتلام ونبات الشعر الخشن حول القبل، وغلظ الصوت، وانفراق أرنبة الأنف.

والذي اعتبره الشارع من ذلك أمران: الاحتلام والإنبات.

أما الاحتلام فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

وقال النبي ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتىٰ يحتلم، وعن المجنون حتىٰ يفيق، وعن النائم حتىٰ يستيقظ**»[(٣)] وقال لمعاذ: «**خذ من كل حالم دينارًا**»[(٤)] رواهما أحمد وأبو داود، وليس لوقت الاحتلام سن معتاد، بل من الصبيان من يحتلم لاثنتي

---

(١) ١٤٩ أعلام جـ٣.

(٢) ١٨٠ تحفة المودود.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٤١ رقم ٤١٥) وابن الجارود (رقم ١٤٨) وابن حبان (١/ ٣٥٥ رقم ١٤٢) وابن خزيمة (٤/ ٣٤٨ رقم ٣٠٤٨) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦٠ رقم ٢٦٢٥) وأبو داود (رقم ٤٣٩٨) وابن ماجه (رقم ٢٠٤١) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٣٢٥ رقم ٨٣٩٥) والترمذي (رقم ١٤٢٣) وقال: حسن غريب. وا لحاكم (٢/ ٦٧ رقم ٢٣٥٠) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه. وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٢١).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٢/ ١١ رقم ٢٢٣٠) وفي الصغرىٰ (رقم ٢٤٥٠) وأبو داود (رقم ٣٠٣٨) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٨٧ رقم ١٨٤٢٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٨ رقم ٣٢٦٣٥) وعبد الرزاق (٦/ ٨٩ رقم ١٠٠٩٩) وأحمد (٥/ ٢٣٣) والطيالسي (رقم ٥٦٧) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٢٩ رقم ٢٦٢) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح الترمذي والحاكم في الفتح (٦/ ٢٦٠).

عشرة، ومنهم من يأتي عليه خمس عشرة، وست عشرة، وأكثر من ذلك ـ ولا يحتلم.

واختلف الفقهاء في السن الذي يبلغ به مثل هذا.

فقال الأوزاعي وأحمد والشافعي وأبو يوسف ومحمد: متى كمل خمس عشرة سنة حكم ببلوغه. ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال ـ أحدها: سبع عشرة، والثاني: ثماني عشرة، والثالث: خمس عشرة، وهو المحكي عن مالك. وعن أبي حنيفة روايتان: إحداهما: سبع عشرة والثانية: ثماني عشرة، والجارية عنده سبع عشرة.

***

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

[(1)]من الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين.

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا: إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع ـ من خطبة أو جهاد أو رباط لم

---

(١) ٢٨٩ مدارج جـ٢.

يذهب أحد منهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه، دقيقه وجلبله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، وهو عين الجرأة.

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص، فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به. وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

[(١)] قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره ﷺ، إلى يوم القيامة ولو كان ما بلغه لم يفده علمًا لما كان متعرضًا بمخالفة ما لا يفيد علمًا للفتنة والعذاب الأليم، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة، التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر.

(١) ٣٩٩ مختصر الصواعق جـ٢.

[(١)]وقال أبو العالية في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] قال: أخلصوا لله الدين والعمل والدعوة: أن جردوا الدعوة إليه، وإلى كتابه وسنة رسوله ﷺ فقط، لا إلى رأي فلان وقول فلان، وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال: يطبع على قلوبهم، وقال الإمام أحمد، إنما هي الكفر.

ولقي عبد الله بن عمر جابر بن زيد في الطواف، فقال له: يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت[(٢)].

وقال ابن خزيمة: قلت لأحمد بن نصر وحدث بخبر عن رسول الله ﷺ: أما تأخذ به؟ فقال: أترى على وسطي زنارًا؟! لا تقل لخبر النبي ﷺ أتأخذ به؟! وقل: أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن رسول الله ﷺ، قلت به شئت أم أبيت. وقال أفلح مولى أم سلمة، إنها كانت تحدث أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط: «أيها الناس» فقالت لماشطتها: كفي رأسي. قالت: فديتك، إنما يقول أيها الناس! قالت: ويحك أولسنا من الناس، فكفت رأسها، وقامت في حجرتها، فسمعته يقول: «**يا أيها الناس بينا أنا على حوضي إذ مر بكم زمرًا فتفرقت بكم الطرق، فناديتكم: ألا هلم إلى الطريق، فينادي منادٍ: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: ألا سحقًا سحقًا**»[(٣)]. وهذه الطرق التي تفرقت بهم هي الطرق والمذاهب التي ذهبوا إليها، وأعرضوا عن طريقه ومذهبه ﷺ، فلا يجوزون على الطريق، التي هو عليها يوم القيامة كما لم يسلكوا الطريق التي كان عليها هو وأصحابه.

---

(١) ٣٥٤ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه الدارمي (رقم ١٦٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٨٦) وذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ (١/ ٧٢) والسيوطي في مفتاح الجنة (ص ٦٠) والقاسمي في قواعد التحديث (ص ٣٣٦).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٩٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٣٦-١٤٠).

وقال عكرمة عن ابن عباس: إياكم والرأي، فإن الله رد على الملائكة الرأي، وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء: ١٠٥] ولم يقل: بما رأيت.

وقال بعض العلماء: ما أخرج آدم من الجنة إلا بتقديم الرأي على النص، وما لعن إبليس وغضب عليه إلا بتقديم الرأي على النص، ولا هلكت أمة من الأمم إلا بتقديم آرائها على الوحي، ولا تفرقت الأمة فرقًا وكانوا شيعًا إلا بتقديم آرائهم على النصوص.

وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأي اجتهادًا، والله ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل، والكتاب بين يدي رسول الله ﷺ وبين أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال: بل تكتب كما نكتب: باسمك اللهم. فرضي رسول الله ﷺ، وأبيت عليه، حتى قال رسول الله ﷺ: «**تراني أرضى وتأبى**»(١) وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١] قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة(٢).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النور

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩) ومسلم (رقم ١٧٨٥) والطبراني في الكبير (١/ ٧٢ رقم ٨٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤٦) (١٣/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٠٢ رقم ١٨٦٠٤) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٩٨) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين (٣/ ٣١٩ رقم ٣٨٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٦١ رقم ٧١٥).

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾.

[1]أما البركة: فكذلك نوعان:

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها: مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١] ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٥] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ [الفرقان: ١٠] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة: كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قوله من قال من السلف: تبارك تعاظم.

(١) ١٨٥ بدائع جـ٢.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه.

وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل: معناه تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك تقدس، والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي.

وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضًا.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا مواضع من كتابه أو خمسة.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه، فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنًى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها وإن كان هذا من لوازم كونه متباركا فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي، لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها

من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه، وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي، وبينا هناك: أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركًا، ورسوله مباركًا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة وفعلًا منه تبارك وتعالى.

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[(١)]

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة، كيف جمعت نوعي الثناء، أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام، ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفا وملكا، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودا، فيهبه حمدا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفا وملكا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له، وكذلك الرحمة كلها له وصفا وملكا، وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه، وعليه فيصير بذلك مباركًا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك، فكما قال أعلم الخلق بالله، وأقربهم إلى الله، وأعظمهم عنده جاها: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[(٢)]. وقال

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (٤/ ٢٠٤).

في حديث الشفاعة الطويل: «فأخر ساجدًا لربي، فيفتح عليَّ من محامده، بما لا أحسنه الآن»[(١)] وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[(٢)] فدل على أن لله ﷻ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وحسبنا الإقرار بالعجز، والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه، وبالله التوفيق.

***

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝﴾.

...[(٣)]الصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشاف وغيره: أن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل، لا يعقل ما يقول. فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله، بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين.

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩] مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي الموارد (رقم ٢٣٧٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠ رقم ٢٩٣١٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

(٣) ٢٢٦ بدائع جـ٤.

فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه، فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلًا، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه، حتى ضربوا له أمثالًا برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم يبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم، ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم.

فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره ولا رب سواه.

***

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

(١) يسأله إياه عباده المؤمنون، ويسأله إياه ملائكته لهم.

فالجنة تسأل ربها أهلها، وأهلها يسألونه إياها، والملائكة تسألها لهم، والرسل يسألونه إياها لهم ولأتباعهم ويوم القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه يشفعون فيها لعباده المؤمنين.

وفي هذا من تمام ملكه وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه وإعطائه ما سئل ما

(١) ٦٩ حادي الأرواح.

هو من لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها، فالرب تعالى جواد له الجود كله، يحب أن يسئل ويطلب منه، ويرغب إليه، فخلق من يسأله، وألهمه سؤاله، وخلق له ما يسأله إياه، فهو خالق السائل وسؤاله ومسئوله، وذلك لمحبته سؤال عباده له، ورغبتهم إليه، وطلبهم منه، وهو يغضب إذا لم يسئل:

الله يغضب إن تركت سؤاله   وبني آدم حين يُسأل يغضب[١]

وأحب خلقه إليه أكثرهم وأفضلهم له سؤالا، وهو يحب الملحين في الدعاء، وكلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه.

وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٢] فلا إله إلا هو، أي جناية جنت القواعد الفاسدة على الإيمان، وحالت بين القلوب وبين معرفة ربها وأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

قال أبو نعيم الفضل حدثنا يونس هو ابن أبي إسحاق حدثنا يزيد بن أبي مرثد قال قال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثًا، إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة. ومن استجار من النار بالله ثلاثًا، قالت النار: اللهم أجره من النار»**[٣] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن هناد بن السري عن أبي الأحوص عن

(١) ذكر البيت ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١) (٤/ ٨٦) والقرطبي في تفسيره (١/ ١٠٦) (٥/ ١٦٤) والمناوي في فيض القدير (٢/ ٣٤١) (٣/ ١٢) والشربيني في الإقناع (١/ ١٩٥) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٧) والخطابي في العزلة (ص ٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ٢٦٥٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٧٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣ رقم ٩٩٣٨) وابن ماجه (رقم ٤٣٤٠) وأحمد (٣/ ١٥٥) وأبو يعلى (٦/ ٣٥٦ رقم ٣٦٨٣) والطيالسي (رقم ٢٥٧٩) وهناد في الزهد (١/ ١٣٣ رقم ١٧٣) والضياء في المختارة (٤/ ٣٨٨ رقم ١٥٥٧) وابن حبان (٣/ ٢٩٣ رقم ١٠١٤) وفي الموارد (رقم ٢٤٣٣) والحاكم (١/ ٧١٧ رقم ١٩٦٠) وصححه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦٣٠) وفي صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٣٦٥٤).

أبي إسحاق عن يزيد به.

وقال الحسن بن سفيان: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن ليث عن يونس بن حبان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما سأل الله عبد الجنة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلانًا يسألني فأدخلينه**»[١].

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا جرير عن يونس عن أبي حازم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: إن عبدك فلانا استجار مني فأجره. ولا يسأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلانا سألني فأدخله الجنة**»[٢] وإسناده على شرط الصحيحين.

***

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

[٣]قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧] عام في كل عابد ومن عبده من دون الله.

وأما قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه (١/ ٢٤٩ رقم ٢١٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى (١١/ ٥٤ رقم ٦١٩٢) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤٣ رقم ٥٥٢١): رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخاري ومسلم. وانظر: التخويف من النار (ص ٤٤) وفيض القدير (٦/ ١٤٥).

(٣) ٢٣٩ إغاثة جـ٢.

فقال مجاهد فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة»، وروى عنه ابن جريج نحوه.

وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبدتها.

ثم يأذن سبحانه لها في الكلام، فيقول: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ قال مقاتل: يقول سبحانه: «أأنتم أمرتموهم بعبادتكم، أم هم ضلوا السبيل؟ أي: أم هم أخطأوا الطريق؟» فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الفرقان: ١٨].

وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله.

ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون]. ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم(١).

وقال ابن عباس ومقاتل: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إله».

وفيها قراءتان: أشهرهما (نَتَّخِذ) بفتح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل. وهي قراءة السبعة. والثانية (نُتَّخَذ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع. وعلى كل واحدة من القراءتين إشكال.

فأما قراءة الجمهور، فإن الله سبحانه إنما سألهم: هل أضلوا المشركين بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم؟ وكيف يكون هذا الجواب مطابقا للسؤال؟ فإنه لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني من أولياء؟ حتى يقولوا: ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ وإنما سألهم هل أمرتم عبادي هؤلاء

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٨/ ١٩٠).

بالشرك، أم هم أشركوا من قبل أنفسهم؟ فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، وإنما هم آثروه وارتضوه أو لم نأمرهم بعبادتنا، كما قال في الآية الأخرىٰ عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

فلما رأىٰ أصحاب القراءة الأخرىٰ ذلك فروا إلىٰ بناء الفعل للمفعول. وقالوا: الجواب يصح علىٰ ذلك، ويطابق. إذ المعنىٰ: ليس يصلح لنا أن نعبد ونتخذ آلهة، فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا، ولا يحسن منا؟.

ولكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر، وهو قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فإن زيادة «من» لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل. وما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي واردًا علىٰ شيء مخصوص فإنه لا يحسن زيادة «من» فيه، وهم إنما نفوا عن أنفسهم ما نسب إليهم من دعوىٰ المشركين: أنهم أمروهم بالشرك. فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا تحسن منهم، ولا يليق بهم أن يعبدوا، فكيف ندعوا عبادك إلىٰ أن يعبدونا؟ فكان الواجب علىٰ هذا: أن تقرأ: (مَا كانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكَ) أو (مِنْ دُونِكَ أَوْلِيَاءَ).

فأجاب أصحاب القراءة الأولىٰ بوجوه:

أحدها: أن المعنىٰ: ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك، ونتخذ غيرك وليًا ومعبودًا. فكيف ندعو أحدًا إلىٰ عبادتنا؟ أي إذا كنا نحن لا نعبد غيرك، فكيف ندعو أحدًا إلىٰ أن يعبدنا؟ والمعنىٰ: أنهم إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة الله تعالىٰ، فكيف يدعون غيرهم إلىٰ عبادتهم؟ وهذا جواب الفراء.

وقال الجرجاني: هذا بالتدريج يصير جوابًا للسؤال الظاهر، وهو أن من عبد شيئًا فقد تولاه، وإذا تولاه العابد صار المعبود وليًا للعابد، يدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فدل علىٰ أن العابد يصير وليًا للمعبود.

ويصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء، وأن نتخذ من دونك وليا يعبدنا. وهذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية.

قـال: يقولون: ما توليناهم، ولا أحببنا عبادتـهم. قال: ويحتمل أن يكـون قولهم: ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أن يريدوا معشر العبيد، لا أنفسهم: أي نحن وهم عبيدك، ولا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء، ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعا منهم. كما يقول الرجل لمن أتى منكرًا: ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا، أي أنت مثلي عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضًا.

قال: ولهذا الإشكال قرأ من قرأ (نُتَّخذَ) بضم النون. وهذه القراءة أقرب في التأويل. لكن قال الزّجّاج: هذه القراءة خطأ، لأنك تقول: ما اتخذت من أحد وليًّا، ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولي، لأن «من» إنما دخلت لأنها تنفي واحدًا من معنى جميع، تقول: ما من أحد قائمًا، وما من رجل محبا لما يضره، ولا يجوز: ما رجل من محب لما يضره.

قال: ولا وجه عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٧] ما أحد عنه من حاجزين. فلو لم تدخل «من» لصحت هذه القراءة.

قال صاحب النظم: العِلة في سقوط هذه القراءة: أن «من» لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه: فإذا كان قبل المفعول مفعـول سـواه لم يحسن دخـول «من» كقولـه: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم: ٣٥]. فقوله «من ولد» لا مفعول دونه سواه، ولو قال: ما كان لله أن يتخذ أحدًا من ولد، لم يحسن فيه دخول «من» لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد.

وصحح آخرون هذه القراءة لفظا ومعنى، وأجروها على قواعد العربية.

قالوا: وقد قرأ بها من لا يرتاب في فصاحته. فقرأ بها زيد بن ثابت، وأبو الدرداء

وأبو جعفر، ومجاهد، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وأبو رجاء، والحسن، وحفص بن حُميد، ومحمد بن علي، على خلاف عن بعض هؤلاء، ذكر ذلك أبو الفتح ابن جنِّي. ثم وجهها بأن يكون ﴿ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ في موضع الحال: أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. ودخلت «من» زائدة لمكان النفي. كقولك: اتخذت زيدًا وكيلًا، فإذا نفيت قلت: ما اتخذت زيدًا من وكيل. وكذلك أعطيته درهما. وما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول فيه.

قلت: يعنى أن زيادتها مع الحال، كزيادتها مع المفعول. ونظير ذلك أن تقول: ما ينبغي لي أن أخدمك متثاقلا، فإذا أكدت، قلت: من متثاقل.

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظا ومعنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود. والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة الضم: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا وليا من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئا، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر، فتأمله.

والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة ومن عبد من دون الله من أوليائه. وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر.

وقد يقال: إن الله سبحانه أنطقها بذلك، تكذيبا لهم، وردا عليهم، وبراءة منهم كقوله: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٦٦]. وفي الآية الأخرى ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الإيمان بالله تعالى: بقولهم: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨]. قال ابن عباس:

«أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم، ووسعت لهم في الرزق».

وقال الفراء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قومًا بورًا: أي هلكى فاسدين، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان. والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسي قوم ذكر الله ﷻ إلا باروا وفسدوا[1].

والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا.

قال الله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان: ١٩]. أي كذبكم المعبودون بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون: إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا: أي فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان، والأول أظهر، وعليه يدل السياق.

ومن قرأها بالياء - آخر الحروف - فالمعنى، فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: ١٩]. إخبارًا عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: ينادى مناد يوم القيامة، حين يجتمع جميع الخلائق: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٥] يقول: من عُبد من دون الله، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلهه ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾[2] [الصافات: ٢٦]. فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فوا سوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين إذا سمعوا النداء ﴿ وَٱمْتَٰزُوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٧٣ رقم ١٥٠٣٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٤٢) إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١٩٣) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٧٤ رقم ١٥٠٤٢).

ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾[يس: ٥٩ - ٦٢].

***

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

(١)قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفرقان: ٢٠] وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض.

فامتحن الرسل بالمرسل إليهم، ودعوتهم إلىٰ الحق، والصبر علىٰ أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم.

وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون علىٰ تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟

وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك.

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء.

وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة.

وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به.

وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به.

---

(١) ١٦٠ إغاثة جـ٢.

وامتحن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين.

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[الأحقاف: ١١] هؤلاء.

وقالوا لنوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء: ١١١].

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فإذا رأىٰ الشريفُ الرئيسُ المسكينَ الذليلَ قد سبقه إلىٰ الإيمان ومتابعة الرسول حمي وأنف أن يسلم، فيكون مثله، وقال: أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع علىٰ حد سواء؟.

...[1]قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ فهو سبحانه جعل أولياءه فتنة لأعدائه، وأعداءه فتنة لأوليائه، والملوك فتنة للرعية، والرعية فتنة لهم، والرجال فتنة للنساء، وهن فتنة لهم، والأغنياء فتنة للفقراء، والفقراء فتنة لهم، وابتلىٰ كل أحد بضد جعله متقابلًا، فما استقرت أقدام الأبوين علىٰ الأرض إلا وضدهما مقابلهما، واستمر الأمر في الذرية كذلك إلىٰ أن يطوي الله الدنيا ومن عليها.

وكم له سبحانه في مثل هذا الابتلاء والامتحان من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، وحكم نافذ، و أمر ونهي، وتصريف دال علىٰ ربوبيته وإلهيته وملكه وحمده.

وكذلك ابتلاء عباده بالخير والشر في هذه الدار هو من كمال حكمته ومقتضىٰ حمده التام.

إنه لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصبر والرضا، والتوكل والجهاد، والعفة والشجاعة، والحلم والعفو والصفح.

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

والله سبحانه يحب أن يكرم أولياءه بهذه الكمالات، ويحب ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو ملائكته، وينالوا باتصافهم بها غاية الكرامة واللذة والسرور، وإن كانت مرة المبادئ فلا أحلى من عواقبها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

وقد أجرى الله سبحانه حكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة أسبابها وكمالها، ونقصانها لنقصانها، فمن كمل أسباب النعيم واللذة كملت له غاياتها، ومن حرمها حرمها، ومن نقصها نقص له من غاياتها، وعلى هذا قام الجزاء بالقسط والثواب والعقاب، وكفى بهذا العالم شاهدًا لذلك، فرب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته مطردة فيهما، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

***

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾.

...[1]المقصود: أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال: تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباء منثورًا، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلًا، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. اهـ.

[2]وأعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له، وليس هذا إلا حظه من

(١) ٤١ الرسالة التبوكية.

(٢) ٦٧ مفتاح جـ١.

العلم والدين، فهو الحظ الدائم النافع الذي إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين، وذلك لأنه موصول بالحي الذي لا يموت، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت، وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشي متعلقاتها، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله، وهذه هي المصيبة التي لا تحبر، عياذًا بالله واستعانة به وافتقارًا وتوكلًا عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

(١)كل من اتخذ غير الرسول يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ، فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان؛ إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان، فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول ﷺ، ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك

---

(١) ٣٥ تبوكية.

الطاعة والموالاة إلىٰ قولهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق.

...(١)قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ما داموا متساعدين علىٰ حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة وذمًّا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزي إذا أخذوا وعوقبوا، فكل متساعدين علىٰ باطل متوادين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، فإذا دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر علىٰ أ ذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر،ولكن أذىً يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذلٌّ وبغض له، ومقت، وذم منهم، ومن المؤمنين، ومن رب ا لعالمين.

فالصبر علىٰ أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلًا، وإن دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم

---

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه وأن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحًا ذليلًا، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها، ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله ﷻ، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى، والله تعالى أعلم[١].

***

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

[٢]هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه،والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

---

(١) شرح المؤلف بقية مفسدات القلب تركناها اختصارًا. (ج).

(٢) ٨١ فوائد.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] وإن كان بعض الهجر أهون من بعض(١).

(٢)وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩].وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع منه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما وتَتُلّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها

(١) تقدم بقية البحث في سورة الأعراف (ج).
(٢) ٤٥١ مدارج جـ١.

ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة: تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضرورية للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد ولا تنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من

العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق والرحيل الرحيل، وتحدو به، وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق، نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

***

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

[(١)]أنزل الله الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ، وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣] فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهو تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله من البيان والظهور، ويلاقيه في الاشتقاق الأكبر الإسفار، ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت، ومنه السفر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم، فلابد أن يكون التفسير مطابقًا للمفسر مفهمًا له، ولا تجد كلامًا أحسن تقديرًا ولا أتم بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه الله بيانًا وأخبر

---

(١) ٥٩ مختصر الصواعق جـ١.

أنه يسره للذكر، ويسر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرًا له بل كان معسرًا عليه، وإذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير...

***

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

(١)شبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبل فلا يستجيبون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره.

والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم يتنفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالًا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه.

...(٢)إذا عرف هذا. فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها.

فمن الناس: من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها وبينه وبينها أول درجة الإنسانية، ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام، بل

(١) ١٥٩ إعلام جـ١.
(٢) ٤١٠ مدارج جـ٢.

جعلهم أضل، فقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والبصر والعقول: إما لعدم انتفاعهم بها، فُنُزِّلت منزلة المعدوم، وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها وإدراكها، ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور، كقول أصحاب السعير: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة، ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب. والقول الثاني: إن الضمير عائد على الأصنام، ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه على التشبيه أي كأنهم ينظرون إليك، ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني: المراد به المقابلة، تقول العرب: داري تنظر دارك، أي تقابلها.

وكذلك السمع ثابت لهم، وبه قامت الحجة عليهم، ومنتف عنهم وهو سمع القلب، فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك: كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء، ولم يسمعوه بالروح الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع، التي هي حظ القلب، فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب، ولزال عنهم الصمم والبكم، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من عدم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يحصل غذاء القلب، ويعتدل فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث، وإذا فسد غذاؤه: وخبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾.

[(١)]أخبر تعالىٰ: أنه بسط الظل ومده، وأنه جعله متحركًا تبعًا لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك: إما بسكون المظهر له، والدليل عليه، وإما بسبب آخر.

ثم أخبر: أنه قبضه ـ بعد بسطه ـ قبضًا يسيرًا، وهو شيء بعد شيء، لم يقبضه جملة.

فهذا من أعظم آياته الدالة علىٰ عظيم قدرته، وكمال حكمته، فندب الرب سبحانه عباده إلىٰ رؤية صنعته وقدرته، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته، ولو شاء لجعله لاصقًا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره، فلم ينتفع به أحد.

فإن كان الانتفاع به تابعًا لمده وبسطه، وتحوله من مكان إلىٰ مكان، ففي مده وبسطه، ثم قبضه شيئًا فشيئًا: من الصالح والنافع ما لا يخفىٰ ولا يحصىٰ، فلو كان ساكنًا دائمًا، أو قبض دفعة واحدة: لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس، فمد الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم لحركة الشمس، علىٰ ما قدرت عليه من مصالح العالم.

وفي دلالة الشمس علىٰ الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضىٰ من اليوم، وما بقي منه، وفي تحركه وانتقاله ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس.

وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه.

وفي الآية وجه آخر، وهو: أنه سبحانه مدَّ الظل حين بنىٰ السماء كالقبة المضروبة، ودحىٰ الأرض تحتها، فألقت القبة ظلها عليها، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنًا مستقرًّا في تلك الحال، ثم خلق الشمس ونصبها دليلًا علىٰ ذلك الظل، فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر، وهو: أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه

(١) ٢٩٣ مدارج جـ٣.

بإنشاء أسبابه. وقوله تعالىٰ: ﴿قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا﴾ كأنه يشعر بذلك، وقوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يشبه قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] وقوله: ﴿قَبَضْنَـٰهُ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] والوجه في الآية هو الأول.

(١)ومعنى الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه، وعجائب مخلوقاته الدالة عليه، والمعنى: انظر كيف بسط ربك الظل، والظل ما قبل الزوال، والفيء بعده، فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس، فإنه يكون مديدًا أطول ما يكون، وجعل الشمس دليلًا عليه، فإنها هي التي تظهره وتبينه، ثم كلما ارتفعت الشمس شيئًا انقبض من الظل جزء، فلا يزال ينقص يسيرًا حتى ينتهي إلى غايته، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئًا فشيئًا حتى يصير كهيئته عند طلوعها، ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال، ولو شاء الله لجعله ساكنًا دائمًا على حالة واحدة، فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فالظل أحد الأدلة الدالة على الخالق سبحانه.

***

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

(٢)لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ، في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده، بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا، وأمره الله تعالى

(١) ٣٤٥ طريق الهجرتين.
(٢) ١٠٢ زاد جـ٢.

بالجهاد من حين بعثه، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢] فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحُجة، والبيان، وتبليغِ القرآن، وكذلكَ جهادُ المنافِقينَ، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فهم تحت قهر أهلِ الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهادُ المنافقين أصعبُ مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالَم، والمشارِكُون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هُم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً.

ولما كان مِن أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شدة المُعارِضِ، مثلَ أن تتكلم به عند مَن تُخاف سَطوتهُ وأذاه، كان للرسلِ صلواتُ الله عليهم وسلامُهُ مِن ذلك الحظُّ الأوفَرُ، وكان لنبينا صلواتُ الله وسلامُه عليه من ذلك أكملُ الجهاد وأتمُّه.

ولما كان جهاد أعداءِ الله في الخارج فرعاً علىٰ جهادِ العبد نفسه في ذاتِ الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ الله**»[(١)]، «**والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَىٰ الله عنه**»[(٢)]. كان جهادُ النفس مُقَدَّماً علىٰ جِهَادِ العدوِّ في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلاً لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا في الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه في الخارج، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلىٰ عدوِّه، حتىٰ يُجاهِدَ نفسَه علىٰ الخروج.

فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا

---

(١) أخرجه ابن حبان (١١/ ٥ رقم ٤٧٠٦) وفي الموارد (رقم ٢٥١٩) والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩ رقم ٧٩٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٤٠ رقم ١٨٤) والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ٢٠٦ رقم ٦٦٢٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٩) وعمدة القاري (١/ ١٣٠).

بجهاده، وهو واقف بينهما يُثبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما في جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذاتِ، والمشتهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنِكَ العدوينِ إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصلَ لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدواً تنبيه علىٰ استفراغ الوُسع في مُحاربته ومجاهدته، كأنَّهُ عدو لا يَفْتُر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد علىٰ عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي العبد بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه امتحاناً من الله له وابتلاءً، فأعطىٰ اللَّهُ العبدَ مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً لهذا الجِهَادِ، وأعطىٰ أعداءه مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسِلاحاً، وبَلَىٰ أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضَهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحِنَ من يَتولاَّه، ويتولَّىٰ رسُلَهُ ممن يتولَّىٰ الشيطانَ وحِزبه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ [محمد: ٣١]. فأعطىٰ عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُوَىٰ، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: ﴿ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو مِن أعظم العونِ لهم علىٰ حرب عدوهم، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين علىٰ عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتركهم بعضَ ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يُؤْيِسهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يسْتَقْبِلُوا أمرهم، ويُداووا جِرَاحَهُم، ويَعُودوا إلىٰ مُناهضةِ عدوهم فينصَرهم عليهم، ويُظفرَهم به، فأخبرهم أنه ﴿ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] و﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، و﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، و﴿ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

[الأنفال: ١٩]، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا علىٰ عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنهم، لتخطّفهم عدوُّهم، واجتاحهم. وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانِهم، وعلىٰ قَدْرِهِ، فإن قَوِيَ الإيمانُ، قويتِ المُدافعة، فمَن وجد خيراً، فليحمَدِ اللهَ، ومَن وجد غيرَ ذِلكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه[1].

[2]ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع»[3] قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه.

وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله، لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه.

قال تعالىٰ في سورة الفرقان، وهي مكية: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢] فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣] ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

(١) ذكر هنا بحثًا ممتعًا فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

(٢) ٧٠ مفتاح جـ١.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٤٧) والضياء المقدسي في المختارة (٦/ ١٢٤ رقم ٢١١٩) والطبراني في الصغير (رقم ٣٨٠) وحسنه الترمذي ومحقق المختارة. وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (رقم ٨٨).

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله. ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد[(١)].

ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر. كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فذكر الكتاب والحديد، إذ بهما قوام الدين، كما قيل:

فما هو إلا الوحي أو حَدُّ مرهف   تميل ظباه أخدعَي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل   وهذا دواء الداء من كل جاهل[(٢)]

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة قول الله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] بالأمراء والعلماء، فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم، وهؤلاء بألسنتهم، فطلب العلم من أعظم سبيل الله عز وجل.

***

(١) ذكره المنذري في الترغيب (١/ ٥٢ رقم ١٠٧) مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ عن معاذ في حديث طويل وقال في آخره: رواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشي، حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن الحسن عنه. وقال: وهو حديث حسن، ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفًا. كذا قال رحمه الله، ورفعه غريب جدًّا. وقال السيوطي في تدريب الراوي (١/ ١٦٢): فأراد بالحسن حسن اللفظ، لأنه من رواية موسى البلقاوي وهو كذاب نسب إلى الوضع عن عبد الرحيم العمي وهو متروك. وانظر: فتح المغيث للسخاوي (١/ ٩١).

(٢) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى أبي تمام: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أحد أمراء البيان، كان فصيحًا حلو الكلام، في شعره قوة وجزالة، كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

[١] قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥] هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائمًا مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه؛ وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه، كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه، وعبارات السلف على هذا تدور.

ذكر ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك[٢].

وقال ليث، عن مجاهد، قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه عليها[٣].

وقال زيد بن أسلم: ظهيرًا، أي: مواليًا، والمعنى أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معينًا له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقرنائه، ولهذا صدر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] وهذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم، المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه، بخلاف وليه سبحانه، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه، وهذا المعنى من كنوز القرآن، لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق.

---

(١) ٧٨ فوائد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧١١ رقم ١٥٢٨١) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٣) وتفسير السيوطي (٦/ ٢٦٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٢٦) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١١ رقم ١٥٢٨٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٣).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾.

[1]ذكر تعالىٰ خلق الليل والنهار وأنهما خلفة، أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما.

وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر، لا يجامعه، ولا يحاذيه، بل يغشىٰ أحدهما صاحبه، فيطلبه حثيثًا حتىٰ يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثًا حتىٰ يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائمًا يتطالبان، ولا يدرك أحدهما صاحبه.

[2]قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: عوضًا وخلفًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمل في أحدهما قضاه في الآخر[3]، وقال قتادة: فأروا الله من أعمالكم خيرًا في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تحملان الناس إلىٰ آجالهم، ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود إلىٰ يوم القيامة[4]. وقال شقيق: جاء رجل إلىٰ عمر بن الخطاب ﷺ فقال: فاتتني الصلاة الليلة، فقال: «أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله ﷻ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا»[5].

***

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

---

(١) ٢٠٨ مفتاح جـ١.
(٢) ١٩٤ زاد جـ١.
(٣) ذكره العيني في عمدة القاري (١٩/ ٩٣).
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٧١) إلىٰ عبد بن حميد.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٣٠).

[(١)]أما الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنه خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينويها لله، فتقع خطاه قربة، وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

[(٢)]قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي سكينة ووقارًا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين، قال الحسن: علماء حلماء[(٣)]، وقال محمد ابن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سُفه عليهم حلموا.

و«الهَون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين، و«الهُون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان، والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

[(٤)]هديه ﷺ في مشيه وحده، ومع أصحابه: كان إذا مشى تكفَّا تكفؤًا[(٥)]، وكان أسرع

(١) ٢١٧ الجواب.
(٢) ٣٢٧ مدارج جـ٢.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٣٤).
(٤) ٨٧ زاد جـ١.
(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٦٢ رقم ٤١٩٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والترمذي (رقم ٣٦٣٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أيضًا أحمد (١/ ٩٦) والطيالسي (رقم ١٧١) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٨٦).

الناس مشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوىٰ له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث»[(١)] وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا مشىٰ تكفا تكفؤًا، كأنما ينحط من صبب»[(٢)]، وقال مرة: «وإذا مشىٰ تقلَّع»[(٣)].

قلت: والتقلع: الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مشيَة أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهرج والمهانة والتماوت، فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه، ويمشي قطعة واحدة، كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضًا، وهي دالة علىٰ خفة عقل صاحبها، ولاسيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينًا وشمالًا، وإما أن يمشي هوْنًا وهي مشية عباد الرحمن، كما وصفهم بها في كتابه، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار، من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول الله ﷺ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوىٰ

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٢١٥ رقم ٦٣٠٩) وفي الموارد (رقم ٢١١٨) وأحمد (٢/ ٣٨٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ٨٣٨) والترمذي في الشمائل (رقم ١٢٤) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٧٩) وضعفه الألباني في مختصر الشمائل (رقم ١٠٠).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٣٦٧-٣٦٨ رقم ٧٥٠) والحاكم (٢/ ٦٦٢ رقم ٤١٩٤) والترمذي (رقم ٣٦٣٧) وأبو يعلىٰ (١/ ٣٠٤ رقم ٣٧٠) وأحمد (١/ ١١٧) والبزار (٢/ ١١٨-١١٩ رقم ٤٧٤) والطيالسي (رقم ١٧١) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٤٩ رقم ١٤١٤) وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي وفي مختصر الشمائل (رقم ٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٦٣٨) وفي الشمائل (رقم ٧، ١٢٥) وابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٣٣١) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٨ رقم ٣١٨٠٥) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٤٩ رقم ١٤١٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢٤٥) وصححه الألباني في إصلاح المساجد (ص ١٧٩).

له، حتى كان الماشي معه يجهد نفسه ورسول الله ﷺ غير مكترث.

وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت، ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات. والمشيات عشرة أنواع، هذه الثلاثة منها.

والرابع: السعي.

والخامس: الرمل، وهو أسرع المشي مع تقارب الخطى، ويسمى الخبب[١]. وفي الصحيح من حديث ابن عمر «أن النبي ﷺ خبَّ في طوافه ثلاثًا، ومشى أربعًا»[٢].

والسادس: النسلان، وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ويُكربه[٣]، وفي بعض المسانيد: «أن المشاة شكوا إلى رسول الله ﷺ من المشي في حجة الوداع، فقال: «استعينوا بالنسلان»[٤].

والسابع: الخوزلي، وهي مشية التمايل، وهي مشية يقال: إن فيها تكسرًا وتخنثًا[٥].

والثامن: القهقري، وهي المشية إلى وراء[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٣٤١-٣٤٣) وغريب الحديث لابن سلام (٣/ ١٧٨) والنهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٥٧) ومشارق الأنوار (١/ ٢٢٨) ومقدمة فتح الباري (ص ١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٦٤٤) ومسلم (رقم ١٢٢٧، ١٢٦١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٠٣) وشرح النووي (٩/ ٦-٧).

(٣) انظر: لسان العرب (٦/ ٣٦١) (١١/ ٦٦١) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥١٧) وغريب الحديث للخطابي (٢/ ٣٧٠-٣٧١) ومشارق الأنوار (٢/ ٢١٧) وعمدة القاري (١٩/ ١٣٥، ٢٠٥) وفتح الباري (٨/ ٥٤٣، ٦١٦).

(٤) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ١٤٠ رقم ٢٥٣٧) والبيهقي في سننه الكبرى (٥/ ٢٥٦ رقم ١٠١٢٦) والحاكم (١/ ٦١٠ رقم ١٦١٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وكذا في (٢/ ١١١) وقال مثل ما قال في الموضع الأول. الطبراني في الأوسط (٨/ ١٠٣ رقم ٨١٠٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٤٦٥).

(٥) انظر: لسان العرب (٤/ ٢٣٧) (١١/ ٢٠٣).

(٦) انظر: لسان العرب (٥/ ١٢١) وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٢٧٣) وغريب الحديث للحربي (٢/ ٤٤٦) وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٣٤٣-٣٤٥) والنهاية لابن الأثير (٤/ ١٢٩).

والتاسع: الجمزي، وهي مشية يثب فيها الماشي وثبًا[(١)].

والعاشر: مشية التبختر، وهي مشية أولي العجب والتكبر، وهي التي خسف الله سبحانه بصاحبها لما نظر في عطفيه، وأعجبته نفسه، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة، وأعدل هذه المشيات: مشية الهون والتكفؤ.

وأما مشيه ﷺ مع أصحابه: فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول: «دعوا ظهري للملائكة»[(٢)] ولهذا جاء في الحديث: «وكان يسوق أصحابه»[(٣)]. وكان يمشي حافيًا ومنتعلًا، وكان يماشي أصحابه فُرادىٰ وجماعة، ومشىٰ في بعض غزواته مرة، فانقطعت إصبعه وسال منها الدم، فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت[(٤)]

وكان في السفر ساقة أصحابه: يزجي الضعيف ويردفه، ويدعو لهم، ذكره أبو داود[(٥)].

[(٦)]والسر في نصب سلام ضيف إبراهيم الملائكة، ورفع سلامه: فالجواب أنك قد عرفت قول النحاة فيه: أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية، لأن نصب السلام يدل

---

(١) انظر: لسان لاعرب (٥/ ٣٢٣) ومختار الصحاح (ص٤٦) والنهاية لابن الأثير (١/ ٢٩٤) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٨) والدارمي (رقم ٤٥) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٧) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (١/ ٣٦): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٥٤-١٥٥ رقم ١٤٣٠) والترمذي في الشمائل (رقم ٨) والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٥٥-١٥٦ رقم ٤١٤) وقال الحافظ ابن حجر في الامتاع بالأربعين المتباينة السماع (ص ٥٥): ضعيف جدًّا. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٤٤٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٠٢) ومسلم (رقم ١٧٩٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٤١) وشرح النووي (١٢/ ١١٩، ١٥٥).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ٢٦٣٩) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٧ رقم ١٠١٣٢) والحاكم (٢/ ١٢٦ رقم ٢٥٤١) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص٢٤٤).

(٦) ١٥٨ بدائع جـ٢.

على سلمنا عليك سلامًا. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية لأن رفعه يدل على أن المعنى: سلام عليكم، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر. والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه ﷺ، وهو مقام الفضل، إذ حياهم بأحسن من تحيتهم، هذا تقرير ما قالوه.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله سلامًا مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا قولًا سلامًا، وقالوا: سدادًا وصوابًا، ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكي به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكيًّا به، بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه قالوا قولًا سلامًا، مثل سدادًا وصوابًا، وسمي القول سلاما لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة وحصول الاستئناس، وحكي عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه مرفوعا بالابتداء محكيا بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال سلاما بالنصب، لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعًا فعلى الحكاية ليس إلا، فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه، ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جدا، وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم، التي أمر الله بها وباتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل، والله أعلم، فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر، يظهر لك أقواهما، وبالله التوفيق.

وأما نصب السلام من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ ورفعه في قوله حكاية عن مؤمني أهل الكتاب ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] فالجواب عنه: أن الله سبحانه مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن

أوصافهم وأعمالهم، فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] فسلامًا هنا صفة لمصدر محذوف، هو القول نفسه، أي قالوا قولًا سلاماً، أي سدادًا وصوابًا وسليمًا من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل، فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلموا عليهم، وليس هذا معنى الآية، ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام، فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها، وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي بسكينة ووقار، والهون بفتح الهاء من الشيء الهين، وهو مصدر هان هونًا أي سهل، ومنه قولهم: يمشي على هينته. ولا أحسبها إلا مولدة، ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة، فهي فعلة من الهون، وأصلها هونة، فقلبت واوها ياء لانكسار ما قبلها، فاللفظة صحيحة المادة والتصريف.

وأما الهون بالضم فهو الهون، فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهون، فوصف مشيهم بأنهم مشي حلم ووقار وسكينة، لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار، لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية، فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم، فتأمله.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله ﷺ مكة فآمنوا به فعيرهم المشركون وقالوا: قبحتم من

وفد، بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل، ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم، فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل، فقالوا: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ وكان رفع السلام متعينا، لأنه حكاية ما قد وقع ونصب السلام في آية الفرقان متعينًا، لأنه تعليم وإرشاد، لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل، فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة، والله تعالى المحمود وحده على ما من به وأنعم.

وهي المواهب من رب العباد فما　　يقال لولا ولا هلا ولا فلما

***

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾.

[(١)]قال في الصحاح: والغرام الولوع، وقد أغرم بالشيء أي أولع به، والغريم الذي عليه الدين، يقال: خذ من غريم السوء ما سنح، ويكون الغريم أيضًا الذي له الدين[(٢)]، قال كثير عزة:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه　　وعزة ممطول معنًّى غريمها[(٣)]

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] والغرام الشر الدائم اللازم والعذاب، قال بشر:

ويوم النسار ويوم الجفا　　رِ كانا عذابًا وكانا غراما[(٤)]

---

(١) ٥٧ روضة.

(٢) انظر: القاموس المحيط (ص ١٤٧٥) ولسان العرب (١٢/ ٤٣٧).

(٣) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٤٣٦) وابن الجوزي في المنتظم (٧/ ١٠٦) وابن العماد في شذرات الذهب (١/ ١٣٢) والرازي في مختار الصحاح (ص ١٩٨) والبعلي في المطلع على أبواب المقنع (ص ١٠١) والشنقيطي في أضواء البيان (٩/ ٨٨).

(٤) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٤٣٧) والحموي في معجم البلدان (٢/ ١٤٤) (٥/ ٢٨٣) والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٧٤) والحربي في غريب الحديث (٣/ ١٠٧٥).

وقال الأعشى:

إن يعاقبْ يكن غرامًا يُعـ ـطِ جزيلًا فإنه لا يبالي[(١)]

وقال أبو عبيدة: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كان هلاكًا ولزامًا لهم. وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام، وإن لهج به المتأخرون.

***

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

[(٢)]ومنه سمي عذاب النار غرامًا للزومه لأهله، وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.

[(٣)]وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطًا، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها، قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفًا[(٤)]

[(٥)]وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين عدل وحكمة، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما

---

(١) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٤٣٧) والحربي في غريب الحديث (٣/ ١٠٧٥) والطبري في تفسيره (٢٧/ ١٩٩).

(٢) ٢٨ مدارج جـ٣.

(٣) ١٨٢ إغاثة جـ١.

(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ١٨٨).

(٥) ٢٨٩ الروح.

موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد، وهو وسط بين طرفين مذمومين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعًا، والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به، فيتولد عنه المنع لبذله، والجزع لفقده، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

***

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

(١)الفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة، فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾.

والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه.

---

(١) ٣١٣ الروح.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: فإما إلىٰ غلو ومجاوزة، وإما إلىٰ تفريط وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشىٰ خلف رسول الله ﷺ وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم.

وهذان المرضان الخطران قد استوليا علىٰ أكثر بني آدم، ولهذا حذر ا لسلف منهما أشد التحذير، وخوفوا من بُلي بأحدهما بالهلاك، وقد يجتمعان في الشخص الواحد، كما هو حال أكثر الخلق، يكون مقصرًا مفرطًا في بعض دينه غاليًا متجاوزًا في بعضه، والمهدي من هداه الله.

(١)أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة: تعليق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية؛ وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير الله الشرك، وأن يدعىٰ معه إله آخر.

وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلىٰ بعض، فالشرك يدعو إلىٰ الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه، قال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا.

وكذلك الظلم يدعو إلىٰ الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما.

---

(١) ٨٠ فوائد.

أما الأول ففي قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨] وأما الثاني فكقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] والفاحشة تدعو إلىٰ الشرك، والظلم ـ ولاسيما ـ إذا قويت إرادتها، ولم تحصل إلا بنوع من الظلم، والاستعانة بالسحر والشيطان، وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣] فهذه الثلاثة يجر بعضها إلىٰ بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا، وأعظم شركًا، كان أكثر فاحشة، وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها(١).

(٢)وروي في الصحيح عنه ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٣)، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه سئل: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» فأنزل الله تعالىٰ تصديقها: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾(٤) الآية [الفرقان: ٦٨] واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ علىٰ قولين. ثم الذين قالوا يحصرها اختلفوا في عددها، فقال عبد الله بن مسعود: هي أربعة، وقال عبد الله بن

(١) تكملة البحث في سورة الشورىٰ. (ج).
(٢) ١٦٨ الجواب.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦) ومسلم (رقم ٨٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٦٢) (١٢/ ١٨٢) وشرح النووي (٢/ ٨٣).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٦١) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٩١) وشرح النووي (٢/ ٨٠).

عمر: هي سبعة، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي تسعة، وقال غيره: هي إحدىٰ عشرة، وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب: وهي الشرك بالله، والإصرار علىٰ المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وأربعة في اللسان: وهي شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، واثنتان في الفرج: وهما الزنا، واللواطة، واثنتان في اليدين وهما: القتل، والسرقة، وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف. وواحدة تتعلق بجميع الجسد: وهي عقوق الوالدين، والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال: كل ما نهىٰ الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهىٰ عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة، وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة.

وقيل: كل ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة.

وقيل: كل ما اتفقت الشرائع علىٰ تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة.

وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء إلىٰ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

والذين لم يقسموها إلىٰ كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها بالنسبة إلىٰ الجراءة علىٰ الله سبحانه معصية ومخالفة أمره كبائر، فانظر إلىٰ من عصي أمره وانتهكت محارمه، فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق في ذلك بين

ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى، ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطئ فرجًا حرامًا وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى بإحدى المفسدتين، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول، فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمره المطاع ونهيه وانتهاك حرمته، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب...

[(١)] وفي جامع الترمذي عن نافع قال: نظر عبد الله بن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك[(٢)]. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وفي صحيح البخاري أيضًا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**»[(٣)].

وذكر البخاري أيضا عن عمر قال: «**من ورطا ت الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله**»[(٤)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**»[(٥)].

---

(١) ٢٠١ الجواب.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٣٢) والبيهقي في ا لشعب (٣/ ٤٤٤ رقم ٤٠١٤) وابن حبان كما في موارد الظمآن (رقم ١٤٩٤) وابن ماجه (رقم ٣٩٣٢) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٧ رقم ١٠٩٦٦) وفي مسند الشاميين (٢/ ٣٩٦ رقم ١٥٦٨) وحسنه الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي. وحسنه أيضًا في غاية المرام (رقم ٤٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٦٢) وانظر: عمدة القاري (٢٤/ ٣١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٦٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٨، ٢٦٣).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٨) ومسلم (رقم ٦٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥١٢) (١٣/ ٢٧) وشرح النووي (٢/ ٥٣-٥٤) (١٦/ ١٤١).

وفيهما أيضًا عنه ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١) وفي صحيح البخاري عنه ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا**»(٢). هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهدًا في عهده وأمانه، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها(٣)، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتى مات بغير جرم، وفي بعض السنن عنه ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**»(٤).

ولما كانت مفسدة الزنا من أ عظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من أفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله ﷺ في سنته كما تقدم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا، وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢١) ومسلم (رقم ٦٥) وانظر: فتح الباري (١/ ١١٣) (١٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٦٥) ومسلم (رقم ٢٢٤٢) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٧٢) وعمدة القاري (٢/ ٧٣) (٣/ ٤٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٦١٩) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٢ رقم ١٥٦٤٥) وفي شعب الإيمان (٤/ ٣٤٥ رقم ٥٣٤٤) والترمذي (رقم ١٣٩٥) والبزار (٦/ ٣٧٥ رقم ٢٣٩٣) وحسنه المنذري في الترغيب (٣/ ٢٠١ رقم ٣٦٧٥) وقال الكتاني في مصباح الزجاجة (٣/ ١٢١-١٢٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٩).

ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

***

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

[1]هذا من أعظم البشارة التائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2] [الفتح: ١]».

واختلفوا في صفة هذا التبديل وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانا، وبالزنا عفة وإحصانا، وبالكذب صدقا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة بدلوا عوضها صفات جميلة وأعمالا صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال:

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ٢٠٠) والشيباني في الديات (ص ٥٦) وانظر: الدر المنثور (٦/ ٢٧٩).

اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوبا ما أراها ههنا» قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[١].

فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ ولو كان كذلك لما عوقب عليها، كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه، لكن للسلف غور ودقة فهم، لا يدركها كثير من المتأخرين. فالاستدلال به صحيح بعد تمهيد قاعدة إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته، وهي أن الذنب لابد له من أثر وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة، وكذلك إذا اشتد أثره ولم تقو تلك الأمور على محوه، فلا بد إذا من دخول النار، لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار، فإذا تطهر بالنار وزال أثر

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠) والترمذي (رقم ٢٥٩٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٢).

الوسخ والخبث عنه أعطي مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار وأحب إلى الله وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل، فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول يوضحه:

الوجه التاسع: وهو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة، إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التي حلت محله، وهي حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها، وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها يوضحه:

الوجه العاشر: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر وأعظم نفعا وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية وإنابة وندم وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه. ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب: كندامة فاعله على ارتكابه، لكن شتان ما بين الندمين، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك وحصول محبوب الله تعالى من التوبة وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا: ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَـٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عُذِّب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات من التوبة

النصوح وتوابعها، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات، فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة، وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه ولما انتهى إليها ضحك ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين.

أحدهما: قوله: «أخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده من تبديل الصغائر، وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين وأجود الأجودين وأكرم الأكرمين البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

...[1]وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان. فإن كان بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأشد حذراً وأعظم تشميراً وأعظم ذلاً وخشية وإنابة عاد إلى أرفع مما كان، وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته. هذا معنى كلامه.

قلت: وهاهنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها، وهي أن التائب إذا تاب

---

(١) ٢٤٥ الهجرتين.

إلى الله توبة نصوحاً، فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديماً وحديثاً. فقال الزجاج: ليس بجعل مكان السيئة الحسنة، لكن بجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة(١).

قال ابن عطية: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأُولى طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن، ورد على من قال هو في يوم القيامة، قال: وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري، وهذا تأْويل سعيد بن المسيب في هذه الآية. قال ابن عطية: وهو معنى كرم العفو، هذا آخر كلامه. قلت: سيأتي إن شاء الله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه. قال المهدوي: وروي معنى هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال الثعلبي: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] يبدلهم الله بقبيح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيماناً وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً. وقال آخرون: يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسنات يوم القيامة.

وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال: إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة...

...(٢)واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم

(١) ذكر هذا القول عن الزجاج رحمه الله القرطبي في تفسيره (١٣/ ٧٨).
(٢) ٢٤٧ الهجرتين.

القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة. وهذا إنما يكون في السيئة المحققة، وهي التي قد فعلت ووقعت، فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت، وأُثبت مكانها حسنة.

قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾، فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم، لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل الله وكرمه.

قالوا: وأيضاً فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم، فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم، فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات، والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها، كما قال الله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] وأما ما كان من غير الفاعل فإنه يجعله من تبديله هو، كما قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]، فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم، لا أنهم فعلوه من تلقاءَ أنفسهم، وإن كان سببه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

قالوا: ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور ابن سُويد عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الْجَنَّة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها: رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياءَ لا أراها هاهنا»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه(١).

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، قال: فتعرض عليه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، قال: فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها**»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[(١)].

قالوا: وأيضاً فروى أبو حفص المستملي عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة، حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات**»، قيل: من هم؟ قال: «**الذين بدل سيئاتهم حسنات**»[(٢)]. قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنهم إنما سموا أبدالاً لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة، فبدل الله سيئاتهم التي عملوها حسنات.

قالوا: وأيضاً فالجزاءُ من جنس العمل، فكما بدلوا أَعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاءً وفاقاً...

***

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾.

[(٣)]«التوبة» لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلًا إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٧) وهناد في الزهد (١/ ١٥٥ رقم ٢١١) وابن حبان (١٦/ ٣٧٥ رقم ٧٣٧٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٠ رقم رقم ٢٠٥٦١) والترمذي (رقم ٢٥٩٦) والبزار (٩/ ٣٩٧ رقم ٣٩٨٧) وابن منده في الإيمان (٢/ ٨٢٢ رقم ٨٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٢) وجامع العلوم والحكم (١/ ١١٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨١ رقم ٧٦٤٣) والديلمي في الفردوس (٣/ ٤٤٢ رقم ٥٣٥٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١١٨) وفيض القدير (٥/ ٣٥١).

(٣) ٢١٤ مدارج جـ١.

صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وبقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] وبقوله: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾ [الفرقان: ٧١] قال البغوي وغيره: «يتوب إلى الله متابا: يعود إليه بعد الموت متابا حسنا يفضل على غيره»، فالتوبة الأولى وهي قوله: «ومن تاب» رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر، والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلى الله وحده، ولوجهه خالصا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه ورجع إليه، والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.

ونظير هذا على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: اعلم ما يترتب على من عصى أوامره، ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها، ثم إذا قوي العزم وصار جازمًا: وجد به فعل التوبة، فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصدًا ونية وعزمًا، فتوبته إلى الله عملًا وفعلًا، وهذا نظير قوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١) ومسلم (رقم ١٩٠٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٥) وشرح النووي (١٣/ ٥٣).

فالتوبة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلىٰ أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندما وخوفا، وهذا علىٰ قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة ـ ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة علىٰ ما فرط منه، وخوفا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا علىٰ ما فرط حسرة وخوفا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب: إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا: كحال عبد جان آبق من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدا، ولا عنه غناء، ولا منه مهربا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد، وما أجدىٰ عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقر به بها من سيده!! فليس شيء أحب إلىٰ سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

[(١)]قال محمد ابن الحنفية: «الزور ههنا الغناء» وقاله ليث عن مجاهد، وقال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل.

واللغو في اللغة: كل ما يُلغَى ويُطرَح، والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل، وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه، أو يميلوا إليه، ويدخل في هذا: أعياد المشركين، كما فسرها به السلف، والغناء، وأنواع الباطل كلها.

قال الزجاج: «ولا يجالسون أهل المعاصي، ولا يمالئونهم عليها، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه، والاختلاط بأهله».

وقد رُوي أن عبد الله بن مسعود ﷺ: مر بلهو فأعرض عنه، فقال رسول الله ﷺ: «إن أصبح ابنُ مسعودٍ لكريمًا»[(٢)].

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. وهذه الآية، وإن كان سبب نزولها خاصًا، فمعناها عامٌّ، متناول لكل من سمع لغوًا فأعرض عنه، وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ ولم يقل: بالزور؛ لأن «يشهدون» بمعنى: يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به، وفعله؟ والغناء من أعظم الزور.

والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها، كما في حديث معاوية لما أخذ قُصَّة من شعر يؤصل به، فقال: «هذا الزور»[(٣)] فالزور: القول،

---

(١) ٢٤١ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٥٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣/ ١٢٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٠).

(٣) أصل الحديث أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٨) ومسلم (رقم ٢١٢٧).

والفعل والمحل.

وأصل اللفظة من الميل، ومنه الزور، بالفتح، ومنه: زُرت فلانًا، إذا مِلْتُ إليه، وعدلتُ إليه، فالزور: ميلٌ عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولًا وفعلًا. اهـ.

[١]...وأما الشعانين[٢] فهي أعياد لهم أيضًا، والفرق بينها وبين الباعوث[٣] أنه اليوم والوقت الذي ينبعثون فيه على الاجتماع والاحتشاد، وقولهم: «ولا نرفع أصواتنا مع موتانا»[٤] لما فيه من إظهار شعار الكفر، فهذا يعم رفع أصواتهم بقراءتهم وبالنوح وغيره، وكذلك إظهار النيران معهم: إما بالشمع أو السرج أو المشاعل ونحوها.

فأما إذا أوقدوا النار في منازلهم وكنائسهم ولم يظهروها لم يتعرض لهم فيها. الشعانين: عيد مسيحى يقع يوم الأحد السابق لعيد الفصح يحتفل فيه المسيحيون بذكرى دخول السيد المسيح بيت القدس وعيد الصفح عيد ذكرى قيامة السيد المسيح في اعتقاد النصارى. وقد سمى الله سبحانه أعيادهم زورًا، والزور لا يجوز إظهاره، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال عبدالرحمن بن أبي حاتم في «تفسيره»: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد الخراز. حدثنا حسين بن عقيل عن الضحاك ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ عيد المشركين[٥].

وقال سعيد بن جبير: الشعانين، وكذلك قال ابن عباس: «الزور عيد المشركين».

---

(١) ٧٢١ أحكام جـ٢.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧٣٧ رقم ١٥٤٥٥) عن ابن سيرين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال: هو الشعانين. وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ قال: أعياد المشركين. يعني لا يشهدون الشعانين.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (١/ ١٣٩): الباعوث للنصارى كالاستسقاء للمسلمين، وهو اسم سرياني، وقيل: هو بالغين المعجمة والتاء فوقها نقطتان. وانظر: لسان العرب (٢/ ١١٨).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/ ١٢١، ١٧٦ - ١٧٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٩).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧٣٧ رقم ١٥٤٥٤).

وكما أنهم لا يجوز لهم إظهاره فلا يجوز للمسلمين ممالأتهم عليه، ولا مساعدتهم، ولا الحضور معهم باتفاق أهل العلم الذين هم أهله. وقد صرح به الفقهاء من أتباع الأئمة الأربعة في كتبهم. فقال أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور الطبري الفقيه الشافعي: ولا يجوز للمسلمين أن يحضروا أعيادهم، لأنهم على منكر وزور، وإذا خالط أهل المعروف أهل المنكر بغير الإنكار عليهم كانوا كالراضين به المؤثرين له، فنخشى من نزول سخط الله على جماعتهم، فيعم الجميع، نعوذ بالله من سخطه...

***

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

[(١)]قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمًّا لم يسمعوه، وعميانًا لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به، وقال ابن عباس: لم يكونوا عليها صمًّا وعميانًا، بل كانوا خائفين خاشعين، وقال الكلبي: يخرون عليها سمعًا وبصرًا، وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور.

وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني، والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صمًّا وعميانًا.

وقال الزجاج: المعنى إذا تليت عليهم خروا سجدًا وبكيًّا، سامعين مبصرين، كما أمروا به، وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يروها[(٢)].

قلت: ههنا أمران، ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه، وهل هو خرور القلب، أو خرور البدن للسجود، وله لمعنى خرورهم، عن صمم وعمه، فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا أو بالبدن سجودًا، أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود.

***

(١) ٧٩ فوائد.

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣/ ١٤٨).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

[١]قال سعيد بن منصور: حدثنا حزم قال سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤] فقال: يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا بل والله في الدنيا، قال: وما هي؟ قال: والله أن يري الله العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلىٰ المرء المسلم من أن يرىٰ ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله ﷻ[٢].

وقد روىٰ البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راعٍ علىٰ الناس وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ علىٰ أهل بيته، وامرأة الرجل راعية علىٰ بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع علىٰ مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته»**[٣].

[٤]قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] وإمام بمعنىٰ قدوة، وهو يصلح للواحد والجمع، كالأمة والأسوة، وقد قيل: هو جمع آمم، كصاحب وصحاب، وراجل ورجال، وتاجر وتجار، وقيل: هو مصدر كقتال وضِراب، أي ذوي إمام، والصواب الوجه الأول، فكل من كان من المتقين وجب عليه أن يأتم بهم،و التقوىٰ واجبة،

---

(١) ١٣٤ تحفة.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٢ رقم ٨٦٦٨) وانظر: الدر المنثور (٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٨٩٣) ومسلم (رقم ١٨٢٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٨١) وشرح النووي (١٢/ ٢١٣).

(٤) ١٣٥ إعلام جـ٤.

والائتمام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفتوا به مخالف للائتمام بهم، وإن قيل: «نحن نأتم بهم في الاستدلال وأصول الدين» فقد تقدم من جواب هذا ما فيه كفاية.

(١) والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلًا، وفي قلوبهم مهيبًا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا، لكي يأتموا به، ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه، لأنه داع إلى الله، يحب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلًا إليه.

ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه، وأثنى عليهم في تنزيله، وأحسن جزاءهم يوم لقائه، فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته، فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه وما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين، التي أساسها الصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم

---

(١) ٣٠٧ الروح.

بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا، التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلىٰ اسمه الرحمن جلا جلاله، ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف، وهي المنازل العالية في الجنة. لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية، بل من أعلىٰ مرتبة يعطاها العبد في الدين، كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم علىٰ جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب علىٰ هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد. والرؤساء في عمىٰ عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولاسيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيرًا وتصغيرًا، كما صغروا أمر الله وحقروا عباده.

***

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾.

(١) قال تعالىٰ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٣٠] فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل، وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفًا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتىٰ كأنها ينظر إليها عيانًا، ومبنية صفة للغرف الأولىٰ والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها.

(١) ١٠٢ حادي.

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان: ٧٥] والغرفة جنس كالجنة، وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧] وقال تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾ [الصف: ١٢].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفرقان

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

(١) هو سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد، ثم يقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨، ٩] فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة، ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهانًا للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته، فصدور هذا الإهلاك عن عزته، وذلك الإنجاء عن رحمته، ثم يقرر في آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير، ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب، وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية، فضرب الأمثال والأقيسة، فدلالة القرآن: سمعية وعقلية.

***

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

(٢) إذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما إن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله، وتزاحم هذه المحبة فإنها تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في

(١) ٤٩٢ مدارج جـ٣.
(٢) ٢٦٤ الجواب.

العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكي الراغب، فلا تصلح الموالاة إلاّ بالمعاداة، كما قال تعالىٰ: عن إمام الحنفاء المحبين، أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلاّ بتحقيق هذه المعاداة، فإن ولاية الله لا تصح إلاّ بالبراءة من كل معبود سواه.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]. أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلاّ الله.

وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة.

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد.

وهي محض حق الله علي جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار.

وهي المنشور الذي لا تدخل الجنة إلاّ به، والحبل الذي لا يصل إلىٰ الله من لم يتعلق بسببه.

وهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلىٰ شقي وسعيد ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإسلام، وتميزت دار النعيم من دار

الشقاء والهوان. وهي العمود الحامل للفرض والسنة. «**ومن كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله دخل الجنة**»[١].

وروح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جده، ولا إله غيره ـ بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك: من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يحب سواه، بل كل ما كان يحب غيره، فإنما هو تبعا لمحبته وكونه وسيلة إلىٰ زيادة محبته، ولا يخاف سواه، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلاّ عليه، ولا يرغب إلاّ إليه، ولا يرهب إلاّ منه، ولا يحلف إلاّ باسمه، ولا ينذر إلاّ له، ولا يتاب إلاّ إليه، ولا يطاع إلاّ أمره، ولا يحتسب إلاّ به، ولا يستعان في الشدائد إلاّ به، ولا يلتجئ إلاّ إليه، ولا يسجد إلاّ له، ولا يذبح إلا له وباسمه، يجتمع ذلك في حرف واحد، وهو: أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة، هذا هو تحقيق شهادة إن لا إله إلاّ الله...

***

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

[٢]نسب إلىٰ ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلىٰ نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن الكريم، ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية، وبينا هناك السر في مجيء: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣١١٦) والحاكم (١/ ٥٠٣ رقم ١٢٩٩) وقال: هـذا حـديث صـحيح الإسناد وابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٦ رقم ١٠٨٦٦) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١١٢ رقم ٢٢١) وأحمد (٥/ ٢٤٧) والبزار (٧/ ٧٧ رقم ٢٦٢٦) والبيهقي في الشعب (١/ ١٠٨ رقم ٩٤) وفي الاعتقاد (ص ٣٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٠٩) وشرح النووي (١/ ٢١٩).

(٢) ٣١٥ بدائع جـ٣.

أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعًا في سياق الذم أو منقسمًا، وذلك من أسرار القرآن الكريم ومثله: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ [الشورى: ١٤] ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وبالجملة فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

***

﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾.

...[1] أثنى الله على خليله عليه السلام بسلامة القلب، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ٨٣]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهو يناقض التجريد. والإخلاص يعم.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تحصر، ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه

---

(١) ١٦٣ الجواب.

الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها، فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكًا ظاهرة وباطنة، تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد لا تريده نفسه، وقد لا تريده، كسلًا وتهاونًا، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر.

(١)والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا، فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة، تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل، وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره، فذلك يتضمنها.

وحقيقته: أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه: حياء وخوفًا وطمعًا ورجاءً، ففني بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلم لأمره ولرسوله تصديقا وطاعة كما تقدم، واستسلم لقضائه وقدره، فلم يتهمه، ولم ينازعه، ولم يتسخط لأقداره، فأسلم لربه انقيادًا وخضوعًا وذلا وعبودية، وسلم

(١) ٤١ مفتاح جـ١.

جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرًا وباطنًا من مشكاة رسوله، وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده، وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين، الذابين عن دينه وسنة نبيه، القائمين بها. وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه، الخارجين عنهما، الداعين إلى خلافهما.

(١)...لما لكان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة. فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. والسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف؛ فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم في محبة غير الله معه ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة ومحبة، وتوكلا، وإنابة، وإخباتا، وخشية، ورجاء. وخلص عمله لله، فإن أحب أَحَبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام

---

(١) ٧ إغاثة جـ١.

والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب، وهي العقائد، وأقوال اللسان؛ وهي الخبر عما في القلب. وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح. فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل.

[١]والقلب الثاني: ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته؛ ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضا ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبا، وخوفا، ورجاء، ورضا، وسخطا، وتعظيما؛ وذلا. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه. فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه. فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه. فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور. ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عَدُو لِمَنْ عَادَتْ، وَسِلمٌ لأَهْلِهَا وَمَنْ قَرَّبَتْ لَيْلَى أَحَبَّ وَأَقْرَبا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة؛ فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب؛ وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة: ما

---

(١) ٩ إغاثة جـ١.

هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلىٰ العاجلة. وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول، حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض، فإما إلىٰ السلامة أدنىٰ، وإما إلىٰ العطب أدنىٰ.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الحج: ٥٢].

(١)والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده، لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته. قال عمر بن الخطاب ﷺ: لست بخب، ولا يخدعني الخب(٢) وكان عمر أعقل من أن يُخْدَع، وأورع من أن يَخْدَع.

وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة، التي توجب اتباع الظن ومرض الشهوة، التي توجب اتباع ما تهوىٰ الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا.

***

(١) ٢٩٧ الروح.

(٢) أخرجه المزي في تهذيب الكمال من قول إياس بن معاوية (٣/ ٤١٨) وكذا ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ١٩).

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

(١)أما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر، فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة، كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله، وكثير منهم بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم ـ من المشايخ ـ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حرد، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا عنه، ولم تتنكر له قلوبهم، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنا له إن قام وإن قعد وإن عثر وإن مرض وإن استوحش، فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا ينكر، ذلك ويزعم أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه...

(٢)ولما كانت كثرة ذكر الشيء موجبة لدوام محبته، ونسيانه سببًا لزوال محبته أو ضعفها، وكان الله سبحانه هو المستحق من عباده نهاية الحب مع نهاية التعظيم.

بل الشرك الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يشرك به في الحب والتعظيم، فيحب

---

(١) ٣٣٩ مدارج جـ١.

(٢) ٢٦٦ جلاء.

غيره، ويعظم من المخلوقات غيره، كما يحب الله تعالى ويعظمه، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر سبحانه أن المشرك يحب الند كما يحب الله تعالى، وأن المؤمن أشد حباً لله من كل شيء.

وقال أهل النار في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحب والتأله والعبادة، وإلا فلم يقل أحد قط إن الصنم أو غيره من الأنداد مساو لرب العالمين في صفاته، وفي أفعاله، وفي خلق السماوات والأرض، وفي خلق عباده أيضاً، وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة.

وأضل من هؤلاء وأسوأ حالاً من سوى كل شيء بالله سبحانه في الوجود، وجعله وجود كل موجود كامل أو ناقص، فإذا كان الله قد حكم بالضلال والشقاء لمن سوى بينه وبين الأصنام في الحب، مع اعتقاد تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والصفات والأفعال، فكيف بمن سوى الله بالموجودات في جميع ذلك، وزعم أنه ما عبد غير الله في كل معبود.

***

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

(١) قال: «وإنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: بقصر الأمل. والتأمل في القرآن. وقلة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع والمنام». يعني: أن في منزل «التذكر» تجتنى ثمرة «الفكرة» لأنه أعلى منها، وكل مقام تجتنى ثمرته في الذي هو أعلى منه، ولاسيما على ما قرره في خطبة كتابه «أن كل مقام يصحح ما قبله».

---

(١) ٤٤٩ مدارج جـ١.

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء أحدها: قصر الأمل والثاني: تدبر القرآن والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قصر الأمل شاهد من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، يتصابها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٣، ١١٤] وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٣، ١٠٤] وخطب النبي ﷺ أصحابه يوما والشمس على رءوس الجبال، فقال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها، إلا كما بقي

من يومكم هذا فيما مضى منه»[(١)] ومرَّ رسول الله ﷺ ببعض أصحابه وهم يعالجون خُصًّا لهم قد وهى وهم يصلحونه، فقال: «ما هذا؟» قالوا: خص لنا قد وهى، فنحن نعالجه، فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا»[(٢)].

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين، ويؤثر أولاهما بالإيثار.

***

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

[(٣)]نفى فعله وابتغاءه منهم وقدرتهم عليه، وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يمارى فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًّا كسائر الضروريات منافاة أحدهما للآخر ومضادته له، كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر، ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦] قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه: أن تبين للسامع الحق، ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] فالأمر

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢١٩١) والطيالسي (رقم ٢١٥٦) وابن أبي عاصم في الزهد (رقم ١٨٩) وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٧٠) وقال في موضع آخر (ص ١٩٩): هذا حديث حسن رجاله موثقون. وهي متابعة جيدة لعلي بن زيد. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٢٦٣ رقم ٢٩٩٧) وأبو داود (رقم ٥٢٣٦) وابن ماجه (رقم ٤١٦٠) والترمذي (رقم ٢٣٣٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٥ رقم ٣٤٣٠٥) وأحمد (٢/ ١٦١) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٨٩ رقم ١٠٧٠٣) وهناد في الزهد (١/ ٢٩٤ رقم ٥١٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ٧٩ التبيان.

منحصر في الحق والباطل والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق فأين العدول وأين المذهب؟

ونظير هذا قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلىٰ المقصود، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

...[1] وأنت إذا تأملت قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٩] وجدت الآية من أظهر الأدلة علىٰ نبوة النبي ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن الذي جاء به روح مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، ووجدتها دالة بأحسن الدلالة علىٰ أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتها دالة أيضًا بألطف الدلالة علىٰ أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به، كما فهمه البخاري من الآية، فقال في صحيحه في باب ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ [آل عمران: ٩٣] «لا يمسه» لا يجد طعمه ولا نفعه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ

(١) ٢٦٦ إعلام جـ١.

ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] وتجد تحته أيضا أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية، واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي ﷺ.

***

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾.

(١)لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم. وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم، حتى ربي فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرًا. فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل. فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس.

اقشعرّت الأرض وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلّت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق

---

(١) ٤٨ فوائد.

الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح. وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهمّ ظلامه. فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح. وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق، وبالجناح وقد علق ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشعراء

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾.

(١)أخبر أن مصدر التلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلًا، وهدًى وإرشادًا.

(٢)إخباره عن صدور الخلق والأمر عن حكمته وعلمه، فذكر هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه، تنبيها على أنهما إنما صدرا عن حكمة مقصودة، مقارنة للعلم المحيط التام لقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾، وقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١].

فذكره العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف، والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم.

وقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨].

وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرأها (والله غفور رحيم) فقال: ليس هذا كلام الله. فقال: أتكذب بالقرآن؟! فقال: لا، ولكن لا يحسن هذا. فرجع القارئ إلى خطئه، فقال: ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقال: صدقت.

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتما بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذكرت دليلا عليه وموجبة له، وهذا كقوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أي فإن

---

(١) ١٦٢ بدائع جـ٤.

(٢) ٢٠٠ شفاء.

مغفرتك لهم مصدر عن عزة، هي كمال القدرة، لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨] في عدة مواضع من القرآن يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية، وما تضمنه من فلق الإصباح، وجعل الليل مسكنًا، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها، وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه، ليس أمرًا اتفاقيًّا، لا يمدح به فاعله، ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية.

ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٩] فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها، وانتقم من أعدائه بعزته، ونجى رسله وأتباعهم برحمته، والحكمة الحاصلة من ذلك أمر مطلوب مقصود، وهي غاية الفعل، لا أنها أمر اتفاقي.

***

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[(1)] أخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين ـ وهو أقوى العلم ـ ظلمًا منهم علوًّا لا جهلًا.

...[(2)] لا يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٤]. ومنه: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] عقيب قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾. ومنه: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا

(١) ٩١ مفتاح جـ١.
(٢) ١١٨ بدائع جـ٤.

ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها، لأن المنكر قد يكون محقًّا فلا يسمى جاحدًا.

***

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

[1]قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل: ١٦] فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن دواد عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصًا به.

وأيضًا: فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: مات فلان وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضًا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل: ١٥، ١٦]. وإنما سيق هذا البيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

***

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

(١) ٦٧ مفتاح جـ١.

[1]هذه النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها لطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة، ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر، حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين، لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨].

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم، فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧] ثم قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ [النمل: ١٨] فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفا بالنمل كوادي السباع ونحوه.

ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل: أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل

---

(١) ٦٨ شفاء.

عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل، حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها، وأنه لموضع تعجب وتبسم. وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد**»[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فهلا نملة واحدة**»[2].

وذكر هشام بن حسان: أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين، فجلس عليه ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكن، ونفعل ونفعل. قال: فذهبن.

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى للنمل سادة[3].

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «**خرج نبي من الأنبياء بالناس**

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥٢٦٧) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢١٤ رقم ٩٨٥٠) والدارمي (رقم ١٩٩٩) والطبراني في الكبير (٦/ ١٢٧ رقم ٥٧٢٨) وابن المبارك في مسنده (رقم ١٩٦) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وفي صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٢٩٩٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٥٨) وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٢٣٩): رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٠١٩، ٣٣١٩) ومسلم (رقم ٢٢٤١) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٥٤، ٣٥٨) وشرح النووي (١٤/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه يحيى بن معين في الفوائد (رقم ١٠٠) والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٢/ ٧٩٢ رقم ٧٩٩).

يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو، مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا، فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم»[١] ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره، وقال الإمام أحمد حدثنا... قال: «خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غِنىً عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»[٢]، ولقد حدثني: أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم فرفعته، فطافت فلم تجده، فانصرفوا قال: فعلت ذلك مرارًا، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضوًا عضوًا.

قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية، فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب[٣]، والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل.

ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء، استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٨٥٨ رقم ١٦٢٠٣) وأحمد في الزهد (ص ٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٢ رقم ٢٩٤٨٧) (٧/ ٧١ رقم ٣٤٢٧٣) وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٥٢ رقم ٧١) والطبراني في الدعاء (رقم ٩٦٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠١) وقال الصنعاني في سبل السلام (٢/ ٨٣) رواه أحمد وصححه الحاكم.

(٣) لما وقفت على ذلك منذ سنين عديدة، استهوتني هذه الحكاية، فصغت منها قصة طريفة للأطفال، تحت عنوان: «حتى النمل يكره الكذب» وهي من منشورات دار القاسم بالرياض، والحمد لله فقد لاقت قبولًا شديدًا من الأطفال وأولياء الأمور والمربين. سائلًا الله تعالى أن ينفع بكل أعمالي وكتاباتي، وأن يدخر لي الأجر الجزيل والثواب الجميل في دار كرامته مع أوليائه وأحبته، اللهم آمين.

حبات من الحنطة. فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات؟! فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح أبناء جنسك، حسبت الذي بقي من عمري، فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي. فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والفطنة.

ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف، وتجمع للشتاء علما منها بإعواز الطلب في الشتاء، وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها، حتى أقبلت بسرعة إليه. فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحلمه وتذهب به، وإن كان أكبر منها فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى حجرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاءوا كخيط أسود، يتبع بعضهم بعضا، حتى يتساعدوا على حمله ونقله؟ وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرا فلا. ولها صدق الشم، وبعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه، فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة، ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيرا، ويملأه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به، فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له، وهو أبعد مكان من المحيط.

***

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

هذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره.

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ [النمل: ٢٢].

وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢] والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه

ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ، استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد، فقال: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ ﴾ [النمل: ٢٣] ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجل الملوك بحيث ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٢٤] وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم، حتى صدهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه، إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض، جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملًا إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

...[(١)]إن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابًا شديدًا أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم، وأقدم عليه في خطابه له بقوله: أحطت بما لم تحط به.

وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم.

ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة، فقال: لا أعلمها، فقال أحد تلاميذه: أنا أعلم هذه المسألة، فغضب الأستاذ وهم به، فقال له: أيها الأستاذ لستَ أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولستُ أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان: أحطت بما لم تحط به، فلم يعتب عليه ولم يعنفه.

...[(٢)]من لوازم وربوبيته تعالى وإلهيته إخراج الخبأ في السماوات والأرض من النبات والأقوات والحيوان والمعادن وغيرها، وخبأ السموات ما أودعها من أمره الذي يخرجه كل وقت بفعله وأمره، وهذا من تدبيره لملائكته وتصرفه في العالم العلوي والسفلي. فبإخراج هذا الخبأ تظهر قدرته ومشيئته وعلمه وحكمته.

وكذلك النفوس فيها خبأ كامن يعلمه سبحانه منها، فلابد أن يقيم أسبابًا يظهر بها خبأ النفوس، الذي كان كامنًا فيها، فإذا صار ظاهرًا عيانًا ترتب عليه أثره، إذ لم يكن يترتب على نفس العلم به دون أن يكون معلومًا واقعًا في الوجود.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧] فأخبر أنه خلق العالم العلوي والسفلي ليبلو عباده فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه ممن يعصيه ويخالفه.

(١) ١٧٣ مفتاح جـ١.

(٢) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ١.

وهذا الابتلاء والامتحان يستلزم أسبابًا يحصل بها، فلابد من خلق أسبابه، ولهذا لما كان من أسبابه خلق الشهوات وما يدعو إليها وتزيينها فعل ذلك.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، فهذه ثلاثة مواضع في القرآن تبين حكمته في خلق أسباب الابتلاء والاختبار.

فظهر أن من بعض الحكم في خلق عدو الله إخراج خبأ النفوس الخبيثة، التي شرها وخبثها كامن فيها، فأخرج خبأها بزناد دعوته، كما يخرج خبأ النار بقدح الزناد، وكما يخرج خبأ الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يخرج خبأ الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يخرج خبأ القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليها.

فكم له سبحانه من حكمة بالغة، وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس؟ فإن من كمال الحكمة والقدرة إظهار شرف الأشياء الفاضلة بأضدادها.

فلولا الليل لم يظهر فضل النهار ونوره وقدره، ولولا الألم لم يعرف فضل اللذة وشرفها وقدرها، ولولا المرض لم يعرف فضل العافية، ولولا وجود قبح الصورة لم يظهر فضل الحسن والجمال.

ولهذا كان خلق النار وعذاب أهلها فيها أعظم لنعيم أهل الجنة وأبلغ في معرفة قدرها وخطرها، فكان خلق هذا القبيح الشنيع المنظر والمخبر الذي صورته أشنع من باطنه، وباطنه أقبح من صورته، مكملًا لحسن تلك الروح الزكية الفاضلة، التي كمل الله تعالى بصورتها جمال الظاهر والباطن، فلو كان الخلق كلهم على حسن يوسف مثلاً، فأي فضيلة وتمييز يكون له؟ ولو كانت الكواكب كلها شموسًا وأقمارًا، فأي مزية كانت تكون للنيرين؟

***

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

[(١)]سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. أي علىٰ علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك، وأستوجبه، وأستأهله. قال الفراء: أي علىٰ فضل عندي، إني كنت أهله، ومستحقًا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول علىٰ خير علمه الله عندي. وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل: هذا من كرامتي. ثم ذكر قارون وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، يعني أن سليمان رأىٰ ما أوتيته من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلي به شكره. وقارون رأىٰ ذلك من نفسه واستحقاقه، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه. والمؤمن يرىٰ ذلك ملكا لربه وفضلا منه، منّ به علىٰ عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها علىٰ عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأي فيه أهلا ومستحقًا، فأعجبته نفسه، وطغت بالنعمة، وعلت بها، واستطالت علىٰ غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذا كشف عنه البلاء ـ قوله: (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) ولو أنه قال أذهب الله السيئات عني برحمته، ومنه لما ذم علىٰ ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها، ونسب الذهاب إليها وفرح

(١) ٢٠٥ فوائد.

وافتخر. فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة. فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة، لذلك بل لضده وهو الحكيم العليم.

(١) **من علامات السعادة والفلاح**: أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته. وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره. وكلما زيد في عمره نقص من حرصه. وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله. وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره

(١) ١٥٣ فوائد.

وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان، يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك والسلطان والمال. قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان، يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور.

كما أن المحن بلوى منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، أي ليس كل ما وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيّقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة له مني.

***

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

[(1)]هل السلام من الله تعالى فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه، أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعًا.

فالجواب عنه: أن الكلام يحتمل الأمرين، ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح، فيرجح كونه داخلا في جملة القول بأمور:

منها اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل، وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعًا على كل واحد منهما، هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد لله

(١) ١٧٠ بدائع جـ٢.

وسبحان الله، فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها: أنه إذا كان معطوفًا على المقول كان عطف خبر على خبر، وهو الأصل. ولو كان منقطعًا عنه كان عطفًا على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب.

ومنها: أن قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ ظاهر في أن المسلم هو القائل الحمد لله، ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ولم يقل: سلام على عبادي.

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور:

أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾.

ومنها: أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم.

أما الأول فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١] وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله، ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن، يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا، كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاءوا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال، وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت

الكمال، وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل، فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨] وقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩] ونظائره كثيرة جدًّا. وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعًا، وتنتظمهما انتظامًا واحدًا، فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغا، ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ﴾.

[1]إن تفضيل الرب تعالى على شيء من خلقه لا يذكر في شيء من القرآن إلا ردًّا على من اتخذ ذلك الشيء ندًّا لله تعالى، فبين سبحانه أنه خير من ذلك الند، كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾. وقوله تعالى حاكيًا عن السحرة: ﴿ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا

(١) ١٤١ مختصر الصواعق جـ٢.

خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢-٧٣] وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

فأما أن يفضل نفسه علىٰ شيء معين من خلقه ابتداء، فهذا لم يقع في كلام الله، ولا هو مما يقصد بالإخبار؛ لأن قول القائل ابتداءً: الله خير من ابن آدم، وخير من السماء، وخير من العرش، من جنس قول: السماء فوق الأرض، والثلج بارد والنار حارة، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح...

...[1]قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ إلىٰ آخر الآيات [النمل: ٥٩، ٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده فهو الإله لهم وحده، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا، فكيف تجعلون معه إلها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية: «أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ فعل هذا»؟ حتىٰ يتم الدليل، فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله، فكيف تعبدون آلهة أخرىٰ سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنىٰ «هل مع الله إله آخر»؟ من غير أن يكون المعنىٰ «فعل هذا»، فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرىٰ، ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير، أي فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلها آخر، لا يخلق شيئا وهو عاجز، وهذا كقوله: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟

(١) ٤١٢ مدارج جـ١.

كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١].

(١)قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] قال ابن عباس في رواية أبي مالك: هم أصحاب محمد ﷺ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وحقيقة الاصطفاء افتعال من التصفية، فيكون قد صفاهم من الأكدار والخطأ من الأكدار، فيكونون مصفين منه، ولا ينتقض هذا بما إذا اختلفوا، لأن الحق لم يعدهم، فلا يكون قول بعضهم كدرًا، لأن مخالفته الكدر، وبيانه يزيل كونه كدرًا. بخلاف ما إذا قال بعضهم قولا، ولم يخالف فيه فلو كان باطلًا ولم يرده راد لكان حقيقة الكدر، وهذا لأن خلاف بعضهم لبعض بمنزلة متابعة النبي ﷺ في بعض أموره، فإنها لا تخرجه عن حقيقة الاصطفاء.

***

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

...(٢)الله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة، فقد جمع بينهما في سبعة مواضع من كتابه(٣).

أحدها: في سورة أُم القرآن، فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

والثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

(١) ١٣١ أعلام جـ١.
(٢) ٢٥٥ طريق الهجرتين.
(٣) ذكرها في طريق الهجرتين (ص ٥٦) سبعة، وكذا في إغاثة اللهفان (١/ ٢٧) وعدها سبعة، وزاد فيها قول الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] فيكون العدد تقريبًا لا حصرًا. (ج).

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

الرابع: قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل:٨-٩].

الخامس: قوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

السادس: قوله: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

السابع: قوله: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية، فإن العبد لا بد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها عبادة ربه، والإنابة إليه. وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، ونظيره قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [الأحزاب: ١ - ٣]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢]، وقال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾، فإن كون العبد علىٰ الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل علىٰ الله، والاكتفاء به، والإيواءَ إلىٰ ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو علىٰ الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فعجبوا من تركهم التوكل علىٰ الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً. وهذا دليل علىٰ أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق - لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلىٰ توكله علىٰ الله لا يجد بداً من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلىٰ وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أَمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه. فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جُماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزءٌ من ماهيته.

والمقصود: أن القلب متىٰ كان علىٰ الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل علىٰ ربه؟ وإذا كان علىٰ الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه، فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولىٰ الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه

سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك، فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدىٰ وارتباط أحدهما بالآخر، ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية. إلخ(١).

***

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

(٢)وقد أطلق سبحانه علىٰ فعله اسم الصنع، فقال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وهو منصوب علىٰ المصدر، لأن قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] يدل علىٰ الصنعة، وقيل: هو نصب علىٰ المفعولية، أي انظروا صنع الله، فعلىٰ الأول يكون صنع الله مصدرًا بمعنىٰ الفعل، وعلىٰ الثاني يكون بمعنىٰ المصنوع المفعول؛ فإنه الذي يمكن وقوع النظر والرؤية عليه...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النمل

والحمد لله رب العالمين



(١) البقية موجودة في سورة إبراهيم (ج).

(٢) ١٣٢ شفاء.

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾.

(1)هذا الجراد نثرة حوت من حيتان البحر ينثره من منخريه، وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة، عجيب التركيب، فيه خلق سبع حيوانات، فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندا لا مرد له، ولا يحصى منه عدد ولا عدة، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك.

فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل، فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر، حتى يستر نور الشمس بكثرته، ويسد وجه السماء بأجنحته، ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه، فسل المعطل: من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة؟ فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه، بل ينظرون إليه يستبد بأقواتهم دونهم، ويمزقها كل ممزق، ويذر الأرض قفرًا منها، وهم لا يستطيعون أن يردوه، ولا يحولوا بينه وبينها.

وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القوى، فينتقم به منه، وينزل به ما كان يحذره منه، حتى لا يستطيع لذلك ردًّا ولا صرفًا، قال الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦] فواحسرتاه على استقامة مع الله وإيثار

(١) ٢٥٢ المفتاح جـ١.

لمرضاته في كل حال، يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي، ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أن المسئول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من رده، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

وهذا أيضًا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآية باهرة حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء.

ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة، فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدًّا، والله الموفق. ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلًا فذهب بالغنم، فجعل يعجب، فأُتِيَ في منامه، فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك؟! إنه تلك القطرات التي شبت بها البن اجتمعت وصارت سيلا، فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك، تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

والأثر الإسرائيلي معروف: أن رجلًا كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص، فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلما نام أخذ القرد الكيس، وصعد به إلى أعلى المركب، ثم فتحه، فجعل يلقيه دينارا في الماء، ودينارا في المركب[1]. كأنه يقول له بلسان الحال. ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك.

(١) أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: إن رجلًا كان يبيع الخمر في سفينة، ومعه في السفينة قرد، فكان يشوب الخمر بالماء. قال: فأخذ القرد الكيس، ثم صعد به فوق الدقل. قال: فجعل =

وتأمل حكمة الله ﷻ في حبس الغيث عن عباده، وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين، كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق، وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم.

وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدهم عنه كما صدوا عباده، صدًّا بصدٍّ ومنعًا بمنعٍ.

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها، كما فعلوا بأموال الناس، ومحقوها عليهم، وأتلفوها بالربا، جوزوا إتلافًا بإتلاف، فقل أن ترى مرابيا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة.

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض، ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت

يطرح دينارًا في البحر ودينارًا في السفينة، حتى قسمه. أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وأخرجه أيضًا الحارث بن أبي أسامة (رقم ٤٢٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٨٢٦ رقم ٢٨٤٤).

ولما قرأت هذا الحديث منذ سنين طويلة، استوحيت منه قصة طريفة للأطفال، سميتها: «حتى القرود تكره الغش» وهي من منشورات دار المسلم بالرياض، ولله الحمد والمنة فقد حازت إعجاب الكثير من الأطفال وأولياء أمورهم وكثير من التربويين، وانتفع بها كل من قرأها أو وقف عليها، أسأل الله أن يصلح ذريتي وذرية جميع المسلمين.

ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق، وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه مالا يستحقونه في معاملتهم، أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شيب لهم الولاة، فحكمة الله تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها، ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر: ظاهرة وباطنة فيه، كما في الخلق والأمر سواء، فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة، بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب، ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس، وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت، ونطقت وقالت، كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه... ولازمها قطع من الليل مظلم[1]

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم، كما قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن ﴾ مَّسَٰكِنِهِمْ إلى قوله: ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك

(١) هذا البيت من بحر الطويل ذكره الشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٦١) (٧/ ٢٦٣).

الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت علىٰ قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم علىٰ صورها، لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير، كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم، كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق، الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين، واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم، ولاسيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإن هذه النسخة ظاهرة علىٰ وجوه الرافضة، يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعة فيبادر إليه، فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة، كيف تجده منطبقا عليهم، فإنهم عمدوا إلىٰ أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم من النصارىٰ واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان علىٰ حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم، فأي شبه ومناسبة أولىٰ بهذا الضرب من الخنازير، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرا، فأكثر من أن تذكر هاهنا، وقد أفرد لها الحافظ ابن عبد الواحد المقدسي كتابا، وتأمل حكمته تعالىٰ في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعمارًا، وأعظم قوىٰ، وأعتىٰ علىٰ الله وعلىٰ رسوله، فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوىٰ رفع عذاب الاستئصال، وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين، فكانت الحكمة في كل واحد

من الأمرين ما اقتضته في وقته.

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في إرسال الرسل في الأمم واحدًا بعد واحد، كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء، لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق، فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولا ومعارف، وأصحها أذهانًا، وأغزرها علومًا، وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه، فأغنى الله لأمة بكمال رسولها، وكمال شريعته، وكمال عقولها، وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده، أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته، ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث. ولهذا قال ﷺ: «إنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر»(١). فجزم بوجود المحدثين في الأمم، وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط، وليس هذا بنقصان في الأمة على من قبلهم، بل هذا من كمال أمته على من قبلها، فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى محدث، بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد، لا أنه عمدة، لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو الهام أو تحديث، وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون.

ولا تظن أن تخصيص عمر ﷺ بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق، بل هذا من أقوى مناقب الصديق، فإنه لكمال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدي الرسالة، استغنى بذلك عما تلقاه من تحديث أو غيره، فالذي يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث، فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه من المعرفة،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٣١٧ رقم ٦٨٩٤) والترمذي (رقم ٣٦٩٣) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٤٧٩ رقم ١٠٥٨) وأحمد (٦/ ٥٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٨ رقم ٥٧٣٤) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٨) وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وصححه الحاكم (٣/ ٩٢ رقم ٤٤٩٩).
والحديث أصله في الصحيحين، عند البخاري (رقم ٣٤٦٩، ٣٦٨٩) ومسلم (رقم ٢٣٩٨).

وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير، وأن رسول الله ﷺ أكمل خلقه وأكملهم شريعة، وأن أمته أكمل الأمم، وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح الله الكريم فيه الباب، وأرشد فيه إلى الصواب، وهو المرجو لتمام نعمته، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

***

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾.

(١)فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به، ليكون لهم عدوا وحزنا، وذكر فعلهم دون قضائه، لأنه أبلغ في كونه حزنا لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه، ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر، وقد أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره.

***

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

(٢)أي فارغًا من كل شيء إلا من موسى، لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

---

(١) ١٩١ شفاء.

(٢) ٣١٩ الزاد جـ٣.

...[1]فتأمل قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال، ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه، الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرماه في بيته وحجره على فراشه، ثم قدر له سببا أخرجه من مصر، وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سببا أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه، فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم، وهم ينظرون، وهذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة، التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته.

فكم في أكل آدم من الشجرة التي نُهِيَ عنها، وإخراجه بسببها من الجنة من حكمة بالغة، لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها. وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلى أشرف غاياته، وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب. وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمه، ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية، التي لا يهتدون إلى معرفتها، إلا إذا لاحت لهم عواقبها، وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله، ويحصر اللسان عن التعبير عنه.

وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو سبحانه قد أحاط علما بذلك كله قبل السماوات والأرض، وقدره وكتبه عنده، ثم يأمر ملائكته بكتابه ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد، فيطابق حاله وشأنه لما كتب في الكتاب، ولما كتبته الملائكة، لا يزيد شيئا ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه ثم كتبه، كما في علمه، ثم وجد كما كتبه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ

---

(١) ٣٥ شفاء.

تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم، وما هم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار، ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك، وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله وأنزل كتبه، وشرع شرائعه إعذارا إليهم وإقامة للحجة عليهم، لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا على علمك فينا؟ وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا! فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا، وبما ركب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاه بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

***

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

[(١)]قد أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى، وأئمة الشر يدعون إلى النار، فتلك الإمامة والدعوة بجعله، فهي مجعولة له وفعل لهم، قال تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١] وقال عن أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] فأخبر أن هذا وهذا بجعله مع كونه كسبا وفعلا للأئمة، ونظير ذلك قول الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فأخبر الخليل أنه سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلما، وعند القدرية هو الذي جعل نفسه مسلمًا.

(١) ٥٥ شفاء.

لا أن الله جعله مسلمًا، ولا جعله إماما يهدي بأمره، ولا جعل الآخر إمامًا يدعو إلى النار على الحقيقة، بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة، ونسبة هذا الجعل إلى الله مجاز، بمعنى التسمية أي سمنا مسلمين لك، وكذلك جعلناهم أئمة أي سميناهم كذلك، وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال، فمنهم الحقيقة، ومنه المجاز والتعبير.

***

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

[(١)]أخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة، وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا، ولم ينزل عليهم كتابا، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة، بحيث استحقوا أن يصابوا بها المصيبة، ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل، وهذا هو فصل الخطاب.

وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم: أن القبح ثابت للفعل في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، وهذه النكتة هي التي فاتت المعتزلة والكلابية كليهما، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى، لعدم جمعهما بين هذين الأمرين، فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلي، وأحسنوا في رد ذلك عليهم. واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح، واستواء الأفعال في أنفسها، وأحسنوا في رد هذا عليهم، فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب، وأما من سلك هذا

---

(١) ٧ المفتاح جـ٢.

المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ولا الظفر عليه أصلا، فإنه موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له، مخالف في باطلها منكر له، وليس مع النفاة قط دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين، وأن الأفعال المتضادة كلها في نفس الأمر سواء لا فرق بينها إلا بالأمر والنهي وكل أدلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى، وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على إثبات العذاب على مجرد القبح العقلي قبل بعثة الرسل، وأدلتهم على ذلك كلها باطلة، كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى، ومما يدل على ذلك أيضا أنه سبحانه يحتج على فساد مذهب من عبد غيره بالأدلة العقلية، التي تقبلها الفطر والعقول، ويجعل ما ركبه في العقول من حسن عبادة الخالق وحده، وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك، وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا، ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره وقبح عبادة غيره وترك شكره، لما احتج عليهم بذلك أصلا، وإنما كانت الحجة في مجرد الأمر، وطريقة القرآن صريحة في هذا.

(1) وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه، لئلا يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾! فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعًا، الذين يقولون إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها، بل إنما قبحت بالنهي فقط.

والذين يقولون إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا بدون البعثة، فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين، ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قبيحة

---

(١) ١١٣ المفتاح جـ٢.

في نفسها، ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها، ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها، وفرق بين الأمرين.

***

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

(1)قسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

وقال تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] فقسّم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحقّ، وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها، وأوحى إليه العمل بها، وأمر الأمة بها، وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأول، ونهى عن الثاني.

...(2)وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله ﷻ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ

(١) ٤٧ الإعلام جـ١.
(٢) ٤٣٠ الروضة.

بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتبع هواه، وجعل ﷺ المتبع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ وإما الهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر، والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه، فلا يجد عليه مدخلًا، ولا إليه طريقًا إلا من هواه، فلذلك كان الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه، ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإن متابعته الداء الأكبر ومخالفته الشفاء الأعظم. وقيل لأبي القاسم الجنيد: متى تنال النفوس مناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواها. فقيل له: ومتى يصير داؤها دواها؟ فقال: إذا خالفت هواها[١]. ومعنى قوله يصير داؤها دواها: أن داءها هو الهوى، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته.

وقيل: إنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين، والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر، كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم.

...[٢]الخامس عشر: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلا، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكبرهم، فهم أذل الناس بواطن، قد أجمعوا بين فصيلتي الكبر والذل.

السادس عشر: أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه، ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر: أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلًا إلى هواه طمع فيه وصرعه، وألجمه بلجام الهوى، وساقه حيث أراد، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في الزهد الكبير (رقم ٣٢٤).
(٢) ٥٠٦ الروضة.

اختلاسًا وسرقة.

الثامن عشر: أن يعلم أن الهوىٰ ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلىٰ البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلىٰ الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلىٰ الظلم وصده عن الحق وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلىٰ قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلىٰ خيانة الله والمسلمين، حيث يولي بهواه، ويعزل بهواه وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل علىٰ ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتىٰ يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلا إلا من باب الهوىٰ، فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

العشرون: أن الله ﷻ جعل الهوىٰ مضادا لما أنزله علىٰ رسوله، وجعل اتباعه مقابلًا لمتابعة رسله، وقسم الناس إلىٰ قسمين: أتباع الوحي وأتباع الهوىٰ، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائره.

الحادي والعشرون: أن الله ﷻ شبه أتباع الهوىٰ بأخس الحيوانات صورة ومعنىٰ، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وبالحمر تارة كقوله تعالىٰ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١]، وقلَّب صورهم إلىٰ صورة القردة والخنازير تارة[1].

***

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا

(١) ١٠٢ المفتاح جـ١.

صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

...(١)قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] ونظائرها نظر، فإن الله تعالى حيث قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين، وإذا أراد ذمهم والأخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ الذين أوتوا الكتاب مبنيًّا للمفعول، فالأول كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤] فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس في سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم، كما استشهدهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣] وفي قوله: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١] واختلف في الضمير في ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ فقيل: هو ضمير الكتاب الذي أوتوه، قال ابن مسعود: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويقرؤنه كما أنزل، ولا يحرفونه عن مواضعه(٢)، قالوا: وأنزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: هذا وصف للمسلمين، والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن، وهذا

---

(١) أوصلها المؤلف رحمه الله إلى خمسين، وبها ختم الكتاب (ج).

(٢) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٣٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذا الحاكم (٢/ ٢٩٢ رقم ٣٠٥٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه، ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] بل هذا حجة لنا أيضًا لما ذكرنا، فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته، كما يعرفون أبناءهم استشهادًا بهم على من كفر وثناء عليهم، ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه، وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم، فدل على أن الأولين غير مذمومين وكونهم دخلوا في جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال: آتيناهم الكتاب عند الإطلاق، فإنهم دخلوا في هذا اللفظ ضمنا وتبعا، فلا يلزم تناوله لهم قصدًا واختيارًا، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠].

قيل: الرسول وصدقه، وقيل: المذكور هو التوحيد، والقولان متلازمان إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين، لا في معرض ذم الذين آتاهم الكتاب، فإن السورة مكية، والحجاج كان فيها مع أهل الشرك، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب. وأما الثاني فكقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٦] فهذا شهادته سبحانه للذين أوتوا الكتاب، والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم، وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به، ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إلا بالذم أيضًا، كقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ

ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤]. وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فالأقسام أربعة: الذين آتيناهم الكتاب، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح، والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، لا يكون قط إلا في معرض الذم، والذين أوتوا الكتاب أعم منه، فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يفرد به الممدوحون قط، ويا أهل الكتاب يعم الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤]. وقال في الذم: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [البينة: ١].

وهذا الفصل ينتفع به جدا في أكبر مسائل أصول الإسلام، وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه، وقد ذكرنا فيه نكتًا حسانًا، يتضح بها الحق في المسألة، والله أعلم.

...(١)قال ابن إسحاق: وقدم علىٰ رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارىٰ، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، وقبالتهم رجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلىٰ الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب؟! بعثكم من ورائكم من أهل دينكم

(١) ٢٦ هداية الحيارىٰ.

ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال!، ما نعلم ركباً أحمق منكم أو كما قالوا، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل من أنفسنا خيراً. ويقال: إن النفر من النصارى من أهل نجران، ويقال: فيهم نزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾ إلى قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥]. وقال الزهري: مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه[١].

***

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ ﴾.

...[٢]قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام، وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»، وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا، وهذه الهداية الثالثة، هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء، وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل. المرتبة الرابعة: الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] وأما قول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٥) والبداية والنهاية (٣/ ٨٢) وتفسير القرطبي (٦/ ٢٥٦).
(٢) ٨٥ المفتاح جـ١.

يكونوا أرادوا الهداية إلىٰ طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلىٰ دار النعيم ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم وأنهم حمدوا الله علىٰ هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلىٰ طريق الجنة كان أحسن وابلغ وقد ضرب الله تعالىٰ لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلًا مطابقًا لحاله فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

...[١]اعلم أن القلب إذا خلىٰ من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة، وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم علىٰ الله ﷻ، فذلك أول فتوحه وتباشير فجره، فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضىٰ به ربه منه، فيفعله ويتقرب به إليه. وما يسخطه منه فيجتنبه، وهذا عنوان صدق إرادته، فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين، يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لا بد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه، فإذا تمكن في ذلك فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية، التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك، فإنها تجمع عليه قوىٰ قلبه وإرادته، وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه وتشتت قلبه، فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب ونيل الشهوات، بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ود أن لا يخرج منها، ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله. فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به، كما يهدأ الصبي إذا أعطي ما هو شديد المحبة له،

(١) ٣٧٩ المدارج جـ٣.

ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته، وحكمته ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك، حتى يغيب فيه، ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله، وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يريه ذلك النور أنه واقف بين يدي ربه ﷻ، فيستحي منه في خلواته وجلواته، ويرزق عند ذلك دوام المراقة للرقيب، ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته، مستويا على عرشه، ناظرا إلى خلقه، سامعا لأصواتهم، مشاهدا لبواطنهم، فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيرًا من الهموم بالدنيا وما فيها، فهو في وجود، والناس في وجود آخر، هو في وجود بين يدي ربه ووليه ناظرًا إليه بقلبه، والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا، فهو يراهم وهم لا يرونه، ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية، فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده، فيشهده مالك الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، فيتخذه وحده وكيلا، ويرضى به ربًّا ومدبرًا وكافيًا. وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه وصفات كماله ونعوت جلاله، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه، بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه، فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء.

***

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

[1]أي سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق، وهو الاصطفاء والاجتباء.

(١) ٣١ شفاء.

ولهذا كان الوقف التام عند قوله: (ويختار) ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم، وأن ذلك ليس إليهم، بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحالّ الاختيار ومواضعه لا من قال: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة، كما ليس لهم الخلق.

ومن زعم أن ما مفعول يختار فقد غلط، إذ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان، ولا يصح المعنى: ما كان لهم الخيرة فيه وحذف العائد، فإن العائد ههنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله، فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل، فلا يجوز حذفه، وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال: إن الاختيار ههنا هو الإرادة، كما يقوله المتكلمون أنه سبحانه فاعل بالاختيار، فإن هذا الاصطلاح حادث منهم، لا يحمل عليه كلام الله، بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره، وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة.

قال في الصحاح: الخيرة الاسم من قولك خار الله لك في هذا الأمر، والخيرة أيضا يقول محمد خيرة الله من خلقه، وخيرة الله أيضًا بالتسكين. والاختيار الاصطفاء، وكذلك التخيير والاستخارة طلب الخيرة، يقال: استخر الله يخر لك. وخيرته بين الشيئين: فوَّضت إليه الاختيار، انتهى. فهذا هو الاختيار في اللغة، وهو أخص مما اصطلح عليه أهل الكلام، ومن هذا قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي اختار منهم. وبهذا يحصل جواب السؤال الذي تورده القدرية يقولون في الكفر والمعاصي: هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره؟ فإن قلتم باختياره فكل مختار مرضي مصطفى محبوب،

فتكون مرضية محبوبة له، وإن قلتم بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره.

وجوابه أن يقال: ما تعنون بالاختيار [أهو] العام في اصطلاح المتكلمين وهو المشيئة والإرادة. أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟ وإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار، لكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة، بل يقال: واقعة بمشيئته وقدرته، وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب، فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى، وإن كانت واقعة بمشيئته، فإن قيل فهل تقولون: إنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك. قيل: لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات كقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦] وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله: ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤] ونظائر ذلك، وإرادة دينية أمرية لا يجب وقوع مرادها كقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٧]، فهي مرادة بالمعنى الأول، غير مرادة بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل: هل هي واقعة بإذنه أم لا؟ والإذن أيضًا نوعان: كوني كقوله: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وديني أمري كقوله: ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ [يونس: ٥٩] وقوله: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ [الحج: ٣٩]. ولفظ الاختيار مشتق من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريد ما ينفعه، وما هو خير سميت الإرادة اختيارًا، وهذا يتضمن: أن الإرادة لا ترجح نوعا على نوع، إلا لمرجح رجح ذلك النوع عند الفاعل، والمقصود أنه يذكر العلم عند التخصيصات كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢]، لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم، وما يقتضي اختيارهم من

قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم، وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره.

...[١] الله ﷻ هو المنفردُ بالخلق والاختيار من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يُشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المرادُ بالاختيار هاهنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، فإنه لا يخلُق إلا باختياره، وداخل في قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، فإن المشيئة هي الاختيارُ.

وإنما المرادُ بالاختيار هاهنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيارٌ بعدَ الخلق، والاختيارُ العام اختيارٌ قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخصُّ، وهو متأخر، فهو اختيارٌ من الخلق، والأول اختيارٌ للخلق. وأصحُّ القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويكون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفياً، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، وَمَحَالِّ رضاه، وما يصلُح للاختيار مما لا يصلح له، وغيرُه لا يُشاركه في ذلك بوجه.

وذهب بعض من لا تحقيق عنده، ولا تحصيل إلى أن ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصولة، وهي مفعول ﴿وَيَخْتَارُ﴾، أي: ويختار الذي لهم الخيرة، وهذا باطل من وجوه:

أحدُها: أن الصلة حينئذٍ تخلو من العائد، لأن ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ مرفوع لأنه اسم ﴿كَانَ﴾ والخبر ﴿لَهُمُ﴾، فيصير المعنى: ويختار الأمر الذي كان الخيرةُ لهم، وهذا التركيبُ محال من القول.

فإنْ قيل: يمكن تصحيحُه بأن يكون العائد محذوفاً، ويكون التقدير: ويختار الذي

---

(١) ٥ الزاد جـ١.

كان لهم الخِيرةُ فيه، أي: ويختار الأمرَ الذي كان لهم الخِيرةُ في اختياره.

قيل: هذا يفسُد من وجه آخر، وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد، فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جُرَّ بحرف جُرَّ الموصولُ بمثله مع اتحاد المعنى، نحوُ قوله تعالى: ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ونظائره، ولا يجوز أن يقال: جاءني الذي مررتُ، ورأيت الذي رغبتُ، ونحوه.

الثّاني: أنه لو أُريد هذا المعنى لنصب ﴿ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ وشُغِلَ فعل الصلة بضمير يعود على الموصول، فكأنه يقول: ويختارُ ما كان لهم الخيرة، أي: الذي كان هو عينَ الخيرة لهم، وهذا لم يقرأ به أحد البتَّة، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير.

الثّالث: أن الله سبحانه يَحكي عن الكفار اقتراحَهم في الاختيار، وإرادتهم أن تكون الخيرةُ لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفـرُّدَه هو بالاختيار، كـما قال تعـالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، فأنكر عليهم سبحانَه تخيُّرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قَسَمَ بينهم معايشَهم المتضمنةَ لأرزاقهم، وَمُدَدِ آجالهم، وكذلك هو الذي يَقسِم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلُح له ممن لا يصلُح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم، ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهكذا هذه الآية بيّن فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانَه أعلمُ بمواقع اختياره، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

الرابع: أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم: من اقتراحهم واختيارهم، فقال:

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨] ولم يكن شركهم مقتضيًا لإثبات خالق سواه، حتى نزه نفسه عنه، فتأمله، فإنه في غاية اللطف.

الخامس: أن هذا نظير قوله تعالى في الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ثم قال: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الحج: ٧٣-٧٦] وهذا نظير قوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩] ونظير قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره بما خصصها به، لعلمه بأنها تصلح له دون غيرها، فتدبر السياق في هذه الآيات تجده متضمنًا لهذا المعنى زائدًا عليه، والله أعلم.

السادس: أن هذه الآية مذكورة عقيب قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٧-٦٨] فكما خلقهم وحده سبحانه، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحًا، فكانوا صفوته من عباده، وخيرته من خلقه، وكان هذا الاختيار راجعًا إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له، لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم، فسبحان الله وتعالى عما يشركون.

وإذا تأملت أحوالَ هذا الخلقِ، رأيتَ هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته، وكمالِ حكمته وعلمه وقدرته، وأنه اللَّهُ الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلُق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبِّر كتدبيره، فهذا الاختيارُ والتدبير، والتخصيص المشهود أثرُه في هذا العالم مِنْ أعظم آيات ربوبيته، وأكبرِ شواهد

وحدانيته، وصفات كماله، وصدقِ رسله.

فنشيرُ منه إلىٰ يسير يكونُ منبهاً علىٰ ما وراءه، دالاً علىٰ ما سواه. فخلق اللّه السماواتِ سبعاً، فاختار العُليا منها، فجعلها مستقر المقربين مِن ملائكته، واختصها بالقرب مِن كرسيه ومِن عرشه، وأسكنها مَن شاءَ مِن خلقه، فلها مزيةٌ وفضلٌ علىٰ سائر السماوات، ولو لم يكن إلا قربُها منه تبارك وتعالىٰ. وهذا التفضيلُ والتخصيصُ مع تساوي مادة السماوات مِن أبين الأدلة علىٰ كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار.

وَمِن هذا: تفضيلُه سبحانه جنّةَ الفردوس علىٰ سائر الجنان، وتخصيصُها بأن جعل عرشه سقفَها، وفي بعض الآثار: «**إن الله سبحانه غرسها بيده**[1]، **واختارها لِخيرته مِن خلقه**».

وَمِن هذا اختيارُه مِن الملائكة المصطفيْنَ مِنهم علىٰ سائرهم، كجبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، وكان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّماوات وَالأرضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[2].

فذكر هؤلاء الثلاثة مِن الملائكة لكمال اختصاصهم، واصطفائهم، وقربهم من اللّه، وكم مِن مَلَك غيرهِم في السماوات، فلم يُسم إلا هؤلاء الثلاثة. فجبريل: صاحبُ الوحي الذي به حياةُ القلوب والأرواح، وميكائيلُ: صاحب القَطْرِ الذي به حياةُ الأرض والحيوان والنبات، وإسرافيل: صاحب الصُور الذي إذا نفخ فيه، أحيت نفختُه بإذن الله الأموات، وأخرجتهم مِن قبورهم.

وكذلك اختيارُه سبحانه للأنبياء مِن ولد آدم عليه وعليهم الصلاةُ والسلام ـ وهم

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٠).

مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ـ واختياره الرسل منهم، وهم ثَلاثُمائة وثلاثة عشر[1] ـ علىٰ ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه ـ، واختيارُه أولي العزم منهم، وهم خمسة المذكورون في سورة الأحزاب والشورىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، واختار منهم الخليلينِ: إبراهيمَ ومحمداً صلىٰ الله عليهما وسلم.

وَمِنْ هذا: اختيارُه سبحانه ولدَ إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كِنانة مِن خُزيمة، ثم اختار مِن ولد كِنانة قُريشاً، ثم اختار مِن قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سَيِّدَ ولدِ آدم محمَّداً ﷺ[2]. وكذلك اختار أصحابه مِن جملة العَالَمِينَ، واختار منهم السابقينَ الأولين، واختار منهم أهلَ بدر، وأهلَ بيعة الرِّضوان، واختار لهم مِن الدِّين أكملَه، ومِن الشرائع أفضلَها، ومن الأخلاق أزكَاها وأطيبها وأطهَرها. واختار أمته ﷺ علىٰ سائر الأمم، كما في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث بهَزِ بن حكيم بن معاوية بن حيْدَةَ، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسُولُ ﷺ: «أَنْتمْ مُوفونَ سَبْعِينَ أُمَّة أَنْتم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ الله»[3] قال علي بن المْديني وأحمد: حديثُ بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه صحيح.

وظهر أثرُ هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم، وتوحيدِهم، ومنازلهم في الجنَة، ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلىٰ من النَّاس علىٰ تلٍّ فوقهم يشرفون عليهم، وفي

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥) والحاكم (٢/ ٦٥٢ رقم ٤١٦٦) والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧ رقم ٧٨٧١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٦١): صححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٧٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣) والحاكم (٤/ ٩٤ رقم ٦٩٨٨) والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٢٢ رقم ١٠٢٣) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٧): رواه أحمد ورجاله ثقات.

الترمذي من حديث بُريدة بن الحُصَيْبِ الأسلمي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أَهلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمَائَةُ صفٍّ، ثَمانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ**»[1] قال الترمذي: هذا حديث حسن. والذي في الصحيح من حديث أبي سعيد الخُدري، عن النبي ﷺ في حديث بعث النار: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[2]، ولم يزد على ذلك. فَإِمَّا أن يقال: هذا أصح، وإمَّا أن يُقال: إن النبي ﷺ طمع أن تكون أمتُه شطرَ أهل الجنة، فأعلمه ربُّه فقال: «**إنهم ثمانون صفاً من مائة وعشرين صفاً**»، فلا تنافي بين الحديثين، والله أعلم.

[3]قد اتخذ الرب وتعالى من الجنان دارا اصطفاها لنفسه وخصها بالقرب من عرشه، وغرسها بيده، فهي سيدة الجنان، والله ﷻ يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من الملائكة جبريل، ومن البشر محمدًا ﷺ، ومن السموات العليا، ومن البلاد مكة، ومن الأشهر المحرم، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم الجمعة، ومن الليل وسطه، ومن الأوقات أوقات الصلوات، إلى غير ذلك، فهو ﷻ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

وقال الطبراني في معجمه: حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث قال الطبراني في معجمه وحدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن زياد بن محمد الأنصاري عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل الله تعالى في آخر**

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٤٦) وابن ماجه (رقم ٤٢٨٩) والدارمي (رقم ٢٨٣٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٣١٥ رقم ٣١٧١٣) والحاكم (١/ ١٥٥ رقم ٢٧٣) والطبراني في الأوسط (٢/ ٧٧ رقم ١٣٠١) وفي الصغير (رقم ٨٢) وأحمد (٥/ ٣٤٧) وأبو يعلى في معجمه (رقم ٢١١) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٧٢) وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (رقم ٧٤) وصححه الحاكم وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٨، ٤١٢) وشرح النووي (٣/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٣٠) ومسلم (رقم ٢٢٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٨) وشرح النووي (٣/ ٩٨).

(٣) ٧٩ حادي.

ثلاث ساعات يبقين من الليل، فينظر الله في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت، ثم ينظر في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي مسكنه الذي يسكن فيه، ولا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون، وفيها ما لم تره عين أحد، ولا خطر على قلب بشر، ثم يهبط آخر ساعة من الليل، فيقول: ألا مستغفر يستغفرني فأغفر له؟ ألا سائل يسألني فأعطيه ألا داع يدعوني فأستجيب له؟ حتى يطلع الفجر» قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] فيشهده تعالى وملائكته[(١)]! قال الحسن بن سفيان حدثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح قال: حدثني خالي عبد الرحمن بن عبد الحميد بن سالم حدثنا يحيى بن أيوب عن داود بن أبي هند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بنى الفردوس بيده، وحظرها على كل مشرك وكل مدمن خمر ومتكبر»[(٢)].

***

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

...[(٣)]تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٢٧٩ رقم ٨٦٣٥) وفي الدعاء (رقم ١٣٥) والديلمي في الفردوس (٥/ ٢٥٤ رقم ٨١٠٩) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٧٥٦) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٤-١٥٥): رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار بنحوه وفيه زيادة بن محمد الأنصاري وهو منكر الحديث. وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩٨) وساق الحديث الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٤٥) ثم قال: فهذه ألفاظ منكرة لم يأت بها غير زيادة.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ١٦٤ رقم ٦٠٣) والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (رقم ٢٣) وتمام في فوائده (٢/ ٧٥ رقم ١١٨١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٩٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١١ رقم ٥٥٩٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٣/ ٣٠٦).

(٣) ٢٠٧ المفتاح جـ١.

والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور، ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا، مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى، ونبه عباده عليه بقوله ﷻ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢] خص سبحانه النهار بذكر البصر، لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع، لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار، لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس، فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقوله: ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ راجع إلى قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ وقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ راجع إلى قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

***

﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

...[(١)]مما يدل على أن الفرح من أسباب الكر ما لم يقارنه خوف قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] وقال قوم قارون له: ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] فالفرح متى كان بالله، وبما منَّ الله به، مقارنًا للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك: ضره ولابد.

...[(٢)]وليحذر كل الحذر من طغيان «أنا» و«لي» و«عندي»، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس وفرعون وقارون فـ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢] لإبليس و﴿ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨] لقارون.

وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد، أنا العبد المذنب المخطئ، المستغفر المعترف ونحوه، و«لي» في قوله: «لي الذنب، ولي الجرم،ن ولي المسكنة، ولي الفقر والذل، و«عندي» في قوله: «**اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي**»[(٣)].

***

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

---

(١) ١٠٨ المدارج جـ١.

(٢) ١٠٢ الفوائد.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٧١٩) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤٠).

...[1]إنه سبحانه ذم متمني الدنيا والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحًا، ولا يلقى هذه الوصية، وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة، التي دل عليها قوله: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ والسيرة والطريقة التي دل عليها قوله: ﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾، وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء.

وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

إنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال، الذي يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال، كما توهموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن، والذي يجمعونه هو المال وأسبابه، ومثله قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

***

(١) ١٩٥ عدة الصابرين.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

...[(١)]النفوس ثلاثة: نفس سماوية علوية فمحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى، وذلك قوتها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفس سبعية غضبية فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي والعلو في الأرض والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به.

ونفس حيوانية شهوانية فمحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] وقال في آخر السورة: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة، فأي نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه، ولم تصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومة لائم.

***

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

[(٢)]أما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار، الآن نظير احتجاج

---

(١) ٢٧٨ الروضة.

(٢) ٤١ حادي.

إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما، فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم، وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام، ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية: قال البخاري في صحيحه: يقال: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إلا ملكه، ويقال إلا ما أريد به وجهه(١)، وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبدالله: فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب، لأنه سقف الجنة، والله ﷻ عليه، فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ فذلك أن الله ﷻ أنزل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ يعني ميت ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت(٢) انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الأصطخري ذكره أبو الحسين في كتاب الطبقات، قال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، والمقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها، فهو مخالف مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، خلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان، ولا يفنى ما فيهما أبدًا.

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله ﷻ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التفسير، سورة القصص (ص ٩٣٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٠٥) وعمدة القاري (١٩/ ١٠٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٥).

وبنحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة ولا أبدًا، لأن الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع، وقد ضل عن سواء السبيل، وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن ﷻ فوق الماء، وأن الله ﷻ على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، وما في قعر البحر، ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد كل كلمة، وعدد الحصا والتراب والرمل ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم بها.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ونحو هذا من متشابه القرآن.

فقل: إنما يعني بذلك العلم، لأن الله ﷻ على العرش فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان، وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي قال الخلال حافظ إمام في زمانه، معروف بالتقدم في العلم والمعرفة كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك، ويقبل منه ويسأله عن الرجال من أهل بلده، قال: أملى عليَّ أحمد بن حنبل، فذكر رسالة في السنة، ثم قال في أثنائها: وأن الجنة والنار مخلوقتان، قد خلقتا كما جاء الخبر، قال النبي ﷺ: «دخلت

الجنة فرأيت فيها قصرًا، ورأيت الكوثر، واطلعت في النار، فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا...» فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب برسول الله ﷺ وبالقرآن، كافر بالجنة والنار، يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وقال في رواية عبدوس بن مالك العطار، وذكر رسالة في السنة، قال فيها: والجنة والنار مخلوقتان، قد خلقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ: **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا»** فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار[1]. فتأمل هذه الأبواب وما تضمنته من النقول والمباحث والنكت والفوائد، التي لا تظفر بها في غير هذا الكتاب البتة، ونحن اختصرنا الكلام في ذلك، ولو بسطناه لقام منه سفر ضخم، والله المستعان وعليه التكلان، وهو الموفق للصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القصص

والحمد لله رب العالمين



---

(١) انظر: أصول السنة لأحمد بن حنبل (ص ٥٩).

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١-١٠].

(١) فليتأملِ العبدُ سياقَ هذِهِ الآياتِ، وما تضمنَّته من العِبَرِ وكُنُوز الحِكَم، فإنَّ الناسَ إذَا أُرسِلَ إليهم الرُّسُلُ بين أمرين: إما أن يقولَ أحدهُم: آمنا، وإما ألا يقولَ ذلك، بل يستمرَّ علىٰ السيِّئاتِ والكُفر، فمَن قال: آمنا، امتحنه ربُّه، وابتلاه، وفتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبينَ الصادِقُ مِن الكاذِب، ومَن لم يقل: «آمنا»، فلا يَحْسَبْ أنه يُعْجِزُ اللهَ ويفوتُه ويَسبقُه، فإنه إنما يطوي المراحِلَ في يديه.

وكَيفَ يَفِرُّ المرْءُ عَنْهُ بِـذَنْبِهِ إذَا كَانَ تُطْوىٰ في يَدَيْهِ المرَاحِلُ

فمَن آمن بالرُّسُلِ وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتُلِيَ بما يُؤلِمه، وإن لم يُؤمن بهم ولم يُطعهم، عُوقِبَ في الدنيا والآخرة، فَحَصَلَ له ما يُؤلمه، وكان هذا المؤلمُ له

(١) ١١٠ زاد المعاد جـ٢.

أعظَمَ ألماً وأدومَ مِن ألم اتِّباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفسٍ آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبةُ في الدنيا والآخرة، والمُعرِضُ عن الإيمان تحصلُ له اللَّذةُ ابتداءً، ثم يَصير إلى الألم الدائم.

وسئل الشافعي رحمه الله: أيُّما أفضلُ للرجل، أن يُمكَّن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكَّن حتى يُبتلى. والله تعالى ابتلى أُولي العَزْمِ مِن الرسل، فلما صَبَرُوا مكَّنهم، فلا يَظُنَّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوتُ أهلُ الآلام في العُقُول، فأعقلُهم مَنْ باع ألماً مستمِراً عظيماً، بألم منقطع يسير، وأشقاهُم مَنْ باع الأَلَمَ المنقطِعَ اليسير، بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل: كيف يختار العاقلُ هذا؟ قيل: الحاملُ له على هذا النَّقْدُ والنَّسيئة. والنَّفْسُ مُوكلةٌ بِحُبِّ العَاجِلِ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]. وهذا يحصُل لكل أحد، فإن الإنسان مدني بالطَّبع، لا بُد له أن يعيشَ مع الناس، والناسُ لهم إرادات وتصورات، فيطلبُون منه أن يُوافِقهم عليها، فإن لم يوافقهم، آذوْه وعذَّبوه، وإن وافقهم حَصَلَ له الأذى والعذابُ، تارةً منهم، وتارةً مِن غيرهم، كمن عنده دِينٌ وتُقى حلَّ بين قوم فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ، ولا يتمكنون مِن فجورهم وظُلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوتِه عنهم، فإن وافقهم، أو سكت عنْهم، سَلِمَ مِن شرهم في الابتداء، ثم يتسلَّطُونَ عليه بالإهانة والأذى أضعافَ ما كان يخافهُ ابتداء، لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سَلِمَ منهم، فلابد أن يُهان ويُعاقَب على يد غيرهم، فالحزمُ كُلُّ الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لم يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً»[1]. ومَنْ

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤١٤) وإسحاق بن راهويه (٢/ ٦٠٠ رقم ١١٧٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٧٨٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٩٩) وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ٨٢).

تأمل أحوالَ العالَم، رأىٰ هذا كثيراً فيمن يُعينُ الرؤساءَ علىٰ أغراضهم الفاسدة، وفيمن يُعينُ أهلَ البِدَعِ علىٰ بِدعهم هَرَباً من عُقوبتهم، فمَنْ هداه الله، وألهمه رُشده، ووقاه شرَّ نفسه، امتنع مِن الموافقة علىٰ فِعل المحرَّم، وصَبَرَ علىٰ عُدوانهم، ثم تكونُ له العاقبةُ في الدنيا والآخرة، كما كانت لِلرُّسل وأتباعِهم، كالمهاجرين، والأنصار، ومَن ابتُلِىٰ مِن العلماء، والعُبَّاد، وصالحي الوُلاة، والتجار، وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة، عزىٰ الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع علىٰ الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥]. فضرب لمدة هذا الألم أجلا، لابد أن يأتي، وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلىٰ لقاء ربه ووليه علىٰ تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيَّبه الشوق إلىٰ لقائه عن شهود الألم والإحساس به، ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلىٰ لقائه، فقال في الدعاء الذي روا أحمد وابن حبان: «**اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك علىٰ الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، وأسألك الشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[(١)].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) وفي الموارد (رقم ٥٠٩) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي المجتبىٰ (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧).

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه، ويطوي له الطريق، ويقرب عليه البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال، هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة، ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليه بها، فتصلح عنده هذه النعمة، ويصلح بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه، فليقرأ على نفسه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ثمَّ عزَّاهم تعالى بعزاءٍ آخر، وهو أن جِهادهم فيه، إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحةُ هذا الجهاد ترجعُ إليهم، لا إليه سُبحانه، ثم أخبر أنَّه يُدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زُمرة الصالحين. ثم أخبر عن حال الدَّاخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذِيَ في الله جعل فتنةَ الناسِ له كعذاب الله، وهي أذاهم له، ونيلُهم إياه بالمكروه والألم، الذي لا بد أن يناله الرسلُ وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركِهِ السبب الذي ناله، كعذابِ الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان، فالمؤمنون لِكمال بصيرتهم فرُّوا مِن ألم عذاب الله إلى الإيمانِ، وتحمَّلُوا ما فيهِ من الألم الزائل المُفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته، فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففرَّ مِن ألمِ عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألمَ فتنة الناس في الفِرار منه، بمنزلة ألم عذاب الله، وغُبِنَ كُلَّ الغَبن إذ استجار مِن الرَّمضاء بالنار، وفرَّ مِن ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جُنده وأولياءه، قال: إني كنتُ معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدرُه من النفاق.

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمتُهُ أنه لابد أن يمتحن النفوسَ ويبتَليها، فيظْهِرَ بالامتحان طيِّبَها مِن خبيثها، ومَنْ يصلُح لموالاته وكراماته، ومَنْ لا يصلُح، وليُمحِّص النفوسَ التي تصلُح له ويُخلِّصها بِكِير الامتحان، كالذَّهب الذي لا يخلُص

ولا يصفو مِن غِشه، إلا بالامتحان، إذ النفسُ في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم مِن الخُبث ما يحتاجُ خروجه إلىٰ السَّبكِ والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كِير جهنم، فإذا هُذِّب العبدُ ونُقِّيَ، أُذِنَ له في دخولِ الجنة.

ولما دعا ﷺ إلىٰ الله ﷻ، استجاب له عِبادُ الله مِن كل قبيلة، فَكَانَ حائِزَ قصبِ سَبْقِهِم، صِدِّيقُ الأُمة، وأسبقُها إلىٰ الإسلام، أبو بكر ﷺ، فآزره في دين الله، ودعا معه إلىٰ الله علىٰ بصيرة، فاستجابَ لأبي بكر: عثمانُ بن عفان، وطلحةُ بن عُبيد الله، وسعدُ بنُ أبي وقاص. وبادر إلىٰ الاستجابة له ﷺ صِدِّيقَةُ النِّساءِ: خديجةُ بنت خُويلد، وقامت بأعباء الصِّدِّيقيَّةِ، وقال لها: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسي». فَقَالَتْ لَهُ: «أَبْشِرْ فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ الله أبَداً»[1]، ثم استَدَلَّت بما فيه من الصفات الفاضلة، والأخلاق الكريمة والشيم الشريفة، علىٰ أن مَنْ كان كذلك لا يُخزَىٰ أبَدَاً، فعلمت بكمال عقلها وسلامة فِطرتها، أن الأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والشِّيم الشريفة، تُناسِبُ أشكالها من كرامة الله، وتأييده، وإحسانه، ولا تُناسِبُ الخزي والخِذلان، وإنما يُناسبه أضدادُها، فمَن ركَّبه الله علىٰ أحسنِ الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليقُ به كرامتهُ وإتمامُ نعمته عليه، ومَنْ ركَّبه علىٰ أقبح الصفاتِ وأَسْوَإِ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يناسبُها، وبهذا العقل والصدِّيقية استحقَّت أن يُرْسِلَ إِلَيْهَا رَبُّها بالسَّلاَمِ مِنْهُ مَعَ رَسُولَيْهِ جِبْرِيل وَمُحَمَّدٍ ﷺ.

[2]كمال العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة والدواعي إلىٰ الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية، وكذلك الإيمان إنما تتبين حقيقته عند المعارضة والامتحان، وحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، قال الله تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣) ومسلم (رقم ١٦٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٢٠) وشرح النووي (٢/ ٢٠٠).

(٢) ٣٤٢ الصواعق جـ١.

فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣] وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فالجنة لا ينالها المكلفون إلا بالجهاد والصبر، فخلق الشياطين وأوليائهم وجندهم من أعظم النعم في حق المؤمنين؛ فإنهم بسبب وجودهم صاروا مجاهدين في سبيل الله، يحبون لله ويبغضون لله، ويوالون فيه، ويعادون فيه، ولا تكمل نفس العبد ولا يصلح لها الزكاء والفلاح إلا بذلك.

...(١)قال الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١١] وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين، ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه، وضرب لهم أجلًا يُسَكِّن نفوسهم ويطمئنها.

...(٢)وفي أثر آخر «طال شوق الأبرار إلى وجهك، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا» وهذا هو المعنى الذي عبر عنه ﷺ بقوله: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»(٣) وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ﴾ لما علم سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه ضرب لهم أجلًا: موعدا للقائه تسكن نفوسهم به، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب

---

(١) ٥٤ مدارج جـ٢.

(٢) ٢٤٨ الجواب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٨) ومسلم (رقم ٢٦٨٦) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٩).

ولا أنعم ولا أهنأ منها، فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد، الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة اجتمعت همومه كلها وصارت همًا واحدة في مرضات الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره محبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيى، وبه يموت، وبه يبعث كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه...»(١) الحديث.

(٢)إن أفضل العطاء وأجله على الإطلاق الإيمان وجزاؤه، وهو لا يتحقق إلا بالامتحان والاختبار، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٦].

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم، ليتبين الصادق من

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر: شرح النووي (٧/ ٩٢).
(٢) ٢٤٥ شفاء.

الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره. وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم، وعاقبة أمرهم، وما صاروا إليه، وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة، وهو تبيين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة، التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر منه، فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات، فمن قال آمنا امتحنه الرب تعالى وابتلاه، لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال آمنت، فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلي من أعدائه و أعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلا بد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع، ويعقبه أعظم اللذة. والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع، ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها ينالون بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه

منها، فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث.

فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم والسرور والحزن والفرح والغم، وذلك من جهتين من جهة تركبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لابد أن يبغي بعضها على بعض، فيخرج عن حد الاعتدال، فيحصل الألم. ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع، لا يمكنه أن يعيش وحده بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة، لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته، كما لم يوافقهم على مراداتهم، فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك، فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم، ولاسيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصًا من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر، فمن كان ظهيرًا للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم، ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلًا وآجلًا أضعاف أضعاف ما فر منه، وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم، وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة، تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة، وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لا من

الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

ولما كان زمن التألم والعذاب قصيرة طويل، فأنفاسه ساعات، وساعاته أيام، وأيامه شهور وأعوام بلى سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلًا، ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلًا للقائه، يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه، وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته، هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله.

ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة عمله وتعبه يعود عليه وحده، لا يشركه فيه غيره كان أتم اجتهادا وأوفر سعيًا، فقال تعالى: ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

وأيضًا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم، ونهاهم عما يعود مضرته عليهم في معاشهم ومعادهم، فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم، واقتضت حكمته أن نصب ذلك سببا مفضيا إلى تمييز الخبيث من الطيب، والشقي من الغوي، ومن يصلح له ممن لا يصلح، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم، وجيدهم من رديئهم، فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان.

ثم لما كان الممتحن لابد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك، ويكفره عنه، لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله، ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه، وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به، فيصبر على هذه المحنة والفتنة، ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفًا، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله، وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه، ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله، واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه، وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى، لم يصبر على ذلك وجزع منه، وفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وهذا يدل على عدم البصيرة، وأن الإيمان لم يدخل قلبه، ولا ذاق حلاوته حتى سوَّى بين عذاب الناس له على الإيمان بالله ورسوله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله، وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد، لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهو من المفتونين المعذبين، وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان، ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم، وقال: كنت معكم، والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله.

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه، فابتلاهم بالغرق، ثم بعده بالحرق، ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه، وابتلاهم بطاعته ومتابعته، ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه، وابتلاءهم به وما صار إليه أمره وأمرهم، ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به، وما انتهت إليه حالهم وحاله، ثم ذكر ما ابتلى به عادا وثمودا وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به

وعبادته وحده، ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات.

ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد ﷺ بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلى أرضه الواسعة، فيعبدونه فيها، ثم نبههم بالنقلة الكبرى من دار الدنيا إلى دار الآخرة على نقلتهم الصغرى من أرض إلى أرض، وأخبرهم أن مرجعهم إليه، فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه، ثم بين لهم حال الصابرين على الابتلاء فيه بأنه يبوؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها لأجله، وكانت مباء لهم بأن بوأهم دارًا أحسن منها، وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد، وأن ذلك بصبرهم على الابتلاء وتوكلهم على ربهم، ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم، كما كان يرزقهم في أرضهم، فلا يهتموا بحمل الرزق فكم من دابة سافرت من مكان إلى مكان لا تحمل رزقها.

ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدا بالنسبة إلى دار الحيوان والبقاء، ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به، وأن مقامهم في هذه الدار تمتع، وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم، وما حصلوا عليه من العذاب الأليم، وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره، فأخبر سبحانه أن أجل عطاء وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا على ابتلائه وتوكلوا عليه، وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا على ابتلائه وفروا منه، وآثروا النعيم العاجل عليه.

فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر، فإنها سورة الابتلاء والامتحان، وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة، ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمتها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر، والله المستعان.

***

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

[1] يقول تعالى: انظروا كيف بدأت الخلق؛ فاعتبروا الإعادة بالابتداء.

... [2] وقال عن إمام الحنفاء أنه قال للمشركين: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] ولما كان غاية صلاح العبد في عبادة الله وحده واستعانته وحده كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته.

ومما يوضح الأمر في ذلك ويبينه أن الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه سبحانه، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا وجودًا محضًا، فإنه رحيم لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته، كما أنه غني لذاته، قادر لذاته، حي لذاته، فإحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته، لا يكون إلا كذلك، كما أن قدرته وغناه من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك، وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم...

---

(١) ١٤٧ الإعلام جـ١.

(٢) ٦١ الهجرتين.

...[1]وأهل المعاصي والفسوق، وإن كان بينهم نوع مودة وتحاب، فإنها تنقلب عداوة وبغضًا، وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وأما في الآخرة فـ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف: ٦٧].

وقال إمام الحنفاء: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. فالمعاصي كلها توجب ذلك، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وذكر ذلك في الخمر الميسر - اللذين هما من أواخر المحرمات - تنبيه على ما في غيرهما من ذلك، مما حرم قبلهما، وهو أشد تحريما منهما، فإن ما يوقعه قتل النفوس، وسرقة الأموال، وارتكاب الفواحش من ذلك، وما يصد به عن ذكر الله وعن الصلاة أضعاف أضعاف ما يقتضيه الخمر والميسر، والواقع شاهد بذلك.

وكم وقع، وهو واقع بين الناس - بسبب عشق الصور - من العداوة والبغضاء، وزوال الألفة والمحبة، وانقلابها عداوة.

وأما صده عن ذكر الله، فقلب العاشق ليس فيه موضع لغير معشوقه، كما قيل:

مَا فِي الْفُؤَادِ لِغَيْرِ حُبِّكَ مَوْضِعٌ ... كَلاَّ، وَلا أَحَدٌ سِوَاكَ يَحُلُّهُ

وأما صده عن الصلاة، فهو إن لم يصد عن صورتها وأعمالها الظاهرة، فإنه يصد عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة.

***

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

(١) ١٥٥ الإغاثة جـ٢.

...[(١)]سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] قال: «**كانوا يخذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه**»[(٢)] ذكره أحمد.

...[(٣)]ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم، لوط لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط**»[(٤)] ولم تجئ عنه لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية، فأكده ثلاث مرات.

وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف منهم فيه رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن بعض الناس أن ذلك اختلافًا منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع. قالوا: ومن تأمل قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقوله في اللواط: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]. تبين له تفاوت ما بينهما، فإنه سبحانه نكَّر الفاحشة في الزنا، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول زيد الرجل ونعم الرجل زيد، أي تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي

---

(١) ٣٩٩ الإعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٥٤ رقم ١٧٢٧١) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤١٢ رقم ١٠٠٢) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٢٨٢) والحاكم (٤/ ٣١٦ رقم ٧٧٦١) وصححه والترمذي (رقم ٣١٩٠) وحسنه والطيالسي (رقم ١٦١٧).

(٣) ٢٣٠ الجواب.

(٤) أخرجه ابن حبان (١٠/ ٢٦٥ رقم ٤٤١٧) وفي الموارد (رقم ٥٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٢٢ رقم ٧٣٣٧) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٤) والحاكم (٤/ ٣٩٦ رقم ٨٠٥٣) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٣٤ رقم ٨٤٩٧) وفي الكبير (١١/ ٢١٨ رقم ١١٥٤٦) وأبو يعلى (٤/ ٤١٤ رقم ٢٥٣٩) وأحمد (١/ ٣٠٩) وصححه الحاكم.

لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلىٰ غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسىٰ: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء: ١٩] أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد.

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنها الأسماع، وتنفر منه أشد النفور، وهو إتيان الرجل رجلا مثله، ينكحه كما ينكح الأنثىٰ، فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ [الأعراف: ٨١]. ثم نبه علىٰ استغنائهم عن ذلك. وأن الحامل لهم عليه ليس إلاّ مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلىٰ الأنثىٰ من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة التي تنسي المرأة لها أبويها وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة، وقضاء للوطر، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال علىٰ النساء، وخروج أحب الخلق إلىٰ الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته إلىٰ غير ذلك من مصالح النكاح. والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده، ولا يعلم تفصيله إلاّ الله ﷻ.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليه الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوهم، ونكسوا في العذاب علىٰ رؤوسهم.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف، وهو مجاوزة الحد، فقال: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١] فتأمل هل جاء ذلك أو قريب منه في الزنا؟ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]،

ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وسماهم مفسدين في قول نبيهم، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١].

***

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

...[1] تأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية، وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم، كما قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها، لتتم المناسبة ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير، كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم، كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم، بل هم اخف الناس عقولا وأعظمهم مكرًا وخداعا وفسقا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين، واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولاسيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة، يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه، فإن

---

(١) ٢٥٤ المفتاح جـ١.

الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعة فيبادر إليه، فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم، فإنهم عمدوا إلىٰ أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم من النصارىٰ واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان علىٰ حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم، فأي شبه ومناسبة أولىٰ بهذا الضرب من الخنازير، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

...[(١)] وقال تعالىٰ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذا يدل علىٰ أن قولهم: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣] إما بهت منهم وجحود، وإما نفي لآيات الاقتراح والعنت، ولا يجب الإتيان بها.

وقد وصف سبحانه ثمود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق، ولهذا قال: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩] يعني بينة مضيئة، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أي مضيئة، وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصرا، فهي توجب له البصر فتبصره، أي تجعله ذا بصر، فهي موضحة مبينة، يقال: بصر به إذا رآه كقوله تعالىٰ: ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ [القصص: ١١] وقوله: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٦]. وأما أبصره فله معنيان:

أحدهما: جعله باصرًا بالشيء أي ذا بصر به، كآية النهار وآية ثمود.

والثاني: بمعنىٰ رآه كقولك: أبصرت زيدًا. وفي حديث أبي شريح العدوي: أحدثك قولًا قال به رسول الله ﷺ يوم الفتح، فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين

(١) ٩٢ المفتاح جـ١.

تكلم به، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥] قيل: المعنى أبصرهم وما يقضي عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك، وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة، والمراد تقريب المبصر من المخاطب، حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه.

والمقصود: أن الآية أوجبت لهم البصيرة، فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين، ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة والشمس وضحاها لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية، وذكر فيها الأصلين: القدر والشرع، فقال: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧] فهذا قدره وقضاؤه، ثم قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] فهذا أمره ودينه، وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى، فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى والتدسية على التزكية، والله أعلم بما أراد.

قالوا: ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فأي علم أبين من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم ورد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١] فهل بعد نزول الملائكة عيانًا، وتكليم الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى، ومع هذا فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحق، ولا يصدقون الرسول...

***

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

(١)ذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا، وهو من أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا.

كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليًّا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.

---

(١) ١٥٤ الإعلام جـ١.

...[١]ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر والله أعلم.

***

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

...[٢]إنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به: أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القرآن بضعة وأربعون مثلًا، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين.

...[٣]وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون، والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين، فهم لا يعقلونها وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ولو كان الضلال بجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالًا من الذين يعلمون والنص بخلافه، والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار، فتارة يصفهم بأنهم لا

(١) ٩ البدائع جـ٤.
(٢) ٥١ المفتاح جـ١.
(٣) ٨٨ المفتاح جـ١.

يعلمون، وتارة بأنهم لا يعقلون، وتارة بأنهم لا يشعرون، وتارة بأنهم لا يفقهون، وتارة بأنهم لا يسمعون. والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت، وتارة بأنهم لا يبصرون، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون، كقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

...[١] زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتموه فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها وإلا فاعلموا أن الباب مغلق[٢].

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان، قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه، كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه: الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا. الثاني: النهي عن ضده

---

(١) ٤٢٤ جـ٢.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧١) (١٠/ ١٤٦).

من الغفلة والنسيان. الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته. الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة. الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره. السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له. السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء. الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها. التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم. العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

تفصيل ذلك: أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣] وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وفيه قولان: أحدهما: في سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك، وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] وأما الثناء على أهله وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له فكقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

***

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾.

(١)فيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات، لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعني: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر: محق كل خطيئة ومعصية، هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين: إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر، والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وختم به الحج في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وختم به الصلاة كقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣].

...(٢)إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ

(١) ٤٢٦ مدارج جـ٢.

(٢) ٢٠٥ المفتاح جـ١.

وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩] وسواء كان المعنى: أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ، وهو في نفسه آيات بينات، فيكون أخبر عنه بخبرين:

أحدهما: أنه آيات بينات.

الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم، أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم، أي كونه آيات بينات، معلوم لهم ثابت في صدورهم، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد، بهم فتأمله.

***

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

...[(١)] روى أبو داود في مراسيله، عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة، فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل على غير نبيهم»، فأنزل الله ﷻ تصديق ذلك: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[(٢)] [العنكبوت: ٥١]، فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ، فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟.

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا

(١) ٩٨ جلاء الأفهام.

(٢) أخرجه أبو داود في مراسيله (رقم ٤٥٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨).

أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه**»[(١)] قال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»[(٢)].

وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء.

...[(٣)]وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل، كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها ، والباطل ضدها ومنافيها، وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده، وإنما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان، لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج من بعث إليه من أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة، لا تحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا ، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٩ رقم ١٠٣٧٦) وهناد في الزهد (١/ ٢٨١ رقم ٤٩٤) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٩ رقم ٣٤٣٣٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٥٥ رقم ١٦٤٧) والصيداوي في معجم الشيوخ (ص ١٤٢) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٣٨).

(٣) ٣٧٥ الإعلام جـ٤.

إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به.

وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصمت والكلام، والعزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت. ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين. وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله. وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم، حتى كأنهم كانوا بينهم ، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله. عرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يعرف به نبي غيره. وكذلك عرفهم ﷺ من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه. وكذلك عرفهم ﷺ من مكائد الحروب ولقاء العدو، وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً.

وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه. وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه. وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظن إن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها ، أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ما

جاء به علىٰ من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه، الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم، وقد كان عمر ﷺ يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأىٰ اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟ فالله المستعان.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي هو وما تبينه السنة بعشر معشار الشريعة ؟ أم كيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؟ أو عامتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة علىٰ انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاؤها ، سبحانك هذا بهتان عظيم!.

ويا لله العجب! كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتىٰ الله بنيانها من القواعد وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع؟ أهل كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص أم كانوا علىٰ خلاف ذلك؟ حتىٰ جاء المتأخرون فكانوا أعلم منهم وأهدىٰ وأضبط للشريعة منهم، وأعلم بالله وأسمائه وصفاته، وما يجب له وما يمتنع عليه منهم؟ فوالله لأن يلقىٰ الله عبده بكل ذنب ما خلا الإشراك لخير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل. اهـ.

...[1]فائدة: قال ابن عقيل: الجري في جواز العمل في السلطنة الشرعية بالسياسة

---

(١) ١٥٢ البدائع جـ٣.

هو الحزم فلا يخلو منه إمام، قال الشافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع. قال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجحده عالم بالسنن، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة وتحريق علي في الأخاديد، وقال:

إني إذا شاهدت أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قنبرًا(١)

ونفى عمر نصر بن حجاج. (قلت): هذا موضع مزله أقدام، وهو مقام ضنك ومعترك صعب، فرط فيه طائفة، فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرؤوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بها مصالح العباد، وسدوا على نفوسهم طرقا عديدة من طرق معرفة الحق من الباطل، بل عطلوها مع علمهم قطعا وعلم غيرهم بأنها أدلة حق ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة، فلما رأى ولاة الأمر ذلك، وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة، أحدثوا لهم قوانين سياسية، ينتظم بها أمر العالم، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة، وإحداث ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شر طويل وفساد عريض، وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه.

وأفرطت طائفة أخرى فسوغت منه ما ينافي حكم الله ورسوله، وكلا الطائفتين أتت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي به قامت السماوات والأرض، فإذا ظهرت

---

(١) انظر: التمهيد (٥/ ٣١٨) وفتح الباري (١٢/ ٢٧٠)، وميزان الاعتدال (٢/ ٤٠٤)، وشرح الزرقاني (٤/ ١٨) وتاريخ دمشق (٤٢/ ٤٧٦) وطبقات المحدثين (٢/ ٣٤٣) ونيل الأوطار (٨/ ٦) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: وهذا سند حسن.

أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه. والله تعالىٰ لم يحصر طرق العدل وأدلته وعلاماته في شيء ونفىٰ غيرها من الطرق التي هي مثلها أو أقوىٰ منها، بل بين ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط، فهي من الدين (لا يقال): إنها مخالفة له، فلا تقول: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه، ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم، وإنما هي شرع حق، فقد حبس رسول الله ﷺ في نميمة[1]، وعاقب في تهمة، لما ظهر أمارات الريبة علىٰ المتهم، فمن أطلق كل متهم وخلىٰ سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض ونقبه البيوت وكثرة سرقاته، وقال: لا آخذه إلا بشاهدي عدل، فقوله مخالف للسياسة الشرعية وكذلك منع النبي ﷺ الغال من سهمه من الغنيمة، وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه، وكذلك أخذه شطر مال مانع الزكاة، وكذلك إضعافه الغرم علىٰ سارق ما لا يقطع فيه وعقوبته بالجلد.

وكذلك إضعافه الغرم علىٰ كاتم الضالة، وكذلك تحريق عمر حانوت الخمار، وتحريقه قربه خمر وتحريقه قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن الرعية. وكذلك حلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه، وكذلك ضربه صبيغًا، وكذلك مصادرته عماله، وكذلك إلزامه الصحابة أن يقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ ليشتغل الناس بالقرآن، فلا يضيعوه، إلىٰ غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمة، فصارت سنة إلىٰ يوم القيامة، وإن خالفها من خالفها.

ومن هذا تحريق الصديق ﷺ للوطي، ومن هذا تحريق عثمان ﷺ للصحف المخالفة للسان قريش، ومن هذا اختيار عمر ﷺ للناس الإفراد بالحج، ليعتمروا في غير أشهره، فلا يزال البيت الحرام مقصودا، إلىٰ أضعاف أضعاف ذلك من سياسته

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها: تهمة (ج).

التي ساسوا بها الأمة، وهي بتأويل القرآن وسنته. وتقسيم الناس الحكم إلىٰ شرعية وسياسية، كتقسيم من قسم الطريقة إلىٰ شريعة وحقيقة، وذلك تقسيم باطل، فالحقيقة نوعان: حقيقة: هي حق صحيح، فهي لب الشرعية لا قسيمتها، وحقيقة باطلة فهي مضادة للشريعة كمضادة الضلال للهدىٰ.

وكذلك السياسة نوعان: سياسة عادلة فهي جزء من الشريعة وقسم من أقسامها لا قسيمتها، وسياسة باطلة فهي مضادة للشريعة مضادة الظلم للعدل. ونظير هذا تقسيم بعض الناس الكلام في الدين إلىٰ الشرع والعقل هو تقسيم باطل، بل المعقول قسمان: قسم يوافق ما جاء به الرسول فهو معقول كلامه ونصوصه، لا قسيم ما جاء به، وقسم يخالفه فذلك ليس بمعقول وإنما هي خيلات وشبه باطلة لظن صاحبها أنها معقولات، وإنما هي خيالات وشبهات وكذلك القياس والشرع، فالقياس الصحيح هو معقول النصوص، والقياس الباطل المخالف للنصوص مضاد للشرع.

فهذا الفصل هو فرق ما بين ورثة الأنبياء وغيرهم، وأصله مبني علىٰ حرف واحد، وهو عموم رسالته بالسنة إلىٰ كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنه لا حاجة إلىٰ أحد سواه البتة، وإنما حاجتنا إلىٰ من يبلغنا عنه ما جاء به، فمن لم يستقر هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول.

بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلىٰ المكلفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة، فكذلك لا يخرج حق من العلم به والعمل عما جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلىٰ سواه، وإنما يحتاج إلىٰ غيره من قل نصيبه من معرفته، وفهمه فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلا فقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علما، وعلمهم كل شيء حتىٰ آداب التخلي والجماع والنوم والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول ووصف لهم وآداب العرش والكرسي

والملائكة والجنة والنار ويوم القيامة وما فيه حتىٰ كأنه رأي عين عرفهم بربهم ومعبودهم أتم تعريف، حتىٰ كأنهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرىٰ لهم معهم حتىٰ كأنهم كانوا بينهم.

وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله، وعرفهم من أحوال الموت، وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن، ما جلىٰ لهم ذلك حتىٰ كأنهم يعاينوه، وكذلك عرفهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد علىٰ جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه إلىٰ كلام أحد من الناس البتة.

وكذلك عرفهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به ما لو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدو أبدًا، وكذلك عرفهم من مكائد إبليس طرقه التي يأتيهم منها، ويحترزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه. وبذلك أرشدهم في معاشهم إلىٰ ما لو فعلوه، لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة، وبالجملة فقد جاءهم رسول الله بخير الدنيا والآخرة بحذافيره، ولم يجعل الله بهم حاجة إلىٰ أحد سواه، ولهذا ختم الله به ديوان النبوة، فلم يجعل بعده رسولا لاستغناء الأمة به عمن سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة المكملة محتاجة إلىٰ سياسة خارجه عنها، أو إلىٰ حقيقة خارجه عنها، أو إلىٰ قياس خارج عنها، أو إلىٰ معقول خارج عنها، فمن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلىٰ رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به علىٰ من ظن ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه على زعمهم الباطل. ويا لله العجب كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال، أهل كانوا مهتدين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك؟ حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدي منهم، هذا ما لا يظنه من به رمق من عقل أو حياء، نعوذ بالله من الخذلان، ولكن من أوتي فهما في الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ استغنى بهما عن غيرهما بحسب ما أوتيه من الفهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وهذا الفصل لو بسط كما ينبغي لقام منه عدة أسفار، ولكن هذه لفظات تشير إلى ما وراءها.

***

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

[1]الاسم السابع دار الحيوان، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] والمراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وأن الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان، لهي دار الحياة، التي لا موت فيها، فقال الكلبي: هي حياة لا موت فيها، وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة. وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة. وقال أبو عبيدة وابن قتيبة: الحياة الحيوان. قال أبو عبيدة: الحياة والحيوان والحي بكسر الحاء واحد. قال أبو علي. يعني أنها مصادر، فالحياة فعلة كالجلبة، والحيوان كالنزوان والغليان، والحي كالعي. قال العجاج: كنا بها إذ الحياة حي، أي إذا الحياة حياة.

وأما أبو زيد فخالفهم وقال: الحيوان ما فيه روح، والموتان والموات ما لا روح فيه، والصواب أن الحيوان يقع على ضربين: (أحدهما) مصدر كما حكاه أبو عبيدة.

---

(١) ٧٤ حادي الأرواح.

(والثاني) وصف كما حكاه أبو زيد، وعلى قول أبي زيد الحيوان مثل الحي خلاف الميت، ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات، فإن بابها فعلان كسكران وغضبان، وأجاب من رجح القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضا، قالوا رجل ضميان للسريع الخفيف، وزفيان قال في الصحاح: ناقة زفيان سريعة، وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم، فيحتمل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] معنيين: (أحدهما): أن الحياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار، فيكون الحيوان مصدرا على هذا. (والثاني): أن يكون المعنى أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد، كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت.

***

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾.

(١)التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه: فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس، فنجّاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة. ولما فزع إليه فرعون، عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق، لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده. فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه بالتوحيد. فلا يلقى في

(١) ٥٩ فوائد.

الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها. وبالله التوفيق.

***

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

...[(١)] قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد، فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد، قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.

...[(٢)] ولترجيح المصالح رتب متفاوتة، فتارة تترجح بعموم النفع وتارة تترجح بزيادة الإيمان وتارة تترجح بمخالفة النفس وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن في غيرها. فهذه خمس جهات من الترجيح قل أن يعدم واحدة منها. فإن أعوزه ذلك كله تخلى عن الخواطر جملة وانتظر ما يحركه به محرك القدر وافتقر إلى ربه افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه فإذا جاءته الحركة استخار الله وافتقر إليه افتقارًا ثانيًا خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية لعدم العصمة في حقه واستمرار المحنة بعدوه ما دام في عالم الابتلاء والامتحان ثم أقدم على الفعل. فهذا نهاية ما في مقدور الصادقين.

ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة ولهذا قال

---

(١) ٥٩ فوائد.

(٢) ٥١٠ مدارج جـ١.

الأوزاعي وابن المبارك: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر يعني أهل الجهاد فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العنكبوت

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾.

...[1]أما مراهنة الصديق للمشركين بعلمه وإذنه، فروىٰ الترمذي في جامعه من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم: ١-٣] كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس علىٰ الروم، لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم علىٰ فارس، لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر ﷺ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «أما إنهم سيغلبون» فذكروه لهم، فقالوا: اجعلوا بيننا وبينكم أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلت إلىٰ دون العشر» قال سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ١-٥] قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم[2] يوم بدر، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي جامعِه أيضًا عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ

---

(١) ٤ الفروسية.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٤٢٦ رقم ١١٣٨٩) والترمذي (رقم ٣١٩٣).

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم بزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، قال: وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم نجعل البضع، وهو ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطا ننتهي إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين، لأن الله قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ قال: أسلم عند ذلك ناس كثير[(١)]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الجامع أيضًا من حديث ابن عباس أن رسول الله قال لأبي بكر في مناحبته: «ألا أخفضت ـ وفي لفظ: ألا احتطت ـ فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع»[(٢)] من حديث الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس، وقوله في الحديث «مناحبته» فالمناحبة المخاطرة وهي المراهنة، من النحب وهو النذر، وكلاهما مناحب هذا بالعقد وهذا بالنذر.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٩١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٣٧٩).

وقوله: «ألا أخفضت» يجوز أن يكون من الخفض وهو الدعة، والمعنى: هلا نفست المدة فكنت في خفض من أمرك ودعة، ويجوز أن يكون من الخفض الذي هو من الانخفاض، أي هلا استنزلتم إلى أكثر مما اتفقتم عليه، وقوله في اللفظ الآخر: هلا «احتطت» هو من الاحتياط، أي هلا أخذت بالأحوط، وجعلت الأجل أقصى ما ينتهي إليه البضع، فإن النص لا يتعداه، وقوله: وذلك قبل تحريم الرهان. من كلام بعض الرواة، ليس من كلام أبي بكر، ولا من كلام النبي ﷺ.

وقد اختلف أهل العلم في إحكام هذا الحديث ونسخه على قولين، فادعت طائفة نسخه بنهي النبي ﷺ عن الغرر والقمار، قالوا: ففي الحديث دلالة على ذلك، وهو قوله وذلك قبل تحريم الرهان، قالوا: ويدل على نسخه ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل»[1]. والسبق بفتح السين والباء، وهو الحظ الذي وقع عليه الرهان. وإلى هذا القول ذهب أصحاب مالك والشافعي وأحمد.

وادعت طائفة أنه محكم غير منسوخ، وأنه ليس مع مدعي نسخه حجة يتعين المصير إليها، قالوا: والرهان لم يحرم جملة، فإن النبي راهن في تسبيق الخيل كما تقدم، وإنما الرهان على المحرم الرهان على الباطل، الذي لا منفعة فيه في الدين، وأما الرهان على ما فيه ظهور أعلام الإسلام وأدلته وبراهينه، كما قد راهن عليه الصديق فهو من أحق الحق، وهو أولى بالجواز من الرهان على النضال وسباق الخيل والإبل أدنى، وأثر هذا في الدين أقوى، لأن الدين قام بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان، والمقصد الأول إقامته بالحجة والسيف منفذ.

قالوا: وإذا كان الشارع قد أباح الرهان في الرمي والمسابقة بالخيل والإبل، لما في

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٧٤) وابن ماجه (رقم ٢٨٧٨) والنسائي (رقم ٣٥٨٩) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٦ رقم ١٩٥٣٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٢٨ رقم ٣٣٥٦٢) والطبراني في الصغير (رقم ٥٠) وفي الكبير (١٠/ ٣١٤ رقم ١٠٧٦٤).

ذلك من التحريض على تعلم الفروسية وإعداد القوة للجهاد، فجواز ذلك في المسابقة والمبادرة إلى العلم والحجة التي بها تفتح القلوب ويعز الإسلام وتظهر أعلامه أولى وأحرى. وإلى هذا ذهب أصحاب أبي حنيفة وشيخ الإسلام ابن تيمية. قال أرباب هذا القول: والقمار المحرم هو أكل المال بالباطل، فكيف يلحق به أكله بالحق؟ قالوا: والصديق لم يقامر قط في جاهلية ولا إسلام، ولا أقر رسول الله على قمار فضلًا عن أن يأذن فيه، وهذا تقرير قول الفريقين[(١)].

***

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

...[(٢)]ذكر سماع الجنة وغناء الحور العين وما فيه من الطرب واللذة. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤، ١٥] قال محمد بن جرير: حدثني محمد بن موسى الحرشي قال: حدثنا عامر بن نساف قال سألت يحيى بن أبي كثير عن قوله ﷻ: ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال: الحبرة اللذة والسماع، حدثنا عبد الله بن محمد الفريابي حدثنا ضمرة بن ربيعة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله يحبرون قال السماع في الجنة.

ولا يخالف هذا قول ابن عباس: يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: ينعمون، فلذة الأذن بالسماع من الحبرة والنعيم، وقال الترمذي حدثنا هناد وأحمد بن منيع قالا: حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين، يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها، يقلن:

---

(١) تقدم في سورة المائدة بحث يحسن الرجوع إليه لزيادة الفائدة (ج).

(٢) ١٧٩ حادي الأرواح.

نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نيأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»...[١]

...[٢]فإن أردت سماع غنائهن فاسمع خبره الآن، ففي معجم الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصواتٍ ما سمعها أحدٌ قطُّ، إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قومٍ كرام، ينظرون بقرة أعيان، وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا نمتنه، نحن الآمنات فلا نخفنه، نحن المقيمات فلا نظعنه»[٣] وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الحبرة.

***

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٦٤) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٠ رقم ٣٣٩٧١) وأبو يعلى (١/ ٣٣٨ رقم ٤٢٩) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩٣٢): هذا حديث لا يصح.

(٢) ٢٦٥ الروضة.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ١٤٩-١٥٠ رقم ٤٩١٧) وفي الصغير (رقم ٧٣٤) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٠٠ رقم ٥٧٢٣): رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواتهما رواة الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٩): رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(١)نوّع سبحانه الآيات في هذه السور، فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم، لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته، وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة، التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين، الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم، كما أحياهم سبحانه بعد موتهم، وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه، واستدل بهذه الآية عليه.

وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون، فإن هذه أمور مرتبة بالأبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤] فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور...

(١) ١٨٦ المفتاح جـ١.

...[١]فمن المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمينُ الرجل، فإنها معينة على ما شرع الله سبحانه له من النكاح وملك اليمين، من إعفاف الرجل نفسه وأهله، فلا تطمع نفسه إلى سواها من الحرام، ويعفها، فلا تطمح نفسها إلى غيره، وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتمَّ وأقوى كان هذا المقصود أتم وأكمل، قال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

...[٢]وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله، وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] الآية، فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن إليها قلبه، وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨] وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر عنهن.

***

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨].

[٣]أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريك له في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد به، وهو الإلهية، التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني

(١) ١٣٩ الإغاثة جـ٣.
(٢) ٣٢٤ الجواب.
(٣) ١٨٦ الجواب.

بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله بحق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن سلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدر على إنقاذه منه، قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] الآية فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

...[1] قال الله تعالى حاكيًا عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] وكم يقول لهم في كتابه: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فينبههم على ما في عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح، ويحتج عليهم بها، ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل.

وكم في القرآن من مثل عقلي وحسي ينبه به العقول على حسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه، فلو لم يكن في نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى، ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهي دون ضرب الأمثال، وتبيين جهة القبح المشهودة بالحسن والعقل.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره كقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨] يحتج

(١) ٢٣٩ المدارج جـ١.

سبحانه عليهم لما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكًا له فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر، والسمع نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

[(١)] قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] وهذا دليل قياس احتج الله سبحانه به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها معلوم لها، فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؟ أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء، تخافون أن يقاسموكم أموالكم، ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه. وقال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضًا[(٢)]، والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟! فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكًا لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، وأنتم

---

(١) ١٥٩ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٣٩) والبخاري معلقًا في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الم غلبت الروم (ص ٩٣١) قبل حديث رقم (٤٧٧٤).

وهم عبيد لي فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول.

***

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

(١)في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما ينتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها» ثم قرأ أبو هريرة: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾(٢).

وفي لفظ آخر: «ما من مولود إلا يولد على هذه الملة»(٣). وقد اختلف في معنى هذه الفطرة والمراد بها، فقال القاضي أبو يعلي في معنى الفطرة: ههنا روايتان عن أحمد أحدهما: الإقرار بمعرفة الله تعالى، وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في أصلاب آبائهم، حتى مسح ظهر آدم، فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم. ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعًا ومدبرًا، وإن سماه بغير اسمه، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول، قال: وليس الفطرة هنا الإسلام لوجهين: أحدهما: أن معنى الفطرة ابتداء الخلقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١] أي مبتدئها، وإذا كانت الفطرة هي الابتداء وجب أن تكون تلك هي التي

---

(١) ٢٨٣ شفاء.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٣٥٨) ومسلم (رقم ٢٦٥٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٤١) وعزاه إلى المسند والسنن.

وقعت لأول الخليقة، وجرت في فطرة المعقول، وهو استخراجهم ذرية، لأن تلك حالة ابتدائهم، ولأنها لو كانت الفطرة هنا الإسلام لوجب إذا ولد بين أبوين كافرين أن لا يرثهما ولا يرثانه ما دام طفلا، لأنه مسلم، واختلاف الدين يمنع الإرث، ولوجب أن لا يصح استرقاقه، ولا يحكم بإسلامه بإسلام أبيه لأنه مسلم، قال وهذا تأويل ابن قتيبة، وذكره ابن بطة في الإبانة، قال: وليس كل من تثبت له المعرفة حكم بإسلامه كالبالغين من الكفار، فإن المعرفة حاصلة وليسوا بمسلمين. قال: وقد أومأ أحمد إلى هذا التأويل في رواية الميموني، فقال: الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها. فقال له الميموني: الفطرة الدين. قال: نعم قال القاضي: وأراد أحمد بالدين المعرفة التي ذكرناها[١].

[٢]وأما احتجاج أحمد بقول أبي هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ فهذه الآية فيها قولان: أحدهما: أن معناها النهي كما تقدم عن ابن جرير أنه فسرها، فقال أي لا تبدلوا دين الله الذي فطر عليه عباده. وهذا قول غير واحد من المفسرين لم يذكروا غيره. والثاني ما قاله إسحاق: وهو أنها خبر على ظاهرها، وأن خلق الله لا يبدله أحد. وظاهر اللفظ خبر، فلا يجعل نهيا بغير حجة، وهذا أصح، وحينئذ فيكون المراد أن ما جبلهم عليه من الفطرة لا يبدل، فلا يجبلون على غير الفطرة، لا يقع هذا أصلا. والمعنى أن الخلق لا يتبدل فيخلقون على غير الفطرة، ولم يرد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبين أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدع ولا تولد بهيمة مخصية ولا مجدوعة، وقد قال تعالى عن الشيطان: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩] فالله

---

(١) تعرض المؤلف للخلاف مطولًا هنا، وطرق البحث بعضها في أحكام أهل الذمة. ونص كلامه: وقد استوفيناها في كتابنا: في أحكام أهل الملل بأدلتها. إلخ. والتسمية غير مطابقة لما ذكرنا من اسم الكتاب (ج).

(٢) ٢٩٤ شفاء.

أقدر الخلق على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته، وإنما تبديل الخلق بأن يخلقوا على غير تلك الفطرة، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، والله لا يفعله، كما قال: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل: لا تغيير، فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصول بدله، ولكن إذا غير بعد وجوده لم يكن الخلق الموجود عند الولادة.

وأما قول القائل: لا تبديل للخلقة، التي جبل عليها بنو آدم كلهم من كفر وإيمان، فإن عني به ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه، فهذا حق، ولكن ذلك لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع، ولا أنه غير مقدور، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان، وعلى ترك ما نهاه عنه من الكفر، وعلى أن يبدل حسناته بالسيئات وسيئاته بالحسنات، كما قال الله: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ [النمل: ١١].

وهذا التبديل كله بقضاء الله وقدره، وهذا بخلاف ما فطروا عليه حين الولادة، فإن ذلك خلق الله الذي لا يقدر على تبديله غيره، وهو سبحانه لا يبدله بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس، فإنه يبدله كثيرًا، والعبد قادر على تبديله بإقدار الرب له على ذلك.

ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] فهذه فطرة محمودة أمر الله بها نبيه، فكيف تنقسم إلى كفر وإيمان مع أمر الله تعالى بها، وقد تقدم تفسير السلف ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ أي لدين الله أو النهي عن الخصا ونحوه، ولم يقل أحد منهم: إن المعني لا تبديل لأحوال العباد من كفر إلى إيمان وعكسه، فإن تبديل ذلك موجود ومهما وقع كان هو الذي سبق به القدر، والرب تعالى عالم بما سيكون، لا يقع خلاف معلومه، فإذا وقع التبديل كان هو الذي علمه.

[(١)] وأما تفسير قول النبي ﷺ: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» أنه أراد به مجرد

---

(١) ٢٩٦ شفاء.

الإلحاق في أحكام الدنيا، دون أن يكون أراد أنهما يغيران الفطرة، فهذا خلاف ما يدل عليه الحديث، فإنه شبه تكفير الأطفال بجدع البهائم تشبيها للتغيير بالتغيير، وأيضًا فإنه ذكر هذا الحديث لما قتل أولاد المشركين، فنهاهم عن قتلهم، وقال: «أليس خياركم أولاد المشركين؟ كل مولود يولد على الفطرة»[1] فلو أراد أنه تابع لأبويه في الدنيا لكان هذا حجة لهم يقولون هم كفار كآبائهم، وكون الصغير يتبع أبواه في أحكام الدنيا هو لضرورة بقائه في الدنيا، فإنه لا بد له من مرب يربيه، وإنما يربيه أبواه، فكان تابعًا لهما ضرورة، ولهذا من سبي منفردًا عنهما صار تابعًا لسابيه عند جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم، لكونه هو الذي يربيه، وإذا سبي منفردا عن أحدهما أو معهما ففيه نزاع بين العلماء، واحتجاج الفقهاء كأحمد وغيره بهذا الحديث على أنه متى سبي منفردًا عن أبويه يصير مسلمًا، إذ يستلزم أن يكون المراد بتكفير الأبوين لهما مجرد لحاقه لهما في الدين.

ولكن وجه الحجة أنه إذا ولد ولد على الملة فإنما ينقله عنه الأبوان اللذان يغيرانه عن الفطرة، فمتى سباه المسلمون منفردًا عنهما لم يكن هناك من يغير دينه، وهو مولود على الملة الحنيفية، فيصير مسلما بالمقتضى السالم عن المعارض، ولو كان الأبوان يجعلانه كافرًا في نفس الأمر بدون تعليم لكان الصبي المسبي بمنزلة البالغ الكافر، ومعلوم أن البالغ الكافر إذا سباه المسلمون لم يصر مسلما، لأنه صار كافرا حقيقة، فلو كان الصبي التابع لأبويه كافرا حقيقة لم ينتقل عن الكفر بالسباء، فعلم أنه كان يجري عليه حكم الكفر في الدنيا تبعا لأبويه لا أنه صار كافرا في نفس الأمر. تبين ذلك أنه لو سباه كفار ولم يكن معه أبواه لم يصر مسلما، فهو هنا كافر في حكم الدنيا، وإن لم يكن أبواه هوداه ونصراه، فعلم أن المراد بالحديث: أن الأبوين يلقناه الكفر ويعلمانه إياه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٤١ رقم ١٣٢) وفي موارد الظمآن (رقم ١٦٥٨) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٨٠ رقم ١٩٨٤) وفي الكبير (١/ ٢٨٣ رقم ٨٢٧) وصححه ابن عبدالبر في التمهيد (١٨/ ٦٨).

وذكر النبي ﷺ الأبوين لأنهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال، فإن كل طفل فلا بد له من أبوين، وهما اللذان يربيانه مع بقائهما وقدرتهما، ومما يبين ذلك قوله في الحديث الآخر: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه: فإما شاكرًا وإما كفورًا»[(١)]. فجعله على الفطرة إلى أن يعقل ويميز، فحينئذ يتبين له أحد الأمرين، ولو كان كافرا في الباطن بكفر الأبوين، لكان ذلك من حين يولد قبل أن يعرب عنه لسانه، وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[(٢)]. صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم وحرمت عليهم الحلال وأمرتهم بالشرك، فلو كان الطفل كان يصير كافرًا في نفس الأمر من حين يولد لكونه يتبع أبويه في الدين قبل أن يعلمه أحد الكفر ويلقنه إياه لم تكن الشياطين هم الذين غيروهم عن الحنيفية وأمروهم بالشرك.

...[(٣)]قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه، المتضمن محبته وعبادته حنيفًا مقبلًا عليه، معرضًا عمَّا سواه، هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت، كما قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها» ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٢٤٨ رقم ٤٧٣١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢١٨): رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة، وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٨).
(٣) ٨٧ الروح.

ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١]. منيبين نصب على الحال من المفعول، أي فطرهم منيبين إليه، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده والإعراض عما سواه.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا، أنه قال: كل مال نحلته عبدًا فهو له حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**». فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره، وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره، فكونه سبحانه أهلًا أن يعبد ويحب ويحمد ويُثنى عليه أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك...

...[1]فصل قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها، ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيينا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة»، وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ [هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ إلى أن قال: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٦-٨] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ

(١) ٤٣٣ المدارج جـ١.

ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١].

«فمنيبين» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته، أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه، نظيره قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالا من المفعول في قوله: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ أي فطرهم منيبين إليه، فلو خلُّوا وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تتحول وتتغير عما فطرت عليه، كما قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة - وفي رواية: على الملة - حتى يعرب عنه لسانه**»(١) وقال عن نبيه داود: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩﴾ [ص: ٢٤]، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، فقال: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾ [ق: ٣١-٣٤] وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧].

والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع، وهذه (الإنابة) لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣) وأبو يعلى (٢/ ٢٤٠ رقم ٩٤٢) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٣ رقم ٨٢٨) وعبد الرزاق (١١/ ١٢٢ رقم ٢٠٠٩١).

أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع، وهي ههنا الرجوع إلى الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحا كما رجع إليه اعتذارا، والرجوع إليه وفاء كما رجع إليه عهدا، والرجوع إليه حالا كما رجعت إليه إجابة».

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد والنصح في طاعته، كما قال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة، فلابد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولًا، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا، والدين كله: عهد ووفاء، فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته: فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة، كما كلم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم، ومدح الموفين بعهده، وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١] وقال: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق: «**الغدر بعد العهد**». فما أناب إلى الله ﷻ من خان عهده وغدر به. كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده، فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «والرجوع إليه حالا كما رجعت إليه إجابة»، أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولًا، فلابد من الإجابة حالا تصدق به المقال، فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها، وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال.

***

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

...[1]اعلم: أن الله سبحانه أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تامُّ المنفعة لما هيئ وخُلِقَ له، وإنما تعرِضُ له الآفاتُ بعد ذلك بأُمور أُخَر من مجاورة، أو امتزاج واختلاط، أو أسباب أُخَر تقتضي فسادَه، فلو تُرِكَ على خِلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به، لم يفسد.

ومَنْ له معرفة بأحوال العالَم ومبدئه يعرِف أنَّ جميع الفساد في جَوِّه ونباته وحيوانه وأحوالِ أهله، حادثٌ بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثَه، ولم تزل أعمالُ بنى آدَم ومخالفتُهم للرُّسُل تُحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام، والأمراض، والأسقام، والطواعين، والقحوط، والجدوب، وسلب بركات الأرض، وثمارها، ونباتها، وسلب منافعها، أو نقصانها أُموراً متتابعة يتلو بعضُهَا بعضاً. فإن لم

(١) ٣٨٥ الزاد جـ٣.

يَتَّسِعْ علمك لهذا فاكتفِ بقوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ونَزِّل هذه الآية علىٰ أحوالِ العالَم، وطابِقْ بين الواقع وبينها، وأنت ترىٰ كيف تحدث الآفاتُ والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدُث من تلك الآفات آفاتٌ أُخَرُ متلازمة، بعضُها آخذ برقاب بعض، وكُلَّما أحدث الناسُ ظلماً وفجوراً، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالىٰ من الآفات: والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصُورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم. ولقد كانت الحبوب من الحِنطة وغيرها أكبرَ مما هي اليوم، كما كانت البركةُ فيها أعظمَ. وقد روىٰ الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حِنطةٌ أمثال نوىٰ التمر مكتوبٌ عليها: هذا كان ينبُت أيامَ العدل[1]. وهذه القصة، ذكرها في مسنده علىٰ أثر حديث رواه. وأكثرُ هذه الأمراض والآفات العامة بقيةُ عذاب عُذِّبتْ به الأُمَمُ السالفة، ثم بقيت منها بقية مُرصَدَةٌ لمن بقيت عليه بقيةٌ من أعمالهم، حكماً قسطاً، وقضاءً عدلاً، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا بقوله في الطاعون: «إنَّه بقيةُ رجز أو عذاب أُرسِلَ علىٰ بني إسرائيلَ»[2].

وكذلك سلَّط اللهُ ﷻ الريحَ علىٰ قوم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام، ثم أبقَىٰ في العالَم منها بقيةً في تلك الأيام، وفي نظيرها عِظةً وعِبرة. وقد جعل اللهُ سبحانه أعمال البرِّ والفاجر مقتضياتٍ لآثارها في هذا العالَم اقتضاءً لابد منه، فجعل منعَ الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغَيْث من السماء، والقحطِ والجَدْبِ، وجعَلَ ظلمَ المساكين،

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد (١٣/ ٣٣١ رقم ٧٩٤٩): هذا خبر إسناده ضعيف لا يثبت، وليس هو بحديث، ولا ندري وجه وقوعه في مسند أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٢٢٠ رقم ٢٩٥٤) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٣٦٢ رقم ٧٥٢٤) والترمذي (رقم ١٠٦٥) وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ١٤٨).

والبخسَ في المكاييل والموازين، وتعدِّي القَوِّيِّ على الضعيف سببًا لجَوْر الملوك والولاة، الذين لا يَرحمون إن اسْتُرْحِموا، ولا يَعْطِفُون إن استُعطِفُوا، وهم في الحقيقة أعمالُ الرعايا ظهرت في صور وُلاتهم[1]، فإنَّ الله سبحانه بحكمته وعدله يُظهِرُ للناس أعمالَهم في قوالِب وصورٍ تناسبها، فتارةً بقحط وجدب، وتارة بعدوٍّ، وتارةً بولاة جائرين، وتارةً بأمراضٍ عامة، وتارةً بهُموم وآلام وغموم تحضُرها نفوسُهم لا ينفكُّونَ عنها، وتارةً بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارةً بتسليط الشياطين عليهم تَؤُزُّهم إلى أسباب العذاب أزًّا، لِتَحِقَّ عليهم الكلمة، وليصيرَ كل منهم إلى ما خُلِقَ له.

والعاقل يسير ببصيرته بين أقطار العالَم، فيُشاهدُه، وينظر مواقعَ عدل الله وحكمته، وحينئذ يَتَبَيَّنُ له أنَّ الرُّسُلَ وأتباعَهُم خاصةً على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البَوار صائرون، والله بالغُ أمرِه، لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا رادَ لأمره.. وبالله التوفيق.

...[2] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم، وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر[3].

---

(١) تقدم في أول سورة القصص ما هو أبسط من هنا نقلًا عن الشفاء (ج).

(٢) ١٤ البدائع جـ٣.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٧٠ رقم ١٤٤٨). وانظر: تذكير ذوي القلوب بخطر المعاصي والذنوب من تأليفي وهو من منشورات دار السلام بالرياض.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله، هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله. ومن تدبر هذا حق التدبر، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عموما وخصوصا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

...[1] ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها يحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهوى والزروع والثمار والمساكن قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر[2]. وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء[3]. وقال قتادة: أما

---

(١) ٨٣ الجواب.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣١٧) (٢١/ ٤٩) وابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٧ رقم ١٩٣١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٩).

البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرئ والريف[١]. قلت: وقد سمى الله تعالىٰ الماء العذب بحرًا، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] وليس في العالم بحر حلو واقفًا، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن، فتسمى القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه، وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال الذنوب[٢].

قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لام العاقبة والتعليل. وعلى الأول: فالمراد بالفساد والنقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم. كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة[٣] والظاهر والله أعلم أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة، ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم، إلا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الإبل، لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار، وما ترى به من الآفات، وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: وجدت في خزائن بعض بني أمية حبة حنطة الحبة بقدر نواة التمرة، وهي في صرة مكتوب عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل[٤]، وكثير من

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٩).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٩).
(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦١٨) إلى أبي الشيخ عن مالك بن دينار رحمه الله.
(٤) سبق تخريج هذا قبل صفحات ثلاثة.

هذه الآفات أحدثها الله ﷻ بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب. وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن، فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة يخرج عبدًا من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ، فيملأ الأرض قسطا كما ملئت جورًا، ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير، وأن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس**»[1]. وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى، التي محقتها الذنوب والكفر، ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض، تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولًا وآخرًا، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته، وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

***

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٢٤٠) وأحمد (٤/ ١٨١) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٥٤-٣٥٦ رقم ٦١٤) وانظر: شرح النووي (١٨/ ٦٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

...[1]إنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

[2]فائدة عظيمة: أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن الله سبحانه بينهما في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]. وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان، اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما. حتى أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة، وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان، اللذين جاء بهما الرسول ﷺ، ودعا إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم.

فكل طائفة اعتقدت أن العلم معها وفرحت به ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام كما قال حمّاد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدّم؟

(١) ٥٩ المفتاح جـ١.

(٢) ١٠٢ فوائد.

فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر!

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام. فالكتب كثيرة جدا والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول عن الله: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال في القرآن: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]، أي وفيه علمه.

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علما، ووضعوا فيها الكتب، وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان، وملأوا بها الصحف مدادًا. والقلوب سوادًا.

***

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(١) وجه استدلاله بالآية في غاية الظهور، وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل ولا بمخالطة أصحاب الغفلات ولا بمعاشرة أهل البطالات، بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠] فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوقنون، ومتى ضعف صبره ويقينه، أو كلاهما استفزه هؤلاء، واستخفه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه، فكلما ضعف ذلك منه قوي جذبهم له، وكلما قوي صبره ويقينه قوي انجذابه منهم وجذبه لهم.

...(٢) وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

(١) ٢١٥ المدارج جـ٣.
(٢) ٥٥ التبيان.

[الروم: ٦٠] فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم، وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الروم

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

[١]قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين: على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير ومقسم عنه، وقاله عبد الله بن مسعود، في رواية أبي الصهباء عنه، وهو قول مجاهد وعكرمة[٢].

وروى ثور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَشْتَرِى الْجَارِيَةَ تُغَنِّيهِ لَيْلاً وَنَهَارًا»[٣].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: «هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير، والاستماع إليه، وإلى مثله من الباطل» وهذا قول مكحول. وهذا اختيار أبي إسحاق أيضاً.

قال: أكثر ما جاء في التفسير: أن لهو الحديث هاهنا هو الغناء، لأنه يلهي عن ذكر الله تعالى.

قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في هذا كل من اختار اللهو، والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء، فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال، والاختيار، وهو كثير في القرآن. قال: ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه

---

(١) ٢٣٨ الإغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن مسعود وابن عباس (٢١/ ٦١-٦٣).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود (٤/ ٢٧٩ رقم ٥١٠٤) بينما ذكره العيني في عمدة القاري (٢٢/ ٢٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الآية: «لعله أن لا يكون أنفق مالاً»، قال: «وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق».

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء، ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة بإعلان الغناء. قال: وأما غناء القينات: فذلك أشد ما في الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه، وهو ما روي أن النبي ﷺ قال: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَىٰ قَيْنَةٍ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١). الآنك: الرصاص المذاب.

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبي ﷺ. ففي مسند الإمام أحمد، ومسند عبد الله بن الزبير الحميدي، وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة، والسياق للترمذي: أن النبي ﷺ قال: «لا تَبِيعُوا الْقينَاتِ، وَلا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلا تُعَلِّمُوهُنَّ، وَلا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ، في مثل هذا نزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾»(٢). وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد الإلهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة، والقاسم ثقة، وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات، سنذكرها إن شاء الله، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث: بأنه الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود.

قال أبو الصهباء: «سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقال: والله الذي لا إله غيره هو الغناء - يرددها ثلاث مرات»(٣).

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً «أنه الغناء». قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير، من كتاب المستدرك: «ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٢٨٢، ٣١٩٥).

(٣) أخرجه الطبري (٢١/ ٦١) والحاكم (٢/ ٤٤٥ رقم ٣٥٤٢) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٧٨ رقم ٥٠٩٦) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٢-٤٤٣).

شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين: حديث مسند»[١]. وقال في موضع آخر من كتابه: «هو عندنا في حكم المرفوع»[٢].

وهذا، وإن كان فيه نظر، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله ﷻ من كتابه، فعليهم نزل، وهم أول من خوطب به من الأمة. وقد شاهدوا تفسيره من الرسول ﷺ علماً وعملاً، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل.

ولا تعارض بين تفسير «لهو الحديث» بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها، وملوك الروم، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة، يشغلهم به عن القرآن، فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: «لهو الحديث: الباطل والغناء». فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر، ومنهم من جمعهما.

والغناء أشد لهوًا، وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم، فإنه رقية الزنا، ومنبت النفاق، وشرك الشيطان، وخمرة العقل، وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل، لشدة ميل النفوس إليه، ورغبتها فيه.

إذا عرف هذا، فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه، فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن، ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، وإذا يُتْلَى عليه القرآن ولى مستكبرًا كأن لم يسمعه، كأن في أذنيه وقراً، وهو الثقل والصمم، وإذا علم منه شيئًا استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرًا، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم، فلهم حصة ونصيب من هذا الذم.

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٢٨٣ رقم ٣٠٢١) والسيوطي عنه في تدريب الراوي (١/ ١٩٢).

(٢) انظر: فتح الباري (٥/ ١٥٠) (٩/ ٣١٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٣٦) (٢/ ٩٢) (٣/ ٥١٤) وعمدة القاري (١٣/ ٨١) وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٦/ ١٤١) (٩/ ٢٤٢).

يوضحه: أنك لا تجد أحدًا عُنِيَ بالغناء وسماع آلاته، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدىٰ، علماً وعملاً، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلىٰ استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلىٰ ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال علىٰ أن يسكت القارئ ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيب وافر من هذا الذم، إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها. فأما من مات قلبه، وعظمت فتنته، فقد سد علىٰ نفسه طريق النصيحة: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

...[1] قال ابن أبي الدنيا: حدثنا هارون بن عبيد الله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أشرس أبو شيبان الهذلي قال: قلت لفرقد السبخي: أخبرني يا أبا يعقوب، من تلك الغرائب التي قرأت في التوراة، فقال: «يا أبا شيبان، والله ما أكذب علىٰ ربي ـ مرتين أو ثلاثاً ـ لقد قرأت في التوراة: ليكونن مسخ وخسف وقذف في أمة محمد ﷺ في أهل القبلة، قال: قلت: يا أبا يعقوب ما أعمالهم؟ قال: باتخاذهم القينات، وضربهم بالدفوف، ولباسهم الحرير والذهب، ولئن بقيت حتىٰ ترىٰ أعمالاً ثلاثة، فاستيقن واستعد واحذر. قال: قلت: ما هي؟ قال: إذا تكافأ الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ورغبت العرب في آنية العجم، فعند ذلك. قلت له: العرب خاصة؟ قال: لا؛ بل أهل القبلة، ثم قال: والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يشدخون بها في طرقهم وقبائلهم. كما فُعل بقوم لوط، وليمسخن آخرون قردة وخنازير، كما فعل ببني إسرائيل وليخسفن بقوم كما خسف بقارون»[2].

(١) ٢٦٥ الإغاثة جـ١.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩١) إلىٰ ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي.

وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة، وهو مقيد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء، وشاربي الخمر، وفي بعضها مطلق.

قال سالم بن أبي الجعد: «ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون أن يخرج إليهم، فيطلبون إليه حاجتهم، فيخرج إليهم وقد مسخ قردًا أو خنزيرًا، وليمرنَّ الرجل على الرجل في حانوته يبيع، فيرجع إليه وقد مسخ قردًا أو خنزيرًا»(١).

وقال أبو هريرة ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيمسخ أحدهما قرداً أو خنزيراً، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي إلى شأنه ذلك، حتى يقضي شهوته، وحتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيخسف بأحدهما، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمشي لشأنه ذلك، حتى يقضي شهوته منه»(٢).

وقال عبد الرحمن بن غنم: «سيكون حيان متجاورين، فيشق بينهما نهر، فيستقيان منه، قبسهم واحد، يقبس بعضهم من بعض، فيصبحان يوماً من الأيام قد خسف بأحدهما والآخر حي». وقال عبد الرحمن بن غنم أيضًا: «يوشك أن يقعد اثنان على رحا يطحنان، فيمسخ أحدهما والآخر ينظر»(٣).

وقال مالك بن دينار: «بلغني أن ريحا تكون في آخر الزمان وظُلَم، فيفزع الناس إلى علمائهم، فيجدونهم قد مسخوا»(٤).

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩١) إلى ابن أبي الدنيا. وانظر: عون المعبود (١١/ ٥٩) ونيل الأوطار (٢/ ٨٦).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩١-٤٩٢) إلى ابن أبي الدنيا. وانظر: عون المعبود (١١/ ٥٩) ونيل الأوطار (٢/ ٨٧).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد المروزي في الفتن (١/ ٣٠٥ رقم ٨٨٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩٢) إلى ابن أبي الدنيا.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ٢٥٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩٢) إلى ابن أبي الدنيا.

قال بعض أهل العلم: إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق، وانصبغ بذلك صبغاً تاما، صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك: من القردة، والخنازير، وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوًّا خفيًّا، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا على الوجه، ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة، كما قلب الهيئة الباطنة، ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخا من صور الحيوانات، التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن، فقل أن ترى محتالاً مكارًا مخادعًا خَتَّارًا إلا وعلى وجهه مسخة قرد، وقل ترى رافضيًّا إلا وعلى وجهه مسخة خنزير، وقل أن ترى شرها نهما، نفسه نفس كلبية إلا وعلى وجهه مسخة كلب. فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط، فإذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة، ولهذا خوف النبي ﷺ من سابق الإمام في الصلاة بأن يجعل الله صورته صورة حمار[1]، لمشابهته للحمار في الباطن، فإنه لم يستفد بمسابقة الإمام إلا فساد صلاته، وبطلان أجره، فإنه لا يسلم قبله، فهو شبيه بالحمار في البلادة، وعدم الفطنة.

إذا عرف هذا فأحق الناس بالمسخ هؤلاء الذين ذكروا في هذه الأحاديث، فهم أسرع الناس مسخاً قردة وخنازير، لمشابهتهم لهم في الباطن، وعقوبات الرب تعالى، نعوذ بالله منها جارية على وفق حكمته وعدله.

وقد ذكرنا شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني، ونقضناها نقضًا وإبطالًا في كتابنا الكبير في السماع، وذكرنا الفرق بين ما يحركه سماع الأبيات وما يحركه سماع الآيات، وذكرنا الشبه التي دخلت على كثير من العباد في حضوره، حتى عدوه من القرب، فمن أحب الوقوف على ذلك فهو مستوفى في ذلك الكتاب، وإنما أشرنا ههنا إلى نبذة يسيرة في كونه من مكايد الشيطان، وبالله التوفيق.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «أما يخشى أحدكم. أو: لا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل الله صورته صورة حمار» أخرجه البخاري (رقم ٦٩١) ومسلم (رقم ٤٢٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٨٣) وشرح النووي (٤/ ١٥١-١٥٧).

...[١]ومن مكايد عدو الله ومصايده، التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء، والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنا، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقة غاية المنى، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسنه لها مكراً منه وغروراً، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه، فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً.

فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟ ويحق لهم ذلك، وقد خالط خماره النفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حُميَّا الكؤوس، فلغير الله، بل الشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تنفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخَزَ في صدورهم وخزاً. وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا، فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسُيط الديار. فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وجداً، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زنداً، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان، وولج مزموره سمعه،

(١) ٢٢٤ الإغاثة جـ١.

تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.

فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هذه الأشجان، عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد، عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السنيات، عند تلاوة السور والآيات؟ ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، والجنسية علة الضم قدراً وشرعاً، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعاً، فمن أين هذا الإخاء والنسب؟ لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللاً؟ ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

...[1] فصل في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف وسيأتي الأحاديث في ذلك.

عن عبد الرحمن بن غَنْم قال: حدثني أبو عامر، أو أبو مالك الأشعري رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَّ والْحَرِيرَ وَالْخمرَ وَالمَعَازِفَ» هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه محتجاً به، وعلقه تعليقاً مجزوماً به، فقال: «باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه»، وقال هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا عطية بن قيس الكلابي حدثني عبد الرحمن بن غنم الأشعري حدثني أبو عامر، أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والْحَرِيرَ وَالْخَمرَ وَالمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ

(١) ٢٥٨ الإغاثة جـ١.

إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يأْتِيهِمْ لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُوا ارْجعْ إِلَيْنَا غَداً، فَيُبَيِّتُهُمُ اللهُ تَعَالَى وَيَضَعُ العَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وخنازير إِلى يوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١)].

ولم يصنع من قدح في صحة هذا الحديث شيئًا، كابن حزم، نصرة لمذهبه الباطل في إباحة الملاهي، وزعم أنه منقطع، لأن البخاري لم يصل سنده به. وجواب هذا الوهم من وجوه:...

[(٢)]ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات، وقد أمر الله به في كتابه، وأثنى على أهله، وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾ [المائدة: ١٠٨] وقال: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: ٤٦] وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلا على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلا على عدم الخير فيهم، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه، وكم في القرآن من قوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٩٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٤).
(٢) ٤٨١ المدارج جـ١.

يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

فالسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسه ووزيره ولكن الشأن كل الشأن في المسموع، وفيه وقع خبط الناس واختلافهم، وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها: طلبًا وهربًا وحبًّا وبغضًا، فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله لا يسمع بغيره، كما في الحديث الإلهي الصحيح: «فبي يسمع، وبي يبصر»، وهذا أعلى سماعًا، وأصح من كل أحد.

والكلام في «السماع» ـ مدحًا وذمًّا ـ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع وحقيقته وسببه، والباعث عليه وثمرته وغايته، فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار، والحق والباطل، والممدوح والمذموم. فأما «المسموع»، فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمه، فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات المباحة، فمن حرم هذا النوع الثالث، فقد قال على الله ما لا يعلم، وحرَّم ما أحل الله، ومن جعله دينا وقربة يتقرب به إلى الله فقد كذب على الله، وشرع دينا لم يأذن به الله، وضاهأ بذلك المشركين.

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم، وجعلهم أضل من الأنعام سبيلًا، وهم القائلون في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله، فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه، وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراك: بحاسة الأذن، وسماع فهم وعقل، وسماع منهم إجابة وقبول، والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة، بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل، وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولًا وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا، لأن في قلبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١] فإن هذا سماع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه واستجابوا له.

ومن سمع القبول قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: قابلون منهم، مستجيبون لهم، هذا أصح القولين في الآية.

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس، فضعيف، فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد، والسعي بين العسكر بالفتنة، وفي العسكر من يقبل منهم ويستجيب لهم، فكان في إقعادهم عنهم لطفا بهم ورحمة، حتى لا يقعوا في عنت القبول منهم.

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد، ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم، وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم، لئلا يسعوا بالفساد في العسكر، ولئلا يبغوهم الفتنة، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضًا فإن الجواسيس إنما تسمى «عيونًا»، هذا المعروف في الاستعمال، لا تسمى سماعين.

وأيضًا فإن هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، أي قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا وتدبرًا وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات لا سماع الأبيات، وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء وسماع المراشد لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء

والصباح من قبل فالق الإصباح: «حي على الفلاح، حي على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردا على ضلالة، وإرشادا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرا بمصلحة، ونهيا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاءً، ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد؟ ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونورًا وحياة: هل وجدوا ذلك أو شيئًا منه في الدف والمزمار ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق، الذي يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان، فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه، ويزعج قاطنه، فيثور وجده، ويبدو شوقه، فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائنًا ما كان، ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقًا في السماع وحالًا ووجدًا وبكاءً.

ويالله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات، لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه: من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو في الصور المحرمة، ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله، ويزداد إيمانا وقربا منه وكرامة عليه بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يمقت قائله والراضي به، وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع وسنة نبيه ﷺ؟!

يالله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به، منكوس، لم يصلح لحقائق القرآن،

وأذواق معانيه، ومطالعة أسراره، فبلاه بقرآن الشيطان، كما في معجم الطبراني وغيره مرفوعًا وموقوفًا: إن الشيطان، قال: يارب اجعل لي قرآنا قال: قرآنك الشعر قال: اجعل لي كتابا قال: كتابك الوشم قال: اجعل لي مؤذنًا قال: مؤذنك المزمار قال: اجعل لي بيتا قال: بيتك الحمام قال: اجعل لي مصائد قال: مصائدك النساء قال: اجعل لي طعامًا قال: «طعامك ما لم يذكر عليه اسمي»[(١)] والله ﷻ أعلم.

فصل: القسم الثاني من السماع ما يبغضه الله ويكرهه، ويمدح المعرض عنه، وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه، كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به، وقصد أن يعلم به حسن ضده، فإن الضد يظهر حسنه الضد، كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادني حبًّا له: سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥] وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] قال محمد ابن الحنفية: هو الغناء، وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل»[(٢)]. وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر، ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه، فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى، وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرمهم به وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم، وعدم انتفاع

---

(١) أخرجه الطبراني في معجم الكبير (٨/ ٢٠٧ رقم ٧٨٣٧) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١١٩): رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف، وقد تقدم لهذا طرق في كتاب الإيمان. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٢٣ رقم ٢٠٧٩٦) وفي شعب الإيمان (٤/ ٢٧٩ رقم ٥١٠٠) وانظر: العلل ومعرفة الرجال (٢/ ٧٦ رقم ١٥٩٧) وعمدة القاري (٢٢/ ٢٧٤) وعون المعبود (١٣/ ١٨٣-١٨٤)، وفيض القدير (٤/ ٤١٣).

قلوبهم بما يقرأه، فلا تتحرك ولا تطرب ولا تهيج منها بواعث الطلب، فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب، وتطمئن، ويقع البكاء والوجد والحركة الظاهرة والباطنة والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمني طول الليل، فإن لم يكن هذا نفاقًا، فهو آخية النفاق وأساسه.

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا ... والله ما رقصوا من أجل الله
دف ومزمار ونغمة شاهد ... فمتى شهدت عبادة بملاهي؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي
وعليهم خف الغنا لما رأوا ... إطلاقه في اللهو دون مناهي
يا فرقة ما ضر دين محمد ... وجنى عليه وملَّه إلا هي
سمعوا له رعدًا وبرقا إذ حوى ... زجرًا وتخويفا بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ويحها المتناهي
وأتى السماع موافقًا أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه...[(١)]

***

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾.

[(٢)]هذا أيضًا اسم جامع لجميع الجنات، لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس، والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج، والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن.

***

(١) بقية البحث مع بقية هذه الأبيات في الأصل لمن أرادها . ٤٨٧ مدارج جـ١ (ج).
(٢) ٧٥ حادي الأرواح.

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

(١)لله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك: فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت من شيء مع الله طولبوا بأن يُروه إياه، وإن اعترفت أنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت آلهتها باطلًا ومحالاً.

...(٢)تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها، واقفة ساكنة لتكون مهادًا ومستقرًّا للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس لراحاتهم، والنوم لهدوهم، والتمكن من أعمالهم، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هدوًّا، ولا ثبت لهم عليها بناء، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها، كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤] وقوله: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [الزخرف: ١٠] وفي القراءة الأخرى مهادًا.

وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **«لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الريح. قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم، يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله»**(٣).

---

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ٢١٧ مفتاح جـ١.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٦٩) وأحمد (٣/ ١٢٤) وأبو يعلى (٧/ ٢٨٦ رقم ٤٣١٠) وعبد بن حميد (رقم =

ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها، فإنها لو أفرطت في اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان، ولا تمكنا من الانتفاع بها، ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها، فنقصت عن يبس الحجارة، وزادت على ليونة الطين، فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه، مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة، فتهيأ عليها جميع المصالح.

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها ارفع من مهب الجنوب، وحكمة ذلك أن تتحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها، ثم تفيض فتصب في البحر، فكما أن الباني إذا رفع سطحًا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر، ليكون مصبًّا للماء، ولو جعله مستويًا لقام عليه الماء فأفسده، كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب، ولولا ذلك لبقي الماء واقفًا على وجه الأرض، فمنع الناس من العمل والانتفاع، وقطع الطرق والمسالك، وأضر بالخلق، أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم، الذي أتقن كل شيء.

***

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

...[1]الشأن هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو

=

١٢١٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٤٤١) والضياء المقدسي في المختارة (٦/ ١٥٣ رقم ٢١٤٩) وحسنه محققه الدكتور عبد الملك بن دهيش بينما ضعفه الترمذي بقوله: غريب. وكذا ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٤٧٧٠) وفي ضعيف سنن الترمذي. وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٨٥).

(١) ٥٠٠ المدارج جـ١.

للشيطان، وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ في النائحة، وقد ضربها حتى بدا شعرها، وقال: «لا حرمة لها[1]. إنها تأمر بالجزع، وقد نهى الله عنه، وتنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتفتن الحي، وتؤذي الميت، وتبيع عبرتها، وتبكي شجو غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير، والذي شاهدناه نحن وغيرنا، وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء، والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر، والله المستعان.

وأما إنعام الرب تعالى على عبده: فإحسان إليه وتفضل عليه، ومجرد امتنان لا لحاجة منه إليه، ولا لمعاوضة ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذلة، ولا ليقوى به من ضعف، سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضًا: إنعام آخر عليه، وإحسان منه إليه، إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة، لا إلى الله، والعبد هو الذي ينتفع بشكره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لقمان: ١٢] فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى، فلا يذم ما أتى به من ذلك، وإن كان لا يحسن مقابلة المنعم به، ولا يستطيع شكره، فإنه إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافئ به لنعم الرب.

فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبدًا ولا أقلها ولا أدنى نعمة من نعمه، فإنه تعالى هو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يشكر عليه، فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه، فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها، فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه، تحتاج إلى شكر آخر، وهلم جرًّا.

ومن تمام نعمته سبحانه وعظيم بره وكرمه وجوده: محبته له على هذا الشكر،

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٥٧ رقم ٦٦٨١).

ورضاه منه، به وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على اللهو، هذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه، ينعم عليك، ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك بذلك، ثم يعيد إليك منفعة شكرك، ويجعله سببًا لتوالي نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

***

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

...[1]من الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب.

***

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

...[2]إنه سبحانه تعالى جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وقال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. **الخامس عشر**: إنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم، وهي الكلمة الحسنى، وأخبر

---

(١) ١٤٠ التبيان.

(٢) ٧٦ عدة الصابرين.

أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. السادس عشر: إنه سبحانه علق محبته بالصبر، وجعلها لأهله، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. السابع عشر: إنه سبحانه أخبر عن خصال الخير، أنه لا يلقاها إلا الصابرون في موضعين من كتابه في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص: ٨٠] وفي سورة حم السجدة، حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة، كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥]. الثامن عشر: إنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال تعالى في لقمان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]، فهذه أربع مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

...[1]الصبر منصور أبدًا، فإن كان صاحبه محقًا كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مبطلًا لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله

(١) ١٥٩ الإعلام جـ٢.

مستعينًا به متوكلًا عليه مفوضًا إليه بريًا من الحول والقوة إلا به، فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمر الأعداء.

قال الإمام أحمد: حدثنا داود أنبأنا شعبة عن واقد بن محمد بن زيد عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: من أسخط الناس برضاء الله ﷻ كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إلى الناس(١).

...(٢)مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته، وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قبله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق ﷺ تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال له عمر بن الخطاب ﷺ بمشهد من الصحابة ﷺ: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها على الله، ولا دية لشهيد» فاتفق الصحابة على قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

***

(١) أخرجه ابن الجعد (رقم ١٥٩٣) وعبد بن حميد (رقم ١٥٢٤) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٣٢ رقم ٨٩٠) وصححه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١١٩).

(٢) ٣٢١ المدارج جـ٢.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

...[1]من قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والمواقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدًا أفردت، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته، فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه، وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

***

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

...[2]الله سبحانه خلق عباده المؤمنين، وخلق كل شيء لأجلهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠] وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق.

...[3]كتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة، وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك، كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق[4]، ومر الربيع بن أبي راشد برجل به

---

(١) ١٣٨ التبيان.

(٢) ٢٤٠ الهجرتين.

(٣) ١٣٦ عدة الصابرين.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٤١ رقم ٤٥٩١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٨٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٠٥).

زمانةٌ فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذي أبكاني[(١)].

وقد روىٰ أبو هريرة ﷺ عن النبي: «إذا أحب أحدكم أن يرىٰ قدر نعمة الله عليه فلينظر إلىٰ من تحته، ولا ينظر إلىٰ من فوقه»[(٢)] قال عبد الله بن المبارك أخبرني يحيىٰ ابن عبد الله قال: سمعت أبىٰ هريرة فذكره، وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه[(٣)]. قال ابن المبارك أخبرنا مالك بن أنس عن اسحق بن عبد الله بن أبىٰ طلحة عن أنس ﷺ قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ سلم علىٰ رجل فرد ﷺ فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله، قال عمر: هذا أردت منك[(٤)]، قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد عن ابن عمر رضىٰ الله عنهما قال :لعلنا نلتقي في اليوم مرارًا، يسأل بعضنا عن بعض، ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله ﷻ[(٥)]. وقال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله علىٰ العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا[(٦)].

***

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٠) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٧٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في مسنده (رقم ٨٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩١).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٥١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٠) والبيهقي في الشعب (٤/ ١١٣ رقم ٤٤٦٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٣).

(٥) أخرجه ابن المبارك في ا لزهد (رقم ٢٠٧) والبيهقي في الشعب (٤/ ١١٠ رقم ٤٤٥١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٤).

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٧٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١١٩ رقم ٤٥٠٠) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٦) وانظر: تهذيب الكمال (١١/ ١٩١) والدر المنثور (٥/ ٤٤).

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

...[1]قد دل القرآن والسنة والعقل الصريح على أن كلمات الله وأفعاله لا تتناهى، ولا تنقطع بآخر، ولا تجد بأول، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، فأخبر عن عدم نفاد كلماته لعزته وحكمته، وهذان وصفان ذاتيان له ﷻ، لا يكون إلا كذلك، وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن سليمان بن عامر قال: سمعت الربيع بن أنس يقول إن مثل علم العباد كلهم في علم الله ﷻ كقطرة من هذه البحور كلها.

وقد أنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ... ﴾ الآية، وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا ... ﴾ الآية يقول ﷻ: قل لو كان البحر مدادًا لكلمات الله والشجر كلها أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وكلمات الله تعالى باقية لا يفنيها شيء، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، بل هو كما أثنى على نفسه: إن ربنا كما يقول وفوق ما يقول، ثم إن مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة: كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

...[2]وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ فإن الآية سيقت لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلامًا والبحار مدادًا فكتبت بها كلمات الله. لنفدت البحار والأقلام، ولم تنفد كلمات الله. فالآية سيقت لبيان الملازمة بين عدم نفاد كلماته وبين كون الأشجار أقلامًا والبحار مدادًا يكتب بها فإذا كانت الملازمة ثابتة

(١) ٢٥٣ حادي الأرواح.
(٢) ٥٧ البدائع جـ١.

علىٰ هذا التقدير، الذي هو أبلغ تقدير، يكون في نفاد المكتوب، فثبوتها علىٰ غيره من التقادير أولىٰ، ونوضح هذا بضرب مثل يرتقىٰ منه إلىٰ فهم مقصود الآية، إذا قلت لرجل لا يعطي أحدًا شيئًا: لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحدا منها شيئا. فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت علىٰ أعظم التقادير التي تقتضي الإعطاء، فلازمت بين عدم إعطائه أسباب الإعطاء، وهو كثرة ما يملكه، فدل هذا علىٰ أن عدم إعطائه ثابت علىٰ ما هو دون هذا التقدير، وأن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير، فافهم نظير هذا المعنىٰ في الآية، وهو عدم نفاد كلمات الله تعالىٰ علىٰ تقدير أن الأشجار أقلام والبحار مداد يكتب بها، فإذا لم تنفد علىٰ هذا التقدير كان عدم نفادها لازما له، فكيف بما دونه من التقديرات، فافهم هذه النكتة التي لا يسمح بمثلها كل وقت، ولا تكاد تجدها في الكتب، وإنما هي من فتح الله وفضله، فله الحمد والمنة، ونسأله المزيد من فضله. فانظر كيف اتفقت القاعدة العقلية مع القاعدة النحوية، وجاءت النصوص بمقتضاهما معا من غير خروج عن موجب عقل ولا لغة، ولا تحريف لنص، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذه الفائدة لساوت رحلة، فكيف وقد تضمن من غرر الفوائد ما لا يتفق إلا علىٰ تجارة، وأما من ليس هناك فإنه يظن الجوهرة زجاجة والزجاجة المستديرة المثقوبة جوهرة، ويزري علىٰ الجوهري، ويزعم أنه لا يفرق بينهما، والله المعين.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة لقمان

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

(١)قد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقر به. والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له رباً يقصده، وصمداً يصمد إليه في حوائجه، وملجأً يلجأ إليه، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلّصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن، وصح له التعبد به.

وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، فاشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبوِّ الأفهام عنه،

(١) ٢١ الهجرتين.

وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونوراً يميز به بين الهدى والضلال، وفرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، ورُزِقَ مع ذلك اطلاعاً على أَسباب الخطأْ وتفرق الطرق ومثار الغلط، فكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

[(1)]وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين، فقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأنه لم يزل، وإن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازما لذاته أزلًا وأبدًا غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين، لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستويا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه. ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم. ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانا بأبصارهم من فوقهم ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق، كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس، ويقول: «اللهم اشهد»[(2)].

---

(١) ٤٨ اجتماع الجيوش.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٤).

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في أن الله ﷻ فوق كل شيء، وإنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣، ٤] وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤، ٥٥].

***

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝﴾.

...[1]حديث ابن عباس رضي الله عنهما، نحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع في الروح، وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم، قال: بينما رسول الله ذات يوم قاعدًا تلا هذه الآية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية ثم قال: «**والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا، حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار، فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة، ينتظمان ما بين الخافقين، كأن وجوههم الشمس، فينظر إليهم ما يرى غيرهم ـ وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم ـ مع كل ملك منهم أكفان وحنوط، فإن كان مؤمنًا بشروه بالجنة، وقالوا:**

(١) ٢٢٨ الروح.

اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلىٰ رضوان الله وجنته، فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ـ فلا يزالون يبشرونه، فهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها ـ ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل، يموت الأول فالأول، ويبرد كل عضو الأول فالأول، ويهون عليه ـ وإن كنتم ترونه شديدًا ـ حتىٰ تبلغ ذقنه، فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها، فيتولىٰ قبضها ملك الموت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١] فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه، فلهو أشد لزومًا من المرأة لولدها، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك، فيستنشقون ريحًا طيبًا، ويتباشرون بها، ويقولون: مرحبًا بالريح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحا، وصل علىٰ جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها، فتفوح لهم ريح أطيب من المسك، فيصلون عليها، ويتباشرون بها، وتفتح لهم أبواب السماء، ويصلىٰ عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم، حتىٰ تنتهي بين يدي الجبار جل جلاله، فيقول الجبار عز وجل: مرحبًا بالنفس الطيبة، أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلىٰ الأرض، فإني قضيت أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ، فوالذي نفس محمد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد، وتقول: أين تذهبون بي؟ إلىٰ ذلك الجسد الذي كنت فيه؟! فيقولون: إنا مأمورون بهذا، فلا بد لك منه، فيهبطون به علىٰ قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه»[1] فتأمل كم في الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين في الروح.

***

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٨-٣١٩) إلىٰ ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

[1]تأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله**: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾»[2] وفي لفظ آخر فيهما: «**يقول الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخرًا، بله ما أطلعتكم عليه**» ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[3].

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت مع النبي ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال آخر حديثه: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقاب قوس أحدكم**

(١) ١٩٧ حادي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٤) ومسلم (رقم ٢٨٢٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٥١٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٨٠) ومسلم (رقم ٢٨٢٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥١٧) وشرح النووي (١٧/ ١٦٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٢٥).

في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»[١] وقد تقدم حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، ومحلة عالية بهية»[٢] ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يسأل بوجه الله غيره لكفاها شرفًا وفضلًا...

...[٣]وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن أبي المثنى البزار: حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا بشير بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده: لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، بلاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: أنطقي قالت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٤] [التغابن: ١٦].

وتأمل هذه العناية كيف جعل هذه الجنة التي غرسها بيده لمن خلقه بيده، ولأفضل ذريته اعتناء وتشريفا، وإظهارا لفضل ما خلقه وبيده شرفه، وميزه بذلك عن غيره، وبالله التوفيق، فهذه الجنة في الجنات كآدم في نوع الحيوان.

وقد روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة عن سعيد عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٣) ومسلم (رقم ١٨٨٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ١٣٢ رقم ١٣٤٣) وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ رقم ٧٣٨١) وفي الموارد (رقم ٢٦٢٠) وابن ماجه (رقم ٤٣٣٢) والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢ رقم ٣٨٨) والبزار (٧/ ٤٣ رقم ٢٥٩١).

(٣) ٨٠ حادي.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٤٩ رقم ٥٥١٨) وفي الكبير (١٢/ ١٤٧ رقم ١٢٧٢٣) و قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٥٨ رقم ٣٩٤٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٩٧).

«سأل موسىٰ عليه السلام ربه: ما أدنىٰ أهل الجنة منزلة؟ قال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضىٰ أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر علىٰ قلب بشر» ومصداقه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

***

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

[2]لما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلىٰ فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا علىٰ حوافرهم، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وقال في موضع آخر: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه، فلا يزال في غم ذلك حتىٰ يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت، وكان معذبًا به هناك، كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا، فليس العشاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار، وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥١٦) وشرح النووي (٣/ ٤٦).
(٢) ٢٨٣ حادي.

وبين الشعور بالألم، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدود يأكل أجسامهم.

***

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١)من منازل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «اليقين». وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعملُ القومِ إنما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال الله تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤-٥].

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢] فـ«اليقين» روح أعمال القلوب، التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن، الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا ترضين أحدًا بسخط الله، ولا تحمدنَّ أحدًا على فضل الله، ولا

(١) ٣٩٧ المدارج جـ٢.

تذمنَّ أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره، وإن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[١] واليقين قرين التوكل، ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين.

[٢]والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به، قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين، وقالت رسل الله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتى وصل «اليقين» إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفًا منه، ورضى به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابة إليه...

[٣]قوله تعالى عن أصحاب موسى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم، لصبرهم ويقينهم، إذ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[٤]. فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق، الذي يدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله، باحتمال مشاق الدعوة، وكف النفس عما يوهن عزمه، ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة، الذين يهدون بأمره تعالى، ومن المعلوم

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٢٢١ رقم ٢٠٨) وفي الأربعين الصغرى (رقم ٥٠) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١) (٧/ ١٣٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٥ رقم ١٠٥١٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٩١ رقم ٩٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٧١): رواه الطبراني في الكبير، وفيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع.

(٢) ٣٩٨ المدارج جـ٢.

(٣) ١٣٥ الإعلام جـ٤.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٤) وتفسير السعدي (ص ٦٥٦).

أن أصحاب محمد ﷺ أحق وأولى بهذا الوصف من أصحاب موسى، فهم أكمل يقينا، وأعظم صبرًا من جميع الأمم، فهم أولى بمنصب هذه الإمامة، وهذا أمر ثابت بلا شك بشهادة الله لهم وثنائه عليهم، وشهادة الرسول لهم بأنهم خير القرون، وأنهم خيرة الله وصفوته، ومن المحال على من هذا شأنهم أن يخطئوا كلهم الحق، ويظفر به المتأخرون، ولو كان هذا ممكنا لانقلبت الحقائق، وكان المتأخرون أئمة لهم يجب عليهم الرجوع إلى فتاويهم وأقوالهم، وهذا كما أنه محال حسًّا وعقلاً، فهو محال شرعا، وبالله التوفيق...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة السجدة

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الأَحْزَابِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ﴾.

(١)كيف أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه: محبة له، وخشية، ورجاء، فإن التقوىٰ لا تتم إلا بذلك، واتباع ما أوحي إليه المتضمن لتركه ما سوىٰ ذلك واتباع المنزل خاصة، وبالتوكل عليه؛ وهو يتضمن اعتماد القلب [عليه] وحده، وثقته [به]، وسكونه إليه دون غيره، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلىٰ جهة لم يمل إلىٰ غيرها، وليس للعبد قلبان: يطيع الله ويتبع أمره، ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة التقوىٰ ربه وإلا انصرف ذلك إلىٰ غيره، ثم استطرد من ذلك إلىٰ أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه، واستطرد منه إلىٰ أنه لم يجعل دعيه ابنه، فانظر: ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد، الذي تسجد له العقول والألباب، وله نظائر في القرآن عديدة، فمنها قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ

(١) ٣٠٨ روضة المحبين.

فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]، فالنفس الواحدة وزوجها: آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما: المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلىٰ غير ذلك، مما قيل: إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه: عبد الحارث، ففعلا[1]، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك، ونظير هذا الاستطراد قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، ثم قال: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهلة استطرد منه إلىٰ ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثير جدًّا.

***

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ ﴾.

[2]إن التسمية حق للأب، لا للأم. هذا مما لا نزاع فيه بين الناس، وأن الأبوين إذا تنازعا في تسمية الولد، فهي للأب، والأحاديث المتقدمة كلها تدل علىٰ هذا، وهذا كما أنه يدعىٰ لأبيه لا لأمه، فيقال: فلان ابن فلان، قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره موقوفًا علىٰ ابن عباس (٥/ ١٦٣٤ رقم ٨٦٥٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلىٰ سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم (٣/ ٦٢٤) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٦٩/ ١١١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٦).

(٢) ٧٩ تحفة المودود.

عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، والولد يتبع أمه في الحرية والرق، ويتبع أباه في النسب، والتسمية: تعريف النسب والمنسوب، ويتبع في الدين خير أبويه ديناً، فالتعريف: كالتعليم والعقيقة، وذلك إلى الأب، لا إلى الأم، وقال النبي ﷺ: **«ولد لي الليلة مولود، فسميته باسم أبي إبراهيم»**[1]. وتسمية الرجل ابنه كتسمية غلامه.

[2]كان النبي ﷺ أبًا للمؤمنين، كما في قراءة أبي: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦]، وهو أب لهم، ولهذا تفرغ على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم، فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به، ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات: الجهل، والضلال، والغي إلى نور العلم، والإيمان، وفضاء المعرفة، والتوحيد، فشاهدت حقائق أخر وأموراً لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

[3]وبادر زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان غلاماً لخديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها، وقدم أبوه وعمه في فدائه، فسألا عن النبي ﷺ؟ فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقال: «يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه. قال: «ومن هو؟» قالوا: زيد بن حارثة، فقال

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣١٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٧٣) وشرح النووي (١٥/ ٧٤-٧٥).

(٢) ١٦ طريق الهجرتين.

(٣) ٢٠ زاد المعاد جـ٣. طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

رسول الله ﷺ: «فهلَّا غير ذلك». قالوا: ما هو؟ قال: «أدعوه فأخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من أختارني أحداً». قالا: قد رددتنا على النَّصَف، وأحسنت، فدعاه، فقال: «تعرف هؤلاء؟» قال: نعم. قال: «من هذا؟» قال: هذا أبي، وهذا عمي. قال: «فأنا من قد علمت ورأيت، وعرفت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما». قال: ما أنا بالذي اختار عليك أحدًا أبداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبداً، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر، فقال: «أشهدكم أن زيداً ابني، يرثني وأرثه». فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما، فانصرفا، ودُعي زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام، فنزلت: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٥]، فدعي من يومئذ: «زيد بن حارثة». قال معمر في جامعه عن الزهري: «ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثه، وهو الذي أخبر الله عنه في كتابه: أنه أنعم عليه، وأنعم عليه رسوله، وسماه باسمه»(١).

(٢)قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً.

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠-٤٢) والاستيعاب (٢/ ٥٤٥) والإصابة (٢/ ٥٩٩-٦٠٠) وصفة الصفوة (١/ ٣٨٠-٣٨١) وتاريخ دمشق (١٩/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٢) ٢١ الرسالة التبوكية.

لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط، إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

فيا عجباً! كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره، واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين؟! إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه، وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد.

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان رده، وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة، واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة.

ومن العجب أن يدعي حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان: سعيه، واجتهاده، ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره، وتقريرها، والغضب، والمحبة لها، والرضا بها، والتحاكم إليها، وعرض ما قاله الرسول عليها! فإن وافقها قبله، وإن خالفها التمس وجوه الحيل، وبالغ في رده ليًّا وإعراضاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

[1]وأما الأزواج فجمع زوج، وقد يقال: زوجة، والأول أفصح وبها جاء القرآن،

---

(١) ١٢٩ جلاء الأفهام.

قال ـ تعالىٰ ـ لآدم: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، قال تعالىٰ في حق زكريا: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ومن الثاني: قول ابن عباس رضي الله عنهما في عائشة رضي الله عنها: «إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة»(١).

وقال الفرزدق:

وإن الذي يسعىٰ ليفسد زوجتي كساع إلىٰ أسد الشرىٰ يستبينها(٢)

وقد جمع علىٰ «زوجات» وهذا إنما هو جمع زوجة، وإلا فجمع زوج «أزواج».

قال تعالىٰ: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠]. وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ الزوج مفرداً وجمعاً كما تقدم.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

والإخبار عن أهل الشرك بلفظ: «المرأة»، وقال تعالىٰ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا ﴾ [المسد: ١-٥].

قال تعالىٰ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ [التحريم: ١٠] فلما كانتا مشركتين أوقع عليهما اسم «امرأة».

وقال في فرعون: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١]،

---

(١) أخرجه البخاري من قول عمار بن ياسر رضي الله عنهما (رقم ٧١٠١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٥٨).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ الفرزدق: همام بن غالب التميمي الدارمي من النبلاء وعظيم الأثر في اللغة، وكان شريفًا في قومه، عزيز الجانب، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه، قارب المئة توفي سنة ١١٠هـ. والبيت في ديوانه هكذا:

فإنَّ امرءًا يسعىٰ يُخَبِّب زوجتي كساعٍ إلىٰ أُسد الثرىٰ يستبيلها

ذكره ابن قتيبة الدينوري في أدب الكاتب (ص ٤٩٤) وابن السكيت في إصلاح المنطق (ص٥٤٤) وأبو علي القالي في الأمالي (١/ ٤٩) والزمخشري في ربيع الأبرار (١/ ٦١٢) والجواليقي في شرح أدب الكاتب (ص ٢٢٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٥) ولسان العرب (١١/ ٧٤).

لما كان هو المشرك وهي مؤمنة لم يسمها زوجاً له.

وقال في حق آدم: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال للنبي ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقال في حق المؤمنين: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥].

فقالت طائفة منهم السهيلي وغيره: إنما لم يقل في حق هؤلاء الأزواج، لأنهن لسن بأزواج لرجالهم في الآخرة، ولأن التزويج حلية شرعية، وهو من أمر الدين فجرد الكافرة منه كما جرد منها امرأة نوح وامرأة لوط.

ثم أورد السهيلي على نفسه قول زكريا: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ [مريم: ٥]. وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وأجاب بأن ذكر المرأة أليق في هذه المواضع؛ لأنه في سياق ذكر الحمل والولادة، فذكر المرأة أولى به، لأن الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجاً.

قلت: ولو قيل: إن السر في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ الأزواج أن هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه: فإن الزوجين هما: الشيئان المتشابهان المتشاكلان والمتساويان.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «أزواجهم: أشباههم، ونظراؤهم». وقاله الإمام أحمد أيضاً.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]. أي: قرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب، قال عمر بن الخطاب ﷺ في هذه الآية: «الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار»[1]، وقاله الحسن، وقتاده، والأكثرون.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٥١) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٤ رقم ١٩١٤٦) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٤٢٩).

وقيل: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين، وأنفس الكافرين بالشياطين، وهو راجع إلى القول الأول.

وقال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾. ثم فسرها: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] فجعل الزوجين هما: الفردان من نوع واحد، ومنه قولهم: «زوجا خف، وزوجا حمام»، ونحوه. ولا ريب أن الله سبحانه قطع المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال ـ تعالي ـ في حق مؤمن أهل الكتاب وكافرهم: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ١١٣] الآية.

وقطع المقارنة سبحانه في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان؛ ولا يتناكحان ولا يتولى أحدهما صاحبه، فكما انقطعت الوصلة بينهما في المعنى انقطعت في الاسم، فأضاف فيها: «المرأة» بلفظ الأنوثة المجرد، دون لفظ المشاكلة والمشابهة.

فتأمل هذا المعنى تجده أشد مطابقة لألفاظ القرآن ومعانيه، ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، وعلى الكافرة امرأة المؤمن لفظ: «المرأة» دون «الزوجة» تحقيقاً لهذا المعنى، والله أعلم.

وهذا أولى من قول من قال: إنما سمى صاحبة أبي لهب: «امرأته»، ولم يقل لها زوجته، لأن أنكحة الكفار لا يثبت لها حكم الصحة بخلاف أنكحة أهل الإسلام، فإن هذا باطل بإطلاقه اسم «المرأة» على امرأة نوح وامرأة لوط، مع صحة ذلك النكاح، وتأمل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه ـ سبحانه ـ التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب؛ والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما، ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين.

وهذا أليق المواضع بذكر أزواجه ﷺ.

وأولهن: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلاب، وقد تزوجها ﷺ بمكة. وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلىٰ أن أكرمه الله برسالته، فآمنت به ونصرته، فكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين في الأصح. وقيل: بأربع وقيل: بخمس، ولها خصائص.

منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها. ومنها: أن أولاده كلهم منها إلا إبراهيم ﷺ، فإنه من سريته مارية، ومنها: أنها خير نساء الأمة.

واختلف في تفضيلها علي عائشة ـ رضي الله عنها ـ علىٰ ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف، سألت شيخنا ابن تيمية فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصة، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتثبته وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غرة الإسلام واحتملت الأذىٰ في الله وفي رسوله، وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة؛ فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها.

وعائشة ـ رضي الله عنها ـ تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين، وتبليغه إلىٰ الأمة، وانتفاع نبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها، هذا معنىٰ كلامه.

قلت: ومن خصائصها أيضًا: أن الله سبحانه بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها النبي ﷺ ذلك. قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا محمد بن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة ﷺ قال: «أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»(١)، وهذه لعمر الله ـ خاصة لم تكن لسواها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٢٠) ومسلم (رقم ٢٤٣٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٣٩) وشرح النووي (١٥/ ١٩٩).

وأما عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإن جبرائيل سلم عليها على لسان النبي ﷺ. قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال أبو سلمة: إن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا عائشة، هذا جبرائيل يقرئك السلام». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ[1].

ومن خواص خديجة ـ رضي الله عنها ـ: أنها لم تسؤه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء، ولا عتب قط ولا هجر. وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة[2].

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

[3]وأما إزاغة القلوب فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال عن عبادة المؤمنين أنهم سألوه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، وأصل الزيغ: الميل؛ ومنه زاغت الشمس، إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال.

والزيغ: يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢١٧) ومسلم (رقم ٢٤٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٤).
(٢) استمر المؤلف في ذكر خديجة وبقية زوجات النبي ﷺ قرابة كراسة لمن أراده. (ج).
(٣) ١٠٠ شفاء العليل.

﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم، وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها، متحيرة تنظر إليه. قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

[(١)]وأما قوله: «وإنما نطق به التنزيل: لفائدة. وهو كونه يبرد حرارة الخوف»[(٢)]، فيقال: بل لفوائد كثيرة أخر مشاهدة.

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه ـ سبحانه ـ يحب من عباده أن يؤملوه، ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد: أن يرجى، ويؤمل، ويسأل. وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[(٣)]. والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله. ويطيب له المسير. ويحثه عليه.

---

(١) ٥٠ مدارج جـ٢.

(٢) أول البحث ص ٤١ جـ٢ من الأصل في الرجاء، والضمير يعود على الرجاء، وقد ناقش الشيخ ابن القيم صاحب المنازل مناقشة حادة فيما تقدم لمن أراد الاطلاع. (ج).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٤١٨) وحسنه في صحيح الترمذي (رقم ٣٣٧٣) وفي صحيح الأدب المفرد. وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥) وتحفة الأحوذي (٩/ ٢٢١) وسبل السلام (٤/ ٢١٢).

ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه، وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى وشكراً له، ورضى به وعنه.

ومنها: أن يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها داع. بها. قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها. ومنها أن المحبة لا تنفك عن الرجاء ـ كما تقدم ـ فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنـه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤]، قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار. فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم اندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله ﷻ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضىٰ والإنابة وغيرها، ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة: التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة ـ كما تقدم بيانه ـ فإذا فنىٰ عن ذلك، وغاب عنه، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات. إلىٰ فوائد أخرىٰ كثيرة، يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق.

والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل، كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان علىٰ يديه فتحه يقظة ومناماً؟

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع، فمن كان عنده فضل علم فليَجُدْ به، أو فليعذر، ولا يبادر إلىٰ الإنكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان؟ وهو يقول له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ ﴾ [النمل: ٢٢] وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله. ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد، وبالله المستعان، وهو أعلم.

(١) وادع رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتاباً. وبادر حبرهم وعالمهم عبدالله بن سلام، فدخل في الإسلام، وأبىٰ عامتهم إلا الكفر. وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وحاربه الثلاثة، فمنَّ علىٰ بني قينقاع، وأجلىٰ بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبىٰ ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في

---

(١) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢.

بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة.

[١]ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم، على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة وقسم تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه ـ تبارك وتعالى ـ. فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر، وشَرَقوا بواقعة بدر، وأظهروا البغي والحسد، فصارت إليهم جنود الله، يقدمهم عبدالله ورسوله يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من مهاجره.

وكانوا حلفاء عبدالله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين. وكانوا أشجع يهود المدينة، وحامل لواء المسلمين يومئذ: حمزة بن عبدالمطلب، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، فحاصرهم خمسة عشرة ليلة، إلى هلال ذي القعدة وهم أول من حارب من اليهود، وتحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم ـ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في: رقابهم، وأموالهم، ونسائهم، وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا، وكلم عبد الله بن أبي فيهم رسولَ الله ﷺ وألح عليه، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم، وكانوا صاغة وتجاراً، وكانوا نحو الستمائة مقاتل. وكانت دارهم في طرف المدينة، وقبض منهم أموالهم، فأخذ منها

(١) ١٨٤ زاد المعاد جـ٢.

رسول الله ﷺ: ثلاث قِسِيٍّ ودرعين، وثلاثة أسياف، وثلاثة رماح، وخَمَّس غنائمهم، وكان الذي تولى جمع الغنائم: محمد بن مسلمة[1]. والله أعلم.

ثم نقض العهدَ بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر»[2] قاله عروة. وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويصعد، فيلقيها على رأسه يشدخه؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هموا به، فنهض مسرعاً، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما همت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أياماً يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله ﷻ قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]. فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٨-٢٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٥) وفتح الباري (٧/ ٣٣٢) وعمدة القاري (٦/ ٢٥٥).

فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي ﷺ الأموال والحلقة، وهي: السلاح، وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب. وخمس قريظة، قال مالك: «خمس رسول الله ﷺ قريظة، ولم يخمس بني النضير، لأن المسلمين لم يوجفوا بخيلهم ولا ركابهم على بني النضير، كما أوجفوا على قريظة»، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حيي بن أخطب كبيرهم، وقبض السلاح، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلام خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وقال: «هؤلاء في قومهم بمنزلة بني المغيرة في قريش». وكانت قصتهم في ربيع الأول من سنة أربع من الهجرة[(١)].

وأما قريظة فكانت أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظهم كفراً، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على إخوانهم.

وكان سبب غزوهم: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة الخندق، والقوم معه صلح: جاء حيي بن أخطب إلى بني قريظة في ديارهم، فقال: قد جئتكم بعز الدهر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهلم حتى نناجز محمداً ونفرغ منه، فقال له رئيسهم: بل جئتني والله بذل الدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، فلم يزل حيي يخادعه ويعده ويمنيه حتى أجابه، بشرط أن يدخل معهم، في حصنهم يصيبه ما أصابهم، ففعل ونقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأظهروا سبه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين». فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يكن إلا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريل، فقال: أوضعت

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٠٠ رقم ١٨٤٩١) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٥٧-٥٨) وانظر: الاستذكار (٧/ ٣٧) والتمهيد (٦/ ٤٤٥-٤٤٩).

السلاح؟ والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار[(١)]، وقال لأصحابه يومئذ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»[(٢)]، فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة، كما أمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد: سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفين.

واختلف الفقهاء: أيهما كان أصوب؟ فقالت طائفة: الذين أخروها هم المصيبون، ولو كنا معهم لآخرناها كما أخروها، ولما صليناها إلا في بني قريظة، امتثالاً لأمره، وتركاً للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الـذين صلوها في الطريـق في وقتها حازوا قصب السبق، وكانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره في الخروج، وبادروا إلى مرضاته في الصلاة في وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلة الصلاة في وقتها، وفهموا ما يراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين، ولاسيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مدفع له ولا مطعن فيه، ومجيء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة إليها، والتبكير بها، وأن «من فاتته فقد وتر أهله وماله»[(٣)]، أو: «قد حبط عمله»[(٤)]،

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٢ رقم ١٨٦٣٦) وانظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٣٠) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٨-٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٤٦) ومسلم (رقم ١٧٧٠) جاء عند مسلم «الظهر» بدل «العصر» وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٠٨-٤١٠) وشرح النووي (١٢/ ٩٧-٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٢) ومسلم (رقم ٦٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠-٣١) وشرح النووي (٥/ ١٢٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٢).

فالذي جاء فيها أمر لم يجئ مثله في غيرها.

وأما المؤخرون لها: فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجراً واحداً، لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثال الأمر، وأما أن يكونوا هم المصيبون في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئاً: فحاشا وكلا. والذين صلوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحصلوا الفضيلتين. فلهم أجران، والآخرون مأجورون أيضاً ﷺ.

فإن قيل: كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزاً مشروعاً، ولهذا كان عقب تأخير النبي ﷺ العصر يوم الخندق إلى الليل، فتأخيرهم صلاة العصر إلى الليل كتأخيره ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولاسيما أن ذلك كان قبل شرع صلاة الخوف؟ قيل: هذا سؤال قوي، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقال: لم يثبت أن تأخير الصلاة عن وقتها كان جائزاً بعد بيان المواقيت، ولا دليل علي ذلك، إلا قصة الخندق. فإنها هي التي استدل بها من قال ذلك، ولا حجة فيها، لأنه ليس فيها بيان أن التأخير من النبي ﷺ كان عن عمد، بل لعله كان نسياناً، وفي القصة ما يشعر بذلك، فإن عمر لما قال له: «يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، قال رسول الله: «**والله ما صليتها، ثم قام فصلاها**»[1] وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسياً بما هو فيه من الشغل والاهتمام بأمر العدو المحيط به، وعلى هذا يكون قد أخرها بعذر النسيان، كما أخرها بعذر النوم في سفره وصلاها بعد استيقاظه، وبعد ذكره لتتأسى أمته به.

والجواب الثاني: أن هذا ـ على تقدير ثبوته ـ إنما هو في حال الخوف والمسايفة عند الدهش عن تعقل أفعال الصلاة، والإتيان بها، والصحابة في مسيرهم إلى بني قريظة لم يكونوا كذلك، بل كان حكمهم حكم أسفارهم إلى العدو قبل ذلك وبعده،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٦) ومسلم (رقم ٦٣١) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤١٠) وعمدة القاري (٥/ ٨٩-٩٠).

ومعلوم أنهم لم يكونوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولم تكن قريظة ممن يخاف فوتهم، فإنهم كانوا مقيمين بدارهم. فهذا منتهى أقدام الفريقين في الموضوع.

وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب[1]، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. ونازل حصون بني قريظة، وحصرهم خمسًا وعشرين ليلة، ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا، ويدخلوا مع محمد في دينه، وإما أن يقتلوا ذراريهم، ويخرجوا إليه بالسيوف مصلتة يناجزونه حتى يظفروا به، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ويكبسوهم يوم السبت، لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، وأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن، فبعثوا إليه: أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره، فلما رأوه قاموا في وجهه يبكون، وقالوا: يا أبا لبابة، كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه ـ يقول: إنه الذبح ـ ثم علم من فوره أنه قد خان الله ورسوله، فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد ـ مسجد المدينة ـ فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدًا. فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك قال: «**دعوه حتى يتوب الله عليه**». ثم تاب عليه، وحله رسول الله ﷺ بيده، ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، قامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا. فأحسن فيهم. فقال: «**ألا ترضون أن**

(١) فعن سهل بن سعد ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر: «**لأعطين الراية رجلًا يفتح الله على يديه**» فقاموا يرجون لذلك: أيهم يُعطَى. فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: «**أين عليٌّ؟**» فقيل: يشتكي عينيه. فأمر فدعي له فبصق في عينيه فبرأ مكانه، حتى كأنه لم يكن به شيء، فقال: فقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم**» أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢) ومسلم (رقم ٢٤٠٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٢٧) وشرح النووي (١/ ١٤١).

يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى. قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ». قالوا: قد رضينا. فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم، لجرح كان به فأركب حمارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ فجعلوا يقولون له ـ وهم كَنفَتَيْه ـ: يا سعد، أجمل إلى مواليك، فأحسن فيهم. فإن رسول الله ﷺ قد حكَّمك فيهم لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة، فنعى إليهم القوم، فلما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: «قوموا إلى سيدكم»، فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ههنا؟ وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ، إجلالاً له وتعظيمًا ـ قال: نعم، وعليَّ. قال: فإني أحكم فيهم: أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات». وأسلم منهم تلك نفر قبل النزول، وهرب عمرو بن سعد، فانطلق فلم يعلم أين ذهب؟ وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد[١].

فلما حكم فيهم سعد بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جرت عليه الموسى منهم، ومن لم ينبت ألحق بالذرية، فحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناقهم. وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، ولم يقتل من النساء أحد سوى امرأة واحدة، كانت طرحت على رأس خلاد بن سويد بن ثعلبة رحى فقتلته، وجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالا أرسالاً، فقالوا: لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعي لا ينزع، والذاهب منكم لا

---

(١) أصل الحديث أخرجه البخاري (رقم ٤١٢١) ومسلم (رقم ١٧٦٨) والقصة أخرجها الطبري في تفسيره (٢١/ ١٥١-١٥٣) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٧٤-٧٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٢٠-٣٢١) (٧/ ٤١٢) وشرح النووي (١٢/ ٩٣).

يرجع؟ هو والله القتل[1].

قال مالك ـ في رواية ابن القاسم ـ قال عبدالله بن أبي لسعد بن معاذ في أمرهم: إنهم أحد جناحي، وهم ثلاثمائة دارع وستمائة حاسر. فقال: «قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»[2].

ولما جيء بحيي بن أخطب إلى بين يديه ووقع بصره عليه، قال: أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يُغْلَب، ثم قال: يا أيها الناس، لا بأس، قدر الله، وملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم حبس فضربت عنقه، واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله من رسول الله، فوهبهم له. فقال ثابت بن قيس للزبير: قد وهبك لي رسول الله ﷺ. ووهب لي مالك وأهلك، فهم لك، فقال: سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة، فضربت عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود[3].

فهذا كله في يهود المدينة، وكانت غزوة كل طائفة منهم عقب كل غزوة من الغزوات الكبار، فغزوة بني قينقاع: عقب بدر. وغزوة بن النضير: عقب غزوة أحد. وغزوة بن قريظة: عقب الخندق.

***

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٥٣) وأخرج قتل كل من جرت عليه الموسى كل من النسائي في الكبرى (٣/ ٤٦٥ رقم ٥٩٣٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٦٣ رقم ١٧٧٩٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١٦) والحاكم (٢/ ١٣٤ رقم ٢٥٧٠) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤١٢) وعمدة القاري (١٧/ ١٩١).

(٢) انظر: تفسر الطبري (٢١/ ١٥٣) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٩) وثقات ابن حبان (١/ ٢٧٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٦٦ رقم ١٧٨١١).

[(١)] في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله سمى المدينة طيبة [طابة]**»[(٢)]، ويكره تسميتها يثرب، كراهة شديدة، وإنما حكى الله تعالى تسميتها: يثرب، عن المنافقين، فقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣]. وفي سنن النسائي من حديث مالك عن يحيى بن سعيد، أنه قال: سمعت أبا الحباب: سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي: المدينة تنفي الناس، كما ينفي الكير خبث الحديد**»[(٣)].

[(٤)] كانت في سنة خمس من الهجرة في شوال، على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أُحُدًا كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربع. ثم أخلفوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس: جاءوا لحربه ـ هذا قول أهل السير والمغازي.

وخالفهم موسى بن عقبة، وقال: بل كانت سنة أربع. قال أبو محمد بن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، واحتج عليه بحديث ابن عمر في الصحيحين أنه: «عرض على النبي ﷺ يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة: فلم يجزه، ثم عرض عليه يوم الخندق، هو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه»[(٥)] قال: فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة، وأجيب عن هذا بجوابين:

---

(١) ٧٨ تحفة المودود.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٣٨٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٨٨-٨٩) وشرح النووي (٩/ ١٥٦) (١٦/ ٣١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٨٧١) ومسلم (رقم ١٣٨٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ٨٧) وشرح النووي (٩/ ١٥٤).

(٤) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٩٧) ومسلم (رقم ١٨٦٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٧٧-٢٧٩).

أحدهما: أن ابن عمر أخبر: أن النبي ﷺ رده لما استصغره عن القتال، وأجازه لما وصل إلىٰ السن التي رآه فيها مطيقاً. وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها.

والثاني: أنه لعله كان يوم أحد في أول الرابعة عشرة، ويوم الخندق في آخر الخامسة عشرة.

وكان سبب غزوة الخندق: أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين علىٰ المسلمين يوم أحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، وأنه خرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل: خرج أشرافهم ـ كسلام بن أبي لحقيق، وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع، وغيرهم ـ إلىٰ قريش بمكة، يحرضونهم علىٰ غزو رسول الله ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلي غطفان، فدعوهم فاستجابوا لهم. ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلىٰ ذلك، فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش ـ وقائدهم أبو سفيان ـ في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت بنو أسد، وفزارة، وأشجع، وبنو مرة، وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، وكان من وافىٰ الخندق من الكفار عشرة آلاف(١).

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم، وكان في حفره من آيات نبوته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به. وكان حفر الخندق أمام سَلْع. وسَلْعُ: جبل خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار. وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق من أمامه. وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمائة. وهذا غلط من خروجه يوم أحد(٢).

وأمر النبي ﷺ بالنساء والذراري، فجعلوا في آطام المدينة. واستخلف عليها ابن أم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧١).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٩٣-٣٩٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧١).

مكتوم. وانطلق حيي بن أخطب إلىٰ بني قريظة، فدنا من حصنهم، فأبي كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتىٰ فتح له. فلما دخل عليه قال: لقد جئتك بعز الدهر. جئتك بقريش علىٰ قادتها وسادتها وغطفان وأسد علىٰ قادتها وسادتها لحرب محمد. قال كعب: جئتني والله بذل الذهر، وبجهام قد أراق ماءه فهو يرعد ويبرق. فلم يزل به حيي حتىٰ نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ. ودخل مع المشركين في محاربته، فسر بذلك المشركون. وشرط كعب علىٰ حيي: أنه إن لم يظفروا بمحمد: أن يجيء حتىٰ يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلىٰ ذلك، ووفَّىٰ له به.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعدين ـ سعد ابن معاذ، وسعد بن عبادة ـ وخوات بن جبير، وعبدالله بن رواحة، ليعرفوا: هل هم علىٰ عهدهم، أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم وجدوهم علىٰ أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، فانصرفوا عنهم ولحنوا إلىٰ رسول الله ﷺ لحنا يخبرونه: أنهم قد نقضوا العهد وغدروا، فعظم ذلك علىٰ المسلمين، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين». واشتد البلاء، ونجم النفاق، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلىٰ المدينة، وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]. وهم بنو سلمة بالفشل. ثم ثبت الله الطائفتين[(١)].

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتال؛ لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين، إلا أن فوارس من قريش ـ منهم عمرو ابن عبد ود وجماعة معه ـ أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا:: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، ودعوا إلىٰ البراز فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب ﷺ، فبارزه فقتله الله علىٰ يدي عليّ، وكان من شجعان المشركين وأبطالهم،

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٣١).

وانهزم الباقون إلى أصحابهم، وكان شعار المسلمين يومئذ: حم لا ينصرون[١].

ولما طالت هذه الحال على المسلمين: أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، رئيسي غطفان، وعلى ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضة على ذلك، فاستشار السعدين في ذلك، فقالا: «يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف؛ فصوب رأياهما، وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»[٢].

ثم إن الله ﷻ وله الحمد ـ صنع أمراً من عنده خذل به العدو، وهزم جموعهم، وفل حدهم، فكان مما هيأ من ذلك: أن رجلًا من غطفان، يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني قد أسلمت، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة». فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة، وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قريظة، إنكم قد حاربتم محمدًا، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين، وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى على وجهه إلى قريش، فقال لهم: تعلمون ودي لكم، ونصحي لكم؟ قالوا: نعم. قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٩٧) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٦٢ رقم ١٢٨٣٤) وأحمد (٤/ ٦٥) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٧٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٦١٥، ٦١٦) وانظر: تاريخ دمشق (٤٢/ ٧٨) والثقات (١/ ٢٦٨) والإصابة (٦/ ٣٨٧) والطبقات الكبرى (٢/ ٧٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٨ رقم ٥٤٠٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ٤١٢).

نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه، أنهم: يأخذون منكم رهائن، يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى يهود: إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود، إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه. ومع هذا: فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نعيم. فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان. وأرسل الله ﷻ على المشركين جنداً من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها، ولا طنبا إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد رد الله عدوه بغيظهم، لم ينالوا خيراً، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[1]، فدخل المدينة ووضع السلام، فجاءه جبريل وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: «**أوضعتم السلاح؟ إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها، انهض إلى غزو هؤلاء**» - يعني: بني قريظة، فنادى رسول الله ﷺ: «**من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة**»[2]. فخرج المسلمون سراعاً، وكان من أمره وأمر بني قريظة ما قدمناه، واشتهد يوم الخندق ويوم قريظة نحوة عشرة من المسلمين.

***

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٢٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٢) والثقات (١/ ٢٧٠-٢٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٤٦) ومسلم (رقم ١٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٠٨-٤١٠) وشرح النووي (١٢/ ٩٧-٩٨).

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

[1]قد قدمنا أن أبا رافع ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يقتل مع بني قريظة، كما قتل صاحبه حيي بن أخطب، ورغبت الخزرج في قتله مساواة للأوس من قتل كعب بن الأشرف. وكان الله سبحانه قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم، فانتدب له رجال كلهم من بني سلمة، وهم: عبدالله بن عتيك ـ وهو أمير القوم ـ وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة، والحارث بن ربعي، ومسعود بن سنان، وخزاعي بن أسود. فساروا حتى أتوه في خيبر في دار له، فنزلوا عليه ليلاً فقتلوه، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، وكلهم ادعى قتله، فقال رسول الله ﷺ: «**أروني أسيافكم**». فلما أروه، قال لسيف عبدالله بن أنيس: «**هذا الذي قتله، أرى فيه أثر الطعام**»[2].

[3]إن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام، فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب، والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله. وأشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس.

ومن المعلوم: أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم. فمن عدّ مصيبة هذا القتل

(١) ٢٩٣ زاد المعاد جـ٢.
(٢) انظر: الثقات (١/ ٢٤٨).
(٣) ١٩٣ إغاثة جـ٢.

أعظم من مصيبة الموت على الفراش، فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها، وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن، حيث يقول: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦]. فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً، إذ لابد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله، إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه، فإنه فر من الموت لما كان يسوؤه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوؤه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوؤه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره، وكذلك من رفه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب. قال أبو حازم: «لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى».

واعتبر ذلك بحال إبليس: فإن امتنع من السجود لآدم فرارًا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيَّره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور

من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته، وكذلك عباد الأصنام: أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلها واحداً ـ سبحانه ـ، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لا بد أن يذل لمن لا يسوىٰ، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته، عقوبة له، كما قال بعض السلف: «من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله ـ تعالىٰ ـ أكثر منها في غير طاعته».

***

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

[(١)]أما قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلىٰ الحب والخوف مدار السير إلىٰ الله. وقد مدح الله تعالىٰ أهله، وأثنىٰ عليهم. فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: «يا ابن آدم ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي»[(٢)]. وروىٰ الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي،

---

(١) ٤١ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٤٠) والدارمي (رقم ٢٧٨٨) وأحمد (٥/ ١٦٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧ رقم ١٠٤٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٣) وفي الصغير (رقم ٨٢٠) وفي الأوسط (٥/ ٣٣٧-٣٣٨ رقم ٥٤٨٣) وفي الكبير (١٢/ ١٩ رقم ١٢٣٤٦) ونقل تحسين الترمذي للحديث كل من المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٣٤ رقم ٥١٢٤) وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٠) والنووي في رياض الصالحين (ص ١٣٢).

وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليَّ شبراً، اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إليَّ ذراعاً، اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١) رواه مسلم.

وقد أخبر تعالىٰ عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالىٰ: أنهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧].

يقول تعالىٰ هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي، يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأثنىٰ عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

***

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ۝﴾.

(٢)أخرجا في الصحيحين من حديث أنس قال: «لم يشهد عمي مع رسول الله ﷺ بدراً، قال: فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، فإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، قال: فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له: أين؟ فقال: واها لريح الجنة! أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتىٰ قتل، قال، فوجد في

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٥-٣٨٦) وشرح النووي (١٧/ ٢).
(٢) ١١٥ حادي الأرواح.

جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمة الربيع بنت النضرك: فما عرفت أخي إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه»(١).

وريح الجنة نوعان: ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحياناً لا تدركه العباد.

وريح يدرك بحاسة الشم للأبدان كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد، وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله، وهذا الذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من هذا القسم، وأن يكون من الأول، والله أعلم.

***

﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

(٢)أما قوله: «وجعل حدّ الرقيق على النصف من حد الحر، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا ريب أن الشارع فرق بين الحر والعبد في أحكام، وسوى بينهما في أحكام؛ فسوى بينهما في: الإيمان، والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة، والصلاة، والصوم، لاستوائهما في سببهما، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج، والزكاة، والتكفير بالمال لافتراقهما في سببهما، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبح من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله ـ تعالى ـ عليه بالحرية، وأن جعله مالكاً لا مملوكاً، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٠٥) ومسلم (رقم ١٩٠٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٣) وشرح النووي (١٣/ ٤٨).

(٢) ١٠٩ أعلام جـ٢.

القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوض الله عنها من المباحات، فقابل النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية، فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه من هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة؛ فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۞ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١]، وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، شكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء من عصاهم من خواصهم وحشمهم، ومن هو قريب منهم ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر، جمعا بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في: النكاح، والطلاق، والعدة إظهاراً لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين، بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان: حق لله، وحق لسيده، فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجراً، فاتفقت حكمة الشرع والقدر والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

(١)فإن قيل: فقواعد الشرع تقتضي أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم، وأنه

(١) ١٧٦ مفتاح جـ١.

يغفر له ما لا يغفر للعالم، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها، وعقوبته عليه: أعظم من علم الجاهل، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل.

وقد دلت الشريعة، وحكم الله على أن من حُبِيَ بالإنعام وخُصَّ بالفضل والإكرام، ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات، فارتعها في مراتع الهلكات، وتجرأ على انتهاك الحرمات، واستخف بالتبعات والسيئات، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر، ومما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبته أبو نعيم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[1]، قال بعض السلف: يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب[2]، وقال بعضهم أيضاً: إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء.

فالجواب: إن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريب فيه، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث.

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال:**

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٧٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١ رقم ١١٢٢) وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ٣٠٧) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٣٩) وقواعد التحديث (ص ٣٩٦).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في الورع (ص ١٦) عن فضيل رحمه الله. وفي العلل ومعرفة الرجال له أيضا (٣/ ٨٥ رقم ٤٢٩٤) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٨٦) (٨/ ١٠٠) وذكره الذهبي في السير (٨/ ٤٣٥).

اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»[(١)]، وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان ﷺ تلك الصدقة العظيمة، قال: «ما ضر عثمان ما عمل بعدها»[(٢)]. وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة: «أوجب طلحة»[(٣)].

وهذا موسى كليم الرحمن ﷺ ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ، وقال: شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي[(٤)]. وأخذ بلحية هارون، وجره إليه، وهو نبي الله، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه، وربه تعالى يكرمه ويحبه، فإن الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له، والصبر الذي صبره، والأذى الذي أوذيه في الله، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٩٠) ومسلم (رقم ٢٤٩٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٥) (٨/ ٦٣٤-٦٣٥) وشرح النووي (١٦/ ٥٦-٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٠١) والحاكم (٣/ ١١٠ رقم ٤٥٥٣) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٧٩) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٤٥ رقم ١٢٧٤) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ١٣٣).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٤٣٦ رقم ٦٩٧٩) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٢١٢) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٥٧-٥٨ رقم ٨٦١) والحاكم (٣/ ٢٨ رقم ٤٣١٢) وصححه والترمذي (رقم ١٦٩٢) وحسنه. وأبو يعلى (٢/ ٣٣ رقم ٦٧٠) وأحمد (١/ ١٦٥) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٦٠) وتحفة الأحوذي (٥/ ٢٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٠٧) في حديث طويل وفيه: «فأتيت على موسى فسلمت عليه، فقال: مرحبًا بك من أخ ونبي. فلما جاوزت بكى، فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي...» وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١١).

ولا تغير في وجهه، ولا تخفض منزلته، وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم إن من له ألوف من الحسنات، فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع(١)

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن كثير(٢)

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم.

وأيضاً فإن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفيئة، وتدارك الفارط، ومداواة الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل. وأيضاً فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه، وإزرائه على نفسه بارتكابه، وإيمانه بأن الله حرمه وأن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه، ويزيل أثره، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره، فإنه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية، فلا يستوي هذا وهذا. وهذا فصل الخطاب في هذا الموضع، وبه يتبين أن الأمرين حق وأنه لا منافاة بينهما، وأن كل واحد من العالم والجاهل إنما

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل للشاعر ابن نباتة المصري: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي، ولد ومات في القاهرة ٦٨٦-٧٦٨هـ وكان صاحب سر السلطان الناصر حسن. ذكر البيت المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ١٤٢).

(٢) هذا البيت من بحر الكامل وينسب إلى المتنبي ولكنه ينتهي عنده بـ «سررن ألوف» بدل «سررن كثير» وينسب أيضًا إلى ابن نباتة المصري. ذكره أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ١٥٤).

زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها، ويزيل أثرها، فعاد القبح في الموضعين إلى الجهل، وما يستلزمه وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه، وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله، وبالله التوفيق.

(١)فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. ويعفى للولي عما لا يعفى لسواه، وكذلك العالم أيضاً، يغفر له ما لا يغفر للجاهل، كما روى الطبراني بإسناده جيد ـ مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**إن الله سبحانه إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد، قال للعلماء: إني كنت أعبد بفتواكم،وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم. اذهبوا فقد غفرت لكم**»(٢). هذا معنى الحديث. وقد روي مسنداً ومرسلاً.

فهذا الذي ذكرتم صحيح، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]. أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، أي: لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه، وقطعنا

(١) ٣٣٣ مدارج جـ١.
(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٥٩١) والروياني في مسنده (رقم ٥٤٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ١١١) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٣) قال ابن عدي: وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل، وإن كان الراوي عنه صدقة بن عبد الله ضعيف وابن شابور ثقة. ونقل الذهبي قول ابن عدي في الميزان (٣/ ٤٦٤) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص ٣٤٤).

نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التقول عليه سبحانه وكم من راكن إلى أعدائه، ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به، كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم من قصة يونس: هو من هذا الباب، فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها في بطن الحوت، ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضاً حق، ولا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره: في إعطائه منها ما حرمة غيره، فحُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخص بمزيد التقريب، وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته نُبِّه بما لم ينبه عليه البعيد البراني، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران.

وإذا أردت معرفة اجتماعهما، وعدم تناقضهما، فالواقع شاهد به، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس في منزلتهم، ويأخذهم، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم، وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا، ولا تناقض بين الأمرين.

***

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾.

[1]أمرهن أن لا يلن في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية الليّان في منطقها، فيطمع

(١) ١٤ إغاثة جـ١.

الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشن في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفاً.

...[1]قوله تعالى لنساء نبيه: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] لما أخبر سبحانه بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بآبائهم في الدرجة، فربما توهم متوهم أن يحط الآباء إلى درجة الذرية، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] أي: ما نقصنا من الآباء شيئًا من أجور أعمالهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم...

[2]إن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته بهما. وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ هذين المرضين في كتابه. أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣]. فهذه ثلاثة مواضع، المراد بمرض القلب فيها: مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ

(١) ١٦٠ أعلام جـ٤.
(٢) ١١٠ مفتاح جـ١.

فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: لا تلن في الكلام؛ فيطمع الذي في قلبه: فجور وزناء. قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها، وتقويه، ولا تلينه وتكسره، فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في الأرض، وهذا المرض مركب من: مرض الشبهة والشهوة، فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد، وإرادة باطلة: كالعجب، والفخر، والخيلاء، والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له، ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة، أو شبهة، أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة، الذي أفتوه بالغسل فمات: «قتلوه، قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ إنما شفاء العي السؤال»[1] فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به: مرضاً، وشفاؤه: سؤال العلماء.

فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان، لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمى الله ـ تعالى ـ كتابه شفاء لأمراض الصدور. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولهذا السبب: نسبة العلماء إلى القلوب: كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب، فهو لقدر ما جامع بينهما، وإلا فالأمر أعظم؛ فإن كثيراً من

(١) أخرجه النسائي في المجتبى (رقم ٢٤٠) وأبو داود (رقم ٣٣٦، ٣٣٧) وابن ماجه (رقم ٥٧٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٨ رقم ١٠١٨) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) والدارمي (رقم ٧٥٢) والطبراني في الكبير (١١/ ١٩٤ رقم ١١٤٧٢) وأبو يعلى (٤/ ٣٠٩ رقم ٢٤٢٠) وأحمد (١/ ٣٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩١ رقم ١١٦٣).

الأمم يستغنون عن الأطباء، ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلي طبيب.

وأما العلماء بالله وأمره فهم: حياة الوجود وروحه، ولا يستغني عنهم طرفة عين، فحاجة القلب إلىٰ العلم ليست كالحاجة إلىٰ التنفس في الهواء، بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب: مثل الماء للسمك، إذا فقده مات، فنسبة العلم إلىٰ القلب: كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واللسان الأخرس.

***

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

[1]إن الله سبحانه أنزل علىٰ نبيه الحكمة، كما أنزل عليه القرآن، وأمتن بذلك علىٰ المؤمنين، والحكمة هي: السنة، كما قال غير واحد من السلف، وهو كما قالوا، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، فنوع المتلو إلىٰ نوعين: آيات وهي: القرآن، وحكمة وهي السنة، والمراد بالسنة ما أخذ عن رسول الله ﷺ سوىٰ القرآن، كما قال ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إنه مثل القرآن وأكثر**»[2].

وقال الأوزاعي: عن حسان بن عطية: كان جبرائيل ينزل بالقرآن والسنة، ويعلمه إياها، كما يعلمه القرآن[3]، فهذه الأخبار التي زعم هؤلاء: أنه لا يستفاد منها علم،

---

(١) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) والمروزي في السنة (رقم ٢٤٤، ٤٠٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٣٧ رقم ١٠٦١) وانظر: التمهيد (٢/ ١٥٦) وتأويل مختلف الحديث (ص ١٩٥).

(٣) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٩) والمروزي في السنة (رقم ١٠٢، ٤٠٣) وابن المبارك =

نزل بها جبرائيل من عند الله ﷻ كما نزل بالقرآن، وقال إسماعيل بن عبد الله: ينبغي لها أن تحفظ عن رسول الله ﷺ فإنها بمنزلة القرآن(١).

***

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

(٢)دل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في أي مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان، وقد حكى الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد(٣)، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي ﷺ، فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع فضلاً عن أنه يعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذاً بالله من الخذلان.

(٤)قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقطع ﷻ التخيير بعد أمره وأمر رسوله. فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا

=

في الزهد (رقم ٩١) وأبو داود في المراسيل (رقم ٥٣٦) وانظر: الكفاية في علم الرواية (ص ١٢) ومفتاح الجنة (ص ١٦) وقواعد التحديث (ص ٥٩).

(١) أخرجه المروزي في السنة (رقم ١٠١).

(٢) ٢٧ التبوكية.

(٣) ذكره جمال الدين القاسمي في قواعد التحديث (ص ٣٥٩).

(٤) ٥ زاد المعاد جـ١.

خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته: أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصياً لله ورسوله، فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟

فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله، إذا أمر بما أمر به، ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغاً محضاً، ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله: لم يجب على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها، حتى تعرض على ما جاء به الرسول، فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة: قبلت حينئذ، وإن خالفته: وجب ردها وإطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين: جعلت موقوفة، وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه، وأما أنه يجب ويتعين: فكلا...

[(1)] فاختيار الرب ـ تعالى ـ لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

النوع الثاني: اختيار كوني قدري، لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده، فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

فهذا يكون تارة واجباً، وتارة يكون مستحباً، وتارة يكون مباحاً مستوى الطرفين،

---

(١) ١٨٨ مدارج جـ٢.

وتارة يكون مكروهاً، وتارة يكون حراماً. وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ـ مثل قدر المعائب والذنوب ـ فالعبد مأمور بسخطها، ومنهي عن الرضى بها. وهذا هو التفصيل الواجب في الرضى بالقضاء...

(1)في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص، وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص، وذكر إجماع العلماء على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

(2)وقد كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على من عارض حديث رسول الله برأي أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائناً من كان، ويهجرون فاعل ذلك، وينكرون على من يضرب له الأمثال، ولا يسوغون غير الانقياد له والتسليم والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر بقلوبهم التوقف في قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان، بل كانوا عاملين بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾. وبقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) ٢٦٠ أعلام جـ٢.

(٢) ٢٤٤ أعلام جـ٤.

وبقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وأمثالها، فدفعنا إلىٰ زمان إذا قيل لأحدهم: «ثبت عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال كذا وكذا». يقول: من قال بهذا؟! ويجعل هذا دفعاً في صدر الحديث، أو يجعل جهله بالقائل [به] حجة له في مخالفته وترك العمل به، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام من أعظم الباطل، وأنه لا يحل له دفع سنن رسول الله ﷺ بمثل هذا الجهل.

وأقبح من ذلك عذره في جهله؛ إذ يعتقد أن الإجماع منعقد علىٰ مخالفة تلك السنة، وهذا سوء ظن بجماعة المسلمين، إذ ينسبهم إلىٰ اتفاقهم علىٰ مخالفة سنة رسول الله ﷺ. وأقبح من ذلك عذره في دعوىٰ هذا الإجماع، وهو جهله وعدم علمه بمن قال بالحديث، فعاد الأمر إلىٰ تقديم جهله علىٰ السنة، والله المستعان.

ولا يعرف إمام من أئمة الإسلام البتة قال: لا نعمل بحديث رسول الله ﷺ حتىٰ نعرف من عمل به، فإن جهل من بلغه الحديث من عمل به لم يحل له أن يعمل به، كما يقول هذا القائل.

***

﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ۝٣٧﴾.

(١)تزوج ﷺ زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة وهي ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وبذلك كانت تفتخر علىٰ نساء النبي ﷺ. وتقول: «زوجكن أهاليكن، وزجني الله من فوق سبع

(١) ٥٣ زاد المعاد جـ٢.

سموات»[١]. ومن خواصها: أن الله ﷻ كان هو وليها الذي زوجها للرسول ﷺ من فوق سمواته، وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ تبناه، فلما طلقها زيد زوجه الله ـ تعالى ـ إياها، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنوه.

[٢]وأما قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير رسول الله ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسول الله ﷺ أن سيفارقها ولابد، فأخفى في نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس:إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه، فإنه كان تبنى زيداً قبل النبوة، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد، وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه، جاء زيد، واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكر رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب: يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، وقامت إلى محرابها فصلت[٣]، فتولى الله ﷻ نكاحها من رسول الله ﷺ بنفسه، وعقد النكاح له من فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا ﴾ ، فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها، فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك، وتقول: أنتن زوجكن أهلوكن وزجني الله ﷻ من فوق سبع سموات. فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب، ولا ريب أن النبي ﷺ حبب إليه النساء، كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه، والطبراني في الأوسط عنه ﷺ قال: «حبب إليَّ من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٤]. هذا لفظ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤١١).
(٢) ٣٢٥ الجواب الكافي.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٢٨) وانظر: شرح النووي (٩/ ٢٢٨).
(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٠ رقم ٨٨٨٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٢) والضياء في المختارة (٥/ ١١٢-١١٣ رقم ١٧٣٦، ١٧٣٧) والحاكم (٢/ ١٧٤ رقم ٢٦٧٦) =

الحديث لاما يرويه بعضهم: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث»[١]. زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد في الحديث: «أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن»[٢].

وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا: ما همه إلا النكاح، فرد الله ـ سبحانه ـ عن رسول الله ﷺ ونافح عنه، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، الآية. وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر، وتسرى بها، وهذا داود ﷺ كان عنده تسعة وتسعون امرأة، فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه ﷺ كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة. وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه قال: «عائشة رضي الله عنها»[٣]. وقال عن خديجة: «إني رزقت حبها»[٤]، فمحبة النساء من كمال الإنسان قال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرهم نساء»[٥].

[٦]هديه ﷺ في علاج العشق: هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه، وأعيا العليل داؤه وإنما حكاه الله ـ سبحانه ـ في كتابه عن طائفتين من الناس: من

= والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٤١ رقم ٥٢٠٣) وأبو يعلى (٦/ ١٩٩ رقم ٣٤٨٢) وأحمد (٣/ ١٢٨) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٥).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٠٥رقم ١٠٨٩) وقال: وقال ابن القيم وغيره من رواه: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث» فقد وهم، بل هي عبادة محضة. نعم يصح أن تضاف إليها لكونها ظرفاً لوقوعها فيها. وكذا قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الرافعي تبعاً لأصله والولي ابن العراقي في أماليه: إن لفظ ثلاث لم يقع في شيء من طرقه، بل هي مفسدة للمعنى.

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٣٧١) (٦/ ٥٠) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٠٦).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٠/ ٤٠٤ رقم ٤٥٤٠) (١٦/ ٤٠ رقم ٧١٠٧) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٩٩ رقم ١٤٥٢٥) والترمذي (رقم ٣٨٨٦) وقال: حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٣٥) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٣٧) وشرح النووي (١٥/ ٢٠١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ١١٤) وعمدة القاري (٢٠/ ٧٠).

(٦) ٣١٧ زاد المعاد جـ٣.

النساء وعشاق الصبيان المردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط. فقال ـ تعالى ـ إخبارًا عنهم لما جاءت الملائكة لوطاً: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٦٧، ٧٢]. وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره: من أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش، وأن رآها فقال: «سبحان مقلب القلوب!» فأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة: «أمسكها» حتى أنزل الله عليه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[1] [الأحزاب: ٣٧] فظن هذا الزاعم: أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء وذكره هذه الواقعة، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تبناه، وكان يدعى زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»[2]. وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشى من قالة الناس: إنه تزوج امرأة ابنه. لأن زيدًا كان يدعى ابنه. فهذا هو الذي أخفاه في نفسه. وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له. ولهذا ذكر الله ـ سبحانه ـ هذه الآية، يعدد فيها نعمه عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه، فلا يتحرج مما أحله له

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١٨٣-١٨٤) (٣/ ٢٩-٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢١٢) والدارقطني (٣/ ٣٠١ رقم ٢٠٦) وصححه الترمذي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩١): رواه الطبراني من طرق رجال بعضها رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٢٣-٥٢٤).

لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه ـ سبحانه ـ زوَّجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها لتقتدي أمته به في ذلك. ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني، لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال آية التحريم: ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٣]، وقال في هذه السورة: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال في أولها: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ، ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد ـ سوى ربه ـ نهاية الحب. بل صح أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[1]. وفي لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمن»[2].

***

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٤٠ ﴾.

[3]لما كان رسول الله ﷺ مشتملاً على ما يقتضي أن يحمد مرة بعد مرة سمي محمداً، وهو اسم موافق لمسماه، ولفظ مطابق لمعناه؛ والفرق بين «محمد» و«أحمد» من وجهين:

أحدهما: أن «محمدًا» هو المحمود حمداً بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. وأحمد أفعل تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، فمحمد زيادة حمد في الكمية،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦) ومسلم (رقم ٢٣٨٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣-٢٤) وشرح النووي (٥/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٤٢) وانظر: عمدة القاري (٤/ ٢٤٤).

(٣) ١٠٤ جلاء الأفهام.

و«أحمد» زيادة في الكيفية، فيحمد أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر.

الوجه الثاني: أن «محمدًا» هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم، و«أحمد» هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، فدل أحد الاسمين وهو «محمد» على كونه محموداً، ودل الاسم الثاني وهو: «أحمد» على كونه أحمد الحامدين لربه، وهذا هو القياس، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل، لا يبنيان من فعل المفعول، بناء منهم على أن أفعل التعجب والتفضيل إنما يصاغان من الفعل اللازم لا من المتعدي، ولهذا يقدرون نقله من فعل وفعل إلى بناء فعل بضم العين. قالوا: والدليل على هذا أنه تعدى بالهمزة إلى المفعول، فالهمزة التي فيه للتعدية، نحو ما أظرف زيداً، وأكرم عمرًا، وأصلهما ظرف وكرم...

[1]هذا الاسم هو أشهر أسمائه ﷺ، وهو اسم منقول من الحمد، وهو في الأصل اسم مفعول من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحمود ومحبته وإجلاله وتعظيمه، هذا هو حقيقة الحمد، وبني على زنة «مفعل» مثل معظم، ومحبب، ومسود، ومبجل ونظائرها، لأن هذا البناء موضوع للتكثير، فإن اشتق منه اسم فاعل فمعناه: من كثر صدور الفعل منه مرة بعد مرة: كمعلم، ومفهم، ومبين، ومخلص، ومفرج ونحوها، وإن اشتق منه اسم مفعول فمعناه: من كثر تكرر وقوع الفعل عليه مرة بعد أخرى: إما استحقاقاً، أو وقوعاً، فمحمد هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يحمد مرة بعد أخرى.

ويقال: حمد فهو محمد كما يقال: علم فهو معلم، وهذا علم وصفة اجتمع فيه الأمران في حقه ﷺ وإن كان علماً مختصاً في حق كثير ممن تسمى به غيره.

وهذا شأن أسماء الرب ـ تعالى ـ وأسماء كتابه، وأسماء نبيه، هي أعلام دالة على معان هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف، بخلاف غيرها من أسماء

(١) ٩٢ جلاء الأفهام.

المخلوقين، فهو: الله، الخالق، البارئ، المصور، القهار، فهذه أسماء له دالة على معان هي: صفاته، وكذلك القرآن، والفرقان والكتاب المبين، وغير ذلك من أسمائه.وكذلك أسماء النبي ﷺ: «محمد، وأحمد، والماحي، وفي حديث جبير بن معطم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد، أنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر**»(١). فذكر رسول الله ﷺ هذه الأسماء مبيناً ما خصه الله به من الفضل، وأشار إلى معانيها وإلا فلو كانت أعلاماً محضة لا معنى لها لم تدل على مدح، ولهذا قال حسان ﷺ:

وشــق لــه مــن اســمه ليجلــه … فذو العرش محمود وهـذا محمـد(٢)

(٣)إذا ثبت هذا فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله: جحوداً، وعناداً، وجهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له، وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، فإن اسمه محمد وأحمد، وأمته الحمادون: يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٣٢) ومسلم (رقم ٢٣٥٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٧) وشرح النووي (١٥/ ١٠٤).

(٢) هذا بيت من البحر الطويل، ينسب إلى حسان بن ثابت الصحابي الجليل رضي الله عنه وينسب أيضاً إلى بجير بن زهير المزني وهو صحابي أيضاً توفي سنة ١١هـ وشارك في غزوة خيبر وفتح مكة. والبيت ذكره ابن كثير غير منسوب لأحد في تفسيره (٤/ ٥٢٦) وابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٦٦٢) غير منسوب لأحد. ونسبه إلى أبي طالب وكذا فعل الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٥٥) وفي الإصابة (٧/ ٢٣٥) والزرقاني في شرحه من موطأ مالك (٤/ ٥٥٧) وأخرجه البخاري في تاريخه الأوسط (رقم ٣١) وابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٣٢، ٣٣).

(٣) ٩٦ جلاء الأفهام.

أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، ولما يسجد بين يدي ربه ﷻ للشفاعة، ويؤذن له فيها، يحمد ربه بمحامد يفتحها عليها حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف علىٰ معنىٰ المقام المحمود فليقف علىٰ ما ذكره سلف الأمة من: الصحابة، والتابعين فيه في تفسير هذه السورة كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد بن حميد. وغيرها من تفاسير السلف.

وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم: مسلمهم، وكافرهم: أولهم، وآخرهم، وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من: الهدىٰ، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به، حتىٰ نال أتباعه شرف الدنيا والآخرة. فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم، قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بضعاً، ومن استحسن شيئاً دعا إليه.

وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة، وقد نظر الله سبحانه إلىٰ أهل الأرض، فمقتهم: عربهم، وعجمهم، إلا بقايا علىٰ آثار دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدىٰ به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وكثر بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنىٰ به بعد العيلة، وفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم

ومعبودهم: غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ، وأعاد، واختصر، وأطنب في ذكر: أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، حتى تجلت معرفته سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها، كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف: لا إلى من قبله، ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

روى أبو داود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة، فقال: «كفى بقوم ضلالة؛ أن يبتغوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على غير نبيهم»، فأنزل الله ﷻ تصديق ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١)، فهذا حال من أخذ ينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟!

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: «ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه»(٢)، قال أبو ذر: «لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً». وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم التعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم؛ إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسل (رقم ٤٥٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥ رقم ٢١٣٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٦ رقم ١٣٢٢١) وهناد في الزهد (١/ ٢٨١ رقم ٤٩٤) وقال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٥/ ٥٧٦): فيه انقطاع.

وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان.

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت: ظله، وعهده، وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكنِ المؤمنون قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى. والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.

ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، كما روى البخاري في صحيحه

عن عبدالله بن عمرو، أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوارة: «**محمد عبدي ورسولي، سميته: المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ويغفر، ولن أقبضه حتي أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعينًا عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، حتى يقولوا: لا إله إلا الله**». وأرحم الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم...[1][2]

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾﴾.

[3]كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله ﷻ بل كان كلامه كله في ذكر الله، وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة: ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده: ذكر منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده وتسبيحه: ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته: ذكراً منه له، وسكوته وصمته: ذكراً منه له بقلبه، فكان ذاكراً لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، فكان ذكره لله يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعته وإقامته. وكان إذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[4].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**كان إذا هبَّ من الليل: كبر الله عشراً، وحمد الله عشراً، وقال: سبحان الله وبحمده عشراً، سبحان الملك القدوس عشراً، وأستغفر الله عشراً، وهلل عشرا، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة**

(١) البحث مطول من أراده فليرجع إليه (ج).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢١٢٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٣٤٣).
(٣) ٣٧ زاد المعاد جـ٢.
(٤) أخرجه البخاري عن حذيفة بن اليمان ﷺ (رقم ٦٣١٢) ومسلم عن البراء ﷺ (رقم ٢٧١١) وانظر: فتح الباري (١١/ ١١٤).

عشراً، ثم يستفتح الصلاة»[١].

وقالت أيضاً: «كان إذا استيقظ من الليل قال: لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»[٢]. ذكرهما أبو داود[٣].

[٤]الذكر: عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة.

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلي لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء. وحفظ الله عليه كل شيء. وكان له عوضاً من كل شيء. به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار. زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذان الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر.وقراءة القرآن. فإن وجدتم. وإلا فاعلموا أن الباب مغلق[٥].

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب. فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢١٨ رقم ١٠٧٠٧) وأبو داود (رقم ٥٠٨٥) وانظر: عون المعبود (١٣/ ٢٩١-٢٩٢) وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤/ ٣٢٢): حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٥٠٦١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢١٦ رقم ١٠٧٠١) وابن حبان (١٢/ ٣٤١ رقم ٥٥٣١) والحاكم (١/ ٧٢٤ رقم ١٩٨١) والطبراني في الدعاء (رقم ٧٦٢) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤/ ٣١٤) وفي ضعيف الترغيب (رقم ٤٥).

(٣) استمر في ذكر الاستيقاظ وغيره رحمه الله (ج).

(٤) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧١) (١٠/ ١٤٦).

الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي. وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان: كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

(١)الذكر ثلاثة أنواع: ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها. وذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء. والإحسان والأيادي وأنه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده. وهو في الدرجة الثانية: وذكر باللسان المجرد. وهو في الدرجة الثالثة.

(٢)...وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذاكراً له. وذكر بعده، به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، قال ـ فيما يروي عنه نبيه ﷺ ـ: «من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(٣).

والذكر الذي ذكره الله به، بعد ذكره له: نوع غير الذكر الذي ذكره به قبل ذكره له، ومن كثف فهمه عن هذا فليجاوزه إلى غيره. فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع(٤)

---

(١) ٤٣٠ مدارج جـ٢.

(٢) ٤٣٣ مدارج جـ٢.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٦) وشرح النووي (١٧/ ٢).

(٤) هذا البيت من بحر الوافر وينسب إلى عمرو بن معديكرب الزبيدي، أسلم في عهد النبي ﷺ ثم ارتد بعد وفاته ثم عاد إلى الإسلام مرة ثانية وشهد اليرموك والقادسية وله شعر جيد مات سنة ٢١هـ وينسب هذا البيت أيضًا إلى دريد بن الصمة، أدرك الإسلام ولم يسلم. مات سنة ٨ هجرية يوم حنين على دين المشركين، وينسب أيضاً إلى إبراهيم بن هرمة شاعر مخضرم من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، أنشد الشعر بين يدي الرشيد مات سنة ١٧٦هـ وينسب أيضًا إلى ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٣هـ وينسب أيضاً إلى ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨هـ. ذكره الأصمعي في =

وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يوماً. فقلت له: إذا كان، الرب ـ سبحانه ـ يرضى بطاعة العبد، ويفرح بتوبته، ويغضب من مخالفته، فهل يجوز أن يؤثر المحدث في القديم حباً وبغضاً وفرحاً وغير ذلك؟

فقال لي: الرب ـ سبحانه ـ هو الذي خلق أسباب الرضا والغضب والفرح، وإنما كانت بمشيئته وخلقه. فلم يكن ذلك التأثر من غيره، بل من نفسه بنفسه. والممتنع أن يؤثر غيره فيه. فهذا محال، وأما أن يخلق هو أسباباً ويشاءها ويقدرها تقتضي رضاه ومحبته، وفرحه وغضبه: فهذا ليس بمحال. فإن ذلك منه بدأ وإليه يعود. والله ـ سبحانه ـ أعلم.

(١)والمقصود: أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة، وكان الله ـ سبحانه ـ أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته.

ولهذا أمر ـ سبحانه ـ بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سبباً للفلاح، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]. وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «**سبق المفردون**»، قالوا:

=

الأصمعيات (ص١١١) والثعالبي في الإعجاز والإيجاز (ص ١٥٦) والتمثيل والمحاضرة (ص ٩٣) وابن قتيبة في الشعر والشعراء (١/ ٤٠٥) والزمخشري في القسطاس في علم العروض (ص ٥٣). وانظر: الإصابة (٤/ ٦٩٢) والاستيعاب (٣/ ١٢٠٤).

(١) ٢٦٦ جلاء الأفهام.

يا رسول الله! وما المفردون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً**»(١) وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أدلكم على خير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**ذكر الله**». وهو في الموطأ موقوف على أبي الدرداء.

قال معاذ بن جبل: «**ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله**»(٢) وذكر رسوله ﷺ تبع لذكره.

والمقصود: أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة. فالذكر للقلب: كالماء للزرع، بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به. وهو أنواع: ذكره بأسمائه وصفاته، والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. فذكره هنا كلامه الذي أنزله على رسوله. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]. ومن ذكره ـ سبحانه ـ: دعاؤه، واستغفاره والتضرع إليه، فهذه خمسة أنواع من الذكر.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٦) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٧) ومالك في الموطأ (١/ ٢١١ رقم ٤٩٢) وأحمد (٥/ ١٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٧٩٠) والحاكم (١/ ٦٧٣ رقم ١٨٢٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه المنذري في الترغيب (٢/ ٢٥٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥).

[1] قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤]، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤] وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات. وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه «سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

«المراقبة» دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق جل جلاله على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله ـ سبحانه ـ رقيب عليه ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله: كل وقت، وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

قال الجريري: من لم يُحَكِّم بينه وبين الله تعالى التقوى، والمراقبة: لم يصل إلى الكشف والمشاهدة[3]. وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه. وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً[4]. وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظه من ربه لا غيره. وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثارها ما أنزل الله، وتعظيم ما عظَّم الله، وتصغير ما صغَّر الله[5].

***

---

(١) ٦٥ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) (٢/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٣٦ رقم ٩٠٦) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٥١٢ رقم ٨٨٠).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٤٧ رقم ١٦٤٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٤١٤).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾.

[(١)] بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ وأصل هذه اللفظة يرجع إلي معنيين: (أحدهما): الدعاء والتبريك. (الثاني): العبادة. فمن الأول قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقوله النبي ﷺ: «إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب؛ فإن كان صائماً فليصل»[(٢)]. فسر بهما قيل: «فليدع لهم بالبركة»، وقيل: «يصلي عندهم» بدل أكله. وقيل: «إن الصلاة» في اللغة معناها الدعاء.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داع كما أن السائل داع، وبهما فسر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقيل: أطيعوني أثبكم، وقيل: سلوني أعطكم، وفسر بهما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والصواب: أن الدعاء يعم النوعين، وهذا لفظ متواطئ لا اشتراك فيه فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]، والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أي شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إياه. فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل. وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى

(١) ٨١ جلاء الأفهام.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٥٠).

ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

وقال ـ تعالى ـ إخباراً عن أنبيائه ورسله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وهذه الطريقة أحسن من الطريقة الأولى؛ ودعوى الخلاف في مسمى الدعاء، وبهذا تزول الإشكالات الواردة على اسم الصلاة الشرعية، هل هو منقول عن موضعه في اللغة فيكون حقيقة شرعية أو مجازاً شرعياً. فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة، وهو الدعاء، والدعاء: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقة، لا مجازاً ولا منقولة، لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة، والرأس، ونحوهما فهذه غاية تخصيص اللفظ وقصره على بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلاً ولا خروجاً عن موضوعه الأصلي، والله أعلم.

هذه الصلاة من الآدمي وأما صلاة الله ـ سبحانه ـ فنوعان: عامة، وخاصة:

أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومنه دعاء النبي: ﷺ بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[١]، وفي حديث آخر: أن امرأة قالت له: «صل عليَّ وعلى زوجي»، قال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»[٢]، وسيأتي ذكر هذا الحديث وما شابهه إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٩٧) ومسلم (رقم ١٠٧٨) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٤٨) (٨/ ٥٣٤)، وشرح النووي (٤/ ١٢٧) (٧/ ١٨٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٩٧ رقم ٩١٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٢ رقم ١٠٢٥٦) وأبو داود (رقم ١٥٣٣) والبيهقي في الكبرى (٢/ ١٥٢ رقم ٢٦٩٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٤ رقم ٨٧١٧) وأبو يعلى (٤/ ٥٩ رقم ٢٠٧٧) وأحمد (٣/ ٣٠٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٩٨) (٨/ ٥٣٤) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٧٠): وصححه ابن حبان.

النوع الثاني: صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال:

أحدها: أنها رحمته. قال إسماعيل: حدثنا نصر بن علي، حدثنا محمد بن سواء، عن جويبر، عن الضحاك قال: صلاة الله: رحمته، وصلاة الملائكة: الدعاء[(١)].

وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رحمة واستدعاء الرحمة من الله[(٢)]. وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: أن صلاة الله مغفرته. قال إسماعيل ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا محمد ابن سواء، عن جويبر عن الضحاك: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾، قال: صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء[(٣)]. وهذا القول هو من جنس الذي قبله، وهما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته، فقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما، هذا أصل العطف، وأما قولهم:

وألفى قولها كذبا ومينا[(٤)]

فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب.

---

(١) أخرجه إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٩٦) وضعفه الألباني في تحقيقه لهذه الرسالة (ص ٨٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٥٦).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٥٦).

(٣) أخرجه إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٩٧) وقال الألباني في تحقيقه لهذه الرسالة (ص ٩٧): ضعيف جدًا. وانظر: فتح الباري (١١/ ١٥٦).

(٤) ذكر البيت أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل (صـ ٩٩) وصدره: وقددت الأديم الراهشية. وابن سلام الجحمي في طبقات فحول الشعراء (صـ ٦٢) وقدامة بن جعفر في نقد الشعر (صـ ١٩٩) ونسبوه إلى عدي بن زيد العتادي وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٤) ولسان العرب (١٣/ ٤٢٥).

الوجه الثاني: أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها، فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها، وهذا كثيراً ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمىٰ الريب، وتفسير المغفرة بالستر؛ وهو جزء مسمىٰ المغفرة،وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة، نظائر ذلك كثيرة، قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة علىٰ المؤمنين.

واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة علىٰ غير الأنبياء علىٰ ثلاثة أقوال سنذكرها فيما بعد إن شاء الله ـ تعالىٰ ـ، فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنىٰ الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال: «اللهم ارحم محمداً وآل محمد» وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه أنه صلىٰ عليه، ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه، فيجد في قلبه له رحمة ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لابد فيها من كلام، فهي ثناء من المصلي علىٰ من يصلي عليه، وتنويه به، وإشارة لمحاسنة وما فيه، وذكره.

ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال: «صلاة الله علىٰ رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة»[1]. وقال إسماعيل في كتابه: حدثنا نصر بن علي حدثنا خالد بن يزيد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ =

عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال: صلاة الله ﷻ ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء(١).

الوجه الثامن: أن الله سبحانه فرق بين صلاته وصلاة ملائكته، وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه سبحانه وثناء ملائكته عليه، ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك، ويجوز أن يستعمل في معنييه معاً، لأن في ذلك محاذير متعددة:

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد، كما نص علي ذلك أئمة اللغة منهم المبرد، وغيره وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقياً بسبب تعدد الواضعين، ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، وما حكي عن الشافعي ﷺ من تجويزه ذلك؛ فليس بصحيح عنه، وإنما أخذ من قوله: «إذا أوصى لمواليه وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم» فظن من ظن أن لفظ «المولى» مشترك بينهما، وأنه عند التجرد يحمل عليهما، وهذا ليس بصحيح؛ فإن لفظ «المولى» من الألفاظ المتواطئة، فالشافعي، وأحمد ـ رضي الله عنهما ـ في ظاهر مذهبهما يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ، وهو عندهما متواطيء لا مشترك.

وأما ما حكي عن الشافعي ﷺ أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]، وقد قيل له: قد يراد بالملامسة المجامعة، قال: «هي محمولة

=

ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (صـ ٩٣٧) وأخرجه بن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣١٥١ رقم ١٧٧٦٨) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٧) وفتح الباري (٨/ ٥٣٣).

(١) أخرجه إسماعيل الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٩٥) وصححه الألباني.

على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازاً» فهذا لا يصح عن الشافعي، ولا هو من جنس المألوف من كلامه، وإنما هذا كلام بعض الفقهاء المتأخرين، وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً بضعه عشر دليلاً في مسألة ـ القرء ـ من كتاب التعليق على الأحكام.

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن الصلاة في الآية مشتركاً محمولاً على معنييه، بل يكون مستعملاً في معنى واحد، وهذا هو الأصل في الألفاظ. وسنعود إلى هذه المسألة ـ إن شاء الله تعالى ـ في الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾.

الوجه التاسع: أن الله ـ سبحانه ـ أمر بالصلاة عليه عقيب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه. والمعنى: أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله، فصلوا أنتم أيضاً عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً؛ لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم. فينقض اللفظ والمعنى، فيصير التقدير إلى أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه، فادعوا أنتم له وسلموا، وهذا ليس مراد الآية قطعاً، بل الصلاة المأمور بها فيها هي: الطلب من الله، وما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه. فهي تتضمن الخبر والطلب، وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن: صلاة عليه، لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشارة بذكر شرفه، وفضله والإرادة والمحبة كذلك من الله ـ تعالى ـ فقد تضمنت: الخبر، والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سمي منا: صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلي عليه. فصلاة الله عليه: ثناؤه، وإرادته لرفع ذكره، وتقريبه. وصلاتنا نحن عليه: سؤالنا الله تعالى أن

يفعل ذلك به، وضد هذا في لعنه أعداءه الشانئين لما جاء به، فإنها تضاف إلى الله، وتضاف إلى العبد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]. فلعنة الله لهم تتضمن: مقته، وإبعاده، وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن: سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك بمن هو أهل اللعنة.

وإذا ثبت هذا فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي الرحمة لم يصح أن يقال لطالبها من الله: مصلياً، وإنما يقال له: مسترحماً، كما يقال لطالب المغفرة: مستغفراً له، ولطالب العطف: مستعطفاً، ونظائره، ولهذا لا يقال لمن سأل الله المغفرة لغيره، قد غفر له، فهو غافر، ولا لمن سأله العفو عنه قد عفا عنه. وهنا قد سمي العبد مصلياً، فلو كانت الصلاة هي الرحمة لكان العبد راحماً لمن صلى عليه، وكان يقال: قد رحمه برحمة، ومن رحم النبي ﷺ مرة رحمه الله بها عشرًا، وهذا معلوم البطلان. فإن قيل: ليس معنى صلاة العبد عليه ﷺ رحمته، وإنما معناها: طلب الرحمة من الله. قيل: هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن طلب الرحمة مشروع لكل مسلم، وطلب الصلاة من الله يختص برسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ عند كثير من الناس، كما سنذكره إن شاء الله ـ تعالى ـ.

الثاني: أنه لوسمي طالب الرحمة: مصلياً، لسمى طالب المغفرة: غافراً، وطالب العفو: عافياً، وطالب الصفح: صافحاً، ونحوه.

فإن قيل: فأنتم قد سميتم طالب الصلاة من الله مصلياً.

قيل: إنما سمي مصلياً لوجود حقيقة الصلاة منه، فإن حقيقتها الثناء، وإرادة الإكرام والتقريب وإعلاء المنزلة، وهذا حاصل من صلاة العبد؛ لكن العبد يريد ذلك من الله ﷻ، والله ـ سبحانه ـ يريد ذلك من نفسه أن يفعله برسوله.

وأما على الوجه الثاني، وأنه سمي مصلياً لطلبه ذلك من الله فلأن الصلاة نوع من الكلام الطلبي والخبر والإرادة، وقد وجد ذلك من المصلي بخلاف الرحمة والمغفرة:

فإنها أفعال لا تحصل من الطالب، وإنما تحصل من المطلوب منه، والله أعلم.

الوجه العاشر: أنه قد ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً»[(١)]، وأن الله سبحانه قال له: «من صلى عليك من أمتك مرة صليت عليه بها عشراً»، وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة: أن الجزاء من جنس العمل، فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست هي رحمة من العبد، لتكون صلاة الله عليه من جنسها، وإنما هي ثناء على الرسول ﷺ وإرادة من الله أن يعلي ذكره، ويزيده تعظيماً وتشريفاً؛ والجزاء من جنس العمل، فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله بأن يثني عليه ويزيد تشريفه وتكريمه، فصح ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له.

«من يسر على معسر يسر الله عليه حسابه ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»[(٢)]، «ومن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[(٣)]، «ومن صلى على النبي ﷺ مرة صلى الله عليه بها عشراً»، ونظائره كثيرة. يوضحه:

الوجه الحادي عشر: أن أحداً لو قال عن رسول الله ﷺ: «رحمه الله» أو قال: «رسول الله رحمه الله» بدل ﷺ لبادرت الأمة إلى الإنكار عليه وعدوه مبتدعاً غير موقر

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٨٤) وانظر: شرح النووي (٤/ ٨٥-٨٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٩) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٢١).
(٣) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٩٨ رقم ٩٦) وأبو داود (رقم ٣٦٥٨) وابن ماجه (رقم ٢٦٥) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٩٣ رقم ٧٥٣٢) وفي الكبير (١٠/ ١٢٨ رقم ١٠١٩٧) وأحمد (٢/ ٣٤٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٧٥ رقم ١٧٤٣) وانظر: شرح النووي (٣/ ١١١).

للنبي ﷺ ولا مصل عليه ولا مثن عليه بما يستحقه، ولا يستحق أن يُصلىٰ عليه بذلك عشر صلوات، ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك.

الوجه الثاني عشر: أن الله ﷻ قال: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣]، فأمر ـ سبحانه ـ أن لا يدعىٰ رسوله بما يدعو الناس بعضهم بعضاً، بل يقال: يا رسول الله، ولا يقال: يا محمد، وإنما كان يسميه باسمه وقت الخطاب الكفار، وأما المسلمون فكانوا يخاطبونه برسول الله، وإذا كان هذا في خطابه، فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعىٰ به له من جنس ما يدعو به بعضناً لبعض، بل يدعو له بأشرف الدعاء، وهو الصلاة عليه. ومعلوم أن الرحمة يدعىٰ بها لكل مسلم، بل ولغير الآدمي من الحيوانات، كما في دعاء الاستسقاء: «اللهم ارحم عبادك وبلادك وبهائمك»[(١)].

والوجه الثالث عشر: أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنىٰ الرحمة أصلاً، والمعروف عند العرب من معناها إنما هو الدعاء والتبريك والثناء قال:

وإن ذكرت صلىٰ عليها وزمزما[(٢)]

أي: برك عليها ومدحها، ولا تعرف العرب قط: «صلىٰ عليه» بمعنىٰ «رحمه» فالواجب حمل اللفظ علىٰ معناه المتعارف في اللغة.

الوجه الرابع عشر: أنه يسوغ بل يستحب لكل واحد أن يسأل الله أن يرحمه، فيقول: اللهم ارحمني كما علم النبي ﷺ الداعي أن يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني»[(٣)]، فلما حفظها قال: «أما هذا فقد ملأ يديه من الخير»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣١٩).

(٢) هذا عجز بيت للأعشىٰ من بحر الطويل وصدره: لها حارس ما يبرح الدهر بيتها: ذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ١٠٤) وابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣) وابن عبدالبر في التمهيد (١٩/ ٤١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٧).

(٤) أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٤ رقم ٢) وأحمد (٤/ ٣٥٣) وعبد بن حميد (رقم ٥٢٤) وعبد الرزاق (٢/ ١٢١-١٢٢ رقم ٢٧٤٧) والطبراني في الدعاء (رقم ١٧١١) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٣).

ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يقول: «اللهم صلِّ عليّ»، بل الداعي بهذا معتد في دعائه، والله لا يحب المعتدين، بخلاف سؤاله الرحمة، فإن الله يحب أن يسأله عبده: مغفرته ورحمته، فعلم أنه ليس معناهما واحداً.

الوجه الخامس عشر: أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله: «إن رحمتي سبقت غضبي»[1]، وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقول النبي ﷺ: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»[2]. وقوله: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3]، وقوله: «من لا يرحم لا يُرحَمُ»[4]، قوله: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[5] وقوله: «والشاة إن رحمتها رحمك الله»[6].

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله وفي حق العباد لا يحسن أن تقع الصلاة في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٢) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٤١) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٩) ومسلم (رقم ٢٧٥٤) ولفظه عندهما: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٤١) والترمذي (رقم ١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١٣) ومسلم (رقم ٢٣١٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٩-٤٣٠) وشرح النووي (١٥/ ٧٧).

(٥) أخرجه ابن حبان (٢/ ٢١٣ رقم ٤٦٦) وأبو داود (رقم ٤٩٤٢) والترمذي (رقم ١٩٢٣) وقال: حديث حسن. وأبو يعلى (١٠/ ٥٢٦ رقم ٦١٤١) وأحمد (٢/ ٣٠١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٧٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٧).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٦) والبزار (٨/ ٢٥٥ رقم ٣٣١٩) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٨١ رقم ١١٠٦٩) والحاكم (٣/ ٦٧٦ رقم ٦٤٨٢) (٤/ ٢٥٧ رقم ٧٥٦٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ١٤٢ رقم ٢٧٣٦) وفي الكبير (١٩/ ٢٢ رقم ٤٤) وصححه الحاكم، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٣): رجاله ثقات.

كثير منها، بل في أكثرها، فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة، والله أعلم.

[(١)] وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، قال: يباركون عليه[(٢)]، وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم، فإن التبريك من الله يتضمن ذلك، ولهذا قرن بين الصلاة عليه والتبريك عليه، وقالت الملائكة لإبراهيم: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] قال غير واحد من السلف: معلماً للخير أينما كنت، هذا جزء المعنى، فالمبارك: كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليماً وإقداراً ونصحاً وإرادة واجتهاداً، ولهذا يكون العبد مباركًا، لأن الله بارك فيه وجعله كذلك، والله تعالى متبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك وهو المتبارك. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى...

وقد رد طائفة من الناس تفسير الصلاة من الله بالرحمة بأن قال: معناها رقة الطبع، وهي مستحيلة في حق الله ـ سبحانه ـ كما أن الدعاء منه ـ سبحانه ـ مستحيل، وهذا الذي قاله هذا عرق جهمي ينض من قلبه على لسانه، وحقيقته إنكار رحمة الله جملة، وكان جهم يخرج إلى الجذمي ويقول: أرحم الراحمين يفعل هذا؟! إنكاراً لرحمته ـ سبحانه ـ.

[(٣)]وقال عبيد الله بن عمرو: حدثني بعض إخواني ممن أثق به قال: رأيت رجلاً من أهل الحديث في المنام فقلت: ماذ فعل الله بك؟ قال: رحمني، أو غفر لي. قلت: وبم

---

(١) ٩٠ جلاء الأفهام.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٣).

(٣) ٢٤٨ جلاء الأفهام.

ذاك؟ قال: إني كنت إذا أتيت على اسم النبي ﷺ كتبت ﷺ[١]. ذكرها محمد بن صالح عن ثوابة عن سعيد بن مروان عنه.

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه عن جماعة من أهل الحديث أنهم رؤوا بعد موتهم، وأخبروا أن الله غفر لهم بكتابتهم الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث.

وقال ابن سنان: سمعت عباساً العنبري، وعلي بن المديني يقولان: ما تركنا الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث سمعناه، وربما عجلنا فنبيض الكتاب في كل حديث حتى نرجع إليه[٢].

الموطن الثاني والعشرون من مواطن الصلاة عليه ﷺ عند تبليغ العلم إلى الناس عند التذكير والقصص، وإلقاء الدرس، وتعليم العلم، في أول ذلك وآخره. قال إسماعيل بن إسحاق في كتابه حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة حدثنا حسين بن علي - وهو الجعفي - عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبدالعزيز: «أما بعد: فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك[٣]، والصلاة على النبي ﷺ في هذا الموطن، لأنه موطن لتبليغ العلم الذي جاء به ونشره في أمته وإلقائه إليهم ودعوتهم إلى سنته وطريقته ﷺ. وهذا من أفضل الأعمال وأعظمها نفعاً للعبد في الدنيا والآخرة..

[٤]إنها متضمنة لذكر الله وشكره ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عليه

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (صـ ٣٧).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٢٧٢ رقم ٥٦٨) وذكره السيوطي في تدريب الراوي (٢/ ٧٦).

(٣) أخرجه إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٧٦) وابن أبي شيبة (٧/ ١٧٥ رقم ٣٥٠٩٣).

(٤) ٢٦٩ جلاء الأفهام.

ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله، وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله، كما عرفنا ربنا وأسماءه وصفاته وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرفنا ما لنا بعد الوصول إليه، والقدوم عليه، فهي متضمنة لكل الإيمان، بل هي متضمنة للإقرار بوجوب الرب المدعو وعلمه وسمعه وقدرته وإرادته وصفاته وكلامه، وإرسال رسوله وتصديقه في أخباره كلها وكمال محبته ولا ريب أن هذه هي أصول الإيمان، فالصلاة عليه ﷺ متضمنة لعلم العبد ذلك، وتصديقه به ومحبته له، فكانت من أفضل الأعمال.

إن الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه نوعان: أحدهما: سؤاله حوائجه ومهماته وما ينوبه في الليل والنهار، فهذا دعاء وسؤال وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

والثاني: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه، ويزيد في تشريفه وتكريمه، وإثارة ذكره، ورفعه، ولا ريب أن الله تعالى يحب ذلك ورسوله يحبه، فالمصلي عليه ﷺ قد صرف سؤاله ورغبته وطلبه إلى محاب الله ورسوله، وأثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابه هو، بل كان هذا المطلوب من أحب الأمور إليه، وآثر عنده فقد آثر ما يحبه الله ورسوله، فقد آثر الله ومحابه على ما سواه، والجزاء من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره آثره الله على غيره، واعتبر هذا بما تجد الناس يعتمدونه عند ملوكهم ورؤسائهم إذا أرادوا التقرب والمنزلة عندهم، فإنهم يسألون المطاع أن ينعم على من يعلمونه أحب رعيته إليه، وكلما سألوه أن يزيد في حبائه وإكرامه وتشريفه علت منزلتهم عنده وازداد قربهم منه، وحظوا بهم لديه، لأنهم يعلمون منه إرادة الإنعام والتشريف والتكريم لمحبوبه، فأحبهم إليه: أشدهم له سؤالاً ورغبة أن يتم عليه إنعامه وإحسانه، هذا أمر مشاهد بالحس، ولا يكون منزلة هؤلاء ومنزلة من سأل المطاع حوائجه وهو وفارغ من سؤاله تشريف محبوبه والإنعام عليه واحدة، فكيف بأعظم محب وأجله الأكرم محبوب وأحقه بمحبة ربه له؟ ولو لم يكن من فوائد الصلاة عليه إلا هذا المطلوب

وحده لكفى المؤمن به شرفاً.

وههنا نكتة حسنة لمن علم أمته دينه، وما جاءهم به، ودعاهم إليه، وحضهم عليه، وصبر على ذلك، وهي أن النبي ﷺ له من الأجر الزائد على أجر عمله مثل أجور من اتبعه، فالداعي إلى سنته ودينه والمعلم الخير للأمة إذا قصد توفير هذا الحظ على رسول الله ﷺ وصرفه إليه، وكان مقصوده بدعاء الخلق إلى الله التقرب إليه بإرشاد عباد وتوفير أجور المطيعين له على رسول الله ﷺ مع توفيتهم أجورهم كاملة كان له من الأجر في دعوته وتعليمه بحسب هذه النية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

[1]ما معنى السلام المطلوب عند التحية؟ «ففيه قولان مشهوران»: أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله ﷻ. ومعنى الكلام: نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم، ونحو هذا، واختير في هذا المعنى من أسمائه ﷻ اسم السلام دون غيره من الأسماء، لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده، واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها: ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: «السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «**لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو: السلام، ولكن قولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»[2]. فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا السلام على الله، لأن السلام على المسلم عليه دعاء له، وطلب أن يسلم، والله ـ تعالى ـ هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم

---

(١) ١٤٠ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٥) ومسلم (رقم ٤٠٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣١١-٣١٢).

عليه، بل هو المسلم على عباده، كما سلم عليهم في كتابه، حيث يقول: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، وقوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ ، [الصافات: ١٠٩، ٧٩، ١٣٠]، وقال في يحيى: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم: ١٥] وقال لنوح: ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود: ٤٨].

ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨]، فقولاً منصوب على المصدر، وفعله ما تضمنه سلام من القول، لأن السلام قول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه، من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار ـ جل جلاله ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم، ثم قرأ: قوله: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾، ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»(١).

وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً: «أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر»(٢).

وقال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، فهذا تحيتهم يوم يلقونه ـ تبارك وتعالى ـ ومحال أن تكون هذه تحية منهم له، فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه، وقد نهوا عن ذلك في الدنيا، وإنما هذا تحية منهم لهم، والتحية هنا مضافة إلى المفعول، فهي التحية التي يحيون بها، لا التحية التي يحيونه هم بها، ولولا قوله ـ تعالى ـ في سورة يس: ﴿ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ لاحتمل أن تكون التحية لهم من

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ١٤ رقم ٢١٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٩) وابن عدي في الكامل (٦/ ١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ١٥٨).

الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم، وهم في منازلهم من الجنة، يدخلون مسلمين عليهم. وأما التحية المذكورة في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ فتلك تحية لهم وقت اللقاء، كما يحيي الحبيب حبيبه إذا لقيه، فماذا حرم المحجوبون عن ربهم يومئذ!!

يكفي الذي غاب عنك غيبته فذاك ذنب عقابه فيه[1]

والمقصود أن الله تعالى يطلب منه السلام، فلا يمتنع في حقه أن يسلم على عباده ولا يطلب له، فلذلك لا يسلم عليه. وقوله ﷺ: «إن الله هو السلام» صريح في كون السلام اسماً من أسمائه، قالوا: فإذا قال السلم: سلام عليكم. كان معناه اسم السلام عليكم. ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر: «أن رجلاً سلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم ورد عليه، وقال: «إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر»[2]، قالوا: ففي هذا الحديث بيان أن السلام ذكر الله، وإنما يكون ذكراً إذا تضمن اسماً من أسمائه.

ومن حججهم أيضاً: أن الكفار من أهل الكتاب لا يبدءون بالسلام، فلا يقال لهم: سلام عليكم. ومعلوم أنه لا يكره أن يقال لأحدهم: سلمك الله. وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله، فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه. فهذا حجج كما ترى قوية ظاهرة.

---

(١) هذا البيت من بحر المنسرح وينسب إلى ابن نباتة المصري محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المتوفى سنة ٧٦٨هـ ويروى أوله: أرضى لمن غاب. ذكره الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، وابن العطار في تحفة الطالبين في ترجمة الإمام النووي (١٤٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ٨٢ رقم ٨٠٣) وابن خزيمة (١/ ١٠٣ رقم ٢٠٦) والحاكم (٣/ ٥٤٥ رقم ٦٠٢٦) وأبو داود (رقم ١٧) والبيهقي في الكبرى (١/ ٩٠ رقم ٤٣٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٩ رقم ٦٧٣) وأحمد (٤/ ٣٤٥) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٢٩ رقم ٧٨١) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٣).

القول الثاني: إن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية.

ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يذكر، بلا ألف ولام، بل يقول المسلم: سلام عليكم، ولون كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معرفاً، كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى، فيقال: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده بخلاف المعرف، فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماؤه الحسنى.

ومن حججهم أيضاً أن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يدل على أن المراد به المصدر، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله.

ومن حججهم أيضهاً أنه لو كان السلام هنا اسماً من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيداً ويكون المعنى بركة اسم السلام عليكم، فإن الاسم نفسه ليس عليهم ولو قلت اسم الله عليك كان معناه بركة هذا الاسم.

ونحو ذلك من التقدير، ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه.

ومن حججهم أيضاً أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء، وكما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا، ولهذا كان السلام أماناً لتضمنه معنى السلامة وأمن كل واحد من المسلم والراد عليه من صاحبه. قالوا: فهذا كله يدل على أن السلام مصدر بمعنى: السلامة، وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه، والتاء تفيد التحديد كما تقدم.

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما تبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مراراً.

وهي أن من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به، فإذا قال: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور»[1]. فقد سأله

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٠٦ رقم ٩٢٧) وفي الموارد (رقم ٢٤٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١ رقم =

أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه.

وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني»[1].

وكذلك قوله للصديق وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لايغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[2] وهذا كثيراً جدًّا فلا نطول بإيراد شواهده.

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذي يطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله، كما في حديث ابن عمر، والثاني: طلب السلامة، وهو مقصود المسلم، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة.

وقريب من هذا ما روي عن بعض السلف أنه قال في آمين: إنه اسم من أسماء الله ـ تعالىٰ ـ وأنكر كثير من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه آمين. ولم يفهموا معنىٰ كلامه، فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه ـ تبارك وتعالىٰ ـ فإن معناها: استجب، وأعط ما سألناك، فهي متضمنة لاسمه مع دلالتها علىٰ الطلب، وهذا التضمن في سلام عليكم أظهر، لأن السلام من أسمائه تعالىٰ فهذا كشف سر المسألة.

***

=

٩٩٣٢) (٦/ ١٩٩ رقم ١٠٢٩٢) وأبو داود (رقم ١٥١٦) وابن ماجه (رقم ٣٨١٤) وأحمد (٢/ ٢١) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٧ رقم ٢٩٤٤٣) وعبد بن حميد (رقم ٧٨٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٠٧ رقم ٧٧١٢) والترمذي (رقم ٣٥١٣) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٠) وإسحاق بن راهويه (٣/ ٧٤٨ رقم ١٣٦١) وأحمد (٦/ ١٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٣٥ رقم ١٤٧٤) وأبو يعلىٰ في معجمه (رقم ٤٣) وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٣٨ رقم ٥١٤١) ونقل تصحيح الترمذي والحاكم.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٤) ومسلم (رقم ٢٧٠٥) وانظر: الفتح (١١/ ١٣١-١٣٢).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

[(١)] ما الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي ﷺ بالمصدر دون الصلاة عليه في قوله: ﴿ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؟

فجوابه: أن التأكيد واقع على الصلاة والسلام، وإن اختلفت جهة التأكيد، فإنه ـ سبحانه ـ أخبر في أول الآية بصلاته عليه وصلاة ملائكته عليه، مؤكد لهذا الإخبار بحرف أن مخبراً عن الملائكة بصيغة الجمع المضاف إليه، وهذا يفيد العموم، والاستغراق، فإذا استشعرت النفوس أن شأنه ﷺ عند الله وعند ملائكته هذا الشأن بادرت إلى الصلاة عليه، وإن لم تؤمر بها، بل يكفي تنبيهها والإشارة إليها بأدنى إشارة، فإذا أمرت بها لم تحتج إلى تأكيد الأمر، بل إذا جاء مطلق الأمر بادرت وسارعت إلى موافقة الله وملائكته في الصلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلم يحتج إلى تأكيد الفعل بالمصدر، ولما خلا السلام عن هذا المعنى وجاء في حيز الأمر المجرد دون الخبر حسن تأكيده بالمصدر ليدل على تحقيق المعنى وتثبيته ويقوم تأكيد الفعل مقام تكريره، كما حصل التكرير في الصلاة خبراً وطلباً، فكذلك حصل التكرير في السلام فعلاً ومصدراً، فتأمله فإنه بديع جداً، والله أعلم، وقد ذكرنا بعض ما في هذه الآية من الأسرار والحكم العجيبة في كتاب تعظيم شأن الصلاة والسلام على خير الأنام، وأتينا فيه من الفوائد بما يساوي أدناها رحلة مما لا يوجد في غيره، ولله الحمد، فلنقتصر على هذه النكتة الواحدة.

وأما السؤال: ما الحكمة في تقديم السلام على النبي ﷺ في الصلاة قبل الصلاة عليه، وهلا وقعت البداءة بما بدأ الله به في الآية؟

(١) ١٨٨ بدائع جـ٢.

فهذا سؤال أيضاً له شأن لا ينبغي الإضراب عنه صفحاً وتمشية، والنبي ﷺ كان شديد التحري لتقديم ما قدمه الله والبداءة بما بدأ به.

فلهذا بدأ بالصفا في السعي وقال: نبدأ بما بدأ الله به[١].

وبدأ بالوجه ثم اليدين ثم الرأس في الوضوء، ولم يخل بذلك مرة واحدة، بل كان هذا وضوءه إلى أن فارق الدنيا، لم يقدم منه مؤخرًا، ولم يؤخر منه مقدماً قط، ولا يقدر أحد أن ينقل عنه خلاف ذلك؛ لا بإسناد صحيح ولا حسن ولا ضعيف، ومع هذا فوقع في الصلاة والسلام عليه تقديم السلام وتأخير الصلاة.

وذلك لسر من أسرار الصلاة، نشير إليه بحسب الحال إشارة، وهو أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب، فلكل عضو منها نصيب من العبودية، فجميع أعضاء المصلي وجوارحه متحركة في الصلاة عبودية لله وذلاً له وخضوعاً، فلما أكمل المصلي العبودية وانتهت حركاته ختمت بالجلوس بين يدي الرب ـ تعالى ـ جلوس تذلل وانكسار وخضوع لعظمته ﷻ كما يجلس العبد الذليل بين يدي سيده، وكان جلوس الصلاة أخشع ما يكون من الجلوس وأعظمه خضوعاً وتذللاً، فإذن للعبد في هذه الحال بالثناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ بأبلغ أنواع الثناء، وهو التحيات لله والصلوات والطيبات[٢].

وعادتهم إذا دخلوا على ملوكهم أن يحيوهم بما يليق بهم، وتلك التحية تعظيم لهم وثناء عليهم، والله أحق بالتعظيم والثناء من كل أحد من خلقه، فجمع العبد في قوله:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وابن حبان (٩/ ٢٥٠ -٢٥١ رقم ٣٩٤٣) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٠٩ رقم ٣٩٥٥) وأبو داود (رقم ١٩٠٥) وابن ماجه (رقم ٣٠٧٤) والترمذي (رقم ٨٦٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٠٣) (٦/ ٣٠٦) وشرح النووي (٨/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٥) ومسلم (رقم ٤٠٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣١١-٣١٦) وشرح النووي (٤/ ١١٦).

التحيات والصلوات والطيبات أنواع الثناء على الله، وأخبر أن ذلك له وصفاً وملكاً، وكذلك الصلوات كلها لله فهو الذي يصلي له وحده لا لغيره، وكذلك الطيبات كلها من الكلمات والأفعال كلها له: فكلماته طيبات، وأفعاله كذلك، وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، والكلم الطيب إليه يصعد، فكان الطيبات كلها له ومنه وإليه، له ملكاً ووصفاً، ومنه مجيئها وابتداؤها، وإليه مصعدها ومنتهاها، والصلاة مشتملة على: عمل صالح، وكلم طيب، والكلم الطيب إليه يصعد، والعمل الصالح يرفعه، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله ـ تعالى ـ فلما أتى بهذا الثناء على الرب ـ تعالى ـ التفت إلى شأن الرسول الذي حصل هذا الخير على يديه، فسلم عليه أتم سلام معروف باللام التي للاستغراق مقروناً بالرحمة والبركة، هذا هو أصح شيء في السلام عليه، فلا تبخل عليه بالألف واللام في هذا المقام.

ثم انتقل إلى السلام على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين، وبدأ بنفسه لأنها أهم، والإنسان يبدأ بنفسه، ثم بمن يعول، ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام، وهو التشهد بشهادة الحق التي هي أول الأمر وآخره، وعندها كمل الثناء والتشهد.

ثم انتقل إلى نوع آخر وهو الدعاء والطلب، فالتشهد يجمع نوعي الدعاء: دعاء الثناء والخير، ودعاء الطلب والمسألة، والأول أشرف النوعين، لأنه حق الرب ووصفه، والثاني: حفظ العبد ومصلحته. وفي الأثر: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (صـ ١٠٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤ رقم ٢٩٢٧٣) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٤٠ رقم ٥٨٤) والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦٨ رقم ٤٤٤٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤١٣ رقم ٥٧٣) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٦٤) وقال ابن حجر في الفتح (١١/ ١٣٤): أخرجه الطبراني بسند لين. وذكر حديث أبي سعيد بلفظ: من شغله القرآن وذكري عن مسألتي ـ الحديث أخرجه الترمذي وحسنه، وانظر: الفتح أيضاً (١١/ ١٤٧) (١٣/ ٤٨٩) وقال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٤٦): ليس يجيء هذا الحديث فيما علمت مرفوعاً إلا بهذا الإسناد، وصفوان ابن أبي الصهباء وبكير بن عتيق رجلان صالحان.

لكن لما كانت الصلاة أتم العبادات عبودية وأكملها شرع فيها النوعين، وقدم الأول منهما لفضله، ثم انتقل إلى النوع الثاني وهو دعاء الطلب والمسألة، فبدأ بأهمه وأجله وأنفعه له، وهو طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ وهو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته، كما ذكرناه في كتاب تعظيم شأن الصلاة على النبي ﷺ وفيه أيضاً أن الداعي جعله مقدمة بين يدي حاجته وطلبه لنفسه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله ثم لتخير من الدعاء أعجبه إليه. وكذلك في حديث فضالة بن عبيد إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع.

فتأمل كيف جاء التشهد من أوله إلى آخره مطابقاً لهذا منتظماً له أحسن انتظام، فحديث فضالة هذا هو الذي كشف لنا المعنى وأوضحه وبينه، فصلوات الله وسلامه على من أكمل لنا دينه، وأتم برسالته علينا نعمته، وجعله رحمة للعالمين وحسرة على الكافرين.

وأما السؤال: ما الحكمة في كون السلام وقع بصيغة الخطاب والصلاة بصيغة الغيبة؟ فجوابه: يظهر مما تقدم. فإن الصلاة عليه طلب وسؤال من الله أن يصلي عليه، فلا يمكن فيها إلا لفظ الغيبة، إذ لا يقال: اللهم صل عليك، وأما السلام عليه فأتى بلفظ الحاضر المخاطب تنزيلاً له منزلة المواجه لحكمة بديعة جداً، وهي أنه ﷺ لما كان أحب إلى المؤمن من نفسه التي بين جنبيه، وأولى به منها، وأقرب، وكانت حقيقته الذهنية ومثاله العلمي موجوداً في قلبه، بحيث لا يغيب عنه إلا شخصه، كما قال القائل:

مثالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب[1]

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى دلف بن جحدر الشبلي، اشتهر بالصلاح وله شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة، ولد بسامراء وتوفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ، له ديوان شعر جمعه الدكتور كامل مصطفى الشيبي، والبيت يبدأ بـ: خيالك في عيني. والبيت ذكره ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة (صـ٤٦) والأبشيهي في ا لمستطرف (صـ....) وداود الأنطاكي في تزيين الأسواق في أخبار العشاق (١/ ٥٥) والمناوي في فيض القدير (٢/ ١٠٩).

ومن كان بهذا الحال فهو الحاضر حقاً، وغيره وإن كان حاضر للعيان فهو غائب عن الجنان، فكان خطابه خطاب المواجهة والحضور بالسلام عليه أولى من سلام الغيبة تنزيلاً له منزلة المواجه المعاين لقربه من القلب وحلوله في جميع أجزائه بحيث لا يبقى في القلب جزء إلا ومحبته وذكره فيه كما قيل:

لو شق عن قلبي يرى وسطه ذكرك[(١)]

والتوحيد في سطر لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولا تستنكر استيلاء المحبوب على قلب المحب وغلبته عليه حتى كأنه يراه، ولهذا تجدهم في خطابهم لمحبوبهم إنما يعتمدون خطاب الحضور والمشاهدة مع غاية البعد العياني لكمال القرب الروحي، فلم يمنعهم بعد الأشباح عن محادثة الأرواح ومخاطبتها، ومن كثفت طباعه فهو عن هذا كله بمعزل، وأنه ليبلغ الحب ببعض أهله أن يرى محبوبه في القرب إليه بمنزلة روحه التي لا شيء أدنى إليه منها، كما قيل:

يا مقيماً مدا الزمان بقلبي وبعيدًا عن ناظري وعياني
أنت روحي إن كنت لست أراها فهي أدنى إليّ من كل داني...

[(٢)]وأما السؤال: ما الحكمة في ورود الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة مع كونه ـ سبحانه ـ هو المخاطب الذي يناجيه العبد، والسلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب مع كونه غائبًا؟

فجوابه: أن الثناء على الله عامة ما يجيء مضافاً إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير، إلا أن يتقدم ذكر الاسم الظاهر، فيجيء بعد المضمر، وهذا نحو قول

---

(١) هذا صدر بيت من بحر السريع، وهو: لو شق عن قلبي يرى وسطه: سطران قد خطا بلا كاتب.
وينسب إلى الصاحب بن عباد إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني، كان وزيرًا وغلب عليه الأدب، وكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً، له تصانيف جليلة وشعر فيه رقة، وعذوبة، مات سنة ٣٨٥هـ وذكره الحافظ اليغموري في نور القبس (صـ ٣٠٥) كما ذكره المصنف هذا.
(٢) ١٩٣ بدائع جـ٢.

المصلي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٢-٥]. وقوله في الركوع: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي السجود: «**سبحان ربي الأعلى**»[١] وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنى هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال، فأتى بالاسم الظاهر الدال على المعنى، الذي يثني به ولأجله عليه ـ تعالى ـ، ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك، ولهذا إذا كان ولابد من الثناء عليه بخطاب المواجهة أتى بالاسم الظاهر مقروناً بميم الجمع الدالة على جميع الأسماء والصفات، نحو قوله في رفع رأسه من الركوع: «**اللهم ربنا لك الحمد**»[٢].

وربما اقتصر على ذكر الرب ـ تعالى ـ لدلالة لفظه على هذا المعنى فتأمله فإنه لطيف المنزع جداً، وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة: اللهم. كما في سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك**»[٣]. الحديث. وجاء الدعاء المجرد مصدراً بلفظ الرب نحو قول المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقول آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقول موسى: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص: ١٦]، وقول نوح: ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٧]. وكان النبي ﷺ يقول بين السجدتين: «**رب اغفر لي، رب اغفر لي**»[٤] وسر ذلك أن الله تعالى يسأل بربوبيته المتضمنة قدرته

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٩، ٢٨٩) وشرح النووي (٤/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٦) ومسلم (رقم ٤٠٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨٢-٢٨٤) وشرح النووي (٤/ ١٢١، ١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٩-١٠١).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الصغير (رقم ٤٣١) وفي السنن الكبرى (٢/ ١٢١ رقم ٢٥٨٢) والنسائي في الكبرى (١/ ٢٢٤ رقم ٦٥٦) وأبو داود (رقم ٨٧٤) وابن ماجه (رقم ٨٩٧) وأحمد (٥/ ٣٩٨) والطيالسي (رقم ٤١٦).

وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره ويثني عليه بإلهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى. وتدبر طريقة القرآن تجدها كما ذكرت لك. فأما الدعاء فقد ذكرنا منه أمثله، وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مصدر باسم الرب.

وأما الثناء فحيث وقع فمصدر بالأسماء الحسنى وأعظم ما يصدر به اسم الله ـ جل جلاله ـ نحو: «الحمد لله» حيث جاء ونحو، «فسبحان الله» وجاء: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ [الصافات: ١٨٠] ونحوه: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحشر: ١] حيث وقعت. ونحو: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. و﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١] ونظائره[١].

[٢]وأما السؤال الذي تضمن سؤالين: أحدهما: ما السر في كونه السلام في آخر الصلاة. والثاني: لِمَ كان معرفًا؟

والجواب: أما اختتام الصلاة به، فإنه قد جعل الله لكل عبادة تحليلاً منها.

فالتحليل: من الحج بالرمي وما بعده، وكذلك التحلل من الصوم بالفطر بعد الغروب، فجعل السلام تحليلاً من الصلاة، كما قال النبي ﷺ: «تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»[٣]. تحريمها هنا هو بابها الذي يدخل منه إليها. وتحليلها بابها الذي يخرج به منها.

فجعل التكبير باب الدخول، والتسليم باب الخروج، لحكمة بديعة بالغة يفهمها

---

(١) تكملة البحث في سورة المائدة لعلاقته به في طلب المسيح المائدة من ربه (ج).

(٢) ١٩٥ بدائع جـ٢.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٣٤١ رقم ٧١٨) والحاكم (١/ ٢٢٣ رقم ٤٥٧) وأبو داود (رقم ٦١) وابن ماجه (رقم ٢٧٦) والترمذي (رقم ٢٣٨) وحسَّنه وصحَّحه الألباني وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٢٩) وشرح النووي (٤/ ٩٦).

من عقل عن الله، وألزم نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم، وسافر فكره في استخراج حكمه وأسراره وبدائعه، وتغرب عن عالم العادة والإلف، فلم يقنع بمجرد الأشباح حتىٰ يعلم ما يقوم بها من الأرواح، فإن الله لم يشرع شيئاً سدىٰ، ولا خلوا من حكمة بالغة، بل في طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التي تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه علىٰ ما وراءه، فيسجد القلب خضوعاً وإذعاناً.

فنقول وبالله التوفيق: لما كان المصلي قد تخلىٰ عن الشواغل، وقطع جميع العلائق، وتطهر، وأخذ زينته، وتهيأ للدخول علىٰ الله ومناجاته شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد علىٰ الملوك، فيدخل بالتعظيم والإجلال، فشرع له أبلغ لفظ يدل علىٰ هذا المعنىٰ، وهو قول: الله أكبر. فإن في اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق في جانب المحذوف المجرور بمن لا يوجد في غيره، ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه، ولا يؤدي معناه، ولا تنعقد الصلاة إلا به، كما هو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث.

فجعل هذا اللفظ، واستشعار معناه، والمقصود به: باب الصلاة الذي يدخل العبد علىٰ ربه منه، فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيىٰ منه أن يشغل قلبه في الصلاة بغيره، فلا يكون موفياً لمعنىٰ الله أكبر، ولا مؤدياً لحق هذا اللفظ، ولا أتىٰ البيت من بابه، بل الباب عنه مسدود.

وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه، وما أحسن ما قال أبو الفرج ابن الجوزي في بعض وعظه: حضور القلب أول منزل من منازل الصلاة، فإذا نزلته انتقلت إلىٰ بادية المعنىٰ، فإذا رحلت عنها انخت بباب المناجاة، فكان أول قرىٰ الضيف اليقظة، وكشف الحجاب لعين القلب، فكيف يطمع في دخول مكة من لا خرج إلىٰ البادية، وقد تبعث قلبك في كل واد، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه فتدخل في الصلاة بغير قلب.

والمقصود: أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه: الله أكبر، وقد امتلأ قلبه بغير الله، فهو

قبلة قلبه في الصلاة، ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها. فلو قضى حق: الله أكبر، وأتى البيت من بابه، لدخل، وانصرف بأنواع التحف والخيرات، فهذا الباب الذي يدخل منه المصلي وهو التحريم. وأما الباب الذي يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى، فيكون مفتتحاً لصلاته باسمه - تبارك وتعالى - ومختتماً لها باسمه، فيكون ذاكرًا لاسم ربه أول الصلاة وآخرها، فأولها باسمه وآخرها باسمه وخرج منها باسمه، مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلي من بين يدي الله، فإن المصلي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه الذي لا يستطيع أحد أن يخفره، بل هو في حمى من جميع الآفات والشرور، فإذا انصرف من بين يديه - تبارك وتعالى - ابتدرته الآفات والبلايا والمحن، وتعرضت له من كل جانب، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده، فهو متعرض لأنواع البلايا والمحن، فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوباً بالسلام لم يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى. وكان من تمام النعمة عليه أن كون انصرافه من بين يدي ربه بسلام يستصحبه ويدوم له ويبقى معه، فتدبر هذا السر الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافياً فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد في ذلك لله وحده. فكما أن المنعم به هو الله وحده، فالمحمود عليه هو الله وحده. وقد عرف بهذا جواب السؤال الثاني، وهو مجيء السلام هنا معرفًا. ليكون دالاً على اسمه السلام. وليكن هذا آخر الكلام في مسألة: سلام عليكم. فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلداً ضخماً، هذا ولم نتعرض فيها إلى المسائل المسطورة في الكتب من فروع السلام ومسائله، فإنها مملوءة منها، فمن أرادها فليأخذها من هنا وهناك، والحمد لله رب العالمين.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

[(١)]هذه الأفعال أذىً لله ورسوله قطعاً، بل أذى الله ورسوله يحصل بدونها. وقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]، فيجب أن يكون هذا الملعون في الدنيا والآخرة عادم النصير بالكلية، فلو كان ماله ودمه معصومين لوجب على المسلمين نصرته، وكانوا كلهم أنصاره، وهذه مخالفة لقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ ...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحزاب

والحمد لله رب العالمين



(١) ٨٢٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾.

...[1]مما تقدم بالرتبة ذكر السمع والعلم حيث وقع؛ فإنه خبر يتضمن التخويف والتهديد فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخَفِيَّ صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم، وإن كان علمه ـ تعالى ـ متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ما قرب وشطن، ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم، فهو أولى بالتقديم.

وأما تقديم الغفور على الرحيم فهو أولى بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تطلب قبل الغنيمة. وفي الحديث أن النبي ﷺ، قال لعمرو بن العاص: «أبعثك وجهاً يسلمك الله فيه ويغنمك، وأرغب لك رغبة من المال»[2].

فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب.

وأما قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢] في سبأ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم.

والعموم بالطبع قبل الخصوص كقوله: ﴿ فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨].

---

(١) ٦٣ البدائع جـ١.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ٧ رقم ٣٢١١) وفي الموارد (رقم ٢٢٧٧) وأبو يعلى (١٣/ ٣٢٠-٣٢١ رقم ٧٣٣٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٤٦٧ رقم ٢٢١٨٨) وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩١٢ رقم ١٧٤٥).

وكقوله: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة: ٩٨].

(١) وأما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى؛ وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله وهو الرحيم الغفور.

فإنه ابتدأ ـ سبحانه ـ السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد، فقال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ١].

ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبداً، وقرن بين الملك والحمد على عادته ـ تعالى ـ في كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر؛ فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً، والحمد بلا ملك يستلزم عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذه العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم، فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفاً بحمد قبله وحمد بعده.

ثم عقب هذا الحمد والملك باسمي الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة،

(١) ٧٩ البدائع جـ١.

فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها، فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه.

ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ: ٢].

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه، وهما الرحمة والمغفرة فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم، ويهب لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢].

فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمته ومغفرته، وهو ـ سبحانه ـ يقرن بين سعة العلم والرحمة، كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧].

ومن الثاني: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٢]، فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك(١).

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم، لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾. ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة، لتضمنها دفع الشر،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٧) من قول شهر بن حوشب وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) وابن أبي شيبة في العرش (رقم ٢٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٥) (٦/ ٧٤) كلهم أخرجوه بلفظ: «حملة العرش ثمانية: فأربعة منهم يقولون...».

وتضمن ما قبلها جلب الخير.

ولما كان دفع الشر مقدماً علي جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع.

ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور.

***

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾.

(1)أما تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره، وهو أن غالباً تذكر السموات والأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته.

ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها، وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها. ولهذا أمر ـ سبحانه ـ بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة، ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية ـ سبحانه ـ وبحمده.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] وتأخيرها عنها في سبأ، فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار: ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]. كيف قدم السموات هنا

(١) ٧٤ البدائع جـ١.

لأن الساعة إنما تأتي من قبلها وهي غيب فيها، ومن جهتها تبتدئ وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

أما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنه ـ سبحانه ـ عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء. فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله، وأن مخلوقاً لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبداً[١].

[٢]قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بخلاف قوله في سبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. فإن قبلها ذكر ـ سبحانه ـ سعة ملكه ومحله، وهو السموات كلها والأرض، ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي أفردها إرادة للجنس.

***

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾.

[٣]قد شهد الله ـ سبحانه ـ لمن يرى أن ما جاء به الرسول من عند الله هو الحق، لا آراء الرجال بالعلم. فقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. وقال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ

---

(١) هذا البحث من المؤلف مبني على إيضاح المؤلف والسهيلي لما ذكره سيبويه (١/ ٦١) فإن شئت فارجع إليه فهو بحث مطول ومشوق. (ج).

(٢) ١١٦ البدائع جـ١.

(٣) ٦ الصواعق جـ١.

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ﴾ [الرعد: ١٩]. فمن تعارض عنده ما جاء به الرسول وآراء الرجال فقدمها عليه أو توقف فيه أو قدحت في كمال معرفته، فهو أعمى عن الحق.

(١) إن الله ـ تعالى ـ شهد لهم بأنهم أوتوا العلم بقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦]. وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

واللام في «العلم» ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً.

***

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

(٢) وصف الله ـ سبحانه ـ الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين فقال: ما هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين: إن الله قال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت(٣).

وقد أثني الله ﷻ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ

(١) ١٣١ الإعلام جـ٤.
(٢) ١٣٤ عدة الصابرين.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٥ رقم ٢٩٥١٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٨٢) إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي رحمه الله.

حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلي الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني، فإن الله ـ تعالىٰ ـ لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧] فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فـ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.

وقد أخبر ـ سبحانه ـ إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسىٰ أن يتلقىٰ ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وأول وصية وصىٰ الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر به وللوالدين، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وأخبر أن رضاه في شكره، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

وأثنىٰ ـ سبحانه ـ علىٰ خليله إبراهيم بشكر نعمه، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]. فأخبر عنه ـ سبحانه ـ بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾، والقانت هو المطيع المقيم علىٰ طاعته، الحنيف هو المقبل علىٰ الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾، فجعل الشكر غاية خليله...

(١)وقال عبدالله بن أحمد حدثنا أبو موسىٰ الأنصاري حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبدالعزيز قال: كان من دعاء داود: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج

---

(١) ١٣٢ عدة الصابرين.

الدعاء بالبلاء[1].

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبدالله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود: أحبني، وأحب عبادتي، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب هذا حبك وحب عبادتك، فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم؛ فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن[2]. فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إله غيره.

وقال أحمد: حدثنا عبدالرزاق بن عمران قال: سمعت وهباً يقول: وجدت في كتاب آل داود: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء،وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكله إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني، وأجبته قبل أن دعوني، وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه[3].

وقال أحمد: حدثنا يسار، حدثنا حفص، حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها، قال فعمهم ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآية: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣][4].

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٠٦ رقم ٤٤٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٩٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٦٨ رقم ٣٤٢٥٤) وانظر: الدر المنثور (٧/ ١٧٣) وابن أبي الدنيا في الأولياء (رقم ٢٩).

(٣) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٠ رقم ١٦٥٢٠) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧١-٣٧٢) والدر المنثور (٥/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ١٥٥ رقم ٣١٨٧) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٩٣) وانظر: فيض القدير (٤/ ٥٤٤).

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

[(١)] انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإنشاء إلىٰ كوني متعلق بخلقه، وإلىٰ ديني متعلق بأمره، وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال.

...فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه.

وهو كما أخبر عن نفسه ـ سبحانه ـ له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية علىٰ خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري.

وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق.

والأمران غير متلازمين، فقد يقضي ويقدر ما لا يأمر به ولا شرعه.

وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره.

ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم.

وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر.

وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور.

وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي.

إذا عرف ذلك فالقضاء في كتاب الله نوعان: كوني قدري كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، وقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]. وشرعي ديني كقوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: أمر وشرع ولو كان قضاء كونياً لما عبد غير الله.

(١) ٢٨٠ شفاء.

والحكم أيضاً نوعان فالكوني كقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. أي: افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك، والديني كقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وقد يرد بالمعنيين معاً كقوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]. فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي. والإرادة أيضاً نوعان:

فالكونية كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]. وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٥]. والدينية كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٧] فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، ولوقعت التوبة من جميع المكلفين.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة، هل هما متلازمان أم لا.

فقالت القدرية الأمر يستلزم الإرادة، واحتجوا بحجج لا تندفع.

وقالت المثبتة الأمر لا يستلزم الإرادة، واحتجوا بحجج لا تندفع.

والصواب: أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعاً وديناً، وقد يأمر مما لا يريده كونًا وقدرًا كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان، مراد ديناً لا كوناً.

وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كونًا وقدرًا، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كوناً وقدراً.

وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق، فإنه ـ سبحانه ـ لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال وأن يوطن نفسه عليه. وكذلك أمره محمد ﷺ، ليلة الإسراء بخمسين صلاة.

وأما أمر من علم أنه لا يؤمن بالإيمان فإنه ـ سبحانه ـ يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم وحصلت من الأمر بالذبح.

وأما الكتابة:

فالكونية كقوله: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٤].

والشرعية الأمرية كقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣، ٢٤]. وقوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥]. فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية: كتابة بمعنى الأمر.

والأمر الكوني كقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وقوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]. وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١]. وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦]. فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدرناه.

وقالت طائفة بل هو أمر ديني، والمعنى أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا.

والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين. أحدهما أمرناهم بطاعتنا. والثاني: فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه كقولك أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه ـ سبحانه ـ جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور.

ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك: قيل: هذا يبطل بالوجه.

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين بل هو ـ سبحانه ـ يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال أرسلنا رسلنا إلىٰ مترفيها ففسقوا فيها؛ فإن الإرسال لو كان إلىٰ المترفين لقال من عداهم نحن لم يرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله ـ سبحانه ـ لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقيل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

فإذا أرسل الرسل فكذبوهم إراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدرياً شرعياً دينياً بالفسق في القرية، فاجتمع أهلها علىٰ تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله بالإهلاك.

والمقصود ذكر الأمر الكوني والديني.

ومن الديني قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وهو كثير.

وأما الإذن الكوني فكقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: بمشيئته وقدره.

وأما الديني فكقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] أي: بأمره ورضاه وقوله: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وأما الجعل الكوني فكقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٨، ٩].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢] وهو كثير.

وأما الجعل الديني فكقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما شرع ذلك ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له واقع بقدره ومشيئته. وأما قوله: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]. فهذا يتناول الجعلين، فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه، وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه، بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله.

وأما الكلمات الكونية فكقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]. وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق»(١) فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون، ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

وأما الديني فكقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. والمراد به القرآن، وقوله ﷺ في النساء: «واستحللتم فروجهن بكلمة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٥١ رقم ٢٣٦٠) وأحمد (٣/ ٤١٩).

الله»(١) أي: بإباحته ودينه وقوله: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم: ١٢]. فكتبه كلماته التي يأمر بها وينهي ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون، فأخبر أنها ليست جهمية تنكر كلمات دينه وكلمات تكوينه، وتجعلها خلقاً من جملة مخلوقاته.

وأما البعث الكوني فكقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الإسراء: ٥]. وقوله: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣١].

وأما البعث الديني فكقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢]. وقوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأما الإرسال الكوني فكقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وأما الديني فكقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [المزمل: ١٥].

وأما التحريم الكوني فكقوله: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص: ١٢]. وقوله: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [المائدة: ٢٦]. قوله: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. وأما التحريم الديني فكقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]. و﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ [المائدة: ٩٦]. ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وأما الإيتاء الكوني فكقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وقوله:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٣).

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤]. وأما الإيتاء الديني فكقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وأما قوله: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمراً وديناً، وتوفيقاً وإلهاماً.

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الديني منها، وأعداؤه واقفون مع القدر الكوني، فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر، ودين الرسل وأتباعهم دين الأمر. فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره، وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره لا يقولون نحن واقفون مع مراد الله. نعم مع مراده الكوني أو الديني[1] ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكوني ولا يكون ذلك عذراً لكم عنده، إذ لو عذر بذلك لم يذم أحداً من خلقه ولم يعاقبه، ولم يكن في خلقه عاص ولا كافر، ومن زعم ذلك فقد كفر بالله وكتبه كلها وجميع رسله، وبالله التوفيق.

[2]وسئل ﷺ عن سبأ: هل هو أرض أم امرأة، فقال: **«ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب؛ فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة؛ فأما الذين تشاءموا فلخْم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار»** فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ فقال: **«الذين منهم خثعم وبجيلة»**[3].

***

(١) كذا وقع في نسخة الشيخ علي الصالحي رحمه الله. والصواب: «... ويقولون ... نعم مع مراده الكوني لا الديني...» انظر: طبعة «شفاء العليل» المحققة (٢/ ٢٩٦).

(٢) ٢٧٣ الإعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٢٢) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٣٢١ رقم ١٦٩٩) والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٢٤ رقم ٨٣٥) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٥٩ رقم ٤٤٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٣٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

[1] وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أذل سلطان الله وسلمه إلىٰ عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلىٰ أعدىٰ عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلط عليه عقوبة له. قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]. فإن قيل: فقد أثبت له علىٰ أوليائه هاهنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالىٰ حاكياً عنه مقرراً له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

قيل السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

---

(١) ٢٢ الجواب.

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم، وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: إن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته؛ فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصود: أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

***

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

..[1] حججه سبحانه العقلية التي في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية ظاهرة واضحة قليلة المقدمات، مثل قوله تعالى فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد وبطلان الشرك وقطع أسبابه وحسم مواده كلها: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى

(١) ٩٤ الصواعق جـ١.

الشرك، وسد بها عليهم أبلغ سد وأحكمه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو كان لا يرجو منفعة لم يتعلق قلبه به.

وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكاً لمالكها، أو ظهيراً أو وزيراً، أو معاوناً له، أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده.

فنفى ـ سبحانه ـ عن ألهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض. فقد يقول المشرك: هي شريكة المالك الحق، فنفى شركها له.

فيقول المشرك: قد يكون ظهيراً أو زيراً أو معاوناً، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾. ولم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته، فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه؟

[1] وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من تخذ من دون الله وليًّا، أو شفيعاً. فهو: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]. فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

---

(١) ٣٤٣ المدارج جـ١.

إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنقض عُرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوَّبه وحسَّنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شر منه، أو دونه. فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ، ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

[(1)] قال البخاري حدثنا الحميدي وعلي بن المديني قالا حدثنا سفيان حدثنا عمرو ابن دينار قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله،

(١) ٢٧٨ الصواعق جـ٢.

كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير»[١]. الحديث رواه النسائي في التفسير وابن ماجه وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وروى أبو داود من حديث علي بن الحسين بن أشكاب حدثنا أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجرد السلسلة على الصفا، فيصعقون ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبرائيل، فإذا جاءهم جبرائيل فزع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبرائيل، ماذا قال ربكم؟ قال: الحق، فينادون: الحق الحق»**[٢]. وهذا الإسناد كلهم أئمة ثقات.

وقد فسر الصحابة هذه الآية بما يوافق هذا الحديث الصحيح.

فقال أبوبكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا أحمد بن كامل بن خلف حدثنا محمد بن سعد حدثنا أبي حدثنا عمي حدثنا أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. قال: لما أوحى الجبار ـ جل جلاله ـ إلى محمد ﷺ، دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم فسألوا عما قال الله تعالى قالوا: الحق. علموا أن الله ـ تعالى ـ لا يقول إلا حقاً، وأنه منجز ما وعد. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا، فلما سمعوه خروا سجداً، فلما رفعوا رؤوسهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير[٣]، وهذا إسناد معروف يروي به ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد وغيرهم التفسير وغيره عن ابن عباس، وهو إسناد متداول بين أهل العلم وهم ثقات...

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٠١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٣٨) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٥٦-٤٥٨).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٩٧) إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

[1]إن قيل: هل يظهر فرق بين قوله ـ تعالى ـ في سورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]. وبين قوله في سورة سبأ: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]. قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقاً، فتدبر السياق تجده نقيضاً لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب ـ تعالى ـ هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقربن بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم: إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذه، ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]. أي: لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به. والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لاسيما، والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمي سماء لعلوه، وقد أخبر ـ سبحانه ـ أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨].

---

(١) ١١٧ البدائع جـ١.

والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس، فلا يلتفت إلىٰ غيره[١].

***

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

[٢]هذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئاً. وأصرح من هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وصح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**من دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، ولا ينقص من أوزارهم شيئاً**»[٣]. وهذا يدل علىٰ أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه. ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان إيضاً:

---

(١) تكملة البحث تقدم في سورة يونس (ج).
(٢) ٤١٢ الهجرتين.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦-٢٢٧).

أحدهما: مريد للهدىٰ مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا علىٰ طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك ديناً خيراً مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوىٰ ما أنا عليه ولا أقدر علىٰ غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي. والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق. فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلًا. والثاني: كمن لم يطلبه، بل مات علىٰ شركه ـ وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب علىٰ العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلىٰ علم الله وحكمه. هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني علىٰ أربعة أصول:

أحدها: أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالي: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف:٧٦]، والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟(١)

(٢)وأما تقديم المال علىٰ الولد فلم يطرد في القرآن، بل قد جاء مقدماً كذلك في قوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله: ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وقوله: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩]. وجاء ذكر البنين مقدماً كما في قوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٤] فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة، فلأنها ينتظمها معنىٰ واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص علىٰ تحصيلها حتىٰ يفوته حظه من الله والدار الآخرة، فهي في موضع عن الالتهاء بها.

وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم

---

(١) تقدم البحث كاملًا في سورة الأعراف. (ج).

(٢) ٧٤ البدائع جـ١.

وعملهم الصالح، لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا: النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه. ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم. وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

***

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(١)ذكر البيهقي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١]. إلا أنه قال: أتي بفرس فحمل عليه، قال: كل خطوة منتهى أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟! قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]. ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم شيء من ذلك، قال: يا جبريل من هؤلاء؟! قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة.

قال: ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها، قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله، وما الله بظلام للعبيد(٢)...

***

(١) ٧٣ الروح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦-٧) وفي تهذيب الآثار (١/ ٤٣٣-٤٣٤ رقم ٧٢٧).

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

(١) ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق حالتان:

إحداهما: أن يكون مناظراً مع نفسه. الثانية: أن يكون مناظراً مع غيره، فأمرهم بخصلة واحدة، وهي أن يقوموا الله اثنين اثنين، فيتناظران ويتساءلان بينهما واحداً وأحداً، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذه الداعي وما يدعو إليه ويستدعي أدلة الصدق والكذب، ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال. فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف البين والنصح التام.

***

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝ ﴾.

كمال هذه السعادة بأمرين آخرين: أحدهما دعوة الخلق إليه. والثاني صبره واجتهاده على تلك الدعوة. فانحصر الكمال الإنساني في هذه المراتب الأربعة:

إحداها: العلم بما جاء به الرسول ﷺ، والثانية العمل به. والثالثة نشره في الناس ودعوتهم إليه. والرابعة صبره واجتهاده في أدائه وتنفيذه. ومن طلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة ﷺ وأراد اتباعهم، فهذه طريقتهم حقاً:

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم   فقد وضحت للسالكين عياناً

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠]. فهذا نص صريح ففي أن هدي الرسول ﷺ، إنما يحصل بالوحي، فيا عجباً، كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن

(١) ١٠٠ الصواعق جـ١.

تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧] فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي. ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

***

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

[1]جعل الله ﷻ مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤] فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأمرُّ العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

[2]قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٩]. فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضًا، أي: تابعه، ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع: أن الأشياع هم التبع، الشيعة القوم الذين شايعوا أي: تبع بعضهم بعضاً، وغالب ما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد في القرآن إلاكذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع. ولهذا لا يطلق الشيع إلا على

---

(١) ٣٠ التبوكية، طبعة دار المدني، بتقديم الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله.

(٢) ١٤٠ بدائع الفوائد جـ١ طبعة دار الخير بتحقيق معروف زريق ومحمد وهبي سليمان وعلي عبد الحميد بلطه جي.

فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنىٰ لننزعن من كل فرقة أشدهم عتواً علىٰ الله وأعظمهم فساداً فنلقيهم في النار.

وفيه إشارة إلىٰ العذاب يتوجه إلىٰ السادات أولاً، ثم تكون الأتباع تبعاً لهم فيه، كما كانوا تبعاً لهم في الدنيا

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

(١)أما الجمال الظاهر فزينة خصَّ الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ١]. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة علىٰ محبته، كماهي مفطورة علىٰ استحسانه. وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قالوا: يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون نعله حسنة وثوبه حسنًا، فذلك من الكبر؟ قال: «لا، إن الله جميل يحبُّ الجمال، والكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢) فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم. ولا بأس بهذا إذا كان لله.

وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراء واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ عبده، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً علىٰ عبده يوجب شكراً...

***

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

---

(١) ٢٣٧ روضة المحبين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠) وشرح النووي (٢/ ٨٩-٩١).

[(١)]العبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن الله، فالأمر كله لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، هو مقلب القلوب، ومصرفها كيف يشاء، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وهذا الوجه أعظم لعموم الناس من الوجه الأول، ولهذا خوطبوا في القرآن أكثر من الأول، لكن من تدبر طريقة القرآن له أن الله ـ سبحانه ـ يدعو عباده بهذا إلى الوجه الأول، فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضاً محبته وعبادته لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبده وأحبه وتوكل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأول.

وهكذا من نزل به بلاء عظيم وفاقة شديدة، أو خوف مقلق فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له باب الإيمان به، والإنابة إليه، وما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه، فعرفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه. والقرآن مملوء من ذكر حاجة العبيد إلى الله دون ما سواه من ذكر نعمائه عليهم، وذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات..

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ ﴾.

..[(٢)]بالجملة: من نظر في الموجودات، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها: وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة، وكالظل بالنسبة إلى الشخص.

---

(١) ٦٠ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٧٩ مدارج جـ٣.

وسمعها كلها تنادي بما نادىٰ به ربها وخالقها وفاطرها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وتنادي بلسان الحال؛ بما نادىٰ به ربها بصريح المقال: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]. ثم ندبهم إلىٰ المسابقة إلىٰ الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها، فقال: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

***

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾.

(١)...منها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت. ولكان

(١) ١٩٦ مدارج جـ٢.

الحاصل بعضها، لا كلها فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوىٰ، وإيثار محاب الرب علىٰ محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة، والرجوع إليه واستغفاره. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه؛ وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له الاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه بمخالفته، وسقوطه من المرتبة الملكية إلىٰ المرتبة الشيطانية. فلا يخلدون إلىٰ غرور الأمل بعد ذلك.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة. فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة علىٰ مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة علىٰ الخير والشر، والطيب والخبيث. وذلك كان فيها كمون النار في الزناد. فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلىٰ الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلىٰ الفعل. فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوىٰ هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه

آثاره، وما في قوىٰ أولئك من الشر، ليترتب عليه آثاره. وتظهر حكمته في الفريقين. وينفذ حكمه فيهما. ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق. وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولىٰ من وجود من يعصيه ويخالفه. فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة: كآية الطوفان، وآية الريح، وآية هلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار علىٰ إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ يد موسىٰ، وغير ذلك من آياته التي يقول ـ سبحانه ـ عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٧٤-١٧٥] فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلىٰ الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً، ويكسر بعضها بعضاً: هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل ـ وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب ـ لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته. فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته. وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت علىٰ خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته: أحب إليه ﷻ من فواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها...

***

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾.

(١)المعصية تورث الذل ولابد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠] أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك. قال الحسن البصري: إنهم إن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه(٢). وقال عبدالله بن مبارك:

رأيـــت الـــذنوب تميـــت القلـــو ... ب وقـــد يـــورث الـــذل إدمانهـــا
وتـــرك الـــذنوب حيـــاة القلـــو ... ب وخيـــر لنفـــسك عـــصيانها
وهـــل أفـــسد الـــدين إلا الملـــو ... ك وأحبـــار ســـوء ورهبانهـــا(٣)

***

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾.

(٤)بين ـ سبحانه ـ في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه. وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي

---

(١) ١٧٦ الجواب الكافي.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩).
(٣) هذه الأبيات من بحر المتقارب. وفيها: ويتبعها الذل إدمانها ـ وهل بدل الدين إلا الملوك. وهذه الأبيات ذكرها البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٦٤ رقم ٧٣٠٠) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٧٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ٤٦٨).
(٤) ٨ طريق الهجرتين.

للفقير: فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة. كما أن غنى الرب ـ سبحانه ـ لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً   كما الغنى أبداً وصف له ذاتي(١)

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له.

ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب ـ سبحانه ـ غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون. فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان. والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار.

وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته، ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق منكل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته ـ تعالى ـ وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب ـ سبحانه ـ إلا غنياً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب رباً، إذا عرف هذا، فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً مصنوعاً.

(١) انظر: نصيحة أهل الحديث للخطيب البغدادي (صـ ٤٩).

والفقر الثاني: فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه. فمتىٰ حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقراً هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين. فمن عرف ربه بالغنىٰ المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق. ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام. ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة. ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله ـ سبحانه ـ أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر علىٰ شيء، ولا يملك شيئاً، ولا يقدر علىٰ عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلىٰ ما به كماله أمراً مشهوداً محسوساً لكل أحد.

ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلىٰ رتبة الربوبية والغنىٰ، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلىٰ بارئه وفاطره. فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه، ومكنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلطه علىٰ دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء،وقهر الوحش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحيل علىٰ مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيباً من الملك، وادعىٰ لنفسه ملكاً مع الله ـ سبحانه ـ ورأىٰ نفسه بغير تلك العين الأولىٰ، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتىٰ كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره.

كما روىٰ الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي: أن رسول الله ﷺ، بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه، ثم قال: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم أنَّىٰ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتىٰ إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين**

وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق وأنَّى أوان الصدقة؟!»[١].

[٢]فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾. باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين.

وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه، ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام.

[٣]فقر العبد إلى أن يعبد الله ـ سبحانه ـ وحده لا يشرك به شيئاً؛ ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس، فيقاس بها، لكن بينهما فروق كثيرة، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كدحاً فملاقيه، ولابد له من لقائه، ولا صلاح له إلا توحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في حال، وبهذا في حال، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته.

وأما إلهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٧٠٧) وأحمد (٤/ ٢١٠) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٥٦-٢٥٧ رقم ٣٤٧٣) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ٢٤٥) والحاكم (٢/ ٥٤٥ رقم ٣٨٥٥) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٢ رقم ١١٩٣) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٦٩ رقم ٤٦٩) وابن سعد في الطبقات (٧/ ٤٢٧) وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٧٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) ١١ طريق الهجرتين.

(٣) ٣٠ إغاثة جـ١.

عليه أهل الإيمان ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان.

لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان، وبخس حظه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة، لمجرد الابتلاء والامتحان، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان، كما هي مقالات من بخس حظه من معرفة الرحمن، وقل نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان. بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلاً لهذا الشان، والله المستعان وعليه التكلان.

***

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

(1) وأما إماتة قلوبهم، ففي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]. وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. فوصف الكافر بأنه ميت، وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما.

وكذلك وصف ـ سبحانه ـ كتابه ووحيه بأنه روح لحصول حياة القلب به، فيكون

(١) ١٠٤ شفاء العليل.

القلب حياً ويزداد حياة بروح الوحي، فيحصل له حياة على حياة، ونور على نور، نور الوحي على نور الفطرة. قال: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥].وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. فجعله روحاً لما يحصل به من الحياة، ونوراً لما يحصل له من الهدى والإضاءة، وذلك نور وحياة زائدة على نور الفطرة وحياتها؛ فهو نور على نور، وحياة على حياة.

***

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[1]قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]. فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علماً. ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم الله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه منه وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفاً وحباً، فالخوف من أجل منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة، فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف. وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب. فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف

(١) ٢٨٣ طريق الهجرتين.

وضعفه. فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه. وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران. لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان.

فإذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة، بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو.

وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، ولعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ، فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه(١). كما ثبت عن النبي ﷺ. وكانت أكثر يمينه: «**لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب**»(٢).

(٣)إنه ـ سبحانه ـ أخبر أنهم أهل خشيته، بل خصهم من بين الناس بذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وهذا حصر لخشيته في أولي العلم. وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]. وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن هذا الجزاء

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٨ رقم ٢١٩) وفي الآحاد والمثاني (٢/ ٤٧٥ رقم ١٢٧٨) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٣٠ رقم ٥٨٢) وفي الدعاء (رقم ١٢٦٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١١): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٢٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥١٦-٥٢٧).

(٣) ٥١ مفتاح جـ١.

المذكور للعلماء بمجموع النصين. وقال ابن مسعود ﷺ: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً[١].

[٢]قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾. وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: لسنا بعلماء؛ إنما العالم من يخشى الله[٣]. وقال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علماً وبالاغترار بالله جهلاً.

[٤]ومن علامات المعرفة: الهيبة، فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ أي: العلماء به. وقال النبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية»[٥].

ومن عرف الله صفًا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره.

[٦]ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٥٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧١-٤٧٢ رقم ٧٤٦) وابن أبي شيبة (٧/ ١٠٤ رقم ٣٤٥٣٢) والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٩ رقم ٨٩٢٧).

(٢) ١٧٢ شفاء.

(٣) أخرجه الدارمي (رقم ٢٥٨) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٩) رقم ٣٥٦٦٨) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣١١).

(٤) ٤٣٢ روضة المحبين.

(٥) أخرجه البخاري بنحوه (رقم ٢٠) ولفظه: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» وأخرجه بلفظ المصنف الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٥٩ رقم ١٦٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٣) وعمدة القاري (٧/ ١٨٠).

(٦) ١٣٦ مدارج جـ١.

الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية». ومقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق الرضا، وهو يتضمن الصبر من غير عكس. ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه. لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر. فرجع الإيمان كله شكراً. والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

(١) خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين، ويضعف بضعفهما. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

(٢) وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

ولكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية، حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم

---

(١) ٢٧١ طريق الهجرتين.

(٢) ١٧٢ شفاء العليل.

اليقيني. فإن قيل فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس فإنها كانت عن علم لا عن جهل.

ويقول: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال موسى فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]. وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢٠]. يعني: القرآن أو محمدًا ﷺ. وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. والجحود إنكار الحق بعد معرفته وهذا كثير في القرآن، قيل: حجج الله لا تتناقض، بل كلها حق، يصدق بعضها بعضاً، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقر به وبرسالته، وبأنه حرم ذلك، وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك به وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟

وقد سمى ـ تعالى ـ أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة وعلموا أنه صادق. وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالجاهلون هنا: الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل، بل يثبت له العلم وينفى عنه في موضع واحد، كما قال تعالى عن

السحرة من اليهود: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار.

(١)عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾. قال: الذين يقولون: إن الله على كل شيء قدير، وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها، ولو كانوا يقرون بها، فمنكرو القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها، ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها؛ بل يصرخون أنه لا يقدر على فعل يقوم به.

ومن لا يقر بأن الله سبحانه كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وأنه ـ سبحانه ـ مقلب القلوب حقيقة، وأنه إن شاء يقيم القلب أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض. وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول: «من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»(٢). وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى، كلمه منها. وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده، وأنه يتجلى لهم يضحك. وأنه يريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها، وينزوي بعضها إلى بعض.

---

(١) ٢٩ شفاء العليل.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٥) ومسلم (رقم ٧٥٨) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩٦-١٩٨).

إلىٰ غير ذلك من شؤونه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه علىٰ كل شيء قدير. فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن، وقد كان ابن عباس شديداً علىٰ القدرية. وكذلك الصحابة، كما سنذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

(١) المتابعة هي التلاوة التي أثنىٰ الله علىٰ أهلها في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ﴾ [فاطر: ٢٩]. وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١]. والمعنىٰ: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنىٰ، فتلاوة اللفظ جزء مسمىٰ التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته، وقصصته: بمعنىٰ تبعت خلفه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١-٢]. أي: تبعها في الطلوع بعد غيبتها، ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا، أي يتبع، وسمي تالي الكلام تالياً لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا، لا يخرجها جملة واحدة، بل يتبع بعضها بعضاً مرتبة، كلما انقضىٰ حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرىٰ، وهذه التلاوة وسيلة وطريقة.

والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنىٰ واتباعه تصديقاً بخبره وائتماراً

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

بأمره، وانتهاء بنهيه، وائتماماً به، حيث ما قادك انقدت معه. فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنىٰ أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً.

***

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(١)قال: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢]. فقالت: «يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضىٰ علىٰ عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ، بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتىٰ لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم»، فجعلت نفسها معنا(٢).

(٣)والمقصود الكلام علىٰ مراحل العالمين وكيفية قطعهم إياها، فلنرجع إليه.

فنقول: أما الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلىٰ دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه، ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله، ومحاربة من يدعو إلىٰ دينه، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده.

فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه.

---

(١) ٨٦ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (رقم ١٤٨٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٧).

(٣) ٢٠٣ طريق الهجرتين.

وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله. فهذا حال المسلم.

وأما من زين له سوء عمله فرآه حسناً وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلاً، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحاً أبداً، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه، فهممهم مصروفه إلى القيام بالأعمال الصالحة.

واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهير والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدى فريضته كما أمر، مكملاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من: الخشوع، والمراقبة، والحضور بين يدي الرب. فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثاراً تبدوا على صفحاته ولسانه وجوارحه...

..[1]ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها، فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خلقوا لها واستعملوا

(١) ١٨٦ طريق الهجرتين.

بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقاً، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجاً وتسوقهم سوقاً.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام. وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره. وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير أخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب إذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات: همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعله، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسرانا بينا أن يمر عليه وقت في غير متجر. فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة. فمرة

يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذه مقطوعة الربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه، وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله. وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحق الذي عليهم.

فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلاً بها، قائماً بأعيانها، مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول. فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم، يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته. فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب. وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار، ومقربون، وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون. وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمناً عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختلف في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [فاطر: ٣٣]. هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم، على قولين.

***

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

(١)...الحزن: هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤]. فحمده على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها. وفي الصحيح عن النبي ﷺ، أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال**»(٢). فاستعاذ ﷺ، من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان:

فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، إن كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم.

والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن الإحسان يفرح القلب، ويشرح الصدر، ويجلب النعم، ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال.

وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان، فإن القهر والغلبة الحاصلة للعبد إما منه وإما من غيره، وإن شئت قلت: إما بحق وإما بباطل من غيره.

والمقصود أن النبي ﷺ، جعل الحزن مما يستعاذ منه. وذلك لأن الحزن يضعف القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [المجادلة: ١٠]

---

(١) ٢٧٨ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٦٩) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٧٦).

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما..

[(١)]...طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]. وقال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم قالوا: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾. وفي هذا معنى التعليل أي بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧]. فهذا جزاء لشكرهم، أي إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره. والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

***

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[(٢)] قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر: ٣٧]. فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار؛ فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفر زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل؛

---

(١) ٩٥ جلاء الأفهام.

(٢) ١٨٩ فوائد.

فالمسافر إما صاعد وإما نازل، وفي الحديث المرفوع: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله**»[1].

فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه. وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته. وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته. وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيراً له؛ وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

***

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾.

[2]تأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: الحليم والغفور، كيف تجد تحت ذلك؟ أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض. وأخبر ـ سبحانه ـ عن كفر بعض عباده أنه ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠].

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٣٠) والدارمي (رقم ٢٧٤٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٠ رقم ٣٤٤٢٤) والبيهقي في الزهد (٢/ ٢٣٧ رقم ٦٢٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٧ رقم ٥٤٤٩) وأحمد (٥/ ٤٠، ٤٣، ٤٧)، والبزار (٩/ ٩٢ رقم ٣٦٢٣) والطيالسي (رقم ٨٦٤) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٢٦-١٢٧ رقم ٥٠٩١): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. والطبراني بإسناد صحيح والحاكم والبيهقي في الزهد وغيره، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٣): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده جيد. وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٠) (١١/ ٤٩٠) وشرح النووي (١٦/ ١٥٤).

(٢) ١١٧ الجواب الكافي.

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه.

ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي درج الجنان لدى النعيم الخالد[(١)]

[(٢)]وإذا أردت معرفة صبر الرب ـ تعالى ـ وحلمه والفرق بينهما، فتأمل قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]. وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١]. وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من فتح اللام.

فأخبر ـ سبحانه ـ أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فبالحلم أمسكهما. وأمسكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد فيمسكهما بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره ـ تعالى ـ فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله.

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وفيه: تصل... وترتجي، بالتاء المثناة من فوق. وفيه أيضاً عجزه: درك الجنان بها وفوز العابد، وينسب إلى محمود بن حسن الوراق الشاعر العباسي البغدادي، كان شعره في المواعظ والحكم واشتهر بالوراق والنخاس. مات سنة ٢٢٠هـ وذكر البيت المبرد في الكامل في اللغة والأدب (١/ ٦٥٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٤٦٠) وجعله من مقول أبي نواس في مرض موته.

(٢) ٣٠٥ عدة الصابرين.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم»[١]. وهذا مقتضى الطبيعة، لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره، وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات. الرب ـ تعالىٰ ـ يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك.

فجعل ـ سبحانه ـ في مقابلة هذه الأسباب أسباباً يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه فدفعت تلك الأسباب وقاومتها. وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب.

ولهذا استعاذ النبي ﷺ، بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[٢].

فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقاً وكوناً، فمنه السبب والمسبب، وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوىٰ التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدها وأمدها وسلطها علىٰ ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء، ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: «أعوذ بك منك» من محض التوحيد وقطع الالتفات إلىٰ غيره، وتكميل التوكل عليه ـ تعالىٰ ـ والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء، ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣) والديلمي في الفردوس (٣/ ٣٨٢ رقم ٥١٦٥) وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٥٢ رقم ٣٧): والعوام ضعيف والشيخ مجهول، وانظر: فتح القدير (٥/ ٣٨٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٤).

وهو المستعاذ بمشيئته، وهو المعيذ من فعله بفعله، وهو الذي ـ سبحانه ـ خلق ما يصبر عليه وما يرضىٰ به، فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له، وحمدهم إياه، وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فاطر

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ يسٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ ﴾.

[(١)] الصحيح أن «يس» بمنزلة حم، وألم، لست اسما من أسماء النبي ﷺ.

وأقسم ـ سبحانه ـ بكتابه على صدق رسوله. وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه. وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يس: ٤]، وجوز فيه ثلاثة: أن يكون خبر بعد خبر، فأخبر عنه بأنه رسوله، وأنه على صراط مستقيم، وأن يكون متعلقاً بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله، أي أرسلتك على صراط. وهذا يحتاج إلي بيان تقدير المجعولين على صراط مستقيم، وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره.

***

﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ ﴾.

[(٢)] قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله. قال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلُّب، كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان. فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق[(٣)].

---

(١) ٢٧١ التبيان.

(٢) ١٤٠ شفاء.

(٣) انظر: لسان العرب (١١/ ٥٠٤).

قيل: ولما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محله، والمراد به القلب، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك وهذا في عنقك، ومن هذا قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]. شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق.

ومن هذا قال الفراء: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً؛ حبسناهم عن الإنفاق.

قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق. قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا، وقلدتك كذا، ومنه قلده السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق. قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلاناً حكم كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه، وقد سمى الله التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فشبهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها، قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة: كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم[(١)].

قال ابن قتيبة: هي تحريم الله ـ سبحانه ـ عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ، وجعلها أغلالاً، لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد.

وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾. قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي، وإن لم تذكر لدلالة السياق عليها، قالوا. لأن الغل يكون في العنق، فتجمع إليه اليد، ولذلك سمي جامعة. وعلى هذا فالمعنى: فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم، هذا قول الفراء والزجاج. وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى الأغلال، وهذا هو الظاهر. وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي واصلة وملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل الذقن.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو الشيخ عن سعيد بن جبير، كما أشار إلى ذلك السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٨٣).

وقوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال الفراء والزجاج: المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الأقماح في اللغة: رفع الرأس وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح، وقال الأصمعي: بعير قامح، إذا رفع رأسه على الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صعداً كالإبل الرافعة رءوسها[(١)]. انتهى.

فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان.

قيل: أحسن وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق، ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركه[(٢)].

ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال ابن عباس: منعهم من الهدى لما سبق في علمه.

والسد الذي جعل من بين أيديهم ومن خلفهم: هو الذي سد عليهم طريق الهدى، فأخبر ـ سبحانه ـ عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم، وضمت أيديهم إليها، وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة، وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان.

[(٣)]فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وحملوا

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٠٦-١٠٧).

(٣) ١٣٦ الزاد جـ٢.

وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدار دار منعة، وأن القوم أهل حلقة وشوكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، ولحوقه بهم، فيشتد عليهم أمره.

فاجتمعوا في دار الندوة، لم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجى منهم، ليتشاوروا في أمره، وحضرهم وليهم وشيخهم: إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد، مشتمل الصماء في كسائه، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ، فأشار كل أحد منهم برأي، والشيخ يرده ولا يرضاه.

إلى أن قال أبو جهل: قد فرق لي فيه رأي، ما أراكم قد وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً نسيباً وسيطاً، ثم نعطيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك: كيف تصنع؟ ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته. فقال الشيخ: لله در الفتى، هذا والله الرأي، قال: فتفرقوا على ذلك، واجتمعوا عليه، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه ـ تبارك وتعالى ـ فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة[1].

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار، في ساعة لم يكن يأتيه فيها متقنعاً، فقال له: «أخرج عني من عندك؟» فقال: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج». فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال أبوبكر: فخذ بأبي وأمي إحدى راحلتي هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، وأمر علياً أن يبيت في مضجعه تلك الليلة»[2].

واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صِيَرِ الباب، ويرصدونه، ويريدون

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٢٩) وعبد الرزاق (٥/ ٣٨٤-٣٨٩ رقم ٩٧٤٣) وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢١٣٨) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٥).

بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها. فخرج رسول الله ﷺ عليهم، فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يذره على رءوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩].

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر: فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً. وجاء رجل، ورأى القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم وذرَّ على رءوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه وقاموا ينفصون التراب عن رءوسهم، وهم: أبو جهل، والحكم بن العاص وعقبة بن أبي مُعيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونبيه، ومنبه ابنا الحجاج. فلما أصبحوا قام علي عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ؟ فقال: لا علم لي به. ثم مضى رسول الله ﷺ وأبوبكر إلى غار ثور، فدخلاه، وضرب العنكبوت بيتاً على بابه[(١)]...

***

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

[(٢)]قال ابن عباس: ما أثروا من خير أو شر، فسمى ذلك آثاراً لحصوله بتأثيرهم.

ومن العجب أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمؤثر من أطلق عليه في القرآن والسنة، كما قال النبي ﷺ لبني سلمة: «دياركم تكتب آثاركم»[(٣)]. أي الزموا دياركم، ويخصونه بمن لم يقع إطلاقه عليه في كتاب ولا سنة، وإن استعمل في حقه الإيثار والاستئثار، كما قال أخوة يوسف: تالله لقد آثرك الله علينا.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٢٨).

(٢) ١٣٤ شفاء.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٦٥) وانظر: شرح النووي (٥/ ١٦٩).

(١)قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[يس: ١٢]. فجمع بين الكتابين: الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها علىٰ ذلك، قال: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم: ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: آثارهم ما أثروا من خير أو شر، كقوله: ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣].

(فإن قلت): قد استفيد هذا من قوله قدموا فما أفاد قوله: آثارهم علىٰ قوله.

(قلت): أفاد فائدة جليلة، وهو أنه ـ سبحانه ـ يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان علىٰ عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سلمة: أرادوا أن ينتقلوا إلىٰ قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة، فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذه القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلىٰ قرب المسجد، فنزلت هـذه الآية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»(٢).

وقد روىٰ مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس.

---

(١) ٣٩ شفاء.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٥، ٦٥٦) ومسلم (رقم ٦٦٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٤٠).

وفي هذا القول نظر، فإن سورة يس مكية وقصة بني سلمة بالمدينة، إلا أن يقال هذه الآية وحدها مدنية. وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها، وذكروا بها عندها، إما من النبي ﷺ، وإما من جبريل، فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك نزلت مرتين.

والمقصود: أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم، قال عمر بن الخطاب: لو كان الله ـ سبحانه ـ تاركاً لابن آدم شيئاً لترك ما عفت عليه الرياح من أثر[(١)]. وقال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة[(٢)].

والمقصود: أن قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر، الذي كتب فيه كل شيء، يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه.

***

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

[(٣)]...هذا ما حكاه الله سبحانه من محاجة صاحب يس لقومه، بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢١].

فنبه على وجوب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولاً لمن ينبغي أن لا يخالف ولا يعصى، وأنه على هداية، ونبه على انتفاء المانع، وهو عدم سؤال الأجر، فلا يريد منكم دنيا ولا رئاسة، فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه منتف، وهو طلب العلو

---

(١) ذكره عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ١٤٠) وجعله من قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله.
(٢) ذكره عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٤٠) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٧) إلى عبد بن حميد.
(٣) ١١١ مختصر الصواعق جـ١.

والفساد وطلب الأجر، ثم قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]. أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، وأنعامه كلها تابعة لإيجاده وخلقه.

وقد جبل الله العقول والفطر والشرائع على شكر المنعم ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع.

ثم أقبل عليهم مخوفاً تخويف الناصح، فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دون الله أنها باطلة، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وأنه إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذوني بها من ذلك الضر ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه، ولا يخلص من ذلك الضر، فبأي وجهة تستحق العبادة ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٤] إن عبدت من دون الله من هذا شأنه.

***

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾.

(١) هذا قوله تعالى حاكياً عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجاً عليهم بما تقر به فطرهم وعقولهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢] فتأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى وأجله، وهو أن كونه ـ سبحانه ـ فاطراً لعباده

(١) ٨ مفتاح جـ٢.

يقتضي عبادتهم له، وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه، ولا سيما إذا كان مرده إليه، فمبدأه منه، ومصيره إليه، وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته، ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره، وإنها أقبح شيء في العقل وأنكره، فقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٣ ـ ٢٤]. أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة.

***

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

(١) والمعبود ينبغي أن يكون رباً خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق صبحة، ووضح لك شرحه، وانجلى بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبأن أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذا الفصل؛ فإن يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون «ما» موصولة قيل: نعم قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبرازه، ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير: أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق أن

---

(١) ١٥٠ بدائع جـ١.

يكون خالقهم بجملتها، أعني مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما أن مادتها كذلك؛ لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم، الذي حصلت به الصورة، لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل «ما» مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٢]. والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن. وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد.

وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر، وهي الإبل لوجهين: أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن لا لغة ولا حقيقة، فإن المثلين ما سد أحدهما مسد الآخر. وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك لا بين جمل وفلك. والثاني: أن قوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ [يس: ٤٣]، عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما ركوبهم إياها.

والثاني: أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق، ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه ـ سبحانه ـ هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾ والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتاً بعملهم.

فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة. (قلت): المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

***

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴾.

[(١)] قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]، قال: في افتضاض الأبكار[(٢)]، وقال عبدالله بن أحمد حدثنا أبو الربيع الزهراني ومحمد بن حميد قالا: حدثنا يعقوب بن عبدالله حدثنا حفص بن حميد عن بشر بن عطية عن تفيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ قال: شغلهم افتضاض العذارى[(٣)].

وقال الحاكم: أنبأنا الأصم أنبأنا العباس بن الوليد أخبرني شعيب عن الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥] قال: شغلهم افتضاض الأبكار، قال مقاتل: شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار، فلا يذكرونهم، ولا يهتمون لهم.

وقال أبو الأحوص: شغلوا بافتضاض الأبكار عن السرر في الحجال.

وقال سليمان التيمي: عن أبي مجلز قلت لابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ ما شغلهم؟ قال: افتضاض الأبكار[(٤)].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبدالواحد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ قال: في افتضاض العذارى[(٥)].

---

(١) ١٧١ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨) وهناد في الزهد (١/ ٨٧ رقم ٨٩) والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٣٩٢-٣٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٢٧٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٤) إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٢٧٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٤) إلى ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

[١]...وفي سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «وبينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم؛ فإذا الرب ـ تعالى ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال وذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم»[٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها؛ كما يربي أحدكم فلوَّه، حتى تكون مثل الجبل»[٣] ـ الفلو ـ المهر بلغ السنة.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي ﷺ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً»[٤]. وروى ابن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن زهرة بن معبد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخبره أنه سمع عقبة بن عامر ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن وضوءه، ثم رفع نظره إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله

---

(١) ٥٦ اجتماع الجيوش الإسلامية.

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٩٨) وأبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٩١) وفي الحلية (٦/ ٢٠٨-٢٠٩) والضياء في صفة الجنة (رقم ١٤٤) والدارقطني في رؤية الله (رقم ٦١). وضعف الحديث الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٨) والألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٣٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٠) ومسلم (رقم ١٠١٤) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٦٩-٢٧١).

(٤) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٦٠ رقم ٨٧٦) وأبو داود (رقم ١٤٨٨) والترمذي (رقم ٣٥٥٦) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢١١ رقم ٢٩٦٥) وعبد الرزاق (٢/ ٢٥١ رقم ٣٢٥٠) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦ رقم ٦١٤٨) وفي الدعاء (رقم ٢٠٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٥ رقم ١١١١) وحسنه الترمذي وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٤٣).

وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء»[(١)].

***

﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾.

[(٢)]قال القاضي أبو يعلى: فأما قوله في حديث جابر «بينا أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور من فوق رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: السلام عليك يا أهل الجنة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه» قال: فلا يمتنع حمله على ظاهره، وأنه نور ذاته، لأنه إذا جاز أن تظهر لهم ذاته فيرونها جاز أن يظهر لهم نورها فيرونه، لأن النور من صفات ذاته، وهو قوله: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩]. وذكر في موضع آخر قولين في ذلك، ورجح هذا القول، قال: وهو أشبه بكلام أحمد.

[(٣)]وفي سنن ابن ماجه وحرب الكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قوله: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ فيرفعون رؤوسهم فينظرون إليه وينظر إليهم ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم» لفظ حديث حرب: فما ظن المحبين بلذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم؟ وقد

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٩).
(٢) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢.
(٣) ٤٤٩ روضة المحبين.

كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك والشوق إلىٰ لقائك»[١]. ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه.

[٢]وذكر عثمان الدارمي، عن محمد بن كعب القرظي، أنه حدث عمر بن عبدالعزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، فيسلم علىٰ أهل الجنة في أول درجة، فيردون ﷺ. قال القرظي: وهذا في القرآن: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فيقول: سلوني، يفعل بهم ذلك في درجهم حتىٰ يستوي علىٰ عرشه، ثم تأتيهم التحف من الله تحمله الملائكة إليهم[٣]. وقال عبدالواحد بن زيد، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا[٤]، وقال هشام بن حسان عنه أنه ـ تبارك وتعالىٰ ـ يتجلىٰ لأهل الجنة، فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة[٥]...

[٦]ثبت بالعقل إمكان رؤيته ـ تعالىٰ ـ وبالشرع وقوعها في الآخرة، فاتفق الشرع والعقل علىٰ إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجوداً أحق أن يرىٰ، فالباري ـ سبحانه ـ أحق أن يرىٰ من كل ما سواه، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) وفي موارد الظمآن (رقم ٥٠٩) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي الصغرىٰ (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (رقم ١٣٨٧).

(٢) ٤٦٥ روضة المحبين.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٢١) وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٧): وهذا خبر غريب، أورده ابن جرير من طرق والله أعلم.

(٤) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٦٩) ومحمد بن إسحاق في التصديق بالنظر: (رقم ١) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٩).

(٥) أخرجه محمد بن إسحاق في التصديق بالنظر (رقم ٢).

(٦) ٢٨٠ مختصر الصواعق.

يوضحه: إن تعذر الرؤية: إما لخفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي، والرب ـ سبحانه ـ أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه. فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة البصر في غاية القوة، لأنها دائمة فقويت على رؤيته ـ تعالىٰ ـ. وإذا جاز أن يرىٰ، فالرؤية المعقولة له عند جميع بني آدم: عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم: أن يكون المرئي مقابلاً للرائي مواجهاً له بائنا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينة المرئي لزم ضرورة أن يكون مرئيًّا له من فوقه أو من تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه، وقد دل النقل الصريح علىٰ أنهم إنما يرونه ـ سبحانه ـ من فوقهم، لا من تحتهم. كما قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار ـ جل جلاله ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليك ـ ثم قرأ ـ ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ثم يتوارىٰ عنهم وتبقىٰ رحمته وبركته عليهم في ديارهم». فلا يجتمع الإقرار بالرؤية وإنكار الفوقية والمباينة. ولهذا فإن الجهمية المغول تنكر علوه علىٰ خلقه ورؤية المؤمنين له في الآخرة ومخانيثهم يقرون بالرؤية وينكرون العلو. وقد ضحك جمهور العقلاء من القائلين بأن الرؤية تحصل من غير مواجهة المرئي ومباينته. وهذا رد لما هو مركوز في الفطر والعقول...

***

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

(1) لما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهو يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ

(1) ١٩١ الجواب الكافي.

أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١] فالشيطان يدعو المشركين إلىٰ عبادته، ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان، فيسجد لها الكفار، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها. وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان. فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبد الله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

فما عبد أحد من بني ادم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. أي من إغوائهم وإضلالهم. ﴿ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلىٰ السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل علىٰ الله ـ سبحانه ـ أن يشرع لعباده إلهاً غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضىٰ به؟ ـ تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

***

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

(1) أخبر ـ سبحانه ـ: أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع، يقبل الإنذار، وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به، لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة الخير البتة. فيحق عليه القول بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان، بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣] وحق عليه العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] كلمته ـ سبحانه ـ إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته، وحاصل هذا كله: أن الله ـ سبحانه ـ أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم ـ لا مع مراد أنفسهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم، فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده. وعلم ـ سبحانه ـ منهم: أنهم لا يؤثرون مراده البتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم، فأمرهم ونهاهم. فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله، فعاقبهم بظلمهم اهـ.

---

(١) ٢١٨ مدارج جـ١.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

(١)...لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرداً، ومثنى، ومجموعاً. فالمفرد كقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [تبارك: ١]، والمثنى كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. والمجموع: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]. فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء. فهذا ثلاثة فروق، فلا يحتمل: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟ وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده. ولهذا قال عبدالله بن عمرو: «إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده»(٢).

فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة. وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة فيقولون: «يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده»(٣).

(١) ٣٨ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) أخرجه الدارقطني في الصفات (رقم ٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٠) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٣).

وكذلك قال آدم لموسي في محاجته له: «اصطفاك الله بكلامه. وخط لك الألواح بيده»(١). وفي لفظ آخر: «كتب لك التوراة بيده»(٢). وهو من أصح الأحاديث.

وكذلك الحديث المشهور: «إن الملائكة قالوا: يا رب خلقت بني آدم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله ـ تعالىٰ ـ: ألا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كن فكان؟»(٣) وهذا التخصص إنما فهم من قوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فلو كان مثله قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]. لكان هو والأنعام في ذلك سواء. فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]. يوجب له تخصيصاً وتفضيلاً بكونه مخلوقاً باليدين علىٰ من أمر أن يسجد له، وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس: ٧١]، خطأ محضاً. وكذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «يقبض الله سمواته بيده، والأرض باليد الأخرىٰ»(٤). وقوله ﷺ: «يمين الله ملأىٰ لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرىٰ القسط، يخفض ويرفع...»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٦١٤) ومسلم (رقم ٢٦٥٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٨) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٢).

(٣) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٢/ ٣٨٢) وعزاه السيوطي في الدر (٥/ ٣١٥) إلى الطبراني وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٢): رواه الطبراني في الكبير الأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك، وفي مسند الأوسط طلحة بن زيد وهو كذاب أيضاً، وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٢٧٧): ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية كذلك، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٦٥١٩) ومسلم (رقم ٢٧٨٧) وانظر: الفتح (١١/ ٣٧٢) (١٣/ ٣٦٧، ٣٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١١) ومسلم (رقم ٩٩٣) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٥-٣٩٦) وشرح النووي (٧/ ٨٠).

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

(١)قال ـ سبحانه ـ في تثبيت أمر البعث: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ إلى آخر السورة فلو رام أفصح البشر وأعلمهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو مثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووصف حينئذ الدلالة وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز عن ذلك.

فإنه ـ سبحانه ـ افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً، وكان في قوله سبحانه: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ ما وفى بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة لولا ما أراد الله ـ تعالى ـ من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه ـ تعالى ـ أخبر أن هذا السائل الملحد لو تبين خلقه نفسه وبدء كونه لكانت فكرته فيه كافية.

ثم أوضح ـ سبحانه ـ ما تضمنه قوله: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾. وصرح به جواباً له عن مسألته بقوله: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩]، فاحتج بالإبداء على الإعادة. وبالنشأة الأولى على النشاة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية عجز عن الأولى، بل كان أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك

(١) ١٠٠ مختصر الصواعق جـ١.

بقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله ومواده وصورته وكذلك هو عليم بالخلق الثاني. فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهو رميم؟ أكد الأمر بحجة تتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة في الأبدان تكون مادتها طبيعية حارة، فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠] فأخبر ـ سبحانه ـ بإخراج هذه العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة. فالذي يخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد الدلالة بالتنبيه على أن من قدر على الشيء الأعظم الأكبر فهو على ما دونه أقدر وأقدر، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١].

فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يخلق عظاماً صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم بين ذلك بياناً آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبه كل ملحد وجاحد، وهو أنه ـ سبحانه ـ ليس في فعله بمنزلة غيره يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لابد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي في خلق ما يرد خلقه كن فيكون.

فأخبر أن نفوذ إرادته ومشيئته وسرعة تكوينه وانقياد الكون له. ثم ختم هذه الحجة

بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فسبحان المتكلم بهذا الكلام الذي جمع مع وجازته وفصاحته وصحة برهانه كل ما تدعو إليه الحاجة من تقرير الدليل وجواب الشبهة بألفاظ لا أعذب منها للسمع ولا أحلىٰ من معانيها للقلب ولا أنفع من ثمراتها للعبد.

(١) وقد جمع ـ سبحانه ـ بين النشأتين في قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧] وفي قوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٨] إلىٰ قوله: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

فتضمنت هذه الآيات عشر أدلة: أحدها قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [يس: ٧٧]. فذكره مبدأ خلقه ليدله به علىٰ النشأة الثانية.

ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل؛ فتحت قوله: ﴿ وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾. ألطف جواب وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئاً: فلان جحدني الإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل علىٰ ثبوت ما جحده، فقال: ﴿ قُلْ

---

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.

يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ ﴾ مَرَّةٍ فهذا جواب واستدلال قاطع، ثم أكد هذا المعنىٰ بالإخبار بعموم علمه لجميع الخلق، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن أحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولىٰ ولا عن خلق السموات والأرض؟

ثم أرشد عباده إلىٰ دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقربها إلىٰ العقل، فقال: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا ﴾ فإذن هذا دليل علىٰ تمام قدرته وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار من الشجرة الخضراء.

وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموت بارد يابس والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوا، بل إذ أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السموات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

ثم قرر هذا المعنىٰ بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به فقال: ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه ولا عن شيء أبداً، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، فلا يمكنه الاستعصاء عليه، ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته.

ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [يس: ٨٣] فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاءه فيه.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ كما أنهم ابتدأوا منه هو فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر، وأن إلى ربك المنتهى.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يس

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾.

(١) قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾ [الصافات: ١]. أقسم ـ سبحانه ـ بملائكته الصافات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ تتمون الصفوف الأول، وتراصون في الصف**»(٢). وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥]. والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء. والزاجرات الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله. فالتاليات التي تتلوا لكلام الله.

وقيل: الصافات الطير: كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ [النور: ٤١].

والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله.

والتاليات: الجامعات لكتاب الله ـ تعالى ـ. وقيل: الصافات القتال في سبيله، فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه. فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم.

وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله. فالتاليات آياته، واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة، فإن الأقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير

---

(١) ٢٧١ التبيان.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٣٠) وانظر: عمدة القاري (٥/ ١٢٥).

الملائكة فهو من آثار الملائكة، وبواسطتها كان.

وأقسم ـ سبحانه ـ بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته، وقرر توحيد ربوبيته، فقال: ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴾ [الصافات: ٤ ـ ٥]. من أعظم الأدلة على أنه إله واحد. ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركاً في ربوبيته، كما شاركه في إلهيته. ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده. وخص المشارق ههنا بالذكر: إما لدلالتها على المغارب، إذ الأمر أن المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر. وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار. وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظاً من كل شيطان. فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق. والله ـ تعالى ـ أعلم.

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧]. فجمَّل ظاهرها بالكواكب وباطنها بالحراسة من الشياطين.

***

﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ ﴾.

(٢) أما الوصب فهو: ألم الحب ومرضه، فإن أصل الوصب: المرض، وقد وصب الرجل يوصب فهو وصب، وأوصبه الله فهو موصب، والموصَّب بالتشديد الكثير الأوجاع. وفي الحديث الصحيح: «لا يصيب المؤمن من هم ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»(٣) ووصب الشيء يصب وُصُوبًا إذا دام، تقول:

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ٣.

(٢) ٤٢ روضة المحبين.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (رقم ٢٥٧٣) وانظر: فتح الباري (١٠/١٠٦).

وصب الرجل على الأمر إذا داوم عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات: ٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ [النحل: ٥٢]. أي الطاعة دائمة.

***

﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ۝ ﴾.

...(١)قال ابن زيد: ينادي مناد يوم القيامة، حتى يجتمع الخلائق: ﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: من عبد من دون الله، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلهه. ﴿ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴾ [الصافات: ٢٦](٢). فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

***

﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝ ﴾.

(٣)أخبر ﷻ أن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدثون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة إلى أن قال قائل منهم: إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة، ويقول ما حكاه الله عنه، يقول: أئنك

(١) ٢٤٣ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١٩٣) وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٧٤ رقم ١٥٠٤٢).

(٣) ١٨٥ حادي الأرواح.

لمن المصدقين بأنا نبعث، ونجازىٰ بأعمالنا، ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلىٰ وكنا تراباً وعظاماً، ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون في النار لننظر منزلة قريني هذا، وما صار إليه؟! هذا أظهر الأقوال.

وفيها قولان آخران: (أحدهما): أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً: هل أنتم مطلعون؟ رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: أنه من قول الله ﷻ لأهل الجنة، يقول لهم: هل أنتم مطلعون؟ والصحيح القول الأول، وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه، والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه، قال كعب: «بين الجنة والنار كوىٰ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلىٰ عدوه كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوىٰ».

وقوله: فاطلع أي: أشرف، وقال مقاتل لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون؟ قالوا له: أنت أعرف به منا فاطلع أنت، فأشرف، فرأىٰ قرينه في سواء الجحيم، ولولا أن الله عرفه أياه لما عرفه، لقد تغير وجهه ولونه، وغيره العذاب أشد تغيير، فعندما قال: تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين.أي إن كدت لتهلكني، ولولا أن أنعم الله عليَّ بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب.

***

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤﴾.

...[١] قال تعالىٰ في شجرة الزقوم: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]. قال قتادة: لما ذكر الله تعالىٰ هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤﴾ [الصافات: ٦٤][٢] أخبرهم أن غذاءها من النار، أي غذيت بالنار.

---

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري (١٥/ ١١٤-١١٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩).

قال ابن قتيبة: قد تكون شجرة الزقوم نبتاً من النار، ومن جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها، وعقاربها، وحيَّاتها[(١)]، ولو كانت على ما يعلم لم تبق على النار، وإنما دلنا الله ـ تعالى ـ على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك، والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا، بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها.

وكذلك إخباره ـ سبحانه ـ بأن عدة الملائكة الموكَّلين بالنار تسعة عشر، كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أيخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدُّهم، أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة». فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا، وفتنة لهم يوم القيامة[(٢)].

والكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، كما قال الحنفاء: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥]، وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا[(٣)]. وقال الزجاج: معناه: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٥) وعمدة القاري (٢٣/ ١٥٨).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٥٩-١٦٠) والدر المنثور (٨/ ٣٣٣) والتخويف من النار (صـ١٦٠) وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٣٥٤).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ٦٤) والبخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الممتحنة. وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٣٣).

علىٰ حق، فيفتنوا بذلك. وقال الفراء: لا تظهر علينا الكفار، فيروا أنهم علىٰ حق وأنا علىٰ باطل. وقال مقاتل: لا تقتِّر علينا الرزق وتبسطه عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم[1].

وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فتن كلا من الفريقين بالفرق الآخر، فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] فقال الله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمقصود: أن الله سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة، وفتن أولئك بهم. فكل من النوعين فتنة للآخر، فمن صبر منهم علىٰ تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها، ومن أصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها، فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح وإلا فسبيل من هلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر من النساء علىٰ الرجال»[2] أو كما قال.

فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة، وشيطانه المغوي المزين، وقرنائه وما يراه، ويشاهده، مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلىٰ زهرة الحياة الدنيا، وكون العوض مؤجلاً في دار أخرىٰ غير هذه الدار التي خلق فيها، وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به:

فوالله، لولا الله يسعد عبده ... بتوفيقه، والله بالعبد أرحم
لما ثبت الإيمان يوماً بقلبه ... علىٰ هذه العلات، والأمر أعظم
ولا طاوعته النفس في ترك شهوة ... مخافة نار، جمرها يتضرم
ولا خاف يوماً من مقام إلهه ... عليه بحكم القسط، إذ ليس يظلم

(١) انظر في ذلك: تفسير الطبري (١١/ ١٥٢) (٢٨/ ٦٤) وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٩) وفتح الباري (٨/ ٦٣٣) وغريب الحديث للحربي (٣/ ٩٣٨-٩٣٩) ولسان العرب (٣١٧/١٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٩٦) ومسلم (رقم ٢٧٤٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٣٨) (١١/ ٢٥٨).

والفتنة نوعان: فتنة الشبهات، وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما. ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولاسيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوىٰ، فهنالك الفتنة العظمىٰ، والمصيبة الكبرىٰ، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد، الحاكم عليه الهوىٰ لا الهدىٰ، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوىٰ يضل عن سبيل الله، فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلىٰ الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، علىٰ حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدىٰ بالضلال.

ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقىٰ عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام. وما يثبته لله من الصفات والأفعال، والأسماء، ما ينفيه عنه، كما يتلقىٰ عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يتلقىٰ إلا عنه، ولا يؤخذ إلا منه، فالهدىٰ كله دائر علىٰ أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه علىٰ ذلك وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده، ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل، فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة.

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات. وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩]. أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها. والخلاق هو النصيب المقدر، ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح. فالأول: هو البدع وما ولاها، والثاني: فسق الأعمال. فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني: من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنة هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه»[(١)].[(٢)] وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»[(٣)]. وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة.

ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل ـ سبحانه ـ إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٧٩) منسوباً إلى مالك بن دينار رحمه الله. واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٩٢).

(٢) تقدم في سورة التوبة تفسير هذه الآية بأوسع مما هنا (ح).

(٣) أخرجه الآجري في مسألة الطائفين (رقم ٤) من قول سفيان الثوري وأخرجه الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٣/ ١١٨ رقم ٤٥٠١) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٥٤٤).

صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات، وجمع بينهما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوىٰ والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور علىٰ ذلك. قال ابن عباس: «أولي القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله»(١). وقال الكلبي: «أولي القوة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصر في الحق»(٢).

وقال سعيد بن جبير: «الأيدي: القوة في العمل، والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم»(٣).

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»(٤). فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

***

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٧٠) وابن أبي الدنيا في العقل وفضله (رقم ٧).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٥١٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٩٧-١٩٨) إلى عبد ابن حميد.

(٤) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٤٦-٣٤٧ رقم ٩٥٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٥٢ رقم ١٠٨٠).

[(١)]في الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

أما سائر الأنبياء والمرسلين فيصلى عليهم ويسلم. وقال تعالى في نوح: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:٧٨-٨٠]. وقال عن إبراهيم خليله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩]. وقال في موسى وهارون: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الصافات: ١١٩-١٢٠]. وقال: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٠]. فالذي تركه ـ سبحانه ـ على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور.

وقد قال جماعة من المفسرين، منهم مجاهد وغيره: وتركنا عليهم في الآخرين: الثناء الحسن ولسان الصدق للأنبياء كلهم. وهذا قول قتادة أيضاً، ولا ينبغي أن يحكى. هذان قولان للمفسرين كما يفعله من له عناية بحكاية الأقوال.

بل هما قول واحد. فمن قال: إن المتروك هو السلام عليهم في الأخرى نفسه. فلا ريب أن قوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾ جملة في موضع نصب بتركنا، والمعنى أن العالمين يسلمون على نوح ومن بعده من الأنبياء، ومن فسره بلسان الصدق والثناء الحسن نظر إلى لازم السلام وموجبه، وهو الثناء عليهم، وما جعل لهم من لسان صدق الذي لأجله إذا ذكروا سلم عليهم...

***

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

[(٢)]... الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ

(١) ٢٧١ جلاء الأفهام.
(٢) ٦٢ إغاثة جـ١.

ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦ ـ ٨٧].

وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له نداً؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟

فإن المشرك إما أن يظن أن الله ـ سبحانه ـ يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته. وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم. أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج إلى أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثره به من القلة، وتعززه به من الذلة. أو لا يجب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة: أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق. أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك. أو يظن أن للمخلوق عليه حقا، فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة ـ الله تعالى ـ وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه ـ سبحانه ـ وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه ـ لكفى في شناعته.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى، ولهذا اقتضى حمده ـ سبحانه ـ وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه،

وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص للرسول ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة، فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلاً مقلداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاق لله ورسوله.

***

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

(١) الدليل على خلق أعمال العباد قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي: الدروع(٢)، والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها: صورتها، ومادتها، وهيآتها.

ونظير هذا قوله: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ [النحل: ٨٠]، فأخبر ـ سبحانه ـ أن البيوت المصنوعة المستقرة والمنتقلة مجعولة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصنعة الآدمية، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١-٤٢]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالق الفلك المصنوع للعباد. وأبعد من قال: إن المراد بمثله هو الإبل، فإنه إخراج المماثل حقيقة، واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة.

ونظير ذلك قوله ـ تعالى ـ حكاية عن خليله أنه قال لقومه: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ

(١) ٥٤ شفاء.

(٢) انظر: لسان العرب (١١/ ٣٣٥).

﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦]. فإن كانت ما مصدرية كما قدره بعضهم؛ فالاستدلال ظاهر وليس بقوي، إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من: عبادة تلك الآلهة، ونحتها، وغير ذلك. فالأولى أن تكون ما موصولة أي: والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم، وقد حله عملهم وصنعهم. ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير معمولة لهم، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم.

(١)قال أبو القاسم السهيلي: اعلم أن [ما] إذا كانت موصولة بالفعل الذي لفظه: عمل، أو صنع، أو فعل، وذلك الفعل مضاف إلى فاعل غير الباري ـ سبحانه ـ فلا يصح وقوعها إلا على مصدر لإجماع العقلاء من الأنام في الجاهلية والإسلام على أن أفعال الآدميين لا تتعلق بالجواهر والأجسام، لا تقول:عملت جملاً، ولا صنعت جبلاً ولا حديداً ولا حجراً ولا تراباً، فإذا قلت: أعجبني ما عملت وما فعل زيد، فإنما يعني الحدث، فعلى هذا لا يصح في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلا قول أهل السنة: إن المعنى والله خلقكم وأعمالكم. ولا يصح قول المعتزلة من جهة المنقول ولا من جهة المعقول، لأنهم زعموا أن [ما] واقعة على الحجارة التي كانوا ينحتونها أصناماً، وقالوا: تقدير الكلام: خلقكم والأصنام التي تعملون، إنكاراً منهم أن تكون أعمالنا مخلوقة لله سبحانه، واحتجوا بأن نظم الكلام يقتضي ما قالوا، لأنه تقدم قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] فما واقعة على الحجارة المنحوتة، ولا يصح غير هذا من جهة النحو ولا من جهة المعنى: أما النحو، فقد تقدم أن [ما] لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً، وأما المعنى: فإنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما كانوا يعبدون المنحوتات، فلما ثبت هذا وجب أن تكون الآية التي هي رد عليهم

---

(١) ١٤٦ بدائع جـ١.

وتقييد لهم واقعة على الحجارة المنحوتة والأصنام المعبودة، ويكون التقدير: تعبدون حجارة منحوتة، والله خلقكم وتلك الحجارة التي تعملون. هذا كله معنى قول المعتزلة، وشرح ما شبهوا به، والنظم على تأويل أهل الحق أبدع، والحجة أقطع، والذي ذهبوا إليه فاسد محال، لأنهم أجمعوا معنا على أن أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام. فإن قيل: فقد تقول: عملت الصحيفة، وصنعت الجفنة، وكذلك الأجسام معمولة على هذا.

قلنا: لا يتعلق الفعل فيما ذكرتم إلا بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل. وأما الجوهر المؤلف المركب فليس بمعمول لنا، فقد رجع العمل والفعل إلى الأحداث دون الجواهر، هذا إجماع منا ومنهم، فلا يصلح حملهم على غير ذلك، وأما ما زعموا من حسن النظم وأعجاز الكلام فهو ظاهر، وتأويلنا معدوم في تأويلهم، لأن الآية وردت في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي: من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، وتدعون عبادة من خلقكم وأعمالكم التي تعملون، ولو لم يضف خلق الأعمال إليه في الآية، وقد نسبها إليهم بالمجاز، لما قامت له حجة من نفس الكلام؛ لأنه كان يجعلهم خالقين لأعمالهم، وهو خالق لأجناس أخر، فيشركهم معه في الخلق تعالى الله عن قول الزائغين، ولا لعا لعثرات المبطلين فما أدحض حجتهم! وما أوهى قواعد مذهبهم! وما أبين الحق لمن اتبعه، جعلنا الله من أتباعه وحزبه. وهذا الذي ذكرناه قاله أبو عبيد في قول حذيفة أن يخلق صانع الحرم وصنعته، واستشهد بالآية، وخالفه القتيبي في إصلاح الغلط، فغلط أشد الغلط، ووافق المعتزلة في تأويلها، وإن لم يقل بقيلها، هذا آخر كلام أبي القاسم. ولقد بالغ في رد ما لا تحتمل الآية سواه، أو ما هو أولى بحملها وأليق بها، ونحن وكل محق مساعدوه على أن الله خالق العباد وأعمالهم، وأن كل حركة في الكون، فالله خالقها، وعلى صحة هذا المذهب أكثر من ألف دليل من: القرآن، والسنة، والمعقول، والفطر، ولكن لا

ينبغي أن تحمل الآية على غير معناها اللائق بها، حرصاً على جعلها عليهم حجة، ففي سائر الأدلة غنية عن ذلك، على أنها حجة عليهم من وجه آخر مع كون [ما] بمعنى الذي، سنبينه إن شاء الله ـ تعالى ـ. والكلام ـ إن شاء الله ـ في الآية في مقامين: أحدهما في سلب دلالتها على مذهب القدرية. والثاني في إثبات دلالتها على مذهب أهل الحق خلاف قولهم. فههنا مقامان: مقام إثبات، ومقام سلب.

فأما مقام السلب، فزعمت القدرية: أن الآية حجة لهم في كونهم خالقين أعمالهم، قالوا: لأن الله ـ سبحانه ـ أضاف الأعمال إليهم. وهذا يدل على أنهم هم المحدثون لها، وليس المراد ههنا نفس الأعمال، بل الأصنام المعمولة، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالقهم، وخالق تلك الأصنام التي عملوها، والمراد مادتها، وهي التي وقع الخلق عليها. وأما صورتها وهي التي صارت بها أصنامًا، فإنها بأعمالهم، وقد أضافها إليهم فتكون بإحداثهم وخلقهم، فهذا وجه احتجاجهم بالآية.

وقابلهم بعض المثبتين للقدر، وأن الله هو خالق أفعال العباد، فقالوا: الآية صريحة في كون أعمالهم مخلوقة لله، فإن [ما] ههنا مصدرية، والمعنى: والله خلقهم، وخلق أعمالهم، وقرروه بما ذكره السهيلي وغيره.

ولما أورد عليهم القدرية: كيف تكون [ما] مصدرية هنا، وأي وجه يبقى للاحتجاج عليهم إذا كان المعنى: والله خلقكم وخلق عبادتكم وهل هذا إلا تلقين لهم الاحتجاج بأن يقولوا: فإذا كان الله قد خلق عبادتنا للأصنام فهي مرادة له.

فكيف ينهانا عنها؟! وإذا كان مخلوقة مرادة، فكيف يمكننا تركها؟! فهل يسوغ أن يحتج على إنكار عبادتهم.

أجابهم: المثبتون: بأن قالوا: لو تدبرتم سياق الآية ومقصودها لعرفتم صحة الاحتجاج؛ فإن الله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئاً أصلاً وترك عبادة من هو خالق لذواتهم وأعمالهم، فإذا كان الله خالقكم وخالق أعمالكم، فكيف تدعون عبادته وتعبدون من لا يخلق شيئًا لاذواتكم ولا أعمالكم، وهذا من أحسن

الاحتجاج. وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئاً، وسوى بينه وبين الخالق، لقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠] وقوله: ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١٠]. إلى أمثال ذلك، فصح الاحتجاج، وقامت الحجة بخلق الأعمال مع خلق الذوات، فهذا منتهى إقدام الطائفتين في الآية كما ترى، والصواب أنها موصولة، وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية، بل هي حجة عليهم مع كونها موصولة.

وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير، وهي: أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والعناية بحال ما يحتج له وعليه، فإذا كان المستدل محتجاً على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك، فإنه يجرد العناية إلى بيان بطلان تلك الدعوى، وأن ما ادعى له ذلك الوصف هو متصف بضده، لا متصف به، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا.

وإذا تقرر هذا، فالله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادتهم الأصنام، وبين أنها لا تستحق العبادة، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة، فلو أنه قال: لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنى الذي إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم، وأوجد أعمالكم، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق، فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية.

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة، فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبين هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته، فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة. وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]. كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له ـ سبحانه ـ وهي غير خالقة. فهذا

يبين المراد من قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. أي هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك، فكيف تعبدون المخلوق. وتأمل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته وانفراده بالخلق، كقول صاحب يس: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [يس: ٢٢]. فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها، ذكر الموجب لذلك، وهي: كونه خالقاً لعابده فاطراً له، وهذا إنعام منه عليه، فكيف يترك عبادته؟! ولو كان هذا هو المراد من قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. كان يقتضي أن يقال: ألا يعبدون الله وهو خالقهم، وخالق أعمالهم؛ فتأمله فإنه واضح. وقول أبي القاسم في تقرير حجة المعتزلة من الآية: أنه لا يصح أن تكون مصدرية وهو باطل من جهة النحو ليس كذلك، أما قوله: إن [ما] لاتكون مع الفعل الخاص مصدراً، فقد تقدم بطلانه، إذ مصدريتها تقع مع الفعل الخاص المبهم، لقوله تعالى: ﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧] وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥]. إلى أضعاف ذلك، فإن هذه كلها أفعال خاصة، وهي أخص من مطلق العمل، فإذا جاءت مصدرية مع هذه الأفعال فمجيئها مصدرية مع العمل أولى. قولهم: إنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما عبدوا المنحوت حجة فاسدة، فإن الكلام في [ما] المصاحبة للفعل دون المصاحبة لفعل النحت، فإنها لا تحتمل غير الموصولة، ولا يلزم من كونه الثانية مصدرية كون الأولى كذلك، فهذا تقرير فاسد. وأما تقريره كونها مصدرية أيضاً بما ذكره فلا حجة له فيه. أما قوله: أفعال العباد لا تقع علي الجواهر والأجسام، فيقال: ما معنى عدم وقوعها على الجواهر والأجسام؟ أتعني به أن أفعالهم لا تتعلق بإيجادهم، أم تعني به أنها لا تتعلق بتغييرها وتصويرها، أم تعني به أعم من ذلك، وهو المشترك

بين القسمين؟ فإن عنيت الأول فمسلم، لكن لا يفيدك شيئاً، فإن كونها موصولة لا تستلزم ذلك، فإن كون الأصنام معمولة لهم لا يقتضي أن تكون مادتها معمولة لهم، بل هو على حد قولهم: عملت بيتاً، وعملت باباً، وعملت حائطاً، وعملت ثوباً، وهذا إطلاق حقيقي ثابت: عقلاً، ولغة، وشرعًا، وعرفاً، لا يتطرق إليه رد، فهذا ككون الأصنام معمولة سواء. وإن عنيت: أن أفعالهم لا تتعلق بتصويرها فباطل قطعاً، وإن عنيت: القدر المشترك فباطل أيضاً، فإنه مشتمل على نفي حق وباطل، فنفي الباطل صحيح، ونفي الحق باطل. ثم يقال: إيقاع العمل منهم على الجواهر والأجسام يجوز أن يطلق فيه العمل الخاص وشاهده في الآية: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فـ[ما] ههنا موصولة، فقد أوقع فعلهم وهو النحت على الجسم، وحينئذ فأي فرق بين إيقاع أفعالهم الخاصة على الجوهر والجسم، وبين أيقاع أفعالهم العامة عليه، لا بمعنى أن ذاته مفعولة له، بل بمعنى أن فعلهم هو الذي صار به صنماً، واستحق أن يطلق عليه اسمه، كما أنه بعملهم صار منحوتاً، واستحق هذا الاسم، وهذا بين. وأما قوله بجواب النقض: بعملت الصحيفة وصنعت الجفنة، أن الفعل متعلق بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل، فكذلك هو أيضاً متعلق بالتصوير الذي صار الحجر به صنماً منحوتاً سواء. وأما قوله: الآية في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق فقد تقدم جوابه، وأن الآية وردت لبيان عدم استحقاق مبعوديهم للعبادة، لأنها مخلوقة لله، وذكرنا شواهده من القرآن.

فإن قيل: كان يكفي في هذا أن يقال: أتعبدون ما تنحتون. والله خالقه؟! فلما عدل إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ علم أنه أراد الاحتجاج عليهم في ترك عبادته سبحانه وهو خالقهم وخالق أفعالهم.

قيل: في ذكر خلقه ـ سبحانه ـ لآلهتهم ولعابديها من بيان تقبيح حالهم وفساد رأيهم وعقولهم في عبادتها دونه ـ تعالى ـ ما ليس في الاقتصار على ذكر خلق الآلهة فقط؛ فإنه إذا كان الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقكم وخلق معبوديكم، فهي مخلوقة

أمثالكم، فكيف يعبد العاقل من هو مثله، ويتألهه، ويفرده بغاية التعظيم والإجلال والمحبة؟ وهل هذا إلا أقبح الظلم في حق أنفسكم وفي حق ربكم! وقد أشار ـ تعالى ـ إلى هذا المعنى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ومن حق المعبود أن لا يكون مثل العابد، فإنه إذا كان مثله كان عبداً مخلوقاً، والمعبود ينبغي أن يكون رباً خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق: صبحة، ووضح لك شرحه، وانجلى بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذه الفصل، فإنه يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون [ما] موصولة.

قيل: نعم، قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبرازه، ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير: أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق: أن يكون خالقهم بجملتها، أعني: مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله، كما أن مادتها كذلك، لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة، لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل [ما] مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٢] والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العبد. وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر،

وهي الإبل لوجهين. أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن: لا لغة ولا حقيقة؛ فإن المثلين ما سد أحدهما مسد الآخر؛ وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك، لا بين جمل وفلك. الثاني: أن قوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ [يس: ٤٣] عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما: ركوبهم إياها. والثاني: أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق. ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]، والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه ـ سبحانه ـ هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ [النحل: ٨٠]. والبيوت التي من جلود الأنعام هي: الخيام، وإنما صارت بيوتاً بعملهم. فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة.

قلت: المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها، وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

***

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) ﴾.

[(١)] في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ وهذا الاسم من النمط المتقدم، فإن إبراهيم بالسريانية معناه: «أب رحيم» والله ﷻ جعل إبراهيم: الأب الثالث للعالم.

فإن أبانا الأول: آدم، والأب الثاني: نوح. وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧].

وبهذا يتبين كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا ولده، ولا ينسبون إليه وينسبون ملوكهم من آدم إليهم، ولا يذكرون نوحاً في آبائهم.

(١) ١٥٤ جلاء الأفهام.

وقد أكذبهم الله ﷻ في ذلك.

فالأب الثالث: أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن وشيخ الأنبياء، كما سماه النبي ﷺ بذلك. فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه، وهما يستقسمان بالأزلام. فقال: «**قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام**»(١).

ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٣٣]. وأمر أمته بذلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]. «وملة» منصوب على إضمار فعل أي: اتبعوا، والزموا ملة إبراهيم.

ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]. وهذا هو الذي يقال له: الإغراء.

وقيل: منصوب انتصاب المصادر، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله؛ وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولون: «**أصبحنا على: فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»(٢). وتأمل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص هي: شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٠٣ رقم ٣٦٩٠٥) والأزرقي في أخبار مكة (صـ ١٦٥-١٦٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣ رقم ٩٨٢٩) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦-٤٠٧) والبزار (٥/ ٢٩١ رقم ١٩١١) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

والملة لإبراهيم فإنه صاحب الملة. وهي التوحيد وعبادة الله ـ تعالىٰ ـ وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة. والدين للنبي ﷺ، وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله، وسماه الله سبحانه: «إماما، وأمة، وقانتاً، وحنيفاً».

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه جعله إماماً للناس، وأن الظالم من ذريته لا ينال رتبة الإمامة. والظالم هو المشرك. وأخبر ـ سبحانه ـ أن عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢]. فالأمة هو القدوة المعلم للخير. والقانت المطيع لله الملازم لطاعته. والحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه. ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى. فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى، ويلزمه ميلها عن جهتها.

قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]. فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾.

ولهذا فسرت: «مخلصاً» فتكون الآية: قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين، هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك، الأول توحيد الطلب، والثاني توحيد المطلوب.

والمقصود: أن إبراهيم عليه السلام هو أبونا الثالث، وهو إمام الحنفاء، ويسميه أهل الكتاب: عمود العالم، وجميع أهل الملل متفقة على تعظيمه وتوليه ومحبته. وكان خير

بنيه سيد ولد آدم محمد ﷺ يجله ويعظمه ويبجله ويحترمه.

ففي الصحيحين من حديث المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم»[1] وسماه شيخه، كما تقدم.

وثبت في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله تعالىٰ عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم محشورون: حفاة، عراة، غرلاً. ثم قرأ:** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] **وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم**»[2]. وكان رسول الله ﷺ أشبه الخلق به، كما في الصحيحين عنه قال: «**رأيت إبراهيم، فإذا أقرب الناس شبهاً به بصاحبكم**»[3]. يعني نفسه ﷺ. وفي لفظ آخر: «**فانظروا إلىٰ صاحبكم**»[4]. وكان ﷺ يعوذ أولاد ابنته حسناً وحسيناً بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق. ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، ومن كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**»[5].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦٩) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٥٢٠ رقم ١١٦٩٢) وأبو داود (رقم ٤٦٧٢) والترمذي (رقم ٣٣٥٢) وأحمد (٣/ ١٧٨، ١٨٤) وأبو يعلىٰ (٧/ ٣٩ رقم ٣٩٤٨) وتمام في فوائده (رقم ١١٩) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١٢) (١١/ ١٦١) وشرح النووي (١٥/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٩، ٣٨٤-٣٨٧) وشرح النووي (٨/ ٧٤) (١٧/ ١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري بلفظ قريب (رقم ٣٣٩٤، ٣٤٣٧) ومسلم (رقم ١٦٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٢٩) وعمدة القاري (١٥/ ٢٩١-٢٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٥٥) ومسلم (رقم ١٦٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٩٠) وشرح النووي (٢/ ٢٣٠).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧١) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ٢٦٤-٢٦٥).

وكان ﷺ أول من قرىٰ الضيف، وأول من اختتن، وأول من رأىٰ الشيب. فقال: «ماهذا يارب؟» قال: «وقار». قال: «رب زدني وقاراً»[(١)].

وتأمل ثناء الله سبحانه عليه في إكرام ضيفه الملائكة، حيث يقول سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧] ففي هذا ثناء علىٰ إبراهيم من وجوه متعددة:

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون، وهذا علىٰ أحد القولين: أنه إكرام إبراهيم. والثاني: أنهم المكرمون عند الله. ولا تنافي بين القولين، فالآية تدل علىٰ المعنيين.

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ فلم يذكر استئذانهم. ففي هذا دليل علىٰ أنه ﷺ كان قد عرف: بإكرام الضيفان، واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيفة، مطروقاً لمن ورده، لا يحتاج إلىٰ الاستئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل علىٰ الجملة الاسمية الدالة علىٰ الثبوت والتجدد، المنصوب يدل علىٰ الفعلية الدالة علىٰ الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم تحية أحسن من تحيتهم، فإن قولهم: ﴿ سَلَٰمًا ﴾ يدل علىٰ: سلمنا سلاماً. وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي: سلام عليكم.

الرابع: أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون. فحذف المبتدأ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٣١٧ رقم ٢٦٤٦٧) وعبد الرزاق (١١/ ١٧٥ رقم ٢٠٢٤٥) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٢٢ رقم ١٦٤٢) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢١١ رقم ٦٣٩٢) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٢٥٠) والطبراني في الأوائل (رقم ٤٥).

هنا من ألطف الكلام.

الخامس: أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله، فقال: ﴿ مُنكَرُونَ ﴾ ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام، وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس: أنه راغ إلى أهله ليخبرهم بنزلهم، والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم، مهيئاً للضيفان، ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم، فيشتريه أو يستقرضه.

الثامن: قوله: ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم، بل هو الذي ذهب، وجاء به نفسه، ولم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل، ولم يأت ببعضه منه، وهذا من تمام كرمه ﷺ.

العاشر: أنه سمين لا هزيل، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية، فآثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قرب إليهم بنفسه، ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه إليهم، ولم يقربهم إليه، وهذا أبلغ في الكرامة أن تجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه، ويحمله إلى حضرته، ولا تضع الطعام في ناحية، ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه.

الثالث عشر: أنه قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وهذا عرض وتلطف في القول، وهو أحسن من قوله: كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها. وهذا مما يعلم الناس بعقولهم: حسنه ولطفه، ولهذا يقولون: بسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل، لأنه رآهم لا يأكلون، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل، قال لهم: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾؟! ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها، وأضمرها في نفسه، ولم يبدها لهم، وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم، ولم يظهر لهم، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: لا تخف وبشروه بالغلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة، التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات، التي هي تخلف وتكلف، وإنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين.

وقد شهد الله سبحانه بأنه وفَّى ما أمر به، فقال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٦ـ٣٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وفَّى جميع شرائع الإسلام، ووفَّى ما أمر به من تبليغ الرسالة، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فلما أتم ما أمر به من الكلمات جعله الله إماماً للخلائق يأتمون به.

وكان ﷺ كما قيل: قلبه للرحمن، وولده للقربان، وبدنه للنيران، وماله للضيفان.

ولما اتخذه ربه خليلاً والخلة هي كمال المحبة، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة، وكان قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره ـ امتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر به، وعزم على فعله وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد: إيثاراً لمحبة خليله على محبته فسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة

من العزم وتوطين النفس على ما أمر به فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مشقة، فنسخ في حقه، فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا: سنة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل، وكسر حججهم، وقد ذكر الله سبحانه مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين، ومناظرته مع قومه المشركين وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال زيد بن أسلم وغيره: بالحجة والعلم؛ ولما غلب أعداء الله معه بالحجة، وظهرت حجته عليهم، وكسر أصنامهم فكسر حججهم ومعبودهم، هموا بعقوبته وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين إذا غلبوا، وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. فأضرموا له النار، وألقوه في المنجنيق، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأربكها عليه، فإنه ما سافر سفرة أبرك، ولا أعظم، ولا أرفع لشأنه، وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار[١]، فجعل الله سبحانه عليه النار بردًا وسلامًا.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٦٣) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٥٣) وفتح الباري (٨/ ٢٢٩) وشرح النووي (١٥/ ٣٢).

وقال: «كانت تنفخ على إبراهيم»[١].

وهو الذي بنى بيت الله، وأذن في الناس بحجه، فكل من حجه واعتمره حصل لإبراهيم من مزيد ثواب الله إكرامه بعدد الحجاج والمعتمرين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] فأمر نبيه ﷺ وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء به وإحياء آثاره صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

ومناقب هذه الإمام الأعظم والنبي الأكرم أجل من أن يحيط بها كتاب، وإن مدّ الله في العمر أفردنا كتاباً في ذلك يكون قطرة في بحر فضائله أو أقل، جعلنا الله ممن ائتم به، ولا جعلنا ممن عدل عن ملته بمنه وكرمه.

وقد روى لنا عنه النبي ﷺ حديثاً، وقع لنا، متصل الرواية إليه، رويناه في كتاب الترمذي وغيره من حديث القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليله أسري بي، فقال: يا محمد اقرئ أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٢]. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

***

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

[٣]إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات، التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٥٩) وأخرج مسلم عن أم شريك أن النبي ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ (رقم ٢٢٣٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٥٤-٣٥٩) وشرح النووي (١٤/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٦٢) والطبراني في الصغير (رقم ٥٣٩) وفي الأوسط (٤/ ٢٧٠- ٢٧١ رقم ٤١٧٠) وفي الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٣) وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٣) ٢٩٩ مفتاح جـ١.

والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله: كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنح في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة.

فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان.

فتأمل حال أبينا آدم وما آلت محنته من: الاصطفاء، والاجتباء والتوبة، والهداية، ورفعة المنزلة، لولا تلك المحنة التي جرت عليه؛ وهي إخراجه من الجنة، وتوابع ذلك، لما وصل إلى ما وصل إليه. فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح ﷺ وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه، وأغرق أهل الأرض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته. وجعله خامس خمسة، وهم: أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣] فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء، وشيخ الأنبياء، وعمود العالم، وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله.

وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه، وأمر رسوله وخليله محمداً ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ جازاه على تسليمه ولده لأمر الله، بأن: بارك في نسله، وكثره، حتى ملأ السهل والجبل، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً، أو فعله لوجهه، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه، رضاء منهما وتسليماً، وعلم الله منهما الصدق والوفاء، فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله. وكان من بعض

عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض؛ فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠] وقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ [إبراهيم: ٤٠]. فغاية ما كان يحذر ويخشي من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل، وبارك فيه، وكثّره حتى ملؤا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمداً ﷺ.

وقد ذكر أن داود ﷺ أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل، فأمر بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك، فأوحى الله إلى داود: أن قد علمت إني وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده، فبادر إلى طاعة أمري، أن أبارك له في ذريته، حتى يصيروا في عدد النجوم، وأجعلهم بحيث لا يُحصى عددهم، وقد أردت أن تحصي عدداً قدرت أنه لا يحصى، وذكر باقي الحديث، فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصي عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم، وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل، هذا سوى ما أكرمه الله به، من: رفع الذكر والثناء الجميل على ألسنة جميع الأمم، وفي السموات بين الملائكة، فهذا من بعض ثمرة معاملته، فتباً لمن عرفه ثم عامل غيره! ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته!.

***

﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

(١)(مرتبة الخلة) التي انفرد بها الخليلان: إبراهيم ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ كما صح عنه أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(٢). وقال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل

(١) ٣٠ مدارج جـ٣.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣).

الرحمن»[1]. والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: «الخلة» لإبراهيم. و«المحبة» لمحمد، فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه.

و«الخلة» هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلاً[2]

وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده، وفلذة كبده، لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه.

و«الخلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وطن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا: حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم. وقيل له: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]. أي عملت عمل المصدق. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٥]. نجزي من بادر إلى طاعتنا، فنقر عينه، كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٦]، وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه، فيؤثر مرضاته، فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً[3].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٨٣) وانظر: شرح النووي (١/ ١٩٥) وعمدة القاري (٤/ ٢٤٤).

(٢) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى بشار بن برد أشعر المولدين على الإطلاق، وكان ضريراً واتهم بالزندقة ومات ضرباً بالسياط سنة ١٦٧هـ ودفن بالبصرة. وينسب أيضاً إلى أبي بكر الشبلي، له شعر جيد وسلك به مسالك المتصوفة، ولد بسمراء ومات ببغداد سنة ٣٣٤هـ. وذكر البيت أبو منصور الثعلبي في المنتحل (صـ٤٦١) والقرطبي في تفسيره (٥/ ٤٠٠) ونسبه إلى بشار، وذكره أيضاً ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٦٩).

(٣) تقدم في سورة هود ذكر من هو الذبيح والخلاف فيه. (ج).

(١)منصب الخلة: منصب لا يقبل المزاحمة بغير المحبوب، وأخذ الولد شعبة من شعاب القلب. غار الحبيب على خليله أن يسكن غيره في شعبة من شعاب قلبه، فأمره بذبحه، فلما أسلم للامتثال، خرجت تلك المزاحمة، وخلصت المحبة لأهلها، فجاءته البشرى، وفديناه بذبح عظيم: ليس المراد أن يعذب، ولكن يُبْتَلَى ليهذب، ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الاستغراق في حب الآمر لما هان مثل هذا المأمور، فلذلك جعلت آثارها: مثابة للقلوب، تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها.

***

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

(٢)الأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذي النون: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له، وقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠] قال له جبريل: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١].

وفي المسند عنه ﷺ أنه قال: «**إن ما تذكرون من جلال الله ـ من التسبيح، والتكبير، والتحميد ـ يتعاطفن حول العرش، لهم دوي كدوي النحل، يذكِّرن بصاحبهن. أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به؟**»(٣) ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح

(١) ٢٢٣ بدائع جـ٣.
(٢) ٣٢٩ مدارج جـ١.
(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٨٠٩) والبزار (٨/ ١٩٩ رقم ٣٢٣٦) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٠١-١٠٢) وابن قدامة المقدسي في إثبات صفة العلو (صـ٨٣) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ١٣٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. ويسامحه ما لا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم. كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لا يشرك به شيئاً البتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل بذنوبه، ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه. ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

أعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور: قوة، وضعفاً، لا يحصيه إلا الله تعالى. فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه: كالشمس. ومنهم: من نورها في قلبه: كالكوكب الدري. ومنهم: من نورها في قلبه: كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفة وحالاً...

***

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾.

[1]يقطين: وهو الدباء والقرع. وإن كان اليقطين أعم. فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق. كالبطيخ والقثاء والخيار. قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٦].

فإن قيل: ما لا يقوم على ساق يسمى نَجماً، لا شجراً. والشجر ما له ساق. قاله أهل

(١) ٤١٣ زاد المعاد جـ٣.

اللغة. فكيف قال: ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾؟

فالجواب: أن الشجر إذا أطلق كان ما له ساق يقوم عليه. وإذا قيد بشيء تقيد به. والفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء: باب مهم عظيم النفع في الفهم ومراتب اللغة. و«اليقطين» المذكور في القرآن: هو نبات الدباء. وثمره يسمى الدباء والقرع، وشجره اليقطين...

***

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

[1][أو] وضعت للدلالة على أحد الشيئين المذكورين معها، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه، من حيث كان الشك تردداً بين أمرين من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، لا أنها وضعت للشك فقد تكون في الخبر الذي لا شك فيه، إذا أبهمت على المخاطب، ولم تقصد أن تبين له: كقوله سبحانه: ﴿ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧]. أي أنهم من الكثرة بحيث يقال فيهم: هم مائة ألف أو يزيدون. فـ [أو] على بابها دالة على أحد الشيئين: إما مائة ألف بمجردها، وإما مائة ألف مع زيادة، والمخبر في كل هذا لا يشك.

وقوله: ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]. ذهب في هذه الزجاج كالتي في قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٩]. إلى أنها [أو] التي للإباحة أي أبيح للمخاطبين أن يشبهوا بهذا أو هذا؛ وهذا فاسد، فإن [أو] لم توضع للإباحة في شيء من الكلام، ولكنها على بابها.

أما قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، فإنه تعالى ذكر مثلين مضروبين للمنافقين في حالتين مختلفتين، فهم لا يخلون من أحد الحالتين فـ [أو] على بابها من الدلالة على

(١) ١٩٨ بدائع جـ١.

أحد المعنيين، وهذا كما تقول: زيد لا يخلو أن يكون في المسجد أو الدار. ذكرت [أو] لأنك أردت أحد الشيئين. وتأمل الآية بما قبلها، وافهم المراد منها، تجد الأمر كما ذكرت لك، وليس المعنى: أبحت لكم أن تشبهوهم بهذا وهذا.

وأما قوله: ﴿ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً ﴾، فإنه ذكر قلوباً ولم يذكر قلباً واحداً، فهي على الجملة قاسية أو على التعيين لا تخلو من أحد أمرين: إما أن تكون كالحجارة وإما أن تكون أشد قسوة، ومنها ما هو كالحجارة، ومنها ما هو أشد قسوة، منها. ومن هذا قول الشاعر:

فقلت لهم شيـــئان لابد منهـــا صدور رماح أشرعت أو سلاسل[1]

أي: لا بد منهما في الجملة ثم فصل الاثنين: بالرماح والسلاسل، فبعضهم له الرماح قتلاً، وبعضهم له السلاسل أسراً، فهذا على التفصيل والتعيين، والأول على الجملة، فالأمران واقعان جملة، وتفصيلهما بما بعد [أو]. وقد يجوز في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً ﴾. مثل أن يكون: ﴿ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾. وأما [أو] التي للتخيير فالأمر فيها ظاهر. وأما [أو] التي زعموا أنها للإباحة نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين، فلم توجد الإباحة من لفظ. [أو]. ولا من معناها، ولا تكون [أو] قط للإباحة، وإنما أخذت من لفظ الأمر الذي هو للإباحة.

ويدل على هذا أن القائلين بأنها للإباحة يلزمهم أن يقولوا: إنها للوجوب إذا دخلت بين شيئين لابد من أحدهما نحو قولك للمكفر أطعم عشرة مساكين أو اكسهم بالوجوب هنا لم يوجد من [أو] وإنما أخذ من الأمر، فكذا: جالس الحسن أو ابن سيرين.

[2]لفظة «أو» في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٥٤) وجاء صدره عنده هكذا: فقالوا: لنا اثنتان لابد منهما.

(٢) ٣٢٠ مدارج جـ١.

قَسْوَةً ﴾[البقرة: ٧٤]. وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾[الصافات: ١٤٧]. هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

(١)قوله: «آيس العقول بقوله: [أو] دنا» يعني: أن العقول لا تقدر أن تثبت على معرفة اتصال هو أدنى من قاب قوسين. وهذا بناء على ما فهمه من الآية، وإلا فالعقول غير آيسة من دنو رسوله الملكي من رسوله البشري، حتى صار في القرب منه قاب قوسين أو أدنى من قوسين. فإنه دنو عبد من عبد، ومخلوق من مخلوق. يبقى أن يقال: فما فائدة ذكر «أو»؟ فيقال: هي لتقرير المذكور قبلها، وأن القرب إن لم ينقص عن قدر قوسين لم يزد عليهما. وهذا كقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧]. والمعنى: أنهم إن لم يزيدوا على المائة الألف لم ينقصوا عنها. فهو تقرير لنصية عدد الألف. فتأمله.

(٢)وفي الترمذي أنه سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ كم كانت الزيادة؟ قال: «عشرة آلاف»(٣).

***

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

(٤)ولهذا يسمي سبحانه الحجة: سلطانًا قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن فهو

---

(١) ٣٢٢ مدارج جـ٣.

(٢) ٤١٠ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٢٩) وفيه: عشرون ألفاً. وقال: هذا حديث غريب. وانظر: عمدة القاري (١٦/ ٣) وتحفة الأحوذي (٩/ ٦٩-٧٠) وفيض القدير (٣/ ١٦٤).

(٤) ٢٧ الفروسية.

الحجة، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٦ ـ ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥]. وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه، وإن كان عاجزاً عنه بيده. وهذا هو أحد أقسام النصرة التي نصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

***

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

(١) ومنه الجنة بالكسر: الجن كما قال تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [هود: ١١٩]، وذهبت طائفة من المفسرين إلى أن الملائكة يسمون: جنة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات:١٥٨]. قالوا: وهذا النسب قولهم: الملائكة بنات الله. ورجحوا هذا القول بوجهين: أحدهما: أن النسب الذي جعلوه إنما زعموا أنه بين الملائكة وبينه، لا بين الجن وبينه.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨]. أي: قد علمت الملائكة: أن الذين قالوا هذا القول محضرون للعذاب. والصحيح خلاف ما ذهب إليه هؤلاء، وأن الجنة هم الجن أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾. وعلى هذا ففي الآية قولان: أحدهما: قول مجاهد قال: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبوبكر: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن[٢]. وقال الكلبي:

---

(١) ٧١ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الجنة وثوابهم وعقابهم (صـ٦٣٠). وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٦).

قالوا: تزوج من الجن، فخرج من بينهما الملائكة[١]. وقال قتادة: قالوا: صاهر الجن[٢]. والقول الثاني: هو قول الحسن قال: أشركوا الشياطين في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه.

والصحيح قول مجاهد وغيره، وما احتج به أصحاب القول الأول ليس بمستلزم لصحة قولهم، فإنهم لما قالوا: الملائكة بنات الله، وهم من الجن عقدوا بينه وبين الجن نسباً بهذا الإيلاد، وجعلوا هذا النسب متولداً بينه وبين الجن.

وأما قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ . فالضمير يرجع إلى الجنة أي: قد علمت الجنة أنهم محضرون الحساب، قاله مجاهد: أي: لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضروا للحساب، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨]، فجعل ـ سبحانه ـ عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلاً لدعواهم الكاذبة، وهذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من التقدير الأول فتأمله.

***

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾.

[٣]نزه سبحانه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن اتبعهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]. فنزه نفسه عما يصفه به الواصفون، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كل نقص وعيب، وحمد نفسه إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد،

(١) انظر: عمدة القاري (١٥/ ١٨٥).
(٢) أخرجه الطبري (١٧/ ١٦) والبيهقي في الشعب (١/ ١٦٦ رقم ١٤١) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٦٢٤).
(٣) ٩١ جلاء الأفهام.

وينزه عن كل نقص ينافي كماله وحمده.

(١) والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم. أما الأول فقال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن، يتضمن الرد علي كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد.

وأعظم ما جاءوا به التوحيد، ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم. وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وماخالفه هو الباطل والكذب المحال، وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩]. فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل.

فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى، كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله تعالى: ﴿ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].وقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩].ونظائره كثيرة جداً.

---

(١) ١٧١ بدائع جـ٢.

وفصل الخطاب: في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً، وتنتظمهما انتظاماً واحداً، فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام: كلام الرب ـ تبارك وتعالى ـ فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، كان قد حمد الله، وسلم على عباده بما حمد به نفسه، وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو توحيد منه لنفسه، وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان قد وحد الله بما وحد به نفسه، وأتى بلفظة ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإنه خبر عن توحيده، وهو ـ سبحانه ـ يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان.

[(١)]ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره، حتى كلمه الله تكليماً وقربه منه، وكتب له التوراة بيده، ورفعه إلى أعلى السموات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون وجره إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله ﷺ، وربه يحبه على ذلك كله، ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا

(١) ٣٠٠ مفتاح جـ١.

ماتقدم من السوابق وتحمل الشدائد المحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح ﷺ، وصبره على قومه، واحتماله في الله ما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه، وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق، وسلب ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر.

فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه، ومن: سلم، وخوف، وغنى، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى، من: القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاها، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً، وساقه بها إلى أعلى المقامات، وهذا حال ورثته، من بعده، الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له.

ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له، جعل خلاقه ونصيبه فيها، فهو يأكل منها رغداً، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب، يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد، همه ما يقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط، وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فللَّه سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ماتتقاصر عقول

العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلىٰ المقامات المحمودة، والنهايات الفاضلة، إلا علىٰ جسر المحنة والابتلاء.

كذا المعالي إذا ما رمت تدركـها   فاعبر إليها على جسر من التعب[1]

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصافات

والحمد لله رب العالمين



(١) لم أجده بهذا اللفظ، ووجدت قريباً منه لأبي تمام، وفيه:

بصـرت بالـراحـة الكـبـرىٰ فلـم ترها ❁ تُـنال إلا علىٰ جسـر مـن التـعـب

وهو من بحر البسيط، وأبو تمام هو حبيب بن أوس الحارث الطائي أحد أمراء البيان ولد بسوريا ورحل إلىٰ مصر، وكان فصيحاً وفي شعره قوة وجزالة، مات سنة ٢٣١هـ. انظر: أخبار أبي تمام للصولي (صـ٥٢) ودلائل الإعجاز (صـ١٢٠).

سُورَةُ صٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝ ﴾.

(١) قوله تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ [ص: ١] فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر، المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر، ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقًّا من عند الله غير مفترى، كما يقوله الكافرون. وهذا معنى قول كثير من المفسرين ـ متقدميهم ومتأخريهم ـ: إن الجواب محذوف، وتقديره: إن القرآن لحق، وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك. وأما قول بعضهم: إن الجواب قوله تعالى: ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ ﴾ [ص: ٣] فاعترض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ [ص: ٢] فبعيد؛ لأن «كم» لا يتلقى بها القسم، فلا تقول: والله كم أنفقت مالاً. وبالله كم أعتقت عبداً. وهؤلاء لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا أن يقدروا ما يتلقى بها الجواب، أي لكم أهلكنا. وأبعد من هذا قول من قال: الجواب وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ [ص: ١٤]. وأبعد منه قول من قال: الجواب وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]، وأبعد منه قول من قال: الجواب قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]. وأقرب ما قيل في الجواب لفظاً، وإن كان بعيداً معنى عن قتادة وغيره: إنه في قوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كما قال: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ [ق: ١، ٢].

***

﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝ ﴾.

---

(١) ٨ التبيان.

[(١)]قال تعالىٰ في حق نبيه داود: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥] فالزلفىٰ منزلة القرب، وحسن المآب: حسن الثواب والجزاء. وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] فـ «الحسنىٰ» الجزاء. و«الزيادة» منزلة القرب. ولهذا فسرت بالنظر إلىٰ وجه الله ﷻ. وهذان هما اللذان وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسى، فقالوا له: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

[(٢)]وحدثني داود بن عمر الضبي حدثنا عبدالله بن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر قال: إذا كان يوم القيامة نادىٰ مناد: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم رياض المسك. ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي»[(٣)]. وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن الحسن حدثني عبدالله بن أبي بكر حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار في قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥]. قال: إذا كان يوم القيامة أمر بمنبر رفيع فوضع في الجنة، ثم نودي: يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم، الذي كنت تمجدني به في دار الدني.ا قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنان، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[(٤)] .

---

(١) ٧٦ مدارج جـ٢.

(٢) ١٨٢ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه ابن الجعد (رقم ١٦٨٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥١) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٨٦) إلىٰ ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والأصبهاني في الترغيب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٤٠ رقم ١٨٣٤٨) وانظر: ابن كثير (٤/ ٣٣).

وذكر حماد بن سلمة عن ثابت البناني وحجاج الأسود عن شهر بن حوشب قال: «إن الله ـ جل ثناؤه ـ يقول للملائكة: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدعونه من أجلي فأسمعوا عبادي، فيأخذوا بأصوات من تهليل وتسبيح وتكبير لم يسمعوا مثله قط». وقال عبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: «حدثني علي بن مسلم الطوسي حدثني سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قال: يقيم الله ـ سبحانه ـ داود عند ساق العرش، فيقول: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. فيقول: إلهي كيف أمجدك وقد سلبتنيه في دار الدنيا؟ قال: فيقول الله ﷻ: فإني أرده عليك، قال: فيرده عليه فيزداد صوته قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنة»[1]...

[2] تأمل سر اقتران هذين الاسمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٣، ١٤] تجد فيه من الرد والإنكار على من قال: لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبداً، ماهو من كنوز القرآن ولطائف فهمه، وفي ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفاً على ربه ـ الذي لا إله إلا هو، ولا رب له سواه ـ عكوف المحب الصادق على محبوبه الذي لا غنى له عنه، ولا بد له منه، ولا تندفع ضرورته بغيره أبداً. واحتجوا أيضاً بأن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً من قبل الخطيئة؛ لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية، والانكسار والتذلل لله، والتضرع بين يديه، والبكاء على خطيئته والندم عليها، والأسف والإشفاق ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته. ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها، إذ حصول الملزوم بدون لازمه محال. والله يحب من عبده كسرته وتضرعه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٤٠ رقم ١٨٣٤٨) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٦٧-١٦٨) إلى أحمد في الزهد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ٢٣٣ طريق الهجرتين.

وذله بين يديه، واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته، فإذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيراً له، وليس ذلك إلا المؤمن.

ولهذا قال بعض السلف: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. وقيل: إن في بعض الآثار يقول الله ـ تعالى ـ لداود ﷺ: يا داود كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك. واليوم تدخل عليَّ دخول العبيد على الملوك.

قالوا وقد قال غير واحد من السلف: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، قالوا: لهذا قال سبحانه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥] فزاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وأفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف. والثاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان...

***

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[1]قد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال الله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦]، ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]. وأخبر ـ سبحانه ـ

(١) ٤٢٨ روضة المحبين.

أن باتباع الهوىٰ يطبع علىٰ قلب العبد، فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦]. وقد أخبر النبي ﷺ أن العاجز هو الذي اتبع هواه وتمنىٰ علىٰ الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد، عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت [ظل] السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوىٰ متبع...»(١).

***

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(٢)قد أنكر ـ تعالىٰ ـ علىٰ من نسب إلىٰ حكمته التسوية بين المختلفين، كالتسوية بين الأبرار والفجار، فقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] فدل علىٰ أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره ـ سبحانه ـ من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وأنه حكم سيء يتعالىٰ ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله، ووقوع أفعاله كلها علىٰ السداد والعواقب والحكمة. فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض. فدل علىٰ أن هذا قبيح في نفسه، ـ تعالىٰ الله عن فعله ـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٨ رقم ٣) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٣ رقم ٧٥٠٢) والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ١٠٦ رقم ٦٣٣٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١١٨) وابن عدي في الكامل (٢/ ٣٠١) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨): رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث.

(٢) ١١ مفتاح جـ٢.

ومن هذا أيضاً إنكاره ـ سبحانه ـ على من جوز أن يترك عباده سدىٰ، فلا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، وأن هذا الحسبان باطل، والله متعال عنه لمنافاته لحكمته وكماله، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي ﷺ: أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى[١]. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والقولان واحد؛ لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي. فهو ـ سبحانه ـ خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة. فأنكر ـ سبحانه ـ على من زعم أنه يترك سدىٰ إنكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلىٰ أحكم الحاكمين.

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالىٰ عنه، ولا يليق به لقبحه ولمناقاته لحكمته وملكه وإلهيته. أفلا ترىٰ كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه، وبثوابه وعقابه، وهذا يدل علىٰ إثبات المعاد بالعقل، كما يدل علىٰ إثباته بالسمع. وكذلك دينه وأمره وما بعث به رسله هو ثابت في العقول جملة، ثم علم بالوحي. فقد تطابقت شهادة العقل والوحي علىٰ توحيده وشرعه والتصديق بوعده ووعيده، وأنه ـ سبحانه ـ دعا عباده علىٰ ألسنة رسله إلىٰ ما وضع في العقول حسنه والتصديق به جملة، فجاء الوحي مفصلاً مبيناً، ومقرراً ومذكراً لما هو مركوز في الفطر والعقول.

ولهذا سأل هرقل أبا سفيان في جملة ما سأله من أدلة النبوة وشواهدها عما يأمر به النبي ﷺ قال: بم يأمركم؟ قال: يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف[٢]، فجعل ما يأمر

(١) ذكره في أحكام القرآن له (١/ ٣٦) (٢/ ١٢٣) وذكره عنه البيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١١٣) وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٢٠٠-٢٠١) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧) وانظر: عمدة القاري (١/ ٧٧-٧٨).

به من أدلة نبوته فإن أكذب الخلق وأفجرهم من ادعى النبوة وهو كاذب فيها على الله، وهذا محال أن يأمر إلا بما يليق بكذبه وفجوره وافترائه، فدعوته تليق به. وأما الصادق البار الذي هو أصدق الخلق وأبرهم فدعوته لا تكون إلا أكمل دعوة وأشرفها، وأجلها وأعظمها؛ فإن العقول والفطر تشهد بحسنها وصدق القائم بها. فلو كانت الأفعال كلها سواء في نفس الأمر لم يكن هناك فرقان بين ما يجوز أن يدعو إليه الرسول وما لا يجوز أن يدعو إليه، إذ العرف وضده إنما يعلم بنفس الدعوة والأمر والنهي. وكذلك مسألة النجاشي لجعفر وأصحابه عما يدعو إليه الرسول. فدل على أنه من المستقر في العقول والفطر انقسام الأفعال إلى قبيح وحسن في نفسه، وأن الرسل تدعو إلى حسنها وتنهى عن قبيحها، وأن ذلك من آيات صدقهم وبراهين رسالتهم، وهو أولى وأعظم عند أولي الألباب والحجى من مجرد خوارق العادات، وإن كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الإيمان أعظم من انتفاعهم بنفس الدعوة وما جاء به من الإيمان، فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده ولطفاً بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم.

فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به وما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهاناً خارجاً عن ذلك، كحال الكمل من الصحابة كالصديق ﷺ. ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة، كما قالت أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ له ﷺ: أبشر فوالله لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(١). فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته على أن من كان كذلك فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه، بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبته وتوبته.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣) ومسلم (رقم ١٦٠) وانظر: شرح النووي (٢/ ٢٠٠).

وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق والآيات المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها. وأضعف الناس إيمانًا من كان إيمانه صادرًا من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للناس. فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة. فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة، وقد ناله من قومه ضروب الأذى، وأصحابه في غاية قلة العدد والمخافة من الناس؟ ومع هذا فقلبه ممتلئ بالإيمان، واثق بأنه سيظهر على الأمم، وأن دينه سيعلو كل دين.

وأضعف من هؤلاء إيماناً من إيمانه إيمان العادة والمربى والمنشأ؛ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين، وأقارب وجيران وأصحاب كذلك، فنشأ كواحد منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمهما، ولا من الدين إلا ما رأى عليه أقاربه وأصحابه. فهذا دين العوائد، وهو أضعف شيء، وصاحبه بحسب من يقترن به، فلو قيض له من يخرجه عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه.

والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكماله، وشهدت قبح ما خلقه ونقصه ورداءته، خالط الإيمان به ومحبته بشاشة قلوبهم، فلو خير بين أن يلقى في النار وبين أن يختار ديناً غيره لاختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار ديناً غيره. وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه، وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله. ولهذا قال هرقل لأبي سفيان: أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له؟ قال: لا. قال: فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد. والمقصود أن الداخلين في الإسلام المستدلين على أن من عند الله لحسنه وكماله، وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عنده غيره، هم خواص الخلق. والنفاة سدوا على أنفسهم هذا الطريق فلا يمكنهم سلوكه.

***

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[(1)]قال الله تعالىٰ حاكياً عن نبيه سليمان ﷺ: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [ص: ٣٣]. ووجه استشهاده بالآية: أن سليمان ﷺ كان يحب الخيل، فشغله استحسانها، والنظر إليها ـ لما عرضت عليه ـ عن صلاة النهار، حتىٰ توارت الشمس بالحجاب. فلحقته الغيرة لله من الخيل، إذ استغرقه استحسانها، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه. فقال: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله[(2)].

***

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

...[(3)]وصف الله بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤] ثم أثنىٰ عليه. فقال: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به. وأثنىٰ علىٰ الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان ـ كما تقدم ـ فجعله قرين اليقين، والتوكل، والإيمان، والأعمال، والتقوىٰ.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أول الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله. وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كماتقدم ذلك...

...[(4)]قوله تعالىٰ لنبيه أيـوب ﷺ: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

---

(١) ٤٧ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٥٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥) وفتح الباري (٦/ ٤٥٩).

(٣) ١٦٢ مدارج جـ٢.

(٤) ٢٢١ أعلام جـ٣.

[ص: ٤٤] فقال شيخنا: الجواب: إن هذا ليس مما نحن فيه؛ فإن للفقهاء في موجب هذه اليمين في شرعنا قولين، يعني إذا حلف ليضربن عبده أو امرأته مائة ضربة، أحدهما: قول من يقول موجبها الضرب مجموعاً أو مفرقاً، ثم منهم من يشترط مع الجمع الوصول إلى المضروب، فعلى هذا تكون هذه الفتيا موجب هذا اللفظ عند الإطلاق. والقول الثاني: أن موجبه الضرب المعروف، وإذا كان هذا موجبه في شرعنا لم يصح الاحتجاج علينا بما يخالف شرعنا من شرائع من قبلنا؛ لأنا إن قلنا: «ليس شرعاً لنا مطلقاً» فظاهر، وإن قلنا: «هو شرع لنا» فهو مشروط بعدم مخالفته لشرعنا، وقد انتفى الشرط.

وأيضاً، فمن تأمل الآية علم أن هذه الفتيا خاصة الحكم؛ فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة؛ فإنما يقص ما خرج عن نظائره لنعتبر به، ونستدل به على حكمة الله فيما قصه علينا. أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص. ويدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤]، وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل كما في نظائرها. فعلم أن الله ﷻ إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره، وتخفيفاً عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه اليمين. وأيضاً فإن الله ﷻ إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث، كما أخبر ـ تعالى ـ.

وهذا يدل على أن كفارة الإيمان لم تكن مشروعة بتلك الشريعة، بل ليس في اليمين إلا البر والحنث، كماهو ثابت في نذر التبرر في شريعتنا؛ وكما كان في أول الإسلام. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «لم يكن أبوبكر يحنث في يمين، حتى أنزل الله كفارة اليمين»[1]، فدل على أنها لم تكن مشروعة في أول الإسلام. وإذا كان كذلك صار كأنه قد نذر ضربها، وهو نذر لا يجب الوفاء به؛ لما فيه من الضرر عليها، ولا يغني عنه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦١٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٦٠٠) (١١/ ٥١٨).

كفارة يمين؛ لأن تكفير النذر فرع عن تكفير اليمين، فإذا لم تكن كفارة النذر إذ ذاك مشروعة فكفارة اليمين أولى. وقد علم أن الواجب بالنذر يحتذى به حذو الواجب بالشرع، وإذا كان الضرب الواجب بالشرع يجب تفريقه إذا كان المضروب صحيحاً، ويجوز جمعه إذا كان المضروب مريضاً مأيوساً منه عند الكل، أو مريضاً على الإطلاق عند بعضهم، كما ثبت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ، جاز أن يقام الواجب بالنذر مقام ذلك عند العذر. وقد كانت امرأة أيوب عليه السلام ضعيفة عن احتمال مائة ضربة التي حلف أن يضربها إياها، وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجب باليمين بأن أفتاه بجمع الضربات بالضغث، كما خفف عن المريض.

ألا ترى أن السنة قد جاءت فيمن نذر الصدقة بجميع ماله أن يجزيه الثلث، فأقام الثلث في النذر مقام الجميع رحمة بالناذر وتخفيفاً عنه. كما أقيم مقامه في الوصية رحمة بالوارث ونظراً له. وجاءت السنة فيمن نذرت الحج ماشية أن تركب وتهدي، إقامة لترك بعض الواجب بالنذر مقام ترك الواجب بالشرع في المناسك عند العجز عنه، كطواف الوداع عن الحائض.

وأفتى ابن عباس وغيره من نذر ذبح ابنه بشاة إقامة لذبح الشاة مقام ذبح الابن كما شرع ذلك للخليل. وأفتى أيضاً من نذر أن يطوف على أربع بأن يطوف أسبوعين، إقامه لأحد الأسبوعين مقام طواف اليدين، وأفتى أيضاً هو وغيره من الصحابة رضي الله عنهم المريض الميئوس منه والشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم بأن يفطرا ويطعما كل يوم مسكيناً، إقامة للإطعام مقام الصيام.

وأفتى أيضاً هو وغيره من الصحابة الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أن تفطرا وتطعما كل يوم مسكيناً، إقامة للإطعام مقام الصيام، وهذا كثير جداً. وغير مستنكر في واجبات الشريعة أن يخفف الله ـ تعالى ـ الشيء منها عند المشقة يفعل ما يشبهه من بعض الوجوه، كما في الأبدال وغيرها.

لكن مثل قصة أيوب لا يحتاج إليها في شرعنا؛ لأن الرجل لو حلف ليضربن أمته

أو امرأته مائة ضربة أمكنه أن يكفر عن يمينه من غير احتياج إلىٰ حيلة وتخفيف الضرب بجمعه. ولو نذر ذلك فهو نذر معصية، فلا شيء عليه عند طائفة، وعند طائفة عليه كفارة يمين. وأيضاً فإن المطلق من كلام الآدميين محمول علىٰ ما فسر به المطلق من كلام الشارع خصوصاً في الأيمان؛ فإن الرجوع فيها إلىٰ عرف الخطاب شرعاً أو عادة أولىٰ من الرجوع إلىٰ موجب اللفظ في أصل اللغة، والله ﷻ قد قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

وفهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم من ذلك أنه ضربات متعددة متفرقة لا مجموعة، إلا أن يكون المضروب معذوراً عذراً لا يرجىٰ زواله، فإنه يضرب ضرباً مجموعاً، وإن كان يرجىٰ زواله فهل يؤخر إلىٰ الزوال، أو يقام عليه مجموعاً؟ فيه خلاف بين الفقهاء. فكيف يقال: إن الحالف ليضربن موجب يمينه هو الضرب المجموع مع صحة المضروب وقوته؟ فهذه الآية هي أقوىٰ ما يعتمد عليه أرباب الحيل، وعليها بنوا حيلهم، وقد ظهر بحمد الله أنه لا متمسك لهم فيها البتة.

***

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

...[1]كمال الإنسان مداره علىٰ أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنىٰ الله بهما سبحانه علىٰ أنبيائه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي القوة في تنفيذ الحق، والأبصار البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام

(١) ١٢٣ الجواب الكافي.

من الخلق وأكرمهم على الله تعالى. القسم الثاني: عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون، وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف. والمؤمن القوي خير وأحب إلا الله منه. القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وبين أولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة. يحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ولا هو موضع لها سوى القسم الأول، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين. وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [سورة العصر] فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضاً ويرشده إليه ويحثه عليه.

(١) فالمناظرة في العلم نوعان: أحدهما: للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصرة الحق وكبت الباطل، والأول يشبه السباق والنضال. والثاني: يشبه الجهاد وقتال الكفار. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم،

(١) ٢٧ الفروسية.

بعلم الحجة يرفع درجة صاحبه؛ فإن العلم بالحجج، والقوة على الجهاد مما رفع الله درجات الأنبياء وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]. فالأيدي القوى التي يقدرون بها على إظهار أمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار البصائر في دينه.

[١]أصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة. ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فدل على أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات. وجمع بينهما في قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله. والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس: «أولى القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله». وقال الكلبي: «أولى القوة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصر في الحق». وقال سعيد بن جبير: القوة في العمل، والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم».

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عن حلول الشهوات». فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

(١) ١٦٧ إغاثة جـ٢.

[(١)]وبصائر الناس في هذا النور الباهر تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: أحدها: من عدم بصيرة الإيمان جملة، فهو لا يرىٰ من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد البرق، فهو يجعل إصبعيه في أذنه من الصواعق، ويده علىٰ عينه من البرق خشية أن يخطف بصره، ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية. فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الدين رأساً، ولم يقبل هدي الله الذي هدىٰ به عباده ولو جاءته كل آية؛ لأنه ممن سبقت له الشقاوة، وحقت عليه الكلمة. ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه.

القسم الثاني: أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلىٰ هذا النور كنسبه أبصار الخفاش إلىٰ جرم الشمس، فهم تبع لآبائهم وأسلافهم، دينهم دين العادة والمنشأ، وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «أو منقاداً للحق لا بصيرة له في إصابة»، فهؤلاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهم شك ولا ريب فهم علىٰ سبيل نجاة.

القسم الثالث: وهو خلاصة الوجود، ولباب بني آدم، وهم أولو البصائر النافذة، الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين، فكانوا منه علىٰ بصيرة ويقينٍ ومشاهدة لحسنه وكماله، بحيث لو عرض علىٰ عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود، وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم. فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم، كما قال فيهم علي بن أبي طالب: أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يجلئوا إلىٰ ركن وثيق»[(٢)].

هذا علامة من عدم البصيرة، فإنك تراه يستحسن الشيء وضده، ويمدح الشيء

---

(١) ٢٠٣ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩-٨٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ٢٥٢-٢٥٣) وانظر: تذكرة الحفاظ (١/ ١١) وتهذيب الكمال (٢٤/ ٢٢١) وصفة الصفوة (١/ ٣٣٠).

ويذمه بعينه إذا جاء في قالب لا يعرفه. فيعظم طاعة الرسول ويرىٰ عظيماً مخالفته، ثم هو من أشد الناس مخالفة له ونفياً لما أثبته، ومعاداة للقائمين بسنته. وهذا من عدم البصيرة. فهذا القسم الثالث إنما عملهم علىٰ البصائر، وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل، كما قال بعض السلف وقد ذكر السابقين، فقال: إنما كانوا يعملون علىٰ البصائر، وما أوتي أحد أفضل من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل. قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥] قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله والأبصار في المعرفة في أمر الله. وقال قتادة ومجاهد: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين. وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصراً في العمل. وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصي مقادير تفاوتها إلا الله. إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب، ولا يزداد به إلا ضلالة. والقسم الثاني: ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده. والقسم الثالث: وإليهم هذا الحديث يساق، وهم أولو الألباب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد، وهم المرادون علىٰ الحقيقة بالتذكرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

***

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

(١) وقد أخبر ﷻ أنه أخلصهم: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦-٤٧]. ويكفي في فضلهم وشرفهم: أن الله ﷻ اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء علىٰ رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً علىٰ سائرهم درجات. ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولا إلىٰ جنته

(١) ٢٩٧ طريق الهجرتين. طبعة مكتبة نزار مصطفىٰ الباز بتحقيق حازم القاضي.

إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم؛ فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع، وبهم حصلت محابة تعالى في الأرض، وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ [الشورى: ١٣]. وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة، حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ.

(١)قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٧] «الصفا» اسم للبراءة من الكدر. وهو في هذا الباب سقوط التلوين أما الاستشهاد بالآية: فوجهه أن «المصطفى» مفتعل من الصفوة، وهي خلاصة الشيء، وتصفيته مما يشوبه. ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أي خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الصَّفيُّ» وهو السهم الذي كان يصطفيه ﷺ لنفسه من الغنيمة...

(٢)ومن أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦] أي خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث قال: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال ﷻ عنه وعن بنيه: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٠] وقال لنبيه ﷺ:

---

(١) ١٤١ مدارج جـ٣.

(٢) ١٠٥ الجواب الكافي.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم. وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

***

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

(١) روى الوليد بن مسلم عن خليد عن الحسن: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] قال أبواب ترى. وذكر أيضاً عن خليد عن قتادة قال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، تتكلم وتكلم، وتفهم ما يقال لها: انفتحي، انغلقي(٢). وقال أبو الشيخ أنبانا محمد بن عبدالله بن محمد القيسي أنبأنا محمد بن إسحاق أنبأنا أحمد بن أبي الحواري أنبأنا عبدالله بن غياث عن الفزاري قال: «**لكل مؤمن في الجنة أربعة أبواب: فباب يدخل عليه منه زواره من الملائكة، وباب يدخل عليه منه أزواجه من الحور العين، وباب مقفل فيما بينه وبين أهل النار يفتحه إذا شاء ينظر إليهم لتعظم النعمة عليه، وباب فيما بينه وبين دار السلام يدخل منه على ربه إذا شاء**»(٣).

وقد روى سهيل بن أبي صالح عن زياد النميري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة ولا فخر**»(٤). وفي حديث الشفاعة الطويل من رواية ابن عيينة عن علي بن زيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها**»(٥) وهذا صريح في أنها حلقة حسية تحرك وتقعقع.

---

(١) ٥٥ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٠).

(٣) انظر: التخويف من النار (صـ١٥٧).

(٤) أخرجه الدارمي (رقم ٤٧) وأبو يعلى (٧/ ٢٨١ رقم ٤٣٠٥).

(٥) أخرجه أبو يعلى (٧/ ٦٨ رقم ٣٩٨٩) والترمذي (رقم ٣١٤٨) والدارمي (رقم ٥٠) والديلمي في الفردوس (١/ ٤٧ رقم ١١٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦) وفيض القدير (١/ ٣٧) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وروىٰ سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لي**»[(١)] ويذكر عن علي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله الملك الحق المبين في كل يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر ومن وحشة القبر واستجلب به الغنىٰ واستقرع به باب الجنة»[(٢)].

[(٣)] قوله سبحانه: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [ص: ٥٠، ٥١]. كيف تجد تحته معنىٰ بديعاً، وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم، بل تبقىٰ مفتحة كما هي. وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالىٰ: ﴿ مُّؤۡصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ [الهمزة: ٨، ٩] قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل: يعني أبوابها عليهم مطبقة، فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها من غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد. وأيضاً فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلي تصرفهم، وذهابهم وإيابهم، وتبوئهم في الجنة حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت. وأيضاً إشارة إلىٰ أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلىٰ غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلىٰ ذلك في الدنيا.

[(٤)]فهم يتناولونها قياماً وقعوداً ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ٢٣] ومعنىٰ تذليل القطف تسهيل تناوله، وأهل المدينة يقولون: ذلل النخل أي سوِّ عروقها وأخرجها من السعف حتىٰ يسهل تناولها. وفي نصب دانية وجهان:

---

(١) ذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٧١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٠) والقزويني في أخبار قزوين (٤/ ٦٥) وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال في ترجمة الفضل بن غانم (٥/ ٤٣٣) وضعفه. وذكره ابن حجر في لسان الميزان (٦/ ٢٨٣) وقال: قال الدارقطني: كل من حدث به عن مالك ضعيف.

(٣) ٤٥ حادي الأرواح.

(٤) ١٢٥ حادي الأرواح.

أحدهما: أنه على الحال عطفاً على قوله متكئين. والثاني: أنه صفة الجنة، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] وفي الجنتين الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وخص النخل والرمان من بين الفاكهة بالذكر لفضلهما وشرفهما، كما نص على حدائق النخل والأعناب في سورة النبأ، إذ هما من أفضل أنواع الفاكهة وأطيبها وأحلاها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني حدثنا ريحان ابن سعيد عن عبادة بن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن إسماعيل عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى**»(١) وقال عبدالله ابن الإمام أحمد حدثني عقبة بن مكرم العمي حدثنا ربعي بن إبراهيم بن علية حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهبط الله آدم من الجنة** ﷺ، **وعلمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أنها تغير، وتلك لا تغير**»(٢).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**عرضت عليَّ الجنة حتى تناولت منها قطفاً أخذته**» وفي لفظ: «**فتناولت منها قطفاً فقصرت عنه يدي**»(٣) وقال أبو خيثمة حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا عبيد الله حدثنا ابن عقيل عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه، ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٠٢ رقم ١٤٤٩) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٤): رواه الطبراني والبزار إلا أنه قال:: عيد في مكانها مثلاها. ورجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٢) والحاكم (٢/ ٥٩٢ رقم ٣٩٩٦) والبزار (٨/ ٤٥ رقم ٣٠٢٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٤٣٨) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٧): رواه البزار والطبراني ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٠٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٨٣) وشرح النووي (٦/ ٢٠٧).

صلاتك شيئاً ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عرضت عليَّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه»(١).

وقال ابن المبارك: أنبأنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «ثمر الجنة أمثال القلال والدلاء، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس فيه عجم»(٢). وقال سعيد بن منصور حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: «إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين على أي حال شاءوا»(٣).

(٤)وفي الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب: باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»(٥). وفي الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبدالله هذا خير. فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢) وعبد بن حميد (رقم ١٠٣٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٤٠) وشرح الزرقاني (١/ ٥٣٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥١٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٥٧) والحاكم (٢/ ٥١٧ رقم ٣٧٧٦) وعبدالرزاق (١١/ ٤١٥ رقم ٢٠٨٦٩) وهناد في الزهد (١/ ٩٥ رقم ١٠٧) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٩١ رقم ١٩٠٨٤) والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٣١١) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٠): رواه البيهقي وغيره موقوفاً بإسناد حسن، وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٨٥) وعمدة القاري (١٩/ ٢١٧).

(٤) ٤٧ حادي الأرواح.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٧) ومسلم (رقم ١١٥٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١١-١١٢).

الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان». فقال أبوبكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**»(١)...

(٢)وقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾ [ص: ٥٠، ٥١]. وقال تعالىٰ: ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥]، وهذا يدل علىٰ أمنهم من انقطاعها ومضرتها. وقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ ﴾ [الزخرف: ٧٢ ـ ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣] أي: لا تكون في وقت دون وقت، ولا تمنع ممن أرادها، وقال: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ٢١، ٢٢]، والقطوف جمع قطف وهو ما يقطف، والقطف بالفتح الفعل، أي: ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها، فيأخذها كيف يشاء. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت له حتىٰ يتناول ما يريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاؤوا.

***

﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٦٠ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٧) ومسلم (رقم ١٠٢٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١٢) وشرح النووي (٧/ ١١٥-١١٦).

(٢) ١٢٤ حادي الأرواح.

(١)أي: سننتموه لنا وشرعتموه ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٦١] فقولهم: لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار، أي داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع وقالوا: ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾.

وفي الضمير قولان: أحدهما: أنه ضمير الكفر والتكذيب ورد قول الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ واستبدال غيره به. والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر، ودعوتمونا إليه، وحسنتموه لنا.

وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين. والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل، ورد ما جاءوا به، والشرك بالله ﷻ، أي بدأتم به وتقدمتمونا إليه، فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان، وهما حق.

وأما القائلون: ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴾ فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به، لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه، ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل ـ صلى الله عليهم وسلم ـ ضعفاً وهم الشياطين.

***

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

(١) ٢٩ اجتماع الجيوش.

(١)أما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢] فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها. فعلمه، وكلامه، وإرادته، وقدرته، وحياته، صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده ـ سبحانه ـ.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح. فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكاً له. وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته، حيث تقتضي خلقه وإيجاده. فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات. فتأمل هذا الموضوع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس.

(٢)فإن قيل: فما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فأضاف النفخ إلى نفسه، وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى، كما في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]؟ ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»(٣). فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو

(١) ١٩٠ الروح.
(٢) ٣٧٢ الروح، طبعة دار ابن كثير بتحقيق يوسف علي بديوي.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٠) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٣).

كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده؛ فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] فهو الذي سواه بيده، وهو الذي نفخ فيه من روحه؟

قيل: هذا الموضع هو الذي أوجب لهذا الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن.

فأما الروح المضافة إلى الرب: فهي روح مخلوقة أضافها إلي نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا.

وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها، وكان النفخ مضافاً إلى الله أمراً وإذناً وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ههنا أمران: أحدهما أن يقال: فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك، وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر، فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟

الثاني: أن يقال: فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذه الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله، كما نفخها في مريم أم الرب ـ تعالى ـ هو الذي نفخها بنفسه، كما خلقه بيده؟ قيل: لعمر الله، إنهما سؤالان مهمان! فأما الأول بالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار؛فإن الله ـ سبحانه ـ وكل بالرحم ملكاً ينفخ الروح في الجنين، فيكتب رزق المولود، وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع؛ فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن

يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقه سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخاً ونفخاً ومنفوخاً منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله ـ تعالىٰ ـ هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح. هذا هو الذي دل عليه النص، وأما كون النفخة بمباشرة منه ـ سبحانه ـ كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم ـ عليها السلام ـ فهذا يحتاج إلى دليل. والفرق بين خلق الله بيده ونفخه فيه من روحه: أن اليد غير مخلوقة، والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وعلى كل تقدير فالروح التي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد.

***

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾.

(١)وقد قيل: إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص بالقياس وقدمه عليه، وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود، فإنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وهذا دليل قد حذفت إحدىٰ مقدمتيه، وهي: إن الفاضل لا يخضع للمفضول، وطوىٰ ذكر هذه المقدمة كأنها صورة معلومة، وقرر المقدمة الأولىٰ بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فكانت نتيجة المقدمتين

(١) ٦٣ مختصر الصواعق جـ١.

امتناعه من السجود. وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه بتأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله إلى يوم القيامة. فلا إله إلا الله والله أكبر. كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين؟ وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين رأيتها من جنس شبهته.

والقائل إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هنا اشتق هذه القاعدة، وجعلها أصلاً لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها. وعرضت هذه الشبهة لعدو الله من جهة كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنصوص الوحي. وهكذا إلحاد كل مجادل في نصوص الوحي إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ما هو ببالغه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦] وكذلك خروج آدم من الجنة إنما كان بالتأويل، وإلا فهو ﷺ لم يقصد بالأكل مصية الرب. ثم اختلف الناس في وجه تأويله. فقالت طائفة: تأول بحمله النهي المطلق على الشجرة المعينة. وغره عدو الله بأن جنس تلك الشجرة هي شجرة الخلد، وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة. وفي هذا نظر ظاهر. فإن الله ـ تعالى ـ أخبر أن إبليس قال له: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠] فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها، إما بعينها أو بجنسها، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها. ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصياً بأكله من غيرها، ولا أخرجه الله من الجنة ونزع عنه لباسه.

وقالت فرقة أخرى: تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم، وأيضاً فحيث نهى الله ـ تعالى ـ عن فعل الشيء بقربانه لم يكن أصلاً للتحريم كقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٤] وأيضاً لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة، وأخبر أنه عصى ربه.

وقالت طائفة: بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معاً، لا عن أكل كل منهما على انفراده، لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ نهي لهما عن الجمع، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد. وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب في تفسيره، وهو كما ترى في البطلان والفساد. ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة، وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهماً، أفترى فهم أحد من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ ونظائره، أي إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به، فيا للعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيانات.

(١)إن معارضة الوحي بالعقل ميراث عن الشيخ أبي مرة فهو أول من عارض السمع بالعقل وقدمه عليه؛ فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عارض أمره بقياس عقلي مركب من مقدمتين حمليتين، إحداهما قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فهذه هي الصغرى، والكبرى محذوفة تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول. وذكر سند المقدمة الأولى. وهو أيضاً قياس حملي حذف إحدى مقدمتيه، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] المقدمة الثانية كلها معلومة، أي ومن خلق من نار خير ممن خلق من طين. فهما قياسان متداخلان، وهذه يسميها المنطقيون الأقيسة المتداخلة. فالقياس الأول هكذا: أنا خير منه، وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه. وهذا من الشكل الأول. والقياس الثاني هكذا: خلقتني من نار وخلقته من طين. والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين. فنتيجة هذا القياس العقلي: أنا خير منه، ونتيجة الأول: فلا ينبغي أن أسجد له. وأنت إذا تأملت مادة هذه القياس وصورته رأيته أقوى من كثير من قياساتهم التي عارضوا بها الوحي، والكل باطل.

---

(١) ٢٠١ مختصر اصواعق جـ١.

وقد اعتذر أتباع الشيخ أبي مرة[١] أعذارًا (منها) أنه لما تعارض عنده العقل والنقل قدم العقل، (ومنها) أن الخطاب بصيغة الضمير في قوله «اسجدوا» ولا عموم له؛ فإن الضمائر ليست من صيغ العموم، (ومنها) أنه وإن كان اللفظ عاماً فإنه خصه بالقياس المذكور، (ومنها) أنه لم يعتقد أن الأمر للوجوب، بل حمله على الاستحباب لأنه المتيقن، أو على الرجحان دفعاً للاشتراك والمجاز، (ومنها) أنه حمله على التراخي ولم يحمله على الفور، (ومنها) أنه صان جناب الرب أن يسجد لغيره، ورأى أنه لا يليق به السجود لسواه. وبالله تأمل هذه التأويلات، وقابل بينها وبين كثير من التأويلات التي يذكرها كثير من الناس. وفي بني آدم من يصوب رأي إبليس وقياسه. ولهم في ذلك تصانيف، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب، ولهذا يقول في قصيدته:

الأرض مظلمة سوداء معتمة والنار معبودة مذ كانت النار[٢]

ولماعلم الشيخ أنه قد أصيب من معارضة الوحي بالعقل، وعلم أنه لا شيء أبلغ في مناقضة الوحي والشرع وإبطاله من معارضته بالمعقول أوحى إلى تلامذته وإخوانه من الشبهات الخيالية ما يعارضون بها الوحي، وأوهم أصحابه أنها قواطع عقلية، وقال: إن قدمتم النقل عليها فسدت عقولكم: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ

---

(١) أبو مرة هذه كنية إبليس الشيطان اللعين، نص على ذلك ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٣٩) وابن الأثير في النهاية (٤/ ٣) والفيروزآبادي في القاموس (ص ٦١٠) وابن منظور في اللسان (٢/ ٥٥٢) (٥/ ١٧١) والرازي في مختار الصحاح (ص ٢٥٩).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط وينسب إلى بشار بن برد. وذكر البيت ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (٢/ ١٥) في ترجمة بشار، وقال: وكان يتعصب للعجم على العرب ويصوِّب رأي إبليس في ترك السجود لآدم عليه السلام وينشد. وذكر البيت. وانظر: شذرات الذهب (١/ ٢٦٤).

غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٧]. الوجه الثاني والثلاثون: في بيان فساد معقول الشيخ الذي عارض به الوحي. وذلك من وجوه: (أحدها) أنه قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله كان قياساً باطلاً، ويسمى قياساً إبليسياً، فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل. ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته. وقد بينا فيما تقدم أنه ما عارض أحد الوحي بعقله إلا أفسد الله عليه عقله حتى يقول ما يضحك العقلاء.

الثاني: أن قوله: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ كذب، ومستنده في ذلك باطل؛ فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى؛ فإن الله ـ سبحانه ـ يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته؛ فإن محمداً ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى ونوحاً ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أفضل من الملائكة.

ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نوراً ومادة البشر تراباً؛ فالتفضيل ليس بالمواد والأصول. ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيراً وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم. وهذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثاً في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الإيمان والتقوى، وهي التي أبطلها الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله وضع عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس مؤمن تقي وفاجر شقي**»(١). وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا لأبيض علىٰ أسود، ولا لأسود علىٰ أبيض إلا بالتقوىٰ. الناس من آدم، وآدم من تراب**»(٢). فانظر إلىٰ سريان هذه النكتة الإبليسية في نفوس أكثر الناس، من تفضيلهم بمجرد الأنساب والأصول.

الثالث: أن ظنه أن النار خير من التراب باطل، مستنده ما فيها من الإضاءة والخفة وما في التراب من الثقل والظلمة، ونسي الشيخ ما في النار من الطيش والخفة، وطلب العلو والإفساد بالطبع، حتىٰ لو وقع منها شواظ بقدر الحبة في مدينة عظيمة لأفسدها كلها ومن فيها، بل التراب خير من النار وأفضل من وجوه متعددة:

منها: أن طبعه السكون والرزانة، والنار بخلافه.

ومنها: أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه.

ومنها: أنه لا يمكن لأحد أن يعيش بدونه ودون ما خلق منه البتة، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار. قالت عائشة: «كان يمر بنا الشهر والشهران ما يوقد في بيوتنا نار ولا نرىٰ ناراً». قال لها عروة: فما عيشكم؟ قالت: «الأسودان التمر والماء»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١١٦) والترمذي (رقم ٣٩٥٦) وأحمد (٢/ ٣٦١) والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ٢٣٢ رقم ٢٠٨٥١) وصحَّحه الترمذي. وحسَّنه المنذري في الترغيب (٣/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٣٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥١٤٧) وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (رقم ٢٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٦): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٧).

(٣) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٦٩٩ رقم ١٠١٤) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٣٥٥ رقم ٨٩١) وأحمد (٦/ ٧١) والطيالسي (رقم ١٤٧٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣١٤ رقم ١٠٤٢٤) والخطيب في تاريخ بغداد (٧/ ٣٢٧).

ومنها: أن الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، وتربيه لك وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك وتمحق بركته.

ومنها: أن الأرض مهبط وحي الله، ومسكن رسله وأنبيائه وأوليائه، وكفاتهم أحياء وأمواتاً. والنار مسكن أعدائه ومأواهم.

ومنها: أن في الأرض بيته الذي جعله إماماً للناس وقياماً لهم، وجعل حجه محطاً لأوزاهم ومكفراً لسيئاتهم، وجالباً لهم مصالح معاشهم ومعادهم.

ومنها: أن النار طبعها العلو والفساد، والله لا يحب المستكبرين، ولا يحب المفسدين. والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين. وقد ظهر بخلق إبراهيم ومحمد وموسى وعيسى والرسل من المادة الأرضية، وخلق إبليس وجنوده من المادة النارية، نعم وخلق من المادة الأرضية الكفار والمشركين، ومن المادة النارية صالحو الجن، ولكن ليس في هؤلاء مثل إبليس، وليس في أولئك مثل الرسل. فمعلم الخير من المادة الأرضية، ومعلم الشر من المادة النارية.

ومنها: أن النار لاتقوم بنفسها بل لابد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها لا تحتاج إلى محل تقوم به، ولا تفتقر في قوامها ونفعها إلى النار.

ومنها: أن التراب يفسد صورة النار ويبطلها ويقهرها وإن علت عليه.

ومنها: أن الرحمة تنزل على الأرض فتقبلها وتحيا بها، وتخرج زينتها وأقواتها وتشكر ربها، وتنزل على النار فتأباها وتطفؤها وتمحوها وتذهب بها، فبينها وبين الرحمة معاداة، وبين الأرض وبين الرحمة موالاة.

ومنها: أن النار تطفأ عند التكبير، وتضمحل عند ذكر كبرياء الرب، ولهذا يهرب المخلوق منها عند الأذان حتى لا يسمعه، والأرض تبتهج بذلك وتفرح به. وتشهد به لصاحبه يوم القيامة. ويكفي في فضل المخلوق من الأرض أن الله تعالى خلقه بيده

ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء. فهل حصل للمخلوق من النار واحدة من هذه؟ فقد تبين لك حال هذه المعارضة العقلية للسمع وفسادها من هذه الوجوه وأكثر منها، وهي من شيخ القوم ورئيسهم ومعلمهم الأول، فما الظن بمعارضة التلامذة؟

ونحن نقول قولا نقدم بين يديه مشيئة الله وحوله والاعتراف بمنته علينا وفضله لدينا، وأنه محض منته وجوده وفضله، فهو المحمود أولاً وآخراً على توفيقنا له وتعليمنا إياه. إن كل شبهة من شبه أرباب المعقولات عارضوا بها الوحي فعندنا ما يبطلها بأكثر من الوجوه التي أبطلنا بها معارضة شيخ القوم، وإن مد الله في الأجل أفردنا في ذلك كتاباً كبيراً.

ولو نعلم أن في الأرض من يقول ذلك ويقوم به تبلغ إليه أكباد الإبل اقتدينا في السير إليه بموسى عليه السلام في سفره إلى الخضر، وبجابر بن عبدالله في سفره إلى عبدالله بن أنيس لسماع حديث واحد[1]، ولكن زهد الناس في عالم قومه. وقد قام قبلنا بهذا الأمر من برز على أهل الأرض في عصره وفي أعصار قبله، فأدرك من قبله وحيداً وسبق من بعده سبقاً بعيداً.

الوجه الثالث والثلاثون: أنه ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأن ليس كمثله شيء، وأنه لا

---

(١) فعن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله ابن أنيس، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب. فقال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم. فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته. فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه. ثم ذكر باقي القصة.
وبوَّب البخاري في كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم.ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد. صحيح البخاري (صـ٤٠) وقبل حديث (رقم ٧٨).
وهذه القصة أخرجها الضياء في المختارة (٩/ ٢٥-٢٦ رقم ١٠) والحاكم (٢/ ٤٧٥ رقم ٣٦٣٨) وأحمد (٣/ ٤٩٥).

سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله، ولا من يكافيه فيها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة ص

والحمد لله رب العالمين



سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝ ﴾.

[1]قال الله تعالى، حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٣]. ثم شهد عليهم بالكفر والكذب. وأخبر أنه لا يهديهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره.

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه ومولاه.

و«الشفاعة» التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده. والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون.

---

(١) ٣٤ مدارج جـ١.

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

[(١)]إن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه، فذكر سبحانه أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلىٰ حال، وذكر ظلمات الحجب التي علىٰ الجنين، فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. فإن كل واحد منها حجاب علىٰ الجنين، وقال آخرون: هي ظلمة أصلاب الآباء، وظلمة بطون الأمهات، وظلمة المشيمة، وأضعف من هذا القول قول من قال: ظلمة الليل، وظلمة البطن، وظلمة الرحم؛ فإن الليل والنهار بالنسبة إلىٰ الجنين سواء.

وقال بقراط: المرأة إذا حبلت لم تألم من اجتماع الدم الذي ينزل ويجتمع حول رحمها، ولا تحس بضعف كما تحس إذا انحدر الطمث، لأنها لا يثور دمها في كل شهر، لكنه ينزل إلىٰ الرحم كل يوم قليلاً قليلاً نزولاً ساكناً من غير وجع، فإذا أتىٰ إلىٰ الرحم اغتذىٰ منه الجنين ونما، ثم قال: وعلىٰ غير بعيد من ذلك، إذا خلق للجنين لحم وجسد تكون الحجب، وإذا كبر كبرت الحجب أيضاً وصار لها تجويف خارج عن الجنين، فإذا نزل الدم من الأم جذبه الجنين واغتذىٰ به فيزيد في لحمه، والردىٰ من الدم الذي لا يصلح للغذاء ينزل إلىٰ مجاري الحجب، لذلك تسمىٰ الحجب، التي إذا صار لها تجويف تقبل الدم: المشيمة.

وقال إذا تم الجنين وكملت صورته واجتذب الدم لغذائه بالمقدار اتسعت الحجب، وظهرت المشيمة التي تكون من الآلات التي ذكرنا، فإن اتسع داخلها اتسع خارجها، لأنه أولىٰ بذلك، لأن له موضعاً يمتد إليه.

قلت: ومن ههنا لم تحض الحامل، بل ما تراه من الدم يكون دم فساد ليس دم

---

(١) ١٤٨ تحفة المودود.

الحيض المعتاد. هذه إحدى الروايتين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وهو المشهور من مذهب أحمد الذي لا يعرفه أصحابه سواه، وهو مذهب أبي حنيفة. وذهب الشافعي في رواية عن عائشة، والإمام أحمد في رواية عنه، اختارها شيخنا إلى أن ماتراه من الدم في وقت عادتها يكون حيضاً.

وحجة هذا القول ظاهرة، وهي عموم الأدلة الدالة على ترك المرأة الصوم والصلاة إذا رأت الدم المعتاد في وقت الحيض، لم يستثن الله ورسوله حالة دون حالة، وأما كون الدم ينصرف إلى غذاء الولد، فمن المعلوم أن ذلك لا يمنع أن يبقى منه بقية تخرج في وقت الحيض تفضل عن غذاء الولد، فلا تنافي بين غذاء الولد وبين حيض الأم.

وأصحاب القول الآخر يحتجون بقوله ﷺ: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة»[1] فجعل الحيضة دليلاً على عدم الحمل، فلو حاضت الحامل لم تكن الحيضة علماً على براءة حملها. والآخرون يجيبون عن هذا: بأن الحيضة علم ظاهر، فإذا ظهر بها الحمل تبينا أنه لم يكن دليلاً، ولهذا يحكم بانقضاء العدة بالحيض ظاهراً...

***

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٧) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٢٩ رقم ١٠٥٧٢) والحاكم (٢/ ٢١٢ رقم ٢٧٩٠) والدارمي (رقم ٢٢٩٥) وأحمد (٣/ ٦٢). ذكر الحديث الحافظ ابن حجر في الفتح (٤/ ٤٢٤) وقال: قاله في سبايا أوطاس، أخرجه أبو داود وغيره وليس على شرط الصحيح. وصححه الحاكم وحسنه ابن عبد البر في التمهيد (٣/ ١٤٣) وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٤/ ٢٣٦): وأخرجه الحاكم وصححه. قال الحافظ في التلخيص: إسناده حسن.

[(١)]وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

ويتنصل ـ سبحانه ـ إلى عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته، ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه، ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم، كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧]. فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منهم إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤].

ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]. وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٢٧].

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟

---

(١) ١٣٤ طريق الهجرتين.

﴿ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول ـ سبحانه ـ: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة، ولا يوجب له حمدا، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائد عليكم(١)...

***

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

(٢)أخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفاً مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتى كأنها ينظر إليها عياناً. ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفة جنس كالجنة، وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف: ١٢].

وقال ـ تعالى ـ عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]. وروى الترمذي في جامعه من حديث عبدالرحمن بن إسحاق عن

---

(١) بقية البحث مفيد جدًا، تركناه اختصارًا، فاظفر به، وفقك الله لرضاه. (ج).

(٢) ١٠٢ حادي الأرواح.

النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها**»، فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ قال: «**لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**»(١). قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام قال: حدثني أبو سلام حدثني أبو معانق الأشعري حدثني أبو مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**»(٢).

***

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

(٣)هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له، ولمن عبد من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون، فهل يستوي في العقول هذا وهذا؟ وقد أكثر تعالى من

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٢٧) وابن خزيمة (٣/ ٣٠٦ رقم ٢١٣٦) وأبو يعلى (١/ ٣٤٤ رقم٤٣٨) وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٣٩١) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٧١): ورواه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٣٠١ رقم ٣٤٦٧) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٣٣ رقم ١٢٤٧) وأبو يعلى (١/ ٣٣٧ رقم ٤٢٨) والبيهقي في الشعب (٣/ ١٢٨ رقم ٣٠٩٠) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٣٠٣) والحاكم (١/ ١٥٣ رقم ٢٧٠) وصححه. وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٦٢ رقم ٥٠٩) وفي موارد الظمآن (رقم ٦٤١) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٣٤ رقم ١٣٩٣): رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن. والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(٣) ٩ مفتاح جـ٢.

هذه الأمثال ونوعها مستدلاً بها على حسن شكره وعبادته، وقبح عبادة غيره، ولم يحتج عليهم بنفس الأمر، بل بما ركبه في عقولهم من الإقرار بذلك. وهذا كثير في القرآن، فمن تتبعه وجده.

(١) قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.احتج ـ سبحانه ـ على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لا يستويان.

(٢)قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾. هذا مثل ضربه الله ـ سبحانه ـ للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاكسون، والرجل المتشاكس: الضيق الخلق. فالمشرك، لما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه، فهو يستوي هذان العبدان؟

وهذا من أبلغ الأمثال؛ فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين. الحمد لله،

(١) ٢٤٠ مدارج جـ١.
(٢) ١٧ أعلام جـ١.

بل أكثرهم لا يعلمون.

(١)أما السؤال الأول، وهو: ما حقيقة هذه اللفظة؟ فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها، فمن ذلك قولك: «سلمك الله، وسلم فلان من الشر»، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط: «رب سلم، اللهم سلم». ومنه سلم الشيء لفلان، أي خلص له وحده، فخلص من ضرر الشركة فيه. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي خالصًا له وحده لا يملكه غيره، ومنه السلم ضد الحرب، قال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا يبنى منه على المفاعلة، فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه القلب السليم، وهو النقي من الغل والدغل. وحقيقته الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات. بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته. فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته. ومنه أخذ الإسلام فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب ـ سبحانه ـ هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به.

ومنه السلم للسلف، وحقيقته العوض المسلم فيه؛ لأن من هو في ذمته قد ضمن سلامته لربه، ثم سمى العقد سلماً وحقيقته ما ذكرناه.

(فإن قيل): فهذا ينتقض بقولهم للديغ: سليماً.

(قيل): ليس هذا بنقض له، بل طرد لما قلناه؛ فإنهم سموه سليماً باعتبار ما يهمه ويطلبه، ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة، فليس عنده أهم من السلامة، ولا هو

(١) ١٣٣ بدائع جـ٢.

أشد طلباً منه لغيرها، فسمي سليماً لذلك. وهذا من جنس تسميتهم المهلكة مفازة؛ لأنه لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها أي نجاته، فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها. وهذا أحسن من قولهم: إنما سميت مفازة وسمي اللديغ سليماً تفاؤلاً(١)، وإن كان التفاؤل جزء هذا المعنى الذي ذكرناه وداخلاً فيه، فهو أعم وأحسن.

فإن قيل: فكيف يمكنهم رد السلم إلى هذا الأصل.

قيل: ذلك ظاهر؛ لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضاً للهوي والسقوط، طالباً السلامة، راجياً لها، سميت الآلة التي يتوصل بها إلى غرضه سلماً لتضمنها سلامته، إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعاً. فصح أن السلم من هذا المعنى.

ومنه تسمية الجنة بدار السلام. وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها إضافة إلى مالكها السلام ـ سبحانه ـ.

الثاني: إنها إضافة إلى تحية أهلها؛ فإن تحيتهم فيها سلام.

والثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر. والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها؛ فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام، وكان يقال: دار الرحمن، أو دار الله، أو دار الملك ونحو ذلك. فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود.

وأيضاً فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها. أما الأول فنحو دار القرار، دار الخلد، جنة المأوى، جنات النعيم، جنات الفردوس. وأما الثاني: نحو دار المتقين، ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن. وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين:

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٩٢) ومختار الصحاح (صـ١٣١) ومعجم البلدان (٣/ ٢٤٤) وغريب الحديث لابن سلام (٢/ ٤٣) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٥٧٣) والنهاية لابن الأثير (٣/ ١١٠) والقاموس المحيط (صـ١٤٤٩).

أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة، وما يضاف إلىٰ الجنة لا يكون إلا مختصاً بها، كالخلد والقرار والبقاء.

الثاني: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها، مثل كونها دائمة وباقية، ودار الخلد. والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر، فإنها من أكمل أوصافها المقصودة علىٰ الدوام، التي لا يتم النعيم فيها إلا به، فإضافتها إليه أولىٰ وهذا ظاهر.

وإذا عرف هذا فإطلاق السلام علىٰ الله تعالىٰ اسماً من أسمائه هو أولىٰ من هذا كله، وأحق بهذا الاسم من كل مسمىٰ به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة. فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم. وسلام في صفاته من كل عيب ونقص. وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص. وشر وظلم. وفعل واقع علىٰ غير وجه الحكمة. بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار. فعلم أن استحقاقه تعالىٰ لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه. وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله. فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلىٰ أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها. فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم، وكذلك قيوميته، وقدرته سلام من التعب واللغوب. وعلمه سلام من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان، أو حاجة إلىٰ تذكر وتفكر. وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

وكلماته سلام من الكذب والظلم. بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلىٰ غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه. وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك، أو معاون مظاهر. أو شافع عنده بدون إذنه. وإلاهيته سلام مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو. وحلمه وعفوه وصفحه

ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة، كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه. وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو تشفياً أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه. بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضاً لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته.

فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم، ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة. وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته، بل شرعه كله حكمه ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطي. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضه ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيء به ﷻ، بل كان ـ سبحانه ـ ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد.

بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما. ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه. وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه. وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصوراً في شيء ـ تعالى ـ الله ربنا عن كل ما يضاد كماله.

وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. وموالاته

لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]. فلم ينف أن يكون له ولي مطلقاً، بل نفى أن يكون له ولي من الذل. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها. وكذلك ما أضافه إلىٰ نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه ـ تبارك وتعالىٰ ـ. وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني، والله المستعان المسئول أن يوفق للتعليق علىٰ الأسماء الحسنىٰ علىٰ هذا النمط إنه قريب مجيب[(١)].

***

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾.

[(٢)]لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١] سئل ﷺ: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ فقال: «**نعم ليكررن عليكم حتىٰ تؤدوا إلىٰ كل ذي حق حقه**» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد[(٣)].

---

(١) بقية الأجوبة نحيلك عليها في الجزء الثاني، بدئت بصحيفة (رقم ١٣٧) وانتهت بصحيفة (رقم ١٩٧)، وقد أخذنا ما كان مناسبًا لمواضعه من التفسير. وهي صالحة لأن تكون رسالة مستقلة، حيث طرق المؤلف فيها بحوثًا نادرة جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. (ج).

(٢) ٢٧٠ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٤٩-٥٠ رقم ٨٥٢) (٩/ ٣٤٨ رقم ٣١٥) والترمذي (رقم ٣٢٣٦) والحاكم (٢/ ٤٧٢ رقم ٣٦٢٦) (٤/ ٦١٦ رقم ٨٧٠٨) وأبو يعلىٰ (٢/ ٣١ رقم ٦٦٨) وأحمد (١/ ١٦٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم في الموضع الثاني: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسنه محقق المختارة.

وسئل ﷺ: كيف يحشر الكافر على وجهه؟ فقال: «أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟»[(١)].

وسئل ﷺ: هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ فقال: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: حيث يوضع الميزان حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وحيث تتطاير الكتب حتى يعلم كتابه من يمينه أو من شماله أو من وراء ظهره، وحيث يوضع الصراط على جسر جهنم، على حافتيه كلاليب وحسك، يحبس الله به من يشاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا ينجو»[(٢)].

وسئل ﷺ: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يعمل بأعمالهم، فقال: «المرء مع من أحب»[(٣)].

***

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[(٤)]إن الله سبحانه أخبر أنه يجزي المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. وأخبر سبحانه أنه يجزي على الإحسان بالعلم، وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٦٠) ومسلم (رقم ٢٨٠٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٢).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٥٥) والبيهقي في الاعتقاد (صـ٢١٠) والحاكم (٤/ ٦٢٢ رقم ٨٧٢٢) وقال: هذا حديث صحيح إسناده على شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة على أنه قد صحت الروايات أن الحسن كان يدخل وهو صبي منزل عائشة رضي الله عنها وأم سلمة. وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ١٠١) وفيض القدير (٢/ ١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١٦٨) ومسلم (رقم ٢٦٤٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٥-٥٦٠) وشرح النووي (١٦/ ١٨٦).

(٤) ١٦٧ مفتاح جـ١.

أما المقام الأول ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٥]. وهذا يتناول الجزائين الدنيوي والأخروي. وأما المقام الثاني: ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]. قال الحسن: من أحسن عبادة الله في شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه، وذلك قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ومن هذا قال بعض العلماء: تقول الحكمة: من التمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم، وليترك أقبح ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني اهـ.

***

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[(١)]هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟ فشواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى والحس والواقع من أعدل الشهود بها، فتلتقي أرواح الأحياء والأموات كما تلتقي أرواح الأحياء، وقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال أبو عبد الله بن منده ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ثنا عبدالله بن حسين الحراني ثنا جدي أحمد بن شعيب ثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: بلغني أن أرواح الأحياء والأموات

(١) ٢٣ الروح.

تلتقي في المنام، فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[(١)].

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: ثنا عبدالله بن سليمان ثنا الحسين ثنا عامر ثنا أسباط عن السدي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾. قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت، فيتذاكران ويتعارفان. قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس. وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً، والمرسلة من توفيت وفاة النوم. والمعنى على هذا القول أن يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها، فيتوفاها الوفاة الأخرى[(٢)].

والقول الثاني: في الآية: أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفي وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلي جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله. واختار شيخ الإسلام هذا القول، وقال: عليه يدل القرآن والسنة. قال: فإنه ـ سبحانه ـ ذكر إمساك التي قضي عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم. وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال، بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول، لأنه ـ سبحانه ـ أخبر وفاتين: وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم. وقسم الأرواح قسمين: قسماً قضى عليها بالموت فأمسكها عنده، وهي التي توفاها وفاة الموت. وقسماً لها بقية أجل

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (١٠/ ١٢٣ رقم ١٢٣) والطبراني في الأوسط (١/ ٤٥ رقم ١٢٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٠): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر: التمهيد (٥/ ٢٤١-٢٤٣) والمحلى (١/ ٢٣) وتفسير الطبري (٢٤/ ٨-٩) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٣٩) وتنوير الحوالك (١/ ٣٨) وشرح الزرقاني (١/ ٥٦).

فردها إلىٰ جسدها إلىٰ استكمال أجلها. وجعل ـ سبحانه ـ الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً. فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها. فلو كان قد قسم وفاة النوم إلىٰ قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾؛ فإنها من حين قبضت ماتت، وهو ـ سبحانه ـ قد أخبر أنها لم تمت، فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾.

ولمن نصر هذا القول أن يقول: قوله تعالىٰ: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ بعد أن توفاها وفاة النوم، فهو ـ سبحانه ـ توفاها أولاً وفاة نوم، ثم قضىٰ عليها الموت بعد ذلك. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين؛ فإنه ـ سبحانه ـ ذكر وفاتين: وفاة نوم. وفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرىٰ. ومعلوم أنه ـ سبحانه ـ يمسك كل نفسس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة، ويرسل نفس من لم يمت فقوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام.

وقد دل علىٰ التقاء أرواح الأحياء والأموات: أن الحي يرىٰ الميت في منامه فيستخبره، ويخبره الميت بما لا يعلم الحي، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه، وربما أخبره بدين عليه، وذكر له شواهده وأدلته.

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطَّلع عليه أحد من العالمين. وأبلغ من هذا أن يخبره أنك تأتينا إلىٰ وقت كذا وكذا، فيكون كما أخبر، وربما أخبره عن أمور يقطع الحي أنه لم يكن يعرفها غيره، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس، وأخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين.

وقصة صدقة بن سليمان الجعفري وإخبار ابنه له بما عمل من بعده، وقصة شبيب ابن شيبة وقول أمه له بعد الموت: جزاك الله خيراً، حيث لقنها لا إله إلا الله، وقصة

الفضل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته.

وقال سعيد بن المسيب: التقى عبدالله بن سلام مع سلمان الفارسي، فقال أحدهما للآخر: إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك. فقال الآخر: وهل تلتقي الأموات والأحياء، قال: نعم أرواحهم في الجنة تذهب حيث شاءت. قال: فمات فلان فلقيه في المنام فقال: توكل وأبشر، فلم أر مثل التوكل قط[1]. وقال العباس بن عبدالمطلب: كنت أشتهي أن أرىٰ عمر في المنام، فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه، وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كاد عرشي ليهد، لولا أن لقيت رؤوفاً رحيماً[2]...

[3]أما المسألة الرابعة وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده: فقد اختلف الناس في هذا، فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت، لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت. قالوا: وقد دلت الأدلة علىٰ أنه لا يبقىٰ إلا الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]. قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولىٰ بالموت. قالوا: وقد قال تعالىٰ عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر: ١١]. فالموتة الأولىٰ هذه المشهودة وهي للبدن، والأخرىٰ للروح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان. قالوا:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٢٠ رقم ٣٤٦٥٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٢١ رقم ١٣٥٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٢٨) وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥٦-٥٥٧) وتاريخ دمشق (٢١/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٣/ ٣٧٥) وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٩٤ رقم ١٦٣١) وأحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (٢/ ٩٢١ رقم ١٧٦٢) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٣) ٤٠ الروح.

وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم، وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، كما سيأتي إن شاء الله ـ تعالى ـ بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شَجَبٍ والخُلْف في الشَّجَبِ
فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب[1][2]

[3]إن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأي شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى؟ وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذي كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها؟ فهذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها، ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل، ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها، وليست بداخل العالم ولا خارجه. ولا لها شكل وقدر ولا شخص.

---

(١) البيتان من بحر البسيط، وهما للمتنبي، أحمد بن الحسين الجعفي أبي الطيب، وفيه: تخالف الناس بدل: تنازع الناس. وهو الكندي نسبة إلى محلة بالكوفة تسمى كندة، له الأمثال السائرة والحكم البالغة المعاني المبتكرة. قيل: إنه تنبأ وتبعه كثيرون، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص ونائب الإخشيد فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه مات ٣٥٤هـ.

(٢) يأتي إيراد على ما سبق في آخر السورة عند قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إن شاء الله (ج).

(٣) ٤٥ الروح.

فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه. وكذلك من يقول: هي عرض من أعراض البدن، فتميزها عن غيرها مشروط باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحي. ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة، التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن. وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس، وبينا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن من قال غيره لم يعرف نفسه.

وقد وصفها الله ﷻ بالدخول والخروج. والقبض، والتوفي، والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها وغلقها عنها، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧، ٣٠]. وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ـ٨] فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]. فهو ـ سبحانه ـ سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه، بل سوى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له.

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها؛ فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن، كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسبا وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن. ولهذا يقال لها عند المفارقة: «**اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب**» «**واخرجي**

أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث».

وقال الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]. فوصفها بالتوفي والإمساك والإرسال، كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية. وقد أخبر النبي ﷺ أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت، وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفخة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض، أو كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض ـ والأعراض لا ريح لها، ولا تمسك، ولا تؤخذ من يد إلىٰ يد ـ.

وأخبر أنها تصعد إلىٰ السماء ويصلي عليها كل ملك لله بين السماء والأرض، وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلىٰ سماء حتىٰ ينتهي بها إلىٰ السماء التي بها الله ﷻ، فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين، ثم ترد إلىٰ الأرض، وأن روح الكافر تطرح طرحاً، وأنها تدخل مع البدن في قبره للسؤال.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن نسمة المؤمن ـ وهي روحه ـ طائر يعلق في شجر الجنة حتىٰ يردها الله إلىٰ جسدها، وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها. وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلىٰ يوم القيامة.

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض علىٰ النار غدواً وعشياً قبل يوم القيامة. وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، وتسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوىٰ إلىٰ تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألو قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في

أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى[(١)]. وصح عنه ﷺ أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة[(٢)]. وتعلق بضم اللام أي تأكل العلقة.

وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب**»، فقال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم. فأنزل الله ـ تعالى ـ على رسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][(٣)] الآيات. رواه الإمام أحمد. وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها. وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله ـ تعالى ـ.

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيراً، وأما الأرواح فقل ما تشتبه.

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة، وهم متميزون في علمنا أظهر تميز، وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم، وإن ذكر لنا من صفات

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٨٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (رقم ٢٥٦٠، ٢٥٦١) وعبدالرزاق (٥/ ٢٦٤ رقم ٩٥٥٧) وأحمد (٦/ ٣٨٦) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٠٧ رقم ٢١٢٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. تعلق بفتح المثناة فوق وعين مهملة وضم اللام أي ترعى من أعالي شجر الجنة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ١٣٦٨).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (١٠/ ٣٤٨-٣٤٩ رقم ٣٧٦) وأحمد (١/ ٢٦٥) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٤ رقم ١٩٣٣٢) وأبو يعلى (٤/ ٢١٩ رقم ٢٣٣١) وعبد بن حميد (رقم ٦٧٩) والديلمي في الفردوس (٣/ ٤٢٨ رقم ٥٣١٢) وابن أبي عاصم في الجهاد (صـ٢١٦) وابن المبارك في الجهاد (صـ٦٠) وهناد في الزهد (١/ ١٢٠ رقم ١٥٥) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٤٨).

أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر، بل التميز الذي عندنا بما علمنا وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها. وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين. فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما في غاية الظهور.

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً: قل أن ترى بدناً قبيحاً وشكلاً شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه، وقل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطئ ذلك. ويحكى عن الشافعي ـ رحمه الله ـ في ذلك عجائب.

وقل أن ترى شكلاً حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له. هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد. وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم، وكذلك الجن، فتميز الأرواح البشرية أولى.

وأما المسألة السادسة وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟ فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس، حيث صرح بإعادة الروح إليه، فقال البراء بن عازب: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله، كأنه على رؤوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: **«أعوذ بالله من عذاب القبر»**، ثلاث مرات ثم قال: **«إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط،**

ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ـ تعالى ـ فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً من الجنة. قال: فيأتيه من ريحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال: فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح»، ثم قرأ رسول الله: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ

ﭐلۡخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠] «فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً» ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]. فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤوك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة»[1]، رواه الإمام أحمد، وأبو داود. وروى النسائي وابن ماجه أوله، ورواه أبو عوانة الإسفرائيني في صحيحه. وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف.

وقال أبو محمد ابن حزم في كتاب الملل والنحل له: وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فخطأ، إن الآيات التي ذكرناه تمنع من ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ [غافر: ١١] وقوله تعالى: ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٨].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨) وأبو داود (رقم ٤٧٥٣) والنسائي في المجتبى (رقم ٢٠٠١) وفي الكبرى (١/ ٦٤٦ رقم ٢١٢٨) والحاكم (١/ ٢٠٨ رقم ٤١٤) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩١ رقم ٧١٨) وعبد الرزاق (٣/ ٥٨٠ رقم ٦٧٣٧) والروياني في مسنده (رقم ٣٩٢) والطيالسي (رقم ٧٥٣) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٥٥-٣٥٦ رقم ٣٩٥) وفي إثبات عذاب القبر (رقم ٢٠، ٤٤) وابن منده في الإيمان (٢/ ٩٦٣-٩٦٣ رقم ١٠٦٤) وهناد في الزهد (١/ ٢٠٥ رقم ٣٣٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٦): رواه أبو داود ورواه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح. وقال أيضًا (٤/ ١٩٧): هذا الحديث حديث حسن رواته محتج بهم في الصحيح كما تقدم.

قال: ولو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالىٰ قد أماتنا ثلاثًا وأحيانا ثلاثاً، وهذا باطل وخلاف القرآن، إلا من أحياه الله تعالىٰ آية لنبي من الأنبياء، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، والذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، ومن خصه نص.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]. فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلىٰ جسده إلا إلىٰ الأجل المسمىٰ وهو يوم القيامة. وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه رأىٰ الأرواح ليلة أسرىٰ به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة.

وأخبر يوم بدر إذا خاطب الموتىٰ أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور، ولم ينكر علىٰ الصحابة قولهم قد جيفوا، وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك، وأما الجسد فلا حس له، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢] فنفىٰ السمع عمن في القبور وهي الإجساد بلا شك. ولا يشك مسلم أن الذي نفىٰ الله ﷻ عنه السمع هو غير الذي أثبت له رسول الله ﷺ السمع.

قال: ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في خبر صحيح أن أرواح الموتىٰ ترد إلىٰ أجسادهم عند المسألة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به. قال: وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلىٰ الأجساد المنهال بن عمرو وحده، وليس بالقوىٰ، تركه شعبة وغيره، وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي وهو أحد الأئمة: ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام علىٰ ما قد نقل وسائر الأخبار الثابتة علىٰ خلاف ذلك[1].

---

(١) قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٧-١٩٨): وقال ابن معين: المنهال ثقة. وقال أحمد العجلي: كوفي ثقة. وقال أحمد بن حنبل: تركه شعبة علىٰ محمد. قال عبد الرحمن ابن أبي حاتم: لأنه سمع من داره =

قال: وهذا الذي قلنا هو الذي صح أيضاً عن الصحابة. ثم ذكر من طريق ابن عيينة عن منصور ابن صفية عن أمه صفية بنت شيبة قالت: دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر، فقيل له: هذه أسماء بنت أبي بكر الصديق، فمال ابن عمر إليها فعزاها، وقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، وإن الأرواح عند الله. فقالت أمه: وما يمنعني وقد أهدي رأس يحيىٰ بن زكريا إلىٰ بغي من بغايا بني إسرائيل[(١)].

قلت: ما ذكره أبو محمد فيه حق وباطل، أما قوله: من ظن أن الميت يحيا في قبره فخطأ فهذا فيه إجمال، إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلىٰ الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ، كما قال، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص.

وإن أراد به حياة أخرىٰ غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا، ليسأل ويمتحن في قبره، فهذا حق ونفيه خطأ، وقد دل عليه النص الصحيح الصريح، وهو قوله ﷺ: فتعاد روحه في جسده، وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ[(٢)].

وأما استدلاله بقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ [غافر: ١١] فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد، كما أن قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن الحياة العارضة له للمسألة معتداً بها؛ فإنه حيي

=

صوت قراءة بالتطريب. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: أبو بشر أحب إليَّ من المنهال، وزاذان ثقة مشهور ألانه بعضهم. وروىٰ له مسلم حديثين في صحيحه، ورواه البيهقي من طريق المنهال بنحو رواية أحمد ثم قال: وهذا حديث صحيح الإسناد.

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ١٦٧٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٩/ ٢٦) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٤) وتهذيب الأسماء (٢/ ٥٩٨) والمحلىٰ (١/ ٢٢).

(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٠) وعمدة القاري (٨/ ٢٠٦).

لحظة بحيث قال فلان قتلني ثم خر ميتاً، على أن قوله: ثم تعاد روحه في جسده لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلي وتمزق.

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

(أحدها) تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

(الثاني) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

(الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

(الرابع) تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنَّها لم تفارقه فراقاً كلياً، بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة. وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه، وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

(الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبلها من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولافساداً.

وأما قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢] فإمساكه ـ سبحانه ـ التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما ردا عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا.

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت، الذي لم ترد روحه إلى بدنه، كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت. فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة.

وأما إخبار النبي ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسري به فقد زعم بعض أهل الحديث أن

الذي رآه أشباحهم وأرواحهم، قال: فإنهم أحياء عند ربهم، وقد رأىٰ إبراهيم مسنداً ظهره إلىٰ البيت المعمور، ورأىٰ موسىٰ قائماً في قبره يصلي، وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح، فرأىٰ موسىٰ آدماً ضرباً طوالاً كأنه من رجال شنوءة، ورأىٰ عيسىٰ يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس، ورأىٰ إبراهيم فشبهه بنفسه.

ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم والأجساد في الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد، ولم تبعث قبل ذلك، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة، وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور، وهذه موتة ثالثة، وهذا باطل قطعاً. وقد صح عن النبي ﷺ: أن الله حرم الجنة علىٰ الأنبياء حتىٰ يدخلها هو[١]، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وهو أول من تنشق عنه الأرض علىٰ الإطلاق، لم تنشق عن أحد قبله[٢].

ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مطراً. وقد سأله الصحابة: كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال: إن الله حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء[٣]. ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب. وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام. وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠٥-٣٠٦ رقم ٦٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧٦) وأبو القاسم الجرجاني في تاريخه (رقم ٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤١٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٨) والبزار (٨/ ٤١١ رقم ٣٤٨٥) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٢١٧ رقم ١٥٧٧) والنسائي في المجتبىٰ (رقم ١٣٧٤) وفي الكبرىٰ (١/ ٥١٩ رقم ١٦٦٦) وابو داود (رقم ١٠٤٧، ١٥٣١) وابن ماجه ٠رقم ١٠٨٥، ١٦٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٢٤٨ رقم ٥٧٨٩) والدارمي (رقم ١٥٧٢) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٣ رقم ٨٦٩٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٩٧ رقم ٤٧٨٠) وفي الكبير (١/ ٢١٦ رقم ٥٨٩) وجوَّد إسناد ابن ماجه الحافظ المنذري في ترغيبه (٢/ ٣٢٨ رقم ٢٥٨٢) ونقل تصحيح الحاكم في الترغيب أيضاً (٢/ ٣٢٩ رقم ٢٥٨٤) وصححه النووي في رياض الصالحين (صـ ٣١٦) وصححه ابن خزيمة كما في فتح الباري (٦/ ٤٨٨).

وقال: هكذا نبعث[١]. هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلىٰ في أعلي عليين مع أرواح الأنبياء.

وقد صح عنه أنه رأىٰ موسىٰ قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء[٢]، ورآة في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر، وإشراف عليه، وتعلق به بحيث يصلي في قبره، ويرد سلام من سلم عليه، وهي في الرفيق الأعلىٰ.

ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين في غاية التجاور والقرب، وإن كان بينهما بعد المشرقين. وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين.

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن، فإنها تصعد إلىٰ ما فوق السموات ثم تهبط إلىٰ الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره، وهو زمن يسير لا يصعد البدن وينزل في مثله، وكذلك صعودها وعودها إلىٰ البدن في النوم واليقظة.

وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها فإنها في السماء وشعاعها في الأرض. قال شيخنا: وليس هذا مثلاً مطابقاً، فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء، والشعاع الذي علىٰ الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها، والروح نفسها تصعد وتنزل.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٦٦٩) وابن ماجه (رقم ٩٩) والحاكم (٤/ ٣١٢ رقم ٧٧٤٦) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٥٦-١٥٧ رقم ٨٢٥٨) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ١٤١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٥١١) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦١٦ رقم ١٤١٨) وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٢/ ١٥٤ رقم ٦٧٧) قال الدارقطني في غرائب مالك: لا يصح، والحارث هذا ضعيف. وكذا قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٨/ ٧٣ رقم ٢٥٥) وقال الرازي في علل الحديث (٢/ ٣٨١ رقم ٢٦٥٣): قال أبي: هذا حديث منكر.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٧٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤، ٤٨٧) وشرح النووي (١٥/ ١٣٣).

وأما قوله الصحابة للنبي ﷺ في قتلى بدر: كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا(١). مع إخباره بسماعهم كلامه، فلا ينفي ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك لوقت رداً يسمعون به خطابه، والأجساد قد جيفت، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعًا ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعاً ينتفعون به، ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً البتة، كيف وقد أخبر النبي ﷺ أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين. وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه، وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع، وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام.

هذه الآية نظير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] وقد يقال نفي إسماع الصم مع نفي إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع، وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعاً بمنزلة خطاب الميت والأصم وهذا حق. ولكن لا ينفي إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفي والله أعلم. وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه إن أنت إلا نذير، أي إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار، الذي كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه.

وأما قوله: إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به، وليس بالقوي فهذا من مجازفته ـ رحمه الله ـ فالحديث صحيح لا شك فيه، وقد رواه عن البراء بن عارب جماعة غير زاذان، منهم عدي بن ثابت، ومحمد بن عقبة، ومجاهد.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٧٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٢-٣٠٤) وشرح النووي (١٧/ ٢٠٧).

قال الحافظ أبو عبدالله بن منده في (كتاب الروح والنفس): أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف، ثنا محمد بن إسحاق الصفار، أنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير، فأرم قليلاً - والارمام السكوت - فلما رفع رأسه، قال: «إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة، ودبر من الدنيا، وحضره ملك الموت، نزلت عليه ملائكة، معهم كفن من الجنة، وحنوط من الجنة، فجلسوا منه مد البصر، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه، ثم قال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه، فتنسل[1] نفسه كما تقطر القطرة من السقاء، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء، فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين، ويقول الرب ﷻ: ردوا عبدي إلى مضجعه، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فيرد إلى مضجعه، فيأتيه منكر ونكير، يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما، فيجلسانه، ثم يقال له: يا هذا من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: صدقت. ثم يقال له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: صدقت، ثم يقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد رسول الله، فيقولان: صدقت، ثم يفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول: جزاك الله خيراً، فوالله ما علمت إن كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله، فيقول: وأنت فجزاك الله خيرًا فمن أنت؟ فقال: أنا عملك الصالح، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة. وإن الكافر إذا

---

(١) الظاهر، فتسيل. (ج).

كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار قال: فيجلسون منه مد بصره، وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى غضب الله وسخطه، فتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين، فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول، فإذا أخرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه، فيقول الرب ﷻ: ردوا عبدي إلى مضجعه، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فترد روحه إلى مضجعه، فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيجلسانه ثم يقولان: يا هذا من ربك؟ فيقول: لا أدري، فينادي من جانب القبر لا دريت، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: جزاك الله شراً، فوالله ما علمت إن كنت لبطيئاً عن طاعة الله سريعاً في معصية الله، فيقول:ومن أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»[1] رواه الإمام أحمد، ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي النضر. ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر، وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه.

ثم ساقه ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن خصيف الجزري عن مجاهد عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة رجل من الأنصار، ومعنا رسول الله ﷺ فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ووضعت الجنازة وجلس رسول الله .. الحديث.

***

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٥٠٠ رقم ٧٢٣) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧) وأبو داود (رقم ٤٧٥٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٤ رقم ١٢٠٥٩) وأحمد (٤/ ٢٨٧) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٥٥-٣٥٦ رقم ٣٩٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩) وابن عدي في الكامل (٧/ ١٧٣).

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(1)أخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده. فهو الذي يشفع بنفسه إلىٰ نفسه، ليرحم عبده. فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه. فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته ـ سبحانه ـ إلىٰ نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده. وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله ـ سبحانه ـ في كتابه، بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ١٢٣] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١] وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه. كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس: ٣] وقال: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور. فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتىٰ يأذن له. ويقول: أشفع في فلان. ولهذا كان أسعد

---

(١) ٢٢٠ إغاثة جـ١.

الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله ـ سبحانه ـ قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له، وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله. فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه ـ سبحانه ـ علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع. فما لم يوجد مجموع الأمرين ولم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون. وهم عبيد محض، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم، وأمرهم. ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً. فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه. فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب ـ سبحانه ـ وما يجب له ويمتنع عليه. فإن هذا محال ممتنع، شبيه قياس الرب ـ تعالى ـ على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج. وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي. والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق. والرب والمربوب، والسيد والعبد. والمالك والمملوك. والغني والفقير. والذي لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم؛ فإن قيام مصالحهم بهم. وهم أعوانهم وأنصارهم، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم. ولولاهم لما انبسطت أيديهم

وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلىٰ قبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردُّوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلىٰ غيرهم. فلا يجدون بدا من قبول شفاعتهم علىٰ الكُره والرضىٰ.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السموات والأرض عبيد له، مقهورون بقهره، مصرفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة.

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. وقال ـ سبحانه ـ في سيدة أي القرآن، آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض. بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض. ولهذا يطلق نفيها تارة، بناء علىٰ أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس، ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله.

فمتخذ الشفيع مشرك، لا تنفعه شفاعته، ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه، ومرجوه، ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه،

ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن الله ـ سبحانه ـ للشفيع أن يشفع فيه.

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فبين ـ سبحانه ـ أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم. وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقاً، ولا أمراً، ولا إذناً، بل هو سبب محرك له من خارج. كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب. وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يخالفه، كمن يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله، وشفاعته أقوى من المعارض، فيقبل شفاعة الشافع. وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقى متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح. فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله: هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره، أو يكرهه على الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه. فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته. وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب ـ سبحانه ـ فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع، لم يمكن أن توجد.

والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه،

وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر. فإن أحداً من الأنبياء والملائكة، وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله ـ تعالىٰ ـ، وخلقه.

فالرب ﷻ هو الذي يحرك الشفيع حتىٰ يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتىٰ يقبل. والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره. وهو في الحقيقة شريكه. ولو كان مملوكه وعبده. فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر، أو غيره، فكل منهما محتاج إلىٰ الآخر.

ومن وفقه الله ـ تعالىٰ ـ لفهم هذا الموضع ومعرفته، تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته الله ـ تعالىٰ ـ من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

***

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

...[1]حُرِمُوا والله الوصول بعدولهم عن منهج الوحي، وتضييعهم الأصول، وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها. فخانتهم أحرص ما كانوا عليها. وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتىٰ إذا بعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه. وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقدموا علىٰ ما قدموه ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] وسقط في أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غلة ما بذروه.

فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباءً منثوراً؛ ويا عظم المصيبة عندما يتبين بوارق أمانيه خُلَّبًا وآماله كاذبة غروراً. فما ظن من انطوت سريرته علي

---

(١) ٥ مدارج جـ١.

البدعة والهوى، والتعصب للآراء، بربه يوم تبلى السرائر؟ وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟

هيهات والله. لقد ظن أكذب الظن، ومنته نفسه أبين المحال. وإنما ضمنت النجاة لمن حكم هدى الله على غيره، وتزود التقوى وائتم بالدليل. وسلك الصراط المستقيم. واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم.

***

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

[(١)] قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولهذا ذم الله ـ سبحانه ـ من آتاه شيئاً من نعمه، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. وفي الآية الأخرى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾ [الزمر: ٤٩]. وقال البغوي: على علم من الله أني له أهل. وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله. وقال آخرون: بل العلم له نفسه، ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب، قاله قتادة

(١) ٣٧ شفاء.

وغيره. وقيل: المعنى قد علمت أني لما أوتيت هذه في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف. قال تعالى: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ [الزمر: ٤٩] أي: النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها، ومحنة نمتحنه بها، لا يدل على اصطفائه واجتبائه وأنه محبوب لنا مقرب عندنا. ولهذا قال في قصة قارون: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص: ٧٨] فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضاء الله ـ سبحانه ـ عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة، لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي: النعمة فتنة لا كرامة: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١] أي قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا. قال ابن عباس: كانوا قد بطروا نعمة الله، إذ آتاهم الدنيا وفرحوا بها وطغوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا. وقوله: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ المعنى: أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب، ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئاً، وتبين أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا وهوان من منعناه إياها.

وقال أبو إسحاق: معنى الآية أن قولهم: إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه وإنا أهله أحبط أعمالهم، فكنى عن إحباط العمل بقوله: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾. ثم أبطل ـ سبحانه ـ هذا الظن الكاذب منهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الزمر: ٥٢]. والمقصود أن قوله: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ إن أريد به علمه نفسه، كان المعنى أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة، التي

توصلت بها إلىٰ ذلك وحصلته بها. وإن أريد به علم الله كان المعنىٰ أوتيته علىٰ ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وأني أهله، وذلك من كرامتي عليه. وقد يترجح هذا القول بقوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ ولم يقل: حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدل علىٰ اعترافه بأن غيره آتاه إياه. ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أي محنة واختبار، والمعنىٰ أنه لم يؤت هذه لكرامته علينا، بل أوتيه امتحاناً منا وابتلاء واختباراً، هل يشكر فيه أم يكفر.

وأيضاً فهذا يوافق قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦] فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظن أنه لكرامته عليه. فالآية علىٰ التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلىٰ نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلىٰ فضل الله وإحسانه، وذلك محض الكفر بها؛ فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلىٰ غيره كان جحداً لها، فإذا قال: أوتيته علىٰ ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك، فقد أضافها إلىٰ نفسه، وأعجب بها، كما أضافها إلىٰ قدرته الذين قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فهؤلاء اغتروا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، فما أغنىٰ عن هؤلاء قوتهم ولا عن هذا علمه.

وعلىٰ التقدير الثاني يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام الله عليه لكونه أهلاً ومستحقًّا لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها علىٰ الله أن ينعم عليه، وأن تلك النعمة جزاء له علىٰ إحسانه وخيره، فقد جعل سببها ما اتصف به هو لا ما قام بربه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر؟ ليس ذلك جزاء علىٰ ما هو منه. ولو كان ذلك جزاء علىٰ عمله أو خير قام به فالله سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالمسبب والجزاء، والكل محض منته وفضله وجوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه. وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نعمة، وهي منه ـ سبحانه ـ فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه، كما قال داود: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك عليَّ تستوجب شكراً آخر؟ فقال: الآن شكرتني يا داود[١]. ذكره الإمام أحمد. وذكر أيضاً عن الحسن قال: قال داود: إلهي لو أن لكل شعرة من شعري لسانين يذكرانك الليل والنهار والدهر كله لما أدوا ما لك عليَّ من حق نعمة واحدة[٢].

(والمقصود): أن حال الشاكر ضد حال القائل: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، ونظير ذلك قوله: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠]. قال ابن عباس: يريد من عندي. وقال مقاتل: يعني أنا أحق بهذا. وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به. وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحققته، فوصف الإنسان بأقبح صفتين: إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس. فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المتفضل بما أعطاه، فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث، فقال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [فصلت: ٥٠]. ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٨٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٨ رقم ٤٥٧٩) وأحمد في الزهد (صـ ٦٩) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٢٥) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين (٣/ ٤١٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٢ رقم ٣١٨٩٠).

الوجه الثاني: أن الذنوب والمعاصي أمر مشترك بين الأمم لم تزل في العالم من طبقات بني آدم عالمهم وجاهلهم وزاهدهم في الدنيا وراغبهم وأميرهم ومأمورهم، وليس ذلك أمراً اختصت به هذه الأمة حتى يقدح به فيها وفي نبيها.

الوجه الثالث: أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل، بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان والذنوب والمعاصي، فيكون فيه هذا وهذا. فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه.

الوجه الرابع: أن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء وعدد الرمل والحصا، ثم تاب منها تاب الله عليه. قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. فهذا في حق التائب، فإن التوبة تجب ما قبلها[١]، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له[٢]، والتوحيد يكفر الذنوب، كما في الحديث الصحيح الإلهي: «ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة»[٣]. فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد إن قوي التوحيدعلى محو آثارها بالكلية، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم، فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وقال ـ تعالى ـ في حق

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٠) (٤/ ٣٩٣) وفتح الباري (٦/ ٥١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٤٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٠ رقم ١٠٢٨١) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٩٧ رقم ١٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٤٨ رقم ٤٧٥٨): ورواة الطبراني رواة الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٨٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٣) وشرح النووي (١٧/ ١٢).

الكفار والمشركين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً»(١).

فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة لها، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيده من النار. وأما الشرك بالله والكفر بالرسول فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا تبقى معه حسنة.

***

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

(٢)يذكر عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت أن يعصمه، ثم غلبته عيناه، فنام: فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة. فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، إذا آمنت بي، ولم تشرك بي شيئاً، أقمت حملة عرشي ومن حوله يسبحون بحمدي، ويستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنها، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة، غفرت له ولا أبالي» ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣](٣).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٤٥).

(٢) ٣٠١ مدارج جـ١.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٢).

يا عبدي! لا تعجز فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة[١]. ومنك الاستغفار وعليَّ المغفرة. ومنك التوبة وعليَّ تبديل سيئاتك حسنات».

...[٢]الطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة. لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزاً، وتفريطاً وذنباً وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في واد وهو في واد. وهي تسمى طريق الطير. يسبق النائم فيها على فراشه السعاة، فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك، إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان. وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده. فإنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد منن ربه ـ سبحانه ـ عليه قَبْلَ الذنب، وفي حاله مواقعته وبعده، وبره به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه؛ فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يمده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم، ويردهم

---

(١) فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه قال: «أربع خصال: واحدة منهن لي وواحدة لك. وواحدة فيما بيني وبينك. وواحدة فيما بينك وبين عبادي. فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئًا. وأما التي لك عليَّ فما عملت من خير جزيتك به. وأما التي بيني وبينك، فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة. وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضي لنفسك» أخرجه أبو يعلى (٥/ ١٤٣ رقم ٢٧٥٧) والبزار (٦/ ٤٩٠ رقم ٢٥٢٣) والبيهقي في الشعب (٧/ ٥١٨ رقم ١١١٨٦) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٣ رقم ٦١٣٧) وفي الدعاء (رقم ١٦) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥١): ورواه البزار وفي إسناده صالح المري وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضاً.

(٢) ٤٣١ مدارج جـ١.

عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه، يراه ويطلع عليه. فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه. والأرض تستأذنه أن تخسف به. والبحر يستأذنه أن يغرقه. كما في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه: أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه: أن تعاجله وتهلكه. والرب ـ تعالىٰ ـ يقول: دعوا عبدي. فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض. إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمني وإليَّ. عبدي. وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته، وإن أتاني نهاراً قبلته، وإن تقرب مني شبراً تقربت ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن مشي إليَّ هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليَّ تبت عليه، ومن أعظم مني جوداً وكرماً وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزوني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، وأحرسهم علىٰ فرشهم. من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد. ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. ومن تصرف بحولي وقوتي آلنت له الحديد، ومن أراد مرادي أردت ما يريد. أهل ذكري أهل مجالستي. وأهل شكري وأهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب. لأطهرهم من المعايب»(١).

ولنقتصر علىٰ هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلىٰ معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها. والله الموفق لمراعاة ذلك، والقيام به عملاً وحالاً. كما وفق له علماً ومعرفة. فما خاب من توكل عليه، ولاذ به ولجأ إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل. تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

---

(١) لم أجده بهذا السياق، بينما هو ملفق من عدة أحاديث.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة»، وقد أمر الله ـ تعالىٰ ـ بها في كتابه. وأثنىٰ علىٰ خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]. وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ ـ ٨] وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١].

«فمنيبين» منصوب علىٰ الحال من الضمير المستكن في قوله: «فأقم وجهك»؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] أي فطرهم منيبين إليه، فلو خلوا وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تحول وتتغير عما فطرت عليه. كما قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة» وفي رواية: «علىٰ الملة حتىٰ يعرب عنه لسانه»(١) وقال عن نبيه داود: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤]، وأخبر سبحانه أن البشرىٰ منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: ١٧].

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٤١ رقم ١٣٢) وأحمد (٣/ ٣٥٣) وأبو يعلىٰ (٢/ ٢٤٠ رقم ٩٤٢) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٣ رقم ٨٢٨) وعبدالرزاق (١١/ ١٢٢ رقم ٢٠٠٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٨): رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات.

و«الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر. والبر والفاجر. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع. وهذا «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال ـ تعالىٰ ـ في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«الإنابة» الثانية إنابة أوليائه. وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع: وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور علىٰ ذلك.

وفي اللفظة معنىٰ الإسراع والرجوع والتقدم. و«المنيب» إلىٰ الله: المسرع إلىٰ مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلىٰ محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع. وهي ههنا الرجوع إلىٰ الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلىٰ الحق إصلاحاً، كما رجع إليه اعتذاراً. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهداً. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة».

لما كانت التائب قد رجع إلىٰ الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته، وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه

ثانياً. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم. ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]. وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]. وقال: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق: «الغدر بعد العهد». فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به، كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به. وقوله: «والرجوع إليه حالاً. كما رجعت إليه إجابة». أي هو ـ سبحانه ـ قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا، فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال.

(١)قاعدة: كثيراً ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]. وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧]. وقوله عن نبيه داود: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤]. والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي

(١) ١٧٣ طريق الهجرتين.

القلب وجواذبه إليه. وهي تتضمن المحبة والخشية؛ فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل.

والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنابة مصدرها الرجاء، ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من الله.

وهؤلاء أبسط نفوساً من أهل القسم الأول وأشرح صدوراً، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعاً، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة، والغنى والكرم، والقدرة فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

***

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

[(١)] سئل ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧] أين الناس يومئذ؟ قال: «على جسر جهنم»[(٢)].

[(٣)] قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه. فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل، وكذلك ما قدره حق قدره من قال إنه لم يرسل إلىٰ خلقه رسولاً ولا أنزل كتاباً. بل نسبه إلىٰ ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدىٰ، وخلقهم باطلاً عبثاً. وكذا ما قدره حتىٰ قدره من نفىٰ حقائق أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، فنفىٰ سمعه وبصره، وإرادته واختياره، وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، ونفىٰ عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيئته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون. فتعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده علىٰ ما لا يفعله ولا له عليه قدره ولا تأثير له فيه البتة، بل هو نفس فعل الرب ـ جل جلاله ـ فيعاقب عبده علىٰ فعله، فهو ـ سبحانه ـ الذي جبر العبد عليه، وجبره علىٰ الفعل أعظم من إكراه

(١) ٢٧٦ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/٢٥٣) والحاكم (٢/٤٧٣ رقم ٣٦٣٠) والنسائي في الكبرىٰ (٦/٤٤٧ رقم ١١٤٥٣) والتِّرمذي (رقم ٣٢٤١) وأحمد (٦/١١٦) والطَّبراني في مسند الشَّاميين (٤/٥٨ رقم ٢٧٢٤) وابن أبي عاصم في الأوائل (رقم ١٨٠) وابن المبارك في الزُّهد (رقم ٢٩٨) وصحَّحه الحاكم والترمذي.

(٣) ١٨٧ الجواب الكافي.

المخلوق للمخلوق. وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول: أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة، ثم يعاقبه عليه؟ ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

وقول هؤلاء شر قول، وهم أشباه المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره. وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره، بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] وتعرج الملائكة والروح إليه وتنزل من عنده، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، فصانه عن استوائه على سرير الملك، ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه، واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي تفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره.

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً، وجعله ـ سبحانه ـ يحل في جميع مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود. وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز، ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته، وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا. وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، ـ تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارىٰ في رب العالمين: إنه أرسل ملكاً ظالماً فادعىٰ النبوة لنفسه، وكذب علىٰ الله، وأخذ زماناً طويلاً يكذب علىٰ الله كل وقت، ويقول: قال الله كذا، وأمر بكذا، ونهىٰ عن كذا. وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم، ويقول: الله أباح لي ذلك، والرب ـ تعالىٰ ـ يظهره ويؤيده، ويعليه ويقويه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن يخالفه، ويقيم الأدلة علىٰ صدقه، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، وتحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء إلىٰ يوم القيامة. ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب ﷻ وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته، ـ تعالىٰ الله عن قول الجاحدين علواً كبيراً ـ. فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أمٍّ تقاسما بأسحم داجٍ عوضُ لا نتفرق[(١)]

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه يجوز أن يعذِّب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الشقاء، وإن يثيب أعداءه ومن لم يطعه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم، وإن كلا الأمرين بالنسبة إليه جائز، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله. وقد أنكر ـ سبحانه ـ في كتابه علىٰ من جوز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام. وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتىٰ، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع الخلق ليوم يجازي المحسن فيه بإحسانه والمسيء بإساءته، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من

---

(١) هذا بيت من بحر الطويل، قائله الأعشىٰ، ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب (صـ ٤٧١) وابن السكيت في إصلاح المنطق (ص ٤٨٧) وابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة (ص ٢٢١) وابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٦٣) والزمخشري في المفصل في صنعة الإعراب (ص ١٩٤) وفي ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١/ ١٦٤) وذكره أيضاً الطبري في تفسيره (٨/ ١٤١) وابن منظور في اللسان (٧/ ١٩٢) (١٢/ ٢٨٢).

ظالمه، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله. فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله، وسواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده. يستخف بنظر الله إليه، وإطلاعه عليه، وهو في قبضته وناصيته بيده. ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه.

ويستخفي من الناس ولا يستخفي من الله. ويخشى الناس ولا يخشى الله. ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه ـ إن ساعد القدر ـ قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوقاً مثله، فهل قدر الله قدره من هذا وصفه؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم، والطاعة والذل، والخضوع والخوف والرجاء؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه، واستهانه به وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له ـ سبحانه ـ، فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه، وأهونهم عليه، وأمقتهم عنده، وهو عدوه على الحقيقة؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ

إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فالشيطان يدعو المشركين إلىٰ عبادته، ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها.

وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان، فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبد الله ولا رسوله ﷺ، فيدل هذا كله علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١] فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي من إغوائهم وإضلالهم. ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فهذه إشارة لطيفه إلىٰ السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل علىٰ الله ـ سبحانه ـ أن يشرع لعباده إلهاً غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله. وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضىٰ به؟ ـ تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق (أمر لأجله بالأمر

الذي) كان من أكبر الكبائر عند الله، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم. فإن الله ـ سبحانه ـ خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك. ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر، ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر[١].

***

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

[٢]إن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل: قد قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]. فقد استثنى الله ـ سبحانه ـ بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء. هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وهذا قول مقاتل وغيره: وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها.

قال أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا: وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]. وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان. وأما قول أهل النار: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر: ١١]. فتفسير هذه الآية التي في البقرة،

---

(١) تقدم قريبًا قول الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ ضمن ما نقل عن كتاب الروح فليرجع إليه من أراده. (ج).

(٢) ٤١ الروح.

وهي قوله تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور:

وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات. وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها، ففي الحديث الصحيح: «**أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسىٰ آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور**»(١).

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالىٰ لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذٍ تصعق الخلائق كلهم، قال تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور: ٤٥]. ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرىٰ. وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء، فقال أبو عبدالله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة، لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل علىٰ أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق. ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسىٰ ممن لم يمت من الأنبياء. وهذا باطل. (وقال) القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور، حين تنشق السموات والأرض. قال: فتستقل الأحاديث والآثار. ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذه قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقىٰ موسىٰ آخذًا بقائمة العرش، قال: وهذا إنما هو عند نفخة الفزع.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٩٨، ٢٤١١) ومسلم (رقم ٢٣٧٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤-٤٤٥).

قال أبو عبدالله: قال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالىٰ أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلىٰ حال، ويدل علىٰ ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا. وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولىٰ مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء وخصوصاً بموسىٰ. وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه، حتىٰ يرد عليه السلام. إلىٰ غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلىٰ أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم. وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله. فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق؛ ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق علىٰ صحته: «**فأكون أول من يفيق**» فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسىٰ. فإنه حصل فيه تردد: هل بعث قبله من غشيته أو بقي علىٰ الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً، لأنه حوسب بصعقة يوم الطور. وهذه فضيلة عظيمة لموسىٰ، ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته علىٰ نبينا مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً، انتهىٰ.

قال أبو عبدالله القرطبي: إن حمل الحديث علىٰ صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حمل علىٰ صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنىٰ إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه، فإذا موسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور. قلت: وحمل الحديث علىٰ هذا لا يصح، لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسىٰ قبله أم لم يصعق،

بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى: لا أدري أصعق أم لم يصعق. وقد قال في الحديث: «**فأكون أول من يفيق**» وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى: هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق. ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت. وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ. وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش**»(١) قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين فجاء هذا.

والحديثان هكذا (أحدهما) أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق. (والثاني) هكذا: أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»(٢)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. فدخل على الراوي هذا الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ يقول ذلك.

فإن قيل: فما تصنعون بقوله: «**فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ**»،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤١٢) ومسلم (رقم ٢٣٧٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤-٤٤٥) (١١/ ٤٣٣-٤٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٤٨، ٣٦١٤) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٥٠) (١٥/ ٢٩٣) وتحفة الأحوذي (٨/ ٤٦٤) (١٠/ ٥٩-٦٠).

والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]. ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة.

قيل: هذا والله أعلم غير محفوظ، وهو وهم من بعض الرواة، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور» فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة، وأن موسى داخل فيمن استثني منها. وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث، فكيف يقول: لا أدري أبعث قبلي أم جوزى بصعقة الطور؟ فتأمله.

وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله ـ سبحانه ـ لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم، فإنهم يصعقون جميعاً، وأما موسى ﷺ فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم، ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ. ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

(١) وذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو ابن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سأل جبريل عن هذه الآية: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]. قال: «هم الشهداء يبعثهم الله متقلدين أسيافهم حول عرشه، فأتاهم ملائكة من المحشر بنجائب من ياقوت أزمتها الدر الأبيض برحال الذهب، أعناقهم السندس والإستبرق، ونمارقها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون في الجنة على خيول يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا

(١) ١٨٧ حادي الأرواح.

نظر كيف يقضي الله بين خلقه، يضحك الله إليهم، وإذا ضحك الله إلى عبد في موطن فلا حساب عليه»[١].

***

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

[٢]في ذكر عدد أبواب الجنة: قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال في صفه النار: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧١] بغير واو. فقالت طائفة: هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية، وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو. وهذا قول ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية، وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين[٣]. وقال طائفة أخرى: الواو زائدة، والجواب

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٧١): وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية: من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: هم شهداء الله عز وجل. صححه الحاكم ورواته ثقات ورجحه الطبري.

(٢) ٤٣ حادي الأرواح.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٧): ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ واو الثمانية. واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزع. وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٥/ ١٤٨- ١٤٩): وقد قيل في قول الله عز وجل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ =

الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضاً ضعيف؛ فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم، ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة.

وقالت طائفة ثالثة: الجواب محذوف، وقوله: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ عطف على قوله: ﴿ جَآءُوهَا ﴾ وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم. قال المبرد: وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم. قال أبو الفتح ابن جني: وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه، ويرون أن الجواب محذوف للعلم به. بقي أن يقال: فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة، وذكره في آية أهل النار؟ فيقال: هذا أبلغ في الموضعين؛ فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليه فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة؛ فإن هذا شأن الجزاء المرتب. على الشرط أن يكون عقيبه، فإنها دار الإهانة والخزي، فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول.

وأما الجنة فإنها دار الله، ودار كرامته، ومحل خواصه وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه

= زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧١] بلا واو. وقال في الجنة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو. إن هذه الواو تدعى واو الثمانية، وذكروا من الشواهد على ما ذهبوا إليه من ذلك ما لا تقوم به حجة. ذكروا قول الله عز وجل: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ١١٢] فأدخل الواو في الصفة الثامنة دون غيرها. ومنه قوله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] فدخلت الواو في الصفة الثامنة. وهذا قد أنكره قوم من أهل العلم باللسان، ولم يروا فيما نزع أولئك إليه من البيان، والله أعلم.

وانظر: التمهيد (٧/ ١٨٧-١٨٨) والقاموس المحيط (ص ١٧٤٦) والرد على الجهمية والزنادقة (ص١٠٨-١٠٩) للإمام أحمد بن حنبل بتحقيقي وهو من منشورات دار الثبات بالرياض وسوف يصدر بزيادات وتوثيقات في دار القبس بالرياض إن شاء الله تعالى.

بأولي العزم من رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم، فيقول: «أنا لها» فيأتي إلى تحت العرش، ويخر ساجداً لربه، فيدعه ما شاء أن يدعه، ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته، فيشفع إليه ـ سبحانه ـ في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيماً لخطرها، وإظهاراً لمنزلة رسوله وكرامته عليه.

وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها، وما ركبه من الأطباق طبقاً بعد طبق، وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم. وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك؛لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء، فجنة الله عالية غالية، بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به.

فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذا الدار؟ فَلْيَعُدْ عنها إلى ما هو أولى به، وقد خلق له وهيئ له. وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً، ويفرح بعضهم ببعض.

وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمراً يلعن بعضهم بعضاً، ويتأذى بعضهم ببعض. وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحداً واحداً، فلا تهمل تدبر قوله تعالى: ﴿ زُمَرًا ﴾ وقال خزنة أهل الجنة لأهلها ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فبدؤهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم: ﴿ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾، أي سلامتكم ودخولها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة

والطيب والدخول والخلود. وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن، وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ [الزمر: ٧١] فاعترفوا وقالوا: ﴿ بَلَىٰ ﴾ فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوىٰ لهم.

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ادخلوها، وقول خزنة النار لأهلها: ادخلوا أبواب جهنم، تجد تحته سراً لطيفاً ومعنى بديعاً، لا يخفى على المتأمل، وهو أنها لما كانت دار العقوبة، وأبوابها أفظع شيء وأشده حراً، وأعظمه غماً، يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها، ويدنو من الغم والخزي والحزن والكرب بدخول الأبواب، فقيل: ادخلوا أبوابها، صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة، ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها وتأمل.

(١) لما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض كانت أبوابها كذلك، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها. وكلما علت الجنة اتسعت. فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة. ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب؛ فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض، ولهذه الأمة باب مختص بهم يدخلون منه دون سائر الأمم، كما في المسند من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي»(٢) الحديث

---

(١) ٥٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (رقم ٢٥٨، ٥٩٣) وأبو داود (رقم ٤٦٥٢) والحاكم (٣/ ٧٧ رقم ٤٤٤٤) والطبراني في الأوسط (٣/ ٩٣ رقم ٢٥٩٤) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وسيأتي بتمامه إن شاء الله ـ تعالىٰ ـ.

وقال خلف بن هشام البزار ثنا أبو شهاب عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي إسحاق عن عاصم بن حمزة عن علي بن أبي طالب قال: «إن أبواب الجنة هكذا بعضها فوق بعض، ثم قرأ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ إذا هم عندها بشجرة في أصلها عينان تجريان، فيشربون من إحداهما فلا تترك في بطونهم قذىٰ ولا أذىٰ إلا رمته، ويغتسلون من الأخرىٰ فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تشعث رءوسهم، ولا تغير أبشارهم بعد هذا أبداً، ثم قرأ: ﴿ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ فيدخل الرجل وهو يعرف منزله، ويتلقاهم الولدان فيستبشرون برؤيتهم كما يستبشر الأهل بالحميم يقدم من الغيبة. فينطلقون إلىٰ أزواجهم فيخبرونهم بمعاينتهم فتقول: أنت رأيته؟ فيقوم إلىٰ الباب فيدخل إلىٰ بيته فيتكئ علىٰ سريره فينظر إلىٰ أساس بيته، فإذا هو قد أسس علىٰ اللؤلؤ، ثم ينظر في أخضر وأحمر وأصفر، ثم يرفع رأسه إلىٰ سماء بيته، فلولا أنه خلق له لالتمع بصره، فيقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله[1]. والله أعلم.

[2]قال تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [الزمر: ٧٣]. والخزنة جمع خازن، مثل حفظة وحافظ، وهو المؤتمن علىٰ الشيء الذي قد استحفظه.

وروىٰ مسلم في صحيحه من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»[3].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٣٥-٣٦) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٢/ ١٦٢ رقم ٥٤٢) وابن الجعد في مسنده (رقم ٢٥٦٩).

(٢) ٨١ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٩٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦).

وقد تقدم حديث أبي هريرة المتفق عليه: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فهلم» قال أبوبكر: يا رسول الله ذاك الذي لا توىٰ عليه، فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكون منهم» وفي لفظ: هل يدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[1] لما سمت همة الصديق إلىٰ تكميل مراتب الإيمان.

[2]قد تقدم قوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وقوال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عباد بن موسىٰ العكلي حدثنا يحيىٰ بن سليم الطائفي حدثنا إسماعيل بن عبدالله المكي حدثنا أبو عبدالله أنه سمع الضحاك بن مزاحم يحدث عن الحارث عن علي أنه سأل رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال قلت: يا رسول الله ما الوفد إلا ركب؟ قال النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ: «والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رجال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مثل مد البصر، وينتهون إلىٰ باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداهما جرت في وجوهم نضرة النعيم، وإذا توضئوا من الأخرىٰ لم تشعث أشعارهم أبداً، فيضربون الحلقة بالصفيحة فلو سمعت طنين الحلقة»[3].

[4]وقال عبد الله بن محمد البغوي: حدثنا علي، أنبأنا زهير، عن أبي إسحاق، عن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٧) ومسلم (رقم ١٠٢٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١٢).

(٢) ١٠٦ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٧١-٢٧٢): رواه ابن أبي الدنيا في كتاب صفة الجنة عن الحارث وهو الأعور عن علي مرفوعاً، ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً والبيهقي وغيرهما عن عاصم بن ضمرة عن علي موقوفاً عليه بنحوه، وهو أصح وأشهر.

(٤) ٢٦٥ روضة المحبين.

عاصم، عن علي ﷺ قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلىٰ إحداهما فكأنما أمروا به فشربوا منها فأذهب الله ما في بطونهم من قذىٰ أو أذىٰ أو بأس، ثم عمدوا إلىٰ الأخرىٰ، فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، ولم تتغير أشعارهم بعدها أبداً، ولم تشعث رؤوسهم كأنما ادهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلىٰ الجنة فقالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم، كما يُطيف أهل الدنيا بالحميم يقدم عليهم من غيبته، فيقولون له: أبشر بما أعد الله ـ تعالىٰ ـ لك من الكرامة، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلىٰ بعض أزواجه من الحور العين، فيقول: جاء فلان باسمه الذي كان يدعىٰ يه في الدنيا قال: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وهو بأثرىٰ فيستخف إحداهن الفرح حتىٰ تقوم علىٰ أسكُفَّة بابها، فإذا انتهىٰ إلىٰ منزله نظر إلىٰ [أساس] بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من [كل] لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلىٰ سقفه، فإذا مثل البرق، ولولا أن الله ﷻ قدره لألم أن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ثم اتكأوا، فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٣٤]. ثم ينادي منادٍ يحيون فلا يموتون أبداً، ويقيمون فلا يظعنون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً"[(١)].

وفي سنن ابن ماجه عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ: «ألا هل مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبدٍ في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية

(١) ٣٠٢ أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ١٦٢ رقم ٥٤٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٤-٣٥ رقم ٣٤٠٠٤) وابن الجعد في مسنده (رقم ٢٥٦٩).

بهية» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون. لها قال: «قولوا إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله [تعالى][(١)].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزمر

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٣٣٢) والضياء في المختارة (٤/ ١٣٢ رقم ١٣٤٣) وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ رقم ٧٣٨١) والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢ رقم ٣٨٨) وفي مسند الشاميين (٢/ ٣٢٢ رقم ١٤٢١) والبزار (٧/ ٤٣ رقم ٢٥٩١).

الفهرس

الصفحة الموضوع

سُورَةُ النُّورِ

٦ بحث في أنه سبحانه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه.
٧ بحث في أنه ليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من الزنا واللواط.
٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾.
٧ فصل في بيان أن الله قد حرم نكاح الزانية.
١٢ بحث في أن توبة القاذف إكذابه نفسه.
١٤ حكم رسول الله ﷺ في اللعان.
١٨ فصل فيما استفيد من حكم رسول الله ﷺ عدة أحكام.
٢٣ بحث في أنه قد جعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية.
٢٣ بحث في جعل الله سبحانه أيمان اللعان من جانب الزوج أولًا.
٢٤ بحث في أن نكول المرأة دون يمين الزوج ليس موجبًا للحد.
٢٦ بحث في قصة الإفك.
٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾.
٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾.
٣٠ فوائد غض البصر.
٣٣ زكاة القلب موقوفة على طهارته وذلك موقوف على اجتناب المحرمات: الزنا وغيره.
٣٤ فصل في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه.
٣٥ بحث هل يجوز تكرار النظر إلى امرأة لمن علق قلبه بها من أجل أن يسلوا عنها؟
٣٧ فصل في أن النظر أقرب الوسائل إلى المحرم لذا اقتضت الشريعة تحريمه.

الصفحة الموضـــوع

٣٩ فصل في أن غض البصر فيه عدة فوائد.
٤٠ فصل في أن تحريم النظر إلىٰ الحرة العجوز وإباحته إلىٰ الأمة الجميلة أن ذلك كذب علىٰ الشارع.
٤٠ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾.
٤٢ بحث في التوبة وبيان ما تتضمنه وشروطها وحقيقتها.
٤٤ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾.
٤٠ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.
٤٥ بحث في أن الله ﷻ سمىٰ نفسه نورًا وجعل كتابه نورًا ونبيه نورًا وحجابه نورًا.
٤٧ بحث هل رأىٰ رسول الله ﷺ ربه ليلة أسري به أم لا؟
٤٩ بحث في معنىٰ ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾.
٥٠ بحث في أن الناس قسمان: أهل الهدىٰ والبصائر، وأهل الجهل والظلم.
٥٠ بحث في أن أهل الجهل والظلم قسمان أيضًا.
٥٣ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾.
٥٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ... ﴾.
٥٥ فصل في الفرق بين الرجاء والتمني.
٥٥ فصل في أصحاب مثل الظلمات المتراكمة.
٥٩ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾.
٦١ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾.
٦٢ بحث في أن التحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا وعملًا يتضمن الشفاء والفوز.

الصفحة الموضوع
٦٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.
٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ الآية.
٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ الآية.
٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾.
٦٧ بحث في الأدب مع رسول الله ﷺ.
٦٨ بحث في الأدب مع الخلق.
٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

٧١ بحث في البركة وبيا أنها نوعان وأقوال أهل العلم فيها.
٧٤ بحث في قوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾.
٧٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.
٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.
٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ ...﴾.
٨٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾.
٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾.
٨٥ بحث في أن الله يقطع يوم القيامة الأسباب والعلاقات التي كانت بين الخلق في الدنيا.
٨٦ بحث في قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

الصفحة الموضوع
٨٧ بحث في أن الضابط النافع في أمر الخلطة هو أن يخالطهم في الخير ويصبر على أذاهم.
٨٨ بحث في بيان كيف يُتَّخذ القرآن مهجورًا.
٨٩ بحث في كيفية التأمل في القرآن.
٨٩ بحث في أن أنفع شيء للعبد أن يتدبر القرآن ويعمل به.
٩١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا﴾.
٩١ بيان أن تيسر القرآن للذكر ينافي حمله على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره.
٩٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾.
٩٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.
٩٥ فصل في هديه ﷺ في الجهاد والغزوات.
٩٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.
١٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾.
١٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾.
١٠١ بحث في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾.
١٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.
١٠٢ بحث في حفظ الخطوات.
١٠٢ فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه.
١٠٥ فصل في السر في نصب سلام الملائكة لإبراهيم ورفع سلام إبراهيم للملائكة.
١٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.
١٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾.
١٠٩ فصل في الفرق بين الاقتصاد والشح.

الصفحة الموضوع
١١٠ فصل في الفرق بين الاقتصاد والتقصير.
١١١ بحث في أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها.
١١٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾.
١١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾.
١١٨ بحث في تبديل السيئات حسنات.
١٢٢ فصل في التوبة: مبدؤها ومنتهاها.
١٢٤ من علامات وموجبات التوبة الصحيحة.
١٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾.
١٢٦ بحث حول حضور أعياد المشركين.
١٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.
١٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾.
١٢٩ فصل في الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله.
١٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

١٣٢ بحث في إنجاء أهل التوحيد وعقوبات أهل الشرك.
١٣٢ بحث في أن أصل الأعمال الدينية محبة الله ورسوله.
١٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾.
١٣٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾.

الصفحة الموضـــوع
١٣٥ بحث في ثناء الله سبحانه على خليله إبراهيم بسلامة القلب.
١٣٦ بحث في سلامة القلب.
١٣٧ بحث في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.
١٣٨ فصل في القلب الميت.
١٣٩ فصل في القلب المريض.
١٤٠ بحث في بيان الشرك وأنه نوعان: أكبر وأصغر.
١٤١ بحث في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.
١٤١ فصل في بيان أن ثمرة الفكرة تحصل بثلاثة أشياء.
١٤٢ بحث في قصر الأمل.
١٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.
١٤٥ بحث في أحوال الناس والعالم عندما يعرضون عن تحكيم الكتاب والسنة.

سُورَةُ النَّمْلِ

١٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.
١٤٧ بحث في أن صدور الخلق والأمر منه سبحانه عن حكمته وعلمه.
١٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾.
١٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.
١٥٠ فصل في أن النمل أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب الأشياء.
١٥٤ فصل في أن الهدهد من أهدى الحيوانات بمواضع الماء تحت الأرض.
١٥٦ بحث في حال الهدهد مع نبي سليمان عليه السلام.
١٥٦ بحث في بيان أن من لوازم ربوبية الله تعالى إخراج الخبء من السماوات والأرض.
١٥٨ فصل في بيان أن سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وعدم قبوله للنعمة.

الصفحة الموضوع
١٥٩ فصل في بيان أن من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه.
١٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾.
١٦١ بحث في بيان الحكمة من اقتران تسبيح الله لنفسه وحمده لنفسه بسلامة عليهم.
١٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾.
١٦٤ بحث في أن الله تعالى يجمع بين التوكل وبين كل من العبادة والإيمان والإسلام والتوقي والهداية.
١٦٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

سُورَةُ القَصَصِ

١٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾.
١٦٨ بحث في الجراد وأنه جند من جنود الله.
١٦٨ الحكمة في أنه سبحانه يسلط الضعيف على القوي لينتقم منه.
١٧٠ الحكمة في أنه سبحانه جعل الملوك والأمراء والولاة من جنس أعمال الرعية.
١٧١ الحكمة في المسخ
١٧٣ الحكمة في إرسال الرسل واحدًا بعد واحد ﷺ.
١٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾.
١٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا... ﴾.
١٧٥ العبر والحكم من قصة موسى عليه السلام مع فرعون.
١٧٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.
١٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.
١٧٩ بحث في بيان أن قبح الفعل ثابت للفعل في نفسه وأن الله لا يعذب عليه إلا بعد قيام الحجة بالرسالة.

الصفحة الموضـــوع
١٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.
١٨٠ بحث في أن متبع الهوى لابد أن يجد في نفسه ذلًّا.
١٨٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.
١٨٥ بحث في أن الهداية بيد الله وليست بيد أحد.
١٨٦ بحث في بيان أن خلو القلب من هموم الدنيا ومتعلقاتها وتعلقه بالآخرة أول مراحل سعادته.
١٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ بتوسع.
١٩٥ بحث في خلق الرب تبارك وتعالى بعض الجنان وغرسها بيده تفضيلًا لها على سائر الجنان.
١٩٦ بحث في حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار.
١٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ... ﴾.
١٩٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾.
١٩٩ بحث في ذم متمني الدنيا والغنى والسعة فيها ومدح من أنكر عليهم وخالفهم.
٢٠٠ بحث في بيان أنواع النفوس.
٢٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

٢٠٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾.
٢٠٦ بحث في بيان أن الألم لا محيص منه البتة.
٢٠٧ بحث في بيان أن الشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه.
٢٠٨ بحث في بيان كمال العبودية والمحبة والطاعة تظهر عند ظهور الدواعي المخالفة للعبودية.

الصفحة الموضوع

٢٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾.
٢١٠ بحث في بيان أن أفضل العطاء وأجله هو الإيمان وجزاؤه الجنة ولا يتم ذلك إلا بالاختبار.
٢١١ بحث في إنكار الرب سبحانه على من لم يلتزم الإيمان ومتابعة الرسول خوف الفتنة والمحنة.
٢١٣ بحث في قوله: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.
٢١٤ صور من بعض ابتلاءات الرسل والأمم السابقين.
٢١٦ بحث في قوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾.
٢١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا مودة بينكم في الحياة الددنيا﴾.
٢١٧ بحث في بيان أن مودة أهل المعاصي والفسوق تنقلب عليهم يوم القيامة إلى عداوة وبغضاء.
٢١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.
٢٢٠ بحث في حكمته تعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم.
٢٢٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾.
٢٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾.
٢٢٤ الحكمة من ضرب الأمثال.
٢٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.
٢٢٥ بحث في فضل الذكر ومنزلته.
٢٢٦ فصل في تفصيل منزلة الذكر ومكانته وفضله.

الصفحة الموضوع

٢٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

٢٢٧ بحث في مدح أهل العلم والثناء عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم.

٢٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾.

٢٢٩ بحث في تقسيم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة أو شريعة وحقيقة وبيان بطلانه.

٢٣١ بحث في جواز العمل في السلطنة الشرعية بالسياسة.

٢٣٢ بحث في أنواع السياسة.

٢٣٤ بحث في بيان وجوب الإيمان بعموم الرسالة في شمولها على مصالح العباد الدينية والدنيوية.

٢٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ ﴾.

٢٣٧ بحث في بيان أن التوحيد هو مفزع أعدائه وأوليائه يلجأون إليه.

٢٣٨ بحث في بيان أن الهداية معلقة بالجهاد لا تنفك عنه.

سُورَةُ الرُّومِ

٢٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ ﴾.

٢٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾.

٢٤٣ بحث في سماع غناء أهل الجنة وأنهم في روضة يحبرون.

٢٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾.

٢٤٦ فصل في المحبة النافعة.

٢٤٦ بحث في قوله: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٢٤٩ بحث في ذكر الفطرة الأولى ومعناها واختلاف الناس في المراد بها.
٢٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ بتوسع.
٢٥٤ بحث في بيان منزلة التوبة وإنها كالمقدمة لمنزلة الإنابة.
٢٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.
٢٥٧ بحث في بيان أن الله أتقن كل شيء وأحسن خلقه ثم بما كسبت أيدي الناس أفسد الصالح.
٢٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾.
٢٦٠ فصل في بيان آثار الذنوب والمعاصي في الأرض.
٢٦٣ بحث في بيان أن الله استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار.
٢٦٣ بحث في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾.
٢٦٤ بحث في قوله: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

سُورَةُ لُقْمَانَ

٢٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.
٢٦٦ بحث في بيان أن لهو الحديث هو الغناء.
٢٧٢ بحث في بيان مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين.
٢٧٣ فصل في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف.
٢٧٤ بحث في بيان أن منزلة السماع من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بتوسع.
٢٨٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾.
٢٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾.

الصفحة المـــوضـــوع
٢٨٢ بحث في الحكمة من خلق الأرض على هيئتها الحالية.
٢٨٢ بحث في أن الشأن هو الانشغال بطاعة الله لا بسماع الصوت الأحمق الفاجر.
٢٨٣ بحث في أن إنعام الرب على عبده فهو محض تفضله وإحسانه وامتنانه.
٢٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.
٢٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.
٢٨٦ بحث في بيان أن الجهاد في سبيل الله المتولد عن أذى الناس حين دعوتهم فضله عظيم.
٢٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.
٢٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
٢٨٩ بحث في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٢٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.
٢٩٢ بحث في الاستواء على العرش.
٢٩٣ بحث في إبطال قول الملاحدة وأهل البدع في الروح.
٢٩٤ بحث في أن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال.
٢٩٥ بحث في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ...﴾.
٢٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾.
٢٩٨ بحث في بيان أن اليقين من منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
٢٩٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الأَحْزَابِ

٣٠١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.
٣٠٢ بحث في أن تسمية المولود حق للأب لا للأم.
٣٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾.
٣٠٤ بحث في أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين.
٣٠٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾.
٣٠٩ بيان بعض فضائل أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما.
٣١٠ بحث في بيان إزاغة القلوب والأبصار.
٣١١ بحث في الرجاء وبيان أنه حاد يحدو إلى الله والدار الآخرة.
٣١٤ كيفية معاملة الرسول ﷺ أهل المدينة عندما قدم إليها.
٣١٥ بحث في نقض العهد من قبل بني النضير وكيف فعل معهم النبي ﷺ.
٣١٦ بحث في بيان شدة عداوة بني قريظة لرسول الله ﷺ.
٢١٩ بحث في بيان حصار رسول الله ﷺ لبني قريظة.
٣٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾.
٣٢٢ فصل في غزوة الخندق.
٣٢٧ فصل في قتل أبي رافع الذي كان يؤلب الأحزاب على رسول الله ﷺ.
٣٢٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾.
٣٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الآية.
٣٣٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.
٣٣١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

الصفحة الموضوع
٣٣١ فصل في بيان أن حد الرقيق على النصف من حد الحر.
٣٣٣ بحث في بيان هل المؤاخذة على الذنب بالنسبة للجاهل والعالم سواء أم لا؟
٣٣٨ بحث في بيان بعض أمراض القلوب.
٣٤٠ بحث في أن الله أنزل على رسوله ﷺ الحكمة وهي السنة كما أنزل عليه القرآن.
٣٤١ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾.
٣٤٣ فصل في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص.
٣٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.
٣٤٦ فصل في هديه ﷺ في علاج العشق.
٣٤٨ بحث في اسم النبي ﷺ وصفته.
٣٤٩ فصل في معنى اسم النبي ﷺ واشتقاقه.
٣٥٣ بحث في بيان أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته ﷺ.
٣٥٤ فصل في هديه ﷺ في الذكر.
٣٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.
٣٦٠ بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ.
٣٦٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.
٣٧٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ بتوسع.
٣٧٣ بحث في بيان معنى السلام المطلوب عند التحية.
٣٧٨ فصل في بيان الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي ﷺ بالمصدر دون الصلاة عليه.
٣٧٨ الحكمة في تقديم السلام على النبي ﷺ في الصلاة قبل الصلاة عليه.

الصفحة الموضوع
٣٨١ الحكمة في كون السلام وقع بصيغة الخطاب والصلاة بصيغة الغيبة.
٣٨٢ الحكمة في أن الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة والسلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب.
٣٨٤ السر في كون السلام في آخر الصلاة.
٣٨٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

سُورَةُ سَبَإٍ

٣٨٨ بحث في بيان الحكمة من تقديم الغفور على الرحيم ولماذا قدم هنا الرحيم على الغفور.
٣٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
٣٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ الآية.
٣٩١ بحث في تقديم السماء على الأرض في الذكر وتقديم الأرض عليها في سورة يونس.
٣٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.
٣٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.
٣٩٦ بحث في انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن إلى كوني قدري وشرعي ديني.
٤٠٢ بحث في أن الأنبياء والرسل واتباعهم حظهم من هذه الأمور: الشرعي الديني، أما أعداء فهم واقفون مع الكوني القدري.
٤٠٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الصفحة الموضوع
٤٠٤ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
٤٠٥ بحث في أن الله سبحانه قطع كل الأسباب التي تعلق بها المشركون.
٤٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾.
٤٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.
٤٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الآيات.
٤٠٩ بحث في كفر الأتباع والتفريق بين المقلد العاجز والمقلد المعرض.
٤١١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾.
٤١٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾.
٤١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.
٤١٣ بحث في أن كمال السعادة في الدعوة لدين الله والصبر على ذلك.
٤١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾.

سُورَةُ فَاطِرٍ

٤١٦ بحث في أن الجمال الظاهر زينة وهي الزيادة التي في قوله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.
٤١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.
٤١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.
٤١٨ بحث في حصول عبوديات عظيمة وجليلة بسبب وجود إبليس ولولا وجوده لتعطلت.
٤١٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

الصفحة الموضوع

٤٢١ بحث في أن المعصية تورث الذل. والطاعة منشأ العزة.
٤٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بتفصيل.
٤٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾.
٤٢٧ بحث في أن الخشية من الله لا تكون إلا بالعلم واليقين.
٤٢٥ فصل في إماتة قلوب الكافرين.
٤٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ وأن التلاوة هي المتابعة.
٤٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية.
٤٣٤ النسا قسمان في سيرهم إلى الدار الآخرة: أشقياء وسعداء.
٤٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾.
٤٣٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾.
٤٣٨ بحث في أن طريقة القرآن أنه يقرن بين أسماء الرجاء وأسماء المخافة.
٤٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾.
٤٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾.

سُورَةُ يسٓ

٤٤٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.
٤٤٣ فصل في الكلام على الأغلال وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.
٤٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾.
٤٤٦ فصل في اجتماع المشركين وعلى رأسهم إمامهم إبليس يتذاكرون أمر رسول الله ﷺ وأصحابه.
٤٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾.

الصفحة الموضوع
٤٤٩ بحث في محاجة صاحب يس لقومه وقوله: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.
٤٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.
٤٥١ بحث في قوله تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾.
٤٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾.
٤٥٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴾.
٤٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾.
٤٥٦ فصل في إمكانية رؤية الله تعالى في الآخرة.
٤٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ﴾.
٤٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾.
٤٦٠ بحث في تفسير لفظ اليد كما جاء في القرآن: مفردًا ومثنى ومجموعًا.
٤٦٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ الآيات.
٤٦٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾.
٤٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

٤٦٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴾.
٤٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.
٤٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾.
٤٦٨ فصل في أن الوصب هو ألم الحب ومرضه وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.
٤٦٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٤٦٩ بحث في زيارة أهل الجنة بعضهم بعضًا وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.
٤٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي شجرة الزقوم.
٤٧١ بحث في أن الكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا كما أن المؤمن مفتون بالكافر.
٤٧٣ فصل في أن الفتنة نوعان: فتنة الشبهات وفتنة الشهوات.
٤٧٤ بحث فيما يدفع به فتنة الشبهات وفتنة الشهوات.
٤٧٦ بحث في الصلاة على غير النبي ﷺ تسليمًا.
٤٧٦ بحث في أن الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى.
٤٧٧ بحث في أن الشرك ملزوم لتنقص الرب ﷻ.
٤٧٨ فصل في خلق أعمال العباد.
٤٨١ بحث في الرد على القدرية وإبطال مذهبهم وإثبات مذهب أهل الحق بتفصيل.
٤٨٦ فصل في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ ومناقبه وفضائله بتوسع.
٤٩٤ فصل في الحكمة في ابتلاء الله لبعض عباده وصفوته وأنه يرفع منازلهم بذلك.
٤٩٦ بحث في مرتبة الخلة التي انفرد بها الخليلان: إبراهيم ومحمد ﷺ.
٤٩٨ بحث في أن الأعمال تشفع لصاحبها عند الله.
٤٩٩ بحث في شجرة اليقطين التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.
٥٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.
٥٠٢ بحث في أن الله سبحانه يسمى الحجة سلطانًا.
٥٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.
٥٠٤ بحث في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

الصفحة الموضـوع
٥٠٦ فصل في حال كليم الرحمن موسى ﷺ وما آلت إليه محنته.
٥٠٧ فصل في حال النبي الخاتم ﷺ وسيرته مع قومه وصبره في الله وتحمله الأذى.

سُورَةُ صٓ

٥٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾.
٥١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾.
٥١١ سر اقتران اسما: (الغفور) و(الودود).
٥١٢ بحث في أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله.
٥١٣ فصل في إنكاره سبحانه على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين.
٥١٤ بحث في بيان أن ما يأمر به النبي ﷺ دليل على نبوته.
٥١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾.
٥١٧ بحث في أنالله وصف خاصة أوليائه وأحبابه بالصبر.
٥١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ ﴾.
٥٢٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾.
٥٢٠ بحث في أن كمال الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.
٥٢١ المناظرة في العلم نوعان: للتمرن والتدريب، ولنصرة الحق وكبت الباطل.
٥٢٢ أصل كل فتنة من تقديم الرأي على الشرع والهوى على العقل.
٥٢٣ فصل في أن بصائر الناس في النور تنقسم إلى ثلاثة أقسام.
٥٢٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾.
٥٢٥ من أعظم النعم أن يرفع الله قدر العبد ويعلي منزلته.
٥٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾.

الصفحة الموضوع
٥٣٠ بحث في تناول أهل الجنة الفاكهة قيامًا وقعودًا ومضطجعين.
٥٣٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ الآيات.
٥٣١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾.
٥٣٢ فصل في أن ما يضاعف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، وأعيان منفصلة عنه.
٥٣٤ بحث في بيان أن إبليس كان سبب طرده ولعنه هو التأويل ومعارضة النص.
٥٣٦ بحث في أن معارضة الوحي ميراث عن الشيخ أبي مرة، يعني الشيطان.
٥٣٨ بحث في الرد على قياس إبليس الفاسد أن النار خير من التراب.

سُورَةُ الزُّمَرِ

٥٤٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾.
٥٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾.
٥٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾.
٥٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾.
٥٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ الآية.
٥٥٠ بحث في حقيقة كلمة «سلم».
٥٥١ فصل في إطلاق اسم السلام على الله عز وجل وبيان أنه أولى الأسماء به.
٥٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾.
٥٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

الصفحة الموضـــوع
٥٥٦ هل تتلاقى أرواح الأموات والأحياء أم لا؟
٥٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ الآية.
٥٥٩ فصل: هل الروح تموت أم الموت للبدن فقط؟
٥٦٠ بحث بأي شيء تتميز الأرواح بعد مفارقتها للأبدان.
٥٦٣ بحث في وصف الله سبحانه للأرواح بالدخول والخروج والقبض والتوفي والرجوع والصعود.
٥٦٤ فصل في هل الروح تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟ بتوسع.
٥٦٨ بحث في تعلق الأرواح بالأبدان تعلقًا مختلف الأحكام.
٥٧٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ الآية.
٥٧٧ بحث عن الشفاعة.
٥٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾.
٥٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ الآية.
٥٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾.
٥٨٦ بحث في أن الطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة.
٥٨٩ في في الإنابة وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾.
٥٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.
٥٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.
٦٠٢ بحث في ذكر عدد أبواب الجنة.
٦٠٢ بحث في قوله تعالى عن النار: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾.

الصفحة الموضوع
٦٠٥ فصل في أن أبواب الجنة بعضها فوق بعض.
٦٠٦ بحث في ذكر بوابي الجنة وخنزتها واسم مقدمهم ورئيسهم.
٦٠٨ بحث في كيفية دخولهم الجنة وما يستقبلونه عند خدولها.

بهذا تم المجلد الخامس من كتاب الضوء المنير على التفسير

ويليه إن شاء الله المجلد السادس ويبدأ بسورة غافر

والحمد لله رب العالمين



الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد السادس
غافر - الجمعة

تحقيق
صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضوء المنير على التفسير

المجلد السادس

ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٥-٦-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ - فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾.

(١) عطف في الاسمين الأولين دون الآخرين. فقال السهيلي: إنما حسن العطف بين الاسمين الأولين، لكونهما من صفات الأفعال، وفعله ـ سبحانه ـ في غيره لا في نفسه، فدخل حرف العطف للمغايرة الصحيحة بين المعنيين، ولتنزلهما منزلة الجملتين، لأنه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا، ليرجوه ويؤملوه. ثم قال: ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ بغير واو، لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقدرة، وهو معنى خارج عن صفات الأفعال، فصار بمنزلة قوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [النمل: ٧٨]. وكذلك قوله: ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ لأن لفظ ذي عبارة عن ذاته.

هذا جوابه، وهو كما ترى غير شاف ولا كاف، فإن شدة عقابه من صفات الأفعال، وطوله من صفات الأفعال، ولفظة (ذي) فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل كقوله: ﴿ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾، بل لفظ الوصف بغافر وقابل أدل على الذات من الوصف بذي، لأنها بمعنى صاحب كذا. فالوصف المشتق أدل على الذات من الوصف بها، فلم يشف جوابه، بل زاد السؤال سؤالاً.

فاعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء، كل اثنين منها قسم، فابتدأها بالعزيز العليم، وهما اسمان مطلقان، وصفتان من صفات ذاته، وهما مجردان عن العطف. ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله، فأدخل بينهما العاطف، ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما وجردهما من العاطف. فأما الأولان فتجردهما من العاطف

---

(١) ١٩١ بدائع جـ١.

لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله، وهما متلازمان فتجريدهما عن العطف هو الأصل، وهو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك كالعزيز العليم، والسميع البصير، والغفور الرحيم(١).

وأما ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ فدخل العاطف بينهما، لأنهما في معنى الجملتين وإن كانا مفردين لفظاً، فهما يعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب، أي هذا شأنه ووصفه في كل وقت، فأتى بالاسم الدال على أن هذا وصفه ونعته، المتضمن لمعنى الفعل، الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض، وكذلك الاسمان الأولان، ولما لم يكن الفعل ملحوظًا في قوله: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ إذ لا يحسن وقوع الفعل فيهما، وليس في لفظ (ذي) ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المفردين من كل وجه، ولم يعطف أحدهما على الآخر، كما لم يعطف في العزيز العليم، فتأمله فإنه واضح.

وأما العطف في قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال وهي جملة دخلت الواو عاطفة جملة على جملة، وإن كانت الجملة مع الموصول في تقدير المفرد، فالفعل مراد مقصود، والعطف يصير كلا منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد فقيل: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا ﴾ و﴿ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ ﴾ و﴿ خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [الزخرف: ١٠، ١١، ١٢]. كانت كلها في حكم جملة واحدة. فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها. وهذا قريب من باب قطع النعوت، والفائدة هنا كالفائدة ثم، وقد تقدمت الإشارة إليها فراجعها. بل قطع النعوت إنما كان الأجل هذه الفائدة،

---

(١) تقدم بحث حول هذه الآية في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ﴾ يحسن الرجوع إليه. (ج).

فذلك المقدر في النعوت المقطوعة لهذا المحقق في النعوت المعطوفة، والحمد لله على ما من به وأنعم، فإنه ذو الطول والإحسان.

تتمة: تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله وصفة رحمة بعده. فقبله ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ [غافر: ٣] وبعده ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له، وهو قوله ﷺ: «سبقت غضبي»[(١)] وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت. وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [غافر: ٢] والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده، لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك. وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه. فهذا يدل على شيئين: أحدهما: علوه ـ تعالى ـ على خلقه. والثاني: أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه، وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً، كما أنه منه تنزيلاً؛ فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به.

ومثل هذا: ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ [السجدة: ١٣] ومثله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل: ١٠٢] مثله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] فاستمسك بحرف من في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية. وتأمل كيف قال: (تنزيل من) ولم يقل تنزيله، فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه وثبوت الرسالة.

ثم قال: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فتضمن هذان الإسمان صفتي القدرة والعلم، وخلق أعمال العباد، وحدوث كل ما سوى الله؛ لأن القدرة هي قدرة الله، كما قال أحمد بن حنبل. فتضمنت إثبات القدر، ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه أو يشاء ما لا يكون، فكمال عزته تبطل ذلك. وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٢) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٤١) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).

شيء، وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك.

ثم قال: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ والذنب مخالفة شرعه وأمره، فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله. ثم قال: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وهذا جزاؤه للمذنبين، وذو الطول جزاؤه للمحسنين، فتضمنت الثواب والعقاب. ثم قال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فتضمن ذلك التوحيد والمعاد. فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو، والكلام، والقدرة، والعلم، والقدر، وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة.

فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة، ولكن خَوْدٌ تُزَفّ إلى ضرير مقعد، فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؟ وهكذا سائر آيات القرآن، فما أشدها من حسرة، وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، فالله المستعان.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

[(١)]هو ـ سبحانه ـ يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم. فمن الأول قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [غافر: ٧] ومن الثاني: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

(١) ٨٠ بدائع جـ١.

حَكِيمٌ ﴾ فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم. وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك[١]. فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة، لتضمنها دفع الشر، وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور.[٢]

[٣][٤]التي على الأبدان أيضاً نوعان: نوع في الدنيا ونوع في الآخرة، وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما ترتب عليها في الشدة والخفة. فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها. فالشر اسم لذلك كله، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهم الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»[٥] وسيئات الأعمال من شرور النفس، فعاد الشر

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٧) وفيه ثمانية بدل أربعة. والبيهقي في الشعب (١/ ٣٢٧ رقم ٣٦٤) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في العرش (رقم ٢٤) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٥٥).

(٢) يشير إلى آية سورة سبأ، وقد تقدم البحث فليرجع إليه من أراده. (ج).

(٣) ١٥٤ الجواب الكافي.

(٤) ما تقدم تفصيل للعقوبات القدرية والشرعية. (ج).

(٥) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٩٢) والترمذي (رقم ١١٠٥) وحسنه. والنسائي في المجتبى (رقم ١٤٠٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٤ رقم ٨١٤٨) وأبو يعلى (١٣/ ١٨٥-١٨٦ رقم ٧٢٢١) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٨٨): رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: «ومن سيئات أعمالنا» هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه: وتكون بمعنى من. وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون التقدير: ومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا. ويرجع هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر. فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة، وهي تستلزم العقوبات السيئة. فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها عنه إذ هي أصله.

ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه، وهي السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام. فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه. ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ ﴾ [غافر: ٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه ـ سبحانه ـ متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء. وإن كان قوله: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ منها. فإن قيل: قد سألوه ـ سبحانه ـ أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ. ولا يرد على هذا قوله: (يؤمئذ) فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في نفسها.

وقيل: وقاية السيئات نوعان. أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه، والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية. وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم. وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله ـ سبحانه ـ بسعة علمه وسعة رحمته، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها، وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم

وأنفسهم وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها. وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم. وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء. ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر، وترك ما يكره فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل الذي يحبها. ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها، وهو ـ سبحانه ـ وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب، ومن جملتها دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها، يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك؛ فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم. وبهاتين الصفتين يقضي ﷻ ما يشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب. فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر. والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية. وهي إما في القلب وإما في البدن وإما فيهما. وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم عود الأجسام في الدار الآخرة. فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة. ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحى أحس بالألم. فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، الاغتراف على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها.

وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيراً وإما مدة، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة. فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة؟ والله المستعان.

(١)منها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله ـ سبحانه ـ أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [غافر: ٧ـ ٩] فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله، الذين لا سبيل لهم غيرهما. فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها.

(٢)قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . فأي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله،

(١) ٨٠ الجواب الكافي.

(٢) ٦٤ مفتاح جـ١.

فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه ثم تضع أجنحتها له رضاً ومحبة وتعظيماً. وقال أبو حاتم الرازي: سمعت ابن أبي أويس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: معنى قول رسول الله ﷺ: «تضع أجنحتها»(١) يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأيدي.

***

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾.

(٢)الوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فَقَد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك. وأما في الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

(٣) ثم ينزل القلب منزل «التذكر»، وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]. وقال: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨]، وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

***

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٨٩ رقم ٨٨) والضياء في المختارة (٨/ ٣٦ رقم ٢٩) والحاكم (١/ ١٨٠ رقم ٣٤١) وابن خزيمة (١/ ١٣ رقم ١٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٩٢ رقم ١٣٢) والترمذي (رقم ٣٥٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ١٥٨ مدارج جـ٣.

(٣) ٢٥٩ مدارج جـ٣.

[(١)]ويلي[(٢)] ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر، وقدح في نفسه الربوبية وخصائص الرب. فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله. فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله؟ كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكاً في بعض الأمور تقرباً إليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكاً. هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول. فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة، إعظاماً له وإجلالاً؟ فداء التعطيل هو الداء العضال الذي لا دواء له. ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات، فقال: ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية. وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية) في إثبات العلو.

...[(٣)]التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متى في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل «أين الله» و«متى كان الله» عندهم سواء: كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه «أين الله» في غير موضع.

---

(١) ١٩٣ الجواب الكافي.

(٢) أي الشرك والكبر، وقد تقدم هذا قريبًا في سورة الزمر، استطرد على قول الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ .(ج).

(٣) ٢٨٢ أعلام جـ٢.

...شهادته التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال: «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جهم بالكفر، وصرَّح الشافعي بأن هذا الذي وصفته من أن ربها في السماء إيمان، فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة. وذكر حديث الأمة السوداء، التي سوَّدت وجوه الجهمية، وبيضت وجوه المحمدية: فلما وصفت الإيمان قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[(١)]. وهي إنما وصفت كون ربها في السماء، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فقرنت بينهما في الذكر؛ فجعل الصادق المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

... إخباره ـ سبحانه ـ عن فرعون أنه رَامَ الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى، فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا ﴾ فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء، وعند الجهمية لا فرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب. وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به، وكذب موسى في إخباره بذلك؛ إذ من قال عندهم: إن ربه فوق السماوات فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة: «فرعونية»، قالوا: وهم شر من الجهمية؛ فإن الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية، وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيراً من قولهم.

...إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى وبين الله، ويقول له موسى: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فيرجع إليه ـ سبحانه ـ ثم ينزل إلى موسى، فيأمره بالرجوع إليه ـ سبحانه ـ فيصعد إليه ـ سبحانه ـ ثم ينزل من عنده إلى موسى ثلاث مرات.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٨٤) والتمهيد (٧/ ١٣٤).

(١) وأما الصد فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧] قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول حملاً على (زين) وقرأ الباقون وصد بفتح الصاد، ويحتمل وجهين: أحدهما: أعرض، فيكون لازماً. والثاني: يكون صد غيره، فيكون متعدياً. والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان.

***

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

(٢) أخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها، وأن الآخرة هي المستقر. وإذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة، ولذلك ما خلقت الدنيا لذاتها. فكل لذة أعانت على لذة الآخرة، وأوصلت إليها لم يذم تناولها، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة. إذا عرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى وجه الله ـ جل جلاله ـ وسماع كلامه، والقرب منه. كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»(٣).

وفي حديث آخر: «إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم». وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر ﷺ عن النبي ﷺ في دعائه: «وأسألك اللهم لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك»(٤). وفي كتاب السنة لعبد الله

---

(١) ٩٦ شفاء.

(٢) ٣١٨ الجواب الكافي.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

(٤) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٥) وعبدالرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٤٥) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧).

ابن الإمام أحمد مرفوعاً: «كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن، فإذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك»[(١)].

فإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة، هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهي لذة معرفته ـ سبحانه ـ، ولذة محبته؛ فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر. فإن الروح والقلب والبدن إنما خلقت لذلك. فأطيب ما في الدنيا معرفته ـ سبحانه ـ ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها. واللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك. فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

***

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

[(٢)]رؤساء الكفر وأئمته، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخرة بصدهم عن سبيل الله. وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم، وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم،

(١) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٤٠٣) والديلمي في مسند الفردوس (١/ ٢٥٣ رقم ٩٨١) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٣٦).
(٢) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال ـ تعالى ـ في حقهم: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلو أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [هود: ٩٨]. والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وعقوبتهم من آمن بالله.

فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولها كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل: «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»(١) والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع. ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً، وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عُصِيَ الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته. ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر. كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد، بل النار دركات، كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وهو الغني الحميد.

وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه: (أحدها) من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية، وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم اتفاقاً لتغلظ كفرهم. وهؤلاء هم المعطلة، والدهرية، وكثير من الفلاسفة،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: فتح الباري (١/٣٩) وشرح النووي (١٢/١٠٧-١٠٩).

وأهل الوحدة القائلين بأنه لا وجود للرب ﷻ غير وجود هذا العالم. (الجهة الثانية) تغلظه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة. ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عناداً وبغياً. كقوم ثمود، وقوم فرعون، واليهود الذي عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم، وكفر أبي جهل، وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء. (الجهة الثالثة) السعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاء أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم، ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث. ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة.

فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر، ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة، لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاء، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعاً من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف وأضرابهم؟ والمقصود: أن هذه الطبقة وهي طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب**»[1]، ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على أسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم، الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٦١، ٦٥٦٢) ومسلم (رقم ٢١٣) واللفظ له، وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٤-٤٣٠) وشرح النووي (٣/ ٨٦).

وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع: أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١) فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربي والمنشأ على ما عليه الأبوان. وصح عنه أنه قال ﷺ: «**إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة**»(٢) وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر.

وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين، وقد تقدم الكلام عليهم. والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به. فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله إما عناداً أو جهلاً وتقليداً لأهل العناد. فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعهم، وأنهم يتحاجون في النار، وأن الأتباع يقولون: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٥٨) ومسلم (رقم ٢٦٥٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٨-٢٥١) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦).

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٤٨].

(١)قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]. فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئاً، وأصرح من هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧] وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه لا ينقص من أوزارهم شيئاً**»(٢). وهذا يدل علىٰ أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضاً: أحدهما مريد للهدىٰ مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا علىٰ طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة. الثاني: معرض لا إرادة له،

(١) ٤١٢ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) (٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٢).

ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم ديناً خيراً مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوىٰ ما أنا عليه ولا أقدر علىٰ غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز. وهذا لا يجب أن يلحق بالأول، لما بينهما من الفرق: فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزاً وجهلاً. والثاني: كمن لم يطلبه بل مات علىٰ شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب علىٰ العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلىٰ علم الله وحكمه.

هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية علىٰ ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني علىٰ أربعة أصول:

أحدها: أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٨ ـ ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ

عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦] والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول: كفر إعراض، والثاني:كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه، كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان بترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله ﷻ تابعة لحكمته التي لا يخل بها، وأنها مقصودة لغاياتها المحمودة وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب، وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾

[الأنبياء: ٢٣] وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد، يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر، ولا الفساد، ولا الجور، ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

***

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.

[١]التذكر و«التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر[٢]، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

قال صاحب المنازل: «التذكر فوق التفكر؛ لأن التفكر طلب، والتذكر وجود». يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها. كما قال: «التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية». وأما قوله: «التذكر وجود» فلأنه يكون فيما قد حصل بالتفكر. ثم غاب عنه بالنسيان. فإذا تذكره وجده فظفر به. و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه.

---

(١) ٤٤٠ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة (٨/ ٢٥١٧ رقم ١٤٠٩٠).

ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذكرى. كما قال في المتلوة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤] وقال عن القرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٨]. وقال في آياته المشهودة: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦-٨].

فـ «التبصرة» آله البصر، و«التذكره» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة؛ لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة؛ لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال ـ تعالى ـ في آياته المشهودة: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

والناس ثلاثة: رجل قبل ميت. فذلك الذي لا قلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه. الثاني: رجل له قلب حيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملق السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة. فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر. والثاني: بمنزلة البصير الطامح

ببصره إلىٰ غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه. والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلىٰ جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله علىٰ توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور. فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم علىٰ ما قررت؟ قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنىٰ الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه علىٰ التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نوراً علىٰ نور. وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيماناً وبصيرة. حتىٰ كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه. حتىٰ قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا داراً، فرأىٰ أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته. والآخر: وقعت يده علىٰ ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته. لكن علم أن فيها أموراً عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها. ثم خرجا فسأله عما رأىٰ في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنده من شواهده، وهذه أعلىٰ درجات الصديقية. ولا تستبعد أن يمن الله المنان علىٰ عبد بمثل هذا الإيمان؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة: ازداد بها نوراً إلىٰ نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقىٰ السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضاً: ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتىٰ إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزح به مزجاً. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦] فكل مؤمن يرىٰ هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ

دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١] بين أن هذا العقاب لم يكن ظلماً من الله للعباد بل لذنوبهم واستحقاقهم، ومعلوم أن المحال الذي لا يمكن ولا يكون مقدوراً أصلاً لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ولا فعله ولا يحمد على ذلك، وإنما يكون المدح بترك الأفعال لمن هو قادر عليها. وأن يتنزه عنها لكماله وغناه وحمده. وعلى هذا يتم قوله: «**إني حرمت الظلم على نفسي**»[١] وما شاكله من النصوص.

***

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

[٢]من ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة: فإن الله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٣]. وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته. وإذا رضي الرب ـ تبارك وتعالى ـ فكل خير من رضاه. كما أن كل بلاء ومصيبة من غضبه. وقد ذكر أحمد في كتاب الزهد أثراً: «**أنا الله لا إله إلا أنا، إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد**»[٤].

وقد دل العقل، والنقل، والفطرة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (١٦/ ١٣٢).
(٢) ١٧ الجواب الكافي.
(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨) وأبو يعلى (١٢/ ١٠ رقم ٦٦٥٥) وأحمد (٢/ ٤٤٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٥ رقم ١٠٩٩) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥).
(٤) أخرجه أحمد في الزهد (صـ٥٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٤٢٩-٤٣٠).

ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر. فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه..

***

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

(1)أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين: الكبر والحرص. فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه. وذنب آدم على نبينا وعليه السلام: كان من الحرص والشهوة. فكان عاقبته التوبة والهداية. وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس. وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدر. مع أبيهم آدم في الجنة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: التكبر شر من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله ـ تعالى ـ، والمشرك يعبد الله وغيره.

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين. كما قال في سورة الزمر وفي سورة غافر: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢ وغافر: ٧٦] وفي سورة النحل: ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٩] وفي سورة تنزيل: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠]. وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم. فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]. وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» رواه مسلم. وقال ﷺ: «**الكبر بطر الحق،**

(١) ٣٣٢ مدارج جـ٢.

وغمط الناس»[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] تنبيهًا علىٰ أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك، وكما أن «من تواضع لله رفعه»[٢] فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغَّره وحقَّره. ومن تكبر عن الانقياد للحق ـ ولو جاءه علىٰ يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه ـ فإنما تكبره علىٰ الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله. فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد علىٰ الله، وتكبر عليه، الله أعلم.

[٣]الفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله. فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسىٰ وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب. فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور. إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر فأثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت. فنظره إلىٰ الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معامل الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهاً، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأىٰ أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه، ولا يرىٰ لأحد عليه حقاً، ويرىٰ حقوقه علىٰ الناس، ولا يرىٰ فضلهم عليه،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠) وشرح النووي (٢/ ٨٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٤٩١ رقم ٥٦٧٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٢٠ رقم ٣٤٦٦٣) وأبو يعلىٰ (٢/ ٣٥٨ رقم ١١٠٩) وأحمد ٣/ ٧٦) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٧٦ رقم ٨١٤٠) وهناد في الزهد (١/ ٩١ رقم ٩٨) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٧٢ رقم ٨٣٠٧) قال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥٦٧٨): رواه البيهقي بإسناد حسن. وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (صـ٨٩-٩٠).

(٣) ٢٨٧ الروح.

ويرىٰ فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعداً، ومن الناس إلا صغاراً وبغضاً.

والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقي البياض ذا ثمن، فهو يداخل به علىٰ الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار، إبقاء علىٰ بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشىٰ منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شيء من ذلك علىٰ غرة بادر إلىٰ قلعه وإزالته ومحو أثره. وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع، الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن علىٰ العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع فتراه يهرب من مظان التلوث، ويحترس من الخلق، ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم. بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون.

***

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

(1)إن القوم لم يكن لهم نصيب من العلم الذي جاءت به الرسل، بل كانوا كما قال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣]. وما غاية ما يناله الذاكر المعرض عما جاءت به الرسل، وغاية ما نالوا به علماً بأمور طبيعية فيها الحق والباطل، وأمور رياضية كثيرة التعب قليلة الجدوىٰ، وأمور الهيئة باطلها أضعاف حقها. فأين العلم المتلقي من الوحي النازل، إلىٰ الظن المأخوذ عن الـرأي الزائل؟ وأين العلم المأخوذ عن رسول الله ـ عليه الصلاة

---

(١) ١٥٨ تحفة المودود.

والسلام ـ عن جبريل عن الله ﷻ إلى الظن المأخوذ عن رأي رجل لم يستنر قلبه بنور الوحي طرفة عين، وإنما معه حدسه وتخمينه؟ ونسبة ما يدركه العقلاء قاطبة بعقولهم إلى ماجاءت به الرسل كنسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس.

ولا تجد ولو عمرت عمر نوح مسألة واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلهم على خلاف ما جاء به الرسل في أمر من الأمور البتة. فالأنبياء لم تأت بما يخالف صريح العقل البتة، وإنما جاءت بما لا يدركه العقل. فما جاءت به الرسل مع العقل ثلاثة أقسام، لا رابع لها البتة:

١ ـ قسم شهد به العقل والفطرة.

٢ ـ وقسم يشهد بجملته ولا يهتدي لتفصيله.

٣ ـ وقسم ليس في العقل قوة إدراكه.

٤ ـ وأما القسم الرابع، وهو ما يحيله العقل الصريح ويشهد ببطلانه، فالرسل بريئون منه. وإن ظن كثير من الجهال المدعين للعلم والمعرفة أن بعض ما جاء به الرسل يكون من هذا القسم، فهذا إما لجهله بما جاءت به، وإما لجهله بحكم العقل أو لهما.ا.هـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة غافر

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ فُصِّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

(١)قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [فصلت: ٣] أي بينت وأزيل عنها الإجمال، فلو كانت آياته مجملة لم تكن قد فصلت. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]. وهذا يتضمن بلاغ المعنىٰ وأنه في أعلىٰ درجات البيان. فمن قال: إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغاً مبيناً بل بلغهم ألفاظه، وأحالهم في فهم معانيه علىٰ ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ. وهذا هو حقيقة قولهم، حتىٰ إن منهم من يصرح به، ويقول: إن المصلحة كانت في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة، إما لمصلحة الجمهور، ولكونهم لا يفهمون المعاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثال، وإما لينال الكادحون ثواب كدحهم في استنباط معانيها واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة علىٰ صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به، وشهدت به ملائكته وخيار القرون: أنه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظاً ومعنىٰ. والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة: كالجزم بتبليغه الألفاظ، بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة. ولما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «**أنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع

---

(١) ٣٣٨ الصواعق جـ٢.

إصبعه الكريمة إلىٰ السماء، رافعاً لها إلىٰ من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً: «**اللهم اشهد**»(١) فكأنا شهدنا تلك الإصبع الكريمة وهي مرفوعة إلىٰ الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول: «**اللهم اشهد**»، ونشهد أن بلغ البلاغ المبين، وأدىٰ رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدىٰ، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم علىٰ المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلىٰ تنطع المتنطعين، فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

***

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾.

(٢)قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: ٢٥] وهي جمع كنان، كعنان وأعنة، وأصله من الستر والتغطية، ويقال: كنَّه وأكنه وكنان بمعنىٰ واحد، بل بينهما فرق فأكنه إذا ستره وأخفاه كقوله تعالىٰ: ﴿ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وكنه إذا صانه وحفظه كقوله: ﴿ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴾، ويشتركان في الستر، والكنان ما أكن الشيء وستره وهو كالغلاف. وقد أقروا علىٰ أنفسهم بذلك، فقالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ [فصلت: ٥]. فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنىٰ لا نفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك، والمعنىٰ: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول ولا يراك. قال ابن عباس: قلوبنا في أكنة مثل الكنانة التي فيها السهام. وقال مجاهد: كجعبة النبل. وقال مقاتل: عليها غطاء فلا نفقه ما تقول.

***

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٤).
(٢) ٩٣ شفاء.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ ﴾.

(١)وقال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته ـ سبحانه ـ، وهو أصل كل زكاة ونماء؛ فإن التزكي ـ وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد. والتزكية جعل الشيء زكياً، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال عدلته وفسقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢] هو على غير معنى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩] أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢].

***

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ﴾.

(٢)قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان»(٣). سئل أبو نصر ابن الصباغ عن القيراطين: هل هما غير الأول أو به؟ فقال:

---

(١) ٤٩ إغاثة جـ١.

(٢) ١٣٧ البدائع.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٤٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩٧) وشرح النووي (٦/ ٦٦).

بل القيراطان الأول، وآخر معه بدليل قوله تعالى: ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [فاطر: ١].
(قلت): ونظير هذا قوله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله»[١] فهذا مع صلاة العشاء في جماعة، قد جاء مصرحاً به في جامع الترمذي كذلك. «ومن صلى العشاء والفجر في جماعة، فكأنما قام الليل كله»[٢]. ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩، ١٠]، فهي أربعة باليومين الأولين، ولولا ذلك كانت أيام التخليق ثمانية.

[٣]اختلف الناس هل السماء أشرف من الأرض أم الأرض أشرف من السماء؟ فالأكثرون على الأول. واحتج من فضل الأرض، بأن الله أنشأ منها أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين، وبأنها مساكنهم ومحلهم أحياء وأمواتاً. وبأن الله ﷻ لما أراد إظهار فضل آدم للملائكة قال: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] فأظهر فضله عليهم بعلمه واستخلافه في الأرض، وبأن الله ﷻ وضعها بأن جعلها محل بركاته عموماً وخصوصًا، فقال: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ ﴾ [فصلت: ١٠].

ووصف الشام بالبركة في ست آيات، ووصف بعضها بأنها مقدسة، ففيها الأرض المباركة، والمقدسة، والوادي المقدس. وفيها بيته الحرام، ومشاعر الحج، والمساجد التي هي بيوته ـ سبحانه ـ والطور الذي كلم عليه كليمه ونجيه. وبإقسامه ـ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٥٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩٧) وشرح النووي (٦/ ٦٦) (٧/ ١٣).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٢١) وأبو داود (رقم ٥٥٥) وابن حبان (٥/ ٤٠٨ رقم ٢٠٥٩). وأحمد (١/ ٦٨) والبزار (٢/ ٦١ رقم ٤٠٣) وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وانظر: التمهيد (٢٣/ ٣٥٣) وتحفة الأحوذي (٢/ ١١).
(٣) ٢٣ البدائع جـ٤.

سبحانه ـ بالأرض عموماً وخصوصاً أكثر من إقسامه بالسماء؛ فإنه أقسم بالطور، والبلد الأمين، والتين والزيتون، ولما أقسم بالسماء أقسم بالأرض معها، وبأنه سبحانه خلقها قبل خلق السماء، كما دلت عليه سورة حم السجدة. وبأنها مهبط وحيه، ومستقر كتبه، ورسله، ومحل أحب الأعمال إليه، وهو: الجهاد، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومغايظة أعدائه، ونصر أوليائه، وليس في السماء من ذلك شيء. وبأن ساكنيها من الرسل والأنبياء والمتقين أفضل من سكان السماء من الملائكة، كما هو مذهب أهل السنة، فمسكنهم أشرف من مسكن الملائكة. وبأن ما أودع فيها من المنافع والأنهار والثمار والمعارف والأقوات والحيوان والنبات ما هو من بركاتهم لم يودع في السماء مثله. وبأن الله ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] ثم قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فجعل الأرض محل آياته، والسماء محل رزقه. ولو لم يكن له فيها إلا بيته وبيت خاتم أنبيائه ورسله حيًّا وميتاً وبأن الأرض جعلها الله قراراً وبساطاً، ومهاداً وفراشاً وكفاتاً ومادة للساكن لملابسه وطعامه وشرابه ومراكبه وجميع آلاته، ولاسيما إذا أخرجت بركتها وازينت وأنبتت من كل زوج بهيج.

قال المفضلون للسماء: يكفي في فضلها أن رب العالمين ـ سبحانه ـ فيها، وأن عرشه وكرسيه فيها، وأن الرفيق الأعلى الذي أنعم الله عليه فيها، وأن دار كرامته فيها وأنها مستقر أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين يوم الحشر. وأنها مطهرة مبرأة من كل شر وخبث ودنس يكون في الأرض؛ ولهذا لا تفتح أبوابها للأرواح الخبيثة، ولا يلج ملكوتها. ولأنها مسكن من لا يعصون الله طرفة عين، فليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أو قائم، وبأنها أشرف مادة من الأرض، وأوسع وأنور وأصفى وأحسن خلقة وأعظم آيات. وبأن الأرض محتاجة في كمالها إليها، ولا تحتاج هي إلى الأرض، ولهذا جاءت في كتاب الله في غالب المواضع مقدمة على الأرض، وجمعت

وأفردت الأرض فبشرفها وفضلها أتى بها مجموعة، وأما الأرض فلم يأت بها إلا مفردة، وحيث أريد تعدادها قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾. وهذا القول هو الصواب والله ﷻ أعلم.

***

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

(1)المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده. وهذا لا تستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى. وقال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية. وهي هدى التوفيق والإلهام. قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥] فعم بالدعوة خلقه، وخص بالهداية من شاء منهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**». وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبداً، وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء.

---

(١) ٤٨٤ المفتاح جـ١.

وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدىٰ عنها، بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدىٰ عنها مستحيل.

***

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

(١)الإنطاق فعل الله الذي لا يجوز تعطيله. والنطق فعل العبد الذي لا يمكن إنكاره كما قال تعالىٰ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣]. فعلم أن كونهم ينطقون هو أمر حقيقي حتىٰ شبه به في تحقيق كون ما أخبر به، وأن هذا حقيقة لا مجاز. ومن جعل إضافة نطق العبد إليه مجازاً لم يكن ناطقاً عنده حقيقة، فلا يكون التشبيه بنطقه محققاً لما أخبر به فتأمله.

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣] فهو المضحك المبكي حقيقة، والعبد الضاحك الباكي حقيقة، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]. وقال: ﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩ - ٦٠] فلولا المنطق الذي أنطق، والمضحك المبكي الذي أضحك وأبكىٰ لم يوجد ناطق ولا ضاحك ولا باك. فإذا أحب عبداً أنطقه بما يحب وأثابه عليه. وإذا أبغضه أنطقه بما يكرهه فعاقبه عليه، وهو الذي أنطق هذا وهذا، وأجرىٰ ما يجب علىٰ لسان هذا وما يكره علىٰ لسان هذا. كما أنه أجرىٰ علىٰ قلب هذا ما أضحكه، وعلىٰ قلب هذا ما أبكاه.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٩] فالتسيير فعله حقيقة، والسير فعل العبد حقيقة، فالتسيير

---

(١) ١٣٤ شفاء.

فعل محض، والسير فعل وانفعال. ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فهو ـ سبحانه ـ المزوج ورسوله المتزوج. وكذلك قولـه: ﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ٢٠] فهو المزوج وهم المتزوجون.

وقد جمع ـ سبحانه ـ بين الأمرين في قوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥] فالإزاغة فعله والزيغ فعلهم. فإن قيل: أنتم قررتم أنه لم يقع منهم الفعل إلا بعد فعله، وأنه لولا إنطاقه لهم وإضحاكه وإبكاؤه لما نطقوا ولا ضحكوا ولا بكوا، وقد دلت هذه الآية على أن فعله بعد فعلهم، وأنه أزاغ قلوبهم بعد أن زاغوا. وهذا يدل على أن إزاغة قلوبهم هو حكمه عليها الزيغ لا جعلها زائغة. وكذلك قوله: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾ المراد جعل لنا آلة النطق، وأضحك وأبكى جعل لهم آلة الضحك والبكاء. قيل: أما الإزاغة المترتبة على زيغهم فهي إزاغة أخرى غير الإزاغة التي زاغوا بها أولاً، عقوبة لهم على زيغهم، والرب ـ تعالى ـ يعاقب على السيئة بمثلها، كما يثيب على الحسنة بمثلها، فحدث لهم زيغ آخر غير الزيغ الأول، فهم زاغوا أولاً، فجازاهم الله بإزاغة فوق زيغهم.

***

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

...[1]لا يستقر للعبد قدم في المعرفة ـ بل ولا في الإيمان ـ حتى يؤمن بصفات الرب ـ جل جلاله ـ ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وتعرفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله ـ سبحانه ـ منكر صفاته مسيء الظن به. وتوعده بمالم يتوعد به

(١) ٣٤٧ مدارج جـ٣.

غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣].

فأخبر ـ سبحانه ـ: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦]. ولم يجىء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله: كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من الشرك؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوضافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل؛ فإنه لولا تعطيل كماله ـ أو بعضه ـ وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي: فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟

وما الذي ظنتم به حتىٰ جعلتم معه شركاء؟ أظننتم: أنه محتاج إلىٰ الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم: أنه يخفىٰ عليه شيء من أحوال عباده، حتىٰ يحتاج إلىٰ شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده علىٰ استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس؟ فيحتاج إلىٰ شفعاء يستطعفونه علىٰ عباده؟ أم ذليل، فيحتاج إلىٰ ولي يتكثر به من القلة، يتعزز به من الذِّلة؟ أم يحتاج إلىٰ الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ ـ تعالىٰ الله عن ذلك كله علوًّا كبيراً ـ.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله.فمستقل ومستكثر.

...[(١)]قال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله ـ سبحانه ـ لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن. وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به. فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه، وتسويلاً من الشيطان. وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاقي الله وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطل لحقوقه؟ وهو مع هذا يحسن الظن به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة. فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها. قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها، فقال: «ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة الدنانير؟» فقلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعك. قالت: فدعا بها فوضعها في كفه. فقال: «**ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟**» وفي لفظ: «**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده؟**»[(٢)].

فيالله ما ظن أصحاب الكبائر الظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم. فإن كان ينفعه قولهم حسَّنا ظنوننا بك فلم يعذب ظالم ولا فاسق. فليصنع العبد ما شاء،

---

(١) ٢٧ الجواب.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ٩ رقم ٣٢١٣) وفي الموارد (رقم ٢١٤١) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٥٦ رقم ١٢٨٠٨) وأحمد (٦/ ١٠٤).

وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله فإن النار لا تمسه. فسبحان الله؟! ما يبلغ الغرور بالعبد. وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي: ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله وهو حسن العمل نفسه. فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه. فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله. وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوىٰ عجز. كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «**الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»[(١)].

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتىٰ إحسان الظن. فإن قيل: بل يتأتىٰ ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو. قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه ـ سبحانه ـ موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة. فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه. فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه وانتهك حرماته. بل حسن الظن ينفع من تاب وندم، وأقلع، وبدل

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٩) وحسَّنه والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) وصححه، وابن ماجه (رقم ٤٢٦٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦٩ رقم ٦٣٠٦) وأحمد ٤/ ١٢٤) والبزار (٨/ ٤١٧ رقم ٣٤٨٩) والطبراني في الكبير (٧/ ٢٨٤ رقم ٧١٤٣) وفي الصغير (رقم ٨٦٣) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٦٦ رقم ٤٦٣)، والطيالسي (رقم ١١٢٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٤٢).

السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن. فهذا حسن ظن، والأول غرور. والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد. ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا الظالمين والفاسقين. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠] فأخبر ـ سبحانه ـ أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

***

﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤] أي: وإن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم. ويقال: عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه، ثم يقال: استعتب السيد عبده أي طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده أي أزال عتبه بطاعته. ويقال: استعتب العبد سيده أي طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده أي فأزال عتب نفسه عنه. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أي وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم، ولا يقبل فيها توبتهم.

وقوله: ﴿ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل: ٨٤] أي لا يطلب منهم إعتابنا. وإعتابه تعالى إزاله عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم، فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله. وكذلك قوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا

(١) ١٨١ البدائع جـ٤.

يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧]. وقول النبي ﷺ في دعاء الطائف: «**لك العتبى**»[1] هو اسم من الإعتاب لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه، ولك عليّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك، فأفعل ما ترضى به عني وما يزول به عتبك عليّ. فالعتب منه على عبده، والعتبى والإعتاب له من عبده.

فههنا أربعة أمور: العتب وهو من الله تعالى؛ فإن العبد لا يعتب على ربه؛ فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم. من ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط. الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين، فاعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه. والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله عليه. الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضاً ومن العبد بالاعتبارين. فالله يستعتب عباده أي يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم، ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه. والعبد يستعتب ربه أي يطلب منه إزالة عتبه. الرابع: العتبى وهي اسم الإعتاب. فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبط كثير من المفسرين لهذه المواضع. ومنه قوله النبي ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به: فإما محسن فلعله أن يزداد، وإما مسي فلعله أن يستعتب**»[2] أي يطلب من ربه إعتابه إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه، فيزول عتبه عليه. والاستعتاب نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى، وفي الأثر: «**إن العبد ليسترضي ربه فيرضى عنه، وإن الله ليسترضى فيرضى**». لكن الاسترضاء فوق الاستعتاب؛ فإنه طلب رضوان الله، والاستعتاب طلب إزالة غضبه وعتبه، وهما متلازمان.

***

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) وانظر: البداية والنهاية (٣/ ١٣٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٦٨٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٢٨) (١١/ ١٥١).

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[(١)]معنى الآية: إن الله قيض للمشركين ـ أي سبَّب لهم ـ قرناء من الشياطين، يزينون لهم ما بين أيديهم، وما خلفهم من التكذيب بالآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب، وقيل عكس هذا، وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة. وقال الحسن: ما بين أيديهم وهو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع: وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازموا عليها ولما يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق. ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج، فقال الزجاج: سبّبنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم.

...[(٢)]قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

---

(١) ٤١٩ طريق الهجرتين.

(٢) ١٠٥ الإغاثة جـ١.

[فصلت: ٢٥]. قال الكلبي: «ألزمناهم قرناء من الشياطين». وقال مقاتل: «هيأنا لهم قرناء من الشياطين». وقال ابن عباس: «ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة». والمعنىٰ زينوا لهم الدنيا حتىٰ آثروها، ودعوهم إلىٰ التكذيب بالآخرة والإعراض عنها. وقال الكلبي: «زينوا لهم الدنيا حتىٰ آثروها، ودعوهم إلىٰ التكذيب بالآخرة والإعراض عنها. وقال الكلبي: «زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث؛ وما خلفهم من أمر الدنيا: ما هم عليه من الضلالة»، وهذا اختيار الفراء[1].

وقال ابن زيد: «زينوا لهم ما مضىٰ من خبث أعمالهم، وما يستقبلون منها» والمعنىٰ علىٰ هذا: زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه. فقول عدو الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧] يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧] فإن مالك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه علىٰ فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها، وهذا يفصل ما أجمله في قوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ۝ ﴾.

[2]الملك يتولىٰ من يناسبه بالنصح له والإرشاد، والتثبيت والتعليم، وإلقاء

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١١١) وتنوير المقباس من تفسير ابن عباس (صـ٤٠٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).
(٢) ٢٧٩ الروضة.

الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام [عنها]، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسه في الوحدة، ووليه ومعلمه، ومثبته ومسكن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، ويستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن. وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

(١)وقال بعض السلف: إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان. ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته، وعند موته، وعند مبعثه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له، وأنفعهم وأبرهم به، فثبته وعلمه، وقوى جنانه وأيده.

قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢] ويقول الملك للعبد عند الموت: «لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالذي يسرك»(٢)، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه، في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة. فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه،

---

(١) ١٤٤ الجواب.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٤-٥٥ رقم ١٢٠٥٩) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٦٥-٣٦٦) والحديث حسنه الحافظ المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٧).

وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به.

[(١)] باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوىٰ له ثلاث أحوال:

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين، فيرد جيش الهوىٰ مغلولاً. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه المرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم الذين قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾، وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوىٰ، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاءوا. وله معهم حالتان: إحداهما أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط، والمبتدع الداعية المتبوع، كما قال القائل:

وكنت امرءاً من جـــند إبليس فارتقىٰ ... بي الحال حتىٰ صار إبليس من جندي[(٢)]

---

(١) ٢٠ عدة الصابرين.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب إلى الخبز أرزي: نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري أبي القاسم، شاعر غزل كان أميًّا يخبز خبر الأرز بالبصرة وينشد الشعر فيجتمع له الناس ويتعجبون من حاله، جمع له ديوان شعر، مات سنة ٣١٧هـ. وينسب أيضاً إلى الأمير الصنعاني صاحب سبل السلام وتطهير الاعتقاد وغيرهما مات سنة ١١٨٢هـ وهذه النسبة غير صحيحة وذكر البيت جلال الدين القزويني في علوم الإيضاح في علوم البلاغة (صـ٨٢) وأبو منصور الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١/ ١٣٣) والزمخشري في ربيع الأبرار (١/ ٣٦٦) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٢٠٧) ونسبه إلى الخوارزمي ولعله تصحيف وذكره أيضاً ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٦٣) والمناوي في فيض القدير (٥/ ٣٠٢).

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه. وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. وجند أصحابها المكر والخداع، والأماني الباطلة، والغرور والتسويف بالعمل، وطول الأمل، وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «**العاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**».

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى، فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول، يصد عن سبيل الله، ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً، ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط. ومنهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة، ولكنها قد تعذرت عليَّ فلا مطمع لي فيها. ومنهم من يقول: ليس الله محتاجاً إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته:

فكثر ما استطعت من الخطايا   إذا كان القدوم على كـــــريم(١)

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق، ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين، الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها

---

(١) ذكر هذا البيت ابن خلكان في وفيات الأعيان (١/ ٨٧٣) وذكر صدر البيت ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٢٣٤) ونسبه إلى أبي نواس وأما عجز البيت فهو: **فإنك لا قيا ربًّا غفوراً**
وانظر: أبجد العلوم (٣/ ٧٧).
أما عجز البيت فقد ذكره ابن كثير في البداية (١٣/ ٤٦) وصدره: **وسوء الظن أن تعتد زاداً**

يتوصل إلىٰ قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر، يستعمله في رعاية الخنازير، وعصر الخمور، وحمل الصليب. وهو بقهره عقله وتسليمه إلىٰ أعدائه ـ عند الله ـ بمنزلة رجل قهر مسلماً وباعه للكفار، وسلمه إليهم، وجعله أسيراً عندهم.

وها هنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور ولما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء، ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلىٰ عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه، الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلىٰ أعدىٰ عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته، واستسلم له سلط عليه عقوبة له. قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

فإن قيل: فقد أثبت له علىٰ أوليائه هاهنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله ـ تعالىٰ ـ حاكياً عنه مقرراً له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم، وتلاعبه بهم وسوقه إياهم، كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته. والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة،

فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، لكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم. والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً دولاً بين الجندين، فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقل، وهذه حال أكثر المؤمنين، الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة. وهذا الأحوال الثلاث هي أحوال الناس في الصحة والمرض. فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة. ومنهم من يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء. ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوباً، فهو متردد بين الصحة والمرض.

ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة. ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس. ومثال الأول كرجل صارع رجلاً شديداً فلا يقهره إلا بتعب ومشقة. والثاني: كمن صارع رجلاً ضعيفاً فإنه يصرعه بغير مشقة. فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمان وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان. قال عبدالله بن مسعود ﷺ: «لقي رجل من الإنس رجلاً من الجن فصارعه فصرعه الإنسي فقال: مالي أراك ضيئلاً فقال: إني من بينهم لضليع». فقالوا: أهو عمر بن الخطاب فقال: «من ترونه غير عمر»[1].

(١) أخرجه الدارمي (رقم ٣٣٨١) والطبراني في الكبير (١٦٦/٩ رقم ٨٨٢٦). وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (١٢٣/٧) وذكره الطبراني في الكبير بلفظ أطول من هذا. جعلته أصلًا لقصة من قصص =

وقال بعض الصحابة: «إن المؤمن ينضي شيطانه، كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»(١). وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف: أن شيطاناً لقي شيطاناً، فقال: مالي أراك شخيباً. فقال: إنني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار. فقال: لكني مع رجل إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه، وأوشك أن ينال منه غرضه.

(٢)فهذا ما تلخص(٣) لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت، ولا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا البتة، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه، وما هو الصواب من ذلك، الذي دل عليه الكتاب والسنة، على طريقتنا التي منَّ الله بها، وهو مرجو الإعانة والتوفيق.

فأما من قال هي في الجنة فاحتج بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال وهذه ذكره ـ سبحانه ـ عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: (مقربين)، وأخبر أنها في جنة النعيم. و(أصحاب يمين) حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب.

الأطفال تحت عنوان: «الرجل الذي غلب الشيطان» وهي من منشورات دار المسلم بالرياض.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥١) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٧١) ولسان العرب (١٥/ ٣٣٠) وفيض القدير (٢/ ٣٨٥).

(٢) ١١٥ الروح.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى ما سرده من أقوال الناس عامة، وقد ذكرها واحدًا وعشرين ثم فصلها بقرابة كراستين وناقشها بما لها وما عليها، بما لا مزيد عليه. وذكر في آخر كلامه ما يلي من قوله: «وأنت إذا تأملت السنن...» إلخ. (ج).

و(مكذبة ضالة)، وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم. قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعاً، وقد ذكر ـ سبحانه ـ حالها يوم القيامة في أول السورة، فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٣٠]. وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا، يبشرها الملك بذلك. ولا ينافي ذلك قول من قال: إن هذا يقال لها في الآخرة؛ فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث. وهذه من البشرى التي قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]. وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشري بروح وريحان، وهذا من ريحان الجنة...[1]

[2]وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضها، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً، لكن الشأن في فهمها، ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأناً غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، لها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق. وما أشبه حالها في هذا البدن

---

(١) تقدم في سورة الزمر (ج).
(٢) ١٤٥ الروح.

بحال البدن في بطن أمه. وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار.

فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها: (الدار الأولى): في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث. (والدار الثانية): هي الدار التي نشأت فيها وألفتها، واكتسبت فيها الخير والشر، وأسباب السعادة والشقاوة. (والدار الثالثة): دار البرزخ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى. (والدار الرابعة) دار القرار وهي الجنة والنار، فلا دار بعدها. والله ينقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق، حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها، ومميتها ومحييها، ومسعدها ومشقيها، الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها، كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك له، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله، وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول، وتقر به الفطر، وما خالفه فهو الباطل، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

(١) قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، أو كان

(١) ٢٤٩ جلاء الأفهام.

الوقف عند قوله: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثم يبتدئ ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ فالقولان متلازمان، فإنه أمره ـ سبحانه ـ أن يخبر أن سبيله الدعوة إلىٰ الله، فمن دعا إلىٰ الله تعالىٰ فهو علىٰ سبيل رسوله ﷺ، وهو علىٰ بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلىٰ غير ذلك فليس علىٰ سبيله، ولا هو علىٰ بصيرة، ولا هو من أتباعه.

فالدعوة إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم؛ والله ـ سبحانه ـ قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له. وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً. وتبليغ سنته إلىٰ الأمة أفضل من تبليغ السهام إلىٰ نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله ـ تعالىٰ ـ منهم بمنه وكرمه.

(١)الدعاة جمع داع كقاض وقضاة، ورام ورماة، وإضافتهم إلىٰ الله للاختصاص، أي الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلىٰ دينه وعبادته ومعرفته ومحبته. وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدراً. يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلىٰ ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله(٢). فمقام الدعوة إلىٰ الله أفضل مقامات العبد. قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩].

---

(١) ١٥٣ المفتاح جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/١١٨) وانظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٦٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ١٠٢).

وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القابل الزكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة. والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات. وهذا باطل، وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. فهذا احتجاج بما ركب في العقول والفطر، لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول. وقال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠]. فأي شيء أصرح من هذا ،حيث أخبر ـ سبحانه ـ أنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه. فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم، وقد أخبر ـ تعالى ـ أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم، فهذا تحريم عقوبة. بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية، ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل الكل سواء. فإنه ـ سبحانه ـ أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحساناً وإنعاماً عليهم، لأن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم، وفي معادهم ومآلهم، إنما هو بفعل ما أمروا به، وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قوام للبدن إلا به بل أعظم، وليس مجرد تكليف وابتلاء كما يظنه كثير من

---

(١) ١٠ المفتاح جـ٢.

الناس. ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة وحمية لهم، إذ لا بقاء لصحتهم، ولا حفظ لها إلا بهذه الحمية، فلم يأمرهم حاجة منه إليهم وهو الغني الحميد، ولا حرم عليهم ما حرم بخلاً منه عليهم وهو الجواد الكريم، بل أمره ونهيه عين حظهم وسعادتهم العاجلة والآجلة. ومصدر أمره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده وإحسانه وإنعامه، فلا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه ووقع أفعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة.

(١)والرسل من أولهم إلى خاتمهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول. فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه ـ سبحانه ـ، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غِيَره، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. كل يوم هو في شأن، يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويفك عانياً، وينصر مظلوماً، ويقصم ظالماً، ويرحم مسكيناً، ويغيث ملهوفاً، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمَّة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه

---

(١) ٣٤٨ المدارج جـ٣.

لرسله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط.

فقعدت المعطلة والجهمية علىٰ رأس القاعدة الأولىٰ، فحالوا بين القلوب وبين معرفة ربها، وسموا إثبات صفاته، وعلوه فوق خلقه، واستواءه علىٰ عرشه: تشبيهاً وتجسيماً وحشواً. فنفروا عنه صبيان العقول. وسموا نزوله إلىٰ سماء الدنيا، وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه، وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لأصوات العباد، ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك: حوادث.

وسموا وجهه الأعلىٰ، ويديه المبسوطتين، وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة: جوارح وأعضاء ـ مكراً منهم كُبَّاراً بالناس ـ كمن يريد التنفير عن العسل، فيمكر في العبارة، ويقول: مائع أصفر يشبه العذرة المائعة. أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الأسماء، فعل الماكر المخادع. فليس مع مخالف الرسل سوىٰ المكر في القول والعمل.

فلما تم للمعطلة مكرهم، وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الإيمان، وما جاء به الرسول: ترتب عليه الإعراض عن الله، وعن ذكره ومحبته، والثناء عليه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فانصرفت قوىٰ حبها وشوقها وأنسها إلىٰ سواه. وجاء أهل الآراء الفاسدة، والسياسات الباطلة، والأذواق المنحرفة، والعوائد المستمرة: فقعدوا علىٰ رأس هذا الصراط، وحالوا بين القلوب وبين الوصول إلىٰ نبيها، وما كان عليه هو وأصحابه، وعابوا من خالفهم في قعودهم عن ذلك، ورغب عما اختاروه لأنفسهم، ورموه بما هم أولىٰ به منه. كما قيل: رمتني بدائها وانسلت[(١)].

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦) وكتاب الأمثال للقاسم بن سلام (ص ٧٣) وكتاب المستقصىٰ في الأمثال للزمخشري (٢/ ١٠٣).

وجاء أصحاب الشهوات المفتونون بها، الذين يعدون حصولها ـ كيف كان ـ هو الظفر في هذه الحياة والبغية، فقعدوا على رأس طريق المعاد، والاستعداد للجنة ولقاء الله، وقالوا: اليوم خمر، وغداً أمر، اليوم لك، ولا تدري: غداً لك، أو عليك؟ وقالوا: لا نبيع ذرة منقودة، ببدرة موعودة.

خـذ مـا تـراه ودع شـيئاً سـمعت بـه ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحـل[1]

وقالوا للناس: خلوا لنا الدنيا. ونحن قد خلينا لكم الآخرة. فإن طلبتم منا ما بأيدينا أحلناكم على الآخرة.

أنـاس ينقـدون عـيش النعـيم ... ونحـن نحـال علـى الآخـرة
فـإن لم تكـن مـثلما يزعمـو ... ن فتلـك إذًا كـرةً خاسـرة

فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير هممهم إذا قصروا؛ فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العلم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غادياً رائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رفع له علم فشمر إليه» ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله ﷻ له ـ بفضله ومنه ـ علماً يشاهده بقلبه، فيشمر إليه ويعمل عليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القدر: أن اقعدي مع القاعدين، فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب

(١) هذا البيت من بحر البسيط، ينسب إلى المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤هـ.

إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه؛ وتلتذ بقربه، وتطمئن إلىٰ ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها ـ بعد ذلك ـ ما هو مشروط بالمعرفة، وملزوم لها. إذ وجود الملزوم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع. فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان: ممتنع علىٰ المعطل امتناع حصول المغل من معطل البذر، بل أعظم امتناعاً.

كيف تصمد القلوب إلىٰ من ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، ولا مبايناً له ولا محايثاً؟ بل حظ العرش منه كحظ الآبار والوهاد. والأماكن التي يرغب عن ذكرها؟ وكيف تأله القلوب من لا يسمع كلامها، ولا يرىٰ مكانها، ولا يُحب ولا يَحب، ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟

فكيف يتصور علىٰ ذلك، ومحبته والإنابة إليه والشوق إلىٰ لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم، وهو مستو علىٰ عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله القلوب من لا يَحب ولا يُحب، ولا يرضىٰ ولا يغضب ولا يفرح ولا يضحك؟

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلىٰ لقائه، وانتظار لذة النظر إلىٰ وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلاً لذلك لمن عليها به، وأكرمها به؛ إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: في الحقيقة تنزيهًا. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيهاً. كما ضرب حجاب الشرك والبدع والمضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها، وزين لهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة.

***

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

(١) هذا لدفع شر شياطين الإنس، ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦] فأكد بإن وبضمير الفصل وأتى باللام، في «السميع العليم» وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه ـ سبحانه ـ يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك. فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة. وهذا المعنى شامل للموضعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره ـ سبحانه ـ على الذين شكوا في سمعه لقولهم، وعلمه بهم، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، فقال

(١) الإغاثة جـ١ ٩٦.

الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٢ ـ ٢٣][(١)].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا، وأنه لا يعلم كثيرًا مما يعملون. وحسن ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضاً فإن السياق ههنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته، وشواهد توحيده، ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧] وبقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً ﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه «السميع العليم»، كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة. والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تسوونها به في العبادة؛ فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة «حم المؤمن» هو شر مجادلة الكفار في آياته، وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر، قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٧) ومسلم (رقم ٢٧٧٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٦٢) وشرح النووي (١٧/ ١٢٢).

بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان وأخبار الله ورسوله.

***

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

(١)القرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لقاه ذلك؛ فإنه ينال بذلك كف شر عدوه وانقلابه صديقاً، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغل والحقد، وطمأنينة الناس ـ حتى عدوه ـ إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا ينال إلا بالصبر قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فإن النزق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة الإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة، فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة. والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب

(١) ٩٨ إغاثة جـ١.

القدرة بيده. وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢].

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين، أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه.

(١) وأما سيرته ﷺ في أوليائه وحزبه: فأمر أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأن لا تعدو عيناه عنهم، وأمره أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشاورهم في الأمر، وأن يصلي عليهم، وأمره بهجر من عصاه وتخلف عنه، حتى يتوب ويراجع طاعته، كما هجر الثلاثة الذين خلفوا، وأمره أن يقيم الحدود على من أتى موجباتها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواء، شريفهم ودنيهم.

وأمره في دفع عدوه من شياطين الإنس: بأن يدفع بالتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالحلم، وظلمه بالعفو، وقطيعته بالصلة. وأخبره أنه إن فعل ذلك عاد عدوه كأنه ولي حميم. وأمره في دفع عدوه من شياطين الجن: بالاستعاذة بالله منهم، وجمع له هذين الأمرين في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة الأعراف، والمؤمنين، وسورة حم السجدة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]. فأمره باتقاء شر الجاهلين بالإعراض عنهم، وباتقاء شر الشيطان بالاستعاذة منه. وجمع له في

---

(١) ٢٠٩ الزاد جـ٢.

هذه الآية مكارم الأخلاق والشيم كلها؛ فإن ولي الأمر له مع الرعية ثلاثة أحوال: فإنه لابد له من حق عليهم يلزمهم القيام به، ومن أمر يأمرهم به، ولابد من تفريط وعدوان يقع منهم في حقه، فأمر بأن يأخذ من الحق الذي له عليهم ما طوعت به أنفسهم، وسمحت به، وسهل عليهم ولم يشق، وهو العفو الذي لا يلحقهم ببذله ضرر ولا مشقة. وأمر أن يأمرهم بالعرف وهو المعروف الذي تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وتقر بحسنه ونفعه، وإذا أمر به يأمر به بالمعروف أيضاً، لا بالعنف والغلظة. وأمر أن يقابل جهل الجاهلين منهم بالإعراض عنه، دون أن يقابله بمثله. فبذلك يكتفي شرهم.

وقال تعالىٰ في سورة المؤمنين: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٣ ـ ٩٨].

وقال تعالىٰ في سورة حم السجدة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦]. فهذه سيرته مع أهل الأرض: إنسهم وجنهم مؤمنهم وكافرهم.

[(١)]وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

ولما كان الشيطان علىٰ نوعين: نوع يرىٰ عياناً، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يرىٰ، وهو شيطان الجن: أمر ﷻ نبيه ﷺ أن يكتفي من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه،

---

(١) ٩٤ الزاد جـ٢.

والعفو، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعاذة بالله منه. وجمع بين النوعين في سورة الأعراف: (١٩٩) وسورة المؤمنون: (٩٨) وسورة فصلت: (٣٦) والاستعاذة في القراءة والذكر: أبلغ في دفع شر شياطين الجن. والعفو والإعراض والدفع بالإحسان: أبلغ في دفع شر شياطين الإنس، قال:

فما هو إلا الاستعاذة ضارعاً ... أو الدفع بالحسنى هما خير مطلوب

فهذا دواء الداء من شر ما يرى ... وذاك دواء الداء من شر محجوب

فيما يقوله ويفعله من اشتد غضبه: أمره ﷺ أن يطفئ عنه جمرة الغضب بالوضوء والقعود إن كان قائماً، والاضطجاع إن كان قاعداً، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

ولما كان الغضب والشهوة جمرتين من نار في قلب ابن آدم: أمر أن يطفئها بالوضوء والصلاة، والاستعاذة من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]. وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة، فأمرهم بما يطفئون بها جمرتها، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة، وأمر ـ تعالى ـ بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته.

ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة، وكان نهاية قوة الغضب: القتل، ونهاية قوة الشهوة: الزنا ـ جمع الله ـ تعالى ـ بين القتل والزنا، وجعلهما قرينين في سورة الأنعام وسورة الإسراء وسورة الفرقان وسورة الممتحنة.والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أرشد عباده إلى ما يدفعون به شر قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة.

***

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[(١)] ومن آياته ﷻ الليل والنهار، وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته. ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن الكريم ويبديه كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٧]. وقول ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧].وهذا كثير في القرآن، فانظر إلىٰ هاتين الآيتين، وما تضمنتاه من العبر والدلالات علي ربوبية الله وحكمته، وكيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوىٰ الحيوانات إلىٰ بيوتها والطير إلىٰ أوكارها. وتستجم فيه النفوس، وتستريح من كد السعي والتعب. حتىٰ إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتعطلت إلىٰ معايشها وتصرفها جاء فالق الأصباح ﷻ بالنهار، يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها. فياله من معاد ونشأة دال علىٰ قدرة الله ـ سبحانه ـ علي المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً، ومنعها من الاعتبار به والاستدلال به علىٰ النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهذا أيضاً من أياته الباهرة أن يعمي عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها كمن هو واقف في الماء إلىٰ حلقه، وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء. وبهذا وأمثاله يعرف الله ﷻ ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل.

***

(١) ٢٠٣ المفتاح جـ١.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(1)قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]. جعل الله ـ سبحانه ـ إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب: أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله. والثاني: أنه يحيي الموتى.

وقد كرر ـ سبحانه ـ ذكر هذا الدليل في كتابه مراراً؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرة وذكرى، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٧ ـ ٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصر به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قدم عليه في اللفظ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والتذكر: تفعل من الذكر، وهو حضور صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فأبصر ما جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

---

(١) ١٤٤ الإعلام جـ١.

[(١)] تنبيه: ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خلق الحياء، الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء. ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف، ولم يوف بالوعد، ولم يؤد أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقاً، ولم يصل له رحماً، ولا بر له والداً.

فإن الباعث علي هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق. قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. وفي الترمذي وغيره مرفوعاً: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، قالوا: وما حق الحياء؟ قال: «**أن تحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وتذكر المقابر والبلى**»[(٢)]. وقال ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[(٣)]. وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ وقوله: ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلاً ﴾. وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلاً فانظر قبل فعله، فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله، وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح.

وعندي أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر. وهو في قوة

---

(١) ٢٧٧ المفتاح جـ١.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) وأبو يعلى (٨/ ٤٦١ رقم ٥٠٤٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٧ رقم ٣٤٣٢٠) والطبراني في الكبير (٣/ ٢١٩ رقم ٣١٩٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٦٢) وتحفة الأحوذي (٧/ ١٣٠-١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٨٤) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٣) والتمهيد (٢٠/ ٦٧-٦٩).

قولهم: من لا يستحي صنع ما يشتهي، فليس بإذن، ولا هو مجرد تهديد، وإنما هو في معنى الخبر. والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء. وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكتة بديعة جداً، وهي أن للإنسان آمرين وزاجرين. آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي. وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة. فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة. ولابد. فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال: من لا يستحي صنع ما يشتهي.

***

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

(١)قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله. ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

(٢)فتدبر قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله ـ تعالى ـ بإذا وأتى في إصابة السيئة بأن، فإن ما يعفو الله عنه أكثر. وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل

(١) ١٣٦ المدارج جـ١.

(٢) ٤٧ البدائع جـ١.

الدال على أنه غير محقق ولابد. وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة لهم، والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها.

وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه، فقال: (منا رحمة)، وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم. وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية. وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر. وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧]. كيف أتى بإذا ههنا ما كان مس الضر لهم في البحر محققاً بخلاف قوله: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩]. فإنه لم يقيد مس الشر هنا بل أطلقه، ولما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتى بأداة إذا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [الإسراء: ٨٣] كيف أتى هنا بإذا المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان بإذا هنا أدل على المعنى المقصود من إن بخلاف قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١] فإنه بقلة صبره وضعف احتماله متى توقع الشر أعرض وأطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يؤوساً. ومثل هذه الأسرار في القرآن لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله وفهم يؤتيه عبداً في كتابه..

***

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

[(١)] من أسمائه تعالى «المؤمن» وهو ـ في أحد التفسيرين ـ المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم . فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا

(١) ٤٦٦ الإعلام جـ٣.

عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاء وخلقاً. فإنه ـ سبحانه ـ أخبر ـ وخبره الصدق وقوله الحق ـ أنه لابد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحي الذي بلغته رسله حق. فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي القرآن؛ فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [فصلت: ٥٢]. ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فشهد ـ سبحانه ـ لرسوله بقوله أن ما جاء به حق. ووعده أن يُرِيَ العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته ـ سبحانه ـ على كل شيء. فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته؛ فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا. قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت. وشأنه أجل وأعلى، فإن الرب ـ تعالى ـ هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله ـ سبحانه ـ في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود: أنه ـ سبحانه ـ الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء. والعزة والعظمة والكبرياء: كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له، والعلم كله له، القدرة كلها له، والسمع والبصر والإرادة، والمشيئة والرحمة

والغنى، والجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطناً وظاهراً. ومن هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به؟ وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب؟ ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر. وهو ـ مع ذلك ـ كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد.

ومعلوم أن شهادته ـ سبحانه ـ على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. ومن ظن ذلك به، وجوزه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق. وهي طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله. قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ [الحاقة: ٤٤] إلى قوله تعالى: ﴿ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ أفلا تراه كيف يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبي أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه..

(١)ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم يحدثها الله ﷻ في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل،

(١) ١٨٩ التبيان.

حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره. كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لابد أن يري الله ـ سبحانه ـ أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلاهو، وأن رسله صادقون وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير[1].

[2]الرب ـ تعالى ـ يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما النظر في مفعولاته. والثاني: التفكر في آياته وتدبرها. فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة. فالنوع الأول كقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]. إلى آخره. وقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهو كثير في القرآن. والثاني كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢].وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقوله: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وهو كثير أيضاً.

فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معلوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة. ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته ـ تعالى ـ. وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته. وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه. وما فيها من الإكرام

(١) يأتي في الذاريات البحث كاملًا إن شاء الله تعالى. (ج).
(٢) ٢٠ الفوائد.

والتقريب والعناية دال على محبته. وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته. وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف، ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد. وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد. وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات. وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها. فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه. فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق. ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه، كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء، فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه. ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: ١٠] فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل. فالأشياء عرفت به في الحقيقة، وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فصلت

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الشُّورَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

(١)هذا الموصوف بهذه الصفات والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير. فهذا هو الذي ليس كمثله شيء لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء. فالمثبت لصفات كماله هو الذي يصفه أنه ليس كمثله شيء. وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه، فإن وصفه بأنه ليس كمثله شيء مجاز لا حقيقة له، كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

(٢)وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده، فهو الحاكم فيه على لسان رسوله. فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بكتابه. وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(١) ٢١٢ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١٤١ مختصر الصواعق جـ١.

[الأعراف: ٣] فأمر باتباع الوحي المنزل وحده ونهى عما خالفه، وأخبر أن كتابه بينة وهدى وشفاء ورحمة ونور مفصلاً وبرهاناً وحجة وبيانا. فلو كان في العقل ما يعارضه ويجب تقديمه على القرآن لم يكن فيه شيء من ذلك، بل كانت هذه الصفات للعقل دونه.

(١)قال تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١].

قلت: وجه تعلقه بإشارة الآية: هو أن الله سبحانه يعيشكم فيما خلق لكم من الأنعام المذكورة. قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج. ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل. والمعنى: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر: من جعله لكم أزواجاً. فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان: بالأزواج، والضمير في قوله: «فيه» يرجع إلى الجعل. ومعنى «الذرء» الخلق، وهو هنا الخلق الكثير، فهو خلق وتكثير. فقيل «في» بمعنى الباء، أي يكثركم بذلك. وهذا قول الكوفيين. والصيح: أنها على بابها. والفعل تضمن معنى «ينشئكم» وهو يتعدى بفي. كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فهذا تفسير الآية.

ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح. وهو ـ سبحانه ـ الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه ـ كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذرءاً. والله أعلم.

(٢)قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون. ولم يقصد به نفي صفات كماله، وعلوه على خلقه. وتكلمه بكتبه. وتكليمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم، كما ترى الشمس والقمر

(١) ٢٩٩ مدارج جـ٣.
(٢) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

في الصحو. فإنه سبحانه إنما ذكر هذا في سياق رده على المشركين، الذين اتخذوا من دونه أولياء. يوالونهم من دونه. فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ [الشورى: ٦- ١١].

فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد، وإبطالاً لما عليه أهل الشرك: من تشبيه آلهتهم، وأوليائهم به، حتى عبدوهم معه، فحرفها المحرفون وجعلوها ترساً لهم في نفي صفاته كماله، وحقائق أسمائه وأفعاله.

وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفيا ونهياً: هو أصل شرك العالم، وعبادة الأصنام. ولهذا نهى النبي ﷺ، أن يسجد أحد لمخلوق مثله(١)، أو يحلف بمخلوقه مثله(٢)، أو يصلي إلى قبر، أو يتخذ عليه مسجداً، أو يعلق عليه قنديلاً أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان، ونحو ذلك، حذراً من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك. وأما

(١) قال رسول الله ﷺ: **«لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»** أخرجه ضياء الدين المقدسي في المختارة (٥/ ٢٦٥-٢٦٦ رقم ١٨٩٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٣ رقم ٩١٤٧) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٨٤ رقم ١٣٢٦٣) وأحمد (٣/ ١٥٨) والحاكم (٤/ ١٨٩ رقم ٧٣٢٤) وهو حديث حسن.

(٢) قال رسول الله ﷺ: **«ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»** أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٨) ومسلم (رقم ١٦٤٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٣٠-٥٣٣) وشرح النووي (١١/ ١٠٤-١٠٥).

إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد.

فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والحلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له، والاستعانة به، والتشريك بينه وبين الله، في قولهم: ليس لي إلا الله وأنت، وأنا متكل على الله وعليك. وهذا من الله ومنك. وأنا في حسب الله وحسبك، وما شاء الله وشئت. وهذا لله ولك. وأمثال ذلك.

فهؤلاء هم المشبهة حقًا، لا أهل التوحيد، المثبتون لله ما أثبته لنفسه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه، الذين لا يجعلون له نداً من خلقه، ولا عدلا، ولا كفؤا، ولا سمياً. وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع.

فمن تدبر هذا الفصل حق التدبير تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام، وتبين له سر القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة، ولاسيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال. كما هو الغالب عليهم. فيجمعون بين تعطيل الرب ـ سبحانه ـ عن صفات كماله، وبين تشبيه خلقه به.

[(١)]إنه ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء. وأنه لا سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ليس كمثله شيء وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله ولا من يكافيه فيها. ولو كان مسلوب الصفات والأفعال والكلام والاستواء والوجه واليدين ومنفياً عنه مباينة العالم ومحايثته واتصاله به وانفصاله عنه وعلوه عليه وكونه يمنته أو يسرته أو أمامه أو وراءه لكان كل عدم مثلاً له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه مماثلة الموجودات وأثبت لها مماثلة المعدومات، فهذا النفي واقع على أكمل الموجودات، وعلى العدم المحض، فإن العدم المحض لا مثل له ولا كفؤ ولا سمي.

---

(١) ٢٠٧ مختصر الصواعق جـ١.

فلو كان المراد بهذا نفي صفاته وأفعاله واستوائه على عرشه وتكلمه بالوحي وتكليمه لمن يشاء من خلقه؛ لكان ذلك وصفا له بغاية العدم. فهذا النفي واقع على العدم المحض. وعلي من كثرت أوصاف كماله حتى تفرد بذلك الكمال فلم يكن له شبيه في كماله ولا سمي ولا كفؤ.

فإذا أبطلتم هذا المعنى الصحيح تعين ذلك المعنى الباطل قطعاً، وصار المعنى أنه لا يوصف بصفة أصلاً، فلا يفعل فعلاً، ولا وجه له، ولا يد، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم، ولا يقدر، تحقيقاً لمعنى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾.

وقال إخوانكم من الملاحدة: ليس له ذات أصلاً تحقيقاً لهذا النفي.

وقال غلاتهم: لا وجود له. تحقيقاً لهذا النفي.

وأما الرسل وأتباعهم فإنهم قالوا: إن الله حي، وله حياة، وليس كمثله شيء في حياته. وهو قوي، وله القوة، وليس كمثله شيء في قوته. ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] يسمع ويبصر. وليس كمثله شيء في سمعه وبصره. ومتكلم. وله يدان. ومستو على عرشه. وليس له في هذه الصفات مثل: فهذا النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدح له وثناء أثنى به على نفسه. والعدم المحض لا يمدح به أحد ولا يكون كمالا له بل هو أنقص النقص. وإنما يكون كمالا إذا تضمن الإثبات كقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لكمال حياته وقيوميته.

وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ لكمال غناه وملكه وربوبيته.

قوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، لكمال غناه وعدله ورحمته، وقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] لكمال قدرته. وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] لكمال علمه. وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

لعظمته وإحاطته بما سواه، وأنه أكبر من كل شيء. وأنه واسع، فيرىٰ ولكن لا يحاط به إدراكاً، كما يعلم ولا يحاط به علماً، فيرىٰ ولا يحاط به رؤية. وهكذا ليس كمثله شيء، وهو متضمن لإثبات جميع صفات الكمال علىٰ وجه الإجمال.

وهذا هو المعقول في فطر الناس. فإذا قالوا: فلان عديم المثل، أو قد أصبح ولا مثل له في الناس. أو ما له شبيه، ولا من يكافيه. فإنما يريدون بذلك أنه تفرد من الصفات والأفعال والمجد بما لا يلحقه فيه غيره. فصار واحداً في الجنس لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده؛ لكان ذلك عندهم غاية الذم والنقص له.

فإذا أطلقوا ذلك في سياق المدح والثناء لم يشك عاقل في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه التي لها حقائق تحمل عليها.

فهل يقول عاقل لمن لا قدرة له ولا علم ولا بصر ولا يتصرف بنفسه ولا يفعل شيئاً ولا يتكلم ولا له وجه ولا يد ولا قوة ولا فضيلة من الفضائل: إنه لا شبه له، ولا مثل له، وأنه وحيد دهره، وفريد عصره، ونسيج وحده، وهل فطر الله الأمم وأطلق ألسنتهم ولغاتهم إلا علىٰ ضد ذلك؟ وهل كان رب العالمين أهل الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله ونعوته جلاله وأفعاله وأسمائه الحسنىٰ؟ وإلا فبماذا يثني عليه المثنون! ولأي شيء يقول أعرف الخلق به: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك؟»[1] ومعلوم أن هذا الثناء الذي أخبر أنه لا تحصيه لو كان بالنفي لكان هؤلاء أعلم به منه وأشد إحصاء له، فإنهم نفوا عنه حقائق الأسماء والصفات نفياً مفصلاً.وذلك مما يحصيه المحصي بلا كلفة ولا تعب. وقد فصله النفاة وأحصوه وحصروه.

***

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (٤/ ٢٠٤).

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾.

(١)أخبر ـ تعالىٰ ـ أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحاً والنبيين من بعده، وهو دين واحد، ونهانا عن التفريق فيه، ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق، وأن الحامل علىٰ ذلك التفرق البغي من بعضهم علىٰ بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها. وإذاتأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادراً عن هذا بعينه.

ثم أمر ـ سبحانه ـ نبيه أن يدعو إلىٰ دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه، وحذره من اتباع أهواء المتفرقين.

وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحق أن يؤمن بكل ما سمعه من الحق علىٰ لسان أي طائفة كانت.

ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر العدل بينهم، وهذا يعم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها، فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم، فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب، ونسبته منها إلىٰ القدر المشترك بينهما من الحق، فهو أولىٰ به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به.

ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد، فما الحامل للتفرق والاختلاف، وهو ربنا وربكم والدين واحد، ولكل عامل عمله لا يعدوه إلىٰ غيره.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ٢.

ثم قال: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥] والحجة ههنا هي الخصومة أي للخصومة، ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم، بعد ما ظهر الحق، وأسفر صبحه، وبانت أعلامه، وانكشفت الغمة عنه. وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول، وأن الدين لا احتجاج فيه.

كيف والقرآن من أوله إلىٰ آخره حجج وبراهين علىٰ أهل الباطل قطعية يقينية وأجوبة لمعارضتهم وإفساداً لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخباراً عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين، وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم.

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتىٰ عدل بعضهم إلىٰ محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته، واختار بعضهم مسالمته ومتاركته، وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم، وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة، ولم يجد إلىٰ ردها سبيلاً، وما خالفه أعداؤه إلا عناداً منهم وميلا إلىٰ المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه، وأنها لا تدفع، فما قام الدين إلا علىٰ ساق الحجة. فقوله: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا خصومة، فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد، وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة. فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع، فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحوداً وعناداً لم يبق للاحتجاج فائدة، فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار، فقد وضح الحق واستبان، ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد، والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق علىٰ المبطل وإليه المصير. قالوا: وها نحن نتحرىٰ القسط بين الفريقين...[١]

(١) بحث المؤلف هنا بحثًا مطولًا إجمالاً وتفصيلًا. (ج).

[(١)]قول النبي ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات**»[(٢)] وفي لفظ: «**أخوة من علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[(٣)]. قال الجوهري: بنو العلات، هم أولاد الرجل من نسوة شتى، سميت بذلك لأن الذي تزوجها عل أولى كانت قبلها، ثم عل من الثانية. العلل: الشرب الثاني، يقال له: علل بعد نهل، وعله يعله، إذا سقاه السقية الثانية[(٤)].

وقال غيره: سموا بذلك، لأنهم أولاد ضرائر، والعلات: الضرائر، وهذا الثاني أظهر: وأما وجه التسمية، فقال جماعة منهم القاضي عياض وغيره، معناه أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، فهم أولاد علات إذ لم يجمعهم زمان واحد، كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد، وعيسى لما كان قريب الزمان من النبي، ﷺ ولم يكن بينهما نبي كانا كأنهما في زمان واحد، فقال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم** عليه السلام» قالوا: كيف يا رسول الله؟ فقال: «**الأنبياء أخوة من علات**»[(٥)] الحديث.

وفيه وجه آخر أحسن من هذا، وهو أن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذي اتفقوا عليه من التوحيد وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه: بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم. قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) ٢٠١ بدائع جـ٣.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٢) ومسلم (رقم ٢٣٦٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٥/ ١١٩).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٣) وانظر: عمدة القاري (١٦/ ٣٦).
(٤) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٧٠) ومختار الصحاح (صـ١٨٩) وتهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٢٤).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٣) ومسلم (رقم ٢٣٦٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٥/ ١١٩).

وقال البخاري في صحيحه: باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد، وذكر هذا الحديث، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ، فهو بمنزلة الأب الواحد. وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتى التي كان لقاح تلك الأمهات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه.

فهذا أولى المعنيين بالحديث. وليس في تباعد أزمنتهم ما يوجب أن يشبه زمانهم بأمهاتهم ويجعلون مختلفي الأمهات لذلك، وكون الأم بمنزلة الشريعة، والأب بمنزلة الدين وأصالة هذا وتذكيره. وفرعيته: الأم وتأنيثها واتحاد الأب وتعدد الأم ما يدل على أنه معنى الحديث، والله أعلم.

***

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) ﴾.

[1]الحجة هي اسم لما يحتج به من حق وباطل. قال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠]. فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٥].

والحجة المضافة إلى الله هي الحق. وقد تكون الحجة بمعنى: المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥] أي قد وضح الحق واستبان وظهر،

(١) ١٤٥ مفتاح جـ١.

فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة، فإن الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق، فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة...

(١) والمقصود الفرق بين الحجج والبينات. فنقول: الحجج الأدلة العلمية.

والبيان جمع بينة، وهي صفة في الأصل، يقال: آية بينة، وحجة بينة، والبينة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة، أو أمارة، أو دليل علمي، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات، والكتاب هو الدعوة. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار، وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٧]. وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة...

(٢) العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج - بل مضطر - إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً، ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها، ناله اللطف في الظاهر، وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة، وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له،

---

(١) ١٤٦ مفتاح جـ١.

(٢) ٢٠٢ فوائد.

مستكيناً ناظراً إليه بقلبه، ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجري عليه سيده أحكامه رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط. فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

***

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) ﴾.

[١]سأله ﷺ عبادة بن الصامت، فقال: رجل أهدىٰ إليَّ قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عليها في سبيل الله، فقال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقًا من نار فأقبلها»[٢].

ولا ينافي هذا قوله: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»[٣] في قصة الرقية؛ لأن تلك جعالة على الطب؛ فطبه بالقرآن، فأخذ الأجرة على الطب، لا على تعليم القرآن، وههنا منعه من أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ فإن الله ـ تعالىٰ ـ قال لنبيه: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ [سبأ: ٤٧] وقال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ [يس: ٢١] فلا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الإسلام والقرآن.

---

(١) ٣٣٣ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٥) والضياء في المختارة (٨/ ٢٥١ رقم ٣٠٤) وابن أبي شيبة (٤/ ٣٤١ رقم ٢٠٨٤٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٦/ ١٢٥ رقم ١١٤٦١) وأبو داود (رقم ٣٤١٦) والحاكم (٢/ ٤٨ رقم ٢٢٧٧) قال الشوكاني في نيل الأوطار (٦/ ٢٦): وفي إسناده المغيرة بن زياد أبو هاشم الموصلي وقد وثقه وكيع ويحيىٰ بن معين وتكلم فيه جماعة وقال الإمام أحمد: ضعيف الحديث، حدَّث بأحاديث مناكير، وكل حديث رفعه فهو منكر، وانظر: التحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٢١٨ رقم ١٥٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٣٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٥٣، ٤٦٣).

[(١)]ونحن[(٢)] نمنع من أخذ الأجرة علىٰ كل قربة، ونحبط بأخذ الأجر عليها: كالقضاء، والفتيا، وتعليم العلم، والصلاة، وقراءة القرآن، وغيرها؛ فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص أخلص العمل لوجهه، فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والأكساب الدنيوية، وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض، فلذلك جازت في الحياة وبعد الموت.

[(٣)]استدل شيعي علىٰ الوصية لأهل البيت بقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورىٰ: ٢٣]. فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم، لا وصية إليهم، فهي حجة علىٰ خلاف قول الشيعة، لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم.

ونظير هذا الاحتجاج علىٰ أن الأمر في قريش لا في الأنصار، يقول النبي ﷺ: «**أوصيكم بالأنصار**»[(٤)] فدل علىٰ أن الأمر في غيرهم.

قلت: وهذا كله خروج عن معنىٰ الآية وما أريد بها، ولا دلالة فيها لواحدة من الطائفتين، فإن معنىٰ الآية: لا أسألكم عليه أجرًا، إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، فإنه لم يكن بطن من قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة، فقال: «**لا أسألكم علىٰ تبليغ الرسالة أجرًا، ولكن صلوا بيني وبينكم من القرابة**» وليست هذه الصلة أجرًا، فالاستثناء منقطع، فإن الصلة من موجبات الرحم، فهي واجبة علىٰ كل أحد، وهذا هو تفسير ابن عباس الذي ذكره البخاري عنه في صحيحه[(٥)].

***

(١) ١٦٣ الروح.

(٢) هذا البحث في إهداء القربات والطاعات عامة بتفصيل ومناقشة للأدلة في المسألة السادسة عشرة بكاملها من كتاب الروح بدءًا من ص ١٤٥ وانتهاءً بـ ص١٧٧ لمن أراده. (ج).

(٣) ١٢٩ بدائع جـ٣.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٩٩) ومسلم (رقم ٢٥١٠).

(٥) انظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٤) وتحفة الأحوذي (٩/ ٨٩-٩٠).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١)قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورىٰ: ٢٤] ههنا انتهىٰ جواب الشرط، ثم أخبر خبرًا جازمًا غير معلق أنه ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ ﴾ [الشورىٰ: ٢٤].

(٢)قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورىٰ: ٢٤] وفي معنىٰ الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط علىٰ قلبك بالصبر علىٰ أذاهم، حتىٰ لا يشق عليك. **والثاني**: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي، وهذا القول دون الأول لوجوه:

أحدها: أن هذا خرج جوابا لهم وتكذيبا لقولهم: إن محمدًا كذب علىٰ الله وافترىٰ عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله تعالىٰ قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم علىٰ قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه، فلا يوصل إلىٰ ما فيه، فيعود المعنىٰ إلىٰ أنه لو افترىٰ عليَّ لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله، والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب، ما لم يمكن من

(١) ٤٦٨ مدارج جـ٣.

(٢) ١١٥ التبيان.

ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه، فأين هذا إلى المعنى الذي ذكره الآخرون، وكيف يلتئم مع حكاية قولهم وكيف يتضمن الرد عليهم(١).

(٢)قال ابن عقيل: الأموال التي يأخذها القضاة أربعة أقسام: رشوة، وهدية، وأجرة، ورزق.

فالرشوة حرام، وهي ضربان: رشوة ليميل إلى أحدهما بغير حق، فهذه حرام عن فعل حرام على الآخذ والمعطي، وهما آثمان، ورشوة يعطاها ليحكم بالحق، واستيفاء حق المعطي من دين ونحوه، فهي حرام على الحاكم دون المعطي، لأنها للاستنقاذ، فهي كجعل الآبق وأجرة الوكلاء في الخصومة.

وأما الهدية فضربان: هدية كانت قبل الولاية فلا تحرم استدامتها. وهدية لم تكن إلا بعد الولاية، وهي ضربان: مكروهة وهي الهدية إليه ممن لا حكومة له، وهدية ممن قد اتجهت له حكومة، فهي حرام على الحاكم والمهدي.

وأما الأجرة إن كان للحاكم رزق من الإمام من بيت المال حرم عليه أخذ الأجرة قولا واحدا، لأنه إنما أجرى له الرزق لأجل الاشتغال بالحكم، فلا وجه لأخذ الأجرة من جهة الخصوم، وإن كان الحاكم لا رزق له، فعلى وجهين: أحدهما الإباحة، لأنه عمل مباح، فهو كما لو حكاه، ولأنه مع عدم الرزق لا يتعين عليه الحكم، فلا يمنع من أخذ الأجرة: كالوصي وأمين الحاكم يأكلان من مال اليتيم بقدر الحاجة.

وأما الرزق من بيت المال فإن كان غنيا لا حاجة له إليه احتمل أن يكره، لئلا يضيق على أهل المصالح، ويحتمل أن يباح، لأنه بذل نفسه لذلك، فصار كالعامل في الزكاة والخراج.

(١) أوصلها الشيخ إلى عشرة أوجه تأتي إن شاء الله في سورة الحاقة. (ج).
(٢) ١٤٦ بدائع جـ٣.

قلت: أصل هذه المسائل عامل الزكاة وقيم اليتيم، فإن الله تعالى أباح لعامل الزكاة جزءا منها، فهو يأخذه مع الفقر والغنى. والنبي ﷺ منعه من قبول الهدية، وقال: «**هلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر هل يهدى إليه أم لا**»(١).

وفي هذا دليل على أن من أهدي إليه في بيته ولم يكن سببه العمل على الزكاة جاز له قبوله، فيدل ذلك على أن الحاكم إذا أهدى إليه من كان يهدي له قبل الحكم ولم تكن ولايته سبب الهدية فله قبولها.

وأما ناظر اليتيم فالله تعالى أمره بالاستعفاف مع الغنى، وأباح له الأكل بالمعروف مع الفقر، وهو إما اقتراض أو إباحة على الخلاف فيه.

والحاكم فرع متردد بين أصلين عامل الزكاة وناظر اليتيم.

فمن نظر إلى عموم الحاجة إليه، وحصول المصلحة العامة به ألحقه بعامل الزكاة، فيأخذ الرزق مع الغنى، كما يأخذه عامل الزكاة.

ومن نظر إلى كونه راعيا منتصبا لمعاملة الرعية بأن لاحظ لهم أنهم ألحقه بولي اليتيم إن احتاج أخذ وإن استغنى ترك.

وهذا أفقه وهو مذهب الخليفتين الراشدين. قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم إن احتاج أكل بالمعروف، وإن استغنى ترك» والفرق بينه وبين عامل الزكاة أن عامل الزكاة مستأجر من جهة الإمام لجباية أموال المستحقين لها وجمعها، فما يأخذه يأخذه بعمله، كمن يستأجره الرجل لجباية أمواله.

وأما الحاكم فإنه منتصب لإلزام الناس بشرائع الرب تبارك وتعالى وأحكامه، وتبليغها إليهم، فهو مبلغ عن الله تعالى ﷻ بفتياه، ويتميز عن المفتى بالإلزام بولايته وقدرته، والمبلغ عن الله تعالى الملزم للأمة بدينه لا يستحق عليهم شيئًا، فإن كان محتاجا فله من الفيء ما يسد حاجته، وهذا لون وعامل الزكاة لون، فالحاكم مفتي في

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٩٧) ومسلم (رقم ١٨٣٢) وانظرك فتح الباري (١٣/ ١٦٥-١٦٧).

خبره عن حكم الله ورسوله، شاهد فيما ثبت عنده، ملزم لمن توجه عليه الحق، فيشترط له شروط المفتي والشاهد، ويتميز بالقدرة على التنفيذ، فهو في منصب خلافة من قال: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

فهؤلاء هم الحكام المقدر وجودهم في الأذهان المفقودون في الأعيان، الذين جعلهم الله ظلالا يأوي إليها اللهفان، ومناهل يردها الظمآن.

(١) والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها في الصورة والقصد؛ فإن الراشي قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل، فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله ﷺ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشي وحده باللعنة.

وأما المهدي فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان، فإن قصد المكافأة فهو معاوض، وإن قصد الربح فهو مستكثر.

***

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾.

(٢) الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم.

ورأى بعض السلف رجلًا يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: «يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك»(٣)، في ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر إلى قوله تعالى:

---

(١) ٢٩٣ الروح.

(٢) ٨٦ فوائد.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من قول الفضيل بن عياض (٧/ ٢١٩ رقم ١٠٠٧٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ٤٠١-٤٠٢) وانظر: فيض القدير (٤/ ٤٩٤).

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالمراتب ثلاثة: أخسها أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

(١) قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، فكل ما يقضى على العبد فهو عدل فيه.

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره! فما وجه العدل في قضائها؟ فإن العدل في العقوبة عليها غير ظاهر.

قيل: هذا سؤال له شأن، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور، والظلم ممتنع لذاته.

قالوا: لأن الظلم هو التصرّف في ملك الغير، والله له كل شيء. فلا يكون تصرّفه في خلقه إلا عدلًا.

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره، فلمّا حسن منها العقوبة، على الذنب عُلم أنّه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة، والذم إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل، ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر. كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلًا وعدلهم تكذيبا بالقدر.

(١) ٢٤ فوائد.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزّه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضلّ من شاء، وقضىٰ بالمعصية والغي علىٰ من شاء، فذلك محض العدل فيه، لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به.

كيف ومن أسمائه الحسنىٰ العدل، الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله، ووفّق من شاء بمزيد عناية، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفّقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخلىٰ بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفّقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله. وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاء منه للعبد علىٰ إعراضه عنه، وإيثار عدوه في الطاعة، والموافقة عليه، وتناسىٰ ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلىٰ عنه.

والثاني: أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية، ولا يشكره عليه، ولا يثني عليه بها،ولا يحبه، فلا يشاؤها له، لعدم صلاحية محله.

قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فإذا قضىٰ علىٰ هذه النفوس بالضلال والمعصية، كان ذلك محض العدل، كما إذا قضىٰ علىٰ الحيّة بأن تقتل وعلىٰ العقرب وعلىٰ الكلب العقور، كان ذلك عدل فيه، وإن كان مخلوقا علىٰ هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير القضاء والقدر.

[(١)]والصبر علىٰ البلاء ينشأُ من أسباب عديدة:

---

(١) ٢٧٦ طريق الهجرتين.

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أُم الكتاب قبل أن يخلق فلابد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأُمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠]، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فيشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة.

قال علي بن أبي طالب: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع بلاءٌ إلا بتوبة[(١)].

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، لينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدي الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عُقبى هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافية والصحة وزوال الألَم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره. قال الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا

---

(١) يروى هذا الدعاء عن العباس بن عبدالمطلب لما استسقى به عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه قال بعد ما فرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولا يكشف إلا بتوبة... أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٦/ ٣٥٨-٣٥٩) وانظر: الاستيعاب (٢/ ٨١٤) وسبل السلام (٢/ ٨١) ونيل الأوطار (٤/ ٣٢).

وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] وفي مثل هذا القائل:

لعلّ عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل[(١)]

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءَت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه، وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه، وخلع عليه خلع الإكرام، وأَلبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءَه وحزبه خدماً له وعوناً له، وإن انقلب علىٰ وجه ونكص علىٰ عقبيه طرد وصفع قفاه وأُقصي، وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعماً عديدة. وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة. والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأَنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان، لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل الْعظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يربىٰ عبده علىٰ السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال. فإن العبد علىٰ الحقيقة من قام بعبودية الله علىٰ اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله علىٰ حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت علىٰ محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت علىٰ البلاءِ والعافية. فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه: فإما أن يخرج تبراً أحمر، وإما أن

---

(١) هذا البيت من بحر الوسيط وينسب إلىٰ المتنبي، وذكر البيت ابن الجوزي في المدهش (صـ١٤٦) وأبو الحسن الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه (صـ٢٧٩).

يخرج زغلاً محضاً، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاءُ حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهباً خالصاً.

فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاءِ ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه: «اللَّهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(١)، وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه، وصيَّره تبراً خالصًا، يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر.

فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه.

(٢)والصبر على الطاعة ينشأُ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، ومن أَقوى أسبابها: الإيمان والمحبة، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وههنا مسألة تكلم فيها الناس، وهي أي الصبرين أفضل صبر العبد عن المعصية، أم صبره على الطاعة؟ فطائفة رجحت الأول وقالت: الصبر عن المعصية من وظائف الصدّيقين، كما قال بعض السلف: أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقوى على ترك المعاصي إلا صدّيق.

قالوا: ولأن داعي المعصية أشد من دواعي ترك الطاعة، فإن داعي المعصية إلى أمر وجودي تشتهيه النفس وتلتذ به، والداعي إلى ترك الطاعة الكسل والبطالة

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٦) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٣) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) وابن أبي شيبة (٦/ ١٠٤ رقم ٢٩٨٢٥) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) وصححه النووي في رياض الصالحين (صـ١١٥-١١٦) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٢) ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله الأودي وهو ثقة.

(٢) ٢٧٥ طريق الهجرتين.

والمهانة، ولا ريب أن داعي المعصية أقوىٰ.

قالوا: ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والهوىٰ والشيطان وأسباب الدنيا وقرناءُ الرجل وطلب التشبه والمحاكاة وميل الطبع، وكل واحد من هذه الدواعي يجذب العبد إلىٰ المعصية ويطلب أثره، فكيف إذا اجتمعت وتظاهرت علىٰ القلب؟ فأي صبر أَقوىٰ من صبر عن إجابتها؟ ولولا أَن الله يصبره لما تَأَتَّىٰ منه الصبر. وهذا القول كما ترىٰ حجته في غاية الظهور.

ورجحت طائفة الصبر علىٰ الطاعة بناءً منها علىٰ أن فعل المأْمور أَفضل من ترك المنهيات، واحتجت علىٰ ذلك بنحو من عشرين حجة. ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل. كان الصبر عليها أفضل.

وفصل النزاع في ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية: فالصبر علىٰ الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر علىٰ الطاعة الصغيرة، وصبر العبد علىٰ الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره علىٰ صلاة الصبح وصوم يوم تطوعاً ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة. والله أعلم.

(١) وههنا للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذىٰ الخلق وجنايتهم عليه.

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله، وهو مشهد القدر، وأن ما جرىٰ عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره، فيراه كالتأذي بالحر والبرد والمرض والألم وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده وإذا شهد هذا: استراح وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

---

(١) ٣١٨ مدارج جـ٢.

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه وحسن عاقبته وجزاء أهله وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا ـ وهو محمود ـ صبر اضطرارًا على أكبر منه وهو مذموم.

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم»، فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشىً في بصيرته، فإنه ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا[(١)]. كما صح عن النبي ﷺ، وعلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل، هذا وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

المشهد الرابع: مشهد الرضا وهو فوق مشهد «العفو والصفح»، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره، ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلا على كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

من أجلك جعلت خدِّي أرضـًا   للشامت والحسود حتى ترضى

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر، فليس من ذا الشأن[(٢)].

[(٣)]قال ابن عباس: «إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٤١).
(٢) ذكرها المؤلف أحد عشر، تركنا ذكرها اختصارًا سوى الثامن فهو في سورة لقمان. (ج).
(٣) ٤٢٤ مدارج جـ١.

القلب، ووهنا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق»[1] وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ ﴾ ولم يقل: ما أصبت. فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته: مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل وبالثواب والعقاب، فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها، لمن كانت له بصيرة، كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيئ، فإذا أصابني ـ أو فوقه أو دونه ـ كما حسبت يكون هجيراي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته، فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا، فجعلت كلما فعلت شيئا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علما بصدقه وبصيرة فيه، وليس هذا لكل أحد، بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه، فلا يشهد شيئًا من

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥).

ذلك، ولا يشعر به البتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يشاهد هذا وهذا، ويرىٰ حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح، فيرىٰ نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفئها، ولاسيما إذا انكسرت به، وبقي علىٰ لوح تلعب به الرياح، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك، فقلبه في واد آخر.

ومتىٰ انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم وأحوال الأمم وماجريات الخلق، بل انتفع بماجريات أهل زمانه، وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

فكل ما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة وجدب ونقص في نفسك وفي غيرك، فهو من قيام الرب تعالىٰ بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه علىٰ يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالىٰ لمن أفسد في الأرض: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ [الإسراء: ٥].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، فإن تداركها من سقي بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية وكان الهلاك.

كما قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمىٰ بريد الموت»(١).

فشهود العبد نقص حاله إذا عصىٰ ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه علىٰ أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتىٰ يعلم من أين أتي، ووقوعه علىٰ السبب الموجب

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٧) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٢٩) وانظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥١٠) وفيض القدير (٢/ ١٣٣) وفتح الباري (١٠/ ٤٦٦) وشرح النووي (٢/ ٥٠).

لذلك: مما يقوي إيمانه، فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه وازداد إيمانا مع إيمانه، فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

***

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

[(١)]أخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل، التي هي جماع الخير كله[(٢)].

[(٣)]وقالت الحنفية والشافعية والمالكية ومتأخرو أصحاب أحمد: إنه لا قصاص في اللطمة والضربة، وإنما فيه التعزير، وحكى بعض المتأخرين في ذلك الإجماع، وخرجوا عن محض القياس وموجب النصوص وإجماع الصحابة؛ فإن ضمان النفوس والأموال مبناه على العدل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) ٨٠ فوائد.

(٢) أول هذا البحث تقدم في آخر سورة الفرقان. (ج).

(٣) ٣١٨ أعلام جـ١.

فأمر بالمماثلة في العقوبة والقصاص، فيجب اعتبارها بحسب الإمكان، والأمثل هو المأمور به، فهذا الملطوم المضروب قد اعتدي عليه، فالواجب أن يفعل بالمعتدي كما فعل به، فإن لم يمكن كان الواجب ما هو الأقرب والأمثل، وسقط ما عجز عنه العبد من المساواة من كل وجه.

ولا ريب أن لطمة بلطمة وضربة بضربة في محلهما بالآلة التي لطمه بها أو بمثلها أقرب إلى المماثلة المأمور بها حسا وشرعا من تعزيره بها بغير جنس اعتدائه وقدره وصفته، وهذا هو هدي رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومحض القياس، وهو منصوص الإمام أحمد ومن خالفه في ذلك من أصحابه فقد خرج عن نص مذهبه وأصوله، كما خرج عن محض القياس والميزان[(١)] قال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني في كتابه المترجم له: باب في القصاص من اللطمة والضربة.

حدثني إسماعيل بن سعيد قال: سألت أحمد بن حنبل عن القصاص من اللطمة والضربة؟ فقال: «عليه القود من اللطمة والضربة»، وبه قال أبو داود وأبو خيثمة وابن أبي شيبة، وقال إبراهيم الجوزجاني: «وبه أقول لما حدثنا شبابة بن سوار ثنا شعبة عن يحيى بن الحصين قال: سمعت طارق بن شهاب يقول: لطم أبو بكر رجلًا يومًا لطمة فقال له: اقتص فعفا الرجل»[(٢)].

حدثنا شبابة أنبأ شعبة عن مخارق قال: سمعت طارقًا يقول: لطم ابن أخ لخالد بن الوليد رجلًا من مراد فأقاده خالد منه[(٣)].

حدثنا أبو بهز حدثنا أبو بكر بن عياش قال: سمعت الأعمش عن كميل بن زياد

---

(١) انظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (١٢/ ١٧٥-١٧٧) وفتح الباري (١٢/ ٢٢٩) ومجموع فتاوى ابن تيمية (٣٤/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠١٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٢٨) وتغليق التعليق (٥/ ٢٥٢) وعمدة القاري (٢٤/ ٥٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠٠٦).

قال: لطمني عثمان ثم أقادني فعفوت[١].

حدثني ابن الأصفهاني حدثنا عبد السلام بن حرب عن ناجية عن عمه يزيد بن عربي قال: رأيت عليًّا ـ كرم الله وجهه في الجنة ـ أقاد من لطمه[٢].

وحدثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عبد الله بن إسماعيل بن زياد ابن أخي عمرو بن دينار أن ابن الزبير أقاد من لطمة[٣].

ثنا يزيد بن هارون أنا الجريري عن أبي نضرة عن أبي فراس قال: خطبنا عمر فقال: إني لم أبعث عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن إنما بعثتهم ليبلغوكم دينكم، وسنة نبيكم، ويقسم فيكم فيئكم، فمن فعل به غير ذلك فليرفعه إليَّ فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فقام إليه عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته لتقصنه منه! فقال عمر: أنا لا أقصه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه[٤].

ثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن ابن حرملة قال: تلاحى رجلان فقال أحدهما: ألم أخنقك حتى سلحت؟ فقال: بلى ولكن لم يكن لي عليك شهود، فشهدوا على ما قال: ثم رفعه إلى عمر بن عبد العزيز فأرسل في ذلك إلى سعيد بن المسيب، فقال: يخنقه كما خنقه، حتى يحدث أو يفتدي منه. فافتدى منه بأربعين بعيرًا، فقال ابن كثير: أحسبه ذكره عن عثمان[٥]...

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (رقم ٤١٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٠/ ٢٥٦) وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٦٥٣).

(٢) أخرجه أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠٠٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٢٨) وعمدة القاري (٢٤/ ٥٦).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٦٥ رقم ١٥٨٨٤) وابن أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠٠٨) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٢٨) وعمدة القاري (٢٤/ ٥٦).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٤٥٣٧) وابن الجارود (رقم ٨٤٤) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٤٨ رقم ١٥٧٩٦) وأحمد (١/ ٤١) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٦١ رقم ٣٢٩٢١) والحاكم (٤/ ٤٨٥ رقم ٨٣٥٦) وصحَّحه.

(٥) أخرجه بلفظ قريب ابن أبي الدنيا في الإشراف (رقم ١٨٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

[(1)]الفرق بين العفو والذل: أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩] فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم، وتقاضيهم منها ذلك، حتى إذا قدروا على من بغى عليهم، وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو، وهما متنافيان.

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا على عفو ذل وعجز ومهانة. وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه ـ به نفسه في قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] والله غفور رحيم.

وفي أثر معروف: حملة العرش أربعة، اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك

---

(١) ٢٩٤ الروح.

الحمد على عفوك بعد قدرتك[(١)].

ولهذا قال المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أي أن غفرت لهم: غفرت عن عزة وهي كمال القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا، وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام، وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء. والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل. وباطنه عز ومهابة والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، وتأمل قوله سبحانه: ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبا، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو، والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الإمارة.

ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء، فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه، فإنه حينئذ ينال حظا من العز، الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بغى عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به، غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقال للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد. وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيا فيه وإذلالًا له.

---

(١) أخرجه الطبراني في تفسيره (١٩/ ٧) من قول شهر بن حوشب. وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) وابن أبي شيبة في العرش (رقم ٢٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٥) و(٦/ ٧٤) بلفظ: «حملة العرش ثمانية: فأربعة منهم يقولون...».

وأما النفس التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلىٰ عز توحيدها وإنابتها إلىٰ ربها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضرب لذلك مثلًا بعبدين من عبيد الغلة حراثين، ضرب أحدهما صاحبه فعفا المضروب عن الضارب، نصحًا منه لسيده، وشفقة علىٰ الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي علىٰ عفوه، ووقع منه بموقع. وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمَّله وألبسه ثيابًا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأىٰ سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه وأوفق لمرضاته، كأنه يقول: إنما فعل هذا بك جرأة عليَّ واستخفافًا بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته فأذله وقهره، ولم يبق إلا أن يبطش به، فذل وانكسر قلبه، فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظه، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روي عن علي ﷺ أنه مر برجل فاستغاث به، وقال: هذا منعني حقي، ولم يعطني إياه. فقال: أعطه حقه. فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعلي فرجع، وقال: أتاك الغوث. فقال له استقد منه فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين. فضربه عليٌّ تسع درر. وقال: قد عفا عنك من لطمته، وهذا حق السلطان فعاقبه علىٰ لما اجترأ علىٰ سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلىٰ أبي بكر ﷺ فقال: احملني، فوالله لا أنا أفرس منك ومن ابنك. وعنده المغيرة بن شعبة، فحسر عن ذراعه، وصك بها أنف الرجل، فسال الدم، فجاء قومه إلىٰ أبي بكر ﷺ، فقالوا: أقدنا من المغيرة. فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله؟! لا أقيدكم منه. فرأىٰ أبو بكر أن ذلك انتصار من المغيرة وحمية الله، وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله ﷺ، ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه.

فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه، الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته، فهذا لون، والضرب حمية للنفس الأمارة لون.

(١)أفتى الزهري لعمر بن عبد العزيز فيمن أتلف له شجر، فقال الزهري: يغرسه حتى يعود كما كان، وقال ربيعة وأبو الزناد: عليه القيمة، فغلظ الزهري القول فيهما. وقول الزهري وحكم سليمان هو موجب الأدلة، فإن الواجب ضمان المتلف بالمثل بحسب الإمكان، كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم ﴾ [النحل: ١٢٦] وإن كان مثل الحيوان والآنية والثياب من كل وجه متعذرًا، فقد دار الأمر بين شيئين: الضمان بالدراهم المخالفة للمثل في الجنس والصفة والمقصود والانتفاع وإن ساوت المضمون في المالية والضمان بالمثل بحسب الإمكان المساوي للمتلف في الجنس والصفة والمالية والمقصود والانتفاع ولا ريب أن هذا أقرب إلى النصوص والقياس والعدل.

ونظير هذا ما ثبت بالسنة واتفاق الصحابة من القصاص في اللطمة والضربة، وهو منصوص أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد وقد تقدم تقرير ذلك وإذا كانت المماثلة من كل وجه متعذرة حتى في المكيل والموزون، فما كان أقرب إلى المماثلة فهو أولى بالصواب، ولا ريب أن الجنس إلى الجنس أقرب مماثلة من الجنس إلى القيمة، فهذا هو القياس وموجب النصوص، وبالله التوفيق.

***

﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ۝ ﴾.

(١) ٢٦ أعلام جـ٢.

[(١)]ذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال: أحدها من تلد الإناث فقط. الثانية من تلد الذكور فقط. الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى، وهو معنى التزويج هنا، أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرًا أو أنثى. الرابعة العقيم التي لا تلد أصلًا.

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر، ولا يدرك بالقياس والفكر، وإنما يعلم بالوحي ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**» قال اليهودي: جئت أسالك، فقال رسول الله ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك**»؟ قال: أسمع بأذني فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «**سل**» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «**فقراء المهاجرين**» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: «**زيادة كبد حوت ذي النون**» قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «**ينحر لهم ثور الجنة، الذي يأكل من أطرافها**» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين تسمى سلسبيلا**» قال: صدقت. وجئت أسالك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: «**ينفعك إن حدثتك**» قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «**ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا منيّ المرأة منيّ الرجل أنثا بإذن الله**» قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه وما لي علم به حتى أتاني الله به**»[(٢)].

(١) ٢٥٨ مفتاح جـ١.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣١٥) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٦) وشرح النووي (٣/ ٢٢٦-٢٢٧).

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعًا، فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى، وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه، فيلتقى الماءان على أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولد بينهما جميعًا، وأيهما غلب كان الشبه له.

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال: بلغ عبدالله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: «ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أخبرني بهن آنفًا جبريل»** فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: **«أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له، وإن سبقت كان الشبه لها»** فقال: أشهد أنك رسول الله[1]، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت قال: **«نعم إذا رأت الماء الأصفر»** فضحكت أم سلمة، فقالت: أو تحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فبم يشبهها الولد»**[2]؟

فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين، وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين، وقهره للآخر، وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له، وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها، ولا تعلم إلا بالوحي، وليس في صناعتهم أيضًا ما ينافيها.

على أن في النفس من حديث ثوبان ما فيها، وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي، وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٢) ومسلم (رقم ٣١٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٢٩).

كما سأل عنه عبدالله بن سلام، ولذلك لم يخرجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن أبي بكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**إن الله وكل بالرحم ملكًا، فيقول: يا رب نطفة! يا رب علقة! يا رب مضغة! فإذا أراد أن يخلقها، قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه**»[(١)].

أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة، وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكسبه الذي للطبيعة فيه مدخل أولا ترى عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسال عن الإذكار والإيناث، مع أنه أبلغ من الشبه والله أعلم، وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق، وعلى كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث، والله أعلم.

[(٢)]وأما الإذكار والإيناث: فليس بسبب طبيعي، وإنما سببه: الفاعل المختار الذي يأمر الملك به مع تقدير الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولذلك جمع بين هذه الأربع في الحديث: «**فيقول الملك: يا رب ذكر؟ يا رب أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك**»[(٣)] وقد رد سبحانه ذلك إلى محض مشيئته، في قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

والتعليق بالمشيئة وإن كان لا ينافي ثبوت السبب بذلك إذا علم كون الشيء سببا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٨) ومسلم (رقم ٢٦٤٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٣) وشرح النووي (١٦/ ١٩٠).

(٢) ٢٢٠ الطرق الحكمية.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧) وابن حبان (١٤/ ٥٢-٥٣ رقم ٦١٧٧) وانظر: التمهيد (١٨/ ١١١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٩).

دل على سببيته بالعقل وبالنص، وقد قال ﷺ في حديث أم سليم: «ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا - أو سبق - يكون الشبه»(١) فجعل للشبه سببين: علو الماء وسبقه.

وبالجملة فعامة الأحاديث إنما هي تأثير سبق الماء وعلوه في الشبه، وإنما جاء تأثير ذلك في الإذكار والإيناث في حديث ثوبان وحده، وهو فرد بإسناده، فيحتمل أنه اشتبه على الراوي فيه الشبه بالإذكار والإيناث، وإن كان قد قاله رسول الله ﷺ، فهو الحق الذي لا شك فيه، ولا ينافي سائر الأحاديث، فإن الشبه من السبق. والإذكار والإيناث: من العلو، وبينهما فرق، وتعليقه على المشيئة لا ينافي تعليقه على السبب، كما أن الشقاوة والسعادة والرزق معلقات بالمشيئة وحاصلة بالسبب، والله أعلم.

(٢)قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام، اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضا لمقته أن يتسخط ما وهبه.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث، فقيل جبرا لهن لأجل استثقال الوالدين لمكانهما.

وقيل: وهو أحسن إنما قدمهن؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاء الأبوان، فان الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبًا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن أي هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر.

وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث، وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم،

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣١١) وانظر: شرح النووي (٣/ ٢٢٢).
(٢) ١٠ تحفة المودود.

وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويه كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين، الذين لا يخفون عليكم. ثم لما ذكر الصنفين معا قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية، الذين ذمهم الله تعالى في قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨] وقال: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٩] وقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧] ومن هاهنا عبر بعض المعبرين لرجل قال له: رأيت كأن وجهي أسود، فقال له: ألك امرأة حامل؟ قال: نعم، قال: تلد لك أنثى.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا». وضم إصبعيه[(١)].

وروى عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فشقتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت هي وابنتاها، فدخل رسول الله ﷺ عليَّ بعد ذلك، فحدثته حديثها، فقال رسول الله ﷺ: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له سترًا من النار»[(٢)] رواه ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن عروة، وهو في الصحيح، والحديث في مسند أحمد.

وفيه أيضًا من حديث أيوب بن بشير الأنصاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٣١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٨) وشرح النووي (١٦/ ١٧٩-١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٨) ومسلم (رقم ٢٦٢٩) وعبدالرزاق (١٠/ ٤٥٧ رقم ١٩٦٩٣) وأحمد (٦/ ٣٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٨).

قال رسول الله ﷺ: «**لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان، فيتقي الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة**»[١] ورواه الحميدي عن سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أيوب بن بشير عن سعيد الأعشىٰ عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «**من كان له ثلاث بنات أو أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وصبر عليهن واتقىٰ الله فيهن دخل الجنة**»[٢].

وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن ابن جريج، حدثني أبو الزبير عن عمر بن نبهان عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان له ثلاث بنات فصبر علىٰ لأوائهن وعلىٰ ضرائهن دخل الجنة**» وفي رواية، فقال يا رسول الله، واثنتين؟ قال: «**واثنتين**» قال: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: «**وواحدة**»[٣].

وقال البيهقي: حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا الأصم، حدثنا الحسن بن مكرم، حدثنا عثمان بن عمر، أنبأ النهاس عن شداد أبي عمار عن عوف بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان له ثلاث بنات ينفق عليهن حتىٰ يبن أو يمتن كن له حجابًا من النار**»[٤]، وقال علي بن المديني: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا النهاس بن قهتم، حدثنا شداد أبو عمار، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن، حتىٰ يبن أو يمتن إلا كن له حجابًا من النار**» فقالت امرأة: يا رسول الله، وابنتان؟ قال: «**وابنتان**»[٥] قال: وقال أبو عمار عن عوف بن

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٩١٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٦٣٦٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ١٨٩-١٩٠ رقم ٤٤٦) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٠٤٤) والترمذي (رقم ١٩١٦) والحميدي (٢/ ٣٢٣ رقم ٧٣٨). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٨٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٢٢ رقم ٢٥٤٤٠).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٠٥ رقم ٨٦٧٩).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٠٦ رقم ٨٦٨١) وأحمد (٦/ ٢٩) والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٦ رقم ١٠٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٧): رواه الطبراني وفيه النهاس بن قهم وهو ضعيف. وانظر: عون المعبود (٦/ ٤٠٦).

مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين في الجنة**»[١].

وروى فطر بن خلف عن شرحبيل بن سعد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يكون له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبها وصحبتاه إلا أدخلتاه الجنة**»[٢] وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن ابن المنكدر أن النبي ﷺ قال: «**من كان له ثلاث بنات أو أخوات فكفهن وآواهن وزوجهن دخل الجنة**» قالوا: أو ابنتان؟ قال: «**أو ابنتان**» حتى ظننا أنهم لو قالوا: أو واحدة؟ قال: «**أو واحدة**»[٣] هذا مرسل.

وقال عبد الله بن المبارك عن حرملة بن عمران قال: سمعت أبا غشانة قال: سمعت عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن، فأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته، كن له حجابا من النار**»[٤]. رواه الإمام أحمد في مسنده. وقد قال تعالى في حق النساء: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وهكذا البنات أيضا قد يكون للعبد فيهن خير في الدنيا والآخرة. ويكفي في قبح كراهتهن أن يكره ما رضيه الله وأعطاه عبده. وقال صالح بن أحمد: كان أبي إذا ولد له ابنة يقول: الأنبياء كانوا آباء بنات. ويقول: قد جاء في البنات ما قد علمت. وقال

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١٤٩) وعبدالرزاق (١١/ ٢٩٩ رقم ٢٠٥٩١) والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٦ رقم ١٠٣) وأحمد (٦/ ٢٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٦ رقم ٨٦١٢) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٤١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (١٠/ ٤٢٤ رقم ٤٤٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٦ رقم ٨٦٨٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٤٥٨ رقم ١٩٦٩٧) والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٠٥ رقم ٦١٩٩) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٨): رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم، وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٩٩).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٦٦٩) وأبو يعلى (٣/ ٢٩٩ رقم ١٧٦٤) وأحمد (٤/ ١٥٤) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٧ رقم ٨٦٨٩) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٦) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٨٩) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ١٠١): هذا إسناد صحيح.

يعقوب بن بختان ولد لي سبع بنات، فكنت كلما ولد لي ابنة دخلت على أحمد بن حنبل فيقول لي: يا أبا يوسف الأنبياء آباء بنات. فكان يذهب قوله همي.

***

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾.

(١) جمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. أي أو من كان كافرًا ميت القلب، مغمورًا في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيا بعد موته، مشرقا مستنيراً بعد ظلمته؟ فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته: ـ بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سدف الظلام.

(٢) إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها، وقد أخبر الله أنه قبل الوحي لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا

(١) ٢١ إغاثة جـ١.
(٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ۝ ﴾ [الضحى: ٦-٨]، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى، فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ [سبأ: ٥٠]، فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي، حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء: ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشورى

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾.

(١)قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقرئ عندنا، قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ. وأم الكتاب: أصل الكتاب، وأم كل شيء: أصله. والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث: أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب.

وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه فـ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١] في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب، وقوله: ﴿ لَدَيْنَا ﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب، أي أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس.

ويجوز أن يكون من صلة الخبر: أنه عليّ حكيم عندنا، ليس هو كما عند المكذبين به، أي وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام...

(٢)قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥]، على أحد التأويلين أي نترككم، فلا ننصحكم ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم.

***

(١) ٤١ شفاء العليل.

(٢) ١١٨ بدائع الفوائد جـ ٣. طبعة دار الخير.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

(١)كيف نبههم بالسفر الحسي على السفر إليه؟ وجمع لهم بين السفرين.

كما جمع لهم الزادين في قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فجمع لهم بين زاد سفرهم وزاد معادهم؟

وكما جمع بين اللباسين في قوله: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فذكر سبحانه زينة ظواهرهم وبواطنهم، ونبههم بالحسي على المعنوي؛ وفهم هذا القدر زائدٌ على فهم مجرد اللفظ ووضعه في أصل اللسان، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢)ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام: الأسماع والأبصار، ليتم تناولها لمصالحها، ويكمل انتفاع الإنسان بها، إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول ـ على كبر خلقها ـ التي للإنسان ليتم تسخيره إياها، فيقودها ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته، واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان، وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص.

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ

(١) ٢٢٧ أعلام جـ١.
(٢) ٢٢٤ مفتاح جـ١.

تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [١٢، ١٣] أي مطيقين ضابطين.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

فترىٰ البعير علىٰ عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلًا منقادًا، ولو أرسل عليه لسواه بالأرض، ولفصله عضوًا عضوًا.

فسل المعطل من الذي ذلَّلَه وسخره وقاده علىٰ قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلىٰ عدة أناسي، يحملون أثقاله وحمله، ويعجزون عن ذلك، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأواني والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال.

[(١)] هديه ﷺ في سفره وعبادته فيه: كانت أسفاره ﷺ دائرةَ بين أربعة أسفار: سفرِه لهجرته، وسفره للجهاد وهو أكثرها، وسفرِه للعمرة، وسفرِه للحج.

وكان إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه، فأيَّتُهُن خرج سهمُها، سافر بها معه[(٢)].

ولما حجّ، سافر بهن جميعاً. وكان إذا سافر خرج مِن أول النهار، وكان يستحِبُّ الخروجَ يوم الخميس[(٣)]، ودعا الله تبارك وتعالىٰ أن يُبارك لأُمَّتِهِ في بُكورها. وكان إذا

(١) ٢٦٣ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٩٣) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٧٣).

(٣) عن كعب بن مالك ﷺ قال: «إن النبي ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس» أخرجه البخاري (رقم ٢٩٥٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ١١٣).

بعث سرية أو جيشاً، بعثهم من أول النهار[١]، وأمرَ المسافرين إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم[٢]. ونهى أن يُسافر الرجل وحدَه[٣]، وأخبر أن الراكِبَ شَيْطَانٌ، والرَّاكِبانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلاثَةُ رَكْب[٤]. وذُكِرَ عنه ﷺ أنه كان يقول حين ينهض للسفر: «**اللَّهُم إلَيْك تَوَجَهْتُ، وبِكَ اعْتَصَمْت، اللَّهُم اكْفِني مَا أَهمَّني وَمَا لاَ أَهْتَم بِهِ، اللَّهُمَّ زَوِّدْني التَّقْوَىٰ، وَاغْفِرْ لي ذَنْبِي، وَوَجِّهْني لِلخَيْرِ أَيْنَمَا تَوَجَّهْتُ**»[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان (١١/ ٦٢ رقم ٤٧٥٤) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٨ رقم ٨٨٣٣) وأبو داود (رقم ٢٦٠٦) والترمذي (رقم ١٢١٢) وابن ماجه (رقم ٢٢٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٥١ رقم ١٨٢٣٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٦٣ رقم ٢٤٠٢) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٤ رقم ٧٢٧٥) وأحمد (٣/ ٤١٧) وحسنه الترمذي وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ١١٤): أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٦٧٢) والبيهقي في سننه الكبرىٰ (٣/ ٨٩ رقم ٤٩٠٥) وقد نص على السفر وانظر: فتح الباري (٢/ ١٨٦).

(٣) أخرج عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٣١ رقم ١٩٦٠٧) عن عمر ﷺ قال: «لا يسافرن رجل وحده ولا ينامن في بيت وحده» وأخرج ابن عبدالبر بسنده في التمهيد (٢٠/ ٩-١٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرجتُ مرة لسفر فمررت بقبر من قبور الجاهلية، فإذا رجلٌ قد خرج من القبر يتأجج ناراً، في عنقه سلسلة، ومعي إداوة من ماء، فلمَّا رآني قال: يا عبد الله اسقني، قال: فقلت: عرفني فدعاني باسمي أو كلمة تقولها العرب: يا عبد الله. إذ خرج على إثره رجل من القبر، فقال: يا عبد الله لا تسقه فإنه كافر ثم أخذ السلسلة فاجتذبه فأدخله القبر.

قال أبو عمر: هذا الحديث ليس له إسناد، ورواته مجهولون، ولم نورده للاحتجاج به، ولكن للاعتبار، وما لم يكن فيه حكم فقد تسامح الناس في روايته عن الضعفاء، والله المستعان. وانظر: الاستذكار (٨/ ٥٣١) وشرح الزرقاني (٤/ ٥٠١) وأخرج هذه القصة أيضاً ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت (رقم ٣٣) أما نهي المسافر أن يسافر وحده فقد أخرجه ابن أبي شيبة عن عطاء (٥/ ٣١٠ رقم ٢٦٣٨٨) وأبو داود في المراسيل (رقم ٣١١).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥/ ٢٦٦ رقم ٨٨٤٩) وأبو داود (رقم ٢٦٠٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٧ رقم ١٠١٢٧) والترمذي (رقم ١٦٧٤) وقال: حديث حسن صحيح، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٣): وهو حديث حسن الإسناد، وقد صححه ابن خزيمة والحاكم.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٥/ ٢٥٠ رقم ١٠٠٨٦) وأبو يعلى (٥/ ١٥٧-١٥٨ رقم ٢٧٧٠) =

وكان إذا قُدِّمتَ إليه دابتُه ليركبها، يقول: «بسم الله» حين يضع رجله في الرِّكاب، وإذا استوىٰ على ظهرها، قال: «الحمدُ للهِ الَذي سَخَّرَ لَنَا هَذا، وَمَا كُنَّا لَهُ بمقْرِنينَ، وَإنَّا إِلَى رَبِّنَا لمنْقَلِبونَ»، ثُمَّ يَقُولُ: «الحَمْدُ للهِ، الحَمد للهِ، الحَمْدُ للهِ»، ثم يقول: «اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أكبر»، ثم يقولُ: «سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغفِرِ لِي إِنَّه لاَ يَغْفر الذُنُوبَ إلاَّ أَنتَ».

وكان يقول: «اللَّهم إنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَىٰ، اللَّهُم هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنَا هذا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهم أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَهُمَّ إنيِّ أَعُوذُ بِكَ مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المنقَلَبِ، وَسوءِ المَنْظَرِ فِي الأَهلِ وَالمَالِ» وإذا رجع، قالهن، وزاد فيهن: «آيبون تَائِبُونَ عَابِدُون لِرَبِّنَا حَامِدُون»[(١)].

وكان هو وأصحابُه إذا عَلوا الثنايا، كبَّروا، وإذا هبطوا الأودية، سبَّحوا[(٢)].

وكان إذا أشرف على قرية يُريد دخولَها يقولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وما أظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأرضين السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وما أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَما ذَرَيْنَ، أَسْأَلُكَ خَيْرَ هذِه القَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا»[(٣)].

وذكر عنه أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أسأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هذِهِ القَرْيَة وَخَيْرِ مَا جَمَعْتَ

وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٩٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٠): رواه أبو يعلى وفيه عمر بن مساور وهو ضعيف.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٤٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٨٩) وشرح النووي (٩/ ١١٠-١١١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٩٩) وعبدالرزاق (٥/ ١٦٠ رقم ٩٢٤٥) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص٢٤٥).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٧٢ رقم ٦٩) وابن حبان (٦/ ٤٢٥ رقم ٢٧٠٩) وابن خزيمة (٤/ ١٥٠ رقم ٢٥٦٥) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٦ رقم ٨٨٢٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٢ رقم ١٠١٠٠) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٣ رقم ٧٢٩٩) وفي الدعاء (رقم ٨٣٨) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١٨).

فِيهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشرِّ مَا جَمَعْتَ فِيهَا، اللَّهُمّ ارزُقْنَا جَنَاهَا، وَأَعِذْنَا مِنْ وَبَاهَا، وَحَبِّبْنَا إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَحَبِّب صَالِحِي أَهْلِهَا إِلَيْنَا»[١].

***

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

[٢]احتج سبحانه علىٰ هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضىٰ بالبنات، وإذا بشر أحدهم بالأنثىٰ حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد علىٰ وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضىٰ بالإناث بناتًا، فكيف تجعلونها لي؟ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾[النحل: ٦٢].

ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه لله، وأنه أنقص الجنسين. ولهذا يحتاج في كماله إلىٰ الحلية وهو أضعف الجنسين بيانًا، فقال تعالىٰ: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ فأشار بنشأتهن في الحلية إلىٰ أنهن ناقصات فيحتجن إلىٰ حلية يكملن بها، وأنهن عييات فلا يبن حجتهن وقت الخصومة مع أن في قوله: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ﴾ تعريضًا بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن،وتعريضًا بأنهن لا يثبتن في الحرب، فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز.

...[٣]وقد أنكر الله سبحانه علىٰ من رد النبوة بأن الله صرفها عن عظماء القرىٰ ومن رؤسائها، وأعطاها لمن ليس كذلك بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٨٨ رقم ٤٧٥٥) والدعاء (رقم ٨٣٦) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٢٧).

(٢) ١٠٥ مختصر الصواعق جـ١.

(٣) ٢٥٩ أعلام جـ٢.

قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

***

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(١) إن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم: أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم، ومدد آجالهم، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهكذا هذه الآية بين فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، أي: الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

***

(١) ٧ زاد المعاد جـ١.

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(١) تعليله سبحانه عدم الحكم القدري والشرعي بوجود المانع منه كقوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٣٣] ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩] أي آيات الاقتراح لا الآيات الدالة على صدق الرسل، التي يقيمها هو سبحانه ابتداء، وقوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩] فأخبر سبحانه عن المانع الذي منع من إنزال الملك عيانًا بحيث يشاهدونه، وأن حكمته وعنايته بخلقه منعت من ذلك، فإنه لو أنزل الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا، لعوجلوا بالعقوبة ولم ينظروا، وأيضًا فإنه جعل الرسول بشرًا ليمكنهم التلقي عنه والرجوع إليه، ولو جعله ملكًا فإما أن يدعه على هيئة الملائكة أو يجعله على هيئة البشر والأول يمنعهم من التلقي عنه، والثاني لا يحصل مقصودهم، إذ كانوا يقولون: هو بشر لا ملك، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

---

(١) ١٩٦ شفاء العليل.

فأخبر سبحانه عن المانع من إنزال الملائكة، وهو أنه لم يجعل الأرض مسكنًا لهم، ولا يستقرون فيها مطمئنين، بل يكون نزولهم لينفذوا أوامر الرب سبحانه، ثم يعرجون إليه، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

فأخبر سبحانه عن حكمته في الامتناع من إرسال رسله بآيات الاقتراح والتشهي، وهي أنها لا توجب الإيمان، فقد سألها الأولون، فلما أوتوها كذبوا بها فأهلكوا، فليس لهم مصلحة في الإرسال بها، بل حكمته سبحانه تأبى ذلك كل الإباء.

ثم نبَّه على ما أصاب ثمود من ذلك، فإنهم اقترحوا الناقة فلما أعطوا ما سألوا ظلموا ولم يؤمنوا، فكان في إجابتهم إلى ما سألوا هلاكهم واستئصالهم، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] أي: لأجل التخويف فهو منصوب نصب المفعول لأجله، قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون أو يذكرون أو يرجعون[١] وهذا يعم آياته التي تكون مع الرسل، والتي تقع بعدهم في كل زمان، فإنه سبحانه لا يزال يحدث لعباده من الآيات ما يخوفهم بها ويذكرهم بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] أي لا يعلمون حكمته تعالى ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس على الأنبياء، وليس المراد أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر، فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده سبحانه، ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

[٢]وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأن يغتر به ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، فهذا من الغرور. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٠٨) وعزاه إلى ابن جرير.
(٢) ٤١ الجواب الكافي.

التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**»، ثم تلا قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(١) [الأنعام: ٤٤] وقال بعض السلف: إذا رأيت الله ﷻ يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه، يستدرجك به.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من نعَّمتَه ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء. وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**»(٢).

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

***

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) والطبري في تفسيره (٧/ ١٩٥) والطبراني في الأوسط (٩/ ١١٠ رقم ٩٢٧٢) وفي الكبير (١٧/ ٣٣٠ رقم ٩١٣) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) والبزار (٥/ ٣٩٢ رقم ٢٠٢٦) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٩٥ رقم ٥٥٢٤) والحاكم (١/ ٨٨ رقم ٩٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٨): رواه أحمد ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩ ﴾.

(١) فائدة جليلة: إذا أصبح العبد وأمسى، وليس همه إلا الله وحده، تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته، بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قال سفيان بن عيينة: «لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن». فقال له قائل: «فأين في القرآن: أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة» فقال في قوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ﴾ الآية. اهـ.

(٢) قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩] فأخبر سبحانه أنه من عشا عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله ﷺ وبارك فيه فأعرض عنه، وعمي عنه، وغشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه، قيض الله له شيطانًا عقوبة له على إعراضه عن كتابه، فهو

---

(١) ٨٣ فوائد.
(٢) ١٢٦ الجواب الكافي.

قرينه الذي لا يفارقه لا في الإقامة ولا في المسير ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولىٰ وبئس العشير.

رضيعا لبان ثدي أمٍّ تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق[(١)]

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلىٰ جنته، ويحسب هذا الضال المضل المصدود أنه علىٰ طريق هدًىٰ، حتىٰ إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أضللتني عن الهدىٰ بعد إذ جاءني، وصددتنى عن الحق، وأغويتني حتىٰ هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنىٰ فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي علىٰ إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزِّي النفس عنه بالتأسي
ألا يا صخر لا أنساك حتىٰ أفارق عيشتي وورود رمسي[(٢)]

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة علىٰ أهل النار، فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

[(٣)]وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ

(١) هذا البيت من بحر الطويل ينسب إلىٰ الأعشى، ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب (ص ٤٧٥) وابن السكيت في إصلاح المنطق (ص ٤٨٧) والجواليقي في شرح أدب الكاتب (ص ٢١٦).

(٢) هذه الأبيات من بحر الوافر، وقد سبق التعريف بالخنساء، وذكر البيت الأول الحافظ ابن حجر في الإصابة (٧/ ٦١٦) وذكر قبله البيت الثالث هنا وفيه: أفارق مهجتي ويشق رمسي.

(٣) ٤٤ مفتاح جـ١.

﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانًا يقارنه، فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد، حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله، فلابد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم: الإعراض عن الوحي، الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظن أنه مهتد، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتى من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول. وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩] وهذا كثير في القرآن.

***

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

(١) المراد بسؤالهم: سؤال أممهم عما جاؤوهم به هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إله غيره؟ قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم، وقال ابن قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلًا من قبلك: وهم أهل الكتاب، وقال ابن الأنباري: التقدير: وسل من أرسلنا من قبلك.

وعلى كان تقدير، فالمراد التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات والتوحيد، وأن الله أرسل رسولًا، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ، إذ كان قد جاء على ما جاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله سبحانه، ولم يكن بدعًا من الرسل، ولا جاء بضد ما جاءوا به، بل أخبر بمثل ما أخبروا به من غير شاهد ولا اقتران في الزمان، وهذه من أعظم آيات صدقه.

***

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾.

(٢) السلف هو الذي تقدم، والسالف المتقدم، قال الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٦] والعرب تسمي أول الرواحل السالفة، ومنه قول النبي ﷺ: «**الحقي بسلفنا الخير عثمان بن مظعون**»(٣)، وقول الصديق: لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي(٤). وهي العنق.

***

(١) ١١ أحكام أهل الذمة جـ١.

(٢) ٥١٠ زاد المعاد جـ٤.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٥) والحاكم (٣/ ٢١٠ رقم ٤٨٦٩) والطيالسي (رقم ٢٦٩٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٥) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٩٨) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (رقم ٣٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٨).

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

[(١)]أما ما تؤثره كثرة الخلطة فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتا وتفرقا، وهما وغما، وضعفا وحملا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من منحة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندما، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودة بغضا ولعنة وذما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا، فكل متساعدين على باطل متوادين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

---

(١) ٤٥٤ مدارج جـ١.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإذا دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر علىٰ أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذره إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذىً يعقبه عزّ ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين....

***

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

[(١)] الله ﷻ إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١] وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] وقال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر بله ما اطلعتم**»[(٢)] أي غير ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم، حيث قال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلىٰ غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية.

...[(٣)] فليتأمل العاقل هذا الموضع، ولينزل نفسه منزلة من قد فاته أعظم محبوب وأنفعه، وهو أفقر شيء وأحوجه إليه، فواتا لا يرجىٰ تداركه، وحصل علىٰ ضده، فيا لها من مصيبة ما أوجعها، وحالة ما أفظعها، فأين هذه الحال من حالة من يلتذ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله ﷻ من الأكل والشرب واللباس والنكاح وشفاء الغيظ

---

(١) ١٧١ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٨٠) ومسلم (رقم ٢٨٢٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥١٦-٥١٧).

(٣) ١٧٤ روضة المحبين.

بقهر العدو وجهاد في سبيله، فضلًا عما يلتذ به من معرفة ربه وحبه له وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلى لقائه، كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والحاكم: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**»[(١)] وهذه اللذة لا تزال في الدنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدو الظاهر، فكيف إذا تجردت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات، واتصلت بالرفيق الأعلى ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٨، ٧٠] فإذا أفضى إلى دار النعيم فهناك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فبؤسًا وتعسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يهزها الشوق إلى ذلك طربًا، ولا تتقد نار إرادتها لذلك رغبًا، ولا تبعد عما يصد عن ذلك رهبًا.

[(٢)]قال تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف: ٧١] فالصحاف جمع صحفة، قال الكلبي: بقصاع من ذهب، وقال الليث: الصحفة: قصعة مسلطحة عريضة، الجمع صحاف قال الأعشى:

والمكاكيك والصحاف من الفضـ ـة والضامرات تحـت الرجال[(٣)]

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥، رقم ١٩٧١) وفي موارد الظمآن (رقم ٥٠٩) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٤٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٤٥) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧) وانظر: شرح حديث لبيك لابن رجب (صـ٨٢) وفيض القدير (٤/ ٢٩٢).

(٢) ١٣٨ حادي الأرواح.

(٣) هذا البيت من بحر الخفيف ينسب إلى الأعشى، وذكره أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب =

وأما الأكواب فجمع كوب، قال الفراء: الكوب المستدير الرأس، الذي لا أذن له، وأنشد لعدي:

متكئـــا تـــصفق أبوابـــه   يـــسعى عليـــه الغيـــد بـــالكوب[1]

وقال أبو عبيد: الأكواب الأباريق، التي لا خراطيم لها. قال أبو إسحاق: واحدها كوب، وهو إناء مستدير لا عروة له. وقال ابن عباس: هي الأباريق التي ليست لها آذان. وقال مقاتل: هي أوان مستديرة الرأس، ليس لها عرى[2]. وقال البخاري في صحيحه: الأكواب: الأباريق التي لها خراطيم[3]. وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] الأباريق: هي الأكواب التي لها خراطيم، فإن لم يكن لها خراطيم ولا عرى فهي أكواب. وإبريق إفعيل من البريق وهو الصفاء، فهو الذي يبرق لونه من صفائه، ثم سُمِّي كل ما كان على شكله إبريقا وإن لم يكن صافيا وأباريق الجنة من الفضة في صفاء القوارير، يُرى من ظاهرها ما في باطنها. والعرب تسمي السيف إبريقا لبريق لونه، ومنه قول ابن أحمر:

تعلقـــت إبريقـــا وعلقـــت جعبـــة   ليهلـــك حيـــا ذا زهـــاء وجامـــل[4]

وفي نوادر اللحياني: امرأة إبريق إذا كانت براقة[5].

(صـ١٧٧) وابن منظور في لسان العرب (٩/ ١٨٧).

(١) هذا البيت من بحر السريع ينسب إلى عدي بن زيد العبادي التميمي شاعر من دهاة الجاهلية، كان فصيحًا يحسن العربية والفارسية، جعله كسرى ترجماناً بينه وبين العرب توفي سنة ٣٦ قبل الهجرة. ذكر البيت القرطبي في تفسيره (١٦/ ١١٤) (١٩/ ١٤٠) وابن منظور في لسان العرب (١/ ٧٢٩) (١٠/ ٢٠٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً (رقم ٤٨١٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٦٩).

(٤) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب إلى عمرو بن أحمد الباهلي، شاعر جاهلي مخضرم أدرك الإسلام فأسلم وشارك في الفتوحات، وكان من المطالبين بدم عثمان ﷺ، مات سنة ٧٥هـ. والبيت ذكره الخطابي في غريب الحديث (٢/ ١٥٣) وابن منظور في لسان العرب (١٠/ ١٥، ٢٦٢).

(٥) ذكره ابن منظور في اللسان (١٠/ ١٦).

***

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

(١)وقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [ص: ٥٠، ٥١] قال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥] هذا يدل على أمنهم من انقطاعها ومضرتها، وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، أي لا تكون في وقت دون وقت، ولا تمنع ممن أرادها وقال: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣] والقطوف جمع قطف، وهو ما يقطف. والقطف بالفتح الفعل أي ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها فيأخذها كيف يشاء. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم وقال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت له حتى يتناول ما يريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاءوا، فهم يتناولونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾.

(٢)قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣] وقال تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥] وقال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم

(١) ١٢٤ حادي الأرواح.
(٢) ١٣٤ حادي الأرواح.

بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٢، ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير، كما تلهمون النفس**» ورواه أيضًا من رواية طلحة بن نافع عن جابر، وفيه قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد**»(١) .

وفي المسند وسنن النسائي بإسناد صحيح علىٰ شرط الصحيح من حديث الأعمش عن ثمامة بن عقبة عن يزيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم! تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون قال: «**نعم، والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم ليعطىٰ قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة**» قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذىٰ، قال: «**تكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم: كرشح المسك، فيضمر بطنه**»(٢)، ورواه الحاكم في صحيحه، ولفظه: أتىٰ النبي ﷺ رجل من اليهود، فقال: يا أبا القاسم! ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ ـ ويقول لأصحابه: إن أقر لي بهذا خصمته ـ فقال

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٧) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٤٥٤ رقم ١١٤٧٨) وابن حبان (١٦/ ٤٤٣ رقم ٧٤٢٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٦٣٧) والدارمي (رقم ٢٨٢٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣ رقم ٣٣٩٩٤) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٠٢ رقم ١٧٢٢) وفي الكبير (٥/ ١٧٧ رقم ٥٠٠٥) وعبد بن حميد (رقم ٢٦٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٦): رواه كله الطبراني في الأوسط وفي الكبير بنحوه وأحمد... ورواه البزار ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٩١ رقم ٥٦٨٥): رواه أحمد والنسائي ورواته محتج بهم في الصحيح.

رسول الله ﷺ: «**بلى والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجماع**»(١) فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، فقال رسول الله ﷺ: «**حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك، فإذا البطن قد ضمر**».

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه، فيخر بين يديك مشويًا**»(٢). وقد تقدم حديث أنس في قصة عبد الله بن سلام في أول طعام يأكله أهل الجنة وشرابهم على أثره، وحديث أبي سعيد الخدري: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده نزلًا لأهل الجنة**»(٣).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزخرف.

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٤٥٩) وهناد في الزهد (١/ ٧٣ رقم ٦٣) والطبراني في الأوسط (٨/ ٣٦١ رقم ٨٨٧٦). وانظر: فتح الباري (١/ ٣٧٨) حيث نقل الحافظ ابن حجر تصحيح الحاكم لهذا الحديث.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (رقم ١١٧١) والشاشي في مسنده (٢/ ٢٨٢ رقم ٨٥٨) وتمام في فوائده (٢/ ٤٧-٤٨ رقم ١١٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٢٠) ومسلم (رقم ٢٧٩٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٣) وشرح النووي (١٧/ ١٣٥).

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ ﴾.

[١]هذه هي ليلة القدر قطعًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر: ١]. ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط.

قال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ليلة القدر ليلة الحكم[٢].

وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم[٣]. وقال ابن علية ثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها[٤]، وذكر يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: يكتب من أ م الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر، حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان[٥].

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق، وقد

---

(١) ٢٢ شفاء.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٣٨٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٥٢ رقم ١٩٤٢٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٢ رقم ٨٦٩٢) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢١ رقم ٣٦٦٠).

(٣) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٠٥) والطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٥٩).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٠٠) وعزاه إلى عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير. وانظر: تفسير القرطبي (١٦/ ١٢٧) وتفسير الطبري (٢٥/ ١٠٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٨٧ رقم ١٨٥٢٧) وانظر: تفسير السيوطي (٧/ ٣٩٩).

وقع اسمه في الموتى[(١)].

وقال مقاتل: يقدر الله في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة[(٢)].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر، وهذا هو الصحيح: أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرًا، فهي ليلة الحكم والتقدير[(٣)].

وقالت طائفة: ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة، من قولهم: لفلان قدر في الناس، فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدرًا وشرفًا مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر، فقد غلط إن الله سبحانه أخبر أن فيها يفرق، أي يفصل الله ويبين ويبرم كل أمر حكيم.

***

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[(٤)]هم إنما خرجوا باختيارهم، وقد أخبر أنه هو الذي أخرجهم، فالإخراج فعله حقيقة، والخروج فعلهم حقيقة، ولولا إخراجه لما خرجوا.

وهذا بخلاف قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ [الحشر: ٢]، وقوله: ﴿ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ [النحل: ٧٨] فإن هذا إخراج لا صنع لهم فيه، فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما (١٠/ ٣٢٨٧ رقم ١٨٥٣٠) والضياء في المختارة (١٠/ ٢٣٦ رقم ٢٤٨) والحاكم (٢/ ٤٨٧ رقم ٣٦٧٨) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢١ رقم ٣٦٦١) وفي فضائل الأوقات (رقم ٨٢) كلهم عن ابن عباس.

(٢) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٣١٩-٣٢٠) وفضائل الأوقات له أيضاً (صـ٢١٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥/ ١٠٨).

(٤) ٥٩ شفاء.

وأما قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] فيحتمل أن يكون إخراجًا بقدره ومشيئته، فيكون من الأول، ويحتمل أن يكون إخراجًا يوجبه بأمره فلا يكون من هذا، فيكون الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواع: أحدها: إخراج الخارج باختياره ومشيئته. والثاني إخراجه قهرًا وكرهًا. والثالث إخراجه أمرًا وشرعًا.

***

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩﴾.

[1]إنكاره سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة، كقوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، وهو أنواع كثيرة:

منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب ويعاقب، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجودا مشهودا، فيحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه، ويكذب الكاذب فيهينه.

---

(١) ١٩٨ شفاء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي، فيعلم عباده ذلك علما مطابقًا لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها، وأنه وحده إلهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير، ومن كان ذلك كذلك لم يكن إلا فاعلا مختارًا.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه، الذي يليق به ومحبته[1] على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة.

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح، ولابد من لوازم ذلك خلقا وشرعًا.

ومنها: أنه يحب أن يثنى عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم، التي تضمنها الخلق، فخلق مخلوقاته بسبب الحق، ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق، وهو في نفسه حق، فمصدره حق، وغايته حق، وهو يتضمن للحق.

وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأخبر أن هذا ظن أعدائه، لا ظن أوليائه، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [ص: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول: إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة، لا لحكمة ولا

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها «ومجيئه». (ج).

لغاية مقصودة، وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده، بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات، فهما مظهران بحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإن الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه، فإنهم أثبتوا خلقًا وأمرًا لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة، وينهى عما فيه مصلحة، والجميع بالنسبة إليه سواء، ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه، وينهى عن جميع ما أمر به، ولا فرق بين هذا وهذا، إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين، بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين، بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول، وإلا فهو جائز عليه. وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه، وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيرا من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه، ولا ينزهونه عن هذا الظلم والجور، ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به، كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي، وذلك الإثبات، والله ولي التوفيق.

(١)قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ [ص: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته

---

(١) ٦٨ روضة المحبين.

والخضوع والذل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار، والسماوات والأرض إنما قامت بالعدل الذي هو صراط الله الذي هو عليه وهو أحب الأشياء [إلى الله تعالى] قال الله تعالى حاكيًا عن نبيه هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فهو على صراطٍ مستقيم في شرعه وقدره، وهو العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذي به وله خلقت السموات والأرض وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] فنزهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السماوات عبثًا لغير حكمة ولا غايةٍ محمودة، وهو سبحانه يحمد لهذه الغايات المحمودة، كما يُحمد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها.

***

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

(١) السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] كيف نجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

***

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

(١) ٩ بدائع جـ٤.

[(١)] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

قال جماعة من المفسرين: السندس ما رق من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه[(٢)].

وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ، ولكن المراد به الصفيق.

وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

وقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وهاهنا مسألة، وهذا موضع ذكرها، وهي أن الله ﷻ أخبر أن لباس أهل الجنة حرير، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[(٣)] متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك.

وقد اختلف في المراد بهذا الحديث، فقالت طائفة من السلف والخلف: إنه لا يلبس الحرير في الجنة، ويلبس غيره من الملابس.

قالوا وأما قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فمن العام المخصوص.

وقال الجمهور: وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، التي تدل على أن الفعل مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف عنه لمانع، وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضًا الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة

---

(١) ١٤١ حادي الأرواح.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٣) (٢٥/ ١٣٥) وعمدة القاري (١٣/ ١٧٠) (٢٢/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٣٢، ٥٨٣٤) ومسلم (رقم ٢٠٧٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٨٨-٢٩٨).

فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلىٰ نفسه. فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»(١).

***

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

(٢)المقام الأمين، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١] والمقام موضع الإقامة، والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد.

والبلد الأمين الذي قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم.

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١]. وفي قوله تعالىٰ: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة، ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتًا.

(٣)وأما قوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦] فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص، الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة؛ إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولىٰ بذكره من العدول عنه إلىٰ الاستثناء المنقطع، فجرىٰ هذا الاستثناء مجرىٰ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٧٥) ومسلم (رقم ٢٠٠٣) بلفظ: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة» وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٢-٣٣) وشرح النووي (١٣/ ١٧٣).

(٢) ٧٥ حادي الأرواح.

(٣) ٣١٩ مدارج جـ١.

التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع، فتأمله فإنه من أسرار العربية.

[(١)]وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٦].

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه، واشتماله على الثمار والأنهار، وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضًا، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتًا.

والحور جمع حوراء، وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرف، وعين حسان الأعين.

وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد، وصفاء اللون.

وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين، شديدة سواد العين.

[(٢)]وقوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجًا، كما يزوج النعل بالنعل، جعلناهم اثنين اثنين، وقال يونس: قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج قال: والعرب لا تقول تزوجت بها، وإنما تقول: تزوجتها، قال ابن نصر: هذا والتنزيل يدل على قاله يونس، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولو كان على تزوجت بها، لقال زوجناك بها. وقال ابن سلام: تميم

---

(١) ١٥٦ حادي الأرواح.
(٢) ١٥٧ حادي الأرواح.

تقول: تزوجت امرأة وتزوجت بها، وحكاه الكسائي أيضًا، وقال الأزهري: تقول العرب: زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، وليس من كلامهم: تزوجت بامرأة. وقوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرناهم. وقال الفراء: هي لغة في أزدشنؤة، قال الواحدي: وقول أبي عبيدة في هذا أحسن؛ لأنه جعله من التزويج الذي هو بمعنى جعل الشيء زوجًا، لا بمعنى عقد النكاح، ومن هذا يجوز أن يقال: كان فردًا فزوجته بآخر، كما يقال شفعته بآخر، وإنما تمتنع الباء عند من يمنعها إذا كان بمعنى عقد التزويج. «قلت»: ولا يمتنع أني يراد الأمران معًا، فلفظ التزويج يدل على النكاح، كما قال مجاهد: أنكحناهم الحور، ولفظ الباء تدل على الاقتران والضم وهذا أبلغ من حذفها، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الدخان

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝﴾.

(١)الإفك هو الكذب وهو في القول، والإثم هو الفجور وهو في الفعل، والكذب يدعو إلى الفجور، كما في الحديث الصحيح: «**إن الكذب يدعو إلى الفجور، وإن الفجور يدعو إلى النار**»(٢). فالذي قاله صحيح.

وأما كل معتد أثيم، ففيه معنى ثانٍ غير ما ذكره، وهو أن العدوان مجاوزة الحد الذي حد للعبد، فهو ظلم في القدر والوصف. وأما الإثم فهو محرم الجنس، ومن تعاطى تعدي الحدود تخطى إلى الجنس الآخر، وهو الإثم.

معنى ثالث وهو أن المعتدي الظالم لعباد الله تعالى عدوانا عليهم. والأثيم: الظالم لنفسه بالفجور، فكان تقديمه هنا على الأثيم أولى، لأنه في سياق ذمه، والنهي عن طاعته، فمن كان معتديا على العباد ظالما لهم، فهو أحرى بأن لا تطيعه وتوافقه.

وفيه معنى رابع: وهو أنه قدمه على الأثيم، ليقترن بما قبله، وهو وصف المنع للخير، فوصفه بأنه لا خير فيه للناس، وأنه مع ذلك معتد عليهم، فهو متأخر عن المناع، لأنه يمنع خيره أولا ثم يعتدي عليهم ثانيا، ولهذا يحمد الناس من يوجد لهم الراحة، ويكف عنهم الأذى، وهذا هو حقيقة التصوف، وهذا لا راحة يوجدها ولا أذى يكفه.

***

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾.

---

(١) ٦٨ بدائع جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٩٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٧) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٦٠).

[(١)]قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

[(٢)]اعلم أن ورود [أم] هذه على قسمين: أحدهما: ما تقدمه استفهام صريح بالهمزة. وحكمها ما تقدم، وهو الأصل فيها، والأخية التي يرجع إليها ما خرج عن ذلك كله.

والثاني: ورودها مبتدأة مجردة من استفهام لفظي سابق عليها نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩] ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦] ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ [الطور: ٣٩] ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥] وهو كثير جدًّا تجد فيه [أم] مبتدءًا بها ليس قبلها استفهام في اللفظ، وليس هذا استفهام استعلام، بل تقريع وتوبيخ وإنكار.

وليس بإخبار فهو إذا متضمن لاستفهام سابق مدلول عليه بقوة الكلام وسياقه، ودلت [أم] عليه، لأنها لا تكون إلا بعد تقدم استفهام كأنه يقول أيقولون صادق أم يقولون شاعر؟ وكذلك أم يقولون تقوله أي أتصدقونه أم تقولون تقوله؟ وكذلك ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ أي: أبلغك خبرهم أم حسبت أنهم كانوا من آياتنا عجبًا.

وتأمل كيف تجد هذا المعنى باديًا على صفحات قوله تعالى: ﴿مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠] كيف تجد المعنى أحضر أم كان من الغائبين.

وهذا يظهر كل الظهور فيما إذا كان الذي دخلت عليه أم له ضد، وقد حصل التردد

(١) ٥١ مدارج جـ٢.

(٢) ٢٠٦ بدائع جـ١.

بينهما، فإذا ذكر أحدهما استغني به عن ذكر الآخر، لأن الضد يخطر بالقلب، وهو عند شعوره بضده.

فإذا قلت: ما لي لا أرىٰ زيدا أم هو في الأموات؟ كان المعنىٰ الذي لا معنىٰ للكلام سواه: أحي هو أم في الأموات؟

***

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

كذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ معناه أهو خير مني أم أنا خير منه، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: ٢١٤] هو استفهام إنكار معادل لاستفهام مقدر في قوة الكلام، فإذا قلت: لم فعلت هذا أم حسبت أن لا أعاقبك؟ كان معناه: أحسبت أن أعاقبك، فأقدمت علىٰ العقوبة أم حسبت أني لا أعاقبك فجهلتها.

وكذلك قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد فتكونوا جاهلين، أم لم تحسبوا ذلك فتكونوا مفرطين.

وكذلك إذا قلت أم حسبت أن تنال العلم بغير جد واجتهاد، معناه: أحسبت أن تناله بالبطالة والهوينا، فأنت جاهل أم لم تحسب ذلك فأنت مفرط، وكذلك: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١] أي أحسبوا هذا فهم مغترون، أم لم يحسبوه فما لهم مقيمون علىٰ السيئات، وعلىٰ هذا سائر ما يرد عليك من هذا الباب.

وتأمل كيف يذكر سبحانه القسم الذي يظنونه ويزعمونه فينكره عليهم، وأنه مما لا ينبغي أن يكون، ويترك ذكر القسم الآخر الذي لا يذهبون إليه، فتردد الكلام بين

قسمين، فيصرح بإنكار أحدهما، وهو الذي سيق لإنكاره، ويكتفي منه بذكر الآخر، وهذه طريقة بديعة عجيبة في القرآن نذكرها في باب الأمثال وغيرها، وهي من باب الاكتفاء عن غير الأهم بذكر الأهم لدلالته عليه، فأحدهما مذكور صريحًا، والآخر ضمنًا، ولذلك أمثلة في القرآن يحذف منها الشيء للعلم بموضعه، فمنها قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم ﴾ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا ﴾ وهو كثير جدًّا بواو العطف من غير ذكر عامل يعمل في إذ، لأن الكلام في سياق تعداد النعم وتكرار الأقاصيص، فيشير بالواو العاطفة إليها، كأنها مذكورة في اللفظ، لعلم المخاطب بالمراد، ولما خفي هذا علىٰ بعض ظاهرية النحاة قال إن [أو] زائدة هنا، وليس كذلك.

ومن هذا الباب [الواو] المتضمنة معنىٰ [رب] فإنك تجدها في أول الكلام كثيرًا، إشارة منهم إلىٰ تعداد المذكور بعدها من فخر أو مدح أو غير ذلك، فهذه كلها معان مضمرة في النفس، وهذه الحروف عاطفة عليها، وربما صرحوا بذلك المضمر، كقول ابن مسعود: دع ما في نفسك، وإن أفتوك عنه وأفتوك.

ومن هذا الباب حذف كثير من الأجوبة في القرآن، لدلالة الواو عليها، لعلم المخاطب أن الواو عاطفة، ولا يعطف بها إلا علىٰ شيء، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ [يوسف: ١٥] وكقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] وهذا الباب واسع في اللغة، فهذا ما في هذه المسألة، وكان قد وقع لي هذا بعينه أمام المقام بمكة، وكان يجول في نفسي، فأضرب عنه صفحا، لأني لم أره في مباحث القوم، ثم رأيته بعد لفاضلين من النحاة:

أحدهما حام حوله وما ورد ولا أعرف اسمه.

والثاني أبو القاسم السهيلي رحمه الله، فإنه كشفه وصرح به، وإذا لاحت الحقائق فكن أسعد الناس بها، وإن جفاها الأغمار، والله الموفق للصواب.

***

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(١)قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه. وقال أيضا: على علم قد سبق عنده. وقال أيضا: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب. وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه. وقال أبو إسحاق: أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين، وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره. قال وقيل على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي، قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي.

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره: قولين في الآية هذا أحدهما(٢): قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه. قال: وقيل على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول يكون ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ حال من الفاعل. المعنى: أضله الله عالما بأنه من أهل الضلال في سابق علمه. وعلى الثاني حال من المفعول، أي أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول فالمعنى: أضله الله عالما به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال، وليس أهلا أن يهدي، وأنه لو هدى لكان قد وضع الهدى في غير محله، وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم، إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها.

فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة، التي لأجلها قدر عليه الضلال، وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور، ووضع الشيء في

---

(١) ٤ شفاء.

(٢) ذكر القول الثاني في (صـ٣٩) واستطرد هنا في البحث جزاه الله خيرًا. اختصرناه فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

مواضعه، وإعطاء الخير من يستحقه، ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله علىٰ علمه بأحواله، التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه.

وهو سبحانه كثيرًا ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر، كما قال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣] ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤] ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩].

وقد أخبر سبحانه أنه يفعل ذلك عقوبة لأرباب هذه الجرائم، وهذا إضلال ثان بعد الإضلال الأول، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥] وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

(١)وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] قول آخر أنه علىٰ علم

(١) ٣٩ شفاء.

الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر، فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة لم يضله على جهل وعدم علم هذا يشبه قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقوله: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٤] ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقول موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] ونظائره كثيرة.

وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده، وهو يراها عيانًا كما في الحديث: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»(١). فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعًا لهواه، عالمًا بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل.

ولما كان الهدى هو معرفة الحق والعمل به كان له ضدان: الجهل، وترك العمل به.

فالأول ضلال في العلم، والثاني ضلال في القصد والعمل، فقد وقع قوله: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الدخان: ٣٢] وفي قوله: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وفي قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [القصص: ٧٨].

فالأول يرجع العلم فيه إلى الله قولًا واحدًا، والثاني والثالث فيهما قولان، والراجح في قوله: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أن يكون كالأول، وهو قول عامة السلف، والثالث فيه قولان محتملان، وقد ذكر توجيههما، والله أعلم. والمقصود ذكر مراتب القضاء

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٧٨) والطبراني في الصغير (رقم ٥٠٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١ رقم ١١٢٢) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٣٩) وفيض القدير (١/ ٥١٨).

والقدر: علمًا وكتابة ومشيئة وخلقًا.

(١)وأما الغشاوة فهو غطاء العين، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب؛ فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

وأنت إذا أبغضت رجلًا بغضًا شديدًا أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينيك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول، وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشاء غشاوة على أعينهم، فلا تبصر مواقع الهدى.

***

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(٢)وهؤلاء قوم عطَّلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء فرقتان، فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة درات عليه فأحرقته، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها، وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة...

***

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(٣)قال طاوس: أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء

---

(١) ٩٦ شفاء.

(٢ ٢٥٥ إغاثة جـ٢.

(٣) ٦٦ طريق الهجرتين.

بقدر، وقال أيوب السختياني: أدركت الناس وما كلامهم إلا: إن قضى، إن قدر. وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] قال: كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة، قال: والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يومًا بيوم، فذلك قوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه، وقد يقال وهو الأظهر: إن الآية تعم الأمرين، فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب أعمال بني آدم ثم يكتبونها عليهم إذا عملوها فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها...[1]

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فتستنسخ الملائكة ما يكون من أعمال بني آدم قبل أن يعملوها، فيجدون ذلك موافقًا لما يعملونه، فيثبت الله تعالى منه ما فيه ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو.

وذكر ابن مردويه في تفسيره من طرق إلى بقية عن أرطأة بن المنذر عن مجاهد عن ابن عمر يرفعه: إن أول ما خلق الله القلم، فأخذه بيمينه، وكلتا يديه يمين، فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول من بر أو فجور، رطب أو يابس، فأحصاه عند الذكر. وقال اقرؤا إن شئتم: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه[2]. وقال آدم ثنا

---

(١) ٢٤ شفاء.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٥٦) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٩ رقم ١٠٦) وابن المستفاض في القدر (رقم ٤١٦) قال الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة: إسناده حسن رجاله ثقات، وفي ابن مصفى كلام لا ينزل حديثه عن مرتبة الحسن وهو وبقية مدلسان،وقد صرحا بالتحديث.وأخرجه الآجري في الشريعة (صـ١٧٥) من طريق الربيع بن نافع عن بقية بن الوليد قال: حدثنا أرطأة بن المنذر به. فصح الحديث والحمد لله. انتهى كلام الألباني.

ورقاء عن عطاء بن السائب عن مقسم عن ابن عباس: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال: تستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب[١].

وفي تفسير الأشجع عن سفيان عن منصور عن مقسم عن ابن عباس قال: كتب في الذكر عنده كل شيء هو كائن، ثم بعث الحفظة على آدم وذريته، وكل ملائكته ينسخون من الذكر ما يعمل العباد، ثم قرأ: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وفي تفسير الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: هي أعمال أهل الدنيا الحسنات والسيئات، تنزل من السماء كل غداة وعشية ما يصيب الإنسان في ذلك اليوم أو الليلة: الذي يقتل، والذي يغرق، والذي يقع من فوق بيت، والذي يتردى من جبل، والذي يقع، والذي يحرق بالنار، فيحفظوا عليه ذلك كله، وإذا كان الشيء صعدوا به إلى السماء، فيجدونه كما في السماء مكتوبا في الذكر الحكيم[٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجاثية

والحمد لله رب العالمين



(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣٠-٤٣١) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣١) وعزاه إلى ابن مردويه وأبي نعيم في الحلية.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣٠) وعزاه إلى ابن مردويه وضعفه.

سُورَةُ الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

(١) طالبهم بالدليل السمعي والعقلي.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦] وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق ﷺ عن الاستقامة، فقال: «أن

---

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١٠٣ مدارج جـ٢.

لا تشرك بالله شيئًا»[(١)] يريد الاستقامة على محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب»[(٢)].

وقال عثمان بن عفان ﷺ: «استقاموا: أخلصوا العمل لله»[(٣)].

وقال علي بن أبي طالب ﷺ وابن عباس رضي الله عنهما: «استقاموا أدوا الفرائض»[(٤)].

وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته»[(٥)].

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله، حتى لحقوا بالله»[(٦)].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[(٧)]. وفيه عن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[(٨)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١١٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٣١) وأحمد في الزهد (ص١١٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٢٥) والقزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٣٤٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٩٩).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٢).

(٥) انظر: تحفة الأحوذي (٩/ ٨٩).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١١٥) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٢).

(٧) أخرجه مسلم (رقم ٣٨) وانظر: شرح النووي (٢/ ٨-٩).

(٨) أخرجه الحاكم (١/ ٢٢٠ رقم ٤٤٧) وابن ماجه (رقم ٢٧٧) والبيهقي في الكبرى (١/ ٨٢ رقم ٣٨٩) والدارمي (رقم ٦٥٥) ومالك في الموطأ (رقم ٦٦) والطبراني في الصغير (رقم ٨) وفي الأوسط (٧/ ١١٦ رقم ٧٠١٩) وفي الكبير (٢/ ١٠١ رقم ١٤٤٤) وأحمد (٥/ ٢٧٦) والبزار (٦/ ٣٥٨ رقم ٢٣٦٧) والطيالسي (رقم ٩٩٦) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٩٧ رقم ٣١١): رواه ابن =

والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ﷺ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١). فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم: كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله. قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

***

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ

=

ماجه بإسناد صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ولا علة له سوى وهم أبي بلال الأشعري. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٥) وشرح النووي (٢/ ٩) والتمهيد (٢٤/ ٣١٨-٣١٩).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

[1]أخبر تعالىٰ أن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهرًا، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع حولين كاملين، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل، وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم علىٰ أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر، إلا أن يكون سقطا، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة ﷺ.

فذكر البيهقي وغيره عن أبي حرب بن أبي الأسود الرملي [الديلمي] أن عمر أُتِيَ بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهم عمر برجمها، فبلغ ذلك عليا ﷺ، فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه فسأله، فقال: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] فستة أشهر حمله، وحولان تمام الرضاعة، لا حد عليها. فخلىٰ عنها[2].

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان ﷺ أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم، فقال علي: ليس ذلك عليها، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فأمر بها عثمان أن ترد، فوجدت قد رجمت[3].

وذكر داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة

---

(١) ١٥٨ تحفة المودود.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٦) وعبدالرزاق (٧/ ٣٤٩ رقم ١٣٤٤٣) وانظر: تأويل مختلف الحديث (صـ١٦٢) والمغني (٨٧/ ٩٧) وشرح الزرقاني (٤/ ١٧٩).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٩١) وعبدالرزاق (٧/ ٣٥١ رقم ١٣٤٤٦) وصححه الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٢١٩) وانظر: المغني (٩/ ٧٣).

وعشرون شهرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[1]، انتهىٰ كلامه.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرعد: ٨]. قال ابن عباس: ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها. ووافقه علىٰ هذا أصحابه: كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضًا: إذا حاضت المرأة علىٰ ولدها كان ذلك نقصانًا من الولد ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال: إذا زادت علىٰ تسعة أشهر كان ذلك تمامًا لما نقص من ولدها، وقال أيضًا: الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها، وهو نقصان من الولد. والزيادة ما زاد علىٰ التسعة أشهر وهو تمام النقصان. وقال الحسن: ما تغيض الأرحام ما كان من سقط، وما تزداد المرأة تلد لعشرة أشهر، وقال عكرمة تغيض الأرحام الحيض بعد الحمل، فكل يوم رأت فيه الدم حاملا ازداد به في الأيام طاهرًا، فما حاضت يومًا إلا ازدادت في الحمل يومًا. وقال قتادة: الغيض: السقط وما تزداد فوق التسعة أشهر.

وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم علىٰ الحمل فهو الغيض للولد فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل.

تغيض وتزداد: فعلان متعديان، مفعولهما محذوف، وهو العائد علىٰ ما الموصولة. والغيض النقصان، ومنه: ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ [هود: ٤٤]. وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنىٰ الآية: أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثىٰ، هل هو ذكر أو أنثىٰ، وهذا أحد أنواع الغيب، التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه ﷺ: **«مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متىٰ تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متىٰ يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله»**[2].

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٤٩١) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٣) (٨/ ٢٩١).

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه، وما ينقص، وما عدا هذا القول، فهو من توابعه ولوازمه: كالسقط والتام، ورؤية الدم وانقطاعه. والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن، وما يتصل بها من زيادة ونقصان.

وأما أقصاها فقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم في ذلك، فقالت طائفة: أقصى مدته سنتان، وروي هذا القول عن عائشة، وروي عن الضحاك وهرم بن حيان: أن كل واحد منهما أقام في بطن أمه سنتين. وهذا قول سفيان الثوري، وفيه قول ثان: وهو أن مدة الحمل قد تكون ثلاث سنين، روينا عن الليث بن سعد أنه قال: حملت مولاة لعمر ابن عبد الله ثلاث سنين. وفيه قول ثالث: أن أقصى مدته أربع سنين. هكذا قال الشافعي.

قلت: وعن الإمام أحمد رحمه الله روايتان: أنه أربع سنين، والثانية سنتان، قال: واختلف فيه عن مالك، فالمشهور عنه عند أصحابه مثل ما قال الشافعي، وحكى ابن الماجشون عنه ذلك، ثم رجع لما بلغه قصة المرأة التي وضعت لخمس سنين، وفيه قول آخر [هو: قول رابع]: إن مدة الحمل قد تكون خمس سنين، حكي عن عباد بن العوام أنه قال: ولدت امرأة معنا في الدار لخمس سنين. قال: فولدته وشعره يضرب إلى هاهنا. وأشار إلى العنق، قال: ومر به طير، فقال: هش. وقد حكي عن ابن عجلان: أن امرأته كانت تحمل خمس سنين. وفيه قول خامس قال الزهري: إن المرأة تحمل ست سنين وسبع سنين، فيكون ولدها مخشوشا في بطنها. قال: وقد أتى سعيد بن مالك بامرأة حملت سبع سنين.

وقالت فرقة: لا يجوز في هذا الباب التحديد والتوقيت بالرأي، لأنا وجدنا لأدنى الحمل أصلا في تأويل الكتاب، وهو الأشهر الستة، فنحن نقول بهذا ونتبعه، ولم نجد لآخره وقتًا، وهذا قول أبي عبيد، ودفع بهذا حديث عائشة، وقال المرأة: التي روته عنها مجهولة، وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم: أن المرأة إذا جاءت بولد لأقل[1] من

---

(١) كذا بالأصل، ولعله (لأكثر) من ستة أشهر (ج).

ستة أشهر من يوم تزوجها الرجل أن الولد غير لا حق به، فإن جاءت به لستة أشهر من يوم نكحها فالولد له.

(١) والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده.

وهذا باب عجيب من فهم القرآن، لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تلد لستة أشهر.

وكما فهم الصديقُ من آية الفرائض في أول السورة وآخرها: أن الكلالة من لا ولد له ولا والد، وأسقط الإخوة بالجد، وقد أرشد النبي ﷺ عمر إلى هذا الفهم، حيث سأله عن الكلالة، وراجعه السؤال فيها مرارًا، فقال: يكفيك آية الصيف...

(٢) وهذا وأمثاله يدل على أن الطبيعة التي هي منتهى سير الطبائعين، لها رب قاهر قادر يتصرف فيها بمشيئته، وينوع فيها خلقه كما يشاء، ليدل من له عقل على وجوده ووحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، وإلا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا الاختلاف العظيم والتباين الشديد. ومن أين في الطبيعة خلق هذا النوع الإنساني على أربعة أضرب. أحدها: لا من ذكر ولا من أنثى: كآدم ؈. الثاني: من ذكر بلا أنثى: كحواء صلوات الله عليها. الثالث: من أنثى بلا ذكر: كالمسيح. الرابع: من ذكر وأنثى: كسائر النوع. ومن أين في

---

(١) ٣٥٤ أعلام جـ١.

(٢) ١٦٢ تحفة المودود.

الطبيعة والقوة هذا التركيب والتقدير والتشكيل، وهذه الأعضاء والرباطات والقوىٰ والمنافذ والعجائب، التي ركبت في هذه النطفة المهينة، لو لا بدائع صنع الله ما وجدت تلك العجائب في مستقذر الماء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦-٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

لقد دل سبحانه علىٰ نفسه أوضح دلالة، بما أشهده كل عبد علىٰ نفسه من حاله وحدوثه، وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهد حكمته فيه، ولقد دعا سبحانه الإنسان إلىٰ النظر في مبدإ خلقه وتمامه، فقال تعالىٰ: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾ [الطارق ٥، ٧] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝ ﴾ [الحج: ٥]، قال تعالىٰ: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وهذا في القرآن كثير لمن تدبره وعقله، وهو شاهد منك عليك، فمن أين للطبيعة والقوة المحصورة هذا الخلق والإتقان والإبداع، وتفصيل تلك العظام، وشد بعضها ببعض علىٰ اختلاف أشكالها ومقاديرها ومنافعها وصفاتها، ومن جعل في النطفة تلك العروق واللحم والعصب، ومن فتح لها تلك الأبواب والمنافذ، ومن شق سمعها وبصرها، ومن ركب فيها لسانا تنطق به، وعينين تبصر بهما، وأذنين تسمع بهما، وشفتين، ومن أودع فيها الصدر، وما حواه من المنافع الآلات، التي لو شاهدتها لرأيت العجائب، ومن

جعل هناك حوضا وخزانة يجتمع فيها الطعام والشراب، وساق إليه مجاري وطرقًا ينفذ فيها، فيسقي جميع أجزاء البدن، كل جزء يشرب من مجراه، الذي يختص به لا يتعداه ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٠]، ومن أخدمها تلك القوىٰ التي بها تمت مصالحها ومنافعها، ومن أودع فيها العلوم الدقيقة والصنائع العجيبة، وعلَّمها ما لم تكن تعلم، وألهمها فجورها وتقواها، ونقلها في أطوار التخليق طورًا بعد طور وطبقا بعد طبق، إلىٰ أن صارت شخصًا حيًّا ناطقًا سميعًا بصيرًا، عالمًا متكلمًا، آمرًا ناهيًا، مسلطًا علىٰ طير السماء، وحيتان الماء، ووحوش الفلوات، عالما بما لا يعلمه غيره من المخلوقات، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

قد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطىٰ السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه، واحتج بقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، واحتج أنه في بطن الأم لا يرىٰ شيئا، ولا يسمع صوتًا، فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة، وليس ما قاله صحيحًا، ولا حجة له في الآية، لأن الواو لا ترتيب فيها، بل الآية حجة عليه.

(١)قال الزجاج: الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلىٰ نحو الأربعين، وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه: الأشد الحلم، وهو اختيار يحيىٰ بن يعمر والسدي، وروىٰ مجاهد عنه: ستًّا وثلاثين سنة. وروىٰ عنه أيضا ثلاثين. وقال الضحاك: عشرين سنة. وقال مقاتل: ثمان عشرة. وقد أحكم الزهري تحكيم اللفظة، فقال: بلوغ الأشد يكون من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال إلىٰ أربعين سنة. قال: فبلوغ الأشد محصور الأول،

(١) ١٨٢ تحفة المودود.

محصور النهاية، غير محصور ما بين ذلك، فبلوغ الأشد مرتبة بين البلوغ وبين الأربعين ومعنى اللفظة من الشدة: وهي القوة والجلادة. والشديد الرجل القوي، فالأشد القوي. قال الفراء: واحدها شدة في القياس ولم أسمع لها بواحد.

وقال أبو الهيثم: واحدها شدة كنعمة وأنعم. وقال بعض أهل اللغة: واحدها شدة بضم الشين. وقال آخرون منهم: هو اسم مفرد، كالآنك، وليس بجمع، حكاهما ابن الأنباري.

ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج، كما أخذ في زيادتها على التدريج، قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: ٥٤] فقوته بين ضعفين، وحياته بين موتين، فهو أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم جنيناً ما دام في البطن، فإذا خرج فهو وليد، فما لم يستتم سبعة أيام فهو صديغ بالغين المعجمة، لأنه لم يشتد صدغه، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، فإذا قطع عنه اللبن فهو فطيم، فإذا دب ودرج فهو دارج، قال الراجز:

أم صبي قـــد حـــبا ودارج

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت أسنانه فهو مثغور وقد ثغر فإذا نبتت بعد سقوطها فهو مثغر بوزن مدكر بالتاء والثاء معًا، فإذا بلغ السبع وما قاربها فهو مميز، فإذا بلغ العشر فهو مترعرع وناشئ، فإذا قارب الحلم فهو يافع ومراهق ونهام للغلمة. فإذا بلغ فهو بالغ، فإذا اجتمعت قوته فهو حزوَّر، واسمه في جميع ذلك غلام ما لم يخضر شاربه، فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره في الطلوع فهو باقل، وقد بقل وجهه بالتخفيف، ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى، وشارخ بحصول شرخ الشباب له.

***

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ ﴾.

(١)أخبر أن منهم من حق عليه القول، أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئًا من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر.

***

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

(٢)المؤمن لا يذهب طيباته فى الدنيا، بل لابد أن يترك بعض طيباته للآخرة. وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته فى الدنيا. ومنها علمه بأن أعماله هى زاده ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجناة، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها علمه بأن عمله هو وليه فى قبره، وأنيسه فيه، وشفيعه عند ربه، والمخاصم والمحاج عنه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها.

وأعمال الفجور تهوي به، وتجذبه إلى الهاوية، وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسب

---

(١) ٤١٩ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٧٣ طريق الهجرتين.

قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث يستقر به.

قال الله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها، لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أُغلقت عنها.

وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم، حتى وصلت إلى الله سبحانه، فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه تعالى وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين، ومنها خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهباً للصوص وقطاع الطريق.

فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة إلى خربة موحشة هي مأْوىٰ اللصوص وقطاع الطريق، فهل يتركون معه شيئاً من متاعه؟ ومنها أنه بالمعصية قد تعرّض لمحق بركته [في كل شيء من أمر دنياه وآخرته، فإن الطاعة تجلب للعبد بركات كل شيء، والمعصية تمحق منه كل بركة]. وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علمًا، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته، وفي بعض الآثار يقول الله ﷻ: «**من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟ ومن ذا الذي عصاني فسعد بمعصيتي؟**»(١).

***

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءِۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٣٧) وتاريخ دمشق (٨/ ٣١-٣٥).

...[1]قالوا: وأما الاستدلال بالمعين على العام فلا يتم إلا بالتسوية بين المتماثلين، إذ لو جاز الفرق لما كان هذا المعين دليلا على الأمر العام المشترك بين الأفراد، ومن هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أمره على أن هذا الحكم عام شامل على من سلك سبيلهم، واتصف بصفتهم، وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال تعالى عقيب أخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم، وما حل بهم: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣]. فهذا محض تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية، ولا تمت الحجة.

ومثل هذا قوله تعالى عقيب أخباره عن عقوبة قوم عاد، حين رأوا العارض في السماء، فقالوا: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ فقال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] فتأمل قوله: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ كيف تجد المعنى أن حكمكم كحكمهم وإنا إذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رسلنا، ولم يدفع عنهم ما مكنوا فيه من أسباب العيش، فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين، وأن هذا محض عدل الله بين عباده.

***

(١) ١٣١ أعلام جـ١.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[1]ذكر ما يتناول به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد، الذي هو محل العقل، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠] فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] فدعاهم على استماعه بأسماعهم وتدبره بعقولهم...

***

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

[2]لما نقضت الصحيفة: وافق موتُ أبي طالب وموت خديجة، وبينهما يسير، فاشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، فكاشفوه بالأذى، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، رجاء أن يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم. ودعاهم إلى الله ﷻ فلم ير من يؤوي، ولم ير ناصرًا، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالُوا

(١) ٩٢ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ١٢٣ زاد المعاد جـ٢.

منه ما لم ينله قومُه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلَّمه، فقالوا: اخْرج مِن بلدنا، وأغرَوْا به سُفهاءهم، فوقفوا له سمَاطَيْن، وجعلوا يرمُونه بالحِجَارَةِ حتى دمِيَتْ قَدَماه، وزيدُ بن حارثة يَقيهِ بنفسه حتى أصابه شِجاج في رأسه، فانصرفَ راجعاً من الطائفِ إلى مكة محزوناً، وفي مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهورِ دُعاء الطَّائِفِ: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَوَانِي عَلَى النَّاس، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَوْ إِلَى عَدوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُك، لك العُتبى حَتَّى تَرْضَى، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا بِكَ»(١).

فأرسل ربُّه تبارك وتعالى إليه مَلَكَ الجِبَالِ، يستأمِرُهُ أن يُطْبِقَ الأَخْشَبَيْنِ عَلَى أَهْل مَكَّةَ، وهُمَا جبلاها اللذانِ هِيَ بينهما، فقَالَ: «لاَ، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ لَعَلَّ اللهَ يُخرِجُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»(٢).

فلما نزل بنخلة مَرْجِعَهُ، قام يُصَلِّي مِن الليل، فَصُرِفَ إليهِ نَفَرٌ مِنَ الجن، فاستمَعُوا قراءته، ولم يَشْعُرْ بهم رسولُ اللهِ ﷺ حتى نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٤) وأورد ذلك الدعاء الحسن: اللهم إليك أشكو، وذكره ثم قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين، وهذا صحيح. ولكن قوله: إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣١) ومسلم (رقم ١٧٩٥) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٥٥).

ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وأقام بنخلة أياماً، فقال له زيدُ بنُ حارثة: كيف تدخلُ عليهم، وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً، فقال: «**يا زيدُ؛ إن الله جاعِلٌ لما ترى فَرَجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دِينَه ومظهر نبيه**».

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلاً مِن خُزاعة إلى مُطعم بن عدي: «**أَدْخُلُ في جِوَارِكَ؟**» فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: البِسُوا السِّلاَحَ، وكونوا عِنْدَ أركانِ البيت، فإني قد أجرتُ محمداً، فدخلَ رسولُ الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحَرام، فقام المطعمُ بن عدي على راحلته، فنادى: يا معشرَ قريش؛ إني قد أجرتُ محمداً، فَلا يَهجْهُ أَحَدٌ مِنكم، فانتهى رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الرُّكنِ، فاسْتَلَمَه، وصلَّى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والمطعمُ بن عدي وولده محدِقون به بالسِّلاح حتى دخل بيته[1].

[2] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف:٢٩، ٣٢]. فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

(أحدها): أن الله ﷻ صرفهم إلى رسوله، يستمعون القرآن، ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

(الثاني): أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

(الثالث): أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق،

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢١٢).
(٢) ٤٢١ طريق الهجرتين.

وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له، وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدل على تمكينهم من العلم، الذى تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

(الرابع): إنهم قالوا لقومهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:٣١] وهذا صريح فى أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهى تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

(الخامس): أنهم قالوا: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب، وهو مخالفة الأمر.

(السادس): أنهم قالوا: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

(السابع): أنهم قالوا: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعى الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح فى تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

(الثامن): أنهم قالوا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، وهذا تهديد لمن تخلف عن إجابة داعى الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى، كما هم متعبدون بشريعة محمد، وهذا ممكن، والآية لا تستلزمه، ولكن قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، الآية تدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضاً.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبى ﷺ بالبعثة إلى الثقلين إلى جميعهم لا إلى بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحقاف.

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾.

[(١)]...تسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه، وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمود عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحوداً، أو عناداً، أو جهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال، ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له.

وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، فإن اسمه محمد وأحمد، وأمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة[(٢)].

ولما يسجد بين يدي ربه ﷻ للشفاعة، ويؤذن له فيها، يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال

---

(١) ٩٦ جلاء الأفهام.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٢٣ رقم ٢٣٤٥) وابن حبان (١٤/ ٣٩٨ رقم ٦٤٧٨) والترمذي (رقم ٣١٤٨) والدارمي (رقم ٤٧) والطبراني في الأوسط (٤/ ٤٤-٤٥ رقم ٣٥٧٠) وفي الكبير (٢/ ١٨٤ رقم ١٧٥٠) وأبو يعلى (٤/ ٢١٣-٢١٥ رقم ٢٣٢٨) وأحمد (١/ ٢٨١) وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٠٠) (١/ ٤٢٧).

تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[1] [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف علىٰ معنىٰ المقام المحمود فليقف علىٰ ما ذكره سلف الأمة من الصحابة والتابعين فيه في تفسير هذه السورة، كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد ابن حميد، وغيرها من تفاسير السلف. وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم مسلمهم وكافرهم أولهم وآخرهم.

وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من الهدىٰ والإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين، ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به، حتىٰ نال به أتباعه شرف الدنيا والآخرة، فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضاً، من استحسن شيئاً دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة.

وقد نظر الله سبحانه حينئذ إلىٰ أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا علىٰ آثار من دين صحيح[2]، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت،فهدىٰ به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وكثَّر بعد القلة، وأعزَّ به بعد الذلة، وأغنىٰ به بعد العيلة، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم ومعبودهم، غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، حتىٰ تجلت معرفته

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٦-٤٢٧) وشرح النووي (٣/ ٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٩٧).

سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها، كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف لا إلى من قبله ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

روى أبو داود في مراسيله، عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: «**كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على غير نبيهم**»، فأنزل الله ﷻ تصديق ذلك: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] [العنكبوت: ٥١]، فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ، فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟.

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه**»[2]. قال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»[3]. وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (رقم ٤٥٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨) وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٤٩).

(٢) أخرجه الشافعي في مسنده (صـ٢٣٣) وفي الأم (٧/ ٢٧٩) وعبدالرزاق (١١/ ١٢٥ رقم ٢٠١٠٠).

(٣) أخرجه البزار (٩/ ٣٤١ رقم ٣٨٩٧) والطبراني في الكبير (٢/ ١٥٥ رقم ١٦٤٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٣٨) وقال الدارقطني في العلل (٦/ ٢٩٠ رقم ١١٤٨) عن أبي ذكر مرسلاً وهو الصحيح. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٥).

وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ، وجزاه عن أمته أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عُجِّل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها، وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض. ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، كما روى البخاري في صحيحه: عن عبد الله بن عمرو، أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء

وأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، حتى يقولوا لا إله إلا الله»(١).

وأرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله، وأحسنهم تعبيراً عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعاً، وأعظمهم إيثاراً على نفسه، وأشد الخلق ذباً عن أصحابه وحماية لهم ودفاعاً عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهي عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فهو أحق بقول القائل:

برد على الأدنى ومرحمة   وعلى الأعادي مارن جلد(٢)

***

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾(٣).

(٤)قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلوا عليها أحدًا. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم» وقال محمد بن كعب: يعرفونها كما تعرفون بيوتكم في الدنيا إذا انصرفتم من يوم الجمعة. هذا قول جمهور المفسرين،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢١٢٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٨٦).

(٢) هذا البيت من بحر الكامل ينسب إلى الحسين بن محمد المنبجي المعروف بدوقلة شاعر مغمور لا يعرف متى ولد أو متى مات، تنسب إليه القصيدة المشهورة باليتيمة ذهب إلى نسبتها إليه ثعلب اللغوي المعروف المتوفى سنة ٢٩١هـ.

(٣) تقدم في سورة النساء بحث على هذه الآية (رقم ٩٨) يحسن الرجوع إليه لمن أراده. (ج).

(٤) ١٠٥ حادي الأرواح.

وتلخيص أقوالهم ما قاله أبو عبيدة: عرفها لهم، أي بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الموكل بحفظ بني آدم يمشي في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتيه أقصى منزل هو له، فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة، فإذا دخل إلى منزله وأزواجه انصرف الملك عنه. وقال سلمة بن كهيل: طرقها لهم ومعنى هذا أنه طرقها لهم حتى يهتدوا إليها. وقال الحسن: وصف الله الجنة في الدنيا لهم فإذا دخلوها عرفوها بصفتها. وعلى هذا القول فالتعريف وقع في الدنيا، ويكون المعنى يدخلهم الجنة التي عرفها لهم. وعلى القول الأول يكون التعريف واقعًا في الآخرة، هذا كله إذا قيل: إنه من التعريف. وفيها قول آخر: إنه من العرف، وهو الرائحة الطيبة. وهذا اختيار الزجاج، أي طيبها ومنه طعام معرف أي مطيب، وقيل: هو من العرف وهو التتابع: أي تابع لهم طيباتها وملاذها.

والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعلمها وبينها بما يعلم به كل أحد منزله وداره فلا يتعداه إلى غيره، وفي صحيح البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم بدخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا**»(١).

وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة وبأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة**»(٢).

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٠) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٢٧) (١٠/ ٤٨٩).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٩٤ رقم ١٠) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٣٦) والطبراني في الأحاديث الطوال (١/ ٢٦٦-٢٧٦ رقم ٣٦).

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾.

[١]أخبر أن حكم الشيء حكم مثله. وكذلك كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب، فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين، ولولا أن حكم النظير حكم نظيره، حتى تعبُرَ العقول منه إليه لما حصل الاعتبار، وقد نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم، فقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

فأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول، لا تليق نسبته إليه سبحانه، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] أفلا تراه كيف ذكَّر العقول، ونبَّه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير، حكم نظيره وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم؟

وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله مع كتابه، وجعله قرينه ووزيره، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧] وقال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن: ١، ٢] فهذا الكتاب، ثم قال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧] والميزان يراد به العدل والآلة، التي يعرف بها

(١) ١٣٢ أعلام جـ١.

العدل وما يضاده.

والقياس الصحيح هو الميزان، فالأولى تسميته بالاسم الذي سماه الله به، فإنه يدل على العدل، وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان بخلاف اسم القياس، فإنه ينقسم إلى حق وباطل وممدوح ومذموم، ولهذا لم يجئ في القرآن مدحه ولا ذمه، ولا الأمر به ولا النهي عنه، فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد. فالصحيح هو الميزان الذي أنزله مع كتابه. والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسوا البيع على الربا بجامع ما يشتركان فيه من التراضي بالمعاوضة المالية، وقياس الذين قاسوا الميتة على المذكى في جواز أكلها بجامع ما يشتركان فيه من إزهاق الروح: هذا بسبب من الآدميين، وهذا بفعل الله. ولهذا تجد في كلام السلف ذم القياس، وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به، وهذا حق، وهذا حق، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

***

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

(١)وقال عبد الله بن بريدة في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦] قال: هو عبد الله بن مسعود.

***

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾.

(٢)ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١]

---

(١) ١٧ أعلام جـ١.

(٢) ١٧٦ فوائد.

فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل.

فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه،وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه.

فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومن صدق الله في جميع أموره، صنع الله له فوق ما يصنع لغيره؛ وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله.

***

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[(١)]أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

***

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾.

---

(١) ٨٠ التبيان.

(١)وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن، وهو عليهم عمى، أعمى الله قلوبهم، فلا يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد، مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً، وقال مجاهد: بعيد من قلوبهم، وقال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم: كذلك أنت تنادي من مكان بعيد، قال: وجاء في التفسير، كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى، والمعنى: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

***

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

(٢)قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال، وقال مقاتل: يعني الطبع على القلب، وكأن القلب منزلة الباب المرتج، الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن.

وتأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء، وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة. وفي قوله: أقفالها بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها: ما هو

---

(١) ٩٦ شفاء.

(٢) ٩٥ شفاء.

للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها، التي لا تكون لغيرها، والله أعلم.

(١) وروي عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال: تلا رسول الله ﷺ قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال: بلى والله يا رسول الله! إن عليها لأقفالها، ولا يفتحها إلا الذي أقفلها، فلما ولي عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله، وقال: لم يقل ذلك إلا من عقل(٢).

...(٣) وإلى هذين الأصلين ندب عباده في القرآن، فقال في الأصل الأول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

وقال في الأصل الثاني: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٥] ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [غافر: ٢١] ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الروم: ٤٢].

---

(١) ٦٦ طريق الهجرتين.

(٢) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٦/ ٥٠٨) وقال: وذؤيب ضعيف.

(٣) ١٨٦ مفتاح جـ١.

(١) وقال بعض السلف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وعد به من لا أصدق منه حديثًا، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (٢) [محمد: ٢٤] ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله، المعرض عن ذكره من العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خلق له لكفى بذلك عقوبة، وقد روى عبد العزيز بن أبي روَّاد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**» قيل: يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: «**تلاوة القرآن**» (٣) وقال بعض العارفين: إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عطل من حب الله والشوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يميته ويهلكه...

---

(١) ١٨٢ روضة المحبين.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن معاذ بن جبل (٤/ ١٤ رقم ٦٠٤٠) بينما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٩) والمزي في تهذيب الكمال (٨/ ١٧١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٢٠٠) وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٢١٥) كلهم عن خالد بن معدان. بيما قال إبراهيم بن محمد بن سبط ابن العجمي في الكشف الحثيث (صـ٩٧) في ترجمة الحسين بن أحمد الهروي الشماخي الحافظ قال: كذبه الحاكم وقد ذكر شيخنا العراقي في تخريج أحاديث الإحياء للغزالي قبيل كتاب رياضة النفس حديثاً: ما من عبد إلا وله أربع أعين.. ثم عزاه لمسند الفردوس، ثم ذكر أن في مسنده هذا الرجل، ثم قال: والآفة منه. انتهى. وقد ذكره الذهبي في ميزانه مطولاً وذكر كلام الحاكم وقول شيخنا: والآفة منه. إشارة إلى أنه وضعه، والله أعلم.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٣٥٢-٣٥٣ رقم ٢٠١٤) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٩٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/١٩٨ رقم ١١٧٨) وابن عدي في الكامل (١/ ٢٥٩) (٥/ ٢٨٣) والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٨٥) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٣٢): هذا حديث مشهور بعبد العزيز معروف برواية عبدالرحيم بن هارون الغساني عنه، وقد سرقه منه إبراهيم، فأما عبدالعزيز فقال ابن حبان: كان يحدث على التوهم والنسيان فسقط الاحتجاج به. وأما عبدالرحيم فقال الدارقطني: متروك الحديث وكان يكذب. وأما إبراهيم بن عدي كان يحدث بالمناكير، وعندي أنه يسرق الحديث.

(١) وقال خالد بن معدان: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما هو فيه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

(٢) ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه، التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان، وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك، لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر، وزادته عنده خيرًا، وكان عمر يقول في دعائه: «اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت»[٣] فالرب تعالى فعال لما يريد لا حجر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدورًا للرب، ولا يدخل تحت فعله، إذ لو كان مقدورًا له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه. والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرًا أو علم شيئًا فإنه لا يغيره بعد هذا، ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه.

والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلا، وجميع خلقه تحت

(١) ٤٢٤ روضة المحبين.

(٢) ٩٠ شفاء.

(٣) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٠٥، ١٢٠٦) من قول عمر بينما أخرجه أبو طاهر السلفي في معجم السفر (رقم ١٢٣٩) عن شقيق. وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٨١-١٨٢) ومشكل الحديث وبيانه (ص ٢٩٧).

حجره شرعا وقدرا، وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها.

والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة، وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له، ولكن لما ألف العلة وساكنها، ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالًّا، وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملاءمته لنفسه.

فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به، وآثر عليه الضلال مع تكرار تعريفه: منفعة هذا وخيره، ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه، وأن يقيه شر نفسه وفقه وهداه، بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال، وأنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك، ورغب إلى الله في فك ذلك عنه، وفعل مقدوره لكان هداه أقرب شيء إليه، ولكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك، وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل عقوبة وجزاء على الجرائم

والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم.

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته.

والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة، حين أمره بالإيمان أو بينه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك. والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختيارا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية، فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦، ٧] ومعلوم أن هذا ليس حكما يعم جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة.

كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك.

***

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٠ ﴾.

[(١)] من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ «منزلة الفراسة» قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين. ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متىٰ نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالىٰ في حق المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: علق معرفته إياهم بالنظر علىٰ المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم علىٰ شرط، بل أخبر به خبرًا مؤكدًا بالقسم، فقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ وهو تعريض الخطاب وفحوىٰ الكلام ومغزاه. واللحن ضربان: صواب وخطأ، فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة ومنه الحديث: «**ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض**»[(٢)].

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية، ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه وهو مما ... يشتهي السامعون يوزن وزنًا
منطق صائب وتلحن أحيا ... نًا وخير الحديث ما كان لحنًا[(٣)]

---

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٨٠) ومسلم (رقم ١٧١٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٨-٢٨٩) وشرح النووي (١٢/ ٤-٥).

(٣) هذان البيتان من وزن الخفيف ينسبان إلىٰ مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري كان من أشراف الكوفة ومن شعراء الغزل تولىٰ إمرة خوارزم وأصبهان للحجاج بعد ما تزوج أخته هند بنت أسماء، مات سنة ١٠٠هـ ذكر البيتين ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٣٨٠) وابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ٣٥٨) والخطيب البغدادي في تاريخه (١٢/ ٢١٤).

والثالث: فساد المنطق في الإعراب، وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطإ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾(1) [الحجر: ٧٥].

***

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(2)كما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره: فالعزة لأهل طاعته ومتابعته، قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

***

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٢٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٢ رقم ٣٢٥٤) وفي الكبير (٨/ ١٠٢ رقم ٧٤٩٧) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٢٠٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٨٧ رقم ٦٦٣) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٨) وفيض القدير (٢/ ٥٥٨).

(٢) ٣٥ زاد المعاد جـ١ طبعة مؤسسة الرسالة.

[1]...قد وقع الإخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوما غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم، فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق، فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا، وذلك قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خيرا منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده، فيجعلهم خيرًا من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان، فقال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال كثير من المفسرين: المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقا غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك، وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلًا منهم. قال المهدوي قومًا موافقين لهم في الخلق، مخالفين لهم في العمل. ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول. وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالًا بقدرته على إذهابهم، والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة محمد

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٢٢ التبيان.

سُورَةُ الفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ ﴾.

[(١)] ...ثم رجع إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله عليه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾ [الفتح: ١-٣]. فقال عمر: أوَ فتحٌ هُوَ يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال الصحابةُ: هنيئاً لكَ يا رَسُولَ اللهِ، فما لَنَا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤] الآية. ولما رجع إلى المَدِينة، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرَّجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيْفَةِ، فنزلوا يأكُلون مِن تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: واللهِ إنِّي لأرى سيفَكَ هذا جيداً، فاستلَّه الآخرُ، فقال: أَجَلْ واللهِ إنه لجيد، لقد جربتُ به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد، وفرَّ الآخرُ يعدو حتى بلغ المدينة، فدخل المسجدَ، فقال رسولُ الله ﷺ حين رآهُ: «لَقَدْ رَأى هذَا ذُعْرَاً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ، قال: قُتِلَ واللهِ صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبيَّ اللهِ؛ قد واللهِ أوفى الله ذِمَّتك، قد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال النبيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ

---

(١) ٣٠٨ الزاد جـ٢.

مِسْعَرُ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، فلما سمِعَ ذلك، عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتىٰ أتىٰ سِيفَ البَحرِ، وينفلتُ منهم أبو جندل بنُ سهيل، فلحق بأبى بصير، فلا يخرُجُ مِن قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتىٰ اجتمعت منهم عِصابة، فوالله ما يسمعُونَ بعيرٍ لقُريش خرجت إلىٰ الشام إلا اعترضُوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريشٌ إلىٰ النبىِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ الله والرحم لمَا أرسل إليهم، فمَن أتاه منهم، فهو آمن، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]، وكانت حميتُهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه نبي الله، ولم يُقروا بـ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وحالُوا بينهم وبين البيت[(١)].

قلتُ: في الصحيح: أن النبى ﷺ: «توضأ، ومجَّ فى بئر الحديبية من فمه، فجاشتْ بالماءِ»[(٢)] كذلك قال البراء بنُ عازب، وسلمةُ بنُ الأكوع فى الصحيحين.

وقال عروة: عن مروان بن الحكم، والمِسور بن مَخْرَمَة «أنه غرز فيها سهماً مِن كنانته، وهو فى الصحيحين أيضاً. وفى مغازى أبى الأسود عن عروة: توضأ فى الدَّلْوِ، ومضمض فاه، ثم مَجَّ فيه، وأمر أن يُصَبَّ فى البئر، ونزع سهماً من كِنانته، وألقاه فى البئر، ودعا الله تعالىٰ، ففارت بالماء حتىٰ جعلُوا يغترِفُونَ بأيديهم منها، وهم جلوس علىٰ شفيرها[(٣)]، فجمع بين الأمرين، وهذا أشبه والله أعلم.

وفى صحيح البخارى: عن جابر، قال: عَطِشَ الناسُ يومَ الحُديبية، ورسولُ الله ﷺ بين يديه رَكْوَة يتوضأ منها، إذ جَهَشَ الناسُ نحوه، فقال: «ما لكم»؟ قالوا: يا رسُولَ الله؛ ما عندنا ماء نشرب، ولا ما نتوضأ إلا ما بينَ يديكَ، فوضع يده فى الرَّكوة، فجعل

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٥-٦) والاستيعاب (٤/ ١٦١٣).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٠٧) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٤٢) وشرح النووي (١٢/ ١٧٥).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٧) (٦/ ٥٨٥).

الماءُ يفورُ من بين أصابعه أمثال العيون، فشربوا، وتوضؤوا، وكانوا خمسَ عشرة مائة(١)، وهذِهِ غيرُ قصة البئر.

وفى هذه الغزوة أصابهم ليلة مطر، فلما صلَّى النبى ﷺ الصُّبحَ، قال: «**أَتَدْرُونَ مَاذا قَالَ رَبُّكُم اللَّيْلَةَ**»؟ قالوا: اللهُ ورسُوله أعلم. قال: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بى وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، فَذلِكَ مُؤْمنٌ بى، كَافرٌ بالكَوْكَبِ، وأمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذَا وكَذَا، فَذلِكَ كَافرٌ بى مُؤْمنٌ بالكوكب**»(٢).

وجرى الصلحُ بين المسلمين وأهلِ مكة على وضعِ الحربِ عشرَ سنين، وأن يأمنَ الناسُ بعضهم من بعض، وأن يَرجعَ عنهم عامَهُ ذلك، حتى إذا كان العامُ المقبل، قَدِمهَا، وخَلّوْا بينَه وبين مكَّة، فأقام بها ثلاثاً، وأن لا يدخُلَهَا إلا بسلاح الراكب، والسيوف فى القِرَب، وأنَّ مَن أتانا مِن أصحابكَ لم نرده عليك، ومَن أتاكَ من أصحابنا رددتَه علينا، وأنَّ بيننا وبينَك عَيْبَةً مكفوفةً، وأنه لا إسْلالَ ولا إغْلالَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ؛ نُعطيهم هذا؟ فقال: «**مَنْ أتاهم منا فأبعَدَهُ اللهُ، ومَن أتانا مِنهم فرددناه إليهم، جَعَلَ اللهُ له فَرَجاً ومخرجاً**»(٣).

وفى قِصة الحُديبية، أنزل اللهُ ﷻ فِديةَ الأذى لمن حلق رأسَه بالصيام، أو الصَّدقة، أو النُّسك فى شأن كعب بن عُجرة.

وفيها دعا رسولُ اللهِ ﷺ للمُحَلِّقِينَ بالمَغْفِرَة ثلاثاً، ولِلمُقَصِّرِينَ مَرَّةً.

وفيها نحرُوا البَدَنَةَ عن سَبْعَةٍ، والبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ.

وفيها أهدى رسولُ اللهِ ﷺ فى جملة هَدْيِهِ جملاً كان لأبى جهل، كان فى أنفه بُرَةٌ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٤٦) ومسلم (رقم ٧١) وانظر: شرح النووي (٢/ ٥٩-٦٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٢١-٢٢٢ رقم ١٨٥٨٩) وأبو داود رقم ٢٧٦٦) وأحمد (٤/ ٣٢٥) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٩٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤٣-٣٤٤) ونيل الأوطار (٨/ ١٨٨، ٢٠٤).

فِضَّةٍ، لِيغيظَ بِهِ المشركين.

وفيها أُنزِلَتْ سورةُ الفتح، ودخلت خُزاعة فى عَقْدِ رسولِ اللهِ ﷺ وعهده، ودخلَتْ بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم، وكان فى الشرط أن مَن شاء أن يدخل فى عقده ﷺ دخل، ومَن شاء أن يدخل فى عقد قريش دخل.

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمناتٌ، مِنهن أُمُّ كُلثُوم بنتُ عقبة بن أبى معيط، فجاء أهلُهَا يسألونها رسولَ اللهِ ﷺ بالشرطِ الذى كانَ بينهم، فلم يَرْجِعْها إليهم، ونهاهُ اللهُ ﷻ عن ذلك، فقيل: هذا نسخ للشرط فى النساء.

وقيل: تخصيص للسُّنَّة بالقرآن، وهو عزيزٌ جداً. وقيل: لم يقع الشرطُ إلا على الرجال خاصة، وأراد المشركون أن يُعَمِّمُوهُ فى الصنفين، فأبى الله ذلك.

بعض ما فى قصة الحُديبية مِن الفوائِدِ الفِقهية فمنها: اعتمارُ النبى ﷺ فى أشهر الحجِّ، فإنه خرج إليها فى ذى القعدة.

ومنها: أن الإحرامَ بالعُمرة من الميقات أفضلُ، كما أن الإحرامَ بالحجِّ كذلك، فإنه أحرم بهما مِن ذى الحُليفة، وبينها وبينَ المدينة ميلٌ أو نحوُه.

وأما حديث: «**مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأَخَّرَ**». وفي لفظ: «**كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ**»(١) فحديث لا يثبُت، وقد اضطرب فيه إسناداً ومتناً اضطراباً شديداً.

ومنها: أن سَوْقَ الهَدي مسنونٌ فى العُمرة المفرَدَة، كما هو مسنون فى القِران.

ومنها: أن إشْعَارَ الهَدي سُنَّة لا مُثلَةٌ منهي عنها.

ومنها: استحبابُ مُغايظة أعداءِ اللهِ، فإن النبي ﷺ أهدى في جُملة هَدْيه جملاً لأبى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٠٠١، ٣٠٠٢) وابن أبي شيبة (٣/ ١٢٥ رقم ١٢٦٩٢) وأبو يعلى (١٢/ ٣٢٧ رقم ٦٩٠٠) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤١٦ رقم ١٠٠٦) وانظر: عمدة القاري (٩/ ١٤١) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٢٤) وعون المعبود (٥/ ١١٥) وفيض القدير (٦/ ٩١) والمغني (٣/ ١١٤) وسبل السلام (٢/ ١٩٠).

جهل في أَنْفِهِ بُرَةٌ مِن فضةٍ يَغيظُ به المشركين، وقد قال تعالى في صفة النبي ﷺ وأصحابه: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ومنها: أن أميرَ الجيشِ ينبغي له أن يبعثَ العُيونَ أمامه نحوَ العدو.

ومنها: أن الاستعانَةَ بالمُشرِكِ المأمونِ في الجهاد جائزةٌ عند الحاجة، لأن عيينة الخزاعي كَانَ كافراً إذ ذاك، وفيه مِن المصلحة أنه أقربُ إلى اختلاطه بالعدوِّ، وأخذه أخبارهم.

ومنها: استحبابُ مشورةِ الإمام رعيَّته وجيشه، استخراجاً لوجه الرأي، واستطابةً لنفوسهم، وأمناً لِعَتْبِهِم، وتعرفاً لمصلحةٍ يختصُّ بعلمها بعضُهم دون بعض، وامتثالاً لأمر الربِّ في قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد مدَحَ ﷻ عباده بقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ومنها: جواز سبي ذراري المشركينَ إذا انفردُوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: ردُّ الكَلام الباطِل ولو نُسِبَ إلى غير مُكَلَّفٍ، فإنهم لما قالوا: خلأتِ القَصْوَاءُ، يعني حَرَنَتْ وألَحَّتْ، فلَمْ تَسِرْ، والخِلاء في الإبل بكسر الخاء والمدِّ نظير الحِران في الخيل، فلما نسبُوا إلى الناقة ما ليس من خُلُقِهَا وطبعها، ردَّهُ عليهم، وقال: «ما خَلأَتْ ومَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُق»(١)، ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها، وأن الذي حَبَسَ الفيلَ عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها، وما جرى بعده.

ومنها: أن تسميةَ ما يُلابسه الرجلُ مِن مراكبه ونحوها سُنَّة.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٧٣) وعمدة القاري (١٤/ ٢-٣).

ومنها: جوازُ الحَلِف، بل استحبابُه على الخبر الديني الذي يريد تأكيده، وقد حُفِظَ عن النبي ﷺ الحَلِف في أكثر من ثَمَانِينَ موضعاً، وأمره الله تعالى بالحَلِفِ على تصدِيقِ ما أخبر به في ثلاثة مواضِعَ: في سورة يونس (٥٣) وسبأ (٣) والتغابن (٧).

ومنها: أن المُشْرِكين، وأهلَ البِدَع والفجور، والبُغَاة والظَّلَمة، إذا طَلَبُوا أمراً يُعَظِّمُونَ فيه حُرمةً مِن حُرُماتِ الله تعالى، أُجيبُوا إليه وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن مُنِعوا غيره، فيُعاوَنون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبَغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك، فكُلُّ مَن التمس المعاونةَ على محبوب لله تعالى مُرْضٍ له، أُجيبَ إلى ذلك كائِناً مَن كان، ما لم يترتَّب على إعانته على ذلك المحبوبِ مبغوضٌ لله أعظمُ منه، وهذا مِن أدقِّ المواضع وأصعبِهَا، وأشقِّهَا على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة مَن ضاق، وقال عمر ما قال، حتَّى عَمِلَ له أعمالاً بعده، والصِّدِّيقُ تلقاه بالرضا والتسليم، حتى كان قلبُه فيه على قلبِ رسولِ الله ﷺ، وأجاب عُمَرَ عما سأل عنه من ذلك بعَيْن جوابِ رسول الله ﷺ، وذلك يدل على أن الصِّدِّيق ﷺ أفضلُ الصحابة وأكملُهم، وأعرفُهم بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأعلمُهم بدينه، وأقومُهم بمحابِّه، وأشدُّهم موافقةً له، ولذلك لم يسأل عمر عما عَرَضَ له إلا رسولَ الله ﷺ وصِدِّيقَه خاصة دونَ سائر أصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ عَدَلَ ذاتَ اليمين إلى الحُديبية. قال الشافعي: بعضُهَا مِن الحِل، وبعضُها مِن الحَرَم. وروى الإمام أحمد في هذه القصة أن النبي ﷺ كان يُصلِّي في الحرم، وهو مضطرب في الحِل، وفي هذا كالدّلالة على أن مضاعفةَ الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخصُّ بها المسجد الذي هو مكانُ الطواف، وأن قوله: «صَلاَةٌ في المَسْجِدِ الحَرَام أَفْضَلُ مِنْ مِائة صَلاةٍ في مَسْجِدي»[1]، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٠) ومسلم (رقم ١٣٩٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٦-٦٧) وشرح النووي (٩/ ١٦٣-١٦٤).

ﵟٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَﵞ [التوبة: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﵟسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِﵞ [الإسراء: ١]، وكان الإسراء مِن بيت أُم هانئ.

ومنها: أن مَن نزل قريباً مِن مكة، فإِنَّهُ ينبغي له أن ينزل في الحِلِّ، ويصلىٰ في الحَرم، وكذلك كان ابنُ عمر يصنعُ.

ومنها: جوازُ ابتداءِ الإمام بطلب صلح العَدُوِّ إذا رأىٰ المصلحةَ للمسلمين فيه، ولا يَتوقَّفُ ذلكَ علىٰ أن يكون ابتداءُ الطلب منهم.

وفي قِيام المغيرة بن شعبة علىٰ رأس رسول الله ﷺ بالسيف، ولم يكن عادته أن يُقام علىٰ رأسه، وهو قاعد، سُنَّةٌ يُقتدىٰ بها عند قدومِ رسل العدو من إظهار العزِّ والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنفوس، وهذه هىٰ العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين علىٰ الكافرين، وقدوم رسل الكافرين علىٰ المؤمنين، وليس هذا من هذا النوع الذي ذمَّه النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّار»[(١)]، كما أن الفخرَ والخُيلاء فىٰ الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره، وفىٰ بعث البُدْنِ فىٰ وجه الرسول الآخر دليل علىٰ استحباب إظهارِ شعائر الإسلام لرسل الكفار.

وفىٰ قول النبىٰ ﷺ للمغيرة: «أَمَّا الإسْلاَمُ فَأَقْبلُ، وَأَمَّا المَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فىٰ شىْء»[(٢)]، دليل علىٰ أن مال المشرك المعاهَد معصوم، وأنه لا يملكُ، بل يُرد عليه، فإن المغيرةَ كان قد صحبهم علىٰ الأمان، ثم غدر بهم، وأخذ أموالهم، فلم يتعرَّض النبي ﷺ لأموالهم، ولا ذبَّ عنها، ولا ضمنها لهم، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٧٥٥) وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤ رقم ٢٥٥٨٢) وهناد في الزهد (٢/ ٤٢٧ رقم ٨٣٧) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٨٢ رقم ٤٢٠٨) وفي الكبير (١٩/ ٣٥١ رقم ٨١٩) وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٩ رقم ٤١٠٨) وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (١/ ٢٢٢) (١١/ ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤١).

وفي قول الصِّدِّيق لعروة: «امصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ»[١]، دليلٌ على جواز التصريح باسم العَوْرة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي ﷺ أن يُصرَّح لمن ادَّعى دعوى الجاهلية بِهَنِ أبيه، ويقال له: «اعضُضْ أيْرَ أبيك[٢]، ولا يُكْنَى له»، فلكل مقام مقال.

ومنها: احتمالُ قِلَّةِ أدبِ رسولِ الكُفار، وجهلِه وجفوته، ولا يقابَل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة، ولم يُقابل النبي ﷺ عُروةَ على أخذهِ بلحيته وقتَ خطابه، وإن كانت تلك عادَة العرب، لكن الوقارَ والتعظيمَ خلافُ ذلك.

وكذلك لم يُقابل رسولُ الله ﷺ رَسولَى مسيلمةَ حين قالا: نشهدُ أنه رسول الله، وقال: «لَوْلا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمَا»[٣]. ومنها: طهارة النُّخَامَةِ، سواء أكانت من رأسٍ أو صدر.

ومنها: طهارةُ الماءِ المستعمل. ومنها: استحبابُ التفاؤُل، وأنَّهُ ليس مِن الطِّيَرةِ المكْرُوهَة، لقوله لما جاء سهيل: سَهُلَ أَمْرُكُم[٤].

ومنها: أن المشهودَ عليه إذا عُرِفَ باسمه واسمِ أبيه: أغنى ذلك عن ذِكر الجَدِّ، لأن النبيَّ ﷺ لم يزد على محمد بن عبد الله، وقَنِعَ مِن سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة، واشتراطُ ذِكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العَدَّاءُ بْنُ خالد منه ﷺ الغلامَ فكتب له:

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٣) ونيل الأوطار (٨/ ١٨٥، ١٩٧).

(٢) انظر: لسان العرب (١٥/ ٥٣) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٩٣) والقاموس المحيط (٨٣٥-٨٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٧٦١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢١١ رقم ١٨٥٥٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣١٨) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٤ رقم ١٣٠٩) وابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ١٤٧ رقم ١١٢٢) والحاكم (٢/ ١٥٥ رقم ٢٦٣٢) وصححه.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٤، ١٢).

«هذا مَا اشْتَرَىٰ العَدَّاءُ بْنُ خَالِدِ بن هَوْذَةَ»[1] فذكر جده، فهو زيادةُ بيان تَدُلُّ علىٰ أنه جائز لا بأس به، ولا تَدُلُّ علىٰ اشتراطه، ولما لم يكُنْ فى الشهرة بحيث يُكتفىٰ باسمه واسم أبيه ذكر جده، فيُشترط ذِكْرُ الجد عند الاشتراك فى الاسم واسم الأب، وعند عدمِ الاشتراك، واكتُفىٰ بذكر الاسم واسمِ الأب.. والله أعلم.

ومنها: أن مصالحةَ المشركين ببعض ما فيه ضَيْمٌ على المُسلمينَ جائزةٌ للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفعُ أعلىٰ المفسدتينِ باحتمالِ أدناهما.

ومنها: أن مَن حَلَفَ علىٰ فِعْل شىء، أو نَذَره، أو وَعَدَ غيرَه به ولم يُعيِّن وقتاً، لا بلفظه، ولا بنيته، لم يكن علىٰ الفور، بل علىٰ التراخى.

ومنها: أن الحلاقَ نُسُكٌ، وأنه أفضلُ من التقصير، وأنه نُسُكٌ فى العُمرةِ، كما هو نُسُكٌ فى الحجِّ، وأنه نُسُكٌ فى عُمرة المحصر، كما هو نُسُك فى عُمرة غيره.

ومنها: أن المُحْصَرَ ينحرُ هَدْيَه حيث أُحْصِرَ من الحِلِّ أو الحَرَم، وأنه لا يجب عليه أن يُواعِدَ مَن ينحرُهُ فى الحرم إذا لم يَصِل إليه، وأنه لا يتحلل حتىٰ يصل إلىٰ محله، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضِعَ الذى نحر فيه الهَدْي، كان من الحِلِّ لا من الحرم، لأن الحَرَمَ كُلَّهُ محلُّ الهَدْي.

ومنها: أن المُحْصَرَ لا يجب عليه القضاءُ، لأنه ﷺ أمرَهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحداً منهم بالقضاء، والعُمْرةُ من العام القابل لم تكن واجبةً، ولا قضاءَ عن عُمرة الإحصار، فإنهم كانُوا فى عُمرة الإحصار ألفاً وأربعمائة، وكانوا فى عُمرة القضيةِ دُون ذلك، وإنما سُمِّيت عُمرةَ القضية والقضاء، لأنها العُمرة التى قاضاهم عليها،

(١) أخرجه ابن الجارود في المنتقى (رقم ١٠٢٨) وابن ماجه (رقم ٢٢٥١) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٣٢٧ رقم ١٠٥٦٣) والترمذي (رقم ١٢١٦) والدارقطني (٣/ ٧٧ رقم ٢٨٩) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ١٦٩ رقم ١٥٠١) والطبراني في الكبير (١٨/ ١٢ رقم ١٥) وحسنه الترمذي، وكذا حسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣٥٠).

فأُضيفت العُمرة إلىٰ مصدر فعله.

ومنها: أن الأمر المطلقَ علىٰ الفور وإلا لم يَغْضَبْ لِتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بأَنَّهُم كانوا يَرْجُون النسخ، فأَخَّروا متأوِّلين لذلك، وهذا الاعتذارُ أولىٰ أن يُعتذر عنه، وهو باطل، فإنه ﷺ لو فَهِمَ منهم ذلك، لم يشتَدَّ غضبُه عليهم لتأخير أمره، ويقول: «مَا لي لا أَغْضَبُ، وأَنَا آمُرُ بالأَمْر فلا أُتَّبعُ»[1]، وإنما كان تأخيرُهم مِن السعيِ المغفور لا المشكور، وقد رضيَ الله عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنَّة.

ومنها: أن الأصل مشارَكَةُ أُمَّتِه له في الأحكام، إلا ما خصَّه الدليلُ، ولذلك قالت أُمُّ سلمة: «اخرُجْ ولا تُكَلِّمْ أحداً حتىٰ تَحْلِقَ رأسك وتنحر هَدْيك»[2]، وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداءً بفعله، ولم يمتثِلُوه حين أمرهم به؟

قيل: هذا هو السببُ الذي لأجله ظنَّ مَن ظنَّ أنهم أخَّروا الامتثال طمعاً في النسخ، فلما فعلَ النبيُّ ﷺ ذلك، عَلِمُوا حينئذ أنه حكم مُسْتَقِرٌ غيرُ منسوخ، وقد تقدم فسادُ هذا الظن، ولكن لما تغيَّظَ عليهم، وخرج ولم يُكلمهم، وأراهُم أنه بادر إلىٰ امتثال ما أمر به، وأنه لم يُؤَخِّر كتأخيرهم، وأن اتباعهم له وطاعتَهم تُوجِبُ اقتداءهم به، بادرُوا حينئذ إلىٰ الاقتداء به وامتثالِ أمره.

ومنها: جوازُ صُلحِ الكُفَّارِ علىٰ ردِّ مَن جاء منهم إلىٰ المسلمين، وألا يُرد مَنْ ذهب من المسلمين إليهم، هذا في غير النساء، وأما النساء، فلا يجوزُ اشتراطُ رَدِّهن إلىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٥٦ رقم ١٠٠١٧) وابن ماجه (رقم ٢٩٨٢) قال في مصباح الزجاجة (٣/ ١٩٩): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن فيه أبا إسحاق واسمه عمرو بن عبدالله اختلط بآخره ولم أدر حال أبي بكر بن عباس هل روىٰ عنه قبل الاختلاط أو بعده فيوقف حديثه حتىٰ يتبين حاله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٥).

الكفار، وهذا موضعُ النسخ خاصة فى هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيلَ إلىٰ دعوىٰ النسخ فى غيره بغير موجب.

ومنها: أن خُروجَ البُضع من ملك الزوج متقوَّم، ولذلك أوجبَ اللهُ سبحانه ردَّ المهر علىٰ مَن هاجرت امرأتُه، وحِيل بينَه وبينها، وعلىٰ مَن ارتدَّت امرأتُه مِن المسلمين إذا استحق الكفارُ عليهم ردَّ مهورِ مَن هاجر إليهم مِن أزواجهم، وأخبر أن ذلك حُكمُه الذى حكم به بينهم، ثم لم ينسخه شىءٌ، وفى إيجابِه ردَّ ما أعطى الأزواجُ من ذلك دليلٌ علىٰ تقوُّمه بالمسمَّىٰ، لا بمهر المثل.

ومنها: أن ردَّ مَن جاء من الكفار إلىٰ الإمام لا يتناول مَن خرج منهم مسلماً إلىٰ غيرِ بلدِ الإمام، وأنه إذا جاء إلىٰ بلد الإمام، لا يجبُ عليه ردُّه بدون الطلب، فإن النبى ﷺ لم يَرُدَّ أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه علىٰ الرجوع، ولكن لما جاؤوا فى طلبه، مكَّنهم من أخذه ولم يكرهْهُ علىٰ الرجوع.

ومنها: أن المعاهدين إذا تسلَّموه وتمكَّنُوا منه فقتل أحداً منهم لم يضمنه بديةٍ ولا قَوَدٍ، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه فى ذلك حُكمَ قتله لهم فى ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم، فإن أبا بصيرٍ قتل أحد الرجلين المعاهَدَيْنِ بذى الحُلَيْفَةِ، وهى مِن حُكم المدينة، ولكن كان قد تسلَّموه، وفُصِلَ عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهَدِينَ إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم، وغَنِمَتْ أموالهم، ولم يَتَحَيَّزُوا إلىٰ الإمام، لم يجب علىٰ الإمام دفعُهم عنهم، ومنعُهم منهم، وسواءٌ دخلوا فى عَقدِ الإمام وعهده ودينه، أو لم يدخلوا، والعهدُ الذى كان بين النبىِّ ﷺ وبين المشركين، لم يكن عهداً بين أبى بصير وأصحابه وبينهم.

وعلىٰ هذا فإذا كان بين بعضِ ملوكِ المسلمين وبعضِ أهل الذِّمةِ من النصارىٰ وغيرِهم عهد، جاز لملك آخر مِن ملوك المسلمين أن يَغْزُوَهُم، ويغنَم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفتىٰ به شيخُ الإسلام تقي الدين ابن تيمية - قدس الله

روحه - نصارى مَلَطْيَةَ وسبيهم، مستدلاً بقصة أبي بصير مع المشركين.

في الإشارة إلى بعضِ الحِكمِ التي تضمَّنتها هذه الهدنة.

وهي أكبرُ وأجَلُّ مِن أن يُحيط بها إلا اللهُ الذي أحكم أسبابَهَا، فوقعت الغايةُ على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمدُه.

فمنها: أنها كانت مُقَدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ اللهُ بهِ رسولَه وجندَه، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهُدنة باباً له، ومفتاحاً، ومؤذِناً بين يديه، وهذه عادةُ الله سبحانه في الأُمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً، أن يُوطِّئَ لها بين يديها مقدمات وتوطئات، تُؤذِنُ بها، وتدُلُّ عليها.

ومنها: أن هذه الهُدنة كانت من أعظم الفُتوح، فإن الناسَ أمِنَ بعضُهم بعضاً، واختلطَ المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القُرآن، وناظرُوهم على الإسلام جهرةً آمنين، وظهر مَن كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مُدة الهُدنة مَن شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فَتْحاً مُّبِيناً. قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاءً عظيماً، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحُديبية.

وحقيقة الأمر: أن الفتح في اللُّغة فتحُ المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مُغلقاً حتى فتحه الله، وكان مِن أسباب فتحه صدُّ رسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيماً وهضماً للمسلمين، وفي الباطن عزًّا وفتحاً ونصراً، وكان رسولُ الله ﷺ ينظر إلى ما وراءَهُ مِن الفتح العظيم، والعزِّ، والنصرِ من وراء ستر رقيق، وكان يُعطي المشركين كلَّ ما سألوه مِن الشروط، التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب: وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ:

وَرُبَّمَا كَانَ مَكْرُوهُ النُّفُوسِ إلى ... مَحْبوبِهَا سَبَبَاً مَا مِثْلُه سَبَبُ[1]

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط وينسب إلى البحتري: هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي الشاعر الكبير، كان يقال لشعره: سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي وأبو تمام =

فدخل على تلك الشروط دخولَ واثِق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقِبَةَ له، وأن تلك الشروطَ واحتمالها هو عَيْنُ النصرة، وهو مِن أكبر الجند الذى أقامه المشترطون، ونصبُوه لحربهم، وهم لا يشعرون، فذلُّوا مِن حيث طلبوا العز، وقُهِرُوا من حيثُ أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعزَّ رسولُ الله ﷺ وعساكِرُ الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملُوا الضَّيْم له وفيهِ، فدار الدَّورُ، وانعكس الأمرُ، وانقلب العِزُّ بالباطل ذُلاً بحقٍّ، وانقلبت الكَسرة لله عزاً باللهِ، وظهرت حِكمة اللهِ وآياتُه، وتصديقُ وعده، ونصرةُ رسوله على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها التى لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سبَّبه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعانِ، والانقيادِ على ما أحبُّوا وكرهوا، وما حصل لهم فى ذلك من الرضى بقضاء الله، وتصديقِ موعوده، وانتظارِ ما وُعِدُوا به، وشهودِ مِنَّة الله ونِعْمتهِ عليهم بالسَّكِينةِ التى أنزلها فى قُلوبهم، أحوج ما كانوا إليها فى تلك الحال التى تَزَعْزَعُ لها الجبالُ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبُهم، وقويت به نفُوسُهم، وازدادوا به إيماناً.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذى حكم به لِرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره مِن المغفرة لرسوله ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر، ولإتمام نِعمتهِ عليه،ولهدايته الصِّراطَ المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به مع ما فيهِ من الضيم، وإعطاءِ ما سألوه، كان من الأسباب التى نال بها الرسولُ وأصحابُه ذلك، ولهذا ذكره الله سبحانه جَزَاءً وغاية، وإنما يكون ذلك على فِعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى، وفتحه.

وتأمل كيف وصفَ سبحانه النصرَ بأنه عزيزٌ فى هذا الموطن، ثم ذكر إنزالَ السكينة

والبحتري قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري توفي سنة ٢٨٤هـ.

فى قلوبِ المؤمنين فى هذا الموطنِ الذى اضطربت فيهِ القلوبُ، وقَلِقَتْ أشدَّ القلق، فهى أحوجُ ما كانت إلى السكينةِ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم.

ثم ذكر سُبحانه بَيْعتَهم لِرسوله، وأكَّدها بكونها بَيْعةً له سبحانه، وأن يَده تعالى كانت فوقَ أيديهم إذ كانت يدُ رسول الله ﷺ كذلك، وهو رسولُه ونبيُّه، فالعقدُ معه عقدٌ مع مُرْسِلِهِ، وبَيْعته بيعته، فمن بايعه، فكأنما بايع الله، ويدُ الله فوقَ يده، وإذا كان الحجرُ الأسودُ يمينَ الله فى الأرض. فمَن صافحه وقبَّله، فكأنما صافح الله، وقبَّل يمينه، فيدُ رسول الله ﷺ أولى بهذا مِن الحَجَر الأسود.

ثم أخبر أن ناكِثَ هذه البيعة إنما يعود نكثُه على نفسه، وأن للمُوَفِّي بها أجراً عظيماً، فَكُلُّ مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بَيْعة على الإسلام وحقوقه، فناكِث ومُوفٍ.

ثم ذكرَ حالَ مَن تخلَّفَ عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظَّنِّ باللهِ: أَنَّهُ يخذُل رسولَه وأولياءَه، وجندَه، ويُظْفِرُ بهم عدوَّهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم أبدًا، وذلك مِن جهلهم بالله وأسمائِهِ وصِفاتِه، وما يليق به، وجهلهم برسوله، وما هُوَ أهل أن يُعامِلَه به ربُّه ومولاه.

ثم أخبر سبحانه عن رضائه عن المؤمنين بدخولهم تحت البَيْعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما فى قلوبهم حينئذ مِن الصِّدق والوفاء، وكمال الانقياد، والطاعة، وإيثار الله ورسولِهِ على ما سواهُ، فأنزل الله السكينةَ والطُّمَأْنينة، والرِّضى فى قلوبهم، وأثابهم على الرِّضى بحُكمه، والصبرِ لأمره فتحاً قريباً، ومغانِمَ كثيرة يأخذونها، وكان أوَّلُ الفتح والمغانم فتحَ خَيْبَرَ، ومغانمها، ثم استمرت الفتوحُ والمغانمُ إلى انقضاء الدهر. ووعدهم سبحانه مغانِمَ كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عجَّل لهم هذه الغنيمة، وفيها قولان:

أحدهما: أنه الصلحُ الذى جرى بينهم وبين عدوهم.

والثانى: أنها فتحُ خيبر وغنائمُها.

ثم قال: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ [الفتح: ٢٠]، فقيل: أيدىٰ أهلِ مكة أن يقاتلوهم، وقيل: أيدىٰ اليهود حين همُّوا بأن يغتالُوا مَنْ بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها، وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسَد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٠]. قيل: هذه الفعلة التى فعلها بكم، وهى كفُّ أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنَّهُم حينئذٍ كان أهل مكة ومَن حولها، وأهلُ خيبر ومَنْ حولها، وأسَدٌ وغَطَفَان، وجمهورُ قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينَهم كالشَّامَةِ، فلم يَصِلُوا إليهم بسوء، فمِن آياتِ الله سبحانه كفُّ أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم، وشدةِ عداوتهم، وتولي حراستهم، وحفظهم فى مشهدهم ومغيبِهم.

وقيل: هى فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين، وعلامة علىٰ ما بعدها من الفتوح، فإن الله سبحانه وعدهم مغانِم كثيرة، وفتوحاً عظيمة، فعجَّل لهم فتحَ خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاءً لِصبرهم ورضَاهم يومَ الحديبية وشكراناً، ولهذا خصَّ بها وبغنائمها مَنْ شهد الحديبية.

ثم قال: ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٠]، فجمع لهم إلىٰ النصرِ والظَّفَرِ والغنائم الهداية، فجعلهم مهديِّين منصُورين غانمين، ثم وعدهم مغانِمَ كثيرة وفُتوحاً أُخرىٰ، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هى مكَّةُ، وقيل: هى فارِس والروم، وقيل: الفتوحُ التى بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها. ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءَه، لولَّىٰ الكفارُ الأدبارَ غيرَ منصورين، وأن هذه سُنَّته فى المكذبين من قبلَهم، ولا تبديلَ لسُنَّته.

فإن قيل: فقد قاتلُوهم يوم أُحُد، وانتصروا عليهم، ولم يولُّوا الأدبار؟

قيل: هذا وعد معلَّق بشرطٍ، مذكور فى غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوىٰ، وفات هذا الشرط يومَ أُحُد بِفَشَلِهم المنافي للصبر، وتنازعهم، وعصيانهم المنافي

للتقوىٰ، فصرفهم عن عدوهم، ولم يحصُل الوعدُ لانتفاء شرطه.

ثم ذكر سبحانه أنه هو الذىٰ كفَّ أيدي بعضِهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم، لما لَه فى ذلك من الحِكم البالغة التى منها: أنه كان فيهم رجالٌ ونساء قد آمنوا، وهم يكتُمون إيمانَهم، لم يعلمْ بهم المسلمون، فلو سلَّطكم عليهم، لأصبتم أُولئك بمعرَّة الجيش، وكان يُصيبكم منهم معرَّةُ العُدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به، وذكر سبحانه حصول المعرَّةِ بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفِّين بهم، لأنها موجبُ المعرَّة الواقعة منهم بهم، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميَّزوا منهم، لعذَّب أعداءه عذاباً أليماً فى الدنيا، إما بالقتلِ والأسر، وإما بغيره، ولكن دفع عنهم هذا العذَابَ لوجود هؤلاء المؤمنين بَيْنَ أَظهرهم، كما كان يدفعُ عنهم عذابَ الاستئصال، ورسولُه بين أظهرهم.

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفارُ فى قلوبهم مِن حَمِية الجاهليةِ التى مصدرها الجهلُ والظُّلم، التى لأجلها صدُّوا رسولَه وعِبادَه عن بيته، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يُقِرُّوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه، وتيقنِهم صحةَ رسالته بالبراهين التى شاهدوها، وسمعوا بها فى مدة عشرين سنة، وأضاف هذَا الجَعْلَ إليهم، وإن كان بقضائه وقدره، كما يُضاف إليهم سائرُ أفعالهم التى هى بقُدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل فى قلبِ رسوله وأوليائه مِن السكينة ما هو مقابل لما فى قلوب أعدائه مِن حَمِيَّة الجاهلية، فكانت السكينةُ حظَّ رسوله وحِزبه، وحَميةُ الجاهلية حظَّ المشركين وجندهم، ثم ألزم عِبادَه المؤمنين كلمة التقوىٰ، وهى جِنس يَعُمُّ كُلَّ كلمةٍ يُتقى الله بها، وأعلى أنواعها كلمةُ الإخلاص، وقد فُسِّرَتْ ببسم الله الرحمن الرحيم، وهى الكلمةُ التى أبت قريش أن تلتزِمها، فألزمها اللهُ أولياءَهُ وحزبه، وإنما حَرَمَهَا أعداءَهُ صيانة لها عن غير كفئها، وألزمها مَن هو أحقُّ بهَا وأهلها، فوضعها فى موضعها، ولم يُضيعها بوضعها فى غير أهلها، وهو العليم بمحالِّ تخصيصه ومواضعه.

ثم أخبر سبحانه أنه صدَقَ رسُولَه رؤياه في دخولهم المسجدَ آمنين، وأنه سيكون ولا بُدَّ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العامِ، والله سبحانه عَلِمَ مِن مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتُم استعجالَ ذلك، والربُّ تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلمُوه، فقدَّم بين يدي ذلك فتحاً قريباً، توطئة له وتمهيداً.

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظهره على الدِّين كُلِّه، فقد تكفَّل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهلِ الأرض، ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبِشارة لهم وتثبيتٌ، وأن يكونوا على ثقة مِن هذا الوعد الذي لا بُدَّ أن ينجزه، فلا تظنُّوا أن ما وقع من الإغماض والقهرِ يومَ الحُديبية نُصرة لعدوه، ولا تخلياً عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحقِّ، ووعده أن يُظهِرَه على كل دِينٍ سواه؟

ثم ذكر سبحانه رسولَه وحزبَه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتِهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظمُ البراهين على صدق مَن جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلِّبون طالبُو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هَدْيَهم وسيرتَهم، وعدلهم وعلمهم، ورحمَتهم وزهدَهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صَحِبُوا المسيحَ بأفضلَ مِن هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرفَ بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضةُ تصفِهُم بضد ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

[(١)]الإشارة إلى ما في الغزوة[(٢)] من الفقه واللَّطائف: كان صلحُ الحديبية مقدِّمةً

(١) ٤٠١ الزاد جـ٢.
(٢) أي غزوة الفتح، سرد المؤلف رحمه الله هذه الغزوة في عدة صحائف فمن أرادها فليراجعها. (ج).

وتوطئة بينَ يدي هذا الفتح العظيم، أَمِنَ الناسُ به، وكلَّم بعضُهم بعضاً وتناظروا في الإسلام، وتمكن مَن اختفىٰ مِن المسلمين بمكة من إظهار دينه، والدعوةِ إليه، والمناظرةِ عليه، ودخل بسببه بَشَرٌ كثيرٌ في الإسلام، ولهذا سمَّاه الله فتحاً في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، نزلت في شأن الحُديبية، فقال عمر: يا رسول الله؛ أَوَ فتحٌ هو؟ قال: «نعم». وأعاد ﷺ ذكر كونه فتحاً، فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وهذا شأنه سبحانه أن يُقدِّم بين يدي الأُمور العظيمة مقدِّماتٍ تكونُ كالمدخل إليها، المنبئة عنها، كما قدَّم بين يدي قصة المسيح وخلقه مِن غير أب، قِصة زكريا، وخلقِ الولد له مع كونه كبيراً لا يُولد لمثله.

وكما قدَّم بين يدي نسخ القِبْلة قصةَ البيت وبناءه وتعظيمه، والتنويه بِه، وذِكْر بانيه، وتعظِيمِهِ، ومدحه.

ووطأ قبل ذلك كُلِّه بذكر النسخ، وحكمته المقتضية له، وقُدرته الشاملة له.

وهكذا ما قدَّم بين يدي مبعث رسوله ﷺ، من قصة الفيل، وبِشارات الكُهَّان به، وغير ذلك، وكذلك الرُّؤيا الصالحة لرسوله ﷺ كانت مقدِّمةً بين يدي الوحي في اليقظة.

وكذلك الهِجرة كانت مقدِّمةً بين يدي الأمر بالجهاد.

ومَن تأمل أسرار الشرع والقدر، رأىٰ من ذلك ما تَبْهَرُ حِكمتُه الألبابَ.

وفيها: أن أهل العهد إذا حاربُوا مَن هم في ذمة الإمام وجواره وعهده، صارُوا حرباً له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهدٌ، فله أن يُبَيِّتَهم في ديارهم، ولا يحتاجُ أن يُعلِمَهُمْ علىٰ سواء، وإنما يكون الإعلامُ إذا خاف منهم الخيانَة، فإذا تحقَّقها، صاروا نابذين لعهده.

وفيها: انتقاضُ عهد جميعهم بذلك، رِدْئهم ومُباشِرِيهم إذا رضُوا بذلك، وأقرُّوا

عليه ولم يُنكروه، فإن الذين أعانُوا بني بكر مِن قُريش، بعضُهم لم يُقاتِلُوا كُلُّهم معهم، ومع هذا فقد غزاهم رسولُ الله ﷺ كلَّهم، وهذا كما أنهم دخلوا في عقد الصلح تبعاً، ولم ينفرِدْ كلُّ واحد منهم بصُلح، إذ قد رَضُوا به وأقرُّوا عليه، فكذلك حُكم نقضهم للعهد، هذا هَدْيُ رسول الله ﷺ الذي لا شك فيه كما ترى[1].

[2]تعريف الصراط باللام هنا: فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيها أو عالما ليس كقولك جالس الفقيه أو العالم. ولا قولك: أكلت طيبًا كقولك: أكلت الطيب. ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق**» ثم قال: «**ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق**»[3] فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر. واللام هنا للعهد العلمي الذهني، وهو أنه طلب الهداية إلى سر معهود، قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لم جاء منكرا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢]

---

(١) استمر المؤلف في شرح هذه الغزوة وفقهها في كراسات، وهي كبيرة الفائدة، ألجأنا طلب الاختصار إلى الإحالة عليها هي وأمثالها. (ج).

(٢) ١٢ البدائع جـ٣.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٢٠) ومسلم (رقم ٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤) (٧/ ١٥٢) وشرح النووي (٦/ ٥٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله إليه ولم يكن للمخاطبين عهد به، ولم يكن معروفًا لهم، فلم يجئ معرفا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب، قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام مصروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين، أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكر لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع، فالتنكير هو الأصل، وهذا بخلاف قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطا مستقيما، هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسئول عن هدايته عالمًا به، دخلت اللام عليه، فقال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح، ورأوا أن الرأي خلافه. وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية، فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم، ولو قال في هذا الموطن إلى الصراط المستقيم، لجعل للكفر وللضلال حظا من الاستقامة، إذ الألف واللام تنبئ أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصلة أحق بذلك المعنى، مما تلاه في الذكر، أو ما قرب به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا أن يكون في الآخر طرف منه.

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن. أما قوله: إن المراد بقوله:

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ في الحرب والمكيدة، فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله.

وأخبر النبي ﷺ أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا، وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق، الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ونصب دينا هنا على البدل من الجار والمجرور، أي هداني دينًا قيمًا.

أفتراه يمكنه هاهنا أن يقول إن الحرب والمكيدة. فهذا جواب فاسد جدًّا.

وتأمل: ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا.

وذلك خمسة أشياء أحدها: الفتح المبين. والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر. والثالث: هدايته الصراط المستقيم. والرابع: إتمام نعمته عليه. والخامس: إعطاء النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر، لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله تعالى ودينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه، فالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد وقهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد.

وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين، إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الصف: ٩] في موضعين في سورة براءة وفي سورة الصف، وقال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] فهذا الهدىٰ، ثم قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فهذا النصر، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر.

وقال تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ١-٤].

فذكر إنزال الكتاب الهادي، والفرقان وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدىٰ: أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمىٰ تعالىٰ ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانا، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، فذكر الأصلين ما أنزله علىٰ رسوله يوم الفرقان، وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله تعالىٰ فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] فالفرقان نصره له علىٰ فرعون وقومه. والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنىٰ الآية.

ولم يصب من قال: إن الواو زائدة، وإن ضياء منصوب علىٰ الحال، كما بينا فساده في: الأمالي المكية، فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين: الهدىٰ والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة، وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظا من الاستقامة، فما أدري من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع رحمه الله تعالىٰ، وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم.

أفترىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨] يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة، وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد، وهو ما هدى الله تعالى إليه أنبياءه ورسله أجمعين وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم.

وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة، هل يقال إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة.

بل يقال: تعريفه ينبئ أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة، فإن التعريف في قوة الحصر، فكأنه قيل: لا صراط مستقيم سواه. وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة، فتأمله هنا وفي نظائره.

***

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

(١) لم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده.

ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه.

وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلا وندا، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟ قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾ [الأنعام: ١]. أي يجعلون له عَدْلًا في العبادة والمحبة والتعظيم.

وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا، وهم في

---

(١) ٦١ الإغاثة جـ١.

النار، أنها كانت ضلالا وباطلا، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السماوات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما سووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدا، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع.

(١)إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به؛ فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته.

ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وما ظنكم به حين

---

(١) ١٨٥ الجواب.

عبدتم معه غيره؟ وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص؟ حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه.

***

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

[1]...أما تقديم العزيز على الحكيم فإن كان من الحكم وهو الفصل والأمر فما ذكره من المعنى صحيح. وإن كان من الحكمة وهي كمال العلم والإرادة المتضمنين اتساق صنعه وجريانه على أحسن الوجوه وأكملها، ووضعه الأشياء مواضعها، وهو الظاهر من هذا الاسم، فيكون وجه التقديم: أن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وهو سبحانه الموصوف من كل صفة كمال بأكملها وأعظمها وغايتها، فتقدم وصف القدرة، لأن متعلقه أقرب إلى مشاهدة الخلق، وهو مفعولاته تعالى وآياته. وأما الحكمة فمتعلقها بالنظر والفكر والاعتبار غالبا، وكانت متأخرة عن متعلق القدرة. ووجه ثان أن النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول والعلم به، فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم والمعاني.

ووجه ثالث: أن الحكمة غاية الفعل، فهي متأخرة عنه تأخر الغايات عن وسائلها فالقدرة تتعلق بإيجاده، والحكمة تتعلق بغايته، فقدم الوسيلة على الغاية، لأنها أسبق في الترتيب الخارجي.

***

(١) ٦٧ البدائع جـ١.

﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٩﴾ ﴾.

(١)وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] كيف جعل الطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوىٰ له وحده، وقال تعالىٰ: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] كيف جعل التوقير والتعزير للرسول وحده، والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال، هذه حقيقته، فعلم أن الخوف من أجل مقامات الخواص، وأنهم إليه أحوج وبه أقوم من غيرهم.

***

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

(٢)...لشدة الحاجة إلىٰ السكينة وحقيقتها وتفاصيلها وأقسامها نشير إلىٰ ذلك بحسب علومنا القاصرة وأذهاننا الجامدة وعباراتنا الناقصة، ولكن نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ولكل زمان دولة ورجال.

فالسكينة فعيلة من السكون، وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها علىٰ الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وعلىٰ أقسامه: كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد ألقي في المنجنيق مسافرًا إلىٰ ما أضرم له أعداء الله من النار فيا لله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

وكذلك السكينة التي حصلت لموسىٰ، وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسىٰ إلىٰ أين تذهب بنا، هذا البحر

(١) ٢٩٢ طريق الهجرتين.
(٢) ٢٠٠الأعلام جـ٤.

أمامنا، وهذا فرعون خلفنا.

وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له: نداء ونجاء كلامًا حقيقة، سمعه حقيقة بأذنه. وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعبانًا مبينًا. وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعصيهم كأنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة. وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما.

وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حنين ويوم الخندق وغيره، فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذاب ولاسيما على الله أقلق ما يكون، وأخوف ما يكون، وأشده اضطرابًا في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن، أحوج ما كانوا إليها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤] فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم، والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب، الذي لم يصبر عليه عمر بن الخطاب ﷺ، وذلك يوم الحديبية: قال الله ﷻ يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] لما علم الله ﷻ ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت، ولم تطق الصبر، فعلم

تعالىٰ ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهًا آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله، فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلىٰ إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب أنزالها.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح: ٢٦].

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية وفي ألسنتهم كلمة التقوىٰ مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوىٰ علىٰ ألسنتهم. وحظ أعدائهم حمية الجاهلية، في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان علىٰ ألسنتهم. فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جند من جند الله، أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليما وإذعانًا، فلا تدع شبهة تعارض الخير، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية، التي يُبْتَلَىٰ بها العبد، ليقوىٰ إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع، وغض الطرف، وجمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ، بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه. والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب، وقد

رأىٰ النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»(١).

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتىٰ كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به.

ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة وهي قوله في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»(٢). فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلىٰ السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان، ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان، لئلا تقوىٰ وتصير همومًا وغمومًا وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف علىٰ اختلافها، ليثبت قلبه، ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه، فيجاوز الحد الذي لا يعبر، فينقلب ترحًا وحزنًا.

وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد، فانقلب ترحًا عاجلًا. ولو أعين بسكينة تعدل فرحه لأريد به الخير، وبالله التوفيق.

***

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٨٦ رقم ٦٧٨٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) وأبو عبدالرحمن السلمي في آداب الصحبة (رقم ٢٠٦) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٠) وفي سنده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) وشرح النووي (١/ ١٥٧-١٥٨).

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

(١)كلمة التقوىٰ هي الكلمة التي يتقىٰ الله بها، وأعلىٰ أنواع هذه الكلمة، هي قول لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يتقىٰ الله بها بعدها فهي من كلمة التقوىٰ. وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين، فجعلها لازمة لهم، لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم، فهو الملزم وهم الملتزمون.

***

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

(٢)بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتىٰ رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١] فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة، لا يخافون. ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلىٰ ذلك الوقت، وظهر لكل أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم

(١) ٦٠ شفاء.

(٢) ٣٤ شفاء.

الخاص والعام أن محمدا وأصحابه أولي الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله، ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سماه فتحا. وسئل النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: «نعم»(١).

***

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

(٢)...قد جمع سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «نعم العدلان، ونعمت العلاوة»، فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٧٣٦) والحاكم (٢/ ١٤٣ رقم ٢٥٩٣) والطبراني في الأوسط (٤/ ١٢٠-١٢١ رقم ٣٧٦٦) وفي الكبير (٦/ ٩٠ رقم ٥٦٠٤) وانظر: نصب الراية (٣/ ٤١٦) ومقدمة فتح الباري (ص ١٦٥).
(٢) ١٧٢ الإغاثة جـ٢.

والكرامة. والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب، والذم واللعن، الذي هو ضد الصلاة.

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكان الصديق رضي الله تعالى عنه من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[١] رواه الترمذي.

وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدري ﷺ: «وكان أبو بكر ﷺ أعلمنا به، يعني النبي ﷺ»[٢] فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلمًا. فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه. كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها، وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قربه، وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم.

والإنسان ظلوم جهول، فكم من مكرم لنفسه بزعمه، وهو لها مهين، ومرفه لها، وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٢٢٧ رقم ٢٢٤٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٦٧ رقم ٨٢٤٢) وابن ماجه (رقم ١٥٤) والترمذي (رقم ٣٧٩١) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢١٠ رقم ١١٩٦٦) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٩ رقم ٣١٩٣١) والطبراني في الصغير (رقم ٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٢ رقم ١٢٤٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (٨/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦) ومسلم (رقم ٢٣٨٢) وانظر: فتح الباري (١/ ١٦٥-١٦٦).

هو من نفسه. فقد بخسها حظها، وأضاع حقها، وعطل مصالحها، وباع نعيمها الباقي، ولذتها الدائمة الكاملة، بلذة فانية مشوبة بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام.

وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدىٰ والرحمة. فلو هُدي ورُحم لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب تعالىٰ أعلم بالمحل الذي يصلح للهدىٰ والرحمة. فهو الذي يؤتيها العبد. كما قال عن عبده الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلىٰ العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه علىٰ التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتىٰ أهمل من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه [ويرفِّهُهُ] ويريحه. فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم.

ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء علىٰ العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه...

(١)وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

---

(١) ٤٧٠ المدارج جـ٣.

ومن نظر في ذلك وتأمله علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به.

وفي كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين ظهورًا بالحجة والبيان والدلالة وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة والتأييد، حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصورًا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفتح

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

(١) أي لا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تأمروا حتىٰ يأمر، ولا تقدموا حتىٰ يفتي، ولا تقطعوا أمرًا حتىٰ يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه. وروىٰ علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنها: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة(٢)، وروىٰ العوفي عنه قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه، والقول الجامع في معنىٰ الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم علىٰ ما جاء به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولىٰ أن يكون محبطًا لأعمالهم؟

(٣) قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾. أي لا تقولوا حتىٰ يقول، ولا تفعلوا حتىٰ يأمر.

قال بعض السلف: ما من فعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟

---

(١) ٥١ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٠٢٢ رقم ١٨٦٠٤) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٩) (١٩/ ١٨١).

(٣) ٥١ الإغاثة جـ٢.

أي: لِمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب ﷻ، وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول ﷺ في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملًا إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع، فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

(1)ومن الأدب مع الرسول: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف، حتى يأمر هو وينهى ويأذن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ. وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه.

---

(١) ٣٨٩ المدارج جـ٢.

وقال غيره: لا تأمروا حتىٰ يأمر، ولا تنهوا حتىٰ ينهىٰ .

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار علىٰ سنته وما جاء به؟ أترىٰ ذلك موجبا لقبول الأعمال ورفع الصوت فوق صوته موجبا لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالىٰ: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله يا نبي الله. فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ المفعول، أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنىٰ لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا: إن شاء أجاب، وإن شاء ترك بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه علىٰ أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتىٰ يستأذنه، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه دقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقىٰ لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ علىٰ موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾.

[1]قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ [الحجرات: ٤] وهذا النداء هو رفع أصواتهم الذي نهى الله عنه المؤمنين، وأثنى عليهم بِغَضِّها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٣] وكل ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دال علىٰ أنه تكلم حقيقة لا مجازًا، وكذلك نصوص الوحي الخاص كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ [النساء: ١٦٣] قال الجارودي: سمعت الشافعي يقول: أنا مخالف ابن علية في كل شيء حتىٰ في قول لا إله إلا الله، أنا أقول لا إله إلا الله الذي كلم موسىٰ من وراء حجاب، وهو يقول لا إله إلا الله الذي خلق كلامه أسمعه موسىٰ[2]، وقد نوع الله تعالىٰ هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعًا يستحيل معه نفي حقائقها، بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالىٰ، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة، والرب تبارك وتعالىٰ يخلق بقوله وكلامه، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه انتفى الخلق، وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تكلم ولا تكلم عابديها ولا ترجع إليهم قولًا، والجهمية وصفوا الرب تبارك وتعالىٰ بصفة هذه الآلهة، وقد ضرب الله تعالىٰ لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام فيفني المداد والأقلام ولا تنفد كلماته، أفهذا صفة من لا يتكلم ولا يقوم به كلام؟ فإذا كان كلامه وتكليمه، وخطابه ونداؤه، وقوله وأمره ونهيه، ووصيته وعهده، وإذنه وحكمه،

(١) ٢٨٥ الصواعق جـ٢.
(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص ٩٦).

وإنباؤه وإخباره وشهادته كل ذلك مجازًا لا حقيقة له بطلت الحقائق كلها، فإن الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينه ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢] فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله.

(١)وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم - على اختلاف مراتبهم - بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص.

فمع الوالدين: أدب خاص، وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به.

وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة، والإخلال به مع الأم تأويلا وإقبالا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة؟

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟

وانظر قلة أدب عوف مع خالد: كيف حرمه السلب بعد أن برد بيديه؟

وانظر أدب الصديق ﷺ مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدم بين يديه فقال: ما كان

(١) ٣٩٠ المدارج جـ٢.

ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده. فكان ذلك التأخر إلى خلفه وقد أومأ إليه أن: اثبت مكانك جمزا وسعيا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام، تنقطع فيها أعناق المطي، والله أعلم.

(1)ذكر سَرِيَّة عُيينة بن حصن الفَزَاري إلى بني تميم، وذلك في المحرَّم من هذه السنة، بعثه إليهم في سَرِيَّة لِيغزوهم في خمسين فارساً، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسيرُ الليل ويكمُن النهار، فهجم عليهم في صحراء، وقد سرَّحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولَّوْا، فأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً، فساقهم إلى المدينة،فأُنزِلُوا في دار رملة بنت الحارث فقدم فيهم عدة من رؤسائهم: عطارد بن حاجب، والزِّبْرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث، فلما رأوا نِساءهم وذراريَهم، بكوا إليهم، فَعَجِلُوا، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يا محمد اخرُج إلينا، فخرج رسولُ الله ﷺ، وأقام بلالُ الصلاة، وتعلَّقُوا برسول الله ﷺ يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى فصلَّى الظهرَ، ثم جلس في صحن المسجد، فقدَّموا عُطارد بن حاجب، فتكلَّم وخطب، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس، فأجابهم، وأنزل الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [الحجرات: ٤، ٥] فردَّ عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسبي. فقام الزِّبْرقان شاعر بَني تميم فأنشد مفاخراً:

نَحْنُ الكِرامُ فَلا حَيٌّ يُعادِلُنَا ... مِنَّا المُلُوكُ، وفِينا تُنْصَبُ البِيَعُ
وكم قَسَرْنَا من الأحْياءِ كُلِّهم ... عند النِّهابِ وفَضْلُ العزِّ يُتَّبَعُ
ونَحْنُ يُطْعِمُ عِنْدَ القَحْطِ مُطْعِمُنَا ... مِنَ الشِّواءِ إذا لم يُؤْنَس القَزَعُ

(١) ٤٧٢ الزاد جـ٢.

بِمَا تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَاتُهُمُ ... مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيّاً ثُمَّ نَصْطَنِعُ
فَنَنْحَرُ الكُومَ عُبْطاً فِي أَرُومَتِنَا ... للنازلين إذا ما أُنزِلوا شَبِعُوا
فلا ترانا إلى حيٍّ نُفاخِرُهُم ... إلا اسْتَفَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يُقْتَطَعُ
فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فِي ذَاكَ نَعْرِفُه ... فَيَرْجِعُ القَوْمُ والأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ
إِنَّا أَبَيْنَا وَلاَ يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ ... إِنَّا كَذلِكَ عِنْدَ الفَخْرِ نَرْتَفِع

فقام شاعر الإسلام حسَّان بن ثابت، فأجابه على البديهة:

إِنَّ الذَّوائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بها كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْوَى الإلهِ وكُلُّ الخَيْرِ مُصْطَنَعُ
قَوْمٌ إذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُم ... أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ في أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ ... إِنَّ الخَلائِقَ فَاعْلَم شَرُّهَا البِدَعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ ... فَكُلُّ سَبقٍ لأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لاَ يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ ... عِنْدَ الدِّفَاعِ ولاَ يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْماً فَازَ سَبْقُهُم ... أَوْ وازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالنَّدى مَتَعُوا
أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْي عِفَّتُهُمْ ... لاَ يَطْمَعُونَ وَلا يُرْدِيهُمُ الطَّمَعُ
لاَ يَبْخَلُونَ عَلَى جَارٍ بفَضْلِهِمُ ... وَلا يَمَسُّهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ
إِذَا نَصَبْنَا لِحَيٍّ لَمْ نَدِبَّ لَهُمْ ... كَمَا يَدِبُّ إلى الوَحْشِيَةِ الذُّرُعُ
نَسْمُو إذا الحَرْبُ نَالَتْنَا مَخَالِبُهَا ... إذا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَضَعُوا
لاَ يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمُ ... وإِنْ أُصِيبُوا فَلا خَوْرٌ وَلاَ هَلَعُ
كَأَنَّهُمْ فِي الوَغَى والمَوْتُ مُكْتَنِف ... أُسْدٌ بحليه في أرسَاغِها فَدَعُ
خُذْ مِنْهُمُ مَا أَتَوا عَفْواً إذا غضبُوا ... وَلا يَكُنْ هَمكَ الأَمْرَ الَّذِي صنعُوا
فَإِنَّ في حَرْبِهِمْ فَاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ ... شَراً يُخَاضُ عَلَيْهِ السُّمُّ والسَّلَعُ
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ ... إِذَا تَفَاوَتَتِ الأَهْوَاءُ والشِّيَعُ

أَهْـدَىٰ لَهُـمْ مِـدْحَتِي قَلْـبٌ يُـوَازِرُهُ فِـيمَا أَحَـبَّ لِـسَانٌ حائِـكٌ صَـنَعُ
فَـإِنَّهُمْ أَفْـضَلُ الأَحْيَـاءِ كُلِّهِـم إنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ القَوْلِ أو شَمعوا[1]

فلما فرغ حسَّان، قال الأقرع بن حابس: إنَّ هذا الرجل لَمُؤَتَّى له، لَخطيبُه أخطبُ مِن خطيبنا، ولَشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلىٰ من أصواتنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسولُ الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

قال ابن إسحاق: فلما قدم وفد بني تميم، دخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ: أن أخرج إلينا يا محمد، فآذىٰ ذلك رسولَ الله ﷺ مِن صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: جئنا لِنفاخِرك، فأْذن لشاعرنا وخطيبنا قال: «نعم قَدْ أذِنْتُ لخطيبكم فليقم»، فقام عُطارد بن حاجب، فقال: الحمدُ لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا ووهب لنا أموالاً عِظاماً، نفعل فيها المعروفَ، وجعلنا أعزَّ أهلِ المشرق وأكثَره عدداً، وأيسرَه عُدّة، فمَن مثلُنا في الناس؟ ألسنا رؤوس الناس، وأُولَىٰ فضلهم، فمَن فاخرنا، فليعُدّد مثل ما عَدَدْنَا، وإنا لو نشاء لأكثرنا من الكلام، ولكن نستحيي من الإكثار فيما أعطانا، إنا نعرف بذلك أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، أو أمرٍ أفضل مِن أمرنا. ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قُمْ فَأَجِبْهُ»، فقام فقال: الحمد لله الذي السَّمواتُ والأرضُ خلقه، قضىٰ فيهن أمرَه، ووسع كرسيَّه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفىٰ من خير خلقه رسولاً، أكرمَه نَسَباً، وأصدقَه حديثاً، وأفْضلَه حسباً، فأنزل عليهِ كِتابه، وائتمنه علىٰ خلقه، وكان خيرة الله مِن العالمين، ثم دعا الناسَ إلىٰ الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، وخير الناس فعالاً، ثم كان أوَّل الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن،

(١) ذكر هذه الأبيات والتي تليها لحسان ﷺ وللزبرقان كل من ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٣٦٢-٣٦٣) مع اختلاف يسير وتقديم وتأخير في بعض الأبيات وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٤٩-٣٥٠) (٢/ ٥٦١) بينما ذكر أبيات الزبرقان وحده عمر بن شبة في أخبار المدينة (١/ ٢٨٤-٢٨٥).

فنحن أنصار الله، ووزراءُ رسولِه ﷺ، نُقاتِلُ الناسَ حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسولِه منع ماله ودمه، ومَن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتلُه علينا يسيراً، أقول هذا، وأستغفر الله العظيم لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم». ثم ذكر قيام الزِّبْرقان وإنشاده، وجواب حسَّان له بالأبيات المتقدمة، فلما فرغ حسَّان من قوله، قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى، لخطيبه أخطبُ مِن خطيبنا، وشاعِرُه أشعر من شاعرنا، وأقوالُهم أعلى من أصواتنا، ثم جوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم(١).

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾.

(٢)أما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر يخرج عن الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]. والمفرد ـ الذي هو فسوق كفر ـ كقوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ الآية. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٩] وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (١٠/ ٢٧٤) والاستيعاب (١/ ٢٥٠) والثقات (٢/ ١١٢) وتفسير السيوطي (٧/ ٥٥٤).

(٢) ٣٥٩ المدارج جـ١.

[السجدة: ٢٠] فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق الذي لا يخرج عن الإسلام فكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦] فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله إلىٰ بني المصطلق بعد الوقعة مصدقا، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فهابهم فرجع من الطريق إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي. فغضب رسول الله ﷺ وَهَمَّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله، فبدا له في الرجوع، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه، وقال له: انظر فإن رأيت منهم ما يدل علىٰ إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار. ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ، وأخبره الخبر فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾(١) الآية. و«النبأ» هو الخبر، الغائب عن المخبر إذا كان له شأن، و«التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علمًا.

وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل علىٰ صدقه عمل بدليل

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٢٣) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٠١ رقم ٩٦٠) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٤/ ١١٨-١١٩ رقم ١٨٨٦) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١١): رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. وانظر: تفسير السيوطي (٧/ ٥٥٦).

الصدق، ولو أخبر به من أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته.

وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولاسيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين، ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي ترد به الرواية والشهادة. وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه، وهو قسمان: فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد. ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه والعصيان: هو عصيان أمره، كما قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾[التحريم: ٦] وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] وقال الشاعر:

أمرتك أمرا جازما فعصيتني ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادما[(١)]

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيرا كقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما إلا أن عجز البيت:

فجـــدك إذ لم تقــبل النصــح عاثـــر

وذكر البيت كما هو هنا الطبري في تفسيره (١٤/ ٦٩) وجعله من قول حصين بن المنذر الرقاشي ليزيد بن المهلب. وذكر صدر البيت الآمدي في الإحكام (١/ ١٦٤) (٢/ ١٦٧) ولم ينسبه لأحد.

فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم، ويطلق كل منهما على صاحبه، كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] فسمى مخالفته للأمر فسقًا، وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] فسمى ارتكابه للنهي معصية، فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي.

والتقوى اتقاء مجموع الأمرين، وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله على نور من الله، يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع، الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله جهلا وتأويلا وتقليدا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

وهؤلاء كالخوارج المارقة وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية: فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين في الإسلام نصيب.

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة.

(١)من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره، فإنما هو بتزيينه، وذكر أوصافه

(١) ٥٧ شفاء.

وما يدعو إلى محبته.

فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين، وتكريه ضده، فجاد عليهم به فضلًا منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له، ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه.

[(١)]...و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدا له، محبًّا له، مؤثرًا له على غيره. ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه، وهذا مجرد فعله، والعبد محل له، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل، ومن لا يصلح له، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله، وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

ثم جاء به بحرف الاستدراك، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنت فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك، ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون:

(١) ٤١٤ المدارج جـ١.

لشق عليكم ذلك، ولهلكتم، وفسدت مصالحكم، وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم، وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده، لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم.

وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل: ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولًا، وكتب معه إليهم كتابًا، يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب ومجتاحهم، ومخرِّب البلد، ومهلك من فيها، وأرسل إليهم أموالا ومراكب وزادا وعدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان فخذوا بيده، واحملوه ولا تذروه يقعد واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذروا من عداهم، فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي، فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم، فلم يتركوهم يقرون، بل حملوهم حملا، وساقوهم سوقا إلى الملك، فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم وأسر من أسر.

فهل يعد الملك ظالمًا لهؤلاء أم عادلًا فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته، وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء.

[1]قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي.

ونظر إلى الحكم والقضاء، وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها، وهو النفس الأمارة بالسوء، ويفيده نظره إليها أمورًا.

منها: أن يعرف أنها جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع، الذي يخرجها به عن وصف الجهل والعمل الصالح،

(١) ٢١٩ المدارج جـ١.

الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلىٰ خالقها وفاطرها أن يقيها شرها، وأن يؤتيها تقواها، ويزكيها فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وكله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلىٰ نفسه، وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر: «قل اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي»[(١)] وفي خطبة الحاجة «الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»[(٢)] وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه: علم أنها منبع كل شر، ومأوىٰ كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله منَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧] فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي منَّ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٨] ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يصلح لهذا الفضل، ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فلا يضعه عند غير أهله، فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٨٣) والشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٢٣ رقم ٢٣٥٥) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٨٠ رقم ١٩٨٥) وفي الكبير (١٨/ ١٧٤ رقم ٣٩٦) والبزار (٩/ ٥٣ رقم ٣٥٨٠) والديلمي في مسند الفردوس (١/ ٤٦٨ رقم ١٩٠٢) وصححه ابن القيم في الوابل الصيب (ص٢٣٣) ونقل النووي في رياض الصالحين (ص ٣٣٣) تحسين الترمذي.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨٦٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٠٢).

(١)إن عمل الحسنات من إحسان الله ومنه وتفضله عليه بالهداية والإيمان، كما قال أهل الجنة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فخلق الرب سبحانه لهم الحياة والسمع والبصر والعقول والأفئدة، وإرسال الرسل، وتبليغهم البلاغ الذي اهتدوا به، وإلهامهم الإيمان وتحبيبه إليهم وتزيينه في قلوبهم، وتكريه ضده إليهم، كل ذلك من نعمه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خير الدنيا والآخرة هو نعمة محضة بلا سبب سابق يوجب ذلك لهم، ومن غير حول وقوة منهم إلا به، وهو خالقهم وخالق أعمالهم الصالحة وخالق جزائها، وهذا كله منه سبحانه.

بخلاف الشر فإنه لا يكون إلا بذنوب العبد، وذنبه من نفسه.

وإذا تدبر العبد هذا علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله، فشكر ربه على ذلك، فزاده من فضله عملًا صالحًا ونعمًا يفيضها عليه.

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه وبذنوبه استغفر ربه وتاب، فزال عنه سبب الشر، فيكون دائمًا شاكرًا مستغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشر يندفع عنه.

***

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

(١) ١٦٨ شفاء.

[(١)]الحقوق نوعان: حق الله وحق الآدمي، فحق الله لا مدخل للصلح فيه: كالحدود والزكوات والكفارات ونحوها، وإنما الصلح بين العبد وبين ربه في إقامتها لا في إهمالها، ولهذا لا يقبل بالحدود، وإذا بلغت السلطان فلعن الله الشافع والمشفع.

وأما حقوق الآدميين فهي التي تقبل الصلح والإسقاط والمعاوضة عليها، والصلح العادل هو الذي أمر الله به ورسوله ﷺ، كما قال: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ﴾ [الحجرات: ٩] والصلح الجائر هو الظلم بعينه، وكثير من الناس لا يعتمد العدل في الصلح، بل يصلح صلحا ظالما جائرا، فيصالح بين الغريمين على دون الطفيف من حق أحدهما، والنبي ﷺ صالح بين كعب وغريمه، وصالح أعدل الصلح، فأمره أن يأخذ الشطر، ويدع الشطر.

وكذلك لما عزم على طلاق سودة رضيت بأن تهب له ليلتها، وتبقي على حقها من النفقة والكسوة، فهذا أعدل الصلح، فإن الله سبحانه أباح للرجل أن يطلق زوجته، ويستبدل بها غيرها، فإذا رضيت بترك بعض حقها وأخذ بعضه، وأن يمسكها كان هذا من الصلح العادل، وكذلك أرشد الخصمين اللذين كانت بينهما المواريث، بأن يتوخيا الحق بحسب الإمكان، ثم يحلل كل منهما صاحبه.

وقد أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين أولا، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصلح، فإنها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحق الطائفة المظلومة، وكثير من الظلمة المصلحين يصلح بين القادر الظالم والخصم الضعيف المظلوم، بما يرضى به القادر صاحب الجاه، ويكون له فيه الحظ، ويكون الإغماض والحيف فيه على الضعيف، ويظن أنه قد أصلح ولا يمكن المظلوم من أخذ حقه، وهذا ظلم، بل يمكن المظلوم من استيفاء حقه، ثم يطلب إليه برضاه أن يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه، ولا يشتبه بالإكراه للآخر

(١) ١٠٨ الإعلام جـ١.

بالمحاباة ونحوها.

[(١)]ندب الله ﷻ إلى الصلح بين الطائفتين في الدماء، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾.

وندب الزوجين إلى الصلح عند التنازع في حقوقهما، فقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وأصلح النبي ﷺ بين بني عمرو بن عوف لما وقع بينهم، ولما تنازع كعب بن مالك وابن أبي حدرد في دين على ابن أبي حدرد أصلح النبي ﷺ بأن استوضع من دين كعب الشطر وأمر غريمه بقضاء الشطر[(٢)]. وقال لرجلين اختصما عنده: «اذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق، ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما صاحبه»[(٣)].

***

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

[(٤)]الصلح الذي يحل الحرام ويحرم الحلال: كالصلح الذي يتضمن تحريم بضع

---

(١) ١٠٧ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١) ومسلم (رقم ١٥٥٨) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٥٢) وشرح النووي (١٠/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٦٠ رقم ٢١٠٣٣) وأبو يعلى (١٢/ ٤٥٦ رقم ٧٠٢٧).

(٤) ١٠٩ الإعلام جـ١.

حلال، أو إحلال بضع حرام، أو إرقاق حر، أو نقل نسب، أو ولاء عن محل إلىٰ محل، أو أكل ربا، أو إسقاط واجب، أو تعطيل حد، أو ظلم ثالث، وما أشبه ذلك، فكل هذا صلح جائر مردود.

فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضا الله سبحانه ورضا الخصمين، فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم، كما قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصائم القائم**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة، أما إني أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»(١) وقد جاء في أثر: أصلحوا بين الناس، فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢) [الحجرات: ١٠].

(٣)قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] قسم العباد إلىٰ تائب وظالم، وما ثمَّ قسم ثالث البتة، وأوقع اسم «الظالم» علىٰ من لم يتب ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس، توبوا إلىٰ الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٤).

وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي، وتب**

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٠٩) وأحمد (١/ ١٦٧) وعبدالرزاق (١٠/ ٣٨٥ رقم ١٩٤٣٨) والشاشي (١/ ١١٤ رقم ٥٤) والطيالسي (رقم ١٩٣) وعبد بن حميد (رقم ٩٧) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٦٠) ونقل المنذري تصحيح الترمذي في ترغيبه (٣/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (رقم ١١٨) مرفوعاً إلىٰ رسول الله ﷺ ولفظه: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن عز وجل يصلح بين المؤمنين يوم القيامة» وانظر: تفسير السيوطي (٤/ ١٠) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٦) وفيض القدير (١/ ١٢٧).

(٣) ١٧٨ المدارج جـ١.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

عليَّ إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة[١]، وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخرها إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلي»[٢].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحدًا منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[٣]، فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحق جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

[٤]هذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه.

ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٠٦ رقم ٩٢٧) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٤٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٩ رقم ١٠٢٩٢) وأبو داود (رقم ١٥١٦) وابن ماجه (رقم ٣٨١٤) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٧ رقم ٢٩٤٤٣) وأحمد (٢/ ٢١) وعبد بن حميد (رقم ٧٨٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٣٨ رقم ٦٤١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦١٨) ونقل النووي تصحيح الترمذي في رياض الصالحين (ص ٤٢٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٤) ومسلم (رقم ٤٨٤) دون ذكر السورة، بل نصّا على أن هذا الدعاء كان ﷺ يقوله في ركوعه وسجوده. وتقول عائشة رضي الله عنها بعد ذكر هذا الدعاء: يتأول القرآن. وانظر: فتح الباري (٣/ ٨) (٨/ ٢٠). وشرح النووي (٤/ ٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٦٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

(٤) ١٦٩ الإعلام جـ١.

ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر، فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه.

ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه، متفكها بغيبته وذمه، متحليًّا بذلك، شبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه. ولما كان المغتاب محبًّا لذلك معجبًا به، شبه بمن يحب أن يأكل لحم أخيه ميتا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه، ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم، فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره، فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم، وهم أشد شيء نفرة عنه، فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة، عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق.

[(١)]وقال ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[(٢)] ذكره مسلم.

وللإمام أحمد ومالك: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: ما الغيبة؟ فقال: «**أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع**». فقال: يا رسول الله وإن كان حقًّا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا**

(١) ٤٠١ الإعلام جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٩) وشرح النووي (١٦/ ١٤٢).

قلت باطلاً فذلك البهتان»[١].

وسئل ﷺ عن الكبائر، فقال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، وقتل النفس التي حرم الله**[٢]**، والفرار يوم الزحف**[٣]**، ويمين الغموس**[٤]**، وقتل الإنسان ولده خشية أن يطعم معه، والزنا بحليلة جاره**[٥]**، والسحر، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات»**[٦]. وهذا مجموع من أحاديث.

[٧]والفرق بين النصيحة والغيبة: أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع، أو فتان، أو غاش، أو مفسد، فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلق به، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم، فقال: «**أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[٨]، وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه: «**إذا هبطت بلاد قومه فاحذره**»[٩].

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك، وتمزيق عرضه، والتفكه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٣٦) ومالك في الموطأ (رقم ١٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري عن أنس ﷺ (رقم ٦٨٧١) ومسلم (رقم ٨٨).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ١٩٨ رقم ٨٦٥٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٤٢ رقم ٣٣٦٩٢) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٢٧١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٠٥، ٤١١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٩٣-٤٩٤) وشرح النووي (٢/ ٨٠).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦) ومسلم (رقم ٨٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٢) وشرح النووي (٢/ ٨٣-٨٦).

(٧) ٢٩٣ الروح.

(٨) أخرجه مسلم (رقم ١٤٨٠) وانظر: شرح النووي (١٠/ ٩٨).

(٩) أخرجه أبو داود (٤٨٦١) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢٩ رقم ٢٠٢٠٤) وأحمد (٥/ ٢٨٩) وحسَّنه السيوطي، وانظر: فيض القدير (١/ ٢٢٢) وعون المعبود (١٣/ ١٤٢-١٤٤).

بلحمه، والغض منه، لتضع منزلته من قلوب الناس، فهي الداء العضال، ونار الحسنات التي تأكلها، كما تأكل النار الحطب.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

(١)قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: «لا فَضْلَ لِعَرَبيٍّ عَلىٰ عَجَمِي، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلىٰ عَرَبي، ولا لأَبْيَض عَلىٰ أَسْوَدَ، ولا لأسود عَلىٰ أَبْيَض، إِلاَّ بِالتَّقْوَىٰ، النّاسُ مِنْ آدَمَ، وآدَمُ منْ تُرابٍ»(٢).

وقال ﷺ: «إِنَّ آلَ بني فُلاَنٍ لَيْسُوا لي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّ أَوْلِيائي المتَّقُونَ حَيْثُ كَانُوا وأَيْنَ كَانُوا»(٣).

وفي الترمذي: عنه ﷺ: «إِذَا جَاءَكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلوه، تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأَرْضِ وفَسَادٌ كَبِيرٌ». قالوا: يا رسولَ اللهِ، وإن كان فيه؟ فقال: «إِذَا جَاءَكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوه»، ثلاث مرات(٤).

---

(١) ٤١ الزاد جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٣٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥١٣٧) وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (رقم ٢٥٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٦): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢١٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ٨٧-٨٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٠٨٥) وقال: هذا حديث حسن غريب. والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٨٢ رقم ١٣٢٥٩) وسعيد بن منصور (رقم ٥٩٠) والشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ٣٥١ رقم ١١٢٢) والطبراني في الأوسط (٧/ ١٣١ رقم ٧٠٧٤) وفي الكبير (٢٢/ ٢٩٩ رقم ٧٦٢) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ١١٧).

وقال النبيُّ ﷺ لبني بَيَاضَة: «أَنْكِحُوا أَبا هِنْدٍ، وأَنْكِحُوا إِلَيْهِ». وكان حجَّاماً[(١)].
وزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بنتَ جَحْشٍ القُرشية مِن زيد بن حارثة مولاه، وزوَّج فاطمة بنت قيس الفِهرية القرشية. من أسامة ابنه، وتزوَّج بلالُ بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] وقد قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

فالذي يقتضيه حُكمُه ﷺ اعتبارُ الدِّين في الكفاءة أصلاً. وكمالاً، فلا تُزَوَّجُ مسلمةٌ بكافر، ولا عفيفةٌ بفاجر، ولم يعتبرِ القرآنُ والسنةُ في الكفاءة أمراً وراءَ ذلك، فإنه حرَّم على المسلمة نكاحَ الزاني الخبيثِ، ولم يعتبر نسباً ولا صِناعة، ولا غِنىً ولا حرفة، فيجوز للعبد القِنِّ نكاحَ الحرَّةِ النسيبة الغنيةِ إذا كان عفيفاً مسلماً، وجوز لغير القرشيين نكاحَ القرشيات، ولغير الهاشميين نكاحَ الهاشميات وللفقراءِ نكاحَ الموسرات.

وقد تنازع الفقهاءُ في أوصاف الكفاءة: فقال مالك في ظاهر مذهبه: إنها الدِّينُ، وفي رواية عنه: إنها ثلاثة: الدِّين، والحريَّة، والسلامةُ من العيوب. وقال أبو حنيفة: هي النسبُ والدين.

وقال أحمد في رواية عنه: هي الدِّين والنسب خاصة. وفي رواية أخرى: هي خمسة: الدِّين، والنسب، والحرية، والصناعة، والمال.

[(٢)]وأما كلامهم في مسألة «الفقير الصابر، والغني الشاكر» وترجيح أحدهما على

(١) أخرجه ابن حبان (٩/ ٣٧٥ رقم ٤٠٦٧) وفي موارد الظمآن (رقم ١٢٤٩) وأبو داود (رقم ٢١٠٢) والدارقطني (٣/ ٣٠٠ رقم ٢٠٤) وأبو يعلى (١٠/ ٣١٨ رقم ٥٩١١) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢١ رقم ٨٠٨) والحاكم (٢/ ١٧٨ رقم ٢٦٩٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٦٤): إسناده حسن.
(٢) ٤٤٢ المدارج جـ٢.

صاحبه، فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فالمسألة أيضًا فاسدة في نفسها، فإن التفضيل: عند الله تعالى بالتقوى وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥، ١٧] أي ليس كل من وسعت عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقترت: أكون قد أهنته، فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته. ومعرفته والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال - يعني ابن تيمية - ولا يقع التفاضل بالغني والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة، سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ، فقال: لا يوزن غدا الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

(١)يذكر الله سبحانه في كتابه تخليقه من ماء الرجل كقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥-٧] وقوله ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧] ونظائرها من الآيات التي إن لم تختص بماء الرجل فهي فيه أظهر، وإذا كان جزءا من الواطئ، وجزءًا من الأم، فكيف كان ملكا لسيد الأم دون سيد الأب؟ ويخالف القياس من وجه آخر، وهو أن الماء بمنزلة البذر، ولو أن رجلا أخذ بذر غيره فزرعه في أرضه كان الزرع لصاحب البذر، وإن كان عليه أجرة الأرض.

---

(١) ٤٦ الإعلام جـ١.

قيل: لا ريب أن الولد منعقد من ماء الأب كما هو منعقد من ماء الأم، ولكن إنما تَكَوَّن وصار مالًا متقومًا في بطن الأم، فالأجزاء التي صار بها كذلك من الأم أضعاف أضعاف الجزء الذي من الأب، مع مساواتها له في ذلك الجزء، فهو أنما تكون في أحشائها من لحمها ودمها، ولما وضعه الأب لم يكن له قيمة أصلا، بل كان كما سماه الله ماء مهينا لا قيمة له، ولهذا لو نزا فحل رجل على رَمَكَة آخر كان الولد لمالك الأم باتفاق المسلمين، وهذا بخلاف البذر، فإنه مال متقوم له قيمة قبل وضعه في الأرض، يعاوض عليه بالأثمان وعسب الفحل لا يعاوض عليه، فقياس أحدهما على الآخر من أبطل القياس.

فإن قيل: فهلا طردتم ذلك في النسب، وجعلتموه للأم كما جعلتموه للأب.

قيل: قد اتفق المسلمون على أن النسب للأب، كما اتفقوا على أنه يتبع الأم في الحرية والرق، وهذا هو الذي تقتضيه حكمة الله شرعًا وقدرًا، فإن الأب هو المولود له، والأم وعاء وإن تكوَّن فيها.

والله سبحانه جعل الولد خليفة أبيه، وشجنته، والقائم مقامه، ووضع الأنساب بين عباده، فيقال فلان ابن فلان، ولا تتم مصالحهم وتعارفهم ومعاملاتهم إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] فلولا ثبوت الأنساب من قبل الآباء لما حصل التعارف، ولفسد نظام العباد، فإن النساء محتجبات مستورات عن العيون، فلا يمكن في الغالب أن تعرف عين الأم، فيشهد على نسب الولد منها، فلو جعلت الأنساب للأمهات لضاعت وفسدت، وكان ذلك مناقضا للحكمة والرحمة والمصلحة، ولهذا إنما يدعى الناس يوم القيامة بآبائهم لا بأمهاتهم.

***

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

(١)هؤلاء مسلمون وليسوا بمؤمنين، لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام، وليس هؤلاء كفارًا، فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾، ولم يرد قولوا بألسنتكم من غير مواطأة القلب، فإنه فرق بين قولهم ﴿ ءَامَنَّا ﴾، وقولهم: ﴿ أَسۡلَمۡنَا ﴾، ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال: ﴿ لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ ﴾ ووعدهم ﷻ ـ مع ذلك ـ على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئًا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله، ثم لم يرتابوا في إيمانهم، وإنما انتفى عنهم الريب، لأن الإيمان قد باشر قلوبهم وخالطتها بشاشته، فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع: حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته؛ فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن: «**ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل**».

فالذوق والوجد: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق: أمر باطن والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد، فاليقين يثمر الجهاد ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته، والريب والشك يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

(٢)...قوله تعالى:﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ [الحجرات: ١٤] نفيًا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان، لوجوه:

منها: أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها: أنه قال: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ ولم يقل قال المنافقون.

---

(١) ٩١ المدارج جـ٣.

(٢) ١٧ البدائع جـ٤.

ومنها: أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم جفاء لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها: أنه قال: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان.

ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [الحجرات: ١٤] أي لا ينقصكم والمنافق لا طاعة له.

ومنها: أنه قال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ﴾ [الحجرات: ١٧] فأثبت لهم إسلامهم، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا، لقال لم تسلموا، بل أنتم كاذبون، كما كذبهم في قولهم: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١] لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها: أنه قال: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ ولو كانوا منافقين لما من عليهم.

ومنها: أنه قال: ﴿ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾، ولا ينافي هذا قوله: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾، فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنَّ عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها: أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا، وتركت فلانًا وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم» ثلاث مرات(١)، وأثبت له الإسلام دون الإيمان(٢). وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها.

***

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٨١) وشرح النووي (٢/ ١٨٠).
(٢) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية. (ج).

[(١)]قدم عليه ﷺ وفد بني أسد: عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه في المسجد، فتكلموا، فقال متكلم: «يا رسول الله، إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعث إلينا بعثًا، ونحن لمن وراءنا» قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل الله على رسوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عنه يومئذ العيافة والكهانة، وضرب الحصى، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك كله، فقالوا: «يا رسول الله، إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت؟ قال: وما هي؟ قالوا: الخط، قال: **«علمه نبي من الأنبياء، فمن صادف مثل علمه علم»**[(٢)].

[(٣)]وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه. وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح، ذلك مبلغهم من العلم!

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة، وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة، فليحذر فإنما هو مستدرج، ويميز بذلك أيضا بين المنة والحجة، فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!

(١) ١٠٠ الزاد جـ٣.
(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٩٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن مردويه.
(٣) ١٧١ المدارج جـ١.

فإن العبد بين منة من الله عليه وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما، فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ﴾[الأنعام: ١٤٩].

والحكم الكوني أيضًا متضمن لمنته وحجته، فإذا حكم له كونا حكمًا مصحوبًا باتصال الحكم الديني به فهو منة عليه، وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه.

وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني، فتوفيقه للقيام به منة منه عليه، وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه، فالمنة: باقتران أحد الحكمين بصاحبه. والحجة في تجرد أحدهما عن الآخر، فكل علم صحبه عمل يرضي الله سبحانه فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة، وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه، فهو منة منه، وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو منة من الله عليه، وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس، والعمل وبذل النصيحة للخلق، فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة، ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان، فهي منة، وإلا فهي حجة. وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد، فهو منة من الله، وإن صحبه الوقوف عنده، والرضا به، وإيثار مقتضاه من لذة النفس به، وطمأنينتها

إليه وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجرات

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ قٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ١، ٢].

(١) الصحيح أن [قٓ، ونٓ، وصٓ]، بمنزلة [حمٓ، والٓمٓ، طسٓ] تلك حروف مفرد، وهذه متعددة. وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل.

وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به، كما تقدم بيانه، ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجيب، بل بما لا ينبغي أن يقع سواه.

كما قال سبحانه: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ١، ٢] فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٧٦].

وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥].

***

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ ﴾.

---

(١) ٢٧٠ التبيان.

(١)قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه، هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه، قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، وقال قتادة، وعكرمة: قدمًا قدمًا في معاصي الله لا ينزع عن فجوره.

***

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾.

(٢)...قد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل(٣) في كتابه مرارًا، لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرْب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرةً وذكرى، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٧، ٨] فالمنيب إلىٰ ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصَّر به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قدم عليه في اللفظ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] والتذكر: تفعل من الذكر، وهو حضور صورةٍ من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده علىٰ وجهه أوجب له البصيرة، فأبصر ما جعل دليلًا عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرىٰ، والهدىٰ مداره علىٰ هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

وقد دعا سبحانه الإنسان إلىٰ أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك علىٰ معاده وصدق ما أخبرت به الرسل، فقال في الأول: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطارق: ٥-٨].

***

(١) ٩٤ التبيان.

(٢) ١٤٥ إعلام الموقعين جـ١، طبعة دار الجيل.

(٣) يشير إلىٰ ما تقدم من ذكره آية فصلت علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ (ج).

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾[ق: ١٠].

(١)قال تعالىٰ: ﴿ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴾[الشعراء: ١٤٨] طلع النخل: ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره، وقشره يسمىٰ الكُفرَّىٰ.

والنضيد: المنضود الذي قد نضد بعضه علىٰ بعض، وإنما يقال له نضيد: ما دام في كُفُرَّاه، فإذا انفتح فليس بنصيد. وأما «الهضيم» فهو المنضم بعضه إلىٰ بعض، فهو كالنضيد أيضًا، وذلك يكون قبل تشقق الكُفُرَّىٰ عنه.

«والطلع» نوعان: ذكر وأنثىٰ، والتقليح: هو أن يؤخذ من الذكر ـ وهو مثل دقيق الحنطة ـ فيجعل في الأنثىٰ، وهو التأبير، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثىٰ.

وقد روىٰ مسلم في صحيحه عن طلحة بن عبيد الله قال: مررت مع رسول الله ﷺ في نخل، فرأىٰ قومًا يلقحون، فقال: «ما يصنع هؤلاء» قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثىٰ قال: «ما أظن ذلك يغني شيئًا»، فبلغهم، فتركوه، فلم يصلح، فقال النبي ﷺ: **«إنما هو ظن، فإن كان يغني شيئًا فاصنعوه، فإنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم عن الله ﷻ فلن أكذب علىٰ الله»**(٢) اهـ.

***

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ ﴾.

(٣)﴿ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [ق: ١٥] فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم، وقد سماه الله ﷻ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه نشأة أخرىٰ، وهي مثل الأولىٰ، وسماه خلقًا جديدًا، وهو مثل الخلق الأول، كما قال ﴿ أَفَعَيِينَا

(١) ٣٦٧ زاد المعاد جـ٣.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦١، ٢٣٦٢).
(٣) ١٢٤ التبيان.

بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وسماه أمثالا وهم هم، فتطابقت ألفاظ القرآن، وصدق بعضها بعضا، وبين بعضها بعضًا، ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله، ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه، فهذا خطأ قطعًا، معاذ الله من اعتقاده، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم، فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

(١)وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فهذه الآية لها شأن، وقد اختلف فيها السلف والخلف على قولين، فقالت طائفة: نحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة، وعلى هذا فيكون المراد قربه ـ سبحانه ـ بنفسه، وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه وإحاطة علمه به. والقول الثاني: إن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم إليهم، فيقول الملك: نحن قتلناهم، وهزمناهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] وجبرائيل هو الذي يقرؤه على رسول الله ﷺ، وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه، وملائكته هم الذين باشروه، إذ هو بأمره، وهذا القول هو أصح من الأول لوجوه: أحدها: أنه سبحانه قيد القرب في الآية بالظرف، وهو قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] فالعامل في الظرف ما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق: ١٦] من معنى الفعل، ولو كان المراد قربه سبحانه بنفسه، لم يتقيد ذلك بوقت تلقي الملكين، ولا كان في ذكر التقييد به فائدة، فإن علمه سبحانه وقدرته ومشيئته عامة للتعلق. (الثاني) أن الآية تكون قد تضمنت علمه وكتابة

(١) ٢٦٧ مختصر الصواعق جـ٢.

ملائكته لعمل العبد، وهذا نظير قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقريب منه قوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٤] ونحو قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

الرابع أن قرب الرب تعالىٰ إنما ورد خاصًّا لا عامًّا، وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة، ومن مطيعه بالإثابة، ولم يجئ القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة، فليس في القرآن ولا في السنة. أن الله قريب من كل أحد، وأنه قريب من الكافر والفاجر، وإنما جاء خاصًّا بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا قريب من داعيه وسائله»...

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس.

أحدهما: أنه قربه بعلمه، ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان، وحبل الوريد حبل العنق، وهو عرق بين الحلقوم والودجين، الذي متىٰ قطع مات صاحبه وأجزاء القلب، وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء.

والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته، الذين يصلون إلىٰ قلبه، فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا.

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] فإن جبريل ﷺ هو الذي قصه عليه بأمر الله، فنسب تعليمه إليه، إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه، كما في

صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتىٰ يقضيها.

قلت: أول الآية يأبىٰ ذلك، فإنه قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] قال: وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب وتخليق الملائكة. قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ في تخليق النطفة: «**فيقول الملك الذي يخلقه: يارب ذكر أم أنثىٰ؟ أسوىٰ أم غير سوىٰ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك**»(١) فهو سبحانه الخالق وحده، ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه، فما ثم خالق علىٰ الحقيقة غيره.

***

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

(٢)قال: وشر حركات الجوارح حركة اللسان، وهي أضرها علىٰ العبد. واختلف السلف والخلف: هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ علىٰ قولين: أظهرهما الأول. وقال بعض السلف: «كل كلام بن آدم عليه لا له، إلاّ ما كان من ذكر الله وما والاه»(٣)، وكان الصديق ﷺ يمسك بلسانه، ويقول: هذا أوردني الموارد(٤)، والكلام

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٩٥) ومسلم (رقم ٢٦٤٦) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٤٧).

(٢) ٢١٦ الجواب الكافي.

(٣) فعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله تعالىٰ**» أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥) وفي الصمت (رقم ١٤) وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٦٠-١٦١).

(٤) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١/ ٧٥-٧٦ رقم ٣) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٠ رقم ٢٦٥٠٠) وأبو يعلىٰ (١/ ١٧ رقم ٥) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٤٤ رقم ٤٩٤٧) وهناد في الزهد (٢/ ٥٣١ رقم ١٠٩٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٦٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٧) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ١٩) وفي الورع (رقم ٩٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٢): رواه أبو يعلىٰ ورجاله رجال الصحيح غير موسىٰ بن محمد بن حيان وقد وثقه ابن حبان.

أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أسيره. والله عند لسان كل قائل: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٨]. وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص العبد من احدهما لم يخلص من الأخرىٰ. آفة الكلام وآفة السكوت وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرىٰ في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف علىٰ نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط هم أهل الصراط المستقيم، كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترىٰ أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله ﷻ وما اتصل به.

(١)قاعدة جليلة: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلّم به سبحانه منه إليه، فإنّه خطاب منه لك، علىٰ لسان رسوله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ ﴾.

وذلك أن تمام التأثير لمّا كان موقوفا علىٰ مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتقاء المانع الذي يمنع منه، تضمّنت الآية بيان ذلك كلّه بأوجز لفظ وأبينه، وأدلّه علىٰ المراد.

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلىٰ ما تقدّم من أوّل السورة إلىٰ ها هنا، وهذا هو المؤثّر. قوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠] أي حيّ القلب ، وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي وجّه سمعه

---

(١) ٣ فوائد.

وأصغى حاسّة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثّر بالكلام. وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه. وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب، وغيبته عن تعقّل ما يقال له، والنظر فيه وتأمّله. فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكّر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداة «أو» في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، والموضع موضع واو الجمع لا موضع «أو» التي هي لأحد الشيئين.

قيل: هذا سؤال جيّد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بـ«أو» باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه، تام الفطرة، فإذا فكّر بقلبه، وجال بفكره، دلّه قلبه وعقله على صحّة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]. وقال في حقّهم: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥] فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحيّ الواعي.

قال ابن القيّم[1]: وقد ذكرنا ما تضمّنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب

(١) كذا بالمطبوعة، ولعله سهو من الناسخ.

اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطّلة والجهميّة. فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن، فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرأها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلى شاهد يميّز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمّله، والتفكر فيه، وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول: حال من رأى بعينيه ما دعي إليه وأخبر به.

والثاني: حال من علم صدق المخبر وتيقّنه، وقال يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأوّل في مقام الإحسان. وهذا قد وصل إلى علم اليقين، وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام، فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة، فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين. وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين في المرتبتين.

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي، ويغني عن كلام أهل الكلام، ومعقول أهل المعقول.

فإنها تضمّنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوّة والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالك شقي، وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء.

وتضمّنت إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب. وذكر فيها القيامتين الصغرى والكبرى، والعالمين: الأكبر، وهو عالم الآخرة، والأصغر وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته، وحاله عند وفاته ويوم معاده وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه، يحصون

عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة، ومعه سائق يسوقه إليه، وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ٢٣]. أي هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[ق: ٢٤]. كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقّه.

وتأمّل كيف دلّت السورة صريحا على أن الله ﷻ يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذّبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذّب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها، كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنا غير هذا البدن من كل وجه، عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عندهم عرض من أعراض البدن، فيخلق روحا غير هذه الروح، وبدنا غير هذا البدن.

وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل، ودلّ عليه القرآن والسنّة وسائر كتب الله تعالى، وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد، وموافقة لقول من أنكره من المكذبين، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئًا بعد شيء! فكل وقت يخلق الله سبحانه أرواحا وأجساما غير الأجسام التي فنيت، فكيف يتعجّبون من شيء يشاهدونه عيانا؟ وإنما تعجّبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزّقهم البلى، وصاروا عظاما ورفاتا، فتعجّبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا قالوا: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾[ق: ٣].

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق: ٤]. كبير معنى. فإنه سبحانه جعل هذا جوابًا لسؤال مقدّر، وهو: أنّه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت

بالأرض، واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميّز، فأخبر سبحانه بأنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرّقها، وتأليفها خلقًا جديدًا، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه، وكمال قدرته، وكمال حكمته، فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميّز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص.

الثاني: أن القدرة لا تتعلّق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئًا بعد شيء، هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر. فإمّا أن يميت النوع الإنساني كله، ثم يحييه بعد ذلك، فلا حكمة في ذلك. فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنيّة على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه، كما قال في جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]. وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [الحج: ٦].

ويجمع سبحانه بين الأمرين، كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾

[الدخان: ٣٨]. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

ولهذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزّه عمّا يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنواقص.ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لمّا كذّبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها، وهيّأها بالبسط لما يراد منها، وثبّتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا تأمّلها العبد المنيب، وتبصّر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، فالناظر فيها يتبصّر أولًا، ثم يتذكر ثانيًا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكّر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم، وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه، حتى أنبت به جنّات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوّع أجناسها، وأنبتت به الحبوب كلها على تنوعها، واختلاف منافعها وصفاتها، وأشكالها ومقاديرها. ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾

[قَ: ١١]. أي مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب: خروجكم من الأرض بعد ما غيّبتم فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا: المعالم وبيّنا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل سبحانه إلىٰ تقرير النبوّة بأحسن تقرير، وأوجز لفظ، وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلىٰ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلا فكذّبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوّتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلّم ذلك من معلّم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخبارًا مفصّلًا مطابقًا لما عند أهل الكتاب.ولا يرد علىٰ هذا إلا سؤال البهت والمكابرة علىٰ جحد الضروريات، بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان، وتناقلته القرون قرنا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

ثم عاد سبحانه إلىٰ تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]، يقال لكل من عجز عن شيء: عيي به وعيي فلان بهذا الأمر، قال الشاعر:

عيّــوا بأمرهـــــم كما　　عييت ببيضتها الحمامة[1]

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. قال ابن عبّاس: يريد أفعجزنا،

(١) هذا البيت من مجزوء الكامل، ينسب إلىٰ سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي، كان فارساً وكان في شعره حكمة وجودة مات سنة ٢٣قبل الهجرة، وينسب أيضاً إلىٰ يزيد بن مفرغ الحميري اليمني ولد بالبصرة ونشأ بها وعرف العربية والفارسية مات سنة ٦٩هـ. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٥/ ١١٣) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٩) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٩٨) ونسبه الأولان إلىٰ عبيد بن الأبرص.

وكذلك قال مقاتل:

قلت: هذا تفسير بلازم اللفظة، وحقيقتها أعم من ذلك، فان العرب تقول: أعياني أن أعرف كذا، وعييت به إذا لم تهتد لوجهه، ولم تقدر على معرفته وتحصيله، فتقول: أعياني دواؤك إذا لم تهتد له، ولم تقف عليه. ولازم هذا المعنى العجز عنه. والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فان الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال، فهي تنقلها من مكان إلى مكان، وتحار أين تجعل مقرّها، كما هو حال من عي بأمره، فلم يدر من أين يقصد له، ومن أين يأتيه، وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنّه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]. ثم أخبر سبحانه أنّهم: ﴿ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥]. أي أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا.

ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيّته وأدلّة المعاد، وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد.وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدميّة بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء. فلو أنصف العبد لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته. ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به، حتى علم وساوس نفسه، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق.

وقال شيخنا: المراد بقول نحن، أي ملائكتنا، كما قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨]. أي إذا قرأه عليك رسولنا جبريل.

قال: ويدل عليه قوله: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ ﴾ [ق: ١٧] فقيد القرب المذكور بتلقّي الملكين، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقي الملكين، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطّل. ثم أخبر سبحانه أن على يمينه و شماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال، التي هي أقل وقوعًا، وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

ثم أخبر عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق، وهو لقاؤه ﷻ، والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى.ثم ذكر القيامة الكبرى بقول: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٠].

ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله ﷻ ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه، وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه، وغير شهادة الأرض التي كان عليها له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين. فإن الله ﷻ يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرّد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين. ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم، وشهادة البيّنة، لا بمجرّد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بيّنة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه، وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ [ق: ٢٢]، ولم يقل عنه، كما قال: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ [فصلت: ٤٥]، ولم يقل: في شك فيه، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجئ في الفعل، فلا يقال غفلت منه، ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه، فهو مبدأ غفلته وشكّه، وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلة عنه، وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ

للغفلة والشك. ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم، كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح. فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، يكتب عمله. وقوله يقول لمّا يحضره: هذا الذي كنت وكّلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، هذا قول مجاهد. وقال ابن قتيبة: المعنى: هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي.

والتحقيق: أن الآية تتضمّن الأمرين، أي هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيت عليه. فحينئذ يقال: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق: ٢٤]، وهذا إما أن يكون خطابًا للسائق والشهيد، أو خطابًا للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا. وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة، ثم أجري الوصل مجرى الوقف. ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفار لنعم الله وحقوقه، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفّار برسله وملائكته، كفار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق يدفعه جحدًا وعنادًا.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير، الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات، والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه، ولا لبني جنسه، كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس، ظلوم غشوم، معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أي صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله، قد اتّخذ مع الله إلها آخر يعبده، ويحبه، ويغضب له، ويرضىٰ له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشيطان، ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله. فيقول قرينه: لم يكن لي قوّة أن أضلّه وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد، اختاره لنفسه، وآثره علىٰ الحق، كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وعلىٰ هذا، فالقرين هنا هو شيطانه، يختصمان عند الله.

وقالت طائفة: بل قرينه ها هنا هو الملك، فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغىٰ، وأنه لم يفعل ذلك كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهله حتىٰ يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة علىٰ ما عمل ولا أعجلته عن التوبة: ﴿وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[ق: ٢٧]. فيقول الرب تعالىٰ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾[ق: ٢٨].

وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي «الصافّات» و«الأعراف»، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة «الزمر»، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة «الشعراء»، وسورة «صٓ».

ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدّل القول لديه، فقيل: المراد بذلك قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[السجدة: ١٣]. ووعده لأهل الإيمان بالجنة، وأن هذا لا يبدل ولا يخلف.

قال ابن عبّاس: يريد ما لوعدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي. قال مجاهد: قد قضيت ما أنا قاض. وهذا أصح القولين في الآية.

وفيها قول آخر: إن المعنىٰ ما يغيّر القول عندي بالكذب والتلبيس، كما يغيّر عند الملوك والحكّام. فيكون المراد بالقول قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة، قال الفراء: المعنىٰ ما يكذب عندي لعلمي بالغيب. وقال ابن قتيبة: أي ما يحرف القول عندي، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه. قال: لأنه قال القول عندي، ولم يقل

قولي، وهذا كما قال: لا يكذب عندي.

فعلى القول الأوّل يكون قوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، من تمام قوله: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾ [ق: ٢٩]. في المعنى، أي ما قلته ووعدت به لا بد من فعله. ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين.أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه. وكمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده.ثم أخبر عن سعة جهنّم، وأنها كلّما ألقي فيها تقول: ﴿ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ ﴾[ق: ٣٠]. وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي ليس من مزيد؟ والحديث الصحيح يردّ هذا التأويل. ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

إحداها: أن يكون أوابا، أي رجّاعا إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره.قال عبيد بن عمير: الأوّاب الذي يتذكر ذنوبه، ثم يستغفر منها.وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخفاء استغفر منه. وقال سعيد بن المسيّب: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية: أن يكون حفيظا، قال ابن عبّاس: لما ائتمنه الله عليه وافترضه. وقال قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقّه ونعمته. ولما كانت النفس لها قوّتان: قوة الطلب وقوة الإمساك، كان الأواب مستعملًا لقوة الطلب في رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته. والحفيظ مستعملًا لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه.فالحفيظ الممسك نفسه عما حرّم عليه، والأوّاب المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [ق: ٣٣]، يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد. ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه. ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

الرابعة: قوله ﴿ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾ [قٓ: ٣٣]. قال ابن عباس: راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله. وحقيقة الإنابة: عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه.

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝ ﴾ [قٓ: ٣٤، ٣٥].

ثم خوّفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم، وأنهم كانوا أشد منهم بطشا، ولم يدفع عنهم الهلاك شدّة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلّبوا وطافوا في البلاد، وهل يجدون محيصا ومنجى من عذاب الله؟. قال قتادة: حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركا. وقال الزجاج: طوّفوا وفتشوا فلم يروا محيصا من الموت. وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر: ﴿ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [قٓ: ٣٧].

ثم أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام، ولم يمسه تعب ولا إعياء تكذيب لأعدائه من اليهود، حيث قالوا: إنه استراح في اليوم السابع.

ثم أمر نبيه بالتأسي به ﷺ في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود إنه استراح: ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه.

ثم أمره بما يستعين به على الصبر، وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وبالليل وأدبار السجود. فقيل هو الوتر. وقيل: الركعتان بعد المغرب.

والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر وعلي وأبي هريرة والحسن بن علي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة: أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.ثم ختم السورة بذكر المعاد، ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر.

وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَق بالبعث، ولقاء الله: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ كما تشقق عن النبات، فيخرجون: سراعًا من غير مهلة ولا بطء: ذلك حشر يسير عليه سبحانه.

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمّن مجازاته لهم بقولهم، إذ لم يخف عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهّار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده، فهو الذي ينتفع بالتذكير، وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير.

***

﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(١)أي لا أؤاخذ عبدًا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله: ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله ﷻ عنه.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧].

(٢)قلت: جعل الله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدها: أن يكون له قلب حي واعٍ، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغى بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١.

(٢) ٢٣١ مدارج جـ٣.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له، وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحدق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولًا بغير ذلك، فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه،ولكن قلبه كله في موضع آخر: لم يدركه. فكثيرًا ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره، فلا تشعر بمروره، فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء[1].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة قٓ

والحمد لله رب العالمين



(١) تقدم في سورة الحج نقلًا عن المدارج ص ٢٤٦ جـ٣ بحث جامع مفيد جدًا على قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦]. (ج).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ ﴾.

(١)أقسم بالذاريات وهي الرياح تذرو المطر، وتذرو التراب، وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف: ٤٥] أي تفرقه وتنشره، ثم بما فوقها، وهي السحاب. الحاملات وقرا، أي ثقلا من الماء، وهي روايا الأرض، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب.

الرياح كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله جالس في أصحابه، إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: **«هل تدرون ما هذا»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه»**(٢).

ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك، وهي الجاريات يسرًا، وهي النجوم التي من فوق الغمام و﴿ يُسْرًا ﴾ أي مسخرة مذللة منقادة. وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جريًا سهلا، ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا رحمه الله القول الأول، وقال: هو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله، الذي أمرت به بين خلقه.

والصحيح: أن المقسمات أمرًا لا تختص بأربعة.

وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب، وأنواع العقوبة على من خالف الرسل.

---

(١) ١٧٤ التبيان.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٩٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٤ رقم ٥٧٨) وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٢٤٩) وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله. وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله. وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهم المدبرات أمرًا، وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم، والله أعلم.

وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته، ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها، ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها.

فللمطر خمسة رياح: ريح ينشر سحابه، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه.

وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح، وذلك تقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها، يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاء تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذابا تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يعطبها بها، وتارة ينجي بها السفن وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان وتارة تذيبها، وتارة عقيما وتارة لاقحة، وتارة جنوبا وتارة دبورا، وتارة صبا وتارة شمالا، وتارة حارة وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسار بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الأذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجزر، وهي من روح الله، تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب.

وهي أقوى خلق الله، كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **«لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فقال بها عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، وقالوا: يا رب هل من خلقك شيء**

أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الريح قال: نعم ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله»(١) ورواه الإمام أحمد في مسنده، وفي الترمذي في حديث قصة عاد: أنه لم يرسل عليهم من الريح، إلا قدر حلقة الخاتم، فلم تذر من شيء أتت عليه، إلا جعلته كالرميم، وقد وصفها الله بأنها عاتية، قال البخاري في صحيحه: عتت على الخزنة: فلم يستطيعوا أن يردوها.

والمقصود: أن الرياح أعظم من آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح فتحمله على متونهما، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان، فأنشاه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه.

فسل السحاب: من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم، فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلًا، ولو شاء لأمسكه عنهم، فلا يجدون إليه وصولا، فإن لم يجبك حوارًا أجابك اعتبارًا،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٦٩) والضياء في المختارة (٦/ ١٥٣رقم ٢١٤٩) وأحمد (٣/ ١٢٤) وأبو يعلى (٧/ ٢٨٦ رقم ٤٣١٠) وعبد بن حميد (رقم ١٢١٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٤٤١) وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢/ ١٤٧).

وسل الرياح من أنشأها بقدرته، وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرًا بين يدي رحمته؟ جعلها سببًا لتمام نعمته، وسلطانًا على من شاء بعقوبته، ومن جعلها رخاء وذارية ولاقحة ومثيرة ومؤلفة ومغذية لأبدان الحيوان والشجر والنبات، وجعلها قاصفًا وعاصفًا ومهلكة وعاتية إلى غير ذلك من صفاتها؟ فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر وله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وسل الجاريات يسرا من السفن: من أمسكها على وجه الماء؟ وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها، ولو نقص عنه لعاقها؟

ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يمينا وشمالا تتلاعب بها الريح؟

ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم، الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى بلده، يشق الماء، ويمخره مقبلًا ومدبرًا بريح واحدة، تجري في موج كالجبال ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤]، ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟

وسل الجاريات يسرا من الكواكب والشمس والقمر: من الذي خلقها وأحسن خلقها؟ ورفع مكانها وزين بها قبة العالم، وفاوت بين أشكالها ومقاديرها وألوانها وحركاتها وأماكنها من السماء.

فمنها الكبير، ومنها الصغير والمتوسط والأبيض والأحمر والزجاجي اللون والدري اللون، والمتوسط في قبة الفلك، والمتطرف في جوانبها، وبين ذلك، ومنها ما

يقطع الفلك في شهر، ومنها ما يقطعه في عام، ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاما، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك ومنها ما لا يزال ظاهرًا لا يغيب بحال، فهو أبدي، ومنها أبدي الخفاء، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء، ومنها ما له حركتان حركة عرضية من المشرق إلى المغرب وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق، فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع، وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي، وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد، كما تدل على المبدأ وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله.

فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر، فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه، وقدرته وعلمه وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة، ودلالتها على هذه المطالب، لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية، فهي هداية في هذا وهذا.

وأما دلالة ﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾ وهم الملائكة، فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد، إنما هو على أيدي الملائكة.

فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شئون العالم طائفة.

هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ

أوامره في أقطار العالم...

(١)...فكل حركة في السموات والأرض: من حركات الأفلاك، والنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والسحاب، والنبات، والحيوان، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥] وقال: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤]، وهي الملائكة عند أهل الإيمان، وأتباع الرسل عليهم السلام، وأما المكذبون للرسل، المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم، وقد أشبعنا الرد على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه، وملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته...

***

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ ﴾.

(٢)...ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب، فقال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات: ٥] أي ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الذاريات: ٦] أي إن الجزاء لكائن لا محالة.

ويجوز أن تكون ما موصولة والعائد محذوف، والمعنى الذي توعدونه لصادق، أي كائن وثابت وأن تكون مصدرية أي إن وعدكم لحق وصدق ووصف الوعد بكونه

---

(١) ١٢٥ إغاثة جـ٢.

(٢) ١٧٩ التبيان.

صادقًا أبلغ من وصفه بكونه صدقًا، ولا حاجة إلىٰ تكلف جعله بمعنىٰ مصدوق فيه، بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، فوصف كلامه بأنه صادق، وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قاتم، ونهار صائم، وماء دافق، ومنه ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٢١] وليس ذلك بمجاز ولا مخالف لمقتضىٰ التركيب، وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالا عليه مرشدًا إليه.

ثم أقسم سبحانه ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ [الذاريات: ٧] أصل الحبك في اللغة إجادة النسج، يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل، وفرس محبوك الكفل، أي مدمجه، وقال شمر: المحبوك في اللغة: ما أجيد عمله. ودابة محبوكة إذا كانت مدمجة الخلق. وقال أبو عبيدة والمبرد: الحبك الطريق واحدها حباك، وحباك الحمام: طرائق علىٰ جناحيه وحبك الماء طريقه. وقال الفراء: الحبك تكسير كل شيء: كالرمل إذا مرت به الريح، والماء الدائم إذا مرت به الريح، وتجعد الشعر حبك أيضًا، واحدها حبيكة، مثل طرق وطريقة، وحباك مثل مثال ومثل.

والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس، فقال: يريد الخلق الحسن. وروىٰ سعيد بن جبير عنه قال: الحبك حسنها واستواؤها. وقال قتادة: ذات الخلق الشديد. وقال مجاهد: متقن البنيان، وقال أيضًا: ذات الطرائق.

ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها، كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل وكحبك الشعر، وقال عكرمة بنيانها كالبرد المسلسل.

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال: ورأسه حبك، أي جعد الشعر، ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**هل تدرون ما فوقكم**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنها الرقيع سقف محفوظ، وموج مكفوف**»[1] وذكر الحديث.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٩٨) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٣٥ رقم ٢٦٦٥).

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] فالقول المختلف: أقوالهم في القرآن، وفي النبي ﷺ، وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ ﴾ [ق: ٥] أي: مختلط ملتبس، وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة، يكذب بعضها بعضًا بسبب تكذيبهم بالحق. ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فعن ههنا فيها طرف من معنىٰ التسبيب كقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود: ٥٣].

وقوله: ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي من سبق في علم الله أنه يضل ويؤفك كقوله: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] وقالت طائفة: الضمير يرجع إلىٰ القرآن، وقيل: إلىٰ الإيمان، وقيل: إلىٰ الرسول، والمعنىٰ: يصرف عنه من صرف حتىٰ يكذب به.

ولما كان هذا القول المختلف خرصًا وباطلًا قال: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ أي: المكذبون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١] وجهالة قد غمرت قلوبهم أي غطتها وغشتها كغمرة الماء وغمرة الموت، فالغمرات ما غطاها من جهل أو هوىٰ أو سكر أو غفلة أو حب أو بغض أو خوف أو غم، ونحو ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [المؤمنون: ٦٣] أي غفلة، وقيل: جهالة ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، والفرق بينه وبين النسيان: أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة، والسهو لا يستلزم ذلك.

***

﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝ ﴾.

[(١)]أما الغمرات فهي جمع غمرة، والغمرة ما يغمر القلب من حب أو سكرٍ أو غفلة، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١] أي: في غفلة قد غمرت قلوبهم، وقال تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٤] ومنه [الماء] الغمر الكثير الذي يغطي من دخل فيه، ومنه غمرات الموت أي شدائده، وكذلك غمرات الحب، وهو [ما] يغطي قلب المحب فيغمره، ومنه قولهم: رجلٌ غمر الرداء ـ كناية عن السخاء، لأنه يغمر العيوب أي يغطيها، فلا يظهر مع السخاء عيب، قال كُثَيِّر:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكًا غلقت لضحكته رقابُ المال[(٢)]

وقال القطامي يصف سفينة نوح:

إلىٰ الجودي حتىٰ صار حجرًا وكان لذلك الغمر انحسار[(٣)]

أي لذلك الماء الذي غمر الأرض ومن عليها.

[(٤)]ثم قال: ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الذاريات: ١٢] استبعادًا للوقوع وجحدًا، فأخبر تعالىٰ أن ذلك ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣] والمشهور في تفسير

(١) ٣٨ روضة المحبين.

(٢) هذا البيت من بحر الكامل، ينسب إلىٰ كثير عزة بن عبد الرحمن بن الأسود بن مليح، شاعر متيم مشهور، ولد في آخر خلافة يزيد بن عبد الملك، اشتهر بحبه لعزة فعرف بها وعرفت وعرفت به، وهي عزة بنت جميل الكنانية، مات سنة ١٠٥هـ ومات معه في نفس اليوم عكرمة مولىٰ ابن عباس رضي الله عنهما فقيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس، ذكره ابن عبدالبر في الاستذكار (٥/ ١٠) وفي التمهيد (٤/ ٢١٠) وابن فورك في مشكل الحديث وبيانه ص ٣١٧) وابن منظور في اللسان (٥/ ٢٩) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٢٥) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٩٢).

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ القطامي التغلبي: عمير بن شييم بن عمرو شاعر الغزل الفحل، كان من نصارىٰ تغلب ثم أسلم، أول من لقب بصريع الغواني مات سنة ١٣٠هـ. وذكر البيت ابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠).

(٤) ١٨٢ التبيان.

هذا الحرف أنه بمعنىٰ يحرقون، ولكن لفظة علىٰ تعطي معنىٰ زائدا علىٰ ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يومهم في النار يفتنون، ولهذا لما علم هؤلاء ذلك، قال كثير منهم علىٰ بمعنىٰ في كما تكون في بمعنىٰ [علىٰ].

والظاهر أن فتنتهم على النار، قيل فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنة وعند دخولهم، والتعذيب بها فتنة أشد منها، ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ [البروج: ١٠] واستشهد علىٰ ذلك أيضا بهذه اللفظة التي في الذاريات، وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق علىٰ العذاب وسببه، ولهذا سمىٰ الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمىٰ جزاءهم فتنة، ولهذا قال: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٤] وكان وقوفهم علىٰ النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها، ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلىٰ النار وقفوا عليها وعرضوا عليها، وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرىٰ التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوىٰ، وهو الجنات والعيون، وأنهم ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من الخير والكرامة.

وفي ذلك دليل علىٰ أمور منها قبولهم له، ومنها رضاهم به، ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق، ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم، فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلىٰ ذلك وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له، والقيام بحقوقه وحقوق عباده، ثم ذكر ليلهم، وأنهم قليل هجوعهم منه،

وقد قيل: إن ما نافية، والمعنى ما يهجعون قليلا من الليل، فكيف بالكثير، وهذا ضعيف لوجوه:

أحدها: أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.

الثاني: أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله.

الثالث: أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله ﷺ وما قام ليلة حتى الصباح.

الرابع: أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل، لا في الليل كله، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٩].

الخامس: أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف أو النقصان منه أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاثة، ولم يذكر قيامه كله.

السادس: أنه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء، فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وأفطر، وصل ونم»(١). ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله، حتى جعلت حبلًا بين ساريتين إذا فترت تعلقت به، أنكر ذلك، وأمر بحله(٢).

السابع: أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي - الذي سببه قلق القلب واضطرابه، حتى يقوم إلى الصلاة - بقرة الأعين.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٣٦٩) وأحمد (٦/ ٢٦٨) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٤٩٣) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٠١): وأسانيد أحمد رجالها ثقات.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٨٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٦) وشرح النووي (٦/ ٧٢).

الثامن: أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل، أصلا فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] قال: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء.

التاسع: أن في هذا التقرير تفكيكًا للكلام، وتقديما لمعمول العامل المنفي عليه، لأنك تجعل قليلًا مفعول يهجعون، وهو منفي، والبصريون لا يجيزون ذلك، وإن أجازه الكوفيون، وفصل بعضهم، فأجازه في الظرف، ولم يجزه في غيره.

***

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

[(١)] أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر. فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة، فباتوا لربهم سجدًا وقيامًا، ثم تابوا إليه، واستغفروه عقيب ذلك، وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثًا. وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار، وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

[(٢)] ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون، وقال النبي ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد»[(٣)].

---

(١) ١٨٤ التبيان.

(٢) ٢٦٢ مدارج السالكين جـ١.

(٣) أخرجه ابن حبان (٩/ ٦ رقم ٣٦٩٣) وابن خزيمة (٤/ ١٣٠ رقم ٢٥١٢) والضياء في المختارة (٨/ ١٩٧ رقم ٢٢٨) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣٢٢ رقم ٣٦٠٩) وابن ماجه (رقم ٢٨٨٧) والترمذي (رقم ٨١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٩٨).

وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»(١).

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثارًا منها. وفي الحديث الصحيح الإلهي: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(٢). فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته، لا لأهل الفناء المستغرقين في شهود الربوبية.

وقال ﷺ لآخر: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»(٣).

***

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(٤)...أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم، فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ضد ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون: ٥، ٦] وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم، الذي

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٩٦ رقم ٨١٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣١٧) والترمذي (رقم ٣٣٧٥) والبيقهي في الكبرى (٣/ ٣٧١ رقم ٦٣١٨) وابن ماجه (رقم ٣٧٩٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٨ رقم ٢٩٤٥٣) وأحمد (٤/ ١٨٨) والحاكم (١/ ٦٧٢ رقم ١٨٢٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر فتح الباري (١٠/ ٤٦٢) (١١/ ٣٤٤-٣٤٧) وشرح النووي (١٥/ ١٥١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٨) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٤) ١٨٥ التبيان.

لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل.

وتأمل حكمة الرب تعالىٰ في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.

ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والنفسية، فقال: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] فآيات الأرض أنواع كثيرة.

منها: خلقها وحدوثها بعد عدمها، وشواهد الحدوث والافتقار إلىٰ الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها.

ومنها: بروز هذا الجانب فيها عن الماء مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغمورًا به.

ومنها: سعتها وكبر خلقها ومنها تسطيحها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ٢٠] ولا ينافي ذلك كونها كرية، فهي كرة في الحقيقة، لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها: أنه جعلها فراشا، لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعلها قرارًا.

وجعلها مهادًا ذلولًا، توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول والفئوس، وتحمل علىٰ ظهرها الأبنية الثقال، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها.

وجعلها بساطًا، وجعلها كفاتًا للأحياء، تضمهم علىٰ ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها، وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج.

ونبه بجعلها مهادا وفراشا علىٰ حكمته في جعلها ساكنة، وذلك آية أخرىٰ، إذ لا دعامة تحتها تمسكها، ولا علاقة فوقها، ولكنها لما كانت علىٰ وجه الماء كانت تكفأ فيه تكفأ السفينة، فاقتضت العناية الأزلية والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها، لئلا تميد، وليستقر عليها الأنام، وجعلها ذلولًا علىٰ الحكمة في أن لم تكن في

غاية الصلابة والشدة كالحديد، فيمتنع حفرها وشقها والبناء فيها والغرس والزرع والنوم عليها والمشي فيها.

ونبه بكونها قرارًا على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة، فلا تمسك بناء، ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة، بل جعلها بين الصلابة والدماثة.

وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب والفضة والياقوت والزمرد، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر، وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أعلى وأعز، فغلاؤها وعزتها لقلتها، وإلا فالتراب أنفع منها وأبرك وأنفس.

وكذلك لم يجعلها شفافة، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور، وما كان كذلك لم يقبل السخونة، فيبقى في غاية البرد، فلا يستقر عليه الحيوان، ولا يتأتى فيه النبات. وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف، فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء، فصلحت أن تكون مستقرًا للحيوان والأنام والنبات.

ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي أبرز له جانبها كما تقدم، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه، وأنشا منها طعامه وقوته، وكذلك خلق منها النوع الإنساني، وأعاده إليها ويخرجه منها.

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات متلاصقة، فهذه سهلة، وهذه حزنة تجاورها وتلاصقها، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت، وهذه تربة وتلاصقها رمال، وهذه صلبة ويلاصقها ويليها رخوة، وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء، وهذه حصى كلها ويجاورها أرض لا يوجد فيها

حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره، وهذه سبخة مالحة وهذه بضدها، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم وهذه مسجرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلا على المطر، وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة، وهذه لا ينفعها المطر، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوَّعها هذه التنوع، ومن فرَّق أجزاءها هذا التفريق، ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به، ومن ألقى عليها رواسيها، وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى، ومن أمسكها عن الزوال، ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها، ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها، ومن هيأها مسكنا ومستقرا للأنام، ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده إليها ثم يخرجه منها، ومن جعلها ذلولًا غير مستصعبة ولا ممتنعة، ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها، ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات، ومن بسطها وفرشها ومهدها وذللها وطحاها ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها، ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم أو يخسفها بمن عليها، فإذا هي تمور، ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات، بل أنشأ منها آدم ونوحا وإبراهيم وموسى وعيسى محمدًا صلى الله وسلم عليهم أجمعين، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين، ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان، ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة كما نشاهده في الصيف، فاحترقت أبدان الحيوان والنبات.

وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم. ومن الذي جعل فيها

الجنات والحدائق والعيون، ومن الذي جعل باطنها بيوتا للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء، ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء، ثم يرسل عليها الريح، ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلىٰ باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق، ثم عظم ذلك الولد حتىٰ لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة، لعلها تبلغ في الصغر إلىٰ الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم، فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة علىٰ وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله، وعلىٰ صدق رسله فيما أخبروا به عنه بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور.

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها، وحاجة بعضها إلىٰ بعض، وانفصال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة علىٰ أنها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة حادثة بعد عدمها، فقيرة إلىٰ موجد غنيّ عنها، مؤثر غير متأثر، قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلىٰ ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم علىٰ المبادرة إلىٰ رضوانه وجنته.

فانظر إلىٰ الماء والأرض كيف لما أراد الرب تعالىٰ امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح فحركت الماء وساقته إلىٰ أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة

سماوية، وحصل بها الإنبات، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته، فحرارة الربيع للإخراج، وحرارة الصيف للإنضاج هذا، وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد، والأولاد في غاية التباين والتنوع، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

فهذا بعض آيات الأرض، ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه، التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم، كما قال تعالى ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال في قوم لوط: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٦] أي: بطريق ثابت لا يزول عن حاله، وقال: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون، وقال تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال عن قوم عاد: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ [طه: ١٢٨].

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لا عدة له ولا عدد ولا مال، فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم أو أكثرهم على تكذيبه ومعاداته، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين

بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه. والهالكون أضعاف أضعاف أضعافهم عددا وقوة ومنعة وأموالًا:

فيالك من آيات حق لو اهتدىٰ ... بهن مريد الحق كن هواديا

ولكن علىٰ تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا إن كانوا علىٰ الحق، وهم أكثرهم عددًا وأقوىٰ شوكة - بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل.

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم وأدلة نبوتهم يحدثها الله ﷻ في الأرض، إقامة للحجة علىٰ من لم يشاهد تلك الآيات، التي قاربت عصر الرسل، حتىٰ كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره، كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لا بد أن يرىٰ الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن رسله صادقون، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها علىٰ الكثير.

ثم قال ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١] لما كان أقرب الأشياء إلىٰ الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلىٰ التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد علىٰ ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه إذا يجده مكونا من قطرة ماء: لحوما منضدة، وعظاما مركبة، وأوصالا متعددة، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب، قد قمطت وشدت،

وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا، ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنائع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها، وجعل داخل بابي السمع مرًّا قاتلًا، لئلا تلج فيها دابة، تخلص إلى الدماغ فتؤذيه، وجعل داخل بابي البصر مالحا لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم، وجعل داخل باب الطعام والشراب حلوًا ليسيغ به ما يأكله ويشربه، فلا يتنغص به لو كان مرًّا أو مالحًا.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء، مركبين في أعلى مكان منه، وفي أشرف عضو من أعضائه طليعة له.

وركب هذا النور في جزء صغير جدا، يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وغشاه بسبع طبقات، وثلاث رطوبات، بعضها فوق بعض، حماية له وصيانة وحراسة، وجعل على محله غلقا بمصراعين أعلا وأسفل، وركب في ذيل المصراعين أهدابا من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالا، وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر، يحجبان العين من العرق النازل، ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك.

وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلًا مخصوصًا، ولكل واحد من الرطوبات مقدارًا مخصوصًا، لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة، وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوي والسفلي، مع اتساع أطرافه وتباعد أقطاره.

واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضا وسوادا، وجعل القوة الباصرة في

السواد، وجعل البياض مستقرا لها ومسكنا، وزين كلا منهما بالآخر، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب، كما تقدم، والحواجب بالأهداب، وجعلها سوداء، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر فضعف الإدراك، فإن السواد يجمع البصر، ويمنع من تفرق النور الباصر، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعا وعشرين عضلة، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين.

ولما كانت العين كالمرآة التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جدا بالطبع إلى الانطباق من غير تكلف، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفانا، فإنها لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات. وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه، فيوصلانه إليه كما تريانه، جعلهما مرآتين للقلب، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، الزيغ والاستقامة، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة، وهي فراسة العين، وفراسة الأذن، وفراسة القلب، فالعين مرآة للقلب وطليعة ورسول.

ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء، وأبعدها تأثرا بالحر والبرد، على أن الاذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطافتها، وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان، فإنها لو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة.

ومن ذلك الأذنان شقهما تبارك وتعالى في جانبي الوجه وأودعهما من الرطوبة ما يكون معينا على إدراك السمع، وأودعهما القوة السمعية.

وجعل سبحانه في هذه الصدفة. انحرافات واعوجاجات، لتطول المسافة قليلا، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته، فلا يصدمها وهلة واحدة، فيؤذيها، وأيضا لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك

الانعطافات وقف هناك، فسهل إخراجه.

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان.

وأما الأذنان فكان جعلهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن شماله سواء، فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة.

وخلقت العينان بغطاء، والأذنان بغير غطاء، وهذا في غاية الحكمة، إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء، والصوت عرض لا ثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء بخلاف ما تراه العين، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين.

وجعل سبحانه الأذن عضوا غضروفيا ليس بلحم مسترخ ولا عظم صلب، بل هي بين الصلابة واللين، فتقبل بلينها وتحفظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثر بالحر والبرد والشمس والسموم تأثر اللحم، إذ المصلحة في بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار.

ومن ذلك الأنف نصبه سبحانه في وسط الوجه قائما معتدلا في أحسن شكل وأوفقه للمنفعة، وأودعه حاسة الشم التي يدرك بها الروائح وأنواعها...[1]

[2]وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] إرادة لهذين الجنسين، أي رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير، وإن تبدلت عين السماء والأرض فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(١) بحث المؤلف بحثًا مطولًا، فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

(٢) ١١٦ بدائع جـ١.

[التغابن: ١] في جميع الصور لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ [الإسراء: ٤٤] مجموعة إخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد، ولم يقتصر على السماوات فقط، بل قال: ﴿ٱلسَّبْعُ﴾.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فالرزق المطر وما وعدنا به الجنة، وكلاهما في هذه الجهة، لا أنهما في كل واحدة واحدة من السماوات، فكان لفظ الإفراد أليق بها، ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة من السماوات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها، بل المراد الوصف، وهذا باب قد فتحه الله لي ولك فلجه وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه جمعا وإفرادا وتقديمًا وتأخيرًا إلى غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه.

***

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

(١)...من تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت، كما أن سائر الموجودات ما يرىٰ منها وما لا يرىٰ حق، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣] أي: إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «**إنه لحق مثل ما أنك ههنا**» فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون، لدلكم ذلك علىٰ أن القرآن حق.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهرًا وباطنًا، ففي ذلك أبين دلالة علىٰ وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه(٢).

(٣)ورأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله، حيث

---

(١) ١١٠ التبيان.

(٢) هذا جزء من تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨] وهو بكامله موجود في سورة الحاقة. اهـ. (ج).

(٣) ٥٠ التبوكية.

تستولي على الفكر، وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكنا وهو يباري الريح ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

فان قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البيان غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها، وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠]. فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك. ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار. وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت الضيافة وحقوقها وكيف ترعى حق الضيف؟ وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علما عظيماً من أعلام النبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردها إلى العلم والحكمة، وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه؟

وكيف تضمنت الأخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت انه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم

المؤمنون بها وأما من لا يخاف الآخرة، ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة: قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤] افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إن [هل] في مثل هذا الموضع بمعنى [قد] التي تقتضي التحقيق. ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له صدر له الكلام بأداة الاستفهام، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بألا، وتارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكرا به، وإما واعظاً له مخوفا، وإما منبها على عظمة ما يخبر به، وإما مقرراً له، فقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [طه: ٩] و﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ ﴾ [ص: ٢١] و﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾ [الغاشية: ١] و ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ متضمن لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته.

ففيه أمر آخر. وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعمله أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده، يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا. وقوله: ﴿ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم، فإن في المكرمين قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: إنهم مكرمون عند الله، كقوله تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه، إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له، فعلى

كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم. وقوله: ﴿ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٥] متضمن بمدح آخر لإبراهيم، حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلاماً. وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره. سلام دائم، أو ثابت، أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم. والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن. ثم قال: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٥] وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح.

إحداهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم، ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش. وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول: «وما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا».

الثاني: قوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم، كما قال في موضع آخر: ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ [هود: ٧٠] ولا ريب أن قوله: ﴿ مُّنكَرُونَ ﴾ ألطف من أن يقول أنكرتكم. وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٧] متضمن وجوهًا من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف. منها قوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه، ثم يبرز بمرأى منه، ويحل صرة النفقة، ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظة: راغ تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ مدح آخر، لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله، إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

وقوله: ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام، لم يأتهم ببعضه. ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بهمزول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين، فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: ﴿ إِلَيۡهِمۡ ﴾ متضمن المدح وآداباً أخرىٰ، وهو إحضار الطعام إلىٰ بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فيه مدح وآداب أخر، فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول:: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا. وقوله: ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ ﴾ [الذاريات: ٢٨] لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك قالوا: ﴿ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل، لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم، لا يولد لمثلي، فأنىٰ لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده. وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالىٰ: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ ﴾ [الذاريات: ٢٩] فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلىٰ الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام علىٰ ما يتأدىٰ به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ، ولم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت علىٰ ذكر السبب الدال علىٰ عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب. وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ

﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠] متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته. والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال.

فالعلم يتضمن الحياة و لوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب. كل هذا العلم من اسمه الحكيم، كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثا وسُدى وباطلاً، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك. وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة، التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله ومنته على عباده عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما يتثلج له الصدر، ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل. والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته.

اختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

ثم ذكر ﷻ قصة الملائكة في إرسالهم لإهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم. وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم. ثم قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو، إخراج نجاة من العذاب، و لا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا. وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم، لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد. وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور، وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٧] فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم، وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله تعالى، كما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠] فان من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة. وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها، فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه، ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

[1]قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠] وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السعداء، و قرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله ﷻ، وقرار الأشقياء: القرار منه لا إليه، وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فروا منه إليه، واعملوا بطاعته، وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله، وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

[2]قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه، وتحت (من) و(إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، فإن الفرار إليه ـ سبحانه ـ

(١) ٤٦٩ مدارج جـ١.
(٢) ٧١ التبوكية.

يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإن ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فادا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شئ إلى شئ وجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ: **«وأعوذ بك منك»**[(١)] وقوله: **«لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»**[(٢)]، فإنه ليس في الوجود شئ يفر منه ويستعاذ منه ويلتجأ منه إلا هو من الله خلقاً وإبداعا. فالفار والمستعيذ: فار مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه.

ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه. وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية: خوفاً ورجاء ومحبة، فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه، لم يبق في قلبه خوف من غير خالقه وموجده، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله وقدرته، لكان ذلك موجباً لخوفه منه، مثل من يفر من مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذرا أن لا يكون الثاني يفيده منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره.

فتفطن إلى هذا السر العجيب في قوله: **«أعوذ بك منك»** و**«لا ملجأ ولا منجى منك**

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧) ومسلم (رقم ٢٧١٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ١١١-١١٤).

إلا إليك»، فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً، وقل من تعرض منهم لهذه النكتة، التي هي لبّ الكلام ومقصوده، وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه، وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى، ولهذا قال النبي ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1]. ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع، لتلازمهما، واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود: أن الهجرة إلى الله تتضمن: هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر. وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه، وقد بلي بهؤلاء الثلاث، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله ولا ينفك في هجرته إلى الممات.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل. وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً، ولا يتحرك لها إرادة.

والذي يقضي منه العجب: أن المرء يوسع الكلام ويفرغ المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة، ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً. وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس فإنه لا يحصل فيها علما ولا إرادة، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من عشت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال. والله المستعان، وبالله التوفيق، لا إله غيره ولا رب سواه.

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٣-٥٤).

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

...[(١)] ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة كانت وما فيها في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة، وهو سبحانه إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبرًا إليها، يتزود منها عباده إليه، فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمنًا لإقامة ذكره ومفضيًا إلى محابه، وهو العلم الذي به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويمجد، ولهذا خلقها وخلق أهلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما، ليعرف بأسمائه وصفاته، وليعبد، فهذا المطلوب، وما كان طريقًا إليه من العلم والتعلم، فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة، التي تضمن الذم والبغض، فهو متعلق العقاب، والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته، ولوازم ذلك وما أفضى إليه وما عداه، فهو مبغوض له مذموم عنده.

[(٢)] إن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعه إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانًا. فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه قوة، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

---

(١) ٦٩ مفتاح جـ١.
(٢) ٤١ إغاثة جـ١.

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨] وقال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١]. فهو سبحانه لا يوالىٰ من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحسانا ورحمة ومحبة لهم.

أما العباد فإنهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ [محمد: ٣٨]. فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلىٰ بعض لحاجته إلىٰ ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً. ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه. فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلىٰ نفسه، وجعل إحسانه إلىٰ غيره وسيلة وطريقا إلىٰ وصول نفع ذلك الإحسان إليه. فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلىٰ ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره.

هو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلىٰ نفسه بإحسانه إلىٰ الغير. وإما أن يريد الجزاء من الله تعالىٰ فى الآخرة، فهو أيضاً محسن إلىٰ نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلىٰ يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص علىٰ ما ينفعه ولا يعجز عنه، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٧] وقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال تعالىٰ، فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «يَا عِبَادِي: إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، يا عِبَادِي: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُم أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ»[1].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (١٦/ ١٣٢).

[(١)] ويتنصل سبحانه إلى عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٧]، فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه، فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، [حميد] مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمداً، بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه، وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم...

[(٢)] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذايات: ٥٦] فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو سبحانه كما أنه

---

(١) ١٣٥ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٣٩ طريق الهجرتين.

يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ويثنى عليه، ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه»(١). وفي المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال: يا رسول الله، إني حمدت ربي بمحامد فقال: «إن ربك يحب الحمد»(٢).

فهو يحب نفسه، ومن أجل ذلك يثني على نفسه، ويحمد نفسه، ويقدس نفسه، ويحب من يحبه ويحمده ويثني عليه.

بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم، فلا أحد أحب إليه ممن يحبه ويحمده ويثني عليه. ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه، لأنه ينقص هذه المحبة، ويجعلها بينه وبين من أشرك به، ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به، لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة والتسوية فيها بينه وبين غيره، ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه، التي يسقط بها من عينه، وتنقص بها مرتبته عنده إذا كان من المخلوقين.

فكيف يحتمل رب العالمين أن يشرك بينه وبين غيره فى المحبة. والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضى به، ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبدًا، وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات فى حقه، ومتى علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب ولم يقربه إليه. هذا مقتضى الطبيعة والفطرة.

أفلا يستحي العبد أن يسوى بين إلهه ومعبوده وبين غيره في هذه العبودية والمحبة، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٣٤) ومسلم (رقم ٢٧٦٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (١٧/ ٧٧-٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٨٥٩) والضياء في المختارة (٤/ ٢٥٢ رقم ١٤٥١) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٨) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٢ رقم ٨٢٢) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٥): رواه أحمد بتمامه والطبراني بنحوه... وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر سبحانه أن من أحب شيئاً دون الله كما يحب الله فقد اتخذه نداً، وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨].

فهذه تسوية في المحبة والتأليه، لا في الذات والأفعال والصفات.

والمقصود: أنه سبحانه يحب نفسه أعظم محبة، ويحب من يحبه، وخلق خلقه لذلك، وشرع شرائعه، وأنزل كتبه لأجل ذلك، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك، وهذا هو محض الحق الذي به قامت السموات والأرض، وكان الخلق والأمر، فإذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذي خلق له، فرضي عنه صانعه وبارئه وأحبه، إذ كان يحب ويرضى، فإذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته، لأنه خرج عما خلق له، وصار إلى ضد الحال التي هو لها، فاستوجب منه غضبه بدلاً من رضاه، وعقوبته بدلاً من رحمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الذاريات

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾.

[١]تضمن هذا القسم خمسة أشياء، وهي مظاهر آياته، وقدرته، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه ههنا باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة، فقال: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين: ٣] وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه.

قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدثني محمد بن عبيد بن حبان قال حدثنا جعفر بن سليمان قال حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي، قال: أوحى الله ﷻ إلى الجبال إني نازل على جبل منكم، قال فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور، فإنه تواضع، وقال: أرضى بما قسم الله لي. فكان الأمر عليه[٢]. وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به، وإنه لسيد الجبال.

(الثاني) الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب، فقيل: هو اللوح المحفوظ، وهذا غلط، فإنه ليس برق. وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم، وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور، وهذا وإن كان

---

(١) ١٦٥ التبيان.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٦٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٤٩) وياقوت في معجم البلدان (٥/ ١٦٧) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٥٤٣).

أقوى وأصح من القول الأول، واختاره جماعة من المفسرين، ومنهم من لم يذكر غيره فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله، وأقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته وأدلة توحيده وهداية خلقه.

ثم قيل: هو التوراة التي أنزل الله على موسى، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور، فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح، لا في رق، إلا أن يقال هي في رق في السماء، وأنزلت في ألواح.

وقيل: هو القرآن، ولعل هذا أرجح الأقوال، لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة، فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب، ويكون ذلك متضمنا للنبوتين المعظمتين: نبوة موسى ونبوة محمد، وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما، كما في سورة التين والزيتون.

ثم أقسم بسيد البيوت، وهو البيت المعمور، وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوبا مفروغًا منه، وفي وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور. وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي ليلة الإسراء، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض، وقيل هو البيت الحرام، ولا ريب أن كلا منهما معمور، فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود، وعلى كلا القولين، فكل منهما سيد البيوت.

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته وعجائب صنعته، وهما السقف المرفوع، وهو السماء، فإنها من أعظم آياته قدرا وارتفاعا وسعة وسمكا ولونًا وإشراقًا، وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها

انتظامه، ومحل النيرين الذين بهما قوام الليل والنهار والسنين والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف، ومنها تنزل البركات، وإليها تصعد الأرواح وأعمالها وكلماتها الطيبة.

والثاني: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ وهو آية عظيمة من آياته وعجائبه، لا يحصيها إلا الله، واختلف في هذا البحر: هل هو الذي فوق السماوات أو البحر الذي نشاهده على قولين:

فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام، كما في الحديث الذي رواه أبو داود من حديث سماك عن عبد الله بن مخيمرة عن الأحنف بن قيس، قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة فنظر إليها، فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن، قال: «والعنان؟» قالوا: والعنان، قال: «هل تدرون ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندري، قال: «**إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتى عد سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء، إلى سماء ثم الله فوق ذلك**» وهذا لا يناقض ما في جامع الترمذي: «**إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام**»[1] إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسمائة مقدرة بسير الإبل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الإبل سبعة أضعاف، وهذا القول في البحر الذي تحت العرش، محكي عن علي بن أبي طالب.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٢٣) ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في العرش (رقم ٩) وابن عبدالبر في التمهيد (٧/ ١٤٠) والحاكم (٢/ ٥٤٣ رقم ٣٨٤٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. وانظر: عون المعبود (١٣/ ٦-٧).

والثاني أنه بحر الأرض، واختلف في المسجور فقيل المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة، قال الفراء: المسجور في كلام العرب المملوء، يقال سجرت الإناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدَّعا مسجورة متجاورًا قُلَّامها[(١)]

وقال المبرد: المسجور المملوء عند العرب وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة[(٢)]

يريد عينا مملوءة ماء، وكذا قال ابن عباس: المسجورة الممتلئ وقال مجاهد: المسجور الموقد: قال الليث: السجر إيقادك في التنور تسجره سجرا، والسجر اسم الحطب، وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما، قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: مسجور، قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول، لأنك تقول سجرت التنور إذا ملأته حطبًا، وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس: أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه، وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف، وهذا القول اختيار أبي العالية، قال أبو زيد: المسجور المملوء، والمسجور الذي ليس فيه شيء جعله من الأضداد.

وقد روى عن ابن عباس: أن المسجور المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه، والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل وينسب إلى لبيد بن ربيعة العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أسلم ويعد من الصحابة المؤلفة قلوبهم، ترك الشعر ولم يقل إلا بيتاً واحداً، مات سنة ٤١هـ. ذكر هذا البيت الإمام الطبري في تفسيره (١٦/ ٧١) (٢٧/ ١٩) وابن منظور في لسان العرب (٧/ ١٧٦) (٨/ ١٩٤).

(٢) هذا صدر بيت من بحر المتقارب، وعجزه: ترى حولها النبع والساسما، وينسب إلى النمر بن تولب بن زهير، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وهو كبير فأسم ويعد في الصحابة، وكان سيداً معظماً في قومه، توفي سنة ١٤هـ. ذكر البيت الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٩) وابن منظور في اللسان (١٢/ ٢٨٦) والحربي في غريب الحديث (١/ ٤).

على الأرض فيغرقها، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض فوقها، كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعًا: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**»[(١)]. وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية، فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضي تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره.

وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم، هو كما ذكروا، ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وهو أحكم الحاكمين، غير معقولة، فإن العناية الإلهية تقتضي حياته وقدرته ومشيئته وعلمه وحكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وقيام الأفعال به، فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع، وبالله التوفيق.

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد، وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦] قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها، فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال ملئت؛ فإنها تملأ نارًا.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارا، فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني، والله أعلم.

[(٢)]ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٣٨٢ رقم ٥١٦٥) وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٥٢ رقم ٣٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١) وفيض القدير (٥/ ٣٨٤).

(٢) ٢٠٤ مفتاح جـ٢.

من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض، حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها، هذا طبع الماء.

ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وإن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية، التي اقتضت ذلك العيش الحيوان الأرضي في الأرض، وهذا حق، ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله، ولا محيص عنه، وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**».

وهذا أحد الأقوال في قوله عز و جل: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أنه المحبوس، حكاه ابن عطية وغيره، قالوا: ومنه ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد، التي تمسكه، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه، لفاض على الأرض، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض.

وإذا تأملت عجائب البحر، وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها، حتى إن فيها حيوانًا أمثال الجبال لا يقوم له شيء، وحتى إن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها، فيظن أنها جزيرة، فينزل الركاب عليها، فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك، فيعلم أنه حيوان، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلًا، هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان، فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها، وهي الصدفة تكنها وتحفظها، ومنه اللؤلؤ المكنون، وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي.

وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر، هذا مع ما فيه من العنبر، وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه، ثم انظر الى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح، التي يسخرها الله لإجرائها، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣] وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤] فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة، ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرًا.

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

(١) وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض، عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي، ثلاثًا، ثم قضى، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أيامًا ويعاد، يحسبونه مريضًا، وكان في وجهه ﷺ، خطان أسودان من البكاء، وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، وفعل، فقال: وددت أني أنجو، لا

(١) ٤٩ الجواب الكافي.

أجر ولا وزر(١).

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير(٢).

***

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝﴾.

(٣)أقسم سبحانه بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨] ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له، وهذا يتناول أمرين أحدهما: أنه لا دافع لوقوعه. والثاني أنه لا دافع له إذا وقع.

ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠] والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب. والتحقيق: أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء ولهذا فرق بين حركة السماء

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٥١) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٧٧ رقم ١٥٦٦) والطبراني في الأوسط (١/ ١٨١-١٨٣ رقم ٥٧٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٦) ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (٧/ ٦٥-٦٦).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المتمنين (رقم ٧٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٠).
(٣) ١٦٩ التبيان.

وحركة الجبال، فقال: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ وقال: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٣] من مكان إلى مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ وتموج وتذهب وتجيء، قال الجوهري: مار الشيء يمور مورًا ترهيأ أي تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخلة العيدانة أي الطويلة، ومنه قوله: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ قال الضحاك: تموج موجًا. وقال أبو عبيدة والأخفش: تكفأ، وأنشد للأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل(١)

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل وأعمالهم لعب.

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم، وهم يدعون إليها دعا أي يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعا بعد دفع، فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٤]، وتقولون: لا حقيقة لها، ولا من أخبر بها صادق، ثم يقال: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ [الطور: ١٥] الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له، كما قلتم أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا، فلا تبصرون الحق، أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق.

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذي كانوا في الدنيا إذا داهمتهم الشدائد، وأحاطت بهم لجأوا إليه، وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها، فقيل لهم يومئذ: ﴿ فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا

(١) هذا البيت من بحر البسيط، ينسب إلى الأعشى: ميمون بن قيس، وقد سبق التعريف. والبيت ذكره الطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٠) وابن منظور في اللسان (٥/ ١٨٦) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٢٧٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٢٥٣) وابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٤١).

تَصۡبِرُواْ ﴾ [الطور: ١٦] كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثم أعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابا، فلم يجدوا من اقترانهم به بدًّا، بل صارت عذابًا لازما لهم، كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة والعقائد الباطلة، وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا، فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالًا كليا لم يعذبوا عليه في الآخرة، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض، وغلب الأقوى الأضعف، وإن تساوى الأمران تدافعا، وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار، فهذا حكم الله وحكمته في خلقه، وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحدًا.

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة، وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان، وحالهم في المساكن وهو النعيم، وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم: ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ [الطور: ١٨] والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه بالكسر يفكه فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس. والفاكه البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشيء إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها، ومنه قوله ﴿ فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٥] قيل معناه تندمون، وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده، يقال تحنث إذا زال الحنث

عنه وتحرج وتحوب وتأثم، ومنه تفكه، وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم وللخارج منه كتحرج وتأثم.

والمقصود: أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون، جزاء وفاقا، لأنهم تركوا ما يكره، وأتوا بما يحب، فكان جزاؤهم مطابقا لأعمالهم، ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله: ﴿ هَنِيٓـًٔا ﴾، فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم، ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها، فقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍ ﴾ [الطور: ٢٠]، وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا، كما قال تعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٦] فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته، ويؤثر قربه، ولا يكون بعيدا منه، قد حيل بينه وبينه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين. قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجا، كما يزوج البعل بالبعل، جعلناهم اثنين اثنين، وقال: يونس قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج، واحتج على هذا بأن العرب لا تقول: تزوجت بها، وإنما تقول تزوجتها، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وفي الحديث: «**زوجتكها بما معك من القرآن**»[1] وقال غيره العرب تقول: تزوجت بامرأة. وقال الأزهري: العرب تقول زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، وليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴾ أي قرناهم، وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع أي شفعناهم، وقرناهم بهن، وقالت طائفة منهم مجاهد زوجناهم بهن أي أنكحناهم إياهن. قلت: وعلى هذا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٣١٠) ومسلم (رقم ١٤٢٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٩١-١٩٨).

فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح، وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم، فالقولان واحد، والله أعلم.

وأما الحور العين، فقال مجاهد: التي يحار فيها الطرف باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون، وقال قتادة: بحور أي بيض، وكذا قال ابن عباس.

وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه العين الحسان الأعين وعين حوراء شديدة السواد نقية البياض طويلة الأهداب مع سوادها كاملة الحسن ولا تسمى المرأة حوراء، حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة، كما قال: ﴿ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠] فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن، وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف بما سكت عنه...

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

(١) أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق، فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء، ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك، بل ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]، ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق، كما في قوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] دفع

---

(١) ١٧٣ التبيان.

لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء، وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء، فينقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهم بقوله ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ما نقصناهم.

[1]قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، فهذه الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة، وإنهم يكونون معهم في درجتهم. ومع هذه فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية، فإن الله لم يلتهم - أي لم ينقصهم - من أعمالهم شيئاً، بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباءِ عليهم، ولما كان إلحاق الذرية بالآباءِ في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم في العذاب تبعاً، وإن لم يكن لهم أعمال الآباءِ، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ [الطور: ٢١]، كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية، وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم، فجعل الخبر مستحقاً بأمرين:

أحدهما: إيمان الآباءِ. والثاني اتباع الله ذريتهم إياهم، وذلك لا يقتضي أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أُريد هذا المعنى لقيل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم، فعطف الاتباع بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيداً وشرطاً في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ. وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة، قالت أُتي النبي ﷺ بصبي من الأنصار يصلي عليه: فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا لم يعمل شراً، ولم يدره به. قال: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم**»[2]، فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين

(١) ٣٩٦ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٢) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٢٠٧).

بالجنة، وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، لكن الشهادة للمعين ممتنعة، كما يشهد للمؤمنين مطلقاً أنهم في الجنة، ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي ﷺ. فهذا وجه الحديث الذي يشكل على كثير من الناس، ورده الإمام أحمد، وقال: لا يصح. ومن يشك أن أولاد المسلمين في الجنة؟ وتأوله قوم تأويلات بعيدة...

[1]ومن ذلك من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] لما أخبر سبحانه بإلحاق الذرية، ولا عمل لهم بآبائهم في الدرجة، فربما توهم متوهم أن يحط الآباء إلى درجة الذرية، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أي: ما نقصنا من الآباء شيئا من أجور أعمالهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم، ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم، ولما كان الوهم قد يذهب إلى أنه يفعل ذلك بأهل النار، كما يفعله بأهل الجنة قطع هذا الوهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٩١] وله كل شيء فلما كان ذكر ربوبيته البلدة الحرام قد يوهم الاختصاص عقبه بقوله: ﴿ وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣] فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ أي وقتًا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته، الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل، ويقول: قد توكلت ودعوت، فلم أر شيئًا، ولم تحصل لي الكفاة، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له، وهذا كثير جدًا في القرآن والسنة وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص.

(١) ١٦٠ أعلام جـ٤.

[(١)]...ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] فتأمل كم في هذا الكلام من رفع إيهام، منها قوله: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ لئلا يتوهم أن الاتباع في نسب أو تربية أو حرية أو رق أو غير ذلك.

ومنها قوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ لرفع توهم أن الآباء تحط إلى درجة الأبناء ليحصل الإلحاق والتبعية، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ أي ما نقصنا الآباء بهذا الاتباع شيئًا من عملهم، بل رفعنا الذرية إليهم قرة لعيونهم، وإن لم يكن لهم أعمال يستحقون بها تلك الدرجة.

ومنها قوله: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فلا يتوهم متوهم أن هذا الاتباع حاصل في أهل الجنة وأهل النار، بل هو للمؤمنين دون الكفار، فإن الله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بكسبه، وقد يثيبه من غير كسبه.

ومنها قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فلما أمرهن بالتقوىٰ التي شأنها التواضع ولين الكلام نهاهن عن الخضوع بالقول، لئلا يطمع فيهن ذو المرض، ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف دفعًا لتوهم الإذن في الكلام المنكر، لما نهين عن الخضوع بالقول، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فرفع توهم فهم الخيطين من الخيوط بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٨] فلما أثبت لهم مشيئة فلعل متوهمًا يتوهم استقلالهم بها، فأزال سبحانه ذلك بقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[(٢)] [التكوير: ٢٩].

---

(١) ٧٠ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) هذا المبحث فيه فوائد كثيرة قبله وبعده. (ج).

[(١)]في ارتقاء العبد وهو في الجنة من درجة إلى درجة أعلى منها: قال الإمام احمد ثنا يزيد أنبانا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنّى لي هذه. فيقول: باستغفار ولدك لك»[(٢)].

في إلحاق ذرية المؤمن به في الدرجة وإن لم يعملوا عمله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] وروى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ قال: ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين»[(٣)] (وذكر) ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك أظنه حكاه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك. فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم. فيؤمر بالإلحاق بهم» ثم تلا ابن عباس: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ إلى آخر الآية[(٤)].

---

(١) ٢٨٥ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩) وابن ماجه (رقم ٣٦٦٠) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٨ رقم ١٢٠٨١) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢١٠ رقم ٥١٠٨) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٠) رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم ابن بهدلة وقد وثق.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣١٦ رقم ١٨٦٨٣).

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٦٤٠) وفي الكبير (١١/ ٤٤٠ رقم ١٢٢٤٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٤)، رواه الطبراني في الصغير والكبير وفيه محمد بن عبدالرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية: هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان؟ على ثلاثة أقوال، واختلافهم مبني على أن قوله: ﴿ بِإِيمَـٰنٍ ﴾ حال من الذرية والتابعين أو المؤمنين المتبوعين، فقالت طائفة: المعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم، فأتوا من الإيمان بمثل ما أتوا به، وألحقناهم بهم في الدرجات.

قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ فجعل الفعل في الإتباع لهم قالوا: وقد أطلق الله سبحانه الذرية على الكبار، كما قال: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ٣]، وقال: ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، وهذا قول الكبار والعقلاء، قالوا: ويدل على ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: «**إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه**»، فهذا يدل على أنهم دخلوا الجنة بأعمالهم، ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم، فبلغهم إياها وإن تقاصر عملهم عنها، قالوا أيضًا فالإيمان هو القول والعمل والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار.

وعلى هذا فيكون المعنى: إن الله سبحانه يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا من الإيمان بمثل إيمانه، إذ هذا حقيقة التبعية وإن كانوا دونه في الإيمان، رفعهم الله إلى درجته: إقرارا لعينه، وتكميلا لنعيمه، وهذا كما إن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعا، وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن. وقالت طائفة أخرى: الذرية هاهنا الصغار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء، والذرية تتبع الآباء وإن كانوا صغارا في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك، إلا فيما كان من أحكام البالغين، ويكون قوله (بإيمان) على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين، أي وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء، قالوا: ويدل على صحة هذا القول البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب، فإنهم

مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب لاستقلالهم بأنفسهم، ولو كان المراد بالذرية البالغين لكن أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم، وتكون أولاد التابعين البالغون كلهم في درجة آبائهم، وهلم جرا إلى يوم القيامة، فيكون الآخرون في درجة السابقين، قالوا ويدل عليه أيضا أنه سبحانه جعلهم معهم تبعا في الدرجة، كما جعلهم تبعاً معهم في الإيمان، ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعا، بل إيمان استقلال، قالوا: ويدل عليه إن الله ﷻ جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين. وأما الإتباع فان الله ﷻ يرفعهم إلى درجة أهليهم، وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضًا فالحور العين والخدم في درجة أهليهم، وإن لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين، فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم، وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية الصغار والكبار، لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه والصغير يتبع الأب بإيمان الأب، قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير والواحد والكثير والابن والأب، كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [يس: ٤١] أي آباءهم، والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعي قوله: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء: ٩٢] فلو أعتق صغيرًا جاز. قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عيونهم»، ثم قرأ هذه الآية. وقال ابن مسعود في هذه الآية: الرجل يكون له القدم، ويكون له الذرية، فيدخل الجنة فيرفعون إليه لتقر بهم عينه، وإن لم يبلغوا ذلك. وقال أبو مجلز: يجمعهم الله له كما كان يحب إن يجتمعوا في الدنيا، وقال الشعبي: أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة. وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء ارفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء، وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم،

ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئًا. وقال: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين، فمن قرأ: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] ومن قرأ: «واتبعناهم ذرياتهم» فهذا في حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكما، فدلت القراءتان على النوعين، قلت: واختصاص الذرية هاهنا بالصغار أظهر، لئلا يلزم استواء المتأخرين بالسابقين في الدرجات، ولا يلزم مثل هذا في الصغار، فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته، والله أعلم.

***

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(١)وقال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ طَعَامِ أَهْلِ الدُّنيا وأَهْلِ الجَنَّةِ اللَّحْمُ»(٢). ومن حديث بُريدةَ يرفعه: «خَيْرُ الإدَامِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ اللَّحْمُ»(٣). وفي الصحيح عنه ﷺ: «فضلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضلِ الثَّريدِ على سائِرِ الطَّعَامِ»(٤). و«الثريد»: الخبز واللَّحم. قال الشاعر:

إِذَا مَا الْخبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ فَــذَاكَ أَمَــانَةَ اللهِ الثّرِيدُ(٥)

---

(١) ٣٩١ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٣٠٥) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات. انظر: مصباح الزجاجة (٤/ ١٧) وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٧٤) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا بسند فيه ضعيف، بل موضوع.

(٣) أخرج الديلمي في الفردوس (٢/ ١٨٠ رقم ٢٩٠٩) وابن عدي في الكامل (٧/ ١٠٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ٢٣٨) وانظر: فيض القدير (٣/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٣٣) ومسلم (رقم ٢٤٣١) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٠٨).

(٥) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٩) ونسبه إلى ابن بري. وذكره الحربي في غريب الحديث (٣/ ١١٤٢) ولم ينسبه لأحد وكذلك فعل المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٦١) بينما ذكره بدر الدين الزركشي في الإجابة لما استدركت عائشة (ص ٦٤) ونسبه إلى سيبويه.

وقال الزُّهْري: أكل اللَّحْم يَزيدُ سبعين قوَّة[١]، وقال محمد بن واسع: اللَّحْم يزيد في البصر، ويُروىٰ عن علي بن أبي طالب: «كُلُوا اللَّحْمَ، فإنه يُصَفِّي اللَّوْنَ، ويُخْمِصُ البَطْنَ، ويُحَسِّنُ الخُلُقَ»[٢]، وقال نافع: كان ابن عمر إذا كان رمضانُ لم يَفُتْه اللَّحْم، وإذا سافر لم يفته اللَّحْمَ[٣]. ويُذكر عن عليٍّ: «مَن تركه أربعين ليلة ساء خُلُقه»[٤].

وأما حديث عائشة رضي الله عنها، الذي رواه أبو داود مرفوعاً: «لا تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بالسكِّين، فإنه من صَنِيع الأعَاجِم، وانْهشُوهُ، فإنه أَهْنَأُ وأمرأُ»[٥]. فرده الإمام أحمد بما صحَّ عنه ﷺ مِن قَطعِه بالسِّكين في حديثين، وقد تقدَّما.

[٦]قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢١] وفي مسند البزَّار وغيره مرفوعاً: «إنَّكَ لَتَنْظُرُ إلى الطَّيْرِ في الجَنَّةِ، فَتَشْتَهِيهِ، فيَخِرُّ مشويّاً بين يَدَيْكَ»[٧]. ومنه حلال، ومنه حرام. فالحرامُ: ذو المِخلَب، كالصَّقرِ والبازي والشاهِين، وما يأكلُ الجِيَفَ كالنَّسْر، والرَّخَم، واللَّقْلَق، والعَقْعَق، والغُراب الأَبْقع، والأسود الكبير، وما نُهيَ عن قتله كالهُدهُدِ، والصُّرَدِ، وما أُمِرَ بقتله كالحِدَأة والغراب.

والحلالُ أصناف كثيرة، فمنه: الدَّجاج: ففي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٨٩) عن الزهري ولفظه: اللحم يزيد قوة سعيي.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٨٦) ولفظه: أكل اللحم يطيب النفس ويحسن الوجه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٨٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٩١) عن حفص بن عمرو.

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ٣٧٧٨) النسائي في الكبرىٰ (٢/ ٩٦ رقم ٢٥٥١) وفي المجتبىٰ (رقم ٢٢٤٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٢٨٠ رقم ١٤٤٠٣) وفي شعب الإيمان (٥/ ٩١ رقم ٥٨٩٨) ومال الحافظ ابن حجر إلىٰ تحسينه بشواهده كما في فتح الباري (٩/ ٥٤٧).

(٦) ٣٩٧ زاد المعاد جـ٣.

(٧) أخرجه البزار (٥/ ٤٠١ رقم ٢٠٣٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٤٥٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٤): رواه البزار وفيه حميد بن عطاء الأعرج وهو ضعيف.

«أنَّ النبيَّ ﷺ أكل لحمَ الدَّجاجِ»(١). وهو حارٌّ رطب في الأُولىٰ، خفيفٌ علىٰ المَعِدَة، سريعُ الهضم، جيدُ الخَلْطِ، يَزيد في الدِماغ والمَنِيِّ، ويُصفِّي الصوت، ويُحَسِّنُ اللَّون، ويُقَوِّي العقل، ويُوَلِّد دماً جيداً، وهو مائل إلىٰ الرطوبة، ويقال: إنَّ مداومَة أكله تُورث النِّقْرس، ولا يثبت ذلك. ولحمُ الديك: أسخنُ مزاجاً، وأقلُّ رطوبة، والعتيقُ منه دواء، ينفع القُولنج والرَّبو والرِّياح الغليظة إذا طُبِخَ بماء القُرْطُم والشِّبْت، وخصِيُّها محمودُ الغِذَاء، سريعُ الانهضام، والفَراريجُ سريعة الهضمِ، مُلَيِّنة للطبع، والدَّمُ المتولد منها دمٌ لطيف جدًّا.

***

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

(٢)ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه، ليتم بذلك فرحهم وسرورهم.

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم، فقال: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ [الطور: ٢٣] فنفىٰ باللغو السباب والتخاصم والهجر والفحش في المقال والعربدة، ونفىٰ بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ ولم يقل: ولا إثم، أي ليس فيها ما يحملهم علىٰ الإثم، ولا يؤثم بعضهم بعضا بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة، فلا يلغون ولا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥١٧) ومسلم (رقم ١٦٤٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٤٥) وشرح النووي (١١/ ١١٠-١١٢).

(٢) ١٧٣ التبيان.

يأثمون قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا، ولم يقع منهم ما يؤثمهم.

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم. والمكنون المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة، بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في موضع آخر ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، ففي ذكره المنثور إشارة إلىٰ تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم، وذهابهم ومجيئهم وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلىٰ بعض فيه لضيقه.

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك، وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] أي كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلىٰ أن من الله علينا، فأمنا مما نخاف: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورًا، فهذا كان مسرورًا مع إساءته، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم، فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فبالله سبحانه المستعان، ثم أخبر عن حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا يعبدون الله فيها فأوصلتهم عبادته وحده إلىٰ قربه وجواره ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته، فإنه هو البر الرحيم، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة، والله أعلم.

(١)في ارتفاع العبادات في الجنة إلا عبادة الذكر، فإنها دائمة: روىٰ مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتخمطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، ويكون طعامهم ذلك جشاء ورشحا: كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد، كما يلهمون النفس**» وفي

(١) ٢٩١ حادي الأروح.

رواية: «التسبيح والتكبير كما تلهمون»[١] بالتاء المثناة من فوق، أي: تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس كما تلهمون أنتم النفس.

في تذاكر أهل الجنة ما كان بينهم في دار الدنيا قال الله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [الصافات: ٥٠-٥١] وقد تقدم الكلام عليها وقال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧]، وذكر ابن أبي الدنيا من حديث الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس يرفعه: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، وسرير هذا إلى سرير هذا، حتى يجتمعا جميعا، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: نعم يوم كذا وكذا، وموضع كذا وكذا، فدعونا الله، فغفر لنا**»[٢] وإذا تذاكروا ما كان بينهم فتذاكرهم فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة وصحة الأحاديث أولى وأحرى، فإن المذاكرة في الدنيا في ذلك ألذ من الطعام والشراب والجماع، فتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة وهذه لذة يختص بها أهل العلم، ويتميزون بها على من عداهم.

[٣]وقال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨] وقال الطبراني: حدثنا الحسن بن إسحاق حدثنا

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه ابن قدامة في المتحابين في الله (رقم ٦١) والبزار (رقم ٣٥٥٣) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ١٠٣ رقم ٥٦٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٢١): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا.

(٣) ١٨٦ حادي الأرواح.

سهل بن عثمان حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ أيتزاور أهل الجنة؟ قال: «**يزور الأعلى الأسفل، ولا يزور الأسفل الأعلى، إلا الذين يتحابون في الله، يأتون منها حيث شاؤوا على النوق، محتقبين الحشايا**»(١) وقال الدورقي: حدثنا أبو سلمة التبوذكي حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: بلغنا إن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل، ولا يزور الأسفل الأعلى(٢)، وقد تقدم حديث علقمة بن مرثد عن يحيى بن إسحاق عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبدوس حدثنا الحسن بن حماد حدثنا جابر بن نوح عن واصل بن السائب عن أبي سورة عن أبي أيوب يرفعه: «**إن أهل الجنة يتزاورون على النجائب**»(٣). وقد تقدم، فأهل الجنة يتزاورون فيها، ويستزير بعضهم بعضًا، وبذلك تتم لذتهم وسرورهم، ولهذا قال حارثة للنبي ﷺ وقد سأله: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**» قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا قال: «**إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني انظر إلى عرش ربي بارزا، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يعذبون فيها. فقال: «**عبد نور الله قلبه**»(٤).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عبد الله حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٤ رقم ٧٩٥٦) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٩): رواه الطبراني وفيه بشر بن نمير وهو متروك.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٢٣٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٧٩ رقم ٤٠٦٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦ رقم ٣٣٦٧) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٦٢ رقم ١٠٥٩٠) وفي الزهد الكبير (رقم ٩٧٣) وعبد بن حميد (رقم ٤٤٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٠ رقم ٣٠٤٢٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧) وجاء اسم الصحابي في هذه المصادر: حارث بن مالك الأنصاري.

الجنة الجنة، فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، قال: فيسير سرير هذا، إلى سرير هذا وسرير هذا، إلى سرير هذا، حتى يجتمعا جميعًا، فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا فيقول صاحبه: يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله، فغفر لنا».

(١)وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فهذا دعاء العبادة، المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأل من في السماوات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

***

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢)تأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأوضح عبارة، يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل عاقل، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد خالقًا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، كيف يكون خالقًا لنفسه؟ وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون آلهًا غيره وهو وحده الخالق لهم؟

فإن قيل: فما موقع قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ من هذه الحجة؟

قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقًا فاطرًا، وبين بالقسم

---

(١) ٥ بدائع جـ٣.

(٢) ١١٠ مختصر الصواعق جـ١.

الثالث: أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم، ولم يخلقوا السماوات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطور

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ النَّجْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

[(١)]أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي، واختلف الناس في المراد بالنجم، فقال الكلبي عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل نجمًا على رسوله أربع آيات وثلاثا والسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة.

وكذلك روى عطاء عنه وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء، وعلى هذا فسمي القرآن منجما، لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفرق تنجما، والمفرق نجما، ونجوم الكتاب أقساطها، ويقول: جعلت مالي على فلان نجوما منجمة، كل نجم كذا وكذا، وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون إذا طلع النجم يريدون الثريا حل عليك الدين، ومنه قول زهير في دية جعلت نجوما على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهرقوا بينهم ملء محجم[(٢)]

ثم جعل كل تنجم تفريقا وإن لم يكن موقتا بطلوع نجم. وقوله (هوي) على هذا

---

(١) ١٥٢ التبيان.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب إلى زهير بن أبي سلمى، لقب بحكيم الشعراء في الجاهلية، وكان يفضل على شعراء العرب، مات سنة ١٣ قبل الهجرة. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٢/ ٥٧٠).

القول أي نزل من علىٰ إلىٰ أسفل. قال أبو زيد: هوت العقاب تهوىٰ هويا بفتح الهاء إذا انقضت علىٰ صيد أو غيره وكذلك قال ابن الأعرابي وفرق بين الهوي لقوله:

والدلو في أصعادها عجل الهوي

وقال الليث: العامة تقول الهوي بالضم في مصدر هوي يهوي، وكذلك قال الأصمعي: هوىٰ يهوىٰ هو بفتح الهاء إذا سقط إلىٰ أسفل، قال: وكذلك الهوي في السير إذا مضىٰ.

وههنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط، فذكر في أسماء الرب تعالىٰ الهوىٰ بفتح الهاء، واحتج بما في الصحيح من حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده «**سبحان ربي الأعلىٰ**»[(١)] الهوي فظن أبو محمد أن الهوي صفة للرب، وهذا من غلطه رحمه الله، وإنما الهوي علىٰ وزن فعيل اسم لقطعة من الليل، يقال مضىٰ هوي من الليل، علىٰ وزن فعيل، ومضىٰ هزيع منه، أي طرف وجانب، وكان يقول: «**سبحان ربي الأعلىٰ**» في قطعة من الليل وجانب منه، وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر، فقالت كان يقول: «**سبحان ربي الأعلىٰ**» الهوي من الليل.

عدنا إلىٰ قوله: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وقال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهو الرواية الأخرىٰ عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا، قال: فباتت تعد النجم، وقال أبو حمزة اليماني يعني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة: وقال ابن عباس في رواية عكرمة يعني النجوم التي ترمىٰ بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظا للوحي من استراق الشياطين له، علىٰ أن ما أتىٰ به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان، ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوىٰ رصدا

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٢) وانظر: شرح النووي (٤/ ١٩٧) (٦/ ٦٢).

بين يدي الوحي وحرسًا له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ولا تسمية نزوله هويا، ولا عهد في القرآن ذلك، فيحمل هذا اللفظ عليه، وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت، وليس بالبين أيضا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة، بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلًا لعدم ظهوره للمخاطبين، ولاسيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن، والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى، فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله بها ظهر دينه وشرعه وأسماؤه وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسا لهذه النجوم الهاوية، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى والغي المنافي للرشاد، ففي ضمن النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد، فالهدى في علمه والرشاد في علمه.

وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد وبهما سعادته وفلاحه، وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه، فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[(١)].

فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي، إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلبا، وأبعدهم من حقيقة

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٧٦) وابن حبان (١/ ١٧٨ - ١٧٩ رقم ٥) وفي موارد الظمآن (رقم ١٠٢) وابن ماجه (رقم ٤٢، ٤٣) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤ رقم ٢٠١٢٥) والدارمي (رقم ٩٥) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٦ رقم ٦١٨) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٥٤ رقم ٤٣٧) قال الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٣٩) (١٣/ ٢٩٢) وشرح النووي (١١/ ٢١٧).

الإنسانية، ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم(١)

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه، غاو في قصده وعلمه، وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل. الثاني مهتد في علمه، غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية، ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به. الثالث ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر. الرابع مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عددا فهم الأكثرون عند الله قدرا، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ ولم يقل ما ضل محمد. تأكيدا لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرا واحدا قط، وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وبقوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢].

ثم قال سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى، وبهذا الكمال هداه ورشده، وقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه، فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل،

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى أبي الطيب المتنبي: أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي الكندي، سبق التعريف به، وهذا البيت ذكره أسامة بن منقذ في البديع في نقد الشعر (ص ٤٩٥).

أي ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدا إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحى. وقد احتج الشافعي لذلك، فقال: لعل من حجة من قال بهذا قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] قال: ولعل من حجته أن يقول قال رسول الله ﷺ لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك»(١) الحديث. وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجعرانة سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته بعد ما تضمخ بالخلوق، فنظر إليه النبي ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاء الوحي فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محرم يغط، ثم سُرِّي عنه، فقال: «أين السائل آنفا؟» فجيء به، فقال: «انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجتك»(٢).

وقال الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أن عنده كتابا نزل به الوحي، وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة وعقول، فإنما نزل به الوحي(٣)، وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة، كما ينزل عليه بالقرآن، يعلمه إياه(٤) وذكر الأوزاعي أيضًا عن أبي عبيد صاحب سليمان: أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال قيل لرسول الله ﷺ: سعِّر لنا. قال «لا يسألني الله عن سنة أحدثها فيكم لم يأمرني بها، ولكن سلوا الله من

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٢٤، ٢٧٢٥) ومسلم (رقم ١٦٩٧، ١٦٩٨) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٩١) وشرح النووي (١١/ ٢٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٥٣٦) ومسلم (رقم ١١٨٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٩٥).
(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (ص ٢٦٤).
(٤) أخرجه الدارمي (رقم ٥٨٨) ومحمد بن نصر المروزي في كتاب السنة (رقم ١٠٢، ٤٠٢) وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٩١).

فضله»[(١)] وابن فضيلة هذا يسمى طلحة، وقد صح عنه أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»[(٢)] وهذا هو السنة بلا شك، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة، وبالله التوفيق.

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، وهذا نظير قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة، وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] أي جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة، ليس شيطانا أقبح خلق الله، وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة، ومكانة عند الله، وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما تقدم نظيره في سورة التكوير، فوصفه بالعلم والقوة وجمال المنظر وجلالته، وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي، فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأعلمهم وأجملهم وأجلهم. والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق، وأضعفهم هما ونفوسًا.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ، وإيحاء الله ما أوحى، فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده، إلى أن استوى بالأفق، ثم دنى وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال، ويعاينونها هابطًا من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى مستويًا عليه، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ، وخاطبه بما أمره الله به، قائلًا ربك يقول لك كذا وكذا.

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٢٨٧ رقم ٨١٩) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٠٠): رواه الطبراني في الكبير وفيه بكر بن سهل الدمياطي ضعفه النسائي ووثقه غيره وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) ومحمد بن نصر المروزي في السنة (رقم ٢٤٤) وانظر: التمهيد (٢/ ١٥٦) (٤/ ٢٢١) وعون المعبود (١٢/ ٢٣١).

وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وجه الشك، بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧] تحقيق لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجل واحدًا، ونظيره قوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها، وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل أو في هذه المواضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول من جعلها بمعنى الواو فتأمله، انتهى.

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئا على خلاف ما هو به فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه كذلك، وفيها قراءتان إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها، يقال كذبته عينه، وكذبه قلبه، وكذبه جسده. إذا أخلف ما ظنه وحدسه، قال الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظـــلام من الرباب خيالا[1]

أي أرتك ما لا حقيقة له. فنفى هذا عن رسوله. وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه و(ما) إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ما كذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه، وهذا

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى الأخطل: غياث بن غوث بن الصلت، من بني تغلب وكان نصرانياً وفي شعره إبداع وكان مصقول الألفاظ حسن الديباجة ويعد من أشعر أهل عصره مع جرير والفرزدق مات سنة ٩٠هـ. ذكر هذا البيت الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٤) والسيوطي في تنوير الحوالك (١/ ١٨) والزرقاني في شرحه على الموطأ (١/ ٣٧) وابن منظور في اللسان (٦/ ١٥٦) (١٢/ ٣٧) والخطابي في غريب الحديث (٢/ ٣٠٣) وابن الأثير في النهاية في غريب الالحديث والأثر (٤/ ١٥٩).

ظاهر جدا في قراءة التشديد، وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال في هذه القراءة بعد قال لأنه إذا رأىٰ بقلبه فقد علمه أيضا بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه، فإنه إذا كان الشيء في القلب معلوما، فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين: (أحدهما): أن الرجل قد يتخيل الشيء علىٰ خلاف ما هو فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم علىٰ خلاف ما هي عليه كما تكذبه عينه، فيقال كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه، فنفىٰ سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه كمن رأىٰ الشيء علىٰ حقيقة ما هو به، فإنه يصح أن يقال لم تكذبه عينه.

الثاني أن يكون الضمير في رأىٰ عائدًا إلىٰ الرأي لا إلىٰ الفؤاد، ويكون المعنىٰ ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، وهذا بحمد الله لا إشكال فيه، والمعنىٰ ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، بل صدقه، وعلىٰ القراءتين فالمعنىٰ ما أوهمه الفؤاد أنه رأىٰ ولم ير، ولا اتهم بصره.

ثم أنكر سبحانه عليه مكابرتهم وجحدهم له علىٰ ما رآه، كما ينكر علىٰ الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له علىٰ ما عمله، وفيها قراءتان أفتمارونه وأفتمرونه، وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول مريت الرجل حقه إذا جحدته، كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة   لقد مريت أخـــا ما كان يمريكا(١)

ومنه المماراة، وهي المجادلة والمكابرة، ولهذا عدىٰ هذا الفعل بعلىٰ، وهي علىٰ بابها، وليست بمعنىٰ عن، كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنىٰ المكابرة، وهذا في قراءة الألف أظهر.

ورجح أبو عبيدة قراءة من قرأ ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ﴾ [النجم: ١٢] قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم يعني

---

(١) هذا البيت ذكره القرطبي في تفسيره (١٧/ ٩٣).

أن من قرأ ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ فمعناه أفتجادلونه ومن قرأ ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ معناه أفتجحدونه وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم وكان أكثر من مجادلتهم له.

وخالفه أبو علي وغيره، واختاروا قراءة ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ قال أبو علي: من قرأ أفتمارونه فمعناه، أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده، ويقوى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ [الأنفال: ٦] ومن قرأ ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ كان المعنى أفتجحدونه قال، والمجادلة كأنها أشبه في هذا، لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره، وقد جادله المشركون في الإسراء.

قلت: القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار، فكان جدالهم جدال جحود ودفع، لا جدال استرشاد وتبين للحق وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بعلى يدل على المكابرة، فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعًا، فهي أولى، وبالله التوفيق.

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى، فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى، وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين، كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٩] قال: أخبرني ابن مسعود. أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. وفي الصحيحين أيضًا عن عبد الله بن مسعود: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١] قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح(١)، وقال البخاري عنه: رأى رفرفًا أخضر يسد الأفق(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣٢) ومسلم (رقم ١٧٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٩-٦١١) وشرح النووي (٣/ ٦-٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣٣) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦١١) وشرح النووي (٣/ ٧).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام[1]. وفي صحيحه أيضًا عن مسروق قال: كنت متكئًا عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**إنما هو جبريل لم أره على صورته، التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض**» فقالت: أولم تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أولم تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]».

قالت: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧].

قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2] [النمل: ٦٥] ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي الصحيحين عن مسروق أيضًا قال: سألت عائشة رضي الله عنها: هل رأى

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٧-٦٠٩) وشرح النووي (٣/ ٤-٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٧-٦٠٨).

محمد ربه؟ فقالت سبحان الله! لقد وقف شعري مما قلت[١]. وفيهما أيضًا قال: قلت لعائشة: فأين قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٨، ٩] قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق[٢].

وفي صحيح مسلم: أن أبا ذر سأله ﷺ: هل رأيت ربك فقال: «**نور أنَّى أراه**»[٣] وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٤] وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم، وهو كالتفسير له.

ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح. حديث الرؤية يوم القيامة: «**فيكشف الحجاب فينظرون إليه**»[٥]. فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالىٰ يراد به الحجاب الأدنىٰ إليه وهو لو كشف لم يقم له شيء.

كما قال ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلىٰ به لم يقم له شيء، وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ علىٰ عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ذلك أن لا يرىٰ بل يرىٰ في الآخرة بالأبصار من غير إدراك، وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس علىٰ ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين أبصار

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٥) ومسلم (رقم ١٧٧) وانظر: (٨/ ٦٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٥) ومسلم (رقم ١٧٧) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٤٤).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ١٢).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٦) وشرح النووي (٣/ ١٣).
(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٤٧) و(١١/ ٤٢٢).

الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم، ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تساقى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(١).

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ولا يمنع من أصل الرؤية فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق، وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن، وأما المعطل الجهمي، فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل.

وأما قول ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده مرتين(٢). فالظاهر أن مستنده هذه الآية، وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس، وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة، فقال في نقضه على بشر المريسي في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ: أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت ربي البارحة في أحسن صورة**»(٣) فحكى تأويل المريسي الباطل، ثم قال: ويلك أن تأويل هذا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٧٨) ومسلم (رقم ١٨٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣١-٤٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ٧).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٣٣) والدارمي (رقم ٢١٤٩) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٤٨ رقم ٢٥٨٥) والطبراني في الكبير (١/ ٣١٧ رقم ٩٣٨) وأبو يعلى (٤/ ٤٧٥ رقم ٢٦٠٨) وأحمد (١/ ٣٦٨) وحسنه الترمذي وصححه الألباني.

الحديث على غير ما ذهبت إليه، أما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: «إنه لم ير ربه»[١]. وقال رسول الله ﷺ: «لن تروا ربكم حتى تموتوا»[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية[٣].

وأجمع المسلمون على ذلك مع قول الله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «صليت ما شاء الله من الليل، ثم وضعت جنبي فأتاني ربي في أحسن صورة»، فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم، وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء أم لا؟ على ثلاث روايات:

إحداها: أنه رآه قال المروزي قلت لأبي عبد الله يقولون: إن عائشة قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. فبأي شيء يدفع قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: «رأيت ربي» قول النبي ﷺ أكبر من قولها.

قال: وذكر المروزي في موضع آخر: أنه قال لأبي عبد الله: ههنا رجل يقول: إن الله يرى في الآخرة. ولا أقول إن محمدًا رأى ربه في الدنيا، فغضب، وقال: هذا أهل أن يخفى يسلم الخبر كما جاء، قال: فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين. ونقل حنبل قال:

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٥٤ رقم ٥٨) عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته عن كل شيء. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ فقال: سألته. فقال: رأيت نوراً. قال أبو حاتم: معناه أنه لم ير ربه. ولكن رأى نوراً علوياً من الأنوار المخلوقة. وانظر: الإجابة لما استدركت عائشة (ص ٩٧) وفتح الباري (٨/ ٦٠٧).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٢٦٥ رقم ٣٢٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٩ رقم ٧٧٦٤) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٨٥ رقم ١١٥٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٤٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٦ رقم ٤٢٨) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) (٨/ ٦٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٧-٦٠٨).

قلت لأبي عبد الله: النبي ﷺ رأى ربه رؤيا حلم بقلبه، قال: فظاهر هذا نفي الرؤية، وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبد الرحمن بن عابس عن النبي ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة» فقال: معمر مضطرب، لأن معمرًا رواه عن أيوب عن معبد عن عبد الرحمن بن عابس عن النبي، ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس، ورواه عبد الرحمن بن زيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عابس عن رجل من أصحاب النبي، ورواه يحيى بن أبي كثير، فقال عن ابن عابس عن معاذ عن النبي، وأصل الحديث واحد. قال الأثرم فقلت لأبي عبد الله: فإلى أي شيء تذهب؟ فقال: قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه بقلبه. ونقل الأثرم: أن رجلًا قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال: لم ير النبي ﷺ ربه تعالى، فأنكره عليه إنسان، وقال: لِمَ تقول رأه، ولا تقول بعينه ولا بقلبه، كما جاء الحديث، فاستحسن ذلك الأشيب، فقال أبو عبد الله: حسن قال: وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها، هل كانت بعينه أم بقلبه، فهذه نصوص أحمد، وقد جعلها القاضي مختلفة، وجعل المسألة على ثلاث روايات ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل، وحديث عبد الرحمن بن عابس الحضرمي، ولا دلالة فيهما، لأنها رؤية منام فقط، واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعًا: «لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟» وذكر الحديث، وهذا غلط قطعا، فإن القصة إنما كانت بالمدينة، كما قال معاذ بن جبل: احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى عين الشمس، ثم خرج فصلى بنا، ثم قال: «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟» وذكر الحديث، فهذا كان بالمدينة، والإسراء كان بمكة، وليس عن الإمام أحمد ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظه، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق

بعضه بعضا. والمسألة رواية واحدة عنه، فإنه لم يقل بعينه، وإنما قال رآه. واتبع في ذلك قول ابن عباس: رأى محمد ربه. ولفظ الحديث: رأيت ربي. وهو مطلق، وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل: من زعم أن محمدًا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية. وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية، إذ هو مخالفته للحديث، وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية، وأطلق أنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال: رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة، وكيف يقول أحمد رآه بعيني رأسه يقظة، ولم يجئ ذلك في حديث قط، فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث، كما جاءت، وإنكاره قول من قال لم يره أصلا، لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧] قال ابن عباس: ما زاغ البصر يمينًا ولا شمالًا، ولا جاوز ما أمر به. وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يمينًا وشمالًا ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه وإطراقه وإقباله على ما أري دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال. وزيغ البصر: التفاته جانبا. وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي. فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده

عن تكذيب بصره وبصره، عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح:

تلك المكارم لا قعبان من لبن … شيبا بمـاء فعادا بعـد أبوالا(١)

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها، وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى، وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جدًا في القرآن، وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلا لازمه، مثل هذا، ومثل قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣]، وهذا ليس من جوابهم، ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم، ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٤٩-٥٢]، فهذا جواب موسى، ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٣-٥٥]، ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى أمية بن أبي الصلت، شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف، نبذ عبادة الأوثان وأدرك الإسلام ولكنه لم يسلم ومات بعد الهجرة بخمس سنوات. وهذا البيت ذكره ياقوت في معجم البلدان (٤/ ٢١١) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١١١) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٣٣) والأزرقي في أخبار مكة (ص ١٠٠) والنووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٩).

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخره، فالأول آدم والثاني بنوه، ومثله قوله: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] إلى آخر الآيات فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما، والله أعلم.

***

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

(١)أسري برسول الله ﷺ - بجسده على الصحيح - مِن المسجد الحرامِ إلى بيتِ المقدس، راكباً على البُراقِ، صُحبة جبريل عليهما الصلاةُ والسَّلام، فنزل هُناكَ، وصَلَّى بالأنبياء إماماً، وربط البُراقَ بحَلْقَةِ بابِ المسجد. وقد قيل: إنه نزل ببيتِ لحمٍ، وصلَّى فيه، ولم يَصِحَّ ذَلكَ عَنْهُ البتة. ثمَّ عُرِجَ بِهِ تِلكَ الليلةَ مِنْ بَيْتِ المقدسِ إلى السَّمَاءِ الدُّنيا، فاستفتح لَهُ جِبْرِيلُ، فَفُتِحَ لَهُ.

فَرَأَىٰ هُنَالِكَ آدَمَ أَبَا البَشَرِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ورحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنبوَّتِه، وَأَرَاهُ اللهُ أرْوَاحَ السُّعَدَاءِ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَرْوَاحَ الأَشْقِيَاءِ عَنْ يَسَارِهِ.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَىٰ فِيهَا يَحْيَىٰ بن زَكَرِيَّا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَلَقِيَهُمَا وَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، فَرَدَّا عليه، وَرَحَّبَا به، وَأَقَرَّا بِنُبُوَّتِهِ. ثُمَّ عُرج بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَة، فَرأىٰ فيها يوسف، فسلَّمَ عليه، فردَّ عليه، ورحَّبَ به، وأقرّ بنبوتِه. ثُمَّ

(١) ١٢٥ زاد المعاد جـ٢.

عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَرَأَىٰ فِيهَا إِدْرِيسَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنبوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَرَأَىٰ فِيهَا هَارون بْنَ عِمْرَان، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ.

ثُمَّ عُرِجُ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَلَقِي فِيهَا مُوسَىٰ بْن عِمْرَان، فَسَلَّمَ عَلَيهِ وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ، بَكَىٰ مُوسَىٰ، فَقِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقَالَ: أَبْكِي، لأَنَّ غُلاَمَاً بُعِثَ مِنْ بَعْدِي، يَدْخُلُ الجنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَقِي فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ رُفِعَ إِلَىٰ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ، ثُمَّ رُفِعَ لَهُ البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ الجبَّارِ جَلَّ جَلالُه، فَدَنَا مِنْهُ حَتَّىٰ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ صَلاَةً. فَرَجِعَ حَتَّىٰ مَرَّ عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ لَهُ: بِمَ أُمِرْتَ ؟ قَالَ: بِخَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، ارْجعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ، فالْتَفَتَ إِلَىٰ جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ في ذلِكَ، فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَعَلاَ بِهِ جِبْرِيلُ حَتَّىٰ أَتَىٰ بِهِ الجَبَّارَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهُوَ في مَكَانِهِ. هذا لفظُ البخاري في بعض الطرق، فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَاً، ثُمَّ أُنْزِلَ حَتَّىٰ مَرَّ بِمُوسَىٰ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مُوسَىٰ وَبَيْنَ اللهِ ﷻ حَتَّىٰ جَعَلَهَا خَمْسَاً، فَأَمَرَهُ مُوسَىٰ بالرُّجُوعِ وَسُؤَالِ التَّخْفِيفِ، فَقَالَ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، وَلكِنْ أَرْضَىٰ وَأُسلِّمُ، فَلَمَّا بَعُدَ نَادَىٰ مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»(١).

واختلف الصحابةُ: هل رأىٰ ربَّهُ تلك الليلةَ، أم لا؟ فصحَّ عن ابن عَبَّاس أنه رأىٰ ربَّهُ، وصحَّ عنه أنه قال: «رَآهُ بِفُؤَادِهِ». وصحَّ عَنْ عَائِشَةَ وابْن مَسْعُودٍ إِنْكَارُ ذلِكَ، وقَالاَ: إِنَّ قَوْلَه: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] إِنَّمَا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٨٧) ومسلم (رقم ١٦٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١٩-٢١٧) وشرح النووي (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

هُوَ جِبْرِيلُ. وَصَحَّ عَنْ أبي ذَرٍّ أَنَّه سَأَلَهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فقالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»(١) أي: حال بيني وبين رؤيته النور، كما قال في لفظ آخر: «رَأَيْتُ نُورًا». وقد حكى عثمانُ بن سعيد الدَّارمي اتفاقَ الصَّحَابة على أنه لم يره.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية قدَّس الله روحَه: وليس قولُ ابن عباس: «إنه رآه» مناقِضاً لهذا، ولا قولُه: «رآهُ بفُؤاده»(٢) وقد صحَّ عنه أنه قال: «رأيتُ ربِّي تَبَارَكَ وتَعَالَى» ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتُبِسَ عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤيةِ رَبِّه تبارك وتعالى تِلْكَ اللَّيْلَةَ في منامه، وعلى هذا بنى الإمامُ أحمد رحمه الله تعالى، وقال: «نعم رآه حقاً، فإنَّ رؤيا الأنبياء حق، ولا بُدَّ»، ولكن لم يَقُلْ أحمد رحمه الله تعالى: إنَّه رآهُ بِعَيْنَي رأسِهِ يقظةً، ومَن حكى عنه ذلك، فقد وَهِمَ عليه، ولكن قال مرّة: «رآه»، ومرَّة قال: «رآه بفؤاده»، فَحُكِيَتْ عنه رِوايتان، وحُكِيَت عنه الثالثة مِن تصرُّفِ بعض أصحابه: أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوصُ أحمد موجودة، ليس فيها ذلك وأمَّا قولُ ابنِ عباس: «إنَّه رآهُ بفُؤادِهِ مرتين»، فإن كان استنادُه إلى قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم: ١١]، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٣] والظاهر أنه مستندُه، فقد صحَّ عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريلُ، رآهُ مرَّتَيْنِ في صُورته التي خُلِقَ عَلَيْهَا، وقول ابن عباس هذا هو مُسْتَنَدُ الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم.

وأما قولُهُ تعالى في سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٨] فهو غير الدُّنو والتَّدلي في قصة الإسراء، فإنَّ الذي في سورة النجم هو دُنُو جبريل وتدلِّيه، كما قالت عائشةُ وابنُ مسعود، والسياقُ يَدُلُّ عليه، فإنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥] وهو جبريل ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٦-٨]،

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ١٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦) واظر: شرح النووي (٣/ ٧).

فالضمائر كُلُّها راجعة إلىٰ هذا المعلِّم الشديد القوىٰ، وهو ذُو المِرَّة، أي: القوة، وهو الذي استوىٰ بالأفق الأعلىٰ، وهو الذي دنىٰ فتدلَّىٰ، فكان من محمد ﷺ قَدْرَ قوسين أو أدنىٰ، فأما الدُّنُوُّ والتدَّلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريحٌ في أنه دنوُّ الربِّ تبارك وتدلِّيه ولا تَعَرُّض في سورة النجم لِذلك، بل فيها أنه رآه نزلةً أُخرىٰ عِند سِدرةِ المنتهىٰ، وهذا هو جبريلُ، رآهُ محمد ﷺ علىٰ صُورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهىٰ، والله أعلم.

فلما أصبحَ رسولُ الله ﷺ في قومِه، أخبرهم بما أراه اللهُ من آياتِهِ الكبرىٰ، فاشْتَدَّ تكذيبُهم له، وأذاهُم وضراوتُهم عليه، وسألوه أن يَصِفَ لَهُمْ بَيْتَ المَقْدِسِ، فجلاهُ الله له حَتَّىٰ عَايَنَهُ، فَطَفِقَ يُخبِرُهم عَنْ آياتِهِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ أَن يَرُدُّوا عَلَيْهِ شَيْئًا. وأخبَرَهُم عَنْ عِيرهم في مَسْرَاهُ ورجوعِهِ، وأخبَرَهُم عن وقتِ قُدومِهَا، وأخبَرَهُم عن البعير الذي يَقْدُمُها، وكان الأمرُ كما قال، فلم يزِدْهُم ذلك إلا نفوراً، وأبىٰ الظالمون إلا كُفورًا.

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٨، ٩]...

الشيخ(٢) فهم من الآية: أن الذي دنىٰ فتدلىٰ، فكان ـ من محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنىٰ: هو الله ﷻ وهذا ـ وإن قاله جماعة من المفسرين ـ فالصحيح: أن ذلك هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الموصوف بما ذكره من أول السورة إلىٰ قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية؟ فقال: «جبريل، لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين» ولفظ القرآن لا يدل علىٰ غير ذلك من وجوه.

---

(١) ٣١٩ مدارج جـ٣.

(٢) يعني صاحب المنازل شيخ الإسلام الإمام الهروي رحمه الله. (ج).

أحدها: أنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة التكوير. فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

الثاني: أنه قال ذو مرة أي حسن الخلق، وهو الكريم المذكور في التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ فهذا دنو جبريل وتدليه إلى الأرض، حيث كان رسول الله ﷺ، وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق السموات، فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى، فالدنو والتدلي في الحديث غير الدنو والتدلي في الآية، وإن اتفقا في اللفظ.

الخامس: أنه قال: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ والمرئي عند السدرة هو جبريل قطعًا، وبهذا فسره النبي ﷺ، فقال لعائشة: «ذاك جبريل».

السادس: أن مفسر الضمير في قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ وفي قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ وفي قوله: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ وفي قوله: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسِّر والمفسَّر من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين الملكي والبشري، ونزه البشرى عن الضلال والغواية، ونزه الملكي عن أن يكون شيطانا قبيحا ضعيفا، بل هو قوي كريم حسن الخلق، وهذا نظير الوصف المذكور في سورة التكوير سواء.

الثامن: أنه أخبر هناك أنه رآه بالأفق المبين، وههنا أخبر أنه رآه بالأفق الأعلى، وهو واحد وصف بصفتين، فهو مبين وهو أعلى، فإن الشيء كلما علا بان وظهر.

التاسع: أنه قال: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ والمرة الخلق الحسن المحكم، فأخبر عن حسن خلق الذي علم النبي ﷺ، ثم ساق الخبر كله عنه نسقًا واحدًا.

العاشر: أنه لو كان خبرًا عن الرب تعالىٰ لكان القرآن قد دل علىٰ أن رسول الله ﷺ رأىٰ ربه سبحانه مرتين مرة بالأفق ومرة عند السدرة، ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ لأبي ذر وقد سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنَّىٰ أراه»؟ فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين، ثم يقول رسول الله ﷺ «أنَّىٰ أراه»، وهذا أبلغ من قوله لم أره، لأنه مع النفي يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط، وهذا يتضمن النفي وطرفا من الإنكار علىٰ السائل، كما إذا قال لرجل هل كان كيت وكيت؟ فيقول: كيف يكون ذلك؟!

الحادي عشر: أنه لم يتقدم للرب جل جلاله ذكر يعود الضمير عليه في قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾، والذي يعود الضمير عليه لا يصلح له، وإنما هو لعبده.

الثاني عشر: أنه كيف يعود الضمير إلىٰ ما لم يذكر، ويترك عوده إلىٰ المذكور مع كونه أولىٰ به.

الثالث عشر: أنه قد تقدم ذكر صاحبكم، وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، ثم ذكر بعده شديد القوىٰ ذا المرة. وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، والخبر كله عن هذين المفسرين، وهما الرسول الملكي والرسول البشري.

الرابع عشر: أنه سبحانه أخبر أن هذا الذي دنىٰ فتدلىٰ كان بالأفق الأعلىٰ وهو أفق السماء، بل هو تحتها قد دنىٰ من رسول رب العالمين، ودنو الرب تعالىٰ وتدليه علىٰ ما في حديث شريك كان من فوق العرش لا إلىٰ الأرض.

الخامس عشر: أنهم لم يماروه صلوات الله وسلامه عليه علىٰ رؤية ربه، ولا أخبرهم بها لتقع مماراتهم له عليها، وإنما ماروه علىٰ رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها، ولو أخبرهم الرب تعالىٰ لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم علىٰ رؤية المخلوقات.

السادس عشر: أنه سبحانه قرر صحة ما رآه الرسول، وأن مماراتهم له علىٰ ذلك

باطلة بقوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨] فلو كان المرئي هو الرب ﷻ والمماراة على ذلك منهم لكان تقرير تلك الرؤية أولى، والمقام إليها أحوج، والله أعلم.

***

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨ ﴾.

(١)قال الله تعالى مخبرًا عن كمال أدب رسوله [في] ليلة الإسراء: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾، وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يمينًا و[لا] شمالًا، ولا طمح متجاوزًا إلى ما هو رائيه ومقبل عليه: كالمتشارف إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتد نهي النبي ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع من المصلي، واقف بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس مطرقًا إلى الأرض، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه لم يكن فرق بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل.

(٢)وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ حين أراه ما أراه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧] وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية، وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور، فالالتفات زيغ، والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة، فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة، ولا يتجاوزه.

---

(١) ٢٨٢ روضة المحبين.

(٢) ٣٨٢ مدارج جـ٢.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهوده بالبصر، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال ﷻ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١، ١٢] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر: «وما كذب الفؤاد ما رأى» ـ بتشديد الذال ـ أي لم يكذب الفؤاد البصر، بل صدقه وواطأه لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًّا.

وقرأ الجمهور «ما كذب الفؤاد» بالتخفيف، وهو متعد، و«ما رأى» مفعوله: أي ما كذب قلبه ما رأته عيناه، بل واطأه ووافقه، فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر نحو المرئي ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته، وللقلب زيغ وطغيان كما للبصر زيغ وطغيان، وكلاهما منتف عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتا عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى إلى موسى ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع، حتى عاتب موسى ربه فيه، وقال: «يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله، وهذا قد

جاوزني وخلفني علوا، فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته». وفي رواية للبخاري: «فلما جاوزه بكى قيل: ما يبكيك قال: أبكي أن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»(١) ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلًا لحال راكبه، وبعد شأوه الذي سبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه وتكميل مراتب عبوديته له حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غبطه به الأنبياء والمرسلون، فإذا كان في المعاد أقيم مقاما من القرب ثانيا يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاغ البصر عنه وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يس: ١-٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(٢)وسئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ فقال: «إنما هو جبريل عليه السلام لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين» ذكره مسلم.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٨٧) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١١).
(٢) ٢٧٠ أعلام جـ٤.

[1]وقال تعالى في وصفه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم: ٥، ٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو منظر حسن» وقال قتادة: «ذو خلق حسن» وقال ابن جرير: «عنى بالمِرَّة صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قويًّا».

والمرة واحدة المرر، وإنما أريد به ذو مرة سوية، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ»[2].

قلت: هذا حجة من قال: المرة القوة في الآية، وهو قول مجاهد وابن زيد، وهو قول ضعيف، لأنه قد وصفه قبل ذلك بأنه (شديد القوىٰ).

ولا ريب أن المرة في الحديث هي القوة، لا المنظر الحسن، فإما أن يقال: المرة تقال على هذا وعلى هذا، وإما أن يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن المرة هي الصحة والسلامة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم كمال الخلقة وحسنها وجمالها، فإن العاهة والآفة إنما تكون من ضعف الخلقة والتركيب، فهي قوة وصحة تتضمن جمالًا وحسنًا، والله تعالى أعلم.

***

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ ﴾.

[3]إنه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطانًا، قال ابن عباس ﷺ كل سلطان في القرآن فهو حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ

(١) ١٢٩ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ١٨٧ رقم ٣٣٩٤) وابن خزيمة (٤/ ٧٨ رقم ٢٣٨٧) والنسائي في الكبرى (٢/ ٥٤ رقم ٢٣٧٨) وأبو داود (رقم ١٦٣٤) والترمذي (رقم ٦٥٢) وحسنه والحاكم (١/ ٥٦٥ رقم ١٤٧٧) وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) ٥٨ مفتاح جـ١.

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس: ٦٨] يعني ما عندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم.

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣] يعني ما أنزل بها حجة ولا برهانا، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم، وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧] يعني حجة واضحة فائتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم إلا موضعًا واحدًا اختلف فيه، وهو قوله: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] فقيل: المراد به القدرة والملك، أي ذهب عني مالي وملكي، فلا مال لي ولا سلطان. وقيل: هو على بابه، أي انقطعت حجتي، وبطلت، فلا حجة لي.

والمقصود: إن الله سبحانه سمى علم الحجة سلطانا، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور، تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل قاهرة له.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[(١)]أما اللمم فهو طرف من الجنون، ورجل ملموم أي به لمم، ويقال أيضًا: أصابت فلانًا من الجن لمة، وهو المس، والشيء القليل، قاله الجوهري.

قلت: وأصل اللفظة من المقاربة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢] وهي الصغائر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ﷺ: إن العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والفم يزني وزناه القبل[(٢)]، ومنه ألمَّ بكذا أي قاربه ودنا منه، وغلامٌ ملم أي قارب البلوغ، وفي الحديث: «**إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم**»[(٣)]، أي يقرب من ذلك.

[(٤)]وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا، وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا: قبولًا وإثابة...

[(٥)]الذنوب تنقسم إلى: صغائر وكبائر، بنص القرآن، والسنة، وإجماع السلف، وبالاعتبار، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**»[(٦)]. وأما ما يحكى عن

---

(١) ٥٠ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤٦٥) ومسلم (رقم ١٠٥٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٤٧-٢٤٨) وشرح النووي (٧/ ١٤١-١٤٣).

(٤) ٣١٢ مدارج جـ١.

(٥) ٣١٥ مدارج جـ١.

(٦) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣) وانظرك فتح الباري (٤/ ١١١).

أبي إسحاق الإسفرائيني أنه قال: الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر، فليس مراده: أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم، كإثم الوطء في الحرام، وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عصي بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى.

والذي جاء في لفظ الشارع تسمية ذلك «لممًا» و«محقرات»، كما في الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب» وقد قيل: إن «اللمم» المذكور فى الآية من الكبائر، حكاه البغوي. وغيره. قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يلم بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه، وعلى هذا يكون استثناء «اللمم»: من الاجتناب، إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لممًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، وهو منقطع أي لكن يقع منهم اللمم. وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب، والغالب خلافه: أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ، إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحا، فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال: الذنوب كلها كبائر، إذ الأصل في الاستثناء الاتصال ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر. ثم اختلفوا في فصلين أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثاني: في «الكبائر»، وهل لها عدد يحصرها أو حد يحدها، فلنذكر شيئا يتعلق بالفصلين.

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيرًا. قال البغوي: هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس قال: وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «اللمم ما دون الشرك» قال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله ﷻ: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ فقلت: «هو الرجل يلم بالذنب ثم لا

يعاوده»، فذكرت ذلك لابن عباس، فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: علىٰ أن «اللمم» ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في صحيح البخاري من حديث طاوس عنه قال: «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب علىٰ ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تمنىٰ وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[١] رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه: «والعينان زناهما: النظر، والأذنان: زناهما الاستماع، واللسان: زناه الكلام، واليد: زناها البطش، والرجل: زناها الخطىٰ»[٢].

وقال الكلبي: «اللمم» علىٰ وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا في الدنيا ولا عذابًا فى الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة، فيتوب منه. وقال سعيد بن المسيب: هو ما ألم بالقلب أي ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد فهو مغفور، فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو ذنب، وقد روىٰ عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لـــك لا ألما[٣]

وذهبت طائفة ثالثة إلىٰ أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٧).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٨٤) والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٩٢ رقم ٧٠٥٥) وفي السنن الكبرىٰ (١٠/ ١٨٥ رقم ٢٠٥٣٣) والحاكم (٤/ ٢٧٤ رقم ٧٦٢٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١١٥): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

يؤاخذهم به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: إن اللمم صغائر الذنوب: كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبدالله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبي، ولا ينافي هذا قول أبي هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى: «إنه يلم بالكبيرة، ثم لا يعود إليها»، فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين، كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره باللمم، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرارا عديدة، وهذا من فقه الصحابة ﷺ وغور علومهم.

ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مرارا كثيرة، وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا.

ويذكر عن علي ﷺ: أنه «دفع إليه سارق فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت فلما قطعت يده قال: اصدقني كم لك بهذه المرة. فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب»، أو كما قال فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم فهو من جنسه ونظيره، فالقولان عن أبي هريرة وابن عباس متفقان غير مختلفين، والله أعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينا بعد حين، فإنه يقال: ألمّ بكذا إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمما، لأنها تلم بما بعدها، ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماما، أي حينا بعد حين، فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية، وليس معنى الآية ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، فإنهم لا يجتنبونه، فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال، وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام، ومعناه فان سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ومضمون هذا: أنه لا يكون محسنا مجزيا بإحسانه ناجيا من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فحسن حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل في الكبائر، فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه ولم يتناوله لفظه كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام، وكذلك قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم، فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئا إلا حميمًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص لا بطريق العموم، الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد، وكذلك قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال: «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية....

[(١)]وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة. وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[(٢)]. وفيهما عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وجلس وكان متكئًا فقال: «ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(٣)].

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قال قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[(٤)] [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقدف المحصنات الغافلات المؤمنات»[(٥)].

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل

(١) ٣٢٠ مدارج جـ١.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧٠).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥٤) ومسلم (رقم ٨٧).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٩٣-٤٩٤) وشرح النووي (٢/ ٨٠).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦) ومسلم (رقم ٨٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٢) وشرح النووي (٢/ ٨٣-٨٦).

والديه» قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١]. وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: قال: «إن من أكبر الكبائر: استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»[٣].

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر: أسبع هن؟ قال: «هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[٤] وقال: «كل شيء عصي الله به فهو كبيرة[٥] من عمل شيئا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام أو جاحدًا فريضة أو مكذبا بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] فهو كبيرة»[٦] وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب[٧].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٠٤) وشرح النووي (٢/ ٨٣-٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٤٤٨ رقم ٢٢٠٠٥) وعبدالرزاق (٨/ ٣١٤ رقم ١٥٣٤٥) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٥٨ رقم ٧١٥١) وهناد في الزهد (٢/ ٥٦٤ رقم ١١٧٦) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٧٢٧).

(٣) أخرجه عبدالرزاق (١٠/ ٤٥٩ رقم ١٩٧٠١) والطبراني في الكبير (٩/ ١٥٦ رقم ٨٧٨٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٠ رقم ١٠٥٠) وصحح إسناده الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٣).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٤١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٩١٩) وانظر: شرح النووي (٢/ ٨٤).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٢٧٣ رقم ٢٩٣) عن عبيدة، وانظر: التمهيد (١٥/ ١٢).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٣٧).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٤١) والبيهقي في الشعب (١/ ٢٧٠-٢٧١ رقم ٢٩٠) عن ابن عباس، وانظر: صيانة صحيح مسلم (ص ٢٦٥) وفتح الباري (١٠/ ٤١٠).

وقال الضحاك: هي ما أوعد الله عليه حدا في الدنيا أو عذابا في الآخرة.

وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيرًا أو عظيما، نحو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

***

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

(١)أخبر أنه ليس على أحد في وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه، وأن هذا هو العدل الذي نزه نفسه عن خلافه.

(٢)هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟

فالجواب: إنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير: (أحدهما) ما تسبب إليه الميت في حياته. (والثاني) دعاء المسلمين له واستغفارهم والصدقة والحج على نزاع ما الذي يصل من ثوابه: هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه، وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق.

واختلفوا في العبادة البدنية: كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر؛ فمذهب الإمام أحمد وجمهور السلف: وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة، نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قال: قيل لأبي عبد الله: الرجل

(١) ١٠٨ مفتاح جـ٢.
(٢) ١٤٥ الروح.

يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟ قال: أرجو، أو قال: الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها، وقال أيضًا: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، وقل هو الله أحد، وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.

والمشهور من مذهب الشافعي ومالك: أن ذلك لا يصل، وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام: أنه لا يصل إلى الميت شيء البتة لا دعاء ولا غيره.

(١) إن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ﷻ جعل لابن آدم معادين وبعثين، يجزي فيهما الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول.

والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار! وهو الحشر الثاني، ولهذا في الحديث الصحيح: «**وتؤمن بالبعث الآخر**»(٢) فإن البعث الأول لا ينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب، وقد ذكر الله ﷻ هاتين القيامتين، وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور، وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم، فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس.

ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء، لم يظهر فيها ذلك، وأما

---

(١) ٩١ الروح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) ومسلم (رقم ٩، ١٠) وانظر: شرح النووي (١/ ١٦٢).

البرزخ فأول دار الجزاء، فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار، وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرىٰ وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما، فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتق منه، وواصل إلىٰ أهل البرزخ هناك، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع[١].

[٢]فالدليل علىٰ انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٣].

فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل علىٰ أنها منه، فإنه هو الذي تسبب إليها، وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول لله ﷺ: «**إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا إكراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته**»[٤]، وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[٥] وهذا المعنىٰ روي عن النبي ﷺ من عدة وجوه صحاح وحسان، وفي المسند عن حذيفة قال: سأل رجل علىٰ عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم، ثم إن

---

(١) تقدم بقية البحث في سورة المؤمنين. (ج).

(٢) ١٤٦ الروح.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١) وانظر: شرح النووي (١١/ ٨٥).

(٤) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ١٢١ رقم ٢٤٩٠) وابن ماجه (رقم ٢٤٢) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٧-٢٤٨ رقم ٣٤٤٨) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٥ رقم ١٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٣).

رجلًا أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي ﷺ: «من سن خيرًا فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئًا. ومن سن شرًّا فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئًا»(١).

وقد دل على هذا قوله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»(٢) فإذا كان هذا في العذاب والعقاب، ففي الفضل والثواب أولى وأحرى.

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠] فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وقد يمكن أن يقال: إنما انتفعوا باستغفارهم، لأنهم سنوا لهم الإيمان بسبقهم إليه، فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم، لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة.

وفي السنن من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»(٣).

وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه، وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٠) (٥/ ٣٨٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ١١٦ رقم ٢٦٥٦) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٧): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح إلا أبا عبيدة بن حذيفة وقد وثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٦٧) ومسلم (رقم ١٦٧٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٩) (١٢/ ١٩٣) وشرح النووي (١١/ ١٦٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٤٩٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٤٠ رقم ٦٧٥٥) وصححه ابن حبان، انظر: سبل السلام (٢/ ١٠٥) ونيل الأوطار (٤/ ١٠٥-١٠٦).

وأوسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار»[١]. وفي السنن عن واثلة ابن الأسقع قال: صلى رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: «اللهم إن فلان ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر له، وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم»[٢].

وهذا كثير في الأحاديث، بل هو المقصود بالصلاة على الميت، وكذلك الدعاء له بعد الدفن، وفي السنن من حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: كان النبي إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فانه الآن يسأل»[٣].

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم، كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»[٤].[٥]

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٣) وانظر: عمدة القاري (٨/ ١٤١).

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٣٤٣ رقم ٣٠٧٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٥٨) وابن ماجه (رقم ١٤٩٩) وأحمد (٣/ ٤٩١) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٩ رقم ٢١٤) وفي مسنده الشاميين (٢/ ١٦٠ رقم ١١٠٧) وفي الدعاء (رقم ١١٨٩) وانظر: عمدة القاري (٨/ ١٤١).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٣٢٢١) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٥٦ رقم ٦٨٥٦) والحاكم (١/ ٥٢٦ رقم ١٣٧٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أيضاً البيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٤٠) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢١٢٣) وانظر: التمهيد (٢٣/ ٢٧٠) وفيض القدير (٢/ ١٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٥).

(٥) استطرد المؤلف رحمه الله في البحث حول وصول الثواب أو عدمه قرابة كراسة، وذكر حجج الموصلين والنافين بما لا مزيد عليه لباحث. (ج).

(١) وبالجملة فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه، وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة، فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج.

فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، ولا أرشدهم النبي ﷺ وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه، ولكانوا يفعلونه.

فالجواب: أن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن، واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات، وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع. وأما السبب الذي لأجله يظهر ذلك في السلف، فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده، كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت، بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم.

ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر، فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم.

---

(١) ١٧٥ الروح.

فإن قيل: فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة! قيل: صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له، وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة، فإذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك. وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر.

والقائل: إن أحدًا من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به، فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعمله، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك، ولا يشهدون من حضرهم عليه، بل يكفي اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم، لاسيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم.

وسر المسألة: أن الثواب ملك العامل، فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن، وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه، وهذا عمل سائر الناس، حتى المنكرين في سائر الإعصار والأمصار من غير نكير من العلماء.

فإن قيل: فما تقولون في الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

قيل: من الفقهاء المتأخرين من استحبه، ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة، فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، وأن النبي له أجر كل من عمل خيرًا من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير، وأرشدهم ودعاهم إليه، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء. وكل هدى وعلم فإنما نالته أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه: أهداه إليه أو لم يهده، والله أعلم.

***

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(١)انتهت إليه الغايات والنهايات، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية: لا في وجوده، ولا في مزيد جوده. إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء، و«الآخر» الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لحمده وعطائه، بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلًا، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قربًا لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك. وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية، ولهذا جاء «إن أهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء» فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]، «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»(٢).

***

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾.

(٣)وقوله ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣]، والضحك والبكاء فعلان اختياريان، فهو سبحانه المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة، وتأويل الآية، بخلاف ذلك إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات وإبكاء السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبكاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه، ومعناه من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه بل الجميع حق.

***

(١) ٢٦٨ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧).

(٣) ٥٩ شفاء.

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

[١]قال عكرمة عن ابن عباس «السمود: الغناء في لغة حمير» يقال: اسمدي لنا، أي غني لنا، وقال أبو زبيد:

وكــأن العزيــف فيهــا غــنــاء للنــدامَىٰ مــن شــارب مَــسْمُود[٢]

قال أبو عبيدة: المسمود: «**الذي غُنِّي له**»، وقال عكرمة: «**كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا، فنزلت هذه الآية**».

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن: «السمود»: الغفلة والسهو عن الشيء، قال المبرد: هو الاشتغال عن الشيء بهمٍّ أو فرح، يتشاغل به، وأنشد:

رمـىٰ الحـدثان نـسوة آلِ حـرْب بمقــدارٍ سَــمَدْنَ لــه سُــمودا[٣]

وقال ابن الأنباري: السامد اللاهي، والسامد الساهي، والسامد المتكبر، والسامد القائم، وقال ابن عباس، في الآية: وأنتم مستكبرون وقال الضحاك: «أشرون بطرون» وقال مجاهد «غضاب مبرطمون» وقال غيره: «لاهون غافلون معرضون».

فالغناء يجمع هذا كله، ويوجبه، فهذه أربعة عشر اسمًا، سوىٰ اسم الغناء.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النجم

والحمد لله رب العالمين



(١) ٢٥٨ إغاثة جـ١.

(٢) هذا البيت من بحر الخفيف، ينسب إلى أبي زبيد الطائي: حرملة بن المنذر بن معديكرب أدرك الإسلام وأسلم واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات قومه بني طيء مات سنة ٤١هـ. هذا البيت ذكره الحربي في غريب الحديث (٢/ ٥٢١).

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى الكميت بن معروف الأسدي، شاعر مخضرم، عاش أكثر حياته في الإسلام وكان ذا قريحة وجودة في الشعر مات سنة ٦٠هـ وينسب أيضاً إلى أيمن بن خريم الأسدي المتوفى سنة ٨٠هـ وكذا ينسب إلى عبدالله بن الزبير بن الأشيم الأسدي المتوفى سنة ٧٥هـ. ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٤٧) وعزاه إلى أيمن بن خريم. وذكره أيضاً ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٥٩٨) وابن منظور في اللسان (٣/ ٢١٩).

سُورَةُ القَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

(١) الأجداث: القبور، وفيها لغتان بالثاء والفاء، أهل العالية تقوله بالثاء، وأهل السافلة بالفاء.

***

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

(٢) إن كل واحد منا مأمور بأن يصدق الرسول فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وخبره، ولم يوجب الله سبحانه من ذلك على الأمة إلا ما فيه حفظ دينها ودنياها وصلاحها في معاشها ومعادها، وبإهمال ذلك تضيع مصالحها وتفسد أمورها، فما خراب العالم إلا بالجهل، ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد، ومن لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نورا. قال الإمام أحمد: ولولا العلم كان الناس كالبهائم. وقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثا، والعلم يحتاج إليه كل وقت.

الرابع: أن الواجب على كل عبد أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه الحاجة إلى معرفته، وليس في ذلك إضاعة لمصلحة الخلق ولا تعطيل لمعاشهم، فقد كان الصحابة ﷺ قائمين بمصالحهم ومعاشهم وعمارة حروثهم والقيام على مواشيهم، والضرب في الأرض لمتاجرهم، والصفق بالأسواق،

---

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤.

(٢) ٢٣٨ أعلام جـ٢.

وهم أهدىٰ العلماء الذين لا يشق في العلم غبارهم.

الخامس: أن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول دون مقدرات الأذهان ومسائل الخرص والألغاز، وذلك بحمد الله تعالىٰ أيسر شيء علىٰ النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟[١] ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه، وتتعطل معايشه عليه، وسنة رسوله وهي بحمد الله تعالىٰ مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث، وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان، التي كل مالها في نمو وزيادة وتوليد، والدين كل ماله في غربة ونقصان، والله المستعان.

***

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧﴾.

[٢]الاصطبار: افتعال من الصبر كالاكتساب والاتخاذ، وهو مشعر بزيادة المعنىٰ علىٰ الصبر، كأنه صار سجية وملكة: فإن هذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب، قال تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] فالاصطبار أبلغ من الصبر، كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب، ولهذا كان في العمل الذي يكون علىٰ صاحبه، والكسب فيما له، قال تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] تنبيهًا علىٰ أن الثواب يحصل لها بأدنىٰ سعي وكسب، وأن العقاب إنما هو باكتسابها وتصرفها وما تعانيه، وإذا علم

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ قبل الحديث (رقم ٧٥٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥٢١).

(٢) ٢٧ طريق الهجرتين.

هذا فالتذاذ بالبلوىٰ والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار، بل يكون مع الصبر ومع التصبر، ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوىٰ كان بهذا التلذذ والاستبشار أولىٰ، والله أعلم.

***

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

(١)...من هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم علىٰ تكذيب رسله وعصيان أمره علىٰ أن هذا الحكم عام شامل علىٰ من سلك سبيلهم واتصف بصفتهم، وهو سبحانه قد نبه عباده علىٰ نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلىٰ العموم، كما قال تعالىٰ عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم وما حل بهم: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣] فهذا محض تعدية الحكم إلىٰ من عدا المذكورين بعموم العلة، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية ولما تمت الحجة.

***

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

(٢)هذان الضلالان أعني الضلال والشقاء، يذكرهما سبحانه كثيرًا في كلامه، ويخبر أنهما حظ أعدائه، ويذكر ضدهما، وهما الهدىٰ والفلاح كثيرًا، ويخبر أنهما حظ أوليائه.

أما الأول فكقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٤٧] فالضلال الضلال والسعر هو الشقاء والعذاب، وقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥].

---

(١) ١٣١ أعلام جـ١.

(٢) ٣٧ مفتاح جـ١.

وأما الثاني فكقوله تعالىٰ في أول البقرة، وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٥] وكذلك في أول لقمان.

وقال في الأنعام: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن، وأفرضها قراءة على الأمة، وأجمعها لكل ما يحتاج إليه العبد، وأعمها نفعًا ذكر فيها الأمرين.

فأمرنا أن نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فذكر الهداية والنعمة، وهما الهدىٰ والفلاح.

ثم قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء. والضالين وهم أهل الضلال، وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء، لكن ذكر الوصفين معًا لتكن الدلالة على كل منهما بصريح لفظه، وأيضًا فإنه ذكر ما هو أظهر الوصفين في كل طائفة، فإن الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته، والضلال في النصارىٰ أظهر لغلبة الجهل فيهم.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارىٰ ضالون.

(١)قال سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبو هريرة قال: جاء مشركو قريش إلىٰ رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٧-٤٩] رواه مسلم.

وقد روىٰ الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ: أين خصماء الله وهم القدرية»(٢) ولكن

(١) ٢٨ شفاء.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٣١٧ رقم ٦٥١٠) من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن أبيه مرفوعاً. والديلمي في الفردوس (١/ ٢٥٥ رقم ٩٩٢) وابن أبي عاصم في =

حبيب هذا قال الدارقطني: مجهول والحديث مضطرب الإسناد، ولا يثبت.
والمخاصمون في القدر نوعان:

أحدهما: من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره: كالذين قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق. والطائفتان خصماء الله. قال عوف: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارًا، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى. وقال الإمام أحمد: القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد، وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابها وتقديرها، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها، وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم، وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله.

(١)وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، خلق الله الخلق كلهم بقدر، وخلق الخير والشر، فخير الخير السعادة، وشر الشر الشقاوة.

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون ممن أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة؟ قال: قلت: لا، بل فيما قضى عليهم ومضى، قال: أفيكون ذلك ظلمًا؟ قال: ففزعت فزعاً شديداً، وقلت: إنه ليس

=

السنة (١/ ١٤٨ رقم ٣٣٦) والخطيب البغدادي في تالي تلخيص المتشابه (رقم ١٢٣) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٦): رواه الطبراني في الأوسط من رواية بقية وهو مدلس وحبيب بن عمرو مجهول. وانظر: العلل الواردة في الأحاديث النبوية للدارقطني (٢/ ٧٠-٧١).

(١) ٦٦ طريق الهجرتين.

شيء إلا خلقه وملكه: ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فقال: سددك الله إنما سألتك لأحزز عقلك. إن رجلاً من مزينة - أو جهينة - أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه، أشيء قضى عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: فيما قضى عليهم ومضى. فقال الرجل: ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «من كان خلقه الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها»، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1] [الشمس: ٧-٨].

***

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ ﴾.

[2]قال عطاء: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ، وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ قال: كتب عليهم قبل أن يعملوه.

وقالت طائفة: المعنى أنه يحصي عليهم في كتب أعمالهم، وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه، ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء، وهذا أصح، وبالله التوفيق.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه».

وفي الصحيح أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٠).
(٢) ٤٢ شفاء.

نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق الفرج ذلك كله ويكذبه»[١].

وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال: دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. مرتين، ثم دخل عليه ناس من اليمن، فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئنا لنسألك عن هذا الأمر قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض» فنادى منادٍ: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي ينقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها[٢].

فالرب سبحانه كتب ما يقوله وما يفعله، وما يكون بقوله وفعله، وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثارها، كما في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: أن رحمتي غلبت غضبي»[٣].

***

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾.

[٤]سمى الجنة مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها، كما يقال: مودة صادقة: إذا كانت ثابتة تامة. وحلاوة صادقة. وحملة صادقة، ومنه الكلام

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩٠، ٣١٩١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٨٣) (١٣/ ٤٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١٠٠).

(٤) ٧٦ حادي الأرواح.

الصدق، لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث، والصدق في العمل، والصديق الذي يصدق قوله بالعمل، والصَّدق بالفتح: الصلب من الرماح، ويقال للرجل الشجاع أنه لذو مصدق، أي صادق الجملة، وهذا مصداق هذا: أي ما يصدقه.

ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة، ومنه صدقني القتال، وصدقني المودة.

ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه، بخلاف الكذب الباطل، الذي لا شيء تحته، ولا يتضمن أمرًا ثابتًا قط.

وفسر قوم قدم صدق بالجنة، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك.

والتحقيق: أن الجميع حق، فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة، أي بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله، وأدخر لهم جزاءها يوم القيامة.

ولسان الصدق وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق، وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل.

ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنا على الله، وهو دخول وخروج بالله ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد، فإنه لا يزال داخلا في أمر وخارجا من أمر، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك، كان قد أدخل مدخل صدق، وأخرج مخرج صدق، والله المستعان. اهـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القمر

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾.

(1) دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق لما تقدم، وقوله: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه إنما صار إنسانًا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه، ثم قال: ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ والبيان يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانًا: أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات. الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه لغيره. الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ، فيتبين الناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ، فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب، وكثيرًا ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة: ١٨] وقوله: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧] وقد تقدم بسط هذا الكلام.

تنبيه: ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به، فجهله به لا يضر، وعلمه به لا ينتفع

---

(١) ٢٨٩ مفتاح جـ١.

به انتفاعا طائلا، ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير، وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه، والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة، وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها، ولا أدل ولا أبين، ولا أوضح، فكلما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك، وكلما يخطر ببالك، وكلما نالته حاسة من حواسك، فهو دليل على الرب تبارك وتعالى، فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية، ليس في العلوم أجلى منها، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه ونصب من الأدلة على وجوده وحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها، ولا يطيق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة، ووضعه في العقل جملة.

ثم بعث الرسل مذكرين به، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى: ٩] وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١] وقوله: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر: ٤٩] وهو كثير في القرآن ومفصلين لما في الفطرة والعقل العلم به جملة.

فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازات المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، مودعًا في الفطرة مركوزًا فيها، فلو خليت على ما خلقت عليه، لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه، ولأقرت بوحدانيته، ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت. ما جحدت...

(١)وقد جمع بين الأمرين ـ أعني القرآن ونطق اللسان ـ وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾. فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل. فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب، فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق ووسطه وآخره وأعلاه وأسفله وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا وفي الشفتين والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف(٢).

(٣)وتأمل قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾ كيف جعل الخلق والتعليم ناشئًا عن صفة الرحمة متعلقًا باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨] فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت، والبركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة، فإن كان مذكى وخلي منه اسمه كان ميتة، وإن كان

---

(١) ١٢٧ التبيان.

(٢) هذا جزء من البحث الكامل وسيأتي في سورة القلم إن شاء الله. (ج).

(٣) ١٢٣ مختصر الصواعق جـ٢.

طعامًا شارك صاحبه فيه الشيطان، وإن كان مدخلًا دخل معه فيه، وإن كان حدثًا لم يرفع عند كثير من العلماء، وإن كان صلاة لم تصح عند كثير منهم، ولما خلق سبحانه الرحم واشتق لها اسمًا من اسمه، فأراد إنزالها إلى الأرض، وتعلقت به سبحانه، فقال: «مه، فقالت: هذا المقام العائذ بك من القطيعة، فقال: ألا ترضين أن أقطع من قطعك، وأصل من وصلك»[١]. وهي متعلقة بالعرش لها حنحنة كحنحنة المغزل، وكان تعلقها بالعرش رحمة منه بها، وإنزالها إلى الأرض رحمة بخلقه.

ولما علم سبحانه ما تلقاه من نزولها إلى الأرض ومفارقتها لما اشتقت (منه) رحمها بتعلقها بالعرش واتصالها به، وقوله: «ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعت»، ولذلك كان من وصل رحمه لقربه من الرحمن ورعاية حرمة الرحم قد عمر دنياه، واتسعت له معيشته، وبورك له في عمره، ونسيء له في أثره، فإن وصل ما بينه وبين الرحمن - جل جلاله - مع ذلك وما بينه وبين الخلق بالرحمة والإحسان تم له أمر دنياه وأخراه، وإن قطع ما بينه وبين الرحم وما بينه وبين الرحمن أفسد عليه دنياه وآخرته ومحق بركة رحمته ورزقه وأثره، كما قال ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له من العقوبة يوم القيامة من: البغي، وقطيعة الرحم»[٢] فالبغي معاملة الخلق بضد الرحمة، وكذلك قطيعة الرحم، وأن القوم ليتواصلون وهم فجرة فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وأن القوم ليتقاطعون فتقل أموالهم، ويقل عددهم، وذلك لكثرة نصيب هؤلاء من الرحمة، وقلة نصيب هؤلاء منها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٠) ومسلم (رقم ٢٥٥٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٨) وشرح النووي (١٦/ ١١٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٢٠٠ رقم ٤٥٥) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٠٣٩) وأبو داود (رقم ٤٩٠٢) وابن ماجه (رقم ٤٢١١) والترمذي (رقم ٢٥١١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم (٢/ ٣٨٨ رقم ٣٣٥٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٥).

وفي الحديث: «إن صلة الرحم تزيد في العمر»(١)! وإذا أراد الله بأهل الأرض خيرًا نشر عليهم أثرًا من آثار اسمه الرحمن، فعمر به البلاد، وأحيا به البلاد، وإذا أراد بهم شرًّا أمسك عنهم ذلك الأثر، فحل بهم من البلاد بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه الرحمن، ولهذا إذا أراد الله سبحانه أن يخرب هذه الدار ويقيم القيامة أمسك عن أهلها أثر هذا الاسم، وقبضه شيئًا فشيئًا، حتى إذا جاء وعده قبض الرحمة التي أنزلها إلى الأرض؛ فتضع لذلك الحوامل ما في بطونها، وتذهل المراضع عن أولادها، فيضيف سبحانه تلك الرحمة التي رفعها وقبضها إلى ما عنده من الرحمة، فيكمل بها مائة رحمة، فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده، وتصديق رسله وتابعيهم، وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة: كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك فهو مقتضى قوله: «سبقت رحمتي غضبي» فالمسبوق لابد لاحق، وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز.

***

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾.

(٢)تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها(٣) جعلت زينة للشجر، وسترًا ولباسًا للثمرة، ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها، ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس، فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر، حتى إذا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٩ رقم ٩٤٣) وفي الكبير (٨/ ٢٦١ رقم ٨٠١٤) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٩٣ رقم ١٠٠) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ١٥/رقم ١٣١٧): رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن. وكذا قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٥) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٢١٣).
(٢) ٢٢٦ مفتاح جـ١.
(٣) يعني ورق الشجر الذي ذكره المؤلف رحمه الله قبل ذلك في الأصل. (ج).

طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه، لتكتسى لباسًا جديدًا أحسن منه، فتبارك الله رب العالمين، الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها، وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرًا آخر، ولرأوا خلقتها بعين أخرى، ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت، وأنها لم تخلق سدى، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦] فالنجم ما ليس له ساق من النبات. والشجر ما له ساق، وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا، قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر، وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحا وسجودًا وصلاة وتأويبًا وهبوطًا من خشيته، كما ذكر تعالى ذلك في كتابه، فتارة يخبر عنها بالتسبيح، وتارة بالسجود، وتارة بالصلاة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١] أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالته عليه، وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا، وفرق بينهما، وعطف أحدهما على الآخر، وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٠]، وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت: كالعشي والإشراق، أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين، وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا على بطلانه، والحمد لله.

***

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ ﴾.

[1]...من هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين، لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك، فالأول كقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثاني كقوله: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثالث كقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]، فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب مواردها يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد، فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وهي متعددة، وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب، وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء: فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقًا واحدًا، ومشرق هبوطها بجملته مشرقًا واحدًا، ويقابلها مغرباها، فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع، وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحدًا تعرض له ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بين من السياق، فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن.

لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات فذكر أولا نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر

(١) ١٢١ بدائع جـ١.

بالعدل ونهى عن الظلم، ذكر نوعي الخارج من الأرض، وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين، وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك، وقدر موضعهما اللفظ مفردا ومجموعا، تجد السمع ينبو عنه، ويشهد العقل بمنافرته للنظم، ثم تأمل ورودهما مفردين في سورة المزمل لما تقدمهما ذكر الليل والنهار، فأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بقيام الليل، ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلا، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه، وذكر النهار وما يكون منه فيه عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب، اللذين هما مظهر الليل والنهار، فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع، لأن ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار أبدا يظهر من المشرق والليل أبدا يظهر من المغرب، ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١] لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء، والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب، لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب، فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء، وينقل إلى أمكنتهم خيرًا منهم.

وأيضًا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببًا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات، وانتقالها من حال إلى غيره، ويبدل الحر بالبرد والبرد بالحر والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج، وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم، بسبب اختلاف مشارق

الشمس ومغاربها، كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيرًا منهم، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع، ثم تأمل كيف جاءت أيضا في سورة الصافات مجموعة في قوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ [الصافات: ٥]، لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة، وهي السماوات والأرض وما بينهما، كان الأحسن مجيئها مجموعة، لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب، لاقتضاء الحال لذلك، فإن المشارق مظهر الأنوار، وأسباب انتشار الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه، فهو إنشاء مشهود، فقدمه بين يدي الرد على منكري البعث، ثم ذكر تعجب بنيه من تكذيبهم واستبعادهم البعث بعد الموت ثم قدر الموت وحالهم فيه، وكان الاقتصار على ذكر المشارق هاهنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب، والله أعلم.

***

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[1]«الفناء» مصدر فني يفنى فناءً إذا اضمحل وتلاشى وعدم، وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه، مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء: لا يقتل في المعركة شيخ فانٍ، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦] أي هالك: ذاهب.

[2]...الفناء في الآية الهلاك والعدم، أخبر سبحانه: أن كل من على الأرض يعدم ويموت، ويبقى وجهه سبحانه، وهذا مثل قوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] ومثل قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال الكلبي ومقاتل: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلما قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

(١) ١٥٤ مدارج جـ١.
(٢) ٣٦٨ مدارج جـ٣.

وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] أيقنت الملائكة بالهلاك، قال الشعبي: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه، إذ المقصود: الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه سبحانه، فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه، إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه، فهي نظير قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

[(١)] إن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده؟ فقد اختلف الناس في هذا فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، قالوا: وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت، قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم، وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا، فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، كما سيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب[(٢)]

---

(١) ٤٠ الروح.

(٢) هذان البيتان من بحر البسيط وينسبان إلى المتنبي وقد سبق التعريف به. وذكرهما أبو الحسن الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه (ص ٢٩٤) والثعالبي في يتيمة الدهر (١/ ٣٤١).

فإن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا قيل قد قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] إلا من شاء الله فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وهذا قول مقاتل وغيره[(١)].

***

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

[(٢)]ذكر الحاكم في صحيحه من حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن مما خلق الله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفناه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[(٣)].

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعز، ويذل، ويفك عانيًا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيا، ويعطي سائلا، ويتوب على قوم، ويكشف كربا، ويغفر ذنبا، ويضع أقواما ويرفع آخرين[(٤)]. دخل كلام بعضهم في بعض، وقد ذكر الطبراني في المعجم

---

(١) بحث المؤلف رحمه الله هنا بحثًا مطولًا لمن أراده. (ج).

(٢) ٢٣ شفاء.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٣٥) والضياء في المختارة (١٠/ ٧١ رقم ٦٣) والحاكم (٢/ ٥١٦ رقم ٣٧٧١) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٠ رقم ١٠٦٠٥) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩١): رواه الطبراني من طريقين رجال هذه ثقات.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٢٦٣) والطبري في تفسيره (٢٧/ ١٣٥) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٧٢).

والستة وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على المريسي عن عبد الله بن مسعود قال: إن ربكم ﷻ ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض نور وجهه، وأن مقدار كل يوم من أيامكم عنده ثنتي عشرة ساعة، فيعرض عليه أعمالكم فيها على ما يكره، فيغضبه ذلك. وأول من يعلم غضبه حملة العرش، يجدونه يثقل عليهم، فيسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة، ثم ينفخ جبريل في القرن، فلا يبقى شيء إلا سمع صوته، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات، حتى يمتلئ الرحمن ﷻ رحمة، فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بالأرحام، فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦] وقوله: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فتلك تسع ساعات، ثم يؤتى بالأرزاق، فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه: ﴿ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ [الشورى: ١٢] ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِى شَأۡنٖ ﴾ قال: هذا شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى...

...قال عثمان بن سعيد الدارمي ثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهري أن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار.. فذكر الحديث إلى قوله: فيسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة[1]. فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٧٩ رقم ٨٨٨٦) والدارمي في نقضه على المريسي الجهمي العنيد (١/ ٤٧٥-٤٧٦) وضعفه محققه الدكتور رشيد بن حسن الألمعي حفظه الله. وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٥): رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو عبدالسلام، قال أبو حاتم: مجهول، وقد ذكره ابن حبان في الثقات. وعبدالله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره.

السماوات والأرض والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه.

(١) وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرّج كَرْباً، ويكشف غماً، وينصر مظلوماً، ويأْخذ ظالماً، ويفك عانياً، ويغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشفي مريضاً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويعطى سائلاً، ويذهب بدولة، ويأْتي بأُخرى، ويداول الأَيام بين الناس، ويرفع أَقواماً، ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأَرض بخمسين أَلف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأَخر، بل كل منها قد أَحصاه كما أَحصاه كتابه، وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أَبي بكر أَحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني: حدثنا إِسحق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أَبي إدريس عن أَبي الدرداء أَنه سئل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً، وَيُفَرِّجَ كَرْباً، وَيَرْفَعَ قَوْماً، وَيَضَعَ آخَرِينَ»(٢).

---

(١) ١٢٣ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً من قول أبي الدرداء ﷺ في كتاب التفسير، باب سورة الرحمن قبل حديث (رقم ٤٨٧٨) وأخرجه مرفوعاً ابن حبان (٢/ ٤٦٤ رقم ٦٨٩) وفي الموارد (رقم ١٧٦٣) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٧٨ رقم ٣١٤٠) وفي مسند الشاميين (٣/ ٢٥٥-٢٥٦ رقم ٢٢٠٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦ رقم ١١٠١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٢٣).

[(١)]ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أي ميز وجمع وبين وأظهر ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا»[(٢)]. فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض وسره باديًا على وجهه، كما قال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [الرحمن: ٤١] وقال ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١٦].

***

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾.

[(٣)]الجنة: اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمساكن والقصور، وهي جنات كثيرة جدًّا، كما روى البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سرقة أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة وإن أبنك أصاب الفردوس الأعلى»[(٤)] وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[(٥)] وقد قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]

---

(١) ٥٢ التبيان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٣١) ومسلم (رقم ٦٢٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٩٨) (١١/ ١٩٥).

(٣) ٧٧ حادي الأرواح.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٠٩) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٧٨) ومسلم (رقم ١٨٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣١-٤٣٢).

فذكرهما ثم قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]. فهذه أربع، وقد اختلف في قوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما على قولين: فقالت طائفة: من دونهما. أي أقرب منهما إلى العرش فيكونان فوقهما.

وقالت طائفة: بل معنى من دونهما تحتهما قالوا: وهذا المنقول في لغة العرب إذا قالوا: هذا دون هذا أي دونه في المنزلة، كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك. وفي الصحاح: دون نقيض فوق، وهو تقصير عن الغاية، ثم قال ويقال: هذا دون هذا، أي أقرب منه، والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه:

(أحدها): قوله: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٨]، وفيه قولان: أحدهما: أنه جمع فنن، وهو الغصن. والثاني: أنه جمع فن وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها، ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

(الثاني): قوله: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وفي الأخريين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٦] والنضاخة هي الفوارة، والجارية السارحة، وهي أحسن من الفوارة، فإنها تضمن الفوران والجريان.

(الثالث): أنه قال: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢] وفي الأخريين ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨]، ولا ريب أن وصف الأوليين أكمل، واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان.

فقالت: طائفة الزوجان الرطب واليابس، الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب، وهو متمتع به كما متمتع باليابس، وفيه نظر لا يخفى، وقالت: طائفة الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب، وقالت: طائفة نوعان ولم تزد، والظاهر والله أعلم: أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم.

(الرابع): أنه قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها وفي الأخريين، قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦] وفسر الرفرف بالمحابس والبسط وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها، وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

(الخامس): أنه قال: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاؤا، ولم يذكر ذلك في الأخريين.

(السادس): أنه قال: ﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ [الرحمن: ٥٦] أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن، فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢] ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

(السابع): أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه، ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

(الثامن): أنه قال ﷻ في الجنتين الأوليين: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

(التاسع): أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين، وجعلهما جزءًا لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه، فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين، ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

(العاشر): أنه قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]، والسياق يدل على أنه

نقيض فوق، كما قال الجوهري فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه. قيل: لما كان الخائفون نوعين، كما ذكرنا كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان، ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما، فإن قيل فهل الجنتان لمجموع الخائفين، يشتركون فيهما أم لكل واحد جنتان، وهما البستانان قيل: هذا فيه قولان للمفسرين. ورجح القول الثاني بوجهين: (أحدهما) من جهة النقل و(الثاني) من جهة المعنى، فأما الذي من جهة النقل، فإن أصحاب هذا القول رووا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هما بستانان في رياض الجنة»[1]. وأما الذي من جهة المعنى، فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر. والثانية جزاء اجتناب المحارم.

فإن قيل: فكيف قال في ذكر النساء ﴿ فِيهِنَّ ﴾ في الموضعين، ولما ذكر غيرهن قال ﴿ فِيهِمَا ﴾.

قيل: لما ذكر الفرش قال بعدها: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ ليتشاكل اللفظ والمعنى والله أعلم.

[2]أما الفرش فقد قال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٤] فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أمرين:

(أحدهما): أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها، لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة، قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة ابن مريم عن عبد الله في قوله بطائنها من إستبرق، قال: هذه البطائن قد خبرتم

---

(١) قال السيوطي في الدر (٧/ ٧٠٨): وأخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم أنه سمع رسول الله ﷺ تلا ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال: بستانان عرض كل واحد منها مسيرة مائة عام.. وذكره الحافظ ابن حجر في اللسان (٢/ ٢٨٢) في ترجمة الحسين بن داود البلخي وقال: حديثه موضوع. وانظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) ١٤٧ حادي الأرواح.

بها، فكيف بالظهائر[١].

(الثاني): يدل على أنها فرش عالية لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة، وقد روى في سمكها وارتفاعها آثار إن كانت محفوظة، فالمراد ارتفاع محلها كما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام[٢]، قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد قيل، ومعناه: إن ارتفاع المذكور للدرجات والفرش عليها قلت رشدين بن سعد عنده مناكير: قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال أحمد: لا يبالي عمن روى، وليس به بأس في الرقاق. وقال: أرجو أنه صالح الحديث، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال الجوزجاني: عنده مناكير، ولا ريب أنه كان سيء الحفظ، فلا يعتمد على ما ينفرد به، وقد قال ابن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض»، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ فالله أعلم. وقال الطبراني: حدثنا المقدام بن داود حدثنا أسد بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن مطرف عن عبد الله بن الشخير عن كعب في قوله ﷻ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: مسيرة أربعين سنة. قال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن نائلة حدثنا إسماعيل بن عمرو والبجلي حدثنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال سئل رسول الله ﷺ عن الفرش المرفوعة قال: «لو طرح فراش من

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٦ رقم ٣٧٧٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٥) رواه البيهقي موقوفاً بإسناد حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) والترمذي (رقم ٣٢٩٤) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ١٠٩٦ رقم ٥٩٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٥): رواه ابن أبي الدنيا والترمذي وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث رشدين يعني عن عمرو بن الحارث عن دراج.

أعلاها إلى قرارها مائة خريف»[١]. وفي رفع هذا الحديث نظر، فقد قال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا معاذ بن هشام قال: وجدت في كتاب أبي القاسم عن أبي أمامة في قوله ﷺ: «﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفًا»[٢].

[٣]أعظم الإحسان الإيمان والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه: إجلالا ومهابة وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»[٤].

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] والذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس: هل جزاء من قال لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة، وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: قرأ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٢ رقم ٧٩٤٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٥ رقم ٥٧٠٤): رواه الطبراني ورواه غيره موقوفاً على أبي أمامة وهو أشبه بالصواب. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٠): رواه الطبراني وفيه جعفر بن الزبير الحنفي وهو ضعيف، وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢١٩).

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٨/ ١٥) وعزاه إلى ابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة.

(٣) ١٨ بدائع جـ٣.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) وشرح النووي (١/ ١٥٧).

رسول الله ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَـٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَـٰنُ ﴾ ثم قال: «**هل تدرون ما قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «**يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة**»(١).

(٢)ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة الإحسان، وهي لب الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان.

فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، أما الآية: فقال ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَـٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَـٰنُ ﴾ ثم قال: «**هل تدورن ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «**يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة**»(٣).

وأما الحديث: فإشارة إلى كمال الحضور مع الله ﷻ ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

***

﴿ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

(٤)**يُذكر عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً: «ما مِن رُمَّانٍ من رُمَّانِكم هذا إلا وهو مُلقَّحٌ بحبَّةٍ من رُمَّانِ الجَنَّةِ»**(٥) والموقوفُ أشْبَهُ. وذكر حَربٌ وغيره عن عليّ أنه قال:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر (٧/ ٧١٣) إلى ابن مردويه عن جابر بن عبدالله مرفوعاً. بينما عزاه في (٧/ ٧١٤) إلى الحكيم الترمذي والبغوي والديلمي وابن النجار عن أنس مرفوعاً أيضاً، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٩).

(٢) ٤٥٩ مدارج جـ٢.

(٣) تقدم في سورة الأعراف على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] قريبًامن هذا. (ج).

(٤) ٣٥١ زاد المعاد جـ٣.

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ٤١ رقم ٦١٢٩) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٨٥) وقال الذهبي في =

كُلُوا الرُّمَّانَ بِشحْمِه، فإنه دباغُ المَعِدَةِ[1]. حلوُ الرُّمَّان حار رطب، جيدٌ للمَعِدَة، مقوٍ لها بما فيه من قبْضٍ لطيف، نافع للحلق والصدر والرِّئة، جيدٌ للسُّعال، وماؤه مُلَيِّن للبطن، يَغْذي البدن غِذاءً فاضلاً يسيراً، سريعُ التحلُّل لرِقَّته ولطافته، ويُولِّد حرارة يسيرة في المعدة وريحاً، ولذلك يُعين على الباه، ولا يصلح للمَحْمُومين، وله خاصيَّة عجيبة إذا أُكل بالخبز يمنعه من الفساد في المعدة. وحامضه بارد يابس، قابض لطيف، ينفع المَعِدَة الملتهبة، ويُدِرُّ البَوْل أكثرَ من غيره من الرُّمَّان، ويُسكِّنُ الصَّفْراء، ويقطع الإسهال، ويمنع القيء، ويُلطِّف الفضول، ويُطفئُ حرارة الكبد، ويُقَوِّي الأعضاء، نافع من الخَفَقان الصَّفراوي، والآلام العارضة للقلب، وفم المعدة، ويُقوِّي المَعِدَة، ويدفع الفُضول عنها، ويُطفئُ المِرَّة الصفراء والدم، وإذا استُخرجَ ماؤه بشَحْمه، وطُبِخَ بيسير من العسل حتى يصير كالمرهم، واكتُحِلَ به، قطع الصفرة من العَيْن، ونقَّاها من الرطوبات الغليظة، وإذا لُطخ على اللِّثَة، نفع من الأَكلة العارضة لها، وإن استُخرج ماؤهما بشحمهما، أطلَق البطن، وأحْدَر الرُّطوباتِ العَفِنَةَ المُرِّية، ونفع مِن حُمِّيات الغب المُتطاوِلة.

وأما الرُّمَّان المزُّ، فمتوسط طبعاً وفعلاً بين النوعين، وهذا أمْيَلُ إلى لطافة الحامض قليلاً، وحَبُّ الرُّمَّان مع العسل طِلاءٌ للداحِس والقروح الخبيثة، وأقماعُه للجراحات، قالوا: ومَن ابتلع ثلاثةً من جُنبُذِ الرُّمَّان في كل سنة، أمِنَ مِنَ الرَّمد سنته كلَّها.

***

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾.

= الميزان (٦/ ٣٦٠) في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان القلانسي: فمن أباطيله: حدثنا أبو عاصم وذكر الحديث. وضعفه العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٥٢ رقم ٢٢٤٤).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٤ رقم ٥٩٥٨) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٩٦): رواه أحمد ورجاله ثقات.

[(١)] قال تعالى في وصفهن[(٢)]: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢] المقصورات المحبوسات، قال أبو عبيدة: خدرن في الخيام، وكذلك قال مقاتل: وفيه معنى آخر، وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات على أزواجهن، لا يرون غيرهم، وهم في الخيام، وهذا معنى قول من قال: قصرن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم، ولا يطمحن إلى من سواهم، وذكره الفراء. قلت: وهذا معنى ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ولكن أولئك قاصرات بأنفسهن، وهؤلاء مقصورات، وقوله: ﴿ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ على هذا القول صفة لحور، أي هن في الخيام، وليس معمولًا لمقصورات، وكأن أرباب هذا القول فسروا بأن يكن محبوسات في الخيام، لا تفارقنها إلى الغرف والبساتين، وأصحاب القول الأول يجيبون عن هذا بأن الله سبحانه وصفهن بصفات النساء المخدرات المصونات، وذلك أجمل في الوصف، ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين، كما أن نساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه، فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت، ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها، وأما مجاهد فقال: مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ، وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن قاصرات الطرف، وهؤلاء بكونهن مقصورات، والوصفان لكلا النوعين، فإنهما صفتا كمال، فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج، وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز الظهور للرجال.

تفسير قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠] ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ فالخيرات جمع خيرة، وهي مخففة من خيره: كسيدة ولينة، وحسان جمع حسنة، فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم وحسان الوجوه، قال وكيع: حدثنا سفيان عن

(١) ١٥٩ حادي الأرواح.
(٢) أي الحور العين.

جابر عن القاسم عن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبد الله قال: «لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة، لم تكن قبل ذلك: لا ترحات، ولا ذفرات، ولا بخرات، ولا طامحات»[(١)]. اهـ.

[(٢)]ذكر خيامهم ذكر خيامهم وسررهم وأرائكهم وبشخاناتهم، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً»، وفي لفظ لهما: «في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن» وفي لفظ آخر لهما أيضًا: «الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل للمؤمن، لا يراهم الآخرون»[(٣)] وللبخاري وحده في لفظ: «طولها ثلاثون ميلًا»[(٤)]. وهذه الخيم غير الغرف والقصور، بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الأنهار.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن، عن أحمد بن أبي الحوري. قال: سمعت أبا سليمان قال: «ينشأ خلق الحور العين إنشأ، فإذا تكامل خلقهن ضربت عليهم الملائكة الخيام»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٢٨ رقم ١٨٧٦٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٤): رواه ابن أبي الدنيا من رواية جابر الجعفي موقوفاً. وانظر: الدر المنثور (٧/ ٧٢٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٨١).

(٢) ١٥٠ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٣، ٤٨٧٩) ومسلم (رقم ٢٨٣٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٣-٣٢٤) وشرح النووي (١٧/ ١٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٣).

(٥) انظر: فيض القدير (٤/ ٤٤٨).

وقال بعضهم: لما كن أبكاراً، وعادة البكر أن تكون مقصورة في خدرها حتى يأخذها بعلها، أنشأ الله تعالى الحور، وقصرهن في خدور الخيام، حتى يجمع بينهن وبين أوليائه في الجنة.

وقال ابن أبي الدنيا: «حدثنا إسحاق، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن جابر، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي عبيدة، عن مسروق، عن عبدالله قال: «لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك، لا مزجات ولا زفرات ولا بخرات ولا طماحات، حور عين كأنهن بيض مكنون»(١). حدثنا علي بن الجعد حدثنا شعبة عن عبد الله بن ميسرة قال: سمعت أبا الأحوص يحدث عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قال: در مجوف(٢).

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سليمان التيمي عن قتادة عن خليد القصري عن أبي الدرداء قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون باباً كلها من درة»(٣). قال ابن المبارك وأخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة الآف مصراع من ذهب»(٤).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبد الوهاب حدثنا شريك عن منصور عن مجاهد: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ قال: في خيام اللؤلؤ والخيمة لؤلؤة واحدة. حدثني محمد بن جعفر حدثنا منصور حدثنا يوسف بن الصباح عن أبي صالح عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٢٨ رقم ١٨٧٦٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٤ رقم ٥٦٥٦): رواه ابن أبي الدنيا من رواية جابر الجعفي موقوفاً. وانظر: الدر المنثور (٧/ ٧٢٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٨١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٢ رقم ٣٤٠٦١).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٥٠) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٥٣).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٦٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٤١ رقم ٣٤٠٥٨) وعبد الرزاق (١١/ ٤١٨ رقم ٢٠٨٨٢). وقد ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨٥) وقال: وإسناد هذه أصح.

ابن عباس: حور مقصورات في الخيام. قال الخيمة درة من لؤلؤة مجوفة، طولها فرسخ وعرضها فرسخ، ولها ألف باب من ذهب، حولها سرادق دوره خمسون فرسخًا، يدخل عليه من كل باب منها ملك بهديه من عند الله ﷻ. وذلك قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣] والله أعلم.

(١)وأما السرر فقال تعالىٰ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور: ٢٠] وقال تعالىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٦] وقال تعالىٰ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ فأخبر تعالىٰ عن سررهم بإنها مصفوفة بعضها إلىٰ جانب بعض ليس بعضها خلف بعض، ولا بعيدا من بعض. وأخبر أنها موضونة. والوضن في اللغة النضيد والنسج المضاعف، يقال وضن فلان الحجر أو الآجر، بعضه فوق بعض، فهو موضون. وقال الليث: الوضن نسج السرير وأشباهه، ويقال: درع موضونة مقاربة النسج. وقال رجل من العرب لامرأته: ضني متاع البيت، أي قاربي بعضه من بعض. قال أبو عبيدة والفراء والمبرد وابن قتيبة: موضونة منسوجة مضاعفة، متداخلة بعضها فوق بعض علىٰ بعض، كما توضن حلق الدرع، ومنه سمي الوضين، وهو نطاق من سيور تنسج، فيدخل بعضها في بعض، وأنشدوا للأعشىٰ:

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيرًا فعيرًا(٢)

قالوا موضونة: منسوجة بقضبان الذهب، مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد. قال هشيم: أنبأنا حصين عن مجاهد عن ابن عباس قال مرمولة بالذهب. وقال مجاهد: موصولة بالذهب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: موضونة مصفوفة. فأخبر سبحانه أنها مرفوعة. قال عطاء عن ابن عباس، قال: سرر من ذهب، مكللة بالزبرجد

(١) ٣٠٤ حادي الأرواح طبعة دار ابن كثير.

(٢) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب إلىٰ الأعشىٰ وقد سبق التعريف به، وذكره البيت الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٧٢) وابن منظور في اللسان (١٣/ ٤٥٠).

والدر والياقوت. والسرير مثل ما بين مكة وأيلة. وقال الكلبي: طول السرير في السماء مائة ذراع، فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه، تواضع له حتى يجلس عليه، فإذا جلس عليه ارتفع إلى مكانه.

وأما الأرائك فهي جمع أريكة، قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الإنسان: ١٣] قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة، فإذا كان سريرًا بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة، ولا تكون أريكة إلا والسرير في الحجلة، فإذا اجتمعا كانت أريكة. وقال مجاهد: هي الأسرة في الحجال. قال الليث: الأريكة سرير حجلة، فالحجلة والسرير أريكة، وجمعها أرائك. وقال أبو إسحاق: الأرائك الفرش في الحجال. قلت: هاهنا ثلاثة أشياء (أحدها) السرير، و(الثانية) الحجلة وهي البشخانة التي تعلق فوقه، و(الثالث) الفراش الذي على السرير، ولا يسمى السرير أريكة، حتى يجمع ذلك كله. وفي الصحاح: الأريكة سرير متخذ مزين في قبة أو بيت، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة، والجمع الأرائك، وفي الحديث: أن خاتم النبي ﷺ كان مثل زر الحجلة، وهو الزر الذي يجمع بين طرفيها من جملة أزرارها، والله أعلم.

***

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

[1]أما البسط والزرابي، فقد قال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦] وذكر هشام عن أبي بشر عن سعد بن جبير قال: الرفرف رياض الجنة، والعبقري عتاق الزرابي. وذكر إسماعيل ابن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال: هي

---

(١) ١٤٨ حادي الأرواح.

البسط قال: وأهل المدينة يقولون: هي البسط. وأما النمارق، فقال الواحدي: هي الوسائد في قول الجميع، واحدها نمرقة بضم النون، وحكى الفراء نمرقة بكسرها، وأنشد أبو عبيدة:

إذا ما بساط اللهو مد وقربت   للذاته أنماطه ونمارقه(١)

قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض، وقال مقاتل: هي الوسائد مصفوفة على الطنافس. وزرابي بمعنى البسط والطنافس، واحدها زريبة في قول جميع أهل اللغة والتعبير، ومبثوثة مبسوطة منشورة.

وأما الرفرف فقال الليث: ضرب من الثياب خضر تبسط الواحد رفرفة. وقال أبو عبيدة: الرفارف البسط، وأنشد لابن مقبل:

وأنا لنازلون تغشى نعالنا   سوابغ من أصناف ريط ورفرف(٢)

وقال أبو إسحاق: قالوا الرفرف ههنا رياض الجنة. وقالوا: الرفرف الوسائد، وقالوا: الرفرف المحابس، وقالوا: فضول المحابس للفرش، وقال المبرد: هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره. وقال الواحدي: وكأن الأقرب هذا، لأن الغرب تسمى كسر الخباء، والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء رفرفا، ومنه الحديث في وفاة النبي ﷺ: «فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة» قال ابن الأعرابي: الرفرف هاهنا طرف البساط، فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط، فسمى

---

(١) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى محمد بن عبدالله النميري الثقفي شاعر الغزل نشأ ومات في الطائف، كان كثير التشبيب بزينب أخت الحجاج، فتهدده، ففر إلى اليمن ثم استجار بعبدالملك بن مروان فأجاره وعفا عنه الحجاج على ألا يعود، مات سنة ٩٠هـ. وينسب أيضاً إلى نصيب بن رباح مولى عبدالعزيز بن مروان مات سنة ١٠٨هـ. وذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٠/ ٣٦١) منسوباً إلى محمد بن عبدالله بن نمير.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى تميم بن أبي بن مقبل من بني العجلان شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، عاش نيفاً ومئة سنة، وعد في المخضرمين له ديوان شعر ورد فيه ذكر وقعة صفين، مات سنة ٣٧هـ.

رفرفًا. قلت: أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب، فمنه الرفرف في الحائط، ومنه الرفرف وهو كسر الخباء، وجوانب الدرع، وما تدلى منها الواحدة رفرفة، ومنه رفرف الطير إذا حرك جناحه حول الشيء، يريد أن يقع عليه والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة، وكل ما فضل من شيء فثنى وعطف فهو رفرف، وفي حديث ابن مسعود في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] قال: رأى رفرفا أخضر سد الأفق[١]. وهو في الصحيحين.

فصل وأما العبقري فقال أبو عبيدة: كل شيء من البسط عبقري. قال: ويرون أنها أرض توشى فيها. وقال الليث: عبقر موضع بالبادية كثير الجن، يقال كأنهم جن عبقر. قال أبو عبيدة في حديث النبي ﷺ ذكر عمر: فلم أر عبقريا يفري فرية[٢]. وإنما أصل هذا فيما يقال: إنه نسب إلى عبقر، وهي أرض يسكنها الجن، فصار مثلا منسوبا إلى شيء رفيع، وأنشد لزهير:

تخال عليها جِنَّةً عبقـــرية   جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا[٣]

وقال أبو الحسن الواحدي: وهذا القول هو الصحيح في العبقري، وذلك أن العرب إذا بالغت في وصف شيء نسبته إلى الجن أو شبهته بهم، ومنه قول لبيد:

جن البَدِيّ رواسيا أقدامها[٤]

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦١١) وشرح النووي (٣/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٨٢) ومسلم (رقم ٢٣٩٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٩) وشرح النووي (١٥/ ١٥٩-١٦٢).

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى زهير بن أبي سلمى، حكيم الشعراء في الجاهلية، وقد سبق التعريف به. وذكر البيت ابن سلام في غريب الحديث (١/ ٨٨) (٣/ ٤٠١) وابن منظور في اللسان (٤/ ٥٣٥) وياقوت في معجم البلدان (٤/ ٧٩). والقرطبي في التفسير (١٧/ ١٩٢).

(٤) هذا عجز بيت من بحر الكامل، وينسب إلى لبيد بن ربيعة العامري، وقد سبق التعريف به، وصدر البيت: غُلبٌ تشذَّر بالذحول كأنها.

ذكر البيت ابن سلام في غريب الحديث (٣/ ٤٧٤) وياقوت الحموي في معجم البلدان (١/ ٣٦٠).

وقال آخر يصف امرأة:

جنية أو لها جن يعلمـها   رمي القلوب بقوس ما لها وتر (١)

وذلك أنهم يعتقدون في الجن كل صفة عجيبة، وأنهم يأتون بكل أمر عجيب، ولما كان عبقر معروفا بسكناهم نسبوا كل شيء يبالغ فيه إليها، يريدون بذلك أنه من عملهم وصنعهم، هذا هو الأصل، ثم صار العبقري اسمًا ونعتًا لكل ما بولغ في صفته، ويشهد لما ذكرنا بيت زهير، فإنه نسب الجن إلىٰ عبقر، ثم رأينا أشياء كثيرة نسبت إلىٰ عبقر غير البسط والثياب، كقوله في صفة عمر عبقر.

وروىٰ سلمة عن الفراء قال: العبقري السيد من الرجال، وهو الفاخر من الحيوان والجوهر، فلو كانت عبقر مخصوصة بالوشي، لما نسب إليها غير الموشىٰ، وإنما ينسب إليها البسط الموشية العجيبة الصنعة، كما ذكرنا، كما نسب إليها كل ما بولغ في وصفة، قال ابن عباس: ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ يريد البسط الطنافس. وقال الكلبي: هي الطنافس المجملة. وقال قتادة: هي عتاق الزرابي. وقال مجاهد: الديباج الغليظ. وعبقري جمع واحده عبقرية، ولهذا وصف بالجمع، وتأمل كيف وصف الله ﷻ الفرش بأنها مرفوعة، والزرابي بأنها مبثوثة، والنمارق بأنها مصفوفة، فرفع الفرش دال علىٰ سمكها ولينها، وبث الزرأبي دال علىٰ كثرتها، وأنها في كل موضع لا يختص بها صدر المجلس دون مؤخره وجوانبه، ووصف المساند يدل علىٰ أنها مهيأة للاستناد إليها دائما ليست مخبأة تصف في وقت دون وقت، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرحمن

والحمد لله رب العالمين



---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلىٰ محمد بن بشير الخارجي، شاعر أموي سكن المدينة المنورة وفي شعره متانة وفصاحة، مات ١٣٠هـ وذكر البيت ابن منظور في اللسان (٤/ ١١).

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾.

(١)ذكر الله تعالى أصناف بني آدم: سعيدهم وشقيهم. قسم سعيدهم إلى قسمين: سابقين، وأصحاب يمين، فقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠] اختلف في تقريرها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من باب التوكيد اللفظي، ويكون الخبر قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١١]. والثاني: أن يكون السابقون الأول مبتدأ والثاني خبر له على حد قولك: زيد زيد، أي زيد الذي سمعت به هو زيد، كما قال:

أنا أبو النجم وشعري شعري(٢)

وكقول الآخر:

إذ الناس ناس، والزمان زمان(٣)

---

(١) ٨٥ حادي الأرواح.

(٢) هذا البيت من بحر الرجز، وينسب إلى أبي النجم العجلي: الفضل بن قدامة من بني بكر بن وائل، من أكابر الرجاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر، كان يحضر مجالس عبدالملك بن مروان وابن هشام، توفي ١٣٠هـ. وذكر بيته هذا كل من ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦١) وابن حجر في فتح الباري (١/ ١٦) وبدر الدين العيني في عمدة القاري (١٤/ ١٢٨) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٥/ ٢٣٣).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى الطغرائي: الحسين بن علي بن محمد بن عبدالصمد الأصبهاني، شاعر من الوزراء الكتاب، كان يلقب بالأستاذ، وأثنى عليه المؤرخون، مات سنة ٥١٣هـ، وهذا عجز بيت أما صدره فهو: أصلحت لي زمني ورضت صعابه
وذكر عجز البيت الخطابي في العزلة (ص ٣١) ولم ينسبه لأحد.

قال ابن عطية: وهذا قول سيبويه، والثالث: أن يكون الأول غير الثاني، ويكون المعنين: السابقون في الدنيا إلىٰ الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلىٰ الجنات. والسابقون إلىٰ الإيمان هم السابقون إلىٰ الجنان. وهذا أظهر، والله أعلم. فإن قيل: فما تقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه من حديث بريدة بن الحصيب قال: أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالاً، فقال: «يا بلال، بِمَ سبقتني إلىٰ الجنة؟ فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، ودخلت البارحة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت علىٰ قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: أنا محمد لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب» فقال بلال: يا رسول الله ﷺ ما أذنت قط إلا وصليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها، ورأيت أن لله عليَّ ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: «فبذلك»[(١)]. قيل: نتلقاه بالقبول والتصديق، ولا يدل علىٰ أن أحدًا يسبق رسول الله ﷺ إلىٰ الجنة، وأما تقدم بلال بين يدي رسول الله ﷺ في الجنة فلأن بلالًا كان يدعو إلىٰ الله أولًا في الأذان، فيتقدم أذانه بين يدي رسول الله ﷺ، فتقدم دخوله بين يديه: كالحاجب والخادم. وقد روي في حديث: «أن النبي ﷺ يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالأذان»[(٢)]. فتقدمه بين يديه كرامة لرسوله وإظهارًا لشرفه وفضله، لا سبقًا من بلال، بل هذا السبق من جنس سبقه إلىٰ الوضوء ودخول المسجد ونحوه، والله أعلم.

***

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩
وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ ﴾.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ٢١٣ رقم ١٢٠٩) والترمذي (رقم ٣٦٨٩) وأحمد (٥/ ٣٥٤) وفي فضائل الصحابة (رقم ٧١٣)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٦ رقم ٢٧١٧) والحاكم (١/ ٤٥٧ رقم ١١٧٩) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الترمذي هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٣/ ١٤١).

[1] قال تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨] ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] والمخضود: الذي قد خضد شوكه، أي نزع وقطع، فلا شوك فيه. وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة وأبي الأحوص وقسامة بن زهير وجماعة، واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما: أن الخضد في اللغة القطع، وكل رطب قضبته، فقد خضدته، وخضدت الشجر إذا قطعت شوكه، فهو خضيد ومخضود، ومنه الخضد على مثال الثمر، وهو كل ما قطع من عود رطب، خضد بمعنى مخضود: كقبض وسلب. والخضاد شجر: رخو لا شوك له. الحجة الثانية: قال ابن أبي داود حدثنا محمد بن مصفى حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا ثور بن يزيد حدثني حبيب بن عبيد عن عتبة بن عبد السلمي، قال: «كنت جالسًا مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها، يعني الطلح. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود، فيها سبعون لونًا من الطعام، لا يشبه لون آخر**» (الملبود) الذي قد اجتمع شعره بعضه على بعض[2]. وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: أن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوما، فقال: يا رسول الله ﷺ ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها. قال رسول الله ﷺ: «**وما هي**»؟ قال: السدر فإن له شوكًا مؤذيًا قال: «**أليس الله يقول: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة**»[3] وقالت طائفة: المخضود هو

---

(١) ١١٧ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠٣) وفي صفة الجنة (رقم ٣٤٧) والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٠ رقم ٣١٨) وفي مسند الشاميين (رقم ٤٩٢) وانظر: صفة الجنة للمقدسي (رقم ٧٢) بتحقيقي وهو من منشورات دار بلنسية بالرياض.

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٨ رقم ٣٧٧٨) وذكره المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٣) وقال: رواه ابن أبي الدنيا وإسناده حسن.

الموقر حملًا، وأنكر عليهم هذا القول، وقالوا: لا يعرف في اللغة الخضد بمعنى الحمل، ولم يصب هؤلاء الذين أنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح، وأربابه ذهبوا إلى أن الله ﷻ لما خضد شوكة وأذهبه وجعل مكان كل شوكة ثمرة، أوقرت بالحمل، والحديثان المذكوران أن يجمعان القولين، وكذلك قول من قال: المخضود الذي لا يعقر اليد، ولا يرد اليد عنه شوك، ولا أذى فيه. فسره بلازم المعنى، وهكذا غالب المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارة وفردا من أفراده تارة، ومثالا من أمثلته، فيحكيها الجماعون للغث والسمين أقوالا مختلفة ولا اختلاف بينها.

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز. قال مجاهد: أعجبهم طلح وج وحسنه فقيل لهم: ﴿وَطَلۡحٍ مَّنضُودٍ﴾ وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري، وقالت طائفة أخرى: بل هو شجر عظام طوال، وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب، قال حاديهم:

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبالا[1]

ولهذا الشجر نور ورائحة وظل ظليل، وقد نضد بالحمل والثمر مكان الشوك، وقال ابن قتيبة: هو الذي نضد بالحمل أو بالورق والحمل من أوله إلى آخره، فليس له ساق بارز. وقال مسروق: ورق الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها، وأنهارها تجري من غير أخدود. وقال الليث: الطلح شجر أم غيلان، ليس له شوك أحجن، من أعظم العضاه شوكا، وأصلبه عودا، وأجوده صمغا.

قال أبو إسحاق: يجوز أن يعني به شجر أم غيلان، لأن له نورا طيب الرائحة جدا، فوعدوا بما يحبون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على سائر ما في الدنيا، فإنه ليس في الجنة إلا الأسامي، والظاهر أن من فسر الطلح المنضود بالموز: إنما أراد التمثيل به الحسن لحسن نضده، وإلا فالطلح في اللغة هو الشجر العظام من شجر البوادي، والله أعلم. وفي الصحيحين من حديث أبي الزناد عن

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٩).

الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، فاقرؤا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»[١].

[٢]قال تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال أكثر المفسرين: هو الموز، والمنضود: هو الذي قد نضد بعضه على بعض، كالمشط وقيل: الطلح: الشجر ذو الشوك، نضد مكان كل شوكة ثمرة، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض، فهو مثل الموز. وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف: أراد التمثيل، لا التخصيص، والله أعلم، وهو حار رطب، أجوده النضيج الحلو، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال، وقروح الكليتين والمثانة، ويدر البول، ويزيد في المني، ويحرك الشهوة للجماع، ويلين البطن، ويؤكل قبل الطعام، ويضر المعدة، ويزيد في الصفراء والبلغم، ودفع ضرره بالسكر أو العسل.

[٣]في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال: أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ فكبرنا، ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك. ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض»[٤]. هذا لفظ مسلم. وعند البخاري: «وكشعرة سوداء في ثور أبيض» بغير ألف. وعن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفًّا»[٥] رواه الإمام أحمد والترمذي وإسناده على شرط الصحيح، رواه الطبراني

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٢، ٣٢٥٣، ٤٨٨١)ومسلم (رقم ٢٨٢٦).
(٢) ٣٦٦ زاد المعاد جـ٣.
(٣) ٩٠ حادي الأرواح.
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٨) ومسلم (٢٢٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٧-٣٩٢) وشرح النووي (٣/ ٩٥).
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٣) والترمذي (رقم ٢٥٤٦) وابن ماجه (رقم ٤٢٨٩) والحاكم (١/ ١٥٥ رقم ٢٧٣) والطبراني في الأوسط (١/ ١٧٢ رقم ٥٣٩) وفي الصغير (رقم ٨٢) وهناد في الزهد (١/ ١٤٧
=

في معجمه من حديث عبد الله بن عباس، وفي إسناده خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه، ورواه أيضًا من حديث القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال: قال: «**كيف أنتم وربع الجنة لكم، ولسائر الناس ثلاثة أرباعها؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**كيف أنتم وثلثها؟**» قالوا: ذاك أكثر قال: «**كيف أنتم والشطر لكم؟**» قالوا: ذاك أكثر فقال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، لكم منها ثمانون صفًّا**»(١) قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن القاسم بن عبد الرحمن إلا الحارث بن خضيرة، تفرد به عبد الواحد بن زياد، وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا موسى بن غيلان بن هاشم بن مخلد حدثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي عمرو عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] قال رسول الله ﷺ: «**أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة**»(٢) قال الطبراني: تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري، وقال خيثمة بن سليمان القرشي حدثنا أبو قلابة هو عبد الملك بن محمد بن بكار الصيرفي حدثنا حماد بن عيسى حدثنا سفيان الثوري عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون صفًّا**». وهذه الأحاديث قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، وصح سند بعضها، ولا تنافي بينها وبين حديث الشطر، لأنه رجا أولًا أن يكونوا شطر أهل الجنة، فأعطاه الله سبحانه

= رقم ١٩٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٧٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٨، ٤١٢) وشرح النووي (٣/ ٩٥).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٣) والبزار (٥/ ٣٦٨-٣٦٩ رقم ١٩٩٩) وأبو يعلى (٩/ ٢٤١ رقم ٥٣٥٨) والطبراني في الأوسط (١/ ١٧٢ رقم ٥٣٩) وفي الكبير (١٠/ ١٦٨ رقم ١٠٣٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠٣): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الثلاثة ورجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وقد وثق.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٠١) والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٣٩٣) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٧) وفتح الباري (١١/ ٣٨٧).

رجاءه، وزاد عليه سدسًا آخر، وقد روى أحمد في مسنده من حديث أبي الزبير. أنه سمع جابرًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة» قال: فكبرنا ثم قال: «فأرجو أن تكونوا الشطر»(١) وإسناده على شرط مسلم.

***

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

(٢)أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لأن الفرش دلت عليهن، إذ هي محلهن، وقيل: الفرش في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] كناية عن النساء، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها، ولكن قوله مرفوعة يأبى هذا، إلا أن يقال: المراد رفعة القدر، وقد تقدم تفسير النبي ﷺ، للفرش وارتفاعها، فالصواب أنها الفرش نفسها، ودلت على النساء لأنها محلهن غالبًا. قال قتادة وسعيد بن جبير: خلقناهن خلقًا جديدًا، وقال ابن عباس: يريد نساء الآدميات. وقال الكلبي ومقاتل: يعني نساء أهل الدنيا العُجز الشمط، يقول تعالى: خلقناهن بعد الكبر والهرم، وبعد الخلق الأول في الدنيا. ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع: «هن عجائزكم العمش الرمص» رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه، ويؤيده ما رواه يحيى الحماني حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها عجوز، فقال: «من هذه» فقالت: إحدى خالاتي قال: «أما أنه لا يدخل الجنة العجوز» فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله، فقال النبي ﷺ: «﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ [الواقعة: ٣٥] خلقًا آخر، يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، وأول

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٦، ٣٨٣) وأبو عوانة (رقم ٢٥٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ٥ رقم ٩٧٦٥) وقال ابن كثير في تفسير (١/ ٣٩٦): وهو على شرط مسلم.

(٢) ١٦٠ حادي الأرواح.

من يكسى إبراهيم خليل الله» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾[١]. قال آدم ابن أبي إياس: حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عن زيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ قال: «يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا»[٢] قال آدم: وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة العجز» فبكت عجوز فقال رسول الله ﷺ: «أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز، إنها يومئذ شابة، إن الله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾». وقال ابن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسعدة بن اليسع حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة أن النبي ﷺ أتته عجوز من الأنصار، فقالت: يا رسول الله ﷺ ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة. فقال نبي الله ﷺ: «إن الجنة لا يدخلها عجوز» فذهب نبي الله ﷺ فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «إن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارًا»[٣]. وذكر مقاتل قولًا آخر، وهو اختيار الزجاج: إنهن الحور العين، التي ذكرهن، قيل: أنشأهن الله ﷻ لأوليائه، لم يقع عليهن ولادة، والظاهر أن المراد أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاء، ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنه قد قال في حق السابقين: ﴿ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾ [الواقعة: ١٧-٢٣] فذكر سردهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم والحور العين، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفراشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٠٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٨٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٢) وتهذيب الكمال (٣٢/ ١٤٧) والاستيعاب (٢/ ٦٤٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٧ رقم ٥٥٤٥) وهناد في الزهد (١/ ٥٨ رقم ٢٤).

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾، وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله: ﴿ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٧] وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [الواقعة: ٦٢].

الثالث: إن الخطاب بقوله: ﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴾ [الواقعة: ٧] إلى آخره للذكور والإناث، والنشأة الثانية عامة أيضا للنوعين، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأمل تأكيده بالمصدر، والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات، بل هنّ أحق به منهن، فالإنشاء واقع على الصنفين، والله أعلم.

وقوله: ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عروب: وهن المتحببات إلى أزواجهن، قال ابن الأعرابي: العروب من النساء: المطيعة لزوجها المتحببة إليه. وقال أبو عبيدة: العروب الحسنة التبعل.. قلت: يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع. وقال المبرد: هي العاشقة لزوجها، وأنشد للبيد:

وفي الحدوج عروب غير فاحشة　　ريا الروادف يعشى دونها البصر(١)

وذكر المفسرون في تفسير العُرُب: أنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات المتعشقات الغلمات المغنوجات، كل ذلك من ألفاظهم. وقال البخاري في صحيحه: عربا مثقلة واحدها عروب، مثل صبور وصبر، وتسميها أهل مكة العربة. وأهل المدينة الغنجة. وأهل العراق الشكلة(٢). والعُرُب: المتحببات إلى أزواجهن، هكذا

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط وهو ينسب إلى لبيد بن ربيعة العامري وقد سبق التعريف به. وذكر البيت الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، قبل حديث (رقم ٣٢٤٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣١٧).

ذكره في كتاب بدء الخلق، وقال في كتاب التفسير في سورة الواقعة: عربًا مثقلة، واحدها عروب، مثل صبور وصبر، تسميها أهل مكة العربة، وأهل المدينة الغنجة، وأهل العراق الشكلة. قلت فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذا غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن، وفي قوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤] إعلام بكمال اللذة بهن، فإن لذة الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه، لها فضل على لذته بغيرها، وكذلك هي أيضًا.

(١)وقد قرئت الآية بالوجوه الثلاثة، فمن قرأ بالضم أو الفتح فهو: مصدر، ومن قرأ بالكسر فهو بمعنى: المشروب، وعلى الأول يقع التشبيه بين الفعلين، وهو المقصود بالذكر، شبه شربهم من الحميم بشرب الإبل العطاش، التي قد أصابها الهيام، وهو داء تشرب منه ولا تروى، وهو جمع أهيم، وأصله هيم بضم الهاء: كأحمر وحمر، ثم قلبوا الضمة كسرة لأجل الياء، فقالوا هيم، وأما قراءة الكسر فوجهها أنه شبه مشروبهم بمشروب الإبل الهيم في كثرته وعدم الري به، والله أعلم.

***

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(٢)كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلًا بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون، فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم، وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال

(١) ٩٧ بدائع جـ٢.
(٢) ١٢٤ التبيان.

النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا، وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان...

***

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

(١)وكذلك الحكمة في خلق النار على ما هي عليه كامنة في حاملها، فإنها لو كانت مظاهرة: كالهواء، والماء، والتراب، لأحرقت العالم وما فيه، ولم يكن بد من ظهورها في الأحايين للحاجة إليها، فجعلت مخزونة في الأجسام، توري عند الحاجة إليها، فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها، ثم تخبو إذا استغني عنها، فجعلت على خلقه وتقدير وتدبير حصل به الاستمتاع بها والانتفاع مع السلامة من ضررها، ثم في النار خلة أخرى، وهي أنها مما خص به الإنسان دون سائر الحيوان، فإن الحيوانات لا تستعمل النار ولا تستمتع بها، ولما اقتضت الحكمة الباهرة ذلك اغتنت الحيوانات عنها في لباسها وأقواتها فأعطيت من الشعور والأوبار ما يغنيها عنها، وجعلت أغذيتها بالمفردات، التي لا تحتاج إلى طبخ وخبز، ولما كانت الحاجة إليها شديدة جعل من الآلات والأسباب ما يتمكن به من إثارتها إذا شاء ومن إبطالها.

ومن حكمها هذه المصابيح التي يوقدها الناس، فيتمكنون بها من كثير حاجاتهم، ولولاها لكان نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، وأما منافعها في إنضاج الأغذية والأدوية والدفء فلا يخفى، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣] أي تذكر بنار الآخرة فيحترز منها، ويستمتع بها المقوون، وهم

(١) ٣٣٦ شفاء العليل.

النازلون بالفيفاء، وهي الأرض الخالية، وخص هؤلاء بالذكر لشدة حاجتهم إليها في خبزهم وطبخهم، حيث لا يجدون ما يشترونه فيغنيهم عمَّا يصنعونه بالنار.

(١)﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٣] تذكرة تذكر بها الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون، يقال: أقوىٰ الرجل إذا نزل بالقِيِّ، والقَوَىٰ وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين، تنبيهًا لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ علىٰ أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار علىٰ جناح سفر، ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر، والمقصود أنه سبحانه أشهدهم في هذه [الدار] ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلىٰ هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة علىٰ ما هناك من خير وشر، وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطًا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كل الحذر، واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه علىٰ ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات، وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها: رحمة منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرة، وتنبيهًا.

(٢)...وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: **«من ادعىٰ إلىٰ غير أبيه لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مائة عام»**(٣). وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار آثارًا من آثار الجنة، وأنموذجًا منها من الرائحة الطيبة، واللذات المشتهاة، والمناظر البهية، والفاكهة الحسنة، والنعيم والسرور وقرة العين، وقد روىٰ أبو نعيم

---

(١) ١٤١ طريق الهجرتين.

(٢) ١١٥ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه البخاري عن سعد مختصراً (رقم ٦٧٦٦) ولفظه: «من ادعى إلىٰ غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» ومسلم (رقم ٦٣) والطيالسي (رقم ٢٢٧٤) وفيه: «من مسيرة سبعين عاماً».

من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ للجنة: طيبي لأهلك. فتزداد طيبا، فذلك البرد الذي يجده الناس بالسحر من ذلك»(١) كما جعل سبحانه نار الدنيا وآلامها وغمومها وأحزانها تذكرة بنار الآخرة قال تعالى في هذه النار: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً ﴾، وأخبر النبي ﷺ: أن شدة الحر والبرد من أنفاس جهنم، فلابد أن يشهد عباده جنته وما يذكرهم بها. والله المستعان.

(٢)ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من المكون والظهور، فإنها لو كانت ظاهرة أبدًا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدًا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها، فاقتضت حكمة العزيز العليم: أن جعلها مخزونة في الأجسام، يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه، فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها، فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها، فسبحان من سخرها، وأنشأها على تقدير محكم عجيب، اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٤] فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته، وشفانا ببيناته، وأغنانا بها عن دلالات العالمين، فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة، فنستجير منها، ونهرب إليه منها، ومتاعا للمقوين، وهم المسافرون النازلون بالقواء. والقواء هي الأرض الخالية، وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفي والإنس، وغير ذلك.

ثم تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٧٥) والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٢٤٨ رقم ٨٠٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٢): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عمر بن عبدالغفار وهو متروك.

(٢) ٢١٥ مفتاح جـ١.

حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان، فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها، وتنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع، وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به من حوائجهم ما شاؤا من ليلهم، ولو هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا في ظلمة الليل الداجي، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره، كيف يضيء ما حولك كله، فترى به القريب والبعيد، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف.

وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه، وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله، وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه، فأكثر من أن يحصى، ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلا، فمن أعطى هذا القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره، وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها، وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم.

***

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

(١)هو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته، لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره، ولهذا يعظم

---

(١) ١٩٧ مفتاح جـ١.

هذا القسم كقوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها، وأيضًا فإنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن، ولا في موضع واحد من كتابه، حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عادته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن، وأيضًا فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم في قوله: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] وأيضًا، فإن هذا قول جمهور أهل التفسير، وأيضًا فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده، هذه طريقة القرآن، قال الله تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ [ص: ١] ﴿ يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يس: ١، ٢] ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] ﴿ حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [الدخان: ١، ٢] ونظائره، والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

(١) وقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠] ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى، وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى، وإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، وخلق النار، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن، وأنه تنزيله.

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها، فقيل: هي آيات القرآن ومواقعها نزولها شيئا بعد شيء، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء وقول سعيد بن جبير والكلبي ومقاتل وقتادة، وقيل: النجوم هي: الكواكب ومواقعها مساقطها عند

(١) ١٣٧ التبيان.

غروبها. هذا قول أبي عبيدة وغيره. وقيل مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة، وهذا قول الحسن، ومن حجة هذا القول: أن لفظ مواقع تقتضيه، فإنه مفاعل من الوقوع، وهو السقوط فلكل نجم موقع وجمعها مواقع، ومن حجة قول من قال هي مساقطها عند الغروب: أن الرب تعالىٰ يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها إذ فيها، وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة، كما تقدم في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] وقال: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] وقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، ويرجح هذا القول أيضًا أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩] وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وعلىٰ هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه، وهو القرآن من وجوه أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدىٰ بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة علىٰ آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

ومن قرأ بموقع النجوم علىٰ الأفراد فلدلالة الواحد المضاف إلىٰ الجمع علىٰ التعدد، والمواقع اسم جنس والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدا أفردت، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته، فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه، وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

والمقسم عليه ههنا قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] ووقع الاعتراض بين

القسم وجوابه بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٦] ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقعًا، وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢] فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط، وتقدير صفة محذوفة أي نفسا منها، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة، ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] فاعترض بقوله سبحانه بين الجعلين وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم، وسياق الكلام من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر، وغير ذلك، فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد، قول الشاعر:

لـــو أن البـــاخلين وأنـــت مـــنهم رأوك تعلمـــوا منـــك المطـــالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فـــلا صـــرمه يبـــدو وفي اليـــأس راحـــة ولا وصـــله يـــصفو لنـــا فنكارمـــه[1]

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ابن ميادة: الرمّاح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني، وميادة أمه نسب إليها واشتهر بها، شاعر رقيق ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مات سنة ١٤٩هـ.

فقوله: وفي اليأس راحة. جواب لتقدير سؤال سائل: وما يغني عنك هجره؟ فقال: وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح، أو وصال صاف. ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمت بنو كعب بأني   وقد كذبوا كبير السن فاني[(١)]

ومنه قول نصيب:

فكدت - ولم أخلق من الطير - إن بدا   سنا بارق نحو الحجاز أطير[(٢)]

فقوله: ولم أخلق من الطير. لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار، لو قال: فكدت أطير. فيقال له وهل خلقت من الطير. فاحترز بهذا الاعتراض. وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، ولا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه، فتأمله.

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية   حذار هذا الصدود والغضب
إن دام ذا الهجر يا ظلوم - ولا   دام - فما لي في العيش من أرب[(٣)]

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى النابغة الجعدي: قيس بن عبدالله بن عدس العامري، كان ممن هجر الأوثان في الجاهلية، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، وقدم على النبي ﷺ وأسلم جاوز المائة وكف بصره ومات سنة ٥٠هـ. وذكر البيت ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٣٩١-٣٩٢) مع اختلاف سيره وابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/ ١٥١٧).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى نصيب بن رباح مولى عبدالعزيز بن مروان. كان شاعراً فحلاً، مقدماً في النسيب والمدائح، له شهرة ذائعة وكان أشعر أهل جلدته، تنسك في آخر عمره، مات سنة ١٠٨هـ. وذكر البيت ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٦٤).

(٣) هذان البيتان من بحر المنسرح، وينسبان إلى العباس بن الأحنف، شاعر غزل رقيق، خالف الشعراء في طرقهم فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيباً، مات ١٩٢هـ.

وقول الآخر:

إن سليمى - والله يكلؤها - ضنَّت بشيء ما كان يرزؤها[١]

وقول الآخر:

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[٢]

ومنه الاعتراض بالقسم كقوله:

ذاك الذي - وأبيك - يعرف مالك والحق يدفع ترهات الباطل[٣]

ومن اعتراض الاستعطاف قوله:

فمن لي بعين التي كنت مرة إلى بها - نفسي فداؤك - تنظر

فاعترض بقوله: نفسي فداؤك. استعطافًا.

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١] فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا، منها الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟ ومنها أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل

(١) هذا البيت من بحر المنسرح، وينسب إلى إبراهيم بن هرمة، شاعر مشهور من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، قدمه الأصمعي على كثير من معاصريه، مات سنة ١٧٦ هـ ودفن بالبقيع. وذكر البيت الطبري في تفسيره (١٧/ ٣٠) وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٧٩) وابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٣٩١) وابن منظور في اللسان (١/ ١٤٦).

(٢) هذا البيت من بحر السريع، وينسب إلى ابن الوردي: عمر بن مظفر بن عمر المعري الكندي، شاعر وأديب ومؤرخ، توفي بحلب سنة ٧٤٩هـ. وينسب أيضاً إلى ابن نباتة المصري: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي، شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب سكن الشام وولد ومات بالقاهرة سنة ٧٨٦هـ. ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٢٥) وياقوت في معجم البلدان (٥/ ٢٣٩).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى جرير وقد سبق التعريف به، وذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٣/ ٤٨٠).

الإخبار بقولهم، ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالىٰ، وأن كلا منهما منزل، فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

ومن الاعتراض الذي هو في أعلىٰ درجات الحسن قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصىٰ به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة، التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه، مما لم يتكلفه الأب.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣] فاعترض بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢] بين الجمل المعطوف بعضها علىٰ بعض، إعلامًا بأن تدارؤهم وتدافعهم في شأن القتيل ليس نافعًا لهم في كتمانه، فالله يظهره ولابد، ولا تستطل هذا الفصل، وأمثاله، فإنه يعطيك ميزانًا، وينهج لك طريقًا، يعينك علىٰ فهم الكتاب، والله المستعان.

ثم قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن. قال الكلبي: إنه لقرآن كريم أي حسن كريم علىٰ الله. وقال مقاتل: كرمه الله وأعزه، لأنه كلامه. وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدىٰ والبيان والعلم والحكمة، وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة، وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦] ويدل علىٰ أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فهذا يدل علىٰ أنه بأيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح في معنىٰ الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه، فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل علىٰ أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] فنفىٰ الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك، ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفىٰ عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ فوصف محله بهذه الصفات: بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به، وتقرير هذا المعنىٰ أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع، فمظنة السور المدنية.

الثالث: إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار، يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين، الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]،

وهكذا قال السلف قال الكلبي: مكنون من الشياطين. وقال مقاتل: مستور. وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار. وقال أبو إسحاق: مصون في السماء، يوضحه.

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله: ﴿ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ كقوله ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، يوضحه.

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظا ومعنى، ولو كان نهيا لكان مفتوحًا، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون، ولو أراد به منع المحدث من مسه، لقال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفي الحديث: «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**»(١) فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنونا كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنونا في كتاب لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا في كتاب، وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقت لبيان مدحه

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٥٥) والبيهقي في الكبرى (١/ ٧٨ رقم ٣٧٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٣ رقم ٢٠) وعبدالرزاق (١/ ١٨٦ رقم ٧٣١) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٤٠ رقم ٤٨٩٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢١).

وتشريفه، وما اختص به من الخصائص التي تدل علىٰ أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مضمون لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو الأحوص، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس بن مالك في قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال: المطهرون الملائكة، وهذا عند طائفة من أهل الحديث في الحكم المرفوع. وقال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع. ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن، ويجب الرجوع إلىٰ تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون قال: الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية علىٰ: أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر. فقال هذا من باب التنبيه والإشارة إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن، لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر. والحديث مشتق من هذه الآية، وقوله: «**لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر**»[1] رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلىٰ أهل اليمن في السنن والفرائض والديات: «**أن لا يمس القرآن إلا طاهر**» قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحًا. وقال أيضًا: لا أشك أن رسول الله كتبه.

وقال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٥٢ رقم ٦٠٥١) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ٨٧ رقم ٤١٢) والدارقطني (١/ ١٢٢ رقم ٦) والطبراني في الأوسط (٣/ ٣٢٦-٣٢٧ رقم ٣٣٠١) وفي الكبير (٣/ ٢٠٥ رقم ٣١٣٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٥٧٤) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: نصب الراية (١/ ١٩٨).

العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد، لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة. ثم قال: وهو كتاب معروف عند العلماء، وما فيه فمتفق عليه، إلا قليلًا[١]. وقد رواه ابن حبان في صحيحه ومالك في موطئه، وفي المسألة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع.

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه، كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به[٢]. وهذا أيضا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلم بها حقًا، وأنزله على رسوله وحيا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً، وليس مخلوقًا من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له باطناً يخالف ظاهره، وإن له تأويلًا يخالف ما يفهم منه. ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له تأويلًا لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه. ففي قلبه منه حرج. ومن سلط عليه آل الآرائيين وهذيان المتكلمين وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج. ومن جعله تابعًا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج. ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان، ففي قلبه منه حرج. ومن لم يأتمر بأوامره وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه،

---

(١) انظر: التمهيد (١٧/ ٣٣٨-٣٣٩) وتحفة الأحوذي (١/ ٣٨٧) وتنوير الحوالك (ص١٥٩) وشرح الزرقاني (٢/ ١٠) وتلخيص الحبير (٤/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ [آل عمران: ٩٣] قبل حديث (رقم ٧٥٣٣) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٩) وعمدة القاري (٢٥/ ١٨٦-١٨٧).

ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن، فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وكما أنه لازم لكونه قرآنًا كريمًا في كتاب مكنون، فهو ملزوم له، فهو دليل عليه مدلول له، وأفاد كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم وأنه منه نزل ومنه بدأ، وهو الذي تكلم به، ومن هنا قال السلف منه بدأ ونظيره: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

والثاني: علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر، هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل، والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم، وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم، وتصرفه فيهم وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم، وإن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملا، ويخلقهم عبثا لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله، وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

وقد أشار سبحانه إلىٰ الطريقين في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة، ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه علىٰ صدق رسوله، فيما جاء به، وهذه الطريق أخص وأقوىٰ وأكمل وأعلىٰ. والأول أعم وأشمل، وقد تقدم بيانها عند قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ [الحاقة: ٤٤] وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالىٰ وكماله المقدس علىٰ ثبوت النبي وبعثه من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها بصفات الرب تعالىٰ وصفات محمد واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته ﷺ، وأنه رسول الله حقًّا، وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبىٰ أن يخزيه، وأنه يؤيده ويعليه ويتم نعمته عليه.

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفىٰ، وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال والطرائق والمذاهب والعقائد أعظم انتفاع وأتمه، وقد بينا في كتابنا المعالم بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبية من أسماء الرب وصفاته، وأنه يستحيل علىٰ الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد علىٰ فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات، فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد، إذ ليست حكمة الرب تعالىٰ وكمال علمه وأسمائه وصفاته تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه، فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات علىٰ الفقه العملي في باب الأمر والنهي، وهذا باب حرام علىٰ الجهمي المعطل أن يلجه إلىٰ الجنة، حرام عليه ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة،

والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وبه التوفيق.

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما أنزل بالحق وللحق. والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به؟!

(١)وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩] وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن الذي جاء به روحٌ مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر...

(٢)...قلت: مثاله قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] قال: والصحيح في الآية: أن المراد به: الصحف التي بأيدي الملائكة لوجوه عديدة منها:

(١) ٢٢٥ أعلام جـ١.
(٢) ٤١٦ مدارج جـ٢.

أنه وصفه بأنه مكنون و المكنون المستور عن العيون وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ومنها: أنه قال: لا يمسه إلا المطهرون وهم الملائكة ولو أراد المتوضئين لقال: لا يمسه إلا المتطهرون، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فالملائكة مطهرون، والمؤمنون متطهرون.

ومنها: أن هذا إخبار، ولو كان نهيا لقال: لا يمسسه بالجزم. والأصل في الخبر: أن يكون خبرًا: صورة ومعنى.

ومنها: أن هذا رد على من قال: إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالىٰ: أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين، ولا وصول لها إليه، كما قال تعالىٰ في آية الشعراء: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة.

ومنها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٢-١٦] قال مالك في موطئه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس.

ومنها: أن الآية مكية من سورة مكية تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد، وإثبات الصانع، والرد على الكفار، وهذا المعني أليق بالمقصود من فرع عملي، وهو حكم مس المحدث المصحف.

ومنها: أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس: لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة، إذ من المعلوم: أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقا أو باطلا، بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون مستور عن العيون عند الله، لا يصل إليه شيطان، ولا ينال منه، ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية،

فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية، وأولى بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون لكرامتها على الله، فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر. وسمعته يقول في قول النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة**»(١) إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عز وجل ومحبته وحلاوة ذكره والأنس بقربه في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها، فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة.

ومن هذا: أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطًا في صحة الصلاة والاعتداد بها فإذا أخل بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجسا، ولم يطهره صاحبه، فكيف يعتد له بصلاته، وإن أسقطت القضاء، وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن.

ومن هذا: أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها، وهي بيت الرب، فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن، بل وجه بدنه إلى البيت، ووجه قلبه إلى غير رب البيت، وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن وصحة البصيرة وحسن التأمل، والله أعلم.

***

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق، فرزق البدن الطعام

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٢٢) ومسلم (رقم ٢١٠٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٨١-٣٨٦) وشرح النووي (١٤/ ٨٤-٩٥).

والشراب، ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره ومحبته والشوق إليه والإنس بقربه والابتهاج بذكره، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب، أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما، ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته، فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما، ومنهم من قتر عليه في الرزقين.

ومنهم من وسع عليه رزق البدن، وقتر عليه رزق القلب وبالعكس، وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر والشكر، مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد، فإن الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه، ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيبًا، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق، وهما رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب، وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال التقدير. وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون. وقال آخرون: التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، فحذف مضافين معا، وهؤلاء أطالوا اللفظ، وقصروا بالمعنى، ومن بعض معنى الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا. فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى، والله أعلم.

***

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام، كما قسمهم هناك إلى ثلاثة، وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم

رب قاهر مالك، يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره، فقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة: ٨٣] أي: وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين ولا مستوعبين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما.

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون عبيد لمالك قادر متصرف فيهم قاهر آمر ناه، أو لا يقرون بذلك، فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له ندا ولا شريكا، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه، وإن أنكروا ذلك، وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم، فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له، ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وانقاد لأجله للعبودية، وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية.

ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها، وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ودلائل الربوبية والتوحيد والبعث، وفصل النزاع في معرفة الروح، وأنها تصعد وتنزل وتنتقل من مكان إلى مكان، وما أحسن إعادة (لولا) ثانيا قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحدا، وذكر

الشرطين مع الفصل بينهما بكلمة واحدة، هي الرابط بين (لولا) الأولىٰ والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريرا وتوبيخا واستدلالًا علىٰ أصول الإيمان من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته ونفوذ مشيئته وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون علىٰ التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهما تارة، وإثبات المعاد وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته، وتقرير عبودية الخلق، وأتىٰ بهذا في صورة تحضيضين وتوبيخين وتقريرين وجوابين وشرطين وجزاءين، منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل، متعلقًا بعضها ببعض، وهذا كلام لا يقدر البشر علىٰ مثل نظمه ومعناه. قال الفراء: وأجيبت ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ و﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٦] بجواب واحد، وهو: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الوقعة: ٨٧] قال: ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد، وهما شرطان. قال الجرجاني قوله: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ جواب قوله: ﴿ فَلَوْلَآ ﴾ المتقدمة والمتأخرة علىٰ تأويل: فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم، تردونها إلىٰ موضعها إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون. يقول تعالىٰ: إن كان الأمر كما تزعمون: أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ولا إله ولا رب يقوم بذلك، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه فهل دلكم ذلك علىٰ أن الأمر إلىٰ مليك قادر قاهر متصرف فيكم، وهو الله الذي لا إله إلا هو. وقال أبو إسحاق: معناه فهلا ترجعون الروح إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلا إن كان الأمر كما تزعمون كما يقول قائلكم: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران: ١٦٨] و﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ ﴾ [آل عمران: ١٥٦] أي إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلا، فهلا ترجعون الروح إذا بلغت

الحلقوم، وهلا تردون عن أنفسكم الموت؟

قلت: وكان هذا يلتفت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١] أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا، فكونوا خلقا لا يفنىٰ ولا يبلىٰ: إما من حجارة أو من حديد، أو أكبر من ذلك، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربا متصرفا فيكم، ومالكا لكم تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته علىٰ إعادتكم خلقا جديدا بعدما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم، فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ويحيا أن يحييكم بعد ما أماتكم، فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لا يموت، والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلىٰ مكانها إذا قاربت الموت، وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

***

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾.

(١) أي هلا تردون الروح إلىٰ مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين وهذه الآية تحتاج إلىٰ تفسير فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولابد أن يكون الدليل مستلزم لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلىٰ المدلول. لما بينهما من التلازم، فيكون الملزوم دليل علىٰ لازمه، ولا يجب العكس. ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء، فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما إن يقروا بأن لهم ربا قاهرا متصرفا فيهم، يميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم، ويعاقب مسيئهم، وأما إن لا

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي.

يقروا برب هذا شأنه، فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟ وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته: أي فهلا يردون الروح إلى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عليكم أحكامه، وينفذ فيكم أوامره، وهذه غاية التعجيز لهم إذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها، ولو اجتمع على ذلك الثقلان فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم.

والدين دينان. دين شرعي أمري ودين حسابي جزائي. وكلاهما لله وحده فالدين كله أمر أو جزاء لله والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه وأمر به يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه، فهو يحب ضده، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه، ودين العبد لله به إذا كان عن محبة ورضى، كما قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»[1] وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولأجلها أسس، وكذلك دينه الجزائي، فإنه يتضمن مجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله.

[2]قال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن: ١٢] وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الرائحة»[3]

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٠٩).

(٢) ٣٤٩ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٥٣) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٩).

وفي سنن ابن ماجه من حديث أسامة عن النبي ﷺ، أنه قال: «ألا هل مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها هي ـ ورب الكعبة ـ نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية» قالوا: نعم، يا رسول الله ﷺ نحن المشمرون لها قال: «قولوا: إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله تعالى[1].

[2]الرَّيحان كلُّ نبت طيِّب الريح، فكلُّ أهل بلد يخصونه بشيء من ذلك، فأهلُ الغرب يخصونه بالآس، وهو الذي يعرِفُه العرب من الرَّيحان، وأهلُ العراق والشام يخصُّونه بالحَبَق. فأما الآسُ، فمزاجُه بارد في الأُولى، يابس في الثانية، وهو مع ذلك مركَّب من قُوَى متضادة، والأكثرُ فيه الجوهرُ الأرضي البارد، وفيه شيءٌ حار لطيف، وهو يُجفِّف تجفيفاً قوياً، وأجزاؤه متقاربةُ القُوَّة، وهي قوةٌ قابضة حابسة من داخل وخارج معاً. وهو قاطع للإسهال الصفراوي، دافع للبخار الحار الرَّطب إذا شُمَّ، مفرِّح للقلب تفريحاً شديداً، وشمُّه مانع للوباء، وكذلك افتراشُه في البيت. ويُبرئ الأورام الحادثة في الحالِبَيْن إذا وُضع عليها، وإذا دُقَّ ورقُه وهو غَضٌّ وضُرِبَ بالخل، ووُضِعَ على الرأس، قطع الرُّعاف، وإذا سُحِقَ ورقه اليابس، وذُرَّ على القروح ذواتِ الرطوبة نفعها، ويُقوِّي الأعضاء الواهية إذا ضُمِّدَ به، وينفع داء الداحِس، وإذا ذُرَّ على البثورِ والقروحِ التي في اليدين والرِّجْلين نفعها. وإذا دُلِكَ به البدنُ قطع العَرَق، ونشَّفَ الرطوباتِ الفضلية، وأذهب نَتْنَ الإبط، وإذا جُلس في طبيخه، نفع من خراريج المَقْعدة والرَّحم، ومن استرخاء المفاصل، وإذا صُبَّ على كسور العِظام التي لم تَلتحِمْ، نفعها. ويجلو قشورَ الرأس وقروحَه الرَّطبة، وبُثُورَه، ويُمسِكُ الشعر

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ١٣٢ رقم ١٣٤٣) وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ رقم ٧٣٨١) وفي الموارد (رقم ٢٦٠٢) وابن ماجه (رقم ٤٣٣٢) والبزار (٧/ ٤٣ رقم ٢٥٩١) والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢ رقم ٣٨٨) وفي مسند الشاميين (٢/ ٣٢٢ رقم ١٤٢١).

(٢) ٣١٤ زاد المعاد جـ٤. طبعة مؤسسة الرسالة.

المتساقط ويُسَوِّدُه، وإذا دُقَّ ورقُه، وصُبَّ عليه ماء يسير، وخُلِطَ به شيءٌ من زيت أو دُهن الورد، وضُمِّدَ به، وافق القُروح الرَّطبة والنملة والحُمْرة، والأورام الحادة، والشرىٰ والبواسير. وحَبُّه نافع من نفْث الدم العارض فى الصدر والرِّئة، دابغٌ للمَعِدَة وليس بضارٍّ للصدر ولا الرئة لجلاوته، وخاصيتُه النفعُ من اسْتِطلاق البطن مع السُّعال، وذلك نادر في الأدوية، وهو مُدِرٌّ للبَوْل، نافع من لذع المثانة، وعضِّ الرُّتَيْلاء، ولسْع العقارب، والتخلل بعِرْقه مُضِر، فليُحذَر.

وأما الرَّيحانُ الفارسي الذي يُسمَّىٰ الحَبَق، فحارٌ في أحد القولين، ينفع شمُّه من الصُّداع الحار إذا رُشَّ عليه الماء، ويبرد، ويرطب بالعرض، وباردٌ في الآخر، وهل هو رطب أو يابس ؟ علىٰ قولين. والصحيحُ: أنَّ فيه من الطبائع الأربع، ويَجْلِبُ النوم، وبزره حابس للإسهال الصفراوي، ومُسَكِّن للمغص، مُقَوٍّ للقلب، نافع للأمراض السوداويَّة.

[(١)]مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان، وخلاصها من هذا السجن وضيقه، فإن من روائه فضاء وروحًا وريحانًا وراحة. نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلىٰ هذه الدار أو أدنىٰ من ذلك. قال بعض العارفين: لتكن مبادرتك إلىٰ الخروج من الدنيا كمبادرتك إلىٰ الخروج من السجن الضيق إلىٰ أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة، قال الله تعالىٰ في هذه الحياة ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٧، ٨٨].

ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلىٰ، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلًا عن مخالطته وعشرته إلىٰ الرفيق الأعلىٰ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا في جوار الرب الرحمن الرحيم.

---

(١) ٣٧٤ مدارج جـ٣.

[(١)] فأما من قال: هي في الجنة، فاحتج بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] قال: وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: مقربين وأخبر أنها في جنة النعيم، وأصحاب يمين حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب، ومكذبة ضالة، وأخبر أن لها نزلًا من حميم وتصلية جحيم، قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها الموت وبعد البعث، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]....

[(٢)] ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٦] فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية، إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام، كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك، فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء، فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي ﷺ،

(١) ١١٥ الروح.
(٢) ٩٤ حادي الأرواح.

بقوله في حديث البراء وغيره: «فقال لها: اخرجي راضية مرضيًا عنك»[1]، وسيأتي تمام تقرير هذا في المسألة التي يذكر فيها مستقر الأرواح في البرزخ إن شاء الله تعالىٰ. وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٩] مطابق لقوله ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلىٰ».

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلًا وتفسيرًا لما دل عليه القرآن، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾.

[2]ليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ ﴾ [الصافات: ٧٩] ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرىٰ حال القدوم علىٰ الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالما غانما وظالم بتكذيبه وضلاله، فأوعده بنزل من حميم، وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله، ذكر ما يحصل له من السلامة، فإن قيل: فهذا فرق صحيح لكن ما معنىٰ اللام في قوله: لك ومن هو المخاطب بهذا الخطاب، وما معنىٰ حرف [من] في قوله: ﴿ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾، فهذه ثلاثة أسئلة في الآية قيل: قد وفينا بحمد الله تعالىٰ بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية وبين سلام التحية، وهو الذي كان المقصود، وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية، فهي خارجة

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٦-١٨٧) هذا الحديث حديث حسنٌ رواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) ١٤٦ بدائع الفوائد جـ٢.

عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالا للفائدة بحول الله وقوته، وإن كنا لم نر أحدا من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ، بل منهم من يقول المعنى: فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود، فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة، الدالة على حصوله له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] ولم يقل: عليهم اللعنة، إيذانا بحصول معناها وثبوته لهم، وكذلك قوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية، ولك السلام. ومنه هذه الآية ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ أي ثبت لك السلام، وحصل لك، وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب، فهو خطاب للجنس، أي فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئا لك يا من هو منهم، ولهذا والله أعلم أتى بحرف من في قوله: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائنا من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك من اتباع رسول الله ﷺ وحزبه، أي كائنا منهم. والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال، كما تقول: أحببتك من أهل الدين والعلم، أي كائنا منهم، فهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير، فقد حام عليه منهم من حام، وما ورد ولا كشف المعنى ولا أوضحه، فراجع ما قالوه، والله تعالى الموفق المانّ بفضله.

فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون مجزيون محاسبون. ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول والقيامة الصغرى. وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين. فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة. وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة، فالروح الفرح والسرور والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها. والريحان

الرزق وهو الأكل والشرب، والجنة المسكن الجامع لذلك كله، فيعطون هذه الثلاث في البرزخ وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين، ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور، التي تحصل للمكذبين الضالين، فقال: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] والسلام مصدر من سلم، أي فلك السلامة، والخطاب له نفسه، أي يقال لك السلامة، كما يقال للقادم: لك الهناء، ولك السلامة، ولك البشرى، ونحو ذلك من الألفاظ، كما يقولون: خير مقدم، ونحو ذلك. فهذه تحية عند اللقاء، قال مقاتل: يسلم الله لهم أمرهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويتقبل حسناتهم. وقال الكلبي: يسلم عليه أهل الجنة، ويقولون: السلامة لك، وعلى هذا فقوله: ﴿ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية، وقالوا: السلامة لك. وفي الآية أقوال أخر فيها تكلف وتعسف، فلا حاجة إلى ذكرها، ثم ذكر الطبقة الثالثة وهي طبقة الضال في نفسه، المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم وسكنى الجحيم، ثم أكد هذا الجزاء بما جعله، كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله، فقال: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٥] فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين وعن درجة اليقين إلى حقه.

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى، عما يقوله الكاذبون والجاحدون.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الواقعة

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

(١) القاعدة أن الشيء لا يعطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، لأنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، فهي بمعنى قام زيد وقام عمرو، والثاني غير الأول، فإذا وجدت مثل قولهم: كذبا ومينا. فهو لمعنى زائد في اللفظ الثاني، وإن خفي عنك، ولهذا يبعد جدا أن يجيء في كلامهم جاءني عمر وأبو حفص، ورضي الله عن أبي بكر وعتيقه. فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين لا بين الشيء الواحد فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيرًا في العطف وتركه، فإن عطفت فمن حيث قصدت تعداد الصفات، وهي متغايرة، وإن لم تعطف فمن حيث كان في كل منهما ضمير هو الأول، فعلى الوجه الأول تقول زيد فقيه شاعر كاتب. وعلى الثاني فقيه وشاعر وكاتب. كأنك عطفت بالواو الكتابة على الشعر، وحيث لم تعطف أتبعت الثاني الأول، لأنه هو من حيث اتحد الحامل للصفات، وأما في أسماء الرب تبارك وتعالى فأكثر ما يجيء في القرآن الكريم بغير عطف نحو السميع العليم العزيز الحكيم الغفور الرحيم الملك القدوس السلام إلى آخرها، وجاءت معطوفة في موضعين: أحدهما في أربعة أسماء، وهي ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾. والثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول مثل قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الأعلى: ٢-٤] ونظيره: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

---

(١) ١٨٩ بدائع جـ١.

[الزخرف: ١٠-١٢] فأما ترك العطف في الغالب، فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض، وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول، ألا ترىٰ أنك إذا شعرت بصفة المغفرة، انتقل ذهنك منها إلىٰ الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلىٰ البصر، وكذلك: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] وأما تلك الأسماء الأربعة، فهي ألفاظ متباينة المعاني متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متفقة المعاني، متطابقة في حق الرب تعالىٰ لا يبقىٰ منها معنىٰ بغيره، بل هو أول كما أنه آخر، وظاهر كما أنه باطن، ولا يناقض بعضها بعضًا في حقه، فكان دخول الواو صرفًا لوهم المخاطب قبل التفكر والنظر عن توهم المحال، واحتمال الأضداد، لأن الشيء لا يكون ظاهرًا باطنًا من وجه واحد، وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف هاهنا أحسن من تركه، لهذه الحكمة. هذا جواب السهيلي، وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة علىٰ معاني متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها علىٰ تباينها، أتىٰ بحرف العطف الدال علىٰ التغاير بين المعطوفات، إيذانا بأن هذه المعاني مع تباينها، فهي ثابتة للموصوف بها، ووجه آخر، وهو أحسن منها، وهو أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره يكون في الكلام متضمنا لنوع مع التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره، مرقاة إلىٰ فهم ما نحن فيه، إذا كان لرجل مثلًا أربع صفات هي عالم وجواد وشجاع وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقر به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قلت: زيد عالم. وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد. أي وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: وشجاع، أي وهو مع ذلك شجاع. وغني فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد، لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار، وإذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد، فإذا قيل: هو الأول ربما سرىٰ الوهم إلىٰ أن كونه أولا يقتضي أن يكون الآخر غيره، لأن الأولية والآخرية من المتضايفات، وكذلك الظاهر والباطن إذا قيل هو ظاهر ربما سرىٰ الوهم إلىٰ أن الباطن مقابله، فقطع هذا الوهم

بحرف العطف الدال علىٰ أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها، والذي يوضح لك ذلك أنه إذا كان للبلد مثلًا قاض وخطيب وأمير، فاجتمعت في رجل حسن أن تقول: زيد هو الخطيب والقاضي والأمير. وكان للعطف هنا مزية ليست للنعت المجرد، فعطف الصفات هاهنا أحسن قطعًا لوهم متوهم أن الخطيب غيره، وأن الأمير غيره.

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾.

[(١)] من أدل شيء علىٰ مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارجًا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه علىٰ عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم، وينفذهم بصره، ومحيط بهم: علمًا، وقدرة، وإرادة، وسمعًا، وبصرًا، فهذا معنىٰ كونه سبحانه معهم أينما كانوا، وتأمل حسن هذه المقابلة لفظًا ومعنىٰ بين قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإنه سبحانه لعظمته يتعالىٰ أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفىٰ عليه، فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

[(٢)] كيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالىٰ ذلك حتىٰ يدعىٰ أنها مجاز لا

---

(١) ٢٠٩ حادي الأرواح.

(٢) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ٢.

حقيقة؟ فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم، ولا ملاصقة لهم، ولا مخالطة، ولا مجاورة بوجه من الوجوه، وغاية ما تدل عليه [مع] المصاحبة والموافقة والمقارنة في أمر من الأمور، وذا الاقتران في كل موضع بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقه.

فإذا قيل: الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك: علمه بهم، وتدبيره لهم، وقدرته عليهم، وإذا كان ذلك خاصًّا كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة؛ فمعية الله تعالى مع عبده نوعان: عامة وخاصة، وقد اشتمل القرآن على النوعين، وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظي، بل حقيقتها ما تقدم من الصحبة اللائقة، وقد أخبر الله تعالى أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الحديد: ٤] فأخبر أنه خلق السموات والأرض، وأنه استوى على عرشه، وأه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال: «والله فوق عرشه يرى ما أنتم عليه»[1] فعلوه لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق، فمن المعية الخاصة قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ومن العامة: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ ﴾ [المجادلة: ٧] فنبه سبحانه بالثلاثة على العدد

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٢ رقم ٨٩٨٧) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٨٨-٦٨٩ رقم ١٧) والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٣) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين، فيكون مع كل العددين.

فالمشتركون في النجوى: إما شفع أو وتر فقط، أو كلا القسمين، وأقل أقسام الوتر المتناجين: ثلاثة، وأقل أنواع الشفع: اثنان، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر، وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا، ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه رابع الثلاثة وساس الخمسة، إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الآلهية.

والعرب تقول: أربع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة، لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس، قالوا: رابع ثلاثة، وخامس أربعة، وسادس خمسة.

وقال تعالى في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال في العامة: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]. فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه، حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون، وكيف جمع الضمير لما دخل فرعون معهما في الذكر! فجعل الخاص مع المعية الخاصة، والعام مع المعية العامة، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فهذه الآية لها شأن[1].

***

(١) تكملة البحث تقدم في سورة (ق) ويأتي قريبًا في المجادلة ما يوضح المعنى إن شاء الله. (ج).

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾.

(١)ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾[الحديد: ٦]. وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء، هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر، لا يذهب جملة. وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين.

***

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن

(١) ٢٠٩ مفتاح جـ١.

قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ﴾.

(١)...ترسل الأمانة والرحم على جنبتي الصراط، فلا يجوزه خائن ولا قاطع رحم. ويختلف مرورهم عليه بحسب اختلاف استقامتهم على الصراط المستقيم في الدنيا: فمار كالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل وساع وماش وزاحف وحاب حبوًا وينصب على جنبتيه كلاليب، لا يعلم قدر عظمها إلا الله ﷻ تعوق من علقت به عن العبور على حسب ما كانت تعوقه الدنيا عن طاعة الله ومرضاته وعبوديته، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومقطع بتلك الكلاليب ومكردس في النار، وقد طفىء نور المنافقين على الجسر أحوج ما كانوا إليه، كما طفىء في الدنيا من قلوبهم، وأعطوا دون الكفار نورًا في الظاهر، كما كان إسلامهم في الظاهر دون الباطن، فيقولون للمؤمنين: قفوا لنا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ وما نجوز به، فيقول لهم المؤمنون والملائكة: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً.

قيل: المعنى ارجعوا إلى الدنيا، فخذوا من الإيمان نورًا تجوزون به، كما فعل المؤمنون. وقيل: ارجعوا وراءكم، حيث قسمت الأنوار، فالتمسوا هناك نورًا تجوزن به، ثم ضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ الذي يليهم ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ

(١) ٢٩٨ الروح.

وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥] فإذا جاوز المؤمنون الصراط، ولا يجوزه إلا مؤمن أمنوا من دخول النار، فيحبسون هناك على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في دار الدنيا، حتى إذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنة...

(١)قال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لي. أي أنا أهله، وجدير به، ومستحق له، ثم قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره، فقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] يعني الجنة والكرامة، فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

(٢)ولما كان الإيمان موجبًا للخشوع وداعيًا إليه، قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟

(٣)قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قال ابن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»(٤). وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث

---

(١) ٢٩٨ الروح.
(٢) ٥٠٩ مدارج جـ٢.
(٣) ٥٢٠ مدارج جـ١.
(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٢٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٢٨).

عشرة سنة من نزول القرآن»[1] وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون، قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت وذلت وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩].

والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه. وقيل: الخشوع الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل (الخشوع) خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره. ورأى النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[2] وقال النبي ﷺ: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره ثلاث مرات[3]، وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلًا خاشع المنكبين والبدن فقال: يا فلان الخشوع ههنا وأشار إلى صدره، لا ههنا وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة ﷺ وهو حذيفة يقول: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٨) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) (٤/ ٢٤) وأبو عبدالرحمن السلمي في آداب الصحبة (رقم ٢٠٦) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٠) في سنده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي اتهم بوضع الحديث. وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٢/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤) وانظر: فتح الباري (٥/ ٩٧).

خشوع النفاق؟ قال: «أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[١]. ورأى عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»[٢]. ورأت عائشة رضى الله عنها شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا[٣]. وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يُرِي الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه[٤]. وقال حذيفة ﷺ: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة[٥]. ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا. وقال سهل: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان» اهـ.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ ﴾.

[٦]قيل: إن الوقف على قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم يبتدئ ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ فيكون الكلام جملتين: أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٤٢) وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٨٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٣ رقم ٣٥٧١) عن أبي الدرداء، وكذا أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٦٤ رقم ٦٩٦٦) موقوفاً. بينما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) عن أبي بكر الصديق مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

(٢) ذكره الذهبي في الكبائر (ص ١٤٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٢٨٨) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٩٠).

(٤) انظر: فتح الباري (٩/ ٣١٨) وعون المعبود (١٣/ ٢٣٣) وغريب الحديث لابن سلام (٢/ ٢٥٣).

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٦ رقم ٨٤٤٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠ رقم ٣٤٨٠٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٨١).

(٦) ٣٥١ طريق الهجرتين.

الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه، وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداءِ، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا وفي سورة النساء، وهكذا جاءَ ذكرهم مقدماً على الشهداءِ في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»(١)، ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له ﷺ.

وقيل: إن الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين بأنهم هم الصديقون والشهداءُ عند ربهم، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشدهم الله على الناس يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿ لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداءُ على الناس يوم القيامة، ويكون الشهداء وصفاً لجملة المؤمنين الصديقين.

وقيل: الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله.

ويرجحه أيضاً أنه لو كان الشهداء داخلاً في جملة الخبر لكان قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩] داخلاً أيضًا في جملة الخبر عنهم، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء: أحدها: أنهم هم الصديقون، والثاني: أنهم هم الشهداءُ، والثالث: أن لهم أجرهم ونورهم، وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف، وهذا كما تقول: زيد كريم وعالم له مال، والأحسن في هذا تناسب الأخبار بأن تجردها كلها من العطف، أو تعطفها جميعاً، فتقول: زيد كريم عالم له مال،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٧٥).

أو كريم وعالم وله مال، فتأمله.

ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة، قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء، وهم الصديقون والشهداء والصالحون، وهم المذكورون في الآية، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا، فهؤلاد ثلاثة أصناف، ثم ذكر الرسل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء، فهؤلاء هم السعداء، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان: كفار، ومنافقون، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]، وذكر المنافقون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فهؤلاء أصناف العالم كلهم، وترك ﷻ ذكر المخلط صاحب الشائبتين على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالبًا لسر اقتضته حكمته. فليحذر صاحب التخليط، فإنه لا ضمان له على الله، ولا هو من أهل وعده المطلق، ولا ييأس من روح الله فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب، ولكنه بين الجنة والنار، واقف بين الوعد والوعيد، كل منهما يدعوه إلى موجبه، لأنه أتى بسببه. وهذا هو الذي لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين، ولكن غلطوا في تخليده في النار، ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين ووكلوه إلى المشيئة وقالوا بأنه يخرج من النار بتوحيده وإيمانه لأصابوا، ولكن منزلة بين منزلتين وصاحبهما مخلد في النار مما لا يقتضيه عقل ولا سمع، بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم، والله أعلم، وأيضاً فصاحب الشائبتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والوعيد، فإن الله ﷻ رتب على كل عمل جزاءً في الخير والشر، فإذا أتى العبد بهما كان فيه سبب الجزاءَين، والله لا يضيع عمل مثقال ذرة، فإن كان عمل الشر مما يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير له، وإن لم يسقطه كالمعصية ترتب في حقه الأثران ما لم يسقط أحدهما بسبب من الأسباب التي نذكرها إن شاء الله فيما بعد، والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة

الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جارياً في الأمة على آباد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»(١).

وصح عنه ﷺ أنه قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً»(٢). وصح عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٣). وصح عنه ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(٤). وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «إن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى النملة في جحرها»(٥). وعنه ﷺ أنه قال: «إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير»، وعنه ﷺ أنه قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر»(٦). وعنه ﷺ: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد»(٧)، وعنه ﷺ أنه قال: «نضر الله امرءاً سمع

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٧٨) وشرح النووي (١٥/ ١٧٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٧/ ١٠٤).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٣٧) (١١/ ٥٨٤) شرح النووي (١١/ ٨٥).
(٤) أخرجه البخاري (رقم٧١) ومسلم (رقم ١٠٣٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٦١-١٦٤) (٧/ ١٢٨).
(٥) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٨٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٤ رقم ٧٩١٢) ونقل المنذري تحسين الترمذي للحديث في ترغيبه (١/ ٥٦) وكذا النووي في رياضه (ص ٣١٤).
(٦) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٨٩ رقم ٨٨) وفي الموارد (رقم ٨٠) وأبو داود (رقم ٣٦٤١) وابن ماجه (رقم ٢٢٣) والترمذي (رقم ٢٦٨٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢٤ رقم ١٢٣١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٠٣-١٠٤ رقم ٩٧٥).
(٧) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٢٨) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٠ رقم ٧٨٧٥) والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦ رقم ٤٠٢٢) قال في مصباح الزجاجة (١/ ٣١): هذا إسناد فيه علي بن زيد بن جدعان، والجمهور على تضعيفه. وانظر: فيض القدير (٤/ ٣٥٢).

مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»[١]. والأحاديث في هذا كثيرة، وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيالها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها، أن يكون المرءُ في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة، يملى فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات وتتوجه نحوها الطلبات، فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماءَ في ملكوت السماءِ، كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلَّم، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء. وهؤلاء هم العدول حقاً بتعديل رسول الله ﷺ لهم، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضاً **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدول، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»**[٢]. وما أحسن ما قال فيهم الإمام أحمد في خطبة كتابه في الرد على الجهمية: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٦٨ رقم ٦٦) وابن ماجه (رقم ٢٣٦) والترمذي (رقم ٢٦٥٨) والدارمي (رقم ٢٢٨) والشافعي في مسنده (ص ٢٤٠) والحميدي في مسنده (رقم ٨٨) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٥٦ رقم ٣٠٧٢) وفي الصغير (رقم ٣٠٠) وفي الكبير (٢/ ١٢٦ رقم ١٥٤١) وانظر: فتح الباري (١/ ١٧٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٩ رقم ٢٠٧٠٠) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤ رقم ٥٩٩) وتمام في فوائده (رقم ٨٩٩) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ١١) وابن عبدالبر في التمهيد (١/ ٥٩) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٩).

وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين[١]. وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب.

[٢]مدح الله سبحانه في كتابه أعمالا، وأثنى على أصحابها، ولا تحصل إلا بالغنى كالزكاة والإنفاق في وجوه البر، والجهاد في سبيل الله بالمال، وتجهيز الغزاة، وإعانة المحاويج، وفك الرقاب، والإطعام في زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغني ونصره على فقره ومخمصته، وأين يقع صبره من نفع الغني بماله في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه؟ وأين يقع صبر أبي ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذبين في الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرة الإسلام، حين قال النبي ﷺ: «**ما نفعني مال أحد ما نفعني مال أبي بكر**»[٣].

وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التي قال له رسول الله في بعضها: «**ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»[٤]. ثم قال: «**غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت**»[٥] أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين، وقد شهد رسول الله ﷺ، بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وفسر اليد

---

(١) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص ٥٥-٥٦) بتحقيقي وهو من منشورات دار الثبات بالرياض.

(٢) ٢٧٦ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٢٧٣ رقم ٦٨٥٨) وفي الموارد (رقم ٢١٦٦) والترمذي (رقم ٣٦٦١) وابن ماجه (رقم ٩٤) وأحمد (٢/ ٢٥٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٨ رقم ٣١٩٢٧) وحسنه الترمذي وقال في مصباح الزجاجة (١/ ١٦): وهذا إسناد رجاله ثقات.

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٠١) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٧٩) والحاكم (٣/ ١١٠ رقم ٤٥٥٣) وصححه. بينما حسنه الترمذي.

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس (٣/ ٩٩ رقم ٤٢٧٥) وابن عدي في الكامل (١/ ٣٤٠) (٦/ ٢٤٩) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٠٨) وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٥٧).

العليا بالمعطية والسفلى بالمسائلة، وقد عدد الله سبحانه على رسوله ﷺ، من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التي نقله إليها، وفقره الحالة التي نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلى ما هو خير منه.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] أن المراد به الحالتان أي كل حالة خير لك مما قبلها، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] فهذا يدخل فيه عطاؤه في الدنيا والآخرة، قالوا: والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة والله، يخص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين، لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم، والإحسان إليهم وإعانتهم على طاعتهم، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التي تخصهم، كما في صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر شهر رمضان فقال: «**من فطر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء**»[1] فقد جاز الغني الشاكر أجر صيامه، ومثل أجر الفقير الذي فطره.

قالوا: ولو لم يكن للغنى الشاكر إلا فضل الصدقة التي لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن، كما ذكر النضر بن شميل عن قرة عن سعيد بن المسيب أنه حدث عن عمر بن الخطاب قال ذكر. أن الأعمال الصالحة تتباهى، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم[2] قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش.

وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر

(١) أخرجه ابن خزيمة (٣/ ١٩١ رقم ١٨٨٧) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٠٥ رقم ١٣٦٠٨).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ٩٥ رقم ٢٤٣٣) والحاكم (١/ ٥٧٦ رقم ١٥١٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الصدقه لتطفئ على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامه في ظل صدقته**»(١).

وقال يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة يرفعه: «**كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس**» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه. ولو بكعكة أو بصلة(٢).

وفى حديث معاذ عن النبي ﷺ: «**والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**»(٣).

وروى البيهقي من حديث أبى يوسف القاضي عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه: «**باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة**»(٤) وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا تصدق العبد من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبًا، أخذها الله بيمينه، فيربيها لأحدهم، كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل**

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦ رقم ٧٨٨) وابن عبدالبر في الاستذكار (٨/ ٥٩٦) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢١٢ رقم ٣٣٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٠): رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه كلام.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ١٠٤ رقم ٣٣١٠) وابن خزيمة (٤/ ٩٤ رقم ٢٤٣١) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٧٧ رقم ٧٥٤٠) والحاكم (١/ ٥٧٦ رقم ١٥١٧) والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٠ رقم ٧٧١) وأبو يعلى (٣/ ٣٠٠ رقم ١٧٦٦) وأحمد (٤/ ١٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٠): رواه كله أحمد وروى أبو يعلى والطبراني في الكبير بعضه ورجال أحمد ثقات. وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥١٠ رقم ١٣٦٠) رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن عقبة بن عامر مرفوعاً وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال: على شرط مسلم.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨ رقم ١١٣٩٤) والترمذي (رقم ٢٦١٦) وأحمد (٣/ ٣٢١) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٦٧ رقم ٦٦١٠) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٣٠): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة مأمون. وصححه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢١٤).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٨٩ رقم ٧٦٢٠) وفي الشعب (٣/ ٢١٤ رقم ٣٣٥٣) والطبراني في الأوسط (٦/ ٩ رقم ٥٦٤٣) والديلمي في الفردوس (٢/ ٨ رقم ٢٠٧٩) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٠): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عيسى بن عبدالله بن محمد وهو ضعيف.

الجبل العظيم»[١] وفي لفظ البيهقي في هذا الحديث: «**حتى إن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد»**[٢] وقال محمد بن المنكدر: «**من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان»** وقد روي مرفوعًا من غير وجه[٣].

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلبا على شدة ظمئه فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»**[٤] فجعل الكلم الطيب عوضًا عن الصدقة، لمن لا يقدر عليها، قالوا: وأين لذة الصدقة والإحسان وتفريحهما القلب وتقويتهما إياه، وما يلقي الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم وإدخال المسرات عليهم من أجر الصبر على الفقر، نعم إن له لأجرًا عظيمًا، لكن الأجر درجات عند الله.

قالوا: وأيضًا فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى، وأحب عباده إليه من اتصف بذلك كما قال النبي ﷺ: «**الخلق عيال الله، فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله»**[٥] قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء، فبدأ بالمتصدقين أولهم، فقال

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٠) ومسلم (رقم ١٠١٤) وانظر: شرح النووي (٧/ ٩٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ٢٥٨ رقم ٣٤٧٦).

(٣) أخرجه الحاكم عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ مرفوعاً (٢/ ٥٧٠ رقم ٣٩٣٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. بينما أخرجه البيهقي في الشعب موقوفاً على محمد بن المنكدر (٣/ ٢١٦ رقم ٣٣٦٣) وأخرجه مرفوعاً في الشعب أيضاً (٣/ ٢١٧ رقم ٣٣٦٤) وأسقط جابر بن عبدالله. وأخرجه هناد في الزهد (١/ ٣٤٣ رقم ٦٣٤) من قول مجاهد.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٢٣) ومسلم (رقم ١٠١٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٨٣ – ٢٨٤) وشرح النووي (٧/ ١٠٠-١٠٢).

(٥) أخرجه أبو يعلى (٦/ ٦٥ رقم ٣٣١٥) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٣ رقم ٧٤٤٥) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٦ رقم ٥٥٤١) والشاشي (١/ ٤١٩ رقم ٤٣٥) والخطيب في تاريخه (٦/ ٣٣٣) وابن عساكر في تاريخه (٣٣/ ٢٧٨) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٥٨): ورد من طرق كلها ضعيفة وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٥١٩): هذا حديث لا يصح.

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٨، ١٩] فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات، قالوا: وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله.

فمنها أنها تقي مصارع السوء، وتدفع البلاء، حتى إنها لتدفع عن الظالم. قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم وتطفئ الخطيئة، وتحفظ المال، وتجلب الرزق، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان يعني الصدقة، وتزكي النفس وتنميها، وتحبب العبد إلى الله والى خلقه وتستر عليه كل عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلا يوم القيامة، وتشفع له عند الله، وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر، فلا تستعصي عليه وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها، فيحب العليم والجواد والحيي والستير والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف.

***

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝ ﴾.

(١) إن الزهد على أربعة أقسام: أحدها: فرض على كل مسلم، وهو الزهد في الحرام، وهذا متى أخل به انعقد سبب العقاب، فلابد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر

(١) ٢٥١ طريق الهجرتين.

يضاده. الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه. وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة. الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأن، وهم المشمرون في السير إلى الله وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفراً منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده. فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهداً فيها. ومن هذا الأثر المشهور، وقد روى مرفوعاً وموقوفاً: «**ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك**»[1]. والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء: أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله تعالى فيها: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ

---

(١) أخرجه ماجه (رقم ٤١٠٠) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ٨٥-٨٦) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٠٣) وابن عدي في الكامل (٥/ ١١٧-١١٨).

نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥]، وسماها سبحانه: متاع الغرور، ونهى عن الاغترار بها.

وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين بها، وحذرنا مثل مصارعهم، وذم من رضي بها واطمأن إليها. وقال النبي ﷺ: **«مالي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها»**(١). وفي المسند عنه ﷺ حديث معناه: **أن الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلاً للدنيا**، فإنه وإن قزَّحه وملَّحه فلينظر إلى ماذا يصير(٢)، فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دنية وعقل حقير، وقدر خسيس. الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجل خطراً وهي دار البقاءِ، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»**(٣)، فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له: اطرحه ولك عوضه مائة ألف دينار مثلاً، فألقاه من يده رجاءَ ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زهد فيها. الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك، وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها، فإنه متى تيقن ذلك، وثلج له صدره، وعلم أن مضمونه منها سيأْتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعاً، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك. فهذه الأُمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه. والله الموفق لمن يشاءُ.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٢٦٥ رقم ٦٣٥٢) وفي الموارد (رقم ٢٥٢٦) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٢٧ رقم ١١٨٩٨) والبزار (٤/ ٣٣٧-٣٣٨ رقم ١٥٣٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٩٥) والترمذي (رقم ٢٣٧٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) والطيالسي (رقم ٥٤٨) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٩ رقم ٥٦٥٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٩٣) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ٢١١) قال المنذري في الترغيب (٣/ ١٠٣): رواه عبدالله بن أحمد في زوائده بإسناد جيد قوي.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٥٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٢) وشرح النووي (١٧/ ١٩٢).

(١) وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠] فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدًا لأولي البصائر، وأنها لعب ولهو، تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان، واللهو واللعب لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس، مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون، فيذهب ضائعًا في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحسانًا ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم، الذي هو خير وأبقى، قال الإمام حدثنا وكيع حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله ﷺ عن النبي قال: «**مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها**». وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(٢) قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع**»، وأشار بالسبابة. وفي الترمذي من حديثه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها**» قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: «**فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**»(٣).

---

(١) ١٧٩ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٢٠) وابن ماجه (رقم ٤١١٠) والطبراني في الكبير (٦/ ١٥٧ رقم ٥٨٤٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣١٦ رقم ١٤٣٩) وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٢١) وابن ماجه (رقم ٤١١١) والضياء في المختارة (٧/ ١١٢ رقم ٢٥٣٣) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٩٦ رقم ٥٣٦١) وفي الكبير (٢٠/ ٣٠٤ رقم ٧٢٣) وأحمد (٤/ ٢٢٩) =

وفي الترمذي أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا**»[(١)] والحديثان حسنان.

قال الإمام أحمد حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبد الله بن دينار النهراني قال: قال عيسى ﷺ للحواريين بحق أقول لكم: إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وأن عباد الله ليسوا بالمتنعمين بحق، أقول لكم: إن شركم عملا عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله[(٢)].

وقال أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق قال أخبرني سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: قال عيسى ابن مريم ﷺ يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر دارًا قالوا: يا روح الله ومن يقدر على ذلك، قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارًا[(٣)].

وفي كتاب الزهد لأحمد أن عيسى ابن مريم ﷺ كان يقول بحق: أقول لكم إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونومًا على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس[(٤)].

وفي المسند عنه: «**إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلا للدنيا، وإن قزحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير**»[(٥)].

=
وابن أبي عاصم في الزهد (رقم ١٣٥) وأحمد في الزهد (ص ٢٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ٥٠٨) وحسنه الترمذي.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٢٢) وابن ماجه (رقم ٤١١٢) والدارمي (رقم ٣٢٢) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٣٦ رقم ٤٠٧٢) وفي مسند الشاميين (١/ ١٠٧ رقم ١٦٣) وحسنه الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٩٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ٤٣٢).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٥٨).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٥٨).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) وابن حبان (٢/ ٤٧٦ رقم ٧٠٢) وفي الموارد (رقم ٢٤٨٩) والطبراني في الكبير (١/ ١٩٨ رقم ٥٣١) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٢٧ رقم ١٠٤٧٣) وابن أبي عاصم في الزهد
=

ثم أخبر ﷻ عنها أنها يفاخر بعضنا بعضًا بها، فيطلبها ليفخر بها علىٰ صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئا للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد، والمفاخرة نوعان مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة فى الآخرة، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهى أن الرجل ينفس علىٰ غيره بالشيء، ويغار أن يناله دونه، ويأنف من ذلك، ويحمي أنفه له، يقال نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك، والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلىٰ الشيء النفيس.

ثم أخبر تعالىٰ عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد فيحب كل واحد أن يكاثر بني جنسه في ذلك ويفرح بأن يرىٰ نفسه أكثر من غيره مالًا وولدًا، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [التكاثر: ١-٤] والتكاثر في كل شيء فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرا وتفاخرا، وهذا أسوأ حالا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح إن شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا

=

(رقم ٢٠٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٤٦) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٧٦ رقم ٤١٢) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ٢١١) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٠٣): رواه عبدالله بن أحمد في زوائده بإسناد جيد قوي.

النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به، كما ذكرهم به في قوله يعجب الزراع، وإنما خص الكفار به، لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، فإنها دارهم التي لها يعملون، ويكدحون، فهم أشد إعجابًا بزينتها، وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه، كما قال علي بن أبي طالب الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نجح لمن سالم فيها مساجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيها ونعت نفسها وأهلها، فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفا وتحذيرًا وترغيبا، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا، ووعظتهم فاتعظوا، فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها، متى استذمت إليك بل متى غرتك أبمنازل آبائك في الثرى، أم بمضاجع أمهاتك في البلاء، كم رأيت موروثًا كم عللت بكفيك عليلا، كم مرضت مريضا بيديك تبتغي له الشفاء، وتستوصف له الأطباء، ثم لم تنفعه شفاعتك، ولم تسعفه طلبتك، مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر، فقال: يا أهل الغربة، ويا أهل التربة، أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت، فهذا خبر ما عندنا، فهاتوا خبر ما عندكم، ثم التفت إلينا، فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم: أن خير الزاد التقوى. فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش

ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحا وفضلا لأولياء الله، فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح والنعيم الذي لا يشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والإنابة إليه والإنس به والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه، الذي ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده، ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة، وقالوا: هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم، قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه، والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفين، ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل والإيمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة، فهذا أفضل ما في هذه الدار، وهذا أفضل ما في الدار الأخرى، ولا يصح أن يقال، فأي الأمرين أفضل، فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبين غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالأنكاد والتنغيص، ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥]، ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات، وهي الأعمال والأقوال الصالحة، التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]
ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام، التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعم عباده بالدعوة إليها عدلا، وخص من شاء بالهداية إلى طريقها فضلًا.

وأخبر سبحانه أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من ذلك فعل فهو الخاسر حقيقة لا من قل ماله وولده في الدنيا.

ونهى نبيه أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارًا، وأخبر أن رزقه الذي أعده له في الآخرة خير وأبقى من هذا الذي متعوا به، وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا في دنياهم، وجعل ما آتاه مانعا له من مد عينيه إلى ذلك، فهذا العطاء في الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا، فلا تمدن عينيك.

***

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(١)قال أبو داود الطيالسي: ثنا عبد المؤمن هو ابن عبد الله قال: كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ على عصًا، فقال: يا أبا سعيد أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد: ٢٢] فقال الحسن: نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلًا أنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة، حتى إن الرجل

---

(١) ٧ شفاء.

ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر، قال: يا أبا سعيد والله لقد أخذتها وإني عنها لغني، ثم لا صبر لي عنها، قال الحسن: أولا ترى.

واختلف في الضمير قوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ فقيل: هو عائد على الأنفس لقربها منه، وقيل هو عائد على الأرض، وقيل عائد على المصيبة.

والتحقيق أن يقال هو عائد على البرية التي تعم هذا كله، ودل عليه السياق، وقوله نبرأها. فينتظم التقادير الثلاثة انتظاما واحدا، والله أعلم، وقال ابن وهب أخبرني عمر بن محمد أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبد الله بن مسعود: «**إن أول شيء خلقه الله عز وجل من خلقه القلم، فقال له: اكتب. فكتب كل شيء يكون في الدنيا إلى يوم القيامة**» فيجمع بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد فلا يخالف ألفاً ولا واوًا وميمًا.

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور شيء اهتدى، ومن أخطأه ضل**» قال عبد الله: فلذلك أقول جف القلم بما هو كائن رواه الإمام أحمد، وقال أبو داود: حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد قال: أخبرني أبي قال: سمعت الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بن يزيد ويحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: حدثني عبدالله بن فيروز الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو ابن العاص وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط فقلت خصال بلغتني عنك تحدث بها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من شرب الخمر لم تقبل توبته أربعين صباحًا، وأن الشقي من شقي في بطن أمه**» وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل**» فلذلك أقول جف القلم على علم الله[1]. ورواه

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٤ رقم ١٧٤٨٨) والحاكم (١/ ٨٤ رقم ٨٣) وصححه بقوله: هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة وقد احتجج بجميع رواته ولم يخرجاه، ولا أعلم له علة. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٣-١٩٤): رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩١-٤٩٢).

الإمام أحمد في مسنده أطول من هذا عن عبد الله بن فيروز الديلمي.

[(١)] وقوله سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع وهو الأحسن، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه، وأنه يسير عليه، وحكمته البالغة، التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم، إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته، ولا بد قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه، ولم يفرحوا بالحاصل، لعلهم أن المصيبة مقدرة في كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه.

ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها، وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب، فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هانت عليه وخف حملها، وأنزلها منزلة الحر والبرد.

[(٢)] والفرق بين رقة القلب والجزع: أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد كان الجزع عناء محضا ومصيبة ثانية، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فمتى آمن

(١) ١٩٤ شفاء.

(٢) ٣٠٥ الروح.

العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافي هذا رقة القلب فإنها ناشئة من صفة الرحمة، التي هي كمال، والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلبًا، وأبعدهم من الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة. وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة، فأخذ بأنفاسه، وضيق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوىٰ والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء، مظلم المسلك، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنىٰ ما يصيبه، ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيما رفيق القلب بكل ذي قربىٰ ومسلم، يرحم النملة في حجرها، والطير في وكره، فضلًا عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله، قال أنس: كان رسول الله أرحم الناس بالعيال[(١)] والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة، وأبدله بهما الغلظة والقسوة وفي الحديث الثابت: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»[(٢)]، وفيه: «**من لا يرحم لا يرحم**»[(٣)] وفيه: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[(٤)]، وفيه: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربىٰ، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال**» والصديق ﷺ إنَّما فضل الأمة بما كان في قلبه من الرَّحمة العامَّة زيادة

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٧٦) وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٨) وانظر: فيض القدير (٣/ ١٧) (٥/ ١٦٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٢١٣ رقم ٤٦٦) وأبو داود (رقم ٤٩٤٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٨/ ١٦١ رقم ١٦٤٢٠) والترمذي (رقم ١٩٢٣) وأحمد (٢/ ٣٠١) وأبو يعلىٰ (١٠/ ٥٢٦ رقم ٦١٤١) والطيالسي (رقم ٢٥٢٩) وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٧) ومسلم (رقم ٢٣١٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٩-٤٣٠) وشرح النووي (١٥/ ٧٦-٧٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٩٢٤).

على الصديقية، ولهذا أظهر أثرها في جميع مقدماته، حتى في الأسارى يوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به، وضرب له مثلا بعيسى وإبراهيم، والرب سبحانه تعالى هو الرءوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه وأعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته، وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم.

***

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

(١)...الأصل في العقود كلها إنما هو العدل، الذي بعثت به الرسل، وأنزلت به الكتب، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] والشارع نهى عن الربا لما فيه من الظلم، وعن الميسر لما فيه من الظلم، والقرآن جاء بتحريم هذا وهذا؛ وكلاهما أكل المال بالباطل، وما نهى عنه النبي ﷺ، من المعاملات ـ كبيع الغرر، وبيع الثمر قبل بدو صلاحه، وبيع السنين، وبين حبل الحبلة، وبيع المزابنة، والمحاقلة، وبيع الحصاة، وبيع الملاقيح والمضامين، ونحو ذلك ـ هي داخلة إما في الربا وإما في الميسر؛ فالإجارة بالأجرة المجهولة مثل أن يكريه الدار بما يكسبه المكتري في حانوته من المال هو من الميسر، وأما المضاربة والمساقاة والمزارعة فليس فيها شيء من الميسر، بل هي من أ قوم العدل.

(٢)ورأيت لشيخ الإسلام ـ رحمه الله ورضي عنه ـ في ذلك جوابًا وسؤالًا هل السياسة بالضرب والحبس للمتهمين في الدعاوى وغيرها من الشرع أم لا؟ وإذا

(١) ٣٧٨ أعلام جـ١.
(٢) ٩٣ الطرق الحكمية.

كانت من الشرع فمن يستحق ذلك ومن لا يستحقه؟ وما قدر الضرب ومدة الحبس؟

فأجاب: الدعاوى التي يحكم فيها ولاة الأمور سواء سموا قضاة أو ولاة الأحداث أو ولاة المظالم أو غير ذلك من الأسماء العرفية الاصطلاحية، فإن حكم الله تبارك وتعالى شامل لجميع الخلائق، وعلى كل من ولي أمرا من أمور الناس أو حكم بين اثنين أن يحكم بالعدل، فيحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وهذا هو الشرع المنزل من عند الله، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

فالدعاوي قسمان: دعوى تهمة ودعوى غير تهمة، فدعوى التهمة أن يدعى فعل محرم على المطلوب يوجب عقوبته مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال، وغير التهمة أن يدعي عقدا من بيع أو قرض أو رهن أو ضمان أو غير ذلك(١)...

(٢)...فالواجب على ولي الأمر فعل ما أمره الله به، وما هو أصلح للمسلمين من إعزاز دين الله وقمع أعدائه، وإتمام ما فعله الصحابة من إلزامهم بالشروط عليهم، ومنعهم من الولايات في جميع أرض الإسلام. لا يلتفت في ذلك إلى مرجف أو مخذل، يقول: إن لنا عندهم مساجد وأسرى نخاف عليهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]. وإذا كان فوروز في مملكة التتار قد هدم عامة الكنائس على رغم أنف أعداء الله، فحزب الله المنصور

(١) بقية البحث مطولة مفيدة جدًّا لمن هو راغب في تحقيق معلوماته. (ج).
(٢) ٦٨٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.

وجنده الموعود بالنصر إلى قيام الساعة أولى بذلك وأحق، فإن النبي ﷺ أخبر أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة، ونحن نرجو أن يحقق الله وعد رسوله ﷺ حيث قال: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**» ويكون من أجرى الله ذلك على يديه، وأعان عليه من أهل القرآن والحديث داخلين في هذا الحديث النبوي، فإن الله بهم يقيم دينه، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

[(١)]ومن بعض حقوق الله على عبده: رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان. وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، فلم يصادف عنده ما يشفيه، ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وظن المسلم أنه بضربه بداويه فسطا به ضرباً، وقال: هذا هو الجواب، فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب. فتفرقا، وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب؛ فشمر المجيب ساعد العزم، ونهض على ساق الجد، وقام لله قيام مستعين به، مفوض إليه، متوكل عليه في موافقة مرضاته، ولم يقل مقالة العجزة الجهال: إن الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال. وهذا فرار من الزحف، وإخلاد إلى العجز والضعف، وقد أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم؛ إقامة للحجة وإزاحة للعذر: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، والسيف إنما جاء منفذاً للحجة، مقوماً للمعاند، وحداً للجاحد، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ

---
(١) ١٠ هداية الحيارى.

لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾، فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي، ونفذه السيف الماضي.

فما هو إلا الوحي أوحد مرهف — يقيم ضباه أخدعي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل — وهذا دواء الداء من كل جاهل

وإلى الله الرغبة في التوفيق، فإنه الفاتح من الخير أبوابه، والميسر له أسبابه.

(١) عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله، لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه، قال تعالى في سورة الفرقان، وهي مكية: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢] فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ [التحريم: ٩] واغلظ عليهم ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن، والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله، ولهذا قال معاذ ﷺ عليكم بطلب العلم، فإن تعلمه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد. ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا

(١) ٧٠ مفتاح جـ١.
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٤٧) والضياء في المختارة (٦/ ١٢٤ رقم ٢١١٩) وحسنه محقق المختارة.

رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ فذكر الكتاب والحديد، إذ بهما قوام الدين كما قيل.

(١)إن الله سبحانه قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] فالكتاب كلامه، والميزان عدله، فأخبر أنه أنزلهما مع رسله، ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ولم يقل وأنزلنا معهم الحديد، فلما ذكر كلامه وعدله أخبر أنه أنزلهما مع رسله، ولما ذكر مخلوقه الناصر لكتابه وعدله أطلق إنزاله ولم يقيده بما قيد به إنزال كلامه، فالمسوي بين الإنزالين مخطئ في اللفظ والمعنى.

(٢)والمقصود الفرق بين الحجج والبينات، فنقول: الحجج الأدلة العلمية، والبينات جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة وحجة بينة، والبينة اسم لكل ما بين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار، ومن آيات الله الموجودة في العالم...(٣).

(٤)وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ دل ذلك على أن في نفس الأمر قسطًا، وأن الله سبحانه أنزل

---

(١) ٢٢١ مختصر الصواعق جـ٢.
(٢) ١٤٦ مفتاح جـ١.
(٣) تقدمت تكملة هذا في سورة الأعراف. (ج).
(٤) ٩ مفتاح جـ٢.

كتابه، وأنزل الميزان، وهو العدل ليقوم الناس بالقسط، أنزل الكتاب لأجله والميزان، فعلم أن في نفس الأمر ما هو قسط وعدل: حسن، ومخالفته: قبيحة، وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله.

ومن ينفي الحسن والقبح يقول ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن، وإنما صار قسطًا وعدلًا بالأمر فقط، ونحن لا ننكر أن الأمر كساه حسنًا وعدلًا إلى حسنه وعدله في نفسه، فهو في نفسه قسط حسن، وكساه الأمر حسنًا آخر، يضاعف به كونه عدلًا حسنًا، فصار ذلك ثابتًا له من الوجهين جميعًا.

***

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

(١) ومراتب العلم والعمل ثلاثة: «رواية، وهي مجرد النقل وحمل المروي ودراية وهي فهمه وتعقل معناه، ورعاية وهي العمل بموجب ما عمله ومقتضاه. فالنقلة همتهم الرواية، والعلماء همتهم الدراية، والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوب بـ﴿ ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ على الاشتغال: إما بنفس الفعل المذكور على قول الكوفيين، وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور على قول البصريين، أي وابتدعوا رهبانية، وليس منصوبا بوقوع الجعل عليه، فالوقف التام عند قوله: ﴿ وَرَحْمَة ﴾

(١) ٦٠ مدارج جـ٢.

ثم يبتدئ ورهبانية ابتدعوها أي لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم، ولم نكتبها عليهم، وفي نصب قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له أي لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهذا فاسد فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه، كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها فهي مبتدعة غير مكتوبة، وأيضا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه، فيتحد السبب والغاية نحو: قمت إكراما، فالقائم هو المكرم، وفعل الفاعل المعلل ههنا، هو الكتابة، وابتغاء رضوان الله فعلهم لا فعل الله، فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول (كتبناها) أي ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وهو فاسد أيضًا إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية، فتكون بدل الشيء من الشيء، ولا بعضها، فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل على الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع، أي لم يفعلوها، ولم يبتدعوها، إلا لطلب رضوان الله، ودل على هذا قوله: ابتدعوها، ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله، ثم ذمهم بترك رعايتها، إذ من التزم لله شيئا لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه، حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر، كما قال: أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وهو إجماع أو كالإجماع في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتمامًا.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله ﷻ ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله ورضيها لعباده وأذن بها وحث عليها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[1]وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان، فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله، وفهم عنه، وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ، والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله، ولا انقاد لما بعث به رسول الله ﷺ، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة، ترى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم. وهذه الظلمة هي التي خلق فيها الخلق أولا، فمن أراد الله ﷻ به السعادة أخرجه منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها، كما روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل**»، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله. وكان النبي ﷺ يسأل الله تعالى أن يجعل له نورًا في قلبه وسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه وعظامه ودمه، ومن فوقه ومن تحته، وعن شماله وخلفه وأمامه، وأن يجعل ذاته نورا، فطلب ﷺ النور لذاته ولأبعاضه ولحواسه الظاهرة والباطنة ولجهاته الست.

وقال أبي بن كعب ﷺ: المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور، وهذا النور بحسب قوته وضعفه، يظهر لصاحبه يوم القيامة، فيسعى بين

---

(١) ٥ اجتماع الجيوش الإسلامية.

يديه ويمينه، فمن الناس من يكون نوره كالشمس، وآخر كالنجم، وآخر كالنخلة السحوق، وآخر دون ذلك، حتى إن منهم من يعطى نورا على رأس إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، كما كان نور إيمانه ومتابعته في الدنيا كذلك، فهو هذا بعينه يظهر هناك للحس والعيان. وقال وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] فسمى وحيه وأمره روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسماه نورًا لما يحصل به من الهدى واستنارة القلوب، والفرقان بين الحق والباطل. وقد اختلف في الضمير في قوله ﷻ: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا ﴾ فقيل يعود على الكتاب، وقيل على الإيمان، والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾.

فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحًا ونورًا وهدى. ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن رحمه الله: «إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة» وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم. وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم؛ فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات، وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فإحياؤه ﷻ بروحه الذي هو وحيه وهو روح الإيمان والعلم وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظلمة، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامتهم، وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان.

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في

عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار؛ ولهذه الأمة من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيها ﷺ من النور ما ليس لنبي غيره، فإن لكل نبي منهم نورين، ولنبينا ﷺ تحت كل شعرة من رأسه وجسده نور تام، كذلك صفته وصفة أمته في الكتب المتقدمة. وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨] وفي قوله: ﴿ تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور، وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم؛ بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم. وفي قوله: ﴿ تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدما عن قدم على الصراط فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه.

(١)قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [المائدة: ١٦]

---

(١) ١٢٧ مفتاح جـ١.

وقوله: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل، فإن الحق متى استقر في القلب قوي به وامتنع مما يضره ويهلكه، ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانًا، وتقدم قدم ذلك، فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته، ومن ضعف قلبه، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوي قلبه.

(١)وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور: أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين. الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات، الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

(٢)كتاب للرعاف: كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يكتب على جبهته: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود: ٤٤]. وسمعته يقول: كتبتها لغير واحد فبرأ، فقال: ولا يجوز كتابتها بدم الراعف، كما يفعله الجهال، فإن الدم نجس، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله تعالى.

كتاب آخر له: خرج موسى عليه السلام برداء، فوجد شعيباً، فشده بردائه ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩].

كتاب آخر للحزاز: يكتب عليه: ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] بحول الله وقوته.

(١) ٣٧ التبيان.

(٢) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٣.

كتاب آخر له: عند اصفرار الشمس يكتب عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحديد: ٢٨].

كتاب آخر للحمى المثلثة: يكتب على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله فرَّت، بسم الله مرت، بسم الله قلت، ويأخذ كل يوم ورقة، ويجعلها في فمه، ويبتلعها بماء.

كتاب آخر لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني، وأنت خلقت النَّسا، فلا تسلطه علي بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقماً، لا شافي إلا أنت.

كتاب للعرق الضارب: روى الترمذي في جامعه: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الحمى، ومن الأوجاع كلها أن يقولوا: «بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار، ومن شر حر النار».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحديد

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ المجَادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

[1]ثبت في السنن والمسانيد «أن أوس بن الصامت: ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة، وهي التي جادلت فيه رسول الله ﷺ، واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات ـ فقالت: يا رسول الله، إن أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سني، ونثرت له ذات بطني: جعلني كأمه عنده، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما عندي في أمرك شيء»، فقالت: «اللهم إني أشكو إليك». وروي أنها قالت: «إن لي صبية صغارًا، إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا. فنزل القرآن»[2].

وقالت عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في كسر البيت، يخفى عليَّ بعض كلامها. فأنزل الله

---

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٨٢ رقم ١٥٠٢٠) والدارقطني (٣/ ٣١٦ رقم ٢٥٩) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٨ رقم ٢٥٧٤) والحاكم (٢/ ٥٢٣ رقم ٣٧٩١) وابن ماجه (رقم ٢٠٦٣) وأبو يعلى (٨/ ٢١٤ رقم ٤٧٨٠) وصححه الحاكم، وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٤٢٥) وانظر أيضاً: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾(١) [المجادلة:١]. فقال النبي ﷺ: **«ليعتق رقبة؟»** قالت: لا يجد. قال: **«فيصوم شهرين متتابعين»** قالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير، ما به صيام، قال: **«فليطعم ستين مسكيناً»** قالت: ما عنده شيء يتصدق به. قال: **«فإني سأعينه بعَرْق من تمر»** قالت: وأنا أعينه بعَرْق آخر، قال: **«أحسنتِ، فأطعمي عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلى ابن عمك»**(٢).

(٣)والسمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن، فمن الأول: قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]. وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

والثاني سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. لما في قلوبهم من الكبر والإعراض

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التوحيد من صحيحه باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] قبل حديث (رقم ٧٣٨٦) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٦٨ رقم ٥٦٥٤) وابن ماجه (رقم ١٨٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٨٢ رقم ١٥٠١٩) وأبو يعلى (٨/ ٢١٤ رقم ٤٧٨٠) وأحمد (٦/ ٤٦) وعبد بن حميد (رقم ١٥١٤) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧٨ رقم ٦٢٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه ابن الجارود (رقم ٧٤٦) وابن حبان (١٠/ ١٠٧-١٠٨ رقم ٤٢٧٩) وفي موارد الظمآن (رقم ١٣٣٤) وأبو داود (رقم ٢٢١٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٨٩ رقم ١٥٠٥١) وأحمد (٦/ ٤١٠) وانظر: المغني (٨/ ٣، ٢٥) وبداية المجتهد (٢/ ٧٨) وسبل السلام (٣/ ١٨٩) ونيل الأوطار (٧/ ٥٥).

(٣) ٧٩ مفتاح جـ١.

عن قبول الحق؛ ففيهم آفتان: إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب. والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] أي قابلون له مستجيبون لأهله، ومنه قوله: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة: ٤١] أي: قابلون مستجيبون، ومنه قول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه وقول النبي ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم**»[(١)] أي يجيبكم، والمقصود: أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه، ومعاده كان الحيوان البهيم خيرًا منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

...[(٢)]وسألته ﷺ خولة بنت مالك فقالت: إن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها، وشكته إلىٰ رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ، يجادلها فيه بقوله: «**اتقي الله فإنه ابن عمك**»، فما برحت حتىٰ نزل القرآن: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] الآيات، فقال: «**يعتق رقبة**» قالت: لا يجد. قال: «**فيصوم شهرين متتابعين**». قالت: إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «**فليطعم ستين مسكينًا**». قالت: ما عنده من شيء يتصدق به، فأتي ساعته بعَرْق من تمر، قلت: يا رسول الله إني أعينه بعَرْق آخر، قال: «**أحسنت اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلىٰ ابن عمك**» ذكره أحمد وأبو داود.

ولفظ أحمد: قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٩) ومسلم (رقم ٤١١) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٧٩-١٨٠) وشرح النووي (٤/ ١٣١-١٣٢).

(٢) ٣٥٣ أعلام جـ٤.

ساعة، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس الخويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم، قالت: فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خُلُقه، فجعل رسول الله ﷺ، يقول: «**يا خويلة ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه**»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ، ما كان يتغشاه ثم سُرِّيَ عنه، فقال: «**يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك**» ثم قرأ عليَّ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١]، إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٤]. قالت: فقال رسول الله، ﷺ: «**مُريه فليعتق رقبة**»(١) وذكر نحو ما تقدم. وعند ابن ماجه أنها قالت: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل ﷺ بهؤلاء الآيات.

(٢)وفي السنن: «**أن سلمة بن صخر البياضي: ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان، ثم واقعها ليلة قبل انسلاخه.فقال له النبي ﷺ: «أنت بذاك يا سلمة؟» قال: قلت: أنا بذاك يا رسول الله - مرتين - وأنا صابر لأمر الله. فاحكم فيَّ بما أراك الله، قال: «حَرِّر رقبة» قلت: والذي بعثك بالحق نبيًا ما أملك رقبة غيرها - وضربت صفحة رقبتي - قال: «فصم شهرين متتابعين». قال: فهل أصبت الذي أصبت إلا في الصيام؟ قال: «فأطعم وسقًا من تمر ستين مسكينًا». قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا وَحْشَيْن، ما لنا طعام. قال: «فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك، فأطعم ستين مسكينًا وسقا**

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤١٠) وابن حبان (١٠/ ١٠٧ رقم ٤٢٧٩).
(٢) ١٥٩ زاد المعاد جـ٤.

من تمر. **وكل أنت وعيالك بقيتها**». قال: فرحت إلىٰ قومي. فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول ﷺ السعة، وحسن الرأي، وقد أمر لي بصدقتكم»[(١)].

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس: أن رجلًا أتىٰ النبي ﷺ، قد ظاهر من امرأته. فوقع عليها، فقال: يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أكفر؟ قال: «**وما حملك علىٰ ذلك؟ يرحمك الله**» قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: «**فلا تقربها حتىٰ تفعل ما أمرك الله**» وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وفيه أيضًا عن سلمة بن صخر عن النبي ﷺ في المظاهر: يواقع قبل أن يكفر، فقال: «**كفارة واحدة**»[(٢)] وقال: حسن غريب. انتهىٰ. وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار وسلمة بن صخر.

وفي مسند البزار عن إسماعيل بن مسلم عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس قال: «أتىٰ رجل إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: إني ظاهرت من امرأتي، ثم وقعت عليها قبل أن أكفر. فقال رسول الله ﷺ: «**ألم يقل الله** ﴿ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ [المجادلة:٣]؟» فقال: أعجبتني. فقال: «**أمسك حتىٰ تكفر**»[(٣)] قال البزار: لا نعلمه يروىٰ بإسناد أحسن من هذا، علىٰ أن إسماعيل بن مسلم قد تُكُلِّم فيه. وروي عن جماعة كثيرة من أهل العلم[(٤)]. فتضمنت هذه الأحكام أمورًا.

---

(١) أخرجه ابن الجارود (رقم ٧٤٤) وابن خزيمة (٤/ ٧٣ رقم ٢٣٧٨) وأبو داود (رقم ٢٢١٣) والترمذي (رقم ٣٢٩٩) والدارمي (رقم ٢٢٧٣) وأحمد (٤/ ٣٧) وحسنه الترمذي وانظر: المغني (٨/ ٣) ونيل الأوطار (٧/ ٥١).

(٢) أخرجه ابن الجارود (رقم ٧٤٧) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦٧ رقم ٥٦٥١، ٥٦٥٢) وفي المجتبىٰ (رقم ٣٤٥٧، ٣٤٥٨) والترمذي (رقم ١١٩٩) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ. والحاكم (٢/ ٢٢٢ رقم ٢٨١٧) وانظر: المغني (٨/ ١٠) ونيل الأوطار (٧/ ٥٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٢ رقم ٢٨١٨) والطبراني في الكبير (١١/ ١٥ رقم ١٠٨٨٧).

(٤) انظر: نصب الراية (٣/ ٢٤٦).

أحدها: إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار طلاقًا، ولو صرح بنيته له، فقال: «أنت عليَّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» لم يكن طلاقًا. فكان ظهارًا. وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ. وقد نص عليه أحمد والشافعي وغيرهما.

قال الشافعي: ولو ظاهر ـ يريد طلاقًا ـ كان ظهارًا، أو طلق يريد ظهارًا: كان طلاقًا. هذا لفظه، فلا يجوز أن ينسب إلىٰ مذهبه خلاف هذا.

ونص أحمد علىٰ أنه إذا قال: «أنت عليَّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» أنه ظهار. ولا تطلق به. وهذا لأن الظهار كان طلاقًا في الجاهلية فنسخ. فلم يجز أن يعاد إلىٰ الحكم المنسوخ. وأيضًا: فإن أوس بن الصامت إنما نوىٰ به الطلاق علىٰ ما كان عليه، وأجرىٰ عليه حكم الظهار، دون الطلاق. وأيضًا: فإنه صريح في حكمه فلم يجز جعله كناية في الحكم الذي أبطله ﷻ بشرعه، وقضاء الله أحق، وحكم الله أوجب.

ومنها: أن الظهار حرام، لا يجوز الإقدام عليه. لأنه ـ كما أخبر الله عنه ـ منكر من القول وزور، فكلاهما حرام. والفرق بين جهة كونه منكرًا، وجهة كونه زورًا: أن قوله: «أنت عليَّ كظهر أمي» يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاء لتحريمها. فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً. فهو خبر زُور، وإنشاء منكر، فإن الزور: هو الباطل، خلاف الحق الثابت. والمنكر: خلاف المعروف.

وختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]. وفيه إشعار بقيام سبب الإثم، الذي لولا عفو الله ومغفرته لآخذه به.

ومنها: أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار. وإنما تجب بالعود. وهذا قول الجمهور.

وروىٰ الثوري عن ابن أبي نجيح عن طاوس قال: «إذا تكلم بالظهار فقد لزمه» وهذه رواية ابن أبي نجيح عنه. وروىٰ معمر عن ابن طاوس عن أبيه في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ [المجادلة: ٣] قال: «جعلها عليه كظهر أمه، ثم يعود فيطؤها، فتحرير رقبة».

وحكى الناس عن مجاهد: أنه تجب الكفارة بنفس الظهار. وحكاه ابن حزم عن الثوري وعثمان البتي. وهؤلاء لم يخف عليهم: أن العود شرط في الكفارة، ولكن العود عندهم: هو العود إلى ما كان عليه في الجاهلية من التظاهر. كقوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة: ٩٥]، أي عاد إلى الاصطياد بعد نزول تحريمه. ولهذا قال: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[المائدة: ٩٥].

قالوا: ولأن الكفارة إنما وجبت في مقابلة ما تكلم به من المنكر والزور. وهو الظهار دون الوطء، أو العزم عليه.

قالوا: ولأن الله سبحانه لما حرم الظهار،ونهى عنه: كان العود هو فعل المنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: ٨] أي إن عدتم إلى الذنب عدنا إلى العقوبة. فالعود هنا: نفس فعل المنهي عنه.

قالوا: ولأن الظهار كان طلاقًا في الجاهلية. فنقل حكمه من الطلاق إلى الظهار، ورتب عليه التكفير.وتحريم الزوجة حتى يكفر، وهذا يقتضي أن يكون حكمه معتبرًا بلفظه كالطلاق...

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

(١)الكبت: الإذلال والخزي والتصريع على الوجه، قال النضر وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن، وقال أهل التفسير: كبتوا: أهلكوا وأخزوا وحزنوا، وإذا كان المحاد مكبوتًا فلو كان آمنًا على نفسه وماله لم يكن مكبوتًا بل مسرورًا جذلًا يشفي صدره من الله ورسوله، آمنًا على دمه وماله، فأين الكبت إذن؟

ويدل عليه قوله: ﴿ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، فخوفهم بكبت نظير كبت من قبلهم: وهو الإهلاك من عنده وأنا بأيدي عباده وأوليائه. وقوله: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ

(١) ٨٢٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.

لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾ [المجادلة: ٢١] عقيب قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة:٥] دليل على أن المحاداة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالبًا، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم، فلا يكون له أمان مع المحادة، وقد جرت سنة الله سبحانه أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه.

يوضحه: أن المحادة مشاقة، لأنها من الحد والفصل والبينونة، وكذلك المشاقة من الشق، وكذلك المعاداة من العُدْوة، وهي الجانب يكون أحد العدوين في شق وجانب وحد وعدوه الآخرة في غيرها، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة؛ وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد، لا يكون مع اتصال الحبل أبدًا.

يوضحه: أن الحبل وُصْلَةٌ وسبب، فلا يجامع المفاصلة والمباينة.

وأيضًا فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣] فأمر بضرب أعناقهم، وعلّل ذلك بمشاقتهم ومحادَدتهم، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه، وهذا دليل تاسع في المسألة. وترتيبه هكذا: هذا مشاق لله ورسوله، والمشاق لله ورسوله مستحق ضرب العنق. وقد تبينت صحة المقدمتين.

ونظير هذا الاستدلال قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ [الحشر: ٣] والتعذيب في الدنيا هو القتال والإهلاك، ثم علّل ذلك بالمشاقة، وأخر عنهم ذلك التعذيب لما سبق من كتابه الجلاء عليهم، فمن وجدت منه المشاقة [من] غيرهم ممن لم يكتب عليه الجلاء استحق عذاب الدنيا الذي أخره عن أولئك. وهذا دليل عاشر في المسألة.

***

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

(١) قـولـه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية فنبه ـ سبحانه ـ بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين، فيكون مع كل العددين. فالمشتركون في النجوى: إما شفع فقط أو وتر فقط أو كلا القسمين، وأقل أقسام الوتر المتناجين ثلاثة، وأقل أنواع الشفع اثنان، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا. ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه: رابع الثلاثة، وسادس الخمسة؛ إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل.

وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الإلهية،والعرب تقول: رابع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف إليه م جنس المضاف، كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس قالوا: رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة.

وقال تعالى في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال في العامة: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥].

فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون؟ وكيف جمع

(١) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

الضمير لما أدخل فرعون معهما في الذكر؟ فجعل الخاص مع المعية الخاصة، والعام مع المعية العامة.

(١) المعية نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصة وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة،والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ «مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئًا من هذا فمن سوء فهمه أُتِيَ.

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصًا. وهو نوعان: قربه من داعية بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولهذا نزلت جوابًا للصحابة ﷺ وقد سألوا رسول الله ﷺ: «ربنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»(٢).

---

(١) ٢٦٥ مدارج جـ٢.

(٢) أخرج أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٥ رقم ٢٢) عن الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده: أن أعرابياً قال أراه للنبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] وأخرجه البرقي في فوائد العراقيين (رقم ١٧) وابن حبان في الثقات (٨/ ٤٣٦) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيعلي (١/ ١١٤).

والثاني: قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد»(١)، «وأقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل»(٢) فهذه قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح: عن أبي موسى ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: «يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(٣).

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه. واستواءه على عرشه، بل يجامعه ويلازمه. فإنه ليس كقرب الإجسام بعضها من بعض، ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ ولكنه نوع آخر. والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدًا من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جليسه، كما قيل:

ألا رب من يدنو ويزعم أنه   يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه. الذي هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتي القرب منها، فكيف بمن يقرب خلقه كيف يشاء. وهو مستو على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله خلي من محبته ومعرفته...

---

(١) إلى هنا أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وفيه زيادة: «فأكثروا الدعاء». وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠٦) (٦/ ١٠٥).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ١٨٢ رقم ١١٤٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٨٢ رقم ١٥٤٤) والترمذي (رقم ٣٥٧٩) والحاكم (١/ ٤٥٣ رقم ١١٦٢) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٤ رقم ٤٤٣٩) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٩ رقم ٦٠٥) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٢) ومسلم (رقم ٢٧٠٤) وانظر: فتح البار (١٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[(١)]... لم يأت (الحزن) في القرآن ألا منهيًا عنه ومنفيًا؛ فالنهي عنه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ١٢٧] في غير موضع، وقوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] والنفي كقوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

وسر ذلك: أن «الحزن» موقف غير مسير، ولا مصلحة فيه للقلب. وأحب شيء إلى الشيطان: أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المجادلة: ١٠]. ونهي النبي ﷺ الثلاثة: «أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه»[(٢)].

فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة. وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»[(٣)]. فهو قرين الهم. والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب، وإن كل لما يستقبل: أورثه الهم، وإن كان لما مضى: أورثه الحزن. وكلاهما مضعف للقلب عن السير. مفتر للعزم.

ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤] فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ

---

(١) ٥٠٥ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٨٨) ومسلم (رقم ٢١٨٣) واللفظ لمسلم. وانظر: فتح الباري (١١/ ٨١-٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٩٣) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٧٦).

عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢] فلم يمدحوا على نفس الحزن. وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة. ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب، ولا حزن إلا كفر الله به خطاياه**»(١) فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفر بها من سيئاته. لا بدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه...

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

(٢)إنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١] وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع.

أحدها هذا. والثاني قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢، ٤]. والثالث قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (رقم ٢٥٧٣) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٠).
(٢) ٥٠ مفتاح جـ١.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٥]. والرابع قوله تعالىٰ: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلىٰ العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين.

(١)إن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال: إيمان بالله؛ فهو رأس الأمر، والأعمال بعده علىٰ مراتبها ومنازلها.

والإيمان له ركنان: أحدهما معرفة ما جاء به الرسول والعلم به.

والثاني: تصديقه بالقول والعمل. والتصديق بدون العلم والمعرفة محال، فإنه فرع العلم بالشيء المصدق به، فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا علىٰ ساق العلم والمعرفة، فالعلم إذا أجل المطالب وأسنىٰ المواهب.

إن صفات الكمال كلها ترجع إلىٰ العلم والقدرة والإرادة، والإرادة فرع العلم، فإنها تستلزم الشعور بالمراد، فهي مفتقرة إلىٰ العلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة، والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلىٰ واحدة منها، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر في تعلقه بالمراد والمعلوم إلىٰ العلم، وذلك يدل علىٰ فضيلته وشرف منزلته.

إن العلم أعم الصفات تعلقًا بمتعلقه وأوسعها، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم.

فذات الرب ـ سبحانه ـ وصفاته وأسماؤه معلومة له، ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير. وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق.

---

(١) ٨١ مفتاح جـ١.

أما القدرة؛ فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب، فهي أخص من العلم من هذه الوجه، وأعم من الإرادة، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده. فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومتعلقه.

إن الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، ويأتم بهم من بعدهم. فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال في موضع آخر: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] أي أئمة يقتدى بنا من بعدنا.

فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ وهي أرفع مراتب الصديقين. واليقين هو كمال العلم وغايته، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين، وهي ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده.

إن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس، لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبًا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم، فالحاجة إليه فوق الحاجة إلي الطعام والشراب. وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه، فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه كل وقت.

إن صاحب العلم أقل تعبًا وعملًا وأكثر أجرًا، واعتبر هذا بالشاهد: فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس بأمرهم وينهاهم ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: «**أفضل الأعمال: إيمان بالله، ثم**

الجهاد»[١]. فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه، وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولًا، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملًا وحجًا وصومًا وصلاة وقراءة منه. قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لي بمثل سيرك المدلل ... تمشي رويدًا وتجي في الأول[٢]

[٣]إن من نال شيئًا من شرف الدنيا والآخرة، فإنما ناله بالعلم، وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه.

وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخرج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل إليها بالعلم، كما أشار إليها سبحانه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] جاء في

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣١٥ رقم ٧٩٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٤).
(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ٤٠).
(٣) ١٧٣ مفتاح جـ١.

تفسيرها: نرفع درجات من نشاء بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣] فهذه رفعة بعلم الحجة، والأول رفعة بعلم السياسة.

وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلميذه كليم الرحمن له وتلطفه معه في السؤال حتى قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]، وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدَّد ـ سبحانه ـ هذه النعمة بهذا العلم علي عباده، فقال: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله به إليه وفضله وكرمه: وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه، فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

(١) وللعلم ست مراتب: أولها حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات والاستماع، والثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة: وهي ثمرته، وهي العمل به ومراعاة حدوده.

فمن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله، إما لأنه لا يسأل أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه، كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها، ويدع ما لا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين.

---

(١) ١٦٩ مفتاح جـ١.

ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيرًا ولو كان حسن الفهم.

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال: من كان حسن الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشره، وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس، فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له في السؤال فيغره بالعلم غرًا. وقال ابن جريج: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فتأمل ما تحت هذا الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه ـ سبحانه ـ أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب وكان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين.

أحدهما: أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه، فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه.

وهاهنا ثلاثة أمور: أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله: الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق. الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر. فذكر

الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية..

(١)قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المنافقون: ٢] وأجننت الميت واريته في القبر فهو جنين. والحب المفرط يستر العقل، فلا يعقل المحب ما ينفعه ويضره، فهو شعبة من الجنون، وأصل المادة من الستر في جميع تصاريفها، ومنه أجنه الليل، وجن عليه إذا ستره، ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه، ومنه الجنة لاستتارها بالأشجار، ومنه المجن لاستتار الضارب به والمضروب، ومنه الجن لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس، فإنهم يؤنسون أي يرون، ومنه الجنة بالضم وهي ما استترت به واتقيت.

***

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(٢)قلت: الروح التي تتوفى وتقبض، فهي روح واحدة،وهي النفس، وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة:٢٢].

وكذلك الروح الذي أيد بها روحه المسيح ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠].

وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن.

وأما القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضًا: أرواحًا. فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام.

---

(١) ٤٩ روضة المحبين.

(٢) ٢٦٦ الروح.

فهذه الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى.

ويطلق الروح على أخص من هذه كله، وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، وهوبو، وهو قصبة فارغة ونحو ذلك. فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل وللصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيًا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًا. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المجادلة

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

...[1]«الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر: ٢] و«الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه. ومن النظير إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك.

وقد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه. فقال تعالى في الطريق الأولى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ثم قال في الطريق الثانية: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فمخلوقاته: دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به. مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئًا عبثًا. واسمه «الغني» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

(١) ٣٥٧ مدارج جـ٣.

واسمه «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته،وتدبيره وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، وبث رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد.

فمتى قام بالعبد تعظيم الحق جل جلاله وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبلة له...

***

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَىۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

(١)...قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧] فأمرنا باتباعه وطاعته فيما سنه وأمر به وما نهى عنه وما حكم به. وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»(٢) وقال: «من رغب عن سنتي

---

(١) ٤٢٨ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٤ رقم ٣٢٩) وابن ماجه (رقم ٤٢) والترمذي (رقم ٢٦٧٦) والدارمي (رقم ٩٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤ رقم ٢٠١٢٥) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٦ رقم ٦١٨) وفي مسند الشاميين (١/ ٤٠٢ رقم ٦٩٧) وأحمد (٤/ ١٢٦).

فليس مني، ومن أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»[(١)] فعرفنا سنته ووجدناها بهذه الآثار المشتهرة التي رويت بالأسانيد الصحيحة المتصلة التي نقلها حفاظ العلماء وثقاتهم بعضهم عن بعض.

ثم نظرنا فرأينا فرقة أصحاب الحديث: لها أطلب، وفيها أرغب، ولها أجمع، ولأصحابها أتبع، فعلمنا يقينا أنهم أهلها دون من عداهم من جميع الفرق، فإن صاحب كل حرفة أو صناعة إن لم يكن معه دلالة وآلة من آلات تلك الصناعة والحرفة ثم ادعى تلك الصناعة كان في دعواه مبطلًا، فإذا كانت معه آلات الصناعة الحرفة شهدت له تلك الآلات بصناعته، بل شهد له كل من عاينه قبل الاختبار...

[(٢)]والذي قال لنا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] هو الذي شرع لنا هذه الزيادة على لسانه[(٣)]. والله ـ سبحانه ـ ولاه منصب التشريع عنه ابتداء، كما ولاه منصب البيان لما أراده بكلامه.

بل كلامه كله بيان عن الله، والزيارة بجميع وجوهها لا تخرج عن البيان بوجه من الوجوه. بل كان السلف الصالح الطيب إذا سمعوا الحديث عنه وجدوا تصديقه في القرآن، ولم يقل أحد منهم قط في حديث واحد أبدًا: إن هذه زيادة على القرآن فلا نقبله ولا نسمعه ولا نعمل به، ورسول الله ﷺ أجل في صدورهم، وسنته أعظم عندهم من ذلك وأكبر.

ولا فرق أصلًا بين مجيء السنة بعدد الطواف وعدد ركعات الصلاة ومجيئها

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٧٨) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٢٤-١٢٥ رقم ٥٩٩١) وحسنه الترمذي. والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٦١ رقم ٧١٤) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٤٩ رقم ١٣٨١) في ترجمة عياض بن سعيد المازني. وقال: وقد روي هذا بإسناد أصلح من هذا من غير هذا الوجه، بينما ضعفه الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٢/ ٣٧٣) في ترجمة خالد بن أنس.

(٢) يشير إلى ما تقدم من الأدلة على وجوب قبول السنة على أي وجه وردت. (ج).

(٣) ٢٩٤ أعلام جـ٢.

بفرض الطمأنينة وتعيين الفاتحة والنية؛ فإن الجميع بيان لمراد الله أنه أوجب هذه العبادات على عباده على هذا الوجه، فهذا الوجه هو المراد، فجاءت السنة بيانًا للمراد في جميع وجوهها، حتى في التشريع المبتدأ، فإنها بيان لمراد الله من عموم الأمر بطاعته وطاعة رسوله، فلا فرق بين بيان هذا المراد وبين بيان المراد من الصلاة والزكاة والحج والطواف وغيرها، بل هذا بيان المراد من شيء، وذاك بيان المراد من أعم منه؛ فالتغريب بيان محض للمراد من قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

وقد صرح النبي ﷺ بأن التغريب بيان لهذا السبيل المذكور في القرآن، فكيف يجوز رده بأنه مخالف للقرآن معارض له؟ ويقال: لو قبلناه لأبطلنا به حكم القرآن؟ وهل هذا إلا قلب للحقائق؟ فإن حكم القرآن العام والخاص يوجب علينا قبوله فرضًا لا يسعنا مخالفته؛ فلو خالفناه لخالفنا القرآن ولخرجنا عن حكمه ولابد، ولكان في ذلك مخالفة للقرآن والحديث معًا. يوضحه الوجه الثاني:

أن الله سبحانه نصب رسول الله ﷺ منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما شرعه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعه ودينه، ولا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو ومن وحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا: كمخالفة هذا. يوضحه الوجه الثالث:

أن الله ـ سبحانه ـ أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان، وجاء البيان عن رسوله ﷺ بمقادير ذلك وصفاته وشروطه؛ فوجب على الأمة قبوله، إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبول الأصل المفصل.

وهكذا أمر الله ـ سبحانه ـ بطاعته وطاعة رسوله؛ فإذا أمر الرسول بأمر كان تفصيلًا وبيانًا للطاعة المأمور بها، وكان فرض قبوله كفرض قبول الأصل المفصل، ولا فرق بينهما، يوضحه الوجه الرابع:

أن البيان من النبي ﷺ أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًا.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلىٰ ذلك، كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، وأن الحساب اليسير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض النهار وسواد الليل، وأن الذي رآه نزلة أخرىٰ عند سدرة المنتهي هو جبريل.

كما فسر قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشمس من مغربها. وكما فسر قوله: ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة.

وكما فسر قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟

وكما فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب.

وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله: بأن ذلك باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرموه من الحلال. وكما فسر القوة التي أمر الله أن نعدها لأعدائه بالرمي. وكما فسر قوله: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزي به العبد في الدنيا من النصب والهم والخوف واللأواء.

وكما فسر الزيادة بأنها النظر إلىٰ وجه الله الكريم. وكما فسر الدعاء في قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة. وكما فسر أدبار النجوم بأنه الركعتان قبل الفجر وأدبار السجود بالركعتين بعد المغرب، ونظائر ذلك.

الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآنًا، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له وعدم نهيهم عن التأسي به.

الثامن: بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، وهو يشاهده أو يعلمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشيء عفوًا بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقًا.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف، فيحيل الربُّ ﷻ على رسوله في بيانها كقوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤] فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائدًا على النص فيكون نسخًا له، وإن كان رفعًا لظاهر إطلاقه.

فهكـذا كل حكم منه ﷺ زائـد على القرآن، هذا سبيله سواء بسواء، وقد قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١] ثم جاءت السنة بأن القاتل والكافر والرقيق لا يرث، ولم يكن نسخًا للقرآن مع أنه زائد عليه قطعًا، أعني في موجبات الميراث؛ فإن القرآن أوجبه بالولادة وحدها، فزادت السنة مع وصف الولادة اتحاد الدين وعدم الرق والقتل، فهلا قلتم: إن هذه زيادة على النص فيكون نسخًا والقرآن لا ينسخ بالسنة كما قلتم ذلك في كل موضع تركتم فيه الحديث، لأنه زائد على القرآن.

(١) قال الله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الحشر: ٧] فنزهه ربه ـ سبحانه ـ عن الفقر الذي يسوغ أخذ الصدقة، وعوَّضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأجله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله

(١) ٢٨٧ عدة الصابرين.

الذين كان مال الله بأيديهم ظلمًا وعدوانًا، فإنه خلق المال ليستعان به على طاعته، وهو بأيدي الكفار والفجار ظلمًا وعدوانًا، فإذا رجع إلىٰ أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنىٰ رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنىٰ بني الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشيء، وغناه ﷺ عن الشيء، وهو الغنىٰ العالي.

وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو ﷺ إنما يتصرف في ملكه تصرف العبد الذي لا يتصرف إلا بأمر سيده. وقد اختلف الفقهاء في الفيء: هل كان ملكًا للنبي ﷺ علىٰ قولين وهما روايتان عن أحمد.

والتحقيق أن ملكه له كان نوعًا آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر، كما قال ﷺ: «**والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا؛ إنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت**»(١)، وذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث، فإنه عبد محض من كل وجه لربه ﷻ والعبد لا مال له فيورث عنه.

فجمع الله له سبحانه بين أعلىٰ أنواع الغنىٰ وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال، فليست إحدىٰ الطائفتين بأحق به من الأخرىٰ، فكان ﷺ في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم، وكذلك في غناه. والله تعالىٰ جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غنىٰ أعظم من غنىٰ من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهبًا. وخُيِّر بين أن يكون ملكًا نبيًا وبين أن يكون عبدًا نبيًا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا، ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها، ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمل عيال المسلمين ودينهم، فقال: «**من ترك مالًا فلورثته، ومن ترك كلا فإليَّ وعليَّ**»(٢).

فرفع الله ـ سبحانه ـ قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١١٧) بلفظ: «**ما أعطيكم ولا أمنعكم، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت**» وانظر: فتح الباري (٦/ ٢١٨) وشرح النووي (١٤/ ١١٤-١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٩٨) ومسلم (رقم ١٦١٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥١٦).

نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه، وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة، فأنفق غاية الإنفاق، وأعطى أجل العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقارًا ولا أرضًا، ولا ترك شاة ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أمه ولا دينارًا ولا درهمًا، فإذا احتج الغني الشاكر بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره، ويترك الدنيا اختيارًا لا اضطرارًا، فرسول الله ﷺ وفَّى كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها.

وأيضًا فإن الله سبحانه أغنى به الفقراء، فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنيًا. قال علي بن أبي رباح اللخمي: كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يومئذ على مصر وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب فقال: لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير، فقال عبدالله بن عمرو: ويومئذ كان سيدًا كريمًا قد جاء بخير كثير. فقال مسلمة: ألم يقل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٦ - ٨] فقال عبدالله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيمًا من أبويه. وأما العيلة فكلما كان بأيدي العرب إلى القلة يقول: إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجًا ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنتها، قال وذلك معنى، قوله: ﴿ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾. وأما قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥] فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمته، وهو يحذر منها، وتعرض عليه فيأباها، وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس في الإسلام وظهور الدين إذ كان ذلك محبته ورضاه - صلوات الله وسلامه عليه -.

وروى سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبدالله عن علي بن عبدالله بن

عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت ما هو مفتوح بعدي كَفْرًا كَفْرًا فسرني ذلك» فنزلت ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ١-٥] قال أعطني ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي له[١]...

[٢]قال الله تعالىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر: ٧ - ١٠].

إلىٰ آخر الآية، فأخبر ـ سبحانه ـ أن ما أفاء علي رسوله بجملته: لمن ذكر في هؤلاء الآيات، ولم يخص منه خمسه بالمذكورين، بل عمم وأطلق، واستوعب، ويصرف علىٰ المصارف الخاصة، وهم أهل الخمس.

ثم علىٰ المصارف العامة، وهم المهاجرون والأنصار، وأتباعهم إلىٰ يوم الدين. فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون: هو المراد من هذه الآيات.

ولذلك قال عمر بن الخطاب فيما رواه أحمد وغيره عنه: «ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد. والله ما من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك». ولكنا علىٰ منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته. ووالله لئن بقيت لهم، ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال، وهو يرعى مكانه»[٣].

فهؤلاء المسلمون في آية الفيء: هم المسلمون في آية الخمس، ولم يدخل

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٧ رقم ٣٢٠٩) وفي الكبير (١٠/ ٢٧٧ رقم ١٠٦٥٠) وتمام في فوائده (رقم ٤٤٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٢) وإسماعيل بن محمد التيمي في دلائل النبوة (رقم ٣١٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٨-١٣٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط... وفيه معاوية ابن أبي العباس ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وإسناد الكبير حسن.

(٢) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٢) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١/ ٣٩٥ رقم ٢٧٧) وحسنه محقق الأحاديث المختارة الدكتور: عبدالملك بن دهيش حفظه الله.

المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس، لأنهم المستحقون لجملة الفيء.

وأهل الخمس لهم استحقاقان: استحقاق خاص من الخمس، واستحقاق عام من جملة الفيء. فإنهم داخلون في النصيبين.

وكما أن قسمته من جملة الفيء بين من جعل له ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون، كقسمة المواريث والوصايا والأملاك المطلقة، بل بحسب الحاجة والنفع، والغناء في الإسلام، والبلاء فيه. فكذلك الخمس في أهله، فإن مخرجهما واحد في كتاب الله.

والتنصيص على الأصناف الخمسة: يفيد تحقيق إدخالهم، وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها، لا يتعداهم إلى غيرهم.

ولهذا أفتى أئمة الإسلام ـ كمالك وأحمد وغيرهما ـ أن الرافضة: لا حق لهم في الفيء. لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار، ولا من ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠] وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين...

(١)وههنا دقيقة ينبغي التفطن لها، وهي أن إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة، وإيثار حب وإرادة.

فالأول: يؤثر محبوبه على غيره طلبًا لحظه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه. والثاني يؤثره إجابة لداعي محبته، فإن المحبة الصادقة تدعوه دائمًا إلى إيثار محبوبه، فإيثاره هو أجل حظوظه، فحظه في نفس الإيثار لا في العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة، وأما النفس الكثيفة فلا

---

(١) ٢٩٨ طريق الهجرتين.

خبر عندها من هذا، وما هو بعشها فلتدرج.

والدين كله والمعاملة في الإيثار، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به علىٰ نفسك، حتىٰ إن من شرطة الاحتياج من جهه المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجًا إليه لكان بذله سخاء وكرمًا، وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده علىٰ غيره من غير احتياج منه ـ سبحانه ـ فإنه الغني الحميد. وفي الدعاء المرفوع: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا**»[1]. وقيل: من آثر الله علىٰ غيره آثره الله علىٰ غيره.

والفرق: بين الإيثار والأثرة: أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصاصك به علىٰ الغير. وفي الحديث: «بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا»[2].

فإذا عرف هذا فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم علىٰ نفسك بما لا يضيع عليك وقتًا، ولا يفسد عليك حالًا، ولا يهضم لك دينًا، ولا يسد عليك طريقًا، ولا يمنع لك واردًا.

فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك فإيثار نفسك عليهم أولىٰ، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحدًا كائنًا من كان. وهذا في غاية الصعوبة علىٰ السالك، والأول أسهل منه. فإن الإيثار المحمود الذي أثنىٰ الله علىٰ فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٧٣) والضياء المقدسي في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) والحاكم (١/ ٧١٧ رقم ١٩٦١) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٤٥٠ رقم ١٤٣٩) وعبدالرزاق (٣/ ٣٨٣ رقم ٦٠٣٨) وأحمد (١/ ٣٤) وعبد بن حميد (رقم ١٥) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٦٠) والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٠٥٥، ٧٠٥٦) ومسلم (رقم ١٧٠٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٧-٨).

نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] فأخبر إن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات. فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس على الأرض عيانًا مفلسًا. فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل على هذا أنه ـ سبحانه ـ أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال النبي ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة»[(١)]. والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلًا للإيثار، بل محلا للتنافس والمسابقة.

ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات. والسر فيه ـ والله أعلم ـ أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر، بل لا يسع إلا أحدهما. وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم.

وإن قدر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع ـ بحيث إذا فعله واحد فات على غيره ـ فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٦١٥) ومسلم (رقم ٤٣٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٩٥) وشرح النووي (٤/ ١٥٧-١٥٨).

وأيضًا فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساو له، وإما أزيد، وإما دونه، فمتىٰ أتىٰ بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه، فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأيضًا فإن المقصود رغبة العبد في التقرب إلىٰ الله وابتغاء الوسيلة إليه والمنافسة في محابه. والإيثار بهذا التقرب يدل علىٰ رغبته عنه، وتركه له، وعدم المنافسة فيه. وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختص به أحدهما فات الآخر. فندب الله عبده إذا وجد من نفسه قوة وصبرًا علىٰ الإيثار به ما لم يخرم عليه دينًا، أو يجلب له مفسدة، أو يقطع عليه طريقًا عزم علىٰ سلوكه إلىٰ ربه، أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقًا بالخلق، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته.

فإذا ترجحت مصلحة الإيثار بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة ـ وليس للمؤثر نظيرها ـ تعين عليه الإيثار.

فإن كان به نظيرها لم يتعين عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والإحسان، فإنه من آثر حياة غيره علىٰ حياته وضرورته علىٰ ضرورته فقد استولىٰ علىٰ أمد الكرم والسخاء. وجاوز أقصاه، وضرب فيه بأوفر الحظ. وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها، فإن قيل: ما الذي يسهل علىٰ النفس هذا الإيثار. فإن النفس مجبولة علىٰ الأثرة لا علىٰ الإيثار؟ قيل يسهله أمور:

أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب علىٰ تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها علىٰ بغض المستأثر ومقته، ولا تبديل لخلق الله.

والأخلاق ثلاثة: خلق (الإيثار) وهو خلق الفضل. وخلق (القسمة والتسوية) وهو خلق العدل. وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم. فصاحب الإيثار

محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره. وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإن النفوس لا صبر لها عليه.

ولهذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم، لما في طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار.

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله ﷻ للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جدًا، بل لابد من مجاوزته إلى الفضل، أو التقصير عنه إلى الظلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره، ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومن جرب هذا عرفه، ومن لم يجر به فليستقرئ أحوال العالم. والموفق من وفقه الله ﷻ.

[1]قال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شح عليه، وبخل بإخراجه.

فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل. كما قال النبي ﷺ: **«إياكم والشح! فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»**[2].

---

(١) ٢٩١ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (رقم ٢٥٧٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٤).

فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل. قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل. وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلىٰ مراتبه، فإن المراتب ثلاث.

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويبقي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطىٰ، فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار»، وعكسها «الأثرة»، وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار ﭫ: «إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض» والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فوصفهم بأعلىٰ مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفًا.

وكان قيس بن سعد بن عبادة ـ رضي الله عنهما ـ من الأجواد المعروفين. حتىٰ إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة. فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزىٰ الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر مناديًا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أمسىٰ حتىٰ كسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده. وقالوا له يومًا: هل رأيت أسخىٰ منك؟ قال: نعم! نزلنا بالبادية علىٰ امرأة. فحضر زوجها. فقالت: إنه نزل بك ضيفان. فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرىٰ فنحرها. فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا اليسير. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر.وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه. ومضينا. فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا. أيها

الركب اللئام. أعطيتموني ثمن قراي؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لتأخذنه أو لاطاعننكم برمحي. فأخذناه وانصرف.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير ـ سبحانه ـ استئثار الناس على الأنصار بالدنيا ـ وهم أهل الإيثار ـ ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك ـ مع كونك من أهل الإيثار ـ فاعلم أنه لخير يراد بك. والله ﷻ أعلم.

و«الجود» عشر مراتب.

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود(١)

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته، والجود بها. والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجماع نفسه. فيجود بها تعبًا وكدًا في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره كما قيل:

متيم بالندى لو قاله سائله هب لي جميع كرى عينيك لم ينم

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال. لأن العلم أشرف من المال.

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني، شاعر الغزل، وكان يكثر من البديع في شعره، وتبعه الشعراء في ذلك، مات سنة ٢٠٨هـ. وجاء صدر البيت هكذا: تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها. وذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في كتاب الزهرة (٢/ ٨١٧) وجاء فيه: إذ ضن الجواد بها. وذكره أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخه (١٣/ ٩٦) وابن عساكر في تاريخه (٦/ ١٠١).

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلًا أبدًا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في ذلك أمرًا عجيبًا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحة بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة ﷺ النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**»[1] فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «**أينقص الرطب إذا جف؟**» قالوا: نعم. قال: «**فلا، إذن**» ولم يكن يخفى

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤/ ٤٩ رقم ١٢٤٣) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٤٣) والحاكم (١/ ٢٤٠ رقم ٤٩٩، ٥٠٠) وابن خزيمة (١/ ٥٩ رقم ١٨) والنسائي في الكبرى (١/ ٧٥ رقم ٥٨) وأبو داود (رقم ٨٣) وابن ماجه (رقم ٣٨٦) والترمذي (رقم ٦٩) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيحٌ. قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦١٩): أخرجه مالك وأصحاب السنن وصححه ابن خزيمة وابن حبان. وصححه النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٨٦).

عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جدًا في أجوبته ﷺ. مثل قوله: «**إن بعت من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئًا. بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟**» وفي لفظ: «**أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟**»(١). فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك. ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر ـ مثلًا ـ فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان والعراق، والهند. وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر. وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامض. وهو خل مثل من لم يصل إلى العنقود

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد. كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال ﷺ: «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. وبالكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويميط الأذى عن الطريق: صدقة**»(٢) متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة ﷺ كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٥٤) وانظر: شرح النووي (١٠/ ٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٢٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٠٨-٣٠٩) وشرح النووي (٥/ ٢٣٣-٢٣٤).

شتمني، أو قذفني: فهو في حل. فقال النبي ﷺ: «**من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم**»[١]؟ وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذا مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر،وأملك لنفسه،وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال تعالى: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود. قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]. فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه. ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم. وحرمه.

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**»[٢] وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه. والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قال عبدالله بن المبارك «**إنه أفضل**

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ١٤٩ رقم ١٧٧٠) وأبو داود (رقم ٤٨٨٧) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٦١ رقم ٨٠٨٢) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٦) وفيه: «**تلقى أخاك بوجه طلق**» وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٤٧) وشرح النووي (١٦/ ١٧٧).

من سخاء النفس بالبذل». فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فجد عليهم بزهدك في أموالهم. وما في أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال. والله ـ سبحانه ـ قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «الإيثار: تخصيص واختيار. والأثرة: تحسن طوعًا. وتصح كرهًا».

فرق الشيخ بين «الإيثار» و«الأثرة» وجعل «الإيثار» اختيارًا و«الأثرة» منقسمة إلى اختيارية، واضطرارية. وبالفرق بينهما يعلم معنى كلامه. فإن «الإيثار» هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختيارًا.

وأما «الأثرة» فهي استئثار صاحب الشيء به عليك، وحوزه لنفسه دونك.

فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه. إلا إذا كانت طوعًا. مثل أن يقدر على منازعته ومجاذبته، فلا يفعل. ويدعه وأثرته طوعًا. فهذا حسن، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثرة كره. ويعني بالصحة: الوجود، أي توجد كرهًا. ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعًا من المستأثر عليه.

فحقيقة «الإيثار»بذل صاحبه وإعطاؤه. و«الأثرة» استبداله هو بالمؤثر به. فيتركه وما استبدل به: إما طوعًا، وإما كرهًا. فكأنك آثرته باستئثاره حيث خليت بينه وبينه، ولم تنازعه. قال عبادة بن الصامت ﷺ: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في عسرنا، ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله»[1] فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة، فإنه ﷺ لم يستأثر عليهم.

---

(١) تقدم تخريجاً قريباً.

...[1]وفيها[2]: كمال محبة الصديق له، وقصده التقرب إليه، والتحبب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبي ﷺ بقدوم وفد الطائف، ليكون هو الذي سرَّه وأفرحه بذلك. وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أو يؤثره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر أخاه.

وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب. لا يصح، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها بجوار النبي ﷺ وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل. وعلى هذا: فإذا سأل الرجل غيره: أن يؤثره بمقامه في الصف الأول: لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل. ونظائره.

ومن تأمل سيرة الصحابة وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه. وهل هذا إلا كرم وسخاء، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها، وتفريح لأخيه المسلم، وتعظيم لقدره، وإجابة له إلى ما سأله، وترغيب له في الخير. وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحًا على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة وأخذ أضعافها؟

وعلى هذا: فلا يمتنع أن يؤثر صاحب المال بمائه من يتوضأ به ويتيمم هو، إذا كان لا بد من تيمم أحدهما، فآثره أخاه وحاز فضيلة الإيثار، وفضيلة الطُّهر بالتراب. ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة، ولا مكارم أخلاق.

وعلى هذا: فإذا اشتد العطش بجماعة عاينوا التلف، ومع بعضهم ماء، فآثر به على نفسه واستسلم للموت. كان ذلك جائزًا، ولم يقل: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرمًا، بل هذا غاية الجود والسخاء، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم. وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع

---

(١) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أي قصة ثقيف حيث ساقها الشيخ رحمه الله كاملة مفصلة قبل هذا. (ج).

فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها؟ وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل ثم يؤثر بثوابها؟ وبالله التوفيق.

[١]رد الرافضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاص الأمة وعامتها بالضرورة؛ في مدح الصحابة، والثناء عليهم، ورضاء الله عنهم، ومغفرته لهم، وتجاوزه عن سيئاتهم، ووجوب محبة الأمة، واتباعهم لهم،واستغفارهم لهم، واقتدائهم بهم بالمتشابه من قوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢] ونحوه.

كما ردوا المحكم الصريح من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم، كفعل إخوانهم من الخوارج حين ردوا النصوص الصحيحة المحكمة في موالاة المؤمنين ومحبتهم وإن ارتكبوا بعض الذنوب التي تقع مكفرة بالتوبة النصوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البرزخ وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين.

فهذه عشرة أسباب تمحق أثر الذنوب، فإن عجزت هذه الأسباب عنها فلابد من دخول النار، ثم يخرجون منها؛ فتركوا ذلك كله بالمتشابه من نصوص الوعيد، وردوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم التي يحتمل أن يكونوا قصدوا بها طاعة الله، فاجتهدوا فأداهم اجتهادهم إلى ذلك، فحصلوا فيه على الأجر المفرد، وكان حظ أعدائهم منه تكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، وإن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، ولهم من الحسنات والتوبة وغيرها ما يرفع موجب الذنب فاشتركوا هم والرافضة في رد المحكم من النصوص وأفعال المؤمنين بالمتشابه منها فكفروهم وخرجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان

---

(١) ٢٨٥ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢١) ومسلم (رقم ٦٥) وانظر: فتح الباري (١/ ١١٣) وشرح النووي (٢/ ٥٥).

ويدعون أهل الأوثان. ففساد الدنيا والدين من تقديم المتشابه على المحكم، وتقديم الرأي على الشرع، والهوى على الهدى، وبالله التوفيق.

***

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

(١)وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دلَّ أهلها عليه وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرَّ عنه وتركه، وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦] وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته، فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فأوردهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس في قول عدو الله ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٦] فقال قتادة وابن إسحاق «صدق عدو الله في قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ [الأنفال: ٤٨] وكذب في قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ [الأنفال: ٤٨] والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بحرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة»، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانًا ولا نجاة...

(٢)نقض العهد بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهرًا»(٣) قاله

---

(١) ١٠٩ إغاثة جـ١.

(٢) ١٨٥ زاد المعاد جـ٢.

(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢) وعمدة القاري (٦/ ٢٥٥) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٥).

عروة، وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويصعد، فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه. وجاء الوحي على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هموا به، فنهض مسرعًا، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما همت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: أن أخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أيامًا يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصْنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وطمع رئيسهم حييُّ بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ، يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبَّرَ رسول الله ﷺ، وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء. فلما انتهى إليهم قاموا علي حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله ﷻ قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها، فحاصرهم رسول الله ﷺ وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم علي أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي ﷺ الأموال والحلقة، وهي السلاح، وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف

عليها المسلمون بخيل ولا ركاب[١].

[٢]وذكر الحاكم وغيره: أن بني النضير لما أجلوا من المدينة أقبل عمر بن سعد فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ففكر. ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا. فقال الزبير بن باطا: يا أبا سعيد أين كنت منذ اليوم؟ فلم نرك.وكان لا يفارق الكنيسة، وكان يتأله في اليهودية ـ قال: رأيت اليوم عبرًا اعتبرنا بها: رأيت إخواننا قد جلوا بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، ـ والتوراة ـ ما سلط هذا على قوم قط لله بهم حاجة. وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف في عزة بنيانه في بيته آمنًا، وأوقع بابن سنينة سيدهم. وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم جل اليهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم النبي ﷺ فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى نهاهم، فكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب.

يا قوم: قد رأيتم ما رأيتم فاطيعوني وتعالوا نتبع محمدًا، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي، وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان وأبو عمرو بن حراس، وهما أعلم اليهود، جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا، فاسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام ونحوه وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء. فقال الزبير بن باطا: قد ـ والتوراة ـ قرأت صفته في كتاب التوراة التي أنزلت على موسي ليس في المثاني التي أحدثنا.

فقال له كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه قال: أنت. قال ولم ـ فوالتوراة ـ ما حلت بينك وبينه قط؟

قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا.

فأقبل عمر بن سعد على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال كعب: ما عندي

---

(١) تقدم سياق طوائف اليهود في سورة الأحزاب. (ج).

(٢) ١٨ هداية الحيارى.

في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا. وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسى، فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى ﷺ فقال له! وزيره هامان: بينا أنت إله تعبد تصبح تعبد ربا غيرك؟! قال: صدقت.

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، قال: حدثت عن صفية بنت حيي أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوا عليه ثم جاءا من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته. قال: نعم، قال: فما في نفسك منه قال: عداوته والله ما بقيت.

فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديمًا وأسلافهم وخيارهم قد أخبرنا الله سبحانه عن أذاهم لموسى، ونهانا عن التشبه بهم في ذلك، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء: قتلوا زكريا وابنه يحيي وخلقًا كثيرًا من الأنبياء، حتى قتلوا في يوم سبعين نبيًا، وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئًا.

واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه على أيديهم، وألقى شبهه على غيره، فقتلوه، وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مرارًا عديدة، والله يعصمه منهم. ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر على الإيمان لسبب من الأسباب التي ذكرنا بعضها أو سببين أو أكثر.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝ ﴾.

[1]أمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه.

---

(١) ٩٢ الجواب الكافي.

وأخبر أنه عاقب من ترك التقوىٰ بأن أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذاتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره، فترىٰ العاصي مهملًا لمصالح نفسه مضيعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه آخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنىٰ ما يكون من لذة. إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف.

أحــــلام نـــــوم أو كظـــــل زائــــــل أن اللبيــــب بمثلهـــــا لا يخـــــدع[1]

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لاغنىٰ له عنه ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنىٰ أو منه كل العوض.

مــن كــل شــيء إذا ضــيعته عــوض وليس في الله إن ضيعت من عـوض[2]

فالله ﷻ يعوض عن كل شيء سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء، وكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسىٰ ذكره، ويضيع أمره حتىٰ ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم ظلم؟ فلما ظلم العبد ربه، ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسه.

[3]...والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين، محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها.

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل وينسب إلىٰ عمران بن حطان السدوسي، هرب من الحجاج فلحق بالشام ولجأ إلىٰ قوم من الأزد، فمات عندهم وهو يعتقد بمذهب الإباضية سنة ٨٤هـ. فعن قتادة قال: لقيني عمران بن حطان، فقال: يا أعمىٰ احفظ عني هذه الأبيات. ذكرها الحافظ الذهبي في السير (٤/ ٢١٦) والحافظ المزي في تهذيب الكمال (٢٢/ ٣٢٤) والحافظ ابن عساكر في تاريخه (٤٣/ ٤٩٨).

(٢) ذكر المناوي في فيض القدير (١/ ٢٠٣) بيتًا قريب من هذا البيت، فقال: وأحسن منه قول القائل:

لكل شيء إذا فـارقته عـوض وليس لله إن فارقت من عوض

(٣) ١٧٠ مدارج جـ١.

ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين.

وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله! وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر»[١] ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم»[٢].

[٣]قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفا عظيمًا، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلًا مهملًا بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها.

وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسي ربه، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] فغفل عن ذكر ربه، فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٦ رقم ٣٤٤٥٩) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٠٦) وابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٣١٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦).

(٣) ٨٦ مفتاح جـ١.

(١)قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذي به مصالحها وكمالها وسعادتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإرادتها، فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها، وكمالها الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه آخر.

(٢) وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذتها وفرحها عقوبة لهم علىٰ نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم المتحبب إليهم بآلائه فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره، فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم.

(٣)قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] عاقبهم علىٰ نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها، وعيوبها أن يصلحوها، وحظوظها أن يتناولوها.

ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها؛ ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره، وحبه، وطاعته، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان نسيانًا آخر.

وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه، فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم علىٰ عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها، فجازىٰ

---

(١) ٢٥٨ الروح.
(٢) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ١.
(٣) ١٣٥ شفاء.

أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك لم يجدوا عن ضده محيصًا. وهذا يبين لك كمال عدله ـ سبحانه ـ في تقدير الكفر والذنوب عليها، وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلًا منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل، فهو ـ سبحانه ـ ماض في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه.

وله فيها قضاآن: قضاء السبب، وقضاء المسبب، وكلاهما عدل فيه، فإنه لما ترك ذكره، وترك فعل ما يحبه، عاقبه بنسيان نفسه، فأحدث له هذا النسيان ارتكاب ما يبغضه ويسخطه بقضائه الذي هو عدل، فترتب له على هذا الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له منها بدّ، بل هي مترتبة عليها ترتب المسببات على أسبابها، فهو عدل محض من الرب ـ تعالى ـ فعدل في العبد أولًا وآخرًا، فهو محسن في عدله محبوب عليه، محمود فيه يحمده من عدل فيه طوعًا وكرهًا.

قال الحسن: لقد دخلوا النار وأن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلًا.

***

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(١) قال ابن عباس في قوله: ﴿ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣]: هو العظيم، وجبروت الله عظمته، والجبار من أسماء الملوك والجبر الملك والجبابرة الملوك. قال الشاعر:

وأنعم صباحًا أيها الجبر (٢)

أي: أيها الملك. وقال السدي: هو الذي يجبر الناس، ويقهرهم على ما يريد.

---

(١) ١٢١ شفاء.

(٢) هذا عجز بيت من بحر الكامل، يسب إلى عمرو بن أحمر الباهلي، شاعر جاهلي مخضرم ولد ونشأ في نجد أدرك الإسلام وأسلم وشارك في بعض الفتوحات ومدح الخلفاء وطالب بدم عثمان وهجا يزيد ابن معاوية، توفي سنة ٧٥هـ تقريباً، وصدر البيت: واسلم براووقٍ حبيت به.
وذكر عجز البيت السيوطي في تنوير الحوالك (ص١٤).

وعلى هذا؛ فالجبار معناه: القهار. وقال محمد بن كعب: إنما سمي الجبار لأنه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأنًا من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته: قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد. وقال ابن الأنباري: الجبار في صفة الرب ـ سبحانه ـ الذي لا ينال، ومنه قولهم: نخلة جبارة، إذا فاتت يد المتناول.

فالجبار في صفة الرب ـ سبحانه ـ ترجع إلى ثلاثة معان: الملك، والقهر، والعلو. فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة.

ولهذا جعل ـ سبحانه ـ اسمه الجبار مقرونًا بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة وهي: الخالق، البارئ، المصور؛ فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارئ المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق.

فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى. وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس**»[1].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحشر

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٩٢) والحميدي في مسنده (٢/ ٢٧٢ رقم ٥٩٨) وأحمد (٢/ ١٧٩) والبخاري في الأدب (رقم ٥٥٧) وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٣).

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾.

(١) الكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون ربهم أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، كما قال الحنفاء: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥] وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى، لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك. وقال الفراء: لا تظهر علينا الكفار، فيروا أنهم على حق وأنا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم.

وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فتن كلا من الفريقين بالفريق الآخر، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾. فقال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

***

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

[(١)]إن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه، وكتبه على كل شيء؛ وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة، ولا ريب أن جعل الكفر بالله وتكذيب رسوله موجبًا وشرطًا في الاستحقاق من أعظم موالاة الكفار المنهي عنها، فلا يصح من المسلم، ولا يجوز للحاكم تنفيذه من أوقاف الكفار؛ فأما إذا وقفوا ذلك فيما بينهم، ولم يتحاكموا إلينا ولا استفتونا عن حكمه لم يتعرض لهم فيه، وحكمه حكم عقودهم و أنكحتهم الفاسدة.

وكذلك وقف المسلم عليهم فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم أو على أقاربه وبني فلان ونحوه، ولا يكون الكفر موجبًا وشرطًا في الاستحقاق ولا مانعًا منه..

... وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر فلا يصح من كافر ولا مسلم.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ

(١) ٣٠١ أحكام أهل الذمة جـ١.

تَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

[1]ذكر ابن أبي شيبة عن معتمر بن سليمان عن معمر عن الزهري: «إن أسلمت ولم يسلم زوجها، فهما على نكاحهما، إلا أن يفرق بينهما سلطان»[2] ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ، يسأل المرأة: هل انقضت عدتها أم لا؟

ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة لم يكن فرقة رجعية بل بائنة. فلا أثر للعدة في بقاء النكاح. وإنما أثرها في منع نكاحها للغير. فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة.

ولكن الذي دل عليه حكمه ﷺ: أن النكاح موقوف. فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت. وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح.ولا نعلم أحدًا جدد للإسلام نكاحه البتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما بقاؤهما عليه، وإن تأخر إسلامها أو إسلامه. وأما تنجيز الفرقة، أو مراعاة العدة: فلا نعلم أن رسول الله ﷺ، قضى بواحدة منهما، مع كثرة من أسلم في عهده من الرجال وأزواجهن، وقرب إسلام أحد الزوجين من الآخر، وبعده منه.

ولولا إقراره ﷺ، الزوجين علي نكاحهما ـ وإ تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية وزمن الفتح ـ لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام، ومن غير اعتبار عدة، لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنه: ١٠]. وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ

(١) ٢٨ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٠٧ رقم ١٨٣٢٣) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٧٢) والتمهيد (١٢/ ٢٨) وسبل السلام (٣/ ١٣٣).

بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وأن الإسلام سبب الفرقة. وكل ما كان سببًا للفرقة تعقبه الفرقة، كالرضاع والخلع والطلاق. وهذا اختيار الخلال وأبي بكر صاحبه، وابن المنذر، وابن حزم، وهو مذهب الحسن وطاوس وعكرمة وقتادة والحكم، قال ابن حزم: وهو قول عمر بن الخطاب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس. وبه قال حماد ابن زيد، والحكم بن عتيبة، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبدالعزيز، وعدي بن عدي الكندي، والشعبي وغيرهم. قلت: وهو أحد الروايتين عن أحمد.

ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. لم يحكم بتعجيل الفرقة. فروى مالك في موطئه عن ابن شهاب قال: «كان بين إسلام صفوان بن أمية وبين إسلام امرأته ـ فاختة ـ بنت الوليد بن المغيرة نحو من شهر[١]. أسلمت يوم الفتح.وبقي صفوان حتى شهد حنيناً والطائف، وهو كافر، ثم أسلم. ولم يفرق النبي ﷺ، بينهما، واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح» قال ابن عبد البر: وشهرة هذه الحديث أقوى من إسناده[٢].

وقال: ابن شهاب «أسلمت أم حكيم يوم الفتح، وهرب زوجها عكرمة، حتى أتى اليمن. فدعته إلى الإسلام فأسلم وقدم فبايع النبي ﷺ، فبقيا على نكاحهما»[٣]. ومن المعلوم يقينا: أن أبا سفيان بن حرب خرج فأسلم عام الفتح قبل دخول النبي ﷺ مكة ولم تسلم هند امرأته حتى فتح رسول الله مكة. فبقيا على نكاحهما[٤].

وأسلم حكيم بن حزام قبل امرأته. وخرج أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن

(١) أخرجه مالك (٢/ ٥٤٤ رقم ١١٣٣) وانظر: الاستذكار (٥/ ٥١٨) والتمهيد (١٢/ ١٩) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٠٣) والمغني (٧/ ١١٨).

(٢) انظر: التمهيد (١٢/ ١٩).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٧/ ١٨٧ رقم ١٣٨٤٢) وعبدالرزاق (٧/ ١٦٩-١٧٠ رقم ١٢٦٤٦) ومالك (٢/ ٥٤٥ رقم ١١٣٤) وانظر: التمهيد (١٢/ ٥٢) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٠٤).

(٤) انظر: فتح الباري (٩/ ٤٢١).

أبي أمية عام الفتح. فلقيا النبي ﷺ بالأبواء، فأسلما قبل منكوحتيهما فبقيا على نكاحهما ولم يعلم أن رسول الله ﷺ، فرق بين أحد ممن أسلم وبين امرأته.

وجواب من أجاب بتجديد نكاح من أسلم: في غاية البطلان. ومن القول على رسول الله ﷺ بلا علم. واتفاق الزوجين في التلفظ بكلمة الإسلام معًا في لحظة واحدة: معلوم الانتفاء.

ويلي هذا القول: مذهب من يقف الفرقة على انقضاء العدة مع ما فيه. إذ فيه آثار ـ وأن كانت منقطعة ـ ولو صحت لم يجز القول بغيرها. قال ابن شبرمة: «كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يسلم الرجل قبل المرأة، المرأة قبل الرجل، فأيهما أسلم قبل انقضاء عدة المرأة. فهي امرأته. وإن أسلم بعد العدة: فلا نكح بينهما»(١) وقد تقدم قول الترمذي في أول الفصل. وما حكاه ابن حزم عن عمر، فما أدرى من أين حكاه؟ والمعروف عنه: خلافه. فإنه ثبت عنه من طريق حماد بن سلمة عن أيوب وقتادة كلاهما عن ابن سيرين عن عبدالله بن يزيد الخطمي «أن نصرانيًا أسلمت امرأته، فخيرهما عمر بن الخطاب، إن شاءت فارقته، وإن شاءت أقامت عليه(٢)».

(٣)قال المعجلون للفرقة: قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: ١٠].

قالوا: فهذا حكم الله الذي لا يحل لأحد أن يخرج عنه، وقد حرم فيه رجوع

(١) انظر: المغني (٧/ ١١٨).

(٢) انظر: المحلى (٧/ ٣١٣) وفتح الباري (٩/ ٤٢١).

(٣) ٣٣٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

المؤمنة إلى الكافر، وصرح سبحانه بإباحة نكاحها؛ ولو كان في عصمة الزوج حتى يسلم في العدة أو بعدها لم يجز نكاحها، لاسيما والمهاجرة تستبرأ بحيضة. وهذا صريح في انقطاع العصمة بالهجرة.

وقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ صريح في أن المسلم مأمور ألا يمسك عصمة امرأته إذا لم تسلم، فصح أن ساعة وقوع الإسلام منه تنقطع عصمة الكافرة منه.وقوله تعالى: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ صريح في تحريم أحدهما على الآخر في كل وقت، فهذه أربعة أدلة من الآية؛ ودعونا من تلك المنقطعات والمراسيل والآثار المختلفة، ففي كتاب الله الشفاء والعصمة.

قال الآخرون: مرحبًا وأهلًا وسهلًا بكتاب الله، وسمعًا وطاعة لقول ربنا، ولكن تأولتم الآية على غير تأويلها، ووضعتموها على غير مواضعها، وليس فيها ما يقتضي تعجيل الفرقة إذا سبق أحدهما الآخر بإلغائها، ولا فهم هذا منها أحد قط من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من التابعين، ولا يدل على ما ذهبتم إليه أصلًا...

***

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

(١) قلت: وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ يضعف هذا القول جدًا، ويذهب إلى خروج البضع من ملكه متقوم ويحتج عليه بالقرآن.

قال: لأن الله تعالى أمر المسلمين أن يردوا إلى من ذهبت امرأته إلى الكفار مهره إذا أخذوا من الكفار مالًا بغنيمة أو غيرها، فقال تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ [الممتحنة: ١١] ومعنى عاقبتم: أصبتم منهم عقبى، وهي الغنيمة. هذا قول المفسرين، والمقصود أنه قال:

---

(١) ١٦٦ بدائع جـ٣.

﴿ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ وهو المهر.

وقال ـ تعالىٰ ـ في هذه القصة: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠] فأمر المسلمين أن يسألوا مهور نسائهم، ويسأل الكفار مهور نسائهم اللاتي هاجرن وأسلمن، ولولا أن خروج البضع متقوم لم يكن لأحد الفريقين علىٰ الآخر مهرًا.

واختلف أهل العلم في رد مهر من أسلم من النساء إلىٰ أزواجهن في هذه القصة: هل كان واجبًا أو مندوبًا علىٰ قولين أصلهما أن الصلح هل كان قد وقع علىٰ رد النساء أم لا؟

والصحيح أن الصلح كان عامًا علىٰ رد من جاء مسلمًا مطلقًا ولم يكن فيه تخصيص، بل وقع بصيغة (من) المتناولة للرجال والنساء، ثم أبطل الله منه رد النساء وعوض منه رد مهورهن، وهذه شبهة من قال: إن حكم هذه الآية منسوخ. ولم ينسخ منه إلا رد النساء خاصة، وكان رد المهور مأمورًا به.

والظاهر أنه كان واجبًا، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فثبت أن رد المهور حق لمن يسأله، فيجب رده إليه. قال الزهري: ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرد الصداق(١).

وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقر المسلمون بحكم الله تعالىٰ، وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين علىٰ نسائهم، وأبىٰ المشركون أن يقروا بحكم الله تعالىٰ فيما أمر من رد نفقات المسلمين إليهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ [الممتحنة: ١١].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ٧٤) وانظر: الدر المنثور (٨/ ١٠٣).

فهذا ظاهر القرآن يدل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم.

قلت: ويدل عليه أن الشارع كما جعله متقومًا في دخوله، فكذلك في خروجه، لأنه لم يدخله إلى ملك الزوج إلا بقيمة.وحكم الصحابة ﷺ في المفقود بما حكموا به من رد صداق امرأته إليه بعد دخول الثاني بها؛ دليل على أنه متقوم في خروجه وهذا ثابت عن خمسة من الصحابة منهم: عمر وعلي.

قال أحمد: أي شيء يذهب من خالفهم؟ فهذا القرآن والسنة وأقوال الخلفاء الراشدين دالة على تقويمه، ولو لم يكن له قيمة لما صح بذل نفائس الأموال فيه، بل قيمته عند الناس من أغلى القيم، ورغبتهم فيه من أقوى الرغبات، وخروجه عن ملك الرجل من أعظم المغارم حتى يعده غرمًا أعظم من غرم المال. قلت لشيخنا: لو كان خروجه من ملكه متقومًا عليه لكانت المرأة إذا وطئت بشبهة يكون المهر للزوج دونها، فحيث كان المهر لها دل على أن الزوج لم يملك البضع، وإنما يملك الاستمتاع، فإذاخرج البضع عنه لم يخرج عنه شيء كان مالكه.

فقال لي: الزوج إنما ملك البضع ليستمتع به، ولم يملكه ليعارض عليه، فإذا حصل لها بوطء الشبهة عوض كان لها، لأن عقد النكاح لم يقتض ملك الزوج المعاوضة عن بضع امرأته، فصار ما يحصل لها بجناية الواطئ بمثابة ما يحصل لها بغيره من أروش الجنايات.

قلت له: فما تقول في خلع المريض بدون مهر المثل؟ فقال: هو يملك إخراج البضع مجانًا بالطلاق، فإذا أخذ منها شيئًا فقد زاد الورثة خيرًا. قال: ونحن إنما منعناه من المحاباة فيما ينتقل إلى الورثة، لأنه يفوته عليهم،وبضع الزوجة لا حق للورثة فيه البتة، ولا ينتقل إليهم، فإذا أخرجه بدون مهر المثل لم يفوتهم حقًا ينتقل إليهم، انتهى.

قلت: وأما منع الأب من خلع ابنته بشيء من مالها فليست مسألة وفاق، بل فيها قولان مشهوران، ونحن إذا قلنا: إن الذي بيده عقدة النكاح هو الأب، وأن له أن يعفو عن صداق ابنته قبل الدخول، وهو الصحيح لبضعة عشر دليلًا قد ذكرتها في موضع

آخر، فكذلك خلعها بشيء من مالها، بل هو أولى لأنه إذا ملك إسقاط مالها مجانًا، فلأن يملك إسقاطه ليخلصها من رق الزوج وأسره، ويزوجها بمن هو خير لها منه أولى وأحرى. وهذه رواية عن أحمد ذكرها أبو الفرج في مبهجه وغيره، واختارها شيخنا. وأما قولكم: إنه يخرج من ملكه قهرًا بغير عوض فيما إذا طلق عليه الحاكم لإعسار أو عنت أو غيرها.

فجوابه: أن الشارع إنما ملكه البضع بالمعروف، وإنماملكه بحقه، فإذا لم يستمتع به بالمعروف الذي هو حقه أخرجه الشارع عنه، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].وقال: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. فأوجب الله على الزوج أحد الأمرين: إما أن يمسك بمعروف، وإما أن يسرح بإحسان، فإذا لم يمسك بمعروف ولم يسرح بإحسان سرح الحاكم عليه قهرًا.

قلت لشيخنا: فلو قتلت الزوجة لم يجب للزوج المهر على قاتلها مع كونه قد أخرج البضع عن ملكه وفوته إياه، فلو كان خروجه متقومًا لوجب له على القاتل المهر.

فقال: النكاح معقود على مدة الحياة، فإذا قتلت زال وقت النكاح وانقضى أمده، فلا يجب للزوج شيء بعد ذاك، كما لو ماتت. قلت له: فلو أفسد مفسد نكاحها بعد الدخول لأستقر المهر على الزوج، ولم يرجع على المفسد، فضعف هذا القول، وقال: عندي إنه يرجع به: وهو المنصوص عن أحمد، وهو مبني على هذا الأصل، فإذا ثبت أن خروج البضع من ملكه متقوم فله قيمته على من أخرجه من ملكه.

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

[(١)]قال: ذكر بعضهم أنه يجوز أن يقول: أنا مؤمن، ولا يقول أنا ولي. وفرق بينهما، فإن الله تعالىٰ أمر من ظهر منه الإيمان أن يسمىٰ مؤمنًا قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ ﴾ [الممتحنة: ١٠] الآية. ولم يأمر من ظهر منه ذلك أن يسمىٰ وليًّا، ولا فرق بينهما، فإن الله قد وصف الولي بصفة المؤمن فقال: ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وهذه صفة المؤمن، ثم لا يجوز أن يصف نفسه بأنه ولي، وكذلك المؤمن، ولأنه إنما يكون وليًا بتوليه لطاعات الله وقيامه بها كالمؤمن.

قلت: هذه حجة من منع قول القائل: أنا مؤمن بدون استثناء، كما لا يقول:أنا ولي. ومن فرق بينهما أجاب بأنه لا يمكنه العلم بأنه ولي، لأن الولاية هي القرب من الله ﷻ فولي الله هو القريب منه المختص به.

والولاء هو في اللغة القرب ولهذا علامات وأدلة وله أسباب وشروط وموجبات، وله موانع وآفات وقواطع، فلا يعلم العبد هل هو ولي الله أم لا.

وأما الإيمان فهو أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ويلتزم أداء فرائضه وترك محارمه، وهذا يمكن أن يعلمه من نفسه، بل ويعلمه غيره منه.

والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله ـ تعالىٰ ـ نوعان: عامة وخاصة، فالعامة ولاية كل مؤمن، فمن كان مؤمنًا لله تقيًا كا له وليًا، وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول: أنا ولي إن شاء الله. كما يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

والولاية الخاصة: إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه، مؤثر له علىٰ كل ما سواه في جميع حالاته، قد صارت مراضي الله ومحابه هي همه ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه، وإن سخط الخلق، فهذا إذا قال: أنا ولي الله كان صادقًا.

وقد ذهب المحققون في مسألة: أنا مؤمن إلىٰ هذا التفصيل بعينه، فقالوا له: أن يقول آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يقول: أنا مؤمن. لأن قوله أنا

---

(١) ١٠٦ بدائع جـ٣.

مؤمن يفيد الإيمان المطلق الكامل الآتي صاحبه بالواجبات التارك للمحرمات بخلاف قوله آمنت بالله. وفي الصحيحين عن عائشة قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ، يمتحنهن بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٢]. إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ، إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «**انطلقن فقد بايعتكن**» ولا والله ما مست يدُ رسول الله ﷺ، يد امرأة قط، غير أنه يبايعهن بالكلام، قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ، على النساء قط إلا بما أمره الله، وما مست كف رسول الله ﷺ، كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «**قد بايعتكن**»[(١)] كلامًا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الممتحنة

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٨٨) ومسلم (رقم ١٨٦٦) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٢٥).

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

(١)أما إزاغة القلوب: فقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال عن عباده المؤمنين أنه سألوه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وأصل الزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته وزيغه: ميله عن الهدىٰ إلىٰ الضلال. والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنىٰ، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلىٰ الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلىٰ هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلىٰ شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلىٰ الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم، وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلىٰ عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعبًا شغله ذلك عن ملاحظة ما سوىٰ المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

(٢)قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥] فعاقبهم ـ سبحانه ـ بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء.

---

(١) ١٠٠ شفاء.

(٢) ٩٩ مفتاح جـ١.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ولهذا قيل: من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه. ومن هنا قيل: لا رأي لصاحب هوى؛ فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله.

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [النساء: ١٥٥].

أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سببًا لطبع الله على قلوبهم ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥] حتى صارت غلفًا، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، وكل شيء في غلافه فهو أغلف، وجمعه غلف. يقال: سيف أغلف، وقوس غلفاء ورجل أغلف وأقلف إذا لم يختتن، والمعنى: قلوبنا عليها غشاوة وغطاء، فلا تفقه ما تقول يا محمد ﷺ، ولم يصنع شيئًا من قال: إن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة، أي أوعية لها، فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه:

أحدها: أن غلف جمع أغلف: كقلف وأقلف، وحمر وأحمر، وجرد وأجرد، وغلب وأغلب، ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف، هذا هو المعروف من اللغة.

الثاني: أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال: قلب فلان غلاف لكذا، وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه، ولا نظير له في القرآن فيحمل عليه، ولا هو من التشبيه البديع المستحسن، فلا يجوز حمل الآية عليه.

الثالث: أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥]، والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها، والأكنة: كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع، ومنه الكنانة لغلاف السهام.

الرابع: أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكروه، ولا يحسن مقابلته بقوله: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]. وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها، كما قيل لهم لما ادعوا ذلك: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سببًا لأن طبع على قلوبهم.

(١)فإن قيل: فالزيع الأول من فعلهم، وهو مخلوق لله فيهم على غير وجه الجزاء، وإلا تسلسل الأمر. قيل: بل الزيغ الأول وقع جزاء لهم وعقوبة على تركهم الإيمان والتصديق لما جاءهم من الهدى. وهذا الترك أمر عدمي لا يستدعي فاعلًا، فإن تأثير الفاعل إنما هو في الوجود لا في العدم. فإن قيل: فهذا الترك العدمي له سبب أو لا سبب له. قيل سببه عدم سبب ضده، فبقي على العدم الأصلي.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

(٢)...المقصود أن اسم النبي ﷺ، في التوراة (محمد) كما هو في القرآن: محمد. وأما المسيح فإنما سماه (أحمد) كماحكاه الله عنه في القرآن. فإذا تسميته بأحمد وقعت متأخرة عن تسميته محمدًا في التوراة ومتقدمة على تسميته محمدًا في القرآن فوقعت بين التسميتين محفوفة بهما.

وقد تقدم أن هذين الاسمين صفتان في الحقيقة والوصفية فيهما لا تنافي العلمية،

(١) ١٣٥ شفاء.
(٢) ١١٣ جلاء الأفهام.

وأن معناهما مقصود، فعرف عند كل أمة بأعرف الوصفين عندها، فمحمد مفعل من الحمد، وهو الكثير الخصال التي يحمد عليها حمدًا متكررًا حمدًا بعد حمد. وهذا إنما يعرف بعد العلم بخصال الخير وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والأوصاف والأفعال التي يستحق تكرار الحمد عليها.

ولا ريب أن بني إسرائيل هم أولو العلم الأول. والكتاب الذي قال الله فيه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ولهذا كانت أمة موسىٰ أوسع علومًا ومعرفة من أمة المسيح. ولهذا لا تتم شريعة المسيح إلا بالتوراة وأحكامها، فإن المسيح عليه السلام وأمته محالون في الأحكام عليها، والإنجيل كأنه مكمل لها متمم لمحاسنها، والقرآن جامع لمحاسن الكتابين.

فعرف النبي ﷺ عند هذه الأمة باسم محمد الذي قد جمع خصال الخير التي يستحق أن يحمد عليها حمدًا بعد حمد.

وعرف عند أمة المسيح بأحمد الذي يستحق أن يحمد أفضل مما يحمد غيره، والذي حمده أفضل من حمد غيره، فإن أمة المسيح أمة لهم من الرياضيات والأخلاق والعبادات ما ليس لأمة موسىٰ، ولهذا كان غالب كتابهم: مواعظ، وزهد، وأخلاق، وحض علىٰ الإحسان، والاحتمال، الصفح، حتىٰ قيل: إن الشرائع ثلاثة:

شريعة عدل، وهي شريعة التوراة فيها الحكم والقصاص.

وشريعة فضل، وهي شريعة الإنجيل مشتملة علىٰ العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان، كقوله: من أخذ رداءك فأعطه ثوبك، ومن لطمك علىٰ خدك الإيمان فأدر له خدك الأيسر[1]، ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين، ونحو ذلك.

وشريعة جمعت هذا وهذا؛ وهي شريعة القرآن، فإن يذكر العدل ويوجبه والفضل ويندب إليه، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).

﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فجاء اسمه عند هذه الأمة بأفعل التفضيل، الدال على الفضل والكمال، كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة، وجاء في الكتاب الجامع لمحاسن الكتب قبله بالاسمين معًا. فتدبر هذا الفضل وتبين ارتباط المعاني بأسمائها ومناسبتها لها، والحمد لله المان بفضله وتوفيقه..

وقول أبي القاسم: إن اسم محمد ﷺ إنما ترتب بعد ظهوره إلى الوجود، لأنه حينئذ حمد حمدًا مكررًا، فكذلك يقال في اسمه: أحمد أيضًا سواء، وقوله في اسمه أحمد: إنه تقدم لكونه أحمد الحامدين لربه، وهذا يقدم على حمد الخلائق له، فبناء منه على أنه تفضيل من فعل الفاعل، وأما على القول الآخر الصحيح فلا يجيء هذا. وقد تقدم تقرير ذلك والله ﷻ أعلم.

[1]...وموسى عليه السلام كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى (ﷺ) من أعظم خلق الله هيبة ووقارًا، وأشدهم بأسًا وغضبًا لله، وبطشًا بأعداء الله،وكان لا يستطاع النظر إليه.

وعيسى (ﷺ): كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته فضل وإحسان. وكان لا يقاتل، ولا يحارب. وليس في شريعته قتال البتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الإيمان فأدر له خدك الإيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلًا فامش معه ميلين» ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال، وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم. ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا (ﷺ): فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

ﷻ. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابًا له وفرضًا. وبالفضل ندبًا إليه واستحبابًا. وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى في موضعه. فيذكر الظلم ويحرمه. والعدل ويوجبه. والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهذا فضل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ عدل ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل. وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم، كما كمل نبيهم (ﷺ) من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار. كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سفرًا بل أسفارًا. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

[(١)]...وأما «أحمد» فهو أفعل التفضيل، أي هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محمودًا أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا: أي هذا أحق بأن يحمده من هذا، فيكون تفضيل على غيره في كونه محمودًا فلفظ «محمد» يقتضي زيادة في الكمية، ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية.

ومن الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمدًا لله من غيره، وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحماد، وعلى الأول بمعنى المحمود. وإن كان الفارقليط بمعنى الحمد فهو تسمية بالمصدر مبالغة في كثرة الحمد، كما يقال: رجل عدل ورضى ونظائر ذلك، وبهذا يظهر سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] فإن هذا هو معنى الفار قليط كما تقدم. وفي التوراة ما ترجمته بالعربية: «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاك: ها أنا قد باركت فيه، وأثمره، وأكبره بمأذ مأذ» هكذا هذه اللفظة «مأذ» على وزن عمر.

وقد اختلف فيها علماء أهل الكتاب فطائفة يقولون: معناها جدًا جدًا، أي كثيرًا كثيرًا، فإن كان هذا معناها فهو بشارة بمن عظم من بنيه كثيرًا كثيرًا، ومعلوم أنه لم يعظم من بنيه أكثر مما عظم من محمد (ﷺ).

وقالت طائفة أخرى: بل هي صريح اسم محمد، قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية فهي أقرب اللغات إلى العربية.

[(٢)]... وتأمل كيف اشتق للنبي (ﷺ) من وصفه اسمان مطابقان لمعناه، وهما «أحمد، ومحمد»، فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة «محمد» ولشرفها وفضلها على صفات غيره «أحمد» فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد.

[(٣)]فصل في أنه لو لم يظهر محمد بن عبدالله (ﷺ) لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور

---

(١) ٦١ هداية الحيارى.

(٢) ١٨ هداية الحيارى.

(٣) ١٥٩ هداية الحيارى.

نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ٣٧] فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه؛ فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، فكأن مجيئه تصديقًا لهم، إذ هو تأويل ما أخبروا به، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله.

ومثل هذا قول المسيح: ﴿ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقًا لها.

ثم بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقًا له، كما كان ظهوره تصديقًا للتوراة فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، فلو لم يظهر محمد بن عبدالله ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله، والله ـ سبحانه ـ لا يخلف وعده ولا يكذب خبره.

وقد كان بشر إبراهيم وهاجر بشارات بينات، ولم نرها تمت ولا ظهرت إلا بظهور رسول الله (ﷺ)، فقد بشرت هاجر من ذلك بما لم تبشر به امرأة من العالمين غير مريم ابنة عمران بالمسيح على أن مريم بشرت به مرة واحدة، وبشرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبشر به إبراهيم مرارًا.

ثم ذكر الله سبحانه هاجر بعد وفاتها كالمخاطب لها على ألسنة الأنبياء، ففي التوراة «إن الله تعالى قال لإبراهيم: قد أجبت دعاءك في إسماعيل، وباركت عليه، وكبرته وعظمته» هكذا في ترجمة بعض المترجمين. وأما في الترجمة التي ترجمها اثنان وسبعون حبرًا من أحبار اليهود فإنه يقول: «وسيلد اثني عشر أمة من الأمم».

وفيها «لما هربت هاجر من سارة تراءى لها ملك الله، وقال يا هاجر! أمة سارة من أين أقبلت وإلى أين تذهبين؟! قالت: هربت من سيدتي، فقال لها الملك: ارجعي إلى

سيدتك، واخضعي لها، فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا تسميه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع بذلك خشوعك، وهو يكون عين الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته».

وفي موضع آخر قصة إسكانها وابنها إسماعيل في برية فاران.

وفيها: «فقال لها الملك: يا هاجر! ليفرح روعك، فقد سمع الله تعالى صوت الصبي، قومي فاحمليه، وتمسكي به، فإن الله جاعله لأمة عظيمة، وأن الله فتح عليها، فإذا ببئر ماء، فذهبت، وملأت المزادة منه وسقت الصبي منه، فكان الله معهما ومع الصبي حتى تربى، كان مسكنه في برية فاران. فهذه أربع بشارات خالصة لأم إسماعيل نزلت اثنتان منها على إبراهيم، واثنتان على هاجر.

[(١)]... وفي التوراة أيضًا بشارات أخر بإسماعيل وولده، وأنهم أمة عظيمة جدًّا، وأن نجوم السماء تحصى ولا يحصون، وهذه البشارة إنما تمت بظهور محمد بن عبدالله وأمته. فإن «بني إسحاق» كانوا لم يزالوا مطروين مشردين خولًا للفراعنة والقبط، حتى أنقذهم الله بنبيه وكليمه موسى بن عمران، وأورثتهم أرض الشام، فكانت كرسي مملكتهم، ثم سلبهم ذلك، وقطعهم في الأرض أممًا، مسلوبًا عزهم وملكهم: قد أخذتهم سيوف السودان، وعلتهم أعلاج الحمران حتى إذا ظهر النبي (ﷺ) تمت تلك النبوات، وظهرت تلك البشارات بعد دهر طويل وعلت بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشمًا، وطحنوهم طحنًا، وانشروا في آفاق الدنيا، ومدت الأمم أيديهم إليهم بالذل والخضوع، وعلوهم علو الثريا فيما بين الهند والحبشة والسوس والأقصى وبلاد الترك والصقالبة والخزر، وملكوا ما بين الخافقين، وحيث ملتقى أمواج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على ألسنة الأمم، فليس صبي من بعد ظهور النبي

---

(١) ١٦١ هداية الحيارى.

(ﷺ) ولا امرأة ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى إلا هو يعرف إبراهيم وآل إبراهيم.

وأما «النصرانية» وإن كانت قد ظهرت في أمم كثيرة جليلة، فإنه لم يكن لهم في محل إسماعيل وأمه هاجر سلطان ظاهر ولا عز قاهر البتة، ولا صارت أيدي هذه الأمة فوق أيدي الجميع، ولا امتدت إليهم أيدي الأمم بالخضوع، وكذلك سائر ما تقدم من البشارات التي تفيد بمجموعها العلم القطعي بأن المراد بها محمد بن عبدالله (ﷺ) وأمته، فإنه لو لم يقع تأويلها بظهوره (ﷺ) لبطلت تلك النبوات.

ولهذا لما علم الكفار من أهل الكتاب أنه لا يمكن الإيمان بالأنبياء المتقدمين إلا بالإيمان بالنبي الذي بشروا به قالوا نحن في انتظاره ولم يجئ بعد.

ولما علم بعض الغلاة في كفره وتكذيبه منهم أن هذا النبي في ولد إسماعيل أنكروا أن يكون لإبراهيم ولد اسمه إسماعيل، وأن هذا لم يخلقه الله، ولا يكثر على أمة البهت وإخوان القرود وقتلة الأنبياء مثل ذلك، كما لم يكثر على المثلثة عباد الصليب الذين سبوا رب العالمين أعظم مسبة أن يطعنوا في ديننا وينتقصوا نبينا (ﷺ). ونحن نبين أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا للمسيح فضيلة ولا نبوة ولا آية ولا معجزة إلا بإقرارهم أن محمدًا رسول الله؛ وإلا فمع تكذيبه لا يمكن أن يثبت للمسيح شيء من ذلك البتة.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ﴾.

(1) تشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم، فقال: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾

(١) ٣٥٥ طريق الهجرتين.

فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها. فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١] يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة.

فكأنها قالت: فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ - مع المغفرة - ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢]. فكأنها قالت: هذه في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣] فلله ما أحلى هذه الألفاظ! وما ألصقها بالقلوب! وما أعظمها جذبًا لها وتسييرًا إلى ربها! وما ألطف موقعها من قلب كل محب! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها! فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم.

(١) ولما علم سبحانه أن آدم ونبيه قد بلوا بهذا العدو وسلط عليهم؛ أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، أمد عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلى الآخرة: كنفس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون،وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي: التوراة والإنجيل، والقرآن، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو، وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا، وأي تجارة أربح منه؟! ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ

(١) ١٢٨ الجواب الكافي.

نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠-١٣] ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم إليه وسيلة.

(١)...وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة. فتاجروا أيها المفلسون، ويا من لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة: ١١٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠، ١١] والمقصود أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصف

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٤٢ الجواب الكافي.

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾.

(1)لما كانت الأيام متماثلة لا يتميز يوم من يوم بصفة نفسية ولا معنوية لم يبق تمييزها إلا بالأعداد، ولذلك جعلوا أسماء أيام الأسبوع مأخوذة من العدد نحو الاثنين والثلاثاء والأربعاء. أو بالأحداث الواقعة فيها: كيوم بعاث، ويوم بدر، ويوم الفتح، ومنه يوم الجمعة. وفيه قولان: أحدهما لاجتماع الناس فيه للصلاة، والثاني وهو الصحيح: لأنه اليوم الذي جمع فيه الخلق وكمل، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين لفصل القضاء.

وأما يوم السبت فمن القطع، كما تشعر به هذه المادة، ومن السبات لانقطاع الحيوان فيه عن التحرك والمعاش. والنعال السبتية التي قطع عنها الشعر، وعلة السبات التي تقطع العليل عن الحركة والنطق، ولم يكن يومًا من أيام تخليق العالم، بل ابتداء أيام التخليق الأحد وخاتمتها الجمعة، هذا أصح القولين، وعليه يدل القرآن وإجماع الأمة: على أن أيام تخليق العالم ستة، فلو كان أولها السبت لكان سبعة.

وأما حديث أبي هريرة الذين رواه مسلم في صحيحه: خلق الله التربة يوم السبت[2] فقد ذكر البخاري في تاريخه: أنه حديث معلول، وأن الصحيح أنه قول كعب[3]، وهو كما ذكر لأنه يتضمن أن أيام التخليق سبعة، والقرآن يرده. واعلم أن معرفة أيام الأسبوع لا يعرف بحس ولا عقل ولا وضع يتميز به الأسبوع عن غيره، وأنما يعلم بالشرع، ولهذا لا يعرف أيام الأسبوع إلا أهل الشرائع، ومن تلقى ذلك عنهم وجاورهم. وأما

---

(١) ٨٤ بدائع جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٨٩).

(٣) انظر: التاريخ الكبير (١/ ٤١٣) وليس في نسختي عبارة: أنه حديث معلول.

الأمم الذين لا يدينون بشريعة ولا كتاب فلا يتميز الأسبوع عندهم من غيره ولا أيامه بعضها من بعض، وهذا بخلاف معرفة الشهر والعام، فإنه بأمر محسوس.

فائدة: في اليوم وأمس وغد، وسبب اختصاص كل لفظ بمعناه. اعلم أن أقرب الأيام إليك يومك الذي أنت فيه، فيقال: فعلت اليوم، فذكر الاسم العام، ثم عرف بأداة العهد، ولا شيء أعرف من يومك الحاضر فانصرف إليه، ونظيره الآن من آن والساعة من ساعة. وأما أمس وغد، فلما كان كل واحد منهما متصلًا بيومك اشتق له اسم من أقرب ساعة إليه فاشتق اليوم الماضي أمس الملاقي للمساء وهو أقرب إلى يومك من صباحه أعني صباح غد، فقالوا: أمس. وكذلك غد اشتق الاسم من الغدو وهو أقرب إلى يومك من مسائه أعني: مساء غد..

[1]وذكر أيضًا عن ابن عباس قال: ما من يوم إلا وليلته قبله إلا يوم عرفة، فإن ليلته بعده. قلت: هذا ما اختلف فيه. وحكي عن طائفة أن ليلة اليوم بعده. والمعروف عند الناس أن ليلة اليوم قبله، ومنهم من فصل بين الليلة المضافة إلى اليوم: كليلة الجمعة والسبت والأحد وسائر الأيام، والليلة المضافة إلى مكان أو حال أو فعل: كليلة عرفة وليلة النفر، ونحو ذلك. فالمضافة إلى اليوم قبله، والمضافة إلى غيره بعده، واحتجوا له بهذا الأثر المروي عن ابن عباس، ونقض عليهم بليلة العيد، والذي فهمه الناس قديمًا وحديثًا من قول النبي ﷺ: «**لا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، ولا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي**»[2] أنها الليلة التي تسفر صبيحتها عن يوم الجمعة، فإن الناس يسارعون إلى تعظيمها وكثرة التعبد فيها عن سائر الليالي، فنهاهم ﷺ عن تخصيصها بالقيام، كما نهاهم عن تخصيص يومها بالصيام، والله أعلم.

---

(١) ١٩٤ بدائع جـ٣.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ٣٧٧ رقم ٣٦١٣) وابن خزيمة (٢/ ١٩٨ رقم ١١٧٦) والحاكم (١/ ٤٥٥ رقم ١١٧٢) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٠٣ رقم ٩٢٥٤) والبزار (٦/ ٥٠٣ رقم ٢٥٤٢) والمحاملي في آماليه (رقم ٤١٢) وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٠٥).

(١)وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختص بها من غيره. وقد اختلف العلماء: هل هو أفضل من يوم عرفة؟ علىٰ قولين، هما وجهان لأصحاب الشافعي.وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي (الّمٓ تنزيل) و(هل أتىٰ علىٰ الإنسان) ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد: تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة، ويسمونها سجدة الجمعة. وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحب قراءة سورة أخرىٰ فيها سجدة. ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة علىٰ قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعًا لتوهم الجاهلين.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة، لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا علىٰ خلق ـ آدم عليه السلام ـ وعلىٰ ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة. وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعًا، ليست مقصودة، حتىٰ يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت. فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.

الخاصية الثانية: استحباب كثرة الصلاة علىٰ النبي ﷺ، فيه وفي ليلته، لقوله ﷺ: «أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة»(٢). ورسول الله ﷺ، سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرىٰ، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته علىٰ يده، فجمع الله لأمته به بين خيري الدنيا والآخرة، فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلىٰ منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم الله تعالىٰ بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلىٰ يده ﷺ. فمن شكره وحمده وأداء

---

(١) ٢٠٦ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٣٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٢٤٩ رقم ٥٧٩٠) وفي الشعب (٣/ ١١٠ رقم ٣٠٣٠) والشافعي في المسند (ص ٧٠) وفي الأم (١/ ٢٠٨) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٣ رقم ٨٧٠٠).

القليل من حقه ﷺ: أن تكثر من الصلاة عليه، في هذا اليوم وليلته.

الخاصية الثالثة: صلاة الجمعة التي هي من آكد فروض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وهي أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه، سوىٰ مجمع عرفة، ومن تركها تهاونًا بها طبع الله علىٰ قلبه، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلىٰ الزيادة يوم المزيد، بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

الخاصية الرابعة: الأمر بالاغتسال في يومها، وهو أمر مؤكد جدًّا، ووجوبه أقوىٰ من وجوب الوتر، وقراءة البسملة في الصلاة، ووجوب الوضوء من مس النساء، ووجوب الوضوء من مس الذكر، ووجوب الوضوء من القهقهة في الصلاة، ووجب الوضوء من الرعاف والحجامة والقيء، ووجوب الصلاة علي النبي ﷺ، في التشهد الأخير، ووجوب القراءة علىٰ المأموم. وللناس في وجوبه ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلىٰ إزالتها، فيجب عليه، ومن هو مستغن عنه، فيستحب له. والثلاثة لأصحاب أحمد[(١)].

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ ﴾.

[(٢)]... تزكية النفوس مسلم إلىٰ الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها علىٰ أيديهم: دعوة وتعليمًا، وبيانًا، وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ

---

(١) ذكر المؤلف رحمه الله في خواص يوم الجمعة وأحكامها قرابة ثلاث كراسات. (ج).

(٢) ٣١٥ مدارج جـ٢.

﴿ ... ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل: فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيًّا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبيًّا بالتخلق والتكلف. حتى يصير له سجية وملكة وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس ﷺ: «**إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والإناة**». فقال: أخلقين تخلقت بهما. أم جبلني الله عليهما؟ فقال: «**بل جبلك الله عليهما**». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله[1]. فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب. وكان النبي ﷺ، يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»[2] فذكر الكسب والقدر، والله أعلم.

[3]قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤]. فالأولون هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ، وصحبوه، والآخرون هم الذين لم يلحقوهم، وهم كل من بعدهم على مناهجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق بهم في

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٥٩) وشرح النووي (١/ ١٨٩).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٥٦) وشرح النووي (٦/ ٥٨).
(٣) ٣٦ التبوكية طبعة دار المدني.

الزمان، وفي الآية قول آخر: لما يحلقوا بهم في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة: والقولان كالمتلازمين، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان. فهؤلاء الصنفان هم السعداء. وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله، ولم يرفع به رأسًا، فهو من الصنف الثالث، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

(١)﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤] يعني: وبعث في آخرين منهم لما يحلقوا بهم. وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي، فقيل: هو اللحاق في الزمان. أي يتأخر زمانهم عنهم. وقيل: هو اللحاق في الفضل والسبق، وعلى التقديرين، فامتن عليهم ـ سبحانه ـ بأن علمهم بعد الجهل، هداهم بعد الضلالة، ويالها من منه عظيمة فاتت المنن، وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن.

***

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

(٢)فقاس من حمَّله ـ سبحانه ـ كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم لا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه، كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا؛ فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته.

(٣)قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ الغرض تشبه حال اليهود في جهلها بما

---

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

(٢) ١٦٥ أعلام جـ١.

(٣) ٢٧ اجتماع الجيوش الإسلامية.

معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

(١)... وكان إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به، ثم رجع إلى خطبته، وكان يخطب، فجاء الحسن والحسين يتعثران في قميصين أحمرين، فقطع كلامه، فنزل فحملهما، ثم عاد إلى منبره، ثم قال: «صدق الله العظيم ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] رأيت هذين يتعثران في قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما»(٢). وجاء سليك الغطفاني، وهو يخطب، فجلس فقال له: «قم يا سليك فاركع ركعتين، وتجوز فيهما» ثم قال: وهو على المنبر: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين، وليتجوز فيهما»(٣) وكان يقصر خطبته أحيانًا ويطيلها أحيانًا بحسب حاجة الناس. وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحرضهن على الصدقة، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجمعة

والحمد لله رب العالمين



(١) ٩٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٥٣٥ رقم ١٧٣١) وفي المجتبى (١٤١٣، ١٥٨٥) وابن حبان (١٣/ ٤٠٢ رقم ٦٠٣٨) وابن خزيمة (٢/ ٣٥٥ رقم ١٤٥٦) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٨ رقم ٥٦١٠) والترمذي (رقم ٣٧٧٤) وحسنه. وقال ابن عبدالهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٨١): إسناد هذا الحديث على شرط مسلم.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٨٧٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٠٧-٤١٢) وشرح النووي (٦/ ١٦٤).

الفهرس

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ غَافِرٍ

٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾.

١٠ بحث في وقاية السيئات وكيف تكون.

١٢ إن المعاصي سبب لحرمان العاصي من دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة.

١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ﴾.

١٤ بحث في جواز السؤال عن الله بـ «أين»؟ والرد على الجهمية.

١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

١٧ رؤساء الكفر وأئمته وأن عذابهم مضاعف.

١٩ طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم.

٢١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا ﴾.

٢٤ بحث في منزلة التذكر والتفكر.

٢٥ بحث في التبصرة والتذكرة.

٢٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾.

٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾.

٢٨ بحث في أن أول ذنب عُصي الله به من أبوي الثقلين: الكبر والحرص.

٢٩ فصل في الفرق بين المهابة والكبر.

٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ فُصِّلَتْ

٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾.
٣٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.
٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾.
٣٥ بحث في اختلاف الناس في هل السماء أشرف أم الأرض؟
٣٧ بحث في هداية البيان والدلالة التي أقام الله بها الحجة على العباد.
٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا ﴾.
٣٩ بحث في أن العبد لا يستقر له قدم في المعرفة والإيمان حتى يؤمن بصفات الرب سبحانه.
٤١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.
٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾.
٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾.
٤٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الآيات.
٤٨ بحث في أن باعث الدين له مع باعث الهوى ثلاثة أحوال.
٥٢ بثح في أين محل الأرواح بعد الموت.
٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾.
٥٧ بحث في أن الرسل كلهم أرسلوا بالسدعوة إلى الله، وبيان الطريق، وبيان حال المدعوين بعد الوصول.
٥٩ بحث في أن صفات الرب شواهد وضعت على طريق السالكين لتدلهم وتنير لهم السبل.
٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾.

الصفحة الموضوع

٦١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.
٦٤ فصل في سيرته ﷺ في أوليائه وحزبه.
٦٦ فصل فيما يقوله ويفعله من اشتد غضبه.
٦٧ فصل ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب الآيات.
٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾.
٦٩ بحث في الحياء وأنه من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها وأكثرها نفعًا.
٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾.
٧١ بحث في اسمه تعالى (المؤمن).
٧١ بحث في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.
٧٤ بحث في أن الرب تعالى يدعو عباده إلى معرفته من طريقين.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

٧٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.
٧٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.
٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾.
٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.
٨٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا... ﴾.
٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾.
٨٤ في توحيد الدين واختلاف شرائع الأعمال.
٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾.

الصفحة الموضوع

٨٦ بحث في الفرق بين الحجج والبينات.

٨٦ بحث في أن العبد دائمًا متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل.

٨٧ بحث في أخذ الأجرة على قراءة القرآن وغيره من الطاعات، هل يجوز أم لا؟

٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾.

٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾.

٩٠ بحث في الأموال التي يأخذها القضاة.

٩٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾.

٩٤ فصل في الأسباب المعينة على الصبر على البلاء.

٩٧ فصل في الصبر على الطاعة.

٩٨ فصل فيما يصيب العبد من أذى الخلق وجنايتهم عليه.

١٠٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

١٠٣ فصل في القصاص في اللطمة والضربة وقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾.

١٠٥ فصل في الفرق بين العفو والذل.

١٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا ﴾ الآية.

١٠٩ بحث في سبب الإذكار والإيناث.

١١٣ بحث في أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية وفضل من يعول الجارية.

١١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾.

١١٦ بحث في أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

١١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.

١١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴾.

١١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴾ الآيات.

١١٩ فصل في الحكمة في إعطاء الله سبحانه وتعالى الأبصار والأسماء لبهيمة الأنعام.

١٢٠ فصل في هديه ﷺ في سفره وعبادته فيه.

١٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

١٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

١٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ ﴾.

١٢٦ بحث في اتكال بعض المغرورين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا.

١٢٨ فائدة جليلة فيمن يصبح ويمسي ولا يكون همه إلا الله تعالى.

١٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾.

١٣١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾.

١٣١ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾.

١٣٢ بحث في الخلطة وما ينفع فيها وما يضر.

١٣٣ بحث في أن الله سبحانه خلق الخلق لدار القرار.

الصفحة الموضوع

١٣٤ بحث في ذكر آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها وقوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

١٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

سُورَةُ الدُّخَانِ

١٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾.

١٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾.

١٤١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾.

١٤٣ بحث في أن الحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده بلا شريك.

١٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

١٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

١٤٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

١٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

١٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

١٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾.

١٥٠ بحث في [أم] المسبوقة بهمزة استفهام أو مجردة عن الاستفهام اللفظي.

١٥٢ بحث في [الواو] التي تأتي بمعنى [رُبَّ].

١٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾.

١٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾.

١٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾.

١٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

الصفحة المــوضــوع

سُورَةُ الأَحْقَافِ

١٥٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.
١٥٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾.
١٦١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾.
١٦٢ بحث في أقصى مدة الحمل.
١٦٥ بحث في تفاوت الناس في الفهم.
١٦٦ بحث في دعوة الله سبحانه الإنسان إلى النظر في مبدأ خلقه وتمامه.
١٦٧ فصل في زعم بعض الطوائف في أن الإنسان يعطى السمع والبصر بعد الولادة والرد على ذلك.
١٦٨ بحث فيمن بلغ الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج.
١٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم ﴾.
١٦٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ ﴾.
١٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.
١٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ ﴾.
١٧٢ بحث في خروج النبي ﷺ إلى الطائف بعد ما اشتد عليه أذى الكفار.
١٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

١٧٦ بحث في تسمية النبي ﷺ باسم محمد.
١٧٩ بحث في أن إرسال النبي ﷺ رحمةً للعالمين وأن الكل حصل له النفع برسالته.
١٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

الصفحة الموضوع
١٨٢ بحث في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.
١٨٣ فصل في أنه ليس للعبد شيء أنفع من الصدق مع الله في جميع الأمور.
١٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾.
١٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾.
١٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.
١٨٨ بحث في جواز أن الله يهدي بعد الضلال ويعلم بعد الجهل ويرشد بعد الغي.
١٨٨ الرد على القدرية والجبرية الذي قالوا بعدم قدرة الرب على ذلك أو أن الله إذا قدر شيئًا لا يغيره.
١٩٠ فصل في أن الله لا يعاقب بالختم والطبع إلا إذا تكرر العناد والإعراض من العبد.
١٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.
١٩١ الفراسة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين.
١٩٢ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.
١٩٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم﴾.

سُورَةُ الفَتْحِ

١٩٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الآيات.
١٩٦ فصل في الصلح الذي جرى بين المسلمين وأهل مكة.
١٩٧ فصل في بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية بتوسع.
٢٠٥ فصل في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة.
٢٠٦ بحث في أن الله سبحانه وصف النصر بأنه «عزيز».
٢٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

الصفحة الموضـوع
٢١٠ فصل في الإشارة إلى ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف.
٢١٢ بحث في الصراط المستقيم والهداية إليه.
٢١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾.
٢١٧ بحث في إن أعظم الذنوب إساءة الظن بالله.
٢١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزًا حكيمًا﴾.
٢١٩ بحث في السكينة وحقيقتها وتفاصيلها وأقسامها.
٢١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾.
٢٢١ فصل في أن السكينة عند القيام بوظائف العبودية تورث الخضوع والخشوع وجمعية القلب على الله.
٢٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾.
٢٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾.
٢٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.
٢٢٦ فصل في أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد.
٢٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

٢٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.
٢٢٩ بحث في الأدب مع الرسول ﷺ.
٢٣١ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾.
٢٣٢ بحث في الأدب مع الخلق وهو معاملتهم على حسب اختلاف مراتبهم بما يليق بهم.
٢٣٣ فصل في السرايا والبعوث في سنة تسع.

الصفحة الموضوع
٢٣٥ فصل في قدوم وفد بني تميم المسجد وندائهم رسول الله ﷺ.
٢٣٦ فصل في معنى الفسوق بتوسع.
٢٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾.
٢٤٠ بحث في أن التوفيق هو أن يفعل الله بعبده ما يصلح به شأنه.
٢٤١ بحث في نظر العبد كيف يكون عندما يكون مقترفًا للذنب.
٢٤٣ بحث في أن عمل الحسنات من إحسان الله على العبد وتفضيله عليه.
٢٤٤ بحث في أن الحقوق نوعان: حق الله، حق الآدمي.
٢٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾.
٢٤٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.
٢٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾.
٢٤٧ بحث في الغيبة.
٢٤٩ بحث في الفرق بين النصيحة والغيبة.
٢٥٠ فصل في حكمه ﷺ في الكفاءة في النكاح.
٢٥١ بحث في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر.
٢٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾.
٢٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾.
٢٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾.
٢٥٦ فصل في قدوم وفد بني أسد.
٢٥٦ بحث في تمييز النعمة من الفتنة.

سُورَةُ قٓ

٢٥٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾.
٢٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾.

الصفحة الموضـــوع

٢٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾.
٢٦١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾.
٢٦١ بحث في قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.
٢٦٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾.
٢٦٣ بحث في قرب الرب تعالى من داعيه بالإجابة ومن مطيعه بالإثابة.
٢٦٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.
٢٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.
٢٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.
٢٦٧ بحث في أن سورة قٓ قد جمعت من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني.
٢٦٨ بحث في أن الله سبحانه يعيد جسد الإنسان بعينه الذي أطاع وعصى.
٢٧١ بحث في تقرير وإثبات براهين وأدلة المعاد وأنها مبنية على ثلاثة أصول.
٢٧٣ بحث في تقرير وإثبات القيامة الصغرى وهي سكرة الموت وأنها تجيء بالحق.
٢٧٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾.
٢٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾.
٢٧٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

٢٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾.
٢٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾.

الصفحة الموضوع
٢٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ ﴾ .
٢٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ .
٢٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ .
٢٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ و﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾.
٢٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾.
٢٩٢ بحث في أن الدين كله استكثار من الطاعات وأحب الخلق إلى الله أكثرهم طاعة.
٢٩٣ بحث في الحكمة من خلق الأرض بصورتها التي هي عليها الآن وبعض الآيات فيها.
٢٩٨ بحث في الدعوة إلى النظر في الأنفس وهو بحث نفيس.
٣٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾.
٣٠٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾.
٣٠٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾.
٣٠٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾.
٣٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾.
٣٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.
٣١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.
٣١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.
٣١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ بتوسع.

سُورَةُ الطُّورِ

٣١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾.
٣٢٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ .
٣٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

الصفحة الموضوع

٣٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.
٣٢٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾.
٣٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾.
٣٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾.
٣٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾.
٣٢٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾.
٣٣٠ فصل في ارتقاء العبد وهو في الجنة من درجة من درجة إلى درجة أعلى منها.
٣٣٤ فصل في إلحاق ذرية المؤمن به في الدرجة وإن لم يعملوا عمله.
٣٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾.
٣٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾.
٣٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾.
٣٣٩ بحث في ارتفاع العبادات في الجنة إلا عبادة الذكر.
٣٤٠ بحث في تذاكر أهل الجنة ما كان بينهم في دار الدنيا.
٣٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾.
٣٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾.

سُورَةُ النَّجْمِ

٢٤٥ عود على مبحث قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾.
٣٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾.
٣٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾.
٣٥٠ فصل في تصديق فؤاده ﷺ لما رأته عيناه.
٣٥١ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾.

الصفحة الموضوع
٣٥٢ فصل في رؤية رسول الله ﷺ لجبريل ﷺ مرة أخرى عند سدرة المنتهى.
٣٥٣ بحث في رؤية الله ﷻ.
٣٥٤ بحث في اختلاف الصحابة في: هل رأى رسول الله ﷺ ربه ﷻ أم لا؟
٣٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.
٣٥٩ بحث في الاستطراد وهو أسلوب لطيف جدًّا في القرآن وهو نوعان.
٣٦٠ بحث في أن إسراء النبي ﷺ كان بجسده على الصحيح.
٣٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.
٣٦٦ بحث في أدب رسول الله ﷺ إذ وصفه ربه بقوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.
٣٦٩ بحث في أن الله سبحانه سمى الحجة العلمية سلطانًا.
٣٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾.
٣٧١ بحث في حقيقة اللمم.
٣٧٦ بحث في الكبائر واختلاف السلف في تعريفهم للكبائر وإن كانت أقوالهم متقاربة.
٣٧٨ بحث في انتفاع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟
٣٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾.
٣٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾.
٣٨٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾.

سُورَةُ القَمَرِ

٣٨٧ حد العلم النافع هو معرفة ما جاء به الرسول وتصديقه وطاعته.
٣٨٧ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.
٣٨٨ بحث في معنى الاصطبار وقوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾.
٣٨٩ تفسير قوله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾.

الصفحة الموضوع
٣٨٩ فصل في أن حظ أعداء الله: الضلال والشقاء. وحظ أوليائه الهدى والفلاح.
٣٨٩ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾.
٣٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾.
٣٩٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾.
٣٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾.

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

٣٩٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝﴾.
٣٩٨ بحث في صلة الأرحام.
٣٩٩ بحث في الحكمة من خلق ورق الشجر.
٤٠١ بحث في ورود المشرق والمغرب في القرآن مفردًا ومثنى وجمعاً.
٤٠٣ بحث في معنى الفناء وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾.
٤٠٤ بحث في هل الروح تموت أم الموت للبدن وحده؟
٤٠٥ بحث في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾.
٤٠٨ بحث في عدد الجنات وأنها جنتان من ذهب وجنتان من فضة.
٤٠٩ بحث في تفضيل الجنتين اللتين من ذهب على اللتين من فضة من عشرة أوجه.
٤١١ بحث في فرش الجنة.
٤١٣ بحث في الإحسان وأنه من منازل ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾.
٤١٤ تفسير قوله تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾.
٤١٦ بحث في وصف الحور وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾.

الصفحة الموضوع
٤١٧ بحث في ذكر خيام أهل الجنة وسررهم وأرائكم وبشخاناتهم.
٤٢٠ تفسير قوله تعالى: ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

٤٢٤ بحث في ذكر أصناف بني آدم: سعيدهم وشقيهم.
٤٢٥ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾.
٤٢٧ فصل في وصف طلح الجنة.
٤٢٩ بحث في أن أكثر أهل الجنة هم أمة محمد ﷺ.
٤٣٠ تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾.
٤٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾.
٤٣٤ بحث في الحكمة من خلق النار على ما هي عليه.
٤٣٥ تفسير قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾.
٤٣٦ عود على ذكر الحكمة من خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور.
٤٣٦ بحث في الحكمة من أن الإنسان اختص بالمنفعة بالنار دون غيره من الحيوانات.
٤٣٧ بحث في أنه سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته.
٤٣٨ تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.
٤٣٩ تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ وبعض الصور من الجمل الاعتراضية البليغة.
٤٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ و﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾.
٤٤٧ بحث في أنه لا يدرك معاني القرآن ولا يفقهه ولا يفهمه إلا طاهر القلب.
٤٤٨ تفسير قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

الصفحة الموضـــوع

٤٥٢ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.
٤٥٦ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.
٤٥٩ بحث في حياة الأرواح بعد مفارقتها للأبدان وخلاصها من سجن الأجسام.
٤٦٠ عود علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾.
٤٦١ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.
٤٦١ فصل في بيان أحوال الناس عند القيامة الصغرىٰ وبلوغ الروح الحلقوم.
٤٦١ بحث في تقسيم الناس إلىٰ ثلاث طبقات: مقربين، وأصحاب يمين، ومكذبين.

سُورَةُ الحَدِيدِ

٤٦٤ بحث في حروف العطف.
٤٦٦ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.
٤٦٦ بحث في حقيقة المعية وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.
٤٦٩ بحث في الحكمة في مقادير الليل والنهار.
٤٦٩ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.
٤٧٠ بحث في إرسال الأمانة والرحم علىٰ جنبي الصراط.
٤٧١ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.
٤٧١ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.
٤٧٣ تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾.
٤٧٤ بحث في الشهداء وأجرهم ونورهم.
٤٧٥ بحث في فضيلة العلم وأجر العلماء.

الصفحة الموضوع

٤٧٧ بحث في ثناء الله على أصحاب الإنفاق والجهاد وفك الرقاب وغير ذلك من عمل الخير.
٤٨٢ بحث في الزهد وفضيلته.
٤٨٢ تفسير قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ﴾.
٤٨٥ فصل في حقيقة الدنيا ومصيرها.
٤٩٠ تفسير قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.
٤٩٢ فصل في الفرق بين رقة القلب والجزع.
٤٩٤ تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.
٤٩٤ بحث في هل السياسة بالضرب والحبس للمتهمين في الدعاوى وغيرها من الشرع أم لا؟
٤٩٦ فصل في بعض حقوق الله على عبده: رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه.
٤٩٧ بحث في أن طلب العلم في سبيل الله به قوام الدين.
٤٩٨ تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.
٤٩٨ فصل في الفرق بين الحجج والبينات.
٤٩٩ بحث في مراتب العلم والعمل.
٥٠٢ فصل في أن الخاردين عن طاعة الله يتقلبون في عشر ظلمات.
٥٠٣ تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

٥٠٦ بحث في حكم الرسول ﷺ في الظهار وبيان ما أنزل فيه ومعنى العود الموجب لكفارة.
٥٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.
٥٠٧ بحث حول السمع وما يراد منه كما ورد في القرآن الكريم.

الصفحة الموضــــوع

٥١١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾.
٥١٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.
٥١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾.
٥١٥ بحث في معية الله سبحانه للخلق: معية العلم والإحاطة، ومعية القرب.
٥١٧ بحث في معنى الحزن الذي ورد عنه النهي والنفي في القرآن.
٥١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.
٥١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ ﴾.
٥١٩ بحث في أن أفضل الأعمال: الإيمان بالله.
٥٢٠ بحث في صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة.
٥٢٠ بحث في أن أهل العلم يجعلهم الله أئمة يهدون بأمره.
٥٢١ بحث في أنه لا ينال أحد شرفًا في الدنيا والآخرة إلا بالعلم.
٥٢٢ للعلم ست مراتب من حققها فقد فاز.
٥٢٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾.

سُورَةُ الحَشْرِ

٥٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.
٥٢٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾.
٥٢٩ بحث في أن الله ﷻ نصب رسوله محمدًا منصب المبلغ المبين عنه.
٥٢٩ بحث في أن البيان من النبي ﷺ أقسام.
٥٣١ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾.

الصفحة الموضوع

٥٣٢ بحث في أن الله سبحانه جمع لرسوله محمد ﷺ بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر.
٥٣٣ بحث في أن الله سبحانه أغنى الفقراء برسوله محمد، فما نالت أمته الغنى إلا به ﷺ.
٥٣٤ عود على قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.
٥٣٥ بحث في أن إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة وإيثار حب وإرادة
٥٣٦ الفرق بين الإيثار والأثرة.
٥٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.
٥٣٨ بحث في تقسيم الأخلاق إلى ثلاثة أقسام.
٥٣٩ عود على قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.
٥٤١ فصل في أن الجود عشرة مراتب والكلام حولها.
٥٤٥ فصل في أن الإيثار تخصيص واختيار والأثرة تحسن طوعًا وتصح كرهًا.
٥٤٦ فصل في هل يجوز الإيثار بالقربات والطاعة أم لا؟.
٥٤٧ رد الرافضة للنصوص الصحيحة الصريحة المحكمة.
٥٤٧ الأسباب التي تمحق أثر الذنوب.
٥٤٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾.
٥٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.
٥٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.
٥٥٥ بحث حول صفتي الجبار والمتكبر.

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

٥٥٧ بحث في أن الكافر مفتون بالمؤمن كما أن المؤمن مفتون بالكافر.
٥٥٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾.

الصفحة الموضـــوع

٥٥٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾.
٥٦٣ اختلاف أهل العلم في رد مهر من أسلم من النساء إلى أزواجهن.
٥٦٢ بحث في أن ظاهر القرآن يدل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم.
٥٦٦ هل يجوز أن يقال: أنا مؤمن وأنا ولي أم لا؟.

سُورَةُ الصَّفِّ

٥٦٨ بحث حول معنى إزاغة القلوب.
٥٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾.
٥٧٠ بحث في بيان اسم النبي ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل.
٥٧١ بحث في الشرائع الثلاث: شريعة عدل وشريعة فضل وشريعة جمعت هذا وهذا
٥٧٢ ظهور موسى في مظهر الجلال وعيسى في مظهر الجمال ومحمد في مظهر الكمال.
٥٧٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾.
٥٧٤ فصل في أنه لو لم يظهر رسول الله ﷺ لبطلت نبوة سائر الأنبياء.
٥٧٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.
٥٧٩ بحث في أن كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

٥٨٠ بحث في تمييز الأيام بعضها من بعض.
٥٨٢ فصل في هديه ﷺ في تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه ببعض العبادات.
٥٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾.

الصفحة الموضوع
٥٨٤ بحث في أن تزكية النفوس جعله الله على أيدي رسله الكرام ﷺ.
٥٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.
٥٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾.

وبهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد السادس

ويليه إن شاء الله المجلد السابع والأخير



الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٣٣ هـ - ١٤١٥ هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد السابع

المنافقون - الناس

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضوء المنير على التفسير

المجلد السابع

ح) دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٥-٦-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طَبعَة جَدِيدَة مُصَحَحَة وَمُحَققَة

الطَبعَةُ الثَانِيَةُ

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ ـ فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

سُورَةُ المنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

[1]طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله. وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥]. فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار. لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال ـ تعالى ـ في حقهم: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤]. ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم ينقضي

(١) ٤٠٢ طريق الهجرتين.

ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبي ﷺ: «ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه»[1] فليس هذا نفيًا لاسم المسكين عن الطواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذي لا يسمونه مسكينًا أحق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه مسكينًا، ونظيره قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»[2] ليس نفيًا للاسم عن الصرعة، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم. ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون المفلس فيكم؟» قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: «المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا، وضرب هذا، وأخذ مال هذا، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم، ثم طرح عليه، فألقي في النار»[3]. ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون الرقوب فيك؟» قالوا: من لا يولد له. قال: «الرقوب من لم يقدم من ولده شيئًا»[4].

ومنه عندي قوله ﷺ: «الربا في النسيئة»، وفي لفظ: «إنما الربا في النسيئة»[5]. هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه نفي اسم الربا عن ربا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٩) ومسلم (رقم ١٠٣٩) وانظر: فتح ا لباري (٤/ ١٨٥) وشرح النووي (٧/ ١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٩).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٩) وشرح النووي (١٦/ ١٣٥-١٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٠٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦٠) وشرح النووي (١٦/ ١٦١-١٦٢).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٥٩٦) وانظر: فتح الباري (٤/ ٣٨١-٣٨٢) وشرح النووي (١١/ ٢٣-٢٤).

الفضل. فتأمله.

والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، وتعطى نورًا يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم، ويقال لهم: ﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣] ويضرب بينهم وبين المؤمنين: ﴿ بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣- ١٤] وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين، ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨]. وقال تعالى في الكفار: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل. والمنافق أبصر، ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر. ومن كان هكذا كان أشد كفرًا، وأخبث قلبًا، وأعتى على الله ورسله، استحق الدرك الأسفل...

(١)قال تعالى عن المنافقين: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴾ [مريم: ٧٤]، أي: أموالًا

(١) ١٨٥ الفوائد.

ومناظر. قال الحسن: هو الصور. وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم**»[١]. قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، وإنما نفى نظر المحبة. قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا. وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وفي الحديث: «**البذاذة من الإيمان**»[٢] وقد ذم الله المسرفين، والسرف، كما يكون في الطعام والشراب؛ يكون في اللباس.

وفصل النزاع: أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع، منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ، يتجمل للوفود؛ وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه، والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات وأن يكون هو غاية العبد، وأقصى مطلبه، فإن كثيرًا من النفوس لها همة في سوى ذلك. وأما مالا يحمد ولا يذم، هو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك، فيعرف الله ـ سبحانه ـ بالجمال لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤١٦١) وابن ماجه (رقم ٤١١٨) والشيباني في الآحاد والمثاني (٦/ ١٦٧ رقم ٣٣٩٦) والحميدي في مسنده (١/ ١٧٣ رقم ٣٥٧) والطبراني في الكبير (١/ ٢٧١ رقم ٧٨٨) والقضاعي في الشهاب (رقم ١٥٧) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٥٥ رقم ٦١٧٣) وأحمد في الزهد (ص ٧) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ١٢٨) وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٣٦٨).

الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان، وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة، والسلوك.

***

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

[(١)] في مرجعهم من هذه الغزوة[(٢)]: قال رأس المنافقين ابن أبيّ: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]. فبلغها زيد بن أرقم رسول الله ﷺ، وجاء ابن أبي يعتذر، ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقون، فأخذ النبي ﷺ بأذنه فقال: «**أبشر، فقد صدقك الله**»، ثم قال: «**هذا الذي وفى الله بأذنه**»، فقال له عمر: يا رسول الله، مر عباد بن بشر فليضرب عنقه. فقال: «**فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟**»[(٣)].

[(٤)] ...والعزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا. يقال: عز يعز بفتح العين إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعز يعز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه، وعز يعز بضم العين إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوى الحركات ـ وهي الضمة ـ لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء

---

(١) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.
(٢) هي غزوة المُرَيْسيع، وتسمى أيضًا غزوة بني المصطلق، وكانت في شعبان سنة خمس.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٠٠-٤٩٠٥) ومسلم (رقم ٢٧٧٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٤٦-٦٤٩).
(٤) ١٠٨ طريق الهجرتين.

في نفسه صلبًا، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنىٰ المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه، فاعطوا الأقوىٰ للأقوىٰ، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوىٰ أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوىٰ أنواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًا له بخلاف الكبر، قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر. فقال: لست بمتكبر، ولكني عزيز.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال النبي ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام**»[١] وفي بعض الآثار: أن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا تجدونها إلا في طاعة الله ﷻ.

وفي الحديث: «**اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك**»، وقال بعضهم: من أراد عزًا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنىٰ بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلىٰ عز الطاعة. فالعزة من جنس القدرة والقوة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»[٢].

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٧/ ١٤٣ رقم ٢٥٧٦) والحاكم (٣/ ٨٩ رقم ٤٤٨٦) والترمذي (رقم ٣٦٨١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٤٠ رقم ١٨٦٠) وفي الكبير (١٠/ ١٥٩ رقم ١٠٣١٤) وأحمد (٢/ ٩٥) والبزار (٦/ ٥٧ رقم ٢١١٩) وعبد بن حميد (رقم ٧٥٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦١-٦٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه باختصار وقال: أيد الإسلام. ورجال الكبير رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وُثق. وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٢٧) وشرح النووي (١٦/ ٢١٥).

[1]السعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيا حب الله خوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا وربحًا لا خسرانًا.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، وفهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال النبي ﷺ، لعبدالله بن عباس: «**واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك ولم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»[2]. وإذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المنافقون

والحمد لله رب العالمين



(١) ٦٣ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) وأبو يعلى (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦) وأحمد (١/ ٣٠٣) وعبد بن حميد (رقم ٦٣٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٢١٦ رقم ١٩٥) وهناد في الزهد (١/ ٣٠٤ رقم ٥٣٦) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) وفي الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٢).

سُورَةُ التَّغَابُنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

[(١)] الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلى ما تقضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها فيسلم لها، ويرضى بها، ولا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣] وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها: كالسمع، والبصر، والعلم، والرضا، والغضب، والمحبة؛ فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليد، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس، التي لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ: «**صريح الإيمان**»[(٢)]. وعلامة هذه

(١) ٢٦٩ الروح.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٣٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٧٣-٢٧٤).

الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة، وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يواري عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره، وتعلق الروح بحبه ومعرفته؛ فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن يواريها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

(١)...حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤] وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس إنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر، كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) ٦٥ عدة الصابرين.

ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده. وفي الحديث: «**الولد مبخلة مجبنة**»(١) وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبدالله بن بريدة قال سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران بمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «**صدق الله** ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التعابن: ١٥] **نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**». وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة: الرحمة، والشفقة، واللطف بالصغار.

***

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

(٢)... تطلق الفتنة على أعم من ذلك، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] قال مقاتل: «أي بلاء، وشغل عن الآخرة. قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى». وقال الزجاج: أعلمهم الله ﷻ أن الأموال والأولاد مما يفتنون به.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٧٩ رقم ٤٧٧١) وابن ماجه (رقم ٣٦٦٦) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٢ رقم ٢٠٦٥٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٧٨ رقم ٣٢١٨٠) وعبدالرزاق (١١/ ١٤٠ رقم ٢٠١٤٣) والطبراني في الكبير (١/ ٢٣٦ رقم ٦٤٧) وأبو يعلى (٢/ ٣٠٥ رقم ١٠٣٢) وأحمد (٤/ ١٧٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٩ رقم ٢٥) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ٩٩): هذا إسناد صحيح.

(٢) ١٦٠ إغاثة.

وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده. لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم، إلا من عصمه الله تعالى.

ويشهد لهذا ما روي أن النبي ﷺ «كان يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران يعثران، فنزل النبي ﷺ إليهما فأخذهما، فوضعهما في حجره على المنبر، وقال: «صدق الله[1] ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] رأيت هذين الصبيين، فلم أصبر عنهما». وقال ابن مسعود ﷺ: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن»[2].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التغابن

والحمد لله رب العالمين



(١) تقدم في تفسير سورة الجمعة نقلًا عن زاد المعاد بلفظ: «صدق الله العظيم». (ج).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٢٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٨٥ رقم ٨٩٨٤).

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

(١) قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة، فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجًا. وقال الحسن: مخرجًا مما نهاه عنه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و«الحسب» الكافي ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٥٩] كافينا الله. وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة. فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرح للصدر، ولا أوسع له ـ بعد الإيمان ـ من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

(٢)... فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب بنشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه

(١) ٤٧١ مدارج جـ١.

(٢) ٨٢ مدارج جـ١.

الناس. فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه ملي به، ولا يكون إلا بمشيئته. شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حال الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مليان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلىٰ غير أبويه. وحبس همه علىٰ إنزال ما ينوبه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوىٰ كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوىٰ فهو القسم الرابع...

[(١)] قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] فأخبر الله ﷻ أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له؛ رزقه [الله] من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حرامًا [لله] لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا عبدالرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة، عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«النظرة إلىٰ المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه خوف الله أثابه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه»**[(٢)]. وقال عمر بن شبة: حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس، حدثنا عنبسة ابن عبدالرحمن، حدثنا أبو الحسن المدني، عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«نظر الرجل في محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم؛ فمن أعرض عن ذلك السهم أعقبه الله عبادة تسره»**.

---

(١) ٤٧٦ روضة المحبين.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٤٩ رقم ٧٨٧٥) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٩٥ رقم ٢٩٢) والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ٢٩٧ رقم ٦٨٧٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ١٨١) وهناد في الزهد (٢/ ٦٥١ رقم ١٤٢٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠١) وانظر: فيض القدير (١/ ١٣٣).

[(١)]...قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن؛ لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله. وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه. وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومنامًا لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما، فإذا جبذ روحه عنه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة

(١) ٢٤٠ بدائع جـ٢.

والهمم العلية. وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

[(١)]...وأخبر أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلومًا وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته. فقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ [الطلاق: ٥]، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [النساء: ٦٩] ثم قال في التوكل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلى نفسه. لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حالة التوكل قطعًا على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها وموكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئًا منها. فهو لا يجد بدًا من اعتماده عليه، تفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئًا البتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه، والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

فإن قيل: فإذا كان الأمر كله لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكل المالك

---

(١) ١٢٨ مدارج جـ٢.

علىٰ ملكه؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له، دون هذا الموكل؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلىٰ العامة. وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة.

قيل: لما كان الأمر كله لله ﷻ وليس للعبد فيه شيء البتة. كان توكله علىٰ الله تسليم الأمر إلىٰ من هو له، وعزل نفسه من منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلىٰ تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل.

وأما عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: فهو عزل لها عن حقيقة العبودية.

وأما توجه الخطاب به إلىٰ العامة: فسبحان الله! هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلا خواص خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق علىٰ الشرط يعدم عند عدمه.

وهذا يدل علىٰ انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل، فمن لا توكل له: لا إيمان له، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢] وهذا يدل علىٰ انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة. وأخبر تعالىٰ عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه.وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [يونس: ٨٤- ٨٥] فكيف يكون من أوهىٰ السبل، وهذا شأنه؟ والله ﷻ أعلم.

(١) والفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادًا علىٰ الله، وثقة به، والتجاء إليه، وتفويضًا إليه، ورضا بما يقضيه له لعلمه بفكايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد

---

(١) ٣١٠ الروح.

كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين، وكان يلبس لأمته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثة فكان متوكلًا في السبب، لا على السبب.

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما: فإما أن يعطل السبب عجزًا منه، ويزعم أن ذلك توكل ولعمر الله أنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلًا عن المسبب معرضًا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقًا تامًا بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل.

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطًا (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل (والثاني) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور ومخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذور وتوكل في حصول الزرع وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني، فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلًا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره. والرب ـ سبحانه ـ قد أمر عبده بالاحتيال، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك، كما قدره ـ سبحانه ـ ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه ـ سبحانه ـ الملي بالوكالة الوفي بالكفالة. فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان، طالبًا للراحة مؤثرًا للدعة، يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قدر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي، ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني، فيقال له: نعم هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك، بسعيك أم يسعي غيرك، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه، وإذا خفي عليك هذا كله، فمن أين

علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعي ولا كد، فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شيء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقًا! فإذا رأيت هذا عيانًا فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟ وأيضًا فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل تعطلها اعتمادًا على التوكل أم تقوم بها مع التوكل؟ بلى لن تخلو الأرض من متوكل: صبر نفسه لله، وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلى الله، واطمأن إليه، ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه، وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر، ولا ريب أن هذا أكمل حالًا ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد كان زكريا نجارًا، وقد أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادًا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين. ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم؟ وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين ـ صلوات الله وسلامه عليه وآله ـ.

***

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

(١) عدة الآيسة والتي لم تحض فقد بينها سبحانه في كتابه، فقال: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ

---

(١) ٣٩٩ زاد المعاد جـ٤.

ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] وقد اضطرب الناس في حد الإياس اضطرابًا شديدًا: فمنهم من حده بخمسين سنة. وقال: لا تحيض المرأة بعد الخمسين. وهذا قول إسحاق، ورواية عن أحمد. واحتج أرباب هذا القول بقول عائشة: «إذا بلغت خمسين خرجت من حد الحيض» وحده طائفة بستين سنة. وقالوا: لا تحيض بعد الستين. وهذه رواية ثانية عن أحمد.وعنه رواية ثالثة: الفرق بين نساء العرب وغيرهم. فحده ستون في نساء العرب،وخمسون في نساء العجم، وعنه رواية رابعة: أن ما بين الخمسين والستين دم مشكوك فيه. تصوم وتصلي، وتقضي الصوم المفروض. هذا اختيار الخرقي. وعنه رواية خامسة: أن الدم إن عاد بعد الخمسين وتكرر فهو حيض، وإلا فلا. وأما الشافعي: فلا نص له في تقدير الإياس بمدة. وله قولان بعد.

أحدهما: أنه يعرف بإياس أقاربها.

والثاني: أنه يعتبر بإياس جميع النساء، فعلى القول الأول: هل المعتبر جميع أقاربها، أو نساء عصباتها، أو نساء بلدها خاصة؟ فيه ثلاثة أوجه، ثم إذا قيل: يعتبر بالأقارب: فاختلفت عادتهن: هل يعتبر بأقلهن عادة منهن، أو بأكثرهن، أو بأقصر امرأة في العالم عادة؟ على ثلاثة أوجه، والقول الثاني للشافعي: أن المعتبر جميع النساء، ثم اختلف أصحابه: هل لذلك حد أم لا؟ على وجهين:

أحدهما: ليس له حد. وهو ظاهر نصه.والثاني له حد. ثم اختلفوا فيه على وجهين. **أحدهما**: أنه ستون سنة، قاله أبو العباس بن القاص، والشيخ أبو حامد.

والثاني: اثنان وستون. قاله الشيخ أبو إسحاق في المهذب، وابن الصباغ في الشامل. وأما أصحاب مالك: فلم يحدوا سن اليأس بحد البتة.

وقال آخرون ـ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: اليأس مختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق عليه في النساء. والمراد بالآية: أن إياس كل امرأة من نفسها، لأن اليأس ضد الرجاء. فإذا كانت المرأة قد يئست من الحيض ولم ترجه: فهي آيسة، وإن كان لها أربعون، أو نحوها، وغيرها: لا تيأس منه، وإن كان لها خمسون. وقد ذكر الزبير

ابن بكار: أن بعضهم قال: لا تلد لخمسين سنة إلا عربية، ولا تلد لستين سنة إلا قرشية،وقال: «إن هند بنت أبي عبيدة بن عبيد الله بن ربيعة ولدت موسى بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ولها ستون سنة» وقد صح عن عمر بن الخطاب في امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفع حيضها: لا تدري ما رفعه «أنها تتربص تسعة أشهر، فإن استبان بها حمل، وإلا اعتدت ثلاثة أشهر» وقد وافقه الأكثرون على هذا، منهم مالك، وأحمد، والشافعي، في القديم. قالوا: تتربص غالب مدة الحمل، ثم تعتد عدة الآيسة، ثم تحل للأزواج، ولو كانت بنت ثلاثين سنة أو أربعين. وهذا يقتضي أن عند عمر بن الخطاب، ومن وافقه من السلف والخلف تكون المرأة عندهم آيسة قبل الخمسين، وقبل الأربعين. وأن اليأس عندهم ليس وقتًا محدودًا للنساء. بل مثل هذه تكون آيسة، وإن كانت بنت ثلاثين، وغيرها لا تكون آيسة، وإن بلغت الخمسين، وإذا كانوا فيمن ارتفع حيضها ـ ولا تدري ما رفعه ـ جعلوها آيسة بعد تسعة أشهر، فالتي تدري ما رفعه ـ إما بدواء يعلم أنه لا يعود معه، وإما بعادة مستقرة لها من أهلها وأقاربها ـ أولى أن تكون آيسة، وإن لم تبلغ الخمسين. وهذا بخلاف ما إذا ارتفع لمرض، أو رضاع، أو حمل، فإن هذه ليست آيسة. فإن ذلك يزول.

فالمراتب ثلاث. أحدها: أن ترتفع ليأس معلوم متيقن، بأن تنقطع عامًا بعد عام، ويتكرر انقطاعه أعوامًا متتابعة. ثم يطلق بعد ذلك. فهذه تتربص ثلاثة أشهر بنص القرآن، سواء كانت بنت أربعين، أو أقل أو أكثر. وهي أولى بالتربص بثلاثة أشهر من التي حكم فيها الصحابة والجمهور بتربصها تسعة أشهر، ثم ثلاثة. فإن تلك كانت تحيض وطلقت وهي حائض، ثم ارتفع حيضها بعد طلاقها، لا تدري ما رفعه؟ فإذا حكم فيها بحكم الآيسات بعد انقضاء غالب مدة الحمل، فكيف بهذه؟ ولهذا قال القاضي إسماعيل في أحكام القرآن: إذا كان الله سبحانه قد ذكر اليأس مع الريبة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ [الطلاق: ٤] ثم جاء عن عمر بن الخطاب لفظ موافق لظاهر القرآن، لأنه قال: «أيما امرأة طلقت،

فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفعت حيضتها، لا تدري ما رفعها، فإنها تنتظر تسعة أشهر، ثم تعتد ثلاثة أشهر»[١] فلما كانت لا تدري ما الذي رفع الحيضة: كانت موضع الارتياب، فحكم فيها بهذا الحكم. وكان اتباع ذلك ألزم وأولى من قول من يقول: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فيرتفع حيضها وهي شابة: أنها تبقى ثلاثين سنة معتدة. وإن جاءت بولد لأكثر من سنتين: لم يلزمه. فخالف ما كان من إجماع المسلمين الذين مضوا، لأنهم كانوا مجمعين على أن الولد يلحق بالأب ما دامت المرأة في عدتها. فكيف يجوز أن يقول قائل: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، ويكون بينها وبين زوجها أحكام الزوجات ما دامت في عدتها، من الموارثة وغيرها، فإن جاءت بولد لم يلحقه؟ وظاهر عدة الطلاق: أنها جعلت من الدخول الذي يكون منه الولد. فكيف تكون المرأة معتدة والولد لا يلزم؟

قلت: هذا إلزام منه لأبي حنيفة، فإن عنده أقصر مدة الحمل سنتان، والمرتابة في أثناء عدتها لا تزال في عدة حتى تبلغ سن اليأس، فتعتد به، وهو يلزم الشافعي في قوله الجديد سواء، إلا أن مدة الحمل عنده أربع سنين. فإذا جاءت به بعدها لم يلحقه، وهي في عدتها منه، قال القاضي إسماعيل: واليأس يكون بعضه أكثر من بعض، وكذلك القنوط، وكذلك الرجاء، وكذلك الظن، ومثل هذا يتسع الكلام فيه، فإذا قيل: منه شيء أنزل على قدر ما يظهر من المعنى فيه، فمن ذلك أن الإنسان يقول: قد يئست من مريضي، إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يبرأ، ويئست من غائبي إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يقدم، ولو قال: إذا مات غائبه، أو مات مريضه، قد يئست منه: لكان الكلام عند الناس على غير وجهه، إلا أن يتبين معنى ما قصد له في كلامه، مثل أن يقول: كنت وجلًا في مرضه، مخافة أن يموت، فلما مات وقع اليأس، فينصرف

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤١٩ رقم ١٥١٨٩) والشافعي في المسند (ص٢٩٨) وفي الأم (٥/ ٢١٣) ومالك (٢/ ٥٨٢ رقم ١٢١٢) وانظر: الاستذكار (٦/ ١٧٤) والمحلى (١٠/ ٢٧٠) والمدونة الكبرى (٤/ ١٥٨).

الكلام على هذا وما أشبهه، إلا أن أكثر ما يلفظ باليأس: إنما يكون فيما هو الأغلب عند اليأس أنه لا يكون. وليس واحدًا من اليأس. والطامع يعلم يقينًا أن ذلك الشيء يكون، أو لا يكون، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠] والرجاء ضد اليأس، والقاعدة من النساء: قد يمكن أن تتزوج. غير أن الأغلب عند اليأس فيها: أن الأزواج يرغبون عنها، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورىٰ: ٢٨] والقنوط: شبه اليأس، وليسوا يعلمون يقينًا أن المطر لا يكون، ولكن اليأس داخلهم حين تطاول إبطاؤه، وقال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] فلما ذكر أن الرسل هم الذين استيأسوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله، كما قال في قصة نوح: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وقال الله تعالىٰ في قصة إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين، وقد حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا مالك عن هشام بن عمروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم: «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنى عنه»[1] فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع، وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعرًا لرجل من القدماء يصف ناقة:

صفراء من تلد بني العباس ... ضرتها كالظبي في الكناس
تدر أم تسمع الإياس ... فالنفس بين طمع وياس

فجعل الطمع بإزاء اليأس، حدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم عن

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١١٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٣١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٠) وابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٣٥٧) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (١/ ٤٠٧ رقم ١٣٠٣).

الأعمش عن سلام عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي ﷺ فقالا: علمنا شيئًا، ثم قال: «**لا تيأسا من الخير ما تهزهرت رءوسكما، فإن كل عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه**»(١) وحدثنا علي بن عبدالله حدثنا ابن عيينة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس»(٢) قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهى.

قال شيخنا: وليس للنساء في ذلك عادة مستمرة، بل فيهن من لا تحيض وإن يلغت، وفيهن من تحيض حيضًا يسيرًا بتباعد ما بين أقرائها، حتى تحيض في السنة مرة، ولهذا اتفق العلماء على أن أكثر الطهر ـ بين الحيضتين ـ لا حد له، وغالب النساء يحضن كل شهر مرة، ويحضن ربع الشهر، ويكون طهرهن ثلاثة أرباعه، ومنهن من تطهر الشهور المتعددة لقلة رطوبتها، ومنهن من يسرع إليها الجفاف فينقطع حيضها وتيأس منه، وإن كان لها دون الخمسين، بل والأربعين، ومنهن من لا يسرع إليها الجفاف، فتجاوز الخمسين وهي تحيض، قال: وليس في الكتاب ولا السنة تحديد اليأس بوقت، ولو كان المراد بالآيسة من المحيض من لها خمسون سنة، أو ستون سنة، أو غير ذلك لقيل: واللائي يبلغن من السن كذا وكذا، ولم يقل: «يئسن» وأيضًا: فقد ثبت عن الصحابة أنهم جعلوا من ارتفع حيضها قبل ذلك يائسة كما تقدم، والوجود مختلف في وقت يأسهن، غير متفق. وأيضًا: فإنه سبحانه قال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ [الطلاق: ٤] ولو كان له وقت محدود لكانت المرأة وغيرها سواء في معرفة يأسهن، وهو ـ سبحانه ـ قد خص النساء بأنهن اللاتي يئسن كما خصهن بقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ [الطلاق: ٤] فالتي تحيض هي التي تيأس: وهذا بخلاف الارتياب، فإنه سبحانه قال: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ [الطلاق: ٤] ولم يقل: إن ارتبتن، أي إن ارتبتم في حكمهن

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ٣٣).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٠٦ رقم ١٣٠٠) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٨١).

وشككتم فيه. فهو هذا. هذا هو الذي عليه جماعة أهل التفسير، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث جرير وموسى بن أعين ـ واللفظ له ـ عن مطرف بن طريف عن عمر بن سالم عن أبي بن كعب قال: «قلت: يا رسول الله إن ناسًا بالمدينة يقولون في عدد النساء ما لم يذكر الله في القرآن: الصغار والكبار وأولات الأحمال، فأنزل الله سبحانه في هذه السورة: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[1] [الطلاق: ٤] فأجل إحداهن أن تضع حملها، فإذا وضعت فقد قضت عدتها، ولفظ جرير «قلت: يا رسول الله، إن ناسًا من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء، قالوا: لقد بقي من عدد النساء عدد لم يذكرن في القرآن: الصغار والكبار واللاتي انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل، قال: فأنزلت التي في النساء القصرى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ ثم روي عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ يعني «الآيسة العجوز التي لا تحيض، أو المرأة التي قعدت عن الحيضة، فليست هذه من القروء في شيء» وفي قوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ في الآية، يعني «أن شككتم فعدتهن ثلاثة أشهر» وعن مجاهد ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ «لم تعلموا عدة التي قعدت عن الحيض، أو التي لم تحض فعدتهن ثلاثة أشهر، فقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ يعني إن سألتم عن حكمهن، ولم تعلموا حكمهن وشككتم فيه: فقد بيناه لكم، فهو بيان لنعمته على من طلب ذلك، ليزول ما عنده من الشك والريب، بخلاف المعرض عن طلب العلم.

وأيضًا: فإن النساء لا يستوين في ابتداء الحيض، بل منهن من تحيض لعشر، أو اثنتي عشرة، أو خمس عشرة، أو أكثر من ذلك، فلذلك لا يستوين في آخر سن الحيض

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٤١) والحاكم (٢/ ٥٣٤ رقم ٣٨٢١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٢٠ رقم ١٥١٩٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٥٤ رقم ١٧١٠٤).

الذي هو سن اليأس، والوجود شاهد بذلك. وأيضًا فإنهم تنازعوا فيمن بلغت ولن تحض: هل تعتد بثلاثة أشهر، أو بالحول، كالتي ارتفع حيضها. ولا تدري ما رفعه؟ وفيه روايتان عن أحمد.

قلت: والجمهور على أنها تعتد بثلاثة أشهر، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بها حدًا، فكذلك يجب أن لا يكون للكبر الموجب للاعتداد بالشهور حدًا، وهو ظاهر. ولله الحمد.

وأما عدة الوفاة: فتجب بالموت سواء دخل بها أو لم يدخل اتفاقًا: كما دل عليه عموم القرآن والسنة. واتفقوا على أنهما يتوارثان قبل الدخول، وعلى أن الصداق يستقر إذا كان مسمى؛ لأن الموت لما كان انتهاء للعقد وانقضاء له. استقرت به الأحكام، فتوارثا، واستقر المهر، ووجبت العدة.

واختلفوا في مسألتين: إحداهما: وجوب مهر المثل، إذا لم يكن المهر مسمى. فأوجبه أحمد وأبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه. ولم يوجبه مالك والشافعي في القول الآخر. وقضى بوجوبه رسول الله ﷺ. كما جاء في السنة الصحيحة الصريحة من حديث بروع بنت واشق، وقد تقدم. ولو لم ترد به السنة لكان هو محض القياس. لأن الموت أجرى مجرى الدخول في تقرير المسمى. ووجوب العدة. والمسألة الثانية: هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم، كما ثبت بالدخول بها؟ وفيه قولان للصحابة. وهما روايتان عن أحمد.

والمقصود: أن العدة فيه ليست للعلم ببراءة الرحم؛ فإنها تجب قبل الدخول، بخلاف عدة الطلاق. وقد اضطرب الناس في حكمة عدة الوفاة وغيرها: فقيل: هي لبراءة الرحم. وأورد على هذا القول وجوه كثيرة. منها: وجوبها قبل الدخول في الوفاة. ومنها: أنها ثلاثة قروء، وبراءة الرحم يكفي فيها حيضة، كما في المستبرأة. ومنها: وجوب ثلاثة أشهر في حق من يقطع ببراءة رحمها لصغرها أو كبرها. ومن الناس من يقول: هو تعبد لا يعقل معناه. هذا فاسد، لوجهين:

أحدهما: أنه ليس في الشريعة حكم إلا وله حكمة: وإن لم يعقلها كثير من الناس أو أكثرهم. **الثاني**: أن العدد ليست من العبادات المحضة. بل فيها من المصالح رعاية حق الزوجين، والولد، والناكح.

قال شيخنا: والصواب أن يقال: إن عدة الوفاة هي حرم لانقضاء النكاح ورعاية لحق الزوج. ولهذا تجد المتوفى عنها في عدة الوفاة رعاية لحق الزوج. فجعلت العدة حريمًا لحق هذا العقد الذي له خطر وشأن. فيحصل بها فصل بين نكاح الأول ونكاح الثاني. ولا يتصل النكاحان. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما عظم حقه: حرم نساؤه بعده؟ وبهذا اختص الرسول. لأن أزواجه في الدنيا هن أزواجه في الآخرة، بخلاف غيره. فإنه لو حرم على المرأة أن تتزوج بغير زوجها لتضررت المتوفى عنها. وربما كان الثاني خيرًا لها من الأول، ولكن لو تأيمت على أولادها من الأول لكانت محمودة على ذلك مستحبًا لها. وفي الحديث «**أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة**» ـ وأومأ بالوسطى والسبابة ـ امرأة تأيمت من زوجها ذات منصب وجمال، وحبست نفسها على يتامى لها، حتى بانوا أو ماتوا[1]. وإذا كان المقتضى لتحريمها قائمًا فلا أقل من مدة تربصها. وقد كانت في الجاهلية تتربص سنة، فخففها الله ـ سبحانه ـ بأربعة أشهر وعشر. وقيل لسعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: «فيها ينفخ الروح» فيحصل بهذه المدة براءة الرحم، حيث يحتاج إليه، وقضاء حق الزوج إذا لم يحتج إلى ذلك.

وأما عدة الطلاق: فهي التي أشكلت فإنها لا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المسيس، ولأن الطلاق قطع للنكاح، ولهذا يتنصف فيه المسمى. ويسقط فيه مهر المثل.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١٤٩) وعبدالرزاق (١١/ ٢٩٩ رقم ٢٠٥٩١) والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٦ رقم ١٠٣) وأحمد (٦/ ٢٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٥ رقم ٨٦٨٠) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٤١).

فيقال: ـ والله الموفق للصواب ـ: عدة الطلاق وجبت ليتمكن الزوج فيها من الرجعة. ففيها حق للزوج، وحق لله، وحق للولد، وحق للناكح الثاني. فحق الزوج: ليتمكن من الرجعة في العدة. وحق الله: لوجوب ملازمتها المنزل. كما نص عليه ـ سبحانه ـ. وهو منصوص أحمد ومذهب أبي حنيفة. وحق الولد: لئلا يضيع نسبه، ولا يدري لأي الواطئين. وحق المرأة: لما لها من النفقة زمن العدة، ولكونها زوجة ترث وتورث.

ويدل على أن العدة حق للزوج قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩] فقوله: ﴿ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ ﴾ دليل على أن العدة للرجل على المرأة وأيضًا فإنه سبحانه قال: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فجعل الزوج أحق بردها في العدة. وهذا حق له، فإذا كانت العدة ثلاثة قروء وثلاثة أشهر: طالت مدة التربص، لينظر في أمره: هل يمسك ويفيء أو يطلق؟ وكان تخيير المطلق كتخيير المولى، لكن المولى جعل له أربعة أشهر، كما جعل مدة التسيير أربعة أشهر، لينظروا في أمرهم.

ومما يبين ذلك أنه سبحانه قال: ﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وبلوغ الأجل: هل الوصول والانتهاء، وبلوغ الأجل في هذه الآية مجاوزته. وفي قوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ٢] مقاربته ومشارفته. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه حد من الزمان. وهو الطعن في الحيضة الثالثة، أو انقطاع الدم منها، أو من الرابعة، وعلى هذا: فلا يكون مقدورًا لها، وقيل: بل هو فعلها. وهو الاغتسال، كما قاله جمهور الصحابة. وهذا كما أنه بالاغتسال يحل للزوج وطؤها. ويحل لها أن تكمنه من نفسها. فالاغتسال عندهم شرط في النكاح الذي هو العقد. وفي النكاح الذي هو

الوطء، وللناس في ذلك أربعة أقوال:

أحدها: أنه ليس شرطًا، لا في هذا ولا في هذا، كما يقوله من يقوله من أهل الظاهر.

والثاني: أنه شرط فيهما، كما قاله أحمد وجمهور الصحابة كما تقدم حكايته عنهم.

والثالث: أنه شرط في نكاح الوطء لا في نكاح العقد. كما قاله مالك والشافعي.

والرابع: أنه شرط فيهما، أو ما يقوم مقامه. وهو الحكم بالطهر بمقتضى وقت صلاة وانقطاعه لأكثره. كما يقول أبو حنيفة. فإذا ارتجعها قبل غسلها لأجل وطئه لها وإلا كان لأجل حلها لغيره، وبالاغتسال يتحقق كمال الحيض وتمامه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والله ـ سبحانه ـ أمرها أن تتربص ثلاثة قروء، فإذا مضت الثلاثة فقد بلغت أجلها، وهو ـ سبحانه ـ لم يقل: إنها عقيب القرأين تبين من الزوج، بل خير الزوج عند بلوغ الأجل بين الإمساك والتسريح. فظاهر القرآن ما فهمه الصحابة: أنه عند انتهاء القروء الثلاثة: يخير الزوج بين الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان. وعلى هذا: فيكون بلوغ الأجل في القرآن واحدًا لا يكون قسمين. بل يكون باستيفاء المدة واستكمالها. وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن أهل النار: ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وإنما حمل من قال: «إن بلوغ الأجل هو مقارنته» أنها بعد أن تحل للخطاب لا يبقى الزوج أحق برجعتها، وإنما يكون أحق بها ما لم تحل لغيره، فإذا حل لغيره أن يتزوجها صار هو خاطبًا من الخطاب، ومنشأ هذا: ظن أنها ببلوغ الأجل تحل لغيره. والقرآن لم يدل على هذا، بل القرآن جعل عليها أن تتربص ثلاثة قروء، وذكر أنها إذا بلغت أجلها فإما أن تمسك بمعروف، وإما أن تسرح بإحسان.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هذا الإمساك أو التسريح عقيب الطلاق، فقال: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ثم قال: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وهذا هو تزويجها بزوجها

الأول المطلق الذي كان أحق بها. فالنهي عن عضلهن مؤكد لحق الزوج، وليس في القرآن أنها بعد بلوغ الأجل تحل للخطاب، بل فيه: أنه في هذه الحال إما أن يمسك بمعروف، أو يسرح بإحسان فإن سرح بإحسان حلت حينئذ للخطاب.

وعلى هذا: فدلالة القرآن بينت أنها إذا بلغت أجلها، وهو انقضاء ثلاثة قروء بانقطاع الدم، فإما أن يمسكها قبل أن تغتسل فتغتسل عنده، وإما أن يسرحها، فتغتسل وتنكح من شاءت. وبهذا يعرف قدر فهم الصحابة، وأن من بعدهم إنما يكون غاية اجتهاده أن يفهم ما فهموه ويعرف ما قالوه.

فإن قيل: فإذا كان له أن يرتجعها في جميع هذه المدة ما لم تغتسل، فلم قيد التخيير ببلوغ الأجل؟

قيل: ليتبين أنها في مدة العدة كانت متربصة لأجل حق الزوج. والتربص الانتظار، وكانت متنظرة: هل يمسكها، أو يسرحها؟ وهذا التخيير ثابت له من أول المدة إلى آخرها، كما خير المولى بين الفيئة وعدم الطلاق، وهنا لما خيره عند بلوغ الأجل كان تخييره قبله أولى وأحرى، لكن التسريح إنما يمكن إذا بلغت الأجل، وقبل ذلك هي في العدة، وقد قيل: إن تسريحها بإحسان مؤثر فيها حين تنقضي العدة، ولكن ظاهر القرآن يدل على خلاف ذلك. فإنه ـ سبحانه ـ جعل التسريح بإحسان عند بلوغ الأجل. ومعلوم أن هذا الترك ثابت من أول المدة. فالصواب: أن التسريح إرسالها إلى أهلها بعد بلوغ الأجل ورفع يده عنها. فإنه كان يملك حبسها مدة العدة. فإذا بلغت أجلها فحينئذ إن أمسكها كان له حبسها، وإن لم يمسكها كان عليه أن يسرحها بإحسان. يدل على هذا قوله ـ تعالى ـ في المطلقة فبل المسيس ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٩] فأمر بالسراح الجميل، ولا عدة. فعلم أن تخلية سبيلها: إرسالها، كما يقال: سرح الماء والناقة: إذا مكنهما من الذهاب، وبهذا الإطلاق والسراح يكون قد تم تطليقها وتخليتها، وقبل ذلك لم يكن الإطلاق تامًا، وكان له أن يمسكها وأن يسرحها، وكان مع كونه مطلقًا قد

جعل أحق بها من غيره مدة التربص، وجعل التربص ثلاثة قروء لأجله.

ويؤيد هذا أشياء أحدها: أن الشارع جعل عدة المختلعة حيضة، كما ثبت بالسنة: وأقر به عثمان بن عفان وابن عباس وابن عمر وحكاه أبو جعفر النحاس في ناسخه ومنسوخه: إجماع الصحابة وهو مذهب إسحاق وأحمد بن حنبل في أصح الراويتين عنه دليلا كما سيأتي تقرير المسألة عن قريب إن شاء الله تعالى.

***

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

(1)يقال: وجد فلان وجدًا ووجدًا ـ بضم الواو وفتحها وكسرها ـ إذا صار ذا جدة وثروة. ووجد الشيء كذا وكذا، فهو موجود، وأوجده الله، ويقال: وجد الله الشيء كذا وكذا على غير معنى أوجده. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢] فالله سبحانه أوجده على علمه، بأن يكون على صفة. ثم وجده بعد إيجاده على تلك الصفة التي علم أن سيكون عليها.

وأما «الواجد» في أسمائه سبحانه: فهو بمعنى ذو الوجد والغنى. وهو ضد الفاقد. وهو كالموسع ذي السعة. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي ذوو سعة وقدرة وملك. كما قال تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ودخل في أسمائه سبحانه الواجد، دون «الموجد» فإن «الموجد» صفة فعل. وهو معطي الوجود كالمحيي معطي الحياة، وهذا الفعل لم يجئ إطلاقه في أفعال الله في الكتاب ولا في السنة. فلا يعرف إطلاق: أوجد الله كذا وكذا. وإنما الذي جاء وخلقه ويرأه، وصوره وأعطاه خلقه» ونحو ذلك. فلما لم يكن يستعمل فعله لم يجئ

(١) ٤١٤ مدارج جـ٣.

اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنى. فإن الفعل أوسع من الاسم. ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالًا لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و«الشائي» و«المحدث» كما لم يسم نفسه «بالصانع» و«الفاعل» و«المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ ـ أقبح خطإ ـ من اشتق له من كل فعل اسما، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الأخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يخبر عنه بأنه «شيء وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجئ تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنى والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ ومعناه صحيح...

(١)...الوجه الرابع: وهو أن الله سبحانه ـ نص في كتابه على إجارة الظئر، وسمى ما تأخذه أجرًا. وليس في القرآن إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا إجارة الظئر بقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦] قال شيخنا: وإنما ظن الظآن أنها خلاف القياس، حيث توهم أن الإجارة لا تكون إلا على منفعة . وليس الأمر كذلك. بل الإجارة تكون على كل ما يستوفى مع بقاء أصله. سواء كان عينًا أو منفعة، كما أن هذه العين هي التي توقف وتعار، فما استوفاه الموقوف عليه والمستعير بلا عوض، يتسوفيه المستأجر بالعوض. فلما كان لبن الظئر مستوفى مع بقاء الأصل جازت الإجارة عليه، كما جازت على المنفعة. وهذا محض القياس. فإن هذه الأعيان يحدثها الله شيئًا بعد شيء وأصلها باق، كما يحدث الله المنافع شيئًا بعد شيء وأصلها باق.

يوضحه الوجه الخامس: وهو أن الأصل في العقود: وجوب الوفاء، إلا ما حرمه الله ورسوله: فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا، فلا

---

(١) ٥١٩ زاد المعاد جـ٤.

يحرم من الشروط والعقود إلا ما حرم الله ورسوله. وليس مع المانعين نص بالتحريم البتة. وإنما معهم قياس قد علم بأن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يمنع الإلحاق. وأن القياس الذي مع من أجاز أقرب إلى مساواة الفرع الأصلي. وهذا ما لا حيلة فيه: وبالله التوفيق.

[١]ثبت أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها البتة، فخاصمته في السكن والنفقة إلى رسول الله ﷺ قالت: لم يجعل لي سكنى ولا نفقة. وفي السنن أن النبي ﷺ قال: «**يا بنت آل قيس إنما السكنى والنفقة على من كانت له رجعة**»، ذكره أحمد.

وعنده أيضًا «**إنما السكنى والنفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى**»[٢]. وفي صحيح مسلم عنها: طلقني زوجي ثلاثًا، فلم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقة[٣].

وفي رواية لمسلم أيضًا أن أبا عمرو بن حفص خرج مع علي ـ كرم الله وجهه ـ إلى اليمن، فأرسل إلى امرأته بتطليقة بقيت من طلاقها، وأمر عياش بن أبي ربيعة والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: والله ما لها نفقة، إلا أن تكون حاملًا، فأتت النبي ﷺ، فذكرت له قولهما، فقال: «**لا نفقة لك**» فاستأذنته في الانتقال، فأذن لها، فقالت له: أين يا رسول الله؟ فقال: «**عند ابن أم مكتوم**» وكان أعمى، تضع ثيابها عنده ولا يراها، فلما مضت عدتها أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد، فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث، فحدثته، فقال: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: بيني وبينكم القرآن، قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾

---

(١) ٣٥٧ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (رقم ١٣٥٧) وعبدالرزاق (٧/ ٢٣ رقم ١٢٠٢٦) والحميدي (١/ ١٧٦ رقم ٣٦٣) وأحمد (٦/ ٤١٥).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٨٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٧٧-٤٨١).

[الطلاق: ١] الآية، قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟ وأفتى النبي ﷺ بأن للنساء على الرجال رزقهن وكسوتهن بالمعروف[١]، ذكره مسلم.

وسئل ﷺ: ما تقول في نسائنا؟ فقال: «**أطعموهن مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن**» ذكره مسلم.

وسألته ﷺ: هند امرأة أبي سفيان فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[٢] متفق عليه.

فتضمنت هذه الفتوى أمورًا، أحدها: أن نفقة الزوجة غير مقدرة، بل المعروف ينفي تقديرها، ولم يكن تقديرها معروفًا في زمن رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم. الثاني: أن نفقة الزوجة من جنس نفقة الولد كلاهما بالمعروف. الثالث: انفراد الأب بنفقة أولاده. الرابع: أن الزوج أو الأب إذا لم يبذل النفقة الواجبة عليه فللزوجة والأولاد أن يأخذوا قدر كفايتهم بالمعروف. الخامس: أن المرأة إذا قدرت على أخذ كفايتها من مال زوجها لم يكن لها إلى الفسخ سبيل. السادس: أن ما لم يقدره الله ورسوله من الحقوق الواجبة فالمرجع فيه إلى العرف. السابع: أن ذم الشاكي لخصمه بما هو فيه حال الشكاية لا يكون غيبة، فلا يأثم به هو ولا سامعه بإقراره عليه. الثامن: أن من منع الواجب عليه وكان سبب ثبوته ظاهرًا فلمستحقه أن يأخذ بيده إذا قدر عليه، كما أفتى به النبي ﷺ هندًا، وأفتى به ﷺ الضيف إذا لم يقره من نزل عليه، كما في سنن أبي داود عنه ﷺ أنه قال: «**ليلة الضيف حق على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محرومًا كان دينًا عليه إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه**»[٣] وفي لفظ: «**من نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله**

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٧٩-٤٨٠) وشرح النووي (١٠/ ٩٥-٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٦٤) ومسلم (رقم ١٧١٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٠٩-٥١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٣٧٥٠) وابن ماجه (رقم ٣٦٧٧) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٩٧ رقم ١٨٤٧٤) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٤٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٦٣ رقم ٦٢١، ٦٢٢) وأحمد =

أن يعقبهم بمثل قراه»[١] وإن كان سبب الحق خفيًا لم يجز له ذلك، كما أفتى النبي ﷺ في قوله: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[٢].

***

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

[٣]قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢].

فتضمنت هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد، فهذا المطلوب، وما كان طريقًا إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن

(٤/ ١٣٠) والطيالسي (رقم ١١٥١) والبخاري في الأدب (رقم ٧٤٤) وهناد في الزهد (٢/ ٥١٢ رقم ١٠٥٥) وتمام في فوائده (٢/ ٢٤٢ رقم ١٦٣٣).

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٢ رقم ١٩٢٥٣) والدارقطني (٤/ ٤٨٧ رقم ٥٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٤٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٢ رقم ٦٦٨) وفي مسند الشاميين (٢/ ١٣٧ رقم ١٠٦١) وانظر: عون المعبود (١٠/ ١٩٨) (١٢/ ٢٣٢) والمغني (٩/ ٣٤٢-٣٤٣) وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٩/ ٣٦): سكت عنه أبو داود هو والمنذري. قال الحافظ في التلخيص: وإسناده على شرط الصحيح.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٣ رقم ٢٢٩٦) وأبو داود (رقم ٣٥٣٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٧٠ رقم ٢١٠٩١) والترمذي (رقم ١٢٦٤) والدارقطني (٣/ ٣٥ رقم ١٤١) والدارمي (رقم ٢٥٩٧) والطبراني في الأوسط (٤/ ٥٥ رقم ٣٥٩٥) وفي الصغير (رقم ٤٧٥) وفي الكبير (١/ ٢٦١ رقم ٧٦٠) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٥١ رقم ١٢٨٤) وأحمد (٣/ ٤١٤) وانظر: التمهيد (٢٠/ ١٥٩) وصححه الحاكم وحسنه الترمذي.

(٣) ٧٠ مفتاح جـ١.

الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله ـ سبحانه ـ إنما يجب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى إليه. وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده.

(١)ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة، فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلى العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل على غايتها؟!

قيل: كل من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مراده لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات الأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم بوحدانيته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها. فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته. وأيضًا فإن العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره، فهو متضمن للغاية والوسيلة.

وقولكم: إن العمل غاية، إما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط، فإن أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم، وإن أريد به الثاني وهو عمل

---

(١) ١٧٨ مفتاح جـ١.

الجوارح فقط فليس بصحيح، فإن أعمال القلوب مقصودة ومرادة لذاتها، بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها، فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلًا وللجوارح تبعًا.

وكذلك الأعمال المقصودة بها أولًا صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه، وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة له، وإن كان كثير منها مرادًا لأجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاته وطهارته واستقامته، فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة، وأن العلم كذلك.

وأيضًا فالعلم الذي هو وسيلة إلى العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه، فالعمل أشرف منه.

وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه، فهذا لا يقال: إن العمل المجرد أشرف منه، فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره، ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلى الله، والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى، وبما تقطع تلك المسافات إلى غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه، فكيف يقال: إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم خير من فضل العبادة، فإذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلى مجرد العبادة، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطلاق

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ﴾.

[(١)] ثبت في الصحيحين أنه ﷺ شرب عسلًا في بيت زينت بنت جحش، فاحتالت عليه عائشة وحفصة، حتى قال: «لن أعود له». وفي لفظ: «وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا»[(٢)].

وفي سنن النسائي عن أنس: «أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾»[(٣)].

---

(١) ١٤٣ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٢) ومسلم (رقم ١٤٧٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٨٩) (٩/ ٣٧٦-٣٧٧) وشرح النووي (١٠/ ٧٤-٧٥).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٦ رقم ٨٩٠٧) وفي المجتبى (رقم ٣٩٥٩) والضياء في المختارة (٥/ ٦٩-٧٠ رقم ١٦٩٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٣ رقم ١٤٨٥٣) وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٣٧٦) والصنعاني في سبل السلام (٣/ ١٧٨) وانظر: نيل الأوطار (٧/ ٥٦).

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: «إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها. وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾»(١) [الأحزاب: ٢١].

وفي جامع الترمذي عن عائشة قالت: «آلى رسول الله ﷺ من نسائه وحرم، فجعل الحرام حلالًا. وجعل في اليمين كفارة»(٢) هكذا رواه مسلمة بن علقمة عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة. ورواه علي بن مسهر وغيره عن الشعبي عن النبي ﷺ مرسلًا. وهو أصح. انتهى كلام أبي عيسى.

وقولها: «جعل الحرام حلالًا» أي جعل الشيء الذي حرمه وهو «العسل» أو الجارية» حلالًا، بعد تحريمه إياه. وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن عبدالله بن هبيرة عن قبيصة بن ذؤيب قال: سألت زيد بن ثابت، وابن عمر عمن قال لامرأته «أنت عليَّ حرام؟ فقالا جميعًا: كفارة يمين»(٣).

وقال عبدالرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن مسعود قال في التحريم: «هي يمين يكفرها»(٤). قال ابن حزم: وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ.

وقال الحجاج بن منهال: حدثنا جرير بن حازم قال: «سألت نافعًا مولى ابن عمر عن الحرام: أطلاق هو؟ قال: لا، أو ليس قد حرم رسول الله ﷺ جاريته فأمره الله ﷻ أن يكفر عن يمينه، ولم يحرمها عليه(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٧٦) وشرح النووي (١٠/ ٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٢٠١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٢ رقم ١٤٨٤٨) وابن ماجه (رقم ٢٠٧٢) وابن حبان (١٠/ ١٠٤ رقم ٤٢٧٨) وفي موارد الظمآن (رقم ١٣١٧) وتمام في فوائده (٢/ ٢٤٩ رقم ١٦٥٢) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٧٦) وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٢٢).

(٣) انظر: المحلى لابن حزم (١٠/ ١٢٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٠١ رقم ١١٣٦٦) والطبراني في الكبير (٩/ ٣٢٧ رقم ٩٦٣٢) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٣٧): رواها كلها الطبراني ورجاله ثقات إلا أن مجاهداً لم يدرك ابن مسعود.

(٥) انظر: المحلى (١٠/ ١٢٦).

[(١)]وأما من قال: إنه يمين مكفرة بكل حال فمأخذ قوله: إن تحريم الحلال ـ من الطعام والشراب واللباس ـ يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة. فإن الله سبحانه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ١ ـ ٢].

ولابد أن يكون تحريم الحلال داخلًا تحت هذا الفرض، لأنه سببه، وتخصيص محل السبب من جملة العام ممتنع قطعًا، إذ هو المقصود بالبيان أو لا. فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان، وهو ممتنع، وهذا استلالال في غاية القوة.

فسألت عنه شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: يعم التحريم، لكنه يمين كبرى في الزوجة، كفارتها كفارة الظهار، ويمين صغرى فيما عداها، كفارتها كفارة اليمين بالله، قال: وهذا معنى قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم «إن التحريم يمين تكفر». فهذا تحرير المذاهب في هذه المسألة نقلًا، وتقريرها استدلالًا. ولا يخفى على من آثر العلم والإنصاف. وجانب التعصب والاعتساف، ونصرة ما بنى عليه من الأقوال: الراجح من المرجوح، والله المستعان.

وقد تبين بما ذكرنا أن من حرم شيئًا غير الزوجة، من الطعام، والشراب، واللباس، أو أمته: لم يحرم عليه بذلك، وعليه كفارة يمين، وفي هذا خلاف في ثلاثة مواضع:

أحدها: أنه لا يحرم، وهذا قول الجمهور، وقال أبوحنيفة: يحرم تحريمًا مقيدًا، تزيله الكفارة، كما إذا ظاهر من امرأته، فإنه لا يحل له وطؤها حتى يكفر، ولأن الله ـ سبحانه ـ سمى الكفارة في ذلك تحلة، وهي ما يوجب الحل، فدل على ثبوت التحريم قبلها، ولأنه سبحانه قال لنبيه ﷺ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ولأنه تحريم لما أبيح له، فيحرم بتحريمه، كما لو حرم زوجته.

ومنازعوه: يقولون: إنما سميت الكفارة تحلة من الحل، الذي هو ضد العقد. لا

(١) ١٥٢ زاد المعاد جـ٤.

من الحِل الذي هو مقابل التحريم. فهي تحل اليمين بعد عقدها، وأما قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ فالمراد: تحريم الأمة أو العسل ومنع نفسه منه، وذلك يسمى تحريمًا. فهو تحريم بالقول لا إثبات للتحريم شرعًا.

وأما قياسه على تحريم الزوجة بالظهار، أو بقوله: «أنت عليَّ حرام» فلو صح هذا القياس لوجب تقديم التكفير على الحنث، قياسًا على الظهار، إذا كان في معناه. وعندهم لا يجوز التكفير إلا بعد الحنث. فعلى قولهم: يلزم أحد أمرين ولا بد: إما أن يفعله حرامًا، وقد فرض الله تحلة اليمين. فيلزم كون المحرم مفروضًا، أو من ضرورة المفروض. لأنه لا يصل إلى التحلة إلا بفعل المحلوف عليه، أو إنه لا سبيل له إلى فعله حلالًا، لأنه لا يجوز تقديم الكفارة، فيستفيد بها الحل. وإقدامه عليه ـ وهو حرام ـ ممتنع. هذا ما قيل في المسألة من الجانبين.

وبعد فلها غور، وفيها دقة وغموض. فإن من حرم شيئًا فهو بمنزلة من حلف بالله على تركه. ومن حلف على تركه لم يجز له هتك حرمة المحلوف به بفعله إلا بالتزام الكفارة. فإذا التزمها جاز له له الإقدام على فعل المحلوف عليه ويأذن له فيه وإنما يأذن له فيه ويبيحه إذا التزم ما فرض الله من الكفارة، فيكون إذنه له فيه وإباحته بعد امتناعه منه بالحلف أو التحريم: رخصة من الله له، ونعمة منه عليه، بسبب التزامه لحكمه الذي فرض له من الكفارة، فإذا لم يلتزمه بقي المنع الذي عقده على نفسه إصرًا عليه. فإن الله إنما رفع الآصار عمن اتقاه والتزم حكمه. وقد كانت اليمين في شرع من قبلنا يتحتم الوفاء بها، ولا يجوز الحنث، فوسع الله على هذه الأمة، وجوز لها الحنث بشرط الكفارة، فإذا لم يكفر ـ لا قبل ولا بعد ـ لم يوسع له في الحنث. فهذا معنى قوله: «إنه يحرم حتى يكفر» وليس هذا من مفردات أبي حنيفة، بل هو أحد القولين في مذاهب أحمد...

[1]قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

(١) ٧٦ التبيان.

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره وأعوانه ومعلمه فهو المهدي، والله هاديه وناصره.

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

[1]قال علي ﷺ علموهم وأدبوهم[2] وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير[3]. وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال رسول الله ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**»[4] ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها والتفريق بينهم في المضاجع.

وقد روى الحاكم عن أبي النضر الفقيه ثنا محمد بن حمويه ثنا أبي ثنا النصر بن محمد الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن عكرمة حدثنا ابن عباس عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «**افتحوا على صبيانكم أول كلمة [بـ] لا إله إلا الله، ولقنوهم عند الموت: لا إله إلا الله**»[5].

---

(١) ١٣٣ تحفة المودود.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٣٩٧ رقم ٨٦٤٨) والحسين بن الحسن بن حرب المروزي في البر والصلة (رقم ١٨٩) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٣٢٣).

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٦٥٩) ومختصر شعب الإيمان (ص ١٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٢٩ رقم ٣٠٥١) والدارقطني (١/ ٢٣٠ رقم ٢) والحاكم (١/ ٣١١ رقم ٧٠٨) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٥٦ رقم ٤١٢٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٤٨).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٣٩٧-٣٩٨ رقم ٨٦٤٩) والديلمي في الفردوس (١/ ٧١ رقم ٢٠٧) وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٤٦).

وفي تاريخ البخاري من رواية بشر بن يوسف عن عامر بن أبي عامر سمع أيوب بن موسى القرشي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**ما نحل والد ولدًا أفضل من أدب حسن**»(١)، قال البخاري: ولم يصح سماع جده من النبي.

وفي معجم الطبراني من حديث سماك عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: «**لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين**»(٢)، وذكر البيهقي من حديث محمد بن الفضل بن عطية وهو ضعيف عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله! قد علمنا ما حق الوالد، فما حول الولد؟ قال: «**أن يحسن اسمه، ويحسن أدبه**»(٣).

قال سفيان الثوري: ينبغي للرجل أن يُكْرِه ولده على طلب الحديث، فإنه مسئول عنه(٤)، وقال: إن هذا الحديث عِزٌّ، من أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها(٥). وقال عبدالله بن عمر: أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته؟ وماذا

---

(١) أخرجه البيهـقي في الكبرىٰ (٢/ ١٨ رقم ٢١٠٦) والترمذي (رقم ١٩٥٢) والحاكم (٤/ ٢٩٢ رقم ٧٦٧٩) وأحمد (٣/ ٤١٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٢٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥١ رقم ١٢٩٥) وعبد بن حميد (رقم ٣٦٢) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٣٢٦) وقال الترمذي: غريب.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٤٦ رقم ٢٠٣٢) والحاكم (٤/ ٢٩٢ رقم ٧٦٨٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٩٩ رقم ٨٦٥٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١١٢) وابن حرب المروزي في البر والصلة (رقم ١٦٤) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٣/ ٤٠٠) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٣١١).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٥٨) وابن حرب المروزي في البر والصلة (رقم ١٥٥) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ١٧١) والديلمي في الفردوس (٢/ ١٣١ رقم ٢٦٧٠) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٧): رواه البزار وفيه عبدالله بن سعيد المقبري وهو متروك. وانظر: فيض القدير (٢/ ٥٣٨) (٣/ ٣٩٤) والمغني (٩/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٥٩) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ١٢٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٦٥).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٦٠) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ٦٢) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٦٦).

علمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك[١].

وذكر البيهقي من حديث مسلم بن إبراهيم حدثنا شداد بن سعيد عن الحريري عن أبي سعيد وابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من ولد له ولد، فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثمًا، فإنما إثمه على أبيه»[٢].

وقال سعيد ابن منصور حدثنا حزم قال سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤] فقال يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا. بل والله في الدنيا، قال وما هي؟ قال والله أن يري الله العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه: طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله ﷻ[٣].

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راع على الناس، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسئول عنه، ألا فلكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»[٤].

ومن حقوق الأولاد العدل بينهم في العطاء والمنع ففي السنن ومسند أحمد وصحيح ابن حبان من حديث النعمان بن بشير قال، قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٨٤ رقم ٤٨٧٧) وفي شعب الإيمان (٦/ ٤٠٠ رقم ٨٦٦٢) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٣٢٩، ٣٣٤).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠١ رقم ٨٦٦٦) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ١٧٣).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٢ رقم ٨٦٦٨) وانظر: تغليق التعليق (٤/ ٢٧١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٨٩٣) ومسلم (رقم ١٨٢٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٨١) وشرح النووي (١٢/ ٢١٣-٢١٤).

أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»[١]. وفي صحيح مسلم أن امرأة بشير قالت: أنحل ابني غلامًا، وأشهد لي رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي. قال: «له إخوة؟» قال: نعم، قال: «كلهم أعطيت ما أعطيته؟» قال: لا، قال: «فليس بصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق»[٢]. ورواه الإمام أحمد، وقال فيه: «لا تشهدني على جور، إن لابنك عليك من الحق أن تعدل بينهم»[٣].

وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير أن أباه أتى به النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال: إني نحلت ابني هذا غلامًا كان لي، فقال رسول الله ﷺ: «أكل ولدك نحلت مثل هذا؟»قال: لا، فقال: «ارجعه»[٤].

وفي رواية لمسلم - فقال: «فعلت هذا بولدك كلهم؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»[٥]، فرجع أبي في تلك الصدقة.

وفي الصحيح: «أشهد على هذا غيري»[٦] وهذا أمر تهديد، لا إباحة، فإن تلك العطية كانت جورًا بنص الحديث، ورسول الله - عليه الصلاة والسلام - لا يأذن لأحد أن يشهد على صحة الجور، ومن ذا الذي كان يشهد على تلك العطية، وقد أبى رسول الله ﷺ أن يشهد عليها، وأخبر أنها لا تصلح، وأنها جور، وأنها خلاف العدل. ومن العجب أن يحمل قوله: «اعدلوا بين أولادكم» على غير الوجوب، وهو أمر مطلق

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ١١٩ رقم ٦٥١٤) وفي المجتبى (رقم ٣٦٨٧) وأبو داود (رقم ٣٥٤٤) وأحمد (٤/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٦٢٤) وانظر: شرح النووي (١١/ ٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢١٤) والتمهيد (٧/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨٦) ومسلم (رقم ١٦٢٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢١٣) وشرح النووي (١١/ ٦٥-٦٦).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٦٢٣) وانظر: شرح النووي (١١/ ٦٥).

(٦) أخرجه مسلم (رقم ١٦٢٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢١٣-٢١٤) وشرح النووي (١١/ ٦٦-٦٧).

مؤكد ثلاث مرات، وقد أخبر الآمر به أن خلافه جور، وأنه لا يصلح، وأنه ليس بحق، وما بعد الحق إلا الباطل، هذا والعدل واجب في كل حال فلو كان الأمر به مطلقًا لوجب حمله على الوجوب، فكيف وقد اقترن به عشرة أشياء تؤكد وجوبه فتأملها في ألفاظ القصة.

وقد ذكر البيهقي من حديث أبي أحمد بن عدي حدثنا القاسم بن مهدي حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبدالله بن معاذ عن معمر عن الزهري عن أنس: أن رجلًا كان جالسًا مع النبي ﷺ فجاء بني له فقبله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**فما عدلت بينهما**»(١)، وكان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في الصلة.

وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقًا فللابن على أبيه حق، فكما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨] قال تعالى: ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

قال علي بن أبي طالب: علموهم وأدبوهم، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**اعدلوا بين أولادكم**»، فوصية الله للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم، قال الله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ [الإسراء: ٣١] فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال: يا أبت إنك عققتني صغيرًا فعققتك كبيرًا،

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤١٠ رقم ٨٧٠٠) وابن عدي في الكامل (٤/ ٢٣٩).

وأضعتني وليدًا فأضعتك شيخًا.

[(١)]ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ عما عوده المربي في صغره من: حرد، وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولابد يومًا ما، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها.

وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل، والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدًا.

وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب، فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئًا أعطاه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا الآخرة وحرمه كل خير.

ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذ بأضدادها ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل، فإن الكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا وإما في العقبى وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب[(٢)].

---

(١) ١٤٢ تحفة المودود.

(٢) رحم الله القائل: بَصُرتَ بالرَّاحَةِ الكُبْرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا تُنالُ إلّا علىٰ جسرٍ من التَّعَبِ

هذا بيت من بحر البسيط وينسب إلى أبي تمام: حبيب بن أوس الطائي أحد أمراء البيان المتوفى ٢٣١هـ.

قال يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم[1]، ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز، فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيرًا سهل عليه كبيرًا.

ويجنبه فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام، فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوت على العبد خير دنياه وآخرته، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فسادًا يعز عليه بعده صلاحه، وكم من أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهوته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء.

والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساده أو كلامه له أو الأخذ من يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومتى سهل عليه ذلك فقد سهل الدياثة؛ ولا يدخل الجنة ديوث، فما أفسد الأبناء مثل تفريط الآباء وإهمالهم واستسهالهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمده العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها وإعراضهم عما أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح، حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم هو من عقوبة الآباء.

ويجنبه لبس الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته، كما يجنبه اللواط وشرب

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦١٢) بلفظ: لا يستطاع العلم براحة الجسم، وانظر: شرح النووي (٥/ ١١٣) والديباج على مسلم (٢/ ٢٦٦).

الخمر والسرقة والكذب، وقد قال النبي ﷺ: «**يحرم الحرير والذهب على ذكور متي، وأحل لإناثهم**»[(١)]، والصبي وإن لم يكن مكلفًا فوليه مكلف، لا يحل له تمكينه من المحرم، فإنه يعتاده ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قول العلماء، واحتج من لم يره حرامًا عليه بأنه غير مكلف، فلم يحرم لبسه للحرير كالدابةوهذا من أفسد القياس، فإن الصبي وإن لم يكن مكلفًا فإنه مستعد للتكليف، ولهذا لا يمكن من الصلاة بغير وضوء، ولا من الصلاة عريانًا ونجسًا، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط.

ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله علىٰ غيره ما كان مأذونًا فيه شرعًا، فإنه إن حمل علىٰ غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعيًا، فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خاليًا، فإنه يتمكن فيه، ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك ورأىٰ عينه مفتوحة إلىٰ صنعة من الصنائع مستعدًا لها قابلًا لها وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر علىٰ كل أحد لتقوم حجة الله علىٰ العبد، فإن له علىٰ عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم.

[(٢)]فإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلًا واحتمالًا للعبادات فيضرب علىٰ ترك الصلاة، كما أمر به النبي ﷺ، وهذا ضرب تأديب وتمرين، وعند بلوغ العشر يتجدد

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٢٠٧-٢٠٨ رقم ٥٩١) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ٤٣٧ رقم ٩٤٤٨، ٩٤٤٩) وأبو داود (رقم ٤٠٥٧) وابن ماجه (رقم ٣٥٩٥) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٤٢٥ رقم ٤٠١٩، ٤٠٢٠) والترمذي (رقم ١٧٢٠) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٩٦).

(٢) ١٧٩ تحفة المودود.

له حال أخرىٰ يقوىٰ فيها تمييزه ومعرفته، ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلىٰ وجوب الإيمان عليه في هذا الحال، وأنه يعاقب علىٰ تره، وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره، وهو قول قوي جدًا، وإن رفع عنه قلم التكليف بالفروع، فإنه قد أعطىٰ آلة معرفة الصانع والإقرار بتوحيده وصدق رسله، وتمكن من نظر مثله واستدلاله كما هو متمكن من فهم العلوم والصنائع، ومصالح دنياه فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله مع أن أدلة الإيمان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها...

[1]... وسمعت شيخنا ـ رحمه الله ـ يقول: تنازع أبوان صبيًا عند بعض الحكام فخيره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: اسأله: لأي شيء يختار أباه؟ فسأله. فقال: أمي تبعثني كل يوم للكتاب، والفقيه يضربني، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان، فقضىٰ به للأم، وقال: أنت أحق به.

قال شيخنا: وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي وأمره الذي أوجبه الله عليه: فهو عاص، ولا ولاية له عليه. بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له. بل إما أن يرفع يده عن الولاية، ويقام من يفعل الواجب. وإما أن يضم إليه من يقوم معه بالواجب؟ إذ المقصود طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان.

قال شيخنا: وليس هذا الحق من جنس الميراث الذي يحصل بالرحم والنكاح والولاء، سواء كان الوارث فاسقًا أو صالحًا، بل هذا من جنس الولاية التي لا بد فيها من القدرة علىٰ الواجب والعلم به وفعله بحسب الإمكان.

قال: فلو قدر أن الأب تزوج امرأة لا تراعي مصلحة ابنته ولا تقوم بها، وأمها أقوم بمصلحتها من تلك الضرة، فالحضانة هنا للأم قطعًا.

قال: ومما ينبغي أن يعلم: أن الشارع ليس عنه نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقًا، ولا تخيير الولد بين الأبوين مطلقًا. والعلماء متفقون علىٰ أنه لا يتعين أحدهما مطلقًا. بل لا يقدم ذو العدوان والتفريط علىٰ البر العادل المحسن. والله أعلم.

---

(١) ٣٧٠ زاد المعاد جـ٤.

[(١)]قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم[(٢)].

وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

[(٣)]...قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. المراد الأمر في الدنيا، لأن الآخرة ليس فيها أمر ولا نهي علىٰ الملائكة ولا غيرهم؛ لأن التعبد زائل. وفي البخاري عن علي: اليوم عمل لا حساب، وغدًا حساب ولا عمل[(٤)].

قلت: هذا وهم منه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فإن الله تعالىٰ يأمر الملائكة يوم القيامة بأخذ الكفار والمجرمين إلىٰ النار، وسوقهم إليه، وتعذيبهم فيها، ويأمر عباده بالسجود له فيخرون سجدًا إلا من منعه الله من السجود، ويأمر المؤمنين فيعبرون الصراط، ويأمر خزنة الجنة بفتحها لهم، ويأمر خزنة النار بفتحها لأهلها، ويأمر ملائكة السموات بالنزول إلىٰ الأرض، ويأمر بشأن البعث كله وما بعده، فالأمر يومئذ لله، ولا يعصىٰ الله في ذلك اليوم طرفة عين، وأوامره ذلك اليوم: للثواب والعقاب والشفاعة وغيرهم تضبطها قدرة الخالق، فكيف يقال: ليس في الآخرة أمر ولا نهي، حتىٰ يقال: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون في الدنيا. أفترىٰ الله ﷻ لا يأمرهم يوم القيامة في أمر النار بشيء فلا يعصونه فيه.

نعم ليست الآخرة دار حرث، وإنما هي دار حصاد، وأوامر الرب ونواهيه ثابتة في الدارين، وكذلك أوامر التكليف ثابتة في البرزخ ويوم القيامة، وحكاه الأشعري في

---

(١) ٣٧٥ مدارج جـ٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٢).

(٣) ١٠٥ بدائع جـ٣.

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله قبل حديث (رقم ٦٤١٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٧).

مقالاته عن أهل السنة في تكاليف من لم تبلغه الدعوة في الدنيا: أن يكلفوا يوم القيامة، فقول القائل: الآخرة ليست دار تكليف ولا أمر ولا نهي: قول باطل، ودعوى فاسدة. والله الموفق.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

[1]جعل وقاية شر السيئات ـ وهو تكفيرها ـ بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات ـ وهو حصول ما يحب العبد ـ منوطًا بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول، المعدول به عن فاعل قصدًا للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد. فقال عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع»[2]، وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي: «أن يستغفر

---

(١) ٣٠٩ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٠٣) والطبري في تفسيره (٢٨/ ١٦٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٦٢ رقم ١٨٩٢٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٥٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٩ رقم ٣٤٤٩١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٩٤٩) وهناد في الزهد (٢/ ٤٥٣-٤٥٤ رقم ٩٠١) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠٤).

باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحًا، تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب، وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان،ومهاجرة سيء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ. فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ

ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

(١)...ذكر ابن أبي داود في تفسير عن وهب بن منبه قال: إن الملائكة حين دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم، وحرص على كرامتهم. وخالفته امرأته إلى فساق قومه، فأخبرتهم أنه ضاف لوطًا أحسن الناس وجهًا وأنضرهم جمالًا وأطيبهم ريحًا(٢)، فكانت هذه خيانتها التي ذكر الله ﷻ في كتابه. [وفيه] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم: ١٠] قال: والله ما زنتا ولا بغت امرأة نبي قط. فقيل له: فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوط؟ فقال: أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوط فإنها كانت تدل على الضيف.

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبدالوارث، حدثنا القاسم بن عبدالرحمن، حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي عمل قوم لوط»**(٣).

وقال هشام بن عمار: حدثنا عبدالعزيز الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عمل عمل قوط لوط»**(٤) رواه الإمام أحمد.

---

(١) ٣٩٥ روضة المحبين.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٠٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٧ رقم ٨٠٥٧) وابن ماجه (رقم ٢٥٦٣) والترمذي (رقم ١٤٥٧) وأبو يعلى (٤/ ٩٧ رقم ٢١٢٨) وأحمد (٣/ ٣٨٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الترمذي: حسنٌ غريبٌ. وانظر: تحفة الأحوذي (٥/ ١٩).

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٦ رقم ٨٠٥٢) والنسائي في الكبرى مختصراً (٤/ ٣٢٢ رقم ٧٣٣٩) والبيهقي =

وقال القعنبي: حدثنا عبدالعزيز هو الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبدالله بن حنطب المخزومي، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه أعمى عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط: ثلاثًا، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة»**(١) هذا الإسناد على شرط البخاري.

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا بشر بن المفضل، عن خالد الحذاء، عن محمد بن سيرين، عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«وإذا باشر الرجل الرجل فهما زانيان»** وفي لفظ: **«إذا أتى الرجل الرجل»**(٢).

وفي المسند والسنن من حديث عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقتلوا الفاعل والمفعول به»**. وفي لفظ: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**(٣). وإسناده على شرط البخاري.

= في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٤) وعبدالرزاق (٧/ ٣٦٥ رقم ١٣٤٩٤) والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٨ رقم ١١٥٤٦) وأحمد (١/ ٢١٧، ٣١٧) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٣٢).

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٦ رقم ٨٠٥٢) وابن حبان (١٠/ ٢٦٥ رقم ٤٤١٧) وفي موارد الظمآن (رقم ٥٣) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٤) وأبو يعلى (٤/ ٤١٤ رقم ٢٥٣٩) وأحمد (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣٣ رقم ١٦٨١٠) وفي الشعب (٤/ ٣٧٥ رقم ٥٤٥٨) قال البيهقي في السنن: ومحمد بن عبدالرحمن هذا لا أعرفه، وهو منكر بهذا الإسناد. وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٣٠٢): رواه البيهقي من رواية أبي موسى، وقال في إسناده من لا أعرفه. قلت: قد عرفه ابن أبي حاتم، ونقل عن والده توهينه. قال: وإسناده منكر. قلت: وله إسناد آخر فيه مجهول.

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٥ رقم ٨٠٤٧) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٨٢٠) وأبو داود (رقم ٤٤٦٢) وابن ماجه (رقم ٢٥٦١) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٦) والترمذي (رقم ١٤٥٦) والدارقطني (٢/ ١٢٤ رقم ١٤٠) والطبري في تهذيب الآثار (١/ ٥٥٤ رقم ٨٧٠) وعبدالرزاق =

وروىٰ سهيل بن أبي صالح [عن أبيه]، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فارجموه**» أو قال: «**فاقتلوا الفاعل والمفعول به**».

وحرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك(١).

(٢)فاشتملت هذه الآيات علىٰ ثلاثة أمثال: مثل للكفار، ومثلين للمؤمنين، فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب علىٰ كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو وصلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلًا بالله وحده علىٰ أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئًا: ﴿ وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠] قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئًا، قال الله تعالىٰ: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ٣] وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ٤٨] وقال: ﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ

(٧/ ٣٦٤ رقم ١٣٤٩٢) والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٢ رقم ١١٥٢٧) وأبو يعلىٰ (٥/ ١٢٨ رقم ٢٧٤٣) وأحمد (١/ ٣٠٠) وعبد بن حميد (رقم ٥٧٥) وضعفه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١١٦).

(١) قال ذلك الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٩٨) وانظر: سبل السلام (٤/ ١٤) ونيل الأوطار (٧/ ٢٨٨).

(٢) ١٨٨ أعلام جـ١.

هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣] وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن من تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرهم من عذاب الله، أو هو يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم، وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه بإبطاله، ومحاربة أهله ومعاداتهم.

وأما المثلان اللذان للمؤمنين، فأحدهما امرأة فرعون، ووجه المثل أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئًا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئًا في الآخرة، وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله فتأتي عامة؛ فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين مريم التي لا زوج لها، لا مؤمن ولا كافر، فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد: فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئًا.

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرهن عليه، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

قال يحيى بن سلام: ضرب الله المثل يحذر عائشة وحفصة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة.

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضًا اعتبار آخر، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئًا قذف أعداء الله: اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله عنه، مع كونها

الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين؛ فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه، وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدناه في حق النبي ﷺ؛ فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليه! وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التحريم

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ المُلْكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾.

[(١)]أما البركة فكذلك نوعان أيضًا. أحدهما بركة هي فعله ـ تبارك وتعالىٰ ـ والفعل منها بارك، ويتعدىٰ بنفسه تارة، وبأداة [علىٰ] تارة وبأداة [في] تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالىٰ. والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة. والفعل منها تبارك،ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك. وأما صفته تبارك فمختصة به تعالىٰ، كما أطلقها علىٰ نفسه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١]، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ [الفرقان: ١٠] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١] أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق علىٰ غيره، وجاءت علىٰ بناء السعة والمبالغة كتعالىٰ وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك علىٰ بناء تعالىٰ، الذي هو دال علىٰ كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال علىٰ كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنىٰ قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم. وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلىٰ خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء، وتعالىٰ

---

(١) ١٨٥ بدائع جـ٣.

عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل معناه: تعالى وتعاظم. وقيل تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك ارتفع. والمبارك المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره. وقال ابن عباس: بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضًا.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه ـ تبارك وتعالى ـ.

وتفسير السلف بدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل: تعالى وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناه أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى؟ هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا، فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين، فقال مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركًا ورسوله وبيته مباركًا والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة: فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك،، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة.

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من

الصلاة: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»[(١)].

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه ـ تعالى ـ بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا فيهبه حمدًا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصبر بذلك مباركًا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهًا: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(٢)] وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخر ساجدًا لربي فيفتح عليَّ من محامده بها لا أحسنه الآن»[(٣)] وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[(٤)] فدل على أن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١، ٥٩٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

(٤) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣٧٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠ رقم ٢٩٣١٨) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٣٩١) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال =

الله ﷻ له أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه، وبالله التوفيق.

***

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾.

(١)إن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه.

كما قال بعض السلف: من عبدالله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا.فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة(٢)، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ مرادًا به وجه الله.

الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال: «وذهاب غمي» مكان «همي» والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٠) وشرح النووي (١٧/ ٥-٦).

(١) ٨٢ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٣).

ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولًا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وأحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم.

***

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾.

(1)اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه.فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨ ـ ٩].

***

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾.

(١) ٢١٠ مدارج جـ١.

(١)إن الله تعالى وصف أهل النار بالجهل، وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾ [الملك: ١٠، ١١] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث، وهي: العقل والسمع والبصر. كما قال في موضع آخر: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتًا غير أحياء، وتارة أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرًا وعلى أبصارهم غشاوة، وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثني عليهم كما تقدم،والله المستعان.

(٢)واعلم أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلومًا بالعقل، مستقرًا في

---

(١) ٥٩ مفتاح جـ١.

(٢) ٤٩١ مدارج جـ٣.

الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول ـ سبحانه ـ عقيب تقرير ذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وينفي العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم يعترفون في النار: أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون. وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل.

وأخبر عنهم أنهم: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وأخبر عنهم أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئًا. وهذا إنما يكون في حق من خرج عن موجب العقل الصريح والفطرة الصحيحة.

ولو لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ و﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾ و﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ فائدة. فإنهم يقولون: عقولنا لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما هذا النظر والتفكر والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانية؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

وقبح الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال تعالي: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ

ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

ومن بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في ثمود: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣]. وقال في قوم لوط: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٥- ٧٩]. وقال تعالى في قوم لوط: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

***

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

[(١)] من ذلك احتجاجه ـ سبحانه ـ على إثبات علمه بالجهات كلها بأحسن دليل وأوضحه وأصحه، حيث يقول: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك: ١٣] ثم قرر علمه بذلك بقوله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤] وهذا من أبلغ التقرير. فإن الخالق لابد أن يعلم مخلوقه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي

(١) ٥٥ شفاء.

خلقه؟ وهذا التقرير مما يصعب علي القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور. فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها. ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه، فكفرهم السلف قاطبة.وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني تقدير أن يكون [من] في محل رفع على الفاعلية أو في محل نصب على المفعولية. فعلى التقدير الأول ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه؟ ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها، وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام. والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها. فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تخفيه الضمائر وتجنه الصدور.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤] وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض أي صاحبة الصدور، فإنها لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة.

وقد اختلف في إعراب (من خلق) هو النصب أو الرفع.

فإن كان مرفوعًا فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له، والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور، كيف لا يعلم الخالق ما خلقه، وهذا الاستدلال في غاية لظهور والصحة، فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته.

وإن كان منصوبًا فالمعنى ألا يعلم مخلوقه، وذكر لفظة (من) تغليبًا ليتناول العلم العاقل وصفاته على التقديرين، فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به.

وأيضًا فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلًا على علمه بها، فقال: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤] أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك

---

(١) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١.

غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم، فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة علي علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وعلم بالضرورة إنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له.

(١)نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فتأمل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره، وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وما أوجزه، وقال تعالى في صفة الكلام: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهًا. وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلًا على عدم الإلهية. وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع، وإلا لم يكن إلهًا، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨، ١٠] نبه بهذا الدليل العقلي القاطع أن الذي جعلك تتصرف وتتكلم وتعلم أولى أن يكون بصيرًا متكلمًا عالمًا، وأي دليل عقلي قطعي أقوى من هذا وأبين وأقرب إلى العقول؟ وقال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] فجعل سبحانه عدم

(١) ١٥٩ مختصر الصواعق جـ١.

البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلًا على عدم إلهية من عدمت منه هذه الصفات، وقد وصف الله سبحانه نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية. فوصف نفسه بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان. وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلًا علي عدم إلهيتها. فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل. وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟ ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضى والفرح والرحمة كمال فهو من سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل، بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعل باختياره ما شاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث يشاء، ويجيء إلى حيث شاء غير كمال فهو جاهل بالكمال والجماد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

***

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

(١)أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولًا منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها. وأخبر ـ سبحانه ـ أن جعلها مهادًا وفراشًا، وبساطًا وقرارًا وكفاتًا. وأخبر أنه دحاها وطحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها. وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار

(١) ١٧ فوائد.

والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها. ومن بركتها أن الحيوانات كلها وإرزاقها وأقواتها تخرج منها.

ومن بركتها أنك تودع فيها الحب، فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان.

ومن بركتها أنها تحمل الأذىٰ علىٰ ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواريٰ منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه،وتخرج له طعامه وشرابه؛ فهي أحمل شيء للأذىٰ وأعوده بالنفح، فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذىٰ وأقرب إلىٰ الخير.

والمقصود أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول، الذي كيفما يقاد ينقاد، وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولًا؛ فالماشي عليها يطأ علىٰ مناكبها، وهو أعلىٰ شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان، هي أعاليه. قالوا وذلك تنبيه علىٰ أن المشي في سهولها أيسر. وقالت طائفة، بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه.

والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي. وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها. وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول. ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها، فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن.

ثم نبه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] علىٰ أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل. فلا يحسن أن نتخذه وطنًا ومستقرًا، وإنما دخلناه لنتزود منه إلىٰ دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته، وقدرته وحكمته ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطنًا ومستقرًا، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته. فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم، وإليه النشور.

***

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝ ﴾.

[(١)]جمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلابد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه «أدرك لي لطيف الفطنة، وخفي اللطف، فإني أحب ذلك. قال: يا رب وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حبة فاعلم أني أنا ذكرتك بها» وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه.

***

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾.

[(٢)]كتاب لوجه الضرس: يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمن

(١) ٣٣ إغاثة جـ١.

(٢) ٣٨٣ زاد المعاد جـ٣.

الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] وإن شاء كتب: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١) [الأنعام: ١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الملك

والحمد لله رب العالمين



(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ١١).

سُورَةُ القَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾.

[(١)]الصحيح أن «نٓ» و«قٓ» و«صٓ» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسمًا به، وإما مخبرًا عنه، ما خلا سورتين سورة «كٓهيعٓصٓ» و«نٓ» كقوله: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [آل عمران: ١-٣]، ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ١] وهكذا إلىٰ آخره.

ففي هذا تنبيه علىٰ شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها. إذ هي مباني كلامه وكتبه، التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها علىٰ رسله، وهدىٰ بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم علىٰ التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصىٰ ما في أنفسهم. بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلىٰ المقصود، وأدله عليه.

وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. ولهذا عاب سبحانه علىٰ من عبد إلهًا لا يتكلم، وامتن علىٰ عباده بأن أقدرهم علي البيان بها بالتكلم. فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه علىٰ كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولىٰ أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات. فهي

---

(١) ١٢٦ التبيان.

دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته، وحكمته وكماله وكلامه، وصدق رسله.

وقد جمع سبحانه بين الأمرين ـ أعني القرآن ونطق اللسان ـ وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان. وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان. وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت. وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل. والصحيح من الفاسد، وبها جمع أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة؟ وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل؟ فآياته ـ سبحانه ـ في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان.

ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب.

فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه. وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين،والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له. فإذا هو حرف.

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها. ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني، أمرًا ونهيًا، وخبرًا واستخبارًا، ونفيًا وإثباتًا. وإقرارًا وإنكارًا، وتصديقًا وتكذيبًا، وإيجابًا واستحبابًا. وسؤالًا وجوابًا. إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذل صنعته ـ تبارك وتعالى ـ في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين. فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلىٰ وأجل.

وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور. كما افتتحت بالإقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية. فهي دالة علىٰ كمال قدرته ـ سبحانه ـ، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه.

وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها علىٰ المبدأ والمعاد، والخلق والأمر، والتوحيد والرسالة. فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وأن القرآن كلام الله. تكلم به حقًا، وأنزله علىٰ رسوله وحيًا. وبلغه كما أوحىٰ إليه صدقًا، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف. واشتمالها علىٰ آيات هذه المطالب وتقريرها. وبالله التوفيق.

ثم أقسم ـ سبحانه ـ بـ ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]. فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدىٰ آياته وأول مخلوقاته الذي جرىٰ به قدره وشرعه، وكتب به الوحي. وقيد به الدين. وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم. وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك. وأمنت به السبل والمسالك. وأقام في الناس أبلغ خطيب وأنصحه. وأنفعه لهم وأنصحه. وواعظًا تشفي مواعظه القلوب من السقم. وطبيبًا يبرئ بإذنه من أنواع الألم: يكسر العساكر العظيمة علىٰ أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك. والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين، فتعود أحسن من الوشي المرقوم. ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم. والأقلام نظام للأفهام. وكما أن اللسان بريد القلب، فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

والأقلام متفاوتة في الرتب. فأعلاها وأجلها قدرًا قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»[1].

واختلف العلماء. هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني. أصحهما أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمرو. قال: قال رسول الله ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء**»[2] فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش. والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا.

ولا يخلو قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» إلى آخره. إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة ـ وهو الصحيح ـ كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: اكتب. كما في لفظ: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**» بنصب أول، والقلم فإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، ليتفق الحديثان. إذ حديث عبدالله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير. والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «**لما خلق الله القلم قال له: اكتب**».

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

القلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٢٧٤ رقم ٣٣٦) وأبو داود (رقم ٤٧٠٠) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٤ رقم ٢٠٦٦٤) والترمذي (رقم ٢١٥٥) والبزار (٧/ ١٣٧ رقم ٢٦٨٧) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٥٧ رقم ٥٨) وفي الأوائل (رقم ١) والطيالسي (رقم ٥٧٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٣٥٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٨٩) (١٣/ ٣٩٤-٣٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٨٩) (١١/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٣-٢٠٤).

وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم. والعالم خدم لهم. وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم.

وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام: فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله ـ تبارك وتعالى ـ من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله. وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضًا حاكم غير محكوم عليه. فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق. وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده. وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام. وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان. وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول. فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل. الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب. ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة، ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم، وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم

بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن: قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله. وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه. وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه للصدق، والطرائق الحميدة،والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحسن مؤيد بالنور الإلهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم وسيرهم، وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولانًا، وأوسعها تصرفًا، وأشدها تشبثًا بسائر الموجودات: علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه.وهو القلم الذي تضبط بها الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده، فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب، فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال، فتراه بقلبك،وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر: قلم اللغة، وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها. وهذا القلم واسع التصرف جدًا بحسب سعة الألفاظ وكثرة

مجاريها وتنوعها.

القلم الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد علىٰ المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين علىٰ اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم.وهم الداعون إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال. وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل. فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله ـ سبحانه ـ أقسم به في كتابه، وتعرف إلىٰ غيره بأن علم بالقلم،إنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم. ولقد أبدع أبو تمام، إذ يقول في وصفه:

لـك القلـم الأعلـىٰ الـذي بـشباته ... يصاب مـن الأمـر الكلـىٰ والمفاصـل
لــه ريقــة طــل، ولكــن وقعهــا ... بآثــاره في الغــرب والــشرق وابــل
لعــاب الأفــاعي القــاتلات لعابــه ... وأرىٰ الجنــا اشــتارته أيــد عواســل
لــه الخلــوات الــلاء لــولا نجيهــا ... لـما احتفلـت للملـك تلـك المحافـل
فــصيح إذا اســتنقطته وهــو راكــب ... وأعجــم إن خاطبتــه وهــو راجــل
إذا مـا امتـضىٰ الخمـس اللطـاف وأفرغـت ... عليـه شـعاب الفكـر وهـي حوافـل
أطاعتــه أطــراف القنــا، وتفوضــت ... لنجواه ـ تقـويض الخيـام ـ الجحافـل
إذا اســتغزز الــذهن الــذكي وأقبلــت ... أعاليــه في القرطــاس وهــي أســافل
وقــد رفدتــه الخنــصران وشــددت ... ثــلاث نواحيــه الــثلاث الأنامــل
رأيــت جلــيلًا شــأنه وهــو مرهــف ... ضـنا وسـمينا خطبـه وهـو ناحـل[(١)]

(١) هذه الأبيات من بحر الطويل، تنسب إلىٰ أبي تمام: حبيب بن أوس الطائي أحد أمراء البيان، في شعره قوة وجزالة. وقد تقدم التعريف به مات سنة ٢٣١هـ. ذكر الأبيات الصولي في أدب الكاتب(٩١-٩٢).

والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه،وهو قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم:٢].

وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالًا عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر المكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولاسيما من أمي لا يقرأ كتابًا ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليمًا من الاختلاف، بريًا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثيرًا من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة.

ولو أن رجلًا أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضًا، أو قال قصيدة كذلك. أو صنف كتابًا كذلك، لشهد له العقلاء بالعقل، ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان ـ بل وقوع ـ معارضتها ومشاكلتها والإتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدي عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان، طائعة مختارة، وهي ترى عقولها أشد فقرًا وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟ فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي، ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق. وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها. ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب

بالإيمان والتقوىٰ. فكيف يكون متبوعهم مجنونًا، وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته، وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم. فنفىٰ عنه الجنون بنعمته عليه.

وقد اختلف في تقدير الآية، فقالت فرقة: الباء في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ باء القسم، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول. ما أنت بالله بكاذب. وهذا التقدير ضعيف جدًا؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم.وقالت فرقة: العامل في ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أداءة معنىٰ النفي، أو معنىٰ أنفي عنك الجنون بنعمة ربك.

ورد أبو عمر بن الحاجب، وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

وقال الزمخشري يتعلق ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ منفيًا كما يتعلق بعاقل مثبتًا، في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، ويستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرًا، وما ضرب زيد عمرًا، بعمل الفعل مثبتًا ومنفيًا إعمالًا واحدًا، ومحله النصب علىٰ الحال، أي ما أنت بمجنون منعمًا عليك بذلك. ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي. واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط علىٰ محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان:

أحدهما: نفي ذلك المعمول فقط، نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعًا، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع. والثاني ينفي المحكوم به، فينتفي معموله بانتفائه، فينتفي الذهاب في هذه الحال، فينتفي الإسراع بانتفائه. فإذا جعل ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ معمولًا لمجنون لزم أحد الأمرين. وكلاهما منتف جزمًا.

وهذا الاعتراض هنا فاسد؛ لأن المعنىٰ إذا حصل ما أنت بمجنون منعمًا عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعًا، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا

الكلام، ولا يفهم منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا.

ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وآخراه، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾ [القلم: ٣] أي غير مقطوع، بل هو دائم مستمر. ونكّر الأجر تنكير تعظيم. كما قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ [النازعات: ٢٦]، و﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ [هود: ١٠٣] [الشعراء: ٨] و﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ [ق: ٣٧] و﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ: ٣١] و﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥] وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير.

ثم قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهمًا. ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفى وكفى، فقالت: «كان خلقه القرآن»[1]. فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئًا بعد ذلك. ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي علي دين عظيم.

وسمى الدين خلقًا، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل والحكمة، والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقًا، هي أزكى الأخلاق، وأشرفها، وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن. فكان كلامه مطابقًا للقرآن تفصيلًا له وتبيينًا وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه. والجهاد في

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٤٦) ولفظه: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. وانظر: شرح النووي (٦/ ٢٥-٢٧).

إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن. وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى.

فإذا كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا. ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف، ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

(١) قال تعالى: ﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ ﴾[القلم: ١ ـ ٤].

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فاكتفى بذلك السائل، وقال: فهممت أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها. فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم.

وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل، ولهذا قيل في حد البخل (جهل مقرون بسوء الظن)، ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب وإخلاف الوعد والغلظة علي الناس، والانتقام ومقابلة الحسنة

(١) ١١٦ مفتاح جـ١.

بالسيئة والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله، وتقديم أمره على أمر الله، والتماوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه والغضب لها، والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبًا لله، فلا قولًا في أمره ولا بصيرة في دينه.

ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغي واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ووأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار.

وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر، بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه. وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل.

ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين وهو الذي أرشد إلى طاعة الرسل وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلى أهله لكفى به شرفًا وفضلًا.

وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل، فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه، والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح. وقد قيل العقل ملك، والبدن روحه وحواسه، وحركاته كلها رعية له، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها. ولهذا قيل: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه. وروي أنه لما أهبط آدم من الجنة أتاه

جبريل. فقال: إن الله أحضرك: العقل والدين والحياء، لتختار واحدًا منها. فقال: أخذت العقل. فقال الدين والحياء: أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان. فانحازا إليه.

والعقل: عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالًا منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما. ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي. ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب.

والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه به.

وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها، وعقله الغريزي لا يطيق رده عنها فهو غالبًا يؤتى من إقدامه، والأول من إحجامه، فإذا رزق العقل الغريزي عقلًا إيمانيًا مستفادًا من مشكاة النبوة لا عقلًا معيشيًا نفاقيًا يظن أربابه أنه على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة، ومؤنة الأذى في الله والموالاة فيه والمعاداة فيه، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة، فإنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله، والله الموفق المعين.

(١)قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال ابن عباس ومجاهد: لعلي دين عظيم، لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه. وهو دين الإسلام(٢). وقال الحسن ﷺ: هو آداب القرآن. وقال قتادة: هو ما كان يأمر

(١) ٣٠٤ مدارج جـ٢.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٣).

به من أمر الله. وينهي عنه من نهي الله.

والمعنى: إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

وفي الصحيحين. أن هشام بن حكيم «سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا».

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤] قال الإمام أحمد: عن ابن عيينة قال ابن عباس: «لعلي دين عظيم» وسئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» والدين فيه معنى الإذلال والقهر، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة، فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل، كما يقال دنته فأدان، أي قهرته فذل، قال الشاعر:

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين　　فأصبحوا بعزة وصيان

ويكون من الأدنى إلى الأعلى كما يقال دنت الله ودنت لله، وفلان لا يدين الله دينًا ولا يدين الله بدين. فدان الله أي أطاع الله وأحبه وأخافه، ودان لله أي خشع له وخضوع وذل وانقاد. والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر، وسمى الله ـ تعالى ـ يوم القيامة يوم الدين، لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم: إن خيرًا فخير وأن شرًا فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب.

***

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝﴾.

(٢)قد اختلف في تقدير قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦] فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة. والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعًا، فتعين حصوله للآخر. والجمهور

---

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي.

(٢) ١٣٦ التبيان.

على خلاف هذا التقدير. وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

(أحدها) أن الباء زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل. قاله أبو عبيد.

(الثاني) أن المفتون بمعنى الفتنة، أي ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة. والباء على هذا ليست بزائدة،. قاله الأخفش.

(الثالث) أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة، قاله الأخفش أيضًا.

(الرابع) أن الباء بمعنى في، والتقدير في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية. وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه. و(ستبصر) مضمن معنى تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد.

(١) وأما قوله [تعالى]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور. والصواب أن يبصر مضمن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «**المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان**»(٢). يروى بفتح الفاء وهو واحد، وبضمها وهو جمع فاتن كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون، فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

***

(١) ٤٩ روضة المحبين.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٠٧٠) والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٥٠ رقم ١١٦١١) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣١٩) وأبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ٧٣٠).

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝﴾.

[1]المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج مه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق.

وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة وقد آلمته، فجاءه الطبيب المداري الرفيق فتعرف حالها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقة، ثم اله عنها فلا تزال مادتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها. وهذا المثل أيضًا مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله...

***

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾.

[2]أما تقديم هماز على مشاء بنميم ففيه معنى آخر غير ما ذكره، وهو أن همزه عيب للمهموز وإزراء به وإظهار لفساد حاله في نفسه، فإن قاله يختص بالمهموز لا يتعداه إلى غيره.

والمشي بالنميمة يتعداه إلى من ينم عنده، فهو ضرر متعد.والهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به ما ينقل من الأذى اللازم إلى الأذى المتعدي المنتشر.

***

(١) ٢٨١ الروح.

(٢) ٦٩ بدائع جـ١.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم: ١٧، ١٨] أي لم يقولوا إن شاء الله؛ فمن حلف فقال إن شاء الله فقد استثنى؛ فإن الاستثناء استفعال من ثنيت الشيء، كأن المستثنى بإلا قد عاد على كلامه فثنى آخره على أوله بإخراج ما أدخله أولًا في لفظه، وهكذا التقيد بالشرط سواء؛ فإن المتكلم به قد ثنى آخر كلامه على أوله، فقيد به ما أطلقه أولًا، وأما تخصيص الاستثناء بإلا وأخواتها فعرف خاص للنجاة...

***

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

(٢)من ذلك: أن جداد النخل عمل مباح أي وقت شاء صاحبه، لكن لما قصد به أصحابه في الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله تعالى بإهلاكه. ثم قال: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٣٣] ثم جاءت السنة بكراهة الجداد بالليل، لكونه ذريعة إلى هذه المفسدة. ونص عليه غير واحد من الأئمة. كأحمد بن حنبل وغيره.

(٣)إنكاره سبحانه أن يسوي بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين، وأن حكمته وعدله يأبى ذلك.

أما الأول: فكقوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. فأخبر أن هذا حكم باطل جائز يستحيل نسبته إليه كما يستحيل نسبة الفقر

(١) ٧٣ أعلام جـ٤.
(٢) ٣٧٨ إغاثة جـ١.
(٣) ١٩٩ شفاء.

والحاجة والظلم إليه.

ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه، بل يقولون بوقوعه.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]. وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، فجعل سبحانه ذلك حكمًا سيئًا يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلًا على أن ينسب إليه.

بل أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره، وإن حكمته تأبى ذلك.

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة: ١٦].

فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته.

وأما الثاني: وهو أن لا يفرق بين المتماثلين فقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]. وقوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]. وقوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٧]. وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣]. وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلاهم وكبتهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]. والقرآن مملوء من هذا، يخبر تعالى أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضد حكم مضاده ومخالفه، وكل نوع من هذه الأنواع لو استوعبناه لجاء كتابًا مفردًا.

(١) قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الأخبار، لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ١٩] وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله. فلا يستوي عقبه وعينه، ولا رأسه ورجلاه. ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. فالله ﷻ قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع. وهذه

(١) ١٠٤ طريق الهجرتين.

أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاء للعين، ومنها ما يصلح للأتون والنار. وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال الحكمة. فكمال القدرة بخلق الأضداد وكمال الحكمة تنزيلها منازلها، ووضع كل منها في موضعه. والعالم من لا يلقي الحرب بين قدرة الله وحكمته ـ فإن آمن بالقدرة قدح في الحكمة وعطلها، وإن آمن بالحكمة قدح في القدرة ونقصها ـ بل يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولهما لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا قدرته ومشيئته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته. وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلًا، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد، وتعتبر ما علمت بما لم تعلم.

***

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

(1)قال أبو محمد بن حزم: وقد جاء عن عمر وعبدالرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ﵃: أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمدًا حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد(2). قالوا: ولا نعلم لهؤلاء مخالفًا من الصحابة، وقد دل على كفر تارك الصلاة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة.

أما الكتاب فقد قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾[القلم: ٣٥ـ٤٣].

---

(١) ١٥ الصلاة.

(٢) المحلى لابن حزم (٢/ ٢٤٢).

فوجه الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه.

ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم: ٤٢] وأنهم يدعون إلىٰ السجود لربهم ـ تبارك وتعالىٰ ـ فيحال بينهم وبينه، فلا يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم علىٰ ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا. وهذا يدل علىٰ أنه مع الكفار والمنافقين الذين تبقىٰ ظهورهم إذا سجد المسلمون كصياصي البقر. ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين.

(١)فإن قيل: فالآخرة دار جزاء، وليست دار تكليف، فكيف يمتحنون في غير دار التكليف.

فالجواب: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما في البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ وهي تكليف.

وأما في عرصة القيامة فقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢].

فهذا صريح في أن الله يدعو الخلائق إلىٰ السجود يوم القيامة، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسًا عقوبة لهم، لأنهم كلفوا به في الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢] دعوا إليه في وقت حيل بينهم وبينه، كما في الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد ﷺ «أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرىٰ ربنا» ـ فذكر الحديث بطوله، إلىٰ

(١) ٤٠٠ طريق الهجرتين.

أن قال: «فيقول: تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيقول المؤمنون: فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئًا ـ مرتين أو ثلاثًا ـ حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون نعم. فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقًا واحدًا، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رءوسهم»(١) وذكر الحديث.

وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسألة، فمن أجاب في الدنيا طوعًا واختيارًا أجاب في البرزخ، ومن امتنع من الإجابة في الدنيا منع منها في البرزخ، ولم يكن تكليفه في الحال وهو غير قادر قبيحًا، بل هو مقتضى الحكمة الإلهية، لأنه مكلف وقت القدرة وأبى، فإذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة.

والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار.

وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح، وفيه التكليف في عرصة القيامة، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة. فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول، والله أعلم.

***

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(٢)عن سفيان في قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤] قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر.

وقال عن سفيان: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة(٣). وسئل ثابت البناني عن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٨١) ومسلم (رقم ١٨٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥٠) وشرح النووي (٣/ ٢٧).

(٢) ١٣٩ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١١٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٣).

الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين[(١)].

وقال يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها، ثم شكر الله بما أعطاه أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجًا.

وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوىٰ عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها أقوامًا فهلكوا. وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

***

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

[(٢)]نهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨] وها هنا سؤال نافع، وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: ﴿ إِذْ نَادَىٰ ﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه، إذ يصير المعنى: لا تكن مثله في ندائه.

وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء، فأخبر أنه نجاه به، فقال: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١١٧).
(٢) ٣٣ عدة الصابرين.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: **«دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»**[1].

فلا يمكن أن ينهي عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربه. وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت، وشدة ذلك عليه، حتى نادى ربه وهو مكظوم.والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غيظًا وغضبًا أو هما وحزنًا عليه فلم يخرجه.

[2]وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

فكل عائن حاسد.وليس كل حاسد عائنًا. فلما كان الحاسد أعم من العائن: كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين، تصيبه تارة، وتخطئه تارة. فإن صادقته مكشوفًا لا وقاية عليه أثرت فيه ولابد، وإن صادفته حذرًا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام: لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام على صاحبها. وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء. فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله: من إعجاب العائن بالشيء ثم تتبعه

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٠٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٨ رقم ١٠٤٩٢) والحاكم (٢/ ٦٣٧ رقم ٤١٢١) وأحمد (١/ ١٧٠) والبزار (٤/ ٢٥ رقم ١١٨٦) والديلمي في الفردوس (٢/ ٢١٣ رقم ٣٠٤٢) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٣٢ رقم ٦٢٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٨): روى الترمذي طرفاً من آخره. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة. وانظر: فتح الباري (١١/ ١٤٧).

(٢) ٢٤٨ زاد المعاد جـ٣.

كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرها إلى المعين.

وقد يعين الرجل نفسه. وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه. وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني. وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عرف بذلك حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت. وهذا هو الصواب قطعًا.

والمقصود العلاج النبوي لهذه العلة. وهو أنواع.

وقد روى أبو داود في سننه عن الرباب ـ جدة عثمان بن حكيم الأنصاري ـ عن سهل بن حنيف قال: مررنا بسيل. فدخلت فاغتسلت فيه فخرجت محمومًا، فنما ذلك إلى رسول الله ﷺ. فقال: «مروا أبا ثابت يتعوذ». قالت: فقلت: يا سيدي، والرقى صالحة؟ فقال: «لا رقية إلا في نفس، أو حمة، أو لدغة»[(١)]. و«النفس» العين. يقال: أصابت فلانًا نفسه، أي عين. والنافس: العائن. و«اللدغة» بدال مهملة وغين معجمة وهي ضربة العقرب ونحوها.

فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي. ومنها: التعوذات النبوية:

نحو: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»[(٢)].

ونحو: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»[(٣)].

ونحو: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر: من شر ما خلق، وذرأ، وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٨٨٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٢ رقم ١٠٠٨٦) والحاكم (٤/ ٤٥٨ رقم ٨٢٧٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٢٩) وأحمد (٣/ ٤٨٦) والطبراني في الكبير (٦/ ٩٣ رقم ٥٦١٥) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٨٦) وانظر: عون المعبود (١٠/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦) وشرح النووي (١٧/ ٣١-٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١٠) (١١/ ١٢٥).

والنهار، إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن»[١].

ومنها: «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون»[٢].

ومنها: «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامات، ومن شر ما أنت آخذ بناصيته. اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم. اللهم إنه لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك. سبحانك وبحمدك»[٣].

ومنها: «أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر. وأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم. من شر ما خلق، وذرأ وبرأ[٤]، ومن شر كل ذي شر لا أطيق شره، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته. إن ربي على صراط مستقيم».

ومنها: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، أعلم أن الله على كل

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٧ رقم ١٠٧٩٢) وابن أبي شيبة (٥/ ٥١ رقم ٢٣٦٠١) وعبدالرزاق (١١/ ٣٥ رقم ١٩٨٣١) ومالك (٢/ ٩٥٠ رقم ١٧٠٥) وأحمد (٣/ ٤١٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٧٥ رقم ٤٧١٠) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٦٤ رقم ٣٧٢) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٣٦) وفي الأوسط (٥/ ٣١٥ رقم ٥٤١٥) وفي الكبير (٤/ ١١٤ رقم ٣٨٣٨) وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٥).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٩٠ رقم ١٠٦٠١) والترمذي (رقم ٣٥٢٨) وابن أبي شيبة (٥/ ٥٠ رقم ٢٣٥٩٨) ومالك (٢/ ٩٥٠ رقم ١٧٠٤) وأحمد (٢/ ١٨١) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٥ رقم ٩٣١) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٦٠) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٦٥٦) وابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ١٨٨ رقم ١١٦٧) وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٣٢٢ رقم ٧٠١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢ رقم ٧٧٣٢) وأبو داود (رقم ٥٠٥٢) والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٧ رقم ٦٧٧٩) وفي الصغير (رقم ٩٩٨) والديلمي في الفردوس (١/ ٤٦٤ رقم ١٨٨٩) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٠٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٧١٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٢٧).

(٤) أخرجه مالك (٢/ ٩٥١ رقم ١٧٠٧) وانظر: الاستذكار (٨/ ٤٤٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٣٥).

شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا: وأحصى كل شيء عددًا»[(١)] [(٢)].

[(٣)] ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجأ إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام، فهو مثل قوله: سمع الله لمن حمده. وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره، لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف وحم السجدة، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر، وأم نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٧) والطبراني في الدعاء (١/ ١٢٩ رقم ٣٤٣) وابن عساكر في تاريخه (٣٧/ ٤).

(٢) استمر المؤلف في ذكر الرقى وأحكام العائن قرابة كراسة، وسيأتي قريبًا إن شاء الله في تفسير سورة الفلق في بدائع الفوائد بحثًا موسعًا حول الحسد والسحر وغيرهما من ذكر سحر اليهود وغيرهم. (ج).

(٣) ٢٣٨ بدائع جـ٢.

(السبب الثاني): تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»(١) فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر.

(السبب الثالث): الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغي عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه. ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولًا فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه، بل بغي عليه وهو صابر، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًا.

(السبب الرابع): التوكل على الله فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) وأبو يعلى (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦) وأحمد (١/ ٢٩٣) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد (رقم ٦٣٦) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) وفي الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٣-١٨٤) وفتح الباري (١١/ ٤٩٢).

وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا.

وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله كادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره.

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

(**السبب الخامس**): فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة يقظة ومنامًا لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا.

فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما، فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقي الحاسد

الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية(١).

(٢)أخبر تعالىٰ عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرًا عامًا وخاصًا، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالىٰ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه علي عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يرد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلىٰ نعم أخرىٰ أكبر منها، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصىٰ أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القلم

والحمد لله رب العالمين



(١) بقية البحث في سورة الفلق. (ج).

(٢) ٨٠ التبيان.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ ﴾.

(١) وكل بالرياح ملائكة تصرفها بأمره وهم خزنتها. قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦] وقال غير واحد من السلف: عتت على الخزان، فلم يقدروا على ضبطها «ذكره البخاري في صحيحه»(٢).

***

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝ ﴾.

(٣) قال قتادة: أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت.

وقال الفراء: لتحفظها كل أذن، فتكون عظة لمن يأتي بعد، فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: قلب واع، وأذن واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه والرسول والموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعي القلب.

وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي ﷺ ولأمته، وقول الملك له: أسمع سمعت أذنك وعقل قلبك(٤)، فلما كان القلب وعاءً والأذن مدخل ذلك الوعاء

---

(١) ٦٥ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير تعليقاً عن ابن عيينة في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] قبل حديث (رقم ٣٣٤٣) وأخرجه عنه موصولاً أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٠٧ رقم ٨٠٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٧٧) (٨/ ٤٩٢).

(٣) ١٢٥ مفتاح جـ١.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٤) والترمذي (رقم ٢٨٦٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥) وعمدة القاري (٢٥/ ٢٨-٢٩).

وبابه، كان حصول العلم موقوفًا على حسن الاستماع وعقل القلب، والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه.

ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به.

وعقل الإنسان يسمى عقلًا لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك، ولهذا يسمى حجرًا لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه، فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه، فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التي يخاف شرودها.

وللإدراك مراتب بعضها أقوى من بعض، فأولها الشعور، ثم الفهم، ثم المعرفة، ثم العلم، ثم العقل.

ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان.

فخير القلوب ما كان واعيًا للخير ضابطًا له، وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله. فهذا قلب حجري، ولا كالمائع الأخرق الذي يقبل، ولكن لا يحفظ ولا يضبط، فتفهيم الأول كالرسم في الحجر، وتفيهم الثاني كالرسم على الماء، بل خير القلوب ما كان لينًا صلبًا يقبل بلينه ما ينطبع فيه، ويحفظ صورته بصلابته، فهذا تفهيمه كالرسم في الشمع وشبهه.

***

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

(١) قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه. وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال الكلبي: تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء.

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس، والعرش والكرسي،

(١) التبيان ١٠٩.

وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو ـ سبحانه ـ يصرف الأقسام كما يصرف الآيات.

ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرىٰ وما لا يرىٰ آية، ودليل علىٰ صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، ومن تأمل المخلوقات، ما يراه منها ومالا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت. كما أن سائر الموجودات ما يرىٰ منها وما لا يرىٰ حق.

كما قال تعالىٰ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] أي إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «إنه لحق مثل ما أنك ههنا» فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك علىٰ أن القرآن حق.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهرًا وباطنًا، ففي ذلك أبين دلالة علىٰ وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: ٤٠] وهذا رسوله البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل. فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولًا، ولناقض ذلك إضافته إلىٰ رسوله الملكي في سورة التكوير.

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالىٰ إلىٰ غيره، وأنه لم يتكلم به،

بل قاله من تلقاه نفسه، كما بين كذب من قال: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر. وسيصليه الله سقر.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أمورًا:

(أحدها) أنه ـ تعالىٰ ـ فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

(والثاني) أنه تكلم به حقيقة، لقوله: ﴿ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٠] ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله: ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ [السجدة: ١٣].ونظيره قوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]. وقوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].وما كان من الله فليس بمخلوق، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والأرض جميعًا منه، وهو مخلوق؛ لأن ذلك كله أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان، فإضافتها إلىٰ الله سبحانه وأنها منه إضافة خلق، كإضافة بيته، وعبده، وناقته، وروحه، وبابه ـ إليه.

بخلاف كلامه فإنه لابد أن يقوم بمتكلمه؛ إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فإذا أضيف إلىٰ الرب كان بمنزلة إضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيئته إليه.

ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد زعم أن الله لا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به. وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك. وإن زعم أن إضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة والقدرة إضافة صفة إلىٰ موصوف، وإضافة الكلام إليه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد تناقض، وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم، وفرق بين متماثلين حقيقة، وعقلًا، وشرعًا، وفطرة، ولغة.

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلىٰ الرسول بلفظ القول، وأضافه إلىٰ نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا. وقلت له: ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ونظائره.

فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا. وهذا قول الرسول ـ أي قاله مبلغًا ـ وهذا قوله مبلغًا عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق ـ وقل تلا آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله.

الأمر الثالث ما تضمنه قوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٠] أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبىٰ أن يتركهم سدىٰ: لا يأمرهم، ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم. بل يتركهم هملًا بمنزلة الأنعام السائمة.

فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلىٰ ما لا يليق به تعالىٰ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام ـ سبحانه البرهان القاطع علىٰ صدق رسوله،وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبىٰ أن يقر من تقوَّل عليه، وأفترىٰ عليه، وأضل عباده. واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق. فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره علىٰ ذلك؟

بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره، بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلًا: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره،وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر. ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها. فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها. ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه، الذي هو شر الخلق على الإطلاق. فمن جوَّز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعًا، ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل، وحكمة، وحجى. ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه، ونادى على جهله.

وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض اليهود.

قلت له ـ بعد أن أقضى في نبوة النبي ﷺ ـ إلى أن قلت له: إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص، فكان الكلام معكم في الرسول، والكلام الآن في تنزيه الرب ـ تعالى ـ.

فقال: كيف تقول مثل هذا الكلام؟ فقلت له: بيانه عليَّ.

فاسمع الآن: أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولًا، وإنما كان ملكًا قاهرًا قهر الناس بسيفه «حتى دانوا له، ومكث ثلاثًا وعشرين سنة يكذب على الله، ويقول: أوحي إليَّ ولم يوح إليه، وأمرني ولم يأمره، ونهاني ولم ينهه، وقال الله كذا ولم يقل ذلك، وأحل كذا وحرم كذا، وأوجب كذا، وكره كذا، ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبًا مفتريًا على الله وعلى أنبيائه، وعلى رسله وملائكته. ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده: يسفك دماءهم، ويأخذ أموالهم،ويسترق نساءهم وأبناءهم، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته، وهو في ذلك كله يقول: الله

أمرني بذلك، ولم يأمره.

ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل، ونسخ شرائعهم، وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم، فلا يخلو إما أن يكون الرب ـ تعالىٰ ـ عالمًا بذلك مطلعًا عليه من حاله، يراه ويشاهده أم لا.

فإن قلتم: إن ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالىٰ، ونسبتموه إلىٰ الجهل المفرط، إذ لم يطلع علىٰ هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه.

وإن قلتم: بل كان ذلك بعلمه واطلاعه ومشاهدته.

قيل لكم: فهل كان قادرًا علىٰ أن يغير ذلك ويأخذ علىٰ يده، ويحول بينه وبينه أم لا؟

فإن قلتم: ليس قادرًا علىٰ ذلك نسبتموه إلىٰ العجز المنافي للربوبية، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه منه علىٰ تنفيذ إرادتهم.

وإن قلتم: بل كان قادرًا، ولكن مكنه ونصره وسلطه علىٰ الخلق، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلىٰ أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة.

هذا لو كان مخلي بينه وبين ما فعله، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده، ومجيب دعواته ومهلك من خالفه وكذبه، ومصدقه بأنواع التصديق، ومظهر الآيات علىٰ يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم علىٰ أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك. وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الأتباع أمرًا خارجًا عن العادة. فظهر أن من أنكر كونه رسولًا نبيًا فقد سب الله وقدح فيه، ونسبه إلىٰ الجهل والعجز والسفه.

قلت له: ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم الله في الأرض وقتًا ما، ثم قطع دابرهم، وأبطل سنتهم، ومحا آثارهم وجورهم. فإن أولئك لم يعيدوا شيئًا من هذا، ولا أيدوا. ونصروا، وظهرت علىٰ أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب تعالىٰ بإقراره ولا بفعله ولا بقوله، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول، كفرعون ونمرود وأضرابهما.

ولا ينتقض هذا بمن ادعىٰ النبوة من الكذابين؛ فإن حاله كانت ضد حال الرسول

من كل وجه. بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول.

ومن حكمة الله ـ سبحانه ـ أن أخرج مثل هؤلاء إلى الوجود، ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين، كان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل.

والفرق بين هؤلاء وبينهم، فبضدها تتبين الأشياء، والضد يظهر حسنة الضد، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله لا نقول: إنه ملك ظالم، بل نبي كريم، من اتبعه فهو من السعداء، وكذلك من اتبع موسي فهو كمن اتبع محمدًا.

قلت له: بطل كل ما تموهون به بعد هذا؛ فإنكم إذا أقررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا الناس كلهم إلى الإيمان، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وسجل عليهم بالكفر، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم. فإن كان ذلك عدوانًا منه وجورًا لم يكن نبيًّا، وعاد الأمر إلى القدح في الرب ـ تعالى ـ وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحدًا مخالفته وترك أتباعه، ويلزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر.

***

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

(١)أي لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التقوّل عليه سبحانه، وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه. وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب.

(١) ٣٣٣ مدارج جـ١.

فإنه لم يسامح بغضبه. وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة.

[(١)] وقد أرشد سبحانه إلى هذا المسلك في غير موضع من كتابه، فقال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧] يقول سبحانه: لو تقول علينا قولًا واحدًا من تلقاه نفسه لم نقله ولم نوحه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه. هذا أحد القولين. قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

أحدهما: أن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه. قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيده من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده، فكأنه قال: لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) إليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين. وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ا هـ.

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئًا من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة. فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلًا عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

ويقول: ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ ﴾ [الحاقة: ٤٦] والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة.

قال ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه

---

(١) ١١٤ التبيان.

أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه.

قال: ومثله قوله ﷺ: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطع أبهري**»(١) والأبهر: عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم، فكنت كمن انقطع أبهره(٢).

ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٧] أي لا يحجزه مني أحد، ولا يمنعه مني.

الموضع الثاني قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤] وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لا يشق عليك.

والثاني: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي. وهذا القول أقوى من الأول لوجوه:

(أحدها) أن هذا خرج جوابًا لهم وتكذيبًا لقولهم: إن محمدًا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى عليَّ لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٢٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٤٥-٢٤٧).

(٢) تقدم في تفسير آية ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية في سورة آل عمران بحث على هذه الآية قريبًا من هذا. (ج).

الله والبيان التام، والجزالة، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه ـ لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟

(الوجه الثاني): أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر.

(الثالث): أن الربط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣] ونظائره، وأما رابطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ١٤] وقوله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص: ١٠].

والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

(الرابع): أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم «إنه افتراه، لا يجيبهم عليه هذا الجواب، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئًا، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه كقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [الأحقاف: ٨] وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه، وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق، وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي

يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

(الخامس): أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكَّنه. وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

(السادس): أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة؛ ولا التضمن، ولا اللزوم. فمن أين يعلم أنه أراد ذلك، ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى، فيحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه، ولا يمكنه من الافتراء عليه، فقد ذكره في مواضع.

(السابع): أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]، وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدورًا لي لكان مقدورًا لمن هو من أهل العلم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء ـ سبحانه ـ لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إليَّ وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به. فلو كان كذبًا وافتراءً كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته، لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر، وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه، فقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ [يونس: ١٦] تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي. ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه البتة، ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه، وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إليَّ وأنزله عليَّ ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته

ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إليَّ تاليًا له ولا لبعضه. فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته.

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٦] وهذا هو المناسب لقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤] ولقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٥] وبرهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة، والله أعلم.

(الثامن): أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ وقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ [الشورى: ٣٣] وقوله: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سبأ: ٩] ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيًّا.

(التاسع): أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١١] ومعنى الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه، وكأنه حبس قلبه عن الاضطراب.

ومنه يقال: هو ربط الجأش. وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة، والمعنى يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال: ربط الفرس والدابة ولا يقال ربط عليها. فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه. كأنه أحاط عليه بالربط. فلهذا قيل: ربط على قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه.

والمقصود: أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

(العاشر): أن الختم هو شد القلب، حتىٰ لا يشعر ولا يفهم، فهو مانع يمنع العلم والقصد. والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترىٰ القرآن، ويشعر به، فلم يجعل الله علىٰ قلبه مانعًا من شعوره بذلك وعلمه به. فإذا قيل الأمر كذلك، ولكن جعل الله علىٰ قلبه مانعًا من التأذي بقولهم. قيل: هذا أولىٰ أن يسمىٰ ختمًا، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] وكان وصول هذا الأذىٰ إليه من كرامة الله له، فإنه لم يؤذ نبي ما أوذىٰ. فالقول في الآية هو قول قتادة.والله أعلم.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالىٰ وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها. ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر. فهو التذكرة علىٰ الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.

***

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة علىٰ الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات، حين لا ينفعهم التحسر. وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتىٰ إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل، هو من باب إضافة الموصوف إلىٰ صفته، أي الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولىٰ. وهذا موضع يحتاج إلىٰ تحقيق فنقول، وبالله التوفيق.

ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين، وهي ثلاثة: حق اليقين، علم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧] فهذه ثلاث مراتب لليقين: أولها علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلًا، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

(المرتبة الثانية): عين اليقين، وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة: فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.

وفي المسند للإمام أحمد مرفوعًا: «**ليس الخبر كالمعاين**»(١) وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه. فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان.

وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك، حيث قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»(٢) ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

***

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١) والضياء في المختارة (٥/ ٢٠٢ رقم ١٨٢٨) والحاكم (٢/ ٣٥١ رقم ٢٣٥٠) وابن حبان (١٤/ ٩٦ رقم ٦٢١٣) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٠٨٧) والطبراني في الأوسط (١/ ١٢ رقم ٢٥) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٠١ رقم ١١٨٢) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٣): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧٢) ومسلم (رقم ١٥١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١١-٤١٢) وشرح النووي (٢/ ١٨٣).

﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾.

مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به. كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيهم، فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين. ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الحاقة: ٥١] فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين، هذه أعلى مراتب الإيمان هي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين. وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثالًا.

فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه. فصدقته كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين. وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته.

بل من إضافة الجنس إلى نوعه، فإن العلم والعين والحق أعم من كونها يقينًا، فأضيف العام إلى الخاص، مثل بعض المتاع وكل الدراهم. ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو وثوب زيد، ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلى صفته، وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه، كثوب خز وخاتم فضة، فالمضاف إليه قد يكون مغايرًا للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان علي مسمى واحد، والله أعلم.

***

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة: ٥٣]. وهي جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الأخبار عن عظمة الرب ـ تعالى وجلاله ـ.

وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة.

وذكر عظمته ـ تعالىٰ ـ في إرسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه ـ تعالىٰ ـ أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذابًا متقولًا عليه، مفتري عليه، يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو ـ سبحانه ـ مع ذلك يؤيده وينصره، ويجيب دعواه، ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره، ويعلي ذكره. فهو ـ سبحانه ـ العظيم ـ الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم. فسبحان ربنا العظيم، و ـ تعالىٰ ـ عما ينسبه إليه الجاهلون علوًا كبيرًا.

(١) (فإن قيل): فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ولم تدخل في قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلىٰ: ١] قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر.

ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل؛ ولهذا تسمى الصلاة تسبيحًا. فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء، لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله.

وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيهًا على ذلك المراد كأنك قلت. سبح مفتتحًا باسم ربك أو ناطقًا باسم ربك، كما تقول: صل مفتتحًا أو ناطقًا باسمه.

ولهذا السر والله أعلم دخلت للام في قوله تعالىٰ: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١] والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة، ولم يقل في موضع: سبح الله ما في السموات والأرض. كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥].

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ

(١) ٢٠ بدائع جـ١.

يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فكيف قال ويسبحونه لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه.

[١]وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة. فقال: المعنى سبح ناطقًا باسم ربك، متكلما به. وكذا ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ المعنى سبح ربك ذاكرًا اسمه.

وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها. فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحاقة

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٩ بدائع جـ١.

سُورَةُ المَعَارِج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾.

(١) هذا تفسير الهلوع، وهو شد الحرص الذي يترتب عليه الجزع والمنع.

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خلق الإنسان كذلك، وذلك صريح في أن هلعه مخلوق لله، كما أن ذاته مخلوقة. فالإنسان بجملته: ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقه مخلوق لله، ليس في شيء خلق لله وشيء خلق لغيره، بل الله خالق الإنسان بجملته وأحواله كلها. فالهلع فعله حقيقة، والله خالق ذلك فيه حقيقة، فليس لله ـ سبحانه ـ بهلوع ولا العبد هو الخالق لذلك.

(٢) ويضاد الصبر الهلع، وهو الجزع عند ورود المصيبة، والمنع عند ورود النعمة، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ . وهذا تفسير الهلوع، قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد ولع بالكسر فهو هلع وهلوع.

وفي الحديث: «شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع»[٣]، قلت: هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعًا صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعًا ولا يقال هالع له، فإنه لا يتعدى، ففيه وجهان:

---

(١) ٦٠ شفاء.

(٢) ٣٠٢ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه ابن حبان (٨/ ٤٢ رقم ٣٢٥٠) والهيثمي في الموارد (رقم ٨٠٨) وأبو داود (رقم ٢٥١١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٧٠ رقم ١٨٣٤٢) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٢ رقم ٢٦٦٠٩) وأحمد (٢/ ٣٠٢) والقضاعي في الشهاب (٢/ ٢٧٠ رقم ١٣٣٨) وعبد بن حميد (رقم ١٤٢٨) والحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ١٢٣) وابن المبارك في الجهاد (رقم ١١١) وجوّد إسناده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٧).

أحدهما: أنه على النسب: كقولهم: ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم، ويوم عاصف. كله عند سيبويه على النسب، أي ذو كذا كما قالوا: تامر ولابن.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير. وأما المعنوي فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد، ولاسيما إذا كان شحه هالعًا، أي ملق له في الهلع، وجبنه خالع أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة، ولا نفع بماله ولا ببدنه. كما يقال: لا طعنة ولا جفنة، ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغّره وحقّره ودسَّاه الشح والخوف والطمع والفزع.

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلًا أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعًا، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح، فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها، والله المستعان.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝ ﴾.

(١) ذم الإنسان وأنه خلق هلوعًا، لا يصبر على شر ولا خير، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثنى بعد ذلك من الناجين من خلقه. فذكر منهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٢٩، ٣١]، وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد

---

(١) ٢٠٢ الجواب الكافي.

لأعمالهم، مطلع عليها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه. اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويتبر ما علا تتبيرًا.

***

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(١) قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣] فيكون قائمًا بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت. ومنهم من تكون مضطجعة. ومنهم من تكون إلى القيام أقرب. وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحًا**»(٢) فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى، وعيشها أطيب عيش، قال

---

(١) ٢٦٦ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ٢٢٨ رقم ١٢٥) وابن حبان (١/ ٤٣٤-٤٣٥ رقم ٢٠٥) والهيثمي في الموارد (رقم ٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٩ رقم ١٠٩٣٧) وابن ماجه (رقم ٣٧٩٥) والشيباني في الآحاد والمثاني (رقم ٢٠٤) وأبو يعلى (٢/ ١٣ رقم ٦٤٠) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٠٤ رقم ٧٧٢) وأحمد (١/ ٢٨، ٣٧) والبزار (٣/ ١٤٥-١٤٦ رقم ٩٣٠).

تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلىٰ لقائه والفرح به والرضا عنه وبه مأوىٰ روحه في هذا الدار.

فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا. والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت به الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] وطيب الحياة: جنة الدنيا...

***

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ﴾.

(١)«الأدب» هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب؛ حتىٰ يقف بين يدي الله طاهرًا. ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته. للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: أمر الله بقدر زائد علىٰ ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة. فقال تعالىٰ: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذانًا بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال. وكان يلبسها وقت الصلاة. ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

ومعلوم: أن الله ﷻ يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده. لا سيما إذا وقف بين يديه. فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) ٣٨٤ مدارج جـ٢.

ومن الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي «أن يرفع بصره إلى السماء»[(١)].

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا، خافضًا طرفه إلى الأرض. ولا يرفع بصره إلى فوق.

قال: والجهمية ـ لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه ـ ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته، على عرشه. كما أخبر به عن نفسه. واتفقت عليه رسله. وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم. بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ على نقيض قولهم. إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض. لا يرفع بصره إليهم. فما الظن بملك الملوك سبحانه؟

وسمعته يقول: ـ في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ـ إن القرآن هو أشرف الكلام. وهو كلام الله. وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد. فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم، ﷺ[(٢)] والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد «أنه من السنة» و«كان الناس

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٣٥٦ رقم ١١١٧) بلفظ: «إذا كان أحدكم في الصلاة فلا يرفع بصره إلى السماء أن يلتمع بصره» وأخرجه أيضاً في المجتبى (رقم ١١٩٤) وعبدالرزاق (٢/ ٢٥٣ رقم ٣٢٥٧) والطبراني في الأوسط (١/ ١٠٣ رقم ٣١٩) وفي الكبير (٦/ ٣٥ رقم ٥٤٣٦) وأحمد (٣/ ٤٤١) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٥٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥) بلفظ: «إذا جلس أحدكم على حاجته فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها» وانظر: فتح الباري (١/ ٢٤٦) وشرح النووي (٣/ ١٥٣-١٥٨).

يؤمرون به»[١] ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء. فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائمًا؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه[٢].

قلت: هما أمران: الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي. ويعظم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل ويتصاغر في نفسه. حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله ـ تبارك وتعالى ـ: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علمًا وعملًا وحالًا. الله المستعان.

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠) بلفظ عن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة. وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٢٤) وشرح النووي (٤/ ١١٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٨٠) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٧٤ رقم ١٨٩٩١) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٨٩) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٦٧).

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(١) ينبه ـ سبحانه ـ الإنسان علىٰ مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلىٰ حال، جعله بشر سويًا، يسمع ويبصر، ويقول وينطق ويبطش ويعلم، فنسي مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٨، ٣٩] وأنت إذا تأملت ارتباط إحدىٰ الجملتين بالأخرىٰ وجدت تحتها كنزًا عظيمًا من كنوز المعرفة والعلم، فأشار ـ سبحانه ـ بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلىٰ موضع الحجة والآية الدالة علىٰ وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به من ذلك أن يتركهم سدىٰ، لا يرسل إليهم رسولًا ولا ينزل عليهم كتابًا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقًا جديدًا، أو بعثهم إلىٰ دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكفرون ويكذبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم.

***

قوله ﷻ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب. وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها.

وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنىٰ في موضع آخر، فقال: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرحمن: ١٧]

---

(١) ٣٦ شفاء.

فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه، فجاء: في سورة الرحمن: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ لأنها سورة ذكرت فيها المزوجات، فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، والسماء، والأرض، والحب، والثمر والجن والإنس ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين والجنة والنار، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين، والمغربين.

وأما سورة ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ فإنه أقسم ـ سبحانه ـ على عموم قدرته وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم. فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع؛ إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب. فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون. فيأتي بهم في نشأة أخرى، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع، ويذهب (بها) في مغرب.

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل وسواه.

وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

ثم قال: ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١] أي لقادرون على أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيرًا منهم،

كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني. وعبر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة: ٦٠] لأن المغلوب يسبقه الغالب إلىٰ ما يريده فيفوت عليه، ولهذا عدّىٰ بـ[علىٰ] دون [إلىٰ] كما في قوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنه لما ضمنه معنىٰ مغلوبين ومقهورين عداه بعلىٰ، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنىٰ غلبته وقهرته عليه. والثاني: بمعنىٰ وصلت إليه قبله.

وقد وقع الإخبار عن قدرته سبحانه علىٰ تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قومًا غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها في الجمع والفرق.

فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته علىٰ أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقىٰ له منهم في الدنيا. وذلك قوله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خير منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيرًا من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال في سورة الإنسان: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٨]. قال كثير من المفسرين: المعنىٰ أنا إذا أردنا أن نخلق خلقًا غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك.

وفي قوله: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم. فجعلناهم بدلًا منهم. قال المهدوي: قومًا موافقين لهم في الخلق، مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول.

وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالًا بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

ثم استدل سبحانه بالنشأة الأولى فذكرهم بها، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] فنبههم بما علموه وعاينوه على صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية.

والذي عندي في معنى هاتين الآيتين، وهما آية الواقعة والإنسان أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها.

وقد وفق الزمخشري لفهم هذه من سورة الإنسان، فقال: وبدلنا أمثالهم في شد الأسر، يعني النشأة الأخرى. ثم قال: وقيل وبدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يأتي بـ [إن] لا بـ [إذا]، كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

قلت: وإتيانه بـ [إذا] التي لا تكون إلا للمحقق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل، وأنه واقع لا محالة. وذلك هو النشأة الأخرى التي استدل على إمكانها بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ واستدل بالمثل على المثل، وعلى ما أنكروه بما عاينوه وشاهدوه، وكونهم أمثالهم هو إنشاؤهم خلقًا جديدًا بعينه فهم هم بأعيانهم، وهم أمثالهم فهم أنفسهم يعادون.

فإذا قلت: المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت، وإن قلت: هو مثله صدقت، فهو هو معاد أو هو مثل الأول. وقد أوضح هذا سبحانه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم. وقد سماه الله ﷻ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه نشأه أخرى وهي مثل الأولى، وسماه خلقًا جديدًا وهو مثل الخلق الأول، كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وسماه أمثالًا وهم هم. فتطابقت ألفاظ القرآن وصدق بعضها بعضًا،

وبين بعضها بعضًا. ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله.

ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه. فهذا خطأ قطعًا ـ معاذ الله من اعتقاده ـ، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم. فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ [الواقعة: ٥٩، ٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلًا بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة فيما لا تعلمون. فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم. وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها.

فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان. وقال في سورة الإنسان: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ فهذه النشأة الأولى ثم قال: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرى. ونظير هذا: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧] وهذا في القرآن كثير جدًا، يقرن بين النشأتين مذكرًا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى. وبالله التوفيق.

***

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ ﴾.

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المعارج: ٤٢].

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه. فالأول ضد العلم النافع. والثاني ضد العمل الصالح. فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب. وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لابد له من هذين الأمرين.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالهم عند خروجهم من القبور. فقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المعارج: ٤٣].

أي يسرعون. والنصب العلم والغاية التي تنصب فيؤمونها. وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه؛ فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ [طه: ١٠٨] أي يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له). قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى [عن] أي لا عوج عنه.

وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج وفي القولين تكلف ظاهر، ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظمًا للمعنيين ودالًّا عليهما. والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

ثم قال: تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ﴾ [المعارج: ٤٤] فوصفهم بذل الظاهر،

وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه إبصارهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]. ونظيره قوله: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يونس: ٢٧].

وضد هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [طه: ١١٨] فنفى عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر.

وضده أيضًا قوله: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة عزُّ الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله.

ومثله أيضًا قوله: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثل قوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم.

ومثله قوله أيضًا: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [غافر: ٦٤].

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومنه قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]. فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

ومنه قول امرأة العزيز: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢] فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره.

وهذا كله يدل على ارتباط الظاهر بالباطن قدرًا وشرعًا. والله أعلم بالصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المعارج

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

[١]من أعظم الظلم والجهل؛ أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾.

قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًا ولا تشكرونه[٢]. وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة، وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته[٣].

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد؛ وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته، وحدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه، واجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب.

ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به؛ كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن، ونحو ذلك؛ فهذا من وقار الله.

ومن وقاره أن لا تعدل به شيئًا من خلقه، لا في اللفظ، بحيث تقول: والله وحياتك، مالي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في

(١) ١٨٧ فوائد.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٩١) إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي.

(٣) أثر ابن عباسرضي الله عنهما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٧٥ رقم ١٨٩٩٣) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٦١).

الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله؛ بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة.

ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه، ويقول: هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه.

ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحد، فيكون الحد والشق الذي فيه الناس، دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله.

ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه، ولسانه دون قلبه وروحه. ولا يجعل مراد نفسه مقدمًا على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره؛ فذاك وقار بغض، لا وقار حب وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحي من إطلاعه على سره وضميره؛ فيري فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه، وما آتاه من العلم والحكمة، كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه.

القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك. فلا ما ورد إليك وعظك، ولا ما قام بك نصحك، ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظًا وانزجارًا، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلي مصابه. فالضرب لم يؤثر فيه زجرًا، وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه. من سمع بالمثلات والعقوبات والآيات في حق غيره، ليس كمن رآها عيانًا في غيره: فكيف بمن وجدها في نفسه؟ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] فآياته في الآفاق مسموعة معلومة، وآياته في النفس مشهودة مرئية، فعياذًا بالله من الخذلان. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا، ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله، فكلما امتحى من جثمانه أثر، زاد إيمانه أثر، وكلما نقص من قوى بدنه، زاد في قوة إيمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد، بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر، فإنها زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرته، وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك، واغتنام الفرص والتوبة النصوح؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته؛ فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار.

فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل.

وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولًا له إلى أسفل؛ فالمسافر إما صاعد وإما نازل. وفي الحديث المرفوع: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله**»(١).

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٤٣ رقم ٢٠) والحاكم (١/ ٤٨٩ رقم ١٢٥٦) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٧١ رقم ٦٣١٧) والترمذي (رقم ٢٣٢٩) والدارمي (رقم ٢٧٤٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٩ رقم ٣٤٤٢٠) والشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٥١ رقم ١٣٥٦) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٧٤ رقم ٢٢٦٨) وفي الصغير (رقم ٨١٨) وأحمد (٤/ ١٨٨) وحسنه الترمذي وصححه المنذري في الترغيب (١٢٧/٤).

فالطالب الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئًا من لذات دنياه، جعل زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيرًا له؛ إلا كان حرمانًا وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

(١)...ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣]. قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كالوقائع بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق فيه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد. وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذا الدار. فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله ﷻ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها.

---

(١) ٥١ مدارج جـ٢.

ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه. فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها أن في الرجاء ـ من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل وصفة كما تقدم بيانه.

[(١)] ... قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣] قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: مالكم لا تعظمون لله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة.

قال البغوي: «والرجاء» بمعنى المخوف. و«الوقار» العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم: وقال الحسن: لا تعرفون لله حقًا، ولا تشكرون له نعمة.

وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيرًا.

وروح العبادة: من الإجلال والمحبة. فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

***

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

[(٢)] من أعظم مكايده[(٣)] التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته: ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم، واتخذت أوثانًا، وبنيت عليها

(١) ٤٩٥ مدارج جـ١.
(٢) ١٧٢ إغاثة جـ١.
(٣) أي الشيطان الرجيم أعاذنا الله بمنه وكرمه من مكائده وشره.

الهياكل، وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجسادًا لها ظل، ثم جعلت أصنامًا، وعبدت مع الله ـ تعالى ـ.

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[نوح: ٢١، ٢٤].

قال ابن جرير: «وكان من خبر هؤلاء ـ فيما بلغنا ـ: ما حدثنا به ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قومًا صالحين من بني آدم. وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم»[(١)]، قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: «وكان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون، كلهم على الإسلام»[(٢)] حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال: «كانت آلهة يعبدها قوح نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك. فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل. وكان يغوث لبني غطيف من مراد. وكان يعوق لهمدان. وكان نسر لذي الكلاع من حمير»[(٣)]. وقال الوالبي: عن ابن عباس «هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح عليه السلام»[(٤)].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٨) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩) وابن عساكر في تاريخه (٦٢/ ٢٤٢) وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٢، ٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٠) وعبدالرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٢٠) والطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩)، وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٦٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٢٩٣).

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل. وأما سواع فكانت لهذيل. وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأما يعوق فكانت لهمدان. وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ وكان أول ما كاد به عباد الأصنام من جهة العكوف على القبور، وتصاوير أهلها، ليتذكروهم، كما قص الله ـ سبحانه ـ قصصهم في كتابه، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال البخاري في صحيحه: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت»(١).

وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم، الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم، كان أشوق لنا إلى العبادة، إذا ذكرناهم، فصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم»(٢).

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أخبرني أبي قال: «أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: نوذ وهو أخصب جبل في الأرض».

قال هشام: فأخبرني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «فكان بنو شيث عليه السلام يأتون جسد آدم في المغارة، فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٢٠) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٦٢).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٧).

آدم: يا بني قابيل، إن لبني شيث دوار يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء فنحت لهم صنمًا، فكان أول من عملها»[(١)].

قال هشام: وأخبرني أبي قال: «كان ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر: قومًا صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا، فقالو: نعم. فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم[(٢)].

[(٣)]وكان من تلك الأصنام ذو الخلصة، وكان مروة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكان له بيت بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة، [وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن] فقال رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ لجرير: «ألا تكفيني ذا الخلصة؟» فسار إليه بأحمس، فقاتلته خثعم وباهلة دون، فظفر بهم. وهدم بيت ذي الخلصة، وأضرم فيه النار فاحترق[(٤)]. وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تَبالَة.

وكان لدوس صنم يقال له: «ذو الكفين» فلما أسلموا بعث رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الطفيل بن عمرو فحرقه. وكان بني الحارث بن يشكر [بن مبشر من الأزد] صنم يقال له: «ذو الشرى». وكان لقضاعة ولخم وجذام. وعاملة وغطفان، صنم في مشارف الشام يقال له: «الأقيصر». وكان لمزينة صنم يقال له: «نهم» وبه كانت تسمى عبد نهم.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٧٢) والطبقات الكبرى (١/ ٣٨).

(٢) انظر: معجم البلدان (٥/ ٣٦٧).

(٣) ٢١٥ إغاثة جـ٢.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ١٨٣ رقم ٨٦١٢) (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٣٥٨) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٠٠ رقم ٢٢٥٣) وانظر: معجم البلدان (٢/ ٣٨٣).

وكان لأزد السراة صنم يقال له: «عائم»]. وكان لعنزة صنم يقال له: «سعير». وكان لظبي صنم يقال له: «الفلس».

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم، كان يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله: أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره، كان أول ما يصنع إذا دخل منزله: أن يتمسح به.

قال ابن إسحاق: وكان الخولان صنم يقال له: عم أنس بأرض خولان، يقسمون له من أنعامهم، وحروثهم، قسما بينه وبين الله، بزعمهم، فما دخل في حق الله من حق عم أنس ردوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سمو له تركوه له وفيهم أنزل الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة نوح

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الجِنِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾.

[(١)]المستعاذ به، هو الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر ـ تعالى ـ في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانًا ورهقا. فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن: ٦]. جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر. قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقًا أي طغيانًا وإثمًا وشرًا يقولون: سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات»[(٢)] وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبدًا.

ونظير ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك»[(٣)] فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق[(٤)]...

---

(١) ٢٠٣ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦) وشرح النووي (١٧/ ٣١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٤) تتمة البحث في تفسير سورة الفلق نقلًا عن البدائع. (ج).

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

(١)طبقة الجن. قد اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن: ١١].

قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين: وقال الحسن والسدي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد بن جبير: ألوانًا شتى. وقال ابن كيسان: شيعًا وفرقًا. ومعنى الكلام: أصنافًا مختلفة ومذاهب متفرقة. ثم قيل في إعراب الآية: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾قوم دون ذلك، فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم، وكقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾[المائدة: ٤١] أي فريق سماعون، وكقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦] أي فريق يحرفون، وكقوله على أظهر القولين: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾[البقرة: ٩٦]أي فريق يود أحدهم، وقال الشاعر:

فظلوا ومنهم دمعه سابق لهم وآخر يذري دمعة العين بالمهل(٢)

أي ومنهم من دمعه. وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن: ١١] بيان لقولهم: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾[الجن: ١١]أي كنا ذوي طرائق ـ وهي المذاهب ـ واحدها طريقة وهي المذهب، والقدد جمع قدة، كقطعة وقطع وزنا ومعنى. وهي من القد وهو القطع.

---

(١)٤١٤ طريق الهجرتين.

(٢)هذا البيت ينسب إلى ذي الرمة، وذكره الطبري في تفسيره (٥/ ١١٧).

وقيل: كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة في اختلافها، وعلى هذا فالمعنى: كنا طرائق قددًا وليس بشيء.

وأضعف منه قول من قال: إن طرائق منصوب على الظرف، أي كنا في طرق مختلفة كقوله: عسل الطريق الثعلب. وهذا مما لا يحمل عليه أفصح الكلام. وقيل: المعنى كانت طرائقنا طرائق قددًا. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

وقال ـ تعالى ـ إخبارًا عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أندادًا، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، فهو مقسط. ومنه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقسط إذا جار فهو قاسط: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥].

قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار. وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنه ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار.

وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين، وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم.

ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولًا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف آخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حليتهم الصلاح.

وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وبقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ

﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] وقد قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ لا يدل على أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كان الرسل من الإنس، وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم.

ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم، فهذا لا يقتضي أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وليس في كل سماء قمر وقوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فالإنذار أعم من الرسالة، والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهؤلاء نذر وليسوا برسل. قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيًا ولا امرأة ولا بدويًا.

وأما تسميته تعالى الجن رجالًا في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق، كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه.

وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار، وقد دل على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] الآية فلمؤها منه به وبكفار ذريته. وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا

مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ إلى قوله: ﴿حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال الله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥] وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه.

وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم.

فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدًا ﷺ بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن طاعته، كما يجب على الإنس. وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] يدل على أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة.

وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمن): ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فدل ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معًا، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًا منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا، فلك الحمد.

ولما كان أبوهم هو أول من دعا إلى معصية الله، وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلى النار، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي «واثبوراه» فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون «واثبوراهم»، حتى قيل: إن كل عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه، ثم يصير إليهم.

وأما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة: فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة. وترجم على ذلك البخاري في صحيحه فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم) لقوله تعالى:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية. بخسًا نقصًا.

قال مجاهد: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ [الصافات: ١٥٨] قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سروات الجن. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] ستحضر للحساب(١). ثم ذكر حديث أبي سعيد: «إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، سمعته من رسول الله ﷺ»(٢). هذا ما ذكره في الباب.

وقد ذهب جمهور الناس إلى أن مؤمنيهم في الجنة. وحكي عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار. احتج لهذا بقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم.

وأما الجمهور فقالوا: مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار. ثم اختلفوا فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه. وقال سهل بن عبدالله: يكونون في ربض الجنة. يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم.

فهذه مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة.

وأما أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس: هل هم مكلفون بالأمر والنهي، أم هم مضطرون على أفعالهم؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب (المقالات) له، فقال: واختلف الناس في الجن، هل هم مكلفون، أم مضطرون؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم: هم مأمورون منهيون، وقدأمروا ونهوا، وهم مختارون. وزعم زاعمون أنهم مضطرون.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم قبل حديث (رقم ٣٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٩٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٨٦-٨٨).

قلت: الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية. وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر. فإضافة هذا القول إلى المعتزلة بمنزلة أن يقال: ذهبت المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٨] فأخبر أن منهم من حق عليه القول، أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام:١٣٢] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئًا من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر. وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ [فصلت: ٢٥] الآية. ومعنى الآية: أن الله قيض للمشركين ـ أي سبَّب لهم ـ قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم ما بين

أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد. وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء: نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة، فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا يستوحونهم، ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول ـ تعالى ـ للملائكة يوم القيامة ـ وقد جمع العابدين والمعبودين ـ: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فهؤلاء عباد الجن وأولياء

الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر. وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن، فقال:

حنانيك أن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا[1]

ولهذا يقول: في القيامة: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن. ومما يدل على تكليفهم أيضًا قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢] فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

(أحدها) أن الله ﷻ صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

(الثاني) أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

(الثالث) أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسي وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدل علي تمكنهم من العلم الذي تقوم به

(١) هذا البيت ذكره إسماعيل التيمي الأصبهاني في دلائل النبوة (ص ٨١) ونسبه إلى ورقة بن نوفل ضمن قصيدة قالها لزيد بن عمرو بن نفيل. وذكره أيضًا ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٥١٥).

الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

(الرابع) أنهم قالوا لقومهم: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

(الخامس) أنهم قالوا: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

(السادس) أنهم قالوا: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

(السابع) أنهم قالوا: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

(الثامن) أنهم قالوا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابه داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه، ولكن قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضًا.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة. وأيضًا قال تعالى عن نبيه سليمان: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢] وهذا محض التكليف. وقد تقدم قوله حكاية عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألهم الزاد لهم ولدوابهم، فجعل

لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بعرة علف لدوابهم. ونهانا عن الاستنجاء بهما. ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة علىٰ أنهم مكلفون باتباع الرسل.

ومما يدل علىٰ أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة الرحمن، فإنه ﷻ ذكر خلق النوعين في قوله تعالىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالىٰ: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام.

ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلىٰ آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، وكانوا أحسن مردودًا منكم: كنت كلما أتيت على آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد**»[(١)] وهذا يدل علىٰ ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به. وقوله في هذه السورة: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝ ﴾ [الرحمن: ٣١] وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٩١) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠) وصححه الحاكم انظر: تفسير السيوطي (٧/ ٦٩٠) وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٢٨٨-٢٨٩).

قال قتادة: معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنى القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء. وقوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ [الرحمن: ٣٣] فيها قولان:

أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علمًا ـ أي أن تعلموا ما فيهما ـ فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي إلا ببينة من الله. وعلى هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض.

الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم. وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم. وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا.

وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهربًا ولا منفذًا. كما قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] قال مجاهد: فارين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هربًا، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفًا، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ [الرحمن: ٣٣] وهذا القول أظهر. والله أعلم.

فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ

ﭐلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها ﴿ سَنَفۡرُغُ ﴾ [الرحمن: ٣١] الآية وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧] وهذا في الآخرة. وأيضًا فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالى: ﴿ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ ولم يقل إن استطعتما. لإرادة الجماعة كما في آية أخرى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا ﴾ [الرحمن: ٣٥] ولم يقل يرسل عليكم لإرادة الصنفين أي لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معًا. وهذا وإن كان مرادًا بقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي من استطاع منكم.

وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى: ﴿ عَلَيۡكُمَا ﴾ أمر آخر. وهو موافقة رءوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم. قال ابن عباس: الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه.

وقوله تعالى: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [الرحمن: ٣٩] فأضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سويًا في التكليف. واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقعت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي قد

علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.

فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار.

وقد دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ حكاية عن مؤمنهم: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ ﴾ [الجن: ١٣] الآية. وبهذه الحجة احتج البخاري. ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب، والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل، فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزداد في سيئاته.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] أي لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته.

وأيضًا فقد قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧] وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

أحدها: أن «من» من صيغ العموم، فتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به.

وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله، أو إلى مفعوله؟ على قولين:

أحدهما: أن المعنى ولمن خاف مقامه بين يدي ربه، فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول.

والثاني: أن المعنى ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾

[النازعات: ٤٠]. ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وأن المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم. كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨] وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقًا بعذابه كقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه. والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر والبعث بعد الموت. وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين، فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل.

وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه، فهذا يقر به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه.

وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

فإن قيل: إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟

قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد، ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت.

وأيضًا: فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام الله، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب.

وأيضًا: فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝﴾ [الرحمن: ٤٦] يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

(الثالث): قوله عقيب هذا الوعد: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(الرابع) أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم. ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١] وأمثال هذه من العمومات.

وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد، فإن الوعد فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه.

وأيضًا: فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه، وأيضًا فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولابد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأيضًا: فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا، وأنهم يقولون: ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ ﴾ [غافر: ٧، ٨].

فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم.

وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول. وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها، فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم، وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين. والله أعلم.

فهذا ما وصل إليه الإحصاء من طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهي ثمان عشرة طبقة، وكل طبقة منها لها أعلى وأدنى ووسط. وهم درجات عند الله.

والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره، ويقرن بينهما في الدرجة.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: ﴿ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ أشباههم ونظراءهم، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧].

روىٰ النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار(١).

وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امرئ بشيعته، اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني(٢).

وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله(٣).

وفي الآية ثلاثة أقوال آخر:

أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها.

والثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها.

والثالث: أن تزويج المؤمنين الحور العين، وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأولىٰ أظهر الأقوال. والله أعلم.

***

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾.

(٤)قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [البقرة: ٣٨] هو خطاب لمن أهبطه من

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٦٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٤ رقم ١٩١٤٦) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٩ رقم ٣٤٤٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٧٠) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٣ رقم ١٩١٤٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٨١).

(٣) أخرجه الطبري (٣٠/ ٧٠) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٨١).

(٤) ٣٧ مفتاح جـ١.

الجنة بقوله: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [طه: ١٢٣].

ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ وكلا الخطابين لأبوي الثقلين، وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق للعقاب.

وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة؟ فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار.

وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحكي هذا القول عن أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ.

واحتج الأولون بوجوه: أحدها: هذه الآية فإنه ـ سبحانه ـ أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى. وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط.

ولا خلاف أن مؤمنيهم لا يعاقبون لأنا نقول لو لم تدل الآية إلا على أمر عدمي فقط لم يكن مدحًا لمؤمني الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي وهو عدم الخوف والحزن.

ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدي الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم، واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره ـ سبحانه ـ أنه معطيه وذريته عهدًا من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا

حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣١] فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخبارًا مقررًا أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلابد من دخوله الجنة.

الثالث: قوله تعالىٰ في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] فهذا يدل علىٰ أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل علىٰ أن مؤمنيهم يتأتىٰ منهم طمث الحور العين بعد الدخول، كما يتأتىٰ من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] فكما دخل كافرهم في الآية الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولىٰ.

الخامس: قوله عن صالحيهم: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] والرشد هو الهدىٰ والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس: قوله تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو

ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥] عم سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفضية إليها، فمن هداه إليها فهو ممن دعاء إليها فمن اهتدىٰ من الجن فهو من المدعوين إليها.

الثامن: قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢]. وهذا عام في الجن والإنس، فأخبرهم تعالىٰ أن لكلهم درجات من عمله، فاقتضىٰ أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

التاسع: قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة. أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور علىٰ المسألة ليدل علىٰ أنه مستحق بها، وهو قول: ربنا الله، مع الاستقامة، والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتبًا علىٰ الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة علىٰ أمره فمن أتىٰ ذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] فدل على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] وأنه متناول للفريقين، ودلت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى، فإن رحمته سبقت غضبه، والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار. وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرًا قط. بل ينشيء لها أقوامًا يسكنهم إياها من غير عمل عملوه، ويرفع بها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه بخلاف أهل النار، فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلًا. وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم، وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجن

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾﴾.

(١)سئل(٢) عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾﴾ [المزمل: ٥]. فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة، وقال: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك(٣). وقال: لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلًا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه(٤)، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، ولو نهياني انتهيت. قال: وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ، ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأى صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا الذين غطت الذنوب والخطايا قلوبنا؟

وكان ـ رحمه الله ـ إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار. وقال عطاء بن أبي رباح: أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليسأل عن شيء فيتكلم وإنه ليرعد. وسئل النبي ﷺ أي البلاد شر؟ فقال: «لا أدري حتى أسأل جبريل». فسأله فقال: أسواقها(٥). وقال الإمام أحمد: من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم، إلا أنه

---

(١) ٢١٨ أعلام جـ٤.

(٢) أي الإمام مالك رحمه الله تعالى.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٦) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٨) والعبر في خبر من غبر (١/ ٢٧٣) والبداية والنهاية (١٠/ ١٧٤) والمنتظم (٩/ ٤٣) وشذرات الذهب (١/ ٢٨٩).

(٤) انظر: كشاف القناع (٦/ ٢٩٩).

(٥) أخرجه الحاكم (١/ ١٦٦ رقم ٣٠٣) والطبراني في الكبير (٢/ ١٢٨ رقم ١٥٤٥).

قد تلجئ الضرورة. وسئل الشعبي عن مسألة، قال: لا أدري، فقيل: ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال بعض أهل العلم: تَعلّم: لا أدري، فإنك إن قلت: لا أدري علَّموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوك حتى لا تدري. وقال عتبة بن مسلم: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا، فكان كثيرًا ما يسأل فيقول: لا أدري. وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتى فتيا ولا يقول شيئًا إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني[(١)].

***

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾.

[(٢)]ناشئة الليل أول ساعاته. قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها ينشأ الليل. والصحيح أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة، بعد ناشئة كلما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى. وقال أبوعبيدة ناشئة الليل ساعاته وآناؤه ناشئة بعد ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كلما نشأ منه أي حدث منه فهو ناشئة. قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاته مأخوذة من نشأت تنشأ نشأ، أي ابتدأت وأقبلت شيئًا بعد شيء، أنشأها الله فنشأت. والمعنى أن ساعات الليل الناشئة. وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف قال علي بن الحسين: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء. وهذا قول أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيار الكسائي قالوا: ناشئة الليل: أوله. وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة.

---

(١) ذكره البخاري في تاريخه الكبير (٣/ ٥١١) والمزي في تهذيب الكمال (١١/ ٧٢) والنووي في تهذيب الأسماء (١/ ٢١٣) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٨٢٤).
(٢) ١٣٣ شفاء.

وفيها قول ثالث: إن الليل كله ناشئة، وهذا قول عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدي وابن الزبير وابن عباس في رواية قال ابن أبي مليكة سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليل كله ناشئة[1]. فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زمانًا. وأما من جعلها فعلًا ينشأ بالليل فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام. وهذا قول ابن مسعود ومعاوية بن قرة وجماعة، قالوا: ناشئة الليل: قيام الليل. وقال آخرون: منهم عائشة: إنما يكون القيام ناشئة إذا تقدمه نوم، قالت عائشة: ناشئة الليل القيام بعد النوم، وهذا قول ابن الأعرابي قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل فعلى قول الأولين ناشئة الليل بمعنى (من) إضافة نوع إلى جنسه أي ناشئة منه وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى (في) أي طاعة ناشئة فيه. والمقصود أن الإنشاء ابتداء سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى.

***

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾.

[2]«التبتل» الانقطاع. وهو تفعل من البتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلًا. وقطعت منهن. ومصدر «بتل» «تبتلًا» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعل - لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلًا، وتبتل إليه تبتلًا، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

***

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٨).

(٢) ٢٩ مدارج جـ٢.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

[1] في سورة (المزمل) ذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، وحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسي لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته ـ سبحانه ـ للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه. ثم قال: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]. أي لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم وخيرًا منهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]. وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني.

وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدى بـ [على] دون [إلى]، كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٠] فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بـ [على]، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه. والثاني: بمعنى وصلت إليه قبله.

***

(١) ١٢٢ التبيان.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾﴾.

[(1)]أخبر سبحانه أنه أرسل محمدًا ﷺ إلينا كما أرسل موسىٰ إلىٰ فرعون، وأن فرعون عصىٰ رسوله فأخذه أخذًا وبيلًا، فهكذا من عصىٰ منكم محمدًا ﷺ وهذا في القرآن كثير جدًا فقد فتح لك بابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المزمل

والحمد لله رب العالمين



(١)١٣٨ أعلام جـ١.

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾.

(١)ترتيب الدعوة ولها مراتب: المرتبة الأولى: النبوة. الثانية: إنذار عشيرته الأقربين.والثالثة: إنذار قومه. الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله. وهم العرب قاطبة. الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفيًا، ثم نزل عليه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين. حتى أذن الله لهم بالهجرتين.

(٢)ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بعث إلى حين لقي الله ﷻ أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأه في نفسه، ولم يأمره إذا ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ [المدثر: ١، ٢] فنبأه بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وأرسله بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب طابة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

(٣)مبعثه ﷺ، وأول ما نزل عليه: بعثه الله على رأس أربعين، وهي سن الكمال.

---

(١) ٣٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٢٠٧ زاد المعاد جـ٢.

(٣) ٣٧ زاد المعاد جـ١.

وقيل: ولها تبعث الرسل. وأما ما يذكر عن المسيح: أنه رفع إلي السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة: الرؤيا، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح(١). قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة: ثلاث وعشرون سنة. فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة(٢)، والله أعلم.

ثم أكرمه الله تعالىٰ بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه. فأول ما أنزل عليه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] هذا قول عائشة والجمهور. وقال جابر: «أول ما أنزل عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾» والصحيح قول عائشة، لوجوه(٣):

أحدها: أن قوله: «ما أنا بقارئ» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئًا.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولًا ثم بالإنذار بما قرأه ثانيًا.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله: «أول ما أنزل من القرآن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾» قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر ـ الذي احتج به ـ صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولًا، قبل نزول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ فإنه قال: «**فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلىٰ أهلي، فقلت: زملوني، دثروني، فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾**(٤)».

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣) ومسلم (رقم ١٦٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٣) وشرح النووي (٢/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٣) ومسلم (رقم ٢٢٦٤) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٥٨-٣٧٤) وشرح النووي (١٥/ ٢٠-٢١).

(٣) انظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤) ومسلم (رقم ١٦١) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٨).

وقد أخبر: أن الملك الذي جاء بحراء أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فدل حديث جابر على تأخر نزول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ والحجة في روايته، لا في رأيه والله أعلم.

[(١)] أكمل الخلق عند الله ﷻ: من كمل مراتب الجهاد كلها. والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد. ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتم أنبيائه ورسله. فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد في الله حق جهاده. وشرع في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله ﷻ. فإنه لما نزل الله عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [المدثر: ١ - ٤] شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلًا ونهارًا وسرًا وجهارًا. ولما نزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٧] فصدع بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس.

[(٢)] وسئل ﷺ: متى وجبت النبوة؟ فقال: «**وآدم بين الروح والجسد**»[(٣)] صححه الترمذي. وسئل ﷺ كيف كان بَدْء أمرك؟ فقال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**»[(٤)] ذكره أحمد.

وسأله ﷺ أبو هريرة: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من النبوة؟ قال: «**إني لفي الصحراء ابن عشرين سنة وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل:**

---

(١) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٤١١ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٤٢ رقم ١٢٣) والحاكم (٢/ ٦٦٥ رقم ٤٢٠٩) وصححه. والترمذي (رقم ٣٦٠٩) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والحاكم (٢/ ٦٥٦ رقم ٤١٧٤) والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٥ رقم ٧٧٢٩) وابن الجعد (رقم ٣٤٢٨) والطيالسي (رقم ١١٤٠) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢): رواه أحمد وأسناده حسنٌ وله شواهد تقويه.

أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لأحد قط، وأرواح لم أجدها لخلق قط وثياب لم أرها على خلق قط، فأقبلا يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسًا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فاضجعاني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فحوى أحدهما صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، ثم قال له: أدخل الرافة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى فقال: اغدُ سليمًا، فرجعت بها رقة على الصغير ورحمة على الكبير»[1] ذكره أحمد.

[2] فلما كمل له أربعون أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله - تعالى - برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده. ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين.

واختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. هذا قول الأكثرين. وقيل: بل كان ذلك في رمضان واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قالوا: أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن. وإلى هذا ذهب جماعة، منهم يحيى الصرَّصري، حيث يقول في نونيته:

وأتت عليه أربعون، فأشرقت ... شمس النبوة منه في رمضان[3]

والأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة، في ليلة القدر، إلى

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٩) والضياء في المختارة (٤/ ٣٩ رقم ١٢٦٤) وابن عساكر في تاريخه (٣/ ٤٦٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٣): رواه عبد الله ورجاله ثقات وثقه ابن حبان.

(٢) ٣٣ زاد المعاد جـ١.

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصاري جمال الدين الصرصري شاعر من أهل صرصر على مقربة من بغداد، كان ضريرًا، له منظومات في الفقه وغيره، له قصيدة في الفقه الحنبلي تسمى الدالية من ٢٧٧٤ بيتًا. قيل: إن التتار لما دخلوا بغداد قتلوه، وقد قتل أحدهم بعكازه، ثم استشهد رحمه الله سنة ٦٥٦هـ.

بيت العزة، ثم أنزل منجمًا ـ بحسب الوقائع ـ في ثلاثة وعشرين سنة. وقالت طائفة: «أنزل فيه القرآن» أي: في شأنه وتعظيمه وفرض صومه. وقيل: كان ابتداء المبعث في شهر رجب. وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة.

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

المرتبة الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه، ومن غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: **«إن روح القدس نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله. فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»**(١).

المرتبة الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له. وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك، حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السموات ليلة المعراج: من فرض الصلاة وغيرها.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (١١/ ١٢٥ رقم ٢٠١٠٠) والطبراني في الكبير (٨/ ١٦٦ رقم ٧٦٩٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥ رقم ١١٥١) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٧٢): رواه الطبراني في الكبير وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف. بينما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٢٠): أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود.

السابعة: كلام الله له منه إليه، بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسي بن عمران. وهذا المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثوبتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة، وهي تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب . وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه ـ تبارك وتعالى ـ وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة ـ بل كلهم ـ مع عائشة، كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا للصحابة.

[(١)] وقال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤]. قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال:أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني ـ بحمد الله ـ لا ثوبَ غادرٍ لبستُ. ولا من غدرة أتقنَّعُ[(٢)]

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب. وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب.وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والإثم. ولكن البسها وأنت برٌّ طاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح. قال السدي: يقال للرجل، إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب. وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك

(١) ٢٠ مدارج جـ٢.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى غيلان بن سلمة الثقفي شاعر جاهلي حكيم، أدرك الإسلام وأسلم يوم الطائف وكان عنده عشر نسوة فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعًا، فصارت سنة. وكان أحد وجوه ثقيف، انفرد في الجاهلية بأن قسم أعماله على الأيام فيوم للحكم ويوم لإنشاء الشعر، ووفد على كسرى فأعجب كسرى بكلامه، مات سنة ٢٣هـ والبيت ذكره الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠١) وابن كثير (٤/ ٤٤٢) وابن عبدالبر في التمهيد (٢٢/ ٢٣٦) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦١٣) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٦٤٧) وابن منظور في لسان العرب (١٥/ ٢٠٩).

وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرطبي: وخلقك فحسن. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة لها. والقول الأول: أصح الأقوال.

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن.ولذلك أمر القائم بين يدي الله ﷻ بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وجلوع السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر. وليسا عليهما.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1]. فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش،

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٤٦٦ رقم ٢٢٩) والترمذي (رقم ٢٣١٧) وابن ماجه (رقم ٣٩٧٦) ومالك (٢/ ٩٠٣ رقم ١٦٠٤) وأحمد (١/ ٢٠١) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤١٥ رقم ١٠٨٠٥) وهناد في الزهد (٢/ ٥٣٩ رقم ١١١٧) والطبراني في الصغير (رقم ٨٨٤) وفي الأوسط (٨/ ٢٠٢ رقم ٨٤٠٢) وفي الكبير (٣/ ١٢٨ رقم ٢٨٨٦) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٤٥ رقم ٤٣٧٠): رواته ثقات إلا قرة بن حيويل، ففيه خلاف. وقال ابن عبد البر النمري: هو محفوظ عن الزهري بهذا الإسناد من رواية الثقات، انتهى. فعلى هذا يكون إسناده حسناً، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨): رواه أحمد والطبراني في الثلاثة ورجال أحمد والكبير ثقات. ونقل الحافظ ابن حجر تحسين الترمذي في فتح الباري (١١/ ٣٠٩) وانظر: شرح النووي (١١/ ٢٧).

والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات. وفي الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «يا أبا هريرة! كن ورعًا تكن أعبد الناس»[(١)].

[(٢)]طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه، وإن كان داخلًا فيما قبله، كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، ولكنا أفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [المدثر: ١-٤]. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]. وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «يعني من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه». وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: «نفسك فطهرها من الذنب» ونحوه قول الشعبي وإبراهيم والضحاك والزهري. وعلى هذا القول: «الثياب» عبارة عن النفس، والعرب تكني بالثياب عن النفس. ومنه قول الشماخ:

رموها بأثواب خفاف، فلا ترى ... لها شبها إلا النعام المنفرا[(٣)]

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢١٧) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢١٥ رقم ٣٨٥) والديلمي في الفردوس (٥/ ٣٤٢ رقم ٨٣٧٩) والبيهقي في الشعب (٥/ ٥٣ رقم ٥٧٥٠) وفي الزهد الكبير (٢/ ٣٠٩ رقم ٨٢٢) وهناد في الزهد (٢/ ٥٠١ رقم ١٠٣١) وابن أبي الدنيا في الورع (رقم ٣) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٦٥) وحسنه في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٠).

(٢) ٥٣ إغاثة جـ١.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ليلى الأخيلية، شاعرة فصيحة ذكية، تلي الخنساء في الطبقة، وكان بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة ماتت سنة ٨٠هـ، ذكر البيت الطبري في تفسيره (٢/ ١٦٢) =

رموها: يعني الركاب بأبدانهم. وقال عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنى بمحرم[(١)]

يعني: نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادرًا دنس الثياب، وقال سعيد بن جبير: «كان الرجل إذا كان غادرًا قيل: دنس الثياب، وخبيث الثياب». وقال عكرمة: «لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فجرة» وروي ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست، ولا من خزية أتقنع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: «وعملك فأصلح» وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي روق، وقال السدي: «يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب» قال الشاعر:

لا هم إن عامر بن جهم أو ذم حجا في ثياب دسم[(٢)]

يعني: أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثياب بني عوف طهارى نقية[(٣)]

ونسبه إلى ليلى، بينما ذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٢٥) (٢/ ١٠١) ونسبه في الموضعين إلى ابن الأنباري.

(١) هذا البيت من بحر الكامل ينسب إلى عنترة بن شداد العبسي، من أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه وفي شعره رقة وعذوبة مات سنة ٢٢ قبل الهجرة. ذكر البيت ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٥٠٦) (١٠/ ٤٥٢).

(٢) هذا البيت من بحر الرجز، وذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٦١٣) وابن سلام في غريب الحديث (٢/ ٢٥٤) وابن منظور في اللسان (١٢/ ١٩٩، ٦٣٢).

(٣) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وعجزه: * وأوجههم عند المشاهد غِران *، وذكره ابن سلام في غريب الحديث (٢/ ٢٥٤) وابن منظور في لسان العرب (٤/ ٥٠٤).

يريد أنهم لا يغدرون: بل يفون، وقال الحسن: «خلقك فحسنه»، وهذا قول القرطبي، وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله واشتمال ثيابه على نفسه.

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب» والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه، وروي عن سعيد بن جبير: «وقلبك. ونبيتك فطهر» وقال أبو العباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تنسلِّ (١)

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد. وذكر أبو إسحاق: «وثيابك فقصر»، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس. وقال ابن عرفة: «معناه: نساءك طهرهن» وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلـغ أبـا حفـص رسـولًا ... فِدًى لك مـن أخـي ثقـة: إزاري (٢)

---

(١) هذا عجز بيت من بحر الطويل، وصدره: * وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ * وينسب إلى امرئ القيس. وذكر البيت ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٤٢) وابن منظور في اللسان (١/ ٢٤٦) (٩/ ٣٣٧).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر ذكر البيت ابن عساكر في تاريخه (١٤/ ١٠٦) وابن حجر في الإصابة (١/ ٣٢٠) ونسبه إلى بقيلة الأكبر الأشجعي. وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٨٦) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٤٠٣) وابن الأثير في النهاية (١/ ٤٥) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٢٢) وابن منظور في اللسان (٤/ ١٨) (٧/ ٨١).

أي: أهلي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العقبة «لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا»(١) أي نساءنا.

قلت: الآية تعم هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، وإن لم تتناول ذلك لفظًا فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك، ولذلك حرم ملبس جلود النمور والسباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

***

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦١) والفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٣٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٤-٤٥): رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

(١)إخباره سبحانه بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أيخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدهم، أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار،ونمضي فندخل الجنة. فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا، وفتنة لهم يوم القيامة(٢).

(٣)أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم. وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله ﷺ، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه. وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به. وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربعة حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب. والخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمي قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً ﴾.

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع، إن رجعا إلى شيء واحد، كان ذكر عدم

---

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

(٢) انظر: التخويف من النار (ص ١٦٠).

(٣) ١٤ إغاثة جـ١.

الريب مقررًا لليقين ومؤكدًا له، ونافيًا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه، وإن رجعا إلى شيئين، بأن يكون اليقين راجعًا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدم الريب عائدًا إلى عموم ما أخبر الرسول به،لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ، ظهرت فائدة ذكره. والمقصود: ذكر مرض القلب وحقيقته.

***

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

(١)أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه. وحكمته وعلمه. وعنايته بخلقه، ما هو معلوم بالمشاهدة.

وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها، مما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر: من الليل والنهار، وكل ذلك آية من آياته، ودلالة من دلائل ربوبيته.

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما، وجرمهما، ونورهما، وحركتهما على نهج واحد، لا ينيان ولا يفتران دائبين، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء، والسرعة، والرجوع والاستقامة، والانخفاض، والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكلٍّ حركة مقدرة، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر. كما أن له تأثيرًا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.

وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر، بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفوق ما علمه الناس من

---

(١) ١٠٢ التبيان.

الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم. فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما، وكمال حكمته، ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيط متسخن، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره، فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين. وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم،وصلاتهم، ومواقيت أجائرهم، ومداينتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه. أحدها قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. والثانية قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. والثالثة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]. فولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، مدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس، قيل: هذا وإن كان ممكنًا إلا أنه يعسر ضبطه، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو

أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطرابًا واختلافًا، ولا يحتاج إلىٰ تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه.

فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافًا من تقديرها بسير الشمس. فالرب ـ جل جلاله ـ دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به علىٰ وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره. فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال علىٰ تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمل البصير القمر مثلًا، وافتقاره إلىٰ محل يقوم به، وسيره دائبًا لا يفتر، مسير، مسخر، مدبر، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئًا فشيئًا، ثم عوده إليه كذلك. وسبب ضوئه جملة واحدة حتىٰ يعود قطعة مظلمة بالكسوف. علم قطعًا أنه مخلوق مربوب مسخر، تحت أمر خالق قاهر مسخر له. كما يشاء، وعلم أن الرب ـ سبحانه ـ لم يخلق هذا باطلًا، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهي إلىٰ الانقطاع والسكون. وإن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهي إلىٰ ضده. وأن هذا السلطان لابد أن ينتهي إلىٰ العزل.

وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويُري المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه. كما يُري عباد الكواكب انتثارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره. كما أرىٰ عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه. والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم. وكما أرىٰ الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرءوس، وقطعت تلك الأيدي

والأرجل، التي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام. وهذه سنة الله التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يُري عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راض بعبادة غيره، ويريه تبريه منه، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل(١)

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغيير في الشمس. ولو شاء لغيرهما معًا. ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة. ولكن يري عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه، وجزر البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر.

وأما إقسامه سبحانه بـ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والماد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل هد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد. فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار.

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وعجز البيت الثاني صدر بيت لبيد بن ربيعة العامري وعجزه: كل نعيم لا محالة زائل. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦).

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره. فيا لهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته. فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار. فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم؟ ويتصرفون في أمورهم؟ والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه؟ وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟ ولولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدو لراحة أبدانهم وجموم حواسهم. فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكنًا ولباسًا، كما جعل النهار ضياءً ومعاشًا.

ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله ـ سبحانه ـ النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، والليل سرمدًا إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده.

وتأمل حكمته ـ سبحانه ـ في ارتفاع الشمس، وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من مصالح الخلق. ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد منها مواد الثمار، ويكثف الهواء، فينشأ منه السحاب، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع. وفي الصيف يخرم الهواء، فينضج الثمار، وتشتد الحبوب، ويجفف

وجه الأرض، فيتهيأ العمل. وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ويمتد الليل، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين؛ ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي.

والمقصود أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة. فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها. والسنة القمرية مقدرة بسير القمر، وهو أقرب إلى الضبط. واشترك الناس في العلم به، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير. فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك، فجعل الله ـ سبحانه ـ طلوعها دولًا بين الأرض، لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها. واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة.

فلو زاد مقدار النهار علي ذلك إلى خمسين ساعة مثلًا أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضًا وتعطلت المصالح، ولو استويا دائمًا لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان. فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم.

ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه، كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩- ١٢]. وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين. وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره، وعلمه بالمغيبات.

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي: القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه.

فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها، جعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، منقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان، فأبى الظالمون إلا كفورًا ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

ولما أقام الحجة وبيَّن المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وآخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المسكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين. فهذه أربع

صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين:

(الأول): ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود. (الثانية): ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخالق ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]. وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٣]. وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه: فأمر بهما تارة، وأثنىٰ علىٰ فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب (اليمين) الإخلاص، والإحسان والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم. واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركًا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكًا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل. فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي: لم يكن لهم من شفيع فيهم، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسًا، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة.

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضىٰ التوحيد والربوبية، وأن ذلك إليه لا إليهم، فالأول عدله، والثاني فضله، فالأول يوجب السعي والطلب والحرص علىٰ ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد. والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلىٰ من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم. والله المستعان وعليه التكلان.

(١) لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة وله به منفعة ولذة؛ فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت، تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة، تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق البتة. قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

(٢) والقصد: إن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال. فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى أسفل. إما إلي أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف البتة. ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ. ومتقدم ومتأخر. وليس في الطريق واقف البتة. وإنما يتخالفون في جهة المسير. وفي السرعة والبطء: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥- ٣٧] ولم يذكر واقفًا. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور. ثم ينهض إلى طلبه، قلت: لابد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجم نفسه، ويعدها للسير. فهذا وقفة سير، ولا تضره الوقفة. فإن «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة»(٣).

---

(١) ١٩٢ فوائد.

(٢) ٢٦٧ مدارج جـ١.

(٣) أخرجه ابن حبان (١/ ١٨٧ رقم ١١) وابن خزيمة (٣/ ٢٩٣ رقم ٢١٠٥) وأحمد (٢/ ١٨٨، ٢١٠) والطبراني في الكبير (٢/ ٢٨٤ رقم ٢١٨٦) والبزار (٦/ ٣٣٩ رقم ٢٣٤٦) وقال الهيثمي في المجمع

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه. وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخره ولا بد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره. نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع. ووثب وجمز واشتد سعيًا ليلحق الركب. وإن استمر مع داعي التأخر. وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركًا. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

والجملة: فإن تدارك الله ﷻ هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فهو في تأخر إلى الممات. راجع القهقرى، ناكص على عقبيه، أو مول ظهره. ولا قوة إلا بالله. والمعصوم من عصمه الله.

***

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

[1]لا يخلو إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر، وجعلهم من المجرمين أو مجموعها. فإن كان كل واحد منها مستقلًا بذلك فالدلالة ظاهرة، وإن كان مجموع الأمور الأربعة فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم، وإلا فكل واحد منها مقتض للعقوبة، إذ لا يجوز أن يضم ما لا تأثير له في العقوبة إلى ما هو مستقل بها.

= (٢/ ٢٥٩): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وقال في موضع آخر (٣/ ١٩٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(١) ١٦ الصلاة.

ومن المعلوم أن ترك الصلاة وما ذكر معه ليس شرطًا في العقوبة على التكذيب بيوم الدين، بل هو وحده كاف في العقوبة، فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك، إذ لا يمكن قائلًا أن يقول: لا يعذب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة، فإذا كان كل واحد منها موجبًا للإجرام ـ وقد جعل الله سبحانه المجرمين ضد المسلمين ـ كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر.

وقد قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩]. فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين.

(١) ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها؟ ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ فذكروا الأصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات، فهذان الأصلان هما ما هما، والله ولي التوفيق.

***

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾.

(٢) قوله تعالى في تشبيه من أعرض عن كلامه وتدبره: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به ورسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية

---

(١) ٤١ مفتاح جـ١.
(٢) ١٦٤ أعلام جـ١.

الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدىٰ الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عمًّا يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنىٰ أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحضه علىٰ النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا علىٰ الفعل المجرد، فكأنها تواصت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنىٰ أن القسورة استنفرها وحملها علىٰ النفور ببأسه وشدته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المدثر

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

(١)قد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء، ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة، والقرآن، والمعاد. وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة، ويقررها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها، والإيمان بها. وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣].

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد.

فأقسم سبحانه لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحودًا وتكذيبًا.

واختلف في النفس المقسم بها ههنا، هل هي خاصة أو عامة؟ على قولين، بناء على الأقوال الثلاثة في اللوامة: فقال ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا. ويلوم المسي نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته، واختاره الفراء. قال: ليس من نفس، برة ولا فاجرة، إلا وهي تلوم نفسها. إن كانت عملت خيرًا قالت: هلا ازددت خيرًا؟ وإن كان عملت سوءًا قالت: يا ليتني لم أفعل.

والقول الثاني: إنها خاصة، قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وأن المؤمن ـ والله ـ

---

(١) ١٠ التبيان.

لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة، لأنه يستقصرها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر يمضي قدمًا، لا يعاتب نفسه.

والقول الثالث: إنها النفس الكافرة وحدها، قاله قتادة ومقاتل. وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله.

قال شيخنا: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقًا. فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] فإنه لابد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره. ثم هذا اللوم قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللوم غير محمود. وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق؟» فحج آدم موسى، فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦] وعلى جزائها كقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٩٢]. وعلى تباين عملها كقوله: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل: ٤] وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك.

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه. ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليها إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لومًا بحق، قد أعذر الله

خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وإنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح، ولا فلاح بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر.

قال ابن عبدالبر: هذا الحديث أصل عظيم لأهل الحق في إثبات القدر، وأن الله قضى أعمال العباد، فكل أحد يصير لما قدر له مما سبق في علم الله، وليس فيه حجة للجبرية وإن كان في بادئ الرأي يساعدهم، وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة، لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه. فكان لومه على ذلك نوع جفاء، قال الحافظ: وقد أنكر القدرية الحديث، لأن صريح في إثبات القدر السابق، وتقرير النبي ﷺ لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأن غلب موسى، وقد أطال الحافظ في الجواب على ذلك من وجوه عدة: منها ما قال ابن عبدالبر: هذا مخصوص بآدم، لأن المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧] فحسن منه أن ينكر على موسى لومه، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب المعصية: هذا سبق في علم الله وقدره قبل أن يخلقني، فإن الأمة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية(١).

(٢)قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ ﴾ [القيامة: ١-٢]. وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر، وكون الجواب غير مذكور، وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به، وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا. فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا.

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٩-٥١٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٥٦)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٢٨٢).
(٢) ٩٢ التبيان.

(١)وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧] وبقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه...

(٢)أما اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد، أو هي من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين. قال سعيد بن جبير: «قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللؤوم». وقال مجاهد: «هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه». وقال قتادة: «هي الفاجرة» وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر. وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته»(٣). وقال الحسن: «إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدمًا لا يعاتب نفسه»(٤)... فهذا عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم.

وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة.

---

(١) ٢٦٧ الروح.

(٢) ٧٧ إغاثة جـ١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٧٢-١٧٦) وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٨٦) وتفسير السيوطي (٨/ ٣٤٢-٣٤٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٢٨١).

ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها. وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها. وكونها لوامة ينقسم إلىٰ المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه. وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها، وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها، وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمني علىٰ الله**»(١) دان نفسه: أي حاسبها.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفىٰ منكم خافية»(٢).

وذكر أيضًا عن الحسن قال: لا تلقىٰ المؤمن إلا يحاسب نفسه: ماذا أردت تعملين؟ وماذا أردت تأكلين؟ وماذا أردت تشربين، والفاجر يمضي قدمًا لا يحاسب نفسه».

(٣)وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) وابن ماجه (رقم ٤٢٦٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦٩ رقم ٦٣٠٦) والترمذي (رقم ٢٤٥٩) والطبراني في الصغير (رقم ٨٦٣) وفي الكبير (٧/ ٢٨١ رقم ٧١٤١) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٦٦ رقم ٤٦٣) والبزار (٨/ ٤١٧ رقم ٣٤٨٩) والطيالسي (رقم ١١٢٢) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٦ رقم ٣٤٤٥٩) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٠٦) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٤/ ٣١٤).

(٣) ٢٧٤ الروح.

ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. فاختلف فيها فقالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب، وتتلون في الساعة الواحدة فضلًا عن اليوم والشهر والعام، والعمر ألوانًا متلونة، فتذكر، وتغفل، وتقبل، وتعرض، وتلطف، وتكشف،وتنيب، وتجفو، وتحب، وتبغض، وتفرح، وتحزن، وترضى، وتغضب، وتطيع، وتعصي، وتتقي، وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة، فهذا قول.

وقالت طائفة: اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا، فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى أو نحوه هذا من الكلام.

وقال غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته. وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين فإن كل أحد يلو م نفسه برًا كان أو فاجرًا، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

وقالت فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته وإن كان محسنًا على تقصيره.

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة. لكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته، ولوامة غير ملومة وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم. فهذه قد

تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله ﷻ[1].

***

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

[2]ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه: أن الله لا يجمع عظامه بعد ما فرقها البلى. ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه. وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه. وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور. والمعنى: بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه. ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي. فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه. فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا نجمع ونسوي أكثرها تفرقًا، وأدقها أجزاء، وآخر أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه، ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار لا نفرق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين. والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه

---

(١) تقدم البحث في سورة يوسف في الكلام على النفس الأمارة. (ج).
(٢) ٩٣ التبيان.

مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول. وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها. ولم يجمعها، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجع الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت. ويرجع القول الثاني ـ ولعله قول جمهور المفسرين، حتى إن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد. وارتباط بعضها ببعض، فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء ـ سبحانه ـ لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف، ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها. ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت.

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيًا، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده. وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع في الحال، ولا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد التائب المنيب.

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعادًا لزمته مع إقراره بوقوعه. بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدمًا قدمًا في معاصي الله، لا ينزع عن فجوره.

وفي الآية قول آخر، وهو أن المعنى بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار ابن قتيبة وأبي إسحاق قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [القيامة: ٦] ويرجح هذا القول لفظة (بل)، فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو مريد التكذيب به، ويرجحه أيضًا أن السياق كله في ذم الكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر، وأيضًا فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد. فإنه قال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝ ﴾ [القيامة: ٣-٤]. فأنكر سبحانه عليه حسبانه أن الله لا يجمع عظامه. ثم قرر قدرته على ذلك. ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة. فالأول حسبان منه لا يحييه بعد موته، والثاني: تكذيب منه بيوم البعث، وأنه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته، فهو مريد للتكذيب به.

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب، فقال: ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [القيامة: ٦]. فالأول إرادة التكذيب، والثاني: نطق بالتكذيب وتكلم به. وهذا قول قوي كما ترى. لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى. فإن لفظه (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل. فإن أصحاب هذا القول قالوا: تقديره ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا الفظ عليه ليست بالبينة.

فالجواب: أن الأمر كذلك لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاؤه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلًا، وما يضمنه معنى فعل آخر، ويجري على المضمن أحكامه لفظًا وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار. ومن تدبر هذا وجده كثيرًا في كلام الله تعالى.

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما

اقتضته لفظًا، واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى. فهذا وجه هذا القول لفظًا ومعنى. والله علم.

***

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ ﴾.

أخبر سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب بـه، فقال: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ ﴾[القيامة: ٧- ١٠] فبرق بصره أي: يشخص بما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها، وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحى، وجمع الشمس والقمر، ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله. ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله، كما جمع خلق الإنسان من نطفة من منيٍّ يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان. وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق: إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة. فكيف (أنكر) هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وإن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع، وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه، وعبوديته فلا يترك سدى مهملًا معطلًا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، فلا يجمع عليه ذلك.

فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع، والضم. وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين. وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها همومها وغمومها، وإرادتها، واعتقاداتها، وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد، والقيامة الصغرى

والكبرى، وأحوال الناس في المعاد،وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة، وباسرة معذبة، وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان. فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق، ويقول الحاضرون: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧]. أي من يرقى من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي التمسوا له من يرقيه. والرقية آخر الطب.

وقيل: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقي: كرمى يرمي. وعلى الثاني من رقي يرقى: كشقي يشقى. ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية. والقول الأول أظهر لوجوه: (أحدها): أنه ليس كل ميت يقول حاضروه. من يرقى بروحه. وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت، وأنهم ملائكة رحمة، وملائكة عذاب، بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء، فإنه قل ما يخلو منه المحتضر. (الثاني): أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها، وحينئذ يقال من يرقى بها. وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله. (الثالث): أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع، وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، و(من) إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه. (الرابع): أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد (من) نحو قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية، وفإنه يحسن فيه الأول. (الخامس): أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى الله سبحانه ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول، لأنه ليس الغرض متعلقًا بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه. (السادس): أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام

أن يقال: من هو الراقي، ومن الراقي؟ ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال: من هو القائل منكما كذا وكذا؟ وفي الحديث: «من القائل كلمة كذا». (السابع): أن كلمة من إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول: من الذي فعل كذا، ومن ذا الذي قاله. فيعلم أن فاعلًا وقائلًا فعل وقال، ولا يعلم تعيينه، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة، وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله.

فإن قيل: بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما. قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيل للسامع إلى تعيينه . ولا إلى العلم به. (الثامن): أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا ملخص منه، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة. فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسبابًا خارجة عن المقدور تستجلب بالرقى والدعوات، فقالوا: من راق؟ أي من يرقى هذا العليل من أسباب الهلاك. والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء. (التاسع): أن مثل هذه إنما يراد به النفي والاستبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية، أي لا أحد يرقى من هذه العلة بعد ما وصل صاحبها إلى هذه الحال. فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجود الراقي، كقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] أي لا أحد يحييها، وقد صارت إلى هذه الحال. فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقى، وإن أريد بها الطلب استحال أيضًا أن يكون منه. وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار. وحينئذ فتقول في (الوجه العاشر): إنها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه. والله أعلم.

***

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾.

[١]في الصحيحين من حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتها وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[٢]. وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبدالله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبي لأهلك فزات طيبًا على ما كانت، وما من يوم كان عيدًا في الدنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة، ويبرز لهم الرب ـ تبارك وتعالى ـ وينظرون إليه، وتسفي عليهم الريح بالطيب والمسك فلا يسألون ربهم ـ تبارك وتعالى ـ شيئًا إلا أعطاهم، فيرجعوا إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفًا[٣]. وقال عبد بن حميد: أخبرني شبابة عن إسرائيل، حدثنا ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر [إلى] خدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية**» ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٤] [القيامة: ٢٢، ٢٣] رواه الترمذي في جامعه عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ رفعه [إلى] النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة إذا بلغ منهم النعيم كل مبلغ، وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلى لهم**

(١) ٤٥٢ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٧٨) ومسلم (رقم ١٨٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٢٤) وشرح النووي (٧/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) أخرجه محمد بن إسحاق في التصديق بالنظر (رقم ٣) وأبو علي الأشيب في جزئه (رقم ٤٥) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٧٩).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٥٣) وأحمد (٢/ ٦٤) وعبد بن حميد (رقم ٨١٩) وضعفه ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٣٤).

الرب ـ تبارك وتعالى ـ فنظروا إلى وجه الرحمن، فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن»[١]. وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. قال: حسَّنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها ﷻ[٢]: قال أبو سليمان الداراني: لو لم يكن لأهل المحبة أو قال المعرفة إلا هذه الآية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ لا كتفوا بها[٣][٤].

[٥]ومن أسرار هذه السورة أنه ـ سبحانه ـ جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن: فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه. فلا أجمل لبواطنهم. ولا أنعم، ولا أحلى من النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه، وهي إشراقه، وتحسينه، وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١].

ونظيره قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ [الأعراف: ٢٦] هذا جمال الظاهر وزينته، ثم قال: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا جمال الباطن. ونظيره قوله: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ فهذا جمال ظاهرها، ثم قال: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فهذا جمال باطنها.

ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف: ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣١، ٣٢]. فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنه في غاية المحاسن ظاهرًا وباطنًا، وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (رقم ٨٥١).
(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص ١٢٦).
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦٤).
(٤) ذكر المؤلف رحمه الله آثارًا كثيرة في هذا الكتاب وغيره اكتفينا بما ذكرناه اختصارًا. (ج).
(٥) ٩٨ البيان.

تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. وقابل بين الظمأ، وهو حر الباطن، والضحى، وهو حر الظاهر بالبروز للشمس، وقريب من هذا قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧] في ذكر الزاد الظاهر الحسي والزاد الباطن المعنوي. فهذا زاد سفر الدنيا. وهذا زاد سفر الآخرة. ويلم به قول هود: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢]. فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم، والثاني الباطنة المتصلة بهم. ويشبهه قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] فنفى عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم والدافع من خارج، وهو الناصر.

ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله، وهذا على أحد القولين في قوله: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٤]، فأخبر أنه قادر عليه، ولم يفعله ولم يرده، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] وهذا أيضًا على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض، فلا يقدر على الماء. قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب، فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «أعوذ بوجهك»[(١)]. ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لابد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عامًا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضًا. وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الأخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من القدرة على ما لا يريده، وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٢) و(١٣/ ٣٨٨).

لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقًا خطأ. والله أعلم.

ومن أسرارها: أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال عن تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه. أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه: هذا أحدها، والثاني قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٣، ١١٤]. والثالث قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه. وهذا يتناول القراءة وما بعدها.

وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون. وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي، وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي، والرب

تعالىٰ لا يعالجه بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئًا بعد شيء، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال، وينبهه علىٰ مبدئه: من كونه نطفة من منيٍّ يمنىٰ. ثم علقة، ثم خلقًا سويًا، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصىٰ أمره. بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ومن أسرارها: أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل. وهذا أحد القولين، لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب، فإن الله سبحانه أنكر علىٰ من حسب أنه يترك سدىٰ: فلا يؤمر، ولا ينهىٰ، ولا يثاب، ولا يعاقب. ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي ما لا يليق نسبته إليه، ونفي منكر علىٰ من حكم به وظنه. ثم استدل سبحانه علىٰ فساد ذلك، وبين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار، وتنقله فيها طورًا بعد طور حتىٰ بلغ نهايته، يأبىٰ أن يتركه سدىٰ، فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] فجعل كمال ملكه، وكونه سبحانه الحق، وكونه لا إله إلا هو، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه، مبطلًا لذلك الظن الباطل، والحكم الكاذب، وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أنه يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، غير ذلك مما هو منزه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالىٰ عنه مما لا يليق: من اتخاد الولد، والشريك، ونحو ذلك، مما ينكره سبحانه علىٰ من حسبه أشد الإنكار. فدل علىٰ أن ذلك قبيح ممتنع نسبته إليه، كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس.

***

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ولو كان نفي تركه سدىٰ إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً ﴾ [القيامة: ٣٧] إلىٰ آخره، مما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه، وبعث العباد ليوم يجزىٰ فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق، ولذلك كان منكر ذلك كافرًا بربه، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال، والمستحق لنعوت الكمال. كما أن المعطل لكلامه وعلوه علىٰ خلقه لم يؤمن به ـ سبحانه ـ فإن آمن برب لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهىٰ، ولا يصعد إليه قول، ولا عمل، ولا ينزل من عنده ملك، ولا أمر، ولا نهي، ولا ترفع إليه الأيدي. ومعلوم أن هذا الذي آمن به رب مقدر في ذهنه، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين.

وكذلك إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضيًا لصفات كماله من علمه، وسمعه وبصره، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وفعله ما يشاء. واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه، وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم، وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه، وعطل حقائقها، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القيامة

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الإِنسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

(١) إن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه ﷻ في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه. وقال المعتصم يومًا لبعض أصحابه: يا فلان إذا نُصِرَ الهوىٰ ذهب الرأي. وسمعت رجلًا يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد أو قال نَسِيه، فقال الشيخ: هكذا من خان الله [تعالىٰ] ورسوله في مسائل العلم.

إن من فسح لنفسه في اتباع الهوىٰ ضيق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوىٰ وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ هذا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان: ١٢] فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوىٰ خشونة وتضييق جازاهم علىٰ ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.

***

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾.

(٢) قد تقدم الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الإنسان: ٥، ٦] وعلىٰ قوله: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨] فقالت فرقة: سلسبيلا جملة مركبة من فعل وفاعل، وسبيلًا منصوب علىٰ المفعول، أي سل سبيلًا إليها، وليس هذا بشيء، وإنما السلسبيل كلمة مفردة، وهي اسم للعين

(١) ٥١٢ روضة المحبين.

(٢) ١٣٦ حادي الأرواح.

نفسها باعتبار صفتها.

ولقد شفى قتادة ومجاهد في اشتقاق اللفظة، فقال قتادة: سلسة فهم يصرفونها حيث شاءوا، وهذا من الاشتقاق الأكبر. وقال مجاهد: سلسة السيل حديدة الجرية، وقال أبو العالية والمقابلان: تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، وهذا من سلاستها وحدة جريتها. وقال آخرون: معناها طيبة الطعم والمذاق، وقال أبو إسحاق: سلسبيل صفة لما كان في غاية السلاسة، فسميت العين بذلك. وقال ابن الأنباري: الصواب في سلسبيل أنه صفة للماء، وليس باسم للعين. واحتج على ذلك بحجتين:

إحداهما: أن سلسبيلًا مصروف، ولو كان اسمًا للعين لم يصرف للتأنيث والعلمية.

الثانية: أن ابن عباس قال: معناه أنها تنسل في حلوقهم انسلالًا.

قلت: ولا حجة له في واحدة منهما، أما الصرف فلاقتضاء رءوس الآي له كنظائره؛ وأما قول ابن عباس فإنما يدل على أن العين سميت بذلك باعتبار صفة السلالة والسهولة. فقد تضمنت هذه النصوص أن لهم فيها الخير واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. وأما المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر.

فإن قيل: فأين يشوي اللحم وليس في الجنة نار؟

فقد أجاب عن هذه بعضهم بأنه يشوى بـ «كن». وأجاب آخرون بأنه يشوى خارج الجنة ثم يؤتى به إليهم.

والصواب: أنه يشوى في الجنة بأسباب قدرها العزيز الحكيم لإنضاجه وإصلاحه، كما قدر هناك أسبابًا لإنضاج الثمر والطعام على أنه لا يمتنع أن يكون فيها نار تصلح لا تفسد شيئًا، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**مجامرهم الألوة**»[1] (والمجامر) جمع مجمر وهو البخور الذي يتبخر بإحراقه (والألوة) العود المطري، فأخبر أنهم يتجمرون به، أي يتبخرون بإحراقه، لتسطع لهم رائحته.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٤).

وقد أخبر سبحانه أن في الجنة ظلالًا، والظلال لابد أن تفيء مما يقابلها، فقال: ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس: ٥٦]. وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات: ٤١] وقال: ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً ﴾ [النساء: ٥٧] فالأطعمة والحلوىٰ والتجمر تستدعي أسبابًا تتم بها، والله سبحانه خالق السبب والمسبب، وهو رب كل شيء ومليكه، لا إله إلا هو.

وكذلك جعل لهم سبحانه أسبابًا تصرف الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم، فهذا سبب إخراجه، وذاك سبب إنضاجه.

وكذلك جعل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام، ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحًا وجشاءً.

وكذلك ما هناك من الفواكه والثمار يخلق لها من الحرارة ما ينضجها، ويجعل - سبحانه - أوراق الشجر ظلالها، فرب الدنيا والآخرة واحد، وهو الخالق للأسباب والحكم ما يخلقه في الدنيا والآخرة، والأسباب مظهر أفعاله وحكمته، ولكنها تختلف، ولهذا يقع التعجب من العبد لورود أفعاله - سبحانه - علىٰ أسباب غير الأسباب المعهودة المألوفة، وربما حمله ذلك علىٰ الإنكار والكفر، وذلك محض الجهل والظلم، وإلا فليست قدرته ﷻ مقصورة عن أسباب أخر ومسببات ينشئها منها كما لا تقصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته، وليس هذا بأهون عليه من ذلك.

ولعل النشأة الأولىٰ التي أنشأها الرب ﷻ فيها بالعيان، والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية التي وعدنا بها إذا تأملها اللبيب.

ولعل إخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها أعجب عند العقل من إخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها.

ولعل إخراج هذه الأشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب أعجب من إجرائها أنهارًا في الجنة بأسباب أخر.

ولعل إخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال وغيرها

أعجب من إنشائها هناك من أسباب أخر.

ولعل إخراج الحرير من لعاب دود القز وبنائها على أنفسها القباب البيض والحمر والصفر أحكم بناء أعجب من إخراجه من أكمام تنشق عنه شجر هناك قد أودع فيها وأنشئ منها.

ولعل جريان بحار الماء بين السماء والأرض على ظهور السحاب أعجب من جريانها في الجنة في غير أخدود.

وبالجملة فتأمل آيات الله التي دعا عباده إلى التفكر فيها، وجعلها آيات دالة على كمال قدرته وعلمه ومشيئته وحكمته وملكه وعلى توحده بالربوبية والإلهية.

ثم وازن بينها وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار تجد هذه أدل شيء على تلك، شاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد، فبعدًا لقوم لا يؤمنون.

[1]قال تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ [الإنسان: ١٧] وذكر أبو نعيم في كتاب الطب النبوي، من حديث أبي سعيد الخدري قال: «أهدى ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جرَّة زنجبيل، فأطعم كل إنسان قطعة، وأطعمني قطعة»[2].

الزنجبيل: حار في الثانية، ورطب في الأولى، مسخن معين على هضم الطعام، ملين للبطن تليينًا معتدلًا. نافع من سدد الكبد العارض عن البرد والرطوبة، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة: أكلا، واكتحالا. معين على الجماع، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة.

وبالجملة: فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار أسهل فضولًا لزجة لعابية، ويقع في المعجونات التي تحلل

---

(١) ٣٥٤ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٣٧) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٦٧) قال ابن حجر في لسان الميزان (٤/ ٣٦٠): هذا منكر. وانظر: ميزان الاعتدال (٥/ ٣٠٨).

البلغم وتذيبه، والمزي منه: حار يابس يهيج الجماع، ويزيد في المني، ويسخن المعدة والكبد، ويعين على الاستمراء وينشف البلغم الغالب على البدن، ويزيد في الحفظ ويوافق برد الكبد والمعدة ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة، ويطيب النكهة ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة.

***

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾.

[(١)] قال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان: ١٩] قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون. قال: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يمشط: إنه لمخلد، وإذا لم تذهب أسنانه، من الكبر قيل: هو مخلد. وقال آخرون: مخلدون: مقرطون مسورون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال: مخلدون: مقرطون بالخلدة. وجمعها خلد وهي القرطة.

وروى عمرو عن أبيه: خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب، وكذلك قال سعيد بن جبير: مقرطون.

واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما أن الخلود عام لكل من دخل الجنة، فلابد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم، وذلك هو القرطة.

الحجة الثانية: قول الشاعر:

ومخلـــدات بـــاللجين كـــأنما أعجـــازهن رواكـــد الكثبـــان[(٢)]

وقال الأولون: الخلد هو البقاء. قال ابن عباس: غلمان لا يموتون، وقول ترجمان

---

(١) ١٥٣ حادي الأرواح.

(٢) ذكر هذا البيت الطبري في تفسيره (٢٩/ ٢٢٠) وابن الجوزي في غريب الحديث (٢/ ٢٧٠) وابن منظور في اللسان (٣/ ١٦٤) وفيها كلها: «أقاوز» بدل «رواكد».

القرآن في هذا كاف، وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل. قالوا: لا يكبرون، ولا يهرمون ولا يتغيرون.

وجمعت طائفة بين القولين، وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم، وفي آذانهم القراطة، فمن قال مقرطون أراد هذا المعنى: أن كونهم ولدان أمر لازم لهم وشبههم ـ سبحانه ـ باللؤلؤ المنثور، لما فيه من البياض وحسن الخلقة.

وفي كونه منثورًا فائدتان: (إحداهما): الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

و(الثاني): أن اللؤلؤ إذا كان منثورًا، ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير كان أحسن لمنظره، وأبهى من كونه مجموعًا في مكان واحد.

وقد اختلف في هؤلاء الولدان: هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء، على قولين. فقال علي بن أبي طالب والحسن البصري: هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم، يكونون خدم أهل الجنة، وولدانهم إذ الجنة لا أولاد فيها.

قال الحاكم أنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا إبراهيم بن الحسين ثنا آدم ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن في قوله: ﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ قال: لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها، فوضعوا بهذا الموضع[1]. ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين، فجعلهم الله خدمًا لأهل الجنة.

واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبدالرحمن الفاري عن أبي حازم قال المديني عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**سألت ربي اللاهين من ذرية البشر: أن لا يعذبهم. فأعطانيهم، فهم خدم أهل الجنة**»[2] يعني الأطفال. قال الدارقطني: ورواه

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٩) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٧/ ٢٠١-٢٠٢ رقم ٢٦٣٩) والطبراني في الأوسط (٦/ ١١١ رقم ٥٩٥٧) وأبو يعلى (٦/ ٢٦٧ رقم ٣٥٧٠) وابن الجعد (رقم ٢٩٠٦) وقال الهيثمي في المجمع =

عبدالعزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ انتهى. ورواه فضيل بن سليمان عن عبدالرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس، وهذا الطرق ضعيفة. فيزيد: واهٍ. وفضيل بن سليمان: متكلم فيه، وعبدالرحن بن إسحاق: ضعيف.

قال ابن قتيبة واللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه، وليس هو من لهوت. وأصحاب القول الأول لا يقولون إن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها، وإنما يقولون: هم غلمان أنشأهم الله في الجنة، كما أنشأ الحور العين.

قالوا: وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاث وثلاثين لما رواه ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث: أن دراجًا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبدًا، وكذلك أهل النار**»[(١)] رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة: كالحور العين خدمًا لهم وغلمانًا، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الطور: ٢٤] وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم، ولا يجعلهم غلمانًا لهم.

وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: «**أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا**»، وفيه: «**يطوف على ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون**»[(٢)] والمكنون المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي. وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة ويطوف عليهم، واعتبرتها بقوله: ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ [الطور: ٢٤] وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفًا، علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدمًا لأهلها والله أعلم.

(٧/ ٢١٩): رواه أبو يعلى من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير عبدالرحمن بن المتوكل وهو ثقة. وحسنه بدر الدين العيني في عمدة القاري (٨/ ٢١١) وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٢٨٨).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٦٢) وابن المبارك (رقم ١١٨) وضعفه الترمذي.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ٤٧ رقم ١١٧) والدارمي (رقم ٤٨).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾.

[(١)] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد «ملكًا كبيرًا قال: عظيمًا، وقال: استئذان الملائكة عليهم لا تدخل الملائكة عليهم إلا بإذن.

وقال كعب في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ يرسل إليهم ربهم الملائكة، فتأتي الملائكة فتستأذن عليهم الملائكة.

وقال بعضهم: الخدم، ولا يدخل عليهم الملائكة إلا بإذن.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: أنه ذكر مراكب أهل الجنة، ثم تلا: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ .

وقال ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾. قال الملك الكبير أن رسول الله يأتيه بالتحفة واللطف، فلا يصل إليه حتى يستأذن له عليه، فيقول للحاجب استأذن عليَّ ولي الله. فإني لست أصل إليه، فيعلم ذلك الحاجب حاجبًا آخر وحاجبًا بعد حاجب، ومن داره إلى دار السلام باب يدخل منه على ربه إذا شاء بلا إذن، فالملك الكبير أن رسول رب العزة لا يدخل عليه إلا بإذن، وهو يدخل على ربه بلا إذن.

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا صالح بن مالك حدثنا صالح المري حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك يرفعه: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم»[(٢)]...

***

(١) ١٩٤ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٢١٠) والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٤٢ رقم ٧٦٧٤) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٣٠) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٩٠) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات. وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٧٩ رقم ٥٦٤٠): رواه ابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ له ورواته ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠١): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

﴿عَـٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾.

[(١)]تأمل ما دلت عليه لفظة ﴿عَـٰلِيَهُمۡ﴾ من كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا، يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وقد اختلف القراء السبعة في نصب «عاليهم» ورفعه على قراءتين.

واختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال على قولين.

واختلف المفسرون هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق أو للسادات الذين يطوفون عليهم الولدان فيطوفون على ساداتهم وعلى السادات هذه الثياب، وليس الحال ههنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع. فالصواب أنه منصوب على الظرف، فإن عاليا لما كان بمعنى فوق أجرى مجراه، قال أبو علي: وهذا الوجه أبين، وهو أن عاليًا صفة فجعل ظرفًا، كما كان قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٢] كذلك.

وكما قالوا هو ناحية من الدار، وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا إفراد عال وجمع الثياب، لأن فاعلًا قد يراد به الكثرة، كما قال:

ألا إن جيـــراني العـــشية رائـــح دعتهم دواع مـن هـوى ومنـادح[(٢)]

وقال تعالى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧].

ومن رفع خضرًا أجراه صفة للثياب، وهو الأقيس من وجوه: أحدها المطابقة بينهما في الجمع. الثاني: موافقته لقوله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ [الكهف: ٣١]. الثالث: تخلصه من وصف المفرد بالجمع، ومن جر أجراه صفة للسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض.

وتترجح القراءة الأولى بوجه رابع أيضًا، وهو أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في

(١) ١٤٢ حادي الأرواح.

(٢) ذكر هذا البيت الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٢) ونسبه إلى جميل بن معمر. وكذا ذكره في تهذيب الآثار (٢/ ٦٨٨).

لفظ الواحد، فيجرونه مجرى الواحد. كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ [يس: ٨٠]، وكقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [الحاقة: ٧]، فإذا كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنى الجمع أولى. وفي إستبرق قراءتان الرفع عطفًا على ثياب والجر عطفًا على سندس.

وتأمل كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي، كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريبًا، فجمل البواطن بالشراب الطهور، والسواعد بالأساور، والأبدان بثياب الحرير.

***

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(١)قاعدة: للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإنسان: ٢٦، ٢٧].

(٢)قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨] قال ابن عباس: أي خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر. شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر. قال: وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوى خلقه، وكل

(١) ٢٠٠ فوائد.
(٢) ٢٣ التبيان.

شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض، بالعروق والعصب...

[(١)]وقال في سورة الإنسان: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأولى، ثم قال: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرى، ونظير هذا: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦] وهذا في القرآن كثير جدًا، يقرن بين النشأتين مذكرًا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإنسان

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٢٤ التبيان.

سُورَةُ المُرسَلاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝ ﴾ [المرسلات: ١، ٧] ف[١]فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة. وفسرت بالسحاب، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس: قلت: الله سبحانه يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسل الرياح، ويرسل السحاب. فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع على ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون هو نوعان: نوع يحبه ويرضه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه، ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشياطين على الكفار.

فالإرسال المقسم به ههنا مقيد بالعرف.

فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين، وإما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات. وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيت، وأيضًا فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضًا فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [النحل: ٦٣] وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقوله:

(١) ٨٩ التبيان.

﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾ [يس: ١-٣] وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الديك، والناس إلى فلان عرف واحد، أي سابقون في قصده والتوجه إليه.

جاز أن تكون المرسلات الرياح. ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات. وجاز أن تكون الملائكة. وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفًا عليهما. ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها.

ويؤيد كونها الرياح عطف العصافات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت، فعصفت. ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح، والأكثرون على أنها الرياح. وفيها قول ثالث أنها تعصف بروح الكافر. يقال عصف بالشي إذا أباده وأهلكه. قال الأعشى:

تعصف بالـــدارع والحـــاسر[(١)]

حكاه أبو إسحاق: هو قول متكلف.

فإن المقسم به لابد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليه، وإنما يقسم ـ سبحانه ـ بملائكته وكتابه، لظهور شأنهما، ولقيام الادلة والأعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما.

وأما (الناشرات نشرًا) فهو استئناف قسم آخر، ولهذا أتى به بالواو وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء. قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد،وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر.

ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧] يعني أنها تنشر السحاب نشرًا، وهو ضد الطي. وقال مقاتل:

(١) هذا عجز بيت من بحر السريع، وصدره: **يجمع خضراء لها سورة**، وينسب إلى الأعشى، وقد سبق التعريف به، وقد ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٩/ ٢٤٩) إلا أن صدر البيت عنده هكذا: في فيلق جأواء ملمومة.

هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم. وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس. وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها ـ وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان.

وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي تحييها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازمًا لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حي، وأنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات. فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

لكنَّ هنا أمرًا ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الأقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفًا على المرسلات بفاء التعقيب، فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات الملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات.

وقد اختلف في الفارقات والأكثرون على أنها الملائكة. ويدل عليه عطف الملقيات ذكرًا عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق.

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذارًا وإنذارًا.

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها. وقال: هي تفرق السحاب ههنا وههنا، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها.

ومن قال: الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق والباطل، فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح.

ومن قال: هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر. وإن أراد

الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعله الله تعالى نشورًا.

وحياة القلوب والأرواح بالملائكة. فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة. ولهذا ـ والله أعلم ـ فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

***

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝﴾.

تأمل كيف موقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية، وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولى في قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة. وهو الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة.

ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل. بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعًا فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به فتأمله.

***

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝﴾.

[(1)]وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] فالأمر منحصر في

---

(١) ٨٠ مفتاح جـ١.

الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق، فأين العدول، وأين المذهب؟!

ونظير هذا قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] أي: إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا، إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلىٰ المقصود، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المرسلات

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

(١)في النوم فائدتان: إحداهما: انعكاس الحرارة إلى الباطن فينهضم الطعام. والثانية: استراحة الأعضاء التي قد كلت بالأعمال.

(٢)وضابط الانقطاع أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]. فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئًا إلا حميمًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤.
(٢) ٣١٨ مدارج جـ١.

لمن فعله، فحسن أن يقال: «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

[(١)] حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]. وقوله: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝ ﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مقاتل ومجاهد: هو الذي انتهى برده...

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝ ﴾.

[(٢)] الكواعب جمع كاعب وهي الناهد: قال قتادة ومجاهد والمفسرون. قال الكلبي: هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكت، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل، ويسمين نواهد وكواعب.

[(٣)] وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم أنبأنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ [النبأ: ٣٤] قال: هي المتتابعة الممتلئة. قال: وربما سمعت العباس يقول: أسقنا وأدهق لنا[(٤)].

***

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ۝ ﴾.

[(٥)] الدليل على حشر الوحوش وجوه:

(أحدها): قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

---

(١) ٢١٦ بدائع جـ٣.

(٢) ١٦٣ حادي الأرواح.

(٣) ١٣٦ حادي الأرواح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/٣٣٩٦ رقم ١٩١٠٥) والحاكم (٢/٥٥٦ رقم ٣٨٩١) والمحاملي في أماليه (رقم ٢١) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) ١٨٣ بدائع جـ٣.

(الثاني): قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

(الثالث): حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم، وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها[١]. وهو متفق على صحته.

(الرابع): حديث أبي ذر أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟» قال: قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»[٢] رواه أحمد في مسنده.

(الخامس): الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابًا، فعندها يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النبأ

والحمد لله رب العالمين



---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٠٢) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٩) وشرح النووي (٧/ ٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٢): رواه كله أحمد والبزار بالرواية الأولى وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط وفيها ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح وفيها راوٍ لم يسمّ.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ ﴾.

(١)هذه خمسة أمور. وهي صفات الملائكة.

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾[الليل: ٦] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع.

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة، التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النساء: ٩٧]. وأما قوله: ﴿ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ﴾ [السجدة: ١١]. فإما أن يكون واحدًا، وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله: ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم: ١٢]. وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾[النحل: ١٨].

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلًا لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

واختلف الناس: هل النازعات متعد أو لازم؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون

---

(١) ٨٣ التبيان.

متعديًا، وهذا قول علي، ومسروق، ومقاتل، وأبي صالح، وعطية عن ابن عباس. وقال ابن مسعود: هي أنفس الكفار، وهو قول قتادة، والسدي، وعطاء عن ابن عباس. وعلى هذا فهو فعل لازم، وغرقًا على هذا معناه: نزعًا شديدًا أبلغ ما يكون وأشده.

وفي هذا القول ضعف من وجوه:

أحدها: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة، فهي السابحات والمدبرات، والنازعات.

الثاني: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين، ولا في اللفظ ما يدل عليه.

الثالث: أن النزع مشترك بين نفوس بين آدم، والإغراق لا يختص بالكافر. وقال الحسن : النازعات هي النجوم، تنزع من المشرق إلى المغرب. وغرقًا هو غروبها قال: تنزع من ههنا وتغرق ههنا. واختاره الأخفش وأبوعبيد.

وقال مجاهد: هي شدائد الموت وأهواله، التي تنزع الأرواح نزعًا شديدًا، وقال عطاء، وعكرمة: هي القسي، والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أو ذوات النزع التي نزع بها الرامي، فهو النازع.

قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا، إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه إذا خلاه وتركه، بعد ملابسته له، ونزع إليه إذا ذهب إليه ومال إليه. وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة، لأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم. فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضًا لها هذه القوة، والنجوم أيضًا تنزع من أفق إلى أفق. فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى بها، والمنايا تنزع النفوس، والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها.

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب ـ تعالى ـ، فإنه

هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك. ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل. وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي: تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع. والسابحات التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء. فالسابقات التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به، لا تبطئ عنه ولا تتأخر. فالمدبِّرات أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها. وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: أن (النازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف. (والناشطات) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة، واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة، والنشط الجذب برفق ولين. (والناشطات) هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به.

وقيل: (السابحات) هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس ٤٠] وقيل: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها.

قلت: والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه. وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجواري، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [الشورى: ٣٢]. وقال: ﴿ حَمَلْنَـٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١]. وقال: ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٦] ولم يسمها سابحات وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]. ويدل عليه ذكره السابقات بعدها المدبرات بالفاء، وذكره

الثلاثة الأول بالواو، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعت ونشطت وسبحت، فسبقت إلىٰ ما أمرت به فدبرته. ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء فتأمله.

قال مسروق، ومقاتل، والكلبي: ﴿ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ۝٤ ﴾ [النازعات: ٤] هي الملائكة قال مجاهد وأبو روق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين إلىٰ الجنة. وقال الفراء والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلىٰ الأنبياء إذا كانت الشياطين تسترق السمع. وهذا القول خطأ لا يخفىٰ فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلىٰ الأنبياء. وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلىٰ الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله ـ سبحانه ـ صان وحيه إلىٰ الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئًا منه، وعزلهم عن سمعه..

ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه. فإن الشيطان يبدر مسرعًا بإلقائه إلىٰ وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقىٰ الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت: ﴿ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴾ بالأنفس السابقات إلىٰ طاعة الله ومرضاته. وأما ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ فأجمعوا علىٰ أنها الملائكة، فقال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله تعالىٰ في الأرض، وهم: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا ﴾ . قال عبدالرحمن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم. وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات والخسف والمسخ،

والرياح والسحاب، انتهى.

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكًا، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفرشها، ونمارقها وأرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك.

فالدنيا وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ ـ قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك. ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وأما من قال: إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئًا من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة. كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

قال الجرجاني: وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها بالواو، لأن ما قبلها أقسام مستأنفة، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلهما، كأنه قال: فاللاتي سبحن فسبقن. كما نقول قام فذهب، أوجب الفاء أن القيام كان سببًا للذهاب ولو قلت: قام وذهب لم تجعل القيام سببًا للذهاب.

واعترض عليه الواحدي، فقال: هذا غير مطرد في هذه الآية، لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير، مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين.

قلت: الملائكة داخلون في السابقات قطعًا. وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل. وأما قوله: يبعد أن يكون السبق سببًا للتدبير فليس كما زعم، بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك، فهو سبب للفعل الذي أمر به، وهو التدبير، مع أن الفاء دالة على التعقيب، وأن التدبير بتعقب السبق بلا تراخ. بخلاف الأقسام الثلاثة. والله أعلم.

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق، وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن. أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به

دون أن يراد به مقسمًا عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظًا، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكًا. فإن المقسم به إذا كان دالًا على المقسم عليه مستلزمًا استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفًا لدلالة ما بعده عليه فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف. فإن معناه صحيح، لكن على غير الوجه الذي قدروه. فإن إقسامه ـ سبحانه ـ بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله.

(١) إن الملائكة مؤكلة بالعالم العلوي والسلفي، تدبره بأمر الله ﷻ كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [المرسلات: ١-٥]. وقال: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾.

وقد وكل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكة تحركها، ووكل بالرياح ملائكة تصرفها بأمره وهم خزنتها. قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦]. وقال غير واحد من السلف: عتت على الخزان فلم يقدروا على ضبطها (ذكره البخاري في صحيحه). ووكل بالقطر [ملائكة وبالسحاب] ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت [به].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «بينا رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتًا في سحابه يقول: اسق حديقة فلان. فتتبع السحابة حتى انتهت إلى حديقة فأفرغت ماءها فيها، فنظر فإذا رجل في الحديقة يحول الماء بمسحاة، فقال له: ما اسمك يا

(١) ٦٤ روضة المحبين.

عبدالله؟ فقال فلان. الاسم الذي سمعه في السحابة: فقال: إني سمعت قائلًا يقول في هذه السحابة: اسق حديقة فلان، فما تصنع في هذه الحديقة؟ فقال: إني انظر ما يخرج منها فأجعله ثلاثة أثلاث: ثلث أتصدق به، وثلث أنفقه على عيالي، وثلث أرده فيها»(١).

ووكل الله سبحانه بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحب، فقال: بل أستأني لهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا(٢). ووكل بالرحم ملكًا يقول: يا رب نطفة؟ يا رب علقة؟. يا رب مضغة؟ يا رب ذكر أم أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقي أم سعيد؟ ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومعقبات من بين يديه ومن خلفه أقلهم اثنان يحفظونه من أمر الله، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بمساءلة الموتى ملائكة في القبور. ووكل بالرحمة ملائكة، وبالعذاب ملائكة، وبالمؤمن ملائكة يثبتونه ويؤزونه إلى الطاعات أزًا، ووكل بالنار ملائكة يبنونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها، ويقومون بأمرها، ووكل بالجنة ملائكة يبنونها ويفرشوها، ويصنعون أرائكها وسررها وصحافها ونمارقها وزرابيها. فأمر العالم العلوي والسفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم - تبارك وتعالى - وأمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره، ليس بهم عجز عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزًا، فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به.

وكذلك البحار قد وكلت بها ملائكة تسجرها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وكلت بها ملائكة تحصيها

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨) وانظر: شرح النووي (١٨/ ١١٤-١١٥).
(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٨١ رقم ٢٦٢٤).

وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به. وهي خمس: الإيمان بالله، وملائكته،وكتبه،ورسله، واليوم الآخر.

وإذا عرف [ذلك عرف] أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب ـ تعالى ـ شرعًا وقدرًا، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره، ولذلك سموا ملائكة من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

***

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

(١)عذاب القبر حق، وقد قيل: ولابد من انقطاعه،لأنه من عذاب الدنيا، والدنيا وما فيها فانٍ منقطع، فلابد أن يلحقهم الفناء والبلاء،ولا يعرف مقدار مدة ذلك. يجوز أن يحشر الله العباد يوم القيامة عراة في وقت خروجهم من قبورهم يوم البعث، ثم يكسوا الله المؤمن حلل الجنان، ويجعل على الكافر والعصاة سرابيل القطران. والتعبد في الآخرة بترك التكشف زائل.

المحشر: هل هو في أرض من أراضي الجنة، أو في أرض من أراضي الدنيا، أو في موضع لا من الجنة ولا من النار، فقد قيل أول حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحولون إلى الأرض التي تسمى الساهرة، فهذا معنى قوله: ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات: ١٤]. والساهرة هي التي يحاسبون عليها، فإذا فرغوا من الحساب، وجازوا على الصراط، وميز بين المجرمين والمؤمنين، ضرب بينهم بسور، فكان ما وراء السور مما يلي الجنة من أرض الجنة، وصار ما دون السور مما يلي النار من أرض جهنم وموضع الحساب يصير من جهنم.

***

(١) ١٠٥ بدائع جـ٣.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

(١) كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة فلا يصادفها، فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط، فإن للرياسة سكرة: كسكرة الخمر أو أشد. ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير.

ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا. ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رءوساء العشائر والقبائل.

وتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]. فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر. وقال تعالى: ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ولم يقل: إلى أن أزكيك. فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره، لما فيه من البركة والخير والتمام. ثم قال: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾. أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك. وقال: إلى ربك، استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه، ورباه بنعمه صغيرًا ويافعًا وكبيرًا.

(٢) ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد، ونبوة موسى المستلزمة لنبوة محمد ﷺ، إذ من المحال أن يكون موسى نبيًا ومحمد ليس نبيًا، مع أن ما يثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه. وقرر سبحانه تكليمه لموسى بندائه له بنفسه. فقال: ﴿ إِذْ

---

(١) ١٣٢ بدائع جـ٣.
(٢) ٨٨ التبيان.

نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ [النازعات: ١٦]. فأثبت المستلزم للكلام والتكليم. وفي موضع آخر أثبت النجاء والنداء. والنجاء نوع من التكليم، ومحال ثبوت النوع بدون الجنس.

ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب، فيقول له: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

(أحدها): إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، وهو ألطف. ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٧] ولم يقل: كلوا.

(الثاني): قوله: ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة، والزيادة. فعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

(الثالث): قوله: ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾ ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه. وعلى هذا يخاطب الملوك.

(الرابع): قوله: ﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أي: أكون دليلًا لك. وهاديًا بين يديك، فنسب الهداية إليه، والتزكي إلى المخاطب. أي: أكون دليلًا لك وهاديًا، فتزكى أنت كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله أعطيك.

(الخامس): قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنينًا، وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام. كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك.

(السادس): قوله: ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي: إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته. لأن من عرف الله خافه. ومن لم يعرفه لم يخفه. فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته. وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

(السابع): أن في قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدة لطيفة. وهي أن المعنىٰ: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلىٰ قبول ذلك، لأن الداعي إنما يدعو إلىٰ حاجته ومصلحته لا إلىٰ حاجة الداعي. فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلىٰ أعظم مصالحك، فقابل هذا غاية الكفر والعناد. وادعىٰ أنه رب العالمين: هذا. وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوىٰ، ولا قدر فهدىٰ، فكذب الخبر، وعصىٰ الأمر، ثم أدبر يسعىٰ بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادىٰ فيهم بأنه ربهم الأعلىٰ، واستخفهم فأطاعوه، وفبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر، وأخذه نكال الآخرة والأولىٰ، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول علىٰ الكافرين.

ثم أقام سبحانه حجته علىٰ العالمين بخلق ما هو أشد منهم وأكبر، وأعظم وأعلىٰ وأرفع، وهو خلق السماء وبناؤها، ورفع سمكها وتسويتها، وإظلام ليلها، وإخراج ضحاها، وخلق الأرض ومدها وبسطها وتهيئتها لما يراد منها، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم، وأرسىٰ الجبال فجعلها رواسي للأرض، لئلا تميد بأهلها، وأودعها من المنافع مايتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم، فمن قدر علىٰ ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقًا جديدًا؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة علىٰ المعاد والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور، وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجًا إلىٰ جواب. والله أعلم.

***

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾.

(١)ارجع الآن إلىٰ النطفة وتأمل حالها أولًا وما صارت إليه ثانيًا، وأنه لو اجتمع الإنس

---

(١) ١٩٦ مفتاح جـ١.

والجن على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلًا أو قدرة أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك.

بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين، فمن هذا صنعه في قطرة ماء! فكيف صنعه في ملكوت السموات، علوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها، وقمرها، وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا، وأتقن صنعًا، وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات. قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فبدأ بذكر خلق السموات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن: فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمها وسعتها، وإما إقسامًا بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه ـ سبحانه ـ بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه الله الذي لا إله إلاهو، وإما استدلالًا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

(١) قد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس

---

(١) ٧٥ إغاثة جـ١.

قاطعة بين القلب وبين الوصول إلىٰ الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه، ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها.

فإن الناس علىٰ قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم، قال بعض العارفين: انتهىٰ سفر الطالبين إلىٰ الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فالنفس تدعو إلىٰ الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلىٰ خوفه ونهي النفس عن الهوىٰ، والقلب بين الداعيين، يميل إلىٰ هذا الداعي مرة وإلىٰ هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة.

فاختلف الناس: هل النفس واحدة، وهذه أوصاف لها. أم للعبد ثلاث أنفس؟ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة.

فالأول: قول الفقهاء والمتكلمين. وجمهور المفسرين، وقول محققي الصوفية.

والثاني: قول كثير من أهل التصوف.

والتحقيق: أنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها، فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرىٰ فهي متعددة، وما أظنهم يقولون: إن لكل أحد ثلاث أنفس: كل نفس قائمة بذاتها، مساوية للأخرىٰ في الحد والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس، كل واحدة مستقلة بنفسها.

وحيث ذكر سبحانه النفس، وأضافها إلىٰ صاحبها؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يجئ في موضع واحد «نفوسك» و«نفوسه» ولا

«أنفسك» و«أنفسه»، وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم، كقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]. أو عند إضافتها إلى الجمع؛ كقوله ﷺ: «إنما أنفسنا بيد الله»[(١)]. ولو كانت في الإنسان ثلاث أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد.

***

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾.

[(٢)]من تأمل القران والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. واللوامة في قوله: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢]. وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]. وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبه وموضع شره، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك،وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»[(٣)] كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله.

---

(١) فعن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعته وهومولٍ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤] أخرجه البخاري (رقم ١١٢٧) ومسلم (رقم ٧٧٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١١) (١٣/ ٣١٤).

(٢) ٩٠ إغاثة.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ١١٠٥) والنسائي في المجتبى (رقم ١٤٠٤) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٤ رقم ٢٥٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٩ رقم ٤٩٢) وحسنه الترمذي. وانظر: شرح النووي (٦/ ١٦٠).

وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة ﷺ أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: يا رسول الله، علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**»(١).

(٢)وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشيء، وفعله هَوِيَ يَهْوِي هوًى، مثل عَمِيَ يَعْمَى عمىً. وأما هَوَى يَهْوَى بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهُوِيُّ، ويقال الهَوَى أيضًا على نفس المحبوب، قال الشاعر:

إن التـــي زعمـــت فـــؤادك ملهـــا خلقت هواك كما خلقـت هـوًى لهـا(٣)

ويقال: هذا هوى فلان وفلانة هواه، أي مهويته ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ويقال: إنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه. وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالًا مقيدًا. ومنه قول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(٤). وفي الصحيحين عن عروة قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (١/ ١٤) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٢٠٤) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٦٣) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٢ رقم ٨٤٩) وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢٣٦).

(٢) ٢٦ روضة المحبين.

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى كل من مجنون ليلى: قيس بن الملوح المتوفى سنة ٦٨هـ وينسب أيضاً إلى عروة بن أذينة المتوفى سنة ١٣٠هـ وينسب أيضاً إلى بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ. وذكر البيت ابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٢٠١، ٢٠٢)، ونسبه إلى عروة بن أذينة.

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس (٥/ ١٥٣ رقم ٧٧٩١) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٦٤) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢ رقم ١٥) وأبو الحسن الطوسي في الأربعين (رقم ٩) والخطيب في =

أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت: ﴿ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥١]. قلت: يا رسول الله ما أرىٰ ربك إلا يسارع هواك(١).

(٢)إن أعدىٰ عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطىٰ بيده للعدو، واستأسر له، وأشمته به وساء صديقه ووليه، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماته الأعداء.

إن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوىٰ، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه، كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها عذابًا فصار في المشيب عذابا

فلو تأملت [حال] كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره علىٰ عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنىٰ والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالىٰ في حال كهولته، وقيل للمهلب بن أبي صفرة. بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوىٰ، فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله ﷻ الجنة نهاية من خالف هواه، والنار نهاية من اتبع هواه.

تاريخه (٤/ ٣٦٨) وأبو طاهر السلفي في معجم السفر (رقم ١٢٦٥) قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٦): حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٨٩): أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١١٣) ومسلم (رقم ١٤٦٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٦٤) وشرح النووي (١٠/ ٤٩-٥٠).

(٢) ٥١٦ روضة المحبين.

[1]فأما مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقًا غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]. وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

[2]كتاب لعسر الولادة: قال الخلال : حدثني عبدالله بن أحمد قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، يكتب حديث ابن عباس ﷺ: «**لا إله إلا الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدن، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها**»[3].

قال الخلال: أبنأنا أبو بكر المروزي: أن أبا عبدالله جاءه رجل، فقال: يا أبا عبدالله، تكتب لامرأة قد عسرت عليها ولادتها منذ يومين، فقال: قل له يجيئ بجام واسع وزعفران، ورأيته يكتب لغير واحد[4].

ويذكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: مر عيسى ـ صلى الله على نبينا وعليه وسلم ـ على بقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: يا كلمة الله! ادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس، خلصها، قال: فرمت بولدها، فإذا هي قائمة تشمه. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها. فاكتبه لها. وكما تقدم من الرقى، فإن كتابته نافعة، ورخص جماعة

---

(١) ٤٢٨ روضة.

(٢) ٣٨١ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه أبو القاسم الجرجاني في تاريخ جرجان (ص ٢٢٨) وانظر: عون المعبود (١٠/ ٩٤).

(٤) انظر: عون المعبود (١٠/ ٩٤).

من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه.

كتاب آخر لذلك: يكتب في إناء نظيف: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١ - ٤] وتشرب منه الحامل، ويرش على بطنها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النازعات

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾.

(١)يقال: لهى عن الشيء يلهى: كغشى يغشى إذا غفل، ولها به يلهو، إذا لعب؛ وفي الحديث: «فلها رسول الله ﷺ بشيء كان في يديه»(٢) أي: اشتغل به، ومنه الحديث الآخر: «إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه»(٣). وسئل الحسن: عما يجده الرجل من البلة بعد الوضوء والاستنجاء؟ فقال: اله عنه. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد لها عن حديثه، وقال عمر ﷺ لرجل بعثه بمال إلى أبي عبيدة، ثم قال للرسول: «تله عنه ثم انظر ماذا يصنع به» ومنه قول كعب بن زهير:

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينَّك؛ إني عنك مشغول(٤)

أي: لا أشغلك عن شأنك وأمرك، وفي المسند «سألت ربي أن لا يعذب اللاهين من أمتي» وهم البله الغافلون الذين لم يتعمدوا الذنوب، وقيل: هما الأطفال الذين لم يقترفوا ذنبًا.

---

(١) ٨٢ أعلام جـ٤. طبعة دار الجيل.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦١٩١) ومسلم (رقم ٢١٤٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٦) وشرح النووي (١٤/ ١٢٧).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣١/ ١٥٤).

(٤) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى كعب بن زهير في قصيدته المشهورة بانت سعاد، وكان كعب في بداية الدعوة الإسلامية، يهجو النبي ويشبب بنساء المسلمين، فأهدر النبي ﷺ دمه، ولما جاءه كعب مستأمناً وقد أسلم، وأنشد رسول الله ﷺ لاميته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيم إثرها لم يجز مكبول

فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته.

أخبر خبره هذا الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٧٤-٦٧٥ رقم ٦٤٨٠) والطبراني في الكبير (١٩/ ١٧٧-١٧٨ رقم ٤٠٣) وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٨٣) ولسان العرب (١٥/ ٢٦٠).

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[1]إذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ﷻ وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه، فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته، ونذكر لذلك أمثله مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه: كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥] وقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦- ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ

(١) ١٨٧ مفتاح جـ١.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]. وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره. إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، هو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-٢٢]. فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ: النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب، وإليه جرى ذلك الحديث: «فانظر الآن إلى النطفة» بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت. كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

وكيف جمع ـ سبحانه ـ بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه. وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارًا مكينًا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه.

ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء، تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم، مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لا كسرة عليه، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها.

(وانظر) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام

والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك. ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوىٰ رباط وأشده وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاء لها، وغشاء وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها. وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ.

***

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾.

(١)جعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلًا علىٰ إخراجه هو منها بعد موته، استدلالًا بالنظير علىٰ النظير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة عبس

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٤٧ أعلام جـ١.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

[1]في الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل. فقال قائل: يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس؟! فقال[2]: إنما بنى لهم الدار للسكني والتمتع، وجعلها، وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى، وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها. فأراد أن يعلمهم بأن السكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال،وبيان المقدرة بعد بيان العزة وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت. ظهرت فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه، كيف يشاء تكذيبًا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم. فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين.

***

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾.

[3]الدليل على حشر الوحوش وجوه: (أحدها): قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ

---

(١) ١٨٢ بدائع جـ٣.

(٢) المقصود به أبو الوفاء بن عقيل الإمام الحنبلي صاحب التصانيف الممتعة، منها كتاب الفنون، رحمه الله وأجزل مثوبته.

(٣) ١٨٣ بدائع جـ٣.

حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٥]. (الثاني): قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]. (الثالث): حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم، وإنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها(١)، وهو متفق على صحته. (الرابع): حديث أبي ذر أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «**يا أبا ذر! أتدري فيما ينتطحان؟!**» قال:قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**»(٢) رواه أحمد في مسنده. (الخامس): الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله تعالى يجمع الوحوش، ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابًا؛ فعندها يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾(٣).

***

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾.

(٤)أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة. من طلوعها، وجريانها، وغروبها، هذا قول علي، وابن عباس، وعامة المفسرين، وهو الصواب.

والخنس جمع خانس.والخنس: الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناسًا،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٠٢) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٩) وشرح النووي (٧/ ٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٢): رواه كله أحمد والبزار بالرواية الأولى وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط وفيها ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح وفيها راوٍ لم يسمّ.

(٣) سبق هذا النقل في تفسير سورة النبأ (ص ٢٣٣).

(٤) ٧٢ التبيان.

لانقباضه وانكماشه حين ذكر العبد ربه. ومنه قول أبي هريرة فانخنست[١]. والكنس: جمع كانس، وهو الداخل في كناسه، أي في بيته. ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الظباء، إذا أوت إلى أكناسها.

والجواري جمع جارية، كغاشية وغواش. قال علي بن أبي طالب ﷺ: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل[٢]. وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم، قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها. ومعنى تخنس ـ على هذا القول ـ تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها، وفيه قول آخر، وهو أن خنوسها رجوعها، وهي حركتها الشرقية، فإن لها حركتين: حركة بفعلها وحركة بنفسها، فخنوسها بنفسها راجعة، وعلى هذا فهم قسم بنوع من الكواكب، وهي السيارة، وهذا قول الفراء. وفيه قول ثالث، وهو أن خنوسها وكنوسها واختفاءها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان وحال غروب، أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها. ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفيًا: إنه قد خنس، فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحًا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع،فالطلوع أول جريانها. فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها،واختفاؤها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب فانخنس منه، فذهب فاغتسل ثم جاء، فقال: «**أين كنت يا أبا هريرة؟**» قال: كنت جنباً، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة، فقال: «**سبحان الله إن المسلم لا ينجس**» أخرجه البخاري(رقم ٢٨٣) ومسلم (رقم ٣٧١) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٩٠) وشرح النووي (٤/ ٦٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٧٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٧ رقم ١٩١٧٠) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٦٩٤).

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه:

(أحدها): أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

(الثاني): اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

(الثالث): أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقًا، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات.

(الرابع): إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء. قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس. ومنه سميت الخنساء لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلىٰ تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر.

(الخامس): أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه، حتىٰ يتعين للقسم.

(السادس): أنه لو كان جمعًا للظبي لقال الخُنْس ـ بالتسكين ـ لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمر، ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكن علىٰ وزن فعلاء أيضًا، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه علىٰ فعَّل ـ بالتشديد ـ استحال أن يكون جمعًا لواحد من الظباء والبقر؛ وتعين أن يكون جمعًا لخانس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها.

(السابع): أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالىٰ بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه.

كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية. ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمر، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر.

وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ في قراءة رسول الله ﷺ، ونحو ذلك.

(الثامن): أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد. وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم. فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش.

(التاسع): أنه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ [الشورى: ٣٢]. وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها.

(العاشر): أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن، الذي هو هدى للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان ـ أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن. والله أعلم.

واختلف في عسعسة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى: ولى وذهب وأدبر. هذا قول علي وابن عباس وأصحابه. قال الحسن: أقبل بظلامه، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله ﷻ بإقبال الليل وإقبال النهار. فقوله: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ ﴾ [التكوير: ١٨] مقابل لليل إذا عسعس. قالوا: ولهذا أقسم الله بـ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١، ٢] وبالضحى. قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله.

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ

إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢- ٣٤] فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعسة الليل، وتنفس الصبح.

قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل، وإقبال النهار. فإن عقيبه من غير فصل. فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمنًا طويلًا. فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ. فذكر سبحانه حالة ضعف هذا، وإدباره وحالة قوة هذا وتنفسه. وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه. وهذا هو القول. والله أعلم.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، وهو القرآن، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو ههنا جبريل قطعًا. لأن ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به. وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد ﷺ، لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله. فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢] فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ الرسول يدل على ذلك. فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله.

وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدًا ﷺ، وأن كلا منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغًا، وقول الله الذي تكلم به حقًا. فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلمًا بالقرآن وهو كلامه حقًا في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد ﷺ، سمعه من جبريل(١).

ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه: كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى

---

(١) تقدم في سورة الحاقة بحث قريب من هذا. (ج).

مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علوًا وجلالة: قول الله ـ سبحانه ـ بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريمًا ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم.

والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم، جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة، كما قال في موضع آخر: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥] وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومواد له وناصر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤]. ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور، والله هاديه، وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله، وإن كان ذلك

الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويًا أمينًا معظمًا ذا مكانة عنده، مطاعًا في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات. وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

***

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾.

(1)قد أثنى الله سبحانه على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجل الصفات، فقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ ﴾ [التكوير: ١٥- ٢١] فهذا جبريل، فوصف بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه ـ سبحانه ـ، وأنه مطاع في السموات. وأنه أمين على الوحي.

فمن كرمه على ربه: أنه أقرب الملائكة إليه. قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك.

ومن قوته: أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه، ثم قلبها عليهم، فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه، إذا تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى. قال ابن جرير في تفسيره، عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح: أمين على

(١) ١٢٨ إغاثة جـ٢.

أن يدخل سبعين سرادقًا من نور بغير إذن[١].

ووصفه بالأمانة يقتضي صدقه ونصحه، إلقاؤه إلى الرسل ما أمر به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان، وقد جمع له بين المكانة والأمانة والقوة والقرب من الله.

ونظير الجمع له بين المكانة والأمانة: قول العزيز ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] والجمع بين القوة والأمانة: نظير قول ابنة شعيب في موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]...

[٢]وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] أي له مكانة ووجاهة عنده، وهو أرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريبًا من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ [التكوير: ٢١] إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ. وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعًا في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلا من الرسولين مطاع في محله وقومه. وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

وفي وصفة بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه.

ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه. فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]. وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

ثم أخبر عن رؤيته - صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل -. وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يرى بالعيان، ويدركه بالبصر، لا كما يقول المتفلسفة، ومن

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٨٠).

(٢) ٧٧ التبيان.

قلدهم: إنه العقل الفعال، وأنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

ولهذا كان تقرير روية النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل ـ أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى. فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها. ومن أنكرها كفر قطعًا. وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق.

وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره. وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى. وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه. فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليه البتة.

ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل، والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]. فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما ـ وهي قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل. فإن الضنين هو البخيل، يقال ضننت به أضن، بوزن بخلت به أبخل ومعناه، ومنه قول جميل بن معمر:

أجود بمضنون التلاد وإنني ... بسرك عمن سألني لضنين[1]

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب أيضاً إلى قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي الشاعر الجاهلي، أدرك الإسلام ولم يسلم مات سنة ٢ قبل الهجرة. ذكر البيت القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٤٢) وعبدالكريم القزويني في التدوين في أخبار قزوين (١/ ٢١٤) ونسبه إلى قيس بن الخطيم وتصحف الاسم إلى الخطمر. بينما ذكره أسامة بن منقذ في لباب الألباب في موضعين الأول (ص ٤٠) ونسبه إلى قيس والموضع الثاني (ص ٣٦٠) ونسبه إلى جميل بن معمر، كما فعل المصنف هنا.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس بخيلًا بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن والوحي. وقال الفراء، يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم، وهذا معنى حسن جدًا، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولاسيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانًا، وفيه معنى آخر، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقًا به، مقيمًا عليه، مبديًا له في كل مجمع، ومعيدًا مناديًا به على صدقه، مجلبًا به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه المتهم، يقال: ظننت زيدًا بمعنى اتهمته، وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أما وكتاب الله لا عن شناءة هجرت، ولكن المحب ظنين

والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة. ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٤]. ثم قال: (وما هو) أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل.

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين: أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه. وإنما اتهموه، فنفي التهمة أولى من نفي البخل. الثاني: أنه قال: ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ولو كان المراد البخل

لقال بالغيب، لأنه يقال فلان ضنين بكذا، وقلما يقال علىٰ كذا.

قلت: ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي، من الأمانة، فنفىٰ عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين. ويرجحه أيضًا أنه سبحانه نفىٰ أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب. فإن ذلك لو كان كذبًا، فإما أن يكون منه، أو ممن علمه، وإن كان منه، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم، وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم، ضد الأمين.

وإن كان من غير تعمد فهو المجنون. فنفىٰ سبحانه عن رسوله ذلك كله، وزكىٰ سند القرآن أعظم تزكية، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]. ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفىٰ فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنىٰ خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يماري فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًا، كسائر الضروريات ـ منافاة أحدهما للآخر. ومضادته له. كمناقاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر.

ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين. فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]. قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]. وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. فالأمر منحصر في الحق والباطل،والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق، فأين العدول؟ وأين المذهب؟

ونظير هذا قوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] أي: إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠]. وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣٢].

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك.وفي موضع آخر وصفه بأن ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرًا عامًا وخاصًا، وكونه ذا ذكر. فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد. ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده. ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه.ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها. ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله. ويذكرهم بثوابه وعقابه.

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وإذا كان كذلك فأحق وأولىٰ وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأن ذو الذكر فلأنه مشتمل علىٰ الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر. فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدىً وفيه الهدىٰ، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

وقوله سبحانه: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٨] بدل من العالمين. وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به علىٰ أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكرًا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرًا لأهل الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة، وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه. ولابد من هذا فتأمله.

وقوله: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ ﴾ رد علىٰ الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة علىٰ حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سببًا فيه.

وقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير: ٢٩] ردّ علىٰ القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف علىٰ مشيئة الله، بل متىٰ شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين. فإن قال الجبري: هو ـ سبحانه ـ لم يقل: إن الفعل واقع بمشيئة العبد، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة، ونحن قائلون بذلك، وقال القدري قوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ مختلفة، فمشيئة العبد هي

الموجبة للفعل التي بها يقع، ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك، ونحن لا ننكر ذلك.

فالجواب: أن هذا من تحريف الطائفتين. أما الجبري فيقال له: اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه التي لا تأثير لها في الفعل. فإن نسبة جميع أغراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادية عندك، والاقتران حاصل بجميع أغراضه، فما الذي أوجب تخصيص المشيئة؟ سوى الله ـ سبحانه ـ في فطر الناس أو عقولهم، أو شرائعهم، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل، ونسبة سائر أغراض الحي إذا كان عندك ليس إلامجرد الاقتران عادة؟ والاقتران العادي حاصل مع الجميع.

وأما القدري فتحريفه أشد، لأنه حمل المشيئة على الأمر، وقال: المعنى وما تشاءون إلا بأمر الله، وهذا باطل قطعًا، فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. ونظائر ذلك، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألبتة.

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله ﷻ، فما لم يشأ لم يكن البتة، كما أن ما شاء كان ولابد.

ولكنْ ههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله. فإنه ـ سبحانه ـ قد يشاء من عبده المشيئة وحدها، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله، لأنه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

وقد دل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]. وقوله: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [المدثر: ٥٦].

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: والاجتهاد، واستفراغ الوسع، والاختيار، والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، واستنزال التوفيق، والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. ينتظم ذلك كله، ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكوير

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الانفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

(١)إذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيل الله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله. إذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك(٢)، فملك المؤمن من يرد عليه، ويحارب، ويدافع عنه ويعلمه، ويثبته، ويشجعه، فلا يليق به أن ينسى جواره، ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده. فإنه ضيفه وجاره. وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته. فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟

وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال: «لا جزاك الله خيرًا» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان. قال بعض الصحابة ﷺ: «إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم»(٣). ومن ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره.

وقد نبه ـ سبحانه ـ على هذا المعنى بقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ

---

(١) ١٤٦ الجواب الكافي.

(٢) فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بات طاهراً بات في شعاره ملك، فلم يستيقظ إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلان، فإنه بات طاهراً» أخرجه ابن حبان (٣/ ٣٢٨ رقم ١٠٥١) وفي الموارد (رقم ١٦٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٠٤ رقم ٥٠٨٧) وفي الكبير (١٢/ ٤٤٦ رقم ١٣٦٢٠) وفي مسند الشاميين (٣/ ٤٠٢ رقم ٢٥٥٢) وابن المبارك في مسنده (رقم ٦٤) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٢٣١ رقم ٨٧٩): رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد. وحسنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠٩).

(٣) فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم» أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٠٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ١٤٦ رقم ٧٧٣٩) وقال الترمذي: غريب.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام، وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم. وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.

***

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝﴾.

(١) من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه. كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة. بل التفاوت الذي بين النعيمين: كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، لا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك: أعني دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأي عذاب أشد من الخوف والهم الحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله؟ بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من

(١) ١٠١ الجواب الكافي.

النعيم العظيم باشتغاله بضده. وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد. فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم. بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها. فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر...

[(١)]... فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في حجيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصًا بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧١ ـ ٧٢].

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تُرْبَى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة.

قال ابن عباس: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه. وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وأن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب،

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

ووهنا في البدن، ونقصًا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق[١]. وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه من غيره. فما حصل للعبد مكروه قط إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

***

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

[٢]إن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها، ولهذا يقول سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. حتى إن الله ـ سبحانه ـ ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلى. فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه وظهور عزته تعالى وعظمته وعدله وفضله ورحمته وآثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا في دار البقاء لتعطلت، وكماله سبحانه ينفي ذلك.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانفطار

والحمد لله رب العالمين



(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥) والوابل الصيب (٤٨).

(٢) ٢٤٤ شفاء.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾.

[(1)]أي: بايعوهم كيلًا أو وزنًا. وأما قوله: ﴿ ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [المطففين: ٢] فإنما دخلت (على) لتؤذن أن الكيل على البائع للمشتري، ودخلت التاء في اكتالوا، لأن افتعل في هذا الباب كله للأخذ، لأنها زيادة على الحروف الأصلية تؤذن بمعنى زائد على معنى الكلمة، لأن الآخذ للشيء: كالمبتاع والمكتال والمشتري ونحو ذلك يدخل فعله من التناول والاجترار إلى نفسه، والاحتمال إلى رحله ما لا يدخل فعلى المعطي والمبايع.

ولهذا قال سبحانه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من السيئات، لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى، والحسنة تنال بهبة الله من غير واسطة ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي. وفيه فرق أحسن من هذا، وهو أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة، فلم يجعل على العبد إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله.

وأما الكسب فيحصل بأدنى ملابسة حتى بالهم بالحسنة ونحو ذلك؛ فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه، ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها»[(2)]. وأما حديث الواسطة وعدمها فضعيف، لأن الخير أيضًا بواسطة الرسول والملك والإلهام والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر. فالفرق ما ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) ٧٤ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢٨) بلفظ قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً». وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٢٤).

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾.

[(١)]قال أبو عبيدة: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرون على الميت، فيذهب به. ومن هذا حديث أسيفع جهينة، وقول عمر: فأصبح قد رين به أي غلب عليه وأحاط به الرين. وقال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين والأقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. وقال أبو إسحاق: ران غطى يقال: ران على قلبه الذنب يرين رينًا أي غشيه، قال: والرين كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين. قلت أخطأ أبو إسحاق فالغين ألطف شيء وأرقه. قال: رسول الله ﷺ: «**وإنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[(٢)].

وأما الرين والران فهو من أغلظ لا حجب على القلب وأكثفها. وقال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب. وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة. وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾**»[(٣)]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال عبدالله بن مسعود: كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله. فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينًا على قلوبهم،

---

(١) ٩٤ شفاء.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٢)وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١) وشرح النووي (١٧/ ٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٠ رقم ١٠٢٥١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٦) وتحفة الأحوذي (٣/ ٥٢٥).

فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره.

(١)...المكاشفة الصحيحة علوم يحدثها الرب ﷻ في قلب العبد، ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره. وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها، ويواريها عنه بالغين الذي يغشى قلبه. وهو أرق الحجب، أو بالغيم. وهو أغلظ منه، أو بالران، وهو أشدها.

فالأول: يقع للأنبياء ـ عليهم السلام ـ. كما قال النبي ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة**».

والثاني: يكون للمؤمنين.والثالث: لمن غلبت عليه الشقوة. قال الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]. قال ابن عباس وغيره: هو الذنب بعد الذنب يغطي القلب، حتى يصير كالران عليه.

والحجب عشرة: حجاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات. وهو أغلظها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

الثاني: حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

الثالث: حجاب البدعة القولية: كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.

الرابع: حجاب البدعة العلمية. كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

الخامس: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

---

(١) ٢٢٢ مدارج جـ٣.

السادس: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلىٰ التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنىٰ إلىٰ السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

السابع: حجاب أهل الصغائر.

الثامن: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

التاسع: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

العاشر: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله ﷻ تحول بينه وبين هذا الشأن. وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصر النفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوىٰ. فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة.

وهذه الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصل إلىٰ القلب. وما وصل منه إلىٰ القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلىٰ الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلىٰ قلبه ليرىٰ عجائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وخلص العمل إلىٰ قلبه دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلىٰ الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. فإذا وصل إلىٰ الله سبحانه أثابه عليه مزيدًا في إيمانه ويقينه، ومعرفته وعقله. وجمل به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيء الأخلاق والأعمال. وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، إخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة

يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوىٰ. فإن الشيطان مع الهوىٰ لا يفارقه. ويحارب الهوىٰ بتحكيم الأمر المطلق. والوقوف معه، بحيث لا يبقىٰ له هوىٰ فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص.

***

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

(١) وجه الاستدلال بها أنه ﷻ جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضًا محجوبين عنه. وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فيها دليل علىٰ أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة(٢). وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾. فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل علىٰ أن أولياءه يرونه في الرضىٰ. قال الربيع فقلت: يا أبا عبدالله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرىٰ الله لما عبد الله ﷻ(٣). ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضًا.

وقال أبو زرعة الرازي: سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبدالله بن الحكم: هل يرىٰ الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبدالله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ففي هذا دليل علىٰ أن

---

(١) ٢٠٧ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٠٩).

(٣) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٨٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٤٥٨).

المؤمنين لا يحجبون عن الله ﷻ[(١)].

[(٢)]... كمال النعيم في الدار الآخرة أيضًا به سبحانه: برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه. لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالىٰ أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وفي دعاء النبي ﷺ، الذي رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم في صحيحيهما: «**أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلي لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة**» ولهذا قال تعالىٰ في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾[(٣)] [المطففين: ١٥، ١٦]. فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه، ولذة النظر إلىٰ وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياءه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه...

[(٤)]إن أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلىٰ وجه الرب ﷻ، وسماع خطابه، كما في صحيح مسلم عن صهيب، ﷺ عن النبي ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادىٰ مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟**

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨١٠).

(٢) ٥٩ طريق الهجرتين.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٩٧رقم ١٩٠٠) وابن حبان (٥/ ٣٠٤ رقم ١٩٧١) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي الصغرىٰ (رقم ١٣٠٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٤ رقم ٢٩٣٤٦) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (١/ ٢١٠ رقم ٢٧٦) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٦٥ رقم ٦٠٩١) وفي الكبير (٥/ ١١٩ رقم ٤٨٠٣) وأبو يعلىٰ (٣/ ١٩٥ رقم ١٦٢٤) وأحمد (٤/ ٢٦٤) والبزار (٤/ ٢٣٠ رقم ١٣٩٣) والحديث صححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٧): رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجالهما ثقات. وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٣٣٣): رجال إسناده ثقات.

(٤) ١٣٢ إغاثة جـ١.

قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه»[(١)].

وفي حديث آخر: «فلا يلتفتون إلىٰ شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه»[(٢)] فبين ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة. ولهذا قال ﷻ في حق الكفار: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه ـ سبحانه ـ، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣]. ولقد هضم معنىٰ الآية من قال: ينظرون إلىٰ أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلىٰ قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلىٰ بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلىٰ غيره، وإنما المعنىٰ ينظرون إلىٰ وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٦]. وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين: ٣٢]. فقال تعالىٰ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤]. مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٣٥]. فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلىٰ ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٩٨) ومحمد بن إسحاق في التصديق بالنظر (رقم ٤٨) وأبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٩١) وفي حلية الأولياء (٦/ ٢٠٨-٢٠٩).

إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلىٰ مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ فالنظر إلىٰ الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولابد، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصًا أو عمومًا.

(١)ومن أعظم الضر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذابًا من الجحيم، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

(٢)...وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد ـ كما جاء في الحديث ـ: «**إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرىٰ، حتىٰ تعلو قلبه، وذلك الران الذي قال الله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾**». فالقبائح تسود القلب. وتطفئ نوره. والإيمان هو نور في القلب. والقبائح تذهب به أو تقلله قطعًا.

فالحسنات تزيد نور القلب والسيئات تطفئ نور القلب. وقد أخبر الله ﷻ أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ [النساء: ٨٨]. وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه علىٰ عباده سبب لتقسية القلب، فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣]. فجعل ذنب النقض موجبًا لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

فالمعاصي للإيمان: كالمرض والحمىٰ للقوة، سواء بسواء. ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمىٰ بريد الموت(٣).

(١) ٢٢٠ مدارج جـ٣.
(٢) ٢٤ مدارج جـ٢.
(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٣) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٢٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٦) وشرح النووي (٢/ ٥٠) (١١/ ٢٩) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٥١٠).

فإيمان صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

وهذه الأمور الثلاثة ـ وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان ـ هي أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو بصونها عما يشينها عنده. ويحجبها عنه. يصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به، ومراقبته إياه عما يطفئ نوره، ويذهب بهجته، ويوهن قوته.

ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح:[1]

إحداها: صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها. ويعيبها ويزري بها عند الله ﷻ وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وأطلق شناقها، وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما في تجنب القبائح: صون النفس.

وأما «توفير الحسنات» فمن وجهين:

أحدهما: توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعدًا لتحصيلها.

والثاني: توفي الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلابد أن تضعفها قطعًا، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا

---

(١) ٢٤ مدارج جـ٢.

الحسنات والسيئات سواء.

[(١)] فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعي في إصلاحها.

الثاني: ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يجب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة، فإن ذلك ينفرهم عنه، ويغريهم به، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته. فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: فإما أجنبي، فتكسب مودته ومحبته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض، فتطفئ بلطفك جمرته. وتستكفي شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

الثالث: مراقبة الحق سبحانه. وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه. وهي المقصود لذاته وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه. فمراقبة الحق ﷻ: توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

***

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ ﴾.

[(٢)] ذكر ابن جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: كنا جلوسًا إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في أناس فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس. فقال: يا كعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء، فأخبرني عنهن: ما سجين؟ وما عليون؟ وما سدرة المنتهى؟ وما قول الله لإدريس: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧]؟ قال: أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين، وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس، وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ فأوحى الله: إليه إني رافع لك كل يوم

(١) ٥١١ مدارج جـ٢.
(٢) ١٣٠ الروح.

مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزاد عملًا فحمله بين جناحيه، فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي قال: فالعجب إني أمرت أن أقبض روحه في السماء الرابعة. فقبض روحه. وأما سدرة المنتهى، فإنها سدرة على رءوس حملة العرش، ينتهي إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى[(١)].

[(٢)] قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨- ٢١]. فأخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابة حقيقة. وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين. ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويها بكتاب الأبرار وما وقع لهم به، وإشهارًا له وإظهارًا بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة تنويهًا باسم المكتوب له وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله ﷻ وملائكته على عبده.

وروى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان وأبو عوانة الإسفراييني في صحيحيهما من حديث المنهال عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، إلى جنازة، فجلس رسول الله ﷺ على القبر، وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: «**أعوذ بالله من عذاب القبر**» ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: «**إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، تنزلت إليه الملائكة: كأن على وجوههم الشمس مع كل واحد منهم حنوط وكفن: فجلسوا منه مد بصره، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! أخرجي إلى مغفرة من الله**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٩٦) (٣٠/ ٩٤) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٣٧٥) وهذا من الإسرائيليات والله أعلم بصحة ذلك.

(٢) ١٣ الروح.

ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين...»[١] الحديث.

[٢]ذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى، قلت للضحاك: لم سميت سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله ﷻ لا يعدوها فيقول: ربي! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب، قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٣] [المطففين: ١٨-٢١]. وهذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فإن الجنة عند سدرة المنتهى، والجنة عند الله، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق. وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبي، ﷺ، أنها تسرح في الجنة حيث شاءت.

***

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝﴾.

[٤]يقول: الخمر ختم بالمسك. وقال علقمة عن ابن مسعود: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦] قال: خلطه وليس بخاتم ثم يختم. قلت: يريد والله أعلم أن آخره مسك

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٥) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩١-٤٩٢) وعبدالرزاق (٣/ ٥٨٠ رقم ٦٧٣٧) والروياني (رقم ٣٩٢) والطيالسي (رقم ٧٥٣) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢١٤٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩).

(٢) ١٣ الروح.

(٣) أخرج الطبري في تفسيره (١٥/ ١٠) (٢٧/ ٥٢-٥٤) و(٣٠/ ١٠٢).

(٤) ١٣٥ حادي الأرواح.

يخالطه فهو من الخاتمة ليس من الخاتم. وقال زيد بن معاوية: سألت علقمة عن قوله تعالى: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ فقرأتها «خاتمه مسك» فقال لي: ليست خاتمه ولكن اقرأه: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال: علقمة: ختامه خلطة، ألم تر أن المرأة من نسائكم تقول للطيب أن خلطه من مسك لكذا وكذا. وذكر سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق: الرحيق الخمر المختوم، يجدون عاقبتها طعم المسك.

وبهذا الإسناد عن مسروق عن عبدالله في قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال: تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفا. وكذلك قال ابن عباس: يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لمن دونهم[1]. وقال مجاهد: ختامه مسك يقول طينة. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير. ولفظ الآية أوضح منه، وكأنه والله أعلم يريد ما يبقى في أسفل الإناء من الدردي.

وذكر الحاكم من حديث آدم حدثنا شيبان عن جابر عن ابن سابط عن أبي الدرداء في قوله: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلًا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها[2].

قال آدم وحدثنا أبو شيبة عن عطاء قال: التسنيم اسم العين التي يمزج بها الخمر[3].

[4]قال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وبين «المنافسة» و«الغبطة» جمع وفرق، وبينهما وبين «الحسد» أيضًا جمع وفرق.

فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادًا وحرصًا. والحسد: يدل على مهانة الحاسد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤١٠ رقم ١٩١٨٧، ١٩١٨٨) والضياء في المختارة (١٠/ ٣٠٠ رقم ٣٢٠) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤ رقم ٣٤٠٩١) وهناد في الزهد (١/ ٧٥ رقم ٦٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٢٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٢٧٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٢).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٤٥٢) إلى البيهقي .

(٤) ٤٨ مدارج جـ٣.

وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفه لك من حسده، كما قيل:

إذا أعجبتــك خــلال امــرئ ... فكنــه يكــن منــك مــا يعجبــك

فلــيس علــى الجــود والمكرمــا ... ت إذا جئتهــا حاجــب يحجبــك[1]

و«الغبطة» تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله.

[2]والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهده من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه، فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر. قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾. وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى. وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه. وهي نوع من المسابقة. وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]. وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر ـ رضي الله عنهما ـ فلم يظفر بسبقه أبدًا. فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا[3]. وقال: والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه. والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما

---

(١) هذان البيتان من بحر المتقارب، وينسبان إلى أبي العيناء محمد بن القاسم بن خلاد الهاشمي، أصله من اليمامة وولد بالأهواز نشأ ومات في البصرة، كف بصره، مات سنة ٢٨٣هـ. وينسبان أيضاً إلى منصور بن إسماعيل الفقيه شاعر وفقيه شافعي، مات سنة ٣٠٦هـ. ذكر البيتين المناوي في فيض القدير (١/ ٦٥).

(٢) ٣٠٦ الروح.

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٦٧٨) والترمذي (رقم ٣٦٧٥) والدارمي (رقم ١٦٦٠) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٨٠ رقم ٧٥٦٣) والحاكم (١/ ٥٧٤ رقم ١٥١٠) وصححه، وكذا قال الترمذي: حسن صحيح. والبزار (١/ ٣٩٤ رقم ٢٧٠) وعبد بن حميد (رقم ١٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٧٩ رقم ١٢٤٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٩٥).

ويحثهما عليه. وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

والحسد خلق نفس ذميمة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لوفاته كسبها حتى يساويها في العدم. كما قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل. والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة. فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيرًا. فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه. وهذا لا نذمه.

وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق**»(١). فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المطففين

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٠٩، ٥٠٢٥) ومسلم (رقم ٨١٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٦/ ٩٧).

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

[١]أقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل.

(أحدها) الشفق، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلىٰ وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع. قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق: الحمرة في السماء. وأصل موضوع الحرف لرقة الشيء، ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته، ومنه الشفقة وهو الرقة. وأشفق عليه إذا رق له. وأهل اللغة يقولون: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها. ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حدًا لوقت المغرب. فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء. وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول لبثه، ويكون حاصلًا مع بعد الشمس عن الأفق[٢]. ولهذا صح عن ابن عمر، ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: الشفق: الحمرة[٣].

---

(١) ٦٨ التبيان.

(٢) انظر: لسان العرب (١٠/ ١٨٠) ومختار الصحاح (ص ١٤٤) والتعاريف (ص٤٣٣) ونيل الأوطار (١/ ٤١١) وعون المعبود (٢/ ٤٣).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١/ ٣٧٣ رقم ١٦١٩) وصححه موقوفاً وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة (١/ ٢٩٣ رقم ٣٣٦٢) وعبدالرزاق (١/ ٥٥٩ رقم ٢١٢٢) وقال النووي في تهذيب الأسماء والصفات (٣/ ١٥٦): وروىٰ البيهقي بإسناده الصحيح عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. و ذكره، وانظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٢٤٧) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ١٠٣) وتلخيص الحبير (١/ ١٧٦) وخلاصة البدر المنير (١/ ٨٨ رقم ٢٧٤) ونصب الراية (١/ ٢٣٢-٢٣٣).

والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا كان أحمر، حكاه الفراء. وكذلك قال الكلبي: الشفق: الحمرة التي تكون في المغرب. وكذلك قال مقاتل: هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة. وقال عكرمة: هو بقية النهار. وهذا يحتمل أن يريد به تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار. وقال مجاهد: هو النهار كله(١).. وهذا ضعيف جدًا. وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق. وظن أنه النهار وهذا ليس بلازم.

(الثاني) قسمه بالليل وما وسق، أي وما ضم وحوى وجمع. والليل وما ضمه وحواه آية أخرى، والقمر آية، واتساقه آية أخرى. والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى. فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح الخلق. فإدبار النهار آية. وإقبال الليل آية وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية. والليل آية، وما حواه آية، والهلال آية، وتزايده كل ليلة آية، واتساقه ـ وهو امتلاؤه نورًا ـ آية، ثم أخذه في النقص آية.

وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله. ولهذا شرع ـ عند إقبال الليل وإدبار النهار ـ ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب. وفي الحديث: «**اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك وحضور صلواتك اغفر لي**»(٢).

كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار. ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]. وهو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤١١ رقم ١٩١٩٤) وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٩٠) وصححه.

(٢) أخرجه أبوداود (رقم ٥٣٠) والبيهقي في الكبرى (١/ ٤١٠ رقم ١٧٩٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣١ رقم ٢٩٢٥٠) وأبو يعلى (١٢/ ٣٢٣ رقم ٦٨٩٦) وعبد بن حميد (رقم ١٥٤٣) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٠٣ رقم ٦٨٠) وفي الدعاء (رقم ٤٣٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٤٩) والحاكم (١/ ٣١٤ رقم ٧١٤) وصححه.

يقابل إقسامه بالشفق، ونظيره إقسامه: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

ولما كان الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء. فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره ـ شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرىٰ بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلىٰ حال، ومن حكم إلىٰ حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقوله: ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٩]. الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، ولتركبن وما بعده مستأنف.

وقرئ (ولتركبن) بضم الباء للجمع، وبفتحها، فمن فتحها فالخطاب عنده للإنسان، أي لتركبن أيها الإنسان. وقيل: هو النبي ﷺ، خاصة. وقيل: ليست التاء للخطاب، ولكنها للغيبة، أي لتركبن السماء طبقًا عن طبق. ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا. فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنىٰ لتركبن السماء حالًا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالىٰ، من الانشقاق، والانفطار والطي، وكونها كالمهل مرة، وكالدهان مرة، ومورانها وتفتحها، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبدالله بن مسعود ﷺ. ودل علىٰ السماء ذكر الشفق والقمر. وعلىٰ هذا فيكون قسمًا علىٰ المعاد وتغيير العالم.

ومن قال الخطاب للنبي ﷺ، فله ثلاثة معان: لتركبن سماء بعد سماء[(١)]، حتىٰ تنتهي إلىٰ حيث يصعدك الله. هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد، وقول مسروق والشعبي، قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسموات السبع: الطباق.

والمعنىٰ الثاني: لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة حتىٰ تنتهي إلىٰ محل القرب والزلفىٰ من الله.

والمعنىٰ الثالث: لتركبن حالًا بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ﷺ[(٢)]، من الهجرة، والجهاد، ونصره علىٰ عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلىٰ أن بلغ ما بلغه إياه.

[(٣)]قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: حالًا بعد حال، فأول أطباقه كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينًا ثم مولودًا ثم رضيعًا ثم فطيمًا، ثم صحيحًا أو مريضًا، غنيًا أو فقيرًا، معافًا أو مبتلىٰ، إلىٰ جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلىٰ أن يموت، ثم يبعث، ثم يوقف بين يدي الله تعالىٰ، ثم يصير إلىٰ الجنة أو النار، فالمعنىٰ ـ لتركبن: حالًا بعد حال، ومنزلًا بعد منزل، وأمرًا بعد أمر.

قال سعيد بن جبير وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولىٰ، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنىٰ، وقال عطاء: شدة بعد شدة، والطبق والطبقة: الحال، ولهذا يقال: كان فلان علىٰ طبقات شتىٰ، قال عمرو بن العاص: لقد كنت علىٰ طبقات ثلاث: أي أحوال ثلاث.

قال ابن الأعرابي: ـ الطبق: الحال علىٰ اختلافها[(٤)]، وقد ذكرنا بعض أطباق الجنين

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٩٥ رقم ١٠٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٤٠) انظر: لسان العرب (١٠/ ٢١١-٢١٢).

(٣) ١٧٥ تحفة المودود.

(٤) انظر: لسان العرب (١٠/ ٢١١).

في البطن من حين كونه نطفة إلى وقت ولادته. ثم نذكر أطباقه بعد ولادته إلى آخرها. فنقول: الجنين في الرحم بمنزلة الثمرة على الشجرة في اتصالها بمحلها اتصالًا قويًا، فإذا بلغت الغاية لم يبق إلا انفصالها لثقلها وكمالها وانقطاع العروق الممسكة لها. فهكذا الجنين تنهتك عنه تلك الأغشية وتنفصل العروق التي تمسكه بين المشيمة والرحم، وتنصب تلك الرطوبات المزلقة، فتعينه بإزلاقها وثقله، وانهتاك الحجب، وانفصال العروق على الخروج، فينفتح الرحم انفتاحًا عظيمًا جدًا، ولابد من انفصال بعض المفاصل العظيمة، ثم تلتئم في أسرع زمان، وقد اعترف بذلك حذاق الأطباء والمشرحين، وقالوا: لا يتم ذلك إلا بعناية إلهية وتدبير تعجز عقول الناس عن إدراك كيفيته، فتبارك الله أحسن الخالقين...

***

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

[(١)]من قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالًا بعد حال، من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لتصيرن الأمور حالًا بعد حال. وقيل لتركبن أيها الإنسان حالًا بعد حال، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حيًا، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقًا آخر، وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد،

---

(١) ٧١ التبيان.

ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقًا عديدة، لا يزال ينتقل فيها حالًا بعد حال إلىٰ دار القرار. فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبو عبيدة قراءة الضم، وقال: المعنىٰ بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ، فإنه ذكر قبل الآية: من يوتىٰ كتابه بيمينه، ومن يؤتىٰ كتابه بشماله، ثم ذكر بعدها قوله: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠]. فذكر كونهم طبقًا بعد طبق. قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين. قالوا: لتركبن حالًا بعد حال، ومنزلًا بعد منزل، وأمرًا بعد أمر. قال سعيد بن جبير، وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولىٰ، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنىٰ. وقال عطاء: شدة بعد شدة. وقال أبو عبيدة: لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف علىٰ الرسل.

وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة علىٰ الربوبية وتغيير الله ـ سبحانه ـ للعالم، وتصريفه لها كيف أراد، ونقله إياه من حال إلىٰ حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له. ومحال أن يكون فاعله غير قادر، ولا حي، ولا مريد، ولا حكيم، ولا عليم. وكلاهما في الامتناع سواء.

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة علىٰ ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلىٰ المعاد. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠] إنكارًا علىٰ من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام.

وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل علىٰ ذلك، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها. فالمعنىٰ أشرف معنىٰ، والعبارة أشرف عبارة: غاية الحق بغاية البيان والفصاحة. ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٢] ولا يصدقون بالجن جحودًا وعنادًا: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٣] بما يضمرون في

صدورهم ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾[1] [الانشقاق: ٢٥].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانشقاق

والحمد لله رب العالمين



(١) يأتي تفسير قول الله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مبسوطًا في سورة التين. (ج).

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾.

[(١)] إقسامه سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج: ١] التي تنزلها الشمس والقمر. وفسرت بالنجوم، أو نوع منها. وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكري، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول، ولا قصر ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب، فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولا مريد، ولا حي، ولا حكيم، ولا مباين للمفعول، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربًا بائنًا قادرًا، فاعلًا بالاختيار، عالمًا بتفاصيله حكيمًا مدبرًا له.

فبروج السماء هي منازلها، أو منازل السيارة التي فيها، من أعظم آياته ـ سبحانه ـ فلهذا أقسم بها مع السماء.

ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به وعليه. كما أن القرآن يقسم به وعليه. ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثًا. وبغير ذلك من

---

(١) ٥٦ التبيان.

الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟

قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته.

فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها. ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود.

وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضًا فالشاهد هو المطلع والرقيب، والمخبر والمشهود، وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد.

فمن نوَّع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] كما نوَّعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه كذلك نوَّعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهدًا رقيبًا حفيظًا على غيره، ولا يكون الخالق ـ

تبارك وتعالىٰ ـ شاهدًا علىٰ عباده، مطلعًا عليهم رقيبًا؟!

وأيضًا فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون علىٰ العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود وهو المقسم به وعليه، وأيضًا فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحوش من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضًا فكلامه مشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا علىٰ سبيل التمثيل. وأيضًا فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب، لأن القصد التنبيه علىٰ المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود علىٰ جانب الأخدود، شاهدين ما يجري علىٰ عباد الله تعالىٰ وأوليائه عيانًا، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، ولا يعيبون عليهم دينًا سوىٰ إيمانهم بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض.

وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به. وهذا شأن أعداء الله دائمًا، ينقمون علىٰ أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم

مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها.

وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله.

وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم، وتقديم من قدمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم وما خالفه. وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود. وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد.

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم. وهذا غاية الكرم والجود. قال الحسن: انظروا إلى الكرم والجود، يقتلون أولياءه، يفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

انظروا إلى كرم الرب تعالى يدعوهم إلى التوبة، وقد فتنوا أولياءه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم، وألحقهم بأوليائه.

***

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾.

[(١)]يفرح ﷻ بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ ﷻ سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته، فانظر إلي هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلي العباد واللطف التام بهم. ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة، ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلى أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة، ويدعوهم إلى التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أولياءه، وأحرقوهم بالنار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠] وقال بعض السلف: انظروا إلى كرمه كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة. فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته ﷻ فإن نعمته على عباده مشهودة لهم، يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات.

وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعًا: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني بحب الله»[(٢)] فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب

---

(١) ٣١٧ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٨٩) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٦٦ رقم ٤٠٨) وفي الاعتقاد (ص ٣٢٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١١) والخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ١٥٩) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٢٦٩) وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٨٦ رقم ١٩٥٢) والحاكم (٣/ ١٦٢ رقم ٤٧١٦) وصححه. وحسنه الترمذي.

عندها، بل كلما ازداد فيها نظرًا، ازداد فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه حتى ما لم يعرفه، والله ﷻ دعا عباده إليه من هذا الباب، حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر، وهو باب الأسماء والصفات، الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقًا الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقًا ومحبة وظمأ. فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصًا وأبعدها من كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده، فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانًا منه ﷻ، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه ﷻ، وهو الذي لا يجد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه.

***

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾.

(١)ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه، وأنه لا يعجزه شيء، فإنه هو المبدئ المعيد. ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، أو مع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه. وهو الودود أيضًا أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود: الحبيب.

والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين، على كونه وادًا لأوليائه ومودودًا لهم. فأحدهما بالوضع. والآخر باللزوم. فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه.

---

(١) ٥٨ التبيان.

وقال شعيب ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه. وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحب لو كان منه ما كان.

[(١)] «الودود» من أسماء الرب تعالى. وفيه قولان:

أحدهما: أنه المودود. قال البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه «الودود الحبيب»[(٢)].

والثاني: أنه الوادُّ لعباده، أي المحب لهم. قرنه باسمه «الغفور» إعلامًا بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويوده. فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

وعلى القول الأول: «الودود» في معنى يكون سر الاقتران. أي: اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

***

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[(٣)] قال: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ [البروج: ١٥] فأضاف العرش إلى نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة. وهذا يدل على عظمة العرش، وقربه منه ـ سبحانه ـ واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلى نفسه «بذو» صفاته القائمة به. كقوله: ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ويقال: ذو العزة، وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك. فلو كان حظ العرش منه حظ

(١) ٢٨ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب سورة البروج بعد حديث (رقم ٤٩٤٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٩٩) (١٣/ ٤٠٨) وعمدة القاري (١٩/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٣) ٥٩ التبيان.

الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض.

ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها. وسعة أفعاله، وكثرة خيره دوامه، وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة، فليس له من المجد شيء.

والمخلوق إنما يصير مجيدًا بأوصافه وأفعاله. فكيف يكون الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ مجيدًا. وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالىٰ الله عما يقول المعطلون علوًا كبيرًا، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلي الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل ﷺ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني علىٰ الرب تعالىٰ بأنه حميد مجيد. وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «**ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد**»[(١)].

فالحمد والمجد علىٰ الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد العظيم الواسع القادر الغني؛ ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ (المجيد) بالكسر هو صفة لعرشه سبحانه وإذا كان عرشه مجيدًا فهو ـ سبحانه ـ أحق بالمجد. وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرجها علىٰ أحد الوجهين، إما علىٰ الجوار، وإما أن يكون صفة لربك. وهذا من قلة بضاعة هذا القائل. فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد. ووصفه بالعظمة. فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك، ولسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٧١) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨٩) وشرح النووي (٤/ ١٩٤).

القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه، وبهاء منظره إلا الله، ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه، والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة فيه كتلك الحلقة في الفلاة. قال ابن عباس: السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس[١]، فكيف لا يكون مجيدًا وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد. وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك.

وقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦] دليل على أمور:

(أحدها) أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

(الثاني) أنه لم يزل كذلك، لأنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثًا بعد أن لم يكن.

(الثالث) أنه إذا أراد شيئًا فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله. وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر. فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلًا لم يوجد الفعل وإن أراده، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلًا، وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلًا، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد

---

(١) يروى عن ابن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧ رقم ٣١) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٣٣٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٣١٠) والتدوي في أخبار قزوين (١/ ١١٧).

فعله، وقد يريد فعله، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلىٰ قول النبي ﷺ، حاكيًا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: «قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لا تشرك بي شيئًا»[1] ولم يقع هذا المراد، لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

(الرابع) أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان. فيما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد. فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

(الخامس) إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه ـ تعالىٰ ـ أن يريد علىٰ الدوام، ويفعل ما يريد.

(السادس) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله. فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا. وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري نفسه لعباده، وأن يتجلىٰ لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد. وإما تتوقف صحة ذلك علىٰ إخبار الصادق به. فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًا لكماله الذي أخبر به عن نفسه. وهذا عين الباطل. وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء، وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

وقد اشتملت هذه السورة علىٰ اختصارها من التوحيد علىٰ وصفه ـ سبحانه ـ بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة، وعدم النظير. والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته. وملكه السموات والأرض، المتضمن لكمال غناه وسعة ملكه وشهادته علىٰ كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه علىٰ ظواهر الأمور

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٥٧) ومسلم (رقم ٢٨٠٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٩) (١١/ ٤٠٣).

وبواطنها. وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها. ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته. وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته، فلا يستعصى عليه منها شيء. ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته. ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبًا إلىٰ عباده محبًا لهم.

ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنىٰ والجود والإحسان والكرم. وكونه فعالًا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها. فالحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده.

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به وكذب رسله، تحذيرًا لعباده من سلوك سبيلهم، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم.

ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيط بهم. ولا أسوأ حالًا ممن عادىٰ من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل وجه، وبكل اعتبار. فقال: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ [البروج: ١٩، ٢٠] فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن محيط به وآخذ بناصيته قادر عليه.

ثم وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام، كما أن المتكلم به له المجد كله. فهو المجيد، وكلامه مجيد، وعرشه مجيد.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قرآن مجيد، كريم. لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر.

وقد تقدم أن المجد السعة، وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به، وقوله: ﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج: ٢٢] أكثر القراء علىٰ الجر، صفة للوح.

وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان.

فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف. كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير.

هذا ما يسر جمعه من تفسير سورة البروج

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾.

(١)إقسامه سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ [الطارق: ١] وقد فسره بأنه: ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ٣] الذي يثقب ضوؤه، والمراد به الجنس لا نجم معين. ومن عينه بأنه الثريا، أو زحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة. وكل منها آية من آياته الدال على وحدانيته، وسمى النجم طارقًا، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلًا.

قال الفراء: ما أتاك ليلًا فهو طارق. وقال الزجاج، والمبرد: لا يكون الطارق نهارًا، ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيرًا، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت ميٌّ هيومًا بذكرها ... وأيدي الثريا جنحٌ في المغارب(٢)

---

(١) ٦٣ التبيان.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ذي الرمة: غيلان بن عقبة العدوي من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، عشق مية المنقرية واشتهر بها، توفي بأصبهان سنة ١١٧هـ. والبيت ذكره ابن منظور في اللسان (١٥/ ٤٢٣).

وقال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا   وقت الزيارة، فارجعي بسلام[(١)]

ولهذا قيل: أول من رد الطيف جرير، فلم يزل الناس على قبوله وإكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد. وقال الآخر:

ألا طرقتنا من آخر الليل زينب   عليك سلام هل لما فات مطلب؟[(٢)]

والمقسم عليه ههنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها. وأنها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم سبحانه أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكتسب من خير أو شر.

واختلف القراء في «لما» فشددها بعضهم، وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى إلا، وهي تكون بمعنى إلا في موضعين.

(أحدهما) بعد إن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

(والثاني) في باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت. قال أبو علي الفارسي: من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة [وما] زائدة، وإن هي التي يتلقى بها القسم، كما يتلقى بالمثقلة. ومن قرأها مشددة كانت [إن] عنده نافية بمعنى [ما ولما] في معنى: [إلا]. قال سيبويه، عن

(١) هذا البيت من بحر الكامل وذكره ابن عساكر في تاريخه (١١/ ٢٦١).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى يزيد بن مفرغ الحميري، ولد بالبصرة وهو من أصل يمني وكانت أسرته في حلف مع قريش، كان نديماً لسعيد بن عثمان بن عفان، واشتهر بشعره الساخر من عباد وعبيد الله بن زياد بن أبيه، توفي سنة ٦٩هـ. ذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ١٦٧).

الخليل ـ في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت ـ قال المعنى: إلا فعلت.

ثم نبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] أي: فلينظر نظر الفكر والاستدلال، ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته.

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماد دافق. والدفق صب الماء، يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق. فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب.

والمتدفق: المطاوع لفعل الفاعل. تقول: دفقته فاندفق، كما تقول: كسرته فانكسر. والدافق قيل: إنه فاعل بمعنى مفعول؛ كقولهم: سر كاتم، وعيشة راضية.

وقيل: هو على النسب؛ على الفعل، أي ذي دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان على الفعل. وقيل ـ وهو الصواب ـ: إنه اسم فاعل على بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق. فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار ورجل ميت، وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به من الموت نسب إليه على جهة الفعل. وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلًا عن أوسع اللغات وأفصحها.

وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها. كأنها رضيت بهم ورضوا بها. وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله. وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة ـ وإن لم يفعلا ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟

ونبه سبحانه بكونه دافقًا على أنه ضعيف غير متماسك. ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة من صدرها، والولد يخلق من المائين جميعًا.

وقيل: صلب الرجل وترائبه وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره. وهذه الآية الدالة علىٰ قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

(١)وقد دعا سبحانه الإنسان إلىٰ أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك علىٰ معاده وصدق ما أخبرت به الرسل؛ فقال في الأول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٥- ٩] فالدافق علىٰ بابه، ليس فاعلًا بمعنىٰ مفعول كما يظنه بعضهم، بل هو بمنزلة: ماء جار وواقف وساكن، ولا خلاف أن المراد بالصلب: صلب الرجل.

واختلف في الترائب فقيل: المراد بها ترائبه أيضًا، وهي عظام الصدر ما بين الترقوة إلىٰ الثندوة. وقيل: المراد ترائب المرأة، والأول أظهر؛ لأنه سبحانه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ولم يقل يخرج من الصلب والترائب، فلابد أن يكون ماء الرجل خارجًا من بين هذين المختلفين كما قال في اللبن: يخرج: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦]. وأيضًا فإنه سبحانه أخبر أنه خلقه من نطفة في غير موضع، والنطفة هي ماء الرجل، كذلك قال أهل اللغة.

قال الجوهري: والنطفة: الماء الصافي قل أو كثر، والنطفة: ماء الرجل، والجمع نطف. وأيضًا فإن الذي يوصف بالدفق والنضح إنما هو ماء الرجل، ولا يقال نضحت المرأة الماء ولا دفقته(٢).

والذي أوجب لأصحاب القول الآخر ذلك أنهم رأوا أهل اللغة قالوا: الترائب موضع القلادة من الصدر، قال الزجاج: أهل اللغة مجمعون علىٰ ذلك، وأنشدوا لامرئ القيس:

---

(١) ١٤٥ أعلام جـ١.

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٨) (١١/ ٤٧٩) وعمدة القاري (٣/ ٢٩٣) والقاموس المحيط (ص ١١٠٧) ولسان العرب (٩/ ٣٣٥) ومختار الصحاح (٢٧٧).

مهفهفـــة بيـــضاء غيـــر مفاضـــةٍ   ترائبهـــا مـــصقولةٌ كالـــسجنجل[(١)]

وهذا لا يدل على اختصاص الترائب بالمرأة، بل يطلق على الرجل والمرأة، قال الجوهري: الترائب عظام الصدر ما بين الترقوة إلى الثندوة.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٨] الصحيح أن الضمير يرجع على الإنسان، أي: إن الله على رده إليه لقادر يوم القيامة، وهو اليوم الذي تبلى فيه السرائر، ومن قال: «إن الضمير يرجع على الماء أي: إن الله على رجعه في الإحليل أو في الصدر أو حبسه عن الخروج لقادر» فقد أبعد، وإن كان الله سبحانه قادرًا على ذلك، ولكن السياق يأباه، وطريقة القرآن ـ وهي الاستدلال بالمبدأ والنشأة الأولى على المعاد والرجوع إليه ـ وأيضًا فإنه قيده بالظرف، وهو: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩]. والمقصود أنه سبحانه دعا الإنسان أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، فإن ذلك يدله دلالة ظاهرة على معاده ورجوعه إلى ربه.

[(٢)]وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ﷻ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته.

ونذكر لك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها. فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٢١٣) وابن منظور في اللسان (١/ ٢٣٠).

(٢) ١٨٧ مفتاح جـ١.

فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[1] [الحج: ٥].

[2]قال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطلاق: ٥ ـ ٧].

قال الزجاج: قال أهل اللغة: التريبة موضع القلادة من الصدر، والجمع ترائب. وقال أبو عبيدة: الترائب: معلق الحلي من الصدر، وهو قول جمع أهل اللغة[3]. قال عطاء وابن عباس: يريد صلب الرجل، وترائب المرأة: وهو موضع قلادتها، وهذا قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير، وهو المطابق لهذه الأحاديث، وبذلك أجرىٰ الله العادة في إيجاد ما يوجده من بين أصلين: كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثىٰ، كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فإن الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبته، ولا ينتقض هذا بآدم وحواء أبوينا ولا بالمسيح، فإن الله سبحانه مزج تراب آدم بالماء حتىٰ صار طينًا، ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتىٰ صار كالفخار، ثم نفخ فيه الروح، وكانت حواء مستلة منه وجزءًا من أجزائه، والمسيح خلق من ماء مريم ونفخة الملك، وكانت النفخة له كالأب لغيره.

---

(١) بحث المؤلف في عموم الحكم الكثيرة في مخلوقات الله والتفكر فيها بحثًا موسعًا يطلعك على أبواب من العلم فاظفر بها إن شئت. (ج).

(٢) ١٦٦ تحفة المودود.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٨٦) ولسان العرب (١/ ٢٣٠) ومختار الصحاح (ص ٣٢).

[(١)]ثم ذكر الأمر المستدل عليه والمعاد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] أي: على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه. هذا هو الصحيح في معنى الآية. وفيها قولان ضعيفان: أحدهما قول مجاهد: على رد الماء في الإحليل لقادر. والثاني قول عكرمة والضحاك. على رد الماء في الصلب. وفيه قول ثالث قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، إلى النطفة.

والقول الصواب هو الأول لوجوه:

(أحدها): أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

(الثاني): أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

(الثالث): أنه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد. ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه.

(الرابع): أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩] وهو يوم القيامة، أي: أن الله قادر على رجعه إليه حيًا في ذلك اليوم.

(الخامس): أن الضمير في (رجعه) هو الضمير في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾ [الطارق: ١٠] وهذا للإنسان قطعًا لا للماء.

(السادس): أنه لا ذكر للإحليل، حتى يتعين كون المرجع إليه. فلو قال قائل: على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولى منه.

(السابع): أن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدورًا للرب تعالى، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة. ولا هو مما تكلم الناس فيه، نفيًا أو إثباتًا، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكريه، وهو ـ سبحانه ـ إنما يستدل على أمر واقع ولابد، فإما قد وقع ووجد أو سيقع.

---

(١) ٦٥ التبيان.

فإن قيل: فقد قال تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣، ٤] أي: نجعله كخف البعير قيل: هذه أيضًا فيها قولان: أحدهما هذا. والثاني ـ وهو الأرجح ـ أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت، بعد ما فرقها البلىٰ في التراب[1].

(الثامن): أنه سبحانه دعا الإنسان إلىٰ النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه علىٰ رد الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتىٰ يدعوه إلىٰ النظر فيما خلق منه، وليستقبح منه صحة إمكان رد الماء.

(التاسع): أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتىٰ يجعل أحدهما دليلًا علىٰ إمكان الآخر، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولىٰ والنشأة الثانية. فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر. فحسن الاستدلال بأحدهما علىٰ الآخر.

(العاشر): أنه سبحانه نبه بقوله: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤] علىٰ أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء.

ثم نبه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٨] علىٰ بعثه لجزائه علىٰ العمل الذي حفظ وأحصىٰ عليه. فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه، ونبه علىٰ هذا بقوله: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩] أي: تختبر. وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله. فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر. فتختبر ذلك اليوم، حتىٰ يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها. وما كان لله مما لم يكن له.

(١) تقدم في سورة القيامة مبسوطًا. (ج).

قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينًا في الوجوه، وشينًا فيها. والمعنى تختبر السرائر بإظهارها. وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحياءً، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشينًا. وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها. قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر(١)

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله. لا بقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر. فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره. وكلاهما معدوم في حقه. ونظيره قوله سبحانه: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾[الأنبياء: ٤٣].

ثم أقسم سبحانه: بـ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾[الطارق: ١١، ١٢]. فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات. قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام. وقال أبو إسحاق: الرجع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. وكذلك قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تبدي بالمطر ثم ترجع به. في كل عام.

والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل. ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الأحوص الأنصاري الشاعر الأموي الهجَّاء وكان صافي الديباجة من طبقة جميل بن معمر، وفد على الوليد بن عبدالملك في الشام فأكرمه ثم بلغه ما ساءه عنه من سيرته فرده إلى المدينة وأمر بجلده ونفاه إلى جزيرة بين اليمن والحبشة، مات سنة ١٠٥هـ. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٤/ ٤٩٢) وابن عساكر في تاريخه (٣٢/ ٢١٨).

جهتها حالًا بعد حال، على مرور الأزمان. ترجعه رجعًا، أي: تعطيه مرة بعد مرة. والخير كله من قبل السماء يجيء. ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به، وحسن تفسيره ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض أي يشقها. فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته.

وأقسم على كون القرآن حقًا وصدقًا، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده.

والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المرء. إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد، ومنه فصل الخطاب.

وأيضًا فالقول الفصل ببيان المعنى ضد الإجمال. فكون القرآن فصلًا يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقًا ليس بالباطل، وجدًا ليس بالهزل.

ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له ـ وهو الباطل واللعب ـ قابل بين الفصل والهزل. وإنما يكيد المكذبون ويحيلون، ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده.

وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة، كما قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣] فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم، حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة، ثم قال: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق: ١٧] أي أنظرهم قليلًا، ولا تستعجل لهم، والرب تعالى هو الذي يمهلهم.

وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم. أو على معنى انتظر بهم قليلًا. ورويدا في كلامهم يكون اسم فعل، فينصب بها الاسم نحو رويدًا زيدًا، أي: خله وأمهله، وارفق به.

الثاني: أن يكون مصدرًا مضافًا إلى المفعول، نحو رويد زيد، أي: إمهال زيد، نحو: ضرب الرقاب.

الثالث: أن يكون نعتًا منصوبًا، نحو قولك: ساروا رويدًا. تقول العرب: ضعه رويدًا، أي: وضعًا رويدًا. وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلى البقيع «فخرج رويدًا، وأجاف الباب رويدًا»[1].

ويجوز في هذا الوجه وجهان:

أحدهما: أن يكون حالًا.

والثاني: أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، فإن أظهر المنعوت تعين الوجه الثاني. ورويدًا في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطارق.

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٤) وانظر: شرح النووي (٧/ ٤٣).

سُورَةُ الأَعْلَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾.

(١)الهداية لها أربع مراتب، وهي مذكورة في القرآن.

المرتبة الأولى: الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره، قال الله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

فذكر أمورًا أربعة: الخلق والتسوية والتقدير والهداية، فسوى خلقه، وأتقنه، وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها والهداية تعليم، فذكر أنه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك في أول سورة أنزلها على رسوله، وقد تقدم ذلك. وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها.

المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لا تستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى.

وقال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية. وهي هداية التوفيق والإلهام. قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يونس: ٢٥] فعم

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفي هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»(١). وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا.

وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء. وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدي عنها بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدىٰ عنها مستحيل.

المرتبة الرابعة: الهداية في الآخرة إلي طريق الجنة والنار. قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم.

ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ، وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلًا مطابقًا لحاله: فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى

(١) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (٢/ ٤٥٥ رقم ١٩٥٣) وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٤٣ رقم ١٧٨٥) والنسائي في الكبرى (١/ ٥٢٩ رقم ١٧٠٩) وأبو داود (رقم ٢١١٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٦ رقم ١٣٦٠٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٩ رقم ٤٩٢) وصححه النووي في شرح مسلم (٦/ ١٦٠).

ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

(١)والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره. فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد. ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله.

ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه أم خرج فيه عن الحق، فيتوب إلى الله تعالى منه، ويستغفره ويعزم على أن لا يعود؟

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه، فإنه ابن وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال، هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطرارًا لها، وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهي إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى: ثبتنا على الهداية، وأدمها لنا. ومن أحاط

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

علمًا بحقيقة الهداية وحاجة العبد لها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة، لاسيما والله ـ تعالىٰ ـ خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له، فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه، بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه. ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع. وصول أثر الهداية إليه، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدىٰ تامًا، فحاجته إلى هداية الله له مقرونة بأنفاسه، وهي أعظم حاجة للعبد.

وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب، فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها.

فذكر كونه فاطر السموات والأرض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق، له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة، وأن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه. وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئًا من ماله.

والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبعفوه أن يعفو عنه، وبرحمته أن يرحمه، ونظائر ذلك، وذكر ربوبيته تعالىٰ لجبريل وميكائيل وإسرافيل.

وهذا والله أعلم لأن المطلوب هدىٰ يحيا به القلب، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالىٰ علىٰ أيديهم أسباب حياة العباد.

أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة.

وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء.

وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور، فيحيي الله الموتىٰ بنفخته، فإذا هم قيام

لرب العالمين.

(١) الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم. هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به، ويقدره عليه الضلال.

وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال.

وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه. ولابد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، فأما مراتب الهدى فأربعة:

إحداها: الهدى العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

فأما المرتبة الأولى فقد قال سبحانه: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ

(١) ٦٥ شفاء.

﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ [الأعلى: ١- ٣] فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية،والتقدير، والهداية. وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير، قال عطاء: خلق فسوىٰ، أحسن ما خلقه.

وشاهده قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧] فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد. والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

قال الكلبي: خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين. وقال مقاتل: خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق، وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستويًا، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره، قال تعالىٰ: ﴿ وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧] وقال: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلىٰ عدم إعطاء التسوية للمخلوق؛ فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

فتأمل ذلك؛ فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية، كما أن الجهل والصمم والعمىٰ والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها.

وتمام هذا يأتي إن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»[(١)]. والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه ـ سبحانه ـ في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

***

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١)وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٢٢-٤٢٣) (١٣/ ٥٣٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩).

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾.

[(١)]لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين: نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، واضمحلالها ونقصها خستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف. فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا، فهي كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فهي خيرات كاملة دائمة. وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل وإيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الأجل، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا. وأن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على

---

(١) ٩٣ فوائد.

الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل. وما أكثر ما يكون منهما! ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعلى

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾.

(١)تأمل الحكمة العجيبة في الجبال، الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذ وكذا؟ قال: «**اللهم نعم**»(٢).

فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلًا لشراب الناس إلى حين نفاده، وجعل فيها ليذوب أولًا فأولًا، فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والربا، ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة، وساح دفعه: فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لا يمكن تلافيه، ولا دفعه لأذيته.

ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع، هي أيضًا أكنان للناس والحيوان.

ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرجية وغيرها.

ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة

---

(١) ٢١٨ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٣) ومسلم (رقم ١٢) وانظر: فتح الباري (١/ ١٥٢) وشرح النووي (١/ ١٧١).

والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى إن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة.

وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه.

ومن منافعها أيضًا أنها ترد الرياح العاصفة، وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ما تحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

ومن منافعها أيضًا أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلامًا فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ [الشورى: ٣٢] فالجواري هي السفن، والأعلام: الجبال. واحدها علم، قالت الخنساء:

وأن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار(١)

فسمى الجبل علمًا من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضًا: ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم، لا يحيط به إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها: أنها تكون حصونًا من الأعداء، يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم، كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وذكره ابن عساكر في تاريخه (٥٣/ ٤٤١) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (١/ ١٧٦) بينما ذكره باختلاف كل من الحافظ ابن حجر في الإصابة (٧/ ٦١٤) وابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٨٢٧) وعندهما: أشم أبلج يأتم الهداة به.

ومن منافعها: ما ذكره الله تعالىٰ في كتابه أن جعلها للأرض أوتادًا، تثبتها، ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظم بها من منفعة وحكمة.

هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة علىٰ هذا الوضع، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة، فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها، والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت علىٰ وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان، ولما سترت عنهم الرياح، ولما حجبت السيول. ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولىٰ الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها علىٰ وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه.

ولقد دعانا الله ـ سبحانه ـ في كتابه إلىٰ النظر فيها وفي كيفية خلقها، فقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧- ١٩] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد علىٰ قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته.

هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها علىٰ شدتها وعظم خلقها من الأمانة، إذا عرضها عليها وأشفقت من حملها.

ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسىٰ كليمه ونجيه.

ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه، وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه.

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورًا علىٰ بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعبداتهم.

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات.

فلله كم به من ذنب مغفور، وعثرة مقالة، وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية، وكربة

مفروجة، وبلية مرفوعة، ونعمة متجددة، وسعادة مكتسبة، وشقاوة ممحوة.

كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم، والوفد الأكرم، الذين جاءوا من كل فج عميق، وقوفًا لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا حاسرين عن رءوسهم، يستقيلونه عثراتهم، ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته، وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك.

فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالًا هي مغناطيس القلوب، كأنها مركبة منه، فهي تهوى إليها كلما ذكرتها، وتهفو نحوها.

كما اختص من الرجال من خصه بكرامته، وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه، فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين، ووضع له القبول في الأرض بينهم.

وإذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد[1]

فدع عنك الجبل الفلاني، وجبل بني فلان، وجبل كذا.

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل[2]

هذا وإنها لتعلم أن لها موعدًا، ويومًا تنسف فيها نسفًا، وتصير كالعهن من هوله وعظمه، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له.

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى ابن نباتة المصري: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب ولد ومات في القاهرة سنة ٧٦٨هـ. وذكر البيت العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٢) ومنصور البهوتي في كشاف القناع (٣/ ١٣١) وفيه: «إني اطلعت على البقاع».

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى المتنبي، وذكر البيت ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٢٥٨) وأبو بكر ابن العربي في العواصم من القواصم (ص ٢٠٧).

وكانت أم الدرداء ـ رضي الله عنها ـ إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال: ما أسمعها؟ فتقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها: أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت، ولتصدعت من خشية الله.

فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها، ويذكر الرب ـ تبارك وتعالى ـ فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله ﷻ ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم ينب إليه، ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلًا، فإن أمامه الملين الأعظم، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

ولما اقتضت حكمته ـ تبارك وتعالى ـ أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل، لينتفع بكل ذلك في وجهه، ويحصل منه ما خلق له، وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيها ربها أن تخرجه، إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ما خرج منها.

وجعلها سبحانه كفاتًا للأحياء ما داموا على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها، فكانت كفاتًا لهم، تضمهم على ظهرها أحياءً وفي بطنها أمواتًا، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض، أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها، وتخرج أثقالها، فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها، وتقول: رب هذا ما استودعتني، وتخرج كنوزها بإذنه ـ تعالى ـ ثم تحدث أخبارها، وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر.

ولما كانت الرياح تجول فيها، وتدخل في تجاويفها، وتحدث فيها الأبخرة، وتخفق الرياح، ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها في الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام، فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم. كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض: إن ربكم يستعتبكم[1]، وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم، وقال: لئن عادت لا أساكنكم فيها[2].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الغاشية

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه الطبري في تفسيره من قول ابن مسعود (١٥/ ١٠٩) وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٢١ رقم ٨٣٣٤) عن شهر قال: زلزلت المدينة في عهد النبي ﷺ فقال: «إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه» وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٢/ ٩٤): هذا مرسل ضعيف.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١٠٤) ونعيم بن حماد المروزي في الفتن (٢/ ٦٢٠ رقم ١٧٣١) وانظر: عمدة القاري (٧/ ٥٧).

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝ ﴾.

[١]قيل جوابه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝ ﴾ ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود، وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقررًا ومحذرًا: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝ ﴾ فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالًا معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وخضوع لعظمته.

وذلك ضد ما وصف به عادًا وثمود، وفرعون من العتو، والتكبر، والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوًا وتكبروا عن أمر ربهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك شيء»[٢].

فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب ﷻ به.

---

(١) ١٨ التبيان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٦٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٦٠).

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ إن أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات. فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ المتضمن لآخر الصلوات.

وإن أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رؤي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها. وذلك الفجر: فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر»(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح. وهو آخر أيام العشر. وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره.

وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ: «إن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(٢).

ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالًا وتأويلًا للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم: المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقيل لخاتم الرسل ﷺ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ٥١ رقم ٢٨١١) والهيثمي في الموارد (رقم ١٠٤٤) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٣٧ رقم ٩٩٩٤) والشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٦٧ رقم ٢٤٠٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ٤٤ رقم ٢٤٢١) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٧٢ رقم ٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٩) ومسلم (رقم ١٣٤٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٦٦) (٨/ ٣١٩-٣٢٠) وشرح النووي (٩/ ١١٥-١١٦).

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾، إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال: فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر، وأما الأعمال: فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع. وهو الأصل، فإن الله وتر، يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وترًا. كما قال النبي ﷺ: «**صلاة الليل مثني مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت**»(١). وأما الزمان: فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين.

وروى مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء(٢). وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده. وعنه رواية ثالثة: الشفع يوم النحر، والوتر اليوم الثالث. وقال عمران بن حصين،وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثًا مرفوعًا. وقال عطية العوفي، الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله، وهذا قول الحكم، قال: كل شيء شفع والله وتر. وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد. وهذا قول مجاهد، ومسروق. وقال الحسن: الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر، وقال ابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة.

وذكرت أقوال أخر، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

أحدهما: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات.

والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٣) ومسلم (رقم ٧٤٩) وانظر: شرح النووي (٦/ ٢١).

(٢) انظر: مقدمة فتح الباري (١٣٩) ومشارق الأنوار (٢/ ٢٥٦) واللسان (٥/ ٢٧٣).

القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدم في قوله: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١]. نظير ما ذكر في قوله: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج: ٣]. وما ذكر في قوله: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ ﴾ [الليل: ١-٣].

وقال ههنا: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ ﴾ وفي سورة المدثر: أقسم بالليل إذا أدبر. وفي سورة التكوير: أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل، وفسر بأدبر. فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

وعرف الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالي العشر، لأنها إنما تعرف بالعلم. وأيضًا فإن التنكير تعظيم لها. فإن التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولا يجهله. فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ كان في ذلك ما دل على المقسم عليه، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝ ﴾ [الفجر: ٥]. فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل. لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود.

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين. ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب. ونكره إما للتعظيم، وإما لأن يسيرًا من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن معه بقاء ولا ثبات. ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتر عليهم.

وأخبر أن توسعته على من وسع عليه ـ وإن كان إكرامًا له في الدنيا ـ فليس ذلك إكرامًا على الحقيقة، ولا يدل على أنه كريم عنده، ومن أهل كرامته ومحبته.

وأن تقتيره على من قتر عليه لا يدل على إهانته له، وسقوط منزلته عنده، بل يوسع

ابتلاءً وامتحانًا، ويقتر ابتلاءً وامتحانًا، فيبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب.

وهو ـ سبحانه ـ يبتلي عبده بنعمة تجلب له نقمة، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى، وبنقمة تجلب له نقمة أخرى، وبنقمة تجلب له نعمة، فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه.

وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله. وهم هؤلاء الأمم الثلاث: قوم عاد، اغتروا بقوتهم. وثمود، اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم. وقوم فرعون، اغتروا بالمال والرياسة، فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا. وهذا شأنه دائمًا مع كل من اغتر بشيء من ذلك، لابد أن يفسده عليه، ويسلبه إياه. ثم ذكر سبحانه حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه، كاليتيم والمسكين. فلا يكرم هذا، ولا يحض على طعام هذا. ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله، وحبه له. وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين.

***

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾.

[(١)] من علامات السعادة والفلاح، أن العبد كلما زيد في علمه؛ زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله؛ زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره؛ نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله، كلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه؛ زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله؛ زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه. وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في كبره وتيهه. وهذا الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده؛ فيسعد بها أقوام ويشقى بها

(١) ١٥٢ الفوائد.

أقوام. وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال. قال تعالىٰ عن نبيه سليمان لما رأىٰ عرش بلقيس عنده: ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فالنعم ابتلاء من الله وامتحان، يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور، كما أن المحن بلوىٰ منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب. قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ...﴾ [الفجر: ١٥- ١٧] أي: ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني.

(١)...إذا أعطاك(٢) ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك علىٰ طاعته وبلاغًا إلىٰ مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطىٰ لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ. ولكنه ابتلاء مني: وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

---

(١) ٨٠ مدارج جـ١.

(٢) الضمير يعود إلىٰ الله ﷻ، والبحث تجده في تفسير سورة الفاتحة بكامله، وكذلك يوجد في سورة المائدة بحث نفيس حول هذا. (ج).

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغني لكرامته عليَّ. ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه ـ سبحانه ـ يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهيبنه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

(١)قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونظائره.

قيل: هو من مجاز الحذف، تقديره، وجاء أمر ربك. وهذا باطل من وجوه.

أحدها: أنه إضمار ما لا يدل اللفظ عليه بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم. وادعاء حذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب، ويطرق كل مبطل على ادعاء إضمار ما يصحح باطله.

الثاني: أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار، فإضماره مجرد خلاف الأصل، فلا يجوز.

الثالث: أنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولًا على المتكلم بلا علم، وإخبارًا عنه بإرادة ما لم يقم به دليل على إرادته، وذلك كذب عليه.

الرابع: أن في السياق ما يبطل هذا التقدير، وهو قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ ﴾، فعطف مجيء الملك على مجيئه ـ سبحانه ـ يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه ـ سبحانه ـ حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب ـ سبحانه ـ أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ٢.

وكذلك قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ففرق بين إتيان الملائكة، وإتيان الرب، وإتيان بعض آيات ربك، فقسَّم ونوَّع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحدًا فتأمله. ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل هذا اللفظ على مجازه، وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد.

الخامس: أنه لو صرح بهذا المحذوف المقدر لم يحسن، وكان كلامًا ركيكًا، فادعى صدق ما يكون النطق به مشتركًا باطلًا، فإنه لو قال: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك. كان مستهجنًا.

السادس: إن اطراد نسبة المجيء والإتيان إليه ـ سبحانه ـ دليل الحقيقة، وقد صرحتم بأن من علامات الحقيقة الاطراد، فكيف كان هذا المطرد مجازًا.

السابع: أنه لو كان المجيء والإتيان مستحيلًا عليه، لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة وهكذا هو عندكم سواء، فمتى عهدتم إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليه، ونسبتها إليه نسبة مجازية وهي متعلقة بغيره، وهل في ذلك شيء من الكمال البتة. فإن قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ و﴿ أَتَىٰ ﴾ و﴿ يَأْتِى ﴾ عندكم في الاستحالة مثل نام وأكل وشرب، والله سبحانه لا يطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله ﷺ لا بقرينة ولا مطلقة، فضلًا عن تطرد نسبتها إليه، وقد اطرد نسبه المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقًا من غير قرينة، تدل على أن الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه.

الثامن: أن المجاز لو كان ثابتًا فإنما يصار إليه عند تعذر الحمل على الحقيقة إذ هي الأصل، فما الذي أحال حمل ذلك على حقيقته من عقل أو نقل أو اتفاق من اتفاقهم حجة، فأما النقل والاتفاق: فهو من جانب الحقيقة فلا ريب. وأما العقل: فإنكم تزعمون أنكم أولى به منهم، وهو قد أبطلوا جميع عقلياتكم التي لأجلها ادعيتم أن نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إلى الله مجاز من أكثر من ثلاثمائة وجه.

وقد ذكرناها فيما تقدم فسلم لهم النقل، واتفق السلف، فكيف والعقل الصريح من جانبهم كما تقدم تقريره، فإن من لا يفعل شيئًا، ولا يتمكن من فعل يقوم به بمنزلة الجماد.

التاسع: أن هذا الذي ادعوا حذفه وإضماره يلزمهم فيه كما لزمهم فيما أنكروه، فإنهم إذ قدروا «وجاء أمر ربك» «ويأتي أمره» «ويجيء أمره» «وينزل أمره» فأمره هو كلامه، وهو حقيقة، فكيف تجيء الصفة، وتأتي، وتنزل دون موصوفها، وكيف ينزل الأمر ممن ليس هو فوق سمواته على عرشه؟!

ولما تفطن بعضهم لذلك قال: أمره بمعنى مأموره، فالخلق والرزق بمعنى المرزوق، فركب مجازًا على مجاز بزعمه ولم يصنع شيئًا، فإن مأموره هو الذي يكون ويخلق بأمره، وليس له عندهم أمر يقوم به، فلا كلام يقوم به، وإنما ذلك مجاز من مجاز الكناية عن سرعة الانفعال بمشيئته تشبيهًا بمن يقول: كن فيكون الشيء عقيب تكوينه، فركبوا مجازًا على مجاز ولم يصنعوا شيئًا، فإن هذا المأمور الذي يأتي إن كان ملكًا فهو داخل في قوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٣٣] وإن كان شيئًا غير الملك فهو آية من آياته، فيكون داخلا في قوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

العاشر: أن ما ادعوه من الحذف والإضمار: إما أن يكون في اللفظ ما يقتضيه ويدل عليه أو لا، فإن كان الثاني لم يجز ادعاؤه، وإن كان الأول كان كالملفوظ به، وعلى التقديرين فلا يكون مجازًا، فإن المدلول عليه يمتنع تقديره.

***

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

[1]هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ اختلف الناس في ذلك (فمن

---

(١) ٢٦٤ الروح.

قائل): إن مسماهما واحد، وهم الجمهور ومن قائل: إنهما متغايران.

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته، فنقول: النفس تطلق على أمور: أحدها: الروح. قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، قال أبو خراش:

نجا سالمٌ والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا[(١)]

أي: بجفن سيف ومئزر.

والنفس: الدم يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه»[(٢)].

والنفس: الجسد قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم ادخلوا أبناءهم تامور نفس المنذر[(٣)]

والتامور: الدم. والنفس: العين، يقال: أصابت فلانًا نفس أي عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع، لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله تعالى: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [النور: ٦١] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا ﴾ [النحل: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وذكر البيت ابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٤٥١) ونسبه إلى الهذلي. وذكره أيضًا ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٥٥٤) وابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤) ونسبه إلى أبي خراش. بينما ذكره في (١٣/ ٨٩) ونسبه إلى حذيفة بن أنس الهذلي.

(٢) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٥١) وفيض القدير (١/ ٤٥٤) (٤/ ٤٥٠) والمغني (١/ ٤١٠) والقاموس المحيط (ص ٧٤٥).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى أوس بن حجر شاعر تميم في الجاهلية ومن كبار شعرائها عمّر طويلاًولم يدرك الإسلام، في شعره رقة وحكمة، ذكر البيت ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ١٦٩) وفيه: بني سليم. وأبياتهم وابن منظور في اللسان (٤/ ٩٣) وفيه: بني سحيم.

وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر: ١٥] وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردًا(١)

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها وسميت نفسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تفنس الشيء إذا

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى بديع الزمان الهمذاني: أحمد بن الحسين بن يحيى، أحد أئمة الكتاب، له مقامات، كان قوي الحافظة، ويذكر أن أكثر مقاماته ارتجال، مات سنة ٣٩٨هـ، صدر البيت عنده: طربت وهاجتني شمالٌ بليلةٌ. وذكر البيت القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٢٠١) وجاء البيت فيه:

إذا الريح من أرض الحبيب تنسمت وجدت لرياها على كبدي برداً

وذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢/ ١٣١)، ولفظه فيه منسوباً إلى المهدي بن الملوح:

إذا الريح من نحو الجريب تنسمت وجدت لرياها على كبدي برداً

خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسًا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل(١)

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه: كما يقال: خرجت روحه، وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسرًا وقهرًا، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته، كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة، وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه.

(٢)...جعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] دليل على أنها لا ترجع إليه إذا كانت مطمئنة، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عباده، وتدخل جنته، وكان من دعاء بعض السلف: «اللهم هب لي نفسًا مطمئنة إليك».

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى السموأل بن غريض الأزدي شاعر جاهلي حكيم، أشهر شعره لاميته، وهي من أجود الشعر، مات سنة ٦٤هـ قبل الهجرة. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤).

(٢) ٥١٣ مدارج جـ٢.

[(١)]فالنفس إذا سكنت إلىٰ الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلىٰ لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

قال ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ يقول: المصدقة. وقال قتادة: «هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلىٰ ما وعد الله». وقال الحسن: «المطمئنة بما قال الله. والمصدقة بما قال». وقال مجاهد: «هي المنيبة المخبتة، التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشا لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه»[(٢)].

وحقيقة الطمأنينة:السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلىٰ ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلىٰ سواه. فقد اطمأنت إلىٰ محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلىٰ أمره ونهيه وخبره. واطمأنت إلىٰ لقائه ووعده، واطمأنت إلىٰ التصديق بحقائق أسمائه وصفاته. واطمأنت إلىٰ الرضا به ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. واطمأنت إلىٰ قضائه وقدره، واطمأنت إلىٰ كفايته وحسبه وضمانه. فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنىٰ لها عنه طرفة عين.

وإذا كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء، تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغي، واتباع الباطل، فهي مأوىٰ كل سوء، وإن أطاعها قادته إلىٰ كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء، ولم يقل «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لا منها، فإنها بذاتها أمارة بالسوء، لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، إلا من رحمه الله. والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها

(١) ٧٦ إغاثة جـ١.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ١٩٠).

بقيت على ظلمها وجهلها. فلم تكن أمارة لا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد الله سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح: من الإرادات والتصورات، وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم. وسبب الظلم: إما جهل، وإما حاجة. وهي في الأصل جاهلة. والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك..

(١)قال عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: «إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين. وأرسل إليه بتحفة من الجنة. فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان. ورب عنك راض».

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

أحدها: أنه عند الموت. وهو الأشهر. قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها. ورضيت عن الله، فيرضى الله عنها.

وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث. هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة.

وقال آخرون: الكلمة الأولى ـ وهي: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧] ـ تقال لها عند الموت. والكلمة الثانية ـ وهي: «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» ـ تقال لها يوم القيامة.

قال أبو صالح: «ارجعي إلى ربك راضية مرضية» هذا عند خروجها من الدنيا. فإذا كان يوم القيامة قيل لها: «فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي».

---

(١) ١٧٨ مدارج جـ٢.

والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا، ويوم القيامة. فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى، إن كانت مطمئنة إلى الله، وفي جنته، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة. فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك. وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة. فأول ذلك عند الموت. وتمامه ونهايته: يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة.

(١)...وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به ويعطيه إياه. ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء. كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨].

والرضا به: أصل الرضا عنه، والرضي عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه. وأيضًا: فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًا. ولم يعلقه بمن رضي عنه. كما قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا**»[٢] فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه. هذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها.

وأيضًا: فالرضا به ربًا يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه. والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحسانًا، وإن ساء عبده.

فالرضا به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله». والرضا بمحمد رسولًا. يتضمن «شهادة أن محمدًا رسول الله». والرضا بالإسلام دينًا: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته

(١) ١٨٤ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر: شرح النووي (١/ ٢١٧) (٢/ ٢).

وطاعة رسوله. فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضًا: فالرضا به ربًا يتضمن اتخاذه معبودًا دون ما سواه. واتخاذه وليًا ومعبودًا، وإبطال عبادة كل ما سواه.

وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤] وقال: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضا به ربًا.

وأيضًا: فإنه جعل حقيقة الرضا به ربًا: أن يسخط عبادة ما دونه. فمتى سخط العبد عباده ما سوى الله من الآلهة الباطلة، حبًا وخوفًا، ورجاء وتعظيمًا، وإجلالًا ـ فقد تحقق بالرضا به ربًا، الذي هو قطب رحى الإسلام.

وإنما كان قطب رحى الدين: لأن جمع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تبنى على توحيد الله ﷻ في العبادة، وسخط عبادة ما سواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه...

(١)الناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده، ونازل على من يسر بالنزول عليه. وطالب الله والدار الآخرة، إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته في سفره وفي انقضائه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠]، وقالت امرأة فرعون: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾، فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار(٢).

(٣)والمقصود التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأمارة، وما

(١) لم أجد موضعه.

(٢) يروى مرفوعًا عن سعيد بن رافع بن خديج عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق» أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٦٨ رقم ٤٣٧٩).

(٣) ٣٢٦ الروح.

تشترك فيه النفوس الثلاثة، وما يتميز به بعضها من بعض، وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها، وفي ذلك تنبيه علىٰ ما وراءه، وهي نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرىٰ ومطمئنة أخرىٰ، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة، وأما المطمئنة فهي أقل النفوس البشرية عددًا وأعظمها عند الله قدرًا، وهي التي يقال لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝﴾.

والله ﷻ المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنًا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا ولا يجعلنا من: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفجر

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ البَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝ ﴾.

(1)أما سورة ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ ﴾ [البلد: ١] فذكر فيها جواب القسم. وهو قوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝ ﴾ [البلد: ٤] وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة. قال ابن عباس، في رواية مقسم: منتصبًا على قدميه. وهذا قول أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبدالله بن شداد.

قال المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد الاستواء والاستقامة. وفسر بالنصب. هذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن،ورواية عن علي، وعن ابن عباس. قال الحسن: لم يخلق الله خلقًا يكابد ما يكابد ابن آدم. وقال سعيد بن أبي الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة(٢). وقال قتادة: يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة(٣).

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه وحياته، ومعاشه، ومماته(٤). كل ذلك شدة. قال مجاهد: حملته أمه كرها، ووضعته كرهًا، معيشته في شدة. فهو يكابد ذلك(٥).

---

(١) ٢٢ التبيان.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١١) وابن المبارك في الزهد (رقم ٢٣٠، ٢٣١) وابن الجعد (رقم ٣٢٨٠، ٣٢٨١) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٣٣) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥١٣).

(٣) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه بلفظ قريب الحاكم (٢/ ٥٧٠ رقم ٣٩٣٣) وصححه. وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥١٣).

وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدته ومشقته، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته. والكبد شدة الأمر.

ومنه تكبد اللبن، إذا غلظ واشتد. ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشتد، وانتصاب القامة والاستواء من ذلك، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة، فإن الإنسان مخلوق في شدة. بكونه في الرحم، ثم في القماط والرباط، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له إلا في الجنة.

وفسر الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد، إذ قمنا وقام الخصوم في كبد؟(١)

أي: في شدة وعناء. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال ابن عباس: أي: خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر. قال: وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوى خلقه. وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض، بالعروق والعصب. وقال مجاهد: هو الشرج، يعني موضع البول والغائط. إذا خرج الأذى تقبضًا.

والمقصود أنه سبحانه أقسم في سورة البلد على حال الإنسان، وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى.

ثم أقسم بالوالد وما ولد. وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين. وعلى هذا فقد

---

(١) هذا البيت من بحر المنسرح. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (٣/ ٣٧٦) وابن حجر في الفتح (٦/ ٣٦٥) والسيوطي في الدر (٨/ ٥٢٠).

تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكان. فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم. وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد: ٢] فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال، وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول وهو ضد الظعن. فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد. بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر، ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان. والحرمة هناك للفعل لا للمكان. والمقصود هو ذكر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما ينقض أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به، وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام، فهو أولى بالتعظيم والأمن.

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه أمرًا آخر. وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

وفي الآية قول ثالث، وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني. وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيدًا. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد. وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه. فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

***

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

ثم أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد

والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور. فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرًا في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ [البلد: ٥]. وبقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [البلد: ٧] فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه.

ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ [البلد: ٦] وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه. إذا لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه، لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل تقربًا به إلى الله، وتوصلًا به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له. فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه بقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [البلد: ٧] وأتى ههنا بلم، الدالة على المضي، في مقابلة قوله: ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ فإن ذلك في الماضي، أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟

***

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ ﴾.

(١) ذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات. وذكر هداية النجدين وهما طريقًا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل، وهو قول أكثر المفسرين.

وتدل عليه الآية الأخرى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] والهداية تكون بالقلب والسمع، فقد دخل السمع في ذلك لزومًا، وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده.

---

(١) ١٠٧ مفتاح جـ١.

ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، وخصها ﷻ بالذكر في السؤال عنها. فقال: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة، وشقاوته بفسادها.

قال ابن عباس: يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة: السمع والبصر والفؤاد(١)، والله تعالىٰ أعطىٰ العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده، والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرىٰ آياته، فيستدل بها علىٰ وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه.

(٢)ثم ذكر برهانًا مقدرًا أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولىٰ من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما. فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهىٰ من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهىٰ؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالمًا بنجدي الخير والشر ـ وهما طريقاهما ـ أليس هو أولىٰ وأحق بالعلم منه. ومن هداه إلىٰ هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سدىٰ، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله علىٰ إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده.

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة علىٰ صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه. والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول مكملين له، لتقوم علىٰ العبد حجة الله بفطرته ورسالته. ومع هذا فقامت عليه حجته. ولم يقتحم العقبة

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٤٨ رقم ٤٦١٣) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٤٣) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

(٢) ٢٥ التبيان.

التي بينه وبين ربه، التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرًا رحيمًا في نفسه، معينًا لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعًا عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوبًا عنه.

***

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾.

الناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة، وصار وراءها. وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها إلا خفيف الظهر. وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر. فهم: (أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة). قد أطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان. وبالله التوفيق.

وأيضًا فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة، تهديدًا وتخويفًا لترتب الجزاء عليهما، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ٩-١٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] وهذا كثير جدًا في القرآن.

وليس المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليها من الجزاء بالعدل، فإنه إذا كان قادرًا أمكن مجازاته وإذا كان عالمًا أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرًا لم يمكن مجازاته. وإذا كان قادرًا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها لم يجاز بالعدل؛ والرب تعالى موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وإرادته، فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان، فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة إلى الله تعالى والإحسان إلى خلقه.

وقال: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ [البلد: ١١] وهو فعل ماض، ولم يكرر معه «لا» إما استعمالًا لأداة «لا» كاستعمال «ما». وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء. نحو فلا سلم ولا عاش. ونحو ذلك. وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور: فاقتحامها فعل كل واحد منها. فأغنى ذلك عن تكريرها. فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ: (فَكَّ رقبةً) بالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر. لأن قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ [البلد: ١٢] على حد قوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة: ٣]، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ١٠- ١١] ونظائره، تعظيمًا لشأن العقبة وتفخيمًا لأمرها. وهي جملة اعتراض بين المفسِّر والمفسَّر. فإن قوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا

ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البلد: ١٣- ١٧] تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور. فمن فعلها فقد اقتحم العقبة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البلد: ١٧] وهذا عطف على قوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولًا. وأيضًا فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلابد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة. وأيضًا فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسره.

ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿ ٱقْتَحَمَ ﴾ طابقه بقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وما بعده دون ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ وما يليه، وإن كان لقوله: ﴿ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ طابقه ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ ﴾ دون قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظًا ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر. وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل. قال الحسن: عقبة والله شديدة(١): مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان.

وقال مقاتل: هذا مثل ضربه الله، يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقية، يصعدها الناس، قال عطاء: هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار. وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم.

(١) انظر: عمدة القاري (١٣/ ٧٦).

وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط، يضرب على جهنم. وهذا لعله قول الكلبي. وقول هؤلاء أصح نظرًا وأثرًا ولغة. قال قتادة: فإنها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله.

وفي أثر معروف «إن بين أيديكم عقبة كؤودًا لا يقتحمها إلا المخفون»[1] أو نحو هذا. وأن الله سمى الإيمان به، وفعل ما أمر، وترك ما نهى: عقبة. فكثيرًا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة.

وقال بعض الصحابة، وقد حضره الموت، فجعل يبكي، ويقول: ما لي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود، أهبط منها إما إلى جنة، وإما إلى نار. فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله (وما أدراك) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البلد

والحمد لله رب العالمين



(١) عن أنس ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبي ذرٍّ فقال: «يا أبا ذر أعلمت أن بين أيدينا عقبة كؤوداً، لا يصعدها إلا المخفون» فقال رجل: يا رسول الله أمن المخفين أنا أم من المثقلين؟ قال: «عندك طعام يوم؟» قال: نعم. «وطعام غد؟» قال: نعم. «وطعام بعد غد؟» قال: لا. قال: «لو كان عندك طعام ثلاث لكنت من المثقلين» أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٠٧ رقم ٤٨٠٩) والبيهقي في الشعب بلفظ قريب (٧/ ٣٠٩ر قم ١٠٤٠٧) والسائل فيه أبو ذر قال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك قوت يوم وليلة؟» قال: لا قال: «فأنت من المخفين». قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٣): رواه الطبراني في الأوسط وفيه جنادة بن مروان قال أبو حاتم: ليس بالقوي وبقية رجاله ثقات.

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾.

(١)قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ [الشمس: ٩] ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب.

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق، والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها.

وقد قيل: إن: مصدرية، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالىٰ، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعته الدالة علىٰ كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده.

ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئًا فشيئًا، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث، وكان العلم بذلك منزّلًا منزلة ذكر المحدِث له لفظًا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان علىٰ الصانع، وهو استدلال صحيح، قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتىٰ ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما.

وكذلك النفس، فإن حدوثها غير مشهود، حتىٰ ظن بعضهم قدمها، فذكر مع

---

(١) ١٣ التبيان.

الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفًا لهذا العالم، والطحو هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حيَّر عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة، وكونه هذا الجانب المعين دون غيره مع استواء الجوانب في الشكل الكري، يقتضي تخصيصًا. فلم يجدوا بدًا أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك.

قلنا: فنعم إذًا، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلًا، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد.

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها. فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى. فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها.

وذكر لفظ التسوية، كما ذكره في قوله: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] وفي قوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ص: ٧٢] إيذانًا بدخول البدن في لفظ النفس. ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور: ٦٤] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢] ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

[(١)]قوله: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨] أي: تعمل بطاعة الله ـ تعالىٰ ـ فتصير زاكيًا، ومثله قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٤].

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾. فقيل: هو الله. أي: أفلحت نفس زكاها الله ﷻ، وخابت نفس دساها. وقيل: إن الضمير يعود علىٰ فاعل ﴿ أَفْلَحَ ﴾، وهو «من» سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد علىٰ الله سبحانه لقال: قد أفلح من زكاه، وقد خاب من دساه.

والأولون يقولون: «من» وإن كان لفظها مذكرًا فإذا وقعت علىٰ مونث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنىٰ، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح. وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [الأنعام: ٢٥] فأفرد الضمير؛ والثاني كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ٤٢].

قال المرجحون للقول الأول: يدل علىٰ صحة قولنا: ما رواه أهل السنن من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: «ربِّ أعط نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[(٢)] فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله تعالىٰ هو الذي يزكي النفوس، فتصير زاكية، فالله هو المزكِّي، والعبد هو المزكَّى.

والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاوع. قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلىٰ العبد إنما هو بالمعنىٰ الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٤] وقوله: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨] أي: تقبل تزكية الله تعالىٰ لك، فتزكَّى.

---

(١) ٥٠ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٢٢) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤١).

قالوا: وهذا هو الحق فإنه لا يفلح إلا من زكاه الله تعالىٰ، وقالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية علي بن أبي طلحة وعطاء والكلبي: «قد أفلح من زكىٰ الله تعالىٰ نفسه» وقال ابن زيد: «وقد أفلح من زكىٰ الله نفسه» واختاره ابن جرير.

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضًا قوله في أول السورة: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٨].

قالوا: وأيضًا فإنه ﷻ أخبر أنه خالق النفس وصفاتها، وذلك هو معنىٰ التسوية.

قال أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير علىٰ ﴿ مَن ﴾ أي: أفلح من زكىٰ نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلىٰ الفهم، بل لا يكاد يفهم غيره، كما إذ قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها، وضالة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير علىٰ الله سبحانه لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع «من» علىٰ النفس.

قالوا: وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ «من» كما تقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس، فإذا وقع الاشتباه لم يكن بد من ذكر ما يزيله.

قالوا: و«من» موصولة بمعنىٰ الذي. ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن جائزًا، لعود الضمير المؤنث علىٰ الذي. وهو مذكر.

قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلىٰ صاحب النفس إذا زكىٰ نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتىٰ: بـ ﴿ مَن ﴾ التي هي بمعنىٰ الذي. وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتىٰ أصحاب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

***

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾.

(١)الضمير مرفوع في ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ عائد على ﴿ مَن ﴾، وكذلك هو في ﴿ دَسَّىٰهَا ﴾: المعنى قد أفلح من زكى نفسه. وقد خاب من دساها؛ هذا القول هو الصحيح. وهو نظير قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤] وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] ونظائره.

قال الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله، وقاله قتادة: وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي: نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف. وقد خاب من دساها أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

والفاجر أبدًا خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين.

وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخفي أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

---

(١) ١٤ التبيان.

وبـــوأت بيتـــك في معلـــم رحيـــب المباحـــات والمـــسرح
كفيـــت العفـــاة طـــلاب القـــرى ونـــبح الكـــلاب لمـــستنبح

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ١٠]: فقال دسي معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يُرِي الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وقالت طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه، قال ابن عباس في رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد ابن جبير، ومقاتل.

قالوا: سعدت نفس، وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾. قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله ﷺ، وهو يقول: **«رب أعط نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»**.

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي ﷺ، كان إذا قرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس: ٩] وقف ثم قال: **«اللهم آت نفسي تقواها،أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها»**.

قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه، فإنه هو خالق النفس وملهمها

الفجور والتقوى. وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئًا.

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزًا في العربية، حاملًا للضمير المنصوب على معنى من، وإن كان لفظها مذكرًا، كما في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] جمع الضمير، وإن كان لفظ (من) مفردًا، حملًا على نظمها، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ (من)، والضمير المرفوع في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ يستحقه لفظًا ومعنى. فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظًا ومعنى، فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأما عود الضمير الذي يلي (من) على الموصول السابق وهو قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من)، ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على (من)، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة. فهذا يجوز، لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه؛ فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره، كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة، وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٨] إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيرًا ما يقترنان في القرآن. كقوله: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]. وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]. فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم، دون العكس. فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها، فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه. بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة.

(١)فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة: كالنار في الزناد، فألهمه ومكّنه، وعرّفه وأرشده. وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه، لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله إلى الفعل. قال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٧-١٠] فعبّر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام: ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحانًا واختيارًا. ثم خص بالفلاح من زكاها فنمّاها وعلّاها. ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهي التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها، فأخفاها وحقرها، وصغرها وقمعها بالفجور. والله ﷻ أعلم.

(٢)ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسها وتحقرها، حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل: ٥٩] فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به. قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق.

(١) ٣٨١ مدارج جـ٢.

(٢) ١٠٣ الجواب الكافي.

فالطاعة والبر يكبر النفس ويعزها ويعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو. فما صغَّر النفس مثل معصية الله، وما كبَّرها وشرَّفها ورفعها مثل طاعة الله.

[١]ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه. والإلهام: الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم، كما قاله طائفة من المفسرين، إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئًا وعلمه إياه: إنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة البتة، بل الصواب ما قاله ابن زيد، وقال: جعل فيها فجورها وتقواها. وعليه حديث عمران بن حصين: أن رجلًا من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أريت ما يعمل الناس فيه ويكدحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «بل شيء قضي عليهم ومضى»، قال: ففيم العمل؟ قال: «من خلقه الله لإحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها»[٢].

وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر، ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف، فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهامًا، وبالله التوفيق.

---

(١) ٥٥ شفاء.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٦٠-٦١ رقم ٦١٨٢) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧٦ رقم ١٧٤) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٤٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٥٣) والطبراني في ا لكبير (١٨/ ٢٢٣ رقم ٥٥٧).

[(١)] وذكر في هذه السورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذبة.

فقال شيخنا: هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبًا وعذابًا منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين وقوم لوط وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥] ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما. فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها. وفي قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]. وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال. وفي قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد في الأرض والعلو. وكان عذاب كل أمه بحسب ذنوبهم وجرائمهم.

فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء. وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الإبصار، وقلب ديارهم عليهم. بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. فإذا كان عذاب هؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم ـ فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذابًا.

---

(١) ١٧ التبيان.

ومن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود هاهنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩] أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود في ذلك الهدى والبصيرة بمزيد. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] ثم قال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] ولهذا أمكن عادًا المكابرة، وأن يقولوا لنبيهم: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود: ٥٣] ولم يمكن ذلك ثمود، وقد رأوا البينة عيانًا. وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشمس

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾.

(١)قسمه ﷻ: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾ [الليل: ١-٣] وقد تقدم ذكر القسم عليه، وأنه سعي الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في العقبى. فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئًا بعد شيء.

وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة. ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٣، ٤]. وأقسم به وقت سريانه كما تقدم. وأقسم به وقت إدباره. وأقسم به إذا عسعس. فقيل معناه أدبر، فيكون مطابقًا لقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤] وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار. وعلى الأول يكون القسم واقعًا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار. وكل ذلك من آيات ربوبيته. فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على

(١) ٣٥ التبيان.

اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار، بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سبحانه بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي، وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء.

فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥، ١٠].

فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحدًا. وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه وبدنه، ونيته، وقصده، فتكون نفسه نفسًا مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة.

فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل. فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى، كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى.

وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]. وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه. وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، والفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة. وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إله إلا الله. وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف. واليسرى صفة لموصوف محذوف أي:

الحالة والخلة اليسرى، وهي فعلى من اليسرى.

والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء، فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع. فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة. فلا يكون العبد مصدقًا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه.

ولا يكون مؤمنًا بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله.

ولا يكون مؤمنًا بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج.

ولا يكون مصدقًا بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله ﷺ، إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ.

ولا يكون مؤمنًا بهذه الكلمة مصدقًا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور.

ولا يكون مصدقًا بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله. وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهو تفصيل لا إله إلا الله.

فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله. وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله. ومن فسرها بالخلف ذكر نوعًا من الجزاء. فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه. والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث ـ وهي الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق. فإن النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم. ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها. ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى. وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء. وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء.

فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكى نفسه، وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر. وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك. فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها: فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر. فانتظم ذلك الدين كله.

وأكمل الناس من كملت له هذا القوى الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها. فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء. ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع. ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرداية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى

بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوىٰ يسر لكل يسرىٰ.

قال ابن عباس: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٧] أي نهيئه لعمل الخير، تيسر عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلىٰ العمل الصالح.

وحقيقة اليسرىٰ: أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرىٰ، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسر علىٰ قلبه ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له منقادة، لا تستعصى عليه، ولا تستصعب، لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها. يسلك سبلها ذللًا، وتقاد له علمًا وعملًا. فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها ... يصلح للدنيا وللدين

﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ بترك التقوىٰ عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٨ - ١٠] قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي.

وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيرًا. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر. قال الواحدي: وهذا هو القول، لأن الشر يؤدي إلىٰ العذاب، فهو الخلة العسرىٰ. والخير يؤدي إلي اليسر. والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرىٰ، يقول: سنهيؤه للشر، بأن يجريه علىٰ يديه. قال الفراء: العرب تقول: قد يسرت غنم فلان، إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك علىٰ أصحابها. انتهىٰ.

والتيسير للعسرىٰ يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر علىٰ قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه. فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره. فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعًا لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين. فلله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها!!

فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثرًا بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق بالمين.

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها. وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه. ولهذا أجاب بها النبي ﷺ، من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر. فأجاب بفصل الخطاب وأزال الإشكال.

ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ، أنه قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار**» قيل: يا رسول الله! أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ قال: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[1].

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٤٥، ٤٩٤٧) ومسلم (رقم ٢٦٤٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٠٨).

وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي. وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقًا، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

والنبي ﷺ، أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى: «أن العبد ميسر لما خلق له» لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين. فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق. وكانوا إذا استشكلوا شيئًا سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقًا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

وفي الحديث استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافًا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه. وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافًا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له. وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له.

فتأمل قوله ﷺ: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» ومطابقته لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ إلى آخر الآيتين، كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟ وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك.

فلو قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلابد أن أناله. وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك، لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبدًا، وإن أتى به

في أمر معين. فهل يمكنه أن يطرد ذلك من مصالحه جميعها، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه. وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة البتة عن قول النبي ﷺ: «اعلموا، فكل ميسر لما خلق له له». فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته.

وهل هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه. فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ وتلا عنده هاتين الآيتين، موافقًا لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق، حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين. وإنما يستروح إلي ذلك معطلو الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه. وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه.

كقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

[الزخرف: ٢٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فإن قيل: فالإعطاء، والتقوىٰ، والتصديق بالحسنىٰ، هي من اليسرىٰ، بل هي أصل اليسرىٰ، من يسرها للعبد أولًا؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله ـ سبحانه ـ هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل السعادة، فيسرهم لليسرىٰ، وأهل شقاوة، فيسرهم للعسرىٰ. واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبىٰ أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له. كما يأبىٰ أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما. بل حكمة آحاد خلقه تأبىٰ ذلك. ومن جعل محل المسك والرجيع واحدًا فهو من أسفه السفهاء.

[(١)]إن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال، بل يقتضي الاجتهاد والحرص. يسبق إلىٰ أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأعمال، وأن ما قضاه الرب سبحانه وقدره لا بد من وقوعه؛ فتوسط العمل لا فائدة فيه، قد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة علىٰ النبي ﷺ، فأجابهم بما فيه الشفاء والهدىٰ.

ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: **«ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة»** فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فيصير إلىٰ عمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلىٰ عمل

(١) ٢٤ شفاء.

أهل الشقاوة؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر، وأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**» ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥- ١٠] وفي بعض طرق البخاري: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟[١]

وعن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن. فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير**»، قال: ففيم العمل؟ فقال: «**اعملوا، فكل ميسر**»[٢] رواه مسلم.

وعن عمران بن حصين قال: قيل: يا رسول الله! أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «**نعم**»، قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: «**كل ميسر لما خلق له**» متفق عليه. وفي بعض طرق البخاري: «**كل يعمل لما خلق له، أو لما يسر له**»[٣].

ورواه الإمام أحمد أطول من هذا، فقال: ثنا صفوان بن عيسى ثنا عزرة بن ثابت عن يحيى بن عقيل عن أبي نعيم عن أبي الأسود الدؤلي قال: غدوت على عمران بن حصين يومًا من الأيام فقال: إن رجلًا من جهينة أم مزينة أتى إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيء قضي عليهم أو مضى عليهم في قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم الحجة؟ قال: «**بل شيء قضي عليهم**» قال: فلم يعملون إذًا يا رسول الله؟ قال: «**من كان الله**

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٦٢) ومسلم (رقم ٢٦٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٦).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٤٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٢، ٤٩٧).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٩٦) ومسلم (رقم ٢٦٤٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٣).

ﷺ خلقه لواحدة من المنزلتين فهيأه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله» ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾(١) [الشمس: ٧، ٨].

وقال المحاملي: ثنا أحمد بن المقدام ثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت أبا سفيان يحدث عن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر أنه قال: نزل: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] فقال عمر: يا نبي الله علام نعمل: على أمر قد فرغ منه، أو لم يفرغ منه؟ قال: **«لا، على أمر قد فرغ منه، قد جرت به الأقلام، ولكن كل ميسر»** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾(٢) [الليل: ٥-١٠] فاتفقت هـذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن؛ وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم، فإن النبي ﷺ، أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه، ومكن منه وهيء له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما زاد اجتهادًا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه. وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسري والوطىء. وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع. وإذا قدر الشبع والري فذلك موقوف على الأسباب

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه الروياني (٢/ ٤١٨ رقم ١٤٢٦) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٦-١٧ رقم ١٧١٠) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٠٦٧) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧٤ رقم ١٧٠).

المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس.

وهذا شأن أمور المعاش والمعاد، فمن عطل العمل اتكالًا على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالًا على ما قدر له.

وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية، بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم، فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهيأ له ميسر له.

فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادًا في فعلها من القيام بها منه أسباب معاشه ومصالح دنياه، وقد فقه هذا كل الفقه من قال: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن.

فإن العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يقضي به إلى رياض مونقة وبساتين معجبة ومساكن طيبة ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب كان حرصه على سلوكها واجتهاده في السير فيها بحسب علمه بما يفضي إليه.

لهذا قال أبو عثمان النهدي لسلمان: لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحًا مني بآخره، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة، وهيَّأه ويسَّره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعم من فرحه بالأسباب التي تأتي بها، فإنها سبقت له من الله قبل الوسيلة منه، وعلمها الله وشاءها وكتبها وقدرها وهيأ له أسبابها لتوصله إليها، فالأمر كله من فضله وجوده السابق، فسبق له من الله سابقة السعادة ووسيلتها وغايتها، فالمؤمن من أشد فرحًا بذلك ن كون أمره مجعولًا إليه، كما قال بعض السلف: والله ما أحب أن يجعل أمري إليَّ، إنه إذا كان بيد الله خيرًا من أن يكون بيدي، فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها ومقتض لها، لا أنه مناف لها وصاد عنها، وهذا موضع مزلة قدم من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلت قدمه

عنه هوىٰ إلىٰ قرار الجحيم؛ فالنبي ﷺ، أرشد الأمة في القدر إلىٰ أمرين هما سببا السعادة، الإيمان بالأقدار، فإنه نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلىٰ خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلىٰ نظام التوحيد والأمر، فأبىٰ المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد أو القدح بأثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع والخلق والأمر، وهدىٰ الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم. والنبي ﷺ، شديد الحرص علىٰ جمع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «**احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»[(١)] وإن العاجز من لم يتسع للأمرين، وبالله التوفيق.

[(٢)]فإن قيل: فَلِمَ جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟ قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟ فإن قيل: وعلىٰ هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب، لعله يُشفَىٰ من جهله؟

قيل: نعم، شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعلو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبر، والصحو والغيم.

ومن لوازم الطبيعة الحيوانية: الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع.

ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات. وظهور أحكامها وآثارها لا بد منه، إذ هو مقتضىٰ الكمال المقدس، والملك التام.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٢٧-٢٣٠) وشرح النووي (١٦/ ٢١٥).
(٢) ٤٣ التبيان.

وإذا أعطيت اسم الملك حقه ـ ولن تستطيع ـ علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك،وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولابد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع.

فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم، وثوابهم، وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة.

كما تستلزم حياة الملك، وعلمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده. وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

***

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

قيل: معناه، إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق. ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل: المعنى: إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد: وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحًا. فليس هو معنى الآية.

وقيل، المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الحجر: ٩] وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية. قال الواحدي: علينا للهدى، أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

وهذا المعنىٰ في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا، وفي النحل في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وفي الحجر في قوله: ﴿ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنىٰ شريف جليل، يدل علىٰ أن سالك طريق الهدىٰ يوصله طريقه إلىٰ الله ولا بد. والهدىٰ هو: الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله طريقه إلىٰ الله فذكر الطريق والغاية. فالطريق الهدىٰ، والغاية الوصول إلىٰ الله.

فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلىٰ الغايات. ولما كان مطلوب السالك إلىٰ الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه. فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئًا. وأن الدنيا والآخرة جميعًا له وحده. فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه علىٰ من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية: ذكر أعلىٰ الغايات. وهو الوصول إلىٰ الله سبحانه وأقرب الطريق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدىٰ. وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلىٰ غيرها. وتوحيد المطلوب، وهو الحق. فلا يعدل عنه إلىٰ غيره. فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم. وبالله التوفيق.

***

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾.

الهدىٰ التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة. والانقطاع. وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها. فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر.

فالأول: يوقع في الشرك والرياء.

والثاني: يوقع في المعصية والبطالة.

والثالث: يوقع في البدعة ومفارقة السنة. فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة. والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة. ولما أقام سبحانه الدليل، وأنار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص. فهذا الصنف هو الذي يجنب عذابه. كما قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨] فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئًا بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته. ونبه بقوله: ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ، على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها.

وهذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها. فإن عليًا رضي الله عنه تربى في بيت النبي ﷺ، فلرسول الله ﷺ، عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠] على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. بخلاف من

تطوق نعم المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم.

ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصر الطرق إليه، وأقربها وأقومها. وبالله التوفيق

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الليل

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الضُّحَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾.

[(١)]إقسامه سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢] على إنعامه على رسوله ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار.

فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربُّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، وهو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحسن، وهذان للعقل.

وأيضًا فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه. وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من

---

(١) ٤٦ التبيان.

الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن، والهدى، والنصر، وكثرة الاتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، وما يطعيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة.

وأما ما يغتر به الجهال، من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار!! فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يرضى بما يرضى به ربه ـ تبارك وتعالى ـ.

وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حدًا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحدًا من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه ـ تبارك وتعالى ـ يأذن له، وفيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

***

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾.

(١)...منهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه: كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥] قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته. وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه. فإنه ﷺ، يرضى بما يرضى به ربه ﷻ والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر. فحاشا رسوله أن يرضى بما لا يرضى به ربه ـ تبارك وتعالى ـ. وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا أيضًا من أقبح الجهل، فإن الشرك داخل في هذه الآية وهو رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين. فإنه يغفر ذنب كل

(١) ٢٣ الجواب الكافي.

تائب أي ذنب كان. ولو كان الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه. فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصَّص وقيَّد، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦] فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه. ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦] فيقول: كرمه.

وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته. وهذا جهل قبيح، وإنما غره به الغرور؛ وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه.

وأتى سبحانه بلفظ الكريم، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه. واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها، بل قال: ﴿ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴾ ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم. ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يجنبها. وأما قوله في النار: أعدت للكافرين فقد قال في الجنة: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول

بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر. ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء. وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر. فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها. فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها. هذا محال. على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفر لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع. ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير، فإذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار. وتعاونا على عموم التكفير. كما كان رمضان والصلوات والخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر. مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ، حاكيًا عن ربه: **«أنا عند حسن ظني عبدي ربي، فليظن بي ما شاء»**[(١)] يعني: ما كان في ظنه فأنا فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسَّن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وليس فيهما: «فليظن بي ما شاء» وأخرج هذه اللفظة ابن حبان (٢/ ٤٠١ رقم ٦٣٣) والدارمي (رقم ٢٧٣١) وأحمد (٣/ ٤٩١) وابن المبارك في المسند (رقم ٣٩) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٨ رقم ٢١١) وفي مسند الشامين (٢/ ٣٨٤ رقم ١٥٤٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٦ رقم ١٠٠٦) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣١٨): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد ثقات.

وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٥-٣٨٦) وشرح النووي (١٧/ ٢).

وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر علىٰ الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنع من حسن الظن بربه، وهذا موجود في المشاهدة، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءه إحسان الظن أبدًا. فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته. وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل. وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل[١].

فكيف يكون حسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمر عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه.

وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة. وعادىٰ أولياءه ووالىٰ أعداءه. وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر. وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولايأمر ولا ينهىٰ ولا يرضي ولا يغضب...

[٢]ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر.فكان محتاجًا إلىٰ من يؤويه ويهديه ويغنيه، فآواه ربه وهداه وأغناه. فأمره سبحانه أن يقابل هذا النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر. فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فأوصاه سبحانه باليتامىٰ والفقراء والمتعلمين. قال مجاهد، ومقاتل: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيمًا. وقال الفراء: لا

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٧ رقم ٣٥١٩١) والفريابي في صفة المنافق (رقم ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٤) وانظر: فيض القدير (٥/ ٦٨).

(٢) تقدم في سورة الحشر ما يتعلق بهذه السورة نقلًا عن عدة الصابرين عند قوله تعالىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾. (ج).

تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه. وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم. وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين[(١)].

***

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ ﴾.

[(٢)]إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها.

وقد أخبر الله أنه قبل الوحي: لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب. فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٦ - ٨] وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى.

فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠] فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي، حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠].

[(٣)]قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٨] وفي الآية ثلاثة أقوال:

---

(١) ٤٧ التبيان .

(٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١ .

(٣) ٤٤٩ مدارج جـ٢.

أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله: «عائلًا» والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة، فأغناه من المال.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو حقيقة الغنى.

والثالث: ـ وهو الصحيح ـ أنه يعم النوعين: نوعي الغنى، فأغنى قلبه. وأغناه من المال.

(١)وأجمع المفسرون: أن العائل هو الفقير. يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر.

***

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ ﴾.

(٢)قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره. إذا سألك. فقد كنت فقيرًا، فإما أن تطعمه. وإما أن ترده ردًا لينًا. قال الحسن: إما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى أظهرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر، عن مجاهد: حدث بالنبوة التي أعطاك الله.

وقال الزجاج: بلغ ما أرسلت به. وحدث بالنبوة التي آتاك، وهي أجل النعم.

وقال مقاتل: أشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة.

والتحقيق أن النعم تعم هذا كله فأمر أن لا ينهر سائل المعروف، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا.

---

(١) ١١٤ عدة الصابرين.

(٢) ٤٧ التبيان.

[١]والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه، فهو مثن عليه بإظهارها، والتحدث بها شاكر له، ناشر لجميع ما أولاه، مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء، وبعث النفس على الطلب من دون غيره، وعلى محبته ورجائه، فيكون راغبًا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصاله وفخوخه البطش بنعم الله، والكبر على عباد الله، والفخر بعطية الله، والهون في غير ذات الله[٢].

***

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

[٣]... الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص.

فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعه العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا.

قال مقاتل: يعني أشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعًا: «من صنع إليه معروف

---

(١) ٣٠٢ الروح.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ٢٠٨ رقم ٧٩٣) ومحمد بن جعفر السامري (رقم ٦٩) وابن عساكر في تاريخه (٦٢/ ١٢٤) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٦٠) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٩٩).

(٣) ٢٤٨ مدارج جـ٢.

فليجز به. فإن لم يجد ما يجزي به فليثن. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور»(١).

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلٍّ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب»(٢).

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة.

قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله.

وقال الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

والصواب: أن يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الضحى

والحمد لله رب العالمين



---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨) والبيهقي في الشعب (٦/ ٥١٦ رقم ٩١١٩) والديلمي في الفردوس (٣/ ٦٢٨ رقم ٥٩٦٢) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٤٦ رقم ١٤٣٩): رواه عبدالله بن أحمد في زوائده بإسناد لا بأس به، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢١٧-٢١٨) رواه عبدالله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات.

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾.

قال الشافعي وأحمد ـ رحمهما الله ـ في المشهور من مذهبهما: لا تصح الخطبة إلا بالصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم -. وقال أبو حنيفة ومالك: تصح بدونها. وهو وجه في مذهب أحمد.

واحتج لوجوبها في الخطبة بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ١-٤] قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «رفع الله ذكره، فلا يذكر إلا ذكر معه»(١) وفي هذا الدليل نظر. لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية. وهذا هو الواجب في الخطبة قطعًا، بل هو ركنها الأعظم، وقد روى أبو داود، وأحمد، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «**كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الحذماء**»(٢) واليد الجذماء: المقطوعة. فمن أوجب الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة دون التشهد فقوله في غاية الضعف.

وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فقال: «رفع الله ذكره في

---

(١) انظر: تفسير السيوطي (٨/ ٥٤٩) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٣٦ رقم ٣٧٩٦) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٥٧٩) وأبو داود (رقم ٤٨٤١) والترمذي (رقم ١١٠٦) والبيهقي في ا لكبرى (٣/ ٢٠٩ رقم ٥٥٦٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٩ رقم ٢٦٦٨١) وإسحاق بن راهويه (رقم ٢٦٥) وأحمد (٢/ ٣٠٢) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وانظر: فتح الباري (١/ ٨) (٨/ ٢٢٠) وشرح النووي (٦/ ٤٢).

الدنيا والآخرة فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»[١].

وقال عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون عن هشيم عن جويبر عن الضحاك: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي، ولا يجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك[٢].

وقال عبدالرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال: «لا أذكر إلا ذكرت معي: الأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله»[٣] فهذا هو المراد من الآية، وكيف لا يجب التشهد الذي هو عقد الإسلام في الخطبة، وهو أفضل كلماتها، وتجب الصلاة على النبي ﷺ، فيها.

والدليل على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة ما رواه عبدالله بن أحمد حدثنا أبي حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا خالد حدثني عون بن أبي جحيفة: كان أبي من شُرُطِ عليٍّ وكان تحت المنبر فحدثني: «أنه صعد المنبر ـ يعني عليًا ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر، والثاني عمر» وقال: ويجعل الله الخير حيث شاء[٤].

وقال محمد بن الحسن بن جعفر الأسدي حدثنا أبو الحسن علي بن محمد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٤٥ رقم ١٩٣٩٢) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٤٨) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٥-٥٢٦).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٤٩) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٣٨٠) والشافعي في أحكام القرآن (١/ ٥٨) وفي مسنده (ص ٢٣٣) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٠٩ رقم ٥٥٦٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣١١ رقم ٣١٦٨٩) والجهضمي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (رقم ١٠٣) وانظر: عمدة القاري (١/ ١١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٥١ رقم ٣١٩٥٠) وعبد الرزاق (٣/ ٤٤٨ رقم ٦٢٦٧) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٧-٢٩٨ رقم ٩٩٢) وفي الكبير (١/ ١٠٧ رقم ١٧٨) وابن الجعد (١/ ٣١١ رقم ٢١٠٩) وأحمد (١/ ١١٠).

الحميري حدثنا عبدالله بن سعيد الكندي حدثنا حميد بن عبدالرحمن الرواسي قال: سمعت أبي يذكر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله أنه كان يقول بعد ما يفرغ من خطبة الصلاة، ويصلي على النبي ﷺ: «**اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وقلوبنا وذرياتنا**»(١).

وروى الدارقطني من طريق ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحضرمي عن يحيى ابن ذاخر المعافري قال: «ركبت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة. فذكر حديثًا، وفيه: فقام عمرو بن العاص على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه حمدًا موجزًا، وصلى على النبي ﷺ، ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم»(٢).

وفي الباب حديث ضبة بن محصن: «أن أبا موسى كان إذا خطب: فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ودعا لعمر. فأنكر عليه ضبة الدعاء لعمر قبل الدعاء لأبي بكر - رضي الله عنهما - فرفع ذلك إلى عمر ﷺ فقال لضبة: أنت أوفق وأرشد»(٣). فهذا دليل على أن الصلاة على النبي ﷺ، في الخطب كان أمر مشهورًا معروفًا عند الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -.

وأما وجوبها فيعتمد دليلًا يجب المصير إلى مثله.

***

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٦ رقم ١٨٦٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٦ رقم ١٠٤٤٥) وأحمد (٣/ ٤٢٤) والبزار (٩/ ١٧٥ رقم ٣٧٢٤) والبخاري في الأدب (رقم ٦٩٩) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٥٣) كلهم أخرجوه إلى قوله: «أولئك هم الراشدون» وأما لفظ: «اللهم بارك لنا في أسماعنا» إلى آخره أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٩١ رقم ١٠٤٢٦) وفي الدعاء (رقم ١٤٢٩) والبزار (٥/ ١٥٣ رقم ١٧٤٥) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناد الكبير جيد.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٦/ ١٦٢).

(٣) ذكره ابن قدامة في المغني (٢/ ٧٩) وأبو جعفر الطبري في الرياض النضرة (١/ ٤٥٢).

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾.

[(١)]... إذا عرفت هذه الفوائد الأربع فقول الراد: وعليك السلام. بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به، وهو هو بعينه، فكأنه قال ذلك السلام الذي طلبته لي مردود عليك، وواقع عليك، فلو أتى بالرد منكرًا لم يكن فيه إشعار بذلك، لأن المعرف وإن تعدد ذكره واتحد لفظه فهو شيء واحد بخلاف المنكر، ومن فهم هذا فهم معنى قول النبي ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين» فإنه أشار إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦] فالعسر وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين: يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين[(٢)].

وفائدة ثانية وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة: مقام فضل. ومقام عدل. ومقام ظلم. فالفضل أن يرد عليه أحسن من تحيته، والعدل أن ترد عليه نظيرها، والظلم أن تبخسه حقه وتنقصه منها، فاختير للراد أكمل اللفظتين وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرًا ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل.

وفائدة ثالثة: وهي أنه قد تقدم أن المناسب في حقه تقديم المسلم عليه على السلام فلو نكره، وقال: عليك سلام. لصار بمنزلة قولك: عليك دين، وفي الدار رجل. فخرجه مخرج الخبر المحض، وإذا صار خبرًا بطل معنى التحية، لأن معناها الدعاء

---

(١) ١٥٥ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب تفسير سورة ألم نشرح (ص٩٨٢) بعد حديث رقم (٤٩٥٢) والحاكم (٢/ ٥٧٥ رقم ٣٩٤٩) فقال: قد صحت الرواية عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب: لن يغلب عسر يسرين. وقد روي بإسناد مرسل عن النبي ﷺ ومالك في الموطأ (٢/ ٤٤٦ رقم ٩٦١) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٢ رقم ١٩٤٨٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٠٥ رقم ١٠٠١٠) والحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ٧٨) وابن المبارك في الجهاد (رقم ٢١٧) وجوّد إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح من طريق عبد بن حميد عن ابن مسعود ﷺ وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٣٠١).

والطلب، فليس بمسلم من قال: عليك سلام، إنما المسلم من قال: سلام عليك فعرف سلام الراد باللام إشعارًا بالدعاء للمخاطب، وأنه راد عليه التحية طالب له السلامة من اسم السلام. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشرح

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾.

(١)أقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة، التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما. وهو أرض بيته المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما، فإن التين فاكهة مخلصة من شواء التنغيص، لا عجم له وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم. ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة: الحرارة، والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات. وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطبًا ويابسًا.

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر. فإن عوده يخرج ثمرًا، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للآكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى، وشجره باق على مر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط، وهذا الذي قالوه حق.

ولا ينافي أن يكون منبته مرادًا. فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبدالله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم.

---

(١) ٢٨ التبيان.

كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل. فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه.

ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى (جاء الله من طور سيناء؛ وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران)[١] فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع. ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ. وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها، ونبوة محمد ﷺ، وعليهما بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم. ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقًا للواقع، ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي.

[٢]...قال في التوراة في السفر الخامس: «أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، ومعه ربوات الإظهار عن يمينه» وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة: نبوة موسى، ونبوة عيسى، ونبوة محمد ﷺ.

فمجيئه من «سينا» وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، ونبأه عليه إخبار عن نبوته، وتجليه من ساعير هو مظهر المسيح من بيت المقدس، «وساعير» قرية معروفة هناك إلى اليوم، وهذا بشارة بنبوة المسيح. «وفاران» هي مكة[٣]، وشبه ـ سبحانه ـ نبوة موسى بمجيء الصبح، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم الأنبياء

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٧-٥٢٨) ومعجم البلدان (٣/ ١٧١).

(٢) ٥٣ هداية الحيارى.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٠٥) ولسان لاعرب (٥/ ٤٣) ومعجم البلدان (٣/ ١٧١) (٤/ ٢٢٥).

بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الآفاق، ووقع الأمر كما أخبر به سواء.

فإن الله سبحانه صدع بنبوة موسى ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته، وزاد الضياء، والإشراق بنبوة المسيح، وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد - صلوات الله وسلامه عليهم -.

وذكر هذه النبوات الثلثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين: ١ - ٣].

فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها. ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ والمراد بهما منبتهما وأرضهما، وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح. ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ الجبل الذي كلم الله عليه موسى، فهو مظهر نبوته. ﴿ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ مكة حرم الله وأمنه، التي هي مظهر نبوة محمد - صلوات الله وسلامه عليهم -، فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء.

قال اليهود: «فاران» هي أرض الشام، وليست أرض الحجاز، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم. وعندهم في التوراة: إن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران. هكذا نطقت التوراة. ولفظها «وأقام إسماعيل في برية فاران، وأنكحته أمه امرأة من [جرهم]. ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل، فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد إسماعيل، وتضمنت انتشار أمته واتباعه حتى يملئوا السهل والجبل، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يبق بعد هذا شبهة أصلًا أن هذه هي نبوة محمد ﷺ، التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى ملأت الأرض ضياءً ونورًا، وملأ أتباعه السهل والجبل. ولا يكثر على الشعب الذي نطقت التوراة بأنهم عادمو الرأي والفطانة أن ينقسموا إلى جاهل بذلك وجاحد مكابر معاند: ولفظ التوراة فيهم: إنهم لشعب عادم الرأي، وليس فيهم فطانة.

ويقال لهؤلاء المكابرين: أي نبوة خرجت من الشام فاستعلت استعلاء ضياء

الشمس، وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها، وهل هذا إلا بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق، فيغالط ويكابر ويقول: بل طلعت من المغرب.

***

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝﴾.

[1]أقسم بها على بداية الإنسان ونهايته. فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: في أحسن صورة وشكل واعتدال: معتدل القامة، مستوى الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه.

والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل. وذلك صنعته ـ تبارك وتعالى ـ في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء.

وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيرًا في القرآن لمكان العبرة بها. والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، على المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلًا أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب، ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين. والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن، وأبو العالية. قال علي بن أبي طالب ﷺ: هي النار بعضها أسفل من بعض. وقالت طائفة، منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه إرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس. والصواب القول الأول لوجوه:

---

(١) ٣٩ التبيان.

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين، هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدًا، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصًا بالكفار، حتى يستثنى منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥] فجعلهم قسمين: قسما متوفى قبل الكبر، وقسما مردودا إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو ـ سبحانه ـ قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرًا غير ممنون.

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم. ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس. فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم. وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة. وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه ـ سبحانه ـ ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده. فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون. وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده. فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكليف البعيد له. فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار

دون المؤمنين كابروا الحس. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء.

فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم، إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا ـ وإن كان حقًا ـ فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل.

ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خصص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة. فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر. وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأميهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه. وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له بقضيته، والله أعلم.

التاسع: أنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين. فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم، وهذا هو الصواب. وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم؛ ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

وهذا القول خطأ قطعًا، أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق

على المخلوق، هذا من أبطل الباطل، فإن المنة التي تكدر النعمة هي منه المخلوق على المخلوق، وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقة.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥] فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة. وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٣٧]. وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟**» فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمن[1]. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله. وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في منّه؟ وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه.

وأما منة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟

فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: الفتح (٨/ ٥٦٤).

عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم بما أعطيناكم.

قيل: وهذا أيضًا هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنًا له، ولا معاوضة عنه. وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[١]. فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده، وكما أنه سبحانه المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منة. فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء.

فإن قيل: كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا وحدوه أن لا يعذبهم[٢] وقد أخبر عن نفسه أن حقًا عليه نصر المؤمنين.

قيل: لعمر الله هذا من أعظم منته على عباده. أن جعل على نفسه حقًا بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم، ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه. فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، فهو الكريم الواسع[٣]

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٥٦) ومسلم (رقم ٣٠) وانظر: الفتح (١١/ ٣٣٨) وشرح النووي (١/ ٢٣١).
(٣) هذان البيتان من بحر الكامل، ذكرهما المصنف في الوابل الصيب (ص ٩٠) وينسبان إليه في النونية ولكن بتصرف، فجاء البيت الأول: صدره صدر البيت رقم ٣٣٠١ من القصيدة وجاء عجز البيت الأول صدر البيت رقم ٣٣٠٢. أما البيت الثاني فجاء إلى قوله: فبفضله ثم أكمله بقوله: والحمد للمنان.

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ ﴾.

قوله سبحانه: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ [التين: ٧] أصح القولين: أن هذا خطاب للإنسان، أي: فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؟ فنقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقًا جديدًا، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول.

وأيضًا فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقًا لك إليها، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك، وتقضي خلافه. قال منصور: قلت لمجاهد: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ عنى به محمدًا؟ فقال: معاذ الله، إنما عنى به الإنسان. وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ، واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان.

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب، وكذبته أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبته إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقًا. قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٨٤] وقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] فالأول: بمعنى وأن ينسبوك إلى الكذب، والثاني: بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته، جحودًا وعنادًا، هذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبقي. فيقال: كذبته بكذا، وكذبته فيه، والأول أكثر استعمالًا، ومنه قوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [ق: ٥] وقوله: ﴿ وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [البقرة: ٣٩].

إذا عرف هذا، فقوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ اختلف في «ما» هل هي بمعنى أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى أي شيء، تعين على قوله أن

يكون الخطاب للإنسان، أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبًا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ، قال الفراء: كأنه يقول، من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟

وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين:

أحدهما: إقامة [ما] مقام [من] وأمر سهل.

والثاني: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقًا، وهو يكذبك أي فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى [فمن] يجعلك كاذبًا بالدين، أو مكذِّبًا به، ولا يصح واحد منهما. أما الثاني والثالث فظاهر. فإن كذبته ليس معناه جعلته مكذِّبًا أو مكذًّبًا. وإنما معناه نسبته إلى الكذب. فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبًا بالدين، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال كذب به.

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به، ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسي وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل: من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذ سواء، أن نسبوك إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذب، أي: فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي يجعلك مكذبا. والمعروف كذبه إذا جعله كاذبًا لا مكذبًا. ومثل فسقه إذا جعله فاسقًا ولا مفسقًا لغيره.

وجواب هذا الأشكال: أن صدق وكذب ـ بالتشديد ـ يراد به معنيان: (أحدهما): النسبة. وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم (والثاني): الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل، قال الكسائي: يقال، ما صدقك بكذا، أو ما كذبك بكذا، أي: ما حملك على التصديق والتكذيب.

قلت: وهو نظير ما أجرأك على هذا، أي: ماحملك على الاجتراء عليه، وما قدمك وما أخرك، أي ما دعاك، وحملك على التقديم والتأخير، وهذا استعمال سائغ موافق للعربية. وبالله التوفيق.

[(١)]... ثم ختم السورة بقوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٨] وهذا تقرير لمضمون السورة، من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ما جاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالًا بعد حال، إلى أكمل الأحوال. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟ فالله ما أخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التين

والحمد لله رب العالمين



---

(١) ٣٥ التبيان.

سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾.

(١) أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم، فذكر فيها ما منَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم. فذكر فيها فضله بتعليمه، وتفضيله الإنسان بما علمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

فقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [الفلق: ١ - ٥].

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصًا وعمومًا. فقال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾.

وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبرًا عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فإنه الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو موليها، والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقًا.

ثم ذكر تعليمه عمومًا وخصوصًا، فقال: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصًا. فقال: ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ

---

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

يَعْلَمْ ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطي الموجودات كلها بجميع أقسامها. فإن الوجود له مراتب أربع:

إحداها: مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿ خَلَقَ ﴾.

المرتبة الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله: ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم، فإن الكتابة فرغ النطق، والنطق فرع التصور.

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم. وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد. وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل. وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه. وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفًا وفضلًا له.

(١)تنبيه ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين: البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١ - ٥] إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان، لأنه موضع العبرة، والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر

---

(١) ٢٧٨ مفتاح جـ١.

المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين. أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة.

ثم ذكر ثالثًا: التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين، للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف.

وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحور صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاءً حافظًا للعلم من الضياع: كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم.

والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك، وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله وإياه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم، كما أن علمه الكلام فتكلم.

هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به. ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات. ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه. ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد؟.

فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، وضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم

أجرىٰ العبارات الدالة عليها علىٰ لسانك، ثم حرك بها بنانك حتىٰ صارت نقشًا عجيبًا، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلىٰ الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم علىٰ لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله، سوىٰ من علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم علىٰ أنه سبحانه هو المعطي لهذا المراتب. ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ علىٰ أنه يعطي الوجود اللفظي.

فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، علىٰ أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه ـ تعالىٰ ـ خلقًا وتعليمًا.

وذكر خلقين وتعليمين خلقًا عامًا، وخلقًا خاصًا، وتعليمًا خاصًا، وتعليمًا عامًا، وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير، وكل كمال.

فله كل كمال وصفًا، ومن كل خير فعلًا، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلىٰ ذلك، وهو الغني الحميد.

***

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾.

(١) لم يقل: إن استغنىٰ، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤية غنىٰ نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٨ـ ١٠] وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه ذكر موجب طغيانه، وهو رؤية غنىٰ نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرىٰ، وهو

(١) ١٤ طريق الهجرتين.

استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين، ولا يجد بدًا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال. وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله، فلأنها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنى، ومن فسرها بالخلف في الإنفاق، فقد هضم المعنى حقه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءًا من أجزاء الحسنى.

والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية.

(١)...قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧] فإذا كان هذا غنى بالحطام الفاني، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟ فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر: خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه.

و«المكر» الذي يخاف عليه منه: أن يغيب الله سبحانه عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]. وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦]. وقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٢١]. وأمثال ذلك.

---

(١) ١٠٧ مدارج جـ٣.

فيغيبه عن شهود ذلك، ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه، فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحوالة على المليء الوفي الذي له الغنى التام كله بالذات، فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

[(1)]ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده. قال شعيب ﷺ، وقد قال له قومه: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] فرد الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أدبًا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفًا مع حد العبودية.

وكذلك قال إبراهيم ﷺ، لقومه ـ وقد خوفوه بآلهتهم ـ فقال: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأنعام: ٨٠] فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

***

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

[(2)]ما الفائدة في إبدال النكرة من المعرفة وتبيينها بها، فإن كانت الفائدة في النكرة فلم ذكرت المعرفة؟ وإن كانت في المعرفة فما بال ذكر النكرة؟!

قيل: هذا فيه نكتة بديعة، وهي أن الحكم قد يعلق بالنكرة السابقة فتذكر، ويكون الكلام في معرض أمر معين في الجنس مدحًا أو ذمًا، فلو اقتصر على ذكر المعرفة لاختص الحكم به، ولو ذكرت النكرة وحدها لخرج الكلام عن التعرض لذلك

---

(١) ١٠٧ مدارج جـ٣.

(٢) ٨ بدائع جـ٢.

المعين، فلما أريد الجنس أتى بالنكرة ووصفت إشعارًا بتعليق الحكم بالوصف، ولما أتى بالمعرفة كان تنبيهًا على دخول ذلك المعين قطعًا.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فإن الآية كما قيل نزلت في أبي جهل، ثم تعلق حكمها بكل من اتصف به، فقال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ تعيينًا ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ تعدية وتعميمًا[1]، ولذلك اشترط في النكرة في هذا الباب أن تكون منعوتة لتحصل الفائدة المذكورة، وليتبين المراد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العلق

والحمد لله رب العالمين



(١) ما أثبتناه في المخطوطة. وفي المطبوعة: «العدمه وتنبيهًا». (ج).

سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾.

(١)سئل ﷺ عن ليلة القدر، أفي رمضان أو في غيره؟ قال: «**بل في رمضان**» فقيل: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «**بل هي إلى يوم القيامة**» فقيل: في أي رمضان هي؟ قال: «**التمسوها في العشر الأول، أو في العشر الآخر**» فقيل: في أي العشرين؟ قال: «**ابتغوها في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها**» فقال: أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي، فغضب غضبًا شديدًا، وقال: «**التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألن عن شيء بعدها**»(٢) ذكره أحمد، والسائل أبو ذر.

وعند أبي داود أنه ﷺ سئل عن ليلة القدر فقال: «**في كل رمضان**»(٣).

وسئل عنها أيضًا فقال: «كم الليلة؟» فقال السائل: ثنتان وعشرون، فقال: «هي الليلة» ثم رجع فقال: «أو القابلة» يريد ثلاثًا وعشرين(٤)، ذكره أبو داود.

---

(١) ٢٨٩ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧١) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٧٨ رقم ٣٤٢٧) وابن خزيمة (٣/ ٣٢١ رقم ٢١٧٠) والحاكم (٢/ ٥٧٨ رقم ٣٩٦٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٨٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢٥ رقم ٣٦٧١) وانظر: التمهيد (٢/ ٢١٣-٢١٤).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٣٨٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٠٧ رقم ٨٣٠٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٨٤) وعبد الرزاق (٤/ ٢٥٥ رقم ٧٧٠٩) وانظر: التمهيد (٢/ ٢٠٠).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٣٧٩) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٧٢ رقم ٣٤٠١) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢٦ رقم ٣٦٧٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٤) وعون المعبود (٤/ ١٧٨).

وسأله ﷺ عبدالله بن أنيس: متى نلتمس هذه الليلة المباركة؟ فقال: «التمسوها هذه الليلة» وذلك مساء ليلة ثلاث وعشرين[١].

وسألته ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن وافقتها فبم أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[٢] حديث صحيح.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القدر

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه ابن خزيمة (٣/ ٣٢٨ رقم ٢١٨٥) وأحمد (٣/ ٤٩٥) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٨٦) وانظر: التمهيد (٢١/ ٢١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٧١) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٧ رقم ٧٧١٢) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٠) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٧٤٨ رقم ١٣٦١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٣٥ رقم ١٤٧٤) والحاكم (١/ ٧١٢ رقم ١٩٤٢). وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٣٨ رقم ٣٧٠٠).

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

(١)من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «الإخلاص».

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]. وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥] وقال له: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقال: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يقبل. وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة(٢). ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ [النساء: ١٢٥] فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله

---

(١) ٨٩ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٣-١٤).

ﷺ وسنته. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهي الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله.

قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ: «**إنك لن تخلف، فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله تعالىٰ: إلا ازددت به خيرًا، ودرجة ورفعة**»(١).

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر. ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»(٢) أي: لا يبقىٰ فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله.وتنقيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلًا ودغلًا. ودواء هذا الغل. واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة. ويقاتل حمية: أي: ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(٣).

وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق(٤)، ولم تكن أعمالهم

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٩٥) ومسلم (رقم ١٦٢٨) وانظر: شرح النووي (١١/ ٧٨) وعمدة القاري (٨/ ٨٨-٩٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (رقم ١١) وابن حبان (٢/ ٤٥٤-٤٥٥ رقم ٦٨٠) والترمذي (رقم ٢٦٥٨) وابن ماجه (رقم ٣٠٥٦) والدرامي (رقم ٢٢٨) والحميدي في مسنده (١/ ٤٧ رقم ٨٨) والطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٠-١٧١ رقم ٩٤٤٤) وأحمد (٣/ ٢٢٥) والبيهقي في الشعب (٦/ ٦٦ رقم ٧٥١٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٢٣) ومسلم (رقم ١٩٠٤) وانظر: فتح الباري (١/ ١١) (٦/ ٢٨). وشرح النووي (١٣/ ٤٩-٥٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠٥) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٥٠-٥١).

خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى: **«أنا أغني الشركاء عن الشرك. من عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء»**(١).

(٢)﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]. فنفى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية.

ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة، فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه ﷻ.

ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين علم أن العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولا مأمور به، فلا يكون فاعله متقربًا به إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعًا.

ومن نكت المسألة أن يفرق بين الأفعال التي لا تقع إلا منوية عادة وبين الأفعال التي تقع منوية وغير منوية.

فالأولى كالوضوء المرتب عضوًا بعد عضو، فإنه لا يكاد يتصور وقوعه من غير نية، فإن علم الفاعل بما يفعله وقصده له هو النية، والعاقل المختار لا يفعل فعلًا إلا مسبوقًا بتصوره وإرادته، وذلك حقيقة النية، فليست النية أمرًا خارجًا عن تصور الفاعل وقصده لما يريد أن يفعله.

وبهذا يعلم غلط من ظن أن للتلفظ مدخلًا في تحصيل النية. فإن القائل إذا قال: نويت صلاة الظهر أو نويت رفع الحدث. إما أن يكون مخبرًا أو منشئًا. فإن كان مخبرًا فإما أن يكون إخباره لنفسه أو لغيره، وكلاهما عبث لا فائدة فيه، لأن الإخبار إنما يفيد إذا تضمن تعريف المخبر ما لم يكن عارفًا به، وهذا محال في إخباره لنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥) وانظر: شرح النووي (١٨/ ١١٥-١١٦).

(٢) ١٨٩ بدائع جـ١.

وإن كان إخبارًا لغيره بالنية فهو عبث محض، وهو غير مشروع ولا مفيد، وهو بمثابة إخباره له بسائر أفعاله من صومه وصلاته وحجه وزكاته، بل بمنزلة إخباره له عن إيمانه وحبه وبغضه، بل قد تكون في هذه الأخبار فائدة، وأما إخبار المأمومين أو الإمام أو غيرهما بالنية فعبث محض ولا يصح أن يكون ذلك إنشاء، فإن اللفظ لا ينشئ وجود النية، وإنما إنشاؤها إحضار حقيقتها في القلب، لا إنشاء اللفظ الدال عليها. فعلم بهذا أن التلفظ بها عبث محض، فتأمل هذه النكتة البديعة...[1]

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة. وكان من دعاء عمر بن الخطاب ﷺ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا. ولا تجعل لأحد فيه شيئًا» وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥] فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء»[2] وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ومغفور وغير مغفور. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله،

---

(١) ١٧٦ الجواب الكافي.
(٢) تقدم تخريجه آنفاً.

وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البينة

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾.

(١) إذا غصب مالًا وبنى به رباطًا أو مسجدًا أو قنطرة فهل ينفعه ذلك أو يكون الثواب للمغصوب منه؟ قال ابن عقيل: لا ثواب على ذلك لواحد منهما: أما الغاصب فعليه العقوبة وجميع تصرفاته في مال الغير آثام متكررة. وأما صاحب المال فلا وجه لثوابه، لأن ذلك البناء لما يكن له فيه نية ولا حسبة وما لم يكن للمكلف فيه عمل ولا نية فلا يثاب عليه، وإنما يطالب غاصبه يوم القيامة فيأخذ من حسناته بقدر ماله.

قلت: في هذا نظر، لأن النفع الحاصل للناس متولد من: مال هذا، وعمل هذا. والغاصب وإن عوقب على ظلمه وتعديه، واقتص المظلوم من حسناته فما تولد من نفع الناس بعمله له، وغصب المال عليه وهو لو غصبه وفسق به لعوقب عقوبتين، فإذا غصبه وتصدق به أو بنى به رباطًا أو مسجدًا أو فك به أسيرًا، فإنه قد عمل خيرًا وشرًا ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[الزلزلة: ٧، ٨].

وأما ثواب صاحب المال فإنه وإن لم يقصد ذلك فهو متولد من مال اكتسبه، فقد تولد من كسبه خير لم يقصده، فيشبه ما يحصل له من الخير بولده البار، وإن لم يقصد ذلك الخير.

وأيضًا فإن أخذ ماله مصيبة، فإذا أنفق في خير فقد تولد له من المصيبة خير، والمصائب إذا ولدت خيرًا لم يعدم صاحبها منه ثوابًا، وكما أن الأعمال إذا ولدت خيرًا أثيب عليه وإن لم يقصده، فالمصائب إذا ولدت خيرًا لم يمنع أن يثاب عليه وإن لم

(١) ١٧١ بدائع جـ٣.

يقصده، والله أعلم.

(١) وسئل ﷺ عن الخمر؛ فقال: «ما أنزل عليَّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»(٢) ذكره مسلم.

وسألته ﷺ أم سلمة فقالت: إني ألبس أوضاحًا من ذهب، أكنز هو؟ قال: «ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكي فليس بكنز» ذكره مالك(٣).

وسئل ﷺ: في المال حق سوى الزكاة؟ قال: «نعم»، ثم قرأ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾(٤) [البقرة: ١٧٧] ذكره الدارقطني.

وسألته ﷺ امرأة فقالت: إن لي حليًا، وإن زوجي خفيف ذات اليد، وإن لي ابن أخ، أفيجزئ عني أن أجعل زكاة الحلي فيهم؟ قال: «نعم»(٥).

وذكر ابن ماجه أن أبا سيارة سأله فقال: إن لي نخلًا، فقال: «أد العشر» فقلت: يا رسول الله أحمها لي، فحماها لي(٦).

---

(١) ٢٨٩ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧١) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٦٥) وشرح النووي (٧/ ٦٥-٦٨).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥٤٧ رقم ١٤٣٨) وأبو داود (رقم ١٥٦٤) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٨٣ رقم ٧٠٢٦) والدارقطني (٢/ ١٠٥ رقم ١) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨١ رقم ٦١٣) وفي مسند الشاميين (٣/ ٢٩٠ رقم ٢٢٨٧) وصححه الحاكم وقال بدر الدين العيني في عمدة القاري (٨/ ٢٥٤): وإسناده جيد ورجاله رجال البخاري.

(٤) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٠٧ رقم ٣).

(٥) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٠٨ رقم ٦).

(٦) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٢٣) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٢٦ رقم ٧٢٤٩) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٣ رقم ١٠٠٥٠) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٥١ رقم ٨٨٠) والطيالسي (رقم ١٢١٤) وقال البيهقي: وهذا أصح ما روي في وجوب العشر فيه وهو منقطع. قال أبو عيسى الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا؟ فقال: هذا حديث مرسل، وسليمان بن موسى لم يدرك أحداً من أصحاب النبي ﷺ، و ليس في زكاة العسل شيء يصح.

وسأله ﷺ العباس عن تعجيل زكاته قبل أن يحول الحول، فأذن له في ذلك[1]، ذكره أحمد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزلزلة

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه أحمد (١/ ١٠٤) والضياء في المختارة (٢/ ٣٥ رقم ٤١١) والحاكم (٣/ ٣٧٥ رقم ٥٤٣١) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٣٦٠) وابن خزيمة (٤/ ٤٨ رقم ٢٣٣٠) وأبو داود (رقم ١٦٢٤) وابن ماجه (رقم ١٧٩٥) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١١١ رقم ٧١٥٧) والترمذي (رقم ٦٧٨) والدارمي (رقم ١٦٣٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٣٤).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ ﴾.

(١) الله ﷻ أقسم بالخيل في كتابه، وذلك يدل على شرفها وفضلها عنده، قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ ﴾ [العاديات: ١ - ٣] أقسم سبحانه بالخيل تعدو في سبيله. والضبح صوت في أجوافها عند جريها. فالموريات قدحًا. توري النار بحوافرها عندما تصك الحجارة. ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ [العاديات: ٤] النقع الغبار تثيره الخيل عند عدوها، والضمير في [به] قيل: يعود على القدح، وهو ضعيف، فإن الغبار لا يثار بالقدح.

وقيل: عائد على المغار المدلول عليه بقوله: فالمغيرات أي: أثرن بالمغار غبارًا لكثرة جولانها فيه. ويجوز أن يعود على المغار، الذي هو مصدر، أي الغبار بسبب الإغارة. ويجوز أن يعود على العدو المفهوم من لفظ العاديات. والضمير في [به] الثانية مثل الأولى.

وقيل: عائد على النفع. أي وسطن جمعًا ملتبسات بالنقع، وعلى هذا فجمع هنا بجمع العدو، وهذا قول ابن مسعود.

وقال علي: المراد بها إبل الحاج، أقسم الله سبحانه بها لعدوها في الحج، الذي هو في سبيله، وجمع الذي وسطن به هو مزدلفة، أخرت وقت الصبح. والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن المستعمل بالضبح إنما هو الخيل، ولهذا قال أهل اللغة: الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴾ ويقال أيضًا:

---

(١) ١٢ الفروسية.

ضبح الثعلب.

الثاني: وصفها بأنها توري النار من الحجارة عند عدوها، وهذا مشهود في الخيل لقرع سنابكها من الحديد الصفا، فيتولد قدح النار من بينهما، كما يتولد من الحديد والصوان عند القدح.

الثالث: أنه وصفها بالإغارة، وهي وإن استعملت للإبل كما كانت قريش تقول: «أشرق ثبير كيما نغير» لكن استعمالها في إغارة الغزو أكثر.

الرابع: أنه سبحانه وقت الإغارة بالضبح، والحاج عند الصبح لا يغيرون، وإنما يكونون بموقف مزدلفة، وقريش إذ ذاك لم تكن تغير حتى تطلع الشمس، فلم تكن تغير بالصبح قريش ولا غيرها من العرب. في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان في الغزو لا يغير حتى يصبح، فإذا أصبح فإن سمع أذانًا أمسك ولا أغار[(١)].

الخامس: أنه سبحانه عطف توسط الجمع بالفاء، التي هي للترتيب بعد الإغارة، وهذا يقتضي أنها أغارت وقت الصبح، فتوسط الجمع بعد الإغارة. ومن المعلوم أن إبل الحاج لها إغارتان: إغارة في أول الليل إلى جمع، وإغارة قبل طلوع الشمس منها إلى منى. والإغارة الأولى قبل الصبح، ولا يمكن الجمع بينهما وبين وقت الصبح وبين توسط جمع، وهذا ظاهر.

السادس: أن النقع هو الغبار وجمع مزدلفة وما حوله كله صفا، وهو واد بين جبلين لا غبار به تثيره الإبل، والله أعلم بمراده من كلامه.

[(٢)]ومن ذلك إقسامه سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝﴾ [العاديات: ١، ٣].

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٩٠).
(٢) ٤٨ التبيان.

مسعود ـ رضي الله عنهما ـ: هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلىٰ مزدلفة، ومن مزدلفة إلىٰ منىٰ[(١)]، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.

وقال عبدالله بن عباس: هي خيل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج.

قال أصحاب الإبل. السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد. وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلىٰ مزدلفة، فهي عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال ضبحت وضبعت بمعنىٰ واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجرىٰ جميعًا وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح

قالوا: فهي تعدو ضبحًا، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض، فتثير النقع ـ وهو الغبار ـ بعدوها، فيتوسط جمعًا، وهي المزدلفة.

قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنىٰ والعاديات ضابحة، فيكون ضبحًا مصدرًا علىٰ الأول، وحالًا علىٰ الثاني.

قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحًا، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو. وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل علىٰ أنها الخيل، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴾ والإيراء لا يكون إلا للحافر، لصلابته. وأما الخف فيه لين واسترخاء. انتهىٰ.

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه

---

(١) مال إلىٰ تحسين إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٢٧) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ٢٦٦).

لأخفاف الإبل. قالوا: والنقع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في [به] عائد على المكان الذي تعدو فيه.

قالوا: وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان.

وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة، فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب، لصلابة المكان.

قالوا: وأما قولكم: إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لا يلزم، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو. وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص، فإن هذا شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به الغزو والظفر، والنصر على الأعداء، فيعدو طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار، لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء.

فهذا من أعظم آيات الرب تعالى، وأدلة قدرته وحكمته. فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به ثأرهم.

كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال، والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالصبح لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم، وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، ويبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم، بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذنًا أمسك، وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيده. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات.

روي سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قولـه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ [الواقعة: ٧١] وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وأن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت.

وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها.

وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما نتكلم به. وأضعف منه ما ذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.

وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط، وأن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ. وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى. وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنًا.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج: قدحًا، يعني: فالمنجحات أمرًا، يريد

البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾، ﴿ فَوَسَطْنَ ﴾، وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل.

وكان ذكر الفعل في (أثرن ووسطن) أحسن من ذكر الاسم، لأنه سبحانه قسم أفعالها إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع، فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان كنودًا بشهادته على نفسه، أو شهادة ربه عليه، وكونه بخيلًا لحبه المال. والكنود للنعمة.

وفعله كند يكند كنودًا، مثل كفر يكفر كفورًا، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئًا، وامرأة كندى أي كفور للمعاشرة، وأصل اللفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعًا لما عليه من الحق. وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأصحابه ـ رحمهم الله تعالى ـ: هو الكفور، وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، لا يعطي في النائبة. وقال الحسن: هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم.

***

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾.

[1] لو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها. وأنه أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء. ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ ﴾ [العاديات: ٦] قال ابن

(١) ١٩١ مدارج جـ١.

عباس ومجاهد وقتادة: «كفور جحود لنعم الله». وقال أبو عبيدة: «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التي لا نبت بها. وقيل: التي لا تنبت شيئًا من المنافع. وقال الفضل بن عباس: «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان».

(١)وأما قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [العاديات: ٧] فقال ابن عباس: يريد أن ربه على ذلك لشهيد. وقيل: إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله.

ويؤيد هذا القول سياق الضمائر، فإن قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ [العاديات: ٨] للإنسان فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنودًا، ثم ثناه بكونه شهيدًا على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلًا بماله لحبه وإياه.

ويؤيد قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه أتى بـ(على)، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ أي: مطلع عالم به. كقوله: ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بالباء. فقيل وإنه بذلك لشهيد. كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧] فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد. فإن كنوده المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والخير هنا المال باتفاق المفسرين. والشديد البخيل من أحب حب المال، فحب المال هو الذي حمله على البخل. هذا قول الأكثرين. وقال ابن قتيبة: بل المعنى: إنه لشديد الحب للخير، فتكون اللام في قوله: ﴿ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ على حد تعلق قولك: إنه لزيد لضارب. ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها، وهذه الآيات

---

(١) ٥١ التبيان.

حجة على الجواز، فإن قوله: ﴿ لِرَبِّهِۦ ﴾ معمول ﴿ لَكَنُودٌ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ معمول ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾.

ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور. فالحق جواز أن لزيد لضارب، فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى خلقه، بل بخيل بشكره، بخيل بماله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه، محسن إلى خلقه. فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٧] فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الإحسان. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧] فاختياله وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٣] وقوله: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦] وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النساء: ٣٨] ونظيره ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٩].

ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى. ونظيره قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ [الهمزة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما.

ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أي ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا»(١). فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض، وسره باديًا على وجهه. كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦].

ومفعول العلم «إن» علمت فيه، وكسرت لمكان اللام. وقيد سبحانه كونه خبيرًا بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت إيذانًا بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه، والله ﷻ أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العاديات

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٣) ومسلم (رقم ٦٢٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٩٨).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾.

[(١)]قوله تعالىٰ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر: ١] إلىٰ آخرها، أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفىٰ بها موعظة لمن عقلها.

فقوله تعالىٰ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ﴾؛ أي شغلكم علىٰ وجه لا تعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد، فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد، كقوله ﷺ في الخميصة: «إنها ألهتني آنفًا عن صلاتي»[(٢)]، كان صاحبه معذورًا، وهو نوع من النسيان.

وفي الحديث: «فلها ﷺ عن الصبي»[(٣)] أي: ذهل عنه، ويقال، لها بالشيء؛ أي اشتغل به، ولها عنه؛ إذا انصرف عنه.

واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل، وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض.

والتكاثر تفاعل من الكثرة: أي مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وإن كل ما يكاثر به العبد غير سوىٰ طاعة الله ورسوله، وما

---

(١) ٣٠ الفوائد.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٣) ومسلم (رقم ٥٥٦) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٨٣) وشرح النووي (٥/ ٤٣-٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٨١٦) والروياني (رقم ١٠٣٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٦).

يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر.

فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه.

والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها.

والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها.

(١)إنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك، فقال تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [التكاثر: ١-٤].

فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة، حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا، كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره: إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يعلب ويلهو به.

وأما إرادة الإطلاق وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما

---

(١) ١٩٦ عدة الصابرين.

تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو ليست فأبليت[١].

ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباءً منثورًا، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ به من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فيا له تكاثرًا ما أقله ورزءًا ما أجله، وغنى جالبًا لكل فقر، وخيرًا توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ياليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] تلك كلمة يقوله فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها. وتأمل قوله أو لا «رب» استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه - تبارك وتعالى - فقال: ﴿ٱرۡجِعُونِ﴾.

ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: كلا، لا سبيل لك إلى الرجعى، وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحًا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لو رُدّ لعاد لما نهي عنه، وأنه من الكاذبين، فحكمة أحكم الحاكمين

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٥٨).

وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل، فإنه لا فائدة في ذلك ولو رُدّ لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى...

***

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾.

[(١)] وقوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٥] جوابه محذوف دل عليه ما تقدم، أي: لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وألهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه، قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء. وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت ﷺ في أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا[(٢)]

وقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣، ٤].

قيل: تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ: ٤، ٥]. وقيل: ليس تأكيدًا بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني: في القبر. هذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس.

---

(١) ٢٠١ عدة الصابرين.

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٩٥) والمقدسي في البدء والتاريخ (٤/ ١٩٣) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ١٠٣) (٩/ ٨٢).

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط «ثم» بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زمانًا وخطرًا.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علمًا هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب ﷺ وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن علي ﷺ قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾(١).

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧] فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين. وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد: بواو القسم، ولام التأكيد، والنون الثقيلة، عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالًا آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟

فالأول: سؤال عن سبب استخراجه، والثاني: عن محل صرفه.

كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٥) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٢٤ رقم ٨٧٧) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٢٢٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦) وتحفة الأحوذي (٩/ ٢٠١).

قال: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتىٰ يسأل عن خمس، عن: عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وفي ماذا عمل فيما علم**»[(١)].

وفيه أيضًا عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه**»[(٢)] قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة. يعني من النعم أن يقال له: ألم نصح جسمك، ونرويك من الماء البارد**»[(٣)].

وفيه أيضًا من حديث الزبير بن العوام ﷺ قال: لما نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: يا رسول الله فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء. قال: «**أما إنه سيكون**»[(٤)] قال: هذا حديث حسن.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤١٦) والطبراني في الكبير (١٠/ ٨/ رقم ٩٧٧٢) وأبو يعلى (٩/ ١٧٨ رقم ٥٢٧١) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٣٩ رقم ٨٤٦) وأبو الشيخ الأصفهاني في طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ١٤٦ رقم ٥٨٩) وابن عساكر في تاريخه (١٥/ ٣١٦) قال المنذري في الترغيب (١/ ٧٣ رقم ٢١١): هذا الحديث حسن في المتابعات إذا أضيف إلى ما قبله.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤١٧) والدارمي (رقم ٥٣٧) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٤٨ رقم ٢١٩١) وأبو يعلى (١٣/ ٤٢٨ رقم ٧٤٣٤) والروياني (٢/ ٣٣٧ رقم ١٣١٣) والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم والعمل (رقم ١) قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤١٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٨) وابن حبان (١٦/ ٣٦٤ رقم ٧٣٦٤) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٥٨٥) والديلمي في الفردوس (١/ ١٨ رقم ١٩) وابن عساكر في تاريخه (٢٤/ ٢٧٠) والحاكم (٤/ ١٥٣ رقم ٧٢٠٣) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦ رقم ٦٢).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٥٦) وابن ماجه (رقم ٤١٥٨) والضياء في المختارة (٣/ ٥٤ رقم ٨٥٧) وأحمد (١/ ١٦٤) والحميدي في مسنده (١/ ٣٣ رقم ٦١) والبزار (٣/ ١٧٨ رقم ٩٦٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وعن أبي هريرة نحوه وقال: إنما هو الأسودان: العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا، قال: «إن ذلك سيكون»(١) وقوله: «إن ذلك سيكون» إما أن يكون المراد به أن النعيم سكون ويحدث لكم. وإما أن يرجع إلى السؤال أي: أن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمرًا وماء، فإنه من النعيم.

ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح، وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا، وشربوا من الماء البارد: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة»(٢) فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي الترمذي من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك، وخولتك، وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان، فارجعني آتك به، فإذا عبيد لم يقدم خيرًا، فيمضى به إلى النار**»(٣).

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالًا وولدًا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك**

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٨٠ رقم ٣٤٣٤٥) وأحمد (٥/ ٤٢٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٤٢ رقم ٤٥٩٨) وهناد في الزهد (٢/ ٣٩٥ رقم ٧٦٨) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٤٢): رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن، وفيه ضعف لسوء حفظه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٢/ ١٦-١٨ رقم ٥٢١٦) والهيثمي في الموارد (رقم ٢٥٣٦) والترمذي (رقم ٢٣٦٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٦٥-٣٦٦ رقم ٢٢٤٧) وفي الصغير (رقم ١٨٥) وفي الكبير (١٩/ ٢٥١-٢٥٢ رقم ٥٦٧) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣١٨): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبدالله بن كيسان المروزي وقد وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٢٧) وابن المبارك في مسنده (رقم ٩٨) وفي الزهد (رقم ٣٩٤).

هذا؟ فيقول: لا. فيقول له اليوم: أنساك كما نسيتني»[(١)] قال: هذا حديث صحيح.

وقدم زعم الطائفة من المفسرين: أن هذا الخطاب خاص بالكفار،وهم المسئولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدي ذلك واحتج بحديث أبي بكر: لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذاب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إنما ذلك لكفار»** ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول، لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم.

والمعنى: أيضًا يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم، حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخًا لهم: هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم، قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن، قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك.

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة، يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟ الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلمًا، وقد يكون كافرًا.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٦٨) والترمذي (رقم ٢٤٢٨).

ويدل عليه أيضًا الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم، حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان؟ فلو كان الخطاب مختصًا بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار؟ فالصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهمهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح.

والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما**» فقاما معه فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبا وأهلًا. فقال لها رسول الله: «**وأين فلان؟**» قال: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «**إياك والحلوبة**» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[1] فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب، وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضًا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر وقع من المسلمين كثيرًا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ، فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٠٣٨) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٢١٠-٢١٢).

الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المستأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين، فقوله: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا: هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به.

وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ١١] ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٦]. ونظائره كثيرة، فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك، ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولابد.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، فيقال: الوعيد المذكور مشترك،وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلًا له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يقتضي دخول النار فضلًا عن التخليد

فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا.

وقد أقسم الرب ـ تبارك وتعالى ـ أن لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها.

وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، فباطل قطعًا إما عليه وأما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده، وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها.

وأيضًا: فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر[(١)]

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير

---

(١) هذا البيت من بحر السريع، وينسب إلى الأعشى، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٢) وابن منظور في اللسان (٥/ ١٨٣) (١٤/ ١٨٣)، والزرقاني في شرحه على الموطأ (٢/ ٥٢).

ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به، وتزكو، وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة، ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد.

وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة، وهو صائر إلىٰ غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان.

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنىٰ، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرىٰ غيره أفضل منه قولًا وأحسن عملًا وأغزر علما، وإذا رأىٰ غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرىٰ هو قادر علىٰ المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحًا في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات، وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﵃ في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فلما تبين له مدىٰ سبقه له قال: والله لا أسابقك إلىٰ شيء أبدًا[(١)].

ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعا لهم وزجرًا عن التكاثر، ونفيًا وإبطالًا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به.

فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (١/ ١٧٢-١٧٣ رقم ٨٠) والحاكم (٠١/ ٥٧٤ رقم ١٥١٠) وأبو داود (رقم ١٦٧٨) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ١٨٠ رقم ٧٥٦٣) والترمذي (رقم ٣٦٧٥) والدارمي (رقم ١٦٦٠) وعبد بن حميد (رقم ١٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٤٢٩) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٧٩ رقم ١٢٤٠) وقال الترمذي: حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٩٥) وعمدة القاري (٨/ ٢٩٣).

علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية، بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرًا وأشدها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًا وبلغها رسوله عنه وحيا.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذا الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر. فهاهنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار...

[1]الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان، وحق اليقين: فوق هذا. وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلًا، وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه، فازددت يقينًا، ثم ذقت منه.

فالأول: علم اليقين. والثاني: عين اليقين. والثالث: حق اليقين.

فعلمنا الآن بالجنة والنار: علم يقين. فإذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين. وشاهدها الخلائق. وبرزت الجحيم للغاوين، وعاينها الخلائق. فذلك: عين اليقين. فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق اليقين[2].

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨]. قال محمد بن جرير:

---

(١) ٤٠٣ مدارج جـ٢.

(٢) تقدم في سورة الحاقة بحث حول مراتب اليقين لمن أرداه. (ج).

يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟[١]

وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه»[٢].

والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٩] يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه؟

قال قتادة: «ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد»[٣].

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكاثر

والحمد لله رب العالمين



(١) تفسير ابن جرير الطبري (٣٠/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في الورع (ص ١٨٩).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٨/ ٥٢).

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

(١)قال الشافعي ﷺ: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم(٢).

وبيان ذلك: أن المراتب أربع وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

إحداها: معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به، وتعليمه، فذكر تعالى المراتب الأربع في هذه السورة.

وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر: أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عرفوا الحق، وصدقوا به، فهذه مرتبة.

وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى.

وتواصلوا بالحق، وصى به بعضهم بعضًا: تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبة ثالثة.

وتواصلوا بالصبر، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملًا في نفسه مكملًا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء هاديًا إلى كل خير.

---

(١) ٥٦ مفتاح جـ١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٣).

(١)...وبعد، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدىٰ ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين.

كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ .

أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما ـ كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ـ بل أنفاسه ـ فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران. وليس ذلك إلا بالإقبال علىٰ القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وإثاره دفائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإن الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلىٰ سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجرته.

(٢)قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١- ٣]. فأقسم ﷻ بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، علىٰ أن كل واحد في خسر، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العلمية بالعمل بطاعته. فهذا كماله في نفسه، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه به، وبملاك ذلك، وهو الصبر. فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

وهذا المعنىٰ في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين

---

(١) ٦ مدارج جـ١.

(٢) ٢٥ إغاثة جـ١.

عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو علموه وخالفوه، واتبعوا غيره.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث همام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء: حارث وهمام**»[١].

فالحارث الكاسب العامل، والهمام المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة. وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون متصورًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته، وأرادته ولابد...

الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض، الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته. وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات وعكس ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٥٠) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٠٦ رقم ١٩٠٩٠) وأحمد ٤/ ٣٤٥) وأبو يعلى (١٣/ ١١١-١١٢ رقم ٧١٦٩) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٠ رقم ٩٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٨١٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٧٨).

[(١)] ومن ذلك إقسامه (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة. هذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم. حتى قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.

والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته. وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أن الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم. قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما[(٢)]

ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام. وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبة تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات وما دونها ـ آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها. ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد.

وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد. وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًا تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه

---

(١) ٥٣ التبيان.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري شاعر مخضرم شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم ووفد على النبي ﷺ ومات في خلافة عثمان ﷺ سنة ٣٠هـ. و ذكره ابن أبي الدنيا في العمر والشيب (رقم ٤٤) وابن حجر في الفتح (٨/ ٧٢٩) وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٢٨١) وابن عساكر في تاريخه (١٥/ ٢٧٣) وابن منظور في اللسان (٤/ ٥٧٦).

ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به.

وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر: ٣]. ولما قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه،فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ولم يقل (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح. فصار في خسر.

ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين. فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضًا على الأعيان. وقد تكون فرضًا على الكفاية، وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب.

والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصلوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء. وهو سبحانه إنما قال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر. وأنه ذو خسر، كما قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[١]. فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٢٤) ومسلم (رقم ٩٤٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩٥).

إلى من حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط.

ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم وقوة العمل. وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر.

فإن العبد له حالتان حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه.

فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين(١).

والصبر نوعان: نوع إلى المقدور. كالمصائب. ونوع على المشروع.

وهذا النوع أيضًا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل. وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: «مرها فلتصبر ولتحتسب»(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٤) وتفسير السعدي (ص ٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٤) ومسلم (رقم ٩٢٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥٧).

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١].وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر. فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العصر

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١]وقوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝ ﴾ فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الهمزة

والحمد لله رب العالمين



(١) ٥٣ التبيان.

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

[1]إذا قدر أن قومًا اضطروا إلىٰ السكنىٰ في بيت إنسان، لا يجدون سواه، أو النزول في خان مملوك، أو استعارة ثياب يستدفئون بها، أو رحىٰ للطحن، أو دلو لنزع الماء، أو قدر، أو فأس، أو غير ذلك: وجب علىٰ صاحبه بذله بلا نزاع، لكن هل له أن يأخذ عليه أجرًا؟ فيه قولان للعلماء، وهما وجهان لأصحاب أحمد.

ومن جوز له أخذ الأجرة حرم عليه أن يطلب زيادة علىٰ أجرة المثل.

قال شيخنا: والصحيح أنه يجب عليه بذل ذلك مجانًا، كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤- ٧] قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة: «هو إعارة القدر والدلو والفأس ونحوهما»[2].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ ـ وذكر الخيل ـ قال: «هي لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلىٰ رجل وزر، فأما الذي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، وأما الذي هي له ستر: فرجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها، ولا في ظهورها»[3]. وفي الصحيحين عنه أيضًا: «من حق الإبل: إعارة دلوها، وإطراق فحلها»[4]. وفي

---

(١) ٢٨٠ الطرق الحكمية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣١٥) والبيهقي في الكبرىٰ (٦/ ٨٨ رقم ١١٢٤٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٢١ رقم ١٠٦٢٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٢٩ رقم ١٤٧٢) والشاشي (٢/ ٦٠ رقم ٥٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧١) ومسلم (رقم ٩٨٧) وانظر: عمدة القاري (٩/ ٣٦-٣٧).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٩٨٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٩) (٦/ ٦٥) وشرح النووي (٧/ ٦٦، ٧١).

الصحيحين عنه: «**أنه نهى عن عسب الفحل**»[1] أي: عن أخذ الأجرة عليه، والناس يحتاجون إليه، فأوجب بذله مجانًا، ومنع من أخذ الأجرة عليه. وفي الصحيحين عنه أنه قال: «**لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبه في جداره**»[2].

ولو احتاج إلى إجراء مائه في أرض غيره، من غير ضرر لصاحب الأرض. فهل يجبر على ذلك روايتان عن أحمد يجبر والإجبار قول عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

[3]الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فوجه الدلالة أنه سبحانه علق حصول الرحمة لهم بفعل هذه الأمور، فلو كان ترك الصلاة لا يوجب تفكيرهم وخلودهم في النار لكانوا مرحومين بدون فعل الصلاة، والرب تعالى إنما جعلهم على رجاء الرحمة إذا فعلوها.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥].

وقد اختلف السلف في معنى السهو عنها، فقال سعد بن أبي وقاص ومسروق بن الأجدع وغيرهما: هو تركها حتى يخرج وقتها، وروي في ذلك حديث مرفوع، قال محمد بن نصر المروزي: حدثنا سفيان بن أبي شيبة حدثنا عكرمة بن إبراهيم حدثنا عبدالملك بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه سأل النبي ﷺ عن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «**هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٨٤) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٦١-٤٦٣) وشرح النووي (١٠/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٦٣) ومسلم (رقم ١٦٠٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ١١٠) وشرح النووي (١١/ ٤٧-٤٨).

(٣) ١٦ الصلاة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٦٨ رقم ١٩٤٩٦) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢١٤ رقم ٢٩٨٢) وابن المنذر في الأوسط (٢/ ٣٨٧ رقم ١٠٨١) وأبو يعلى (٢/ ١٤٠ رقم ٨٢٢) قال الهيثمي =

وقال حماد بن زيد: حدثنا عاصم عن مصعب بن سعد قال قلت لأبي: يا أبتاه أرأيت قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذلك، ولكنه إضاعة الوقت(١).

وقال حيوة بن شريح: أخبرني أبو صخر أنه سأل محمد بن كعب القرظي عن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾، قال: هو تاركها، ثم سأله عن ﴿سَاهُونَ﴾، قال: منع المال عن حقه(٢).

إذا عرف هذا فالوعيد بالويل اطرد في القرآن للكفار كقوله: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

وقوله: ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرًا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٧-٩].

وقوله: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢] إلا في موضعين، وهما ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١١] فعلق الويل بالتطفيف والهمز واللمز. وهذا لا يكفر به بمجرده.

فويل تارك الصلاة إما أن يكون ملحقًا بويل الكفار أو بويل الفساق. فإلحاقه بويل الكفار أولى لوجهين:

أحدهما: أنه قد صح عن سعد بن أبي وقاص في هذه الآية أنه قال: لو تركوها

في المجمع (١/ ٣٢٥): رواه البزار وأبو يعلى مرفوعا بنحو هذا، وموقوفاً، وفيه عكرمة بن إبراهيم ضعفه ابن حبان وغيره، وقال البزار: رواه الحفاظ موقوفا، ولم يرفعه غيره. وانظر: الترغيب (١/ ٢١٨).

(١) أخرجه أبو يعلى (٢/ ٦٣ رقم ٧٠٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٥ رقم ٤٣) وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢١٨ رقم ٨٣٤) والهيثمي في المجمع (١/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٢٦ رقم ٤٥).

لكانوا كفارًا ولكن ضيعوا وقتها[١].

الثاني: ما سنذكره من الأدلة على كفره.

[٢]الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١] فعلق إخوتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فإذا لم يفعلوا لم يكونوا إخوة، فلا يكونون مؤمنين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١،٣٢] فلما كان الإسلام وتصديق الخبر والانقياد للأمر جعل سبحانه له ضدين: عدم التصديق، وعدم الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي فقال: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فكما أن المكذب كافر، فالمتولي عن الصلاة كافر، فكما يزول الإسلام بالتكذيب، يزول بالتولي عن الصلاة.

قال سعيد عن قتادة: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ لا صدق بكتاب الله ولا صلى لله، ولكن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] وعيد على إثر وعيد.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

قال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يقوله: هي الصلاة المكتوبة.

ووجه الاستدلال بالآية أن الله حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن الصلاة، والخسران المطلق لا يحصل إلا للكفار، فإن المسلم ولو خسر بذنوبه

(١) لم أجد هذا القول عن سعد ﷺ، ولكن ورد عن القاسم بن مخيمرة، أخرجه عنه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٨٠) والطبري في تفسيره (١٦/ ٩٨) وورد أيضاً عن عمر بن عبدالعزيز، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٨/ ١٨٤) وانظر: الاستذكار (١/ ٨٢) والمحلى (٢/ ٢٤١).

(٢) ١٨ الصلاة.

ومعاصيه فآخر أمره إلى الربح. يوضحه أنه ﷺ أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد:

أحدها: إتيانه بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه، دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

الثاني: تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى لهم، فإنك إذا قلت: زيد العالم الصالح. أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له، بخلاف قولك عالم صالح.

الثالث: إتيانه سبحانه بالمبتدأ والخبر معرفتين، وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٤] ونظائره.

الرابع: إدخال ضمير الفصل. بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريين: قوة الإسناد، واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج: ٦٤] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥] ونظائر ذلك.

الدليل التاسع: قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: ١٥].

ووجه الاستدلال بالآية أنه سبحانه نفى الإيمان عمن إذا ذكروا بآيات الله لم يخروا سجدًا مسبحين بحمد ربهم.

ومن أعظم التذكير بآيات الله التذكير بآيات الصلاة، فمن ذكر بها ولم يتذكر ولم يصل لم يؤمن بها؛ لأنه سبحانه خص المؤمنين بها بأنهم أهل السجود، وهذا من أحسن الاستدلال وأقربه: فلم يؤمن بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] إلا من التزم وإقامتها.

[(١)]... فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل، وقدم ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون: ٤- ٧] فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الإحسان.

[(٢)]الدليل العاشر: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٤٨، ٤٩] ذكر هذا بعد قوله: ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦] ثم توعدهم على ترك الركوع وهو الصلاة إذا دعوا إليها، ولا يقال: إنما توعدهم على التكذيب، فإنه ﷺ إنما أخبر عن تركهم لها وعليه وقع الوعيد.

على أنا نقول: لا يصر على ترك الصلاة إصرارًا مستمرًا من يصدق بأن الله أمر بها أصلًا، فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقًا تصديقًا جازمًا أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات، وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب، وهو مع ذلك مصر على تركها: هذا من المستحيل قطعًا، فلا يحافظ على تركها مصدق بفرضها أبدًا، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها ليس في قلبه شيء من الإيمان.

ولا تصغ إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها.

وتأمل في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد والجنة والنار، وأن الله فرض عليه الصلاة، وأن الله يعاقبه معاقبة على تركها، وهو محافظ على الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة له من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية.

(١) ٥٢ التبيان.

(٢) ١٩ الصلاة.

ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: يعتقدون أنك صادق ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الماعون

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝ ﴾.

[(١)] قال أبو نعيم الفضل: حدثنا أبو جعفر هو الرازي: حدثنا ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ ﴾ [الكوثر: ١] قال: الخير الكثير[(٢)].

وقال أنس بن مالك: نهر في الجنة. وقالت عائشة: هو نهر في الجنة، ليس يدخل أحد إصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر[(٣)]. وهذا معناه والله أعلم: أن خرير ذلك النهر يشبه الخرير الذي يسمعه حين يدخل إصبعيه في أذنيه.

وفي جامع الترمذي من حديث الحريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة: بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**»[(٤)] قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن ثوبان عن عطاء بن قرة عن عبدالله ابن سمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سره أن يسقيه الله ﷻ من الخمر في الآخرة فليتركه في الدنيا، ومن سره أن يكسيه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا، وأنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك، ولو**

---

(١) ١٣٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٣٢) (١١/ ٤٦٧-٤٧٠).

(٣) انظر: الدر المنثور (٨/ ٦٤٨) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٧١) وابن حبان (١٦/ ٤٢٤ رقم ٧٤٠٩) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٦٢٣) والشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ١٤٧ رقم ١٤٧٥) والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٢٤ رقم ١٠٣٢) وعبد بن حميد (رقم ٤١٠).

كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعًا لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعًا»[١].

وذكر الأعمش عن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبدالله قال: «إن أنهار الجنة تفجر من جبل مسك»[٢] وهذا موقوف صحيح.

وذكر ابن مردويه في مسنده حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم حدثنا عبدالله بن محمد بن النعمان حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحرث بن عبيد حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة، ثم تصدع بعد أنهاراً»[٣].

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا يعقوب بن عبيدة حدثنا يزيد بن هارون حدثنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك قال: «أظنكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض؟ لا والله أنها لسائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت، وطينها المسك الأذفر، قال: قلت ما الأذفر: قال: الذي لا خلط له[٤].

ورواه ابن مردويه في تفسيره عن محمد بن أحمد حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى حدثنا

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٠/ ٤١٣) بهذا اللفظ، بينما أخرجه الطبراني مختصراً إلى قوله: «فليتركه في الدنيا» في المعجم الأوسط (٨/ ٣٦٣ رقم ٨٨٧٩) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٧٤ رقم ٣١٣٤): رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات إلا شيخه المقدام بن داود وقد وثق وله شواهد، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٧٦): رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه المقدام بن داود وهو ضعيف وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦١٢ رقم ٣٢٨١) وعبدالرزاق في المصنف (١١/ ٤١٦ رقم ٢٠٨٧٣) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٣).

(٣) أخرجه الدارمي (رقم ٢٨٢٢) وأبو عوانة (١/ ١٥٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٩٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٣١٦) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٦٩) والضياء المقدسي في صفة الجنة بتحقيقي (رقم ٩٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٦ رقم ٥٦٦٦): رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً، ورواه غيره مرفوعاً، والموقوف أشبه بالصواب.

مهدي بن حكيم حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ فذكره هكذا رواه مرفوعًا.

وقال أبو خيثمة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ ﴾ [الكوثر: ١] فقال رسول الله ﷺ: «**أعطيت الكوثر فإذا هو يجري ولم يشق شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي إلى تربته فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ**»[١]. وذكر سفيان الثوري عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن مسروق في قوله تعالى: ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء: ١٤٨] قال: من أصلها إلى فروعها[٢] أو كلمة نحوها.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة**»[٣].

وقال عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا سعيد بن سابق حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**أنزل الله من الجنة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل ﷺ فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، فذلك قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨] فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة،**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٧) وأبو يعلى (٦/ ٢٣٦ رقم ٣٥٢٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٨).
(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٦٧) والطبري في تفسيره (١/ ١٧٠).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١٤-٢١٦) وشرح النووي (١٧/ ١٧٦-١٧٧).

فرفع ذلك كله إلى السماء، فذلك قوله: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض، فقد حرم أهلها خيري الدنيا والآخرة»[١] ورواه أحمد بن عدي في ترجمة مسلمة هذا مع أحاديث غيره، وقال: عامة أحاديثه غير محفوظة، وبالجملة فهو من الضعفاء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك وقال أبو حاتم: لا تشتغل به.

[٢]وسئل ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهر أعطانيه ربي في الجنة، هو أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر» قيل: يا رسول الله إنها لناعمة، قال: «آكلها أنعم منها»[٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكوثر

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه ابن أبي عدي في الكامل (٦/ ٣١٥-٣١٦) والخطيب البغدادي في تاريخه (١/ ٥٧-٥٨) وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٦/ ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٤٢) وأبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٣٤٢) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٣٣٦) وأحمد (٣/ ٢٢٠-٢٢١) والضياء في صفة الجنة بتحقيقي (رقم ١٤٧) وحسنه الترمذي والمنذري والألباني.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾.

(١)﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣] لأن للرعد صوتًا عظيمًا من جرم عظيم والمسبح لا محالة أعظم، فاستحقاقه للتسبيح من حيث يستحقه العظيمات من خلقه لا من حيث كان يعلم، ولا تقل العقل في هذا الموضع، فإذا تأملت ما ذكرناه استبان لك قصور من قال: إن ما مع الفعل في هذا كله سوى الأول في تأويل المصدر، وأنه لم يقدر المعنى حق قدره، فلا لصناعة النحو وفق، ولا لفهم التفسير رزق، وأنه تابع الحز وأخطأ المفصل وحام، ولكن ما ورد المنهل. وأما قوله ﷻ: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ فما على بابها، لأنها واقعة على معبوده ﷺ، على الإطلاق، لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته، بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا جاهلين به، فقوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ [الكافرون: ٣] أي: لا أنتم تعبدون معبودي ومعبوده هو ﷺ، كان عارفًا به دونهم، وهم جاهلون به، هذا جواب بعضهم.

وقال آخرون: إنها هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي، ويلزم من تنزيههم عن عبادته تنزيههم عن المعبود، لأن العبادة متعلقة به، وليس هذا بشيء، إذ المقصود براءته من معبوديهم وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى، فالمقصود المعبود لا العبادة.

وقيل: إنهم كانوا يقصدون مخالفته ﷺ، حسدًا له وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون

---

(١) ١٣٣ بدائع جـ١.

معبوده، لا كراهية لذات المعبود، ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصًا على مخالفته في العبادة، وعلى هذا فلا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ [ما] لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

وقيل في ذلك: وجه رابع، وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فكذلك ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبودهم لا يعقل، ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٥]، فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الإفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا (من) كقوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [النمل: ٦٤] إلى أمثال ذلك، وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا كله، وهو أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلًا للعبادة مستحقًا لها فأتي بما الدالة على هذا المعنى، كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي، الموصوف بأنه المعبود الحق، ولو أتى بلفظه [من] لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفًا لا أنه هو جهة العبادة، ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلًا لأن يعبد تعريف محض أو وصف مقتضى لعبادته فتأمله، فإنه بديع جدًا، وهذا معنى قول محققي النحاة: إن (ما) تأتي لصفات من يعلم ونظيره ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف، وأنه هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده هو الطيب، فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بما دون، من وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية. وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا، فلنذكر:

فائدة ثانية على ذلك، وهي تكرير الأفعال في هذه السورة.

ثم فائدة ثالثة، وهي كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين،

وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائدة رابعة: وهي أنه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة خامسة: وهي كون إيراده النفي هنا بـ[لا] دون [لن].

ثم فائدة سادسة: وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله: ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد. وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إله إلا الله، فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض، وما سر ذلك.

وفائدة سابعة: وهي ما حكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم، ثم نفي عبادتهم عن معبوده.

وفائدة ثامنة: وهي أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا كقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ﴾ [التحريم: ٧] ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ ﴾ [الجمعة: ٦] ولم يجيء: يا أيها الكافرون إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟

وفائدة تاسعة: وهي هل في قوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ معنى زائد على النفي المتقدم، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فيما أفاد التقسيم المذكور.

وفائدة عاشرة: وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذه التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة.

وفائدة حادية عشرة: وهي أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار:

أحدهما: براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبدًا.

الثاني: إخباره بأن له دينه ولهم دينهم! فهل هذا متاركة وسكوت عنهم، فيدخله النسخ بالسيف، أو التخصيص ببعض الكفار أم الآية باقية على عمومها وحكمها غير

منسوخة ولا مخصوصة؟

فهذه عشر مسائل في هذه السورة، فقد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهي وقوع [ما] فيها بدل [من] فنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله مستعينين بحوله وقوته متبرئين إليه من الخطأ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه.

فأما المسألة الثانية: وهي فائدة تكرار الأفعال، فقيل فيه وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ مقابلة أي: لا تفعلون ذلك.

وقوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي، فقال: ما عبدتم، فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم.

وقوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ مقابلة أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائمًا. وعلى هذا فلا تكرار أصلًا وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيًا وحالًا ومستقبلًا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها.

وأما المسألة الثالثة وهي تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه، وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم، ففي ذلك سر، وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله له عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام، لا يرضى به بدلًا، ولا يبغي عنه حولًا بخلاف الكافرين، فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم، فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودًا وغدًا غيره، فقال: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ يعني الآن ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ أنا الآن أيضًا. ثم قال: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ يعني: ولا أنا فيما يستقبل

يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون.

وأشبهت ما هنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى، كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط، كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل، والجواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها. قلنا: لم نقل إنها شرط نفسها، ولكن فيها رائحة منه، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين، وإبهامها في المعبودات وعمومها، وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديًا على صفحاته.

فإذا قلت لرجل ما تخالفه في كل ما يفعل: أنا لا أفعل ما تفعل. ألست ترى معنى الشرط قائمًا في كلامك وقصدك، وأن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فإني لا أفعله.

وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩] كيف تجد معنى الشرطية فيه حتى وقع الفعل بعد [من] بلفظ الماضي والمراد به المستقبل، وأن المعنى من كان من المهد صبيًا فكيف نكلمه، وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين أنه كان هنا بمعنى يكون لكنهم لم يأتوا إليه من بابه، بل ألقوه عطلًا من تقدير وتنزيل وعزب فهم غيرهم عن هذا للطفه ودقته، فقالوا: كان زائدة، والوجه ما أخبرتك فخذه عفوًا، لك غنمه، وعلى سواك غرمه. هل على[1] من الآية قد عمل فيها الفعل، وليس لها جواب، ومعنى الشرطية قائم فيها، فكذلك في قوله: ﴿ وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة: كالزجاج وغيره.

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي في

(١) في المخطوطة: هذا مع أن في الآية. ولعل الصواب: هذا على أن (من) في الآية. (ج).

قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ بخلاف قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ لبعد [ما] فيها عن معنى الشرط تنبيها من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبودا سواه، وأن يتنقل في المعبودات تنقل الكافرين.

وأما المسألة الرابعة: وهي أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى، فذلك والله أعلم لحكمة بديعة. وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتي أولًا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلًا لي ولا وصفًا، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي.

وأما في حقهم، فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي إن الوصف الثابت اللازم العائدة لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدًا، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦] أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه، وكذا قال المشركون عن معبودهم: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى. فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف، لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتًا على عبادة الله موصوفًا بها.

فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلًا، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحدًا في عبادته، وأنه عبده وأشرك به غيره، فليس عابدًا لله ولا عبدًا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص، التي تعدل

ربع القرآن[(١)] كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فله الحمد والمنة.

وأما المسألة الخامسة: وهي أن النفي في هذه السورة أتى بأداة [لا] دون [لن]، فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفي بـ[لا] أبلغ منه بـ[لن]، وأنها أدل على دوام النفي وطوله من [لن]، وإنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن [لن] إنما تنفي المستقبل، ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال. وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد نجده في غير هذا التعليق، فالإتيان بـ[لا] متعين هنا، والله أعلم.

وأما المسألة السادسة: وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين. ولهذا أتي بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا فقوله: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ براءة محضة ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ إثبات أن له معبودًا يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات. وطابقت قول إمام الحنفاء ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]. وطابقت قول الفئة الموحدين ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الكهف: ١٦].

فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله، ولهذا كان النبي ﷺ، يقرنها بسورة ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد، الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما في فضل ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ﴾ و﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ وصححه الألباني دون فضل الزلزلة. وذكره عن ابن عمر رضي الله عنهما المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه أبو يعلى بإسناد حسن والطبراني في الكبير واللفظ له. وقال الألباني: صحيح لغيره (رقم ٥٨٣).

العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد، فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلًا وفرعًا ونظيرًا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مشتملة على هذا التوحيد.

فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان ﷺ، يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب. وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونا خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار، ومن هنا تخريج جواب.

المسألة السابعة: وهي تقديم براءته من معبودهم، ثم اتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله.

وأما المسألة الثامنة: وهي إثباته هنا بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دون يا أيها الذين كفروا. فسره والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا لا يفارقه فهو حقيقي أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضًا بريئًا من الله، فحقيق بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبدًا، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر، وهذا واضح.

وأما المسألة التاسعة: وهي ما هي الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]؟ وهل أفاد هذا معنى زائدًا على ما تقدم؟

فيقال في ذلك من الحكمة والله أعلم: إن النفي الأول أفاد البراءة، وإنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضًا لا يكونون عابدين لمعبوده.

وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرىٰ ذلك مجرىٰ من اقتسم هو وغيره أرضًا، فقال له: لا تدخل في حدِّي ولا أدخل في حدِّك، لك أرضك، ولي أرضي.

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به، لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به، لا نشرككم به.

فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

وهذا المعاني ونحوها إذا تجلت لقلوب رافلة في حللها، فإنها تسبي القلوب، وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة، فهي خود تزف إلىٰ ضرير مقعد، فالحمد لله علىٰ مواهبه التي لا منتهىٰ لها، ونسأله إتمام نعمته.

وأما المسألة العاشرة: وهي تقديم قسمهم ونصيبهم علىٰ قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص به علىٰ ما يختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد برز النصيبين وميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردىٰ منه، وأنه هو قد استولىٰ علىٰ القسم الأشرف والحظ الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء، فرضي مقاسمه بالسم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك، ولي قسمي، فتقديم ذكر قسمه ههنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول. هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم.

فكأن في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء علىٰ سوء اختياره وقبح ما رضيه لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق، والفطن يكتفي بأدنىٰ إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان. ووجه

ثان وهو أن مقصود السورة براءته ﷺ، من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها.

وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملًا لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى أي: لا أشارككم في دينكم، ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به، لا أشرككم فيه أبدًا، فطابق آخر السورة أولها فتأمله.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص.

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة.

وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم.

وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم، وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، هي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم.

ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخ. وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص.

ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشداء على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد.

وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مضيًا على الإنكار عليهم وعيب دينهم.

فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم، معاذ الله من هذا الزعم الباطل. وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدًا، فإنه دين باطل فهو مختص بكم، لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق.

فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص، أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لكم دينكم ولي دين، بل هذه قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسل ﷺ، أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا، لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.

فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه. والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها.

وعسى الله المان بفضله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب. وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكافرون

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴾.

[١]«**فو الله إني لأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[٢] وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور**»[٣] مائة مرة. وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخرها. إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي**»[٤].

وصح عنه ﷺ، أنه قال: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[٥].

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

[٦]...وقد قال عمر بن الخطاب للصحابة: ما تقولون في: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾

---

(١) ١٧٨ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٠٦ رقم ٩٢٧) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٤٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٩ رقم ١٠٢٩٢) وأبو داود (رقم ١٥١٦) وابن ماجه (رقم ٣٨١٤) وأحمد (٢/ ٢١) وعبد بن حميد (رقم ٧٨٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٣٨ رقم ٦٤١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦١٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٤) ومسلم (رقم ٤٨٤) واللفظ له، وانظر: فتح الباري (٣/ ٨) وشرح النووي (٤/ ٢٠١-٢٠٢).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧) وشرح النووي (١٧/ ١٥٩-١٦٠).

(٦) ٣٥٣ أعلام جـ١.

السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس: ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم[١]، وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه سبحانه لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو سبحانه من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرًا مطهرًا من كل ذنب، فيقدم عليه مسرورًا راضيًا مرضيًا عنه، ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] وهو ﷺ، كان يسبح بحمده دائمًا، فعلم أن المأمور به من ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في هذا الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقية، فأمره بتوفيتها، ويدل عليه أيضًا أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج وقيام الليل، وكان النبي ﷺ، إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا[٢]، شرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**»[٣] فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه، من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجًا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النصر

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٦/ ١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١) وانظر: شرح النووي (٥/ ٨٩-٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٥٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٣ رقم ٢٠) وعبد الرزاق (١/ ١٨٦ رقم ٧٣١) والطبراني في الكبير (٥/ ١٤٠ر قم ٤٨٩٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٣٤) وشرح النووي (٣/ ١٢١).

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾.

[(١)] سماها امرأته بعقد النكاح الواقع في الشرك، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١] فسماها امرأته. والصحابة ﷺ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتسابًا لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجم الغفير في عهد النبي ﷺ، فلم يأمر أحدًا منهم أن يجدد عقده على امرأته، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم تجديد أنكحتهم. وقد كان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام[(٢)].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المسد

والحمد لله رب العالمين



(١) ٣٠٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

(٢) تقدم في سورة الأحزاب عند ذكر زوجات النبي ﷺ ما له علاقة بهذا لمن أراده (ج) انظر في هذا الكتاب (٤/٨).

سُورَةُ الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾.

(١)ما يجري صفة أو خبرًا على الرب ـ تبارك وتعالى ـ أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات: كقولك: ذات، وموجود، وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم الصمد. فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والغفار، وأمجد الناقة علفًا، ومنه (رب العرش المجيد) صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. ولا يحسن أنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي «**ألظوا بيا ذا الجلال**

---

(١) ١٥٩ بدائع جـ١.

والإكرام»[١] ومنه «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»[٢] فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

ولنرجع إلىٰ المقصود، وهو وصفه تعالىٰ بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال.

وكذلك الصمد قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده، وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهىٰ سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم. واشتقاقه يدل علىٰ هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، هذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد[٣]

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٧٩-٨٠ رقم ٢٠٦٤) والحاكم (١/ ٦٧٦ رقم ١٨٣٦) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٠٩ رقم ٧٧١٦) والترمذي (رقم ٣٥٢٤) والطبراني في الكبير (٥/ ٦٤ رقم ٤٥٩٤) وأبو يعلىٰ (٦/ ٤٤٥ رقم ٣٨٣٣) وأحمد (٤/ ١٧٧) وصححه الحاكم.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٥٧ رقم ١٨٨٥) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٦) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٣٨٢) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٣٨) وفي الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وأحمد (٣/ ١٥٨) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٦): رواه أحمد والطبراني في الصغير ورجال أحمد ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس وإن كان ثقة.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ هند بنت معبد شاعرة جاهلية من بني أسد، كان جدها من ندماء النعمان، فسكر ذات يوم فأمر بقتله ومعه عمرو بن مسعود فقتلا، فكان لها في ذلك شعر. والبيت ذكره الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٧) ونسبه إلىٰ الشاعر بينما ذكره الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٥٥) =

والعرب تسمي أشرافها بالصمد، لاجتماع قصد القاصدين إليه، اجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعها، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله، فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض، فلا تدخل في أوصافه ـ تعالى ـ إلا أن تكون متضمنة لثبوت: كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله، وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأن جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب، ويجب أن يعلم هنا أمور:

= ونسبه إلى الأسدية، وفعل الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٤٠) كما فعل الطبري فنسبه إلى الشاعر. وذكره أيضاً ابن منظور في اللسان (٣/ ٢٥٨).

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالىٰ أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلىٰ كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليها منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق علىٰ نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

(١)إن من أسمائه الحسنىٰ ما يكون دالًّا علىٰ عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولًا لجميعها تناول الاسم الدال علىٰ الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه: كاسمه العظيم، والمجيد، والصمد، كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، هذا لفظه، هذا مما خفي علىٰ كثير ممن تعاطي الكلام في تفسير الأسماء الحسنىٰ، ففسر الاسم دون معناه ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علمًا بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه، فتدبره.

(٢)وهو سبحانه قد وصف نفسه بأنه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] بعد وصفه نفسه بأن الصمد، والصمد السيد الذي كمل في سؤدده، ولهذا كانت العرب

(١) ١٦٨ بدائع جـ١.
(٢) ٢١١ مختصر الصواعق جـ١.

تسمى أشرافها بهذا الاسم لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمى به. قال شاعرهم:

ألا بكـر النـاعي بخيـر بنـي أسـد بعمرو بن مسعود وبالسيد الـصمد

فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك كثرة خصال الخير فيه. ولهذا قال جمهور السلف، منهم ابن عباس: الصمد الذي كمل سؤدده، وهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحليم الذي كمل حلمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده. ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير. فإن اللفظة من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له، فإن ما لم يكن أحد كفوًا له لما كان صمدًا كاملًا في صمدانيته، فلو لم يكن له صفات كمال ونعوت جلال، ولم يكن له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر، ولا يقوم به فعل، ولا يفعل شيئًا البتة، ولا له حياة ولا إرادة، ولا كلام ولا وجه، ولا يد،ولا هو فوق عرشه ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا يبغض، ولا هو فاعل لما يريد، ولا يرى، ولا يمكن أن يرى، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه لكان العدم المحض كفوا له، فإن هذه الصفة منطبقة على المعدوم. فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمدًا وكان العدم كفوا له..

(1) وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص: ٤] وهو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ـ سبحانه ـ ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يحتاج إلى نفيه.

وسر ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شيء من صفاته وخصائصه، أما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو ند له ولا كفؤ، فليس فيه مدح له.

فإنه لو مدح بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا

---

(١) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

الخشب، ونحو ذلك، لم يعد هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له، بخلاف ما إذا قيل: لا تجعل للملك ندًا ولا كفؤا، ولا شبيها من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يساميه، ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

(١)ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: قل هو الله أحد. كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة ﴿قُلْ﴾ تحقيقًا لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله أعوذ برب الناس، فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال، بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه، بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان.

(٢)ولما كان القرآن شطرين: شطرًا في الدنيا، وأحكامها ومتعلقاتها، والأمور الواقعة فيها، من أفعال المكلفين وغيرها. وشطرًا في الآخرة، وما يقع فيها، وكانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها: كانت تعدل نصف القرآن. فأحرى بهذا الحديث أن يكون صحيحًا. والله أعلم.

ولهذا كان ﷺ، يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الطواف، لأنهما سورتا الإخلاص والتوحيد، وكان يفتتح بهما عمل النهار، ويختمه بهما، ويقرأ بهما في الحج الذي هو شعار التوحيد.

وكان ﷺ، يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، هذا الذي ثبت عنه في

---

(١) ١٧٢ بدائع جـ٢.

(٢) ١٧٠ زاد المعاد جـ١.

الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها[(١)] ـ وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عنه ﷺ، أنه قال: «إذا صلى أحدكم الركعتين قبل صلاة الصبح فليضطجع على جنبه الأيمن»[(٢)] قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وسمعت ابن تيمية يقول: هذا باطل، وليس بصحيح. وإنما الصحيح عنه الفعل لا الأمر بها، والأمر تفرد به عبد الواحد بن زياد، وغلط فيه[(٣)]، انتهى.

وأما ابن حزم ومن تابعه: فإنهم يوجبون هذه الضجعة، ويبطل ابن حزم صلاة من لم يضطجعها بهذا الحديث[(٤)]. وهذا مما تفرد به عن الأمة. ورأيت مجلدًا لبعض أصحابه قد نصر فيه هذا المذهب، وقد ذكر عبد الرزاق في المنصف عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين «أن موسى ورافع بن خديج وأنس بن مالك ﷺ كانوا يضطجعون بعد ركعتي الفجر، ويأمرون بذلك»[(٥)] وذكر عن معمر عن أيوب عن نافع: أن ابن عمر كان لا يفعله، ويقول: كفى بالتسليم[(٦)].

[(٧)]وقد اختلف الفقهاء أي الصلاتين آكد: سنة الفجر، أو الوتر، على قولين: ولا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٩٤) ومسلم (رقم ٧٣٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤٤) وشرح النووي (٦/ ١٩).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٤٢٠) وابن حبان (٦/ ٢٢٠ رقم ٢٤٦٨) وابن خزيمة (٢/ ١٦٧ رقم ١١٢٠) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٦١٢) وأبو داود (رقم ١٢٦١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٤٥ رقم ٤٦٦٦) وأحمد (٢/ ٤١٥) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وقال النووي في رياض الصالحين (ص ٢٦٩): رواه أبو داود والترمذي بأسانيد صحيحة. وقال في شرح النووي (٦/ ١٩): رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٣) انظر: فيض القدير (١/ ٣٩٠) وتحفة الأحوذي (٢/ ٣٩٥).

(٤) انظر: المحلى (٣/ ١٩٦-٢٠١) وفتح الباري (٣/ ٤٣-٤٤) (١١/ ١٠٩).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٤٢ رقم ٤٧١٩) وابن أبي شيبة (٢/ ٥٤ رقم ٦٣٨٠) وانظر: عمدة القاري (٧/ ٢١٨) والمحلى (٣/ ١٩٨-١٩٩).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٤٢ رقم ٤٧٢٠)، وانظر: سبل السلام (٢/ ٦).

(٧) ١٦٨ زاد المعاد جـ١.

يمكن الترجيح باختلاف الفقهاء في وجوب الوتر. فقد اختلفوا أيضًا في جوب سنة الفجر.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته. ولذلك كان النبي ﷺ، يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص[١]، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة وتوحيد الاعتقاد والقصد. انتهى.

فسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى: من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة لجميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه.

وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي، الذي يباين معتقده جميع فرق الضلال والشرك. ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر، ونهي، وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي، ولما كان العلم قبل العمل. وهو إمامه وقائده وسائقه، والحاكم عليه، ومنزله منازله: كانت سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾. أخرجه مسلم (رقم ٧٢٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤٧) وشرح النووي (٦/ ٥).

أَحَدٌ﴾ تعدل ربع القرآن، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»(١) ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد.

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس، لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه، لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب، وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته، لأن هذا يزول بالعلم والحجة، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه وضرره، لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه. فجاء من التأكيد والتكرار في سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجيء مثله في سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإخلاص

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٥٤ رقم ٢٠٧٨) والترمذي (رقم ٢٨٩٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٩٦ رقم ٢٥١٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٨٦) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٥٠، ٥٥١) قال المنذري في الترغيب (٢/ ٢٤٨) وإسناده متصل ورواته ثقات مشهورون. وانظر: فتح الباري (٩/ ٦١-٦٢).

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾.

(١)من المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده، وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له، ويحول بينه وبين فعله الاختياري له، فدل على أن فعله مقدور له سبحانه إن شاء سلطه على العبد، وإن شاء حال بينه وبينه، وهذا على أصول القدرية باطل، فلا يثبتون حقيقة الإعاذة، وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، وجعلوا الآية ردًا على الجبرية، والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة، كما أن الإعاذة فعله، وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم، وأصابت كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق.

(٢)...وبالجملة فالكلمة الجامعة لهذا هي الكلمة التي أثنى بها رسول الله ﷺ على ربه حيث يقول: «والشر ليس إليك»(٣) فالشر لا يضاف إلى من الخير بيديه، وإنما ينسب إلى المخلوق: كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾.

فأمره أن يستعيذ به من الشر الذي في المخلوق، فهو الذي يعيذ منه وينجي منه.

وإذا أخلى العبد قلبه من محبته والإنابة إليه وطلب مرضاته، وأخلى لسانه من ذكره والثناء عليه، وجوارحه من شكره وطاعته فلم يرد من نفسه ذلك ونسي ربه، ولم يرد الله سبحانه أن يعيذه من ذلك الشر، ونسيه كما نسيه، وقطع الإمداد الواصل إليه منه،

---

(١) ٦٣ شفاء.

(٢) ٣٥١ مختصر الصواعق.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩، ٤٢٢) (١٣/ ٥٣٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩).

كما قطع العبد العبودية والشكر والتقوىٰ التي تناله من عباده. قال تعالىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، فإذا أمسك العبد عما ينال ربه منه، أمسك الرب عما ينال العبد من توفيقه.

وقد صرح سبحانه بهذا المعنىٰ بعينه في قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]. أي نخلي بينهم وبين نفوسهم التي ليس لهم منها إلا الظلم والجهل، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١] فعدم إرادته تطهيرهم وتخليته بينهم وبين نفوسهم أوجب لهم من الشر ما أوجبه.

فالذي إلىٰ الرب وبيديه ومنه هو الخير، والشر كان منهم مصدره، وإليهم كان منتهاه، منهم ابتدئت أسبابه بخذلان الله تعالىٰ لهم تارة، وبعقوبته لهم به تارة، وإليهم انتهت غايته ووقوعه.

فتأمل هذا الموضع كما ينبغي، فإنه يحل عنك إشكالات حار فيها أكثر الناس، ولم يهتدوا إلىٰ الجمع بين: الملك، والحمد، والعدل، والحكمة.

(١) روىٰ مسلم في صحيحه من حديث قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط: أعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس**»(٢).

وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة: «أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟**» قلت: بلىٰ. قال: «**قل: أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس**»(٣). وفي الترمذي: حدثنا قتيبة، نا ابن لهيعة، عن يزيد

(١) ١٩٨ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨١٤) وانظر: شرح النووي (٦/ ٩٦).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٤٠ رقم ٧٨٤٧) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٥ رقم ٢٥٧٤) وأحمد (٤/ ١٥٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥١٧ رقم ٢٥٧٤) والطبراني في الدعاء (رقم ٩٨٠).

ابن أبي حبيب عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة**»[١]. قال: هذا حديث غريب.

وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود عن عبد الله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه، فقال: «**قل**» فلم أقل شيئًا، ثم قال: «**قل**»، فلم أقل شيئًا، ثم قال: «**قل**» قلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: «**قل: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء**»[٢] قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي أيضًا من حديث الجريري عن أبي هريرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذهما، وترك ما سواهما[٣]، قال: وفي الباب عن أنس وهذا حديث غريب».

وفي الصحيحين عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ «قل هو الله أحد، والمعوذتين جميعًا» ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به»[٤].

قلت: هكذا رواه يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة ذكره البخاري، ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده رجاء

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٠٣) وقال: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٧٥) وأبو داود (رقم ٥٠٨٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٣ رقم ٢٥٧٢) وعبد بن حميد (رقم ٤٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٥٨) وحسنه ونقل تحسينه النووي في رياض الصالحين (ص ٢٥٢) والحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ١٩٥) وانظر: فيض القدير (٥/ ٢٠٢) وتحفة الأحوذي (٦/ ١٨٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٤٨) ومسلم (رقم ٢١٩٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٣١-١٣٢) (١٠/ ٢١٠) وشرح النووي (١٤/ ١٨٢-١٨٣).

بركتها»[١]، وكذلك: قال معمر عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها، فسألت ابن شهاب كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه»[٢]. ذكره البخاري أيضًا، وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك.

وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا، ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى، فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها على رقيته أن يكون مسترقيًا، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه، ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على يديه، فكانت تفعل هذا وهذا، والذي أمرها به إنما هو تنقل يده لا رقيته، والله أعلم.

والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرًا خاصًا في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس.

فنقول والله المستعان: قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول: وهي أصول الاستعاذة. أحدها: نفس الاستعاذة. والثانية: المستعاذ به. والثالثة: المستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول في الاستعاذة. والفصل الثاني في المستعاذ به. والثالث في المستعاذ منه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠١٦) ومسلم (رقم ٢١٩٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٣٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٥١) ومسلم (رقم ٢١٩٢) وانظر: عمدة القاري (٢١/ ٢٧٢).

الفصل الأول

اعلم أن لفظ: عاذ، وما تصرف منها تدل علىٰ التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلىٰ من يعصمك منه، ولهذا يسمىٰ المستعاذ به معاذًا، كما يسمىٰ ملجأ ووزرًا.

وفي الحديث: أن ابنة الجون لما أدخلت علىٰ النبي ﷺ فوضع يده عليها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: «**لقد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك**»(١). فمعنىٰ أعوذ ألتجئ وأعتصم وأتحرز.

وفي أصله قولان: أحدهما أنه مأخوذ من الستر. والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة. فأما من قال: إنه من الستر، قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عوذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذًا، فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة. فإن العرب تقول: للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه عوذ، لأنه اعتصم به واستمسك به، فكذلك العائذ، قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه، والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معًا، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به، ولزمه كما يلزم الولد أباه، إذا أشهر عليه عدوه سيفًا.

وقصده به فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقىٰ نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلىٰ ربه ومالكه، وفر إليه، وألقىٰ بنفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

وبعد فمعنىٰ الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٥٤، ٥٢٥٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٥٧-٣٥٩).

وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلًا فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق.

وأصل هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو، ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائذ، وأصله عاوذ، فوقعت الواو بعد ألف فاعل، فقلبوها همزة، كما قالوا: قائم، وخائف، وقالوا في المصدر: عياذًا بالله، وأصله عواذًا كلواذ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها، ولم تحصنها حركتها، إلا أنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيذ. وأصله مستعوذ: كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلي العين قبلها، قلبت الواو قبلها كسرة، فقلبت ياء على أصل الباب.

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله: فاستعذ بالله، ولم تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وعذت بالله، دون أستعيذ واستعذت.

قلت: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي: أطلب العياذ به، كما إذا قلت: أستخير بالله. أي: أطلب خيرته وأستغفره أي: أطلب مغفرته، وأستقيله أي: أطلب إقالته، فدخلت في الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور: أعوذ بالله. فقد امتثل ما طلب منه، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك، فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله أتى بالفعل الدال على ذلك، دون الفعل الدال على طلب ذلك، فتأمله.

وهذا بخلاف ما إذا قيل استغفر الله فقال: أستغفر الله، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله، فإذا قال: أستغفر الله كان ممتثلًا لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي. وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: أستعيذ بالله، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه. فالأول مخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه، كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني؛ فحال الأول أكمل. ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[1] ـ وأعوذ بكلمات الله التامات[2] ـ وأعوذ بعزة الله وقدرته»[3]. دون أستعيذ؛ بل الذي علمه الله إياه أن يقول: ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ دون أستعيذ؛ فتأمل هذه الحكمة البديعة.

فإن قلت: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به، فقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، ومعلوم أنه إذا قيل: قل الحمد لله، وقل: سبحان الله؛ فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

---

(١) فعن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً، قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون، أخرجه البخاري (رقم ٦١١٥) ومسلم (رقم ٢٦١٠) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٦٣).

(٢) عن خولة بنت حكيم السلمية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦).

(٣) فعن عثمان بن أبي العاص قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي، فقال: «امسح بيمينك سبع مرات، وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد». ففعلت فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم. أخرجه مسلم (رقم ٢٢٠٢) وجاء فيه: «أعوذ بالله وقدرته» والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٧ رقم ٧٥٤٦) وابن حبان (٧/ ٢٣١ رقم ٢٩٦٥) والحاكم (١/ ٤٩٤ رقم ١٢٧١) وأبو داود (رقم ٣٨٩١) وابن ماجه (رقم ٣٥٢٢).

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ. فقال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة، ثنا سفيان، عن عاصم، وعبدة عن زر، قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: قيل لي: فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»(١).

ثم حدثنا علي بن عبدالله، ثنا سفيان، ثنا عبدة بن أبي لبابة، زر بن حبيش، وحدثنا عاصم عن زر قال: «سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: كذا وكذا، فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال قيل لي فقلت قل فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»(٢).

قلت: مفعول القول محذوف، وتقديره: قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ. فقلت كما قيل لي. وتحت هذا من السر أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغة، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله.

وقد قال الله له: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «قيل لي فقلت»، أي: أني لست مبتدئًا، بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي: وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليَّ - فصلوات الله وسلامه عليه -، لقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي. وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به.

ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه، حتى إنه لما قيل له، قل: قال: هو قل. لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٧٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٤١-٧٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٧٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ١٠-١١).

الفصل الثاني

في المستعاذ به، وهو الله وحده: رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره. وقد أخبر تعالىٰ في كتابه عمَّن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانًا ورهقًا، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

جاء في التفسير: أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسىٰ في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه: فيبيت في أمن وجوار منهم حتىٰ يصبح، أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقًا، أي: طغيانًا وإثمًا وشرًا يقولون سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة علىٰ المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**». وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبدًا.

ونظير ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك**»(١).

فدل علىٰ أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «**أعوذ بعزة الله وقدرته**». وقوله: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»(٢)، وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٩/ ١٨٠-١٨١ رقم ١٦٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ١٥٢).

الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه، قد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: «**إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما**»(١)، فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيًا للمطلوب، وهو دفع لشر المستعاذ منه أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث، وهو الشيء المستعاذ منه فتتبين المناسبة المذكورة فنقول.

الفصل الثالث

في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالًا بصاحبه. إما شر واقع به من غيره وذلك الغير. إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى، وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٣٩ رقم ٧٨٤٥) وفي المجتبى (رقم ٥٤٣٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٥ رقم ٢٥٧٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٢ رقم ٩٤٣) وأحمد (٣/ ٤١٧) والبيقهي في الشعب (٢/ ٥١٧ رقم ٢٥٧٤).

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عمومًا. الثاني: شر الغاسق إذا وقب. الثالث: شر النفاثات في العقد. الرابع: شر الحاسد إذا حسد.

فنتكلم عن هذه الشرور الأربعة، ومواقعها، واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها. وقبل الكلام في ذلك لا بد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

فنقول: الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور لأنها أسباب الآلام. ومفضيه إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولا بد، ما لم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ما هو أقوى منه، وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى للأضعف، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذ لأكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته!!

فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه، حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ

أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم(١)

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس.

ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولابد. وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات.

ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

فلو تيقظ حق التيقظ، لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف

(١) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ، وذكره البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٢ رقم ٤٥٥٩) ونسبه إلى أبي الحسن الكندي القاضي. وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ١١٠) غير منسوب لأحد. وذكره ابن عساكر في تاريخه في موضعين في الموضع الأول (٥١/ ١٠٣) فقال: قال بشر بن الحارث الحافي: رأيت على باب ناووس مكتوباً. وذكر أبياتاً منها هذا البيت وذكره في موضع آخر (٥٤/ ٧٠) فقال: عن عمرو بن المهاجر قال: كنت أسمع عمر بن عبد العزيز كثيراً يتمثل بهذه الأبيات.

والاطلاع على عالم البقاء، فحينئذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] و﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضي إليه. فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: عذاب القبر، وعذاب النار، فهذان أعظم المؤلمات. وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال. وهذان سبب العذاب المؤلم، فالفتنة سبب العذاب، وذكر الفتنة خصوصًا وعمومًا. وذكر نوعي الفتنة لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت. ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة.

وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها، وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير.

وأوجبه ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ومن ذلك قوله: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال**»(١). فاستعاذ من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل. والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمى حزنًا، وإن تعلق بالمستقبل سمي همًا.

والعجز والكسل قرينان؛ وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٢٥، ٦٣٦٩) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ٢-٦).

فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة. والبخل يحول بينه دونها أيضًا، فهذا الخلقان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان؛ وهما مؤلمان للنفس، معذبان لها. أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين. والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال. وأيضًا فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

ومن ذلك تعوذه ﷺ: «**من المأثم والمغرم**»(١)، فإنهما يسببان الألم العاجل.

ومن ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك**». فالسخط سبب الألم، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

والشر المستعاذ منه نوعان: أحدهما: موجود يطلب رفعه، والثاني: معدوم يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد، كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾؛ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه، ثم قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٢) ومسلم (رقم ٥٨٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٧٧-١٧٨) وشرح النووي (٥/ ٨٥-٨٧).

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه، ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة، ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

فإذا عرف هذا فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»[1] يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم، لكنه فيها بالقوة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد، وأما قوله: «من سيئات أعمالنا» ففيه قولان:

أحدهما: أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود، فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضًا لكنه دفع المسبب، والأول دفع السبب فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها، وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان محتملان، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعًا من الترجيح، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشر النفس يولد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١١٠٥) والنسائي في المجتبى (رقم ١٤٠٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٤ رقم ٨١٤٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١١٤ رقم ٢٥٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٩ رقم ٤٩٢) وحسنه الترمذي.

تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم، فمتىٰ عوفي منهما عوفي من الشر بحذافيره، ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر.

ولما كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهىٰ، وكان السبب إما من ذات العبد وإما من خارج، ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره، كان هنا أربعة أمور.

شر مصدره من نفسه، ويعود علىٰ نفسه تارة، وعلىٰ غيره تارة أخرىٰ.

وشر مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود علىٰ نفسه تارة، وعلىٰ غيره أخرىٰ.

جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسىٰ وإذا أخذ مضجعه: «**اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف علىٰ نفسي سوءًا أو أجره إلىٰ مسلم**»[1]. فذكر مصدري الشر، وهما: النفس، والشيطان، وذكر مورديه ونهايتيه، وهما عوده علىٰ النفس أو علىٰ أخيه المسلم، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه.

فإذا عرف هذا فلنتكلم علىٰ الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

الشر الأول العام في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وما هھنا موصولة ليس إلا، والشر مسند في الآية إلىٰ المخلوق المفعول لا إلىٰ خلق الرب تعالىٰ الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما.

فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته ـ تبارك

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (١/ ١٤) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٢٠٤) وفي خلق أفعال العباد (ص ١١٣) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢ رقم ٨٤٩) وفي الدعاء (رقم ٢٦٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢٣٦).

وتعالىٰ ـ فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما.

وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلًا، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنىٰ، ولعاد إليه منه حكم ـ تعالىٰ وتقدس عن ذلك ـ وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شرًا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالىٰ.

ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك علىٰ بال:

أحدهما: أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولًا منفصلًا، لا يكون وصفًا له ولا فعلًا من أفعاله.

الثاني: أن كونه شرًا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلىٰ من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلىٰ الخالق ﷻ خلقًا وتكوينًا ومشيئة لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثرت بعلمها وأطلع من شاء من خلقه علىٰ ما شاء منها.

وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها فضلًا عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه، وعيبه المنافي لحمده فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلًا. وإن كان هو الخالق للخير والشر، فقد عرفت أن كونه شرًّا هو أمر إضافي وهو نفسه خير من جهة نسبته إلىٰ خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك بابًا عظيمًا من معرفة الرب ومحبته ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

وقد بسطت هذا في كتاب التحفة المكية، كتاب الفتح القدسي، وغيرهما. وإذا

أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثله. أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلىٰ عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلىٰ متولي القطع أمرًا وحكمًا، لما في ذلك من الإحسان إلىٰ عبيده عمومًا بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود علىٰ حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة، وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم، فكيف عقوبة من يصول علىٰ أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدىٰ الذي بعث الله به رسله، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟! أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلىٰ العبيد، وهي شر بالنسبة إلىٰ الصائل الباغي، فالشر ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلىٰ الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل، فهو عين الخير والحكمة، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك علىٰ مسألة القدر، ويفتح لك الطريق إلىٰ الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلىٰ خلقه، وإنه ـ سبحانه ـ كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه؛ وكلاهما مقتضىٰ عزته وحكمته، وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلىٰ قول من غلظ حجابه عن الله أن الأمرين بالنسبة إليه علىٰ حد سواء، ولا فرق أصلًا، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلىٰ آخره كيف تجده كفيلًا بالرد علىٰ هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها. كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ

كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فأنكر سبحانه على من ظن هذا الظن، ونزه نفسه عنه، فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته، وعزته وإلهيته: ـ لا إله إلا هو تعالى عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا ـ.

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان. وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام.

كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم، فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذه، وتشهد على سفه من فعله.

هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة، وإنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استقبحت على أقوام[1]

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بإعدائه الصادين عن سبيله، الساعين في خلاف مرضاته الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم

(١) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى العطوي: محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية الكناني من شعراء الدولة العباسية ولد ونشأ بالبصرة وكان على مذهب المعتزلة ومن المتكلمين الحذاق، مات سنة ٢٥٠هـ. وذكر البيت أبو داود الأصفهاني في الزهرة (٢/ ٦٣١) ولكن جاء فيه: «منة الله» بدل: «نعمة الله». وذكره أيضاً ابن المعتز في طبقات الشعراء (ص ٤١٧).

به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره والحكم لغيره والطاعة لغيره، فهم مضادون في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه، ويبغضون ما يحبه، وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله. كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعتابًا وجلالة وتهديدًا، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا، فأبى ذلك، فطرده، ولعنه وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني، وقد لعنته وطردته إذ لم يجسد لأبيكم، وجعلته عدوًا لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني، أليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم، ويوم القيامة؟ يقول تعالى: أليس عدلًا مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلى لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم إنه لا مثل له. فيتجلى لهم، ويكشف عن ساق فيخرون له سجدًا.

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة! ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم، وبقوا مع مولاهم الحق! فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله، أنهم ما كانوا أولياءه، إنْ أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

ولا تستطل هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ونزولها منه منازلها في الدنيا، لتنزل في جوار ربها في الآخرة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

إذا عرف هذا عرف معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لبيك وسعديك، والخير**

في يديك، **والشر ليس إليك**»[١]، وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك، وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه، وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر.

بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته ـ تبارك وتعالىٰ ـ عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلىٰ سببه ومن قام به، كقوله: ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]،وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل.

وتارة يحذف فاعله كقوله تعالىٰ حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه والضلال منسوبًا إلىٰ من قام به، والغضب محذوفًا فاعله.

ومثله قوله الخضر في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف: ٨٢].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩، ٤٢٢) (١٣/ ٥٣٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩).

ومثله قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧] فنسب هذا التزيين المحبوب إليه.

وقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤]، فحذف الفاعل المزين.

ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢]، فنسب إلىٰ ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلىٰ نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن، ذكرنا منه أمثله كثيرة في كتاب الفوائد المكية[1]، وبينا هنا السر في مجيء و﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ١٠١]، والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعًا في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيه واقعًا في سياق الذم أو منقسمًا، وذلك من أسرار القرآن.

ومثله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورىٰ: ١٤]، وقوله: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وبالجملة فالذي يضاف إلىٰ الله تعالىٰ كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

وقد دخل في قوله تعالىٰ: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من: حيوان ، أو غيره، إنسيًا، أو جنيًا، أو هامة، أو دابة، أو ريحًا، أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل في «ما» ههنا عموم، قلت: فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم

(١) ذكرنا في المقدمة أن جنس هذه الإحالة تنطبق علىٰ مفتاح دار السعادة، حيث ذكر هذا المبحث فيه بتفصيل. (ج).

إطلاقي. والمعنىٰ من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه.

وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله. فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض. والخير كله حصل علىٰ أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام وشر النار والهواء وغير ذلك.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء حتىٰ يرتحل منه**»(١) رواه مسلم.

وروىٰ أبو داود في سننه عن عبدالله بن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «**يا أرض! ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد**»(٢). وفي الحديث الآخر: «**أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن**»(٣).

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب، فهذا خاص بعد عام، وقد قال أكثر المفسرين:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٦٠٣) والحاكم (١/ ٦١٥ رقم ١٦٣٧) وابن خزيمة (٤/ ١٥٢ رقم ٢٥٧٢) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٤٣ رقم ٧٨٦٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٣ رقم ١٠١٠١) وأحمد (٢/ ١٣٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٨٥ رقم ٩٦٢) وفي الدعاء (رقم ٨٣٤).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٦/ ٢٣٧ رقم ١٠٧٩٢) وابن أبي شيبة (٥/ ٥٠ رقم ٢٣٥٩٩) وعبدالرزاق (١١/ ٣٥ رقم ١٩٨٣١) ومالك (٢/ ٩٥٠ رقم ١٧٠٥) وأحمد (٣/ ٤١٩) والطبراني في الكبير (٤/ ١١٤ رقم ٣٨٣٨) وفي الدعاء (رقم ٢٣٦) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٦٤ رقم ٣٧٢) قال المنذري في الترغيب (٢/ ٣٠٣): رواه أحمد وأبو يعلىٰ ولكل منهما إسناد جيد محتج به. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٢٥): رواه الطبراني وإسناده حسن.

إنه الليل. قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق، ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق الظلمة يقال: غسق الليل وأغسق إذا ظلم. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وكذلك قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. وقال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار. وفي تسمية الليل غاسقًا قول آخر: إنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد، وعليه حمل ابن عباس قوله تعالىٰ: ﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: ٥٧]. وقوله: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهىٰ برده.

ولا تنافي بين القولين، فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط اقتصر علىٰ أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة الأولىٰ بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح، والنور، ومن شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به للمعنىٰ المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريرًا عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبدالرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلىٰ القمر فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»[(١)]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهذا أولىٰ من كل تفسير، فيتعين المصير إليه.

وقيل: هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد بصحته،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٦٦) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٨٣ رقم ١٠١٣٧) وأحمد (٦/ ٢١٥) وعبد بن حميد (رقم ١٥١٧) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٤١).

فإن الله تعالىٰ قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضًا غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق، وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب، وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

ونظيره هذا قوله في المسجد الذي أسس على التقوىٰ، وقد سئل عنه؟ فقال: «هو مسجدي هذا»(١)، ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسسا علىٰ التقوىٰ مثل ذاك.

ونظير أيضًا قوله في علي وفاطمة والحسن الحسين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»(٢) فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ: أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته.

ونظير هذا قوله: «ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة والقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئًا، ولا يفطن له فيتصدق عليه»(٣)، وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطواف، بل ينفي اختصاص الاسم به وتناول المسكين لغير السائل أولىٰ من تناوله له.

ونظير هذا قوله: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»(٤)،

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ٣٣٩ رقم ١١٣٣) والحاكم (١/ ٦٦٢ رقم ١٧٩١) وابن حبان (٤/ ٤٨٢ رقم ١٦٠٥) والهيثمي في الموارد (رقم ١٠٣٧) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٥٧ رقم ٧٧٦) والترمذي (رقم ٣٠٩٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥١ رقم ٣٥٥٨) والهيثمي في موارد الظمآن (رقم ٢٢٤٥) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ١١٢-١١٣ رقم ٨٤٠٩) والهيثمي في الكبرىٰ (٢/ ١٥٠ رقم ٢٦٨٣) والترمذي (رقم ٣٢٠٥، ٣٧٨٧، ٣٨٧١) وحسنه الأخير منهم، وانظر: فتح الباري (٧/ ١٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤٧٩) ومسلم (رقم ١٠٣٩) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٤١-٣٤٨) وشرح النووي (٧/ ١٢٩-١٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٤، ٥١٩).

فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى، ونظيره الغسق والوقوب وأمثال ذلك. فكذلك: قوله في القمر: هذا هو الغاسق إذا وقب لا ينفي أن يكون الليل غاسقًا، بل كلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن المراد به القمر إذا خسف وأسود، وقوله: وقب أي: دخل في الخسوف أو غاب خاسفًا.

قيل: هذا القول ضعيف ولا نعلم به سلفًا، والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر، وقال: هذا الغاسق إذا وقب. لم يكن خاسفًا إذ ذاك، وإنما كان هو مستنير ولو كان خاسفًا لذكرته عائشة، وإنما قالت: نظر إلى القمر، وقال: «هذا هو الغاسق» ولو كان خاسفًا لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه، فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها لما فيه من التلبيس.

وأيضًا فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلم أحدًا قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه، وأيضًا فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول من قولهم: وقبت العين إذا غارت. وركية وقبا: غار ماؤها. فدخل في أعماق التراب.

ومنه الوقب: للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وقب يقب وقوبًا إذا دخل.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها، قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما، فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه، وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين، وفي

الصحيح: أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، ولهذا قال: «فاكتفوا صبيانكم، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء»(١). وفي حدث آخر: «فإن الله يبث من خلقه ما يشاء»(٢)، والليل هو محل الظلام، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة على أهل الظلمة. وروي أن سائلًا سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظلماء حندس.

وسأل النبي ﷺ كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار» فاستدل بهذا على نبوته، وإن الذي يأتيه ملك من عند الله،وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان، ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

ومن ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق: الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب، أو كن، أو غار، وتأوي الهوام إلى أحجرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٠١٣) وانظر: شرح النووي (١٣/ ١٨٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤/ ٢١٠-٢١١ رقم ٢٣٢٧) والحاكم (٤/ ٣١٦ رقم ٧٧٦٢) وابن خزيمة (٤/ ١٤٨ رقم ٢٥٥٩) وصححه الحاكم.

كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] فالإيمان كله نور ومآله إلىٰ نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة ومآله إلىٰ الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزل هذا المعنىٰ علىٰ الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ ومضاده لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتىٰ منهم، ولا يقدرون عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شفىٰ وكفىٰ في جوابها، فلم يحوجنا إلىٰ متكلم ولا إلىٰ أصولي ولا نظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلقًا فعل بمعنىٰ مفعول: كقبض وسلب

وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص.

والله ﷻ فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقًا وفرقًا. يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه، وكما أن في خلقه فلقًا وفرقًا، فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمي كتابه الفرقان، ونصره فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه فلقًا، فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرون قدره: وأنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الشر الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر النفث هو: النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقدة نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي.

فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟ قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو: أن بنات لبيد بن أعصم سحرن النبي ﷺ، هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا بسديد، فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن أعصم كما جاء في الصحيح[١].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٦٨) ومسلم (رقم ٢١٨٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٦-٢٣٦).

والجواب المحقق: أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم.

ففي الصحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: «أن النبي ﷺ طب حتى إنه ليخيل إليه أنه صنع شيئًا وما صنعه، وأنه دعا ربه، ثم قال: «**أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه**»، فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: الآخر مطبوب، قال: من طبه، قال: لبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع ذكر، قال: فأين هو؟ قال: ذروان بئر في بني زريق**»، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال: «**والله لكأن ماءها نقاعة الحنا، ولكأن نخلها رءوس الشياطين**»، قال: فقلت له: يا رسول الله هلا أخرجته؟ قال: «**أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرًا**» فأمر بها فدفنت.

قال البخاري: قال الليث وابن عيينة عن هشام في مشط ومشاطة. ويقال: إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاطة من مشاطة الكتان[1]. قلت: هكذا في هذه الرواية إنه لم يخرجه اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه.

وقد روى البخاري من حديث ابن عيينة قال: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة، فسألت هشامًا عنه، فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال يا عائشة: «**أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفيتيه فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم رجل من**

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٦٣، ٦٣٩١) ومسلم (رقم ٢١٨٩) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٨٣-٢٨٥).

بني زريق حليف اليهود، وكان منافقًا، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة، قال: وأين قال؟ في جف طلع ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين»، قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا أي تنشرت، قال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا»(١). ففي هذا الحديث أنه استخرجه وترجم البخاري عليه باب: هل يستخرج السحر.

وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب ويؤخذ عن امرته أيحل عنه وينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه(٢).

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما، فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه الأول فيه أنه لم يستخرجه، وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه ولا تنافي بينهما،فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ثم دفنه بعد أن شفي، وقول عائشة: هلا استخرجته أي: هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألته عنه عائشة، والذي يدل عليه أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجئ إليه لينظر إليها، ثم ينصرف إذا لا غرض له في ذلك، والله أعلم. وهذا الحديث: ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته.

وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب. وصنف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٦٥) ومسلم (رقم ٢١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر؟ (ص ١١٢٩) قبل حديث (رقم ٥٧٦٥).

القول فيه أن قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر، فإنه يكون تصديقًا لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]. وقال قوم صالح له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]. وقال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشامًا من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين؟ وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة.

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين، قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم، قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أيامًا قال: فأتاه جبريل فقال: إن رجلًا من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقدًا، فأرسل رسول الله ﷺ عليًا فاستخرجه، فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط(١).

وقال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدنت إليه

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٣٠٧ رقم ٣٥٤٣) وفي المجتبى (رقم ٤٠٨٠) وأحمد (٤/ ٣٦٧) والطبراني في الكبير (٥/ ١٨٠ رقم ٥٠١٦) وعبد بن حميد (رقم ٢٧١) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٨١): رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٨).

اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولي ذلك لبيد بن الاعصم رجل من اليهود، فنزلت هاتان السورتان فيه(١).

قال البغوي: وقيل كانت مغروزة بالإبر، فأنزل الله ﷻ هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال. قال: وروي أنه لبث فيه ستة أشهر، واشتد عليه ثلاثة أيام، فنزلت المعوذتان(٢).

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضًا من الأمراض عارضًا شفاه الله منه ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء فقد أغمي عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه(٣) وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس، فليس ببدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلي بالذي رماه فشجه، وابتلي بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد وغير ذلك، فلا نقص عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله.

قالو: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم. فقال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله شفيك، بسم الله أرقيك»(٤). فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد لما اشتكى، فدل على أن هذا التعوذ مزيل لشكايته ﷺ، وإلا فلا

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥) وعمدة القاري (١٥/ ٩٨).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥) وفتح الباري (١٠/ ٢٣٠) وعمدة القاري (٢١/ ٢٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٣٢) ومسلم (رقم ٤١١) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٨٧-٤٨٨) وشرح النووي (٤/ ١٣٠-١٣١).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢١٨٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٧).

يعوذه من شيء وشكايته من غيره.

قالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها لا حجة لكم فيها، أما قوله ـ تعالىٰ ـ عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقول قوم صالح له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعرا: ١٥٣]، فقيل: المراد به من له سحر، وهي الرئة، أي: أنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، ليس المراد به السحر، وهذا جواب غير مرض، وهو في غاية البعد، فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات، وحيث أرادوا هذا المعنىٰ أتوا بصريح لفظ البشر فقالوا: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس: ١٥]، ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر، وهي الرئة، وأي مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع؟ ثم كيف يقول فرعون لموسىٰ: ﴿ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١]. أفتراه ما علم أنه له سحرًا، وأنه بشر، ثم كيف يجيبه موسىٰ بقوله: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسىٰ، وقال: نعم أنا بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم، لما قالوا لهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١١]. ولم ينكروا ذلك، فهذا الجواب في غاية الضعف وأجابت طائفة منهم: ابن جرير وغيره: بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إياه غيره، فالمسحور عنده بمعنىٰ ساحر أي عالم بالسحر، وهذا جيد، إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من علم السحر يقال له: مسحور، ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال ولا في اللغة، وإنما المسحور من سحر غيره: كالمطبوب والمضروب والمقتول (وبابه) وأما من علم السحر فإنه يقال له: ساحر بمعنىٰ أنه عالم بالسحر وإن لم يسحر غيره، كما قال قوم فرعون لموسىٰ: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ففرعون قذفه بكونه مسحورًا، وقومه قذفوه بكونه ساحرًا، فالصواب هو الجواب الثالث، وهو

جواب صاحب الكشاف وغيره: أن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور: مثل مجنون زائل العقل، لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩]، مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلًا، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالًا برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم، ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره ولا رب سواه.

وقد دل قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل، ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوىٰ ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضًا وثقلًا وحلًا وعقدًا وحبًا وبغضًا ونزيفًا، وغير ذلك من الآثار الموجودة تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقًا بما أصيب به منه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ دليل علىٰ أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرًا، كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

وأيضًا: فإذا جاز علىٰ الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتىٰ يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أنه هذا تغير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرىٰ من صفات النفس والبدن؟ فإذا غير إحساسه حتىٰ صار يرىٰ الساكن متحركًا، والمتصل منفصلًا، والميت حيًا، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتىٰ يجعل المحبوب إليه بغيضًا والبغيض إليه محبوبًا، وغير ذلك من التأثيرات.

وقد قال تعالىٰ عن سحرة فرعون: إنهم ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فبين سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيرًا أو بساطًا فترىٰ الحصير والبساط ينجر، ولا ترىٰ الجار له، مع أنه هو الذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقلب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين هم الذين يقلبونها، وإما أن يكون التغيير

حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها.

ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها.

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت، فهذا باطل من وجوه كثيرة.

فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالًا، بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحرًا لأعين الناس، ولا يسمى ذلك سحرًا، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٦٦] ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون، لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفى. وأيضًا: لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء، لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها.

وأيضًا فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها حذاق الصناع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة، وخضوعه لهم، ووعدهم بالتقريب والجزاء.

وأيضًا: فإنه لا يقال في ذلك: إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها، وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود.

الشر الرابع: شر الحاسد، إذا حسد وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود، فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه، فإن الله تعالى قال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٥] فحقق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهملة.

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم

والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولابد، فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقدم تقدم في حديث أبي سعيد الصحيح رقية جبريل النبي ﷺ، وفيها: «**بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك**» فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها، إذ لو نظر إليه نظر ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت واحتدت، فصارت نفسًا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد، فربما أعطبه وأهلكه بمنزلة من فوق سهمًا نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلًا، وربما صرعه وأمرضه، والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر.

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة، وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث، فتحدث فيها تلك الكيفية السم فتؤثر في الملسوع.

وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها، حتى تؤثر بمجرد نظرة، فتطمس البصر وتسقط الحبل، كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر وذي الطفيتين منها، وقال: «**اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل**»[1]، فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية، وأنسمت

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٩٧) ومسلم (رقم ٢٢٣٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٨) (١٠/ ٢٠٠).

وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها، فلله كم من قتيل وكم من سليب وكم من معافي عاد مضني على فراشه، يقول طبيبه: لا أعلم داءه ما هو، فصدق ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الإجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها، وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى، هل الانفعال والتأثر وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع، فالصنعة في الحقيقة له والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع.

ومن له أدنى فطنة، وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات رأي عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته، وإن ثم عالمًا آخر تجري عليه أحكام أخر تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الإبصار، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه.

ولا نسبة لعالم الأجسام على عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجب.

وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم، فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل، وتلك الصنائع الغريبة، وتلك الأفعال العجيبة، وتلك الأفكار والتدبيرات؟! كيف ذهبت كلها مع الروح، وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟! وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ويخف عليك ويثقل ويؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر، فرب رجل عظيم الهيولا كبير الجثة خفيف على قلبك حلو عندك،

وآخر لطيف الخلقة صغير الجثة أثقل على قلبك من جبل، وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها. وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد إنما هي للأرواح أصلًا والأشباح تبعًا.

والعاين والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضًا. ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسد من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه، وربما أصابت عينه نفسه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين. وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ ﴾ [القلم: ٥١]، إنه الإصابة بالعين، فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجته.

وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المكتل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول: لم أر كاليوم إبلًا ولا غنمًا أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلًا حتى يسقط منها طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، ويفعله به كفعله في غيره، فعصم الله ورسوله، وحفظه، وأنزل عليه: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾. هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرًا شديدًا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك.

وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليَّ نظرًا كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهو كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلًا اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره. حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيرًا.

وقد يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك. قال عبدالرزاق بن معمر عن هشام بن قتيبة، قال: هذا ما حدثنا أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**العين حق ونهى عن الوشم**»(١).

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة: أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله: إن ابني جعفر تصيبهم العين أفنسترقي لهم؟ قال: «**نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين**»(٢).

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة، فهو نظر يكاد يزلقه، ولولا حفظ الله وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن، فمن قال:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٤٤) ومسلم (رقم ٢١٨٧) دون ذكر الوشم، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٠-٢١٤) وشرح النووي (١٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٥ رقم ٧٥٣٧) وابن ماجه (رقم ٣٥١٠) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٤٨ رقم ١٩٣٧١) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٤٥٦ رقم ٣١٤٦) والحميدي في المسند (١/ ١٥٨ رقم ٣٣٠) وأحمد (٦/ ٤٣٨) والترمذي (رقم ٢٠٥٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

إنه من الإصابة بالعين، أراد هذا المعنى، ومن قال: ليس به، أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن حق. وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان»(١)، فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها.

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي، حدثني أبي: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا شيء في الهام، والعين حق**»(٢). وفيه أيضًا من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**»(٣) وفي الباب عن عبد الله بن عمرو، وهذا حديث صحيح.

والمقصود أن العائن حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائنًا، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها، فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها(٤) ليس هو شيئًا اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية، فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٥٨) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤١ رقم ٧٨٥٣) وفي المجتبى (رقم ٥٤٩٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥١١ رقم ٢٥٦٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٦١) وأحمد (٤/ ٦٧) وأبو يعلى (٣/ ١٥٥ رقم ١٥٨٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ٣٩٠ رقم ١١٨٠) والطبراني في الكبير (٤/ ٣١ رقم ٣٥٦١) وضعفه الألباني خلا قوله: والعين حق.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢١٨٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٣) وشرح النووي (١٤/ ١٧٢).

(٤) في نسخة أخرى: هو من نفس الحاسد وطبعها.

شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب، فذكره في السورة الأخرى كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقرن بها الأفعال والعزم الجازم، لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر، فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيرًا ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة، ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما في موضع غير هذا، إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين، وشدة حاجة الخلق إليهما، وإنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن: كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما، ويصاحبهما؛ ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان، من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبي أن يسجد له حسدًا، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبده من دون الله حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب: «السحر والسر المكتوم» من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ؛ ولهذا سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأ عن كعب قال: «كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حمارًا: أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها، وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ»(١).

والمقصود: أن الساحر والحاسد كل منهما قصد الشر. لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه، والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانته بالشياطين.

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٥١ رقم ١٧٠٧) وانظر: الاستذكار (٨/ ٤٤٥).

وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس يعمهما كما سيأتي بيانهما، والحسد يعمها أيضًا، فكلا الشيطانين حاسد موسوس، فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعًا.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شرورًا أربعة يستعاذ منها. شرًا عامًا وهو شر ما خلق، وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان.

ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهي نوعان أيضًا، لأنهما من شر النفس الشريرة، أحدهما يستعين بالشيطان، ويعبده، وهو الساحر، وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصده به هو، فيكون ذبحًا لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق، والساحر وإن لم يسم هذه عبادة الشيطان فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه، فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة، كما أقبلها بالنعم، أو هذا إكرام لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودًا لغير الله، فليسمه بما شاء.

وكذلك من ذبح للشيطان، ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب، فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخدامًا ما، وصدق هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود: أن هذه عبادة منه للشيطان، وإنما سماه استخدامًا، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين، وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ولبئس المولى ولبئس العشير، فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده.

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئًا من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف[1]، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها، بل يعصيها طاعة لله وخوفًا وحياء منه وإجلالًا له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله، وبغضًا لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك، وحسد، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمني الزوال. وللحسد ثلاث مراتب: أحدها هذه.

الثانية: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده وممقوت عند الله تعالى

---

(١) أخرجه هناد في الزهد (٢/ ٦٤٢ رقم ١٣٩٤) وانظر: التمهيد (٦/ ١٢٦).

وعند الناس، ولا يسود أبدًا، ولا يواسي، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدًا إلا قهرًا، يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها الناس**»[١] فهذا حسد غبطة الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومصلهم لا من فساكلهم، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما، فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ: أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٣) ومسلم (رقم ٨١٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٦/ ٩٧).

فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨، ١٠٠] وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم.

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

أحدها: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله: «سمع الله لمن حمده». وقول الخليل ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه، يراه، ويبصره لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن: كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده، ولا نراه بلفظ السميع العليم في [الأعراف، وحم والسجدة] وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون، ويـرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في [سورة حمّ المؤمن] فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]، لأن أفعال هؤلاء أفعال

معاينة ترىٰ بالبصر. وأما نزع الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرىٰ بالبصر ويدرك بالرؤية، والله أعلم[١].

السبب الثاني: تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقىٰ الله تولىٰ الله حفظه، ولم يكله إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»**[٢] فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر؟!

السبب الثالث: الصبر علىٰ عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نصر علىٰ حاسده وعدوه بمثل: الصبر عليه، والتوكل علىٰ الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغىٰ عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلىٰ نفسه، ولو رأىٰ المبغي عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرىٰ إلا صورة البغي دون آخره ومآله. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفىٰ حقه أولًا، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه، بل بُغِيَ عليه وهو صابر.

وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغىٰ جبل علىٰ جبل جعل الباغي منهما دكًا.

---

(١) سيأتي لهذا البحث زيادة تحت عنوان: قاعدة نافعة. (ج).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٣) وأحمد (١/ ٢٩٣) وأبو يعلىٰ (٤/ ٤٣٠ رقم ٢٥٥٦) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٨ رقم ١٢٩٨٨) وفي الأوسط (٥/ ٣١٦ رقم ٥٤١٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٣٤ رقم ٧٤٥) وعبد بن حميد (رقم ٦٣٦) قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: هذا حديث كبير عال. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩٢).

السبب الرابع: التوكل على الله: فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى، لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وأضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كاف عبده، المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في: (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومنامًا لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبث، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام

الشر، حتى يهلك أحدهما فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله.

فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلًا، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس وهو الإقبال على الله والإخلاص له، وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئًا، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه، وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه، الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يستطيع قلبه انصرافًا عن ذكره، ولا روحه انصرافًا عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورًا بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه.

هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب، لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته، بل إذا مسه طيف من ذلك، واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه: إياك وحمى الملك، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها، ونزل بها ما لك ولبيت

السلطان الذي أقام عليه اليزك، وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور؟!

قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠]. وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، صار داخل اليزك، قد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[(١)]. فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه،

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١/ ٦٠ رقم ٥٨) (١/ ٦٢ رقم ٦٠) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٣٦٧٣) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٤٢) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧١٦) وهناد في الزهد (٢/ ٤٣٤ رقم ٨٤٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٨٦) وانظر: فيض القدير (٤/ ١٧٣).

فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل، فأغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل، فسجد لله، وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصوصه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد! وما أبركها من نازلة نزلت به! وما أحسن أثرها عليه! ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملًا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه، وصدقته عليه من الله جنة واقية وحصن حصين. وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها.

ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن، فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه، وتنطفئ ناره، لا أطفأها الله، فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله،

وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر، والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٦] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤] وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١) كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه.

أحدها: عفوه عنهم. والثاني: استغفاره لهم. الثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. الرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: «**اغفر لقومي**» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فهبه لي.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٧٧) ومسلم (رقم ١٧٩٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢١) (٧/ ٣٧٢- ٣٧٣) وشرح النووي (١٦/ ١٥٢-١٥٣).

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به، اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها، ويغفرها لك، ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله.

فإذا كانت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم، ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك، يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره، هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه. هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيئون إليه، فقال: **«لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»**(١).

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعًا ولا خبزًا.

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين.

إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد، له ويذل له ويبقى من أحب الناس إليه.

وأما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١١٤-١١٥).

ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو الموفق المعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة، سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمحبة وقد أمنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به من غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنًا فالله يدافع عنه ولابد.

وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مَزَجَ مُزِجَ له، وإن كان مرة ومرة، فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم، الذي من دخله كان من الآمنين.

قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء[1]، فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه.

ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئًا غير الله سلط عليه، ومن رجا شيئًا سوى الله خذل من جهته وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة التي لا غني للعبد عنها في دينه ودنياه. ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث في العقد.

وقد افترق العالم في هذا المقام أربع فرق:

ففرقة أنكرت تأثير هذا وهذا، وهم فرقتان:

فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، وأنكرت تأثيرهما البتة، وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات.

وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية، وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام. وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ (١/ ٢٦٥ رقم ٤٢٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٣٤ رقم ٥١٢٣): رواه أبو الشيخ في كتاب الثواب ورفعه منكر.

الفرقة الثانية أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن وأقرت بوجود الجن والشياطين، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين، وزعمت أنها غير خارجة عن قوىٰ النفس وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم، وهؤلاء يقولون: إنما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة، فهي من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل، وابن سينا وأتباعه علىٰ هذا القول حتىٰ إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب، ويقولون إنما هي من تأثيرات النفس في هيولي العالم، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ليسوا من أتباع الرسل جملة.

الفرقة الرابعة: وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبته الله تعالىٰ من صفاتهما وشرهما، واستعاذوا بالله منه، وعلموا أنه لا يعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله، فهؤلاء أهل الحق، ومن عداهم مفرط في الباطل أو معه باطل وحق، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم. فهذا ما يسر الله من الكلام سورة الفلق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفلق

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾.

أما سورة الناس: فقد تضمنت أيضًا: استعاذة، ومستعاذًا به ومستعاذ منه، فالاستعاذة تقدمت. وأما المستعاذ به فهو الله: ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾ فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلهيته لهم، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان كما تقدم. فنذكر أولًا معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة.

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم، هذا معنى ربوبيته لهم، وذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فلس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية، فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكًا في

إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى، ولا يخاف، ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك، وهو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقًا وكلهم عبيده ومماليكه.

أو يكون معبودك وإلٰهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك.

وهو الإله الحق: إله الناس الذي لا إله لهم سواه.

فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيهم، وحسبهم، وناصرهم، ووليهم، ومتولي أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل، ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه، فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضررًا وأبلغهم كيدًا.

ثم إنه ـ سبحانه ـ كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمر موقعه، فيقول: رب الناس، وملكهم، وإلههم، تحقيقًا لهذا المعنى وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها ممن الإيذان بالمغايرة.

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخر الإلهية لخصوصها، لأنه

سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذه دون غيره إلها، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق، واتخذ إلهًا غيره.

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسني.

وأما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى، فإن الرب هو: القادر، الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضار، النافع، المقدم، المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك فهو الآمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح: إن الله أصله الإله، كما هو

قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالىٰ هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ.

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنىٰ.

فكان المستعيذ بها جديرًا بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس، ولا يسلط عليه. وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها علىٰ ما وراءه وإن باديه إلىٰ الخافي يسير.

وهذا السورة مشتملة علىٰ الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل. فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه، لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلىٰ العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

إذا عرف هذا فالوسواس فعلال من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي لا يحس، فيحترز منه، فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس: إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلىٰ العبد.

ومن هذا وسوسة الحلي، وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن، فقيل وسوسة الحلي، لأنه صوت مجاور للأذن: كوسوسة الكلام الذي يلقيه

الشيطان في أذن من يوسوس له. ولما كانت الوسوسة كلامًا يكرره الموسوس، ويؤكد عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه: كالدوران، والغليان والنزوان وبابه.

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء، لأن الزلزلة حركة متكررة، وكذلك الدكدكة والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء، إذا كبه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبًا بعد كب كقوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٩٤].

ومثله رضرضه إذا كرر رضه مرة بعد مرة، ومثله ذرذره إذا ذره شيئًا بعد شيء، ومثله صرصر الباب إذا تكرر صريره، ومثله مطمط الكلام إذا مطه شيئًا بعد شيء، ومثله كفكف الشيء إذا كرر كفه، وهو كثير.

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب، لأن الثلاثي لا يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكر، فإذا قلت: ذر الشيء، وصر الباب، وكف الثوب، ورض الحب. لم يدل على تكرار الفعل، بخلاف. ذرذر، وصرصر، ورضرض ونحوه، فتأمله فإنه مطابق للقاعدة العربية، في الحذو بالألفاظ حذو المعاني، وقد تقدم التنبيه على ذلك، فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عج العجل، إذا صوت، فإن تابع صوته، قالوا: عجعج، وكذلك: ثج الماء إذا صب، فإن تكرر ذلك قبل تجثج، والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل وسوس[1].

وأما الخناس: فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى. ومنه قوله أبي هريرة: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وأنا جنب، فانخنست منه».

---

(١) ما يلي هذا بحث لغوي مطول اختصرناه (ج).

وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل، وتخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى. وكذلك قال علي ﷺ: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى.

وقالت طائفة: الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق، وهي السبعة السيارة، قالوا: وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء، والخناس مأخوذ من هذين المعنيين، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخير.

فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به، انخنس، وانقبض: كما ينخنس الشيء ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضًا تجمع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء. وخنس وانخنس يدل على الأمرين معًا. قال قتادة: الخناس له خرطوم: كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس.

ويقال: رأسه كرأس الحية، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه، ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذانًا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانًا، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر، فإن ذكر الله هو مقمعته التي يقمع بها: كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها.

فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه: كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها. ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلًا ضئيلًا مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر[(١)]، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد، وليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قويًا عاتيًا شديدًا، فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله - تعالى - وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررًا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارًا، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل، لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقًا لمعنييهما.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٥] صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولًا، ثم ذكر محلها ثانيًا، وأنها في صدور الناس.

وقد جعل الله للشيطان دخولًا في جوف العبد، ونفوذًا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلًا، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! فقال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف

---

(١) أخرجه أحمد مرفوعاً (٢/ ٣٨٠) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١١٦): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة. وانظر: فيض القدير (٢/ ٣٨٥).

في قلوبكما سوءًا - أو قال - شيئًا»(١).

وفي الصحيح أيضًا عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضي أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول: اذكر كذا اذكر كذا. حتى لا يدري أثلاثًا صلى أم أربعًا؟ فإذا لم يدر أثلاثًا صلى أم أربعًا سجد سجدتي السهو»(٢).

ومن وسوسته ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته»(٣).

وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: « «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»(٤).

ومن وسوسته أيضًا أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٣٥) ومسلم (رقم ٢١٧٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٩) وشرح النووي (١٤/ ١٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٣١) ومسلم (رقم ٣٨٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٨٥)، وشرح النووي (٤/ ٩٠-٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٧٦) ومسلم (رقم ١٣٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٠-٣٤١) (١٣/ ٢٧٢-٢٧٣) وشرح النووي (٢/ ١٥٤-١٥٥).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٧١ رقم ١٠٥٠٣) وأبو داود (رقم ٥١١٢) وأحمد (١/ ٢٣٥) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٧٢٣ رقم ٧٧٩) أما لفظ الصحيح فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان» أخرجه مسلم (رقم ١٣٢).

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوة ويزينها لها، ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم. كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم، فلا بتلك النخوة والكبر ولا برضاه أن يصير قوادًا لكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة ... وصار قوادًا لذريته[1]

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من

(١) هذان البيتان من بحر السريع، وينسبان إلى أبي نواس المتوفى سنة ١٩٨هـ. وجاء عجز البيت الأول: وخبث ما أظهر من نيته. وذكرهما ابن الجوزي في أخبار الحمقى والمغفلين (ص ٩١) وأبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٤٣٧).

شرها، أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضًا. فمن شره: أنه لص سارق لأموال الناس. فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه، فله فيه حظ بالسرقة والخطف.

وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقًا ويخرج مغيرًا، ويدل على عوراتهم فيأمر العبد بالمعصية، ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومنامًا أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به. وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره، والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة. ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقد تمنعه من اليقظة.

كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام: ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»**(١).

ومن شره أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، قال: **«ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال: في أذنه»**(٢) رواه البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٢) ومسلم (رقم ٧٧٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٧) وشرح النووي (٦/ ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٧٠) ومسلم (رقم ٧٧٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٨-٢٩) وشرح النووي (٦/ ٦٣-٦٤).

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم.

وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة.

ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.

ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يعبد من دون الله فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض. ويكفي من شره أن تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله كيده عليه وجعل النار على خليله بردًا وسلامًا.

وتصدى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه، فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعه إليه. وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا.

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى.

وتصدى للنبي ﷺ وظاهر الكفار على قتله بجهده، والله تعالى يكبته ويرده خاسئًا.

وتفلت على النبي ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة، فجعل النبي ﷺ يقول: «ألعنك بلعنة الله»[١].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٤٢) وانظر: شرح النووي (٥/ ٣٠).

وأعان اليهود على سحرهم للنبي ﷺ. فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته.

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلًا عن آحادها، إذا كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدًا منها أو أكثر.

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى ينال منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يأس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى.

المرتبة الثانية من الشر وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضًا نائبه وداعيًا من دعائه، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع الضلال نقله إلى.

المرتبة الثالثة: من الشر وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصًا على أن يوقعه فيها، ولاسيما إن كان عالمًا متبوعًا، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع، من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينًا وتقربًا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ١٩]. هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به.

وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات.

وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفىٰ عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلىٰ.

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض**»(١) وذكر حديثًا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتىٰ أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتىٰ يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالًا منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلىٰ.

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظًا لوقته شحيحًا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلي.

المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويخصه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلىٰ منه، وقل من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأىٰ فيه داعيًا قويًا ومحركًا إلىٰ نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرىٰ أن هذا خير،

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١٨٧ رقم ٢٠٥٥١) وأحمد (١/ ٤٠٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ٧٤ رقم ٢٥٢٩) وفي الصغير (رقم ٩٠٤) وفي الكبير (٦/ ١٦٥ رقم ٥٨٧٢) والروياني (٢/ ٢١٦ رقم ١٠٦٥) والطيالسي (رقم ٤٠٠) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢١٣ر قم ٣٧٣٠): رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٩): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داور القطان وقد وثق. وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٢٩).

فيقول هذا الداعي: من الله وهو معذور، ولم يصل علمه إلىٰ أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلىٰ باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل.

وهذا لا يتوصل إلىٰ معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم.

ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم، والله يمن بفضله علىٰ من يشاء من عباده.

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيىٰ عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذىٰ والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليه قلبه، ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقىٰ سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، لا يفتر ولا ينىٰ، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلا الموت. ومتىٰ وضعها أسر أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتىٰ يلقىٰ الله.

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال، فإن طلعك علىٰ حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعًا لمن تدبره ووعاه.

وتأمل السر في قوله تعالىٰ: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥] ولم يقل في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلىٰ

الصدر، ثم تتفوق على الجنود، ومن فهم هذا فهم قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالشيطان يدخل إلىٰ ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلىٰ القلب فهو موسوس في الصدر ووسوسته واصلة إلىٰ القلب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [طه: ١٢٠]. ولم يقل فيه، لأن المعنىٰ أنه ألقىٰ إليه ذلك وأوصله فيه، فدخل في قلبه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٦]. اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور بم يتعلق؟ فقال الفراء، وجماعة: هو بيان للناس الموسوس في صدورهم. والمعنىٰ يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي الموسوس في صدورهم قسمان، إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

وعلىٰ هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب علىٰ الحال لأنه مجرور بعد معرفة علىٰ قول البصريين، وعلىٰ قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة هذه عبارتهم. ومعناها أنه لما لم يصلح أن يكون نعتًا للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه نصبًا، والبصريون يقدرونه حالًا أي كائنين من الجنة والناس، وهذا القول ضعيف جدًا لوجوه:

أحدها: أنه لم يقم دليل علىٰ أن الجني يوسوس في صدور الجني، ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي، فأي دليل يدل علىٰ هذا حتىٰ يصح حمل الآية عليه.

الثاني: أنه فاسد من جهة اللفظ أيضًا، فإنه قال: الذي يوسوس في صدور الناس، فكيف يبين الناس بالناس. فإن معنىٰ الكلام علىٰ قوله يوسوس في صدور الناس الذين هم أو كائنين من الجنة والناس، أفيجوز أن يقال في صدور الناس، الذين هم من الناس وغيرهم، وهذا ما لا يجوز، ولا هو استعمال فصيح.

الثالث: أن يكون قد قسم الناس إلىٰ قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح، فإن

الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلًا واشتقاقًا ولا استعمالًا، ولفظهما يأبى ذلك. فإن الجن إنما سموا جنًا من الاجتنان وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جنًا لذلك من قولهم: جنّه الليل وأجنه إذا ستره وأجن الميت إذا ستره في الأرض، قال:

ولا تبـك ميتًـا بعـد ميـت أجنـه علـي وعبـاس وآل أبـي بكـر[(١)]

يريد النبي ﷺ، ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [القصص: ٢٩]، ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجنة لاستتار داخلها وبالأشجار، ومنه الجُنة بالضم لما يقي الإنسان من السهام والسلاح، ومنه المجنون لاستتار عقله.

وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط وهو عقد تقاليب الكلمة إلى معنى واحد.

والإنس والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس.

ومنه قوله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] أي: رآها. ومنه ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي: أحسستموه ورأيتموه فالإنسان سمي إنسانًا لأنه يونس أي يري بالعين، والناس فيه قولان أحدهما: أنه مقلوب من أنس وهو بعيد، والأصل عدم القلب، والثاني: وهو الصحيح أنه من النوس وهو الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناسًا للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارث وهمام وهما

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الحُطيئة: جرول بن أوس بن مالك العبسي شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجَّاءً عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد، مات سنة ٤٥هـ. والبيت ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٦٣) والزمخشري في الفائق (٢/ ١٢٣) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٣١٨) إلا أنه قال بعد أن ذكره: يريد أبا بكر نفسه. وهو غير المذكور هنا: يريد النبي ﷺ.

أصدق الأسماء، كما قال النبي ﷺ، لأن كل أحد له هم وإرادة، وهي مبدأ، وحرث وعمل هو منتهى، فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة النوس، وأصل ناس نوس تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفًا، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق الناس، وأما قول بعضهم إنه من النسيان، وسمي الإنسان إنسانًا لنسيانه.

وكذلك الناس سموا ناسًا لنسيانهم، فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان الذي مادته [ن س ى] إلى الناس الذي ماته [ن و س]، وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته [ا ن س و]. وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته [ا ن س و].

وأما إنسان فهو فعلان من [أ ن س] والألف والنون في آخره زائدتان لا يجوز فيه غير هذه البتة، إذ ليس في كلامهم أنس حتى يكون إنسانًا إفعالًا منه، ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين، إذا ليس في كلامهم انفعل، فيتعين أنه فعلان من الإنس، ولو كان مشتقًا من نسي لكان نسيانًا لا إنسانًا.

فإن قلت: فهلا جعلته إفعلالًا، وأصله إنسيان كليلة إصحيان، ثم حذفت الياء تخفيفًا، فصار إنسانًا.

قلت: يأبى ذلك عدم إفعلال في كلامهم، وحذف الياء بغير سبب ودعوى ما لا نظير له، وذلك كله فاسد.

على أن الناس قد قيل إن أصله الأناس، فحذفت الهمزة فقيل الناس. واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا

ولا ريب أن أناسًا فعالًا، ولا يجوز فيه غير ذلك البتة، فإن كان أصل ناس أناسًا فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس، ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق، ويكون وزن ناس على هذا القول عال، لأن المحذوف فاؤه، وعلى القول الأول يكون وزنه فعل، لأنه من النوس.

وعلى القول الضعيف يكون وزنه فلع، لأنه من نسي، فقلبت لامه إلى موضع العين، فصار ناسًا ووزنه فلعًا.

والمقصود: أن الناس اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم، فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بيانًا لقوله: ﴿ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٥].وهذا واضح لا خفاء فيه.

فإن قيل: لا محذور في ذلك، فقد أطلق على الجن اسم الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ٦]. فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس.

قلت: هذا هو الذي غر من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية.

وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعًا مقيدًا في مقابلة ذكر الرجال من الإنس، ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقًا.

وأنت إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضًا فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس، وذلك لأن الناس والجنة متقابلان.

وكذلك الإنس والجن، فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهو كثير في القرآن.

وكذلك قوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ يقتضي أنهما متقابلان، فلا يدخل أحدهما في الآخر بخلاف الرجال والجن، فإنهما لم يستعملا متقابلين، فلا يقال: الجن والرجال، كما يقال الجن والإنس، وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس، لأنه قابل بين الجنة والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر.

فالصواب القول الثاني، وهو أن قوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ بيان للذيْ يوسوس.

وأنهم نوعان إنس، وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضًا يوسوس إلى الإنسي، فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة، لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم، على أن الجني قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي. كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الملائكة تحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**»(١). فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله ويوحيه الإنس إلى إنسي مثله، فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني، ويشتركان في الوسوسة.

وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول. وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين: شياطين الإنس، والجن.

وعلى هذا القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمله، فإنه بديع جدًا. فهذا ما من الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين وله الحمد والمنة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين، ونختم الكلام على السورتين بذكر قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه. وذلك عشرة أسباب:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٨٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٠) وشرح النووي (١٤/ ٢٢٦).

أحدها:

الاستعاذة بالله من الشيطان. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]، وفي موضع آخر: ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقد تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام. وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة (حمٓ) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه، فإن الأمر بالاستعاذة في سورة (حمٓ) وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس، وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون، ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذل وعجز، ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه ولا يحسن، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه، وآثر الله وما عنده على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض، فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس غير مستعصي عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان، فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقدم تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في (حم المؤمن). ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: «كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما أحمر وجهه

وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ذهب عنه ما يجد»(١).

الحرز الثاني:

قراءة هاتين السورتين، فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما»(٢). وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة وتقدم قوله ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي وثلاثًا حين يصبح كفته من كل شيء»(٣).

الحرز الثالث:

قراءة آية الكرسي، ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. فذكر الحديث، فقال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب، ذاك الشيطان»(٤). وسنذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٥) ومسلم (رقم ٢٦١٠) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٦٣).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٣٩ رقم ٧٨٤٥) وفي المجتبى (رقم ٥٤٣٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٥ رقم ٢٥٧٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٢ رقم ٩٤٣) وأحمد (٣/ ٤١٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥١٧ رقم ٢٥٧٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٧٥) وأبو داود (رقم ٥٠٨٢) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٣ رقم ٢٥٧٢) وعبد بن حميد (رقم ٤٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٣١١) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٨٨-٤٨٩).

الحرز الرابع:

قراءة سورة البقرة، ففي الصحيح من حديث سهل عن عبدالله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»(١).

الحرز الخامس:

قراءة خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»(٢).

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين، ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»(٣).

الحرز السادس:

أول سورة حمٓ المؤمن إلى قوله: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣]، مع آية الكرسي في الترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: حمٓ المؤمن إلى: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٨٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٢٩-٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٠٩) ومسلم (رقم ٨٠٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٦، ٩٥) وشرح النووي (٢/ ١٥٢-١٥٣).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٨٢) والحاكم (١/ ٧٥٠ رقم ٢٠٦٥) (٢/ ٢٨٦ رقم ٣٠٣١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٠ رقم ١٠٨٠٢) والدارمي (رقم ٣٣٨٧) وأحمد (٤/ ٢٧٤) والبزار (٨/ ٢٣٦ رقم ٣٢٩٦) والطبراني في الأوسط (٢/ ٩٣-٩٤ رقم ١٣٦٠) وفي الكبير (٧/ ٢٨٥ رقم ٧١٤٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٦٠ رقم ٢٤٠٠) حسنه الترمذي وصححه الحاكم، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣١٢): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

حفظ بهما حتى يصبح»[١]. وعبدالرحمن المليكي وإن كان قد تلكم فيه من قبل حفظه، فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي، وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة». ففي الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يسمي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»[٢]. فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن:

وهو من أنفع الحروز من الشيطان: كثرة ذكر الله ﷻ، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم. فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب. فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٧٩) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٣٧) وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٩٣) ومسلم (رقم ٢٦٩١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٣) وشرح النووي (١٧/ ١٨).

وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلىٰ غير سيده، فأيكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك، وأن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلىٰ عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدىٰ نفسه منهم. وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتىٰ أتىٰ علىٰ حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله» قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن ادعىٰ دعوىٰ الجاهلية فإنه من جثاء جهنم»، فقال: رجل يا رسول الله وإن صلىٰ وصام قال: «وإن صلىٰ وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»[1]. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي عليه سورة: قل أعوذ برب الناس فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس. والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقىٰ إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله ﷻ.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٦٣) وابن حبان (١٤/ ١٢٤-١٢٦ رقم ٦٢٣٣) وابن خزيمة (٢/ ٦٤ رقم ٩٣٠) وعبد الرزاق (١١/ ٣٣٩ رقم ٢٠٧٠٩) وأحمد (٤/ ١٣٠) وأبو يعلىٰ (٣/ ١٤٠-١٤١ رقم ١٥٧١) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٤٢٧) وابن منده في الإيمان (١/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٢١٢).

الحرز التاسع:

الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولاسيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض**»(١).

وفي أثر آخر: «**إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء**»(٢). فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر:

إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم، وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم**

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢١٩١) والحاكم (٤/ ٥٥١ رقم ٨٥٤٣) وعبد الرزاق (١١/ ٣٤٦-٣٤٧ رقم ٢٠٧٢٠) وأحمد (٣/ ٦١) وأبو يعلى (٢/ ٣٥٢-٣٥٣ رقم ١١٠١) والطيالسي (رقم ٢١٥٦) وعبد بن حميد (رقم ٨٦٤) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٠٩-٣١٠ رقم ٨٢٨٩) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود مرفوعاً (رقم ٤٧٨٤) وابن المنذر في الأوسط (١/ ٢٤٠-٢٤١ رقم ١٤٧) والشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ٤٦٤ رقم ١٢٦٧) وأحمد (٤/ ٢٢٦) والطبراني في الكبير (١٧/ ١٦٧ رقم ٤٣٣) والديلمي في الفردوس (٣/ ١١٣ رقم ٤٣١٤).

يلقاه»[1]، أو كما قال ﷺ. فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة، كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر[2]

وقال الآخر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتبعتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر[3]

وقال المتنبي:

وأنا الذي جلب المنية طرفه ... فمن المطالب والقتيل القاتل[4]

ولي من أبيات:

يا راميًا بسهام اللحظ مجتهدًا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب
وباعث الطرف يرتاد الشفاء له ... توقه إنه يرتد بالعطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض ... فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومفنيًا نفسه في إثر أقبحهم ... وصفا للطخ جمال فيه مستلب

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٢) والقضاعي في الشهاب (١/ ١٩٥ رقم ٢٩٢) والديلمي في الفردوس (٤/ ٢٩٧ رقم ٦٨٧٢) والحكيم الترمذي (١/ ١٩٨) (٣/ ١٨١) وهناد في الزهد (٢/ ٦٥١ رقم ١٤٢٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠١) والحاكم (٤/ ٣٤٩ رقم ٧٨٧٥) وصححه. قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٣٧ رقم ٢٨٦٤): رواه ا لحاكم وصححه وأقره العراقي وضعفه المنذري. وانظر: الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣رقم ٢٩٢٣).

(٢) البيتان ذكرهما الذهبي في الكبائر (ص ٥٩) والبيت الأول ذكره أبو بكر الدمياطي في إعانة الطالبين (٣/ ٢٥٨).

(٣) ذكر البيتين المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٤٧) ونسبهما إلى الحارث المحاسبي رحمه الله وكذا ذكره الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٥١٠).

(٤) هذا البيت من بحر الكامل، وكذا ذكره الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٥١٠).

وواهبًا عمره في مثل ذا سفهًا ... لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب
وبائعًا طيب عيش ماله خطر ... بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبنًا فاحشًا فلو اسـ ... ـترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب
وواردًا صفو عيش كله كدر ... أمامك الورد صفوًا ليس بالكذب
وحاطب الليل في الظلماء منتصبًا ... لكل داهية تدن من العطب
شاب الصبا والتصابي بعد ما يشب ... وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها ... والضي في الأفق الشرقي لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصب من سكنى ولا أرب
فأفرش الخد ذياك التراب وقل ... ما قاله صاحب الأشواق في الحقب
ما ربع مية محفوفًا يطوف به ... غيلان أشهى له من ربعك الخرب
ولا الخدود إن أدمين من ضرج ... أشهى إلى ناظري من خدك الترب
منازلًا كان يهواها ويألفها ... أيام كان منال الوصل عن كثب
فكلما جليت تلك الربوع له ... يهوي إليها هوى الماء في صبب
أحيا له الشوق تذكار العهود بها ... فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل في الأرض يألفه ... وما له في سواها الدهر من رغب
ما في الخيام أخو وجد يريحك إن ... بثثته بعض شأن الحب فاغترب
وأسر في غمرات الليل مهتديًا ... بنفخة الطيب لا بالنار والحطب
وعاد كل أخي جبن ومعجزة ... وحارب النفس لأتلقيك في الحرب
وخذ لنفسك نورًا تستضيء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه ... إلا بنور ينجي العبد في الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء.

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»(١). وفي الترمذي أن رجلًا من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة: «طوبى له فقال النبي ﷺ: «فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه»(٢).

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسئمان بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلئ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شرًا، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرًا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦١٦) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٠ رقم ٢٦٤٩٨) وعبدالرزاق (١١/ ١٩٤ رقم ٢٠٣٠٣) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٨٣ رقم ٧٥٠٣) والكبير (٢٠/ ٦٤ رقم ١١٦) وأحمد (٥/ ٢٣١) والبزار (٦/ ٢٧٣ رقم ٢٣٠٢) والطيالسي (رقم ٥٦٠) وعبد بن حميد (رقم ١١٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٩٩) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن مالك الجنبي وهو ثقة.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣١٦) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٢٥ رقم ١٠٨٣٥) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٥٦)، وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٩): قال في المرقاة: ورجاله رجال الصحيحين إلا سليمان بن عبدالجبار البغدادي شيخ الترمذي، و قد ذكره ابن حبان في الثقات، كذا في الصحيح، انتهى، وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٣٤٥ رقم ٤٣٦٧): رواته ثقات، وفي محمد بن يزيد كلام قريب لا يقدح، وهو شيخ صالح.

ولهذا جاء في بعض الآثار: ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم. وقال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن»[١]. ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ﷻ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه وهام به في كل واد. فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت عن عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول. فضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة. ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: من مخالطته كالغذاء، لا يستغني عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغني عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٨٠) والحاكم (٤/ ٣٦٧ رقم ٧٩٤٥) وابن حبان (٢/ ٤٤٩ر قم ٦٧٤) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٧ رقم ٦٧٦٨) وابن ماجه (رقم ٣٣٤٩) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٧١٨ رقم ١٠٣٧) وأحمد (٤/ ١٣٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٩٦ رقم ١٣٧٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٨ رقم ٥٦٤٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٠٣) وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٣٥٠) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم. وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٥٢٨).

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت، فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلمات تحدث ويظن أنه مسك، يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يومًا عند شيخنا ـ قدس الله روحه ـ رجلًا من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليَّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة أو كما قال.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها،

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين. وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله ـ تعالى ـ وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين. وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين، فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني فاضل(١)

وقال آخر:

وقد زادني حبًا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل(٢)

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم،

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى المتنبي، وفيه: (بأني كامل) بدل: (فاضل) ذكره أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ١٥٤) وابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٢٥٨) وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣/ ٢٨٢).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى الطرماح بن حكيم، شاعر إسلامي فحل، اعتنق مذهب الأزارقة من الخوارج، مات سنة ١٢٥هـ. وذكر البيت أبو بكر الأصبهاني في الزهرة (٢/ ٦٢٧) والثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٩٦) والمناوي في فيض القدير (٦/ ٤٥٤) والزمخشري في الفائق (٢/ ٣٧٠).

وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق، وسد على نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء، فعند الممات يحمد القوم التقى، وفي الصباح يحمد القوم السرى، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الناس

والحمد لله رب العالمين



كلمة لابد منها*

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي بلغ البلاغ المبين، وأرشد السائرين، وأنار السبيل، وأوضح المحجة وأقام الحجة، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٨٤]. وقال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[(١)].

وقال أيضًا ﷺ: «**إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه...**»[(٢)].

وغير خاف ما لابن القيم ـ رحمه الله ـ من جهود مباركة، ووقفات سديدة رشيدة، وغوص في بحور الأحاديث والآيات، ينتقي درر المعاني وجواهر الدلالات، ولما كان هذا الكنز الدفين حول تفسير كلام رب العالمين مبثوثًا في بطون كتب هذه الإمام

(*) هذه الكلمة كتبت للطبعة الأولى سنة ١٤١٥هـ عندما عملت في هذا الكتاب مصححًا ومدققًا لغويًا فقط. أما هذه الطبعة المحققة فقد صنعت حواشيها كلها بجهدي الفردي الخاص ولم يشاركني بحمد الله أحد في حاشية واحدة، وهذا فضل الله عليَّ ومنته ﷻ وكذلك في جميع تحقيقاتي وتأليفاتي لم أستعن بأحدٍ كائنًا ما كان، وهذا من باب التحدث بنعمة الله ﷻ، فهو المان بفضله وحده لا شريك له أما الحواشي التي كانت في الطبعة الأولى فقد حذفتها كلها إلا ما كان مذيلًا بحرف (ج) لأنها من صنع فضيلة الشيخ الصالحي رحمه الله.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٤٢) وحسنه المنذري والألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٧٤).

الرباني والعلامة السلفي، وكان من العسير على طالب العلم الوقوف عليها كلها أو أكثرها والاسترشاد بها، وظلت هذه الفوائد والأبحاث والفرائد ردحًا من الزمن لا يطلع عليها كثير من الناس، فقد قيض الله ﷻ لانجاز هذا العمل، وإخراج هذه المكنونات وجمع شتاتها ولم شعثها وتأليف مبعثرها في سلك واحد، وانتظامها في عقد بديع طريف فريد، ألا وهو الشيخ الفاضل علي الحمد المحمد الصالحي ـ غفر الله له ورحمه رحمة واسعة ـ فقد عكف الشيخ على مؤلفات ابن القيم أكثر من خمس عشرة سنة يقرأ وينقب ويلتقط ويجمع كل شاردة وواردة، ويرتب ويضع كل بحث في موضعه من السورة على حسب ترتيب المصحف، فكان هذا المجموع الذي بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ كما تراه في ثوب قشيب وحلة زاهية.

ومما ينبغي التنبيه عليه ولفت النظر إليه أن أكثر حواشي الكتاب من التعليقات والتخريجات ليست من صنيع الشيخ ـ رحمه الله ـ بل هو أخذها ممن حققوا وعلقوا على كتب ابن القيم من الطبعات التي أشار إليها الشيخ في المقدمة، فإذا كان للشيخ ـ رحمه الله ـ تعليق أو حاشية كتب في نهايتها (ج) دلالة عليه.

ومما ينبغي أن يشار إليه أيضًا أن الشيخ ـ رحمه الله ـ وقد كان كبر سنه وأدركته الشيخوخة فكان كلما وقف على بحث أو فائدة أو نادرة صورها من هنا ومن هناك وكان في بعض الأحيان يختلط عليه الأمر، فينسى أن يعزو بعض ما نقله إلى مصدره، فقد تجد أيها القارئ الكريم نقلًا ثم لا تجد عزوه في الحاشية، فهذا إما نسيان من الشيخ أو خطأ غير مقصود.

وممن شارك معنا في إنجاز هذا العمل الأخ أبو عبد الرحمن عزت الروبي والأخ أبو عبد الله فكري محمود ـ حفظهما الله ـ وكان الشيخ علي بين الحين والآخر يتابع معنا حتى أخرجنا الجزءين الأول والثاني إلى حيز الوجود وانشرح صدر الشيخ وقرت عينه برؤية ثمرة جهوده، ولكن المرض ظل يعاود الشيخ بين الفينة والأخرى فأسند الشيخ إليَّ عمل فهارس الكتاب: الأجزاء الأربعة المتبقية وعندما انتهينا من الجزئين الثالث

والرابع وراجعهما الشيخ ووقع على الموافقة بالطباعة، ولما كان الجزءان في المطبعة أوشكا على الانتهاء كان الشيخ يعاني من آلام المرض وسكرات الموت وغربت شمس حياته في يوم الأربعاء: ٢١/ ٥/ ١٤١٥هـ.

وانتهينا من الجزءين الخامس والسادس بعد وفاة الشيخ وقد أصبح رهين اللحد عند رب رحيم، فعسى أن يكون هذا العمل له نورًا وبرهانًا وفوزًا وفلاحًا في يوم يجزي الله الصادقين بصدقهم، سائلين الله ﷻ للشيخين الفاضلين ابن القيم وعلي الصالحي أن يتغمدهما بوافر رحمته وعميم كرمه وجوده وإحسانه وأن يحشرنا وإياهما في زمرة رسوله الأمين محمد بن عبد الله ﷺ، كما نسأله ـ سبحانه ـ أن ينفعنا بما علمنا، ويعلمنا ما ينفعنا، ويرزقنا العمل بالعلم النافع وأن يختم لنا ولكم بخاتمة الخير والسعادة، ويوفقنا إلى محبته ومرضاته، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبها

صبري بن سلامة شاهين

مكتبة دار السلام بالرياض

في اليوم الثاني من شهر رجب ١٤١٥هـ

خاتمة هذه الطبعة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فلقد وفقني ربي وأعانني على الانتهاء من عملي هذا في هذا الكتاب المبارك تحقيقًا ومراجعة وتدقيقًا في يوم الثلاثاء يوم الحج الأكبر عيد الأضحى المبارك ١٠/ ١٢/ ١٤٣١ الموافق ١٦/ ١١/ ٢٠١٠م.

بمدينة الرياض راجيًا الله ﷻ ـ وهو المان بفضله ـ أن يتقبله بقبول حسن وأن ينفع به كل من قام به، وأن يجعله من العلم النافع والعمل الصالح والذكر الجميل لنا جميعًا في الدارين، وأن يحشرنا تحت لواء سيد الأولين والآخرين وأن يدخلنا جنة النعيم، ويرينا وجهه الكريم ويشملنا بعفوه وكرمه وجوده وإحسانه ويفيض علينا برضوانه فإنه أهل لذلك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهــــرس

الصفحة المــــوضــــوع

سُورَةُ المنَافِقُونَ

٥ بحث عن طبقة الزنادقة من هم؟ وما حكمهم؟

٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾.

٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾.

٩ بحث عن العزة ولمن تكون؟

١٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

سُورَةُ التغَابُنِ

١٢ بحث في الطمأنينة إلى أسماء العرب ـ تعالى ـ وصفاته نوعان.

١٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾.

١٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾.

١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.

١٦ بحث في معنى التوكل والاستعانة.

١٨ جعل الله لكل عمل جزاء، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده.

٢٠ فصل في الفرق بين التوكل والعجز.

الصفحة الموضوع
٢٢ فصل في عدة الآيسة والتي لم تحض.
٢٩ فصل في أن عدة الوفاة تجب بالموت، سواء داخل بها أو لم يدخل اتفاقًا.
٣٠ فصل في عدة الطلاق.
٣٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.
٣٥ بحث في جواز إجارة الظئر.
٣٦ فصل في فتواه ﷺ في نفقة المعتدة وكسوتها.
٣٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.
٣٩ بحث في أن طلب العلم والبحث عنه من عمل القلب والجوارح وهو من أهم الأعمال.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

٤١ بحث في حكم رسول الله ﷺ الذي بينه عن ربه فيمن حرم أمته أو زوجته أو متاعه.
٤١ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.
٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
٤٥ بحث في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم.
٤٨ فصل في حقوق الأولاد والعدل بينهم في العطاء والمنع.
٥٠ بحث في أن الطفل يحتاج إلى الرعاية والعناية بأمر تنشئته وتربيته.
٥٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.
٥٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

الصفحة الموضوع

٥٦ تفسير قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ الآيات.
٥٧ بحث عن المقصود من خيانة امرأة نوح وامرأة لوط.
٦٠ بحث عن المثلين اللذين للمؤمنين: امرأة فرعون ومريم ابنة عمران.

سُورَةُ المُلْكِ

٦٢ بحث حول معنى البركة وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.
٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.
٦٦ اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان سواء أطاع أم عصى.
٦٧ بحث حول وصف أهل النار بالجهل، وأنه ـ سبحانه ـ سد عليهم طرق العلم.
٦٧ حسن التوحيد وقبح الشرك مستقر في الفطر معلوم بالعقول، ولو لم يكن كذلك فلا وثوق بشيء من قضايا العقل.
٦٨ الأدلة على قبح الشرك والكفر.
٦٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.
٧١ بحث في أن الله نبه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية.
٧٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.
٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.
٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

سُورَةُ القَلَمِ

٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.
٧٦ بحث في أن الحرف الذي به تكون المخلوقات شأنه أعلى وأجل.

الصفحة الموضوع

٧٨ بحث في الأقلام وأقسامها ورتبها وتفاوتها.
٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ ﴾.
٨٦ عود على قوله تعالى: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ الآيات.
٨٧ بحث في أن الخير بمجموعه ثمرة شجرة العلم والشر بمجموعه ثمرة شجرة الجهل.
٨٨ بحث في أن العقل عقلان: عقل غريزة وعقل مكتسب.
٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.
٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾.
٩١ بحث في أن المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم.
٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾.
٩٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴾.
٩٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾.
٩٢ أنكرسبحانه على من يسوي بين المختلفين كما في قوله: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾.
٩٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ ﴾.
٩٦ الإجابة عن سؤال كيف يمتحن البعض في الآخرة وهي ليست دار تكليف؟!
٩٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.
٩٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٌ ﴾.
٩٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ ﴾.
١٠٠ العلاج النبوي من العين.
١٠٢ الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد عن المحسود وهي عشرة.
١٠٥ بحث في أن الله أخبر عن القرآن بأنه ذكر للعالمين وتذكرة للمتقين.

الصفحة الموضوع

سورة الحاقة

١٠٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾.
١٠٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾.
١٠٧ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾.
١١١ مناظرة بين العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ وبين بعض اليهود.
١١٣ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ الآيات.
١١٥ القول بأن الله لو شاء لأنساك القرآن وقطع عنك الوحي أقوىٰ من الأول لوجوه.
١١٩ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾.
١٢٠ بحث في مراتب اليقين الثلاث: حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين.
١٢١ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.
١٢٢ بحث في الفائدة من دخول الباء في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وعدم دخولها في قوله تعالىٰ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾.

سورة المعارج

١٢٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ الآيات.
١٢٥ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ الآيات.
١٢٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾.
١٢٧ بحث في الأدب وبيان أنه الدين كله.
١٣٠ بحث في أن الله نبه الإنسان علىٰ مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره.

الصفحة الموضـــوع

١٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾.
١٣٢ فصل في أن الله أخبر عن قدرته على تبديلهم بخير منهم تارة وتبديل أمثالهم
١٣٥ فصل في قيام حجة الله على العباد وقطع عنهم المعذرة، فقال سبحانه: ﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾.
١٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴾.
١٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ ﴾

سُورَةُ نُوحٍ

١٣٨ بحث في أن أعظم الظلم والجهل أن تطلب من الناس توقيرك وقلبك خال من توقير الله وتعظيمه.
١٤١ بحث في أن الخوف مستلزم للرجاء، وكذلك الرجاء مستلزم للخوف.
١٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴾.
١٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴾.
١٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾.
١٤٥ بحث في بعض الأصنام التي كانت تعبد من دون الله.

سُورَةُ الجِنِّ

١٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ... ﴾.
١٤٨ بحث عن الطبقة الثامنة عشرة: طبقة الجن وأن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر.
١٥٠ هل يدخل مؤمنو الجن الجنة ويدخل المسيء منهم النار أم لا؟.
١٥٠ هل الجن مكلفون بشرائع الأنبياء أم لا؟.

الصفحة الموضـــوع
١٥٢ مذاهب الناس في أحكام الجن في الدنيا والصواب في ذلك.
١٥٥ الأدلة على تكليف الجن بالأوامر والنواهي.
١٦٣ عود على إثبات أن مؤمني الجن في الجنة.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

١٦٩ بحث عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾.
١٧٠ بحث عن ناشئة الليل وبيان المقصود بذلك.
١٧١ بحث عن قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾.
١٧٢ ذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد في سورة المزمل.
١٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ ... ﴾.

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

١٧٤ فصل في تريب الدعوة وبيان مراتبها.
١٧٤ بحث في ترتيب سياق هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين.
١٧٤ فصل في مبعثه ﷺ وأول ما نزل عليه.
١٧٦ بحث في بيان أن أكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد.
١٧٦ سئل ﷺ متى وجبت لك النبوة؟.
١٧٨ كمل الله ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ من مراتب الوحي مراتب عديدة.
١٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾.
١٨١ بحث في طهارة القلب أدرانه وأنجاسه.
١٨٥ بحث في إخباره ـ سبحانه ـ بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر.
١٨٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

الصفحة الموضـــوع

١٨٦ بحث في قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ الآيات.
١٨٦ فصل في إقسامه سبحانه بـ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾.
١٨٩ بحث في إقسام الله سبحانه بـ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ .
١٩٢ بحث في أن الله ـ سبحانه ـ صرف الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها.
١٩٤ فصل في أن لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وعليه فيه نهي.
١٩٤ بحث في بيان أن إضاعة الوقت يدعو إلى درك النقيصة.
١٩٥ بحث في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ .
١٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾.

سُورَةُ القِيَامَةِ

١٩٨ بحث في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.
١٩٨ بحث في كلام الناس حول الأنفس الثلاث: مطمئنة ولوامة وأمارة.
٢٠٠ بحث في بيان المقصود من النفس اللوامة.
٢٠٤ بحث في إنكار الرب سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن الله لا يجمع عظامه.
٢٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.
٢٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.
٢١١ من أسرار هذه السورة أن جمع الله لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن.
٢١٢ ومن أسرارها أيضًا إثبات قدرة الرب سبحانه على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله.
٢١٣ بحث في ذم الله سبحانه من يؤثر العاجلة على الآجلة.
٢١٣ ومن أسرارها أيضًا أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم.
٢١٤ ومن أسرارها أيضًا إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل.
٢١٥ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الإِنسَانِ

٢١٦ بحث في أن من نصر هواه فسد عقله ورأيه.
٢١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾.
٢١٧ بحث في أين يشوى اللحم في الجنة وليس فيها نار؟
٢١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾.
٢٢٠ بحث في ذكر خدم أهل الجنة وغلمانهم.
٢٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾.
٢٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾.
٢٢٥ قاعدة: للعبد بين يدي الله موقفان: موقف في الصلاة وموقف يوم القيامة.
٢٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

٢٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾ الآيات.
٢٣٠ بحث في أن موقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية.
٢٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

سُورَةُ النَّبَإِ

٢٣٢ فائدتان للنوم.
٢٣٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾.
٢٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾.
٢٣٣ معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ .
٢٣٣ بحث في بيان الأدلة على حشر الوحوش.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

٢٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴾ الآيات.
٢٣٥ اختلاف الناس في معنى النازعات.
٢٣٧ بحث في قسم الرب سبحانه بطوائف الملائكة وأصنافهم.
٢٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴾.
٢٤٠ بحث في أن الملائكة موكلة بالعالم العلوي والسفلي.
٢٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾.
٢٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾.
٢٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾.
٢٤٦ بحث في اتفاق السالكين إلى الله على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الله.
٢٤٧ بحث في اختلاف الناس في معنى النفس.
٢٤٨ بحث في بيان اعتناء القرآن والسنة بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس.
٢٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ...﴾.
٢٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾.
٢٥٠ بحث في بيان أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه.
٢٥١ بحث في أن الله لم يجعل طريقًا للجنة غير مخالفة الهوى.
٢٥١ كتاب لعسر الولادة.

سُورَةُ عَبَسَ

٢٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾.
٢٥٤ بحث في أن الله سبحانه دعا عباده إلى الفكر فيه وفي صفاته وقدرته وحكمته وآياته.

الصفحة الموضوع
٢٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾.
٢٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ الآيات.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

٢٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾.
٢٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾.
٢٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ ...﴾.
٢٦١ فصل في الاختلاف في عسعسة الليل.
٢٦٢ فصل في المقصود بـ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ من الرسول هنا؟
٢٦٤ بحث في الثناء على جبريل ﷺ ووصفه بأجل الصفات.
٢٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾.
٢٦٥ بحث في تنزيه رسول الله ﷺ فقال سبحانه: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾.
٢٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾.
٢٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾.
٢٦٩ فصل في بيان أن القرآن ذكر للعالمين وتذكرة للمتقين.
٢٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾.
٢٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.
٢٧٠ بحث في الرد على الجبرية والقدرية.

سُورَةُ الانفِطَارِ

٢٧٣ بحث في أن العبد الموحد إذا أذنب دعا له الملك واستغفر له حملة العرش.
٢٧٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٢٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ ﴾.
٢٧٥ قلوب أهل البدع والمعرضين وأهل الغفلة والمعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر.
٢٧٦ بحث في أن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

٢٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾.
٢٧٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.
٢٧٩ بحث في بيان الحجب التي تحجب العبد عن ربه ﷻ.
٢٨٠ بحث في بيان العناصر التي تنشأ هذه الحجب.
٢٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾.
٢٨٢ بحث في بيان أن أفضل النعيم النظر إلى وجه الرب ﷻ وسماع كلامه.
٢٨٤ بحث في إثبات أن المعاصي تضعف الإيمان، كما أن الحسنات تزيد نور القلب.
٢٨٥ بحث في إثبات الفوائد من تجنب القبائح.
٢٨٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ الآيات.
٢٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾.
٢٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.
٢٨٩ بحث بيان الفرق بين المنافسة والحسد.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

٢٩٢ بحث في إقسامه تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾.
٢٩٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾.
٢٩٦ بحث في بيان أن الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فمعناه واحد.
٢٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآيات.

الصفحة المـــوضــــوع

سُورَةُ البُرُوجِ

٢٩٩ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾.
٣٠٠ بحث في تنويع الخليقة إلىٰ شاهد ومشهود.
٣٠١ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.
٣٠٣ بحث في بيان الرب ـ سبحانه ـ يفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه.
٣٠٤ بحث في بيان أن الله يجازي أولياء المؤمنين بالحسنىٰ ويعاقب أعداءه بشدة بطشه.
٣٠٥ بحث في اسم الله ـ تعالىٰ ـ الودود.
٣٠٥ بحث في قول تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾.
٣٠٧ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.
٣٠٨ بحث في بيان أن هذه السورة اشتملت علىٰ التوحيد وأصول الدين.
٣٠٩ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾.
٣٠٩ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

سُورَةُ الطَّارِقِ

٣١١ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.
٣١٢ فصل في بيان حال النفس الإنسانية والاعتناء بها وإقامة الحفظة عليها.
٣١٤ بحث في بيان دلالة القرآن علىٰ إثبات المعاد بما يراه الإنسان من مبدئه.
٣١٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ الآيات.
٣١٦ تفسير معنىٰ الترائب.
٣١٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾.
٣١٦ عود علىٰ تفسير قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾.
٣١٩ بحث في قسم الرب سبحانه بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾.
٣٢٠ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ .

الصفحة الموضـوع

سُورَةُ الأَعْلَىٰ

٣٢٢ بحث في بيان مراتب الهداية.
٣٢٤ بحث في بيان ماهية الهداية.
٣٢٦ بحث في بيان مراتب الهدىٰ والضلال المقدور للخلق وغير المقدور.
٣٢٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الآيات.
٣٢٨ بحث في بيان أن الرغبة في الآخرة لا تتم إلا بالزهد في الدنيا.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

٣٣٠ بحث في بيان الحكمة من خلق الجبال ومنافعها.
٣٣٢ بحث في بيان الله ﷻ دعا عباده إلىٰ النظر في خلق الإبل والسماء والجبال.
٣٣٤ فصل في بيان الحكمة أن جعل الله من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل.
٣٣٥ بحث في بيان سبب حدوث الزلازل.

سُورَةُ الفَجْرِ

٣٣٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ الآيات.
٣٣٨ بحث في بيان المقصود بالوتر والشفع.
٣٤٠ بحث في بيان تغاير صورة الابتلاء بين نعمة ونقمة.
٣٤٠ بحث في بيان علامات السعادة وعلامات الشقاء.
٣٤١ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾.
٣٤٢ بحث في بيان مجيء الرب ﷻ.
٣٤٤ بحث في بيان هل الروح والنفس شيء واحد أو شيئان متغايران؟.
٣٤٧ بحث في أن الله جعل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم.
٣٤٧ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ...﴾.

الصفحة الموضوع
٣٥٠ بحث في الرضا وبيان مرتبته ومنزلته من الدين.
٣٥١ بحث في بيان أن الناس على جناح السفر إلى الله والدار الآخرة.

سُورَةُ الْبَلَدِ

٣٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾.
٣٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾.
٣٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾.
٣٥٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾.
٣٥٧ بحث في بيان أن الله أحق بالرؤية وأولى من الإنسان الذي أمده بعينين يبصر بهما.
٣٥٧ بحث في بيان أصول الإيمان التي تقوم بها الحجة على العباد.
٣٥٨ بحث في بيان أن الناس قسمان: ناج وهالك.
٣٥٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾.
٣٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾.
٣٦٠ بحث في اختلاف الناس في معنى العقبة.

سُورَةُ الشَّمْسِ

٣٦٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ الآيات.
٣٦٣ بحث في القسم بالنفس وما سواها وألهمها فجورها وتقواها.
٣٦٤ بحث في تزكية النفس.
٣٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾.
٣٦٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾.
٣٦٩ بحث في بيان أن عقوبة المعصية أن تصغر النفس وتقمعها.
٣٧٠ فصل في بيان أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه.
٣٧١ الحكمة في ذكر قوم ثمود في هذه السورة دون غيرها من الأمم المكذبة.

الصفحة المــوضـــوع

سُورَةُ اللَّيْلِ

٣٧٣ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾.
٣٧٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الآيات.
٣٧٥ بحث في بيان ما ضمنه الله سبحانه لعباده المتقين.
٣٧٧ بحث في بيان قوىٰ النفس الثلاث، وأن بصلاحها تسعد وبفسادها تشقىٰ.
٣٧٨ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾.
٣٧٨ بحث في بيان أن التيسير للعسرىٰ يكون بأمرين.
٣٧٩ بحث في بيان فصل الخطاب في مسألة القدر.
٣٨٢ الإجابة عن سؤال من يسر للعبد أسباب الخير والشر؟
٣٨٢ بحث في بيان أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضي ترك الأعمال بل يقتضي الاجتهاد والحرص.
٣٨٥ بحث في بيان أن الله فطر العباد علىٰ الحرص علىٰ الأسباب التي فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة.
٣٨٦ الرد علىٰ سؤال: لم جعل الله هذا العبد لا يليق به إلا الكرامة وذاك العبد لا يليق به إلا الإهانة؟!
٣٨٧ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾.
٣٨٨ بحث في بيان حقيقة الهدىٰ التام وما يتضمنه.
٣٨٨ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

٣٩١ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾.
٣٩٢ الرد علىٰ من فهم من قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ أن رسول الله ﷺ لا يرضىٰ أن يكون في النار أحد من أمته.

الصفحة الموضوع

٣٩٣ الرد على من يغتر ببعض النوافل التي يفهم مغفرة الذنوب كصوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة وغيرها.

٣٩٦ بحث في بيان أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض قاطبة.

٣٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

٣٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

٣٩٨ الفرق بين التحدث بالنعمة والفخر بها.

٣٩٨ بحث في الثناء على المنعم.

سُورَةُ الشَّرْحِ

٤٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾.

٤٠١ الدليل على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في الخطبة.

٤٠٣ الحكمة في ورود لفظ السلام معرفًا بالألف واللام.

٤٠٣ مقامات رد السلام.

سُورَةُ التِّينِ

٤٠٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.

٤٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

٤٠٨ ترجيح القول بأن أسفل سافلين أنه النار من وجوه.

٤١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

٤١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾.

٤١٥ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ العَلَق

٤١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾.
٤١٧ بحث في بيان نعمة الله على الإنسان بالبيانين: النطقي والخطي.
٤١٨ بحث في بيان أن الخلل الداخل على الإنسان في دينه ودنياه منشأه النسيان.
٤١٨ بحث في بيان نعم الله في التعليم بالقلم.
٤١٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾.
٤٢٠ بحث في وجوب الحذر مهما بلغ العبد من الطاعة.
٤٢١ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾.

سُورَةُ القَدر

٤٢٣ بحث في ليلة القدر هل هي في رمضان أم في غيره وهل هي باقية إلى يوم القيامة أم لا؟ وماذا يقال فيها؟

سُورَةُ البَيِّنَة

٤٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.
٤٢٧ بحث في بيان إخلاص النية.
٤٢٨ بحث في إخلاص العمل من الشرك والرياء.

سُورَةُ الزَّلزَلَة

٤٣٠ إذا غصب مال واستعمل في طاعة هل ثواب العمل يعود على صاحب المال أم على الغاصب؟
٤٣١ بحث في قوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ العَادِيَاتِ

٤٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾.
٤٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾.
٤٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.
٤٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.
٤٤٠ بحث في ذم الله سبحانه للرياء ومنع الماعون.
٤٤١ بحث في الحكم في جمع الصدور والقبور في كلام الله سبحانه وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

٤٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.
٤٤٤ بحث في بيان أن التكاثر في جمع المال ألهى عن الآخرة والاستعداد لها.
٤٤٦ بحث في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.
٤٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.
٤٥٠ الرد من زعم أن هذا الخطاب خاص بالكفار فلا يتناول المسلمين.
٤٥٣ بحث في بيان أن النفوس الشريفة العلوية تتكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به.
٤٥٤ بحث في حسن موقع [كلا] التي تضمنت الردع والزجر عن التكاثر ونفيه وإبطاله.
٤٥٥ فصل في أن الله سبحانه جعل أهل المقابر زائرين فقط غير مستوطنين.
٤٥٥ بحث في الفرق بين علم اليقين وعين اليقين.
٤٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

الصفحة الموضوع

سورة العصر

٤٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ الآيات.
٤٥٨ بحث في بيان أن كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح.
٤٥٩ بحث في بيان درجات الاجتماع النافع وغيره.
٤٦٠ بحث في بيان المقصود من العصر المقسم به.
٤٦١ الحكمة في تضييق الاستثناء وتخصيصه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.
٤٦٢ بحث في بيان أن الإنسان له حالتان: حالة كمال له، وحالة تكميل لغيره.
٤٦٢ علاقة الصبر بالإيمان والتقوى.

سورة الهمزة

٤٦٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ﴾.

سورة الماعون

٤٦٥ هل تؤخذ الأجرة ممن سكن دارًا مضطرًا أو استعار ثوبًا أو رحى أو دلوًا أو فأسًا أم لا؟
٤٦٦ بحث في أن الله سبحانه علق حصول الرحمة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ.
٤٦٧ هل تارك الصلاة يلحق بويل الكفار أم بويل الفساق؟
٤٦٩ بحث في إيضاح أن تارك الصلاة في خسران وتأكيد ذلك.

الصفحة الموضوع
٤٧٠ بحث في بيان أن المؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل
٤٧٠ الرد على من زعم أن الإيمان هو التصديق المجرد.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

٤٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾.
٤٧٥ سئل ﷺ عن الكوثر ما هو؟

سُورَةُ الكَافِرُونَ

٤٧٦ بحث في دلالة [ما] في قوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.
٤٧٧ بحث في الفائدة من تكرار الأفعال: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.
٤٧٨ بحث في بيان أن هذه السورة براءة من الشرك.
٤٨٢ بحث في انتظام هذه السورة وسورة الإخلاص نوعي التوحيد.
٤٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ هل أفاد معنى زائدًا على ما تقدم.
٤٨٥ بحث في بيان أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص.

سُورَةُ النَّصْرِ

٤٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾.
٤٨٨ بحث في بيان الدلالة على أن هذ السورة إعلان على أجل رسول الله ﷺ.

سُورَةُ المَسَدِ

٤٨٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الإخْلَاصِ

٤٩٠ بحث في بيان أن ما يجري صفة أو خبرًا عن الرب ـ تبارك وتعالى ـ أقسام.
٤٩٢ بحث في بيان أن صفات السلب المحض لا تدخل في أوصافه ـ تعالى ـ إلا أن تكون متضمنة لثبوت.
٤٩٣ بحث في بيان أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالًا على عدة صفات.
٤٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.
٤٩٥ بحث في بيان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيد لله سبحانه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده.
٤٩٥ بحث في اضطجاع النبي ﷺ بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، وهل يجب ذلك أم لا؟
٤٩٦ بحث في اختلاف الفقهاء في أي الصلاتين آكد: سنة الفجر أو الوتر؟
٤٩٧ بحث في بيان أن هذه السورة متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة.

سُورَةُ الفَلَقِ

٤٩٩ بحث في بيان أن المقصود من الإعاذة من الشيطان ليس إماتته ولا تعطيل آلات كيده.
٥٠٠ بحث في بيان أفضل ما يتعوذ به المتعوذون.
٥٠٢ بحث في بيان هل استرقى النبي ﷺ أم لا؟
٥٠٣ الفصل الأول بحث في معنى لفظ عاذ وما تصرف منه.
٥٠٧ الفصل الثاني في المستعاذ به وهو الله وحده: رب الفلق ورب الناس وملك الناس وإله الناس.
٥٠٨ الفصل الثالث في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين.

الصفحة الموضوع

٥١٠ بحث في بيان أن المعاصي هي سبب زوال النعم، وتغيير الله لا يقع إلا بعد أن يغير العباد.
٥١١ الاستعاذة من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال هل واجبة في التشهد في الصلاة أم لا؟
٥١٢ فصل في بيان الشر المستعاذ منه، وأنه نوعان: موجود ومعدوم.
٥١٤ فصل في بيان الشر ومصدره ومنتهاه.
٥١٤ فصل في بيان الشرور والمستعاذ منها: الشر الأول العام في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.
٥١٧ بحث في أن الله فطر عقول عباده على استقباح وضع العقوبة في موضع الرحمة.
٥١٨ فصل في الكلام على قوله ﷺ: «لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك».
٥٢٠ فصل في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ دلالة على العموم التقييدي الوصفي.
٥٢٠ فصل في بيان الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب.
٥٢٤ فصل في بيان السبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب.
٥٢٥ فصل في بيان السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع.
٥٢٦ فصل في بيان أن الخلق كله فلق.
٥٢٧ فصل في بيان الشر الثالث شر النفاثات في العقد.
٥٢٨ بحث في بيان كيف سحر النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم اليهودي عليه لعنة الله.
٥٣٣ فصل في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ يدل على تأثير السحر وأن له حقيقة.
٥٣٥ فصل في بيان الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد.
٥٣٨ فصل في بيان أن العاين والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء.
٥٤٣ فصل في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس.

الصفحة الموضوع

٥٤٣ بحث في اشتمال هذه السورة على الاستعاذة من الشرور الأربعة: من شر ما خلق، وشر الغاسق، وشر الساحر، وشر الحاسد.
٥٤٤ فصل في تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾.
٥٤٦ فصل في بيان الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد عن المحسود.
٥٥٠ بحث في بيان أن تجريد التوحيد حصن الله الأعظم الذي يدخله يكون من الآمنين.
٥٥٥ فصل في بيان ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة.

سُورَةُ النَّاسِ

٥٥٧ بحث في بيان المستعاذ به أنه هو الله (رب الناس، ملك الناس، إله الناس).
٥٥٩ بحث في بيان الحكمة من توسط صفة الملك بين صفتي الربوبية والإلهية.
٥٦٠ فصل في بيان أن هذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي.
٥٦٠ فصل في بيان أصل الوسوسة.
٥٦١ فصل في بيان معنى الخناس وحقيقة اللفظ.
٥٦٣ فصل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾.
٥٦٥ بحث في بيان أن أصل كل معصية وبلاء هو الوسوسة.
٥٦٨ بحث في بيان انحصار الشر في ستة أجناس، وحرص الشيطان على وقوع العبد في آية مرتبة من مراتبها.
٥٧٠ بحث في بيان السر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ دون قول قلوبهم.
٥٧١ فصل في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.
٥٧٥ قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع شره، وذلك بعشرة أسباب.

الصفحة الموضوع
٥٨١ بحث في بيان أن فضول الكلام والنظر هما أوسع مداخل الشيطان.
٥٨٥ بحث في بيان أن فضول المخالطة هو الداء العضال الجالب لكل شر.

بهذا ينتهي المجلد السابع والأخير

من كتاب الضوء المنير على التفسير

والحمد لله رب العالمين(١)



(١) يقول العبد الفقير إلى رحمة مولاه: صبري بن سلامة بن شاهين آل حسين: لقد أنعم الله عليَّ بإتمام تحقيق هذا الكتاب المبارك في يوم الخميس الموافق ٥ من شوال سنة ١٤٣٠ هـ ٢٤ من سبتمبر ٢٠٠٩م راجياً الله ﷻ أن يتقبله مني ويجعله في ميزاني يوم ألقاه وأن يبيض به وجهي، ويدخره لي عنده، وأن ينفع به عباده، وأخص بالذكر مؤلفه رحمه الله الحافظ ابن قيم الجوزية، وجامعه فضيلة الشيخ علي الحمد الصالحي رحمه الله، وكذا أبناءه البررة الكرام سليمان وإبراهيم وغيرهما الذين قاموا على نشر هذا الكتاب وصبروا على إتمامه وخروجه بهذه الصورة الطيبة المباركة، داعياً الله تعالى ألا يحرمنا الأجر والمثوبة في الدارين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

صبري بن سلامة شاهين بمدينة الرياض

في ٥/ ١٠/ ١٤٣٠هـ ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٩م